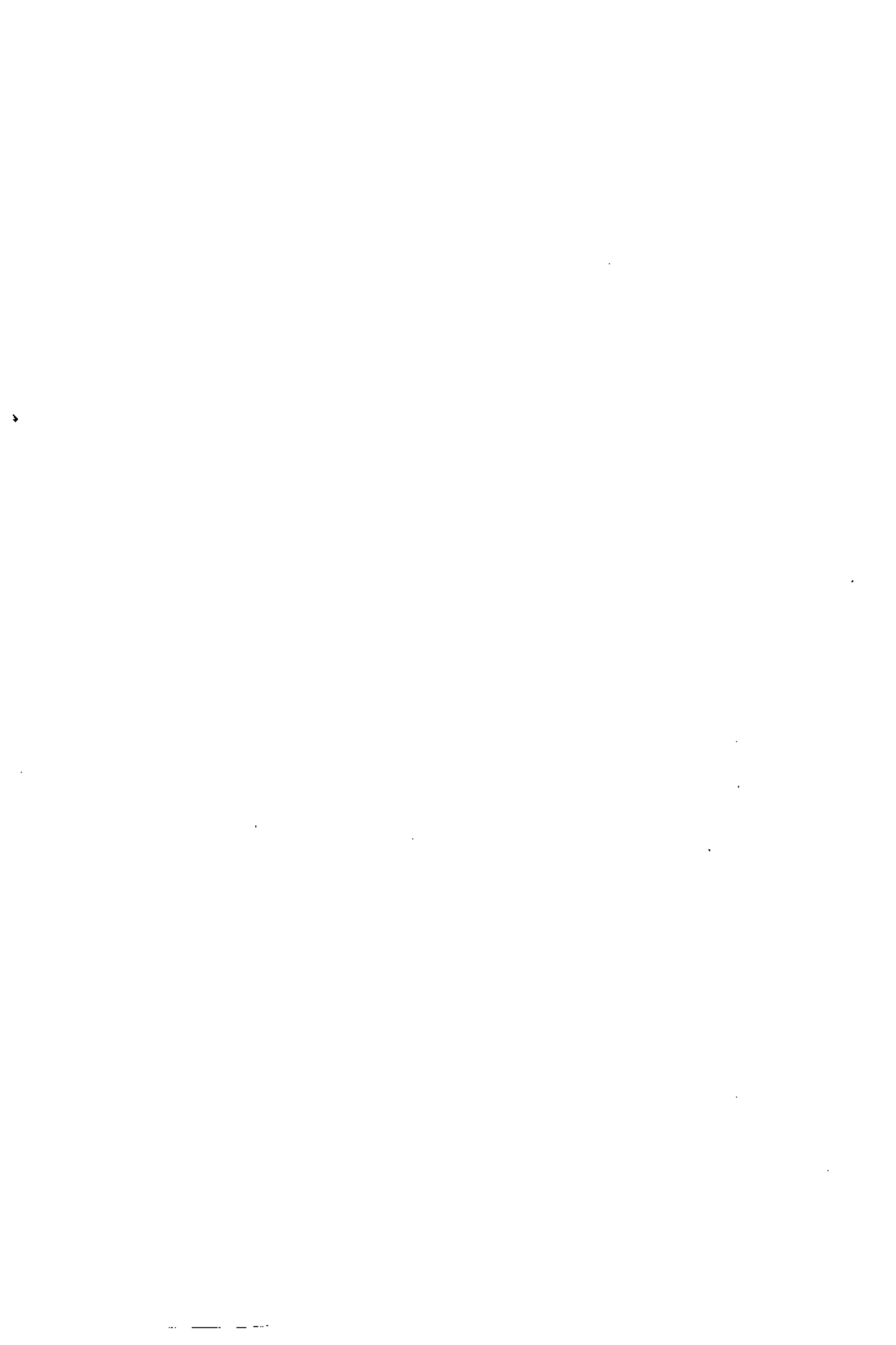

سُورَةُ النُّورِ



سورة النور[1]

بسم الله الرحمن الرحيم



اسمها سورة (النور)[2]، وإذا استقرأنا موضوع المُسمَّى أو المُعْنون له بسورة (النور) تجد النور شائعاً فى كل أعطافها - لا أقول آياتها ولا أقول كلماتها - ولكن النور شائع فى كل حروفها ، لماذا ؟

قالوا : لأن النور من الألفاظ التى يدل عليها نطقها ويعرفها أكثر من أىّ تعريف آخر ، فالناس تعرف النور بمجرد نُطْق هذه الكلمة ، والنور لا يُعرَّف إلا بحقيقة ما يؤديه ، وهو ما تتضح به المرئيات ، وتتجلى به الكائنات ، فلولا هذا النور ما كنا نرى شيئاً .

إذن : يُعرف النور بخاصيته ، وهو الذى يجعل لك قدرة على أن

---

(١) سورة النور ، هى السورة رقم ٢٤ فى ترتيب المصحف الشريف ، وتقع فى الجزء الثامن عشر من المصحف ، وهى سورة مدنية بالإجماع ، قاله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٩٣) ، نزلت بعد سورة النصر وقبل سورة الحج ، وهى السورة رقم ١٧ فى ترتيب النزول بالمدينة ، راجع « الإتقان فى علوم القرآن » للسيوطى (١/٢٧) . وعدد آياتها ٦٤ آية .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٩٣) : « مقصود هذه السورة ذكر أحكام العفاف والستر . وكتب عمر رضى الله عنه إلى أهل الكوفة : علِّموا نساءكم سورة النور » .

ترى المرئيات ، بدليل أنها إنْ كانت فى ظلمة لا تراها . إذن : فالنور لا يُرَى ، ولكن نرى به الأشياء ، فالله تعالى نور السموات والأرض يُنوِّرهما لنا ، لكن لا نراه سبحانه .

لكن ، هل كل الأشياء مرائى ؟ أليس منها المسموع والمشموم والمتذوّق ؟ قالوا : نعم ، لكن الدليل الأول على كل هذه وفعل الحوادث هى المرئيات ؟ لأن كل أدلة الكون مرئية نراها أولاً ، ثم حين تسمع ، وحين تشم ، وحين تلمس ، وحين تميز الثقيل من الخفيف ، أو القريب من البعيد . فهذا كله فرع ما يوجد فيك ، بعد ما تؤمن أن الله الذى أوجدك هو الذى أوجد لك كل شىء ، فإذا ما نظرت إلى النور وجدتَ النور أمراً حسياً ترى به الأشياء .

وكانوا فى الماضى يعتقدون أن الإنسان يبصر الأشياء بشعاع يخرج من العين ، فيسقط على الشىء فتراه ، إلى أن جاء العالم الإسلامى الحسن بن الهيثم ، وأبطل هذه النظرية وقال : إن الشعاع يأتى من المرئى إلى العين فتراه ، وليس العكس ، واستدل على ذلك بأن الشىء إنْ كان فى الظلام لا نراه ، ونحن فى النور ، فلو أن الشعاع يخرج منك لرأيته .

وفى ضوء هذه النظرية فهمنا قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. ⁽١٢⁾ ﴾ [الإسراء] فهى مُبْصِرة ؛ لأن الشعاع يأتى من هناك ، فكأنها هى التى ترى .

لكن ، ما نَفْع هذا النور الحسىّ للإنسان الخليفة فى الأرض ؟ أنت حين ترى الأشياء تتعامل معها تعاملاً يعطيك خيرها ويكفّ عنك شرها ، ولو لم تَرَ الأشياء ما أمكنك التعامل معها ، وإلا فكيف تسير فى مكان مظلم فيه ما يؤذيك مثل الثعابين أو زجاج متكسر ؟

إذن : لا تستطيع أن تهتدى إلى مواضع قدمك ، وتأخذ خير الأشياء ، وتتجنب شرها إلا بالنور الحسىِّ ، كذلك إنْ سِرْت فى ظُلْمة وعلى غير هُدىً ، فلا بُدَّ أن تصطدم بأقوى منك فيحطمك ، أو بأضعف منك فتحطمه .

لذلك سمَّى الحق - تبارك وتعالى - المنهج الذى يهديك فى دروب الحياة نوراً .

والناس حين لا يوجد النور الربانى الإلهى يصنعون لأنفسهم أنواراً على قَدْر إمكاناتهم وبيئاتهم بداية من المسرجة ولمبة الجاز ، وكان الناس يتفاوتون حتى فى هذه - حتى عصر الكهرباء والفلورسنت والنيون وخلافه من وسائل الإضاءة التى يتفاوت فيها الناس تفاوتاً كبيراً ، هذا فى الليل ، فإذا ما أشرقتْ الشمس أطفأ الجميع أنوارهم ومصابيحهم ، لماذا ؟ لأن مصباح الله قد ظهر واستوى فيه الجميع لا يتميز فيه أحد عن أحد .

وكذلك النور المعنوى نور المنهج الذى يهديك إنْ كان لله فيه توجيه ، فأطفىء مصابيح توجيه البشر لا يصح أن تستضىء بنورٍ ونورُ ربك موجود ، بل عليك أن تبادر وتأخذ ما تقدر عليه من نورِ ربك ، فكما أخذتَ نور الله الحسىّ فألغيتَ به كل الأنوار ، فخُذْ نور الله فى القيم ، خُذْ نُور الله فى الأخلاق وفى المعاملات وفى السلوك يغنيك هذا عن أىِّ نور من أنوار البشر ومناهجهم .

ألاَ ترى النمرود كيف بُهتَ حينما قطع عليه إبراهيم - عليه السلام - جدله وألجأه إلى الحجة التى لا يستطيع الفكاك منها ، حين قال له : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

والحق - تبارك وتعالى - يفيض من أنواره وصفات كماله على خَلْقه الذين جعلهم خلفاء له سبحانه فى الأرض ، فقال : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠)﴾ [البقرة] والخليفة فى الارض ليس جيلاً واحداً خلقه الله واستخلفه فى الأرض إلى قيام الساعة ، إنما الخليفة أجيال وأنسال تتوالى ، يموت واحد ويُولَد آخر فى حلقات موصولة الأنسال لا الذوات .

والخليفة لا ينجح فى خلافته إلا إذا سار فيها على وَفْق مراد مَن استخلفه ، وآفة الناس فى خلافتهم لله فى الأرض أنْ يعتبروا أنفسهم أُصَلاء لا خلفاء ، فالخليفة فى ذهْنه دائماً هذه الخلافة ؛ لذلك يلتفت إلى الأصل ، وينظر ماذا يريد منه مَن استخلفه .

والحق - تبارك وتعالى - جعل له خليفة فى الأرض لتظهر عليه سمات قدرته تعالى وصفات كماله ، فالله تعالى قادر ، الله عالم ، الله حكيم ، الله غنيّ ، الله رحيم ، الله غفور .. الخ وهو سبحانه يعطى من صفاته ويفيض منها على خَلْقه وخليفته فى أرضه بعضاً من هذه الصفات ، فيعطيك من قدرته قدرة ، ومن رحمته رحمةً ، ومن غنائه غنىً ، لكن تظل الصفة فى يده تعالى إنْ شاء سلبها ، ألاَ ترى القوى قد يصير ضعيفاً ، والغنى قد يصير فقيراً ؟

ذلك لنعلم أن هذه الصفات ليست ذاتية فينا ، وأن هذه الهبات ليست أصلاً عندنا ، إنما هى فيْض من فيض الله وهبةٌ من هباته سبحانه ، لذلك علينا أن نستعملها وَفْق مراده تعالى ، فإنْ أعطاك ربُّك القدرة فإنما أفاض بها عليك لتفيض أنت بها على غيرك ، أعطاك العلم لتنشره على الناس ، أعطاك الغنى لترعى حق الفقير .

إذن : ما دام أن الله تعالى أفاض عليك من صفات الكمال واحتفظ

هو سبحانه بملكية هذه الصفات ، فإنْ شاء سلبها منك ، فعليك أن تستغل الفرصة وتنتهز وجود هذه الخَصْلة عندك ، فتُثمرها فيما أراده الله منك قبل أنْ تُسلَب ، حتى إذا سُلِبَتْ منك نالتك من غيرك .

فتصدَّق وأنت غنى لتنال صدقة الآخرين إنْ أصابك الفقر ، وأكرم اليتيم لتجد مَنْ يُكرم يتيمك من بعدك ، فإنْ قابلتَ أحداث الحياة بهذه النظرة اطمأنَّ قلبك ، وأمنْتَ من حوادث الزمن ، واستقبلتَ الأحداث بالرضا ، وكيف تهتم وأنت فى مجتمع يرعاك كما رعيته ، ويحملك كما حملته ، ويتعاون معك كما تعاونتَ معه ؟

وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٩) ﴾ [النساء]

إذن : الحق - تبارك وتعالى - يريد من خليفته فى أرضه أن يكون جماعاً لصفات الكمال التى تسعد الخَلْقَ بآثار الخالق فيهم ، وهذه هى الخلافة الحقة .

وسورة النور جاءت لتحمل نور المعنويات ، نور القيم ، نور التعامل ، نور الأخلاق ، نور الإدارة والتصرف ، وما دام أن الله تعالى وضع لنا هذا النور فلا يصح للبشر أنْ يضعوا لأنفسهم قوانين أخرى ؛ لأنه كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠) ﴾ [النور] فلو لم تكُنْ هذه الشمس ما استطاع أحد أنْ يصنع لنفسه نوراً أبداً .

فالحق - تبارك وتعالى - يريد لخليفته فى أرضه أن يكون طاهراً شريفاً كريماً عزيزاً ؛ لذلك وضع له من القوانين ما يكفل له هذه الغاية ، وأول هذه القوانين وأهمها قانون التقاء الرجل والمرأة التقاء سليماً فى وضح النهار ؛ لينتج عن هذا اللقاء نَسْل طاهر جدير

بخلافة الله فى أرضه ؛ لذلك أول ما تكلم الحق سبحانه فى هذه السورة تكلَّم عن مسألة الزنى .

والعجيب أن تأتى هذه السورة بعد سورة (المؤمنون) التى قال الله فى أولها ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ ﴾ [المؤمنون] ثم ذكر من هؤلاء المؤمنين المفلحين ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ ﴾ [المؤمنون] وهنا قال : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي .. ۝٢ ﴾ [النور] فجاء بالمقابل للذين هم لفروجهم حافظون .

نفهم من هذا أنه لا يلتقى رجل وامرأة إلا على نور من الله وهدى من شريعته الحكيمة ؛ لأنه عز وجلَّ هو خالق الإنسان ، وهو أعلم بما يُصلحه ، وهو خالق ذرَّاته ، ويعلم كيف تنسجم هذه الذرات بعضها البعض ، وهو سبحانه خالق ملَكات النفس ، ويعلم كيف تتعايش هذه الملكات ولا تتنافر .

إذن : طبيعى إنْ أردتَ أن تنشىء خليفة فى الكون على غير مراد الله وعلى غير مواصفات الحق ، لا بُدَّ أنْ يضطرب الكون وتتصارع فيه ملَكات النفس ، وماذا تنتظر من هذا الخليفة إنْ جاء فى الظلام ؟ ساعتها تظهر أمراض النسل من وأْد الأولاد وقتلهم حتى فى بطون الأمهات ، وقد يتشكَّك الرجل فى ولده ، فيبغضه ويهمله ويتركه للتشرد.

إذن : لن تستقيم هذه المسألة إلا حين يأتى الخليفة وَفْق مواصفات ربه ، وأنْ يلتقى الزوجان على ما شرع الله فى وضح النهار ، لا أن يندس كل منهما على الآخر فى ظلمة الإثم ، فيحدث المحظور الذى تختلط به الأنساب ، ويتفكك رباط المجتمع .

إن من أقسى تجارب الحياة على المرء أن يشكَّ فى نسْبة ولده إليه ، وأن تعتصره هذه الفكرة ، فيهمل ولده وفلذة كبده ، وينفق هنا

وهناك ويحرمه على خلاف النسْل الطاهر ، حيث يتلهف الأب لولده ، ويجوع ليشبع ، ويتعرّى ليلبس .

فالحق سبحانه يريد النسل المحضون بالأبوين فى أُبوة صحيحة شرعية وأمومة صحيحة شرعية اجتمعا على نور الله .

ولك أنْ تُجرى مقارنة بين امرأة حملتْ سفاحاً وأخرى حملتْ حَمْلاً شرعياً طاهراً ، ستجد الأولى تحمله على مضض وكُرْه ، وتودّ أنْ تتخلَّص منه وهو جنين فى بطنها ، فإنْ تحاملتْ على نفسها إلى حين ولادته تخلَّصتْ منه فى ليلتها ولو بإلقائه على قارعة الطريق .

أما صاحبة الحمل الشرعى فتتلهف على الولد ، وإنْ تأخر بعض الوقت صارت قلقة تدور بين الأطباء ، فإنْ أكرمها الله بالحمل طارت به فرحاً وفخراً ، وحافظت عليه فى مَشْيها وحركاتها ونومها وقيامها إلى حين الوضع ، فتتحمل آلامه راضيةً ثم تحتضنه وتُرضِعه وتعيش حياتها فى خدمته ورعايته .

فالله يريد أن يأتى خليفته فى أرضه من إخصاب طاهر على أعيُن الناس جميعاً وفى نور الله المعنوى ، يريد للزوج أن يأتى من الباب فى ضوء هذا النور ، لا أن يتلصص فى الظلام من باب الخدم .

لذلك يتوعد الحق - سبحانه وتعالى - مَنْ يخالف هذا المنهج ويريد أن يُفسِد شرف الخلافة التى يريدها الله طاهرة ، ويُدنِّس النسل ، ويُوغِر الصدور بالأحقاد والعداوات ، ويزرع الشك فى نفوس الخلْق ، وجرائم العرض لا يقتصر ضررها على العداوات الشخصية إنما تتعدى هذه إلى الإضرار بالمجتمع كله .

وانظر إلى الإيدز الذى يهدد المجتمعات الآن ، وهو ناتج عن

الالتـقاء غـير الشـرعى ، وخطر الإيدز لا يقـتصـر على طرفـيه إنمـا يتعدّاهمـا إلى الغير ، إذن : من صالح المجتـمع كله أن نقيم حدَّ الزنا حتى لا يستشرى هذا الداء .

ونعجب من هؤلاء الذيـن يهاجمـون شَرْع الله فى مسـألة الحدود حين تقـضى برَجْم الزانى المحْصَن حـتى الموت ، ألاَ يعلم هؤلاء أننا نُضحِّى بواحـد لنحفظ سلامة المـلايين فى صحة وعافـية ؟ ألاَ يروْنَ ما يحدث مـثلاً فى وباء الطاعون الذى أعجـز العلماء حتى الآن ، ولم يجدوا له علاجاً ، وكـيف أن الشرع امرنا إنْ نزل الطاعون بأرض ألاَّ نذهب إليهـا ، وامر مَنْ فيـها ألاَّ يخرجـوا منها ، لماذا ؟ لنحـصر هذا الوباء حتى لا يستشرى بين الناس .

كذلك الحـال فى مسـألة الزنا ؛ لأن الزانى لا يقتـصر شـرُّه عليه وحده ، إنمـا يتعدّى شـرُّه إلى المجتـمع كله ، مع مراعـاة أن الشرع فرَّق بين الزانى المحصن وغير المـحصن ، وكذلك الزانية ، ففى حالة الإحـصان تتـعدد المـاءات فى المكان الواحـد ، لذلك سُئلنا فى سـان فرانسيسكو : لماذا أبحتم تعدُّد الزوجات ، ولم تبيحوا تعدُّد الأزواج ؟ هذا منهم على سبيل قياس الـرجل على المرأة : لماذا لا تتزوج المرأة وتجمع بين أربعة رجال ؟

قلت : اسـألوهم ، أليس عندهم أمـاكن يسـتريـح فيـهـا الشبـاب جنسـيـاً - يعنى بيـوت للدعـارة - قالوا : نـعم فى بعض الولايات ، قلت : فبماذا احتطتم لصحة المجـتمع وسلامته ؟ قالوا : نُجرِى عليهم كشـفاً دورياً كل أسـبوع ، قلت : وهل هذا الكشف الدورى يسـتوعب الجميع ؟ أم انه مجرد (شـشـن) وعينات عشوائية .

إذن : من الممكن أن يتـسرَّب المرض بين هؤلاء الشـباب ، وهَبْ

أنك أجـريتَ على إحداهن الكشف يوم الأحـد مثـلاً ، وفى يوم الاثنين جاءها المـرض ، فإلى كم واحد سـينتقل المـرض إلى أنْ يأتى الأحد القادم ؟ فهذه مسألة لا تستطيع السيطرة فيها على الداء .

ثم أتُجرون هذه الفحـوصات على المتزوجين والمـتزوجات ؟ وهل اكتشـفتم بينهم مثل هذه الأمـراض ؟ قالوا : لا لم يحدث أن اكتـشفنا هذا بين المتزوجين . قلت : إذن كان علـيكم أنْ تنتبهوا إلى سبب هذه الداءات ، وأنها تأتى من تـعدُّد ماءات الرجـال فى المكان الواحد ؛ لأن لكل ماء سياله وله ميكروبات تتصارع ، إن اجتمعت فى المكان الواحد فينشأ منها المرض .

لكن حين يـكون للزوجة زوج واحد ، فلن نـرى مثل هذه الداءات فى المـجتـمع ، ومن هنا يأتى دور الوازع الدينى ، فـإن فُقِـد الوازع الدينى فـلا بُدَّ من الوازع الحـسىّ ليـزجر مـثل هؤلاء ويُوقِـفـهم عند حدود الله رَغْماً عنهم ، حتى وإنْ لم يكونوا يؤمنون بها .

إذن : هذه أقضيـة ومشاكل وداءات حدثتْ للناس بقـدر ما أحدثوا من الفـجور ، وبقـدر مـا انتهكوا من حُـرُمـات الله ، وانظر مثـلاً لمن يُضطرّ للسفر إلى مـثل هذه البلاد ، كم يكون حَذِراً مُفزّعـاً حين يقيم مثلاً فى فندق ، فيأخذ أدواته الشخصـية ، ويخاف أن يستعمل أشياء غيره ، ويحرص على نظافة المكان وتغيير الفراش قبل أن ينام عليه .. الخ كل هذه الاحتياطات .

فالشـرع حين يأمـر بقتل الزانى أو الزانيـة إنما فعل ذلـك ليسْلَمَ المجتمع بأسْره ، وكثيراً مـا نواجه مثل هذه الاعتراضات من أصحاب الرحمة الحـمقاء والشعارات الجوفـاء ، أهُمْ أرحم بالخَلْق من الخالق ؟ ألاَ يروْن للزلزال أو لحوادث السيـارات والطائرات التى تحصد الآلاف

منْ الأرواح ؟ فلماذا هذه الضجة حين نبتر العضو المريض من المجتمع ؟

قوله تعالى : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا .. ① ﴾ [النور] السورة : مأخوذة من سور البيت ، وهى طائفة من نجوم القرآن أو آياته محوطة ببداية ونهاية ، تحمل أحكاماً وقد تكون طويلة كسورة البقرة ، أو قصيرة كالإخلاص والكوثر ، فليس للسورة كمية مخصوصة ؛ لأنها توقيفية .

﴿ أَنزَلْنَاهَا .. ① ﴾ [النور] نفهم من أنزل أن الإنزال من أعلى إلى مَنْ هو أدنى منه ، كما يكتب الموظف مثلاً يريد التظلُّم لرئيسه : أرفع إليك كذا وكذا ، فيقول الأعلى : وأنا أنزلت القرار الفلانى ، فالأدنى يرفع للأعلى ، والأعلى يُنزِل للأدنى .

لذلك يقول تعالى : (أنزلنا) حتى للشىء الذى لا ينزل من السماء ، كما قال سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. ㉕ ﴾ [الحديد] فالحديد وإنْ كان مصدره الأرض ، إلا أنه لا يكون إلا بقدرة الأعلى سبحانه .

﴿ وَفَرَضْنَاهَا .. ① ﴾ [النور] الشىء المفروض يعنى الواجب أن يُعمل ؛ لأن المشرِّع قاله وحكم به وقدَّره ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ .. ㊲ ﴾ [البقرة] أى : نصف ما قدَّرتم ، إذن : كل شىء له حكْم فى الشرع ، فإن الله تعالى مُقدِّره تقديراً حكيماً على قَدْره .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. ① ﴾ [النور] الآيات الواضحات ، وتُطلق الآيات - كما قلنا - على الآيات الكونية التى تلفت أنظارنا إلى قدرة الله وبديع صُنْعه ، وتُطلق على المعجزات التى تثبت صدْق الرسل ، وتُطلق على آيات القرآن الحاملة للأحكام .

وفى هذه السورة كثير من الأحكام إلى أن قال فيها الحق سبحانه : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور] وقال : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور] فطالما أنكم أخذتُم نور الدنيا ، وأقررتُم أنه الأحسن ، وأنه إذا ظهر ألغى جميع أنواركم ، فكذلك خذوا نور التشريع واعملوا به واعلموا أنه نور على نور .

إذن : لديكم من الله نوران : نور حسى ونور معنوى .

﴿ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ﴾ [النور] بعد أنْ قال سبحانه أنزلت كذا وكذا أراد أنْ يُلهب المشاعر لتُستقبل آياته الاستقبال الحسن ، وتُطبَّق أحكامه التطبيق الأمثل يقول : أنزلتُ إليكم كذا لعلكم تذكرون ، ففيها حَثٌّ وإلهابٌ لنستفيد بتشريع الحق للخَلْق .

ثم يتحدث الحق سبحانه عن أول قضية فيما فرضه على عباده :

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

قلنا : إن الحق سبحانه تناول هذه المسألة حرصاً على سلامة النشء ، وطهارة هذا الإنسان الذى جعله الله خليفة له فى الأرض ، وحين نتأمل السياق القرآنى فى هذه الآية نجد أن كلمة الزانى تدل على كُلٍّ من الأنثى والذكر ، ففى اللغة الاسم الموصول : الذى للمفرد المذكر ، والتى للمفردة المؤنثة ، واللذان للمثنى المذكر ، واللتان للمثنى المؤنث ، والذين لجمع الذكور ، واللائى لجمع الإناث .

لكن هناك أسماء تدل على كل هذه الصيغ مثل : مَنْ ، ما ، ال .

تقول : جاء مَنْ أكرمني ، وجاءت من أكرمتني ، وجاء من أكرموني .

فكذلك (ال) في (الزاني) تدل على المؤنث وعلى المذكر ، لكن الحق سبحانه ذكرهما صراحةً ليُزيلَ ما قد يحدث عند البعض من خلاف : أيهما السبب في هذه الجريمة ، هذا الخلاف الذي وقع فيه حتى الأئمة والفقهاء ، فهناك مَنْ يقول : الزاني واطئ وفاعل ، والمرأة موطوءة ، فالفعل للرجل لا للمرأة ، فهو وحده الذي يتحمل هذه التبعة .

لذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه يحكي أن رجلاً ذهب للنبي ﷺ وقال : يا رسول الله وطئت امرأتي في رمضان . فقال له النبي ﷺ : « كَفِّر » [1]

وأخذ الشافعي من هذا الحديث أن الكفارة إنما تكون على الرجل دون المرأة ، وإلا لقال له الرسول : كَفِّرا .

لكن يجب أن نفرق بين وطيء وجامع : الوَطْءُ فعل الرجل حتى وإن كانت الزوجة كارهة رافضة ، أمَّا الجماع فهو حال الرضا والقبول من الطرفين ، وفي هذه الحالة تكون الكفارة عليهما معاً ؛ لذلك صرَّح الحق تبارك وتعالى بالزاني والزانية ليزيل هذه الشُّبهة وهذا الخلاف .

وأرى في هذه المسألة أن الذي استفتى رسولَ الله هو الرجلُ ، ولو كانت المرأة لقال لها أيضاً : كفِّري ، فالحكم خاصٌّ بمن استفتى .

والمتأمل في آيات الحدود يجد مثلاً في حَدِّ السرقة قوله تعالى

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : احترقت قال رسول الله ﷺ : لم ؟ قال : وطئت امرأتي في رمضان نهاراً . قال : « تصدق . تصدق » قال : ما عندي شيء . فأمره أن يجلس ، فجاءه عرقان فيهما طعام . فأمره رسول الله ﷺ أن يتصدَّق به . أخرجه مسلم في صحيحه (١١١٢) .

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [المائدة] فبدأ بالمذكر ، أما فى حَدِّ الزنا فقال : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي .. ﴿٢﴾ ﴾ [النور] فبدأ بالمؤنث ، لماذا الاختلاف فى التعبير القرآنى ؟

قالوا : لأن دور المرأة فى مسألة الزنا أعظم ومدخلها أوسع ، فهى التى تغرى الرجل وتثيره وتهيج عواطفه ؛ لذلك أمر الحق - تبارك وتعالى - الرجال بغَضِّ البصر وأمر النساء بعدم إبداء الزينة ، ذلك ليسُدَّ نوافذ هذه الجريمة ويمنع أسبابها .

أما فى حالة السرقة فعادةً يكون عبْءُ النفقة ومُؤْنة الحياة على كاهل الرجل ، فهو المكلف بها ؛ لذلك يسرق الرجل ، أمَّا المرأة فالعادة أنها فى البيت تستقبل ، وليس من مهمتها توفير تكاليف الحياة ، لكن لا مانعَ مع ذلك أن تسرق المرأة أيضاً ؛ لذلك بدأ فى السرقة بالرجل .

إذن : بمقارنة آيات القرآن تجد الكلام موزوناً دقيقاً غاية الدقة ، لكل كلمة ولكل حرف عطاؤه ، فهو كلام رب حكيم ، ولو كانت المسألة مجرد تقنين عادى ما التفتَ إلى مثل هذه المسائل .

ثم يأتى الحد الرادع لهذه الجريمة ﴿ فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ .. ﴿٢﴾ ﴾ [النور] اجلدوا : أمر ، لكن لمن ؟ لم يقُل أيها الحاكم أو القاضى ؛ لأن الأمر هنا للأمة كلها ، فأمر إقامة الحدود منوط بالأمة كلها ، لكن أتنهض الأمة بأسْرها وتعدّدها بفعل واحد فى كل مكان ؟

قالوا : الأمة مثل النائب العام للوالى ، عليه أن يختار مَنْ يراه أهلاً للولاية لينفذ له ما يريد ، ومَنْ ولَّى قاضياً فقد قضى ، وما دام الأمر كذلك فإياك أنْ تُولِّى القضاء مَنْ لا يصلح للقضاء ؛ لأن التبعة - إذن - ستكون عليك إنْ ظلم أو جار ، فالواو والألف فى

﴿فَاجْلِدُوا..(٢)﴾ [النور] تدل على معانٍ كبيرة ، فالأمة في مجموعها لا تستطيع أن تجلد كل زانٍ أو زانية ، لكن حين تولي إمامها بالبيعة ، وحين تختاره ليقيم حدود الله ، فكأنها هي التي أقامتْ الحدود وهي التي نفذت .

لذلك النبي ﷺ يقول : « مَنْ ولّى أحداً أمراً وفي الناس خير منه لا يشم رائحة الجنة »(١)

لماذا ؟ لأنك حين تُولِّي أمور الناس مَنْ لا يصلح لها في وجود مَنْ يصلح إنما تُشيع الفساد في المجتمع ، ولا تظن أنك تستطيع أن تخفي شيئاً عن أعيُن الناس ، فلهم من الوعي والانتباه ما يُفرِّقون به بين الكفء وغيره ، وإنْ سكتوا وتغافلوا فإنهم يتساءلون من ورائك : لماذا ولّي هذا ، وترك مَنْ هو أكفأ منه ، لابُدَّ أن له مؤهلات أخرى ، دخل بها من الباب الخلفي ، ولماذا لا نفعل مثله ؟ عندها تسود الفوضى وتضيع الحقوق وينتشر الإحباط والتكاسل والخمول ، ويحدث خلل في المجتمع وتتعطل المصالح .

ومع هذا كله لا نستطيع أن نلوم الوالي حين يختار مَنْ لا يصلح قبل أن نلوم أنفسنا أولاً ، فنحن الذين اخترناه ودلَّسْنَا في البيعة له ، فسلَّطه الله علينا ليُدلِّس هو أيضاً في اختياره ، أمّا لو أدى كل منا واجبه في اختيار مَنْ يصلح ما وصل إلى مراتب القيادة مَنْ يدلس على الناس ، وبذلك تستقيم الأمور ، ويتقرب الإنسان للولاية بالعمل وبالجد والإخلاص والأمانة والصدق والتفاني في خدمة المجتمع .

---

(١) عن أبي بكر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمّر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم » أخرجه أحمد في مسنده (٦/١) .

ومن رحمة الله تعالى بالخَلْق أنْ يقذف الإخلاص وحُبّ العمل ويزرع الرحمة بالخلق فى بعض القلوب ؛ لذلك ترى فى كل مصلحة أو فى كل مكتب موظفاً متواضعاً يحبّ الناس ويحرص على قضاء مصالحهم ، تراه يرتدى نظارة سميكة يرى من خلالها بصعوبة ، وهو دائماً مُنكبٌّ على الأوراق والملفات ، ويقصده الخلْق لقضاء مصالحهم : يا فلان أفندى ، أعطنى كذا ، واكتب لى كذا ، وقد وسَّع الله صَدْره للناس فلا يرد أحداً .

هذه المسائل كلها نفهمها من الواو والألف فى ﴿ فَاجْلِدُوا .. ② ﴾ [النور] أما الجلْد فهو الضرب ، نقول : جلَده : يعنى ضرب جِلْدَه ، ورأسه : يعنى ضرب رأسه ، وظهَره : ضرب ظهره . والجلد ضَرْبٌ بكيفية خاصة ، بحيث لا يقطع لحماً ولا يكسر عظماً ؛ لأن الضربة حسب قوتها وحسب الآلة المستخدمة فى الضرب ، فمن الضرب ما يكسر العظم ولا يقطع الجلد ، ومنه ما يقطع الجلد ولا يكسر العظم ، ومنه ما يؤلم دون هذا أو ذاك .

ثم يقول سبحانه :﴿ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ .. ② ﴾ [النور] تحذير من الرحمة الحمقاء ، الرحمة فى غير محلها ، وعلى حَدِّ قول الشاعر :

فَقَسَا لِيزدَجِرُوا ومَنْ يَكُ حَازِماً   فَلْيَقْسُ أحيَاناً على مَنْ يَرحَمُ

فالرأفة لا تكون فى حدود الله ، ارأفوا بهم فى مسائلكم الخاصة فيما بينكم ، وعجيب أن تدعوا الرأفة فى مسائل الحدود وأنتم من ناحية أخرى تضربون وتسرقون أموال الناس ، وتنتهكون حرماتهم ، وتثيرون بينهم الفتنة والحروب ، فأين الرأفة إذن ؟

إذن : لا مجالَ للرحمة وللرأفَة فى حدود الله ، فلسنا أرحم بالخَلْق

من الخالق ، وما وُضعَتْ الحدود حباً فى تعذيب الناس ، إنما وُضعَتْ وشُدِّد عليها لتمنع الوَقوع فى الجريمة التى تستوجب الحد ، فقَطْعَ يد واحدة تمنع قَطْع آلاف الأيدى .

والذين يتهمون الإسلام بالقسوة والبشاعة فى تطبيق الحدود أنَسُوا ما فعلوه فى هيروشيما ، وما زالت آثاره حتى الآن ؟ أنسوا الحروب التى يشعلونها فى أنحاء العالم ، والتى تحصد آلاف الأرواح ؟ أهى الرحمة الحمقاء التى لا معنى لها ؟ أم هى الكراهية لحدود الله ؟

ونذكر فى الماضى أنه كان يخرج مع فوج الحجيج قوة حماية وحراسة من الجيش ، تحمى الحجيج من قطاع الطرق ، وكانوا يُسَمُّون بعثة الحج هذه (المحمل) ، فلما أقامت السعودية حكم الله وطبَّقَتْ الحدود أمَّنَتْ الطرق ، واستغنى الناس عن هذه الحراسات مع اتساعها وتشعُّب طرقها ووعورتها بين الجبال والوديان والصحارى الشاسعة التى لا يمكن أن تحكمها أو تحرسها عَيْن بشر ، لا بُدَّ لها من تقنين الخالق عزوجل .

ومع ذلك حين أحْصَوا الأيدى التى قُطعَتْ وجدوها قليلة جداً ، وأغلبها من خارج المملكة - وأذكر أننى قلتَ مرة فى خطبة عرفة : ارجعوا إلى حكامكم وقولوا لهم : اقطعوا يد السارق ، فالذى لا يقطع يد السارق فى نيته أن يسرق ؛ لذلك يخاف على يده ، فحين تذكر له مسألة قَطْع يد السارق ترتجف يده . والذين يعارضون حدود الله هم أنفسهم يسيرون على مبدأ أن هلاك الثُّلث جائز لإصلاح الثلثين ، لكن تقف حدود الله غُصَّة فى حلوقهم .

والجلْد مائة جلدة يخصّ الزانى غير المحْصَن يعنى غير المتزوج ، أمَّا المتزوج فله حكم آخر لم يأت فى كتاب الله ، إنما أتى فى سنة

رسول الله ﷺ ؛ ذلك لأن القرآن الكريم ليس كتابَ منهج فقط ، إنما كتابَ منهج ومعجزة ومعه أصول ، من هذه الأصول أنه قال فى آية من آياته : إننا وكلنا رسول الله فى أنْ يُشرِّع للناس .

والحكم الذى يؤخذ من القول عُرْضة لأن نتمحك فيه ونقف أمامه نُقلِّب ألفاظه أو نؤوله ، أمّا إنْ أُخذ الحكم من فعل المشرع ، فليس فيه شكٌّ أو تمحُّك ، وليس قابلاً للتأويل لأنه فعل ، وقد فعل الرسول ورجم الزانى والزانية المحصنين في قصة ماعز والغامدية ، لأنه مفوض من الله .

ولا بد أن نفرق بين الحدَّيْن ، ففى حَدِّ الأمة إنْ زنت يقول تعالى: ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .. (٢٥) ﴾ [النساء] البعض فَهِم من الآية أنها تشمل حدَّىْ الرَّجْم والجلْد ، فقالوا : فى الجلد يمكن أن تجلد خمسين جلدة ، لكن كيف نجزئ الرجم ؟ وما دام الرجم لا يُجَزَّأ فليس عليها رجم .

ولو تأمل هؤلاء نصَّ الآية لخرجوا من هذا الخلاف ، فالحق سبحانه وتعالى لم يقل ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ .. (٢٥) ﴾ [النساء] وسكت ، إنما قال ﴿ مِنَ الْعَذَابِ .. (٢٥) ﴾ [النساء] فخصَّ بذلك حدَّ الجلد ؛ لأن العذاب إيلام حَيٍّ ، أمّا الرجم فهو إزهاق حياة ، فهما متقابلان .

ألاَ ترى قول القرآن فى قصة سليمان عليه السلام والهدهد : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ .. (٢١) ﴾ [النمل] فالعذاب غير الذبح .

إذن : تجزئة الحد فى الجلْد فقط ، أمّا الرَّجم فلا يُجزَّأ ، فإنْ زنتِ الأَمَة المحصنة رُجِمَتْ .

وقوله تعالى : ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (٢)﴾ [النور]
هذا كلام مُوجِع ، وإهاجة لجماعة المؤمنين ، فهذا هو الحكم ، وهذا هو الحدُّ قد شرعه الله ، فإن كنتم مؤمنين بالله وبالحساب والعقاب فطبِّقوا شَرْع الله ، وإلاَّ فراجعوا إيمانكم بالله وباليوم الآخر لأننا نشكُّ في صِدْق هذا الإيمان .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يهيجنا ويثيرنا على أهل هذه الجريمة ، لنأخذ على أيديهم ونُخوِّفهم بما شرع الله من الحدود .

فالمعنى : إنْ كنتم تؤمنون بالله إلهاً حكيماً مشرعاً ، خلق خَلْقاً ، ويريد أن يحمي خَلْقه ويُطهره ليكون أهلاً لخلافته في الأرض الخلافة الحقة ، فاتركوا الخالق يتصرف في كونه وفي خَلْقه على مراده عَزَّ وجَلَّ ، فالخَلْق ليس خَلْقكم لتتدخلوا فيه .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾ [النور]
فالأمر لا يقف عند حدِّ التعذيب والجَلْد ، إنما لا بُدَّ أن يشهد هذا العذاب جماعة من المؤمنين ، والطائفة هم الجماعة وأقلها أربعة لماذا ؟ قالوا : لأن النفس قد تتحمَّل الإهانة إنْ كانت سِراً لا يطَّلع عليها أحد ، فلا يؤلمه أنْ تُعذِّبه أشدَّ العذاب بينك وبينه ، إنما لا يتحمل أن تشتمه أمام الناس . إذن : فمشاهدة الحدِّ إهانة لصاحبه ، وهي أيضاً زَجْر للمشاهد ، ونموذج عمليٌّ رادع .

لذلك يقولون : الحدود زواجر وجوابر ، زواجر لمن شاهدها أي : تزجره عن ارتكاب ما يستوجب هذا الحدَّ ، وجوابر لصاحب الحد تجبر ذنبه وتُسقط عنه عقوبة الآخرة ، فلا يمكن أن يستوي مَنْ أقر

وأقيم عليه الحدُ بمَنْ لم يقر ، ولأن الزنا لم يثبت بشهود أبداً ، وإنما بإقـرار ، وهذا دليل علـى أن الحكم صـحـيح فـى ذِهْنه ، ويرى أن فضوح الدنيـا وعذابها أهونُ من فضوح الآخرة وعذابـها ، إلا لما أقر على نفسه .

فالمسألة يقين وإيمان ثابت بالقيامة وبالبعث والحساب ، والعقوبة اليـوم أهون ، وإنْ كـان الزنا يثبـت بالشهـود فلربمـا دلَّسُـوا ، لذلك النبى ﷺ كان يأتيه الرجل مُقراً بالزنا فيقول له : « لعلك قبَّلْتَ ، لعلك غمزْتَ ، لعلك لمسْت »[1] يعنى : لم تصل إلى الحد الذى يسمى زنا ، يريد رسول الله ﷺ أن يدرأ الحدَّ بالشبهة .[2]

ولهـذا المبـدأ الإسلامى السـمح إنْ أخـذتَ الزانى وذهبت ترجمـه فآلمـه الحجـر فحـاول الفرار يأمرنا الشـرع ألاَّ نتبـعه وألاَّ نلاحـقه ، لماذا ؟ لأنه اعتبر أن فراره من الحد كأنه رجوع عن الإقرار .[3]

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٨٢٤) ، وأحمد فى مسنده (١/٢٣٨ ، ٢٥٥ ، ٢٧٠ ، ٢٨٩ ، ٣٢٥) عن ابن عباس قال : لما أتى ماعز بن مالك النبى ﷺ قال له : لعلك قبَّلت أو غمزت أو نظرت ؟ قال : لا يا رسول الله . قال : أنكْتها ؟ - لا يكنى - قال : فعند ذلك أمر برجمه » .

(٢) عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله ، فإن الإمام لأن يخطىء فى العفو خير له من أن يخطىء فى العقوبة » أخرجه الترمذى فى سننه (١٤٢٤) ، والحاكم فى مستدركه (٤/٣٨٤) ، والدارقطنى فى سننه (٣/٨٤) قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٣) أخرج الإمام أحمد فى مسنده (٢/٤٥٠) والترمذى فى سننه (١٤٢٨) أن ماعزاً لما وجد مسَّ الحجارة يشتد فر ، حتى مر برجل معه لحى جمل (عظم حنكه) فضربه به وضربه الناس حتى مات ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « هلا تركتموه » قال الترمذى : هذا حديث حسن .

يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ ﴾

﴿ الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً .. ۝٣ ﴾ [النور] لأن الزواج يقوم على التكافؤ ، حتى لا يستعلى أحد الزوجين على الآخر ، والزانى فيه خِسَّة ، فلا يليق به إلا خسيسة مثله يعنى : زانية ، أو أخس وهى المَشركة ؛ لأن الشرك أخسُّ من الزنا ، لأن الزنا مخالفة أمر توجيهى من الله ، أمّا الشرك فهو كفر بالله ؛ لذلك فالمشركة أخبث من الزانية . وما نقوله فى زواج الزانى نقوله فى زواج الزانية ﴿ وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ .. ۝٣ ﴾ [النور]

وهنا يعترض البعض : كيف إنْ كانت الزانية مسلمة : اينكحها مشرك ؟ قالوا : التقابل هنا غرضه التهويل والتفظيع فقط لا الإباحة ؛ لأن المسلمة لا يجوز أن تتزوج مشركاً ابداً ، فالآية توبيخ لها :

---

(١) **سبب نزول الآية** : ورد فى سبب نزول هذه الآية عدة روايات ، منها :
- أخرج أحمد فى مسنده (٢/١٥٩ ، ٢٢٢) عن عبد الله بن عمر أن رجلاً من المؤمنين استأذن رسول الله ﷺ فى امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح وتشترط له أن تنفق عليه فاستأذن رسول الله ﷺ أو ذكر له أمرها . فقرأ عليه رسول الله ﷺ هذه الآية . وأخرجه كذلك الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٨٠) .
- أخرج الترمذى فى سننه (٣١٧٧) وأبو داود فى سننه (٢٠٥١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كان رجل يقال له مرثد بن أبى مرثد وكان رجلاً يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة وكانت امرأة بغى بمكة يقال لها عناق وكانت صديقة له وأنه قال لرسول الله ﷺ : أنكح عناقاً ، أنكح عناقاً ؟ فامسك رسول الله ﷺ فلم يرد علىّ شيئاً حتى نزلت الآية ، فقال رسول الله ﷺ : « يا مرثد ، الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة فلا تنكحها » .

يا خسيسة ، لا يليق بك إلا خسيس مثلك أو أخسّ .

وأرى أن النص محتمل لانفكاك الجهة ؛ لأن التى زنتْ تدور بين أمرين : إما أنها أقبلتْ على الزنا وهى تعلم أنه مُحرَّم ، فتكون عاصية باقية على إسلامها ، أو أنها ردَّت حكم الزنا واعترضت عليه فتكون مشركة ، وفى هذه الحالة يستقيم لنا فهم الآية .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ③ ﴾ [النور] فهذا سبب طُهْر الأنسال أن يُحرِّم الله تعالى الزنا ، فيأتى الخليفة طاهر النسل والعنصر ، محضوناً بأب وأم ، مضموماً بدفء العائلة ، لا يتحملون عليه نسمة الهواء ؛ لأنه جاء من وعاء طيب طاهر نظيف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ④ ﴾

الرمى : قذف شىء بشىء ، والمحصنات : جمع مُحْصنة من الإحصان ، وهو الحفظ ، ومنه قولنا : فلان عنده حصانة برلمانية مثلاً . يعنى : تكفّل القانون بحفظه ؛ لذلك إنْ أرادوا محاسبته أو مقاضاته يرفعون عنه الحصانة أولاً ، ومنه أيضاً كلمة الحصن وهو الشىء المنيع الذى يحمى مَنْ بداخله .

يقول تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ .. ⑧⓪ ﴾ [الأنبياء] يعنى : الدروع التى تحمى الإنسان وتحفظه فى الحرب .

والمحصنات : تُطلَق على المتزوجة ، لأنها حصَّنَتْ نفسها بالزواج أن تميل إلى الفاحشة ، وتطلق أيضاً على الحرة ، لأنهم في الماضي كانت الإماء هُنَّ اللائى يدعين لمسألة البغاء ، إنما لا تقدم عليها الحرائر أبداً .

لذلك فإن السيدة هنداً[1] التى نُسيِّدها الآن بعد إسلامها ، وهى التى لاكتْ كبد سيدنا حمزة فى غزوة أحد ، لكن لا عليها الآن ؛ لأن الإسلام يجُبُّ ما قبله . لما سمعت السيدة هند رسول الله ﷺ ينهى النساء عن الزنا قالت : أو تزنى حُرَّة[2] ؟ لأن الزنا انتشر قبل الإسلام بين البغايا من الإماء ، حتى كانت لهن رايات يرفعْنها على بيوتهن ليُعرفْنَ بها .

والمعنى : يرمون المحصنات بما ينافى الإحصان ، والمراد الزنا ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً .. ④ ﴾ [النور] وهذا يُسمَّى حدَّ القذف ، أن ترمى حُرّة بالزنا وتتهمها بها ، ففى هذه الحالة عليك أنْ تأتى بأربعة شهداء يشهدون على ما رميْتها به ، فإن لم تفعل يُقام عليك أنت حَدُّ القذف ثمانين جلدة ، ثم لا ينتهى الأمر عند الجلْد ، إنما لا تُقبل منك شهادة بعد ذلك أبداً .

﴿ وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا .. ④ ﴾ [النور] لماذا ؟ لأنه لم يَعُدْ أهلاً لها ؛ لأنه فاسق ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ④ ﴾ [النور] والفاسق لا شهادةَ له ، وهكذا جمع الشارع الحكيم على القاذف حَدَّ الجلْد ، ثم

---

(١) هى : هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية بن أبى سفيان ، وهى زوجة أبى سفيان بن حرب ، وهى التى لاكت كبد حمزة عم رسول الله ﷺ فى غزوة أحد بعد أن قتله وحشى بتدبير منها .

(٢) أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٥٣) فى تفسير آية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ .. ⑫ ﴾ [الممتحنة] وفيه أنها قالت : يا رسول الله وهل تزنى امرأة حرة ؟ قال : « لا والله ما تزنى الحرة » .

أسقط اعتباره من المجتمع بسقوط شهادته ، ثم وصفه بعد ذلك بالفسق ، فهو فى مجتمعه ساقط الاعتبار ساقط الكرامة .

هذا كله ليزجر كل مَنْ تسوِّل له نفسه الخوْضَ فى أعراض الحرائر واتهام النساء الطاهرات ؛ لذلك عبَّر عن القَذْف بالرمى ؛ لأنه غالباً ما يكون عن عجلة وعدم بينة ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن يحفظ مجتمع الإيمان من أن تشيع فيه الفاحشة ، أو مجرد ذكرها والحديث عنها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ ﴾

اختلف العلماء فى معنى الاستثناء هنا : أهو استثناء من الفِسْق ؟ أم استثناء من عدم قبول الشهادة ؟

ذكرنا أن مشروعية التوبة منَّة وتكرُّم من الحق ـ تبارك وتعالى ـ لأنه لو لم تشرع التوبة كان مَنْ يقع فى معصية مرة ، ولا تُقبل منه توبة يتجرأ على المعصية ويكثر منها ، ولم لا ؟ فلا دافعَ له للإقلاع .

إذن : حين يشرع الله التوبة إنما يحمى المجتمع من الفاقدين الذين باعوا أنفسهم ، وفقدوا الأمل فى النجاة . فمشروعية التوبة كَرَم ، وقبولها كرم آخر ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. ۝١١٨﴾ [التوبة] أى : شرع لهم التوبة ليتوبوا فيقبل منهم .

وقوله تعالى : ﴿وَأَصْلَحُوا .. ۝٥﴾ [النور] تدل على أن مَنْ وقعتْ منه سيئة عليه أن يتبعها بحسنة ، وقد ورد فى الحديث الشريف :

« وأتبع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُـها ....»[1] لذلك تجد الذين أسـرفوا على أنفسهم فى ناحية ما ، حينما يكـبرون ويُحبّون التوبة تراهم شغوفين بحُبِّ الخـير وعـمل الطاعـات ، يريدون أن يُكفّـروا بهـا ما سـبق من السـيئـات ، عـلى خـلاف مَنْ حـافظ على نفسـه ، ونأى بهـا عن المعاصى ، فتراه بارداً من ناحيتها يفعل الخير على قَدْر طاقته .

وكأن الحق ـ تبارك وتعـالى ـ يُحذِّر عباده : يا عـبادى احذروا : مَنْ أخذ منى شـيئاً خلْسة أو ترك لى حكمـاً ، أو تجرأ علىَّ بمعـصية سيتعب فيما بعد ، ويلاقى الأمَرَّيْن ؛ لأن السيئة ستظل وراءه تطارده وتُجهـده لاغفرها له ، وسـيحتـاج لكثير من الحـسنات وأفعال الخـير ليجبر بها تقصيره فى حَقِّ ربه .

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/١٥٣ ، ١٥٨) والترمذى فى سننه (١٩٨٧) والدارمى فى سننه (٢/٣٢٣) من حديث أبى ذر رضى الله عنه قال قال ﷺ : « اتق الله حـيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » . واللفظ للترمذى .

(٢) سبب نزول الآية : عن ابـن عباس قـال : لما نزلت : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً .. ④﴾ [النور] قال سعد بن عـبادة وهو سيد الأنصار : أهكذا أنزلت يا رسـول الله ؟ فـقال ﷺ : ألا تسـمـعـوا يا معـشـر الأنصار إلـى ما يقـول سيدكم ؟ قالوا : يا رسول الله إنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً ، وما طلق امرأة قط فاجتـرأ رجل منا على أن يتزوجها من شدة غيرته . فقـال سعد : والله يا رسول الله إنى لأعلم أنها حق وأنها من عـند الله ، ولكن قد تعجبت أن لو وجدت لكاع قـد تفخذها رجل لم يكن لى أن أهيجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء ، فوالله إنى لا آتى بهم حتى يقضى حاجـته . فما لبثـوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمـية من أرضـه عشيـاً فوجد عند أهله رجـلاً فرأى بعـينه وسـمـع بأذنه فلم يهيـجـه حتى أصـبح وغدا على رسـول الله ﷺ فأخـبره بما كـان ، فكره رسول الله ما جـاء به واشتـد عليه فقـال سعد بن عـبادة : الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويبطل شهـادته فى المسلمين . فقال هلال : والله إنى لأرجو أن يجعل الله لى منهـا مخرجاً . فنزلت آية ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ .. ⑥﴾ [النور] فقال رسـول الله ﷺ : أبشر يا هلال ، فقد جـعل الله لك فرجاً ومخرجاً . فـقال : قد كنت أرجو ذاك من ربى . وذكر باقى الحديـث . أخرجه الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٨٠ ، ١٨١) .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٦ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٧ ﴾

بعد أن تكلم الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن الذين يرمون المحصنات ، وبيّن حكم القذف ، أراد أنْ يُبيِّن حكم الرمى إنْ كان من الزوج لزوجته ؛ لأن الأمر هنا مختلف ، وربما يكون بينهما أولاد منه أو من غيره ، فعليه أن يكون مُؤدباً بأدب الشرع ، ولا يجرح الأولاد برمى أمهم ولا ذنب لهم .

لذلك شرع الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى هذه الحالة حكماً خاصاً بها هو الملاعنة ، وقد سُمِّيت هذه الآية آية اللعان .

ويُرْوَى أن هلال بن أمية ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا رسول الله إنى رأيتُ فلاناً على بطن زوجتى ، فإنْ تركتُه لآتى بأربعة شهداء لقضى حاجته وانصرف ، وإنْ قتلتُه فقد اعتديْتُ عليه[1] .

إذن : ما حَلّ هذا اللغز ؟

وينبغى أن نعلم أن الله تعالى لا ينزل التشريع والحكم بدايةً ، إنما يترك فى الكون من أقضية الحياة وأحداثها ما يحتاج لهذا الحكم ، بحيث ينزل الحكم فيصادف الحاجة إليه ، كما يقولون : موقع الماء من ذى الغُلّة الصَّادى ، يعنى : حين ينزل الحكم يكون له موضع فيتلقفه الناس ، ويشعرون أنه نزل من أجلهم بعد أنْ كانوا

---

(١) لفظ الحديث عند الإمام أحمد فى مسنده (١/٢٣٨) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن هلال بن أمية ـ وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ـ جاء من أرضه عشاء فوجد عند أهله رجلاً فرأى بعينيه وسمع بأذنيه فلم يهيجه حتى أصبح فغدا على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى جئت أهلى عشاء فوجدت عندها رجلاً فرأيت بعينى وسمعت بأذنى » الحديث .

يستشرفون لحكم فى مسألة لم يأت فيها حكم .

وقد شرع الله تعالى حكم الملاعنة أو اللعان خاصة ، لهذه الحالة التى يلاحظ فيها الزوج شيئاً على أهله ، وقد يضع يده عليه ، لكن لا يستطيع أنْ يأتى عليه بشهود ليثبت هذه الحالة ؛ لذلك جعله الشارع الحكيم يقوم وحده بهذه الشهادة ، ويكررها أربع مرات بدل الشهداء الأربع .

يقول : أشهد الله أننى صادق فيما رميتُ به امراتى ، يقولها أربع مرات ، وفى الخامسة يقول : ولعنة الله علىَّ إنْ كنتُ كاذباً ، وهكذا ينتهى دور الزوج فى الملاعنة .

﴿ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾

(يَدْرَأ) أى : يدفع العذاب عن الزوجة أن تشهد هى الأخرى أربع شهادات بالله ، تقول : أشهد الله أنه كاذب فيما رمانى به ، وفى الخامسة تقول : غضب الله علىَّ إنْ كان هو من الصادقين . فإن امتنعت الزوجة عن هذه الشهادة فقد ثبت عليها الزنا ، وإنْ حلفتْ فقد تعادلا ، ولم يَعُدْ كل منهما صالحاً للآخر ، وعندها يُفرِّق الشرع بينهما تفريقاً نهائياً لا عودةَ بعده ، ولا تحل له أبداً[1] .

---

(١) وقد وردت الرواية بأن امرأة هلال بن أمية والتى رماها بالزنا مع شريك بن سحماء شهدت أربع شهادات أنها لم تفعل . فلما كانت الشهادة الخامسة سكتت سكتة حتى ظنوا أنها ستعترف ثم قالت : لا أفضح قومى سائر اليوم فمضت على القول ففرّق رسول الله ﷺ بينهما وقال : « انظروا ، فإن جاءت به جعداً حمش الساقين . فهو لشريك بن سحماء ، وإن جاءت به أبيض سبطاً قصير العينين فهو لهلال بن أمية » . فجاءت به جعداً حمش الساقين . أى : تحقق وثبت كذب المرأة وثبت صدق هلال ، فقال ﷺ : « لولا ما نزل فيهما من كتاب الله لكان لى ولها شأن » ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢٦٨/٣) .

هذا التشريع فَضْلٌ من الله ؛ لأنه أنهى هذه المسألة على خير ما تنتهى عليه ؛ لذلك يقول سبحانه بعدها :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾[1]

أى : لولا هذا لَفُضِحتم ولتفاقمت بينكم العداوة ، لكن عصمكم فضل الله فى هذا التشريع الحكيم المناسب لهذه الحالة .

والقذف جريمة بشعة فى حَقِّ المجتمع كله ، تشيع فيه الفاحشة وتتقطع الأواصر ، هذا إنْ كان للمحصنات البعيدات ، وهو أعظم إنْ كان للزوجة ، لكن ما بالك إنْ وقع مثل هذا القول على أم ليست أماً لواحد ، إنما هى أم لجميع المؤمنين ، هى أم المؤمنين السيدة عائشة - رضى الله عنها وأرضاها - فكانت مناسبة أن يذكر السياق ما كان من قَذْف السيدة عائشة ، والذى سُمِّى بحادثة الإفك ؛ لماذا ؟

لأن الله تعالى يريد أن يُعطينا الأُسْوة فى النبوة نفسها ، ويريد أنْ يُسلِّى عائشة صاحبة النسب العريق وأم المؤمنين ، وقد قيل فيها ما قيل ؛ لذلك ستظل السيدة عائشة أُسْوة لكل شريفة تُرْمَى فى عِرْضها ، ويحاول أعداؤها تشويه صورتها ، نقول لها : لا عليك ، فقد قالوا مثل هذا فى عائشة .

وتقوم آيات الإفك دليلاً على صدق رسول الله ﷺ - فى البلاغ

---

(١) تكررت ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [النور] أربع مرات فى هذه السورة . قال أبو يحى زكريا الأنصارى فى (فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن) ص ٢٨٥ : « كرره لاختلاف الأجوبة فيه . إذ جواب الأول محذوف تقديره : لفضحكم . وجواب الثانى قوله ﴿ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [النور]. وجواب الثالث محذوف تقديره : لعجَّل لكم العذاب . وجواب الرابع ﴿ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴿٢١﴾ ﴾ [النور]

عن ربه ، فذكر أنهم يرمون المحصنات ، ويرمون زوجاتهم ، والأفظع من ذلك أنْ يرموا زوجة النبى وأم المؤمنين ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ[1] مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي[2] تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) ﴾

الإفك : لدينا نسَب ثلاث للأحداث : نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية حين تتكلم ، ونسبة خارجية . فحين أقول : محمد مجتهد . هذه قضية ذهنية ، فإنْ نطقتَ بها فهى نسبة كلامية ، فهل هناك شخص اسمه محمد ومجتهد ، هذه نسبة خارجية ، فإنْ وافقت النسبةُ الكلامية النسبةَ الخارجية ، فالكلام صدْق ، وإنْ خالفت فالكلام كذب .

فالصدق أنْ تطابق النسبةُ الكلاميةُ الواقعَ ، والكذب ألاَّ تطابق النسبةُ الكلاميةُ الواقعَ ، والكذب قد يكون غير مُتعمد ، وقد يكون مُتعمداً ، فإنْ كان مُتعمداً فهو الإفك ، وإن كان غير متعمد كأنْ أخبره شخص أن محمداً مجتهد وهو غير ذلك ، فالخبر كاذب ، لكن المخبر ليس كاذباً .

فالإفك - إذن - تعمُّد الكذب ، ويعطى ضد الحكم ، كأن تقول : محمد مجتهد . وأنت تعلم أنه مهمل ؛ لذلك كان الإفكُ أفظعَ أنواع الكذب ؛ لأنه يقلب الحقائق ويختلق واقعاً مضاداً لما لم يحدث .

---

(١) العصبة : الجماعة المترابطة [القاموس القويم ٢/٢٢] قال فى [لسان العرب - مادة : عصب] « العصبة : جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٧٢) : « الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله ابن أبى بن سلول قبحه الله ولعنه وهو الذى تقدم النص عليه فى الحديث وقال ذلك جماعة وغير واحد . وقيل : المراد به حسان بن ثابت وهو قول غريب » .

يقول تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النجم] وهى القُرَى التى جعل الله عاليها سافلها ، وكذلك الإفك يُغيِّر الواقع ، ويقلبه رأساً على عَقِب .

والعصبة : الجماعة التى ترتبط حركتها لتحقيق غاية متحدة ، ومن ذلك نقول : عصابة مخدرات ، عصابة سرقات ، يعنى : جماعة اتفقوا على تنفيذ حَدَث لغاية واحدة ، ومنه قوله تعالى فى سورة يوسف : ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [يوسف]

وما دام أهلُ الإفْك عصبةٌ فلا بُدَّ أن لهم غاية واحدة فى التشويه والتبشيع ، وكان رئيسهم عبد الله بن أُبىّ بن سلول ، وهو شيخ المنافقين ، ومعذور فى أن يكون كذلك ، ففى اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة كانوا يصنعون لعبد الله بن أُبىٍّ تاجاً ليُنصِّبوه ملكاً على المدينة[1] ، فلما فُوجِىء برسول الله واجتماع الناس عليه وانفضاضهم من حوله بقيت هذه فى نفسه .

لذلك فهو القائل : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ .. ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون] يقصد أنه الأعزُّ ، فردَّ عليه الحق ـ تبارك وتعالى ـ صدقت ، لكن العزة ستكون لله وللرسول وللمؤمنين ، وعليه فالخارج منها أنت .

وهو أيضاً القائل : ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون] والعجيب أنه يعترف أن محمداً رسول الله ،

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٥٨٤/٢) « أن قومه كانوا قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملّكوه عليهم ، فجاءهم الله تعالى برسوله ﷺ وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ، ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصراً على نفاق وضغن » .

ويقولها علانية ، ومع ذلك ينكرها بأعماله وتصرفاته ، ويحدث تشويشاً في الفكر وفى أداء العبارة .

وما دام أن الحق سبحانه سمَّى هذه الحادثة فى حَقِّ أم المؤمنين عائشة إفكاً فلا بُدَّ أنهم قَلَبوا الحقائق وقالوا ما يناقض الواقع .

والقصة حدثت فى غزوة بني المصطلق ، وكان ﷺ إذا أراد غزوة أجرى قرعة بين زوجاته : مَنْ تخرج منهن معه . وهذا ما تقتضيه عدالته ﷺ ، وفى هذه الغزوة أقرع بينهن فخرج السهم لعائشة فخرجتْ معه ، وبعد الغزوة وأثناء الاستعداد للعودة قالت السيدة عائشة : ذهبتُ لأقضى حاجتى فى الخلاء ، ثم رجعت إلى هَوْدَجِى ألتمس عِقْداً لى من (جَزْع ظَفَار)[1] وهو نوع نفيس .

فلما عادت السيدة عائشة وجدت القوم قد ذهبوا ، ولم تجد هَوْدجها فقالت فى نفسها لا بُدَّ أنهم سيفتقدوننى وسيعودون . لكن كيف حمل القوم هودج عائشة ولم تكُنْ فيه ؟ قالوا : لأن النساء كُنَّ خِفَافاً لم يثقلن ، وكانت عائشة نحيفة ، لذلك حمل الرجال هَوْدجها دون أن يشعروا أنها ليست بداخله . ثم نامت السيدة عائشة فى موضع هودجها تنتظر مَنْ يأتيها ، وكان من عادة القوم أن يتأخر أحدهم بعد الرحيل ليتفقد المكان ويُعقب عليه ، علَّه يجد شيئاً نسيه القوم أو شخصاً تخلَّف عن الرَّكْب .

---

(١) الجَزْع والجزْع : نوع من الخرز اليمانىّ ، وهو الذى فيه بياض وسواد تُشبَّه به الأعين ، وظَفَار : قريَة من قرى حِمير منسوبة إلى ظفار أسد مدينة باليمن [لسان العرب ـ مادتا : جزع ، ظفر] .

وكان هذا المعقِّب هو صفوان بن المعطل[1] ، فلما رأى شبحَ إنسان نائم فاقترب منه ، فإذا هى عائشة رضى الله عنها ، فأناخ ناقته بجوارها ، وأدار وجهه حتى ركبتْ وسار بها دون أن ينظر إليها وعَفَّ نفسه ، بدليل أن القرآن سمَّى ما قالوه إفْكاً يعنى : مناقضاً للواقع ، فصفوان لم يفعل إلا نقيض ما قالوا .

ولما قَدم صفوان يقود ناقته بعائشة رآه بعض أهل النفاق فاتهموهما ، وقالوا فى حقهما مَا لا يليق بأم المؤمنين ، وقد تولَّى هذه الحملة رأسُ النفاق فى المدينة عبد الله بن أُبىٍّ ومسْطح بن أُثَاثة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش امرأة طلحة بن عبيد الله وأخت زينب بنت جحش ، فروَّجوا هذا الاتهام وأذاعوه بين الناس .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .. (١١) ﴾ [النور] لكن ما الخير فى هذا الكلام وفى إذاعته ؟ قالوا : لأن القرآن حين تُتَّهم عائشة وتنزل براءتها من فوق سبع سموات فى قرآن يُتْلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة ، وحين يُفضَح قوم على لسان القرآن ، لا بُدَّ أن يعتبر الآخرون ، ويخافوا إنْ فعلوا مخالفة أنْ يفتضح أمرهم ؛ لذلك جاء هذا الموقف درساً عملياً لمجتمع الإيمان .

نعم ، أصبحت هذه الحادثة خيراً ؛ لأنها نوع من التأييد لرسول الله ولدعوته ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يُؤيِّد رسوله فى الأشياء المسرَّة ليقطع أمل أعدائه فى الانتصار عليه ، ولو بالتدليس ، وبالمكر ولو بالإسرار والكَيْد الخفى ، ففى ذروة عداء قريش لرسول الله كان

(١) هو : صفوان بن المعطل بن رحضة السلمى الذكوانى ، أبو عمرو : صحابى شهد الخندق والمشاهد كلها ، وحضر فتح دمشق ، واستشهد بارمينية . وقيل : فى سميساط . روى عن النبى ﷺ حديثين . توفى عام ١٩ هـ (الأعلام للزركلى ٣/٢٠٦) . وقال الحاكم فى مستدركه (٣/٥١٨) « مات بشمشاط سنة ستين وقبره هناك » .

إيمان الناس به يزداد يوماً بعد يوم .

وقد ائتمروا عليه وكادوا له ليلاً ليلة الهجرة ، فلم يفلحوا ، فحاولوا أن يسحروه ، وفعلاً صنعوا له سحراً ، ووضعوه في بئر ذروان في مُشْط ومشاطة ، فأخبره بذلك جبريل عليه السلام ، فبعث رسول الله ﷺ علياً فجاء به[1] .

إذن : عجزوا في المواجهة ، وعجزوا في التبييت والكيد ، وعجزوا حتى في استخدام الجن والاستعانة به ، وهنا أيضاً عجزوا في تشويه صورة النبوة والنَّيْل من سمعتها ، وكأن الحق سبحانه يقول لأعدائه : اقطعوا الأمل فلن تنالوا من محمد أبداً ، ومن هنا كانت حادثة الإفك خيراً لجماعة المؤمنين .

ومع ذلك ، لم يجرؤ أحد أن يخبر السيدة عائشة بما يقوله المنافقون في حقها ، لكن تغيَّر لها رسول الله ﷺ ، فلم يَعُدْ يداعبها كعادته ، وكان يدخل عليها فيقول : « كيف تيكم » وقد لاحظت عائشة هذا التغيُّر لكن لا تعرف له سبباً إلى أنْ تصادف أنْ سارت هي وأم مسْطح أحد هؤلاء المنافقين ، فعثرتْ فقالت : تعس مِسْطح فنهرتها عائشة : كيف تدعو على ابنها ، فقالت : إنك لا تدرين ما يقول ؟ عندما ذهبتْ السيدة عائشة إلى أمها وسألتها عَمَّا يقوله الناس فأخبرتها .

---

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢٦٨) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢١٨٩) كتاب السلام أن رسول الله ﷺ قال : « جاءني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجليَّ فقال الذي عند رأسي للذي عند رجليَّ ، أو الذي عند رجليَّ للذي عند رأسي : ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : من طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم . قال : في أي شيء ؟ قال : في مشط ومشاطة . قال : وجُفِّ طلعة ذكر . قال . فأين هو ؟ قال : في بئر ذي ذروان » .

لذلك لما نزلت براءة عائشة في القرآن قال لها أبو بكر : قومى فاشكرى رسول الله ، فقالت : بل أشكر الله الذى برّأنى[1] .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ .. ⑪ ﴾ [النور]

عادةً ما يستخدم الفعل (كَسَبَ) المجرد في الخير ، والفعل اكتسب المزيد الدال على الافتعال في الشر ، لماذا ؟ قالوا : لأن فعْل الخير يتمشى وطبيعة النفس ، وينسجم مع ذراتها وتكوينها ، فالذى يُقدم على عمل الخير لا يقاوم شيئاً في نفسه ، ولا يعارض ملكَة من ملكَاته ، أو عادة من العادات .

وهذه نلاحظها حتى في الحيوانات ، ألاَ ترى القطة : إنْ وضعتَ لها قطعة لحم تجلس بجوارك وتأكلها ، وإنْ أخذتْها منك خَطْفاً تفرّ بها هاربة وتأكلها بعيداً عنك . إذن : في ذاتية الإنسان وفي تكوينه - وحتى في الحيوان - ما يُعرف به الخير والشر ، والصواب والخطأ .

وأنت إذا نظرتَ إلى ابنتك أو زوجتك تكون طبيعياً مطمئناً ؛ لأن ملكَات نفسك معك موافقة لك لا تعارضك في هذا الفعل ، فإنْ حاولتَ النظر إلى ما لا يحلّ لك تختلس النظرة وتسرقها ، وتحاول سترها حتى لا يلحظها أحد ، وقد ترتبك ويتغير لونك ، لماذا ؟ لأنك تفعل شيئاً غير طبيعي ، لا حَقَّ لك فيه ، فتعارضك ملكَاتُ نفسك ، وذراتُ تكوينك . فالأمر الطبيعي تستجيب له النفس تلقائياً ، أمّا الخطأ والشر فيحتاج إلى افتعال ، لذلك عبَّر عن المكر والتبييت والكيد بـ (اكتسب) الدال على الافتعال .

---

(١) قصة حادثة الإفك وردت بطولها في صحيح البخارى (حديث ٤٧٥٠) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٧٧٠) ، وأحمد في مسنده (٦ / ٥٩ ، ٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

وقوله تبارك تعالى : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑪ ﴾ [النور]

تولّى كبر الشيء : يعنى قام به وله حَظٌّ وافر فيه ، أو نقول : هو ضالع فيه ، والمقصود هنا عبد الله بن أُبيّ الذى قاد هذه الحملة ، وتولّى القيام بها وترويجها ﴿ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑪ ﴾ [النور] أى : يناسب هذه الجريمة .

﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ⑫ ﴾

يُوجِّهنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ إلى ما ينبغى أن يكون فى مثل هذه الفتنة من ثقة المؤمنين بأنفسهم وبإيمانهم ، وأنْ يظنوا بأنفسهم خيراً وينأوا بأنفسهم عن مثل هذه الاتهامات التى لا تليق بمجتمع المؤمنين ، فكان على أول أذن تسمع هذا الكلام على أول لسان ينطق به أن يرفضه ؛ لأن الله تعالى ما كان ليُدلس على رسوله وصَفْوته من خَلْقه ، فيجعل زوجته محلَّ شكٍّ واتهام فضلاً عن رَمْيها بهذه الجريمة البشعة .

﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ⑫ ﴾ [النور] كان من المنتظر قبل أن تنزل المناعة فى القرآن أن تأتى من نفوس المؤمنين أنفسهم ، فيردون هذا الكلام .

و (لولا) أداة للحضّ والحثّ ، وقال : ﴿ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ .. ⑫ ﴾ [النور] لأنه جال فى هذه الفتنة رجال ونساء ، والقرآن لا يحثهم على ظنِّ الخير برسول الله أو بزوجته ، وإنما ظن الخير بأنفسهم

هم ؛ لأن هذه المسألة لا تليق بالمؤمنين ، فما بالك بزوجة نبى الله ورسوله ﷺ ؟

﴿ وَقَالُوا .. (١٢) ﴾ [النور] أى : قبل أن ينزل القرآن ببراءتها ﴿ هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) ﴾ [النور] يعنى : كذب متعمد واضح بيِّن لأنه فى حق مَنْ ؟ فى حق أم المؤمنين التى طهَّرها الله واختارها زوجة لرسوله ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) ﴾

وسبق أنْ ذكرت الآيات حُكْم القذف ، وأن على مَنْ يرمى المحصنة بهذه التهمة عليه أن يأتى بأربعة شهداء ليثبت صدْق ما قال ، فإنْ لم يأتِ بهم فهو كاذب عند الله ، ويجب أنْ يُقام عَليه حَدُّ القذف .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) ﴾

﴿ أَفَضْتُمْ .. (١٤) ﴾ [النور] أن تندفع إلى الشيء اندفاعاً تقصد فيه السرعة ، ومعنى السرعة أن يأخذ الحدث الكبير زمناً أقلَّ مما يتصوَّر له ، كالمسافة تمشيها فى دقيقتين ، فتسرع لتقطعها فى دقيقة واحدة ، فكأنهم أسرعوا فى هذا الكلام لما سمعوه ، كما يقولون : خبَّ فيها ووضع .

لكن ، لماذا تفضَّل الله عليهم ورحمهم ، فلم يمسَّهم العذاب ، ولم يُجازهم على افترائهم على أم المؤمنين ؟

قالوا : لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ أراد من هذه المسألة العبرة والعظة ، وجعلها للمؤمنين وسيلةَ إيضاح ، فليس المراد أن يُنزل الله بهم العذاب ، إنما أن يُعلمهم ويعطيهم درساً في حِفْظ أعراض المؤمنين .

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

انظر إلى بلاغة الأداء القرآني في التعبير عن السرعة في إفشاء هذا الكلام وإذاعته دون وَعْي ودون تفكير ، فمعلوم أن تلقِّي الأخبار يكون بالأذن لا بالألسنة ، لكن من سرعة تناقل هذا الكلام فكأنهم يتلقونه بألسنتهم ، كأن مرحلة السماع بالأذن قد ألغيت ، فبمجرد أن سمعوا قالوا .

﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [النور]

﴿ بِأَفْوَاهِكُم .. ﴿١٥﴾ ﴾ [النور] يعني : مجرد كلام تتناقله الأفواه ، دون أنْ يُدقِّقوا فيه ؛ لذلك قال بعدها ﴿ مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [النور] وهذا الكلام ليس هيناً كما تظنون ، إنما هو عظيم عند الله ؛ لأنه تناول عِرْض مؤمن ، وللمؤمن حُرْمته ، فما بالك إنْ كان ذلك في حَقِّ رسول الله ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾

هذا ما كان يجب أن تقابلوا به هذا الخبر ، أنْ تقولوا لا يجوز لنا ولا يليق بنا أن نتناقل مثل هذا الكلام . وكلمة ﴿ سُبْحَانَكَ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [النور] تقال عند التعجُّب من حدوث شيء . والمعنى : سبحان الله نُنزِّهه ونُجله ونُعليه أن يسمح بمثل هذا الكذب الشنيع في حقِّ رسوله ﷺ ، فهذا كلام لا يصح أن نتكلم به ولو حتى بالنفي ، فإنْ كان الكلام بالإثبات جريمةً فالكلام بالنفي فيه مَظنة أن هذا قد يحدث.

كما لو قلت : الوَرِع فلان ، أو الشيخ فلان لا يشرب الخمر ، فكأنه رغم النفي جعلته مظنة ذلك ، فلا يصح أن ينسب إليه السوء ولو بالنفي ، فذلك ذَمٌّ في حقِّه لا مدح .

كذلك التحدث بهذه التهمة لا يليق بأم المؤمنين ، ولو حتى بالنفي ، ومعنى ﴿ بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [النور] كذب يبهت سامعه ، ويُدهشه لفظاعته ، وشناعته . فنحن نأنف أن نقول هذا الكلام ، ولو كنا مُنكرين له .

﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

الوعظ : أن تأتي لقمة الأشياء فتعظ بها ، كالرجل حينما يشعر بنهايته يحاول أنْ يعظَ أولاده ويُوصيهم ، لكن لا يُوصيهم بكُلِّ أمور الحياة ، إنما بالأمور الهامة التي تمثل القمة في أمور الحياة . ووعظ

الحق ـ تبارك وتعالى ـ لعباده من لُطفه تعالى ورحمته ، يعظكم ؛ لأنه عزيز عليه أنْ يؤاخذكم بذنوبكم .

وتذييل الآية بهذا الشرط : ﴿ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النور] حثٌّ وإهاجة لجماعة المؤمنين ، لينتهوا عن مثل هذا الكلام ، وألاَّ يقعوا فيه مرة أخرى ، وكأنه تعالى يقول لهم : إنْ عُدْتُم لمثل هذا فراجعوا إيمانكم ؛ لأن إيمانكم ساعتها سيكون إيماناً ناقصاً مشكوكاً فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ[1] فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

﴿ يُحِبُّونَ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [النور] الحب عمل قلبى ، والكلام عمل لسانى ، وترجمة عملية لما فى القلب ، فالمعنى : الذين يحبون هذا ولو لم يتكلَّموا به ؛ لأن لهذه المسألة مراحل تبدأ بالحب وهو عمل القلب ، ثم التحدث ، ثم السماع دون إنكار .

ولفظاعة هذه الجريمة ذكر الحق سبحانه المرحلة الأولى منها ، وهى مجرد عمل القلب الذى لم يتحول إلى نزوع وعمل وكلام إذن : المسألة خطيرة .

والبعض يظن أن إشاعة الفاحشة فضيحة للمتهم وحده ، نعم هى للمتهم ، لكن قد تنتهى بحياته ، وقد تنتهى ببراءته ، لكن المصيبة

(١) الفاحشة : الفعلة القبيحة . والفواحش : الأمور القبيحة المنكرة [القاموس القويم ٧٣/٢] .

أنها ستكون أُسْوة سيئة فى المجتمع .

وهذا توجيه من الحق - سبحانه وتعالى - إلى قضية عامة وقاعدة يجب أن تُرَاعى ، وهى : حين تسمع خبراً يخدش الحياءَ أو يتناول الأعراض أو يخدش حكماً من أحكام الله ، فإياك أنْ تشيعه فى الناس ؛ لأن الإشاعة إيجاد أُسْوة سلوكية عند السامع لمن يريد أن يفعل ، فيقول فى نفسه : فلان فعل كذا ، وفلان فعل كذا ، ويتجرأ هو أيضاً على مثل هذا الفعل ، لذلك توعد الله تعالى مَنْ يشيع الفاحشة وينشرها ويذيعها بين الناس ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .. (١٩) ﴾ [النور]

والحق - تبارك وتعالى - لم يعصم أحداً من المعصية وعمل السيئة ، لكن الأسْوء من السيئة إشاعتها بين الناس ، وقد تكون الإشاعة فى حق رجل محترم مُهَاب فى مجتمعه مسموع الكلمة وله مكانة ، فإنْ سمعت فى حقِّه مَا لاَ يليق فلربما زهّدك ما سمعتَ فى هذا الشخص ، وزهَّدك فى حسناته وإيجابياته فكأنك حرمتَ المجتمع من حسنات هذا الرجل .

وهذه المسألة هى التعليل الذى يستر الله به غَيْب الخَلْق عن الخَلْق ، إذن : ستْر غيب الناس عن الناس نعمة كبيرة تُثْرى الخير فى المجتمع وتُنميه ، ويجعلك تتعامل مع الآخرين ، وتنتفع بهم على علاَّتهم ، وصدق الشاعر الذى قال :

فَخُذْ بِعلْمى ولاَ تركَنْ إلىَ عَملِى   وَاجْنِ الثمارَ وخَلِّ العُودَ للنَّارِ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠) ﴾

انظر كم فضل من الله تعالى تفضّل به على عباده في هذه الحادثة ، ففي كل مرحلة من مراحل هذه القضية يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ .. ⟨٢٠⟩ ﴾ [النور] وهذا دليل على أن ما حدث كان للمؤمنين نعمة وخير ، وإنْ ظنوه غير ذلك .

لكن أين جواب لولا ؟ الجواب يُفهَم من السياق وتقديره : لَفُضِحْتُم ولَهلكتم ، وحصل لكم كذا وكذا ، ولك أنْ تُقدِّره كما تشاء . وما منع عنكم هذا كله إلا فضل الله ورحمته .

وفي موضع آخر يوضح الحق سبحانه منزلة هذا الفضل : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ⟨٥٨⟩ ﴾ [يونس] فالحق - سبحانه وتعالى - شرع منهجاً ويجب مَنْ يعمل به ، لكن فرحة العبد لا تتم بمجرد العمل ، وإنما بفضل الله ورحمته في تقبُّل هذا العمل . إذن : ففضْل الله هو القاسم المشترك في كل تقصير من الخلْق في منهج الخالق عز وجل .

وبعد هذه الحادثة كان لا بُدَّ أنْ يقول تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ[1] مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ⟨٢١⟩ ﴾

---

(١) زكا : طهر وصلح فهو زكي وهي زكية . [القاموس القويم ١/٢٨٧] قال القرطبي في تفسيره (٦/٤٧٤٢) : « أي : ما اهتدى ولا أسلم ولا عرف رشداً » على قراءة (زَكَى) أما على قراءة (زكَّى) : « أي أن تزكيته لكم وتطهيره وهدايته إنما هي بفضله لا بأعمالكم » .

كأن الشيطان له خطوات متعـددة ليست خطوة واحدة ، وقد أثبت الله عداوته لبني آدم ، وهي عداوة مُسبَّبة ليست كلاماً نظرياً ، إنما هو عدو بواقـعة ثابتـة ، حيث امتنع عن السـجود لآدم ، وعـصى أمر الله له ، بل وأبدى ما في نفسه وقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) ﴾ [الأعراف]

وقال : ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) ﴾ [الإسراء] وهكذا علّل امتناعه بأنه خير ، وكان عداوته لآدم عداوة حسد لمركزه ومكانته عند ربه .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما يخبرنا بعداوة الشيطان من خلال امتنـاعه عن السـجود ، إنما يـحذرنا منه ، ويُنبّـهنا إلى خطره ويُربّي فينا المناعة من الشيطان ؛ لأن عداوته لنا عداوة مركزة ، ليست عداوة يمارسها هكذا كيفما اتفق ، إنما هي عداوة لها منهج ولها خطة .

فأول هذه الخطة أنه عـرف كيف يقسم ، فـدخل على الإنسان من باب عزة الله عن خلْقه ، فقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ [ص]

فلو أرادنا ربنا ـ عـز وجل ـ مـؤمنـين ما كـان للـشيـطان علينا سبيل ، إنـما تركنا سبحـانه للاختيار ، فـدخل علينا الشيطان من هذا الباب ؛ لذلك قـال بعدها : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) ﴾ [الحجر] فمَن اتصف بهذه الصفة فليس للشيطان إليه سبيل .

إذن : مـسـألة العــداوة هذه ليـست بين الحق سـبـحــانه وبين الشيطان ، إنما بين الشيطان وبني آدم .

فقـوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (٢١) ﴾ [النور] نداء : يا من آمنتم بإله كأنه يقـول : تَنبَّهوا إلى شـرف إيمانكم به ، وابتعدوا عـما يُضـعف هذا الإيمـان ، أو يفُتُّ فـي عَضُـد الـمؤمـنين بأيِّ وسـيلة ، وتأكّدوا أن الشيطان له خطوات متعددة .

﴿لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ .. (٢١)﴾ [النور] فإنْ وسوس لك من جهة ، فتأبَّيْتَ عليه ووجد عندك صلابةً في هذه الناحية وجَّهك إلى ناحية أخرى ، وزيَّن لك من باب آخر ، وهكذا يظل بك عدوك إلى أنْ يُوقعك ، فهو يعلم أن لكل إنسان نقطة ضَعْف في تكوينه ، فيظل يحاوره إلى أنْ يصل إلى هذه النقطة .

والشيطان : هو المتمرد العاصي من الجن ، فالجن مقابل الإنس ، فمنهم الطائع والعاصي ، والعاصي منهم هو الشيطان ، وعلى قمتهم إبليس ؛ لذلك يقول تعالى في سورة الكهف : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠)﴾ [الكهف]

وسبق أن ذكرنا أنك تستطيع أن تُفرِّق بين المعصية من قبل النفس والمعصية من قبل الشيطان ، فالنفس تُلح عليك في معصية بعينها لا تتعدَّاها إلى غيرها ، أما الشيطان فإنه يريدك عاصياً على أيِّ وجه من الوجوه ، فإن امتنعت عليه في معصية جرَّك إلى معصية أخرى أيّاً كانت .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٢١)﴾ [النور] ولك أنْ تسأل : أين جواب (مَنْ) الشرطية هنا ؟ قالوا : حُذف الجواب لأنه يُفهم من السياق ، ودلَّ عليه بذكر علَّته والمسبِّب له ، وتستطيع أن تُقدِّر الجواب : مَنْ يتبع خطوات الشيطان يُذقْه ربه عذاب السعير ؛ لأن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر ، فمَنْ يتبع خطواته ، فليس له إلا العذاب ، فقام المسبِّب مقام جواب الشرط .

والكلام ليس كلام بشر ، إنما هو كلام ربِّ العالمين . وأسلوب القرآن أسلوب راقٍ يحتاج إلى فكر واعٍ يلتقط المعاني ، وليس مجرد كلام وحَشْو .

ألاَ ترى بلاغة الإيجاز في قوله تعالى من سورة النمل : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [النمل]

ثم يقول تعالى بعدها : ﴿ قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النمل]

وتأمل ما بين هذين الحدثيْن من أحداث حُذفت للعلم بها ، فوعي القارىء ونباهته لا تحتاج أن نقول له فذهب الهدهد .. وو إلخ فهذه أحداث يُرتِّبها العقل تلقائياً .

وقد أوضح الشيطانُ نفسه هذه الخطوات وأعلنها ، وبيِّن طرقه في الإغواء ، ألم يقل : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأعراف] فلا حاجةَ للشيطان بأصحاب الصراط المعوج لأنهم أتباعه ، فالشيطان لا يذهب إلى الخمارة مثلاً ، إنما يذهب إلى المسجد ليُفسد على المصلين صلاتهم ، لذلك البعض ينزعج من الوساوس التي تنتابه في صلاته ، وهي في الحقيقة ظاهرة صحية في الإيمان ، ولولا أنك في طاعة وعبادة ما وسوس لك .

لكن مصيبتنا أن الشيطان يعطينا فقط طرف الخيط ، فنسير نحن خَلْفه (نكُرّ في الخيط كَرّاً) ولو أننا ساعةِ ما وسوس لنا الشيطان استعذْنا بالله من الشيطان الرجيم ، كما أمرنا ربنا تبارك وتعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الأعراف]

إذن : إياك أنْ تقبل منه طرف الخيط ؛ لأنك لو قَبِلْته فلن تقدر عليه بعد ذلك .

ومن خطوات الشيطان أيضاً قوله : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف]

إذن : للشيطان في إغواء الإنسان منهج وخُطّة مرسومة ، فهو يأتي الإنسان من جهاته الأربع : من أمامه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله . لكن لم يذكر شيئاً عن أعلى وأسفل ؛ لأن الأولى تشير إلى علُوّ الربوبية ، والأخرى إلى ذُلّ العبودية ، حين ترفع يديك إلى أعلى بالدعاء ، وحين تضع جبهتك على الأرض في سجودك ؛ لذلك لا يأتيك عدوك من هاتين الناحيتين .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ .. (٢١) ﴾ [النور]

قلنا : إن فضل الجزاء يتناوبه أمران : جزاء بالعدل حين تأخذ ما تستحقه ، وجزاء بالفضل حينما يعطيك ربك فوق ما تستحق ؛ لذلك ينبغي أن نقول في الدعاء : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ؛ وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب . فإنْ عاملنا ربنا ـ عز وجل ـ بالعدل لَضِعْنا جميعاً .

لكن ، في أيِّ شيء ظهر هذا الفضل ؟ ظهر فضل الله على هذه الأمة في أنه تعالى لم يُعذِّبها بالاستئصال ، كما أخذ الأمم السابقة ، وظهر فَضْل الله على هذه الأمة في أنه تعالى أعطاها المناعة قبل أن تتعرَّض للحَدث ، وحذرنا قديماً من الشيطان قبل أن نقع في المعصية ، وقبل أن تفاجئنا الأحداث ، فقال سبحانه : ﴿ فَقُلْنَا يَٰآدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ .. (١١٧) ﴾ [طه] وإلا لغرق الإنسان في دوامة المعاصي .

لأن التنبيه للخطر قبل وقوعه يُربِّي المناعة في النفس ، فلم يتركنا ربنا ـ عز وجل ـ في غفلة إلى أنْ نقعَ في المعصية ، كما نُحصِّن نحن أنفسنا ضد الأمراض لنأخذ المناعة اللازمة لمقاومتها .

وقوله تعالى : ﴿ مَا زَكَىٰ منكُم مّنْ أَحَدٍ أَبدًا .. (٢١) ﴾ [النور] (زكَى) تطهَّر وتنقَّى وصُفِّى ﴿ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) ﴾ [النور] وقال : ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) ﴾ [النور] لأنه تعالى سبق أنْ قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٩) ﴾ [النور] ذلك في ختام حادثة الإفك التي هزَّتْ المجتمع الإسلامي في قمته ، فمسَّتْ رسول الله ﷺ وصاحبه الصِّدِّيق وزوجته أم المؤمنين عائشة وجماعة من الصحابة .

لذلك قال تعالى (وَاللَّهُ سَمِيعٌ) لما قيل (عَلِيمٌ) [النور : ٢١] بما تُكِنُّه القلوب من حُبٍّ لإشاعة الفاحشة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَلَا يَأْتَلِ[2] أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾

تورط في حادثة الإفك جماعة من أفاضل الصحابة ممن طُبِع على الخير ، لكنه فُتِن بما قيل وانساقَ خلف مَنْ روَّجوا لهذه الإشاعة ،

(١) سبب نزول الآية : قال القرطبي في تفسيره (٦/٤٧٤٢) : « المشهور من الروايات أن هذه الآيات نزلت في قصة أبي بكر بن أبي قحافة ومسطح بن أثاثة ، وذلك أنه كان ابن بنت خالته وكان من المهاجرين البدريين المساكين وكان أبو بكر ينفق عليه ، فلما كان أمر الإفك وقال مسطح في عائشة ابنة أبي بكر ما قال حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبداً » .

(٢) يأتل : معناه يحلف . وقالت فرقة : معناه يقصر . [القرطبي ٦/٤٧٤٣] .

وكان مـن هؤلاء مسطح بن أثاثة ابن خـالة أبى بكر الصديـق ، وكان أبو بكر ينفق عليه ويرعاه لفقره ، فلما قال فى عائشة ما قال وخاض فى حـقهـا أقسم أبو بكر ألاّ ينفـق عليه ، وقـد كان يعـيش وأهله فى سَعَة أبى بـكر وفضله ؛ لأن هذه الفتنة جعلتْ بعض أهل الخـير يضِنُّ به .

وهذا نموذج لمن ينكر الجـميل ولا يُقدِّر صنائع المـعروف ، وهذا الفعـل يُزهِّد الناس فى الخيـر ، ويصرفـهم عن عمل المـعروف ، والله تعالى يريد أنْ يُصحِّح لنا هذه الـمسألة ، فهذه نظرة لا تتفق وطبـيعةَ الإيمان ؛ لأن الذى يعصـى الله فيك لا تكافئه إلا بأنْ تطيع الله فيه .

وحين تترك مَنْ أساء إليك لعقاب الله وتعفُو عنه أنت ، فإنما تركتَه للعقاب الأقوى ؛ لأنك إنْ عـاقبته عاقبتـه بقدرتك وطاقتك ، وإنْ تركتَ عقابه لله عاقبه بقدْر طاقته تعالى وقدرته .

إذن : العافى أقسى قَلْباً من المنـتقم ، وسبق أنْ مثّلنا لذلك بالأخ حين يعـتدى على أخيـه الأصغـر ، فيأتى الأب فـيجد صـغيره مـهاناً مظلوماً ، فيـأخذه فى حضنه ، ويحاول إرضـاءه وتعويضه عمَّـا لَحِقه من ظلم أخيه ، كذلك الحال فى هذه المسألة ولله المثل الأعلى .

ومن هنا يجب عليك أن تُسَـرَّ بمَنْ جعل الله فى جـانبك ، وتُحسن إليه ، لا أنْ تَردّ له الإساءة بمثلها .

إذن : نزلت هذه الآية فى مسطح بن أثاثة حـين أقسم أبو بكر ألاَّ ينفق عليـه وعلى أهله ، وأنْ يـمنع عنه عطاءه وبِرّه ، نزلت لتـصـحح للصِّديـق هذه النظرة وتُوجِّه انتـباهه إلى جـانب الخير البـاقى عند الله لا عند الناس .

فقال تعالى : ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ .. (٢٢) ﴾ [النور]

﴿ يَأْتَلِ .. (٢٢) ﴾ [النور] ائتلى مثل اعتلى تماماً ، ومنها تألّى يعنى : حلف وأقسم ، يوجه الحق - تبارك وتعالى - الصّديق أبا بكر ، ويذكر لفظ ﴿ أُولُوا .. (٢٢) ﴾ [النور] الدال على الجماعة لتعظيمه لما له من فضل ومنزلة فى الإسلام ، ففى كل ناحية له فضل ؛ لذلك أعطاه وصفين مثل ما أعطى للنبى ﷺ ، فقال للصّديق : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا.. (٢٢) ﴾ [النور] وقال للنبى ﷺ : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ..(١٣) ﴾ [المائدة]

كذلك ، ألاَ ترى الصّدِّيق ثانىَ اثنينِ فى الغار ، وثانى اثنين فى أمور كثيرة ، فهو ثانى اثنين فى الهجرة ، وثانى اثنين فى قبول دعوة الإسلام الأولى ؛ لذلك صدق سيدنا رسول الله ﷺ حين قال عن الصّديق : « كنت أنا وأبو بكر فى الجاهلية كفرسى رهان » . يعنى : فى التسابق فى الخير « فسبقته إلى النبوة فاتبعنى ، ولو سبقنى إليها لاتبعته »[1] .

ولما كان لأبى بكر أفضال كثيرة فى زوايا متعددة لم يخاطبه بصيغة المفرد ، إنما بصيغة الجمع تكريماً وتعظيماً .

ألاَ ترى الصّديق مع ما عُرِف عنه من الحلم ورقة القلب لما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وحدثتْ مسألة الردّة يقف ويقول : « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدُّونها لرسول الله لجالدتهم

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله ﷺ : « إن أمنَّ الناس علىَّ فى صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربى لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقين فى المسجد باب إلا سُدَّ ، إلا باب أبى بكر » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦٥٤) .

بالسيف ، لو لم أجد إلا الذر »[1] .

هذا موقف الصِّديق رقيق القلب ، ليِّن الجانب ، صاحب الرحمة والحنان ، الذى تقول عنه ابنته « إنه رجل بكّاء[2] » يعنى : كثير البكاء . فى حين يعارضه فى أمر الحرب عمر مع ما عُرِف عنه من الشدة والقسوة على الكفار . لكن هذا التناقض فى موقف كل منهما يقوم دليلاً على أن الإسلام ليس طَبْعاً غالباً على المسلم إنما موقف يعود المسلم إليه ، فموقف الردة هو الذى جعل من الصِّدِّيق أسداً شجاعاً قاسىَ القلب ، ولو أن عمر فى مكانه من المسئولية وفعل كما فعل الصِّدِّيق لقالوا : شِدّة ألفها الناس من عمر .

فكأن الإسلام لا يريد أن يطبع المسلم على طبْع خاص يظل عليه ، إنما الموقف هو الذى يطبعك إيمانياً ، وهذا ما ذكرناه فى قوله تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الفتح]

فالمسلم ليس مفطوراً لا على الشدة وحدها ، ولا على الرحمة وحدها ، إنما عليه أنْ يتصرَّف فى كل موقف بما يناسبه على ضوء ما شرع الله .

فقوله تعالى : ﴿أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ .. (٢٢)﴾ [النور] يقول للصِّديق : أنت رجل فاضل صدِّيق ، وعندك سعة فلا تعطى ولا تُؤثر

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٢٨٤ ، ٧٢٨٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٠) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة بلفظ : « والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه » .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٦) كتاب الصلاة عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن » .

على نفسك من ضيق ، ولا يليق بالفاضل أن يقطع صلته ورحمه لمثل هذا الخطأ الذى وقع فيه مسْطح ، خاصة أنه أخذ جزاءه كما شرع الله ، وعُوقِبَ بحدِّ القذف ثمانين جلْدة ، وليس لك أن تعاقبه بعد ذلك .

ومن سماحة الإسلام أن مَنْ وقع فى حَدٍّ وعُوقب به لا يجوز لأحد أنْ يُعيِّره بذنبه ؛ لأنه تاب وأناب وطهّره الله منه بالحدِّ ، وانتهت المسألة ، وليس لأحد أن يدخل بين العبد وربه .

فكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول : ارجع إلى فضلك يا أبا بكر ، وعُدْ أنت إلى سعتك ، وكُنْ موصولَ المروءة ، ولا تقطع رحمك ، يريد - سبحانه وتعالى - أنْ يُصفِّى ما فى النفوس من آثار هذه الفتنة التى زلزلتْ المجتمع المؤمن فى المدينة .

ولا يليق بذى الفضل والسَّعَة أنْ يعامل الناس بالعدل ، فصحيح أن مسْطح كان يستحق هذه القطيعة وهذا الحرمان ، إنما هذا الجزاء لا يليق بالصِّدِّيق صاحب الفضل والسَّعَة .

ولو أجريتَ إحصاءً للمؤمنين بإله وللكافرين فى الكون ، ستعلم أن المؤمنين قلَّة والكافرين كثرة ، فهل قال الله تعالى لجنود خيره فى الكون : أعطوا مَنْ آمن ، واتركوا مَنْ كفر ؟ وكأن الحق - تبارك وتعالى - يعطينا مَثَلاً فى ذاته عز وجل ، فكما أنه يعطى مَنْ كفر به ويرزقه ، بل ربما كان أحسن حالاً ممَّنْ آمن ، فأنت كذلك لا تمنع عطاءك عمَّنْ أساء إليك .

لذلك يقول سبحانه فى آية أخرى :

﴿ وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) ﴾ [البقرة]

فإنْ كنت باراً بأحد وبدر منه شيء فلا تحلف بالله أنك لا تبرُّه ، فقد تهدأ ثورتك عليه ، وتريد أنْ تبرَّه ، وتتحجج بحلفك ، إذن : لا تجعلوا الله عُرْضة لحلف يمنعكم من المعروف .

ثم يقول سبحانه : ﴿أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. (٢٢)﴾ [النور] صحيح أن مسْطح من ذوى قُرْبى أبى بكر ومن المساكين ، لكن يعطيه الله نيشاناً آخر ، فلم يخرجه مَا قال من وصف المهاجر ، ولم يخرجه ذنبه من هذا الشرف العظيم .

فمن فضل الله تعالى على عباده أن السيئة لا تُحبط الحسنة ، إنما الحسنة بعد السيئة تحبطها ، كما قال عز وجل : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. (١١٤)﴾ [هود]

فرغم ما وقع فيه مسْطح ، فقد أبقاه الله فى العَتْب على أبى بكر ، وتحنين قلبه ، وأبقاه فى المهاجرين .

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا .. (٢٢)﴾ [النور] العفو : ترك العقوبة على الذنب ، لكن قد تعفو عن المذنب ثم تُؤنبه ، وتمنّ عليه بعفوك ، وتُذكِّره دائماً أنه لا يستحق منك هذا العفو ؛ لذلك يحثنا ربنا - تبارك وتعالى - على الصفح بعد العفو ، والصفح : تَرْك المنِّ وعدم ذكر الزلة لصاحبها حتى تصبح العقوبة عنده أهونَ من عفوك عنه .

ذلك لأن الحق سبحانه حينما يُشرِّع للبشر ما يُنظِّم العلاقات بينهم يراعى جميع مَلكات النفس ، لا يقتصر على الملكات العالية فحسب ، إنما لكل الملكات التى تنتظم الخَلْق جميعاً ، وليأخذ كل منَّا على قَدْر إيمانه وامتثاله لأمر ربه

وفى ذلك يقول سبحانه : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦)﴾ [النحل]

ولو تأملنا حقيقة المثلية فى رَدِّ الإساءة لوجدناها صعبة فى تقديرها ، فإنْ ضربك شخصٌ ضربة ، أعندك القدرة التى تردُّ بها هذه الضربة بمثلها تماماً بنفس الطريقة ، وبنفس القوة ، وبنفس الألم ، بحيث لا تكون أنت مُعْتدياً ؟ إنك لو تأملتَ هذه المثلية لفضَّلْتَ العفو بدل الدخول فى متاهات أخرى .

وسبق أن ذكرنا قصة المرابى الذى اشترط على المدين إنْ تأخر فى السداد أن يقطع رطلاً من لحمه ، ولما تأخر الرجل فى السداد خاصمه عند القاضى ، وأخبره بما كان بينهما من شرط ، وكان القاضى ذكياً فقال للمرابى : خُذ السكين واقطع رطلاً من لحمه ، لكن إنْ زاد أخذناه منك ، وإنْ نقص أخذناه منك ، فتراجع المرابى لأنه لا يستطيع تقدير هذه المسألة .

فإن انصرفنا عن المعاقبة بالمثل وَسِعَنا العفو ، وانتهت المسألة على خير ما يكون .

وفى مرتبة أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

فالحق - تبارك وتعالى - يجعل لنا مراتب فى رَدِّ السيئة ، فالعقاب بالمثل مرتبة ، وكَظْم الغيظ مرتبة ، والعفو مرتبة ، والصفح مرتبة ، وأعلى ذلك كله مرتبة الإحسان إلى مَنْ أساء إليك ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

ثم يجعل الحق سبحانه من نفسه أُسْوة لعباده فيقول : ﴿ أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢) ﴾ [النور] فكما تحب أن يغفر الله لك ذنبك ، فلماذا لا تغفر أنت لمَنْ أساء إليك ؟ وكأن ربنا - عز وجل - يريد أن يُصلح ما بيننا ؛ لذلك لما نزلتْ هذه الآية فى شأن أبى بكر

قال : أحب يا رب ، أحب يا رب ، أحب يا رب[1] .

ومعنى ﴿أَلَا .. (٢٢)﴾ [النور] أداة للحضّ وللحثّ على هذا الخُلُق الطيب ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾ [النور] فمن تخلَّق بأخلاق الله تعالى فليكُنْ له غفران ، وليكن لديه رحمة ، ومَنْ منَّا لا يريد أن يتصف ببعض صفات الله ، فيتصف بأنه غفور ورحيم ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ[2] الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾

نلحظ أن الآيات تحدثتْ عن حَدِّ القذف وما كان من حادثة الإفك ، ثم ذكرت آية العتاب لأبى بكر فى مسألة الرزق ، ثم عاد السياق إلى القضية الأساسية : قضية القذف ، فلماذا دخلتْ مسألة الرزق فى هذا الموضوع ؟

قالوا : لأن كل معركة فيها خصومة قد يكون لها آثار تتعلق بالرزق ، والرزق تكفَّل الله به لعباده ؛ لأنه سبحانه هو الذى استدعاهم إلى الوجود ، سواء المؤمن أو الكافر ، وحين تعطى المحتاج فإنما أنت مناول عن الله ، ويد الله الممدودة بأسباب الله .

والحق تبارك وتعالى يحترم ملكية الإنسان مع أنه سبحانه رازقه

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٧٦) أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال : بلى والله إنَّا نحب أن تغفر لنا يا ربنا . ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال : لا أنزعها منه أبداً ، فى مقابلة ما كان قال ، والله لا أنفعه بنافعة أبداً .

(٢) المحصنة : التى أحصنها زوجها . والمحصنات : العفائف من النساء . [لسان العرب - مادة : حصن] .

ومعطيه ، لكن طالما أعطاه صار العطاء ملْكًا لـه ، فإنْ حثَّه على النفقة بعد ذلك يأخذها منه قَرْضاً ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥)﴾ [البقرة]

فإنْ أنفق الموسر على المعسر جعله الله قَرْضاً ، وتولّى سداده بنفسه ؛ ذلك لأن الله تعالى لا يرجع فى هِبَته ، فطالما أعطاك الرزق ، فلا يأخذه منك إلا قَرْضاً .

لذلك يقول تعالى : ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ .. (٣٨)﴾ [محمد]

وفي موضع آخر يقول عن الأموال : ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ[1] تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧)﴾ [محمد] لأن الإنسان تعب فى جمع المال وعَرق فى سبيله ، وأصبح عزيزاً عليه ؛ لذلك يبخل به ، فأخذه الله منه قَرْضاً مردوداً بزيادة ، وكان الرزق والمال بهذه الأهمية لأنه أول مَنَاط لعمارة الخليفة فى الأرض ؛ لذلك ترك الحديث عن القضية الأساسية هنا ، وذكر هذه الآية التى تتعلّق بالرزق .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ .. (٢٣٨)﴾ [البقرة] وقد ذُكرَتْ وسط مسائل تتعلق بالعِدَّة والكفارة ، وعِدَّة المتوفَّى عنها زوجها ، فما علاقة الصلاة بهذه المسائل ؟

قالوا : لأن النزاعات التى تحدث غالباً ما تُغيِّر النفس البشرية وتثير حفيظتها ، فإذا ما قمتَ للوضوء والصلاة تهدأ نفسك وتطمئن .

(١) أحفاه : ألح عليه فى السؤال أو طالبه بقوة وإلحاح . قال تعالى : ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا .. (٣٧)﴾ [محمد] أى : إن يجهدكم بطلبها ويلح عليكم تبخلوا . [القاموس القويم ١/١٦٣] .

وتستقبل مسائل الخلاف هذه بشيء من القبول والرضا .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ .. (٢٣) ﴾ [النور] المحصنة : لها إطلاقات ثلاث ، فهى المتزوجة لأن الإحصان : الحفْظ وكأنها حفظتْ نفسها بالزواج ، أو هى العفيفة ، وإنْ لم تتزوج فَهى مُحْصَنَة فى ذاتها ، والمحصنة هى أيضاً الحرة ؛ لأن عملية البِغَاء والزنا كانت خاصة بالإماء .

و ﴿ الْغَافِلاتِ .. (٢٣) ﴾ [النور] : جمع غافلة ، وهى التى لا تدرى بمثل هذه المسائل ، وليس فى بالها شىء عن هذه العملية ، ومن ذلك ما ورد فى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ سأل بريرة خادمة السيدة عائشة : « ما تقولين فى عائشة يا بريرة ؟ » فقالت : تعجن العجين ثم تنام بجانبه فتأتى الدواجن فتأكله وهى لا تدرى[1] . وهذا كناية عن الغفلة لأنها ما زالت صغيرة لم تنضج نُضْج المراهقة ومع نُضْج المراهقة نُضْج اليقين والإيمان .

وتلحظ هذه الغفلة فى البنت الصغيرة حين تقول لها : أتتزوجين فلاناً ؟ تقول : لا أنا أتزوج فلاناً ، ذلك لأنها لا تدرى معنى العلاقة الزوجية ، إنما حينما تكبر وتفهم مثل هذه الأمور فإنْ ذكرتَ لها الزواج تستحى وتخزى أن تتحدث فيه ؛ لأنها عرفتْ ما معنى الزواج .

لذلك لما أمرنا الشرع باستئذان البنت للزواج جعل إذنها سكوتها ، فإن سكتتْ فهذا إذْن منها ، ودليل على فهمها لهذه العلاقة ، إنما إنْ

---

(١) قطعة من حديث طويل عن حادثة الإفك أخرجه البخارى فى صحيحه (٥/٢٦٩ - ٢٧٢ - بشرح فتح البارى) عن عائشة رضى الله عنها وفيه « أن على بن أبى طالب قال : يا رسول الله ، لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تصدقك . فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : يا بريرة هل رأيت فيها شيئاً يريبك ؟ فقال بريرة : لا والذى بعثك بالحق ، إن رأيت منها أمراً اغمصه عليها قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن العجين فتأتى الداجن فتأكله » .

قالت : نعم أتزوجه لأنه جميل و .. و .. ، فهذا يعنى أنها لم تفهم بعد معنى الزواج .

إذن : الغافلة حتى عن مسائل الزواج والعلاقات الزوجية ، ولا تدرى شيئاً عن مثل هذه الأمور كيف تفكر فى الزنا ؟

ثم يذكر ربنا ـ تبارك وتعالى ـ جزاء هذه الجريمة : ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾ [النور]

وإن كانت الغافلة هى التى ليس فى بالها مثل هذه الأمور ، ولا تدرى شيئاً حتى عن الزواج والعلاقات الزوجية بين الرجل والمرأة ، فيكيف نقول : إنها تفكر فى هذه الجريمة ؟

واللعْن : هو الطرد والإبعاد من رحمة الله ، وأيضاً الطرد والإبعاد عن حظيرة المؤمنين ؛ لأن القاذف حكمه أنْ يُقام عليه الحدُّ ، ثم تسقط شهادته ، ويسقط اعتباره فى المجتمع الذى يعيش فيه ، فجمع الله عليه الخزى فى الدنيا بالحدِّ وإسقاط الاعتبار ، إلى جانب عذاب الآخرة ، فاللعن فى الدنيا لا يعفيه من عذاب الآخرة .

وقلنا : إن العذاب : إيلام حَيٍّ ، وقد يُوصَف العذاب مرة بأليم ، ومرة بمهين ، ومرة بعظيم[1] ، هذه الأوصاف تدور بين العذاب

---

(١) – ورد وصف العذاب بالأليم فى ٧٢ موضعاً فى القرآن منها : ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾ [البقرة] ، ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)﴾ [الإنسان] .
– وورد وصف العذاب بأنه مهين فى ١٤ موضعاً ، منها : ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠)﴾ [البقرة] ، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧)﴾ [الأحزاب] .
– وورد وصف العذاب بالعظيم فى ٢٢ موضعاً ، منها : ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾ [البقرة] ، ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)﴾ [النساء] .
وبالإضافة لهذا فقد وصف الحق سبحانه العذاب بأوصاف أخرى ، منها :
– عذاب شديد : ٢١ مرة .
– عذاب مقيم : ٥ مرات
– عذاب الخلد : مرتان.
– عذاب الخزى : مرتان
– عذاب غليظ : ٤ مرات.
– عذاب قريب : مرة واحدة
– عذاب غير مردود : مرة واحدة.
– عذاب السعير : ٤ مرات وغيرها .

والمعذّب ، فمن الناس مَنْ لا يؤلمه الجلْد ، لكن يهينه ، فهو فى حقه عذاب مهين لكرامته ، أما العذاب العظيم فهو فوق ما يتصوَّره المتصوِّر ؛ لأن العذاب إيلام من مُعذِّب لمعذَّب ، والمعذَّب فى الدنيا يُعذَّب بأيدى البشر وعلى قَدْر طاقته ، أمّا العذاب فى الآخرة فهو بجبروت الله وقَهْر الله ؛ لذلك يوصَف بأنه عظيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

نعلم جميعاً أن اللسان هو الذى يتكلم ، فماذا أضافت الآية : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور]

قالوا : فى الدنيا يتكلم اللسان وينطق ، لكن المتكلم فى الحقيقة أنت ؛ لأنه ما تحرَّك إلا بمرادك له ، فاللسان آلة خاضعة لإرادتك ، إذن : فهو مجرد آلة ، أمَّا فى الآخرة فسوف ينطق اللسان على غير مراد صاحبه ؛ لأن صاحبه ليس له مراد الآن .

ولتقريب هذه المسألة : ألاَ ترى كيف يخرس الرجل اللبيب المتكلم ، ويُمسك لسانه بعد طلاقته ، بسبب مرض أو نحوه ، فلا يستطيع بعدها الكلام ، وهو ما يزال فى سَعَة الدنيا . فما الذى حدث ؟ مجرد أن تعطلتْ عنده آلة الكلام ، فهكذا الأمر فى الآخرة تتعطل إرادتك وسيطرتك على جوارحك كلها ، فتنطق وتتحرك ، لا بإرادتك ، إنما بإرادة الله وقدرته .

فالمعنى ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور] أى : شهادة ونطقاً على مراد الله ، لا على مراد أصحابها .

ولِمَ نستبعد نُطْق اللسان على هذه الصورة ، وقد قال تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس] وقد جعل فيك أنت أيها الإنسان نموذجاً يؤكد صِدْق هذه القضية . فَقُلْ لي : ماذا تفعل إنْ أردتَ أن تقوم الآن من مكان ؟ مجرد إرادة القيام ترى نفسك قد قُمْتَ دون أن تفكر في شيء ، ودون أن تستجمع قواك وفكرك وعضلاتك ، إنما تقوم تلقائياً دون أن تدرى حتى كيفية هذا القيام ، وأىّ عضلات تحركت لأدائه .

ولك أنْ تقارن هذه الحركة التلقائية السَّلسة بحركة الحفار أو الأوناش الكبيرة ، وكيف أن السائق أمامه عَدد كبير من العِصىّ والأذرع ، لكل حركة في الآلة ذراع معينة .

فإذا كان لك هذه السيطرة وهذا التحكم في نفسك وفي أعضائك ، فكيف تستبعد أن يكون لربك ـ عز وجل ـ هذه السيطرة على خَلْقه في الآخرة ؟

إذن : فاللسان محلّ القول ، وهو طَوْع إرادتك في الدنيا ، أمّا في الآخرة فقد شُلَّتْ هذه الإرادة ودخلتْ في قوله تعالى : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر]

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾ [النور] وهذه جوارح لم يكُنْ لها نُطْق في الدنيا ، لكنها ستنطق اليوم . ويحاول العلماء تقريب هذه المسألة فيقولون : إن الجارحة حين تعمل أىَّ عمل يلتقط لها صورة تسجل ما عملتْ ، فنُطْقها يوم القيامة أن تظهر هذه الصورة التي التقطت .

والأقرب من هذا كله أن نقول : إنها تنطق حقيقة ، كما قال تعالى حكاية عن الجوارح : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ

الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾ [فصلت]

ومعنى : ﴿الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أن لكل شىء فى الكون نُطْقاً يناسبه ، كما نطقت النملة وقالت : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ .. (١٨) ﴾ [النمل] ونطق الهدهد ، فقال : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) ﴾ [النمل]

وقد قال تعالى عن نُطْق هذه الأشياء : ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

لكن ، إنْ أراد الله لك أن تفقه نُطْقهم فقَّهك كما فقَّه سليمان عليه السلام ، حين فهم عن النملة : ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا .. (١٩) ﴾ [النمل] كما فَهِم عن الهدهد ، وخاطبه فى قضية العقيدة .

وإنْ كان النطق عادةً يفهم عن طريق الصوت ، فلكل خَلْق نُطْقه الذى يفهمه جنسه ؛ لذلك نسمع الآن مع تقدُّم العلوم عن لُغة للأسماك ، ولغة للنحل ... إلخ .

وسبق أنْ قلنا : إن الذين قالوا من معجزات النبى ﷺ أن الحصى سبّح فى يده ، نقول : عليكم أن تُعدِّلوا هذه العبارة ، قولوا : سمع رسول الله ﷺ تسبيح الحصى فى يده ، وإلاَّ فالحصى مُسبِّح فى يده ﷺ ، كما هو مُسبِّح فى يد أبى جهل .

ولو سألتَ هذه الجوارح : لم شهدتِ علىَّ وأنت التى فعلت ؟ لقالت لك : فعلنا لأننا كنا على مرادك مقهورين لك ، إنما يوم ننحلّ عن إرادتك ونخرج عن قهرك ، فلن نقول إلا الحق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) ﴾

قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ .. (٢٥) ﴾ [النور] أي : يوم أنْ تحدث هذه الشهادة ، وهو يوم القيامة ﴿ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ .. (٢٥) ﴾ [النور] الدين : يُطلَق على منهج الله لهداية الخَلْق ، ويُطلق على يوم القيامة ، ويُطلَق على الجزاء .

فالمعنى : يوفيهم الجزاء الذي يستحقونه ﴿ الْحَقَّ .. (٢٥) ﴾ [النور] أي : العدل الذي لا ظلمَ فيه ولا تغيير ، فليس الجزاء جُزَافاً ، إنما جزاء بالحق ؛ لأنه لم يحدث منهم توبة ، ولا تجديد إيمان ؛ لذلك لا بُدَّ أنْ يقع بهم ما حذرناهم منه وأخبرناهم به من العقاب ، وليس هناك إله آخر يُغيِّر هذا الحكم أو يؤخره عنهم .

لذلك بعد أنْ قال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ[1] وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ[2] حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾ [المسد]

قال بعدها : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾ [الإخلاص]

---

(١) أبو لهب : هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم ، قرشي ، عمّ رسول الله ﷺ من أشد الناس عداوة للمسلمين ، كان غنياً عتياً ، كبر عليه أن يتبع ديناً جاء به ابن أخيه ، فآذى أنصاره ، وحرض عليهم وقاتلهم ، كان أحمر الوجه مشرقاً ، فلقب في الجاهلية بأبي لهب ، مات بعد وقعة بدر بأيام عام ٢ هـ . [الأعلام للزركلي ٤/١٢] .

(٢) هي : أم جميل ، واسمها أروى بنت حرب بن أمية وهي أخت أبي سفيان ، وكانت عوناً لزوجها أبي لهب على كفره وجحوده وعناده ، فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم ، فتحمل الحطب فتلقى على زوجها ليزداد على ما هو فيه . [قاله ابن كثير في تفسيره ٤/٥٦٤] .

يعنى : ليس هناك إله آخر يُغيِّر هذا الكلام ، فما قُلْته سيحدث لا محالةَ .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النور] و ﴿ الْحَقُّ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [النور] هو الشيء الثابت الذى لا يتغير ، فكلٌّ ما عدا الله تعالى مُتغير ، إذن : فالله بكل صفات الكمال فيه سبحانه لا تغييرَ فيه ، لذلك يقولون : إن الله تعالى لا يتغير من أجلنا ، ولكن يجب أنْ نتغير نحن من أجل الله ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد]

فالله هو الحقُّ الثابت ، هذا بالبراهين العقلية وبالواقع ، وقد عرفنا الكثير من البراهين العقلية ، أما الواقع فإلى الآن لم يظهر مَنْ يقول أنا الله ويدَّعى هذا الكون لنفسه ، وصاحب الدعوى تثبت له إنْ لم يَقُمْ عليها معارض ومعنى ﴿ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النور] الواضح الظاهر الذى تشمل أحقيتُه الوجودَ كله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

قلنا فى تفسير ﴿ الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ .. ﴿٣﴾ ﴾ [النور] أن الزواج يقوم على التكافؤ ، حتى لا يستعلى طرف على الآخر ، ومن هذا التكافؤ قوله تعالى : ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [النور]

ثم يقول سبحانه : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ .. (٢٦) ﴾ [النور] أى : الذين دارتْ عليهم حادثة الإفك ، وخاض الناس فى حقهم ، وهما عائشة وصفوان ﴿ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ .. (٢٦) ﴾ [النور] أى : مما يُقَال عنهم ، بدليل هذا التكافؤ الذى ذكرتْه الآية ، فمن أطيبُ من رسول الله ﷺ ؟ وكما ذكرنا أن الله تعالى ما كان ليُدلِّس على رسوله ﷺ ويجعل من زوجاته مَنْ تحوم حولها الشبهات .

إذن : فلا بُدَّ أن تكون عائشة طَيِّبةً طِيبةً تكافى وتناسب طِيبة رسول الله ؛ لذلك برَّأها الله مما يقول المفترون .

وقوله : ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) ﴾ [النور] مغفرة نزلتْ من السماء قبل القيامة ، ورزق كريم ، صحيح أن الرزق كله من الله بكرم ، لكن هنا يراد الرزق المعنوى للكرامة وللمنزلة وللسمو ، لا الرزق الحسىّ الذى يقيم قوام البدن من أكل وشرب وخلافه .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ (١) وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) ﴾

كلمة بيت : نفهم منها أنه ما أعدّ للبيتوتة ، حيث يأوى إليه الإنسان آخر النهار ويرتاح فيه من عناء اليوم ، ويُسمَّى أيضاً الدار ؛ لأنها تدور على مكان خاص بك ؛ لذلك كانوا فى الماضى لا يسكنون إلا فى بيوت خاصة مستقلة لا شركة فيها مثل العمارات الآن ،

(١) أى : حتى تطلبوا الأُنْس والألفة والرضا ، أو حتى تستشعروا الأُنس وتعلموه . [القاموس القويم ١/٣٧] .

يقولون : بيت من بابه . حيث لا يدخل ولا يخرج عليك أحد ، وكان السَّكَن بهذه الطريقة عصْمةً من الريبة ؛ لأنه بيتك الخاص بأهلك وحدهم لا يشاركهم فيه أحد .

لكن هناك أمور تقتضى أنْ يدخل الناس على الناس ؛ لذلك تكلم الحق - تبارك وتعالى - هنا عن آداب الاستئذان وعن المبادىء والنظم التى تنظم هذه المسألة ؛ لأن ولوج البيوت بغير هذه الآداب ، ودون مراعاة لهذه النظم يُسبِّب أموراً تدعو إلى الرِّيبة والشك ؛ لذلك فى الفلاحين حتى الآن : إذا رأوا شخصاً غريباً يدخل حارة[1] لا علاقة له بها لا بُدَّ أن يسأل : لماذا دخل هنا ؟

إذن : فشرْع الله لا يحرم المجتمع من التلاقى ، إنما يضع لهذا التلاقى حدوداً وآداباً تنفى الرِّيْب والشبهة التى يمكن أنْ تأتى فى مثل هذه المسائل .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى آداب الاستئذان : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا .. (٢٧) ﴾ [النور]

﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا .. (٢٧) ﴾ [النور] من الأُنْس والاطمئنان ، فحين تجلس وأهلك فى بيتك ، وأقبل عليك غريب لا تعرفه ، إذا لم يُقدِّم لك ما تأنس به من الحديث أو الاستئذان لا بُدَّ أن تحدث منه وَحْشة ونفور إذن : على المستأذن أن يحدث من الصوت ما يأنس به صاحب الدار ، كما نقول : يا أهل الله ، أو نطرق الباب ، أو نتحدث مع الولد الصغير ليخبر مَنْ بالبيت .

ذلك لأن للبيوت حرمتها ، وكل بيت له خصوصياته التى لا يحب

(١) الحارة : كل محلّة دنت منازلهم فهم أهل حارة . [قاله ابن منظور فى لسان العرب - مادة : حير] .

صاحب البيت أن يطّلع عليها أحد ، إما كرامةً لصاحب البيت ، وإما كرامة للزائر نفسه ، فالاستئذان يجعل الجميع يتحاشى ما يؤذيه .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ .. (٢٧) ﴾ [النور]

أى : خير للجميع ، للزائر وللمزور ، فالاستئذان يمنع أن يتجسس أحد على أحد ، يمنع أن ينظر أحد إلى شىء يؤذيه ، وهَبْ أن أبا الزوجة أراد زيارتها ودخل عليها فجأة فوجدها فى شجار مع زوجها ، فلربما اطلع على أمور لا ترضيه ، فيتفاقم الخلاف .

ثم تختم الآية بقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) ﴾ [النور] يعنى : احذروا أن تغفلوا هذه الآداب ، أو تتهاونوا فيها ، كمَنْ يقولون : نحن أهلٌ أو أقارب لا تكليفَ بيننا ؛ لأن الله تعالى الذى شرع لكم هذه الآداب أعلَمُ بما فى نفوسكم ، وأعلم بما يُصلحكم .

بل ويتعدى هذا الأدب الإسلامى من الغريب إلى صاحب البيت نفسه ، ففى الحديث الشريف « نهى أن يطرق المسافر أهله بليل »[(١)] إنما عليه أن يخبرهم بقدومه حتى لا يفاجئهم وحتى يستعد كل منهما لملاقاة الآخر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) ﴾

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال ، قال رسول الله ﷺ : « إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلاً » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٤٤) ومسلم فى صحيحه (٣/١٥٢٨) كتاب الإمارة .

فإذا استأذنتَ على بيت ليس فيه أحد ، فلا تدخل ؛ لأنك جئتَ للمكين لا للمكان ، إلا إذا كنتَ تريد الدخول لتتلصص على الناس وتتجسَّس عليهم .

وقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ .. (٢٨)﴾ [النور] كيف والدار ليس فيها أحد ؟

ربما كان صاحب الدار خارجها ، فلما رآك تستأذن نادى عليك من بعيد : تفضل . فلا بُدَّ أنْ يأذن لك صاحب الدار أو مَنْ ينوب عنه في الإذن ؛ لأنه لا يأذن إلا وقد أمِن خُلو الطريق مما يؤذيك ، أو مما يؤذى أهل البيت .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ .. (٢٨)﴾ [النور]

لأنك إنْ تمسكت بالدخول بعد أنْ قال لك : ارجع فقد أثرت الريبة في نفسه ، فعليك أن تمتثل وتحترم رغبة صاحب الشأن ، فهذا هو الأزكى والأفضل ، ألاَ ترى قول رسول الله ﷺ : « دَعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك »[1] .

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨)﴾ [النور] أي : عالم سبحانه بدخائل النفوس ووساوس الصدور ، فإنْ قال لك صاحب الدار ارجع فوقفتَ أمام الباب ولم تنصرف ، فإنك تثير حولك الظنون والأوهام ، وربك - عز وجل - يريد أنْ يحميك من الظنون ودخائل النفوس .

ثم يقول الحق سبحانه :

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (١١٧٨) ، والإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٠٠) والترمذي في سننه (٢٥١٨) وقال : حديث حسن صحيح ، من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما ، وتمامه : « فإن الصدق طمأنينة ، وإن الكذب ريبة » .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

سأل الصِّديق أبو بكر رضى الله عنه رسول الله ﷺ : يا رسول الله نحن قوم أهل تجارة ، نذهب إلى بلاد ليس لنا فيها بيوت ولا أهل ، ونضطر لأن ننزل فى أماكن (عامة كالفنادق) نضع فيها متاعنا ونبيت بها ، فنزلت هذه الآية[1] .

و ﴿ جُنَاحٌ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [النور] يعنى : إثم أو حرج ، وهذه خاصة بالأماكن العامة التى لا يسكنها أحد بعينه ، والمكان العام له قوانين فى الدخول غير قوانين البيوت والأماكن الخاصة ، فهل تستأذن فى دخول الفندق أو المحل التجارى أو الحمام ... إلخ ، هذه أماكن لا حرجَ عليك فى دخولها دون استئذان .

فمعنى ﴿ غَيْرَ مَسْكُونَةٍ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [النور] أى : لقوم مخصوصين ﴿ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [النور] كأن تنام فيها وتأكل وتشرب وتضع حاجياتك ، فالمتاع هنا ليس على إطلاقه إنما مقيد بما أحلَّه الله وأمر به ، فلا يدخل فى المتاع المحرمات .

لذلك قال بعدها : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النور] يعنى : فى تحديد الاستمتاع ، فلا تأخذه على إطلاقه فتُدخل فيه

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان قال : لما نزلت آية الاستئذان فى البيوت ، قال أبو بكر : يا رسول الله ، فكيف بتجار قريش الذين يختلفون (أى : يتنقلون ويترددون) بين مكة والمدينة والشام ، ولهم بيوت معلومة على الطريق ، فكيف يستأذنون ويسلمون وليس فيها سكان ؟ فنزلت ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [النور] . أورده السيوطى فى أسباب النزول (ص ١٢٧ ـ طبعة دار التحرير للطبع والنشر ١٩٦٣م) .

الحرامَ ، وإلا فالبغايا كثيراً ما يرتادون مثل هذه الأماكن ؛ لذلك يُحصِّنك ربك ، ويعطيك المناعة اللازمة لحمايتك .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

تحدثت سورة النور من أولها عن مسألة الزنا والقذف والإحصان ، وحذرتْ من اتباع خطوات الشيطان التى تؤدى إلى هذه الجريمة ، وتحدثت عن التكافؤ فى الزواج ، وأن الزانى للزانية ، والزانية للزانى ، والخبيثون للخبيثات والطيبون للطيبات .

وهذا منهج متكامل يضمن سلامة المجتمع والخليفة لله فى أرضه ، فالله تعالى يريد مجتمعاً تضىء فيه القيم السامية ، مجتمعاً يخلو من وسائل (العكننة) والمخالفة والشَّحْناء والبغضاء ، فلو أننا طبَّقنا منهج الله الذى ارتضاه لنا لارتاح الجميع فى ظله .

ومسألة غَضِّ البصر التى يأمرنا بها ربنا - عز وجل - فى هذه الآية هى صمام الأمان الذى يحمينا من الانزلاق فى هذه الجرائم البشعة ، ويسد الطريق دونها ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [النور]

وقلنا : إن للإنسان وسائل إدراكات متعددة ، وكل جهاز إدراك له مناط : فالأذن تسمع الصوت ، والأنف يشم الرائحة ، واللسان للكلام ، ولذوْق المطعومات ، والعين لرؤية المرئيات ، لكن أفتن شىء يصيب الإنسان من ناحية الجنس هى حاسَّة البصر ؛ لذلك وضع

الشارع الحكيم المناعة اللازمة فى طرفى الرؤية فى العين الباصرة وفى الشيء المبصر ، فأمر المؤمنين بغضِّ أبصارهم ، وأمر المؤمنات بعدم إبداء الزينة ، وهكذا جعل المناعة فى كلا الطرفين .

وحين تتأمل مسألة غَضِّ البصر تجدها من حيث القسمة العقلية تدور حول أربع حالات : **الأولى** : أن يغضَّ هو بصره ولا تبدى هى زينتها ، فخطُّ الفتنة مقطوع من المرسل ومن المستقبل ، **الثانية** : أن يغضَّ هو بصره وأن تبدى هى زينتها ، **الثالثة** : أن ينظر هو ولا تبدى هى زينتها . وليس هناك خطر على المجتمع أو فتنة فى هذه الحالات الثلاث فإذا توفر جانب انعدم الآخر . إنما الخطر فى القسمة **الرابعة** : وهى أن ينظر هو ولا يغضّ بصره ، وأنْ تتزين هى وتُبدى زينتها ، ففى هذه الحالة فقط يكون الخطر .

إذن : فالحق - تبارك وتعالى - حرَّم حالة واحدة من أربع حالات ؛ ذلك لأن المحرّمات هى الأقل دائماً ، وهذا من رحمة الله بنا ، بدليل قوله تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١)﴾ [الانعام] فالمحرمات هى المحصورة المعدودة ، أمّا المحللات فهى فوق الحصر والعَدِّ ، فالأصل فى الأشياء أنها حلال ، وإذا أراد الحق سبحانه تحريم شيء نَصَّ عليه ، فانظر إلى هذه المعاملة الطيبة من ربك عز وجل .

وكما أمر الرجل بغضٍّ بصره ، كذلك أُمِرَتْ المرأة بغضٍّ بصرها ، لأن اللَّفْتة قد تكون أيضاً للرجل ذى الوسامة و .. و فإنْ كان حظ المرأة فى رجل تتقحمه العين ، فلربما نظرتْ إلى غيره ، فكما يُقال فى الرجال يُقال فى النساء .

هذا الاحتياط وهذه الحدود التى وضعها الله عز وجل وألزمنا بها

إنما هى لمنع هذه الجريمة البشعة التى بُدئَتْ بها هذه السورة ؛ لأن النظر أول وسائل الزنا ، وهو البريد لما بعده ، ألاَ ترى شوقى رحمه الله حين تكلم عن مراحل الغَزَل يقول :

نَظْرَةٌ فابتسَامَةٌ فسَلاَمٌ   فكَلامٌ فموعِدٌ فلقَاءٌ

فالأمر بغَضِّ البصر ليسدَّ منافذ فساد الأعراض ، ومَنْع أسباب تلوث النسل ؛ ليأتى الخليفة لله فى الأرض طاهراً فى مجتمع طاهر نظيف شريف لا يتعالى فيه أحد على أحد ، بأن له نسباً وشرفاً ، والآخر لا نسبَ له .

ذلك ليطمئن كل إنسان على أن مَنْ يليه فى الخلافة من أبناء أو أحفاد إنما جاءوا من طريق شرعيٍّ شريف ، فيجتهد كل إنسان فى أن يُنشِّىء أطفاله تنشئةً فيها شفقة ، فيها حنان ورحمة ؛ لأنه واثق أنه ولده ، ليس مدسوساً عليه ، وأغلب الظن أن الذين يُهملون أطفالهم ولا يُراعون مصالحهم يشكُّون فى نسبهم إليهم .

ولا يصل المجتمع إلى هذا الطُّهْر إلا إذا ضمنتَ له الصيانة الكافية ، لئلا تشرد منه غرائز الجنس ، فيعتدى كل نظر على مَا لا يحلّ له ؛ لأن النظر بريد إلى القلوب ، والقلوب بريد إلى الجنس ، فلا يعفّ الفرج إلا بعفاف النظر .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. ﴿٣٠﴾﴾ [النور] دقة بلاغ الرسول عن ربه ـ عز وجل ـ وأمانته فى نقل العبارة كما أُنزلَتْ عليه ، ففى هذه الآية كان يكفى أن يقول رسول الله : غُضُّوا أبصارَكم ، لكنه التزم بنص ما أُنزل عليه ؛ لأن القرآن لم ينزل للأحكام فقط ، وإنما القرآن هو كلام الله المنزّل على رسوله والذى يُتعبَّد بتلاوته ، فلا بُدَّ أنْ يُبلِّغه الرسول كما جاءه من ربه .

لذلك قال في البلاغ عن الله (قُلْ) وفي الفعل (يَغضُّوا) دلالةٌ على ملحظية (قل) ، فالفعل (يغضوا) مضارع لم تسبقه أداة جزم ، ومع ذلك حُذفت منه النون ، ذلك لأنه جعل (قُلْ) ملحظية في الأسلوب .

والمعنى : إنْ تقُل لهم غُضُّوا أبصاركم يغضُّوا ، فالفعل - إذن - مجزوم في جواب الأمر (قُلْ) .

إذن ﴿ قُل .. (٣٠) ﴾ [النور] تدل على أمانة الرسول في البلاغ ، وعلى أن القرآن ما نزل للأحكام فحسب ، إنما هو أيضاً كلام الله المعجز ؛ لذلك نحافظ عليه وعلى كل لفظة فيه ، وكأن رسول الله ﷺ يقول : ما أتيتُ لكم بشيء من عندي ، ومهمتي أن أبلغكم ما قاله الله لي .

وقوله : ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٣٠) ﴾ [النور] فما داموا مؤمنين بإله حكيم ، وقد دخلوا حظيرة الإيمان باختيارهم لم يُرغمهم عليه أحد ، فلا بُدَّ أنْ يلتزموا بما أمرهم ربهم به وينفذوه بمجرد سماعه .

والغَضُّ : النقصان ، يقال : فلان يغُضُّ من قَدْر فلان يعني : ينقصه ، فكيف يكون النقصان في البصر ؟ أينظر بعين واحدة ؟ قالوا : البصر له مهمة ، وبه تتجلى المرائي ، والعين مجالها حر ترى كل ما أمامها سواء أكان حلالاً لها أو مُحرّماً عليها .

فنقص البصر يعني : قَصْره على ما أحل ، وكفّه عما حُرم ، فالنقص نقص في المرائي وفي مجال البصر ، فلا تعطى له الحرية المطلقة فينظر إلى كل شيء ، إنما تُوقفه عند أوامر الله فيما يُرى وفيما لا يُرى .

و ﴿ مِنْ .. (٣٠) ﴾ [النور] في قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. (٣٠) ﴾ [النور] البعض يرى أنها للتبعيض كما تقول : كُلْ من هذا الطعام يعني : بعضاً منه ، فالمعنى : يغضُّوا بعض البصر ؛ لأن بَعضه حلال لا أغض عنه بصري ، وبعضه محرم لا أنظر إليه .

أو : أن ﴿ مِنْ .. (٣٠) ﴾ [النور] هنا لتأكيد العموم في أدنى مراحله ، وسبق أن تكلمنا عن (مِنْ) بهذا المعنى ، ونحن كلما توغلنا في التفسير لا بُدّ أن تقابلنا أشياء ذكرناها سابقاً ، ونحيل القارىء عليها .

قلنا : فرق بين قولك : ما عندى مال ، وقولك : ما عندى من مال . ما عندى مال ، يحتمل أن يكون عندك مال قليل لا يُعْتدّ به ، لكن ما عندى من مال نفى لجنس المال مهما قلّ ، فمِنْ تعنى بدايةَ ما يقال له مال .

فالمعنى هنا : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. (٣٠) ﴾ [النور] يعنى : بداية مَا يُقال له بصر ، ولو لمحة خاطفة ، ناهيك عن التأمل وإدامة البصر .

وقلنا : إن الشرع لا يتدخل في الخواطر القلبية والهواجس ، إنما يتدخل في الأعمال النزوعية التي يترتب عليها فعل ، قلنا : لو مررتَ ببستان فرأيتَ به وردة جميلة ، فأعجبت بها وسُررْت وانبسطتْ لها أسارير نفسك ، كل هذا مباح لك لا حرجَ عليك فيه ، فإنْ تعدَّى الأمر ذلك فمددتَ إليها يدك لتقطفها ، هنا يتدخل الشرع يقول لك : قفْ ، فليس هذا من حقك لأنها ليستْ لك .

هذه قاعدة عامة في جميع الأعمال لا يستثنى منها إلا النظر وحده ، وكأن ربنا - عز وجل - يستسمحنا فيه ، هذه المسألة من أجلنا ولصالحنا نحن ولراحتنا ، بل قل رحمة بنا وشفقة علينا من عواقب النظر وما يُخلِّفه في النفس من عذابات ومواجيد .

ففى نظر الرجل إلى المرأة لا نقول له : انظر كما تحب واعشق كما شئت ، فإن نزعْتَ إلى ضمة أو قبلة قلنا لك : حرام . لماذا ؟ لأن الأمر هنا مختلف تماماً ، فعلاقة الرجل بالمرأة لها مراحل لا تنفصل إحداها عن الأخرى أبداً .

فساعة تنظر إلى المرأة هذا إدراك ، فإنْ أعجبتْك وانبسطتْ لها أساريرك ، فهذا وجدان ، لا بُدَّ أن يترك فى تكوينك تفاعلاً كيماوياً لا يهدأ ، إلا بأن تنزع فإنْ طاوعْتَ نفسك فى النزوع فقد اعتديتَ ، وإنْ كبتَّ فى داخلك هذه المشاعر أصابتْك بعُقد نفسية ودعتْك إلى أن تبحث عن وسيلة أخرى للنزوع ؛ لذلك رحمك ربك من بداية الأمر ودعاك إلى مَنْع الإدراك بغضِّ البصر .

لذلك بعد أن أمرنا سبحانه بغضِّ البصر قال : ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ.. (٣٠) ﴾ [النور] لأنك لا تملك أن تفصل النزوع عن الوجدان ، ولا الوجدان عن الإدراك ، وإنْ أمكن ذلك فى الأمور الأخرى ، فحين نمنعك عن قطف الوردة التى أعجبتْك لا يترك هذا المنع فى نفسك أثراً ولا وَجْداً ، على خلاف ما يحدث إنْ مُنعتَ عن امرأة أعجبتك ، وهيَّجك الوجدان إليها .

وحفْظ الفروج يكون بأن نقصرها على ما أحلَّه الله وشرعه فلا أنيله لغَير مُحلَّل له ، سواء كان من الرجل أو من المرأة ، أو : أحفظه وأصونه أن يُرى ؛ لأن رؤيته تهيج إلى الشر وإلى الفتنة .

﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ .. (٣٠) ﴾ [النور] يعنى : أطهر وأسلم وأدْعَى لراحة النفس ؛ لأنه إما أن ينزع فيرتكب محرماً ، ويلج فى أعراض الناس ، وإما ألا ينزع فيُكدِّر نفسه ويُؤلمها بالصبر على ما لا تطيق .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) ﴾ [النور] فهو سبحانه خالق هذه النفس البشرية ، وواضع مسألة الشهوة والغريزة الجنسية التى هى أقوى الغرائز ليربط بها بين الرجل والمرأة ، وليحقق بها عملية النسل وبقاء الاستخلاف فى الأرض ، ولو لم تربط هذه العلاقة بالشهوة الملّحة لزهدَ الكثيرون فى الزواج وفى الإنجاب وما يترتب عليه من تبعات .

ألاَ ترى المرأة وما تعانيه من آلام ومتاعب في مرحلة الحمل ، وأنها ترى المـوت عند الولادة ، حتى إنهـا لتقسـم أنها لا تعود ، لكـن بعد أن ترى وليـدها وتنسـى آلامهـا سرعـان ما يعـاودها الحنين للإنجـاب مرة أخرى ، إنها الغريزة التي زرعها الله في النفس البشرية لدوام بقائها .

وللبعض نظرة فلسفية للغرائز ، خاصة غريزة الجنس ، حيث جعلها الله تعالى أقوى الغرائز ، وربطها بلـذة أكثر أثراً من لذة الطعام والشراب والشَّمِّ والسماع .. إلخ فهي لذة تسـتوعب كل جوارح الإنسان وملكاته ، وما ذلك إلا حِرْصاً على بقاء النوع ودواماً للخلافة في الأرض .

ثم يقول الحق سبحانه لرسوله :

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ (١) أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ (٢) مِنَ

(١) البعل : الزوج والزوجة فهو مصدر سمي به بلفظه فلا يؤنث ، والجمع : بعول [القاموس القويم ١/٧٦] .

(٢) غيـر أولي الإربة : أي : غير أولي الحاجـة . والإربة الحاجة . والجمع مـآرب أي حوائج . قال القـرطبي في تفسيره (٦/٤٧٧١) : « اخـتلف الناس في معناه ، فقـيل : هو الأحمق الذي لا حـاجة به إلى النسـاء . وقيـل : الأبله . وقيل : الرجل يتـبع القـوم فيـأكل معـهم ويرتفق بهم وهو ضـعيف لا يشـتهي النسـاء » ثم قال : « وهـذا الاختلاف كـله متـقارب المعنى ، ويجتمع فيمن لا فهم له ولا همة ينتبه بها إلى أمر النساء » .

﴿ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) ﴾

ذكر هنا المقابل ، فأمر النساء بما أمر به الرجال ، ثم زاد هنا مسألة الزينة . والزينة : هي الأمر الزائد عن الحد في الفطرية ؛ لذلك يقولون للمرأة الجميلة بطبيعتها والتي لا تحتاج إلى أن تتزين : غانية[1] يعني : غنيت بجمالها عن التزيُّن فلا تحتاج إلى كُحل في عينيها ، ولا أحمر في خدَّيْها ، لا تحتاج أن تستر قُلْبها[2] بأسورة ، ولا صدرها بعقد .. إلخ .

فإنْ كانت المرأة دون هذا المستوى احتاجتْ لشيء من الزينة ، لكن العجيب أنهن يُبالغْنَ في هذه الزينة حتى تصبح كاللافتة النيون على كشك خشبي مائل ، فترى مُسنَّات يضعْنَ هذا الألوان وهذه المساحيق ، فيَظْهَرن في صورة لا تليقَ ؛ لأنه جمال مُصْطنع وزينة متكلفة يسمونها تطرية ، وفيها قال المتنبي ، وهو يصف جمال المرأة البدوية وجمال الحضرية :

حُسْن الحِضارة مَجْلوبٌ بتطْرِيةٍ   وفِي البَداوة حُسْنٌ غير مَجْلُوب[3]

ومن رحمة الله بالنساء أنْ قال بعد ﴿ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ .. (٣١) ﴾ [النور] قال : ﴿ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا .. (٣١) ﴾ [النور] يعني : الأشياء

---

(١) الغانية : الجارية الحسناء ، ذات زوج كانت أو غير ذات زوج ، سميت غانية لأنها غنيت بحسنها عن الزينة . [لسان العرب ـ مادة : غني] .

(٢) القُلْب : سوار المرأة . والقُلْب من الأسورة : ما كان قلداً واحداً . [لسان العرب – مادة : قلب] .

(٣) الحضارة : الإقامة في الحضر . والحضر : خلاف البادية ، وهي المدن والقرى والريف . سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار . [لسان العرب ـ مادة : حضر] .

الضرورية ، فالمرأة تحتاج لأنْ تمشى فى الشارع ، فتظهر عينيها وربما فيها كحل مثلاً ، وتظهر يدها وفيها خاتم أو حناء ، فلا مانع أن تُظهر مثل هذه الزينة الضرورية .

لكن لا يظهر منها القُرْط مثلاً ؛ لأن الخمار يستره ولا (الديكولتيه) أو العقد أو الأسورة أو الدُّمْلُك ولا الخلخال ، فهذه زينة لا ينبغى أن تظهر . إذن : فالشارع أباح الزينة الطبيعية شريطةَ أن تكون فى حدود ، وأن تقصر على مَنْ جُعلَتْ من أجله .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا .. (٣١) ﴾ [النور] المراد تغطية الزينة ، فالجارحة التى تحتها من باب أَوْلَى ، فالزينة تُغطِّى الجارحة ، وقد أمر الله بستْر الزينة ، فالجارحة من باب أَوْلَى .

وقوله تعالى : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ .. (٣١) ﴾ [النور]

الخُمر : جمع خِمَار ، وهو غطاء الرأس الذى يُسْدل ليستر الرقبة والصدر . الجيوب : جميع جيب ، وهو الفتحة العليا للثوب ويسمونها (القَبَّة) والمراد أن يستر الخمارُ فتحةَ الثوب ومنطقة الصدر ، فلا يظهر منها شيء .

والعجيب أن النساء تركْنَ هذا الواجب ، بل ومن المفارقات أنهن يلبسْنَ القلادة ويُعلِّقن بها المصحف الشريف ، إنه تناقض عجيب يدل على عدم الوعى وعدم الدراية بشرع الله مُنزل هذا المصحف .

وتأمل دقة التعبير القرآنى فى قوله تعالى ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ .. (٣١) ﴾ [النور] والضرب هو : الوَقْع بشدة ، فليس المراد أنْ تضع المرأة الطرحة على رأسها وتتركها هكذا للهواء ، إنما عليها أنْ تُحكمها على رأسها وصدرها وتربطها بإحكام .

لذلك لما نزلت هذه الآية قالت السيدة عائشة : رحم الله نساء المهاجرات ، لما نزلت الآية لم يكُنْ عندهم خُمر ، فعمدْن إلى المروط فشقوها وصنعوا منها الخُمُر[1] .

إذن : راعَى الشارع الحكيم زِيَّ المرأة من أعلى ، فقال : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ .. (٣١) ﴾ [النور] ومن الأدنى فقال : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ .. (٣١) ﴾ [النور] أي : أزواجهن ؛ لأن الزينة جُعلَتْ من أجلهم ﴿ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ.. (٣١) ﴾ [النور] أبو الزوج ، إلا أنْ يخاف منه الفتنة ، فلا تبدى الزوجة زينتها أمامه .

ومعنى ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ .. (٣١) ﴾ [النور] أى : النساء اللائى يعملْنَ معها فى البيت كالوصيفات والخادمات ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ .. (٣١) ﴾ [النور] والمراد هنا أيضاً ملْك اليمين من النساء دون الرجال .

ويشترط فى هؤلاء النساء أن يكُنَّ مسلمات ، فإنْ كُنَّ كافرات كهؤلاء اللائى يستقدمونهن من دول أخرى ، فلا يجوز للمرأة أن تُبدى زينتها أمامهن ، وأن تعتبرهن فى هذه المسألة كالرجال ، لأنهن غير مسلمات وغير مؤتمنات على المسلمة ، وربما ذهبت فوصفتْ ما رأتْ من سيدتها للرجل الكافر فينشغل بها .

ومن العلماء مَنْ يرى أن ملْك اليمين لا يخصُّ النساء فقط ، إنما الرجال أيضاً ، فللمرأة أنْ تُبدى زينتها أمامهم ، قالوا : لأن هناك استقبالاً عاطفياً وامتناعاً عاطفياً فى النفس البشرية ، فالخادم فى

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٥٨ ، ٤٧٥٩) من حديث عائشة رضى الله عنها . والمرُوط جمع مِرْط وهو كساء يؤتزر به وتتلفع به المرأة .

القَصْر لا ينظر إلى سيدته ولا إلى بناتها ؛ لأنه لا يتسامى إلى هذه المرتبة ، إلا إذا شجَّعْنَهُ ، وفتحْنَ له الباب ، وهذه مسألة أخرى .

وقوله تعالى : ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ .. (٣١)﴾ [النور] أي : التابعين للبيت ، والذين يعيشون على فضلاته ، فتكون حياة التابع من حياة متبوعه ، فليس عنده بيت يأويه ؛ لذلك ينام في أيِّ مكان ، وليس عنده طعام ؛ لذلك يُطعمه الناس وهكذا ، فهو ضائع لا هدفَ له ولا استقلاليةَ لحياته ، وترى مثل هؤلاء يأكلون فضلات الموائد ويلبسون الخِرَق وينامون ولو على الأرصفة .

مثل (الأهبل) أو المعتوه الذي يعطف الناس عليه ، وليس له مطمع في النساء ، ولا يفهم هذه المسألة ، فلا يُخاف منه على النساء ؛ لأنه لا حاجةَ له فيهن ؛ ولا يتسامى لأنْ ينظر إلى أهل البيت .

ومعنى : ﴿غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ .. (٣١)﴾ [النور] يعني : كأن يكون كبير السِّنِّ واهن القوى ، لا قدرةَ له على هذه المسائل ، أو يكون مجبوباً[١] ، مقطوع المتاع ، ولا خطرَ من مثل هؤلاء على النساء .

وقوله تعالى : ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١)﴾ [النور]

نلحظ هنا أن الطفل مفرد ، لكن وُصف بالجمع ﴿الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١)﴾ [النور] لماذا ؟ قالوا : هذه سمةَ من سمات اللغة ، وهي الدقة في التعبير ، حيث تستخدم اللفظ المفرد للدلالة على المثنى وعلى الجمع .

---

(١) الجَبُّ : القطع . والمجبوب : الخصيُّ الذي قد استؤصل ذكره وخُصْياه . فهو مقطوع الذكر . [لسان العرب ـ مادة : جبب] .

كما نقول : هذا قاضٍ عَدْلٌ ، وهذان قاضيان عَدْل ، وهؤلاء قضاة عَدْل ، ولم نقل : عدلان وعدول ، فإذا وحَّد الوصف فى الجميع بدون هوى كان الوصف كالشىء الواحد ، فالقاضى لا يحكم بمزاجه وهواه ، والآخر بمزاجه وهواه ، إنما الجميع يصدرون عن قانون واحد وميزان واحد . إذن : فالعدل واحد لا يُقَال بالتشكيك ، وليس لكل واحد منهم عدل خاص به ، العَدْل واحد .

كذلك الحال فى ﴿ الطِّفْلِ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [النور] مع أن المراد الأطفال ، لكن قال (الطفل) لأن غرائزه مشتركة مع الكل ، وليس له هَوىً ، فكل الأطفال ـ إذن ـ كأنهم طفل واحد حيث لم يتكوّن لكل منهم فكْره الخاص به ، الجميع يحب اللهو واللعب ، ولا شىءَ وراء ذلك ، فالجمعية هنا غير واضحة لوجود التوحيد فى الغرائز وفى الميول .

بدليل أنه إذا كَبِر الأطفال وانتقلوا إلى مرحلة البلوغ وتكوَّن لديهم هَوىً وفكْر وميْل يقول القرآن عنهم : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [النور] فنظر هنا إلى الجمع لعدم وجود التوحُّد فى مرحلة الطفولة المبكرة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الذاريات] فوصف ضيف وهى مفرد بالجمع (مكرمين) ؛ ذلك لأن ضَيْف تدل أيضاً على الجمع ، فالضيف من انضاف على البيت وله حَقٌّ والتزامات لا بُدَّ أن يقدمها المضيف ، مما يزيد على حاجة البيت ، والضيف فى هذه الالتزامات واحد ، سواء كان مفرداً أو جماعة ؛ لذلك دَلَّ بالمفرد على الجمع .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ.. ﴿٣١﴾ ﴾ [النور] يظهر على كذا : لها معنيان فى اللغة : **الأول** : بمعنى يعلم كما فى

قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ .. ⟨٢٠⟩﴾ [الكهف] يعنى : إنْ علموا بكم وعرفوا مكانكم .

والثانى : بمعنى يعلو ويغلب ويقهر ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ ⟨٩٧⟩﴾ [الكهف] أى : السد الذى بناه ذو القرنين ، فالمعنى : ما استطاعوا أنْ يعلوه ويرتفعوا عليه .

وهنا ﴿لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. ⟨٣١⟩﴾ [النور] يعنى : يعرفونها ويستبينونها ، أو يقدرون على مطلوباتها ، فليس لهم علْم أو دراية بهذه المسائل .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ .. ⟨٣١⟩﴾ [النور]

الحق - تبارك وتعالى - يكشف ألاعيب النساء وحيلهنّ فى جَذْب الأنظار ، فإذا لم يلفتْك إليها النظر لفتَك الصوت الذى تحدثه بمشيتها كأنها تقول لك : يا بجم اسمع ، يا للى ما نتاش شايف اسمع ، وفى الماضى كُنَّ يلبسْنَ الخلخال الذى يُحدث صوتاً أثناء المشى ، والآن يجعلْنَ فى أسفل الحذاء ما يُحدث مثل هذا الصوت أثناء المشى ، وأول مَن استخدم هذه الحيل الراقصات ليجذبن إليهن الأنظار .

ومعلوم أن طريقة مَشْى المرأة تُبدى الكثير من زينتها التى لا يراها الناس ، وتُسبِّب كثيراً من الفتنة ؛ لذلك يقول تعالى بعدها وفى ختام هذه المسائل : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ⟨٣١⟩﴾ [النور]

لم يَقُل الحق تبارك وتعالى : يا مَنْ أذنبتم بهذه الذنوب التى سبق الحديث عنها ، إنما قال ﴿جَمِيعًا .. ⟨٣١⟩﴾ [النور] فحثَّ الجميع على

التوبة ؛ ليدل على أن كل ابن آدم خطاء ، ومهما كان المسلم مُتمسِّكاً ملتزماً فلا يأمن أنْ تفوته هفوة هنا أو هناك ، والله - عز وجل - الخالق والأعلم بمَنْ خلق ؛ لذلك فتح لهم باب التوبة وحثَّهم عليها ، وقال لهم : ما عليكم إلا أنْ تتوبوا ، وعليَّ أنا الباقي .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) ﴾

بعد أن تكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن مسألة حفْظ الفروج ودعا إلى الحفاظ على طهارة الأنساب ، أراد أنْ يتكلم عن هؤلاء الرجال أو النساء الذين لم يتيسَّر لهم أمر الزواج ؛ ذلك ليعالج الموضوع من شتى نواحيه ؛ لأن المشرِّع لا بُدَّ أن يستولى بالتشريع على كُلِّ ثغرات الحياة فلا يعالج جانباً ويترك الآخر .

و ﴿ الأَيَامَىٰ .. (٣٢) ﴾ [النور] جمع أيِّم ، والأيِّم من الرجال مَنْ لا زوجةَ له ، والأيِّم من النساء مَنْ لا زوجَ لها .

ونلحظ أن الأمر فى ﴿ أَنكِحُوا .. (٣٢) ﴾ [النور] جاء هكذا بهمزة القَطْع ، مع أن الأمر للواحد (انكح) بهمزة الوصل ، ذلك لأن الأمر هنا (أنكحوا) ليس للمفرد الذى سينكح الأيِّم ، إنما لغيره أنْ يُنكحه ، والمراد أمر أولياء الأمور ومَنْ عندهم رجال ليس لهم زوجات ، أو نساء ليس لَهُنَّ أزواج : عَجِّلوا بزواج هؤلاء ، ويسِّروا لهم هذه المسألة ، ولا تتشددوا فى نفقات الزواج حتى تُعفُّوا أبناءكم وبناتكم ، وإذا لم تعينوهم فلا أقلَّ من عدم التشدد والمغالاة .

وفى الحديث الشريف : « إذا جاءكم مَنْ ترضون دينه وخلقه فزوِّجوه ، إلاَّ تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير »[(١)] .

ومع ذلك فى مجتمعاتنا الكثير من العادات والتقاليد التى تعرقل زواج الشباب أخطرها المغالاة فى المهور وفى النفقات والنظر إلى المظاهر .. إلخ وكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لأولياء الأمور : يسِّروا للشباب أمور الالتقاء الحلال ومهِّدوا لهم سبيل الإعفاف .

وقد أعطانا القرآن نموذجاً لما ينبغى أن يكون عليه وليٌّ الأمر ، فقال تعالى عن سيدنا شعيب عليه السلام : ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ .. (٢٧)﴾ [القصص] ذلك لأن موسى - عليه السلام - سيكون أجيراً عنده ، وربما لا يتسامى إلى أن يطلب يد ابنته ؛ لذلك عرضها عليه وخطبه لها وشجَّعه على الإقبال على زواجها ، فأزال عنه حياء التردد ، وهكذا يجب أن يكون أبو الفتاة إنْ وجد لابنته كفؤاً ، فلا يتردد فى إعفافها .

وقوله تعالى : ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ .. (٣٢)﴾ [النور]

وقوله ﷺ : « تُنكح المرأة لأربع : لمالها ، وجمالها ، وحسبها ودينها ، فاظفر بذات الدين ، تربت يداك »[(٢)] .

ولما سُئل الحسن - رضى الله عنه - عن مسألة الزواج قال لوالد

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٨٤) من حديث أبى هريرة بلفظ « إذا خطب إليكم مَنْ ترضوْن دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض » . وأخرجه ابن ماجة فى سننه (١٩٦٧) بلفظ « إذا أتاكم » وقد رجح الترمذى أنه مرسل من رواية الليث بن سعد .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٩٠) ، ومسلم فى صحيحه (١٤٦٦) كتاب الرضاع من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال القرطبى فيما نقله عنه ابن حجر فى فتح البارى (٩/١٣٦) : « معنى الحديث أن هذه الخصال الأربع هى التى يُرغب فى نكاح المرأة لأجلها ، فهو خبر عما فى الوجود من ذلك ، لا أنه وقع الأمر بذلك ، بل ظاهره إباحة النكاح لقصد كل من ذلك ، لكن قصد الدين أوْلَى » .

الفتـاة الذى جاء يستشـيره : زوِّجها مَـنْ تأمنه على دينه ، فإنْ أحبَّ ابنتك أكرمهـا ، وإن كرهها لم يظلمهـا . وماذا يريد الإنسان فى زوج ابنته أكثر من هذا ؟

فـالدين والخُلق والقـيم السـامـيـة هى الأسـاس الذى يُبنى عليـه الاخـتيـار ، أمـا المـال فهـو شىء ثانوى وعَـرَض زائل ؛ لذلك يقـول تعالى:﴿ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) ﴾[النور]

فالفقر قـد يكون سبباً فى عدم الإقبال عـلى البنت ، أو عدم إقبال أهل البنت على الزوج ، لكن كيف يتـخلى الله عنَّا ونحن نتقيـه ونقصد الإعفاف والطـهر ؟ لا يمكن أن يضن الله على زوجيْن التقـيا على هذه القيم واجتمـعا على هذه الآداب ، ومَنْ يدريك لعل الرزق يأتى للاثنين معاً ، ويكون اجتماعـهما فى هذه الرابطة الشرعية هو باب الرزق الذى يفتح للوجهين معاً ؟

﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) ﴾ [النور] فعطاء الله دائم لا ينقطع ؛ لأن خزائنه لا تنفد ولا تنقص ، والإنـسان يُمسك عن الإنفـاق ؛ لأنه يخاف الفقـر ، أمّا الحق ـ تبارك وتعالى ـ فيعطى العطاء الواسع ؛ لأن ما عنده لا ينفد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) ﴾

فى حالة إذا لم ننكح الأيامى ، ولم نُعنهم على الزواج ، ولم يقدروا هم على القيام بنفقاته يصف لهم الحق - سبحانه وتعالى - العلاج المناسب ، وهو الاستعفاف ، وقد طلب الله تعالى من المجتمع الإسلامى سواء - تمثَّل فى أولياء الأمور أو فى المجتمع العام - أن ينهض بمسألة الأيامى ، وأنْ يعينهم على الزواج ، فإنْ لم يقُمْ المجتمع بدوره ، ولم يكُنْ لهؤلاء الأيامى قدرة ذاتية على الزواج ، فليستعفف كل منهم حتى يغنيهم الله ، مما يدل على أن التشريع يبنى أحكامه ، ويُراعى كل الأحوال ، سواء أطاعوا جميعاً أو عَصَوْا جميعاً .

وقوله تعالى : ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ .. (٣٣)﴾ [النور] يعنى : يحاول العفاف ويطلبه ويبحث عن أسبابه ، يجاهد أن يكون عفيفاً ، وأول أسباب العفاف أن يغضَّ بصره حين يرى ، فلا يوجد له مُهيِّج ومثير ، فإنْ وجد فى نفسه فُتوة وقوة فعلية أن يُلجمها ويُضعفها بالوسائل الشرعية كما قال النبى ﷺ : « يا معشر الشبابَ مَن استطاع منكم الباءة - يعنى : نفقات الحياة الزوجية - فليتزوج ، ومن لم يجد فعليه بالصوم فإنه له وجاء[1] »[2] .

والصوم يعمل على انكسار هذه الشهوة ويُهدِّىء من شراسة الغريزة ؛ ذلك لأنه يأكل فقط ما يقيم أَوْدَه ، ولا يبقى فى بدنه ما يثير الشهوة ، كما جاء فى الحديث الشريف : « بحسْب ابن آدم لقيمات يُقمْنَ صُلْبه ... »[3] .

(١) الوجاء : هو أن تُضرب الخصيتان ضربة شديدة تذهب شهوة الجماع وينزل منزلة الخصى . وقال ابن منظور فى [اللسان - مادة : وجا] : أراد أن الصوم يقطع النكاح كما يقطعه الوجاء .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٦٥) ، ومسلم فى صحيحه (١٤٠٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٣٢) ، والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) من حديث المقدام ابن معدى كرب وتمامه : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفَسه » .

أو : أن يُفرِّغ الشاب نفسه للعمل النافع المفيد الذى يشغله ويستنفد جَهْده وطاقته ، التى إن لم تصرف فى الخير صرفت فى الشر ، وبالعمل يثبت الشاب ذاته ، ويثق بنفسه ، ويكتسب الحلال الذى يُشجِّعه مع الأيام على الزواج وتحمُّل مسئولياته .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ .. (٣٣) ﴾ [النور] ولم يقُلْ : وليعف ، فالمعنى ليسلك سبيل الإعفاف لنفسه وليسْعَ إليه ، بأن يمنع المهيِّج بالنظر ويُهدئ شراسة الغريزة بالصوم ، أو بالعمل فيشغل وقته ويعود آخر النهار متعباً يريد أن ينام ليقوم فى الصباح لعمله نشيطاً ، وهكذا لا يجد فرصة لشيء مما يغضب الله .

ومعنى : ﴿ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا .. (٣٣) ﴾ [النور] أى : بذواتهم قدرة أو بمجتمعهم معونة .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. (٣٣) ﴾ [النور] يدل على أن الاستعفاف وسيلة من وسائل الغنى ؛ لأن الاستعفاف إنما نشأ من إرادة التقوى ، وقد قال تعالى فى قضية قرآنية : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ (٣) ﴾ [الطلاق] فمن هذا الباب يأتيه غنَى الله .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ .. (٣٣) ﴾ [النور]

الكتاب : معروف أنه اجتماع عدة أشياء مكتوبة فى ورق ، والمراد هنا المكاتبة ، وهى أن تكتب عَقْداً بينك وبين العبد المملوك ، تشترط فيه أن يعمل لك كذا وكذا بعدها يكون حراً ، إنْ أدَّى ما ذكر فى عَقْد المكاتبة .

﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا .. (٣٣) ﴾ [النور] يعنى : إنْ كانت حريتهم ستؤدى إلى خير كأنْ ترفع عنهم ذلّة العبودية ، وتجعلهم ينشطون فى الحياة نشاطاً يناسب مواهبهم .

لذلك جعل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ هذه المكاتبة مَصْرفاً من مصارف الزكاة ، فقال تعالى : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ .. (١٧٧) ﴾ [البقرة] يعنى : المماليك الذين نريد أنْ نفكَّ رقابهم من أسْر العبودية وذُلِّها بالعتق ، وإنْ كان مال الزكاة يُدفع للفقراء وللمساكين .. إلخ ففى الرقاب يدفع المال للسيد ليعتق عبده .

كما جعل الإسلام عتْق الرقاب كفارةً لبعض الذنوب بين العبد وبين ربه ؛ ذلك لأن الله تعالى يريد أن يُنهى هذه المسألة .

﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ .. (٣٣) ﴾ [النور]

الحق ـ تبارك وتعالى ـ هو الرازق ، والمال فى الحقيقة مال الله ، لكن إنْ ملّكك وطلب منك أن تعطى أخاك الفقير يحترم ملكيتك ، ولا يعود سبحانه فى هبته لك ؛ لذلك يأخذ منك الصدقة على أنها قَرْض لا يردُّه الفقير ، إنما يتولى ربك عز وجل ردّه ، فيقول : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥) ﴾ [البقرة] ولم يقُلْ سبحانه : يقرض فلاناً ، وإنما يُقرض الله لأنه تعالى هو الخالق ، ومن حق عبده الذى استدعاه للوجود أَنْ يرزقه ويتكفّل له بقُوته .

واحترام الملكية يجعل الإنسان مطمئناً على آثار حركة حياته وثمرة جهده ، وأنها ستعود عليه ، وإلاّ فما الداعى للعمل ولبذل المجهود إنْ ضاعت ثمرته وحُرم منها صاحبها ؟ عندها ستتعطل مصالح كثيرة وسيعمل الفرد على قَدْر حاجته فحسب ، فلا يفيض عنه شىء للصدقة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) ﴾ [النور]

يُقَال للمملوك : فتى ، وللمملوكة : فتاة ، فقد نهى النبى ﷺ أن يقول الرجل : عبدى[1] وأمَتى إنما يقول : فتاى وفتاتى ، فهذه التسمية أكرم لهؤلاء وأرفع ، فالفتى من الفُتوّة والقوة كأنك تقول : هذا قوتى الذى يساعدنى ويعيننى على مسائل الحياة ، فالنبى ﷺ يريد أن يرفع من شأنهم .

ومن هؤلاء جماعة المماليك الذين حكموا مصر فى يوم من الأيام ، وكانوا من أبناء الملوك والسلاطين والأعيان .

والبغاء ظاهرة جاء الإسلام فوجدها منتشرة ، فكان الرجل الذى يملك مجموعة من الإماء ينصب لهُنّ راية تدل عليهن ، ويأتيهن الشباب ويقبض هو الثمن ، ومن هؤلاء عبد الله بن أبىّ بن سلول رأس النفاق ، وكان عنده (مسيكة ، ومعاذة) وفيه نزلت هذه الآية[2] .

وتأويل الآية : لا تُكرهوا الإماء على البغاء ، وقد كُنّ يبكين ، ويرفضْنَ هذا الفعل ، وكُنَّ يؤذيْنَ ويتعرضْنَ للغمز واللمز ، ويتجرأ

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يقل أحدكم : أطعم ربك ، وضِّىء ربك . وليقل : سيدى مولاى . ولا يقل أحدكم : عبدى ، أمتى ، وليقل : فتاى وفتاتى وغلامى » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٥٥٢) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٤٩) كتاب الألفاظ من الأدب .

(٢) قال الزهرى : كانت جارية لعبد الله بن أبى بن سلول يقال لها معاذة يُكرهها على الزنا ، فلما جاء الإسلام نزلت ﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ .. (٣٣) ﴾ [النور] . أخرجه البزار فى مسنده (أورده ابن كثير فى تفسيره ٢٨٨/٣) وعن جابر قال : نزلت فى أمة لعبد الله بن أبى بن سلول يقال لها مسيكة ، كان يكرهها على الفجور وكانت لا بأس بها فتأبى فأنزل الله هذه الآية ﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ .. (٣٣) ﴾ [النور] قاله الأعمش .

عليهن الناس ، وكان من هؤلاء الإماء بنات ذوات أصول طيبة شريفة ، لكن ساقتهن الأقدار إلى السَّبْى فى الحروب أو خلافه ، فى حين أن الحرة العفيفة تسير لا يتعرض لها أحد بسوء .

ومعنى : ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا .. (٣٣)﴾ [النور] يتكلم القرآن هنا عن الواقع بحيث إنْ لم يُردْنَ تحصُّناً فلا تُكرهوهُنَّ ﴿لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٣٣)﴾ [النور] طلباً للقليل من المال الزائل ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣)﴾ [النور] لأنهن فى حالة الإكراه على البغاء يفقدنَ شرط الاختيار ، فلا يتحملن ذنب هذه الجريمة ، عملاً بالحديث النبوى الشريف : « رُفِع عن أمتى : الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه »[1] .

لذلك يُطمئن الحق ـ تبارك وتعالى ـ هؤلاء اللاتى يُردْنَ التحصُّن والعفاف ، لكنْ يكرههن سيدهن على البغاء ، ويُرغمهن بأىِّ وسيلة : اطمئنن فلا ذنبَ لَكُنَّ فى هذه الحالة ، وسوف يُغفر لَكُنَّ والله غفور رحيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤)﴾

المعنى : لا عذر لكم ؛ لأن الله تعالى قد أنزل إليكم الآيات الواضحة التى تضمن لكم شرف الحياة وطهارتها ونقاء نسل الخليفة

---

(١) أخرج معناه ابن ماجة فى سننه (٢٠٤٥) والدارقطنى فى سننه (٤/ ١٧٠) والحاكم فى المستدرك (٢/ ١٩٨) وصححه على شرط الشيخين عن ابن عباس بلفظ : « إن الله تجاوز عن أمتى : الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » وانظر كشف الخفاء (١/ ٥٢٢) .

لله في الأرض ، وهذه الآيات ما تركتْ شيئاً من أقضية الحياة إلا تناولتْه وأنزلتْ الحكم فيه ، وقد نلتمس لكم العذر لو أن فى حياتكم مسألة أو قضية ما لم يتناولها التشريع ولم ينظمها .

لذلك يقول سيدنا الإمام على ـ رضى الله عنه ـ عن القرآن : فيه حكم ما بينكم ، وخبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، هو الفَصْل ليس بالهَزْل ، مَنْ تركه من جبار قصمه الله ، ومَن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله[1] .

ولا يزال الزمان يُثبِت صدْق هذه المقولة ، وانظر هنا وهناك لتجد مصارع الآراء والمذاهب والأحزاب والدول التى قامت لتناقض الإسلام ، سواء كانت رأسمالية شرسة أو شيوعية شرسة . إلخ . كلها انهارت على مَرْأىً ومَسْمع من الجميع .

نعم ، مَنْ تركه من جبار قصمه الله ، ومَن ابتغى الهدى فى غيره أضلَّه الله ، لأنه خالقك ، وهو أعلم بما يُصلحك ، فلا يليق بك ـ إذن ـ أن تأخذ خَلْق الله لك ثم تتكبر عليه وتضع لنفسك قانوناً من عندك أنت .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الآيات تطلق على ثلاثة إطلاقات : الآيات الكونية التى تلفتك إلى الصانع المبدع عز وجل ، وعلى المعجزات التى تأتى لتثبت صدْق الرسول فى البلاغ عن الله ، وتُطلق على الآيات الحاملة للأحكام وهى آيات القرآن الكريم ، وفى القرآن هذا كله .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤) ﴾ [النور]

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٢٨٩) .

أى : جعلنا لكم موعظة وعبرة بالأمم السابقة عليكم ، والتى بلغت شأوها فى الحضارة ، ومع ذلك لم تملك مُقوِّمات البقاء ، ولم تصنع لنفسها المناعة التى تصونها فانهارت ، ولم يبق منهم إلا آثار كالتى نراها الآن لقدماء المصريين ، وقد بلغوا من الحضارة منزلةً أدهشت العالم المتقدم الحديث ، فيأتون الآن متعجبين : كيف فعل قدماء المصريين هذه الحضارة ؟

وكان أعظم من حضارة الفراعنة حضارة عاد التى قال الله عنها : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ۝٨ ﴾ [الفجر] يعنى : ليس لها مثيل فى الدنيا ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾ [الفجر] يعنى : لن يفلت من المخالفين أحد ، ولن ينجو من عذاب الله كافر .

والمثل كذلك فى مسألة الزنا وقَذْف المحصنات العفيفات ، كحادثة الإفك التى سبق الكلام عنها ، وأنها كانت مَثَلاً وعبرةً ، كذلك كانت قصة السيدة مريم مثلاً وقد اتهمها قومها ، وقالوا : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝٢٨ ﴾ [مريم]

وكذلك كانت قصة يوسف عليه السلام وامرأة العزيز ، وكلها مسائل تتعلق بالشرف ، ولم تَخْلُ من رَمْى العفيفات المحصنات ، أو العفيف الطاهر يوسف بن يعقوب عليهما السلام .

وهذه الآيات مبينات للوجود الأعلى فى آيات الكون ، مُبينات لصِدْق المبلِّغ عن الله فى المعجزات ، مُبيِّنات للأحكام التى تنظم حركة

الحياة فى آيات القرآن ، ثم أريناهم عاقبة الأمم السابقة سواء مَنْ أقبل منهم على الله بالطاعة ، أو مَنْ أعرض عنه بالمعصية ، ولا يستفيد من هذه المواعظ والعبَر إلا المتقون الذين يخافون الله وتثمر فيهم الموعظة .

﴿ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

قلنا : فإن الله تعالى أعطانا النور الحسىَّ الذى نرى به مرائى الأشياء ، وجعله وسيلة للنور المعنوى ، وقلنا : إن الدنيا حينما تظلم ينير كل منَّا لنفسه على حسب قدراته وإمكاناته فى الإضاءة ، فإذا ما طلعتْ الشمس وأنار الله الكون أطفأ كل منَّا نوره ؛ لأن نور الله كافٍ ، فكما أن نور الله كافٍ فى الحسيات فنوره أيضاً كافٍ فى المعنويات .

فإذا شرع الله حكماً معنوياً يُنظِّم حركة الحياة ، فإياكم أن تعارضوه بشىء من عندكم ، فكما أطفأتم المصابيح الحسية أمام مصباحه فأطفئوا مصابيحكم المعنوية كذلك أمام أحكامه تعالى وأوامره ، والأمر واضح فى الآيات الكونية .

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٣٥)﴾ [النور] كما نقول ولله المثل الأعلى : فلان نوَّر البيت ، فالآية لا تُعرِّف الله لنا ، إنما تُعرِّفنا أثره تعالى فينا ، فهو سبحانه مُنوِّر السموات والأرض ، وهما أوسع شيء نتصوره ، بحيث يكون كل شيء فيهما واضحاً غيرَ خفيّ .

ثم يضرب لنا ربنا ـ عز وجل ـ مثلاً توضيحياً لنوره ، فيقول : ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. (٣٥)﴾ [النور] أى : مثَلُ تنويره للسموات وللأرض ﴿كَمِشْكَاةٍ .. (٣٥)﴾ [النور] وهى الطاقة التى كانوا يجعلونها قديماً فى الجدار ، وهى فجوة غير نافذة يضعون فيها المصباح أو المِسْرجة ، فتحجز هذه الفجوة الضوء وتجمعه فى ناحية فيصير قوياً ، ولا يصنع ظِلاً أمام مسار الضوء .

والمصباح : إناء صغير يُوضَع فيه زيت أو جاز فيما بعد ، وفى وسطه فتيل يمتصّ من الزيت فيظل مشتعلاً ، فإنْ ظلَّ الفتيل فى الهواء تلاعبَ به وبدَّد ضوءه وسبَّب دخاناً ؛ لأنه يأخذ من الهواء أكثر من حاجة الاحتراق ؛ لذلك جعلوا على الفتيل حاجزاً من الزجاج ليمنع عنه الهواء ، فيأتى الضوء منه صافياً لا دخانَ فيه ، وكانوا يسمونه (الهباب) .

وهكذا تطور المصباح إلى لمبة وصعد نوره وزادت كفاءته ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ .. (٣٥)﴾ [النور] لكنها ليست زجاجة عادية ، إنما زجاجة ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ .. (٣٥)﴾ [النور] يعنى : كوكب من الدُّرّ ، والدُّر ينير بنفسه .

كذلك زَيْتها ليس زيتاً عادياً ، إنما زيت زيتونة مباركة.

يقول الحق سبحانه : ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور]

يعنى : شجرة زيتون لا شرقية ولا غربية ، يعنى : لا شرقية لأنها غربية ، ولا غربية لأنها شرقية ، فهى إذن شرقية غربية على حَدٍّ سواء ، لكن كيف ذلك ؟

قالوا : لأن الشجرة الزيتونة حينما تكون فى الشرق يكون الغرب مظلماً ، وحينما تكون فى الغرب يكون الشرق مظلماً ، إذن : يطرأ عليها نور وظلمة ، إنما هذه لا هى شرقية ولا هى غربية ، إنما شرقية غربية لا يحجز شىء عنها الضوء .

وهذا يؤثر فى زيتها ، فتراه من صفائه ولمعانه ﴿ يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور] ، وتعطى الشجرة الضوء القوى الذى يناسب بنوتها للشمس ، فإن كانت الشمس هى التى تنير الدنيا ، فالشجرة الزيتونة هى ابنتها ، ومنها تستمد نورها ، بحيث لا يغيب عنها ضوء الشمس .

إذن : مَثَلُ تنوير الله للسمٰوات وللأرض مثل هذه الصورة مكتملة كما وصفنا ، وانظر إلى مشكاة فيها مصباح بهذه المواصفات ، أيكون بها موضع مظلم ؟ فالسموات والأرض على سعتهما كمثل هذه المشكاة ، والمثل هنا ليس لنور الله ، إنما لتنويره للسموات وللأرض ، أما نوره تعالى فشىء آخر فوق أنْ يُوصَف . وما المثَل هنا إلا لتقريب المسألة إلى الأذهان .

وسبق أنْ ذكرنا قصة أبى تمام حين وصف الخليفة ومدحه بأبرز الصفات عند العرب ، فقال :

إقْدَامُ عَمْرٍو فِى سَمَاحَةِ حَاتِمٍ   فى حِلْمِ أحنفَ فى ذَكَاءِ إيَاسِ

فجمع للخليفة كل هذه الصفات ومدحه بأشهر الخصال عند العرب ؛ لذلك قام إليه أحد الحاقدين وقال معترضاً عليه : كيف تشبه الخليفة بصعاليك العرب ؟ فالأمير فوق مَنْ وصفتَ .

فأكمل أبو تمام على البديهة وبنفس الوزن والقافية :

لاَ تُنكروا ضَرْبى لَهُ مَنْ دُونَهُ مثَلاً   شَرُوداً فى النَّدَى والبَاسِ
فَاللهُ قَدْ ضربَ الأقلَّ لنُوره   مَثَلاً من المشْكَاة والنِّبراسَ

فالله ـ تبارك وتعالى ـ هو نور السموات والأرض أى : مُنوِّرهما ، وهذا أمر واضح جداً حينما تنظر إلى نور الشمس ساعة يظهر يجلو الكون ، بحيث لا يظهر معه نور آخر ، وتتلاشى أنوار الكواكب الأخرى والنجوم رغم وجودها مع الشمس فى وقت واحد ، لكن يغلب على نورها نور الشمس ، على حَدِّ قول الشاعر فى المدح :

كأنكَ شَمْسٌ والملُوكُ كَواكبٌ   إذَا ظَهَرتْ لَمْ يَبْدُ منهُنّ كوكَبُ

ثم يقول سبحانه : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥) ﴾ [النور] فلم يتركنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى النور الحسىِّ فقط ، إنما أرسل إلينا نوراً آخر على يد الرسل هو نور المنهج الذى ينظم لنا حركة الحياة ، كأنه تعالى يقول لنا : بعثت إليكم نوراً على نور ، نور حسِّى ، ونور قيمى معنوى ، وإذا شهدتم أنتم بأن نورى الحسىّ ينير لكم السموات والأرض ، وإذا ظهر تلاشت أمامه كل أنواركم ، فاعلموا أن نور منهجى كذلك يطغَى على كل مناهجكم ، وليس لكم أن تأخذوا بمناهج البشر فى وجود منهج الله .

وقوله تعالى : ﴿ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ .. (٣٥) ﴾ [النور] أى : لنوره المعنوى نور المنهج ونور التكاليف ، والكفار لم يهتدوا إلى هذا النور ، وإن اهتدوا إلى النور الحسىِّ فى الشمس والقمر وانتفعوا به ، وأطفأوا لهُ مصابيحهم ، لكن لم يكُنْ لهم حظ فى النور المعنوى ، حيث أغلقوا دونه عيونهم وقلوبهم وأسماعهم فلم ينتفعوا به .

وكان عليهم أن يفهموا أن نور الله المعنوى مثْلُ نوره الحسى لا يمكن الاستغناء عنه ، لذلك جاء فى أثر على بن أبى طالب : « من تركه من جبَّار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله » .

والعجيب أن العبد كلما توغل في الهداية ازداد نوراً على نور ، كما قال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩) ﴾ [الأنفال]

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ .. (٣٥) ﴾ [النور] يعني : للعبرة والعظة مثل المثل السابق لنوره تعالى ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾ [النور]

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ (٣٦) ﴾

بدأت الآية بالجار والمجرور ﴿ فِي بُيُوتٍ .. (٣٦) ﴾ [النور] ولا بُدَّ أن نبحث له عن متعلق ، فالمعنى : هذا النور الذى سبق الحديث عنه فى بيوت أَذِن الله أن تُرفع . والبيت : هو ما أُعدَّ للبيتوتة ، بل لمعيشة الحياة الثابتة ، وإليه يأوى الإنسان بعد عناء اليوم وطوافه فى مناكب الأرض ، والبيت على أية صورة هو مكان الإنسان الخاص الذى يعزله عن المجتمع العام ، ويجعل له خصوصية فى ذاته ، وإلا فالإنسان لا يرضى أن يعيش فى ساحة عامة مع غيره من الناس .

وهذه الخصوصية فى البيوت يتفاوت فيها الناس وتتسامى حسْب إمكاناتهم ، وكل إنسان يريد أنْ يتحيَّز إلى مكان خاص به ؛ لأن التحيّز أمر مطلوب فى النفس البشرية : الأسرة تريد أن تتحيز عن المجتمع العام ، والأفراد داخل الأسرة يريدون أن يتحيزوا أيضاً ، كل إلى حجرة تخصه ، وكذلك الأمر فى اللباس ، ذلك لأن لكل واحد منا

مساتير بينه وبين نفسه ، لا يحب أن يطلع عليها أحد .

وقد اتخذ الله له بيتاً فى الأرض ، هو أول بيت وُضع للناس ، كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا .. (٩٦) ﴾ [آل عمران]

وهذا هو بيت الله باختيار الله ، ثم تعددتْ بيوت الله التى اختارها خَلْق الله ، فكما اتخذتم لأنفسكم بيوتاً اتخذ الله لنفسه بيوتاً ﴿ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ .. (٣٦) ﴾ [النور] وأنتم جميعاً عباد الله وعيال الله ، وسوف تجدون الراحة فى بيته تعالى كما تجدون الراحة فى بيوتكم ، مع الفارق بين الراحة فى بيتك والراحة فى بيت الله .

الراحة فى بيوتكم راحة حسِّية بدنية فى صالون مريح أو مطبخ مليء بالطعام ، أمّا فى بيت الله فالراحة معنوية قيمية ؛ لأن ربك ـ عز وجل ـ غيْبٌ فيريحك أيضاً بالغيب .

لذلك كان النبى ﷺ كلما حزبه أمر يقوم إلى الصلاة[1] ليُلقى بأحماله على ربه . وماذا تقول فى صنعة تُعرض على صانعها مرة واحدة كل يوم ، أيبقى بها عطل أو فساد ؟ فما بالك إنْ عُرِضَتْ على صانعها خمس مرات فى اليوم والليلة ؟

فربُّكَ يدعوك إلى بيته ليريحك ، وليحمل عنك همومك ، ويصلح ما فسد فيك ، ويفتح لك أبواب الفرج . إذن : فنور على نور هذه لا تكون إلا فى بيوت الله التى أَذِن سبحانه أن تُرفعَ بالذكر وبالطاعات وترفع عما يحل فى الأماكن الأخرى وتعظم .

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) من حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه .

فالبيوت كلها لها مستوى واحد ، لكن ترفع بيوت عن بيوت وتُعلَّى وقد رُفعَتْ بيوت الله بالطاعة والعبادة ، فالمسجد مكان للعبادة لا يُعصَى الله فيه أبداً على خلاف البيوت والأماكن الأخرى ، فعظّم الله بيوته أن يُعْصَى فيها ، وعظّم روادها أن يشتغلوا فيها بسفاسف الأمور الحياتية الدنيوية ، فعليك أن تترك الدنيا على باب المسجد كما تترك الحذاء .

لذلك نهى الإسلام أن نعقد صفقة فى بيت الله ، أو حتى ننشد فيه الضالة ؛ لأن الصفقة التى تُعقَد فى بيت الله خاسرة بائرة ، والضالة التى ينشدها صاحبها فيه لا تُردُّ عليه ، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول لمن يفعل هذا بالمسجد : « لا ردها الله عليك »[1] .

وإنْ جعل الله الأرض كلها لأمة محمد ﷺ مسجداً وطهوراً ، لكن فَرْقٌ بين الصلاة فى المسجد والصلاة فى أىٍّ مكان آخر ، المسجد خُصِّص للعبادة ، ولا نذكر فيه إلا الله ، أمّا الأماكن الأخرى فتصلح للصلاة ، وأيضاً لمزاولة أمور الدنيا .

وإلا ، فكيف تعيش كل وقتك لأمور الدنيا على مدار اليوم والليلة ، ثم تستكثر على ربك هذه الدقائق التى تؤدى فيها فَرْض الله عليك فتجرجر الدنيا معك حتى فى بيت الله ؟ ألا تعلم أن بيوت الله ما جُعلت إلا لعبادة الله ؟ لا بد للمؤمن أن يترك دُنْياه خارج المسجد ، وأن ينوى الاعتكاف على عبادة ربه والمداومة على ذِكْره فى بيته ، فلا يليق بك أن تكون فى بيت الله وتنشغل بغيره .

فإن التزمتَ بآداب المسجد تلقيتَ من ربك نوراً على نور ، وزال

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال ﷺ : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد ضالة فقولوا : لا ردها الله عليك » أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة (ص ٧٣) والدارمى فى سننه (١/٣٢٦) والترمذى فى سننه (١٣٢١) وقال : حسن غريب .

عن كاهلك الهمّ والغم وحلّت مشاكلك من حيث لا تحتسب .

إذن : فالحق ـ تبارك وتعالى ـ جعل فى الفطرة الإيمانية أن تؤمن بإله ، فالإيمان أمر فطرى مهما حاول الإنسان إنكاره ، فالكافر الذى ينكر وجود الله ساعة يتعرَّض لأزمة لا منجاةَ منها بأسباب البشر تجده تلقائياً يتوجه إلى الله يقول : يا رب ، لا يمكن أن يكذبَ على نفسه فى هذه الحالة أو يُسلم نفسه ويبيعها رخيصة .

وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ[1] نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا .. (٨) ﴾ [الزمر]

ومن دقة الأداء القرآنى فى هذه المسألة قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعة]

فذكر طرفاً واحداً من عملية التجارة وهو البيع ، ولم يقل : والشراء ، قالوا : لأنه حين يُمنع البيع يُمنع الشراء فى الوقت نفسه ؛ ولأن الإنسان يحرص على البيع لكن قد يشترى وهو كاره ، فشهوة الإنسان متعلقة بالبيع لا بالشراء ، لأن الشراء يحتاج منه إلى مال على خلاف البيع الذى يجلب له المال .

إذن : قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ..(٩) ﴾ [الجمعة] إنما ذكر قمة حركة الحياة وخلاصتها ، فكل حركات الحياة من تجارة أو زراعة أو صناعة تنتهى إلى مسألة البيع ؛ لذلك يحزن البائع إذا لم يَبِعْ ، أما المشترى فيقول حين لا يجد الشىء أو يجد المحل مُغلَقاً : بركة يا جامع .

---

(١) خوَّله كذا : ملَّكه إياه متفضّلاً عليه بغير عوض . [القاموس القويم ١/ ٢١٤] .

ثم إذا انتهتْ الصلاة يعيدنا من جديد إلى حركة الحياة : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. ①⓪ ﴾ [الجمعة]

كأنك ذهبتَ للمسجد لتأخذ شحنة إيمانية تعينك وتسيطر على كُلِّ حواسك في حركتك في التجارة ، وفي الإنتاج ، وفي الاستهلاك ، وفي كل ما ينفعك ويُنمي حياتك . وحين يأمرك ربك أن تفرغ لأداء الصلاة لا يريد من هذا الفراغ أن يُعطِّل لك حركة الحياة ، إنما ليعطيك الوقود اللازم لتصبح حركة حياتك على وَفْق ما أراده الله . وما أشبه هذا الوقت الذي نختزله من مصالح دنيانا في عبادة الله بشحن بطارية الكهرباء ، فحين تذهب بالبطارية إلى جهاز الشحن لا نقول : إنك عطلت البطارية إنما زدتَ من صلاحيتها لأداء مهمتها وأَخْذ خيرها .

فأنت تذهب إلى بيت الله بنور الإيمان ، وبنور الاستجابة لنداء : الله أكبر ، فتخرج بأنوار متعددة من فيوضات الله ؛ لذلك ضرب لنا الحق - تبارك وتعالى - مثلاً لهذا النور بالمصباح الذي يتنامى نوره ويتصاعد ؛ لأنه في زجاجة تزيد من ضوئه ؛ لأنها مثل كوكب دُرِّيٍّ والنور يتصاعد ؛ لأنها بزيت زيتونة ، ويتصاعد لأنها شرقية وغربية في آن واحد ، إذن : عندنا ألوان متعددة في المثل ، فكذلك النور في بيوت الله .

لذلك قال بعض العارفين : أهل الأرض ينظرون في السماء نجوماً متلألئة ، والملائكة في السماء ينظرون نجوماً متلألئة من بيوت الله ، ولا عجبَ في ذلك لأنها أنوار الله تتلألأ وتتدفق في بيته وفي مسجده ، وكيف نستبعد ذلك ونحن نرى نور الشمس كيف يفعل حينما ينعكس على سطح القمر فيُلقي إلينا بالضوء الذي نراه ؟ والشمس والقمر أثر من آثار نور الله الذي يَسْطع في بيوت الله ، ألاَ يعطينا ذلك الإشعاع الذي يفوق إشعاع البدور ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ[1] لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) ﴾[النور]
فالمساجد جُعلَتْ لتسبيح الله ؛ لذلك كان بعض الصالحين إذا نزل بلداً يتحيل أن ينزلها في غير وقت الصلاة ، ثم يذهب إلى المسجد فإنْ وجده عامراً في غير وقت الصلاة بالمسبحين علم أن هؤلاء ملتزمون بمنهج الله ، حيث يجلسون قبل وقت الصلاة يُسبِّحون الله وينتظرون الصلاة ، وإنْ وجد الحال غير ذلك انصرف عنها وعلم أنها بلد لا خيرَ فيها[2] .

والغُدوُّ : يعنى الصباح ، والآصال : يعنى المساء ، فهى لا تخلو أبداً من ذكْر الله وتسبيحه ، وقد وصف هؤلاء الذين يعمرون بيوت الله بالذكر والتسبيح بأنهم :

﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ[3] فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) ﴾

قلنا : إن التجارة هي قمة حركة الحياة ؛ لأنها واسطة بين منتج زارع أو صانع وبين مستهلك ، وهي تقتضى البيع والشراء ، وهما قمة التبادلات ، وهؤلاء الرجال لم تُلْههمْ التجارة عن ذكْر الله لأنهم عرفوا ما فى الزمن المستقطع للصلاة مِنَ بركة تنتشر فى الزمن الباقى .

---

(١) هناك قراءة أخرى « يُسبَّح » قرأها عبد الله بن عامر وعاصم فى رواية أبى بكر عنه والحسن . بفتح الباء على ما لم يُسمَّ فاعله . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٨١٢/٦) .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤٨١٢/٦) : « رأى سالم بن عبد الله أهل الأسواق وهم مقبلون إلى الصلاة ، فقال : هؤلاء الذين أراد الله بقوله ﴿ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ..(٣٧) ﴾ [النور] ثم قال : « اختلف العلماء فى وصف الله تعالى المسبحين . فقيل : هم المراقبون أمر الله ، الطالبون رضاءه ، الذين لا يشغلهم عن الصلاة وذكر الله شىء من أمور الدنيا » .

(٣) كناية عن الحيرة والفزع الشديد والبحث عن موضع للفرار من أهوال يوم القيامة . [القاموس القويم ١٢٩/٢] . وقيل : تتقلب القلوب بين الطمع فى النجاة والخوف من الهلاك ، والأبصار تنظر من أى ناحية يعطون كتبهم وإلى أى ناحية يؤخذ بهم [تفسير القرطبى ٤٨١٧/٦] .

أو نقول : إن التجارة لم تُلْههم عن ذكْر الله فى ذاتها ، فهُمْ حالَ تجارتهم لا يغفلون عن ذكر الله ، وقد كنا فى الصِّغَر نسمع فى الأسواق بين البائع والمشترى ، يقول أحدهما للآخر : وحِّد الله ، صلِّ على النبى ، مدَّح النبى ، بالصلاة على النبى ، كل هذه العبارات انقرضت الآن من الأسواق والتعاملات التجارية وحَلَّ محلَّها قيم وعبارات أخرى تعتمد على العَرْض والإعلان ، بل الغش والتدليس .
ولم نَعُدْ نسمع هذه العبارات ، حتى إذا لم يتم البيع كنت تسمع البائع يقول : كسبنا الصلاة على النبى ، فهى فى حَدِّ ذاتها مكسب حتى لو لم يتم البيع .

﴿ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [النور] الصلاة لأنها تأخذ وقتاً من العمل ، وكثيراً ما ينشغل المرء بعمله وتجارته عن إقامة الصلاة ظاناً أنها ستُضيِّع عليه الوقت ، وتُفوِّت عليه مصالح كثيرة ، وكذلك ينظر إلى الزكاة على أنها تنقص من ماله ، وهذه نظرة خاطئة حمقاء ؛ لأن الفلاح الذى يُخرِج من مخزنه أردباً من القمح ليزرع به أرضه : الأحمق يقول : المخزن نقص أردباً ، أما العاقل فيثق أن هذا الأردب سيتضاعف عند الحصاد أضعافاً مضاعفة .

أو : أن الله تعالى يفيض عليه من أنواره ، فيبارك له فى وقته ، وينجز من الأعمال فى الوقت المتبقى ما لا ينجزه تارك الصلاة ، أو : يرزقه بصفقة رابحة تأتيه فى دقائق ، ومن حيث لا يحتسب ، والبركة كما قلنا قد تكون سَلْباً وقد تكون إيجاباً ، وهذه كلها أنوار وتجليات يفيض الله بها على الملتزم بمنهجه .

ثم يقول سبحانه فى صفات هؤلاء الرجال : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النور] ذلك لأنهم يتاجرون لهدف أسمى

وأخلد ، فأهل الدنيا إنما يتاجرون لصيانة دنياهم ، أمّا هؤلاء فيتاجرون مع الله تجارة لن تبور ، تجارة تصون الدنيا وتصون الآخرة .

وإذا قستَ زمن دنياك بزمن أُخْراك لوجدته هباء لا قيمةَ له ، كما أنه زمن مظنون لعمر مظنون ، لا تدرى متى يفاجئك فيه الموت ، أمّا الآخرة فحياة يقينية باقية دائمة ، وفى الدنيا يفوتك النعيم مهما حَلاً وطال ، أما الآخرة فنعيمها دائم لا ينقطع .

إذن : فَهُمْ يعملون للآخرة ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧)﴾ [النور] واليوم فى ذاته لا يُخاف منه ، وإنما يُخاف ما فيه ، كما يقول الطالب : خفْت يوم الامتحان ، واليوم يوم عادى لا يخاف منه ، إنما يُخاف مما سيحدث فى هذا اليوم ، فالمراد : يخافون عذاب هذا اليوم .

ومعنى ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧)﴾ [النور] يعنى : رجفة القلب واضطراب حركته ، وما ينتابه من خفقان شديد ، ونحن نرى ما يصيب القلوب من ذلك لمجرد أحداث الدنيا ، فما بالك بهوْل الآخرة ، وما يحدث من اضطراب فى القلب ؟

كذلك تضطرب الأبصار وتتقلّب هنا وهناك ؛ لأنها حين ترى الفزع الذى يخيفها تتقلب ، تنظر هنا وتنظر هنا علّها ترى ما يُطمئنها أو يُخفّف عنها ما تجد ، لكن هيهات فلن ترى إلا فزعاً آخر أشدّ وأنكى .

لذلك ينتهى الموقف إلى : ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ .. (٤٣)﴾ [القلم] ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩)﴾ [النازعات] يعنى : ذليلة منكسرة حيث لا مفرّ ولا مَنْجى ، ولن يجد فى هذا اليوم راحة إلا مَنْ قدم له العمل الصالح كالتلميذ المجتهد الواثق من نفسه ومعلوماته.

يتلهف إلى ورقة الأسئلة ، أما الآخر فيقف حائراً لا يدرى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) ﴾

أى : فى هذا اليوم يجزيهم الله أحسن ما عملوا ، ما شاء الله على رحمة الله !! لكن كيف بأسوأ ما عملوا ؟ هذه دَعُوها لرحمة الله ولمغفرته ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ .. (٣٨) ﴾ [النور] لأن الله تعالى لا يعاملنا فى الحسنات بالعدل ، ولا يجازينا عليها بالقسطاس المستقيم وعلى قَدْر ما نستحق ، إنما يزيدنا من فضله .

لذلك ورد فى الدعاء : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان . فليس لنا نجاة إلا بهذا ، كما يقول سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) ﴾ [النور] والرزق : كُلُّ ما يُنتفع به ، وكل معنى فيه فوقية لك هو رزق ، فالصحة رزق ، والعلم رزق ، والحلم رزق ، والشجاعة رزق .. إلخ .

والبعض يظن أن الرزق يعنى المال ، وهذا خطأ ؛ لأن الرزق مجموعُ أمور كثيرة ، فإنْ كان رزقُك علماً فعلِّم الجاهل ، وإنْ كان رزقك قوةً فأعِن الضعيف ، وإنْ كان رزقك حلْماً فاصبر على السَّفيه ، وإن كان رزقكَ صنعة تجيدها ، فاصنع لآخرَ لا يجيد شيئاً .

وإذن : هذا كله رزق ، وما دام ربك - عز وجل - يرزقك بغير حساب ، ويفيض عليك من فضله فأعْطِ المحتاجين ، وارزق أنت أيضاً

المعدمين ، واعلم أنك مُناول عن الله ، والرزق فى الأصل من الله وقد تكفّل لعباده به ، وما أنت إلا يد الله الممدودة بالعطاء ، واعلم أنك ما دُمْتَ واسطة فى العطاء ، فأنت تعطى من خزائن لا تنفد ، فلا تضنّ ولا تبخل ، فما عندكم ينفد وما عند الله بَاقٍ .

والحساب : أنْ تحسب ثمرة الأفعال : هذه تعطى كذا ، وهذا ينتج كذا ، يعنى ميزانية ودراسة جدوى ، أمّا عطاء الله فيأتيك دون هذه الحسابات ، فأنت تحسب ؛ لأن وراءك مَنْ سيحاسبك ، أمّا ربك عز وجل فلا يحاسبه أحد ؛ لذلك يعطيك بلا عمل ودون أسباب ، ويعطيك بلا مُقدِّمات ، ويعطيك وأنت لا تستحق ، ألاَ ترى مَنْ تتعثر قدمه فيجد تحتها كنزاً ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يلفت أنظار مَنْ شغلتهم الدنيا بحركتها ونشاطها عن المراد بالآخرة ، فيصنعون صنائع معروف كثيرة ، لكن لم يُخلصوا فيها النية لله ، والأصل فى عمل الخير أنْ يكون من الله ولله ، وسوف يُواجَه هؤلاء بهذه الحقيقة فيقال لأحدهم كما جاء فى الحديث : « عملت ليقال وقد قيل »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) وأحمد فى مسنده (٢/٣٢٢) والنسائى فى سننه (٦/٢٣ ، ٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وفيه : « إن أول الناس يُقْضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل . ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقِى فى النار » الحديث .

لقد مدحوك وأثنَوْا عليك ، وأقاموا لك التماثيل وخلَّدوا ذكْراك ؛ لذلك رسم لهم القرآن هذه الصورة : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا .. (٣٩) ﴾ [النور]

﴿ أَعْمَالُهُمْ .. (٣٩) ﴾ [النور] أى : التى يظنونها خيراً ، وينتظرون ثوابها ، والسراب : ما يظهر فى الصحراء وقت الظهيرة ، كأنه ماء وليس كذلك . وهذه الظاهرة نتيجة انكسار الضوء ، و « قيعة » : جمع قاع وهى الأرض المستوية مثل جار وجيرة .

وأسند الفعل ﴿ يَحْسَبُهُ .. (٣٩) ﴾ [النور] إلى الظمآن ؛ لأنه فى حاجة للماء ، وربما لو لم يكُنْ ظمآناً لما التفتَ إلى هذه الظاهرة ، فلظمئه يجرى خلف الماء ، لكنه لا يجد شيئاً ، وليت الأمر ينتهى عند خيبة المسعى إنما ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور] فُوجِىء بإله لم يكُنْ على باله حينما فعل الخير ، إله لم يؤمن به ، والآن فقط يتنبه ، ويصحو من غَفْلته ، ويُفاجأ بضياع عمله .

إذن : تجتمع عليه مصيبتان : مصيبة الظمأ الذى لم يجد له رِيّاً ، ومصيبة العذاب الذى ينتظره ، كما قال الشاعر[1] :

كَما أبرقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ فَلمَّا رأوْهَا أَقْشَعَتْ وتَجلَّتِ[2]

وسبق أن ضربنا مثلاً لهذه المسألة بالسجين الذى بلغ منه العطش مبلغاً ، فطلب الماء ، فأتاه الحارس به حتى إذا جعله عند فيه

---

(١) هو : كثير بن عبد الرحمن أبو صخر الخزاعى ، يقال له « كثير عزة » وهى عزة بنت جميل الضمرية ، كان عفيفاً فى حبه لها ، شاعر متيم مشهور ، من أهل المدينة أكثر إقامته بمصر ، كان مفرط القصر دميماً فى نفسه شمم وترفع . توفى عام (١٠٥ هـ) الأعلام للزركلى (٥/٢١٩) .

(٢) ديوان كثير (ص ٢٠٧) وأورده شهاب الدين الحلبى (ت ٧٢٥ هـ) فى « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » ص ١٢١ . وأقشعت الغمامة : انكشفت وذهبت .

واستشـرف المسكين للارتواء أراق الحارسُ الكوبَ ، ويُسـمُّون ذلك : يأسٌ بعد إطْماع .

لذلك الحق ـ تبارك وتعـالى ـ يعطينا فى الكون أمثلة تُزهِّد الناس فى العـمل للناس من أجل الناس ، فـالعـمل للناس لا بُدَّ أنْ يكون من أجل الله . وفى الواقع تصـادف مَنْ ينكر الجـمـيل ويتنكر لك بعـد أنْ أحـسنْتَ إليـه ، وما ذلـك إلا لأنك عملتَ مـن أجله ، فوجـدت الجـزاء العادل لتستأدب بعدها ولا تعـمل من أجل الناس ، ولو فعلتَ مـا فعلتَ من أجل الله لوجدتَ الجزاء والثواب من الله قـبل أنْ تنتهى من مباشرة هذا الفعل .

وفى موضـع آخر يُشبِّه الحق سـبحانه الذى ينفق ماله رياء الناس بالحجر الأملس الذى لا ينتفع بالمـاء ، فلا ينبت شيئاً : ﴿ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ[1] عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ[2] فَتَرَكَهُ صَلْدًا[3] لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

وقـوله تعـالى : ﴿ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور] فـإياك أنْ تستبـعد الموت أو البعث ، فـالزمن بعد الموت وإلى أن تقـوم السـاعة زمنٌ لا يُحسَب لأنه يمرُّ عليك دون أن تشعر به ، كـما قال سبحانه : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ [النازعات]

والله تعالى أخـفى الموت أسـباباً وميـعاداً ؛ لأن الإبهـام قد يكون غاية البيان ، وبإبهام الموت تظل ذاكراً له عاملاً للآخرة ؛ لأنك تتوقعه

---

(١) الصفوان : الحجر الأملس الذى لا يصلح للزراعة . [القاموس القويم ١ / ٣٨٠] .
(٢) الوابل : المطر الكثير القطر . والوبيل : الثقيل الغليظ جداً . [لسان العرب ـ مادة : وبل] .
(٣) الصلد : الحجر الصلب الأملس فلا يصلح لإنبات نبات . [القاموس القويم ١/٣٨١] .

فى أى لحظة ، فهو دائماً على بالك ، ومَنْ يدريك لعلَّك إنْ خفضْتَ طرْفك لا ترفعه ، وعلى هذا فالحساب قريب وسريع ؛ لذلك قالوا : مَنْ مات فقد قامت قيامته[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

هذا مَثَل آخر توضيحى لأعمال الذين كفروا ، والبحر اللجى : الواسع الكبير الذى تتلاطم فيه الأمواج ، بعضها فوق بعض ، وفوق هذا كله سحاب إذن : فالظلام مُطبق ؛ لأنه طبقات متتالية ، وفى أعماق بعيدة ، وقد بلغتْ هذه الظلمة حداً لا يرى الإنسان معها حتى يده التى هى جزء منه ، فما بالك بالأشياء الأخرى ؟

وقوله : ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور] أى : لم يقرب من أنْ يراها ، وإذا نفى القُرْب من أن يرى فقد نفى الرؤية من باب أَوْلَى ؛ ذلك لأنه ليس له نور من الله يرى به ويهتدى ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور] فكما أنه لم ينتفع بالنور ، ولم يَرَ حتى يده ، كذلك لا ينتفع بشىء من عمله .

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنىً كدّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسّعه عليكم ، الموت القيامة ، فمن مات قامت قيامته » . وأخرجه الديلمى فى مسند الفردوس (حديث ١١١٧) عن أنس رفعه بلفظ « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته فاعبدوا الله كأنكم ترونه واستغفروه كل ساعة » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ(١) كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

يريد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أن يلفتنا إلى ما يدلّ على وحدة الخالق الأعلى ، وكمال قيوميته ، وكمال قدرته ، وذُكرَتْ هذه الآية بعد عدة أوامر ونواه ، وكأن ربك ـ عز وجل ـ يريد أنْ يُطمئنك على أن هذا الكون الذى خَلقه من أجلك وقبل أن تُولد ، بل ، وقبل أن يخلق الله آدم أعدَّ له هذا الكون ، وجعله فى استقباله بسمائه وأرضه وشمسه وقمره ومائه وهوائه ، يقول لك ربك : اطمئن فلن يخرج شيء من هذا الكون عن خدمتك فهو مُسخَّر لك ، ولن يأتى يوم يتمرّد فيه ، أو يعصى أوامر الله :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.. ﴿٤١﴾ ﴾ [النور]

﴿ أَلَمْ تَرَ.. ﴿٤١﴾ ﴾ [النور] يعني : ألم تعلم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الفيل] ومعلوم أن النبى ﷺ وُلد عام الفيل ، ولم يرَ هذه الحادثة ، فلماذا لم يخاطبه ربُّه بألم تعلم ويريح الناس الذين يتشكّكون فى الألفاظ ؟

قالوا : ليدلّك على أن ما يخبرك الله به ـ غيباً عنك ـ أوثقُ مما تخبرك به عينُك مشهداً لك ؛ لأن مصدر علمك هو الله ، ألاَ ترى أن النظر قد يصيبه مرض فتختل رؤيته ، كمن عنده عمى ألوان أو قصَر

---

(١) صافات : مصطفات الأجنحة فى الهواء ، فهن باسطات الأجنحة . وقال سفيان : للطير صلاة ليس فيها ركوع ولا سجود . وقيل : إن ضربها بأجنحتها صلاة ، وإن أصواتها تسبيح . حكاه النقاش . [تفسير القرطبى ٦/٤٨٢٤] .

نظر .. إلخ إذن : فالنظر نفسه وهو أوثق شيء لديك قد يكذب عليك .

والتسبيح : هو التنزيه ، والتنزيه أن ترتفع بالمنزَّه عن مستوى ما يمكن أنْ يجولَ بخاطرك : فالله تعالى له وجود ، وأنت لك وجود ، لكن وجودَ الله ليس كوجودك ، الله له ذات وصفات ، لكن ليست كذاتك وصفاتك .. إلخ .

إذن : نزِّه ذات الله تعالى عن الذوات التى تعرفها ؛ لأنها ذوات وُهبَتْ الوجود ، أما ذات الله فغير موهوبة ، ذات الله ذاتية ، كذلك لك فعْل ، ولله تعالى فعْل .

وقد ذكرنا فى قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. (١)﴾ [الإسراء]

إن الذين اعترضوا على هذا الفعل اعترضوا بغباء ، فلم يُفرِّقوا بين فعْل الله وفعْل العبد ، فرسول الله ﷺ لم يقل : سريْتُ من مكة إلى بيت المقدس . إنما قال : أُسْرِى بى .

فالاعتراض على هذا فيه مغالطة ، فإنْ كنتم تضربون إليها أكباد الإبل شهراً ؛ فذلك لأن سَيْركم خاضع لقدرتكم وإمكاناتكم ، أمَّا الله تعالى فيقول للشيء : كُنْ فيكون ، فلا يحتاج فى فعْله سبحانه إلى زمن . فمن الأدب ألاَّ تقارن فعْل الله بفعلك ، ومن الأدب أنْ تُنزِّه الله عن كل مَا يخطر لك ببال ، نزِّه الله ذاتاً ، ونزِّهه صفاتاً ، ونزهه أفعالاً .

ألا ترى أن (سبحان) مصدر للتسبيح ، يدل على أن تنزيه الله ثابت له سبحانه قبل أن يخلق مَنْ ينزهه ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨)﴾ [آل عمران] فشهد الحق - تبارك وتعالى - لنفسه قبل أنْ تشهدوا ، وقبل أن تشهد الملائكة ، فهذه هى

شـهادة الذات للذات . وقـبل أن يخلق الله الإنسـان المسبِّح سـبَّح لله السموات والأرض ساعة خلقهما سبحانه وتعالى .

وحين تتـتبع ألفاظ التسـبيح فى القرآن الكريم تجدهـا جاءت مرة بصيغة الماضى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ① ﴾ [الحديد] فهل سـبَّحَتْ السموات والأرض مـرة واحدة ، فقالت : سبـحان الله ثم سكتَتْ عن التسبيح ؟ لا إنما سبَّحَتْ فى الماضى ، ولا تزال تُسبِّح فى الحاضر : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ① ﴾ [الجمعة]

وما دام أن الكون كله سبَّح لله ، وما يزاله يُسبِّح فلم يَبْقَ إلا أنت يا ابن آدم : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ① ﴾ [الأعلى] يعنى : اسـتح أن يكون الكون كله مُـسبِّحاً وأنت غـيـر مُسـبِّح ، فصِلْ أنت تسـبيـحك بتسبيح كل هذه المخلوقات .

وعجـيب أن نسـمع من يقول أن (مَنْ) فى الآية للعـاقل ، فـهو الذى يُسبِّح أمّـا السموات والأرض فـلا دخلَ لهما فى هذه المـسألة ، ونقول : لا دخلَ لها فى تصورك أنت ، أمّا الحقـيقة فإنها مثلك تُسبِّح كما قال تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. ㊶ ﴾ [النور]

وقال : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ .. ⑬ ﴾ [الرعد] فليس لك بعد كلام الله كلام .

وآخر يقول لك : التسبيح هنا ليس على الحـقيقة ، إنما هو تسبيح دلالة وحـال ، لا مـقـال ، يعنى : هذه المـخلوقـات تدلُّ بحـالهـا على تسبيح الله وتنزيهه ، وأنه واحد لا شريك له ، على حد قول الشاعر :

وَفِى كُلِّ شَىء لَهُ آيَةٌ　　تدُلُّ على أنَّه الوَاحِدُ

وهذا القول مردود بقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

إذن : فهذه المخلوقات تُسبِّح على الحقيقة ولها لسان ولغة ، لكنك لا تفهم عنها ولا تفقه لغاتها ، وهل فهمتَ أنت كل لغات بني جنسك حتى تفهم لغات المخلوقات الأخرى ؟ إن العربي إذا لم يتعلم الإنجليزية مثلاً لا يستطيع أن يفهم منها شيئاً ، وهي لغة منطوقة مكتوبة ، ولها ألفاظ وكلمات وتراكيب مثل العربية .

إذن : لا تقُلْ تسبيحَ حال ، هو تسبيح مقال ، لكنك لا تفهمه ، وكل شيء له مقال ويعرف مقاله ، بدليل أن الله تعالى إنْ شاء أطلع بعض أهل الاصطفاء على هذه اللغات ، ففهمها كما فهم سليمان عليه السلام عن النملة ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا .. (١٩) ﴾ [النمل] وسمع كلام الهدهد وفهم عنه ما يقول عن ملكة سبأ .

ونقول لأصحاب هذا الرأي : تأملوا الخلية المسدَّسة التي يصنعها النحل وما فيها من هندسة تتحدى أساطين الهندسة والمقاييس أن يصنعوا مثلها ، تأمَّلوا عش الطائر وكيف ينسج عيدان القش ، ويُدخل بعضها في بعض ، ويجعل للعُشِّ حافَّة تحمي الصغار ، فإذا وضعْتَ يدك في العُشِّ وهو من القَشِّ وجدتَ له ملمسَ الحرير ، تأملوا خيوط العنكبوت وكيف يصطاد بها فرائسه ؟

لقد شاهدت فيلماً مصوراً يُسجِّل صراعاً بين دب وثور ، الدب رأى قرون الثور طويلة حادة ، وعلم أنها وسيلة الثور التي ستقضي عليه ، فما كان منه إلا أن هجم على الثور وأمسك قَرْنَيْه بيديه ، وظل ينهش رأس الثور بأسنانه حتى أثخنه جراحاً حتى سقط فراح يأكله .

إذن : كيف نستبعد أن يكون لهذه المخلوقات لغات تُسبِّح الله بها

لا يعرفها إلا بنو جنسها ، أو مَنْ أفاض الله عليه بعلمها ؟

ثم ألم يتعلَّم الإنسان من الغراب كيف يدفن الموتى لما قَتَل قابيلُ هابيلَ ؟ كما يقول سبحانه : ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ .. ﴿٣١﴾﴾ [المائدة] وكأن ربنا ـ عز وجل ـ يُعلِّمنا الأدب وعدم الغرور .

وقرأنا أن بعض الباحثين والدارسين لحياة النمل وجدوا أنه يُكوِّن مملكة متكاملة بلغت القمة فى النظام والتعاون ، فقد لاحظوا مجموعة تمرٌّ هنا وهناك ، حتى وجدتْ قطعة من طعام فتركوها وانصرفوا ، حيث أتوا ، ثم جاءت بعدهم كوكبة من النمل التفتْ حول هذه القطعة وحملتْها إلى العُشِّ ، ثم قام الباحث بوضع قطعة أخرى ضِعْف الأولى ، فإذا بمجموعة الاستكشاف (أو الناضورجية) تمر عليها وتذهب دون أنْ تحاول حَمْلها ، وبعدها جاء جماعة من النمل ضِعْف الجماعة الأولى ، فكأن النمل يعرف الحجم والوزن والكتلة ويُجيد تقديرها .

وفى إحدى المرات لاحظ الباحث فتاتاً أبيض أمام عُشِّ النمل ، فلما فحصه وجده من جنين الحبة الذى يُكوِّن النبتة ، وقد اهتدى النمل إلى فصل هذا الجنين حتى لا تُنبت الحبة فتهدم عليهم العُشّ ، لهذا الحد علِم النمل قانون صيانته ، وعلم كيف يحمى نفسه ، وهو من أصغر المخلوقات ، أبعد هذا كله نستبعد أن يكون للنمل أو لغيره لُغته الخاصة ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. ﴿٤١﴾﴾ [النور] فلماذا خَصَّ الطير بالذكْر مع أنها داخلة فى ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٤١﴾﴾ [النور]

قالوا : خَصَّها لأن لها خصوصية أخرى وعجيبة ، يجب أن نلتفت إليها ؛ لأن الله تعالى يريد أنْ يجعل الطير مثلاً ونموذجاً لشيء أعظم ، فالطير كائن له وزن وثقل ، يخضع لقانون الجاذبية التى تجذب للأرض كُلَّ ثقل يعلَقُ فى الهواء .

لكن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يخرق هذا القانون للطير حين يصُفُّ أجنحته فى الهواء ، يظل مُعلّقاً لا يسقط : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَـٰنُ .. ١٩﴾ [الملك]

وكأن الخالق ـ عز وجل يقول : خُذُوا من الطير المشاهد نموذجاً ووسيلة إيضاح ، فإذا قلتُ لكم : ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِه .. ٦٥﴾ [الحج] فَصدِّقوا وآمنوا أن الله يُمسك السماء ، بل : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِه .. ٤١﴾ [فاطر]

فخُذْ من المشهد الذى تدركه دليلاً على ما لا تدركه .

لكن ، مَن الفاعل فى ﴿عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. ٤١﴾ [النور] ؟

يمكن أن يكون الفاعل الطير وكل ما فى الوجود ، وأحسن منه أن نقول : علم الله صلاتها وتسبيحها ؛ لأنه سبحانه خالقها وهاديها إلى هذا التسبيح[1] . إذن : فكل ما فى الوجود يعلم صلاته ويعلم تسبيحه ، كما تعلم أنت المنهج ، لكنه استقام على منهجه لأنه مُسخَّر وانحرفت أنت لأنك مُخيَّر .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٨٢٤) : « يجوز أن يكون المعنى : كل قد علم الله صلاته وتسبيحه ، أى : علم صلاة المصلى وتسبيح المسبِّح ؛ ولهذا قال : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ٤١﴾ [النور] أى : لا يخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم . وقد قيل : المعنى : قد علم كل مُصلٍّ ومسبِّح صلاة نفسه وتسبيحه الذى كلفه » .

فإنْ أردتَ أنْ تستقيمَ أمور حياتك فطبِّق منهج الله كما جاءك ؛ لذلك لا تجد فى الكون خللاً أبداً إلا فى منطقة الاختيار عند الإنسان ، كل شىء لا دخْلَ للإنسان فيه يسير منتظماً ، فالشمس لم تعترض فى يوم من الأيام ولم تتخلف ، كذلك القمر والنجوم والهواء ، إنها منضبطة غاية الانضباط ، حتى إن الناس يضبطون عليها حساباتهم ومواعيدهم واتجاهاتهم .

لذلك يقول تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ ﴾ [الرحمن] يعنى : بحساب دقيق ، وما كان للشمس أنْ تضبط الوقت إلا إذا كانت هى فى ذاتها منضبطة .

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝ ﴾ [النور] أى : لقيوميته تعالى على خَلْقه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۝ ﴾

يريد ربك ـ عز وجل ـ أنْ يُطمئنك أن الذى كلَّفك بما كلَّفك به يضمن لك مُقوِّمات حياتك ، فلن ينقطع عنك الهواء فى يوم من الأيام ، ولن تتأبَّى عليك الشمس أو القمر أو الأرض ؛ لأنها مِلْك لله ، لا يشاركه سبحانه فى ملكيتها أحد يمنعها عنك ، فاطمئن إلى أنها ستؤدى مهمتها فى خدمتك إلى يوم القيامة ، ولا تشغل نفسك بها ، فقد ضمنها الله .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ (١) يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا (٢) بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور] يعنى : ألم تعلم ، وقد وقفنا مع تطور العلم على كيفية تكوُّن المطر بين التبخير والتكثيف الذى يُكوِّن السحاب ، وقلنا سابقاً : إن مُسطح الماء على الأرض ثلاثة أرباع اليابسة حتى تكفى هذه المساحة البخر اللازم لتكوّن المطر ، ونحن نُجرى مثل هذه العملية فى تقطير الماء حين نغلى الماء ونستقبل البخار على سطح بارد ، فتحدث له عملية التكثيف .

وقد أوضحنا هذه العملية بكوب الماء حين تتركه ممتلئاً وتسافر مثلاً ، فحين تعود تجد الكوب قد نقص قليلاً ، أما إذا أرقْتَهُ على الأرض ، فإنه يجفُّ سريعاً ، وقبل أن تغادر المكان ، لماذا ؟ لأنك وسَّعْتَ مساحة البَخْر .

ومعنى ﴿ يُزْجِي سَحَابًا .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور] أى : يرسله برِفْق ومَهَل ؛ لذلك لما وصف الشاعر مَشْى الفتاة قال :

كَأَنَّ مشْيَتَها منْ بيْت جَارَتها ... مَرُّ السَّحابَة لاَ رَيْث (٣) ولاَ عَجَل

(١) الودق : المطر ، شديده وهيِّنه . [لسان العرب ـ مادة : ودق] .

(٢) السنا : ضوء النار والبرق . قال أبو زيد : سنا البرق ضوؤه من غير أن ترى البرق أو ترى مخرجه فى موضعه ، فإنما يكون السنا بالليل دون النهار ، وربما كان فى غير سحاب [لسان العرب ـ مادة : سنا] .

(٣) الريث : الإبطاء . راث يريث : أبطأ . وتريث فلان علينا . أى : أبطأ . [لسان العرب ـ مادة : ريث] .

﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور] أى : يجمع بعضه على بعض ، وحين يُجمع الشيء بعضه على بعض لا بُدَّ أن يبقى بينه فاصل ، فلا يلتحم بغيره التحاماً تاماً ، ولولا هذه الفواصل بين قِطَع السحاب ، ولولا هذه الفتوق ما نزل الوَدَق من خلاله .

ولو شاء سبحانه لجعل السحاب قطعة واحدة ، ولكنه سبحانه يؤلف بينه ويُجمِّعه بعضه على بعض دون أنْ يُوحِّده تكويناً ، فيحدث بذلك فراغاً بين قطع السحاب . أرأيتَ حين نلصق الورق بالصمغ مثلاً فمهما وضعت عليه من ثقل لا بُدَّ أن يبقى بينه فراغات ؛ لأنه ليس ذاتاً واحدة .

وعملية تفريغ الهواء هذه تلاحظها حين تضع كوباً مبلولاً وتتركه لفترة ، فيتبخر الماء من تحته ويخرج الهواء ، فإذا أردْتَ رفعه وجدته صعباً لماذا ؟ لتفريغ الهواء من تحت قاعدة الكوب ، وفى هؤلاء الذين يعالجون الآلام الناتجة عن البرد ، فيضعون الكوب مقلوباً على مكان الألم ، ثم يُشعِلُون بداخله قطعةً من القماش مثلاً لتحرق الهواء بداخل الكوب .

وبذلك نمنع الخلل فى التقاء الكوب بالجسم ، وهذه المسألة هى سِرٌّ عظمة قدماء المصريين فى البناء ، حيث تتماسك الحجارة دون وجود (مونة) تربط بينها .

إذن : وجود الهواء بين الشيئين يُحدث خللاً بينهما ، ولولا هذا الخلل فى السحاب ما نزل منه الماء ، والمطر آية عظيمة من آيات الله لا نشعر بها ، ولك أنْ تتصور كم يُكلِّفنا كوب الماء المقطّر حين نُعِدُّه فى المعمل ، فما بالك بالمطر الذى يسقى الأرض كلها ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور] يعنى : مُكدَّساً

بعضه على بعض ، وفي آية أخرى : ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الطور] متراكم بعضه على بعض ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور] أى : المطر : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلاله .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور] أى : من خلال هذه الفجوات والفواصل التى تفصل بين السُّحُب .

وهذا الماء الذى ينزل من السماء فيُحيى به الله الأرض قد يأتى نقمةً وعذاباً ، كما قال سبحانه : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور] ولنا فى أهل مأرب الذين أغرقهم الله عبرةٌ وعظة .

ولو تأملتَ لوجدتَ الماء والنار عدوينْ متقابلين يصعب مقاومتهما ؛ لذلك كان العرب إلى عهد قريب يخافون الماء لما عاينوه من غرق بعد انهيار سدِّ مأرب ؛ لذلك آثروا أنْ يعيشوا فى الصحراء بعيداً عن الماء .

وبالماء نجَّى الله تعالى موسى ـ عليه السلام ـ وأغرق عدوه فرعون ، ففعل سبحانه الشيء وضده بالشيء الواحد .

وقوله تعالى : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور] أى : الضوء الشديد الذى يُحدثه السحاب يكاد أن يخطف الأبصار ، وفى البرق تتولد النار من الماء ؛ لذلك حينما يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ[1] ﴿٦﴾ ﴾ [التكوير] فصدِّق هذه الآية الغيبية ؛ لأنك شاهدتَ نموذجاً لها فى مسألة البرق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾

---

(١) أى : امتلأت ماءً ، أو امتلأت ناراً يوم القيامة . [القاموس القويم ١/٣٠٢] .

فالليل والنهار آيتان يتتابعان لكن دون رتابة ، فالليل قد يأخذ من النهار ، والنهار يأخذ من الليل ، وقد يستويان فى الزمن تماماً . ومن تقليب الليل والنهار ما يعتريهما من حَرٍّ أو برد أو نور وظلمة .

إذن : فالمسألة ليست ميكانيكية رتيبة ، إنما هى قيومية الله تعالى وقدرته فى تصريف الأمور على مراده تعالى ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النور]

العبرة والعَبرة والعبور والتعبير كلها من مادة واحدة ، نقول : هذا مكان العبور يعنى الانتقال من جهة إلى جهة أخرى ، وفلان عبَّر عن كذا ، يعنى : نقل الكلام النفسى إلى كلام باللسان ، والعبرة أنْ ننظرَ فى الشىء ونعتبر ، ثم ننتقل منه إلى غيره ، وكذلك العَبْرة لأنها حزن أسال شيئاً ، فنزل من عينى الدمع .

والعبرة هنا لمن ؟ ﴿ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النور] والمراد : الأبصار الواعية لا الأبصار التى تدرك فقط ، والإنسان له إدراكات بوسائلها ، وله عقل يستقبل المدركات ويغربلها ، ويخلُص منها إلى قضايا ، ومن الناس مَنْ يبصر لكنه لا يرى شيئاً ولا يصل من رؤيته إلى شىء ، ومنهم أصحاب النظر الواعى المدقِّق ، فالذى اكتشف قوة البخار رأى القدْر وهى تغلى وتفور فيرتفع عليها الغطاء ، وهذا منظر نراه جميعاً الرجل والمرأة ، والكبير والصغير ، لكن لم يصل أحد إلى مثل ما وصل إليه .

إذن : المراد الأبصار التى تنقل المبصر إلى العقل ليُحلِّله ويستنبط ما فيه من أسباب ، لعله يستفيد منها بشىء ينفعه ، والله تعالى قد خلق فى الكون ظواهرَ وآيات لو تأملها الإنسان ونظر إليها بتعقُّل وتبصُّر لاستنبطَ منها ما يُثرى حياته ويرتقى بها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾

الدابة : كلّ ما يدبُّ على الأرض ، سواء أكان إنساناً أو أنعاماً أو وحشاً ، فكُلُّ ما له دبيب على الأرض خلقه الله من ماء حتى النملة لها على الأرض دبيب .

وكل شيء يضخم قابل لأنْ يُصغَّر ، وقد يُضخَّم تضخيماً لدرجة أنك لا تستطيع أن تدرك كُنْهه ، وقد يَصْغُر تصغيراً حتى لا تكاد تراه ، وتحتاج في رؤيته إلى مُكبِّر ، ومن عجائب الخَلْق أن النملة أو الناموسة فيها كل أجهزة الحياة ومُقوِّماتها ، وفيها حياة كحياة الفيل الضخم ، ومن عظمة الخالق سبحانه أن يخلق الشيء الضخم الذي يفوق الإدراك لضخامته ، ويخلق الشيء الضئيل الذي يفوق الإدراك لضآلته .

ألاَ ترى أن ساعة (بج بن) أخذتْ شهرتها لضخامة حجمها ، ثم جاء بعد ذلك مَنْ صنع الساعة في حجم فصِّ الخاتم ، وفيها نفس الآلات التي في ساعة (بج بن) ، كذلك خلق الله من الماء الفيل الضخم ، وخلق الناموسة التي تؤرق الفيل رغم صِغَرها .. سبحان الخالق .

ولما كان الماء هو الأصل في خَلْقة كل شيء حيٍّ وجدنا العلماء يقتلون حتى الميكروب الصغير الدقيق بأنْ يحجبوا عنه المائية فيموت ، ومن ذلك مداواة الجروح بالعسل ؛ لأنه يمتص المائية أو يحجبها ، فلا يجد الميكروب وسطاً مائياً يعيش فيه

وهذه الخلْقة ليست على شكل واحد ولا وتيرة واحدة في قوالب ثابتة ، إنما هى ألوان وأشكال ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ .. ﴿٤٥﴾﴾ [النور]

والمشى : هو انتقال الموصوف بالمشى من حَيِّز مكانى إلى حَيِّز مكانى آخر ، والناس تفهم أن المشى ما كان بالقدمين ، لكن يُوضِّح لنا سبحانه أن المشْى أنواع : فمن الدوابِّ مَنْ يمشى على بطنه ، ومنهم مَنْ يمشى على رِجْلَيْن ، ومنهم مَنْ يمشى على أربع[1] .

وربنا - سبحانه وتعالى - بسط لنا هذه المسألة بَسْطاً يتناسب وإعجاز القرآن وإيجازه ، فلم يذكر مثلاً أن من الدواب مَنْ له أربع وأربعون مثلاً ، وفى تنوع طُرق المشى فى الدواب عجائب تدلنا على قدرته تعالى وبديع خَلْقه .

لذلك قال بعدها : ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ .. ﴿٤٥﴾﴾ [النور] لأن الآية لم تستقْص كل ألوان المشى ، إنما تعطينا نماذج ، وتحت ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ .. ﴿٤٥﴾﴾ [النور] تندرج مثلاً (أُم أربعة وأربعين) وغيرها من الدواب ، والآية دليل على طلاقة قدرته سبحانه .

وكما سخر الله الإنسان لخدمة الإنسان ، كذلك سخَّر الحيوان لخدمة الحيوان ليُوفِّر له مُقوِّمات حياته ، ألاَ ترى الطير يقتات على فضلات الطعام بين أسنان التمساح مثلاً فينظفها له ، إذن : فما فى

---

(١) قال النقاش : إنما اكتفى فى القول بذكر ما يمشى على أربع عن ذكر ما يمشى على أكثر ؛ لأن جميع الحيوان إنما اعتماده على أربع ، وهى قوام مشيه ، وكثرة الأرجل فى بعضه زيادة فى خلقته ، لا يحتاج ذلك الحيوان فى مشيه إلى جميعها . وقال ابن عطية : والظاهر أن تلك الأرجل الكثيرة ليست باطلاً ، بل هى محتاج إليها فى تنقل الحيوان ، وهى كلها تتحرك فى تصرفه . [تفسير القرطبى ٤٨٢٩/٦] .

فم التمساح من الخمائر والبكتيريا هى مخزن قوت لهذه الطيور ، ويحدث بينها توافق وانسجام وتعاون ، حتى إن الطير إنْ رأى الصياد الذى يريد أن يصطاد التمساح فإنها تُحدِث صوتاً لتنبه التمساح حتى ينجو .

ومن المشْى أيضاً السَّعْى بين الناس بالنميمة ، كما قال تعالى : ﴿ هَمَّازٍ[1] مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) ﴾ [القلم]

وبعد أن أعطانا الحق - تبارك وتعالى - الأدلة على أن الملْك له وحده ، وأن كل شيء يُسبِّح بحمده تعالى وإليه تُرجَع الأمور ، وأنه تعالى خلق كُلَّ دابة من ماء ، قال سبحانه :

﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾

يعنى : مَنْ ملك هذا الملْك وحده ، وخلق لكم هذه العجائب أنزل لكم آيات بينات تحمل إليكم الأحكام ، فكما فعل لكم الجميل ، ووفر لكم ما يخدمكم فى الكون ، سمائه وأرضه ، فأدُّوا أنتم ما عليكم نحو منهجه وأحكامه ، واتبعوا هذه الآيات البينات .

ومعنى ﴿ مُّبَيِّنَاتٍ .. (٤٦) ﴾ [النور] أى : لاستقامة حركة الحياة ؛ لأن حركة الحياة تحتاج لأنْ يتحرك الجميع ويؤدى كُلٌّ مهمته حتى تتساند الحركات ولا تتعاند ، فالذى يُتعب الدنيا أن تبنى وغيرك يهدم .

إذن : لا بُدَّ من ضابط قيمي يضبط كل الحركات ويحثّ كل

---

(١) الهماز : صيغة مبالغة . والهُمَزة : كثير الهمز واللمز والغمز واغتياب الناس وعيبهم . وقيل « الهمز » فى القفا والسر ، و « اللمز » عيب فى الوجه فى العلانية . [القاموس القويم ٢/٣٠٧] .

صانع أنْ يتقن صنْعته ويُخلص فيها ، والإنسان غالباً لا يحسن إلا زاوية واحدة فى حياته ، هى حرفته وتخصصه ، وربما لا يحسنها لنفسه ؛ لأنه لا يتقاضى عليها أجراً ، لذلك يقولون (باب النجار مخلع) أما إنْ عمل للآخرين فإنه يُحسن عمله ويتقن صنعته ، وكذلك يتقن الناس لك ما فى أيديهم ، فتستقيم الأمور ، فأحْسن ما فى يدك للناس ، يحسنْ لك الناسُ ما فى أيديهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾[النور]

ولقائل أنْ يسأل : وما ذنب مَنْ لم يدخل فى هذه المشيئة فلم يَهْتد ؟ وسبق أن قلنا : إن الهداية نوعان : هداية الدلالة وهداية المعونة على الدلالة .

فالله تعالى يهدى الجميع هداية الدلالة ، ويبين للكل أسباب الخير وسُبل النجاة وطريق الفلاح والأسلوب الأمثل فى إدارة حركة الحياة ، فمَنْ سمع كلام الله ووثق فى توجيهه وأطاع فى هداية الدلالة أعانه بهداية المعونة .

فساعة تسمع : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) ﴾ [المائدة]

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

فاعلم أنهم امتنعوا عن هداية الدلالة فامتنعت عنهم هداية المعونة ، لا هداية الدلالة والإرشاد والبيان .

وقلنا : إن كلمة ﴿ أَنزَلْنَا .. (٤٦) ﴾ [النور] تشعر باحترام الشىء المنزّل ؛ لأن الإنزال لا يكون إلا من العُلُو إلى الأدنى ، فكأن ربك - عز وجل - حين يكلفك يقول لك : أريد أن أرتفع بك من مستوى الأرض إلى عُلو السماء ؛ لذلك يقول تعالى فى موضع آخر : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

أى : لا تضعوا لأنفسكم القوانين ، ولا تسيروا خلف آرائكم وأفكاركم ، إنما تعالوا إلى الله وخذوا منه سبحانه منهج حياتكم ، فهو الذى خلقكم ، وخلق لكم هذه الحياة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ [النساء]

وهؤلاء هم المنافقون ، وخَيْبة المنافق أنه متضارب الملكات النفسية ؛ ذلك لأن للإنسان ملكات متعددة تتساند حال الاستقامة ، وتتعاند حال المعصية ، فالإنسان تراه طبيعياً حين ينظر إلى ابنته أو زوجته ، لأن ملكاته منسجمة مع هذا الفعل ، أما حين ينظر إلى محارم الغير فتراه يختلس النظرة ، يخاف أنْ يراه أحد يتلصّص ويحتاط ؛ لأن ملَكاته مضطربة غير منسجمة مع هذا الفعل .

لذلك يقولون : الاستقامة استسامة[(١)] ، فملكات النفس بطبيعتها متساندة لا تتعارض أبداً ، لكن المنافق فضلاً عن كذبه ، فهو متضارب الملكات في نفسه ؛ لأن القلب كافر واللسان مؤمن .

لذلك فكرامة الإنسان تكون بينه وبين نفسه قبل أن تكون بينه وبين الناس ، فقد يصنع الإنسان أمام الناس صنائع خير تُعجب الآخرين ، لكنه يعلم من نفسه الشر ، فهو وإن كسب ثقة المجتمع من حوله ، إلا أنه خسر رأى نفسه فى نفسه ، وإذا خسر الإنسان نفسه

(١) من تقلد الوسام وآثر الحسن والجمال فالاستسامة طلب الحسن والجمال .

فلن يُعوِّضه عنها شيء حتى إنْ كسب العالم كله ؛ لأن المجتمع لا يكون معك طول الوقت ، أمّا نفسك فملازمة لك كل الوقت لا تنفك عنها ، فأنا كبير أمام الناس ما دُمْت معهم ، أمّا حين أختلى بنفسى أجدها حقيرة : فعلتْ كذا ، وفعلت كذا .

إذن : أنت حكمتَ أنّ رأى الناس أنفَسُ من رأيك ، ولو كان لرأيك عندك قيمة لحاولت أن يكون رأيك فى نفسك صحيحاً ، لكن أنت تريد أن يكون رأى الناس فيك صحيحاً ، وإنْ كان رأيك عند نفسك غير ذلك .

ويقول تعالى فى هؤلاء : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠)﴾ [النساء]

فقد حكم عليهم أنهم يزعمون ، والزعم مطيّة الكذب ، والدليل على أنهم يزعمون أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، ولو كانوا مؤمنين بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك ما تحاكموا إلى الطاغوت ، وهكذا فضحوا هم أنفسهم ، فالثانية فضحتْ الأولى .

لذلك قالوا : إن الكافر أحسن منهم ؛ لأنه منسجم الملكات : قلبه موافق للسانه ، قلبه كافر ولسانه كذلك ، ومن هنا كان المنافقون فى الدَّرْك الأسفل من النار .

والحق - تبارك وتعالى - يعطينا صورة ونموذجاً يحذرنا ألاَّ نحكم على القول وحده ، فيقول تعالى عن المنافقين : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١)﴾ [المنافقون]

وهذه المقولة ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. ①﴾ [المنافقون] مقولة صادقة، لكن القرآن يُكذِّبهم فى أنهم شَهدوا بها .

وقد نزلتْ هذه الآية[1] فى أحد المنافقين أظن أنه بشر[2]، وكانت له خصومة مع يهودى، فطلب اليهودى أن يتحاكما عند رسول الله ﷺ، وطلب المنافق أنْ يتحاكما عند كعب بن الأشرف، لكن رَدَّ اليهودى حكومة كعب لما يعلمه من تزييفه وعدم أمانته - والإنسان وإن كان فى نفسه مُزَيِّفاً إلا أنه يحب أنْ يحتكم فى أمره إلى الأمين العادل - وفعلاً تغلّب اليهودى وذهبا إلى رسول الله فحكم لليهودى . وفى هذا دلالة على أن اليهودى كان ذكياً فَطِناً، يعرف الحق ويعرف مكانة رسول الله ﷺ .

لكن المنافق لم يَرْضَ حكم رسول الله، وانتهى بهما الأمر إلى عمر رضى الله عنه وقَصَّا عليه ما كان، ولما علم أن المنافق رَدَّ حكم

---

(١) يقصد الأيتين التاليتين من سورة النور آية ٤٨، ٤٩ .

(٢) هذه القصة وردت فى سبب نزول آية أخرى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ .. ⑥⓪﴾ [النساء]. أوردها الواحدى فى أسباب النزول (ص ٩٢) عن ابن عباس قال : « نزلت - أى آية سورة النساء - فى رجل من المنافقين كان بينه وبين يهودى خصومة، فقال اليهودى : انطلق بنا إلى محمد . وقال المنافق : بل نأتى كعب بن الأشرف وهو الذى سماه الله تعالى الطاغوت، فأبى اليهودى إلا أن يخاصمه إلى رسول الله ﷺ، فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله ﷺ، فاختصما إليه، فقضى رسول الله ﷺ لليهودى، فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال : ننطلق إلى عمر بن الخطاب، فاقبلا إلى عمر . فقال اليهودى : اختصمنا أنا وهذا إلى محمد فقضى عليه فلم يرض بقضائه : وزعم أنه مخاصم إليك وتعلق بى فجئت إليك معه . فقال عمر للمنافق : أكذلك ؟ قال : نعم . فقال لهما : رويداً حتى أخرج إليكما . فدخل عمر وأخذ السيف فاشتمل عليه، ثم خرج إليهما وضرب به المنافق حتى برد . وقال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله . وهرب اليهودى ونزلت هذه الآية . وقال جبريل : إن عمر فرق بين الحق والباطل . فسُمِّى الفاروق » .

وقد أوردها أيضاً فى أسباب النزول (ص ١٨٨) وكذا أوردها القرطبى فى تفسيره (٤٨٣١/٦) .

رسـول الله قام عـمر وجـاء بالسـيف يُشْهـره في وجـه المنافق وهو يقول : مَنْ لم يَرْضَ بقضاء رسول الله فذلك قضائي فيه .

إذن : فهؤلاء يقولون : ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا .. (٤٧)﴾ [النور] كلام جميـل وأكثر الله من خيركم ، لكن هذا قول فـقط لا يسانده تطبيق عملى ، والإيمان يقتضى أن تجىء الأعمال على وَفْق منطوق الإيمان .

فهذا منهم مجرد كلام ، أما التطبيق : ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ .. (٤٧)﴾ [النور] والتولِّي : الانصراف عن شىء كان موجوداً إلى شىء مناقض ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [النور] فمـا داموا قـد تولوا فهم لم يطيعوا ولم يؤمنوا .

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩)﴾

المراد ما كان من أمر بشر والـيهودى ، وقد أعرضا عن حكم الله ورسـوله ، وإنْ كـان إعراض المنـافق واضحـاً فـالآية لا تريد تبـرئة ساحـة اليـهودى ، لأنه مـا رضـى بحكم الله إلا لأنه واثق أن الحق له وواثق أن رسـول الله ﷺ لن يحكم إلا بـالحق ، حـتـى وإنْ كـان ليهودى ، وإذن : ما أذعن لحكم الله ورسوله مـحبةً فيه أو إيماناً به ، إنما لمصلحته الشخصية ، لذلك يقول تعالى بعدها :[1]

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)﴾

---

(١) الحيف : الميل فى الحكم والجور فيه . حاف يحيف : جار وظلم . [القـاموس القويم ١/١٨١] .

والمرض : خروج الشيء عن استقامة سلامته ، فكل عضو من أعضائك له سلامة : العين لها سلامة ، والأذن لها سلامة .. الخ والعجيب أن تعيش بالجارحة لا تدرى بها طالما هى سليمة صحيحة ، فإذا أصابها مرض تنبهتَ إليها ، وأحسست بنعمة الله عليك فيها حال سلامتها .

﴿ أَمِ ارْتَابُوا .. (٥٠) ﴾ [النور] يعنى : شكُّوا فى رسول الله ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ .. (٥٠) ﴾ [النور] يعنى : يجور ويظلم ﴿ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) ﴾ [النور] أى : لأنفسهم أولاً ، وذلك منتهى الحُمْق أن يظلم الإنسان نفسه ، لو ظلم غيره لَقُلْنا : خير يجلبه لنفسه ، لكن ما الخير فى ظلم الإنسان لنفسه ؟ ومَنْ ظلم نفسه لا تَلُمْه إن ظَلَم الآخرين .

والحق - تبارك وتعالى - حينما يعاقب الظالم ، فذلك لمصلحته حتى لا يتمادى فى ظُلْمه ، ويجرُّ على نفسه جزاء شر بعد أن كان الحق سبحانه يُمنِّيه بجزاء خير .

ثم يأتى السياق بالمقابل :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) ﴾

فما دُمْت قد آمنتَ ، والإيمان لا يكون إلا عن رغبة واختيار لا يجبرك أحد عليه ، فعليك أن تحترم اختيار نفسك بأنْ تطيعَ هذا الاختيار ، وإلا سفَّهتَ رأيك واختيارك ، لذلك كان حال المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله أن يقولوا : سمعنا وأطعنا .

ولو تأملتَ الكون من حولك لوجدتَهُ يسير على هذه القاعدة ، فما دون الإنسان فى كَوْن الله مُسيَّر لا مُخيَّر ، وإنْ كان الأصل أنه خُيِّر

أولاً ، فاختار أن يكون مُسيَّراً من البداية ، وأراح نفسه ، كما قال سبحانه :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

وتصدير الآية الكريمة بـ (إنما) يدل على أنها سبقها مقابل ، هذا المقابل على النقيض لما يجيء بعدها ، فالمنافقون أعرضوا وردُّوا حكم الله ورسوله ، والمؤمنون قالوا سمعنا وأطعنا ، كما تقول : فلان كسول إنما أخوه مُجِدٌّ . فقول المنافقين أنهم لا يقبلون حكم الله ورسوله ، أمَّا المؤمنون فيقبلون حكْم الله ورسوله .

ومعنى ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا .. (٥١) ﴾ [النور] يعنى : سمعنا سمعاً واعياً يليه إجابة وطاعة ، لا مجرد أنْ يصل الصوت إلى أذن السامع دون أن يُؤثر فيه شيء .

ويقول تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ .. (٨٣) ﴾ [المائدة]

فالسمع له وظيفة ، وهو هنا بمعنى : أجَبْنا يا رب ، وصممنا على الإجابة ، وهذا وعد كلامى يتبعه تنفيذ وطاعة . مثل قولنا فى الصلاة : سمع الله لمن حمده ، يعنى : أجاب الله مَنْ حمده .

﴿ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) ﴾ [النور] المفلحون : الفائزون الذين بلغوا درجة الفلاح ، ومن العجيب أن يستخدم الحق سبحانه كلمة الفلاح ، وهى من فلاحة الأرض ؛ لأن الفلاحة فى الأرض هى أصل الاقتيات ، وكل مَنْ أتقن فلاحة أرضه جاءت عليه بالثمرة الطيبة ، وزاد خيره ، وتضاعف محصوله ، حتى إن حبة القمح تعطى سبعمائة حبة ، فإذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تعالى تعطى من يزرعها كل

هذا العطاء ، فما بالك بخالق الأرض كيف يكون عطاؤه ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

كان سيدنا الشيخ موسى شريف - رحمه الله ورضى الله عنه - يدرس لنا التفسير ، فلما جاءت هذه الآية قال : اسمعوا ، هذه برقية من الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] فلم تَدَع هذه الآية حُكْماً من أحكام الإسلام إلا جاءتْ به فى هذه البرقية الموجزة التى جمعتْ المنهج كله[1].

ومعنى ﴿ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] آمن بالله وأطاعه وصدَّق رسوله ﴿ وَيَخْشَ اللَّهَ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] أى : يخافه لما سبق من الذنوب ﴿ وَيَتَّقْهِ . ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] فى الباقى من عمره ﴿ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] وهكذا جمعتْ الآيةُ المعانىَ الكثيرة فى اللفظ القليل الموجز .

ومعلوم أن التعبير الموجز أصعب من الإطناب والتطويل ، وسبق أنْ ذكرنا قصة الخطيب الإنجليزى المشهور حين قالوا له : إذا طُلِب

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٦/٤٨٣٣) أن عمر بينما هو قائم فى مسجد النبى ﷺ وإذا رجل من دهاقين الروم على رأسه وهو يقول : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فقال له عمر : ما شأنك ؟ قال : أسلمت لله . قال : هل لهذا سبب ؟ قال : نعم إنى قرأت التوراة والزبور والإنجيل وكثيراً من كتب الأنبياء ، فسمعت أسيراً يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما فى الكتب المتقدمة ، فعلمت أنه من عند الله فأسلمت . قال : ما هذه الآية ؟ قال : قوله تعالى ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ ﴾ فى الفرائض ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ فى السنن ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ ﴾ فيما مضى من عمره ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ فيما بقى من عمره ﴿ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ والفائز من نجا من النار وأدخل الجنة . فقال عمر : قال النبى ﷺ : « أوتيتُ جوامع الكلم » .

منك إعداد خطاب تلقيه في ربع ساعة في كم تُعدّه ؟ قال : في أسبوع ، قالوا : فإنْ كان في نصف ساعة ؟ قال : أُعدُّه في ثلاثة أيام ، قالوا : فإذا كان في ساعة ؟ قال : أُعدّه في يومين ، قالوا : فإنْ كان في ثلاث ساعات ؟ قال : أُعده الآن .

وقالوا : إن سعد باشا زغلول رحمه الله أرسل من فرنسا خطاباً لصديق في أربع صفحات قال فيه : أما بعد ، فإني أعتذر إليك عن الإطناب (الإطالة) ؛ لأنه لا وقت عندي للإيجاز .

وبعد أنْ تحدّث القرآن عن قَوْل المنافقين وعن ما يقابله من قول المؤمنين وما ترتب عليه من حكم ﴿ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] ذلك لأن ذكْر المقابل يُظهر المقابل ، كما قالوا : والضد يظهر حُسْنَه الضدُّ . بعدها عاد إلى الحديث عن النفاق والمنافقين ، فقال سبحانه :

﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

القَسَم : هو اليمين والحلف ، والإنسان يُقسم ليؤكد المقسَم عليه يريد أن يطمئن المخاطب على أن المقسَم عليه حَقٌّ ، وهؤلاء لم يقسموا بالله سراً في أنفسهم ، إنما ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [النور] يعني : بالَغوا وأتَوْا بمنتهى الجهد في القسم ، فلم يقل أحدهم : وحياة أمي أو أبي ، إنما أقسموا بالله ، وليس هناك قَسَم أبلغ من هذا القسم ، لذلك يقول النبي ﷺ : « مَنْ كان حالفاً فليحلف بالله ، أو ليصمت »[1]

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٦٧٩ ، ٣٨٣٦ ، ٦١٠٨) وكذا مسلم في صحيحه (١٦٤٦) كتاب الأيمان من حديث عبد الله بن مسعود ، وفي لفظ مسلم أن ابن مسعود أدرك عمر بن الخطاب في ركب وعمر يحلف بأبيه فناداهم رسول الله ﷺ « ألا إن الله عز وجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » .

فلما أقسموا بالله للرسول أنْ يخرجوا من بيوتهم وأولادهم وأموالهم إلى الجهاد مع رسول الله فضح الله سرائرهم ، وكشف سترهم ، وأبان عن زيف نواياهم ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ .. ﴿٨١﴾ ﴾ [النساء]

وتأمل دقَّة الأداء القرآنى في : ﴿ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ .. ﴿٨١﴾ ﴾ [النساء] وهذا احتياط ؛ لأن منهم أناساً يراود الإيمان قلوبهم ويفكرون في أنْ يُخلصوا إيمانهم ونواياهم لله تعالى ، ويعودوا إلى الإسلام الصحيح .

والقرآن يفضح أمر هؤلاء الذين يُقسمون عن غير صدْق في القَسَم ، كمن تعوَّد كثرة الحلف والحنْث فيه ؛ لذلك ينهاهم عن هذا الحلف : ﴿ قُل لاَّ تُقْسِمُوا .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [النور] ولا يمكن أن ينهى المتكلمُ المخَاطبَ عن القسم خصوصاً إذا أقسم على خير ، لكن هؤلاء حانثون في قَسَمهم ، فهو كعدمه ، فهم يُقسمون باللسان ، ويخالفون بالوجدان .

وقوله تعالى : ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [النور] يُشعر بتوبيخهم ، كأنه يقول لهم : طاعتكم معروفة لدينا ولها سوابق واضحة ، فهي طاعة باللسان فحسب ، ثم يؤكد هذا المعنى فيقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النور] والذى يؤكد هذه الخبرة أنه يفضح قلوبهم ويفضح نواياهم .

والعجيب أنهم لا يعتبرون بالأحداث السابقة ، ولا يتعظون بها ، وقد سبق لهم أنه كان يجلس أحدهم يُحدِّث نفسه الحديث فيفضح الله ما في نفسه ويخبر به رسول الله ، فيبلغهم بما يدور في نفوسهم ، كما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

ومع ذلك لم يعتبروا ولم يعترفوا لرسول الله بأنه مُؤيَّد من الله ، وأنه تعالى لن يتخلى عن رسوله ، ولن يدعه لهم يخادعونه ويغشُّونه ، وهذه سوابق تكررتْ منهم مرات عدّة ، ومع ذلك لم ينتهوا عما هم فيه من النفاق ، ولم يُخلصوا الإيمان لله .

وبعد هذا كله يوصي الحق تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يُبقي عليهم ، وألاَّ يرمي (طوبتهم) لعل وعسى ، فيقول عز وجل :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾

وكأنه تعالى لا يريد أنْ يُغلق الباب دونهم ، فيعطيهم الفرصة : جَدِّدوا طاعة لله ، وجَدِّدوا طاعة لرسوله ، واستدركوا الأمر ؛ ذلك لأنهم عباده وخَلْقه .

وكما ورد في الحديث الشريف : « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم وقع على بعيره وقد أضله في فلاة .. »[1]

ونلحظ في هذه الآية تكرار الأمر أطيعوا ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [النور] وفي آيات أخرى يأتي الأمر مرة واحدة ، كما في الآية السابقة : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] ، وفي : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنفال] وفي ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [النساء] أي : أن طاعتهما واحدة .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٠٨ ، ٦٣٠٩) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٧٤٤) من حديث عبد الله بن مسعود . والفلاة : الصحراء الواسعة التي قُلِيت عن الزرع والإنبات .

قالوا : لأن القرآن ليس كتابَ أحكام فحسب كالكتب السابقة ، إنما هو كتاب إعجاز ، والأصل فيه أنه مُعْجز ، ومع ذلك أدخل فيه بعض الأصول والأحكام ، وترك البعض الآخر لبيان الرسول وتوضيحه فى الحديث الشريف ، وجعل له ﷺ حقاً فى التشريع بنصٍّ القرآن : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

والقرآن حين يُورد الأحكام يوردها إجمالاً ثم يُفصِّلها رسول الله ﷺ ، فالصلاة مثلاً أمر بها الحق - تبارك وتعالى - وفرضها ، لكن تفصيلها جاء فى السنة النبوية المطهرة ، فإنْ أردتَ التفصيل فانظر فى السنة .

كالذى يقول : إذا غاب الموظف عن عمله خمسة عشر يوماً يُفصَل ، مع أن الدستور لم ينص على هذا ، نقول : لكن فى الدستور مادة خاصة بالموظفين تنظم مثل هذه الأمور ، وتضع لهم اللوائح المنظِّمة للعمل .

وذكرنا أن الشيخ محمد عبده سأله بعض المستشرقين : تقولون فى القرآن ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. (٣٨) ﴾ [الانعام] فهات لى من القرآن : كم رغيفاً فى إردب القمح ؟ فما كان من الشيخ إلا أن أرسل لأحد الخبازين وسأله هذا السؤال فأجابه : فى الإردب كذا رغيف . فاعترض السائل : أريد من القرآن .

فردَّ الشيخ : هذا من القرآن ؛ لأنه يقول : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

فالأمر الذى يصدر فيه حكم من الله وحكم من رسول الله ، كالصلاة مثلاً : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣) ﴾ [النساء]

وفى الحديث : « الصلاة عماد الدين »[1]

ففى مثل هذه المسألة نقول : أطيعوا الله والرسول ؛ لأنهما متواردان على أمر واحد ، فجاء الأمر بالطاعة واحداً .

أما فى مسائل عدد الركعات وما يُقَال فى كل ركعة وكوْنها سراً أو جهراً ، كلها مسائل بيَّنها رسول الله . إذن : فهناك طاعة لله فى إجمال التشريع أن الصلاة مفروضة ، وهناك طاعة خاصة بالرسول فى تفصيل هذا التشريع ، لذلك يأتى الأمر مرتين ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٥٤) ﴾ [النور]

كما نلحظ فى القرآن : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٥٦) ﴾ [النور] هكذا فحسب .

قالوا : هذه فى المسائل التى لم يَرِدْ فيها تشريع ونَصٌّ ، فالرسول فى هذه الحالة هو المشرِّع ، وهذه من مميزات النبى ﷺ عن جميع الرسل ، فقد جاءوا جميعاً لاستقبال التشريع وتبليغه للناس ، وكان ﷺ هو الوحيد الذى فُوِّض من الله فى التشريع .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ .. (٥٤) ﴾ [النور] لأنه تعالى أعلم بحِرْص النبى على هداية القوم ، وكيف أنه يجهد نفسه فى دعوتهم ، كما خاطبه فى موضع آخر : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء] وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لنبيه : قُلْ لهم وادْعُهم مرة ثانية لتريح نفسك ﴿ قُلْ

---

(١) تمام الحديث : « من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين » قال الحافظ العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء (١/١٤٧) : « رواه البيهقى فى الشّعب بسند ضعّفه من حديث عمر » وقال الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) : « قال ابن الصلاح فى « مشكل الوسيط » : « إنه غير معروف » . وذكره السيوطى فى الدرر المنتثرة (ح ٢٧٩) .

أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴿٥٤﴾ [النور] وإنْ كنت غير مكلَّف بالتكرار ، فما عليك إلا البلاغ مرة واحدة .

ومعنى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [النور] أى : من الله تعالى ، فالرسول حُمِّل الدعوة والبلاغ ، وأنتم حُمِّلْتم الطاعة والأداء ، فعليكم أن تُؤدُّوا ما كلَّفكم الله به .

﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [النور] نلحظ أن المفعول فى ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [النور] مفرد ، فلم يقل : تطيعوهما ، لتناسب صدر الآية ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [النور] ذلك لأن الطاعة هنا غير منقسمة ، بل هى طاعة واحدة .

وقوله : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [النور] تكليفاً من الله ﴿ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النور] المحيط بكل تفصيلات المنهج التشريعى لتنظيم حركة الحياة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

---

(١) سبب نزول الآية : مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين بعدما أوحى الله إليه خائفاً هو وأصحابه يدعون إلى الله سبحانه سراً وعلانية ، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة وكانوا بها خائفين ، يصبحون فى السلاح ويمسون فى السلاح . فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله ما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع فيه السلاح ، فقال رسول الله ﷺ : لن تلبثوا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبياً ليست فيهم حديدة ، وأنزل الله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور] إلى آخر الآية ، فأظهر الله تعالى نبيه على جزيرة العرب ، فوضعوا السلاح وأمنوا ثم قبض الله تعالى نبيه فكانوا آمنين كذلك فى إمارة أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم حتى وقعوا فيما وقعوا فيه وكفروا النعمة فأدخل الله عليهم الخوف وغيَّروا فغيَّر الله بهم . رواه الربيع ابن أنس عن أبى العالية . أورده الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٨٨) ، وابن كثير فى تفسيره (٣/٣٠١) ، والقرطبى فى تفسيره (٦/٤٨٣٥) .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) ﴾

فى أول الحديث عن سورة النور قلنا : إنها سُمِّيَتْ بالنور ؛ لأنها تبين للناس النور الحسىّ فى الكون ، وتقيس عليه النور المعنوى فى القيم ، وما دُمْنا نطفىء أنوارنا الحسية حين يظهر نور الله فى الشمس ، يجب كذلك أن نطفىء أنوارنا المعنوية حين يأتينا شرع من الله .

فليس لأحد رأىٌ مع شرع الله ؛ ذلك لأن الخالق ـ عز وجل ـ يريد لخليفته فى الأرض أن يكون فى نور حسىٍّ ومعنوى ، ثم ضمن له مقومات بقاء حياته بالطعام والشراب شريطةَ أنْ يكون من حلال حتى تبنى خلاياه وتتكون من الحلال فيَسلم له جهاز الاستقبال عن الله وجهاز الإرسال إنْ أراد الدعاء .

وفى الحديث الشريف : « أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ [المؤمنون] وقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [البقرة] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغُذِّى

بالحرام فأنَّى يُستجاب لذلك ؟»[1] .

فهذه أجهزة مُعطَّلة خَرِبة أشبه ما تكون بالراديو الذى لا يحسن استقبال ما تذيعه محطات الإذاعة ، فالإرسال قائم يستقبله غيره ، أما هو فجهاز استقباله غير سليم .

فإذا ضمنتَ سلامة تكوينك بلقمة الحلال ضمن الله لك إجابة الدعاء ، وفي الحديث يقول النبى ﷺ لسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : « أطبْ مَطْعمك تكُنْ مُسْتجاب الدعوة »[2] .

ثم ضمن الله للإنسان مُقوِّمات بقاء نوعه بالزواج لاستمرار الذرية لتستمر الخلافة فى الأرض طاهرة نظيفة ، ثم تحدثتْ السورة مُحذِّرة إياكم أنْ تجترئوا على أعراض الناس ، أو ترْمُوا المحصنات ، أو تدخلوا البيوت دون استئذان ، حتى لا تطَّلعوا على عورات الناس .. إلخ .

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد سلامة المجتمع وسلامة الخلافة فى الأرض ، وكل هذه الأحكام والمعانى تصبٌ فى هذه الآية :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ.. (٥٥) ﴾ [النور] فمَنْ فعل ذلك كان أهْلاً للخلافة عن الله ، إنها معركة ابتلاءات وتمحيص تُبيِّن الغَثَّ[3] من السَّمين ، ألاَ ترى المسلمين

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٥) كتاب الزكاة ، وأحمد فى مسنده (٢/٣٢٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٢٩١) من حديث ابن عباس قال : تليت عند رسول الله ﷺ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا.. (١٦٨) ﴾ [البقرة] فقال سعد : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال ﷺ : « يا سعد ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده ، إن العبد يقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه العمل اربعين يوماً ، وايما عبد نبت لحمه من سحت فالنار اولى به » . قال الهيثمى : « رواه الطبرانى فى الصغير وفيه من لم أعرفهم »

(٣) الغث : الردىء من كل شىء . ولحم غَثٌّ : مهزول . [لسان العرب ـ مادة : غثث] .

الأوائل كيف كانوا يُعذَّبون ويُضطهدون ، ولا يجرؤ أحد على حمايتهم حتى اضطروا للهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، وقد قال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾ [العنكبوت]

وهؤلاء الصحابة هم الذين حملوا للدنيا مشاعلَ الهداية ، وساحوا بدعوة الله فى أنحاء الأرض ، فلا بُدَّ أن يُربوا هذه التربية القاسية ، وأن يُمتحنوا كل هذا الامتحان ، وهم يعلمون جيداً ثمن هذه التضحية وينتظرون ثوابها من الله ، فأهل الحق يدفعون الثمن أولاً ، أما أهل المبادىء الباطلة فيقبضون الثمن أولاً قبل أنْ يتحركوا فى اتجاه مبادئهم . وهذا الابتلاء الذى عاشه المسلمون الأوائل هو من تنقية الخليفة ليكون أهْلاً لها .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ .. (٥٥) ﴾ [النور] والوَعْد : بشارة بخير لم يأْت زمنُه بعد ، حتى يستعد الناس بالوسيلة له ، وضدّه الوعيد أو الإنذار بشرٍّ لم يأت زمنه بعد ، لتكون هناك فرصة للاحتياط وتلافى الوقوع فى أسبابه .

وما دام الوعد من الله تعالى فهو صدْق ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (١٢٢) ﴾ [النساء] وقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ (١١١) ﴾ [التوبة]

والذى يفسد على الناس وعودهم ، ويجرُّ عليهم عدم الوفاء أن الإنسان مُتغيِّر بطبْعه مُتقلِّب ، فقد يَعد إنساناً بخير ثم يتغير قلبه عليه فلا يفى له بما وعد ، وقد يأتى زمنُ الوفاء فلا يقدر عليه ، أمَّا الحق - تبارك وتعالى - فلا يتغير أبداً ، وهو سبحانه قادر على الوفاء بما وعد به ، فليست هناك قوة أخرى تمنعه ، فهو سبحانه واحد لا إله غيره ؛ لذلك فوَعْده تعالى ناجز .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ..(٥٥) ﴾ [النور] قلنا : إن الإيمان الذى يقوم على صفاء الينبوع والعقيدة ليس مطلوباً لذاته ، إنما لا بُدَّ أن تكون له ثمرة ، وأن يُرى أثره طاعة وتنفيذاً لأوامر الله ، فطالما آمنتَ بالله فنفِّذ ما يأمرك به ، وهناك من الناس مَنْ يفعل الخير ، لكن ليس من منطلق إيمانى مثل المنافقين الذين قال الله فيهم : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا.. (١٤) ﴾ [الحجرات] فَردَّ الله عليهم : ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا..(١٤) ﴾ [الحجرات] يعنى : خضعنا للأوامر ، لكن عن غير إيمان ، إذن : فقيمة الإيمان أن تُنفِّذ مطلوبه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

فبماذا وعد الله الذين آمنوا ؟ ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ..(٥٥) ﴾ [النور] وهذه ليست جديدة ، فقد سبقهم أسلافهم الأوائل ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ..(٥٥) ﴾ [النور] ، فاستخلاف الذين آمنوا ليس بِدْعاً ، إنما هو أمر مُشاهد فى مواكب الرسل والنبوة ومُشَاهد فى المسلمين الأوائل من الصحابة الذين أُوذُوا وعُذِّبوا واضطهدوا وأُخْرِجوا من ديارهم وأولادهم وأموالهم ولم يُؤمَروا بردِّ العدوان .

حتى إن رسول الله ﷺ حينما قدم المدينة فى جَمْع من صحابته استقبله الأنصار بالحفاوة ، واحتضنوا هؤلاء المهاجرين ، وفعلوا معهم نموذجاً من الإيثار ليس له مثيل فى تاريخ البشرية ، وهل هناك إيثار أعظم من أنْ يعرض الأنصارى زوجاته على المهاجر يقول : اختر إحداهما أُطلِّقها لك ، إلى هذه الدرجة فعل الإيمان بنفوس الأنصار .

ولما رأى كفار قريش ما صنعه الأنصار مع المهاجرين توقَّدوا ناراً : كيف يعيش المهاجرون فى المدينة هذه العيشة الهنية وتكتلوا جميعاً ضد هذا الدين ليضربوه عن قَوْس واحدة ، وتآمروا على القدوة ليقضوا على هذا الدين الوليد الذى يشكل أعظم الخطر عليهم .

حتى إن الأمر قد بلغ بالمهاجرين والأنصار أنهم لا يبيتون إلا بالسلاح ، ولا يصبحون إلا بالسلاح مخافةَ أنْ ينقضَّ عليهم أعداؤهم ، حتى إن أحد الصحابة يقول لإخوانه : أترونَ أنَّا نعيش حتى نأمن ونطمئن ولا نبيت فى السلاح ونصبح فيه ، ولا نخشى إلا الله ؟ يعنى : أهناك أمل فى هذه الغاية ؟

وآخر يذهب إلى رسول الله ﷺ يقول : يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون ؟ ألاَ يأتينا يوم نضع فيه السلاح ونبيت آمنين ؟

فيقول النبى ﷺ بلسان الواثق من وعد ربه ، وليس كلاماً قد يُكذَّب فيما بعد : « لا تصبرون إلا يسيراً ، حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم مُحْتبياً ليست فيه حديدة »[1] يعنى : فى الملأ الواسع ، والاحتباء جلسة المستريح الهانىء ، والحديدة كناية عن السلاح .

وقد قال ﷺ : « إن الله زوى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ مُلْك أمتى ما زُوِىَ لى منها »[2] .

ومعنى « إن الله زوى لى الأرض » معلوم أن للإنسان مجالَ رؤية يلتقى فيه إلى نهاية الأفق ، أمّا الأرض ذاتها فواسعة ، فَزُويَتْ الأرض لرسول الله يعنىَ : جُمعت فى زاوية ، فصار ينظر إليها كلها .

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٠١) سبباً فى نزول الآية مروياً عن أبى العالية .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٨٩) كتاب الفتن ، وأحمد فى مسنده (٥/٢٧٨ ، ٢٨٤) من حديث ثوبان رضى الله عنه .

إذن : فهم فى هذه المرحلة يشتهون الأمن وهدوء البال ، وقد قال تعالى عنهم فى هذه الفترة : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤) ﴾ [البقرة]

وفى غمرة هذه الشدة وقمة هذا الضيق يُنزل تعالى على رسوله : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] حتى إن الصحابة ليتعجبون ، يقول عمر رضى الله عنه : أىُّ جمع هذا ؟ وقد نزلت الآية وهم فى مكة فى أشد الخوف لا يستطيعون حماية أنفسهم .

لكن بعد بدر وبعد أنْ رأى ما نزل بالكفار قال : صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

ثم ينزل الله تعالى على رسوله ﷺ بعض الآيات التى تُطمئن المؤمنين وتصبرهم : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ .. (٤١) ﴾ [الرعد]

فاطمئنوا ، فكل يوم ننقص من أرض الكفر ، ونزيد فى أرض الإيمان ، فالمقدِّمات فى صالحكم ، ثم يأتى فتح مكة ويدخلها النبى ﷺ فى موكب مهيب مُطأطئاً رأسه ، تواضعاً لمن أدخله ، مُظهراً ذلة العبودية لله .

حتى إن أبا سفيان لما رأى رسول الله ﷺ فى هذا الموكب يقول للعباس : لقد أصبح مُلْك ابن أخيك عظيماً ، فيقول العباس : إنها النبوة يا أبا سفيان[1] ، يعنى : المسألة ليست مُلْكاً إنما هى بشائر

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٤٠٤) أن جيوش المسلمين عُرضت على أبى سفيان فى فتح مكة وهو مع العباس عم رسول الله ﷺ ، فقال : ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلْك ابن أخيك الغداة عظيماً ، قال : قلت يا أبا سفيان ، إنها النبوة . قال : فنعم إذن .

النصر لدين الله وظهوره على معقل الأصنام والأوثان فى مكة .

ثم يذهب إلى خيبر معقل أهل الكتاب من بنى قَيْنُقَاع وبنى النضير وبنى قريظة وينتصر عليهم ، ثم تسقط فى يده البحرين ومجوس هَجَر ، ويدفعون الجزية .

بعد ذلك يرسل ﷺ كُتبه إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام ، فيرسل إلى النجاشى مَلك الحبشة ، وإلى المقوقِس ، وإلى هرقل ، وإلى كسرى ، وتأتيه الهدايَا من كُلٍّ هؤلاء .

ويستمر المدُّ الإسلامي والوفاء بوعد الله تعالى لخليفة رسول الله ، فإنْ كان المد الإسلامى قد شمل الجزيرة العربية على عهد رسول الله ، فإنه تعدّاها إلى شتى أنحاء العالم فى عهد الخلفاء الراشدين ، حتى ساد الإسلامُ العالمَ كله ، وأظهره الله على أكبر حضارتين فى ذلك الوقت : حضارة فارس فى الشرق ، وحضارة الروم فى الغرب فى وقت واحد ، ويتحقق وعد الله للذين آمنوا بأنْ يستخلفهم فى الأرض .

وبعد وفاة رسول الله ﷺ تتحقق النبوءات التى أخبر بها ، ومنها ما كان من أمر سراقة بن مالك الذى خرج خلف رسول الله فى رحلة الهجرة يريد طلبه والفوز بجائزة قريش ، وبعد أنْ تاب سُرَاقة وعاد إلى الجادة كان الصحابة يعجبون لدقة ساعديْه ويصفونهما بما يدعو إلى الضحك فكان ﷺ يقول عن ساعدى سراقة : « كيف بهما فى سوارى كسرى ؟ »[1]

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٦/ ٣٢٥) أن عمر بن الخطاب أتي بفروة كسرى فوضعت بين يديه وفى القوم سراقة بن مالك قال : فألقى إليه سوارى كسرى بن هرمز فجعلهما فى يديه فبلغا منكبيه ، فلما رآهما فى يَدَىْ سراقة قال : الحمد لله ، سوارا كسرى بن هرمز فى يد سُراقة ابن مالك بن جُعْشم أعرابى من بنى مدلج وذكر الحديث . قال الشافعى ـ رحمه الله : وإنما ألبسهما سراقة لأن النبى ﷺ قال لسراقة ونظر إلى ذراعيه : « كأنى بك قد لبست سوارىْ كسرى » .

ويفتح المسلمون بعد ذلك مُلْك كسرى ، ويكون سِوَارا كسرى من نصيب سُرَاقة ، فيلبسهما ، ويراهما الناس فى يديه .

هذه كلها بشائر ومقدمات لوعد الله يراها المؤمنون فى أنفسهم ، لا فيمن يأتى بعد ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ.. (٥٥)﴾ [النور] يعنى : المسألة لن تطول .

كذلك أم حرام بنت ملحان[1] التى خرجت فى غزوة ذات الصوارى وركبت البحر ذكرت أن رسول الله ﷺ كان ينام هناك ثم يصحو وهو يضحك ، فقالت له : ما يُضحكك يا رسول الله ؟ قال : « أناس من أمتى يركبون زَبَد هذا البحر ، ملوك على الأسِرَّة أو كالملوك على الأسِرّة » فقال : ادْعُ الله أن أكون منهم ، فدعا لها فاستجاب الله دعاءَه ، وخرجتْ فى الغزوة ، ولما ركبوا البحر الابيض أرادت أنْ تخرج فماتت[2] .

إذن : فالبشارة فى هذه الآية ليست بشارة لفظية ، إنما هى بشارة واقعية لها واقع يؤيدها ، قد حدث فعلاً .

لكن ، ما المراد بالارض فى ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ..(٥٥)﴾ [النور] ؟ إذا جاءت الأرض هكذا مُفْردةً غير مضافة لشىء فتعنى كل الارض ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا

---

(١) أخت أم سليم ، اسلمت وبايعت رسول الله ﷺ ، وكان يقيل فى بيتها وتزوجها عبادة بن الصامت . قال هشام بن الغاز : قبر أم حرام بقبرس ، وهم يقولون : هذا قبر المرأة الصالحة . « المؤمنات الصالحات لتقى الدين الحصنى توفى ٨٢٩ هـ . ص ٥٣ ، ٥٤ ـ دار البشير تحقيق عادل أبو المعاطى » .

(٢) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٢/٦١) بهذا اللفظ ، وأخرجه البخارى فى صحيحه (٦/١٠٢ ـ فتح البارى) وأبو نعيم فى الحلية (٢/٦٢) بلفظ : « أول جيش من أمتى يغزون البحر قد أوجبوا » قالت أم حرام : أنا منهم ؟ قال : « أنت منهم » .

الأَرْضَ.. ﴿١٠٤﴾ [الإسراء] يعنى : تقطّعوا فى كل أنحائها ، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ.. ﴿١٠٤﴾ [الإسراء] الذى وعد الله به ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ [الإسراء] يعنى : جمعناكم من الأراضى كلها ، وهذا هو الأمل القوى الذى نعيش عليه ، وننتظر من الله أنْ يتحقق .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ .. ﴿٥٥﴾ [النور] فوق الاستخلاف فى الأرض يُمكّن الله لهم الدين ، ومعنى تمكين الدين : سيطرته على حركة الحياة ، فلا يصدر من أمور الحياة أمر إلا فى ضوئه وعلى هَدْيه ، لا يكون ديناً مُعطّلاً كما نُعطّله نحن اليوم ، تمكين الدين يعنى توظيفه وقيامه بدوره فى حركة الحياة تنظيماً وصيانة .

وقوله سبحانه : ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا .. ﴿٥٥﴾ [النور] وهم الذين قالوا : نبيت فى السلاح ، ونصبح فى السلاح ، فيبدلهم الله بعد هذا الخوف أَمْناً ، فإذا ما حدث ذلك فعليهم أنْ يحافظوا على الخلافة هذه ، وأنْ يقوموا بحقها ﴿يَعْبُدُونَنِى لا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ [النور]

ومعنى ﴿كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ .. ﴿٥٥﴾ [النور] يعنى : بعد أن استخلفه الله ، ومكّن له الدين وأمّنه وأزال عنه أسباب الخوف .

وفَرْق بين تمكين الإسلام وتمكين مَنْ يُنسب إلى الإسلام ، فالبعض يدَّعى الإسلام ، ويركب موجته حتى يحكم ويستتب له الأمر وتنتهى المسألة ، لا .. لأن التمكين ليس لك أيها الحاكم ، إنما التمكين لدين الله .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

دائماً ما يقرن القرآن بين هذيْن الركنين ، وتأتى الزكاة بعد الصلاة ؛ ذلك لأن الصلاة هى الركن الوحيد الذى فُرض من الله مباشرة ، أما بقية الأركان فقد فُرضَتْ بالوحى ، وضربنا لذلك مثلاً ، ولله تعالى المثل الأعلى بالرئيس الذى يُكلِّف مرؤوسيه بتأشيرة أو بالتليفون ، فإنْ كان الأمر مُهماً استدعى الموظف المختص إلى مكتبه وكلَّفه بهذا الأمر مباشرة لأهميته .

فكذلك الحق - تبارك وتعالى - أمر بكل التكاليف الشرعية بالوحى ، إلا الصلاة فقد فرضها على رسول الله بعد أن استدعاه إلى رحلة المعراج فكلَّفه بها مشافهةً دون واسطة ، ولما يعلمه الله تعالى من محبة النبى ﷺ لأمته قال له : أنا فرضتُ عليك الصلاة بالقرب ، وكذلك أجعلها للمصلى فى الأرض بالقرب ، فإنْ دخل المسجد وجدنى .

وإنْ كانت أركان الإسلام خمسةً ، فإن الشهادة والصلاة هما الركنان الدائمان اللذان لا ينحلان عن المؤمن بحال من الأحوال ، فقد لا تتوفر لك شروط الصوم أو الزكاة أو الحج فلا تجب عليك ، كما أن الصلاة هى الفريضة المكررة على مدار اليوم والليلة خمس مرات ، وبها يتم إعلان الولاء لله دائماً ، وقد وزَّعها الحق سبحانه على الزمن ليظل المؤمن على صلة دائمة بربه كلما شغلتْه الدنيا وجد (الله أكبر) تناديه .

وانظر إلى عظمة الخالق - عز وجل - حين يطلب من صنعته أن

تقابله وتُعرض عليه كل يوم خمس مرات ، وهو سبحانه الذى يطلب هذا اللقاء ويفرضه عليك لمصلحتك أنت ، ولك أن تتصور صنعة تُعرض على صانعها كل يوم خمس مرات أيصيبها عَطَب ؟

وربك هو الذي يناديك ويدعوك للقائه ويقول : « لاَ أملّ حتّى تملُّوا »[1] ومن رحمته بك ومحبته لك تركَ لك حرية اختيار الزمان والمكان ، وترك لك حرية إنهاء المقابلة متى تشاء ، فإنْ أردتَ أنْ تظلّ فى بيته وفى معيته فعلى الرَّحْب والسَّعَة .

ولأهمية الصلاة ومكانتها فى الإسلام اجتمع فيها كل أركان الإسلام ، ففى الصلاة تتكرر الشهادة : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وفى الصلاة زكاة ؛ لأن الزكاة فرع العمل ، والعمل فرع الوقت ، والصلاة تأخذ الوقت نفسه ، وفيها صيام حيث تمتنع فى الصلاة عما تمتنع عنه فى الصوم بل وأكثر ، وفيها حج لأنك تتجه فى صلاتك إلى الكعبة .

إذن : فالصلاة نائبة عن جميع الأركان فى الاستبقاء ، لذلك كانت هى عمود الدين ، والتى لا تسقط عن المؤمن بحال من الأحوال حتى إنْ لم يستطع الصلاة قائماً صلى جالساً أو مضطجعاً ، ولو أن يشير بأصبعه أو بطرفه أو حتى يخطرها على باله ؛ ذلك لاستدامة الولاء بالعبودية لله المعبود .

والصلاة تحفظ القيم ، فتُسوِّى بين الناس ، فيقف الغنى والفقير والرئيس والمرؤوس فى صَفٍّ واحد ، الكل يجلس حَسْب قدومه ،

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول : « خذوا من العمل ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملوا » . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٧٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٧٨٢) كتاب صلاة المسافرين .

وهذا يُحدث استطراقاً غبودياً فى المجتمع ، ففى الصلاة مجال يستوى فيه الجميع .

وإنْ كانت الصلاة قوامَ القيم ، فالزكاة قوام المادة لمنْ ليستْ له قدرة على الكسب والعمل . إذن : لدينا قوانين للحياة ، ولاستدامة الخلافة على الأرض قوام القيم فى الصلاة ، وقوام المادة فى الزكاة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) ﴾ [النور] وهنا فى الصلاة والزكاة خَصَّ الرسول بالإطاعة ؛ لأنه صاحب البيان والتفصيل لما أجمله الحق سبحانه فى فرضية الصلاة والزكاة ، حيث تفصيل كل منهما فى السُّنة المطهرة ، فقال : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ.. (٥٦) ﴾ [النور]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٥٧) ﴾

يعود السياق للحديث عن الكافرين : ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ .. (٥٧) ﴾ [النور] يعنى : لا تظنن ، والشىء المعجز هو الذى يثبت العجز للمقابل ، نقول : عملنا شيئاً مُعْجزاً لفلان يعنى : لا يستطيع الإتيان بمثله .

فإياك أنْ تظن أن الكافرين مهما علَتْ مراتبهم ومهما استشرى طغيانهم يُفْلتون من عقاب الله ، فلن يثبتوا له سبحانه العجز عنهم أبداً ، ولن يُعجزوه ، إنما يُملى لهم سبحانه ويمهلهم حتى إذا أخذهم ، أخذهم أخْذ عزيز مقتدر ، وهو سبحانه مُدركهم لا محالةَ .

وجاء على لسان الجن : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) ﴾ [الجن]

ونلحظ في قوله تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ .. (٥٧) ﴾ [النور] أنها عطفتْ هذه الجملة على سابقتها ، وهي منفية ﴿ لا تَحْسَبَنَّ .. (٥٧) ﴾ [النور] فهل يعني هذا أن معناها : ولا تحسبن مأواهم النار ؟ قالوا : لا ، إنما المعنى : ولا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض لأن مأواهم النار .

﴿ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) ﴾ [النور] أي : المرجع والمآب .

ثم ينتقل السياق إلى سلوك يمسُّ المجتمع من داخله والأسرة في أدقِّ خصوصياتها ، بعد أنْ ذكر في أول السورة الأحكام الخاصة بالمجتمع الخارجي ، فيقول سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ[1] مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) ﴾

تُعلِّمنا هذه الآية آداب الاستئذان داخل الأسرة المكوَّنة من الأبويْن والأبناء ، ثم الاتباع مثل الخدم وغيرهم ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ

(١) حلم الصبي يحلم حُلماً : بلغ مبلغ الرجال . [القاموس القويم ١/ ١٦٩] .

يريد أن يُنشِئَ هذه الأسرة على أفضل ما يكون ، ويخصّ بالنداء هنا الذين آمنوا ، يعني : يا من آمنتم بي رباً حكيماً مُشرِّعاً لكم حريصاً على مصلحتكم استمعوا إلى هذا الأدب : ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ .. (٥٨)﴾ [النور]

معلوم أن طلب المتكلم من المخاطب يأتي على صورتين : فعل الأمر وفعل المضارع المقترن بلام الأمر ، فقوله تعالى : ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ.. (٥٨)﴾ [النور] يعني : علِّموا هؤلاء أن يستأذنوا عليكم ، مثل : ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا .. (٣٣)﴾ [النور] يعني : استعفوا ، لأن اللام هنا لام الأمر ، ومثل : ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ.. (٧)﴾ [الطلاق]

وهذا الأدب تكليف من الله تعالى يُكلِّف به كل مؤمن داخل الأسرة ، وإنْ كان الأمر هنا لغير المأمور ، فالمأمور بالاستئذان هم ملْك اليمين والأطفال الصغار ، فأمر الله الكبارَ أن يُعلِّموا الصغار ، كما ورد في الحديث الشريف : « مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر »[1] .

فلم يُكلَّف بهذا الصغار إنما كُلِّف الكبار ؛ لأن الأطفال لم يبلغوا بَعْد مبلغ التكليف من ربهم ، إنما بلغوا مبلغ التكليف عندكم أنتم ، لذلك أنت الذي تأمر وأنت الذي تتابع وتعاقب[2] .

وأمْرُ الصغير بالصلاة أو بالاستئذان لِتُربي فيه الدربة والتعود

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/١٨٧) وأبو داود في سننه (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص . واللفظ لأحمد .

(٢) قال الشيخ أبو يحيى زكريا الأنصاري في كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن » ص ٢٨٩ : « إن قلت : كيف أمر الله تعالى بالاستئذان لهم ، مع أنهم غير مكلفين؟ قلت : الأمر في الحقيقة لأوليائهم ليؤدِّبوهم » .

على أمر قد يشقُّ عليه حال كِبَره ، إنما إنْ عوَّدته عليها الآن فإنها تسهل عليهم عند سِنِّ التكليف ، وتتحول العادة فى حقه إلى عبادة يسير عليها .

وشرع الله لنا آداب الاستئذان ؛ لأن للإنسان ظاهراً يراه الناس جميعاً ويكثر ظاهره للخاصة من أهله فى أمور لا يُظهرها على الآخرين ، إذن : فَرُقْعة الأهل والملاصقين لك أوسع ، وهناك ضوابط اجتماعية للمجتمع العام ، وضوابط اجتماعية للمجتمع الخاص وهو الأسرة ، وحرية المرء فى أسرته أوسع من حريته فى المجتمع العام ، فإنْ كان فى حجرته الخاصة كانت حريته أوسعَ من حريته مع الأسرة .

فلا بُدَّ إذن من ضوابط تحمى هذه الخصوصيات ، وتُنظِّم علاقات الأفراد فى الأسرة الواحدة ، كما سبقت ضوابط تُنظِّم علاقات الأفراد خارج الأسرة .

ومعنى : ﴿ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [النور] هم العبيد الذين يقومون على خدمة بعض الناس وليس الأجير ,لأن الأجير حر يستطيع أن يتركك فى أى وقت ، أمَّا العبد فليس كذلك ؛ لأنه مملوك الرقبة لا حريةَ له ، فالمملوكية راجحة فى هؤلاء ، وللسيد السيطرة والمهابة فلا يستطيع أن يُفلت منه .

﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [النور] هم الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا مبلَغ التكليف ، ويقضون المصالح ؛ فتراهم فى البيت يدخلون ويخرجون دون ضابط ، فهل نتركهم هكذا يطَّلِعون على خصوصياتنا ؟

وللخدم فى البيت طبيعة تقتضى أن يدخلوا علينا ويخرجوا ،

وكذلك الصغار ، إلا في أوقات ثلاثة لا يُسْمح لهم فيها بالدخول إلا بعد الاستئذان : ﴿ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ .. (٥٨) ﴾ [النور] لأنه وقت متصل بالنوم ، والإنسان في النوم يكون حُرَّ الحركة واللباس ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ .. (٥٨) ﴾ [النور] وهو وقت القيلولة ، وهى وقت راحة يتخفَّف فيها المرء من ملابسه ﴿ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ .. (٥٨) ﴾ [النور] وبعد العشاء النوم . هذه أوقات ثلاثة ، لا ينبغى لأحد أن يدخل عليك فيها إلا بإذنك .

وانظر إلى هذا التحفُّظ الذى يوفره لك ربك - عز وجل - حتى لا تُقيَّد حريتك فى أمورك الشخصية ومسائلك الخاصة ، وكأن هذه الأوقات مِلْكٌ لك أيها المؤمن تأخذ فيها راحتك وتتمتع بخصوصياتك ، والاستئذان يعطيك الفرصة لتتهيأ لمقابلة المستأذن .

أما فى بقية الأوقات فالكل يستأذن عليك حتى الزوجة .

وسبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ أراد سيدنا عمر فى أمر من الأمور ، فأرسل إليه غلاماً[1] من الأنصار ، فلما ذهب الغلام دفع الباب ونادى : يا عمر . فلم يرد ؛ لأنه كان نائماً ، فخرج الغلام وجلس فى الخارج ودَقَّ الباب فلم يستيقظ عمر ، فماذا يفعل الغلام ؟

رفع الغلام يديه إلى السماء وقال : يا رب أيقظه . ثم دفع الباب ودخل عليه ، وكان عمر نائماً على وضع لا يصح أن يراه عليه أحد ، واستيقظ عمر ولحظ أن الغلام قد رآه على هذا الوضع ، فلما ذهب إلى النبى ﷺ قال : يا رسول الله نريد أن يستأذن علينا أبناؤنا

(١) هو : مدلج الأنصارى . ذكره ابن حجر العسقلانى فى « تمييز الصحابة » (ترجمة رقم ٧٨٥٢) وذكر هذا الحديث وقال : « أخرجه ابن منده من طريق السدى الصغير عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس » ذكره ثم قال : « وفيه أن النبى ﷺ قال للغلام « أنت ممن يلج الجنة » .

ونساؤنا وموالينا وخدمنا ، فقد حدث من الغلام كيت وكيت ، فنزلت هذه الآية[1] .

ويُسَمِّي الله تعالى هذه الأوقات الثلاثة عورة : ﴿ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ.. (٥٨)﴾ [النور] والعورة : هي ما يحب الإنسان ألاَّ يراها أحد ، أو يراه عليها ؛ لأنها نوع من الخلل والخصوصية ، والله لا يريد أنْ يراك أحد على شيء تكرهه .

لذلك يقولون لمن به خَلَل في عينه مثلاً : أعور ، والعرب تقول للكلمة القبيحة : عوراء[2] ، كما قال الشاعر :

وعَوْراء جاءتْ من أخٍ فرددْتُها بِسالمةِ العَيْنيْنِ طَالبةً عُذْراً[3]

يعني : كلمة قبيحة لم أردّ عليها بمثلها ، إنما بسالمة لا عين واحدة ، بل بسالمة العينين الاثنين .

ثم يقول سبحانه : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ .. (٥٨)﴾ [النور] يعني : بعد هذه الأوقات : لا إثمَ ولا حرجَ عليكم ، ولا على المماليك ، أو الصغار أنْ يدخلوا عليكم ، ففي غير هذه الأوقات يجلس المرء مُسْتعداً لممارسة حياته العادية ، ولا مانع لديه من استقبال الخَدَم أو الأَطفال الصغار دون استئذان ؛ لأن طبيعة المعيشة في البيوت لا تستغني عن دخول هؤلاء وخروجهم باستمرار .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ..

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٦/ ٤٨٤٠) : « قال مقاتل : نزلت في أسماء بنت مرثد ، دخل عليها غلام لها كبير ، فاشتكت إلى رسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية . وقيل : سبب نزولها دخول مُدلج على عمر » .

(٢) قال أبو الهيثم : يقال للكلمة القبيحة عوراء ، وللكلمة الحسناء : عيناء . وقال الليث : العوراء الكلمة التي تهوى في غير عقل ولا رشد . [لسان العرب ـ مادة : عور] .

(٣) ذكره ابن منظور في لسان العرب ـ مادة عور . ولم يذكر اسم الشاعر .

(٥٨)﴾ [النور] يعنى : حركتهم فى البيت دائمة ، دخولاً وخروجاً ، فكيف نُقيِّدها فى غير هذه الأوقات ؟

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ .. (٥٨)﴾ [النور] أى : بياناً واضحاً ، حتى لا يحدث فى المجتمع تناقضات فيما بعد ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ .. (٥٨)﴾ [النور] بكل ما يُصلح الخلافة فى الأرض ﴿حَكِيمٌ (٥٨)﴾ [النور] فى تشريعاته وأوامره ، لا يضع الحكم إلا بحكمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) ﴾

الطفل حين كان طفلاً لم يبلغ الحُلُم كان يدخل دون استئذان فى غير هذه الأوقات ، فإنْ بلغ الحُلُم فعليه أنْ يستأذن ، لا نقول : إنه تعوَّد الاستئذان فى هذه الأوقات فقط ، لا ، إنما عليه أنْ يستأذن فى جميع الأوقات فقد شَبَّ وكَبِر ، وانتهتْ بالنسبة له هذه الحالة .

وبلوغ الحلم أن ينضج الإنسان نُضْجاً يجعله صالحاً لإنجاب مثله ، فهذه علامة اكتمال تكوينه ، وهذا لا يتأتّى إلا باستكمال الغريزة الجنسية التى هى سَبَب النَّسْل والإنجاب ، ومثَّلْنا ذلك بالثمرة التى لا تحلو إلا بعد نُضْجها ، فإنْ تركتَها بعد النضج سقطتْ من نفسها ، وهذه آية من آيات الله لبقاء النوع ، فلو أكلنا الثمرة قبل نُضْجها لا تنبت بذرتها وينقرض نوعها ، فمن حكمة الله فى الخلْق ألاَّ تحلو الثمرة إلا بعد النُّضْج .

كذلك الولد حين يبلغ يصبح صالحاً للإنجاب ، ونقول له : انتهتْ الرخصة التى منحها لك الشرع ، وعليك أن تستأذن فى جميع الأوقات .

لذلك يقول تعالى فى موضع آخر : ﴿ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١) ﴾ [النور]

وجاء بالطفل بصيغة المفرد ؛ لأن الأطفال فى هذه السِّنِّ لم تتكوّن لديهم الغريزة ، وليست لهم هذه الميول أو المآرب ، فكأنهم واحد ، أمّا بعد البلوغ وتكوُّن الميول الغريزية قال : ﴿ الأَطْفَالُ .. (٥٩) ﴾ [النور] لأن لكل منهم بعد البلوغ ميوله وشخصيته وشطحاته .

وقوله : ﴿ كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٥٩) ﴾ [النور] أى : من الكبار الذين يستأذنون فى كل الأوقات ﴿ كَذَٰلِكَ .. (٥٩) ﴾ [النور] أى : مثل ما بينَّا فى الاستئذان الأول ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ .. (٥٩) ﴾ [النور] لأنه سبحانه ﴿ عَلِيمٌ .. (٥٩) ﴾ [النور] بما يُصلحكم ﴿ حَكِيمٌ (٥٩) ﴾ [النور] لا يُشرِّع لكم إلا بحكمة .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) ﴾

نعلم أن الشارع الحكيم وضع للمرأة المسلمة قواعد تسير عليها فى زِيِّها وسلوكها ومِشْيتها ، حمايةً لها وصيانةً للمجتمع من الفتنة ،

وحتى لا يطمع فيها أصحاب النفوس المريضة ، فجعل لها حجاباً يسترها يُخفى زينتها لا يكون شفافاً ولا واصفاً ، وقال : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب]

لكن القواعد من النساء والكبيرات منهن لَهُنَّ حكم آخر .

والقواعد : جمع قاعد لا قاعدة ، قاعدة تدل على الجلوس ، أمّا القاعد ذكراً أو أنثى فهو الذى قعد عن دورة الحياة ، ولم يَعُدْ له مهمة الإنجاب ، ومثل هؤلاء لم يَعُدْ فيهنَّ إرْبة ولا مطمع ؛ لذلك لا مانعَ أن يتخفَّفْنَ بعض الشيء من اللباس الذى فُرِض عليهن حال وجود الفتنة ، ولها أن تضع (طرحتها) مثلاً .

لكن هذه مسألة مقولة بالتشكيك : نسبية يعنى : فمن النساء مَنْ ينقطع حَيْضها ويدركها الكِبَر ، لكن ما يزال فيها جمال وفتنة ؛ لذلك ربنا - تبارك وتعالى - وضع لنا الحكم الاحتياطى ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ .. (٦٠) ﴾ [النور] ثم يدلُّهُن على ما هو خير من ذلك ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ.. (٦٠) ﴾ [النور]

والمقصود بوَضْع الثياب : التخفّف بعض الشيء من الثياب الخارجية شريطة ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ .. (٦٠) ﴾ [النور] فلا يجوز للمرأة أن تضع ثيابها أَخْذاً بهذه الرخصة ، ثم تضع الزينة وتتبرج . ونخشى أن نُعلِّم النساء هذا الحكم فلا يأخذْنَ به حتى لا نقول عنهن : إنهن قواعد !!

وتعجب حين ترى المرأة عندما تبلغ هذه السِّنَّ فتجدها وَرِعة فى ملبسها ، وَرِعة فى مظهرها ، وَرِعة فى سلوكها ، فتزداد جمالاً وتزداد بهاءً وآسرية ، على خلاف التى لا تحترم سِنَّها فتضع على

وجهها المساحيق والألوان فتبدو مَسْخاً مُشوَّهاً .

ومعنى ﴿ يَسْتَعْفِفْنَ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [النور] أي : يحتفظْنَ بملابسهن لا يضعْنَ منها شيئاً ، فهذا أدْعى للعفة .

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [النور] الحرج : هو الضيق ، كما جاء في قوله سبحانه : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ .. ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام]

أو الحرج بمعنى : الإثم ، فالحرج المرفوع عن هؤلاء هو الضّيق

أو الإثم الذى يتعلق بالحكم الآتى فى مسألة الأكل ، بدليل أنه يقول ﴿ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ .. (٦١) ﴾ [النور]

والأعمى يتحرَّج أنْ يأكل مع الناس ؛ لأنه لا يرى طعامه ، وربما امتدتْ يده إلى أطيب الطعام فيأكله ويترك أدناه ، والأعرج يحتاج إلى راحة خاصة فى جلْسته ، وربما ضايق بذلك الآخرين ، والمريض قد يتأفف منه الناس . فرفَع الله تعالى عن عباده هذا الحرج ، وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا .. (٦١) ﴾ [النور]

فيصح أن تأكلوا معاً ؛ لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أنْ يجعل التكامل فى الذوات لا فى الأعراض ، وأيضاً أنك إنْ رأيتَ شاباً مَؤوفاً(١) يعنى به آفة ، ثم تعامله معاملة خاصة فربما جرحْتَ شعوره ، حتى إنْ كان ما به أمراً خَلْقياً من الله لا يتأباه ، والبعض يتأبى أن يخلقه الله على هيئة لا يرضاها .

لذلك كانوا فى الريف نسمعهم يقولون : اللى يعطى العمى حقه فهو مبصر ، لماذا ؟ لأنه رضى بهذا الابتلاء ، وتعامل مع الناس على أنه كذلك ، فطلب منهم المساعدة ؛ لذلك ترى الناس جميعاً يتسابقون إلى مساعدته والأخْذ بيده ، فإنْ كان قد فقد عيناً فقد عوَّضه الله بها ألف عَيْن ، أما الذى يتأبّى ويرفض الاعتراف بعجزه ويرتدى نظارة سوداء ليخفى بها عاهته فإنه يسير مُتعسِّراً يتخبّط لا يساعده أحد .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد لأصحاب هذه الآفات أن يتوافقوا مع المجتمع ، لا يأخذون منه موقفاً ، ولا يأخذ المجتمع

---

(١) مؤوف : أصابته آفة . والآفة : العاهة . وآفت البلاد : صارت فيها آفة . [لسان العرب ـ مادة : أوف] .

منهم موقفاً[1] ؛ لذلك يعطف علي ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ .. (٦١)﴾ [النور] ثم يقول سبحانه ﴿وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور] يعنى : هم مثلكم تماماً ، فلا حرجَ بينكم فى شىء .

﴿أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ..(٦١)﴾ [النور] إلخ .

وكان فى الأنصار قزازة[2] ، إذا جلس فى بيت لا يأكل منه إلا إذا أذنَ له صاحب البيت ، وقد يسافر الرجل منهم ويترك التابع عنده فى البَيت دون أنْ يأذنَ له فى الأكل من طعام بيته ويعود ، فيجد الطعام كما هو ، أو يجده قد فسد دون أنْ يأكل منه التابع شيئاً ، فأراد الحق سبحانه أنْ يرفع هذا الحرج عن الناس ، فقال :

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ..(٦١)﴾ [النور] إلى آخر هذه المعطوفات .

ولقائل أنْ يقول : وأىّ حرج فى أنْ يأكل المرء من بيته ؟ وهل كان يخطر على البال أنْ تجد حَرَجاً ، وأنت تأكل من بيتك ؟

قالوا : لو حاولتَ استقصاء هؤلاء الأقارب المذكورين فى الآية لتبيّن لك الجواب ، فقد ذكرتْ الآية آباءكم وأمهاتكم وإخوانكم وأخواتكم وأعمامكم وعماتكم وأخوالكم وخالاتكم ، ولم تذكر شيئاً عن الأبناء وهم فى مقدمة هذا الترتيب ، لماذا ؟

---

(١) قال ابن عباس : لما أنزل الله تبارك وتعالى ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ .. (١٨٨)﴾ [البقرة] تحرّج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعرج وقالوا : الطعام أفضل الأموال ، وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل ، والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب ، والمريض لا يستوفى الطعام . فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ .. (٦١)﴾ [النور] [أورده الواحدى فى أسباب النزول ص ١٨٩] .

(٢) القزازة : الحياء . قزّتْ نفسى عن الشىء : أبَتْه وعَافتْه . وتقزز الرجل من الشىء : لم يطعمه ولم يشربه بإرادة . [لسان العرب ـ مادة : قزز] .

قالوا : لأن بيوت الأبناء هى بيوت الآباء ، وحين تأكل من بيت ولدك كأنك تأكل من بيتك ، على اعتبار أن الولد وما ملكتْ يداه ملْك لأبيه ، إذن : لك أن تضع مكان ﴿بُيُوتِكُمْ .. ٦١﴾ [النور] بيوت أبنائكم . ذلك لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يُرِدْ أنْ يجعل للأبناء بيوتاً مع الآباء ، لأنهما شيء واحد .

إذن : لا حرجَ عليك أن تأكل من بيت ابنك أو أبيك أو أمك أو أخيك أو أختك أو عمك أو عمتك أو خالك أو خالتك ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ .. ٦١﴾ [النور] يعنى : يعطيك صاحب البيت مفتاح بيته[1] ، وفى هذا إذْنٌ لك بالتصرُّف والأكل من طعامه إنْ أردتَ .

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ .. ٦١﴾ [النور] وتلحظ فى هذه أنها الوحيدة التى وردتْ بصيغة المفرد فى هذه الآية ، فقبلها : بيوتكم ، آبائكم ، أمهاتكم .. إلخ إلا فى الصديق فقال ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ .. ٦١﴾ [النور] ولم يقل : أصدقائكم .

ذلك لأن كلمة صديق مثل كلمة عدو تستعمل للجميع بصيغة المفرد ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي .. ٧٧﴾ [الشعراء]

لأنهم حتى إنْ كانوا جماعة لا بُدَّ أنْ يكونوا على قلب رجل واحد ، وإلا ما كانوا أصدقاء ، وكذلك فى حالة العداوة نقول عدو ، وهم جمع ؛ لأن الأعداء تجمعهم الكراهية ، فكأنهم واحد .

---

(١) عن سعيد بن المسيب أنه كان يقول فى هذه الآية : أنزلت فى أناس كانوا إذا خرجوا مع النبى ﷺ وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج والمريض وعند أقاربهم ، وكانوا يأمرونهم أن يأكلوا مما فى بيوتهم إذا احتاجوا إلى ذلك ، وكانوا يتقون أن يأكلوا منها ويقولون : نخشى أن لا تكون أنفسهم بذلك طيبة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . [أورده الواحدى فى أسباب النزول ص ١٩٠] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا .. (٦١) ﴾ [النور] ﴿ جَمِيعًا .. (٦١) ﴾ [النور] سوياً بعضكم مع بعض ، ﴿ أَوْ أَشْتَاتًا .. (٦١) ﴾ [النور] متفرقين ، كُلٌّ وحده .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ[1] تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً .. (٦١) ﴾ [النور] على أنفكسم ، لأنك حين تُسلِّم على غيرك كأنك تُسلِّم على نفسك ، لأن غيرك هو أيضاً سيسلم عليك ، ذلك لأن الإسلام يريد أن يجعل المجتمع الإيماني وحدة متماسكة ، فحين تقول لغيرك : السلام عليكم سيردّ : وعليكم السلام . فكأنك تُسلِّم على نفسك .

أو : أن المعنى : إنْ دخلتم بيوتاً ليس فيها أحد فسلِّموا على أنفسكم ، وإذا دخلوا المسجد قالوا : السلام على رسول الله وعلينا من ربنا ، قالوا : تُسمع الملائكة وهي ترد .

وقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً .. (٦١) ﴾ [النور] وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا .. (٨٦) ﴾ [النساء]

والتحية فوق أنها من عند الله فقد وصفها بأنها ﴿ مُبَارَكَةً .. (٦١) ﴾ [النور] والشيء المبارك : الذي يعطي فوق ما ينتظر منه ﴿ كَذَٰلِكَ .. (٦١) ﴾ [النور] أي : كما بيَّن لكم الأحكام السابقة يُبيِّن لكم ﴿ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) ﴾ [النور]

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٦/٤٨٥٧) : « الأوجه أن يقال : إن هذا عام في دخول كل بيت ، فإن كان فيه ساكن مسلم يقول : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وإن لم يكن فيه ساكن يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وإن كان في البيت من ليس بمسلم قال : السلام على من اتبع الهدى أو السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » .

أى : أن الذى كلّفكم بهذه الأحكام رَبٌّ يحب الخير لكم ، وهو غنىٌّ عن هذه ، إنما يأمركم بأشياء ليعود نَفْعها عليكم ، فإنْ أطعتموه فيما أمركم به انتفعتُم بأوامره فى الدنيا ، ثم ينتظركم جزاؤه وثوابه فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ[1] لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

المؤمن : مَنْ آمن بإله وآمن بالرسول المبلّغ عن الإله ، وما دُمْتَ قد آمنتَ بالرسول المبلِّغ عن الله فلا بُدَّ أن تكون حركتك خاضعةً لأوامره ، ويجب أن تكون ذاتك له ، فإذا رأى الرسول أمراً جامعاً يجمع المسلمين فى خَطْب أو حدث أو حرب ، ثم يدعوكم إلى التشاور ليُدلى كل منكم برأيه وتجربته ، ويُوسِّع مساحة الشورى فى المجتمع ليأتى الحكم صحيحاً سليماً موافقاً للمصلحة العامة .

فالمؤمن الحق إذا دُعى إلى مثل هذا الأمر الجامع ، لا يقوم من مجلسه حتى يستأذن رسول الله ﷺ ، وليس إلزاماً أنْ يأذن له رسول الله ﷺ ؛ لأن أمر المسلمين الجامع لهم قد يكون أهمّ من الأمر الذى يشغلك ، وتريد أن تقوم من أجله ، وتترك مجلس رسول الله ﷺ .

---

(١) اختلف فى الأمر الجامع ما هو ؟ فقيل : المراد به ما للإمام من حاجة إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة ، من إقامة سنة فى الدين أو لترهيب عدو باجتماعهم ، وللحروب . وقال مكحول والزهرى : الجمعة من الأمر الجامع . [تفسير القرطبى ٤٨٥٨/٦] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ .. (٦٢) ﴾ [النور] فالاستئذان هنا من علامات الإيمان ، لا يقوم خِلْسة (وينسلت) من المجلس ، لا يشعر به أحد ، لا بُدَّ من أنْ يستأذن رسول الله حتى لا يُفوت مصلحة على المؤمنين ، ولربما كان له رأيٌ ينتفع به .

والرسول إنما يستشير أصحابه ليستنير برأيهم وتجاربهم ، فحين يدعوهم إلى أمر جامع يجب أن يُفهم هذا الأمر على نطاق منزلة الرسول من بلاغه عن الله للأمة ، فإذا دعا نفر نفراً للتشاور ، فإنما يتشاوران في أمر شخصي يخصُّ صاحبه ، لكن حين يدعوهم رسول الله لا يدعو لخصوصية واحدة ، وإنما لخصوصية أمة ، شاء الله أن تكون خير أمة أُخْرِجَتْ للناس ، وسوف يستفيد الفرد أيضاً من هذه الدعوة ، وربما كانت استفادته من الاستجابة للدعوة العامة التي تنتظم كل الناس خَيْراً من استفادته من دعوته الخاصة ، فيجب أنْ يُقدِّر المدعو هذا الفارق .

ومع وجود هذا الفارق لم يَحرِم اللهُ بعضَ الناس الذين لهم مشاغل أنْ يستأذنوا فيها رسول الله وينصرفوا ؛ لذا شرع لهم الاستئذان ، لكن يجب أنْ يضعوا هذا الفارق في بالهم ، وأنْ يذكروا أنهم انصرفوا لبعض شأنهم ، والرسول قائم في أمر لشئون الدنيا كلها إلى أنْ تقوم الساعة .

فكأنه إنْ شارك في هذا الاجتماع فسيستفيد كفرد ، وستستفيد أمته : المعاصرون منهم والآتون إلى أنْ تقومَ الساعة ، فإنْ فضّل شأنه الخاص على هذه الشئون فقد أساء ، وفعل مَا لا يليق بمؤمن ؛ لذلك أُمر رسول الله أنْ يأذنَ لمنْ يشاء ، ثم يستغفر له اللهَ .

يقول سبحانه : ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ.. (٦٢) ﴾ [النور] فالأمر متروك لرسول الله يُقدِّره حَسْب مصلحة المسلمين العامة ، فلَهُ أن يأذنَ أو لا يأذنَ .

إذن : لا بُدَّ من استئذان رسول الله ﷺ فيأذن لمَنْ يشاء منهم ممَّنْ يرى أن في الباقين عِوَضاً عنه وعن رأيه ، فإنِ استأذن صاحب رأى يستفيد منه المسلمونَ لم يأذن له .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ.. (٦٢) ﴾ [النور] ، وكأن مسألة الاستئذان والقيام من مجلس رسول الله ﷺ أمر لا يريده الله تعالى .

حتى إن استأذنتَ لأمر يهمك ، وحتى إنْ أذن لك رسول الله ، فالأفضل ألاَّ تستأذن ؛ لأن الرسول ﷺ حين يدعو لأمر جامع يُهِمّ جماعة المسلمين ، يجب ألاَّ ينشغل أحد عمَّا دُعى إليه ، وألاَّ يُقدِّم على مصلحة المسلمين ومجلس رسول الله شيئاً آخَر ، ففى الأمر الجامع ينبغى أنْ يُكتّل الجميع مواهبهم وخواطرهم فى الموضوع ، وساعة تستأذن لأمر يخصُّك فأنت منشغل عن الجماعة شارد عنهم .

فحين تنشغل بأمرك الخاص عن أمر المسلمين العام ، فهذه مسألة تحتاج إلى استغفار لك من رسول الله ، فالرسول يأذن لك ، ثم يستغفر لك الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) ﴾

قولـه سبحـانه : ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا.. (٦٣)﴾ [النور] فأنتم يدعو بعضكم بعضاً في مسألة خاصة ، لكن الرسول يدعوكم لمسألة عامة تتعلق بحركة حياة الناس جميعاً إلى أنْ تقوم الساعة .

أو : أن الدعاء هنا بمعنى النداء يعني : يناديكم الرسول أو تنادونه ؛ لأن لنداء الرسول ﷺ آداباً يجب مراعاتها ، فهو ليس كأحدكم تنادونه : يا محمد ، وقد عاب القرآن على جماعة لم يلتزموا أدب النداء مع رسول الله ، فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٤)﴾ [الحجرات]

فأساءوا حين قالوا : يا محمد ، ولو قالوا حتى : يا أيها الرسول فقد أساءوا ؛ لأنه لا يصحّ أنْ يتعجّلوا رسول الله ، ويجب أنْ يتركوه على راحته ، إنْ وجد فراغاً للقائهم خرج إليهم ، إذن : أساءوا من وجهين .

ولا يليق أن نناديه ﷺ باسمه : يا محمد . لأن الجامع بين الرسول وأمته ليس أنه محمد ، إنما الجامع أنه رسول الله ، فلا بُدَّ أن نناديه بهذا الوصف . ولِمَ لا وربه عز وجل وهو خالقه ومصطفيه قد ميّزه عن سائر إخوانه من الرسل ، ومن أولي العزم ، فناداهم بأسمائهم :

﴿يَـٰآدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .. (٣٥)﴾ [البقرة]

وقال : ﴿يَـٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا .. (٤٨)﴾ [هود]

وقال : ﴿يَـٰإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا .. (١٠٥)﴾ [الصافات]

وقال : ﴿يَـٰمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ .. (٣٠)﴾ [القصص]

وقال : ﴿يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ .. (١١٦)﴾ [المائدة]

وقال : ﴿يَـٰدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ .. (٢٦)﴾ [ص]

لكن لم يُنَاد رسولَ الله ﷺ باسمه أبداً ، إنما يناديه بـ «يـأيها » الرسول ، يـأيها النبى . فإذا كـان الحق ـ تبارك وتعـالى ـ لم يجعل دعاءه للرسول كدعائه لباقى رسله ، أفندعوه نحن باسمه ؟ ينبغى أن نقول : يا أيهـا الرسول ، يا أيها النـبى ، يا رسول الله ، يا نبى الله ، فهذا هو الوصف اللائق المشرِّف .

وكما نُمـيِّز دعاء رسول الله حين نناديه ، كـذلك حين ينادينا نحن يجب أن نُقدِّر هذا الـنداء ، ونعلم أن هذا النداء لخيـر عام يعود نفـعه على الجميع .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾ [النور]

لا شكَّ أن الذين يسـتأذنون رسـول الله فيـهم إيمان ، فـيُراعـون مجلس رسول الله ، ولا يقومـون إلا بإذنه ، لكن هناك آخرون يقومون دون استـئذان : ﴿يَتَسَلَّلُونَ .. (٦٣)﴾ [النور] والتسلـل : هو الخروج بتدريج وخُفْـية كأنْ يتزحزح من مكان لآخـر حتى يخرج ، أو يُوهمك أنه يريد الكلام مع شخص آخر ليقوم فـينسلتُ من المجلس خُفْـيَة ، وهذا معنى ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا .. (٦٣)﴾ [النور] يلوذ بآخر ليـخرج بسببه .

ويحذر الله هؤلاء : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ .. (٦٣)﴾ [النور] والتحذير إنذار بالعـاقبة السيئة التى تتـرتب على الانسحاب من مجلس رسول الله ، كأنه يقول لهم : قارنوا بين انسحابكم من مجلس الرسول وبين ما ينتظركم من العقاب عليه .

وقال : ﴿ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ .. (٦٣) ﴾ [النور] لا يخالفون أمره ، فجعل فى المخالفة معنى الإعراض ، لا مجرد المخالفة ، فالمعنى : يُعرِضون عنه .

والأمر : يُراد به فعل الأمر أو النهى أو الموضوع الذى نحن بصدده يعنى : ليس طلباً ، وهذا المعنى هو المراد هنا : أى الموضوع الذى نبحثه ونتحدث فيه ، فانظروا ماذا قال رسول الله ولا تخالفوه ولا تعارضوه ؛ لأنه وإنْ كان بشراً مثلكم إلا أنه يُوحَى إليه .

لذلك يحدد الرسول ﷺ مركزه كبشر وكرسول ، فيقول : « يَردُ علىَّ - يعنى من الحق الأعلى - فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخَذ منى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

لذلك كان الصحابة يفهمون هذه المسألة ، ويتأدبون فيها مع رسول الله ، ويسألونه فى الأمر : أهو من عند الله قد نزل فيه وَحْى ، أم هو الرأى والمشورة ؟ فإنْ كان الأمر فيه وَحْىٌ من الله فلا كلامَ لأحد مع كلام الله ، وإنْ كان لم يرد فيه من الله شىء أدْلَى كُلٌّ منهم برأيه ومشورته .

وهذا حدث فعلاً فى غزوة بدر حين نزل رسول الله ﷺ منزلاً رأى بعض الصحابة أن غيره خير منه ، فسألوا رسول الله : أهذا منزل أنزلكهُ الله ، أم هو الرأىُ والمشورة ؟ فقال : « بل هو الرأى والمشورة »[1] فأخبروه أنه غير مناسب ، وأن المكان المناسب كذا وكذا .

---

(١) قال الحباب بن المنذر بن الجموح : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله » الحديث . أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ٦٢٠) نقلاً عن ابن إسحاق .

وقوله تعالى : ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ .. (٦٣) ﴾ [النور] أى : فى الدنيا ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) ﴾ [النور] أى : فى الآخرة ، فإنْ أفلتوا من فتنة الدنيا فلنْ يُفلتوا من عذاب الآخرة .

ثم تختم السورة بقوله تعالى :

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ (٦٤) ﴾

ألا : أداة تنبيه لشىء مهم بعدها ، والتنبيه يأتى لأن الكلام سفارة بين المتكلم والمخاطب ، المتكلم عادة يُعد كلامه ، ولديْه أُنْسٌ بما سيقول ، لكن المخاطب قد لا يكون خالى الذِّهْن فيفاجئه القول ، وربما شغله ذلك عن الكلام ، فيضيع منه بعضه .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد ألاَّ يضيع منك حرف واحد من كلامه ، فينبهك بكلمة هى فى الواقع لا معنى لها فى ذاتها ، إلا أنها تنبهك وتُذهب ما عندك من دهشة أو غفلة ، فتعى ما يُقال لك ، وهذا أسلوب عربى عرفته العرب ، وتحدثتْ به قبل نزول القرآن .

ويقول الشاعر[1] الجاهلى يخاطب المرأة التى تناوله الكأس :

أَلاَ هُبِّى بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينَا ... وَلاَ تُبْقِى خُمُورَ الأَنْدرِينَا[2]

---

(١) هو : عمرو بن كلثوم ، من بنى تغلب ، أبو الأسود ، شاعر جاهلى ، من الطبقة الأولى ، ولد فى شمال جزيرة العرب فى بلاد ربيعة ، ساد قومه تغلب وهو فتى وعمر طويلاً ، توفى ٤٠ ق . هـ ، وهو الذى قتل الملك عمرو بن هند ، مات فى الجزيرة الفراتية . [الأعلام للزركلى ٥ / ٨٤] .

(٢) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم . والصحن : القدح العظيم . والأندرون : قرى بالشام . قال الزوزنى فى شرحه (ص ١٦٥) : « ألا استيقظى من نومك أيتها الساقية واسقينى الصبوح بقدحك العظيم ولا تدخرى خمر هذه القرى » .

يريد أن ينبهها إلى الكلام المفيد الذى يأتى بعد .

وبعد ألا التنبيهية يقول سبحانه : ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. (٦٤)﴾ [النور]

والسموات والأرض ظرف فيهما كل شىء فى الكون العُلْوى والسُّفْلى ، فلله ما فى السموات وما فى الأرض أى : المظروف فيهما ، فما بال الظرف نفسه ؟ قالوا : هو أيضاً لله ، كما جاء فى آية أخرى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٤٢)﴾ [النور] إذن : فالظرف والمظروف مِلْك له سبحانه .

وعادةً ما يكون الظرف أقلَّ قيمةً من المظروف فيه ، فما بداخل الخزينة مثلاً أثمن منها ، وما بداخل الكيس أثمن منه ، وكذلك عظمة السموات والأرض بما فيهما من مخلوقات . لذلك إياك أنْ تجعل المصحف الشريف ظرفاً لشىء مهم عندك فتحفظه فى المصحف ؛ لأنه لا شىء أغلى ولا أثمن من كتاب الله ، فلا يليق أن تجعله حافظةً لنقودك ، أو لأوراقك المهمة ؛ لأن المحفوظ عادة أثمن من المحفوظ فيه .

وفى الآية : ﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٦٤)﴾ [النور] أسلوب قصر بتقديم الجار والمجرور ، فكلٌّ ما فى السموات ، وكل ما فى الأرض مِلْكٌ لله وحده ، لا يشاركه فيه أحد ، وعلى كثرة المفترين فى الألوهية والفَرعونية لم يَدَّعِ أحد منهم أن له مُلْكَ شىء منها .

حتى إن النمرود الذى جادل أبانا إبراهيم عليه السلام وقال : أنا أُحى وأميت لمَّا قال له إبراهيم : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] لم يستطع فِعْل شىء وبُهِت وانتهت المسألة .

ومُلْكه تعالى لم يقتصر على الخَلْق ، فخلَق الأشياء ثم تركها تؤدى مهمتها وحدها ، إنما خلقها وله تعالى قيومية على ما خلق ، وتصرّف في كل شىء ، فلا تظن الكون من حولك يخدُمك آلياً ، إنما هو خاضع لإرادة الله وتصرّفه سبحانه .

فالماء الذى ينساب لك من الأمطار والأنهار قد يُمنع عنك ويصيب أرضك الجفاف ، أو يزيد عن حَدِّه ، فيصبح سيولاً تغرق وتدمر ، إذن : المسألة ليست رتابة خَلْق ، وليست المخلوقات آلاتٍ (ميكانيكية) ، إنما لله الملْك والقيومية والتصرُّف في كل ما خلق .

ثم يقول سبحانه : ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ .. (٦٤)﴾ [النور] لفهم هذه الآية لا بُدَّ أن نعلم أن علاقة الحق - تبارك وتعالى - بالأحداث ليستْ كعلاقتنا نحن ، فنحن نعلم من علم النحو أن الأفعال ماضٍ ، وهو ما وقع بالفعل قبل أن تتكلم به مثل : جاء محمد ، ومضارع وهو إما للحال مثل : يأكل محمد . أو للاستقبال مثل : سيأكل محمد .

أما بالنسبة لله تعالى ، فالأحداث سواء كلها مَاضٍ وواقع ، وقد تكلمنا في هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل]

ومعلوم أن الاستعجال يكون للأمر الذى لم يأتِ بَعْد ، والقيامة لم تأت بعد لكن عبَّر عنها بالماضى (أتى) لأنه سبحانه لا يعوقه ولا يُخرَجه شىء عن مراده ، فكأنها أتتْ بالفعل ، إذن : ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل] ليست منطقية مع كلامك أنت ، إنما هى منطقية مع كلام الله .

كذلك في قوله تعالى : ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ .. (٦٤)﴾ [النور] فقد : للتحقيق ، ويعلم بالنسبة لله تعالى تعنى علِم ، لكنه بالنسبة لك

أنت يعلم . إذن : فهناك طرف منك وطرف من الحق سبحانه ، فبالنسبة للتحقيق جاء بقد ، وبالنسبة للاستقبال جاء بيعلم .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [النور] وجاء فى آية أخرى : ﴿وَمَا يَعْزُبُ[1] عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس]

فإياك أن تفهم أن نظر الله ورؤيته سبحانه للأبعاض المختلفة فى الأماكن المختلفة رؤية جزئية ، تتجه إلى شىء فلا ترى الآخر ، إنما هى رؤية شاملة ، كأن لكل شىء رؤية وحده ، وهذا واضح فى قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ .. ﴿٣٣﴾﴾ [الرعد]

فسبحانه لا يشغله سَمْع عن سمع ، ولا بَصَر عن بصر ، فبصره سبحانه محيط ، واطلاعه دقيق ؛ لذلك يأتى جزاؤه حقاً يناسب دقّة اطلاعه ، فإياك إذن أن تغفل هذه الحقيقة ، فربُّك قائم عليك ، ناظر إليك ، لا تَخْفى عليه منك خافية .

فيا مَنْ تتسلل لِواذاً احذر ، فلا شىء أهمّ من مجلس مع رسول الله ﷺ ، ورسول الله نفسه كان حريصاً أن يرى أصحابه فى مجلسه باستمرار ، والله تعالى يوصيه بذلك فيقول له : ﴿وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ .. ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف]

وكان بعض أصحابه يُصلِّى خلفه ، فكان عندما يسلم ينصرف الرجل مسرعاً فيراه ﷺ فى أول الصلاة ، ولا يراه فى آخرها ،

---

(١) عزب الأمر يعزب : بَعُدَ وغاب وصعب مطلبه . أى : لا يغيب ولا يبعد عنه أى شىء فهو يعلم الصغير والكبير من الأمور والأشياء . [القاموس القويم ٢/١٨] .

فاستـوقفه فى إحدى الصلوات وقال له : « أزهداً فـينا » ؟ وكأنه يعزّ على رسول الله أن يجد أحد أصحابه لا يتواجد مع حضرته ، أو يَزْهَد فى مجلســه ، فيُحرم من الخـيرات والتجليـات التى تتنزل على مجلس رسول الله ، ويُحرَم من إشعاعات بصيرته وبصره إليه .

لذلك أُحـرِج الرجل ، وأخذ يوضح لرسـول الله ﷺ ما يدفـعه كل صلاة إلى الإسـراع بالانصراف ، وأن هذا منه ليس زهداً فى حـضـرة رسـول الله ومجلس رسـول الله ، فـقـال : يا رسول الله إن لى امـرأة بالبيت تنتظر ردائى هذا لتصلى فيه .

يعنى : ليس لديـه فى بيتـه إلا ثوبٌ واحـد ، فـدعـا له النبى ﷺ بالخير ، فلما عاد لزوجته سألته عن سبب غيابه ، فقصَّ عليها ما كان من أمر رسول الله ، وأنه استـوقفه وحكى لها ما دار بينهـما ، فقالت لزوجها : أتشكو ربك لمحمد ؟

ولما سألوها بعـد ذلك قالت : « غاب عنى مقدار مائة تسـبيحة » فانظر إلى ساعتها التى تضبط عليها وقتها .



سُورَةُ الفُرْقَانِ



بعد أن خُتِمَتْ سورة النور بهذه الآية التى تبين ماالله تعالى من مُلْك وقَهْر وجبروت ، وبينَتْ أن العودة إليه والرجوع يوم القيامة للحساب ، بدأتْ سورة الفرقان تُبيِّن أن هذا الملْك ليس مُلْك استعباد ، إنما مُلْك رحمة ، نظمت لكم الحياة لتعيشوا فيها على هُدىً ونور ، فقال تعالى :

سورة الفرقان[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ① ﴾

﴿ تَبَارَكَ .. ① ﴾ [الفرقان] مادة الباء والراء والكاف عادةً تدلُّ على البركة ، وهى أن يعطيك الشىء من الخير فوق ما تظن فيه ويزيد عن تقديرك ، كما لو رأيتَ طعام الثلاثة يكفى العشرة ، فتقول : إن هذا الطعام مُبَارَكٌ أو فيه بركة .

---

(١) سورة مكية كلها فى قول الجمهور . وقال ابن عباس وقتادة : إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ .. ⑥⑧ ﴾ [الفرقان] إلى قوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ⑦⓪ ﴾ [الفرقان] وقال الضحاك : هى مدنية ، وفيها آيات مكية . [تفسير القرطبى ٤٨٦٣/٦] وسورة الفرقان عدد آياتها ٧٧ آية ، وهى السورة رقم (٢٥) فى ترتيب سور المصحف ، أما فى ترتيب النزول فهى السورة رقم (٤١) نزلت بعد سورة يس ، وقبل سورة الملائكة (سورة فاطر) .

ومن معـانى تبارك : تعـالى قَدْره و﴿تَبَارَكَ ..①﴾ [الفرقان] تنزّه عن شـبه مـا سـواه ، وتبـارك : عَظُم خَيْـره وعطاؤه . وهذه الثـلاثة تجدها مُكمِّلة لبعضها .

ومن العجيب أن هذا اللفظ ﴿تَبَارَكَ ..①﴾ [الفرقان] مُعـجز فى رَسْمه ومُعْجز فى اشتقـاقه ، فلو تتبعتَ القرآن لوجدتَ أن هذه الكلمة وردتْ فى القـرآن تسْع مـرات : سـبْع منهـا بالألف ﴿تَبَـارَكَ ..①﴾ [الفرقان] ومرتان بدون الألف[1] ، فلماذا لم تُـكتب بالألف فى الجميع ، أو بدونهـا فى الجمـيع ؟ ذلك ليـدلُّك على أن رَسْم القـرآن رَسْم توقيفىّ ، ليس أمـراً (ميكانيكياً) ، كما فى قـوله تعالى فى أول سـورة العلق : ﴿اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ①﴾ [العلق] فرَسْم كلمـة اسم هنا بالألف ، وفى باقى القرآن بدون الألف .

إذن : فالقـرآن ليس عادياً فى رَسْمـه وكتابتـه ، وليس عادياً فى قـراءته ، فأنت تقـرأ فى أى كـتاب آخـر على أىِّ حـال كنتَ ، إلا فى القرآن لا بُدَّ أن تكون على وضـوء وتدخل عليه بطُهْـر .. الخ ما نعلم من آداب تلاوة القرآن .

ومن حيث الاشتقاق نعلم أن الفعل يُشتَقُّ منه الماضى والمضارع والأمر واسم الفاعل .. الخ ، لكن ﴿تَبَارَكَ ..①﴾ [الفرقان] لم يذكر منها القرآن إلا هذه الـصيغـة ، وكأنه يريد أنْ يخـصَّها بتنزيـه الله تعالى ، مثلـها مثل كـلمة سبـحان ؛ لذلك عـلى كثرة مـا مرَّ فى التـاريخ من الجـبابرة أرغـموا الناس على مـدحهم والخـضوع لهم ، لكن مـا رأينا واحداً مهما كان مجرماً فى الدين يقول لأحد هؤلاء : سبحانك .

(١) - وردت ﴿ تبارك ﴾ فى سبعة مواضع بالألف : (الأعراف : ٥٤) ، (المؤمنون ١٤) ، (الفرقان ١ ، ١٠ ، ٦١) ، (غافر ٦٤) ، (الزخرف ٨٥) .
- وردت مـرتـين بدون الألف ﴿تبـرك ﴾ : (الرحـمن : ٧٨) ، (الملك : ١) قـال السيوطى فى (الإتقان فى علوم القرآن) (٢/١٨٨) : « تبـارك : فعل لا يُستعمل إلا بلفظ الماضى ، ولا يستعمل إلا لله » .

لذلك نقول فى تسبيح الله : سبحانك ، ولا تُقال إلا لك . مهما اجترأ الملاحدة فإنهم لا ينطقونها لغير الله .

إذن : ﴿ تَبَارَكَ ..Ⓛ ﴾ [الفرقان] تدور حول معَانٍ ثلاثة : تعالى قَدْره ، وتنزُّه عن مشابهة ما سواه ، وعَظُم خَيْره وعطاؤه ، ومَنْ تعاظُم خَيْره سبحانه أنه لا مثيل له : فى قَدْره ، ولا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى فعله . وهذا كله من مصلحتنا نحن ، فلا كبيرَ إلا الله ، ولا جبارَ إلا الله ، ولا غنيَّ إلا الله .

وسُمِّي القرآن فرقاناً ؛ لأنه يُفرِّق بين الحق والباطل ، وقد نزل القرآن ليُخرِجَ الناسَ من الظلمات إلى النور ، فيسير الناس على هُدىً وعلى بصيرة ، فالقرآن إذن فَرَق لهم مواضع الخير عن مواضع العطب ، فالفرقان سائر فى كل جهات الدين ، ففى الدين قمة هى الحق - تبارك وتعالى - ومُبلِّغ عن القمة هو الرسول ﷺ ، ومُرْسَل إليه هم المؤمنون ، فجاء القرآن ليفرُقَ بين الحق والباطل فى هذه الثلاثة .

ففى القمة ، وُجد مَنْ ينكر وجود إله خالق لهذا الكون ، وآخرون يقولون بوجود آلهة متعددة ، وكلاهما على طرفى نقيض للآخر ، ليس هناك سيال فكر يجمعهم ، فجاء القرآن ليفرق بين الحق والباطل فى هذه المسألة ، ويقول : الأمر وسط بين ما قُلْتم : فالإله موجود ، لكنه إله واحد لا شريكَ له ، ففرقَ فى مسألة القمة .

كذلك فَرق فى مسألة الرسول وهو بشر من قومه ، فلما اعترض بعضهم عليه وحسدوه على هذه المكانة وهو واحد منهم أيَّده الله بالمعجزة التى تُؤيده وتُظهر صدْقه فى البلاغ عن الله ، وكانت معجزته ﷺ فى شىء نبغ فيه القَوم ، وهى الفصاحة والبلاغة والبيان ، والعرب أهل بيان ، وهذه بضاعتهم الرائجة وتحدَّاهم بهذه المعجزة فلم يستطيعوا .

وكذلك فَرَق فـى مسألة الخَلْق من حيث مُـقومات حياتهـم ، فبيَّن لهم الحلال والحـرام ، وفى استبـقاء النوع بيَّن لهم الحـلال ، وشرع لهم الزواج ، ونهاهم عن الزنا ليحفظ سلالة الخليفة لله فى الأرض .

إذن : فَرق القرآن فى كل شىء : فى الإله ، وفى الرسول ، وفى قوَام حياة المرسَل إليهم ، ومـا دام قد فَرقَ فى كل هذه المسائل فلا يوجد لفظ أفضل من أن نُسمِّيه « الفرقان » .

ولا شكَّ أن الألفـاظ التى ينطق بها الحق ـ تبـارك وتعالى ـ لـها إشعاعات ، وفى طياتها معَانٍ يعلمها أهل النظر والبصيرة ممَّنْ فتح الله عليهم ، ومـا أشبهها بفـصوص الماس ! والذى جعل المـاس ثميناً أن به فى كل ذرة من ذراته تكسـرات إشعاعـية ليست فى شىء غـيره ، فمن أىِّ ناحـية نظرتَ إليه قابلك شَـعاع معكوس يعطى بريقاً ولمـعاناً يتلألأ من كل نواحيه ، وكذلك ألفاظ القرآن الكريم .

ومن معانى الفـرقان التى قال بها بعض العلماء أنه نزل مُـفَرَّقاً ، كـما جـاء فى قوله تعـالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ .. (١٠٦) ﴾ [الإسراء] يعنى : أنزلناه مُـفرَّقـاً لم ينزل مـرة واحدة كـالكتب السـابقة عليـه ، وللحق ـ تبارك وتعالى ـ حكمة فى إنزال القرآن مُفرقاً ، حيث يعطى الفرصة لكل نَجْم ينزل من القـرآن أنْ يسـتوعـبه الناس ؛ لأنه يرتبط بحـادثة معينة ، كذلك ليحدث التدرّج المطلوب فى التشريعات .

يقـول تعـالى : ﴿ وَقُـرْآنًا فَـرَقْنَاهُ لِتَـقْـرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (١٠٦) ﴾ [الإسراء]

لقد كان المسلمون الأوائل فى فترة نزول القرآن كثيرى الأسئلة ، يسـتفـسرون من رسـول الله عن مـسائل الديـن ، كمـا قال تعـالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ .. (١٨٩) ﴾ [البقرة]﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة] ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ .. (١) ﴾ [الأنفال] فكان النجم من القرآن ينزل ليُجيب عليهم ويُشرِّع لهم ، وما كان يتأتَّى ذلك لو نزل القرآن جملة واحدة .

وكلمة : ﴿ نَزَّلَ الْفُرْقَانَ .. (١) ﴾[الفرقان] تؤيد هذا المعنى وتسانده ؛ لأن نزَّل تفيد تكرار الفعل غير « أنزل » التى تفيد تعدِّى الفعل مرة واحدة .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الفرقان] كأن حيثية التنزيل عليه هى العبودية لله تعالى ، فهو العبد المأمون أن ينزل القرآن عليه . وسبق أن قلنا : إن العبودية لفظ بغيض إن استُعمل فى غير جانب الحق سبحانه ، أمّا العبودية لله فهى عِزٌّ وشرف ولفظ محبوب فى عبودية الخَلْق للخالق ؛ لأن العبودية للبشر يأخذ السيد خير عبده ، أمّا العبودية لله فيأخذ العبد خير سيده .

لذلك جعل الله تعالى العبودية له سبحانه حيثيةً للارتقاء السماوى فى رحلة الإسراء ، فقال :﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ..(١) ﴾ [الإسراء] فالرِّفْعة هنا جاءتْ من العبودية لله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً (١) ﴾ [الفرقان] العالمين : جمع عَالَم ، والعَالَم ما سوى الله تعالى ، ومن العوالم : عالم الملائكة ، عالم الإنس ، وعالم الجن ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات ، وعالم الجماد ، إلا أن بعض هذه العوالم لم يأتها بشير ولا نذير ؛ لأنها ليست مُخيَّرة ، والبشارة والنذارة لا تكون إلا للمخيَّر .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن

يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

فإنْ عزلْتَ من هذه العوالم مَنْ ليس له اختيار ، فيتبقى منها : الجنّ والإنس ، وإليهما أُرسل الرسول ﷺ بشيراً ونذيراً ، لكن لماذا قال هنا ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً (١) ﴾ [الفرقان] ولم يقل : بشيراً ونذيراً ؟

قالوا : لأنه سبحانه سيتكلم هنا عن الذين خاضوا فى الألوهية ، وهؤلاء تناسبهم النِّذَارة لا البشارة ؛ لذلك قال فى الآية بعدها :

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا (٢) ﴾

فى آخر سورة النور قال سبحانه : ﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٦٤) ﴾ [النور] فذكر ملكية المظروف ، وهنا قال : ﴿ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢) ﴾ [الفرقان] فذكر مِلْكية الظرف أى : السماوات والأرض .

ثم تكلّم سبحانه فى مسألة القمة التى تجرّأوا عليها ، فقال :
﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ .. (٢) ﴾ [الفرقان]

وسبق أنْ تكلمنا كثيراً عن مسألة اتخاذ الولد والحكمة منها ، فالناس تحب الولد ، إما ليكون امتداداً للذكْر ، وإما ليساند والده حالَ ضَعْفه ، وإما للكثرة ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ هو الحيُّ الباقى الذى لا يموت ، ولا يحتاج لمن يُخلِّد ذِكْراه ، وهو القويُّ الذى لا يحتاج لغيره ، فلِمَ إذنْ يتخذ ولداً ؟

وقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ .. (٢) ﴾ [الفرقان] وهذا أمر

يؤيده الواقع ؛ لأن الله تعالى أول ما شَهد شَهد لنفسه ، فقال سبحانه : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ.. (١٨) ﴾[آل عمران]

أى : لما خلقتُ الملائكة شهدوا لله تعالى ، ثم شهد أولو العلم بالاستدلال ، فشهادة الحق سبحانه لنفسه شهادة الذات للذات ، والملائكة شهدتْ شهادةَ المشاهدة ، ونحن شهدنا شهادةَ الاستدلال والبرهان .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يُعطينا الدليل على صدْق هذه الشهادة ، فيقول تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون]

وقال سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لأَبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

وهذا هو التفصيل المنطقى العاقل الذى نردُّ به على هؤلاء ، فلو كان مع الله تعالى آلهة أخرى لَذهبَ كل منهم بجزء من الكون ، وجعله إقطاعية خاصة به ، وعَلاَ كل منهم على الآخر وحاربه ، ولو كان معه سبحانه آلهة أخرى لاجتمعوا على هذا الذى أخذ الملْك منهم ليحاكموه أو ليتوسَّلوا إليه .

وقلنا : إن الدَّعْوى تثبُتُ لصاحبها إذا لم يَدّعهَا أحد غيره لنفسه ، وهذه المسألة لم يدَّعها أحد ، فهى ـ إذن ـ ثابتة لله تعالى إلى أنْ يُوجَد مَنْ يدَّعى هذا الخَلْق لنفسه .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بجماعة فى مجلس فَقَد أحدهم محفظته فيه ، ولما انصرفوا وجدها صاحب البيت ، فسألهم عنها ، فلم يدَّعها أحد منهم ، ثم اتصل به أحدهم يقول : إنها لى ، فلا شكّ أنها لَه حتى يوجد مُدَّعٍ آخر ، فنفصل بينهما .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ② ﴾ [الفرقان] فخلْق الله تعالى ليس خلْقاً كما اتفق ، إنما خلْقه سبحانه بقَدَر وحساب وحكمة ، فيخلق الشيء على قَدْر مهمته التى يُؤدِّيها ؛ لذلك قال فى موضع آخر : ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ③ ﴾ [الأعلى]

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ③ ﴾

أى : أتوْا بآلهة غير الله ، هذه الآلهة بإقرارهم وبشهادتهم وواقعهم لا تخلق شيئاً ، ويا ليتها فقط لا تخلق شيئاً ، ولكن هى أنفسها مخلوقة ، فاجتمع فيها الأمران .

وهذه من الآيات التى وقف عندها المستشرقون وقالوا : إن فيها شبهة تناقض ؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ⑭ ﴾[المؤمنون] فأثبت أن معه آخرين لهم صفة الخلْق ، بدليل أنه جمعهم معه ، وهو سبحانه أحسنهم . وفى موضع آخر يقول سبحانه :﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ .. ⑭⑨ ﴾ [آل عمران]

وللردِّ على هؤلاء نقول : تعالوْا أولاً نفهم معنى الخلْق ، الخلْق : إيجاد لمعدوم ، كما مثَّلْنا سابقاً بصناعة كوب الزجاج من صَهْر بعض المواد ، فالكوب كان معدوماً وهو أوجده ، لكن من شىء موجود ، كما أن الكوب يجمد على حالته ، لكن الحق سبحانه وتعالى يُوجِد من معدوم : معدوماً من معدوم ، ويُوجده على هيئة فيها حياة ونمو

وتكاثر من ذاته ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) ﴾ [الذاريات]

والذين يصنعون الآن الورد الصناعى ، ويحاولون جاهدين مُضَاهاة الورد الطبيعى الذى خلقه ، فيضعون عليه رائحة الورد ليتوفر لها الشكل والرائحة ، ثم ترى الوردة الصناعية زاهية لا تذبُل ، لكن العظمة فى الوردة الطبيعية أنها تذبل ؛ لأن ذُبولها يدلُّ على أن بها حياة .

لذلك سمَّى اللهُ الإنسانَ خالقاً ، فأنصفه واحترم إيجاده للمعدوم ، لكنه سبحانه أحسنُ الخالقين ، ووَجْه الحُسْن أن الله تعالى خلق من لا شىء ، وأنت خلقتَ من موجود ، الله خلق خَلْقاً فيه حياة ونمو وتكاثر ، وأنت خلقتَ شيئاً جامداً على حالته الأولى ، ومع ذلك أنصفك ربك .

ففى قوله تعالى : ﴿ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران] معلوم أنه فى مقدور كل إنسان أنْ يُصوِّر من الطين طَيْراً ، ويُصمِّمه على شكله ، لكن أيُقال له : إنه خلق بهذا التصوير طَيْراً ؟ وهل العظمة فى تصويره على هيئة الطير ؟ العظمة فى أنْ تبعثَ فيه الحياة ، وهذه لا تكون إلا من عند الله ؛ لذلك قال عيسى عليه السلام : ﴿ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

فإنْ سلَّمْنا أنهم يخلقون شيئاً فهم فى ذات الوقت مخلوقون ، والأدْهَى من هذا أن الذى يتخذونه إلهاً لا يستطيع حتى أن يحمى نفسه أو يقيمها ، إنْ أطاحتْ به الريح ، وإنْ كُسر ذراع الإله أخذوه ليُرمموه ، الإله فى يد العامل ليصلحه !! شىء عجيبٌ وعقليات حمقاء .

لذلك يقول تعالى عن آلهتهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

ثم يقول سبحانه :﴿ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَراً وَلا نَفْعًا ..(٣) ﴾ [الفرقان] يعنى : لا تنفعهم إنْ عبدوها ، ولا تضرّهم إنْ كفروا بها ﴿ وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا (٣) ﴾ [الفرقان] أى : موتاً أو حياة لغيرهم ، فهم لا يملكون شيئاً من هذا كله ، لأنه من صفات الإله الحق الذى يُحيى ويُميت ، ثم ينشر الناس فى الآخرة . إذن : للإنسان مراحل متعددة ، فبعد أنْ كان عَدَماً أوجده الله ، ثم يطرأ عليه الموت فيموت ، ثم يبعثه الله ، ويُحييه حياة الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا (٤) ﴾

بعد أن تكلم الفرقان وفرّق فى مسألة القمة والألوهية واتخاذ الولد والشركاء ، وبيَّن الإله الحق من الإله الباطل ، أراد سبحانه أنْ يتكلّم عن الفرقان فى الرسالة ، فيحكى ما قاله الكفار عن القرآن ﴿ إِنْ هَٰذَا .. (٤) ﴾ [الفرقان] يعنى : ما هذا - أى القرآن - الذى يقوله محمد ﴿ إِلاَّ إِفْكٌ (٤) ﴾ [الفرقان] الإفك : تعمُّد الكذب الذى يقلب الحقائق ، وسبق أن قُلْنا : إن النسبة الكلامية إنْ وافقت الواقع فهى صدْق ، وإنْ خالفتْه فهى كذب .

والإفْك قَلْب للواقع يجعل الموجود غير موجود ، وغير الموجود موجوداً ، كما جاء فى حادثة الإفك حين اتهموا عائشة أم المؤمنين بما يخالف الواقع ، فالواقع أن صفوان[1] أناخ لها ناقته حتى ركبت

(١) هو : صفوان بن المعطل بن رحضة السلمى الذكوانى ، أبو عمرو : صحابى ، شهد الخندق والمشاهد كلها ، وحضر فتح دمشق ، واستشهد بارمينية عام ١٩ هـ . [الأعلام للزركلى ٢٠٦/٣] .

دون أن ينظر إليها ، وهذا يدل على مُنْتهى العفَّة والصيانة ، وهُم بالإفك جعلوا الطُّهْر والعفة عُهْراً .

ومن العجيب أن هؤلاء الذين اتهموا القرآن بأنه إفك هم أنفسهم الذين قالوا عنه :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

فهم يعترفون بالقرآن ويشهدون له ، لكن يُتعبهم ويُنغِّص عليهم أن يُنزل على محمد بالذات ، فلو نزل ـ فرضاً ـ على غير محمد لآمنوا به .

ومن حُمْقهم أن يقولوا :﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

والمنطق أن يقولوا فاهْدنا إليه ، لكنه العناد والمكابرة .

وقوله : ﴿ افْتَرَاهُ ..(٤) ﴾ [الفرقان] أى : ادعاه ، وعجيب أمر هؤلاء ، يتهمون القرآن بأنه إفك مُفْترى ، فلماذا لا يفترون هم أيضاً مثْله ، وهم أمة بلاغة وبيان ؟!

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

وقديماً قالوا : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذكوراً ، وإلا فكيف تتهمون محمداً أن رجلاً أعجمياً يُعلِّمه القرآن ، والقرآن عربى ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ .. (٤) ﴾ [الفرقان] الذى قال هذه المقولة هو النضر بن الحارث ، ولما قالها رددها بعده آخرون أمثال : عدَّاس ، ويسَّار ، وأبى فكيهة الرومى ، والقرآن يرد على كل هذه الاتهامات : ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) ﴾ [الفرقان] أى : حكموا به

والظلم هو : الحكم بغير الحق ، والزّور هو : عُدَّة الحكم ودليله . والظلم يأتى بعد الزور ، لأن القاضى يستمع أولاً إلى الشهادة ، ثم يُرتِّب عليها الحكم ، فإن كانت الشهادةُ شهادةَ زور كان الحكم حينئذ ظلماً .

لكن الحق - تبارك وتعالى - يقول ﴿ ظُلْمًا وَزُورًا ④ ﴾ [الفرقان] وهذا دليل على أن الحكم جاء منهم مُسبقاً ، ثم التمسوا له دليلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ⑤ ﴾

الأساطير : جمع أسطورة ، مثل : أعاجيب جمع أعجوبة ، وأحاديث جمع أُحْدوثة ، والبكرة أول النهار ، والأصيل آخره ، والمعنى أنهم قالوا عن القرآن : إنه حكايات وأساطير السابقين ﴿اكْتَتَبَهَا .. ⑤﴾ [الفرقان] يعنى : أمر بكتابتها . وهذا من ترددهم واضطراب أقوالهم ، فالنبى ﷺ أمىٌّ لا يقرأ ولا يكتب ، وقولهم : ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ⑤﴾ [الفرقان] أى : باستمرار ليُكرِّرها ويحفظها .

ويردُّ القرآن عليهم :

﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ⑥ ﴾

﴿ أَنزَلَهُ .. ⑥ ﴾ [الفرقان] أى : القرآن مرة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. ⑥﴾ [الفرقان] فلا تظن أنك بمجرد خَلْقك قدرْتَ أن تكشف أسرار الله فى

كونه ، إنما ستظل إلى قيام الساعة تقف على سر ، وتقف عند سر آخر .

لماذا ؟ لأن الحق - سبحانه وتعالى - يريد أن يبطل هذه المدعيات ، ويأتي بأشياء غيبية لم تكن تخطر على بال المعاصرين لمحمد ، ثم تتضح هذه الأشياء على مَرِّ القرون ، مع أن القرآن نزل في أمة أمية ، والرسول الذي نزل عليه القرآن رجل أمي ، ومع ذلك يكشف لنا القرآن كل يوم عن آية جديدة من آيات الله .

كما قال سبحانه : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣)﴾ [فصلت]

والحق - تبارك وتعالى - يكشف لرسوله ﷺ شيئاً من الغيبيات ، ليراها المعاصرون له ليلقم الكفارَ الذين اتهموه حجراً ، فيكشف بعض الأسرار كما حدث في بدر حيث وقف النبي ﷺ في ساحة المعركة بعد أن عرف أن مكة ألقتْ بفلذات أكبادها وسادتها في المعركة ، وقف يشير بعصاه إلى مصارع الكفار ، ويقول « هذا مصرع أبي جهل ، وهذا مصرع عتبة بن ربيعة .. »[1] .. الخ يخطط على الأرض مصارع القوم .

ومَن الذي يستطيع أن يحكم مسبقاً في معركة فيها كَرٌّ وفَرٌّ ، وضَرْب وانتقال وحركة ، ثم يقول : سيموت فلان في هذا المكان .

والوليد بن المغيرة والذي قال عنه القرآن[2] ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٩) ، وأحمد في مسنده (٣/٢١٩ ، ٢٥٨) من حديث أنس بن مالك . قال : فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ . قال النووي « فما ماط » أي فما تباعد .

(٢) قال ابن حجر في الفتح (٨/٦٦٢) : « اختُلف في الذي نزلت فيه ، فقيل هو الوليد بن المغيرة وذكره يحي بن سلام في تفسيره . وقيل : الأسود بن عبد يغوث ذكره سنيد بن داود في تفسيره . وقيل : الأخنس بن شريق وذكره السهيلي عن القتيبي ، وحكى هذين القولين الطبري » .

الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] يعني : ستأتيه ضربة على أنفه تَسِمُه بسِمَة تلازمه ، وبعد المعركة يتفقده القوم فيجدونه كذلك .

هذه كلها أسرار من أسرار الكون يخبر بها الحق - تبارك وتعالى - رسوله ﷺ ، والرسول يخبر بها أمته في غير مظنَّة العلم بها .

ومن ذلك ما يُروى من أن ابنتي رسول الله ﷺ قد تزوجتا من ولدين لأبي لهب ، فلما حدثت العداوة بينه وبين رسول الله أمر ولديْه بتطليق ابنتي رسول الله ، وبعدها رأى أحد الولدين رسول الله ماشياً ، فبصق ناحيته ، ورأى رسول الله ذلك فقال له : « أكلك كلب[1] من كلاب الله »[2]. فقال أبو لهب بعد أن علم بهذه الدعوة : أخاف على ولدي من دعوة محمد .

وعجيب أنْ يخاف هذا الكافر من دعوة رسول الله ، وهو الذي يتهمه بالسحر وبالكذب ويكفر به وبدعوته .

ولما خرج هذا الولد في رحلة التجارة إلى الشام أوصى به القوم أن يحرسوه ، ويجعلوا حوله سياجاً من بضائعهم يحميه خشية أن تنفذ فيه دعوة محمد ، وهذا منه كلام غير منطقي ، فهو يعلم صدق النبي ﷺ وأنه مُرْسَل من عند الله ، لكن يمنعه من الإيمان حقده على رسول الله وتكبّره على الحق.

---

(١) الكلب : كل سبع عقور ، ومنه الأسد ، قال ابن سيده : غلب الكلب على هذا النوع النابح . وقد يكون التكليب واقعاً على الفهد وسباع الطير . [لسان العرب - مادة : كلب] . وانظر فتح الباري (٤/٣٩) .

(٢) وذلك أن عتيبة بن أبي لهب حين فارق أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ جاء النبي وقال : كفرت بدينك ، وفارقت ابنتك ، لا تحبني ولا أحبك ، ثم تسلط على رسول الله ﷺ فشق قميصه ، فقال ﷺ : « أما إني أسأل الله أن يسلط عليه كلبه » أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٣٣٨ ، ٣٣٩) ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٩) وعزاه للطبراني مرسلاً وقال : « فيه زهير بن العلاء وهو ضعيف » وقد أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/٥٣٩) من حديث أبي عقرب وصححه ، وحسَّنه ابن حجر في الفتح (٤/٣٩) .

وخرج الولد فى رحلة التجارة ورغم احتياطهم فى حمايته هجم عليه سبع فى إحدى الليالى واختطفه من بين أصحابه ، فتعجبوا لأن رسول الله قال « كلب من كلاب الله » وهذا أسد ليسَ كلباً . قال أهل العلم : ما دام أن رسول الله نسب الكلب إلى الله ، فكلب الله لا يكون إلا أسداً .

فالمعنى : قل يا محمد فى الرد عليهم ولإبطال دعاواهم : ﴿ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ۝ ﴾ [الفرقان] وسوف يفضحكم ويُبطل افتراءكم على رسول الله من قولكم إفك وكذب وافتراء وأساطير الأولين ، وسوف يُخْزيكم أمام أعْين الناس جميعاً .

وعلى عهد رسول الله قامتْ معركة بين الفُرْس والروم غُلبت فيها الروم ، فحزن رسول الله لهزيمة الروم ؛ لأنهم أهل كتاب يؤمنون بالله وبالرسل ، أما الفرس فكانوا كفاراً لا يؤمنون بالله ويعبدون النار وغيرها . فمع أنهما يتفقان فى تكذيبهم لرسول الله ، إلا أن إيمان الروم بالله جعل رسول الله يتعصب لهم مع أنهم كافرون به ، فعصبية رسول الله لا تكون إلا لربه عز وجل .

فلما حزن رسول الله لذلك أنزل الله تعالى عليه :﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ ۝ ﴾ [الروم]

فأىُّ عقل يستطيع أنْ يحكم على معركة ستحدث بعد عدة سنوات ؟ لو أن المعركة ستحدث غداً لأمكن التنبؤ بنتيجتها ، بناءً على حساب العَدد والعُدة والإمكانات العسكرية ، لكن مَنْ يحكم على معركة ستدور رحاها بعد سبع سنين ؟ ومَنْ يجرؤ أن يقولها قرآناً يُتْلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة . فلو أن هذه المدة مرَّت ولم يحدث ما أخبر به رسول الله لكفَر به مَنْ آمن وانفضَّ عنه مَنْ حوله .

إذن : ما قالها رسول الله قرآناً يُتْلَى ويُتعبَّد به إلا وهو واثق من صدْق ما يخبر به ؛ لأن الذى يخبره ربه ـ عز وجل ـ الذى يعلم السرَّ فى السموات والأرض ؛ لذلك قال هنا الحق سبحانه وتعالى :
﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ۝ ﴾ [الفرقان]

ومن العجيب أن ينتصر الروم على الفُرْس فى نفس اليوم الذى انتصر فيه الإيمان على الكفر فى غزوة بدر ، هذا اليوم الذى قال الله تعالى عنه :﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ ..۝ ﴾ [الروم]

وما دام أن الذى أنزل القرآن هو سبحانه الذى يعلم السِّر فى السماوات والأرض ، فلن يحدث تضارب أبداً بين منطوق القرآن ومنطوق الأكوان ؛ لأن خالقهما واحد ـ سبحانه وتعالى ـ فمن أين يأتى الاختلاف أو التضارب ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ۝ ﴾ [الفرقان] فما مناسبة الحديث عن المغفرة والرحمة هنا ؟ قالوا : لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن يترك لهؤلاء القوم الذين يقرعهم مجالاً للتوبة وطريقاً للعودة إليه ـ عز وجل ـ وإلى ساحة الإيمان .

لذلك يقول النبى ﷺ لمن أشار عليه بقتل الكفار : « لعلَّ الله يُخرِج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً »[1]

وكان الصحابة يألمون أشد الألم إنْ أفلتَ أحد رءوس الكفر من

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٣١ ، ٧٣٨٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٩٥) من حديث عائشة رضى الله عنها أن جبريل عليه السلام قال للنبى ﷺ : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليه ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم علىّ ثم قال : يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال ﷺ : « بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به » .

القتل في المعركة ، كما حدث مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص قبل إسلامهما ، وهم لا يدرون أن الله تعالى كان يدّخرهم للإسلام فيما بعد .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ ﴾ [الفرقان] حتى لا يقطع سبيل العودة إلى الإيمان بمحمد على مَنْ كان كافراً به ، فيقول لهم : على رغم ما حدث منكم . إنْ عُدْتم إلى الجادة وإلى حظيرة الإيمان ففي انتظاركم مغفرة الله ورحمته .

والحق - تبارك وتعالى - يُبيِّن لنا هذه المسألة حتى في النزوع العاطفي عند الخَلْق ، فهند بنت عتبة[1] التي أغرتْ وَحْشياً[2] بقتل حمزة عم رسول الله وأسد الله وأسد رسوله ، ولم تكتف بهذا ، بل مثَّلتْ به بعد مقتله ، ولاكَتْ[3] كبده رضي الله عنه ، ومع ذلك بعد أنْ أسلمتْ وبايعتْ النبي ﷺ نُسيت لها هذه الفعلة وكأنها لم تكُنْ .

ولما قال أحدهم لعمر بن الخطاب : هذا قاتل أخيك (يشير إليه) والمراد زيد بن الخطاب[4] ، فما كان من عمر إلا أن قال : وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟

---

(١) هي : هند بنت عتبة بن ربيعة القرشية ، والدة معاوية بن أبي سفيان ، شهدت أحداً في جانب المشركين وفعلت ما فعلت بحمزة ، وقد أسلمت يوم الفتح ، ماتت في خلافة عثمان . (الإصابة في تمييز الصحابة ٨/٢٠٦) .

(٢) هو : وحشي بن حرب الحبشي مولى بني نوفل ، وهو قاتل حمزة عم رسول الله ﷺ قتله يوم أحد ، وقد أمره النبي ﷺ أن يغيب وجهه عنه ، وقد شارك في حروب الردة في قتل مسيلمة وقد شهد موقعة اليرموك ثم سكن حمص ومات بها ، وقد عاش إلى خلافة عثمان . (الإصابة ترجمة ٩١١٠) .

(٣) لاك : مضغ . وهو مضغ الشيء الصلب تديره في فمك . واللوْكُ : إدارة الشيء في الفم . [لسان العرب - مادة : لوك] .

(٤) هو : زيد بن الخطاب بن نفيل العدوي ، أخو عمر بن الخطاب لأبيه ، أمه أسماء بنت وهب من بني أسد ، أما أم عمر فهي حنتمة بنت هاشم المخزومية ، وكان زيد أكبر سناً من عمر وأسلم قبله وشهد بدراً والمشاهد واستشهد باليمامة . [تمييز الصحابة ٣/٢٧] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ ﴾

عجيب أمر هؤلاء المعاندين : يعترضون على رسول الله أنْ يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لكسْب العيش ، فهل سبق لهم أنْ رأَوْا نبياً لا يأكل الطعام ، ولا يمشي في الأسواق ؟ ولو أن الأمر كذلك لكان لاعتراضهم معنى ، إذن : قولهم ﴿ مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ .. ۝٧ ﴾ [الفرقان] قولٌ بلا حجة من الواقع ، ليستدركوا بهذه المسألة على رسول الله .

فماذا يريدون ؟

قالوا : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧ ﴾ [الفرقان] صحيح أن الملَك لا يأكل ، لكن معنى ﴿ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ .. ۝٧ ﴾ [الفرقان] يعني : يسانده ، وفي هذه الحالة لن يُغيِّر من الأمر شيئاً ، وسيظل كلام محمد هو هو لا يتغير . إذن : لن يضيف الملَك جديداً إلى الرسالة .. وعليه ، فكلامهم هذا سفسطة وجَدَلٌ لا معنى له .

وكلمة ﴿ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧ ﴾ [الفرقان] لم يقولوا بشيراً ، مما يدل على اللدَد واللجاج ، وأنهم لن يؤمنوا ؛ لذلك لن يفارقهم الإنذار .

﴿ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٨ ﴾

تلحظ أنهم يتنزلون فى لَدَدهم وجَدلهم ، فبعد أنْ طلبوا ملكاً يقولون ﴿ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ ⟨٨⟩ ﴾ [الفرقان] أى : ينزل عليه ليعيش منه ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ⟨٨⟩ ﴾ [الفرقان] أى : بستان ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ⟨٨⟩ ﴾ [الفرقان]

والمسحور هو الذى ذهب السِّحْر بعقله ، والعقل هو الذى يختار بين البدائل ويُرتِّب التصرُّفات ، ففاقد العقل لا يمكن أن يكونَ منطقياً فى تصرفاته ولا فى كلامه ، ومحمد ﷺ ليس كذلك ، فأنتم تعرفون خُلقه وأمانته ، وتُسمُّونه « الصادق الأمين » وتعترفون بسلامة تصرفاته وحكمته ، كيف تقولون عنه مجنون ؟

لذلك يقول تعالى رداً عليهم :﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ⟨١⟩ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ⟨٢⟩ وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ⟨٣⟩ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ⟨٤⟩ ﴾ [القلم]

والخُلُق يسوى تصرُّفات الإنسان فيجعلها مُسْعدة غير مفسدة ، فكيف ـ إذن ـ يكون ذو الخُلق مجنوناً ؟ إذن : ليس محمد مسحوراً .

وفى موضع آخر قالوا : ساحر ، وعلى فرض أنه ﷺ ساحر ، فلماذا لم يسحركم كما سَحَر المؤمنين به ؟ إنه لَجَج الباطل وتخبّطه واضطرابه فى المجابهة . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ⟨٩⟩ ﴾

﴿ انظُرْ ..⟨٩⟩ ﴾ [الفرقان] خطاب لإيناس رسول الله وتطمينه ﴿ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ ..⟨٩⟩ ﴾ [الفرقان] أى : اتهموك بشتّى التهم فقالوا ساحر . وقالوا : مسحور . وقالوا : شاعر . وقالوا : كاهن ﴿ فَضَلُّوا

فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ⑨ ﴾ [الفرقان] لأنهم يقولون كذباً وهُرَاءً وتناقضاً فى القول .

﴿ فَضَلُّوا ..⑨ ﴾ [الفرقان] أى : عن المثل الذى يصدُق فيك ليصرف عنك المؤمنين بك ، ويجعل الذين لم يؤمنوا يُصرُّون على كفرهم ، فلم يصادفوا ولو مثلاً واحداً ، فقالوا : ساحر وكذبوا وقالوا : مسحور وكذبوا ﴿ فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ⑨ ﴾ [الفرقان] أى : إلى ذلك .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ⑩ ﴾

﴿ تَبَارَكَ ..⑩ ﴾ [الفرقان] كما قلنا : تنزَّه وعَظُم خيره ؛ لأن الكلام هنا أيضاً فيه عطاء مُتمثِّل فى الخير الذى ساقه الله تعالى لرسوله ﷺ ، فعطاؤه سبحانه دائم لا ينقطع ، بحيث لا يقف خير عند عطائه ، بل يظل عطاؤه خيراً موصولاً ، فإذا أعطاك اليوم عرفتَ أن ما عنده فى الغد خير مما أعطاك بالأمس .

---

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : لما عيَّر المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة قالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق حزن رسول الله ﷺ فنزل جبريل من عند ربه معزياً له ، فقال : السلام عليك يا رسول الله ، رب العزة يقرئك السلام ويقول لك : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ .. ⑳ ﴾ [الفرقان] وقال جبريل : أبشر يا محمد ، هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضا من ربك ، فأقبل رضوان حتى سلم ثم قال : يا محمد رب العزة يقرئك السلام ، ومعه سفط من نور يتلألأ ويقول لك ربك : هذه مفاتيح خزائن الدنيا مع ما لا ينتقص لك مما عنده فى الآخرة مثل جناح بعوضة ، فقال : يا رضوان ، لا حاجة لى فيها ، الفقر أحب إلىّ وأن أكون عبداً صابراً شكوراً . بتصرف واختصار [من أسباب النزول للواحدى النيسابورى ص ١٩٠ ، ١٩١] ، و [تفسير القرطبى ٤٨٦٩/٦] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ ﴾

يُضرب السياق عن الكلام السابق ، ويعود إلى مسألة تكذيبهم وعدم الإيمان بمحمد ﷺ ؛ لأن الإيمان ليس فى مصلحتهم ، فالإيمان يقتضى حساباً وجزاءً ، وهم يريدون التمادى فى باطلهم والاستمرار فى لَغْوهم واستهتارهم ومعاصيهم ؛ لذلك يُكذِّبون أنفسهم ويخدعونها ليظلوا على ما هم عليه .

ولذلك ترى الذين يُسرفون على أنفسهم فى الدنيا من الماديين والملاحدة والفلاسفة يتمنون أنْ تكون قضية الدين قضيةً فاسدة كاذبة ، فينكرونها بكل ما لديْهم من قوة ، فالدين عندهم أمر غير معقول ؛ لأنهم لو أقروا به فمصيبتهم كبيرة .

ومعنى : ﴿ أَعْتَدْنَا .. ﴿١١﴾ ﴾ [الفرقان] هيَّأنا وأعددْنا لهم سعيراً ؛ لأن عدم إيمانهم بالساعة هو الذى جَرَّ عليهم العذاب ، ولو أنهم آمنوا بها وبلقاء الله وبالحساب وبالجزاء لاهتَدوْا ، واعتدلوا على الجادة ، ولَنجَوْا من هذا السعير .

والسعير : اسم للنار المسعورة التى تلتهم كل ما أمامها ، كما نقول : كَلْب مسعور ، ثم يقول سبحانه فى وصفها :

﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾

يريد الحق ـ تبارك وتعالى ـ أن يُشخِّص لنا النار ، فهى ترى أهلها من بعيد ، وتتحرّش بهم تريد من غَيْظها أنْ تَثبَ عليهم قبل أنْ يصلوا إليها .

والتغيُّظ : ألم وجدانى فى النفس يجعل الإنسان يضيق بما يجد ،

ومن ذلك نسمع مَنْ يقول : (أنا ح أطق من جنابى) ، يعنى : نتيجة ما بداخله من الغيظ لا يتسع له جوفه ، وما دام الغيظ فوق تحمُّل النفس وسعَتها فلا بُدَّ أن يشعر الإنسان بالضيق ، وأنه يكاد ينفجر .

لذلك يقول تعالى عن النار فى موضع آخر :﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ⑧ ﴾[الملك] تميّز يعنى : تكاد أبعاضها تنفصل بعضها عن بعض .

لكن ، لماذا تميَّز النار من الغيظ ؟ قالوا : لأن الكون كله مُسبِّح لله حامد شاكر لربه ؛ لذلك يُسَرُّ بالطائع ويحبه ، ويكره العاصى ، ألاَ ترى أن الوجود كله قد فرح لمولد النبى ﷺ ، فرح لمولده الجمادُ والنباتُ والحيوانُ واستبشر ، لأنه ﷺ جاء ليعيد للإنسان انسجامه مع الكون المخلوق له ، ويعدل الميزان .

ومع ذلك نرى من البشر العقلاء أصحاب الاختيار مَنْ يكفر ، لذلك تغتاظ النار من هؤلاء الذين شذُّوا عن منظومة التسبيح والتحميد ورَضُوا لأنفسهم أن يكونوا أدْنى من الجماد والنبات والحيوان ، ومن ذلك يقولون : نَبَا بهم المكان من كفرهم ، يعنى الأماكن من الأرض تُنكرهم وتتضايق من وجودهم عليها ، كما تفرح الأرض بالطائع وتحييه ؛ لأنه منسجم معها ، المكان والمكين ينتظمان فى منظومة التسبيح والطاعة .

لذلك يُنبِّهنا إلى هذه المسألة الإمام على ـ رضى الله عنه ـ فيقول : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع فى السماء ، وموضع فى الأرض . أما فى الأرض فموضع مُصلاَّه ؛ لأنه حُرِم من صلاته ، وأما موضعه فى السماء فمصعد عمله الطيب[1] .

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/١٤٢) وعزاه لابن أبى حاتم أن علياً قال : « إنه ليس من عبد إلا له مصلى فى الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض ولا عمل يصعد فى السماء » . وعن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : « ما من عبد إلا وله فى السماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله وكلامه ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه » قال الهيثمى فى المجمع « رواه أبو يعلى ، وفيه موسى بن عبيدة الربذى ، وهو ضعيف » .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يُظهر لنا هذه الصورة فى قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

فالنار تتشوّق لأهلها كالذى يأكل ولا يشبع ، فمهما أُلْقِى فيها من العصاة تقول : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

ومعنى ﴿ زَفِيراً ..(١٢) ﴾ [الفرقان] النفَس الخارج . وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) ﴾[الملك] فذكر أن لها شهيقاً وزفيراً ، وهى فى المكان الضيق .

﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا(١) مُّقَرَّنِينَ(٢) دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) ﴾

فجمع الله عليهم من العذاب ألواناً حتى يقول الواحد منهم لمجرد أن يرى العذاب :﴿ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَابًا (٤٠) ﴾[النبأ] وهنا يدعو بالويل والثبور ، يقول : يا ويلاه يا ثبوراه يعنى : يا هلاكى تعالَ احضر ، فهذا أوانك لتُخلِّصنى مما أنا فيه من العذاب ، فلن يُنجينى من العذاب إلا الهلاك ؛ لذلك يقولون : أشدّ من الموت الذى يطلب الموت على حَدِّ قول الشاعر :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الموْتَ شَافِياً وَحَسْبُ المنَايَا أنْ يكُنَّ أَمَانِيَا[٣]

ولك أن تتصور بشاعة العذاب الذى يجعل صاحبه يتمنى الموت ، ويدعو به لنفسه .

---

(١) قال عبد الله بن مسعود : إن جهنم لتضيق على الكافر كتضييق الزج على الرمح . ذكره ابن المبارك فى رقائقه (٢٩٩ ـ زوائد الزهد) وأورده القرطبى فى تفسيره (٦/٤٨٧١) .

(٢) مقرنين : مُكتَّفين . قاله أبو صالح . وقيل : مصفَّدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال . وقيل : قُرِنوا مع الشياطين ، أى : قُرِن كل واحد منهم إلى شيطانه . [أورد هذه الأقوال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٨٧١)] .

(٣) البيت للمتنبى (ديوانه ٤/٢٨١) وذكره شهاب الدين محمود الحلبى فى « صناعة الترسل » (ص ٢٥٢) فى شواهد حُسْن الابتداءات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾

يُوبِّخهم الحق - سبحانه وتعالى - ويُبكِّتهم : يا خيبتكم ويا ضياعكم ، لن ينفعكم أنْ تدعوا ثُبوراً واحداً ، بل ادعوا ثُبوراً وثبوراً وثبوراً ؛ لأنها مسالة لن تنتهي ، فسوف يُسْلمكم العذاب إلى عذاب ، حتى ينادوا : ﴿ يَـٰمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف] وهو عذاب متجدد : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]

ثم يذكر الحق سبحانه المقابل ليكون ذلك أنْكَى لأهل الشر وأغْيظ لهم ، فيذكر بعد العذاب الثوابَ على الخير وعظَم الجزاء على الطاعة ، ومثل هذه المقابلات كثيرة في كتاب الله ، كما في قوله تعالى :﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار]

ويقول سبحانه : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [التوبة]

وهنا بعد أنْ ذكر النار وما لها من شهيق وزفير ، يقول سبحانه :

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾

﴿ قُلْ ﴿١٥﴾ ﴾ [الفرقان] أمْر لرسول الله بأن يقول ، والمقول له هم الذين اعترضوا على نبوته ﷺ باعتراضات واهية من المعاصرين له ،

وكانوا يتخبّطون في هذه المسائل تخبُّط مَنْ لا يعرف فيها حقيقة ، وإنما غرضه فقط أنْ يتعرّض لرسول الله في أمر دعوته ، والتعرُّض لأيِّ نبيٍّ في أمر دعوته من المعاصرين له أمر طبيعي ؛ لأن الرسل إنما يجيئون حين يستشرى الفساد .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ جعل في كل نفس ملكةً تجعل الإنسان يفعل شيئاً ، ثم تأتى ملكة أخرى فيه لتلومه على ذلك ، حينئذ تكون المناعة في ذات الإنسان ويُسمُّونها النفس اللوَّامة ، لكن قد تنطمس فيه هذه الملكة ، فتتعاون كل ملكاته على الشر ، بحيث تكون النفس بكل ملكاتها أمّارة بالسوء ، وهي أمَّارة بصيغة المبالغة لا آمرة أي : أنها أخذتْ هذا الأمر حِرْفةً لها .

كما لو رأيت رجلاً يَنْجُر في قطعة من الخشب تقول له : ناجر ، فإنِ اتخذها حرفةً له ، لا يعمل إلا هي ، تقول له : نجار ، ومثله : خائط وخيّاط . فالمعنى : أمّارة يعنى : لم يَعُدْ لها عمل في أن تردع عن الشر ، بل دائماً تُقوِّى نوازع الشر في النفس ، وتتأصل فيها حتى تصير لها حرفة .

فماذا يكون الموقف إذن ؟

لا بُدَّ أنْ يجعل الحق سبحانه في نفوس قوم آخرين ملكة الخير ليواجهوا أصحاب هذه الأنفس الأمّارة بالسوء ، يواجهونهم بالنصح والإرشاد والموعظة ، ويصرفونهم عن الشر إلى الخير . فإذا ما فسد المجتمع كله ، لا نفسٌ مانعة ، ولا مجتمعٌ مانع ، فلا بُدَّ أنْ تتدخّل السماء برسول جديد .

ومن رحمة الله بالعالم أنه سبحانه ضمن لأمة محمد ﷺ أن تكون فيها النفس اللوامة ، وضمن لها أنْ يظل مجتمعها آمراً بالمعروف ،

ناهياً عن المنكر ؛ لذلك لا حاجةَ لرسول بعد رسول الله ﷺ . إذن : فالمناعة موجودة فى أمة الإسلام ، ولو لم تكُنْ هذه المناعة موجودة فى النفس أولاً ، وفى المجتمع ثانياً لتدخلتْ السماء بعد رسول الله برسول جديد ومعجزة جديدة ليعيد الخَلْق إلى رُشْدهم .

ولا شكَّ أن فى المجتمع طائفةً تنتفع بهذا الفساد ، ويعيشون فى ترف فى ظله ، فطبيعى - إذن - أنْ يدافعوا عنه ، وطبيعى أنْ يتصدَّوْا لدعوة الرسول التى جاءتْ لتعدل ميزان المجتمع ، وأنْ يقفوا له بالمرصاد ؛ لأنه يهدِّد هذه النفعية ويقضى على مصلحتهم .

وإنْ كان الرسل السابقون قد تعرَّضوا لمثل هذا الاضطهاد ، فقد تعرَّض رسول الله ﷺ لأضعاف ما تعرَّضوا له ؛ لأن اضطهاده ﷺ جاء مناسباً لضخامة مهمته ، فقد جاءتْ الرسل قبله ، كُلٌّ إلى أمته خاصة فى زمن محدد ، أمّا رسالته ﷺ فقد جاءت للناس كافة ، تعمُّ كل الزمان وكل المكان إلى أن تقوم الساعة ، فلا بُدَّ إذن أن تكون مهمته أصعب .

وهؤلاء الكبراء الذين ينتفعون بالفساد فى المجتمع يظنون أن رسول الله إذا لُوِّح له بالمال والنعيم يمكن أن يتنازل عن دعوته ، ويترك لهم الساحة ؛ لذلك اجتمع صناديد قريش على رسول الله ، يُلوِّحون له بالمال والجاه والسلطان ، ليصدُّوه عن الدعوة ويصرفوه عنها ، هؤلاء الذين سماهم أستاذنا الشيخ موسى : دستة الشر ، وكانوا اثنا عشر رجلاً ، منهم : أبو البختري[1] ، وأبو جهل ، وأبو سفيان ، والأسود بن المطلب ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، وعتبة بن ربيعة ، ومُنبِّه بن الحجاج ، والوليد بن المغيرة ،

(١) أبو البخترى : اسمه العاص بن هشام بن الحارث . قاله ابن إسحاق . وقال ابن هشام : هو العاص بن هاشم . [السيرة النبوية ١/ ٢٦٤] .

والنضر بن الحارث ، وشيبة بن ربيعة ، ونُبيه بن الحجاج[(١)] .

لقد ذهب هؤلاء[(٢)] إلى سيدنا رسول الله يقولون : « نحن وفد قومك إليك ، جئنا لنقدِّم المعذرة حتى لا يلومنا أحد بعد ذلك ، فإنْ كنتَ تريد مالاً جمعنا لك الأموال ، وإنْ كنتَ تريد شرفاً سوَّدناك علينا ، وإن كنت تريد مُلْكاً ملّكناكَ علينا » .

وفَرْق بين المال والشرف : المال أن يكون الإنسان غنياً ، لكن ربما لا شرفَ له ، ولا مكانةَ بين الناس ، وهناك مَنْ له شرف وسيادة ، وليس له مال .

ونلحظ أنهم ارتقوْا في مساومة رسول الله من المال إلى الشرف والسيادة ، ثم إلى الملْك . فماذا كان موقفه ﷺ ؟ كان موقفه هو الموقف الذى مهَّد الله له به ، حينما عرض عليه جبريل عليه السلام أن يجعل الله له جبال مكة ذهباً ، فقال ﷺ : « بل أشبع يوماً فأشكر ، وأجوع ثلاثة أيام فأتضرع »[(٣)] .

---

(١) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٢٦٤) أنهم تسعة نفر ، واستثنى ممن ذكرهم الشيخ : أمية بن خلف ، النضر بن الحارث .

هذا الوفد ذهبوا إلى أبى طالب وقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفَّه أحلامنا ، وضلَّل آباءنا ، فإما أن تكفّه عنا ، وإما أن تخلّى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيكه فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً ، وردهم رداً جميلاً ، فانصرفوا عنه ، ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٢٦٥) وانظر موقفاً آخر (١/ ٢٩٥) .

(٢) هو : الوليد بن المغيرة في واقعة أخرى أنه قال لرسول الله ﷺ : يا بن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به مُلْكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه . [سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٣ ، ٢٩٤] باختصار .

(٣) عن أبى أمامة قال النبى ﷺ : « عرض علىّ ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً وقال ثلاثاً أو نحو هذا ، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك . أخرجه الترمذى في سننه (٢٣٤٧) ، وأحمد في مسنده (٥/ ٢٥٤) . قال الترمذى : حديث حسن .

وفى موقف آخر ، قال له جبريل : يُخيِّرك ربك أن تكون نبياً ملكاً ، أو نبياً عبداً ؟ فقال : « بل نبياً عبداً »[1]

والنبى مالك منهج السماء ، والملك الذى يملك السيطرة بحيث لا يستطيع أحد أن يقف فى وجهه ، مثل سليمان عليه السلام ، حيث آتاه الله مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، ومع ذلك لم يكن هذا المُلْك هو المطلوب فى ذاته ، بدليل أن سليمان ـ عليه السلام ـ مع ما أوتيه من المُلْك كان لا يأكل إلا الخوشكار يعنى : الخبز الأسمر غير النقى (الردَّة) فى حين يأكل عبيده ومواليه الدقيق الفاخر النقى[2] ، فلم يكن سليمان يريد المُلْك لذاته ، إنما ليقْوَى به على دعوته ، فلا يعارضه فيها أحد .

لذلك ، لما أرسلتْ إليه ملكة سبأ بهدية لتستميله بها وتَصْرفه عما يريد رَدَّ عليها : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ﴾ [النمل]

لذلك جاءته صاغرة تقول :﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) ﴾ [النمل]

إذن : مسألة المال هذه عُرِضَتْ على رسول الله قبل أن يقترحها كفار مكة ، فإذا كان ﷺ قد رفضه ممَّنْ يملكه ، فكيف يقبله ممَّنْ لا يملك شيئاً ؟ لذلك قال لهم : والله ما بى حاجة إلى ما تقولون ،

---

(١) أخرجه ابن المبارك فى الزهد (ص ٢٦٥) ، والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٦٨٦) ، قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٩/ ٢٠) : « فيه بقية بن الوليد وهو مدلس » . وعزاه للطبرانى فى الأوسط وقال (١٠/ ٣١٥) : « فيه سعدان بن الوليد ولم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٢) أخرج أحمد فى الزهد (ص ١٤١ طبعة دار الكتاب العربى ـ بيروت) عن عطاء رضى الله عنه قال : كان سليمان عليه السلام يعمل الخوص بيده ، ويأكل خبز الشعير ، ويطعم بنى إسرائيل الحوارى . وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ١٨٩) فى تفسير آية ٣٥ ـ سورة ص . والحوارى هو الدقيق الأبيض النقى .

فلست طالب مـال ، ولا مُلْك ، ولا شرف ، إنما أنـا رسول الله أُرسلْتُ إليكم ، ومعي كتـاب فيه منهجكم ، وأمرني ربي أن أكـون لكم بشيراً ونذيراً ، فإنْ جئتم على ما أحب فقد ضمنتم حظّ الدنيا والآخرة ، وإنْ رددتُمْ عليَّ قولي فـإنني سأصـبر إلى أن يحكم الله بيننا ، وهو خـير الحاكمين [(١)] .

فلجئوا إلى عم النـبي ﷺ ، لعله يستطيع أن يستميـله ، فلما كلَّمه عمـه قال قولتـه المشهـورة : « والله لو وضعوا الشـمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يُظهره الله أو أهلك دونه » [(٢)]

﴿ أَذَٰلِكَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الفرقان] أي : ما أنتم فيه الآن مـن العذاب خير ، أم جنة الخلد التـي وُعد المـتـقـون ؟ احكمـوا أنتم في هذه المسـألة وسنرضى بحكمكم ، إنـها إغـاظة لأهل النار ، حـيث جمع الله عليـهم مقاساة العذاب مع النظر إلى أهل الجـنة وما هم فيه من النعيم ، ولو كانت الأولـى وحدها لكانت كـافية ، إنمـا هو في العذاب ويأتـيه أهل الجنة ليُبكّتوه : انظر ما فاتك من النعيم !!

وفيها أيضاً تقريع لهم ، فليس هناك وجه للمقارنة بين الجنة والنار ، فأنت مثلاً لا تقول : العسل خير أم الخل ؛ لأنه أمر معروف بداهة .

وسبق أنْ تكـلّمنا عن الصراط ، ولمـاذا ضُرِب على مَتْـن جهنم ، والجمـيع يمرون عليه ؛ لأن الله ـ تبارك وتعـالى ـ يريد أنْ يجعل لك

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية بنحو هذا (٢٩٦/١) .

(٢) أورده ابن هشام في السـيرة النبـوية (٢٦٦/١) معزواً لابن إسـحاق ، أن قريشـاً قالوا لأبي طالب : يا أبا طالب ، إن لك سـناً وشرفـاً ومنزلة فـينا ، وإنا قد اسـتنهـيناك من ابن أخيك فلـم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصـبر على هذا من شـتم آبائنا وتسفـيه أحلامـنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين . فقال رسول الله ﷺ لعمه أبي طالب هذه المقالة .

من مرائى النار التى تمرُّ عليها فوق الصراط نعمة أخرى تُذكِّرك بالنجاة من النار قبل أنْ تباشر نعيم الجنة .

لذلك لا يمتن الله علينا بدخول الجنة فحسب ، إنما أيضاً بالنجاة من النار ، فيقول سبحانه : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ..(١٨٥)﴾ [آل عمران]

فالحق - سبحانه وتعالى - يذكر لنا النار ، وأن من صفاتها كذا وكذا ، أما فى الآخرة فسوف نراها رأى العين ، كما قال سبحانه : ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧)﴾[التكاثر] وذلك حين تكون على الصراط ، فتحمد الله على الإسلام الذى أنجاك من النار ، وأدخلك الجنة ، فكل نعمة منها أعظم من الأخرى .

وفى قوله تعالى : ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ .. (١٥)﴾[الفرقان] كلمة خير فى اللغة تدور على معنيين : خير يقابله شَرٌّ ، وخير يقابله خير أعظم منه . كما جاء فى الحديث الشريف : « المؤمن القوى خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير »[1] فكلاهما فيه خير ، وإن زاد الخير فى المؤمن القوى ، وعادة ما تأتى (من) فى هذا الأسلوب : هذا خير من هذا .

أما الخير الذى يقابله شر ، فمثل قوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧)﴾ [البينة]

والجنة كما نستعملها فى استعمالات الدنيا : هى المكان المليء بالأشجار والمزروعات التى تستر السائر فيها ، أو تستر صاحبها أنْ ينتقلَ منها إلى خارجها ؛ لأن بها كل متطلبات حياته ، بحيث يستغنى بها عن غيرها ، لذلك أردفها الحق - تبارك وتعالى - بقوله : ﴿الْخُلْدِ .. (١٥)﴾ [الفرقان]

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده (٢/٣٦٦ ، ٣٧٠) ومسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) وابن ماجة فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

إذن : فالجنة التى تراها فى الدنيا مهما بلغت فليست هى جنة الخلد ؛ لأنها لابد إلى زوال ، فعُمرها من عُمْر دُنْياها ، كأنه سبحانه يقول لكل صاحب جنة فى الدنيا : لا تغترْ بجنتك ؛ لأنها ستؤول إلى زوال ، وأشدّ الغم لصاحب السرور أنْ يتيقن زواله ، كما قال الشاعر :

أشَدُّ الغَمِّ عِنْدى فِى سُرُورٍ   تَيقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُه انْتقَالاَ

لذلك يُطمئن الله تعالى عباده المؤمنين بأن الجنة التى وعدهم بها هى جنة الخلد والبقاء ، حيث لا يفنى نعيمها ، ولا يُنغّص سرورها ، فلذَّاتها دائمة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة .

وقوله تعالى : ﴿ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ (١٥) ﴾ [الفرقان] الوعد هنا من الله تعالى الذى يملك كل أسباب الوفاء ، والوَعْد بشارة بخير قبل مجيئه لتستعد لأن تكون من أهله ، ويقابله الإنذار ، وهو التهديد بشرٍّ قبل مجيئه لتتلافاه ، وتجتنب أسباب الوقوع فيه .

وكلمة (مُتَّق) الأصل فيها مَنْ جعل بينه وبين الشر وقاية ، كما يقول سبحانه : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ (٢٤) ﴾ [البقرة] يعنى : اجعلوا بينكم وبينها وقاية .

ومن العجيب أن يقول سبحانه : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ (١٩٤) ﴾ [البقرة] ويقول ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ (٢٤) ﴾ [البقرة] والمعنى : اجعلوا بينكم وبين صفات جلاله القهرية وقايةً ؛ لأنكم لا تتحمّلون صفات قَهْره ، والنار جُنْد من جنود الله فى صفات جلاله ، فكأنه تعالى قال : اتقوا جنود صفات الجلال من الله .

وقوله تعالى : ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً .. (١٥) ﴾ [الفرقان] أى : جزاءً لما قدَّموا ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة] فهذا تعليلُ ما هم فيه من النعيم : أنهم كثيراً ما تَعبُوا ، واضطهدوا وعُذِّبوا ، وجزاء من عُذِّب فى ديننا أن نُسعده الآن فى الآخرة .

﴿ وَمَصِيراً ⑮﴾ [الفرقان] أى : يصيرون إليه ، إذن : لا تنظر إلى ما أنت فيه الآن ، لكن انظر إلى ما تصيـر إليه حتْماً ، وتأمل وجودك فى الدنيا ، وأنه موقـوت مظنون ، ووجودك فى الآخرة وأنه باقٍ دائم لا ينتـهى ، لذلك يقـولون : إياك أنْ تدخل مـدخلاً لا تـعرف كـيـفيـة الخروج منه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ⑯ ﴾

فى الآية السابقـة قال سبـحانه : ﴿ جَنَّةُ الْخُلْدِ .. ⑮﴾ [الفرقان] وهنا يقول ﴿ خَالِدِينَ .. ⑯﴾ [الفرقان] وهذه من المـواضـع التى يرى فـيهـا السطحيون تكراراً فى كلام الله ، مع أن الفرق واضح بينهما ، فالخُلْد الأول للجنة ، أما الثانى فلأهلها ، بحيث لا تزول عنهمُ ولا يزولون هم عنها .

وقوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ.. ⑯﴾ [الفرقان] كأن امتياز الجنة أن يكون للذى دخلهـا ما يشاء ، وفى هذه المسألة بَحْث يجب أن نـتنبه إليه ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ.. ⑯﴾ [الفرقان] يعنى : إذا دخلتَ الجنة فلك فيـها مـا تشاء . إذن : لك فـيهـا مشـيئـة من النعيم ، ولا تـشاء إلا ما تعرف من النعـيم المحدود ، أما الجنة ففيـها ما لا عَيْن رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وهذا الوعد لا يتحقق للمؤمن إلا فى الجنة ، أما فى الدنيا فلا أحدَ ينال كل ما يشاء ـ حتى الأنبياء ـ ألاَ ترى أن نوحاً عليه السلام طلب من ربه نجاة ولده . فقال : ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي..㊺﴾ [هود] فلم يُجَبْ إلى ما يشاء .

ومحمد ﷺ ـ رغم كل المحاولات ـ لم يتمكن من هداية عمه أبى طالب ، وهذا لا يكون إلا فى الدنيا ، لذلك فاعلم أن الله تعالى حين يحجب عنك ما تشاء فى الدنيا إنما ليدخره لك كما يشاء فى الآخرة ، مع أن الكثيرين يظنون هذا حرماناً ، وحاشا لله تعالى أن يحرم عبده .

وفى قوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. (١٦) ﴾ [الفرقان] عطاءات أخرى ، لكن ربك يعطيك على قَدْر معرفتك بالنعيم ، ويجعل عليك (كنترولاً) فأنت تطلب وربُّكَ يعطيك ، ويدخر لك ما هو أفضل مما أعطاك .

والمشيئة فى الأخرى ستكون بنفسيات وملكات أخرى غير نفسيات وملكات مشيئات الدنيا ، إنها فى الآخرة نفوس صفائية خالصة لا تشتهى غير الخير ، على خلاف ما نرى فى الدنيا من ملكات تشتهى السوء ، لأن الملكات هنا محكومة بحكم الجبر فى أشياء والاختيار فى أشياء : الجبر فى الأشياء التى لا تستطيع أن تتزحزح عنها كالمرض والموت مثلاً ، أما الاختيار ففى المسائل الأخرى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً (١٦) ﴾ [الفرقان] الوعد ـ كما قلنا ـ البشارة بخير قبل أوانه . وبعض العلماء يرى أن وعداً هنا بمعنى حق ، لكن هل لأحد حق عند الله ؟

وفى موضع آخر يُسمِّيه تعالى جزاءً ، فهل هو وعد أم جزاء ؟ نقول : حينما شرع الحق سبحانه الوعد صار جزاءً ؛ لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يرجع فى وعده ، ولا يحول شيء دون تحقيقه .

وكلمة ﴿ مَّسْئُولاً (١٦) ﴾ [الفرقان] مَن السائل هنا ؟ قالوا : الله تعالى علَّمنا أن نسأله ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ .. (١٩٤) ﴾ [آل عمران] فقد سألناها نحن .

وكذلك سألتها الملائكة ، كما جاء في قوله سبحانه على لسان الملائكة : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ .. ⑧ ﴾ [غافر]

فالجنة - إذن - مسئولة من أصحاب الشأن ، ومسئولة من الملائكة الذين يستغفرون لنا[1].

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ⑰ ﴾

قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ .. ⑰ ﴾ [الفرقان] الحشر : جَمْع الناس أجمعين من لَدُنْ آدم - عليه السلام - وإلى أنْ تقومَ الساعة في مكان واحد ، ولغاية واحدة ، وإذا كنا الآن نضجّ من الزحام ونشكو من ضيق الأرض بأهلها ، ونحن في جيل واحد ، فما بالك بموقف يجمع فيه كل الخلائق من آدم إلى قيام الساعة ؟

والعبادة : أن يطيع العابدُ أوامرَ معبوده ، فينبغي أن ننظر في كل مَنَ له أمر نطيعه : أهو أمر من ذاته ؟ أم أمر مُبلَّغ من أعلى منه : رسول أو إله ؟ فإنْ كان الأمر من ذاته فعليك أن تنظر أهو مُباح أم يتعارض مع نصٍّ شرعي ؟ فإنْ كان مباحاً فلا بأسَ في إطاعته ، أما إنْ كان مخالفاً للشرع فإنْ أطعْتَه فكأنك تعبده من دون الله .

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي من طريق سعيد بن هلال عن محمد بن كعب القرظي في قوله ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ⑯ ﴾ [الفرقان] قال : إن الملائكة تسأل لهم ذلك في قولهم ﴿ وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ .. ⑧ ﴾ [غافر] قال سعيد : وسمعت أبا حازم يقول : إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون : ربنا عملنا لك بالذي أمرتنا ، فانجز لنا ما وعدتنا ، فذلك قوله ﴿ وَعْدًا مَّسْئُولًا ⑯ ﴾ [الفرقان] . أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/٢٤١) .

إذن : حينما يأمرك الآمر بالصلاة أو الزكاة أو الصوم فأنت قبل أن تطيعه أطعتَ مَنْ حَمَّله هذه الأمانة ، والذين يطيعون مَنْ يأمرونهم بأشياء مخالفة لمنهج الله عبدوهم من دون الله ، وجعلوهم آلهة مُطاعين ، كما قال سبحانه في الشياطين : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١)﴾ [الانعام] وآخرون عبدوا الطاغوت ، أو عبدوا الشمس ، أو القمر ، أو النجوم ، أو الأصنام والجماد .

ومعلوم أن عبادة هذه الجمادات عبادة باطلة خاطئة ، فالعبادة إطاعة أمر ، وهل للجمادات أمر لأحد ؟ إنما العبادة إنْ صَحَّتْ بهذا المعنى فتكون لمَنْ يملك أمراً أو سلطة زمنية من الرهبان ، أو من الشياطين ، أو الملائكة ، أو من عيسى عليه السلام حيث قال البعض بألوهيته أو العزير الخ . ودخلت الجمادات مع هؤلاء على سبيل العموم .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. (١٧)﴾ [الفرقان] يعني : يجمع العابد على الضلال والمعبود على الضلال في مكان واحد معاً ، لماذا ؟ لأن العابد إذا وجد نفسه في العذاب ربما انتظر معبوده أنْ ينقذه من العذاب ، لكن ها هو يسبقه إلى النار ويقطع عنه كلَّ أمل في النجاة .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧)﴾ [الفرقان]

والخطاب هنا مُوجَّه لمن يعقل منهم ، ولا مانعَ أن يكون للجميع ، فنحن نتحدث عن القانون الذي نعرفه ، وقد بيَّن لنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ أن لكل شيء لغةً ، فلماذا نستبعد أن يكون الخطاب هنا للعاقل ولغير العاقل ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

وقد قال سليمان عليه السلام وهو ممَّن فقه التسبيح : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي[1] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] لما سمع النملة تُحذِّر قومها : ﴿ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ .. (١٨) ﴾ [النمل] فتبسَّم سليمان ـ عليه السلام ـ لما سمع من النملة وسمَّاه قَوْلاً ، وفي هذا رَدٌّ على مَنْ يقول : إن التسبيح هنا من النملة تسبيحُ حال ، لا تسبيح مقال .

وهو قَوْل مخالف لنصِّ القرآن الذى قال : ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ.. (٤٤) ﴾ [الإسراء] فقد حكم الحق سبحانه بأنك لا تفقه هذا التسبيح ، فإن قُلْتَ : هو تسبيح دلالة فقد فقهته ، وقد حكم سبحانه بعدم فقْهك له إلا إذا عرَّفك الله تعالى ، وأطلعك على لغات هذه المخلوقات .

ولماذا نستبعد هذه المسألة والعلم الحديث يُقرِّر الآن أن لكل أمة من أمم الموجودات لغتها الخاصة ، وألسْنَا نتحدث الآن فيما بيننا بلغة غير منطوقة ، وهى لغة الإشارات التى يتفاهم بها البحارة مثلاً ؟

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يسأل المُعبودين : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلاءِ .. (١٧) ﴾ [الفرقان] والله يعلم إنْ كانوا أضلُّوهم أم لا ؛ لذلك أجاب عيسى ـ عليه السلام ـ على مثل هذا السؤال فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي .. (١١٦) ﴾ [المائدة]

وسؤال الله للمعبودين تقريع للعابدين أمام مَنْ عبدوهم ، ولو أن

---

(١) أوزعه أن يفعل كذا : دفعه وحثَّه وأغراه ، أو ألهمه وأرشده ، قال تعالى : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] أى : ألهمنى شكرك وادفعنى إليه وحبِّبْه إلىَّ [القاموس القويم ٢/٣٣٤] .

عبادتهم بحقٍّ لكان المعبودون دافعوا عن هؤلاء أمام الله ؛ لذلك أجاب عيسى عليه السلام : ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ .. ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة]

أما الآخرون فقالوا : ما أضللناهم ، بل هم ضلُّوا السبيل .

وكلمة ﴿عِبَادِي .. ﴿١٧﴾﴾ [الفرقان] سبق أن قلنا إن (عبد) تُجمع على (عباد) و (عبيد) ، وعبد يعني أنه خاضع لأمر السيد ، وليس له تصرُّف من ذاته ، إنْ نظرتَ هذه النظرة فكل خَلْق الله عبيد ؛ لأن هناك أشياء لا يخرجون فيها عن مراد الله تعالى كميلاده على شكل خاص أو مرضه أو وفاته .

لذلك نقول للذين ألِفُوا مخالفة أوامر الله والتمرد عليه سبحانه : قد تتمردون على الإيمان به فتكفروا ، وقد تتمردون على الإيمان برسوله فتكذِّبوا ، وقد تتمردون على حُكْم من الأحكام فتخالفوه .

إذن : لكم جَرْأة على المخالفة وإلْف للتمرد ، وما دام لك دُرْبة على ذلك ، فعليك أنْ تتمرد أيضاً عند المرض وتقول : لن أمرض وتتمرّد على الموت فلا تموت ، لكن هيهات ، فهذه مسائل ، الكل فيها عبيد لله مقهورون لإرادته سبحانه ، المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي .

وهناك أمور أخرى جعلها الله بالاختيار ، فالذين سبقتْ لهم من الله الحسنى ، وأُلْهموا التوفيق يتنازلون عن اختيارهم لاختيار ربهم ومراده ، فيكونون عبيداً لله في كل الأمور القهريات وغير القهريات ، وهؤلاء هم الذين يستحقون أن يكونوا عباداً لله .

فالعباد ـ إذن ـ يشتركون مع العبيد في القهريات ، ويتميزون عنهم بتنازلهم عن مرادهم لمراد ربهم ، وعن اختيارهم لاختياره عزَّ وجلَّ ؛ لذلك سمّاهم عباداً ، كما جاء في قوله سبحانه :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا[1] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان]

والاستفهام في قوله سبحانه : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي .. (١٧) ﴾ [الفرقان] يقول فيه بعض غير المؤهَّلين للفَهْم عن الله : أما كان يقول : أأضللتم عبادي ؟ ونقول لهؤلاء : ليس لديكم الملكة اللغوية لفَهْم القرآن ، فأنت تستفهم عن الفعل إذا لم يكن موجوداً أمامك ، تقول : أبنيتَ البيت الذي أخبرتني أنك ستبنيه ؟ فيخبرك : بنيتُه أو لم أَبْنِه ، أمَّا حين تقول : أبنيتَ هذا البيت ؟ فالسؤال ليس عن البناء ، إنما عن فاعله ، أنت أم غيرك ؟ لأن البناء قائم أمامك .

إذن : فَرْقٌ بين السؤال عن الحَدث ، والسؤال عن فاعل الحدث ، والضلال هنا موجود فعلاً ، فالسؤال عن الفاعل ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) ﴾ [الفرقان]

وسمَّاهم عباداً هنا مع أنهم ضالون ؛ لأن الكلام في الآخرة ، حيث لم يَعُدْ لأحد اختيار ، الاختيار كان في الدنيا وعليه ميَّزنا بين العبيد والعباد ، أما في الآخرة فالجميع عبيد والجميع عباد ، فقد زال ما يُميِّزهم ؛ لأنهم جميعاً مقهورون لا اختيارَ لأحد منهم .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) ﴾

(١) المشي هوناً : بالسكينة والوقار . قاله عكرمة ومجاهد فيما نقله عنهما ابن منظور في [لسان العرب ـ مادة : هون] .

كلمة (سبحان) أى : تنزيهاً لله تعالى فى ذاته عن مشابهة الذوات ، وتنزيهاً لله تعالى فى صفاته وأفعاله عن مشابهة الصفات والأفعال ، فللّه سَمْع ولك سمع ، ولله وجود ولك وجود ، ولله حياة ولك حياة ، لكن أحياتك كحياة الله ؟ الله جبار وأنت قد تكون جباراً ، الله غني وأنت قد تكون غنياً ، فهل غِنَاك كغِنَى الله ؟ ولله تعالى فِعْل ولك فعل ، فهل فعْلك كفعْل الله ؟

إذن : هناك فَرْق بين الصفات الذاتية والصفات الموهوبة التى يقبضها واهبها إنْ شاء .

وقد تُقال سبحان الله ويُقصَد بها التعجب ، فحين تسمع كلاماً عجيباً تقول : سبحان الله يعنى : أنا أنزه أن يكون هذا الكلام حدث .

لذلك يقولون هنا : ﴿ سُبْحَانَكَ .. ⦗١٨⦘ ﴾ [الفرقان] يعنى : عجيبة أننا نضل ، كيف ونحن نعبدك نجعل الآخرين يعبدوننا ، والمعنى : أن هذا لا يصح منَّا ، كيف ونحن ندعو الناس إلى عبادتك ، وليس من المعقول أننا ندعوهم إلى عبادتك ونتحوّل نحن لكى يعبدونا : ﴿ سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ .. ⦗١٨⦘ ﴾ [الفرقان]

فأنت وليُّنا الذى نتقرّب إليه ، وقد بعثْتنا لمهمة من المهمات ، ولابُدَّ أن صواب اختيارك لنا يمنعنا أن نفعل هذا ، وإلا ما كُنا أمناء على هذه المهمة . فسبحانك : تنزيهاً لك أن تختار مَنْ ليس جديراً بالمهمة ، فيأخذ الأمر منك لنفسه .

ومعنى : ﴿ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا .. ⦗١٨⦘ ﴾ [الفرقان] نفى الانبغاء ، نقول : ما ينبغى لفلان أن يفعل كذا ، كما قال تعالى فى حق رسوله ﷺ : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ .. ⦗٦٩⦘ ﴾ [يس] والشعر ملكَة وموهبة بيان أدائية ، وكان العرب يتفاضلون بهذه الموهبة ، وإنْ

نبغ فيهم شاعر افتخروا به ورفع من شأنهم ، ولقد توفرت لرسول الله هذه الملَكة .

ولو كان ﷺ شاعراً لكان شاعراً مُبْدعاً ، لكنه ﷺ ما ينبغي له ذلك ؛ لأن الشعر مبنيٌ على التخيُّل ؛ لذلك أبعده الله عن الشعر حتى لا يظن القوم أن ما يأتي به محمد من القرآن تخيلات شاعر ، فلم تكُنْ طبيعة رسول الله جامدة لا تصلح للشعر ، إنما كان ﷺ ذا إحساس مُرْهَفٍ ، ولو قُدِّر له أنْ يكون شاعراً لكان عظيماً .

وقد قال الحق سبحانه وتعالى عن الشعراء :

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) ﴾ [الشعراء]

وقالوا عن الشعر : أعْذبه أكذبُه ، لذلك لم يدخل رسول الله طِوَال حياته هذا المجال .

إذن : فقولهم ﴿ سُبْحَانَكَ .. (١٨) ﴾ [الفرقان] ردٌّ على ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلاءِ .. (١٧) ﴾ [الفرقان] ثم يذكر الدليل على ﴿ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) ﴾ [الفرقان] في قوله : ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) ﴾ [الفرقان] فلما متَّعتهم يا ربِّ أترفهم النعيم ، وشغلتْهم النعمة عن المنعِم ، فانحرفوا عن الجادَّة .

والآية تنبه المؤمن ألاّ يأسَى على نعيم فاته ، فربما فتنك هذا النعيم وصرفك عن المنعِم عزَّ وجل ، فمن الخير ـ إذن ـ أنْ يمنعه الله عنك ؛ لأنك لا تضمن نفسك حال النعمة .

وقوله تعالى :﴿ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ .. (١٨) ﴾ [الفرقان] أي : نسُوا المُنْعِم ، وحَقُّ النعمة ألاَّ تُنَسي المنعم ؛ لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن

الصحيح إنْ كان فى نعمة العافية من المنعم سبحانه ، فالمريض الذى حُرِم منها ليس فى نعمة المنعِم ، إنما فى صحبته ومعيته .

ومن هنا لما مرض أحد العارفين بالله كان يغضب إذا دُعِى له بالشفاء ، ويقول لعائده : لا تقطع عليَّ أُنْسى بربى .

وجاء فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، مرضتُ فلم تَعُدْنى ، قال : وكيف أعودُكَ وأنت ربُّ العالمين ، قال : أما علمتَ أن عبدى فلاناً مرض فلم تَعُدْهُ ، أما إنك لو عُدته لوجدتنى عنده »(١)

إذن : حينما يعلم المريض أنه فى معية الله يستحى أن يجزع

ومعنى ﴿ قَوْماً بُوراً (١٨) ﴾ [الفرقان] البُور : الهلاك ، ومنه أرض بُور ، وهى التى لا تُنبت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) ﴾

بعد أن سألهم الحق ـ تبارك وتعالى ـ وهو أعلم بهم : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰؤُلاءِ .. (١٧) ﴾ [الفرقان] وأجابوا : ﴿ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) ﴾ [الفرقان] وقد هزَّهم هذا السؤال هزَّة عنيفة أراد سبحانه أنْ يُبرئهم فقال ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ .. (١٩) ﴾ [الفرقان] يعنى : أنا أعرف أنكم قلتم الحق ، لكنهم كذَّبوكم بما تقولون ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا .. (١٩) ﴾ [الفرقان]

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٦٩) كتاب البر والصلة ـ من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فالتفت إليهم . والصرف : أن تدفع بذاتك عن ذاتك الشر إنْ تعرّض به أحد لك ، والنصر : إذا لم تستطع أنت أنْ تدفع عن نفسك فيأتى مَنْ يدفع عنك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) ﴾ [الفرقان] وقد يسأل سائل : لماذا يخاطب الحق سبحانه أولياءه بهذا العنف ؟ قالوا : فى الواقع ليس هذا العنف نَهْراً لأولياء الله ، إنما زجر ولَفْتُ نظر للآخرين ، فإذا كان الحق سبحانه يخاطب أهل طاعته بهذا العنف ، فما بالك بأعدائه والخارجين على منهجه ؟

إنهم حين يسمعون هذا الخطاب لا بُدَّ أن يقولوا : مع أن الله اصطفاهم وقرّبهم لم يمنعه ذلك أنْ يُوجِّههم إلى الحق وينهرهم .

ألم يقل سبحانه عن حبيبه ونبيه محمد ﷺ : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[1] (٤٦) ﴾ [الحاقة] فالحق - تبارك وتعالى - يتحدث عن نبيه بهذه الطريقة ليخيف الآخرين ويرهبهم .

والظلم : أخْذُ حقِّ الغير ، وما دام أن الله تعالى حرَّم ذلك ، فهذا يعنى أن الله يريد أنْ يتمتع كل واحد بثمرة مجهوده ؛ لأن أمور الحياة لا تستقيم إنْ أخذ الإنسان ثمرةَ غيره ، وتعوَّد أن يعيش على دماء الآخرين وعَرقهم ؛ لذلك نرى فى المجتمع بعض المجرمين والمنحرفين (الفاقدين) الذين يعيشون على عَرق الآخرين وهم لا يعرقون .

---

(١) الوتين : عِرْق فى القلب إذا قُطع مات صاحبه وهو الشريان الرئيسى الهام الذى يغذى الجسم بالدم النقى الخارج من القلب . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) ﴾ [الحاقة] أى : أمتناه عاجلاً وأهلكناه سريعاً إذا خالف أمرنا أى مخالفة . [القاموس القويم ٢ / ٣١٩] .

وحين يُؤخَذ الحق من صاحبه ، ثم لا يجد مَنْ ينصفه ، ويعيد له حقه المسلوب يميل إلى الكسل ويزهَد فى العمل وبذْل المجهود ، ومعلوم أن العمل لا تعود ثمرته على صاحبه فحسب ، وإنما على الآخرين حيث يُيسِّر للناس مصالحهم ، ويُسهِم بحركته فى حركة المجتمع .

وسبق أن قلنا : إن الفرْق بين المؤمن وغيره فى العمل أن الكافر يعمل لنفسه ، أمّا المؤمن فيعمل لما يكفيه ، ويجهد ليساعد الآخرين ؛ لذلك عليك أن تعمل على قَدْر طاقتك لا على قَدْر حاجتك ، فحاجتك تتوفر لك مما أتيته بطاقتك ، ثم يكون الباقى عندك لمن لا يقدر على العمل وليس لديه طاقة .

والمعركة التى تدور بين الكفار والمؤمنين وعلى رأسهم الرسل ، اللهُ تعالى يفصل فيها ، يقول : لا يستطيع أحد من خَلْقى أن يظلمنى ، لأن المظلوم فيه نقطة ضعف ، والظالم فيه نقطة قوة ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ **وَمَا ظَلَمُونَا ..** (٥٧) ﴾ [البقرة] أى : لا يقدر أحد على ذلك ﴿ **وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** (٥٧) ﴾ [البقرة] ، فظُلْمهم لأنفسهم ، لا للمؤمنين .

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يغَارُ على عبده أن يظلم نفسه ؛ لأن للإنسان ملكات متعددة : ملكة الاشتهاء العاجل وملكة التأنِّى الآجل . فالتلميذ المجتهد اختار الراحة الآجلة ، والكسول اختار الراحة العاجلة ، فكلاهما مُحبٌّ لنفسه يسعى إلى راحتها ، لكن فَرْق بين حُبٍّ واعٍ ، وحُبٍّ أحمق ، فالأول يتحمل المشاق لينال فى نهاية الأمر أعلى المراتب ، والآخر تستهويه الراحة العاجلة ، وسرعان ما يجد نفسه صُعْلوكاً فى المجتمع ، فمتعة الأول أبقى وأطول ، ومتعة الآخر سريعة منتهية .

هذه قاعدة عامة تُقال فى عمل الدنيا ، وتُقال فى عمل الآخرة ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ خلق الإنسان ويحب منه ألاَّ تظلم ملكَة فى النفس ملكةً أخرى ، وألا تظلم ملكة العجلة ملكة التأنِّى ؛ لأن ملكة العجلة تأخذ خيراً عاجلاً منتهياً ، أما ملكة التأنى فتنال الخير الآجل الباقى غير المنتهى .

إذن : فالله تعالى يريد لصنعته ، سواء المؤمن أو الكافر ألاّ يظلم نفسه ؛ لأن الله كرَّمه وخلق الكون كله لخدمته وسخَّره من أجله ؛ لذلك يقول له : إنك لا تستطيع أن تظلمنى ولا تظلم المؤمنين ، إنما تظلم نفسك ، فربٌّ يعاقب الإنسان على أنه ظلم نفسه فهو نِعْم الربّ .

لذلك جاء فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، أنا لك مُحبٌّ ـ بدليل أننى أعاقبك إذا ظلمتَ نفسك ـ فبحقِّى عليك كُنْ لى مُحباً »[(1)] .

وحين يُضخِّم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ العقوبة : ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ⦗١٩⦘ ﴾ [الفرقان] إنما ليُنفِّر عباده منها ، ويبتعد بهم عن أسبابها ، فلا تقع .

وكثيراً ما يعترض أعداء الإسلام على قوله تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ.. ⦗٢٥٦⦘ ﴾ [البقرة] يقولون : فلماذا تقتلون مَنْ يرتدّ عن الإسلام ؟ وهؤلاء لا يَدْرُون أن هذا الحكم نضعه عقبةً فى طريق كل مَنْ يريد الإيمان ، وتنبيه له حتى يفكر جيداً فيما هو مُقبل عليه إن اختار الإسلام ، فلا يدخله إلا بعد رضاً واقتناع تام ، وحين يعلم هذا الحكم يحتاطُ للأمر فيدخل عليه بمَحْض اختياره وتعقّله .

فالإسلام لا يريد كثرة مُتسرِّعة ، إنما يريد ترويًا وتعقّلاً وتدبراً ،

---

(١) أورده الإمام أبو حامد الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٤/٢٩٦) قال : « فى بعض الكتب : عبدى أنا وحقِّك لك محب ، فبحقى عليك كن لى محباً » .

وهذا يُحسب للإسلام لا عليه ، فهو سلعة غالية يثق صاحبها فى جَوْدتها ، كما تذهب إلى تاجر القماش مثلاً ، فيعرض عليك بضاعته ويُظهر لك جودتها ويختبرها أمامك ، لماذا ؟ لأنه واثق من جودة بضاعته .

ومن ذلك ما خُتِمَتْ به كثير من آيات الذكر الحكيم مثل : تفكَّرون ، تعقلون ، تذكَّرون . وهذا دليل على أنك لو تعقلتَ ، لو تدبرتَ ، لو تذكرتَ لاهتديت إلى ما جاء به القرآن .

إذن : فقوله تعالى : ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩)﴾ [الفرقان] كان الذى يؤخذ على القرآن ، أو على الحق سبحانه أن الظالم حين يظلم هو يُعاقب لنفسه حيث أُخذ منه شىء ، لكن الحق سبحانه ما أُخذ منه شىء ، إنما هو سبحانه بصفات الكمال فيه سبحانه خلقكم ، فما ظلمتم إلا أنفسكم .

ثم يقول الحق سبحانه عن رسله وأنبيائه :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠)﴾

سبق أن تكلمنا فى قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا مَا لِهَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ .. (٧)﴾[الفرقان] وهذه صفة كل الرسل ، وليس محمد بدْعاً فى ذلك ، وإذا كان أكْل الطعام يقدح فى كونه ﷺ رسولاً ، وكانوا يريدون رسولاً لا يأكل الطعام ، فنقول : بالله إذا كان أكْل الطعام منعه عندكم أن يكون رسولاً ، فكيف تقولون لمن أكل

الطعام أنه إله ؟ كيف وأنتم ما رضيتم به رسولاً ؟

وقد جعل الحق ـ تبارك وتعالى ـ الرسل يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ؛ لأن الرسول يجب أن يكون قدوة وأسْوة فى كل شىء للخَلْق ، ولذلك كان رسول الله على أقلِّ حالات الكون المادية من ناحية أمور الدنيا من أكْل وشُرْب ولباس ، ذلك ليكون أُسْوة للناس ، وكذلك نجده ﷺ حريصاً على أن يكون أهل بيته مثله ، لذلك لم يجعل لهم نصيباً فى الزكاة التى يأخذها أمثالهم من الفقراء .

ويقول ﷺ : « إنَّا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة »(١) .

ومَنْ كان عليه دَيْن من المسلمين تحمّله عنه رسول الله ، وهذا كله إنْ دلَّ فإنما يدل على أنه ﷺ واثق من جزاء أُخْراه ، فلا يُحبّ أن يناله منه شىء فى الدنيا .

لذلك قُلْنا : لو نظرتَ فى مبادىء الحق ومبادىء الباطل أمامك فى الدنيا لوجدتَ أن مبدأ الباطل يدفع ثمنه أولاً ، فمثلاً لكى تكون شيوعياً لا بُدَّ أن تأخذ الثمن أولاً ، أما مبدأ الحق فأنت تدفع الثمن مُقدّماً : تتعب وتُظلم وتُعذَّب وتجوع وتتشرد ، وتخرج من أهلك ومن مالك ، ثم تنتظر الجزاء فى الآخرة . وبهذا المقياس تستطيع أنْ تُفرِّق بين الحق والباطل .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ .. (٢٠) ﴾ [الفرقان] أى : يرتادونها لقضاء مصالحهم وشراء حاجياتهم ، دليلٌ على تواضعهم وعدم تكبُّرهم على مثل هذه الأعمال ؛ لذلك كان سيدنا رسول الله

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٤٦٣) بلفظ : « إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركت بعد مؤنة عاملى ونفقة نسائى صدقة » من حديث أبى هريرة . وأخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٣٣) كتاب المغازى من حديث عمر بن الخطاب ، وكذا مسلم فى صحيحه ـ كتاب الجهاد .

يحمل حاجته بنفسه ، فإنْ عرض عليه أحدُ صحابته أنْ يحملها عنه يقول ﷺ : « صاحب الشيء أحقُّ بحمله »[1] .

ومعنى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ .. ⦃٢٠⦄ ﴾ [الفرقان] فأيّ بعض فتنة لأيّ بعض ؟ كما فى قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. ⦃٣٢⦄ ﴾ [الزخرف] أيٌّ بعض مرفوع ، وأيّ بعض مرفوع عليه ؟

نلاحظ فى مثل هذه المسائل أن الناس لا تنظر إلا إلى زاوية واحدة : أن هذا غنيٌّ وهذا فقير ، لكنهم لو أخذوا فى المفاضلة بكل جوانب النفس الإنسانية لوجدوا أن فى كل إنسان موهبةً خَصّه الله بها ، فكلٌّ منّا عنده مَيْزةٌ ليست عند أخيه ؛ ذلك ليتكاتف الناس ويتكامل الخَلْق ؛ لأن العالم لو كان نسخة واحدة مكررة ما احتاجَ أحدٌ لأحد ، وما سأل أحد عن أحد ، أمّا حين تتعدد المواهب فيكون عندك ما ليس عندى ، فيترابط المجتمع ترابط الحاجة لا ترابط التفضل .

ولو تصورنا الناس جميعاً تخرجوا فى الجامعة وأصبحوا (دكاترة) فمَنْ يكنس الشارع ؟ ساعتها سيتطوع أحدنا يوماً لهذه المهمة ، إذن : تصبح الحاجة بنت تطوُّع وتفضُّل ، والتفضُّل لا يُلزِم أحداً بعمل ، فقد تتعطل المصالح . أمّا حين تدعوك الحاجة فأنت الذى تُسرع إلى العمل وتبحث عنه .

ألاَ ترى أصحاب المهن الشاقة يخرجون فى الصباح يبحثون عن

---

(١) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥/١٢٢) من حديث أبى هريرة وقال : « رواه أبو يعلى والطبرانى فى الأوسط وفيه يوسف بن زياد البصرى وهو ضعيف » . قال العجلونى فى كشف الخفاء (٢/٢٥) : « ذكره القاضى عياض فى الشفاء بدون عَزْو وهو ضعيف ، بل بالغ ابن الجوزى فعدّه فى الموضوعات » وخطّأه الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٥٣) .

عمل ، ويغضب الواحد منهم إذا لم يجد فرصة عمل فى يومه مع ما سيتحمله من آلام ومشاق ، لماذا ؟ إنها الحاجة .

فالعامل الذى يعمل فى المجارى مثلاً ويتحمَّل أذاها هو فى قدرته على نفسه ورضاه بقدَر الله فيه أفضل منِّى أنا فى هذه المسألة ، لأننى لا أقدر على هذا العمل وهو يقدر ، ولو ترك الله مثل هذه الأعمال للتفضّل ما أقدم عليها أحد ، إذن : التسخيرات من الحق سبحانه وتعالى لحكمة .

ومثل هذه الأعمال الشاقة أو التى تؤذى العامل يعدُّها البعض أعمالاً حقيرة ، وهذا خطأ ، فأىُّ عمل يُصلح المجتمع لا يُعَدُّ حقيراً ، فلا يوجد عمل حقير أبداً ، وإنما يوجد عامل حقير .

فمعنى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفرقان] كل بعض منا فتنة للآخر ، فالغنىُّ فتنةٌ للفقير ، والفقير فتنة للغنى .. إلخ فحين يتعالى الغنى على الفقير ويستذلّه فالفقير هنا فتنة للغنى ، وحين يحقد الفقير على الغنى ويحسده ، فالغنىّ هنا فتنة للفقير ، وهكذا الصحيح فتنة للمريض ، والرسل فتنة لمن كذّبوهم ، والكفار فتنة للرسل .

والناس يفرون من الفتنة فى ذاتها ، وهذا لا يصح ؛ لأن الفتنة تعنى الاختبار ، فالذى ينبغى أن نفر منه نتيجة الفتنة ، لا الفتنة ذاتها ، فالامتحان فتنة للطلاب ، مَنْ ينجح فالفتنة له خَيْر ومَنْ يخفق فالفتنة فى حَقِّه شَرٌّ . إذن : الفتنة فى ذاتها غير مذمومة .

لذلك تُؤخَذ الفتنة من فتنة الذهب حين يُصْهر ، ومعلوم أن الذهَب أفضل المعادن ، وإنْ وُجد ما هو أنفس منه ، لماذا ؟ لأن من مَيْزاته أنه لا يتأكسد ولا يتفاعل مع غيره ، وهو كذلك سهل السَّبْك ؛ لذلك

يقولون : المعدن النفيس كالأخيار بَطِيءٌ كَسْره ، سريع جَبْره . فمثلاً حين يتكسر الذهب يسهل إعادته وتصنيعه على خلاف الزجاج مثلاً .

إذن : الفتنة اختبار ، الماهر مَنْ يفوز فيه ، فإنْ كان غنياً كان شاكراً مُؤدِّياً لحقِّ الغنى مُتواضعاً يبحث عن الفقراء ويعطف عليهم ، والفقير هو العاجز عن الكسب ، لا الفقير الذى احترف البلطجة وأكْل أموال الناس بالباطل .

ولما كانت الفتنة تقتضى صَبْراً من المفتون ، قال سبحانه : ﴿ أَتَصْبِرُونَ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفرقان] فكل فتنة تحتاج إلى صبر ، فهل تصبرون عليها ؟

ولأهمية الصبر يقول تعالى فى سورة العصر : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ ﴾ [العصر] يعنى : مُطلَق الإنسان فى خُسْر لا ينجيه منه إلاّ أنْ يتصف بهذه الصفات : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر]

وتُختم الآية بقوله سبحانه : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفرقان] لينبهنا الحق سبحانه أن كل حركة من حركاتكم فى الفتنة مُبْصَرة لنا ، وبصرنا للأعمال ليس لمجرد العلم ، إنما لنُرتِّب على الأعمال جزاءً على وَفْقها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٢١﴾ ﴾

واللقاء : يعنى البعث ، وقد آمنا بالله غَيْباً ، وفى الآخرة نؤمن به تعالى مَشْهداً ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ .. (١٦)﴾ [غافر] حتى مَنْ لم يؤمن فى الدنيا سيؤمن فى الآخرة .

لذلك يقول سبحانه في موضع آخر : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور]

ويا ليته جاء فلم يجد عمله ، المصيبة أنه وجد عمله كاملاً ، ووجد الله تعالى يحاسبه ويُجازيه ، ولم يكن هذا كله على باله فى الدنيا ؛ لذلك يُفَاجأ به الآن .

وقوله : ﴿لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا .. (٢١)﴾ [الفرقان] يعنى : لا ينتظرونه ولا يؤمنون به ؛ لذلك لم يستعدوا له ، لماذا ؟ لأنهم آثروا عافية العاجلة على عافية الآجلة ، ورأوْا أمامهم شهواتٍ ومُتَعاً لم يصبروا عليها ، وغفلوا عن الغاية الأخيرة .

ما هو اللقاء ؟ اللقاء يعنى الوَصْل والمقابلة ، لكن كيف يتم الوَصْل والمقابلة بين الحق ـ تبارك وتعالى ـ وبين الخَلْق ـ وهذه من المسائل التى كَثُر فيها الجدال ، وحدثت فيها ضجّة شككتْ المسلمين فى كثير من القضايا .

قالوا : اللقاء يقتضى أن يكون الله تعالى مُجسّماً وهذا ممنوع ، وقال آخرون : ليس بالضرورة أن يكون اللقاء وَصْلاً ، فقد يكون مجردَ الرؤية ؛ لأن رؤية العَيْن للرب ليست لقاء ، وهذا قول أهل السنة .

أما المعتزلة فقد نفَوْا حتى الرؤية ، فقال : لا يلقونه وَصْلاً ولا

رؤية ، لأن الرائى يحدد المرئى ، وهذا مُحَال على الله عز وجل .

ونقول للمعتزلة : أنتم تأخذون المسائل بالنسبة لله ، كما تأخذونها بالنسبة لمخلوقات الله ، لماذا لا تأخذون كل شيء بالنسبة لله تعالى فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى] فإذا كان لكم ببعض لقاء يقتضى الوَصْل ، فلله تعالى لقاء لا يقتضى الوصل ، وإذا كانت الرؤية تحدد فلله تعالى رؤية لا تحدد . إن لك سَمْعاً ولله سمع ، أسمعُك كسمع الله عز وجل ؟ إذن : لماذا تريد أن يكون لقاء الله كلقائك يقتضى تجسُّداً ، أو رؤيته كرؤيتك ؟

لذلك فى قصة رؤية موسى عليه السلام لربه عز وجل ، ماذا قال موسى ؟ قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] فطلب من ربه أن يُريه لأنه لا يستطيع ذلك بذاته ، ولا يصلح لهذه الرؤية ، إلا أن يُريه الله ويطلعه ، فالمسألة ليست من جهة المرئىّ ، إنما من جهة الرائى . لكن هل قرَّعه الله على طلبه هذا وقال عنه : استكبر وعتا عُتُواً كبيراً كما قال هنا ؟ لا إنما قال له : ﴿ لَن تَرَانِى .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] ولم يقُلْ سبحانه : لن أُرَى ، وفرْق بين العبارتين .

فقوله : ﴿ لَن تَرَانِى .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] المنع هنا ليس من المرئىّ بل المنع من الرائى ؛ لذلك أعطاه ربه عز وجل الدليل : ﴿ وَلَـٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] يعنى : أأنت أقوى أم الجبل؟ ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف]

ولاحظ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] كلمة تجلى أى : أن الله تعالى يتجلى على بعض خَلْقه ، لكن أيصبرون على هذا التجلى ؟ وليس الجبل أكرم عند الله من الإنسان الذى سخَّر اللهُ له الجبل وكلّ شيء فى الوجود .

إذن : فالإنسان هو الأكرم ، لكن تكوينه وطبيعته لا تصلح لهذه الرؤية ، وليس لديه الاستعداد لتلقّى الأنوار الإلهية ؛ ذلك لأن الله تعالى خلقه للأرض . أما فى الآخرة فالأمر مختلف ؛ لذلك سيُعدِّل الله هذا الخلق بحيث تتغير حقائقه ويمكنه أن يرى ، وإذا كان موسى - عليه السلام - قد صُعق لرؤية المتجلَّى عليه وهو الجبل ، فكيف به إذا رأى المتجلِّى عز وجل ؟

لذلك ، كان من نعمة الله تعالى على عباده فى الآخرة : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

وقال عن الكفار : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ﴾ [المطففين] إذن : ما يُميِّز المؤمنين عن الكافرين أنهم لا يُحجبون عن رؤية ربهم عز وجل بعد أنْ تغيَّر تكوينهم الأخْروى ، فأصبحوا قادرين على رؤية ما لم يَرَوْه فى الدنيا . وإذا كان البشر الآن بتقدّم العلم يصنعون لضعاف البصر ما يُزيد من بصرهم ورؤيتهم ، فلماذا نستبعد هذا بالنسبة لله تعالى ؟

لذلك ، تجد المسرفين على أنفسهم يُجادلونك بما يريحهم ، فتراهم يُنكرون البعث ، ويُبعدون هذه الفكرة عن أنفسهم ؛ لأنهم يعلمون سوء عاقبتهم إنْ أيقنُوا بالبعث واعترفوا به .

ومن المسرفين على أنفسهم حتى مؤمنون بإله ، يقول أحدهم : ما دام أن الله تعالى قدَّر علىَّ المعصية ، فلماذا يُحاسبنى عليها ؟ ونعجب لأنهم لم يذكروا المقابل ولم يقولوا : ما دام قد قدَّر علينا الطاعة ، فلماذا يثيبنا عليها ؟ إذن : لم يقفوا الوقفة العقلية السليمة ؛ لأن الأولى ستجرُّ عليهم الشر فذكروها ، أما الأخرى فخير يُساق إليهم ؛ لذلك غفلوا عن ذكْرها .

وقولهم : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا .. (٢١) ﴾ [الفرقان]
وهذا يدلّ على تكبُّرهم واعتراضهم على كَوْن الرسول بَشَراً ، وفي موضع آخر قالوا : ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا .. (٦) ﴾ [التغابن]

إذن : كل ما يغيظهم أن يكون الرسول بشراً ، وهذا الاستدراك يدلُّ على غبائهم ، فلو جاء الرسول ملكاً ما صَحَّ أن يكون لهم قدوة ، وما جاء الرسول إلا ليكون قُدْوةً ومُعلِّماً للمنهج وأُسْوة سلوك ، ولو جاء ملكاً لأمكنه نعم أنْ يُعلِّمنا منهج الله ، لكن لا يصح أنْ يكون لنا أُسْوة سلوك ، فلو أمرك بشيء وهو ملَك لكان لك أنْ تعترض عليه تقول : أنت ملَكٌ تقدر على ذلك ، أمَّا أنا فبشر لا أقدر عليه .

فالحق سبحانه يقول : لاحظوا أن للرسل مهمتين : مهمةَ البلاغ ، ومهمة الأُسْوة السلوكية ، فلو أنهم كانوا من غير طبيعة البشر لتأتَّى لهم البلاغ ، لكن لا يتأتى لهم أن يكونوا قُدْوة ونموذجاً يُحتذى .

ولو جاء الرسول ملَكاً على حقيقته ما رأيتموه ، ولاحتجتم له على صورة بشرية ، وساعتها لن تعرفوا أهو ملَك أم بشر ، إذن ، لا بُدَّ أن تعود المسألة إلى أن يكون بشراً ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام]

ومسألة نزول الملائكة مع الرسول من الاقتراحات التى اقترحها الكفار على رسول الله ليطلبها من ربه ، وهذا يعنى أنهم يريدون دليلَ تصديق على نبوة محمد ﷺ ، وسبق أنْ جاءهم رسول الله بمعجزة من جنس ما نبغُوا فيه وعجزوا أنْ يُجَاروه فيها ، ليثبت أن ذلك جاء من عند ربهم القوى ، ومعنى هذه المعجزة أنها تقوم مقام قوله : صدق عبدى فى كل ما يُبلِّغ عنى . وما دامت المعجزة قد جاءتْ بتصديق الرسول ، فهل هناك معجزة أَوْلَى من معجزة ؟

لقد كانت معجزة القرآن كافيةً لتقوم دليلاً على صدْق الرسول فى البلاغ عن الله ، وأيضاً جاءكم بغيبيّات لا يمكن أن يطلع عليها إنسان ، لا فى القديم الذى حدث قبل أنْ يُولَد ، ولا فى الحديث الذى سيكون بعد أنْ يُولد .

إذن : فدليل صدق الرسول قائم ، فما الذى دعاكم إلى اقتراح معجزات أخرى ؟

وقولهم : ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا .. (٢١)﴾ [الفرقان] والله ، لو كان إله يُرَى لكم ما صَحَّ أن يكون إلهاً ؛ لأن المرئى مُحَاطٌ بحدقة الرائى ، وما دام أحاط به فهو ـ إذن ـ محدود ، ومحدوديته تنافى ألوهيته .

وإلاَّ فالمعانى التى تختلج بها النفس الإنسانية مثل الحق والعدل الذى يتحدث عنه الناس وينشدونه ويتعصَّبون له ، ويتهافتون عليه لحلِّ مشاكلهم وتيسير حياتهم : أتدرك هذه المعانى وأمثالها بالحواس ؟ كيف تطلب أن تدرك خالقها عز وجل بالحواسّ ؟

لذلك يختم الحق سبحانه هذه المسألة بقوله : ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١)﴾ [الفرقان] استكبر وتكبَّر : حاول أن يجعل نفسه فوق قَدْره ، وكلٌّ إنسان منّا له قَدْر محدود .

ومن هنا جاء القول المأثور : « رَحِمَ الله امرءً عرف قدر نفسه » . فلماذا إذن يتكبّر الإنسان ؟ لو أنك إنسان سوىّ فإنك تسعد حين نمنع عنك مَنْ يسرقك ، أو ينظر إلى محارمك أو يعتدى عليك ، فلماذا تغضب حينما نمنعك عن مثل هذا ؟

النظرة العقلية أن تقارن بين مَا لك ومَا عليك ، لقد منعنا يدك ـ وهى واحدة ـ أنْ تسرق ، ومقابل ذلك منعنا عنك جميع أيدى الناس

أن تسـرق منك ، منعنا عينك أن تمـتد إلى مـحارم الآخـرين ، ومنعنا جميـع الأَعْيُن أنْ تمتدّ إلى مـحارمك ، فلماذا إذن تفرح لهـذه وتغضب من هذه ؟ كـان يـجب عليك أن تحكم بـنفس المنطق ، فـإنْ أحـببتَ ما كان لك وكرهتَ ما كان لغيرك فقد جانبتَ الصواب وخالفتَ العدالة .

ومن استكبارهم مواجهـتهم لرسول الله فى بداية دعوته وقولهم : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُـرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَـرْيَتَـيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ ﴾ [الزخـرف] إذن : القرآن لا غبارَ عليـه ، وهذا حكم واقعى منهم ؛ لأنهم أمة بلاغة وفصاحة ، والقرآن فى أَرْقَى مراتب الفـصاحة والبيان ، إنما الذى وقف فى حُلُوقهم أن يكون الرسـول رجلاً من عامة الناس ، يريدونه عظيماً فى نظرهم ، حتى إذا ما اتبعوه كان له حيثية تدعو إلى اتباعه .

إذن : الاسـتكبـار أن تسـتكبـر أن تكون تابعـاً لمنْ تراه دونك ، ونـحن ننكر هذا ؛ لأنك لم تَرَ مـحمـداً ﷺ قبل أن يقوم بالـرسالة أنه دونك ، بل كنت تضعه فى المكان الأعلى ، وتُسمِّـيه الصادق الأمين ، فمتى إذن جعلْتَه دونك ؟ إنها الهـبة التى وهبه الله ، إنها الرسـالة التى جعلتك تأخذ منه ما كنتَ تعطيه قبل أن يكون رسـولاً .

وهل سبق لكم أنْ سمعتم عن رسول جاء معه ربه عَزَّ وجَلَّ يقول لقومه : هذا رسولى ؟ وما دام أن الله تعالى سيواجهكم هذه المواجهة فلا داعىَ إذن للرسول ؛ لأن الله تعـالى سيخاطبكم بالتكليف مـباشرة وتنتهى المسألة . ومعلوم أن هذا الأمر لم يحدث ، فأنتم تطلبون شيئاً لم تسمعوا به ، وهذا دليل على تلكؤكم واسـتكباركم عن قبول الإيمان فجئتم بشىء مستحيل .

إذن : المـسألة من الكفـار تلكؤٌ وعناد واستكبـار عن قبـول الحق الواضـح ، وقد سـبق أن اقترحوا مـثل هذه الآيات والمعجـزات ، فلما

أجابهم الله كـذَّبوا ، مع أن الآيات والمعجـزات ليست باقتـراح المرسل إليهم ، إنما تفضُّل من الله تعالى واهب هذه الرسـالة .

والاستكبار مادته الكاف والبـاء والراء . وتأتى بمعان عدَّة : تقول كَبَـرَ يكْبَر أى : فى عمره وحـجمه ، وكَبُـر يكبُر أى : عَظُم فى ذاته ، ومنها قوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. ۝ ﴾ [الكهف]

وتكبَّر : أظهر صفة الـكبرياء للناس ، واستكبر : إذا لم يكُنْ عنده مؤهلات الكِبر ، ومع ذلك يطلب أن يكون كبيراً .

فالمعنى ﴿ اسْتَكْبَرُوا .. ۝ ﴾ [الفرقان] ليس فى حقيـقة تكوينهم إنما ﴿ اسْتَكْبَـرُوا فِي أَنفُسِـهِمْ .. ۝ ﴾ [الفـرقان] فى أنهم يتـبعُـون الرسول ، أى : أنها كبيرة عـليهم أن يكونوا تابعين لرجل يروْنَ غيره أغنى منه أو أحسن منه (على زعمهم) .

ونرى مثـلاً أحد الفتـوات الذى يخضـع له الجمـيع إذا ما رأى مَنْ هو أقوى منه انكمشَ أمامه وتواضع ؛ لأنه يستكبر بلا رصيد وبشـىء ليس ذاتيـاً فيه .. إذن : الـمتكبـر بلا رصيد غـافل عن كبـرياء ربه ، ولو استشـعر كبرياء الله عَزَّ وجَل لاستحَى أنْ يتكبّر .

لذلك نرى أهل الطاعـة والمعرفـة دائماً منكسـرين ، لماذا ؟ لأنهم دائماً مـستشعـرون كبرياءَ الله ، والإنسان (لا يتـفرعن) إلا إذا رأى الجـمـيع دونه ، وليس هناك مَنْ هو أكـبـر منه . فـينبـغى ألا يَتكبَّـر الإنسان إلا بشىء ذاتى فيه لا يُسلَب منه ، فإن استكبرت بغنَاك فربما افتقرتَ ، وإن استكبرتَ بقوتك فـرُبّما أصابك المرض ، وإن استكبرتَ بعلمك لا تأمنْ أن يُسلبَ منك لكى لا يعلم من بعد علم شيئاً .

ومن لُطْف الله بالـخَلْق ورحـمته بهم أنْ يكون له وحـده الكبرياء ،

وله وحده سبحانه التكبُّر والعظمة ، ويعلنها الحق تبارك وتعالى : « الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحداً منهما أدخلته جهنم »(١) .

والحق - تبارك وتعالى - لا يجعلها جبروتاً على خَلْقه ، إنما يجعلها لهم رحمة ؛ لأن الخَلْق منهم الأقوياء والفُتوات والأغنياء .. حين يعلمون أن الله تعالى الكبرياء المطلق يعرف كل منهم قدره (ويرعى مساوى) ، فالله هو المتكبر الوحيد ، ونحن جميعاً سواء .

لذلك يقول أهل الريف (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) وحين يكون فى البلد كبير يخاف منه الجميع لا يجرؤ أحد أنْ يعتدىَ على أحد فى وجوده ، إنما إنْ فُقد هذا الكبير فإن القوى يأكل الضعيف . إذن : فالكبرياء من صفات الجَلال لله تعالى أنْ جعلها الله لنفع الخَلْق .

ولو تصورنا التكبر ممَّنْ يملك مؤهلاته ، كأن يكون قوياً ، أو يكون غنياً .. إلخ فلا نتصور الكِبر من الضعيف أو من الفقير ؛ لذلك جاء فى الحديث : « أبغض ثلاثاً وبغضى لثلاث أشد ، أبغض الغنى المتكبر وبُغْضى للفقير المتكبر أشدّ ، وأبغض الفقير البخيل وبغضى للغنى البخيل أشدّ ، وأبغض الشاب العاصى وبغضى للشيخ العاصى أشد »(٢).

وقوله تعالى ﴿ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً (٢١) ﴾ [الفرقان] عتوا : بالغوا فى الظلم والتحدى وتجاوزوا الحدود ، وكأن هذا غير كافٍ فى وصفهم ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/٣٧٦ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢) وأبو داود فى سننه (٤٠٩٠) وابنَ ماجة فى سننه (٤١٧٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة ، يبغض الشيخ الزانى والفقير المختال والمكثر البخيل ، ويحب ثلاثة : رجل كان فى كتيبة فكمن حتى يحميهم حتى قتل أو فتح الله عليه ، ورجل كان فى قوم فادلجوا فنزلوا من آخر الليل .. » الحديث أخرجه أحمد فى مسنده ، وابن حبان . ذكره المتقى الهندى فى منتخب الكنز (٦/٣٨٧) .

فأكّد العُتُو بالمصدر (عتواً) ثم وصف المصدر أيضاً ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١)﴾ [الفرقان] لماذا كل هذه المبالغة في التعبير ؟ قالوا : لأنهم ما عَتَوْا بعضهم على بعض ، إنما يتعاتون على رسول الله ، بل وعلى الله عز وجل ؛ لذلك استحقُّوا هذا الوصف وهذه المبالغة .

والعاتي الذي بلغ في الظُّلم الحدَّ مثل الطاغوت الذي إنْ خاف الناس منه انتفش ، وتمادى وازداد قوة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨)﴾ [مريم] ومعلوم أن الكِبَر ضعف ، كما قال سبحانه : ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً .. (٥٤)﴾ [الروم] فكيف - إذن - يصف الكبر بأنه عَات ؟ قالوا : العاتي هو القوى الجبار الذى لا يقدر أحد على صَدِّه أو رَفْع رأسه أمامه ، وكذلك الكِبَر على ضَعْفه ، إلا أنه لا توجد قوة تطغى عليه فتمنعه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢)﴾

يتحدث الحق - تبارك وتعالى - عن هؤلاء الذين اقترحوا على رسول الله الآيات وطلبوا أن تنزل معه الملائكة فيرونها ، وتشهد لهم بصدقه ﷺ ، فيقول لهم سبحانه : أنتم تشتهون أنْ تروْا الملائكة ، فسوف ترونْها لكن في موقف آخر ، ليس موقف البُشْريات والخيرات ، إنما في موقف الخزي والندامة والعذاب :

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ .. (٢٢)﴾ [الفرقان]

فسوف ترونهم رؤيا الفزع والخوف عندما يأتون لقبْض أرواحكم ، أو ستروْنَهم يوم القيامة يوم يُبشِّرونكم بالعذاب .

يوم يستقبلون المؤمنين : ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (١٢) ﴾ [الحديد] فيستشرف الكفار لسماع هذه الكلمة لكن هيهات ﴿ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ .. (٢٢) ﴾ [الفرقان] فيمنعون عنهم هذه الكلمة المحبَّبة التى ينتظرونها ، ويقابلونهم بكلمة أخرى تناسبهم .

يقولون لهم : ﴿ حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢) ﴾ [الفرقان] والحِجْر : المنع ، ومنه : نحجر على فلان يعنى : نمنعه من التصرُّف . وقديماً كانوا يقولون فى دفع الشر : حِجْراً محجوراً يعنى : منعاً ، ومثل ذلك ما نسمعهم يقولون إذا ذُكِر الجن : حابس حابس يعنى : ابتعد عنى لا تقربنى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾

حين تنظر فى غير المؤمنين تجد من بينهم أهلاً للخير وعمل المعروف ، ومنهم أصحاب ملَكات طيِّبة ، كالذين اجتمعوا فى حلف الفضول لنصْرة المظلوم ، وكأهل الكرم وإطعام الطعام ، ومنهم مَنْ كانت له قدْر عظيمة استظلّ رسول الله فى ظلها يوم حر قائظ ، وهذا يعنى أنها كانت كبيرة واسعة منصوبة وثابتة كالبناء ، كان يُطْعم منها الفقراء والمساكين ، وحتى الطير والوحوش ، وما زِلْنا حتى الآن

نضرب المثل فى الكرم بحاتم الطائى . وكان منهم مَنْ يصل الرحم ويغيث الملهوف .. الخ .

لكن هؤلاء وأمثالهم عملوا لجاه الدنيا ، ولم يكُنْ فى بالهم إله يبتغون مرضاته ، والعامل يأخذ أجْره ممَّنْ عمل له ، كما جاء فى الحديث القدسى : « فعلت ليقال ، وقد قيل »(١) .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يُوضِّح هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

وقال تعالى أيضاً : ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ .. (١٨) ﴾ [إبراهيم]

فقد عمل هؤلاء أعمالَ خير كثيرة ، لكن لم يكُنْ فى بالهم الله ، إنما عملوا للإنسانية وللشهرة وليُقال عنهم ؛ لذلك نراهم فى رفاهية من العيش وسَعة مُمتَّعين بألوان النعيم ، لماذا ؟ لأنهم أخذوا الأسباب المخلوقة لله تعالى ، ونفّذوها بدقة ، والله ـ تبارك وتعالى ـ لا يحرم عبده ثمرةَ مجهوده ، وإنْ كان كافراً ، فإنْ ترك العبدُ الأسبابَ وتكاسل حرَمه الله وإنْ كان مؤمناً . وفَرْق بين عطاءات الربوبية التى تشمل المؤمن والكافر والطائع والعاصى ، وبين عطاءات الألوهية .

فمن الكفار مَنْ أحسن الأَخْذ بالأسباب ، فاخترعوا أشياء نفعتْ الإنسانية ، وأدوية عالجتْ كثيراً من الأمراض . ولا بُدَّ أن يكون لهم

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/٣٢٢) ، ومسلم فى صحيحه (١٩٠٥) والنسائى فى سننه (٦/٢٣ ، ٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يُقال جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقى فى النار » الحديث بطوله .

جـزاء على هذا الخـيـر ، وجزاؤهم أخـذوه فى الدنيـا ذكْـراً وتكريمـاً وتخليداً لذكْراهم ، وصُنعت لهم التماثيل وأُعْطوا النياشين ، وأُلِّفتْ فى سيـرتهم الكتب ، كأن الله تعـالى لم يجحدهم عـملهم ، ولم يبخـسـهم حقهم .

ألاَ ترى أن أبا لهب الذى وقف من رسول الله مـوقفَ العداء حتى نزل فيه قـوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) ﴾ [المسد] ومع ذلك يُخفِّف الله عنه العـذاب ؛ لأنه أعتقَ جاريته ثويبة حينما بشَّرته بميـلاد محمد بن عبد الله ؛ لأنه فرح بهذه البُشْرى وأسعده هذا الخبر[1] .

ومن العجيب أن هـؤلاء يقفون عند صناعات البـشر التى لا تعدو أن تكون تَرَفاً فى الحياة ، فيُؤرِّخون لـها ولأصـحابها ، وينسون خالق الضروريات التى أعانتهم على الترقِّى فى كماليات الحياة وترفها .

وكلمة ﴿ هَبَاءً .. (٢٣) ﴾ [الفرقان] : الأشياء تتبين للإنسـان ، إما لأن حجمها كبير أو لأنها قريبة ، فإنْ كانت صغيرة الحجم عزَّتْ رؤيتها ، فمـثلاً يمكنك رؤية طائر أو عـصفور إنْ طار أمـامك أو حتى دبور أو نحلة ، لكن لو طارتْ أمامك بعوضة لا تستطيع رؤيتها .

إذن : الشىء يختـفى عن النظر لأنه صـغيـر التكوين ، لا تستطيع العين إدراكه ؛ لذلك اخترعوا المجاهر والتليسكوب .

وقـد يكون الشـىء بعـيـداً عنك فـلا تراه لبُـعده عـن مخـروطيـة

---

(١) قال الحافظ ابن حـجر فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (٣٦/٨) : « قـال ابن سعد : أخبـرنا الواقدى عن غـير واحد من أهل العلم قـالوا : كانت ثويبـة مرضعـة رسول الله ﷺ يصلها وهو بمـكة وكانت خديجـة تكرمها وهى على ملك أبـى لهب وسـألته أن يبـيعهـا لها فامـتنع فلما هاجر رسول الله ﷺ اعـتقها أبو لـهب وكان رسول الله ﷺ يبعث إليـها بصلة وبكسوة حتى جاء الخبر أنها ماتت سنة سبع مرجعه من خيبر » .

الضوء ؛ لأن الضوء يبدأ من نقطة ، ثم يتسع تدريجياً على شكل مخروط ، كما لو نظرتَ من ثُقْب الباب الذى قُطْره سنتيمتر فيمكن رؤية مساحة أوسع منه بكثير .

إذن : إنْ أردتَ أن ترى الصغير تُكبِّره ، وإنْ أردتَ أنْ ترى البعيد تُقرِّبه .

والهباء : هو الذرّات التى تراها فى المخروط الضوئى حين ينفذ إلى حجرتك ، ولا تراها بالعين المجرّدة لدقّتها ، وهذا الهباء الذى تراه فى الضوء ﴿هَبَاءً مَّنثُوراً (٢٣)﴾ [الفرقان] يعنى : لا تستطيع أنْ تجمعه ؛ لأنه منتشر وغير ثابت ، فمهما أوقفتَ حركة الهواء تجدْه فى الضوء يتحرك لصِغَر حجمه .

فإنْ قلتَ : نراهم الآن يصنعون (فلاترَ) لحجز هذا الهباء فتُجمِّعه وتُنقِّى الهواء منه ، وهى على شكل مَسامّ اسفنجية يعلَق بها الهباء ، فيمكن تجميعه .

نقول : حتى مع وجود هذه الفلاتر ، فإنها تجمع على قَدْر دقّة المسامّ ، وتحجز على قَدْرها ، وعلى فَرْض أنك جمعتَه فى هذا الفلتر ، ثم أفرغته وقُلْت لى : هذا هو الهباء ، نقول لك : أتستطيع أنْ ترد كل ذرة منها إلى أصلها الذى طارتْ منه ؟

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤)﴾

بعد أن وصف الحق ـ تبارك وتعالى ـ ما يؤول إليه عمل الكافرين أراد سبحانه أنْ يُحدِّثنا عن جزاء المؤمنين على عادة القرآن فى ذكر المتقابلات التى يظهر كل منها الآخر ، وهذه الطريقة فى

التعبير كثيرة فى كتاب الله منها : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .. (٨٢) ﴾ [التوبة]

ومنها أيضاً قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

وهكذا ، ينقلك القرآن من الشىء إلى ضده لتميز بينهما ، فالمؤمن فى النعيم ينظر إلى النار وحرِّها ، فيحمد الله الذى نجاه منها ، وهذه نعمة أخرى أعظم من الأولى . والكافر حين ينظر إلى نعيم الجنة يتحسَّر ويعلم عاقبةَ الكفر الذى حرمه من هذا النعيم ، فيكون هذا أبلغَ فى النكاية وأشد فى العذاب ؛ لذلك قالوا : وبضدِّها تتميز الأشياء .

وقوله سبحانه : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (٢٤) ﴾ [الفرقان] صاحب الشىء : المرافق له عن حُبٍّ ، فكأن الجنةَ تعشَق أهلها وهم يعشقونها ، فقد نشأت بينهما محبة وصُحْبة ، فكما تحب أنت المكان يحبك المكان ، وأيضاً كما تبغضه يبغضك . ومنه قولهم : نَبَا به المكان يعنى : كَرِهه المكان .

وكلمة ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ .. (٢٤) ﴾ [الفرقان] تدل أيضاً على الملكية ؛ لأنهم لن يخرجوا منها ، وهى لن تزول ولن تنتهى .

وكلمة ﴿ خَيْرٌ .. (٢٤) ﴾ [الفرقان] قلنا : إنها تُستعمل استعمالين : خير يقابله شرّ ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة] وقوله تعالى : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) ﴾ [البينة] .... ﴿ أُوْلَـٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) ﴾ [البينة]

وهناك أيضاً خير يقابله خير ، لكن أقلّ منه ، كما لو قلت : هذا خير من هذا ، وكما فى الحديث الشريف : « المؤمن القوى خير

وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير »[1] .

وفى بعض الأساليب لا نكتفى بصيغة (خير) للتمييز بين شيئين ، فنقول بصيغة أفعل التفضيل : هذا أَخْير من هذا .

وكلمة ﴿ مُسْتَقَرًّا .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الفرقان] المستقر : المكان الذى تستقر أنت فيه ، والإنسان لا يُؤْثِر الاستقرار فى مكان عن مكان آخر ، إلا إذا كان المكان الذى استقر فيه أكثرَ راحةً لنفسه من غيره ، كما نترك الغرفة مثلاً فى الحرِّ ، ونجلس فى الحديقة أو الشُّرْفة .

ومن ذلك نقول : إذا ضاقتْ بك أرض فاتركها إلى غيرها ، على حَدِّ قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا[2] كَثِيرًا .. ﴿١٠٠﴾ ﴾ [النساء]

ويقول الشاعر :

لَعَمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بِلاَدٌ بأهْلِهَا ... وَلَكِنَّ أخْلاَقَ الرجَالِ تَضِيقُ

ومعنى ﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴿٢٤﴾ ﴾ [الفرقان] المقيل : هو المكان الذى كانت تقضى فيه العرب وقت القيلولة ، وهى ساعة الظهيرة حين تشتدّ حرارة الشمس ، ونسميها فى العامية (القيالة) ويقولون لمن لا يستريح فى هذه الساعة : العفاريت مقيِّلة !!

لكن أفى الجنة قيلولة وليس فيها حَرٌّ ، ولا برد ، ولا زمهرير ؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/٣٦٦ ، ٣٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) وابن ماجة فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أى : يجد مكاناً متسعاً يراغم فيه القوم الذين راغموه واضطروه إلى الهجرة ، أو يجد مكاناً يصلح لمراغمة أعدائه أو اتقاء شره . [القاموس القويم ١/٢٧٠] .

قالوا : القيلولة تعني محلّ فراغ الإنسان لخاصة نفسه ، ألا ترى أن الحق - تبارك وتعالى - حينما ذكر أوقات الاستئذان في سورة النور جعل منها هذا الوقت ، فقال سبحانه : ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [النور] فأمر الصغار أن يستأذنوا علينا في هذا الوقت ؛ لأنه من أوقات العورة .

إذن : المستقر شيء ، والمقيل للراحة النفسية الشخصية شيء آخر ، لأنك قد تستقر في مكان ومعك غيرك ، أمَّا المقيل فمكان خاصّ بك ، إذن : لك في الجنة مكانان : عام وخاص ؛ لذلك قالوا في قول الله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن] قالوا : جنة عامة وجنة خاصة ، كما يكون لك مكان لاستقبال الضيوف ، ومكان لخاصّة نفسك وأهلك .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾

وقد سبق منهم أنْ طلبوا من الله أنْ ينزل عليهم ملائكة ، فها هي الملائكة تنزل عليهم كما يريدون ، لكن في غير مسرّة لكم ، ولا إجابة لسؤال منكم .

والسماء : هي السقف المرفوع فوقنا المحفوظ الذي ننظر إليه ، فلا نرى فيه فطوراً[1] ولا شروخاً ، ولك أن تنظر إلى السماء حال صفائها ، وسوف تراها ملساء لا نتوءَ فيها ، ولا اعوجاج على اتساعها هذا وقيامها هكذا بلا عَمَد .

---

(١) الفطور : الشقوق والصدوع . وتفطّر الشيء : تشقّق . والفَطْر : الشق وجمعه فطور . [لسان العرب - مادة : فطر] .

لذلك يدعوك الحق ـ تبارك وتعالى ـ إلى النظر والتأمل ، يقول لك : لن نغشك .. انظر فى السماء وتأمل : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ④﴾ [الملك]

والسماء التى تراها فوقك على هذه القوة والتماسك لا يُمسكها فوقك إلا الله ، كما يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. ④١﴾ [فاطر]

ويقول تعالى : ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. ⑥٥﴾ [الحج] إذن : هناك إذْن للسماء أن تقع على الأرض ، وأنْ تتشقق وتتبدل ، كما قال سبحانه : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ .. ④٨﴾ [إبراهيم]

ويقول تعالى عن تشقُّق السماء فى الآخرة : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ②﴾ [الانشقاق]

معنى : ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا .. ②﴾ [الانشقاق] يعنى : استمعتْ وأطاعتْ بمجرد الاستماع .

وهنا يقول تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ .. ②٥﴾ [الفرقان] أى : تنشقّ وينزل من الشقوق الغمام ، وقد ذُكر الغمام أيضاً فى قوله تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ .. ②١٠﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً ②٥﴾ [الفرقان] يدل على قوة النزول ليباشروا عملية الفصل فى موقف القيامة .

﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) ﴾

إنْ كانت الدنيا يُملِّك اللهُ فيها بعض خلْقه بعض خلْقه ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران] وقلنا : فَرْق بين المِلْك والمُلْك : المِلْك كل ما تملك ولو كان حتى ثوبك الذى ترتديه فهو مِلك ، أمّا المُلْك فهو أن تملك مَنْ يملك ، وهذا يعطيه الله تعالى ، ويهبه لمن يشاء من باطن مُلْكه تعالى ، كما أعطاه للذى حاجّ خليلَه إبراهيم عليه السلام : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ[1] إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلا مِلْك ولا مُلْك لأحد ، فقد سلب هذا كله ، والمِلْك اليوم لله وحده : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

إذن : فما فى يدك من مُلْك الدنيا مُلْك غير مستقر ، سرعان ما يُسلَب منك ؛ لذلك يقول أحد العارفين للخليفة : لو دام المِلْك لغيرك ما وصل إليك . فالمسألة ليست ذاتيةً فيك ، فمُلْكك من باطن مُلْك الله تعالى صاحب الملك ، وهو الملك الحق ، فمُلْكه تعالى ثابت مستقر ، لا ينتقل ولا يزول .

وإن انتقلتْ الملكية فى الدنيا من شخص لآخر فإنها تُجمَع يوم القيامة فى يده تعالى ، وتجمّع المِلْك والسلطة فى يد واحدة إنْ كانت ممقوتة عندنا فى الدنيا ، حيث نَدُره الاحتكار والدكتاتورية التى تجعل

(١) حاجّه : نازعه الحجة فهى مفاعلة من الجانبين ، أى : قدّم كل منهما حجته ليغلب بها الآخر . [القاموس القويم ١/١٤٣] .

السلطة والقهر فى يد واحـدة ، إنْ كانت هذه مذمومة فى البشر فهى محمودة عند الله تعالى ؛ لأنها تتركز فى الدنيـا فى يد واحد صاحب هوى .

أما فى الآخرة فهى فى يده تعالـى ، فالرحمة فى الدنيا أن يوزع الملْك والسلطان ، والرحمة فى الآخرة أن تُجمع فى يده تعالى : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ .. (٢٦) ﴾ [الفرقان] إذن : اجتماع الملْك يوم القيامة لله تعالى من مظاهر الرحمة بنا ، فلا تأخذها على أنها احتكار أو جبروت ؛ لأنها فى يد الرحمن الرحيم .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُطمئنك : لا تقلق ، فالملْك يوم القيامة ليس لأحد تخاف أن تقع تحت سطوته ، إنما الملك يومئذ الحق للرحمن .

والحق : الشىء الثابت الذى لا يتغير ، وما دام ثابتاً لا يتغير فهو لا يتناقض ولا يتعارض ، فالرجل إذا كلّمك بكلام له واقع فى الحياة وطلبتَ منه أن يعيده لك أعاده ألف مرة ، دون أن يُغيّر منه شيئاً ، لماذا ؟ لأنه يقول من خلال ما يستوحى من الحقيقة التى شاهدها ، أمّا إنْ كان كاذباً فإنه لا يستوحى شيئاً ؛ لذلك لا بُدَّ أن يختلف قوله فى كل مرة عن الأخرى ؛ لذلك قالوا : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذكوراً .

ومن رحمانيته تعالى أن يقول سبحانه : ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) ﴾ [الفرقان] فينبهنا إلى الخطر قبل الوقوع فيه ، وهذه رحمة بنا أن ينصحنا ربنا ويعدل لنا ، وإلا لو فاجأنا بالعقوبة لكان الأمر صعباً .

فإن ذكرت المقابل تقول إنه يسير على المؤمنين ، فاحرص أيها الإنسان أن تكون من الميسّر لهم لا من المعسّر عليهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾

هذه عدّة أيام ذكرتها هذه الآيات : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الفرقان] ، ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الفرقان] ، ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفرقان] ،﴿ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفرقان] فيوم القيامة جامع لهذا كله .

وقلنا : إن الظالم : الذى يأخذ حَقَّ غيره ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ يُوضِّح هذا الظلم بقوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [البقرة]

لأنهم لا يقدرون على ظُلْم الله تعالى ، ولا على ظُلْم النبى ﷺ ، فكلمة الله ورسوله هى العُلْيا ، وسينتصر دين الله فى نهاية المطاف . ومع ذلك يعاقبهم الله تعالى على ظلمهم لأنفسهم ، فنِعْم الإله إله يفعل هذا مع مَنْ عصاه .

والكافر حتى فى مظهرية ظُلْمه للغير يظلم نفسه ؛ لأنه يضعها فى موضع المسئولية عن هذه المظالم . إذن : لو حقَّق الإنسان الظلم لوجده لا يعود إلا على الظالم نفسه .

وحين يرى الظالمُ عاقبةَ ظُلْمه ، ويعاين جزاء فعْله يعضُّ على يديْه ندماً وحَسْرة . والعَضُّ : انطباق الفكيْن الأعلى والأسفل على شىء ، وللعضِّ مراحل تتناسب مع المُفْزِع الذى يُلجىء الإنسانَ له ، وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ .. ﴿١١٩﴾ ﴾ [آل عمران]

والأنامل : أطراف الأصابع وعَضُّها من الغيظ عادة معروفة حينما يتعرّض الإنسان لموقف يصعُب عليه التصرف فيه فيعضُّ على أنامله عَضّاً يناسب الموقف والحدث ، فإنْ كان الحدث أعظمَ ناسبه أنْ يعضّ يده لا مجرد أصابعه ، فإنْ عظم عَضّ على يديْه معاً كما يحدث لهم فى الآية التى معنا : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ .. (٢٧)﴾ [الفرقان] لأنه فى موقف حسرة وندم على الفرصة التى فاتته ولن تعود ، والخطأ الذى لا يمكن تداركه ؛ لذلك يُعذِّب نفسه قبل أن يأتيه العذاب .

فيعضُّ على يديْه معاً ، فكأن الأمر المُفْزِع الذى يعاينه بلغ الغاية ؛ لذلك عضّ على يديه ليبلغ الغاية فى المعضوض ، وهو العاضّ والمعضوض ، ولا يُعذِّب نفسه بهذه الطريقة إلا مَنْ يئس من النجاة .

ثم يُبيِّن علة ذلك : ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧)﴾ [الفرقان] وإنْ كانت هذه الآية قد نزلت فى حدث مخصوص وفى شخص بعينه ، فإنها تعمّ كل مَنْ فعل هذا ، فالعبرة ـ كما يقولون ـ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهذا جزاء كل ظالم حَادَ عن الجادة .

وهذه الآية نزلت فى حدث خاص باثنين(١) : عقبة بن أبى معيط ، وكان رجلاً كريماً يُطعم الطعام ، وقد دعا مرة رسول الله ﷺ إلى طعامه ، لكن رسول الله اعتذر له وقال : لا أستطيع أن أحضر طعامك إلا أنْ تشهد أن : لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فلما شهد

---

(١) أورده الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ١٩١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣١٧/٣) : « سواء كان سبب نزولها فى عقبة بن أبى معيط أو غيره من الأشقياء فإنها عامة فى كل ظالم » .

الرجل الشهادتين زاره رسول الله وأكل من طعامه ، فأغضب ذلك أمية ابن خلف صاحب عقبة فقال له : لقد صبوتَ يا عقبة ، فقال عقبة : والله ما قلتُ ذلك إلا لأننى أحببتُ أن يأكلَ محمد عندى كما يأكل الناس ، فقال أمية : فلا يبرئك منى إلا أنْ تذهب إلى محمد فى دار الندوة فتطأ عنقه وتبصق .. إلخ ، وفعل عقبة ما أشار عليه به صاحبه[1] فنزلت الآية : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) ﴾ [الفرقان] والمراد بالسبيل قوله : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ثم يقول :

﴿ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) ﴾

الويل : الهلاك ، فهو يدعو الهلاك ويناديه أنْ يحلّ به ، والإنسان لا يطلب الهلاك لنفسه إلا إذا تعرّض لعذاب أشدّ من الهلاك ، كما قال أحدهم :

* أَشَدُّ من السّقم الذى يُذهِب السّقما *

وقول الشاعر :

كَفَى بِكَ دَاءً أنْ تَرَى الموْتَ شَافِياً وحَسْبُ المنَايَا أنْ يكُنَّ أمَانِيَا[2]

فلما كانت المسألةُ أكبر منه وفوق احتماله نادى يا ويلتى احضرى ، فهذا أوانك لتُخلِّصينى مما أنا فيه من العذاب .

---

(١) قال الضحاك : لما بزق عقبة فى وجه رسول الله ﷺ عاد بزاقه فى وجهه فتشعب شعبتين ، فأحرق خديه ، وكان أثر ذلك فيه حتى الموت . نقله الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٩٢) .

(٢) البيت بيت مشهور للمتنبى (ديوانه ٤/٢٨١) وأورده شهاب الدين محمود الحلبى فى كتاب « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » (٢٥٢) فى فصل « حسن الابتداءات » .

وقوله ﴿لَيْتَنِي .. (٢٨)﴾ [الفرقان] تَمَنٍّ ، والتمنِّى طلب أمر محبوب لا سبيلَ إلى حصوله ، كما قال الشاعر فى التمنى :

لَيْتَ الكَواكِبَ تَدْنُو لِى فَأنظِمَهَا   عُقودَ مَدْحٍ فَمَا أَرْضَى لكُمْ كَلِمِى

وهذا أمر لا يمكن أنْ يُنال .

وآخر يقول :

فيا لَيْتَ الشَّبابَ يَعُودُ يَوْماً   فَأُخبِرَه بِمَا فعَل المشيبُ

فقصارى ما يعطيه أسلوب التمنى أنه يدلّ على أمر محبوب ، كنت أحب أن يحدث ، لكن أيحدث بالفعل ؟ لا .

وكلمة (فلان) تقولها كناية عن شخص لا تحب حتى ذكْر اسمه ، فعقبة (ابن أبى مُعيط) لم يقل : ليتنى لم أتخذ أمية (بن خلف) خليلاً إنما قال (فلاناً) لأنه كاره له يبغض حتى ذكر اسمه .

والخليل : من الخُلَّة والمخالَّة يعنى : الصداقة المتداخلة المتبادلة وفى ذلك يقول الشاعر :

وَلَمَّا التقَيْنَا قَرَّبَ الشَّوْقُ جَهْدَه   خَلِيلَيْنِ ذَابَا لَوْعَةً وعِتَابَا

كأنَّ خَليلاً فى خِلاَلِ خَلِيلِه   تَسرَّب أَثْنَاءَ العِنَاقِ وغَابَا

ثم يذكر علة ذلك :

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا (٢٩)﴾

﴿خَذُولاً (٢٩)﴾ [الفرقان] صيغة مبالغة من الخذلان ، نقول : خاذل وخذول ، ومعنى خذله أى : تخلّى عنك فى الأمر بعد أنْ مدَّ لك حبالَ الأمل ، فإذا ما جاء وقت الحاجة إليه تخلّى عنك وتركك ، كذلك

الشيطان يفعل بأوليائه ، كما جاء فى آيات أخرى : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) ﴾ [الحشر] وفى آية أخرى : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ .. (٤٨) ﴾ [الانفال]

وفى موضع آخر يقول لأتباعه : ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ(١) وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

فحين يقولون له : لقد أغويتنا وأضللْتنا يقول لهم : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم] لا سلطانَ حجة أقنعكم به ولا سلطان قهر أحملكم به وأقهركم على طاعتى ، بل كنتم على (تشويرة) : ﴿ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

ثم يقول الحق سبحانه عن رسوله محمد ﷺ :

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا (٣٠) ﴾

القوم : قوْم الرجل : أهله وعشيرته والمقيمون معه ويجمعهم : إما أرض ، وإما دين . وسُمُّوا قَوْماً لأنهم هم الذين يقومون على أمر الأشياء ، فهم الرجال خاصة ؛ لأن النساء المفروض فيهن السكن والقرار فى البيوت .

والحق - تبارك وتعالى - يوضح لنا هذا الفرق فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا

---

(١) المصرخ : المغيث المنقذ من يستصرخه . واستصرخه : استغاث به . والصريخ : الاستغاثة والمستغيث والمغيث . [القاموس القويم ١/٣٧٣] .

نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ .. ﴿١١﴾ [الحجرات] إذن : فالقوم هم الرجال خاصة .

ومن ذلك أيضاً قول الشاعر[1] :

وَمَا أدرى ولَسْتُ إخَالُ أَدْرِى أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ[2]

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان] أضاف القوم إليه - ﷺ - لأنه منهم يعرفونه ويعرفون أَصْلَه ، وقد شهدوا له بالصدق والأمانة ومكارم الأخلاق قبل أن يُبعثَ ، وكان عندهم مؤتمناً على نفائس أموالهم ؛ لذلك خاطبهم الحق تبارك وتعالى بقوله : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]

إذن : فالرسول ليس بعيداً عنكم ، ولا مجهولاً لكم ، فمَنْ لم يؤمن به كرسول ينبغى أنْ يؤمن به كأسْوة وقدوة سلوك لسابق تاريخه فيكم .

لذلك نرى أن سيدنا أبا بكر ما انتظر من رسول الله دعوةً ، ولا أنْ يقرأ له قرآناً ، أو يُظهر له معجزة ، إنما آمن وصدَّق بمجرد أن قال رسول الله ، فما دام قد قال فقد صدق ، ليس بمعجزة رآها أبو بكر ، إنما برصيده القديم فى معرفة رسول الله فى سلوكه وخُلُقه ، فما كان رسول الله ﷺ ليَدع الكذب على الخَلْق ، ويكذب على الخالق .

---

(١) الشاعر هو : زهير بن أبى سلمى ، حكيم الشعراء فى الجاهلية ، كان أبوه وخاله وأخته سلمى وابناه كعب وبجير وأخته الخنساء شعراء ، ولد فى بلاد « مزينة » بنواحى المدينة ، من أشهر شعره معلقته ، توفى عام ١٣ ق. هـ . [الأعلام للزركلى ٣/٥٢] .

(٢) ديوان زهير بن أبى سلمى ٧٣ ، وحسن التوسل صفحة ٢٣١ .

وكذلك السيدة خديجة : هل انتظرت من رسول الله ما يُثبت نبوته ؟ إنها بمجرد أن قال رسول الله صدَّقتْ به ، ووقفت بجانبه وثبَّتته وهدَّأتْ من روعه ، وقالت له : « والله لا يُسلمك الله أبداً ، إنك لتصلُ الرحم ، وتحمل الكلَّ[1] ، وتعين على نوائب الدهر »[2] .

ومعنى : ﴿مَهْجُوراً ۝٣٠﴾ [الفرقان] من الهجر وهو قَطْع الصلة ، فإنْ كانت من جانب واحد فهى هَجْر ، وإن كانت من الجانبين فهى (هاجراً) . والمعنى : أنهم هجروا القرآن ، وقطعوا الصلة بينهم وبينه ، وهذا يعنى أنهم انقطعوا عن الألوهية وانقطعوا عن الرسالة المحمدية ، فلم يأخذوا أدلة اليقين العقدية ، وانقطعوا عن الرسالة المحمدية حينما كذَّبوا بها ، وانقطعوا عن الأحكام حينما عَصَوْها ، وبذلك اتخذوا هذا القرآن مهجوراً فى كل هذه المسائل : العقائد والعبادات والتصديق بالرسول .

مع أن العرب لو فهموا قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. ۝٤٤﴾ [الزخرف] لمجّدوا القرآن وتمسَّكوا به ، فهو الذى عصمهم وعصم لغتهم ، وأعْلَى ذكْرهم بين الأمم ، ولو أن كل أمة من الأمم المعاصرة أخذتْ لهجتها الخاصة الوطنية ، وجعلت منها لغةً لتلاشت العربية كلغة .

وفى كثير من بلدان الوطن العربى لو حدَّثوك بلهجتهم الخاصة لا تفهم منها شيئاً ، ولولا أن الفُصْحى لغة القرآن تربط بين هذه اللهجات لأصبحتْ كلٌّ منها لغةً خاصة ، كما حدث فى اللغات اللاتينية

---

(١) تحمل الكَل : أى تعين المثقل ومنه الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال انظر شرح النووى على مسلم (٢/٥٦١) ، وفتح البارى للعسقلانى (١/٢٤) .

(٢) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) وستة مواضع أخرى من صحيحه ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

التى تولدت منهـا الفرنسـية والإيطالية والألـمانية والإنجليـزية ، ولكل منها أسسـهـا وقواعدها الخاصة بها ، وكـانت فى الأصل لغة واحدة ، إلا أنها لا رابطَ لها من كتاب مقدس .

فـالحق ـ تبـارك وتعالى ـ يُنـبِّهـهم إلى أن القـرآن فـيه ذِكْـرهم وشرفهم وعزتهم ، وفيه شهرتهم وصيتهم ، فالقرآن جعل العربَ على كل لسان ، ولولاه لذابوا بين الأمم كما ذابتْ قبلهم أمم وحضارات لم يسمع عنها أحد .

لذلك يقـول لهم النبى ﷺ : « إنْ تؤمنوا بما جـئت به يكُنْ حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوا علىَّ قولى صبرتُ حتى يحكم الله بينى وبينكم»[1] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾

وإذا لم يكُنْ للرسول أعداء ، فلماذا جـاء ؟ لو انتظرنا من الجميع سـاعـةَ يأتى الرسـول أنْ يُصـدقـوه ويؤمـنوا به إذن : فلمـاذا جـاء الرسول ؟ لا يأتى الرسول إلا إذا طَمَّ الفـسـاد وعَمَّ ، كما أننا لا نأتى بالطبيب إلا إذا حدث مرض أو وباء .

وهؤلاء القوم كانت لهم سيادة ومكانة ، وقد جاء الإسلام ليُسوِّى بين الناس ، ويسلب هؤلاء سـيادتـهم ، فلا بُدَّ أن يقـفوا منه مـوقف العداء ، وهذا العداء هو حيثيـة وجود الرسول فيهم . وليس النبى ﷺ

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢٩٦/١) ضـمن حديث وفد كفار قريش إلى رسول الله ﷺ .

بِدْعاً فى ذلك ، فما من نبى إلا وكان له أعداء ، مع أن الأنبياء السابقين كان النبى منهم فى فترة زمنية محدودة وفى مكان محدود .

أما رسالة محمد ﷺ فكانت رسالة عامة فى الزمان وفى المكان ، ولا بُدَّ أنْ يتناسب العداء - إذن - مع انتشار الرسالة وعمومها فى الزمان والمكان إلى قيام الساعة وعلى النبى ﷺ أن يُوطِّن نفسه على ذلك .

وكلمة (عدو) من الكلمات التى تُطلق مفردة ، وتشمل المثنى والجمع ، ومن ذلك قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) ﴾ [الشعراء]

وفى سورة الكهف : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ .. (٥٠) ﴾ [الكهف] ولم يقل : أعداء .

وفى بعض الآيات تأتى بصيغة الجمع كما فى قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ .. (١٠٣) ﴾ [آل عمران] فلو كانت قضية لغوية لجاءتْ بصيغة المفرد فى كل الآيات .

لكن لماذا عدلَ القرآن هنا عن صيغة المفرد إلى صيغة الجمع ؟

قالوا : إنْ كانت العداوة من المفرد والمثنى والجمع عداوة واحدة قال (عدو) بصيغة المفرد لاتحاد سبب العداوة ، فإنْ كانت العداوات مختلفة : هذا يعاديك لشرفك ، وهذا يعاديك لعلمك ، وهذا يعاديك لمالك ، فتعددت أسباب العداوة قال (أعداء) أما فى مسألة الإيمان واليقين بالنسبة للكافرين فالعداوة واحدة ، لكن فى أمور الدنيا العداوات متعددة : هذا يعاديك لكذا ، وهذا يعاديك لكذا ؛ لأنه مخالف لهواه .

وحينما تحدثنا عن قوله تعالى : ﴿ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ .. (٦١) ﴾ [النور] كلها بصيغة الجمع إلا فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ .. (٦١) ﴾ [النور] بصيغة المفرد ، لماذا ؟ لأن صداقة المؤمنين ينبغى ألاَّ تكون إلا لمعنى واحد ، هو الحب لله ، وفى الله ، لا ينبغى أن يكون لك صديق لكذا وصديق لكذا .

وفى ذلك يقول النبى ﷺ : « ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأنْ يحبَّ المرءَ لا يُحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يُقذف فى النار »[1] .

فإذا كان أصدقاؤك يحبونك لله ، فهم جميعاً كصديق واحد .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ ..(٣١) ﴾ [الفرقان] يعنى : كأعدائك الذين اتخذوا القرآن مهجوراً ، والذين وقفوا منك موقف التعنت والإيذاء والسخرية .

﴿ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ..(٣١) ﴾ [الفرقان] أى : الذين يُجرمون يعنى : يرتكبون الجرائم ، وهى المعاصى والذنوب حَسْبَ مدلولاتها .

الحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما يكشف لرسوله ﷺ حقيقة أعدائه ، وأنهم كثيرون ، وأنهم مجرمون إنما ليوَطِّن نفسه على ذلك ، فلا يُفَاجأ به ، ويتحمل أذاهم إنْ أصابوه بسوء . وهذه المسألة كالمصْل والتحصين الذى يعطونه للناس لمواجهة المرض قبل حدوثه ، فالحق سبحانه يعطى رسوله المناعة اللازمة لمواجهة أعداء الدعوة .

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (١٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٣) كلاهما فى كتاب الإيمان من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

لذلك نجد « تشرشل » القائد البريطاني الذى ساس الحرب العالمية الثانية كان يواجه جنوده بالحقائق أفظع مما هى فى الواقع ليُوطِّن شعبه على قوة التحمل ، وعلى التصدِّى للصعوبات الشديدة ، ومهما واجههم من مصاعب قال لهم ما زال هناك المزيد منها ، حتى إذا ما حدث ذلك كانوا على استعداد له .

وقوله تعالى : ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان] أى : أن الله تعالى سيهديك إلى الطريق الذى بمقتضاه تنتصر على هؤلاء جميعاً . وسبق أن ذكرنا عن الفاروق عمر ـ رضى الله عنه ـ أنه حينما نزل قوله تعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] قال : أىُّ جمع هذا ؟ يعنى تعجب كيف سنهزم هؤلاء ونحن الآن عاجزون حتى عن حماية أنفسنا ؟ ولا نبيت إلا فى السلاح ، ولا نصبح إلا فى السلاح نخاف أن يتخطفنا الناس ، فلما وقعتْ بدر وهُزم المشركون وحُصدت أرواح صناديدهم قال : صدق الله : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر][1] .

كيف حدث هذا ؟ حدث من هداية الله لرسوله ﷺ إلى أسباب النصر ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ ينصر بالشىء وينصر بضده ، وقد اجتمع فى بدر سادات قريش وأقوياؤها وأغنياؤها وصناديد الكفر بها ، حتى قال رسول الله ﷺ : « هذه مكة ، قد ألقت إليكم أفلاذ[2] كبدها»[3] ،

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٤/٢٦٦) عن عكرمة قال : « لما نزلت : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يهزم ؟ أى : أى جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ » .

(٢) الفلْذة : القطعة من الكبد واللحم والمال والذهب والفضة . والجمع أفلاذ . وفى حديث بدرَ : « هذه مكة قد رمتكم بأفلاذ كبدها » أراد صميم قريش ولبابها وأشرافها . كما يقال : فلان قلب عشيرته ؛ لأن الكبد من أشرف الأعضاء » [لسان العرب ـ مادة : فلذ] .

(٣) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٣) ، وأورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٦١٧) عن عروة بن الزبير .

وقد خرجوا جميعاً على حال الاستعداد للحرب ، أما المؤمنون فقد كانوا قلَّة مستضعفين على غير استعداد للحرب ، ومع ذلك نصرهم الله .

والحق سبحانه يُطمئن رسوله ﷺ والمؤمنين معه : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٢٤٩) ﴾ [البقرة]

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد] أى : ننقص من أرض الكفر ، ونزيد فى أرض الإيمان ، والحق سبحانه أخبرنا بقضايا ، يجب أن تُوجَد أحداث فى الحياة والواقع خادمةً لتصديق هذه القضايا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) ﴾

هذا أيضاً أحد الأمور التى يتعلقون بها كى لا يؤمنوا ، وكيف يطلبون أن ينزل القرآن جملةً واحدة ، وهم لا يطيقون منه آية واحدة ؟ لكنه الجدل والسفسطة والإفلاس فى الحجة ، فاعتراضهم على نزول القرآن مُنَجّماً[1]

إذن : لا غضاضة عندهم فى القرآن ، وعَيْبه فى نظرهم أنه نزل على محمد بالذات ، وأنه ينزل مُنجّماً لا جملة واحدة ، وكأن طاقة الإيمان عندهم تناسب نزول القرآن جملة واحدة !!

(١) مُنجماً : أى : مُفرّقاً مقطعاً على حسب الأحداث وأسباب نزول الآيات آية آية . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣١٨) : « روى النسائى بإسناده عن ابن عباس قال : أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك فى عشرين سنة » .

ثم يقول سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ .. (٣٢) ﴾ [الفرقان] يعنى : أنزلناه كذلك مُنجّماً حَسْب الأحوال ، والحكمة من ذلك ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ .. (٣٢) ﴾ [الفرقان] لأنك ستتعرض على مدى ثلاث وعشرين سنة لمواقف تزلزل ، فكلما تعرضْتَ لموقف من هذه المواقف نزل القرآن تسليةً لك وتثبيتاً وَصلةً بالسماء لا تنقطع . ولو نزل القرآن مرة واحدة لكان التثبيت مرة واحدة ، ثم تأتى بقية الأحداث بدون تثبيت ، ولا شكَّ أن الصلة بالسماء تُقوِّى المنهج وتُقوِّى الإيمان .

كما أن القرآن لو نزل مرة واحدة ، كيف يتسنى لهم أنْ يسألوا عما سألوا عنه مما حكاه القرآن : يسألونك عن كذا ، يسألونك عن كذا .. إلخ . إذن : نزوله مُنجّماً اقتضاء لحكمة الحق سبحانه ليُعدِّدَ مواقف تثبيتك ، لتعدد مواقف الإيذاء لك .

ومعنى : ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) ﴾ [الفرقان] أى : أنزلناه مُنجّماً حَسْب الأحوال ، فكلما نزل نجم تمكنتم من حفْظه وتكراره فى الصلاة .

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ﴾

المثَل مثل قولهم : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً.. (٣٢) ﴾ [الفرقان] أو قولهم : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] والمثل : الأشياء العجيبة التى طلبوها .

ولو أجابهم الله لما قالوا لأنكروا قولهم وتنصّلوا منه ، كما قال تعالى عن اليهود : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. (١٤٢) ﴾ [البقرة] ومع ذلك قالوا ما حكاه القرآن عنهم . أمَا كان فيهم رجل يتنبه لقوْل القرآن ، فيحذرهم من هذا القول ليُوقع

رسـول الله في حرج ، ويُظهـر القرآن عـلى أنه كذب ، ويقـول كلامـاً يخالف الحقـيقة ، وعندها ، لهم أنْ يقولوا : لقد قال الـقرآن كذا وكذا ولم يحدث منا هذا ؟

﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾

﴿ الَّذِينَ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الفرقان] إجمـال لأشخاص معـروفين بذواتهم ، وقفوا من الرسول موقف العداء ، ومنهم مَنْ سبق أن قال : ﴿ يَـٰلَيْتَنِي اتَّخَـذْتُ مَعَ الرَّسُـولِ سَـبِـيـلاً ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْـتَنِي لَـمْ أَتَّخِـذْ فُـلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفرقان]

والحشر : الجمع للحساب ، لكن سيُحشَرون على وجوههم ؛ لذلك لما نزلت هذه الآية سـألوا رسول الله : كيف يُمشُـون على وجوههم ، قـال ﷺ : « الذى أمـشـاهم على أرجلهم ، قـادر أن يُمـشـيـهم على وجوههم »[1] .

فالـذى يمْشى على وجـهه كـالذى يمشى على بطنه ، ولعله يُـجَر جراً ، سـواء أكان على وجهه أو على أى شىء آخـر ، ثم إن الإنسان لا ينبغى له أن يسأل عن أمور هى مناط القدرة المطلقة .

والحق ـ تبارك وتعـالى ـ يُوضِّح هذه المسألة فى قـوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَـمِنْهُم مَّن يَمْـشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي

(١) عن أنس بن مالك أن رجلاً قال : يا نبى الله يحشر الكافـر على وجهه يوم القيامة ؟ قال : « أليس الذى أمشاه على الرِّجْلين فى الدنيا قادراً على أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٦٠ ، ٦٥٢٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٠٦) كتاب صفات المنافقين .

عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) ﴾ [النور]

إذن : المشْى لا ينحصر فى الحالات التى نعـرفها فقط ، إنما هى طلاقة القدرة التى تفعل ما تشاء .

لكن ، لمـاذا لم يذكر القـرآن أسـماء هؤلاء الأشـخاص الظالمـين المعاندين للإسلام ؟ قالوا : هذا من باب إرخاء العِنَان للخَصْم ، وكلمة (العنان) تأتى بكسر العـين وفتحها ، واللغـويون يقولون : هى على وزن ما هى بمـعناه ، فإن قـصدتَ بهـا عَنان السماء فـهى على وزن سَحَاب ، وإن أردتَ بها عِنان الفرس ، فهى على وزن لِجَام .

وراكب الدابة إنْ أرخى لها العنان تركـها تسير كمـا تشاء ، كذلك الحق ـ تبـارك وتعالى ـ يُرخى للـخصم العنان ليـقول كل مـا عنده ، وليأخذه إلى جانبه ، لا بمـا يكره ، بل بما يحب . وقد علَّم الله تعالى رسـوله ﷺ كـيف يردُّ عليـهم ويجـادلهم الجـدلِ الهـادئ بالتى هى احـسن ، فحـين قالوا عنه مـفتـر ، وعن القرآن مُـفتـرىً ومكذوب ردّ عليهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ .. (٣٨) ﴾ [يونس]

ثم يترقَّى فى جدالهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ [هود] وفى آية أخرى يرد عليهم : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾ [سبأ]

وهل النبى ﷺ لا يـعـرف مَنْ على الهـدى ومَنْ عـلى الضـلال ؟ لا شكَّ أنه إرخـاء العنان للخـصم ، يقول لهـم : أنا وأنتم على طَرَفى نقيض : أنا أقول بإلهٍ واحد وأنتم تُكذِّبون قـولى ، فأنا متناقض معكم فى هذه القضية ، والقضـية لا بُدَّ أن تأتى على شكل واحد ، فإمَّا أنا على الهدى ، وإمَّا أنتم ، وأنا لا أدّعى الحق لنفسى .

إذن : المطلوبُ أنْ تُعملوا عقولكم لتُميِّزوا مَنْ منّا على الهدى ومَنْ منّا على الضلال ، وكأن رسول الله يرتضى حكومتهم فى هذه المسألة ، وما ترك لهم رسول الله الحكمَ إلا وهو واثق أنهم لو تجردوا من الهوى لعرفوا أن الحق معه ، وأنه على الهدى ، وأنهم على الضلال .

إذن : عندما تكلم القرآن عن كفار قريش الذين تعنتوا فى اقتراحاتهم ، وعاندوا وآذوا رسول الله بكل أنواع الإيذاء ، ومع ذلك حينما تكلم عنهم جاء بأسلوب عام فقال : (الذين) ولم يقل هؤلاء ، بل جاء بالقضية العامة ولم يُواجههم بالجزاء مما يدلّ على التلطف فى أمر الدعوة ، وهذا نوع من استمالة الخَصْم لنقطع منه شراسة العداء والعناد .

لذلك يخاطب الحق - تبارك وتعالى - رسوله ﷺ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ .. (١٥٩) ﴾ [آل عمران] كأنك لم تَلِنْ لهم بطبْعك ؛ لأن عنادهم وأذاهم كان سيُرغم طبْعك على أن تكونَ قاسياً معهم ولكن رحمة الله شملتْك فلِنْتَ لهم ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩) ﴾ [آل عمران]

هذا يعنى أن الداعية لا بُدَّ أن يكون رَحْب الصدر ، رَحْب الساحة ، ذلك لأنه يُخرِج أهل الضلال عما ألفوه إلى شىء يكرهونه ، فلا تُخرجهم من ذلك بأسلوب يكرهونه ، فتجمع عليهم شدتين ، إنما تلطَّفْ معهم ، كما قال عز وجل لموسى وهارون عندما أمرهما بدعوة فرعون : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) ﴾ [طه]

لأن الذى بلغ من عناده أنْ يتكبّر لا على المخلوقين أمثاله ، إنما يتكبّر على الخالق فيدّعى الألوهية لا بُدَّ أنْ تأتيه بأسلوب ليِّن لطيف .

وفى آية أخرى يُعلِّم الحق سبحانه رسوله ﷺ كيف يجادل المشركين ، فيقول سبحانه : ﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا .. (٢٥) ﴾ [سبأ]

وهل يُتصوَّر الإجرام من رسول الله ؟! وفى المقابل : ﴿وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ] مع أن منطق الجدل هنا أن يقول : ولا نُسأل عما تُجرمون ، لكنه نسب الإجرام لنفسه ، ولم يذكره فى حَقِّ الآخرين ، فهلَ هناك تلطُّفٌ وترقيق للقلوب فوق هذا ؟

الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعرض لكل هذه المسائل ليثبت أن رسوله ﷺ كان حريصاً على إيمان قومه ، وأنه لم يدّخرْ وُسْعاً فى سبيل هدايتهم وجَذْبهم إليه ؛ لدرجة أنه حمّل نفسه فوقَ ما يطلبه الله منه ، حتى قال له ربه : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾ [الكهف]

وقال : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء]

يعنى : مُهلكٌ نفسك من أجل هدايتهم ، وما عليك إلا البلاغ ، ولا يقول له ربه هذا الكلام إلا إذا كان قد علِم منه حِرْصاً ورغبة أكيدة فى هداية قومه .

ومعنى : ﴿أُوْلَـٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٣٤)﴾ [الفرقان] قوله تعالى ﴿شَرٌّ .. (٣٤)﴾ [الفرقان] ولم يقُلْ أشر ؛ لأن معناها : أن الجهة الثانية فيها شر ، وهذا أيضاً من إرخاء العنان للخصم .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن أقوام الرسل السابقين :

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا[1] (٣٥)﴾

---

(١) الوزير : المعين والمساعد . قال فى [لسان العرب ـ مادة : وزر] : « الوزير فى اللغة اشتقاقه من الوَزَر ، والوزر : الحبل الذى يعتصم به ليُنجى من الهلاك ، وكذلك وزير الخليفة معناه الذى يعتمد على رأيه فى أموره ويلتجىء إليه » .

سبق قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ .. (٣١) ﴾ [الفرقان] فلا بُدَّ أن يكون لكل نبى أعداء ؛ لأنه جاء ليعدل ميزان المكارم الذى تحكم فيه ناس مُستبدون فى شراسة، وأهلُ فساد سيُحْرمون من ثمرة هذا الفساد ، فطبيعى أنْ يقفوا فى وجه الدعوة .

لذلك يضرب الحق سبحانه لرسوله ﷺ بعض الأمثال من موكب الرسالات ، فيقول : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا (٣٥) ﴾ [الفرقان]

كأن الحق سبحانه يقول لرسوله : لقد تعرضتَ لمشقة دعوة أُنَاس لا يؤمنون بالإله ، أمّا موسى فقد تعرض لدعوة مَن ادعى أنه إله ، إذن : هناك مَنْ تحمل كثيراً من المشقات فى سبيلَ الدعوة ، لدرجة أن موسى عليه السلام رأى نفسه لن يستطيع القيام بهذه المهمة وحده .

فنراه وهو النبى الرسول الذى اختاره الله ـ يقول : ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي .. (٣٤) ﴾ [القصص] وهذا يعنى أن موسى ـ عليه السلام ـ يعلم مدى المشقة ، وحجم المهمة التى سيقوم بها .

فالرسالات السابقة كان الرسول يُبعَث إلى أمته المحدودة فى الزمان وفى المكان ، ومع ذلك لاقوا المشقات ، أما أنت يا محمد فقد أُرسلتَ برسالة عامة فى الزمان وفى المكان إلى أنْ تقوم الساعة ، فلا بُدَّ أن تكون متاعبك مثل متاعب مَنْ سبقوك جميعاً .

﴿ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) ﴾

الخطاب فى ﴿ اذْهَبَا .. (٣٦) ﴾ [الفرقان] للرسول موسى ، وللوزير هارون وقال : ﴿ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (٣٦) ﴾ [الفرقان] مع أن فيهم مَن ادعى الألوهية استمراراً لإرخاء العِنَان للخَصْم ، فقد كذَّب فرعون بأن من آيات الله أن يؤمن بإله واحد .

ثم كانت النهاية ﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً (٣٦) ﴾ [الفرقان] لأنهم وقفوا من موسى وهارون موقفَ العداء ، وقامت بينهما معركة تدخل فيها الحق سبحانه ، ودمرهم تدميراً ، كأن الحق سبحانه يقول لرسوله : اطمئن فإنْ حادوا عن جادة الحق وأبَوْا أنْ يأتوك طائعين ، فسوف تكون نهايتهم كنهاية هؤلاء .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) ﴾

ذكر الحق - تبارك وتعالى - نوحاً بعد موسى عليهما السلام ؛ لأن كلاً منهما تميَّز فى دعوته بشىء ، وتحمَّل كل منهما ألواناً من المشقة ، فموسى واجه مَن ادعى الألوهية ، ونوح أخذ سُلْطة زمنية واسعة انتظمتْ كل الموجودين على الأرض فى وقته - ولا يعنى هذا أنه - عليه السلام - أُرسل إلى الناس كلهم ، إنما كان قومه هم الموجودون على الأرض فى هذا الوقت - فقد لَبِثَ فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً .

واقرأ قصته - عليه السلام - فى سورة نوح لتقف على مدى معاناته فى دعوة قومه طوال هذه الفترة ، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل ، وكانت الغَلَبة له فى النهاية .

وأيضاً لأنه ـ عليه السلام ـ تعرّض لأمر يتعلق بالبنوة ، بُنوّة في المنهج ، وبُنوة في النسب ، فقد كان ابنه ـ نسباً ـ كافراً ، ولم يتمكن من هدايته ، ولما قال لربه عز وجل ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. ﴿٤٥﴾﴾ [هود] قال له : ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. ﴿٤٦﴾﴾ [هود]

فجعل حيثية النفي ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. ﴿٤٦﴾﴾ [هود] فالنسب هنا عمل وطاعة ، فكأن البنوة للأنبياء بنوة عمل ، لا بنوة نسب ، فابنك الحق مَنْ سار على منهجك ، وإنْ لم يكُنْ من دمك .

مسألة أخرى نلحظها في الجمع بين موسى ونوح عليهما السلام في مقام تسلية رسول الله ﷺ ، فهما يشتركان في ظاهرة كونية تستحق التأمل والنظر ، فكل مظاهر الكون التي أمامنا لو حققنا في كل مظهر من مظاهرها بعقل وتُؤدَة ويقين لأمكَننا أن نستنبط منها ما يُثرى حياتنا ويُترفها ويُسعدها .

لذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ ينعى على الذين يُعرضون عن النظر في آياته ، فيقول : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف]

وسبق أن قلنا : إن كل المخترعات التي رفّهتْ حياة الناس وأسعدتهم ، وقلّلت مجهوداتهم ، وقصّرت الوقت عليهم ، كانت نتيجة الملاحظة والتأمل في مظاهر الكون كالذي اخترع العجلة والبخار .. إلخ .

وهنا نلاحظ أن العلاقة بين موسى ونوح ـ عليهما السلام ـ أن الله تعالى يُهلك ويُنجي بالشيء الواحد ، فالماء الذي نجّى موسى هو الماء الذي أغرق فرعون ، والماء الذي نجّى نوحاً هو الماء الذي أغرق

الكافرين من قومه . فهذا تسلية لرسول الله ﷺ ، فالله تعالى إنْ أراد الإنجاء يُنجِّي ، وإنْ أراد الإهلاك يُهلك ، ولو بالشيء الواحد .

ألاَ ترى أن أصحاب موسى حينما رأوا البحر من أمامهم ، وفرعون من خلفهم قالوا ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء] فهذه حقيقة وقضية كونية مَنْ يملك ردّها ؟ إنما ردها موسى فقال (كَلاَّ) لن نُدرَك ، قالها بملء فيه ، لا ببشريته ، إنما بالربوبية التى يثق فى أنها لن تسلمه ، ﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء]

وكذلك كانت مسألة نوح عليه السلام ، لكن بطريقة أخرى ، هى السفينة ، وفكرة السفينة لم تكُنْ موجودة قبل نوح عليه السلام ، ألم يصادف واحد شجرة مُلْقاة فى الماء تطفو على سطحه ، ففكّر فى ظاهرة الطفو هذه ، وكيف أن الشجرة لم تغطس فى الماء ؛ لقد كان النجارون الماهرون يقيسون كثافة الخشب بأن يُلْقوه فى الماء ، ثم ينظروا مقدار الغاطس منه فى الماء ، وعليه يعرفون كثافته .

هذه الظاهرة التى تنبه لها أرشميدس وبنَى عليها نظرية الأجسام الطافية والماء المُزَاح ، وتوصّل من خلالها إلى النقائض ، فبها تطفو الأشياء أو تغوص فى الماء ، إنْ زادت الكثافة يثقل الشيء ويغوص فى الماء ، وإنْ قلَّتْ الكثافة يطفو .

وتلاحظ ذلك إذا رميتَ قطعة نقود مثلاً ، فإنها تغطس فى الماء ، فإنْ طرقتَها حتى جعلتها واسعةَ الرقعة رقيقة ، فإنها تطفو مع أن الكتلة واحدة ، نعم الكتلة واحدة ، لكن الماء المُزَاح فى الحالة الثانية أكثر ، فيساعد على طفْوها .

وقد أراد الحق ـ تبارك وتعالى ـ أن يُنبِّه الإنسان إلى هذه الظواهر ، ويهديه إلى صناعة السفن التى تحمله فى الماء ؛ لأن ثلاثة

أرباع الكرة الأرضية مياه ، وقد جعل الله لك وسائل مواصلات في الربع ، ألاَ يجعل لك مواصلات في الثلاثة أرباع ؛ فتأخذ خيرات البحر ، كما أخذت خيرات البرِّ ؟

وتأمل أسلوب القرآن : ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ .. (٣٧)﴾ [الفرقان] ومعلوم أنهم كذَّبوا رسولهم نوحاً لا جميع الرسل ، قالوا : لأن النبوة لا تأتي بمتعارضات ، إنما تأتي بأمور مُتفق عليها ؛ لذلك جعل تكذيبَ رسول واحد كتكذيب جميع الرسل .

ثم ذكر عاقبة ذلك : ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً .. (٣٧)﴾ [الفرقان] وكلمة ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ .. (٣٧)﴾ [الفرقان] تعني : أن الذي أغرق المكذبين نَجَّى المؤمنين ، وإغراق المكذبين أول عملية تردُّ على سخريتهم من نوح ، حينما مرُّوا عليه وهو يصنع السفينة : ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨)﴾ [هود]

ولم يكن الغرق نهاية الجزاء ، إنما هو بدايته ، فهناك العذاب الذي ينتظرهم في الآخرة : ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧)﴾ [الفرقان] وهكذا جمع الله عليهم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة .

ثم يضرب الحق ـ تبارك وتعالى ـ لرسوله مثلاً آخر :

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨)﴾

إنها نماذج من المتاعب التي لاقاها الرسل من أممهم ، كما قال في موضع آخر : ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. (٦٥)﴾ [الأعراف] . ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا .. (٧٣)﴾ [الأعراف]

وكانت النهاية أن نصر الله أولياءه ورسله ، ودحر خصومهم والمكذِّبين بهم ، كل ذلك ليقول لرسوله ﷺ : يا محمد لست بدعاً من الرسل ، فإنْ وقف منك قومك موقفَ العناد والتكذيب ، فكُنْ على يقين وعلى ثقة من نصر الله لك كما قال :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

إنها قضية يطلقها الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا للتأريخ فقط ، ولكن لتربية النفس البشرية ، فإنْ أردتَ الغلبة فكُنْ في جند الله وتحت حزبه ، ولن تُهزَم أبداً ، إلا إذا اختلَّتْ فيك هذه الجندية ، ولا تنْسَ أن أول شيء في هذه الجندية الطاعة والانضباط ، فإذا هُزِمْتَ في معركة فعليك أن تنظر عن أيٍّ منهما تخليْتَ .

لذلك رأينا في غزوة أحد أن مخالفة الرماة لأمر رسول الله قائد المعركة كانت هي سبب الهزيمة[1] ، وماذا لو انتصروا مع مخالفتهم لأمر الرسول ؟ لو انتصروا لَفهموا أنه ليس من الضروري الطاعة والانقياد لأمر رسول الله . إذن : هذا دليل على وجوب الطاعة ، وألاَّ يخرجوا عن جندية الإيمان أبداً خضوعاً وطاعة ، ولا تقولوا : إن الرسول بيننا فهو يُربيكم ؛ لأنه لن يخلد فيكم .

---

(١) أمَّر رسول الله ﷺ على الرماة عبد الله بن جبير ، والرماة خمسون رجلاً ، فقال له ﷺ : « انضح عنا الخيل بالنبل لا يأتوننا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك » [دلائل النبوة ٣/٢٢٧] وفي رواية أخرى (٣/٢٢٩) : أن النبي ﷺ قال لهم : « إذا رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم . ثم لاحت لهم الغنائم ، فقال الرماة : الغنيمة ، ظهر أصحابكم فما تنتظرون ؟ قال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة ، فأتوهم فصرفت وجوههم ، فأقبلوا منهزمين » .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [الفرقان] الرسّ : هو البئر أو الحفرة ، وكانت في اليمامة ، ويُسمُّونها الأخدود ، وقد ورد ذكرها في سورة البروج .

وقد قال سبحانه هنا : ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [الفرقان] لم يُرد الحق سبحانه أنْ يُعدِّد كل الأمم السابقة ، واكتفى بذكْر نماذج منها ، وفي مواضع أخرى يجمعهم جملةً ، فيقول تعالى : ﴿ فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا[1] وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ ﴾

﴿ وَكُلاًّ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [الفرقان] أي : كُلٌّ من المتقدمين ﴿ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [الفرقان] يَعني : لم أدع رسولاً إلا وجئتُ له بالعبرة برسول قبله ، أقول له : انظر فيمَنْ سبقك كيف كذَّبه قومه ؟ وكيف عاندوه ووقفوا منه هذا الموقف ، ومع ذلك كانت له الغلبة عليهم ؛ ذلك ليأخذ كُلُّ نبي شحنةَ مناعة وطاقة يصمد بها أمام شدائد الدعوة ، فلا يلين ، ولا ييأس ، ولْيكُنْ على يقين أن النهاية له وفي صالحه .

﴿ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الفرقان] أي : أهلكنا ودمرنا كل من كذَّب الرسل بأنواع مختلفة ومتعددة من ألوان العذاب ، فعوقب بعضهم بالصيحة أو الخسف أو الإغراق أو بالريح الصرصر العاتية .

---

(١) حصبه : قذفه بالحصى . والحاصب : إعصار شديد يقذفكم بالحصى فيهلككم والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك . [القاموس القويم ١/١٥٦] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾[(1)]

هذه المشاهد لم تكن مجرد تاريخ يحكيه القرآن ، إنما مشاهد ومرَاء رآها كفار مكة في رحلة الصيف يمرون على هذه الديار ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات] إذن : فهذا التاريخ له واقع يسانده ، وآثار تدل عليه .

والقرية التي أُمطرتْ مطر السَّوْء هي سدوم قرية قوم لوط ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الفرقان] ألم يشاهدوها في أسفارهم .

﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الفرقان] كلمة (بَلْ) للإضراب ، فهي تنفي ما قبلها ، وتُثبت ما بعدها ، فالمعنى : أنهم مرُّوا عليها وشاهدوها ، ويَعْرفونها تمام المعرفة ، لكنهم لا يرجُونَ نُشُوراً يعني : لا ينتظرون البعث ، ولا يؤمنون به ، ولا يعترفون بالوقوف بين يدي الله للحساب ، ألم يقولوا : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [المؤمنون]

وعجيبٌ ألاَّ يؤمنَ هؤلاء بالبعْث والحساب ، وهم أنفسهم كانوا إذا رأَوْا ظالماً وقفوا في وجهه ومنعوه من الظلم ، كما كان في حِلْف

---

(١) المقصود بهم مشركو قريش ، فقد كانوا في الصيف يمرون على قرية قوم لوط في رحلتهم إلى الشام في الصيف .

الفضول مثلاً ، فيأخذون الظالم ويعاقبونه حتى يرجع عن ظُلْمه ، ثم يردُّون للمظلوم حَقَّه ، لكن ألم ينظروا فى حال الظالمين الذين مرُّوا فى الدنيا دون عقاب ، ودون قصاص ؟ أليس من العدل أن تكون لهم دَارٌ أخرى يُحاسبون فيها ؟

لذلك كنا نردُّ على الشيوعيين بهذه المسألة ، نقول لهم : لقد عذبتُمْ أعداءكم من الإقطاعيين والرأسماليين ، وانتقمتُم منهم فما بال الذين سبقوكم ولم تدركوهم ؟ أليس من العدل أنْ تعترفوا بيوم جامع يُحاسب فيه هؤلاء ؟

ولما قال القائل : لن يموت ظلوم حتى ينتقم الله منه ، قالوا له : إن فلاناً الظالم قد مات ، ولم نَرَ فيه شيئاً ، فقال : إن وراء هذه الدار داراً يُجازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته .

وبعد أن عرض الحق - تبارك وتعالى - بعض النماذج من موكب النبوات تسليةً لرسوله ﷺ يُبيِّن أن الأمر مع هؤلاء الكفار لن يتوقف عند العنَاد والتعنّت بمطالب سخيفة ، إنما يتعدَّى ذلك إلى محاولة الاستهزاء به والسخرية منه ، فقال سبحانه :

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾

(إنْ) نافية بمعنى : ما يتخذونك إلا هُزُواً ، ثم ذكر صيغة الاستهزاء : ﴿أَهَـٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان] وفى موضع آخر قالوا : ﴿أَهَـٰذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ .. ﴿٣٦﴾﴾ [الأنبياء] كأنه ﷺ دون هذه المنزلة ، وما دام الرسول فى نظرهم دون هذه المنزلة

فإنهم يريدون شخصاً على مستوى المنزلة ، كما قالوا : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

ومعنى هذا أنهم مؤمنون بضرورة وجود إله ورسول ومنهج ، وكل اعتراضهم أن تكون الرسالة فى محمد بالذات .

ثم يتناقضون مع أنفسهم ، فيقولون :

﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) ﴾

فكيف تستهزئون به وترَوْنه دون مستوى الرسالة ، ثم تقولون إنه كاد أنْ يُضلكم عن آلهتكم يعنى : قَرُبَ أنْ يُضلكم عن آلهتكم ، مع ما أنتم عليه من التعنّت والعناد ؟ هذا دليل وشهادة لرسول الله أنه قويٌّ وأنه على مستوى الرسالة ، وأنه لم يدخر وُسْعاً فى دعوتكم ، حتى كاد أنْ يصرفكم عن آلهتكم .

والدليل على أنهم كانوا يخافون من تأثير رسول الله عليهم قولهم لأتباعهم إذا رأوهم يستمعون للقرآن : ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت] إذن : يريدون أنْ يُشوِّشوا على القرآن لما يعلمون من تأثيره فى النفوس ، وهم أمة فصاحة وبلاغة ، فإنْ سمعوا القرآن فلا بُدَّ أن يُؤثّر فى قلوبهم ويجذبهم إليه .

ألا ترى قصة إسلام عمر - رضى الله عنه - وكيف كان قبل الإسلام شديداً جباراً ؟ فلما تهيأت له الفرصة فاستمع للقرآن وصادف منه ملكةً سليمة وفطرة نقية ، حيث أعاده حادث ضَرْبه

لأخته وشَجَّه لها ، أعاده إلى سلامة الفطرة والطويّة ، فلما سمع منها القرآن وصادف منه قلباً نقياً وفطرة سليمة تأثر به ، فأسرع إلى رسول الله يعلن إسلامه .

إذن : فقولكم : ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا .. (٤٢)﴾ [الفرقان] دليل على أنه كُفْء للمهمة التى بعث بها ، وهذا يناقض قولكم سخريةً منه واستهزاءً : ﴿أَهَـٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١)﴾ [الفرقان]

وقولهم : ﴿لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا .. (٤٢)﴾ [الفرقان] يدل على أنه ﷺ فعل معهم أفعالاً اقتضتْ منهم أنْ يصبروا[1] على الضلال ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الفرقان] سيعرفون ذلك ، لكن بعد فوات الأوان ، وبعد ألاَّ تنفعهم هذه المعرفة .

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣)﴾

الحق - تبارك وتعالى - يضع لرسوله ﷺ قضية ، هى أن الدين إنما جاء ليعصم الناس من أهواء الناس ، فلكُلِّ نفس بشرية هَوىً ، وكل إنسان يعجبه هواه ، وما دام الأمر كذلك فلن ينقاد لغيره ؛ لأن غيره أيضاً له هوىً ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

لكن ، لماذا تختلف الأهواء ؟ قالوا : لأن طبيعة الحياة تتطلب أن تكون الأهواءُ مختلفةً ؛ لأن مجالات الحياة متعددة ، فهذا هواه فى كذا ، وهذا هواه فى كذا . فترى الصَّديقَيْن يلازم أحدهما الآخر ، ويشاركه طعامه وشرابه ، فلا يفرقهما شيء ، فإذا ما ذهبا لشراء

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٤٩١١) : « أى : حبسنا أنفسنا على عبادتها » .

شىء ما تباينتْ أهواؤهما ، كما أن هوىً مختلفاً يخدم هوىً مختلفاً ، فالذين اختلفوا مثلاً فى تصميم الأشياء يخدمون اختلاف الأذواق والأهواء ، لذلك يقولون : خلاف هو عَيْن الوفاق ، ووفاق هو عَيْن الخلاف .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بسيطاً : هَبْ أنك دخلتَ مطعماً ، وأنت تفضل مثلاً ورك الدجاجة وغيرك كذلك يفضله ، وصادف أن فى المطعم (وركاً) واحداً ، فلا شكَّ أنكما ستختلفان عليه . إذن : اتفقتما فى الأول لتختلفا فى الآخر ، لكن إن اختلفتْ رغباتكما ، فسوف ينتج عن هذا الاختلاف اتفاقٌ فى النهاية ، فأنت ستأخذ الورك ، وغيرك سيأخذ الصدر ، فهذا - إذن - خلاف يؤدى إلى وفاق ، ووفاق يؤدى إلى خلاف .

هنا يقول الحق سبحانه : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ .. (٤٣) ﴾ [الفرقان] الهَوَى . أن تكون هناك قضية ظاهرٌ فيها وَجْه الحق ، إلا أنك تميلُ عنه وأنت تعرفه ، لا أنك تجهله .

لذلك يقول العلماء : آفةُ الرأى الهوى . فالرأى قد يكون صائباً ، لكن يميل به الهوى حيث يريد الإنسان ، وقلنا : لا أدلّ على ذلك من أن الرجل منهم كان يسير فيجد حجراً أجمل من حَجره الذى يعبده ، فيلْقى الإله الذى يعبده ليأخذ هذا الذى هو أجمل منه فيتخذه إلهاً ، إذن : هواه فى جمال الحجر غلب أنه إله .

وقد وقف المستشرقون عند قوله تعالى فى حَقّ النبى ﷺ :
﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) ﴾ [النجم]

يقولون : كيف يحكم الله بأن رسوله لم ينطق عن الهوى ، وقد عدَّل الله له بعض ما نطق به ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ

تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. ۝١﴾ [التحريم]

وقال تعالى : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ .. ۝٤٣﴾ [التوبة]

ولا بُدَّ أن نُحدِّد مفهوم الهوى أولاً : أنت مدرك أن لديه قضيتين : الحق واضح فى إحداهما ، إلا أن هواه يميل إلى غير الحق . إنه ﷺ نطق لأنه لم تكن هناك قضية واقعة ، وهو يعرف وجه الحق فيها ، فهو - إذن - لم يَسِرْ على الهوى ، إنما على ما انتهى إليه اجتهاده .

ألاَ ترى قوله تعالى لرسوله ﷺ فى مسألة تبنِّيه لزيد بن حارثة ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. ۝٥﴾ [الأحزاب] فمعنى أن نسبته لأبيه أقسط أن رسول الله لم يكُنْ جائراً ، فما فعله قِسْط ، لكن فِعْل الله أقسط منه .

فالحق - تبارك وتعالى - لم يُخطّىء رسوله ﷺ ، وسمّى فعْله عدلاً ، وهو عَدْل بشرى يناسب ما كان من تمسُّك زيد برسول الله ، وتفضيله له على أهله ، فلم يجد رسول الله أفضلَ من أنْ يتبنَّاه مكافأةً له .

ثم يقول سبحانه : ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ۝٤٣﴾ [الفرقان] وكيلاً يتولّى توجيهه ، ليترك هواه ويتبع الحق ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغاشية] وقال : ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٩٩﴾ [يونس] وقال : ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ .. ۝٤٨﴾ [الشورى]

فالذى اتبع هواه حتى جعله إلهاً له لا يمكن أنْ تحمله على أنْ

يعدل عن هواه ؛ لأن الأهواء مختلفة ، فالبعض يريد أنْ يتمتع بجهد غيره ، فيضع يده في جيوب الآخرين ليسرقهم ، لكن أيسرُّه أن يفعل الناسُ معه مثلَ فعلْه معهم ؟ إذن : هوى صادمَ هوى ، فأيُّهما يغلب ؟ يغلب مَنْ يحكم بلا هوى ، لا لك ولا عليك ، وقضية الحق في ذاتها لا توجد إلا من الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾

﴿ يَسْمَعُونَ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان] أي : سماع تعقُّل وتدبُّر ، فلو سَمِعُوا وعَقلوا ما وصلتْ بهم المسائل إلى هذا الحدِّ ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان] مع أن الأنعام مُسخَّرة وتُؤدِّي مهمتها ولم تمتنع عن شيء خُلقَتْ له ، فقد شبَّههم الله بالأنعام ؛ لأن الأنعام لا يُطلب منها أن تَسمع الهداية لأنها مُسخَّرة ، والذي يُطلب منه السماع والهداية هو المخيَّر بين أن يفعل أو لا يفعل .

كأن الحق سبحانه يقول : أتظن أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ وكلمة ﴿ أَكْثَرَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان] تدل على أن بعضهم يسمع ويعقل ، وهذا من قانون الاحتمال ، فكثير من كفار قريش ناصبوا رسول الله العداء ، وانتهى الأمر بهم إلى أنْ أسلموا وحَسُن إسلامهم ، إذن : كان فيهم مَنْ يسمع ، ومَنْ يفكر ويعقل ؛ لذلك قال ﴿ أَكْثَرَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان] ليحمي هذا الحكم ، وليحتاط لما سيقع من إيمان هؤلاء البعض ، هذا دقَّة في تحرِّي الحقيقة .

وسبق أنْ ذكرنا ما كان من أسف المؤمنين حين يفوتهم قَتْل أحد صناديد الكفر في المعركة ، فكانوا يألمون لذلك أشدَّ الألم ، وهم لا يدرون أن حكمة الله كانت تدخرهم للإيمان فيما بعد ، ومنهم خالد ابن الوليد الذى أصبح بعد ذلك سيف الله المسلول .

والأنعام قُلْنا : لا دخلَ لها فى مسألة الهداية أو الضلال ؛ لأنها مُسخَّرة لا اختيارَ لها ؛ لذلك ضرب الله بها المثل لليهود : ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا .. ۝ ﴾ [الجمعة] فالحمار مهمته أنْ يحمل فحسب ، أمّا أنت أيها اليهودى فمهمتك أن تحمل وتطبق ، الحمار لا يطبق ؛ لأنه لم يُطلب منه ذلك ، مع أن الحيوان يعرف صاحبه ويعرف طعامه ومكان شرابه ، ويعرف طريقه ومكان مبيته ، حتى أن أحدهم مات على ظهر جواده ، فسار به الجواد إلى بيته .

إذن : فالأنعام تفهم وتعقل فى حدود المهمة التى خلقها الله لها ، ولا تُقصِّر فى مهمتها ، أما المهمة الدينية فتعلمها فى باطن الأمر ، لكن لا يُطلَب منها شىء الآن ؛ لأنها انتهتْ من هذه المسألة أولاً ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ۝ ﴾ [الأحزاب]

فاختاروا أن يكونوا مُسيَّرين بالغريزة محكومين بها ، إذن : فلهم اختيار ، لكن نفّذوا اختيارهم جملةً واحدة من أول الأمر .

خُذْ مثلاً الهدهد وهو من المملوكات التى سخّرها الله لسليمان ـ عليه السلام ـ يقول له : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝ ﴾ [النمل] أىُّ ديمقراطية هذه التى تمتَّع بها الهدهد مع سليمان .؟! إذن : فحتى الحيوانات تعرف هذه القضية ، وإنْ لم يُطلَب

منهـا شيء ، والحيوانـات لا يمكن أنْ تفعل شـيئاً إلا إذا كـان منوطاً بغرائزها وفى مقدورها .

وسـبق أنْ ضربنا مـثلاً بالحـمار ، إذا أردتَ منه أن يقـفز فـوق جدول ماء فإنه ينظر إليه ، فإنْ كان فى مقدوره قفزَ ، وإنْ كان فوق مقدوره تراجَع ، ولا يمكن أنْ يُـقدم مهما ضربتـه ؛ لأنه علم بغريزته أنه فوق إمكاناته ، أمـا الإنسـان فقـد يُقدم على مثل هذا دون حـساب للإمكانات ، فيُوقع نفسه فيما لا تُحمد عقباه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ وهو خـالق الآيات فى الكون يُنبِّه إليها الخلْق ، وكان من المفروض مـمَّن يرى الآيات أنْ يتنبه إليها بدون أنْ يُنبه ، فـإذا رأى عجيبـة من عجائب الكون تأملها ، وسـبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً بمَن انقطعت به السُّبل فى صحراء شاسعة ، ليس بها أنيس ولا حيـاة ، وقد بلغ به الجـهد حتى نـام ، فلما استـيقظ وجـد مائدة عليها أطايـب الطعام أو الشراب ، بالله قبل أنْ تمتـدَّ يده إلى الطعام ، أليس من المفروض أنْ يفكر فى هذا الطعام ، مَنْ أتى به ؟ وأعدَّه على هذه الصورة ؟

إذن : فى الكون آياتٌ كان يجب أنْ تشدَّ انتباهك لتبحث فيها وفى آثار وجودها وكلها آيات عالية عنّا وفـوق إمكاناتنا : الشمس والقمر ، الهـواء والمطر .. إلخ . ومع ذلك لم يتـركك الله ؛ لأن تتنبـه أنت ، بل نبَّهك ولفتَك وجذب انتباهك لهذه ولهذه .

وهنا ، الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعرض الآيات والكونيات التى يراها الإنسان برتابة كل يوم ، يراها الفيلسوف كما يراها راعى الشاة ، يراها الكبير كما يراها الصغير كل يوم على نظام واحد ، لا يكاد يلتفت إليها .

يقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ .. (٤٥) ﴾ [الفرقان] أى : ألم تعلم ، أو ألم تنظر إلى صَنْعة ربك ﴿ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ[1] سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ﴾ [الفرقان] نعم نرى الظل ، فما هو ؟ الظل أنْ يَحْجب شيء كثيف على الأرض ـ مثل جبل أو بناء أو شجرة أو نحوه ـ ضوءَ الشمس ، فتظهر منطقة الظل فى المكان المُشْمس ، فالمسألة ـ إذن ـ متعلقة بالشمس ، وبالأرض التى نعيش عليها .

وقد علمنا أن الأرض كرة تواجه الشمس ، فالجهة المواجهة منها للشمس تكون مُضاءة ، والأخرى تكون ظلاماً لا نقول ـ ظلاً ، فما الفرق بين الظلّ والظلام ؟ قالوا : إذا كان الحاجبُ لضوء الشمس من نفس الأرض فهى ظُلْمة ، وإنْ كان الحاجب شيئاً على الأرض فهو ظل .

والظل نراه فى كل وقت ، وقد ورد فى عدة مواضع من كتاب الله ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ (٤١) ﴾ [المرسلات]

وقال : ﴿ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً (٥٧) ﴾ [النساء]

وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ .. (٤٨) ﴾ [النحل]

ينبهنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ إلى مهمة أخرى من مهام الظل ، وهى أنه يحمينا من وَخْزة الشمس وحرارتها ، ويرتقى الإنسان فى استخدام الظل فيجعله كما قال تعالى ﴿ ظِلاًّ ظَلِيلاً (٥٧) ﴾ [النساء] أى :

---

(١) أى : دائماً مستقراً لا تنسخه الشمس . قاله القرطبى فى تفسيره (٧/ ٤٩١٤) .

أن الظل نفسه مُظلَّل ، فيجعلون الخيمة مثلاً لها سقفان منفصلان حتى لا يتأثر داخلُ الخيمة بالحرارة خارجها .

لذلك تجد ظل الشجرة ألطفَ من ظلٍّ الحائط مثلاً أو المظلة ؛ لأن أوراق الشجرة يُظلِّل بعضها بعضاً ، فالظل يأتيك من مُظلل آخر ، فتشعر تحت ظل الشجرة وكأنك فى (تكييف) ؛ لأن الأوراق تَحجب عنك حرارة الشمس ، فى حين تسمح بمرور الهواء ، كما قال الشاعر فى وصف دوحة :

يصدُّ الشمسَ أنَّى وَاجَهتْنَا فَيَحْجُبُها وَيَأْذَنُ لِلْنَسِيمِ

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا[1] الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ .. (١٧١) ﴾[الأعراف]

وحين تتأمل هذه الظاهرة ساعةَ طلوع الشمس ترى الشىء الكثيف الذى يحجب ضوء الشمس يطول ظلُّه إلى نهاية الأفق ، ثم يأخذ فى القصر كلما ارتفعتْ الشمس إلى أنْ يصير فى زوال ، ثم ينعكس الظلَ مع ميل الشمس ناحية الغرب فيطول إلى نهاية الأفق .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد منا أن نلاحظ هذه الظاهرة ، وأنْ نتأملها ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ .. (٤٥) ﴾ [الفرقان] أى : ساعة طلوع الشمس ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا .. (٤٥) ﴾ [الفرقان] لأن مشيئة الله تستطيع أن تخلق الشىء ونقيضه ، فإنْ شاءَ مَدَّ الظل ، وإنْ شاء أمسكه .

---

(١) نتقه نتقاً : رفعه من مكانه وحركه وجذبه . [القاموس القويم ٢/٢٥٢] . قال ابن عباس : رفعته الملائكة فوق رؤوسهم . وذكر سنيد بن داود فى تفسيره أن الله أوحى إلى الجبل فانقلع فارتفع فى السماء حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء قال لهم موسى : ألا ترون ما يقول ربى عز وجل ، لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الخيط . [تفسير ابن كثير ٢/٢٦١] .

ولكنه يتغير : ينقص فى أول النهار ، ويزيد فى آخره وكل ما يقبل الزيادة يقبل النقص ، والنقص أو الزيادة حركة ، وللحركة نوعان : حركة قَفْزية كحركة عقرب الدقائق فى الساعة ، فهو يتحرك بحركة قفزية ، وهى أنْ يمرَّ على المتحرك وقت ساكن ثم يتحرك ، إنما أتدرك ذلك في حركة عقرب الساعات ؟ لا ؛ لأنه يسير بحركة انسيابية ، بحيث توزع أجزاء الحركة على أجزاء الزمن .

ومثَّلْنا هذه الحركة بنمو الطفل الصغير الذى لا تدرك حركة نموه حالَ نظرك له منذ ولادته ، إنما إنْ غبْتَ عنه فترة أمكنك أنْ تلاحظ أنه يكبر ويتغير شكله ؛ لأن نموه مُوزَّع على فترات الزمن ، لا يكبر هكذا مرة واحدة . فهى مجموعات كِبَر تجمعتْ فى أوقات متعددة ، وليس لديك المقياس الدقيق الذى تلاحظ به كبر الطفل في فترة قصيرة .

وإذا كنا نستطيع إجراء هذه الحركة في الساعات مثلاً ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يُحدثها فى حركة الظل وينسبها لعظمها إلى نفسه تعالى ؛ لأن الظل لا يَسير بحركة ميكانيكية كالتى تراها فى الساعة إنما يسير بقدرة الله .

والحق سبحانه يلفتنا إلى هذه الظاهرة ، لا لأنها مجرد ظاهرة كونية نراها ونتعجب منها ، إنما لأننا سنستغلها وننتفع بها فى أشياء كثيرة .

فقدماء المصريين أقاموا المسلات ليضبطوا بها الزمن عن طريق الظل ، وصنع العرب المسلمون المزْولة لضبط الوقت مع حركة الشمس ، ونرى الفلاح البسيط الآن ينظر إلى ظل شيء ويقول لك : الساعة الآن كذا ؛ لأنه تعوَّد أن يقيس الوقت بالظل ، مع أن مثل هذا التقدير يكون غير دقيق ؛ لأن للشمس مطالعَ متعددة على مرٍّ أيام العام ؛ لذلك فى أحد معابد الفراعنة معبد به ٣٦٥ طاقة ، تدخل الشمس كل يوم واحدة منها .

إذن : أفادنا الظل في المسلات والمزاول ، ومنها انتقل المسلمون إلى عمل الساعات ، وأولها الساعة الدقاقة التي كانت تعمل بالماء ، وقد أهدوا شارلمان ملك فرنسا واحدة منها فقال : إن فيها شيطاناً ، هكذا كان المسلمون الأوائل .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴿٤٥﴾ ﴾ [الفرقان] أي : أن الضوء هو الذي يدل على الظلِّ .

﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يُبيِّن الحركة البطيئة للظل فيقول : ﴿ قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الفرقان] لا تدركه أنت أبداً ؛ لأن في كل لحظة من لحظات الزمن حركة فلا يخلو الوقت مهما قَلَّ من الحركة ، لكن ليس لديك المقياس الذي تدرك به بُطْءَ هذه الحركة .

وقوله : ﴿ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الفرقان] دليل على أن المسألة ليست ميكانيكا ، إنما هي بقيومية الله تعالى ؛ لذلك فكأن الحق سبحانه يقول : يا عبادي ناموا مِلْءَ جفونكم ، فربُّكم قيُّوم على مصالحكم لا ينام .

وأهل المعرفة يستنبطون من ظاهرة الظل أسراراً ، فيروْنَ أن ظلَّ الأشياء الشاهقة المتعالية يخضع لله تعالى ، ويسجد على الأرض ، رغم أنه مُتعال شامخ ، كما جاء في قوله سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرعد]

وقال سبحانه : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النور] فللظل حركة بطيئة لا يعلمها إلا الله ؛ لأنك لا تدرك مدى صغَرها ؛ لذلك قُلْنا في الهباء : إنه نهاية ما يمكن أن يكون من التفتيت المنظور .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾

﴿ اللَّيْلَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الفرقان] يعنى : الظلْمة لا الظل ، فالظلمة هى التى منعتْ النور ، وإياك أن تظن أن الظلمة ضد النور ، وتحاول أنت أن تنسخ الظلمة بنور من عندك ، وهذه آفة الحضارة الآن أنْ جعلتَ الليل نهاراً .

وقد تنبه العلماء أخيراً إلى مدى ضرر الأشعة على صحة الإنسان ، لذلك جاء فى الحديث الشريف : « أطفئوا المصابيح إذا رقدتم »[1] فالشعاع له عمل وقت حركتك ، لكن ساعة نومك وراحتك ليس له مهمة ، بل هو ضار فى هذا الوقت .

والحق - تبارك وتعالى - يمتنُّ علينا بالليل والنهار ، فيقول : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[2] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص]

إذن : فلليل مهمة ، وللنهار مهمة يُوضِّحها هنا الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الفرقان] أى : ساتراً ،

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٢٤) ، وأحمد فى مسنده (٣/٣٨٨) عن جابر بن عبد الله واللفظ للبخارى .

(٢) السرمد : الدائم الذى لا ينقطع . والسرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . [لسان العرب - مادة : سرمد] .

كما أن اللباس يستر الجسم ، والنوم ردع ذاتي يقهر الكائن الحي ، وليس ردعاً اختيارياً .

لذلك تلاحظ أنك إنْ أردت أنْ تنامَ في غير وقت النوم تتعب وترهق ، أمّا إنْ أتاك النوم فتسكن وتهدأ ، ومن هنا قالوا : النوم ضيف ثقيل إنْ طلبته أعْنَتكَ ، وإنْ طلبك أراحك .

لذلك ساعة يطلبك النوم تنام ملْء جفونك ، ولو على الحصى يغلبك النوم فتنام ، وكأن النوم يقولَ لك : اهمد واسترح ، فلم تَعُدْ صالحاً للحركة ، أما مَنْ غالب هذه الطبيعة فأخذ مثلاً حبوباً تساعده على السهر ، فإنْ سهر ليلة نام بعدها ليلتين ، كما أن الذي يغالب النوم تأتي حركته مضطربة غير متوازنة .

فعليك - إذن - أن تخضع لهذه الطبيعة التي خلقك الله عليها وتستسلم للنوم إنْ ألحَّ عليك ، ولا تكابر لتقوم في الصباح نشيطاً وتستأنف حركة حياتك قوياً صالحاً للعمل وللعطاء .

وللصوفية في النوم ملْحظ دقيق يُبْنَى على أن الكون كله غير المختار مُسبِّح لربه ، كما قال تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور] وعليه ، فذرات الكافر في ذاتها مؤمنة ، يؤلمها ويغيظها أن صاحبها عَاصٍ أو كافر فتطيعه ، وهي كارهة لفعله بدليل أنها ستشهد عليه يوم القيامة ، فإنْ كانت مُسخَّرة لمراداته في الدنيا فإنها ستتحرر من هذه الإرادة في الآخرة .

فاللسان مُسخَّر لصاحبه ، إنْ شاء نطق به الشهادتين ، وإنْ شاء نطق به كلمة الكفر ؛ لأنه مقهور لإرادته ، أما في القيامة فلا إرادة إلا للحق تبارك وتعالى .

وفي النوم ترتاح هذه الجوارح وهذه الذرات من سيئات صاحبها ومن ذنوبه ، تستريح من نكده وإكراهه لها على معصية الله . فالنوم

رَدْع طاقىّ ، فلم يَعُد الإنســان صالحاً للحـركة ، ولا للتعـايش السالم مع جوارحه ، لقد كثُرتْ ذنوبه ومعـاصيه حتى ضاقتْ بها الجوارح ، فيأتى النوم ليريحها .

وهذه الظاهرة نشاهدها مثلاً فـى موسم الحج ، يقول لك الحاج : يكفينى أنْ أنامَ فى اليـوم ساعة أو ساعـتين لماذا ؟ لأن السيـئات فى هذا المكان قليلة ، فجوارحك فى راحة وانســجام معك فلا تحملك على النوم ، أمّا العـاصى فلا يكفيه أن ينام عـشر ساعات ؛ لأن جـوارحه وأعضاءه مُتْعَبة متضايقة من أفعاله .

وهذه نُفسِّـر بهـا أن رسـول الله ﷺ كـانت تنام عـيناه ولا ينام قلبه[1] ذلك لأن جوارحـه ﷺ تصحبـه خير صُـحْبة ، فـهى فى طاعة دائمة مستمرة ، فكيف تحمله على أنْ ينام ؟

والخالق ـ عز وجل ـ يعامل الناس على المـعنى العام ، فالنفوس دائماً ميَّالة للشر جانحــة للسوء ؛ لذلك تتعب الطاقة وتتعب الجوارح ، وكأن الله تعـالى يريد إحداث هُدْنة للتعـايش بينك وبين جوارحك ، نَمْ لتصبح نشيطاً .

ومعنى ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا .. (٤٧)﴾ [الفرقان] السَّبْت أى : القطْع . فمعنى ﴿سُبَاتًا .. (٤٧)﴾ [الفرقان] يعنى : قاطعاً للحـركة ، لا انقطاعاً نهائيـاً ، إنما انقطاعاً مُـسْتأنفـاً لحركة أفـضل ، وبدن أقوى وأصحّ ، فالذى يقضى ليله ساهراً يقوم من نومه مُتْعباً مُضطرباً ، على خلاف مَنْ جعل وقت النـوم للنوم ؛ لأن الخالق عز وجل جـعل نومك بالليل على قَدْر مـا تتحرك بالنهار ، فـإنْ أردتَ حركة مُتزنة نشـيطة وقوية فنَمْ على مقدار هذه الحركة .

---

(١) حديث متـفق عليه . أخرجه البـخارى فى صحيحـه (٣٥٦٩) ، وكذا مسلم فى صحـيحه (٧٣٨) كتاب صلاة المسافرين . أن رسول الله ﷺ قال : « يا عائشة ، إن عينىَّ تنامان ، ولا ينام قلبى » .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً ⑰ ﴾ [الفرقان] النشور مثل الشُّكور : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً ⑨ ﴾ [الإنسان] أى : شكر ، وكذلك النشور أى نشر ، والنشر يعنى الانطلاق فى الأرض بالحركة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. ⑩ ﴾ [الجمعة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ⑱ ﴾

قلنا : إن الرياح إذا جاءت هكذا بصيغة الجمع دلَّتْ على الخير ، وإنْ جاءتْ مفردة فهى آتية بالشر ، وإذا نظرتَ إلى الجبال العالية وإلى ناطحات السحاب تقول : ما الذى يقيم هذه المبانى العالية ، فلا تميل ؟ الذى يمسكها هو الهواء الذى يحيط بها من كل ناحية ، ولو فرَّغْتَ الهواء من أحد نواحيها تنهار فوراً .

إذن : فالريح من هنا ، ومن هنا ، ومن هنا ، فهى رياح متعددة تُصلِح ولا تُفسِد ، وتُحدث هذا التوازن الذى نراه فى الكون ، أمّا الريح التى تأتى من ناحيةٍ واحدة فهى مدمرة مهلكة ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ[1] عَاتِيَةٍ ⑥ ﴾ [الحاقة]

وقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ㉔ ﴾ [الأحقاف]

ومعنى ﴿ بُشْراً .. ⑱ ﴾ [الفرقان] بسكون الشين ، مع أنها فى

---

(١) الريح الصرصر : شديدة البرد . وقيل : شديدة الصوت . [لسان العرب ـ مادة : صرر] .

الأصل بُشُراً مثل رُسُل ، فلما خُفِّفَتْ صارت بُشْراً ، والبُشْرى هى الإخبار بما يسرُّ قبل زمنه ، فلا تقول يبشرَ إلا فى الخير ، وكان العربى ساعة تمر عليه الرياح يعرف كم بينه وبين المطر ، فيحكم على مجيء المطر بحركة الرياح الطرية التى تداعب خدّه .

وقوله سبحانه : ﴿ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الفرقان] يقال : بين يديك يعنى : أمامك . والمراد هنا المطر الذى يسبق رحمة الله .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ﴿٤٨﴾ ﴾ [الفرقان] السماء لها معنى لُغوى ، ومعنى شرعى . فهى لغةً : كل ما علاك ، وشرعاً : هى هذه السماء العالية والتى تتكون من سبع سموات ، لكن أينزل المطر من السماء أم من جهة السماء ؟

المطر ينزل من الغمام من جهة السماء ، والغمام أصله من الأرض نتيجة عملية البخر الذى يتجمع فى طبقات الجو ، كما قال سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِى[١] سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ[٢] يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ..﴿٤٣﴾ ﴾ [النور]

إذن : فرحمة الله هى الماء الذى خلق الله منه كلّ شىء حىٍّ .

---

(١) أزجى الشيء : يسوقه برفق ، فيزجى سحاباً : أى يسوقه إلى حيث يشاء . [القاموس القويم ١/٢٨٤ ، تفسير القرطبى ٦/٤٨٢٥] .

(٢) فى الودق قولان :

الأول : أنه البرق . قاله أبو الأشهب العقيلى .

الثانى : أنه المطر . قاله الجمهور . [تفسير القرطبى ٦/٤٨٢٦] وقد ذكر السيوطى القولين أيضاً فى [الدر المنثور ٦/٢١١] الأول عن أبى بجيلة وعزاه لابن أبى حاتم ، والثانى عن الضحاك ومجاهد . عند ابن أبى حاتم وابن أبى شيبة .

وقوله تعالى : ﴿مَاءً طَهُورًا (٤٨)﴾ [الفرقان] الطَّهُور : الماء الطاهر فى ذاته ، المطهِّر لغيره ، فالماء الذى تتوضأ به طاهر ومطهر ، أما بعد أنْ تتوضأ به فهو طاهر فى ذاته غير مُطهِّر لغيره ، وماء السماء طاهر ومُطهر ؛ لأنه مُصفَّى مُقطَّر ، والماء المقطر أنقى ماء .

بالإضافة إلى أن الماء قوَام الحياة ، منه نشرب ونسقى الزرع والحيوان والطير ، فالماء يعطيك الحياة ويعطيك الطهارة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩)﴾

قوله تعالى : ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا .. (٤٩)﴾ [الفرقان] أى : أرض بلدة مَيْت ، وفرْق بين ميْت وميِّت : الميْت هو الذى مات بالفعل ، والميِّت هو الذى يؤول أمره إلى الموت ، وإنْ كان ما يزال على قيد الحياة ، ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠)﴾ [الزمر]

والأرض الميْتة هى الجرداء الخالية من النبات ، فإذا نزل عليها الماء أحياها بالنبات ، كما فى قوله سبحانه : ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)﴾ [الحج]

وقوله تعالى : ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩)﴾ [الفرقان] يُقال سقاه وأسقاه : أسقاه : أعدَّ له ما يستقى منه ، وإنْ لم يشرب الآن ، لكن سقاه يعني : ناوله ما يشربه ، ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)﴾ [الإنسان]

أمَّا فى المطر فيقول سبحانه : ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ .. (٢٢)﴾ [الحجر] أى : أعددناه لِسُقْياكم إنْ أردتم السُّقْيا .

ومعنى ﴿وَأَنَاسِيَّ .. (٤٩)﴾ [الفرقان] جمع إنسان ، وأصلها أناسين ، وخُفِّفَتْ إلى أناسيّ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ[1] إِلَّا كُفُورًا (٥٠)﴾

التصريف : التحويل والتغيير ، والمعنى حوّلناه من هنا إلى هنا . ومع كل هذه العبر والآيات ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا (٥٠)﴾ [الفرقان] فالكافرون بآيات الله كثير لا يلتفتون إلى آيات الله ، حتى بعد أنْ تقدَّم العلم وتقدَّمتْ الحضارة الإنسانية ، ووقف الناس على كثير من الآيات .

فالحق - تبارك وتعالى - يُصرِّف المطر إلى بلاد بغزارة ، فإنْ شاء أصابها الجفاف والجدب حتى تموت مزروعاتهم وحيواناتهم . إذنْ : ليست المسألة بيئة باردة أو كثيرة الأمطار ، إنما المسألة مرادات خالق ، ومرادات حق .

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١)﴾

يريد الحق - تبارك وتعالى - أن يمتنّ على رسوله ﷺ منّة ،

(١) « قال عكرمة : يعني الذين يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، وهذا الذي قاله عكرمة كما صح في الحديث المخرّج في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوماً على إثر سماء أصابتهم من الليل : أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب » . [تفسير ابن كثير ٣/٣٢١] .

فيقول له : المسألة ليست قلةَ رسل عندنا حتى نرسل رسولاً للناس كافة وللزمن كله ، ونحن نستطيع أن نُخفِّف عنك ونبعث فى كل قرية رسولاً يُخفِّف عنك عبء الرسالة ، لكنّا نريد لك أنْ تنال شرف الجهاد وشرف المكافحة ، فجمعناها كلها لك إلى أنْ تقوم الساعة .

ونستفيد من هذه المسألة أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حين يَهَبُ الطاقات لا يعنى هذا أن الطاقة هى التى تحكم قدرته فى الأمر أن يبعث فى كل قرية رسولاً ، إنما يقدر أن يرسل رسولاً ويعطيه طاقة تتحمل هذا كله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾

أى : ما دُمْنا قد جمعنا لك كل القرى ، وحمّلناك الرسالة العامةَ فى كل الزمان وفى كل المكان ، فعليك أن تقف الموقف المناسب لهذه المهمة ﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان] إنْ لوَّحُوا لك بالملك أو بالمال أو بالجاه والشرف ، واعلم أن ما أعده الله لك وما ادخره لك فوقَ هذا كله .

وحين يقول سبحانه لرسوله ﷺ ﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان] فإنه يعذره أمامهم ، فالرسول ينفذ أوامر الله .

ونَهْى الرسول عن طاعة الكافرين لا يعنى أنه ﷺ يطيعهم ، فهذه كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا .. ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء] فكيف يطلب الإيمان ممَّنْ ناداهم بالإيمان ؟ إنه تحصيل حاصل . قالوا : المعنى : أنت آمنتَ قبل أن أقول لك هذه الكلمة ، وأقولها لك الآن لتُواصل

إيماناً جديداً بالإيمان الأول ، وإياك أنْ ينحلّ عنك الإيمان . إذن : إذا طُلِب الموجود فالمراد استدامة الوجود .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ .. ۝ ﴾ [الفرقان] أى : بما جاءك من القرآن ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ۝ ﴾ [الفرقان] واعلم أنك غالب بأمر الله عليهم ، ولا تقُلْ : إن هناك تيارَ إشراك وكفر وإيمان ، وسوف أعطيك مثلاً كونياً فى أهم شىء فى حياتك ، وهو الماء :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ[1] الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ[2] وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝ ﴾

تأتى هذه الآية استمراراً لذكْر بعض آيات الله فى الكون التى تلفت نظر المكابرين المعاندين لرسول الله ، وسبق أنْ ذكر سبحانه : الظل والليل والرياح .. الخ إذن : كلما ذكر عنادهم يأتى بآية كونية ليلفتهم إلى أنهم غفلوا عن آيات الله ، وجدالهم مع رسول الله يدل على أنهم لم يلتفتوا إلى شىء من هذا ؛ لذلك ذكر آية كونية من آيات الله المرئية للجميع ومكررة ، وعليها الدليل القائم إلى يوم القيامة ، فقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ .. ۝ ﴾ [الفرقان]

المَرْج : المرعى المباح ، أو الكلأ العام الذى يسوم فيه الراعى ماشيته تمرح كيف تشاء.

فمعنى ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ .. ۝ ﴾ [الفرقان] أى : جعل العَذْب والمالح يسيران ، كُلٌّ كما يشاء ، لذلك تجد البحار والمحيطات المالحة التى تمثل

---

(١) مرج : أرسلهما وأفاض أحدهما فى الآخر . قاله مجاهد . وقال ابن عرفة : أى خلطهما فهما يلتقيان . وقال الأزهرى : مرج البحرين . خلَّى بينهما . [تفسير القرطبى٧/ ٤٩٣٤] .

(٢) الأجاج : الملح الشديد الملوحة . أجَّ الماء : اشتدت ملوحته . [القاموس القويم ١/ ٧] .

ثلاثة أرباع اليابسة ليس لها شكل هندسى منتظم ، بل تجده تعاريج والتواءات ، وانظر مثلاً إلى خليج المكسيك أو خليج العقبة ، وكأن الماء يسير على (هواه) ودون نظام ، فلا يشكل مستطيلاً أو مربعاً أو دائرة .

وكذلك الأنهار التى تولدتْ من الأمطار على أعلى الجبال ، فتراها حين تتجمع وتسير تسير كما تشاء ، ملتوية ومُتعرِّجة ؛ لأن الماء يشقُّ مجراه فى الأماكن السهلة ، فإنْ صادفته عقبة بسيطة ينحرف هنا أو هناك ، ليكمل مساره ، وانظر إلى التواء النيل مثلاً عند (قنا) .

إذن : الماء عَذْبٌ أو مالح يسير على هواه ، وليست المسألة (ميكانيكا) ، وليست منتظمة كالتى يشقُّها الإنسان ، فتأتى مستقيمة .

ونلحظ هذه الظاهرة مثلاً حينما يقضى الإنسان حاجته فى الخلاء ، فينزل البول يشقّ له مجرىً فى المكان الذى لا يعوقه ، فإنْ صادفته حصاة مثلاً انحرف عنها كأنه يختار مساره على هواه .

والبحر يقال عادة للمالح وللعذب على سبيل التغليب ، كما نقول الشمسان للشمس والقمر .

ومرْج البحرين آية كونية تدل على قدرة الله ، فالماء مع ما عُرف عنه من خاصية الاستطراق - يعنى : يسير إلى المناطق المنخفضة ، يسير المالح والعذب معاً دون أن يختلط أحدهما بالآخر ، ولو اختلطا لَفَسدا جميعاً ؛ لأن العَذْب إنْ خالطه المالح أصبح غيْرَ صالح للشرب ، وإنْ خالط المالح العذب فسد المالح ، وقد خلقه الله على درجة معينة من الملوحة بحيث تُصلحه فلا يفسد ، وتحفظه أن يكون آسناً .

فالماء العذب حين تحصره فى مكان يأسن[1] ويتغير ، أمّا البحر

---

(١) أسن الماء يأسن : تغيرت رائحته فهو آسن . [القاموس القويم ١ / ٢٠] .

فقد أعدَّه الله ليكون مخزن الماء فى الكون ومصدر البَخْر الذى تتكون منه الأنهار ؛ لذلك حفظه ، وجعل بينه وبين الماء العذب تعايشاً سِلْمياً ، لا يبغى أحدهما على الآخر رغم تجاورهما .

وقوله تعالى : ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ .. (٥٣)﴾ [الفرقان] أى : مُفرط فى العذوبة مستساغ ، ومن هذه الكلمة سَمَّوْا نهر الفرات لعذوبة مائه ، فلَيس المراد بالفرات أن الماء كماء نهر الفرات ؛ لأن الكلمة وُضعت أولاً ، ثم سُمِّيَ بها النهر ، ذلك لأن القرآن هو كلام الله الأزلى .

﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ .. (٥٣)﴾ [الفرقان] أى : شديد الملوحة ، ومع ذلك تعيش فيه الأسماك والحيوانات المائية ، وتتغذى عليه كما تتغذى على الماء العَذْب ، كما قال سبحانه : ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٢)﴾ [فاطر]

ثم يقول سبحانه : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣)﴾ [الفرقان] البرزخ : شىء بين شيئين ، وأصل كلمة برزخ : اليابسة التى تفصل بين ماءين ، فإن كان الماء بين يابستين فهو خليج .

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣)﴾ [الفرقان] الحِجْر : هو المانع الذى يمنع العَذْب والمالح أنْ يختلطا ، والحِجْر نفسه محجور ، مبالغة فى المنع من اختلاط الماءيْن ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥)﴾ [الإسراء]

ومثل قوله تعالى : ﴿ظِلاًّ ظَلِيلاً (٥٧)﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) ﴾

وفى آية عامة عن الماء ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. (٣٠) ﴾ [الأنبياء] يعنى : كل شىء فيه حياة فهو من الماء ، لا أن الماء داخل فى كل شىء ، فالمعنى : ﴿ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. (٣٠) ﴾ [الأنبياء] أى : كل شىء موصوف بأنه حى ، فالماء - إذن - دليل الحياة ؛ لذلك إذا أراد العلماء أن يقضوا على الميكروبات أو الفيروسات جعلوا لها دواءً يفصل عنها المائيةَ فتموت .

والإنسان الذى كرَّمه الله تعالى وجعله أعلى الأجناس ، خلقه الله من الماء ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا .. (٥٤) ﴾ [الفرقان] وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ[1] (٧) ﴾ [الطارق] وهو ماء له خصوصية ، وهو المنىُّ الذى قال الله فيه : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) ﴾ [القيامة]

والبشر أى : الإنس ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا .. (٥٤) ﴾ [الفرقان] فمن الماء خلق الله البشر ، وهم قسمان : ذكور وإناث ، فكلمة (نَسَباً) تعنى : الذكورة (وَصِهْراً) تعنى : الأنوثة ؛ لأن النسب يعنى انتقال الأدنى من الأعلى بذكورة ، فيظل الإنسان فلان بن فلان بن فلان..الخ .

---

(١) الترائب : عظام الصدر . [القاموس القويم ١/ ٩٩] . قال ابن عباس : هذه الترائب . ووضع يده على صدره . وعنه أيضاً : تربية المرأة موضع القلادة . [تفسير ابن كثير ٤/ ٤٩٨] .

فالنسب يأتى من ناحية الذكورة ، أما الأنوثة فلا يأتى نسب ، إنما مصاهرة ، حينما يتزوج رجل ابنتى ، أو أتزوج ابنته ، يُسمُّونه صِهْرا .

لذلك قال الشاعر :

وَإنَّما أُمَّهَاتُ القَوْمِ أوْعِيةٌ مُسْتحدثَات وللأحْسَابِ آبَاءُ

فمن عظمة الخالق ـ عز وجل ـ أن خلق من الماء هذيْن الشيئين ، كما قال فى موضع آخر : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ۝٣٩ ﴾ [القيامة]، وقد توصَّل العلماء مُؤخَّراً إلى أن بويضة الأنثى لا دَخْلَ لها فى نوع الجنين ، وما هى إلا حاضنة للميكروب الذَّكَرى الآتى من منىّ الرجل .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ۝٣٩ ﴾ [القيامة]

فالذكَر والأنثى كلاهما من المنىّ ، والذى يُطلق عليه العلماء الآن (الإكس ، والإكس واى) فالحيوان المنوىّ يخرج من الرجل ، منه ما هو خاص بالذكورة ، ومنه ما هو خاص بالأنوثة ، ثم تتم عملية انتخاب للأقوى الذى يستطيع تلقيح البويضة .

وهذه الظاهرة واضحة فى النحل ، حيث تضع الملكة البيض ، ولا يُخصِّبها إلا الأقوى من الذكور ، لذلك تطير الملكة على ارتفاعات عالية ، لماذا ؟ لتنتخب الأقوى من الذكور .

كذلك الميكروب ينزل من الرجل ، والأقوى منه هو الذى يستطيع أن يسبق إلى بويضة المرأة ، فإنْ سبق الخاص بالذكورة كان ذكراً ، وإنْ سبق الخاص بالأنوثة كان أنثى ، والحق سبحانه قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ [الأعلى]

وبهذه الآية الكونية فى خَلْق الإنسان نرد على الذين يحلو لهم أن يقولوا : إن الإنسان خُلق صُدْفة ، فإذا كان الإنسان ذكراً وأنثى بينهما مواصفات مشتركة وأجهزة ومُقوِّمات واحدة ، إلا أن الذكَر يختلف في الجهاز التناسلي وكذلك الأنثى ، فهل يُردّ هذا إلى الصدفة ؟

ومعلوم أن الصُّدْفة من أعدائها الاتفاق ، فإذا جاء الذكَر صدفة ، وجاءت الأنثى كذلك صدفة ، فهل من الصدفة أن يلتقيا على طريقة خاصة ، فيثمر هذا اللقاء أيضاً ذكورة وأنوثة ؟! إذن: المسألة ليست مصادفةً ، إنما هى غاية مقصودة للخالق عزوجل .

ثم يقول سبحانه فى ختام الآية ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴿٥٤﴾ ﴾ [الفرقان] وذكر سبحانه القدرة هنا ؛ لأن هذه مسألة دقيقة لا تحدث إلا بقدرة الله تعالى .

وقد فَطن العرب حتى قبل نزول القرآن إلى هذه العملية بالفطرة ، فهذه زوجة أبى حمزة تعاتبه ؛ لأنه تركها وتزوج من أخرى ، لأنها لم تَلدْ له ذَكَراً ، فتقول :

مَا لأَبى حَمْزَةَ لاَ يَأْتينَا غَضْبان ألاَّ نَلدَ البَنينَا
تَاللَّه مَا ذَلكَ فى أيْدينَا فَنَحْنُ كَالأَرْض لغَارسينَا
نُعطى لَهُمْ مثْلَ الذى أُعْطينَا

وهذه المسألة التى فَطنَ إليها العربى القديم لم يعرفها العلم إلا فى القرن العشرين .

وبعد هذه الآية الكونية يعود ـ سبحانه وتعالى ـ إلى خطابهم مرة أخرى لعل قلوبهم ترقّ ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يتعهدهم مرة بالنُّصح ، ومرة بإظهار آياته تعالى فى الكون .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥) ﴾

يعنى : أيليق بهم بعد أنْ أوضحنا لهم كلَّ هـذه الآيات أنْ يلتفتوا إلى غير الله ، ويقصدوه بالعبادة ؟

وقوله تعالى : ﴿ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ.. (٥٥) ﴾ [الفرقان] البعض يرى أن هذه الآلهة نعم لا تنفع لكنها تضر ، نقول لهم : هى لا تنفع ، ولا تضر ، أمَّا الذى يضر فهو الإله الحق الذى انصرفوا عنه إلى عبادة غيره ، والمعنى هنا : ﴿ مَا لا يَنفَعُهُمْ..(٥٥) ﴾ [الفرقان] إنْ عبدوه ﴿ وَلا يَضُرُّهُمْ (٥٥) ﴾ [الفرقان] إنْ كفروا به وتركوه .

والقرآن يُسمِّى فعلهم مع هذه الآلهة عبادة ، وهم أنفسهم يقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ..(٣) ﴾ [الزمر]

إذن : أثبتوا لهم عبادة ، والعبادة طاعة العابد للمعبود فيما يأمر به ، وفيما ينهى عنه ، فما الذى أمرتْهم به الأصنام ؟ وما الذى نهتْهم عنه ؟ فكلمة عبادة هنا خطأ ، وهم ما عبدوا هذه الآلهة إلا لأنها لا أوامر لها ولا التزام معها ، فتديّنهم تديّن (فنطزية) .

وما أسهلَ أن تعبد إلهاً لا يأمرك ولا ينهاك ، والذى يكرهونه فى التديُّن الحقيقى أنه التزام وتكليف : افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

لذلك ترى المسرفين على أنفسهم من خَلْق الله يتمنى كلٌّ منهم أن يكون هذا الدين كذباً ، لماذا ؟ ليسيروا على هواهم ، ويعملوا ما يحلو لهم . كذلك رأينا الدجالين الذين ادَّعَوْا النبوة بداية من

مسيلمة وسجاح[1] ، كيف كانوا يجذبون الناسَ إليهم ؟ كانوا يجذبونهم بتخفيف الأوامر وتبسيط الدين ، ولما شقَّتْ الزكاة على البعض أسقطوها من حسابهم ، وأعفَوْا الناس منها .. إلخ .

ولكل زمان دجالون يناسبون العصر الذى يعيشون فيه ، وفى عصرنا الحاضر دجالون يُخفِّفون عنك الدين ويُطوِّعونه لأهواء الناس ورغباتهم ، فلا مانع عندهم من الاختلاط ، ولا بأس فى أن ترتدى المرأة من اللباس ما تشاء .. إلى آخر هذه المسائل .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً ﴿٥٥﴾﴾ [الفرقان]

الظهير : هو المعين ، كما ورد فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ..وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [التحريم]

وكانوا فى الماضى يحملون الأحمال على الظَّهْر قبل اختراع آلات الحمل ، وحتى الآن نرى (الشيالين) يحملون الأثقال على ظهورهم ، ويخيطون لهم (ظهرية) يرتدونها على ظهورهم ؛ لتحميهم ساعة حَمْل الأثقال ، وإذا أراد أحدهم معاونة الآخر يقول له : أعطنى ظهرك ، فكان الظهر إذن بهذا المعنى .

---

(١) هى : سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية ، من بنى يربوع ، أم صادر ، كانت شاعرة أديبة عارفة بالأخبار ، ادعت النبوة بعد وفاة النبى ﷺ وكانت فى بنى تغلب بالجزيرة ، وتبعها جمع من عشيرتها ، فأقبلت تريد غزو أبى بكر ، فالتقت بمسيلمة وتزوج بها ، ثم انصرفت راجعة إلى أخوالها بالجزيرة ، ثم بلغها مقتل مسيلمة ، فأسلمت وهاجرت إلى البصرة وتوفيت فيها ، وصلى عليها سمرة بن جندب والى البصرة لمعاوية . توفيت ٥٥هـ (الأعلام للزركلى ٣/٧٨) .

والظهر أيضاً يقتضى العلو ، ومنه قوله تعالى عن السد الذى بناه ذو القرنين : ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)﴾ [الكهف] يعنى : ما استطاعوا اعتلاءه .

لكن ، كيف يكون الكافر ظهيراً على الله ؟ قالوا : لأنه يفعل المعصية ، ويتخذ أُسْوة فيها يُقلده الناس ، ولو كان طائعاً لكان أُسْوة خير ونموذجَ صلاحٍ ، فالكافر أسوة شر ، وأسوة فساد ، وهو شيطان الإنس الذى يوازى شيطان الجن الذى عصى ربه ، ورفض السجود لآدم .

وتوعَّد ذريته حين قال : ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩)﴾ [الحجر]

وكلٌّ من شياطين الجن وشياطين الإنس يستعين بالنفس فيُسلِّطها على صاحبها حتى تُوقعه ، فالإنسان حينما يستمع لنداء الشيطان ، سواء شيطان الإنس أو شيطان الجن ويطيعه بعمل المخالفة ، فإنه يُعينه على الله ، والمعنى الصحيح : على معصيةِ الله .

كما أن الظهير يُطلق على مَنْ جعلْتَه وراء ظهرك ، لا تأبه به ، ولا تلتفت إليه ، ومنه قول العرب : (لا تجعلنَّ حاجتى منك بظهر) يعنى : اجعلها أمام عينيك لا تطوها وراء ظهرك[1] .

إذن : فكلاَ المعنيين جائز : ظهيراً أى : مُعيناً ، كأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لنبيه ﷺ : اعلم يا محمد أنَ الكافر ظهير على الله ، فقفْ له بالمرصاد ، وجاهده ما استطعتَ ، فكأنه تعالى يُحمِّس

---

(١) قال ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : ظهر « يُقال للشيء الذى لا يُعنى به : قد جعلت هذا الأمر بظهر ، ورميته بظهر . وقولهم : لا تجعل حاجتى بظهر أى : لا تنسها . ومنه قوله تعالى : ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا .. (٩٢)﴾ [هود] وهو استهانتك بحاجة الرجل . وجعلنى بظهر أى : طرحنى » .

رسوله ليقف هذا الموقف ، ويُشجِّعه ليكون من عدوه على حَذَر وعلى يقظة .

أو : ظهيراً لا يُؤبه له ، وهذا طمأنة لرسول الله ، فالكافر هَيِّن على الله ، فلا يهمك كيدهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ ﴾

صحيح أن الله تعالى قال لرسوله ﷺ : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ.. ﴿٧٣﴾ ﴾ [التوبة] لكن لا يعنى هذا أن يهلك رسول الله نفسه فى دعوتهم ، ويألم أشد الألم لعدم إيمانهم ؛ لأن مهمة الرسول البلاغ ، وقد أسف رسول الله لحال قومه حتى خاطبه ربه بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

وما أمره الله بجهاد الكفار والمنافقين إلا ليحفزه ، فلا يترك جُهْداً إلا بذله معهم ، وإلاّ فأنت عندى مُبشِّر ومُنذر ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً.. ﴿٥٦﴾ ﴾ [الفرقان] أى : بالخير قبل أوانه ليتلفت الناس إلى وسائله ﴿ وَنَذِيراً ﴿٥٦﴾ ﴾ [الفرقان] أى : بالشر قبل أوانه ليحذره الناس ، ويجتنبوا أسبابه ووسائله .

ثم يوجه رب العزة نبيه ورسوله ﷺ :

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

في آية أخرى يقول تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الطور]

يعني : غير قادرين على دَفْع الثمن ؛ لأنهم بخلاء وعندهم كزازة[1] ؟ أو لا يريدون أنْ يُخرجوا من جيوبهم شيئاً تنتفع أنت به ؟ مع أنك لم تسألْهم أجراً ، فهل يعني ذلك أن النبي كان من المفروض أن يسألهم أجراً ؟

قالوا : نعم ؛ لأنه إذا قدَّم إنسانٌ لإنسان شيئاً نافعاً ، فعليه أن يدفع له أجراً بمقتضى التبادل والمعاوضة ، وكأنه ﷺ يقول لهم : لقد قدَّمتُ إليكم جميلاً يفترض أن لي عليه أجراً ، لكني لا أريد منكم أجراً ، والمسألة من عندي تفضُّل .

وما هو الأجر ؟ الأجر : جُعْلٌ يقابل عملاً ، والثمن : جعل يقابل تملُّكاً ، وقيمة هذا الجُعْل تختلف باختلاف مشقة العمل ، وطُول زمنه ، ومهارة العامل فيما يقتضيه العمل ومخاطر ما يقتضيه العمل .

فكل مسألة من هذه ترفع من قيمة الأجر ، فحين تسافر مثلاً تحتاج إلى (شيَّال) يحمل لك الحقائب ، فتعطيه الأجر الذي يتناسب ومجهوده ، فإن استأجرت سيارة وسرْتَ بها مسافة فلا بُدَّ أن الأجر سيزيد ؛ لأنه أخَذ مجهوداً ووقتاً أكثر ، فإن احتجتَ مثلاً سباكاً ليصلح لك شيئاً فسوف ترى ما في هذا العمل من المشقة ، ولا تبخل عليه بأكثر من سابقيه .

وربما كان العمل في نظرك بسيطاً لا يستغرق وقتاً ، لكنه يحتاج إلى مهارة ، هذه المهارة ليست وليدة اللحظة ، ولكنها مجهود ونتيجة

(١) الكَزّ : الذي لا ينبسط . ووجه كزٌّ : قبيح . ورجل كز : قليل الخير . والكزازة : اليُبْس والانقباض . [لسان العرب ـ مادة : كزز] .

عوامل من التعلُّم والخبرة حتى وصل صاحبها إلى هذه المهارة .

فالمهندس مثلاً الذى يُصمِّم لك منزلك فى ساعة أو ساعتين ، ومع ذلك يطلب مبلغاً كبيراً ، لماذا ؟ لأنه لا يتقاضى أجراً على هذا الوقت ، إنما على سنوات طويلة من الدراسة والمجهود والتحصيل ، حتى وصل إلى هذه المهارة .

إذن : كل أجر يُقدَّر بما يقابله من عمل ، ويتناسب مع ما يقتضيه العمل من وقت ومجهود ومشقة ومخاطرة ومهارة .. إلخ .

وإذا كان الأمر كذلك فانظروا إلى عمل الرسول وإلى مدى إفادتكم من رسالته ، انظروا إلى المنهج الذى جاءكم به ، وكيف أنه يريحكم مع أنفسكم ، ويريحكم مع المجتمع ، ويريحكم مع ربكم عز وجل ، ويريحكم من شرور أنفسكم ، ومن شرور الناس جميعاً .

إذن : للرسول عمل كبير ومجهود عظيم ، لو قدَّرْتَ له أجراً لكان كذلك عظيماً . إن الإنسان إذا أجَّر مثلاً حارساً يحرسه بالليل ، كم يدفع له ؟ فالنبى يأتيك بمنهج يحرسك ويحميك فى نفسك وفى مالك وفى عرْضك وفى كل ما تملك ، ولا يحميك من فئة معينة إنما يحميك من الناس أجمعين .

بل إن حماية منهج الله لك لا تقتصر على الدنيا ، إنما تتعدَّى إلى الآخرة ، فتحميك فيها حماية ممتدة لا نهايةَ لها ، فإنْ قدَّرْت لهذه الحماية أجراً ، فكم يكون ؟

إنما أنا أقول لك : لا أريد أجراً ، لا كراهيةً فى الأجر ، بل لأنك أنت أيها الإنسان لا تستطيع تقدير هذا العمل أو تقييم الأجر عليه ، أمَّا الذى يُقدِّر ذلك فهو ربِّى الذى بعثنى ، وأنت أيها العبد مهما قدَّمْتَ لى من أجر على ذلك فهو قليل .

وحكينا قصة الرجل الطيب الذى قابلناه فى الجزائر ، يقف على الطريق يُلوِّح لسيارة تحمله ، فوقفنا وفتحنا له الباب ليركب معنا ، وقبل أن يركب قال : بكَمْ ؟ يعنى : الأجرة . فقال له صاحبى : لله ، فقال الرجل : إذن فهى غالية جداً . هذا هو المعنى فى قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ.. (٢٩) ﴾ [هود]

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) ﴾ [يونس] فما العلاقة بين الأجر وبين ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) ﴾ [يونس] ؟

كأن المسلم ينبغى عليه أن يعمل العمل ، لا لمن يعمل له ، ولكن يعمله لله ليأخذ عليه الأجر الذى يناسب هذا العمل من يده تعالى ، إنما إنْ أخذه من صاحبه فهو كالذى « فعل ليقال وقد قيل » وانتهتْ المسألة ، وربما حتى لا يُشكر على عمله .

لذلك وردتْ هذه العبارة على ألسنة كل الرسل : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ..(١٠٩) ﴾ [الشعراء] وليس هناك آية طلب فيها الأجر الظاهر إلا هذه الآية التى نحن بصددها : ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) ﴾ [الفرقان]

وقوله تعالى : ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ..(٢٣) ﴾ [الشورى]

ومعنى : ﴿ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) ﴾ [الفرقان] أى : سبيلاً للمثوبة ، وسبيلاً للأجر من جهاد فى سبيل الله ، أو صدقة على الفقراء .. إلخ .

وقوله : ﴿إِلاَّ مَن شَاءَ..(٥٧) ﴾ [الفرقان] تدل على التخيير فى دَفْع الأجر ، فالرسول لا يأخذ إلا طواعية ، والأجر : ﴿أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) ﴾ [الفرقان] من الجهاد والعمل الصالح ، فكأن أجر الرسول

العـمل للغيـر ، لتأخـذ أنت الأجر من الله ، فـالرسـول لا يأخـذ شيـئاً لنفسه .

ونلحظ فى آيات الأَجْـر أنها جـاءت مرة ﴿أَجْراً ..(٩٠)﴾ [الأنعام] ومرة[1] ﴿مِنْ أَجْرٍ ..(٥٧)﴾ [الفـرقان] والبـعض يرى أن (من) هنا زائدة ، وهذا لا يُقال فـى كلام الله ، عَيْب أن نتـهم كلام الله بأن فـيه زيادة ، فكلٌ حرف فيه له معناه .

وسـبق أن ضــربنا لمنْ هذه مـثــلاً بقـولنا : مــا عندى مـال ، وما عندى من مال . فالأولَى نفَتْ أنْ يكـون عندك مالٌ يُعتدُّ به ، لكن قد يكون عندك القليل منه ، أمـا القول الثانى فيعنى نَـفْى المال مطلقاً بدايةً ممَّا يقـال له مال ، إذن : فأيّهما أبلغ فى النفى ؟ فـمِنْ هنا تفيد العموم .

لذلك يقول تعالى : ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ..(٧٢)﴾ [المؤمنون] لماذا ؟ لأنه سيعطيك ويُكافـئك علىَ قَدْره هو ، وبما يناسب جُودَه تعالى وكـرمه الذى لا ينفد ، أما الإنسـان فسـيعطيك على قَدْره وفى حدود إمكاناته المحدودة .

مَلْحظ آخر فى هذه المسـألة فى سورة الشعراء ، وهى أحفَلُ السُّور بذِكْر مسـألة الأجر ، حيث تعرَّضَتْ لموكب الرسل ، فذكرت ثمانية هم : موسى وهارون وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب .

---

(١) – وردت (أجْـراً) فى ٦ آيات : (الأنعـــام : ٩٠) ، (هود : ٥١) ، (يس : ٢١) ، (الشورى : ٢٣) ، (الطور : ٤٠) ، (القلم : ٤٦) .

– ووردت (مـن اجـــر) فـى ١٠ آيـات : (يونـس : ٧٢) ، (يوسـف : ١٠٤) ، (الفرقان: ٥٧) ، (الشـعراء ، ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠) ، (سبأ : ٤٧) ، (ص : ٨٦) .

تلحظ أن كل هؤلاء الرسل[1] قالوا : ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩)﴾ [الشعراء] عدا إبراهيم وموسى عليهما السلام لم يقولا هذه الكلمة ، لماذا ؟

قالوا : لأنك حين تطلب أجراً على عمل قمتَ به لا يكون هناك ما يُوجب عليك أنْ تعمل له مجاناً ، فأنت لا تتقاضى أجراً إنْ عملتَ مثلاً مجاملةً لصديق ، وكذلك إبراهيم ـ عليه السلام ـ أول ما دعا إلى الإيمان دعا عمه آزر ، ومثل هذا لا يطلب منه أجراً ، وموسى عليه السلام أول ما دعا دعا فرعون الذى احتضنه وربَّاه فى بيته ، ولو طلب منه أجراً لقال له : أىّ أجر وقد ربَّيتك[2] وو .. إلخ .

الآية الأخرى في الاستثناء هى قوله تعالى : ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ..(٢٣)﴾[الشورى] فكأن المودة فى القربى أجر لرسول الله ﷺ على رسالته ، لكن أىُّ قُرْبى : قُرْبى النبى أم قُرْباكم ؟

لا شكَّ أن النبى الذى يجعل حُبَّ القريب للقريب ورعايته له هو أجره ، يعنى بالقُرْبى قُرْبى المسلمين جميعاً ، كما قال عنه ربُّه عَزَّ وجَلَّ : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ..(٦)﴾ [الأحزاب]

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨)﴾

---

(١) – قالها نوح فى : (يونس : ٧٢) ، (هود : ٢٩) ، (الشعراء : ١٠٩) .
– وقالها هود فى : (هود : ٥١) ، (الشعراء : ١٢٧) .
– وقالها صالح فى : (الشعراء : ١٤٥) .
– وقالها لوط فى : (الشعراء : ١٦٤) .
– وقالها شعيب فى : (الشعراء : ١٨٠) .

(٢) ورغم أن موسى عليه السلام لم يطلب منه أجراً ، لا مالاً وملكاً ولا غيره إلا ان فرعون امتن عليه بانه الذى رباه ، فقال : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)﴾ [الشعراء] .

الحق - تبارك وتعالى - يُطمئن رسوله ﷺ : يا محمد لا تهتم بكثرة الكفار ومكرهم بك وتعاونهم مع شياطين الإنس والجن ؛ لأن هؤلاء سيتساقطون ويموتون ، إما بأيديكم ، أو بعذاب من عند الله ، وعلى فَرْض أنهم عاشوا فلن تغلب قوتُهم وحيلُهم قوة الله تعالى ومكره ، وإنْ توكلوا على أصنام لا تضر ولا تنفع ، فتوكل أنت على الله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ.. (٥٨) ﴾ [الفرقان]

والعاقل لا يتوكل إلا على مَنْ يثق به ويضمن معاونته ، وأنه سيوافقك في كل ما تريد ، لكن ما جدوى أنْ تتوكل على أحد ليقضي لك مصلحة ، وفي الصباح تسمع خبر موته ؟

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يريد أن ينصّح خَلْقه : إنْ أردتَ أنْ تتوكل فتوكل على مَنْ ينفعك ولا يتركك ، على مَنْ يظل على العهد معك لا يتخلى عنك ، على مَنْ لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء . هذه هي الفطْنة .

لكن ما جدوى أن تتوكل على مَنْ ليس فيه حياة ؟ وعلى فرض أن فيه حياةً دائمة فلا تضمن ألاَّ يتغير قلبه عليك .

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ..(٥٨) ﴾ [الفرقان] سبِّح يعني : نزِّه ، والتنزيه تضعه في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.. (١١) ﴾ [الشورى] فلله وجود ، ولك وجود ، لكن وجوده تعالى ليس كوجودك ، ولله صفة ولك نفس الصفة ، لكن صفته تعالى ليست كصفتك ، ولله تعالى فعل ، ولك فعل ، لكن فعله تعالى ليس كفعلك .

إذن : نزِّه الله في ذاته ، وفي صفاته ، وفي أفعاله عن مشابهة الخلْق ، وما دام الحق سبحانه مُنزَّهاً في ذاته ، وفي صفاته ، وفي أفعاله ، فأنت تتوكّل على إله لا تطرأ عليه عوامل التغيير أبداً .

وهذا التنزيه لله تعالى ، وهذه العظمة والكبرياء له سبحانه فى صالحك أنت أيها الإنسان ، من صالحك ألاَّ يوجد لله شبيه ، لا فى وجوده ، ولا فى بقائه ، ولا فى تصرُّفه ، من صالحك أن يعرف كل إنسان أن هناك مَنْ هو أعلى منه ، وأن الخلْق جميعاً محكومون بقانون الله ، فهذا يضمن لك أن تعيش معهم آمناً ، إذن : من الخير لنا أن يكون الإله ليس كمثله شىء ، وأن يكون سبحانه عالياً فوق كل شىء .

ويجب عليك حين تُنزه الله تعالى ألاَّ تُنزِّهه تنزيهاً مُجرّداً ، إنما تنزيهاً مقروناً بالحمد ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ..(٥٨)﴾ [الفرقان] فتحمده على أنه واحد لا شريك له ، ولا مثيلَ له ، وليس كمثله شىء ، ففى ظل هذه العقيدة لا يستطيع القوىُّ أن يطغى على الضعيف ، ولا الغنى على الفقير .. إلخ .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨)﴾ [الفرقان] نقول : كفاك فلان . يعنى : لا تحتاج لغيره . كقولنا : حَسْبُكَ الله يعنى : كافيك عن الاحتياج لغيره ؛ لأنه يعطيك كُلَّ ما تحتاج إليه ، ويمنع عنك الشر ، وإنْ كنت تظنه خيراً لك .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يقيم لك (كنترولاً) يضبط حياتك ويضمن لك السلامة ، لذلك حين تدعو الله فلا يستجيب لك ، لا تظن أن الله تعالى موظفٌ عندك ، لا بُدَّ أن يُجيبك لما تريد ، إنما هو ربك ومتولٍّ أمرَك ، فيختار لك ما يصلح لك ، ويُقدِّم لك الجميل وإن كنت تراه غير ذلك .

وقد ضربنا لهذه المسألة مثلاً بالأم التى تكثر الدعاء على ولدها ، فكيف بها إذا استجابَ الله لها ؟ إذن : من رحمة الله بها أنْ يردَّ

دعاءها ، ويمنع إجابتها ، فمنع الإجابة هنا إجابة .

﴿ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الفرقان] المعنى : إذا توكلتَ على الحيِّ الذى لا يموت ، فآثار هذا التوكل أنْ يحميك من ذنوب العباد ، فهو وحده الذى يعلم ذنوبهم ، ويعلم حتى ما يدور فى أنفسهم .

ألم يقُل الحق لرسوله ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

فما زال القَوْلُ فى أنفسهم لم يخرج ، ومع ذلك أخبره الله به ، وكأن الحق سبحانه يُطمئن رسوله : مهما تآمروا عليك ، ومهما دبّروا لك ، ومهما تكاتف ضدكَ جنودُ الإنس والجن ، فاطمئنْ لأن ربك عليم بالذنوب التى قد لا تدركها أنت ، ولا حيلةَ عندك لردِّها ، فيكفيك أن يعلم اللهُ ذنوبَ أعدائك .

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال]

والخبير : الذى يعلم خبايا الأمور ، حتى فى مسائل الدنيا الهامة نقول : نستدعى لها الخبير ؛ لأن المختص العادى لا يقدر عليها .

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك]

ثم ينقلنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ إلى آية كونية ، تنضاف إلى الآيات السابقة ، والهدف من ذكر المزيد من الآيات الكونية أنه لعلَّها تصادف رقَّة قلب واستمالة مواجيد ، فتعطف الخَلْق إلى الخالق ، وتُلفت الأنظار إليه سبحانه .

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾

البعض يظن أن خَلْق السموات والأرض شيء سهل ، وأعظم منه خَلْق الإنسان ، لكن الحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر]

فالإنسان يخلقه الله ، وقد يموت بعد يوم ، أو بعد مائة عام ، وقد تصيبه فى حياته الأمراض ، أمّا السموات والأرض ، فقد خلقها الله تعالى بهندسة دقيقة ، وقوانين لا تتخلف ولا تختل مع ما يمرُّ عليها من أزمنة ، وكأن الحق سبحانه يقول للإنسان : إن السموات والأرض هذه خلْقتى وصَنْعتى ، لو تدبرتَ فيها وتأملتَها لوجدتَها أعظم من خلْقك أنت .

وقوله تعالى : ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الفرقان] سبق أنْ تكلَّمنا فى هذه المسألة وقلنا : إن جمهرة آيات القرآن تدل على أن الخَلْق تمَّ فى مدة ستة أيام إلا سورة واحدة تُشعِر آياتها أن الخلق فى ثمانية أيام ، وهى سورة فصلت :

حيث يقول فيها الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ[١] فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي

(١) الدخان : يُطلق على ما يرتفع فوق النار من غازات لم يتم احتراقها ، وقد يطلق على البخار وما يشبهه من الغازات المتصاعدة ، والمقصود أن مواد النجوم كانت فى حالة غازية كالدخان ثم خلق منها السماوات [القاموس القويم ١ / ٢٢٤] .

كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾ [فصلت]

وجملة هذه ثمانية أيام ، وكل مُجْمل يخضع للتفصيل إلا تفصيل العدد فيرجع للمجمل ، كيف ؟

الحق سبحانه يتكلم هنا عن خَلْق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم تكلَّم عن خَلْق الأرض فى يومين ، وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها فى أربعة أيام ، فالأربعة الأيام هذه تكملة لخلْق الأرض فهى تكملة لليومين ، كأنه قال فى تتمة أربعة أيام ، فالأرض فى يومين والباقى أكمل الأربعة . كما تقول : سِرْتُ إلى طنطا فى ساعة ، وإلى الأسكندرية فى ساعتين أى يدخل فيهما الساعة الأولى إلى طنطا ، فاليومان من الأربعة الأيام .

لكن ، كيف نُقدِّر هذا اليوم ؟ الله يخاطبنا باليوم الذى نعرفه ونعرف مدلوله ، فالمعنى : فى ستة أيام من أيامكم التى تعرفونها . وإلاَّ لو كان المراد يوماً لا نعرفه نحن ، فسيكون لا معنى له ؛ لأننا لا نفهمه .

ولقائل أن يقول : كيف يستغرق الخَلْق كل هذه المدة والحق ـ تبارك وتعالى ـ يخلق بكُنْ ، وكن لا تحتاج وقتاً ؟ قالوا : فَرْق بين عملية الخَلْق وما يحتاجه المخلوق فى ذاته .

فأنت مثلاً ، إنْ أردتَ أنْ تصنع كوباً من الزبادى تحضر اللبن مثلاً وتضع عليه خميرة الزبادى المعروفة المأخوذة من زبادى دسم سبق صُنْعه ، وتضعه فى درجة حرارة معينة ، بعد هذه العملية تكون قد صنعت الزبادى فعلاً ، لكن هل يمكنك أن تأكل منه فَوْر الانتهاء

من صناعته ؟ لا ، بل لا بُدَّ أن تتركه عدة ساعات لتتفاعل عناصره ، فهل تقول : أنا صنعت الزبادى فى عدة ساعات مثلاً ؟

كذلك ، حين تذهب إلى (الترزى) لتفصيل ثَوْب مثلاً يقول لك : موعدنا بعد شهر ، فهل تستغرق خياطة الثوب شهراً ؟ لا ، إنما مدته عنده شهر .

فالحق - تبارك وتعالى - يفعل ويخلق دون معالجة ، وبالتالى دون زمن ؛ لأنه سبحانه يقول للشيء : كُنْ فيكون .

وقوله سبحانه : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. (٥٩)﴾ [الفرقان] سبق أن تكلمنا فى هذه المسألة . فاستوى تعنى : صعد وارتفع وعلا وجلس ، ونحن نُنزِّه الله تعالى عن استواءٍ يشابه استواء خَلْقه .

والاستواء هنا رمزية لتمام الأمر بما نعرفه فى عادة الملوك فى الجلوس على كرسى العرش ، حين يتم لهم الأمر ويستتبّ .

و ﴿الرَّحْمَٰنُ .. (٥٩)﴾ [الفرقان] دليل على أن مسألة الخَلْق كلها تدور فى إطار الرحمانية ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩)﴾ [الفرقان] لأنه سبحانه خلق السموات والأرض وخلقنا ، ومع ذلك لا نعرف : كيف تم هذا الخَلْق ؟ ولن نستطيع أن نقف على تفصيل هذا الخَلْق ، إلا إذا أطلعنَا الخالق عليه ، وإلاَّ فهذا أمر لم نشاهده ، فكيف نخوض فيه ، كمن يقول : إن الأرض كانت قطعةً من الشمس ، ثم انفصلتْ عنها مع دوران الشمس .. إلخ هذه الأقوال .

لذلك الحق - تبارك وتعالى - يُحذِّرنا من سماع مثل هذه النظريات ؛ لأن مسألة الخَلْق لا تخضع للعلم التجريبى أبداً ، فيقول

سبحانه : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[1] (٥١) ﴾ [الكهف]

إذن : سيوجد فى الكون مُضلون يقولون للناس مثل هذه الأقوال فى الخَلْق ، ويدَّعُون بها أنهم علماء يعرفون ما لا يعرفه الناس ، فاحذروهم فما شاهدوا عملية الخَلْق ، وما كانوا مساعدين لله تعالى ، فيطلعوا على تفاصيل الخَلْق .

لذلك تقوم هذه الأقوال فى خَلْق الإنسان وخَلْق السماء والأرض دليلاً على صِدْق هذه الآية ، فما موقف هذه الآية - إذن - إذا لم تقل هذه الأقوال ؟

ومثال ذلك الذين يحلو لهم التعصب للقرآن الكريم ضد الحديث النبوى يقول لك أحدهم : حدِّثنى عن القرآن ، سبحان الله ، أتتعصَّب للقرآن ضد الرسول الذى بلَّغك القرآن ، وما عرفتَ القرآن إلا من طريقه ؟ يعنى (الواد ربَّانىّ) لا يعترف إلا بالقرآن . ونقول لمثل هذا الذى يهاجم الحديث النبوى : أنت صليتَ المغرب ثلاث ركعات ، فأين هذا من القرآن ؟

لذلك يقول النبى ﷺ : « يُوشك الرجل يتكىء على أريكته يُحدَّث بحديثى فيقول : بينى وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما كان حراماً حرَّمْناه ، وإن ما حرّم رسول الله كما حرّم الله »[2] .

---

(١) أى : أعواناً مساعدين . وقال تعالى : ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .. (٣٥) ﴾ [القصص] أى : سنقويك به على سبيل المجاز المرسل ، فتقوية العضد تقوية للإنسان كله . [القاموس القويم ١/٤٢] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٣٢) ، والترمذى فى سننه (٢٦٦٤) وابن ماجة فى سننه (١٢) ، والدارقطنى (٤/٢٨٦) فى سننه ، واللفظ للدارقطنى .

لمـاذا ؟ لأنِّى أقـول لكم من باطن قَـوْل الله تعـالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا.. ⑦ ﴾ [الحشر]

بالله ، لو لم يُوجَـد الآن مَنْ يقـول بهذا القـول ، فـماذا سـيكون موقف هذا الحديث ؟ وكيف لنا أن نفهمه ؟ لقد فضحهم هذا الحديث ، وأبان ما عندهم مـن غباء ، فـقد كان بإمكانهم بـعد أنْ عرفـوا حديث رسـول الله أنْ يُمسكوا عـن التعـصب للقـرآن ضد الحـديث النبـوى ، فيكون الحديث ساعتها غير ذى معنى لكن هيهات .

نعـود إلى مـوضوعنا ، ونحن بـصدد الكلام عن خَلْـق السمـوات وخَلْق الأرض ، واسـتـواء الحق ـ تبـارك وتعـالى ـ عـلى العـرش ، وهاتان المسـألتان لا تسـأل فيهـما إلا الله ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الفرقان] لأنه وحده الذى يعلم خبايا الأمور ، وهذه أمور لم يطَّلع عليها أحد فيخبرك بها .

وكلمة : (سأل) الإنسان لا يسأل عن شىء إلا إذا كان يجهله ، والسـؤال له مراحل : فـقد تجـهل الشـىء ولا تهـتم به ، ولا تريد أن تعرفـه ، فأنت واحد من ضـمن الذين لا يعرفون ، وقـد تجهل الشـىء لكن تهـتم به ، فتـسأل عنه لاهتـمامك به ، فـمرَّة نقـول : اسأل به . ومرة نقول : اسأل عنه .

والمعنى : اسأل اهتـماماً به ، أى : بسبب اهتـمامك به اسأل عنه خبيراً ليعطيك ويخبرك بما تريد ، فهو وحده الذى يعرف خبايا الأمور ودقائقـها ، وعنده خبـر خَلْق السموات وخَلْق الأرض ، ويعلم مـسألة الاستواء على العـرش ؛ لذلك إنْ سألتَ عـن هاتين المسـألتين ، فـلا تسأل إلا خبيراً .

والذين قالوا فى قـوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الفرقان]

أى : ممَّنْ يعلم الكلام عن الله من أهل الكتاب نقول : لا بأسَ ؛ لأنه سيؤول إلى الله تعالى فى النهاية .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ ﴾

نلحظ أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما ذكر الصفة الملزمة لأنْ تخضع له سبحانه لم يَقُلْ مثلاً : اسجدوا لله ، إنما ﴿ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ.. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الفرقان] وأتى بالصفة التى تُعدِّى رحمانيته إليك ، فكان من الواجب أنْ تطيع ، وأن تخضع له . كما قُلْنا سابقاً : اجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن مُلْكه .

﴿ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الفرقان] كأنهم لا يعرفون هذه الكلمة ، إنهم لا يعرفون إلا رحمن اليمامة .

وقولهم : ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الفرقان] دليل على أن الامتناع عن السجود ليس للذات المسجود لها ، بل لمن أمر بالسجود ، كما سبق وأنْ قالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] فكأنهم إنْ أمرهم الله بالسجود لسجدوا ، لكن كيف يأتى الأمر من الرسول خاصة ؟ وما ميْزته عليهم حتى يأمرهم ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الفرقان] والنفور : الانفكاك عن الشىء بكُرْه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا[1] وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾

---

(١) البروج : مواقع النجوم بالسماء ومنازلها . [القاموس القويم ١/٦١] .

يعود السياق مرة أخرى لذكْر آية كونية ؛ لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يراوح بين آية تطلب منهم شيئاً ، وأخرى تلفتهم إلى قدرة الله وعظمته ، وهذا يدل على مدى تعنتهم ولجاجتهم وعنادهم ، وحرص الحق ـ سبحانه وتعالى ـ على لَفْتهم إليه ، والأخْذ بأيديهم إلى ساحته تعالى .

ولو شاء سبحانه لَسرَد الآيات الكونية مرة واحدة ، وآيات التكذيب مرة واحدة ، ولكن يُزاوج ـ سبحانه وتعالى ـ بين هذه وهذه لتكون العبرة أنفذ إلى قلوب المؤمنين .

قلنا : ﴿ تَبَارَكَ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [الفرقان] يعني : تنزّه ، وعَلاَ قدره ، وعَظُم خيره وبركته . والبروج : جمع بُرْج ، وهو الحصن الحصين العالي الذي لا يقتحمه أحد ، والآن يُطلقونها على المباني العالية يقولون : برج المعادي ، برج النيل .. الخ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ ﴾ [البروج]

وقوله سبحانه : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [النساء]

والبروج : منازل في السماء يحسب الناسُ بها الأوقات ، ويربطون بينها وبين الحظوظ ، فترى الواحد منهم أول ما يفتح جريدة الصباح ينظر في باب « حظك اليوم » ، وقد دلَّتْ الآيات على أن هذه البروج جعلها الله لتُسهِّل على الناس أمور الحساب .

كما قال سبحانه : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الرحمن]

وقال تعالى : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنعام]

يعنى : بها تُحسب المواقيت ، فالشمس تعطيك المواقيت اليومية والليلية ، والقمر يدلُّك على أول كل شهر ؛ لأنه يظهر على جِرْم معين ، وكيفية مخصوصة تُوضّح لك أول الشهر ومنتصفه وآخره ، ثم تعطيك الشمس بالظل حساب جزئيات الزمن .

ومعلوم أن فى السماء اثنىْ عَشَر بُرْجاً جمعها الناظم فى قوله :

حَمَلَ الثَّوْرُ جَوْزَةَ السَّرطَانِ ... وَرَعَى الليْثُ سُنْبُلَ الميزَانِ
عَقْربَ القَوْس جَدْى دَلْو ... وحُوت مَا عَرفنَا مِن أمَّة السُّرْيَانِ

فهى : الحمَل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت . فأوّلها الحَمل ، وآخرها الحوت ، وكلُّ بُرْج يبدأ من يوم ٢١ فى الشهر وينتهى يوم ٢٠ .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَراً مُّنِيراً (٦١) ﴾ [الفرقان] السراج هو المصباح الذى نشعله ليعطى حرارة وضوءاً ذاتياً ، والمراد هنا الشمس ؛ لأن ضوءَها ذاتىٌّ منها ، وكذلك حرارتها ، على خلاف القمر الذى يضىء بواسطة الأشعة المنعكسة على سطحه ، فإضاءته غير ذاتية ؛ لذلك يقولون عن ضوء القمر : الضوء الحليم ؛ لأنه ضوء بلا حرارة .

والعجيب أن سطح القمر ـ كما وجدوه ـ حجارة ، ولما أخذوا منه حجراً ليُجروا عليه بحوثهم فهلْ قَلَّ ضوء القمر ؟ لا لأن دائرته الكاملة هى التى تعكس إلينا ضوء الشمس وحين تأخذ منه حجراً يعكس لك ما تحته أشعة الشمس .

وفى موضع آخر ، يوضح الحق سبحانه هذه المسألة ، فيقول

تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. ⑤﴾ [يونس] فالضياء هو الذى يأتى من الكوكب ذاتياً ، والنور هو انعكاس الضوء على جسم آخر ، فهو غير ذاتى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

عرفنا أن الليل : غياب الشمس عن نصف الكرة الأرضية ، والنهار مواجهة الشمس للنصف الآخر ، والليل والنهار متعاقبان ﴿خِلْفَةً ⑥٢﴾ [الفرقان] يأتى الليل ثم يعقبه النهار ، كل منهما خَلْف الآخر ، وهذه المسألة واضحة لنا الآن ، لكن كيف كانت البداية عندما خلق الله تعالى الخَلْق الأول ، فساعتها ، هل كانت الشمس مواجهة للأرض أم غائبة عنها ؟

إنْ كان الحق سبحانه خلق الشمس مواجهةً للأرض ، فالنهار هو الأول ، ثم تغيب الشمس ، ويأتى الليل ليخلف النهار ، أما النهار فلم يُسبق بليْل . وكذلك إنْ كانت الشمس عند الخَلْق غير مواجهة للأرض ، فالليل هو الأول ، ولا يسبقه نهار ، وفى كلتا الحالتين يكون أحدهما ليس خِلْفة للآخر ، ونحن نريد أن تصدُقَ الآية على كليْهما .

إذن : لابد أنهما خِلْفة منذ الخَلْق الأول ؛ ذلك لأن الأرض - كما عرفنا ولم يَعُدْ لدينا شكٌ فى هذه المسألة - كروية ، والحق - تبارك وتعالى - حينما خلق الشمس والقمر الخَلْق الأول كان المواجه منها للشمس نهاراً ، والمواجه منها للقمر ليلاً ، ثم تدور حركة الكون ، فيخلف أحدهما الآخر منذ البداية .

وهذه النظرية لا تستقيم إلا إذا قُلْنا بكروية الأرض ، وهذه يؤيدها قوله تعالى : ﴿ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ.. ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس]

والمعنى أيضاً : ولا النهار سابق الليل ، لكن ذكر الليلَ ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الليل خُلِق أولاً ، لماذا ؟ لأن الزمن عندهم يثبت بليله ، كما يحدث مثلاً في الصوم ، فهل تصوم أولاً في النهار ثم ترى الهلال بالليل ؟ إنما ترى الهلال بالليل أولاً ، فكأن رمضان يبدأ يومه بليله .

وما دام الأمر كذلك فالليل سابقُ النهار عندهم ، وهذه قضية يعتقدونها ومُسلَّمة عندهم ، وجاء القرآن وخاطبهم على أساس هذا الاعتقاد : أنتم تعتقدون أن الليلَ سابقُ النهارِ يعني : النهار لا يسبق الليل ، نعم لكن : اعلموا أيضاً أن الليل لا يسبق النهار . إذن : المحصلة : لا الليلُ سابقُ النهار ، ولا النهار سابق الليل .

ولو قلنا بأن الأرض مسطوحة لَمَا استقام لنا هذا القول .

لكن أيّ ليل ؟ وأيّ نهار ؟ نهاري أنا ، أم نهار المقابل لي ؟ وكل واحد على مليون من الثانية يولد نهار ويبدأ ليل ؛ لأن الشمس حين تغيب عني تشرق على آخرين ، والظهر عندي يوافقه عصر أو مغرب أو عشاء عند آخرين .

إذن : كل الزمن فيه الزمن ، وهذا الاختلاف في المواقيت يعني أن نغمة الأذان (الله أكبر) شائعة في كل الزمن ، فالله تعالى معبود بكل وقت وفي كل زمن ، فأنت تقول : الله أكبر وغيرك يقول : أشهد أن لا إله إلا الله .. وهكذا .

وإنْ كان الحق - تبارك وتعالى - خلق الليل للسُّبات وللراحة ،

والنهار للسعى وللعمل ، فهذه الجمهرة العامة لكنها قضية غير ثابتة ، حيث يوجد من مصالح الناس ما يتعارض وهذه المسألة ، فمن الناس مَنْ تقتضى طبيعة عمله أن يعمل بالليل كالخبازين والحراس والممرضين .. إلخ .

فهؤلاء يُسمح لهم بالعمل بالليل والراحة بالنهار ، ولو لم يكُنْ لهؤلاء منفذ لقلنا : إن هذا الكلام متناقض مع كونيات الخَلْق ؛ لذلك يقول - سبحانه وتعالى - فى آية أخرى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.. (٢٣)﴾ [الروم] فتراعى هذه الآية ظروف هؤلاء الذين يضطرون للعمل ليلاً ، وللراحة نهاراً .

وقوله تعالى : ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً (٦٢)﴾ [الفرقان] يعنى : يا مَنْ شغله نهار عمله عن ذكر ربه انتهزْ فرصة الليل ، ويا مَنْ شغله نوم الليل عن ذكْر ربه انتهز فرصة النهار ، وذلك كقول النبى ﷺ : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل »[(١)] .

فمَنْ فاته شىء فى ليله فليتداركه فى نهاره ، ومَنْ فاته شىء فى نهاره فليتداركه فى ليله ، وإذا كان الله تعالى يبسط يده بالليل ويبسط يده بالنهار ، وهما مستمران ، فمعنى ذلك أن يده تعالى مبسوطة دائماً .

ومعنى ﴿يَذَّكَّرَ..(٦٢)﴾ [الفرقان] يتمعّن ويتأمل فى آيات الله ، فى الليل وفى النهار ، كأنه يريد أن يصطاد لله نعماً يشكره عليها ، على خلاف الغافل الذى لا يلتفت إلى شىء من هذا ، فمن فضل الله علينا

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ، وكذا أحمد فى مسنده (٣٩٥/٤ ، ٤٠٤) .

أن يُنبِّهنا إلى هذه النعم ، ويلفت نظرنا إليها ؛ لأننا أهل غفلة .

وقوله : ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان] أى : شكراً ، فهى صيغة مبالغة فى الشكر .

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ[1] قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾

يعطينا الحق - تبارك وتعالى - صورة للعبودية الحقة ، ونموذجاً للذين اتبعوا المنهج ، كأنه - سبحانه وتعالى - يقول لنا : دَعْكُم من الذين أعرضوا عن منهج الله وكذَّبوا رسوله ، وانظروا إلى أوصاف عبادى الذين آمنوا بى ، ونفَّذوا أحكامى ، وصدَّقوا رسولى .

نقول : عباد وعبيد . والتحقيق أن (عبيد) جمع لعبد ، وأن (عباد) جمع لعابد مثل : رجال جمع راجل : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحج] إذن : عبيد غير عباد .

وسبق أن تحدثنا عن الفَرْق بين العبيد والعباد ، فكلنا عبيد لله تعالى : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، فما دام يطرأ عليه فى حياته ما لا يستطيع أنْ يدفعه مع أنه يكرهه فهو مقهور ، فالعبد الكافر الذى تمرَّد على الإيمان بالله ، وتمرَّد على تصديق الرسول ، وتمرد على أحكام الله فلم يعمل بها .

فهل بعد أن ألفَ التمرد يستطيع أن يتمرد على المرض إنْ أصابه ؟ أو يستطيع التمرد على الموت إنْ حلّ بساحته ؟ إذن : فأنت

---

(١) الجهل : الطيش والسَّفه والتعدى بغير حق . والجهل أيضاً : ضد العلم وهو الخلو من المعرفة . ويتحدد معنى الجهل بما يناسب المقام . والمقصود بالجاهلين هنا : السفهاء . [القاموس القويم ١/ ١٣٤] .

عبد رغماً عنك ، وكلنا عبيد فيما نحن مقهورون عليه ، ثم لنا بعد ذلك مساحة من الاختيار .

أما المؤمن فقد خرج عن اختياره الذى منحه الله فى أن يؤمن أو يكفر ، وتنازل عنه لمراد ربه ، فاستحق أن يكون من عباد الله ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ ..(٦٣) ﴾ [الفرقان] فنحن وإنْ كنا عبيداً فنحن سادة ؛ لأننا عبيد الرحمن ؛ لذلك كانت حيثية تكريم الله لرسوله ﷺ فى الإسراء هى عبوديته لله تعالى ، حيث قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ..(١) ﴾ [الإسراء] ، فالعبودية هى علة الارتقاء .

فلما أخلص رسول الله العبودية لله نال هذا القُرْب الذى لم يسبقه إليه بشر .

لذلك وصف الملائكة بأنهم ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) ﴾[الأنبياء] وباستقراء الآيات لم نجد سوى آية واحدة تخالف فى ظاهر الأمر هذا المعنى الذى قُلْناه في معنى العباد ، وهى قوله تعالى فى الكلام عن الآخرة : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ ..(١٧) ﴾ [الفرقان]

فقال للضالين (عبادى) وهى لا تُقال إلا للطائعين ، لماذا ؟ قالوا : لأن فى القيامة لا اختيارَ لأحد ، فالجميع فى القيامة عباد ، حيث انتفى الاختيار الذى يُميِّزهم .

والعلماء يقولون : إن العباد تُؤخَذ منها العبادية ، وأن العبيد تُؤخَذ منها العبودية : العبادية فى العباد أن يطيع العابد أمر الله ، وينتهى عن نواهيه طمعاً فى ثوابه فى الآخرة ، وخوفاً من عقابه فيها ، إذن : جاءت العبادية لأخذ ثواب الآخرة وتجنّب عقابها .

أما العبودية فلا تنظر إلى الآخرة ، إنما إلى أن الله تعالى تقدّم

بإحسانه على عبيده إيجاداً من عدم ، وإمداداً من عُدْم ، وتربية وتسخيراً للكون ، فالله يستحق بما قدّم من إحسان أن يُطَاع بصرف النظر عن الجزاء في الآخرة ثواباً أو عقاباً .

أما العبودة فهى : ألاَّ ينظر العبد إلى ما قدَّم من إحسان ، ولا ما أخّر من ثواب وعقاب ، وإنما ينظر إلى أن جلال الله يستحق أنْ يُطاع ، وإنْ لم يسبق له الإحسان ، وإنْ لم يأتِ بعد ذلك ثواب وعقاب .

وإن كانت العبودية مكروهة فى البشر كما قال أحد الساسة[1] : متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ذلك لأن العبودية للبشر يأخذ السيد خيْر عبده ، أما العبودية لله تعالى فعزٌّ وشرف ، حيث يأخذ العبد خَيْر سيده ، فهى عبودية سيادة ، لا عبوديةَ قهر .

فحين تؤمن بالله يعطيك الله الزمام : يقول لك : إنْ أردت أنْ أذكرك فاذكرنى ، وفى الحديث القدسى : « مَنْ ذكرنى فى نفسه ذكرتُه فى نفسى ، ومَنْ ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم »[2] .

وإنْ كان ـ سبحانه وتعالى ـ يستدعيك إلى خَمْس صلوات فى اليوم والليلة ، فما ذلك إلا لتأنسَ بربك ، لكن أنت حر تأتيه فى أىِّ وقت تشاء من غير موعد ، وأنت تستطيع أن تحدد بَدْءَ المقابلة

(١) هو : أحمد عرابى بن محمد عرابى ، زعيم مصرى ، ممن تركت لهم الحوادث ذكراً فى تاريخ مصر الحديث ، ولد فى قرية « هرية رزنة » (عام ١٨٤١ م) من قرى الزقازيق بمصر ، جاور فى الأزهر سنتين ، ثم انتظم فى الجيش سنة (١٨٥٥م) وكان عمره ١٤ عاماً حتى بلغ رتبة « أميرالاى » فى أيام الخديوى توفيق . توفى ١٩١١ م عن ٧٠ عاماً . انظر (الأعلام للزركلى ١٦٨/١) .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٥١/٢ ، ٣٥٤ ، ٤٠٥) ، والبخارى فى صحيحه (٧٤٠٥ ، ٧٥٠٥ ، ٧٥٣٧) والترمذى فى سننه (٣٦٠٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وقد شرح الشيخ الشعراوى رحمه الله هذا الحديث القدسى فى سلسلة « الأحاديث القدسية » (١٧/١-٢٥) بتحقيقنا .

ونهايتها وموضوعها .. إلخ ، فزمام الأمر فى يدك .

وقد تعلم سيدنا رسول الله خُلق الله ، فكان إذا وضع يده فى يد أحد الصحابة يُسلِّم عليه لا ينزع يده منه حتى يكون هو الذى ينزع يده من يد رسول الله[1] ، وهذا أدب من أدب الحق ـ تبارك وتعالى ـ إذن : فالعبودية لله تعالى عبودية لرحمن ، لا عبودية لجبار .

وأول ما نلحظ فى هذه الآية أنه تعالى أضاف العباد إلى الرحمن ، حتى لا نظن أن العبودية لله ذِلَّة ، وأن القرآن كلام رب وُضِع بميزان ، ثم يذكر ـ سبحانه وتعالى ـ صفات هؤلاء العباد ، صفاتهم فى ذواتهم ، وصفاتهم مع مجتمعهم ، وصفاتهم مع ربهم ، وصفاتهم فى الارتقاء بالمجتمع إلى الطُّهر والنقاء .

أما فى ذواتهم ، فالإنسان له حالتان هما محلُّ الاهتمام : إما قاعد ، وإما سائر ، ونُخرِج حالة النوم لأنه وقت سكون ، أما حال القعود فالحركة محدودة فى ذاته ، والمهم حال الحركة والمشى ، وهذا هو الحال الذى ينبغى الالتفات إليه .

لذلك يوضح لنا ربنا ـ عز وجل ـ كيف نمشى فيقول : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا .. ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان]

يعنى : برفق وفى سكينة ، وبلين دون اختيال ، أو تكبُّر ، أو غطرسة ، لماذا ؟ لأن المشى هو الذى سيُعرِّضك لمقابلة مجتمعات متعددة ، وهذا الأدب الربانى فى المشى يُحدِث فى المجتمع استطراقاً إنسانياً يُسوِّى بين الجميع .

---

(١) أخرج أبو الشيخ الأصبهانى فى كتابه « أخلاق النبى ﷺ وآدابه » – ص ٣٦ طبعة الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٣ « عن أنس بن مالك قال : كان ﷺ إذا صافح رجلاً لم ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذى ينزع يده ، ولا يصرف وجهه عنه حتى يكون هو الذى يصرف » .

وفى موضع آخر يقول تعالى فى هذه المسألة : ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا .. ⟨١٨⟩﴾ [لقمان] ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ⟨٣٧⟩﴾ [الإسراء]

وتصعير الخدِّ أنْ تُميله كِبْراً وبَطَراً وأصله (الصعر) مرض فى البعير يصيب عنقه فيسير مَائلاً ، ومَنْ اراد أن يسير مُتكبِّراً مختالاً فليتكبر بشىء ذاتى فيه ، وهل لديك شىء ذاتى تستطيع أن تضمنه لنفسك أو تحتفظ به ؟

إنْ كنتَ غنياً فقد تفتقر ، وإنْ كنتَ قوياً صحيحاً قد يصيبك المرض فيُقعدك ، وإنْ كنتَ عزيزاً اليوم فقد تذلّ غداً . إذن : فكل دواعى التكبُّر ليستَ ذاتية عندك ، إنما هى موهوبة من الله ، فعلامَ التكبُّر إذن ؟!

لذلك يقولون فى المثل (اللى يخرز يخرز على وركه) إنما يخرز على ورك غيره ؟! وأصل هذا المثل أن صانع السروج كان يأتى بالصبى الذى يعمل تحت يده ، ويجعله يمدّ رجْله ، ويضع السرج على وركه ، ثم يأخذ فى خياطته ، فرآه أحدهم فَرَقَّ قلبه للصبى فقال للرجل : إنه ضعيف لا يتحمل هذا ، فإنْ أردتَ فاجعله على وركك أنت . كذلك الحال هنا ، مَنْ أراد أن يتكبَّر فليتكبَّر بشىء ذاتى فيه ، لا بشىء موهوب له .

والمتكبِّر شخص ضُرب الحجاب على قلبه ، فلم يلتفت إلى ربه الأعلى ، ويرى أنه أفضل من خَلْق الله جميعاً ، ولو استحضر كبرياء ربه لاستحى أن يتكبر على خَلْق الله ، فتكبُّره دليل على غفلته عن هذه المسألة .

لذلك يقول الناظم :

فَدَع كُلَّ طاغِيةِ للزمَان   فَإنَّ الزمَانَ يُقيم الصَّعَرْ

يعنى : سيرَى من الزمان ما يُقوِّم اعوجاجه ، ويُرغِم أنفه .

ومعنى ﴿مَرَحًا..(١٨)﴾ [لقمان] المرح : الفرح ببطر . والبطر : أنْ تأخذ النعمة وتنسى المنعم ، وتتنعَّم بها ، وتعصى مَنْ وهبك إياها ، إذن : المنهىّ عنه الفرح المصاحب للبطر ، وإنكار فضل المنعم ، أما الفرح المصاحب للشكر فمحمود ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا..(٥٨)﴾ [يونس]

وفي موضع آخر يُعلِّمنا أدب المشى ، فيقول : ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ..(١٩)﴾ [لقمان]

وقالوا : إن المراد بالمشى الهَوْن ، هو الذى يسير فيه الإنسان على سجيته دون افتعال للعظمة أو الكِبْر ، لكن دون انكسار وذِلَّة ، وسيدنا عمر - رضى الله عنه - حينما رأى رجلاً يسير متماوتاً ضربه ، ونهاه عن الانكسار والتماوت فى المشية ، وهكذا فمشْية المؤمن وَسَط ، لا متكبر ولا متماوت متهالك .

ثم تتحدث الآية بعد ذلك عن صفات عباد الرحمن وعلاقتهم بالناس : ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا..(٦٣)﴾[الفرقان] والجاهل : هو السَّفيه الذى لا يزن الكلام ، ولا يضع الكلمة فى موضعها ، ولا يدرك مقاييس الأمور ، لا فى الخُلُق ولا فى الأدب .

وسبق أن فرَّقْنا بين الجاهل والأمىّ : الأمىّ هو خالى الذهن ، ليس عنده معلومة يؤمن بها ، وهذا من السهل إقناعه بالصواب . أما الجاهل فعنده معلومة مخالفة للواقع ؛ لذلك يأخذ منك مجهوداً فى إقناعه ؛ لأنه يحتاج أولاً لأن تُخرِج من ذهنه الخطأ ، ثم تُدخِل فى قلبه الصواب .

والمعنى : إذا خاطبك الجاهل ، فحذار أن تكون مثله فى الردِّ عليه فتَسفَه عليه كما سَفِهَ عليك ، بل قرِّعه بأدب وقُلْ ﴿سَلَامًا (٦٣)﴾ [الفرقان] لتُشعِره بالفرقَ بينكما .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يُوضِّح فى آية أخرى ثمرة هذا الأدب ، فيقول : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

وما أجملَ ما قاله الإمام الشافعى[1] فى هذا المعنى :

إذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلَا تُجِبْهُ ... فَخَيْر مِنْ إجَابتِه السُّكُوتُ[2]

فَإنْ كَلَّمتَه فرجتَ عَنْه ... وإنْ خلَّيْته كَمَداً يمُوتُ

فإن اشتد السفيه سفاهة ، وطغى عليك وتجبر ، فلا بُدَّ لك من رَدِّ العدوانَ بمثله ؛ لأنك حلُمتَ عليه ، فلم يتواضع لك ، وظنَّ حلْمك ضعفاً ، وهنا عليك أن تُريه الفرق بين الضعف وكرم الخُلق ، كالشاعر[3] الذى قال :

صَفَحْنَا عَنْ بنى ذُهْل ... وَقُلْنَا القَوْمُ إخْوَانُ

عَسَى الأيامُ أنْ يُرْ ... جِعْنَ قَوْماً كالذى كَانُوا

فلما صرَّح الشَّر فَأمْـ ... ـسَى وَهْو عُريَانُ

ولم يَبقَ سوَى العُدْوا ... ن دنَّاهُمْ كما دَانُوا

مشَيْنا مَشْية الليْث ... غَدا والليثُ غَضْبانُ

---

(١) هو : محمد بن إدريس الشافعي المطلبى ، أبو عبد الله ، أحد الأئمة الأربعة ، صاحب المذهب الشافعى ، وإليه نسبة الشافعية ، ولد في غزة بفلسطين (عام ١٥٠ هـ) . زار بغداد مرتين ، وقصد مصر سنة ١٩٩ هـ فتوفى بها (عام ٢٠٤ هـ) عن ٥٤ عاماً ، وقبره معروف بالقاهرة . [الأعلام للزركلى ٦/٢٦] .

(٢) هذا البيت ذكره أبو الحسن الماوردى فى « أدب الدنيا والدين » (ص ٢٢٦) ، ولكن عزاه لعمرو ابن على . وانظر : ديوان الإمام الشافعى – طبعة مكتبة ابن سينا ١٩٨٨ ص ٣٨ ، فقد ورد فيه هذان البيتان .

(٣) هو : شهل بن شيبان بن زمَّان الحنفى ، الشهير بالفنْد الزِّمَّانى ، من بنى بكر بن وائل ، شاعر جاهلى ، كان سيد بكر فى زمانه ، وفارسها وهو من أهل اليمامة . شهد حرب بكر وتغلب وقد ناهز عمره المئة . توفى نحو ٧٠ ق هـ . وسُمِّى الفند لعظم خلْقته . (الأعلام ٣/١٧٩) .

بضَرْب فيه توهينٌ وتخضيعٌ وإقْرانُ
وطَعْن كفم الزِّق[1] غَدا والزِّق مَلآنُ
وفي الشرِّ نجاةٌ حيـ ـنَ لاَ يُنجيك إحْسَانُ
وبعْضُ الحِلْم عِنْد الجهْـ ـل للذِّلَّة إذْعَانُ

وللإمام على كرَّم الله وجهه :

إذَا كُنْتُ مُحتاجاً إلى الحِلْم إنَّنى إلى الجَهْلِ فى بَعْضِ الأحَايين أحْوجُ
ولِي فَرسٌ للحِلْم بالحِلْم مُلْجَمٌ وَلِى فَرَسٌ للجَهْلِ بالجهْلِ مُسْرَجُ
فَمَنْ رَامَ تَقْويمى فَإنِّى مُقوَّمٌ ومَنْ رَامَ تَعْويجى فَإنِّى مُعوَّجُ

ومعنى : ﴿قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان] قالوا : المراد هنا سلام المتاركة ، لا سلام الأمان الذى نقوله فى التحية (السلام عليكم) فحين تتعرَّض لمن يؤذيك بالقول ، ويتعدى عليك باللسان تقول له سلام يعنى : سلام المتاركة .

وبعض العلماء يرى أن كلمة ﴿قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان] هنا تعنى المعنيين : سلام المتاركة ، وسلام التحية والأمان ، فحين تحلُم على السَّفيه فلا تُجَاريه تقول له : لو تماديتُ معك سأوذيك ، وأفعل بك كذا وكذا ، فأنت بذلك خرجتَ من سلام المتاركة إلى سلام التحية والأمان .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص]

ألم يقُلْ إبراهيم ـ عليه السلام ـ لعمه آزر لما أصرَّ على كُفْره :

(١) الزق : السقاء . وهو كل وعاء اتخذ لشراب ونحوه . وهو من الجلد . [لسان العرب ـ مادة : زقق] .

﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي.. (٤٧) ﴾ [مريم]

والمعنى : لو وقفتُ أمامك لربما اعتديتُ عليك ، وتفاقمتْ بيننا المشكلة .

وبعد أن تناولتْ الآيات حال عباد الرحمن فى ذواتهم ، وحالهم مع الناس ، تتحدث الآن عن حالهم مع ربهم :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) ﴾

والبيتوتة تكون بالليل ، حين يأوى الإنسان إلى بيته بعد عناء اليوم وسَعْيه ، وبعد أن تقلَّب فى ألوان شتَّى من نِعَم الله عليه ، فحين يأوى إلى مبيته يتذكر نِعَم الله التى تجلَّتْ عليه فى ذلك اليوم ، وهى نِعَم ليست ذاتية فيه ، إنما موهوبة له من الله ؛ لذلك يتوجَّه إليه سبحانه بالشكر عليها ، فيبيت لله ساجداً وقائماً .

كما قال سبحانه : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ..(٩) ﴾ [الزمر]

وقال سبحانه : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ[1] هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات]

لكن ، أيطلبُ اللهُ تعالى منَّا ألاَّ نهجعَ بالليل ، وقد قال فى آية أخرى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً (٩) ﴾ [النبأ]

قالوا : ليس المراد قيام الليل كله ، إنما جزء منه حين تجد عندك النشاط للعبادة ، كما قال الحق سبحانه وتعالى فى خطاب النبى ﷺ :

---

(١) الأسحار : جمع سَحَر ، وهو الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر . [القاموس القويم ٣٠٥/١] .

﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۝﴾ [المزمل]

حتى قال ابن عباس : مَنْ صلّى بعد العشاء ركعتين فأكثر كان كَمَنْ بَاتَ لله ساجداً وقائماً[1] ، فربُّك يريد منك أن تذكره قبل أن تنام ، وأن تتأمل نِعَمه عليك فتشكره عليها .

وذكر سبحانه حالتى السجود والقيام ﴿سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝﴾ [الفرقان] لأن بعض الناس يصعُب عليهم أنْ يسجدوا ، وآخرين يسهل عليهم السجود ، ويصعب عليهم القيام ، فذكَر الله سبحانه الحالتين ليعدل فيهما .

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝﴾

هذا القول يناسب عباد الرحمن الذين يُفعلون الخيرات ، طمعاً فى الثواب ، وخوفاً من العقاب ، فهم الذين يقولون ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝﴾ [الفرقان] كلمة (غرام) نقولها بمعنى الحب والهُيَام والعشق ، ومعناها : اللزوم ، أى لازم لهم لا ينفك عنهم فى النار أبداً ؛ لأن العاقبة إما جنة أبداً ، أو نار أبداً .

فمعنى ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝﴾ [الفرقان] أى : لازماً دائماً ، ليس مرة واحدة وتنتهى المسألة .

ومنه كلمة (الغريم) ، وهو الذى يلازم المدين ليأخذ منه دَيْنه .

---

(١) عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ﷺ قال : « مَنْ صلى العشاء الآخرة فى جماعة ، وصلى أربع ركعات قبل أن يخرج من المسجد كان كعدل ليلة القدر » أورده المنذرى فى « الترغيب والترهيب » (١/٢٠٥) وعزاه للطبرانى فى « المعجم الكبير » .

وكلمة ﴿ اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ .. (٦٥) ﴾ [الفرقان] كأنهم متصورون أن جهنم ستسعى إليهم ، وأن بينها وبينهم لدداً ، بدليل أنها ستقول : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

ثم تذكر الآيات سبب هذه المقولة :

﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) ﴾

ساء الشيء أى : قَبُحَ ، وضده حَسُنَ ؛ لذلك قال تعالى عن الجنة فى مقابل هذه الآية : ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) ﴾ [الفرقان] وهكذا السوء يلازمه القُبْح ، والحُسْن يلازمه الحُسْن .

وقال : ﴿ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) ﴾ [الفرقان] حتى لا يظنوا أن النار فترة وتنتهى ، ثم يخرجون منها ، فهى مستقرهم الدائم ، ومُقامهم الذى لا يفارقونه .

أو أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أراد بهذا نوعين من الناس : مؤمن أسرف فى بعض السيئات ولم يتُبْ ، أو لم يتقبل الله منه توبته ، فهو فى النار لحين ، والمستقر هنا بمعنى المكان المؤقت ، أما المقام فهو الطويل .

إذن : النار ساءتْ مستقراً لمن أسرف على نفسه ولم يتُبْ ، أو لم يتقبل الله توبته ، إنما ليست إقامة دائمة ، والمقام يكون للخالدين فيها أبداً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾

الإسراف : تبديد ما تملك فيما عنه غَنَاء ، فلا نقول (مسرف) مثلاً للذى يأكل ليحفظ حياته ؛ لذلك يقول سيدنا عمر ـ رضى الله

عنه ـ لولده عاصم[1]: كُلْ نصف بطنك ، ولا تطرح ثوباً إلا إذا استخلقْتَه[2] ، ولا تجعل كل رزقك في بطنك وعلى جسدك[3] .

والإسراف أن تنفق في غير حلٍّ ، فلا سرف في حلٍّ ، حتى إنْ أسرف الإنسان في شيء من الترف المباح ، فإنه يؤدي لنفسه بعض الكماليات ، في حين يؤدي للمجتمع أشياء ضرورية ، فالذي لا يرتدي الثوب إلا (مكْوياً) كان بإمكانه أن يرتديه دون كَيٍّ ، فكَيُّ الثوب في حقه نوع من الترف ، لكنه ضرورة بالنسبة (للمكوجي) حيث يسَّر له أكل العيش .

والذي يستقل سيارة أجرة وهو قادر على السير ، أو يجلس على (القهوة) كل يوم ليمسح حذاءه وهو قادر على أن يمسحه بنفسه ، هذه كلها ألوان من الترف بالنسبة لك ، لكنها ضرورة لغيرك ، فلا يُسمَّى هذا إسرافاً.

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان] أي : بين الإسراف والتقتير ﴿ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان] يعني : وسطاً أي : أن الإنفاق وسط بين طرفين ، وقوام الشيء : ما به يقوم ، والحياة كلها تقوم على عملية التوسُّط بين الإسراف والتقتير .

---

(١) هو : عاصم بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي : شاعر ، كان من أحسن الناس خلقاً ، وكان طويلاً جسيماً ، وهو جد عمر بن عبد العزيز لأمه . ولد ٦ هـ ، وتوفي بالربذة عام ٧٠ هـ عن ٦٥ عاماً . (الأعلام للزركلي ٣/٢٤٨) .

(٢) خَلُق الثوب خُلوقاً : بَلِيَ . وشيء خَلَق : بَالٍ . [لسان العرب ـ مادة : خلق] . ومقصود عمر رضي الله عنه أن لا يطرح ابنه ثوباً إلا إذا أصبح قديماً بالياً .

(٣) ذكره القرطبي في تفسيره (٧/٤٩٥١) . وفيه « ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله في بطونهم وعلى ظهورهم » وقد كان عمر بن الخطاب قدوة لابنه في هذا ، فقد أخرج أبو نعيم في الحلية (١/٥٣) أن الحسن البصري قال : خطب عمر بن الخطاب وهو خليفة وعليه إزار فيه ثنتى عشرة رقعة .

وأذكر ونحن تلاميذ كانوا يُعلِّموننا نظرية الروافع ، وكيف نُوسِّط مركزاً على عصا من الخشب ، بحيث يتساوى الذراعان ، ويكونان سواء ، لا تميل إحداهما بالأخرى ، وإذا أرادتْ إحداهما أن تميل قاومتْها الأخرى ، كأنها تقول لها : نحن هنا . فإذا ما علقتَ ثقلاً بأحد الذراعين لزمك أن تطيل الأخرى لتقاوم هذا الثقل .

ويروى أن عبد الملك بن مروان[1] لما أراد أن يُزوِّج ابنته فاطمة من عمر بن عبد العزيز اختبره بهذا السؤال ليعرف ميزانه في الحياة : يا عمر ، ما نفقتك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، نفقتي حسنة بين سيئتين[2]، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** (٦٧) ﴾ [الفرقان]

فعلم الخليفة أن زوج ابنته يسير سيْراً يضمن له ولزوجته مُقوِّمات الحياة ، ويضمن كذلك المقومات العليا للنفس وللمجتمع .

وسبق أن ذكرنا أن الإنسان الذى ينفق كل دَخْله لا يستطيع أن يرتقى بحياته وحياة أولاده ؛ لأنه أسرف فى الإنفاق ، ولم يدخر شيئاً ليبنى مثلاً بيتاً ، أو يشترى سيارة .. الخ .

ومصيبة المجتمع أعظم فى حال التقتير ، فمصلحة المجتمع أنْ تُنفق ، وأن تدخر ، كما قال سبحانه : ﴿ **وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ..** (٢٩) ﴾ [الإسراء]

---

(١) هو : أبو الوليد الأموى ، من أعاظم الخلفاء ودهاتهم ، ولد فى المدينة ٢٦ هـ ونشأ بها فقيهاً واسع العلم متعبداً ، استعمله معاوية على المدينة وهو ابن ١٦ سنة ، عُرِّبت فى أيامه الدواوين ، وضبطت الحروف بالنقط والحركات وهو أول من صك الدنانير فى الإسلام ونقش بالعربية عليها . توفى ٨٦ هـ عن ٦١ عاماً . (الأعلام ٤/١٦٥) .

(٢) ذكره القرطبى فى تفسيره (٧/٤٩٥١) .

وهكذا جعل الله لنا ميزاناً بين الإسراف والتقتير ؛ ذلك لأن المال قِوَام الحياة ، والذى يُقتِّر يُقتِّر على نفسه وعلى الناس ، فليست له مطلوبات يشتريها ، ويشارك بها فى حركة الحياة ، وينتفع بها غيره ، فهذه السلع وهذه الصناعات وهؤلاء العمال ، وأهل الحِرَف من أين يرتزقون إذن وليس هناك استهلاك ورواج لسلعهم ؟لا شَكَّ أن التقتير يُحدِث كساداً ، ويُحدِث بطالة ، وهما من أشد الأمراض فتكاً بالمجتمع .

ولو نظرتَ إلى رغيف العيش ، وهو أبسط ضروريات الحياة ، كم وراءه من عمال وصُنَّاع وزُرَّاع ومهندسين ومطاحن ومخازن ومصانع وأفران ، وهَبْ أنك أحجمت مثلاً عنه ، ماذا يحدث ؟

إذن : ربك يريدك أن تنفق شيئاً ، وتدخر شيئاً يتيح لك تحقيق ارتقاءات حياتك وطموحاتها ؛ لذلك خُتمتْ الآية السابقة بقوله تعالى :
﴿ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء]

ملومَ النفس لما بددتَ من أموال لم ينتفع بها عيالك ، ومحسوراً حينما ترى غيرك ارتقى فى حياته وأنت لم تفعل شيئاً . إذن : فالإنسان ملومٌ إنْ أسرف ، محسورٌ إنْ قتّر ، والقوام فى التوسُّط بين الأمرين ، وبالحسنة بين السيئتين ، كما قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، ولذلك قالوا : خير الأمور الوسط .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

---

(١) **سبب نزول الآية** : عن عبد الله بن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الذنب أكبر ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك . قال عبد الله : وأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهاً آخَرَ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الفرقان] . أورده ابن كثير فى تفسيره (٣٢٦/٣) ، والقرطبى فى تفسيره (٤٩٥٢/٧) ، والواحدى فى أسباب النزول (ص ١٩٢) . والحديث فى الصحيحين البخارى ومسلم وأصحاب السنن .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾

وهنا قد يسأل سائل : أبعد كل هذه الصفات لعباد الرحمن ننفى عنهم هذه الصفة ﴿ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الفرقان] وهم مَا اتصفوا بالصفات السابقة إلا لأنهم مؤمنون بالإله الواحد سبحانه ؟ قالوا : هذه المسألة عقيدة وأساس لا بُدَّ للقرآن أن يكررها ، ويهتم بالتأكيد عليها .

ومعنى : ﴿ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الفرقان] أى : لا يدعون أصحاب الأسباب لمسبِّباتهم ، وهذا هو الشرك الخفىّ . ومنه قولهم : توكلتُ على الله وعليك . فنقول له : انتبه ليس علىَّ شىء ، الأمر كله على الله . فقُلْ : توكلت على الله . وإنْ أردتَ فقُلْ : ثُمَّ عليك[1].

ونسمع آخر يقول للأمر الهام : هذا علىَّ ، والباقى على الله ، فجعل الأصل المهم لنفسه ، وأسند الباقى لله ، أيليق هذا والمسألة كلها أصلها وفروعها على الله ؟

إذن : يمكن أن تكون هذه الآية للمفتونين فى الأسباب الذين ينتظرون منها العطاء ، وينسوْنَ المسبِّب سبحانه ، وهذا هو الشرك الخفى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الفرقان] سبق أنْ تحدثنا عن الفرق بين الموت والقتل ، وقلنا :

---

(١) أخرج ابن ماجة فى سننه (٢١١٧) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال قال ﷺ : « إذا حلف أحدكم فلا يقل : ما شاء الله وشئت ، ولكن ليقل : ما شاء الله ثم شئت » .

إنّ كليهما تذهب به الحياة ، لكن فى الموت تذهب الحياة أولاً ، ثم تُنقض البنية بعد ذلك ، أما فى حالة القتل فتُنقض البنية أولاً ، ثم يتبعها خروج الروح . فالموت ـ إذن ـ بيد الله عز وجل ، أما القتل فقد يكون بيد البشر .

وهنا نَهْى صريح عن هذه الجريمة ؛ لأنه « ملعون مَنْ يهدم بنيان الله » ويقضى على الحياة التى وهبها الله تعالى لعباده .

وقوله تعالى : ﴿ إلاَّ بِالْحَقِّ .. (٦٨) ﴾ [الفرقان] أى : حق يبيح القتل كرَجْم الزانى حتى الموت ، وكالقصاص من القاتل ، وكقَتْل المرتد عن دينه ، فإنْ قتلْنا هؤلاء فقتلُهم بناء على حَقٍّ استوجب قتلهم .

فإن قال قائل : فأين حرية الدين إذن ؟ نقول : أنت حر فى أن تؤمن أو لا تؤمن ، لكن اعلم أولاً أنك إنْ ارتددتَ عن إيمانك قتلناك ، فإياك أنْ تدخل فى ديننا إلا بعد اقتناع تام حتى لا تُعرِّض نفسك لهذه العاقبة .

وهذا الشرط يمثِّل عقبة وحاجزاً أمام مَنْ أراد الإيمان ويجعله يُفكِّر ملياً قبل أنْ ينطق بكلمة الإيمان ويحتاط لنفسه ، إذن : فربُّكَ عز وجل يُنبِّهك أولاً ، ويشترط عليك ، وليس لأحد بعد ذلك أن يقول : أين حرية الدين ؟

وقوله تعالى :﴿ وَلا يَزْنُونَ .. (٦٨) ﴾ [الفرقان] تحدثنا عن هذه المسألة فى أول سورة النور وقلنا : إن الإنسان الذى كرَّمه الله وجعله خليفةً له فى أرضه أراد له الطُّهْر والكرامة ، وأنْ يسكن الدنيا على مقتضى قانون الله ، فلا يُدخِل فى عنصر الخلافة شيئاً يخالف هذا القانون ؛ لأن الله تعالى يريد أن يبنى المجتمع المؤمن على الطُّهْر ويبنيه على عناية المربِّى بالمربَّى .

لذلك تجد الرجل يعتنى بولده مطْعماً ومشرباً وملبساً ويفديه بنفسه ، لماذا ؟ لأنه ولده من صُلْبه ومحسوب عليه ، أمّا إنْ شكَّ فى نسب ولده إليه فإنه يُهمله ، وربما فكّر فى الخلاص منه ، وإنْ رُبِّى مثل هذا رُبِّى لقيطاً لا أصلَ له ، وهذا لا يصلح لخلافة الله فى أرضه ، ولا لأن يحمل هذا الشرف .

وهذا يدل على أن الفطرة السليمة تأبى أنْ يوجد فى كون الله شخص غير منسوب لأبيه الحق ، من هنا نهى الإسلام عن الزنا ، وجعل من صفات عباد الرحمن أنهم لا يزنون ..

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الفرقان] أثاماً مثل : نكالاً وزْناً ومعنىً ، والآثام : عقوبة الإثم والجزاء عليه .

﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾

كيف نفهم مضاعفة العذاب فى هذه الآية مع قوله تعالى فى آية أخرى :﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى]

ويقول سبحانه : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام]

الحقيقة لا يُوجد تناقض بين آيات القرآن الكريم ، فالذى يرتكب هذه الفعْلة يكون أسْوة فى المجتمع تُجرِّىء الغير على ارتكاب هذه الجريمةَ ؛ لذلك عليه وِزْره كفاعل أولاً ، وعليه وِزْر مَن اقتدى به .

كما جاء فى قوله تعالى حكايةً عن الكافرين : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا

عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) ﴾ [الزخرف] إذن : فوجود الآباء كقدوة للشر يزيد من شرِّ الأبناء ، فكأنهم شركاء فيه .

لذلك يقول تعالى في موضع آخر : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥) ﴾ [النحل]

وقال : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ .. (١٣) ﴾ [العنكبوت]

فالوِزْر الأول لضلالهم في ذاته ، والوِزْر الآخر ؛ لأنهم أضلّوا غيرهم ، هذا هو المراد بمضاعفة العذاب .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) ﴾ [الفرقان] معنى (مُهَانًا) : حينما وصف القرآن العذاب وصفه مرةً بأنه أليم ، ومرةً عظيم ، ومرة مُهين . فالذي ينظر إلى إيلام الجوارح يقول : هذا عذاب أليم ؛ لأنه يُؤلم كل جارحة فيه ، فالعذاب أمر حسيّ ، أما الإهانة فأمر معنوي ، ومن الناس مَنْ تؤلمه كلمة تنال من كرامته ، ومنهم مَنْ يُضرب فلا يؤثر فيه .

والخالق - عز وجل - خلق الناس وعلم أزلاً أنهم أبناء أغيار ، ليس معصوماً منهم إلا الرسل ، إذن : فالسيئة مُحْتملة منهم .

ومن تمام رحمته تعالى بربوبيته أنْ فتح باب التوبة لعباده ، لمن أسرف منهم على نفسه في شيء ؛ لأن صاحب السيئة إنْ يئس من المغفرة استشرى خطره وزاد فساده ، لكن إنْ فتحتَ له باب التوبة والمغفرة عاد إلى الجادة ، واستقام على الطاعة ، وفي هذا رحمة بالمجتمع كله .

يقول تعالى :

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

فربُّكم كريم ورحيم ، إنْ تُبتْم تاب عليكم وقَبِلكم ، فإنْ قدَّمْتُم العمل الصالح واشتدّ ندمكم على ما فات منكم من معصية يُبدِّل سيئاتكم حسنات.

وللتوبة أمران : مشروعيتها من الله أولاً ، وقبولها من صاحبها ثانياً ، فتشريعها فَضْل ، وقبولها فَضْل آخر ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة] والمعنى : تاب عليهم بأنْ شرَّع لهم التوبة حتى لا يستحُوا من الرجوع إلى الله .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان] تاب وآمن لمن عمل معصية تُخرجه عن الإيمان ، فالعاصى لم يقارف المعصية إلا فى غفلة عن إيمانه ، كما جاء فى الحديث الشريف : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[1].

ولو استحضر العاصى جلالَ ربه ما عصاه ، ولتضخمتْ عنده المعصية فانصرف عنها ، وما دام قد غاب عنه إيمانه فلا بُدَّ له من تجديده ، ثم بعد ذلك يُوظِّف هذا الإيمان فى العمل الصالح .

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان] فالجزاء

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿ فَأُوْلَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ .. ⑦⓪ ﴾ [الفرقان] وليس المراد أن السيئة تُبدَّل فتصير حسنة مباشرة ، إنما يرفع العبد السيئة ويحل محلها التوبة ، وبعد التوبة يضع الله له الحسنة .

وقد أطمعتْ رحمة الله ومغفرته بعض الناس ، حتى قال الشاعر :

مَوْلاَى إنِّى قَدْ عصيتُكَ عَامداً ... لأراكَ أجملَ ما تكُون غَفُوراً
ولَقَدْ جنيْتُ منَ الذُّنُوبِ كبَارَهَا ... ضنّاً بعفْوِك أنْ يكُونَ صَغيراً

حتى وصل الحال ببعضهم أنْ يستكثر من السيئة طمعاً فى أن تُبدَّل حسنات ، لكن مَنْ يضمن له أن يعيش إلى أنْ يتوب ، أو أنه إنْ تاب قَبل الله منه ؟

والعلة النفسية التى تكلَّم عنها العلماء فى هذه المسألة أن الذى ابتعد عن المعصية فلم يقع فى شراكها لم يدرك لذة الشهوة ، فلا تَأْتى على باله ، أمّا مَنْ خاض فيها ، وذاق لذتها ، وأسرف فيها على نفسه فيعانى كثيراً حينما يحجز نفسه وينأى بها عن معصية الله ، فهذه المعاناة هى التى جعلتْ له هذه المنزلة .

﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ⑦① ﴾

معنى ﴿ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ⑦① ﴾ [الفرقان] يعنى : توبة نصوحاً ، لا عودة بعدها إلى المعصية ، لا يرجع فى توبته كالمستهزئ بربه ، يقول : أفعل كذا ثم أتوب . وكلمة ﴿ مَتَابًا ⑦① ﴾ [الفرقان] تعنى : العزم ساعةَ أنْ يتوبَ ألاَّ يعود ، والخطر فى أن يُقدم العبد على الذنب لوجود التوبة ، فقد يُقبض فى حال المعصية ، وقبل أنْ يُمكنه التوبة[1] .

---

(١) قال القفال : يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين ، ولهذا قال ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ .. ⑦⓪ ﴾ [الفرقان] ثم عطف عليه من تاب من المسلمين وأتبع توبته عملاً صالحاً ، فله حكم التائبين أيضاً . [تفسير القرطبى ٤٩٥٦/٧] .

ثم تذكر الآيات خصلة أخرى من خصال عباد الرحمن :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾

الزُّور : الشيء الكذب ، ويُزوِّر في الشهادة . أي : يُثبت الحق لغير صاحبه ، لكن نلاحظ أن الآية لم تقُلْ : والذين لا يشهدون بالزور ، مما يدلّ على أن للآية معنى أوسع من النطق بقول الزور في مجال التقاضي ، حيث تقول عند القاضي : فلان فعلْ وهو لم يفعل .

فللشهادة معنى آخر : أي : لا يحضرون الزور ، والزور كلٌّ مَا خالف الحق ، ومنه قوله تعالى في شهر رمضان : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ .. ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة]

فمعنى ﴿ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفرقان] أي : لا يحضرون الباطل في أيّ لون من ألوانه قولاً أو فعلاً أو إقراراً ، وكل ما خالف الحق .

لذلك يقول الحق سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص]

ويقول سبحانه : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام]

وقال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ .. ﴿١٤٠﴾ ﴾ [النساء]

ومعلوم أن قَوْل الزور والشهادة بغير حق تقلب الحقائق وتضرٌّ بالمجتمع ؛ لأنك حين تشهد بالزُّور تأخذ الحق من صاحبه وتعطيه لغيره ، وهذا يؤدى إلى تعطل حركة الحياة ، وتجعل الإنسان لا يأمن على ثمار تعبه وعرقه ، فيحجم الناس عن السعى والعمل ما دامت المسألة زوراً فى النهاية .

لذلك قال النبى ﷺ : « ألا أُنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت »[1]

لماذا ؟ لأن شهادة الزُّور تهدم كُلَّ قضايا الحق فى المجتمع .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢)﴾ [الفرقان]
اللغو : هو الذى يجب فى عُرْف العاقل أنْ يُلْغى ويُتْرك ، وهو الهُرَاء الذى لا فائدة منه ؛ لذلك قال فيمن يتركه ﴿مَرُّوا كِرَامًا (٧٢)﴾ [الفرقان] والكرام يقابلها اللئام ، فكأن المعنى : لا تدخل مع اللئام مجالَ اللغو والكلام الباطل الذى يُصادِم الحق ليصرف الناس عنه .

ومن ذلك ما حكاه القرآن عن الكفار ليصرفوا الناس عن الاستماع لآيات الذكر : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦)﴾ [فصلت]

يعنى : شوِّشوا عليه حتى لا يتمكّن الناس من سماعه ، وهذه شهادة منهم بأنهم لو تركوا آذان الناس على طبيعتها وسجيتها فسمعت القرآن ، فلا بُدَّ أن ينفعلوا به ، وأن يؤمنوا به ، ولو لم يكُنْ للقرآن أثر فى النفوس ما قالوا هذه المقولة .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٧) كتاب الإيمان ، وأحمد فى مسنده (٥/٣٧) ، والترمذى فى سننه (٣٠١٩) من حديث أبى بكرة نفيع بن الحارث . قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب صحيح .

وقولهم : ﴿وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦)﴾ [فصلت] يعنى : وإنْ سمعتموه يُقرأ فالْغوْا فيه ، وشوِّشوا عليه ، حتى لا يصل إلى الآذان ، لماذا ؟ ألم يؤمن سيدنا عمر لما سمع آيات منه فى بيت أخته فاطمة ؟ لكن لماذا أثّر القرآن فى عمر هذه المرة بالذات ، وقد سمعه كثيراً فلم يتأثر به ؟

قالوا : لأن اللجج والعناد يجعل الإنسان يسمع غير سامع ، أما سماع عمر هذه المرة ، فكان بعد أن ضرب أخته فشجَّها ، وسال منها الدم ، فحرّك فيه عاطفة الأخوة وحنانها ، ونفض عنه الكبرياء والعناد واللجاج ، فصادف القرآنُ منه نفساً صافية ، وقلباً خالياً من اللدد للإسلام فأسلم .

ألاَ ترى الكفار يقول بعضهم لبعض عند سماع القرآن ـ كما حكاه القرآن : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦)﴾ [محمد]

يعنى : ما معنى ما يقول ، أو : ما الجديد الذى جاء به ، وهذا على وجه التعجُّب منهم . فيردّ القرآن : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤)﴾ [فصلت]

إذن : فالقرآن واحد ، لكن المُسْتقبل له مختلف : هذا استقبله بنفس صافية راضية ، وهذا استقبله بلَدد[1] وقلب مُغْلق ، فكأنه لم يسمع ، فالمسألة مسألة فعْل وقابل للفعْل ، وسبق أن مثّلنا لذلك بمَنْ ينفخ فى يده أيام البرد والشتاء بقصد التدفئة ، وينفخ فى كوب الشاى مثلاً بقصد التبريد ، فالفعل واحد ، لكن المستقبل مختلف .

(١) اللدد : الخصومة الشديدة والألد : الشديد الخصومة الجَدِل . [لسان العرب ـ مادة : لدد] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ ذُكِّرُوا .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الفرقان] لا تُقال إلا إذا كان المقابل لك الذى تذكره عنده إلْفٌ بالذكْر ، وعنده علْم به ، والآيات التى تُذكَّر بها لها قدوم أول ، ولها قدوم ثان : القدوم الأول : هو الإعلان الأول بها ، والقدوم الثانى : حين تنسى نُذكِّرك بها .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الآيات تُطلَق على معَان ثلاثة : إمَّا آيات كونية تُلفت النظر إلى قدرة الله تعالى ، وأنه صانع حكيم .. الخ ، وإمَّا آيات معجزات جاءت لتأييد الرسل وإثبات صدْقهم فى البلاغ عن الله ، وإمَّا آيات الذكْر الحكيم ، والتى تُسمَّى حاملة الأحكام ، وهى تُنبِّه من الغفلة ، وتُذكِّر الناس .

فالمعنى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الفرقان] أى : فى القرآن الكريم : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الفرقان] لم يخروا : الخرّ : هو السقوط بلا نظام وبلا ترتيب .

كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [النحل] فالسقف إنْ خَرَّ يخرّ بلا نظام وبلا ترتيب .

ومنه قوله تعالى فى صفات المؤمنين : ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ .. ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الإسراء] لأنهم يخرّون بانفعال قَسْرىّ ، ينشأ من سماع القرآن .

إذن : حين يُذكَّرون بآيات الله لم يخرّوا عليها صُمّاً وعمياناً ، إنما يخِرُّون وهم مُصغون تمام الإصغاء ، ومبصرون تمام الإبصار .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾

هذه صفة أخرى من صفات عباد الرحمن ، يطلبون فيها أمرين ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان] والذرية لا تأتي إلا بعد الزواج ؛ لذلك جاء الدعاء للأزواج ، ثم للذرية .

وكلمة ﴿ قُرَّةَ .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان] تُستعمل بمعنيين ، وفي اللغة شيء يسمونه (عامل اشتقاق) يعني : يشتق اللفظ من معنى عام ، وقد يختلف معناه ، لكن في النهاية يلتقيان على معنى واحد .

وكلمة (قُرَّة) تأتي بمعنى اللزوم والثبات ، من قَرَّ في المكان يعني : لزمه وثبت فيه ، وتأتي بمعنى السرور ؛ والقُرُّ يعني أيضاً : شدة البرودة ، كما جاء في قول الشاعر :

أَوْقِدْ فَإنَّ اللَّيلَ لَيْلُ قُرّ ... والريحَ يَا غُلامُ ريحُ صُرّ
عَلَّ أنْ يَرى نَارك مَنْ يمرُّ ... إنْ جلبتْ ضَيْفاً فأنتَ حُرّ

فالقُر : البرد ، والقرور : السُّكون ، والعين الباردة : دليل السرور ، والعين الساخنة دليل الحزن والألم ، على حَدِّ قول الشاعر :

فَامَّا قُلوبُ العَاشقينَ فأُسخِنَتْ ... وأمَّا قُلوبُ العَازلين[1] فقرَّت

(١) عزل الشيء يعزله فاعتزله : نحّاه جانباً فتنحَّى . [لسان العرب ـ مادة : عزل] أي : انهم عزلوا قلوبهم عن العشق والحب والوصال فاستراحت واستقرت قلوبهم .

لذلك يكنُون ببرودة العين عن السرور ، وبسخونتها عن الحزن ، يقولون : رزقنى الله ولداً قرَّتْ به عينى ، ويقولون : أسخن الله عين فلان يعنى : أصابه بحُزْن تغلى منه عينه .

ولأن العين جوهرة غالية فى جسم الإنسان فقد أحاطها الخالق - عز وجل - بعناية خاصة ، وحفظ لها فى الجسم حرارةً مناسبة تختلف عن حرارة الجسم التى تعتدل عند ٣٧°، فلو أخذتْ العينُ هذه الدرجة لانفجرتْ.

ومن عجيب قدرة الله تعالى أن تكون حرارة العين تسع درجات ، وحرارة الكبد أربعين ، وهما فى جسم واحد .

فالمعنى ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان] يعنى : اجعل لنا من أزواجنا ما نُسَرُّ به ، كما جاء فى الحديث الشريف عن صفات الزوجة الصالحة : « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة : إنْ أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرَّته ، وإن أقسم عليها أبرَّته ، وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله »[1]

وهَبْ لنا من ذرياتنا أولاداً ملتزمين بمنهج الله ، لا يحيدون عنه ، ولا يُكلِّفوننا فوق ما نطيق فى قول أو فعل ؛ لأن الولد إنْ جاء على خلاف هذه الصورة كان مصيبة كبرى لوالديه ، بدليل أن الرجل قد يسرف على نفسه بأنواع المعاصى ، وقد يُقصِّر فى حق الله ، لكن يحزن إنْ فعل ولده مثل فعله .

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه (١٨٥٧) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه ، قال البوصيرى فى زوائده : « فى إسناده على بن يزيد . قال البخارى : منكر الحديث . وعثمان ابن أبى العاتكة مختلف فيه . والحديث رواه النسائى من حديث أبى هريرة وسكت عليه . وله شاهد من حديث ابن عمر » .

فالأب قد لا يصلي ، لكن يحثُّ ولده على الصلاة ، ويفرح له إنْ صلى واستقام ، لماذا ؟ لأنه يريد أن يرى وأن يُعوِّض ما فاته من الخير والجمال في ابنه ، ولا يحب الإنسان أن يرى غيره أحسن منه إلا ولده ؛ لأنه امتداده وعوَضه فيما فات .

وإنْ أخذنا ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان] على أنها بمعنى الاستقرار والثبات ، فالمعنى أن تكون الزوجة على خُلُق وأدب وجمال ، بحيث تُرضِي الزوج ، فلا تمتد عينه إلى غيرها ، وتسكن عندها لأنها استوفت كل الشروط ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [الحجر]

وكذلك إنْ وجد صفات الخير والأدب والجمال في أولاد بحيث لا تمتد عينه إلى أكثر من ذلك ؛ لأنه يرى في أولاده كُلَّ تطلعاته ، وكل ما يتمناه ، فلا يتطلع إلى غيرهم ؛ لذلك حين يمدحون . يقولون : فلان لم يَعُدْ عنده تطلعات ، لماذا ؟ لأنه حقَّق كل ما يريد .

ويقولون في المدح أيضاً : فلان هذا قَيْد النظر ، يعني : حين تراه تسكن عنده عينك ، ولا تتحول عنه لجماله وكمال صفاته .

والولد حين يكون على هذه الصورة ، يريح والديه في الدنيا وفي الآخرة ؛ لأنه ولد صالح لا ينقطع برّه بوالديه لموتهما ، إنما يظل باراً بهما حتى بعد الموت فيدعو لهما . وفي الآخرة يجمعهم الله جميعاً في مستقر رحمته : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الطور]

وهكذا كله في الأزواج وفي الأولاد هبة ومنحة من الله .

ونلحظ أن بعض الأزواج يعيشون مع أزواجهم على مَضَض ، وربما على كُرْه تحملهم عليه ظروف الحياة والأولاد واستقرار الأسرة ، فإنْ قلتَ للزوج : إن زوجتك ستكون معك في الجنة يقول : كيف ، حتى في الآخرة ؟! وهو لا يعلم أن الله تعالى سيُطهِّرها من الصفات التي كرهها منها في الدنيا .

قال سبحانه : ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ [1] .. (١٥) ﴾ [آل عمران]

ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) ﴾ [يس]

وقوله تعالى : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) ﴾ [الفرقان] نلحظ أن الدعوة هنا جماعية ، ومع ذلك لم يقُلْ أئمة ، وذكر إماماً بصيغة المفرد ، فلماذا ؟

قالوا : لأنه تعالى يُنبِّهنا إلى أنّ الإمام هو الذي يسير على وَفْق منهج الله ولا يحيد عنه ؛ لذلك إنْ تعددتْ الأئمة فهُمْ جميعاً في حُكْم إمام واحد ؛ لأنهم يصدرون عن رب واحد ، وعن منهج واحد لا تحكمهم الأهواء فتُفرِّقهم كالأمراء مثلاً . فجمعهم في القول من كل منهم على حدة ووحدهم في الإمامة.

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (١/٣٥٢) : « أي مطهرة من الدنس والخبث والأذى والحيض والنفاس وغير ذلك مما يعتري نساء الدنيا » . ونقل ابن منظور في لسان العرب (مادة : طهر) قول أبي إسحاق في معنى هذه الكلمة في الآية : « معناه أنهن لا يحتجن إلى ما يحتاج إليه نساء أهل الدنيا بعد الأكل والشرب ، ولا يحضن ولا يحتجن إلى ما يُتطهر به ، وهن مع ذلك طاهرات طهارة الأخلاق والعفة ، فمطهرة تجمع الطهارة كلها لأن مطهرة أبلغ في الكلام من طاهرة » .

ثم يقول الحق سبحانه عن جزاء عباد الرحمن :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ[1] بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ ﴾

﴿ أُوْلَـٰئِكَ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الفرقان] خبر عن عباد الرحمن الذين تقدمتْ أوصافهم ، فجزاؤهم ﴿ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الفرقان] وجاءت الغرفة مفردةً مع أنهم متعددون ، يحتاج كل منهم إلى غرفة خاصة به .

قالوا ؛ لأن الغرفة هنا معناها المكان العالي الذي يشتمل على غرفات ، كما قال تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سبأ]

وهذا الجزاء نتيجة ﴿ بِمَا صَبَرُوا .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الفرقان] صبروا على مشاقِّ الطاعات ، وقد أوضح النبي ﷺ هذه المسألة بقوله : « حُفَّتْ الجنة بالمكاره ، وحُفَّتْ النار بالشهوات »[2].

فالجنة تستلزم أن أصبر على مشاقِّ الطاعات ، وأن أُقدِّر الجزاء على العمل ، وأستحضره في الآخرة ، فإنْ ضقْتَ بالطاعات وكذَّبْتَ بجزاء الآخرة ، فلِمَ العمل إذن ؟

ومثَّلْنا لذلك بالتلميذ الذي يجدّ ويجتهد في دروسه ، لأنه يستحضر يوم الامتحان ونتيجته ، وكيف سيكون موقفه في هذا اليوم ، إذن : لو استحضر الإنسانُ الثوابَ على الطاعة لَسهُلَتْ عليه وهانتْ عليه متاعبها ، ولو استحضر عاقبة المعصية وما ينتظره من جزائها لابتعد عنها .

---

(١) الغرفة : الدرجة الرفيعة ، وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها ، كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا . حكاه ابن شجرة . وقال الضحاك : الغرفة الجنة . [ذكره القرطبي ٧/٤٩٦١] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/١٥٣ ، ٢٥٤) ، ومسلم في صحيحه (٢٨٢٢) ، والترمذي في سننه (٢٥٥٩) من حديث أنس رضي الله عنه .

فالتكاليف الشرعية تستلزم الصبر ، كما قال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) ﴾ [البقرة]

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد منّا ألاَّ نعزل التكاليف عن جزائها ، بل ضَعِ الجزاء نُصْب عينيك قبل أنْ تُقدِم على العمل .

لذلك النبى ﷺ يسأل أحد صحابته : « كيف أصبحتَ يا حارثة[1] » فيقول : أصبحتُ مؤمناً حقاً ، فقال : « إنَّ لكل حقّ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك » ؟

قال : عزفتْ نفسى عن الدنيا ، حتى استوى عندى ذهبها ومدرها[2] ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون .

فالمسألة ـ إذن ـ فى نظرهم لم تكُنْ غيباً ، إنما مشاهدة ، كأنهم يرونها من شدة يقينهم بها ؛ لذلك قال له النبى ﷺ : « عرفتَ فالزم »[3]

والإمام على ـ كرَّم الله وجهه ـ يقول : لو كُشف عنى الحجاب ما ازددتُ يقيناً . لماذا ؟ لأنه بلغ من اليقين فى الغَيب إلى حَدِّ العلم والمشاهدة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) ﴾ [الفرقان]

التحية : أن نقول له : إننا نُحيِّيك يعنى : نريد حياتك بأُنْسك بنَا ، والسلام : الأمان والرحمة ، لكن ممَّنْ يكون السلام ؟ وردَّ السلام فى

---

(١) هو : الحارث بن مالك الأنصارى . انظر ترجمته فى كتاب « الإصابة فى تمييز الصحابة ـ ١٤٧٥) لابن حجر العسقلانى ، وقد ذكر روايات كثيرة لحديثه هذا .

(٢) المدر : قطع الطين اليابس . [لسان العرب ـ مادة : مدر] .

(٣) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/٥٧) وعزاه للطبرانى فى الكبير ، وقال : « فيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه » .

القـرآن الكريم بمعـان ثلاثة : سـلام من الله ، كمـا فى قوله تعـالى : ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ [يس]

وسلام من المـلائكة :﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم ..(٢٤) ﴾ [الرعد]

وسلام من أهل الأعراف ، وهم قوم استوتْ حسناتهم وسيئاتهم ، فلم يـدخلوا الجـنة ، ولم يدخلـوا النار ، وهؤلاء يـقـولون : ﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) ﴾ [الأعراف]

إذن : فعباد الرحمن يُلَقَّـوْن فى الجنة سلاماً من الله ، وسلاماً من الملائكة ، وسلاماً من أهل الأعراف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) ﴾

وسبق أنْ قـال تعالى عن النار ﴿ سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) ﴾ [الفرقان] لأنهـا قبيـحة ، ومـقابلهـا هنا ﴿ حَسُنَتْ .. (٧٦) ﴾ [الفـرقان] والمستقر : مكان الإقامة العابرة غـير الدائمة ، والمقام : مكان الإقامة الدائمة ، ومعلوم أن مَنْ يدخل الجنة يقيم فيـها إقامة أبدية دائمة ، أما مَنْ يدخل النار فقـد يخرج منها ، إنْ كان مـؤمناً . فكيف قال عن كل منهما : مُستقراً ومُقَاماً ؟

قالوا : لأنهم سـاعةَ يأتيهم نعيم وجـزاء نقول لهم : ليس هذا هو النعيم الدائم ، فالمـستقر فى نعمة واحدة ، إنمـا المقام فى نِعَم أخرى كثيرة مُترقية مُستعلية ، لدرجة أن الكمالات فى عطاء الله لا تتناهى .

ثم يُنهى الحق سبحانه سورة الفرقان بقوله تعالى :

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾

بعد أن تحدث الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن عباد الرحمن ، وذكر أوصافهم وجزاءهم توجّه إلى الآخرين الذين لم يتصفوا بهذه الصفات ، ولن ينالهم شيء من هذا النعيم ، يقول لهم : إياكم أنْ تظنوا أن الله تعالى سيبالى بكم ، أو يهتم ، أو يكون فى معونتكم ؛ لأن الله تعالى لا يبالى إلا بعباده الذين عبدوه حَقَّ العبادة ، وأطاعوه حَقَّ الطاعة ، وأنتم خالفتُمْ الأصل الأصيل من إيجاد الخلْق ، ولم تحققوا معنى الاستخلاف فى الأرض الذى خلقكم الله تعالى من أجله .

فكما أنكم انصرفتم عن منهج الله ولم تَعْبئوا به ولم تعبدوه ، ولم يكُنْ على بالكم ، فكذلك لا يعبأ الله بكم ، ولن تكونوا على ذِكْر منه سبحانه ، وسوف يهملكم .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان] يعنى : لولا عبادتكم ، حيث إنها لم تقع ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان] أى : بالأصل الأصيل ، وهو أنكم مخلوقون للعبادة ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان] كما لازمتم أنتم الكفر بى ولم تعبدونى وأصررتُم على الكفر ، كذلك يكون الجزاء من جنس العمل لِزاماً لكم ، فلا يُفارقكم أبداً .


سورة الشعراء



سورة الشعراء[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ ① ﴾

﴿ طسٓمٓ ① ﴾ [الشعراء]

سبق أن تكلمنا عن الحروف المقطعة في أوائل السور ، وقلنا : فَرْق بين اسم الحرف ومُسمّى الحرف ، مُسمّى الباء مثلاً : بَا أو بُو أو بِي أو إبْ في حالة السكون ، إنما اسمها : باءٌ مفتوحة ، أو مضمومة ، أو ساكنة ، لكن حين تنطق هذا الحرف في كَتَب ـ مثلاً ـ تقول : كَتَبَ فتنطق مُسمًّى الحرف لا اسمه .

وقُلْنا : في هذه المسألة معانٍ كثيرة ، أيسرها : أن القرآن ، وهو كلام الله المعجز مُنزَّل من حُروف مثل حروفكم التي تتكلمون

(١) سورة الشعراء هي السورة رقم (٢٦) في ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٢٢٧ آية ، وهي سورة مكية في قول الجمهور ، وهي السورة رقم ٤٦ في ترتيب النزول نزلت بعد سورة الواقعة وقبل سورة النمل [انظر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٢٧] . وقد استثنى ابن عباس وقتادة أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ ﴾ [الشعراء] إلى آخر السورة . [ذكره القرطبي في تفسيره ٧/ ٤٩٦٥] .

بـهـا ، وكلمات مـثل التى فى لغـتكم ، لكن مـا الذى جعـله متـميـزاً بالإعـجاز عن كـلامكم ؟ نقول : لأنه كـلام الله ، هذا هو الفَرْق ، أمّـا الحروف فواحدة .

ولو تأملتَ لوجدتَ أن الحروف المقطعة فى أوائل السور مجموعها أربعة عشر حرفاً[1] ، هى نصف الحروف الهجـائية ، مرة يأتى حرف واحد ، ومرة حرفان ، ومرة ثلاثة أحرف ، ومرة أربعة أحرف ، ومرة خـمسـة أحـرف . وهذا يدلُّنا على أن القـرآن مُعْـجِـز ، مع أنه بنفس حروفكم ، وبنفس كلماتكم .

وسبق أن ضربنا لتوضيح هـذه المسألة مثلاً : هَبْ أنك أردت أن تختبر جماعة فى إجادة النسج مثلاً ، فأعطيت أحدهم صوفاً ، وللثانى حريراً ، وللثـالث قطناً ، وللرابع كتـاناً ، فهل تسـتطيع أن تحكم على دقَّـة نَسْج كل منهم وأيهـمـا أرقّ وأجـمل ؟ بالطبع لا تسـتطيع ؛ لأن الحـرير أنعم وأرقّ من القطن ، والقطن أرقّ من الـصوف ، والصـوف أرقّ من الكتـان ، فإنْ أردتَ تمـييـز الدقة والمـهارة فى هذه الصنـعة فعليك أنْ تُوحِّد النوع .

إذن : سرّ الإعـجاز فى القـرآن أن تكون مـادته ومادة غيـره من الكلام واحدة ، حـروفاً وكلمات ؛ لذلك كـثيراً ما يقـول الحق ـ تبارك وتعالى ـ بعد الحروف المقطعة :

---

(١) هذه الحروف الأربعة عـشرة يجمعهـا قولنا : نص حكيم قاطع له سر . قال الزمـخشرى : هذه الحروف الأربعـة عشرة مـشتملة على أصناف أجناس الحـروف يعنى : من المهمـوسة والمـجـهورة ، ومن الرخـوة والشـديدة ، ومن المطبـقـة والمـفتـوحـة ، ومن المسـتـعلية والمنخفـضة ، ومن حروف القلقلة ، فسـبحان الذى دقت فى كل شىء حكمتـه . [قاله ابن كثير فى تفسيره ١/٣٧] .

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾

أى : أن الكتاب المبين مُكوَّن من مثل هذه الحروف ، ولله تعالى معَانٍ أخرى ، فيها مرادات له سبحانه ، لعلَّ الزمن يكشف لنا عنها .. والقرآن كلام الله ، وصفاته لا تتناهى فى الكمال ، فإنِ استطعتَ أن تصف الأشياء ، هذا كذا ، وهذا كذا فهذه طاقة البشر والعقل البشرى . أمَّا آيات الله فى كتابه المبين فهى الآيات الفاصلة التى لها بَدْء ولها نهاية ، وتتكوَّن منها سور القرآن .

ومعنى ﴿ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ [الشعراء] الواضح المحيط بكل شيء ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

هذه هى التسلية لرسول الله ﷺ ؛ لأنه حمَّل نفسه فى تبليغ الرسالة فوق ما يُطيق ، وفوق ما يطلبه الله منه حِرْصاً منه على هداية الناس ، وإرجاعهم إلى منهج الله ؛ ليستحقوا الخلافة فى الأرض ، ولأن من شروط الإيمان أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك(١) .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يُسلِّى رسوله ﷺ ، كما قال له فى سورة الكهف : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

---

(١) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره ـ أو قال : لأخيه ـ ما يحب لنفسه » . حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان .

كأنْ ترى ولدك يُرهق نفسه في المذاكرة ، فتشفق عليه أنْ يُهلك نفسه ، فأنت تعتب عليه لصالحه ، كذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعتب على رسوله شفقةً وخوفاً عليه أنْ يُهلك نفسه .

ومعنى ﴿ بَاخِعٌ .. ③ ﴾ [الشعراء] البخع : الذَّبْح الذى لا يقتصر على قَطْع المرىء والودجين[1] ، إنما يبالغ فيه حتى يفصل الفقرات ، ويخرج النخاع من بينها ، والمعنى : تحزن حزناً عميقاً يستولى على نفسك حتى تهلك ، وهذا يدل على المشقة التى كان يعانيها الرسول ﷺ من تكذيب قومه له .

وفى موضع آخر ، يقول سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ .. ⑧ ﴾ [فاطر] فهذا أمر نهائى واضح ، ونَهْى صريح ، بعد أنْ لفتَ نظره بالإنكار ، فقال : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ .. ③ ﴾ [الشعراء]

وقد نبّه الله تعالى رسوله فى عدّة مواضع حتى لا يُحمِّل نفسه فوق طاقتها ، فقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ⑩ ﴾ [الرعد]

وقال : ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ㉒ ﴾ [الغاشية]

وقال : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ .. ㊺ ﴾ [ق]

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لرسوله : يسِّر على نفسك ، ولا تُكلِّفها تكليفاً شاقاً مُضْنياً ، والعتاب هنا لصالح الرسول ، لا عليه .

---

(١) الودجان : عرقان متصلان من الرأس إلى السَّحْر . والجمع أوداج . وهى عروق تكتنف الحلقوم فإذا فُصِد ودَّج . [لسان العرب ـ مادة : ودج] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

والآية هنا ليست آيةَ إقناع للعقول ، إنما آية تُرْغمهم وتُخضع رقابهم ، وتُخضع البنية والقالب ، وهذا ليس كلاماً نظرياً يُقال للمكذبين ، إنما حقائق وقعتْ بالفعل في بني إسرائيل . واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ .. ﴿١٧١﴾ ﴾ [الأعراف]

فأخذوا ما آتيناهم بقوة ، لماذا ؟ بالآية التي أرغمتهم وأخضعتْ قوالبهم ، لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ كما قلنا ـ لا يريد بالإيمان أنْ يُخضع القوالب ، إنما يريد أن يُخضع القلوب باليقين والاتباع .

فلو شاء ربك لآمن مَنْ في الأرض كلهم جميعاً ، لا يتخلف منهم أحد ، بدليل أنه سبحانه خلق الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، وبدليل أنه سبحانه بعث رسلاً وعصمهم ، ولم يجعل للشيطان سبيلاً عليهم ، وبدليل أن الشيطان بعد أن تعهّد أن يُغوي بني آدم ليكونوا معه سواء في المعصية قال له : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحجر]

والشيطان نفسه يقول : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص]

إذن : لو أراد سبحانه لجعلَ الناس جميعاً مؤمنين وما عزَّ عليه ذلك ، لكنه أراد سبحانه أن يكون الإيمان باختيار المؤمن ، فيأتي ربه طواعية مختاراً .

حتى فى أمور الدنيا وأهلها ، قد ترى جباراً يضرب الناس ، ويُخضعهم لأمره ونهيه ، فيطيعونه طاعةَ قوالب ، إنما أيستطيع أنْ يُخضِع بجبروته قلوبهم ؟!

وقال : ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ④﴾ [الشعراء] خَصَّ الأعناق ؛ لأنها مظهر الخضوع ، فأول الخضوع أنْ تلوى الأعناق ، أو الأعناق تُطلَق عند العرب على وجوه القوم وأعيانهم ؛ لذلك يقولون فى التهديد : هذه مسألة تضيع فيها رقاب .

والمراد : الرقاب الكبيرة ذات الشأن ، لا رقاب لمامة القوم ، والضعفاء ، أو العاجزين . ومثلها كلمة صدوْر القوم يعنى : أعيانهم والمقدَّمين منهم الذين يملأون العيون .

والمعنى : فأنت لا تُخضِع الناس ؛ لأنى لو أردتُ أنْ أُخضعهم لأخضعتُهم ؛ لذلك يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ⑨⑨﴾[يونس]

فإذا كان ربك لا يُكره الناسَ على الإيمان ، أفتُكرههم أنت ؟ ولماذا الإكراه فى دين الله ؟ إن الحق - تبارك وتعالى - يوالى تنزيل القرآن عليهم - آية بعد آية - فلعل نجماً من نجومه يصادف فراغاً ، وقلباً صافياً من الموجدة على رسول الله فيؤمن .

لكن هيهات لمثل هؤلاء الذين طُبعوا على اللدد والعناد والجحود أن يؤمنوا ؛ لذلك يقول الله عنهم : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. ①④﴾ [النمل]

وقال عنهم :

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ ﴾

قوله ﴿ مُحْدَثٍ .. ۝٥ ﴾ [الشعراء] يعنى : جديد على أذهانهم ؛ لأننا لا نلفتهم بآية واحدة ، بل بآيات الواحدة تلو الأخرى : ﴿ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ ﴾ [الشعراء]

فكلما جاءتهم آية كذَّبوها ، وهذا دليل على اللدد والعداوة التى لا تفارق قلوبهم لرسول الله ﷺ ، بحيث لا يصادف نجم من القرآن قلوباً خالية ، فكأن عداوتهم لك يا محمد منعتْهم من الإيمان بالقرآن ، فهم مستعدون للإيمان بالقرآن إنْ جاء من غيرك .

أليسوا هم القائلين : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ ﴾ [الزخرف]

إذن : فاللدَد والخصومة ليستْ فى منهج الله ، إنما فى شخص رسول الله ؛ لذلك ربُّك يُعزِّيك ويحرص عليك : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ .. ۝٣٣ ﴾ [الأنعام] مرة ساحر ، ومرة مجنون .. إلخ . انظر إلى التسلية : ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ .. ۝٣٣ ﴾ [الأنعام] فأنت عندهم صادق وأمين ﴿ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣ ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ ﴾ [الشعراء] أى : فى غباء ولَدَد ، وهل هناك أشدّ لَدَداً من قولهم : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢ ﴾ [الأنفال]

بدل أن يقولوا : اهدنا إليه !!

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ ﴾

أى : كلمـا جاءهم ذكْـر من الرحمن ، وآية من آياته أصـرُّوا على تكذيبها ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ ﴾ [الشعراء]

كـما جـاء فى آيات أخـرى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ[1] يَنقَلِبُونَ ۝٢٢٧ ﴾ [الشعراء]

وقال : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ۝٨٨ ﴾ [ص]

يعنى : غداً تعلمون عاقبة تكذيبكم ، فآيات الله تسير أمامكم ، فكلٌّ يوم يزداد المؤمنون بمحمد ، ويتناقص عدد الكافرين ، كل يوم تزداد أرض الإيمان ، وتتراجع أرض الكفر .

ألم يقُل الحق سبحـانه وتعـالى لهم : ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. ۝٤٤ ﴾ [الأنبياء]

فهـذه ـ إذن ـ مقدمات ترونْـها بأعينكم ، وكـان ينبغى عليكم أن تأخذوا منها عبرةً وعظة ، فبوادر نجاح الدعوة وظهور الدين واضحة، هذا معنى : ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ ﴾ [الشعراء]

فليتـهم اقتصروا على التـكذيب والإصرار عليه ، إنما تعـدّى الأمر منهم إلى الاستـهـزاء بالرسل وبـكلام الله ، ألم يقـولوا على سـبـيل الاستهزاء : ﴿ أَهَـٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ۝٤١ ﴾ [الفرقان]

---

(١) المنقلب : مصدر ميمى بمعنى الانقلاب . والانقلاب إلى الله : المصير إليه والتحول . والمنقلب : مصير العباد إلى الآخرة . [لسان العرب ـ مادة : قلب] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ ﴾

لَمَّا لم يفلح الذكر المُحْدث والآيات المتجددة مع هؤلاء المعاندين فلم يَرْعَوُوا . ردَّهم الله تعالى إلى الآيات الكونية الظاهرة لهم والتى سبقتهم فى الوجود ، آيات فى السماء : الشمس والقمر والنجوم ، وآيات فى الأرض : البحار والقفار والجبال والنبات والحيوان .

وكلها آيات كونية لم يدَّعها أحد منهم ، بل جاء الإنسان إلى الوجود وطرأ عليها ، وقد سبقتْه هذه الآيات التى يراها : الكبير والصغير ، والرجل والمرأة ، والعاقل وغير العاقل ، ألاَ ينظرون فيها نظرةَ اعتبار ، فيسألون عن مبدعها ؟

ضربنا لذلك مثلاً بالإنسان الذى انقطعتْ به السُّبُل فى صحراء جرداء حتى أشرف على الهلاك ، فأخذته سِنَة فنام ، ولما استيقظ وجد فى هذا المكان المنقطع مائدةً ، عليها أطايب الطعام والشراب ، ألا ينبغى عليه قبل أنْ تمتدَّ يده إلى هذا الطعام أن يسأل نفسه من الذى أعده له ؟

كذلك الإنسان طرأ على كوْن مُعَدٍّ لاستقباله ، وعلى وجود لا تتناوله قدرته ، ولا سلطانَ له عليه ، فهو لا يتناول الشمس مثلاً ليُوقدها ولم يدَّعِ هذه الآيات الكونية أحد ، ألاَ يدلّ ذلك على الخالق -عز وجل- ويُوجِب علينا الإيمان به ؟

لذلك يقول سبحانه ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان]

وقال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف]

ولو تأمل الإنسان فى (اللمبة) الصغيرة التى تضىء غرفة ، ولها عمر افتراضى لا يتعدَّى عدة أشهر وهى عُرْضَة للكسر وللأعطال ، ومع ذلك تكاتف فى صناعتها فريق من المهندسين والعمال والفنيين ، وكثير من الآلات والعدَد ، ومع ذلك نُؤرِّخ لمخترع المصباح ، ونعرف تاريخه ، وكيفية صنعه .. إلخ . نعرف مخترع (التليفون والراديو) و ..

أليس من الأَوْلَى أن ننظر ونتأمل فى خَلْق الشمس ، هذا الكوكب العظيم الذى يضىء الدنيا كلها ، دون وقود ، أو قطعة غيار ، أو عُطْل طوال هذه المدَد المتعاقبة ؟

فإذا ما جاء رسول ، وقطع على الناس هذه الغفلة ، وقال لهم : ألاَ أُنبّئكم بمَنْ خلق كل هذا ؟ إنه الله . كان يجب عليهم أنْ يُعيروه آذانهم ويؤمنوا .

هنا يقول تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الشعراء] وهى آية ظاهرة أمام أعينهم ، يرونَها هامدة جرداء مُقْفرة ، فإذا نزل عليها الماء أحياها الله بالنبات ، ألم ينظروا إلى الجبال والصحراء بعد نزول المطر ، وكيف تكتسى ثوباً بديعاً من النبات بعد فَصْل الشتاء .

ألم يسألوا أنفسهم : مَنْ نقل هذه البذور وبذرها فى الجبال ؛ لذلك يقول سبحانه فى موضع آخر : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الحج]

وقوله تعالى هنا : ﴿ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ ﴾ [الشعراء] كم : خبرية تفيد الكثرة ، جاءت بصيغة الاستفهام للتقرير ، كما تقول لصاحبك : كم أحسنتُ إليك ، بدل أنْ تُعدِّد مظاهر إحسانك إليه ، فتسأله لأنك واثق أن الإجابة فى صالحك ، فالكلام بالإخبار دَعْوى منك ، لكن الإجابة على سؤال إقرار منه . فالمعنى : أن نبات الأرض كثير يفوق الحصر .

والزوج : الصنف ، والزوج أيضاً الذكر أو الأنثى ، والبعض من العامة يظن أن الزوج يعنى الاثنين وهذا خطأ ، فالزوج واحد معه مثله ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ.. ۝ ﴾ [الأنعام]

فهذه أربعة أصناف ، فيها ثمانية أزواج ، فالزوج فرد واحد معه مثله ، فلا تقول زوج أحذية . بل زَوْجَا أحذية . والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ۝ ﴾ [النجم]

وكذلك النبات لا بُدَّ فيه من ذكورة وأنوثة ، وإنْ كانت غير واضحة فيه كله كما هى واضحة مثلاً فى النخل ، ففيه ذكر نُلقِّح منه الأنثى لتثمر ، وكذلك شجرة الجميز منها ذكر وأنثى . لكن لم نَرَ ذكورة وأنوثة فى الجوافة مثلاً أو فى الليمون ، لماذا ؟

قالوا : مرة توجد الذكورة والأنوثة فى الشىء الواحد كعود الذرة مثلاً ، قبل أنْ يُخرج ثمرته تخرج سنبلة فى أعلاه تحمل لقاح الذكورة ، وحينما يهزها الريح يقع اللقاح على شُرَابة (كوز) الذرة ، وتتم عملية التلقيح . وقد تكون الذكورة والأنوثة فى شىء لا تعرفه أنت كالمانجو والتفاح مثلاً ، فلم نعلم لها ذكراً وأنثى .

لكن الحق تعالى قال : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢) ﴾ [الحجر]
وقال : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. (٤٩) ﴾ [الذاريات]

ثم وصف الزوج بأنه ﴿ كَرِيمٍ (٧) ﴾ [الشعراء] فماذا يعنى الكرم هنا ؟ قالوا : لأنك إذا أخذتَ الثمرة الواحدة ونظرتَ وتأملتَ فيها لوجدتَ لها صفات متعددة ونعَماً كثيرة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم] وهى نعمة واحدة بصيغة المفرد ولم يقل نعم الله .

قالوا : لأن الحق - عزّ وجلّ - يريد أن يلفتنا إلى أن كل نعمة واحدة لو استقصيتَ عناصرها وتكوينها لوجدتَ فى طياتها نِعَماً لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى .

فمعنى ﴿ كَرِيمٍ (٧) ﴾ [الشعراء] يعنى : كثير العطاء وكثير الخيرات.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. (٨) ﴾ [الشعراء] أى : فى آية الإنبات ، وكل زوج كريم يخرج من الأرض ﴿ لَآيَةً .. (٨) ﴾ [الشعراء] شىء عجيب ودلالة واضحة على مُكوِّن حكيم يعمل الشىء بقصد ونظام ، ينبغى أن تلفتنا إلى قدرة الخالق - عز وجل - .

﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) ﴾ [الشعراء] يعنى : مع كل هذه الآيات لم يؤمنوا ، إلا القليل منهم كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف] مع أنك لو تأملتَ آية واحدة لكانت كافية لأنْ تلفتك إلى الله .

وَفِى كُلِّ شَىءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدلُّ عَلَى أنَّه الوَاحِدُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩ ﴾

جاء الحق تبارك وتعالى هنا بصفة ﴿ الْعَزِيزُ .. ۝٩ ﴾ [الشعراء] بعد أن قال ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ ﴾ [الشعراء] لنعلم أن الذين كفروا لم يكفروا رَغْماً عن الله ، إنما كفروا بما أودع الله فيهم من الاختيار .

فهو سبحانه الذى أعانهم عليه لَمَّا أحبوه وأصروا عليه ؛ لأنه تعالى ربُّهم ، بدليل أنه تعالى لو تركهم مجبرين مرغمين ما فعلوا شيئاً يخالف منهج الله أبداً ، وبدليل أنهم مجبرون الآن على أشياء ومقهورون فى حياتهم فى مسائل كثيرة ، ومع ذلك لا يستطيع أحد منهم أن يخرج على شىء من ذلك .

فمع إلْفهم العناد والتمرد على منهج الله ، أيستطيع أحدهم أنْ يتأبَّى على المرض ، أو على الموت ، أو على الأقدار التى تنزل به ؟ أيختار أحد منهم يوم مولده مثلاً ، أو يوم وفاته ؟ أيختار طوله أو قوته أو ذكاءه ؟

لكن لما أعطاهم الله الصلاحية والاختيار اختاروا الكفر ، فأعانهم الله على ما أحبُّوا ، وختم على قلوبهم حتى لا يخرج منها كفر ، ولا يدخلها إيمان .

وكلمة ﴿ الْعَزِيزُ .. ۝٩ ﴾ [الشعراء] تعنى : الذى لا يُغلَب ولا يُقْهر ، لكن هذه الصفة لا تكفى فى حقِّه تعالى ؛ لأنها تفيد المساواة للمقابل ، فلا بُدَّ أنْ نزيد عليها أنه سبحانه هو الغالب أيضاً .

لذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ .. (٢١) ﴾ [يوسف] فالله تعالى عزيز يَغْلِب ولا يُغْلَب .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ .. (١٤) ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ .. (٨٨) ﴾ [المؤمنون]

ثم يذكر سبحانه بعدها صفة الرحمة ، فهو سبحانه مع عزته رحيم ، إنه تعالى رحيم حين يَغْلِب ، ألم يتابع لهم الآيات ويَدْعُهم إلى النظر والتأمل ، لعلَّهم يثوبون إلى رُشْدهم فيؤمنوا ؟ فلما أصرُّوا على الكفر أمهلهم ، ولم يأخذهم بعذاب الاستئصال ، كما أخذ الأمم الأخرى حين كذَّبتْ رسلها .

كان الرسل قبل محمد ﷺ يُبلِّغون الدعوة ، ويُظهرون المعجزة ، فمَنْ لم يؤمن بعد ذلك يعاقبه الله ، كما قال سبحانه : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

أمَّا أمة محمد ﷺ فقد قال تعالى في شأنها : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال]

وقال هنا : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) ﴾ [الشعراء] فالحق ـ تبارك وتعالى ـ في كل هذه الآيات يُسلِّي رسوله ﷺ ، ويعطيه عبرةً من الرسل الذين سبقوه ، فليس محمد بِدْعاً[1] في ذلك ، ألم يقل

(١) بدْع : بديع أو عجيب . يُقال : فلان بدْع في الأمر . أي : أول مَنْ فعله . قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ .. (٩) ﴾ [الأحقاف] أي : ما كنت غريباً ولا عجيباً ولا كنت على غير مثال سابق ، فأنا مثل الرسل السابقين . [القاموس القويم ١/٥٧] .

له ربه : ﴿ يَـٰحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٠ ﴾ [يس] فالمسألة - إذن - قديمة - قدَم الرسالات .

لذلك ، يأخذنا السياق بعد ذلك إلى موكب النبوات ، فيذكر الحق سبحانه لرسوله ﷺ طرفاً من قصة نبى الله موسى :

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝١٠ ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يقصُّ على رسوله قصص الأنبياء ، وهو أحسن القصص لحكمة : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. ۝١٢٠ ﴾ [هود]

لأن رسول الله ﷺ مرَّ بمعارك كثيرة مع الكفر ، فكان يحتاج إلى تثبيت مستمر كلما تعرض لشدة ؛ لذلك تكرر القصص القرآنى لرسول الله على مدى عمر الدعوة ، والقصص القرآنى لا يراد به التأريخ لحياة الرسل السابقين ، إنما إعطاء النبى محمد ﷺ عبرةً وعظة بمَنْ سبقه من إخوانه الرسل ؛ لذلك كانت القصة تأتى فى عدة مواضع ، وفى كل موضع لقطة معينة تناسب الحدث الذى نزلت فيه .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ .. ۝١٠ ﴾ [الشعراء] يعنى : اذكر يا محمد ، إذ نادى ربك موسى أى : دعاه . لكن لماذا بدأ بقصة موسى عليه السلام بالذات ؟

قالوا : لأن كفار مكة كفروا بك أنت ، فلا تحزن ؛ لأن غيرهم كان أفظع منهم ، حيث ادعى الألوهية ، وقال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي .. ۝٣٨ ﴾ [القصص]

والسياق هنا لم يذكر : أين ناداه ربه ، ولا متى ناداه ، وبدأ الحوار معه مباشرة ، لكن فى مواضع أخرى جاء تفصيل هذا كله .

ثم يأتى الأمر المباشر من الله تعالى لنبيه موسى : ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ⑩﴾ [الشعراء] أى : الذين ظلموا أنفسهم ، بأنْ جعلوا لله تعالى شريكاً ، والشرك قمَّة الظلم ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ⑬﴾ [لقمان]

ولم يُبيِّن القرآن مَنْ هم هؤلاء الظالمون ؛ لأنهم معروفون مشهورون ، فهم فى مجال الشرك أغنياء عن التعريف ، بحيث إذا قلنا ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ⑩﴾ [الشعراء] انصرف الذِّهْن إليهم ، إلى فرعون وقومه ؛ لأنه الوحيد الذى تجرَّأ على ادعاء الألوهية ، وبعد أنْ ذكرهم بالوصف يُعيِّنهم :

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ⑪﴾

أى : قُلْ لهم يا موسى ألا تتقون ربكم ؟ واعرض عليهم هذا العرض ؛ لأن الطلب يأتى مرة بالأمر الصريح : افعل كذا ، ومرة يتحنَّن إليك بأسلوب العرض ، ألا تفعل كذا ؟ على سبيل الاستفهام والعرض والحضّ .

والمعنى : ألا يتقون الله فى ظلمهم لأنفسهم باتخاذهم مع الله شريكاً ولا إله غيره ، وظلموا بنى إسرائيل فى أنهم يُذبِّحونَ أبناءهم ويستحيُون نساءهم .

لكن ، لماذا تكلم عن قوم فرعون أولاً ، ولم يعرض عليه هو أولاً ، وهو رأس الفساد فى القوم ؟

ويجيب على هذا السؤال المثل القائل (يا فرعون ماذا فرعنك ؟ قال : لأننى لم أجد أحداً يردنى) فلو وقف له قومه وردَعوه لارتدع ، لكنهم تركوه ، بل ساروا فى ركْبه إلى أنْ صار طاغية ، وأعانوه حتى أصبح طاغوتاً .

فقال موسى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ ﴾

لما دعا الحق - تبارك وتعالى - نبيه موسى - عليه السلام - لأنْ يذهب إلى قوم فرعون لم يبادر بالذهاب ، إنما أبدى لربه هواجس نفسه وخلجاتها ؛ لأنه يعلم مُقدَّماً مشقة هذه المهمة ، فقد عاش مع فرعون ويعلم طبيعته ، فقال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ ﴾ [الشعراء] وكيف لمن يدّعى الألوهية أنْ يسمع لرسول ؟

ويُرْوَى أنه في عهد الخليفة المأمون[1] ادَّعَى أحدهم النبوة ، فحبسوه ، ثم ادعاها آخر فقال : اجمعوا بينهما حتى يواجه أحدهما الآخر ، فلما حضرا قالوا : يا هذا إن هذا الرجل يدَّعى النبوة ، فقال : كذب ، أنا لم أُرسِل أحداً . وهكذا جعل من نفسه إلهاً بعد أن كان نبياً .

ويواصل موسى الحديث عن مخاوفه :

﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

يضيق صدرى ساعةَ يكذّبوننى ، وضيق الصدر ينتج عنه أن أتلجلج وأتعصب ، فلا أستطيع أن أتكلم الكلام المُقْنِع ؛ ذلك لأننى

---

(١) هو : عبد الله بن هارون الرشيد ، أبو العباس ، سابع الخلفاء من بنى العباس فى العراق ، وأحد أعاظم الملوك ، ولد عام ١٧٠ هـ اهتم بترجمة كتب الفلسفة إلى العربية . وأطلق حرية الكلام للباحثين وأهل الجدل والفلسفة ، لولا المحنة بخلق القرآن فى السنة الأخيرة من حياته ، توفى عام ٢١٨ هـ عن ٤٨ عاماً . (الأعلام ٤/١٤٢) .

سأشاهد باطلاً واضحاً يُجابه حقاً واضحاً ، ولا بُدَّ أنْ يضيق صدرى بذلك ، خاصة وأن لموسى عليه السلام سابقة فى مسألة الكلام .

لذلك قال : ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشعراء] وفي آية أخرى : ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا[1] يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص]

يعنى : مساعداً لى يتكلم بدلاً عنى ، إنْ عجز لسانى عن الكلام ، وهذا يدل على حرصه ـ عليه السلام ـ على تبليغ دعوة ربه إلى فرعون وقومه .

وعليه ، فقد كان موسى وهارون كلاهما رسول ، إلا أن القرآن قال مرة عنهما : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الشعراء] بصيغة المفرد ، وقال مرة أخرى : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ.. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] بصيغة المثنى .

الرسول : هو المرسَل من شخص لآخر ، سواء كان واحداً أو مُثَنى أو جمعاً .

ومعلوم أن الإنسان يحتاج لاستبقاء حياته طعاماً وشراباً ، وقبل ذلك وأهمّ منه يحتاج لاستبقاء نفسه ، ألاَ تراه يصبر على الطعام ، ويصبر على الشراب ، لكنه لا يصبر بحال على الهواء ، فإنْ حُبِس عنه شهيق أو زفير فارق الحياة ؟

وسبق أن قلنا : إن من رحْمة الله تعالى بنا أنْ يُملِّك الطعام كثيراً ، وقليلاً ما يُملِّك الماء ، لكن الهواء لا يُملِّكه الله لأحد ، لماذا ؟ لأنه لو ملَّك عدوك الهواء فمنعه عنك ، فسوف تموت قبل أنْ يرضى عنك ، بالإضافة إلى أن الهواء هو العنصر الأساسى فى الحياة ، وعليه تقوم حركتها .

---

(١) ردأه : قوَّاه وأعانه . والرِّدْء : المعين والناصر . [القاموس القويم ١/ ٢٦٠] .

ونلحظ أن الإنسان إذا صعد مكاناً عالياً (ينهج) ، وتزداد ضربات قلبه وحركة تنفسه ، لماذا ؟ لأن الحركة تحتاج لكثير من الهواء ، فإنْ قَلَّ الهواء يضيق الصدر ؛ لأنه يكفي فقط لاستبقاء الحياة ، لكنه لا يكفي الحركة الخارجية للإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ[1] فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾

وليت المسألة تقف بين نبي الله موسى وبين قومه عند مسألة الكلام ، إنما لهم عنده ثأرٌ قديم ؛ لأنه قتل منهم واحداً ، وإنْ كان عَنْ غير قصد ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [القصص] فأخاف أنْ يقتلوني به .

فيقول الحق سبحانه لموسى وهارون :

﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(كَلاَّ) تفيد نَفْي ما قبلها ، وقبلها مسائل ثلاث : ﴿ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ ﴾ [الشعراء] ، ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الشعراء] ، ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الشعراء] فعلى أيٍّ منها ينصَبُّ هذا النفي ؟

النفي هنا يتوجَّه إلى ما يتعلق بموسى ـ عليه السلام ـ لا بما يتعلق بالقوم من تكذيبهم إياه ، يقول له ربه : اطمئن ، فلن يحدث شيء من هذا كله . ولا ينصبُّ النفي على تكذيبهم له ؛ لأنه سيُكذَّب ؛

---

(١) الذنب هنا قتل القبطي واسمه فاثور . قال قتادة : أراد القبطي أن يسخر الإسرائيلي ليحمل حطباً لمطبخ فرعون فأبى عليه ، فاستغاث بموسى . ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [القصص] أي : دفعه بكفه . فعل موسى عليه السلام ذلك وهو لا يريد قتله ، إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه . [تفسير القرطبي ٧/٥١٤٦ ، ٥١٤٧] .

لذلك نرى دقة الأداء القرآنى حيث جاءت ﴿ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) ﴾ [الشعراء] فى نهاية الآية ، وبعدها كلام جديد ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِى .. (١٣) ﴾ [الشعراء] وهو المقصود بالنفى .

وقد بيَّنَتْ سورة الفجر معنى (كلا) بوضوح فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ(١) رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ (١٦) ﴾ [الفجر]

فيقول تعالى بعدها رداً عليها ﴿ كَلاَّ .. (١٧) ﴾ [الفجر] يعنى : ليس الإعطاء دليلَ إكرام ، ولا المنعُ دليلَ إهانة ، إنما المراد الابتلاء بالنعمة وبالنقمة .

وكيف يكون الأمر كما تظنون ، وقد أعطاكم الله فبخلتُم ، وأحببتم المال حُبًا جماً ، فلم تنفقوا منه على اليتيم أو المسكين ، بل تنافستُم فى جَمْعه حتى أكلتم الميراث ، وأخذتم أموال الناس .

إذن : فالمال الذى أكرمكم الله به لم يكُنْ نعمة لكم ؛ لأنكم جعلتموه نقمة ووبالاً ، حين أُعطيتم فمنعتم .

وكلمة (كَلاَّ) هذه أصبح لها تاريخ مع موسى ـ عليه السلام ـ فقد تعلَّمها من ربه ، ووعى درسها جيداً ، فلما حُوصِر هو وأتباعه بين البحر من أمامهم ، وفرعون وجنوده من خلفهم ، حتى أيقن أتباعه أنهم مُدْركون هالكون ، قالها موسى عليه السلام بملء فيه ﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

وقوله تعالى : ﴿ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا .. (١٥) ﴾ [الشعراء] الآيات هنا يُقصَد بها المعجزات الدالة على صدْقهما فى البلاغ عن الله ، وهى هنا العصا

(١) قَدَر الله الرزق : جعله ضيقاً على قدر الحاجة لا يزيد عن ضرورة الحياة . [القاموس القويم ٢/١٠٢] .

﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) ﴾ [الشعراء] كما قال لهما في موضع آخر :
﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) ﴾ [طه]

فمرّة يأتي بالسمع فقط ، ومرّة بالسمع والرؤية ، لماذا ؟ لأن موقفه مع فرعون في المقام الأول سيكون جدلاً ونقاشاً ، وهذا يناسبه السمع ، وبعد ذلك ستحدث مقامات في (فعل) و (عمل) في مسألة السحر وإلقاء العصا ، وهذا يحتاج إلى سمع وإلى بصر ؛ لأن الإيذاء قد يكون من السمع فقط في أول اللقاء ، وقد يكون من السمع والعين فيما بعد .

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦) ﴾

وسبق أن قال سبحانه : ﴿ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ .. (١١) ﴾ [الشعراء] فذكر قومَ فرعون أولاً ؛ لأنهم سبب فرعنته ، حين سمعوا كلامه وأعانوه عليه ، وهنا يُذكّره ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ .. (١٦) ﴾ [الشعراء] لأنه حين يُهزَم فرعون يُهزَم قومه الذين أيَّدوه ، فالكلام هنا مع قمة الكفر مع فرعون .

﴿ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) ﴾ [الشعراء] إنَّا : جمع يُقَال للمثنى ، ومع ذلك جاءت رسول بصيغة الإفراد ، ولم يقُل : رسُولا ؛ لأن الرسول واسطة بين المرسَل والمرسَل إليه ، سواء أكان مفرداً أو مُثَنى أو جمعاً .

وكلمة ﴿ إِنَّا .. (١٦) ﴾ [الشعراء] سيقولها موسى وهارون في نَفَس واحد ؟ لا ، إنما سيتكلم المقدَّم منهما ، وينصت الآخر ، فيكون كمنْ يُؤمِّن على كلام صاحبه . ألاَ ترى القرآن الكريم حينما عرض قضية موسى وقومه يوضح أن فرعون علا في الأرض واستكبر .. إلخ .

حتى دعا عليهم : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

هذا كلام موسى ـ عليه السلام ـ فردّ الله عليه : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. (٨٩) ﴾ [يونس] بالمثنى مع أن المتكلم واحد . قالوا[1] : لأن موسى كان يدعو ، وهارون يُؤمّن على دعائه ، والمؤمِّن أحد الداعيين ، وشريك فى الدعوة .

فما مطلوبك يا رسول رب العالمين ؟

﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٧) ﴾

فالأصل فى لقاء موسى بفرعون أن ينقذ بنى إسرائيل من العذاب ، ثم يُبلِّغهم منهج الله ، ويأخذ بأيديهم إليه ، وجاءت دعوة فرعون للإيمان ونقاشه فى ادعائه الألوهية تابعة لهذا الأصل .

وفى موضع آخر : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ .. (٤٧) ﴾ [طه]

إذن : فتلوين الأساليب فى القصص القرآنى يشرح لقطات مختلفة من القصة ، ويُوضِّح بعض جوانبها ، وإنْ بدا هذا تكراراً فى المعنى الإجمالى ، وهذا واضح فى قوله تعالى فى أول قصة موسى عليه السلام : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. (٨) ﴾ [القصص] وفى آية أخرى يقول تعالى على لسان امرأة فرعون : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ

---

(١) أخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة قال : كان موسى إذا دعا أمَّن هارون على دعائه يقول : آمين . وأخرج أيضاً عن ابن عباس : دعا موسى وأمَّن هارون . وقاله عكرمة أيضاً فيما أخرجه عنه عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ . [نقل السيوطى هذه الآثار فى الدر المنثور ٤/٣٨٥] .

لِّي وَلَكَ .. ⑨ ﴾ [القصص] وكأن الله تعالى يقول : ستأخذونه ليكون قُرَّة عين لكم ، إنما هو سيكون عدواً .

والله تعالى يقول : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ[1] بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. ㉔ ﴾ [الأنفال] ففرعون فى حين كان يقتل الأطفال من بنى إسرائيل ، ويستحيي البنات ، جاءه هذا الطفل بهذه الطريقة اللافتة للنظر ، فكان عليهم أنْ يفهموا أن مَنْ ألقى فى التابوت وفى اليمِّ بافتعال ، هو بهدف نجاته من القتل ، فلو كان فرعون إلهاً ، فكيف مرّت عليه هذه الحيلة وجازتْ عليه ؟

وهذا يدل على أن الله تعالى إذا أراد إنفاذ أمر سلب من ذوى العقول عقولهم ، وحال بين المرء وقلبه ، ويدل على غباء قومه ؛ لأنهم لو تأملوا هذه المسألة لظهر لهم كذب فرعون فى ادعائه الألوهية .

فكان ردّ فرعون على موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ⑱ ﴾

يريد فرعون أنْ يُذكِّر موسى بما كان من أمر تربيته فى بيته لعدة سنوات ، حتى شَبَّ وكبر ، وكأنه يُوبِّخه كيف يقف منه هذا الموقف العدائى بعدما كان منه .

﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ⑱ ﴾ [الشعراء] ويقال : إن موسى لبث فى بيت فرعون حتى سنِّ الثامنة عشرة ، أو سنِّ الثلاثين ، فالمعنى أنه ربَّاه ولبث معه أيضاً عدة سنوات .

---

(١) أى : أن الله يملك أن يصرف قلب الإنسان ويغيّر نيته كما يريد ، فالمرء لا يملك قلبه وإنما الله هو الذى يملكه .

والمتأمل في هذه الحجة التي يظنها فرعون لصالحه يجد أنها ضده ، وأنها تكشف عن غبائه ، فلو كان إلهاً كما يدعي لعرف أن هلاكه سيكون على يدي هذا الطفل الذي ضَمَّه إليه ورعاه .

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝١٩﴾

والمراد بالفَعْلَة قتل موسى عليه السلام للرجل الذي وكزه فمات ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝١٩﴾ [الشعراء] يصح من الكافرين بألوهية فرعون ، أو من الجاحدين لنعمنا عليك وتربيتنا لك[1] .

لذلك العقلاء يروْنَ أن الإنسان حين يربي الأولاد ويراهم كما يحب ، فليعلم أنه توفيق وعناية من الله تعالى ، بدليل أن الأبناء يُربَّون في بيئة واحدة ، وربما كانا توأميْن ، ومع ذلك ترى أحدهما صالحاً والآخر طالحاً ، فالمسألة عناية إلهية عليا ، وقد التقط أحد الشعراء هذا المعنى فقال :

إِذَا لَمْ تُصَادِفْ في بَنِيكَ عِنَايَةٌ ... فَقَدْ كذَبَ الراجي وخَابَ المؤَمِّلُ
فمُوسى الذِي رَبَّاهُ جِبْرِيلُ كَافِرٌ ... ومُوسَى الذي رَبَّاهُ فِرْعَونُ مُرْسَلُ

والمراد موسى السامري صاحب العجل ، وقد وضعته أمه في صحراء وماتت ، فأرسل الله إليه جبريل عليه السلام يرعاه ويُربِّيه . ولا تأتي هذه المفارقات إلا بعناية الله سبحانه .

(١) ورد في تفسير هذه الكلمة ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝١٩﴾ [الشعراء] عدة أقوال :
- أي : في قتلك القبطي ، إذ هو نفس لا يحل قتله . قاله الضحاك .
- أي : بنعمتي التي كانت لنا عليك من التربية والإحسان إليك . قاله ابن زيد .
- في أنّي إلهك . قاله الحسن .
- من الكافرين بالله ، لأنك كنت معنا على ديننا هذا الذي تعيبه قاله السدي .
أورد القرطبي هذه الأقوال في تفسيره (٧/٤٩٧٣) .

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول موسى عليه السلام : أنا لا أنكر أننى قتلتُ ، لكننى قتلتُ وأنا من الضالين . يعنى : الجاهلين بما يترتب على عملية القتل ، وما كنت أعتقدُ أبداً أن هذه الوَكْزة ستقضى على الرجل .

فكلمة ﴿ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشعراء] هنا لا تعنى عدم الهدى ، فمن هذا المعنى للضلال قولهم : ضَلَّ الطريق ، وهو لم يتعمد أن يضل ، إنما تاه رَغْماً عنه .

ومنه قوله تعالى فى الشهادة : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ .. ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الضحى] أى : متحيراً بين الباطل الذى يمارسه قومه ، وبين الحق الذى لا يجد له بينة .

﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ[1] ﴿٢١﴾ ﴾

﴿ حُكْمًا .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الشعراء] أى : فى أنْ أضع الأشياء فى مواضعها ، وجاءت هذه الكلمة بعد ﴿ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشعراء] كأنه يقول : أنا وكزتُ الرجل ، هذا صحيح ، فمات ، وهذا خطأ غير مقصود وإننى مظلوم فيه ؛ لأن الله قد أعطانى حكماً وقدرة لأضع الأشياء فى محلها .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٩٧٣/٧) : « كان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطى وبين رجوعه نبياً أحد عشر عاماً غير أشهر » .

ليس هذا فحسب ، إنما أيضاً :

﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) ﴾ [الشعراء]

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾

يعنى : ما منَّ به فرعون على موسى من قوله :

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ .. (١٩) ﴾ [الشعراء]

كأنه يقول له : أتمُنُّ عليَّ بهذه الأشياء ، وتذكر هذه الحسنة ، وهى لا تساوى شيئاً لو قارنتَها بما حدث منك من استعباد بنى إسرائيل وتذبيح أبنائهم[١] واستحياء نسائهم ، وتسخيرهم فى خدمتك .

وقتل الذّكْران واستحياء الإناث ، لا يعنى الرأفة بهن ، إنما يعنى لَهُنَّ الذلة والهوان ، حيث لا تجد المرأة من محارمها مَنْ يحميها أو يدافع عنها ، فتبقى بعد الرجال فى هوان وذلّة فى خدمة فرعون .

ثم يقول الحق سبحانه :[٢]

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) ﴾

يعنى : مسألة جديدة هذه التى جئتَ بها يا موسى ، فمن رَبُّ العالمين الذى تتحدث عنه ؟

---

(١) قال الضحاك : إن الكلام خرج مخرج التبكيت ، والتبكيت يكون باستفهام وبغير استفهام ، والمعنى : لو لم تقتل بنى إسرائيل لربانى أبواى ، فأىُّ نعمة لك علىَّ ، فأنت تمنُّ علىَّ بما لا يجب أن تمن به . نقله القرطبى فى تفسيره (٧/ ٤٩٧٤) .

(٢) استفهمه بـ « ما » استفهاماً عن مجهول من الأشياء . قال مكى وغيره : كما يستفهم عن الأجناس فلذلك استفهم بـ « ما » . وقد ورد استفهام بـ « من » فى موضع آخر ، ويشبه أنها مواطن . [قاله القرطبى فى تفسيره ٧/ ٤٩٧٦] .

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

لأن السماوات بما فيها من كواكب ونجوم وشمس وقمر وأفلاك وأبراج ، والأرض وما فيها من بحار وأنهار وجبال وقفَار ونبات وحيوان وإنسان . قد وُجدتْ قبل أن توجد أنت أيها الإله الفرعون !!

إذن : رَدَّ عليه بشيء ثبت في الكون قبل مجيئه ، وقبل مولده . وكأن المعنى المراد لموسى عليه السلام : أخبرني يا فرعون ، يا مَنْ تدعي الألوهية ، ما الذي زاد في الكون بألوهيتك له ؟ وإنْ كان هذا الكون كله بسمائه وأرضه لله رب العالمين ، فماذا فعلتَ أنت ؟

ولم يقتصر على السماوات والأرض ، وإنما ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الشعراء] أي : من هواء وطير يَسْبح في الفضاء ، وكانوا لا يعرفون ما نعرفه الآن من أسرار الهواء ، وانتقال الصوت والصورة من خلاله ، ففي جَوِّ السماء فيما بين السماء والأرض من الأسرار ما يستحق التأمل .

ثم يتلطف معهم فيقول : ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الشعراء] يعني : إنْ كنتم موقنين بأن هذه الأشياء لم يخلقها إلا الله .

ثم يقول الحق سبحانه ذاكراً جدال فرعون ، فقال :

﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول فرعون لمن حوله من أتباعه الذين أقروا له بالألوهية : ألا تستمعون لما يقول ؟ يعني : موسى عليه السلام . وهذه الكلمة لا يقولها فرعون إلا إذا أحسَّ من قومه ارتياحاً لما قاله موسى من

نَفْى الربوبية والألوهية عن فرعون ونسبتها لله تعالى ، خالق السموات والأرض .

وكان فرعون ينتظر من قومه أنْ يتصدَّوْا لما يقوله موسى ، فينهروه ويُسْكتوه ، لكن لم يحدث شيء من هذا ، مما يدل على أنهم كانوا يتمنوْنَ أن ينتصر موسى ، وأن يندحر فرعون ؛ لأنه كبت حرياتهم وآراءهم ، كما كانوا يعرفون كذبه وينتظرون الخلاص منه .

بدليل ما حكاه القرآن عن الرجل المؤمن(١) الذى كان يكتم إيمانه من آل فرعون ، وبدليل الذين أتوا فيما بعد وحَسَّنوا له مسألة السحرة وهم يريدون أن يُهزَم .

وقبل أنْ يردَّ أحد من قوم فرعون بادرهم موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

هنا ينقل موسى عليه السلام فرعونَ من الجو الكونى المحيط به فى السماء والأرض وما بينهما إلى ذات نفسه ، يقول له : إنَّ لك آباء قبل أنْ تُولد ، وقبل أن تدعى الألوهية ، فمن كان ربهم ؟

فلما ضَيَّق موسى عليه السلام الخناق على فرعون ، أراد أنْ يخرج من هذا الجدل وهذه المناظرة الخاسرة فقال محاولاً إنقاذ موقفه :

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّىَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [غافر] وما بعدها من آيات .

وهذه العبارة من فرعون تفضح المتكلِّم بها ، فقد شهد لموسى بأنه رسول ، وخانه لفظه من حيث لا يدرى .

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

يرد موسى عليه السلام بحجة أخرى ، لكن يختمها هذه المرة بقوله ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشعراء] وقد قال فى سابقتها ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الشعراء] كأنه يقول لفرعون : ما دام قد وصل بك الأمر لأنْ تتهمنى بالجنون فلن أقول إنْ كنتم موقنين ، إنما إنْ كنتم تعقلون ، فجاء بمقابل الجنون .

فيُنهى فرعون هذا النقاش ، ويأتى بخلاصة الأمر كما يرى ، فيقول :

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ(١) ﴿٢٩﴾ ﴾

وهذا من فرعون إفلاس فى الحجة ، ولو كان عنده رَدٌّ لما يقوله موسى لردَّ عليه ، ولَقرع الحجة بالحجة ، لكنه تقوَّى على خَصْمه بأن هدده بالسجن والإبعاد ، وكان المسجون عندهم يظل فى السجن حتى الموت .

ولم يُراع فرعون فى هذه المسألة الناس من حوله ، أن يكتشفوا هذا الإفلاس ، وهذا الحمق فى رَدِّه .

---

(١) قال ﴿ لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشعراء] ولم يقل : لأسجننك ، مع أنه أخصر منه . لم ؟ قال أبو يحى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص ٢٩٩ . « لإرادة تعريف العهد ، أى : لأجعلنك ممن عُرفت حالهم فى سجنى ، وكان إذا سجن إنساناً طرحه فى هوة عميقة مظلمة ، لا يُبصر فيها ولا يسمع » .

ويُؤخِّر موسى عليه السلام ما معه من الآيات ، ويستمر في الجدل وإظهار الحجة :

﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

يعني : إذا لم تقتنع بكل الحجج السابقة ، فهل لو جئتك بآية واضحة دالة على صدق رسالتي ، أتجعلني أيضاً من المسجونين ؟

﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

انظر إلى تعارض فرعون مع نفسه ، فكان عليه ساعةَ أنْ يسمع من موسى هذا الكلام أنْ يُصر على سجنه ، لكن الحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يُظهر حجته ، فيجعل فرعون هو الذي يطلبها بنفسه ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الشعراء] وما كان لموسى أنْ يأتي بآية إلا أنْ يطلبها منه فرعون .

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ ﴾

إلقاء العصا له في القرآن ثلاث مراحل : الأولى : هي التي واكبتْ اختيار الله لموسى ليكون رسولاً ، حين قال له : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه] وقلنا : إن موسى عليه السلام أطال في إجابة هذا السؤال لحرصه على إطالة مدة الأُنْس بالله - عز وجل - فقال : ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[1] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه]

(١) هش الشجر يهشه : ضربه بعصاً ليسقط ورقه لتأكله الماشية . والمعنى أي : أسقط بعصاي أوراق الأشجار على غنمي لتأكلها [القاموس القويم ٢/٣٠٣] .

فالعصا فى نظر موسى ـ عليه السلام ـ عود من الخشب قريب عهد بأصله ، كغصن فى شجرة ، لكنها عند الله لها قصة أخرى :

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [طه]

وما صارت العصا عصاً إلا بعد أنْ قُطعت من شجرتها ، وفقدت الحياة النباتية ، وتحولت إلى جماد ، فلو عادت إلى أصلها وصارت شجرةً من جديد لكان الأمر معقولاً ، لكنها تجاوزتْ مرتبة النباتية ، وتحولت إلى الحيوانية ، وهى المرتبة الأعلى ؛ لذلك فزع منها موسى وخاف فطمأنه ربه :

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [طه]

وكانت هذه المرة بمثابة تدريب لموسى عليه السلام ؛ ليألف العصا على هذه الحالة ، وكأن الله تعالى أراد لموسى أنْ يُجرى هذه التجربة أمامه ، ليكون على ثقة من صدْق هذه الآية ، فإذا ما جاء لقاء فرعون ألقاها دون خوف ، وهو واثق من نجاحه فى هذه الجولة .

إذن : كان الإلقاء الثانى للعصا أمام فرعون وخاصته ، ثم كان الإلقاء للمرة الثالثة أمام السحرة .

ومعنى ﴿ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : بيِّن الثعبانية ، فيه حياة وحركة ، وقال ﴿ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : واضح للجميع ؛ لأنهم كانوا يُجيدون هذه المسألة ويُخيِّلون للناس مثل هذه الأشياء ، ويجعلونها تسعى وتتحرك ، ولم تكن عصا موسى كذلك ، إنما كانت ثعباناً مبيناً واضحاً وحقيقياً لا يشكّ فى حقيقته أحد .

والمتتبع للقطات المختلفة لهذه الحادثة فى القرآن الكريم يجد

السياق يُسمِّيها مرة ثعباناً ، ومرة حية ، ومرة جاناً[1] ، لماذا ؟ قالوا : لأنها جمعت كل هذه الصفات : فهى فى خفة حركتها كأنها جان ، وفى شكلها المرعب كأنها حية ، وفى التلوِّى كأنها ثعبان . والجان : فرخ الحية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝٣٣ ﴾

هنا يتكلم عن نزع اليد ؛ لأنه قال فى آية أخرى : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ[2] تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. ۝٣٢ ﴾ [القصص]

وهكذا تتكامل لقطات القصة الواحدة ، والتى يظنها البعض تكراراً ، وليست هى كذلك .

﴿ وَنَزَعَ .. ۝٣٣ ﴾ [الشعراء] يعنى : أخرج يده ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ۝٣٣ ﴾ [الشعراء] مع أن موسى عليه السلام كان آدم اللون يعنى فيه سُمْرة ، ومع ذلك خرجتْ يده بُيضاء ، لها شعاع وبريق يأخذ بالأبصار .

وبمقارنة هذه الآية بآية سورة القصص نجد أنه حذف من آية سورة الشعراء الجيب ، وهو فتحة الثوب من أعلى ، لا الجيب المتعارف عليه ، والذى نضع فيه النقود مثلاً ، وكانوا فى الماضى

---

(١) وصفها بأنها : - ثعبان فى آيتين : (الأعراف ١٠٧) ، (الشعراء ٣٢) .
- حية فى آية واحدة : (طه ٢٠) .
- جان فى آيتين : (النمل ١٠) ، (القصص ٣١) .

(٢) جيب القميص : ما يفتح منه على الصدر . أى : من أعلى الثوب وجمعه جيوب . [القاموس القويم ١٣٨/١] . فكانت يده تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر فى لمعان البرق ، من غير برص . وهو مرض جلدى .

يجعلون الجيب بداخل ملابس الإنسان ، ليكون فى مأمن ، فإذا أراد الإنسان شيئاً فيه مدَّ يده من خلال الفتحة العليا للثوب ، فسُمِّيتْ جيبا .

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

الملأ : هم علْية القوم ، الذين يملأون العيون ، ويتصدَّرون المجالس ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الشعراء] فاتهمه بالسحر ليخرج من ورطته وقال : ساحر لأن موسى لم يمارس هذه المسألة إلا مرة واحدة هى التى أجراها أمام فرعون ، لكن الملأ على علم بالسحر وإلْف له ، وعندهم سحارون كثيرون .

وفَرْق بين ساحر وسحَّار : ساحر لمن مارس هذه العملية مرة واحدة ، إنما سحَّار مبالغة تدل على أنها أصبحت حِرْفته ، مثل ناجر ونجّار ، وخائط وخيّاط .

و ﴿ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الشعراء] أى : بسحره .

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

هنا يستعدى فرعون قومه على موسى ، ويُحذرهم أنه سيفسد العامة والدهماء ، وتكون له الأغلبية ، وتكون له شيعة يناصرونه عليكم حتى يُخرجكم من أرضكم ، وهذا أقلّ ما يُنتظر منه ، يريد أن يهيج عليه الملأ من قومه ؛ ليكونوا أعداء له يقفون فى صَفّ فرعون .

وعجيب أنْ يقول الفرعون الإله ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الشعراء] فهذه هى الألوهية الكاذبة التى انحدرتْ إلى مرتبة العبيد ، ومتى يأخذ

الإله رأى عبيده ، ويطلب منهم المعونة والمشورة ؟ ولو كان إلهاً بحق لكان عنده الحل ولديه الردّ .

فلما نزل فرعون من منزلة الألوهية ، وطلب الاستعانة بالملأ من قومه التفتوا إلى كذبه ، ووجدوا الفرصة مواتية للخلاص منه ، مما يدل على أن أكثرهم وجمهرتهم كانوا يجارونه على مضض ، وينتظرون لحظة الخلاص من قَهْره وكذبه ؛ لذلك قالوا :

﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

﴿ أَرْجِهْ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الشعراء] من الإرجاء وهو التأخير ، أى : أخِّره وأخاه لمدة ﴿ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الشعراء] ابعث رسلك يجمعون السَّحارين من أنحاء البلاد ، ليقابلوا بسحرهم موسى وهارون . والمدائن : جمع مدينة .

﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

وقال ﴿ سَحَّارٍ.. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشعراء] بصيغة المبالغة ﴿ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشعراء] أى : بفنون السِّحْر وألاعيب السَّحَرة .

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

الميقات : أى الوقت المعلوم ، وفى آية أخرى : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [طه] وكان يوماً مشهوداً عندهم ، ترتدى فيه الفتيات أبهى حُلَلها ، وكان يوم عيد يختارون فيه عروس النيل التى سيُلْقونها فيه ، فحدد اليوم ، ثم لم يترك اليوم على إطلاقه ، إنما حدد من اليوم وقت الضحى[1] ﴿ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾ [طه]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٥٦) : « أى : ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح » .

وفى لقطة أخرى حـدد المكان ، فقال : ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾ [طه] يعنى : فيه سوائية ، إما باستواء المكان حتى يتمكّن الجميع من رؤية هذه المباراة الســحرية ، بحيث تكون فى ساحة مـستوية الأرض ، أو يكون مكاناً سواسية متوسطاً بين المدائن التى سيجمع منها السـحرة ، بحيث لا يكون متطرفاً ، يشقّ على بعضـهم حضـوره .

وهكذا تتكاتف اللقطات المختلفة لترسم الصورة الكاملة للقصة .

ونرى فى هذه المشـــورة حِرْصَ الملأ على إتمـام هذا اللقاء ، وأن يكون على رؤوس الأشــهـاد ، لأنهم يـعلمـون أنهـا ســتكون لصـــالح موسى ، وسوف يفضح هذا اللقاءُ كذبَ فرعون فى ادعائه الألوهية .

﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

أى : أخذوا يدعُـون الناس ، وكأنهم فى حملة دعاية وتأيـيد ، إما لمـوسى من أنصاره الكارهين لفــرعون فى الخــفاء ، وإمــا لفــرعون ، فكان هؤلاء وهؤلاء حريصين على حضور هذه المباراة .

إننا نشاهد الجمع الغفير من الجماهير يتجمع لمشاهدة مباراة فى كرة الـقدم مـثلاً ، فـما بالك بمـباراة بين ســحرة مَنْ يدَّعى الألوهــية وموسى الذى جاء بـرسالة جديدة يقول : إن له إلهـاً غير هذا الإله ؟ إنه حَدَثٌ هَزَّ الدنيا كلها ، وجذب الجميع لمشاهدته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

فانظر إلى مسيرة الإله فرعون فى رعيته ، فالإله الحق يُطْعِم ولا يُطْعَم ، ويجير ولا يُجَار عليه ، الإله الحق يُعطى ولا يأخذ ، ولما اجتمع السحرة وهم أبطال هذه المباراة ، ويعلمون مدى حاجة فرعون إليهم فى هذا الموقف ؛ لذلك بادروا بالاتفاق معه والاشتراط عليه : إنْ كنت تُسخِّر الناس فى خدمتك دون أجر ، فهذه المسألة تختلف ، ولن تمر هكذا دون أجر .

وهذا دليل على معرفتهم بفرعون ، وأنه رجل (أَكَلْتى) ، لذلك اشترطوا عليه أجراً إنْ كانوا هم الغالبين ، ولا ندرى فربما جاء آخر يهدد هذه الألوهية ، فنحن ندخركم لمثل هذا الموقف .

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

هنا يتنازل فرعون عن تعاليه وكبريائه ويذعن لشروط سَحرته ، بل ويزيدهم فوق ما طلبوا ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الشعراء] فسوف تكونون من خاصتنا ، نستعين بكم فى مثل هذه الأمور ، ولا نستغنى عنكم ؛ لأنكم الذين حافظتم على باطل ألوهيتنا .

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

هنا كلام محذوف ، نعرفه من سياق القصة ؛ لأن الآية السابقة كان الكلام ما يزال بين فرعون والسحرة ، والقرآن يحذف بعض الأحداث اعتماداً على فطْنة السامع أو القارىء ، كما قلنا فى قصة الهدهد مع سيدنا سليمان ، حيث قال له : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [النمل]

ثم قال بعدها : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ[1] ﴿٢٩﴾ ﴾ [النمل] وحذف ما بين هذين الحدثين مما نعلمه نحن من السياق .

وقوله : ﴿ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشعراء] هذه هي الغاية التي انتهى إليها بعد المحاورة مع السحرة .

﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

فكانت العصيّ والحبال هي آلات سحرهم ﴿ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشعراء] بعزة فرعون : هذا قسمهم ، وما أخيبه من قسم ؛ لأن فرعون لا يُغلَب ولا يُقهر في نظرهم ، وسبق أن أوضحنا أن العزة تعني عدم القهر وعدم الغلبة ، لكن عزة فرعون عزة كاذبة وأنفة وكبرياء بلا رصيد من حق ، وعزة بالإثم كالتي قال الله عنها : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ .. ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [البقرة]

وقال تعالى : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ ﴾ [ص] أي : عزة بإثم ، وعزة بباطل .

ومنه أيضاً قوله تعالى عن المنافقين : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ .. ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون] فصدّق القرآن على قولهم

---

(١) تعني بكرمه : ما رأته من عجيب أمره كون طائر جاء به فألقاه إليها ثم تولى عنها أدباً وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك . [تفسير ابن كثير ٣/٣٦١] . وقال القرطبي في تفسيره (٧/٥٠٧٤) : « وصفته بذلك لما تضمن من لين القول والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله عز وجل وحسن الاستعطاف من غير أن يتضمن سباً ولا لعناً ولا ما يغير النفس ، ومن غير كلام نازل ولا مستغلق على عادة الرسل في الدعاء إلى الله » .

بأن الأعزَّ سيُخرج الأذلّ ، لكن ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. ⑧ ﴾ [المنافقون]

وما دام الأمر كذلك فأنتم الأذلّة ، وأنتم الخارجون ، وقد كان .

ويقال : إن أدوات سحرهم وهي العصيّ والحبال كانت مُجوفة وقد ملئوها بالزئبق ، فلما ألقوها في ضَوء الشمس وحرارتها أخذتْ تتلاعب ، كأنها تتحرك ، وهذا من حيل السَّحَرة وألاعيبهم التي تُخيِّل للأعين وهي غير حقيقية ، فحقيقة الشيء ثابتة ، أمّا المسحور فيخيل إليه أنها تتحرك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

ولم يأت إلقاء موسى عليه السلام لعصاه مباشرة بعد أن ألقى السحرة ، إنما هنا أحداث ذُكرتْ في آيات أخرى ، وفي لقطات أخرى للقصة ، يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ⑯ ﴾ [طه]

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ⑰ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ⑱ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا .. ⑲ ﴾ [طه]

هكذا كانت الصورة ، فلما خاف موسى ثبَّته ربه ، وأيّده بالحق وبالحجة ، وتابعه فيما يفعل لحظةً بلحظة ؛ ليوجهه وليُعدِّل سلوكه ، ويشدّ على قلبه ، وما كان الحق ـ تبارك وتعالى ـ ليرسله ثم يتخلى عنه ، وقد قال له ربه قبل ذلك : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ㊴ ﴾ [طه] وقال : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ㊻ ﴾ [طه] فالحق سبحانه يعطى نبيه موسى الأوامر ، ويعطيه الحجة لتنفيذها ، ثم يتابعه بعنايته ورعايته .

ومن ذلك قوله تعالى لنبيه نوح : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٣٧) ﴾ [هود]

فحينما تجمع هذه اللقطات تجدها تستوعب الحدث ، ويُكمّل بعضها بعضاً ، وهذا يظنه البعض تكراراً ، وليس هو كذلك .

إذن : جاء إلقاء موسى لعصاه بعد توجيه جديد من الله أثناء المعركة : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ .. (٦٩) ﴾ [طه] وهنا : ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) ﴾ [الشعراء] ومعنى ﴿ تَلْقَفُ .. (٤٥) ﴾ [الشعراء] تبتلع وتلتهم في سرعة وقوة ، أما السرعة واختصار الزمن والقوة ، فتدل على الأخذ بشدة وعُنْف ، وفي هذا دليل على أنه خاض المعركة بقوة ، فلم تضعف قوته لما رأى من ألاعيب السَّحَرة .

ومعنى ﴿ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) ﴾ [الشعراء] من الإفك يعني : قلْب الحقائق ؛ لذلك سَمَّوْا الكذب إفْكاً ؛ لأنه يقلب الحقيقة ويُغير الواقع .

ومنها ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) ﴾ [النجم] وهي القرى[1] الظالمة التي أهلكها الله ، فجعل عاليها سافلها .

وسبق أن أوضحنا أن الكذب وقَلْب الحقائق يأتي من أنك حين تتكلم ، فللكلام نِسَبٌ ثلاث : نسبة في الذِّهْن ، ونسبة على اللسان ، ونسبة في الواقع . فإنْ طابقتْ النسبةُ الكلامية الواقع ، فأنت صادق ، وإنْ خالفتْه فأنت كاذب .

---

(١) يعني : مدائن قوم لوط قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود . قال قتادة : كان في مدائن قوم لوط أربعة آلاف ألف إنسان (يعني ٤ ملايين) فانضرم عليهم الوادي شيئاً من نار ونفط وقطران كفم الأتون . [تفسير ابن كثير ٤/٢٥٩] .

وسَمَّى ما يفعله السحرة إفكاً ؛ لأنهم يُغيِّرون الحقيقة ، ويُخيِّلون للناس غيرها .

﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

لم يقُل الحق سبحانه : فسجد السحرة ، إنما ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الشعراء] والإلقاء يدل على سرعة الاستجابة ، وأن السجود تَمَّ منهم دون تفكير ؛ لأنه أمر فوق إرادتهم ، وكأن جلال الموقف وهيبته وروعة ما رأَوْا ألقاهم على الأرض ساجدين لله ، صاحب هذه الآية الباهرة ؛ لذلك لم يقولوا عندها آمنَّا بربِّ موسى وهارون ، إنما قالوا :

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

وحين نتأمل ردَّ فعْل السحرة هنا نجد أنهم خرُّوا لله ساجدين أولاً ، ثم أعلنوا إيمانهم ثانياً ، ومعلوم أن الإيمان يسبق العمل ، وأن السجود لا يتأتى إلا بعد إيمان ، فكيف ذلك ؟

قالوا : هناك فَرْق بين وقوع الإيمان ، وبين أنْ تخبر أنت عن الإيمان ، فالمتأخر منهم ليس الإيمان بل الإخبار به ؛ لأنهم ما سجدوا إلا عن إيمان واثق ينجلي معه كل شكٍّ ، إيمان خطف ألبابهم وألقاهم على الأرض ساجدين لله ، حتى لم يمهلهم إلى أنْ يعلنوا عنه ، لقد أعادهم إلى الفطرة الإيمانية في النفس البشرية ، والمسائل الفطرية لا علاجَ للفكر فيها .

وكأن سائلاً سألهم : لـمَ تسجدون ؟ قالوا : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ (٤٨)﴾ [الشعراء]

وقالوا : ربّ موسى وهارون بعد رب العالمين ، ليقطعوا الطريق على فرعون وأتباعه أن يقول مثلاً : أنا رب العالمين ، فأزالوا هذا اللبْس بقولهم ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ (٤٨)﴾ [الشعراء]

ومثال ذلك قول بلقيس عندما رأت عرشها عند سليمان - عليه السلام - لم تقل : أسلمت لسليمان ، إنما قالت : ﴿أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ [النمل] فأنا وأنت مسلمان لإله واحد هو الله رب العالمين ، وهكذا يكون إسلام الملوك ، وحتى لا يظن أحد أنها إنما خضعتْ لسليمان ؛ لذلك احتاطتْ فى لفظها لتزيل هذا الشك .

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) ﴾

إذن : فهو لا يشك فى أن ما رآه السحرة موجب للإيمان ، ولا يُشكّك فى ذلك ، لكن المسألة كلها ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ .. (٤٩)﴾ [الشعراء] فما يزال حريصاً على ألوهيته وجبروته ، حتى بعد أن كُشِف أمره وظهر كذبه ، وآمن الملأ بالإله الحق .

ثم أراد أنْ يبرر موقفه بين دهماء العامة حتى لا يقول أحد : إنه هزم وضاعت هيبته ، فقال : ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ .. (٤٩)﴾ [الشعراء] فى حين أن القوم يعلمون أن موسى عليه السلام لم يجلس طيلة عمره إلى ساحر ، لكن فرعون يأخذها ذريعة ، لينقذ ما يمكن إنقاذه من مركزه الذى تهدّم ، وألوهيته التى ضاعت .

ثم يُهدِّدهم بأسلوب ينمّ عن اضطرابه ، وأنه فقد توازنه ، واختلّ حتى فى تعبيره ، حيث يقول ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الشعراء] وسوف تدل على المستقبل مع أنه لم يُؤخّر تهديده لهم بدليل أنه قال بعدها : ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الشعراء] ﴿ مِّنْ خِلافٍ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : اليد اليمنى مع الرِّجْل اليُسْرى ، أو اليد اليسرى مع الرِّجْل اليمنى .

وقوله : ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الشعراء] أوضحه فى آية أخرى : ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [طه]

فماذا كان جواب المؤمنين برب العالمين ؟

﴿ قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

أى : لا ضررَ علينا إنْ قتلتنا ؛ لأن مصير الجميع إلى الموت ، لكن إنْ كانت نهايتنا على يديك فسوف نسعد نحن بلقاء ربنا ، وتَشْقى أنت بجزاء ربك . كالطاغية الذى قال لعدوه : لأقتلنك فضحك ، فقال له : أتسخر منى وتضحك ؟ قال : وكيف لا أضحك من أمر تفعله بى يُسعدنى الله به ، وتشقى به أنت ؟

إذن : لا ضررَ علينا إنْ قُتلْنا ؛ لأننا سنرجع إلى الله ربنا ، وسنخرج من ألوهية باطلة إلى لقاء الألوهية الحقة ، فكأنك فعلتَ فينا جميلاً ، وأسديتَ لنا معروفاً إذْ أسرعتَ بنا إلى هذا اللقاء ، وما تظنه فى حقنا شَرٌّ هو عين الخير ، لذلك فَهِم الشاعر هذا المعنى ، فقال عنه :

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً   على أىِّ جَنْبٍ كانَ فى اللهِ مَصْرعى

يعنى : ما دُمْتُ قد مُتُّ فى سبيل الإسلام ، فلا يُهم بعد ذلك ، ولا أبالى أىّ موتة هى .

والمؤمنون هنا حريصون على أمرين : الأول : نَفْى الضرر ؛ لأن دَرْء المفسدة مُقدَّم على جلْب المصلحة ، والثانى : التأكيد على النفع الذى سينالونه من هذا القتل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

لأنك أكرهتنا على السحر ، وحملْتنا على الكذب ، ومكثنا عمراً نعتقد أنك إله ، فلعلَّ مبادرتنا إلى الإيمان وكوْننا أولَ المؤمنين يشفع لنا عند ربنا ، فيغفر لنا خطايانا ، وفى موضع آخر : ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [طه]

فذكر هناك مسألة الإكراه ، وذكر هنا العلة : ﴿ أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشعراء]

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ[(1)] بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قلنا : الوحى لغةً : إعلام بخفاء ، وشرعاً : إعلام من الله لرسول من رسله بمنهج خير لخلْقه .

---

(١) سرى يسرى : سار ليلاً . وأسرى به : جعله يسرى أو حمله على السير ليلاً . [القاموس القويم ١/٣١٢] . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٣٥) : « كان خروجه بهم فيما ذكره غير واحد من المفسرين وقت طلوع القمر ، وذكر مجاهد رحمه الله أنه كُسِف القمر تلك الليلة فالله أعلم » .

ومن الوحى المطلق قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [النحل]

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ﴿٧﴾ ﴾[القصص]

فالوحى العام إذن لا نسأل عن الموحِى ، أو الموحَى إليه ، أو موضوع الوحى ، فقد يكون الوحى من الشيطان ، والموحَى إليه قد يكون الأرض أو الملائكة أو الحيوان ، على خلاف الوحى الشرعى ، فهو محدد ومعلوم .

لقد قام فرعون بحملة دعاية لهذه المعركة مع موسى - عليه السلام - وحشد الناس لمشاهدة هذه المباراة ، وهذا دليل على أنه قدَّر أنه سيغلِب ، لكن خيَّب الله ظنه ، وكانت الجولة لمصلحة موسى عليه السلام ، فآمن السحرة بالله تعالى رب موسى وهارون ، فأخذ يهددهم ويتوعدهم ، وهو يعلم أنَّ ما رأوْه من الآيات الباهرات يستوجب الإيمان . .

ومع ذلك لما غُلِب فرعون وضاعتْ هيبته وجبباريته وقاهريته سكت جمهور الناس ، فلم ينادوا بسقوطه ، واكتفوا بسماع أخبار موسى ، وظل هذا الوضع لمدة طويلة من الزمن حدث فيها الآيات التسع التى أنزلها الله ببنى إسرائيل .

ومن غباء فرعون أن ينصرف عن موسى بعد أن أصبح له أتباع وأنصار ، ولم يحاول التخلص منه حتى لا يزداد أتباعه وتقوى

شوكته ، فكأن مسألة الآيات التسع التى أرسلها الله عليهم قد هَدَّتْ كيانه وشغلته عن التفكير فى أمر موسى عليه السلام .

وهكذا استشرى أمر موسى وأصبحت له أغلبية وشعبية ، حتى إن الأقباط[1] أتباع فرعون كانوا يعطفون على أمر موسى وقومه ؛ لذلك استعاروا من القبط حُلِيَّ النساء قبل الخروج مع موسى ، ومن هذه الحلى صنع السامرى العجل الذى عبدوه فيما بعد .

وهنا يقول تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشعراء] وقبل ذلك نبَّهه ربه للخروج بعد أن قتل الرجل : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القصص]

أما الآن ، فالمؤامرة عليه وعلى مَنْ معه من المؤمنين .

ومعنى ﴿ أَسْرِ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشعراء] الإسراء : المشى ليلاً ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : سيتبعكم جنود فرعون ويسيرون خلفكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى الْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾
إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ[2] قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾
وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

---

(١) القبط : جيل بمصر . وقيل : هم أهل مصر وبُنْكها (أصلها) ورجل قبطى . والقُبْطيّة : ثياب كتان بيض رقاق تُعمل بمصر وهى منسوبة إلى القبط . [لسان العرب ـ مادة : قبط] فالقبط هم أهل مصر من قبل موسى عليه السلام ومن قبل أن تدخل مصر فى المسيحية ، فالقبط جنس ليس مرتبطاً بالديانة .

(٢) الشرذمة : الجماعة القليلة من الناس [لسان العرب ـ مادة : شرذم] . قال القرطبى فى تفسيره (٤٩٧٩/٧) : « روى أن بنى إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً والله أعلم بصحته » .

الفاء هنا للتعقيب ، فوَحْى الله لموسى أن يَسْرى ببنى إسرئيل تَمَّ قبل أن يبعثَ فرعون فى المدائن حاشرين ، وكأن الله تعالى يحتاط لنبيه موسى ليخرج قبل أن يهيج فرعونُ الناسَ ، ويجمعهم ضد موسى ويُجرى لهم ما نسميه نحن الآن (غسيل مخ) ، أو يعلن على موسى وقومه حرب الأعصاب التى تؤثر على خروجهم .

و ﴿حَاشِرِينَ (٥٣)﴾ [الشعراء] من الحشر أى : الجمع ، لكن جمع هذه المرة للجنود لا للسحرة ، لأنهم هُزموا فى مُباراة السحرة ، فأرادوا أنْ يستخدموا سلاحاً آخر هو سلاح الجبروت والتسلُّط والحرب العسكرية ، فإنْ فشلت الأولى فلعلّ الأخرى تفلح ، لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ أخبر نبيه موسى بما يُدبَّر له وأمره بالخروج ببنى إسرائيل .

وقَوْل فرعون عن أتباع موسى : ﴿إِنَّ هَـٰؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤)﴾ [الشعراء] يريد أن يُهوِّن من شأنهم ويُغرى قومه بهم ، ويُشجِّعهم على مواجهتهم ، لكن مع ذلك يُحذِّرهم من خطرهم ، فيقول ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥)﴾ [الشعراء] فأعِدُّوا لهم العدة ، ولا تستهينوا بأمرهم .

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ۝٥٦﴾

يعنى : لا بُدَّ أن نأخذ حذرنا ونحتاط للأمر.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ[1] وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨﴾

---

(١) عن عبد الله بن عمرو قال : كانت الجنات بحافتى النيل فى الشقتين جميعاً من أسوان إلى رشيد ، وبين الجنات زروع . [تفسير القرطبى ٤٩٨/٧] .

أى : لم ينفعه احتياطه ، ولم يُجْدِ حذره ، فلا يمنع حَذَر من قَدَر ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [الشعراء] أى : بساتين وحدائق ﴿ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الشعراء] أى : عيون تجرى بالماء ﴿ وَكُنُوزٍ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [الشعراء] كانت عندهم ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : عيشة مُتْرفة فى سَعَةٍ ورَغَدٍ من الحياة ، وخَدم وحَشَم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾

﴿ كَذَٰلِكَ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الشعراء] أى : الأمر كما أقول لكم وكما وصفتُ ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الشعراء] أى : أورثنا هذا النعيم من بعدهم لبنى إسرائيل ، وهنا قد يسأل سائل : كيف وقد ترك بنو إسرائيل مصر وخرجوا منها ، ولم يأخذوا شيئاً من هذا النعيم ؟

قالوا : المعنى أورثهم الله أرضاً مثلها ، قد وعدهم بها فى الشام[1] .

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

أى : عند الشروق ، وعادةً ما تكون الغارة على الجيش عند الصباح ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الصافات]

وعادةً ما يقوم الإنسان من النوم كسولاً غير نشيط ، فكيف بمَنْ هذه حاله إن التقى بعدوه ؟

---

(١) قال القرطبى فى تفسير هذه الآية (٧/ ٤٩٨٤) : « يريد أن جميع ما ذكره الله تعالى من الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم أورثه الله بنى إسرائيل . قال الحسن وغيره : رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه . وقيل : أراد بالوراثة هنا ما استعاروه من حلى آل فرعون بأمر الله تعالى » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا تَرَآءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

معنى ﴿ تَرَاءَى الْجَمْعَانِ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء] أى : صار كل منهما يرى الآخر ، وحدثتْ بينهما المواجهة ، وعندها ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء] فالحال أن البحر من أمامهم وجنود فرعون من خلفهم ، فلا مناصَ ولا مهرب ، لكن موسى ـ عليه السلام ـ وقد سبق أن تعلم كلمة (كلا) من ربه تعالى ، حينما قال : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الشعراء] فردّ عليه ربه : ﴿ كَلاَّ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] عندها تعلَّمها موسى ، وعرف كيف ومتى يقولها قَوْلةَ الواثق بها .

﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾

لكن كيف يقول موسى عليه السلام هذه الكلمة (كلا) بملء فيه ، والأمر بقانون الماديات أنه عُرْضة لأنْ يُدْرَك قبل أن يكملها ؟

والإجابة فى بقية الآية : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] فلم يقُلْ موسى : كَلاَّ اعتماداً على قوته واحتياطه للأمر ، إنما قالها اعتماداً على ربه الذى يكلؤه بعينه ، ويحرسه بعنايته .

فالواقع أننى لا أعرف ماذا أفعل ، ولا كيف أتصرف ، لكن الشىء الذى أثق منه ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] لذلك يأتى الفرج والخلاص من هذا المأزق مباشرة :

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾

ذلك لأن البحر هو عائقهم من أمامهم ، والبحر مياه لها قانونها الخاص من الاستطراق والسيولة ، فلما ضرب موسى بعصاه البحر انفلق وانحصر الماء على الجانبين ، كل فِرْقٍ ـ أى : كل جانب ـ كالطوْد يعنى الجبل العظيم .

لكن بعد أن صار الماء إلى ضدِّه وتجمَّد كالجبل ، وصنع بين الجبلين طريقاً ، أليس فى قاع البحرَ بعد انحسار الماء طين ورواسب وأوحال وطمى يغوص فيها الإنسان ؟

إننا نشاهد الإنسان لا يكاد يستطيع أن ينقل قدماً إذا سار فى وحل إلى ركبتيه مثلاً ، فما بالك بوحْل البحر ؟

لذلك قال له ربه : ﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ (٧٧) ﴾ [طه]

فالذى جعل لك الماء جبلاً ، سيجعل لك الطريق يابساً .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يُبيِّن لنا فى انفلاق البحر ، إلى كَمْ فلقة انفلق ، لكن العلماء يقولون : إنه انفلق إلى اثنتى عشرة فلقة بعدد الأسباط[1] ، بحيث يمر كل سَبْط من طريق .

وفى لقطة أخرى من القصة أراد موسى ـ عليه السلام ـ أنْ يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى طبيعته ، فيسُدُّ الطريق فى وجه فرعون وجنوده علىٰ حَدِّ تفكيره كبشر ، لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ نهاه عن ذلك : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا[2] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) ﴾ [الدخان]

---

(١) قاله ابن عباس فيما نقله عنه ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٣٦) . وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٠٣ ، ٣٠٤) ضمن أثر طويل عزاه لابن عبد الحكم فى « فتوح مصر » من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس .

(٢) أى : اترك البحر ساكنة أمواجه ليغتروا فينزلوا فيه ، أو كن ساكن النفس هادئاً مطمئناً إلى النجاة . [القاموس القويم ١/٢٧٩ بتصرف]

اتركه على حاله ليُغرى الطريق اليابس فرعون وجنوده ، لذلك قال سبحانه :

﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

أى : قرّبناهم من منتصف البحر ، ثم أطبقه الله عليهم حين أمر الماء أن يعود إلى سيولته وقانون استطراقه ، وهكذا يُنجِّى الله ويُهلك بالشيء الواحد و ﴿ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : قوم فرعون ، و ﴿ ثَمَّ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [الشعراء] أى : هناك وسط البحر .

وللعصا مع موسى ـ عليه السلام ـ تاريخ طويل منذ أن سأله ربه ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [طه] فأخبر بما يعرفه عنها ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. ﴿١٨﴾ ﴾ [طه]

وقوله ﴿ أَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. ﴿١٨﴾ ﴾ [طه] لا تعنى كما يظن البعض أنها مجرد الإشارة بها إلى الغنم أو ضربها ، فأهشُّ تعنى أضرب بها أوراقَ الشجر لتتساقط ، فتأكلها الأغنام الصغار التى لا تطول أوراقَ الشجر ، أو الكبار التى أكلتْ ما طالته أعناقها وتحتاج المزيد .

ولما وجد موسى نفسه قد أطال فى هذا المقام قال ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه] كأنْ أدافع بها عن نفسى ليلاً ، إنْ تعرَّض لى كلب أو ذئب مثلاً ، أو أغرسها فى الأرض وألقى عليها بثوبى لأستظلَّ به وقت القيلولة ، أو أجعلها على كتفى وأُعلِّق عليها متاعى حين أسير .. إلخ .

هذه مهمة العصا كما يراها موسى ـ عليه السلام ـ لكن للعصا مهمة أخرى لا يعلمها ، فهى حُجّته وآية من الآيات التى أعطاه الله ،

فبها انتصـر فى معركة الحجة مع السَّحَرة ، وبها انتصـر فى معركة السلاح حين ضرب بها البحر فانفلق .

ومن العجيب فى أمر العصا أن يضرب بها البحر ، فيصير جبلاً ، ويضرب بها الحجر فينفجر بالماء ، وهذه آيات باهرات لا يقدر عليها إلا الله عز وجل .

لذلك جعلوا عصا موسى حجةً ودليلاً وعَلَماً على الانتصار فى كل شىء ، فلما كان الخصيب[1] والياً على مصر ، وتمرد عليه بعض قُطَّاع الطرق ، وكانت لديه القوة التى قهرهم بها ، لذلك قال :

فَإِنْ يَكُ بَاقٍ إفْكُ فِرْعَوْنَ فيكُمْ فَإِنَّ عَصَا مُوسَى بكَفِّ خَصِيبِ

وفى هذا المعنى يقول شاعر آخر :

إذَا جَاءَ مُوسَى وَأَلْقَى العَصَا فَقَدْ بَطُلَ السِّحْرُ والسَّاحِرُ

إذن : صارتْ عصا موسى عليه السلام مثَلاً وعلَماً للغَلَبة فى أىِّ مجال من مجالات الحياة .

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

فقد حُسِمتْ هذه المعركة لصالح موسى ومَنْ معه دون إراقة دماء ، ودون خسارة جندى واحد ، فى حين أن المعارك على فرض الانتصار فيها لا بُدَّ أن تكون لها نسبة خسائر فى الأرواح وفى العَتَاد ، أما هذه فلا .

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

(١) جاء فى لسان العرب ـ مادة : خصب : « الخصيب لقب رجل من العرب» .

أى : بنفس السبب الذى أنجى الله به موسى وقومه أهلك فرعون وقومه ؛ لأنه وحده سبحانه القادر على أن يُنجِى ، وأنْ يُهلك بالشىء الواحد .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

قوله سبحانه ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الشعراء] أى : فيما حدث ﴿ لَآيَةً .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الشعراء] وهى الأمر العجيب الذى يخرج عن المألوف وعن العادة ، فيثير إعجاب الناس، ويستوجب الالتفات إليه والنظر فيه، والآية تُقنع العقل بأن الله هو مُجْريها على يَدَىْ موسى ، وتدل على صدْق رسالته وبلاغه عن الله ، وإلا فهى مسألة فوق طاقة البشر .

ومع ذلك ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الشعراء] أى : أن المحصلة النهائية للذين آمنوا كانوا هم القلة[1] مع هذه الآيات ، حتى الذين آمنوا مع موسى عليه السلام واتبعوه وأنجاهم الله من آل فرعون ومن الغرق ، سرعان ما تراجعوا وانتكسوا ، كما يحكى القرآن عنهم :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ .. ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الأعراف]

سبحان الله ، لقد كفروا بالله ، وما تزال أقدامهم مُبتلَّة من عبور البحر ، وما زالوا فى نَشوة النصر وفرحة الغلبة !!

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾

أى : بعد ما مَرَّ من حيثيات فإن الله تعالى هو العزيز ، أى : الذى

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٩٨٦/٧) : « لأنه لم يؤمن من قوم فرعون إلا مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل ، وابنته آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت ذا موسى العجوز التى دلَّتْ على قبر يوسف الصِّديق عليه السلام » .

لا يُغلَب ولا يُقهَر ، إنما هو الغالب وهو القاهر ، فهو سبحانه يغلب ولا يُغلب ، ويُطعِم ولا يُطعَم ، ويُجير ولا يُجار عليه . ومع عزَته سبحانه وقوته بحيث يغلب ولا يُغلب هو أيضاً ﴿ الرَّحِيمُ ⦗٦٨⦘ ﴾ [الشعراء] لأنه رب الخَلْق أجمعين ، يرحمهم إنْ تابوا ، ويقبلُهم إنْ رجعوا إلى ساحته ، كما جاء في الحديث الشريف :

« لله أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح »[1] .

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ⦗٦٩⦘ ﴾

جاءت هذه الآية بعد الانتهاء في إيجاز مُبسّط لقصة موسى عليه السلام مع فرعون ، وخُتمت بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ⦗٦٧⦘ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⦗٦٨⦘ ﴾ [الشعراء]

ثم تكلم الحق سبحانه عن نبيه إبراهيم عليه السلام ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ⦗٦٩⦘ ﴾ [الشعراء] مما يدل على أن المسألة في القرآن ليست سَرْداً للتاريخ ، فإبراهيم كان قبل موسى ، ولو أردنا التأريخ لجاءت قصة إبراهيم أولاً ، إنما الهدف من القصص في القرآن التقاط مواضع العِبْرة والعظَة واتخاذ الأُسْوة من تاريخ الرسل ، ليُثبِّت الله بها فؤاد رسوله ﷺ حينما يواجه الأحداث الشاقة والعصيبة .

والمتأمل في رسالة موسى ورسالة إبراهيم عليهما السلام

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

يجد أن موسى جاء ليعالج مسألةً هى قمة العقيدة ، ويواجه مَن ادّعى الألوهية وقال : إنى إله من دون الله ، أما إبراهيم فقد عالج مسألة الشرك مع الله وعبادة الأصنام ، فعندهم طَرَف من إيمان ، بدليل أنهم إذا ضيّقنا عليهم الخناق قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. ③﴾ [الزمر]

لذلك كانت قصة موسى أَوْلَى بالتقديم هنا .

ومعنى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ .. ٦٩﴾ [الشعراء] أى : اقرأ ، أو وضِّح ، أو عبِّر ، ونقول للقراءة (تلاوة) لأنه لا يُتلَى إلا المكتوب المعلوم المفهوم ﴿عَلَيْهِمْ .. ٦٩﴾ [الشعراء] على أمة الدعوة كلها ، أمْ على المكذبين خاصة ؟

قالوا : على المكذِّبين خاصة ؛ لأن المصدِّقين برسول الله لا يحتاجون هذه التلاوة ، وإنْ تُليَتْ عليهم فإنما التلاوة للتذكرة أو لعلم التاريخ . إذن : المراد هنا المكذِّبون المنكرون ليعلموا أن نهاية كل رسل الله فى دعوتهم النصر والغلبة ، وأن نهاية المكذبين المخالفين الهزيمة والاندحار .

فكأن القرآن يقول لهم : لا تغتروا بقوتكم ، ولا بجاهكم ، ولا تنخدعوا بسيادتكم على العرب ، ومعلوم أن مكانة قريش بين العرب إنما أخذوها من خدمة بيت الله الحرام ، وما أَمِنُوا فى طرق تجارتهم إلاَّ بقداسة بيت الله وحُرْمته .

ولولا البيت ما كان لقريش كل هذه المكانة ، بدليل قوله تعالى : ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ ① إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ②﴾ [قريش]

ولو انهدم البيت فى قصة الفيل ما كان لقريش سيادة ولا سيطرة

على الجزيرة العربية ، وما دام أن الله تعالى فعل معهم هذا ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤ ﴾ [قريش]

ومعنى ﴿ نَبَأَ .. ۝٦٩ ﴾ [الشعراء] أي : الخبر الهام الذي يجب أنْ يُقال ، ويجب أنْ يُنصتَ له ، وأنْ تُؤخَذ منه عِبْرة وعظة ، فلا يُقال (نبأ) للخبر العادي الذي لا يُؤْبَهُ له .

ولو تتبعتَ كلمة (نبأ) في القرآن لوجدتها لا تُقَال إلا للأمر الهام ، كما في قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ ﴾ [النبأ]

وقوله تعالى في قصة سليمان عليه السلام والهدهد : ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢ ﴾ [النمل]

إذن : ﴿ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۝٦٩ ﴾ [الشعراء] يعني : الخبر الهام عنه ، وإبراهيم هو أبو الأنبياء الذي مدحه ربه مدحاً عظيماً في مواضع عدة من القرآن ، فقال الحق سبحانه عنه : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا[1] لِّلَّهِ حَنِيفًا .. ۝١٢٠ ﴾ [النحل]

والأمة لا تُطلَق إلا على جماعة تنتسب إلى شيء خاص ، ويجمعهم مكان وزمان وحال . كذلك رسول الله ﷺ ، فقد أضفى الله عليه كمالات من صفات كماله لا يستطيع بشر أن يتحملها .

لذلك جاء في الحديث الشريف : « الخير فِيَّ وفي أمتي إلى يوم القيامة »[2] .

---

(١) القنوت : الطاعة . وقال تعالى ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ۝٢٦ ﴾ [الروم] أي : خاضعون معترفون بألوهيته مطيعون [القاموس القويم ٢ / ١٣٤] .

(٢) قال العجلوني في كشف الخفاء (١/٤٧٦) : « قال في المقاصد : قال شيخنا : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح ، يعني في حديث : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة . وقال ابن حجر المكي في الفتاوى الحديثية : لم يرد بهذا اللفظ » .

الخـيـر فىَّ حـصـراً ، الخـيـر على عـمـومـه ، وفى كل جـوانب شخـصيته : داعـيةً وأباً وزوجاً .. الخ وخصـال الخير من شجـاعة ، وحلْم ، وعلْم ، وكـرم .. إلخ . وكـذلك الخـيـر فى أمـتى منثـورٌ بين أفـرادها ، يأخذ كل منهـم من الخير بطرف ، وله منه نصـيب ، لكن لا أحدَ يستطيع أن يجمع الكمال المحمدى أبداً ، ولا أن يتصف به .

كذلك كان سيدنا إبراهيم عليه السلام (أمة) ؛ لأن خصـال الخير تُوزَّع على أفـراد الأمـة : هذا ذكى ، وهذا حـليم ، وهذا عـالم ، وهذا حكيم .. الخ أما إبراهيم ـ عليـه السلام ـ فقد جمع من الخـير ما فى أمة بأكـملها ، وهذا ليس كلامـاً يُقَال فى مدح نـبى الله إبراهيم ، إنما من واقع حياته العملية .

واقرأ إنْ شـئتَ قوله تعـالى عن إبراهيم : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤)﴾ [البقرة]

وحَسْب إبـراهيم ـ عليه السـلام ـ من الخير هـذه الدعوة : ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ .. (١٢٩)﴾ [البقرة]

فكان محمد ﷺ دعوة أبيه إبراهيم .

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾

فأول دعوته كانت لأبيه ، وأقـرب الناس إليه لا للغريب ، والدعوة التى توجـه أولاً للـقـريب لا بُدَّ أنهـا دعـوة حَقٍّ ودعـوة خـيـر ؛ لأن الإنسان يحب الخير أولاً لنفسه ، ثم لأقرب الناس إليه ، ولو كانت فى خيريتها شكٌّ لقصد بها الغرباء والأباعد عنه .

والمراد بأبيه هو (آزر) الذى ورد ذكره فى موضع آخر .

وسؤاله لأبيه وقومه ﴿مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠﴾ [الشعراء] سؤال استهجان واستنكار ، وسؤال استدلال ليظهر لهم بطلان هذه العبادة ؛ لأن العبادة أنْ يطيعَ العابدُ المعبودَ فيما أمر وفيما نهى ، فالذين يعبدون الأصنام بماذا أمرتهم وعمَّ نهتهم ؟

إذن : فهي آلهة دون منهج ، وما أسهلَ أن يعبد الإنسان مثل هذا الإله الذي لا يأمره بشيء ، ولا ينهاه عن شيء ، وكذلك هي آلهة دون جزاء ودون حساب ؛ لأنها لا تثيب مَنْ أطاعها ، ولا تعاقب مَنْ عصاها .

إذن : فكلمة عبادة هنا خطأ ، ومع ذلك يُسمِّيها الناس آلهة ، لماذا ؟ لأن الإله الحق له أوامر لا بُدَّ أن تُنفَّذ ، وإنْ كانت شاقة على النفس ، وله نواهٍ لا بُدَّ أن تترك وإنْ كانت النفس تشتهيها ، فهي عبادة شاقة ، أمَّا عبادة الأصنام فما أسهلها ، فليس عندها أَمْر ولا نَهْي ، وليس عندها منهج يُنظِّم لهم حركة الحياة ؛ لذلك تمسَّك هؤلاء بعبادة الأصنام ، وسمَّوْها آلهة ، وهذا خبل واضح .

كما أن الإنسان في مجال العبادة إذا عزَّتْ عليه أسباب الحياة وأعْيَتْه الحيل ، أو خرجت عن طاقته ، عندها يجد له رباً يلجأ إليه ، ويستعين به فيقول : يا رب . فماذا عن عابد الأصنام إذا تعرَّض لمثل هذه المسائل ؟ هل يتوجه إليها بالدعاء ؟ وهَبْ أنه يدعو إنساناً مثله يمكن أنْ يسمعهُ أيستجيبُ له ؟

لذلك يقول سبحانه : ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ۝٧١ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣﴾ [الشعراء]

إذن : فعبادة غير الله حُمْق وغباء .

لكن هذا البحث من إبراهيم ، وهذا الجدل مع أبيه وقومه ، أكان بعد الرسالة أم قبلها ؟ قالوا : إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان ناضجاً مُتفتِّحاً منذ صغَره ، وكان مُنكراً لهذه العبادة قبل أن يُرسَل ، لذلك قال الله عنه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) ﴾ [الأنبياء]

وكذلك كان نبينا محمد ﷺ قبل بعثته كارهاً للأصنام ، معترضاً على عبادتها ، يتعجب حين يرى قومه يعبدونها ، وقد رأى ﷺ أحد الآلهة وقد كُسر ذراعه فاستعانوا بمَنْ يُصلح ذراع الإله ، فضحك رسول الله ﷺ وتعجَّب لما يرى : العابد يصلح المعبود ؟ بعدها اعتزلهم رسول الله ، ولجأ إلى الغار يفكر فى الإله الحق والمعبود الحق .

فكأن أىَّ دين يأمر الله به لو تفكَّر فيه الإنسان برشد لانتهى إلى الحق بدون رسول ؛ لأن دين الله هو دين الفطرة السليمة ، فإنْ توفَّرت لدى الإنسان هذه الفطرة اهتدى بها إلى الحق .

بدليل ما كان يحدث من عمر ـ رضى الله عنه ـ وكان يُحدث رسول الله بالأمر ، فتتنزل به الآيات من عند الله ، وقد وافقتْ الآيات رأيه فى أكثر من موقف[1] ، وقد أقرَّ رسول الله ﷺ ذلك ليبين لنا أن العقل السليم والفطرة المستقيمة يمكن أنْ ينتهيا إلى قضايا الدين دون رسول .

---

(١) من هذه المواقف أنه لما كان يوم بدر قال ﷺ : ما تقولون فى هؤلاء الأسرى ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم . وقال عمر : يا رسول الله كذَّبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم . فأخذ رسول الله ﷺ برأى أبى بكر بالفداء ، ولكن نزل قول الله ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) ﴾ [الأنفال] . انظر تفسير ابن كثير (٣٢٥/٢) .

وتستطيع أنت أنْ تعرض أيَّ قضية من قضايا الدين على العقل السليم ، وسوف تجد أنها طيبة وجميلة توافق الذَّوْق السليم والتفكير السويّ ، فالكذب مثلاً خُلُق يأباه العقل ويأباه الدين ، وكذلك الرشوة ؛ لأنك بها تأخذ ما ليس لك ، وقد يُسلَّط عليك رَاشٍ ، فيأخذ منك حقك ، كما أخذتَ أنت حقوق الناس .

ولو تأمل العقل مثلاً تحريم النظر إلى المحرمات ، لوجد أنَ الدين قيَّد نظرك وأنت فرد ، وقيَّد من أجلك نظر الناس جميعاً ، فكما طلب منك طلب لك ، وكذلك الأمر فى تحريم السرقة والقتل .. إلخ .

وقد سُئِلْنا فى إحدى الرحلات عن قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ..(٣٣) ﴾ [التوبة] ومرة يقول: ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾ [التوبة] ومرة يقول : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ(٣٢) ﴾ [التوبة]

يقولون : وبعد أربعة عشر قرناً ، والمسلمون فى الكون أقلية ، ولم يظهر الدين على الدين كله ، فكيف ـ إذن ـ نفهم هذه الآية ؟

فقلتُ للسائل : لو فهمتَ الآية السابقة لعرفتَ الجواب : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) ﴾ [التوبة]

فالمعنى : أن الدين سيظهر فى وجود الأديان الأخرى ، وليس المراد أن هذه الأديان ستزول ، ولن يكون لها وجود ، بل هى موجودة ، لكن يظهر عليها الإسلام ظهور حجة ، بدليل ما نراه من هجمات على الإسلام وأحكامه وتشريعاته ، كما فى مسألة الطلاق مثلاً ، أو مسألة تعدُّد الزوجات وغيرها . وبعد ذلك تُلجئهم الحياة الاجتماعية إلى هذه التشريعات ، ولا يجدون غيرها لحل مشاكلهم .

ولما قامت الثورة الشيوعية فى روسيا سنة ١٩١٧ أول ما شرَّعوا منعوا الربا الذى كان جائزاً عندهم ، لقد منعوا الربا مع أنهم غير مسلمين ، لكن مصالحهم فى ذلك ، فهذه وأمثالها غلبة لدين الله وظهور له على كل الأديان .

وليس معنى ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. (٣٣)﴾ [التوبة] أن يصير الناس جميعاً مؤمنين ، لا ، إنما يظل كُلٌّ على دينه وعلى شِرْكه أو كفره ، لكن لا يجد حلاً لقضاياه إلا فى الإسلام ، وهذا أوقع فى ظهور الدين .

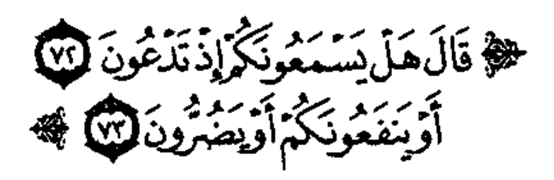
ثم يقول الحق سبحانه عن قوم إبراهيم فى ردِّهم على إبراهيم عليه السلام :

﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) ﴾

إذن : شهد شاهد من أهلها ، وقالوا بأنفسهم ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا .. (٧١)﴾ [الشعراء] والعبادة طاعة ، فماذا قالت لهم الأصنام ؟ وبماذا أمرتهم ؟ طبعاً ، ليس عندهم جواب .

وليت الأمر يقف عند العبادة ، إنما ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١)﴾ [الشعراء] أى : قائمين على عبادته ليلَ نهار ، نعم ولكم حق ؛ لأنها آلهة دون تكليف ، وعبادة بلا مشقة وبلا التزام ، إنها بلطجة تأخذون فيها حظَّ أنفسكم ، وتفعلون معها ما تريدون .

لكن ، كيف جادلهم إبراهيم عليه السلام ؟ وبم ردَّ عليهم ؟



فالأصنام لا تسمع مَنْ توجّه إليها بالدعاء ، ولا تنفع مَنْ عبدها ، ولا تضر مَنْ كفر بها ؛ لذلك لم يجدوا ردّاً ، وحاروا جواباً ، ولم يجدوا حُجّة إلا أنْ قالوا :

﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) ﴾

إذن : أنتم لم تُحكّموا عقولكم في هذه المسألة ، كما قالوا في موضع آخر : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) ﴾ [الزخرف]

ونقول لهم : ومتى ظللتم على تقليد آبائكم فيما يفعلون ؟ إنكم لو أقمتُم على تقليد الآباء ما ارتقيتم في حياتكم أبداً ، فلماذا إذن تحرصون على التقليد في هذه المسألة بالذات دون غيرها .

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) ﴾

يقول إبراهيم عليه السلام : لا تلقوا بالمسألة على الآباء ، ولا تُعلّقوا عليهم أخطاءكم ، ثم يعلنها صريحة متحدية كأنه يقول لهم : الحمرة في خيلكم اركبوها .

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي .. (٧٧) ﴾ [الشعراء] وكلمة عدو جاءت مفردة مع أنها مسبوقة بضمير جمع وتعود على جمع ﴿ فَإِنَّهُمْ .. (٧٧) ﴾ [الشعراء] ومع ذلك لم يقل : أعداء لي . قالوا : لأن العداوة في أمر الدين واحدة على خلاف العداوة في أمر الدنيا ؛ لأنها متعددة الأسباب ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ .. (١٠٣) ﴾ [آل عمران]

فجاءت : ﴿ أَعْدَاءً .. (١٠٣) ﴾ [آل عمران] هنا جمع ؛ لأنها تعود على

عداوة الدنيـا ، وهى متعددة الأسـباب ، أمّا العداوة فى الدين فـواحدة على قلب رجل واحد .

ومن ذلك ما قلناه فى سورة النور عند قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور]

كلهـا بصيـغة الجـمع إلا فى ﴿صَدِيقِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور] جاءت بصيـغة المـفرد ؛ لأن الصداقـة الحقة هى مـا كانت لله غـير متـعددة الأغراض ، فهى إذن لا تتعدد .

وفى إعلان إبراهـيم لعداوته لهـذه الأصنام تحدٍّ لهم : فـها أنا ذا أعلن عداوتى لهم ، فإنْ كـانوا يقدرون على مضرّتى فليـفعلوا . وبعد أن أعلن إبراهيم ـ عليـه السـلام ـ عداوته للأصـنام نجحت دعـوته ، وظل إبراهيم هو إبراهيم لم يُصبْه شىء .

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾
وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾
وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾

كـأن الحق ـ تبـارك وتعالى ـ يقـول لهم : يا أغـبـياء ، اعلمـوا أن للعبادة أسـباباً وحيثيات . ويوضـح إبـراهيم عليه السلام حيثيـات عبادة ربه ـ عزَّ وجل ـ فيقول : ﴿الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨)﴾ [الشعراء] أى : خلقنى من عـدم ، وأمدَّنى من عُـدْم ، وجـعل لى قانون صـيانة يحـفظ حياتى ، ويضمن سلامتى حين كلَّفنى بشرعه : افعل كذا ولا تفعل كذا ، وهو سبحانه لا ينتـفع بشىء من هذا ، بل النفع يعود علينا نحن ، وهل فعلتْ الأصنام لكم شيئاً من هذا ؟ إذن : فهو وحده المستحق للعبادة .

وقوله سبحانه ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الشعراء] أى : بقانون الصيانة الذى يشبه (الكتالوج) الذى يجعله البشر لصناعاتهم ؛ ليضمنوا سلامتها وأداءها لمهمتها على أكمل وجه ، ولا بُدَّ أن يحدِّد لها المهمة قبل أنْ يَشرَع فى صناعتها ، وهل رأينا آلةً صنعها صاحبها ، ثم قال لنا : انظروا فى أىِّ شىء تستخدم هذه ، (بوتاجاز) أو ثلاجة مثلاً ؟

فإذا ما حدث خلل فى هذه الآلة ، فعليك بالنظر فى هذا (الكتالوج) أو أن تذهب بها إلى المهندس المختص بها ؛ لذلك إذا أردتَ أن تأخذ قانون صيانتك ، فلا تأخذه إلا من صانعك وخالقك - عز وجل - ولا يجوز أن يخلق الله تعالى وتضع أنت لخلْقة الله قانون صيانتها ، فهذا مثْل : أن تقول للجزار مثلاً : اعمل لى قانون صيانة (التليفزيون) .

ثم يذكر بعد ذلك مُقوِّمات استبقاء الحياة ، فيقول : ﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء]

ونقف هنا عند الضمير المنفصل (هو) الذى جاء للتوكيد ، والتوكيد لا يأتى ابتداءً ، إنما يكون على درجات الإنكار ، وقد أكَّد الحق - تبارك وتعالى - نسبة الهداية والإطعام والسُّقْيا والشفاء إليه تعالى ؛ لأن هذه المسائل الأربع قد يدعيها غيره تعالى ، وقد يظن البعض أن الطبيب هو الشافى أو أن الأب مثلاً هو الرازق ؛ لأنه الجالب له والمناول .

والهداية قد يدّعيها واضعو القوانين من البشر ، وقد رأينا الشيوعية والرأسمالية والوجودية والبعثية وغيرها ، وكلها تدّعى أنها لصالح البشر ، وأنها طريق هدايتهم ؛ لذلك أكد الله تعالى لنفسه هذه المسألة ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الشعراء] فالهداية لا تكون إلا من الله ، وفى شرْعته تعالى .

وقد تسأل في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء] ولماذا نذهب إلى الطبيب إذن ؟ نقول : الطبيب يعالج ، وهو سبب للشفاء ، أمَّا الشفاء فمن الله ، بدليل أن الطبيب ربما يمرض ، ويعجز هو عن شفاء نفسه ، وقد يعطي المريض حقنة ويكون فيها حَتْفه .

وحين نُعرب : ﴿مَرِضْتُ .. ۝٨٠﴾ [الشعراء] نقول : مرض فعل ماضٍ والتاء فاعل ، فهل أنا الذى فعلتُ المرض ؟ وهذا مثْل أن تقول : ماتَ فلان ، ففلان فاعل مع أنه لم يحدث الموت ؛ لذلك يجب أن نتنبه إلى أن الفاعل يعني مَنْ فعل الفعل ، أو اتصف به ، والفاعل هنا لم يفعل الفعل وإنما اتصف به . وقال ﴿مَرِضْتُ .. ۝٨٠﴾ [الشعراء] تأدباً مع الله تعالى ، فلم يقل : أمرضني ونسب المرض الظاهر إلى نفسه .

أما في المسائل التي لا يدَّعيها أحد ، فتأتي بالفعل دون توكيد ، كما في الآية بعدها :

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١﴾

فلم يقُلْ هنا : هو يميتني أو هو يُحييني ؛ لأن الحياة والموت بيده تعالى لا يدَّعيها أحد ، فإنْ قُلْتَ : وماذا عن قتْل الإنسان لغيره ألاَ يُعَدُّ موتاً ؟ وقد سبق أنْ أوضحنا الفرق بين الموت والقتل ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. ۝١٤٤﴾ [آل عمران]

فالموت أن تخرج الروح ، والجسم سليم الأجزاء كامل الأعضاء ، وبعد خروج الروح تُنقض البنية ، أما القتل فيكون بنقْض البنية نَقْضاً يترتب عليه خروج الروح .

إذن : المـوت لم يدَّعه أحـدٌ لنفسـه ، ولما ادعـاه النمرود جـادله إبراهيم ـ عليـه السلام ـ فـى ذلك ، وكشف زيف هذا الادعـاء ، كمـا قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ .. (٢٥٨) ﴾[البقرة]

ولم يفعل إلا أنْ جاء برجل فأمـر بقتله ، ثم عفا عنه ؛ لذلك رأى إبراهيم عليه السلام أنْ يقطع عليه هذا الطريق ، فقال : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

وهكذا أنهى هذه السفسطة ، وكشف حقيقة هذا المكابر المعاند .

وتأمل حرف العطف ﴿ يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾ [الشعراء] و(ثم) تفيد العطف مع الـتـراخى ، ولم يقل : ويحـيـين ؛ لأن الواو تـفـيـد مُطلَق العطف ، وبين المـوت والإحيـاء الآخر مسـافة طويلة ، ألا تـرى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) ﴾ [عبس]

﴿ وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى[1] يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾

عجيب أن يصدر هذا الدعاء من إبراهيم ، وما أدراك ما إبراهيم ؟

إنه أبو الأنبيـاء الذى وصفه ربه بأنه أمة قـانتاً لله ، ولم يكن من المشـركين ، إبراهيم الذى ابتـلاه ربه بكلمات فأتمـهن ، ومع هذا كله

---

(١) قرأ الحسن وابن أبى إسحاق « خطاياى » وقال : ليست خطيئة واحدة . قال مجاهد : يعنى بخطيئته قوله ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا .. (٦٣) ﴾ [الأنبياء] ، وقوله ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ (٨٩) ﴾ [الصافات] وقوله : إن سـارة أختـه . زاد الحسن وقـوله للكوكب ﴿ هَٰذَا رَبِّى .. (٧٧) ﴾ [الأنعـام] وقال الزجاج : الأنـبياء بشـر فيـجوز أن تقع منهم الخطيـئة ، نعم لا تجـوز عليهم الكبـائر لأنهم معصومون عنها . [تفسير القرطبى ٧/٤٩٩١] .

يقول : ﴿ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾ [الشعراء]

إنه أدب عَالٍ مع الله وهضم لعمله ؛ لأن الإنسان مهما قدَّم من الخير فهو دونَ ما يستحق الله تعالى من العبادة ؛ لذلك كان طلب المغفرة من الطمع .

ويجب أن ننظر هنا : متى دعا إبراهيم ربه ومتى تضرع إليه ؟ بعد أن ذكر حيثيات الألوهية ، واعترف لله بالنعم السابقة وأقرَّ بها ، فقد خلقه من عدم ، وأمدَّه من عُدْم ، ووفَّر له كل مقومات الحياة .

وإقرار العبد بنعم الله عليه يقضي على كبرياء نفسه ، ويُصفِّي روحه وأجهزته ، فيصير أهلاً لمناجاة الله ، وأهلاً للدعاء ، فإن اعترفتَ لله بالنعم السابقة أجابك فيما تطلب من النعم اللاحقة ، على خلاف مَنْ لا يذكر لله نعمة ، ولا يقرّ له سبحانه بسابقة خير ، فكيف يقبل منه دعاء ؟ وبأيٍّ وجه يطلب من الله المزيد ؟

إذن : لا تَدْعُ ربك إلا بعد صفاء نفس وإخلاص عبودية ؛ لذلك ورد في حديث رسول الله ﷺ : « مَنْ عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم »[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩) ﴾ [الأنفال]

يقول لك ربك : أنت مأمون على ما علمتَ ، عامل به ، فخُذ المزيد من هدايتي ونوري وتوفيقي ، خُذ المزيد لما عندك من رصيد إيماني وصفاء روحي ، جعلك أهلاً للمناجاة والدعاء .

فإبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو أبو الأنبياء لم يجترىء على الدعاء

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/١٥) من حديث أنس رضي الله عنه ، ضعّفه الشوكاني في « الفوائد المجموعة » (ص ٢٨٦) .

بشيء آت إلا بعد أنْ ذكر لله النعم السابقة ، وشكره عليها ، فوافق قوله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

لذلك فإن أهل المعرفة يقولون : إن العبد مهما اجتهد في الدعاء ، فإنه يدعو بالخير على حسْب فهمه ومنطقه وبمقدار علمه ولو أنه ذكر النعيم الأول لله تعالى ، وأقرّ له بالفضل ، ثم ترك المسألة له تعالى يعطيه ويختار له لكان خيراً له ؛ لأن ربه عز وجل يعطيه على حَسْب قدرته تعالى وحكمته .

وهذا المعنى واضح في الحديث القدسي : « مَنْ شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين »[1] .

فعطاء الله لا شكَّ أوسع ، واختياره لعبده أفضل من اختيار العبد لنفسه ، كما لو ذهبتَ في رحلة مثلاً وقلت لولدك : ماذا تريد أنْ أُحضر لك من البلد الفلاني ؟ فإنْ قال : أريد كذا وكذا فقد ضيّق على نفسه، وإنْ ترك لك الاختيار جاء اختيارك له خيراً من اختياره لنفسه .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

نلحظ أنه لم يدْعُ بشيء من الدنيا ، ومعنى ﴿ حُكْمًا .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [الشعراء] فرق بين الحكم والحكمة : الحكمة أن تضع الشيء في موضعه ، أما الحكم فأنْ تعلم الخير أولاً ، ثم تعمل بما علمت ثانياً .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٩٢٦) من حديث أبي سعيد الخدري وقال : هذا حديث حسن غريب . وكذا أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠٦/٥) ، وكذا الدارمي في سننه (٤٤١/٢) بلفظ « من شغله قراءة القرآن عن مسألتي وذكري أعطيته أفضل ثواب السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » قال ابن حجر في فتح الباري (٦٦/٩) : « رجاله ثقات إلا عطية العوفي ففيه ضعف » . وقد شرح فضيلة الشيخ الشعراوي رحمه الله هذا الحديث مفصلاً في كتاب « الأحاديث القدسية » (٤٩١/١ - ٥١٤) .

وقال فى دعائه : ﴿ هَبْ لِي .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [الشعراء] لأن الهبة عطاء دون مقابل ، فكأنه قال : يا رب أنا لا أستحق ، فاجعلها لى هبةً من عندك ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الشعراء] أى : ألحقنى بهم فى العمل والأُسْوة لأنالَ بعدها الجزاء ، وليس المراد : ألحقنى بهم فى الجزاء ، إنما فى العمل .

وقد أجابه الله تعالى فى هذه الدعوة ، فقال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنعام]

والملكوت : المخلوقات غير المحسّة ، أطلعه الله عليها ؛ لأنه عمل بما علم من الملك المحسّ ، وكذلك قال : ﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [البقرة] فأجابه فى الدعوة الأخرى .

﴿ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

نعرف أن اللسان وسيلة التعبير ، ومعنى ﴿ لِسَانَ صِدْقٍ .. ﴿٨٤﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : ذكراً حسناً يذكر بحق ، ويذكر بصدق ، لا كما نفعل الآن حين نقيم ذكرى لأحد الأشخاص ، فنظل نكيل له المدائح ونُثنى عليه بالصِّدْق وبالكذب ، وبما فعل وبما لم يفعل ، فهذا ذكر ، لكنه ذكر غير صادق ومخالف للحقيقة وللواقع .

وسبق أن أوضحنا أن الصدق هو الكلام المطابق للواقع ، وقد ورد هذا المعنى فى الأمهات الخمس فى القرآن الكريم ، فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء]

يعنى : أدخلنى بصدق - لا بغشٍّ يعنى - مدخلاً أستطيع منه الخروج ، وكذلك أخرجنى مُخرج صدق .

وفى قوله تعالى : ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر]

وفى قوله تعالى : ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)﴾ [الأحقاف] هذه المواضع الخمس لكلمة الصدق[1] .

ومعنى : ﴿فِي الآخِرِينَ (٨٤)﴾ [الشعراء] يعنى : يتعدى الذِّكْر الحسن مدة حياتى إلى مَنْ بعدى ، فاجعل لى لسان صدق فى المعاصرين ، وفيمن يأتى بعدى أترك أثراً طيباً يُذكَر من بعدى ؛ لأن لى نصيباً من الخير والثواب فى كل مَن اقتدى بى ، وجعلنى أُسْوة .

وقد أجابه الله فى هذه ، فقال سبحانه : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩)﴾ [الصافات]

﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ (٨٥)﴾

بعد أن دعا لأمر فى الدنيا ، ثم لأمر بعد موته دعا لنفسه بجنة النعيم الدائم فى الآخرة ، ولا شك أن ربه - عز وجل - قد أجابه إلى هذه ، فهو من ورثة جنة النعيم ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)﴾ [البقرة]

---

(١) تحقيق الأمر أن كلمة الصدق وردت فى القرآن عشر مرات :
١ - لسان صدق : مرتان (مريم : ٥٠) ، (الشعراء : ٨٤) .
٢ - مدخل صدق : مرة واحدة (الإسراء : ٨٠) .
٣ - مخرج صدق : مرة واحدة (الإسراء : ٨٠)
٤ - وعد الصدق : مرة واحدة (الأحقاف : ١٦) .
٥ - مقعد صدق : مرة واحدة (القمر : ٥٥) .
وبالإضافة إلى هذا :
- قدم صدق : مرة واحدة (يونس : ٢) .
- مبوأ صدق : مرة واحدة (يونس : ٩٣) .
- الصدق : مرتان (الزمر : ٣٢) ، (الزمر : ٣٣) والله تعالى أعلى وأعلم .

وكلمة ميراث الجنة وردتْ فى القرآن أيضاً فى قوله تعالى :

﴿ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾ [المؤمنون]

والميراث أنْ تأخذ ملكاً من آخر بعد موته ، فكيف تكون الجنة ميراثاً ؟

قال العلماء : إن الخالق - عز وجل - لم يخلق الجنة على قدر أهلها وكذلك النار ، إنما خلق الجنة تتسع للناس جميعاً ، إنْ آمنوا ، وخلق النار تتسع للناس جميعاً إنْ كفروا ؛ ذلك لأنه سبحانه خلق الخَلْق مختارين ، مَنْ شاء فليؤمن ، ومَنْ شاء فليكفر . وعليه ، فميراث الجنة يعنى أنْ يرث المؤمنون أماكن الذين كفروا فى الجنة ، يتقاسمونها فيما بينهم .

والوارث يرث مال غيره وثمرة سعيه ، لكن لا يسأل عنها ، إنما يأخذها طيبة حتى إنْ جمعها صاحبها من الحرام ، إلا إنْ أراد الوارث أن يبرىء ذمة المورِّث ، فيردّ المظالم إلى أهلها .

إذن : الوارث يأخذ الميراث دون مقابل فكأنه هبة ، وعلى هذا المعنى يكون المراد بميراث الجنة أن الله تعالى أعطى عباده الطائعين الجنة هبةً منه سبحانه ، وتفضّلاً عليهم ، وليس بعملهم ، فالجنة جاءتهم كما يأتى الميراث لأهله دون تعب منهم ودون سَعْى .

وهذا تصديق لقول رسول الله ﷺ فى الحديث النبوى : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى[١] الله برحمته »[٢] .

---

(١) تغمَّده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها . قال أبو عبيد : قوله « يتغمدنى » : يُلبسنى ويتغشّانى ويسترنى . [لسان العرب - مادة : غمد] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

قالوا : فالجنة ميراث ؛ لأن الأصل أنك لا تُجازَى على الخير الذى قدمته ؛ لأنه تكليف من الله تعالى يعود خيره عليك فى الدنيا ، حيث تستقيم به حياتك وتسعد بها ، وما دام التكليف فى صالحك ، فكيف تأخذ أجراً عليه ؟ كالوالد حين يحثّ ولده على المذاكرة والجد فى دروسه ، فهذا يعود نفعه على الولد ، لا على الوالد .

وكأن ربك - عز وجل - يقول لك : ما دُمْتَ قد احترمتَ تكليفى لك ، وأطعتنى فيما ينفعك أنت ، ولا يعود علىَّ منه شىء ، فحين أعطيك الجنة أعطيك بفضلى وهبَة منى ، أو أننا نأخذ الجنة بالعمل ، والمنازل بالفضل .

إذن : لا غنَى لأحد منّا عن فَضْل الله .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

هذا هو المعنى المراد بميراث الجنة ، وينبغى ألاَّ تعوِّل على عملك وطاعتك واجتهادك فى العبادة ، واعلم أن النجاة لا تكون إلا برحمة الله وفضل منه سبحانه .

ثم ترك الدعاء لذاته وانتقل لمن رباه فقال :

﴿ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٨٦) ﴾

لم ينْسَ إبراهيم - عليه السلام - فى دعائه أن يدعو لمن رباه ؛ لأن الحق - تبارك وتعالى - هو الخالق ، إنما جعل الوالدين هما السبب المباشر فى الخَلْق والإيجاد ؛ لذلك جعلهما أصحاب الفضل والأحق بالطاعة بعده تعالى ، لكن قد ينجب الوالدان ويهملان ولدهما فيربيه غيرهما ؛ لذلك يأخذ المنزلة الثالثة ، فعندنا ربوبية خلَقت من عدم ، وأبوة جاءت بأسباب الإيجاد ، وأبوة أخرى ربّت واعتنتْ .

وهذا المعنى واضح فى قوله سبحانه : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴾ [الإسراء] فحيثية الدعاء بالرحمة هنا ، لا لأنهما أبوان وهما سبب الإيجاد ، إنما لأنهما ربَّياني صغيراً ، إذن : لو ربّاني غير والديَّ لأخذوا هذه المنزلة واستحقوا منى هذا الدعاء .

لكن لم يُستجَبْ لإبراهيم عليه السلام فى هذه ، لأنه سأل الله لأبيه قبل أن يعرف أنه عدو لله ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .. (١١٤) ﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تُخْزِنِي[1] يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) ﴾

بأىِّ شىء يكون الخزى فى الآخرة ؟ الخزى يكون حين يعاتبك ربك يوم القيامة على رؤوس الأشهاد على ما فَرَط منك من تقصير ؛ لذلك الحساب اليسير ما كان بين العبد وربه ، وقد أُجيب إبراهيم عليه السلام فى هذه الدعوة بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) ﴾ [البقرة]

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه والنسائى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصينى ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم : رب إنك وعدتنى أن لا تخزينى يوم يبعثون ، فأىُّ خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله : إنى حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار » . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣٠٧/٦) .

قوله : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) ﴾ [الشعراء] فأتى بالمسألة التى تشغل الناس جميعاً ، فكل إنسان يريد أن يكون غنياً صاحب مال وأولاد وعزْوة ، ومَنْ حُرِم واحدة منهما حَزن وألم أشدّ الألم .

والحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٦) ﴾ [الكهف]

ويقول سبحانه : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .. (١٤) ﴾ [آل عمران]

نعم ، هى زينة الحياة الدنيا . ومعنى الزينة : الحُسْن غير الذاتى ، فالحُسْن قد يكون ذاتياً فى الجوهر كالمرأة التى تكون جميلة بطبيعتها التى خلقها الله عليها ، دون أنْ تتكلّف الجمال ، أو الزينة الظاهرة من مساحيق أو ذهب أو خلافه ، لذلك سمَّوْها فى اللغة (الغانية) وهى التى استغنتْ بجمالها الطبيعى الذاتى عن أنْ تتزيّن بأىّ شىء آخر .

وقوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ [الشعراء] يعنى : مع أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا ، فهذا لا يمنع نفعهما لصاحبهما إنْ أحسن التصرُّف فى ماله ، فأنفقه فى الخير ، وأحسن تربية أولاده التربية الصالحة ، لكن هذه أيضاً لا تصفو له ولا تستقيم إلا إذا ﴿ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ [الشعراء]

يعنى : توفّر له الإخلاص فى هذا كله ، وإلاَّ فالرياء يُحبط العمل ، ويجعله هباءً منثوراً ، إنْ كنتَ تفعل الخير فى الدنيا ولا تؤمن بالله ولا تُنزهه سبحانه عن الشريك ، فلن ينفعك عملك ، ولن يكون لك منه نصيب فى ثواب الآخرة .

كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

وفى الحديث القدسى : « ... فعلت ليقال وقد قيل ... »[1] .

فعلتَ ليُقام لك حفل تكريم وقد أقيم لك ، فعلتَ لتأخذ نيشاناً وقد أخذتَه ، فعلتَ ليُكتب اسمك على باب المسجد وقد كُتِب ، إذن : انتهت المسألة .

فقوله تعالى : ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨)﴾ [الشعراء] لا ينفى نفع المال والبنين ، فهى نافعة شريطة أنْ تأتى اللهَ بقلب سليم ، والسلامة هنا تعنى : أن يظلّ الشىء على حاله وعلى صلاحه الذى خلقه الله عليه لا يصيبه عطب فى ذاته ، فيؤدى مهمته كما ينبغى .

فكأن السلامة تُوجد أولاً ، ونحن الذين نُفسد هذه السلامة .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢)﴾ [البقرة]

لذلك لو تأمّل الناس فيما يُتعبهم فى الحياة لوجدوا أنه ثمرة إفسادهم فى الكون المنظم الذى خلقه الله على مقتضى حكمته تعالى ، بدليل أن كل حركة فى الكون لا يتدخل فيها الإنسان تراها مُستقيمة منتظمة لا تتخلف ، فإنْ تدخَّل الإنسان وُجِد الفساد ووُجِد الظلم للغير ، حتى للنبات وللجماد وللحيوان ، وقد نهانا الشارع الحكيم عن هذا كله .

هذا إنْ تدخَّل الإنسان فى الكون على غير مقتضى منهج ربه ، فإنْ تدخَّل على هَدْى من منهج الله استقامتْ الأمور وتحققتْ السلامة .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) ، وأحمد فى مسنده (٢/٣٢٢) والترمذى فى سننه (٢٣٨٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال الترمذى : حديث حسن غريب . وهو حديث طويل شرحه الشيخ رحمه الله فى « الأحاديث القدسية » (١/١٣٥ - ١٥١) .

ألا ترى قوله تعالى فى سورة الرحمن :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ ﴾ [الرحمن]

لذلك تجد كل شىء فى الكون موزوناً بقدر وبحكمة : الشمس والقمر والنجوم والهواء والماء .. الخ وكل عناصر الكون هذه تسير مستقيمة فى منظومة الكون المتكاملة ، لماذا ؟ لأنه لا دَخْلَ للإنسان فيها .

فمعنى القلب السليم : القلب الذى لا يعمُر إلا بما أراد الله أنْ يعمُرَ به ، وقد ورد فى الحديث القدسى : « ما وسعتنى أرضى ولا سمائى ، ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن »[1] .

إذن : لا تزحم قلبك بما يَشْغَله من أمور الدنيا ، واجعله خالياً لله مُنْشغلاً به ، فهذه هى سلامة القلب ؛ لأن القلب مفطور على هذا ، مطبوع عليه .. ساعة خلقه الله خلقه صافياً سليماً من المشاغل ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. ۝٧٨ ﴾ [النحل] لماذا ؟ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨ ﴾ [النحل]

إذن : لا تأخذ المال والبنين منفصليْن عن سلامة القلب ؛ لأن ربك يقول : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ۝٤٦ ﴾ [الكهف]

---

(١) قال الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة فى الأخبار الموضوعة » (ص ٢٠٦) دار الكتب العلمية بيروت : « ذكره فى الإحياء ، وقال العراقى : لم أر له أصلاً . وقال ابن تيمية : هو مذكور فى الإسرائيليات وليس له إسناد معروف عن النبى ﷺ : وفى « الذيل » وهو كما قال . ومعناه : وسع قلبُه الإيمان بى وبمحبتى ، وإلا فالقول بالحلول كفر . وقال الزركشى : وضعه الملاحدة » . وانظر : كشف الخفاء ٢ / ٢٧٣ والدرر المنتثرة للسيوطى ص ٣٦٦ .

وفى آية : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ .. (١٤) ﴾ [آل عمران] ختمها الحق سبحانه بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾ [آل عمران]

ومن سلامة القلب أن يخلو من الشرك ، وأن يخلو من النفاق ؛ لأن المنافق يؤمن بلسانه ، ولا يؤمن بقلبه ، فقلبه لا يوافق لسانه ؛ لذلك هو غير سليم القلب ، فكان أشد إثماً من الكافر ، وجعله الله فى الدَّرْك الأسفل من النار .

المنافق أشد تعذيباً من الكافر ؛ لأن الكافر مع كُفْره هو منطقيّ مع نفسه ، حيث كفر بقلبه وبلسانه ، ونطق بما يعتقده ، أما المنافق فقد غشَّنا وحُسب علينا ظاهراً ، ومنهم مَنْ كان يصلى خلف رسول الله ﷺ فى الصف الأول ، وهو فى حقيقة الأمر من الطابور الخامس داخل صفوف المسلمين .

وكذلك الرياء ينافى سلامة القلب ، فالمرائى يعمل للناس ولا يعمل لله ، ونعجب حين نرى مَنْ يُقدِّم الجميل رياءً وسُمْعة ، ثم يتهم مَنْ أسدى إليه الجميل بأنه ناكر للجميل ، نقول له : لماذا تتهمه وقد سبقته فأنكرتَ جميل الله ، حيث لم تجعله على بالك حين فعلتَ الخير .

إذن : فهذا جزاؤك جزاءً وفاقاً ، لأنك ما فعلتَ الخير لله ، إنما فعلته للعبد فانتظر منه الجزاء . وصَفْقَة المرائى خاسرة ، وتجارته بائرة ؛ لأنه حين يعطى رياءً يستفيد منه الآخذ ويخرج هو صُفْر اليدين ، كما قال سبحانه : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا .. (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

وبعد ذلك ترى الناس تكره المرائى ، ويُنكرون جميله فى بناء مسجد أو مستشفى أو مدرسة مثلاً ، ولو عمل ذلك لله لأبقى الله

ذكْره بين الناس ، فحفظوا جميله ، وأثنَوْا عليه بالخير .

ويُرْوى أن السيدة فاطمة الزهراء دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ فوجدها تجلو درهماً فى يدها ، فلما سألها عنه قالت : لأنّى قد نويتُ أنْ أتصدّق به ، فقال لها : تصدَّقى به وهو على حاله ، فقالت : أنا أعلم أنه يقع فى يد الله قبل أن يقع فى يد الفقير ، والله طيب لا يقبل إلا طيباً .

ثم يذكر الحق - تبارك وتعالى - نتيجة سلامة القلب وثمرة الإخلاص فى العمل ، فيقول :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) ﴾

﴿ أُزْلِفَتِ .. (٩٠) ﴾ [الشعراء] يعنى : قرِّبت ، لكن كيف تقرب منهم وهم بداخلها ؟ قالوا : تُقرَّب منهم قبل أن يدخلوها ، وهم ما زالوا فى شدة الموقف وهول القيامة والحساب ، فتُقرَّب منهم الجنة ليطمئنوا بها ، ويهون عليهم هذا الموقف الصعب .

وفى آية أخرى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) ﴾ [ق] يعنى : يروْنها عياناً ، ويعرفون أنها النعيم الذى ينتظرهم ، وسوف يباشرونه عن قريب ، كما لو دُعيتَ إلى مائدة أحد العظماء ، وقد أُعدَّتْ على أتمِّ وجه ، فإن من النعيم أن تمر بها وتشاهد ما عليها من أطايب الطعام قبل أن يحين وقت الاجتماع عليه .

﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) ﴾

وهذه لمن أتى الله بقلب غير سليم ، قلب خالطه شرك أو نفاق أو رياء ، وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. (٧١) ﴾ [مريم]

والورود لا يعني دخول النار ، إنما رؤيتها والمرور بها ؛ لأن الصراط مضروب على مَتْن جهنم ، فالورود شيء والدخول شيء آخر ، ومن ذلك قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] مع أن موسى ـ عليه السلام ـ ورد الماء يعني : مكان الماء ، ولم يشرب منه .

والحكمة من ورود النار بهذا المعنى أنْ يعرف المؤمن فَضْل الإيمان عليه ، وأنه سبب نجاته من هذه النار التي يراها ، وهذه أعظم نعمة عليه ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران]

ومعنى ﴿ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الشعراء] جمع غَاوٍ ، وهو إما أنْ يكون غاوياً في نفسه ، أو أغوى غيره ، فتطلق على الغاوي ، وعلى الذي يُغوِي غيره .

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾
مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الشعراء] أرونا مَنْ أشركتموهم مع الله ، أين هم الآن ؟

وفي موضع آخر : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الصافات]

لقد ضلوا عنكم ، وتركوكم ، بل وتبرأوا منكم : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [البقرة]

ثم يأتي الذين اتبعوا فيقولون : ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ

وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

نعم ، إنها معركة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) ﴾ [الشعراء] يعنى : لا يستطيعون نصركم ، أو الدفاع عنكم ، ولا حتى نَصْر أنفسهم ، فإنْ كان نصرهم لأنفسهم ممنوعاً فلغيرهم من باب أَوْلَى ، ففى الآية تقريع لهم ولمن عبدوهم من دون الله ، وتحقير لشأنهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) ﴾

الفعل كَبْكب ، يعنى : كبّوا مرة بعد أخرى على وجوههم ، فهى تعنى تكرار الكَبِّ ، فكلما قام كُبَّ على وجهه مرة أخرى ، وهى على وزن فعللة الدال على التكرار كما تقول : زقزقة العصافير ، ونقنقة الضفادع . والمراد هنا الأصنام تكبّ على وجوهها ، وتسبق مَنْ عبدها إلى النار ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ[1] جَهَنَّمَ .. (٩٨) ﴾ [الأنبياء]

وقال : ﴿ هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) ﴾ [الشعراء] فالغاوون يسبقون مَنْ أغْوَوْهم وأضلوهم ؛ ليقطع أمل التابعين لهم فى النجاة ، فلو دخل التابعون أولاً لقالوا : سيأتى منْ عبدناهم لينقذونا ، لكن يجدونهم أمامهم قد سبقوهم ، كما قال تعالى عن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ[2] قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ .. (٩٨) ﴾ [هود]

---

(١) الحصب : كل ما يُلْقى فى النار لتسعّر به . [القاموس القويم ١/١٥٥] .

(٢) أى : يقودهم ويسير أمامهم إلى جهنم . [القاموس القويم ٢/١٠٥] .

﴿ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

ولإبليس جنودٌ من الجن ، وجنود من الإنس ، سيجتمعون جميعاً في النار .

﴿ قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

هذه لقطة من ساحة القيامة ، حيث يختصم أهل الضلال مع مَنْ أضلوهم ، ويُلْقي كل منهم بالتبعة على الآخر .

وهذه الخصومة وردتْ في قوله تعالى على لسان الشيطان : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم] والمعنى : لم يكُنْ لي عليكم سلطانُ قَهْر أحملكم به على طاعتي ، ولا سلطان حجة أقنعكم به .

ثم يعترف أهل الضلال بضلالهم ويقسمون ﴿ تَاللَّه .. ﴿٩٧﴾ ﴾ [الشعراء] يعني : والله ﴿ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الشعراء] يعني : ظاهر ومحيط بنا من كل ناحية ، فأين كانت عقولنا ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الشعراء] أي : في الحب ، وفي الطاعة ، وفي العبادة .

كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ .. ﴿١٦٥﴾ ﴾ [البقرة]

﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

يعني : يا رب أرنا هؤلاء المجرمين ، ومكنّا منهم لننتقم لأنفسنا ،

ونجعلهم تحت أقدامنا ، وهكذا أخرجوا كل سُمِّهم فى هؤلاء المجرمين ، وألقوا عليهم بتبعة ما هم فيه .

﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) ﴾

الشافع من الشَّفْع أى : الاثنين ، والشافع هو الذى يضمُّ صوته إلى صوتك فى أمر لا تستطيع أن تناله بذاتك ، فيتوسط لك عند مَنْ لديه هذا الأمر ، والشفاعة فى الآخرة لا تكون إلا لمن أذن الله له ، يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ .. (٢٨) ﴾ [الأنبياء]

ويقول سبحانه :

﴿ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

إذن : ليس كل أحد صالحاً للشفاعة مُعداً لها ، وكذلك فى الشفاعة فى الدنيا فلا يشفع لك إلا صاحب منزلة ومكانة ، وله عند الناس أياد تحملهم على احترامه وقبول وساطته ، فهى شفاعة مدفوعة الثمن ، فللشافع رصيد من الجميل وسوابق الخير تزيد عما يطلب للمشفوع له .

لذلك نرى فى الريف مثلاً رجلاً له جاه ومنزلة بين الناس ، فيحكم فى النزاعات ويفصل فى الدم ، فحين يتدخَّل بين خصمين ترى الجميع ينصاع له ويذعن لحكومته .

ومن ذلك ما عرفناه فى الشرع من شركة الوجوه[1] ، ومعلوم أن

---

(١) قال موفق الدين ابن قدامة (ت ٦٣٠ هـ) فى كتابه « المغنى » (٥/١٢٢) : « أما شركة الوجوه فهو أن يشترك اثنان فيما يشتريان بجاههما وثقة التجار بهما من غير أن يكون لهما رأس مال ، على أن ما اشتريا بينهما نصفين أو أثلاثا أو أرباعا أو نحو ذلك ويبيعان ذلك ، فما قسم الله تعالى فهو بينهما فهى جائزة » .

الشركة تحتاج إلى مال أو عمل ، لكن قد يوجد شخص ليس لديه مال ولا يستطيع العمل ، لكن يتمتع بوجاهة ومنزلة بين الناس ، فنأخذه شريكاً معنا بما لديه من هذه الميزة .

والحقيقة أن وجاهته ومنزلته بين الناس قُوِّمت بالمال ؛ لأنه ما نالها من فراغ ، إنما جاءت نتيجة جَهْد وعمل ومجاملات للناس ، احترموه لأجلها ، فلما زال عنه المال وأنفقه في الخير بَقِي له رصيد من الحب والمكانة بين الناس .. ومن ذلك أيضاً شراء العلامة التجارية .

ومعنى ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الشعراء] فرْق بين الشافع والصديق ، فالشافع لا بُدَّ أن تطلب منه أن يشفع لك ، أما الصديق وخاصة الحميم لا ينتظر أن تطلب منه ، إنما يبادرك بالمساعدة ، ووصف الصديق بأنه حميم ؛ لأن الصداقة وحدها في هذا الموقف لا تنفع حيث كل إنسان مشغول بنفسه .

فإذا لم تكُنْ الصداقة داخلة في الحميمية ، فلن يسأل صديق عن صديقه ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس]

وقد أثارت مسألة الشفاعة لغطاً كثيراً من المستشرقين الذين يريدون تصيّد المآخذ على القرآن الكريم ، فجاء أحدهم يقول : تقولون إن القرآن معجزة في البلاغة ، ونحن نرى فيه المعنى الواحد يأتي في أسلوبين ، فإنْ كان الأول بليغاً فالآخر غير بليغ ، وإنْ كان الثاني بليغاً فالأول غير بليغ ، ثم يقول عن مثل هذه الآيات : إنها تكرار لا فائدة منه .

ونقول له : أنت تنظر إلى المعنى فى إجماله ، وليس لديك الملكة العربيـة التى تستقـبل بها كلام الله ، ولو كانت عـندك هذه الملكة لما اتهمتَ القرآن ، فكل آية ممـا تظنه تكراراً إنما هى تأسيس فى مكانها لا تصلح إلا له .

والآيتـان محـل الكلام عن الشـفاعـة فى سـورة البـقرة ، وهمـا متفقتان فى الصدر مختلفتان فى العَجُز ، أحدهما :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا .. (٤٨) ﴾ [البقرة]

والأخرى :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا .. (١٢٣) ﴾ [البقرة]

إذن : فصــدْر الآيتين متـفق ، أما عَـجُز الأولى : ﴿ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ..(٤٨) ﴾ [البقرة]

وعَجُز الأخرى : ﴿ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ .. (١٢٣) ﴾ [البقرة] فهما مختلفتان .

وحين تتأمل صَدْرَىْ الآيتين الذى تظنه واحداً فى الآيتين تجد أنه مختلف أيضـاً ، نعم هو مُتحد فى ظاهره ، لكن حـين تتأمله تجد أن الضمير فيهما : إما يعود على الشافع ، وإما يعود على المشفوع له ، فإنْ عـاد الضمـير على المـشفوع لـه نقول له : لا نأخذ مـنك عدلاً ، ولا تنفعك شفـاعة ، وإنْ عاد الضمير على الشـافع نقول له : لا نقبل منك شفاعة ـ ونُقدِّم الشفاعة أولاً ـ ولا نأخذ منك عدلاً .

إذن : ليس فى الآيتين تكرار كما تظنون ، فكلٌّ منهما يحمل معنى لا تؤديه الآية الأخرى .

وقد أوضـحنا هذه المسـألة أيضاً فى قـوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا

أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

والاخرى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ .. (١٥١) ﴾ [الانعام]

فصدْرا الآيتين مختلف ، وكذلك العَجُز مختلف ، فعَجُز الأولى : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ..(٣١) ﴾ [الإسراء]

وعَجُز الأخرى : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ..(١٥١) ﴾ [الانعام]

وحين نتأمل الآيتين نجد أن لكل منهما معناها الخاص بها ، وليس فيهما تكرار كما يظن البعض .

ففى الآية الأولى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. (٣١) ﴾ [الإسراء] إذن : فالفقر غير موجود ، والأب يخاف أن يأتى الفقر بسبب الأولاد ، فهو مشغول برزق الولد ، لا برزقه هو ؛ لأنه غنى غير محتاج ؛ لذلك قدَّم الأولاد فى عَجُز الآية ، كأنه يقول للأب : اطمئن فسوف نرزق هؤلاء الأولاد أولاً ، وسوف تُرزَق أنت أيضاً معهم .

أما فى الآية الاخرى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ .. (١٥١) ﴾ [الانعام] فالفقر فى هذه الحالة موجود فعلاً ، وشُغل الأب برزق نفسه أَوْلى من شغله برزق ولده ؛ لذلك قال فى عَجُز الآية : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١) ﴾ [الانعام] فقدَّمهم على الأولاد .

إذن : لكل آية معناها الذى لا تؤديه عنها الآية الأخرى .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم أنهم قالوا :

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) ﴾

معنى : ﴿ كَرَّةً.. (١٠٢) ﴾ [الشعراء] أى : عودة إلى الدنيا ورجعة ﴿ فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) ﴾ [الشعراء] أى : نستأنف حياة جديدة ،

فنؤمن بالله ونطيعه ، ونستقيم على منهجه ، ولا نقف هذا الموقف .

وفى آيات أخرى شرحت هذه المسألة ، يقول تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)﴾ [المؤمنون]

يعنى ﴿كَلَّا .. (١٠٠)﴾ [المؤمنون] لن يعودوا مرة أخرى ، وما هى إلا كلمة يقولونها بألسنتهم يريدون النجاة بها ، لكن هيهات فبينهم وبين الدنيا برزخٌ يعزلهم عنها ، ويمنعهم العودة إليها ، وسوف يظل هذا البرزخ إلى يوم يُبعثون .

وفى آية أخرى حول هذا المعنى يُرقِّى الحق ـ تبارك وتعالى ـ المسألة من موقف الموت إلى موقف القيامة ، فيقول سبحانه : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧)﴾ [الأنعام]

وهذا كَذِب منهم وقَوْل باللسان لا يوافقه العمل ؛ لذلك ردَّ الحق ـ تبارك وتعالى ـ عليهم بقوله : ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾

الآية : هى الأمر العجيب الملفت للنظر ، وما كان ينبغى أنْ يمرَّ على العقول بدون تأمّل واعتبار ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾ [الشعراء] رغم أن هذه الآيات ظاهرة واضحة ، ومع ذلك كان أكثرهم غير مؤمنين .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٤ ﴾

أى : مع كونهم لم يؤمن أكثرهم ، فالله تعالى هو العزيز الذى لا يُغلَب ، إنما يغلِب ، ومع عِزّته تعالى فهو رحيم بعباده يفتح باب التوبة لمن تاب .

ثم ينتقل السياق القرآنى من قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى قصة أخرى من ركْب الأنبياء ومواكب الرسل هى قصة نوح عليه السلام :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥ ﴾

القوم : هم الرجال خاصة ، وسُمُّوا قوماً ؛ لأنهم هم الذين يقومون بأهم الأشياء ، ويقابل القوم النساء ، كما جاء شرح هذا المعنى فى قوله سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ .. (١١) ﴾ [الحجرات]

فالرجال هم القوم ؛ لأنهم يقومون بأهم الأمور ، وعليهم مدار حركة الحياة ، والنساء يستقبلْنَ ثمار هذه الحركة ، فينفقونها بأمانة ويُوجِّهونها التوجيه السليم .

والشاعر العربى أوضح هذا المعنى بقوله :

وَمَا أَدْرِى ولسْتُ إخَالُ أدْرِى أَقومٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِساءُ[1]

ونفهم أيضاً هذه القوامة للرجل من قَوْل الله تعالى حينما وعظ

(١) هو قول زهير بن أبى سلمى ، شاعر جاهلى . قال ابن الأثير : القوم فى الأصل مصدر قام ثم غلب على الرجال دون النساء ، ولذلك قابلهن به ، وسموا بذلك لأنهم قوّامون على النساء بالأمور التى ليس للنساء أن يقمن بها . وقال الجوهرى : ربما دخل النساء فيه على سبيل التبع لأن قوم كل نبى رجال ونساء . [لسان العرب ـ مادة : قوم] .

آدم وحذَّره من الشيطان : ﴿إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ .. (١١٧)﴾ [طه] وحسب القاعدة نقول : فتشقيا .

لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ﴿فَتَشْقَىٰ (١١٧)﴾ [طه] أنت يا آدم وحدك في حركة الحياة ، فالرجل يتحمل هذه المشقة ويكرم المرأة أن تُهان أو تشقى ، لكن ماذا نفعل وهي تريد أن تُشقِي نفسها ؟!

ونلحظ أن الآية تقول : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥)﴾ [الشعراء] كيف وهم ما كذَّبوا إلا رسولهم نوحاً عليه السلام ؟ وكانوا مؤمنين قبله بآدم وإبراهيم مثلاً .

قالوا : لأن الرسل عن الله إنما جاءوا في أصول ثابتة في العقيدة وفي الأخلاق لا تتغير في أي دين ؛ لذلك فمن كذَّب رسوله فكأنه كذَّب كل الرسل ، ألاَ ترى أن من أقوال المؤمنين أن يقولوا :

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤)﴾ [آل عمران]

وقال تعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ .. (٢٨٥)﴾ [البقرة]

فإنْ قُلْتَ : فماذا عن اختلاف المناهج والشرائع من نبي لآخر ؟ نقول : هذه اختلافات في مسائل تقتضيها تطورات المجتمعات ، وهي فرعيات لا تتصل بأصل العقائد والأخلاق الكريمة .

لذلك نجد هذه لازمة في كُلِّ مواكب الرسالات ، يقول : المرسلين ، المرسلين ؛ لأن الذي يُكذِّب رسوله فيما اتفق فيه الأجيال

من عقائد وأخلاق ، فكأنه كذّب جميع المرسلين .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الشعراء] يريد أن يُحنِّن قلوبهم عليه بكلمة ﴿ أَخُوهُمْ .. ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الشعراء] التى تعنى أنه منهم وقريب الصِّلة بهم ، ليس أجنبياً عنهم ، فهم يعرفون أصله ونشأته ، ويعلمون صفاته وأخلاقه .

لذلك لما بُعث النبى ﷺ وأبلغ الناس برسالته بادر إلى الإيمان به أقرب الناس إليه ، وهى السيدة خديجة دون أنْ تسمع منه آية واحدة ، وكذلك الصِّديق أبو بكر وغيرهما من المؤمنين الأوائل ، لماذا ؟

لأنهم بَنَوْا على تاريخه السابق ، واعتمدوا على سيرته فيهم قبل الرسالة ، فعلموا أن الذى لا يكذب على الناس مستحيل أن يكذب على رب الناس .

والسيدة خديجة رضوان الله عليها تعتبر أول فقيهة ، وأول عالمة أصول فى الإسلام ، حينما جاءها رسول الله ﷺ يشكو ما يعانى ، ويخشى أن يكون ما يأتيه من الوحى رئياً من الجن أو توهمات تفسد عليه عقله وتفكيره ، قالت له - انظر إلى العظمة - « والله إنك لتصل الرحم ، وتَقْرى الضيف ، وتحمل الكلَّ ، وتُعين على نوائب الدهر ، والله لا يخزيك الله أبداً »[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) وستة مواضع أخرى من صحيحه . وأخرجه أيضاً مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها . ومعنى « تحمل الكل » أى : تعين المثقل ومنه الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال . و « تكسب المعدوم » أى : تستفيد المال المعدوم وقد كان النبى ﷺ محظوظاً فى تجارته . « تقرى الضيف » أى : تطعمه طعام الأضياف . و « نوائب الحق » حادثات الأيام . انظر : شرح النووى على مسلم (٢/٥٦١) وفتح البارى للعسقلانى (١/١٢٤) .

ولمـا علم الصِّدِّيق بحـادثة الإسـراء والمعـراج بادر بالتصـديق ، ولم يتردد ، ولما سُئل عن ذلك قـال : إننا نصدقه فى الأمر يأتى من السماء فكيف لا نصدقه فى هذه ، فإنْ كان قال فقد صدق .

إذن : فمقياس الصـدق لديه أن يقول رسول الله ؛ لذلك اسـتحق الصِّـديق هذا اللقب عن جـدارة ، حتى إن رسـول الله ﷺ ليقـول فى حقـه : « كنتُ أنا وأبو بكر فى الجاهلية كـفرسى رهان ـ يعنى : فى خصال الخير ـ فسبقتُه إلى النبوة فاتبعنى ، ولو سبقنى لاتبعته » .

هذه كلهـا معانٍ نفـهمـها من قولـه تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ.. (١٠٦)﴾ [الشعراء]

وهذا مـعنى قوله تعـالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] فهذه من حكمة الله فى الـرسل ، وعجيب أن يقول أهل العناد من القوم : نريد ملكاً رسولاً ، وأن يقفوا من رسول الله موقف العداء ، وكـان يجب عليهم على الأقل أن يُمكِّنوه من دعـوته ، ويُمكِّنوا عقولهم من أنْ تفهم لا أن تدخل فى الأمر على هوى سابق .

فالذى يتـعب الناس فى استقـبال الحق أن تكون قلوبهم مشـغولة بباطل ، والحق لا يجـتمع مع الباطل ولا يضـمهما مـحلٌّ واحد ؛ لذلك إذا أردت أن تبـحث فى مـسألة ، فـعليك أنْ تُخـرِج من قلبك البـاطل أولاً ، ثم حكِّم عقلك فى الأمر ، واستفتِ قلبك فما سمح به فأدخله .

وهذه نراها حـتى فى الماديات ، فالحـيز الواحـد لا يسع شيـئين أبداً ، يقولون : عدم تداخل ، كما لو ملأت قـارورة بالماء مثلاً ، فقبل أن يدخل الماء لا بُدَّ أنْ يخرج الهواء ، فنراه على شكل فقاعات :

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١) ﴾ [المؤمنون]

ولك أن تلاحظ مثلاً زجاجة (الكولونيا) ذات الثُّقْب الضيق إذا وضعْتها في الماء ، لا يمكن أن يدخلها الماء ، لماذا ؟ لأن ثقبها ضيق ، لا يسمح بخروج الهواء أو دخول الماء .

ولأمر ما سُمِّى الهوى من الهواء ، فكما أن الهواء الذى نُحسُّه لو أتى من ناحية واحدة لمبنى أو جبل مثلاً لانهدم إلى الناحية الأخرى ، لماذا ؟ لأن الهواء هو الذى يتولّى حفْظ توازن هذه المبانى العالية وناطحات السحاب التى نراها ، يحفظ تَوازنها حين يحيط بها من كل جهاتها ، فإنْ فرّغتَ الهواء من إحدى الجهات انهدم المبنى فى نفس هذه الجهة .

والهواء من القوى العظيمة التى يستخدمها الإنسان ويُحوِّلها إلى طاقة ، وانظر مثلاً إلى قوة تفريغ الهواء وما تُحدِثه من هزة عنيفة ، أو إلى الحاويات والشاحنات العملاقة التى تسير على الهواء فى عجلاتها ، وكذلك الهوى إنْ كان فى الباطل كان قوياً ومدمراً ، ومن هذا المعنى سُمِّى السقوط هويّا ، تقول : هَوَى الشيء يعنى : سقط .

وقوله : ﴿ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) ﴾ [الشعراء] هذه الكلمة جاءت على لسان كل الرسل أو يقولها الرسول أوّلَ ما يبعث ، ومعناها : اتقوا الله و (ألاَ) أداة للحضِّ والحثِّ على الفعل . كما تقول للولد المهمل : ألاَ تذاكر أو هَلاَّ تذاكر .

وحين نحلل أسلوب الحضِّ أو الحثِّ نجد أنه يأتى على صورة التعجب من نفى الفعل ، كما تقول للولد الذى لا يصلى وتريد أن تحثَّه على الصلاة : ألا تصلى ؟ استفهام بالنفى وعندها يستحى الولد أن يقولها ، لكن حين تستفهم بالإثبات : أتصلى ؟ يقولها بفخر : نعم .

إذن : معنى الحثّ : تعجُّب من ترْك الفعل وإنكار يحمل معنى الأمر .

فمعنى : ﴿أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦)﴾ [الشعراء] أنكر عليكم ألاَّ تكونوا متقين ، والمراد : أطلب منكم أن تكونوا متقين ، وما دُمْت قد أنكرت النفي فلا بُدَّ أنك تريد الإثبات .

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧)﴾

وقوله تعالى : ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧)﴾ [الشعراء] فإنْ كانت عندكم غفلة فقد رَحِم الله غفلتكم ، ونبّهكم برسول أمين يَعظكم ويعلّمكم ويُبلّغكم منهج الله ، وهو أمين لن يغشّكم في شيء حتى لا تقولوا : إنَّا كنَّا غافلين .

وما دُمْت أنا مرسلاً من الله إليكم ، وأميناً عليكم وعلى دعوتي ، فاسمعوا مني ؛ لذلك كرَّر الأمر بالتقوى :

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨)﴾

وكأنه يتصالح معهم ، فيُخفف من أسلوب النُّصْح ، ويأتي بالأمر صريحاً بعد أن أتى به في صورة إنكار ألاَّ يكونوا متقين . وثمرة التقوى طاعة الأوامر واجتناب النواهي ، وهذه لا نعرفها إلا من الرسول حامل المنهج ومُبلِّغ الدعوة والأمين عليها .

وقد ترددتْ هذه الآية على السنة كثير من رسل[1] الله : ﴿إِنِّي

---

(١) وردت هذه الآية ٦ مرات ، خمس منها في سورة الشعراء : (آية ١٠٧ في حق نوح) (آية ١٢٥ في حق هود) ، (آية ١٤٣ في حق صالح) ، (آية ١٦٢ في حق لوط) ، (آية ١٧٨ في حق شعيب) ، والآية السادسة في سورة الدخان (آية ١٨ في حق موسى) .

لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) ﴾ [الشعراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) ﴾

هذه العبارة ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ .. (١٠٩) ﴾ [الشعراء] لم نسمعها على لسان إبراهيم عليه السلام ، ولا على لسان موسى عليه السلام ، فأول مَنْ قالها نوح عليه السلام ، وكوْنك تقول لآخر : أنا لا أسألك أجْراً على هذا العمل ، فهذا يعنى أنك تستحق أجراً على هذا العمل ، وأنت غير زاهد فى الأجر ، إنما إنْ أخذته من المنتفع بعملك ، فسوف يُقوِّمه لك بمقاييسه البشرية ؛ لذلك من الأفضل أن تأخذ أجرك من الله .

فكأن نوحاً عليه السلام يقول : أنتم أيها البشر لا تستطيعون أن تُقوِّموا ما أقوم به من أجلكم ؛ لأننى جئتكم بمنهج هداية يُسعدكم فى الدنيا ، ويُنجيكم فى الآخرة ، وأنتم لن تُقوِّموا هذا العمل ، وأجرى فيه على الله ؛ لأنكم تُعطون على قَدْر إمكاناتكم وعلمكم .

وسبق أنْ حكيْنَا لكم قصة الرجل الذى قابلناه فى الجزائر ، وكان رجلاً تبدو عليه علامات الصلاح ، وقد أشار لنا لنقف بسيارتنا ونحمله معنا ، فلما توقفنا ليركب معنا مالَ إلى السائق ، وقال (على كم) يعنى : الأجرة فقال له الرجل ، وكان المحافظ : نُوصلك لله ، فقال (غلَّتها يا شيخ) . نعم ، إنْ كان الأجر على الله فهو غَالٍ .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) ﴾ [الطور]

ثم يقول : ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩)﴾ [الشعراء] إنْ هنا بمعنى ما النافية ؛ لأنه تعالى القادر على أن يُكافئنى على دعوتى ، فهو الذى أرسلنى بها ، وهو سبحانه رب العالمين الذى تبرع بالخَلْق من عدم ، وبالإمداد من عدم ، وخلق لى ولكم الأرزاق ، وهذا كله لصالحكم ؛ لأنه سبحانه لا ينتفع من هذا بشىء .

والربوبية تقتضى عناية ، وتقتضى نفقة وخلقاً وإمداداً ، فصاحب كل هذه الأفضال والنعم هو الذى يعطينى أجرى .

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠)﴾

بعد أن بيَّن لهم كرم الربوبية فى مسألة الأجر على الدعوة وأعطاهم ما يشجعهم على التقوى وعلى الطاعة ؛ لأنهم سينتفعون برسالة الرسول دون أجر منهم . ومعنى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وأَطِيعُونِ (١١٠)﴾ [الشعراء] أى : ليست لى طاعة ذاتية ، إنما أطيعونى ؛ لأنى رسول من قبَل الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه حاكياً ردَّهم على نوح عليه السلام :

﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ (١١١)﴾

الأَرْذَلُونَ : جمع أرذل ، وهو الردىء من الشىء . ورُذَال الفاكهة : المعطوب منها وما نسميه (نقاضة) والاستفهام هنا للتعجب : كيف نؤمن لك ونحن السادة ، والمؤمنون بك هم الأرذلون ؟

يقصدون الفقراء وأصحاب الحرَف والذين لا يُؤْبَه بهم ، وهؤلاء عادة هم جنود الرسالة ؛ لأنهم هم المطحونون من المجتمع الفاسد ، وطبيعى أن يتلقفوا مَنْ يعدل ميزان المجتمع .

وفى آية أخرى : ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا .. ﴿٢٧﴾﴾ [هود]

وقولهم : ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ .. ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء] دليل على عدم فهمهم لحقيقة الإيمان ؛ لأنه لم يقُلْ لهم : آمنوا بى ، إنما آمنوا بالله .

أو : أن المعنى ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ .. ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء] أى : نُصدِّقك فمن معانى آمن أى : صدَّق ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ .. ﴿٨٣﴾﴾ [يونس] أى : صَدَّق به ، وآمن تكون بمعنى صَدَّق إذا جاءت بعدها اللام ، فإنْ جاء بعدها الباء فهى بمعنى الإيمان[1] .

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[2] ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

يعنى : ما دام الحساب على ربى وهم يريدون الإيمان ، فلا بُدَّ أنْ يأخذوا جزاءهم وافياً ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ[3] ﴿١١٣﴾﴾ [الشعراء]

---

(١) قال تعالى ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر] وقال : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾ [الليل] .

(٢) أى : لم أُكلَّف العلم بأعمالهم ، إنما كُلِّفت أن أدعوهم إلى الإيمان ، والاعتبار بالإيمان لا بالحرف والصنائع ، وكأنهم قالوا : إنما اتبعك هؤلاء الضعفاء طمعاً فى العزة والمال ، فقال : إنى لم أقف على باطن أمرهم وإنما إلىَّ ظاهرهم . [تفسير القرطبى ٧/٥٠٠٠] .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٠٠٠) : « قراءة العامة « تشعرون » بالتاء على المخاطبة للكافر وهو الظاهر . وقرأ ابن أبى عبلة ومحمد بن السميقع « لو يشعرون » بالياء كأنه خبر عن الكفار وترك الخطاب لهم » .

﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

وقد طلبوا منه أن يطرد هؤلاء المؤمنين من مجلسه ليُجلسهم هم ، وفى آية أخرى قال سبحانه لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾[الأنعام]

﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

فمَنْ يسمع إنذارى ، ويسمع بشارتى ، ويأتى مجلسى ، فعلى عينى أرافقه . فالله ما أرسلنى لأخص ذوى الغنى دون الفقراء بمجلسى ، إنما أرسلنى لأبلغكم ما أرسلت به ، فمن أطاعنى فذلك السعيد عند الله ، وإن كان فقيراً .

﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ[1] ﴿١١٦﴾ ﴾

وهكذا أعلنوا الحرب على نبى الله نوح ، يقولون : لا فائدةَ من تحذيرك ، وما زِلْتَ مُصِراً على دعوتك ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ .. ﴿١١٦﴾ ﴾ [الشعراء] عما تدعيه من الرسالة ، وما تقول به من تقوى الله وطاعته ، وما تفعله من تقريب الأرذلين إلى مجلسك ، لتكوِّن جمهوراً من صغار الناس .

---

(١) الرجم : القتل . وأصله الرمى بالحجارة . والرجم : اللعن والشتم والسب . [لسان العرب ـ مادة : رجم] . قال الثعالبى : كل مرجومين فى القرآن فهو القتل إلا فى سورة مريم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [مريم] أى : لأسبنك . وقيل : (من المرجومين) من المشتومين قاله السدى . [تفسير القرطبى ٧/٥٠٠١] .

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦)﴾ [الشعراء] أى : إذا لم تنته فسوف نرجمك ، إنه تهديد صريح للرسول الذى جاءهم من عند الله يدعوهم إلى الخير فى الدنيا والآخرة .

كما قال سبحانه : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

وهذا التهديد منهم لرسول الله يدلُّ على أنهم كانوا أقوياء ، وأصحابَ جاه وبطْش .

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾

تأمل هنا أدب نوح ـ عليه السلام ـ حين يشكو قومه إلى الله ويرفع إليه ما حدث منهم ، كل ما قاله ﴿إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ (١١٧)﴾ [الشعراء] ولم يذكر شيئاً عن التهديد له بالرجم ، وإعلان الحرب على دعوته ، لماذا ؟ لأن ما يهمه فى المقام الأول أن يُصدِّقه قومه ، فهذا هو الأصل فى دعوته .

وقوله : ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا .. (١١٨)﴾ [الشعراء] الفتح فى الشىء إما : حسياً وإما معنوياً ، فمثلاً الباب المغلَق بقُفْل نقول : نفتح الباب : أى نزيل أغلاقه .

فإنْ كان الشىء مربوطاً نزيل الأشكال ونفكّ الأربطة .

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة يوسف : ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ .. (٦٥)﴾ [يوسف] أى : أزالوا الرباط عن متاعهم ، هذا هو الفتح الحسىّ .

أما الفتح المعنوى فنُزيل الأغلاق والأشكال المعنوية ليأتى الخير وتأتى البركة ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. (٩٦) ﴾ [الأعراف]

وفى آية أخرى : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ .. (٢) ﴾ [فاطر]

والخير الذى يفتح الله به على الناس قد يكون خيراً مادياً ، وقد يكون علْماً ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ .. (٧٦) ﴾ [البقرة]

أى : من العلم فى التوراة ، يخافون أن يأخذه المؤمنون ، ويجعلوه حجة على أهل التوراة إذا ما كان لهم الفتح والغَلَبة ، فمعنى : ﴿ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ .. (٧٦) ﴾ [البقرة] أى : بما علَّمكم من علم لم يعلموه هم .

وقد يكون الفتح بمعنى الحكم ، مثل قوله سبحانه : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) ﴾ [الأعراف]

ويكون الفتح بمعنى النصر ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) ﴾ [النصر]

ثم يقول نوح عليه السلام : ﴿ وَنَجِّنِي .. (١١٨) ﴾ [الشعراء] من كيدهم وما يُهدِّدوننى به من الرَّجْم ﴿ وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) ﴾ [الشعراء] لأن الإيذاء قد يتعدّاه إلى المؤمنين معه ، وتأتى الإجابة سريعة :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ﴾

وقد وردتْ قصة السفينة فى الأعراف ، وفى هود ، ولنوح عليه السلام سورة خاصة هى سورة نوح مثل سورة محمد ؛ ذلك لأن له فى تاريخ الرسالات ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ويستحق أنْ يخصَّه الله تعالى بسورة باسمه .

لذلك عندما يكرر أحد الناس لك الكلام ، ويُعيده عليك ، تقول له (هيَّه سورة) ، فكلام العامة والأُميين له أَصْلٌ من استعمال اللغة .

وفى موضع آخر ذكر الحق ـ تبارك وتعالى ـ قصة صُنْع السفينة فى قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ.. ﴿٣٨﴾ ﴾ [هود] وهذا دليل على أنها كانت أول سفينة يصنعها الإنسان ، وقد صنع نوح سفينته بأمر الله ووحيه وتحت عينه تعالى ، وفى رعايته : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود]

وما كان الله تعالى ليُكلِّفه بصُنْع السفينة ثم يتركه ، إنما تابعه ، حتى إذا ما حدث خطأ نبَّهه إليه من البداية ، كما قال تعالى لسيدنا موسى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه]

وبمثل هذه الآيات نردُّ على الذين يقولون : إن الله تعالى زاول سلطانه فى مُلْكه مرة واحدة فخلق الخَلْق ، ثم ترك القوانين تسيره ، ولو كان الأمر كذلك لوجدنا العالم كله يسير بحركة (ميكانيكية) ، لكن ظواهر الكون وما فيه من معجزات تدلُّ على قيوميته تعالى على خَلْقه.

لذلك يقول لهم : ناموا ملء جفونكم ، فإن لكم رباً لا ينام ، كيف لا وأنت إذا استأجرتَ حارساً لمنزلك مثلاً تنام مطمئناً اعتماداً على أنه يَقظ ؟ وكيف إذا حرسك ربُّك عز وجل الذى لا تأخذه سِنَة ولا نَوْمٌ ؟ وألاَ يدلُّ ذلك على قيوميته تعالى ؟

هذه القيومية التى تنقضُ العزائم ، وتفسَخ القوانين ، قيومية تقول للنار كونى برداً وسلاماً فتكون ، وتقول للماء : تجمَّد حتى تكون جبلاً فيتجمد ، تقول للحجر : انفلق فينفلق .. ولو كان الأمر (ميكانيكياً) كما يقولون لما حدث هذا ، ولما تخلَّف قانون واحد من قوانين الكون .

والمشحون : الذى امتلأ ، ولم يَبْقَ به مكان خَال ، فكانت السفينة مشحونة بما حمل فيها ، لأنها صُنعَتْ بحساب دقيق ، لا يتسع إلا لمن كُلِّف نوح بحملهم فى سفينته ، وكانوا ثمانين رجلاً وثمانين امرأة[1] ومن كل حيوان زوجين اثنين .

والفلك المشحون يُطلَق ويُراد به الواحدة ، ويُطلَق ويراد به الجماعة كما فى قوله سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم .. (٢٢) ﴾ [يونس]

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) ﴾

وهم الكافرون الذين لم يركبوا معه ، و ﴿ بَعْدُ .. (١٢٠) ﴾ [الشعراء] أى : بعد ما ركب من ركب ، وبعد ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) ﴾ [القمر]

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) ﴾

والآية : الأمر العجيب الذى يجب الالتفات إليه والاعتبار به ، لكن مَنْ سيعتبر بعد أنْ غرق الباقون ؟ سيعتبر بهذه الآية المؤمنون الذين ركبوا السفينة حين يروْنَ نتيجة التكذيب ، ومصير المكذِّبين الكافرين .

---

(١) عن ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم . وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفساً . وقيل : كانوا عشرة . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٢/٤٤٥] .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾

أى : ورغم كُفْرهم وتكذيبهم ، ورغم أنه ما كان أكثرهم مؤمنين ، فالله تعالى هو العزيز الذى يَغْلِب ولا يُغْلَب ، وهو سبحانه الرحيم بعباده الذى يتوب على مَنْ تاب منهم .

ثم ينتقل السياق إلى قصة أخرى فى موكب الأمم المكذِّبة :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

وقال هنا أيضاً ﴿ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [الشعراء] لأن تكذيب رسول واحد تكذيبٌ لكل الرسل ؛ لأنهم جميعاً جاءوا بقواعد وأصول واحدة فى العقائد وفى الأخلاق .

وعاد : اسم للقبيلة ، وكانت القبائل تُنسَب إلى الأب الأكبر فيها ، ولصاحب الشهرة والنباهة بين قومه ، فعاد هو أبو هذه القبيلة ، وقد يُطلَق عليهم بنو فلان أو آل فلان ، ثم يذكر لنا قصتهم ، ومتى كان منهم هذا التكذيب :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

قلنا : إن (ألاَ) للحثِّ والحضِّ ، وحين يُنكِّر النفى ﴿ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الشعراء] فإنه يريد الإثبات فكأنه قال : اتقوا . وقال ﴿ أَخُوهُمْ .. ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الشعراء] ليرقق قلوبهم ويُحنِّنهم إليه ، وليعرفوا أنه واحد منهم ليس غريباً عنهم ، فهو أخوهم ، والأخ من دأبه النُّصْح والشفقة والرحمة ، وهذا إيناس للخَلْق .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ ﴾

وهذه المقولة لازمة من لوازم الرسُل فى دعوتهم ، سبق أنْ قالها نوح عليه السلام .

﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

قلنا : إن هذه العبارة أول مَنْ قالها نوح ـ عليه السلام ـ ثم سيقولها الأنبياء من بعده . لكن : لماذا لم يقل هذه العبارة إبراهيم ؟ ولم يقُلْها موسى ؟

قالوا : لأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أول ما دعا دعا عمه آزر ، فكيف يطلب منه أجْراً ؟ وكذلك موسى ـ عليه السلام ـ أول دعوته دعا فرعون الذى ربَّاه فى بيته ، وله عليه فضل وجميل ، فكيف يطلب منه أجراً ، وقد قال له : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الشعراء]

لذلك لم تأت هذه المقولة على لسان أحد منهما .

وقال : ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الشعراء] لأن الربَّ هو الذى يتولَّى الخَلْق بالبذْل والعطايا والإمداد . وقلنا : إن عدم أخذ الأجر ليس زُهْداً فيه ، إنما طمعاً فى أنْ يأخذ أجره من الله ، لا من الناس .

ثم يتوجّه إليهم ليُصحِّح بعض المسائل الخاصة بهم :

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

وهذه خصوصية من خصوصيات قوم هود ، والرِّيع : هو المكان المرتفع ، لذلك بعض الناس يقولون : كم رِيع بنائك ؟ يعنى : ارتفاعه

كم متراً ، فكأن الارتفاع يُثمِّن البقعة ، ويُطلق الريع على الارتفاع فى كل شىء[1] .

وكلمة ﴿ آيَةً .. ١٢٨ ﴾ [الشعراء] بعد ﴿ أَتَبْنُونَ .. ١٢٨ ﴾ [الشعراء] تعنى : القصور العالية التى تعتبر آيةً فى الإبداع وجمال العمارة والزخرفة والفخامة والاتساع والرِّفْعة فى العُلُو .

وقال ﴿ تَعْبَثُونَ ١٢٨ ﴾ [الشعراء] لأنهم لن يخلُدوا فى هذه القصور ، ومع ذلك يُشيِّدونها لتبقى أجيالاً من بعدهم ، فعدّ هذا عبثاً منهم ؛ لأن الإنسان يكفيه أقلّ بناء ليأويه فترة حياته .

أو ﴿ تَعْبَثُونَ ١٢٨ ﴾ [الشعراء] لأنهم كانوا يجلسون فى شُرفات هذه القصور يصدُّون الناس ، ويصرفونهم عن هود وسماع كلامه ودعوته التى تكْلِفتهم إلى منهج الحق .

ونحن لم نَرَ حضارة عاد ، ولم نَرَ آثارهم ، كما رأينا مثلاً آثار الفراعنة فى مصر ؛ لأن حضارة عاد طمرتْها الرمال ، وكانوا بالجزيرة العربية فى منطقة تُسمَّى الآن بالرَّبْع الخالى ؛ لأنها منطقة من الرمال الناعمة التى يصعب السير أو المعيشة بها ، لكن لكى نعرف هذه الحضارة نقرأ قوله تعالى فى سورة الفجر :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ٨ ﴾ [الفجر]

---

(١) فى كلمة الريع أقوال :
– ما ارتفع من الأرض فى قول ابن عباس وغيره .
– الريع : الطريق ، قاله قتادة والضحاك والكلبى ومقاتل والسدى ، وابن عباس أيضاً .
– الريع : الفج بين الجبلين ، قاله مجاهد .
– الريع : بنيان الحمام ، دليله « تعبثون » أى : تلعبون ، أى : تبنون بكل مكان مرتفع آية علماً تلعبون بها على معنى أبنية الحمام وبروجها . [تفسير القرطبى ٥٠٠٢/٧ ، ٥٠٠٣] .

وما دامت لم يُخلَق مثلها في البلاد ، فهي أعظم من حضارة الفراعنة التي نشاهدها الآن ، ويفد إليها الناس من كل أنحاء العالم ليشاهدوا الأهرام مثلاً ، وقد بنيت لتكون مجرد مقابر ، ومع تقدُّم العلم في عصر الحضارة والتكنولوجيا ، ما زال هذا البناء مُحيِّراً للعلماء ، لم يستطيعوا حتى الآن معرفةَ الكثير من أسراره .

ومن هذه الأسرار التي اهتدَوْا إليها حديثاً كيفية بناء أحجار الأهرام دون ملاط[1] مع ضخامتها ، وقد توصَّلوا إلى أنها بُنِيَتْ بطريقة تفريغ الهواء مما بين الأحجار ، وهذه النظرية تستطيع ملاحظتها حين تضع كوباً مُبلّلاً بالماء على المنضدة مثلاً ، ثم تتركه فترةً حتى يتبخر الماء من تحته ، فإذا أردتَ أن ترفعه من مكانه تجده قد لصق بالمنضدة .

وليس عجيباً أنْ تختفي حضارةٌ ، كانت أعظم حضارات الدنيا تحت طبقات الرمال ، فالرمال حين تثور تبتلع كل ما أمامها ، حتى إنها طمرتْ قبيلة كاملة بجمالها ورجالها ، وهذه هبة واحدة ، فما بالك بثورة الرمال ، وما تسفوه الريح طوال آلاف السنين ؟

وأنا واثق من أنهم إذا ما نبشوا هذه الرمال وأزاحوها لوجدوا تحتها أرضاً خصبة وآثاراً عظيمة ، كما نرى الاكتشافات الأثرية الآن كلها تحت الأرض ، وفي فيينا أثناء حفر أحد خطوط المجاري هناك وجدوا آثاراً لقصور ملوك سابقين .

وطالما أن الله تعالى قال عن عاد : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨)﴾ [الشعراء] فلا بُدَّ أن هناك قصوراً ومبانيَ مطمورة تحت هذه الرمال .

---

(١) ملط الحائط : طلاه . والملاط : الطين الذي يُجعل بين سافَي البناء ويُملط به الحائط . [لسان العرب ـ مادة : ملط] .

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

المصانع تُطلَق على موارد الماء ، وتطلق على الحصون ، لماذا ؟

قالوا : لأن الحصون لا تُبنَى للإيواء فقط ؛ لأن الإيواء يمنع الإنسان من هوام الحياة العادية ، أمّا الحصون فتمنعه أيضاً من الأعداء الشرسين الذين يتربصون به ، فكأنهم جعلوها صنعة مثمرة ، لماذا ؟

﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : أتبنون هذه الحصون هذا البناء القوى المسلح تريدون الخلود ؟ وهل أنتم مُخلَّدون فى الحياة ؟ إن فترة مُكْث الإنسان فى الدنيا يسيرة لا تحتاج كل هذا التحصين ، فهى كظلِّ شجرة ، سرعان ما يزول .

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

والبَطْش : الأخْذُ بشدة وبعنف ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [البروج] ويقول : ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القمر]

لأن الأَخْذ يأخذ صُوراً متعددة : تأخذه بلين وبعطف وشفقة ، أو تأخذه بعنف .

ثم يزيدهم صفة أخرى تؤكد بَطْشهم ﴿ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الشعراء]

لأنك قد تأخذ عدوك بعنف ، لكن بعد ذلك يرقُّ له قلبك ، فترحم ذلّته لك ، فتُهوِّن عليه وترحمه ، لكن هؤلاء جبارون لا ترقّ قلوبهم .

وهذه الصفات الثلاثة السابقة لقوم هود : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الشعراء]

هذه الصفات تخدم صفة التعالى ، وتسعى إلى الوصول إليه وكأنهم يريدون صفة العُلُو التى تُقرِّبهم من الألوهية ؛ لأنه لا أحدَ أعلى من الحق سبحانه ، ثم يريدون أيضاً استدامة هذه الصفة واستبقاء الألوهية : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) ﴾ [الشعراء]

وفى صفة البَطش الشديد والجبارية يريدون التفرُّد على الغير ، والقرآن يقول : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا .. (٨٣) ﴾ [القصص]

فإنْ كنتَ تريد أداء الخدمة المنوطة بك فى الحياة ، فعليك أنْ تؤديها ، لا للتَّعالى ؛ لأنك حينئذ ستأخذ حظك من العُلُو والغَلَبة فى دار الدنيا وتنتهى المسألة ، أمّا إنْ فعلتَ وفى بالك ربُّك ، وفى بالك أنْ تُيسِّر للناس مصالح الحياة ، فإنك تُرقِّى عملك وتُثمِّره ، ويظل لك أجره ، طالما وجد العمل ينتفع الناس به إلى أنْ تقوم الساعة ، وهذا أعظم تصعيد لعمل الإنسان .

ولم يفعل قوم عاد شيئاً من هذا ، إنما طلبوا العُلُو فى الأرض ، وبطشوا فيها جبارين ، لكن أيتركهم ربهم عز وجل يستمرون على هذه الحال ؟

إن من رحمة الله تعالى بعباده أنْ يُذكِّرهم كلما نَسُوا ، ويُوقظهم كلما غفلوا ، فيرسل لهم الرسل المتوالين ؛ لأن الناس كثيراً ما تغفل عن العهد القديم الذى أخذوه على أنفسهم : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

وقلنا : إن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يضع المناعة فى خليفته فى

الأرض ، ويعطيه المنهج الذى يصلحه ، لكنه قد يغفل عن هذا المنهج أو تغلبه نفسه ، فينحرف عنه ، والإنسان بطبيعته يحمل مناعةً من الحق ضد الباطل وضد الشر ، فإنْ فسدَتْ فيه هذه المناعة فعلى الآخر أن يُذكِّره ويُوقظ فيه دواعي الخير . ومن هنا كان قوله تعالى : ﴿ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر (٣) ﴾ [العصر]

فإنْ وجدتَ أخاك على باطل فخُذْ بيده إلى الحق .

ومعنى ﴿ وتواصوا .. (٣) ﴾ [العصر] أى : تبادلوا التوصية ، فكل منكم عُرْضة للغفلة ، وعُرْضة للانحراف عن المنهج ، فإنْ غفلتُ أنا توصينى ، وإنْ غفلتَ أنت أوصيك ، وهذه المناعة ليست فى الذات الآن ، إنما فى المجتمع المؤمن ، فمنْ رأى فيه اعوجاجاً قوَّمه .

لكن ما الحال إنْ فسدت المناعة فى الفرد وفسدَتْ فى المجتمع ، فصار الناس لا يعرفون معروفاً ، ولا يُنكِرون منكراً ، كما قال تعالى عن بنى إسرائيل :

﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه .. (٧٩) ﴾ [المائدة]

وعندها لا بد أن يرسل رب العزة سبحانه برسول جديد ، ومعجزة جديدة تُوقظ الناس ، وتعيدهم إلى جادة ربهم .

ومن شرف أمة محمد ﷺ أن الله تعالى جعل المناعة فى ذات نفوسها ، فجعلهم الله توابين ، إنْ فعل أحدهم الذنب تاب ورجع ، وإنْ لم يرجع وتمادى ردَّه المجتمع الإيمانى وذكَّره .

وهذه الصفة ملازمة لهذه الأمة إلى قيام الساعة ، كما ورد فى الحديث : « الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[1] .

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) : « قال (السخاوى) فى المقاصد (الحسنة) : قال شيخنا (ابن حجر العسقلانى) : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح . يعنى فى حديث : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة . وقال ابن حجر المكى فى الفتاوى الحديثية : لم يرد بهذا اللفظ » .

لذلك لن يأتى فيها رسول بعد رسول الله ﷺ ؛ لأن المناعة ملازمة لها فى الذات ، وفى النفس اللوامة ، وفى المجتمع الإيمانى الذى لا يُعدم فيه الخير أبداً .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران]

وهذه صفة تفردتْ بها هذه الأمة عن باقى الأمم ؛ لذلك يقول هود ـ عليه السلام ـ مُذكّراً لقومه ومُوقظاً لهم :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) ﴾

أى : أن ربكم ـ عز وجل ـ لم يترككم على ما أنتم عليه من الضلال تعبثون بالآيات ، وتتخذون مصانع تطلبون الخلود ، وأنكم بطشتم جبارين ، وها هو يدعوكم : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) ﴾ [الشعراء] فتقوى الله تعالى وطاعته كفيلة أنْ تُذهب ماضيكم وتمحو ذنوبكم ، بل وتُبدِّله خيراً وصلاحاً ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. (١١٤) ﴾ [هود]

وأنا حين أُوصيكم بتقوى الله وطاعته ، لا اوصيكم بهذا لصالحى أنا ، فلا أقول لكم : اتقونى أو أطيعونى ولن أنتفع من طاعتكم بشىء . كذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ غنى عنكم وعن طاعتكم ؛ لأن له سبحانه صفات الكمال المطلق قبل أن يخلق الخَلْق ، فهو سبحانه متصف بالخَلْق قبل أن يخلق ، وبالقدرة قبل أن يُوجَد المقدور عليه .. إلخ .

إذن : فوجودكم لم يَزِدْ شيئاً فى صفاته تعالى ، وما كانت الرسالات إلا لمصلحتكم أنتم ، فإذا لم تطيعوا أوامر الله ، وتأخذوا منهجه ، لأنه يفيدكم فأطيعوه جزاءَ ما أنعم عليكم من نِعَم لا تُعدُّ ولا تُحصَى ، فالإنسان طرأ على كون أُعِدَّ لاستقباله وهُيِّىء لمعيشته ،

وخلق له الكون كله : سماءً ، فيها الشمس والقمر والنجوم والسحاب والمطر ، وأرضاً فيها الخصب والماء والهواء . هذا كله قبل أن تُوجَد أنت ، فطاعتك لله - إذن - ليست تفضُّلاً منك ، إنما جزاء ما قدَّم لك من نِعَم .

وعجيب أن ترى هذه المخلوقات التى جُعلَتْ لخدمتك أطول عمراً منك ، فالإنسان قد يموت يوم مولده ، وقد يعيش عدة أيام أو عدة سنوات ، أمّا الشمس مثلاً فعمرها ملايين السنين ، وهى تخدمك دون سلطان لك عليها ، ودون أن تتدخل أنت فى حركتها .

ثم يقول تعالى :

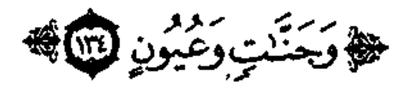
﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

لم تعدد الآية ما أمدنا الله به ، وتركتْ لنا أن نُعدِّده نحن ؛ لأننا نعرفه جيداً ونعيشه ، وندركه بكل حواسِّنا ومداركنا ، فما من آلة عندك إلا وتحت إدراكها نعمة لله ، بل عدة نِعَم ، فالعين ترى المناظر ، والأذن تسمع الأصوات ، والأنف يشم الروائح ، واليد تبطش .. إلخ .

﴿ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [الشعراء] فقولوا أنتم واشهدوا على أنفسكم وعَدِّدوا نِعَم ربكم عليكم .

﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

المراد بالأنعام : الضأن والماعز والإبل والبقر ، ثمانية أزواج .


﴿ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾

فإنْ قلت : فنحن نمرُّ بديارهم ، فلا نرى إلا خلاءً تسفُو فيه الرياح ، نعم لقد كانت لهم جنات وعيون هى الآن تحت أطباق التراب ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا[1] ﴿٩٨﴾ ﴾ [مريم]

﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾

أى : أن تقوى الله وطاعته لا تعدُّ شكراً على نعمه فحسب ، إنما أيضاً تكون لكم وقاية من عذاب الآخرة ، فلا تظنوا أنكم أخذتُم نِعَم الله ، ثم بإمكانكم الانفلات منه أو الهرب من لقائه ، فلقاؤه حق لا مفرَّ منه ، ولا مهرب ، فإنْ لم تَخَفْ السابق من النعم ، فخَفِ اللاحق من النِّقَم .

فماذا كان ردّهم على مقالة نبيِّهم وموعظته لهم ؟

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

وقولهم ﴿ أَوَعَظْتَ .. ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الشعراء] دليل على أن الحق لا بُدَّ أن يظهر ، ولو على ألسنة المكابرين ، ولا يكون الوعظ إلا لمَنْ علم حكماً ، ثم تركه ، فيأتى الواعظ ليُذكِّره به ، فهو - إذن - مرحلة ثانية بعد التعليم ، فهذا القول منهم اعتراف ودليل أنهم علموا المطلوب منهم ، ثم غفلوا عنه .

وهؤلاء يقولون لنبيهم ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : أرح نفسك ، فسواء علينا وعظُك وعدم وعظِك ، ونلحظ أنهم قالوا : ﴿ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الشعراء]

---

(١) الركز : الصوت الخفى . [القاموس القويم ١/٢٧٥] . والركز : صوت الإنسان تسمعه من بعيد نحو : ركز الصائد إذا ناجى كلابه . [لسان العرب - مادة : ركز] .

ولم يقولوا مثلاً : سواء علينا أوعظتَ أم لم تَعِظْ ؛ لأن نفى الوَعْظ يُثبت له القدرة عليه .

إنما ﴿ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) ﴾ [الشعراء] يعنى : امتنع منك الوعظ نهائياً ، وكأنهم لا يريدون مسألة الوعظ هذه أبداً ، حتى فى المستقبل لن يسمعوا له .

﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣٧) ﴾

إنْ : بمعنى ما النافية ، يعنى : ما هذا الذى جئتَ به إلا ﴿ خُلُقُ.. (١٣٧) ﴾ [الشعراء] الأولين يعنى : عادة مَنْ سبقوك واختلاقهم ، يقصدون الرسل السابقين ، كما قالوا : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٦٨) ﴾ [النمل]

وقالوا : ﴿ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) ﴾ [يس]

فوصفوا نبيهم ، ومَنْ سبقوه من الرسل بالكذب والاختلاق وإيجاد شىء لم يكن موجوداً .

والخُلُق : صفة ترسخ فى النفس تصدر عنها الأفعال بيُسْر وسهولة ، والصفات التى يكتسبها الإنسان لا تعطى مهارة من أول الأمر ، بل تعطى مهارة بعد الدُّرْبة عليها ، فتصير عند صاحبها كالحركة الآلية لا تحتاج منه إلى مجهود أو معاناة .

وسبق أن ضربنا مثلاً بالصبى الذى يتعلم مثلاً الحياكة ، وكم يعانى ويضربه معلمه فى سبيل تعلُّم لضم الخيط فى الإبرة ، حتى إذا ما تعلمها الصبى وأجادها تراه فعل ذلك تلقائياً ، ودون مجهود وربما وهو مُغْمض العينين .

وأنت حينما تتعلم قيادة السيارة مثلاً لأول مرة ، كم تعانى وتقع فى أخطاء وأخطار ؟ لكن بعد التدريب والدُّرْبة تستطيع قيادتها بمهارة ، وكأنها مسألة آلية ، وكذلك الخُلُق المعنوى ، مثل هذه الدُّرْبة والآلية فى الماديات .

إذن : ﴿خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧)﴾ [الشعراء] يعنى : دعوى ادعوْهَا جميعاً ـ أى : الرسل .

وفى قراءة أخرى[1] تُوجه للمرسل إليهم بفتح الخاء وسكون اللام (خَلْق) أى : اختلاق والمعنى : نحن كمن سبقونا من الأمم لا نختلف عنهم : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾ [الزخرف]

وهؤلاء السابقون قالوا : ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ .. (٢٤)﴾ [الجاثية]

فهذه الصفة أصبحت عندنا ثابتة متأصِّلة فى النفس ، فلا تحاول زحزحتنا عنها ، فالمراد : نحن مثل السابقين لا نؤمن بمسألة البعث ، فأرح نفسك ، فلن يجدىَ معنا وعْظُك .

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨)﴾

يقولونها صريحة رداً على قوله : ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)﴾ [الشعراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾

---

(١) هى قراءة ابن كثير وأبى عمرو والكسائى . وقال الهروى : أى اختلاقهم وكذبهم . والعرب تقول : حدثنا فلان بأحاديث الخَلْق أى بالخرافات والأحاديث المفتعلة . [تفسير القرطبى ٧/٥٠٠٥] .

وكانت السماء قبل محمد ﷺ تجعل الرسول يُدلى بمعجزته ، أو يقول بمنهجه ، لكن لا تطلب منه أن يُؤدِّب المعاندين والمعارضين له إنما تتولّى السماء عنه هذه المهمة فتُوقع بالمكذبين عذابَ الاستئصال .

وقد أُمنَتْ أمة محمد ﷺ من عذاب الاستئصال ، فمَنْ كفر برسالة محمد ﷺ لا يأخذه الله كما أخذ المكذِّبين من الأمم السابقة ، إنما يقول سبحانه : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ .. (١٤) ﴾ [التوبة]

وكلمة ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ .. (١٣٩) ﴾ [الشعراء] كلمة صادقة ، لها دليل فى الوجود نراه شاخصاً ، كما يقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) ﴾ [الفجر]

نعم ، كانت لهم حضارة بلغتْ القمة ، ولم يكُنْ لها مثيل ، ومع هذا كله ما استطاعت أنْ تصون نفسها ، وأخذها الله أَخْذ عزيز مقتدر.

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات]

وقال : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا .. (٥٢) ﴾ [النمل]

أى : أنها شاخصة أمامكم تروْنها وتمرُّون عليها ، وأنتم لم تبلغوا مبلغَ هذه الحضارة ، فإذا كانت حضارتهم لم تمنعهم من أَخْذ الله العزيز المقتدر ، فينبغى عليكم أنْ تتنبهوا إلى أنكم أضعف منهم ، وأن ما حاق بالكافرين وما نزل بالمكذِّبين ليس ببعيد عن أمثالهم من الأمم الأخرى .

لذلك تجد الحضارات التى تُتوارث فى الكون كلها آلتْ إلى زوال ،

ولم نجد منهـا حضارة بـقيتْ من البداية إلى النهـاية ، ولو بُنِيَتْ هذه الحضارات على قيم ثابتة لكان فيها المناعة ضد الزوال .

وقـوله تعـالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً .. (١٣٩) ﴾ [الشـعـراء] أى : فى إهلاك هذه الحـضـارة لأمـر عظيم ، يُلفت الأنظار ، ويدعـو للتـأمل : ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) ﴾ [الشعراء]

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) ﴾

قال ﴿ رَبَّكَ .. (١٤٠) ﴾ [الشعراء] ولم يقُلْ ربهم ؛ لأن منزلة المربِّى تعظم فى التربية بـمقدار كمال المربِّى ، فكـأنه تعالى يقول : أنا ربُّك الذى أكملت تربيتك على أحسن حال ، فَمنْ أراد أنْ يرى قدرة الربوبية فليرها فى تربيـتك أنت ، والمربَّى يبلغ القـمة فى التربيـة إنْ كان مَنْ ربَّاه عظيماً .

لذلك يقول ﷺ : « أدَّبنى ربى فأحسن تأديبى »[1] .

إذن : فمن عظمة الحق ـ تبارك وتعـالى ـ أنْ يُعطى نموذجاً لدقَّة تربيته تـعالى ولعظمة تكوينه ، ولما يصنعـه على عَيْنه تعالى بمـحمد ﷺ ، فكأنه ﷺ أكرمُ مخلـوق مُربَّى فى الأرض ؛ لذلك قال ﴿ رَبَّكَ .. (١٤٠) ﴾ [الشعراء] ولم يقل : ربهم مع أن الكلام ما يزال مُتعلقاً بهم .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) ﴾ [الشعراء] العزيز قلنا : هو الذى يَغْلب ولا يُغْلَب ، لكن لا تظن أن فى هذه الـصفة جـبروتاً ؛ لأنه تعالـى أيضاً رحيم ، ومن عظمـة الأسلوب القرآنى أن يجـمع بين هاتين الصفتين : عزيز ورحيم وكأنه يشير لنا إلى مبدأ إسلامى يُربِّى

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (١/ ٧٢) : « قـال ابن تيمية : لا يُعرف له إسناد ثابت ، لكن قال (السيـوطى) فى الدرر : صـححه أبو الفضل بن ناصر . وقـال (السيوطى) فى اللآلىء : معناه صحيح لكن لم يأت من طريق صحيح » .

الإسلام عليه أتباعه ، ألا وهو الاعتدال فلا تطغى عليك خصلة أو طبْع أو خُلُق ، والزم الوسط ؛ لأن كل طبْع فى الإنسان له مهمة .

وتأمل قول الله تعالى فى صفات المؤمنين :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. (٥٤) ﴾ [المائدة]

فالمسلم ليس مجبولاً على الذلّة ولا على العزة ، إنما الموقف هو الذى يجعله ذليلاً ، أو يجعله عزيزاً ، فالمؤمن يتصف بالذلّة والخضوع للمؤمنين ، ويتصف بالعزّة على الكافرين .

ومن ذلك أيضاً : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

ومعلوم أن الرحمة فى غير موضعها ضَعْف وخَوَر ، فمثلاً الوالد الذى يرفض أن يُجرى لولده جراحة خطرة فيها نجاته وسلامته خوفاً عليه ، نقول له : إنها رحمة حمقاء وعطف فى غير محلّه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) ﴾

بعد أن ذكر طرفاً من قصة إبراهيم وموسى ونوح وهود عليهم السلام ذكر قصة ثمود قوم صالح عليه السلام ، وقد تكررتْ هذه اللقطات فى عدة مواضع من كتاب الله ؛ ذلك لأن القرآن فى علاجه لا يعالج أمةً واحدة فى بيئة واحدة بخُلق واحد ، إنما يعالج عالماً مختلف البيئات ومختلف الداءات ومختلف المواهب والميول .

فلا بُدَّ أن يجمع الله له الرسل كلهم ، ليأخذ من كل واحد منهم لقطة ؛ لأنه سيكون منهجاً للناس جميعاً فى كُلِّ زمان وفى كُلِّ مكان ،

أمّا هؤلاء الرسل الذين جمعهم الله فى سياق واحد فلم يكونوا للناس كافة ، إنما كل واحد منهم لأمة بعينها ، ولقابل واحد فى زمن مخصوص ، ومكان مخصوص .

لقد بُعث محمد ﷺ ليكون رسولاً يجمع الدنيا كلها على نظام واحد ، وخُلق واحد ، ومنهج واحد ، مع تباين بيئاتهم ، وتباين داءاتهم ومواهبهم . إذن : لا بُدَّ أن يذكر الحق - تبارك وتعالى - لرسوله ﷺ طرفاً من سيرة كل نبى سبقه .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

ورسول الله ﷺ لم يكُنْ فى حاجة لأن يُثبِّت الله فؤاده مرة واحدة ، إنما كلّما تعرّض لموقف احتاج إلى تثبيت ، فيُثبّته الله ، يقول له : تذكّر ما كان من أمر إبراهيم ، وما كان من أمر نوح وهود ... إلخ فكان تكرار القصص لتكرار التثبيت ، فالقصة فى القرآن وإنْ كانت فى مجموعها مكررة ، إنما لقطاتها مختلفة تؤدى كُلٌّ منها معنى لا تؤديه الأخرى .

وهنا يقول سبحانه كما قال عن الأمم السابقة : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) ﴾ [الشعراء] لأن الرسل جميعاً إنما جاءوا بعقيدة واحدة ، لا يختلف فيها رسول عن الآخر ، وصدروا من مصدر واحد ، هو الحق تبارك وتعالى ، ولا يختلف الرسل إلا فى المسائل الاجتماعية والبيئية التى تناسب كلاً منهم .

لذلك يقول تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ .. (١٦٣) ﴾ [النساء]

وقال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣)﴾ [الشورى]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤)﴾

قال هنا أيضاً : ﴿أَخُوهُمْ.. (١٤٢)﴾ [الشعراء] ليرقِّق قلوبهم ويُحنِّنها على نبيهم ﴿أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢)﴾ [الشعراء] قلنا : إنها استفهام إنكارى . تعنى : اتقوا الله ، ففيها حَثٌّ وحَضّ على التقوى ، فحين تُنكر النفى ، فإنك تريد الإثبات .

ولما كانت التقوى تقتضى وجود منهج نتقى الله به ، قال : ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣)﴾ [الشعراء] وما دُمْتُ أنا رسول أمين لن أغشكم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤)﴾ [الشعراء] وكرر الأمر بالتقوى مرة أخرى ، وقرنها بالطاعة .

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥)﴾

فكأن العمل الذى أقدمه من أجلكم ـ فى عُرْف العقلاء ـ يستحق أجراً ، فالعامل الذى يعمل لكم شيئاً جزئياً من مسائل الدنيا يزول وينتهى يأخذ أجراً عليه ، أما أنا فأقدّم لكم عملاً يتعدَّى الدنيا إلى الآخرة ، ويمدّ حياتك بالسعادة فى الدنيا والآخرة ، فأجْرى ـ إذن ـ كبير ؛ لذلك لا أطلبه منكم إنما من الله .

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) ﴾

يريد أن يُوبِّخهم : أتظنون أنكم ستخلُدون في هذا النعيم ، وأنتم آمنون ، أو أنكم تأخذون نِعَم الله ، ثم تفرُّون من حسابه ، كما قال سبحانه :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون]

.فمَنْ ظن ذلك فهو مخطيء قاصر الفهم ؛ لأن الأشياء التي تخدمك في الحياة لا تخدمك بقدرة منك عليها ، فأنت لا تقدر على الشمس فتأمرها أنْ تشرق كل يوم ، ولا تقدر على السحاب أن ينزل المطر ، ولا تقدر على الأرض أن تعطيها الخصوبة لتنبت ، ولا تقدر على الهواء الذي تتنفسه .. إلخ وهذه من مُقوِّمات حياتك التي لا تستطيع البقاء بدونها .

وكان من الواجب عليك أن تتأمل وتفكر : مَن الذي سخَّرها لك ، وأقدرك عليها ؟ كالرجل الذي انقطع في الصحراء وفقد دابته وعليها طعامه وشرابه حتى أشرف على الهلاك ، ثم أخذته سِنَة أفاق منها على مائدة عليها أطايب الطعام والشراب ، بالله ، أليس عليه قبل أنْ تمتد يده إليها أنْ يسأل نفسه : مَنْ أعدّ لي هذه المائدة في هذا المكان ؟

كذلك أنت طرأتَ على هذا الكون وقد أُعدَّ لك فيه كل هذا الخير ، فكان عليك أن تنظر فيه ، وفيمَنْ أعدّه لك . فإذا جاءك رسول من عند الله ليحلَّ لك هذا اللغز ، ويخبرك بأن الذي فعل كل هذا هو الله ، وأن من صفات كماله كذا وكذا ، فعليك أن تُصدِّقه .

لأنه إما أن يكون صادقاً يهديك إلى حَلٍّ لغز حار فيه عقلك ، وإما هو كاذب ـ والعياذ بالله وحاشا لله أن يكذب رسول الله على الله

ـ فإن صاحب هذا الخلق عليه أن يقوم ويدافع عن خَلْقه .

ويقـول : هذا الرسـول مُـدَّعٍ وكـاذب ، وهذا الخَلْق لى . فـإذا لم يقُمْ للخَلْق مُدَّعٍ فقد ثبتتْ القضية لله تعالى إلى أنْ يظهر مَنْ يدَّعيها لنفسه .

﴿ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ ﴾

وقوله تـعالى : ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الشـعراء] امتـداد للآية السـابقـة ، يعنى : لا تظنوا أن هذا يـدوم لكم . و (جنات) : جـمع جنة ، وهى المكان الملىء بالخـيرات ، وكل ما يحـتاجه الإنـسان ، أو هى المكان الذى إنْ سار فيه الإنسان سترتْه الأشـجار ؛ لأن جنَّ يعنى ستر . كما فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ .. ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأنعام] أى : ستره .

ومنه الجنون . ويعنى : ستْـر العقل . وكذلك الجنة ، فهـى تستر عن الوجود كله ، وتُغنيك عن الخـروج منها إلى غيرها ، ففيـها كل ما تتطلبه نفسك ، وكل ما تحتاجه فى حياتك .

ومن ذلك ما نسميه الآن (قصراً) لأن فيه كل ما تحتاجه بحيث يقصرك عن المجتمع البعيد .

وقال بعدها : ﴿ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الشعراء] لأن الجنة تحتـاج دائماً إلى الماء ، فقال ﴿ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الشعراء] ليضمن بقاءها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾

النخل من الزروع ، لكن خصَّ النخل بالذِّكْـر ، لأن رسول الله ﷺ اهتم به ، وشـبَّهـه بالمـؤمن فى الحديـث : « إن من الشجـر شجـرة لا يسقط ورقـها »[1] قال الراوى : فـوقع الناس فى شجـر البوادى ،

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١ ، ٩ مواضع أخرى) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١١) كتاب صفات المنافقين ، وأحمد فى مسنده (٢/٦١ ، ١٢٣) من حديث عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما .

ولم يهتدوا إليها ، فلما خرج عمر وابنه عبد الله قال : يا أبى ، لقد وقع فى ظنى أنها النخلة ؛ لأنها مثل المؤمن كل ما فيه خير .

نعم لو تأملتَ النخلة لوجدتَ أن كل شىء فيها نافع ، وله مهمة ، وينتفع الزارع به ، ولا يُلْقَى منها شىء مهما كان بسيطاً . فالجذوع تُصنع منها السوارى والأعمدة ، وتُسقف بها البيوت قبل ظهور الخرسانة ، ومن الجريد يصنعون الأقفاص ، والجزء المفلطح من الجريدة ويسمى (القحف) والذى لا يصلح للأقفاص كانوا يجعلونه على شكل معين ، فيصير (مقشّة) يكنسون بها المنازل .

ومن الليف يصنعون الحبال ، ويجعلونه فى تنجيد الكراسى وغيرها ، حتى الأشواك التى تراها فى جريد النخل خلقه الله لحكمة وبقدَرٍ ؛ لأنها تحمى النخلة من الفئران أثناء إثمارها ، والليف الذى ينمو بين أصول الجريد جعله الله حماية للنخلة ، وهى فى طور النمو ، وما تزال غَضَّة طرية ، فلا يحمى بعضها على بعض .

إذن : هى شجرة خيِّرة كالمؤمن ، وقد تم أخيراً فى أحد البحوث أن أخذوا الجزء الذى يسمى بالقحف ، وجعلوه فى تربة مناسبة ، فأنبتوا منه نخلة جديدة .

لذلك لما قال ابن عمر : إنها النخلة . ذهب عمر إلى رسول الله ، وحكى له مقالة ولده ، فقال ﷺ : « صدق ولدك » فقال عمر : (فوالله ما يسرنى أن فَطِن ولدى إليها أن لى حمر النعم)[1] .

---

(١) قال ابن عمر لأبيه عمر : ذكرت ذلك لعمر ، قال : « لأن تكون قلت : هى النخلة ، أحبّ إلىّ من كذا وكذا » وهو لفظ مسلم ، وفى رواية عند أحمد (٢/١٢٣) أن عمر قال لابنه : « يا بنى ، ما منعك أن تتكلم ، فو الله لأن تكون قلت ذلك أحب إلىّ من أن يكون لى كذا وكذا » .

والذين يزرعون النخيل يرونَ فيه آيات وعجائب دالّة على قدرة الله تعالى .

ومعنى ﴿ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الشعراء] الطَّلْع : هو الكوز الذى تخرج منه الشماريخ فى الأُنْثى ويخرج منه المادة المخصبة فى الذكر ، والتى قال الله عنها : ﴿ قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ .. ﴿٩٩﴾ ﴾ [الانعام]

وفى الذَّكر يخرج من الكوز المادة المخصِّبة للنخلة ، وللقنْوان أو الشماريخ أطوار فى النمو يُسمُّونه (الخلا) ، فيظل ينمو ويكبر إلى أنْ يصل إلى نهايته حَداً حيث يجمد على هذه الحالة ، ويكتمل نموه الحجمى ، ثم تبدأ مرحلة اللون .

يقولون (عفَّر) النخل : يعنى شاب خضرته حمرة أو صفرة[1] . فإذا اكتمل احمرار الأحمر واصفرار الأصفر ، يسمى (بُسْر) ثم يتحول البُسْر إلى (الرطب) حيث تلين ثمرته وتنفصل قشْرته ، فإنْ كان الجو جافاً فإنَّ الرُّطَب يَيْبس ، ويتحول إلى (التمر) حيث تتبخَّر مائيته ، وتتماسك قشْرته ، وتلتصق به .

ومعنى ﴿ هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : غَضٌّ ورَطْب طريٌّ ، وهذا يدل على خصوبة الأرض ، ومنه هضم الطعام حتى يصير ليِّناً مُسْتساغاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ[2] ﴿١٤٩﴾ ﴾

---

(١) العَفار : تلقيح النخل وإصلاحه ، وعفَّر النخل : فرغ من تلقيحه . [لسان العرب ـ مادة : عفر] .

(٢) هذه الكلمة فيها قراءتان :

– فرهين : بغير ألف ، قراءة ابن كثير وأبى عمرو ونافع .

– فارهين . بألف . وهى قراءة الباقين . قاله القرطبى فى تفسيره (٧/٥٠٠٩) . قال أبو عبيد وغيره : وهما بمعنى واحد . وقال الفراء : معنى فارهين : حاذقين . والفرِه : النشيط الأشر . والفراهة : النشاط . [انظر لسان العرب ـ مادة : فره] .

وحين تذهب إلى مدائن صالح تجد البيوت منحوتةً فى الجبال كما ينحتون الآن الأنفاق مثلاً ، لا يبنونها كما نبنى بيوتنا ، ومعنى ﴿ فَارِهِينَ (١٤٩) ﴾ [الشعراء] الفاره : النشط القوى ظاهر الموهبة ، يقولون : فلان فاره فى كذا يعني ؛ ماهر فيه ، نشط فى ممارسته .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) ﴾

المسرف : هو الذى يتجاوز الحدّ ، وتجاوز الحدِّ له مراحل ؛ لأن الله تعالى أحلَّ أشياء ، وحرّم أشياء ، وجعل لكل منهما حدوداً مرسومة ، فالسَّرَف فيما شرع الله أن تتجاوز الحلال ، فتُدخل فيه الحرام .

أو : يأتى الإسراف فى الكَسْب فيدخل فى كَسْبه الحرام . وقد يُلزم الإنسان نفسه بالحلال فى الكسب ، لكن يأتى الإسراف فى الإنفاق فينفق فيما حرَّمه الله . إذن : يأتى الإسراف فى صور ثلاثة : إما فى الأصل ، وإما فى الكسب ، وإما فى الإنفاق .

ونلحظ أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما يكلمنا عن الحلال ، يقول سبحانه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

أما فى المحرمات فيقول سبحانه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾ [البقرة] أى : ابتعد عنها ؛ لأنك لا تأمن الوقوع فيها ، ومَنْ حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . فلم يقل الحق سبحانه مثلاً : لا تُصلُّوا وأنتم سكارى . إنما قال : ﴿ لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ .. (٤٣) ﴾ [النساء]

والمعنى : خُذ الحلال كله ، لكن لا تتعداه إلى المحرَّم ، أما المحرَّم فاحذر مجردَ الاقتراب منه ؛ لأن له دواعى ستجذبك إليه .

ونقف عند قوله تعالى : ﴿ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) ﴾ [الشعراء] حيث لم يقل : ولا تسرفوا ، وكأن ربنا ـ عزّ وجلّ ـ يريد

أنْ يُوقظ غفلتنا ويُنبِّهنا ويُحذِّرنا من دعاة الباطل الذين يُزيِّنون لنا الإسرافَ في أمور حياتنا ، ويُهوِّنون علينا الحرام يقولون : لا بأس في هذا ، ولا مانع من هذا ، وهذا ليس بحرام . ربنا يعطينا المناعة اللازمة ضد هؤلاء حتى لا ننساق لضلالاتهم .

لذلك جاء في الحديث الشريف : « استفت قلبك ، واستفتِ نفسك ، وإنْ أفتوك ، وإنْ أفتوك ، وإنْ أفتوك »[1] .

وفي هذا دليل على أنه سيأتي أناس يُفتون بغير علم ، ويُزيِّنون للناس الباطل ، ويُقنعونهم به . والفتوى من الفُتوة والقوة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠ ﴾ [الأنبياء]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝١٣ ﴾ [الكهف]

كذلك الفتوى تعني : القوة في أمر الدين والتمكُّن من مسائله وقضاياه ، وإنْ كانت القوة المادية في أمر الدنيا لها حَدٌّ تنتهي عنده فإنّ القوة في أمر الدين لا تنتهي إلى حَدٍّ ، لأن الدين أمدُه واسع ، وبحره لا ساحلَ له . والقوة نعرفها في أي ناحية من النواحي ، لكن قوة القوى هي القوة في أمر الدين .

نقول : فلان فتىٌّ يعني : قويٌّ بذاته ، وأفتاه فلان أي : أعطاه القوة ، كأنه كان ضعيفاً في حُكم من أحكام الشرع ، فذهب إلى المفتي فأفتاه يعني : أعطاه فتوة في أمر الدين . مثل قولنا : غَنِيَ فلان أي : بذاته ، وأغناه أي : غيره ، كما يقول سبحانه : ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ .. ۝٧٤ ﴾ [التوبة]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/٢٢٧، ٢٢٨) والدارمي في سننه (٢/٢٤٦) من حديث وابصة بن معبد الأسدي ، وتمامه أن رسول الله ﷺ قال : « يا وابصة ، استفت نفسك ، البر ما اطمأن إليه القلب ، واطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس . قال سفيان : وأفتوك » .

إذن : فمهمة المفتى أن يُقوِّى عقيدتى ، لا أن يسرف لى فى أمر من أمور الدين ، أو يُهوِّن علىَّ ما حرَّم الله فيُجرِّئنى عليه . وعلى المفتى أن يتحرَّى الدقة فى فتواه خاصة فى المسائل الخلافية التى يقول البعض بحلِّها ، والبعض بحرمتها ، يقف عند هذه المسائل وينظر فيها رأى الإسلام المتمثل فى الحديث الشريف :

« الحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، وبينهما أمور مُشْتبهات ، فمن ترك ما شُبِّه له ـ لا من فعل ما شُبِّه له يعنى على الأقل نترك ما فيه شبهة ـ فقد استبرأ لدينه ـ إن كان متديناً ـ وعِرْضه ـ إن لم يكُنْ متديناً »[1] .

إذن : مَنْ لم يقف هذا الموقف ويترك ما فيه شبهة لم يستبرىء لدينه ولا لعِرْضه . ومَنْ لم يُفْتِ على هذا الأساس من العلماء فإنما يُضعِف أمرَ الدين لا يُقوِّيه ، وبدلَ أن نقول : أفتاه . نقول : أضعفه .

﴿ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

فوصف المسرفين بأنهم مفسدون فى الأرض غير مصلحين ، كأن الأرض خلقها الخالق ـ عز وجل ـ على هيئة الصلاح فى كل شىء ، لكن يفسدها الإنسان بتدخّله فى أمورها ؛ لذلك سبق أن قلنا : إنك لو نظرتَ إلى الكون من حولك لوجدته على أحسن حال ، وفى منتهى الاستقامة ، طالما لا تتناوله يد الإنسان ، فإنْ تدخَّل الإنسان فى شىء ظهرتْ فيه علامات الفساد .

ولا يعنى هذا ألاَّ يتدخل الإنسان فى الكون ، لا إنما يتدخل على

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير .

منهج مَنْ خلَقَ فيزيد الصالح صلاحاً ، أو على الأقل يتركه على صلاحه لا يفسده ، فإن تدخَّل على غير هذا المنهج فلا بُدَّ له أن يفسد .

فحين تمر مثلاً ببئر ماء يشرب منه الناس ، فإما أنْ تُصلح من حاله وتزيده ميزة وتُيسِّر استخدامه على الناس ، كأن تبنى له حافّة ، أو تجعل عليه آلة رَفْع تساعد الناس ، أو على الأقل تتركه على حاله لا تفسده ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥)﴾ [البقرة]

أما هؤلاء القوم فلم يكتَف القرآن بوصفهم بالفساد وحسب ، إنما أيضاً هم ﴿وَلا يُصْلِحُونَ (١٥٢)﴾ [الشعراء] ذلك لأن الإنسان قد يُفسد فى شىء ، ويُصلح فى شىء ، إنما هؤلاء دأبهم الفساد ، ولا يأتى منهم الصلاح أبداً .

ونكبة الوجود من الذين يصنعون أشياء يروْنها فى ظاهرها صلاحاً ، وهى عَيْن الفساد ؛ لأنهم لم يأخذوها بكل تقنيناتها القيمية ، وانظر مثلاً إلى المبيدات الحشرية التى ابتكروها وقالوا : إنها فتح علمى ، وسيكون لها دور كبير فى القضاء على دودة القطن وآفات الزرع ، وبمرور الزمن أصبحت هذه المبيدات وبالاً على البشرية كلها ، حيث تسمَّم الزرع وتسمَّم الحيوان ، وبالتالى الإنسان ، حتى الماء والتُّرْبة والطيور ، لدرجة أنك تستطيع القول أنها أفسدت الطبيعة التى خلقها الله .

وفى هؤلاء قال تعالى :

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾ [الكهف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣﴾

﴿الْمُسَحَّرِينَ ١٥٣﴾ [الشعراء] جمع مُسحَّر ، وهى صيغة مبالغة تدلُّ على وقوع السحر عليه أكثر من مرة ، نقول : مسحور يعنى : مرة واحدة ومُسَحَّر يعنى عدة مرات ، ومن ذلك قوله تعالى عن ملأ فرعون أنهم قالوا له : ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ٣٦ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ٣٧﴾ [الشعراء]

ولم يقل : بكل ساحر ، إنما سحَّار يعنى : هذه مهنته ، وكما تقول : ناجر ونجار ، وخائط وخياط .

وإنْ كان بعضهم قال عن نبيهم : ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ٤٧﴾ [الإسراء] فهؤلاء يقولون لنبيهم ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ١٥٣﴾ [الشعراء] وعجيب أمر أهل الباطل ؛ لأنهم يتخبطون فى هجومهم على الأنبياء ، فمرَّة يقولون : ساحر . ومرة يقولون : مسحور ، كيف والساحر لا يكون مسحوراً ؛ لأنه على الأقل يستطيع أن يحمى نفسه من السحر . قالوا : بل المراد بالمسحور اختلاط عقله ، حتى إنه لا يدرى ما يقول .

ثم إن نبيكم صالحاً - عليه السلام - إنْ كان مسحوراً فمَنْ سحره ؟ أنتم أم أتباعه ؟ إنْ كان سحره منكم فأنتم تقدرون على كَفِّ سحركم عنه ، حتى يعود إلى طبيعته ، وترونه على حقيقته ، وإنْ كان من أتباعه ، لا بُدَّ أنهم سيحاولون أنْ يعينوه على مهمته ، لا أن يُقعدوه عنها .

إذن : فقولهم لنبيهم : ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ١٥٣﴾ [الشعراء]

يريدون أن يخلُصُوا إلى عدم اتباعه هو بالذات ، فهم يريدون تديُّناً على حسب أهوائهم ، يريدون عبادة إله لا تكليفَ له ولا منهج . كالذين يعبدون الأصنام وهم سعداء بهذه العبادة ، لماذا ؟

لأن آلهتهم لا تأمرهم بشيء ولا تنهاهم عن شيء . لذلك ، فكل الدجالين ومُدَّعُو النبوة رأيناهم يُخفِّفون التكاليف عن أتباعهم ، فقديماً أسقطوا عن الناس الزكاة ، وحديثاً أباحوا لهم الاختلاط ، فلا مانع لديهم من الالتقاء بالمرأة والجلوس معها ومخاطبتها والخَلْوة بها والرقص معها ، وماذا في ذلك ونحن في القرن الحادى والعشرين ؟

فإنْ قالوا : ساحر ، نردُّ عليهم : نعم هو ساحر ، قد سحر مَنْ آمنوا به ، فلماذا لم يسحركم أنتم وتنتهى هذه المسألة ؟ إذن : هذه تُهَم لا تستقيم ، لا هو ساحر ، ولا هو مسحور ، إنه مجرد كذب وافتراء على أنبياء الله ، وعلى دعاة الخير فى كل زمان ومكان .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

وقولهم : ﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الشعراء] إذن : فوجه اعتراضهم أن يكون النبى بَشَراً ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء]

ولو بعث الله لهم ملَكاً لجاءهم على صورة بشر ، وستظل الشُّبْهة قائمة ، فمن يدريكم أن هذا البشر أصله ملَك ؟ ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا

لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام]

فالمعنى : ما دام أن الرسول بشر ، لا يمتاز علينا فى شىء فنريد منه أنْ يأتينا بآية يعنى : معجزة تُثبت لنا صدْقه فى البلاغ عن ربه ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) ﴾ [الشعراء]

ونلحظ أن الحق - تبارك وتعالى - ينتهز فرصة طلبهم لآية ومعجزة ، فأسرع إليهم بما طلبوا ، ليقيم عليهم الحُجة ، فقال بعدها :

﴿ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) ﴾

هذا إجابة لهم ؛ لأنهم طلبوا من نبيهم أنْ يُخرج لهم من الصخرة[1] ناقة تلد سَقْباً لا يكون صغيراً كولد الناقة ، إنما تلد سَقْباً فى نفس حجمها ، فأجابهم ﴿ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ .. (١٥٥) ﴾ [الشعراء] يعنى : يوم تشرب فيه ، لا يشاركها فى شُرْبها شىء من مواشيكم .

﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) ﴾ [الشعراء] أى : تشربون فيه أنتم ، وكانت الناقة تشرب من الماء فى يومها ما تشربه كلّ مواشيهم فى يومهم ، وهذه معجزة فى حَدِّ ذاتها .

---

(١) كانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عيَّنوها بأنفسهم وهى صخرة منفردة فى ناحية الحجر يقال لها الكاتبة ، فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبهم ليؤمنن به وليتبعنه ، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح إلى صلاته ودعا الله فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها . [تفسير ابن كثير ٢/٢٢٨] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ﴾

يخبر الحق سبحانه رسوله بما سيكون ، وأن القوم لن يتركوا هذه الآية ، إنما سيتعرضون لها بالإيذاء ، فقال : ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ .. ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الشعراء] لكنهم تعدَّوْا مجرد الإيذاء والإساءة فعقروها .

ثم يتوعدهم : ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الشعراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

قال(عقروها) بصيغة الجمع ، فهل اشتركتْ كل القبيلة في عَقْرها ؟ لا بل عقرها واحد منهم ، هو قدار بن سالف[1] ، لكن وافقه الجميع على ذلك ، وساعدوه[2] ، وارتضوا هذا الفعل ، فكأنهم فعلوا جميعاً ؛ لأنه استشارهم فوافقوا .

﴿ فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الشعراء] وقال العلماء : الندم مقدمة التوبة.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

---

(١) كان رجلاً أحمر أزرق قصيراً ، يزعمون أنه كان ولد زنية ، وأنه لم يكن من أبيه الذي ينسب إليه ، وهو سالف ، وإنما هو من رجل يقال له ضيان ، ولكن ولد على فراش سالف . [ابن كثير في تفسيره ٢/ ٢٢٨] .

(٢) انطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستغووه غواة من ثمود ، فاتبعهما سبعة نَفَر ، فصاروا تسعة رهط ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النمل] .

فإنْ قُلْتَ : كيف يأخذهم العذاب وقد ندموا ، والندم من مقدمات التوبة ؟

نعم ، الندم من مقدمات التوبة ، لكن توبة هؤلاء من التوبة التي قال الله عنها : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ .. (١٨) ﴾ [النساء]

إذن : ندموا وتابوا في غير أوان التوبة ، أو : أنهم أصبحوا نادمين لا ندمَ توبة من الذنب ، إنما نادمون ؛ لأنهم يخافون العذاب الذي هددهم الله به إنْ فعلوا .

ثم تُختم هذه القصة بهذا التذييل الذي عرفناه من قبل مع أمم أخرى مُكذِّبة :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩) ﴾

عزيز : يَغلِب ولا يُغلَب ، ومع ذلك هو رحيم في غَلَبه .

ثم ينتقل الحق سبحانه إلى قصة أخرى من مواكب الأنبياء والرسل :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ(١) الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) ﴾

فقال هنا أيضاً ﴿ أَخُوهُمْ .. (١٦١) ﴾ [الشعراء] لأنه منهم ليس غريباً

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٣٤٤) : « هو لوط بن هاران بن آزر ، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم عليه السلام ، وكانوا يسكنون سدوم وأعمالها ، التي أهلكها الله بها وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة وهي مشهورة ببلاد الغور بناحية حيال بيت المقدس بينها وبين بلاد الكرك والشوبك » .

عنهم ، وليُحنِّن قلوبهم عليه ﴿ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) ﴾ [الشعراء] إنكار لعدم التقوى ، وإنكار النفى يطلب الإثبات فكأنه قال : اتقوا الله .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) ﴾

وهكذا كانت مقالة لوط عليه السلام كما قال إخوانه السابقون من الرسل ؛ لأنهم يصدُرون جميعاً عن مصدر واحد .

ثم يخصُّ الحق سبحانه قوم لوط لما اشتُهروا به وكان سبباً فى إهلاكهم :

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) ﴾

فكأنها مسألة وخصلة تفردوا بها دون العالم كله .

لذلك قال فى موضع آخر : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) ﴾ [الأعراف]

أى : أن هذه المسألة لم تحدث من قبل لأنها عملية مستقذرة ؛ لأن الرجل إنما يأتى الرجل فى محل القذارة ، ولكنهم فعلوها ، فوَصْفه لها بأنها لم يأتها أحد من العالمين جعلها مسألة فظيعة للغاية .

﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) ﴾

يعنى : كان عندكم مندوحة عن هذه الفعلة النكراء بما خلق الله لكم من أزواجكم من النساء ، فتصرفون هذه الغريزة فى محلها ، ولا تنقلونها إلى الغير .

أو ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم .. (١٦٦) ﴾ [الشعراء] أى : أنهم كانوا يباشرون هذه المسألة أيضاً مع النساء فى غير محل الاستنبات ، فقوله تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. (٢٢٣) ﴾ [البقرة]

البعض يظنها على عمومها وأن ﴿ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. (٢٢٣) ﴾ [البقرة] تعطيهم الحرية فى هذه المسألة ، إنما الآية محددة بمكان الحَرْث واستنبات الولد ، وهذا محله الأمام لا الخلف .

لذلك قال بعدها : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) ﴾ [الشعراء] والعادى هو الذى شُرع له شىء يقضى فيه إربته ، فتجاوزه إلى شىء آخر حرَّمه الشرع .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) ﴾

أى : إن لم تنته عن ملامنا ومعارضتنا فيما نفعله من هذه العملية ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) ﴾ [الشعراء] كما قالوا فى آية أخرى : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ .. (٥٦) ﴾ [النمل] أى : لا مكان لهم بيننا ، لكن لماذا ؟ ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) ﴾ [النمل] سبحان الله جريمتهم أنهم يتطهرون ، ولا مكان للطُّهْر بين هؤلاء القوم الأراذل .

ثم يقول الحق سبحانه عن لوط :

﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

وفـرْقٌ بين كـونى لا أعـمل العـمل ، وكـونى أكـره مَنْ يعـمله ، فالمـعنى : أنا لا أعمل هذا العمـل ، إنما أيضاً أكـره مَنْ يعمله ، وهذا مبالغة فى إنكاره عليهم .

ثم يقول لوط :

﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾

لم يملك لوط عـليـه السـلام أمـام عناد قـومـه وإصـرارهم على هذه الفاحشة إلا أنْ يدعو ربَّه بالنجاة له ولأهله ، فأجابه الله تعالى ﴿ إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [الشعراء]

والمـراد : امرأته التى قـال الله فى حقـها : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [التحريم]

فجعلها الله ـ عز وجل ـ مثالاً للكفر والعـياذ بالله ؛ لذلك لم تكُنْ من الناجـين ، ولم تشـملهـا دعـوة لوط عليـه السـلام ، وكـانت من الغابرين[1] . يعنى : الهالكين .

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

﴿ الآخَـرِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الشـعراء] أى : الذين لم يؤمنوا بدعـوته ، ولم

(١) عن قتادة قال : غبرت فى عذاب الله . أى : بقيت [تفسير القرطبى ٧/٥٠١٢] .

ينتهوا عن هذه الفاحشة ، ثم بيَّن نوعية هذا التدمير ، فقال ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ١٧٣ ﴾ [الشعراء] ولما كان المطر من أسباب الخير وعلامات الرحمة ، حيث ينزل الماء من السماء ، فيُحيى الأرض بعد موتها ، وصف الله هذا المطر بأنه ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ١٧٣ ﴾ [الشعراء] فهو ليس مطرَ خَيْر ورحمة ، إنما مطر عذاب ونقمة .

كما جاء في آية أخرى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا .. ٢٥ ﴾ [الأحقاف]

وهذا يُسمُّونه (يأس بعد إطماع) ، وهو أبلغ في العذاب والإيلام ، حين تستشرف للخير فيُفاجئك الشر ، وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بالسجين الذي يطلب من الحارس شَرْبة ماء ، ليروى بها عطشه ، فلو حرمه الحارس من البداية لكانَ الأمر هيِّناً لكنه يحضر له كوب الماء ، حتى إذا جعله على فيه أراقه على الأرض ، فهذا أشد وأنكى ؛ لأنه حرمه بعد أن أطمعه ، وهذا عذاب آخر فوق عذاب العطش .

وفي لقطة أخرى بيَّن ماهية هذا المطر ، فقال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ٨٣ ﴾ [هود]

فالحجارة من ﴿ سِجِّيلٍ .. ٨٢ ﴾ [هود] أي : طين حُرق حتى تحجَّر وهي ﴿ مُّسَوَّمَةً .. ٨٣ ﴾ [هود] يعني : مُعلَّمة بأسماء أصحابها ، تنزل عليهم بانتظام ، كل حجر منها على صاحبه .

وبجمع اللقطات المتفرقة تتبين معالم القصة كاملة .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٤ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٧٥ ﴾

وتُختم القصة بنفس الآيات التى خُتِمتْ بها القصص السابقة من قصص المكذِّبين المعاندين .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى قوم آخرين كذبوا رسولهم شعيباً :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ[1] ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾

الأيكة : هى المكان الخصْب الذى بلغ من خصوبته أنْ تلتفّ أشجاره ، وتتشابك أغصانها ، وقال هنا أيضاً ﴿ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الشعراء] مع أنهم ما كذَّبوا إلا رسولهم ؛ لأن تكذيب رسول واحد كتكذيب كُلِّ الرسل ؛ لأنهم جميعاً جاءوا بمنهج واحد فى العقيدة والأخلاق .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ[2] أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

---

(١) ذهب ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٤٥) أن أصحاب الأيكة ، وأصحاب الرس ، وأهل مدين أمة واحدة بُعث لها رسول واحد هو شعيب عليه السلام ، قال : « من الناس من لم يفطن لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين فزعم أن شعيباً بعثه الله إلى أمتين ومنهم من قال ثلاث أمم » ثم قال « والصحيح أنهم أمة واحدة وُصفوا فى كل مقام بشىء ، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان كما فى قصة مدين سواء بسواء ، فدلّ ذلك على أنهما أمة واحدة » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٤٥) : « إنما لم يقل هنا أخوهم شعيب لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة وهى شجرة .. فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذى نسبوا إليه وإن كان أخاهم نسباً » أما رأى القرطبى فهو مبنى على أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين ، فليسوا أمة واحدة ، فقال : « لم يقل أخوهم شعيب ، لأنه لم يكن أخاً لأصحاب الأيكة فى النسب » [تفسير القرطبى ٧/٥٠١٥] .

نلحظ اختلاف الأسلوب هنا ، مما يدل على دقَّة الأداء القرآني ، فلم يقل : أخوهم شعيب ، كما قال في نوح وهود وصالح ولوط ، ذلك لأن شعيباً عليه السلام لم يكن من أصحاب الأيكة ، إنما كان غريباً عنهم .

وباقي الآيات متفقة تماماً مع مَنْ سبقه من إخوانه الرسل ؛ لأن الوحدة في المنهج العقدي أنتجتْ الوحدة في علاج المنهج ؛ لذلك قرأنا هذه الآيات عند كل الرسل الذين سبق ذكرهم .

ثم يأخذ في تفصيل الأمر الخاص بهم ؛ لأن كل أمة من الأمم التي جاءها رسول من عند الله إنما جاء ليعالج داءً خاصاً تفشَّى بها ، وكانت الأمم من قبل منعزلةً ، بعضها عن بعض ، ولا يوجد بينها وسائل اتصال تنقل هذه الداءات من أمة لأخرى .

فهؤلاء قوم عاد ، وكان داءَهم التفاخُرُ بالبناء والتعالي على الناس ، فجاء هود ـ عليه السلام ـ ليقول لهم :

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) ﴾ [الشعراء]

وثمود كان داءهم الغفلةُ والانصراف بالنعمة عن المُنْعم ، فجاء صالح ـ عليه السلام ـ يقول لهم : ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) ﴾ [الشعراء]

أما قوم لوط ـ عليه السلام ـ فقد تفرَّدوا بفاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين ، وهي إتيان الذكْران ، فجاء لوط ـ عليه السلام ـ ليمنعهم ويدعوهم إلى التوبة والإقلاع :

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) ﴾ [الشعراء]

أما أصحاب الأيكة ، فكان داءهم أنْ يُطفِّفوا المكيال والميزان ، فجاء شعيب ـ عليه السلام ـ ليقول لهم :

﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) ﴾

الكيل : آلة تُقدّر بها الأشياء التى تُكال ، ووحدته : كَيْلة أو قَدح أو أردب . والميزان كذلك : آلة يُقدِّر بها ما يُوزَن .

ومعنى ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) ﴾ [الشعراء] المخسر : هو الذى يتسبب فى خسارة الطرف الآخر فى مسألة الكيل ، بأن يأخذ بالزيادة ، وإنْ أعطى يُعطِى بالنقصان . وفى الوزن قال ﴿ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ .. (١٨٢) ﴾ [الشعراء]

والقسطاس : يعنى العدل المطلق فى قدرة البشر وإمكاناتهم فى تحرِّى الدِّقَّة فى الوزن ، مع مراعاة اختلاف الموزونات ، فوزن الذهب غير وزن التفاح مثلاً ، غير وزن العدس أو السمسم ، فعليك أنْ تتحرّى الدقة قَدْر إمكانك ، لتحقق هذا القسطاس المستقيم .

لكن ، لماذا خصَّ الكيل والوزن من وسائل التقدير والتقييم ، ولم يذكر مثلاً القياس فى المساحات والمسافات بالمتر أو بالذراع ؟

قالوا : لأن الناس قديماً ـ وكانت أمماً بدائية ـ لا تتعامل فيما يُقاس ، فلا يشترون القماش مثلاً ؛ لأنه كان يُغزل ، تغزله النساء

ويغزله الرجال ، ولم يكُنْ أحد يغزل لأحد أو يبيع له ، فهذه صورة حضارية رأيناها فيما بعد .

وقديماً ، كان الناس يتعاملون بالتبادل والمقايضة ، وفى هذه الحالة لا يوجد بائع على حدَة ولا مُشْتَر على حدَة ، فلا يتفرد البائع بالبيع ، والمشترى بالشراء ، إلا فى حالَة مبادلةَ السلعة بثمن ، كما قال تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ .. (٢٠) ﴾ [يوسف] أى : باعوه .

أما فى حالة المقايضة ، فأنت تأخذ القمح تأكله ، وأنا آخذ التمر آكله ، فالانتفاع هنا انتفاع مباشر بالسلعة ، فإنْ قدَّرْتَ أن كل واحد فى الصفقة بائع ومشتر . تقول : شرَى وباع . وإنْ قدَّرْت الأثمان التى لا ينتفع بها انتفاعاً مباشراً كالذهب والفضة ، أو أى معدن آخر ، وهذه الأشياء لا تؤكل فهى ثمن ، أمَّا الأشياء الأخرى فصالحة أنْ تكون سلعة ، وصالحة لأنْ تكون ثمناً .

وقد أفرد القرآن الكريم سورة مخصوصة لمسألة الكيل والميزان هى « سورة المطففين » ، يقول سبحانه : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) ﴾ [المطففين]

نقول : كال له يعنى : أعطاه ، واكتال عليه يعنى : أخذ منه . فإن أخذ أخذ وافياً ، وإنْ أعطى أعطى بالنقص والخسارة . والقرآن لا ينعى عليه أن يستوفى حقَّه ، لكن ينعى عليه أن ينقص من حَقِّ الآخرين ، ولو شيئاً يسيراً .

فمعنى (المطففين) من الشىء الطفيف اليسير ، فإذا كان الويل لمن يظلم فى الشىء الطفيف ، فما بال مَنْ يظلم فى الكل ؟

فاللوم هنا لمَنْ يجمع بين هذين الأمرين : يأخذ بالزيادة ويُعطى بالنقص ، أما مَنْ يعطى بالزيادة فلا بأس ، وجزاؤه على الله ، وهو من المحسنين الذين قال الله فيهم : ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ .. (٩١)﴾ [التوبة]

ومع تطور المجتمعات بدأ الناس يهتمُّون بقياس دقة آلات الكيل والوزن والقياس ، فَوُجدت هيئات متخصصة فى معايرتها والتفتيش عليها ومتابعة دقّتها ؛ لأنها مع مرور الزمن عُرْضة للنقص أو الزيادة ، فمثلاً سَنجة الحديد ـ التي نزن بها قد تزيد إنْ كانت فى مكان بحيث تتراكم عليها الزيوت والتراب ، وقد تنقص بالحركة مع مرور الوقت ، كما تنقص مثلاً أكرة الباب من كثرة الاستعمال ، فتراها لامعة ، ولمعانها دليل النقص ، وإنْ كان يسيراً .

وفى فرنسا ، نموذج للياردة وللمتر من معدن لا يتآكل ، جُعِلَتْ كمرجعٍ يُقاس عليه ، وتُضبط عليه آلات القياس .

ورأينا الآن آلات دقيقة جداً للوزن وللقياس ، تضمن لك منتهى الدقة ، خاصة فى وَزن الأشياء الثمينة ؛ لذلك نراهم يضعون الميزان الدقيق فى صندوق من الزجاج ، حتى لا تُؤثِّر فيه حركة الهواء من حوله .

ثم يقول الحق سبحانه :



البخس : النقص ، ومعنى ﴿أَشْيَاءَهُمْ .. (١٨٣)﴾ [الشعراء] حقوقهم

(١) عَثَا عثواً : أفسد أشد الإفساد . [القاموس القويم ٢/٧] .

إذن ، فالنقص من حَقِّ الغير ذنب ، وقد يكون البخس بأخْذ الشيء كله غَصْباً ، أو بالتصرف فيه دون أمر صاحبه ، أو على وجه لا يرضاه .

وهذا كله داخل فى ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (١٨٣)﴾ [الشعراء] كل ما ينقص الحق بأخذه بإنقاص . أو غَصْب أو تصرّف على غير إرادة صاحبه فهو بَخْسٌ للشيء .

فكل ما ثبت أنه حق لغيرك إياك أنْ تعتدى عليه ، فالزكاة مثلاً حينما يقول ربك ـ عَزَّ وجلَّ ـ : ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)﴾ [المعارج]

فما دام قد قيَّده الشرع ، فلا تبخس أنت حَقَّ الفقير ، لأنك حين تتأمل هذا الحق المعلوم الذى جعله الله من مالك للفقير ، تجد أنه وُضع بحكمة تُراعى مدى حركة المموِّل ، وما بذل من جهد ونفقات فى سبيل تنمية ماله ، حتى وجبتْ فيه الزكاة .

فكلما زادتْ حركتك قَلَّ مقدار الزكاة فى مالك ، فمثلاً الأرض التى تُسْقى بماء المطر فيها العُشْر ، والتى تُسْقى بآلة ونفقات فيها نصف العشر ، وفى عروض التجارة وتحتاج إلى حركة أكثر قال رُبْع العُشْر ، ذلك لأن الشارع الحكيم يريد للناس الحركة والسعى وتثمير الأموال ، حتى لا يأتى مَنْ يقول : كيف أسعى ويأخذ غيرى ثمرة سعيى ؟

والشارع حين كفل هذا الحق للفقراء ، فإنما يحمى به الفقراء والأغنياء على حَدٍّ سواء . وقد حدَّد الشارع هذا الحق ، حتى لا تزهد فى العطاء ، خاصة فى الزكاة .

إن منهج الله يريد أنْ يُصوِّب حركة الحياة من الأحياء ، يريد ألاَّ يجرى دم فى جسد إلا بخروج عَرق من هذا الجسد ، وألا يدخل دم

فى جسد من عـرق سواه ، وإلاَّ فسد المجـتمع ، وضَنَّ كل قادر على الحركة بحركـته ؛ لأنه لا يطمئن إلى ثمار حركتـه أنها لا تعود عليه ، أو أن غيره سيغتصبها منه بأىِّ لون من ألوان الاغتصاب .

عندها يفـسد المـجتـمع ؛ لأن القوى القـادر سيـزهد فى الحـركة فيقعد ، والآخذ سيتـعوَّد البطالة والكسل والخمول ، ولماذا يعمل وما يجرى فى عـروقه من دمـاء من عمل غـيره ، وبمرور الوقـت يصعب عليه العمل ، وتثـقُل عليه الحركة ، فيركَنُ إلى ما نُسـمِّيه (بلطجى) فى الحياة ، يعيش عالة على غيره .

إذن : الحق ـ تبـارك وتعـالى ـ يريد أن يُطمـئن كل إنسـان على حركـته فى الحياة وثمـرة سَعْيه ، فـلا يتلصص أحَد على ثمرة حـياة الآخر ؛ لأنه إنْ كـان عاجـزاً عن الحركـة فقـد ضمن له ربُّه حـقاً فى حـركة الآخـرين تأتيه إلى باب بيـته ، سـواء أكـانت زكاةً أم كـانت صدقة ؛ وبذلك تسلَم حركة الحياة للجميع .

لذلك أراد ـ سبـحانه وتعالى ـ أن يُعطـينا الموازين الدقيـقة التى تحفظ سلامة التعـامل بين الناس : فإنْ كلْتَ لغيرك فوفِّ الكيل ، وإنْ وزنتَ فوَفِّ الميزان ، واجعله بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخس الناس حقوقهم بأى صورة من الصور .

ولا يقتـصر الأمـر على هذه المســائل فحـسب ، إنما هى نـماذج للتعامل ، تستطيع القياس عليها فى كل أمور الـحياة فيما يُقَاس وفيما يُعَدُّ ، فى الأعمال وفى الصناعات .. إلخ .

إذن : فاحذر أنْ تتلصَّص على حقوق الآخـرين ، أو أن تبخسـها ، بأىِّ نوع من أنواع التسلُّط : غَصْـباً أو اختطافاً أو سرقةً أو اخـتلاساً أو رِشْوة .. إلخ .

وقلنا : إن السرقة أن تأخذ شيئاً من حرْزه فى غير وجود صاحبه ، والخطف يكون صاحب الشىء موجوداً ، لكنك تأخذه خَطْفاً وتفرّ به قبل أن يُمسك بك ، فإنْ أمسك بك فغالبْتَه وأخذتها رَغماً عنه فهى غَصْب ، أما الاختلاس فأنْ تأخذ من مالٍ أنت مؤتمَنٌ عليه ، ما لا يحقّ لك أَخْذه .

فإذا علم كُلٌّ متحرك فى الحياة أن ثمرة حركته تعود عليه ، وعلم كل غير متحرك أنه يموت جوعاً إنْ لم يعمل وهو قادر دبَّتْ الحركة فى كل الأحياء ، وهذا ما يريده الله تعالى لخليفته فى الأرض خاصة ، وقد خلق لنا سبحانه العقل الذى نفكر به ، والطاقة التى نعمل بها ، والمادة التى نستعين بها ، فكلٌّ ما علينا أن نُوظّف هذه الإمكانات التى خلقها الله توظيفاً مثمراً .

ثم إنْ كانت الزكاة كحقٍّ معلومة محددة ، فهناك حَقٌّ آخر غير مُحدَّد ، فى قوله سبحانه : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ⑲ ﴾ [الذاريات] ولم يقل (معلوم) ؛ لأن المراد هنا الصدقة المطلقة ، وقد تركها الحق ـ تبارك وتعالى ـ ولم يُقيِّدها ليترك الباب مفتوحاً أمام أريحية المعطى ، ومدى كرمه وإحسانه ؛ لذلك جاءت هذه الآية فى سياق الحديث عن صفات المحسنين :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ⑮ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ⑯ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] ⑰ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ⑱ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ⑲ ﴾ [الذاريات]

ولأن الحق هنا تفضّلٌ وزيادة تركه الشارع الحكيم دون تحديد .

وعجيب أن نرى أصحاب الأموال حين يُخرِج أحدهم رُبْع العشر

(١) الهجوع : النوم ليلاً . والتهجاع : النومة الخفيفة . [لسان العرب ـ مادة : هجع] .

مثلاً من مـاله ، لا ينظر إلى ما تبقَّى له من راس المـال ، وهى نسبة ٩٧,٥٪ ، وينظر إلى حَقِّ الفقير وهو يسير ٢,٥٪ .

فنراه يحتـال عليه فيُؤثر به اقـاربه أو معارفه ، أو يضعـه بحيث يعفيه من حق آخر ، كالذى يعطى زكاته للخـادمة مثلاً ، ليُرضى امها حـتى لا تأخـذهـا من يده ، ومنهم مَنْ يضع أمـوال الـزكـاة فى بناء مسجد أو مدرسة أو مسـتشفى ؛ وهذا كله لا يجوز ؛ لأن مال الزكاة حَقٌّ للمسـتحقين المعـروفين نصاً فى كتـاب الله ، ولا يصح أنْ يُوجَّه مال الزكاة لشىء ينتفع به الغنى أبداً .

ثم يقـول سـبـحـانه : ﴿وَلَا تَعْثَـوْاْ فِى الْأَرْضِ مُـفْسِـدِينَ (١٨٣)﴾ [الشعراء] عثـا : أى أفسد . فـالمعنى : لا تُفسـدوا فى الأرض ، فلماذا كرَّر الإفسـاد مرة أخرى فـقال ﴿مُفْسِدِينَ (١٨٣)﴾ [الشعراء] ؟ قالوا : المـراد : لا تعثَـوْا فى الأرض حالةَ كـونكم مفـسدين ، أو فى نيـتكم الإفسـاد .

وليس فى الآية تكرار ؛ لأنه فرَّق بين إفسـاد شىء وأنت لا تقصد إفساده ، إنمـا حركتك فى الحيـاة افسدتْه ، وبين أنْ تُفسـد عن قصد وعَمْـد للإفـسـاد ، حتـى لا نمنع العقـول أن تفكر وتُجرِّب لتـصلَ إلى الافضل ، وتُثرى حـركة الحياة ، فـما دُمْتَ قد قصـدتَ الصـلاح ، فلا عليك إنْ أخطأتَ ؛ لأن ربك ـ عَزَّ وجَلَّ ـ يتـولى تصحيح هذا الخطأ ، بل ويُعوِّضك عنه ، فمَنِ اجتهد فـأخطأ فله أجر ، ومَنِ اجتهد فأصاب فله أجران[1]

---

(١) عن عمـرو بن العاص أن رسـول الله ﷺ قال : « إذا حكم الحـاكم فاجـتهد ثم أصـاب فله أجران ، وإذا حكم فـاجتهـد ثم أخطأ فله أجر » أخـرجه البخـارى فى صحيـحه (٧٣٥٢) ، ومسلم فى صحيحه (١٧١٦) كتاب الأقضية .

إذن : المعنى : لا تُفسدوا فى الأرض وأنتم تقصدون الإفساد ، لكن فكيف نُفسد الأرض ؟ إن إفساد الأرض يعنى إفسادَ المتحرك عليها ؛ لأن الأرض خُلقَتْ للإنسان﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ(١٠) ﴾[الرحمن]

وقد خلقها الله تعالى على هيئة الصلاح ، والإنسان هو الذى يُفسدها ، بدليل أنك لا تجد الفساد إلا فيما للإنسان دَخْل فيه ، أما مَا لا تطوله يده ، فيظل على صلاحه ، وعلى استقامته وسلامته .

والإنسان الذى خلقه الله وجعله خليفة له فى أرضه طُلب منه عمارة هذه الأرض وزيادة صلاحها ، تحقيقاً لقول ربه عَزَّ وجَلَّ :
﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ[1] فِيهَا .. (٦١) ﴾ [هود]

ولا يصلح أن نستعمر الأرض وهى خراب ، فإذا ما كَثُر النسل لا يقابل زيادة فى استثمار الأرض ، فتحدث الأزمات ، ولو أن استثمار الأرض وإصلاحها سار مع زيادة النسل فى خطين متوازيين لما شعر الناس بالحاجة والضيق ، ولما أحاطت بهم الأزمات .

والآن حين تسير فى الطريق الصحراوى مثلاً تجد المزارع فى الصحراء ، وتجد القرى الجديدة تحولت فيها الأرض الجرداء إلى خضرة ونماء ، فأين كانت هذه الثورة ؟ لقد كنا كُسالى وفى غفلة حتى عَضَّنا الجوع ، وضاقتْ بنا الأرض الخضراء فى الوادى والدلتا .

وإذا لم يُصلِح الإنسان فى الأرض فلا أقلَّ من أنْ يتركها على حالها الذى خلقها الله عليه . لكن رأينا الإنسان يُفسد الماء ويلُوثه

---

(١) أى : أذن لكم فى عمارتها واستخراج قوتكم منها وجعلكم عُمَّارها . وأعمره المكان واستعمره فيه : جعله يعمره . [لسان العرب ـ مادة : عمر] .

حين يصرف فيه مُخلَّفاته ويُفسد الهواء بعادم السيارات والمصانع ، ويُفسد التربة بالكيماويات والمبيدات ، وكل هذا الإفساد خروج عن الطبيعة الصافية التى خلقها الله لنا ؛ ذلك لأننا نظرنا إلى النفع العاجل ، وأغفلنا الضرر الآجل .

لقد خلق الله لنا وسائل الركوب والانتقال ، وجعلها آمنة لا ضررَ منها : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً .. ⑧ ﴾ [النحل]

وقال : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ .. ⑦ ﴾ [النحل] نعم ، وسائل النقل الحديث أسرع ، وأراحتْ هذه المواشى ، لكنها أتعبتْ الإنسان الذى خلق الله الكون كله لراحته . فترى الرجل يركب سيارته وكل هَمِّه أنْ يُسرِع بها دون أنْ يهتم بضبطها وصيانتها ، فينطلق بها مُخلِّفاً سحابة من الدخان السَّام الذى يؤذى الناس ، أما هو فغير مكترث بشىء ؛ لأن الدخان خلفه لا يشعر به .

لكن ، احذر جيداً ، إن ربك ـ عز وجل ـ قيوم لا يغفل ولا ينام ، وكما تدين تُدان فى نفسك ، أو فى أولادك .

كذلك قبل أن نركب السيارات ونُسرِع بها يجب أنْ نُمهِّد لها الطرق حتى لا تثير الغبار فى وجوه الناس ، وتؤذى تنفسهم ، بل وتؤذى الزرع أيضاً ، كل هذه وُجوه للإفساد فى الأرض ؛ لأننا ندرس عاجلَ النفع ولا ندرس آجل الضرر .

وعليك حين تجتهد أنْ تجتهد بمقدِّمات سليمة ، لتصل إلى النتائج السليمة ، ولا تكُنْ من المفسدين فى الأرض .

ومن الإفساد فى الأرض قَطْع الطريق ، وهو أن المتلصِّص يقيم فى مكانه يرصُد ضحيته إلى أن تمر به ، والإغارة وهى أنْ يذهب المغير إلى المغَار عليه فى مَأمنه ، فيسلبه ماله .

ومن الإفساد فى الأرض الرِّشْوة ، وهى من أنكَى النكبات التى بُلِى بها المجتمع ، وهى تُولِّد التسيّب وعدم الانضباط ، فحين ترى غيرك يستغلك ، ويستحلّ مالك دون حق ، تعامله وتعامل غيره نفس المعاملة ، فتصير الأمور فى الأجهزة والمصالح إلى فوضى لا يعلم مداها إلا الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ[1] الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ﴾

فإياك أن تظن أن الله تعالى خلقنا عبثاً ، أو يتركنا هملاً ، إنما خلقنا لمهمة فى الكون ، وجعلنا جميعاً عبيداً بالنسبة له سواء ، فلم يُحَابِ منا أحداً على أحد ، وليس عنده سبحانه مراكز قوى ؛ لذلك لم يتخذ صاحبة ولا ولداً .

ولأننا جميعاً أمامه سبحانه سواء وهو خالقنا ، فقد تكفّل لنا بالرزق ورعاية المصالح ، فَمنِ ابتلاه الله بالعجز عن الحركة فتحركْتَ أنت لقضاء مصالحه ، لا بُدَّ أن ينظر الله إليك بعين البركة والمضاعفة .

فالمعوَّق والفقير بحقٍّ - لا الذى يتخذها مهنة وحرفة يرتزق بها - هذا الفقير وهذا المعوَّق هم خَلْق الله وأهل بلائه ، فحين تعطيه من

(١) قال مجاهد : الجبلة هى الخليقة . وجُبِل فلان على كذا أى خُلِق . قال الهروى : هو الجمع ذو العدد الكثير من الناس . [تفسير القرطبى ٥٠١٦/٧] .

ثمرة حركتك أنت ، وتذهب إليه وهو مطمئن فى بيته ، أنت بهذا العمل إنما تستـتـر على الله بلاءه ، وتكون يد الله التى يرزق بها هؤلاء ، وعندها لا بُدَّ أن يحبك الفقير ، وأنْ يدعو لك بالخير والبركة والزيادة والأَجْر والعافية والثواب ، ويعلم أن الله خلقه ولم يُسلمه .

أمّا إنْ ضَنَّ الغنىُّ الواجد على الفقير المعدَم ، وتخلى عن أهل البلاء ، فلا بُدَّ أنْ يسخط الفقير على الغنى ، بل يسخط على الله - والعياذ بالله - لأنه ما ذنبه أن يكون فقيراً ، وغيره غنىٌّ فى مجتمع لا يرحم .

وعجيب أن نرى مُبتلىً يُظهر بلواه للناس ، بل ويستغلها فى ابتزازهم ، فيُظهر لهم إعاقته ، كأنه يشكو الخالق للخَلْق ، ولو أنه ستر على الله بلاءه وعلِم أنه نعمة أنعم الله بها عليه لَسخَّر الله له عافية غير المبتلى ، ولجاءه رزقه على باب بيته ، فلو رَضِى أهل البلاء لأعطاهم الله على قَدْر ما ابتلاهم .

فمعنى : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ .. (١٨٤) ﴾ [الشعراء] أى : احذروا جبروته ؛ لأنه خلقكم ، وضمن لكم الأرزاق ، وضمن لكم قضاء الحاجات ، حتى العاجز عن الحركة سخَّر له القادر ، وجعل للغنى شرطاً فى إيمانه أنْ يُعطى جزءاً من سَعْيه للفقير ، ويُوصِّله إليه وهو مطمئن .

ومعنى : ﴿ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ (١٨٤) ﴾ [الشعراء] الجبلة من الجبَل ، وكان له دور فى حياة العربى ، وعليه تدور الكثير من تعبيراتهم ، ففيه صفات الفخامة والعظمة والرسوخ والثبات ، فاشتقوا من الجبل (الجبلّة) وتعنى الملازمة والثبات على الشىء .

ومن ذلك نقول : فلان مجبول على الخير يعنى : ملازم له لا يفارقه ، وفلان كالجبل لا تزحزحه الأحداث ، والعامة تقول : فلان

جبلَّة يعنى : ثقيل على النفس ، وقد يزيد فيقول : (مال جبلّتك وارمة) مبالغة فى الوصف .

حتى أن بعض الشعراء يمدح ممدوحه بأنه ثابت كالجبل ، حتى بعد موته ، فيقول عن ممدوحه وقد حملوه فى نعشه :

مَا كنتُ أَحْسَبُ قَبْلَ نَعْشكَ أنْ أرَى   رَضْوَى[1] علَى أيدى الرجَالِ يَسِير

ورَضْوى جبل اشْتُهر بين العرب بضخامته .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً .. (٦٢) ﴾ [يس]

ومعنى : ﴿ والْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ (١٨٤) ﴾ [الشعراء] أى : الناس السابقين الذين جُبلوا على العناد وتكذيب الرسُل ، فالله خلقكم وخلقهم ، وقد رأيتُم ما فعل الله بهم لما كذَّبوا رسُله ، لقد كتب الله النصر لرسله والهزيمة لمن كذَّبهم ، فهؤلاء الذين سبقوكم من الأمم جُبلوا على التكذيب ، وكانوا ثابتين عليه لم يُزحزحهم عن التكذيب شىء ، فاحذروا أن تكونوا مثلهم فينزل بكم ما نزل بهم . فماذا كان ردّهم ؟

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥ ﴾

قلنا : إن مُسحَّر : أى سحّره غيره ، وهى صيغة مبالغة للدلالة على حدوث السحر ووقوعه عليه أكثر من مرة ، فلو سُحر مرة واحدة لَقُلْنا : مسحور والمعنى : أنك مخْتَلُّ العقل والتفكير ، مجنون ، لن نسمع لك .

﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ١٨٦ ﴾

---

(١) رضوى : جبل بالمدينة . [لسان العرب ـ مادة : رضى] .

وما دُمْت انت بشراً مثلنا ، ولم تتميز عنّا بشيء ، فكيف تكون رسولاً ؟ ثم ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) ﴾ [الشعراء] أي : وما نظنك إلا كذاباً ، كالذين سبقوك .

﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا[1] مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) ﴾

أي : إنْ كنتَ صادقاً ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. (١٨٧) ﴾ [الشعراء] يطلبون العذاب ويستعجلونه ، كما قال سبحانه في آية أخرى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا[2] عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾ [الأحقاف]

ومن العجيب حين ينزل بهم العذاب يقولون انظرنا ، كيف وأنتم الذين استعجلتم العذاب ؟

ومعنى ﴿ كِسَفًا .. (١٨٧) ﴾ [الشعراء] مفردها كِسْفة ، مثل قِطَع وقطعة ، وقد وردتْ هذه الكلمة على ألسنة كثير من المكذِّبين ، وقالها الكفار للنبي محمد ﷺ : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) ﴾ [الإسراء]

---

(١) أي : جانباً من السماء وقطعة منها ، فننظر إليه . قال الجوهري : الكسفة القطعة من الشيء [تفسير القرطبي ٥٠١٦/٧] .

(٢) أي : أجئتنا لتصرفنا وتصدنا . والأفّاك : الذي يأفك الناس أي : يصدهم عن الحق بباطله . [لسان العرب ـ مادة : افك] .

وقالوا ﴿ اللَّهُمَّ إن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وكان عليهم أن يقولوا : اللهم إنْ كان هـذا هو الحقّ من عندك فاهْدِنا إليه ، وهذا يدلُّك على حُمْقهم وعنادهم .

﴿ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) ﴾

فهو سبحانه العليم بكم : إنْ كنتم أهلاً للتوبة والندم والأمل ، أنْ تتوبوا فلن يصيبكم العذاب ، أو كنتم مُصرِّين على العصيان والتكذيب ، فسوف يصيبكم عذاب الهلاك والاستئصال ، فأنا لن أحكمَ عليكم بشيء ؛ لأنني بشر مثلكم لا أعرف ما فى نياتكم ؛ لذلك سأكِلُ أمركم إلى ربكم ـ عز وجل ـ الذى يعلم أمرى وأمركم ، وسِرِّى وسرَّكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) ﴾

فكيف يُكذِّبونه ، وهو لم ينسب الأمر لنفسه ، ووكلهم إلى ربهم إذن : فهم لا يُكذِّبونه إنما يُكذِّبون الله ؛ لذلك يأتى الجزاء : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ .. (١٨٩) ﴾ [الشعراء]

وهو عذاب يوم مشهود ، حيث سلط الله عليهم الحرارة الشديدة سبعة أيام ، عاشوها فى قيظ شديد ، وقد حجز الله عنهم الريح إلا بمقدار ما يُبقى رَمَق الحياة فيهم ، حتى اشتد عليهم الأمر وحميَتْ من تحتهم الرمال ، فراحوا يلتمسون شيئاً يُروِّح عنهم ، فرأوا غمامة

قادمة فى جو السماء فاستشرفوا لها وظنوها تخفف عنهم حرارة الشمس ، وتُروِّح عن نفوسهم ، فلما استظلُّوا بها ينتظرون الراحة والطمأنينة عاجلتهم بالنار تسقط عليهم كالمطر .

على حَدِّ قوْل الشاعر :

كَمَا أمطَرتْ يَوْماً ظماءً غمامةٌ ... فلمَّا رأَوْهَا أقشعَتْ وتجلَّت[1]

ويا ليت هذه السحابة أقشعت وتركتهم على حالهم ، إنما قذفتهم بالنار والحُمَم من فوقهم ، فزادتهم عذاباً على عذابهم .

كما قال سبحانه فى آية أخرى :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا[2] مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ .. (٢٥) ﴾ [الأحقاف]

لذلك وصف الله عذاب هذا اليوم بأنه ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) ﴾ [الشعراء] فما وَجْه عظمته وهو عذاب ؟ قالوا : لأنه جاء بعد استبشار واسترواح وأمل فى الراحة ، ففاجأهم ما زادهم عذاباً ، وهذا ما نسميه « يأس بعد إطماع » وهو أنكى فى التعذيب وأشقّ على النفوس .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) ﴾

قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. (١٩٠) ﴾ [الشعراء] أى : فيما حدثتكم به ﴿ لَآيَةً .. (١٩٠) ﴾ [الشعراء] يعنى : عبرة ، وسُمِّيَتْ كذلك لأنها تعبر

(١) انقشع السحاب وتقشَّع : ذهب عن وجه السماء . وانقشع الغيم وتقشَّع وقشعته الريح ، أى : كشفته فانقشع . [لسان العرب ـ مادة : قشع] .

(٢) العارض : السحابة إذا كانت فى ناحية من السماء ، والعارض يكون أبيض اللون . [لسان العرب ـ مادة : عرض] .

بصاحبها من حال إلى حال ، فإنْ كان مُكذباً آمن وصدق ، وإن كان معانداً لاَنَ للحق وأطاع .

وما قصصتُه عليكم من مواكب الرسل وأقوامهم ، وهذا الموكب يضم سبعة من رسل الله مع أممهم : موسى ، وإبراهيم ، ونوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب عليهم جميعاً وعلى نبينا السلام ، وقد مضى هذا الموكب على سنة لله ثابتة لا تتخلف ، هى : أن ينصر الله ـ عز وجل ـ رسله والمؤمنين معهم ، ويخذل الكافرين المكذِّبين .

فلتأخذوا يا آل محمد من هذا الموكب عبرة ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً .. (١٩٠) ﴾ [الشعراء] يعنى عبرةً لكم ، وسُمِّيتْ عبرة ؛ لأنها تعبر بصاحبها من حال إلى حال ، فإنْ كان مُكذِّباً آمن وصدَّق ، وإنْ كان معانداً لاَنَ للحق وأطاع ، وقد رأيتم أننا لم نُسْلِم رسولاً من رسلنا للمكذبين به ، وكانت سنتنا فى الرسل أن ننصرهم .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) ﴾ [الصافات]

وقال : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

ومن العبرة نقول : عبر الطريق يعنى : انتقل من جانب إلى جانب ، والعبرة هنا أن ننتقل من التكذيب واللدَد والجحود والكبرياء إلى الإيمان والتصديق والطاعة ، حتى العَبرة (الدَّمْعة) مأخوذة من هذا المعنى .

وفى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) ﴾ [الشعراء] حماية واحتراس حتى لا نهضم حق القلَّة التى آمنت[1] .

---

(١) قيل : آمن بشعيب من الفئتين (أهل مدين ، أصحاب الأيكة) تسعمائة نفر . [نقله القرطبى فى تفسيره ٧/٥٠١٨] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾

ربك : الرب هو المتولِّى الرعاية والتربية . وبهذه الخاتمة خُتمتْ جميع القصص السابقة ، ومع ما حدث منهم من تكذيب تُختم بهذه الخاتمة الدَّالة على العزة والرحمة .

ثم ينتقل السياق إلى خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ بعد أنْ قدَّم لنا العبرة والعظة فى موكب الرسل السابقين ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ﴾

﴿ وَإِنَّهُ .. ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الشعراء] على أىِّ شىء يعود هذا الضمير ؟ المفروض أن يسبقه مرجع يرجع إليه هذا الضمير وهو لم يُسبَق بشىء . تقول : جاءنى رجل فأكرمتُه فيعود ضمير الغائب فى أكرمته على (رجل)

وكما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ [الإخلاص] فالضمير هنا يعود على لفظ الجلالة ، مع أنه متأخر عنه ، ذلك لاستحضار عظمته تعالى فى النفس فلا تغيب .

كذلك ﴿ إِنَّهُ .. ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الشعراء] أى : القرآن الكريم وعرفناه من قوله سبحانه : ﴿ لَتنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الشعراء] وقُدِّم الضمير على مرجعه لشهرته وعدم انصراف الذِّهْن إلا إليه ، فحين تقول ﴿ هو اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ [الإخلاص] لا ينصرف إلا إلى الله ، ﴿ وَإِنَّهُ لَتنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الشعراء] لا ينصرف إلا إلى القرآن الكريم[1] .

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٤٧) : « (وَإِنَّهُ) أى القرآن الذى تقدم ذكره فى أول السورة فى قوله ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الشعراء] » .

وقال ﴿ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الشعراء]

أى : أنه كلام الله لم أقلْهُ من عندى ، خاصة وأن رسول الله ﷺ لم يسبق له أنْ وقف خطيباً فى قومه ، ولم يُعرف عنه قبل الرسالة أنه خطيب أو صاحب قَوْل .

إذن : فهو بمقاييس الدنيا دونكم فى هذه المسألة ، فإذا كان ما جاء به من عنده فلماذا لم تأتُوا بمثله ؟ وأنتم أصحاب تجربة فى القول والخطابة فى عكاظ وذى المجاز وذى المجنة ، فإن كان محمد قد افترى القرآن فأنتم أقدر على الافتراء ؛ لأنكم أهل دُرْبة فى هذه المسألة .

و ﴿ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الشعراء] : كل ما سوى الله عزَّ وجلَّ ؛ لذلك كان ﷺ رحمة للعالمين للإنس وللجن وللملائكة وغيرها من العوالم .

لذلك لما نزلت : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء] سأل سيدنا رسول الله جبريل عليه السلام : « أما لك من هذه الرحمة شىء يا أخى يا جبريل ؟» فقال : نعم ، كنت أخشى سوء العاقبة كإبليس ، فلما أنزل الله عليك قوله : ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [التكوير] أمنْتُ العاقبة ، فتلك هى الرحمة التى نالتنى .

وليس القرآن وحده تنزيلَ رب العالمين ، إنما كل الكتب السابقة السماوية كانت تنزيلَ رب العالمين ، لكن الفرق بين القرآن والكتب السابقة أنها كانت تأتى بمنهج الرسول فقط ، ثم تكون له معجزة فى أمر آخر تثبت صِدْقه فى البلاغ عن الله .

فموسى عليه السلام كان كتابه التوراة ، ومعجزته العصا ، وعيسى عليه السلام كان كتابه الإنجيل ، ومعجزته إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ، أما محمد ﷺ فكان كتابه ومنهجه القرآن ومعجزته أيضاً ، فالمعجزة هى عَيْن المنهج . فلماذا ؟

قالوا : لأن القرآن جاء منهجاً للناس كافّة فى الزمان وفى المكان فلا بد - إذن - أن يكون المنهج هو عَيْن المعجزة ، والمعجزة هى عَيْن المنهج ، وما دام الأمر كذلك فلا يصنع هذه المعجزة إلا الله ، فهو تنزيل رب العالمين .

أما الكتب السابقة فقد كانت لأمة بعينها فى فترة محددة من الزمن ، وقد نزلتْ هذه الكتب بمعناها لا بنصِّها ؛ لذلك عيسى - عليه السلام - يقول : « سأجعل كلامى فى فمه »[1] أى : أن كلام الله سيكون فى فم الرسول بنصِّه ومعناه من عند الله ، وما دام بنصِّه من عند الله فهو تنزيل رب العالمين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾

كان من الممكن أن يكون الوحى من عند الله إلهاماً أو نَفْثاً فى الرَّوْع ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء] إذن : الأمر ليس نَفْثاً فى رَوْع رسول الله بحكم ما ، إنما يأتيه روح القُدُس وأمين الوحى يقول له : قال الله كذا وكذا .

---

(١) أصل هذه البشارة برسول الله ﷺ فى التوراة (العهد القديم) المنزّل على موسى : « أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ، ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه » [سفر التثنية - الأصحاح ١٨ - عدد ١٨ ، ١٩] . قال رحمت الله الهندى فى « إظهار الحق » ص ٥١٠ « هو إشارة إلى أن ذلك النبى سينزل عليه الكتاب ، وإلى أنه سيكون أمياً حافظاً للكلام » .

لذلك لم يثبت القرآن إلا بطريق الوحى ، بواسطة جبريل عليه السلام ، فيأتيه الملك ؛ ولذلك علامات يعرفها ويحسّها ، ويتفصّد جبينه منه عرقاً ، ثم يُسرَّى عنه ، وهذه كلها علامات حضور الملَك ومباشرته لرسول الله ، هذا هو الوحى ، أمّا مجرد الإلهام أو النَّفْث فى الرَّوْع فلا يثبت به وَحْى .

لذلك كان جلساء رسول الله يعرفونه ساعة يأتيه الوحى ، وكانوا يسمعون فوق رأسه ﷺ كدوىّ النحل[1] أثناء نزول القرآن عليه ، وكان الأمر يثقل على رسول الله ، حتى إنه إنْ أسند فَخذه على أحد الصحابة أثناء الوحى يشعر الصحابى بثقلها كأنها جبل[2] ، وإذا نزل الوحى ورسول الله على دابته يثقل عليها حتى تنخ به[3] ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝٥﴾ [المزمل]

ولم تهدأ مشقَّة الوحى على رسول الله إلا بعد أنْ فتَر عنه الوحى ، وانقطع فترة حتى تشوَّق له رسول الله ﷺ وانتظره ، وبعدها نزل عليه قوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح]

---

(١) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول : « كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحى يُسمع عند وجهه دوىّ كدوىّ النحل » . أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٤) .

(٢) ذكر البخارى فى صحيحه ـ كتاب الصلاة ، باب ما يذكر فى الفخذ (١٢) قول زيد بن ثابت كاتب الوحى رضى الله عنه موقوفاً عليه : أنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذى ، فثقلت علىَّ حتى خفت أن تُرضَّ فخذى (فتح البارى ١/ ٤٧٨) . وقال ابن حجر : هو طرف من حديث موصول عند البخارى فى تفسير سورة النساء فى نزول قوله تعالى : ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .. ۝٩٥﴾ [النساء] (أخرجه البخارى فى صحيحه ـ ٤٥٩٢) .

(٣) عن أسماء بنت يزيد قالت : « إنى لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله إذ أنزلت عليه (سورة) المائدة كلها ، فكادت من ثقلها تدق بعضد الناقة » أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٤٥٥) .

ونزلت عليه : ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ ﴾ [الضحى]

يعني : سيعاودك الوحي في سهولة ودون مشقَّة ، ولن تتعب في تلقيه ، كما كنتَ تعاني من قبل .

وقوله تعالى ﴿ نَزَلَ .. ۝١٩٣ ﴾ [الشعراء] تفيد العلو ، وأن القرآن نزل من أعلى من عند الله ، ليس من وضع بشر يخطيء ويصيب ويجهل المصلحة ، كما نرى في القوانين الوضعية التي تُعدَّل كل يوم ، ولا تتناسب ومقتضيات التطور ، والتي يظهر عُوَارها يوماً بعد يوم .

ولأن القرآن نزل من أعلى فيجب علينا أن نستقبله استقبالَ الواثقِ فيه المطمئن به ، لا نعانده ، ولا نتكبر عليه ؛ لأنك تتكبر على مساوٍ لك ، أمَّا ما جاءك من أعلى فيلزمك الانقياد له ، عن اقتناع .

وفي الريف نسمعهم يقولون (اللي الشرع يقطع صباعه ميخرش دم) لماذا ؟ لأنه قُطِع بأمر الأعلى منك ، بأمر الله ، لا بأمر واحد مثلك .

وحين نتأمل قوله تعالى في التشريع لحكم من الأحكام : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. ۝١٥١ ﴾ [الأنعام]

كلمة (تعالوا) تعني : اتركوا حضيض تشريع الأرض ، وأقْبلوا على رِفْعة تشريع السماء ، فتعالوا أيْ : تعلَّوا وارتفعوا ، لا تهبطوا إلى مستوى الأرض ، وإلا تعبتُم وعضَّتكم الأحداث ؛ لأن الذي يُشرِّع لكم بشر أمثالكم وإنْ كانوا حتى حَسَنِي النية ، فهم لا يعلمون حقائق الأمور ، فإنْ أصابوا في شيء أخطأوا في أشياء ، وسوف تُضطرون

لتغيير هذه التشريعات وتعديلها . إذن : فالأسلم لكم أنْ تأخذوا من الأعلى ؛ لأنه سبحانه العليم بما يُصلحكم .

إذن : ﴿ نَزَلَ .. (١٩٣) ﴾ [الشعراء] تفيد أنه من الأعلى من مصدر الخير ، حتى الحديد وهو من نعَم الله ، لما تكلم عنه قال سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

ولم يَقُلْ مثلاً : أنزلنا الألماظ أو الألماس ، أو غيره من المعادن النفيسة ، لماذا ؟ لأن الحديد أداة من أدوات نُصْرة الدعوة وإعلاء كلمة الله .

وسُمِّى جبريل - عليه السلام - الروح ؛ لأن الروح بها الحياة ، والملائكة أحياء لكن ليس لهم مادة ، فكأنهم أرواح مطلقة ، أما البشر فمادة فيها روح .

كما أن كلمة الروح استُعملَتْ عدة استعمالات منها ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى .. (٨٥) ﴾ [الإسراء] والمراد الروح التى نحيا بها .

وسُمِّى القرآن رُوحاً : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. (٥٢) ﴾ [الشورى] إذن : فالقرآن روح ، والملَك الذى نزل به روح ، فإنْ قلتَ : فما حاجتى إلى الروح وفىَّ روح ؟

نقول لك : هذه الروح التى تحيا بها مادتك ، والتى تفارقك حين تموت وتنتهى المسألة ، أمّا الروح التى تأتيك فى القرآن فهى روح باقية خالدة ، إنها منهج الله الذى يعطيك الحياة الأبدية التى لا تنتهى .

لذلك ، فالروح التى تحيا بها المادة للمؤمن وللكافر على حَدٍّ

سواء ، أمّا الروح التى تأتيك من كتاب الله وفى منهجه ، فهى للمؤمن خاصة ، وهى باقية ، وبها تستأنف حياة جديدة خالدة بعد حياة المادة الفانية .

واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

كيف وها نحن أحياء ؟ نعم ، نحن أحياء بالروح الأولى روح المادة الفانية ، أمّا رسول الله فهو يدعونا للحياة الباقية ، وكأنه ـ عز وجل ـ يشير إلى أن هذه الحياة التى نحياها ليست هى الحياة الحقيقية ؛ لأنها ستنتهى ، وهناك حياة أخرى باقية دائمة .

حتى مجرد قولنا نحن أحياء فيه تجاوز ؛ لأن الأحياء هم الذين لا يموتون ، وهذه الحياة لا تأتى إلا بمنهج الله ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] فالحيوان مبالغة فى الحياة ، أى : الحياة الحقيقية ، أما حياة المادة فأىّ حياة هذه التى يموت فيها المرء يوم مولده ، أو حتى بعد مائة عام ؟!

ثم يَصف الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الروح بأنه ﴿ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء] أى : على الوحى ، القرآن ـ إذن ـ مَصُون عند الله ، مصون عند الروح الأمين الذى نزل به ، مَصُون عند النبى الأمين الذى نزل عليه .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[1] (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) ﴾ [الحاقة]

---

(١) الوتين : عرْق فى القلب إذا قُطع مات صاحبه ، وهو الشريان الرئيسى الهام الذى يغذى الجسم بالدم النقى الخارج من القلب ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) ﴾ [الحاقة] أى : أمتناه عاجلاً وأهلكناه سريعاً إذا خالف أمرنا أىّ مخالفة . [القاموس القويم ٢/٣١٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ[١] (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (٢٥) ﴾ [التكوير]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) ﴾

نزل القرآن على أذن رسول الله ، أم على قلبه ؟ الأذن هى : أداة السمع ، لكن قال تعالى ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ .. (١٩٤) ﴾ [الشعراء] لأن الأذن وسيلة عبور للقلب ، لأنه محلُّ التلقِّى ، وهو (دينامو) الحركة فى جسم الإنسان ، فبالدم الذى يضخُّه فى أعضاء الجسم وأجهزته تتولَّد الطاقات والقدرة على الحركة وأداء الوظائف .

لذلك نرى المريض مثلاً يأخذ الدواء عن طريق الفم ، فيدور الدواء دورة الطعام ، ويُمتصُّ ببطء . فإنْ أردتَ سرعة وصول الدواء للجسم تعطيه حقنة فى العضل ، لكن الأسرع من هذا أن تعطيه حقنة فى الوريد ، فتختلط بالدم مباشرة ، وتُحدث أثرها فى الجسم بسرعة ، فالدم هو وسيلة الحياة فى النفس البشرية .

إذن : فالقلب هو محلُّ الاعتبار والتأمل ، وليس لسماع الأذن قيمة إذا لم يَعِ القلب ما تسمع الأذن ؛ لذلك يقول سبحانه فى موضع آخر : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ .. (٩٧) ﴾ [البقرة]

فالمعنى : نزَّله على قلبك مباشرة ، كأنه لم يمرّ بالأذن ؛ لأن الله تعالى اصطفى لذلك رسولاً صنعه على عينه ، وأزال عنه العقبات البشرية التى تعوق هذه المباشرة ، فكأن قلبه ﷺ أصبح منتبهاً لتلقِّى

---

(١) الضنين : البخيل . فهو سبحانه لا يكتم غيباً عن رسول الله ، بل يبلغه كل ما أوحاه الله إليه من خبر السماء [القاموس القويم ١/٣٩٦] .

كـلام الله ؛ لأنه مصنوع على عَـيْن الله ، أمـا الذين سمـعوا كـلام الله بآذانهم فلم يتجاوبوا معه ، فكانت قلوبهم مغلقة قاسية فلم تفهم .

والقلب محل التكاليف ، ومُـستقرّ العـقائد ، وإليه تنتهى مُـحصِّلة وسائـل الإدراك كلها ، فـالعيْن ترى ، والأذن تسـمع ، والأنف يشمّ ، والأيدى تلمس .. ثم يُعرض هذا كله عـلى العقل ليختـار بين البدائل ، فإذا اختار العقل واطمأن إلى قضية ينقلها إلى القلب لتستقر به ؛ لذلك نسميهـا عقيدة يعنى : أمْر عقد القلب عليـه ، فلم يَعُدْ يطفو إلى العقل ليبحث من جديد ، لقد ترسَّخ فى القلب ، وأصبح عقيدة ثابتة .

وفى آيات كثـيرة نجد المـعوّل والنظر إلى القلب ، يقـول تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ .. (٣٧) ﴾ [الحج]

وفى آية أخرى يُبـيِّن أن التقوى مـحلُّها القلب : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) ﴾ [الحج]

وفى الشـهادة يقول تعالى : ﴿ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ .. (٢٨٣) ﴾ [البقرة] مع أن الشـهادة باللسـان ، لا بالقلب .

لذلك يقول النبى ﷺ فى الحـديث الذى رواه النعمان بن بشـير : « ألا إن فى الجـسـد مُضْـغـة ، إذا صلُحتْ صلُحَ الجـسـد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[1] .

ويُحدِّثنا صحابة النبى ﷺ أنه كان ينزل عليه الوحى بآيات كثيرة بما يوازى رُبْعين أو ثلاثة أرباع مرة واحـدة ، فإذا ما سُرِّى عنه ﷺ قـال : اكتـبـوا ، ثم يقـرؤها عليـهم مع وَضْع كل آية فى مكانهـا من

---

(١) حديث مـتفق عليه . أخرجـه البخارى فى صـحيحه (٢٠٥١) ، وكـذا مسلم فى صـحيحـه (١٥٩٩) ، وأحمـد فى مسنده (٤/ ٢٧٠ ، ٢٧٤) من حديث الـنعمان بن بشـير ، وأوله : « إن الحلال بيِّن ، وإن الحرام بيِّن » .

سورتها ، ثم يقرؤها ﷺ في الصلاة ، فتكون هي هي كما أملاها عليهم ؛ ذلك لأن القرآن باشر قلبه لا أذنه .

وكان ﷺ لحرْصه على حفظ القرآن يُردِّده خلف جبريل ويكرره حتى لا ينساه ، فأنزل الله عليه[١] : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ۝٦﴾ [الأعلى]

وقال في موضع آخر : ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝١١٤﴾ [طه]

وقال تعالى : ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۝١٩﴾ [القيامة]

ومن عجيب أمر القرآن أنك لا تجد شخصاً يُلقي كلمة لمدة خمس دقائق مثلاً ، ثم يعيدها عليك كما قالها نَصّاً ، أمّا النبي ﷺ فكانت تُلْقَى عليه السورة ، فيعيدها كما هي ، ذلك من قوله تعالى : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ۝٦﴾ [الأعلى]

وقوله سبحانه : ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾ [الشعراء] المنذر : الذي يُحذِّر من الشر قبل وقوعه ليحتاط السامع فلا يقع في دواعي الشر ، ولا يكون الإنذار ساعةَ وقوع الشر ، لأنه في هذه الحالة لا يُجْدي ، وكذلك البشارة بالخير تكون قبل حدوثه لتحثَّ السامع على الخير ، وتحفزه إليه .

ويقول سبحانه في آية أخرى : ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ .. ۝٦﴾ [يس]

---

(١) عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ إذا أتاه جبريل بالوحي لم يفرغ حتى يزمل من الوحي يتكلم النبي ﷺ بأوله مخافة أن يُغْشي عليه ، فقال له جبريل ، لم تفعل ذلك ؟ قال : مخافة أن أنسى . فأنزل الله عز وجل ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ۝٦﴾ [الأعلى] . أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١٢٦٤٩) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٦/٧) وقال « فيه جويبر وهو ضعيف » وكذا ضعَّفه السيوطي في أسباب النزول (ص ٢٩٦) .

فكما أنذر الرسلُ السابقون أقوامهم ، أَنْذِر أنت قومك ، وانضمّ إلى موكب الرسالات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء] فإنْ كان القرآن قد نزل على قلبك ، فكيف يسمعونه ؟ وكيف يكتبونه ؟ ويحفظونه ؟ يأتى هنا دَوْر اللسان العربى الذى يُخرِج القرآن إلى الناس . إذن : فمنطق رسول الله بعد نزوله على القلب ، ويُؤخِّر اللسان ؛ لأنه وسيلة الحفظ والصيانة والقراءة .

ومعنى ﴿ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء] أى : واضح ظاهر ، محيط بكل أقضية الحياة ، لكن يأتى مَنْ يقول : إنْ كان القرآن نزل بلسان عربى ، فما بال الكلمات غير العربية التى نطق بها ؟ فكلمة قسطاس رومية[١] ، وآمين حبشية ، وسجيل فارسية[٢] .

ونقول : معنى اللسان العربى ما نطق به العرب ، ودار على ألسنتهم ؛ لأنه أصبح من لغتهم وصار عربياً ، وإنْ كان من لغات أخرى ، والمراد أنه لم يَأْتِ بكلام جديد لم تعرفه العرب ، فقبل أنْ ينزل القرآن كانت هذه الكلمة شائعة فى اللسان العربى .

ونزل القرآن باللسان العربى خاصةً ؛ لأن العرب هم أمة استقبال

(١) أخرج الفريابى عن مجاهد ، قال : القسطاس : العدل بالرومية . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : القسطاس بلغة الروم : الميزان [الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١١٥/٢] .

(٢) أخرج الفريابى عن مجاهد ، قال : سجيل بالفارسية . أولها حجارة وآخرها طين . [الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١١٢/٢] .

الدعوة وحاملوها إلى باقى الأمم ، فلا بُدَّ أنْ يفهموا عن القرآن . فإنْ قُلْتَ : فالأمم الأخرى غير العربية مخاطبةٌ أيضاً بهذا القرآن العربى ، فكيف يستقبلونه ويفهمون عنه ؟ نقول : مَنْ سمعه من العرب عليه أن يُبلغه بلسان القوم الذين يدعوهم ، وهذه مهمتنا نحن العرب تجاه كتاب الله .

﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾

الضمير فى ﴿إِنَّهُ .. (١٩٦)﴾ [الشعراء] يصح أنْ يعود على القرآن كسابقه ، ويصح أنْ يعود على رسول الله ، ومعنى ﴿زُبُرِ .. (١٩٦)﴾ [الشعراء] جمع زبور يعنى : مكتوب مسطور ، ولو أن العقول التى عارضتْ رسول الله ، وأنكرتْ عليه رسالته ، وأنكرتْ عليه معجزته فَطنوا إلى الرسالات السابقة عليه مباشرة ، وهى : اليهودية والنَصرانية فى التوراة والإنجيل لوجبَ عليهم أنْ يُصدِّقوه ؛ لأنه مذكور فى كتب الأولين .

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِى الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾ [الأعلى]

فالمبادىء العامة من العقائد والأخلاق والعدل الإلهى وقصص الأنبياء كلها أمور ثابتة فى كل الكتب وعند جميع الأنبياء ، ولا يتغير إلا الأحكام من كتاب لآخر ، لتناسب العصر والأوان الذى جاءتْ فيه .

وحين تقرأ قوله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣)﴾ [الشورى]

تقول : ولماذا ـ إذن ـ نزل القرآن ؟ ولماذا لم يَقُل وصَّينا به محمداً ؟

قالوا : لأن الأحكام ستتغير ؛ لتناسب كل العصور التى نزل

القرآن لهدايتها ، ولكل الأماكن ، ولتناسب عمومية الإسلام .

لذلك رُوِى عن عبد الله بن سلام[1] وآخر اسمه ابن يامين ، وكانوا من أهل الكتاب ، وشهد كلاهما أنه رأى ذكر محمد ﷺ فى التوراة ، وفى الإنجيل . والقرآن يقول عنهم : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (١٤٦) ﴾ [البقرة]

ولما سمعها ابن سلام قال : ربنا تساهل معنا فى هذه المسألة ، فوالله إنى لأعرفه كمعرفتى لولدى ، ومعرفتى لمحمد أشد[2] .

ويقول تعالى فى هذا المعنى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ .. (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

ويقول سبحانه على لسان عيسى عليه السلام حين يقف خطيباً فى قومه : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ .. (٦) ﴾[الصف]

إذن : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ (١٩٦) ﴾ [الشعراء] أى : محمد ﷺ أو هو القرآن الكريم ، فكلاهما صحيح ؛ لأن صفة رسول الله ﷺ موجودة فى هذه الكتب ، أو القرآن فى عموم مبادئه فى العقائد والأخلاق والبعث وسير الأنبياء .

فكان الواجب على الذين جاءهم القرآن أنْ يؤمنوا به ، خاصة وأن رسول الله كان أمياً لم يجلس إلى معلم ، وتاريخه فى ذلك معروف لهم ، حيث لم يسبق له أن قرأ أو كتب شيئاً .

---

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى ، أبو يوسف ، صحابى أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، وكان اسمه الحصين ، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله ، وشهد مع عمر فتح بيت المقدس ، أقام بالمدينة إلى أن توفى عام ٤٣ هـ (الأعلام للزركلى ٤/٩٠) .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (١/١٩٤) : « قال القرطبى : يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله ابن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه » .

والقرآن يؤكد هذه المسألة ، فيقول تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ [العنكبوت]

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا[1] فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) ﴾ [القصص]

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ.. (٤٤) ﴾ [القصص]

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ.. (٤٤) ﴾ [آل عمران]

فكل هذه الآيات وغيرها دليل على أنه ﷺ لا علْمَ له بها إلا بواسطة الوَحْي المباشر في القرآن الكريم ، وكان على القوم أن يؤمنوا به أول ما سمعوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ[2] (١٩٧) ﴾

آية : أى دليلاً وعلامةً على أن القرآن من عند الله ؛ لأن علماء بني إسرائيل كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، أو لم يقولوا للأوْس والخزرج في المدينة : لقد أظلَّ زمان نبيٍّ يأتي سنتبعه ونقتلكم به أيها المشركون قَتْل عاد وإرم[3] ، ومع ذلك لما بُعث النبي ﷺ أنكروه وكفروا به ، وهم يعرفون أنه حق ، لماذا ؟

---

(١) ثوى بالمكان : حلَّه وأقام فيه واستقر به . والمعنى : ما كنت مقيماً عندهم . [القاموس القويم ١/١١٢] .

(٢) أخرج ابن سعد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطية العوفي : كانوا خمسة : أسد ، وأسيد ، وابن يامين ، وثعلبة ، وعبد الله بن سلام . [أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٢٣] .

(٣) عن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيُبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير في تفسيره (١/١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق .

قالوا : لأنهم تنبَّهوا إلى أنه سيسلبهم القيادة ، وكانوا فى المدينة أهل علم ، وأهل كتاب ، وأهل بصر ، وأهل حروب .. إلخ . وليلةَ هاجر النبى ﷺ إلى المدينة كانوا يستعدون لتتويج عبد الله بن أُبىٍّ ملكاً عليها ، فلما جاءها النبى ﷺ أفسد عليهم هذه المسألة ؛ لذلك حسدوه على هذه المكانة ، فقد أخذ منهم السُّلْطة الزمنية والتى كانت لهم .

وقال ﴿ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) ﴾ [الشعراء] لأنهم كانوا يعرفون صِدْق رسول الله ، ولأنه ﷺ جاء بأشياء لا يعرفها إلا هم ، وقد اشتهر منهم خمسة ، هم : عبد الله بن سلام ، وأسد ، وأسيد ، وثعلبة ، وابن يامين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) ﴾

لقد أنزلنا القرآن بلسان عربى على أمة عربية ، ولو أنزلناه على الأعاجم ما فهموه[1] .

وقال الحق وسبحانه وتعالى فى موضع آخر : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَـٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) ﴾ [فصلت]

(١) قال قتادة : يقول : لو نزلنا هذا القرآن على بعض الأعجمين لكانت العرب أشد الناس فيه ، لا يفهمونه ولا يدرون ما هو ؟ أخرجه عبد بن حميد وابن أبى حاتم .
- وقال قتادة أيضاً : لو أنزله الله عجمياً لكانوا أخسر الناس به لأنهم لا يعرفون العجمية . أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير . [ذكرهما السيوطى فى الدر المنثور ٦/٣٢٣] .

لماذا ؟ لأن المستقبل مقفول ، فإنْ أردتَ استقبال أيِّ قضية فعليك أنْ تُخرِج من قلبك أيّ قضية أخرى معارضة لها ، ثم بعد ذلك لك أنْ تدرس القضيتين ، فما وافق الحق فأدخلْه .

لذلك يقول تعالى : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. ④﴾ [الأحزاب] فهو قلب واحد ، لذلك أخرج منه كل قضية سابقة ، وها هو القرآن واحد ، وقائله واحد ، ومُبلِّغه واحد ، ولسانه عربي .

يقول تعالى في وصفهم حالَ سماع القرآن : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ[1] إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ⑫⑦﴾ [التوبة] أي : يريدون التسلُّل والخروج .

ويقول تعالى في آية أخرى : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا .. ⑫④﴾ [التوبة] أي : ماذا أفادتكم ؟ وماذا زادتْ في إيمانكم ؟

ويقول سبحانه : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا[2] لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ⑯﴾ [محمد] يعني : ما الجديد الذي جاء به ؟

ويقول عن الذين آمنوا : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ⑰﴾ [محمد]

---

(١) قال ابن عباس فيما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم : هم المنافقون . (أورده السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٢٦) .

(٢) عن ابن جريج قال : كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون إلى النبي ﷺ فيستمع المؤمنون منه ما يقول ويعونه ، ويسمعه المنافقون فلا يعونه ، فإذا خرجوا سألوا المؤمنين : ماذا قال آنفاً ؟ فنزلت ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ .. ⑯﴾ [محمد] . ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/٤٦٦) وعزاه لابن المنذر .

و ﴿ الأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ [الشعراء] جمع : أعجمى ، والأعجم هو الذى لا يُحسن الكلام العربى ، وإنْ كان ينطق به ، والعجمىّ ضد العربىّ والعجم غير العرب .. فالمعنى ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ ..﴿١٩٨﴾ ﴾ [الشعراء] أى : القرآن العربى على بعض الأعجمين ما فهمه ، وقال ﴿ بَعْضِ .. ﴿١٩٨﴾ ﴾ [الشعراء] لمراعاة الاحتمال ، فمن العجم مَنْ تعلَّم العربية وأجادها ويستطيع فَهْم القرآن .

وقوله تعالى : ﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الشعراء] لأنهم لم يفهموا منه شيئاً ، فكذلك أنتم مثل هؤلاء العجم فى تلقِّى واستقبال كلام الله ، لم تفهموا منه شيئاً .

ذلك لأنهم أحبوا الكفر والعناد وأصرُّوا عليه ، واستراحتْ إليه قلوبهم حتى عَشقوه ، فأعانهم الله عليه ، وختم على قلوبهم ، فلا يدخلها إيمانٌ ، ولا يخرج منها كفر .

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾

معنى ﴿ سَلَكْنَاهُ .. ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الشعراء] أدخلناه فى قلوب المجرمين ، كأنهم عجم لا يفهمون منه شيئاً ، لذلك ﴿ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الشعراء] وما داموا لن يؤمنوا به حتى يروا العذاب الأليم فلن يُقبلَ منهم إيمان .

ومعنى ﴿ بَغْتَةً .. ﴿٢٠٢﴾ ﴾ [الشعراء] أى : فجأة ، ومن حيث لا يشعرون .

لذلك لما نزل القرآن وآمن برسول الله بعض الصحابة اضْطهد رسول الله وصحابته ، وأوذوا حتى صاروا لا يأمنون على أنفسهم من بَطْش الكفار ، حتى كانوا يبيتون في السلاح ، ويستيقظون في السلاح ، لا يجدون مَنْ يحميه .

وفي هذه الحالة نزل قوله تعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ⟨٤٥⟩﴾ [القمر] فتعجب عمر رضي الله عنه : أيٌّ جمع هذا الذي سيُهزم ، والمسلمون على هذه الحال ؟ فلما شهد بدراً وما كان فيها من قتْل المشركين ونُصْرة دين الله ، قال : نعم صدق الله ، سيُهزم الجمع ويُولُّون الدبر[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ⟨٢٠٣⟩ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ⟨٢٠٤⟩﴾

أي : انظرونا وتمهَّلوا علينا ، وأخِّروا عنَّا العذاب ، سبحان الله ألم تستعجلوه[2] ؟ وهذه طبيعة أهل العناد والكفر إنْ تركناهم طلبوا أنْ ينزل عليهم ، وإنْ نزل بهم العذاب قالوا : انظرونا وتمهَّلوا علينا .

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (٢٦٦/٤) وعزاه لابن أبي حاتم عن عكرمة قال : « لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ⟨٤٥⟩﴾ [القمر] قال عمر : أيّ جمع يُهزم ؟ أي أيّ جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول : « سيُهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ .

(٢) يقول تعالى عنهم : ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ⟨١٦⟩﴾ [ص] أي : عجِّل لنا العذاب . وقال تعالى : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ⟨٥٣⟩ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ⟨٥٤⟩﴾ [العنكبوت] .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ[1] سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

﴿ أَفَرَأَيْتَ .. ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [الشعراء] يعني : أخبرني ﴿ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الشعراء] ومع طول المدة، إلا أن الغاية واحدة[2] ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [الشعراء]

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾

كما قال سبحانه في آية أخرى : ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [الانعام] ، فقد جاءهم رسول يُعلِّمهم وينذرهم ؛ ليقيم عليهم الحجة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء]

هذا كله ﴿ ذِكْرَىٰ .. ﴿٢٠٩﴾ ﴾ [الشعراء] تعني : نذكره لنُوقظ غفلتكم ﴿ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ [الشعراء] فأنتم الذين فعلتم هذا بأنفسكم ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٥٠٢١/٧) : « المراد أهل مكة في قول الضحاك وغيره » .

(٢) أي : لو أخرناهم وانظرناهم وأملينا لهم برهة من الدهر وحيناً من الزمان وإن طال ثم جاءهم أمر الله ، أيّ شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعيم [تفسير ابن كثير ٣٤٨/٣].

ثم يقول الحق سبحانه عن القرآن :

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) ﴾

لأنهم قالوا : إنما تنزَّلت الشياطين على محمد بالقرآن ، وكانوا يقولون ذلك لكل شاعر ماهر بشعره عندهم ، فلكل شاعر شيطان يُمليه الشِّعْر ، وعندهم واد يُسمَّى وادى « عبقر » هو وادى الجن ، فيقولون : فلان عبقرى أى : موصول بالجن فى هذا الوادى .

لكن ، كيف والكتاب الذى نزل على محمد عدو للشياطين ، يلعنهم فى كل مناسبة ، ويُحذِّر أتباعه منهم : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ .. (٢٦٨) ﴾ [البقرة] ويقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) ﴾ [فاطر]

فكيف - إذن - يمده الشيطان ويُمليه عليه ، وهو عدوه ؟ ولماذا لم يأتكم وأنتم أحباؤه ؟ هذه واحدة .

الأخرى : ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) ﴾ [الشعراء] إن الله جعل القرآن مُعْجزاً ومنهجاً ، والمعجزة لا يتسلَّط عليها إنس ولا جن فيفسدها ، لذلك قال سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

أما الكتب السابقة فقد طلبتْ من المؤمنين بها أنْ يحفظوها ، وفَرْق بين الحفظ منى ، وطلب الحفظ منكم ؛ لأن الطلب تكليف وهو عُرْضة لأنْ يُطاع ولأنْ يُعصَى ، وقد جربنا حفظ البشر فلم يحافظوا على كتبهم السابقة ؛ لذلك تولّى الحق - سبحانه وتعالى - حِفْظ قرآنه

بنفسه ، ولم يكِلْه إلى أحد من خَلْقه .

لذلك تجد فى هذا المجال كثيراً من العجائب والمفارقات ، فمع تقدُّم الزمن وطغيان الحضارات المعادية للإسلام ، والتى تُمطرنا كل يوم بوابل من الانحرافات والخروج عن تعاليم الدين ، ومنّا مَنْ ينساق خلفهم ، وهذا كله ينقص من الأحكام المطبّقة من الإسلام .

لكن مع هذا كله تجد القرآن يزداد توثيقاً ، ويزداد حفظاً ، ويتبارى حتى غير المسلمين فى حفْظ كتاب الله وتوثيقه ، والتجديد فى طباعته ، حتى رأينا مصحفاً فى ورقة واحدة ، ومصحفاً فى حجم عقلة الإصبع ، ويفخر بعضهم الآن بأنه يملك أصغر مصحف فى العالم .. إلخ بصرف النظر عن دوافعهم مِنْ وراء هذا .

المهم أن الله تعالى يُسخِّر حتى أعداء القرآن لحفْظ القرآن ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾ [المدثر]

أليس من وسائل نَشْر القرآن والمحافظة عليه آلات التسجيل وآلات تكبير الصوت التى تنشر كلام الله فى كل مكان ؟ ولم يلْق شىءٌ من الكتب السابقة مثل هذه العناية .

إذن : فالعناية بالقرآن كنصٍّ لا تتناسب مع النقص فى أحكامه وانصراف أهله عنها ، وكأن الله - عز وجل - يقول لنا : سأحفظ هذا النصَّ بغير المؤمنين به ، وسأجعلهم يُوثِّقونه ويهتمون به ؛ ليكون ذلك حجة عليكم .

لذلك كان عند الألمان قبل الحرب العالمية خزانة بها أدراج ، فى كل درج منها آية من القرآن ، يُحفظ به كل ما كُتب عن هذه الآية بدايةً من تفسير ابن عباس إلى وقتها ، وهذا دليل على أنهم مُسخَّرون بقوة خفية لا يقدر عليها إلا الله عز وجل ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر]

وسبق أن قلنا : إن بعض النساء يَسِرْنَ في الشوارع كاشفات عن صدورهن ، ومع ذلك تتحلَّى بمصحف على صدرها ، وليتها تستر صدرها ولا تُعلِّق المصحف .

فكيف تقولون تنزلت به الشياطين ، وقد جاء القرآن ليعلن لأهله عداءه لهم والحذر منهم ؟ كيف والشياطين لا تتنزل إلا على كل كفَّار أثيم ، وأنتم أوْلَى بأن تتنزَّل عليكم ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١) ﴾ [الأنعام]

ومعنى : ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) ﴾ [الشعراء] أن هذه المسألة فوق قدراتهم ؛ لأن الحق تبارك وتعالى قال :

﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) ﴾

وقد شرح الحق سبحانه هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ[1] فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) ﴾ [الجن]

وبعد ذلك يتكلم عن استقبال المنهج من الرسول ومن آله وأتباعه ، ومن المؤمنين جميعاً :

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال ﷺ : « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترق السمع ، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدَّد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة » . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٠١ ، ٤٨٠٠) وابن ماجة في سننه (١٩٤) .

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾

خاطب الحق ـ تبارك وتعالى ـ نبيه محمداً ﷺ بقوله : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء] فهل كان ﷺ مظنة أن يدعو مع الله إلهاً آخر ؟ قالوا : لا ، إنما المراد ابتداء توجيه ، وابتداء تكليف ، كأنه يقول له : اجعل عندك مبدءًا ، أنك لا تتخذ مع الله إلهاً آخر ، لا أن الرسول اتخذ إلهاً ، فجاء الوحي لينهاه ، إنما هو بداية تشريع وتكليف ، وإذا كان العظيم المرسَل ﷺ يتوعده الله إنْ أراد أن يتخذ إلهاً آخر ، فما بالك بمَنْ هو دونه ؟

فساعةَ يسمع الناس هذا الخطاب مُوجّهاً إلى النبى المرسَل إليهم ، فلا بُدَّ أنْ يصغوا إليه ، ويحذروا ما فيه من تحذير ، كما لو وجَّه رئيس الدولة أمراً إلى رئيس الوزراء مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ وحذَّره من عاقبة مخالفته ، فلا شكَّ أن مَنْ دونه من الموظفين سيكون أطوع منه لهذا الأمر .

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾

وهكذا نقل الأمر من رسول الله إلى أهله وعشيرته الأقربين ، ذلك ليطمئن الآخرون من قومه ، فهو يأمرهم بأمر ليس بنجْوة عنه ، فأول ما ألزم به ألزم نفسه ثم عشيرته ، وهذا أدْعى للطاعة وللقبول ، فأنت تردُّ أمرى إذا كنتُ آمرك به ولا أفعله ، لكنى آمرك وأسبقك إلى الفعل .

لذلك سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ وكان على المنبر يخطب فى الناس ، ويقول : أيها الناس ، اسمعوا وأطيعوا ، فقام أعرابى وقال : لا سمعَ لك ولا طاعة ، انظر إلى هذه الجرأة على مَنْ ؟ على عمر وهو على المنبر ـ فقال له عمر : ولِمَ ؟

قال : لأن ثيابك أطول من ثيابنا ـ وكان القماش يُوزَّع بين المسلمين بالتساوى لا فَرْقَ بين طويل وقصير ـ فقال عمر لابنه عبد الله : قُم يا عبد الله لتُرى الناس ، فقام عبد الله فقال : إن أبى رجل طوَال ـ مبالغة فى الطول ـ وثوبه فى المسلمين لم يكْفِه ، فأعطيتَه ثوبى فوصله بثوبه ، وها أنذا بمُرقَّعتى بينكم ، عندها قال الأعرابى : إذنْ نسمع ونطيع[1] .

لكن أين القدوة فى دوائرنا ومصالحنا الحكومية الآن ؟ وأين هو رئيس المصلحة الذى يحضر ، ويجلس على مكتبه فى الثامنة صباحاً ليكون قدوة لمرؤوسيه ؟ وإن من أشد ما ابتُلينا به أن نفقد القدوة فى الرؤساء والمسئولين . لذلك أول ما وُجِّه التشريع والتكليف وُجِّه إلى رسول الله ، وإلى أقرب الناس إليه وهم عشيرته الأقربون ؛ لأن الفساد يأتى أول ما يأتى من دوائر القُرْبى والحاشية التى تحيط بالإنسان ، وقد يكون الرئيس أو الحاكم بخير ، لكن حاشيته هى سبب الفساد ، حيث تستغل اسمه فى فسادها أو تُضلِّله وتُعمِّى عليه الحقائق .. إلخ .

لذلك كان سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ ساعة يريد أن يُقرِّر شيئاً للأمة ، ويعلم أنه قَاسٍ عليهم يجمع أهله أولاً ويقول لهم : لقد شاء الله أن أقرر كذا وكذاً ، فمَنْ خالفنى منكم فى شىء من هذا جعلته نكالاً لعامة المسلمين ، وهكذا يضمن أهْله وأقاربه أولاً ، ويبدأ بهم تنفيذ ما أراده للمسلمين .

---

(١) عن الحسن ، قال : خطب عمر الناس وهو خليفة وعليه إزار فيه ثنتا عشرة رقعة . وعن أنس قال : كان بين كتفى عمر ثلاث رقاع . [أورده ابن الجوزى فى صفة الصفوة ١٤٧/١] .

وتأمل ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشعراء] والإنذار كما ذكرنا التحذير من الشرِّ قبل أوانه ، فلم يقُلْ : بشِّر عشيرتك ، كأنه يقول له : إياك أنْ يأخذك به لين ورأفة ، أو عطف لقرابتهم لك ، بل بهم فابدأ .

وقد امتثل رسول الله ﷺ لهذا التوجيه ، فكان ﷺ يقول لقرابته : « يا عباس يا عم رسول الله ، يا صفية عمة رسول الله ، يا فاطمة بنت محمد ، اعملوا فإني لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، ولا يأتينى الناس بأعمالهم ، وتأتونى بأنسابكم »[1] .

وفى الوقت الذى يدعوه إلى إنذار عشيرته الأقربين يقول فى مقابلها :

﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٢١٥) ﴾

بعد أن أمره بالشدة على أهله وقرابته يأمره باللين ، وخَفْض الجناح لباقى المؤمنين به ، وخَفْض الجناح كناية عن اللُّطْف واللين فى المعاملة ، وقَد أُخِذ هذا المعنى من الطائر حين يحنو على فراخه ، ويضمهم بجناحه .

وخَفْض الجناح دليل الحنان ، لا الذلّة والانكسار ، وفى المقابل نقول (فلان فارد أجنحته) إذا تكبَّر وتجبُّر ، وتقول (فلان مجنح لى) إذا عصا أوامرك .

وفى موضع آخر : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الحجر]

---

(١) عن أبى هريرة قال : قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشعراء] قال : يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئاً » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٥٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٠٦) .

وقال فى حَقِّ الوالدين : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ .. (٢٤) ﴾ [الإسراء] فلا نقول : كُنْ ذليلاً لهم ، إنما كُنْ رحيماً بهم ، حَنُوناً عليهم ، ففى هذا عزّك ونجاتك .

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) ﴾

فإنْ عصاك الأقارب فلا تتردد فى أنْ تعلنها ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) ﴾ [الشعراء] وعندها لا تراعى فيهم حَقَّ الرحم ، ولا حَقّ القُرْبى ، لأنه لا حَقَّ لهم ؛ لذلك قال ﴿ فَقُلْ .. (٢١٦) ﴾ [الشعراء] ولم يقل تبرأ منهم ؛ لأنه قد يتبرأ منهم فيما بينه وبينهم .

لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أنْ يعلنها رسول الله على الملأ ليعلمها الجميع ، وربنا يُعلِّمنا هنا درساً حتى لا نحابى أحداً ، أو نجامله لقرابته ، أو لمكانته حتى تستقيم أمور الحياة .

والذى يُفسد حياتنا وينشر فيها الفوضى واللامبالاة أنْ ننافق ونجامل الرؤساء والمسئولين ، ونُغطِّى على تجاوزاتهم ، ونأخذهم بالهوادة والرحمة ، وهذا كله يهدم معنويات المجتمع ، ويدعو للفوضى والتهاون .

لذلك يعلمنا الإسلام أنْ نعلنها صراحة ﴿ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) ﴾ [الشعراء] وليأخذ القانون مجراه ، وليتساوى أمامه الجميع ، ولو عرف المخالف أنه سيكون عبرة لغيره لارتدع .

لذلك يُقال عن عمر رضى الله عنه أنه حكم الدنيا كلها ، والحقيقة أنه حكم نفسه أولاً ، فحكمتْ له الدنيا ، وكذلك مَنْ أراد أنْ يحكم الدنيا فى كل زمان ومكان عليه أنْ يحكم نفسه ، فلا يجرؤ أحد من أتباعه أن يخالفه ، وساعة أن يراه الناس قدوة ينصاعون له بالسمع والطاعة .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾

فقد تقول : إنْ فعلتَ هذا قلَّ أنصارى وتفرَّق الأتباع والحاشية من حولى ، نقول لك : إياك أنْ تظنَّ أنهم يجلبون لك نفعاً ، أو يدفعون عنك ضراً ، فالأمر كله بيده تعالى وبأمره ، فخيرٌ لك أنْ تراعى الله ، وأن تتوكل عليه .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾ [الشعراء] العزيز الذى يَغْلب ولا يُغلب ، ويَقْهر ولا يُقهر ، ومع ذلك فهو سبحانه رحيم بك وبهم . وصفة الرحمة هنا تنفى ما يظنه البعض أن العزة هنا تقتضى الجبروت أو القهر أو الظلم ، فهو سبحانه فى عِزَّته رحيم ، لأن عزة العزيز على المتكبِّر رحمة بالمتكبَّر عليه .

وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يُعلِّم خليفته فى أرضه خاصة أولى الأمر منهم ، يُعلِّمه أن يكون أريباً ناصحاً ، يقول له : إياك أنْ تتوكَّل على عبد مثلك إذا عجزتَ عن العمل ؛ لأنه عاجز مثلك ، وما دام الأمر كذلك فتوكَّل على العزيز الرحيم ، فعزَّته ورحمته لك أنت .

﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ[1] ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾

أى : توكل على الذى يحبك ، ويُقدِّر عملك وعبادتك حين تقوم ، والمعنى تقوم له سبحانه بالليل والناس نيام ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [الشعراء] ونفهم من ذلك أنه يصح أن تقوم وحدك بالليل .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٥٢) : « أى : هو معتنٍ بك » وأورد أقوالاً منها :
« - أى : حين تقوم إلى الصلاة . قاله ابن عباس .
- يرى قيامه وركوعه وسجوده . قاله عكرمة .
- يراك إذا صليت وحدك . قاله الحسن البصرى .
- يراك حين تقوم من فراشك أو مجلسك . قاله الضحاك .
- يراك قائماً وجالساً وعلى حالاتك . قاله قتادة » .

وقوله ﴿ الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) ﴾ [الشعراء] يرى حالك فى هذا القيام ، وما أنت عليه من الفرح ، وسرعة الاستجابة لنداء الله فى قوله : الله أكبر ، يراك حين تقوم على حالة انشراح القلب والإقبال على الله والنشاط للعبادة ، لا على حال الكسل والتراخى .

وإنْ أقبلتَ على الله أعطاك من الفُيوضات ما يُعوِّضك مكاسب الدنيا وتجارتها ، إنْ تركتها لإجابة النداء ؛ لذلك كان شعار الأذان الذى ارتضاه رسول الله ﷺ (الله أكبر) أى : أكبر من أىِّ شىء غيره ، فإنْ كنتَ فى نوم ، فالله أكبر من النوم ، وإنْ كنتَ فى تجارة ، فالله أكبر من التجارة ، وإنْ كنتَ فى عمل فالله أكبر من العمل.. إلخ .

وعجيب أن نرى مَنْ يُقدِّم العمل على الصلاة بحجة امتداد الوقت ، وإمكانية الصلاة بعد انتهاء العمل ، وهذه حجة واهية ؛ لأن ربك حين يناديك (الله أكبر) يريدك أنْ تستجيب على الفور لا على التراخى ، وإلا كيف تسمى الاستجابة للنداء إذا تأخرت عن وقتها ؟ فطول الوقت خاصة بين الصبح والظهر وبين العشاء والصبح لا يعنى أنْ تصلى فى طول هذا الوقت ؛ لأن النداء يقتضى الإسراع والاستجابة .

ولنا ملحظ فى (الله أكبر) فأكبر أفعل تفضيل تدلُّ على المبالغة ودون أكبر نقول : كبير ، وكأنها إشارة إلى أن العمل والسعى ليس شيئاً هيناً أو تافهاً ، إنما هو كبير ، ينبغى الاهتمام به ؛ لأنه عَصَب الحياة ، ولا تستقيم الأمور فى عمارة الأرض إلا به .

لكن ، إنْ كان العمل كبيراً فالله أكبر ، فربُّك - عز وجل - لا يُزهِّدك فى العمل ، ولا يُزهِّدك فى الدنيا ؛ لأنه خالقها على هذه الصورة وجاعل للعمل فيها دوراً ، وإنْ شئتَ فاقرأ : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ

الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. ⑩ ﴾ [الجمعة]

وقال فى موضع آخر : ﴿ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. ⑦⑦ ﴾ [القصص] لأن حركة الحياة هى التى تُعينك على أداء الصلاة وعلى عبادة الله ، فبها تقتات ، وبها تتقوَّى ، وبها تستر عورتك ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . ومع هذا فدعوة الله لك أَوْلَى بالتقديم ، وأَوْلَى بالإجابة ؛ لأن الذى خلقك وخلقها ناداك (الله أكبر) .

و ﴿ تَقَلُّبَكَ .. ②①⑨ ﴾ [الشعراء] تعنى[1] : القعود والقيام والركوع والسجود ، فربُّك يراك فى كل هذه الأحوال ، ويرى سرورك بمقامك بين يديه ، فإذا ما توكلتَ عليه فأنت تستحق أن يكون ربُّك عزيزاً رحيماً من أجلك .

أو : أن المعنى ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ②①⑨ ﴾ [الشعراء] أنه ﷺ كان يرى صحابته وهم يُصلُّون خلفه ، فيرى مَنْ خلفه ، كما يرى مَنْ أمامه ، وكانت هذه من خصائصه ﷺ[2] .

لذلك كان يُحذِّرهم أنْ يسبقوه فى الصلاة فى ركوع أو سجود ، أو قيام أو قعود . ويحذرهم أنْ يفعلوا فى الصلاة خلفه ما لا يصح من المصلى اعتماداً على أنه ﷺ لا يراهم .

---

(١) قال مجاهد وقتادة : وتقلبك فى المصلين . وقال ابن عباس : اى فى أصلاب الآباء آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبياً . ذكرهما القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٠٢٤) .

(٢) عن أبى هريرة قال : صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً ، ثم انصرف فقال : « يا فلان ألا تحسن صلاتك ؟ ألا ينظر المصلى إذا صلى كيف يصلى ؟ فإنما يصلى لنفسه ، إنى والله لأبصر من ورائى كما أبصر مَنْ بين يدىَّ » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٢٣) ، والنسائى فى سننه (٢/ ١١٩) .

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

السميع لما يقال ، العليم بما يجول فى الخواطر .

﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾ ﴾

وقد سبق أن قالوا عن القرآن تنزلت به الشياطين ، فيردُّ عليهم : تعالوا أخبركم على مَنْ تتنزل الشياطين ، وأصحح لكم هذه المعلومات الخاطئة : صحيح أن الشياطين تتنزل ، لكن لا تتنزل على محمد ؛ لأنه عدوها ، إنما تتنزل على أوليائها .

قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ.. ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام]

﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [الشعراء] فهذا الذى يناسب الشياطين ويرضيهم ، والجن قسمان : فمنه الصالح وغير الصالح[1] وهذا الذى يسمونه الشياطين .

وكلمة ﴿ أَفَّاكٍ .. ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [الشعراء] مبالغة فى الإفك أى : قلب الحقائق . وكان هؤلاء يخطفون الأخبار فيقولون شيئاً قد يصادف الصدق ، ثم يجعلون معه كثيراً من الكذب .

﴿ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾

السمع مصدر وآلته الأذن ، فالمراد يلقون الأذن للسمع ، كما فى

---

(١) قال تعالى عن الجن أنهم قالوا : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الجن] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) ﴾ [ق]

يعنى : ألقى سمعه كى يستمع كمنْ يحرص على السماع من خفيض الصوت ، فيميل نحوه ليسمع منه . وقال ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) ﴾ [الشعراء] لأن بعضهم والقلة منهم قد يصدق ليُغلِّف كذبه ، ويُغطى عليه ، فأنت تأخذ من صدْقه هذه المرة دليلاً على أنه صادق ، وهو يخلط الخبر الصادق بأخبار كثيرة كاذبة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) ﴾

الشعراء : جمع شاعر ، وهو مَنْ يقول الشعر ، وهو الكلام الموزون المُقفَّى ، وقد اتهم الكفار رسول الله ﷺ بأنه شاعر ، وردَّ عليهم القرآن الكريم فى عدة مواضع ، منها قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) ﴾ [الحاقة]

وعجيب من كفار مكة ، وهم العرب أهل اللسان والبلاغة والبيان ، وأهل الخبرة فى الكلام الموزون المُقفَّى ، بحيث كانوا يجعلون للشعر أسواقاً فى ذى المجاز وذى المجنَّة وعكاظ ، ويُعلِّقون أجود أشعارهم على أستار الكعبة ، ومع ذلك لا يستطيعون التمييز بين الشعر وأسلوب القرآن الكريم .

إذن : هم يعرفون الفَرْق ، لكن يقصدون بقولهم كما حكاه القرآن : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) ﴾ [الطور] يقصدون بالشعر الكلام العَذْب الذى يستميل النفس ، ويُؤثِّر فى الوجدان ، ولو كان نثراً . وهذه ينادى بها الآن أصحاب الشعر الحر ؛ لأنهم

يقولون شعراً ، لكنه غير موزون ، وغير مُقفًى .

ومعنى ﴿ الْغَاوُونَ (٢٢٤) ﴾ [الشعراء] جمع غاوٍ . وهو الضال ، وهؤلاء يتبعون الشعراء . لأنهم يؤيدون مذهبهم في الحياة بما يقولون من أشعار ؛ ولأنهم لا يحكم منطقهم مبدأ ولا خُلُق ، بل هواهم هو الذي يحكم المبدأ والخلق ، فإنْ أحبُّوا مدحوا ، وإنْ كرهوا ذمُّوا .

والدليل على ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) ﴾

الضمير في ﴿ أَنَّهُمْ .. (٢٢٥) ﴾ [الشعراء] يعود على الشعراء ، والوادي : هو المنخفض بين جبلين ، وكان محل السير ومحل نمو الأشجار والبساتين واستقرار المياه .

﴿ يَهِيمُونَ (٢٢٥) ﴾ [الشعراء] نقول : فلان هَامَ على وجهه أي : سار على غير هدى ، وبدون هدف أو مقصد ، فالمعنى ﴿ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) ﴾ [الشعراء] أن هذه حال الشعراء ، لأنهم أهل كلام وخيال يمدحك أحدهم إنْ طمع في خيرك ، فإنْ لم تُعطه كال لك الذم وتفنَّن في النَّيل منك ، فليس له وادٍ معين يسير فيه ، أو مبدأ يلتزم به ، كالهائم على وجهه في كل وادٍ .

فالمتنبي[1] وهو من أعظم شعراء العصر العباسي ويُضرب به المثل في الحكمة والبلاغة ، من أشهر شعره قوله :

---

(١) هو : أحمد بن الحسين الكندي ، أبو الطيب المتنبي ، ولد بالكوفة في محلة تسمى « كندة » عام ٣٠٣ هـ ، ونشأ بالشام ، ثم تنقل في البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس ، ادعى النبوة في بادية السماوة (بين الكوفة والشام) ، ثم تاب ورجع عن دعواه ، مدح سيف الدولة بن حمدان وكافوراً ثم هجاه لأنه لم يُولّه . [انظر الأعلام للزركلي ١/ ١١٥] .

فَالخَيْلُ والليْلُ والبَيْدَاءُ تَعْرِفُنى والسَّيْفُ والرُّمح والقِرْطَاسُ والقَلَم

فلما كان فى إحدى رحلاته خرج عليه قُطَّاع الطرق ، فلما أراد أن يفرَّ قال له خادمه : ألست القائل :

فَالخَيْلُ والليْلُ والبَيْدَاءُ تَعْرِفُنى والسَّيْفُ والرُّمح والقِرْطَاسُ والقَلَم

فاستحى أنْ يفرَّ ، وثبت امامهم حتى قتلوه[1] ، فقال قبل أنْ يموت : ما قتلنى إلا هذا العبد ، واشتهر هذا البيت فى الأدب العربى بأنه البيت الذى قتل صاحبه .

ولما جاء المتنبى إلى مصر مدح حاكمها كافور الإخشيدى[2] طمعاً فيه ، وكان كافور رجلاً أسود ؛ لذلك كَنَّوْه بأبى المسْك ، ولما مدحه المتنبى حالَ الرضا قال فيه :

* أبَا كُلِّ طِيبٍ لاَ أبَا المسْك وَحْدَهُ *

وفى قصيدة أخرى يقول :

قَضَى اللهُ يَا كافُورُ أنَّكَ أوَّلٌ وليْسَ بقَاضٍ أنْ يُرَى لَكَ ثَانِ

فلما لم يُعْطه كافور طلبه ، وساءتْ العلاقة بينهما ، قال يهجوه :

أُريك الرضا لو أَخْفَت النفسُ خافيَا وما أنَا عَنْ نفسى وَلاَ عنْكَ رَاضيا

أَمَيْناً[3] وإخْلاَفَاً وغَدْراً وخِسَّةً وجُبْنا أشخصاً لُحْتَ لى أمْ مَخَازِيا

وتُعجِبُنى رِجْلاَكَ فى النَّعْلِ إننى رأيتُكَ ذَا نَعْلٍ وإنْ كُنْتَ حَافِيا

---

(١) قُتل المتنبى هو وابنه وغلامه بالنعمانية عام ٣٥٤ هـ حيث عرض له فاتك بن أبى جهل الأسدى فى الطريق بجماعة من أصحابه ، ومع المتنبى جماعة أيضاً ، فاقتتل الفريقان ، فقُتل المتنبى بالقرب من دير العاقول (فى الجانب الغربى من سواد بغداد) وفاتك هذا هو خال ضبة بن يزيد الأسدى العينى ، الذى هجاه المتنبى بقصيدته البائية المعروفة [الأعلام للزركلى ١/١١٥] .

(٢) كافور بن عبد الله الإخشيدى ، أبو المسك ، أمير مشهور ، كان عبداً حبشياً اشتراه الإخشيدى ملك مصر (سنة ٣١٢ هـ) فنُسب إليه ، وأعتقه فترقى عنده . وما زالت همته تصعد به حتى ملك مصر (سنة ٣٥٥ هـ) وقد ولد (عام ٢٩٢ هـ) ، وتوفى بالقاهرة ٣٥٧ هـ عن ٦٥ عاماً [الأعلام للزركلى ٥/٢١٦] .

(٣) المَيْنُ : الكذب .

ومثْلُكَ يُـؤتَى منْ بـلاَد بَعيـدَة ... ليُـضحكَ ربَّـات الحـداد البوَاكـيَا
ولَوْلاَ فُضُول الناسِ جئْتُك مَادحاً ... بمـا كنتُ فى نَفْسِى به لكَ هَاجيَا

وقد يكون الشـاعر بخيـلاً ، ولكنه يمدح الكرم والكريم ، ويرفـعه إلى عنان السماء :

متَّى تَأْته تَعشُو[1] إلى ضَوْء نَاره ... تَجِدْ خَيْر نَارِ عنْدهَا خَيْرُ موقدِ[2]

والحطيئة[3] مع ما عُـرف عنه من البخل يمـدح أحدهم ، ويصـفه بالكرم النادر ، لدرجة أنْ جعله يهمُّ بذبح ولده لضـيفه ؛ لأنه لم يجد ما يذبحه ، وينظم الحطيئة فى الكرم هذه القصـيدة أو القصة الشعرية التى تُعَـدُّ من عيـون الشعـر العـربى ، ومع ذلك لم يأخذ مـما يقـول عبرةً ، وظلَّ على إمساكه وبُخْله .

يقول الحطيئة فى وصف الكريم :

وَطَاوٍ ثَلاثاً عَاصب البَطْنِ مُرْمـل ... ببَيْداءَ لم يَعرف بها ساكِن رَسْما[4]
أَخِى جَفْوةٍ فيه مِنَ الأُنْس وَحْشَةٌ ... يرى البُؤْسَ فيها منْ شراستَه نُعْما
وَأفْردَ فى شعْبِ عَجُوزاً إزَاءَهَـا ... ثلاثَــة أشْــباحٍ تَخَــالهـوا بُهْـما

---

(١) أعشـو : انظر . يقال : عشوت إلى النار إذا أحـددت نظرك إليها . قـاله أبو على القالى فى الأمالى (١/١٤٩) . وقال ابن منظور فى اللسان فى معنى البيت « أى متى تأته لا تتبين ناره من ضعف بصرك » .

(٢) أورده أبو على القالى فى « الأمالى » (١/١٤٩) . وكذا ابن منظور فى [لسان العرب - مـادة : عشـا] . وعـزاه للحطيـئة . وكـذا أورده أبو الفـرج الأصـفهـانى فى « الأغـانى » (١/٢٣٧) .

(٣) هو : جرول بن أوس بن مالك ، وهو مُخضرم ، أدرك الجاهلية والإسلام ، أسلم ثم ارتد ، لُقِّب بالحطيئـة لقصره وقربه من الأرض ، كـان ذا شر وسفه ، كان ينتـمى إلى كل واحدة من قبائل العرب إذا غضب على الأخرى . [الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ١/٢٢٢] .

(٤) الطاوى : الجائع . مُرمل : قد اختلط طعامه بالرمل . الرسـم : الأثر .

حُفَاةٌ عُرَاةٌ ما اغتذَوْا خُبْز مَلَّة[1] ... ولاَ عَــرفُوا للبُــرِّ مُذْ خُلِقُــوا طَعْما
رَأَى شَبَحاً وَسْط الظَّلام فَرَاعَه[2] ... فلمَّــا رأى ضَيْـفاً تَشــمَّر واهْتَما
فَقَــالَ ابنُــه لمــا رَآهُ بحيْــرة ... أيَا أَبَـتِ اذْبحْـنى ويَسِّر لَهُ طُعْما
وَلاَ تعتذر بالعُدْم على الذى طَرا ... يظـنُّ لَنَا مالاً فَيُوســعُنا ذَمّــا
فَبَيْنَا هُما عَنَّتْ على البُعْـد عَــانَةٌ ... قَد انتظمتْ من خَلْف مسْحلها نَظْما[3]
عطَاشاً تريد الماءَ فانسابَ نحوها ... علَــى أنَّه منْـها إلَـى دَمِها أظْمَا
فَأمْهلَها حتَّى تَــروَّتْ عطَاشُــها ... وأرســلَ فيهَا منْ كنَانَـته سَهْـما
فخرَّتْ نَحُوصٌ ذَات جحش سَمينةٌ ... قَد اكتنزت لَحْماً وقد طبّقَتْ شَحْما[4]
فَيَا بشْرَهُ إذْ جرَّهَا نحــو قَومه ... ويَا بشْرهُمْ لما رأوْا كَلْمها يَدْمَا[5]
وَبَاتُوا كراماً قَدْ قَضَــوْا حَقَّ ضَيْفهمْ ... ومَا غَرمُوا غُرْمـاً وقَدْ غَنموا غُنْما
وَباتَ أبُوهــم من بَشَاشَـــته أباً ... لضَيْفهـمُ والأم منْ بشْـرها أمَّــا

وصدق الله العظيم : ﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء] يصفون الكرم وهم بخـلاء ، والشجاعة وهم جبناء ... إلخ .

وفى مرة ، اجتمع عند النبى ﷺ اثنان من الشعراء : الزبرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم ، وعـمرو بن الأهتم فقال أحـدهم عبارتين فى مدح أحد الحاضرين بأنه سيد القبيلة . فغضب الممدوح ورأى أن هذا

---

(١) خبز ملة : هو الخبز يوضع فى الرماد الحار الذى يُحمى ليُدفن فيه الخبز لينضج .
(٢) راعه : أخافه وأفزعه .
(٣) عنَّت : ظهرت . عانة : العنون من الدواب : من حُمُر الوحش . المسحل : قائد القطيع .
(٤) نحوص : سمينة ممتلئة . طبقت شحماً : امتلأت شحماً ولحماً .
(٥) الكَلْم : الجرح . يدما : ينزف دماً . [راجع لسان العرب] .

قليل فى حقِّـه ، فقال : والله يا رسول الله ، إنه ليعلم منى فوق الذى قـال - يعنى : لم يُوفِّنى حـقى - فقـال الشـاعر : أمـا والله وقد قـال ما قال ، فإنه لضيق العطية ، أحمق الأب ، لئيم العم والخال . سبحان الله فى أول المجلس كان سيد قبيلته ، والآن هو ضيق العطية ، أحمق الأب ، لئيم العم والخال !!

ثم قال : والله يـا رسول الله ما كـذبتُ فى الأولى ، ولقـد صدقتُ فى الثـانيـة - يعنى : أنا مـصيب فى القـولين - لكنى رضـيت فـقلت أحسنَ مـا علمت ، وغضبت فقلت أسـوأ ما علمتُ . عندها قال سـيدنا رسول الله « إن من البيان لسحراً »[1] .

ثم يستثنى الحق سبحانه من هؤلاء الغاوين :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

كان بعض شعراء المشركين أمثال عبد الله بن الزبعرى ، ومسافح

---

(١) أخـرج هذا الحديث بهـذه القـصة البـيهـقى فى دلائل النبـوة (٥/٣١٦) بإسنادين الأول منقطع عن محـمد بن الزبير الحنظلى ، والثانى مـوصولاً من حديث ابن عبـاس قال : جلس إلى رسول الله ﷺ قيس بن عاصم والزبرقـان بن بدر وعمرو بن الأهتم التميميـون ، ففخر الزبرقان ، فقال : يا رسول الله أنا سيد تميم والمطاع فيهم والمجاب أمنعهم من الظلم وآخذ لهم بحقوقـهم ، وهذا يعلم ذلك يعنى عمرو بن الأهتم ، فقال عـمرو بن الأهتم : إنه لشديد العارضة ، مانـع لجانبه ، مطاع فى أذنيه ، فقال الزبرقـان بن بدر : والله يا رسول الله لقد علم منى غير ما قال ، وما منعه أن يتكلم إلا الحسد ، فقال عمرو بن الأهتم : أنا أحسدك ، فوالله إنك لئيم الخال ، حديث المال ، أحمق الولد ، مضيع فى العشيرة ، والله يا رسول الله لقد صدقت فيما قلت أولاً ، وما كـذبت فيما قلت آخراً ، ولكنى رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمت ، وإذا غـضبت قلت أقبح مـا وجدت ، ولقد صدقـت فى الأولى والأخرى جميـعاً ، فقال النبى ﷺ : إن من البيان سحراً ، إن من البيان سحراً .

الجمحى يهجون رسول الله ﷺ ويذمونه ، فيلتف الضالون الغاوون من حولهم ، يشجعونهم ويستزيدونهم من هجاء رسول الله ، وفى هؤلاء نزل قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) ﴾ [الشعراء] فأسرع إلى سيدنا رسول الله شعراءُ الإسلام : عبد الله بن رواحة وكعب بن زهير ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ، فقالوا : أنحن من هؤلاء يا رسول الله ؟ فقرأ عليهم رسول الله هذه الآية :

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢٢٧) ﴾ [الشعراء]

فاستثنى الحق ـ تبارك وتعالى ـ من الشعراء مَنْ توفَّرت فيه هذه الخصال الأربع ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا .. (٢٢٧) ﴾ [الشعراء] أى : ذكروا الله فى أشعارهم ؛ لينبهوا الناس إلى مواجيد الدين ومواعظ الإيمان ، فيلتفتون إليها ، ثم ينتصرون لرسول الله من الذين هَجَوْه .

وكان هؤلاء الثلاثة ينتصرون للإسلام ولرسول الله ، فكلما هجاه الكفار ردُّوا عليهم ، وأبطلوا حُججهم ، ودافعوا عن رسول الله ، حتى أنه ﷺ نَصَبَ منبراً[1] لحسان بن ثابت ، وكان يقول له : « قل وروح القدس معك ، اهجهم وجبريل معك »[2]

وقال لكعب بن مالك[3] : « اهجهم ، فإن كلامك أشدُّ عليهم من

---

(١) أخرج الحاكم فى مستدركه (٣/٤٨٧) عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً فى المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ ، ويقول ﷺ : « إن الله يؤيد حسان بن ثابت بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله ﷺ » وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (٥٠٠٥) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢١٣ ، ٦١٥٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٤٨٦) كتاب فضائل الصحابة من حديث البراء بن عازب .

(٣) هو : كعب بن مالك بن عمرو الأنصارى السلمى الخزرجى ، صحابى من أكابر الشعراء من أهل المدينة ، اشتهر فى الجاهلية ، وكان فى الإسلام من شعراء النبى ﷺ ، عمى فى آخر عمره ، وعاش ٧٧ سنة ، توفى ٥٠ هـ . (كتاب الأعلام للزركلى) .

رَشْق النِّبال »[1] كما سمح لهم بإلقاء الشعر فى المسجد ؛ لأنهم دخلوا فى هذا الاستثناء ، فهم من الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً ، وهم الذين ينتصرون للإسلام ويُمجِّدون رسول الله ، ويدافعون عنه ، ويردُّون عنه ألسنة الكفار .

ومعنى : ﴿ وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا .. (٢٢٧) ﴾ [الشعراء] أنهم لم يكونوا سفهاء ، ولم يبدأوا الكفار بالهجاء ، إنما ينتصرون لأنفسهم ، ويدفعون ما وقع على الإسلام من ظلم الكافرين ؛ لذلك لما هجا أبو سفيان رسول الله ﷺ ، قال أحدهم[2] رداً عليهم :

أتهْجُوهُ ولَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ فَشرُّكما لخيركما الفِدَاءُ
فَإنَّ أبى وَوَالده وعرْضى لعرْض مُحمد منكمُ وِقَاءُ

وقوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا .. (٢٢٧) ﴾ [الشعراء] ظُلموا ممَّنْ ؟ من الذين وقفوا من الدين ومن الرسول موقفَ العداء ، وتعرَّضوا لرسول الله وللمؤمنين به بالإيذاء والكيد ، ظُلموا من الذين عزلوا رسول الله ، وآله فى الشِّعْب حتى أكلوا أوراق الشجر ، من الذين تآمروا على قتله ﷺ إلى أنْ هاجر .

ومن رحمته تعالى وحكمته أنْ أباح للمظلوم أنْ ينتصر لنفسه ، وأنْ يُنفِّس عنها ما يعانيه من وطأة الظلم ، حتى لا تُكبتَ بداخله هذه المشاعر ، ولا بُدَّ لها أن تنفجر ، فقال سبحانه : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾ [النحل]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٤٩٠) كتاب فضائل الصحابة .

(٢) هو حسان بن ثابت ، كما جاء فى صحيح مسلم (٢٤٩٠) كتاب فضائل الصحابة ، وفيه أن أبياته كالتالى :

هَجَوْتَ مُحمداً فَأجبْتُ عَنْهُ وعنْد الله فى ذَاكَ الجزَاءُ
هَجوْتَ مُحمداً برّاً حَنيفاً رَسُولَ الله شيمتُه الوَفَاءُ
فَإنَّ أبى وَوَالده وَعرْضى لعِرْضِ مُحمدَ منكُمْ وِقَاءُ

وانظر أيضاً دلائل النبوة للبيهقى (٥/ ٤٨ ، ٤٩) .

وقال تعالى : ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ .. (١٤٨)﴾ [النساء]

فأباح للمظلوم أن يُعبِّر عن نفسه ، وأن يرفض الظلم ، ولا عليه إنْ جهر بكلمة تُخفِّف عنه ما يشعر به من ظلم .

ثم تختم السورة بقوله تعالى : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾ [الشعراء] يعنى : غداً سيعلمون مرجعهم ونهايتهم كيف تكون ؟ والمنقلب هو المرجع والمآب ، والمصير الذى ينتظرهم .

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يتوعدهم بما يؤذيهم ، وبما يسوؤهم ، فلن تنتهى المسألة بانتصار المسلمين عليهم ، إنما ينتظرهم جزاء آخر فى الآخرة .

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ .. (٤٧)﴾ [الطور]

لذلك أبهم الله تعالى هذا المنقلب ، وإبهامه للتعظيم والتهويل ، وقد بلغ من العظَم أنه لا يُوصف ولا تؤدى العبارة مؤداه ، كما أبهم العذاب فى قوله تعالى : ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨)﴾ [طه]

يعنى : شىء عظيم لا يُقَال ، والإبهام هنا أبلغ ؛ لأن العقل يذهب فى تصوّره كل مذهب ، وعلى كل كيفية .

والمنقلب أو المرجع لا يُمدح فى ذاته ، ولا يُذمُّ فى ذاته ، فإن انتهى إلى السوء فهو مُنقلب سيء ، وإن انتهى إلى خير فهو مُنقلَب حسن ، فالذى نحن بصدده من مُنقلَب الكافرين المعاندين لرسول الله منقلب سيء يُذَم .

أما مُنْقلَب سحرة فرعون مثلاً حين قال لهم : ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ

آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ .. (٧١) ﴾ [طه]

فماذا قالوا ؟ ﴿ قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) ﴾ [الشعراء] فهذا مُنقلَب حَسَن يُمدح ويُحمد .

وقد يظن المرء أن مُنقلَبه مُنقلَب خير ، وأنه سينتهى إلى ما يُفرِح ، وهو واهم مخدوع فى عمله ينتظر الخير ، والله تعالى يُعِد له منقلباً آخر ، كالذى أعطاه الله الجنتين من أعناب وحففهما بنخل ، وجعل بينهما زرعاً ، فلما غرَّته نعمة الدنيا ظنَّ أن له مثلها ، أو خيراً منها فى الآخرة ، فقال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف]

والانقلاب والمرجع إلى الله - عز وجل - إنما يفرح به مَنْ آمن بالله وعمل صالحاً ؛ لأنه يعلم أنه سيصير إلى جزاء من الحق - سبحانه وتعالى - مؤكد ؛ لذلك الحق - تبارك وتعالى - يُعلِّمنا حين نركب الدواب التى تحملنا ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ .. (٧) ﴾ [النحل]

علَّمنا أن نذكره سبحانه : ﴿ وَالَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤) ﴾ [الزخرف]

إذن : فالدوابّ وما يحلّ محلّها الآن من وسائل المواصلات من أعظم نعَم الله علينا ، ولولا أن الله سخَّرها لنا ما كان لنا قدرة عليها ، ولا طاقة بتسخيرها ؛ لذلك نقول ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) ﴾ [الزخرف]

أى : لا نستطيع ترويضه ، فالصبى الصغير نراه يقود الجمل الضخم ، ويُنيخه ويُحمّله الأثقال وهو طائع منقاد ، لكنه يفزع إنْ رأى ثعباناً صغيراً ، لماذا ؟ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سخَّر لنا الجمل وذَلَّله ، ولم يُسخِّر لنا الثعبان .

وصدق الله العظيم إذ يقول سبحانه : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس]

ولكن ما علاقة قولنا : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الزخرف] بقولنا : ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف]

قالوا : لأننا سننقلب إلى الله فى الآخرة ، وسنُسأل عن هذا النعيم ، فإنْ شكرنا ربنا على هذه النعمة فقد أدَّيْنا حقها ، ومَنْ شكر الله على نعمة فى الدنيا لا يسأل عنها فى الآخرة ؛ لأنه أدَّى حقَّها .

وقال سبحانه : ﴿وَسَيَعْلَمُ .. ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء] بالسين الدالة على الاستقبال ، لكنها لا تعنى طول الزمن كما يظن البعض ؛ لأن الله تعالى أخفى الموت ميعاداً ، وأخفاه سبباً ومكاناً ، وهذا الإبهام للموت هو عَيْن البيان ، لأنك فى هذه الحالة ستنتظره وتتوقعه فى كل وقت ، ولو علم الإنسانُ موعد موته لقال : أفعل ما أريد ثم أتوب قبل أن أموت .

إذن : الوقت الذى تقتضيه السين هنا لا يطول ، فقد يفاجئك الموت ، وليس بعد الموت عمل أو توبة ، واقرأ قوله تعالى : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات]

وقلنا : إن فى الآية ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

[الشعراء] تهديداً ووعيداً ، الحق ـ تبارك وتعالى ـ حين يُضخِّم الوعيد إنما يريد الرحمة بخَلْقه ، وهو مُحبٌّ لهم ، فيهددهم الآن ليَسلموا غداً ، ويُنبِّههم ليعودوا إليه ، فينالوا جزاءه ورحمته .

وكأنه ـ تبارك وتعالى ـ يريد من وراء هذا التهديد أن يُوزِّع رحمته لا جبروته ، كما تقسو على ولدك ليذاكر وتهدده ليجتهد . إذن : فالوعد بالخير خير ، والوعيد بالشر أيضاً خير ، فكل ما يأتيك من ربك ، فاعلم أنه خير لك ، حتى وإنْ كان تهديداً ووعيداً .

وهكذا قدمتْ لنا سورة الشعراء نموذجاً من تسلية الحق ـ تبارك وتعالى ـ لنبيه محمد ﷺ والتخفيف عنه ما يلاقي من حزن وألم على حال قومه وعدم إيمانهم ، وعرضَتْ عليه ﷺ موكب الرسل ، وكيف أن الله أيَّدهم ونصرهم وهزم أعداءهم ودحرهم .

ثم سلاَّه ربه بأنْ رَدَّ على الكفار في افتراءاتهم ، وأبطل حججهم ، وأبان زَيْف قضاياهم ، ثم تختم هذه التسلية ببيان أن للظالمين عاقبة سيئة تنتظرهم وأبهم هذه العاقبة ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء] ليضخمها .

والشيء إذا حُدِّد إنما يأتي على لَوْن واحد ، وإنْ أبهم كان أبلغ ؛ لأن النفس تذهب في تصوُّره كل مذْهب ، كما لو تأخَّر مسافر عن موعد عودته فنجلس ننتظره في قلق تسرَح بنا الظنون في سبب تأخره ، وفي احتمالات ما يمكن أنْ يحدث ، وتتوارد على خواطرنا الأوهام ، وكل وهم يَرِد في نفسك بألم ولذعة ، في حين أن الواقع شيء واحد .



سُورَةُ النَّمْلِ



سورة النمل[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ ﴾

تكلمنا كثيراً على هذه الحروف المقطَّعة فى أوائل السور ، وهنا (طس) وهما حرفان من حروف المعجم ، وهى تُنطق هكذا (طاء) و (سين) لأنها أسماء حروف ، وفَرْق بين اسم الحرف ومُسمَّاه ، فكلٌّ من الأمى والمتعلم يتكلم بحروف يقول مثلاً : كتب محمد الدرس . فإنْ طلبتَ من الأمى أن يتهجى هذه الحروف لا يستطيع لأنه لا يعرف اسم الحرف ، وإنْ كان ينطق بمُسمَّاه ، أمّا المتعلم فيقول : كاف تاء باء .

ورسول الله ﷺ كان أمياً لا يعرف أسماء الحروف ، فهى إذن من

---

(١) سورة النمل هى السورة رقم (٢٧) فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٩٣ آية ، وهى سورة مكية ، قاله ابن عباس فيما أورده السيوطى فى (الدر المنثور ٦/٣٤٠) وعزاه لابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل . وقد ذكر القرطبى فى تفسيره (٧/٥٠٣٥) الإجماع على أنها مكية كلها ، وقد نزلت بعد سورة الشعراء كما هى فى ترتيب المصحف ، وقبل سورة القصص كذلك . انظر : الإتقان فى علوم القرآن (١/٢٧) .

الله ؛ لذلك كانت مسألة توقيفية ، فالحروف (الـم) نطقنا بها فى أول البقرة بأسماء الحروف (ألف) (لام) (ميم) ، أما فى أول الانشراح فقلنا ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ① ﴾ [الشرح] بمسميات الحروف نفسها ، فنقول : أَلَم .

و ﴿ تِلْكَ .. ① ﴾ [النمل] اسم إشارة للآيات الآتية خلال هذه السورة ، وقُلْنا : إن الآيات لها معَان متعددة ، فقد تعنى الآيات الكونية : كالشمس والقمر ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ㊲ ﴾ [فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا .. ㉑ ﴾ [الروم] وهذه الآيات الكونية هى التى تلفتنا إلى عظمة الخالق ـ عزَّ وجلّ ـ وقدرته .

والآيات بمعنى المعجزات المصاحبة للرسل ، والتى تثبت صدْق بلاغهم عن الله ، والآيات بمعنى آيات القرآن الحاملة للأحكام ، وهى المرادة هنا ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ① ﴾ [النمل]

وسبق أنْ قال تعالى : ﴿ الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ① ﴾ [الحجر] فمرة يقول ﴿ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ① ﴾ [الحجر] ومرة ﴿ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ① ﴾ [النمل] ويأتى بالكتاب ويعطف عليه القرآن ، أو يأتى بالقرآن ويعطف عليه الكتاب ، مع أنهما شىء واحد ، فكيف إذن يعطف الشىء على نفسه ؟

قالوا : إذا عطف الشىء على نفسه ، فاعلم أنه لزيادة وَصْف الشىء ، تقول : جاءنى زيد الشاعر والخطيب والتاجر ، فلكلٍّ صفة منها إضافة فى ناحية من نواحى الموصوف ، فهو القرآن لأنه يُقرأ فى الصدور ، وهو نفسه الكتاب لأنه مكتوب فى السطور ، وهما معاً

نُسمِّيهم مرة القرآن ومرة الكتاب ، أمّا الوصف فيجعل المغايرة موجودة .

ومعنى ﴿مُّبِينٍ ①﴾ [النمل] بيِّن واضح ومحيط بكل شيء من أقضية الحياة وحركتها من أوامر ونواهٍ ، كما قال سبحانه : ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. ㊳﴾ [الأنعام]

وسبق أنْ حكينا ما حدث مع الإمام محمد عبده[1] - رحمه الله - حينما كان في فرنسا ، وسأله أحد المستشرقين : تقولون إن القرآن أحاط بكل شيء ، فكم رغيفاً في إردبّ القمح ؟ فدعا الإمام الخباز وسأله فقال : كذا وكذا ، فقال المستشرق : أريدها من القرآن ، قال الإمام : القرآن قال لنا : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ⑦﴾ [الأنبياء]

فهو كما قال تعالى : ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. ㊳﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ②﴾

الهدى : يأتي بمعنيين : بمعنى الدلالة على طريق الخير ، وبمعنى المعونة ، فمن ناحية الدلالة هو هُدىً للمؤمن وللكافر على حَدٍّ سواء ؛ لأنه دلَّ الجميع وأرشدهم ، ثم تأتي هداية المعونة على حسب اتباعك لهداية الدلالة .

---

(١) هو : الشيخ محمد عبده بن حسن خير الله من آل التركماني ، مفتي الديار المصرية ، ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام ، ولد في قرية شنرا من قرى الغربية بمصر (١٨٤٩ م) نشأ في محلة نصر بالبحيرة ، تولى منصب القضاء وتوفي بالإسكندرية (١٩٠٥) عن ٥٦ عاماً ، ودفن بالقاهرة . له مؤلفات كثيرة . [الأعلام للزركلي ٦/٢٥٢].

فمَنْ أطاع الله وآمن به وأخذ بدلالته ، فكأن الحق سبحانه يقول له : أنت استأمنتنى على حركة حياتك وأطعتنى فى أمرى ونهيي ، فسوف أخفف عنك وأهوّن عليك أمر العبادة وأُعينك عليها ، وهذه هى هداية المعونة التى قال الله عنها : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد]

وكذلك الكافر الذى لم يأخذ بهداية الدلالة والإرشاد ، واختار لنفسه طريقاً آخر يُعينه الله عليه ، ويُيسِّر له ما سعى إليه من الكفر ؛ لذلك يختم الله على قلوب الكافرين حتى لا يدخلها إيمان ولا يخرج منها كفر .

لكن الهداية هنا : أهى هداية دلالة ، أم هداية معونة ؟

نقول : هى هداية معونة ، بدليل قوله تعالى بعدها ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النمل] فما كانوا مؤمنين إلا لأنهم مهديون ، والبُشْرى لا تكون إلا للمؤمنين ، إذن : هى معونة للمؤمنين بأنْ يزيدهم هدايةً إلى الطريق السَّوىّ ، وإلى جنات النعيم ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التحريم]

ولو أن الهداية هنا بمعنى الدلالة التى تأتى للمؤمن والكافر لكانتْ بشرى وإنذاراً ، لكن الآية ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النمل] فتعيَّن أن يكون المعنى هداية المعونة وهداية البشرى .

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾

المؤمنون هم أصحاب عقيدة الإيمان ، وهو أن تؤمن بقضية الحق الواحد الإله المختار الفاعل الذى له صفات الكمال ، تؤمن بها حتى

تصيـر عقيدة فى نفـسك ثابتة لا تتزعـزع ، والإيمان اعتـقاد بالقلب ، وقَوْل باللسـان ، وعمل بالجوارح ، فلا يكفى النطق باللسـان ، إنما لابد من أداء تكاليف الإيمـان ومطلوباته ، وقمـتها إقـامة الصـلاة ، وإيتاء الزكاة وصَوْم رمضان ، والحج .

فالصلاة دعوة من الله لخَلْقه ، دعوة من الصانع للمصنوع ، فربُّك يستدعيك إلى حضرته ، وكـيف بالصَّنْعة إذا عُرِضَتْ على صانعها كل يوم خمس مرات ، ومع ذلك نرى مَنْ يُقـدِّم العَمل على الصلاة ، وإذا سـمع النداء قـال عندى أعـمال ومـشـاغل ، إياك أنْ تظن أن الصـلاة تعطيل للمصـالح ، أو إضاعة للوقت ؛ لأنك فى حركة حـياتك مع نِعَم الله وفى الصلاة مع الله .

ونقيس هذه الـمسألةَ ـ ولله المـثل الأعلى ـ لو أن أباك ناداك فلم تُجـبـه ، مـاذا يفـعل بك ؟ فـلا يكُنْ ربُّك أهونَ علـيك من أبيك ، ربك يناديك : الله أكبر يعنى : أكبر من العمل ، وأكبر من كل شـىء يشغلك عن تلبية ندائه .

وفى الصلاة نأخذ شحـنة إيمانية تُقوِّينا على حركة حـياتنا ، كما لو ذهبتَ ببطارية السـيارة مـثلاً لـجهـاز الشحن أتقـول : إنك عطلتَ البطارية ؟

ولو حـسبنا الـوقت الذى تستـغـرقه الصلوات الـخمس لوجـدناه لا يتعـدّى ساعة من الأربع والعشـرين سـاعة ، فـلا تضن على نفسك بها لتلتـقى بربك ، وتقف بين يديه ، وتعرض نفـسك عليه ، فـيصلح فيك ما أفسدته حركة الحـياة ويعطيك المدد والعون والشحنة الإيمانية التى تدفعك إلى حركة منسجمة مع الحياة والكون من حولك .

وإنْ كان مهندس الآلة يُصلحها بشىء مادى ، فربُّك ـ عز وجل ـ

غَيْب ، فيصلحك بالغيب ، ومن حيث لا تدرى أنت ، لذلك كانت الصلاة فى قمة مطلوبات الإيمان .

فإنْ كانت الصلاة لإصلاح النفس ، فالزكاة لإصلاح المال ؛ لذلك تجد دائماً أن الصلاة مقرونة بالزكاة فى معظم الآيات ، وإنْ كان المال نتيجة العمل ، والعمل فرع الوقت ، فإن الصلاة تأخذ الوقت ، والزكاة تأخذ نتيجة الوقت ، الزكاة تأخذ ٢,٥٪ أمّا الصلاة فتأخذ الوقت نفسه يعنى بنسبة ١٠٠٪ .

ومع ذلك لا نقول : إن الصلاة أضاعتْ الوقت ، لأن الشحنة التى تأخذها فى الصلاة تجعلك تنجز العمل الذى يستغرق عدة ساعات فى نصف ساعة ، فتعطيك بركة فى الوقت .

وسبق أن قلنا : إن نداء الله أكبر يعنى : أن لقاء الله أكبر من أى شىء يشغلك مهما رأيته كبيراً ؛ لأنه سبحانه واهب البركة ، وواهب الطاقة ، وإنْ كان العمل والسَّعْى فى مناكب الأرض مطلوباً ، لكن الصلاة فى وقتها أَوْلَى .

وحين نتأمل أطول الأوقات بين كل صلاتين نجد أنها من الصبح حتى الظهر ، وهو الوقت المناسب للعمل ، ومن العشاء حتى الصبح ، وهو الوقت المناسب للنوم ، وهكذا تُنظِّم لنا الصلاة حياتنا ، فمِنْ صلاة الصبح إلى صلاة الظهر سبع ساعات هى ساعات العمل .

لو أن الأمة الإسلامية تمسَّكتْ بشرعها ومنهج ربها ، وبعد هذه الساعات السبع التى تقضيها فى عملك ، أنت حر بعد صلاة الظهر ، أمّا التخصيص الذى طرأ على حركة الحياة فقد اقتضى أنْ يأتى صلاة الظهر بل والعصر والناس ما يزالون فى أعمالهم .

أما الذيـن يُؤخرون الصـلاة عن وقتهـا بحجـة امتـداد الوقت بين الصـلاتين ، نعم الوقت مـمتـدٌ ، لكن لا يجـوز لك تأخـير الصـلاة ، ولبيـان هذه المسألة نقـول : هَبْ أن غنياً مسـتطيعٌ للحج ، ولم يحج متى يأثم ؟

يأثم إذا ما غَرَّه طول الأمل ، ثم عاجله الموت قبل أنْ يحجَّ ، فإنْ أمهله العمر حتى يحج ، فـقد سقط عنه هذا الفرض ، لكن مَنْ يضمن له البقاء إلى أنْ يؤدى هذه الفريضة .

لذلك ورد فى الحديث : « حُجُّوا قبل ألاَّ تَحجُّوا »[1] .

كذلك الحـال فى وقت الصلاة ، فهـو ممتـد ، لكن مَنْ يضمن لك امتداده ؛ لذلك تارك الصلاة يأثم فى آخـر لحظة من حياته ، فإنْ ظلَّ إلى أنْ يصلى فلا شىء عليه .

إذن : لا تتعلَّل بطول الوقت ؛ لأن طول الوقت جـعله الله لحكمة ، لا لنأخذه ذريعة لتأخير الصلاة عن وقتها ، طول الوقت بين الصلوات جُعِل للنائم كى يستيقظ ، أو للناسى كى يتذكَّر .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③ ﴾ [النمل]

فالآية جمـعتْ أمر المؤمن كله ، بداية من العقـيدة والإيمان بالله ، ثم الصلاة ، فـالزكاة وهمـا المطلبان العـمليان بين إيمـانين : الإيمان الأول بالله ، والآخر أنْ يؤمن بالآخرة وبالجزاء والمرجع والمصير .

وقوله ﴿ يُوقِنُونَ ③ ﴾ [النمل] الإيقان : الحكم بثـبات الشـىء بدون توهُّم شكٍّ ؛ لذلك قلنا : إن العلـم أنْ تعرف قـضيـة واقعة وتـقول ، إنها صدق وتُدلِّل عليها .

---

(١) أخرجـه الحاكم فى « مسـتدركه على الصـحيـحين » (١/٤٤٨) من حديث الـحارث بن سويد رضى الله عنه .

وقلنا : إن اليقين درجات : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحقُّ اليقين ، فمثلاً حين أقول لك : إننى رأيتُ فى أحد البلاد أصبع الموز نصف متر ، وأن تثق فىَّ ولا تكذبنى ، فهذا علم يقين ، فإنْ رأيته ، فهذا عَيْن اليقين ، فإن أخذته وذهبتَ تقطعه مثلاً ، وتوزعه على الحاضرين فهذا حقُّ اليقين . وهذه الدرجة لا يمكن أن يتسرَّب إليها شكٌّ .

لذلك لما سأل النبى ﷺ الصحابى الحارث بن مالك الأنصارى : « كيف أصبحتَ » ؟ قال : أصبحتُ بالله مؤمناً حقاً ، قال « فإنَّ لكل حَقٍّ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟» قال : عزفَتْ نفسى عن الدنيا ، فاستوى عندى ذهبها ومدرها[1] ، وكأنِّى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون ، فقال له النبى ﷺ : « عرفت فالزم »[2] .

والإمام على ـ رضى الله عنه ـ يعطينا صفة اليقين فى قوله : لو كُشف عنى الحجاب ما ازددتُ يقيناً ؛ لأنى صدقت بما قال الله ، وليست عينى أصدق عندى من الله .

ومن هذا اليقين ما ذكرنا فى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ①﴾ [الفيل] مع أن النبى ﷺ وُلد فى هذا العام ، فلم يَرَ هذه الحادثة ، فالمعنى : ألم تعلم ، وعدل عن (تعلم) إلى (ترى) ليقول للنبى ﷺ أن إخبار الله لك أقوى صدْقاً من رؤية عينيك .

---

(١) المدر : قطع الطين اليابس ، وهو الطين المتماسك . [لسان العرب ـ مادة : مدر] .

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/٥٧) وعزاه للطبرانى فى المعجم الكبير وقال : « فيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه » .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ ﴾

هؤلاء فى مقابل الذين آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ؛ لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعرض الشئ ومقابله لنُجرى نحن مقارنة بين المتقابلات ، وفى هؤلاء يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ .. ﴿٤﴾ ﴾ [النمل]

ولم يَنْفِ عنهم إقامة الصلاة أو إيتاء الزكاة ، لماذا ؟ لأنهم أصلاً لا يؤمنون بالله ، ولا بالبعث والحساب ، ولو علموا أنهم سيرجعون إلى الله لآمنوا به ، ولَقدَّموا العمل الصالح .

ومعنى ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ .. ﴿٤﴾ ﴾ [النمل] أن الذين لا يؤمنون بالله ، ولا يؤمنون بالآخرة ، ولا يُؤدُّون مطلوبات الإيمان لا عُذْرَ لهم ؛ لأننا حينما عرضنا الإيمان ومطلوباته عرضناه عَرْضاً جيداً مُستميلاً مُشوِّقاً وزيَّناه لكم .

فالصلاة لقاء بينك وبين ربك يعبر عن دوام الولاء ، ويعطيك شحنة إيمانية ، والزكاة تُؤمِّنك حين ضعفك وعدم قدرتك ، فنأخذ منك وأنت غنى لنعطيك إنْ حَلَّ بك الفقر ، ولما نهيناك عن الكذب نهينا الناس جميعاً أن يكذبوا عليك ، ولما حذَّرناك من الرشوة قلنا للآخرين : لا تأكلوا ماله دون وَجْه حقٍّ .. إلخ .

وهكذا شرحنا التكاليف وبيَّنا الحكمة منها ، وحبَّبناها إليكم .

أو : يكون المعنى : زيَّنَّا لهم أعمالهم التى يعملونها ، فلما علم الله عشْقهم للضلال وللانحراف ختم على قلوبهم ، يقول تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا .. ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر]

لكن مَنِ الذى زيَّن لهم : ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ .. (٦٣)﴾ [النحل] فالتزيين يأتى مرة من الشيطان ، ومرة مجهول الفاعل ، ومرة زيَّن الله لهم .

ومن تزيين الله قوله تعالى فى شأن فرعون : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ.. (٨٨)﴾ [يونس] فلما أعطاهم الله النعمة فُتنوا بها .

وإبليس خلقه الله ، وجعل له ذرية تتسلَّط على الناس ، وتُغْويهم ، وما ذلك إلا للاختبار ليرى مَنْ سيقف على هذه الأبواب ، إذن : الحق - تبارك وتعالى - لم يجعل حواجز عن المعصية ، وجعل لكم دوافع على الطاعة ، فالمسألة منك أنتَ ، فإنْ رأيتُك ملْتَ إلى شىء وأحببته أعنْتُكَ عليه .

والذى يموت له عزيز ، أو المرأة التى يموت ولدها ، فتظل حزينة عليه تُكدِّر حياتها وحياة مَنْ حولها - ويا ليت هذا يفيد أو يُعيد الميت - ونقول لمن يستقبل قضاء الله بهذا السُّخْط : إن ربك حين يعلم أنك أَلِفْتَ الحزن وعشقْته وهو رب ، فلا بُدَّ أن يعطيك مطلوبك ، ويفتح عَليك كل يوم باباً من أبوابه .

إذن : ينبغى على مَنْ يتعرَّض لمثل هذا البلاء أنْ يستقبله بالرضا ، وأنْ يغلق باب الحزن ، ولا يتركه مواربا .

ومن التزيين قوله سبحانه : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

ومعنى ﴿يَعْمَهُونَ (٤)﴾ [النمل] يتحيرون ويضطربون ، لا يعرفون أين يذهبون ؟

﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥ ﴾

أى : العذاب السيء ، وهذا فى الآخرة ، فبالإضافة إلى ما حدث لهم من تقتيل فى بدر ، وهزيمة كسرتْ شوكتهم فلم ينته الأمر عند هذا الحد ، إنما هناك خسارة أخرى فى الآخرة ﴿ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ۝٥ ﴾ [النمل]

والأخسر مبالغة فى الخسران ، فلم يَقُلْ : خاسر إنما أخسر ؛ لأنه خسر النعيم ؛ لأنه لم يُقدِّم صالحاً فى الدنيا ، وليته ظل بلا نعيم وتُركَ فى حاله ، إنما يأتيه العذاب الذى يسوؤه ؛ لذلك قال تعالى ﴿ هُمُ الأَخْسَرُونَ ۝٥ ﴾ [النمل] لأنهم لم يدخلوا الجنة ، وهذه خسارة ، ثم هم فى النار ، وهذه خسارة أخرى .

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ ﴾

يعنى : هذه المسائل والقضايا إنما تأتيك من الله الحكيم الذى يضع الشيء فى نصابه وفى محله ، فإنْ أثاب المحسن أو عاقب المسيء ، فكلٌّ فى محلّه ، وهو سبحانه العليم بما يضع من الجزاءات على الحسنة وعلى السيئة .

ويقصُّ علينا الحق سبحانه قصة موسى عليه السلام :

﴿ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ۝٧ ﴾

ما زِلْنا قريبى عَهْد بذكر طرف من قصة موسى ـ عليه السلام ـ

فى سورة الشعراء ، وهنا يعود السياق إليه مرة أخرى ، لماذا ؟ لأن دعوة موسى ـ عليه السلام ـ أخذت حيِّزاً كبيراً من القرآن الكريم ، ذلك لأنهم أتعبوا أنبياءهم وعاندوهم حتى كَثُر الكلام عنهم .

وعجيب أنهم يفخرون بكثرة أنبيائهم ، وهم لا يعلمون أنها تُحسب عليهم لا لهم ، فالنبى لا يأتى إلا عند شقْوة أصحابه ، وبنو إسرائيل كانوا من الضلال والعناد بحيث لا يكفيهم رسول واحد ، بل يلزمهم (كونسلتو) من الأنبياء ، فهم يعتبرونها مفخرة ، وهى مَنْقصة ومذمّة .

أما تكرار قصة بنى إسرائيل وموسى ـ عليه السلام ـ كثيراً فى القرآن ، فلأن القرآن لا يروى (حدوتة) و ، لا يذكر أحداثاً للتأريخ لها ، إنما يأتى من القصة بما يناسب موطن العبرة والتثبيت لفؤاد رسول الله : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود]

لأن رسول الله ﷺ تعرَّض فى رحلة الدعوة لكثير من المصاعب والمشاقّ ، ويحتاج لتسلية[1] وتثبيت ، فيأتى له ربُّه بلقطة معينة ، ولكن لا يُورد القصة كاملة ، وهذا ليس عَجْزاً ـ وحاشا لله ـ عن إيراد القصة كاملة مرة واحدة .

وقد أورد سبحانه قصة يوسف ـ عليه السلام ـ كاملة من الألف إلى الياء فى صورة قصة محبوكة على أتمِّ ما يكون الفن القصصى ، ومع ذلك لم يأتِ لسيدنا يوسف عليه السلام ذِكْر ـ فى غير هذه القصة ـ إلا فى موضعين :

---

(١) سلأنى من همى تسلية وأسلانى ، أى : كشفه عنى . وانسلى عنى الهم وتسلّى بمعنىً . أى : انكشف . وقال أبو زيد : معنى سلوت إذا نسى ذكره وذهل عنه . [لسان العرب ـ مادة : سلى] .

أحدهما : في سورة الأنعام : ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ .. (٨٤)﴾ [الأنعام]

والآخر في سورة غافر : ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً .. (٣٤)﴾ [غافر]

إذن : ورود القصة في لقطات مختلفة متفرقة ليس عَجْزاً عن إيرادها مُسْتوفاة كاملة في سياق واحد ، ولو فعل ذلك لكان التثبيت مرة واحدة .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. (٧)﴾ [النمل] ، وفي موضع آخر يقول : ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. (٢٩)﴾ [القصص] وفي هذه الآية إضافة جديدة ليست في الأولى .

أما قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ[1] وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا .. (٢٩)﴾ [القصص] أي : آنس في ذاته ، أمّا في الآيتين السابقتين فيخبر بأنه آنسَ ناراً ، إذن : كل آية في موقف ، وليس في الأمر تكرار ، كما يتوهّم البعض .

فموسى ـ عليه السلام ـ يسير بأهله في هذا الطريق الوَعْر ويحلّ عليه الظلام ، ولا يكاد يرى الطريق فيقول لزوجته : ﴿إِنِّي آنَسْتُ

(١) أي الأجل الذي ضربه له شعيب لقاء إنكاحه ابنته ، عندما قال : ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ .. (٢٧)﴾ [القصص] . قال ابن كثير في تفسيره (٣٨٧/٣) : « قضى موسى اتم الأجلين وأوفاهما وابرهما واكملهما وأنقاهما » .

نَاراً .. (٧)﴾ [النمل] يعنى : سأذهب لأقتبسَ منها ، ليهتدوا بها ، أو ليستدفئوا بها .

وطبيعى أنْ تعارضه زوجته : كيف تتركنى فى هذا المكان المُوحِش وحدى ، فيقول لها ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. (٢٩)﴾ [القصص] يعنى : ابقىْ هنا مستريحة ، وأنا الذى سأذهب ، فلربما تعرَّضت لمخاطر فكُونى أنت بعيداً عنها ، إذن : هى مواقف جديدة استدعاها الحال ، ليست تكراراً .

كذلك نجد اختلافاً طبيعياً فى قوله : ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. (٢٩)﴾ [القصص] وقوله : ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. (٧)﴾ [النمل]

فالأولى ﴿لَعَلِّي .. (٢٩)﴾ [القصص] فيها رجاء ؛ لأنه مُقبل على شىء يشكُّ فيه ، وغير متأكد منه ، وهو فى هذه الحالة صادق مع خواطر نفسه أمام شىء غائب عنه ، فلما تأكد قال ﴿سَآتِيكُم .. (٧)﴾ [النمل] على وجه اليقين[1] .

وفى هذه المسألة قال مرة : ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ .. (٢٩)﴾ [القصص] وهنا قال : ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ[2] (٧)﴾ [النمل]

ذلك لأنه لا يدرى حينما يصل إلى النار ، أيجدها مشتعلة لها

---

(١) ذكر أبو يحى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص (٣٠٥) : « فإن قلت : كيف قال هنا : ﴿سَآتِيكُم .. (٧)﴾ [النمل] ، وفى ﴿لَعَلِّي آتِيكُم.. (٢٩)﴾ [القصص] ، وأحدها قطع ، والآخر ترجٍّ ، والقضية واحدة ؟ قلت : قد يقول الراجى إذا قوى رجاؤه : سأفعل كذا ، وسيكون كذا ، مع تجويزه عدم الجزم » .

(٢) أى : لعلكم تستدفئون من البرد ، يقال : اصطلى يصطلى إذا استدفأ . [تفسير القرطبى ٥٠٣٨/٧] قال الزجاج : جاء فى التفسير أنهم كانوا فى شتاء ؛ فلذلك احتاج إلى الاصطلاء . وصلَّى يده بالنار : سخَّنها . [لسان العرب ـ مادة : صلى] .

لسان يقتبس منه شعلة ، أم يجدها قد هدأتْ ولم يَبْقَ منها إلا جذوة ، وهى القطعة المتوهجة مثل الفحم مثلاً ، فكلٌّ تكرار هنا له موضع ، وله معنى ، ويضيف شيئاً جديداً إلى سياق القصة ، فهو تكامل فى اللقطات تأتى متفرقة حَسْب المراد من العبرة والتثبيت .

ومعنى ﴿ لأَهْلِه .. ﴿٧﴾ ﴾ [النمل] قالوا : إنها تعنى جماعة بدليل قوله لهم ﴿ امْكُثُوا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] فكانت زوجته ، ومعه أيضاً بعض الرُّعْيان أو الخدم . والإنسان منا يحتاج لأشياء كثيرة تقتضى التعدّد : فهذا يطبخ الطعام ، وهذا للنظافة ، وهذا لِكَيِّ الملابس .. إلخ .

لكن هناك شيء واحد لا يستطيع أحد أنْ يقضيَه لك إلا زوجتك ، هى النسْل والمعاشرة الزوجية ، كما يمكن للزوجة وحدها أن تقوم لك بكل هذه الأعمال ، إذن : فهى تُغْنى عن الأهل كلهم ، ونستطيع أن نقول : إنه لم يكُنْ معه إلا زوجته .

وهذه شائعة فى لغتنا : يقول الرجل : الجماعة أو جماعتى أو أهلى ويقصد زوجته ، وفى هذا تقدير من الزوج لمكانة زوجته .

ومعنى ﴿ آنَسْتُ .. ﴿٧﴾ ﴾ [النمل] آنس : يعنى شعر وأحسَّ بشىء يُؤنسه ويُطمئنه ، وضده التوجس : أى شعر وأحسَّ بشىء يخيفه ، ومنه قوله تعالى فى شأن موسى أيضاً : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ [طه]

﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ ﴾

أى : جاء النار فـ ﴿ نُودِىَ .. ⑧ ﴾ [النمل] النداء : طلب إقبال ، كما تقول : يا فلان ، فيأتيك فتقول له ما تريد . فالنداء مثلاً فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰمُوسَىٰ ⑪ ﴾ [طه] نداء ﴿ إِنِّى أَنَا اللَّهُ .. ⑭ ﴾ [طه] خطاب وإخبار .

لكن ما معنى ﴿ نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ⑧ ﴾ [النمل] ولم يقُلْ : يا موسى فليس هنا نداء ، قالوا : مجرد الخطاب هنا يُراد به النداء ؛ لأنه ما دام يخاطبه فكأنه يناديه ، ومثال ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا .. ㊹ ﴾ [الأعراف]

فذكر الخطاب مباشرة دون نداء ؛ لأن النداء هنا مُقدَّر معلوم من سياق الكلام ، ومنه أيضاً : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ㊽ ﴾ [الأعراف]

ومنه أيضاً : ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِى .. ㉔ ﴾ [مريم] فجعل الخطاب نفسه هو النداء .

وقوله : ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ⑧ ﴾ [النمل] كلمة بُورك لا تناسب النار ؛ لأن النار تحرق ، وما دام قال ﴿ بُورِكَ مَن فِى النَّارِ .. ⑧ ﴾ [النمل] فلا بُدَّ أن مَنْ فى النار خَلْق لا يُحرق ، ولا تؤثر فيه النار ، فمَنْ هم الذين لا تؤثر فيهم النار ، هم الملائكة[1] .

وقد رأى موسى ـ عليه السلام ـ مشهداً عجيباً ، رأى النار تشتعل فى فرع من الشجرة ، فالنار تزداد ، والفرع يزداد خُضْرة ،

---

(١) أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى النَّارِ .. ⑧ ﴾ [النمل] يعنى تبارك وتعالى نفسه ، كان نور رب العالمين فى الشجرة ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ⑧ ﴾ [النمل] . يعنى الملائكة . أورده السيوطى فى (الدر المنثور ٦/٣٤١) .

فلا النار تحرق الخضرة ولا رطوبة الخضرة ومائيتها تطفىء النار[1] ، فمَنْ يقـدر على هذه المسألة ؟ لذلك قـال بعدها : ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑧﴾ [النمل]

ففى مثل هذا الموقف إياك أنْ تقـول : كيف ، بل نزِّه الله عن تصرفاتك أنت ، فهذا عجيب لا يُتصوَّر بالنسبة لك ، أمّا عند الله فأمر يسير .

وقد رأينا مـثل هذه المعجـزة فى قصة إبراهيم ـ عليـه السلام ـ حين نجَّـاه ربه من النار ، ولم يكُنْ المقـصود من هذه الحـادثة نجاة إبراهيم فـقط ، فلو أن الله أراد نجـاته فـحـسب لَمَـا أمكنهم منه ، أو لأطفأ النار التى أوقدوها بسحابة ممطرة ، أسباب كثيرة كانت مُمكنة لنجاة سيدنا إبراهيم .

لكن الله تعالى أرادهم أنْ يُمسكوا به ، وأنْ يُلْقوه فى النار ، وهى على حال اشـتعالهـا وتوهّجهـا ، ثم يُلْقونه فى النار بأنفـسهم ، وهم يروْنَ هذا كله عَيَاناً ، ثم لا تؤذيه النار ، كأنه يقول لهم : أنا أريد أن أنجـيه من النار ، رغم قـوة أسـبابكم فى إحـراقـه ، فأنا خـالق النار ومعطيها خاصية الإحراق ، وهى مُؤتمرةٌ بأمرى أقول لها : كُونى بَرْداً وسـلاماً تـكون ، فالمسـألة ليـست ناموساً وقاعـدة تحكم الكونَ ، إنمـاً هى قيوميتى على خَلْقى .

إذن : ما رآه مـوسى ـ عليه السلام ـ من النار التى تشـتعل فى خضرة الشـجرة أمر عجـيب عندكم ، وليس عجيبـاً عند مَنْ له طلاقة القدرة التى تخرق النواميس .

---

(١) قال ابن كثيـر فى تفسيره (٣/٣٥٦) : « فلما أتاها ورأى منظراً هائلاً عظيـماً حيث انتهى إليـها والنار تضطرم فى شـجرة خـضراء .لا تزداد النار إلا توقـداً ، ولا تزداد الشـجرة إلا خضرة ونضرة ، ثم رفع رأسـه فإذا نورها متصل بعنان السماء . قال ابن عـباس وغيره : لم تكن ناراً ، وإنما كانت نوراً يتوهج » .

وبناء الفعل ﴿ يُورِكَ .. ⑧ ﴾ [النمل] للمجهول تعنى : أن الله تعالى هو الذى يبارك ، فهذه مسألة لا يقدر عليها إلا الله ﴿ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ⑧ ﴾ [النمل] يجوز أن يكون الملائكة ، أو : بُوركت الشجرة ذاتها لأنها لا تُحرق ، أو النار لأنها لا تنطفىء فهى مُباركة .

وفي موضع آخر يُوسِّع دائرة البركة ، فيقول سبحانه : ﴿ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ[1] الشَّجَرَةِ .. ㉚ ﴾ [القصص]

ثم يخاطب الحق سبحانه موسى :

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ⑨ ﴾

جاء هنا النداء على حقيقته بأداة ومنادى ﴿ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ .. ⑨ ﴾ [النمل] هذا هو الأصل ، وما دُمْتُ أنا الله فلا تتعجَّب مما ترى ، وساعةَ تسمع مَنْ يُكلِّمك دون أن ترى متكلماً من جنسك ، فلا تتعجب ولا تندهش .

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ⑩ ﴾

ونلحظ أن هنا تفاصيلَ وأحداث لم تذكرها الآية هنا ، وذُكرت فى موضع آخر فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ⑰ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ⑱ ﴾ [طه]

والأدب يقتضى أن يأتى الجواب على قَدْر السؤال ، لكن موسى -

---

(١) أى : من ناحية الشجرة . وقيل : كانت شجرة العُليق . وقيل : سمرة ، وقيل : عوسج ، ومنها كانت عصا موسى ، ذكره الزمخشرى . والعوسج إذا عظم يقال له الغرقد . [القرطبى فى تفسيره ٧/٥١٦٨] .

عليه السلام ـ أراد أنْ يطيل أمد الأُنْس بالله والبقاء فى حضرته تعالى ، ولما أحسَّ موسى أنه أطال فى هذا المقام أجمل ، فقال ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) ﴾ [طه] فللعصا مهام أخرى كثيرة فى حياته .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ .. (١٠) ﴾ [النمل] يعنى : إنْ كانت العصا بالنسبة لك بهذه البساطة ، وهذه مهمتها عندك فلها عندى مهمة أخرى ، فانظر إلى مهمتها عندى ، وإلى ما لا تعرفه عنها .

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ .. (١٠) ﴾ [النمل] فلمَّا ألقى موسى عصاه وجدها ﴿ تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ .. (١٠) ﴾ [النمل] يعنى : حية تسعى وتتحرك ، والعجيب أنها لم تتحول إلى شىء من جنسها ، فالعصا عود من خشب ، كان فرعاً فى شجرة ، فجنسه النبات ولما قُطعت وجفَّتْ صارت جماداً ، فلو عادت إلى النباتية يعنى : إلى الجنس القريب منها واخضرتْ لكانت عجيبة .

أمَّا الحق ـ تبارك وتعالى ـ فقد نقلها إلى جنس آخر إلى الحيوانية ، وهذه قفزة كبيرة تدعو إلى الدهشة بل والخوف ، خاصة وهى ﴿ تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ .. (١٠) ﴾ [النمل] أى : تتحرك حركة سريعة هنا وهناك .

وطبيعى فى نفسية موسى حين يرى العصا التى فى يده على هذه الصورة أنْ يخاف ويضطرب ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨) ﴾ [طه]

ومعنى ﴿ الأَعْلَىٰ (٦٨) ﴾ [طه] إشارة إلى أنه تعالى يُعده لمهمة كبرى ، وأن لهذه العصا دوراً مع الخصوم ، وسوف ينتصر عليهم ، ويكون هو الأعلى .

وحين تتتبع اللقطات المختلفة لهذه القصة تجدها مرة (جان) ومرة (حية) ومرة (ثعبان) ، وهى كلها حالات للشيء الواحد ، فالجان فَرْخ الثعبان ، وله من خفة الحركة ما ليس للثعبان ، والحية هى الثعبان الضخم .

وقوله تعالى ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا .. ⑩ ﴾ [النمل] يعنى : انصرف عنها وأعطاها ظهره ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ .. ⑩ ﴾ [النمل] نقول : فلان يُعقِّب يعنى : يدور على عَقبه ويرجع ، والمعنى أنه انصرف عنها ولم يرجع إليها ؛ لذلك ناداه ربه سبحانه وتعالى : ﴿ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ⑩ ﴾ [النمل]

ونلحظ هنا نداءين اثنين يذكر فيهما ، المنادى موسى ـ عليه السلام ـ وكأنهما تعويض للنداء السابق الذى نُودِى فيه بالخبر ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ⑧ ﴾ [النمل]

وعلَّة عدم الخوف ﴿ لَا تَخَفْ .. ⑩ ﴾ [النمل] ليعلمه أنه سيُضطر إلى معركة ، فليكُنْ ثابتَ الجأش لا يخاف لأنَّه لا يحارب شخصاً بمفرده ، إنما جمعاً من السَّحرة جُمعوا من كل أنحاء البلاد ، وسبق أنْ قال له : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ⑥⑧ ﴾ [طه] حتى لا تُرهبه هذه الكثرة .

وهنا قال ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ⑩ ﴾ [النمل] والمعنى : لا تخفْ ، لأنى أنا الذى أرسلتُك ، وأنا الذى أتولّى حمايتك وتأييدك ، كما قال الحق سبحانه فى موضع آخر :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ⑰① إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ⑰② وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ⑰③ ﴾ [الصافات]

فأنت معذور فى الخوف ، ، إنْ كنتَ بعيداً عنى ، فكيف وأنت فى جوارى وأنا معك ، وها أنذا أخاطبك ؟

وكان إلقاء العصا من موسى هذه المرة مجرد تجربة (بروفة) ليألف هذه المسألة ويأنس إليها ، وتحدث له دُرْبة ورياضة ، فإذا ما أجرى هذه العملية أمام فرعون والسحرة أجراها بثقة وثبات ويقين من إمكانية انقلاب العصا إلى حية .

وبعد ذلك يأتى بآية تثبت منطقة التكليف فى البشر حتى الرسل ، والرسل أيضاً مُكلَّفون ، وكل مُكلَّف يصح أنْ يطيع أو أن يعصى ، لكن الرسلَ معصومون من المعصية ، أما موسى عليه السلام فله حادثة مخصوصة حين وكَزَ الرجل فسقط ميتاً ، فقال : ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ⑭﴾ [الشعراء]

وفى موضع آخر يُحدِّد هذا الذنب : ﴿قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ㉝﴾ [القصص]

ونضع هذه القصة أمامنا لنفهم :

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑪﴾

إذن : فالاستثناء هنا من قوله تعالى ﴿إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ⑩﴾ [النمل] استثنى من ذلك ﴿إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ .. ⑪﴾ [النمل]

وكأنه ـ عز وجل ـ يُعرِّض بهذه الحادثة الخاصة بموسى عليه السلام : ﴿إِلاَّ مَن ظَلَمَ .. ⑪﴾ [النمل] أى : حين قتَل القبطى[1] ، لكن

---

(١) القبطى هو المصرى من أهل البلد التابع لفرعون وليس المقصود به النصرانى المسيحى ، فموسى قبل عيسى بأجيال كثيرة ، وبينهما أنبياء ورسل كثيرون .

موسى ـ عليه السلام ـ اعترف بذنبه واستغفر ربه ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ .. (١٦) ﴾ [القصص]

ولا كلامَ لأحد بعد مغفرة الله عز وجل للمذنب[1] ؛ لأنه بعد أنْ ظلم ﴿ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ .. (١١) ﴾ [النمل] يعني : عمل عملاً حسناً بعد الذنب الذي ارتكبه ﴿ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) ﴾ [النمل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) ﴾

هذه آية أخرى ومعجزة جديدة ، قال عنها في موضع آخر : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ .. (٣٢) ﴾ [القصص]

فما الفرق بين : أدْخل يدك ، واسلُك يدك ؟ قالوا : لأنه ساعة يُدخل يده في جيبه يعني : في فتحة القميص ، إنْ كانت فتحة القميص مفتوحة أدخل يده بسهولة فيُسمَّى (إدخال) .

فإن كانت مغلقة (فيها أزرار مثلاً) احتاج أنْ يسلك يده يعني : يُدخلها برفق ويُوسِّع لها مكاناً ، نقول : سلك الشيء يعني : أدخله بلُطْف ورِفْق ، ومنه السلك الرفيع حين تُدخِله في شيء .

وساعةَ نسمع كلمة الجيب نجد أن لها معنىً عرفياً بين الناس ، ومعنى لُغوياً : فمعناها في اللغة فتحة القميص العليا ، والتي تكون للرقبة ، وهي في المعنى العُرْفي فتحة بداخل الثوب يضع فيها

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٥٠٤٣/٧) : « إذا أحدث المقرب حدثاً فهو وإن غفر له ذلك الحدث فأثر ذلك الحدث باق ، وما دام الأثر والتهمة قائمة فالخوف كائن لا خوف العقوبة ولكن خوف العظمة ، والمتّهم عند السلطان يجد للتهمة حزازة تؤديه إلى أن يكدر عليه صفاء الثقة ، وموسى عليه السلام قد كان منه الحدث في ذلك الفرعوني ، ثم استغفر وأقر بالظلم على نفسه ، ثم غفر له » .

الإنسان نقوده ، يقولون (جيب) والعوام لهم عُذْر فى ذلك ؛ لأنهم اضطروا إلى حفْظ نقودهم داخل الثياب ، حتى لا تكون ظاهرة ، وربما سرقها منهم النشالون والأشقياء .

ولا يزال الفلاحون فى الريف يجعلون الجيب فى (السديرى) الداخلى ؛ لذلك سمعنا الحاوى مثلاً يقول ـ ليُحنِّن الناس عليه ـ بارك الله فيمَنْ يضع يده فى جيبه ـ يعنى : بارك الله فى الذى يعطينى جنيهاً .

وقوله تعالى ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (١٢)﴾ [النمل] أى : وأخرجها تخرج بيضاء ناصعة مُنوِّرة ، ومعلوم أن موسى ـ عليه السلام ـ كان آدمَ اللون يعنى : أسمر ، فحين يروْنَ لونه تغيَّر إلى البياض ، فربما قالوا : إن ذلك مرضٌ كالبرص مثلاً .

لذلك أزال الله هذا الظنَّ بقوله : ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (١٢)﴾ [النمل] من غير مرض ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ .. (١٢)﴾ [النمل] ليعلم موسى ـ عليه السلام ـ أن هذه الآية واحدة من تسع آيات أخرى يُثبِّته الله بها أمام عدوه فرعون وقومه .

وهذه التسع هى : العصا ولها مهمتان : أن تتحول إلى حية أمام السحرة ، وأنْ يضرب بها البحر أمام جيشه ، حينما يهاجمه فرعون وجنوده .

ثم اليد ، واثنتان هما الجدب ، ونقص الثمرات فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ .. (١٣٠)﴾ [الأعراف]

ثم : الطوفان ، والجراد ، والقُمَّل[(١)] ، والضفادع ، والدَّم . هذه

---

(١) القُمَّل : حشرات صغيرة تؤذى الزرع وتضايق الناس . [القاموس القويم ٢/ ١٣٤] . قال ابن منظور ـ فى اللسان ـ مادة : قمل « القمل : صغار الذر والدَّبى . وقيل : هو الدَّبى الذى لا أجنحة له . وقال ابن السكيت : القُمَّل شىء يقع فى الزرع ليس بجراد فيأكل السنبلة وهى غضة قبل أن تخرج فيطول الزرع ولا سنبل له . قال الأزهرى : وهذا هو الصحيح » .

تسع آيات . تُثبِّت موسى أمام فرعون وقومه . فهل أرسل موسى ـ عليه السلام ـ إلى فرعون خاصة ؟ لا ، إنما أُرسل إلى بني إسرائيل ، لكنه أراد أنْ يُقنع فرعون بأنه مُرْسَل من عند الله حتى لا يحول بينه وبينهم ، وجاءت مسألة دعوة فرعون إلى الإيمان بالله عَرَضاً في أحداث القصة ، فليست هي أساسَ دعوة موسى عليه السلام .

ومعنى ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) ﴾ [النمل] إشارةٌ إلى أن الإنسان وإنْ كان كافراً خارجاً عن طاعة الله إلا أنَّ أصله من أصلاب مؤمنة ، والمراد الإيمان الأول في آدم عليه السلام ، وفي ذريته من بعده ، لكنهم فسقوا أي : خرجوا من غشاء التكليف الذي يُغلِّف حركة حياتهم ، كما نقول : فسقت الرطبة : يعني خرجت من غلافها ، كذلك فَسَق الإنسان أي : خرج عن حيِّز التكليف الصائن له .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً[1] قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) ﴾

الآيات : المعجزات التي تُثبت صدْق الرسول ، والآيات تكون مُبْصَرة بصيغة اسم المفعول ، لكن كيف تكون هي المبصرة بصيغة اسم الفاعل ، وهذه المسألة عرفناها أخيراً ، فكانوا منذ القدم عند اليونان والحضارات القديمة يظنون أن رؤية العين للأشياء تحدث من شعاع يخرج من العين إلى الشيء المرئي ، إلى أن جاء العالم المسلم الحسن بن الهيثم ليثبت خطأ هذه النظرية ويقول بعكسها .

---

(١) مبصرة : أي : واضحة بينة ظاهرة . [تفسير ابن كثير ٣/٣٥٧] . وقال الجوهري : مبصرة : أي : مضيئة . وقال أبو إسحاق : معنى مبصرة تُبصِّرهم أي تبين لهم . وقال الأخفش : إنها تُبصِّرهم أي تجعلهم بُصراء . [لسان العرب ـ مادة : بصر] .

فالرؤية تتم بخروج شعاع من الشيء المرئيّ إلى العين ، بدليل أننا لا نرى الشيء إنْ كان في الظلام ، وأنت في النور ، فإنْ كان الشيء في النور وأنت في الظلام تراه .

إذن : فكأن الآيات نفسها هي المبصرة ؛ لأنها هي التي ترسل الأشعة التي تسبب الرؤية . أو : أن الآيات من الوضوح كأنها تُلِحّ على الناس أنْ يروْا وأنْ يتأملوا ، فكأنها أبصرُ منهم للحقائق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

﴿ وَجَحَدُوا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل] أي : باللسان ﴿ بِهَا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل] بالآيات ﴿ وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل] أي : إيماناً بها ، إذن : المسألة عناد ولَدَد في الخصومة ؛ لذلك قال تعالى بعدها ﴿ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل] أي : استكباراً عن الحق ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل] وترْك عاقبتهم مبهمة لتعظيم شأنها وتهويلها .

ثم يترك قصة موسى مع فرعون وما كان من أمرهما لمناسبة أخرى تحتاج إلى تثبيت آخر ، وينتقل إلى قصة أخرى في موكب الأنبياء ، فيها هي الأخرى مواطن للعبْرة وللتثبيت :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

وتسأل : لقد أعطى الله داود وسليمان - عليهما السلام - نعَماً كثيرة غير العلم ، ألاَن لداود الحديد ، وأعطى سليمان مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، وسخَّر له الريح والجن ، وعلَّمه منطق الطير .. إلخ ومع ذلك لم يمتنّ عليهما إلا بالعلم وهو منهج الدين ؟

قالوا : لأن العلم هو النعمة الحقيقية التى يجب أن يفرح بها المؤمن ، لا الملْك ولا المال ، ولا الدنيا كلها ، فلم يُعتد بشىء من هذا كله ؛ لذلك حمد الله على أن آتاه الله العلم ؛ لأنه النعمة التى يحتاج إليها كل الخلْق ، أما المُلْك أو الجاه أو تسخير الكون لخدمته ، فيمكن للإنسان الاستغناء عنها .

والإمام على - كرم الله وجهه - حينما نُفى أبو ذر ؛ لأنه كان يتكلم عن المال وخطره والأبنية ومسائل الدنيا ، فَنَفَوْه إلى الربذة حتى لا يثير فتنة ، لكنه قبل أن يذهب مرَّ بالإمام على كى يتوسط له ليعفوا عنه ، لكن الإمام علياً - رضى الله عنه - أراد ألاَّ يتدخل فى هذه المسألة حتى لا يقال : إن علياً سلَّط أبا ذر على معارضة أهل الدنيا ومهاجمتهم ، فقال له : يا أبا ذر إنك قد غضبتَ لله فارْجُ مَنْ غضبتَ له ، فإن القوم خافوك على دُنْياهم ومُلكهم ، وخِفْتهم أنت على دينك فاهرب بما خِفْتَهم عليه - يعنى : اهرب بدينك - واترك ما خافوك عليه ، فما أحوجهم إلى ما منعتهم ، وما أغناك عمَّا منعوك[1] .

---

(١) أورد ابن الجوزى فى صفة الصفوة (١/٣٠٢) : « روى البخارى فى أفراده من حديث زيد بن وهب قال : مررت بالربذة فقلت لأبى ذر : ما أنزلك هنا ؟ قال : كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية فى هذه الآية ﴿الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ..(٣٤)﴾ [التوبة] ، فقال : نزلت فى أهل الكتاب . فقلت : فينا وفيهم . فكتب يشكونى إلى عثمان . فكتب عثمان : اقْدم المدينة فقدمتُ فكثر الناس علىّ كأنهم لم يرونى قبل ذلك ، فذكر ذلك لعثمان فقال : إن شئت تنحَّيْتَ فكنت قريباً ، فذلك الذى أنزلنى هذا المنزل » فهذه الواقعة كانت فى زمن خلافة عثمان بن عفان ، وقد توفى أبو ذر فى زمن عثمان . وهذا لا يمنع أن يكون أبو ذر قد استشار على بن أبى طالب إذ لم يكن خليفة .

هكذا أزال الإمـام هذا الإشكال ، وأظهـر أهمـيـة العلم ومنهج الله بحيث لا يسـتغنى عنة المسلم بحال من الأحـوال ، ولا يعيش بدونه ، وبه ينال حـياة أخرى رفـيعـة باقية ، فـى حين يستطـيع الإنسان أن يعيش بدون المال وبدون الملك .

ولذلك يبعث خليفـة المسلمين إلى سيدنا جعـفر الصادق : يا ابن بنت مـحمـد ﷺ ما لك لا تغـشانا كـمـا يغشـانا الناس ؟ أى : تأتينا وتجالسنا وتسمر معنا ، فقال : ليس عندى من الدنيا ما أخافك عليه ـ يعنى : ليس عندى مال تصادره ـ وليس عنـدك من الآخرة ما أرجوك له . وهذا نفس المنطق الذى تكلم به الإمام على .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [النمل] فالحـمد هنا على نعمـة العلم وحفظ منهج الله ، وفى الآية مظهر من مظاهر أدب النبوة ، حيث قالا ﴿ فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [النمل] فكأن هناك مَنْ هم أفضل منّا ، وليس التفضيل حَجْراً علينا ، وهذا من تواضعهما عليهما السلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله سبـحانه ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [النمل] أى : بقيتْ فيه النبوة وحمل المنهج ، لا الملك لأن الأنبـياء لا تورث كما جاء فى الحديث الشريف : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»[1]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٣٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٥٧) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه . أن رسول الله ﷺ قال : « لا نُورث ما تركناه صدقة » .

وهذا يدل على أن سليمان جاء بعد داود ، وقد ورث عنه النبوة مع أنهما متعاصران ، بدليل قوله تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ[1] فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) ﴾ [الأنبياء]

إذن : كان سليمان مع داود فى هذه الحكومة وفى العلم ، لكن الحق سبحانه جعل العلم منازل ، بدليل أنه قال : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء] مع أن أباه موجود ، وحكم فى القضية بأن يأخذ صاحبُ الزرع الغنم التى أكلت .

فلما خرجوا من عند داود سألهم سليمان عن حكم أبيه ، فأخبروه بما قال ، فقال سليمان : بل يأخذ صاحب الزرع الغنم ينتفع بها ، ويأخذ صاحب الغنم الزرع يصلحه حتى يعود كما كان ، وعندها يأخذ صاحب الغنم غنمه ، وصاحب الزرع زرعه[2] .

والحق - تبارك وتعالى - يعطينا هذا المثل مع نبى وأبيه ، لا مع نبيين مختلفين بعيدين ، وفى هذا إشارة إلى أن حقّ الأبوة على سليمان لم يمنعه من مخالفة أبيه فى الحكم ؛ لأن الله تعالى قال عنهما ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء] فكلٌّ منهما يحكم على مقتضى علمه الذى منحه الله .

ومن هذه الحادثة أخذنا مشروعية الاستئناف والنقض فى أحكام المحاكم ، فقاضى الاستئناف حينما يُعدِّل فى حكم القاضى الابتدائى لا يُعَدُّ هذا طعْناً فيه ، إنما كل منهما حكم بناءً على علمه ، وعلى

---

(١) نفشت الغنم : انتشرت فى المرعى بغير راعٍ ولا ضابط . [القاموس القويم ٢ / ٢٧٩] قال ابن منظور فى [اللسان - مادة : نفش] : « نفشت الإبل والغنم : انتشرت ليلاً فرعت ، ولا يكون ذلك بالنهار ، وخصَّ بعضهم به دخول الغنم فى الزرع » .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣ / ١٨٦) عن ابن عباس .

ما توفّر له من أدلة ووقائع ، وربمـا فطِن القاضـى الثانى لما لم يفطِنْ له القاضـى الأول .

إذن : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [النمل] لا تعنى أنه جـاء بعده ، إنما هما متعاصران ، وورثه فى العلم والنبوة والحكمة ، لا فى المُلْك والمال ؛ لأن الله تعالى يريد أن يكون الرسول بعيداً فى رسالته وتبليغه عن الله عن أىِّ نفع يجىء له ، أو لذريته .

لذلك كان الفقراء من أهل النبى ﷺ لا يأخذون من زكاة المؤمنين ، لكن أين هذا التشـريع الحكيم مـمـا يحـدث الآن من الحكام والرؤسـاء والمسئولين ممَّنْ يوالون أقاربهم ، وينهبون البلاد من أجلهم ؟

﴿ وَقَالَ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [النمل] فالطير له منطق ولغة ؛ لأنـه كما قـال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام] والآن ومع تقدُّم العلم يتحدث العلماء عن لغة للنمل ، ولغة للنحل ، ولغة للسمك .. إلخ .

وهذه المخلوقات تتفاهم بلغاتها بدقَّة تفاهم غريزى ، لكننا لا نفهم هذا المنطـق ، والحق ـ تبـارك وتعـالى ـ يُـعلِّمنا : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] فإنْ قلتَ كمَنْ قـالوا : هو تسبيح دلالة لا مـنطقَ ومقال ، نقـول : طالما أن الله تعالى قال ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] فلا بُدَّ أنه مقال وكلام ، ولكن أنت لا تفهمه .

وعلماء اللغـة يقولون : إن النطق خاصٌ بالإنسان ، أمـا ما تُحدثه الحيوانات والطيور فأصـوات تُحدثها فى كل وقت ، مثل مواء القطة ، ونُباح الكلب ، وخُوَار البـقر ونقيقَ الضفـادع ، لكن هذه الأصوات لها معنى (فنونوة) القطة حين تجوع غير (نونوتها) حين تخاف .

إذن : فهى تُعبِّر ، لكننا لا نعرف هذه التعبيرات ، كيف ونحن البشر لا يعرف بعضنا لغات بعض ؛ لأننا لم نتعلمها ، واللغة ضرورة اجتماعية نتواضع عليها أى : نتفق أن هذا اللفظ يعنى كذا ، فإذا نطقتَ به أفهمك ، وإن نطقتُ به تفهمنى .

واللغة بنت الاستماع ، فاللفظ الذى تسمعه تستطيع نُطْقه ، والذى لم تسمعه لا تستطيع نُطْقه ، حتى لو كان لفظاً عربياً من لغتك ، ولا تعرف أيضاً معناه ، فلو قلت لك : (إنما الحيزبون والدردبيس والطخا والنخالح والعصلبيص) فلا شكَّ أنك لا تعرف لهذا معنى ؛ لأننا لم نتواضع على معناه .

والطفل الذى نشأ فى بيئة عربية يتكلم العربية ؛ لأنه سمعها ولا يتكلم الإنجليزية مثلاً ؛ لأنه لم يسمعها ، ولو وضعتَ نفس الطفل فى بيئة إنجليزية لتكلم الإنجليزية ؛ لأن اللغة لا ترتبط بجنس ولا دم ، اللغة سماع .

ومعنى ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ .. (١٦) ﴾ [النمل] أى : من النِّعَم على الإطلاق ، وبعد قليل سنسمع نفس هذه العبارة يقولها الهدهد عن ملكة سبأ ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ .. (٢٣) ﴾ [النمل] إذن : فهى مثله فيما يناسب أمثالها من الملوك لا فى النبوة وحَمْل المنهج ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) ﴾ [النمل] الفضل المحيط بكل الفضائل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) ﴾

حُشِروا : جُمِعوا من كل مكان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَابْعَثْ فِي

الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ [الشعراء] والحشْر : جَمْع الناس للحساب يوم القيامة .

وسُمِّي الجمع حَشْراً ؛ لأنك تجمع الناس من أماكن متفرقة في مكان واحد ، حتى يضيق بهم ويزدحم ، وهذا معنى الحشْر المتعارف عليه عندنا ، نقول : نحشرهم على بعض .

ومعنى ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النمل] يعني : يُمنعون ، ومنه قوله « إن الله ليزع بالسُّلْطان ما لا يزع بالقرآن » يعني : أن السلطان والقوة والبطش تمنع ما لا يستطيع القرآن منعه ؛ ذلك لأنهم يستبعدون القيامة والعذاب ، أمّا السلطان فرادع حاضر الآن .

لكن ، ممَّ يمنعون وهم في موقف الحشر أمام سليمان ؟ قالوا[1]: يُمنعون أن يسبق بعضهم بعضاً إلى سليمان ، إنما نمنعهم حتى يأتي المتأخر منهم ، ويدخلون جميعاً عليه مرة واحدة ، وفي ذلك إحداثُ توازنٍ بين الرعية كلها .

وقد حدَّثونا أن النبي ﷺ كان من صفاته إذا جلس في مجلس توزَعَتْ نظراته وعينه على كل الجالسين حتى يُسوِّي بينهم ، ولا ينظر لأحد أكثر من الآخر[2] ، ولا يُميز أحداً منهم على أحد ، حتى لا يظن أحدهم أن النبي فضَّله على غيره .

وكان ﷺ لا يُقرِّب إلا أهل الفضل والتقوى الذي يُعرف منهم أنهم لا يستغلون هذه المكانة لنيل سلطة بين الناس ؛ ولذلك كان ﷺ

---

(١) قاله ابن عباس بنحوه : جعل على كل صنف منهم وزعة ترد أولاها على أخراها لئلا يتقدموا في المسير كما تصنع الملوك . أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/٣٤٧) وعزاه لابن جرير الطبري .

(٢) من أدب النبوة أن رسول الله ﷺ لم يكن أحد يأخذ بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذي يرسله ولم يكن يرى ركبتيه أو ركبته خارجاً عن ركبة جليسه ، ولم يكن أحد يصافحه إلا أقبل عليه بوجهه ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه . رواه البزار والطبراني في الأوسط وإسناد الطبراني حسن . مجمع الزوائد للهيثمي (٩/١٥).

لا يُوطِّن الأماكن وينهى عن ذلك[1] على خلاف ما نراه الآن من بعض المصلِّين الذين يضعون سجادة مثلاً فى الصف الأول يشغلون بها المكان ، ثم يذهب ويقضى حاجاته ، ويعود وقد امتلأ المسجد فيتخطّى رقاب الناس ليصل إلى مكان فى المقدمة ، وهو ليس مكانه عند الله .

فالله تعالى قد وزَّع الأماكن على حَسْب الورود ، فإتيانك إلى بيت الله أولاً يعطيك ثواب الصف الأول ، وإنْ صليت فى الصفٍّ الأخير ، وعدم توطين الأماكن ينشر الأُلْفة بين الناس ، ويزيل الفوارق ويساعد على التعارف ، فكل صلاة أنت بجانب شخص جديد تتعرف عليه وتعرف أحواله .

وهذا معنى ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧)﴾ [النمل] يمنع السابق أنْ يسبق حتى يأتى اللاحق ، ليكونوا سواسية فى الدخول على نبى الله سليمان عليه السلام .

لكن فى ضوء هذا المعنى لمادة (وزع) كيف نفهم قوله تعالى :
﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ .. (١٩)﴾ [النمل]

أوزعنى هنا يعنى : أقْدِرنى وامنعنى من الغفلة عن نعمتك ، لأظلَّ شاكراً لك .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (١٨) ﴾

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٥/٤٤٧) ، وابن ماجه فى سننه (١٤٢٩) ، وأبو داود فى سننه (٨٦٢) من حديث عبد الرحمن بن شبل قال : « نهى رسول الله ﷺ عن نقرة الغراب ، وافتراش السبع ، وأن يوطن الرجل المكان فى المسجد كما يوطن البعير » أما الإمام أحمد فقد أخرجه من حديث أبى سلمة الأنصارى .

الضمير في ﴿أَتَوْا .. (١٨)﴾ [النمل] يعود على جنود سليمان من الإنس والجن والطير ، أي : جاءوا جميعاً صَفّاً واحداً ومرُّوا ﴿عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ .. (١٨)﴾ [النمل] يعني : قرية النمل[1] ، وقوله ﴿عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ .. (١٨)﴾ [النمل] يدلُّ على أنهم جاءوا من أعلى الجبل ، أو أنهم قطعوا الوادي كله ، كما نقول : فلان أتى على الطعام كله .

عندها ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ .. (١٨)﴾ [النمل] لماذا هذا التحذير ؟ ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ .. (١٨)﴾ [النمل] ثم احتاطتْ النملة للأمر ، فقالت ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨)﴾ [النمل] فما كان سليمان وجنوده ليُحطِّموا بيوت النمل عن قَصْد منهم .

والمعنى : حالة كونهم لا يشعرون بكم ، وهذا من عدالة حكمها ومعرفتها بسليمان ، وأنه ليس جباراً ولا عاتياً . إذن : فالنملة رأتْ عن بُعْد ، ونطقتْ عن حق ، وحكمتْ بعدل ، لهذا كله تبسَّم سليمان ضاحكاً .

وواضح في هذا القول ما تتميز به مملكة النمل من نظام يعرف فيه كُلٌّ مهمته ، ويؤديها على أكمل وجه ، فهذه النملة لا بُدَّ أنها كانت تقوم بمهمة الحراسة وتقف في الدَّرَك ، ترقب الجو من حولها ، وكأنها جندي الدورية اليقظ .

وسبق أن قُلْنا : لو أنك جلستَ في مكان ، وتركتَ فيه بعض فضلات الطعام مثلاً أو الحلوى لرأيتَ بعض النمل يدور حولها دون أنْ يقربها ، ثم انصرفوا عنها ، وبعد مدة ترى جماعة منهم جاءت وحملت هذه القطعة ، وكأن الجماعة الأولى أفراد الاستطلاع الذين

---

(١) قال قتادة : ذُكر لنا أنه وادٍ بأرض الشام . وقال كعب : هو بالطائف . (قاله القرطبي في تفسيره ٧/٥٠٥١) وقال في موضع آخر : « قال كعب : مرَّ سليمان عليه السلام بوادي السدير من أودية الطائف » .

يكتشفون أماكن الطعام ، ويُقدِّرون كم نملة تستطيع حمل هذا الشيء.

بدليل أنك لو ضاعفتَ القطعة الملقاة لرأيتَ عدد النمل الذى جاء لحملها قد تضاعف هو أيضاً . ولو قتلتَ النمل الأول الذى جاء للاستطلاع تلاحظ أن النمل امتنع عن هذا المكان ، لماذا ؟ لأن النملة التى نجتْ من القتل ذهبت إلى مملكتها ، وحذَّرتهم من هذا المكان .

وفى مملكة النمل عجائب وآيات ، سبحان خالقها ، وسبحان مَنْ هداها إلى هذه الهندسة المحكومة بالغريزة .

ومن عجائب النمل أنك ترى فى عُشِّ النمل الحبوب مفلوقة إلى نصفين حتى لا تنبت ، وتهدم عليهم عُشَّهم ، لكن حبَّة الكُسْبرة مثلاً تنبت حتى لو انفلقتْ نصفين ، حيث ينبت كل نصف على حِدَة ، لذلك لاحظوا أن النمل يفلق هذه الحبة بالذات إلى أربعة أقسام .

كما لاحظ المهتمون بدراسة النمل وجود حبات بيضاء صغيرة مثل رأس الدبوس أمام أعشاش النمل ، وبفحصها تبيَّن أنها زريعة النبات التى تحمل خلايا الإنبات أخرجوها كى لا تنبت .

وصدق الله العظيم : ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم .. (٣٨)﴾ [الأنعام]

وقد سمَّى الله تعالى ما قالت النملة قولاً ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ .. (١٨)﴾ [النمل] ولا بُدَّ أن هذا التحذير ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ .. (١٨)﴾ [النمل] جاء قبل أنْ يأتى سليمان وجنوده ، وهم على مشارف الوادى .

وكلمة ﴿مَسَاكِنَكُمْ .. (١٨)﴾ [النمل] تدل على أن لهم بُيوتاً ومساكنَ ، ومجالَ معيشة ، وكسْبَ أرزاق ، كما نقول (بيلقّطوا رزقهم) من هنا ومن هناك ؛ لذلك تجده يتتبع مواضع الطعام

والفضلات ، ويدخل إليها من أضيق الأماكن ، لكن نرى مثلاً محلات الحلوى مليئة بالسكر الذى يعشقه النمل ، ومع ذلك لا نجد فى هذه المحلات نملة واحدة ، لماذا ؟ لما تتبَّعوا هذه الظاهرة بالدراسة وجدوا أن النمل لا يدخل المكان إذا كان به سِمْسم ، وهذه من عجائب النمل أيضاً .

وقوله تعالى : ﴿ لا يَحْطِمَنَّكُمْ .. (١٨) ﴾ [النمل] الحَطْم هو التكسير ، ومنه قوله سبحانه عن النار : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) ﴾ [الهمزة] لأنها تحطم ما يُلْقى فيها .

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) ﴾

تبسَّم سليمان ـ عليه السلام ـ بالبسمة التى تتصل بالضحك ، لماذا ؟ لأنه سمعها قبل أنْ يصل إليها ، ولأنها رأتْ قبل أن يأتى المرئى ، وقد تكلم البعض فى هذه المسألة فقالوا : إن الريح نقلتْ إليه مقالة النملة ، وهو ما يزال بعيداً عنها ، وهذا الكلام يُقبل لو أن المسألة (ميكانيكا) إنما هى عمل رب وقدرة خالق مُنعِم ينعم بما يشاء .

ونطق قائلاً ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي .. (١٩) ﴾ [النمل] أى : امنعنى أنْ أغفل ، أو أنْ أنسى هذه النِّعم ، فأظل شاكراً حامداً لك على الدوام ؛ لأن هذه النعَم فاقتْ ما أنعمت به على عامة الخَلْق ، وفوق ما أنعمتُ به على إخوانى من الأنبياء السابقين ، وعلى كل ملوك الدنيا ؛ لأنه عليه السلام جمع بين المُلْك والنُّبوة ، وإنْ كان سيدنا رسول الله ﷺ

عرض عليه الملْك فرفضه ، وآثر أن يكون عبداً رسولاً .

لذلك وجب على كل صاحب نعمة أنْ يستقبلها بحمد الله وشكْره ، وسبق أنْ قُلْنا في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧﴾ [التكاثر] أن حق النعمة أن تحمد المنعم عليها ، فلا تُسأل عنها يوم القيامة .

وما أشبه الحمد على النعمة بما يُسمُّونه عندنا في الريف (الرقوبة) ، وهي بيضة تضعها ربَّة المنزل في مكان أمين يصلح عُشًّا يبيض فيه الدجاج ، فإذا رأتْ الدجاجة هذه البيضة جاءتْ فباضتْ عليها ، وهكذا شكر الله وحمده على النعم هو النواة التي يتجمع عليها المزيد من نِعَم الله .

وقد شُرح هذا المعنى في قوله سبحانه : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ.. ⑦﴾ [إبراهيم] ألاَ ترى أن مَنْ علم علماً فعمل به أورثه الله علم ما لم يعلم ؟ لماذا ؟ لأنه ما دام عمل بعلمه ، فهو مُؤْتمن على العلم ؛ لذلك يزيده الله منه ويفتح له مغاليقه ، على خلاف مَنْ علم علماً ولم يعمل به ، فإنَّ الله يسلبه نور العلم ، فيغلق عليه ، وتصدأ ذاكرته ، وينسى ما تعلَّمه .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ..⑫﴾ [لقمان] أي : تعود عليه ثمرة شُكْره ؛ لأنه إنْ شكر الله بالحمد شكره الله بالزيادة ؛ لذلك من أسمائه تعالى (الشكور) .

وقوله : ﴿عَلَيَّ .. ⑲﴾ [النمل] هذه خصوصية ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. ⑲﴾ [النمل] لأنه ورث عنهما الملْك والنبوة ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ .. ⑲﴾ [النمل] وهذا ثمن النعمة أن أؤدي خدمات الصلاح في المجتمع لأكون مُؤْتمناً على النعمة أهْلاً للمزيد منها .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد منّا أنْ نُوسِّع دائرة الصلاح ودائرة المعروف في المجتمع ، ألاَ ترى إلى قوله سبحانه : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً .. (٢٤٥)﴾ [البقرة]

فسمَّى الخير الذي تقدمه قَرْضاً ، مع أنه سبحانه واهب كل النِّعم ، وذلك لِيُحنِّن قلوب العباد بعضهم على بعض ؛ لأنه تعالى خالقهم ، وهو سبحانه المتكفِّل برزقهم .

ثم يقول : ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾ [النمل] وذكر الرحمة والفضل ؛ لأنهما وسيلة النجاة ، وبهما ندخل الجنة ، وبدونهما لن ينجو أحد ، واقرأ قول رسول الله ﷺ : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ﷺ ؟ قال : ولا أنا إلا أنْ يتغمّدني الله برحمته »[1] .

ويقول سبحانه في هذا المعنى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. (٥٨)﴾ [يونس] فالمؤمن الحق لا يفرح بعمله ، إنما يفرح إنْ نال فَضْلَ الله ورحمته ، كأنه يقول لربه : لن اتكل يا رب على عملي ، بل فضلك ورحمتك هما المتكل ، لأنني لو قارنتُ العبادة التي كلفتني بها بما أسديْتَ إليَّ من نِعَم وآلاء لَقَصُرَتْ عبادتي عن أداء حقِّك عليَّ ، فإنْ أكرمتني بالجنة فبفضلك .

والبعض يقولون : كيف يعاملنا ربنا بالفضل والزيادة ، ويُحرِّم علينا التعامل بالربا ؟ أليست الحسنة عنده بعشرة أمثالها أو يزيد ؟ نقول : نعم ، لكن الزيادة هنا منه سبحانه وتعالى وليستْ من مُسَاوٍ ، إنها زيادة ربٍّ لعبيد .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وقوله ﴿فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل] دليل على تواضع سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ فمع مكانته ومنزلته يطلب أنْ يُدخله الله فى الصالحين ، وأن يجعله فى زمرتهم ، فلم يجعل لنفسه مَيْزةً ولا صدارة ولا ادَّعى خيرية على غيره من عباد الله ، مع ما أعطاه الله من الملْك الذى لا ينبغى لأحد من بعده .

وأعطاه النبوة وحمَّله المنهج ، فلم يُورثه شيء من هذا غروراً ولا تعالياً ، وها هو يطلب من ربه أن يكون ضمن عباده الصالحين ، كما نقول (زقنى مع الجماعة دول) ، حين تكون السيارة مثلاً كاملة العدد ، وليس لى مقعد أجلس عليه .

مَنْ يقول هذا الكلام ؟ إنه سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ الذى آتاه الله مُلْكاً ، لا ينبغى لأحد من بعده ، ومع ذلك كان يُؤثِر عبيده وجنوده على نفسه ، وكان يأكل (الردة) من الدقيق ، ويترك النقى منه لرعيته .

إذن : لم ينتفع من هذا الملْك بشىء ، ولم يصنع لنفسه شيئاً من مظاهر هذا الملك ، إنما صنعه له ربه لأنه كان فى عَوْن عباد الله ، فكان الله فى عَوْنه ، وأنت حين تُعين أخاك تُعينه بقدرتك وإمكاناتك المحدودة ، أما معونة الله تعالى فتأتى على قَدْر قوته تعالى ، وقدرته وإمكاناته التى لا حدودَ لها ، إذن : فأنت الرابح فى هذه الصفقة .

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾

مادة : فقد الفاء والقاف والدال ، وكل ما يُشتقّ منها تأتى بمعنى ضاع منه الشيء ، ومنه قوله تعالى فى قصة إخوة يوسف : ﴿قَالُوا

وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [يوسف] ، فإنْ جاءت بصيغة (تفقَّد) بالتضعيف دلَّتْ على أن الشيء موجود وأنا أبحث عنه في مظانّه .

فمعنى ﴿ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [النمل] أن الرئيس أو المهيمن على شيء لا بُدَّ له من متابعته ، وسليمان ـ عليه السلام ـ ساعةَ جلس فى مجلس العلم أو مجلس القضاء نظر للحاضرين من مملكته ، كأنه القائد يستعرض جنوده ، وفى هذا إشارة إلى أنه ـ عليه السلام ـ مع أن هذا ملكه ومُسخَّر له ومُنقَاد لأمره ، إلا أنه لم يتركه هَمَلاً دون متابعة .

لكن ، لماذا تفقَّد الطير بالذات ؟ قالوا : لأنه أراد أنْ يقوم برحلة فى الصحراء ، والهدهد هو الخبير بهذه المسألة ؛ لأنه يعلم مجاهلها ، ويرى حتى الماء فى باطن الأرض[1] ، يقولون : كما يرى أحدكم الزيت فى وعائه .

لذلك نرى أن من مميزات الهدهد أن الله تعالى جعل له منقاراً طويلاً ؛ لأنه لا يأكل مما على سطح الأرض ، إنما ينبش بمنقاره ليُخرج طعامه من تحت الأرض .

ألاَ تراه حين كلَّم سليمان فى دقائق العقيدة والإيمان بالله يقول عن أهل سبأ : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ[2] فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [النمل] فاختار هذه المسألة بالذات ؛ لأنه الخبير بها ورزقه منها .

ولما لم يجد الهدهد فى الحاضرين قال ﴿ فَقَالَ مَا لِىَ لا أَرَى

---

(١) أخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة رضى الله عنه فى الآية قال : ذُكر لنا أن سليمان أراد أن يأخذ مفازة فدعا بالهدهد وكان سيد الهداهد ليعلم مسافة الماء ، وكان قد أعطى من البصر بذلك شيئاً لم يُعْطه شيء من الطير ، لقد ذكر لنا : أنه كان يبصر الماء فى الأرض كما يبصر أحدكم الخيال من وراء الزجاجة ، أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣٤٩/٦) .

(٢) الخبأ : الشيء المخبوء . والخبء كل ما غاب ، وكل شيء غائب مستور . [لسان العرب ـ مادة : خبأ] .

الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النمل] فساعةَ يستفهم الإنسان عن شيء يعلم حقيقته ، فإنه لا يقصد الاستفهام ، إنما هو يستبعد أنْ يتخلَّف الهدهد عن مجلسه .

لذلك قال ﴿ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [النمل] يعنى : ربما هو موجود ، لكنِّى لا أراه لعلّة عندى أنا ، فلما دَقّق النظر وتأكد من خُلوِّ مكانه بين الطيور ، قال ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النمل] إذن : لا بد من معاقبته :

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾

ومعاقبة المخالف أمر ضرورى ؛ لأن أىَّ مخالفة لا تُقابل بالجزاء المناسب لا بُدَّ أن تثمر مخالفات أخرى متعددة أعظم منها ، فحين نرى موظفاً مُقصِّراً فى عمله لا يحاسبه أحد ، فسوف نكون مثله ، وتنتشر بيننا الفوضى والتكاسل واللامبالاة ، وتحدث الطَّامة حينما يُثاب المقصر ويُرَقى مَنْ لا يستحق .

لذلك توعَّد سليمان الهدهد : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [النمل]

وقد تكلَّم العلماء فى كيفية تعذيب الهدهد ، فقالوا : بنتف ريشه الجميل الذى يزهو به بين الطيور ، حتى يصير لحماً ثم يُسلط عليه النمل فيلدغه[1] ، أو بجعْله مع غير بنى جنسه ، فلا يجد لها إلفاً

---

(١) قال ابن عباس : قوله ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا .. ﴿٢١﴾ ﴾ [النمل] يعنى : نتف ريشه . وقال عبد الله بن شداد : نتف ريشه وتشميسه . قال ابن كثير فى تفسيره (٣ / ٣٦٠) : « وكذا قال غير واحد من السلف : إنه نتف ريشه وتركه مُلْقىً يأكله الذر والنمل » .

ولا مشابهاً له فى حركته ونظامه ، أو : أنْ يُكلِّفه بخدمة أقرانه من الهداهد التى لم تخالف ، أو : أجمعه مع أضداده ، وبعض الطيور إذا اجتمعتْ تنافرتْ وتشاجرتْ ، ونتف بعضها ريش بعض ؛ لأنهم أضداد ؛ لذلك قالوا : أضيق من السجن عِشْرة الأضداد .

والشاعر[1] يقول :

وَمِنْ نكَدِ الدُّنْيا علىَ المرْءِ أنْ يرى عَدُواً لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَته بُدُّ

ثم رقَّى الأمر من العذاب الشديد إلى الذبح ، وهذه المسألة أثار حولها المتمردون على منهج الله والذين يريدون أنْ يُعدِّلوا على الله أحكامه ، أثاروا إشكالاً حول قوله تعالى فى حَدِّ الزنا : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ .. ② ﴾ [النور] أما الرَّجْم فلم يَرِدْ فيه شيء ، فمن أين أتيتم به ؟

نقول : أتينا به أيضاً من كتاب الله ، حيث قال سبحانه فى جَلْد الأَمَة إنْ زنتْ وهى غير محْصنة : ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .. ㉕ ﴾ [النساء] فقالوا : وكيف نُنصِّف حدَّ الرجم ؟ وهذا القول منهم دليل على عدم فهمهم لأحكام الله .

فالمعنى ﴿ فَعَلَيْهِنَّ .. ㉕ ﴾ [النساء] أى : على الإماء الجوارى ﴿ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ .. ㉕ ﴾ [النساء] الحرائر ، ولم يسكت إنما خصص التنصيف هنا بالجَلْد ، فقال : ﴿ مِنَ الْعَذَابِ .. ㉕ ﴾ [النساء] فتجلد الأَمَة خمسين جلدة ، وهذا التخصيص يدلُّ على أن هناك عقوبة أخرى لا تُنصف هى الرجْم .

---

(١) الشاعر هو : أبو الطيب المتنبى أحمد بن الحسين . شاعر حكيم ، وأحد مفاخر الأدب العربى ، ولد بالكوفة (٣٠٣ هـ) ، ونشأ بالشام وتنبأ فى بادية السماوة ، ثم تاب ورجع عن دعواه . قُتل ٣٥٤ هـ ، بأن عرض له فاتك بن أبى جهل الأسدى . [الأعلام للزركلى ١/١١٥] .

وينتهى تهديد سليمان للهدهد بقوله ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١)﴾ [النمل] أى : حجة واضحة تبرر غيابه ، فنفهم من الآية أن المرؤوس يجوز له أنْ يتصرف برأيه ، دون أن يأخذ الإذن من رئيسه إنْ رأى مصلحة للجماعة لا تستدعى التأخير .

وعلى الرئيس عندها أن يُقدِّر لمرؤوسيه اجتهاده ، ويلتمس له عذراً ، فلعله عنده حجة أحمده عليها بل وأكافئه ؛ لأن وقت فراغه منى كان فى مصلحة عامة ، كما نقول فى العامية (الغايب حجته معاه)

إذن : المرؤوس إنْ رأى خيراً يخدم الفكر العام ، ووجد أن فرصته ضيقة يسمح له بالتصرف دون إذن ، وفى الحرب العالمية الأولى تصرّف أحد القادة الألمان تصرُّفاً يخالف القواعد الحربية ، لكنه كان سبباً فى النصر ؛ لذلك أعطوه وسام النصر ولم ينسُوا أنْ يُعاقبوه على مخالفة القواعد والقانون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) ﴾

معنى ﴿فَمَكَثَ .. (٢٢)﴾ [النمل] أقام واستقر ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ .. (٢٢)﴾ [النمل] مدة يسيرة ، فلم يتأخر كثيراً ؛ لأنه يعلم أنه تخلّف عن مجلس سليمان ، وذهب بدون إذنه ؛ لذلك تعجَّل العودة ، وما إنْ وصل إليه إلا وبادره ﴿فَقَالَ .. (٢٢)﴾ [النمل] بالفاء الدالة على التعقيب ؛ لأنه رأى سليمان غاضباً مُتحفِّزاً لمعاقبته .

لذلك بادره قبل أنْ ينطق ، وقبل أنْ ينهره ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ.. (٢٢)﴾ [النمل] أى : عرفتُ ما لم تعرف ـ هذا الكلام مُوجَّه إلى سليمان الذى ملك الدنيا كلها ، وسخَّر الله له كل شيء ؛ لذلك ذُهل سليمان من مقالة الهدهد وتشوَّق إلى ما عنده من أخبار لا يعرفها هو .

ثم يستمر الهدهد : ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾ [النمل]

أولاً : نقف عند جمال التعبير فى سبأ ونبأ ، فبينهما جناس ناقص ، وهو من المحسّنات البديعية فى لغتنا ، ويعطى للعبارة نغمة جميلة تتوافق مع المعنى المراد ، والجناس أن تتفق الكلمتان فى الحروف ، وتختلفا فى المعنى ، كما فى قول الشاعر

رَحَلْتُ عَنِ الدِّيَارِ لكُم أَسِيرُ   وَقَلْبى فى محبتكُمْ أسير

وقَوْل الآخر :

لَمْ يَقْضِ مِنْ حقِّكم علَىَّ   بَعْضَ الذى يَجِبُ
قَلْبٌ متَى مَا جَرَت   ذِكْرَاكُمُ يَجِبُ

ومن الجناس التام فى القرآن الكريم : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم]

فالتعبير القرآنى ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ .. (٢٢)﴾ [النمل] تعبير جميل لفظاً ، دقيق مَعنىً ، ألاَ تراه لو قال (وجئتك من سبأ بخبر) لاختلَّ اللفظ والمعنى معاً ؛ لأن الخبر يُراد به مُطْلق الخبر ، أمّا النبأ فلا تُقال إلا للخبر العجيب الهام الملفت للنظر ، كما فى قوله تعالى : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢)﴾ [النبأ]

والجناس لا يكون جميلاً مؤثراً إلا إذا جاء طبيعياً غير مُتكلّف ،

ومثال ذلك هذا الجناس الناقص فى قوله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ[1] لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة] فقد ورد اللفظ المناسب مُعبِّراً عن المعنى المراد دون تكلّف ، فالهُمَزَة هو الذى يعيب بالقول . واللمزة : الذى يعيب بالفعل ، فالقرآن لا يتصيَّد لفظاً ليُحدث جناساً ، إنما يأتى الجناس فيه طبيعياً يقتضيه المعنى .

ومن ذلك فى الحديث الشريف : « الخيْل معقود بنواصيها الخير »[2] فبيْن الخيل والخير جناس ناقص ، مُحسِّناً للفظ ، مؤدّياً للمعنى .

وقد يأتى المحسِّن البديعى مُضطرباً مُتكلَّفاً ، يتصيده صاحبه ، كقول أحدهم ينحت الكلام نحتاً فيأتى بسجع ركيك : فى أثناء ما كنا نسير نزل المطر كأفواه القِرَب ، فوقع رجل كان يحمل العنب .

ومعنى ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ.. ۝٢٢﴾ [النمل] الإحاطة : إدراك المعلوم من كل جوانبه ، ومنه البحر المحيط لاتساعه ، ويقول سبحانه : ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ۝١٢٦﴾ [النساء] ومنه : الحائط يجعلونه حول البستان ليحميه ويُحدِّده ، ومنه : يحتاط للأمر .

ومحيط الدائرة الذى يحيط بالمركز من كل ناحية إحاطة مستوية بأنصاف الأقطار .

لكن أيُعَدُّ قول الهدهد لسليمان ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ.. ۝٢٢﴾ [النمل] نقصاً فى سليمان عليه السلام ؟ لا ، إنما يُعَدُّ تكريماً له ؛ لأن

---

(١) الهمزة : كثير الهمز واللمز والغمز واغتياب الناس وعَيْبهم . [القاموس القويم ٢/٣٠٧] . وقيل : الهمز واللمز معناهما واحد . وقيل : الهمز فى القفا والسر . واللمز : عيب فى الوجه فى العلانية .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨٤٩ ، ٢٨٥٠ ، ٢٨٥٢) من حديث ابن عمر وعروة بن الجعد وعروة البارقى ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٨٧٣) من حديث عروة البارقى ، ونحوه عن عروة بن الجعد .

ربه ـ عز وجل ـ سخَّر له مَنْ يخدمه ، وفَرْق بين أن تفعل أنت الشيء وبين أن يُفعل لك ، فحين يفعل لك ، فهذه زيادة سيادة ، وعُلُو مكانة .

كما أن الله تعالى يُعلِّمنا ألاَّ نكتم مواهب التابعين ، وأن نعطى لهم الفرصة ، ونُفسح لهم المجال ليُخرجوا مواهبهم ، وأن يقول كل منهم ما عنده حتى لو لم نكُنْ نعرفها ؛ لأنها خدمة لى .

أليس من الكرامة أن يُحضر سليمان عرش بلقيس وهو فى مكانه ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل]

ونلحظ أن الهدهد لم يُعرِّف سبأ ما هى ، وهذا دليل على أن سليمان ـ عليه السلام ـ يعرف سبأ ، وما فيها من ملك ، إنما لا يعرف أنه بهذه الفخامة وهذه العظمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

وقوله ﴿ تَمْلِكُهُمْ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل] يعنى : تحكمهم امرأة ، ورأينا نساءً كثيرات نابهات حكمْن الدول فى وجود الرجال .

ثم يذكر من صفاتها ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ..﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل] وكأنها إشارة إلى ما سبق أنْ قاله سليمان عليه السلام ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ.. ﴿١٦﴾ ﴾ [النمل] فهى كذلك أُوتيتْ من كل شىء بالنسبة لأقرانها ، وإلا فسليمان أُوتى من الملْك ومن النبوة ما لم تُؤْتَهُ ملكة سبأ .

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل] العرش مكان جلوس الملك ، وكان العرش عادةً يتوافق مع عظمة الملك ، فمثلاً (شيخ الغفر) أو العمدة

أو المحافظ .. إلخ لكل منهم كـرسـىٌّ يجلس عليه يناسب مكانته ، إذن: العرش هو جِلْسة المتمكّن الذى يتولّى تَدبير الأمور .

ووصْف العرش بأنه عظيم مع أن هذا الوصف لعرش الله تعالى ، فكيف ؟ قـالوا : عظيم بالنسـبة لأمـثالهـا من الملوك ، أمّا عـرْش الله فعظيم بالنسبة لكل الخَلْق عظمةً مُطْلَقة .

هكذا حدَّث الهدهُد سليمانَ فيـما يخصُّ ملكة سبأ من حيث الملك الذى تشبـه فيه سليـمان كملـك ، ثم يُحدِّثه بعد ذلك عن مـسـألة تتعـلق بالنبوة والإيمان بالله ، وهذه المسـألة التى غار عليها سليمان ، وثار من أجلها :

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ذلك لأنه لما طاف حـول قصـر بلقـيس وجد فيه كُـوَّة تدخل منها الشمس ، كما نرى فى معابد الفـراعنة ، ففى أحد هذه المعابد طاقات بعدد أيام السنة ، بحيث تدخل الشـمس فى كل يوم من واحدة بعينها لا تدخل من الأخرى . وكـذلك كان عند بلقيـس مثل هذه الكُوَّة تدخل منها الشمس فتتنبه لها وتستقبلها .

لذلك لما ذهب إليـها بكتاب سليمـان وقف على هذه الكُوَّة وسدَّها بجناحه ، فلم تدخل الشمس فـى موعدها كما اعتـادت الملكة ، فقامت حتى وصلتْ إلى هذه الكُوَّة فرمى عندها الكتاب[١] .

---

(١) ذكر نحـوه السيـوطى فى « الدر المنثور فى التـفسيـر بالمأثور » (٣٥٣/٦) عن قـتادة وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

فالهدهد ـ إذن ـ مؤمن عارف بقضية العقيدة والإيمان بالله يَغَار عليها ويستنكر مخالفتها ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ.. (٢٤)﴾ [النمل] فهو يعرف أن الله هو المعبود بحقٍّ ، بل ويعلم أيضاً قضية الشيطان ، وأنه سبب الانصراف عن عبادة الله .

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤)﴾ [النمل] فالقضية عنده كاملة بكل تفاصيلها ، ولا تتعجب من مقالة الهدهد واقرأ : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

إنها موعظة بليغة من واعظ مُتمكِّن يفهم عن الله ، ويعلم منهجه ويدعو إليه ، بل ويعزّ عليه ويحزّ فى نفسه أن ينصرف العباد عن الله المنْعِم :

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥)﴾

﴿أَلاَّ .. (٢٥)﴾ [النمل] مكوَّنة من أنْ ، لا ، وعند إدغامهما تُقلَبُ النون لاَماً فتصير : ألاَّ ، فالمعنى : وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم ، لماذا ؟ لألاَّ يسْجدوا ، فهنا حرف جر محذوف كما تقول : عجبتُ من أن يَقْدم علينا فلان ، أو عجبت أن يقدم علينا فلان .

وفى قراءة أخرى[1] : (ألاَ) للحثّ والحضّ[2] .

---

(١) هى قراءة الزهرى والكسائى وغيرهما ، بمعنى : الا يا هؤلاء اسجدوا [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥٠٦٨/٧] قال الكسائى : ما كنت اسمع الأشياخ يقرءونها إلا بالتخفيف على نية الأمر .

(٢) قال الزمخشرى : فإن قلت : أسجدة التلاوة واجبة فى القراءتين جميعاً أم فى إحداهما ؟ قلت : هى واجبة فيهما جميعاً ؛ لأن مواضع السجدة إما أمر بها ، أو مدح لمن أتى بها ، أو ذم لمن تركها ، وإحدى القراءتين أمر بالسجود ، والأخرى ذم للتارك . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥٠٦٩/٧] .

وقلنا : إنه اختار هذه الصفة بالذات ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٢٥)﴾ [النمل] لأنه خبير في هذه المسألة ، حيث يرى الماء في باطن الأرض ، كما يرى أحدكم الزيت في إنائه .

والمراد بالخبْء في السموات : المطر ، والخبْء في الأرض : النبات ، ومنهما تأتي مُقوِّمات الحياة ، فمن ماء المطر وخصوبة الأرض يأتي النبات ، وعلى النبات يتغذّى الحيوان ، ويتغذّى الإنسان .

بل إن الحق سبحانه ﴿يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥)﴾ [النمل] ، كما قال في آية أخرى : ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨)﴾ [إبراهيم] ، وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ .. (٢٩)﴾ [آل عمران]

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ (٢٦)﴾

لما تكلّم عن عرش بلقيس قال ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾ [النمل] يعني : بالنسبة لأمثالها من الملوك ولأهل زمانها . فإذا عُرِّف ﴿الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦)﴾ [النمل] فإنه لا ينصرف إلا إلى عرشه تعالى ، فله العظمة المطلقة عند كل الخلْق .

﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧)﴾

﴿قَالَ سَنَنظُرُ .. (٢٧)﴾ [النمل] والنظر محلُّه العين ، لكن هل يُعرف الصدق والكذب بالعين ؟ لا ، فالكلمة انتقلت من النظر بالعين إلى العلم بالحجة ، فهي بمعنى نعلم ، ونقول : هذا الأمر فيه نظر يعني : يحتاج إلى دراسة وتمحيص .

وفى الآية مظهر من مظاهر أدب سليمان ـ عليه السلام ـ وتلطُّفه مع رعيته[1] ، فهو السيد المطاع ، ومع ذلك يقول للهدهد : ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النمل] والصِّدْق يقابله الكذب ، لكن سليمان ـ عليه السلام ـ يأبى عليه أدب النبوة أن يتهم أحد جنوده بالكذب فقال : ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النمل]

يعنى : حتى لو وقع منك الكذب فلست فذاً فيه ، فكثير من الخَلْق يكذبون ، أو : من الكاذبين مَيْلاً لهم وقُرْباً منهم ، مما يدلُّ على أنه بإلهاماته كنبى يعرف أنه صادق ، إنما ما دام الأمر محلَّ نظر فلا بُدَّ أن نتأكد ، ولن أجامل جندياً من جنودى .

﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[2]

هذا هو النظر الذى ارتآه سليمان ليتأكد من صِدْق الهدهد : أنْ يرسله بكتاب منه إلى هؤلاء القوم ، وهنا مظهر من مظاهر الإيجاز البليغ فى القرآن الكريم ، فبعد أن قال سليمان ﴿ سَنَنظُرُ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [النمل] قال ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [النمل]

فهل كان الكتاب مُعَدّاً وجاهزاً ؟ لا ، إنما التقدير : قال سننظر

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٠٧١/٧) : « فى قوله ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النمل] دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته ، ويدرأ العقوبة عنهم فى ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم ؛ لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه ، وإنما صار صدق الهدهد عذراً لأنه أخبر بما يقتضى الجهاد » .

(٢) قال وهب (بن منبه) وابن زيد : كانت لها كوة مستقبلة مطلع الشمس فإذا طلعت سجدت ، فسدَّها الهدهد بجناحه ، فارتفعت الشمس ولم تعلم ، فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرمى الصحيفة إليها ، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت ؛ لأن ملك سليمان عليه السلام كان فى خاتمه ، فقرأته فجمعت الملأ من قومها فخاطبتهم بما يأتى بعد . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥٠٧٣/٧) .

أصدقتَ أم كنت من الكاذبين ، فكتب إليها كتاباً فيه كذا وكذا ثم قال للهدهد : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَـٰذَا .. (٢٨) ﴾ [النمل] وقد حُذِف هذا للعلم به من سياق القصة .

وقوله : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ .. (٢٨) ﴾ [النمل] يعني : ابتعدْ قليلاً ، وحاول أنْ تعرف ﴿ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾ [النمل] يعني : يراجع بعضهم بعضاً ، ويتناقشون فيما في الكتاب ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا (٨٩) ﴾ [طه]

والسياق يقتضي أن نقول : فذهب الهدهد بالكتاب ، وألقاه عند بلقيس فقرأتْه واستشارتْ فيه أتباعها وخاصتها ، ثم قالت :

﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ (٢٩) ﴾

نلحظ هنا سرعة جواب الأمر ﴿ اذْهَب.. (٢٨) ﴾ [النمل] فبعده مباشرة قالت ملكة سبأ : ﴿ قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) ﴾ [النمل] وهذا يدل على أن أوامر سليمان كانت محوطة بالتنفيذ العاجل ؛ لذلك حذف السياق كل التفاصيل بين الأمر ﴿ اذْهَب.. (٢٨) ﴾ [النمل] والجواب ﴿ قَالَتْ .. (٢٩) ﴾ [النمل] هكذا على وجه السرعة .

ومعنى ﴿ الْمَلأُ .. (٢٩) ﴾ [النمل] هم أعيان القوم وأشرافهم والمستشارون والخاصة ﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) ﴾ [النمل] فوصفتْ الكتاب بأنه كريم[1] إما لأنها سمعتْ عن سليمان ـ عليه

---

(١) وقد ورد في معنى كريم هنا أقوال وآثار ، منها :
– حسن ما فيه : قاله قتادة ، فيما أخرجه عنه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم .
– مختوم : قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن مردويه . [أوردهما السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٥٣] .

السلام ـ وعظمة مُلْكه ، أو : لأن الكتاب سُطِّر على ورق رَاقٍ وبخط جميل ، وبعد ذلك هو ممهور بخاتمه الرسمي ، مما يدل على أنه كتاب هام ينبغي دراسته وأَخْذ الرأى فيه[1] .

﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾

إذن : فهى تعرف سليمان ، وتعرف نُبوّته وصفاته ، وأنه يكاتبهم باسْم الله ويَصْدُر فى دعوتهم عن أوامر الله ، وكان مجمل الكتاب بعد بسم الله الرحمن الرحيم :

﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

إنها برقية موجزة فى أبلغ ما يكون الإيجاز ﴿ **أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ..** ﴿٣١﴾ ﴾ [النمل] العلو هنا بمعنى الغطرسة والزَّهْو الذى يعتاده الملوك خاصة ، وهى مثله ، ملكة لها عَرْش عظيم ، وأُوتيتْ من كل شىء وكونه يخاطبها بهذه اللهجة المختصرة البعيدة عن النقاش والجدال ، هذا أمر يحتاج منها إلى نظر وإلى أَنَاةٍ .

لذلك بعد أن أخبرتْ مستشاريها بأمر الكتاب ، وما ورد فيه طلبتْ منهم الرأى والمشورة :

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٠٧٤/٧) : « وصفته بأنه كريم ، لما تضمن من لين القول والموعظة فى الدعاء إلى عبادة الله عز وجل وحسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سباً ولا لعناً ، ولا ما يغير النفس ، ومن غير كلام نازل ولا مستغلق ، على عادة الرسل فى الدعاء إلى الله عز وجل » .

سبق أن تكلمنا في معنى الفتوى ، وأنها من الفُتوة أي : القوة ، وهي مثل : غَنِيَ فلان أي : صار غنياً بذاته ، وأغناه غيره أمدَّه بالغنى ، كذلك أفتاه يعني : أعطاه قوة في الحكم والحجة .

وقالت : ﴿فِي أَمْرِي .. (٣٢)﴾ [النمل] مع أن الأمر خاصٌ بالدولة كلها ، لا بها وحدها ؛ لأنها رمز للدولة وللملْك ، وإنْ تعرض لها سليمان فسوف يُخدش مُلْكها أولاً ، ويُنال من هيبتها قبل رعيتها .

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢)﴾ [النمل] يعني : لا أَبُتُّ في أمر إلا في حضوركم ، وبعد استشارتكم . وهذا يدل على أنها كانت تأخذ بمبدأ الشورى رغم ما كان لها من الملْك والسيطرة والهيمنة .

فردّ عليها الملأ من قومها :

﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ[1] وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) ﴾

يعني : نحن أصحاب قوة في أجسامنا ، وأصحاب شجاعة وبأس أي جيوش فيها عَدَد وعُدة ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ .. (٣٣)﴾ [النمل] أي : إنْ رأيتِ الحرب ، فنحن على أُهْبة الاستعداد ، فهم يعرضون عليها رأيهم دون أنْ يُلزموها به ، فهو رأي سياسي لا رأي حربي ، فهي صاحبة قرار الحرب إنْ أرادتْ ﴿فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣)﴾ [النمل] يعني : نحن على استعداد للسِّلْم وللحرب ، وننتظر أمرك .

---

(١) قال قتادة : ذُكر لنا أنه كان أولو مشورتها ثلاثمائة واثنى عشر رجلاً ، كل رجل منهم على عشرة آلاف من الرجال . أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم . أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/٣٥٧) ، والقرطبي في تفسيره (٧/٥٠٧٧) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

وتعرض بلقيس رأيها ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [النمل] ، ذلك لأنهم يريدون مُلْكاً ، فينهبون كل ما يمرُّون به بل ويُخربون ويفسدون لماذا ؟ لأنهم ساعةَ يصل الملك المغير لا يضمن النصرَ ؛ لذلك يُخرِّب كل شيء ، حتى إذا ما عرفَ أنه انتصر ، وأن الأمور قد استقرتْ له يحافظ على الأشياء ولا يُخربها .

﴿ وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [النمل] لأن الملْك يقوم على أنقاض مُلْك قديم ، فيكون أصحاب العزة والسيادة هم أول مَنْ يُبدأ بهم ؛ لأن الأمر أُخذ من أيديهم ، وسوف يسعَوْن لاستعادته ، ولا بُدَّ أنْ يكون عندهم غَيْظ ولَدَد في الخصومة .

أما قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النمل] فللعلماء فيه كلام : قالوا[1] إنه من كلام بلقيس ، وكأنه تذييل لكلامها السابق ، لكن ماذا يضيف ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النمل] بعد أن قالت ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [النمل]

فالرأى الصواب أن هذه العبارة من الحق[2] - سبحانه وتعالى - ليُصدِّق على كلامها ، وأنها أصابت فى رأيها ، فكذلك يفعل الملوك إذا

---

(١) قاله ابن شجرة فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٥٠٧٨/٧) وقال : « قيل : هو من قول بلقيس تأكيداً للمعنى الذى أرادته » .

(٢) قاله ابن عباس ، قال : هو من قول الله عز وجل معرفاً لمحمد ﷺ وأمته بذلك ومخبراً به . نقله القرطبى فى تفسيره (٥٠٧٨/٧) ، وذكر نحوه السيوطى فى « الدر المنثور » (٣٥٧/٦) وعزاه لابن أبى حاتم .

دخلوا قرية ، مما يدل على أن الحق سبحانه رب الخلْق أجمعين ، إذا سمع من عبد من عبيده كلمة حق يؤيده فيها ، لا يتعصب ضده ، ولا يهضمه حقه .

﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ٣٥ ﴾(١)

بعد أنْ ترك لها المستشارون الأمر والتدبير أخذتْ تُعمل عقلها ، وتستخدم فطنتها وخبرتها بحياة الملوك ، فقالت : إنْ كان سليمان ملكاً فسوف يطمع فى خيرنا ، وإنْ كان نبياً فلن يهتم بشيء منه ، فقررتْ أنْ تُرسل له هدية تناسب مكانته كملك ومكانتها هى أيضاً ، لتثبت له أنها على جانب كبير من الثراء والغنى .

ولا بد أنها كانت ثمينة لتستميل الملك ، أو كما نقول (تلوحه أو تلويه) .

﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ٣٥ ﴾ [النمل]
فإنْ كان ملكاً قَبِلها ، وعرفنا أن علاجه فى بعض الخراج والأموال تُساق إليه كل عام ، وإنْ كان نبياً فلن يقبل منها شيئاً ، وهذا رأى جميل من بلقيس يدل على فطْنتها وذكائها وحصافتها ، حيث جنَّبتْ قومها ويلات الحرب والمواجهة .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٠٨١) : « كان النبى ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها ولا يقبل الصدقة ، وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردها علامة على ما فى نفسها ، على ما ذكرناه من كون سليمان ملكاً أو نبياً ، لأنه قال لها فى كتابه ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ٣١ ﴾ [النمل] وهذا لا تُقبل فيه فدية ، ولا يؤخذ عنه هدية » .

﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

أى : فلما جاء رسول بلقيس إلى سليمان بالهدية ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل] فأىُّ هدية هذه ، وأنا أملك مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعدى[1] ؟ ﴿بَلْ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل] يعنى : اضرب عن الكلام السابق ﴿أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[النمل]

أضاف الهدية إليهم ، لا إليه هو ، والإضافة تأتى إما بمعنى اللام مثل : قلم زيد يعنى لزيد ، أو : بمعنى من مثل : إردب قمح يعنى : من قمح ، أو : بمعنى فى مثل : مكر الليل يعنى : فى الليل .

فقوله ﴿بِهَدِيَّتِكُمْ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل] إما أن يكون المراد : هدية لكم . أى : فأنتم تفرحون إنْ جاءتكم هدية من أحد ، أو لأننى سأردُّها إليكم فتفرحوا بردِّها كمَنْ يقول (بركة يا جامع) أو : هدية منكم . أى : أنكم تفرحون إنْ أهديتم لى هدية فقبلتُها منكم .

فهذه معانٍ ثلاثة لقوله : ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل]

﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

نذكر أن الملكة قالت ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النمل] فكأنه يستشعر نصَّ ما قالت ، وينطق عن إشراقات النبوة فيه ،

(١) أى : فما أعطانى من الإسلام والملْك والنبوة خير مما أعطاكم ، فلا أفرح بالمال . (قاله القرطبى فى تفسيره ٧/ ٥٠٨٤) .

فيقول ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا .. (٣٧) ﴾ [النمل]

وهكذا دخلتْ المسألة فى طَوْر المواجـهة ؛ لأن كلامنا كلامُ النبوة التى لا تقبل المساومة ، لا كلام الملك الذى يسعى لحطام الدنيا .

﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) ﴾ [النمل] وكأنه يكشف لهم عن قَوْل ملكتهم : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً .. (٣٤) ﴾ [النمل] وهذه أيضاً من إشراقات النبوة .

ومعنى ﴿ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا .. (٣٧) ﴾ [النمل] تقول : لا قِبَل لى بكذا . يعنى : لا أستطيع مقابلته ، وأنا أضعف من أنْ أقابله ، أو لا طاقة لى به ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً .. (٣٧) ﴾ [النمل] لأنه سيسلب مُلْكهم ، فبعد أنْ كانوا ملوكاً صاروا عبيداً . ثم يزيد فى حدَّته عليهم ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) ﴾ [النمل] لأنهم قد يقبلون حالة العبودية وعيشة الرعية ، فزاد ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) ﴾ [النمل] لأن الصَّغَار لا يكون إلا بالقَتْل والأَسْر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) ﴾

الملأ : أشراف القوم وسادتهم وأصحاب الرأى فيهم ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) ﴾ [النمل] هنا أيضاً مظهر من إشراقات النبوة عند سليمان ، فهو يعلم ما سيحدث عندهم حينما تعود إليهم هديتهم ، وأنهم سنيسارعون إلى الإسلام ، فردُّ الهدية يعنى أننا أصحاب كلمة ورسالة ومبدأ ندافع عنه لا أصحاب مصلحة .

ولما علم أنهم سيأتون مسلمين طلب من جنوده أنْ يأتوه بعرشها ، وحدَّد زمن الإتيان بهذا العرش ﴿ قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النمل]

إذن : لا بُدَّ من الذهاب إلى مملكة سبأ وفكّ العرش ، وحَمْله إلى مملكة سليمان ، ثم إعادة تركيبه عنده ، وهذه مهمة بالطبع فوق قدرة البشر ؛ لذلك لم يتكلم منهم أحد ، حتى الجن العادى لم يعرض على سليمان استعداده للقيام بهذه المهمة :

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ[1] مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ[2] وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

والجن فى القدرة والمهارة مثل الإنس ، منهم القوى الماهر ، ومنهم العَيىّ الذى لا يجيد شيئاً . نقول (لبخة) وكلمة عفريت من تعفير التراب ، وكانوا حينما يتسابقون فى العَدْو بالخيل أو غيرها ، فمَنْ يسبق منهم يُثير الغبار فى وجه الآخر فيُعطِّله عن السَّبْق . فقالوا : عفريت يعني عفَّر من وراءه . أو : المعنى أنه يُعفِّر وجه مَنْ عارضه بالتراب فسُمِّى عفريتاً .

إذن : فالعفريت هو الخبيث الماكر من الجنّ ، وصاحب القوة الخارقة فيهم ، وهو الذى تعرَّض لهذه المهمة ، وقال ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [النمل]

وهذا كلام مُجْمل ؛ لأن مقام سليمان بين رعيته للحكم أو

---

(١) العفريت : هو النافذ فى الأمر المبالغ فيه مع خبث ودهاء . [لسان العرب - مادة : عفر] .
(٢) قال السدى وغيره : كان سليمان يجلس للقضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس . [تفسير ابن كثير ٣/٣٦٣] .

المدارسة سوف يستغرق وقتاً : ساعة أو ساعتين مثلاً ، وقد تعهَّد العفريت أنْ يأتي بالعرش في هذا الوقت يعني : لن يُؤخِّره إلى جلسة أخرى .

وقوله : ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) ﴾ [النمل] يدل على أن هذا العفريت يعلم فخامة هذا العرش وضخامته ، وأنه شيء نفيس يستحق الاعتناء به ، خاصة في عملية نقله ؛ لذلك قال من ناحية كبره وضخامته « فأنا عليه قوى » قادر على حَمْله ، ومن ناحية نفاسته وفخامته ، فأنا عليه أمين لن أُبدِّد منه شيئاً .

ثم تكلَّم آخر لم يُحدِّده القرآن إلا بالوصف[1] :

﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) ﴾

الطرف : الجفْن الأعلى للعين .

تكلم العلماء في هذه الآية : أولاً : قالوا ﴿ الْكِتَابِ .. (٤٠) ﴾ [النمل] يُراد به اللوح المحفوظ ، يُعلم الله تعالى بعض خَلْقه أسراراً من اللوح

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٥٠٨٧/٧) : « أكثر المفسرين على أن الذي عنده علم من الكتاب آصف بن برخيا وهو من بني إسرائيل ، وكان صدِّيقاً يحفظ اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دُعي به أجاب » . وانظر (تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٤) ، (والدر المنثور للسيوطي ٦/ ٣٦٠) .

المحفوظ ، أما الذى عنده علم من الكتاب فقالوا[1] : هو آصف بن برخيا ، وكان رجلاً صالحاً أطلعه الله على أسرار الكون .

وقال آخرون[2] : بل هو سليمان عليه السلام ، لما قال له العفريت ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ.. (٣٩)﴾ [النمل] قال هو : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠)﴾ [النمل] لأنه لو كان شخصاً آخر لكان له تفوُّق على سليمان فى معرفة الكتاب .

لكن رَدُّوا عليهم بأن من عظمة سليمان أنْ يعلمَ أحد رعيته هذا العلم ، فمَنْ عنده علم من الكتاب بحيث يأتى بالعرش قبل طَرْفة عين هو خادم فى مملكة سليمان ومُسخر له ، كما أن المزايا لا تقتضى الأفضلية ، وليس شَرْطاً فى الملك أنْ يعرف كل شىء ، وإلا لَقُلْنا للملك : تَعَال أصلح لنا دورة المياه .

أما نحن فنميل إلى أنه سليمان عليه السلام .

وفَرْق كبير فى القدرات بين مَنْ يأتى بالعرش قبل أن يقوم الملك من مجلسه ، وبين مَنْ يأتى به فى طَرْفة عين ، ونَقْل العرش من مملكة بلقيس إلى مملكة سليمان يحتاج إلى وقت وإلى قوة .

والزمن يتناسب مع القوة تناسباً عكسياً : فكلما زادت القوة قَلَّ الزمن ، فمثلاً حين تُكلِّف الطفل الصغير بنقل شىء من مكانه إلى مكان ما ، فإنه يذهب إليه ببُطْء ويحمله ببُطء حتى يضعه فى مكانه ، أما الرجل فبيده وفى سرعة ينقله ، وهذه المسألة نلاحظها فى وسائل

---

(١) قاله ابن عباس ، ويزيد بن رومان ، وقتادة . انظر تفسير ابن كثير (٣/٣٦٤) وقاله الحسن أيضاً (الدر المنثور ٦/٣٦٠) .

(٢) قال ابن عطية : قالت فرقة هو سليمان عليه السلام . نقله القرطبى فى تفسيره (٥٠٨٧/٧) ولكنه قال قبله : « لا يصح فى سياق الكلام مثل هذا التأويل » .

المواصلات ، ففرْق بين السفر بالسيارة ، والسفر بالطائرة ، والسفر بالصاروخ مثلاً .

وهذه تكلّمنا عنها في قصة « الإسراء والمعراج » فقد أُسْرى برسول الله ﷺ بهذه السرعة ؛ لأن الله تعالى أسْرى به ، ونقله من مكان إلى مكان ؛ لذلك جاءت الرحلة في سرعة فوق تصوُّر البشر .

وما دام الزمن يتناسب مع القوة ، فلا تنسب الحدث إلى رسول الله ، إنما إلى الله ، إلى قوة القوى التي لا تحتاج إلى زمن أصلاً ، فإنْ قلتَ : فلماذا استغرقتْ الرحلة ليلةً وأخذت وقتاً ؟ نقول : لأنه ﷺ مرَّ بأشياء ، ورأى أشياء ، وقال ، وسأل ، وسمع ، فهو الذي شغل هذا الوقت ، أمّا الإسراء نفسه فلا زمنَ له .

لذلك قبل أن يخبرنا الحق - تبارك وتعالى - بهذه الحادثة العجيبة قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ① ﴾ [الإسراء] أي : نزِّهه عن مشابهة غيره ، كذلك مسألة نَقْل العرش في طرْفة عين لا بُدَّ أن مَنْ فعلها فعلها بعون من الله وبعلم أطلعه الله عليه ، فنقله بكُنْ التي لا تحتاج وقتاً ولا قوة ، وما دام الأمر بإرادة الله وقوته وإلهامه فلا نقول إلا : آمين .

وفي قوله للجن : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. ㊵ ﴾ [النمل] تحدٍّ لعفريت الجن ، حتى لا يظن أنه أقوى من الإنسان ، فإنْ أراد الله منحني من القوة ما أتفوّق عليك به ، بل وأُسخِّرك بها لخدمتي .

ومن ذلك قوله سبحانه عن تسخير الجن : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ[1] وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ .. ⑬ ﴾ [سبأ]

---

(١) الجفان : جمع جَفْنة ، وهي القصعة الكبيرة جداً . والجوابُ جمع جابية ، وهي الحوض الذي يُجبى فيه الماء . وقال ابن عباس : أي كالجوبة من الأرض . وقال العوفي عنه : كالحياض. وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم . [تفسير ابن كثير ٥٢٨/٣] .

وليعلموا أنهم جـهلاء ، ظلُّوا يعملون لسليمـان وهو ميت ومُتكئ على عصاه أمامهم ، وهم مرعوبون خائفون منه .

والتـحـدى قـد يـكون بالعُلُوِّ ، وقـد يكون بالـدُّنُو ، كـالذى قـال لصاحبـه : أنا دارس باريس دراسة دقيقة ، واسـتطيع أنْ أركب معك السيـارة وأقول لك : أين نـحن منها ، وأمـام أىِّ محل ، وأنا مُـغْمض العينين ، فـقال الآخر : وأنا أستطيع أن أخبـرك بذلك بدون أن أُغمض عَيْنىّ .

وقوله : ﴿فَلَمَّا رَآهُ .. (٤٠)﴾ [النمل] أى : العرش ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَـضْلِ رَبِّي .. (٤٠)﴾ [النمل] إمـا لأنه أقـدره على الإتيـان به بنفـسه ، أو سخَّـر له مَنْ عنده علم من الكتـاب ، فأتاه به ، فـهذه أو ذاك فضل من الله .

﴿لِيَـبْلُوَنِي .. (٤٠)﴾ [النمل] يخـتبـرنى ﴿أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْـفُرُ .. (٤٠)﴾ [النمل] يعنى : أشكر الله فأُوفَّق فى هذا الاخـتبار ؟ أم أكفـر بنعمة الله فأخفق فيه ؟ لأن الاختبار إنما يكون بنتيجته .

والشكر بأن ينسب النعمة إلى المنعم وألاَّ يلهيـه جمال النعمة عن جلال واهبها ومُسْديها ، فيقول مثلاً : إنما أوتيته على علم عندى .

وقوله : ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ .. (٤٠)﴾ [النمل] أى : أن الله تعالى لا يزيده شُكْرنا شيئاً ، فله ـ سبحانه وتعالى ـ صفات الكمال المطلق قبل أنْ يشكره أحد ، فمَنْ يشكر فـإنما يعود عليه ، وهو ثمرة شُكْره .

﴿وَمَن كَفَرَ .. (٤٠)﴾ [النمل] يعنى : جحد النعمة ولم يشكر المنعم ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ .. (٤٠)﴾ [النمل] أى : عن شكره ﴿كَـرِيمٌ (٤٠)﴾ [النمل]

أى : يعطى عبده رغم ما كان منه من جحود وكفر بالنعمة ؛ لأن نعمه تعالى كثيرة لا تُعَدُّ ، وهذا من حلمه تعالى ورأفته بخَلْقه .

لذلك لما نتأمل قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم] وقد تكررت هذه العبارة بنصِّها فى آيتين من كتاب الله ، مما جعل البعض يرى فيها تكراراً لا فائدة منه ، لكن لو نظرنا إلى عَجُز كل منهما لوجدناه مختلفاً :

فالأولى تُختتم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

والأخرى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل]

إذن : فهما متكاملتان ، لكلٍّ منهما معناها الخاص ، فالأولى تبين ظلم الإنسان حين يكفر بنعمة الله عليه ويجحدها ، وتضيف الأخرى أن الله تعالى مع ذلك غفور لعبده رحيم به .

كما نلحظ فى الآية : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم] استخدم (إنْ) الدالة على الشك ؛ لأن أحداً لا يجرؤ على عَدِّ نعَم الله فى الكون ، فهى فوق الحصر ؛ لذلك لم يُقْدم على هذه المسألةَ أحد ، مع أنهم بوسائلهم الحديثة أحصُوا كلَ شىء إلا نعم الله لم يتصَدَّ لإحصائها أحد فى معهد أو جامعة ممن تخصصت فى الإحصاء .

وهذا دليل على أنها مقطوع بالعجز عنها ، كما لم نجد مثلاً مَنْ تصدّى لإحصاء عدد الرمل فى الصحراء . كما نقف عند قوله سبحانه : ﴿ نِعْمَتَ اللَّهِ .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم] ولم يقُلْ : نعَم الله ، فالعجز عن الإحصاء أمام نعمة واحدة ؛ لأن تحتها نِعَم كثيرة لو تتبعتها لوجدتها فوق الحصر .

ثم لما جاءته بلقيس أراد أن يُجرى لها اختبارَ عقلٍ ، واختبارَ إيمان :

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (1)

قوله : ﴿ نَكِّرُوا .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النمل] ضده عرِّفوا ؛ لأنه جاء بالعرش على هيئته كما كان عندها في سبأ ، ولو رأتْه على حالته الأولى لقالتْ هو هو ، ولم يظهر له ذكاؤها ؛ لذلك قال ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النمل] يعني : غيِّروا بعض معالمه ، ومنه شخص متنكر حين يُغيِّر ملامحه وزيّه حتى لا يعرفه مَنْ حوله .

﴿ نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [النمل] تهتدي إيماناً إلى الإسلام ، أو تهتدي عقلياً إلى الجواب في مسألة العرش .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

جاء السؤال بهذه الصيغة ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [النمل] ليُعمِّي عليها أمر العرش ، وليختبر دقة ملاحظتها ، فلو قال لها : أهذا عرشك ؟ لكان إيحاءً لها بالجواب إنما ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [النمل] كأنه يقول : ليس هذا عرشك ، فلما نظرتْ إليه إجمالاً عرفتْ أنه عرشها ، فلما رأتْ ما فيه من تغيير وتنكير ظنتْ أنه غيره ؛ لذلك اختارتْ جواباً دبلوماسياً يحتمل هذه وهذه ، فقالت ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ .. ﴿٤٢﴾ ﴾

---

(1) قال ابن عباس : نزع منه فصوصه ومرافقه . وقال مجاهد : أمر به فغُيِّر ما كان فيه أحمر جُعل أصفر ، وما كان أصفر جُعل أحمر ، وما كان أخضر جُعل أحمر غيِّر كل شيء عن حاله . وقال عكرمة : زادوا فيه ونقصوا . وقال قتادة : جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره وزادوا فيه ونقصوا . [تفسير ابن كثير ٣/٣٦٤] .

[النمل] وعندها فهم سليمان أنها على قَدْر كبير من الذكاء والفِطْنة وحصافة الرأى .

وكذلك كلام السَّاسة والدبلوماسيين تجده كلاماً يصلح لكل الاحتمالات ولأيٍّ واقع بعده ، فإذا جاء الأمر على خلاف ما قال لك يسبقك بالقول : ألم أَقُلْ لك كذا وكذا .

ومن ذلك ما قاله معاوية بن أبى سفيان للأحنف بن قيس[1] : يا أحنف لماذا لا تسبّ علياً على المنبر كما يسبّه الناس ؟ فقال الأحنف : اعفنى يا أمير المؤمنين ، فقال معاوية : عزمتُ عليك إلاَّ فعلْتَ ، فقال : أما وقد عزمت علىَّ فسأصعد المنبر ، ولكنى سأقول للناس : إن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أنْ ألعنَ علياً ، فقولوا معى : لعنه الله . عندها قال معاوية : لا يا أحنفُ ، لا تقل شيئاً .

لماذا ؟ لأن اللعن فى هذه الحالة سيعود على مَنْ ؟ على معاوية أو علَى علىّ ؟

وتُحكَى قصة الخيَّاط الأعور الذى خاط لأحد الشعراء جُبَّة ، فجاءت وأحَد الكُمَّيْن أطول من الآخر ، فلم يستطع لبسها ، فلما سألوه عن عدم لُبْس الجبة الجديدة أخبرهم بما حدث من الخياط فقالوا : أُهْجه ، فقال :

قُلْتُ شعْراً لَيْس يُدْرَى ... أمديحٌ أَمْ هِجَاءُ
خَاطَ لِى عَمْرو قُبَاء ... لَيْتَ عينيه سَوَاءُ

فالكلام يحتمل المعنيين : الدعاء له ، والدعاء عليه . هذا هو الرد الدبلوماسى الذى يهرب به صاحبه من المواجهة .

---

(١) هو : أبو بحر ، سيد تميم ، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء ، يُضرب به المثل فى الحِلْم ، وُلد فى البصرة (٣ ق هـ) ، وأدرك النبى ﷺ ولم يره ، شهد الفتوح فى خراسان ، واعتزل الفتنة يوم الجمل ، ثم شهد صفين مع على . توفى بالكوفة عام (٧٢ هـ) عن ٦٩ عاماً . [الأعلام للزركلى ١/٢٧٦] .

وكذلك قالتْ بلقيس جواباً دبلوماسياً ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ .. (٤٢) ﴾ [النمل] أما ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) ﴾ [النمل] فيحتمل أنْ يكون امتداداً لقوْل بلقيس ، يعنى : أوتينا العلم من قبل هذه الحادثة ، وعرفنا أنك نبيّ لما رددتَ إلينا الهدية ، وقلت ما قلت ، فلم نكُنْ فى حاجة إلى مثل هذه الحادثة لنعلم نُبوّتك .

ويُحتمل أنها من كلام سليمان عليه السلام .

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ (١) إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) ﴾

المعنى : صدَّها ما فعل سليمان من أحداث ، وما أظهر لها من آيات ، صدَّها عن الكفر الذى ألفَتْه ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) ﴾ [النمل] فصدَّها سليمان بما فعل عما كانت تعبد من دون الله .

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً (٢) وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ (٣) مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) ﴾

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٦٥) : « هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام فى قول مجاهد وسعيد بن جبير ، أى قال سليمان ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) ﴾ [النمل] وهى كانت قد صدَّها أى منعها من عبادة الله وحده ﴿ مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) ﴾ [النمل] » .

(٢) أى : حسبته ماء . ولُجة الماء : معظمه ، وخصَّ بعضهم به معظم البحر [بتصرف من تفسير القرطبى ٥٠٩٢/٧ ، اللسان ـ مادة : لجج] .

(٣) الصرح : قال الزجاج : الصرح فى اللغة : القصر والصَّحْن . يُقال : هذه صرحة الدار وقارعتها أى : ساحتها وعرصتها . وقال بعض المفسرين : الصَّرْح : بلاط اتخذ لها من قوارير . والصرح : الأرض المملسة . [لسان العرب ـ مادة : صرح] والقوارير : جمع قارورة ، وهى لا تكون إلا من الزجاج .

الصَّرْح : إما أن يكون القصر المشيد الفخم ، وإما أن يكون البهو الكبير الذي يجلس فيه الملوك مثل : إيوان كسرى مثلاً ، فلما دخلتْ ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً .. ﴿٤٤﴾﴾ [النمل] ظنَّته ماءً ، والإنسان إذا رأى أمامه ماءً أو بَلَلاً يرفع ثيابه بعملية آلية قَسْرية حتى لا يصيبه البَلَل ؛ لذلك كشفتْ بلقيس عن ساقيها يعني : رفعتْ ذَيْل ثوبها .

وهنا نبَّهها سليمان ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ .. ﴿٤٤﴾﴾ [النمل] يعني : ادخلي لا تخافي بللاً ، فهذا ليس لُجةَ ماء ، إنما صَرْح ممرد من قوارير يعني : مبنيٌّ من الزجاج والبللور أو الكريستال ، بحيث يتموج الماء من تحته بما فيه من أسماك .

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي .. ﴿٤٤﴾﴾ [النمل] بالكفر أولاً ، وبظنِّ السوء في سليمان ، وأنه يريد أنْ يُغرقني في لجة الماء ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل] ويبدو أنها لم تنطق بكلمة الإسلام صريحة إلا هذه المرة ، وأن القَول السابق ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [النمل] كان من كلام سليمان عليه السلام .

وقولها ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ .. ﴿٤٤﴾﴾ [النمل] مثل قول سَحَرة فرعون لما رأوا المعجزة : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه] لأن الإيمان إنما يكون بالله والرسول دال على الله ، لذلك قالت : ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ .. ﴿٤٤﴾﴾ [النمل] ولم تقُلْ : أسلمتُ لسليمان ، نعم لقد دانتْ له ، واقتنعتْ بنبوته ، لكن كبرياء الملك فيها جعلها لا تخضع له ، وتعلن إسلامها لله مع سليمان ؛ لأنه السبب في ذلك ، وكأنها تقول له : لا تظن أنِّي أسلمتُ لك ، إنما أسلمتُ معك ، إذن : أنا وأنت سواء ، لا يتعالى أحد منا على الآخر ، فكلانا عبد لله .

وقد دخل هذه القصة بعض الإسرائيليات ، منها أن سليمان - عليه السلام - جعل الصرح على هذه الصورة لتكشف بلقيس عن ساقيها ؛ لأنه بلغه أنها مُشْعِرة الساقين ، إلى غير هذا من الافتراءات التي لا تليق بمقام النبوة[1] .

ثم يأتي بنا الحق سبحانه إلى نبي آخر في موكب الأنبياء :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) ﴾

مرَّتْ بنا قصة نبي الله صالح - عليه السلام - مع قومه ثمود في سورة الشعراء ، وأُعيد ذكرها هنا ؛ لأن القرآن يقصُّ على رسول الله من موكب الأنبياء ما يُثبِّت به فؤاده ، كلّما تعرض لأحداث تُزلزل الفؤاد ، يعطيه الله النَّجْم من القرآن بما يناسب الظروف التي يمرُّ بها ، وهذا ليس تكراراً للأحداث ، إنما توزيع للقطات ، بحيث إذا تجمعتْ تكاملتْ في بناء القصة .

وقوله سبحانه ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا .. (٤٥) ﴾ [النمل] لا بُدَّ أنه أرسل بشيء ما هو ؟ ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٤٥) ﴾ [النمل] لذلك سُمِّيت (أَنْ) التفسيرية ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ .. (٧) ﴾ [القصص] ماذا ؟ ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. (٧) ﴾ [القصص]

وقد يأتي التفسير بجملة ، كما في : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ..

---

(١) أورد ابن كثير في تفسيره (٣/٣٦٥) هذه القصة ، وعزاه لمحمد بن كعب القرظي وابن عباس ومجاهد وعكرمة والسدي وابن جريج . وقد ذكرها الدكتور محمد أبو شهبة في كتابه « الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير » (ص ٢٤٨) .

(١٢٠) ﴾ [طه] بأى شىء ؟ ﴿قَالَ يَـٰآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ (١٢٠) ﴾ [طه]

فشرح الوسوسة وهى شىء عام بقوله : ﴿قَالَ يَـٰآدَمُ .. (١٢٠) ﴾ [طه] فرسالتنا إلى ثمود ملخصها ومؤداها ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٤٥) ﴾ [النمل]

والعبادة كما ذكرنا أن نطيع الله بفعل ما أمر ، وبترْك ما نهى عنه وزَجر ، أما ما لم يردْ فيه أمر ولا نَهْى فهو من المباحات إنْ شئتَ فعلتها ، وإنْ شئت تركتها ، وإذا ما استعرضنا حركة الأحياء والخلفاء فى الأرض وجدنا أن ٥٪ من حركتهم تدخَّل فيها الشارع بافعل ولا تفعل ، أما الباقى فهو مُباح .

إذن : فالتكليف منُوط بأشياء يجب أنْ تفعلها ؛ لأن فيها صلاحَ مجتمعك ، أو أشياء يجب أن تتركها ؛ لأن فيها فساد مجتمعك .

فماذا كانت النتيجة ؟

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) ﴾ [النمل]

والاختصام أنْ يقف فريق منهم ضد الآخر ، والمراد أن فريقاً منهم عبدوا الله وأطاعوا ، والفريق الآخر عارض وكفر بالله .

وقد وقف عند هذه الآية بعض الذين يحبون أنْ يتهجَّموا على الإسلام وعلى أسلوب القرآن ، وهم يفتقدون الملكة العربية التى تساعدهم على فَهْم كلام الله ، وإنْ تعلَّموها فنفوسهم غير صافية لاستقبال كلام الله ، وفيهم خُبْث وسُوء نية .

واعتراضهم أن ﴿فَرِيقَانِ .. (٤٥) ﴾ [النمل] مثنى و ﴿يَخْتَصِمُونَ (٤٥) ﴾ [النمل] دالة على الجمع ، فلماذا لم يَقُلْ : يختصمان ؟ وهذه لغة القرآن فى مواضع عدة .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا .. ⑨ ﴾ [الحجرات]

والقياس يقتضى أن يقول : اقتتلتا . لكن حين نتدبَّر المعنى نجد أن الطائفة جماعة مقابل جماعة أخرى ، فإنْ حدث قتالٌ حمل كُلٌّ منهم السلاح ، لا أن تتقدم الطائفة بسيف واحد ، فهم فى حال القتال جماعة .

لذلك قال (اقتتلوا) بصيغة الجمع ، أما فى البداية وعند تقرير القتال فلكُلِّ طائفة منهما رأىٌ واحد يعبر عنه قائدها ، إذن : فهما فى هذه الحالة مثنى .

كما أن الطائفة وإنْ كانت مفردة لفظاً إلا أنها لا تُطلَق إلا على جماعة ، فيقف كل واحد من الجماعة بسيفه فى مواجهة آخر من الطائفة الأخرى .

وهنا أيضاً ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ .. ㊺ ﴾ [النمل] أى : مؤمنون وكافرون ﴿ يَخْتَصِمُونَ ㊺ ﴾ [النمل] لأن كل فرد فى هذه الجماعة يقف فى مواجهة فرد من الجماعة الأخرى .

وفى موضع آخر ، شرح لنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ هذه المسألة ، فقال سبحانه : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ⑲ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ⑳ وَلَهُم مَّقَامِعُ[1] مِنْ

---

(١) المقامع : جمع مقْمعة ، وهى خشبة أو حديدة يُقمع بها الحيوان ليُذلَّ ويطيع . وقوله ﴿ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ㉑ ﴾ [الحج] أى : يُضربون بها ، كلما أرادوا الخروج من النار أعيدوا فيها بالضرب بالمقامع إذلالاً لهم . [القاموس القويم ٢/١٣٤] .

حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢)﴾ [الحج]

أما الفريق الآخر : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤)﴾ [الحج]

فبيَّن لنا الحق ـ سبحانه ـ كل فريق منهما ، وبيَّن مصيره وجزاءه .

ونلحظ هنا ﴿فَإِذَا .. (٤٥)﴾ [النمل] يسمُّونها الفجائية ، ويُمثِّلون لها بقولهم : خرجتُ فإذا أسَدٌ بالباب ، والمعنى : أنك فُوجِئْت بشيء لم تكُنْ تتوقعه ، كذلك حدث من الكافرين من قوم ثمود حين قال لهم نبيهم ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٤٥)﴾ [النمل] لكن يفاجئوننا بأنهم فريقان : مؤمنون وكافرون .

ومنطق العقل والحق والفطرة السليمة يقتضى أنْ يستقبلوا هذا الأمر بالطاعة والتسليم ، ولا يختلفوا فيه هذا الاختلاف : فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

وقالوا : إن الله تعالى لا يرسل الرسل إلا على فساد فى المجتمع ، الخالق عز وجل خلق فى الإنسان النفس اللوامة التى تردُّه إلى رُشْده وتنهاه ، والنفس المطمئنة التى اطمأنتْ بالإيمان ، وأمنت الله على الحكم فى افعل ولا تفعل ، والنفس الأمَّارة بالسوء ، وهى التى لا تعرف معروفاً ، ولا تنكر مُنكَراً ، ولا تدعو صاحبها إلا إلى السوء .

والله ـ عزَّ وجلَّ ـ رب ، ومن عادة الرب أنْ يتعهَّد المربَّى ليؤدى

غايتـه على الوجه الأكمل ، أرأيتم أباً يُربِّى أبناءه إلا لغـاية ؟ وما دام هو سبحـانه ربى فلا يأمـرنى إلا لصـالحى ، وصـالح مـجتمـعى ، فلا شىء من طاعتنا يعـود عليه بالنفع ولا شىء من معاصيـنا يعود عليه بالضرر ؛ لأنه سبحانه خلق الكون كله بصفات الكمال المطلق . إذن : كانت الفطرة السليمة تقتضى استقبال أوامر الله بالقبول والتسليم .

وهذه الخـصومـة تجمـع المؤمنين فى جـهـة ؛ لأنهم اتفقـوا على الإيمان . والكافـرين فى جهـة ؛ لأنهم اتفقـوا على الكفر . لكن يمـتاز المؤمنون بأن يظل وفـاقهم إلى نهاية العمر ، بل وعـند لقاء الله تعالى فى الجنة ؛ لأنهم اتفـقـوا فى الدنيا فى خـطة العمل وفى الآخـرة فى غاية الجزاء ، كما يقول تعالى : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

أما الكفـار فسوف تقـوم بينهم الخصـومات يوم القيـامة ، ويلعن بعـضـهم بعـضـاً ، ويتـبرأ بعـضـهم من بعض ، والقـرآن حين يُـصوِّر تخاصم أهل النار يقول بعد أنْ ذكر نعيم أهل الجنة :

﴿ هَـٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ[1] وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا

---

(١) الحمـيم من ألفاظ الأضداد ، يكون المـاء البارد ، ويكون المـاء الحار . والحمـيم : العَرق . [لسان العرب ـ مادة : حمم] والغسـاق : ما يغسق ويسيل من جلود أهل النار وصديدهم من قيح ونحوه . [اللسان ـ مادة : غسق] .

ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾ [ص]

إذن : فالخصومة فى الدنيا بين مؤمن وكافر ، أما فى الآخرة فبين الكافرين بعضهم البعض ، بين الذين أَضلُّوا والذين أُضلُّوا ، بين الذين اتَّبَعُوا ، والذين اتُّبِعوا .

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ (١) لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

لما ذُكرت قصة ثمود فى الشعراء ، لم تذكر شيئاً عن استعجال السيئة ، فما هى السيئة التى استعجلوها وربهم عز وجل يلومهم عليها ؟ هى قولهم: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأعراف]

وعجيب أَمْر هؤلاء القوم ، ماذا يفعلون لو نزل بهم ؟ قالوا معاً : حينما تأتينا السيئة نستغفر ونتوب يظنون أن الاستغفار والتوبة تُقبل منهم فى هذا الوقت .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء]

---

(١) قال مجاهد : بالعذاب قبل الرحمة ، وقال القرطبى : المعنى : لم تؤخرون الإيمان الذى يجلب إليكم الثواب ، وتقدمون الكفر الذى يُوجب العقاب ؟ [تفسير القرطبى ٥٠٩٧/٧] .

فلماذا تستعجلون السيئة والعذاب ، وكان عليكم أن تستعجلوا الحسنة ، واستعجالكم السيئة يحول بينكم وبين الحسنة ؛ لأنها لن تُقبل منكم ﴿لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦)﴾ [النمل]

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧)﴾

اطيَّر : استعمل الطير ، وهذه عملية كانوا يلجئون إليها عند قضاء مصالحهم أو عند سفرهم مثلاً ، فكان الواحد منهم يُمسك بالطائر ثم يرسله ، فإنْ طار ناحية اليمين تفاءل وأقبل على العمل ، وإنْ طار ناحية الشمال تشاءم ، وامتنع عما هو قادم عليه ، يُسمُّونها السانحات والبارحات[1] . فالمعنى : تشاءمنا منك ، وممَّنْ اتبعك .

﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ .. (٤٧)﴾ [النمل] يعني : قضاء مقضيٌّ عليكم ، وليس للطير دَخْل في أقداركم ، وما يجري عليكم من أحكام ، فكيف تأخذون من حركته مُنطلقاً لحركتكم ؟ إنما طائركم وما يُقدَّر لكم من عند الله قضاء يقضيه .

وفي آية يس : ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ .. (١٩)﴾ [يس] يعني : تشاؤمكم هو كفركم الذي تمسكتم به .

لكن ، لماذا جاء التشاؤم هنا ، ونبيهم يدعوهم إلى الله ؟ قالوا : لأنه بمجرد أنْ جاءهم عارضوه ، فأصابهم قحْط شديد ، وضنَّتْ عليهم السماء بالمطر فقالوا : هو الذي جَرَّ علينا القَحْط والخراب .

---

(١) السانح : ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر أو غير ذلك . والبارح : ما أتاك من ذلك عن يسارك [لسان العرب ـ مادة : سنح] .

وقوله : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النمل] الفتنة : إما بمعنى الاختبار والابتلاء ، وإما بمعنى فتنة الذهب فى النار .

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ(١) يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

وهذه المسألة أيضاً لقطة جديدة من القصة لم تُذكَر فى الشعراء ، وهكذا كل القَصَص القرآنى لو تدبَّره الإنسان لوجده لقطات متفرقة ، كلٌّ منها يضيف جديداً ، ويعالج أمراً يناسب النجْم القرآنى الذى نزل فيه لتثبيت رسول الله ﷺ .

والرَّهْط : اسم جمع ، لا واحدَ له من لفظه ، ويدل على العدد من الثلاثة إلى العشرة ، فمعنى ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [النمل] كأنهم كانوا قبائل أو أسراً أو فصائل ، قبيلة فلان وقبيلة فلان .. إلخ .

﴿ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [النمل] فلماذا قال بعدها : ﴿ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النمل] ؟ قالوا : لأن الإنسان قد يُفسد فى شىء ، ويُصلح فى آخر ، كالذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وهؤلاء عسى الله أنْ يتوبَ عليهم .

أما هؤلاء القوم ، فكانوا أهل فساد مَحْض لا يعرفون الصلاح ، فإنْ رأوْه عمدوا إليه فأفسدوه ، فكأنهم مُصِرُّون على الإفساد ، وللإفساد قوم ينتفعون به ، لذلك يدافعون عنه ويعارضون فى سبيله أهل الإصلاح والخير ؛ لأنهم يُعطِّلون عليهم هذه المنفعة .

---

(١) ذكر ابن عباس أسماء هؤلاء التسعة ، فقال : كان أسماؤهم زعمى وزعيم وهرمى وهريم وداب وهواب ورياب وسيطع ، وقدار بن سالف عاقر الناقة . (نقله السيوطى فى الدر المنثور ٦/ ٣٧٠) .

وقلنا : إن صاحب الدين والخلق والمبادىء فى أىِّ مصلحة تراه مكروهاً من هذه الفئة التى تنتفع من الفساد ، يهاجمونه ويتتبعونه بالهَمْز واللمز ، يقولون : حنبلى ، وربما يهزأون به .. إلخ ؛ لذلك لم يقف فى وجه الرسل إلا هذه الطائفة المنتفعة بالفساد .

﴿ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

﴿ قَالُوا .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [النمل] أى : الرهط ﴿ تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [النمل] انظر إلى هذه البجاحة وقلة العقل وتفاهة التفكير : إنهم يتعاهدون ويُقسمون بالله أنْ يقتلوا رسول الله ، وهذا دليل غبائهم ، وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يجعل لهم منافذ يظهر منها حُمْقهم وقلّة عقولهم .

ومعنى ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [النمل] نُبيِّته : نجعله ينام بالليل ، والبيتوتة أن ينقطع الإنسان عن الحركة حالَ نومه ، ثم يعاود الحركة بالاستيقاظ فى الصباح ، لكن هؤلاء يريدون أنْ يُبيِّتوه بيتوتة لا قيامَ منها . والمعنى : نقتله .

فإذا ما جاء أولياء الدم يطالبوننا بدمه ﴿ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّه .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [النمل] أى : ولىّ الدم من عُصْبته ورحمه ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِه وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [النمل] أى : ما شهدنا مقتل أهله ، فمن باب أَوْلَى ما شهدنا مقْتله ، ولا نعرف عنه شيئاً .

هذا ما دبره القوم لنبى الله صالح ـ عليه السلام ـ يظنون أن الله يُسلِم رسوله ، أو يُمكّنهم من قتله ، فحاكوا هذه المؤامرة ولم يفتهم تجهيز الدفاع عن أنفسهم حين المساءلة ، هذا مكرهم وتدبيرهم .

﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

معنى ﴿ وَمَكَرُوا مَكْراً .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [النمل] أى : ما دبَّروه لقتل نبى الله ورسوله إليهم ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْراً .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [النمل] وفَرْق بين مكر الله عز وجل ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران] وبين مكْر الكافرين ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر]

إذن : حين تمكر بخير ، فلا يُعَدُّ مكْراً ، إنما إبطال لمكْر العدو ، فلا يجوز لك أنْ تتركه يُدبِّر لك ويمكُر بك ، وأنت لا تتحرك ؛ لذلك قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال] لأنهم يمكرون بشرٍّ ، ونحن نمكر لدفع هذا الشر لِنُصْرة رسولنا ، ونجاته من تدبيركم .

والمكْر : مأخوذ من قولهم : شجرة ممكورة ، وهذا فى الشجر رفيع السَّاق المتسلق حين تلتفُّ سيقانه وأغصانه ، بعضها على بعض ، فلا تستطيع أن تُميِّزها من بعضها ، فكُلٌّ منها ممكور فى الآخر مستتر فيه ، وكذلك المكر أن تصنع شيئاً تداريه عن الخصم .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النمل] أى : أنه مكْر محبوك ومحكم ، بحيث لا يدرى به الممكور به ، وإلا لا يكون مكْراً .

وحين نتأمل : ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر] و ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران] نعلم أن المكر لا يُمدح ولا يُذَمُّ لذاته ، إنما بالغاية من ورائه ، كما فى قوله تعالى عن الظن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الحجرات] فالظن منه الخيِّر ومنه السيىء .

ونسمع الآن تعبيراً جديداً يعبر عما يدور فى المجتمع من انتشار المكر وسوء الظن ، يقولون : الصراحة مكر القرن العشرين ، فالذى يمكر بالناس يظن أنهم جميعاً ماكرون فلا يصدق كلامهم ، ويحتاط له حتى إنْ كان صدقاً ، فأصبح المكر وسوء الظن هو القاعدة ، فإنْ صارحتَ الماكر لا يُصدقك ويقول فى نفسه : إنه يُعمى علىَّ أو يُضللنى .

﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

أى : تأمل ما حاق بهم لما مكروا بنبى الله ، واتفقوا على التبييت له وقَتْله ، يُرْوى أنهم لما دخلوا عليه أُلْقى على كل واحد منهم حجر لا يدرى من أين أتاه ، فهلكوا جميعاً ، فقد سخَّر الله له ملائكة تولَّتْ حمايته والدفاع عنه[1] .

أو : أن الله تعالى صنع له حيلة خرج بها وذهب إلى حضرموت ، وهناك مات عليه السلام ، فَسُمِّيت حضرموت[2] . وآخرون قالوا : بل ذهبوا ينتظرونه فى سفح جبل ، واستتروا خلف صخرة ليُوقِعوا به فسقطت عليهم الصخرة فماتوا جميعاً .

المهم ، أن الله دمرهم بأىِّ وسيلة من هذه ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [المدثر] لقد أرادوا أنْ يقتلوه وأهلَه ، فأهلكهم الله .

---

(١) قال ابن عباس : أرسل الله تعالى الملائكة تلك الليلة ، فامتلأت بهم دار صالح ، فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم ، فقتلتهم الملائكة رضخاً بالحجارة ، فيرون الحجارة ولا يرون من يرميها . [تفسير القرطبى ٧/٥١٠٠] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥١٠٢/٧) : « خرج صالح بمن آمن معه إلى حضرموت ، فلما دخلها مات صالح ، فسميت حضرموت » .

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً .. (٥٢) ﴾ [النمل] دليل على أن الله أهلكهم فلم يُبْقِ منهم أحداً ، وتُركَتْ بيوتهم خاوية بسبب ظلمهم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً .. (٥٢) ﴾ [النمل] عبرة وعظة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) ﴾ [النمل]

وفى مقابل إهلاك الكافرين :

﴿ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) ﴾ (١)

فمن آمن واتقى من قوم صالح نجّاه الله عز وجل من العذاب الذى نزل بقومهم قوم ثمود .

انتهى الكلام هنا عن قصة ثمود ، وحين نقارن الأحداث هنا بما ورد فى سورة الشعراء نجد أحداثاً جديدة لم تُذكَر هناك ، كما لم يذكر هنا شيئاً عن قصة الناقة التى وردتْ هناك ، مما يدلُّ على تكامل لقطات القصة فى السور المختلفة .

ثم يقصُّ علينا طرفاً من قصة نبى آخر ، وهو لوط عليه السلام :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) ﴾

---

(١) قيل : آمن بصالح قدر أربعة آلاف رجل ، أما الباقون فقد خرج بأبدانهم ـ فى قول مقاتل وغيره ـ خُرَاج مثل الحمص ، وكان فى اليوم الأول أحمر ، ثم صار من الغد أصفر ، ثم صار فى الثالث أسود .

(لُوطاً) جاءت منصوبة على أنها مفعول به ، والتقدير : أرسلنا لوطاً ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٤٥) ﴾ [النمل]

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) ﴾ [النمل] فذكر الداء الذى استشرى فيهم . وفى سورة الشعراء قال سبحانه ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) ﴾ [الأعراف] وهنا قال : ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) ﴾ [النمل] أى : تتعالمون بها وتتجاهرون بها ، فدلَّ على أنهم اجمعوا عليها وارتضوْهَا ، وأنه لم يَعُدْ عندهم حياء من ممارستها .

أو : يكون المعنى : وأنتم تبصرون ما حَلَّ بأصحاب الفساد قبلكم من أقضية الله عليهم .

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) ﴾

هذا بيان وتفصيل للداء وللفاحشة التى انتشرت بينهم ، ومعنى : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) ﴾ [النمل] الآية فى ظاهرها أنها تتعارض مع ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) ﴾ [النمل] لكن المعنى ﴿ تَجْهَلُونَ (٥٥) ﴾ [النمل] الجهل هنا ليس هو ضد العلم ، إنما الجهل بمعنى السَّفه .

والبعض يظن أن الجهل ألاَّ تعلم ، لا إنما الأمية هى ألاَّ تعلم ، أمَّا الجهل فأنْ تعلم قضية مخالفة للواقع ؛ لذلك الأميُّ أسهل فى الإقناع ؛ لأنه خالى الذِّهْن ، أمّا الجاهل فلديه قضية خاطئة ، فيستدعى الأمر أن تنزع منه قضية الباطل ، ثم تُدخل قضية الحق ، فالجهل - إذن - أشقُّ على الدعاة من الأمية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

عجيبٌ أمر هؤلاء ، فعلَّة الإخراج عندهم وحيثيته ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النمل] سبحان الله ، ومتى كان الطُّهْر ذنباً وجريمة تستوجب أنْ يخرج صاحبها من بلده ؟ إنها نغمة نسمعها دائماً من أهل الباطل فى كل زمان ومكان حينما يهاجمون أهل الحق ، ويَسْعَوْن لإبعادهم من الساحة لتخلو لباطلهم .

ومن عَدْل الله تعالى أن يظهر فى منطقهم دليل إدانتهم وخُبْث طباعهم ، فكلمة ﴿ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النمل] التى نطقوا بها تعنى : أنهم أنفسهم أنجاسٌ تزعجهم الطهارة ، وما أحلَّ الله من الطيبات ، وكأن الله تعالى يجعل فى كلامهم منافذ لإدانتهم ، وليحكموا بها على أنفسهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

أى : من المُهْلَكين مع قومها ، فقد كانت تدل قومها على ضيفان لوط ؛ ليأتوا إليهم ليفعلوا معهم الفاحشة ، لذلك أصابها من العذاب مثلما أصاب قومها .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (٥٨) ﴾

أى : قَبُح هذا المطر ، وإنْ أبهم المطر هنا فقد وضَّحه الحق - تبارك وتعالى - فى آيات أخرى فقال : من طين ، ومن سجِّيل ، وهو الطين إذا حُرِق ، فصار فخَّاراً ، وهذه الحجارة منظمة مُسوَّمة[1] صنعها الله لهم بحساب دقيق ، فلكُلٍّ واحد منهم حَجَره المسمَّى باسمه ، والذى لا يُخطئه إلى غيره .

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) ﴾

نعرف أن الله تعالى يُحمد على النعمة ، لكن هناك ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٥٩) ﴾ [النمل] جاءت بعد نقمة وعذاب وأخْذ للمكذِّبين . قالوا[2] : الخطاب هنا مُوجَّه لرسول الله ﷺ ، وفيه إشارة إلى أن جُنْد الله هم الغالبون ، وأن العاقبة لهم ليطمئن رسول الله ، كما أن تطهير الكون من المفسدين فيه ، وحين تستريح منهم البلاد والعباد ، هذه نعمة تستوجب ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٥٩) ﴾ [النمل]

وفى إهلاك الكافرين والمكذِّبين عبرة ودرسٌ لغيرهم ، حتى لا يتورطوا فى أسباب الهلاك ، وهذه نعمة أخرى تستحق الحمد .

لذلك أمرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن نحمده إنْ رأينا خيراً نزل

---

(١) سوَّم الشيء : علَّمه بعلامة . والسُّومة : العلامة والسيمة والسِّيماء بكسر السين : العلامة . [القاموس القويم ١/٣٣٧] .

(٢) قاله ابن عباس ، وسفيان الثورى فيما نقله عنهما السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٣٧٠) وقال النحاس : هذا أوْلَى ، لأن القرآن مُنزَّل على النبى ﷺ ، وكل ما فيه فهو مخاطب به عليه السلام إلا ما لا يصح معناه إلا لغيره . [نقله القرطبى فى تفسيره ٧/٥١٠٣] .

بالأخيار ، أو شراً حلَّ بالأشـرار . فالمعنى ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٥٩)﴾ [النمل] أن الرسل انتصروا وغلبوا ، وأن المفسدين انهزموا واندحروا .

ألاَ ترى قَوْلَ أهل الجنة : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ[1] مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ .. (٧٤)﴾ [الزمر]

كذلك حين نرى الشـرير الذى شاع شرُّه وكثُرَ فـساده حين ينزل به ما يستحق من عقـاب الله نقول جميعاً ساعةَ نسـمع خبره : الحمد لله ، هكذا بعملية لا شعورية عند الجميع أنْ تلهج ألسنتُهم بالحمد عند نزول النعمة على أصحابها ، والنقمة على مَنْ يستحقها .

ويقول تعـالى عن أهل الشر والفـساد : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)﴾ [الأنعام]

فبـعد أنْ قطع الله دابر الظالمـين قال : الحـمد لله رب العـالمين ، ونلحظ هنا الفرق بين فتح لك ، وفتح عليك ؛ فتح لك يعنى : فتح فى صـالحك ، ومنه : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١)﴾ [الفتح]

أما فتح عليهم يعنى : بالسـوء نكايةً فيهم ، فمعنى ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. (٤٤)﴾ [الأنعام]

أعطاهم الخير ليهلكهم به ، وهم فى حـال نعمة ومكانة ، حتى إذا أخذهم الله كان أَخْذه أليماً شديداً .

---

(١) بوأه : أسكنـه ، وبوأه فى الأرض : مكَّن له فـيـهـا . وتبـوأت المنزل : اتخـذتـه سكنا . [القاموس القويم ١/ ٨٨] .

وفي قصة نوح عليه السلام : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) ﴾ [المؤمنون]

فحَمْد الله هنا على أمرين : الحمد لله لأنه أغرق الكافرين الظالمين وخلَّصنا منهم ، والحمد لله لأنه نجّى المؤمنين .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى .. (٥٩) ﴾ [النمل] وهم المؤمنون الذين نصرهم الله ، وجعل العاقبة لهم ، والسلام عليهم بعدما لاقوه من عَنَت الكفار وعنادهم ، فالحمد لله الذى أهلك المفسدين ، وأتى بالسلام على المهتدين .

ثم يطرح الحق سبحانه قضية ، ويأتى بها فى صورة سؤال واستفهام ؛ لتكون أبلغ في النفس من مجرد الإخبار بها : ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) ﴾ [النمل]

ولو أن الآية قالت : قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى لأن الله خير وما يشركون به شرٌّ لكان الكلامُ خبراً ، والخبر فى ذاته وبصرف النظر عن قائله يحتمل الصدق أو الكذب .

أمَّا حين تُعرض هذه القضية فى صورة الاستفهام ، فقد جعلتَ مخاطبك هو الذى ينطق بها ، كما لو أنكر أحد الأصدقاء جميلك وأياديك عليه ، فبدل أن تخبر أنت : فعلتُ لك كذا وكذا تدَعْه هو الذى يُخبر فتقول : ألم افعل لك كذا وكذا ؟ ولا يقول هذا إلا واثقٌ ومعتقدٌ أن الإجابة ستكون فى صالحه .

فالمعنى : ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) ﴾ [النمل] قولوا لنا أنتم ونحن نرتضى حكمكم بعدما رأيتُم وسمعتم من هذه القصة : آلله خير أم الذين أشركوا به خير ؟ ولابد أن تأتى الإجابة : الله خير ؛ لذلك

لما نزلت هذه الآية انفعل لها رسول الله ﷺ وأسرع بالجواب : « بل الله خير وأبقى وأجلُّ وأكرم »[1] .

مما يدل على أن الانفعال بالقرآن واجب ونقصد الانفعال بمعانيه ، لا الانفعال بالصوت والنغمات كالذى نسمعه من هؤلاء (الذكِّيرة) الذين يُشجِّعون المقرئين بالصياح والضجيج الذى لا يتناسب وجلال الآيات ، وهم مع ذلك لا يفهمون المعانى ولا يتأثرون بها ، لدرجة أن منهم مَنْ يسمع آيات العذاب فيقول بأعلى صوته : اللهم زِدْنا .

وقد كان الكتبة من الصحابة ينفعلون بالآيات معنىً ، حتى إن أحدهم ليكمل الآية ويختمها بما يناسبها قبل أن تُملَى عليه ، لماذا ؟ لأنهم فهموا عن الله وتأثروا بالمعنى ، مما يدل على أن القرآن جاء موافقاً للفطرة السليمة ، ومن هذا التوافق قول أحد الصحابة[2] ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ⁽¹⁴⁾ ﴾[المؤمنون] فنزل بها القرآن كما قالها .

والنبى ﷺ يقول عن سورة الرحمن « لقد قرأتُ سورة الرحمن على إخوانكم الجن ، فكانوا أحسن استجابة منكم ، فكانوا كلما قلت ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⁽¹³⁾ ﴾ [الرحمن]

قالوا : لا بشىء من نعمائك ربنا نكذب فلكَ الحمد[3] .

إذن : حين نسمع كلام الله علينا أن ننفعل به ، وأنْ نتجاوبَ معه

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٥١٠٥/٧) أن النبى ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية يقول : « بل الله خير وأبقى ، وأجل وأكرم » ، وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٣٧٠/٦) وعزاه لعبد بن حميد عن قتادة « أنه كان إذا قرأ » ولم يذكر رفعه للنبى ﷺ .

(٢) هو : عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : وافقت ربى ووافقنى فى أربع ، نزلت هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ⁽¹²⁾ ﴾ [المؤمنون] ، قلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فنزلت ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ⁽¹⁴⁾ ﴾ [المؤمنون] ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢٤١/٣) وعزاه لابن أبى حاتم .

(٣) أورده السيوطى فى « الدر المنثور » (٦٩٠/٧) وعزاه للترمذى وابن المنذر وأبى الشيخ فى العظمة والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

تجاوباً واعياً ، فعند آية التسبيح نُسبِّح ، وعند آية الحمد نحمد الله ، وعند آية الدعاء نقول : آمين ، هذه مواجيد انفعالية لسماع القرآن والتجاوب معه ، لا أنْ نسمعه أو نهذه كهذ[1] الشِّعْر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

﴿ أَمَّنْ.. ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل] هذا استفهام آخر ، وكأن الحق - تبارك وتعالى - بعد أن كتب الهزيمة على الكافرين والنصر للمؤمنين أراد أنْ يُربِّب في النفس الإيمان بالله ، وأن تأخذ من نصر الله تعالى للمؤمنين خميرة إيمانية ، ومواجيد جديدة تظل شحنة قوية تدفعهم بحيث يكونون هم أنفسهم على استعداد للتصدى لأعداء الدعوة والمناهضين لها .

يقول سبحانه :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل]

إذن : المسألة لا تقف عند معركة انتصر فيها المؤمنون على الكافرين ، فهناك فى خلق الله ما هو أعظم من ذلك ، فلو سألتَهم : مَنْ خلق السموات والأرض يقولون : الله ولئن سألتهم : مَنْ خلقهم يقولون : الله ، فهذه مسائل لا يستطيعون إنكارها ، فكأن الحق -

---

(١) الهذ (بالذال) : سرعة القراءة . وفى حديث ابن عباس قال له رجل : قرأت المفصَّل الليلة، فقال : أهذاً كهذ الشعر ؟ أراد أتهذ القرآن هذاً فتسرع فيه كما تسرع فى قراءة الشعر . [لسان العرب - مادة : هذذ] .

تبارك وتعالى - يقول لهم : آلله الذى خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء .. أم ما تشركون ؟

وما دام أن الله تعالى ادَّعى مسألة الخَلْق لنفسه سبحانه ، ولم يَقُمْ لهذه الدعوى منازع ، فقد ثبتتْ له سبحانه إلى أنْ يدَّعيها غيره ﴿ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ .. (٦٠) ﴾ [النمل] فإنْ كان هناك إله آخر خلق الخَلْق فأين هو : إما أنه لم يَدْرِ بهذه الدعوى ، أو دَرَى بها وجَبُن عن المواجهة ، وفى كلتا الحالتين لا يصلح إلهاً ، وإلا فليأتِ هو الآخر بخَلْق ومعجزات أعظم مما رأينا .

فإذا قال الله تعالى أنا الله ، ولا إله غيرى ، والخَلْق كله بسمائه وأرضه صنعتى ، ولم يوجد معارض ، فقد ثبتت له القضية ؛ لذلك يقول سبحانه :
﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

فقضية الوحدانية شهد الله أولاً بها لنفسه ، ثم شهد بها الملائكة وأولو العلم من الخَلْق .

ويقول سبحانه فى تأكيد هذا المعنى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لأَبْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

أى : لاجتمع هؤلاء الآلهة ، وثاروا على الإله الذى أخذ منهم مُلْكهم ، وادعاه لنفسه ، أو لذهبوا إليه ليتقرَّبوا منه ويتودَّدوا إليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً (٦٠) ﴾[النمل] السماء : كلُّ ما علاك فأظلَّك ، والماء معروف أنه ينزل من السحاب وهو مما علانا ، أو أن الإنزال يعنى إرادة الكون ، وإرادة الكون فى كل كائن تكون من السماء ، ألاَ ترى قوله تعالى :﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ (٢٥) ﴾ [الحديد]

وقوله تعالى:﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] ومعلوم أن الحديد يأتى من الأرض ، لكن إرادة كونه تأتى من السماء .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ..(٦٠) ﴾[النمل] للماء فوائد كثيرة في حياتنا ، بل هو قِوَام الحياة ؛ لذلك اقتصرتْ الآية على ذكْر الحدائق ؛ لأنها قوام حياة الإنسان في الأكل والشرب .

فإنْ قُلْتَ : نحن نعتبر الآن الحدائق الجميلة من باب الكماليات ، وليس بها مُقوِّمات حياتنا . نقول : نعم هي كذلك الآن ، لكن في الماضي كانوا يسمون كل أرض زراعية محوطة بسور : حديقة ، أو حائط .

وقال ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ .. (٦٠) ﴾ [النمل] مع أنك لو نظرتَ إلى القمح مثلاً وهو عَصَب القوت لوجدته أقل جمالاً من الورد والياسمين والفُل مثلاً ، وكأن ربك - عز وجل - يقول لك : لقد تكفلتُ لك بالكماليات وبالجماليات ، فمن باب أَوْلَى أوفر لك الضروريات .

والحق - تبارك وتعالى - يريد أن يرتقي بذَوْق عباده وبمشاعرهم ، واقرأ مثلاً قوله تعالى :﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ[1] ..(٩٩) ﴾ [الأنعام] يعني : قبل أن تأكل من هذه الثمار تأمل في جمالها ومنظرها البديع ، وكأنها دعوة للرقي بالذوق العام والتأمل في بديع صُنْع الله .

ألاَ ترى أن الله تعالى أباح لك النظر إلى كل الثمار لتشاهد جمالها ، ولم يُبِح لك الأكل إلاَّ مما تملك ؟ لذلك قال : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ ..(٩٩) ﴾ [الأنعام] فإنْ لم تكونوا تملكونه ، فكفاكم التمتُّع بالنظر إليه .

ومن هذا الارتقاء الجمالي قوله تعالى بعد أنْ حدَّثنا عن الضروريات في الأنعام :﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ(٦) ﴾ [النحل]

(١) أينع الثمر يينع : أدرك ونضج وحان قطافه . [القاموس القويم ٢/٣٧٣] .

وقال :﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ..(٨) ﴾ [النحل]

فأعطانا ربنا - عز وجل - ضروريات الحياة ، وأعطانا كمالياتها وجمالياتها . وتأمل دقة الأسلوب فى ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ..(٦٠) ﴾ [النمل] فالضمير فى ﴿ خَلَقَ ﴾ ضمير الغائب (هو) يعود على الله عز وجل ، وكذلك فى (وَأَنزَلَ) أما فى (فَأَنْبَتْنَا) فقد عدل عن ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم (نحن) الدال على التعظيم ، فلماذا ؟

قالوا : لأن نعمَ الله فيها أشياء لا دخْل للإنسان فيها كالخَلْق وإنزال المطر ، ومثل هذه المسائل لا شبهةَ لاشتراك الإنسان فيها ، وهناك أشياء للإنسان دَخْلٌ فيها كالزرع والإنبات ، فهو الذى يحرث ويزرع ويسقى .. الخ مما يُوحى بأن الإنسان هو الذى يُنبت النبات ، فأراد سبحانه أنْ يُزيل هذا التوهم ، فنسب الإنبات صراحة إليه - عز وجل - ليزيل هذه الشبهة .

وربك - سبحانه وتعالى - يحترم فعلَك ، ويذكر لك سَعْيك ، فيقول : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾ [الواقعة] نعم لك عمل وسعى فى هذه المسألة ، لكنك استخدمتَ الأرض المخلوقة لله ، وآلة الحديد المخلوقة لله ، والبذور المخلوقة لله ، والماء المخلوق لله ، أما مسألة الإنبات نفسها فلا دَخْلَ لك بها ، فلا تَقُلْ زرعت ؛ لأننا نحن الزارعون حقيقة ، لكن قُلْ : حرثتُ وسقيتُ .

لذلك تجد الرد فى آخر الآية نافياً لأىِّ شبهة فى أن لك دَخْلاً فى مسألة الزرع :﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥) ﴾ [الواقعة] وأكّد الفعل بلام التوكيد لينفى هذه الشبهة .

على خلاف الكلام عن الماء ، حيث لا شبهة لك فيه . فيأتى نفس الفعل ، لكن بدون لام التوكيد :﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ

أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا[1] فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (٧٠) ﴾ [الواقعة]

ومعنى :﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) ﴾ [النمل] العدل معلوم أنه صفة مدح فساعةَ تسمع ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) ﴾ [النمل] قد تظن أنها صفة طيبة فيهم ، لكن لابُدَّ فى مثل هذا اللفظ من تدقيق ؛ لأنه يحمل معانى كثيرة . نقول : عدلَ فى كذا يعنى : أنصف ، وعدل إلى كذا يعنى : مال إليه ، وعدل عن كذا : يعنى : تركه وانصرف عنه ، وعدل بكذا ، يعنى : سوَّى .

فالمعنى هنا ﴿ يَعْدِلُونَ (٦٠) ﴾ [النمل] عنه ، ويا ليتهم يعدلون عنه فحسب ، إنما يعدلون عنه إلى غيره ، ويسوّون به غيره ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) ﴾ [الأنعام]

أى : يسوُّونه سبحانه بغيره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) ﴾

لما تكلم الحق سبحانه فى الآية السابقة عن السموات والأرض أتى بأشياء مشتركة بينهما ، فالسماء ينزل منها الماء ، والأرض تستقبل الماء ، وتنبت لنا الحدائق ذات البهجة .

(١) الأجاج : الملح الشديد الملوحة . أج الماء يؤج : اشتدت ملوحته . [القاموس القويم ١/٧] .

أما فى هذه الآية ، فالكلام عن الأرض ، لذلك ذكر لنا مسائل من خصوصيات الأرض ، ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا .. (٦١) ﴾ [النمل] معنى : قراراً أى استقراراً ، حيث خلقها سبحانه على هيئة مريحة تصلح لأنْ يستقرَّ عليها الإنسان .

﴿ وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا (٦١) ﴾ [النمل] الماء ينزل من السماء وينتفع به مَنْ سقط عليه مباشرة ، أما ما ينزل على الجبال فيتجمع فى الوديان وتُصنع له السدود لينتفع الناس به عند القحط ، ومن ماء المطر ما ينساب فى مَجَارٍ تُسمَّى الأنهار .

وتستطيع أنْ تُفرِّق بين النهر والقناة الصناعية ، فالنهر ينساب الماء فيه من أعالى الجبال ، ومن أماكن متفرقة تتتبع المنخفضات والسهل من الأرض الذى يستطيع الماء أنْ يشقَّ مجراه فيه فتراه ملتوياً متعرجاً ، يدور حول الجبال أو الصخور ليشقَّ مجراه .

أما القناة الصناعية ، فتراها على هيئة الاستقامة ، إلا إذا اعترض طريق حفرها مثلاً أحد أصحاب النفوذ ، فيحملهم على تغيير المسار والانحراف به ليتفادى المرور بأرضه .

وتستطيع أنْ تلاحظ هذه الظاهرة إذا تبولْتَ فى أرض رملية ونظرتَ إلى مجرى البول ، فتراه يسير متعرجاً حسب طبيعة الأرض التى يمرُّ بها .

﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ (٦١) ﴾ [النمل] الرواسى : هى الجبال الثابتة الراسية ، وفى موضع آخر بيَّن سبحانه الحكمة من هذه الجبال فقال : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ (١٥) ﴾ [النحل]

فالحكمة من خَلْق الجبال تثبيت الأرض حتى لا تضطرب ،

ولو أنها خُلقَتْ على هيئة الثبات والاستقرار لما احتاجتْ إلى الجبال ، إذن : هي مَخلوقة على هيئة الحركة ، ولا بُدَّ لها من مُثقِّلات .

ولا تقتصر الحكمة من خَلْق الجبال على تثبيت الأرض ، إنما لها مهمة أخرى في قوله تعالى : ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٣)﴾ [النازعات]

فكيف تكون الجبال متاعاً للإنسان وللحيوان ؟

نعم ، هي متاع ؛ لأنها مخزن مياه ، حينما ينقطع المطر نجد المياه التي تساقطت على الجبال ، إما في الأنهار ، وإما في الشلالات ، وخلف السدود بين الوديان ، أو في العيون والآبار مما امتصته الأرض .

وكما أن الجبال هي مخازن للمياه ، هي أيضاً مخازن للخصوبة التي تمدُّ الأرض الزراعية عاماً بعد عام بقدر ، بحيث تستمر خصوبة الأرض ، وسبق أنْ تكلمنا عن ظاهرة التعرية التي تُفتِّت الطبقة العليا من الصخور ، فتنزل إلى الوديان مع ماء المطر ، وتختلط بالتربة الزراعية فتزيد من خصوبتها .

ولولا صلابة الجبال وتماسك صخورها لتفتتتْ في عدة سنوات ، ولفقدنا مصدر الخصوبة بعد ذلك ، فهذه الظاهرة من علامات رحمة الله بخَلْقه ؛ لأنها تتناسب مع الزيادة السكانية بحيث كلما زاد السكان زادتْ الرقعة الخصبة الصالحة للزراعة .

وسبق أنْ قُلْنا : إنك حين تتأمل وضع الجبال مع الوديان تجد أن الجبل مُثلث قاعدته إلى أسفل ، وقمته إلى أعلى ، أما الوديان فعلى عكس الجبال ، فهي مثلث قاعدته إلى أعلى وقمته إلى أسفل ، وهكذا

نرى أن كل زيادة من طَمْى الجبل والغرْين[1] الذى يتفتت منه يزيد فى مساحة الوادى ، فتزداد الرقعة الخصبة كل عام مع زيادة السكان .

لذلك يقول تعالى عن الجبال : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ﴿١٠﴾﴾ [فصلت]

فجعل الجبال الرواسى هى مخازن القوت من طعام وشراب ، ولك أن تتأمل نيل مصر وواديه ، كيف تكوَّن من الطمى الذى حملتْه المياه من أعالى الجبال فى إفريقيا ، ليُكوِّن هذه المنطقة الخصْبة فى مصر .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴿٦١﴾﴾ [النمل]

البحرين : أى العَذْب والمالح لأن الماء : منه العَذْب ، ومنه المالح ، ومن قدرته تعالى وحكمته أنْ يحجز بينهما ، وإنْ كان الماء المالح هو مصدر الماء العَذْب ، لذلك جعل الله تعالى مساحة السطح للماء المالح ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، وكلما اتسع سطح الماء اتسع البَخْر الذى يكوِّن السحاب ، بحيث يسقط المطر الكافى لمعيشة أهل الأرض .

وما أجملَ قول الشاعر المادح :

أهدى لمجلسه الكريم وإنَّما ... أهدى لَهُ مَا حُزْتَ مِنَ نَعْمائه
كَالبَحْرِ يُمطِرهُ السَّحابُ ومَا لَهُ ... فَضْلٌ عليْه لأنَّه منْ مَائه

ولكى تعلم فضل الله علينا فى إنزال المطر وتوفير الماء العَذْب ،

---

(١) الغرين : الطين الذى يحمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً أو يابساً . وقال الأصمعى : الغرين أن يجىء السيل فيثبت على الأرض ، فإذا جَفَّ رأيت الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق . [لسان العرب ـ مادة : غرن] .

انظر إلى التكلفة والمشقة التى تعانيها لتقطير عدة سنتيمترات من الماء ، فى حين أنك لا تدرى بعملية التقطير الواسعة التى تسقى البلاد والعباد فى كل أنحاء الدنيا .

وقد مثَّلْنا لمسألة اتساع رقعة البَحْر بكوب الماء إذا أرقْتَه على الأرض ، فإنه يجفُّ فى عدة دقائق ، أمّا لو تركت الماء فى الكوب لعدة أيام ، فإنه لا ينقص منه إلا القليل .

ومن الماء العَذْب ما سلكه الله تعالى ينابيع فى الأرض ليخرجه الإنسان إذا أعوزه الماء على السطح ، أو سلكه ينابيع فى الأرض بمعنى أن يسير العَذْب بجوار المالح ، لا يختلط أحدهما بالآخر مع ما عُرِف عن الماء من خاصية الاستطراق .

وهذه من عجائب قدرة الله الخالق ، فمنْ قَعْر البحر المالح تخرج عيون الماء العَذْب ؛ لأن لكل منهما طريقاً ومسلكاً وشعيرات يسير فيها بحيث لا يبغى أحدهما على الآخر ، كما قال تعالى :

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الرحمن]

وكما أن الماء العَذْب يتسرب إلى باطن الأرض ليكوِّن الآبار والعيون ، فكذلك الماء المالح يتسرب فى باطن الأرض ليكوِّن من تفاعلاته الأحجار الكريمة ، كالمرمر ، والمعادن كالحديد والمنجنيز والجرانيت .. الخ

وبعد أن ذكر لنا هذه الآيات الخاصة بالأرض جاء بهذا الاستفهام ﴿ أَإِلَـهٌ مَّعَ اللَّهِ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل] يعنى خلق هذه الأشياء ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [النمل] والذين لا يعلمون أعلمناهم ، وقطعنا حُجَّتهم بعدم العلم .

ولو نظرنا إلى الأرض لوجدنا فيها آيات أخرى غير أنها مُستقرٌّ وسكَنٌ ، فالأرض كثيفة ، وفيها غبرة ليست صافية البياض ؛ ذلك لأن الله تعالى يريد لها أنْ تستقبل حرارة الشمس وضوءها ليستفيد منها النبات ، ولو أن الأرض كانت شفافة تعكس الضوء والحرارة لما استفاد منها النبات ؛ لذلك نجد بعض المشروعات تنمو فى الصيف ، وأخرى فى الشتاء .

ولما أجرَوْا بعض التجارب على النبات ، فوضعوه فى مكان مظلم ، ثم جعلوا ثُقْباً فى ناحية بحيث يدخل الضوء وجدوا أن النَّبْتة بما أودع الخالق فيها من غريزة تتجه ناحية الضوء لتأخذ حظها من النور والدفء ، فسبحان الذى خلق فسوّى ، والذى قدَّر فهدى .

ومن آيات الله فى خَلْق الأرض أنْ جعلها على هيئة الحركة والدوران ، لتأخذ كل مناطقها حظها من الحرارة ومن البرودة ، ويتنوع فيها المناخ بين صيف وشتاء ، وخريف وربيع ، إنها أدوار تتطلبها مُقوِّمات الحياة .

لذلك تجد علماء النبات يُقسِّمون المناطق الزراعية على الأرض يقولون : هذا حزام القمح مثلاً ، وهذا حزام الموز ، وهذا حزام البطاطس ، فتجد كل حزام منها يصلح لنوع خاص من المزروعات يناسب سكان هذه المنطقة وبيئتها وجوّها .

لذلك نجد أن كل نوع من المزروعات فى مكانه المناسب لا تصيبه الآفات ، أمّا حين يُنقل إلى مكان غير مكانه ، وبيئة غير بيئته لا بُدَّ أنْ يُصاب .

وفى الأرض خاصية أخرى تتعلق بالإنسان تعلقاً مباشراً ، فمن خصائص الأرض وهى من الطين الذى خُلِق منه الإنسان ، فهى فى

الحقيقة أمه الأولى - فإذا مات لا يسعه إلا أحضان أمه حين يتخلى عنه أقرب الناس إليه ، وألصق الناس به ، عندها تستقبله الأم وتحتويه وتستر عليه كُلَّ ما يسوؤه .

ومن خصائص الأرض أنها تمتص فضلات الإنسان والحيوان ومخلَّفاته وتُحوِّلها بقدرة الله إلى مُخصِّب تزدهر به المزروعات ، ويزيد به المحصول ، وفى الريف يحملون رَوَثَ الحيوانات ذا الرائحة الكريهة إلى الحقول ، فإذا به ينبت فيه الوردة الجميلة الذكية التى يتشوَّق الإنسان لرائحتها .

إنها عجائب فى الخَلْق ، لا يقدر عليها إلا الله عز وجل ، أتذكرون المثل الذى يقول : (فلان يعمل من الفسيخ شربات) هكذا قدرة الله التى تخلق الأضداد .

ألاَ ترونْ أن أفضل الفاكهة نأكلها الآن من الجبل الأصفر بمصر وهى تُرْوى بماء المجارى .

وبعد أنْ حدَّثنا الحق - تبارك وتعالى - عن هذه المظاهر العامة التى يحتاجها كل الخلق فى السماء والأرض والجبال والمطر .. الخ يُحدِّثنا سبحانه عن مسائل خاصة يحتاجها إنسان دون آخر ، وفى وقت دون آخر ، فيقول سبحانه :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ(١) إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(يجيب) الإجابة هى تحقيق المطلوب لداعيه ، والمضطر : هو

---

(١) قال ابن عباس : هو ذو الضرورة المجهود . وقال السدى : الذى لا حول له ولا قوة . وقال ذو النون : هو الذى قطع العلائق عما دون الله . [ذكرها القرطبى فى تفسيره (٧ / ٥١٠٧)] .

الذى استنفد الأسـباب ، وأخذ بها فلم تُجْد معـه ، فليس أمامه إلا أنْ يترك الأسباب إلى المسبِّب سبحانه فيلجأ إليه ؛ ذلك لأن الخالق - عز وجل - قبل أنْ يخلق الإنسـان خلق له مُقوِّمـات حياته وضـروررياتها وسخَّرها لخدمته .

لذلك جاء فى الحديث القدسى : « يـا ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتك من أجلى فلا تنشغل بما هو لك عما أنت له »

ثم خلق الله لك الطاقـة التى تستطيع أن تُسـخِّر بها هذه الأشـياء وضـمن لك القوت الـضرورى من مـاء ونبـات ، فإنْ أردتَ أنْ تُرفِّـه حيـاتك فتحـرك فى الحيـاة بالأسباب المـخلوقة لله ، وبالطاقـة الفاعلة فيك ، وفكِّر كيف ترتقى وتُثرِى حركة الحياة من حولك .

فالماء الذى ينساب فى داخل البيت حين تفتح الصنبور ، والضوء الذى ينبعث بمجرد أن تضغط على زر الكهرباء ، والسيارة التى تنقلك فى بضع دقـائق .. كلها ارتقاءات فى حـركة حـياة الناس لمـا أعملوا عقولهم فيما أعطاهم الله من مادة وعقل وفكر وأسباب ، وهذه كلها يد الله الممدودة لعباده ، والتى لا ينبغى لنا ردّها .

فإذا مـا حاولتَ ولم تفلح ، ولم تثمـر معك الأسبـاب ، فعليك أنْ تلجأ مباشرة إلى المسبِّب سبحانه ، لأنه خالقك والمتكفِّل بك .

واقرأ قـوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا.. ⑫ ﴾ [يونس] ويا ليته سـاعةَ دعا ربه ولجأ إليه فاسـتجاب له يجعل له عند ربه رَجْعة ، ويتوقع أنْ يصـيبه الضُّر مرة أخرى ؛ لكن إنْ كشف الله عنه سرعان ما يعود كما كان .

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⑫ ﴾ [يونس]

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ (٦٢)﴾ [النمل] فالمضطر إذن لابدَّ أنْ يُجيبه الله ، فمَنْ قال : دعوتُ فلم يُستجب لى . فاعلم أنه غير مضطر ، فليست كل ضائقة تمرُّ بالعبد تُعَدُّ من قبيل الاضطرار ، كالذى يدعو الله أن يسكن فى مسكن أفضل مما هو فيه ، أو براتب ودَخْل أوفر مما يأخذه .. الخ ، كلها مسائل لا اضطرارَ فيها ، وربما علم الله أنها الأفضل لك ، ولو زادك عن هذا القدر طغيتَ وتكبرتَ .

كما قال الحق سبحانه وتعالى :﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]

فلقد طلبتَ الخير من وجهة نظرك ، وربُّك يعلم أنه لا خيرَ فيه ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١)﴾ [الإسراء]

فربُّك يُصحِّح لك هذا الخطأ فى فهمك للمسائل فيقول لك : سأحقق لك الخير ، لكن بطريقة أخرى أنسب من هذه ، فلو أجبتُك إلى ما تريد لحدث مَا لا تُحمد عقباه ، وكان الله - عز وجل - وهو ربُّنا والمتولِّى أمرنا يجعل على دعائنا (كنترول) ولو كان الله سبحانه موظفاً يلبى لكل منَّا طلبه ما استحق أن يكون إلهاً - حاشا لله .

فالإنسان من طبيعته العجلة والتسرع ، فلا بُدَّ للرب أن يتدخل فى أقدار عبده بما يصلحه ، وأنْ يختار له ما يناسبه ؛ لأنه سبحانه الأعلم بعواقب الأشياء وبوقتها المناسب ، ولكل شىء عنده تعالى موعد وميلاد .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ..(١١)﴾ [يونس]

ألاَ ترى بعض الأمهات تحب الواحدة ولدها وتشفق عليه ، فإنْ عصاها فى شىء أو ضايقها تقول رافعةً يديها إلى السماء (إلهى أشرب

نارك) أو (إلهى أعمى ولا أشوفك) فكيف لو أجاب الله هذه الحمقاء ؟

إذن : من رحمته تعالى بنا أنْ يختار لنا ما يُصلحنا من الدعاء ، ويُعافينا من الحمق والعجلة .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَكْشِفُ السُّوءَ (٦٢) ﴾ [النمل] فكما أنه لا يجيب المضطر إلا الله لا يكشف السوء إلا الله ، ولو كان هناك إله آخر يجيب المضطر ويكشف السوء لتوجَّه الناسُ إليه بالدعاء ، لكن حينما يُصاب المرء لا يقول إلا يا رب ، ولا يجد غير الله يلجأ إليه لأنه لن يغشَّ نفسه فى حال الضائقة أو المصيبة التى ألمت به .

وقد مثَّلنا لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ بحلاق الصحة فى الماضى ، وكان يقوم بعمل الطبيب الآن ، فلما أنشئت كلية الطب وتخرَّج فيها أحد أبناء القرية اتجهتْ الأنظار إليه ، فكان الحلاق يذمُّ فى الطب والأطباء ، وأنهم لا خبرةَ لديهم لتبقى له مكانته بين أهل القرية ، لكن لما مرض ابن الحلاق ماذا فعل ؟ إنْ غشَّ الناس فلن يغشَّ نفسه : أخذ الولد فى ظلام الليل ولفَّه فى البطانية ، وذهب به إلى (الدكتور) الجديد .

لذلك يقول كل مضطر وكل مَنْ أصابه سوء : يا رب يا رب حتى غير المؤمن لا بُدَّ أن يقولها ، ولا بُدَّ أنْ يتجه بعينه وقلبه إلى السماء إلى الإله الحق ، فالوقت جِدّ لا مساومة فيه .

ويقول تعالى بعدها : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ .. (٦٢) ﴾ [النمل] أى : يخلفُ بعضكم بعضاً فيها ، كما قال : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٥٥) ﴾ [النور]

فهل يملك هذه المسائل إلا الله : ﴿ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ (٦٢) ﴾ [النمل] والاستفهام هنا ينكر وجودَ إله غير الله يفعل هذا ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾ [النمل] يعنى : لو تفكرتُم وتذكرتُم لعرفتم أنه لا إله إلا الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

هذه أيضاً من الأمور الخاصة التي تخصُّ بعض الناس دون بعض ، وكانت قبل تقدُّم العلم ، حيث كانت النجوم هي العلامات التي يهتدي بها الملاحون في البحر والمسافرون في البر ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل]

وقد برع في علوم الفلك والنجوم وفي علوم البحار علماء من العرب وضَعُوا أُسساً لهذه العلوم ، لا عن علم عندهم ، إنما عن مشاهدة لظواهر الكون ، وتوفيق وهداية من الله عز وجل .

وحين نتأمل ارتقاءات الإنسان في الحياة نجد أنها نتيجة مشاهدة حدثتْ صدفة ، أو حتى بطريق الخطأ ، وإلا فكيف اهتدى الإنسان إلى تخمير العجين ليخرج الخبز على هذه الصورة وبهذا الطعم ؟ لذلك يُسمُّون العجين : فطير وهو المبلط الذي لم يتخمر ، وخمير وهو الذي تخمَّر وارتفع قليلاً وتخلّله الهواء .

وقد نقلوا هذا المعنى للرأي ، يقولون : فلان رأيه فطير يعني : سطحي متعجل ، وفكرة مختمرة يعني : مدروسة بتأنٍّ ، ومنه الفِطْرة يعني الشيء حين يكون على طبيعته .

وربما اكتشفتْ إحدى النساء مسألة الخمير هذه نتيجة خطأ أو مصادفة حين عجنتْ العجين ، وتأخرت في خَبْزه حتى خمر ، فلما

خبزته جاء على هذه الصـورة المحببة إلينا ، كذلك الأمـر في اكتشاف البنسلين مثلاً ، والغواصات والبخار والعجلة .. الخ

وتأمل مـثـلاً : لمـاذا نطبخ الملـوخيـة ولا نطـبخ النعناع ، إنهـا ـ إذن ـ هداية الله الذي خلق فسوَّى ، والذي قدَّر فهدى .

الحديد تعلمنا طَرْقه بعد إدخـاله النار ليلين ؛ لأن الله تعالى علمها لنبيه داود عليه السلام حين قال ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ⑩﴾ [سبأ]

إذن : كـثيـر من اكتـشافـات الكون وارتقاءاته تأتي بهـداية الله ، وكلما مـرَّ الزمن تكشفتْ لنا أسرار الكون ، كـلٌ في ميعاده ومـيلاده الذي أراده الله ، إما أنْ يستنبطه الناس بمقدمات إذا جاء ميلاده ، وإلا فيأتي ولو مصـادفة .

واقرأ إن شئت قوله تعالى :﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. ⑳⑤⑤﴾ [البقرة] فـحين يشـاء الله يكشف لك الأشيـاء ، وييسـر لك أسبابهـا ، فإذا لم تنتبه لهـا أراكها مصادفـة ، ومن وسائل إعلام الله لخَلْقه مـثلاً أهل البوادي ، ترى الواحـد منهم متكئاً ينظر إلى السـماء ويقول لك : السمـاء ستمطر بعد كم من الساعـات ، وليس في السماء سحاب ولا غَيْمٌ يدل على المطر ، لكنه عرفها بالاستقراء والتجربة .

ومن هذه الهـداية الإلهيـة أن ترى البهائـم العجمـاوات وهي تأكل بالغريزة ، تأكل الحـشيش الجاف ، ولا تأكل مثلاً الـنعناع الأخضر ، أو الريحان مع أن رائحته جميلة ، لماذا ؟

لأنه جُـعِل للرائحـة الطيـبـة ، لكن طعـمه غـيـر طيب ، وإذا أكل الحيوان وشبع لا يمكن أن يأكل بـعدها أبداً على خلاف الإنسان الذي يأكل حـتى التخـمـة ، ثم الحلو والبـارد والساخن ، ويقـولون (أرِهَا

الألوان تريك الأركان) . أى : أرِ معدتك ألوان الطعام وأصنافه ، تريك الأركان الخالية فيها .

لذلك تجد رائحة رَوَث الحيوان أقلّ كراهية من رائحة فضلات الإنسان ؛ لأنها تأكل بالغريزة التى خلقها الله فيها ، ونحن نأكل بالشهوة ، وبلا نظام نلتزم به .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا ..(٦٣) ﴾ [النمل] أى :مُبشِّرات بالمطر ﴿ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ .. (٦٣) ﴾ والمطر مظهر من مظاهر رحمة الله ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ .. (٦٣) ﴾ [النمل] أى : لا إله إلا الله يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ولا إله إلا الله يرسل الرياح تبشركم بالمطر ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) ﴾ [النمل] تنزَّه أن يكون له فى كَوْنه شريك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾

مسألة الخَلْق هذه لا يستطيعون إنكارها ، وقد سألهم الله :﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف]

وفى موضع آخر : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥) ﴾ [لقمان]

لأنهم لا يملكون إنكارها ، وإنْ أنكروها فالردّ جاهز : على مَنْ خلق أولاً أن يُرينا شيئاً جديداً من خَلْقه .

ومعنى ﴿ يَبْدَأُ الْخَلْقَ (٦٤) ﴾[النمل] يعنى : الخلْق الأول من العدم ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ (٦٤) ﴾[النمل] لأن الذى خلقنا من عدم كتب علينا الموت ، وأخبرنا

بالغيب أننا سنُبعث يوم القيامة ، وسيعاد هذا الخَلْق مرة أخرى ، فالذين لم يملكوا إنكار الخلق أنكروا البعث ، فقالوا كما حكى القرآن :
﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣ ﴾ [ق]

فاستبعدوا البعث بعد الموت ، وتحلّل الأجساد فى التراب . وهذه القضية خَاضَ فيها الفلاسفة بكلام طويل ، وللردِّ عليهم نقول : أنتم فى القوانين الوضعية تجعلون الثواب لمن أحسن ، والعقوبة لمن قصَّر ، وتُجرِّمون بعض الأعمال بعينها ، وتضعون لها العقوبة المناسبة ، وفى القانون : لا عقوبةَ إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ ، ولا نصٌّ إلا بإعلام .

ولم نَرَ فى القانون الوضعى جريمة تُركت بلا عقوبة ، فإذا كان البشر يضعون لمجتمعاتهم هذه القوانين التى تنظم حياتهم ، أليس رب البشر أوْلَى بقانون الثواب والعقاب ؟ وإذا كنتَ لا ترضى لنفسك أنْ يفلتَ المجرم من العقاب ، فكيف ترضى ذلك لله ؟

ثم ألا تعلم أن كثيراً من المجرمين يرتكبون جرائمهم فى غفلة من القانون ، أو يُعمُّون على العدالة ويهربون من العقاب ، ويُفلتون من القوانين الوضعية فى الدنيا ، ولو تركنا هؤلاء بلا عقاب أيضاً فى الآخرة فهم إذن الفائزون ، وسوف نشجع بذلك كل منحرف خارج عن القانون .

أما إنْ علم أن له رباً قيوماً عليه ، وإنْ عمَّى على قضاء الأرض فلن يُعمِّى على قضاء السماء ، وإنْ أفلتَ من عقاب الدنيا فلن يُفلتَ أبداً من عقاب الآخرة - إنْ علم ذلك استقام .

لكن ، ما وجه استبعادهم للبعث ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣ ﴾ [ق]

يقولون : هَبْ أن إنساناً مات ودُفِن وتحلّل جسده إلى عناصر امتصتها الأرض ، ثم غُرِسَت شجرة في هذا المكان وتغذتْ على هذه العناصر ، وأكل من ثمارها عدة أشخاص ، وانتقلت جزئيات الميت إلى الثمار ثم إلى من أكل منها ، فحين يُبعث الخَلْق يوم القيامة فلأيِّهما تكون هذه الجزئيات : للأول أم للثاني ؟ إذا بعثتها للأول كانت نقصاً في الثاني ، وإنْ بعثتها للثاني كانت نقصاً في الأول .

وهذا الكلام منهم على سبيل أن الشخص مادة فقط ، لكن التشخيصات مادة و معنى . وهَبْ أن شخصاً بديناً يزن مثلاً مائة كيلو أصابه مرض أهزله حتى قَلَّ وزنه إلى خمسين كيلو مثلاً ، ثم عُولج وتحسنت صحته حتى عاد كحالته الأولى . فهل الجزئيات التي نقصت من وزنه هي نفسها التي دخلتْ فيه بالصحة والتغذية ؟ بالطبع لا ، أتغيرتْ شخصيته بهذا النقص ، أو بهذه الزيادة ؟ لا ، بل هو هو .

إذن : للشخص جزئيات مختلفة التكوين ، وله معنى وروح ، ساعةَ تتجمع هذه الأشياء يأتي الشخص المراد .

لذلك يقول تعالى رداً على هؤلاء المتفلسفين : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④﴾ [ق]

فلماذا تستبعدون الإعادة بعد الموت وقد أقررتُم بالخَلْق الأول واعترفتم بأن الله هو الخالق ، وأليست الإعادة من موجود أهونَ من الخَلْق بدايةً من العدم ؟ ثم إن الإعادة تحتاج إلى قدرة على الإبراز وإلى علم .

أما العلم ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ

﴿الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④﴾ [ق] يعنى : يعلم وزنك ، ويعلم جزئياتك ، لا يغيب منها ذرة واحدة[1] .

أما القدرة ، فقد آمنتُم بها حين أقررتُم بقدرته تعالى على الخَلْق من عدم ، والإعادة أهون من الإنشاء الأول ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. ㉗﴾ [الروم]

وإنْ كان الخالق - عز وجل - لا يُقَال فى حقه هيِّن وأهْون ، لكنها بعُرْفكم أنتم ، وبما يُقرِّب المسألة إلى أذهانكم .

وفى القدرة أيضاً يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ .. ⑮﴾ [ق]

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ..㉔﴾[النمل]

الرزق : كلُّ ما يُنتفع به ، وهو إما من السماء وإما من الأرض ، وإما من التقائهما حين ينزل الماء من السماء ، ويختلط بتربة الأرض فيخرج النبات .

﴿أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ .. ㉔﴾ [النمل] يكرر نفس الاستفهام السابق لتأكيد أنه لا إله إلا الله يأتيكم بهذه النعم .

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ㉔﴾ [النمل] أى : هاتوا الدليل على وجود إله آخر يقول : أنا الذى بدأتُ الخَلْق ، وأنا الذى أرزق من السماء والأرض ، فإذا لم يأتِ مَنْ يقول هذا فقد ثبتتْ الدعوة لصاحبها حيث لم يَقُم معارض - ودَعْك من مسألة الإعادة هذه ،

---

(١) قال ابن عباس : قوله تعالى : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ .. ④﴾ [ق] : ما تأكل الأرض من لحومهم وأشعارهم وعظامهم . وقال قتادة : يعنى الموتى تأكلهم الأرض إذا ماتوا [الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى ٧/ ٥٩٠] .

يكفى أن يدعى الخَلْق ؛ لأن القادر على الخَلْق قادر على الإعادة ، فلا يستحيل على الذى خلق من عدم أنْ يُعيد من موجود .

لكن ، ما مناسبة الكلام عن الرزق من السماء والأرض بعد مسألة الإعادة ؟ لا بُدَّ أن تكون هناك علاقة بينهما ، فللرزق الذى يأتى عن طريق التقاء ماء السماء بتربة الأرض وهو النبات دورة مثل دورة الإنسان وإعادة كإعادته ، حيث يتغذى الإنسان على نبات الأرض ، ويأخذ منه حاجته من الطاقة والغذاء ، وما تبقى منه يخرج على صورة فضلات تتحلل فى الأرض ، حتى ما تبقَّى منها فى جسم الإنسان يتحلل بعد موته إلى عناصر الأرض .

فالوردة مثلاً بعد نضارتها وطراوتها وجمالها حين تُقطف تجفّ ويتبخر ماؤها ، وكذلك اللون والرائحة فى الأثير الجوى ، وما تبقى منها من مادة جافة تتحلل فى التربة ، فإذا ما زرعنا وردة أخرى ، فإنها تتغذى على ما فى التربة من عناصر ، وما فى الأثير الجوى من لون ورائحة .

إذن : فعناصر التكوين فى الكون لم تَزِدْ ولم تنقص منذ خلق الله الخَلْق ، ولدورة النبات فى الطبيعة بدء ونهاية وإعادة أشبه ما تكون بخَلْق الإنسان ، ثم موته ، ثم إعادته يوم القيامة .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطينا الدليل على الإعادة بما نراه من دورة النبات ، دليلاً بما نراه على الغيب الذى لا نراه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ .. (٥٩) ﴾ [الأنعام]

والغيب : كلّ ما غاب عن إدراكك وحسِّك ، لكن مرة يكون الغيب غيباً إضافياً يغيب عنك ، ولا يغيب عن غيرك ، فأنا لا أعرف مثلاً ما في جيوبكم لكن أنتم تعرفون ، والذى سُرِق منه شيء وأخفاه السارق ، فالمسروق منه لا يعلم أين هو ، لكن السارق يعلم .

وإما يكون الغيب غيْباً مطلقاً ، وهو ما غاب عنّا جميعاً وهو قسمان : قسم يغيب عنا جميعاً ، لكن قد نكتشفه ككل الاكتشافات التى اهتدى إليها البشر . وهذه يكون لها مقدمات تُوصِّل إليها ، وهذا غيب نصف إضافى ؛ لأنه غيب اليوم ، لكن نراه مشهداً بعد ذلك ، فلا يكون غيباً .

ومثال ذلك : تمرين الهندسة الذى نعطيه للأولاد بمقدِّمات ومعطيات ، يُعملون فيها عقولهم حتى يتوصلوا إلى الحل المطلوب ، وهذا النوع يقول الله عنه : ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

فإذا شاء الله وجاء ميلاد هذا الغيب أطلعهم الله تعالى على المقدمات التى توصِّل إليه ، إما بالبحث ، وإما حتى مصادفة ، وهذا يؤكده قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

ومن الغيب المطلق غَيْب حقيقى ، لا يطلع عليه ولا يعلمه إلا الله فقد استقل سبحانه وتفرَّد بمعرفته . وهذا الغيب يقول تعالى عنه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧) ﴾ [الجن]

ومن هذا الغيب المطلق قضية القيامة ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ.. (٦٥)﴾ [النمل] فالقيامة لا يعلم وقتها إلا الله سبحانه ، إلا أنه جعل لها مُقدِّمات وعلامات تدلّ عليها وتُنبىء بقُرْبها .

قال عنها : ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا .. (١٥)﴾ [طه] البعض[1] يظن أن ﴿أُخْفِيهَا .. (١٥)﴾ [طه] يعنى : أداريها وأسترها ، لكن المعنى ليس كذلك ﴿أُخْفِيهَا .. (١٥)﴾ [طه] يعنى : أزيل خفاءها[2] ، ففرْق بين خَفَى الشيء وأخفاه : خَفَى الشيء عنى : ستره وداراه ، أما أخفاه فيعنى : أظهره ، وهذه تُسمَّى همزة الإزالة ، مثل : أعجم الشيء يعنى : أزال عُجْمته . ومنه المعجم الذى يُوضِّح معانى المفردات .

وكما تكون الإزالة بالهمزة تكون بالتضعيف . نقول : مرض فلان يعنى : أصابه المرض ، ومرَّض فلاناً يعنى : عالجه وأزال مرضه ، ومنه : قشَّر البرتقالة : يعنى أزال قشرها .

فالمعنى ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا .. (١٥)﴾ [طه] أى : أكاد أُظهرها ، ألاَ ترى أن للساعة علامات كبرى وعلامات صغرى ، نرى بعضها الآن ، وتتكشف لنا مع الأيام علامة بعد أخرى .

لكن يظل للقيامة وقتها الذى لا يعلمه إلا الله ؛ لذلك يقول عنها : ﴿لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ .. (١٨٧)﴾ [الأعراف]

والنبى ﷺ يفتخر بأنه لا يعلم موعدها ، فيقول حين سُئِل عنها :

(١) قاله ابن عباس فيما رواه عنه ابن أبى حاتم وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٥٦٢/٥) قال : لا أظهر عليها أحداً غيرى .

(٢) أخرج ابن أبى حاتم وابن الأنبارى عن ورقاء قال : أقرأنيها سعيد بن جبير (أَكَادُ أَخْفِيها) [بفتح الألف] . يقول : أظهرها . [الدر المنثور للسيوطى ٥٦٣/٥] .

« ما المسئول عنها بأعلم من السائل »[1] .

فشَرَفٌ لرسول الله ألاَّ يعلم شيئاً استأثر الله بعلمه ، والقيامة غَيْبٌ مطلق لم يُعْطِ الله مفاتحه لأحد حتى الرسل .

وقد يُكرِم الله تعالى بعض خَلْقه ، ويُطلعه على شيء من الغيب ، ومن ذلك الغيبيات التي أخبر بها النبي ﷺ دون أن يكون لها مُقدِّمات توصِّل إليها ، فلا بُدَّ أنها أتته في وحي القرآن ، كما في قوله تعالى : ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ .. ④﴾ [الروم]

وكان الروم أقرب إلى الله ؛ لأنهم أهل كتاب ، وكان الفرس كفاراً يعبدون النار ، لذلك كان رسول الله ﷺ وصحابته يتمنوْن انتصار الروم على الفرس ، فنزل الوحي على رسول الله يخبره ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ②﴾ [الروم] لكنهم في النهاية ﴿سَيَغْلِبُونَ ③﴾ [الروم] ولولا أن الله تعالى حدد غلبهم ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ .. ④﴾ [الروم] لكان انتصارهم دائماً ، لكن مَنْ يستطيع تحديد مصير معركة بين قوتين عُظْميين بعد بضع سنين إلا الله ؟

ولأن انتصار الروم يُفرِح المؤمنين بالله ، قال سبحانه : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ .. ⑤﴾ [الروم]

وتشاء قدرة الله أنْ يأتيَ انتصار الروم على الفرس في نفس

(١) حديث متفق عليه . أخرجه مسلم في صحيحه (٨) ، وكذا البخاري في صحيحه (٥٠) من حديث عمر بن الخطاب أن جبريل عليه السلام جاء رسول الله ﷺ في صورة رجل يسأله ، ومما سأله قال : « أخبرني عن الساعة . . قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرني عن أماراتها قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء ، يتطاولون في البنيان . ثم قال رسول الله ﷺ لعمر : يا عمر ، أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم » .

اليوم الذى انتصر فيه المؤمنون على الكافرين فى بدر[(١)] .

ومن الغيب الذى يفيض الله به على عبد من عباده ما حدث من الصدِّيق أبى بكر - رضى الله عنه - وقد أعطى ابنته عائشة - رضى الله عنها - مالاً ، فلما حضرتْه الوفاة قال لها : هاتى ما عندك من المال ، إنما هما أخواك وأختاك : أخواك هما محمد وعبد الرحمن ، وأختاك : لا نعلم أن لعائشة أختاً غير أسماء ، فمن هى الأخرى[(٢)] ؟

كان الصدِّيق قد تزوج من ابنة خالته[(٣)] وكانت حاملاً ، لكن الحق - تبارك وتعالى - تجلى عليه وألهمه أنها ستُنجب بنتاً تنضم إلى عائشة وأسماء[(٤)] .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل] أى : كما

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى قال : لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس ، فأعجب المؤمنون بظهور الروم على فارس . أخرجه الواحدى فى أسباب النزول ص ١٩٧ .

(٢) هى : أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق التيمية ، تابعية ، أمها حبيبة بنت خارجة وضعتها بعد موت أبى بكر . روى عنها جابر بن عبد الله الأنصارى . [الإصابة ٨/٢٧٦] .

(٣) هى : حبيبة بنت خارجة بن زيد الخزرجية ، زوج أبى بكر الصديق ووالدة أم كلثوم ابنته التى مات أبو بكر وهى حامل بها فقال : ذو بطن بنت خارجة ما أظنها إلا أنثى فكان كذلك . تزوجت إساف بن عتبة بن عمرو بعد وفاة أبى بكر . انظر الإصابة فى تمييز الصحابة (٨/٤٨) .

(٤) تزوج أبو بكر الصديق عدة نساء :
- أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية ، وأنجب منها : عائشة ، عبد الرحمن . اسمها زينب بنت عبيد : كانت زوجة للحارث بن سخبرة أو لعبد الله بن الحارث وولدت له الطفيل ثم مات عنها وتزوجها حليفه أبو بكر الصديق . ماتت فى حياة النبى ﷺ [الإصابة ٨/٢٣٢] .
- حبيبة بنت خارجة ، وأنجب منها : أم كلثوم ، وتزوجت بعده .
- قتيلة بنت عبد العزى قرشية من بنى عامر بن لؤى ، وهى والدة أسماء ، وعبد الله . قال ابن حجر العسقلانى فى الإصابة (٨/١٦٩) : « إن كانت عاشت إلى الفتح فالظاهر أنها أسلمت » .

أننا لا نشعر بالموت ولا نعرف ميعاده ، كذلك لا نشعر بالبعث ، ولا متى سنُبعث .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

معنى ﴿ ادَّارَكَ .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [النمل] أى : تدارك ، يعنى : توالى وتتابع الحديث عنها عند كل الرسل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأعراف] يعنى : جُمِع بعضهم على بعض .

إذن : تتابع الإعلام بالآخرة عند كل رسل الله ، فما منهم إلا وقد دعا إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر ، وأتى بالدليل عليه .

ومع متابعة التذكير بالآخرة قال الله عنهم ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [النمل] أى : من الآخرة ، فلماذا ؟ يقول تعالى : ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [النمل] أى : عميتْ أبصارهم وبصائرهم عنها ، فلم يهتدوا ، ولو تفتحتْ عيونهم وقلوبهم لآمنوا بها .

يقول تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج]

إذن : هناك شيء موجود بالفعل ، لكنى أغفلته ، أو تغافلت عنه بإرادتى ، فآيات البعث والقيامة موجودة ومُتداركة ، لكن الناس عَمُوا عنها فلم يَرَوْها .

ومعنى ﴿ عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [النمل] جمع عَمٍ ، وهو الذى عميتْ بصيرته عن دلائل القيامة الواضحة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) ﴾

يريدون أنْ يستدلوا بعدم بعث الآباء على عدم بَعْثهم ، لكن مَنْ قال لهم : إن الآخرة ستأتى مع الدنيا ، وما سُمِّيت الآخرة إلا لأنها تأتى آخراً بعد انقضاء الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) ﴾

أى : من لدن آدم - عليه السلام - والناس يموتون والأنبياء تذكر بهذا اليوم الآخر ، لكنه لم يحدث ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٦٨) ﴾ [النمل] أى : كذب وافتراء ونسج خيال كما فى أساطير السابقين ، لكن ما الدافع لهم لأنْ يتهموا الرسل فى بلاغهم عن الله هذا الاتهام ؟

قالوا : لأن نفس المرء عزيزة عليه ، وكل مُسْرف على نفسه فى المعاصى يريد أنْ يُؤمِّن نفسه ، وأنْ يريحها ، وليس له راحة إلا أنْ يقول هذا الكلام كذب ، أو يتمنى أن يكون كذباً ، ولو اعترف بالقيامة وبالبعث والحساب فمصيبته عظيمة ، فليس فى جُعْبته إلا كفر بالله وعصيان لأوامره ، فكيف إذن يعترف بالبعث ؟ فطبيعى أن يؤنس نفسه بتكذيب ما أخبر به الرسول .

لذلك نجد من هؤلاء مَنْ يقول فى القدر : إذا كان الله قد كتب علىَّ المعصية ، فلماذا يُعذِّبنى بها ؟ والمنطق يقتضى أن يكملوا

الصورة فيقولون : وإذا كتب علىَّ الطاعة ، فلماذا يثيبنى عليها ؟ فلماذا ذكرتُم الشر وأغفلتم الخير ؟

إذن : هؤلاء يريدون المنفذ الذى ينجون منه ويهربون به من عاقبة أعمالهم .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) ﴾

يدعوهم الله تعالى إلى السير فى مناكب الأرض للنظر وللتأمل لا فيمن بُعث ، لأن البعث لم يأتِ بَعْد ، ولكن للنظر فى عاقبة المجرمين الذين كذَّبوا رسلهم فيما أتَوا به ، وكيف أن الله هزمهم ودحرهم وكتب النصر للرسل .

والبعث مما جاء به الرسل ، فمَنْ كذَّب الرسل كذَّب بالبعث مع أنه واقع لا شكَّ فيه ، لكن الحق - تبارك وتعالى - يُخفيه لوقته ، كما قال سبحانه : ﴿ لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ .. (١٨٧) ﴾ [الأعراف]

ثم يُسلِّى الله تعالى رسوله ﷺ ليُخفِّف عنه ألم ما يلاقى فى سبيل الدعوة ، فيقول تعالى :

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) ﴾

وقد خاطب الحق سبحانه رسوله بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

والمعنى : مُهلك نفسك من الحزن ، والبخع كما قلنا : المبالغة فى

الذبح بحيث توصله إلى البخاع[1] . والحق - تبارك وتعالى - يوضح أن مهمة الرسول البلاغ عن الله فقط ، ولا عليه آمن مَنْ آمن ، أو كفر مَنْ كفر ، إنما حب النبى ﷺ لأمته وحرْصه على نجاتها جعلاه يحزن ويألم إنْ شرد منه واحد من أمته ، ألم يقُلْ عنه ربه : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه عنهم :

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١)﴾

يقول المكذبون بالبعث ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ .. (٧١)﴾ [النمل] أى : بالبعث ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١)﴾ [النمل] فى أن هناك بَعْثاً .

وسمَّوْا إخبار الله لهم بالبعث وَعْداً ، مع أنه فى حقهم وعيد ، وفَرْق بين وَعَد وأوعد : وَعَد للخير وأوعد للشر ، لكن الله تعالى يطمس على ألسنتهم ، وهم أهل الفصاحة فيقولون ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ .. (٧١)﴾ [النمل] وهو بالنسبة لهم وعيد ، لأن إيعاد المخالف لك بشرٌ وَعْد لك بخير .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول : لقد وعدنا بأمرين : وعدنا رسلنا بالتأييد والنصرة ، ووعدنا العالم كله بالبعث ، فإذا كنا صادقين فى الأولى وهى مُشَاهدة لكم ومُحسَّة فخذوها مقدمة ودليلاً على صدْقنا فى الأخرى ، وقد عاينتُم أن جميع الرسل انتصروا على

(١) قال الزمخشرى : هو من بخع الذبيحة إذا بالغ فى ذبحها وهو أن يقطع عظم رقبتها ويبلغ بالذبح البخاع ، بالباء ، وهو العرق الذى فى الصُّلْب ، والنخع ، بالنون ، دون ذلك ، وهو أن يبلغ بالذبيحة النخاع ، وهو الخيط الأبيض الذى يجرى فى الرقبة . قال ابن الأثير : هكذا ذكره الزمخشرى فى الكشاف وفى كتاب الفائق فى غريب الحديث ولم أجده لغيره . [لسان العرب - مادة : بخع] .

مُكذِّبيهم ، إما بعذاب الاستئصال ، وإما بعذاب الهزيمة والانكسار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

كلمة ﴿ عَسَىٰ .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [النمل] تفيد الرجاء ، لكنها من الله تفيد التحقيق ، فلو قُلْت مثلاً : عسى أن يعطيك فلان ، لكان الرجاء ضعيفاً ، وأقوى منه لو قُلْت : عسى أن أعطيك لأنى لا أملك فلاناً ، لكن أملك نفسى ، وأقوى من ذلك أن أقول : عسى أن يُعطيك الله لأن أسبابى أنا قد لا تمكِّنى من الوفاء ، أما إنْ قال الله تعالى عسى ، فهى قمة التأكيد والتحقيق فى الرجاء ، وهى أعلى مراتبه وأبلغها .

ومعنى ﴿ رَدِفَ لَكُم .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [النمل] أى : تبعكم وجاء بعدكم من أردفه إذا أركبه خلفه على الدابة ، فهو خلفه مباشرة ، وفعلاً أصابهم ما يستعجلون ، فلم يمرّ طويلاً حتى حاقت بهم الهزيمة في بدر [(١)] ، فصدَقْنا فى الأولى حين قلنا : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] وقد عاينتُم ذلك ، فخذوه دليلاً على الغَيْب الذى أخبرناكم به .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

فمن فضله تعالى عليكم أنْ يُؤخِّر القيامة لعل الناس يرعوون ،

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥١١٤) : « ﴿ بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [النمل] ، من العذاب ، فكان ذلك يوم بدر . وقيل : عذاب القبر » .

وإلا لفاجأتهم من أول تكذيب ، وهذا يبين أن الله تعالى يُمهل الخَلْق ليزداد فيهم أهل الهدى والإيمان ، ألاَ ترى أن المؤمنين برسول الله لم يأتُوا جميعاً مرة واحدة فى وقت واحد ، إنما على فترات زمنية واسعة .

لذلك قلنا : إن المسلمين الأوائل كانوا فى معاركهم مع الكفر يألمون إنْ فاتهم قَتْل واحد من رؤوس الكفر وقادته مثل عكرمة وعمرو وخالد وغيرهم ، ولو أطلعهم الله على الغيب لَعلموا أن الله تعالى نجَّاهم من أيديهم ليدخرهم فيما بَعْد لنُصْرة الإسلامَ ، وليكونوا قادة من قادته ، وسيوفاً من سيوفه المشْهَرة فى وجوه الكافرين .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [النمل] دليل على أن البعض منهم يشكر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

ولك أنْ تقول فى هذه الآية : إذا كان الله تعالى يعلم ما تُكنُّ صدورهم وما تخفيه ، فمن باب أَوْلَى يعلم ما يُعلنون ، فلماذا قال بعدها : ﴿ وما يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [النمل] ؟

نقول : لأن ما فى الصدور غَيْب والله غَيْب ، وقد يقول قائل : ما دام أن الله غيْب فلا يعلم إلا الغيب . فنردّ عليه بأن الله تعالى يعلم الغيب ويعلم العلن .

﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ(١) فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾

(١) قال الحسن : الغائبة هنا القيامة . وقيل : ما غاب عنهم من عذاب السماء والأرض ، حكاه النقاش . وقال ابن شجرة : الغائبة هنا جميع ما أخفى الله تعالى عن خلقه وغيبه عنهم . وهذا عام . [ذكره القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥١١٥)] .

معنى ﴿ غَائِبَةٍ .. ۝٧٥ ﴾ [النمل] يعنى : الشيء الغائب ، ولحقتْ به التاء الدالة على المبالغة ، كما نقول فى المبالغة : راوٍ وراوية ، ونسَّاب ونسَّابة ، وعالم وعلامة ، كذلك غائب وغائبة ، مبالغة فى خفائها .

و (منْ) هنا يرى البعض أنها زائدة ، لكن كلمة زائدة لا تليق بأسلوب القرآن الكريم وفصاحته ، ونُنزِّه كلام الله عن الحشو واللغو الذى لا معنى له ، والبعض تأدب مع القرآن فقال (من) هنا صلة ، لكن صلة لأى شيء ؟

إذن : لابد أن لها معنى لكى نوضحه نقول : إذا أردتَ أنْ تنفى وجود مال معك تقول : ما عندى مال ، وهذا يعنى أنه لا مالَ معك يُعتَدّ به ، ولا يمنع أن يكون معك مثلاً عدة قروش لا يقال لها مال ، فإن أردتَ نفى المال على سبيل تأصيل العموم فى النفس تقول : ما عندى من مال ، يعنى بداية ممَّا يُقال له مال مهما صَغُر ، فمنْ هنا إذن ليست زائدةً ولا صلةً ، إنما هى للغاية وتأصيل العموم فى النفى .

فالمعنى ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٧٥ ﴾ [النمل] أن الله تعالى يحيط علمه أزلاً بكل شيء ، مهما كان صغيراً لا يُعتدُّ به ، واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٥٩ ﴾ [الأنعام]

كما أن قدرته تعالى لا تقف عند حد العلم إنما ويسجله ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٧٥ ﴾ [النمل] أى فى أُمِّ الكتاب الذى سجَّل الله فيه كل أحداث الكون ، فإذا ما جاءتْ الأحداث نراها مُوافقة لما سجّله الله عنها

أزلاً ، فمثلاً لما ذكر الحق - تبارك وتعالى - وسائل النقل والمواصلات في زمن نزول القرآن قال : ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ⑧﴾ [النحل]

فلولا تذييل الآية بقوله تعالى : ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ⑧﴾ [النحل] لكان فيها مأخذ على القرآن ، وإلاَّ فأين السيارة والطائرة والصاروخ في وسائل المواصلات ؟

إذن : نستطيع الآن أنْ نُدخِل كل الوسائل الحديثة تحت ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ⑧﴾ [النحل]

وسبق أن قلنا : إن من عظمة الحق - سبحانه وتعالى - ألاَّ يُعلم بشيء لا اختيار للعبد فيه ، إنما بما له فيه اختيار ويفضحه باختياره ، كما حدث في مسألة تحويل القبلة : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. ⑭⑫﴾ [البقرة]

فيعلنها الله تعالى صراحة ، ويُسمِّيهم سفهاء ؛ لأنهم يعادون الله ويعادون رسول الله ، وبعد هذه الخصومة وهذا التجريح قالوا فعلاً ما حكاه القرآن عنهم .

ولم نَرَ منهم عاقلاً يتأمل هذه الآية ، ويقول : ما دام أن القرآن حكى عنا هذا فلن نقوله ، وفي هذه الحالة يجوز لهم أنْ يتهموا القرآن وينالوا من صدْقه ومن مكانة رسول الله ، لكن لم يحدث وقالوا فعلاً بعد نزول الآية : ﴿مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. ⑭⑫﴾ [البقرة] يعني : تركوا التوجه إلى بيت المقدس وتوجهوا إلى مكة ، قالوه مع ما لهم من عقل واختيار .

وهذه المسألة حدثتْ أيضاً في شأن أبي لهب لما قال الله عنه :

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ [المسد]

لأنه قالها لرسول الله ﷺ لما جمعهم ليبلغهم دعوة الله ، فقال له : تباً لك ألهذا جمعتنا[1] . وأبو لهب عم رسول الله ، كحمزة والعباس ولم يكن رسول الله يدرى مستقبل عمه ، فلعله يؤمن كما آمن حمزة وصار أسد رسول الله ، وكما آمن العباس بن عبد المطلب .

فلما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا .. ۝١﴾ [المسد] كان بإمكانه أنْ يُكذِّبها وأن يؤمن فينطق بالشهادتين ولو نفاقاً ، فله على ذلك قدرة ، وله فيه اختيار ، لكنه لم يفعل .

إذن : من عظمة كلام الله ومن وجوه الإعجاز فيه أنْ يحكم حكماً على مختار كافر به ، وهو قرآن يُتْلَى علانيةً على رؤوس الأشهاد ، ومع ذلك لا يستطيع التصدِّى له ، ويبقى القرآن حُجَّة الله على كل كافر ومعاند .

ولما نتأمل قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر] نرى أن الحق سبحانه أنزل القرآن وتولَّى حفظه بنفسه ـ سبحانه وتعالى ـ ولم يُوكله إلى أحد ، مع أن فى القرآن أشياء وأحداثاً لم توجد بعد ، فكأن الله تعالى يحفظها على نفسه ويُسجِّلها

---

(١) عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء] خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا (جبل بمكة) فاجتمعوا إليه ، قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصدقى ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً . قال : فإنى نذير لكم بين يدَىْ عذاب شديد . قال أبو لهب : تباً لك أما جمعتنا إلا لهذا ؟ فنزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد] .» أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/١٨١) وأحمد فى مسنده (١/٣٠٧) ومسلم فى صحيحه ـ كتاب الإيمان (حديث ٣٥٥) ، والبخارى فى صحيحه أيضاً (٨/٧٣٦ ـ فتح البارى) .

ويعلنها ، لماذا ؟ لأنها ستحدث لا محالة .

فالحق سبحانه لا يخشى واقع الأشياء ألاَّ تطاوعه ؛ لأنه مالكها ، ألاَ ترى أن الإنسان يحفظ (الكمبيالة) التى له ، ولا يهتم بالتى عليه ؟ أما ربُّنا عز وجل فيحفظ لنا الأشياء وهى عليه سبحانه وتعالى .

واقرأ إن شئت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] فالله يُسجِّلها على نفسه ويحفظها ؛ لأنه القادر على الإنفاذ ، وفعلاً هُزِم الجمع وولَّوْا الأدبار وصدق الله .

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

فَرْق بين أن تخاطب خالىَ الذهن ، وأنْ تخاطب مَنْ لديه فكرة مُسْبقة ، فخالى الذهن يقبل منك ، أما صاحب الفكرة المسْبقة فيعارضك ، كذلك جاء من الكفار ومن أهل الكتاب من يعارض كتاب الله وينكر ما جاء به ، ومع أنهم أعداء الإسلام وكارهون له لكنْ إنْ سألتَهم عما أخبر به القرآن يقولون : نعم نعرف هذا من كتبنا ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة]

لذلك سيدنا عبد الله بن سلام[1] عندما نظر إلى رسول الله علم أنه الرسول الحق ، فمالتْ نفسه إلى الإسلام وقال : والله إنِّى لأعرف

---

(١) هو أبو يوسف عبد الله بن سلام بن الحارث من ذرية يوسف النبى عليه السلام ، كان من بنى قينقاع ، كان اسمه الحصين فسماه النبى ﷺ عبد الله ، أسلم أول ما قدم النبى ﷺ المدينة ، وقيل : تأخر إسلامه إلى سنة ثمان . كان أعلم بنى إسرائيل ومن سادتهم . توفى بالمدينة عام ٤٣ للهجرة . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٤/٨١] .

محمداً كمعرفتي بابني ، ومعرفتي بمحمد أشد ، وصدق الله حين قال عنهم : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (١٤٦) ﴾ [البقرة]

علم عبد الله أن الإسلام هو الطريق الذى يُوصِّله إلى الله والذى ينبغى لكل عاقل أنْ يتبعه ، فلما أراد أنْ يُسلم أحب أنْ يكسب الجولة بإعلان إسلامه وفضيحة المنافقين والكفار وأهل الكتاب ، فقال : يا رسول الله لقد استشرفَتْ نفسى للإسلام ، وأخاف إنْ أسلمتُ أن يذمَّنى اليهود ويفعلوا بى كذا وكذا ، فاسألهم عنِّى قبل أنْ أُسلِم ، فسألهم رسول الله فقالوا : هو حَبْرنا وابن حَبْرنا ..

وكالوا له الثناء والمديح ، عندها قال عبد الله : أما وقد قلتم ما قلتم ، فأشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقالوا : بل هو شرُّنا وابن شرِّنا . وكالوا له عبارات السب والشتم[1] .

ثم يصف الحق سبحانه القرآن فيقول :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) ﴾

معنى ﴿ لَهُدًى .. (٧٧) ﴾ [النمل] أى : هداية دلالة وإرشاد ، وهذه للمؤمن وللكافر ﴿ وَرَحْمَةٌ (٧٧) ﴾ [النمل] للمؤمنين فقط . كما قال سبحانه : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء] وفَرَّق بين الشفاء والرحمة ؛ لأن العطف هنا يقتضى المغايرة . الشفاء : من الداء الذى جاء القرآن ليعالجه ، والرحمة ألاَّ يعاودك هذا الداء مرة أخرى .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٨/١٦٥ ـ فتح البارى) والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/٥٢٧ ـ ٥٢٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . وفى بعض ألفاظ الحديث أنهم قالوا أولاً : « ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا » وفى لفظ آخر : « خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ الْعَزِيزُ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [النمل] أى : الذى يقهر ولا يُقهر ، ويغلب ولا يُغْلب ، ويجير ولا يُجَار عليه ، وهو مع ذلك فى عزته ﴿ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النمل] فقد يكون عزيزاً لا يُغلب ، لكن لا علم عنده ، فالحق سبحانه عزيز عليم يضع العزة فى مكانها ، ويضع الذلة فى مكانها .

كما قال سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران]

وقد وقف العلماء عند قوله تعالى عن نفسه : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران] فاجتهد بعضهم فقال : التقدير : بيدك الخير والشر ، وهذا التقدير يدل على عدم فهْم لمعنى الآية فما عند الله خير فى كل الأحوال ؛ لأن إيتاء الملْك لمن ينصف فى الرعية خير ، ونزع الملْك ممَّنْ يطغى به ويظلم خير أيضاً ؛ لأن الله سلب منه أداة الطغيان حتى لا يتمادى ، ففى كلٍّ خير .

وما دام من صفاته تعالى أنه عزيز عليم حكيم رحيم ذو فضل ، فاطمئن أيها المؤمن بالله ، وتوكل على الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩ ﴾

والتوكل : أن تستضعف نفسك فى شىء تحاول أن تقضيه بقوة فلا تجدها عندك ، والتوكل الحق لا يكون إلا على الله الحى الذى لا يموت ، أما إن توكلْتَ على بشر مثلك فقد يُفاجِئه الموت قبل أنْ يقضى لك حاجتك .

وقال ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ۝٧٩ ﴾ [النمل] أى : أنك تتوكل على الله وأنت على الحق وعلى الطاعة له عز وجل ، لا على معصيته ، وما دُمْتَ تتوكل على الله وأنت على حال الطاعة فلا بُدَّ أن يكون نصيرك ومعينك .

ثم يُسلِّى الحق سبحانه رسوله ﷺ ويُعزيه كى لا يألم على مَنْ شردوا منه فلم يؤمنوا :

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ(1) وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٨٠ ﴾

والمعنى : لا تحزن يا محمد ، ولا تُهلك نفسك على هؤلاء الذين لم يؤمنوا من قومك ، فما عليك إلا البلاغ . والبلاغ كلام له أداة

---

(1) قال القرطبى فى تفسيره (٥١١٧/٧) : « قد عورضت هذه الآية بقصة بدر وبالسلام على القبور ، وبما روى فى ذلك من أن الأرواح تكون على شفير القبور فى أوقات ، وبأن الميت يسمع قرع النعال إذا انصرفوا عنه إلى غير ذلك ، فلو لم يسمع الميت لم يُسلَّم عليه » وقال أيضاً فى التذكرة له (ص ١٦٤) : « لا تعارض بينهما لأنه جائز أن يكونوا يسمعون فى وقت ما أو فى حال ما ، فإن تخصيص العموم ممكن وصحيح إذا وجد المخصص ، وقد وجد هنا » . أو أن المراد نفى الإسماع النافع لهم .

استقبال فى السـامع هى الأذن ، فإذا تعطلَتْ هذه الأداة لن يسمعوا ، وهؤلاء القوم تعطلَتْ عندهم أداة السمع ، فهم كالموتى والذين أصابهم الصـمم ، فـآيات الله الكونيـة كـثـيـرة من حـولـهم ، لكن لا يرون ولا يسمعون .

وليت الأمـر يقف بهم عند حَدِّ الصـمم ، إنمـا يُولُّون مـدبرين من سماع الدعوة ، وهذه مبالغة منهم في الانصراف عن دعوة الحق ؛ لأنهم إنْ جلسوا فلن يسمعوا ، فما بالك إذا ولَّوْا مدبرين يجرون بعيداً ، وكأن الواحد منهم يخاف أن يزول عنه الصمم وتلتقط أذنه نداء الله ، فيستميله النداء ، وعندها تكون مصيبته كبيرة ـ على حَدِّ زعمهم .

وهذا دليل علـى أنهم يعلمـون أنـه الحق ، وأنهم لو صَـغَـوْا إليـه لاتبعوه ، ألم يقولوا : ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦) ﴾[فصلت]

ذلك لأن للقـرآن جـلالاً وجـمالاً يأسـرُ الألبـاب ؛ لذلك نَهَـوْا عن سماعه ، ودَعَوْا إلى التشويش عليه ، حتى لا ينفذ إلى القلوب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

فرْق بين سماع قالة الحق أو قضية الصدق ، وأنت خالى الذِّهْن ، وبين أن تسمعها وأنـت مشغول بنقيضها ، فلكى يُثمـرَ السماع ينبغى أنْ تستقبل الدعـوة بذهن خَالٍ ثم تبحث بعقلك الدعوة ومـا يناقضها ، فما انجذبتَ إليه واطمأنتْ إليه نفسك فأدخله .

وهذه يُسمُّونها ـ حتى فى الماديات ـ نظرية الحيز أى : أن الحَيز

الواحد لا يتسع لشيئين فى الوقت نفسه . وسبق أنْ مثَّلنا لذلك بالقارورة حين تملؤها بالماء لا بُدَّ أنْ يخرج منها الهواء أولاً على شكل فقاعات ؛ لأن الماء أكثفُ من الهواء .

ومعنى : ﴿إن تُسْمِعُ إلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١)﴾ [النمل] ولقائل أن يقول : ما دام تُسمع مَنْ يؤمن بآياتنا ، فما فائدة السماع وهو مؤمن ؟ نقول : الآيات ثلاثة ، مترتبة بعضها على بعض ، فأولها : الآيات الكونية العقدية التى تشاهدها فى الكون وتستدلّ بها على وجود إله خالق قادر فتسأل : مَنْ هذا الإله الخالق فيأتى دور الرسول الذى يُبيِّن لك ويحلّ لك هذا اللغز ، ولا بُدَّ له من آيات تدل على صدْقه فى البلاغ عن الله هى المعجزة ، فإنْ غفلنا عن الآيات الكونية ذكرنا بها الرسول ، فقال : ومن آياته كذا وكذا .

فإذا آمنتَ بالآيات الكونية وبآيات المعجزات ، فعليك أنْ تؤمن بآيات الأحكام التى جاءتْ بها معجزة النبى ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢)﴾

كلمة ﴿وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ .. (٨٢)﴾ [النمل] أى : سقط كأنه وبطبيعته يسقط لا يحتاج لمَنْ يُجبره على السقوط . والسقوط ﴿عَلَيْهِمْ .. (٨٢)﴾ [النمل] كما فى قوله تعالى ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. (٢٦)﴾ [النحل]

والوقوع هنا يدل على أنهم سيتعرَّضون لشدائد ومتاعب ، وبتتبع هذه المادة (وقع) فى القرآن نجد أنها جاءت كلها فى الشدائد إلا

في موضع واحد[1] هو قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. (١٠٠) ﴾ [النساء]

وما داموا لم يسمعوا للآيات ، ولم يقبلوها ، ولم يلتفتوا إلى منهج الله وصمُّوا عنه آذانهم ، فلم يسمعوا كلام أمثالهم من البشر فسوف نُخرج لهم دابة تكلمهم .

﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ .. (٨٢) ﴾ [النمل] وانظر إلى هذه الإهانة وهذا التوبيخ : أنتم لم تسمعوا كلام أمثالكم من البشر ، ولم تفهموا مَنْ يخاطبكم بلغتكم ، فاسمعوا الآن من الأدنى ، وافهموا عنها ، وفسِّروا قولها .

لكن ماذا ستقول الدابة لهم ؟ وما نوع كلامها ؟ : ﴿ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ (٨٢) ﴾ [النمل] أي : بآياتنا السابقة لا يؤمنون ، وها أنا ذا أكلِّمهم ، وعلى الماهر فيهم أن يقول لي : كيف أكلمه .

وقد اختلف الناس في هذه الدابة[2] ، وفي شكلها وأوصافها ، وكيف

---

(١) وردت لفظة (وقع) في القرآن ٧ مرات :
- ٥ منها ، بمعنى وقوع العذاب والشدة ونزولها : (الأعراف : ٧١ ، ١٣٤) ، (يونس ٥١) ، (النمل : ٨٢ ، ٨٥) .
- موضعان : أحدهما ، ما ذكره فضيلة الشيخ . (النساء ١٠٠) . والثاني ، قوله تعالى : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) ﴾ [الأعراف] ، أي : ثبت الحق .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٥١١٩/٧) : « اختلف في تعيين هذه الدابة وصفتها ومن أين تخرج اختلافاً كثيراً .
الأول : أنه فصيل ناقة صالح . وهو أصحها والله أعلم . لما ذكره أبو داود الطيالسي في مسنده عن حذيفة .
الثاني : روى أنها دابة مزغبة شعراء ، ذات قوائم طولها ستون ذراعاً .
الثالث : يقال إنها الجساسة ، وهو قول عبد الله بن عمر .
الرابع : وروى عن ابن عمر أنها على خلقة الآدميين ، وهي في السحاب وقوائمها في الأرض .
الخامس : وروى أنها جمعت من خلق كل حيوان .
قال القرطبي : قد رفع الإشكال في هذه الدابة ما ذكرناه من حديث حذيفة فليعتمد عليه » أي : أنها فصيل ناقة صالح .

يأتى القول من غير مألوف القول وهو الدابة ؟ لكن ما دام أن الله تعالى أخبر بها فهى حقٌ ، لا ينبغى معارضته ، وعلينا أن نأخذ وقوع ما حدَّث به القرآن قبل أن يكون دليلاً على صدْقه فيما يحدِّث به فيما يكون .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

الفوج : هم الجماعة والزمرة من الناس . وأول مَنْ يُجمع فى هذا الموقف هم العتاة والجبابرة الذين تولَّوْا تكذيب آيات الله ، يحشرهم الله أولاً أمام العامة يتقدمونهم ويسبقونهم إلى النار ، كما قال سبحانه عن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود]

فكما تقدَّمهم فى الضلال فى الدنيا يتقدمهم إلى النار فى الآخرة ، وحين يرى الضالون إمامهم فى الضلال يقدمهم ينقطع أملهم فى النجاة ، فربما تعلَّقوا به فى هذا الموقف ينتظرونه أنْ يُخلِّصهم ، لكن كيف وهو يسبقهم إلى هذا المصير ؟

ومعنى ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [النمل] قلنا فى معنى ﴿ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [النمل] أى : يُمنعون ، والمراد يمنعون أن يسبق أولهم آخرهم[1] بحيث يدخلون جميعاً ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يجمع أولهم على آخرهم (ليشرفوا) سوياً فى النار : التابع والمتبوع كلهم سواء فى الذلة والمهانة ، فربما حاول أحد العتاة أو الجبابرة أن يسبق حتى لا يراه تابعوه ، فيفتضح أمره ، فيؤخره الله ليفضحه على رؤوس الأشهاد .

---

(١) هذا قول قتادة فيما نقله القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٢٣) وقول مجاهد فيما أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٣٨٤) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم . وهناك قول آخر : أى يساقون . قاله ابن زيد . وقال القرطبى : أى يُدفعون ويُساقون إلى موضع الحساب .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

فى سورة الأعراف يُورد الحق ـ تبارك وتعالى ـ مذكرة تفصيلية لهذا الموقف ، ولهذا الحوار الذى يدور فى عرَصات القيامة ، فيقول تعالى :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأعراف]

﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

قوله ﴿ وَوَقَعَ .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [النمل] أى : وجب لهم العذاب ﴿ بِمَا ظَلَمُوا .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [النمل] وكأنه شىء محسوس يسقط على رؤوسهم ﴿ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [النمل] فقد خرستْ ألسنتهم من هوْل ما رأوْا ، فلا يجدون كلاماً ينطقون به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

ينتقل السياق من الكلام عن الآخرة إلى آية كونية ، وهذه سمة من سمات أسلوب القرآن الكريم ، حيث يراوح بين الدعوة إلى الإيمان وبين بيان الآيات الكونية ، فبعد أن حدثنا عن الآخرة ذكر هذه الآية الكونية ، وكأنه يقول : لا عُذْر لمن يُكذِّب بآيات الله ؛ لأن الآيات موجودة مشاهدة .

لذلك قال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا .. (٨٦) ﴾ [النمل] أى : ألم يعلموا ويشاهدوا ﴿ أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ .. (٨٦) ﴾ [النمل] أى : للنوم وللراحة ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا .. (٨٦) ﴾ [النمل] أى : بما فيه من الأشعة والضوء الذى يُسبب الرؤيا .

وسبق أنْ بيَّنا دور العالم المسلم ابن الهيثم فى تصحيح نظرية رؤية الأشياء ، وكانوا يعتقدون أن الشىء يُرى إذا خرج الشعاع من العين إليه ، والصحيح أن الشعاع يخرج من الشىء المرئى إلى العين ، فكأن الشعاع هو الذى يُبصر ، فهو سبب الرؤيا ، ولولاه لا نرى الأشياء .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) ﴾ [النمل] فربك - عزَّ وجلَّ - نظَّم لك حركة حياتك بليل تسكن فيه ، وتخلد للراحة ونهار تسعى فيه وتبتغى من فضل الله كما قال تعالى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ [القصص]

ولن تستقيم لنا حركة الحياة إلا إذا سرْنا على هذا النظام الذى ارتضاه الله لنا ، فإنْ قلبَ الناس هذه الطبيعة فسهروا حتى الفجر ، فلا بُدَّ أنْ يلاقوا عاقبة هذه المخالفة فى حركة حياتهم : تكاسلاً وتراخياً وقلة فى الإنتاج .. إلخ .

والحق - تبارك وتعالى - يشرح لنا هذه القضية فى موضع آخر :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[1] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص]

ففى الكلام عن الليل قال : ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) ﴾ [القصص] وعن النهار قال : ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص] لماذا ؟ قالوا : لأن حاسة الإدراك فى الليل هى السمع ، وفى النهار البصر . وفى هذا إشارة إلى طبيعة كل منهما حتى لا نُغيِّرها نحن ، فنسهر الليل ، وننام النهار .

وفى قوله تعالى ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص] ما يسميه العلماء باللف والنشر[2] ، أى : لفّ المحكوم عليه وهو الليل والنهار معاً ، ثم نشر حكم كل منهما على وجه الترتيب : لتسكنوا فيه وهى تقابل الليل ، ولتبتغوا من فضله ، وهى تقابل النهار .

إذن : بعد أنْ استدل الحق ـ تبارك وتعالى ـ بالموجود فعلاً من آيتى الليل والنهار أراد أنْ يستدل بعدمهما فى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا .. (٧١) ﴾ [القصص] و ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا .. (٧٢) ﴾ [القصص]

---

(١) السرمد : الزمن الطويل أو الدائم . [القاموس القويم ١/٣١٢] .

(٢) اللف والنشر : هو أن يُذكر شيئان أو أشياء ، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد أو إجمالاً ، بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، ويفوِّض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به ، ومثال الإجمالى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ .. (١١١) ﴾ [البقرة] أى : وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا اليهود . وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا النصارى . [راجع تفصيل هذا فى البرهان فى علوم القرآن للسيوطى ٣/٢٨٠] .

ثم يعود السياق مرة أخرى إلى الحديث عن القيامة :

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ(١) وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

وكأن الله تعالى يقول لي : التفتْ إلى العبرة في الآيات الكونية ، حيث ستنفعك في يوم آت هو يوم القيامة ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [النمل] وهو البوق ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [النمل] والفزع : الخوف الشديد الذي يأخذ كلَّ مَنْ في السموات ، وكل مَنْ في الأرض ﴿ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [النمل] قالوا : هم الملائكة : إسرافيل الذي ينفخ في الصور ، وجبريل ، وميكائيل ، وعزرائيل(٢) .

لذلك لما تكلم سيدنا رسول الله ﷺ عن مسألة الصعق هذه قال : « فأفيق من الصعقة فأجد أخي موسى ماسكاً بالعرش »(٣) ذلك لأن موسى عليه السلام صعق في الدنيا مرة حين تجلَّى ربه للجبل ، كما حكى القرآن : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف]

---

(١) عن أبي هريرة في قوله ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [النمل] قال : هم الشهداء . أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٣٨٤) وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير الطبري . قال القرطبي في تفسيره (٧/ ٥١٢٦) : « وهو قول سعيد ابن جبير أنهم الشهداء متقلدو السيوف حول العرش ، وحديث أبي هريرة صححه القاضي أبو بكر بن العربي فليعول عليه ، لأنه نص في التعيين وغيره اجتهاد ، والله أعلم » .

(٢) قاله مقاتل ، وفيما أورده عنه القرطبي في تفسيره (٧/ ٥١٢٦) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٩٨) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٣٧٤) بنحوه من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : « الناس يُصعقون يوم القيامة فأكون أول من يُفيق ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جُوزي بصعقة الطور » .

وما كان الله تعالى ليجمع على نبيه موسى عليه السلام صعقتين ، لذلك لم يُصعَق صعقة الآخرة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) ﴾ [النمل] أى : صاغرين أذلاء ، لا يتأبى على الله منهم أحد ، حيث لا قدرةَ له على ذلك ؛ لأن القيامة أنهتْ الاختيار الذى كان لهم فى الدنيا ، وبه ملّكهم الله شيئاً من الملْك : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران]

فأعطى الله تعالى طرفاً من الملْك ، ووهبه لبعض عباده فى دنيا الأسباب والاختيار ، أمّا فى الآخرة فالملْك لله تعالى وحده ، لا ينازعه فيه أحد : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

فى القيامة يُنزع منك كلّ شىء تملكه وكلّ قدرة لك على ما تملك حتى جوارحك لا قدرةَ لك عليها ، ولا إرادةَ لتنفعل لك ، هى تبع إرادتك فى الدنيا ، وبها ترى وتسمع وتمشى وتبطش ، أمّا فى الآخرة فقد سُلبت منك هذه الإرادة ، بدليل أنها ستشهد عليك ، وتُحاجك يوم القيامة .

ثم ينتقل السياق بنا مرة أخرى إلى آية كونية :

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) ﴾

قوله تعالى ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً .. (٨٨) ﴾ [النمل] أى : تظنها ثابتة ، وتحكم عليها بعدم الحركة ؛ لذلك نسميها الرواسى والأوتاد ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. (٨٨) ﴾ [النمل] أى : ليس الأمر كما تظن ؛ لأنها

تتحرك وتمر كما يمرّ السحاب ، لكنك لا تشعر بهذه الحركة ولا تلاحظها لأنك تتحرك معها بنفس حركتها .

وهَبْ أننا فى هذا المجلس ، أنتم أمامى وأنا أمامكم ، وكان هذا المسجد على رحاية أو عجلة تدور بنا ، أيتغير وضعنا وموقعنا بالنسبة لبعضنا ؟

إذن : لا تستطيع أن تلاحظ هذه الحركة إلا إذا كنتَ أنت خارج الشىء المتحرك ، ألاَ ترى أنك حين تركب القطار مثلاً ترى أن أعمدة التليفون هى التى تجرى وأنت ثابت .

ولأن هذه الظاهرة عجيبة سيقف عندها الخَلْق يزيل الله عنهم هذا العجب ، فيقول ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل] يعنى : لا تتعجب ، فالمسألة من صُنع الله وهندسته وبديع خَلْقه ، واختار هنا من صفاته تعالى : ﴿ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل] يعنى : كل خَلْق عنده بحساب دقيق مُتقَن .

البعض[1] فهم الآية على أن مرَّ السحاب سيكون فى الآخرة ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ [القارعة]

وقد جانبه الصواب لأن معنى ﴿ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ [القارعة] أنها ستتفتت وتتناثر ، لا أنها تمر ، وتسير هذه واحدة ، والأخرى أن الكلام هنا مبنىٌّ على الظن ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل] وليس فى القيامة ظن ؛ لأنها إذا قامتْ فكلٌّ أحداثها مُتيقنةٌ .

ثم إن السحاب لا يتحرك بذاته ، وليس له موتور يُحرِّكه ، إنما يُحرِّكه الهواء ، كذلك الجبال حركتها ليست ذاتيةً فيها ، فلم نَرَ جبلاً

(١) قال القشيرى : وهذا يوم القيامة . [نقله القرطبى فى تفسيره ٧ / ٥١٢٧] .

تحرَّك من مكانه ، فحركة الجبال تابعة لحركة الأرض ؛ لأنها أوتاد عليها ، فحركة الوتد تابعة للموتود فيه .

لذلك لما تكلم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن الجبال قال : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ[1] بِكُمْ .. (١٥) ﴾ [النحل]

ولو خُلقتْ الأرض على هيئة السُّكون ما احتاجتْ لما يُثبِّتها ، فلا بُدَّ أنها مخلوقة على هيئة الحركة .

في الماضي وقبل تطور العلم كانوا يعتقدون في المنجِّمين وعلماء الفلك الكفرة أنهم يعلمون الغيب ، أما الآن وقد توصَّل العلماء إلى قوانين حركة الأرض وحركة الكواكب الأخرى في المجموعة الشمسية واستطاعوا حساب ذلك كله بدقة مكَّنتهم من معرفة ظاهرة الخسوف والكسوف مثلاً ونوع كل منهما ووقته وفعلاً تحدث الظاهرة في نفس الوقت الذي حددوه لا تتخلف .

واستطاعوا بحساب هذه الحركة أنْ يصعدوا إلى سطح القمر ، وأن يُطلقوا مركبات الفضاء ويُسيِّروها بدقة حتى إنَّ إحداها تلتحم بالأخرى في الفضاء الخارجي .

كل هذه الظواهر لو لم تكن مبنية على حقائق مُتيقَّنة لأدتْ إلى نتائج خاطئة وتخلفتْ .

ومن الأدلة التي تثبت صحة ما نميل إليه في معنى حركة الجبال ، أن قوله تعالى ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٨٨) ﴾ [النمل] امتنان من الله تعالى بصنعته، والله لا يمتنُّ بصنعته يوم القيامة ، إنما

---

(١) ماد يميد : تحرّك واهتزَّ . أي : لئلا تميد وتضطرب فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢/٢٤٦] .

الامتنان علينا الآن ونحن فى الدنيا[1]

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[2]

لهذه الآية صلة لطيفة بما قبلها : فكما أن الآيات الكونية التى أخبر بها الحق ـ تبارك وتعالى ـ حقيقة واقعة ، وتأكدتَ أنت من صدْقها حيث شاهدتها بنفسك وأدركتها بحواسك ، فكما أخبرناك بهذه الآيات نُخبرك الآن بحقيقة أخرى ينبغى أن تصدقها ، وأن تأخذ من صدْق ما شاهدتَ دليلاً على صدْق ما غاب عنك ، فربُّك يُخبرك بأنه ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [النمل]

الحسنة : فعل الانفعال فيه يكون لمطلوب الله فى العبادة ، فإن فعلتَ الفعل على مراد الله تعالى كانت لك حسنة ، والحسنة عند الله بعشر أمثالها ، وتضاعف إلى سبعمائة ضعْف على مقدار طاقة الفاعل من الإخلاص والتجرُّد لله فى فعله .

والمعنى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [النمل] أى : فى الدنيا ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [النمل] أى : ناشىء عنها فى الآخرة .

ونسمع من البعض مَنْ يقول : إذا كان قولنا : لا إله إلا الله

---

(١) قال الماوردى فى تفسير الآية : أنها ضَرْب للمثل ، وفيما ضُرِب له ثلاثة أقوال :
أحدها : أنه مثل ضربه الله تعالى للدنيا يظن الناظر إليها أنها واقفة كالجبال ، وهى آخذة بحظها من الزوال كالسحاب ، قاله سهل بن عبد الله .
الثانى : أنه مثل ضربه الله للإيمان تحسبه ثابتاً فى القلب وعمله صاعد إلى السماء .
الثالث : أنه مثل ضربه الله للنفس عند خروج الروح والروح تسير إلى العرش . [نقله القرطبى فى تفسيره ٧/٥١٢٨] .

(٢) قال ابن عباس ومجاهد : أى وصل إليه الخير منها . وليس « خير » للتفضيل . قال عكرمة وابن جريج : أما أن يكون له خير منها يعنى من الإيمان فلا ، فإنه ليس شىء خيراً ممن قال لا إله إلا الله ولكن له منها خير . [تفسير القرطبى ٧/٥١٢٩] .

حسنة فالثواب عليها خَيْـر منها . وهذا القول ناتج عن فَهْم غير دقيق لمعنى الآية ؛ لأن الله تعالى الذى أُقر بـه فى الشهادة هو الذى يهبنى هذا الثـواب ، فـمَنْ جاء بالحـسنة له خـيـر ناشىء من هذه الحـسنة ومُسبّب عنها . كما لو قلت : مأمـور المركز خير من وزير الداخلية : أى خَيْر جاءنا من ناحيته ، ووصل إلينا من طرفه ، أليس هو صاحب قرار تعيينه ؟

ومن ذلك ما يقـوله أصحاب الطريق والمـجاذيب يقولون : محـمد خـيــر من ربه ، وفى مـثل هـذه الأقـوال لعب بأفكـار الناس وإثارة لمشــاعرهم ، وربما تعرض للإيذاء ، فكـيف يقول هذه الكلمة ومحـمد مُرْسَل من عند الله ؟ وحين تُمعن النظر فى العبـارة تجدها صحيحة ، فمراد الرجل أن محمداً خير جاءنا من عند الله .

أو : يكون المعنى ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [النمل] أن الجزاء على الحـسنة خيـر من الحسنة ؛ لأنك تفـعل الحسنـة فعْلاً مـوقوتـاً ، أمّا خيرها والثواب عليها ، فسيظل لك خالداً بلا نهاية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ[(١)] فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

معنى ﴿ فَكُبَّتْ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [النمل] ألقيت بعنـف ، وخصّ الوجوه مع أن الأعضاء كلها ستكبُّ ؛ لأنه أشرفها وأكرمها عند صاحبها ، والوجه

---

(١) أى : بالشرك . قـاله ابن عباس والنخعى وأبو هريرة ومـجاهد وقيس بن سعـد والحسن . قال القـرطبى فى تفسـيره (٥١٣٠/٧) : « وهو إجـماع من أهل التأويل فى أن الـحسنة لا إله إلا الله ، وأن السيئة الشرك فى هذه الآية » .

موضع العزة والشموخ ، فالحق - تبارك وتعالى - يريد لهم الذلَّة والمهانة ، وفى موضع آخر يُبيِّن أن كل الأعضاء ستكبُّ فى النار ، فيقول تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الشعراء]

وليس هذا المصير ظلماً لهم ، ولا افتراءً عليهم ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النمل] وكما يقول سبحانه : ﴿ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [غافر] فلم نجامل صاحب الحسنة ، ولم نظلم صاحب السيئة .

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

فما دام أن الله تعالى أعطانا هذه المعلومات التى تلفتنا إلى قدرته فى آياته الكونية ، وذكَّرنا بالآخرة ، وما فيها من الثواب والعقاب ، فما عليك إلا أنْ تلتزم (عرفت فالزم) واعلم أن مَنْ أبلغك منهج الله سيسبقك إلى الالتزام به ، فالشرع كما أمرك أمرنى .

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [النمل] فإنْ طلبتُ منكم شيئاً من التكاليف فقد طالبتُ نفسى به أولاً ؛ لأننى واثق بصدق تبليغى عن الله ؛ لذلك ألزمتُ نفسى به .

والعبادة كما قلنا : طاعة العابد للمعبود فيما أمر وفيما نهى ؛ لأن ربك خلقك من عَدَم ، وأمدك من عُدْم ، ونظَّم لك حركة حياتك ، فإنْ كلَّفك فاعلم أن التكليف من أجلك ولصالحك ؛ لأنه رب مُتولٍّ لتربيتك ، فإنْ تركك بلا منهج ، وبلا افعلْ ولا تفعل ، كانت التربية ناقصة .

إذن : من تمام الربوبية أن يوجهنى ربى كما نُوجِّه نحن أولادنا الصغار ونُربِّيهم ، ومن تمام الربوبية أن توجد هذه الأوامر وهذه

النواهى لمصلحة المربَّى ، وما دام أن ربك قد وضعها لك فلا بُدَّ أن تطيعه .

لذلك نلحظ فى هذه الآية ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ .. ﴿٩١﴾﴾ [النمل] ولم يقُلْ : أمرت أن أطيع الله ؛ لأن الألوهية تكليف ، أمّا الربوبية فعطاء وتربية ، فالآية تُبيِّن حيثية سماعك للحكم من الله ، وهى أنه تعالى يُربِّيك بهذه الأوامر وبهذه النواهى ، وسوف تعود عليك ثمرة هذه التربية .

لذلك ، الصِّديق أبو بكر حينما حدثوه عن الإسراء والمعراج لم يُمرِّر المسألة على عقله ، ولم يفكر فى مدى صدْقها ، إنما قال عن رسول الله : « إنْ كان قال فقد صدق »[1] فالميزان عنده أن يقول رسول الله ، ثم يُعلِّل لذلك فيقول : إنى لأُصدِّقه فى الخبر يأتى من السماء ، فكيف لا أُصدِّقه فى هذه .

وقال تعالى : ﴿رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ .. ﴿٩١﴾﴾ [النمل] أى : مكة وخصَّها بالذكْر ؛ لأن فيها بيته ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا .. ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران] ثم يذكر سبحانه وتعالى من صفات مكة ﴿الَّذِى حَرَّمَهَا .. ﴿٩١﴾﴾ [النمل] فهى مُحرَّمة يحرم فيها القتال ، وهذه وسيلة لحماية العالم من فساد الحروب وفساد الخلاف الذى يُفضى بكل فريق لأنْ تأخذه العزة ، فلا يجد حلاً إلا فى السيف .

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢ / ٣٦١) من حديث عائشة أنها قالت : « لما أسْرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدَّقوه وسعوا بذلك إلى أبى بكر فقالوا : هل لك فى صاحبك يزعم أنه أسرى به فى الليل إلى بيت المقدس قال أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : وتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ، قال : نعم ، إنى لأصدقه بما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة ، فلذلك سُمّى أبو بكر الصديق » .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطى لخَلْقه فرصة للمداراة وعُذْراً يستترون خلفه ، فلا ينساقون خلف غرورهم ، فحين تمنعهم من الحروب حُرْمة المكان فى الحرم ، وحُرْمة الزمان فى الأشهر الحرم ـ لأن كل فعل لا بُدَّ له من زمان ومكان ـ حين يمنعهم الشرع عن القتال فإن لأحدهم أن يقول : لم أمتنع عن ضعف . ولولا أن الله منعنى لفعلْتُ وفعلْتُ ، ويستتر خلف ما شرَّع الله من منع القتال ، إلى أنْ يذوق حلاوة السلام فتلين نفسه ، وتتوق للمراجعة .

ولحرمة مكة كان الرجل يلاقى فيها قاتل أبيه ، فلا يتعرَّض له احتراماً لحرمة البيت ، وقد اتسعتْ هذه الحرمة لتشمل أجناساً أخرى ، فلا يُعضد[1] شجرها ، ولا يُصاد صَيْدها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ .. (٩١) ﴾ [النمل] لأن الله تعالى حين يصطفى من الملائكة رسلاً ، ومن الناس رسلاً ، ويصطفى من الأرض أمكنة ، ومن الزمان ، يريد أن يشيع الاصطفاء فى كل شىء .

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يُحَابى أحداً ، فحين يرسل رسولاً يُبلِّغ رسالته للناس كافة ، فيعود نفعه على الجميع ، وكذلك فى تحريم المكان أو الزمان يعود نفعه على الجميع ؛ لذلك عطف على ﴿ الَّذِي حَرَّمَهَا .. (٩١) ﴾ [النمل] فقال ﴿ كُلُّ شَيْءٍ .. (٩١) ﴾ [النمل] فالتحريم جُعل من أجل هؤلاء .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) ﴾ [النمل] أى : المنفذين لمنهج الله يعنى : لا أعتقد عقائد أخبر بها ولا أُنفِّذها ، وقد قرن الله تعالى بين الإيمان والعمل الصالح ؛ لأن فائدة الإيمان أنْ

---

(١) عضد الشجر يعضده ، فهو معضود : قطعه بالمعضد . والعضيد : ما قُطع من الشجر أى يضربونه ليسقط ورقه فيتخذونه علفاً لإبلهم . [لسان العرب ـ مادة : عضد] .

تعملَ به ، كما قال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ۝ ﴾ [العصر]

فالله تعالى يريد أن يُعدَّى الإيمان والأحكام إلى أن تكون سلوكاً عملياً في حركة الحياة .

﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝٩٢ ﴾

أنت حين تقرأ القرآن في الحقيقة لا تقرأ إنما تسمع ربنا يتكلم ، ومعنى ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ .. ۝٩٢ ﴾ [النمل] يعني : استدم أُنْسك بالكتاب الذي كُلِّفت به ، ليدل على أنك من عشْقك للتكليف ، عشقتَ المكلِّف ، فأحببتَ سماعه ، وتلاوة القرآن في ذاتها لذة ومتعة .

فأنا سآخذ من تلاوته لذةً ، وأستديم البلاغ بالقرآن للناس ، وبعد ذلك أنا نموذج أمام أمتي ، كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. ۝٢١ ﴾ [الأحزاب]

يعني : شيء يُقتدى به ، وما دام أن الرسول قدوة ، فكل مقام للرسول غير الرسالة مَنْ سار على قدم الرسول يأخذ منه ، وكذلك مكان كل إنسان في التقوى ، على قَدْر اعتباره واقتدائه بالأُسْوة ، أما الرسالة فدَعْك منها ؛ لأنك لن تأخذها .

ومعنى ﴿ اهْتَدَىٰ .. ۝٩٢ ﴾ [النمل] أي : وصلتْه الدلالة واقتنع بها ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِه .. ۝٩٢ ﴾ [النمل] لأن الله سيعطيه المعونة ، ويزيده هدايةً وتوفيقاً ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۝١٧ ﴾ [محمد]

إذن : فالهداية والتقوى لا تنفع المشرِّع ، إنما تنفع العبد الذي اهتدى.

ثم يذكر المقابل ﴿ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [النمل] أنا لا يعنيني إلا أنني من المنذرين ، وأنت إنما تضلّ على نفسك ، وتتحمل عاقبة ضلالك .

وبعد أنْ أتممتَ ما خاطبك ربك به بأنْ تعبدَ ربَّ هذه البلدة وكنتَ من المسلمين ، وبعد أنْ تلوتَ القرآن ، واستدمت الأُنْس واللذَّة بسماع الله يتكلم ، ثم بلَّغته للناس ، فإذا فعلتَ كل هذا احمد الله الذى وفَّقك إليه :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

أى : الحمد لله على نعمه وعلى ما هدانا ، والحمد لله الذى لا يُعذِّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والإنذار إليه .

والله سيريكم آياته فى أنفسكم وفى غيركم ، فتعرفون دلائل قدرته سبحانه ووحدانيته فى أنفسكم ، وفى السماوات والأرض .

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [النمل]

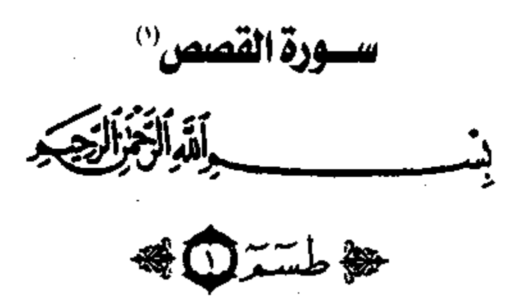
بل هو شهيد على كل شىء .


سورة القصص





سورة القصص[1]



﴿ طسٓمٓ ① ﴾

الحروف المقطعة فى بدايات سور القرآن مرة يأتى حرف واحد مثل (ق ، ن) أو حرفان مثل (طس ، حم) أو ثلاثة أحرف مثل (الم ، طسم) أو أربعة مثل (المر) أو خمسة مثل (حمعسق ، كهيعص) وكل منها له مفتاح وأسرار لم يفتح علينا بعد لمعرفته وما قلنا فى معنى هذه الحروف مجرد محاولات على الطريق .

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ② ﴾

(١) سورة القصص هى السورة رقم (٢٨) فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٨٨ آية . وهى سورة مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء . قال ابن عباس وقتادة : إلا آية نزلت بين مكة والمدينة . وقال ابن سلام : بالجحفة فى وقت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وهى قوله عز وجل : ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. ﴿٨٥﴾﴾ [القصص] [راجع تفسير القرطبى ٧/٥١٣٣] . نزلت هذه السورة بعد سورة النمل (كما هى فى ترتيبها فى المصحف) وقبل سورة الإسراء . [الإتقان فى علوم القرآن ١/٢٧] .

يعنى : ما يأتى فى هذه السورة آيات الكتاب المبين .

﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ ﴾

أى : نقص عليك ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ .. ۝٣﴾ [القصص] والنبأ : الخبر الهام الذى يجب الالتفات إليه ، وهل هناك أهم من إرسال موسى ـ عليه السلام ـ إلى مَن ادعى الألوهية ؟ لذلك أفرد لهما هذه السورة ، فلم يَرِدْ فيها ذكْر آخر إلا لقارون ؛ لأنها تعالج مسألة القمة ، مسألة التوحيد ، وتردّ علىَ مَنِ ادّعى الألوهية ، ونازع الله تعالى فى صفاته .

وقوله ﴿بِالْحَقِّ .. ۝٣﴾ [القصص] لأن تلاوته وقصصه حق ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ.. ۝٦٢﴾ [آل عمران]

والقصص مأخوذ من قصِّ الأثر وتتبّعه ، وقد اشتُهر به بعض العرب قديماً ، ومهروا فيه حتى إنهم ليعرفون أثر الرجل من أثر المرأة .. إلخ ، وقد اشتُهرت عندهم قصة الرجل الذى فقد جمله ، وقابل أحد القصاصين ، وسأله عنه فقال : جملك أبتر[1] الذَّنَب ؟ قال : نعم ، قال : أعور ؟ قال : نعم ، قال : أعرج ؟ عندها لم يشكّ صاحب الجمل أن هذا الرجل هو الذى أخذ جمله ، فأمسك به وقاضاه .

وفى مجلس القضاء ، قال الرجل : والله ما أخذتُ جملك ، لكنى رأيتُ الجمل يبعثر بَعْره خلفه ، أما هذا فيضع بَعْره مرة واحدة ،

---

(١) الأبتر : المقطوع الذَّنَب (الذيل) من أى موضع كان من جميع الدواب . والبتر : استئصال الشىء قطعاً . [لسان العرب ـ مادة : بتر] .

فـعرفـتُ أنه مقطوع الـذنب ، ورأيت أحد أخـفـافـه لا يؤثر فى الرمل فعرفتُ أنه أعـرج ، ورأيته يأكل من ناحية ويترك الأخـرى فعرفتُ أنه أعور .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ حين يقصُّ علينا يقصُّ الواقع ، فقَصص القرآن لا يعرف الخيال كقصص البشر ؛ لذلك يسميه القصص الحق ، وأحسن القصص ، لأنه يروى الواقع طِبْق الأصل .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي[(١)] نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾

معنى ﴿ عَـلا .. ﴿٤﴾ ﴾ [القصص] من العلو أى : استعلى ، والمستعلَى عليه هم رعيته ، بل علا على وزرائه والخاصة من رعيته ، وعـلا حـتى على الله ـ عـز وجل ـ فـادَّعى الألـوهيـة ، وهذا منتـهى الاستـعلاء ، ومنتهى الطغيـان والتكبُّر ، وما دامت عنده هذه الصـفات وهو بشر وله هوىً فلا بُدَّ أنْ يستخدمها فى إذلال رعيته .

﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا .. ﴿٤﴾ ﴾ [القصص] جمع شيعة ، وهى الطائفة التى لها استقلالها الخاص ، والمفـروض فى المُملَّك أنْ يُسوِّى بين رعيته ، فلا تأخذ طبـقة أو جـماعة حظوة عن الأخـرى ، أما فرعـون فقـد جعل الناس طوائف ، ثم يسلِّط بعضها على بعض ، ويُسخِّر بعضها لبعض .

---

(١) استحـياه : استبـقاه حياً ولم يقـتله ، ومعنى ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [البـقرة] أى : أنهـم يقتلون الذكـور فـقط ويتـركون البنات والنـساء على قـيـد الحيـاة . [القاموس القويم ١/ ١٨٣] .

ولا شكَّ أن جَعْل الأمة الواحدة عدة طوائف له ملْحظ عند الفاعل ، فمن مصلحته أن يزرع الخلاف بين هذه الطوائف ويشغل بعضها ببعض ، فلا تستقر بينهم الأمور ، ولا يتفرغون للتفكير فيما يقلقه ويهزّ عرشه من تحته ، فيظل هو مطلوباً من الجميع .

والقبط كانوا هم سكان مصر والجنس الأساسى بها ، ثم لما جاءها يوسف - عليه السلام - واستقرَّ به الأمر حتى صار على خزائنها ، ثم جاء إخوته لأخْذ أقواتهم من مصر ، ثم استقروا بها وتناسلوا إلا أنهم احتفظوا بهويتهم فلم يذوبوا فى المجتمع القبطى .

وبالمناسبة يخطىء الكثيرون فيظنون أن القبطىَّ يعنى النصرانى وهذا خطأ ، فالقبطى يعنى المصرى كجنس أساسى فى مصر ، لكن لما استعمرت الدولةُ الرومانية مصرَ كان مع قدوم المسيحية فأطلقوا على القبطى (مسيحى) .

لكن ، ما السبب فى أن فرعون جعل الناس طوائف ، تستعبد كلٌّ منها الأخرى ؟ قالوا : لأن بنى إسرائيل كانوا فى خدمة المستعمر الذى أزاح حكم الفراعنة ، وهم ملوك الرعاة ، فلما طُرِد ملوك الرعاة من مصر كان طبيعياً فيمَنْ يحكم مصر أن يضطهد بنى إسرائيل ؛ لأنهم كانوا موالين لأعدائه ، ويسيرون فى ركابهم ، ومن هنا جاء اضطهاد فرعون لبنى إسرائيل .

والقرآن الكريم حينما يتحدث عن ملوك مصر فى القديم وفى الحديث يُسمِّيهم فراعنة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ ۝١٠ ﴾ [الفجر]

وهنا فى قصة موسى ـ عليه السلام ـ قال أيضاً : فرعون . أما فى قصة يوسف عليه السلام فلم يأتِ ذكْر للفراعنة ، إنما قال ﴿ الْمَلِكُ .. (٤٣) ﴾ [يوسف] وهذه من مظاهر الإعجاز فى القرآن الكريم ؛ لأن الحكم فى مصر أيام يوسف كان لملوك الرعاة ، ولم يكُنْ للفراعنة ، حيث كانوا يحكمون مصر قبله وبعده لما استردوا مُلْكهم من ملوك الرُّعاة ؛ لذلك فى عهد يوسف بالذات قال ﴿ الْمَلِكُ .. (٥٠) ﴾ [يوسف] فلم يكُنْ للفرعون وجود فى عصر يوسف .

فمعنى ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ .. (٤) ﴾ [القصص] يعنى : تستبد طائفة الأقباط ، وهم سكان مصر الأصليون بطائفة بنى إسرائيل لينتقموا منهم جزاءَ موالاتهم لأعدائهم .

وأول دليل على بطلان ألوهية فرعون أن يجعل أمته شيَعاً ، لأن المألوهين ينبغى أن يكونوا جميعاً عند الإله سواء ؛ لذلك يقول تعالى فى الحديث عن موكب النبوات : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩) ﴾ [الأنعام]

ذلك لأن دين الله واحد ، وأوامره واحدة للجميع ، فلو كنتم مُتمسِّكين بالدين الحق لجعلتُم الناس جميعاً شيعة واحدة ، لا يكون لبعضهم سلْطة زمنية على الآخرين ، فإذا رأيت فى الأمة هذه التفرقة وهذا التحزُّب فاعلم أنهم جميعاً مدينون ؛ لأن الإسلام ـ كما قُلْنا ـ فى صفائه كالماء الذى لا طعمَ له ، ولا لون ، ولا رائحة .

وهذا الماء يحبه الجميع ولا بُدَّ لهم منه لاستبقاء حياتهم ، أما أن نُلوِّن هذا الماء بما نحب ، فأنت تحب البرتقال ، وأنا أحب المانجو . وهذا يحب الليمون .. إلخ إذن : تدخلتْ الأهواء ، وتفرَّق الدين الذى أراده الله مجتمعاً .

لذلك يقول رسول الله ﷺ : « ستفترق أمتى بضع وستون ، أو بضع وسبعون فرقة ، كلُّهم فى النار إلا ما أنا عليه وأصحابى »[1] .

فشيعة الإسلام إذن واحدة ، أما أن نرى على الساحة عشرات الفرَق والشِّيَع والجماعات ، فأيّها يتبع المسلم ؟ إذن : ما داموا قد فرَّقوا دينهم ، وكانوا شيعاً فلستَ منهم فى شىء .

ثم يُفسِّر الحق سبحانه هذا الاستضعاف ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ .. ④﴾ [القصص] فيقول ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ .. ④﴾ [القصص] وقلنا : إن الإفساد أن تأتى على الصالح بذاته فتفسده ، فمن الفساد - إذن - قتْل الذُّكْران واستحياء النساء ؛ لأن حياة الناس لا تقوم إلا باستبقاء النوع ، فقتل الذّكْران يمنع استبقاء النوع ، واختار قَتْل الذكْران ؛ لأنهم مصدر الشر بالنسبة له ، أمّا النساء فلا شوكة لهُنَّ ، ولا خوفَ منهن ؛ لذلك استبقاهُنَّ للخدمة وللاستذلال .

وحين نتتبع هذه الآية نجد أنها جاءت فى مواضع ثلاثة من كتاب الله ، لكل منها أسلوب خاص ، ففى الآية الأولى يقول تعالى : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ .. ④⑨﴾ [البقرة]

وفى موضع آخر : ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ .. ①④①﴾ [الأعراف] وهاتان الآيتان على لسان الحق تبارك وتعالى .

أما الأخرى فحكاية من الله على لسان موسى - عليه السلام - حين يُعدِّد نعَم الله تعالى على بنى إسرائيل ، فيقول :

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « إن بنى إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة ، كلهم فى النار إلا ملة واحدة ، قالوا : ومن هى يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابى » .

﴿ اذْكُرُوا نعْمَةَ اللَّه عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ .. (٦) ﴾ [إبراهيم]

فالواو فى ﴿ وَيُذَبِّحُونَ .. (٦) ﴾ [إبراهيم] لم ترد فى الكلام على لسان الله تعالى ، إنما وردتْ فى كلام موسى ؛ لأنه فى موقف تَعداد نعَم الله على قومه وقصده ؛ لأن يُضخِّم نعم الله عليهم ويُذكِّرهم بكل النعم ، فعطف على ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ .. (٦) ﴾ [إبراهيم] قوله ﴿ ويُذَبِّحُونَ .. (٦) ﴾ [إبراهيم]

لكن حين يتكلَّم الله تعالى فلا يمتنُّ إلا بالشىء الأصيل ، وهو قتْل الأولاد واستحياء النساء ؛ لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يمتنّ بالصغيرة ، إنما يمتنُّ بالشىء العظيم ، فتذبيح الأبناء واستحياء النساء هو نفسه سوء العذاب .

وقوله مرة ﴿ يُذَبِّحُونَ .. (٤٩) ﴾ [البقرة] ومرة ﴿ يُقَتِّلُونَ .. (١٤١) ﴾ [الأعراف] لأن قتل الذّكْران أخذ أكثر من صورة ، فمرَّة يُذبِّحونهم ومرة يخنقونهم .

ومعنى ﴿ يَسُومُونَكُمْ .. (١٤١) ﴾ [الأعراف] من السَّوْم ، وهو أنْ تطلب الماشية المرعى ، فنتركها تطلبه فى الخلاء ، وتلتقط رزقها بنفسها لا نقدمه نحن لها ، وتسمى هذه سائمة ، أما التى نربطها ونُقدِّم لها غذاءها فلا تُسمَّى سائمة .

فالمعنى ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ .. (١٤١) ﴾ [الأعراف] يعنى : يطلبون لكم سوء العذاب ، وما داموا كذلك فلا بُدَّ أنْ يتفنَّنوا لكم فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٥) ﴾

فلن يدوم لفرعون هذا الظلم ؛ لأن الله تعالى كتب ألاَّ يفلح ظَلُوم ، وألاَّ يموت ظلوم ، حتى ينتقم للمظلوم منه ، ويُريه فيه عاقبة ظلمه ، حتى إن المظلوم ربما رحم الظالم ، وحَسْبك من حادث بامرىء ترى حاسديه بالأمس ، راحمين له اليوم .

وهنا تُطالعنا غضبة الحق ـ تبارك وتعالى ـ للمؤمنين ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ .. ۝٥ ﴾ [القصص] والمنة : عطاء مُعوَّض ، وبدون مجهود من معطى المنة ، كأنها هبَة من الحق سبحانه ، وغضبة لأوليائه وأهل طاعته ؛ لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ كما قال الإمام على : إن الله لا يُسلم الحق ، ولكن يتركه ليبلو غَيْرة الناس عليه ، فإذا لم يغاروا عليه غَارَ هو عليه .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما يغَارُ على الذين استُضعفوا لا يرفع عنهم الظلم فحسب ، وإنما أيضاً ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً .. ۝٥ ﴾ [القصص] أئمة فى الدين وفى القيم ، وأئمة فى سياسة الأمور والملك ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ ﴾[القصص] أى : يرثون مَنْ ظلمهم ، ويكونون سادةً عليهم وأئمةً لهم ، فانظر على كم مرحلة تأتى غيرة الله لأهل الحق .

ولولا أن فرعون ـ الذى قوى على المستضعفين وأذلَّهم ـ تأبَّى على الله ورفض الانقياد لشملته رحمة الله ، ولعاشَ هو ورعيته سواء .

لذلك أهل الثورات الذين جاءوا للقضاء على أصحاب الفساد وإنصاف شعوبهم ممَّنْ ظلمهم ، كان عليهم بعد أنْ يقضوا على الفساد ، وبعد أن يمنعوا المفسد أن يُفسد ، ويحققوا العدالة فى المجتمع ، كان عليهم أنْ يضموا الجميع إلَى أحضانهم ورعايتهم ، ويعيش الجميع بعد تعديل الأوضاع سواسية فى مجتمعهم ، وبذلك نأمن الثورة المضادة .

ثم يقول تعالى استكمالاً لمنَّته :

﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ .. ۝٦ ﴾ [القصص] نعرف أن الأرض مكان يحدث فيه الحدَث ، لأنّ كل حَدَث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، فالمعنى : نجعل الأرض مكاناً لممكَّن فيها ، والتمكين يعنى : يتصرف فيها تسلطاً ، ويأخذ خيرها .

وقد شرح الحق سبحانه لنا التمكين في عدة مواضع من القرآن ، ففى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝٥٤ ﴾ [يوسف] مكين يعنى : لك عندنا مكانة ومركز ثابت لا ينالك أحد بشىء ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ .. ۝٢١ ﴾ [يوسف] يعنى : أعطيناه سلطة يأخذ بها خير المكان ، ثم يُصرِّف هذا الخير للآخرين .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦ ﴾ [القصص] وهامان هو وزير فرعون ، ولابد أنه كان لكل منهما جنود خاصة غير جنود الدولة عامة ، كما نقول الآن : الحرس الجمهورى ، والحرس الملكى ، والجيش .

أو : أن هامان يصنع من باطن فرعون ، فالملك لا يزاول أموره إلا بواسطة وزرائه ، وفى هذه الحالة يأخذ الجنود الأوامر من هامان . أو : أن هامان كان له سلطة ومركز قوة لا تقل أهمية عن سلطة فرعون ، وربما رفع رأسه وتطاول على فرعون فى وقت من الأوقات .

وقد رأينا هذا عندنا فى مصر ـ لذلك يقولون فى المثل الريفى المعروف : تقول لمن يحاول خداعك (على هامان) ؟ يعنى : أنا لا تنطلى علىَّ هذه الحيل .

والضمير فى ﴿ مِنْهُم .. ۝ ﴾ [القصص] يعود على المستضعفين ﴿ مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝ ﴾ [القصص] أى : سنريهم الشىء الذى يخافون منه ، والمراد النبوءة التى جاءتهم ، إما عن طريق الكهنة ، أو عن طريق الرُّؤْيا ، حيث رأى فرعون ناراً تأتى من بيت المقدس ، وتتسلط على القِبْط فى مصر ، لكنها لا تؤذى بنى إسرائيل ، فلما عبَّروا له هذه الرؤيا قال : لا بد أنه سيأتى من هذه البلد من يسلب منى مُلْكى[1] .

ويُرْوى أن الكهنة أخبروه أنه سيُولد فى هذه السنة مولود يكون ذهاب مُلْكك على يديه .

فسوف يرى فرعون وقومه هذه المسألة بأعينهم ويباشرونها بأنفسهم ، وسيقع هذا الذى يخافون منه ؛ لذلك أمر فرعون بقتْل الذكْران من بنى إسرائيل ليحتاط لأمره ، ويُبقِى على مُلْكه ، لكن هذا الاحتياط لم يُغنِ عنه شيئاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ ﴾

(١) قاله السدى فيما أخرجه ابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم . ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٨٩) .

عجيب أمر فرعون.. فبعد أن أمر بقتل الأولاد من بنى إسرائيل يأتيه فى البحر تابوت به طفل رضيع ، فلا يخطر على باله أن أهله ألقوه فى البحر لينجو من فرعون ، فكيف فاتتْه هذه المسألة وهو إله ؟ لم يعرفها بألوهيته ، ولا عرفها حتى بذكائه وفطْنته .

وإذا كان الكهنة أخبروه بأن ذهاب مُلْكه على يد وليد من هؤلاء الأولاد ، وإذا كانت هذه النبوءة صحيحة فلا بُدَّ أن الولد سينجو من القتل ويكبر ، ويقضى على مُلْك فرعون ، وما دام الأمر كذلك فسوف يقتل فرعون الأولاد غير الذى سيكون ذهاب مُلْكه على يديه .

وتشاء إرادة الله أنْ يتربَّى موسى فى قصر فرعون ، وأنْ تأتى إليه أمه السيدة الفقيرة لتعيش معه عيشة الترف والثراء[1] ، ويصير موسى بقدرة الله قُرَّة عَيْن للملكة ، فانظر إلى هذا التغفيل ، تغفيل عقل وطمس على بصيرة فرعون الذى ادَّعى الألوهية .

وبذلك نفهم قول الله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال] فقلبه يُغطِّى على بصيرته ويُعمِّيها .

وقوله تعالى لأم موسى : ﴿أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. ﴿٧﴾﴾ [القصص] فمَنْ منَ النساء تقبل إنْ خافت على ولدها أنْ تُلقيه فى اليم ؟ مَنْ ترضى أنْ تُنجيه من موت مظنون إلى موت محقق ؟ وقد جعل الحق سبحانه عاطفة الأمومة تتلاشى أمام وارد الرحمن الذى أتاها ، والذى لا يؤثر فيه وارد الشيطان .

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٨١ ، ٣٨٢) : « استدعت آسية امرأة الملك أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها عطاء جزيلاً وهى لا تعرف أنها أمه فى الحقيقة ولكن لكونه وافق ثديها ، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه فأبت عليها وقالت : إن لى بعلاً وأولاداً ولا أقدر على المقام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت ، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك وأجرت عليها النفقة والصلات والكساوى والإحسان الجزيل ، فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً فى عز وجاه ورزق دارّ » .

ثم يهيىء الحق سبحانه كذلك امرأة فرعون ليتم هذا التدبير الإلهى لموسى فتقول ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ .. ۝ ﴾ [القصص]

فيرد عليها فرعون : بل لك أنت وحدك ، وكأنه يستشعر ما سيحدث ، ولكن إرادة الله لا بُدَّ نافذة ولا بُدَّ أن يأخذ القدر مجراه لا يمنعه شىء ؛ لأن الله تعالى إذا أراد شيئاً فلا رادّ لإرادته .

فمع ما علمه فرعون من أمر الرؤيا أو النبوءة رُبّى الوليد فى بيته ، ولا يخلو الأمر أيضاً من سيطرة المرأة على الرجل فى مثل هذا الموقف .

لذلك النبى ﷺ حينما قُرئت هذه الآية قال : « والذى يُحلف به ، لو قال فرعون كما قالت امرأته ـ قرة عين لى ولك ـ لهداه الله كما هداها »[1] . إنما ردَّ الخير الذى ساقه الله إليه ؛ لذلك أسلمتْ زوجته وماتت على الإيمان .

وهى التى قالت : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ ﴾ [التحريم] أما هو فمات على كفره شرَّ ميتة .

وسبق أنْ تكلّمنا فى وحى الله لأم موسى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ۝ ﴾ [القصص] وقلنا : إن الوحى فى عموم اللغة : إعلام بطريق خفى دون أن تبحث عن الموحى ، أو الموحَى إليه ، أو الموحَى به . أما الوَحْى الشرعى فإعلام من الله تعالى لرسوله بمنهج لخَلْقه .

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٥٦٩) عن ابن عباس وعزاه لابن أبى عمر العدنى فى مسنده وعبد بن حميد والنسائى وأبى يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « والذى يُحلف به ، لو أقر فرعون بأن يكون قرة عين له ، كما قالت امرأته لهداه الله به ، كما هدى به امرأته ولكن الله عز وجل حرمه ذلك » .

فالله تعالى يوحى للملائكة : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٢)﴾ [الأنفال]

ويُوحى إلى الرسل : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ..(١٦٣)﴾ [النساء]

ويُوحى للمؤمنين الصادقين فى خدمة رسول : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي .. (١١١)﴾ [المائدة]

يوحى إلى النحل ، بل وإلى الجماد : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾ [الزلزلة]

وقد يكون الإعلام والوحى من الشيطان : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ .. (١٢١)﴾ [الأنعام]

ويكون من الضالين : ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا.. (١١٢)﴾ [الأنعام]

فالوَحْى إلى أم موسى كان وَحْياً من المرتبة الرابعة بطريق النَّفْث فى الروع ، أو الإلهام ، أو برؤيا ، أو بملَك يُكلِّمها ، هذا كله يصح .

وهذا الوحى من الله ، وموضوعه ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٧)﴾ [القصص] وهذا أمر ﴿وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي .. (٧)﴾ [القصص] نهى ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص] وهذه بشارة فى خبرين . فهذه الآية إذن جمعتْ لأم موسى أمرين ، ونهيين ، وبشارتين فى إيجاز بليغ مُعْجز .

ومعنى ﴿أَرْضِعِيهِ .. ⑦﴾ [القصص] يعنى : مدة أمانك عليه ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ .. ⑦﴾ [القصص] ولم يقل من أىِّ شىء ليدلّ على أىِّ مخوف تخشاه على وليدها ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. ⑦﴾ [القصص] ويراعى الحق سبحانه مشاعر الأم وقلَقها على ولدها ، خاصة إذا ألقتْه فى البحر فيطمئنها ﴿وَلَا تَخَافِي .. ⑦﴾ [القصص] لأن الله سيُيسِّر له تربية خيراً من تربيتك فى ظل بيت الغِنَى والملْك .

﴿وَلَا تَحْزَنِي .. ⑦﴾ [القصص] أى : لفراقه ؛ لأن هذا الفراق سيُعوِّضك ، ويُعوِّض الدنيا كلها خيراً ، حين يقضى على هذا الطاغية ، ويأتى بمنهج الله الذى يحكم خَلْق الله فى الأرض .

ثم اعلمى بعد هذا أن الله رادُّه إليك ، بل وجاعله من المرسلين ، إذن : أنا الذى أحفظه ، ليس من أجلك فحسب ، إنما أيضاً لأن له مهمة عندى .

يقولون : ظلت أم موسى تُرضعه فى بيتها طالما كانت آمنة عليه من أعين فرعون ، إلى أنْ جاءها أحد العسس يفتش البيت فخافت على الولد فلفته فى خرقة ودسته فى فجوة بجوارها ، كانت هذه الفجوة هى الفُرْن ، ألقتْه فيه وهو مسجور[1] دون أن تشعر - يعنى من شدة خوفها عليه - حتى إذا ما انصرف العَسَس ذهبت إليه ، فإذا به سالماً لم يُصبْه سوء . وكأن الله تعالى يريد لها أنْ تطمئن على حفْظ الله له ، وأن وعده الحق .

وقد وردت مسألة وحى الله لأم موسى فى كتاب الله مرتين مما دعا السطحيين من المستشرقين إلى اتهام القرآن بالتكرار الذى

(١) سجر التنور يسجره : أوقده وأحماه ، وقيل : أشبع وقوده . [لسان العرب - مادة : سجر] .

لا فائدةَ منه ، وذكروا قوله تعالى : ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩)﴾ [طه]

لكن فَرْق بين الوحى الأول والوحى الآخر : الوحى الأول خاص بالرضاعة فى مدة الأمان ، أما الآخر فبعد أنْ خافت عليه أوحى إليها لتقذفه فى اليم .

وتأمل ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ .. (٣٩)﴾ [طه] والقذف إلقاء بقوة ، لا أنْ تضعه بحنان ورفق ؛ لأن عناية الله ستحفظه على أى حال ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩)﴾ [طه] وهذا أمر من الله تعالى لليمِّ أن يخرج الوليد سالماً إلى الساحل ؛ لذلك لم يأت فى هذا الوحى ذكْر لعملية الرضاعة .

فكأن الوحى الأول جاء تمهيداً لما سيحدث ؛ لتستعد الأم نفسياً لهذا العمل ، ثم جاء الوحى الثانى للممارسة والتنفيذ ، كما تُحدِّث جارك ، وتُحذِّره من اللصوص وتنصحه أنْ يحتاط لهذا الأمر ، فإذا ما دخل الليل حدث فعلاً ما حذّرتَهُ منه فَرُحْت تنادى عليه ليسرع إليهم ويضربهم .

لذلك يختلف أسلوب الكلام فى الوحى الأول ، فيأتى رتيباً مطمئناً : ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص] هكذا فى نبرة هادئة لأن المقام مقام نصح وتمهيد ، لا مقام أحداث وتنفيذ .

أما الوحى الثانى فيأتى فى سرعة ، وبنبرة حادة : ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩)﴾ [طه] فالعَجلة فى اللفظ تدلُّ على أن المقام مقام مباشرة للحدث فعلاً .

وفى الأولى قال: ﴿فَأَلْقِيهِ .. ⑦﴾ [القصص] ، أما فى الثانية فقال ﴿فَاقْذِفِيهِ .. ㊴﴾ [طه] والأم لا تقذف وليدها ، بل تضعه بحنان وشفقة ، لكن الوقت هنا ضيِّق لا يتسع لممارسة الحنان والشفقة .

والأمر لليمِّ بأن يلقى التابوت بالساحل له حكمة ؛ لأن العمق موضع للحيوانات البحرية المتوحشة التى يُخاف منها ، أمَّا بالقُرْب من الساحل فلا يوجد إلا صغار الأسماك التى لا خطورة منها ، وكذلك ليكون على مَرْأى العين ، فيطمئن عليه أهله ، ويراه مَنْ ينقذه ليصل إلى البيت الذى قُدِّر له أنْ يتربّى فيه .

وفعلاً ، وصل التابوت إلى الساحل ، وكان فرعون وزوجته آسية وابنته على الشاطئ ، فلما أُخرِج لهم التابوت وجدوا فيه الطفل الرضيع ، وكان موسى عليه السلام أسمر اللون ، مُجعَّد الشعر ، كبير الأنف ، يعنى لم يكُنْ - عليه السلام - جميلاً تنجذب إليه الأنظار ويفرح به مَنْ يراه .

لذلك يمتنُّ الله عليه بقوله : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي .. ㊴﴾ [طه] أى : ليس بذاتك أن يحبك مَنْ يراك إنما بمحبة الله[1] ، لذلك ساعة رأته آسية أحبَّته وانشرح صدرها برؤيته ، فتمسَّكت به رغم معارضة فرعون لذلك .

كما أن ابنة فرعون ، وكانت فتاة مبروصة أصابها البرص[2] ،

---

(١) وقد ذكر القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥١٣٧) أن « بعض القوابل الموكلات بحبالى بنى إسرائيل مصافية لها ، فقالت (لها أم موسى) : لينفعنى حبك اليوم ، فعالجتها ، فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه ، وارتعش كل مفصل منها ، ودخل حبه قلبها ، ثم قالت : ما جئتك إلا لأقتل مولودك وأخبر فرعون ، ولكنى وجدت لابنك حباً ما وجدت مثله قط ، فاحفظيه » .

(٢) البرص : مرض جلدى يُحدث بُقعاً بيضاء فى الجلد تُشوِّهه ، وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة . [القاموس القويم ١/ ٦٤] .

ورأت فى الرؤيا أن شفاءها سيكون بشىء يخرج من البحر ، فتأخذ من ريقه ، وتدهن موضع البرص فيشفى ، فلما رأتْ موسى تذكرتْ رؤياها ، فأخذت من ريقه ودهنتْ جلدها ، فشُفِيت فى الحال فتشبثتْ به هى أيضاً .

فاجتمع لموسى محبة الزوجة ، ومحبة البنت ، وهما بالذات أصحاب الكلمة المسموعة لدى فرعون ، بحيث لا يرد لهما طلباً .

وفى انصياع فرعون لرغبة زوجته وابنته وضعفه أمامهما رغم ما يعلم من أمر الطفل دليلٌ على أن الزوجة والأولاد هما نقطة الضعف عند الرجل ، ووسيلة السيطرة على شهامته وحزمه ، والضغط على مراداته .

لذلك يطمئننا الحق ـ تبارك وتعالى ـ على نفسه ، فيقول سبحانه وتعالى ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا (٣)﴾ [الجن]

ذلك لأن الصاحبة غالباً ما تستميل زوجها بوسيلة أو بأخرى ، أما الولد فيدعو الأب إلى الجبْن والخضوع ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يوجد لديه مراكز قوى ، تضغط عليه فى أى شىء ، فهو سبحانه مُنزَّه عن كل نقص .

وحكوا فى دعابات أبى نواس أن أحدهم وسَّطه ليشفع له عند الخليفة هارون الرشيد ، فشفع له أبو نواس ، لكن الخليفة لم يُجِبْه إلى طلبه ، وانتظر الرجل دون جدوى ، ففكر فى وساطة أخرى ، واستشفع بآخر عند زبيدة زوجة الرشيد ، فلما كلَّمته أسرع إلى إجابة الرجل ، وهنا غضب أبو نواس وعاتب صاحبه الرشيد ، لكنه لم يهتم به ، فقال له اسمع إذن :

ليسَ الشَّفِيعُ الذِى يأتِيكَ مُؤتزراً مثْلَ الشَّفِيع الذِى يأتِيكَ عُرْيانا

ولهذه العناية الإلهية بموسى عليه السلام نلحظ أنه لما قال له ربه ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) ﴾ [طه] خاف موسى من هذه المهمة ، وكان اسم فرعون فى هذا الوقت يُلقى الرعب فى النفوس ، حتى أن موسى وهارون قالا ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ[1] عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) ﴾ [طه]

لذلك طلب موسى من ربه ما يُعينه على القيام بمهمته : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) ﴾ [طه] فماذا قال له ربه ؟ ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) ﴾ [طه]

أى : أُوتيت كل مسئولك ومطلوبك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) ﴾

اللَّقطُ واللُّقطة : أن تجد شيئاً بدون طلب له ، ومنه اللقيط ، وهو الطفل الرضيع تجده فى الطريق دون قَصْد منك ، أو بحث . وكذلك كان الأمر مع التابوت ، فقد جاء آلَ فرعون وهم جلوس لم يَسْعَوْا

---

(١) فرط على القوم : ظلمهم وجاوز الحد فى الحكم . قال تعالى عن موسى وهارون ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) ﴾ [طه] يظلمنا فرعون ويتعدَّى علينا . [القاموس القويم ٢/٧٧] .

إليه ، ولم يطلبوه ، فما انْ رأوه أخذوه ، لكن ما علة التقاطه ؟

الزوجة قالت ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ .. ۝٩﴾ [القصص] وقالت فى حيثية اخرى : ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. ۝٩﴾ [القصص] فلم يكن لهم بنون ، فأرادوه أخاً للبنت ، وأرادته البنت صيدلية علاج ، لكن هل ظلتْ هذه العلة قائمة ووجدت فعلاً ؟

لا ، إنما التقطوه لتقدير آخر ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. ۝٨﴾ [القصص] لا ليكون قرة عين ، فاللام هنا فى ﴿لِيَكُونَ .. ۝٨﴾ [القصص] لام العاقبة يعنى : كان يفكر لشىء ، فجاءت العاقبة بشىء آخر .

وفى هذا إشارة وبيان لغباء فرعون والطمس على بصيرته وهو الإله !! فبعد انْ حذَّره الكهنة ، وبعد الرُّؤْيا التى رآها وعلْمه بخطورة هذا المولود على مُلْكه وعلى حياته يرضى أنْ يُربِّيه فى بيته ، وهذا دليل صدْق قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. ۝٢٤﴾ [الأنفال]

ومعنى ﴿حَزَنًا .. ۝٨﴾ [القصص] يعنى حُزْن مثل : عَدَم وعُدْم ، وسَقَم وسُقْم ، وبَخَل وبُخْل ، فالمعنى يأتى بالصيغتين .

وقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝٨﴾ [القصص]

هم خاطئون ؛ لأن تصرفاتهم لا تتناسب مع ما عرفوه من أمر الوليد ، فلم يُقدِّروا المسائل ، ولم يستنبطوا العواقب ، وكان عليهم أن يشكُّوا فى أمر طفل جاء على هذه الحالة ، فلا بُدَّ أن أهله قصدوا نجاته من يد فرعون .

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

معنى ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ .. ﴿٩﴾﴾ [القصص] مادة قرَّ تقول : قرَّ بالمكان يعنى : أقام وثبت به ، ومنه قرور يعنى : ثبات ، وتأتى قرَّ بمعنى البرد الشديد ، ومنه قول الشاعر :

أَوْقِدْ فإنَّ الليْلَ لَيْلٌ قُرٌّ والرِّيحُ يَا غُلاَمُ رِيحٌ صرّ

إنْ جلبْتَ ضَيْفًا فأنتَ حُرّ

إذن : قرة العين إما بمعنى ثباتها وعدم حركتها ، وثبات العين واستقرارها إما يكون ثباتاً حسياً ، أو معنوياً ، والثبات المعنوى : أنْ تستقر العين على منظر أو شىء بحيث تكتفى وتقنع به ، ويغنيها عن التطلُّع لغيره .

ومنه قولهم : فلان ليس له تطلعات أخرى ، يعنى اكتفى بما عنده ، ومنه ما قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ .. ﴿١٣١﴾﴾ [طه]

لذلك يُسمُّون الشىء الجميل الذى يجذب النظر ، فلا ينظر إلى غيره (قيد النظر) يقول الشاعر :

سَمَّرْتُ عَيْنى فى القَمَرَ فَنَالَ منِّى مَنْ نَظَر

يَا ليْتَ لائمى عذرَ فحُسْنه قَيْد النَّظرْ

أما الثبات الحسى فيعنى : ثبات العين فى ذاتها بحيث لا ترى ، ومنه قول المراة للخليفة : أقرَّ الله عينك ، وأتم عليك نعمتك . تُوهِم

أنها تدعو له ، وهى فى الحقيقة تدعو عليه تقصد : أقرَّ الله عينك .

يعنى : سكَّنها وجمدها بالعمى ، وأتمَّ عليك نعمتك . وتمام الشىء بداية نقصه على حَدِّ قول الشاعر :

إذَا تَمَّ شَىء بَدَا نَقْصُه ترقَّبْ زَوَالاً إذاَ قيلَ تَمّ

أما القرُّ بمعنى البرد ، فمن المعلوم عن الحرارة أن من طبيعتها الاستطراق والانتشار فى المكان ، لكن حكمة الله خرقتْ هذه القاعدة فى حرارة جسم الإنسان ، حيث جعل لكل عضو فيه حرارته الخاصة ، فالجلد الخارجى تقف حرارته الطبيعية عند ٣٧° ، فى حين أن الكبد مثلاً لا يؤدى مهمته إلا عند ٤٠° .

أما العين فإذا زادتْ حرارتها عن ٩° تنصهر ، ويفقد الإنسان البصر ، والعجيب أنهما عضوان فى جسم واحد ، فهى آية من آيات الله فى الخلق ، لذلك حين ندعو لشخص نقول له : أقرَّ الله عينك يعنى : جعلها باردة سالمة ، ألاَ ترى أن الإنسان إذا غَضِب تسخنُ عينه ويحمرّ وجهه ؟

فالمعنى هنا ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۝٩﴾ [القصص] يعنى يكون نعمة ومتعة لنا ، نفرح به ونقنع ، فلا ننظر إلى غيره .

وفى موضع آخر يشرح لنا الحق سبحانه قُرَّة العين : ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝١٨ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ.. ۝١٩﴾ [الأحزاب]

فهؤلاء تدور أعينهم هنا وهناك كما نقول نحن : (فلان عينه لايجة) يعنى : لا تهدأ ، إما من خوف ، أو من قلق ، أو من اضطراب ، وهذا كله ينافى قُرَّة العين .

وقولها بعد ذلك ﴿لا تَقْتُلُوهُ.. ⑨﴾[القصص] تعنى : أنهم فعلاً همُّوا بقتله ، ففى بالهم إذن أن هلاك فرعون علىَ يدى هذا الطفل ، وهم على يقين من ذلك .

﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ⑨﴾[القصص] يعنى : لا يشعرون بنفعه لهم أو عدم نفعه ، وهل سيكون لهم ولداً أم عدواً ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا(1) إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ⑩﴾

الفؤاد : هو القلب ، لكن لا يُسمى القلب فؤاداً إلا إذا كانت فيه قضايا تحكم حركتك ، فالمعنى : أصبح فؤاد أم موسى ﴿فَارِغًا.. ⑩﴾

(١) جاء فى تأويل هذه الكلمة عدة تأويلات منها :
- أى : خالياً من ذكر كل شىء فى الدنيا إلا من ذكر موسى . قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وغيرهم .
- أى : فارغاً من الوحى إذ أوحى إليها حين أمرت أن تلقيه فى البحر ﴿وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي.. ⑦﴾ [القصص] والعهد الذى عهده إليها أن يرده ويجعله من المرسلين . قاله الحسن وابن إسحاق وابن زيد .
- أى : فارغاً من الغم والحزن لعلمها أنه لم يغرق . قاله أبو عبيدة والأخفش .
- أى : ذهب عقلها . قاله مالك . والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش .

قال النحاس : أصح هذه الأقوال الأول ، والذين قالوه أعلم بكتاب الله عز وجل ، فإذا كان فارغاً من كل شىء إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحى ، وقول أبى عبيدة : فارغاً من الغم غلط قبيح ، لأن بعده ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا .. ⑩﴾ [القصص] . [تفسير القرطبى ٥١٤١/٧] .

[القصص] أى : لا شىء فيه مما يضبط السلوك ، فحين ذهبتْ لترمى بالطفل وتذكرت فراقه وما سيتعرض له من أخطار كادت مشاعر الأمومة عندها أن تكشف سرَّها ، وكادت أنْ تسرقها هذه العاطفة .

﴿ إن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ .. ⑩ ﴾ [القصص] يعنى : تكشف أمره ﴿ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ⑩ ﴾ [القصص]

وسبق أنْ قُلْنا : إن الإنسان يدرك الأشياء بآلات الإدراك عنده ، ثم يتحول هذا الإدراك إلى وجدان وعاطفة ، ثم إلى نزوع وعمل ، ومثَّلْنا لذلك بالوردة التى تراها بعينيك ، ثم تعجب بها ، ثم تنزع إلى قطفها ، وعند النزوع تواجهك قضايا فى الفؤاد تقول لك : لا يحق لك ذلك ، فربما رفض صاحب البستان أو قاضاك ، فالوردة ليست ملْكاً لك .

وكذلك أم موسى ، كان فؤادها فارغاً من القضية التى تُطمئنها على وليدها ، بحيث لا تُفشى عواطفها هذا السر .

ومعنى ﴿ رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا .. ⑩ ﴾ [القصص] أى : ثبَّتْناها ليكون الأمر عندها عقيدة راسخة لا تطفو على سطح العاطفة ، ومن ذلك قوله تعالى عن أهل الكهف :﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ⑭ ﴾ [الكهف]

إذن : الربْط على القلب معناه الاحتفاظ بالقضايا التى تتدخل فى النزوع ، فإنْ كان لا يصح أن تفعل فلا تفعل ، وإنْ كان يصح أنْ تفعل فافعل ، فهذه القضايا الراسخة هى التى تضبط التصرفات ، وكان فؤاد أم موسى فارغاً منها .

لذلك نقول لمن يتكلم بالكلام الفارغ الذى لا معنى له : دَعْكَ من هذا الكلام الفارغ - أى : الذى لا معنى له ولا فائدةَ منه ، ومن ذلك قولهم : فلان عقله فارغ يعنى : من القضايا النافعة . وإلا فليس هناك شىء فارغ تماماً ، لابُدَّ أن يكون فيه شىء ، حتى لو كان الهواء .

ومنه قوله تعالى :﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [إبراهيم] ويقولون في العامية : (فلان معندوش ولا الهوا) ذلك لأن الهواء آخر ما يمكن أن يفرغ منه الشيء .

ومعنى : ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص] يعني : قاربت من فراغ فؤادها أن تقول إنه ولدي[1] ﴿ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص] لأن الإيمان هو الذي يجلب لك النفع ، ويمنعك من الضار ، وإنْ كان فيه شهوة عاجلة لك ، فمنعها إيمانُها من شهوة الأمومة في هذا الموقف ، ومن ممارسة العطف والحنان الطبيعيين في الأم ؛ لأن هذه شهوة عاجلة يتبعها ضرر كبير ، فإنْ أحسُّوا أنه ولدها قتلوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ[2] فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾

قُصِّيه : يعني : تتبعي أثره ، وراقبي سيره إلى أين ذهب ؟ وماذا فُعِل به ؟ وحين سمعت الأخت هذا الأمر سارعتْ إلى التنفيذ ؛ لذلك استخدم الفاء الدالة على التعقيب وسرعة الاستجابة ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ ﴿١١﴾ ﴾ [القصص] ولم يقُلْ : فقصَّته ؛ لأن البصر وإنْ كان بمعنى الرؤية إلا أنه يدل على العناية والاهتمام بالمرئي .

---

(١) قال ابن عباس : أي تصيح عند إلقائه : وا ابناه . وقال السدي : كادت تقول لما حملته لإرضاعه وحضانته : هو ابني . وقيل : إنه لما شب سمعت الناس يقولون موسى ابن فرعون ، فشق عليها وضاق صدرها ، وكادت تقول : هو ابني . [تفسير القرطبي ٥١٤٢/٧] .

(٢) القصُّ : اتباع الأثر . ويقال : خرج فلان قصصاً في أثر فلان وذلك إذا اقتص أثره . [لسان العرب ـ مادة : قصص] .

ومعنى : ﴿ عَن جُنُبٍ .. (١١) ﴾ [القصص] من ناحية بحيث لا يراها أحد ، ولا يشعر بتتبعها له ، واهتمامها به . ومن ذلك ما حكاه القرآن من قول السامرى :﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ .. (٩٦) ﴾ [طه] أى : رأى من حيث لا يطَّلِع أحد عليه .

ونلحظ هنا أن أخت موسى أخذتْ الأمر من أمها ﴿ قُصِّيهِ .. (١١) ﴾ [القصص] فقط ولم تلفت نظرها إلى هذا الاحتياط ﴿عَن جُنُبٍ .. (١١) ﴾ [القصص] مما يدلُّ على ذكاء الفتاة وقيامها بمهمتها على أكمل وجه ، وإن لم تُكلَّف بذلك ، وهذا من حكمة المرسَل الحريص على أداء رسالته على وجهها الصحيح .

وما أجملَ ما قاله الشاعر فى هذا المعنى :

إذَا كُنْتَ فى حَاجَةٍ مُرْسِلاً فأرسِلْ حكيماً ولاَ تُوصِهْ

وقوله تعالى : ﴿عَن جُنُبٍ .. (١١) ﴾ [القصص] يظن البعض أن جنب يعنى قريب منى ، وهذا غير صحيح ؛ لأن معنى الجنب ألاَّ تكون فى مواجهتى ، لذلك يقول تعالى :﴿ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ .. (٣٦) ﴾ [النساء] إذن : الجار الجنب مقابل الجار القريب ، فمعناه الجار البعيد .

فكأن الفتاة حين ذهبت لتتبع سَيْر التابوت أخذت مكاناً بعيداً منه ، حتى لا يفطن أحد إلى متابعتها له .

ومن ذلك قولنا : (فلان تجنَّبنى ، أو فلان واخد جنب منى) أى : يبتعد عنى ، إذن : البعض يفهم هذه الكلمة على عكس مدلولها .

ألاَ ترى لقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَاجْنُبْنِى وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ .. (٣٥) ﴾ [إبراهيم] وقوله تعالى : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) ﴾ [الحج] فالاجتناب يعنى : الابتعاد .

وفى تحريم الخمر قال تعالى :﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ[1] رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [المائدة] فطلع علينا مَنْ يقول : هذا ليس نصاً فى التحريم ، لأنه لم يقُلْ حرَّمْت عليكم ، فهى مجرد موعظة ونصيحة .

ونقول : لو فهمت معنى ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [المائدة] لعلمتَ أنها أقوى فى التحريم من حرمت عليكم ؛ لأن معنى حرَّمْت عليكم الخمر يعنى : لا تشربوها ، أما ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [المائدة] يعنى : ابتعدوا عنها كليةً شُرْباً أو بَيْعاً ، أو شراء ، أو نقلاً ، أو حتى الجلوس فى مجالسها .

ثم تتحدث الآيات بعد ذلك عن تمهيدات الأقدار للأقدار ، فتقول :

﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

التحريم هنا لا يعنى التحريم بالنسبة للمكلَّف : هذا حلال وهذا حرام ، إنما ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [القصص] يعنى : منعناه أنْ يرضع من المرضعات اللائى يأتونَ بهن لتتقلب عليه المراضع واحدة بعد الأخرى ، إلى أن تأتيه أمه .

و ﴿ الْمَرَاضِعَ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [القصص] جمع مُرضِع ، ونقول أيضاً : مرضعة ، ولكل من اللفظين مدلول ، على خلاف ما يظنه البعض أنهما بمعنى واحد .

---

(١) الأزلام : جمع زَلَم : وهى قطعة من الخشب تشبه السهم يقترعون بها ، فيقسمون بها الذبائح ، يُكتب على كل زلم عدد الأنصباء يأخذه من المقامرين مَنْ يخرج له وهو نوع من الميسر المحرَّم شرعاً . [القاموس القويم ١/ ٢٨٩] .

واقـرأ أول سـورة الحج : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ .. ② ﴾ [الحج]

المرضِع : التى من شـأنها أنْ تُرضع ، وصـالحة لهذه العملية ، لكن المرضعة التى تُرضع الآن فعلاً ، وعلى حِجْرها طفل يلتقم ثديها ، وفى موقف القيامة ستذهل هذه عن طفلها من هَوْل ما ترى ، إذن : فالتى تذهل هى المرضعة لا المرضع .

والضمير فى ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ .. ⑫ ﴾ [القصص] يعود على أخت موسى ؛ لأنها ما زالت فى مهمة تتبُّع الولد ، وقد سمعها هامان تقول ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ⑫ ﴾ [القصص] فقال لهـا : لابدَّ أنك من أهل هذا الولد ؟ وتعرفين قصَّته ، فقـالت : بل ناصحونَ للملك مخلصون له[1]. وفعلاً وافقوها على ما نصحتْ به ؛ لأنهم معذورون ، فالولد يأبى الرضاعة من الأخريات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ⑬ ﴾

وسبق أنْ وعدها الله :﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ .. ⑦ ﴾ [القصص] وها هو أوانُ تحقيق الوعد الأول ، وهو بُشْرى بتحقُّق الوعد الثانى ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ⑦ ﴾ [القصص] لكن هذا فى مستقبل الأيام ، وسوف يتحقق أيضاً .

---

(١) قال ابن عباس : فلما قالت ذلك أخذوها وشكُّوا فى أمرها وقالوا لها : وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت لهم : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى سرور الملك ورجاء منفعتهم [تفسير ابن كثير ٣/٣٨١] .

وقوله سبحانه : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ .. (١٣) ﴾ [القصص] يدل على أن الأسباب في يد المسبب سبحانه ، فنحن الذين رددناه ، لا أخته ولا فرعون ؛ لأننا نُسيِّر الأمور على وَفْق مرادنا ، ونُمهِّد لها الطريق حتى أننا نحول بين المرء وقلبه ، لينفذ قضاؤنا فيه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾ [القصص] يعنى : لا يعلمون أن وَعْد الله حق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

الأشُدّ : يعنى القوة واكتمال النمو ، وقد حدّدوا لذلك سنّ الثامنة عشرة إلى العشرين ﴿ وَاسْتَوَىٰ .. (١٤) ﴾ [القصص] الاستواء هو بلوغ العقل مرحلةَ النضج الفكرى ، فلما اكتملت لموسى - عليه السلام - قوة الجسم ونُضْج العقل ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٤) ﴾ [القصص]

ثم يقصُّ الحق سبحانه ، فيقول :

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾

أراد موسى - عليه السلام - أن يدخل القرية على حين غفلة من أهلها ، لأن بنى إسرائيل كانوا مُضطهدين ، وكان القبط فى بعض المدن ذاتَ الكثافة العددية منهم يُحرِّمون على بنى إسرائيل دخول قراهم ؛ لذلك اختار موسى وقت غفلة الناس ، لكنه لم يدخل فى الليل لأنه لا يهتدى إلى الطريق ، فقيل : دخلها وقت القيلولة والناس فى بيوتهم[1] .

﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِ .. (١٥) ﴾ [القصص] يعنى : من بنى إسرائيل ﴿ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ .. (١٥) ﴾ [القصص] يعنى : الأقباط ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ .. (١٥) ﴾ [القصص] أى : طلب منه العَوْن والنجدة ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ .. (١٥) ﴾ [القصص] يعنى : ضربه بجُمْع يديه ، فجاءت نهاية القبطى وأجله مع هذه الضربة ، لا أنه مات بها ، وكثيراً ما تحدُث هذه المسألة فى شجار مثلاً بين شخصين ، فيضرب أحدهما الآخر فيقع ميتاً ، وبتشريح جثته يتبين أنه مات بسبب آخر .

ومثال ذلك : حين تكلِّف شخصاً بقضاء حاجة لك ، أو تُوسِّطه فى أمر ما ، فيدخل عند المسئولين ويسعى إلى أنْ يقضى لك حاجتك فتقول : « فلان قضالى كذا وكذا » وهو فى الحقيقة ما قضى فى الأرض إلا بعد أن قضى الله فى السماء .

لكن الله تعالى أراد أنْ يُكرم الواسطة ، فجعل قضاءها موافقاً لقضائه سبحانه ، فنقول فى هذه الحالة : قضى الله المصلحة معه لا به .

كان القبط - كما قُلْنا - يكرهون بنى إسرائيل ويُعذِّبونهم ، فلما

---

(١) قاله سعيد بن جبير وقتادة . وقاله ابن عباس أيضاً ، وفى رواية عنه : هو بين العشاء والعتمة . [تفسير القرطبى ٥١٤٦/٧] .

قتلَ موسى القبطى زاد غضبهم وكراهيتهم لبنى إسرائيل ؛ لذلك أحسَّ موسى أن هذا العمل من الشيطان ، ليزيد هذه العداوة ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [القصص]

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾

يُعلمنا موسى - عليه السلام - أن الإنسان ساعة يقترف الذنب ، ويعتقد أنه أذنب لا يكابر ، إنما ينبغى عليه أنْ يعترف بذنبه وظلمه لنفسه ، ثم يبادر بالتوبة والاستغفار ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي .. ﴿١٦﴾ ﴾ [القصص] يعنى : يا ربِّ حكْمك هو الحقّ ، وأنا الظالم المعترف بظلمه .

ومن هنا كان الفَرْق بين معصية آدم عليه السلام ومعصية إبليس : آدم عصى واعترف بذنبه وأقرَّ به ، فقال ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف] فقبل الله منه وغفر له . أما إبليس فعلَّل عدم سجوده : ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾ [الإسراء] وقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [ص] فردَّ الحكم على الله .

لذلك نقول لمن يُفتى بغير ما شرع الله فيُحلِّل الحرام لسبب ما ، نقول له : احذر أنْ تردَّ على الله حكمه ؛ لأنك إنْ فعلتَ فأنت كإبليس حين ردَّ على الله حُكمه ، لكن افْتِ بالحكم الصحيح ، ثم تعلَّل بأن الظروف لا تساعد على تطبيقه ، فعلى الأقل تحتفظ بإيمانك ، والمعصية تمحوها التوبة والاستغفار ، أما الكفر فلا حيلةَ معه .

فلما استغفر موسى ربه غفر له ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ [القصص] يُعرف الذنب ، ثم يغفره رحمة بنا ؛ لأن الإنسان حين تصيبه غفلة

فيقع فى المعصيـة إذا لم يجد باباً للتوبة وللرجوع يئس وفقد الأمل ، وتمادى فى معصيته ونسميه (فاقد) عنده سُعار للجريمة ، ولا مانع لديه من ارتكاب كل الذنوب .

إذن : فمشروعية التوبة والاستغفار تعطى المؤمن أملاً فى أنه لن يُطرَدَ من رحمة الله ، لأن رحمة الله واسعة تسَع كل ذنوبه مهما كثُرتْ .

لذلك يقول تعالى فى مشروعية التوبة ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة] والمعنى : شرع لهم التوبة ، وحثَّهم عليها ليتوبوا بالفعل فيقبل منهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ[1] فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

قوله : ﴿ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [القصص] يعنى : بالمغفرة وعذرتنى وتُبْت علىَّ ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [القصص] أى : عهد الله علىَّ ألاَّ أكون مُعيناً للمجرمين[2] .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) أى : من المعرفة والحكمة والتوحيد . قاله القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٤٨) وقال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٨٢) : « أى بما جعلت لى من الجاه والعز والنعمة » .

(٢) أراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وانتظامه فى جملته ، وتكثير سواده ، حين كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد ، وكان يُسمَّى ابن فرعون ، وإما بمظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم كمظاهرة الإسرائيلى المؤدية إلى قتل الذى لم يحل له قتله . [القرطبى فى تفسيره ٧/٥١٤٨] .

﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾

أى : بعد أن قتل موسى القبطيَّ صار خائفاً منهم ﴿ يَتَرَقَّبُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [القصص]

ينظر فى وجوه الناس ، يرقب انفعالاتهم نحوه ، فربما جاءوا ليأخذوه[1] ، كما يقولون : يكاد المريب أنْ يقول : خذونى ، فلو جلس قوم فى مكان ، ثم فاجأهم رجال الشرطة تراهم مطمئنين لا يخافون من شىء ، أما المجرم فيفر هارباً .

ومن ذلك ما يقوله أهل الريف : (اللى على راسه بطحة يحسس عليها)

وهو على هذه الحال من الخوف والترقُّب إذ بالإسرائيلى الذى استغاث به بالأمس ﴿ يَسْتَصْرِخُهُ .. ﴿١٨﴾ ﴾[القصص] استصرخ يعنى : صرخ ، ونادى على مَنْ يُخلِّصه ، وهو انفعال للاستنجاد للخلاص من مأزق ، ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن إبليس﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ.. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

وسبق أنْ تكلَّمنا فى همزة الإزالة نقول : صرخ فلان يعنى استنجد بأحد فأصرخه يعنى : أزال سبب صراخه ، فمعنى الآية : أنا لا أزيل صراخكم ، ولا أنتم تزيلون صراخى .

عندها قال موسى عليه السلام لصاحبه الذى أوقعه فى هذه

---

(١) قال سعيد بن جبير : يتلفت من الخوف . وقيل : ينتظر الطلب ، وينتظر ما يتحدث الناس به . [تفسير القرطبى ٧/٥١٥٠] وانظر الدر المنثور للسيوطى (٦/٤٠٠) .

الورطة بالأمس ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾[القصص] تريد أنْ تُغويَني بأنْ أفعل كما فعلت بالأمس ، وما كان موسى - عليه السلام - ليقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه ، فلا يُلْدَغ المؤمن من جُحْر مرتين[1] .

﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ[2] يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى :﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ..﴿١٩﴾ ﴾[القصص] يعني : أن موسى حَنَّ مرة أخرى للذى من شيعته وهو الإسرائيلى وناصره ، ولكن الرجل القبطى هذه المرة واجهه ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ.. ﴿١٩﴾ ﴾ [القصص] فهو يعرف ما حدث من موسى ، وما داموا قد عرفوا أنه القاتل ، فلا بُدَّ لهم أنْ يطلبوه ، وأن ينتقموا منه .

وقوله تعالى :﴿ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [القصص] إنْ هنا نافية يعنى : ما تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض ، فقد قتلتَ نفساً بالأمس ، وتريد أنْ تقتلنى اليوم .

إذن : عرفوا أن موسى هو القاتل ، وهناك ولا بُدَّ مَنْ يسعى

---

(١) نص حديث لرسول الله ﷺ ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١٣٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٩٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) القائل هنا هو : الإسرائيلى الذى من شيعة موسى والذى كان قد استصرخه بالأمس . قال سعيد بن جبير : أراد موسى أن يبطش بالقبطى فتوهم الإسرائيلى أنه يريده ، لأنه أغلظ له فى القول . فقال : ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [القصص] فسمع القبطى الكلام فأفشاه . [تفسير القرطبى ٧/٥١٥١] .

للإمساك به ، وفى هذا الموقف لحقه الرجل المؤمن :

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

هو الرجل المؤمن من آل فـرعون ، جاء لينصح مـوسى بالخروج والهرب قبل أنْ يُمسكوا به فيقتلوه[1] .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

لأنهم يضطهدوننا ويعذبوننا من غير ما جريرة ، فما بالك بعد أنْ وجدوا فرصة وذريعة ليزدادوا ظلماً لنا ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾

معنى ﴿ تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾[القصص] يعنى : ناحيـتها ، وأراد أنْ يهرب من مـصر كلها ، ولم يكُنْ يقـصد مدين بالذات ، إنمـا سار فى طريق صادف أنْ يؤدى إلى مدين بلد شعيب عليه السلام .

ولو كانت مَدْينُ مقصودة لـه لما قال بعد توجهه : ﴿ عَسَىٰ رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾[القصص] فموسى حينما خـرج من مصر خائفاً

---

(١) قال أكثر أهل التفسير : هذا الرجل هو حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم فرعون ، ذكره الثعلبى . وقيل : طالوت ذكره السهيلى . وقال المهدوى عن قتادة : اسمه شمعون مؤمن آل فرعون [تفسير القرطبى ٥١٥٢/٧] .

يريد الهرب لم يفكر فى وجهة معينة ، فالذى يُهمه أنْ يخرج من هذه البلدة ، وينجو بنفسه .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ(١) قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) ﴾

عرض القرآن الكريم هذه القصة فى إيجاز بليغ ، ومع إيجازها فقد أوضحتْ مهمة المرأة فى مجتمعها ، ودور الرجل بالنسبة للمرأة ، والضرورة التى تُلجىء المرأة للخروج للعمل .

معنى ﴿ وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ .. (٢٣) ﴾ [القصص] يعنى : جاء عند الماء ، ولا يقتضى الورود أن يكون شَرِب منه . والورود بهذا المعنى حلَّ لنا الإشكال فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. (٧١) ﴾ [مريم] فليس المعنى دخول النار ، ومباشرة حرِّها ، إنما ذاهبون إليها ، ونراها جميعنا - إذن : وردْنا العَيْن . يعنى : جئنا عندها ورأيناها ، لكن الشرب منها ، شىء آخر .

﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ .. (٢٣) ﴾ [القصص] أى : على الماء ﴿ أُمَّةً .. (٢٣) ﴾ [القصص] جماعة ﴿ يَسْقُونَ .. (٢٣) ﴾ [القصص] أى : مواشيهم ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ .. (٢٣) ﴾ [القصص] يعنى : بعيداً عن الماء ﴿ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ .. (٢٣) ﴾ [القصص] أى : تكفّان الغنم وتمنعانها من الشُّرْب لكثرة

---

(١) أى : تسوقان أغنامهما ، أو تدفعان الغنم عن التفرق أو عن الزحام . [القاموس القويم ١/٢٤٧] .

الزحام على الماء ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا .. (٢٣) ﴾[القصص] أى : ما شأنكما ؟

وفى الاستفهام هنا معنى التعجُّب يعنى : لماذا تمنعان الغنم أنْ تشربَ ، وما أتيتُما إلا للسُّقْيا ؟

﴿ قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) ﴾ [القصص]

وقولهما ﴿ حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ .. (٢٣) ﴾ [القصص] يعنى : ينصرفوا عن الماء ، فصدر مقابل ورد ، فالآتى للماء : وارد ، والمنصرف عنه : صادر . نقول : صدر يَصْدُر أى : بذاته ، وأصدر يُصْدِر أى : غيره .

فالمعنى : لا نَسْقى حتى يسقى الناس وينصرفوا . و ﴿ الرِّعَاءُ .. (٢٣) ﴾ [القصص] جمع رَاعٍ . ثم يذكران العلَّة فى خروجهما لسقْى الغنم ومباشرة عمل الرجال ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) ﴾ [القصص]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾

معنا ـ إذن ـ فى هذه القصة أحكام ثلاثة ﴿ لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ .. (٢٣) ﴾ [القصص] أعطَتْ حكماً و ﴿ أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) ﴾ [القصص] أعطتْ حُكْماً و ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا .. (٢٤) ﴾ [القصص] أعطت حكماً ثالثاً .

وهذه الأحكام الثلاثة تُنظم للمجتمع المسلم مسألة عمل المرأة ، وما يجب علينا حينما تُضطر المرأة للعمل ، فمن الحكم الأول نعلم أن سَقْى الأنعام من عمل الرجال ، ومن الحكم الثانى نعلم أن المرأة لا تخرج للعمل إلا للضرورة ، ولا تؤدى مهمة الرجل إلا إذا عجز الرجل عن أداء هذه المهمة ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) ﴾ [القصص]

أما الحكم الثالث فيعلم المجتمع المسلم أو حتى الإنسانى إذا رأى المرأة قد خرجت للعمل فلابد أنه ليس لها رجل يقوم بهذه المهمة ، فعليه أن يساعدها وأنْ يُيسِّر لها مهمتها .

وأذكر أننى حينما سافرت إلى السعودية سنة ١٩٥٠ ركبتُ مع أحد الزملاء سيارته ، وفى الطريق رأيته نزل من سيارته ، وذهب إلى أحد المنازل ، وكان أمامه طاولة من الخشب مُغطَّاة بقطعة من القماش ، فأخذها ووضعها فى السيارة ، ثم سرْنا فسألتُه عما يفعل ، فقال : من عاداتنا إذا رأيتُ مثل هذه الطاولة على باب البيت ، فهى تعنى أن صاحب البيت غير موجود ، وأن ربة البيت قد أعدَّتْ العجين ، وتريد مَنْ يخبزه فإذا مَرَّ أحدنا أخذه فخبزه ، ثم أعاد الطاولة إلى مكانها .

وفى قوله تعالى : ﴿لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ .. (٢٣)﴾ [القصص] إشارة إلى أن المرأة إذا اضطرتْ للخروج للعمل ، وتوفرتْ لها هذه الضرورة عليها أنْ تأخذَ الضرورة بقدرها ، فلا تختلط بالرجال ، وأنْ تعزل نفسها عن مزاحمتهم والاحتكاك بهم ، وليس معنى أن الضرورة أخرجتْ المرأة لتقوم بعمل الرجال أنها أصبحتْ مثلهم ، فتبيح لنفسها الاختلاط بهم .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص] فكان موسى ـ عليه السلام ـ طوال رحلته إلى مَدْين مسافراً بلا زاد حتى أجهده الجوع ، وأصابه الهزال حتى صار جِلْداً على عظم ، وأكل من بقل الأرض[1] ، وبعد أن سقى

(١) قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر وكان حافياً ، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه وجلس فى الظل وهو صفوة الله من خلقه وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع وإن خضرة البقل لتُرى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق تمرة . [تفسير ابن كثير ٣/٣٨٣] .

للمراتين تولَّى إلى ظلٍّ شجرة ليستريح ، وعندها لَهَج بهذا الدعاء ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾ [القصص]

كأن الحق - سبحانه وتعالى - يريد من الضعيف أنْ يتجه إلى المعونة ، وحين يتجه إليها فلن يفعل هو ، إنما سيفعل الله له ؛ لذلك نلحظ أن موسى فى ندائه قال ﴿ رَبِّ .. (٢٤) ﴾ [القصص] واختار صفة الربوبية ، ولم يقُلْ يا الله ؛ لأن الألوهية تقتضى معبوداً ، له أوامر ونواه ، أمّا الرب فهو المتولِّى للتربية والرعاية ، فقال : يا رب أنا عبدكَ ، وقد جئتَ بى إلى هذا الكون ، وأنا جائع أريد أن آكل .

ومعنى ﴿ أَنزَلْتَ .. (٢٤) ﴾ [القصص] أن الخير منك فى الحقيقة ، وإنْ جاءنى على يد عبد مثلى ؛ ذلك لأنك حين تُسلسل أىَّ خير فى الدنيا لا بُدَّ أن ينتهى إلى الله المنعم الأول ، وضربنا لذلك مثلاً برغيف العيش الذى تأكله ، بدايته نبتة لولا عناية الله ما نبتتْ .

لذلك يقولون فى (الحمد لله) صيغة العموم فى العموم ، حتى إنْ حمدتَ إنساناً على جميل أسداه إليك ، فأنت فى الحقيقة تحمد الله حيث ينتهى إليه كُلُّ جميل .

إذن : فحمْد الناس من باطن حمد الله ، والحمد بكل صوره وبكل توجهاته ، حتى ولو كانت الأسباب عائدة على الله تعالى ، حتى يقول بعضهم : لا تحمد الله حتى تحمد الناس[1] .

ذلك لأن أَزِمّة الأمور بيده تعالى ، وإنْ جعل الأسباب فى أيدينا ، وهو سبحانه القادر وحده على تعطيل الأسباب ، وأذكر أن بعض

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٢٥٨) ، والترمذى فى سننه (١٩٥٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من لا يشكر الناس لا يشكر الله » قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

الدول (باكستان) أعلنت عن وفرة عندهم فى محصول القمح ، وأنها ستكفيهم وتفيض عنهم للتصدير ، وقبل أنْ ينضج المحصول أصابته جائحة فأهلكته . فاختلفت كل حساباتهم ، حتى استوردوا القمح فى هذا العام .

هذا معنى ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾ [القصص] فالخير منك يا رب ، وإنْ سُقْته إلىَّ على يد عبد من عبيدك ، وفقرى لا يكون إلا إليك ، وسؤالى لا يكون إلا لك .

ولم يكَدْ موسى ـ عليه السلام ـ ينتهى من مناجاته لربه حتى جاءه الفرج :

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ(١) قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٥) ﴾

قوله : ﴿ إِحْدَاهُمَا .. (٢٥) ﴾ [القصص] أى : إحدى المرأتين ﴿ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ .. (٢٥) ﴾ [القصص] يعني : : مُستحية فى مجيئها ، مُستحية فى مِشْيتها ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا .. (٢٥) ﴾ [القصص]

لما جاءتْه هذه الدعوة لم يتردد فى قبولها ، وانتهز هذه الفرصة ،

(١) قال عمرو بن ميمون : لم تكن سلفعاً من النساء ، خراجة ولاجة . وقيل : جاءته ساترة وجهها بكُم درعها . قاله عمر بن الخطاب . [تفسير القرطبى ٥١٥٧/٧] . والمرأة السلفع : السليطة الجريئة . والسلفعة : البذية الفحاشة القليلة الحياء . [لسان العرب ـ مادة : سلفع] .

فهو يعلم أنها استجابة سريعة من ربه حين دعاه ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص] وهى سبب من الأسباب يَمدُّه الله له ، وما كان له أنْ يردَّ أسباب الله ، فلم يتأبَّ ، ولم يرفض دعوة الأب .

ولم يذكر لنا السياق هنا كيف سار موسى والفتاة إلى أبيها ، لكن يُرْوَى أنهما سارا فى وقت تهبُّ فيه الرياح من خلفها ، وكانت الفتاة فى الأمام لتدلّه على الطريق ، فلما ضمَّ الهواء ملابسها ، فوصفت عجيزتها ، قال لها : يا هذه ، سيرى خلفى ودُلِّينى على الطريق[1] .

وهذا أدب آخر من آداب النبوة .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ ..(٢٥)﴾ [القصص] أى : سيدنا شعيب عليه السلام ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ .. (٢٥)﴾ [القصص] أى : ما كان بينه وبين القبطى ﴿قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥)﴾ [القصص] يعنى : طمأنه وهدَّأ من رَوْعه .

﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ (٢٦) ﴾

وهذا حكم رابع نستفيده من هذه الآيات ، نأخذه من قول الفتاة ﴿يَـٰأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ .. (٢٦)﴾ [القصص]

وفى قولها دليل على أنها لم تعشق الخروج للعمل ، إنما تطلب مَنْ يقوم به بدلاً عنها ؛ لتقرَّ فى بيتها .

ثم تذكر البنت حيثيات هذا العرض الذى عرضته على أبيها ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦)﴾ [القصص] وهذان شرطان لابُدَّ

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٠٥) وعزاه للفريابى وابن أبى شيبة فى المصنف وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب .

منهما في الأجير : قوة على العمل ، وأمانة في الأداء . وقد تسأل : ومن أين عرفتْ البنت أنه قوى أمين ؟

قالوا : لأنه لما ذهب ليسقى لهما لم يزاحم الناس ، وإنما مال إلى ناحية أخرى وجد بها عُشْباً عرف أنه لا ينبت إلا عند ماء ، وفي هذا المكان أزاح حجراً كبيراً لا يقدر على إزاحته إلا عدة رجال ، ثم سقى لهما من تحت هذا الحجر ، وعرفتْ أنه أمين حينما رفض أن تسير أمامه ، حتى لا تظهر له مفاتن جسمها .

ويأتي دور الأب ، وما ينبغي له من الحزم في مثل هذه المواقف ، فالرجل سيكون أجيراً عنده ، وفي بيته بنتان ، سيتردد عليهما ذهاباً وإياباً ، ليلَ نهار ، والحكمة تقتضى إيجاد علاقة شرعية لوجوده في بيته ؛ لذلك رأى أن يُزوِّجه إحداهما ليخلقَ وَضْعاً ، يستريح فيه الجميع :

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ[(١)] عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧ ﴾

في الأمثال نقول : (اخطب لبنتك ولا تخطب لابنك) ذلك لأن

(١) تزوج موسى عليه السلام الصغرى منهما ، فعن أبي هريرة قال ، قال ﷺ : « قال لي جبريل : يا محمد ، إن سألك اليهود أيّ الأجلين قضى موسى ؟ فقل : أوفاهما ، وإن سألوك أيهما تزوج ؟ فقل : الصغرى منهما » أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٤١٠) وعزاه لابن مردويه . وأورد نحوه أيضاً من حديث أبي ذر وعزاه للبزار وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وابن مردويه بسند ضعيف .

كبرياء الأب يمنعه أنْ يعرض ابنته على شاب فيه كلُّ صفات الزوج الصالح ـ وإنْ كان القلة يفعلون ذلك ـ وهذه الحكمة من الأب فى أمر زواج ابنته تحلُّ لنا إشكالات كثيرة ، فكثيراً ما نجد الشاب سويَّ الدين ، سويَّ الأخلاق ، لكن مركزه الاجتماعي ـ كما نقول ـ دون مستوى البنت وأهلها ، فيتهيب أنْ يتقدّم لها فيُرفض .

وفى هذه الحالة على الأب أنْ يُجرِّىء الشاب على التقدم ، وأن يُلمح له بالقبول إن تقدَّم لابنته ، كأن يقول له : لماذا لم تتزوج يا ولد حتى الآن ، وألف بنت تتمناك ؟ أو غير ذلك من عبارات التشجيع .

أما أن نرتقي إلى مستوى التصريح كسيدنا شعيب ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ .. (٢٧)﴾ [القصص] فهذا شيء آخر ، وأدب عَالٍ من العارض ، ومن المعروض عليه ، وفى مجتمعاتنا كثير من الشّباب والفتيات ينتظرون هذه الجرأة وهذا التشجيع من أولياء أمور البنات .

ألاَ ترى أن الله تعالى أباح لنا أن نُعرِّض بالزواج لمن تُوفِّي عنها زوجها ، قال تعالى : ﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ.. (٢٣٥)﴾ [البقرة] ولا تخفى علينا عبارات التلميح التى تلفت نظر المرأة للزواج .

وقوله : ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ .. (٢٧)﴾ [القصص] أى : تكون أجيراً عندى ثمانى سنوات ، وهذا مَهْر الفتاة ، أراد به أن يُغلى من قيمة ابنته ، حتى لا يقول زوجها : إنها رخيصة ، أو أن أباها رماها عليه .

﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن

شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)﴾ [القصص] يعنى : حينما تعايشنى ستجدنى طيبَ المعاملة ، وستعلم أنك مُوفّق فى هذا النسب ، بل وستزيد هذه المدة محبة فى البقاء معنا .

فأجاب موسى عليه السلام :

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)﴾

أى : أنا بالخيار ، أقضى ثمانية ، أم عشرة ﴿فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)﴾ [القصص]

وقد أخذ العلماء حُكْماً جديداً من هذه الآية ، وهو أن المطلوب عند عقد الزواج تسمية المهر ، ولا يشترط قبضه عند العقد ، فلك أنْ تُؤجله كله وتجعله مُؤخّراً ، أو تُؤجل بعضه ، وتدفع بعضه .

والمهر ثمن بُضْع المرأة ، بحيث إذا ماتت ذهب إلى تركتها ، وإذا مات الزوج يُؤخَذ من تركته ، بدليل أن شعيباً عليه السلام استأجر موسى ثمانى أو عشر سنين ، وجعلها مهراً لابنته .

ونلحظ أن السياق هنا لم يذكر شيئاً عن الطعام ، مع أن موسى عليه السلام كان جائعاً ودعا ربه : ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص]

لكن يروى أهل السير أن شعيباً عليه السلام قدّم لموسى طعاماً ، وطلب منه أن يأكل ، فقال : أستغفر الله ، يعنى : أنْ آكل من طعام. كأنه مقابل ما سقى للبنتين الغنم ؛ لذلك قال : إنَّا أهل بيت لا نبيع عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً ، فقال شعيب : كُلْ ، فإنَّا أهل بيت

نطعم الطعام ونقرى الضيف ، قال : الآن نأكل[1]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] أى : الذى اتفق عليه مع شعيب عليه السلام ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] قلنا : إن الأهل تُطلق على الزوجة ، وفى لغتنا العامية نقول : معى أهلى أو الجماعة ونقصد الزوجة ؛ ذلك لأن الزوجة تقضى لزوجها من المصالح ما لا يقدر عليه إلا جماعة ، بل وتزيد على الجماعة بشىء خاص لا يؤديه عنها غيرها ، وهو مسألة المعاشرة ؛ لذلك حلَّتْ محلَّ جماعة .

ومعنى ﴿ آنَسَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] يعنى : أبصر ورأى أو أحسَّ بشىء من الأنْس ، ﴿ الطُّورِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] اسم الجبل ﴿ قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] انتظروا ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] يخبرها بوجود النار ، وهذا يعنى أنها لم تَرَها كما رآها هو .

وهذا دليل على أنها ليست ناراً مادية يُوقدها بشر ، وإلا لاستوى أهله معه فى رؤيتها ، فهذا - إذن - أمر خاص به ﴿ لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] يعنى : رجاءَ أنْ أجد مَنْ يخبرنا عن الطريق ، ويهدينا إلى أين نتوجه ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص]

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٠٧) عن أبى حازم وعزاه لابن عساكر . بنحوه .

﴿قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩)﴾ [القصص]

الجذوة : قطعة من نار متوهجة ليس لها لَهَب ، ومعنى تصطلون أى : تستدفئون بها ، وفى موضع آخر قال ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ ..(٧)﴾ [النمل] يعنى : شعلة لها لسان ولهب ، فمأربهم - إذن - على هذه الحال أمران : مَنْ يخبرهم بالطريق حيث تاهَتْ بهم الخُطَى فى مكان لا يعرفونه ، ثم جذوة نار يستدفئون بها من البرد .

وفى موضع آخر(١) لهذه القصة لم يذكر قوله تعالى : ﴿امْكُثُوا ..(٢٩)﴾ [القصص] وهذا من المآخذ التى يأخذها السطحيون على أسلوب القرآن ، لكن بتأمل الموقف نرى أنه أخذ صورة المحاورة بين موسى وأهله .

فزوجة وزوجها ضَمَّهما الظلام فى مكان موحش ، لا يعرفون به شيئاً ، ولا يهتدون إلى طريق ، والجو شديد البرودة ، فمن الطبيعى حين يقول لها : إنى رأيت ناراً سأذهب لأقتبس منها أن تقول له : كيف تتركنى وحدى فى هذا المكان ؟ فربما تضلّ أنت أو أضلّ أنا ، فيقول لها ﴿امْكُثُوا .. (٢٩)﴾ [القصص] إذن : لابُدَّ أن هذه العبارة تكررتْ على صيغتين كما حكاها القرآن الكريم .

كذلك فى : ﴿سَآتِيكُم .. (٧)﴾ [النمل] وفى مرة أخرى ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم .. (٢٩)﴾ [القصص] قالوا : لأنه لما رأى النار قال ﴿سَآتِيكُم .. (٧)﴾ [النمل] على وجه اليقين ، لكن لما راجع نفسه ، فربما طفئت قبل أن يصل إليها استدرك ، فقال ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم .. (٢٩)﴾ [القصص] على سبيل رجاء غير المتيقن .

---

(١) وذلك فى سورة النمل . قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧)﴾ [النمل]

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أنْ يعطينا خريطة تفصيلية للمكان ، فهناك مَنْ قال : من جانب الطور ، والجانب الأيمن من الطور . وهنا:﴿ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ . . ﴿٣٠﴾ ﴾[القصص]

ومضمون النداء : ﴿ أَن يَـٰمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القصص] سمع موسى هذا النداء يأتيه من كل نواحيه ، وينساب في كل اتجاه ؛ لأن الله تعالى لا تحيزه جهة ؛ لذلك لا تقُلْ : من أين يأتي الصوت ؟ وليس له إلْفٌ بأن يخاطبه الرب ـ تبارك وتعالى .

ومع النداء يرى النار تشتعل في فرع من الشجرة ، النار تزداد اشتعالاً ، والشجرة تزداد خضرة ، فلا النار تحرق الشجرة بحرارتها ، ولا الشجرة تُطفيء النار برطوبتها[1] . فهي ـ إذن ـ مسألة عجيبة يحَارُ فيها الفكر ، فَهل يستقبل كُلٌّ هذه العجائب بسهولة أم لا بُدَّ له من مراجعة ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي بكر الثقفي قال : أتى موسى عليه السلام الشجرة ليلاً وهي خضراء والنار تتردد فيها ، فذهب يتناول النار فمالت عنه فذعر وفزع .. (أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/٤١٣) .

وفى موضع آخر يسأله ربه ليُؤنسه : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [طه] وقُلْنا : إن موسى ـ عليه السلام ـ أطال فى هذا الموقف ليطيل مُدَّة الأُنْس بربه ، فلما أحسَّ أنه أسرف وأطال قال : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه] فأطنب أولاً ليزداد أُنْسه بربه ، ثم أوجز ليظل أدبه مع ربه .

أما هنا فيأتى الأمر مباشرة ليُوظِّف العصا : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [القصص]

وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [القصص] لأنه رأى عجيبة أخرى أعجب مما سبق فلو سلَّمنا باشتعال النار فى خُضْرة الشجرة ، فكيف نُسلِّم بانقلاب العصا جاناً يسعى ويتحرك ؟

وكان من الممكن أنْ تنقلبَ العصا الجافة إلى شجرة خضراء من جنس العصا ، وتكون أيضاً معجزة ، أما أنْ تتحول إلى جنس آخر ، وتتعدَّى النباتية إلى الحيوانية والحيوانية المتحركة المخيفة ، فهذا شىء عجيب غير مألوف .

وهنا كلام محذوف ؛ لأن القرآن الكريم مبنيٌّ على الإيجاز ، فالتقدير : فألقى موسى عصاه ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا .. ﴿٣١﴾ ﴾ [القصص] ذلك ليترك للعقل فرصة الاستنباط ، ويُحرِّك الذِّهْن لمتابعة الأحداث .

والجانُّ : قُلْنا هو فرخ الحية ، وقد صُوِّرَتْ العصا فى هذه القصة بأنها : جانٌّ ، وثعبان ، وحية . وهى صور ثلاثة للشىء الواحد ، فهى فى خِفَّتها جانٌّ ، وفى طولها ثعبان ، وفى غِلَظها حية .

ومعنى ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا .. ﴿٣١﴾ ﴾ [القصص] يعنى : انصرف خائفاً ،

﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ..(٣١) ﴾ [القصص] لم يلتفت إلى الوراء ، فناداه ربه : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ .. (٣١) ﴾ [القصص] يعنى : ارجع ولا تخَفْ من شيء ، ثم يعطيه القضية التى يجب أن تصاحبه فى كل تحركاته فى دعوته ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) ﴾ [القصص] فلم يقل ارجع فسوف أؤمنك فى هذا الموقف إنما ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) ﴾ [القصص]

يعنى : هى قضية مستمرة ملازمة لك ؛ لأنك فى مَعيّة الله ، ومَنْ كان فى معية الله لا يخاف ، وإلا لو خِفْتَ الآن ، فماذا ستفعل أمام فرعون ؟

وهكذا يعطى الحق - سبحانه وتعالى - لموسى - عليه السلام - دُرْبة معه سبحانه ، ودُرْبة حتى يواجه فرعون وسَحرته والملأ جميعاً دون خوف ولا وَجَل ، وليكون على ثقة من نصر الله وتأييده فى جولته الأخيرة أمام فرعون .

وقد انتفع موسى - عليه السلام - بكل هذه المواقف ، وتعلَّم من هذه العجائب التى رآها فزادته ثقةً وثباتاً ؛ لذلك لما كاد فرعون أنْ يلحقَ بجنوده موسى وقومه ، وقالوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء] استعاد موسى عليه السلام قضية ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) ﴾ [القصص] فقال بملء فيه : ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

فحيثية الثقة عند موسى - عليه السلام - هى معيّة الله له ، قالها موسى ، ويمكن أنْ تكذب فى وقتها حالاً ، فهاهم البحر من أمامهم ، وفرعون من خلفهم ، لكنها ثقة مَنْ أمَّنه الله ، وجعله فى معيَّته وحِفْظه .

وهذا الأمن قد كفله الله تعالى لجميع أنبيائه ورسله ، فقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

وقال : ﴿ يَـٰمُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ⦗١٠⦘ ﴾[النمل]

وقد قُصَّ هذا كله على نبينا محمد ﷺ ، فانتفع به ووثق فى نصر الله ، فلما قال له الصِّديق وهما فى الغار : يا رسول الله ، لو نظر أحدهم تحت قدميْه لرآنا ، قال ﷺ : « يا أبا بكر ، ما ظنُّك باثنين ، الله ثالثهما »[1] .

وحكى القرآن قوله ﷺ لصاحبه : ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا .. ⦗٤٠⦘ ﴾ [التوبة] وما دُمْنا فى معيَّة مَنْ لا تدركه الأبصار ، فلن تدركنا الأبصار .

ثم ينقل الحق - تبارك - وتعالى - موسى عليه السلام إلى آية أخرى تضاف إلى معجزاته :

﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ
وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ
بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ
كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ⦗٣٢⦘ ﴾

معنى ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ ..⦗٣٢⦘ ﴾ [القصص] يعنى : أدخلها ﴿ فِي جَيْبِكَ .. ⦗٣٢⦘ ﴾ [القصص] الجيب : فتحة الثوب من أعلى ، وسَمَّوْها جَيْباً ؛ لأنهم كانوا يجعلون الجيوب مكان حفْظ الأموال فى داخل الثياب حتى لا تُسرق ، فكان الواحد يُدخِل يده فى قبَّة الثوب لتصل إلى جيبه .

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

ونلحظ هنا دقة الأداء القرآنى ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ .. (٣٢)﴾ [القصص] ولم يقُلْ بصيغة الأمر : وأخرجها كما قال ﴿اسْلُكْ يَدَكَ .. (٣٢)﴾ [القصص] وكأن العملية عملية آلية منضبطة بدقة ، فبمجرد أن يُدخلها تخرج هى بيضاء ، فكأن إرادته على جوارحه كانت فى الإدخال ، أما فى الإخراج فهى لقدرة الله .

وكلمة ﴿بَيْضَاءَ .. (٣٢)﴾ [القصص] أى : مُنوّرة دون مرض ، والبياض لا بُدّ أن يكون عجيباً فى موسى ـ عليه السلام ـ لأنه كان أسمر اللون ؛ لذلك قال ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (٣٢)﴾ [القصص] حتى لا يظنوا به بَرصاً مثلاً ، فهو بياض طبيعى مُعْجِز .

وقوله تعالى : ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ .. (٣٢)﴾ [القصص] الجناحان فى الطائر كاليدين فى الإنسان ، وإذا أراد الإنسان أن يعوم مثلاً يفعل كما يفعل الطائر حين يطير ، فالمعنى : اضمُمْ إليك يديك يذهب عنك الخوف .

وهذه العملية يُصدِّقها الواقع ، فنرى المرأة حين ترى ولدها مثلاً يسيء التصرف تضرب صَدْرها وتولول ، وسيدنا ابن عباس يقول : كل من خاف يجب عليه أن يضرب صدره بيديه ليذهب عنه ما يلاقى[1] ، ولك أن تُجرِّبها لتعلم صدْق هذا الكلام .

ومعنى ﴿فَذَانِكَ .. (٣٢)﴾ [القصص] ذا : اسم إشارة للمفرد ونقول : ذان اسم إشارة للمثنى ، والكاف للخطاب ، والمراد : الإشارة لمعجزتى العصا واليد ﴿بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ .. (٣٢)﴾ [القصص] أى ربك الحق ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ.. (٣٢)﴾ [القصص] الرب الباطل ، ولا يمكن

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٥١٧٠/٧) قال : « قال ابن عباس : ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى عليه السلام ، ثم يدخل يده فيضعها على صدره إلا ذهب عنه الرعب » .

أنْ يجتمع الحق والباطل ، لا بد للباطل أنْ يزهق ؛ لأنه ضعيف لا يصمد أمام قوة الحق ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء]

والبرهان : هو الحجة والدليل على صدْق المبرهَن عليه ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص] ، لأنَ فرعون ادَّعى الألوهية ، وملؤه استخفهم فأطاعوه ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص] أى : جميعاً فرعون والملأ ﴿ فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص] أى : خارجين عن الطاعة من قولنا فسقت الرُّطَبة يعنى : خرجتْ من قشرتها .

والمراد هنا الحجاب الدينى الذى يُغلِّف الإنسان ، ويحميه ويعصمه أنْ يتأثر بعوامل المعصية ، فإذا انسلخ من هذا الثوب ، ونزع هذا الحجاب ، وتمرَّد على المنهج تكشفتْ عورته ، وبانتْ سَوْءَته .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ ﴾

فما زال موسى ـ عليه السلام ـ خائفاً من مسألة قتْل القبطىِّ ؛ لذلك يطلب من ربه أنْ يؤيده ، ويعينه بأخيه .

﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾

معنى الرِّدْء : المعين ، وعرفنا من قصة موسى ـ عليه السلام ـ وهو صغير فى بيت فرعون أنه أصابته لَثْغة فى لسانه ، فكان ثقيل النطق لا ينطلق لسانه ؛ لذلك أراد أنْ يستعين بفصاحة أخيه هارون ليؤيده ، ويُظهر حجته ، ويُزيل عنه الشبهات .

وكان بإمكان موسى أن يطلب من ربه أن يستعين بأخيه هارون ، فيكون هارون من باطن موسى ، لكنه أحب لأخيه أنْ يشاركه في رسالته ، وأن ينال هذا الفضل وهذه الرِّفْعة ، فقال : ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي.. (٣٤)﴾ [القصص] يعني : : معيناً لي حتى لا يُكذِّبني الناس ، فيكون رسولاً مثْلي بتكليف من الله .

لذلك نرى الآيات تتحدث عن هارون على أنه رسول شريك لموسى في رسالته ، يقول تعالى في شأنهما : ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)﴾ [طه]

فإذا نظرنا إلى وحدة الرسالة فَهُما رسول واحد ، وهذا واضح في قوله تعالى :

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦)﴾ [الشعراء]

وجاء في قول فرعون : ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧)﴾ [الشعراء] بصيغة المفرد . كما لو بعث رئيس الجمهورية رسالة مع اثنين أو ثلاثة إلى نظيره في دولة أخرى ، نُسمِّي هؤلاء جميعاً (رسول) ؛ لأن رسالتهم واحدة ، فإذا نظرتَ إلى وحدة الرسالة من المرسِل إلى المرسَل إليه فهما واحد ، وإذا نظرتَ إلى كلٍّ على حدَة فهما رسولان .

وقد ورد أيضاً : ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ .. (٤٧)﴾ [طه] فخاطبهم مرة بالمفرد ، ومرة بالمثنى .

لذلك لما دعا موسى ـ عليه السلام ـ على قوم فرعون لما غرَّتهم الأموال ، وفتنتهم زينة الحياة الدنيا قال ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨)﴾ [يونس]

المتكلِّم هنا موسى وحده ، ومع ذلك قال تعالى : ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. (٨٩)﴾ [يونس] فنظر إلى أنهما رسول واحد ، فموسى يدعو وهارون يُؤمِّن على دعائه[1] ، والمؤمِّن أحد الدَّاعِيَيْن .

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ (٣٥) ﴾

أجابه ربه : ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .. (٣٥)﴾ [القصص] لأن موسى قال في موضع آخر : ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي[2] (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢)﴾ [طه] وقوله تعالى ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .. (٣٥)﴾ [القصص] تعبير بليغ يناسب المطلوب من موسى ؛ لأن الإنسان يزاول أغلب أعماله أو كلها تقريباً بيديه ، والعضلة الفاعلة في الحمل والحركة هي العَضُد .

لذلك حين نمدح شخصاً بالقوة نقول : فلان هذا (عضل) ، وحين يصاب الإنسان والعياذ بالله بمرض ضمور العضلات تجده هزيلاً لا يقدر على فعْل شيء ، فالمعنى : سنُقوِّيك بقوة مادية .

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا .. (٣٥)﴾ [القصص] هذه هي القوة المعنوية ، وهي قوة الحجة والمنطق والدليل ، فجمع لهما : القوة المادية ، والقوة المعنوية .

لذلك قال بعدها ﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا .. (٣٥)﴾ [القصص] أي :

---

(١) عن عكرمة رضي الله عنه قال : كان موسى عليه السلام يدعو ويؤمِّن هارون عليه السلام ، فذلك قوله تعالى : ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. (٨٩)﴾ [يونس] أورده السيوطي في الدر المنثور (٤/٣٨٥) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وأبي الشيخ .

(٢) الأزْر : القوة . وآزره : قوَّاه . [القاموس القويم ١/١٨] .

نُنجيكم منهم ، لكن معركة الحق والباطل لا تنتهى بنجاة أهل الحق ، إنما لا بُدَّ من نُصْرتهم على أهل الباطل ، وفَرْق بين رجل يهاجمه عدوه فيغلق دونه الباب ، وتنتهى المسألة عند هذا الحد ، وبين مَنْ يجرؤ على عدوه ويغالبه حتى ينتصر عليه ، فيكون قد منع الضرر عن نفسه ، وألحق الضرر بعدوه .

وهذا هو المراد بقوله تعالى ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥)﴾ [القصص] وهكذا أزال الله عنهم سلبية الضرر ، ومنحهم إيجابية الغلبة .

ونلحظ توسط كلمة ﴿بِآيَاتِنَا .. (٣٥)﴾ [القصص] بين العبارتين : ﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا .. (٣٥)﴾ [القصص] و ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥)﴾ [القصص] فهى إذن سبب فيهما : فبآياتنا ومعجزاتنا الباهرات ننجيكم ، وبآياتنا ومعجزاتنا ننصركم ، فهى كلمة واحدة تخدم المعنيين ، وهذا من وجوه بلاغة القرآن الكريم .

ومن عجائب ألفاظ القرآن كلمة (النجم) فى قوله تعالى : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦)﴾ [الرحمن] فجاءت النجم بين الشمس والقمر ، وهما آيتان سماويتان ، والشجر وهو من نبات الأرض ؛ لذلك صلحت النجم بمعنى نجم السماء ، أو النجم بمعنى النبات الصغير الذى لا ساقَ له ، مثل العُشْب الذى ترعاه الماشية فى الصحراء[1] .

لذلك قال الشاعر :

أُرَاعِى النَّجْم فى سَيْرى إليكُمُ ... وَيرْعَاهُ مِنَ البَيْدا جَوَادِى

(١) قال أبو إسحاق : قد قيل إن النجم يُراد به النجوم ، قال : وجائز أن يكون النجم ههنا ما نبت على وجه الأرض وما طلع من نجوم السماء . ويُقال لكل ما طلع : قد نجم . [لسان العرب - مادة : نجم] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [القصص] أى : بمعجزاتنا واضحات باهرات ، فلما بُهتوا أمام آيات الله ، وحاروا كيف يخرجون من هذا المأزق ، فقد جاءهم موسى ليهدم عرش الألوهية الباطلة عند فرعون ، ولم يملكوا إلا أنْ قالوا ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [القصص]

لذلك يُعلِّم الحق - تبارك وتعالى - موسى عليه السلام مُحَاجَّة هؤلاء ، فكأنه قال له : أنت مُقبل على أُناس متمسكين بالباطل ، حريصين عليه ، منتفعين من ورائه ، ولا بُدَّ أنْ يغضبوا إنْ قضيتَ على باطلهم ، وصرفتهم عنه إلى الحق ، فقد ألِفُوا الباطل ، فإنْ أخرجتَهم مما ألِفوا إلى ما لا يألفون فلا بُدَّ لك من اللين وألاَّ تُهيِّجهم حين تجمع عليهم قسوة تَرْك ما ألِفوه مع قسوة الدعوة إلى ما لم يألفوه .

ويكفى أنك ستسلبهم سلطان الألوهية الذى عاشوا فى ظله ، فإنْ زِدْتَ فى القسوة عليهم ولّدْتَ عندهم لدداً وعناداً فى الخصومة .

لذلك قال تعالى : ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه] يعنى : اعذروه فيما يلاقى حين تُسلَب منه ألوهيته ، ويصير واحداً من الرعية .

وإنْ قابلوك هم بالقسوة حين قالوا : ﴿ مَا هَـٰذَا إلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ (٣٦) ﴾ [القصص] فقابلهم أنت باللين .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ (٣٧) ﴾

وتأمل هنا اللين وأدب الجدل عند موسى ـ عليه السلام ـ فلم يرد عليهم بالقسوة التي سمعها منهم ولم يتهمهم كما اتهموه ، إنما ردّ بهذا الأسلوب اللَّبق ، وبهذا الإيحاء : ﴿ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ .. (٣٧) ﴾ [القصص] ولم يقُلْ : إني جئت بالهدى .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) ﴾ [القصص] سواء كنا نحن أم أنتم ، ولم يقُلْ أنتم الظالمون . لقد أطلق القضية ، وترك للعقول أنْ تميز .

ومعنى ﴿ عَاقِبَةُ الدَّارِ .. (٣٧) ﴾ [القصص] الدار يعني : الدنيا . وعاقبتها تعني : الآخرة .

وهذا الأدب النبوي في الجدل والحوار رأيناه في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ مع كفار مكة والمعاندين له ، وقد خاطبه ربه : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت]

والعلَّة أنك ستُخرجهم من الباطل الذي أحبوه وألفوه إلى الحق الذي يكرهون ، فلا تجمع عليهم شدتين ، لذلك في أشد ما كان إيذاء الكفار لرسول الله ﷺ كان يقول : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون »[1] .

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٣/١١٧) عند قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ .. (٦٧) ﴾ [المائدة] وعزاه لابن عباس (أخرجه ابن مردويه والضياء في المختارة) وأورده أيضاً (٣/٤٨١) عن عبد الله بن مسعود : لقد رأيت النبي ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يحكي نبياً من الأنبياء وهو يقول : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وأبو نعيم وابن عساكر .

ورحم الله شوقى الذى صاغ هذه المسألة فى عبارة موجزة فقال : (النُّصْح ثقيل فلا ترسله جبلاً ، ولا تجعله جدلاً) فنُصْحك معناه أنك تقول لمن أمامك : أنت على خطأ وأنا على صواب . فلكى يسمع لك لا بُدَّ أنْ تستميله أولاً إليك ليقبل منك ، ولا تجرح مشاعره فيزداد عناداً ومكابرة ، وما أشبه صاحب الخطأ بالمريض الذى يحتاج لمن يأخذ بيده ، ويأسو[1] مرضه .

وقد مثَّلوا لذلك بشخص يغرق ، وصاحبه على الشاطىء يلومه على نزوله البحر ، وهو لا يجيد السباحة ، فقال له : (آسِ ثم انصح) انقذنى أولاً وأدركنى ، ثم قُلْ ما شئتَ .

وقال آخر : الحقائق مُرَّة ، فاستعيروا لها خِفَّة البيان .

أما إنْ يئس الناصح من استجابة المنصوح كما فى قصة نبى الله نوح عليه السلام ، والذى ظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فالأمر يختلف . فالنبى صبر على قومه علَّهم يثوبون إلى رشدهم ، أو لعلهم ينجبون الذرية الصالحة التى تقبل ما رفضه الآباء .

فما أطولَ صبر نوح على قومه ، وما أعظمَ أدبه فى الحوار معهم وهو يقول لهم وقد اتهموه بالكذب والافتراء : ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ [هود]

فنسب الإجرام إلى نفسه ليُسوِّى نفسه بهم لعلَّه يستميل قلوبهم ، لكن ، لما كان فى علم الله تعالى أنهم لن يؤمنوا ، ولا فائدة منهم ، ولا من أجيالهم المتعاقبة ، وبعد أنْ قضى نوح فى دعوتهم هذا العمر المديد أمره الله أن يدعو عليهم ، حيث لا أملَ فى هدايتهم ، فقال :

---

(١) الأسَا : المداواة والعلاج . والإساء : الدواء بعينه . [لسان العرب ـ مادة : أسا] .

﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[1] (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) ﴾ [نوح]

ومحمد ﷺ يقول فى محاورته مع كفار مكة : ﴿ لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾ [سبأ]

سبحان الله ما هذا التواضع ، وهذا الأدب الجم فى استمالة القوم ، ينسب الإجرام إلى نفسه وهو رسول الله ، وحينما يتكلم عنهم يقول ﴿ تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾ [سبأ] فيُسمِّى إجرامهم وإيذاءهم وكفرهم عملاً . ولو قال كما قال أخوه نوح لكان تواضعاً منه ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا[2] لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ (٣٨) ﴾

خشى فرعون من كلام موسى على قومه ، وتصوَّر أنه سيحدث لهم كما نقول (غسيل مخ) فأراد أن يُذكِّرهم بألوهيته ، وأنه لم يتأثر بما سمع من موسى ﴿ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى .. (٣٨) ﴾ [القصص] يعنى : إياكم أنْ تصدّقوا كلام موسى ، فأنا إلهكم ، وليس لكم إله غيرى .

---

(١) ديَّار : أحد . يقال : ما بالدار ديَّار ، أى : ما بها أحد . [لسان العرب ـ مادة : دير] .

(٢) الصرح : القصر العالى . [القاموس القويم ١/٣٧٢] وقال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : صرح] : « الصرح بيت واحد يُبْنَى منفرداً ضخماً طويلاً فى السماء ، وقيل : هو كل بناء عالٍ مرتفع » .

ثم يؤكد هذه الألوهية فيقول لهامان وزيره : ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ..(٣٨)﴾ [القصص] وفي موضع آخر قال : ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ .. (٣٧)﴾ [غافر]

وكأنه يريد أن يُرضى قومه ، فها هو يريد أنْ يبحث عن الإله الذي يدَّعيه موسى ، وكأنه إنْ بنى صرحاً واعتلاه سيرى رب موسى ، لكن هل بنى له هامان هذا الصرح ؟ لم يَبْن له شيئاً ، مما يدل على أن المسألة هَزْل في هَزْل ، وضحك على القوم الذين استخفّهم ولعِب بعقولهم .

وإلا ، فما حاجتهم لحرق الطين ليصير هذه القوالب الحمراء التي نراها ونبنى بها الآن وعندهم الحجارة والجرانيت التي بنَوْا بها الأهرامات وصنعوا منها التماثيل ؟ وعملية حَرْق الطين تحتاج إلى كثير من الوقت والجهد ، إذن : المسألة كسب الوقت من الخَصْم ، وتخدير الملأ من قومه .

وقوله : ﴿لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ .. (٣٨)﴾ [القصص] وقبل أنْ يصل إلى حكم فيرى إله موسى أو لا يراه ، يبادر بالحكم على موسى ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨)﴾ [القصص] ؛ ليصرف ملأه عن كلام موسى .

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩)﴾

أى : تكبروا دون حق ، وبغير مبررات للكِبْر ، فليس لديهم هذه المبررات ؛ لأن الإنسان يتكبَّر حين تكون عظمته ذاتية فيه ، أمّا العظمة المخلوقة لك من الغير فلا تتكبر بها ، مَنْ يتكبر يتكبَّر بشىء ذاتى فيه ، كما يقولون (اللى يخرز يخرز على وركه) .

وكذلك فى دواعى الكِبْر الأخرى : الغِنَى ، القوة ، الجاه ، والسلطان ... إلخ .

لذلك يكره الله تعالى المتكبرين ، ويقول فى الحديث القدسى :

« الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحداً منهما أدخلته جهنم »[١] .

والكبرياء والعظمة صفة جلال وجمال لله تعالى تجعل الجميع أمام كبرياء الله سواء ، فلا يتكبَّر أحد على أحد (ونرعى جميعاً مساوى) فى ظل كبرياء الله الذى يحمى تواضعنا ، فلو تكبَّر أحدنا على الآخر لَتكبَّر بشىء موهوب له ، ليس ذاتياً فيه ؛ لذلك ينتصر الله لمن تكبَّرت عليه ، ويجعله أعلى منك . وعندنا فى الأرياف يقولون : (اللى يرمى أخاه بعيب لن يموت حتى يراه فى نفسه) .

والمتكبّر فى الحقيقة ناقصُ الإيمان ؛ لأنه لا يتكبَّر إلا حين يرى الناس جميعاً دونه ، ولو أنه استحضر كبرياء خالقه لاستحيا أنْ يتكبَّر أمامه ، وهكذا كان استكبار فرعون وجنوده فى الأرض بغير حق .

أما إنْ كان الاستكبار من أجل حماية الضعيف ليعيش فى ظلاله

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٧٦/٢ ، ٤١٤) ، وابن ماجة فى سننه (٤١٧٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٠٩٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فهو استكبار بحق ؛ لذلك نقول حين يصف الحق - تبارك وتعالى - نفسه بأنه العظيم المتكبِّر نقول : هذا حق . لأنه حماية لنا جميعاً من أنْ يتكبَّر بعضنا على بعض .

وقوله تعالى : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ (٣٩) ﴾ [القصص] فاستكبارهم في الأرض جاء نتيجة ظنهم بأنهم لن يرجعوا إلى الله ، وأنه تعالى خلقهم ورزقهم ، ثم تفلَّتوا منه ، ولن يعودوا إليه ، لكن هيهات ، لا بُدَّ - كما نقول - لهم رَجْعة .

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ(١) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) ﴾

كأن الحق سبحانه لم يُمهلهم إلى أن يعودوا إليه يوم القيامة ، إنما عاجلهم بالعذاب في الدنيا قبل عذاب الآخرة ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ .. (٤٠) ﴾ [القصص] أي : جميعاً في قبضة واحدة ، التابع والمتبوع ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. (٤٠) ﴾ [القصص] ألقينا بهم في البحر ، وهذا الأخذ الذي يشمل الجميع في قبضة واحدة يدلُّ على قدرة الآخذ ، وهذه مسألة لا يقدر عليها إلا الله القوى العزيز .

كما قال سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾ [هود]

---

(١) أى : طرحناهم فى البحر المالح . قال قتادة : بحر من وراء مصر يُقال له : إساف أغرقهم الله فيه . وقال وهب والسدى : المكان الذى أغرقهم الله فيه بناحية القلزم يقال له بطن مريرة ، وهو إلى اليوم غضبان . وقال مقاتل : يعنى نهر النيل وهذا ضعيف والمشهور الأول . [تفسير القرطبى ٧/٥١٧٥] والقلزم هى مدينة السويس حالياً ، وبحر القلزم : هو البحر الأحمر .

ولم يُوصَف أَخْذ الإنسان بالقوة إلا في قوله تعالى[1] يحثُّنا على أنْ نأخذ مناهج الخير بقوة : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ .. (٩٣) ﴾ [البقرة]

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) ﴾ [القصص] أى : نهايتهم وقد جاءت عجيبة من عجائب الزمن وآية من آيات الله ، فالبحر والماء جُنْد من جنود الله ، تنصر الحق وتهزم الباطل ، وقد ذكرنا كيف أنجى الله موسى - عليه السلام - وأهلك فرعون بالشيء الواحد حين أمر الله موسى أنْ يضرب بعصاه البحر ، فصار كل فِرْق كالطود العظيم .

فلما أنْ جازه موسى وقومه إلى الناحية الأخرى أراد أنْ يضرب البحر مرة أخرى ؛ ليعود الماء إلى سيولته واستطراقه فيُصحِّح الله له ويأمره أنْ يدَعَهُ على حاله ، فالحق - تبارك - وتعالى - يتابع نبيه موسى خُطْوة بخطوة كما قال له : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) ﴾ [طه]

وحاشا لله أن يُكلِّفه بأمر ثم يتركه ، ولما رأى فرعون الطريق اليابس أمامه عبر بجنوده ، فأطبقه الله عليهم ، فصاروا آية وعبرة ، كما قال سبحانه : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً .. (٩٢) ﴾ [يونس]

وتأمَّلْ قدرة الله التى أنجَتْ موسى من الغرق ، وقد ألقتْه أمه بيديها فى الماء ، وأغرقتْ فرعون .

﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) ﴾

(١) وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ .. (١٢) ﴾ [مريم] . يقول صاحب ظلال القرآن (٤/ ٢٣٠٤) : « قد ورث يحى أباه زكريا ، ونودى ليحمل العبء وينهض بالأمانة فى قوة وعزم ، لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة » .

أئمة : جمع إمام ، وهو مَنْ يُؤتَم بـه ، والمأموم أسـيرُ إمـامه ، فلو كنـا فى الصـلاة لا نركع حـتى يركع ، ولا نرفع حـتى يرفع ، فمـتابـعتنا له واجـبة ، فـإنْ أخطأ وجب على المأمـوم أنْ يُنبِّـهه وأن يُذكِّـره يقـول لـه : سـبـحـان الله ، تنبـه لخطـأ عندك ، إذن : نحن مأمومون له فى الحق فقط ، فإنْ أخطأ عدَّلْنا له .

والإمام أُسْوة وقدوة للمأمومين فى الخير ومنهج الحق ، كما قال تعـالى فى حَقِّ نبيـه إبراهيم عليـه السـلام : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة]

وعندها أراد إبراهيم عليـه السلام أنْ تظلَّ الإمـامة فى ذريتـه من بعده ، فقال ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي .. ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة] فصحَّح الله له وأعلمه أن الإمامـة لا تكون إلا فى أهل الخـير ﴿ قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة]

لذلك لما دعا نوح ـ عليه السلام ـ ربه : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي.. ﴿٤٥﴾ ﴾ [هود] صحح الله له ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود]

إذن : أهلية النبوة وأهلية الإمامة عمل وسلوك لا قرابة ولا نَسَب .

وقـد تكون الإمـامــة فى الشـر ، كـهـذه التى نتـحـدث عنهـا : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [القصص] فهم أُسْوة سـيئة وقدوة للشر ، وقد جـاء فى الحديث الشريف : « من سَنَّ سُنَّة حسنة فله أجرها وأجر من عـمل بها إلى يوم القيامة ، ومَنْ سنَّ سُنَّة سـيئة فعليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة »[1].

---

(١) أخرجـه أحمد فى مـسنده (٤/٣٦١) ، وابن ماجة فى سننه (٢٠٣) من حـديث جرير ابن عبد الله رضى الله عنه .

ويقول تعالى فى أصحاب القدوة السيئة : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥) ﴾ [النحل]

فكان فرعون وملؤه أسوة فى الشر ، وأسوة فى الضلال والإرهاب والجبروت ، وكذلك سيكونون فى الآخرة أئمة وقادة ، لكن إلى النار ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ (٤١) ﴾ [القصص]

﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ .. (٤٢) ﴾ [القصص] يعنى : جعلنا من خلفهم ﴿ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً .. (٤٢) ﴾ [القصص] فكل مَنْ ذكرهم فى الدنيا يقول : لعنهم الله ، فعليهم لعنة دائمة باقية ما بقيتْ الدنيا ، وهذا اللعْن والطرد من رحمة الله ليس جزاء أعمالهم ، إنما هو مقدمة لعذاب بَاقٍ وخالد فى الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ .. (٤٧) ﴾ [الطور]

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) ﴾ [القصص] مادة : قبح ، تقول للشرير : قبَّحك الله ، أى : طردك وأبعدك عن الخير . ولها استعمال آخر : تقول : قَبَحْتُ الدُّمل أى : فتحته ونكأته قبل نُضْجه فيخرج منه الدم مع الصديد ويشوه مكانه .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الدُّمَّل إذا تركته للصيدلية الربانية فى جسمك حتى يندمل بمناعة الجسم ومقاومته تجده لا يترك أثراً ، أما إنْ تدخلت فيه بالأدوية والجراحة ، فلا بُدَّ أنْ يترك أثراً ، ويُشوِّه المكان .

ويكون المعنى إذن : ﴿هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص] أى : الذين تشوَّهَتْ وجوههم بعد نعومة الجلد ونضارته ، وقد عبَّر القرآن عن هذا التشويه بصور مختلفة .

يقول تعالى : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ [عبس]

ويقول سبحانه ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ .. ﴿١٠٦﴾﴾[آل عمران]

ويقول : ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ [طه]

ومعلوم أن زُرْقة الجسم لا تأتى إلا نتيجة ضربات شديدة وكدَمات تُحدث تفاعلات ضارة تحت الجلد ، فتُسبِّب زُرْقته ، وكذلك زُرْقة العين ، ومنَ أمراض العيون المياه الزرقاء ، وهى أخطر من البيضاء .

لذلك يقول الشاعر :

وَلِلْبخيلِ عَلَى أمْواله علَلٌ ... زُرْق العُيونِ علَيْها أَوْجُه سُودُ

لأنه حريص على أمواله ولا يريد إنفاقها .

ويُستخدم اللون الأزرق للتبشيع والتخويف ، وقد كانوا فى العصور الوسطى يَطْلُون وجوه الجنود باللون الأزرق لإخافة الأعداء وإرهابهم ، وتعارف الناس أنه لَوْن الشيطان ؛ لذلك نقول فى لغتنا العامية : (العفاريت الزرق) ونقول فى الذم : (فلان نابه أزرق) .

ويقول الشاعر[1] :

أَيَقْتُلُنِي والمَشْرَفِيُّ[2] مُضاجِعى ... ومَسْنُونَة زُرْقٌ كأنْيابِ أغْوالِ[3]

---

(١) الشاعر : هو امرؤ القيس .

(٢) السيوف المشرفية منسوبة إلى قرىً من أرض اليمن ، وقيل : من أرض العرب تدنو من الريف . [لسان العرب ـ مادة : شرف] .

(٣) قال الجاحظ فى كتابه (الحيوان) (٦/١٥٨) تحقيق عبد السلام هارون : « الأغوال : اسم لكل شىء الجن يعرض للمسافرين ويتلوّن فى ضروب من الصور والثياب ذكراً كان أو أنثى إلا أن أكثر كلامهم على أنه أنثى » . والبيت فى ديوان امرىء القيس ٣٣ ، والكامل للمبرد (٢/٧٩) ، وحسن التوسل إلى صناعة الترسل لشهاب الدين محمود الحلبى ـ ص ١١٢ .

أما السواد فيُقصد به الوجه المشوّه المنفِّر ، وإلا فالسواد لا يُذَم في ذاته كلون ، وكثيراً ما نرى صاحب البشرة السوداء يُشع جاذبية وبشاشة ، بحيث لا تزهد في النظر إليه ، ومعلوم أن الحُسْن لا لونَ له .

والله تعالى يَهَبُ الحُسْن والبشاشة ويُشعّهما في جميع الصور . وقد ترى للون الأسود في بعض الوجوه أَسْراً وإشراقاً ، وترى صاحب اللون الأبيض كالحاً ، لا حيوية فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ .. (٤٣) ﴾ [القصص] قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، يعني : أن موسى - عليه السلام - جاء بَرْزخاً وواسطة بين رسل كذَّبتهم أممهم ، فأخذهم الله بالعذاب ، ولم يقاتل الرسل قبل موسى ، إنما كان الرسول منهم يُبلِّغ الرسالة ويُظهر الحجة ، وكانوا هم يقترحون الآيات ، فإنْ أجابهم الله وكذَّبوا أوقع الله بهم العذاب .

كما قال سبحانه :

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ

الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا[1] وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

وهذا كله عذاب استئصال ، لا يُبقي من المكذبين أحداً .

ثم جاء موسى - عليه السلام - برزخاً بين عذاب الاستئصال من الله تعالى للمكذِّبين دون تدخُّل من الرسل في مسألة العذاب ، وبين رسالة محمد ﷺ ، حيث أمره الله بقتال الكفار والمكذِّبين دون أن ينزل بهم عذاب الاستئصال ، ذلك لأن رسالته عامة في الزمان وفي المكان إلى أن تقوم الساعة ، وهو ﷺ مأمون على حياة الخَلْق أجمعين .

لذلك يقول تعالى في مسألة القتال في عهد موسى عليه السلام : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ .. (٢٤٦) ﴾ [البقرة] إنما في عهده وعصره ﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ .. (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

---

(١) عدَّد الله هنا أربعة أنواع من العذاب :
- ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا (٤٠) ﴾ [العنكبوت] هم : قوم عاد . أرسل الله عليهم ريحاً عاتية حملت عليهم حصباء الأرض ، فالقتْها عليهم واقتلعتهم من الأرض .
- ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ (٤٠) ﴾ [العنكبوت] هم : قوم ثمود . جاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات .
- ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت] هو : قارون ، خسف الله به وبداره الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .
- ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا (٤٠) ﴾ [العنكبوت] هو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم . [تفسير ابن كثير ٣/٤١٣] .

وقد ورد أن سيدنا رسول الله ﷺ قال « ما عذَّب الله قوماً ، ولا قرناً ، ولا أمة ، ولا أهلَ قرية منذ أنزل الله التوراة على موسى»[(١)]

كأن عذاب الاستئصال انتهى بنزول التوراة ، ولم يستثْن من ذلك إلا قرية واحدة هى (أيلة) التى بين مدين والأردن .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطينا أول تجربة لمهمة ، وتدخَل الرسل فى قصة موسى عليه السلام .

ورُوى عن أبى أمامة أنه قال : وإنى لتحت رَحْل رسول الله ـ يعنى : ممسكاً برحْل ناقة الرسول ـ يوم الفتح ، فسمعته يقول كلاماً حسناً جميلاً ، وقال فيما قال : « أيُّما رجل من أهل الكتاب يؤمن بى فَلَهُ أجران ـ أى : أجر إيمانه بموسى ، أو بعيسى ، وأجر إيمانه بى ـ له ما لنا وعليه ما علينا »[(٢)] .

وهذا يعنى أن القتال لم يكُنْ قد كُتب عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ .. (٤٣) ﴾ [القصص] أى : التوراة ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ .. (٤٣) ﴾ [القصص] أى : بدون تدخُّل الأنبياء ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ .. (٤٣) ﴾ [القصص] أى : آتيناه الكتاب ليكون نوراً يهديهم ، وبصيرة ترشدهم ، وتُنير قلوبهم ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً .. (٤٣) ﴾ [القصص] هدى إلى طريق الخير ورحمة تعصم

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤٠٨/٤) من حديث أبى سعيد الخدرى بلفظ : « ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أمة ولا أهل قرية منذ أنزل التوراة على وجه الأرض بعذاب من السماء غير أهل القرية التى مسخت قردة » وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨٨/٧) « رواه البزار موقوفاً ومرفوعاً ، ورجالهما رجال الصحيح » .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى سننه (١٩٥٦) ، وسعيد بن منصور فى سننه (٩١٣) من حديث أبى موسى الأشعرى ، ولفظه : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين ، رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم أدركه النبى ﷺ فآمن به ، ثم اتبعه فله أجران » .

المجتمع من فساد المناهج الباطلة ، وتعصمهم أن يكونوا من أهل النار ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) ﴾ [القصص]

والتذكر يعنى : أنه كان لديك قضية ، ثم نسيتها فاحتجْتَ لمن يُذكرك بها ، فهى ليست جديدة عليك ، هذه القضية هى الفطرة :

﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا .. (٣٠) ﴾ [الروم]

لكن هذه الفطرة السليمة تنتابها شهوات النفس ورغباتها ، وتطرأ عليها الغفلة والنسيان ؛ لذلك يذكِّر الحق سبحانه الناس بما غفلوا عنه من منهج الحق ، إذن : فى الفطرة السليمة المركوزة فى كل نفس مُقوِّمات الإيمان والهداية ، لولا غفلة الإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٤٤) ﴾

قوله : ﴿ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ .. (٤٤) ﴾ [القصص] أى : الجانب الغربى من البقعة المباركة من الشجرة ، وهو المكان الذى كلَّم الله فيه موسى وأرسله ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ .. (٤٤) ﴾ [القصص] يعنى : أمرناه به أمراً مقطوعاً به ، وهو الرسالة .

﴿ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾ [القصص]

ولك أنْ تسأل : إذا لم يكُنْ رسول الله ﷺ شاهداً لهذه الأحداث ، فمَنْ أخبره بها ؟ نقول : أخبره الله تعالى ، فإنْ قُلْت فربما أخبره بها شخص آخر ، أو قرأها فى كتب السابقين .

نقول : لقد شهد له قومه بأنه أُمىٌّ ، لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يُعْلَم عنه أنه جلس فى يوم من الأيام إلى مُعلِّم ، كذلك كانوا يعرفون سيرته فى حياته وسفرياته ورحلاته ، ولم يكُنْ فيها شىء من هذه الأحداث .

لذلك لما اتهموا رسول الله أنه جلس إلى معلم ، وقالوا : كما حكى القرآن : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣) ﴾ [النحل] ردَّ القرآن عليهم فى بساطة : ﴿ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ[1] إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

وكانوا يقصدون بذلك حدادين روميين[2] تردد عليهما رسول الله . وكذلك كانت الأمة التى بُعِث فيها رسول الله أمة أمية ، فممَّن تعلَّم إذن ؟

وإذا كانت الأمية صفة مذمومة ننفر منها ، حتى أن أحد سطحيي الفهم يقول : لا تقولوا لرسول الله أمىٌّ ونقول : إن كانت الأمية مَذمَّة ، فهى ميزة فى حق رسول الله ﷺ ؛ لأن الأمى يعنى المنسوب إلى الأم وما يزال على طبيعته لا يعرف شيئاً .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا .. (٧٨) ﴾ [النحل] ونقول فى المثل (فلان زى ما ولدتْه أمه) يعنى : لا يعرف شيئاً ، وهذه مذمة فى عامة البشر ؛ لأنه لم يتعلم ممَّنْ حوله ، ولم يستفِدْ من خبرات الحياة .

---

(١) ألحد إلى الشىء : أشار إليه . ومعناه : أى : لسان الذى يشيرون إليه أعجمى لأنهم كانوا يقولون : إن الرسول يعلمه رجل أعجمى . [القاموس القويم ٢/١٨٩] .

(٢) قال عبيد الله بن مسلم : كان لنا غلامان روميان يقرآن كتاباً لهما بلسانهما ، فكان النبى ﷺ يمر بهما فيقوم فيسمع منهما فقال المشركون : يتعلم منهما فأنزل الله هذه الآية . أورده ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٨٧) .

أما الأمية عند رسول الله فشرف ؛ لأن قصارى المتعلِّم فى أىِّ أمة من الأمم أنْ يأخذ بطرف من العلم من أمثاله من البشر ، فيكون مديناً له بهذا العلم ، أمَّا رسول الله فقد تعلم من العليم الأعلى ، فلم يتأثر فى علمه بأحد ، وليس لأحد فضل عليه ولا منة .

لذلك تعجب الدنيا كلها من أمة العرب ، هذه الأمة الأمية المتبدية التى لا يجمعها قانون ، إنما لكل قبيلة فيها قانونها الخاص ، يعجبون : كيف سادتْ هذه الأمةُ العالمَ ، وغزتْ حضارتهم الدنيا فى نصف قرن من الزمان .

ولو أن العرب أمة حضارة لقالوا عن الإسلام قفزة حضارية ، كما قالوا بعد انتصارنا فى أكتوبر ، وبعد أنْ رأى رجالنا أشياء غير عادية تقاتل معهم ، حتى أنهم لم يشكُّوا فى أنها تأييد من الله تعالى لجيش بدأ المعركة بصيحة الله أكبر ، لكن ثالث أيام المعركة طلع علينا فى جرائدنا من يقول : إنه نصر حضارى ، وفى نفس اليوم فُتحت الثغرة فى (الدفرسوار) .

وعجيب أمر هؤلاء من أبناء جلدتنا : لماذا تردُّون فضل الله وتنكرون تأييده لكم ؟ وماذا يضايقكم فى نصر جاء بمدد من عند الله ؟ ألم تقرأوا : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ .. (٣١)﴾ [المدثر] وبعد أن فُتحت الثغرة ماذا قدمتم لسدِّها ، تعالوا بفكركم الحضارى وأخرجونا من هذا المأزق .

وإذا ثَقُلَ على هؤلاء الاعتراف بجنود الله بين صفوفهم ، أليس المهندس الذى اهتدى إلى فكرة استخدام ضغط الماء فى فتح الطريق فى (بارليف) لينفذ منه الجنود ، أليس من جنود الله ؟

لقد أخذتْ منَّا هذه الفكرة كثيراً من الوقت والجهد دون فائدة ، إلى أن جاء هذا الرجل الذى نوَّر الله بصيرته وهداه إلى هذه العملية التى لم تَأْتِ اعتباطاً ، إنما نتيجة إيمان بالله وقُرْب منه سبحانه وتضرُّع إليه ، فجزاه الله عن مصر وعن الإسلام خيراً .

ومن العجيب ، بعد نهاية الحرب أنْ يُجروا للحرب بروفة تمثيلية ، فلم يستطيعوا اجتياز خط بارليف ، وهم فى حال أمْن وسلام .

نعود إلى قضية الأمية ونقول لمن ينادى بمحو الأمية عند الناس بأن يعلمهم من علم البشر : ليتكم قُلْتُم نمحو الأمية عندهم لنعلمهم عن الله .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [القصص] يعنى : ما رأى محمد هذه الأحداث ولا حضرها ، ومنه قوله تعالى عن شهر رمضان : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ .. ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة] يعنى : حضره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

أهل مدين هم قوم شعيب عليه السلام ، وكان لهم شُغُل بالقراءة ، لذلك قال تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [القصص] أى : مقيماً ﴿ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [القصص] أى : تلاوة المتعلم كما يتلو التلميذ على أستاذه ليُصحِّح له

﴿ وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) ﴾ [القصص] أى : أن الرسالات كلها منا : مَنْ كان يقرأ ، ومن كان أمياً .

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا .. (٤٦) ﴾ [القصص] أى : موسى عليه السلام ﴿ وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. (٤٦) ﴾ [القصص] أى : أنك يا محمد ما شهدت هذه الأحداث ، إنما جاءتْك بالفضل من الله ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) ﴾ [القصص] يتذكَّرون ما غفلوا عنه من الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها .

وكلمة (وما كنت) فى مواضع عدة فى القرآن تدل على أن رسول الله جاء بأخبار لم يقرأها فى كتاب ، ولم يسمعها من مُعلِّم ؛ لأنه لا يقرأ ، ولم يُعرف عنه أنه جلس إلى مُعلِّم ، وأهل الكتاب هم الذين يعرفون صدْق هذه الأخبار ؛ لأنها ذُكرت فى كتبهم ، لذلك قال القرآن عنهم : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ .. (٢٠) ﴾ [الأنعام]

ويقول سبحانه ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾ [الأعلى]

ومن علامات النبوة أن يخرق الحق سبحانه لنبيه ﷺ حُجُب الغيب ، والشىء يغيب عنك إما لأنه ماض ، ولا وسيلةَ لك إليه ، وهذا هو حجاب الزمن الماضى ، وهو لا يُعرف إلا بواسطة القراءة فى

كتـاب أو التـعلم من مُـعلِّم ، وقـد نفى الله تـعـالى هذا بالنسـبـة لرسوله ﷺ ، وإما أن يكون الحجابُ حجابَ الزمن المستقبل والأحداث التى لم تأتِ بعْد ، ولا يستطيع أن يخبرك بها إلا الذى يعلمها أزلاً .

لذلك يقول تعـالى لنبيه ﷺ : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ۝٦ ﴾ [الأعلى] فكان النجم من القـرآن ينزل على رسـول الله فلما يُسرى عنه يُمليـه على أصحابه ، كل آية فى مكانها وترتيبها من السورة[1] ، ثم يقرؤها بعد ذلك كما أُنزلت ، وكما أملاها .

وسبق أنْ قُلْنا : تـستطيع أن تتحـدَّى أىَّ شخص بأن يتكلم مـثلاً لمدة ثُلث الساعـة ، ثم يعيد ما قال ، ولن يستطيع ، أمـا المسألة مع سـيـدنا رسول الله فـتـخـتلف ؛ لأنهـا من الله تعـالى ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ۝٦ ﴾ [الأعلى]

وقلنا : إن سيـدنا رسـول الله ﷺ فى أول نزول القرآن عليـه كان يُردد الآية خلف جـبريل عليـه السلام مـخافـة أن ينساها ، فـإنْ قال جبريل : ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ ﴾ [الضحى] قال رسـول الله ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ ﴾ [الضحى] وهكذا ، فأنزل الله عليه : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨ ﴾ [القيامة]

وقـال سـبـحـانه : ﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ .. ۝١١٤ ﴾ [طه]

أى : أرح نفـسك يا مـحـمـد ، ولا تخْشَ النسـيان ، وانتظر حـتى تنتهى الآيات ، وسوف تعيدها كما هى ، لا تَنْسى منها حرفاً واحداً .

---

(١) قال عثمان بن عفان : كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كـان يكتب فيقول : ضـعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فـيها كذا وكذا . أورده السيوطى فى (الإتقان فى علوم القرآن ١/١٧٢) .

ومن كشف حُجُب الغيب المستقبل قوله تعالى : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً .. (٨) ﴾ [النحل] ولو انتهتْ الآية إلى هذا الحدِّ لقالوا : ذكر القرآن البدائيات ، ولم يذكر شيئاً عن السيارة والصاروخ .. إلخ .

لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يكمل الآية ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨) ﴾ [النحل] ليجعل فى القرآن رصيداً لكل ما يستجد من وسائل المواصلات والانتقال إلى يوم القيامة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس] فكلٌّ شىء فى الوجود قائم على الزوجين ذكورةً وأنوثة حتى الجمادات التى لا نرى فيها حياة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ .. (٤) ﴾ [الروم]

فمَنْ يستطيع أن يحكم على نتيجة معركة بعد سبع سنين ؟ وبعد ذلك يُصدِّقه الله ، وتنتصر الروم ، وكانوا أهل كتاب على الفرس ، وكانوا يعبدون النار ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الروم]

ولما تشوَّق الصحابة لأداء العمرة ونزل على رسول الله قوله تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) ﴾ [الفتح]

فخرج بهم رسول الله حتى بلغوا الحديبية على بُعْد ٢٢ كيلو من مكة تعرَّضَتْ لهم قريش ، ومنعتهم من العمرة ، واشترطوا عليهم العودة في العام المقبل ، وقد كتبوا وثيقة تعاهدوا فيها ، فلما أملى رسول الله على الكاتب : هذا ما تعاهد عليه محمد رسول الله ، قام عمرو بن سهيل فقال : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما حاربناك ولا رددناك ، إنما اكتب : هذا ما تعاهد عليه محمد بن عبد الله .

وعندها ثار صحابة رسول الله وغضبوا حتى راجعوا رسول الله فقال عمر : يا رسول الله ألسْنا على الحق ؟ قال : بلى ، قال : أليسوا على الباطل ؟ قال : بلى قال : فَلِمَ نعطى الدَّنية فى ديننا ، فقال الصِّديق : الزم غَرْزَهُ يا عمر ، يعنيَ قف عند حدِّك ـ إنه رسول الله[1] .

ولما أصر على بن أبى طالب أن يكتب محمد رسول الله نظر إليه رسول الله ، وقال : « يا على ستُسام مثلها فتقبل »[2] ومرَّتْ الأيام والسنون ، وقُبض رسول الله ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، فلما تولّى عليٌّ الخلافة وحدثت الفتنة بينه وبين معاوية ، وقامت بينهما حرب الجمل ثم صفِّين حتى اضطر عليّ لأنْ يكتب مع معاوية وثيقة لإنهاء القتال أملى عليّ : هذا ما تعاهد عليه على بن أبى طالب أمير المؤمنين ، فقالوا له : لو أنك أمير المؤمنين ما حاربناك ، فاسترجع عليٌّ قول رسول الله : « ستُسام مثلها فتقبل » .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٢٥ ، ٣٣٠) ضمن حديث طويل فى صلح الحديبية من حديث المسور بن مخرمة الزهرى ومروان بن الحكم .

(٢) وقد استشهد على بن أبى طالب بهذا فى محاجته للخوارج الذين خرجوا عليه وعتبوا عليه أنه كاتب معاوية فكتب على بن أبى طالب مجرداً من كونه أمير المؤمنين فقال : « قد جاءنا سهيل بن عمرو ونحن مع رسول الله ﷺ بالحديبية حين صالح قومه قريشاً فكتب رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : لا أكتب بسم الله الرحمن الرحيم، قال : كيف تكتب ؟ قال : اكتب باسمك اللهم ، فقال رسول الله ﷺ : اكتب فكتب ، فقال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقال : لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك ، فكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله قريشاً » . (البداية والنهاية لابن كثير ٧ /٢٩١) .

إذن : خرق الله لرسوله حجاب الزمن الماضى ، والزمن المستقبل ، فماذا عن الزمن الحاضر ؟ وكيف يكون خرق الحجاب فيه ؟ هذا فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ⑧ ﴾ [المجادلة] فأطلعه الله على ما فى نفوس القوم .

وفى غزوة مؤتة ، وهى الغزوة الوحيدة التى لم يحضرها رسول الله ﷺ ، ومع ذلك سُمِّيت غزوة ـ لأن الغزوة لا تُقَال إلا للمعركة التى حضرها رسول الله ، أما فى مؤتة فقد حضرها وشاهدها وهو فى المدينة ، حيث كشف الله له حجاب الحاضر ، فصار يخبر أصحابه فى المدينة بما يجرى فى مؤتة وكأنها رأىُ العين .

ويومها تولى القيادة جماعة من كبار الصحابة : زيد بن حارثة ، وابن رواحة ، وجعفر بن أبى طالب ، وخالد بن الوليد ، فكان ﷺ يقول : قُتل فلان وسقطت الراية ، فأخذها فلان وقُتل وحملها فلان .. إلخ فلما عادوا من الغزوة أخبروا بنفس ما أخبر به رسول الله ﷺ[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

المعنى : لولا أن تصيبهم مصيبة بما قدَّمَتْ أيديهم لَعذَّبناهم فاحتجوا قائلين : ﴿ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٢٦٢) من حديث أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : أخذ الراية زيدٌ فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » .

الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ [القصص] فلو عذَّبهم الله دون أن يرسل إليهم رسولاً لكانت حجة لهم .

وسبق أنْ قُلْنا : إنه لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ولا نصَّ إلا بإعلام ، لذلك تُنشَر الأحكام فى الوقائع الرسمية ليعرفها الجميع ، فتلزمهم الحجة ، ولا يُعْذَر أحد بالجهل بالقانون ، ولا يُعفى من العقاب .

إذن : قطع الله عليهم الحجة ، حين بعث إليهم رسول الله بمنهج الحق الذى يدلهم على الخير والثواب عليه فى الجنة ، ويحذرهم من الشر والعقاب عليه فى النار ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ .. (١٦٥) ﴾ [النساء]

إذن : الحكمة من إرسال الرسول إقامة الحجة على المرسَل إليهم مجرد إقامة الحجة ؛ لأن قضايا الدين قضايا حقٍّ فطرى يهتدى إليها العقل السليم بفطرته ؛ لذلك وقف المستشرقون طويلاً عند شخصية عمر - رضى الله عنه - .

يقولون : تذكرون عمر فى كل شىء : فى العدل تقولون عمر ، وفى القوة تقولون عمر ، وفى وجود رسول الله تقولون نزل القرآن موافقاً لكلام عمر ، أليس عندكم إلا عمر ؟

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يدلُّنا بشخصية عمر إلى أنه سبحانه لم يُكلِّفنا بقضايا تنفر منها الفطرة ، إنما بقضايا تقبلها فطرتنا السليمة ، وتهتدى إليها بطبيعتها السوية الخالية من الهوى ، وهذا عمر لم يكُنْ نبياً ولا رسولاً ، لكن كان يصل إلى الحق بما فيه من فطرة إيمانية وعقلية سالمة من الأهواء ، حتى وصلت به الفطرة السليمة إلى أنْ ينطق القرآن بنفس ما نطق به .

وكلمة ﴿لَوْلا .. (٤٧)﴾ [القصص] تأتى بأحد معنيين : إنْ دخلتْ على الجملة الاسمية فهى حرف امتناع لوجود ، كما لو قلت : لولا زيد عندك لَزرتُكَ ، فامتنعتْ الزيارة لوجود زيد . ومن هذه قوله تعالى : ﴿وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ .. (٤٧)﴾ [القصص] والتقدير : لولا إصابتهم .

فإنْ دخلتْ (لولا) على الجملة الفعلية أفادتْ الحثَّ والحضَّ ، كما تقول لولدك : لولا ذاكرتَ دروسك ، وكذلك لولا الثانية في الآية ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [القصص]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ(١) تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨)﴾

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا .. (٤٨)﴾ [القصص] أى : الرسول الذى طلبوه ﴿قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ .. (٤٨)﴾ [القصص] سبحان الله ، إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذكُوراً ، لقد طلبتم مجرد

(١) قال القرطبي في تفسيره (٧/ ٥١٨١) : فيه ثلاثة أقاويل :
أحدها : موسى ومحمد عليهما السلام . وهذا قول مشركي العرب . وبه قال ابن عباس والحسن.
الثاني : موسى وهارون . وهذا قول اليهود لهما في ابتداء الرسالة . وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد .
الثالث : عيسى ومحمد ﷺ . وهذا قول اليهود اليوم . وبه قال قتادة . وقيل : أو لم يكفر جميع اليهود بما أوتي موسى في التوراة من ذكر المسيح ، وذكر الإنجيل والقرآن ، فرأوا موسى ومحمداً ساحرين والكتابين سحرين .

الرسول ولم تطلبوا معه معجزة معينة فقلتم : ﴿ رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً .. (٤٧) ﴾ [القصص] والآن تطلبون آيات حسِّية كالتى أرسل بها موسى من قبل .

والمتأمل يجد أن الآيات قبل محمد ﷺ كانت آيات حسِّية كونية ، مثل سفينة نوح عليه السلام ، وناقة صالح عليه السلام ، وعصا موسى عليه السلام ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله بالنسبة لسيدنا عيسى عليه السلام . وهذه كلها معجزات حسية تنتهى بانتهاء وقتها ، فهى مناسبة للرسل المحدودى الزمن ، والمحدودى المكان .

أما الرسول الذى أُرسِلَ للناس كافَّة في الزمان وفى المكان ، فلا تناسبه الآية الحسِّية الوقتية ؛ لأنها ستكون معجزة لزمانها ، وتظل العصور فيما بعد بلا معجزة ؛ لذلك جاء الحق ـ تبارك وتعالى ـ على يد محمد ﷺ بمعجزة باقية خالدة محفوظة بحِفْظ الله إلى يوم القيامة .

وقلنا : إن الرسل قبل محمد ﷺ كان الرسول يأتى بمعجزة تثبت صِدْق بلاغه عن الله ، ومعه كتاب يحمل منهجه ، فالكتاب غير المعجزة ، أما محمد ﷺ فجاءت معجزته هى عَيْن الكتاب والمنهج الذى أُرسِل به ليظل الدليل على صدْقه باقياً مع المنهج الذى يطالب الناس به ، وإلى أن تقوم الساعة نظل نقول : محمد رسول الله وهذه معجزته .

أمَّا إخوانه من الرسل السابقين فنقول فلان ، وكانت معجزته كذا على سبيل الإخبار ، والخبر يحتمل الصِّدْق ويحتمل الكذب .

وقد صدَّقنا بهـذه المعجزات كلها ؛ لأن الله أخبـرنا بها فى القرآن الكريم ، فللقـرآن الذى جـاء معـجزة ومنهـجاً الفضل في إبقـاء هذه المعجزات ؛ لأنه أخبر بها وخلَّد ذكرها .

ثم يرد الله عليـهم : ﴿أَوَ لَمْ يَكْفُـرُوا بِمَـا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَـبْلُ .. (٤٨)﴾ [القصص] ثم يحكى ما قالـوا عن معجزة موسى ، وعن مـعجزة محمد ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا .. (٤٨)﴾ [القصص] أى : أن موسى جاء بسحر ، ومـحمد جاء بسحـر آخر ، وقد ﴿تَظَاهَرَا .. (٤٨)﴾ [القصص] علينا يعنـى : تعاونا ، وهى مـأخـوذة من الظهـر كـأنك قُلْت : أعطنى ظهرك مع ظهرى لنحمل الحِمْل معاً ، والظهْر محلٌ الحمل .

والرد على هذا الاتهـام يسيـر ، فمـعجـزة موسى وإنْ كـانت من جنس السحر إلا أنها ليست سحْراً ، فالسحر يُخيِّل لك أن الحبال حية تسعى ، أمّا ما فعله موسى فكان قلب العصا إلى حـية حقيقية تسعى وتبتلع سـحرهم ، لذلك أُلقى السـحرة ساجـدين ؛ لأنهم رأوا معـجزة ليستْ من جنس ما نبغوا فيه فآمنوا من فورهم .

أما الذين قـالوا عن محمد ﷺ : إنه سـاحر فالردُّ عليـهم بسيط : فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً كما سحر المؤمنين به ؟

ثم يؤكدون كفرهم بكل من الرسولين : موسى ومحمد : ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨)﴾ [القصص]

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٩)﴾

معنى ﴿قُلْ .. (٤٩)﴾ [القصص] أى : فى الردّ عليهم ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ

مّنْ عند اللَّه هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا .. ﴿٤٩﴾ [القصص] أى : أهدى من التوراة التى جاء بها موسى ، وأهدى من القرآن الذى جاء به محمد ما دام أنهما لم يُعجباكم ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [القصص] يعنى : لو جئتُم به لاتبعته .

وهذا يعنى منهجين : منهج حقٌّ جاء به محمد ، ومنهج باطل يُصرون هم عليه ، وهذا التحدى من سيدنا رسول الله للكفار يعنى أنه لا يوجد كتاب أهدى مما جاء به ، لا عند القوم ، ولا عند مَنْ سيأتى من بعدهم ، وحين يُقر لهم رسول الله بإمكانية وجود كتاب أهْدى من كتابه يطمعهم فى طلبه ، فإذا طلبوه لم يجدوا كتاباً أهدى منه ، فيعرفوا هم الحقيقة التى لم ينطق بها رسول الله . وهل يستطيع بشر أن يضع للناس منهجاً أهدى من منهج الله ؟

إذن : يقول لهم : ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [القصص] وهو يعلم أنهم غير صادقين ، لأن الله تعالى جعل محمداً ﷺ خاتَم الرسل ، فلن يأتى رُسُل بعده ، بحيث يأتى الرسول فتستدركوا عليه فيأتى آخر بكتاب جديد ، وأنتم لن تستطيعوا أنْ تأتوا بكتاب من عند أنفسكم ؛ لأن كل مُقنِّن سيأتى بالمنهج الذى يخدم مذهبه ، ويُرضى هواه .

لذلك نقول : ينبغى فى المقنِّن ويُشترط فيه :

أولاً : أن يكون على علم واسع ، بحيث لا يُستْدرك عليه فيما بعد ، وهذه لا تتوفر فى أحد من البشر ، بدليل أن القوانين التى وُضعت فى الماضى لم تَعُدْ صالحة الآن ينادى الناس كثيراً بتعديلها ، حيثَ طرأتْ عليهم مسائل جديدة غابتْ عن ذهْن المشرِّع الأول ، فلما جدَّتْ هذه المسائل أتعبت البشر بالتجربة ، فطالبوا بتعديلها .

ثانياً : يشترط فى المشرِّع ألاَّ يكون له هوى فيما يُشرِّع للناس ،

ونحن نرى الرأسماليين والشيوعيين وغيرهم كُلٌّ يشرع بما يخدم مذهبه وطريقته فى الحياة ؛ لذلك يجب ألاَّ يُسند التشريع للناس لأحد منهم ؛ لأنه لا يخلو من هوى .

ثالثاً : يُشترَط فيه ألاَّ يكون منتفعاً بشىء مما يشرع .

وإذا اقتضتْ مسائل الحياة وتنظيماتها أنْ نُقنّن لها ، فلا يُقنِّن لنا من البشر إلا أصحاب العقل الناضج والفكر المستقيم ، بحيث يتوفر لهم نُضْج التقنين ، لكن إلى أنْ يوجد عندهم نضج التقنين أىّ منهج يسيرون عليه ؟

فإنْ حدثتْ فجوة فى التشريع عاش الناس بلا قانون ، وإلاَّ فما الذى قنَّنَ لأول مُقنِّن ؟ الذى قنّن لأول مُقنِّن هو الذى خلق أول مَن خُلق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥٠ ﴾

وهذا يعنى أن الله تعالى لم يطاوعهم إلى ما أرادوا ، فلم يَأْتِهم بكتاب آخر ، لكن كيف كان سيأتيهم هذا الكتاب ؟ يجيب الحق ـ تبارك وتعالى ـ على هذا السؤال بقوله تعالى : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ ﴾ [الزخرف]

إذن : الكلام عندهم ليس فى الكتاب ، إنما فيمن أُنزِل عليه

الكتاب ، وهذا معنى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ .. (٥٠) ﴾ [القصص]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ .. (٥٠) ﴾ [القصص] يعنى لا أضل ﴿ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ .. (٥٠) ﴾ [القصص] أى : اتبع هوى نفسه ، أما إنْ وافق هواه هوى المشرِّع ، فهذا أمر محمود أوضحه رسول الله في الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] .

فنحن في هذه الحالة لا نتبع الهوى إنما نتبع الشرع ؛ لذلك يقول أحد الصالحين الذين أفنوا عمرهم فى الطاعة والعبادة : اللهم إنِّى أخشى ألاَّ تثيبنى على طاعتى ؛ لأنك أمرتنا أنْ نحارب شهوات أنفسنا ، وقد أصبحت أحب الطاعة حتى صارت شهوة عندى .

وأضلُّ الضلال أن يتبع الإنسان هواه ؛ لأن الأهواء متضاربة فى الخلْق تضارب الغايات ، لذلك المتقابلات في الأحداث موجودة فى الكون .

وقد عبَّر المتنبى[2] عن هذا التضارب ، فقال :

أَرَى كُلَّنَا يَبْغى الحياةَ لنفسه ... حَرِيصاً عليها مُسْتهاماً بها صبَّا

فحبُّ الجبانِ النفسَ أوردَهُ التقى ... وحُبُّ الشجاعِ النفسَ أوردَهُ الحَربَا

فنحن جميعاً نحب الحياة ونحرص عليها ، لكن تختلف وسائلنا ، فالجبان لحبه للحياة يهرب من الحرب ، والشجاع يُلقى بنفسه في معمعتها مع أنه مُحِبٌّ للحياة ، لكنه محب لحياة أخرى أبقى ، هى حياة الشهيد .

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » . (ص ٤٦٠) وضعَّفه .

(٢) أبو الطيب المتنبى هو : أحمد بن الحسين الكندى ، الشاعر الحكيم ، وأحد مفاخر الأدب العربى ، له الأمثال السائرة والحكم البالغة ، ولد بالكوفة عام ٣٠٣ هـ فى محلة تسمى « كندة » ونشأ بالشام ، تنبأ فى بادية السماوة ، وقُتل عام ٣٥٤ هـ على يد جماعة خرجوا عليه بالطريق . [الأعلام للزركلى ١/ ١١٥] .

وآخر يقول :

كُلُّ مَنْ فى الوُجودِ يطلبُ صَيْداً   غـــير أنَّ الشِّـــباكَ مُختلفَـات

فالرجل الذى يتصدق بما معه رغم حاجته إليه ، لكنه رأى مَنْ هو أحوج منه ، وفـيه قـال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. ⑨ ﴾ [الحشر]

نقول : هذا آثر الفـقير على نفسـه ، لكنه من ناحية أخـرى يبغى الأجر ويطمع فى عَـشْرة أمثال مـا أنفق ، بل يطمع فى الجنة ، إذن : المسألة فيهـا نفعية ، فالدين عند المحققين أنانية ، لكنهـا أنانية رفيعة راقية ، ليست أنانيـة حمقاء ، الدين يرتقى بصاحبـه ، ويجعله إيجابياً نافعاً للآخرين ، ولا عليه بعد ذلك أن يطلب النفع لنفسه .

فالشرع حين يقول لك : لا تسـرق . وحين يأمرك بغضِّ بصرك ، وغير ذلك من أوامر الشرع ، فإنما يُقيِّد حريتك وأنت واحد ، لكن يُقيِّد من أجلك حريات الآخرين جميعاً ، فقد أعطاك أكثر مما أخذ منك ، فإذا نظرتَ إلى ما أخذ منك باتباعك للمنهج الإلهى فلا تَنْسَ ما أعطاك .

لذلك حين نتـأمل النبى ﷺ وهو يعالج داءات النفوس حـينما أتاه شاب من الأعراب الذين آمنوا ، يشتكى إليه ضَـعْفه أمام النسـاء ، وقلة صبـره على هذه الشهـوة ، حتى قال له : يـا رسول الله ائذن لى فى الزنا ، ومع ذلك لم ينهـره رسـول الله ﷺ ، بل علم أنه أمام مـريض يحـتاج إلى مَنْ يعـالجه ، ويسـتل من نفسـه هذه الثورة الـجامـحة ، خـاصة وقـد صارح رسـول الله بمـا يعانى فكان صـادقـاً مع نفسـه لم يدلس عليها .

لذلك أدناه رسـول الله ، وقـال له : يا أخـا العـرب ، أتحب ذلك

لأمك ؟ أتحب ذلك لزوجتك ؟ أتحب ذلك لأختك ؟ أتحب ذلك لابنتك ؟ والشاب فى كل هذا يقول : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فداك .

عندها قال ﷺ : « كذلك الناس يا أخا العرب لا يحبون ذلك لأمهاتهم ولا لزوجاتهم ولا لأخواتهم ولا لبناتهم »[1] .

فانصرف الشاب وهو يقول : والله ما شيء أبغض إليَّ من الزنا بعدما سمعتُ من رسول الله ، وكلما هَمَّتْ بى شهوة ذكرتُ قول رسول الله فى أمى ، وزوجتى ، وأختى ، وابنتى .

فالذى يُجرِّىء الناس على المعصية والولوع بها عدم استحضار العقوبة وعدم النظر فى العواقب ، وكذلك يزهدون فى الطاعة لعدم استحضار الثواب عليها .

وسبق أن قلنا لطلاب الجامعة : هَبُوا أن فتى عنده شَرَه جنسى ، فهو شرهٌ منطلق يريد أنْ يقضى شهوته فى الحرام ، ونريد له أن يتوب فقلنا له : سنوفر لك كل ما تريد على أنْ تُلقى بنفسك فى هذا (الفرن) بعد أن تُنهى ليلتك كما تحب ، ماذا يصنع ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) ﴾ [القصص] وفى مواضع أخرى : ﴿ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) ﴾ [المائدة] ، ﴿ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة] ، وكلها دلَّتْ على أن الله لا يصنع عدم الهداية لأحد إلا بسبق شيء منه ، والمراد بالهداية هنا ـ أى : هداية الإيمان والتقوى ـ وإلاَّ فقد هدى الله الجميع هداية الدلالة والإرشاد فلم يأخذ بها هؤلاء فحُرِموا هداية الإيمان .

---

(١) عن أبى أمامة أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لى فى الزنا ، فهمَّ من كان قرب النبى ﷺ أن يتناولوه. فقال النبى ﷺ : دعوه . ثم قال له النبى ﷺ : أتحب أن يفعل هذا بأختك ؟ قال : لا ، قال : فابنتك ؟ قال : لا . فلم يزل يقول فبكذا فبكذا ، كل ذلك يقول : لا ، فقال النبى ﷺ : فاكره ما كره الله وأحب لأخيك ما تحب لنفسك . أورده المتقى الهندى فى منتخب الكنز (٢/٣٩٧) وعزاه لابن جرير الطبرى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

كلمة ﴿ وَصَّلْنَا .. ﴿٥١﴾ ﴾ [القصص] تُشعر بأشياء ، انفصل بعضها عن بعض ، ونريد أنْ نُوصِّلها ، فقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [القصص] أى : وصَّلنا لهم الرسالات ، فكلما انقضى عهد رسول وكفر الناس أتاهم الله برسالة أخرى ليظلَّ الخَلْق مُتصلين بهدى الخالق وبمنهجه ، أو : أن الأمر خاصٌّ برسول الله ﷺ ، والمعنى وصَّلنا له الآيات ، فكلما نزل عليه نجم من القرآن وصَّلنا بنجم آخر حسب الأحداث .

لذلك كانت هذه المسألة من الشبهات التى أثارها خصوم رسول الله ، حين قالوا كما حكى عنهم القرآن ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان] فردَّ عليهم القرآن ليبين لهم حكمة نزوله مُنجَّماً : ﴿ كَذَلِكَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان] أى : أنزلناه كذلك مُنجَّماً ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان]

فلو نزل القرآن جملة واحدة لكان التثبيت لرسول الله مرة واحدة ، وهو محتاج إلى تثبيت مستمر مع الأحداث التى سيتعرَّض لها ، فيوصل الله له الآيات ليظل على ذُكْر من سماع كلام ربه كلما اشتدتْ به الأحداث ، فيأتيه النجم من القرآن ليُسلِّيه ، ويُسرِّى عنه ما يلاقى من خصومه .

وحكمة أخرى فى قوله : ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان] فكلما نزل قسْط من القرآن سَهُلَ عليهم حفظه وترتيبه والعمل به ، كما أن المؤمنين المأمورين بهذا المنهج ستستجدّ عليهم قضايا ، وسوف يسألون فيها رسول الله ، فكيف سيكون الجواب عليها إنْ نزل القرآن جملة واحدة ؟

لا بُدَّ أن يتأخر الجواب إلى أنْ يطرأ السؤال ؛ لذلك يقول تعالى :
﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ﴾ [الفرقان]

وقد ورد الفعل يسألونك فى القرآن عدة مرات فى سور شتى ، فكيف تتأتى لنا الإجابة لو جاء القرآن كما تقولون جملةً واحدة ، ثم سبحان الله هل أطقتموه مُنجَّماً حتى تطلبوه جملة واحدة ؟

ثم تختم الآية بحكمة أخرى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) ﴾ [القصص] فكلما نزل نجم من القرآن ذكَّرهم بما غفلوا عنه من منهج الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٥٢) ﴾

كأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لنبيه محمد ﷺ : سأجعل خصومك من أهل الكتاب هم الذين يشهدون بصدْقك ؛ لأنهم يعرفونك كما يعرفون أبناءهم ، وما جاء فى كتابك ذُكر فى كتبهم وذكرت صورتك وأوصافك عندهم .

لذلك تجد آيات كثيرة من كتاب الله تُعوِّل على أهل الكتاب فى معرفة الحق الذى جاء به القرآن ، يقول تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ [الرعد]

فهم أيضاً شهداء على صدق رسول الله بما عندهم من الكتب السابقة فاسألوهم .

ويقول تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾ [الأعلى]

ويقول سبحانه : ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ .. (١٩٩)﴾ [آل عمران]

وإلا ، فلماذا أسلم عبد الله بن سلام وغيره من علماء اليهود ؟

إذن : أهل الكتاب الصادقون مع أنفسهم ومع كتبهم لا بُدَّ أنْ يؤمنوا برسالة محمد ﷺ ، أما الذين لم يؤمنوا فحجبتهم السلطة الزمنية والحرص على السيادة التى كانت لهم قبل الإسلام ، سيادةً فى العلم ، وفى الحرب ، وفى الثروة .

وكان من هؤلاء عبد الله بن أُبَىٍّ ، وكان أهل المدينة يستعدون لتنصيبه مَلِكاً عليهم ، فلما هاجر سيدنا رسول الله إليها أفسد عليهم ما يريدون ، ونزع منهم هذه السيادة ، والسلطة الزمنية حينما تتدخل تعنى أن يشترك هوى الناس فيستخدمون مرادات الله لخدمة أهوائهم ، لا لخدمة مرادات الله .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ (٥٣)﴾

هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب إذا يُتْلَى عليهم القرآن قالوا : آمنا به ، وشَهِدوا له أنه الحق من عند الله ، وأنهم لم يزدادوا بسماع آياته

---

(١) **سبب نزول الآية :** قال قتادة : أنها نزلت فى عبد الله بن سلام وتميم الدارى والجارود العبدى وسلمان الفارسى ، أسلموا فنزلت فيهم هذه الآية . [تفسير القرطبى ٧/٥١٨٣]
وقال القرطبى : ويدخل فيه من أسلم من علماء النصارى ، وهم أربعون رجلاً ، قدموا مع جعفر بن أبى طالب المدينة ، اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة ، وثمانية نفر أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى ، منهم بحيراء الراهب وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع . كذا سماهم الماوردى .

إيماناً ، فهم كانوا من قبله مسلمين ، فقد آمنوا أولاً بكتبهم ، وآمنوا كذلك بالقرآن .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يريد أنْ يُعلِّمنا أن الذى يريد ديناً حقاً لا بُدَّ أن ينظر إلى دين يأتى بعده بمعجزة ، لأنه إذا كان قد آمن حين جاء عيسى بأنه جاء بعد موسى - عليه السلام - فلا يستبعد عقلاً أنْ يجيء بعد عيسى رسول ، فوجب عليه أنْ يبحث فى الدين الجديد ، وأنْ ينظر أدلة تبرر له إيمانه بهذا الدين .

هذا إذا كان الدين الأول لم يتبدَّل ، فإذا كان الدين الأول قد تبدَّل ، فالمسألة واضحة ؛ لأن التبديل يُحدث فجوة عند مَنْ يريد ديناً ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ .. ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف]

آمنوا به ؛ لأنهم وجدوا نَعْته ، ووجدوا العقائد التى لا تتغير موجودة فى كتابه ، وهو أُميٌّ لم يعرف شيئاً من هذا ، فأخذوا من أميته دليلاً على صدْقه .

فقوله تعالى ﴿ أُوْلَٰئِكَ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [القصص] أى : أهل الكتاب الذين يؤمنون بالقرآن وهم خاشعون لله ، والذين سبق وصفهم ﴿ أُوْلَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [القصص] أجر لإيمانهم برسلهم ، وأجر لإيمانهم بمحمد ﷺ .

لذلك جاء فى الحديث الشريف : « ثلاثة يُؤْتَوْن أجرهم مرتين :

رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بى ، وعبد مملوك أدى حق الله وأدى حق أوليـائه ، ورجل عـنده أَمَـة ـ جـارية ـ فـأدَّبهـا فـأحـسن تأديبها ، فأعتقها بعد ذلك ، ثم تزوجها »[1] .

وهؤلاء الذين آمنوا برسلهم ، ثم آمنوا برســول الله استحـقوا هذه المنزلة ، ونالوا هذين الأجـرين لأنهم تعـرضوا للإيذاء مـمَّنْ لم يؤمن فى الإيمان الأول ، ثم تعـرَّضوا للإيذاء فى الإيمـان الثانى ، فصــبروا على الإيذاءين ، وهذه هى حيـثية ﴿ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا .. (٥٤) ﴾ [القصص]

وكمـا أن الله تعالى يُؤتى أهلَ الكتـاب الذين آمنوا بمحمـد أجرهم مرتين ، كذلك يُؤتى بعض المسلمين أجرهم مرتين ، ومنهم ـ كما بيَّن سيـدنا رسول الله : « عـبد مملوك أدى حق الله ، وأدَّى حـق أوليائه ، ورجل عنده أَمَةٌ ... » .

ولا يُحرم هذا الأجر الدين الذى باشر الإسلام ، وأتى قبله ، وهو المسيحية ، فلهم ذلك أيضاً ؛ لذلك يقول تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] وأهم هذه المنافع ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] وذكر الحديد ، لأن منه سيصنع سلاح الحرب .

إذن : أنزل الله القرآن لمهمة ، وأنزل الحـديد لمهمة أخرى ؛ لذلك يقول الشـاعر :

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٩٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٤) كتاب الإيمان من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه بنحوه .

فَمَا هُوَ إلاَّ الوَحْىُ أَوْ حَدٌّ مُرْهَف ... يُقيم ظباه[1] أَخْدعَى[2] كلِّ مائل

فَهَـذا دَوَاءُ الـدَّاء من كُلِّ عَاقلٍ ... وذَاك دَوَاءُ الـدَّاء من كُلِّ جاهل

ولى أنا شخصياً ذكريات ومواقف مع هذه الآية ﴿أُولَـٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا .. (٥٤)﴾ [القصص] وقد كنا فى بلد بها بعض من إخواننا المسيحيين ، وكان من بينهم رجل ذو عقل وفكر ، كان دائماً يُواسى المسلمين ، ويحضر مآتمهم ويستمع للقرآن ، وكانت تعلَق بذهنه بعض الآيات ، فجاءنى مرة يقول : سمعت المقرىء يقرأ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء]

فألسْنا من العالمين ؟ قلت له : نعم أُرسل محمد رحمة للعالمين جميعاً ، فمَنْ آمن به نالته رحمته ، ومَنْ لم يؤمن به حُرم منها ، ومع ذلك لو نظرتَ فى القرآن نظرة إمعانٍ وتبصُّر تجد أنه رحم غير المؤمن ، قال : كيف ؟ فقرأتُ له قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ .. (١٠٥)﴾ [النساء] ولم يقل بين المؤمنين ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً (١٠٥)﴾ [النساء]

فمن رحمة الرسول بغير المؤمنين أنْ يُنصف المظلوم منهم ، وأنْ يردَّ عليه حقَّه ، ثم ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً (١٠٦)﴾ [النساء] لأن الله لا يحب الخوَّان الأثيم ولو كان مسلماً .

ثم ذكرتُ له سبب نزول هذه الآية[3] وهى قصة الدرع الذى أودعه اليهودى زيد بن السمين أمانة عند طعمة بن أبيرق المسلم ،

---

(١) الظبة : حدّ السيف والسنان والنصل والخنجر وما إلى ذلك . [لسان العرب ـ مادة : ظبا] .

(٢) الأخدعان : عرقان فى جانبى العنق قد خفيا وبطنا . وقال اللحيانى : هما عرقان فى الرقبة. [لسان العرب ـ مادة : خدع] .

(٣) أورده الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٠٣) ـ طبعة المكتبة الثقافية بيروت .

وكان الدرع قد سُرِق من قتادة بن النعمان ، فلما افتقده قتادة ذهب يبحث عنه ، وكان قد وضعه فى كيس من الدقيق ، فتتبع أثر الدقيق حتى ذهب إلى بيت زيد بن السمين اليهودى فاتهمه بسرقته ، وأذاع أمره بين الناس ، فقصَّ اليهودى ما كان من أمر طُعْمة بن أبيرق ، وأنه أودع الدرع عنده على سبيل الأمانة ؛ لأنه يخشى عليه أنْ يُسرق من بيته .

وهنا أحب المسلمون تبرئة صاحبهم ؛ لأنه حديث عهد بإسلام ، وكيف ستكون صورتهم لو شاع بين الناس أن أحدهم يسرق ، ومالوا إلى إدانة اليهودى ، وفعلاً عرضوا وجهة نظرهم هذه على رسول الله ليرى فيه حلاً يُخرجه من هذا المأزق ، مع أنهم لا يستبعدون أنْ يسرق ابن أبيرق(١) .

وجلس رسول الله يفكر فى هذا الأمر ، لكن سرعان ما نزل عليه الوحى ، فيقول له : هذه المسألة لا تحتاج إلى تفكير ولا بحث : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً** (١٠٥) ﴾ [النساء]

فأدانت الآية ابن أبيرق ، ودلَّتْ على أن هذه ليست الحادثة الأولى فى حقِّه ، ووصفتْه بأنه خوّان أى : كثير الخيانة وبرَّأتْ اليهودى ، وصححتْ وجهة نظر المسلمين الذين يخافون من فضيحة المسلم بالسرقة ، وغفلوا عن الأثر السيء لو قلبوا الحقائق ، وأدانوا اليهودى .

---

(١) قال ابن حجر العسقلانى فى كتاب « الإصابة فى تمييز الصحابة » (٣/٢٨٥) (ترجمة ٤٢٢٨) : « ذكره أبو إسحق المستملى فى الصحابة وقال : شهد المشاهد كلها إلا بدراً .. وقد تُكلِّم فى إيمان طعمة » .

فالآية وإنْ أدانت المسلم ، إلا أنها رفعتْ شأن الإسلام فى نظر الجميع : المسلم واليهودى وكل من عاصر هذه القصة بل وكل من قرأ هذه الآية ، ولو انحاز رسول الله وتعصَّب للمسلم لاهتزتْ صورة الإسلام فى نظر الجميع . ولو حدث هذا ماذا سيكون موقف اليهود الذين يراودهم الإسلام ، وقد أسلموا فعلاً بعد ما حدث ؟

وما أشبهَ هذه المسألة بشاهد الزور الذى يسقط أول ما يسقط من نظر صاحبه الذى شهد لصالحه ، حتى قالوا : مَنْ جعلك موضعاً للنقيصة فقد سقطت من نظره ، وإنْ أعَنْتَه على أمره ، فشاهد الزور يرتفع رأسُك على الخصم بشهادته ، وتطأ قدمُك على كرامته .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ .. (٥٤) ﴾ [القصص] هذه أيضاً من خصالهم أن يدفعوا السيئة بالحسنة ، فمن صفاتهم العفو والصفح كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى] ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) ﴾ [القصص] النفقة الواجبة على نفسه وعلى آله ، والنفقة الواجبة للفقراء وهى الزكاة ، ثم نفقة المروءات للمساكين وأهل الخصاصة .

﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ (٥٥) ﴾

هذه صفة أخرى من صفات المؤمنين ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ .. (٥٥) ﴾ [القصص] واللغو : هو الكلام الذى لا فائدةَ منه ، فلا ينفعك إنْ سمعتَه ، ولا يضرك عدم سماعه ، وينبغى على العاقل أنْ يتركه ، فهو حقيق أنْ يُترك وأنْ يُلْغى .

ولذلك كان من صفات عباد الرحمن : ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢)﴾ [الفرقان] أى : لا يلتفتون إليه .

وسبب نزول هذه الآية[1] : لما استقبل رسول الله ﷺ رُسُل النجاشى وكانوا جماعة من القساوسة ، فلما جلسوا أسمعهم سورة (يس) ، فتأثروا بها حتى بكَوْا جميعاً ، ثم آمنوا برسول الله ، ولما انصرفوا تعرَّض لهم أبو جهل ونهرهم وقال : خيَّبكم الله من رَكْب - وهم الجماعة يأتون فى مهمة - أرسلكم من خلفى - يعنى : النجاشى - لتعلموا له أخبار الرجل ، فسمعتموه فبكيتُم وأسلمتُم ، والله ما رأينا رَكْباً أحمق منكم ، فما كان منهم إلا أنْ أعرضوا عنه .

هذا معنى قول الحق سبحانه : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ .. (٥٥)﴾ [القصص]

وهؤلاء مرُّوا باللغو مرورَ الكرام ، وأعرضوا عنه ، فلم يلتفتوا إليه ، وزادوا على ذلك أنهم لم يسكتوا على اللغو إنما قالوا : ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)﴾ [القصص] لنا أعمالنا الخيِّرة التى يجب أنْ نُقبل عليها ، ولكم أعمالكم الباطلة التى ينبغى أنْ تُترك ، فكلٌّ منَّا له شأن يشغله .

﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ .. (٥٥)﴾ [القصص]والسلام إما سلام تحية كما هو شائع بيننا ، وإما سلام للمتاركة كما لو دخلتَ مع صاحبك فى جدل ، فلما رأيتَ أنه سيطول وربما تعدَّيْتَ عليه فتقول له تاركاً : سلام عليكم . تعنى : إننى ليس لدىَّ ما أقوله لمفارقتك إلا هذه الكلمة .

ومن ذلك ما دار بين الخليل إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة

---

(١) قاله سعيد بن جبير فيما أورده عنه ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٩٣) وقاله عروة بن الزبير فيما نقله القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٨٣) وعزا ابن كثير القصة لمحمد بن إسحاق فى السيرة .

والسلام - وبين عمِّه ، فبعد أنْ ناقشه ولم يَصل معه إلى نتيجة قال له :﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ..(٤٧) ﴾ [مريم]

ثم يقول الحق سبحانه[1]:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

هذا خطاب لسيدنا رسول الله ، خاصٌ بدعوته لعمه أبي طالب الذي ظلَّ على دين قومه ، ولكنه كان يحمي رسول الله حماية عصبية قربى وأهل ، لا محبة في الإسلام ، ولله تعالى حكمة في أنْ يظلَّ أبو طالب على الكفر ؛ لأنه بذلك كسب قريشاً ونال احترامهم ، حيث أعجبهم عدم إيمانه بمحمد وعدم مجاملته له ، وأعجبهم أن يظل على دين الآباء ، فاحترموا حمايته لابن أخيه ، وهذا منع عن رسول الله إيذاءهم ، وحمى الدعوة من كثير من الاعتداءات عليها .

لذلك كان رسول الله ﷺ حريصاً على أنْ يردَّ له هذا الجميل ، وردُّ رسول الله الجميل لا يكون بعرَض من الدنيا ، إنما بشيء باقٍ خالد ، فلما حضرت أبا طالب الوفاة قال له رسول الله ﷺ : « يا عم ، قُلْ لا إله إلا الله كلمة أشفع لك بها عند الله يوم القيامة »

---

(١) سبب نزول الآية : قال أبو إسحاق الزجاج : أجمع المفسرون أنها نزلت في أبي طالب . ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ١٩٤) .
وقاله ابن عباس (أخرجه ابن مردويه) ، وابن عمر (أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو داود في القدر) ، وقتادة (أخرجه عبد بن حميد) أورد كل هذه الأقوال السيوطي في الدر المنثور (٦/٤٢٩) .

فقال : يا ابن أخى ، لولا أن قريشاً تُعيِّرنى بهذه الواقعة ، ويقولون ما آمن إلا جزعاً من الموت لأقررت عينك بها[1] .

لكن يُرْوى أنه بعدما انتقل أبو طالب ، جاء العباس إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا محمد ، إن الكلمة التى طلبتَ من عمِّك أنْ يقولها قالها قبل أن يموت وأنا أشهد بها .

ونلاحظ هنا دقة الأداء من العباس ، حيث لم يقُلْ : إن هذه الكلمة لا إله إلا الله ، بل سماها (الكلمة) لماذا ؟ لأنه لم يكن قد أسلم بعد .

وسبق أنْ تكلَّمنا فى معنى الهداية ﴿ إنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ..(٥٦) ﴾ [القصص] وقلنا : إنها تأتى بأحد معنيين : بمعنى الإرشاد والدلالة ، وبمعنى المعونة لمن يؤمن بالدلالة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد] أى : سمعوا الدلالة وأطاعوها ، فزادهم الله هدايةً أخرى ، هى هداية الإيمان والمعونة .

يقول تعالى فى هذه المسألة : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ (١٧) ﴾ [فصلت] يعنى : دللناهم ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ (١٧) ﴾ [فصلت] ؛ لذلك حُرموا هداية المعونة .

إذن : الهداية المنفية عن سيدنا رسول الله ﴿ إنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ..(٥٦) ﴾ [القصص] هى هداية المعونة والتوفيق للإيمان ؛ لأنه ﷺ هدى الجميع هدايةَ الدلالة والإرشاد ، وكان مما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) ﴾ [الصف]

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥) كتاب الإيمان ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٣٤٤/٢) ، والواحدى فى « أسباب النزول » ص ١٩٤ من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فهداية الدلالة صدرت أولاً عن الله تعالى ، ثم بالبلاغ من رسوله ﷺ ثانياً .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

وهذه المقولة ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص] قالها الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف ، فقد ذهب إلى سيدنا رسول الله ، وقال : إننا نعلم أنك جئتَ بالحق ، ولكن نخاف إنْ آمنا بك واتبعنا هواك أنْ نُتخطّف من أرضنا ، ولابُدَّ أنه كان يتكلم بلسان قومه الذين ائتمروا على هذا القول .

والخطْف : هو الأخْذ بشدة وسرعة .

إذن : فهم يُقرُّون للرسول بأنه جاء بالحق ، وأنه على الهدى ، لكن علة امتناعهم أنْ يُتخطفوا ، وكان عليهم أنْ يقارنوا بعقولهم بين أن يكونوا مع رسول الله على الحق وعلى الهدى ويُتخطَّفوا ، وبين أنْ يظلُّوا على كفرهم .

فقصارى ما يصيبهم إنْ اتبعوا رسول الله أن يتخطفهم الناس فى

---

(١) **سبب نزول الآية** : قال الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٩٤) : « نزلت فى الحارث بن عثمان بن عبد مناف ، وذلك أنه قال للنبى ﷺ : إنَّا لنعلم أن الذى تقول حقٌ ، ولكن يمنعنا من اتباعك أن العرب تخطفنا من أرضنا لإجماعهم على خلافنا ولا طاقة لنا بهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .. قاله ابن عباس فيما أورده عنه القرطبى فى تفسيره (٥١٨٦/٧) .

أمـوالهم أو فى أنفـسـهم - على فـرض أن هذا صـحـيح - قصـارى ما يصيبهم خسارة عَرَض فانٍ من الدنيا لو استمر لك لتمتعتَ به مدة بقائك فيها ، وهذا الخير الذى سيفوتك من الدنيا محدود على مقتضى قوة البشـر ، ولا يضيرك هذا إنْ كنتَ من أهل الآخرة حـيث ستذهب إلى خير بَاقٍ دائم ، خير يناسب قدرة المنعم سبحانه .

أمـا إنْ ظلُّوا على كـفـرهم ، فـمـتـاع قليل فى الدنيـا الفـانيـة ، ولا نصـيبَ لهم فى الآخرة البـاقـية . إذن : فـأىٌّ الطريق أهدى ؟ إن المقارنة العقلية ترجح طـريق الهدى واتباع الحق الذى جاء به رسول الله ، هذه واحدة .

ثم مَنْ قـال إنكـم إن اتبـعـتم الهـدى مع رسـول الله تُـتـخطَّفـوا وتُضـطهـدوا ؟ لذلك يرد الله عليهم : قُلْ لهم يا مـحمد : كـذبتم ، فلن يتخطفكـم أحد بسـبـب إسلامكم :﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [القصص]

فقد أنعم الله عليكم وأنتم كافرون مـشركون به ، تعبدون الأصنام فى جاهلية ، ومكَّن لكم حياة آمنة فى رحـاب بيته الحرام ، ووفَّر لكم رَغَد العيش وأنتم بوادٍ غير ذى زرع حـيث يُجْبى إليه الثمرات من كل مكان ، فالذى صنع مـعكم هذا الصنيع أيترككم ويتـخلى عنكم بعد أنْ آمنتم به ، واهتديتم إلى الحق ؟ كيف يكون منكم هذا القياس ؟

ومعنى : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ .. (٥٧) ﴾ [القصص] استـفـهـام للتقـرير ، فاسألهم وسوف يعترفون هـم أن الله مكَّن لهم حرماً آمناً يُجبَى إليه ثمرات كل شىء ، فالحق سبحانه يريد أنْ يثبت هذه القضية بإقرارهم بها .

ومعنى ﴿ نُمَكِّن لَّهُمْ .. (٥٧) ﴾ [القصص] نجعلهم مكينين فيه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ .. (٢١) ﴾ [يوسف] والتمكين

يدل على الثبات ؛ لأن ظرف المكان ثابت على خلاف ظرف الزمان .

وقال : ﴿ حَرَمًا آمِنًا .. (٥٧) ﴾ [القصص] مع أن الأمن لمن فى المكان ، لكن أراد سبحانه أن يُؤَمِّن نفس المكان ، فيكون كل ما فيه آمناً ، حتى القاتل لا يُقتصّ منه فى الحرم ، والحيوان لا يُثار فيه ولا يُصَاد ، والنبات لا يُعضد حتى الحجر فى هذا المكان آمن ، ألاَ تراهم يرجمون حجراً فى رمى الجمرات فى حين يُكرِّمون الحجر الأسود ويُقبِّلونه .

وحينما نتأمل الحرم منذ أيام الخليل إبراهيم – عليه السلام – نجد أن له خطة ، وأن الحق سبحانه يُعدُّه ليكون حرماً آمناً ، فلما جاءه إبراهيم قال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

هذا يعنى أن المكان ليس به من مقومات الحياة إلا الهواء ، لأن نفى الزرع يعنى عدم وجود الماء ؛ لذلك اعترضت السيدة هاجر على هذا المكان القفر ، فلما علمتْ أنه اختيار الله لهم قالت : إذن لن يضيعنا[1] .

وقد رأتْ بنفسها أن الله لم يُضيِّعهم ، فلما احتاجت الماء لترضع وليدها وسعتْ فى طلبه بين الصفا والمروة سبعة أشواط على قَدْر ما أطاقتْ لم تجد الماء فى سَعْيها ، ولو أنها وجدته لكان سعيها سبباً إنما أراد الله أنْ يُصدِّقها فى كلمتها ، وأن يثبت لها أنه سبحانه لن يُضيّعهم من غير أسباب لتتأكد أن كلمتها حق ، ثم شاءتْ قدرة الله أن

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٦٤) من حديث ابن عباس من حديث طويل ، وفيه أن إبراهيم جاء بهاجر وابنها إسماعيل ـ وهى ترضعه ـ حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفَّى إبراهيم منطلقاً ، فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شيء ، فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليها . فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يُضيِّعنا » .

يخرج الماء من تحت قدم الوليد ، وهو يضرب بقدمه الأرض ، ويبكى من شدة الجوع والعطش ، وانبجستْ زمزم .

ولما أسكن إبراهيم أهله فى هذا المكان المقْفر أراده لهم سكناً دائماً ، لا مجرد استراحة من عناء السفر ؛ لذلك قال :﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

وكأنه - عليه السلام - يريد أن يطمئن على إقامة أهله فى هذا المكان ، وأن يكون البيت مُصلًّى لله ، لا تنقطع فيه الصلاة ، وهذا هو الفرق بين بيت الله باختيار الله وبيت الله باختيار عباد الله .

فالبيت الذى نبنيه لله تعالى قد يُغلق حتى فى أوقات الفروض ، أما بيت الله الذى اتخذه لنفسه فلا يخلو من الطواف والصلاة فى أىِّ وقت من ليل أو نهار ، ولا ينقطع منه الطواف إلا لصلاة مكتوبة ، فإذا قُضيتْ الصلاة رأيتهم يُهرعون إلى الطواف .

وقد رأيت الحرم فى إحدى السنوات وقد دهمه سيل جارف حتى ملأ ساحته ، ودخل الماء الكعبة وغطَّى الحجر الأسود ، فكان الناس يطوفون سباحة ، ورأينا أناساً يغطسون عند الحجر ليُقبِّلوه ، وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يريد أن يظلَّ الطواف حول بيته لا ينقطع على أىِّ حال .

كذلك نفهم من قوله تعالى ﴿ تَهْوِي إِلَيْهِمْ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

من الفعل هَوَى يهوى ، يعنى : سقط ؛ لأن الذى يسقط لا إرادةَ له فى عدم السقوط ، كذلك مَنْ يأتى بيت الله أو يجلب إليه الخيرات يجد دافعاً يدفعه كأنه لا إرادة له .

كما نفهم منها معنى آخر ، فكل تكاليف الحق سبحانه ربما

تكاسل الناس فى أدائها ، فمنّا مَنْ لا يصلى أو لا يُزكّى . إلا الحج حيث قال الله فيه :﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً ..(٢٧) ﴾ [الحج] فمجرد أن تؤذن يأتوك .

لذلك نجد من غير القادرين على نفقات الحج من يجوع ويُمسك على أهله ليوفِّر تكاليف الحج ، فهو - إذن - الفريضة الوحيدة التى يتهافت عليها مَنْ لم تطلب منه .

ونلحظ أن إبراهيم - عليه السلام - دعا بالأمن للحرم مرتين : مرة فى قوله : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا .. (١٢٦) ﴾ [البقرة] يعنى : اجعل هذا المكان بلداً آمناً ، كأىّ بلد آمن لا تُقام إلا فى مكان يُؤَمِّنون فيه كل مُقوِّمات الحياة ، فأىّ بلد لا تُبنى حتى من الكافر إلا إذا كان آمناً فيها ، فالطلب الأول أنْ يتحول هذا المكان الخالى إلى بلد آمن ، كما يأمن كل بلد حين ينشأ ، وهذا أمن عام .

ثم يدعو مرة أخرى ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا .. (٣٥) ﴾[إبراهيم] بعد أن أصبحتْ مكة بلداً آمناً يطلب لها مزيداً من الأمن ، وهذا أمن خاص ، حيث جعلها بلداً حراماً ، يأمن فيها الإنسان والحيوان والنبات ، بل والجماد .

وقد وقف البعض عند قوله تعالى :

﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧) ﴾ [آل عمران]

وقالوا : أين هذا الأمن ، وقد حدث فى الحرم الاعتداء والقتل وترويع الآمنين ، كما حدث فى أيام القرامطة لما دخلوا الحرم ، وقتلوا الناس فيه ، وأخذوا الحجر ، وفى العصر الحديث نعرف حكاية جهيمان ، وما حدث فيها من قَتْل فى الحرم .

وهذه الآية : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران] جملة خبرية غرضها الأمر والحثّ ، كأنه تعالى قال : أمِّنوا من دخل الحرم . وهذه ليست قضية كونية ، إنما قضية شرعية ، وفَرْق بين القضيتين : الكونية لابُدَّ أن تحدث ، أما الشرعية فأمر ينفذه البعض ، ويخرج عليه البعض ، فمَنْ أطاع الأمر الشرعى لله وأراد أنْ يجعل أمر الله صادقاً يُؤمِّن أهل الحرم ، ومَنْ أراد أنْ يكذِّب ربه يهيج الناس ويروعهم فيه .

ومن الآيات التى كثيراً ما يُسأل عنها فى هذا الصدد قوله تعالى: ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ.. ﴿٢٦﴾ ﴾ [النور] يقولون : كثيراً ما يتزوج خبيث من طيبة ، أو طيبة من خبيث ، فالواقع لا يتفق مع الآية . نقول أيضاً هنا : هذه قضية شرعية تحمل أمراً قد يُطاع وقد يُعْصَى ، وليست قضية كونية لا بُدَّ أنْ تأتى كما أخبر الله تعالى بها ، ولا يتخلّف مدلولها .

فالمعنى فى الآية : إن زوجتُم فزوِّجوا الخبيث للخبيثة ، والطيب للطيبة ؛ ليتحقق التكافؤ بين الزوجين ويحدث بينهما الوفاق ، حتى إنْ عيَّر الخبيث زوجته كانت مثله تستطيع أنْ تردّ عليه ، لابُدَّ من وجود التكافؤ حتى فى (القباحة) ، وإلا فكيف تفعل الطيبة مع الخبيث ، أو الخبيث مع الطيبة ؟

إذن : فالآية وأمثالها قضية شرعية فى صيغة الخبر ، وإنْ كانت تعنى الأمر ، كما تقول عن الميت : رحمه الله بصيغة الماضى ، وأنت لا تدرى رحمه الله ، أو لم يرحمه ، إذن : لا بُدَّ أن المعنى دعاء : فليرحمه الله ، قلتها أنت بصيغة الماضى ، رجاء أن تكون له الرحمة .

نعود إلى قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص]

ونلحظ هذا التمكين وهذا الأمن في قصة الفيل ، حيث جاء أبرهة ليهدم الكعبة ، ويتقدّم الجيش فيل ضخم يقال له محمود ، فلما قالوا في أذنه (ابْرُكْ محمود وارجع راشداً)[1] يعني : انفد بجلدك (فإنك ببلد الله الحرام) فبركَ الفيل واستجاب .

ثم جاءت معركة الطير الأبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول . هذا كله من الأمن الذي جعله الله لقريش سكان حرمه ؛ لتظل الكعبة مسكونة بهم ، وما داموا هم سكان الحرم والناس تأتيهم من كل الأنحاء للحج كل عام ، فسوف يظل لهم الأمن بين القبائل ، ولا يجرؤ أحد على الاعتداء عليهم ، أو التعرُّض لقوافلهم في رحلة الشتاء والصيف ، وأيّ أمن ، وأيّ مهابة بعد هذا ؟

ومع الحجيج يُجلب الطعام وتُجلب الأرزاق ، وصدق الله العظيم :
﴿ لإيلاف قُرَيْشٍ ۝١ إيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤ ﴾ [قريش]

وكيف بعد هذا الأمن والأمان يخاف مَنْ يؤمن بمحمد أنْ يُتخطَّف من أرضه ؟ إنها مقولة لا مدلولَ لها .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥٨ ﴾

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٥٢/١) ، والذي قال للفيل : ابرك . هو نفيل بن حبيب الخثعمي . وفيه « أنهم ضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوه في رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى ، فأدخلوا محاجن (المحجن : عصا مُعقَّفة الرأس) لهم في مراقّه فبزغوه بها ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعاً إلى اليمن ، فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك » .

كلمة ﴿ وَكَمْ ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص] كم هنا خبرية تفيد الكثرة ، كأنك تركتَ الجواب ليدل بنفسه على الكثرة ، كما تقول لمن ينكر جميلك ، ولا تريد أنْ تُعدد أياديك عليه : كم أحسنتُ إليك ، يعنى : أنا لن أعدِّد ، وسوف أرضى بما تقوله أنت .لأنك واثق أن الإجابة سوف تكون في صالحك ، وعندها لا يملك إلا أن يقول : نعم هى كثيرة . فكم هنا تعنى الكثرة ، وينطق بها المخاطب لتكون حجة عليه .

ومعنى : ﴿ مِن قَرْيَةٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص] من للعموم أى : من بداية ما يُقال له قرية ﴿ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص] البطر : أن تنسى شُكْر المُنعم على نعمه ، أى : أنه سبحانه لم يرد ذكره على بالك وأنت تتقلَّب فى نعَمه ، أو يكون البطر باستخدام النعمة فى معصية المنعم عز وجل .

ومن البطر أن يتعالى المرء على النعمة ، أو يستقلها ويراها أقلّ من مستواه ، كالولد الذى تأتى له أمه مثلاً بطبق العدس فيتبرَّم به ، وربما لا يأكل ، فتقول الأم كما نقول فى العامية : أنت (بتتبطر) على نعمة ربنا ؟ كلمة في لغتنا العامية لكن لها أصل فى الفصحى .

إذن : من البطر أنْ تتجبَّر ، أو تتكبر ، أو تتعالى على نعمة الله ، فلا ترضى بها ، وتطلب أعلى منها .

ومعنى ﴿ مَعِيشَتَهَا ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص] أى : أسباب معيشتها ﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص] فما داموا قد بطروا نعمة الله فلا بُدَّ أن يسلبها من أيديهم ، وإنْ سُلبتْ نعم الله من بلد هلكوا ، أو رحلوا عنها ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص] هم الذين يقيمون بعد هلاك ديارهم .

﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص] نرثهم لأنهم لم يتركوا مَنْ

يرثهم ، وإذا تُرِك مكان بلا خليفة يرثه آل ميراثه إلى الله تعالى .

وفى آية أخرى يعالج الحق سبحانه هذه القضية بصورة أوسع ، يقول تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ..(١١٢) ﴾[النحل] يعنى : بطرت بنعمه تعالى :
﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ .. (١١٢) ﴾ [النحل]

ومعنى الكفر بالله : سَتْر وجود الله ، والسَّتْر يقتضى مستوراً ، فكأن الأصل أن الله تعالى موجود ، لكن الكافر يستر هذا الوجود ، وهكذا يكون الكفر نفسه دليلاً على الإيمان ، فالإيمان هو الأصل والكفر طارىء عليه .

ومثال ذلك قولنا : إن الباطل جُنْدى من جنود الحق ، فحين يستشرى الباطل يذوق الناس مرارته ، ويكتوون بناره ، فيعودون إلى الحق وإلى الصواب ، ويطلبون فيه المخرج حين تعضُّهم الأحداث .

وكذلك نقول بنفس المنطق : الألم أول جنود الشفاء ؛ لذلك نجد أن أخطر الأمراض هو المرض الذى يتلصص على المريض دون أنْ يُشعره بأىِّ ألم ، فلا يدرى به إلا وقد استفحل أمره ، وتفاقم خطره وعزَّ علاجه ، لذلك نسميه - والعياذ بالله - المرض الخبيث .

ففى قوله تعالى : ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ .. (١١٢) ﴾ [النحل]

دليل على وجود النعم ، ومع ذلك كفروا بها أى : ستروها ، إما بعدم البحث فى أسبابها ، والتكاسل عن استخراجها ، أو ستروها عن المستحق لها وضنُّوا بها على العاجز الذى لا يستطيع الكسب ؛ لذلك يسلبهم الله هذه النعم ويحرمهم منها رغم قدرتهم .

وهناك أشياء لو ظلت موجودة لأعطتْ رتابة ، ربما فهموا منها أن هذه الأشياء إنما تأتيهم تلقائياً بطبيعة الأشياء ، وحين يسلب الله منهم

نعمه ويقطع هذه الرتابة ، فإنما ليفهموا أن الرتابة فى التكليفات تُضعف الحكمة من التكليف ، كيف ؟

نقول : الحق - تبارك وتعالى - حرَّم علينا أشياء وأحلَّ لنا أشياء ، فمثلاً حرَّم الله علينا الخمر حتى أصبحنا لا نشربها ولا حتى تخطر ببالنا ، فأصبحت عادة رتيبة عندنا ، والله تعالى يريد أنْ يُديم على الإنسان تكليفَ العبادة ، حتى لا يعتادها فيفعلها بالعادة ، فيكسر هذه العادة مثلاً فى صوم رمضان .

ويُحرِّم عليك ما كان حلالاً لك طوال العام ، وقد اعتدْتَ عليه ، فيأتى رمضان وتكليف الصيام ليُحرِّم عليك الطعام الذى كنت تأكله بالأمس ، ذلك لتظل حرارة العبادة موجودةً تُشوِّق العبد إليها ، وتُعوِّده الانضباط فى أداء التكاليف .

ثم يذكر العقاب على الكفر بنعمة الله ﴿ **فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ** .. (١١٢) ﴾ [النحل] والجوع له مظهران : أنْ تطلبه البطن فى أول الأمر ، فإنْ زاد الجوع ضعُفَتْ الجوارح ، وتألمتْ الأعضاء كلها ، وذاقتْ ألم الجوع ، والله تعالى يريد أنْ يُرينا إحاطة هذا الألم ، فشبَّهه باللباس الذى يحيط بالجسم كله ، ويلفّه من كل نواحيه .

وهذه سُنَّة الله فى القُرى الظالمة ، كما قال سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) ﴾

إذن : لابُدَّ أن نُعلِم بالمنهج ، ويأتى رسول يقول : افعل كذا ،

ولا تفعل كـذا ، حتى إذا حَلَّ العـذاب بالكافرين يكون بالعـدْل ، وبعد إلزامهم الحجة ، لا أنْ نتركَ الناس يذنبون ، ثم نقول لهم : هذا حرام.

وسبق أنْ قُلْنا ما قاله القانون : لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإعلام . ومـا كان الله ليهلك قرية ظلمـاً ، إنما عقوبةٌ لهم على ما فعلوا .

والقـرية لهـا تسلسل فنقـول : (نَجْع) وهو المكان الـذى تسكنه أسرة واحدة ، و (كَـفْر) لعدة أسر ، ثم (قـرية) ثم (أم القرى) وهى الحضـر أو العاصمـة ، وقد نزل القرآن فى أمـة مُتبـدية ، تعيش على الترحـال ، وتقيم فى الخـيام تتنقل بهـا بين منابت الكلأ ، فـقالوا (أم القرى) للمكان الذى تجد به القـرى ، وتتوفر فيه من مقـومات الحياة مَا لا يوجـد فى النجوع والكفور والقرى الصـغيرة ، كمـا يعيش الآن أهل الريف على قـضـاء حوائجـهم من (البندر) ، كـأنّ أُمّ القرى لهـا حنان ، يشمل صغار البلاد حولها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

معنى : ﴿ مِّن شَيْءٍ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [القصص] من أىِّ شىء من مُقوِّمات الحياة ، ومن كمالياتها ﴿ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [القصص] فمهما بلغ هذا من السُّمو ، فإنه متاع عمره قليل ، كما قال سبحانه :

﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [النساء]

لذلك طلبنا منكم ألاَّ تنشغلوا بهذا المتاع ، وألاَّ تجعلوه غايةً ، لأن

بقاءك فيها مظنون ، ومتاعك فيها على قَدْر نشاطك وحركتك .

وسبق أنْ قلنا : إن آفة النعيم فى الدنيا أنه إما أن يتركك أو تتركه ، وأن عمرك فى الدنيا ليس هو عمر الدنيا ، إنما مدة بقائك أنت فيها ، ومهما بلغتَ من الدنيا فلا بُدَّ من الموت .

لذلك يدلُّنا ربنا ـ عَزَّ وجَلَّ ـ على حياة أخرى باقية مُتيقَّنة لا يفارقك نعيمها ولا تفارقه .

﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [القصص]

﴿ خَيْرٌ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [القصص] لأن النعيم فيها ليس على قَدْر نشاطك ، إنما على قَدْر قدرة الله وعطائه وكرمه ، ﴿ وَأَبْقَىٰ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [القصص] لأنه دائم لا ينقطع . فلو قارن العاقل بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة لاختار الآخرة .

لذلك ، فإن الصحابى الذى حدَّثه رسول الله ﷺ عن أجر الشهيد ، وتيقَّن أنه ليس بينه وبين الجنة إلا أنْ يُقتل فى سبيل الله ، وكان فى يده تمرات يأكلها فألقاها[1] ، ورأى أن مدة شغله بمضغها طويلة ؛ لأنها تحول بينه وبين هذه الغاية ، ألقاها وأسرع إلى الجهاد لينال الشهادة . لماذا ؟ لأنه أجرى مقارنة بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حين يُجرى هذه المقارنة بين الكفار وبين المؤمنين يقول : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ .. ﴿٥٢﴾ ﴾

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال قال رجل للنبى ﷺ يوم أُحُد : أرأيت إن قُتلت فأين أنا ؟ قال : فى الجنة . فألقى تمرات فى يده ، ثم قاتل حتى قُتل أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٨٩٩) فى كتاب الإمارة . قال ابن حجر فى فتح البارى : « لم أقف على اسم الرجل ، وزعم ابن بشكوال أنه عمير بن الحُمام ، وسبقه إلى ذلك الخطيب . لكن وقع التصريح فى حديث أنس (عند مسلم) أن ذلك كان يوم بدر .. فالذى يظهر أنهما قصتان وقعتا لرجلين والله أعلم » .

[التوبة] إما أن ننتصر عليكم ونُذلكم ، ونأخذ خيراتكم ، وإما ننال الشهادة فنذهب إلى خير مما تركنا ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا .. (٥٢) ﴾ [التوبة]

إذن : لا تتربصون بنا إلا خيراً ، ولا نتربَّص بكم إلا شراً .

وفي موضع آخر قال سبحانه : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) ﴾ [الأعلى] لذلك ذيَّل الآية هنا بقوله تعالى : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٠) ﴾ [القصص] لأن العقل لو قارن بين الدنيا والآخرة لا بُدَّ أنْ يختار الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ (٦١) ﴾

تُعد هذه الآية شرحاً وتأكيداً لما قبلها ، والوعد : بشارة بخير ، وإذا بشَّرك مُساوٍ لك بخير أتى خيره على قدر إمكاناته ، وربما حالت الأسباب دون الوفاء بوعده ، فإنْ كان الوعد من الله جاء الوفاء على قدر إمكاناته تعالى فى العطاء ، ثم إنَّ وعده تعالى لا يتخلف ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ .. (١١١) ﴾ [التوبة]

---

(١) سبب نزول الآية : عن مجاهد قال : نزلت فى على وحمزة وأبى جهل . وقال السدى : نزلت فى عمار والوليد بن المغيرة . وقيل : نزلت فى النبى ﷺ وأبى جهل . [أورده الواحدى فى أسباب النزول ص ١٩٤] قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٩٠) : « قال القشيرى : الصحيح أنها نزلت فى المؤمن والكافر على التعميم . وقال الثعلبى : وبالجملة فإنها نزلت فى كل كافر مُتِّع فى الدنيا بالعافية والغنى وله فى الآخرة النار ، وفى كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله فى الآخرة الجنة » .

لذلك قال ﴿ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيه .. (٦١) ﴾ [القصص] أى : حتماً ﴿ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٦١) ﴾ [القصص] وهو لا محالة زائل ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) ﴾ [القصص] أى : للعذاب .

وهذه الكلمة ﴿ الْمُحْضَرِينَ (٦١) ﴾ [القصص] لا تستعمل فى القرآن إلا للعذاب ، وربما الذى وضع كلمة (مُحضر) قصد هذا المعنى ؛ لأن المحضر لا يأتى أبداً بخير .

ويقول تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) ﴾ [الصافات]

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) ﴾[الصافات]

ثم يقول سبحانه مُؤكِّداً هذا الإحضار يوم القيامة حتى لا يظن الكافر أن بإمكانه الهرب :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) ﴾

والسؤال هنا للذين أشركوا ، لا لمن أُشرك بهم ، وكلمة ﴿ وَيَوْمَ .. (٦٢) ﴾ [القصص] منصوبة على الظرفية ، لا بُدَّ أن نُقدِّر لها فعلاً يناسبها ، فالتقدير : واذكر يوم يناديهم ، والأمر لرسول الله ﷺ ، لكن لمن يذكره رسول الله ؟ يذكره للكافرين بهذا اليوم يوم القيامة .

والآية تعطينا لقطة من لقطات هذا اليوم الذى هو يوم الواقعة التى لا واقعةَ بعدها ، ويوم الحاقَّة أى الثابتة التى لا تَزَحْزُحَ عنها ، ويوم الصَّاخة أى : التى تصخ الآذان التى انصرفتْ عنها فى الدنيا ، ويوم الطامة التى تطمُّ ، ويوم الدين ، أى : الذى ينفع فيه الدين .

والحق سبحانه يذكر هذه اللقطة لأمرين :

الأول : أن رسول الله ﷺ عُودى وأُوذى وهزِىء به وسُخر منه ، واجتمعت عليه كل وسائل النكال من خصومه فبيَّتوا له بمكر ، وصنعوا له سحراً .. إلخ .

وحين تجد دعوة تُقابل بهذه الشراسة ، فاعلم أنها ما قُوبلت هذه المقابلة إلا لأنها ستهدم فساداً ينتفع به قوم ترهبهم كلمة الإصلاح ؛ لأنها تصيبهم فى مصالحهم وفى شهواتهم وفى جاههم وعنجهيتهم وطغيانهم ، فطبيعى أن يقفوا فى وجهها .

لذلك نجد كثيراً من الغربيين يعرفون عظمة الإسلام من شراسة عداوة خصومه ، يقولون : لو لم يكُنْ هذا الدين ضد فسادهم ما ائتمروا عليه ، ولو كان أمراً هيِّناً لتركوه للزمن يمحوه ، لكنهم أيقنوا أنه الحق الذى سيُذهِب باطلهم ، ويقضى على طغيانهم .

فالحق سبحانه يأمر رسوله ﷺ أنْ يذكر ذلك اليوم يذكره لنفسه ، ويذكره لقومه ليعتبروا ، فربما إذا سمعوا ما فى هذا اليوم من القسوة والخزى والنكال ربما راجعوا أنفسهم فتابوا إلى الله .

إذن : ليس حظ الله تعالى من هذا العمل أنْ يُرهبهم إنما ليحذرهم ، لئلا يقع منهم الكفر الذى يُوقفهم هذا الموقف ، كما تُبشِّع لولدك عاقبة الإهمال ، وتُحذِّره من الرسوب لينفر من أسبابه ، ويبحث عن أسباب النجاح .

يقول تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [القصص] وقد ناداهم فى الدنيا : يا أيها الناس ، يا بنى آدم فصمُّوا آذانهم ، وأعرضوا عن نداء الله ، واليوم يناديهم نداءً لا يملكون أنْ يصمُّوا آذانهم عنه ؛ لأنه

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر] فكأن الحق يُذكِّرهم بهذا اليوم ، لعلهم يرعوون ، ولعلهم يرجعون .

الأمر الثانى : أن الآية جاءت تسلية لسيدنا رسول الله يقول له ربه : لا تيأس مما يصنعون معك ، ولا يحزنك كيدهم وعنادهم ؛ لأننى سأصنع بهم كيت وكيت . وأنت تستطيع أن تدرك سرَّ هذا الإيعاز النفسى فى نفس المضطهد وفى نفس المظلوم حين يشكو لك ولدك أن أخاه ضربه أو أهانه فتقول أنت لتُرضيه : انتظر سوف أفعل به كذا وكذا ، فترى الولد ينبهر بهذه العقوبة المسموعة ويسعد بها ، وكذلك حين يسمع رسول الله العقوبة التى تنال أعداءه على ما حدث منهم يسعد بها ، وتُسرِّى عن نفسه ما يلاقى .

ومضمون النداء ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢)﴾ [القصص] فلم يقُلْ شركائى ويسكت ، إنما وصفهم ﴿الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢)﴾ [القصص] لأنه سبحانه واحد لا شريك له ، وهؤلاء شركاء فى زعمهم فقط ، والزعم كما يقولون : مطية الكذب ؛ لذلك لن يجدوا جواباً لهذا السؤال ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢)﴾ [القصص]

ولو كان أمامهم شركاء لقالوا : ها هم الذين أضلُّونا ، فأذقْهم يا رب العذاب ضِعْفين ، لكنهم لم يجيبوا فهذا دليل على أنهم غير موجودين ، لقد وقف هؤلاء المشركون حائرين ، لا يدرون جواباً كما قال تعالى : ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ .. (٦٦)﴾ [القصص]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ٦٣﴾

والكلام هنا للشركاء الذين أضلوا المشركين وأغووْهم ، ومعنى ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ .. (٦٣)﴾ [القصص] أى : ثبت ووقع ، فهو أمر لا محالة منه ، ولم يعد هناك مجال لزحزحته عنهم ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١)﴾ [الصافات]

وقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ (٨٥)﴾ [النمل]

لكن ، ما هو القول الذى وقع وثبت لهم وحَقَّ عليهم ؟ القول : أن كلَّ واحد له مكان عندى فى الجنة على فَرْض أنكم جميعاً آمنتم ، وكل واحد له مكان فى النار على فَرْض أنكم جميعاً كفرتم .

وماذا قالوا ؟ قالوا : ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا.. (٦٣)﴾ [القصص] سبحان الله الآن تقولون ربنا وتعترفون بربوبيته تعالى ، كما قال تعالى فى شأن فرعون : ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ [يونس]

الآن تعترفون بعد أنْ سُلِب منكم الاختيار ، ولم تعُد لكم إرادة حتى على جوارحكم وأبعاضكم ، فيدُكَ التى كنت تبطش بها ، ورِجْلك التى كنت تسعى بها ولسانك .. كلها خرجت عن إرادتك وطَوْع أمرك ؛ لأنها الآن طَوْعٌ لأمر الله ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

ومعنى ﴿هَٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] أى : المشركين ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] أى : لنكون سواء ، هذه علَّة غوايتهم ، أن يكونوا فى الخُسْران سواء ، وإلا فأهل الباطل يسعون جاهدين للإيقاع بأهل الحق ليشاركوهم باطلهم ، وليكونوا أمثالهم .

وهذه المسألة تعطينا السيال النفسي لكل منحرف حين يرى ملتزماً مستقيماً ، لا يشاركه فساده وانحرافه ، فيعزّ عليه أنْ يكون في الهاوية وحده ، ولماذا يمتاز عنه الآخرون ؟ واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [النساء]

ألا ترى أهل الباطل والفساد والفجور يهزءُون من أهل الحق ويسخرون منهم ، ليُزهدوهم في الخير والصلاح ، وليغروهم بما هم فيه ، حتى أصبح الإنسان الملتزم بدينه وشرع ربه لا يسلَم من ألسنتهم ، كما يقول تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المطففين]

وليت الأمر ينتهي عند الغَمْز واللمز ، إنما يتمادى هؤلاء ، فيجعلون من سخريتهم بأهل الإيمان والطاعة مادةً للمسامرة والتسلية ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المطففين] يعني : فرحين مسرورين بما نالوه من أهل الطاعة ، مما يدلّ على أنهم جميعاً تُسعدهم هذه المسألة وتُرضي شيئاً في نفوسهم المريضة الحاقدة .

لكن المؤمن من طبيعته يحب أنْ يُكرم ، وأنْ ينأى بنفسه عن مجاراة هؤلاء ، لذلك يتولّى ربه - عز وجل - الدفاع عنه يقول له : لا تحزن فسوف نقتصُّ لك ، ونسخر منهم ، ونجعلهم أضحوكة في يوم باقٍ لا ينتهي فيه عذابهم :

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المطففين]

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يسترضي عباده المؤمنين : أيعجبكم

ما آلوا إليه ؟ أقَدرْنا أن نجازيهم على مـا اقترفوه فى حقكم ؟ نعم يا رب ، فسخرية الكفار من أهل الإيمان فى دار الباطل الفانية انقلبت سخرية منهم فى دار الحق الباقية ، وهى سخرية دائمة لا نهاية لها .

إذن : ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا .. ﴿٦٣﴾ ﴾ [القصص] يعنى : حتى نكون سـواء ، لا يكون أحدنا أحـسن من الآخـر ، ومن هذا المنطلق أغـوى إبليسُ آدمَ ، لأنه لما طغى وطُرد مـن رحمة الله ، ومن الصفائية التى كـان ينعَم بهـا مع المـلائكة . أراد أنْ يأخـذ آدم بل وذريتـه إلى هذا المصير ، فـقد حَزَّ فى نفسه أن يلاقى هذا المصـير وحده ، فى حين ينعَم آدم وذريته برحمة الله ورضوانه .

لذلك نجـد إبليس ـ لعنه الله ـ لا يكتـفى بأن تُغـوى ذريتـه ذريةَ آدم ، إنما يطلب من الله أنْ يُنظره إلى يوم البـعث ليباشر بنـفسه هذه الغواية ، فـهو (المـعلم) الكبيـر ، وكأنه يحذر أن إمكانـات ذريته فى الغـواية قد لا ترضـيه ؛ لذلـك يتولى بنفـسه هـذه المهـمة فـيقـول : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأعراف]

والبعض يفهم قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي[1] إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأعراف] أن الله تعـالى أجـاب إبـليس إلى ما طلب ، لكن ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأعراف] ليست إجـابةً ، إنما تقرير لشىء حادث بالفعل قبل أن يطلب ، فالمعنى أن سؤالك ليس له معنى ؛ لأنك من المنظريـن فعلاً ، لماذا ؟ قـالوا : لأن الله تعالى يريد أنْ يظلَّ إبليس الذى أغـوى آدم وأخرجـه من الجنة باقياً أمام ذريـته ليُذكِّرهم دائماً : هذا الذى أغوى أباكم آدم .

---

(١) أنظره : أخّره وأمهله وتأنَّى عليـه . وقوله : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأعراف] أى : أمهلنى وأخِّر حسابى وعقابى إلى يوم القيامة . [القاموس القويم ٢/٢٧٣] .

وقولهم : ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] لنا وقفة مع ﴿هَٰؤُلاءِ .. (٦٣)﴾ [القصص] وهى اسم إشارة للجمع بنوعيه ، تقول : هؤلاء الرجال ، وهؤلاء النساء ، وهى عبارة عن : الهاء للتنبيه ، وأولاء اسم إشارة ، وكذلك فى هذا ، هذه ، هذان ، هاتان . فالهاء فيها للتنبيه لتنبه السامع أنك ستتكلم ليعطيك سمعه ، ويهتم بما تقول ، فلا يفوته من كلامك شىء .

هذا حين تخاطب مثلك لأنه يحتاج إلى تنبيه ، أما إذا خاطبتَ ربك - عز وجل - فمن سوء الأدب أنْ تستخدم فى خطابه أداة التنبيه ، كما استخدمها المشركون ، فما داموا قد قالوا ﴿رَبَّنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] فليس من الأدب أن يقولوا ﴿هَٰؤُلاءِ .. (٦٣)﴾ [القصص] أيُنبِّهون الله عز وجل ؟

لذلك نلحظ هذا الأدب فى خطاب نبى الله موسى - عليه السلام - فيما حكاه عنه القرآن : ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُوْلاءِ عَلَىٰ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤)﴾ [طه] فقال (أولاء) بدون هاء التنبيه تأدُّباً مع ربه عَزَّ وجَلَّ .

ونلحظ أنك لا تجد خطاباً من الكفار إلا باستخدام هؤلاء : ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلاءِ أَضَلُّونَا .. (٣٨)﴾ [الأعراف] ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا .. (٨٦)﴾ [النحل] أما المؤمن فلا يليق به أبداً أن يُنبِّه الله تعالى ، بل ولا تصدر من مؤمن لمؤمن لأنه دائماً منتبه .

ثم يقولون : ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣)﴾ [القصص] الآن ينكُصون كما قالوا من قبل ﴿رَبَّنَا.. (٦٣)﴾ [القصص] يقولون الآن ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ .. (٦٣)﴾ [القصص] لكن هيهات تنفعهم هذه البراءة ، لقد انتهى وقتها ، ومضى زمن التكليف والاختيار ، والآن وقت الحساب

وسَلْب الإرادة والاختيار ، وما أشبههم بفرعون حين قال الله له : ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس]

وقولهم : ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [القصص] يقول الشركاء : ما كان معنا قوة قهر نحملكم بها على عبادتنا ، ولا قوة سلطان أو حجة نقنعكم بها ، إنما كنتم فى انتظار إشارة منا ، كما قال كبيرهم إبليس : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم .. ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم]

إذن : فهؤلاء المشركون كانوا يعبدون أنفسهم وذواتهم ؛ لأن الشركاء كانوا أصناماً أو غيرها ، وليس لهم منهج يتكلَّمون به ، ويدْعُون الناس إلى عبادتهم به ، وإلا فماذا قالت الأصنام أو الشمس أو النجوم لمن عبدها ؟ بِمَ أمرتهم ، وعمَّ نهتْهم ؟

إذن : هو إله بلا منهج وبلا تكاليف ، وهذا ما يريده المشركون ؛ لأن الذى يُتعب الناس فى قضية الإيمان بالألوهية ما تقتضيه من تكاليف ، وما تفرضه من أمر أو نهى يحول بين النفس البشرية وما تشتهى ، ويُوقفها عند حدود لا تتعداها .

إذن : ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [القصص] بل يعبدون ذواتهم ، ويعبدون شهواتهم ورغباتهم ، وما أسهلَ أن يعبد الإنسان آلهة لا تلزمه بشىء ، فيسير فى حياته على هواه ، وهذه هى التى روجَتْ لعبادة هذه الآلهة .

لذلك فإن الحق سبحانه يريد أنْ يلزم الإنسان حجة أن نفسه هى الوسيلة الأولى لشهواته ، وإلا فلو أن المسألة كلها وسوسة شيطان ، فمَنْ أغوى إبليس بالعصيان أولاً على حَدِّ قَوْل الشاعر :

* إبليسُ لما عَصَى مَنْ كان وسْوَسَهُ ؟ *

إذن : فهى كبرياء النفس ورغباتها ، وليس للشيطان إلا أنْ يُلوِّح لها فتقع ؛ لذلك جاء فى الحديث الشريف : « إذا أقبل رمضان فُتحت أبواب الجنة ، وغُلِّقت أبواب النار ، وسُلْسلت الشياطين »[1] .

وما دامت الشياطين سُلسلت ، فليس لها حركة مع الإنس ؛ لأن الله تعالى يعلم منّا أنّا نُعلِّق كل معاصينا على الشيطان ، فكأنه سبحانه يقول : ها هى الشياطين صُفِّدت وسُلْسلت ، فمَنْ أغواكم وزيَّن لكم حال سَلْسلتها ؟ إذن : هى نفسك التى توسوس لك ؛ لذلك نقول : كل معصية تقع فى رمضان ليس للشيطان فيها نصيب ، إنما هى شهوة النفس .

وسبق أنْ بيَّنا كيف نُفرِّق بين المعصية متى تكون من الشيطان ؟ ومتى تكون شهوة نفس ؟ إنْ كانت المعصية تُوقفك عندها لا تتزحزح عنها إلى غيرها ، فاعلم أنها من نفسك ، أما إنْ عزَّتْ عليك معصية ففكَّرْتَ فى غيرها ، فهى من الشيطان ؛ لأنه والعياذ بالله يريدك عاصياً على أى وجه ، وبأىِّ طريقة فينقلك إلى معصية أخرى يستطيع أنْ يُوقعك فيها ، على خلاف شهوة النفس ، فهى تريد شيئاً بذاته لا تريد غيره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٨١) ، والنسائى فى سننه (٤/١٢٨) من حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إذا دخل رمضان فتحت أبواب الرحمة ، وغلقت أبواب جهنم ، وسلسلت الشياطين » .

وسبق أن ناداهم ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢)﴾ [القصص] أي : في زعمكم ؛ لأنه سبحانه ليس له شركاء ، وهنا يقول لهم ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤)﴾ [القصص] ولم يقُلْ شركائي ، مع أنهم اتخذوهم شركاء لله .

فمعنى ﴿شُرَكَاءَكُمْ .. (٦٤)﴾ [القصص] أفي دعوى الألوهية ؟ لا ، لأنهم تابعون لهم ، إذن : فما معنى ﴿شُرَكَاءَكُمْ .. (٦٤)﴾ [القصص] ؟ قالوا : الإضافة تأتي بمعَانٍ ثلاثة : إما بمعنى (من) مثل : أردب قمح أي : من قمح ، أو بمعنى (في) مثل : مكر الليل أي : مكر في الليل ، أو : بمعنى (لام) الملكية مثل : قلم زيد أي : قلم لزيد .

فالمعنى هنا ﴿شُرَكَاءَكُمْ .. (٦٤)﴾ [القصص] أي : من جنسكم أو فيكم يعني : لا يتميز عنكم بشيء ، والإله لا بُدَّ أن يكون من جنس أعلى ، فإنْ كان من جنسكم ، فهو مُسَاوٍ لكم ، لا يصلح أن تتخذوه إلهاً .

ومعنى ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ .. (٦٤)﴾ [القصص] يعني : نادوهم لينصروكم ، ويشفعوا لكم ، كما قلتم : ﴿هَٰؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ .. (١٨)﴾ [يونس]

وقلتم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣)﴾ [الزمر]

إذن : فنادوهم ليُقربوكم من الله ، وليشفعوا لكم ، والذي يقوم بهذه المهمة لا بُدَّ أنْ يكون له منزلة عند الله يضمنها ، وهل يضمن هؤلاء الشركاء منزلة عند الله ؟ كيف وهم لا يضمنونها لأنفسهم ؟

﴿فَدَعَوْهُمْ .. (٦٤)﴾ [القصص] يا شركاءنا ، يا مَنْ قُلْتم لنا كذا وكذا أدركونا ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ .. (٦٤)﴾ [القصص] لأنهم مشغولون

بأنفسهم ﴿ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) ﴾ [القصص] يعنى : لو كانوا يهتدون بهَدْى الله ، وهَدْى رسوله ، ويرون العذاب الذى أنذرهم به حقيقة وواقعاً لا يتخلفون عنه لَمَا حدث لهم هذا ، ولما واجهوا هذه العاقبة .

أو : أنهم لما رأوا العذاب حقيقة فى الآخرة تمنَّوا لو أنهم كانوا مهتدين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ (٦٦) ﴾

قال هنا أيضاً ﴿ يُنَادِيهِمْ .. (٦٥) ﴾ [القصص] فما الغرض من كل هذه النداءات ؟ إنها للتقريع وللتوبيخ وللسخرية منهم ، وممَّنْ عبدوهم واتبعوهم من دون الله ، ومضمون النداء : ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) ﴾ [القصص] والإجابة : موافقة المطلوب من الطالب ، فماذا كانت إجابتكم لهم بعد أن آمنتم بإله ، أأخذتُم بما جاءوا به من أحكام ؟ أعلمتم منهم علماً يقينياً حقاً ؟

وهذا الاستفهام للتعجيز ؛ لأنهم إنْ حاولوا الإجابة فلن يجدوا إجابة فيخزون ويخجلون ؛ لذلك يقول بعدها ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ .. (٦٦) ﴾ [القصص] أى : خفيَتْ عليهم الحجج والأعذار وعموا عنها فلم يروْهَا ﴿ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) ﴾ [القصص] لا يملكون إلا السكوت كما قالوا : جواب ما يكره السكوت ، وكما قال سبحانه : ﴿ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) ﴾ [المعارج]

وهؤلاء لا يتسـاءلون ؛ لأنهم فى الجهل سواء ، وفى الضلال شركاء ، وكل منهم مشغول بنفسه ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾[عبس]

وكما سُئل المشركون ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥)﴾ [القصص] فى موضع آخر يسأل الرسل : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ .. (١٠٩)﴾ [المائدة] أى : فيما علمتم من العلم ، وأوله : علم اليقين الأعلى ، وثانيها : علم الأحكام ، فبماذا أجابكم الناس ؟

وتأمل هنا أدب الرسل ومدى فهمهم فى مقام الجواب لله ، وهم يعلمون تماماً بماذا أجاب أقوامهم ، وأن منهم مَنْ آمن بهم ، وتفانى فى خدمة دعوتهم وضحّى واستشهد ، ومنهم مَنْ كفر وعاند ، ومع ذلك يقولون : ﴿قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١٠٩)﴾ [المائدة]

فكيف يقولون ﴿لا عِلْمَ لَنَا .. (١٠٩)﴾ [المائدة] وهم يعلمون ؟ قالوا : لأنهم غير واثقين أن مَنْ آمن آمن عن عقيدة أم لا ، فهم يأخذون بظواهر الناس ، أما بواطنهم فلا يعلمها إلا الله ، كأنهم يقولون : أنت يا ربنا تسأل عن إجابة الحق لا عن إجابة النفاق ، وإجابة الحق نحن لا نعرفها ، وأنت سبحانك علاَّم الغيوب .

إذن : جعلوا الحق - تبارك وتعالى - هو السُّلْطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، والسلطة التنفيذية فى محكمة العدل الإلهى التى سيُعلن فيها على رؤوس الأشهاد ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ .. (١٦)﴾ [غافر]

والسؤال عند العرب يُطلق ، إما للمعرفة حيث تسأل لتعرف ، كما يسأل التلميذ أستاذه ، أو يكون السؤال للإقرار بما تعرف ، كما يسأل

الأستاذ تلميذه ليقرّ على نفسه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩)﴾ [الرحمن] أى : سؤالَ علم ؛ لأننا نعلم .

وقوله تعالى : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤)﴾[الصافات] أى : سؤال إقرار منهم ، وإنْ كان كلامى يوم القيامة حجة ، لأنه لا مردَّ له ، لكن مع ذلك نسألهم ليقروا هم ، وليشهدوا على أنفسهم .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يدلُّك على أنه تعالى يُبشِّع مظاهر يوم القيامة على الكافرين ، لا لأنه كاره لهم ، بل يريدهم أنْ يستحضروا هذه الصورة البشعة لعلهم يرعوون ويتوبون ؛ لذلك يفتح لهم باب التوبة لأنه رب ورحيم .

لذلك جاء فى الحديث القدسى : « قالت الأرض : يا رب إئذن لى أنْ أخسف بابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . وقالت الجبال : يا رب إئذن لى أنْ أخرَّ على ابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . وقالت البحار : يا ربِ إئذن لى أنْ أغرق ابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . فقال تعالى : دعونى وخلقى لو خلقتموهم لرحمتموهم ، دعوهم فإنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم»[1] .

أعالجهم بالترغيب مرة ، وبالترهيب أخرى ، أشوِّقهم إلى الجنة ، وأخوِّفهم من النار ، وأفتح باب التوبة ، وفتْح باب التوبة ليس رحمة من الله للتائب فقط ، ولكن رحمة لكل مَنْ يشقى بعصيان غير التائب .

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (١/٤٣) من حديث عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال : « ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات ، يستأذن الله عز وجل أن ينفضخ عليهم ، فيكفه الله عز وجل » ضعَّف إسناده الشيخ أحمد شاكر فى تحقيقه للمسند (١/٢٨٦) .

ولو أُغلِق باب التوبة فى وجه العاصى ليئس وتحول إلى (فاقد) يشقى به المجتمع طوال حياته ، إذن : ففتْح باب التوبة رحمة بالتائب ، ورحمة بمجتمعه ، بل وبالإنسانية كلها ، رحمة بالعاصى وبمَنِ اكتوى بنار المعصية .

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

لماذا استخدم هنا (عسى) الدالة على الرجاء بعد أنْ قال ﴿مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا .. ﴿٦٧﴾﴾ [القصص] ولم يقل : يكون من المفلحين فيقطع لهم بالفلاح ؟

قالوا : لأنه ربما تاب ، لكن عسى أن يستمر على توبته ليستديم الفلاح أو نقول أن (عسى) من الله تدل على التحقيق ، وسبق أنْ قُلْنا : إن الرجاءات على درجات : فالرجاء فى المتكلم أقوى من الرجاء فى الغائب ، فإنْ كان الرجاء فى الله فهو أقوى الرجاءات كلها .

لذلك يقول سبحانه فى خطابه لنبيه محمد ﷺ : ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء] فأىُّ رجاء أقوى من الرجاء فى الله ؟

إذن : (عسى) رجاء حين تصدر ممن لا يملك إنفاذ المرجو ، وتحقيق حين تصدر ممَّنْ يملك إنفاذ المرجو ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) ﴾

كنا ننتظر أنْ يُخبرنا السياق بما سيقع على المشركين من العذاب ، لكن تأتى الآية ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ .. (٦٨) ﴾ [القصص] وكأن الحق سبحانه يقول : أنا الذى أعرف أين المصلحة ، وأعرف كيف أُريحكم من شرِّهم ، فدعونى أخلق ما أشاء ، وأختار ما أشاء ، فأنا الرب المتعهد للمربى بالتربية التى تُوصله إلى المهمة منه .

والمربِّى قسمان : إما مؤمن وإما كافر ، ولا بُدَّ أنْ يشقى المؤمن بفعل الكافر ، وأنْ يمتد هذا الشقاء إنْ بقى الكافر على كفره ؛ لذلك شَرعتُ له التوبة ، وقَبلْتُ منه الرجوع ، وهذا أول ما يريح المؤمنين .

ومعنى : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ .. (٦٨) ﴾ [القصص] يعنى : لا خيارَ لكم ، فدعونى لأختار لكم ، ثم نفِّذوا ما أختاره أنا .

أو : أن هذه الآية ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ .. (٦٨) ﴾ [القصص] قيلت للردِّ على قولهم : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] . يقصدون الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفى ، فردَّ الله عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

فكيف يطمعون فى أنْ يختاروا هم وسائل الرحمة ، ونحن الذين

قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، فجعلنا هذا غنياً ، وهذا فقيراً ، وهذا قوياً ، وهذا ضعيفاً ، فمسائل الدنيا أنا متمكن منهم فيها ، فهل يريدون أنْ يتحكموا فى مسائل الآخرة وفى رحمة الله يوجِّهونها حسب اختيارهم ؟!!

﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ .. (٦٨)﴾ [القصص] أى : الاختيار فى مثل هذه المسائل .

ويجوز ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ .. (٦٨)﴾ [القصص] أى : المؤمنون ما كان لهم أنْ يعترضوا على قبول توبة الله على المشركين الذين آذوهم ، يقولون : لماذا تقبل منهم التوبة وقد فعلوا بنا كذا وكذا ، وقد كنا نود أن نراهم يتقلبون فى العذاب ؟

والحق تبارك وتعالى يختار ما يشاء ، ويفعل ما يريد ، وحين يقبل التوبة من المشرك لا يرحمه وحده ، ولكن يرحمكم أنتم أيضاً حين يُريحكم من شرِّه .

وقوله : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨)﴾ [القصص] أى : تعالى الله وتنزَّه عما يريدون من أنْ يُنزلوا الحق سبحانه على مرادات أصحاب الأهواء من البشر ، ولو أن الحق سبحانه نزل على مرادات أصحاب الأهواء من البشر - وأهواؤهم مختلفة - لفسدتْ حياتهم جميعاً .

ألا ترى أن البشر مختلفون جميعاً فى الرغبات والأهواء ، بل وفى مسائل الحياة كلها ، فترى الجماعة منهم فى سنٍّ واحدة ، وفى مركز اجتماعى واحد ، فإذا توجَّهوا لشراء سلعة مثلاً اختار كل منهم نوعاً ولوناً مختلفاً عن الآخر .

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) ﴾

ما تُكِنُّ صدورهم أى : السر ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه] والسر : ما تركتَه فى نفسك محبوساً ، وأسررْتَه عن الخلْق لا يعرفه إلا أنت ، أو السر : ما أسررتَ به إلى الغير ، وساعتها لن يبقى سراً ، وإذا ضاق صدرك بأمرك ، فصدر غيرك أضيق .

وإذا كان الحق سبحانه يمتنُّ علينا بأن علمه واسع يعلم السر ، فهو يعلم الجهر من باب أَوْلَى ؛ لأن الجهر يشترك فيه جميع الناس ويعرفونه . أما الأخفى من السر ، فلأنه سبحانه يعلم ما تُسره فى نفسك قبل أنْ يوجد فى صدرك ، وهو وحده الذى يعلم الأشياء قبل أن توجد .

ولك أن تسأل : إذا كان من صفاته تعالى أنه يعلم السر وما هو أخفى من السر ، فماذا عن الجهر وهو شىء معلوم للجميع ؟ وهذه المسألة استوقفتْ بعض المستشرقين وأتباعهم من المسلمين (المنحلين) الذين يجارونهم .

وحين نستقرىء آيات القرآن نجد أن الله تعالى سوَّى فى علمه تعالى بين السر والجهر ، فقال سبحانه ﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ .. (١٠) ﴾ [الرعد]

وقال سبحانه : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ .. (١٣) ﴾ [الملك]

والآية التى معنا : ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) ﴾ [القصص] وفى هذه الآيات قدّم السر على الجهر ، أما فى قوله تعالى :

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الأعلى]

وقال سبحانه : ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنبياء] فقدَّم العلم بالجهر على العلم بالسرِّ ، ولا يقدم الجهر إلا إذا كان له ملحظية خفاء عن السر ، وهذه الملحظية غفل عنها السطحيون ، فأخطأوا فى فهم الآية .

فأنت مثلاً لو أسررتَ فى نفسك شيئاً ، فربما ظهر فى سقطات لسانك أو على ملامح وجهك ، وربما خانك التعبير فدلَّ على ما أسررْته ، ألم يقل الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ .. ﴿٣٠﴾﴾ [محمد]

إذن : هناك قرائن وعلامات نعرف بها السر ، أما الجهر وهو من الجماعة ليس جهراً واحداً ؛ لأنه مقابل بالجمع : ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنبياء] فالمعنى : ويعلم ما تجهرون وما تكتمون .

ولك أن تتابع مظاهرة لجمع غفير من الناس ، يهتف كل منهم هتافاً ، أتستطيع أن تميز بين هذه الهتافات ، وأنْ تُرجع كلاً منها إلى صاحبها ؟ هذا هو اللغز فى الجهر والملحظ الذى فاتهم تدبُّره ، لذلك امتنَّ الله علينا بعلمه للجهر من القول الذى لا نعلمه نحن مهما أوتينا من آلات فَرْز الأصوات وتمييزها .

لذلك يقولون : لا تستطيع أنْ تُحدِّد جريمة فى جمهور من الناس ؛ لأن الأصوات والأفعال مختلطة ، يستتر كلٌّ منها فى الآخر كما يقولون : الفرد بالجمع يُعْصَم .

ويقولون : الجماهير ببغائية ، كما قال شوقى فى مصرع كليوباترا ، لما انهزموا فى يوم (أكتيوما) وأشاعوا أنهم انتصروا ، لكن هذه الحيلة لا تنطلى على العقلاء من القوم ، فيقول أحدهم للآخر عن غوغائية الجماهير :

اسْمع الشَّعْبَ دُيُونُ كَيْفَ يُوحُون إليْه
مَلأ الجوَّ هتافاً بحيَاتىْ قَاتليْه
أثَّر البهتانُ فيه وَانْطلى الزُّور عليْه
يَا لَهُ مِنْ ببغاء عقلُه فى أُذُنَيْه

إذن : فَعلْم الجهر هنا مَيْزة تستحق أنْ يمتنَّ الله بها ، كما يمتنُّ سبحانه بعلم السر .

وقال سبحانه ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ .. (٦٩) ﴾ [القصص] ليُطمئن رسول الله ؛ لأنه سبحانه ربه ، والمتولى لتربيته والعناية به ، يقول له : لا تحزن مما يقولون ، فأنا أعلم سرَّهم وجهرهم ، فإنْ كنتَ لا تعرف ما يقولون فأنا أعرفه ، وسوف أخبرك به ، ألم يقل سبحانه لنبيه ﷺ : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. (٨) ﴾ [المجادلة]

فأخبره ربه بما يدور حتى فى النفوس ، كأنه سبحانه يقول لرسوله : إياك أن تظن أننى سأؤاخذهم بما عرفتَ من أفعالهم فحسب ، بل بما لا تعلم مما فعلوه ، ليطمئن رسول الله أنه سبحانه يُحصى عليهم كل شىء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

الله : هو المعبود بحقٍّ ، وله صفات الكمال كلها ، وهو سبحانه ﴿لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ⟨٧٠⟩﴾ [القصص] وما دام هو وحده سبحانه ، فلا أحدَ يفتن عليه ، أو يستدرك عليه بشيء ، وسبق أن قال لهم : هاتوا شركاءكم لنفصل فى مسألة العبادة علانية و (نفاصل) : من صاحب هذه السلعة : أى يوم القيامة .

ومعنى ﴿الأُولَىٰ .. ⟨٧٠⟩﴾ [القصص] أى : الخَلْق الذى خلقه الله ، والكون الذى أعدَّه لاستقبال خليفته فى الأرض : الشمس والقمر والنجوم والشجر والجبال والماء والهواء والأرض ، فقبل أنْ يأتى الإنسان أعدَّ الله الكونَ لاستقباله .

لذلك حينما يتكلم الحق سبحانه عن آدم لا يقول : إنه أول الخَلْق ، إنما أول بنى آدم ، فقد سبقه فى الخلق عوالم كثيرة ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ⟨١⟩﴾ [الإنسان] أى : لم يكن له وجود .

وإعداد الكون لاستقبال الإنسان جميل يستوجب الحمد والثناء ، فقد خلق الله لك الكون كله ، ثم جعلك تنتفع به مع عدم قدرتك عليه أو وصولك إليه ، فالشمس تخدمك ، وأنت لا تقدر عليها ولا تملكها ، وهى تعمل لك دون صيانة منك ، ودون أن تحتاج قطعة غيار ، وكذلك الكون كله يسير فى خدمتك وقضاء مصالحك ، وهذا كله يستحق الحمد .

وبعد أنْ خلقك الله فى كون أُعدّ لخدمتك تركك ترتع فيه ، ذرة فى ظهر أبيك ، ونطفة فى بطن أمك إلى أنْ تخرج للوجود ، فيضمك حضنها ، ولا يكلفك إلا حين تبلغ مبلغ الرجال وسنّ الرشد ، ومنحك العقل والنضج لتصبح قادراً على إنجاب مثلك ، وهذه علامة النضج

النهائى فى تكوينك كالثمرة لا تخرج مثلها إلا بعد نُضْجها واستوائها .

لذلك نجد من حكمة الله تعالى ألاَّ يعطى الثمرة حلاوتها إلا بعد نُضْج بذرتها ، بحيث حين تزرعها بعد أكْلها تنبت مثلها ، ولو أُكلت قبل نُضْجها لما أنبتت بذرتها ، ولانْقرض هذا النوع ؛ لذلك ترى الثمرة الناضجة إذا لم تقطفها سقطت لك على الأرض لتقول لك : أنا جاهزة .

لذلك نلحظ عندنا فى الريف شجرة التوت أو شجرة المشمش مثلاً يسقط الثمر الناضج على الأرض ، ثم ينبت نباتاً جديداً ، يحفظ النوع ، ولو سقطت الثمار غير ناضجة لما أنبتت .

وكذلك الإنسان لا ينجب مثله إلا بعد نُضْجه ، وعندها يُكلِّفه الله ويسأله ويحاسبه . إذن : على الإنسان أنْ يسترجع فضل الله عليه حتى قبل أنْ يستدعيه إلى الوجود ، وأنْ يثق أن الذى يُكلِّفه الآن ويأمره وينهاه هو ربُّه وخالقه ومُربِّيه ، ولن يكلِّفه إلا بما يُصلحه ، فعليه أنْ يسمع ، وأنْ يطيع .

وقوله تعالى : ﴿وَالآخِرَةِ .. ۝٧٠﴾ [القصص] يعني : له الحمد فى القيامة ، كما قال سبحانه : ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس] فيحمد الله فى الآخرة ؛ لأنه كان يمتعنى فى الدنيا إلى أمد ، ويمتعنى فى الدنيا على قَدْر إمكاناتى ، أما فى الآخرة فيعطينى بلا أمد ، وعلى قَدْر إمكاناته هو سبحانه ، فحين نرى هذا النعيم لا نملك إلا أنْ نقول : الحمد لله ، وهكذا اجتمع لله تعالى الحمد فى الأولى ، والحمد فى الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾ [القصص] لأن الآخرة ما كانت إلا للحكم وللفصل فى الخصومات ، حيث يعرف كلٌّ

ما له وما عليه ، فلا تظن أن الذين آذوك وظلموك سيُفلِتون من قبضتنا .

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) ﴾ [القصص] أى : للحساب ، وفى قراءة (تَرْجِعون) لأنهم سيرجعون إلينا ويأتوننا بأنفسهم ، كأنهم مضبوطون على ذلك ، كالمنبه تضبطه على الزمن ، كذلك هم إذا جاء موعدهم جاءونا من تلقاء أنفسهم ، دون أن يسوقهم أحد .

وعلى قراءة ﴿ تُرْجَعُونَ (٧٠) ﴾ [القصص] إياكم أن تظنوا أنكم بإمكانكم أن تتأبَّوْا علينا ، كما تأبَّيتُم على رسُلنا فى الدنيا ؛ لأن الداعى فى الدنيا كان يأخذكم بالرفق واللين ، أما داعى الآخرة فيجمعكم قَسْراً ورَغْماً عنكم ، ولا تستطيعون منه فكاكاً ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ[1] إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) ﴾ [الطور]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا[2] إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾

(١) يُدعون : أى يُدفعون دفعاً عنيفاً بقهر وقسوة . [القاموس القويم ١/٢٢٨] .

(٢) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . وليل سرمد : طويل . قال الزجاج : السرمد الدائم فى اللغة . والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع . [لسان العرب ـ مادة : سرمد] .

يُعدِّد الحق - تبارك وتعالى - نعمه على عبيده فى شيئين يتعلقان بحركة الحياة وسكونها ، فالحركة تأتى بالخير للناس ، والسكون يأتى بالراحة للمتعَب من الحركة ، والإنسان بطبيعته لا يستطيع أنْ يعطى ويتعب إلا بعد راحة ، والذى يتحدَّى هذه الطبيعة فيسهر الليل ويعمل بالنهار لا بُدَّ أنْ ينقطع ، وأن تُنهَك قواه فلا يستمر .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾ [الليل]

فكلٌّ من الليل والنهار له مهمة ، وكذلك الرجل والمرأة ، فإياكم أنْ تخلطوا هذه المهام ، وإلا فسدت الحياة وأتعبتكم الأحداث ، فقبل الكهرباء ودخول (التليفزيون والفيديو) المنازل كان يومنا يبدأ فى نشاط مع صلاة الفجر ، لأننا كنا ننام بعد صلاة العشاء ، أما الآن فالحال كما ترى . كنا نستقبل يومنا بحركة سليمة نشطة ؛ لأننا نستقبل الليل بسكون سليم وهدوء تام .

والحق سبحانه فى معرض تعداد نعمه علينا يقول ﴿أَرَأَيْتُمْ .. (٧١)﴾ [القصص] يعنى : أخبرونى ماذا تفعلون ﴿إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .. (٧١)﴾ [القصص] يعنى : طوال حياتكم ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ .. (٧١)﴾ [القصص] والسرمد : الدائم المستمر .

وقال ﴿بِضِيَاءٍ .. (٧١)﴾ [القصص] ولم يقل بنور ؛ لأن النور قد يأتى من النجوم ، وقد يأتى من القمر ، أمّا الضياء وهو نور وأشعة وحرارة ، فلا يأتى إلا من الشمس .

لذلك يقول سبحانه : ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. (٥)﴾ [يونس]

وقال : ﴿ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ .. (٧١) ﴾ [القصص] ولم يقُلْ : مَنْ يأتيكم بضياء ليلفت نظرنا إلى أن هذه المسألة لا يقدر عليها إلا إله ، ولا إله إلا الله ، وفى الضياء تبصرون الأشياء ، وتسيرون على هُدىً ، فتؤدون حركات حياتكم دون اصطدام أو اضطراب ، وبالضياء أعايش الأشياء فى سلامة لى ولها ، وإلاَّ لو سرْنا فى الظلام لتحطمنا أو حطَّمنا ما حولنا ؛ لأنك حين تسير فى الظَلام إمّا أنْ تحطم ما هو أقل منك ، أو يحطمك ما هو أقوى منك .

وكما يكون الضياء فى الماديات يكون كذلك له دور فى المعنويات ، وضياء المعنويات القيم التى تحكم حركة الحياة وتعدلها ، وتحميك أنْ تُحطِّم مَنْ هو أضعف منكَ ، أو أنْ يُحطمك الأقوى منك ؛ لذلك كان منطقياً أن يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (٤٣) ﴾ [الأحزاب]

والمراد : من ظلمات المعانى إلى نور القيم ، لا ظلمات المادة لأننى لا أستغنى عنه لراحتى ، فله مهمة عندى لا تقلّ عن مهمة النور لذلك يقول تعالى فى وصفه لنوره عز وجل ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥) ﴾ [النور]

نور مادى تُبصرون به الأشياء من حولكم ، فلا تتخبطون بها ، فتسلَم حركتكم ، وهذا النور المادى يشترك فيه المؤمن والكافر ، وينتفع به المطيع والعاصى ، فلم يضنّ به على أحد من خَلْقه . أما النور المعنوى نور الهداية ونور اليقين والقيم ، فهذا يرسله الله على يدَىْ رسُله ، فإذا أخذ المؤمن النورين انتفع بهما فى الدنيا ، وامتد نفعه بهما إلى يوم القيامة ؛ لذلك قال بعدها :

﴿ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ .. (٣٥) ﴾ [النور]

ولأن الآية الكريمة بدأت بقُلْ ، فمن المناسب أنْ تختم بقوله تعالى : ﴿ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) ﴾ [القصص] يعنى : اسمعوا ما أقول لكم وتدبروه .

ثم يمتنُّ الله تعالى بالآية المقابلة لليل ، وهى آية النهار : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .. (٧٢) ﴾ [القصص] يعني : دائم لا نهايةَ له ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص]

تلحظ أن هاتين الآيتين على نَسَق واحد ، لكن تذييلهما مختلف ، مما يدلُّ على بلاغة وإعجاز القرآن ، فلكلٍّ معنىً ما يناسبه ، ففى آية الليل قال ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) ﴾ [القصص] وفى آية النهار قال ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص] ذلك لأن العين لا عملَ لها فى الليل إنما للأذن ، فأنت تسمع دون أنْ ترى ، وبالأذن يتمُّ الاستدعاء .

أما فى النهار وفى وجود الضوء ، فالعمل للعين حيث تبصر ، فهو إذن ختام حكيم للآيات يضع المعنى فيما يناسبه .

ثم يُجمل الله تعالى هاتين الآيتين فى قوله سبحانه :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾

بعد أنْ فصَّل الله تعالى القولَ فى الليل والنهار كلّ على حدة جمعهما ؛ لأنهما معاً مظهر من مظاهر رحمة الله ، وفى الآية ملمح بلاغي يسمونه « اللف والنشر » ، فبعد أن جمع الله تعالى الليل والنهار أخبر عنهما بقوله : ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص] ثقةً منه تعالى بفطْنة السامع ، وأنه سيردُّ كلاً منهما إلى ما يناسبه ، فالليل يقابل ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص] ، والنهار يقابل ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص]

فاللفُّ أى : جَمْع المحكوم عليه معاً فى جانب والحكم فى جانب آخر ، والنشْر : ردّ كلِّ حكم إلى صاحبه .

وضربنا لذلك مثلاً بقول التيمورية :

قَلْبى وجَفْنى واللسَانُ وخَالقى رَاضٍ وبَاكٍ شَاكِرٌ وغَفُور

فجمعتْ المحكوم عليه فى الشطر الأول والحكم فى الشطر الثانى ، وعليك أنْ تعيد كلَّ حكم إلى صاحبه .

والليل والنهار آيتان متكاملتان ، وبهما تنتظم حركة الحياة ؛ لأنك إنْ لم ترتح لا تقوى على العمل ؛ لأن لك طاقة ، وفى جسمك مُولِّدات للطاقة ، فساعةَ تتعب تجد أن أعضاءك تراخَتْ وأُجهدَتْ ، وهذا إنذار لك ، تُنبِّهك جوارحك أنك لم تَعُدْ صالحاً للحركة ، ولا بُدَّ لك من الراحة لتستعيد نشاطك من جديد .

والراحة تكون بقدر التعب ، فربما ترتاح حين تقف مثلاً فى حالة السير ، فإنْ لم يُرِحْك الوقوف تجلس أو تضطجع ، فإنْ زاد التعب غلبك النوم ، وهو الرَّدْع الذاتى الذى يكبح جماح صاحبه إنْ تمرد على الطبيعة التى خلقها الله فيه .

ومن عجب أن البعض يخرج عن هذه الطبيعة ، فيأخذ مُنشِّطات حتى لا يغلبه النوم ، ويأخذ مُهدِّئات لينام ، ولو أسلم نفسه لطبيعتها ، فنام حينما يحضره النوم ، وعمل حينما يجد فى نفسه نشاطاً للعمل لأراحَ نفسه من كثير من المتاعب .

لذلك يقولون : النوم ضيف إنْ طلبك أراحك ، وإنْ طلبته أعْنتك ، وحتى الآن ، ومع تقدُّم العلوم لم يصلوا إلى سرِّ النوم ، وكيف يأخذ الإنسان فى هدوء ولُطْف دون أنْ يشعر ماهيتَه ، وأتحدى أن يعرف أحد منا كيف ينام .

لذلك جعل الله النوم آية من آياته تعالى ، مثل الليل والنهار والشمس والقمر ، فقال سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (٢٣) ﴾ [الروم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

تقدمت المناداة قبل ذلك مرتين ومع ذلك لا يوجد تكرار لهذا المعنى ؛ لأن كلٍّ نداء منها له مقصوده الخاص ، فالنداء فى الأولى خاص بمَنْ أشركوهم مع الله وما قالوه أمام الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا هَـٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا .. ﴿٦٣﴾ ﴾ [القصص]

أما الثانية ، فالنداء فيها للمشركين ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [القصص]

أما هنا ، فيهتم النداء بمسألة الشهادة عليهم . إذن : فكلمة (أين) و (شركائى) و (الذين كنتم تزعمون) قَدْر مشترك بين الآيات الثلاثة ، لكن المطلوب فى كل قَدْر غير المطلوب فى القَدْر الآخر ، فليس فى الأمر تكرار ، إنما توكيد فى الكل[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٩٦) : « المناداة هنا ليست من الله ، لأن الله تعالى لا يكلم الكافر لقوله تعالى ﴿ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴿١٧٤﴾ ﴾ [البقرة] لكنه تعالى يأمر مَنْ يوبخهم ويُبكِّتهم ، ويقيم الحجة عليهم فى مقام الحساب . وقيل : يحتمل أن يكون من الله وقوله ﴿ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴿١٧٤﴾ ﴾ [البقرة] حين يُقال لهم ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المؤمنون] .

أي : أخرجنا من كل أمة نبيّها ، وأحضرناه ليكون شاهداً عليها ﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ .. (٧٥) ﴾ [القصص] أرونا شركاءكم الذين اتخذتموهم من دون الله ، أين هم ليدافعوا عنكم ؟ لكن هيهات ، فقد ضلُّوا عنهم ، وهربوا منهم .

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) ﴾ [القصص]

إذن : غاب شركاؤكم ، وغاب شهودكم ، لكن شهودنا موجودون ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا .. (٧٥) ﴾ [القصص] يشهد أنه بلَّغهم منهج الله فإنْ قُلْتم : لقد أغوانا الشيطان وأغوانا المضلون من الإنس ، نردّ عليكم بأننا ما تركناكم لإغوائهم ، فيكون لكم عذر ، إنما أرسلنا إليكم رسلاً لهدايتكم ، وقد بلَّغكم الرسل .

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰؤُلاءِ شَهِيدًا (٤١) ﴾ [النساء]

فماذا يكون موقفهم يوم تشهد أنت عليهم بأنك بلَّغت ، وأعذرتَ فى البلاغ ، وأنك اضطهدت منهم ، وأوذيت ، وقد ضلَّ عنهم شركاؤهم ، ولم يجدوا مَنْ يشهد لهم أو يدافع عنهم ؟ عندها تسقط أعذارهم وتكون المحكمة قد (تنوَّرت) .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ .. (٧٥) ﴾ [القصص] أى : قولوا : إن رسلنا لم يُبلِّغوكم منهجنا ، وهاتوا حجة تدفع عنكم ، فلما تحيَّروا وأُسقط فى أيديهم حيث غاب شهداؤهم وحضر الشهداء عليهم ﴿ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ .. (٧٥) ﴾ [القصص]

وفوجئوا كما قال تعالى عنهم : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور]

وقال : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً .. (٤٩) ﴾ [الكهف]

فوجئوا بما لم يُصدِّقوا به ولم يؤمنوا به ، لكن ما وجه هذه المفاجأة ، وقد أخبرناهم بها فى الدنيا وأعطيناهم مناعة كان من الواجب أنْ يأخذوا بها ، وأنْ يستعدوا لهذا الموقف ، فالعاقل حين تُحذره من وعورة الطريق الذى سيسلكه وما فيه من مخاطر وأهوال ينبغى عليه أنْ ينصرفَ عنه ، إنْ كان الناصح له صادقاً ، ولا عليه حين يحتاط لنفسه أنْ يكون ناصحه كاذباً ، على حَدِّ قول الشاعر :

زَعَم المنجِّمُ والطبيبُ كلاهُما لا تُبعَثُ الأجسَادُ قُلْتُ إليكُما
إن صَحَّ قولكُمَا فلسْتُ بخاسِرٍ أَوْ صَحَّ قَوْلى فالخسَار عليكُما

وما عليك إنْ حملتَ بندقيةً فى هذا الطريق المخوف ، ثم لم تجد شيئاً يخيفك ؟ إذن : أنتم إنْ لم تخسروا فلن تكسبوا شيئاً ، ونحن إنْ لم نكسب لن نخسر .

وقوله : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم .. (٧٥) ﴾ [القصص] أى : غاب ﴿ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) ﴾ [القصص] من ادّعاء الشركاء .

بعد أن أعطانا الحق ـ تبارك وتعالى ـ لقطة من لقطات يوم القيامة ، والقيامة لا تخيف إلا مَنْ يؤمن بها ، أما مَنْ لا يؤمن بالآخرة والقيامة فلا بُدَّ له من رادع آخر ؛ لأن الحق سبحانه يريد أنْ يحمى صلاح الكون وحركة الحياة .

ولو اقتصر الجزاء على القيامة لعربد غير المؤمنين واستشرى فسادهم ، ولَشقى الناس بهم ، والله تعالى يريد أنْ يحمى حركة الحياة من المفسدين من غير المؤمنين بالآخرة ، فيجعل لهم عذاباً فى الدنيا قبل عذاب الآخرة .

يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ .. (٤٧) ﴾ [الطور]

يعنى : قبل عذاب الآخرة .

فالذى يقع للكفار فى الدنيا رَدْع لكل ظالم يحاول أنْ يعتدى ، وأنْ يقف فى وجه الحق ؛ لذلك يعطينا ربنا ـ عز وجل ـ صورة لهذا العذاب الدنيوى للمفسدين فى الأرض ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ[1] فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ[2] بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

فلم يتكلم عن قارون وجزائه فى الآخرة ، إنما يجعله مثلاً وعبرة واضحة فى الدنيا لكل مَنْ لم يؤمن بيوم القيامة لعلَّه يرتدع .

والنبى ﷺ اضطهده كفار قريش ، ووقفوا فى وجه دعوته ، وآذوْا صحابته ، حتى أصبحوا غير قادرين على حماية أنفسهم ، ومع ذلك ينزل القرآن على رسول الله يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر]

فيتعجب عمر رضى الله عنه : أىُّ جمع هذا ؟ فنحن غير قادرين على حماية أنفسنا ، فلما وقعتْ بدر وانهزم الكفار وقُتلوا . قال

(١) قال ابن عباس : كان ابن عمه ، وهكذا قال إبراهيم النخعى وعبد الله بن الحارث بن نوفل وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وغيرهم أنه كان ابن عم موسى عليه السلام . وزعم ابن إسحاق أن قارون كان عم موسى بن عمران . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٣/٣٩٨] .

(٢) ناء الرجل بالحمل : نهض به متثاقلاً فى جهد ومشقة . أى : تثقل عليهم وتجهدهم وهذا كناية عن كثرة كنوز قارون . [القاموس القويم ٢/٢٩٠] .

عمر[1] : نعم صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥ ﴾ [القمر]

لذلك يقولون : لا يموت ظالم فى الدنيا حتى ينتقم الله منه ، ويرى فيه المظلوم يوماً يشفى غليله ، ولما مات ظلوم فى الشام ولم يَرَ الناس فيه ما يدل على انتقام الله منه تعجّبوا وقال أحدهم : لا بُدَّ أن الله انتقم منه دون أن نشعر ، فإنْ أفلتَ من عذاب الدنيا ، فوراء هذه الدار دار أخرى يعاقب فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، وعَدْل الله - عز وجل - يقتضى هذه المحاسبة .

والحق - تبارك وتعالى - يجعل من قارون عبرةً لكل مَنْ لا يؤمن بالآخرة ليخاف من عذاب الله ، ويحذر عقابه ، والعبرة هنا بمَنْ ؟ بقارون رأس من رؤوس القوم ، وأغنى أغنيائهم ، والفتوة فيهم ، فحين يأخذه الله يكون فى أَخْذه عبرة لمن دونه .

وحدَّثونا أن صديقاً لنا كان يعمل بجمرك الأسكندرية ، فتجمّع عليه بعض زملائه من الفتوات الذين يريدون فَرْضَ سيطرتهم على الآخرين ، فما كان منه إلا أنْ أخذ كبيرهم ، فألقاه فى الأرض ، وعندها تفرَّق الآخرون وانصرفوا عنه .

ومن هذا المنطلق أخذ الله تعالى قارون ، وهو الفتوة ، ورمز الغنى والجاه بين قومه ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ .. ۝٧٦ ﴾ [القصص] إذن : حينما نتأمل حياة موسى عليه السلام نجده قد مُنِى بصناديد الكفر ، فقد واجه فرعون الذى ادَّعى الألوهية ، وواجه هامان ، ثم موسى السامرى الذى خانه فى قومه فى غيبته ، فدعاهم إلى عبادة العجل .

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٦٦) وعزاه لابن أبى حاتم عن عكرمة قال : « لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥ ﴾ [القمر] قال عمر : أىَّ جمع يهزم ؟ أى : أىَّ جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول « سيُهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ » .

ومُنى من قومه بقارون ، ومعنى : من قومه ، إما لأنه كان من رحمه من بنى إسرائيل ، أو من قومه يعنى : الذين يعيشون معه . والقرآن لم يتعرض لهذه المسألة بأكثر من هذا ، لكن المفسرين يقولون : إنه ابن عمه . فهو : قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى ابن يعقوب و موسى هو ابن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب .

وللمؤرخين كلام فى العداوة بين موسى وقارون ، قالوا : حينما سأل موسى عليه السلام ربه أنْ يشدَّ عضده بأخيه هارون ، أجابه سبحانه ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه] وليست هذه أول مرة بل ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [طه] وأرسل الله معه أخاه هارون ؛ لأنه أفصح من موسى لساناً ، وجعلهما شريكين فى الرسالة ، وخاطبهما معاً ﴿اذْهَبَا .. ﴿٤٣﴾﴾ [طه] ليؤكد أنَّ الرسالة ليست من باطن موسى .

وإنْ رأيت الخطاب فى القرآن لموسى بمفرده ، فاعلم أن هارون مُلاحَظ فيه ، ومن ذلك لما دعا موسى على قوم فرعون ، فقال : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس]

فالذى دعا موسى ، ومع ذلك لما أجابه ربه قال : ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. ﴿٨٩﴾﴾ [يونس] وهذا دليل على أن هارون لم يكن رسولاً من باطن موسى ، إنما من الحق سبحانه ، وأيضاً دليل على أن المؤمِّن على الدعاء كالداعى ، فكان موسى يدعو وهارون يقول : آمين .

ولما ذهب موسى لميقات ربه قال لأخيه ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي .. ﴿١٤٢﴾﴾ [الاعراف] وفى غيبة موسى حدثتْ مسألة العجل ، وغضب

موسى من أخيه هارون ، فلما هدأتْ بينهما الأمور حدث تخصيص فى رسالة كل منهما ، فأعطى هارون (الحبورة) والحَبْر : هو العالم الذى يُعَد مرجعاً ، كما أُعطِى (القربان) أى : التقرب إلى الله .

وعندها غضب قارون ؛ لأنه خرج من هذه المسألة صُفْر اليدين ، وامتاز عنه أولاد عمومته بالرسالة والمنزلة ، رغم ما كان عنده من أموال كثيرة .

ثم إن موسى ـ عليه السلام ـ طلب من قارون زكاة ماله ، دينار فى كل ألف دينار ، ودرهم فى كل ألف درهم ، فرفض قارون وامتنع ، بل وألَّبَ الناس ضد موسى ـ عليه السلام[1] .

ثم دبَّر له فضيحة ؛ ليصرف الناس عنه ، حيث أغرى امرأة بغياً فأعطاها طستْاً مليئاً بالذهب ، على أن تدَّعى على موسى وتتهمه ، فجاء موسى عليه السلام ليخطب فى الناس ، ويُبيِّن لهم الأحكام فقال : مَنْ يسرق نقطع يده ، ومَنْ يزنى نجلده إن كان غير محصن ، ونرجمه إنْ كان محصناً ، فقام له قارون وقال : فإن كنتَ أنت يا موسى ؟ فقال : وإنْ كنتُ أنا .

وهنا قامت المرأة البغىُّ وقالت : هو راودنى عن نفسى ، فقال لها : والذى فلق البحر لَتقُولِنّ الصدق فارتعدتْ المرأة ، واعترفت بما دبَّره قارون ، فانفضح أمره وبدأت العداوة بينه وبين موسى عليه السلام .

وبدأ قارون فى البَغْى والطغيان حتى أخذه الله ، وقال فى

(١) أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس أن موسى عليه السلام قال لقارون : إن الله أمرنى أن آخذ الزكاة ، فأبى فقال : إن موسى عليه السلام يريد أن يأكل أموالكم ، جاءكم بالصلاة ، وجاءكم بأشياء فاحتملتموها ، فتحملوه أن تعطوه أموالكم ؟ قالوا : لا نحتمل ، فما ترى ، فقال لهم : أرى أن أرسل إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل ، فنرسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٤٣٦] .

حـقـه هذه الآيات : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ .. ⦗٧٦⦘ ﴾ [القصص]

والبغي : تجاوز الحدّ في الظلم ، خاصة وقد كان عنده من المال ما يُعينه على الظلم ، وما يُسخِّر به الناس لخدمة أهدافه ، وكأنه يمثل مركز قوة بين قومه ، والبغي إما بالاستيلاء على حقوق الغير ، أو باحتقارهم وازدرائهم ، وإما بالبطر .

ثم يذكر حيثية هذا البغي : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ .. ⦗٧٦⦘ ﴾ [القصص]

كلمة (مفاتح) كما في قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ .. ⦗٥٩⦘ ﴾ [الأنعام]

ولو قلنا : مفاتح جمع ، فما مفردها ؟ لا تقُلْ مفتاح ؛ لأن مفتاح جمعها مفاتيح ، أما مفاتح ، فمفردها (مَفْتح)[1] وهي آلة الفتح كالمفتاح ، وهي على وزن (مبرد) فالمعنى : أن مفاتيح خزائنه لو حملتْها عصبة تنوء بها ، وهذه كناية عن كثرة أمواله ، نقول : ناء به الحمْل ، أو ناء بالحمل ، إذا ثقُل عليه ، ونحن لا نميز الخفيف من الثقيل بالعين أو اللمس أو الشم إنما لا بُدَّ من حمله للإحساس بوزنه.

وقلنا : إن هذه الحاسة هي حاسة العَضَل ، فالحمْل الثقيل يُجهد العضلة ، فتشعر بالثقل ، على خلاف لو حملتَ شيئاً خفيفاً لا تكاد تشعر بوزنه لخفّته ، ولو حاولتَ أنْ تجمع أوزاناً في حيز ضيق كحقيبة (هاندباج) فإن الثقل يفضحك ؛ لأنك تنوء به .

والعُصْبة : هم القوم الذين يتعصَّبون لمبدأ من المبادىء بدون

(١) المفتح : الخزانة . قال الأزهري : كل خزانة كانت لصنف من الأشياء ، فهي مَفْتح ، والمفتح : الكنز . قيل : هي الكنوز والخزائن ، قال الزجاج : روي أن مفاتحه خزائنه . قال الأزهري : والأشبه في التفسير أن مفاتحه خزائن ماله ، والله أعلم بما أراد . [لسان العرب ـ مادة : فتح] .

هَوىً بينهم ، ومنه قول إخوة يوسف : ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ .. ⑧﴾ [يوسف]

إنها كلمة حق خرجت من أفواههم دون قصد منهم ؛ لأنهم فعلاً كانوا قوةً متعصبين بعضهم لبعض فى مواجهة يوسف وأخيه ، وكانا صغيرين لا قوةَ لهما ولا شوكة ، وكانوا جميعاً من أم واحدة ، ويوسف وأخوه من أم أخرى[1] ، فطبيعى أن يميل قلب يعقوب عليه السلام مع الضعيف .

وقالوا : العصبة من الثلاثة إلي العشرة ، وقد حددهم القرآن بقوله : ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا .. ④﴾ [يوسف] وهم إخوته ومنهم بنيامين ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. ④﴾ [يوسف] أى : أباه وأمه . فمن هاتين الآيتين نستطيع تحديد العصبة .

وبهذا التفكير الذى يقوم على ضم الآيات بعضها إلى بعض حَلَّ الإمام على ـ رضى الله عنه ـ مسألة تُعدُّ معضلة عند البعض ، حيث جاءه مَنْ يقول له : تزوجتُ امرأة وولدتْ بعد ستة أشهر ، ومعلوم أن المرأة تلد لتسعة أشهر ، فلا بُدَّ أنها حملت قبل أنْ تتزوج .

فقال الإمام على : أقل الحمل ستة أشهر ، فقال السائل : ومن أين تأخذها يا أبا الحسن ؟ قال : نأخذها من قوله تعالى : ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. ⑮﴾[الأحقاف] وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ .. ٢٣٣﴾ [البقرة]

يعنى : أربعة وعشرين شهراً ، وبطرح الأربعة والعشرين شهراً من الثلاثين يكون الناتج ستة أشهر ، هى أقل مدة للحمل . وهكذا

---

(١) تزوج يعقوب أولاً ليئة بنت لابان ، ثم تزوج أختها الصغرى راحيل ، جمع بينهما ، لأنه كان مباحاً فى شريعتهم وقد ولدت له ليئة ٦ بنين (راوبين ، شمعون ، لاوى ، يهوذا ، يسَّاكر ، زبولون) وبنتاً واحدة (دينة) . وولدت له راحيل ولدين : يوسف وبنيامين . وولدت له سريته « بلهة » ولدين : دان ، ونفتالى . وولدت له سريته « زلفة » ولدين : جاد ، وأشير . ذلك ما ذكرته التوراة فى [سفر التكوين : الأصحاح ٣٥ : ٢٣ - ٢٦] .

تتكاتف آيات القرآن ، ويكمل بعضهـا بعضاً ، ومن الخطأ أن نأخذ كل آية على حدة ، ونفصلها عن غيرها فى ذات الموضوع .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص] والنهى هنا عن الفرح المحظور ، فالفرح : انبساط النفس لأمر يسرُّ الإنسان ، وفَرْق بين أمر يسرُّك ؛ لأنه يُمتعك ، وأمر يسرُّك لأنه ينفعك ، فالمتعة غير المنفعة .

فمثلاً ، مريض السكر قد يأكل المواد السكرية لأنها تُحدث له متعة ، مع أنها مضرة بالنسبة له ، إذن : فالفرح ينبغى أن يكون بالشىء النافع ، لأن الله تعالى لم يجعل المتعة إلا فى النافع .

فحينما يقولون له ﴿لا تَفْرَحْ .. ﴿٧٦﴾﴾ [القصص] أى : فرح المتعة ، وإنما الفرح بالشىء النافع ، ولو لم تكن فيه متعة كالذى يتناول الدواء المر الذى يعود عليه بالشفاء ، لذلك يقول تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]

ويقول تعالى : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ .. ﴿٥﴾﴾ [الروم] فسماه الله فرحاً ؛ لأنه فرح بشىء نافع ؛ لأن انتصار الدعوة يعنى أن مبدءك الذى آمنتَ به ، وحاربت من أجله سيسيطر وسيعود عليك وعلى العالم بالنفع .

ومن فرح المتعة المحظور ما حكاه القرآن : ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ .. ﴿٨١﴾﴾ [التوبة] هذا هو فرح المتعة ؛ لأنهم كارهون لرسول الله ، رافضون للخروج معه ، ويسرُّهم قعودهم ، وتركه يخرج للقتال وحده .

فقوله تعالى : ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص]

أي : فرح المتعة الذى لا ينظر إلى مَغبّة الأشياء وعواقبها ، فشارب الخمر يشربها لما لها من متعة مؤقتة ، لكن يتبعها ضرر بالغ ، ونسمع الآن مَنْ يقول عن الرقص مثلاً : إنه فن جميل وفن راقٍ ؛ لأنه يجد فيه متعة ما ، لكن شرط الفن الجميل الراقى أن يظل جميلاً ، لكن أنْ ينقلب بعد ذلك إلى قُبْح ويُورِث قبحاً ، كما يحدث فى الرقص ، فلا يُعَدُّ جميلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

معنى ﴿ وَابْتَغِ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص] أى : اطلب ﴿ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص] بما أنعم عليك من الرزق ﴿ الدَّارَ الآخِرَةَ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص] لأنك إن ابتغيتَ برزق الله لك الحياة الدنيا ، فسوف يَفْنى معك فى الدنيا ، لكن إنْ نقلتَهُ للآخرة لأبقيتَ عليه نعيماً دائماً لا يزول .

وحين تحب نعيم الدنيا وتحتضنه وتتشبث به ، فاعلم أن دنياك لن تمهلك ، فإما أنْ تفوت هذا النعيمَ بالموت ، أو يفوتك هو حين تفتقر . إذن : إن كنت عاشقاً ومُحباً للمال ولبقائه فى حَوْزتك ، فانقله إلى الدار الباقية ، ليظل فى حضنك دائماً نعيماً باقياً لا يفارقك ، فسارع إذن واجعله يسبقك إلى الآخرة .

وفى الحديث الشريف لما سأل رسول الله ﷺ أم المؤمنين عائشة

عن الشاة التى أُهديَتْ له قالت بعد أن تصدقت بها : ذهبتْ إلا كتفها ، فقال ﷺ : « بل بقيتْ إلا كتفها »[١] .

ويقول ﷺ : « ليس لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدقْتَ فأبقيْتَ »[٢] .

لذلك كان أولو العزم حين يدخل على أحدهم سائل يسأله ، يقول له : مرحباً بمَنْ جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

والإمام على ـ رضى الله عنه ـ جاءه رجل يسأله : أأنا من أهل الدنيا ، أم من أهل الآخرة ؟ فقال : جواب هذا السؤال ليس عندى ، بل عندك أنت ، وأنت الحكم فى هذه المسألة . فإنْ دخل عليك مَنْ تعودت أنه يعطيك ، ودخل عليك مَنْ تعودت أنْ يأخذ منك ، فإنْ كنتَ تبشُّ لمن يعطى ، فأنت من أهل الدنيا ، وإنْ كنتَ تبشُّ لمَنْ يسألك ويأخذ منك ، فأنت من أهل الآخرة ، لأن الإنسان يحب من يعمر له ما يحب ، فإنْ كنتَ محباً للدنيا فيسعدك مَنْ يعطيك ، وإنْ كنتَ محباً للآخرة فيسعدك مَنْ يأخذ منك .

وإذا كان ربنا ـ عز وجل ـ يوصينا بأن نبتغى الآخرة ، فهذا لا يعنى أن نترك الدنيا : ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧)﴾ [القصص] لكن هذه الآية يأخذها البعض دليلاً على الانغماس فى الدنيا ومتعها .

وحين نتأمل ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧)﴾ [القصص] نفهم

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٥٠) والترمذى فى سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة رضى الله عنها . قال الترمذى « حديث صحيح » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٢٤ ، ٢٦) ، ومسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) ، والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه .

أن العاقل كان يجب عليه أنْ ينظر إلى الدنيا على أنها لا تستحق الاهتمام ، لكن ربه لفته إليها ليأخذ بشيء منها تقتضيه حركة حياته . فالمعنى : كان ينبغى علىَّ أنْ أنساها فذكَّرنى الله بها .

ولأهل المعرفة فى هذه المسألة ملْمح دقيق : يقولون : نصيبك من الشيء ما ينالك منه ، لا عن مفارقة إنما عن ملازمة ودوام ، وعلى هذا فنصيبك من الدنيا هو الحسنة التى تبقى لك ، وتظل معك ، وتصحبك بعد الدنيا إلى الآخرة ، فكأن نصيبك من الدنيا يصُبُّ فى نصيبك من الآخرة ، فتخدم دنياك آخرتك .

أو : يكون المعنى موجهاً للبخيل الممسك على نفسه ، فيُذكِّره ربه ﴿ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧) ﴾ [القصص] يعنى : خُذْ منها القَدْر الذى يعينك على أمر الآخرة . لذلك قالوا عن الدنيا : هى أهم من أن تُنْسى - لأنها الوسيلة إلى الآخرة - وأتفه من أن تكون غاية ؛ لأن بعدها غاية أخرى أبقى وأدوم[1] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. (٧٧) ﴾ [القصص] الحق سبحانه يريد أنْ يتخلَّق خَلْقه بخُلُقه ، كما جاء فى الأثر « تخلقوا بأخلاق الله ».

فكما أحسن الله إليك أحسنْ إلى الناس ، وكما تحب أنْ يغفر الله

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٠١) : « قوله تعالى : ﴿ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧) ﴾ [القصص] اختلف فيه .

فقال ابن عباس والجمهور : لا تضيع عمرك فى الا تعمل عملاً صالحاً فى دنياك ، إذ الآخرة إنما يُعمل لها ، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها ، فالكلام على هذا التأويل شدة فى الموعظة .

- وقال الحسن وقتادة : معناه لا تُضيع حظك من دنياك فى تمتعك بالحلال وطلبك إياه ، ونظرك لعاقبة دنياك . فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذى يشتهيه ، وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية النبوة من الشدة ، قاله ابن عطية » .

لك ، اغفر لغيرك إساءته ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢) ﴾ [النور]

وما دام ربك يعطيك ، فعليك أنْ تعطى دون مخافة الفقر ؛ لأن الله تعالى هو الذى استدعاك للوجود ؛ لذلك تكفَّل بنفقتك وتربيتك ورعايتك . لذلك حين ترى العاجز عن الكسب ـ وقد جعله ربه على هذه الحال لحكمة ـ حين يمد يده إليك ، فاعلم أنه يمدُّها لله ، وأنك مناول عن الله تعالى .

ونلحظ هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (١١) ﴾ [الحديد]

فسمَّى الصدقة قرضاً لله ، لماذا ؟ لأن هذا العبد عبدى ، مسئول منى أن أرزقه ، وقد ابتليتُه لحكمة عندى ـ حتى لا يظنَّ أحد أن المسألة ذاتية فيه ، فيعتبر به غيره ـ فمَنْ إذن يقرضنى لأسُدَّ حاجة أخيكم ؟

وقال تعالى : ﴿ يُقْرِضُ اللَّهَ .. (١١) ﴾ [الحديد] مع أنه سبحانه الواهب ؛ لأنه أراد أن يحترم ملكيتك ، وأن يحترم انتفاعك وسَعْيك .. كما لو أراد والد أنْ يُجرِى لأحد أبنائه عملية جراحية مثلاً وهو فقير وإخوته أغنياء ، فيقول لأولاده : اقرضونى من أموالكم لأجرى الجراحة لأخيكم ، وسوف أردُّ عليكم هذا القرض .

وفى الحديث الشريف أن سيدنا رسول الله ﷺ دخل على ابنته فاطمة ـ رضوان الله عليها ـ فوجدها تجلو درهماً فسألها : ماذا تصنعين به » ؟ قالت : أجلوه ، قال : « لِمَ » ؟ قالت : لأنى نويت أن أتصدق به ، وأعلم أنه يقع فى يد الله قبل أن يقع فى يد الفقير .

إذن : فالمال مال الله ، وأنت مناول عن الله تعالى .

وقد وقف بعض المستشرقين عند هذه المسألة ؛ لأنهم يقرأون الآيات والأحاديث مجرد قراءة سطحية غير واعية ، فيتوهمون أنها متضاربة . فقالوا هنا : الله تعالى يقول : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. ⑪ ﴾ [الحديد]

وقال فى موضع آخر : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. ⑯⓪ ﴾ [الانعام] وفى الحديث الشريف : « مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »(1) .

فظاهر الحديث يختلف مع الآية الكريمة ـ هذا فى نظرهم ـ لأنهم لا يملكون الملكة العربية فى استقبال البيان القرآنى . وبتأمل الآيات والأحاديث نجد اتفاقهما على أن الحسنة أو الصدقة بعشر أمثالها ، فالخلاف ـ ظاهراً ـ فى قوله تعالى : ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. ⑪ ﴾ [الحديد] وقول النبى ﷺ : « والقرض بثمانية عشر » .

وليس بينهما اختلاف ، فساعة تصدَّق الإنسان بدرهم مثلاً أعطاه الله عشرة منها الدرهم الذى تصدَّق به ، فكأنه أعطاه تسعة ، فحين تُضَاعف التسعة ، تصبح ثمانية عشرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ⑦⑦ ﴾ [القصص] والفساد يأتى من الخروج عن منهج الله ،

---

(1) عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ قال : « دخل رجل الجنة فرأى على بابها مكتوباً الصدقة بعشرة أمثالها ، والقرض بثمانية عشر » . أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٤/١٢٦) وعزاه للطبرانى فى المعجم الكبير وقال : « فيه عتبة بن حميد وثقه ابن حبان وغيره وفيه ضعف » .

وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أُسرى بى مكتوباً على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض ثمانية عشر ، فقلت لجبريل : ما للقرض أفضل من الصدقة ؟ قال : لأن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٨/٣٣٣) .

فإنْ غيَّرت فيه فقد أفسدتَ ، فالفساد كما يكون فى المادة يكون فى المنهج ، وفى المعنويات ، يقول سبحانه : ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا .. ۝٥٦﴾ [الأعراف]

فالحق سبحانه خلق كل شيء على هيئة الصلاح لإسعاد خلقه ، فلا تعمد إليه أنت فتفسده ، ومن هذا الصلاح المنهج ، بل المنهج وهو قوام الحياة المعنويةِ ـ أَوْلَى من قِوام الحياة المادية .

إذن : فلتكُنْ مؤدباً مع الكون من حولك ، فإذا لم تستطع أنْ تزيده حُسْناً فلا أقلَّ من أنْ تدعه كما هو دون أنْ تفسده ، وضربنا لذلك مثلاً ببئر الماء قد تعمد إليه فتطمسه ، وقد تبنى حوله سوراً يحميه .

هذه مسائل خمْس توجَّه بها قوم قارون لنصحه بها ، منها الأمر ، ومنها النهى ، ولا بُدَّ أنهم وجدوا منه ما يناقضها ، لا بُدَّ أنهم وجدوه بَطِراً أَشِراً[1] مغروراً بماله ، فقالوا له : ﴿لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۝٧٦﴾ [القصص]

ووجدوه قد نسى نصيبه من الدنيا فلم يتزود منها للآخرة ، فقالوا له ﴿وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. ۝٧٧﴾ [القصص] ، ووجدوه يضنُّ على نفسه فلا ينفق فى الخير ، فقالوا له : ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. ۝٧٧﴾ [القصص] يعنى : عَدِّ نعمتك إلى الغير ، كما تعدَّت نعمة الله إليك .. وهكذا ما أمروه أمراً ، ولا نهوْهُ نهياً إلا وهو مخالف له ، وإلا لَمَا أمروه ولَمَا نهوْهُ .

(١) الأشَر : البطر . وقيل : هو أشد البطر . والبطر : الطغيان فى النعمة ، فهو بَطِر : لم يشكرها . [لسان العرب ـ مادتا : أشر ـ بطر] .

ثم يقـول قارون رداً على هذه المسائل الخمس التى توجَّه بها قومه إليه :

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨ ﴾

لكن ما وجه هذا الردّ ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. ٧٨ ﴾ [القصص] على المطلوبات الخمسة التى طلبوها منه ؟ كأنه يقول لهم : لا دخلَ لكم بهذه الأمور ؛ لأن الذى أعطانى المال علم أننى أهْلٌ له ، وأننى أستحقه ؛ لذلك ائتمننى عليه ، ولسْتُ فى حاجة لنصيحتكم .

أو يكون المعنى ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. ٧٨ ﴾ [القصص] يعنى : بمجهودى ومزاولة الأعمال التى تُغل علىَّ هذا المال ، وكان قارون مشهوراً بحُسْن الصوت فى قراءة التوراة ، وكان حافظاً لها . وكان حسن الصورة ، وعلى درجة عالية بمعرفة أحكام التوراة .

فعجيب أن يكون عنده كل هذا العلم ويقول ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. ٧٨ ﴾ [القصص] ولا يعلم أن الله قد أهلك من قبله قروناً كانوا أشدَّ منه قوة ، وأكثر منه مالاً وعدداً .

﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا .. ٧٨ ﴾ [القصص] فكيف فاتتْه هذه المسألة مع علْمه بالتوراة ؟

ومعنى ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ .. ٧٨ ﴾ [القصص] أى : من ضمن ما علم ﴿ مِنَ الْقُرُونِ .. ٧٨ ﴾ [القصص] أناس كانوا أكثر منه مالاً ، وقد

أخذهم الله وهم أمم لا أفراد ، وكلمة ﴿ جَمْعًا .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] يجوز أن تكون مصدراً يعنى : جمع المال ، أو : اسم للجماعة أى : له عُصْبة .

وبعد ذلك قال سبحانه : ﴿ وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] وعلامة أنهم لا يُسألون أن الله تعالى يأخذهم دون إنذار يأخذهم على غِرَّة ، فلن يقول لقارون : أنت فعلت كذا وكذا ، وسأفعل بك كذا وكذا ، وأخسف بك وبدارك الأرض ، فأفعالك معلومة لك ، والحيثيات السابقة كفيلة بأنْ يُفاجئك العذاب .

وهكذا يتوقع أنْ يأتيه الخَسْف والعذاب فى أىِّ وقت ، إذن : لن نسألهم ، ولن نُجرى معهم تحقيقاً كتحقيق النيابة أو (البوليس) ، حيث لا فائدة من سؤالهم ، وليس لهم عندنا إلا العقاب .

وبعد هذا كله وبعد أنْ نصحه قومه ما يزال قارون متغطرساً بَطِراً لم يَرْعَو ولم يرتدع ، بل ظل فَرِحاً باغياً مفسداً ، ويحكى عنه القرآن :

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾

قلنا : إن قارون كان بطبيعة الحال غنياً وجيهاً ، حَسَن الصوت والصورة ، كثير العدد ، كثير المال ، فكيف لو أضفت إلى هذا كله أن يخرج فى زينته وفى موكب عظيم ، وفى أبهة ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [القصص]

وللعلماء كلام كثير[1] فى هذه الزينة التى خرج فيها قارون ، فقد كان فيها ألف جارية من صفاتهن كذا وكذا ، وألف فرس .. إلخ ، حتى أن الناس انبهروا به وبزينته ، بل وانقسموا بسببه قسمين : جماعة فُتنوا به ، وأخذهم بريق النعمة والزينة والزهو وترف الحياة ، ومدُّوا أعينهم إلى ما هو فيه من متعة الدنيا .

وفى هؤلاء يقول تعالى : ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩)﴾ [القصص] وقد خاطب الحق ـ تبارك وتعالى ـ نبيه محمداً ﷺ بقوله : ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٣١)﴾ [طه]

والمعنى : لا تنظر إلى ما فى يد غيرك ، واحترم قدر الله فى خَلْق الله ، واعلم أنك إنْ فرحتَ بالنعمة عند غيرك أتاك خيرها يطرق بابك وخدمتْك كأنها عندك ، وإنْ كرهتها وحسدته عليها تأبَّت عليك ، وحُرِمْت نفعها ؛ لأن النعمة أعشق لصاحبها من عشقه لها ، فكيف تأتيه وهو كاره لها عند غيره ؟

لذلك من صفات المؤمن أن يحب الخير عند أخيه كما يحبه لنفسه . وحين لا تحب النعمة عند غيرك ، فما ذنبه هو ؟ فكأنك تعترض على قدر الله فيه ، وما دُمْتَ قد تأبيت واعترضت على قدر المنعم ، فلا بُدَّ أن يحرمك منها .

لذلك يقول سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ

---

(١) قال قتادة : خرج على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حمر ، منها ألف بغل أبيض عليها قطف حمر . [أخرجه عبد بن حميد وابن أبى حاتم] ـ قال ابن جريج : خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان ، ومعه ثلثمائة جارية على البغال الشهب عليهن الثياب الحمر . [أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم] . أورد السيوطى هذه الآثار وغيرها فى [الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٦/٤٤١] .

بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٣٢) ﴾ [النساء]

لأن لكل منكم مهمة ودوراً فى الحياة ، ولكل منكم مواهبه وميزاته التى يمتاز بها عن الآخرين ، ولا بُدَّ أن يكون فيك خصال أحسن ممن تحسده ، لكنك غافل عنها غير متنبه لها .

وسبق أن قلنا : إن الحق سبحانه قد وزَّع أسباب فَضْله على خَلْقه ؛ لأننا جميعاً أمام الله سواء ، وهو سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ؛ لذلك قلنا : إن مجموع مواهب كل فرد تساوى مجموع مواهب الآخر ، فقد تزيد أنت عنى فى خصلة ، وأزيد عنك فى أخرى ، فهذا يمتاز بالذكاء ، وهذا بالصحة ، وهذا بالعلم ، وهذا بالحِلْم ... إلخ .

لأن حركة الحياة تتطلب كل هذه الإمكانيات ، فبها تتكامل الحياة ، وليس من الممكن أن تتوفر كل هذه المزايا لشخص واحد يقوم بكل الأعمال ، بل إنْ تميزْتَ فى عملك ، وأتقنتَ مهمتك فلك الشكر .

ومن العجيب ألاَّ تنتفع أنت بنبوغك ، فى حين ينتفع به غيرك ، ومن ذلك قولهم مثلاً (باب النجار مخلع) ، فلماذا لا يصنع باباً لنفسه ، وهو نجار ؟ قالوا : لأنه الباب الوحيد الذى لا يتقاضى عليه أجراً .

إذن : حينما تجد غيرك مُتفوِّقاً فى شىء فلا تحقد عليه ؛ لأن تفوقه سيعود عليك ، وضربنا لذلك مثلاً بشىء بسيط : حين تمسك المقصَّ بيدك اليمنى لتقصَّ أظافر اليد اليسرى تجد أن اليد اليمنى ـ لأنها مرنة سهلة الحركة ـ تقصُّ أظافر اليسرى بدقة ، أما حين تقصُّ اليسرى أظافر اليمنى فإنها لا تعطيك نفس المهارة التى كانت لليمنى . إذن : فحُسْن اليمنى تعدَّى لليُسْرى ونفعها .

وهكذا إذا رأيتَ أخاك قد تفوَّق في شيء أو أحسن في صُنْعه فاحمد الله ؛ لأن حُسْنه وتفوقه سيعود عليك ، وقد لا يعود عليه هو ، فلا تحسده ، ولا تحقد عليه ، بل ادْعُ له بالمزيد ؛ لأنك ستنتفع به في يوم من الأيام .

لكن ماذا قال أهل الدنيا الذين بُهروا بزينة قارون ؟ قالوا : ﴿ يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [القصص] يعني: كما نقول نحن (حظه بمب) ؛ لأن هؤلاء لا يعنيهم إلا أمر الدنيا ومُتعها وزُخْرفها ، أما أهل العلم وأهل المعرفة فلهم رأيٌ مخالف ، ونظرة أبعد للأمور ؛ لذلك ردُّوا عليهم :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

فما كان الحق - تبارك وتعالى - ليترك أهل الدنيا وأهل الباطل يُشكِّكون الناس في قَدَر الله ، ويتمردون على قسمته حتى الكفر والزندقة ، والله سبحانه لا يُخلي الناس من أهل الحق الذين يُعدِّلون ميزان حركة الحياة :

إنَّ الذي جَعَلَ الحقيقةَ عَلْقَماً   لم يخْلِ من أهْلِ الحقيقةِ جيلا

وما دام أن الله تعالى قال في الجماعة الأولى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [القصص] فهم لا يرونَ غيرها ، ولا يطمحون لأبعد منها ، وقال في الأخرى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [القصص] فهذا يعني : أن أهل الدنيا (سطحيون) ، لم يكن عندهم

علم ينفعهم ؛ لذلك وقعوا فى هذا المأزق الذى نجا منه أهل العلم ، حينما أجروْا مقارنة بين الطمع فى الدنيا والطمع فى الآخرة .

كما قلنا سابقاً : إن عمر الدنيا بالنسبة لك : لا تقُلْ من آدم إلى قيام الساعة ؛ فعمرك أنت فيها عمر موقوت ، لا بُدَّ أنْ يفنى . إذن : العاقل مَنْ يختار الباقية على الفانية ، لذلك أهل الدنيا قالوا ﴿ يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ .. (٧٩) ﴾ [القصص]

أما أهل العلم والمعرفة فردُّوا عليهم : ﴿ وَيْلَكُمْ .. (٨٠) ﴾ [القصص] أى : الويل لكم بسبب هذا التفكير السطحى ، وتمنِّى ما عند قارون الويل والهلاك لكم بما حسدتُم الناس ، وبما حقدتُم عليهم ، وباعتراضكم على أقدار الله فى خَلْقه .

فأنتم تستحقون الهلاك بهذا ؛ لذلك قال الله عنهم فى موضع آخر : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٧) ﴾ [الروم]

يعنى : لا يعرفون حقيقة الأشياء ، ولو عرفوا ما قالوا هذا الكلام ، وما تمنَّوْا هذه الأمنية .

ثم يلفت أهل العلم والمعرفة أنظار أهل الدنيا ، ويُوجِّهونهم الوجهة الصحيحة : ﴿ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا .. (٨٠) ﴾ [القصص] أى : ثواب الله خير من الدنيا ، ومما عند قارون ، وكيف تتمنون ما عنده ، وقد شجبتم تصرفاته ، ونهيتموه عنها ، ولم ترضَوْها ؟

ومعنى : ﴿ وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) ﴾ [القصص] أى : يُلقَّى الإيمان والعمل الصالح والهداية ، ليُقبِلَ على عمل الآخرة ، ويُفضلها

عن الدنيا ، أى : يُلقَّى قضية العلم بالحقائق ، ولا تخدعه ظواهر الأشياء . هذه لا يجدها ولا يُوفَّق إليها إلا الصابرون ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت]

والصبر : احتمال ما يؤذى فى الظاهر ، لكنه يُنعِّم فى الباطن . وله مراحل ، فالله تعالى كلَّفنا بطاعات فيها أوامر ، وكلَّفنا أنْ نبتعد عن معاص ، وفيها نواهٍ ، وأنزل علينا أقداراً قد لا تستطيبها نفوسنا ، فهذه مراحل ثلاث .

فالطاعات ثقيلة وشاقة على النفس ؛ لذلك يقول تعالى عن الصلاة : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة] فهناك دَواعٍ شتَّى تصرفك عن الصلاة ، وتحاول أنْ تُقعدك عنها ، فتجد عند قيامك للصلاة كسلاً وتثاقلاً .

واقرأ قوله تعالى عن الصلاة مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه] وهذا دليل على أنها صعبة وشاقَّة على النفس ، لكن إذا تعودتْ عليها ، وألفتها النفس صارتْ أحبَّ الأشياء إليك ، وأخفَّها على نفسك ، بل وقرَّة عَيْن لك .

والنبى ﷺ يُعلِّمنا هذا الدرس فى قوله لمؤذنه بلال : « أرحنا بها يا بلال »[1] لا أرحنا منها تلك المقالة التى يقولها لسان حالنا الآن .

ويقول أيضاً ﷺ : « وجُعلَت قرة عينى فى الصلاة »[2] وخصَّ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٦٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٢٨ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) والنسائى فى سننه (٧/٦١) والحاكم فى مستدركه (٢/١٦٠) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ، وتمامه : « حبِّب إلىَّ من الدنيا : النساء والطيب ، وجُعِلت قرة عينى فى الصلاة » .

الصلاة بالذات من بين سائر العبادات ؛ لأنها تتكرر فى اليوم خمس مرات ، فهى ملازمة للمؤمن يعايشها على مدى يومه وليلته بخلاف الأركان الأخرى ، فمنها ما هو مرة واحدة في العام ، أو مرة واحدة في العمر كله .

هذا هو النوع الأول من الصبر ، وهو الصبر على مشقة الطاعة .

الثانى : الصبر عن شهوة المعصية ، ولا تنْسَ أنه أول صبر تصادفه في حياتك أنْ تصبر على نفسك ؛ لذلك يقول الشاعر[1] :

إذَا رُمْتَ أنْ تَسْتقرضَ المالَ مُنفقاً   عَلَى شَهَوات النفْسِ في زَمَن العُسْرِ

فَسَل نفسكَ الإنفاقَ من كَنْز صَبْرها   عليْكَ وإنْظَاراً إلى سَاعة اليُسْرْ

فإنْ فعلتْ كنتَ الغنيَّ وإنْ   أبتْ فكل مَنُوع بعدها واسع العُذْر

فبدل أن تقترض لقضاء شهوة نفس عاجلة ، فأوْلَى بك أن تصبر إلى أن تجد سعة وتيسيراً ، فصبرك على نفسك أهون من صبر الناس عليك ، وإنْ لم تسعْكَ نفسك ، فلا عُذْر لأحد بعد ذلك إنْ منعك .

الثالث : صَبر على الأقدار المؤلمة التى لا تفطن أنت إلى الحكمة منها ، فالأقدار ما دامتْ من حكيم ، ومُجريها عليك ربٌّ ، إذن لا بُدَّ أن لها حكمة فيك ، فخُذ القضية القدرية بحكمة مُجريها عليك ، فهو سبحانه ربك ، وليس عدوك ، وأنت عبده وصنعته ، ألم تقرأ قول الرسول فى الحديث الشريف : « الخلق كلهم عيال الله ، فأحبُّهم إليه أرأفهم بعياله »[2] .

---

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

(٢) أخرج نحوه من حديث عبد الله بن مسعود أبو نعيم فى الحلية (٢٣٧/٤) وابن الجوزى بإسناده فى « العلل المتناهية » (٥١٩/٢) وضعَّفه . وأورده العجلونى فى كشف الخفاء (٤٥٧/١) .

إذن : حين تجرى عليك الأقدار المؤلمة ، فيكفيك للصبر عليها أنْ تعلم أنها حكمة الله ، ويكفيك أن مُجريها عليك ربك ، فإنْ جاءت الأقدار المؤلمة بسبب تقصيرك ، فلا تلومنَّ إلا نفسك ، كالطالب الذى يُهمل دروسه ويتكاسل ، فيفشل فى الامتحان ، فالفشل نتيجة إهماله وتكاسله .

أما الذى يذاكر ويجدّ ويُبكِّر إلى الامتحان مُسْتبشراً فتصدمه سيارة مثلاً فى الطريق ، تمنعه من أداء امتحانه ، فهذا هو القدر المؤلم الذى له حكمة ، وربما داخله شىء من الغرور ، وعوَّل على مذاكرته ، ونسى توفيق الله له ، فأراد الله أنْ يُلقّنه هذا الدرس ليعلمه أن الأمر فى النهاية بيد الله وبمعونته ، وأنه الخاسر إنْ لم تصادفه هذه المعونة ، على حَدِّ قول الشاعر :

إذَا لم يكُنْ عَوْنٌ منَ الله للفتَى ... فَأوَّلُ مَا يَجْنى عليْهِ اجتهادُهُ

فعليك إذن أنْ تنظر إنْ كانت المصيبة نتيجة لما قدمت ، فلا تلومنَّ إلا نفسك ، فإنْ كنتَ قد أخذتَ بالأسباب ، واستوفيتَ ما طُلب منك ، ثم أصابتْك المصيبة ، فاعلم أن لله فيها حكمة ، وعليك أنْ تحترم حكمة الله وقدره فى خَلْقه .

وباعتبار آخر ، يمكن أن نقسم المصائب إلى قسمين : قسم لك فيه غريم ، كأن يعتدى عليك غيرك بضرب أو قتل أو نحوه ، وقسم ليس لك فيه غريم كالموت والمرض مثلاً .

وقد أعطانا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حكماً فى كل منهما ، ففى النوع الأول حيث لا غريمَ لك ، يقول تعالى على لسان لقمان وهو يوصى ولده :
﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان]

ويقول فيما لك فيه غريم : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى] فما دام قد ذكر المغفرة ودعاك إليها ، فلا بُدَّ أن أمامك غريماً ، ينبغى أنْ تصبر عليه ، وأن تغفر له ، والغريم يهيجنى إلى المعصية وإلى الانتقام ، فكلما رأيته أتميَّز غيظاً ، فالصبر فى هذه الحالة أشدّ ويحتاج إلى عزيمة قوية .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى] ولم يقل كما فى الأولى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان] إنما بصيغة التأكيد باللام (لَمِنْ) .

ويُعلِّمنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ كيف نعالج غَيْظ النفوس أمام الغريم ، فيقول سبحانه : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]

هذه مراحل ثلاث ، تتدرج بك حسب ما عندك من استعداد للخير وقدرة على التسامح ، فأولها : أن تكظم غيظك ، وهذا يعنى أن الغيظ موجود ، لكنك تكتمه فى نفسك ، فإنِ ارتقيتَ عفوتَ بأن تُخرج الغيظ والغلَّ من نفسك ، كأن شيئاً لم يحدث ، فإنِ ارتقيتَ إلى المرتبة الأعلى أحسنتَ ؛ لأن الله تعالى يحب المحسنين ، والإحسان أن تقدم الخير وتبادر به مَنْ أساء إليك ، فتجعله رداً على إساءته .

ولا شكَّ أن هذه المراحل تحتاج إلى مجاهدة ، فهى قاسية على النفس ، وقلما تجد مَنْ يعمل بها ؛ لذلك ما جعلها الله على وجه الإلزام ، إنما ندب إليها وحثّ عليها ، فإنْ أخذتَ بأُولاَها فلا شىء عليك ؛ لأن الله تعالى أباح لك أن ترد الإساءة بمثلها ، فإنْ كظمتَ غيظك فأنت على خير ، وإن اخترتَ لنفسك الرقى فى طاعة ربك ، فنعْم الرجل أنت ، ويكفيك ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]

ويكفيك أن المسىء بإساءته إليك جعل الله فى جانبك ، فهو مع إساءته إليك يستحق مكافأة منك ، كما قال أحد العارفين : ألا أُحسن لمن جعل الله فى جانبى ؟

وضربنا لذلك مثلاً بالوالد حين يجد أن أحد الأولاد اعتدى على الآخر ، فيميل ناحية المُعْتَدى عليه ويتودَّد إليه ، ويحاول إرضاءه ، حتى إن المعتدى ليغتاظ ويندم على أنه أساء إلى أخيه ، كذلك الحق - تبارك وتعالى - إن اعتدى بعض خَلْقه على بعض يحتضن المظلوم ، وينصره على مَنْ ظلمَه .

ثم يُفاجأ قارون بالعقاب الذى يستحقه :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

والخسف : أن تنشقَّ الأرض فتبتلع ما عليها ، كالذى يقول (يا أرض انشقى وابلعينى) ، والخسف كان به وبداره التى فيها كنوزه وخزائنه وما يملك ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ .. ﴿٨١﴾﴾ [القصص] ، فما نفعه مال ، ولا دافع عنه أهل ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص] أى : بذاته . فلم تكُنْ له عُصْبة تحميه ، ولا استطاع هو حماية نفسه ، فمَنْ يدفع عذاب الله إن حلَّ ، ومَنْ يمنعه وينقذه إنْ خُسفت به الأرض ؟!

وهنا ينبغى أن نتساءل : كيف الآن حال مَنْ اغتروا به ، وفُتنوا بماله وزينته ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

لقد كانوا بالأمس يقولون ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [القصص] ، لكن اليوم وبعد أن عاينوا ما حاق به من عذاب الله وبأسه الذى لا يُردُّ عن القوم الكافرين - اليوم يثوبون إلى رُشْدهم ويقولون : ﴿ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [القصص]

كلمة (وَيْ) اسم فعل مثل : أُفٍّ وهيهات ، وتدل على الندم والتحسُّر على ما حدث منك ، فهى تنديد وتَخْطِيءٌ للفعل ، وقد تُقال (وَيْ) للتعجب . فقولهم (وى) ندماً على ما كان منهم من تمنى النعمة التى تنعَّم بها قارون وتخطيئاً لأنفسهم ، بعد أنْ شاهدوا الخَسْف به وبداره ، وهم يندمون الآن ويُخطِّئون أنفسهم ؛ لأن الله تعالى فى رزقه حكمة وقدراً .

﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [القصص] أى : يقبض ويُضيق ، وليس بسْط الرزق دليلَ كرامة ، ولا تضييقه دليلَ إهانة ، بدليل أن الله بسط الرزق لقارون ، ثم أخذه أَخْذ عزيز مقتدر .

وقد تعرضتْ سورة الفجر لهذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الفجر]

فالأول اعتبر الرزق الواسع دليل الكرامة ، والآخر اعتبر التضييق دليلَ إهانة ، فردَّ الحق سبحانه عليهما ليُصحح هذه النظرة فقال : ﴿ كَلاَّ .. (١٧) ﴾ [الفجر] يعنى : أنتما خاطئان ، فلا سعةَ الرزق دليلُ كرامة ، ولا تضييقه دليلُ إهانة ، وإلا فكيف يكون إيتاء المال دليلَ كرامة ، وأنا أعطى بعض الناس المال ، فلا يُؤدُّون حقَّ الله فيه ؟

﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) ﴾ [الفجر]

إذن : فأىُّ كرامة فى مال يكون وبالاً على صاحبه ، وابتلاء لا يُوفَّق فيه ، فلو سُلِب هذا المال من صاحبه لكان خيراً له ، فما أشبهَ هذا المال بالسلاح فى يد الذى لا يُحسِن استعماله ، فربما قتل نفسه به .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا .. (٨٢) ﴾ [القصص] لأنهم بالأمس تمنَّوْا مكانه ، أما الآن فيعترفون بأن الله مَنَّ عليهم حين نجاهم من هذا المصير ، ثم يقولون ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) ﴾ [القصص] تعجُّب من أنه لا يفلح الكافرون عند الله تعالى .

وبعد ذلك يأتى الحق سبحانه بقضية عامة ليفصل فى هذه المسألة :

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾

لأنه لا يصح أنْ يعلو الإنسان على بنى جنسه ، ولا على بيئته إلا بشىء ذاتى فيه ، فلا يصح أنْ يعلوَ بقوته ؛ لأنه قد يمرض ، فيصير إلى الضعف ، ولا بماله لأنه قد يُسلب منه .

إذن : إياك أن تعلو علـى غـيـرك بشىء مــوهوب لك ، إنْ أردتَ فـبشىء ذاتى فـيك ، وليس فيك شىء ذاتى ، فلست أفضلَ من أحـد حتى تعلو عليه ، كـما أن الدنيا أغيار ، وربما انتـقل ما عندك إليهم ، فهل يسرُّك إنْ صـار غيرك غنياً أو قوياً أنْ يتعالى عليك ؟

ثم أنت لا تستطيع العلو إلا بالاعتماد على قوة أعلى منك تسندك ، وجرِّب بنفسك وحـاول أن تقفز إلى أعلى كلاعب السـيرك ، ثم أمسك نفسك فـى هذا العلو ، وطبعاً لـن تستطيع ، لماذا ؟ لأنـه لا ذاتية لك فى العُلو .

ومـا دام الأمـــر كـذلك ، فـإياك أنْ تـعـلو ؛ لأنك بعلوِّك تُـحْـفِظُ الآخرين ؛ فـإنْ حصل لك العكس شـمتـوا فيك ، وأيضـاً لأن الإنسانَ لا يعلو فى بيئة ولا فى مـكان إلا إذا رأى كل مَنْ حوله دونه ، وحين ترى أن كل الناس دونـك فـأنت لم تتنبـه إلـى أسـرار فَـضْلِ الله فى خلْقه .

ولو تأملتَ لوجدتَ فى كل منهم خـصلة ليست عندك ، ولو قدَّرت أن الناس جميعاً عـيالُ الله وخَلْقه ، وليس منا مَنْ بينه وبينَ الله نسب أو قرابة ونحـن جميـعاً عنده تعـالى سواء ، وقد وزّع المـواهب بيننا جميعاً بالتساوى ، وبالتالى لا يمتاز أحد على أحد ، فلم التعالى إذن ؟ ولِمَ الكبر ؟

وأيضاً الذى يتعالى لا يتعالى إلا فى غفلة منه عن ملاحظة كبرياء ربه ، وإلا فالذى يستحضر عظمة ربه وكبرياءه لا بُدَّ له أنْ يتواضـع ، وأنْ يتضاءل أمام كبريائه تعالى ، وأنْ يستحى أن يتكبر على خَلْقه .

والنبى ﷺ يُعلِّمنا كيف نـحترم الآخرين ؟ وكـيف نتواضع لهم ؟

فلما دخل عليه الصحابى الجليل عدى بن حاتم[1] قام عن كرامة مجلسه له ، يعنى : إن كانْ جالساً على (وسادة مثلاً) يقوم عنها ، ويعطيها لصاحبه ليجلس هو عليها .

وهكذا يحرص رسول الله ﷺ على المساواة فى المجلس ؛ لذلك قال عدى بن حاتم لرسول الله ﷺ : أشهد أنك لا تريد علُواً فى الأرض ، وأشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأسلم .

وعجيب ما نراه مثلاً فى مساجدنا ، وهى بيوت الله وأوْلَى الأماكن بهذه المساواة ، فتراهم إذا دخل أحد أصحاب النفوذ يفرشون له مُصلّى ليصلى عليها ، مع أن المسجد مفروش ، وعلى أعلى مستوى من النظافة ، فلماذا هذا التمييز ؟

ومع ذلك نجد منهم مَنْ يزيح هذه المصلّى جانباً ، ويصلى كما يصلى بقية الناس ، وأظن أن الذى يقبل أنْ تُوضع له هذه المصلى أظنه يبتغى علواً فى الأرض .

والحق سبحانه يريد للإنسان أن يعيش سوىًّ الحركة فى أسوياء لتظل القلوب متآلفة ، لا يداخلها ضغن ، وإذا خلَتْ القلوب من الضّغن وَسِع الناسَ جميعاً رغيفُ عيشٍ واحد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص] أى : العاقبة الخيِّرة ، والعاقبة الحسنة فى النعيم المقيم الدائم للمتقين .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) هو : ابن حاتم الطائى المشهور بالكرم . أسلم عدى فى سنة تسع وقيل سنة عشر وكان نصرانياً قبل ذلك ، وثبت على إسلامه عند ارتداد بعض العرب بعد وفاة الرسول ﷺ ، شهد فتوح العراق ثم سكن الكوفة وشهد صفين مع على ومات بعد الستين هجرية [الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر (ترجمة رقم ٥٤٦٧)] .

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

قلنا : إن كلمة (خير) تُطلق ويُراد بها ما يقابل الشر ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة]

وتُطلق ويُراد بها الأحسن فى الخير ، تقول : هذا خير من هذا ، فكلاهما فيه خير ، ومنه قول رسول الله ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير »[1] فهى بمعنى التفضيل ، أى : أخير منها ، ومن ذلك قول الشاعر :

زَيْدٌ خِيارُ النَّاسِ وابْنُ الأَخْيرِ

فجاء بصيغة التفضيل على الأصل . وتقول : هذا حَسَن ، وذلك أحسن .

فالمعنى هنا : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. ﴿٨٤﴾ ﴾ [القصص] أى : خير يجيئه من طريقها ، أو إذا عمل خيراً أعطاه الله أخير منه وأحسَن ، والمراد أن الحسنةَ بعشر أمثالها .

والحق سبحانه يعطينا صورة توضيحية لهذه المسألة ، فيقول سبحانه : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة]

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده (٢/٣٦٦ ، ٣٧٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) ، وابن ماجة فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فقوله تعالى : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ .. (٨٤)﴾ [القصص] قضية عقدية ، تثبت وتُقرِّر الثواب للمطيع ، والعقاب للعاصى ، ومعنى ﴿جَاءَ بِالْحَسَنَةِ .. (٨٤)﴾ [القصص] أى : أتى بها حدثاً لم يكُنْ موجوداً ، فحين تفعل أنت الحسنة فقد أوجدتَها بما خلق الله فيك من قدرة على الطاعة وطاقة لفعل الخير .

أو المعنى : جاء بالحسنة إلى الله أخيراً لينال ثوابها ، ولا مانع أن تتجمع له هذه المجيئات كلها ليُقبل بها على الله ، فيجازيه بها فى الآخرة .

لكن ، هل ثواب الحسنة مقصور فقط على الآخرة ، أم أن الدين بقضاياه جاء لسعادة الدنيا وسعادة الآخرة ؟ فما دام الدين لسعادة الدارين فللحسنة أثر أيضاً فى الدنيا ، لكن مجموعها يكون لك فى الآخرة .

وهذه الآية جاءت بعد الحديث عن قارون ، وبعد أن نصحه قومه ، وجاء فى نصحهم : ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. (٧٧)﴾ [القصص] إذن : فطلبهم أن يُحسن كما أحسن الله إليه جاء فى مجال ذكر الحسنة ، والحسنة أهى الشىء الذى يستطيبه الإنسان ؟ لا ، لأن الإنسان قد يستطيب الشىء ثم يجلب عليه المضرة ، وقد يكره الشىء ولا يستطيبه ، ويأتى له بالنفع .

فمن إذن الذى يحدد الحسنة والسيئة ؟ ما دام الناس مختلفين فى هذه المسألة ، فلا يحددها إلا الله تعالى ، الذى خلق الناس ، ويعلم ما يُصلحهم ، وهو سبحانه الذى يعلم خصائص الأشياء ، ويعلم ما يترتب عليها من آثار ، أما الإنسان فقد خلقه الله صالحاً للخير ، وصالحاً للشر ، يعمل الحسن ، ويعمل القبيح ، وربما اختلطت عليه المسائل .

لذلك يقولون فى تعريف الحسنة : هى ما حسَّنه الشرع ، لا ما حسَّنْتَها أنت ، فنحن مثلاً نستسيغ بعض الأطعمة ، ونجد فيها متعة ولذة ، مع أنها مُضرة ، فى حين نأنف مثلاً من أكل الطعام المسلوق ، مع أنه أفيد وأنفع ؛ لذلك يقول تعالى فى صفة الطعام : ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ ﴾ [النساء] لأن الطعام قد يكون هنيئاً تجد له متعة ، لكنه غير مرىء ويُسبِّب لك المتاعب بعد ذلك .

الحق سبحانه يقول هنا : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. ﴿٨٤﴾ ﴾ [القصص] فالحسنة خير ، لكن الثوابَ عليها خيرٌ منها أى : أخير ؛ لأنه عطاء دائم باقٍ لا ينقطع ، أو خير يأتيك بسببها . كما يقول أصحاب الألغاز واللعب بالكلمات : محمد خير من ربه ، والمعنى : خير يصلنا من الله ، ولا داعى لمثل هذه الألغاز طالما تحتمل معنى غير مقبول .

ثم يقول سبحانه : ﴿ مَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ .. ﴿٨٤﴾ ﴾ [القصص] لم يقُل الحق سبحانه : فله أشر منها ، قياساً على الحسنة فنضاعف السيئة كما ضاعفنا الحسنة ، وهذه المسألة مظهر من مظاهر رحمة الله بخَلْقه ، هذه الرحمة التى تتعدَّى حتى إلى العُصَاة من خَلْقه .

لذلك قال ﴿ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [القصص] أى : على قَدْرها دون زيادة .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى فى سورة (عم) : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ[1] أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا[2] ﴿٣٤﴾ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النبأ]

---

(١) الكواعب الأتراب : أى فتيات ناضجات متماثلات فى السن . وكعب الثدى : برز ونهد . يُقال للفتاة : كاعب . أى : ذات ثدى بارز . [القاموس القويم ٢/ ١٦٤] .

(٢) الكأس الدهاق : الممتلئة المتتابعة على شاربيها . وقوله تعالى ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [النبأ] أى : هى الامتلاء الدائم ، وهذا كناية عن النعيم الدائم . [القاموس القويم ١/ ٢٣٤] .

فحساباً هنا لا تعنى أن الجزاء بحساب على قدر العمل ، إنما تعنى كافيهم فى كل ناحية من نواحى الخير ، ومنه قولنا : حسبى الله يعنى : كافينى .

وفى المقابل يقول سبحانه فى السيئة : ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) ﴾ [النبأ] أى : على قدرها موافقاً لها .

إذن : فربنا ـ عز وجل ـ يعاملنا بالفضل لا بالعدل ؛ ليغرى الناس بفعل الحسنة ، وأنت حين تفعل الحسنة فأنت واحد تُقدِّم حسنتك إلى كل الناس ، وفى المقابل يعود عليك أثر حسنات الجماهير كلها ، فينالك من كل واحد منهم حسنة ، وكأنه (أوكازيون) حسنات يعود عليك أنت .

ثم يقول الحق سبحانه لنبيه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٨٥) ﴾

معنى فرض : ألزم وأوجب وحتَّم . وأصل الفَرْض الحزّ والقطع ، كما تقطع شيئاً بالسكين مثلاً تُسمّى فرضاً ؛ لأنها خرجتْ عن طبيعة تكوينها ، كذلك القرآن يُخرج النفس عن طبيعة مُشْتهاها ، ويقطع عليها مشيئتها ، ويردّها إلى مشيئة الله ؛ لذلك يقول سبحانه فى أول سورة النور : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا .. (١) ﴾ [النور]

يعنى : حتَّمناها وألزمنا بها ، والإلزام يعنى ردّ النفس إلى ما يريده خالقها منها ، بصرْف النظر عما تشتهيه هى ، فقد يأمرها بما تكره ، وينهاها عما تحب . إذن : يقطع سيال النفس ؛ لأنها عادة

ما تكون أمَّارة بالسوء ، تنظر إلى العاجل ، ولا تهتم بالآجل ولا تعمل له حساباً .

فالقرآن منهج الله بافعل ولا تفعل ، هو الذى يكبح جماح النفس ، ويُحدِّد لهـا مجال مشيئتها ؛ لأن الخالق ـ عز وجل ـ خلق النفس ، وجعل مشيئتها صالحة لعمل الخير ، ولعمل الشر .

وسبق أن تكلمنا عن الفرق بين عباد وعبيد وقلنا : إن الخَلْق جميعاً عبيد لله ، المؤمن منهم والكافر ، وإنْ تأبَّى الكافر على الله فى الإيمان ، فهو مقهور له تعالى فى مسائل أخرى ، كالمرض والموت وغيره ، ثم أعطانا الله تعالى مجالاً للاختيار ، ليثيب من يُثيب بحق ، ويُعذِّب مَنْ يُعذب بحق .

والعاقل حينما يرى أنه مقهور لله فى قدريات لا يستطيع منها فكاكاً ، وليس له فيها تصرف ، فيتنازل عن مراده ، وعن اختياره لمراد ربه واختيار ربه ، ويرضى أنْ يكون مُسيَّراً فى كل شىء ، وهنا يتحولون من عبيد إلى عباد .

فالعباد إذن هم الذين يخرجون عن اختياراتهم الممنوحة لهم من الله إلى مراد الله فى الحكم ، وبهذا المنطق يكون الجميع فى الآخرة عباداً ؛ لأنه لا اختيار لهم ، ويستوى فى ذلك المؤمن والكافر ، يوم يقول سبحانه : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

وسُمِّى إنزال القرآن فَرْضاً لما فى القرآن من تكاليف ، وهى عادةً ما تكون شاقة على النفس ، ألاَ ترى قوله تعالى عن الصلاة ، وهى أم العبادات : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) ﴾ [البقرة]

فلا يعرف منزلتها ومكانتها إلا خاشع ؛ لذلك كان النبى ﷺ يقول

لبلال : « أرحنا بها يا بلال »[١] ويقول : « وجُعِلَتْ قرة عيني في الصلاة »[٢] ؛ لأنه ﷺ أحبها وعشقها ، حتى صارت قُرَّة عينه ، ومُنْتهى راحته .

إذن : أول ما يفرض التكليف لا بُدَّ أن يكون شاقاً ؛ لذلك يحتاج إلى صلابة إيمان وجلَد يقين ، بحيث تثق في أن العمل الشاق عليك الآن سيجلب لك الخير والسعادة الباقية الدائمة في الآخرة .

ويقول تعالى عن القتال : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ .. (٢١٦) ﴾ [البقرة] فلا شكَّ أنه مكروه للنفس ، لكن إنِ استحضرتَ الجزاء ، وعرفتَ أنه : إما النصر ، وإما الشهادة ، فإنه يحلو لك حتى تعشقه ، وتبادر أنت إليه ، كالصحابي في بدر بعد أن سمع ما للشهيد من الأجر وكان في فمه تمرة يمضغها فقال : « أليس بيني وبين الجنة إلا أنْ أقاتل فأُقتل » ؟ ثم ألقى التمرة وأسرع إلى ساحة القتال[٣] .

لذلك الحق سبحانه يُضخم الجزاءات في نفس المؤمن ؛ ليقبل على العمل بحب وشهوة . ومن هنا يقول بعض العارفين الذين عشقوا الخير حتى أصبح شهوةَ نفْس عندهم : أخشى ألاَّ يُثيبني الله على الطاعة ، لماذا ؟ يقول : لأنني أصبحتُ أشتهيها ، أي : كما يشتهي أهل المعصية المعصية .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣٦٤) ، أبو داود في سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٢٨) ، والنسائي في سننه (٧/٦١) ، والحاكم في مستدركه (٢/١٦٠) من حديث أنس رضي الله عنه . قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٠٤٦) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٨٩٩) في كتاب الإمارة من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

وحين يصل الإيمـان بصاحبه إلـى درجة أنه يعشق الطاعة ، فـقد أصبح ربانياً يثق فيما عند الله من الجزاء .

وكـان النبى ﷺ يقـوم الليل حتى تـورمَتْ قدمـاه ، فلمـا سألتْـه السيدة عائشة : ألم يغفر لك ربك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً »[1] ؟

ومعنى : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. (٨٥) ﴾ [القصص] يعنى : يجـازيك أفـضل الجـزاء ، ونزلتْ هذه الآيـة لمـا اضطهـد أهلُ مكة رسـولَ الله وآذوْه ، حتى اضطروه للذهـاب إلى الطائف ليبحث فـيها عن نصـير ، لكنهم لم يكونوا أقلَّ قسوة من أهل مكة ، فعزَّ على رسول الله النصير فيـها ، وعـاد منكسراً حـزيناً لم يجد مَنْ يدخل فـى جواره ، إلى أن أجاره مطعم بن عدى .

وتأمل حين يكون رسـول الله بجلالة قدره لا يجـد مَنْ يناصره ، أو يُدخله فى جواره ، أما الصحابة فلم تكُنْ لهم شوكة بعد ، ولا قوة لحماية رسول الله ، وفى هذه الفترة لاقـوا المشاق فى سبيل الدعوة ، فحـاصرهم الكفـار فى شِعْب أبى طالب ، وفـرضـوا عليـهم المقـاطعة التـامة حـتى عـزلوهم عن الناس ، ومنعـوا عنهم الطـعام والشـراب ، والبـيع والشراء ، حـتى الزواج ، وحتـى اضطروا إلى أكل المخلَّفـات وأوراق الشجر .

لذلك أمـرهم الله بالهجـرة ، والهجـرة تكون إلى دار أمن ، أو إلى دار إيمان ، إلى دار أمن كالهـجرة إلى الحبشة حـيث قال لهم رسـول الله ﷺ مُبـيِّناً حـيثـية الهـجرة إليـها : « إن فـيهـا ملكاً لا يُظلم عنده

(١) حديث متـفق عليه . أخرجه البـخارى فى صحيحـه (٤٨٣٧) ، وكذا مسلم فى صحـيحه (٢٨٢٠) من حديث عـائشة رضى الله عنهـا . وعند البخـارى زيادة : « فلما كـثر لحـمه صلى جالساً ، فإذا أراد أن يركع قام ، فقرأ ثم ركع » .

أحد »[1] يعنى : النجاشى ملك الحبشة ، وفعلاً صدق فيه قول رسول الله ، فلما أرسلتْ قريش فى إثرهم مَنْ يكلم النجاشى فى طلبهم وإعادتهم إلى مكة ، رفض أن يسلمهم ، وأن يُمكِّن قريشاً منهم ، مع أن هدايا قريش كانت عظيمة ، والإغراء كان كبيراً .

وهذا يدل على عظمة رسول الله ، وعلى فكره الواسع ، وعلى دراسة الخريطة من حوله ، ومعرفة مَنْ يصلح لهجرة صحابته إليه ، فاختياره ملك الحبشة لا يأتى إلا إما بإلهام من الله ، أو بذكاء كبير ، وهو رجل أمى فى أمة أمية ، ولو لم يذهب وفد قريش فى طلب المهاجرين ما ظهر لنا الدليل على صدق مقولة رسول الله .

ونتيجة « لا يظلم عنده أحد » فقد شرَّفه الله بالإسلام فأسلم ووكَّله رسول الله فى أن يُزوِّجه من السيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وكانت رضى الله عنها من المهاجرين الأوائل إلى الحبشة مع زوجها الذى تنصَّر هناك ، وبقيتْ هى على دينها وتمسكتْ بعقيدتها .

وفى هذا دليل أولاً : على مدى ما كان يلاقيه المؤمنون من إيذاء الكافرين ، ثانياً : دليل على الطاعة الواعية للزوج ، فقد آثرت الخروج مع زوجها لا عشْقاً له ، ولا هياماً به ، إنما فراراً معه بدينها ؛ لذلك لما تنصَّر لم تتردد فى تركه ؛ لذلك طلبها رسول الله لنفسه ، ثم لما مات النجاشى صلى عليه رسول الله وترحَّم عليه . هذه هى هجرة الإيمان إلى دار الأمن .

---

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (١/٣٢١) : « قال ابن إسحاق : فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء . قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » .

ثم كانت الهجرة بعد ذلك إلى دار الإيمان ، إلى المدينة ، بعد بيعة العقبة الأولى والثانية ، وبعد أن وجد رسول الله أنصاراً يتحملون معه أعباء الدعوة ، وقد ضرب الأنصار في المدينة أروع مَثَل في التضحية التي ليس لها مثيل في تاريخ البشرية .

ذلك أن الرجل أغير ما يكون على زوجته ، فلا يضِنّ على غيره بما يملك ، فتعطيني سيارتك أركبها ، أو بيتك أسكن فيه ، أو ثوبك ألبسه ، وأتقمَّش به ، أما الزوجة فتظل مصونة لا يجرؤ أحد على النظر إليها .

لكن كان للأنصار في هذه المسألة نظرة أخرى حيث أشركوا إخوانهم المهاجرين في كل شيء حتى في زوجاتهم ، فقد راعوا فيهم خروجهم من أهلهم وبلادهم ، وراعوا غربتهم وما لهم من إرْبة وحاجة للنساء .

فكان الواحد منهم يقول لأخيه : انظر إلى زوجاتي ، فأيتهنّ أعجبتك أُطلِّقها ، وتتزوجها أنت ، هذه تضحية لا نجد لها مثيلاً في تاريخ الناس حتى عند الكفرة .

ثم أُمِر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة ، فخرج خُفْية في حين خرج عمر مثلاً جهراً وعلانية ، حتى إنه وقف ينادي في أهل مكة بأعلى صوته يتحدى أهلها عند خروجه : مَنْ أراد أنْ تثكله أمه ، أو يُيتم ولده ، أو تُرمَّل زوجته فليلْقني خلف هذا الوادي .

أما رسول الله فقد خرج خُفْية ، وهذه المسألة يقف عندها البعض أو تَخْفى عليه الحكمة منها ، فرسول الله ﷺ كان دائماً أُسْوة للضعيف ، أما القوي فلا يحتاج إلى حماية أحد ، ولا عليه إنْ خرج علانية ؛ لذلك لا يستحي أحد أن يتخفى كما تخفى رسول الله .

ثم إنك حين تتأمل : نعم خرج رسول الله خُفْية لكنها خُفْية التحدى ، فقد خرج من بين فتيانهم المتربصين به ، وعفَّر وجوههم بالتراب ، وهو يقول « شاهت الوجوه »[1] .

ومع ذلك لم يمنعه تأييد الله له أنْ يأخذ بأسباب النجاة ، فخالف الطريق ؛ لأن كفار مكة كانوا يعرفون أن وجهته المدينة لما عقد بيعة العقبة مع الأنصار ؛ لذلك ترصدوا له على طريقها ، وأرسلوا العيون للبحث عنه ، وجعلوا جُعْلاً لمن يأتيهم به ﷺ .

والمتأمل فى حادث الهجرة يجد أنها خطة محكمة تراعى كل جوانب الموقف ، كأن الله تعالى يريد أنْ يُعلِّمنا فى شخص رسول الله ﷺ ألاَّ نهمل الأسباب ، وألاَّ نتصادم مع الواقع ما دُمْنا قادرين على ذلك .

فلما خرج رسول الله ﷺ من مكة وهى بلده ، وأحب البلاد إلى قلبه قال : « اللهم إنك أخرجتنى من أحب البلاد إلىَّ ، فأسكنِّى أحب البلاد إليك »[2] .

لذلك إنْ كانت مكةُ محبوبةً لرسول الله ، فالمدينة محبوبة لله ؛ لذلك بعد أن خرج رسول الله من مكة وقارب المدينة حَنَّ قلبه إلى مكة ، فطمأنه ربه بهذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. (٨٥) ﴾ [القصص]

---

(١) ورد قول رسول الله ﷺ هذا فى حديث الهجرة عن ابن عباس عند أحمد فى مسنده (١/٣٦٨) وكذلك فى غزوة حنين فى صحيح مسلم (١٧٧٧) من حديث إياس بن سلمة عن أبيه ، وأحمد فى مسنده (١/٢٨٦) والدارمى فى سننه (٢/٢١٩) من حديث أبى عبد الرحمن الفهرى .

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وقال : هذا حديث رواته مدنيون من بيت أبى سعيد المقبرى ، قال الذهبى : « لكنه موضوع ، فقد ثبت أن أحب البلاد إلى الله مكة ، وسعد بن سعيد المقبرى ليس بثقة » .

فالذى فرض عليك مشقة التكاليف ، وحمَّلك مشاق الدعوة والإقناع بها ، وتنفيذ أحكامها . هو الذى سيردُّك إلى بلدك ردَّ نصر ، وردّ فتح ، وما أشبهَ ردِّ رسول الله إلى بلده بردِّ موسى عليه السلام إلى أمه فى قوله تعالى لأم موسى : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ .. ۝٧ ﴾ [القصص] ليس رَدّاً عادياً ، إنما ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧ ﴾ [القصص]

إذن : سيُردُّ إليك ولدك ، لكن سيُرد رسولاً منتصراً . وكما صدق الله فى ردِّ موسى يصدق فى ردِّ محمد .

ومعنى ﴿ مَعَادٍ .. ۝٨٥ ﴾ [القصص] ليس هو الموعد كما يظن البعض ، إنما يراد به المكان الذى تعود إليه بعد أنْ تفارقه ، فالمعنى : سنردُّك إلى المكان الذى تحنُّ إليه ، ويتعلق به قلبك .

أو : نردك إلى (معاد) أى : إلينا ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٧٧ ﴾ [غافر] ولا مانع من إرادة المعنيين معاً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٨٥ ﴾ [القصص] الحق تبارك وتعالى يعلِّم رسوله محمداً ﷺ الجدل العفيف ، لا الجدل العنيف ، يُعلِّمه كيف يردُّ على ما قالوا عن الذى يؤمن به (صبأ فلان) يعنى : خرج عن دين آبائه وهم يعتقدون أنه الحق ، فكأن الذى يؤمن فى نظرهم خرج من الحق إلى الباطل .

إذن : فهذه عقول تحتاج إلى سياسة وجدل ، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ .. ۝١٢٥ ﴾ [النحل] ؛ لأن الجدل العنيف يزيد خصمك عناداً ولجاجة ، أمّا الجدل العفيف فيستميل القلوب ويعطفها نحوك ؛ لذلك يرد رسول الله بقوله : ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٨٥ ﴾ [القصص] أى : جاء بالهدى من عند الله

وهو النبي ﷺ : ﴿ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٨٥) ﴾ [القصص]

ثم يعطي الحق - تبارك وتعالى - لنبيه ﷺ دليلاً من واقع حياته ؛ ليطمئن على أنه مُؤيَّد من ربه ، وأنه سبحانه سيفي له بما وعد ، ولن يتخلى عنه ، وكيف يختاره للرسالة ، ثم يتخلى عنه ؟

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ (٨٦) ﴾

يعني : إذا كنت تتعجب ، أو تستبعد أنْ نردَّك إلى بلدك ؛ لأن الكفار يقفون لك بالمرصاد ، حتى أصبحت لا تُصدِّق أنْ تعود إليها ، فانظر إلى أصل الرسالة معك : هل كنت تفكر أو يتسامى طموحك إلى أنْ تكون رسولاً ؟ إنه أمر لم يكُنْ في بالك ، ومع ذلك أعطاك الله إياه واختارك له ، فالذي أعطاك الرسالة ولم تكُنْ في بالك كيف يحرمك من أمر أنت تحبه وتشتاق إليه ؟

إذن : تقوم هذه الآية مقامَ الدليل والبرهان على صدْق ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. (٨٥) ﴾ [القصص] وفي موضع آخر يؤكد الحق سبحانه هذا المعنى ، فيقول سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ .. (٥٢) ﴾ [الشورى] فالذي أعطاك الرسالة لا يعجز أن يحقق لك ما تريد .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. (٨٦) ﴾ [القصص] هذا استثناء يسمونه استثناء منقطعاً .

والمعنى : ما كنت ترجو أن يُلْقى إليك الكتاب إنما ألقيناه ، وما ألقيناه إليك إلا رحمة لك من ربك .

وما دام هؤلاء الكفار عاندوك وأخرجوك ، فإياك أنْ تلين لهم ﴿ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) ﴾ [القصص] أى : معيناً لهم مسانداً ، وكانوا قد اقترحوا على رسول الله أن يعبد آلهتهم سنة ، ويعبدون إلهه سنة[1] ، فحذره الله أنْ يُعينهم على ضلالهم ، أو يجاريهم فى باطلهم ، لذلك كان النبى ﷺ لا يناصر ظالماً أو مجرماً ، حتى إن كان من أتباعه .

وسبق أن ذكرنا فى تأويل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾ [النساء] قصة اليهودى زيد بن السمين لما جاءه المسلم طُعْمة بن أبيريق ، وأودع عنده درْعاً له ، وكان هذا الدرع مسروقاً من آخر اسمه قتادة بن النعمان ، فلما افتقده قتادة بحث عنه حتى وجده فى بيت اليهودى ، وكان السارق قد وضعه فى كيس للدقيق ، فدلَّ أثر الدقيق على مكان الدرع فاتهموا اليهودى بالسرقة ، ولما عرفوا حقيقة الموقف أشفقوا أن ينتصر اليهودى على المسلم ، خاصة وهم حديثو عهد بالإسلام ، حريصون على ألاّ تُشوه صورته .

لذلك شرحوا لرسول الله هذه المسألة ، لعله يجد لها مخرجاً ، فأدار رسول الله المسألة فى رأسه قبل أنْ يأخذ فيها حُكْماً ؛ وعندها نزل[2] الوحى على رسول الله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ

(١) عن ابن عباس أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ويزوّجوه ما أراد من النساء ، فقالوا : هذا لك يا محمد وكُف عن شتم آلهتنا ولا تذكر آلهتنا بسوء . فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح . قال : ما هى ؟ قالوا : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة . قال : حتى أنظر ما يأتينى من ربى ، فجاء الوحى من عند الله ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) ﴾ [الكافرون] . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٨/٦٥٤) وعزاه لابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم والطبرانى .

(٢) أورده الواحدى النيسابورى فى « أسباب النزول » (ص ١٠٣) ، وقال : « هذا قول جماعة من المفسرين » .

بَيْنَ النَّاسِ .. ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النساء] أى : جميع الناس ، المؤمن والكافر ﴿ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النساء] أى : تخاصم من أجلهم ولصالحهم ﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النساء] أى : مما خطر ببالك فى هذه المسألة .

وفى بعض الآيات نجد فى ظاهرها قسوة على رسول الله وشدة مثل : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحاقة]

وكل ما يكون فى القرآن من هذا القبيل لا يُقصد به سيدنا رسول الله ﷺ ، إنما الحق سبحانه يريد أن يعطى للأمة نموذجاً يلفت أنظارهم ، وكأنه تعالى يقول لنا : انتبهوا فإذا كان الخطاب لرسول الله بهذه الطريقة ، فكيف يكون الخطاب لكم ؟

كأن يكون عندك خادم يعبث بالأشياء حوله ، فتُوجِّه الكلام أنت إلى ولدك : والله لو عبثتَ بشىء لأفعلنَّ بك كذا وكذا ، فتوجِّه الزجر إلى الولد ، وأنت تقصد الخادم ، على حَدِّ المثل القائل (إياك أعنى واسمعى يا جارة) .

لذلك يقول بعض العارفين :

مَا كان فى القُرآن مِنْ نِذَارةٍ ... إلى النبىِّ صَاحِبِ البِشَارةِ

فكُنْ لَبيباً وافْهَم الإشَارةَ ... إيّاك أعنى واسْمعِى يَا جَارة

يعنى : اسمعوا يا أمة محمد ، كيف أخاطبه ، وأُوجِّه إليه النذارة ، مع أنه البشير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ .. ﴿٨٧﴾﴾ [القصص] أى :لا يصرفنك ولا يمنعنَّك المشركون ﴿عَنْ آيَاتِ اللَّهِ .. ﴿٨٧﴾﴾ [القصص] أى : قراءتها وتبليغها للناس ، وقوله : ﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [القصص] هذا أيضاً داخل فى (إياك أعنى واسمعى يا جارة) لأن رسول الله أبعد ما يكون عن الشرك ، وليس مظنة له .

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ .. ﴿٨٨﴾﴾ [القصص] كسابقتها ؛ لأن رسول الله ﷺ ليس مظنة أن يدعو مع الله إلهاً آخر ﴿لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿٨٨﴾﴾ [القصص] أى : لا معبودَ بحق إلا هو .

ولو كان معه سبحانه وتعالى آلهة أخرى لواجهوه : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء] أى : سَعَوْا إليه لينازعوه الألوهية ، أو ليتقرَّبوا إليه .

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. ﴿٨٨﴾﴾ [القصص] الوجه فى عُرْفنا ما به المواجهة فى الإنسان ، وكل شىء يصف به الحق سبحانه نفسه علينا أنْ نصفه سبحانه به ، بناءً على وصفه فى إطار قوله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴿١١﴾﴾ [الشورى]

فالحق سبحانه له وجه ، لكن ليس ككل الوجوه ، وهكذا فى كل الصفات التى يشترك فيها الحق سبحانه مع الخَلْق ، وأنت آمنتَ بوجود الله ، وأن وجوده ذاتى ، ليس كوجودك أنت .

وقوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ .. (٨٨) ﴾ [القصص] كلمة شىء يقولون : إنها جنس الأجناس يعنى : أى موجود طرأ عليه الوجود يسمى (شىء) مهما كان تافهاً ضئيلاً . وقد تكلم العلماء فى : أيطلق على الله تعالى أنه شىء لأنه موجود ؟

قالوا : ننظر فى أصل الكلمة (شىء) من شاء شيئاً ، فالشىء شاءه غيره ، فأوجده ؛ لذلك لا يقال لله تعالى شىء ؛ لأنه سبحانه ما شاءه أحد ، بل هو سبحانه موجود بذاته .

وفى آية أخرى يقول تعالى فى عمومية الشىء : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] يعنى : كل ما يُقال له شىء موجود سبق وجوده عدم ، إلا يسبح بحمد الله ، البعض قال : هو تسبيح دلالة على موجدها ، وليس تسبيح مقالة حقيقية ، لكن قوله سبحانه ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] يدل على أنه تسبيح حقيقى ، فكل شىء يُسبِّح بلغته وبما يناسبه .

وقد أثبت الله تعالى منطقاً للطير وتسبيحاً للجبال ، ولو فهمتَ لغة هذه الأشياء لأمكنك أنْ تعرف تسبيحها ، لكن كيف نطمع فى معرفة لغات الحجر والشجر ، ونحن لا نفهم لغات بعضنا ، فإذا لم تكن تعرف مثلاً الإنجليزية ، أتعرف ماذا يقول المتحدث بها لو سبّح بها الله وهو بشر مثلك يتكلّم بنفس طريقتك وبنفس الأصوات ؟

لذلك يقولون فى معجزاته ﷺ : سبَّح الحصى فى يده ، والصواب أن نقول : سمع رسول الله تسبيح الحصى فى يده ، وإلاَّ فالحصى

يُسبِّح في يد رسول الله ، ويُسبِّح في يد أبي جهل . ومن ذلك أيضاً حنين الجذع لرسول الله ﷺ . ثم ألم يقل الحق سبحانه : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ .. (٦٨) ﴾ [النحل]

ألم يَقُلْ عن الأرض : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴾ [الزلزلة] ؟ ألم يُثبت للنملة كلاماً ؟ ألم يكلم الهدهد سليمانَ عليه السلام ، وفهم منه سليمانُ ؟

إذن : لكل جنس من المخلوقات لغته التي يفهمها أفراده عن بعض ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾[النور] وإنْ شاء الله أطلع بعض خَلْقه على هذه اللغات ، وأفهمه إياها .

ومعنى ﴿ هَالِكٌ.. (٨٨) ﴾ [القصص] البعض يظن أن الهلاكَ خاصٌّ بما فيه روح كالإنسان والحيوان ، لكن لو وقفنا عند قوله تعالى : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال]

إذن : فالهلاك يقابله الحياة ، فكل شيء يهلك كانت له حياة تناسبه ، وإنْ كنا لا نفهم إلا حياتنا نحن ، والتي تذهب بخروج الروح .

ومعنى : ﴿ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص] أي : إلا ذاته تعالى ، ولم يقُلْ : إلا هو ؛ لأنه تعالى ليس شيئاً ، وللوجه هنا معنى آخر ، كما نقول : فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجه الله يعني : فعلت والله في بالي ، فالمعنى : كل شيء هالك ، إلا ما كان لوجه الله ، فلا يهلك أبداً ؛ لأنه يبقى لك وتنال خيره في الدنيا وثوابه في الآخرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) ﴾ [القصص] أي : له الحكم في الآخرة يوم يقول ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ .. (١٦) ﴾ [غافر] لكن

لماذا خصَّ الملك يوم القيامة ، وهو سبحانه له المُلْك الدائم فى الدنيا وفى الآخرة ؟ قالوا : لأن هناك مُلْكاً فى الدنيا ، يُملِّكه لخَلْقه ، كما قال سبحانه فى النمرود : ﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة] وقال سبحانه : ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران]

إذن : فالملْك مُلْك الله ، وهو سبحانه الذى يُملِّك خَلْقه فى الدنيا دنيا الأسباب ، لكن فى الآخرة تُنزع الملكية من أىِّ أحد إلا لله وحده . حتى إرادة الإنسان على جوارحه تُسلَب منه ، فتشهد عليه بما كان منه فى الدنيا .

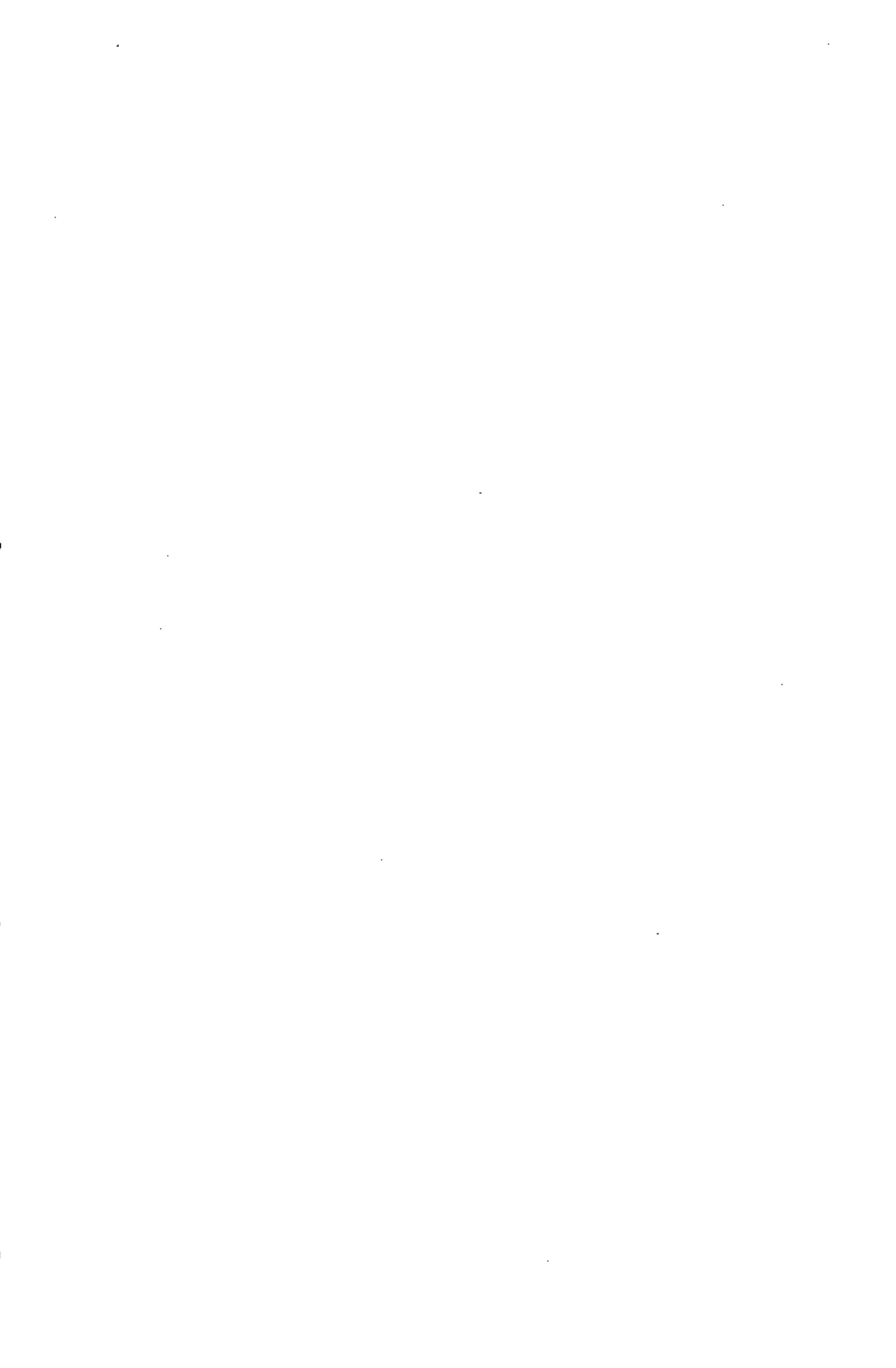
وإنْ أردتَ أن تعرف الآن صدْق هذه المسألة فانظر إلى الأمور القدرية التى تجرى عليك ، كالمرَض وكالموت وغيرها ، هل تستطيع أنْ تتأبى عليها ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) ﴾ [القصص] أى : للحساب فى الآخرة ؛ لأن الله تعالى لم يخلقنا عَبثاً ، ولن يتركنا هملاً ، بل لابد من الرجوع إليه ليحاسب كلاً منكم على ما قدَّم ، وما دُمْتم قد عرفتم ذلك ، فعليكم أن تحترموا المرجع إلى الله ، وتنظروا ماذا طلب منكم .

والمتتبع لهذا الفعل فى القرآن يجد أنه جاء مرة مبنياً للمجهول (تُرجعون) وهو للكافر الذى تأبَّى على الله ، فنقول له : ستُرجع إلى الله ، وتُقذف فى النار غَصباً عنك ، ورَغْماً عن أنفك ، فإنْ تأبَّيْتَ على الله فى الدنيا ، فلن تتأبَّى عليه فى الآخرة ، ويأتى مبنياً للمعلوم (ترجعُون) وهو للمؤمن الذى يشتاق لثواب الآخرة فيتهافت بنفسه ويُقبل عليه .




سورة العنكبوت



سورة العنكبوت[1]



﴿ الٓمٓ ① ﴾

سبق أنْ تكلمنا كثيراً عن الحروف المقطعة فى بدايات سور القرآن ، كلما تكررت هذه الظاهرة نتكلم عن مجالات الأذهان فى فهمها ، وما دام الحق سبحانه يُكررها فعلينا أيضاً أن نُكرِّر الحديث عنها ، ولماذا ينثر الله هذه الظاهرة فى سور القرآن ؟ لتظل دائماً على البال .

---

(١) سورة العنكبوت هى السورة رقم ٢٩ فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٦٩ آية ، اختُلف فى كونها مكية أم مدنية ، قال الحسن وعكرمة وعطاء وجابر : مكية كلها . وقال ابن عباس وقتادة فى أحد قوليهما : مدنية كلها ، وفى القول الآخر لهما وهو قول يحى بن سلام أنها مكية إلا عشر آيات من أولها ، فإنها نزلت بالمدينة فى شأن من كان من المسلمين بمكة . وقال على بن أبى طالب : نزلت بين مكة والمدينة . [تفسير القرطبى ٥٢١١/٧] . نزلت بعد سورة الروم وقبل سورة المطففين ، وهى السورة رقم ٨٤ فى ترتيب نزول سور القرآن . [انظر : الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢٧/١] .

وقلنا : إن القرآن الكريم مبنيٌّ فى كل آياته وسوره على الوَصْل ، لا على الوقف ، اقرأ : ﴿ مُدْهَامَّتَان (٦٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَان[1] (٦٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان (٦٧) ﴾ [الرحمن]

فلم يقل ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان (٦٧) ﴾ [الرحمن] ويقف ، إنما وصل : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَان (٦٦) ﴾ [الرحمن] لأن القرآن موصول ، لا فصلَ أبداً بين آياته ؛ لذلك ليس فى القرآن من وقف واجب ، إنما لك أن تقف لضيق النفَس ، لكن حينما تعيد تعيد بالوصل .

وكذلك القرآن مبنيٌّ على الوَصْل فى السور ، فحين تنتهى سورة لا تنتهى على سكون ، فلم يَقُلْ - سبحانه وتعالى - وإليه ترجعونْ بسكون النون ، إنما (تُرْجَعُونَ بسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحيمِ) ليبدأ سورة أخرى موصولة .

فهذه إذن سمة عامة فى آيات القرآن وسُوره إلا فى الحروف المقطَّعة فى أوائل السور ، فهى مبنية على الوقف ألفْ لامْ ميمْ هكذا بالسكون ولم يقل : ألفٌ لامٌ ميمٌ على الوَصْل ، لماذا ؟ لأنها حروف مُقطَّعة ، قد يظنها البعض كلمة واحدة ، ففصلَ بينها بالوقف .

لذلك يقول ﷺ : « لا أقول الم حرف . ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[2] وليؤكد هذا المعنى جعلها على الوقف ، كل حرف على حدة .

---

(١) نضخت البئر : ارتفع ماؤها وجاش وفار . أى : يخرج ماؤهما غزيراً . ونضاخة : صيغة مبالغة تدل على الكثرة . [القاموس القويم ٢/٢٧٠] .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩١٠) وقال : « حديث حسن صحيح » .

وتكلمنا على هذه الحروف وقلنا : إنها خامات القرآن ، فمن مثل هذه الحروف يُنسَج كلام الله ، وقلنا : إنك إنْ أردتَ أن تُميِّز مهارة النسْج عند بعض العمال مثلاً لا تعطى أحدهم قطناً ، والآخر صوفاً ، والآخر حريراً مثلاً ؛ لأنك لا تستطيع التمييز بينهم ، لأن الخامات مختلفة ، فالحرير بطبيعته سيكون أنعم وأرقَّ . فإنْ أردتَ معرفة المهارة فوحِّد المادة الخام عند الجميع .

فكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لنا : إن القرآن مُعْجز ، بدليل أنكم تملكون نفس حروفه ، ومع ذلك عجزتُمْ عن معارضته ، فقد استخدم القرآن نفس حروفكم ، ونفس كلماتكم وألفاظكم ، وجاء بها فى صورة بليغة ، عَزَّ عليكم الإتيان بمثلها .

إذن : اختلف أسلوب القرآن ؛ لأن الله تعالى هو الذى يتكلم . فمعنى (الم) هذه نفس حروفكم فأتوا بمثلها .

أو : (الم) تحمل معنى من المعانى ؛ لأن ألف لام ميم أسماء حروف ، وأسماء الحروف لا يعرفها إلا المتعلم ، فالأُمىُّ يقول (كتب) لكن لا يعرف أسماء حروفها ، وتقول للولد الصغير فى المدرسة : تهجَّ كتب فيقول لك (كاف فتحة كَ) و (تاء فتحة تَ) و (باء فتحة بَ) .

إذن : لا يعرف أسماء الحروف إلا المتعلم ، وسيدنا رسول الله ﷺ كان أمياً ، فمن أين نطق بأسماء الحروف الم ، طه ، يس ، ق .. إلخ . إذن : لا بُدَّ أن ربه علّمه ولقّنه هذه الحروف ، ومن هنا جاءت أهمية التلقين والتلقّى فى تعلُّم القرآن ، وإلا فكيف يُفرِّق المتعلم بين (الم) هنا وبين ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾ [الشرح] فينطق الأولى

على الوقْف ، والأخرى على الوَصْل ، ينطق الأولى بأسماء الحروف ، والثانية بمُسمَّياتها ؟

وتحمل (الم) أيضاً معنى التنبيه للسامع ، فالقرآن نزل بأسلوب العرب ولغتهم ، فلا بُدَّ أن تتوفر له خصائص العربية والعربية الراقية، فلو قرأنا مثلاً فى الشعر الجاهلى نجد عمرو بن كلثوم(١) يقول :

ألاَ هُبِّى بصَحْنِك فَاصْبِحينَا ... ولاَ تُبقِى خمور الأندرينا

نسأل : ماذا أفادت (ألاَ) هنا ، والمعنى يصح بدونها ؟ (ألا) لها معنى عند العربى ؛ لأنها تنبهه إنْ كان غافلاً حتى لا يفوته شىء من كلام مُحدِّثه ، حينما يُفَاجأ به ، كما تنادى أنت الآن مَنْ لا تعرفه فتقول : (اسمع يا ....) كأنك تقول له : تنبه لأننى سأكلمك .

والتنبيه جاء فى اللغة من أن المتكلم يتكلَّم برغبته فى أى وقت ، أما السامع فقد يكون غافلاً غير مُنتبه ، أو ليس عنده استعداد لأنْ يسمعَ ، فيحتاج لمن يُنبِّهه ليفهم ما يُقال له ، إنما لو فاجأتَه بالمراد ، فربما فاته منه شىء قبل أنْ يتنبه لك .

وكذلك فى (الم) حروف للتنبيه ، على أنه سيأتى كلام نفيس اسمعه جيداً ، إياك أنْ يضيع منك حرف واحد منه . كما يصح أنْ يكون لهذه الحروف معانٍ أخرى ، يفهمها غيرنا ممَّنْ فتح الله عليهم . فهى - إذن - معين لا ينضب ، يأخذ منه كُلٌّ على قَدْره .

---

(١) هو : عمرو بن كلثوم بن مالك ، من بنى تغلب ، أبو الأسود ، شاعر جاهلى ، من الطبقة الأولى ، ولد فى بلاد ربيعة فى شمال جزيرة العرب ، ساد قومه تغلب وهو فتى ، وعمّر طويلاً ومات فى الجزيرة الفراتية نحو ٤٠ ق هـ . [الأعلام للزركلى ٥/ ٨٤] ، والبيت من معلقته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ[1] أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ ﴾

الفعل (حسِب) بالكسر فى الماضى ، وبالفتح فى المضارع (يحسَب) يعنى : ظن . أما : (حسَب) والمضارع (يحسِب) بالكسر أى : عدَّ .

فالمعنى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ .. ۝ ﴾ [العنكبوت] أى : ظنوا . والهمزة للاستفهام ، وهى تفيد نفى هذا الظن وإنكاره ، لأنهم حَسِبوا وظنوا أنْ يتركهم الله دون فتنة وتمحيص واختبار .

والحق سبحانه يريد أن يحمل أولو العزم رسالة الإسلام ؛ لأن الإسلام لا يتصدَّى لحمل دعوته إلا أقوياءُ الإيمان الذين يقدرون على حمل مشاق الدعوة وأمانة تبليغها .

والإيمان ليس كلمة تُقال ، إنما مسئولية كبرى ، هذه المسئولية هى التى منعتْ كفار مكة أنْ يؤمنوا ؛ لأنهم يعلمون أن كلمة لا إله إلا الله ليست مجرد كلمة وإلا لَقالوها ، إنما هى منهج حياة له متطلبات . إنها تعنى : لا مُطَاعَ إلا الله ، ولا معبودَ بحقٍّ إلا الله ، وهم لا يريدون

---

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس وغيره : يريد بالناس فى الآية قوماً من المؤمنين كانوا بمكة ، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ، كسلمة بن هشام ، وعياش ابن أبى ربيعة ، والوليد بن الوليد ، وعمار بن ياسر ، وياسر أبوه وسمية أمه وعدة من بنى مخزوم وغيرهم . قال مجاهد وغيره : فنزلت هذه الآية مسلية ومعلمة أن هذه هى سيرة الله فى عباده اختباراً للمؤمنين وفتنة . قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما فى معناه من الأقوال فهى باقية فى أمة محمد ﷺ موجود حكمها بقية الدهر . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٧/٥٢١٢] وانظر أيضاً [أسباب النزول للواحدى ص ١٩٥] .

هذه المسألة لتظل لهم مكانتهم وسلطتهم الزمنية .

لذلك يقول سبحانه هنا ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا .. ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت] فالإيمان ليس قَوْلاً فحسب ؛ لأن القول قد يكون صدْقاً ، وقد يكون كذباً ، فلا بُدَّ بعد القول من الاختبار وتمحيص الإيمان ﴿وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت] فإنْ صبر على الابتلاءات وعلى المحن فهو صادق الإيمان .

ويؤكد سبحانه هذا المعنى فى آية أخرى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ .. ﴿١١﴾﴾ [الحج]

وقد محَّص الله السابقين الأولين من المؤمنين بآيات وخوارق تخالف الناموس الكونى ، فكان المؤمن يُصدِّق بها ، ويؤمن بصدْق الرسول الذى جاء بها ، أما المتردد المتحيِّر فيُكذِّب بها ، ويراها غير معقولة .

ومن ذلك ما كان من الصِّدِّيق أبى بكر فى حادثة الإسراء والمعراج ، فلمَّا حدَّثوه بما قال رسول الله ﷺ قال : « إنْ كان قال فقد صدق »[1] فى حين ارتد البعض وكذَّبوا ، وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد من هذه الخوارق ـ التى يقف أمامها العقل ـ أنْ يُميِّز

(١) قالت عائشة رضى الله عنها : لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك ، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبى بكر فقالوا : هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا: نعم قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة ؛ فلذلك سُمِّى أبو بكر الصديق . أخرجه الحاكم فى مستدركه (٦٢/٣) وصححه وأقره الذهبى .

بين الناس ليحمل أمر الدعوة أشداءُ الإيمان والعقيدة ، ومَنْ لديهم يقين بصدْق الرسول فى البلاغ عن ربه .

وسبق أنْ بيّنا غباء مَنْ كَذَّب بحادثة الإسراء والمعراج من كفار مكة الذين قالوا لرسول الله : أتدَّعى أنك أتيت بيت المقدس فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً[1] ؟ وأنهم غفلوا أو تغافلوا عن نص الآية : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ①** ﴾ [الإسراء] فلم يقل محمد : إنى سريت بنفسى إنما أُسْرِى بى .

وقلنا للرد عليهم : لو جاءك رجل يقول لك : لقد صعدتُ بولدى الرضيع قمة إفرست مثلاً ، أتقول له : كيف يصعد الرضيع قمة إفرست ؟

وسبق أنْ تكلَّمنا فى قضية ينبغى أن تظل فى أذهانكم جميعاً ، وهى أن كل فعل يأخذ نصيبه من الزمن على قَدْر قوة فاعله ، فالوزن الذى ينقله الطفل الصغير فى عدة مرات تحمله أنت فى يد واحدة . فالزمن يتناسب مع القوة تناسباً عكسياً فكلما زادت القوة قلَّ الزمن ، فالذى يذهب مثلاً إلى الأسكندرية على حمار غير الذى يذهب فى سيارة أو على مَتْن طائرة . وهكذا .

إذن : قسْ على قدر قوة الفاعل ، فإنْ كان الإسراء بقوة الله تعالى ، وهى قوة القوى فلا زمن ، وهذه مسألة يقف عندها العقل ، ولا يقبلها إلا بالإيمان .

إذن : فالحق سبحانه يُمحِّصكم ويبتليكم ؛ لأنه يريدكم لمهمة

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٩٨) : « فقال أكثر الناس : هذا والله الإمْر البين ، والله إن العير لتُطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ، ويرجع إلى مكة » .

عظيمة ، لا يصلح لها إلا الصنديد[1] القوى فى إيمانه ويقينه .

لذلك يقول سبحانه فى أكثر من موضع : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) ﴾ [البقرة]

وقال : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾ [محمد]

وقال : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ.. (١٤٢) ﴾ [آل عمران]

فهذه الابتلاءات كالامتحان الذى نُجريه للتلاميذ لنعرف مقدرة كل منهم ، والمهمة التى يصلح للقيام بها ، ومعلوم أن الابتلاءات لا تُذَمُّ لذاتها ، إنما لنتائجها المترتبة عليها ، فما جُعلَتْ الابتلاءات إلا لمعرفة النتائج ، وتمييز الأصلح للمهمة التى نُدب إليها .

ومعنى ﴿ يُفْتَنُونَ (٢) ﴾ [العنكبوت] يُخْتبرون . مأخوذة من فتنة الذهب ، حين نصهره فى النار ؛ لنُخرِج ما فيه من خَبَث ، ونُصفّى معدنه الأصلح ، فيما يناسب مهمته .

ومن ذلك ما ضربه الله لنا مثلاً للحق وللباطل فى قوله تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

(١) الصنديد : السيد الشريف . وكل عظيم غالب : صنديد . [لسان العرب ـ مادة : صند] .

فالفتنة ما كانت إلا لنعرف الصادق فى القَوْلة الإيمانية والكاذب فيها : الصادق سيصبر ويتحمل ، والكاذب سينكر ويتردد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يُسلِّى السابقين من أمة محمد الذين عُذِّبوا وأوذوا ، وضُربوا بالسياط تحت حَرِّ الشمس ، ووُضعت الحجارة الثقال على بطونهم ، والذين جاعوا حتى أكلوا الميتة وأوراق الشجر يُسلِّيهم : لَسْتم بدعاً فى هذه الابتلاءات فاصمدوا لها كما صمد السابقون من المؤمنين .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت] فانظر مثلاً إلى ابتلاء بنى إسرائيل مع فرعون ، إذن فابتلاؤكم أهون وأخفّ ، وفيه رحمة من الله بكم وأنتم أيسر منهم ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت]

ولك أن تقول : ألم يكُنِ الله تعالى يعلم حقيقتهم قبل أنْ يبتليهم ؟ بلى ، يعلم سبحانه حقيقةَ عباده ، وليس الهدف من اختبارهم العلم بحقيقتهم ، إنما الهدف أنْ يُقر العبد بما عُلم عنه .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حينما نقول للمدرس مثلاً : اعْطنا نتيجة هؤلاء التلاميذ ، فليس فى الوقت سعة للامتحان فيقول منَ واقع خبرته بهم : هذا ناجح ، وهذا راسب ، وهذا الأول ، وهذا كذا . عندها يقوم الراسب ويقول : لو اختبرتنى لكنت ناجحاً ، ولو اختبره معلِّمه لرسب فعلاً . إذن : فربنا - عز وجل - يختبر

عباده ليُقر كل منهم بما عُلم عنه .

﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ③ ﴾ [العنكبوت] علْم ظهور وإقرار من صاحب الشأن نفسه ، بحيث لا يستطيع إنكاراً ، حيث سيشهد هو على نفسه حين تشهد عليه جوارحه .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ(1) يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ④ ﴾

هنا أيضاً ﴿ حَسِبَ .. ④ ﴾ [العنكبوت] أى : ظن الذين يعملون السيئات ﴿ أَن يَسْبِقُونَا .. ④ ﴾ [العنكبوت] أى : يُفلتوا من عقابنا ، تقول : سبق فلان فلاناً يعنى : أفلت منه وهو يطارده ، فالمعنى أنهم لن يستطيعوا الإفلات من العذاب أو الهرب منه ، وإنْ كانوا يعتقدون ذلك أو يظنونه ، فبئس هذا الظن .

﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ④ ﴾ [العنكبوت] أى : قَبُح حكمهم وبَطُل ، وحين نحكم على ظنهم وعلى حكمهم بالبطلان فإنما نثبت قضيتنا ، وهى أنهم لن يُفْلتوا من عقابنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ⑤ ﴾

---

(1) قال ابن عباس : يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وشيبة وعتبة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبى معيط وغيرهم . [أورده القرطبى فى تفسيره ٧/ ٥٢١٥] .

معنى ﴿ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [العنكبوت] يعنى : يؤمن به وينتظره ويعمل من أجله ، يؤمن بأن الله الذى خلقه وأعدَّ له هذا الكون ليحيا حياته الطيبة ، وأنه سبحانه بعد ذلك سيُعيده ويحاسبه ؛ لذلك إنْ لم يعبده ويطعْه شُكْراً له على ما وهب ، فليعبده خوفاً منه أنْ يناله بسوء فى الآخرة .

وأهل المعرفة يروْنَ فرقاً بين مَنْ يرجو الثواب ويرجو رحمة الله ، ومن يرجو لقاء الله لذات اللقاء ، لا خوفاً من نار ، ولا طمعاً فى جنة ؛ لذلك تقول رابعة العدوية[1] :

كُلُّهم يَعْبدُونَ منْ خَوْفِ نَارٍ ... ويروْنَ النجاةَ حَظَّاً جَزِيلاً
أَوْ بِأَنْ يَسْكُنُوا الجِنانَ فيحظَوْا ... بقُصُورٍ ويَشْرَبُوا سَلْسبِيلا
لَيْسَ لى بالجنَانِ والنَّارِ حَظٌّ ... أنَا لاَ أبتغى بحِبى بَدِيلاً

أى : أحبك يا رب ، لأنك تُحَبُّ لذاتك ، لا خوفاً من نارك ولا طمعاً فى جنتك ، وهى أيضاً القائلة : اللهم إنْ كنتَ تعلم أنى أحبك طمعاً فى جنتك فاحرمنى منها ، وإنْ كنتَ تعلم أنِّى أعبدك خوفاً من نارك فاحرقنى بها .

ويقول تعالى فى سورة الكهف : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ [الكهف] ولو كانت الجنة لأن لقاء الله أعظم ، وهو الذى يُرْجَى لذاته .

والحق سبحانه يؤكد هذه المسألة بأكثر من مؤكد : ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ .. (٥) ﴾ [العنكبوت] فأكَّده بإن واللام وصيغة اسم الفاعل الدالة

---

(١) هى : رابعة بنت إسماعيل العدوية ، أم الخير ، مولاة آل عتيك ، البصرية . صالحة مشهورة من أهل البصرة ومولدها بها ، لها أخبار فى العبادة والنُسُك ، توفيت بالقدس عام ١٣٥ هـ [الأعلام للزركلى ٣/ ١٠] .

على تحقُّق الفعل ، كما قال سبحانه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص] ولم يقل : سيهلك ، وقوله سبحانه مخاطباً نبيه محمداً ﷺ : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر]

يخاطبهم بهذه الصيغة وهم ما يزالون أحياءً ؛ لأن الميِّت : مَنْ يؤول أمره وإن طال عمره إلى الموت ، أما مَنْ مات فعلاً فيُسمَّى (مَيْت) .

وأنت حينما تحكم على شيء مستقبل تقول : يأتى أو سيأتى ، وتقول لمن تتوعده : سأفعل بك كذا وكذا ، فأنت جازفتَ وتكلمتَ بشيء لا تملك عنصراً من عناصره ، فلا تضمن مثلاً أنْ تعيش لغد ، وإنْ عشتَ لا تضمن أن يعيش هو ، وإنْ عاش ربما يتغير فكرك ناحيته ، أو فقدتَ القدرة على تنفيذ ما تكلمت به كأنْ يصيبك مرض أو يُلِم بك حدث .

لكن حينما يتكلم مَنْ يملك أزِمّة الأمور كلها ، ويعلم سبحانه أنه لن يفلت أحد منه ، فحين يحكم ، فليس للزمن اعتبار فى فعله ، لذلك لم يقل سبحانه : إن أجل الله سيأتى ، بل ﴿لآتٍ .. ﴿٥﴾﴾ [العنكبوت] على وجه التحقيق .

وسبق أنْ ذكرنا فى هذا الصدد قوله تعالى عن القيامة : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ..﴿١﴾﴾ [النحل] وقد وقف السطحيون أمام هذه الآية يقولون : وهل يستعجل الإنسان إلا ما لم يأتِ بَعْد ؟ لأنهم لا يفهمون مراد الله ، وليست لديهم ملَكة العربية ، فالله تعالى يحكم على المستقبل ، وكأنه ماضٍ أى مُحقّق ؛ لأنه تعالى لا يمنعه عن مراده مانع ، ولا يحول دونه حائل .

ولفظ الأجل جاء فى القرآن فى مواضع كثيرة ، منها : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [الأعراف]
وفى الآية التى معنا ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ .. (٥) ﴾ [العنكبوت]

والأجلان مختلفان بالنسبة للحضور الحياتى للإنسان ، فالأجل الأول يُنهى الحياة الدنيا ، والأجل الآخر يُعيد الحياة فى الآخرة للقاء الله عز وجل ، إذن : فالأجلان مرتبطان .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يعرض لنا قضية غيبية يُؤنسنا فيها بشيء حسىٍّ معلوم لنا ، حتى يستطيع العقل أن ينفذ من الحسىِّ إلى الغيبى غير المشاهد . وأنت ترى أن أعمار بنى آدم فى هذه الحياة تتفاوت : فواحد تغيض به الأرحام ، فلا يخرج للحياة ، وواحد يتنفس زفيراً واحداً ويموت .. إلخ .

وفى كل لحظة من لحظات الزمن نعاين الموت ، مَنْ يموت بعد نفَس واحد ، ومَنْ يموت بعد المائة عام . إذن : فلا رتابة فى انقضاء الأجل ، لا فى سِنٍّ ولا فى سبب : فهذا يموت بالمرض ، وهذا بالغرق ، وهذا يموت على فراشه .

لذلك يقول الشاعر :

فَلا تحسَبِ السُّقْم كأسَ المماتِ وإنْ كانَ سُقْماً شَدِيد الأَثَر
فَرُبَّ عليلٍ تراهُ اسْتفاقَ ورُبَّ سَلِيمٍ تَرَاهُ احتُضِرْ

وقال آخر :

وَقَدْ ذَهَبَ الممتلى صحةً وصَحَّ السَّقِيمُ فَلَمْ يذْهب

وتجد السبب الجامع فى الوباءات التى تعترى الناس ، فيموت

واحـد ويعـيش آخـر ، فليس في المـوت رتابة ، والحق ـ سـبـحـانه وتعالى ـ حيـنما يقول : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)﴾ [الأعراف] نجد واقع الحيـاة يؤكد هذا ، فلا وحدةَ في عمر ، ولا وحدةَ في سبب .

والصدق فى الأجل الأول المـشاهد لنا يدعـونا إلى تصديق الأجل الآخر ، وأن أجل الله لآت ، فـالأجل الذى أنهى الحـياة بالاخـتلاف هو الذى يأتى بالحـياة بالاتفاق ، فـبنفخـة واحدة سنقـوم جميـعاً أحـياءً للحـساب ، فـإن اخـتلفنا فى الأولى فـسوف نـتفق فى الآخـرة ؛ لأن الأرواح عند الله من لَدُنْ آدم عليه السلام وحتى تقوم الساعة ، وبنفخة واحدة يقوم الجميع .

وسبق أن قُلْنا : إن الأزمان ثلاثة : حاضر نشهده ، وماضٍ غائب عنا لا نعرف ما كان فـيه ، ومستقبل لا نعـرف ما يكون فيه . والحق سبحانه يعطى لنا فى الوجود المشاهد دليلَ الصدق فى غير المشاهد ، فنحن مثلاً لا نـعرف كيف خلقنا الخَلْق الأول إلا من خلال مـا أخبرنا الله به من أن أَصْلُ الإنسان تراب اخـتلط بالماء حـتى صار طيناً ، ثم حمأ مسنوناً ، ثم صلصالاً كالفخار .. إلخ .

ثم جـعل نسـل الإنسـان من نطفـة تتـحـول إلى عـلقـة ، ثم إلى مـضـغة ، ثم إلـى عظام ، ثم تُـكْسى العظام لحـمـاً . وإنْ كـان العلم الحديث أرانا النـطفة والعلقة والمـضـغة ، وأرانا كـيف يتكوَّن الجنين ، فيبقى الخَلْق الأول من تراب غيباً لا يعلمه أحد .

ولا تُصدِّق من يقول : إنى أعلمه ؛ لأن الله تعالى حذرنا من هؤلاء المضليـن فى قوله : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ

أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴿٥١﴾ [الكهف]

فلا علمَ لهم بخَلْق الإنسان ، ولا علمَ لهم بخَلْق ظواهر الكون ، فلا تسمع لهم ، وخُذْ معلوماتك من كتاب ربك الذى خلق سبحانه ، ويقوم وجود المضلين الذين يقولون : إن الأرض قطعة من الشمس انفصلتْ عنها ، أو أن الإنسان أصله قرد - يقوم وجودهم ، وتقوم نظرياتهم دليلاً على صدق الحق سبحانه فيما أخبر .

وإلا ، فكيف نُصدِّق نظرية ترقِّى القرد إلى إنسان ؟ ولماذا ترقَّى قرد (دارون) ولم تترقَّ باقى القرود ؟

وإذا كان المؤمن مُصدِّقاً بقوله تعالى : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ [الحجر] لأنه آمن بالله ، وآمن بما جاء به رسول الله ، فكيف بمَنْ لا يؤمن ولا يُصدِّق ؟ لذلك يُؤنِس الحق سبحانه هذه العقول المستشرفة لمعرفة حقائق الأشياء يُؤنسها بما تشاهد : فإنْ كنتَ لا تُصدِّق مسألة الخَلْق فأنت بلا شكٍّ تشاهد مسألة الموت وتعاينه كل يوم ، والموت نَقْضٌ للحياة ، ونَقْض الشيء يأتى عكْس بنائه .

والخالق - عز وجل - أخبر أن الروح هى آخر شىء فى بناء الإنسان ، لذلك هى أول شىء يُنقَض فيه عند الموت ، إذن : مشهدك فى كيف تموت ، يؤكد لك صدْق الله فى كيف جئت ؟

وأجل الآخرة أمر لا بُدَّ منه ليُثَاب المطيع ويُعَاقب العاصى ، ألاَ ترى إلى النظم الاجتماعية حتى عند غير المؤمنين تأخذ بهذا المبدأ

لاستقامة حركة الحياة ؟ فما بالك بمنهج الله تعالى فى خَلْقه ، أيترك الظالم والمجرم يُفلت من العقاب فى الآخرة بعد أنْ أفلت من عقاب الدنيا ؟

وكنا نردُّ بهذا المنطق على الشيوعيين : لقد عاقبتُم مَنْ طالته أيديكم من المجرمين ، فكيف بمَنْ ماتوا ولم تعاقبوهم ، أليستِ الآخرةُ تحلّ لكم هذا المأزق ؟

ثم تُختَم الآية بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝﴾ [العنكبوت] ألاَ ترى أنه تعالى لو قال : العليم فقط لشملَ المسموعَ أيضاً ؛ لأن العلم يحيط بكل المدركات ؟ فلماذا قال ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝﴾ [العنكبوت] ؟

قالوا : لأن اللغة العربية حينما تكلمتْ عن العمل والفعل والقول قسَّمت الجوارح أقساماً : فاللسان له القول ، وبقية الجوارح لها الفعل ، وهما جميعاً عمل ، فالقول عمل اللسان ، والفعل عمل بقية الجوارح ، فكأن اللسان أخذ شطر العمل ، وبقية الجوارح أخذت الشطر الآخر .

وباللسان معرفة إيمانك ، حين تقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهى أشرف ما يعمل الإنسان ، وبه بلاغ الرسول عن الله لخَلْقه ، إذن : فأفعال الجوارح الشرعية ناشئة من اللسان ومن السماع ؛ لذلك جعل القول وهو عمل اللسان شطر العمل كله .

ولأهمية القول قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝﴾ [الصف] فكل فعل ناشىء عن انصياع لقول أو سماع لقول ؛ لذلك ختم سبحانه هذه الآية بقوله : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝﴾ [العنكبوت]

﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾

وكلمة ﴿ جَاهَدَ .. ۝٦ ﴾ [العنكبوت] تناسب النجاح فى الابتلاء ، والجهاد : بذْل الجهد فى إنفاذ المراد ، ومنه اجتهد فلان فى كذا يعنى : عمل أقصى ما فى وُسْعه من الجدِّ والاجتهاد فى أن يستنبط الحكم .

والجهاد له مجالان : مجال فى النفس يجاهدها ليقْوَى بمجاهدة نفسه على مجاهدة عدوه .

وجاهد : مفاعلة ، كأن الشيء الذى تريده صعب ، يحتاج إلى جهد منك ومحاولة ، والمفاعلة تكون من الجانبين : منك ومن الشيء الذى يقابلك ، وأول ميادين الجهاد النفس البشرية ؛ لأن ربك خلق فيك غرائز وعواطف لمهمة تؤديها ، ثم يأتى منهج السماء ليكبح هذه الغرائز ويُرقِّيها ، حتى لا تنطلق معها إلى ما لا يُباح .

فحب الاستطلاع مثلاً غريزة محمودة فى البحث العلمى والاكتشافات النافعة ، أمّا إنْ تحوّل إلى تجسُّس وتتبع لعورات الناس فهو حرام ؛ الأكل والشرب غريزة لتقتات به ، وتتولد عندك القدرة على العمل ، فإنْ تحوَّل إلى نهم وشراهة فقد خرجت بالغريزة عن مرادها والهدف منها .

وعجيب أمر الناس فى تناول الطعام ، فالسيارة مثلاً لا نعطيها خليطاً من الوقود ، إنما هو نوع واحد ، أما الإنسان فلا تكفيه عدة أصناف ، كل منها لها تفاعل فى الجسم ، حينما تتجمع هذه التفاعلات تضر أكثر مما تنفع .

إذن : هذه الغرائز تحتاج منك إلى مجاهدة ؛ لتظل في حَدِّ الاعتدال ، عملاً بالأثر : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع ، ولا نشرب حتى نظمأ ، وإذا شربنا لا نقنع » .

ولو عملنا بهذا الحديث لَقضيْنا على القنبلة الذرية للاقتصاد في بلادنا ، وكم تحلو لك اللقمة بعد الجوع مهما كانت بسيطة وغير مكلَّفة ؛ لذلك يقولون : نعم الإدام الجوع ، ثم إذا أكلتَ لا تملأ المعدة ، ودع كما قال رسول الله ﷺ : « فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفَسه »[(١)] .

وبهذا المنهج الغذائي الحكيم نضمن بنية سليمة وعافية لا يخالطها مرض .

فالغرائز خلقها الله فيك لمهمة ، فعليك أنْ تقف بها عند مهمتك . ومثل الغرائز العواطف من حب وكُرْه وشفقة وحُزْن .. إلخ ، وهذه ليس لها قانون إلا أنْ تقفَ بها عند حدود العاطفة لا تتعداها إلى النزوع ، فأحبب مَنْ شئتَ وأبغض مَنْ شئتَ ، لكن لا تتعدَّ ولا تُرتِّب على العاطفة حكماً .

وقد ذكرنا لهذه المسألة مثالاً بسيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ وكان له أخٌ اسمه زيد قُتل ، ثم أسلم قاتله ، فكان عمر كلما رآه يقول له : ازْوِ عني وجهك ـ يعني : أنا لا أحبك ـ فيقول : أو عدم حبك لي يمنعني حقاً من حقوقي ؟ قال : لا ، قال : إنما يبكي على الحب

(١) عن المقدام بن معد يكرب سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن غلب الآدمي نفسه فثلث للطعام ، وثلث للشراب ، وثلث للنفَس » أخرجه الترمذي في سننه (٢٣٨٠) وابن ماجة في سننه (٣٣٤٩) وأحمد في مسنده (٤/١٣٢) والحاكم في مستدركه (٤/٣٣١) .

النساء . يعنى : الحب والكره مسائل يهتم بها النساء ، والمهم العمل ، وما يترتب على هذه العواطف .

ومن المجاهدة مجاهدة مَنْ سُلِّط عليك من جبار أو نحوه ، تجاهده وتصبر على إيذائه ، فحبُّك للحق يجعلك تصبر عليه ، يقول تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾ [محمد]

كل هذه بلاءات تحتاج إلى مجاهدة ، فإنْ كان لك غريم فإنْ قدرتَ أن تدفع أذاه بالتى هى أحسن فافعل ، وإنْ أردت أنْ تعاقب فعاقب بالمثل ، وهذه مسألة صعبة ؛ لأنك لا تستطيع تقدير المثلية أو ضبطها ، بحيث لا تتعدى ، فمثلاً لو ضربك خصمك ضربةً ، أتستطيع أنْ تردَّ عليه بمثلها دون زيادة ؟

إذن : فلا تُدخل نفسك فى هذه المتاهة ، وأَوْلَى بك أنْ تأخذ بقوله تعالى ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ.. (١٣٤) ﴾ [آل عمران] وتنتهى المسألة .

فإذا كانت المصيبة لا غريمَ لك فيها ، كالمرض والموت وغيرهما من القدريات التى يُجريها الله عليك ، فقُلْ إن ربى أراد بى خيراً ، فبها تُكفِّر الذنوب والسيئات وبها أنال أجر الصابرين ، وربما أننى غفلت عن ربى أو غرَّتنى النعمة ، فابتلانى الله ليلفتنى إليه ويُذكِّرنى به .

ومن المجاهدة مجاهدة النفس فى تلقِّى المنهج بافعل ولا تفعل ، والتكليف عادةً ما يكون شاقاً على النفس يحتاج إلى مجاهدة ، وإياك أنْ تنقلَ مدلول افعل فى لا تفعل ، أو تنقل مدلول لا تفعل فى افعل . وحين تستقصى (افعل ولا تفعل) فى منهج الله تجده يأخذ نسبة سبعة بالمائة من حركاتك فى الحياة ، والباقى مباحات ، لك الحرية تفعلها أو تتركها .

وقد يتعرض الإنسان المستقيم للاستهزاء والسخرية حتى ممَّن هو على دينه ، لأن المنحرف دائماً يشعر بنقص فيتضاءل ويصغر أمام نفسه ، ويحاول أن يجر الآخرين إلى نفس مستواه حتى يتساوى الجميع ، وإلا فكيف تكون أنت مهتدياً مستقيماً وهو عاص ضالٌّ ؛ لذلك تراه يسخر منك ويُهوِّن من شأنك ، لماذا ؟ ليُزهِّدك في الطاعة ، فتصير مثله .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

ولا شكَّ أن مثل هذا يحتاج منك إلى صبر على أذاه ، ومجاهدة للنفس حتى لا تقع في الفخِّ الذي ينصبه لك .

وقد تأتيك الوسوسة من الشيطان فيُزيِّن لك الشر ، ويُحبِّب إليك المعصية ، وعندها تذكر قول الله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا .. (٢٧) ﴾ [الأعراف]

فعليك - إذن - أن تتذكَّر العداوة الأولى بين أبيك آدم وبين الشيطان لتكون منه على حذر ، وسبق أن أوضحنا كيف نفرق بين المعصية التي تأتي من النفس ، والتي تأتي من وسوسة الشيطان ، فالنفس تقف بك عند معصية بعينها لا تريد غيرها ، أما الشيطان فإنْ تأبيتَ عليه في ناحية نقلك إلى أخرى ، المهم عنده أنْ يُوقعك على أي حال . إذن : أعداؤك كثيرون ، يحتاجون منك إلى قوة إرادة وإلى مجاهدة .

ومجيء هذه الآية التي تذكر الجهاد بعد قوله تعالى ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ ﴾ [العنكبوت] يطلب من الإنسان الذى يعتقد أن أجلَ الله بلقاء الآخرة آتٍ ، وذلك أمر لا شكَّ فيه ـ يطلب منه أنْ يستعدَّ لهذا اللقاء .

وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝ ﴾ [العنكبوت] لأن الإنسان طرأ على كون مُهيأ لاستقباله بسمائه وأرضه وشمسه وقمره ومائه وهوائه ، فكل ما فى الكون خادم لك ، ولن تزيد أنت فى مُلْك الله شيئاً ، وكل سَعْيك وفكرك لترف حياتك أنت ، فحين تفعل الخير فلن يستفيدَ منه إلا أنت وربك غنى عن عطائك .

فإنْ جاهدتَ فإنما تجاهد لنفسك ، كما لو امتنَّ عليك خادمك بالخدمة فتقول له : بل خدمتَ نفسك وخدمتَ عيالك حينما خدمتَ لتوفر لك ولهم أسباب العيش ، وأنا الذى تعبتُ وعرقتُ لأوفر لك المال الذى تأخذه .

وكذلك الحق سبحانه يقول لنا ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ .. ۝ ﴾ [العنكبوت] أى : حينما يطبق المنهج ويسير على هُداه ، والحق سبحانه يؤكد هذه القضية فى آيات عديدة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝ ﴾ [فصلت]

ويقول الحق سبحانه : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا .. ۝ ﴾ [الإسراء]

ويقول سبحانه: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. ۝ ﴾ [البقرة]

إذن : المسألة منك وإليك ، ولا دخلَ لنا فيها إلا حرْصنا على صلاح الخَلْق وسلامتهم ، كصاحب الصَّنْعة الذى يريد لصنعته أن

تكون على خير وجه وأكمله ، لذلك أفيضُ عليه من قدراتي قدرة ، ومن علمي علماً ، ومن بَسْطي بَسْطاً ، ومن جبروتي جبروتاً ، وأعطيه من صفاتي .

لذلك قال بعض العارفين : « تخلقوا بأخلاق الله » .

لأن العون في وهب الصفات ومجال الصفات في الفعل ليس في أنْ أفعل لك ، إنما في أنْ أعينك لتفعل أنت ، فالواحد منا حينما يرى عاجزاً لا يستطيع حَمْل متاعه ، ماذا يفعل ؟ يحمله عنه ، أي : يُعدِّي إليه أثر قوته ، إنما يظل العاجز عاجزاً والضعيف ضعيفاً كلما أراد شيئاً احتاج لمن يقوم له به .

أما الحق - سبحانه وتعالى - فيفيض عليك من قوته ، ويهبُ لك من قدرته وغنَاه لتفعل أنت بنفسك ؛ لذلك مَنْ يتخلق بأخلاق الله يقول : لا تعْطِ الفقير سمكة ، إنما علِّمه كيف يصطاد ، حتى لا يحتاج لك في كل الأوقات ، أفضْ عليه ما يُديم له الانتفاع به .

إذن : الحق سبحانه يهَبُ القادرين القدرةَ ، ويهَبُ الأغنياء الغنَى ، والعلماءَ العلمَ والحكماءَ الحكمةَ . وهذه من مظاهر عظمته تعالى ألاَّ يُعدِّي أثر الصفة إلى عباده ، إنما يُعدِّي بعض الصفة إليهم ، لتكون ذاتية فيهم .

بل ويعطي سبحانه ما هو أكثر من ذلك ، يعطيك الإرادة التي تفعل بها لمجرد أن تفكر في الفعل ، بالله ماذا تفعل لكي تقوم من مكانك ؟ ماذا تفعل حينما تريد أنْ تحمل شيئاً أو تحرك عضواً من أعضائك ؟ هل أمرتها أمراً ؟ هل قلت لها افعلي كذا وكذا ؟

حين تنظر إلى (البلدوزر) مثلاً أو (الونش) كيف يتحرك ،

وكيف أن لكل حركة فيه زراً يحركها وعمليات آلية معقدة ، تأمل فى نفسك حين تريد أن تقوم مثلاً بمجرد أن تفكر فى القيام ، تجد نفسك قائماً ، مرادك أنت فى الأعضاء أن تفعل وتنفعل لك .

إذن ، حينما يقول لك ربك : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس] فصدِّقه ؛ لأنك شاهدتها فى نفسك وفى أعضائك ، فما بالك بربك ـ عز وجل ـ أيعجز أن يفعل ما تفعله أنت ؟ ماذا تفعل إنْ أردتَ أنْ تنام أو تبطش بيدك ؟

لا شىء غير الإرادة فى داخلك ؛ لأن ربك خلع عليك من قدرته ، وأعطاك شيئاً من قوله (كُنْ) ، وقدرة من قدرته ، لكن لم يشأ أنْ يجعلها ذاتية فيك حتى لا تغترّ بها .

لذلك إنْ أراد سبحانه سلَبَها منك لقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق] فتأتى لتحرك ذراعك مثلاً فلا يطاوعك ، لقد شُلَّ ويأبى عليك بعد أنْ كان طَوْع إرادتك ، ذلك لتعلم أنه هبَة من الله ، إنْ شاء أخذها فهى ليست ذاتية فيك .

فالمجاهدة تشمل ميادين عديدة ، مجاهدة الغرائز والعواطف ، ومجاهدة مشقة المنهج فى افعل ولا تفعل ، ومجاهدة شياطين الإنس والجن ، ومجاهدة خصوم الإسلام الذين يريدون أنْ يُطفئوا نور الله .

وروى البخارى أن خباب بن الأرتّ دخل على سيدنا رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إننا فى شدة ، ألاَ تستنصر لنا ؟ ألاَ تدعو لنا ؟ فقال ﷺ : إنه كان الرجل فيمن قبلكم تُحفر له الحفرة ، فيُوضع فيها ، ثم يُؤتَى بالمنشار فيُقَدُّ نصفين ، ثم يُمشَطُ لحمه عن عظمه بأمشاط الحديد ، فلا يصرفه ذلك عن دين الله » .

ثم يطمئنه رسول الله على أن هذه الفترة - فترة الابتلاء - لن تطول ، فيقول : « والله لَيُتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا اللهَ والذئبَ على غنمه »[1] .

والنبى ﷺ وهو خاتم النبيين ، يدخل عليه سيدنا أبو سعيد الخدرى فيجد رسول الله ﷺ يشتكى حرارة الحمى ، فوضع يده على اللحاف الذى يلتحف به سيدنا رسول الله ، فيُحسّ حرارته من تحت اللحاف ، فقال له : يا رسول الله ، إنها لشديدة عليك ؟ فقال ﷺ : « يا أبا سعيد ، إنه يُضعَّف لنا البلاء كما يُضعَّف لنا الجزاء »[2] .

ذلك ليثبت أن البلاء لا يكون فقط من الأعداء ، إنما قد يكون من الله تعالى ، لماذا ؟ لأن الله يباهى ملائكته بخَلْقه الطائعين المخبتين الصابرين ، فيقولون : كيف لا يحبونك ويقبلون على طاعتك ، وقد أنعمتَ عليهم بكذا وبكذا ؟ ويذكرون حيثيات هذه الطاعة ، فيقول تعالى : وأسلب كل ذلك منهم ويحبوننى ، أى : يحبوننى لذاتى .

ثم تختم هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝ ﴾ [العنكبوت] لأن ميادين الجهاد هذه لا يعود منها شىء إلى الله تعالى ، ولا تزيد فى مُلكه شيئاً ، إنما يستفيد منها العبد ؛ لأنه سبحانه الغنى عن طاعة الطائعين وعبادة المتعبدين ، ليس غنياً عنهم وفقط ، إنما هو سبحانه الذى يُغنيهم ويُفيض عليهم من فَضْله ومن غِناه .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٨٥٢) ، وأحمد فى مسنده (٦/٣٩٥) من حديث الخباب بن الأرتّ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى سننه (٤٠٢٤) من حديث أبى سعيد الخدرى قال : دخلت على النبى ﷺ وهو يوعك ، فوضعت يدى عليه ، فوجدت حره بين يدىَّ فوق اللحاف . فقلت : يا رسول الله ما أشدها عليك . قال : « إنا كذلك يُضعَّف لنا البلاء ويضعف لنا الأجر » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٧ ﴾

يذكر لنا - سبحانه وتعالى - النتائج ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا .. ۝٧ ﴾ [العنكبوت] أى : بالله رباً ، له كل صفات الكمال المطلق ، وله طلاقة القدرة ، وله طلاقة الإرادة ، وهو المهيمن ، وهو الحاكم .. إلخ .

ثم ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ۝٧ ﴾ [العنكبوت] لأن العمل الصالح نتيجة للإيمان ، وثمرة من ثمراته ، والصالح : هو الشىء يظلُّ على طريقة الحُسْن فيه فلا يتغير ، فقد أقبلت على عالم خلقه الله لك على هيئة الصلاح فلا تفسده ، وهذا أضعف الإيمان أنْ تُبقى الصالح على صلاحه ، فإن أردتَ الارتقاء ، فزِدْه صلاحاً .

يقول تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ ﴾ [البقرة]

فقد أعدَّ الله لنا الأرض صالحة بكل نواميسها وقوانينها ، ألاَ ترى المناطق التى لا ينزل بها المطر يُعوِّضها الله عنه بالمياه الجوفية فى باطن الأرض ، فماء المطر الزائد يسلكه الله ينابيع فى الأرض ، ويجعله مخزوناً لوقت الحاجة إليه ، وتخزين الماء العذب فى باطن الأرض حتى لا تُبخِّره الشمس ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا[1] فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠ ﴾ [الملك]

وضربنا مثلاً لترك الصالح على صلاحه ببئر الماء الذى يشرب

(١) غار الماء : ذهب فى الأرض . [القاموس القويم ٢/٦٣] .

منه أهل الصحراء ، فقد نرمى فيه القاذورات التى تُفسد ماءه ، وقد نرى مَنْ يُهيل فيه التراب فيطمسه ، وهذا كله من إفساد الصالح ، وربما يأتى مَنْ يبنى حوله سوراً يحميه ، أو يجعل عليه آلة رَفْع ترفع الماء وتُريح الناس الذين يردونه ، فإذا لم تكُنْ من هؤلاء فلا أقلَّ من أن تدعه على حاله .

فالصالح إذن : كل عمل وفكر يزيد صلاحَ المجتمع فى حركات الحياة كلها ، وإياك أن تقول إن هناك عملاً أشرف من عمل ، فكل عمل مهما رأيته هيِّناً ـ ما دام يؤدى خدمة للمجتمع ، ويُقدِّم الخير للناس فهو عمل شريف ، فقيمة الأعمال هى قيمة العامل الذى يُحسنها وينفع الناس بها ، يعنى : ليس هناك عمل أفضل من عمل ، إنما هناك عامل أفضل من عامل ؛ لذلك يقولون : قيمة كل امرىء مَا يُحسنه .

وسبق أن ضربتُ لذلك مثلاً ، وما أزال أضربه ، مع أنه من أُنَاس غير مسلمين : كان نقيب العمال في فرنسا يطالب بحقوق العمال ويدافع عنهم ويُوفِّر لهم المزايا ، فلما تولى الوزارة قالوا له : أعطنا الآن الحقوق التى كنتَ تطالب بها لنا ، وربما كان يطالب لعماله بما تضيق به إمكانات وميزانيات الوزارة ، أما الآن فقد أصبح هو وزيراً ، وفى إحدى المرات تطاول عليه أحد العمال وقال : لا تنْسَ أنك كنت فى يوم من الأيام ماسحَ أحذية ، فقال : نعم ، لكننى كنت أتقنها .

ثم يذكر الحق سبحانه جزاء الإيمان والعمل الصالح : ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ .. ۝٧﴾ [العنكبوت] وهنا تتجلى العظمة الإلهية ، حيث بدأ بتكفير السيئات وقدَّمها على إعطاء الحسنات .

لأن التخلية قبل التحلية ، والقاعدة تقول : إن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم

على جَلْب المصلحة ، فهَبْ أن واحداً يريد أنْ يرميك مثلاً بحجر ، وآخر يريد أنْ يرمي لك تفاحة ، فأيهما تستقبل أولاً ؟ لا شكَّ أنك ستدفع أذى الحجر عن نفسك أولاً .

والخالق ـ عز وجل ـ يعلم طبيعة عباده وما يحدث منهم من غفلة وانصراف عن المنهج يُوقعهم فى المعصية ، وما دام أن الشرع يُعرِّف لنا الجرائم ويُقنِّن العقوبةَ عليها ، فهذا إذنٌ منه بأنها ستحدث .

لذلك يقول تعالى لعباده : اطمئنوا ، فسوف أطهركم من هذه الذنوب أولاً قبل أنْ أعطيكم الحسنات ، ذلك لأن الإنسان بطبعه أميل إلى السيئة منه إلى الحسنة ، فيقول سبحانه ﴿ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ.. (٧) ﴾ [العنكبوت]

بل وأكثر من ذلك ، ففى آية آخرى يقول سبحانه : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) ﴾ [الفرقان] فأىُّ كرم بعد أنْ يُبدِّل الله السيئةَ حسنةً ، فلا يقف الأمر عند مجرد تكفيرها ، فكأنه (أوكازيون) للمغفرة ، ما عليك إلا أنْ تغتنمه .

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. (١١٤) ﴾ [هود] وفى الحديث الشريف : « .. وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحها »[1] .

ثم يذكر سبحانه الحسنة بعد ذلك : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٢٨ ، ٢٣٦) ، وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٤/٣٧٦) من حديث معاذ بن جبل ، وتمامه : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحُها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ [العنكبوت] قلنا : إن الحق سبحانه إذا أراد أنْ يعطى الفقير يقترض له من إخوانه الأغنياء ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة]

مع أنه سبحانه واهب كل النعم يحترم ملكية عباده ، ويحترم مجهوداتهم وعرقهم ، فاحترم العمل واحترم ثمرة العمل ، كما يعامل الوالد أولاده ، فيأخذ من الغنى لمساعدة الفقير على أنْ يعيد إليه ماله حين مَيْسرة ، فكما أنك لا ترجع فى هبتك ، كذلك ربُّك - عز وجل - لا يرجع فى هبته .

وأذكر ونحن فى أمريكا سألنا أحد المستشرقين يقول : هناك تعارض بين قول القرآن : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام] وبين قول النبى ﷺ : « مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر »[1] .

فشاء الله أن يلهم بكلمتين للردِّ عليه ، حتى لا يكون للكافرين على المؤمنين سبيل . فقلت للمترجم : نعم الحسنة بعشر أمثالها حين تتصدَّق ، لكن فى القرض مثلاً لو تصدَّق بدولار فهو عند الله بعشرة دولارات ، لكن يعود عليك دولارك مرة أخرى ، فكأن لك تسعة دولارات ، فحين تضاعف تصير ثمانية عشر .

وبعد ذلك ينتقل الحق سبحانه إلى الدائرة الأولى فى تكوين المجتمع ، وهى دائرة الأسرة المكوَّنة من : الأب ، والأم ، والأولاد ،

---

(١) عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « دخل رجل الجنة فرأى مكتوباً على بابها : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر » رواه الطبرانى والبيهقى كلاهما من رواية عتبة بن حميد (الترغيب والترهيب للمنذرى ٢ / ٣٤) .

فأراد سبحانه أن يُصلح اللبنة الأولى ليصلح المجتمع كله ، فقال تبارك وتعالى[1] :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾

الوالدان يخدمان الابن حتى يكبر ، ويصير هو إلى القوة فى حين يصيران هما إلى الضعف ، وإلى الحاجة لمن يخدمهما ، وحين ننظر فى حال الغربيين مثلاً وكيف أن الأبناء يتركون الآباء دون رعاية ، وربما أودعوهم دار المسنين فى حالة برِّهم بهم ، وفى الغالب يتركونهم دون حتى السؤال عنهم ؛ لذلك تتجلى لنا عظمة الإسلام وحكمة منهج الله فى مجتمع المسلمين .

لذلك قال أحد الحكماء : الزواج المبكر خير طريقة - لا لإنجاب طفل - إنما لإنجاب أب لك يعولك فى طفولة شيخوختك . لذلك أراد الحق سبحانه أن يبنى الأسرة على لبنات سليمة ، تضمن سلامة المجتمع المؤمن ، فقال سبحانه : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. ﴿٨﴾ ﴾ [العنكبوت] ، وفى موضع آخر قال سبحانه فى نفس الوصية ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف]

---

(١) سبب نزول الآية : قال المفسرون : نزلت فى سعد بن أبى وقاص ، وذلك أنه لما أسلم قالت له أمه جميلة : يا سعد بلغنى أنك صبوت . فوالله لا يظلنى سقف بيت من الضح والريح ، ولا آكل ولا أشرب حتى تكفر بمحمد ، وترجع إلى ما كنت عليه ، وكان أحبَّ ولدها إليها ، فأبى سعد فصبرت هى ثلاثة أيام لم تأكل ، ولم تشرب ، ولم تستظل بظلٍّ حتى خشى عليها ، فأتى سعد النبى ﷺ وشكا ذلك إليه ، فأنزل الله هذه الآية والتى فى لقمان والأحقاف . [أسباب النزول للواحدى ص ١٩٥].

وفَرْق بين المعنيين : ﴿حُسْناً .. ⑧﴾ [العنكبوت] أى : أوصيك بأنْ تعملَ لهم الحُسْن ذاته ، كما تقول : فلان عادل ، وفلان عَدْل ، فوصَّى بالحسْن ذاته . أما فى ﴿إحْسَانًا .. ⑮﴾ [الأحقاف] فوصية بالإحسان إليهما .

لكن ، لماذا وصَّى هنا بالحُسْن ذاته ، ووصَّى هناك بالإحسان ؟

قالوا : وصَّى بالحسن ذاته فى الآية التى تذكر اللدد الإيمانى ، حيث قال : ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا .. ⑧﴾ [العنكبوت] والكفر يستوجب العداوة والقطيعة ، ويدعو إلى الخصومة ، فأكَّد على ضرورة تقديم الحسن إليهما ؛ لا مجرد الإحسان ؛ لأن الأمر يحتاج إلى قوة تكليف .

أما حين لا يكون منهما كفر ، فيكفى في برِّهما الإحسان إليهما ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. ⑮﴾ [لقمان]

والحق سبحانه حين يُوصى بالوالدين ، وهما السبب المباشر فى الوجود إنما ليجعلهما وسيلةَ إيضاح لأصل الوجود ، فكما أوصاك بسبب وجودك المباشر وهما الوالدان ، فكذلك ومن باب أَوْلى يوصيك بمَنْ وهب لك أصل هذا الوجود .

فكأن الحق سبحانه يُؤنس عباده بهذه الوصية ، ويلفت أنظارهم إلى ما يجب عليهم نحو واهب الوجود الأصلى وما يستحقه من العبادة ومن الطاعة ؛ لأنه سبحانه الخالق الحقيقى ، أما الوالدان فهما وجود سببى .

هذا إيناس بالإيمان ، بيَّنه تعالى فى قوله : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. ㊱﴾ [النساء] لأنهما سبب الوجود الجزئي ، والله تعالى سبب الوجود الكلى .

وهذا أيضاً من المواضع التى وقف عندها المستشرقون ، يبغُونَ فيها مَطْعناً ، ويظنون بها تعارضاً بين آيات القرآن فى قوله تعالى : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥) ﴾ [لقمان] وفى موضع آخر : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ .. (٢٢) ﴾ [المجادلة]

وهذا التعارض لا يوجد إلا فى عقول هؤلاء ؛ لأنهم لا يفهمون لغة القرآن ، ولا يفرقون بين الودِّ والمعروف : الودّ مَيْل القلب ، وينشأ عن هذا الميل فعْل الخير ، فيمن تميل إليه ، أمّا المعروف فتصنعه مع مَنْ تحب ومَنْ لا تحب ، فهو استبقاء حياة .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [العنكبوت] يعنى : تذكَّر هذا الحكم ، فسوف أسألك عنه يوم القيامة ، ففى موضع آخر ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) ﴾ [لقمان]

فكُفْر الوالدين لا يعنى السماحَ لك بإهانتهما أو إهمالهما ، فاحذر ذلك ؛ لأنك ستُسأل عنه أمام الله : أصنعتَ معهما المعروف أم لا ؟

وحيثيات الوصية بالوالدين : الأب والأم ذُكرت فى الآية الأخرى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] نلحظ أن الحيثيات كلها للأم ، ولم يذكر حيثية واحدة للأب إلا فى قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴾ [الإسراء] وهذه تكون فى الآخرة .

قالوا : ذكْر الحيثيات كلها للأم ؛ لأن متاعب الأم كانت حال الصِّغَر ، والطِّفل ليس لديه الوعى الذى يعرف به فَضْلَ أمه وتحمُّلها المشاق من أجله ، وحين يكبر وتتكوَّن لديه الإدراكات يجد أنَّ الأب هو الذى يقضى له كل ما يحتاج إليه .

إذن : فحيثيات الأب معلومة مشاهدة ، أمَّا حيثيات الأم فتحتاج إلى بيان .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾

فقدَّم الإيمان ، لأنه الأصل ، ثم العمل الصالح ، وكأن الدخول فى الصالحين مسألة كبيرة ، وهى كذلك ، ويكفى أنها مُتَمنى حتى الأنبياء أنفسهم .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ .. ﴿١٠﴾﴾ [العنكبوت] قال : كان أناس من المؤمنين آمنوا وهاجروا ، فلحقهم أبو سفيان ، فرد بعضهم إلى مكة فعذبهم فافتتنوا ، فأنزل الله فيهم هذا . [الدر المنثور ٦/٤٥٣] ، القرطبى فى [تفسيره ٧/٥٢١٨] : « وقيل : نزلت فى عياش بن أبى ربيعة ، أسلم وهاجر ، ثم أوذى وضُرِب فارتد . وإنما عذبه أبو جهل والحارث ، وكانا أخويه لأمه » .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ .. ⑩ ﴾ [العنكبوت] دليل على القول باللسان ، وعدم الصبر على الابتلاء ، فالقول هنا لا يؤيده العمل ، ولمثل هؤلاء يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ② ﴾ [الصف]

ويقول تعالى في صفات المنافقين : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ① ﴾ [المنافقون] فالله تعالى لا يُكذِّبهم في أن محمداً رسول الله ، إنما في شهادتهم أنه رسول الله ؛ لأن الشهادة لا بُدَّ لها أنْ يواطيء القلب اللسان ، وهذه لا تتوفر لهم .

ومعنى : ﴿ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ .. ⑩ ﴾ [العنكبوت] أي : بسبب الإيمان بالله ، فلم يفعل شيئاً يؤذى من أجله ، إلا أنه آمن ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ .. ⑩ ﴾ [العنكبوت] فتنة الناس أي : تعذيبهم له على إيمانه كعذاب الله .

إذن : خاف عذاب الناس وسوَّاه بعذاب الله الذي يحيق به إنْ كفر ، وهذا غباء في المساواة بين العذابين ؛ لأن عذابَ الناس سينتهي ولو بموت المؤذى المعذِّب ، أما عذاب الله في الآخرة فباق لا ينتهي ، والناس تُعذِّب بمقدار طاقتها ، والله سبحانه يُعذب بمقدار طاقته تعالى وقدرته ، إذن : فالقياس هنا قياس خاطيء .

وإنْ كانت هذه الآية قد نزلت في عياش بن أبي ربيعة[1] ، فالقاعدة الأصولية تقول : إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص

(١) قال ابن حجر في كتابه « الإصابة في تمييز الصحابة » (ترجمة رقم ٦١١٨) : « يلقب ذا الرمحين ، ابن عم خالد بن الوليد بن المغيرة ، كان من السابقين الأولين وهاجر الهجرتين ثم خدعه أبو جهل إلى أن رجعوه من المدينة إلى مكة فحبسوه ، وكان النبي ﷺ يدعو له في القنوت . مات عام ١٥ هـ بالشام في خلافة عمر ، وقيل : استشهد باليمامة . وقيل : باليرموك » .

السبب ، وكان عياش بن أبى ربيعة أخا عمرو بن هشام (أبو جهل) والحارث بن هشام من الأم التى هى أسماء[1] .

فلما أنْ أسلم عياش ثم هاجر إلى المدينة فحزنت أمه أسماء ، وقالت : لا يظلنى سقف ، ولا أطعم طعاماً ، ولا أشرب شراباً ، ولا أغتسل حتى يعود عياش إلى دين آبائه[2] ، وظلت على هذه الحال التى وصفتْ ثلاثة أيام حتى عضَّها الجوع ، فرجعت .

وكان ولداها الحارث وأبو جهل قد انطلقا إلى المدينة ليُقنعا عياشاً بالعودة لاسترضاء أمه ، وظلا يُغريانه ويُرقّقان قلبه عليها ، فوافق عياش على الذهاب إلى أمه ، لكنه رفض الردة عن الإسلام ، فلما خرج الثلاثة من المدينة قاصدين مكة أوثقوه فى الطريق ، وضربه أبو جهل مائة جلدة ، والحارث مائة جلدة .

لكن كان أبو جهل أرأف به من الحارث ؛ لذلك أقسم عياش بالله لئن أدركه يوماً ليقتلنه حتى إنْ كان خارجاً من الحرم ، وبعد أن

---

(١) هى : أسماء بنت مخربة . ويقال : بنت عمرو بن مخربة بن جندل ، ذكر البلاذرى عن أبى عبيدة معمر بن المثنى : قدم هشام بن المغيرة نجران فرأى أسماء بنت مخربة فأعجبته فتزوجها وحملها إلى مكة فولدت له أبا جهل والحارث ، ثم مات ، فتزوجها عبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة فولدت له عياشاً ، فكان أخا أبى جهل والحارث لأمهما . وقال : قال محمد بن سعد : إنها ماتت كافرة قبل أن يهاجر ابنها عياش إلى المدينة . ويقال : إنها أسلمت وأدركت خلافة عمر ، وذلك أثبت» (الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٨/١٠) .

(٢) أورد الواحدى النيسابوري هذه القصة في (أسباب النزول ص ٩٧) . فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا .. ﴿٩٢﴾﴾ [النساء] وفيه أن أبا جهل والحارث بن هشام خرجا يطلبان أخاهما لأمهما عياشاً ، فأتوه وهو فى الأطم (حصن بالمدينة مبنى بالحجارة) ، فقالا له : انزل فإن أمك لم يؤوها سقف بيت بعدك ، وقد حلفت لا تأكل طعاماً ولا شراباً حتى ترجع إليها ، ولك الله علينا أن لا نكرهك على شىء ولا نحول بينك وبين دينك ، فلما ذكرا له جزع أمه وأوثقا له ، نزل إليهم فأخرجوه من المدينة وأوثقوه بنسع وجلده كل واحد منهم مائة جلدة » .

استرضى عياش أمه عاد إلى المدينة ، فقابل أخاه الحارث[1] عند قباء ، ولم يكن يعلم أنه قد أسلم فعاجله ونفّذ ما توعده به فقتله ، ووصل خبره إلى رسول الله ﷺ ونزلت الآية : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا .. (٩٢)﴾ [النساء]

ونزلت : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ .. (١٠)﴾ [العنكبوت] أى : أراد أنْ يفرّ من عذاب الناس فكفر ، ولم يُرِد أن يفرّ من عذاب الله ويؤمن .

وقوله تعالى : ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ .. (١٠)﴾ [العنكبوت] أى : اجعلوا لنا سهماً فى المغنم ﴿أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [العنكبوت] فالله سبحانه يعلم ما يدور فى صدورهم وما يتمنونه لنا ؛ ولذلك يقول سبحانه عنهم : ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً (٤٧)﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ (١١)﴾

نعم ، الحق سبحانه يعلم حال عباده حتى قبل أنْ يخلقوا ، ويعلم ماذا سيحدث لهم ، إنما هناك فَرْق بين علم مُسْبق على الحدث ، وعِلْم بعد أنْ يقع الحدث نفسه ؛ لأنه سبحانه لو قال : سأفعل بهم كذا

(١) تحقيق هذا الأمر : أن عياشاً لم يقتل الحارث أخاه ، بل قتل الحارث بن يزيد بن أنيسة وكان مع أخويه أبى جهل والحارث عندما أوثقاه وضرباه . قال ابن حجر فى « الإصابة » فى ترجمته (١٥٠٤) : « كان يؤذيهم بمكة وهو كافر ، فلما هاجر الصحابة أسلم الحارث ولم يعلموا بإسلامه وأقبل مهاجراً ، حتى إذا كان بظاهر الحرة لقيه عياش بن أبى ربيعة فظنه على شركه فعلاه بالسيف حتى قتله ، فنزلت هذه الآية » . وانظر أسباب النزول للواحدى (ص ٩٧) ، وابن كثير فى تفسيره (١/٥٣٤) .

وكذا ؛ لأنى أعلم ما يحدث منهم لقالوا : لا والله ما كان سيحدث منا شىء ؛ لذلك يتركهم حتى يحدث منهم الفعل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

وهذا لَوْن من ألوان الإيذاء أن يقول الذين كفروا للذين آمنوا ﴿ اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا .. ﴿١٢﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : ما نحن عليه من دين الآباء والأجداد ، وما نحن عليه من عبادة الأصنام والأوثان ، فنحن نعبد آلهة لا تكاليفَ لها ولا مطلوبات ، وأنتم تعبدون إلهاً له منهج ، وله مطلوبات بافعل كذا ولا تفعل كذا .

فالمعنى : ﴿ اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا .. ﴿١٢﴾ ﴾ [العنكبوت] خُذوا الحكم منا ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى : اعملوا على مسئوليتنا ، وإنْ كانت عليكم خطايا سنحملها عنكم ، وانظر هنا إلى غباء الكافر فقد آمن هو نفسه أن هذه خطيئة ، ومع ذلك يتعرَّض لحملها ، لكن كيف يحملها ؟ وكيف يكون هو المسئول عنها أمام الله ـ عز وجل ـ حين يحاسبنى ربى عليها ويعاتبنى على اتباعى له ؟ وهل للكافر شفاعة أو قوة يدافع بها عنى فى الآخرة ؟

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [العنكبوت] ويؤكد لنا سبحانه كذبهم أيضاً فى قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ ..﴿١٦٦﴾ ﴾[البقرة]

ويقول التابعون : ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

فالمودة التي كانت بينهم في الدنيا تحولتْ إلى عداوة ؛ لأنهم اجتمعوا في الدنيا على الضلال ، فتفرقوا في الآخرة ، كما قال سبحانه : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف] فالمتقي ساعة يرى المتقي في الآخرة يشكره ، ويعترف له بالجميل ؛ لأنه أخذ على يديه في الدنيا ، ومنعه من أسباب الهلاك ، فيحبه ويثني عليه ، وربما اعتبره عدوه في الدنيا . أما أهل الضلال فيلعن بعضهم بعضاً ، ويتبرأ بعضهم من بعض .

إذن : فغباء الكفار بيِّن في قولهم : ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ .. (١٢) ﴾ [العنكبوت] ، كما هو بيِّن في قولهم ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وكما هو بيِّن في قولهم : ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. (٧) ﴾ [المنافقون] فهم يعرفون أنه رسول الله ، ومع ذلك يمنعون الناس من الإنفاق على الفقراء الذين عنده ، إنه غباء حتى في المواجهة .

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾

وفي موضع آخر : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) ﴾ [النحل] . فالأثقال هي الأوزار ، فسيحملون أثقالاً على أثقالهم ، وأوزاراً على أوزارهم ، فالأثقال الأولى بسبب ضلالهم ، والأثقال الأخرى بسبب إضلالهم

للغير[1] ﴿ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾ [العنكبوت]
والافتراء : تعمُّد الكذب .

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن المقدمات فى عمومها ، أراد أنْ يتكلَّم عنها فى خصوص الرسالات ، فقال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ[2] إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ (١٤) ﴾

يقول العلماء : إن نوحاً ـ عليه السلام ـ هو أول رسل الله إلى البشر ، أما مَنْ سبقه مثل آدم وإدريس عليهما السلام ، فكانوا أنبياء أوحى الله إليهم بشرع يعملون به ، فيكونون نموذجاً إيمانياً ، وقدوة سلوك طيب ، يُقلِّدهم مَنْ رآهم ، لكن لا يُعَدُّ كافراً مَنْ لم يقتَدِ بهم ، أما إنِ اقتدى بهم ثم نكث عن سبيلهم فهو كافر .

لذلك نُفرِّق بين النبى والرسول ، بأن النبى أُوحِى إليه بشرع يعمل به ولم يُؤْمر بتبليغه ، أما الرسول فقد أُوحى إليه بشرع وأُمر بتبليغه فكلٌّ منهما مرسل ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ .. (٥٢) ﴾ [الحج]

(١) أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف وابن المنذر عن ابن الحنفية رضى الله عنه قال : كان أبو جهل وصناديد قريش يتلقون الناس إذا جاءوا إلى النبى ﷺ يسلمون ، يقولون : إنه يحرم الخمر ، ويحرم الزنا ، ويحرم ما كانت تصنع العرب ، فارجعوا فنحن نحمل أوزاركم فنزلت هذه الآية ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ .. (١٣) ﴾ [العنكبوت] [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/ ٤٥٤] .

(٢) أخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب « ذم الدنيا » (ص ٨٨ مكتبة القرآن) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : جاء ملك الموت إلى نوح عليه السلام . فقال : يا أطول النبيين عمراً ، كيف وجدت الدنيا ولذتها ؟ قال : كرجل دخل بيتاً له بابان ، فوقف وسط الباب هنيهة ، ثم خرج من الباب الآخر . وأورده السيوطى فى « الدر المنثور » (٦/٤٥٦) .

إذن : فالنبى أيضاً مُرسَل ، لكنه مُرسَل لذاته .

لكن لماذا كان هذا قبل نوح بالذات ؟ قالوا : لأن الرقعة الإنسانية كانت ضيقة قبل نوح ، وكان الناس حديثى عهد ، لم تنتشر بينهم الانحرافات ، فلما اتسعت الرقعة ، وتداخلت أمور الحياة احتاجت الخليقة لأنْ يرسل الله إليهم الرسل .

والحق سبحانه يأتى بهذه اللقطة الموجزة من قصة نوح ـ عليه السلام ـ مع أن له سورة مفردة ، وله لقطات كثيرة منثورة فى الكتاب العزيز ، لكن هذه اللقطة تأتى لنا بالبداية والنهاية فقط وكأنها برقية (تلغرافية) فى مسألة نوح :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ .. (١٤) ﴾ [العنكبوت]

إذن : الرسول جاء من القوم ، وهذا يعنى أنهم يعرفونه قبل أن يكون رسولاً ، ويُجرِّبون سلوكه وحركته فى الحياة ، ويعرفون خُلقه ، ويعرفون كل تصرفاته ، فليس الرسول بعيداً عنهم أو مجهولاً لهم .

لذلك كان رسول الله ﷺ حينما جهر بالدعوة آمن به الذين يعرفونه عن قُرْب دون أنْ يسألوه عن معجزة تؤيده ، بل بمجرد أنْ قال أنا رسول الله آمنوا به وصدَّقوه واتبعوه .

فسيدنا أبو بكر ، هل سمع من رسول الله قبل أن يؤمن به ؟ لا ، إنما بمجرد أن قالوا له : إن صاحبك تنبأ قال : آمنت به[1] ، لماذا ؟ لأنه يعرف له سوابق يبنى عليها إيمانه بصاحبه ، فما كان محمد ليكون صاحب خُلق عظيم مع الناس ، ثم يكذب على الله .

---

(١) أورد البيهقى فى دلائل النبوة (٢ / ١٦٤) أن رسول الله ﷺ قال : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر ، إلا أبا بكر ما عتَّم منه حين ذكرته وما تردد فيه » وعزاه لابن إسحاق .

إذن : ففى كَوْن الرسول من قومه إيناسٌ للخَلْق ؛ لذلك لما قالوا : لا نؤمن إلا إذا جاءنا الرسول ملكاً ردَّ عليهم : أأنتم ملائكة حتى ينزل عليكم ملَك ؟

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء]

ولو فُرِض أننا أرسلناه ملَكاً أهم يروْن الملائكة ؟ لا يروْنَها ، فكيف إذن يُبلِّغ الملَك الناس ؟ لا بُدَّ أنْ يأتيهم فى صورة بشر ، ولو أتاهم فى صورة بشر لقالوا نريد ملكاً .

وقوله عز وجل : ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا .. ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت] هذا العدد من الممكن أن يؤدى لمعانٍ كثيرة ، فلم يقُلْ : فلبث فيهم تسعمائة وخمسين عاماً[1] . وفى الأعداد فى القرآن أسرار كثيرة ، واقرأ مثلاً : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .. ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف]

وفى آية سورة البقرة قال الحق سبحانه : ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .. ﴿٥١﴾﴾ [البقرة]

ففى سورة البقرة إجمال ، وفى آية الأعراف تفصيل . والحكمة فى هذا أن موسى عليه السلام ما إن ذهب لميقات ربه حتى عبد قومه العجل فى مدة الثلاثين ليلة .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٢٢٢/٧) : فإن قيل : فلم قال ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا .. ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت] ولم يقل : تسعمائة وخمسين عاماً ، ففيه جوابان :
أحدهما : أن المقصود به تكثير العدد ، فكان ذكره الألف أكثر فى اللفظ ، وأكثر فى العدد .
الثانى : ما رُوى أنه أُعطى من العمر ألف سنة ، فوهب من عمره خمسين سنة لبعض ولده ، فلما حضرته الوفاة رجع فى استكمال الألف ، فذكر الله تعالى ذلك تنبيهاً على أن النقيصة كانت من جهته » .

ولم يشأ الله أن يترك موسى ليعود لقومه بعد الثلاثين ليلة ، بل أتمها بعشر أُخر ، حتى لا يعود موسى ويرى ما فعله قومه ، فكأن العشْرَ زادتْ على الثلاثين ليلة ، ليعطيك الصورة الأخيرة الموجودة في سورة البقرة .

فالمسألة في منتهى الدقة ، ولو لم يأتِ بالاستثناء في قوله : ﴿ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا .. (١٤) ﴾ [العنكبوت] فربما يظن السامع أن المسألة تقريبية ، لكن التقريب في عَدِّ البشر ، أما في حساب الحق سبحانه فهو منتهى الدقة ، كما لو سُئلت مثلاً عن الساعة ، فتقول : الساعة العاشرة إلا دقيقة ونصفاً ، يعني : منتهى ما في استطاعتك من حساب الوقت .

فإن قلتَ : فلماذا هذه اللقطة السريعة من قصة نوح عليه السلام ؟ نقول : هي لتسلية رسول الله ﷺ ؛ لأن قومه وقفوا منه موقف العداء والمكابرة والتكذيب ، وآذوْا أصحابه ، وضيَّقوا الخنَاق على دعوته ، وقد طالتْ هذه المسألة حتى أخذت ثلاث عشرة سنة من عمر الدعوة ، فسلاَّه ربه : اصبر يا محمد ، فقد صبر زميل لك في الدعوة ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يعني مدة المشقة التي تحملتها ما زالت بسيطة هيِّنة ، وقد تحمَّل أولو العزم من الرسل أكثر من ذلك .

ونلحظ هنا ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ .. (١٤) ﴾ [العنكبوت] ثم استثنى منها ﴿ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا .. (١٤) ﴾ [العنكبوت] ولم يقُلْ خمسين سنة ، فاستثنى الأعوام من السنين ، ليدلَّك على أن السنة تعني أيَّ عام ، ويُرفَع الخلاف ؛ لأن البعض يقول : إن السنة هي التي تبدأ من أول المحرم إلى آخر ذي الحجة ، في حين أن السنة ليس من الضروري أنْ تبدأ بالمحرم وتنتهي بذي الحجة ، إنما تبدأ في أي وقت وتنتهي في مثله بعد عام كامل .

فحين نقول : فلان عمره مثلاً عشرون سنة ، أى : من يوم مولده إلى مثله عشرين مرة ، وكذلك العام . إذن : السنة والعام والحجة ، كلها سواء أردتَ الحساب بالسنة الشمسية ، أو القمرية ، أو غيرها كما تحب .

ومعلوم أن التوقيتات عندنا توقيتات هلالية بالشهر العربى ؛ لأن الشمس لا يُعرف من حركتها إلا اليوم ، إنما لا نعرف منها الشهر ، الشهر نعرفه بحركة القمر حين يُولَد الهلال ، وبالشهر نحسب السنة التى هى اثنا عشر شهراً قمرياً وتزيد أحد عشر يوماً فى السنة الشمسية .

وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يُعْلمنا أن السنة هى العام ، لا فَرْق بينهما ، ولا داعىَ للجاج فى هذه المسألة .

ثم يذكر سبحانه نهاية هؤلاء القوم الذين كذّبوا : ﴿ **فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ** ⦗١٤⦘ ﴾ [العنكبوت] فالعلة فى أخذهم ، لا لأنهم أعداء ، بل لأنهم ظالمون لأنفسهم بالكفر ، وهكذا تنتهى القصة أو اللقطة فى آية واحدة الغرض منها تسلية النبى ﷺ ، إنْ أبطأ نَصْره على الكفار .

وكلمة ﴿ **فَأَخَذَهُمُ** .. ⦗١٤⦘ ﴾ [العنكبوت] الأَخْذ فيه دليل على الشدة وقوة التناول ، لكن بعنف أو بغير عنف ؟ إنْ كان الأخذ لخصْم فهو أخْذ بعنف وشدة ، وإنْ كان لغير خَصْم كان بلطف .

والطوفان : أن يزيد الماء عن الحاجة الرتيبة للناس ، فبعد أنْ كان وسيلة حياة ، ومنه كل شىء حى يصبح وسيلة موت وهلاك ، وكأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أنْ يلفت أنظارنا إلى المتقابلات فى الخَلْق حتى لا نظنَّ أن الخَلْق يسير برتابة .

فسيدنا موسى ـ عليه السلام ـ ضرب البحر بالعصا ، فتجمَّد فيه

الماء حتى صار كالجبل ، وضرب بها الحجر فانبجس منه الماء .

إنها طلاقة القدرة التى لا تعتمد على الأسباب ، فالمسبِّب هو الله سبحانه يفعل ما يشاء ، فليست الأشياء بأسبابها ، إنما بمراد المسبِّب فيها ؛ لذلك يقول أحمد شوقى فى قصيدة النيل :

مِنْ أىِّ عَهْدٍ فى القُرَى تتدفقُ   وبأىِّ كفٍّ فِى المدائنِ تُغْدِقُ

ومِنَ السماءِ نزلْتَ أم على   الجِنَان جداولاً تترقرقُ

إلى أنْ يقول :

الماء تَسْكُبه فَيُصبح عَسْجَداً[1]   والأرضُ تُغرقُها فيحيَا المغْرَقُ

والمأخوذ هنا هم المكذِّبون لنوح ـ عليه السلام ـ الذين ظلموا أنفسهم لما كذَّبوا رسولهم ، ولم يستمعوا للهدى ، ثم يُنجِّى الله نوحاً ـ عليه السلام ـ بالسفينة التى قال الله عنها فى سورة هود : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. (٤١) ﴾ [هود]

وقد أمره الله بصناعة السفينة : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) ﴾ [هود] فكان نوح ـ عليه السلام ـ على علم بعاقبة المكذِّبين الظالمين من قومه ، واحتفظ بها فى نفسه ، وهو يصنع السفينة كما أمره ربه .

لكن ، أكانت السفينة شيئاً معروفاً لهؤلاء القوم ، ولها مثال سابق لديهم ؟ لا ، لم يكونوا يعرفون السفن ، بدليل أنهم تعجَّبوا من فعْل نوح ، وسخروا منه وهو يصنعها ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ .. (٣٨) ﴾ [هود] فكان يردُّ عليهم فى نفسه : ﴿ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا

(١) العسجد : الذهب . وقيل : هو اسم جامع للجوهر كله من الدر والياقوت [لسان العرب ـ مادة : عسجد] .

نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨)﴾ [هود] فهو يعلم عاقبتهم وما يُبيِّته الله لهم .

والحق سبحانه يعطينا هذه اللقطة من قصة نوح - عليه السلام - لكى نجول فى كل اللقطات ، ونستحضر مواطن العبرة فيها ، وفى قصة نوح مسائل كثيرة نستفيدها ، فقد كان القوم يعبدون الأصنام : وداً ، وسواعاً ، ويغوث ، ويعوق ، ونسراً ، ومنها نعلم أن ودادة الأنبياء ودادة قيم ومنهج ، وودادة أعمال واقتداء ، وأن أنسابهم أنساب تقوى وورع .

فنبوّة نوح لم تمنع ولده الضالّ من الغرق ، حتى بعد أنْ دعا الله : ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ .. (٤٥)﴾ [هود] فيعطيه الله الحكم فى هذه المسألة ، ويُصحِّح له : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود]

وليس معنى ذلك أن أمه أتتْ به من الحرام والعياذ بالله ؛ لأن الله تعالى ما كان ليُدلِّس على نبى من أنبيائه ، إنما هى كانت من الخائنين ، وخيانتها أنها كانت تفشى أسراره لخصومه ، وتخبرهم خبره ؛ لذلك يقول تعالى عنها فى سورة التحريم : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ .. (١٠)﴾ [التحريم]

ويُبيِّن الحق سبحانه العلة فى قوله : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .. (٤٦)﴾ [هود] بقوله ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود] حتى لا تذهب بنا الظنون فى زوجة نبى الله ، فالعلة أنه عمل غير صالح ، وبنوة الأنبياء بُنوَّة عمل ، لا بُنوَّة نَسَب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ(١) ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

أى : فأنجينا نوحاً عليه السلام ﴿ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [العنكبوت] هم الذين يركبون معه فيها ، فهم أصحابها ، وقد صُنعت من أجلهم ، لم يصنعها نوح لذاته ، إنما صنعها لقومه الذين تعجَّبوا من صناعته لها وسَخروا منه واستهزأوا به ، فهم أصحابها فى الحقيقة ، مَنْ آمن منهم ركب فيها ، ومَنْ كفر أبى وأعرض ، فكانت نهايته الغرق .

ونفهم من هذه القضية أن الحق سبحانه حينما يطلب من المؤمن شيئاً يعطيه لمَنْ لا يجد ذلك الشىء ، سواء كان علْماً أو مالاً أو قدرة .. إلخ افهم أنها حق له ، وليستْ تفضلاً عليه ، فلما صنع نوح السفينة جعلها الله من حق القوم فقال ﴿ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [العنكبوت] فهى حقٌّ لهم ، فليس المراد منها أن يصنعها مثلاً ، ويُؤجرها لهم ، لا بل هو يصنعها من أجلهم .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المعارج] وقد ورد هذا الحق فى المال مرتين فى القرآن الكريم ، مرة ﴿ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المعارج] ، ومرة أخرى ﴿ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات] دون أن يحدد مقداره ، ودون أنْ يُوصف بالمعلومية .

وقد سمَّاهما الله حقاً ، فالمعلوم هو الزكاة الواجبة فى مقام

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٢٣) : « الهاء والألف فى « جعلناها » للسفينة ، أو للعقوبة ، أو للنجاة ، ثلاثة أقوال » .

الإيمان ، وغير المعلوم هى الصدقة ؛ لأنها لا تخضع لمقدار معين ، بل هى حَسْب أريحية المؤمن وحُبه للطاعات ، ودخوله فى مقام الإحسان الذى قال الله فيه : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ⑮ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ⑯ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ⑰ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ⑱ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ⑲﴾ [الذاريات]

وهذه الزيادة فى العبادات دليل على عشْق التكليف وحُبِّ الطاعة والثقة بأن الله تعالى ما كلَّفنا إلا بأقلّ مما يستحق سبحانه من العبادة ؛ لذلك يقول العلماء : إياك أنْ تنتقل إلى هذا المقام وتُلزِم به نفسك ، أو تجعله نَذْراً ؛ لأنك إنْ فعلتَ صار فى حقك فرضاً لا تستطيع أنْ تُنقص منه .

إنما اجعله لنشاطك ومقدرتك ؛ لأنك إنْ تعوّدت على منهج وألزمت نفسك به ثم تراجعت ، فكأنك تقول كلمة لا ينبغى أنْ تُقال ، فكأنك ـ والعياذ بالله ـ جربت وُدّك لله فلم تجده ـ والعياذ بالله ـ أهلَ وُدٍّ فتركته .

إذن : فقوله سبحانه ﴿وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ.. ⑮﴾ [العنكبوت] يدلنا على أنها صُنعَتْ بأمر الله من أجلهم ، وبفراغ نوح من صناعتها كانت حقاً لهم ، لا ملْكاً له عليه السلام .

لكن كيف نفهم ﴿وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ .. ⑮﴾ [العنكبوت] وقد حمل فيها نوح ـ عليه السلام ـ من كُلٍّ زوجين اثنين ؟ قالوا : الزوجان من غير البشر ليس لهما صُحْبة ؛ لأنهما مملوكان لأصحاب الصُّحْبة .

وقوله سبحانه : ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ⑮﴾ [العنكبوت] أى : أمراً

عجيباً لم يسبق له مثيل فى حياة الناس ، فقد صنعها نوح ـ عليه السلام ـ بوحى من ربه على غير مثال سابق ، فوجه كَوْنها آية أن الله تعالى أعلمه وعلّمه صناعتها ؛ لأن لها مهمة إيمانية عنده ، فبها نجاة المؤمنين وغَرَق الكافرين ، وهذه الآية ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [العنكبوت] جميعاً .

ثم يذكر الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام ، فيقول :

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

الواو هنا لعطف الجمل ، فالآية ـ معطوفة على ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [العنكبوت] إذن : فنوح وإبراهيم واقعتان مفعولاً به للفعل أرسلنا[1] ، وللسائل أنْ يسأل : لماذا لم تُنوَّن إبراهيم كما نُوِّنت نوح ؟ لم تُنوَّن كلمة إبراهيم ؛ لأنها اسم ممنوع من الصرف ـ أى من التنوين ـ لأنه اسم أعجمى .

ونلحظ فى هذه المسألة أن جميع أسماء الأنبياء أسماء أعجمية تُمنع من الصرف ، ما عدا الأسماء التى تبدأ بهذه الحروف (صن شمله) وهى على الترتيب : صالح ، نوح ، شعيب ، محمد ، لوط ، هود . فهذه الأسماء مصروفة مُنوَّنة ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

والمعنى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى : واذكر إبراهيم

---

(١) سبب نصب كلمة إبراهيم فى الآية له ثلاثة أقوال ذكرها القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٢٢٤):
- قال الكسائى : منصوب بـ « أنجينا » يعنى أنه معطوف على الهاء .
- وأجاز الكسائى أن يكون معطوفاً على نوح ، والمعنى : وأرسلنا إبراهيم .
- وقول ثالث : أن يكون منصوباً بمعنى : واذكر إبراهيم .

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ .. ⦗١٦⦘﴾ [العنكبوت] وقلنا : العبادة أنْ يطيع العابدُ المعبودَ فى أوامره ونواهيه ، إذن : لو جاء مَنْ يدَّعى الألوهية ، وليس له أمر نؤديه ، أو نهى نمتنع عنه فلا يصلح إلهاً .

لذلك كذب الذين قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. ⦗٣⦘﴾ [الزمر] لأنهم ما عبدوا الأصنام إلا لأنها ليست لها أوامر ولا نواه ، فألوهيتهم (منظرية) بلا تكليف ، فأول الأدلة على بطلان عبادة هذه الآلهة المدَّعاة أنها آلهة بلا منهج .

ثم عطف الأمر ﴿وَاتَّقُوهُ .. ⦗١٦⦘﴾ [العنكبوت] على ﴿اعْبُدُوا .. ⦗١٦⦘﴾ [العنكبوت] والتقوى من معانيها أنْ تطيع الأوامر ، وتجتنب النواهى ، فهى مرادفة للعبادة ، لكن إنْ عطفت على العبادة فتعنى : نفِّذوا الأمر لتتقوا غضب الله ، اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية .

وسبق أنْ قلنا : إن لله تعالى صفات جلال : كالقهار ، الجبار ، المنتقم ، المذلّ .. إلخ . وصفات جمال : كالغفار ، الرحمن ، الرحيم ، التواب . وبالتقوى تنال متعلقات صفات الجمال ، وتمنع نفسك وتحميها من متعلقات صفات الجلال .

وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ⦗١٦⦘﴾ [العنكبوت] ذلكم : أى ما تقدَّم من الأمر بالعبادة والتقوى خير لكم ، فإنْ لم تعلموا هذه القضية فلا خيرَ فى علمكم ، كما قال تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ⦗٦⦘ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.. ⦗٧⦘﴾ [الروم]

فالعلم الحقيقى هو العلم بقضايا الآخرة ، العلم بالأحكام وبالمنهج الذى يعطيك الخير الحقيقى طويل الأمد على خلاف علم الدنيا فإنْ نلتَ منه خيراً ، فهو خير موقوت بعمرك فيها .

وسبق أنْ قُلْنا : إن العلم هو إدراك قضية كونية تستطيع أن تدلل عليها ، وهذا يشمل كل معلومة في الحياة . أي : العلم المادي التجريبي وآثار هذا العلم في الدنيا ، أما العلم السامي الأعلى فأنْ تعلم المراد من الله لك ، وهذا للآخرة .

واقرأ في ذلك مثلاً قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ[1] بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ[2] سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر]

فذكر سبحانه علم النبات والجماد و ﴿ مِنَ النَّاسِ.. ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر] أي : علم الإنسانيات ﴿ وَالدَّوَابِّ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر] علم الحيوان ، وهكذا جمع كل الأنواع والأجناس ، ثم قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر] مع أنه سبحانه لم يذكر هنا أيَّ حكم شرعي .

إذن : المراد هنا العلماء الذين يستنبطون قضية يقينية في الوجود ، كهذه الاكتشافات التي تخدم حركة الحياة ، وتدلُّ الناس على قدرة الله ، وبديع صُنْعه تعالى ، وتُذكِّرهم به سبحانه .

وتأمل في نفسك مثلاً وَضْع القصبة الهوائية بجوار البلعوم ، وكيف أنك لو شرقت بنصف حبة أرز لا تستريح إلا بإخراجها ،

---

(١) الجُدَّة من الجبل : القطعة منه . والجدَّة من الشيء : الجزء منه يخالف لونه لون سائره . قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [فاطر] أي : من الجبال أجزاء ذات ألوان مختلفة . [القاموس القويم ١/١١٨] .

(٢) الغرابيب : جمع غربيب ، وهو الشديد السواد . [القاموس القويم ٢/٥٠] .

وتأمل وَضْع اللهاة وكيف تعمل تلقائياً دون قَصْد منك أو تحكم فيها .

تأمل الأهداب في القصبة الهوائية ، وكيف أنها تتحرك لأعلى تُخرج ما يدخل من الطعام لو اختلَّ توازن اللهاة ، فلم تُحكم سدَّ القصبة الهوائية أثناءَ البلع .

تأمل حين تكون جالساً مطمئناً لا يقلقك شيء ، ثم في لحظة تجد نفسك محتاجاً لدورة المياه ، ماذا حدث ؟ ذلك لأن في مجرى الأمعاء ما يشبه (السقاطة) التي تُخرج الفضلات بقدر ، فإذا زادتْ عما يمكن لك تحمله ، فلا بُدَّ من قضاء الحاجة والتخلص من هذه الفضلات الزائدة .

تأمل الأنف وما فيه من شعيرات في مدخل الهواء ومُخَاط بالداخل ، وأنها جُعلت هكذا لحكمة ، فالشعيرات تحجز ما يعلَق بالهواء من الغبار ، ثم يلتَقط المخاطُ الغبارَ الدقيق الذي لا يعلق بالشعيرات ليدخل الهواء الرئتين نقياً صافياً ، تأمل الأذن من الخارج وما فيها من تعاريج مختلفة الاتجاهات ، لتصدَّ الهواء ، وتمنعه من مواجهة فتحة الأذن .

والآيات في جسم الإنسان كثيرة وفوق الحَصْر ، ولا سبيلَ إلى معرفتها إلا باستنباط العلماء لها ، وكشفهم عنها ، وهذا من نشاطات الذهن البشري ، أما العلم الذي يخرج عن نطاق الذِّهْن البشري فهو نازل من أعلى ، وهو قانون الصيانة الذي جعله الخالق سبحانه لحماية الخَلْق ، فالذي يأخذ بالعلم الدنيوي التجريبي فقط يُحرَم من الخير الباقي ؛ لأن قصارى ما يعطيك علم المادة في البشر أنْ يُرفه حياتك المادية ، أمّا علم الآخرة فيُرفِّه حياتك الدنيا ويبقى لك في الآخرة .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ .. (١٦) ﴾ [العنكبوت] أى : قانون الصيانة الربانى بافعل كذا ولا تفعل كذا ، وإياك أنْ تنقل مدلول (افعل) فى (لا تفعل) أو مدلول (لا تفعل) فى (افعل) ، وقد شبَّهنا هذا القانون (بالكتالوج) الذى يجعله الصانع لحماية الصنعة المادية لتؤدى مهمتها على أكمل وجه ، كذلك منهج الله بالنسبة للخَلْق ، فإنْ لم تعلموا هذه القضية فلن ينفعكم علم بعد ذلك .

يقول سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾[الشورى]

إذن : فالخير الباقى هو الخير فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ .. (١٧) ﴾ [العنكبوت] أى : على حَدِّ زعمهم ، وعلى حَدِّ قولهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر] ، وإلا فلا عبادة لهذه الآلهة ، حيث لا أمر عندهم ولا نهى ولا منهج ، فعبادتهم إذن باطلة .

وهم يعبدون الأوثان من دون الله فإنْ ضُيِّق عليهم الخنَاق قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر] فهم بذلك مشركون ، ومن لم يَقُلْ بهذا القول فهو كافر .

والوثن : مـا نُصب للتقـديس من حجـر ، أياً كان نوعـه : حجـر جيـرى ، أو جرانيت ، أو مرمر . أو كـان من معدن : ذهب أو فـضة أو نحـاس .. إلخ أو من خشب ، وقـد كان البـعض منهم يصنعـه من (العجوة) ، فإنْ جاع أكله ، وقد حكَى هذا على سبيل التعجُّب سيدنا عمر رضى الله عنه .

وبأىٍّ عقل أو منطق أنْ تذهب إلى الجـبل وتستحسن منـه حجراً فتنحتـه على صورة معينة ، ثم تتخذه إلهـاً تعبده من دون الله ، وهو صَنْعة يدك ، وإنْ أطاحتْ به الريح أقمتَه ، وإنْ كسرته رُحْت تُصلح ما تكسَّر منه وتُرمِّمه ، فأىُّ عقل يمكن أن يقبل هذا العمل ؟

لذلك يخاطبهم القرآن : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الصافات] وكلمـا تقدَّم العـالم تلاشتْ منه هذه الظاهرة ؛ لأنـها مسألة لم تَعُـدْ تناسب العقل بأية حال .

ومـعنى ﴿ وَتَخْلُقُـونَ إِفْكًا .. ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبـوت] أى : توجـدون ، والإيجـاد يكون من عـدم ، فـهم يُوجـدون من عـدم ، لكن أيُوجـدون صدْقاً ؟ أم يُوجـدون كذباً ؟ إنهم يُوجدون ﴿ إِفْكًا .. ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت] والإفك تعـمُّد الكذب الذى يقلب الحـقائق ، ومن ذلك قـوله سبـحانه : ﴿ وَالْمُـؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النجم] أى : القـرى التى كـفـأها الله على نفسـها .

وسبق أن أوضـحنا أن الحقيقـة هى القضية الصـادقة التى توافق الواقع ، فلو قُلْت مثلاً : مـحمد كريم ، فلا بُدَّ أن هناك شخـصاً اسمه محمد وله صـفة الكرم ، فإنِ اختلف الواقع فلم يوجد مـحمد أو وُجد ولم تتوفر له صفـة الكرم ، فالقضية كاذبة لأنهـا مخالفة للواقع ، هذا هو الإفك .

فالحق سبحانه لا يعيب عليهم الخَلْق ؛ لأنه أثبت للعباد خَلْقاً ، فقال سبحانه : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

والفَرْق أنك تخلق من موجود ، أما الحق سبحانه فيخلق من العدم ، فأنت تُوجد الثوب من القطن مثلاً ، وكوبَ الزجاج من الرمل ، والمحراثَ من الحديد .. إلخ فأوجدتَ معدوماً عن موجود سابق ، أما الخالق سبحانه فأوجد معدوماً عن لا موجود .

وسبق أنْ أوضحنا أن صَنْعة البشر تجمد على حالها ، فالسكين مثلاً يظل سكيناً لا يكبر ، حتى يصير ساطوراً مثلاً ، والكوب لا يلد لنا أكواباً أخرى . لكن خِلْقة الله سبحانه لها صفة النمو والحياة والتكاثر .. إلخ ؛ لذلك أنصفك الله فوصفك بأنك خالق ، لكن هو سبحانه أحسن الخالقين .

إذن : الحق سبحانه لا يعيب على هؤلاء أنهم يخلقون ، إنما يعيب عليهم أنْ يخلقوا إفْكاً وكذباً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت] فى موضع آخر بيَّن لهم الحق سبحانه أنهم يعبدون آلهة لا تضر ولا تنفع ، وهنا يذكر مسألة مهمة هى استبقاء الحياة للإنسان بالقُوت الذى نسميه الرزق ، فهذه الآلهة التى تعبدونها من دون الله لا تملك لكم رزقاً ، ولو امتنع عنكم المطر وأجدبت الأرض لمتُّم من الجوع .

إذن : كان عليكم أنْ تتأملوا : من أين تأتى مقومات حياتكم ، ومَنْ صاحب الفضل فيها ، فتتوجَّهون إليه بالعبادة والطاعة ، كما نقول فى المثل (اللى ياكل لقمتى يسمع كلمتى) إنما أُطعمك وتسمع لغيرى ؟!!

والرزق هو الشُّغل الشاغل عند الناس ، ففى أول الأمر كلنا يجتهد لنأكل ونشرب ونعيش ، فلما تتحسَّن الأمور نرغب في التخزين للمستقبل ، فالموظف مثلاً يدخر لشهر ، والزارع يدخر للعام كله .

ومن أعاجيب هذه المسألة أنك تجد الإنسان والفأر والنمل هم الوحيدون بين مخلوقات الله التى تدخر للمستقبل ، أما بقية الحيوانات فتأخذ حاجتها من الطعام فقط ، وتترك الباقى دون أنْ تهتمَّ بهذه المسألة ، أو تُشغَل برزق غد أبداً ، لا يأكل أكثر من طاقته ، ولا يدخر شيئاً لغده .

لذلك يُذكِّر الله عباده بمسألة الرزق لأهميتها فى حياتهم ، ومن عجيب أمر الرزق أنه أعرَفُ بمكانك وعنوانك ، منك بمكانه وعنوانه ، فإنْ قُسِم لك الرزق جاءك يطرق عليك الباب ، وإنْ حُرِمت منه أعياك طلبه .

ومن أوضح الأمثلة على أن الرزق مقسوم مقدَّر من الله لكل منا أن المرأة حين تحمل يمتنع عنها الحيض الذى كان يأتيها بشكل دوريٍّ قبل الحمل ، فأين ذهب هذا الدم ؟ هذا الدم هو رزق الجنين فى بطن أمه لا يأخذه ولا يستفيد به غيره حتى الأم .

فإنْ قُدِّر الجنين تحول هذا الدم إلى غذاء له خاصة ، فإنْ لم يُقدَّر للأم أنْ تحمل نزل منها هذا الدم على صورة كريهة ، لا بُدَّ من التخلص منه ؛ لأنه ضار بالأم إنْ بقى لا بُدَّ من نزوله ، لأنه ليس رزقها هى ، بل رزق ولدها فى أحشائها ، ولو لم يكُنْ هذا الدم رِزْقاً للجنين لكانت الأم تضعف كلما تكرَّرت لها عملية نزول الدم بهذه الصورة الدورية . إذن : لكل منا رِزْق لا يأخذه غيره .

لذلك يقول أحد الصالحين : عجبتُ لابن آدم يسعى فيما ضُمِن له ويترك ما طُلِب منه .

فربك قد ضمن لك رزقك فانظر إلى ما طُلِب منك ، واشغل نفسك بمـراد الله فيك ؛ لذلك نتـعجب من هؤلاء المـتسـولين الذين كنا نراهم مثلاً في مواسم الحج ، وشرُّهم مَنْ يعرضون عاهاتهم وعاهات أبنائهم على الناس يتسولون بها ، وكأنهم يشـتكون الخالق للخَلْق ، ويتبرَّمون بقضاء الله ، والله تعالى لا يحب أن يشكوه عبده لخلقه .

والنبي ﷺ يقـول : « إذا بليـتم فـاسـتتـروا »[1] ووالله لو سـتر أصحـاب البلاء بلاءهم ، وقعـدوا في بيوتهم لَساقَ الله إليـهم أرزاقهم إلى أبوابهم .

إذن : الرزق مضـمون من الله ؛ لذلك يمتـنُّ به على عباده وينفـيه عن هذه الآلهة الـباطلة ﴿ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ .. (١٧) ﴾ [العنكبوت] ثم يقول سـبحانه ﴿ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) ﴾ [العنكبوت] فإنْ لم تعبدوه لأنه يرزقكم ويطعـمكم ، فاعبدوه لأن مرجعكم إليه ووقوفكم بين يديه .

وكان يكفي أن نـعمه عليكم مُـقدَّمـة على تكليفه لكـم ، لقد تركك تربع في نعمه دون أنْ يُكلِّفك شـيئاً ، إلى أنْ بلغتَ سِنَّ الرشد ، وهي سِنُّ النُّضْج والبلوغ والقـدرة على إنجـاب مثلـك ، ثم بعد ذلك تقـابل

(١) تمام هذا الحـديث : « إذا بُليتم بالمعـاصي فاستتـروا » أورده العجلوني في كشف الخـفاء (١/٨٧) (حديث ٢١١) وقـال : رواه البيهـقي والحاكم عن ابن عمـر . والحديث الأوْلَى بالاستشهاد هنا هو ما أخرجه الحاكم في مستدركه (١/٣٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قـال رسول الله ﷺ : « قال الله تعـالى : إذا ابتليت عبدي المـؤمن ولم يشْكُني إلى عواده أطلقته من إساري ثم أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه ثم يستأنف العمل » . وصـححه الحاكم على شرط الشيخين ، وأقره الذهبي ، والله تعالى أعلى وأعلم .

تكليفه لك بالجحود ؟ إن عبادة الله وطاعته لو لم تكن إلا شُكْراً له سبحانه على ما قدَّمه لك لكانت واجبة عليك .

وقوله تعالى : ﴿ وَاشْكُرُوا لَهُ .. (١٧) ﴾ [العنكبوت] لأن ربكم عز وجل يريد أن يزيدكم ، فجعل الشكر على النعمة مفتاحاً لهذه الزيادة ، فقال سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. (٧) ﴾ [إبراهيم] فربُّك ينتظر منك كلمة الشكر ، مجرد أن تستقبل النعمة بقولك الحمد لله فقد وجبت لك الزيادة .

حتى أن بعض العارفين يرى أن الحمد لا يكون على نِعَم الله التى لا تُعَدُّ ولا تُحصى فحسب ، إنما يكون الحمد لله على أنه لا إله إلا الله ، وإلا لو كان هناك إله آخر لَحِرْنا بينهما أيهما نتبع ، فالوحدانية من أعظم نعم الواحد سبحانه التى تستوجب الشكر .

وقد أعطانا الحق سبحانه مثلاً لهذه المسألة بقوله سبحانه : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩) ﴾ [الزمر] يعنى : مملوك لشركاء مختلفين ، وليتهم متفقون ﴿ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ .. (٢٩) ﴾ [الزمر] أى : مِلْك لسيد واحد ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩) ﴾ [الزمر] فكذلك الموحِّد لِلّه ، والمشرك به .

ولذلك يقول بعض الصالحين فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [البقرة] فاللص الذى يأكل من الحرام يأكل رزقه ، فهو رزقه لكنه من الحرام ، ولو صبر على السرقة لأكله من الحلال ولساقه الله إليه .

فالمعنى أن الله خلقكم ورزقكم ، ولا يعنى هذا أنْ تُفلتوا منه ، فإنْ لم تُراعوا الجميل السابق فخافوا مما هو آتٍ .

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا .. ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت] أى : ما قلنا لكم وما جاءكم به رسولنا ؛ لأن تصديقه سيُدخلكم مدخل التكليف ، ويحملكم مشقة المنهج ، وسيُضيِّق عليكم منطقة الاختيار ، والحق سبحانه قد شرَّفك حين أعطاك حرية الاختيار ، في حين أن الكون كله لا اختيارَ له ؛ لأنه تنازل عن اختياره لاختيار ربه .

كما قال سبحانه : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]

فالكون كله مسخر يؤدى مهمته ، كما يقول سبحانه : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء]

وقال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴿١٨﴾﴾ [الحج] فالقاعدة عامة ، لا استثناء فيها ، إلا عند الإنسان ، فمنهم الطائع ومنهم العاصى .

فالمعنى : ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا .. ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت] فلستم بدعاً فى التكذيب ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ .. ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت] لكن يجب عليكم أن تتنبهوا إلى ما صنع بالأمم المكذِّبة ، وكيف كانت عاقبتهم ، فاحذروا أنْ يُصيبكم ما أصابهم ، هذه هى المسألة التى ينبغى عليكم التنبُّه لها .

وهنا وقف بعض المتمحكين يقول : كيف يقول القرآن فى خطاب قوم إبراهيم ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ .. (١٨) ﴾ [العنكبوت] مع أنه لم يسبقهم إلا أمة واحدة هى أمة نوح عليه السلام ؟ يظنون أنهم وجدوا مأخذاً على القرآن .

ونقول : نعم ، كانت أمة نوح هى أمة الرسالة المقصودة بالإيمان ، لكن جاء قبلها آدم وشيث وإدريس ، وكانوا جميعاً فى أمم سابقة على إبراهيم ، أو نقول : لأن مدة بقاء نوح فى قومه طالت حتى أخذت ألف سنة من عمر الزمان ، وهذه الفترة تشمل قُرَابة العشرة أجيال ، والجيل ـ كما قالوا ـ مائة سنة ، كل منها أمة بذاتها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٨) ﴾ [العنكبوت] فمهمته مجرد البلاغ . يؤمن به مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، الرسول لن نعطيه مكافأة أو عمولة على كل مَنْ يؤمن به ، فإياكم أنْ تظنوا أنكم بكفركم تُقلِّلون من مكافأة النبى ـ خاصة وقد كانوا كارهين له ـ فالمعنى : علىَّ البلاغ فحسب ، وقد بلَّغت فسآخذ جزائى وأجرى من ربى ، فأنتم لا تكيدوننى بكفركم ، بل تكيدون أنفسكم .

لذلك كان نبينا محمد ﷺ يحزن أشد الحزن ، ويألم إنْ تفلَّت من يده واحد من أمته فكفر ، حتى خاطبه ربه : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ .. (٢٧٢) ﴾ [البقرة]

وخاطبه بقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾[الشعراء]

وحين نزل عليه ﷺ : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) ﴾ [الضحى] انتهز النبى هذه الفرصة ودعا ربه : إذن

لا أرضى وواحد من أمتى فى النار[1] ؛ ذلك لأنه ﷺ مُحبٌّ لأمته ، حريص عليهم ، رؤوف رحيم بهم : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[2] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

ووصف الحق سبحانه البلاغ بأنه مبين . أى : واضح ظاهر ؛ لأن من البلاغ ما يكون مجرد عرض للمسألة دون تأكيد وإظهار للحجة التى تؤيد البلاغ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) ﴾

الخطاب هنا مُوجَّه إلى أمة محمد ﷺ : هؤلاء الذين كذبوا من قبل ، وأنتم الذين تكذبون الآن ، فأين عقولكم ؟ لو استعملتم عقولكم فى تأمل الكون الذى تعيشون فيه ، والذى طرأتُم عليه ، وقد أُعدَّ لكم بكل مُقوِّمات حياتكم .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ .. (١٩) ﴾ [العنكبوت] ويرى هنا بمعنى يعلم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ [الفيل] أى : ألم تعلم ؛ لأن رسول الله لم يَرَ حادثة الفيل ، وعدل عن (تعلم) إلى (ترى) ليلفت أنظارنا إلى أن إخبار الله

---

(١) أخرج الخطيب فى « تلخيص المتشابه » عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لا يرضى محمد ، وواحد من أمته فى النار . وأخرج البيهقى فى « شعب الإيمان » عن ابن عباس أيضاً أنه قال : رضاه أن تدخل أمته الجنة كلهم . انظر الدر المنثور للسيوطى (٨/٥٤٢).

(٢) العنت : المشقة . أى : أحبوا وتمنوا دوام عنتكم ودوام المشقات عليكم . [القاموس القويم ٢/٣٨] .

تعالى لرسوله ﷺ أوثق له من رؤيته بعينه .

ومن ذلك قول الصِّدِّيق أبى بكر لما سمع بحادث الإسراء والمعراج قال : « إنْ كان قال فقد صدق » .

والهمزة فى ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا .. (١٩)﴾ [العنكبوت] استفهام للتقرير ، كما تقول لولدك : ألم تَرَ إلى فلان الذى أهمل دروسه ، تريد أنْ تنكر عليه أنْ يُهمل هو أيضاً ، فتقرره بعاقبة الإهمال ، وتدعه ينطقه بلسانه ، فيقول لك : الذى أهمل دروسه رَسَب .

وكما تقول لمَنْ أنكر جميلك : ألم أُحسِن إليك بكذا وكذا ، فيُقِر بها هو بدل أنْ تعددها له أنت ، فهذا أبلغ فى الاعتراف .

فساعة يأتى بعد الهمزة نَفْى يسمونه استفهاماً إنكارياً ، تنكر ما هم عليه ، وتريد أن تقررهم بما يقابله . والنفى بعد الإنكار نفى للنفى ، ونفى النفى إثبات .

فالمعنى : أيكذبون ولم يَرَوْا ما حدث للأمم المكذِّبة من قبل ؟ أيكذبون ولم يَروْا آيات الله ، وقدرته شائعة فى الوجود كله ؟ لقد كان عليهم أن ينظروا نظرة اعتبار ليعلموا مَنْ خلق هذا الخَلْق ، وإنك لو سألتهم : مَنْ خلق هذا الكون لا يجدون جواباً ، ولا يملكون إلا أنْ يقولوا : الله ، كما حكى القرآن : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥)﴾ [لقمان]

لكن ، كيف يُقِرُّون بهذه الحقيقة ويعترفون بها ، مع أنهم كافرون بالله ؟ قالوا : لأنها مسألة أظهر مَن أنْ ينكرها منكر ، فكل صاحب صنعة مهما كانت ضئيلة يفخر بها وينسبها إلى نفسه ، بل وينسب إلى نفسه ما لم يصنع ، فما بالك بكَوْن أُعِدَّ بهذه الدقة وبهذه

العظمة ، ولم يدعه أحد لنفسه ؟ والدعْوى تثبت لصاحبها ما لم يَقُمْ لها معارض .

لذلك قلنا : إن الحق سبحانه قبل أن يقول لا إله إلا أنا ، وقبل أن يطلبها منا شهد بها لنفسه تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ⟨١٨⟩ ﴾ [آل عمران] ؛ لأن هذه الشهادة هى التى ستجعله يقول للشىء : كُنْ فيكون ، ولو لم يكُنْ يؤمن بأنه إله ما قالها .

والحق سبحانه يقول : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ.. ⟨١٩⟩ ﴾ [العنكبوت] كيف ونحن لم نَر الإعادة ، فضلاً عن رؤيتنا للبدء ؟

قالوا : نرى البدء والإعادة فى مظاهر الوجود من حولنا ، فنراها فى الزرع مثلاً ، وكيف أن الله تعالى يُحيى الأرض بالنبات ، ثم يأتى وقت الحصاد فيحصد ويتناثر منه الحَبّ أو البذور التى تعيد الدورة من جديد . والوردة تجد فيها رطوبة ونضارة وألواناً بديعة ورائحة زكية ، فإذا قُطفَتْ تبخَّر منها الماء ، فجفَّتْ وتفتتت ، وذهبت رائحتها فى الجو ، ثم تخلفها وردة أخرى جديدة ، وهكذا .

انظر مثلاً إلى دورة الماء فى الكون : هل زادتْ كمية الماء التى خلقها الله فى الكون حين أعدَّه لحياة الإنسان منذ خلق آدم وحواء ؟ الماء هو هو حتى الآن ، مع ما حدث من زيادة فى عدد السكان ؛ لأن عناصر الكون هى هى منذ خلقها الله ، لكن لها دورة تسير فيها بين بَدْء وإعادة .

واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ⟨٩⟩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ⟨١٠⟩ ﴾ [فصلت]

فكأن قوت العالم من الزرع وغيره مُعَدٌّ منذ بَدْء الخليقة ، وإلى أنْ تقوم الساعة لا يزيد ، لكنه يدور فى دورة طبيعية .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [العنكبوت] أيهما : الخَلْق أم الإعادة ؟ أما الخلق فقد أقرُّوا به ، ولا جدالَ فيه ، إذن : فالكلام عن الإعادة ، وهل الذى خلق من عدم يعجز عن إعادة ما خلق ؟ الخَلْق الأول من عدم ، أما الإعادة فمن موجود ، فأيهما أهون فى عُرْفكم وحسب منطقكم ؟

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم] مع أن الحق سبحانه لا يُقال فى حَقِّه : هذا هيِّن ، وهذا أهون ؛ لكنه سبحانه يخاطبنا بما تفهمه عقولنا .

ثم يخاطب الحق سبحانه محمداً ﷺ :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

السير : الانتقال من مكان إلى مكان ، لكن نحن نسير فى الأرض أم على الأرض ؟ الحقيقة أننا كما قال سبحانه ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : نسير فيها ؛ لأن الغلاف الجوى المحيط بالأرض من الأرض ، فبدونه لا تستقيم الحياة عليها ، إذن : حين تسير تسير فى الأرض فهى تحتك ، وغلافها الجوى فوقك ، فكأنك بداخلها .

والعلة فى السير ﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [العنكبوت]

وفى آية أخرى ﴿ثُمَّ انظُرُوا .. (١١)﴾ [الانعام] ؛ لأن السير من أرض لأخرى له دافعان : إما للسياحة والتأمل والاعتبار ، وإما للتجارة والاستثمار ، إنْ ضاق رزقك فى بلادك . فقوله : ﴿قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا .. (٢٠)﴾ [العنكبوت] أى : نظر اعتبار وتأمل .

أما فى ﴿ثُمَّ انظُرُوا .. (١١)﴾ [الانعام] فثم تفيد العطف والتراخى ، كأنه سبحانه يقول لنا : سيروا فى الأرض للاستثمار ، ثم انظروا نظرة التأمل والاعتبار ، ولا مانع من الجمع بين الغرضين .

وتذكرون أن الحق سبحانه قال فى السورة السابقة (القصص) : ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. (٨٥)﴾ [القصص] والمراد بذلك الهجرة ، وفى هذه السورة تأتى : ﴿يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [العنكبوت]

والمعنى : إن ضاق رزقك فى مكان فاطلبه فى مكان آخر ، أو : إنْ لم تكُنْ الآيات الظاهرة لك كافية لتشبع عندك الرغبة فى الاعتبار والتأمل فسرْ فى الأرض ، فسوف تجد فيها كثيراً من الآيات والعِبَر فى اختلافَ الأجناس والبيئات والثمار والأجواء .. إلخ .

لذلك يقول سبحانه :

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧)﴾ [النساء]

فالأرض كلها لله لا حدودَ فيها ، ولا فواصلَ بينها ، فلما قسَّمها الناس وجعلوا لها حدوداً تمنع الحركة فيها حدثت كثير من الإشكالات ، وصَعُبَ على الناس التنقل للسياحة أو لطلب الرزق إنْ ضاق بأحد رزقه .

وها هى السودان بجوارنا بها مساحات شاسعة من الأراضى الخِصْبة التى إنْ زُرِعت سدَّتْ حاجة العالم العربى كله ، أنستطيع

الذهاب لزراعتها ؟ ساعتها سيقولون : جاءوا ليستعمرونا .

لذلك لما أتيح لي التحدث في هيئة الأمم قلت : إنه لا يمكن أنْ تُحلَّ قضايا العالم الراهنة إلا إذا طبَّقنا مبدأ الخالق - عز وجل - وعُدْنا إلى منهجه الذي وضعه لتنظيم حياتنا ، وكيف نضع بيننا هذه الحدود الحديدية والأسلاك الشائكة ، وربنا يقول : ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) ﴾ [الرحمن]

فالأرض كلُّ الأرض للأنام كل الأنام[1] ، ويوم نحقق هذا المبدأ فلن يضيق الرزق بأحد ، لأنه إنْ ضاقَ بك هنا طلبته هناك ؛ لذلك أكثر الشكوى في عالم اليوم إمَّا من أرض بلا رجال ، أو من رجال بلا أرض ، فلماذا لا نُحدث التكامل الذي أراده الله في كونه ؟

إذن : فالسير هنا مترتب عليه الاعتبار ﴿ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ .. (٢٠) ﴾ [العنكبوت] وما دُمْنا قد آمنا بأن الله تعالى هو الخالق بداية ، فإعادة الخَلْق أهون ، كما قال سبحانه : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ .. (١٥) ﴾ [ق] فيشكُّوا في الخَلْق الآخر ؟ لذلك يؤكد الخالق سبحانه هذه القدرة بقوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) ﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) ﴾

لماذا بدأ الحق سبحانه هنا بذكر العذاب ؟ في حين قدَّم المغفرة

---

(١) الأنام : ما ظهر على الأرض من جميع الخلق . وقال المفسرون : هم الجن والإنس . [لسان العرب - مادة : أنم] .

في آية أخرى : ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة]

قالوا : لأن الكلام هنا عن المكذّبين المعرضين وعن الكافرين ، فناسب أنْ يبدأ معهم بذكر العذاب ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [العنكبوت] فإنْ قُلْت : فلماذا يذكر الرحمة مع الكافرين بعد أنْ هدَّدهم بالعذاب ؟ نقول : لأنه رب يهدد عباده أولاً بالعذاب ليرتدعوا وليؤمنوا ، ثم يُلوِّح لهم برحمته سبحانه ليُرغِّبهم في طاعته ويلفتهم إلى الإيمان به .

وقد صَحَّ في الحديث القدسي : « رحمتي سبقت غضبي »[1] ففي الوقت الذي يُهدِّد فيه بالعذاب يُلوِّح لعباده حتى الكافرين بأن رحمته تعالى سبقتْ غضبه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [العنكبوت] أي : تُرجعون ، وجاء بصيغة تقلبون الدالة على الغَصْب والانقياد عُنْوة ليقول لهم : مهما بلغ بكم الطغيان والجبروت والتعالي بنعم الله ، فلا بُدَّ لكم من الرجوع إليه ، والمثول بين يديْه ، فتذكَّروا هذه المسألة جيداً ، حيث لا مهربَ لكم منها ؛ لذلك كان مناسباً أنْ يقول بعدها :

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

(معجزين) : جمع معجز ، وهو الذي يُعجز غيره ، تقول : أعجزتُ فلاناً يعني : جعلته عاجزاً ، والمعنى أنكم لن تفلتوا من الله ،

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لما قضى الله الخلق كتب في كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي » أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٩٤ ، ٧٤٠٤ ، ٧٤٢٢) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٧٥١) كتاب التوبة .

ولن تتأبَّوْا عليه ، حين يريدكم للوقوف بين يديه ، بل تأتون صاغرين .

ونلحظ هنا أن الحق سبحانه قال : ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ .. (٢٢) ﴾ [العنكبوت] ولم يقل مثلاً : لن تعجزونى حين أطلبكم ؛ لأن نفىَ الفعل غير نفى الوصف ، فحين تقول مثلاً : أنت لا تخيط لى ثوباً ، فهذا يعنى أنه يستطيع أنْ يخيط لك ثوباً لكنه لا يريد ، فالقدرة موجودة لكن ينقصها الرضا بمزاولة الفعل ، إنما حين تقول : أنت لستَ بخائط فقد نفيتَ عنه أصل المسألة .

لذلك لم ينْفِ عنهم الفعل حتى لا نتوهم إمكانية حدوثه منهم ، فالهرب والإفلات من لقاء الله فى الآخرة أمر غير وارد على الذِّهْن أصلاً ، إنما نفى عنهم الوصف من أساسه ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ .. (٢٢) ﴾ [العنكبوت]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٢٢) ﴾ [العنكبوت] حتى لا يقول قائل : إنْ كانوا هم غير معجزين ، فقد يكون وراءهم مَنْ يُعجز الله ، أو وراءهم مَنْ يشفع لهم ، أو يدافع عنهم ، فنفى هذه أيضاً لأنه سبحانه لا يُعجزه أحد ، ولا يُعجزه شيء .

لذلك خاطبهم بقوله : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) ﴾ [الصافات] أين الفتوات الأقوياء ينصرونكم ؟

فنفى عنهم الولى ، ونفى عنهم النصير ؛ لأن هناك فَرْقاً بينهما : الولىّ هو الذى يقرب منك بمودة وحُبٍّ ، وهذا يستطيع أنْ ينصرك لكن بالحُسْنى وبالسياسة ، ويشفع لك إن احتجتَ إلى شفاعته ، أمّا النصير فهو الذى ينصرك بالقوة و (الفتونة) .

وهكذا نفى عنهم القدرة على الإعجاز ، ونفى عنهم الولى والنصير ، لكن ذكر ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ .. (٢٢)﴾ [العنكبوت] يعنى : من الممكن أن يكون لهم ولىٌّ ونصير من الله تعالى ، فإنْ أرادوا الولى الحق والنصير الحق فليؤمنوا بى ، فأنا وليُّهم وأنا نصيرهم .

وكأنه سبحانه يقول لهم : إنْ تُبْتم ورجعتم عما كنتم فيه من الكفر واعتذرتم عما كان منكم ، فأنا وليُّكم وأنا نصيركم .

وفى موضع آخر قال : ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥)﴾ [العنكبوت] ولم يقل من دون الله ؛ لأن الموقف فى الآخرة ، والآخرة لا توبةَ فيها ولا اعتذار ولا رجوع ، فقوله ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ .. (٢٢)﴾ [العنكبوت] لا تكون إلا فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)﴾

فإنْ أصرَّ الكافر على كُفْره وعبادته للأصنام التى لا تنفع ولا تضر ، ولم تُجْدِ معه موعظة ولا تذكير فلا ملجأ له ولا منفذ له إلى رحمة الله ؛ لأنه عبد أولياء لا ينفعونه بشىء وكفر بى ، فليس له مَنْ يحميه منى ، ولا مَنْ ينصره من الأصنام التى عبدها ، فليس له إلا اليأس .

واليأس : قَطْع الرجاء من الأمر ، وقد قطع رجاء الكافرين ؛ لأنهم عبدوا ما لا ينفع ولا يضر ، وكفروا بمَنْ بيده النفع ، وبيده الضُّر .

وقلنا : إن المراد بآيات الله إما الآيات الكونيـة التى تُثبت قدرة الله ، وتلفت إلى حكمة الخالق ـ عز وجل ـ كـالليل والنهار والشمس والقمر . أو آيات المـعـجـزات التى تصـاحب الرسل ؛ ليـؤيدهم الله بهـا ويُظهـر صدْقهم فى البلاغ عن الله ؛ فكفروا بآيات القرآن الحاملة للأحكام .

وقـد كفـر هؤلاء بكل هذه الآيات ، فـلم يُصدِّقـوا منهـا شـيئـاً ، وما داموا قد كفروا بهـذه الآيات ، وكفروا أيضاً بلقاء الله فى الآخرة ؛ فرحمة الله بعيدة عنهم ، وهم يائسون منها .

لذلك كانت عاقبتهم ﴿ وَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) ﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) ﴾

كنا ننتظر منهم جواباً منطقياً ، بعد أنْ دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شـريك له ، وبيَّـن لهم بطلان عـبـادة آلهـتـهـم ، وأنهـا لا تضـر ولا تنفع ، كـان عليـهم أن يجادلوه ، وأن يدافـعـوا عن آلهـتـهم ، وأن يُظهروا حجتهم فى عبادتهم .

إنما يأتى جوابهم دالاً على إفلاسـهم ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ .. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] أهذا جواب على ما قيل لكم ؟ إنه مجـرد هروب من المواجهـة ، وإفلاس فى الحجـة ، إنه جواب مَنْ لم يجـد جواباً ، وليس لـديه إلا التهـديد والتلويح بالقـوة وبالبطش ، فهذه لغة مَنْ لا حجة عنده .

لكن ، لماذا سمَّاه القرآن جواباً ؟ قالوا : لأنهم لو لم يتكلموا بهذا الكلام لقيل عنهم أنهم لم يلتفتوا إلى كلام نبيهم ولم يأبهوا به ، وأن كلامه لا وزنَ له ، ولا يُرَد عليه ، فإنْ كان كلامهم لا يُعَد جواباً فهو فى صورة الجواب ، وإنْ كان جواباً فاسداً .

وقولهم : ﴿ اقْتُلُوهُ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [العنكبوت] نعلم أن القتل هو هدم البنية هدماً يتبعه خروج الروح لأنها لا تجد بنية سليمة تسكنها ، أما الموت فتخرج الروح أولاً ، ثم تهدم البنية حين تتحلل فى التراب ، إذن : فهما سواء فى أنهما هلاك .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بلمبة الكهرباء التى تضىء ، فالكهرباء لا توجد فى اللمبة ، إنما فى شىء خارج عنها ، لكن يظهر أثر الكهرباء فى اللمبة إنْ كانت سليمة صالحة لاستقبال التيار ، فإنْ كسرتها فلا تجد فيها أثراً للكهرباء ولا تضىء ، وقد تمنع عنها الكهرباء وهى سليمة .

ثم قالوا ﴿ أَوْ حَرِّقُوهُ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [العنكبوت] وهل التحريق بعد القتل يُعَد ارتقاءً فى العقوبة ؟ لا شكَّ أن القتل أبلغ من التحريق ، فقد يُحرق شخص ، وتتم نجدته وإسعافه فلا يموت ، فالقتل تأكيد للموت ، أمَّا التحريق فلا يعنى بالضرورة الموت ، فلماذا لم يقولوا فقط اقتلوه وتنتهى المسألة ، أو يُصعدوا العقوبة فيقولوا : حرِّقوه أو اقتلوه ؟

إنهم بدأوا بأقصى ما عندهم من عقوبة لشدة حَنَقهم عليه فقالوا ﴿ اقْتُلُوهُ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [العنكبوت] ثم تراءى لهم رأى آخر : ولماذا لا نحرقه بالنار ، فربما يعود ويرجع عن دعوته حينما يجد ألم التحريق ، وهذا

يُعَد كسباً لهم ، وتُحسَب الجولة لصالحهم .

لكن مَن الذى قال ﴿ اقْتُلُوهُ .. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] ؟ من الآمر بالقتل ، ومَن المأمور ؟ لقد اتفقوا جميعاً على قتله ، فالآمر والمأمور سواء ، وهذا واضح من الآية : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ .. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] فالقوم جميعاً تواطئوا على هذه المسألة . أو أن الآمر هم رؤساء القوم وكبارهم الذين يأتمر الناس بأمرهم ، أما التنفيذ فمهمة الأتباع .

ونحن نرى ثورة الجمهور وانفعاله حينما تقع جريمة مثلاً ، فالكل يغضب ويقول : اقتلوه ، اسجنوه ، فكلهم قائل ، وكلهم مقول له .

ثم يقول سبحانه ﴿ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ .. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] وهنا يعترض الفلاسفة : كيف والنار من طبيعتها الإحراق ؟ كيف يتخلف هذا القانون ؟ لكن كيف تكون معجزة إنْ لم تأْت على هذه الصورة ؟

إن الحق سبحانه خلق الخَلْق وجعل فيه نواميس تفعل فعلها وتؤدى مهمتها تلقائياً ، فالأرض مثلاً حينما تحرثها ، وتلقى فيها الحَبَّ ، ثم ترويها ، الناموس أن تنبت ، وحتى لا يظن ظانٌّ أن الكون إنما يسير على وَفْق هذه النواميس ، لا وَفْقَ قدرة الله نجد أنه سبحانه يخرق هذه النواميس ليثبت لنا قيوميته على خَلْقه وطلاقة قدرته فيه .

لذلك إن لم يكُنْ لك رزق فى حرثك هذا ، فلا ينبت النبات ، أو ينبت ثم تصيبه آفة أو إعصار فيُهلكه قبل استوائه . إذن : فالمسألة قيومية لله تعالى وليست (ميكانيكا) .

وقد خرق الله نواميس الكون لموسى ـ عليه السلام ـ حينما ضرب البحر ، فصار كل فِرْق كالطَّوْد العظيم ، وتحولت سيولة الماء

إلى جبل صلب . وخرق نواميس الكون لإبراهيم حينما قال للنار :
﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

وخرق النواميس ليثبت الإعجاز ، وليثبت أن يد الله تعالى لا تزال مسيطرة على مُلْكه سبحانه ، لا أنه خلق النواميس وتركها تعمل فى الكون دون تدخُّل منه سبحانه كما يقول الفلاسفة ، فالحق سبحانه خلق النواميس لتفعل ، ولكن قيوميته تعالى وقدرته تُعطِّل النواميس .

﴿ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) ﴾ [العنكبوت]
ونذكر فى قصة السفينة أن الله تعالى قال عنها : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥) ﴾ [العنكبوت] آية وهنا قال ﴿ لَآيَاتٍ.. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] وهناك قال ﴿ لِّلْعَالَمِينَ (١٥) ﴾ [العنكبوت] وهنا قال : ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) ﴾ [العنكبوت] فالاختلاف إذن بين السياقين فى أمرين :

قال فى السفينة ﴿ آيَةً.. (١٥) ﴾ [العنكبوت] لأن العجيب فى أمر السفينة ليس فى صناعتها ، فمَنْ رآها يمكن أنْ يصنع مثلها ، إنما الآية فيها أن الله تعالى أعلمه بها قبل الحاجة إليها ، ثم منع عنها الزوابع والأعاصير أن تلعب بها وتُغرق ركابها .

أمّا فى مسألة الإحراق فعجائب كثيرة وآيات شتى ، فكان من الممكن ألاَّ يمكنهم الله منه ، وكان من الممكن بعد أن أمسكوا به وألقوه فى النار أنْ يُنزل الله مطراً يطفىء نارهم وينجو إبراهيم ، أو يسخر له من القوم أهل رأفة ورحمة ينقذونه من الإلقاء فى النار .

لكن لم يحدث شىء من هذا ، حيث أمكنهم الله منه حتى ألقوه فى

النار وهى مشتعلة ، وهو مُوثق بالحبال ، ومع ذلك لم تُصبه النار بسوء ، وظهرتْ الآيات بينات واضحات أمام أعين الجميع .

الأمر الآخر : قال هناك ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [العنكبوت] لأن السفينة حينما رستْ ونجا ركابها ظلَّتْ السفينة باقية فى مكانها يراها الناس جميعاً ويتأملونها ، فقد كان لها أثر باقٍ قائم مُشاهد .

أمّا فى مسألة إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [العنكبوت] لأن نجاة إبراهيم ـ عليه السلام ـ كانت عبرة لمن شاهدها فقط ، ونحن نؤمن بها لأن الله أخبرنا بها ، ونحن مؤمنون بالله ، فهى آيات للمؤمنين بالله لا للعالمين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

المعنى : إنْ كنتم لم تؤمنوا بالآيات الكونية الدالة على قدرة الله ، ولم تؤمنوا بالمعجزة التى رأيتموها حين نجانى ربى من النار ، وكان عليكم أنْ تؤمنوا بأنه لا يقدر على ذلك إلا الله ، فلماذا إصراركم على الكفر ؟

فلا بُدَّ أنكم كفرتم بالله وعبدتم الأصنام ، لا لأنكم مقتنعون

بعبادتها ، ولا لأنها تستحق العبادة ، إنما عبدتموها ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٥)﴾ [العنكبوت] يعني : نفاقاً ينافق به بعضكم بعضاً ومجاملة ؛ لأنكم رأيتم رؤوس القوم فيكم يعبدونها فقلَّدتموهم دون اقتناع منكم بما تعبدون ، أو مودةً لآبائكم الأولين ، وسَيْراً على نهجهم ، كما حكى القرآن : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾ [الزخرف]

وفي آية أخرى ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٠٤)﴾ [المائدة]

لكن هذه المودة وهذه المجاملة وهذا النفاق عمرها (الحياة الدنيا) فحسب ، وفي الآخرة ستتقطع بينكم هذه المودات : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ .. (٦٧)﴾ [الزخرف] يعني : ستنقلب هذه المودة وهذه المجاملة إلى عداوة ، بل وإلى معركة حكاها القرآن : ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا .. (٢٩)﴾ [فصلت]

وقال : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦)﴾ [البقرة]

ويقرر هنا أيضاً هذه الحقيقة : ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥)﴾ [العنكبوت] ذلك لأن المقدمات التي سبقتْ كانت تقتضي أنْ يؤمنوا ، فما كان منهم إلا الإصرار على الكفر .

وفي الوقت الذي تنقلب فيه مودة الكافرين عداوةً تنقلب عداوة المؤمنين الذين تعاونوا على الطاعة إلى حُبٍّ ومودة ، فيقول المؤمن

لأخيه الذى جَرَّه إلى الطاعة وحمله عليها ـ على كُرْه منه وضيق ـ جزاك الله خيراً لقد أنقذتنى .

ولا ينتهى الأمر عند هذه العقوبة التى يُوقعونها بأنفسهم من التبرؤ واللعن ، بل ينصرفون إلى عقوبة أشدّ ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥) ﴾ [العنكبوت] ونلحظ هنا أن الحق سبحانه لم يقُلْ : وما لكم من دون الله ؛ لأن الكلام فى الآخرة حيث لا توبةَ لهم ولا رجوعَ ، فقد انتفى أن يكون لهم ولى أو نصير من الله .

كذلك لا ناصرَ لهم من أوليائهم الذين عبدوهم من دون الله حيث يطلبون النُّصْرة من أحجار وأصنام ، لا تنطق ولا تجيب .

وهكذا تنتهى هذه اللقطة السريعة من قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وله تاريخ طويل ، وهو شيخ المرسلين وأبو الأنبياء ، وإنْ أردتَ أن تحكى قصته لأخذتْ منك وقتاً طويلاً ، ويكفى أن الله تعالى قال عنه : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً [1] .. (١٢٠) ﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) ﴾

أى : أن قوم إبراهيم ـ عليه السلام ـ ظلوا على كفرهم ، والذى آمن به لوط ـ عليه السلام ـ وكان ابن أخيه ، وكانوا فى العراق ، ثم سينتقلون بعد ذلك إلى الشام .

وكلمة ﴿ فَآمَنَ لَهُ .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] حين نتتبع كلمة آمن فى

---

(١) الأمة : الرجل الجامع للخير ، والأمة : الرجل المنفرد بدينه لا يشركه فيه أحد . [لسان العرب ـ مادة : أمم] .

القرآن الكريم نجد أنها تدور حول الأمن والطمأنينة والراحة والهدوء ، لكنها تختلف فى المدلولات حسب اختلاف موقعها الإعرابى ، فهنا ﴿ فَآمَنَ لَهُ .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] وهل يؤمن لوط لإبراهيم ؟ والإيمان كما نقول يؤمن بالله فما دام السياق ﴿ فَآمَنَ لَهُ .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] فلا بُد أن المعنى مختلف ، ولا يقصد هنا الإيمان بالله .

ومعنى (آمن) هنا كما فى قوله تعالى عن قريش : ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش] فالفعل هنا مُتعدٍّ ، فالذى آمن الله ، آمن قريشاً من الخوف . وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ .. (٦٤) ﴾ [يوسف] ومعنى ﴿ فَآمَنَ لَهُ .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] أى : صدقه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) ﴾ [يوسف] أى : بمصدِّق ، أما آمنت بالله : اعتقدت وجوده بصفات الكمال المطلق فيه سبحانه .

ولوط لا يصدق بإبراهيم ، إلا إذا كان مؤمناً بإله أرسله ، فكأنه آمن بالله ثم صدَّقه فيما جاء به وقصة لوط عليه السلام لها موضع آخر فُصِّلَت فيه ، إنما جاء ذكره هنا ؛ لأنه حصيلة الصفقة الجدلية والجهادية بين إبراهيم وقومه ، فبعد أنْ دعاهم إلى الله ما آمن له إلا لوط ابن أخيه .

وأذكر أن الشيخ موسى ـ رحمة الله عليه ـ وكان يُدرس لنا التفسير ، وجاءت قصة لوط عليه السلام فقلت له : لماذا ننسب رذيلة قوم لوط إليه فنقول : لوطى[1] . وما جاء لوط إلا ليحارب هذه الرذيلة ويقضى عليها ؟

---

(١) جاء فى : [لسان العرب ـ مادة : لَوَط] « لاط الرجل لواطاً ولاوط أى : عمل عمل قوم لوط . وقال الليث : لوط كان نبياً بعثه الله إلى قومه فكذبوه وأحدثوا ما أحدثوا فاشتق الناس من اسمه فعلاً لمن فَعَل فِعْل قومه » .

فقال الشيخ : فماذا نقول عنها إذن ؟ قلت : إن اللغة العربية واسعة الاشتقاق ، فمثلاً عند النسب إلى عبد الأشهل قالوا : أشهلى ، ولعبد العزيز قالوا : عبدزى ، ولبختنصر قالوا : بختى ، والآن نقول فى النسب إلى دار العلوم دَرْعمى .. إلخ فلماذا لا نتبع هذه الطريقة ؟ فنأخذ القاف المفتوحة ، والواو الساكنة من قوم ، ونأخذ الطاء من لوط ، ثم ياء النسب فنقول (قوْطى) ونُجنِّب نبى الله لوطاً عليه السلام أن ننسب إليه ما لا يليق أن يُنسب إليه .

وقد حضرت احتفالاً لتكريم طه حسين ، فكان مما قلته فى تكريمه : (لك فى العلم مبدأ طَحْسَنى) ؛ لأنه كثيراً ما نجد بين العلماء اسم طه ، واسم حسين .

إذن : فقوله تعالى ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ .. (٢٦)﴾ [العنكبوت] جاءت جملة اعتراضية فى قصة إبراهيم عليه السلام ؛ لأنه المحصلة النهائية لدعوة إبراهيم في قومه ؛ لذلك يعود السياق مرة أخرى إلى إبراهيم ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي .. (٢٦)﴾ [العنكبوت] أى : منصرف عن هذا المكان ؛ لأنه غير صالح لاستتباب الدعوة .

ومادة هجر وما يُشتق منها تدلُّ على ترْك شىء إلى شىء آخر ، لكن هَجَرَ تعنى أن سبب الهَجْر منك وبرغبتك ، إنما هاجر فيها مفاعلة مثل شارك وقاتل ، والنبى ﷺ لم يهجر مكة ، إنما هاجر منها إلى المدينة .

وهذا يعنى أنه لم يهاجر برغبته ، إنما آذاه قومه واضطروه للخروج من بلده ، إذن : فلهم دَخْل فى الهجرة ، وهم طرف ثانٍ فيها .

لذلك يقول المتنبى :

إِذَا ترحّلْتَ عَنْ قومٍ وقَدْ قَدَرُوا ... ألاَّ تُفارِقَهُم فالرَّاحِلُونَ هُمُو

ومن دقة الأداء القرآنى فى هذه المسألة أنْ يسمى نقلة رسول الله من مكة إلى المدينة هجرة من الثلاثى ، ولا يقول مهاجرة ؛ لأنه ساعة يهاجر يكره المكان الذى تركه ، لكن هنا قال فى الفعل : هاجر . وفى الاسم قال : هجرة ولم يقل مهاجرة .

وسبق أنْ ذكرنا أن هجرة المؤمنين الأولى إلى الحبشة كانت هجرة لدار أمن فحسب ، لا دار إيمان ، لأن رسول الله ﷺ حينما وجَّههم إلى الحبشة بالذات قال : « لأن فيها ملكاً لا يُظْلم عنده أحد »[(١)].

وكأنه ﷺ بُسطت له خريطة الأرض كلها ، فاختار منها هذه البقعة ؛ لأنه قد تَبيَّن له أنها دار أمن لمن آمن من صحابته ، أمّا الهجرة إلى المدينة فكانت هجرةً إلى دار إيمان ، بدليل ما رأيناه من مواقف الأنصار مع المهاجرين .

وهنا يقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] فالمكان إذن غير مقصود له ، إنما وجهة ربى هى المقصودة ، وإلا فَلَكَ أن تقول : كيف تهاجر إلى ربك ، وربك فى كل مكان هنا وهناك ؟

فالمعنى : مهاجر امتثالاً لأمر ربى ومتوجه وجهة هو آمر بها ؛ لأنه من الممكن أن تنتقل من مكان إلى مكان بأمر رئيسك مثلاً ، وقد كانت لك رغبة فى الانتقال إلى هذا المكان فترحب بالموضوع ؛ لأنه

---

(١) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان ﷺ فى منعة من قومه ومن عمه ، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما أنتم فيه » حديث طويل ، أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣٠١/٢) وأورده ابن هشام فى السيرة بنحوه (٣٢١/١) .

حقق رغبـة فى نفسك ، فأنت ـ إذن ـ لا تذهب لأمـر صدر لك ، إنما لرغبة عندك .

لذلك جاء فى الحـديث : « فمـن كانت هجـرته إلى الله ورسـوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومَنْ كانت هجـرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »(١) .

فالمـعنى ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] يعنى : ليس الانتقال على رغبتى وحَسْب هواى ، إنمـا حسب الوجهة التى يُوجِّهنى إليـها ربى . وأذكـر أنه كـان لهذه المـسألـة واقع فى تاريخنا ، وكنا جمـاعة من سـبعـين رجلاً ، وقد صـدر منا أمر لا يناسب رئيـسنا ، فأصـدر قراراً بنقلنا جميـعاً وشتَّـتنا من أماكننا ، فذهبنا عند التنفـيذ نستعطفه علَّه يرجع فى قراره ، لكنه صـمم عليه ، وقال : كيف أكون رئيساً ولا أستطيع إنفاذ أمرى على المرؤوسين ؟

فقال له أحدنا وكان جريئاً : سنذهب إلى حيث شئتَ ، لكن اعلموا أنكم لن تذهبوا بنا إلى مكان ليس فيه الله .

وكـانت هـذه هى كلمـة الحـق التى هزَّتْ الرجل ، وأعـادت إليـه صوابه ، فـالحق له صَوْلة ، وفعـلاً سارت الأمور كـما نريد ، وتنازل الرئيس عن قراره .

فمعنى : ﴿ مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] أن ربى هو الذى يُوجِّـهنى ، وهو سبـحانه فى كل مـكان . يؤيد ذلك قوله سـبحـانه : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ .. (١١٥) ﴾ [البقرة] وكأن الحق سبحانه يقول لنا : اعلمـوا أننى ما وجَّـهتكم فى صلاتـكم إلى الكعبـة إلا لأؤكد هذا

---

(١) حديث متفق عليه . أخـرجه البخارى فى صحيحه (١) ، وكذا مـسلم فى صحيحه (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب . وأوله « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » .

المعنى ؛ لأنك تتجه إليها من أى مكان كنت ، ومن أية جهة فحيثما توجهتَ فهى قبلتُك .

ثم يقول : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) ﴾ [العنكبوت] اختار الخليل إبراهيم - عليه السلام - من صفات ربه ﴿ الْعَزِيزُ .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] أى : الذى لا يُغلب وهو يَغْلب . وهذه الصفة تناسب ما كان من محاولة إحراقه ، وكأنه يقول للقوم : أنا ذاهب إلى حضن مَنْ لا يُغْلب .

و ﴿ الْحَكِيمُ (٢٦) ﴾ [العنكبوت] أى : فى تصرفاته ، فلا بُدَّ أنه سبحانه سينقلنى إلى مكان يناسب دعوتى ، وأناس يستحقون هذه الدعوة بما لديهم من آذان صاغية للحق ، وقلوب وأفئدة متشوقة إليه ، وتنتظر كلمة الحق التى أعرضتم أنتم عنها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٢٧) ﴾

وجاء وقت الجزاء لينال إبراهيم - عليه السلام - من ربه جزاء صبره على الابتلاء ، وثباته على الإيمان ، ألم يقُلْ لجبريل لما جاءه يعرض عليه المساعدة وهو فى طريقه إلى النار : يا إبراهيم ، ألك حاجة ؟ فيقول إبراهيم : أما إليك فلا[1] . لذلك يجازيه ربه ، ويخرق

---

(١) أخرج ابن جرير عن معتمر بن سليمان التيمى عن بعض أصحابه قال : جاء جبريل إلى إبراهيم وهو يوثق ليلقى فى النار قال : يا إبراهيم ، ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/٦٤١] .

له النواميس ، ويواليه بالنعم والآلاء ، حتى مدحه سبحانه بقوله :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا[1] لِّلَّهِ .. (١٢٠) ﴾ [النحل]

وكان عليه السلام رجلاً خاملاً في القوم ، بدليل قولهم عنه لما حَطّم أصنامهم : ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) ﴾ [الأنبياء] فهو غير مشهور بينهم ، مُهْمَل الذكر ، لا يعرفه أحد ، فلما والى الله والاه وقال : لأجعلنك خليل الله وشيخ المرسلين ولأجرينَّ ذكْرك ، بعد أنْ كنت مغموراً على كل لسان ، وها نحن نذكره عليه السلام في التشهد في كل صلاة .

واقرأ قول إبراهيم في دعائه لربه ؛ ليؤكد هذا المعنى : ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٨٤) ﴾ [الشعراء] وكأنه يقول : يا رب إن قومي يستقلونني ، فاجعل لي ذكْراً عندك .

ومعلوم أن للتناسل والتكاثر نواميسَ ، فلما أنْ أنجبت السيدة هاجر إسماعيل - عليه السلام - غضبت الحرة سارة : كيف تنجب هاجر وهي الأَمَة وتتميز عليها[2] ، لكن كيف السبيل إلى الإنجاب وسِنُّها تسعون سنة ، وسِنّ إبراهيم حينئذ مائة ؟

قانون الطبيعة ونواميس الخَلْق تقول لا إنجاب في هذه السن ، لكن سأخرق لك القانون ، وأجعلك تُنجب هبة من عندي ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ

---

(١) القنوت : الطاعة والدعاء . [القاموس القويم ٢ / ١٣٤] . وقال ابن سيده : القانت : القائم بجميع أمر الله تعالى . وقال ابن منظور : القنوت الخشوع والإقرار بالعبودية والقيام بالطاعة التي ليس معها معصية [لسان العرب - مادة : قنت] .

(٢) ذكرت التوراة هذا : « رأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح . فقالت لإبراهيم : اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق . فقبح الكلام جداً في عيني إبراهيم لسبب ابنه . فقال الله لإبراهيم : لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك . في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها لأنه بإسحاق يُدْعى لك نسل . وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك » [سفر التكوين ٢١ : ٩ - ١٣] .

إسْحَاقَ .. (٢٧) ﴾ [العنكبوت] ثم ﴿ وَيَعْقُوبَ .. (٢٧) ﴾ [العنكبوت]

وفى آية أخرى قال : ﴿ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً .. (٧٢) ﴾ [الأنبياء]

أى : زيادة ، لأنه صبر على ذَبْح إسماعيل ، فقال له ربه : ارفع يدك فقد أديتَ ما عليك ، ونجحت فى الامتحان ، فسوف أفديه لك ، بل وأهبك أخاً له ، وسأعطيك من ذريته يعقوب .

وسأجعلهم فَضْلاً عن ذلك رسلاً ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ .. (٢٧) ﴾ [العنكبوت] لذلك حين نستقرىء موكب الأنبياء نجد جمهرتهم من ذرية إبراهيم عليه السلام كل من جاء بعده من ذريته[1] .

والذرية المذكورة هنا يُراد بها إسحق ويعقوب ، وهما المُوهَبان من سارة ، أمّا إسماعيل فجاء بالقانون العام الطبيعى الذى يشترك فيه إبراهيم وغيره .

وكأن الحق - سبحانه وتعالى - فى هذه المسألة يُدلِّل على طلاقة القدرة بأسباب تظهر فيها قدرة المسبِّب ، فيقول لإبراهيم : إن كان قومك قد كفروا بك ولم يؤمنوا ، فسأهبُكَ ذرية ليست مؤمنة مهدية فحسب ، إنما هادية للناس جميعاً .

وإذا كانت ذرية إسحق ويعقوب قد أخذتْ أربعة آلاف سنة من موكب النبوات ، فقد جاء من ذرية إسماعيل خاتم الأنبياء وإمام المتقين محمد ﷺ ، وستظل رسالته باقية خالدة إلى يوم القيامة ،

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٢٩) : « فلم يبعث الله نبياً بعد إبراهيم إلا من صلبه ، ووحد الكتاب ، لأنه أراد المصدر كالنبوة ، والمراد التوراة والإنجيل والفرقان ، فهو عبارة عن الجمع ، فالتوراة أنزلت على موسى من ولد إبراهيم ، والإنجيل على عيسى من ولده ، والفرقان على محمد من ولده ﷺ » .

فالرسل من ذرية إسحق كانوا متفرقين فى الأمم ، ولهم أزمنة محددة ، أما رسالة محمد فعامة للزمان وللمكان ، لا معقِّبَ له برسول بعده إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿وَالْكِتَابَ .. (٢٧)﴾ [العنكبوت] أى : الكتب التى نزلتْ على الأنبياء من ذريته ، وهى : القرآن والإنجيل والتوراة والزبور .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا .. (٢٧)﴾ [العنكبوت] قالوا : إنه كان خامل الذِّكْر فنبغ شأنه وعلا ذكْره ، وكان فقيراً ، فأغناه الله حتى حدَّث المحدِّثون عنه فى السِّيَر أنه كان يملك من الماشية ما يسأم الإنسان أنْ يَعدَّها ، وكان له من كلاب الحراسة اثنا عشر كلباً .. إلخ وهذا أجره فى الدنيا فقط[1] .

﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)﴾ [العنكبوت] يعنى : لن نقول له أذهبتَ طيباتك فى حياتك الدنيا ، بل هو فى الآخرة من الصالحين ، وهذا مُتمنَّى الأنبياء . إذن : فأجْره فى الدنيا لم يُنقص من أجره فى الآخرة .

لكن ، لماذا وصف الله نبيسه إبراهيم فى الآخرة بأنه من الصالحين ؟ قالوا : لأن إبراهيم أُثر عنه ثلاث كلمات يسميها المتصيِّدون للأخطاء ، ثلاث كذبات أو ذنوب : الأولى قوله لملك مصر

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٤١١) ما يقرب من هذا دون تفصيل ، فقال : « كان له فى الدنيا الرزق الواسع الهنى ، والمنزل الرحب ، والمورد العذب ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، وكل أحد يحبه ويتولاه » . أما القرطبى فقال فى تفسيره (٧/٥٢٣٩) : « يعنى : اجتماع أهل الملل عليه ، قاله عكرمة » . وقال ابن عباس : « إن الله رضًى أهل الأديان بدينه ، فليس من أهل دين إلا وهم يتولون إبراهيم ويرضون به » وفى قول آخر عنه « الولد الصالح والثناء » . ذكرهما السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٥٩) .

لما سأله عن سارة قال : أختى ، والثانية لما قال لقومه حينما دَعَوْه للخروج معهم لعيدهم : إنى سقيم[1] . والثالثة قوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا .. (٦٣) ﴾ [الأنبياء] أى : عندما حطَّم الأصنام .

ويقول هؤلاء المتصيدون : إنها أقوال منافية لعصمة الأنبياء . لكن ما قولكم إنْ كان صاحب الأمر والحكم شهد له بالصلاح فى الآخرة ؟

ثم إن المتأمل فى هذه الأقوال يجدها من قبيل المعاريض التى قال عنها النبى ﷺ : « إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب »[2] فقوله عن سارة : إنها أختى ، هى فعلاً أخته فى الإيمان ، وربما لو قال زوجتى لقتله الملك ليتزوجها هو .

أما قوله ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ (٨٩) ﴾ [الصافات] فهو اعتذار عن مشهد كافر لا ينبغى للمؤمن حضوره ، كما أن السُّقْم يكون للبدن ، ويكون للقلب فيحتمل أن يكون قصده سقيم القلب لما يراه من كفر القوم .

وقوله ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا .. (٦٣) ﴾ [الأنبياء] أراد به إظهار الحجة وإقامة الدليل على بطلان عبادة الأصنام ، فأراد أنْ يُنطقهم هم بما يريد أن يقوله ؛ ليقررهم بأنها أصنام لا تضر ولا تنفع ولا تتحرك .

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم رضى الله عنه قال : أرسل إليه ملكهم فقال : إن غداً عيدنا فاخرج . قال : فنظر إلى نجم ، فقال : إن ذا النجم لم يطلع قط إلا طلع بسقم لى فتولوا عنه مدبرين . [الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٧/١٠٠] .

(٢) أخرجه ابن عدى فى « الكامل فى ضعفاء الرجال » (٣/٩٦) من حديث عمران بن حصين ، وفيه داود بن الزبرقان .قال البخارى : مقارب الحديث . وقال النسائى : ليس بثقة ، قال ابن عدى : هو فى جملة الضعفاء الذين يُكتب حديثهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

هنا ينتقل السياق من قصة إبراهيم لقصة ابن أخيه لوط ، ونلحظ أن القرآن فى الكلام عن نوح وإبراهيم ولوط بدأ الحديث بذكره أولاً ، وعادة القرآن حينما يتكلم عن الرسل يذكر القوم أولاً ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف] ، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأعراف] ، ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأعراف]

قالوا : لأن قوم نوح ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط لم يكُنْ لهم اسم معروف ، فذكر أنبياءهم أولاً ، أمَّا عاد وثمود ومدين فأسماء لأناس معروفين ، ولهم قرى معروفة ، فالأصل أن القوم هم المقصودون بالرسالة والهداية ؛ لذلك يُذكَرون أولاً فهم الأصل فى الرسالة ، أما الرسول فليستْ الرسالة وظيفة يجعلها الله لواحد من الناس .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [العنكبوت] وسمى خسيسة قومه فاحشة ؛ لذلك قال العلماء فى عقوبتها : يصير عليها ما يصير على الفاحشة من الجزاء ؛ لأن الحق سبحانه سمى الزنا فاحشة فقال ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [النساء] والزنا شُرِع له الرجم ، وكذلك يكون جزاء مَنْ يفعل فعْلة قوم لوط الرجم .

وقوله : ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [العنكبوت]

لا يعنى هذا أن أحداً لم يفعلها قبلهم ، لكنها إنْ فُعلت فهى فردية ، ليست وباءً منتشراً كما فى هؤلاء .

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٩) ﴾

قوله : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ .. (٢٩) ﴾ [العنكبوت] دلالة على انحراف الغريزة الجنسية عندهم ، والغريزة الجنسية جعلها الله فى الإنسان لبقاء النوع ، فالحكمة منها التناسل ، والتناسل لا يكون إلا بين ذكر وأنثى ، حيث تستقبل الأُنثى الحيوان المنوى الذكَرى الذى تحتضنه البويضة الأنثوية ، وتعلق فى جدار الرحم وتكوّن الجنين ؛ لذلك سمَّى الله تعالى المرأة حَرْثاً ؛ لأنها مكان الاستنبات ، وشَرْط فى إتيان المرأة أن يكون فى مكان الاستنبات .

لذلك ، فالجماعة الذين كانوا ينادون بتشريع للمرأة يسمح للرجل بأن يأتيها كيفما يشاء ، احتجوا بقوله تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. (٢٢٣) ﴾ [البقرة]

ونقول لهؤلاء : لقد أخطأتم فى فَهْم الآية ، فالحَرْث هو الزرع المستنبت من الأرض ، فمعنى ﴿ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. (٢٢٣) ﴾ [البقرة] أى : أنهم حرث ، إذن : فاحتجاجهم باطل ، وبطلانه يأتى من عدم فهمهم لمعنى الحرث ، وعليه يكون المعنى ائتوهن على أىِّ وجه من الوجوه شريطة أن يكون فى مكان الحَرْث .

ولحكمة ربط الحق سبحانه بقاء النوع بالغريزة الجنسية ، وجعل لها لذة ومتعة تفوق أىَّ لذة أخرى فى الحياة ، فمثلاً أنت ترى المنظر الجميل فتُسَرُّ به عينك ، وتسمع الصوت العَذْب فتسعد به أذنك .. إلخ فكل منافذ الإدراك لديك لها أشياء تمتعها .

لكن بأىِّ هذه الحواس تُدْرَك اللذة الجنسية ؟ وأىّ ملكة فيك تُسَرُّ منها ؟ كلُّ الحواس وكُلُّ الملكات تستمتع بها ؛ لذلك لا يستطيع الإنسان مقاومتها ، حتى قالوا : إنها اللحظة الوحيدة التى يمكن للإنسان فيها أنْ يغفل عن ربه ؛ لذلك أمرنا بعدها بالاغتسال .

ولولا أن الخالق - عز وجل - ربط مسألة بقاء النوع بهذه اللذة لَزهد فيها كثير من الناس ، لما لها من تبعات ومسئوليات ومشاكل ، لا بُدَّ منها فى تربية الأولاد .

وسبق أن ذكرنا الحكمة القائلة : « جَدَع الحلال أنفَ الغيرة » فالرجل يغَار على ابنته مثلاً ، ولا يقبل مجرد نظر الغرباء إليها ، ويثور إذا تعرَّض لها أحد ، فإذا جاءه الشاب يطرق بابه ليخطب ابنته رحَّب به ، واستقبله أهل البيت بالزغاريد وعلى الرَّحْب والسعة ، فسقَوا (الشربات) وأقاموا الزينات ، فما الفرق بين الحالين ؟ فى الأولى كان دمه يغلى ، والآن تنزل كلمات الله فى عقد القران على قلبه بَرْداً وسلاماً .

أما خسيسة قوم لوط ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ .. (٢٩) [العنكبوت] فهى انحراف عن الطبيعة السَّوية لا بقاءَ فيها للنوع ، ومثلها إتيان المرأة فى غير مكان الحرث .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ .. (٢٩) ﴾ [العنكبوت] أى : تقطعون الطريق على بقاء النوع ؛ لأن الزنا وإنْ جاء بالولد فإنه لا يُوفر له

البقاء الكريم الشريف فـى المجتمع . فالحق سبحـانه جعل لبقاء النوع طريقاً واحداً ، فلا تسلك غير هذا الطريق ، لا مع رجل ولا مع امرأة .

والسبـيل كلمة مطلقـة وتعنى الطريق ، سواء كـان الطريق المادى أى : الشارع الذى نمشـى فيه أو : المعنوى وهو الطريقـة التى نسير عليها ، ومنها قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي .. (١٠٨) ﴾ [يوسف] أى : طريقى ومنهجى ؛ لذلك السبيل القيمى سـبيل واحد ، حتى لا نتصادم ولا نتخاصم فى حـركة الحياة المعنوية ، أمّـا السبيل المادى فمـتعدد حتى لا نتزاحم فى حركة الحياة المادية .

والسبيـل المادى (الطريق) الذى نسير فـيه يُعَدُّ سمـة الحضارة فى أى أُمة ، ونذكـر أن هتلر قبل أن يدخل الحـرب سنة ١٩٣٩ جعل كل همِّه فى إنشـاء شبكة من الطرق ؛ لأن حركـة الحرب غيـر العادية تحتـاج إلى طرق إضافـية أيام الحـرب ، ومن ذلك مثـلاً الطريق الذى يُسمُّونه طريق المعاهدة ، أى معاهدة سنة ١٩٣٦ .

إذن : كلما وُجدت حركة زائدة احـتاجت إلى طرق إضافية ، وهذه الطرق تتناسب والمكان الذى تنشـأ فيه ، فالطـرق فى المدن نُسمِّيـها شوارع وفى الخـلاء نسميـها طرقاً تناسب المـساحة داخل المـبانى ، ومنها تتفـرع الحارات ، وهى أقل منها ، ومن الحارة تتـفرع العَطْفة ، وهى أقل من الحـارة ، وكلما ازدحمتْ الـبلاد لجأ الناس إلـى توسيع نظام الحركة لتيسير مصالح الناس .

كـما نـرى فى القاهـرة مثـلاً من أنفـاق وكَبَارٍ ، حـتى لا تُعـاق الحركة ، وحتى نوفر للناس انسيابية فيها .

والأنفاق أنسب للجـمال فى المدن ، والكبارى أجمـل فى الفضـاء ، حيث ترى مع ارتفاع الكبارى آفاقاً أوسع ومناظر أجمل ، أما إنْ حدث

عكس ذلك فأُنشئت الكبارى داخل الشوارع فإنها تُقلِّل من جمال المكان وتُحوِّل الشارع إلى أشبه ما يكون بعنابر الورش ، كما أنها تؤذى سكان العمارات المجاورة لها .

وعلى الدولة أن تراعى هذه الأمور عند التخطيط ، ألم نقرأ قوله تعالى : ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝٢٠﴾ [عبس] لا بُدَّ أن نُيسِّر السبل للسالكين ؛ لأن معايش الناس وحركتهم تعتمد على الحركة فى هذه الطرق .

فقوله تعالى : ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ..۝٢٩﴾ [العنكبوت] فكان من قوم لوط قُطَّاع طرق كالذين يخرجون على الناس فى أسفارهم وحركتهم ، فيأخذون أموالهم وينهبون ما معهم ، وإنْ تأبوا عليهم قتلوهم . وبعد أن قطعوا السبيل على الناس قطعوا السبيل على بقاء النوع[1] .

يقول سبحانه فى حقهم : ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ..۝٢٩﴾ [العنكبوت] فكانوا لا يتورعون عن فعْل القبيح وقوله فيجلسون فى الطرقات يستهزئون بالمارة ويؤذونهم كالذين يجلسون الآن على المقاهى ويتسكعون فى الطرق ويؤذون خَلْق الله ، ويتجاهرون بالقبيح من القول والفعل ، فلا يسْلَم من إيذائهم أحد .

لذلك يعلمنا النبى ﷺ آداب الطريق ، فيقول لمن سأله :

(١) قيل فى معنى ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ .. ۝٢٩﴾ [العنكبوت] ثلاثة أقوال :
- كانوا قطاع الطريق . قاله ابن زيد .
- كانوا يأخذون الناس من الطرق لقضاء الفاحشة . حكاه ابن شجرة .
- إنه قطع النسل بالعدول عن النساء إلى الرجال . قاله وهب بن منبه . أى : استغنوا بالرجال عن النساء .

قال القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٢٣٠) بعد ذكر هذه الأقوال : « ولعلَّ الجميع كان فيهم ، فكانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال والفاحشة ، ويستغنون عن النساء بذلك » .

وما حَقُّ الطريق يا رسول الله ؟ قال : « غَضُّ البصر ، وكَفُّ الأذى ، وردُّ السلام»[1] .

وقد انتشر بين قوم لوط سوء الأخلاق ، بحيث لا ينهى بعضهم بعضاً ، كما قال سبحانه عن اليهود أنهم : ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ.. (٧٩)﴾ [المائدة]

والنادى : مكان تجمُّع القوم ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧)﴾ [العلق] أى : مكان تجمُّع رؤوس القوم وكبارهم ، كما نرى الآن : نادى كذا ، ونادى كذا . والنادى وهو مكان عام يُعَدُّ المرحلة الأخيرة لانضباط السلوك الذى يجب أن يكون فى المجتمع ، فأنت مثلاً لك حجرة فى بيتك خاصة بك ، ولك فيها انضباط خاص بنفسك ، وكذلك فى صالة البيت لك انضباط أوسع ، وفي الشارع لك انضباط أوسع .

والانضباط يتناسب مع الواقع الذى تعيشه ، فحين تكون مثلاً بين أناس لا يعرفونك لا يكون انضباطك بنفس الدرجة التى تحرص عليها بين مَنْ تعرفهم كالموظف في مكتبه ، والطالب فى مدرسته .

إذن : فهؤلاء القوم قطعوا السبيل فى بقاء النوع ، حيث أتوا غير مَأْتىً وانحرفوا عن الفطرة السَّوية ، وقطعوا السبيل المادى ، فأخافوا الناس وروَّعوهم ونهبوا أموالهم ، وأخذوهم من الطرق بغرض هذه الفعْلة النكراء ، ثم كانوا يتبجحون بأفعالهم هذه ، ويجاهرون بها فى أنديتهم وأماكن تجمعاتهم .

فبماذا أجابه القوم ؟

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٦٥) ، (٦٢٢٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢١٢١) كتاب السلام ، وأحمد فى مسنده (٣/٣٦ ، ٤٧) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) ﴾ [العنكبوت] أى : من الصادقين فى أنك مُبلِّغ عن الله ، فنحن من العاصين ، وأرنا العذاب الذى تتوعدنا به ، وقولهم ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ .. (٢٩) ﴾ [العنكبوت] مع أن العذاب شىء مؤلم ، ولا يطلب أحد إيلام نفسه ، فهذا دليل على عدم فهمهم لهذا الكلام ، وأنهم غير متأكدين من صدقه ، وإلا لو وَثِقوا بصدقه ما طلبوا العذاب .

وفى موضع آخر ، حكى القرآن عنهم : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) ﴾ [النمل]

إذن : حدث منهم موقفان وجوابان : الأول ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ .. (٢٩) ﴾ [العنكبوت] فلما لم يُجبهم إلى هذا الطلب الأحمق ، وظل يتابع دعوته لهم ، فلم ييأس منهم لجأوا إلى حيلة أخرى ، فقالوا ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ .. (٥٦) ﴾ [النمل] والعلة ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) ﴾ [النمل] لأن الطُّهْر فى نظر هؤلاء عيب ، والاستقامة جريمة ، وهذا دليل على فساد عقولهم ، وفساد قياسهم فى الحكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) ﴾

وفَرْق بين الفاسد فى ذاته والمفسد لغيره ، فيا ليتهم كانوا فاسدين فى أنفسهم ، إنما كانوا فاسدين مفسدينَ ، يتعدَّى فسادهم إلى غيرهم .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ
قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ
إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) ﴾

جاء هنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى سياق قصة لوط ، كما جاء لوط فى سياق قصة إبراهيم . ومعنى ﴿ رُسُلُنَا .. (٣١) ﴾ [العنكبوت] أى : من الملائكة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ .. (٧٥) ﴾ [الحج]

وقد جاءت الملائكة لإبراهيم بالبشرى ، ولم يذكر مضمون البُشْرى هنا ، وهو البشارة بإسحق ويعقوب وذرية صالحة منهما ، وجاءته بإنذار بأن الله سيُهلك أهل هذه القرية ، وبالبشرى والإنذار يحدث التوازن ؛ لأننا نُبشِّر إبراهيم بذرية صالحة مُصْلحة فى الكون ، ونهلك أهل القرية الذين انحرفوا عن منهج الله .

وتلحظ فى الآية أنها لم تذكر العلة فى البُشْرى فلم تقل لأنه كان مؤمناً ومجاهداً وعادلاً ، إنما ذكرت العلة فى إهلاك أهل القرية ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) ﴾ [العنكبوت] لماذا ؟ لأن المتفضّل لا يمنُّ بفضله على أنه عمل بمقابل ، لكن المعذب يبين سبب العذاب .

فماذا كان الانفعال الأولىّ عند إبراهيم ـ عليه السلام ـ ساعةَ سمع البُشْرى والإنذار ؟ لم يسأل عن البشرى ، مع أنه كان متلهفاً عليها ، إنما شغلته مسألة إهلاك القرية ، وفيها ابن أخيه لوط . لذلك قال :

﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ[1] كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) ﴾

---

(١) قال الضحاك : كانت تسمى هيشفع . ومُسخت حجراً . قاله الضحاك فيما أخرجه ابن جرير الطبرى . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٧/ ١٢٠] .

فلم يستشرف إبراهيم للبشرى ، واهتم بمسألة إهلاك قرية قوم لوط ؛ لأن فيها لوطاً مما يدلُّ على أن الإنسان لا يشغله الخير لنفسه عن الشر لغيره ، وهنا ردَّ الملائكة ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا .. (٣٢) ﴾ [العنكبوت] فهذه مسألة لا تخفى علينا .

ثم يُطمئنونه على ابن أخيه ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ .. (٣٢) ﴾ [العنكبوت] وأهله : تشمل كل الأهل ؛ لذلك استثنوا منهم ﴿ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) ﴾ [العنكبوت]

والغابرون : جمع غابر ، ولها استعمالان في اللغة : نقول : الزمان الغابر أي الماضي ، وغابر بمعنى باقٍ أيضاً ، فهي إذن تحمل المعنى وضده ؛ ذلك لأنهم جاءوا لإهلاك هذه القرية ، وامرأة لوط باقية لتهلك معهم ، وتذهب مع مَنْ سيذهبون بالإهلاك ، فهي إذن باقية في العذاب . فجاءت الكلمة ﴿ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) ﴾ [العنكبوت] لتؤدي هذين المعنيين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٣٣) ﴾

شهد إبراهيم هذا الموقف مع لوط ، وعلم سبب حضورهم إليه ، لكن لماذا سيء بهم ، مع أنهم رسل الله ملائكة جاءوه على أحسن صورة ؟ قالوا : لأن الملك يأتي على أجمل صورة ، حتى إذا أردنا أن نمدح شخصاً بالجمال نقول : مثل الملاك ، ومن ذلك قول النسوة

لامرأة العزيز عن يوسف عليه السلام : ﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)﴾ [يوسف]

فلما رآهم لوط على هذه الصورة خاف عليهم ، بدل أنْ يفرح بمرآهم الجميل ؛ لأن قومه قوم سوء وأهل رذيلة ، ولا بُدَّ أنْ ينالوا ضيوفه بسوء ؛ لذلك ﴿سِيءَ بِهِمْ .. (٣٣)﴾ [العنكبوت] أي : أصابه السوء بسببهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا .. (٣٣)﴾ [العنكبوت] الذرع هو طول الذراعين ، فنقول : فلان باعُه طويل . يعني : يتناول الأشياء بسهولة ؛ لأن يده طويلة ، فالمعنى : ضاق بهم ذَرْعاً . يعني : لم يتسع جهده لحمايتهم من القوم .

ونلحظ هنا اختلاف السياق بين الآيتين : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ .. (٣١)﴾ [العنكبوت] أما في لوط فقال : ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا .. (٣٣)﴾ [العنكبوت] لأنهم تأخروا بعض الشيء عند إبراهيم عليه السلام .

فلما أن أصابه السوء بمرآهم ، بدل أنْ يسعد بهم ، وخاف عليهم طمأنوه ﴿وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣)﴾ [العنكبوت] لا تخَفْ علينا من هؤلاء الأراذل ، فلسنا بشراً ، إنما نحن ملائكة ما جئْنا إلا لنريحك منهم ، ونقطع جذور هذه الفعْلة الخبيثة ، وسوف ننجيك وأهلك من العذاب النازل بهم .

ثم يستثنون من أهله ﴿إِلاَّ امْرَأَتَكَ .. (٣٣)﴾ [العنكبوت] فكثيراً ما ضايقته ، وأفشتْ أسراره ، ودلَّتْ القوم على ضيوفه ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣)﴾ [العنكبوت] الباقين في العذاب .

لكن ، ما الطريقة التي ستقضون بها على هؤلاء القوم ؟

﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ(١) رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

الرجز : العذاب ينزل عليهم من السماء ، والحجارة التى يمطرهم الله بها ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : بسبب فِسْقهم وخروجهم عن منهج الله .

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

لأن هذا العذاب استأصلهم ، وقضى عليهم ، وجعلهم عبرة لكل عاقل متأمل وآية فى الكون لكل عابر بها ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الصافات] إذن : فالعبرة باقية بأهل سَدُوم كلما مر الناس بقُراهم .

لذلك قال الله عنها ﴿ آيَةً بَيِّنَةً .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [العنكبوت] الآية : الشىء العجيب الذى يدعو للتأمل ﴿ بَيِّنَةً .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [العنكبوت] واضحة كدليل باقٍ ، وظاهر لا يخفى على أحد ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى : يبحثون ويتأملون بسبب ما حاق بهذه القرى ، وما نزل بها من عذاب الله .

---

(١) هى قرية سدوم قرية قوم لوط . على الطريق بين المدينة المنورة والشام . أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١٢٠/٧] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

مدين : اسم من أسماء أولاد إبراهيم عليه السلام ، وسُمِّيت باسمه القبيلة ؛ لأنهم كانوا عادة ما يُسمُّون القوم باسم أبرز أشخاصها ، فانتقل الاسم من الشخص إلى القبيلة ، ثم إلى المكان ، بدليل قوله تعالى في موضع آخر : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] فصارت مدين عَلَماً على البقعة ، وقالوا : إنها من الطور إلى الفرات[1] .

هذه برقية موجزة لقصة مدين وأخيهم شعيب ، وقد ذُكرت أيضاً في قصة موسى عليه السلام . وقال ﴿ أَخَاهُمْ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [العنكبوت] ليدلّك أن الله تعالى حين يصطفي للرسالة يصطفي مَنْ له وُدٌّ بالقوم ، ولهم معرفة به وبأخلاقه وسيرته ، ولهم به تجربة سابقة ، فهو عندهم مُصلْح غير مُفْسد ، حتى إذا ما بلَّغهم عن الله صدَّقوه ، وكانت له مُقدِّمات تُيسِّر له سبيل الهداية .

وقوله : ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [العنكبوت] كلمة ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ [العنكبوت] : القوم لا تُقال إلا للرجال ؛ لأنهم هم الذين يقومون لمهمات الأمور ، ويتحملون المشاق ؛ لذلك يقول تعالى :

---

(١) قال محمد بن إسحاق : هم من سلالة مدين بن إبراهيم ، وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر . قال : واسمه بالسريانية يثرون . قلت : مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة ، وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز . [تفسير ابن كثير ٢/٢٣١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ .. (١١) ﴾ [الحجرات] فأطلق القوم ، وهم الرجال في مقابل النساء .

والعبادة : قلنا : طاعة الأمر والنهي ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] أطيعوه فيما أمر ، وانتهوا عما نهى عنه ما دُمْتم قد آمنتم به إلهاً خالقاً ، فلا بُدَّ أنْ تسمعوا كلامه فيما ينصحكم به من توجيه بافعل ولا تفعل .

وتعلم أنه سبحانه بصفات الكمال أوجدك وأوجد لك الأشياء ، فأنت بعبادتك له لا تضيف إليه صفة جديدة ، فهو إله قبل أن توجد أنت ، وخالق بكمال القدرة قبل أنْ توجد ، وخلق لك الكون قبل أنْ توجد .

ثم بعد ذلك تعصاه وتكفر به ، فلا يحرمك خيره ، ولا يمنع عنك نعمه . إذن : فهو سبحانه يستحق منك العبادة والطاعة ؛ لأن طاعته تعود عليك أنت بالخير .

لذلك سبق أنْ قُلْنَا إن كلمة (العبودية) كلمة مذمومة تشمئز منها النفس ، إنْ كانت عبودية للبشر ؛ لأن عبودية البشر للبشر يأخذ فيها السيد خير عبده ، لكن عبودية البشر لله تعالى يأخذ العبد خير سيده ، فالعبودية لله عزٌّ وقوة ومنَعة وللبشر ذُلٌّ وهوان ؛ لذلك نرى كل المصلحين يحاربون العبودية للبشر ، ويدعون العبيد إلى التحرر .

فأوَّل شيء أمر به شعيب قومه ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] كذلك قال إبراهيم لقومه ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ .. (١٦) ﴾ [العنكبوت] ، لكن لوطاً عليه السلام لم يأمر قومه بعبادة الله ، إنما اهتم بمسألة الفاحشة التي استشرتْ فيهم ، مع أن كل الرسل جاءوا للأمر بعبادة الله .

ونقول فى هذه المسألة : لم يأمر لوط قومه بعبادة الله ؛ لأنه كان من شيعة إبراهيم عليه السلام ومؤمناً بديانته ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت] فهو تابع له ؛ لذلك ينفذ التعاليم التى جاء بها إبراهيم ، فلم يأمر بالعبادة لأن إبراهيم أمر القوم بها ، لكنه تحمَّل مسألة أخرى ، وخصَّه الله بمهمة جديدة ، هى إخراج قومه من ممارسة الفاحشة التى انتشرت بينهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [العنكبوت] فلا بُدَّ أن اليوم الآخر لم يكُنْ فى بالهم ، ولم يحسبوا له حساباً ، كأنهم سيفلتون من الله ، ولن يرجعوا إليه ؛ لذلك يُذكِّرهم بهذا اليوم ، ويحثُّهم على العمل من أجله .

وكيف لا نعمل حساباً لليوم الآخر ؟ ونحن فى الدنيا نعامل أنفسنا بنفس منطق اليوم الآخر ؟ فأنت مثلاً تتعب وتشقى فى زراعة الأرض ، وتتحمل مشاق الحرْث والبَذْر والسقى .. إلخ طوال العام ، لكن حين تجمع زرعك يوم الحصاد ، ويوم تملأ به مخازنك تنسى أيام التعب والمشقة ، وساعتها يندم الكسول الذى قعد عن العمل والسعى ، يوم الحصاد سترى أن أردب القمح الذى أخذتَه من المخزن وظننتَ أنه نقص من حسابك قد عاد إليك عشرة أرادبّ ، فأخْذُك لم يقلل إنما زاد .

وكذلك اليوم الآخر نفهمه بهذا المنطق ، فنتحمل مشاقّ العبادة والطاعات فى الدنيا لننال النعيم الباقى فى الآخرة ؛ لأن نعيم الدنيا مهما كان ، يُنغصه عليك أمران : إما أنْ تفوته أنت بالموت ، أو يفوتك هو بالفقر .

أما فى الآخرة فلا يفوتك نعيمها ولا تفوته . إذن : فالأوْلى بك أنْ

تزرع للآخرة ، وأن تعمل لها ألف حساب ، فإنْ كان في العبادة مشقة ، وللإيمان تَبعات ، فانظروا إلى عظَم الجزاء ، وإذا استحضرتَ الثواب على الطاعة هانتْ عليك مشقة الطاعة ، وإذا استفظعتَ العقاب على المعصية ، زهدتَ فيها ونأيْتَ عنها .

إذن : الذي يجعل الإنسانَ يتمادى في المعصية أنه لا يستحضر العقاب عليها ، ويزهد في الطاعة ؛ لأنه لا يستحضر ثوابها .

لذلك يقول النبي ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[1] والمعنى : لو استحضر الإيمان ما فعل ، إنما غفل عن إيمانه فوقع في المعصية .

ومَن استحضر ثواب الطاعة وجد لها حلاوة في نفسه ، كما قال النبي ﷺ عن الصلاة : « أرحنا بها يا بلال »[2] .

وقوله : ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت] العثو : الفساد المستور والفساد يقال للظاهر ، فالمعنى : لا تعثَوا في الأرض عثواً ، فالمفعول المطلق بمعنى الفعل ، فقوله تعالى ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت] كما نقول : اجلس قعوداً .

والفاء في قوله ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت] تدل على أنها تعطف هذا الكلام على كلام سابق ، والتقدير : وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً فقال : يا قوم إني رسول الله إليكم ، ثم ذكر المطلوب منهم ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت] والجمع بين

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٧٥) ، وكذا مسلم في صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٣٦٤) ، وأبو داود في سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

عبادة الله ورجاء اليوم الآخر يعنى : لا تفصلوا العبادة عن غايتها والثواب عليها ، ولا تفصلوا المعصية عن عقابها .

وقوله : ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦)﴾ [العنكبوت] فلا أقول لكم : أصلحوا فلا أقلَّ من أن تتركوا الصالح على صلاحه لا تفسدوه ؛ لأن الخالق ـ عز وجل ـ أعدَّ لنا الكون على هيئة الصلاح ، وعلينا أنْ نُبقيه على صلاحه .

فالنيل مثلاً هبة من هبات الخالق ، وشُريان للحياة يجرى بالماء الزلال ، وتذكرون يوم كان الفيضان يأتى بالطمى فترى الماء مثل الطحينة تماماً ، وكذا نملأ منه (الزير) ، وبعد قليل يترسب الطمى آخذاً معه كل الشوائب ، ويبقى الماء صافياً زلالاً . أما الآن فقد أصابه التلوث وفسدَ ماؤه بما يُلْقى فيه من مُخلَّفات ، وأصبحنا نحن أول مَنْ يعانى آثار هذا التلوث .

لذلك أصبح ساكن المدن مهما توفرت له سُبُل الحضارة لا يرتاح إلا إذا خرج من المدينة إلى أحضان الطبيعة البكْر التى ظلتْ على طبيعتها كما خلقها الله ، لا ضوضاء ، ولا ملوثات ، ولا كهرباء ، ولا مدنية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ[1] فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧)﴾

(١) الرجفة فى القرآن : كل عذاب أخذ قوماً ، فهى رجفة وصيحة وصاعقة . قاله الليث . وقال ابن الأنبارى : الرجفة معها تحريك الأرض . ورجفت الأرض وأرجفت إذا تزلزلت . [لسان العرب ـ مادة : رجف] .

فلماذا يُكذّب الناس دعوة الخير ؟

قالوا : لا يُكذِّب دعوة الخير إلا المستفيدون من الشر ؛ لأن الخير سيقطع عليهم الطريق ، ويسحب منهم مكانتهم وسلطتهم وسيادتهم ، فكل الذين عارضوا رسل الله كانوا أكابر القوم ورؤساءهم ، وقد ألفوا السيادة والعظمة ، واعتادوا أن يكون الناس عبيداً لهم ، فكيف إذن يُفسحون الطريق للرسل ليأخذوا منهم هذه المكانة ؟

وإلا ، فلماذا كان عبد الله بن أُبَىٍّ يكره رسول الله ﷺ ؟ لأنه يوم وصل رسول الله إلى المدينة كانوا يُعدُّون التاج لعبد الله بن أبى ، لينصبوه ملكاً على المدينة ، فلما جاءها رسول الله شغلوا بهذا الحدث الكبير ، وانصرفوا عن هذه المسألة .

لكن ، ماذا قال شعيب لقومه حتى يُكذِّبوه ؟ لقد قال لهم أمرين هما : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] ونهى واحد فى ﴿ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) ﴾ [العنكبوت] ومعلوم أن الأمر والنهى قولْ لا يحتمل الصِّدْق ، ولا يحتمل الكذب ؛ لأنه إنشاء وليس خبراً ، لأنه ما معنى الكذب ؟ الكذب أن تقول لشىء وقع أنه لم يقع ، أو لشىء لم يقع أنه وقع ، وهذا يسمونه خبراً .

فإنْ وافق كلامك الواقعَ فهو صدْق ، وإنْ خالف الواقع فهو كذب ، إذن : كيف نحكم على ما لم تقع له نسبة أنه صدْق أو كذب ؟ حينما تقول مثلاً : قفْ . هل نقول لك إنك كاذب ؟ لا ، لأن واقع الإنشاء لا يأتى إلا بعد أنْ تتكلم ، لذلك قسَّموا الكلام العربى إلى خبر وإنشاء .

ولكى نبسط هذه المسألة على المتعلم نقول : المتكلم حين يتكلم يأتى بنسبة اسمها نسبة كلامية ، قبل أن يتكلم بها جالتْ فى ذهنه ،

فقبل أن أقول : زيد مجتهد دارتْ فى ذهنى هذه المسألة ، وكان فى الواقع يوجد شخص اسمه زيد وهو مجتهد فعلاً .

إذن : عندنا نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية ، ونسبة واقعية ، فإنْ وُجدت النسبة الواقعية قبل الذهنية والكلامية ، فالكلام هنا خبر يُوصَف بالصدق أو يُوصَف بالكذب .

إذن : النسبة الواقعية لا تأتى نتيجة النسبة الكلامية ، إنما حين تقول : قف فتأتى النسبة الواقعية نتيجة النسبة الكلامية ، وما دامت النسبة الواقعية تأخرتْ عن الكلامية ، فلا يُوصَف القول إذن لا بصدْق ولا بكذب .

ونعود إلى قول نبى الله شعيب نجده عبارة عن أمرين : ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ** .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] ونهى واحد : ﴿ **وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ** (٣٦) ﴾ [العنكبوت] والأمر والنهى من الإنشاء الذى لا يُوصَف بالصِّدْق ولا بالكذب ، فكيف إذن يُكذِّبونه ؟

فأول إشكال : ﴿ **فَكَذَّبُوهُ** .. (٣٧) ﴾ [العنكبوت] ومنشأ هذا الإشكال عدم وجود الملكَة العربية التى يفهمون بها كلام الله . فالحق سبحانه قال هنا ﴿ **فَكَذَّبُوهُ** .. (٣٧) ﴾ [العنكبوت] لأنه أمرهم بعبادة الله وهو رسول من عند الله فيأمرهم بعبادته ؛ لأن عبادته تعالى واجبة عليهم ، وما أمرهم إلا ليُؤدُّوا الواجب عليهم ، واليوم الآخر كائن لا محالة فارجوه ، والإفساد فى الأرض مُحرم .

إذن : فالمعنى يحمل معنى الخبر ، فالأمران هنا ، والنهى أمر واجب فكذَّبوه لعلّة الأمرين ، ولعلَّة النهى .

ومعنى ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ** .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] خصُّوه سبحانه بالعبادة ،

وهى الطاعة فى الأمر والانتهاء عن المنهى عنه ، وهذه العبادة مطلوبة من الكل ، وهى شريعة كل الأنبياء والرسل : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

إذن : فمسألة العبادة والإيمان باليوم الآخر من القضايا العامة التى لا تختلف فيها الرسالات ، أما الشرائع : افعل كذا ، ولا تفعل كذا فتختلف من نبى لآخر .

ومعنى ﴿ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] أى : اعملوا ما يناسب رجاءكم لليوم الآخر ، وأنت لماذا تحب اليوم الآخر ، ولماذا ترجوه ؟ لا يحبه ولا يرجوه إلا مَنْ عمل عملاً صالحاً فينتظره لينال جزاء عمله وثواب سَعْيه ، وإلا لو كانت الأخرى لقال : وخافوا اليوم الآخر .

إذن : الرجاء معناه : اعملوا ما يُؤهّلكم لأنْ ترجُوا اليوم الآخر ، والإنسان لا يرجو إلا النافع له . وهنا لك أنْ تسأل : هل إذا آمن الإنسان ونفَّذ أحكام ربه أمراً ونهياً ، فجزاؤهم فى الآخرة رجاء يرجوه أم حَقٌّ له ؟ المفروض أن يقول للطائعين : ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ، فهى واجبة له ومن حَقِّه ، فكيف يسميه القرآن رجاءً وهو واقع ؟

قالوا : لأن جزاءنا فى الجنة فَضْلٌ من الله ، لأنه سبحانه خلقنا وخلق لنا ، وأمدَّنا بالطاقات والنعم قبل أنْ يُكلِّفنا شيئاً ، فحين تعبد الله حقَّ العبادة فإنك لا تقضى ثمن جميله عليك ، ولا توفيه سبحانه ما يستحق ، فإذا أثابك فى الآخرة فبمحْض فَضْله وكرمه .

لذلك قال سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ

خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

كما لو أنكَ استخدمتَ أجيراً بمائة جنيه مثلاً فى الشهر ، وقبل أن يعمل لك شيئاً أعطيتــه أجره فهل يطلب منك أجراً آخر ؟ فلو جئتَ فى آخر الشهر وأعطيته عشرة جنيهات ، فهى فَضْلٌ منك وتكرُّم .

لذلك قال ﴿ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] لأن الجزاء فى الآخرة عند التحقيق والتعقُّل محض فَضْلٌ من الله ؛ لذلك يقول النبى ﷺ : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمَّدنى الله برحمته »[1] .

والنهى فى : ﴿ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) ﴾ [العنكبوت] أى : لا تفسدوا فساداً ظاهراً ، أو : لا تعملوا أعمالاً هى فى ظنكم نافعة وهى ضارة ، تذكرون زمان كان القطن هو المحصول الرئيسى فى مصر ومصدر الدَّخْل ، وكانت تهدده دودة القطن فنقاومه مقاومة يدوية ، إلى أنْ خرج علينا الأمريكان بالمبيدات ، واستخدمنا مادة اسمها (دى دى تى) فقضتْ على الدودة فى بادىء الأمر ، وظنَّ الفلاح أن هذه المشكلة قد حُلَّت .

لكن بعد سنوات تعودتْ الدودة على هذه المادة ، وأصبح عندها حصانة ، وكأن (الدى دى تى) أصبح (كيفاً) عندها ، وبدأنا نحن نعانى الأمرَّين من آثار هذه المبيدات فى الماء ، وفى التربة ، وفى الزراعة ، وفى صحة الإنسان والحيوان . إذن : ينبغى النظر فى العواقب قبل البدء فى الشىء ، وأنْ يُقاسَ الضرر والنفع .

كذلك الحال عندما اخترعوا السيارات ، وقالوا : إنها ستريح الناس

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

في أسفارهم وفى حمل أمتعتهم ، وبعد ما توصل العالم إليه من ثورة في وسائل النقل لو قارنا نفعها بضررها لوجدنا أن ضررها أكبر لما تُسبِّبه من تلوث ، ولو عُدْنا إلى الوسائل البدائية ، واستخدمنا الدواب لكان أفضل .

وأذكر عندما جئنا إلى مصر سنة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ وجدنا فى الميادين العامة مواقفَ للحمير ، مثل مواقف السيارات الآن ، وكانت هى الوسيلة الوحيدة للانتقال ، ويكفى أن رَوَثَ الحمار يُخصِّب الأرض ، أمّا عوادم السيارات فتسبب أخطر الأمراض وتؤدى للموت .

فماذا بعد أنْ كذَّب قومُ شعيب نبيهم ؟

كانت سنة الله فى الأنبياء قبل محمد ﷺ أن يُبلِّغ الرسول رسالة ربه ، لكن لا يُؤمر بحمل السيف ضد الكفار ، إنما إنْ كذّبوا بالآيات عاقبهم رب العزة سبحانه ، وتُحسم المسألة بهلاك المكذِّبين .

وكوْن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يأمر الناسَ بقتال الكفار هذا أمر منطقى ، والدليل رأيناه فى بنى إسرائيل لما طلبوا من الله أنْ يفرض عليهم القتال ، فقال : ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ .. (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

ولم يُؤْمر بالقتال لنشر الدعوة إلا رسول الله ﷺ ؛ لأنه ﷺ ومَنْ آمن معه مأمونون على هذا ، ولأنه ﷺ آخر الرسل والأنبياء ، فلا بُدَّ أن يستوفى كل الشروط .

ونتيجة التكذيب ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) ﴾ [العنكبوت] وهذا عقاب الله ؛ لأنه كان سبحانه يتولّى المكذِّب . وفى

(الحجر) وفى (هود) قال (الصيحة)[1] وحتى لا تتهم الآيات بالتضارب نقول : الصيحة : صوت شديد مزعج ، وهذا الصوت لا نسمعه إلا بتذبذب الهواء بشدة ، ولو كان تذبذب الهواء بلطف ما سميت صيحة .

إذن : الصيحة تخلخل فى الهواء بشدة ؛ لا بد أنْ ينتج عنه رجفة أى : هزة شديدة كالتى تهدم البيوت والعمارات نتيجة قنبلة مثلاً ، فالصيحة وُجدت أولاً ، تبعتها الرجفة ، لكن القرآن مرة يذكر الأصل فيقول (الصيحة) ومرة يذكر النتيجة فيقول (الرجفة) .

﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [العنكبوت] قال (فَأَصْبَحُوا) ولم يقُلْ مثلاً : فصاروا ليُحدِّد وَقْت أخذهم بالصباح ، والعادة أن تكون الإغارة وقت الصباح قبل أن يستعد خَصْمك لملاقاتك ، فما يزال فى أعقاب النوم خاملاً ، وإلى الآن يفضل رجال الحرب والقادة أن تبدأ الحرب فى الصباح ، حيث يُفَاجأ بها العدو .

وقد أصبح هذا الوقت قضية عامة ، تُعَدُّ مخالفتها من قبيل المكْر والخدعة فى الحرب ، كما خالفها قادتنا فى حرب أكتوبر ٧٣ ، حيث فاجأوا عدوهم فى وقت الظهيرة ، وقد تمت لهم المفاجأة ، وأخذوا عدوهم على غِرَّة ؛ لأنهم غيَّروا الوقت المعتاد ، وهو الصبح .

إذن : على الإنسان ألاَّ يتخذ فى أموره قضية رتيبة ، بل يُخضِع أموره لما يناسبها .

ومن الطرائف : حرص الرجل على أنْ يوقظ ولده مبكراً ليذهب

---

(١) وردت كلمة (الصيحة) كعذاب فى حق :
- قوم ثمود . (سورة هود - آية : ٦٧) . (سورة القمر - آية : ٣١) .
- قوم لوط . (سورة الحجر - آية ٧٣) .
- قوم شعيب . (سورة هود - آية ٩٤) .

إلى عمله ، ويقضى مصالحه ، فقال له الوالد : ابن فلان استيقظ مبكراً ، فوجد محفظة بها مائة جنيه ، فقال الولد ـ وكان كسولاً لا يريد أن يستيقظ مبكراً : هذه المحفظة وقعتْ من واحد استيقظ قبله .

ومعنى ﴿ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى : هامدين بلا حراك .

ثم تنتقل بنا الآيات إلى لقطات أخرى موجزة من مواكب الرسالات ، وكأنها برقيات :

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

نلحظ فى هذه البرقيات السريعة أنها تذكر المقدمة ، ثم النهاية مباشرة ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ[1] .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [العنكبوت] هذه المقدمة ﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [العنكبوت] هذا موجز لما نزل بهم ، وكأن الحق سبحانه يقول لنا : لن أحكى لكم ما حاق بهم ؛ لأنكم تشاهدون ديارهم ، وتمرون عليها ليل نهار ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات]

والآن مع الثورة العلمية استطاعوا تصوير ما فى باطن الأرض ، وظهرت كثير من الآثار لهذه القرى عاد وثمود والأحقاف[1] ، واقرأ

---

(١) عاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف وهى قريبة من حضرموت بلاد اليمن ، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريباً من وادى القرى ، وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً وتمر عليها كثيراً . [تفسير ابن كثير ٣/٤١٣] .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝﴾ [الفجر]

وطبيعي الآن أن نجد آثار السابقين تحت التراب ، ولا بُدَّ أن نحفر لنصل إليها ؛ لأن عوامل التعرية طمرتها بمرور الزمن ، ولِمَ لا والواحد منّا لو غاب عن بيته شهراً يعود فيجد التراب يغطي أسطح الأشياء ، مع أنه أغلق الأبواب والنوافذ ، ولك أن تحسب نسبة التراب هذه على مدى آلاف السنين في أماكن مكشوفة .

وحكَوْا أن الزوابع والعواصف الرملية في رمال الأحقاف مثلاً كانت تغطي قافلة بأكملها ، إذن : كيف ننتظر أن تكون آثار هذه القرى باقية على سطح الأرض ؟ والآن نشاهد في الطرق الصحراوية مثلاً إذا هبَّتْ عاصفة واحدة فإنها تغطي الطرق بحيث تعوق حركة المرور إلى أنْ تُزَاح عنها هذه الطبقة من الرمال .

إذن : علينا أن نقول : نعم يا رب رأينا مساكنهم ومررنا بها - ولو من خلال الصور الحديثة التي التقطت لهذه القرى ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ .. ۝٣٨﴾ [العنكبوت] يعني : أغواهم بالكفر ، وأقنعهم أنه الأسلوب السليم والأمثل في حركة الحياة ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ .. ۝٣٨﴾ [العنكبوت] فما دام قد زيَّن لهم سبيل الشيطان فلا بُدَّ أنْ يصدَّهم عن سبيل الإيمان ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨﴾ [العنكبوت] يعني : لم نأخذهم على غِرَّة .

لأن المبدأ الذي اختاره الله تعالى لخلقه ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ۝١٥﴾ [الإسراء] رسولاً يُبيِّن لهم وينذرهم ، ويحذرهم عاقبة الكفر ؛ لذلك لم يأخذهم الله تعالى إلا بعد أنْ أرسل إليهم رسولاً فكذَّبوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

ما زالت الآيات تُحدِّثنا عن مواكب الرسالات ، لكنها تتكلم عن المكذِّبين عاداً وثمود ، وهنا ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [العنكبوت] والدليل على قوله سبحانه فى الآية السابقة ﴿ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [العنكبوت] قوله تعالى هنا ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : بالأمور الواضحة التى لا تدع مجالاً للشك فى صدْق الحق سبحانه ، وفى صِدْق الرسول فى البلاغ عن الله .

﴿ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [العنكبوت] استكبر : يعنى افتعل الكِبْر ، فلم يقُلْ تكبَّر ، إنما استكبر كأنه فى ذاته ما كان ينبغى له أنْ يستكبر ؛ لأن الذى يتكبّر يتكبَّر بشىء ذاتى فيه ، إنما بشىء موهوب ؟ لأنه قد يسلب منه ، فكيف يتكبَّر به ؟

لذلك نقول للمتكبِّر أنه غفلت عينه عن مَرْأى ربه فى آثار خَلْقه ، فلو كان ربه فى باله لاستحى أنْ يتكبّر .

فالإنسان لو أنه يلحظ كبرياء ربه لَصَغُر فى نفسه ، ولاستحى أن يتكبَّر ، كما أن المتكبر بقوته وعافيته غبى ؛ لأنه لم ينظر فى حال الضعيف الذى يتعالى عليه ، فلربما يفوقه فى شىء آخر ، أو عنده عبقرية فى أمر أهم من الفتوة والقوة ، ثم ألم ينظر هذا الفتوة أنها مسألة عَرَضية ، انتقلتْ إليه من غيره ، وسوف تنتقل منه إلى غيره .

إذن : فقارون وفرعون وهامان لما جاءهم موسى بآيات الله الواضحات استكبروا فى الأرض ، وأنفوا أن يتبعوا لا بطبيعتهم وطبيعة وجود ذلك فيهم ، إنما افتعالاً بغير حق ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت] فنفى عنهم أن يكونوا سابقين ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الواقعة]

والسبق لا يُمدح ولا يُذم فى ذاته ، لكن بنتيجته : إلى أيِّ شىء سبق ؟ كما نسمع الآن يقولون : فلان رجعى ، والرجعية لا تُذَم فى ذاتها ، وربما كان الإنسان مُسْرفاً على نفسه ، ثم رجع إلى منهج ربه ، فنعْم هذه الرجعية ، فالسبق لا يُذَم لذاته ، واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران] أى : سابقوا .

والمعنى هنا ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت] أن هناك مضمارَ سباق ، فمن سبق قالوا : أحرز قَصَب السبق ، فإنْ كان مضمار السباق هذا فى الآخرة أيسبقنا أحد ليفلتَ منْ أخْذنا له ؟ إنهم لن يسبقونا ، ولن يُفلِتوا من قبضتنا ، ولن يُعجِزوا قدرتنا على إدراكهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا[1] وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

---

(١) الحصب : كل ما يُلقى فى النار لتسعر به . فالحاصب : إعصار شديد يقذفكم بالحصى فيهلككم والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك . [القاموس القويم ١/ ١٥٥] .

الكلام هنا عن المكذِّبين والكافرين الذين سبق ذكرهم : قوم عاد ، وثمود ، ومدين ، وقوم لوط ، وقارون ، وفرعون ، وهامان ، فكان من المناسب أنْ يذكر الحق سبحانه تعليقاً يشمل كُلَّ هؤلاء لأنهم طائفة واحدة . فقال : ﴿ فَكُلاًّ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] أى : كل مَنْ سبق ذكرهم من المكذِّبين فالتنوين فى ﴿ فَكُلاًّ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] عوض عن كل من تقدَّم ذكرهم ، كالتنوين فى : ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) ﴾ [الواقعة] فهو عوَض عن جملة ﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) ﴾ [الواقعة]

وقوله سبحانه ﴿ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ.. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] والأخذ يناسب قوة الآخذ وقدرته ؛ لذلك يقول سبحانه عن أخْذه للمكذِّبين ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) ﴾ [القمر] فالعزيز : الذى يغلب ولا يُغلب ، والمقتدر أى : القادر على الأخْذ ، بحيث لا يمتنع منه أحد ؛ فهو عزيز .

والأخذ هنا بسبب الذنوب ﴿ بِذَنبِهِ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] ليس ظلماً ولا جبروتاً ولا جزافاً ، إنما جزاءً بذنوبهم وعدلاً ؛ ولذلك يأتى فى تذييل الآية :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

ثم يُفصِّل الحق سبحانه وتعالى وسائل أخْذه لهؤلاء المكذبين : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] الحاصب : هو الحصَى الصِّغار ترمى لا لتجرح ، ولكن يُحْمى عليها لتكوى وتلسع حين يرميهم بها الريح ، ولم يقُلْ هنا : أرسلنا عليهم ناراً مثلاً ؛ لأن النار ربما إنْ أحرقته يموت وينقطع ألمه ، لكن رَمْيهم بالحجارة المحمية تلسعهم وتُديم آلامهم . كما نسمعهم يقولون : سأحرقه لكن على نار باردة ؛ ذلك ليطيل أمد إيلامه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ .. ۝ ﴾ [العنكبوت] وهو الصوت الشديد الذى تتزلزل منه الأرض ، وهم ثمود ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ .. ۝ ﴾ [العنكبوت] أى : قارون ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. ۝ ﴾ [العنكبوت] وهم قوم نوح ، وفرعون .

هذه وسائل أربعة لإهلاك المكذِّبين : النار فى الحصباء ، والهواء فى الصيحة ، والتراب فى الخسف ، ثم الماء فى الإغراق ، ورحم الله الفخر الرازى(١) حين قال فى هذه الآية أنها جمعت العناصر التى بها وجود الإنسان والعناصر الأساسية أربعة : الماء والنار والتراب والهواء . وكانوا يقولون عنها فى الماضى العناصر الأربعة ، لكن العلم فرَّق بعد ذلك بين العنصر والمادة .

فالمادة تتحلَّل إلى عناصر ، أمَّا العنصر فلا يتحلل لأقل منه ، فهو عبارة عن ذرات متكررة لا يأتى منها شىء آخر ، فالهواء مادة يمكن أنْ نُحلِّله إلى أكسجين و .... إلخ وكذلك الماء مادة تتكوَّن من عدة عناصر وذرات إلى أن جاء (مندليف) ووضع جدولاً للعناصر ، وجعل لكل منها رقماً أسماها الأرقام الذرية ، فهذا العنصر مثلاً رقم واحد يعنى : يتكون من ذرة واحدة ، وهذا رقم اثنين يعنى يتكون من ذرتين .. إلخ إلى أنْ وصل إلى رقم ٩٣ ، لكن وجد فى وسط هذه الأرقام أرقاماً ناقصة اكتشفها العلماء فيما بعد .

فمثلاً ، جاءت مدام كورى ، واكتشفت عنصر الراديوم ، فوجدوا

---

(١) هو : محمد بن عمر ، أبو عبد الله ، فخر الدين الرازى ، الإمام المفسر ، أوحد زمانه فى المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، وهو قرشى النسب ، أصله من طبرستان ، ومولده فى الرىّ (٥٤٤ هـ) وإليها نسبته . ويقال له « ابن خطيب الرىّ » ، تُوفِّى فى هراة عام (٦٠٦ هـ) عن ٦٢ عاماً . من كتبه « مفاتيح الغيب » ، « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين » (الأعلام للزركلى ٦/٣١٣) .

فعلاً أن رقمه من الأرقام الناقصة فى جدول (مندليف) ، فوضعوه فى موضعه ، وهذا يدل على أن الكون مخلوق بعناصر مرتبة وصلت مع التقدم العلمى الآن إلى ١٠٥ عناصر .

ولما حلَّل العلماء عناصر التربة المخصبة التى نأكل منها المزروعات وجدوها ١٦ عنصراً ، تبدأ بالأكسجين كأعلى نسبة ، وتنتهى بالمنجنيز كأقل نسبة ، لأنها لم تصل إلى الواحد من الألف . فلما حلَّلوا عناصر جسم الإنسان وجدوا نفس هذه العناصر الستة عشرة .

وكأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أقام حتى الكفار ليثبتوا الدليل على صِدْقه تعالى فى خَلْق الإنسان من طين ، لنعلم أن الحق سبحانه حينما يريد أنْ يُظهِر سِراً من أسرار كونه يأتى به ولو على أيدى الكفار .

وأول مَنْ قال بالعناصر الأربعة التى يتكون منها الكون فيلسوف اليونان أرسطو الذى توفى سنة ٣٨٤ قبل الميلاد ، وعلى أساس هذه العناصر الأربع كانوا يحسبون النجم ، فمثلاً عن الزواج يحسبون نجم الزوج والزوجة حسب هذه العناصر ، فوجدوا نجم الزوج هواءً ، ونجم الزوجة ناراً ، فقالوا (هيجعلوها حريقة) ، وفى مرة أخرى وجدوا الزوجة مائية والزوج ترابياً فقالوا (هيعملوها معجنة) .

ومعلوم أن الحق سبحانه لطلاقة قدرته تعالى يجعل عناصر البقاء هى نفسها عناصر الفناء ، وهو سبحانه القادر على أنْ يُنجى ويُهلك بالشىء الواحد ، كما أهلك فرعون بالماء ، وأنجى موسى ـ عليه السلام ـ بالماء .

كذلك حين نتأمل هذه العناصر الأربعة نجدها عناصر تكوين

الإنسان ، حيث خلقه الله من ماء وتراب فكان طيناً ، ثم جفَّ بالحرارة حتى صار صلصالاً كالفخار ، ثم هو بعد ذلك يتنفس الهواء ، فبنفس هذه العناصر التى كان منها الخَلْق يكون بها الهلاك .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد من خَلْقه أنْ يُقبلوا على الكون فى كل مظاهره وآياته بيقظة ليستنبطوا ما فيه من مواطن العبر والأسرار ؛ لذلك نجد أن كل الاكتشافات جاءت ، نتيجة دِقَّة الملاحظة لظواهر الكون .

ويلفتنا ربنا إلى أهمية العلم التجريبي ، فيقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف] فينبغى إذن أن نتأمل فيما نرى وما توصَّل الإنسان إلى عصر البخار وإلى قانون الطَّفْو عند أرشميدس ، وما توصل إلى الكهرباء والجاذبية والبنسلين إلا بالتأمل الدقيق لظواهر الأشياء . لذلك فالملاحظة هى أساس كل علم تجريبى أولاً ، ثم التجريب ثانياً ، ثم إعادة التجريب لتخرج النتيجة العلمية .

والهواء سبب أساسى فى حياة الإنسان ، وبه يحدث التوازن فى الكون ، لكن إنْ أراد الحق سبحانه جعله زوبعة أو إعصاراً مدمراً . وسبق أن قلنا : إنك تصبر على الطعام شهراً ، وعلى الماء عشرة أيام ، لكن لا تصبر على الهواء إلا بمقدار شهيق وزفير ، فالهواء إذن أهم سبب من أسباب بقاء الحياة ؛ لذلك نسمعهم يقولون فى شدة الكيد : (والله لأكتم أنفاسه) لأنها السبيل المباشر إلى الموت ؛ لذلك فالهواء عامل أساسى فى وسائل الإهلاك المذكورة .

وبالهواء تحفظ الأشياء توازنها ، فالجبال العالية والعمارات الشاهقة ما قامت بقوة المسلحات والخرسانات ، إنما بتوازن الهواء ، بدليل أنك

لو فرَّغْتَ جانباً منها من الهواء لانهارتْ فى هذا الجانب فوراً .

وبهذه النظرية يحدث الدمار بالقنابل ؛ لأنها تعتمد على نظرية تفريغ الهواء وما يسمونه مفاعل القبض ومفاعل البسط ، فما قامتْ الأشياء من حولك إلا لأن الهواء يحيط بها من كل جهاتها .

وقلنا : إن القرآن الكريم حينما يحدثنا عن الهواء يحدثنا عنه بدقة الخالق الخبير ، فكل ريح مفردة جاءت للتدمير والإهلاك ، وكل ريح بصيغة الجمع للنماء والخير والإعمار ، واقرأ إن شئت قوله تعالى :
﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢) ﴾ [الحجر]

وقوله سبحانه ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ [1] عَاتِيَةٍ (٦) ﴾ [الحاقة] لأنها ريح واحدة تهبُّ من جهة واحدة فتدمر .

ثم تُختم الآية بهذه الحقيقة : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت] لأن الخالق ـ عز وجل ـ كرَّم الإنسان ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ .. (٧٠) ﴾ [الإسراء] كرَّمه من بين جميع المخلوقات بالعقل والاختيار ، فإذا نظرتَ فى الكون واستقرأتَ أجناس الوجود لوجدتَ الإنسان سيد هذا الكون كله .

فالأجناس فى الكون مرتبة : الإنسان ودونه مرتبة الحيوان ، ثم النبات ، ثم الجماد ، فالجماد إذا أخذ ظاهرة من ظواهر فَضْل الحق عليه من النمو يصير نباتاً ، وإذا أخذ النبات ظاهرة من ظواهر فيض الحق على الخَلْق فأعطاه مثلاً الإحساس يصير حيواناً ، فإذا تجلى عليه الحق سبحانه بفضله وأعطاه نعمة العقل يصير إنساناً .

---

(١) الريح الصرصر : شديدة البرد . وقيل : شديدة الصوت . وقال الأزهرى : شديدة البرد جداً . [لسان العرب ـ مادة : صرر] .

لكن هل النبات حين يأخذ خاصيـة النمو فَفُضِّل عن الجماد يخرج عن الجمادية ؟ لا إنما تظل فيه الجمادية بدليل أنه إذا امتنع عنه النمو يعود جماداً كالحجر ، وكذلك الحيوان أخذ ظاهرة الحسِّ وتميَّز بها عن النبات ، لكن تظل فيه النباتية حيث ينمو ويكبر .

والإنسان وهو سيد الكون الذى كرَّمه ربه بالعقل تظل فيه الجمادية بدليل أثر الجاذبية عليه ، فإذا ألقى بنفسه من مكان عالٍ لا يستطيع أن يمسك نفسه فى الهواء ، وكذلك تظل فيه النباتية والحيوانية . ففيه إذن كل خصائص الأجناس الأخرى دونه ، ويزيد عليهم بالعقل .

لذلك لا يكلِّفه الله إلا بعد أنْ ينضج عقله ويبلغ ، وبشرط أن يسلم من العطب فى عقله كالجنون مثلاً ، وأن يكون مختاراً فالمكره لا تكليفَ عليه ؛ لأنه غير مختار .

والإنسان الذى كرَّمه ربه بالعقل والاختيار ، وفضَّله على كل أجناس الوجود لا يليق به أن يخضع أو يعبد إلا أعلى منه درجة ، أما أنْ يتدنى فيعبد ما هو أقل منه رتبة ، فهذا شىء عجيب لا يليق به ، فالعابد لا بُدَّ أنْ يكون أدنى درجةً من المعبود ، وأنت بالحكم أعلى درجةً مما تحتك من الحيوان والنبات والجماد ، فكيف تجعله يتصرف فيك ، مع أنه من تصرفاتك أنت حين تُوجِده نَحْتاً ، وتقيمه فى المكان الذى تريده وإن انكسر تصلحه ؟!!

إذن : كرَّمك ربك ، وأهنْتَ نفسك ، ورضيت لها بالدونية ، جعلك سيداً وجعلت نفسك عبداً لأحقر المخلوقات ؛ لذلك يقول تعالى فى

الحديث القدسي « يا ابن آدم ، خلقتُك من أجلي ، وخلقتُ الكون كله من أجلك ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له »[1] .

إذن : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] أى : لا ينبغى لله تعالى أنْ يظلمهم ، فساعةَ تسمع ما كان لك أنْ تفعل كذا ، فالمعنى أنك تقدر على هذا ، لكن لا يصح منك ، فالحق سبحانه ينفى الظلم عن نفسه ، لا لأنه لا يقدر عليه ، إنما لأنه لا ينبغى له أنْ يظلم ؛ لأن الظلم يعنى أن تأخذ حقَّ الغير ، والله سبحانه مالك كل شىء ، فلماذا يظلم إذن .

ومثال ذلك نَفْى انبغاء قول الشعر من رسول الله ﷺ كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ .. (٦٩) ﴾ [يس] فالنبى ﷺ كان يستطيع أن يقول شعراً ، فلديه كل أدواته ، لكن لا ينبغى للرسول أن يكون شاعراً ؛ لأنهم كذابون ، وفى كل واد يهيمون ، ففَرْق بين انبغاء الشىء ووجوده فعلاً .

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ [فصلت] بصيغة المبالغة ظلام ، ولم يقل ظالم ، لماذا ؟ لأن الله تعالى إنْ أباح لنفسه سبحانه الظلم ، فسيأتى على قَدْر قوته تعالى ، فلا يقال له ظالم إنما ظلاَّم ـ وتعالى الله عن هذا عُلُواً كبيراً .

ولما تكلمنا عن المبالغة وصيغها قلنا : إن المبالغة قد تكون فى الحدث ذاته ، كأن تأكل فى الوجبة الواحدة رغيفاً ، ويأكل غيرك خمسة مثلاً ، أو تكون فى تكرار الحدث ، فأنت تأكل ثلاث وجبات ، وغيرك يأكل ستاً ، فنقول : فلان آكل ، وفلان أكُول أو أكال ، فالمبالغة نشأتْ إما من تضخيم الحدث ذاته ، أو من تكراره .

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٥٨) عن أبى هريرة رفعه : « قال الله : ابن آدم ، تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنىً ، وأسُدُّ فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ، ولم أسدّ فقرك » . وقال ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٣٨) : « ورد فى بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى ، فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فُتُّك فاتك كل شىء ، وأنا أحبُّ إليك من كل شىء » .

ففى قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت] لم يقل للعبد ، إذن : تعدُّد الناس يقتضى تعدُّد الظلم - إن تُصور - فجاء هنا بصيغة المبالغة (ظَلَّام) .

وهناك قضية لغوية فى مسألة المبالغة تقول : إن نَفْى المبالغة لا ينفى الأصل ، وإثبات الأصل لا يثبت المبالغة ، فحين نقول مثلاً : فلان أكول ، فهو آكل من باب أَوْلَى ، وحين نقول : فلان آكل ، فلا يعنى هذا أنه أكول . فنَفْى المبالغة فى ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت] لا ينفى الأصل (ظالم) ، وحاشا لله تعالى أن يكون ظالماً .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] وظلمهم لأنفسهم جاء من تدنِّيهم وإهانتهم لأنفسهم بالكفر بعد أنْ كرّمهم الله ، وكان عليهم أنْ يُصعِّدوا هذا التكريم ، لا أن يُهينوا أنفسهم بعبادة الأدنى منهم .

وبعد أن حدثتنا الآيات عن الكافرين الذين اتخذوا الشركاء مع الله ، وعن المكذِّبين للرسل وما كان من عقابهم ، تعطينا مثلاً يُقرِّب لنا هذه الحقائق ، فيقول سبحانه :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ
كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ
لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

كلمة (مَثَلُ) وردت بمشتقاتها فى القرآن الكريم مرات عدة ، ومادة الميم والثاء واللام جاءت لتعبر عن معنى يجب أنْ نعرفه ، فإذا

قيل (مِثْل) بسكون الثاء ، فمعناها التشبيه ، لكن تشبيه مفرد بمفرد .

كما في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى] وقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى]

أما (مَثَل) بالفتح ، فتعني تشبيه قصة أو متعدّد بمتعدّد ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ .. (٤٥) ﴾ [الكهف]

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ لا يُشبِّه شيئاً بشيء إنما يُشبه صورة متكاملة بصورة أخرى : فالحياة الدنيا في وجودها وزهرتها وزخرفها وخضرتها ومتاعها ، ثم انتهائها بعد ذلك إلى زوال مثل الماء حين ينزل من السماء فيختلط بتربة الأرض ، فينبت النبات المزهر الجميل ، والذى سرعان ما يتحول إلى حطام .

لذلك اعترض بعض المتمحكين على أسلوب القرآن في قول الحق سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ .. (٥٩) ﴾ [آل عمران]

ووجه اعتراضه أن (مَثَل) جاءت تُشبه مفرداً بمفرد ، وهو عيسى بآدم عليهما السلام ، ونحن نقول : إنها تشبه صورة متكاملة بأخرى ونقول : هذا الاعتراض ناتج عن عدم فهم المعنى المراد من الآية ، فالحق سبحانه لا يُشبِّه عيسى بآدم كأشخاص ، إنما يُشبِّه قصة خَلْق آدم بقصة خلق عيسى ، فآدم خُلِق من غير أب ، وكذلك عيسى خُلِق من غير أب .

والمعنى : إنْ كنتم قد عجبتم من أن عيسى خُلِق بدون أب ، فكان

ينبغى عليكم أنْ تعجبُوا أكثر من خَلْق آدم ؛ لأنه جاء بلا أب وبلا أم ، وإذا كنتم اتخذتم عيسى إلهاً ؛ لأنه جاء بلا أب ، فالقياس إذنْ يقتضى أن تكون الفتنة فى آدم لا فى عيسى .

والمسألة أن الله تعالى شاء أن يعلن خلْقه عن طلاقة قدرته فى أنه لا يخلق بشكل مخصوص ، إنما يخلق كما يشاء سبحانه من أب وأم ، أو من دون أب ، ومن دون أم ، ويخلق من أب فقط ، أو من أم فقط .

إذن : هذه المسألة لا تخضع للأسباب ، إنما لإرادة المسبِّب سبحانه ، فإذا أراد قال للشىء : كُنْ فيكون . وقد يجتمع الزوجان ، ويكتب عليهما العقم ، فلا ينجبان ، وقد يصلح الله العقيم فتلد ، ويُصلح العجوز فتنجب - والأدلة على ذلك واضحة - إذن : فطلاقة القدرة فى هذه المسألة تستوعب كل الصور ، بحيث لا يحدها حَدٌّ .

والحق سبحانه حين يضرب لنا الأمثال يريد بذلك أنْ يُبيِّن لنا الشىء الغامض بشىء واضح ، والمبهم بشىء بيِّن ، والمجمل بشىء مُفصَّل ، وقد جرى القرآن فى ذلك على عادة العرب ، حيث استخدموا الأمثال فى البيان والتوضيح .

ويُحكَى أن أحدهم ، وكان صاحب سمعة طيبة وسيرة حسنة بين الناس ، فحسده آخر ، وأراد أنْ يلصق به تهمة تُشوِّه صورته ، وتذهب بمكانته بين الناس فاتهمه بالتردد على أرملة حسناء ، وقد رآه الناس فعلاً يذهب إلى بيتها ، فتخرج له امرأة فيعطيها شيئاً معه .

ولما تحقق الناس من المسألة وجدوها عجوزاً لها أولاد صغار وهم فقراء ، وهذا الرجل يعطف عليهم ويفيض عليهم مما رزقه الله ، فلما عرفوا ذلك عن الرجل عظَّموه ، ورفعوا من شأنه ، وزاد فى نظرهم مجداً وفضلاً .

وقد أخذ الشاعر هذا المعنى وعبَّر عنه قائلاً مستخدماً المثل :

وإذَا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلةٍ طُوِيَتْ　　أتـــاحَ لَهـــا لِسَـــانَ حَسُـــود
لَوْلاَ اشْتِعالُ النارِ فيما جـاورَتْ　　مَا كان يعرف طِيب عَرْفِ العُودِ

والعود نوع من البخور ، طيب الرائحة ، لا تنتشر رائحته إلا حين يُحرَق .

ومن مشتقاتها أيضاً (مَثُلَة) كما فى قوله تعالى : ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ .. (٦)﴾ [الرعد] وهى العقوبات التى حاقتْ بالأمم المكذِّبة ، حتى جعلتها عبرةً لغيرها .

فإذا اشتهر المثَل انتشر على الألسنة ، وضربه الناس مثلاً كما اشتهر حاتم الطائى بالكرم والجود حتى صار مضرب المثل فيه ، وقد تشتهر بيننا عبارة موجزة ، فتصير مثلاً يضرب فى مناسبها كما نقول للتلميذ الذى يهمل طوال العام ، ثم يجتهد ليلة الامتحان (قبل الرماء تملأ الكنائن) مع الاحتفاظ بنص المثل فى كل مناسبة ، وإن لم يكُنْ هناك رمى ولا كنائن .

كما أن المثَل يقال كما هو دون تغيير ، سواء أكان للمفرد ، أم المثنى ، أم الجمع المذكر ، أو للمؤنث . كذلك نقول (ماذا وراءك يا عصامِ) بالكسر ؛ لأنها قيلت فى أصل المثَل لامرأة .

يقول الحق سبحانه : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا .. (٤١)﴾ [العنكبوت]

فهذا مثل فى قمة العقيدة ، ضربه الله لنا للتوضيح وللبيان ، ولتقريب المسائل إلى عقولنا ، وإياك أن تقول للمثل الذى ضربه الله

لك : ماذا أراد الله بهذا ؟ لأن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة]

فالبعض يرى أن البعوضة هذه شيء تافه ، فكيف يجعله الله مثلاً ؟ والتحقيق أن البعوضة خَلْق من خَلْق الله ، فيها من العجائب والأسرار ما يدعوك للتأمل والنظر ، وليست شيئاً تافهاً كما تظن ، بل يكفيك فَخْراً أنْ تصل إلى سِرِّ العظمة فيها .

ففي هذا المخلوق الضئيل كل مُقوِّمات الحياة والإدراك ، فهل تعرف فيها موضع العقل وموضع جهازها الدموي .. إلخ وفضلاً عن الذباب والناموس وصغار المخلوقات ألا ترى الميكروبات التي لا تراها بعينك المجردة ومع ذلك يصيبك وأنت القوي بما يؤرقك وينغص عليك .

إذن : لا تقُلْ لماذا يضرب الله الأمثال بهذه الأشياء لأن الله ﴿ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة] ما فوقها أي : في الصِّغَر والاستدلال . أي : ما دونها صغَراً ؛ لأن عظمة الخلق كما تكون بالشيء الأكثر ضخامة تكون كذلك بالشيء الأقلّ حجماً الأكثر دِقَّة .

لو نظرتَ مثلاً إلى ساعة (بج بن) وهي أضخم وأشهر ساعة في العالم ، وعليها يضبط العالم الوقت لوجدتَها شيئاً ضخماً من حيث الحجم ليراها القادم من بعيد ، ويستطيع قراءتها ، فدلَّتْ على عظمة الصَّنْعة ومهارة المهندسين الذين قاموا ببنائها ، فعظمتها في ضخامتها وفخامتها ، فإذا نظرتَ إلى نفس الساعة التي جعلوها في فصِّ الخاتم لوجدتَ فيها أيضاً عظمة ومهارة جاءت من دِقَّة الصنعة في صِغَر الحجم .

كذلك الراديو أول ما ظهر كان فى حجم (النورج) ، والآن أصبح صغيراً فى حجم الجيب .

ومن مخلوقات الله ما دق ؛ لدرجة أنك لا تستطيع إدراكه بحواسك ، والعجيب أن يطلب الإنسان أنْ يرى الله جهرة ، وهو لا يستطيع أنْ يرى آثار خَلْقه وصَنْعته . فأنت لا ترى الجن ، ولا ترى الميكروب والجراثيم ، ولا ترى حتى روحك التى بين جنبيك والتى بها حياتُك ، لا يرى هذه الأشياء ولا يدركها بوسائل الإدراك الأخرى ، فمن عظمته تعالى أنه يدرك الأبصار ، ولا تدركه الأبصار .

نعود إلى المثَل الذى ضربه الله لنا : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ .. (٤١) ﴾ [العنكبوت] أى : شركاء وشفعاء ﴿ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ .. (٤١) ﴾ [العنكبوت] هذا المخلوق الضعيف الذى ينسج خيوطه بهذه الدقة التى نراها ، والذى نسج خيوطه على الغار فى هجرة رسول الله ﷺ ، واشترك مع الحمامة فى التعمية على الكفار .

﴿ اتَّخَذَتْ بَيْتًا .. (٤١) ﴾ [العنكبوت] أى : من هذه الخيوط الواهية ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ .. (٤١) ﴾ [العنكبوت] فخطأ العنكبوت ليس فى اتخاذ البيت ، إنما فى اتخاذ هذه الخيوط الواهية بيتاً له وهبَّة ريح كافية للإطاحة بها ، ويشترط فى البيت أن يكون حصيناً يحمى صاحبه ، وأن تكون له أبواب ونوافذ وحوائط .. إلخ . أما لو اتخذها شبكة لصيد فرائسه لكان أنسب ، وكذلك الكفار اتخذوا من الأصنام آلهة ، ولو اتخذوها دلالة على قدرة الحق فى الخَلْق لكان أنسب وأجْدى .

وكما أن بيت العنكبوت تهدمه هبَّة ريح وتُقطعه وأنت مثلاً تنظف بيتك ، وربما تقتل العنكبوت نفسه ، فكذلك طبَّق الأصل يفعل الله بأعمال الكافرين : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

وكذلك يضرب لهم مثلاً آخر : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [إبراهيم]

ومعنى : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : حقيقة الأشياء ، فشبكة العنكبوت لا تصلح بيتاً ، ولكن تصلح مصيدةً للحشرات ، وكذلك الأصنام والأحجار لا تنفع لأنْ تكون آلهة تُعبد ، إنما لأنْ تكون دلالة على قدرة الخالق - عز وجل - فلو فكَّروا فيها وفى أسرار خَلْقها لاهتدوا من خلالها للإيمان .

فهى - إذن - دليلُ قدرة لو كانوا يعلمون ، فالجبل هذا الصخر الذى تنحتون منه أصنامكم هو أول خادم لكم ، ولمن هو أدْنى منكم من الحيوان والنبات ، وسبق أن قلنا : إن الجماد يخدم النبات ، ويخدم الحيوان ، وهم جميعاً فى خدمة الإنسان .

إذن : فالجماد خادم الخدامين ، ومع ذلك جعلتموه إلهاً ، فانظروا إذن إلى هذه النقلة ، وإلى خِسَّة فكركم ، وسوء طباعكم حيث جعلتم أدنى الأشياء وأحقرها أعلى الأشياء وأشرفها - أى : فى زعمكم .

فكيف وقد ميَّزك الله على كل الأجناس ؟ لقد كان ينبغى منك أن تبحث عن شىء أعلى منك يناسب عبادتك له ، وساعتها لن تجد إلا الله تتخذه إلهاً .

بل واقرأ إنْ شئْتَ عن الجماد قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] أى : فى الأرض ﴿ رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت]

فكأن الجبال الصَّماء الراسية هى مخازن القوت للناس على مَرِّ

الزمان ، فمنها تتفتت الصخور ، ويتكوَّن الطمى الذى يحمله إلينا الماء فى أيام الفيضانات ، ومنها تتكون الطبقة المخصبة فى السهول والوديان ، فتكون مصدر خِصْب ونماء دائم ومتجدد لا ينقطع . وتذكرون أيام الفيضان وما كَان يحمله نيل مصر إلينا من خير متجدد كل عام ، وكيف أن الماء كان يأتينا أشبه ما يكون بالطحينة من كثرة ما به من الطمى .

فياليت عُبَّاد الأصنام الذين نحتوا الصخور أصناماً تأملوا هذه الآيات الدالة على قدرة الخالق سبحانه بدل أن يعبدوها من دون الله .

وفى موضع آخر يضرب لنا الحق سبحانه مثلاً فى قمة العقيدة أيضاً ، فيقول سبحانه :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾ [الزمر]

ففَرْق بين عبد مملوك لسيد واحد يتلقَّى منه وحده الأمر والنهى ، وبين عبد مملوك لعدة شركاء ، وليتهم متفقون ، لكن ﴿ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩) ﴾ [الزمر] مختلفون لكلٍّ أوامر ، ولكلٍّ منهم مطالب ، فكيف إذن يُرضيهم ؟ وكيف يقوم بحقوقهم وهم يتجاذبونه ؟

فالذى يعبد الله وحده لا شريك له كالعبد لسيد واحد ، والذين يعبدون الأصنام كالعبد فيه شركاء متشاكسون . إذن : فالحق سبحانه يضرب الأمثال للناس فى الحقائق ليُبيِّنها لهم بياناً واضحاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾

يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ .. (٤٢) ﴾ [العنكبوت] لأنهم حين ضُيِّق عليهم الخناق قالوا : نحن لا نعبد الأصنام ، إنما نعبد الكواكب التى تُسيِّر هذه الأصنام أو الملائكة ، فردَّ الله عليهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ .. (٤٢) ﴾ [العنكبوت] وقوله هنا ﴿ مِن شَيْءٍ .. (٤٢) ﴾ [العنكبوت] للتقليل ، كأنَّ ما يدعونه من دونه لا يُعَد شيئاً ، أو هو أتفه من أن يكون شيئاً ، أو يعلم سبحانه ما يدعون من دونه من أى شىء .

أو أن (شىء) من قولنا : شاء يشاء شيئاً ، فالشىء ما يُراد من الغير أنْ يفعله ، والذى شاء هو الله تعالى ، وكأنهم يعبدون الشىء ويتركون خالقه ، وهو الأحقُّ بالعبادة سبحانه . فماذا جرى لكم ؟! تعبدون المخلوق وتتركون الخالق ، وبعد أن كرمكم الله تهينون أنفسكم ، وترضون لها الدون ، حيث تعبدون ما هو أقلّ منكم مرتبةً فى الخلْق ، والأصنام جمادات ، وهى أدنى أجناس الوجود .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) ﴾ [العنكبوت] العزيز الذى يَغْلب ، ولا يُغلب ، وهو الحكيم فى كُلِّ ما قضى وأمر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ (٤٣) ﴾

فمَنْ يسمع المثل من الله تعالى ثم لا يعقله فليس بعالم ؛ لذلك ليسوا علماء الذين اعترضوا على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة] حيث استقلُّوا

البعوضة ، ورأوها لا تستحق أنْ تُضرب مثلاً .

ونقول لهم : أنتم لستم عاقلين ولا عالمين بدقة المثل ، واقرأوا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج] بل وأكثر من ذلك ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج]

دَعْك من مسألة الخَلْق ، وتعالَ إلى أبسط شيء في حركة حياتنا إذا وقع الذباب على طعامك ، فأخذ منه شيئاً أتستطيع أن تسترده منه مهما أُوتيتَ من القوة والجبروت ؟

إذن : فالذبابة ليست شيئاً تافهاً كما تظنون ، بل وأقلّ منها الناموس (والميكروب) وغيره مما لا يُرَى بالعين المجردة مخلوقات لله ، فيها أسرار تدلُّ على قدرته تعالى .

كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة] أي : ما فوقها في الصِّغَر ، ولك أن تتأمل البعوضة ، وهي أقلّ حجماً من الذباب ، وكيف أن لها خرطوماً دقيقاً ينفذ من الجلد ، ويمتصّ الدم الذي لا تستطيع أنت إخراجه إلا بصعوبة ، (والميكروب) الذي لا تراه بعينك المجردة ومع ذلك يتسلل إلى الجسم فيمرضه ، ويهدّ كيانه ، وربما انتهى به إلى الموت .

إذن : ففي هذه المخلوقات الحقيرة في نظرك عبر وآيات ، لكن لا يعقلها إلا العالمون ، ومعظم هذه الآيات والأسرار اكتشفها غير مؤمنين بالله ، فكان منهم مَنْ عقلها فآمن ، ومَنْ لم يعقلها فظلّ على كفره مع أنه أَوْلَى الناس بالإيمان بالله ؛ لأن لديه من العلم ما يكتشف به أسرار الخالق في الخَلْق . لذلك جاء في الأثر : « العالم الحق هو

الذى يعلم مَنْ خلقه ، ولِمَ خلقه » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

أراد الحق سبحانه أن يبرهن لنا على طلاقة قدرته تعالى ، فقال : ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [العنكبوت] والخَلْق : إيجاد المعدوم ، لكن لغرض مخصوص ، ولمهمة يؤديها ، فإنْ خلقت شيئاً هكذا كما اتفق دون هدف منه فلا يُعَد خلقاً .

ومسألة الخَلْق هذه هى الوحيدة التى أقرَّ الكفار بها لله تعالى ، فلما سألهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان] فلماذا أقرُّوا بهذه بالذات ؟ ولماذا ألجمتهم ؟

هذا ليس عجيباً منهم ؛ لأننا نشاهد كل مَنْ يأتى بجديد فى الكون حريصاً على أنْ ينسبه لنفسه ، وعلى أنْ يُبيِّن للناس مجهوداته وخبراته ، وأنه اخترع كذا أو اكتشف كذا ، كالذى اكتشف الكهرباء أو اخترع (التليفون أو التليفزيون) .

ما زِلْنا حتى الآن نذكر أن قانون الطفو لأرشميدس ، وقانون الجاذبية لنيوتن ، والناس تسجل الآن براءات الاختراع حتى لا يسرق أحد مجهودات أحد ، ولتحفظ لأصحاب التفوق العقلى والعبقرى ثمرة عبقريتهم .

وكذلك كان العرب قديماً يذكرون لصاحب الفضل فَضْله ، حتى

إنهم يقولون : فلان أول مَنْ قال مثلاً : أما بعد[1] . وفلان أول من فعل كذا .

إذن : فنحن نعرف الأوائل في كل المجالات ، وننسب كل صنعة وكل اختراع واكتشاف إلى صاحبه ، بل ونُخلِّد ذكراه ، ونقيم له تمثالاً .. إلخ .

إذن : فما بالك بالخالق الأعظم سبحانه الذى خلق السموات والأرض وما فيهما ومَنْ فيهما ، أليس من حقه أن يعلن عن نفسه ؟ أليس من حقه على عباده أن يعترفوا له بالخَلْق ؟ خاصة وأن خَلْق السموات والأرض لم يدَّعه أحد لنفسه ، ولم ينازع الحق فيه منازع ، ثم جاءنا رسول من عند الله تعالى يخبرنا بهذه الحقيقة ، فلم يوجد معارض لها ، والقضية تثبُت لصاحبها إلى أنْ يوجد معارض .

وقد مثَّلنا لهذه المسألة ـ ولله المثل الأعلى ـ بجماعة جلسوا فى مجلس ، فلما انفضَّ جمعهم وجد صاحب البيت محفظة نقود لواحد منهم ، فسألهم : لمن هذه المحفظة ؟ فقالوا جميعاً : ليست لى إلا واحد منهم قال : هى محفظتى ، فهل يشكُّ صاحب البيت أنها لمن ادَّعاها ؟

ولك أنْ تسأل : ما دام الحق سألهم ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ .. (٢٥)﴾ [لقمان] فقالوا (الله) فلماذا يذكر الله هذه القضية ؟ قالوا : الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يريد بهذه الآية أن يخبرنا أنه خالق السموات والأرض ، إنما يريد أن يخبرنا أن خَلْق السموات والأرض

---

(١) عن أبى موسى الأشعرى قال : « أول من قال أما بعد داود النبى عليه السلام . قال : وهو « فصل الخطاب » أخرجه ابن أبى عاصم فى الأوائل (حديث ١٩١) والطبرانى فى الأوائل (٤٠) . وعزاه السيوطى فى الوسائل (١١٧) لابن أبى حاتم والديلمى عن أبى موسى .

بالحق ، والحق : الشيء الثابت الذى لا يتغير مع الحكمة المترتبة على كل شيء فى الوجود ، فإذا نظرنا إلى خَلْق السموات والأرض لوجدناه ثابتاً لم يتغير شيء فيه .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ.. (٥٧) ﴾ [غافر]

فالسموات والأرض خَلْق هائل عظيم ، بحيث لو قارنته بخَلْق الإنسان لكان خَلْق الإنسان أهون . وانظر مثلاً فى عمر السموات والأرض وفى عمر الإنسان : أطول أعمار البشر التى نعلمها حتى الآن عمر نوح عليه السلام ، وبعد هذا العمر الذى نراه طويلاً انتهى إلى الموت ، فعمر الإنسان معلوم يكون سنة واحدة ، أو ألف سنة لكن لا بُدَّ أن يموت .

أما السموات والأرض وما فيها من مخلوقات إنما خُلقت لخدمة الإنسان ، فالخادم عمره أطول من المخدوم ، فالشمس مثلاً خلقها الله تعالى من ملايين السنين ، ومازالت كما هى لم تتغير ، ولم تتخلف عن مهمتها ، وكذلك القمر : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن]

أى : بحساب دقيق ؛ لذلك يقولون : سيحدث كسوف مثلاً أو خسوف يوم كذا الساعة كذا ، وفى نفس الوقت يحدث فعلاً كسوف للشمس أو خسوف للقمر مما يدلّ على أنهما خُلقا بحساب بديع دقيق ، ويكفى أننا نضبط على الشمس مثلاً ساعاتنا ، ومع ما عُرف عن الشمس والقمر من كبَر حجمهما ، فإنهما يسيران فى مسارات وأفلاك دون صدام ، كما قال تعالى : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء]

هذا كله من معنى خَلْق السموات والأرض بالحق . أى : بنظام

ثابت دقيق منضبط لا يتغير ولا يتخلف فى كُلِّ مظاهره ، فأنت أيها الإنسان يمكن أنْ تتغير ؛ لأن الله جعل لك اختياراً فتستطيع أن تطيع أو أن تعصى ، تؤمن أو والعياذ بالله تكفر ، لكن خَلْق السموات والأرض جاء على هيئة القهر والتسخير ، وإن كانت مختارة بالقانون العام والاختيار الأول ، حيث قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

إذن : خُيِّرت فاختارت ألاَّ تختار ، وخرجت عن مرادها لمراد ربها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) ﴾ [العنكبوت] لماذا قال (للمؤمنين) مع أنها آية للناس جميعاً ؟ وسبق أنْ خاطب الله الكافرين ﴿ مَّنْ خَلَقَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضَ .. (٢٥) ﴾ [لقمان] فلماذا خصَّ هنا المؤمنين دون الكافرين ؟

قالوا : هناك فَرْق بين خَلْق السموات والأرض ، وبين كَوْنها مخلوقة بالحق ، فالجميع يؤمن بأنها مخلوقة ، لكن المؤمنين فقط هم الذين يعرفون أنها مخلوقة بالحق .

يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾

بعد أن ذكر الله تعالى بعض مواكب الرسل في إبراهيم وفي موسى ونوح وصالح وهود ولوط وفي شعيب ، ثم تكلَّم سبحانه عن الذين كذبوا هؤلاء الرسل ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ .. (٤٠)﴾ [العنكبوت] أراد سبحانه أن يُسلِّي رسوله ﷺ بأن لا يزعجه ، ولا يرهقه ، أو يتعب نفسه موقف الكافرين به الذين يصدون عن سبيل الله ، ويقفون من الدعوة موقف العداء .

فقال له مُسلِّياً : ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] يعني : لِمَ تحزن يا محمد ومعك الأُنْس كله ، الأُنْس الذي لا ينقضي ، وهو كتاب الله ومعجزته التي أنزلها إليك ، فاشتغل به ، فمع كل تلاوة له ستجد سكناً إلى ربك .

وإذا كان هؤلاء الذين عاصروك لم يؤمنوا به ، ولم يلتفتوا إلى مواطن الإعجاز فيه فداوم أنت على تلاوته علَّ الله يأتي من هؤلاء بذرية تصفو قلوبهم لاستقبال إرسال السماء ، فيؤمنون بما جحده هؤلاء ، والأمر بالتلاوة لبقاء المعجزة .

﴿اتْلُ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] اقرأ ولا تعجز ولا تيأس ، فالقرآن سلوة لنفسك ؛ لأن الذي يرسل رسولاً من البشر بشيء أو في أمر من الأمور ، ثم يكذب يرجع إلى مَنْ أرسله ، فما دام قومك قد كذَّبوك ، فارجع إليَّ بأن تستمع إلى كتابي الذي أنزلتُه معجزة لك تؤيدك ، وانتظر قوماً يأتون يسمعون منك كلام الله ، فيصادف منهم قلوباً صافية ، فيؤمنون به .

وفَرْق بين الفاعل والقابل ، والقرآن يُوضِّح هذه المسألة ، فمن الناس مَنْ إذا سمعوا القرآن تخشع له قلوبهم ، وتقشعر جلودهم ، ومنهم مَنْ إذا سمعوه قالوا على سبيل الاستهزاء ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا ..

(١٦)﴾ [محمد] تهويناً من شأن القرآن ، ومن شأن رسول الله .

ثم يقرر القرآن هذه الحقيقة : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤)﴾ [فصلت]

إذن : فالقرآن واحد ، لكن المستقبل للقرآن مختلف ، فالعبرة فى صفاء الاستقبال لأن الإرسال واحد ، وهل تتهم الإذاعة إنْ كان جهاز (الراديو) عندك معطلاً ، لا يستقبل إرسالها ؟

كذلك مَنْ أراد أن يستقبل إرسال السماء فعليه أنْ يُعد الأذن الواعية والقلب الصافى غير المشوش بما يخالف إرسال السماء ، عليك أنْ تُخرِج ما فى نفسك أولاً من أضداد للقرآن ، ثم تستقبل كلام الله وتنفعل به .

وسبق أنْ مثَّلْنا لاختلاف المنفعل للفعل بمَنْ ينفخ فى يده وقت البرد بقصد التدفئة ، وبمَنْ ينفخ بنفَسه فى الشاى مثلاً ليبرده ، فهذه للحرارة ، وهذه للبرودة ، الفعل واحد ، لكن المنفعل مختلف .

فقوله تعالى : ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] هذه هى مَيْزة معجزتك يا محمد أنك تستطيع أنْ تكرِّرها فى كل وقت ، وأن تتلوها كما تشاء ، وأن يتلوها بعدك مَنْ سمعها ، وستظل تتردد إلى يوم القيامة .

أما معجزات الرسل السابقين فكانت خاصة بمَنْ شاهد المعجزة ، فإذا مات مَنْ شهدها فلا يعرفها أحد بعدهم حتى لو كان معاصراً لها ولم يرَهَا ، فالذين عاصروا مثلاً انقلاب عصا موسى حية ولم يشاهدوا هذا الموقف ، ماذا عندهم من هذه المعجزة ؟ لا شىء إلا أننا

(١) الوقر : ثقل فى السمع أو صمم . [القاموس القويم ٢/ ٣٥٠] .

نُصدِّقها ونؤمن بها ؛ لأن القرآن أخبرنا بها .

إذن : فمعجزات السابقين تأتي كلقطة واحدة أشبه ما تكون بعود الكبريت الذى يشتعل مرة واحدة ، رآها مَنْ رآها وتنتهى المسألة ، ولكن القرآن حدثنا بكل معجزات الرسل السابقين فانظر إذن ما أصاب الرسل جميعاً من خيرات سيدنا رسول الله ، وكيف خلَّد القرآن ذكرهم ، وامتدت معجزاتهم بامتداد معجزته .

فكأن القرآن أسدى الجميل إلى كل الرسل ، وإلى كل المعجزات ؛ لذلك قال تعالى عن القرآن : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا[1] عَلَيْهِ .. (٤٨) ﴾ [المائدة]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] ومعلوم أن اتْلُ : التلاوة قَوْل من فعل اللسان و ﴿ وَأَقِمِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] من فعل الجوارح ، والإنسان له جوارح متعددة اشتهر منها خمس هى : العين للإبصار ، والأذن للسمع ، والأنف للشم ، واللسان للتذوق ، والأنامل للَّمس .

فقالوا على سبيل الاحتياط : الجوارح الخمسة الظاهرة وقد ظهر فعلاً مع تقدُّم العلوم اكتشفوا فى الإنسان حواسَّ أخرى ووسائلَ إدراك لم تُعرف من قبل ، كحاسة العضل التى تزن بها ثقل الأشياء ، وإلا فبأىِّ حاسة من حواسِّك الخمسة تعرف الثقل قبل أن ترفع الشىء من على الأرض ؟

وكحاسة البَيْن ، والتى بها تستطيع أنْ تُميِّز بين سُمْك الأشياء

---

(١) المهيمن : الرقيب المسيطر ، والقرآن مهيمن على الكتب السابقة ، أى رقيب عليها وحافظ لما فيها من الحق ، ومسيطر عليها يبين ما فيها من الحق وما أدخله الناس عليها من الباطل . [القاموس القويم ٢/٣٠٨] .

بين أناملك ، فحين تذهب مثلاً إلى تاجر الأقمشة ، فتتناول القماش بين أناملك و (تفركه) برفق ، فتستطيع أن تعرف أن هذا أسْمَك من هذا .

ومن عجيب الأمر في مسألة الجوارح أن يأخذ اللسان شطر الجوارح كلها ، ففعل الحواس الخمسة يسمى عملاً ، والعمل ينقسم : إما قول ، وإما فعل . فكل تحريك لجارحة لتؤدى مهمة يسمى عملاً ، لكن عمل اللسان يسمى قولاً ، أما من بقية الجوارح فيسمى فعلاً .

فأخذ اللسان هذه المكانة ؛ لأن به الإنذار من الحق ، وبه التبشير ، وبه البلاغ من الرسول ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :
﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ ﴾ [الصف]

ولم يقل : ما لا تعملون . لأن القول يقابله الفعل ، وهُما معاً عمل ، والعمل بنية القلب .

لكن ، لماذا اختار الصلاة من بين أعمال الجوارح ؟ قالوا : لأنها قمة العمل كما سماها النبي ﷺ : « الصلاة عماد الدين »[1] وبها نُفرِّق بين المؤمن والكافر . ويبقى السؤال : لماذا أخذتْ الصلاة هذه المكانة من بين أركان الإسلام ؟

ونحب أنْ نشير هنا إلى أن خصوم الإسلام وبعض أهله الذين يخافون من بعثه أنْ يقضي على سلطتهم وطُغْيانهم وجبروتهم يريدون حَصْر الإسلام في أركانه الخمسة ، فإنْ قُلْت بهذه المقولة

---

(١) قال الحافظ العراقي في تخريجه للإحياء (١/١٤٧) : « رواه البيهقي في الشُّعَب بسند ضعيف من حديث عمر » . وقال الملا على القاري في « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) : « قال ابن الصلاح في مشكل الوسيط : إنه غير معروف وقال النووي في التنقيح : إنه منكر باطل . لكن رواه الديلمي عن على كما ذكره السيوطي في الدرر المنتثرة (حديث ٢٧٩) .

لا يتعرضون لك ، وأنت حر في إطار أركان الإسلام هذه ، لكن إياك أن تقول : إن الإسلام جاء ليُنظِّم حركة الحياة ؛ لأن حظهم فى حَصْر الإسلام فى أركانه فقط .

وما فَهم هؤلاء أن الأركان ليست هى كل الإسلام ، إنما هى أُسُسه وقواعده التى يقوم عليها بناؤه ، لكنهم يريدون أنْ يعزلوا الإسلام عن حركة الحياة . فنقول لهم : نعم ، هذه أركان الإسلام ، أمَّا الإسلام فيشمل كل شىء فى حياتنا ، بدايةً من قمة العقيدة فى قولنا : لا إله إلا الله محمد رسول الله إلى إماطة الأذى عن الطريق ؛ لأن الإسلام دين يستوعب كل أقضية الحياة ، كيف لا وهو يُعلِّمنا أبسط الأشياء فى حياتنا .

ألاَ تراه يهتم بأحكام قضاء الحاجة ودخول الخلاء ، وما يتعلق به من آداب وأحكام ؟ ألاَ ترى أن صاحب الحسْبة[1] المكلَّف بمراقبة الأسواق ، وتنفيذ أحكام منهج الله فى الأرض إذا رأى جزاراً ينفخ ذبيحته بفمه يقوم بإعدام هذه الذبيحة ؛ لأن الهواء المستخدم فى نفخها هواء غير صحى ، فهو زفير مُحمَّل بثانى أكسيد الكربون ، وقد يحمل غازات أخرى ضارة لا بُدَّ أنْ تنتقل إلى لحم الذبيحة ؟

كما أن من مهمته أن يمر بالحلاقين ، ويتفقد مدى نظافتهم وسلامتهم من الأمراض ، وإذا اشتم من أحدهم رائحة ثوم أو بصل مثلاً أمره بإغلاق محله ، وعدم العمل فى هذا اليوم حتى لا يتأذَّى الناس برائحته .

---

(١) شرح الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه « إحياء علوم الدين » الحسبة وكل ما يتعلق بها من أركانها الأربعة « المحتسب ، والمحتسب عليه ، والمحتسب فيه ، ونفس الاحتساب » وما يتعلق بكل منها من شروط ، ودرجات الاحتساب ، ثم آداب المحتسب من العلم والورع . وحسن الخلق . وذلك بتفصيل فليرجع إليه فى « كتاب الأمر بالمعروف » من « إحياء علوم الدين » .

فأىٌّ شرع هذا الذى يحافظ على سلامة الناس ومشاعرهم إلى هذا الحدِّ ؟ إنه دين الله ومنهجه الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة فى حركة الحياة إلا ووضع لها أحكاماً وآداباً . أمثْل هذا الشرع يُعزل عن حركة الحياة ويُقيّد وينحصر فى مسائل العبادات وحدها ؟

إنك حين تنظر إلى متاعب العالم المتخلف الآن - دَعْك من العالم المتقدم - ستجد أن متاعبه اقتصادية ، ولو تقصيْتَ الأسباب لوجدتها تعود إلى التخلى عن منهج الله وتعطيل أحكامه ، ووالله لو أنهم أخذوا فى أزمتهم الاقتصادية بقول النبى ﷺ : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع »[1] .

لو عملوا بهذا وتأدَّبوا بأدب رسولهم لخرجوا من هذه الأزمة ، وتقلَّبوا فى رَغَد من العيش ، إنك لو تحليْتَ بهذا الأدب فى مسألة الطعام والشراب لكفتْك اللقمة واللقمتان ، وأشهى الطعام ما كان بعد جوع مهما كان بسيطاً .

أما الآن ، فنرى الناس يلجئون إلى المشهِّيات قبل الطعام ، وإلى المهضمات بعده ، لماذا ؟ لأنهم خالفوا هَدْى رسولهم ﷺ ، فهم يأكلون على شبَع ، ويأكلون بعد الشِّبَع .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا .. (٣١)﴾ [الأعراف] وأُثر عن العرب الذين عاشوا فى شظف من العيش : نِعْم الإدام الجوع . نعم إنه (الغموس) الحقيقى ، والمشهِّى الأول .

---

(١) عن المقدام بن معد يكرب قال النبى ﷺ : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٣٢) ، والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) ، وابن ماجة فى سننه (٣٣٤٩) .

نعـود إلى مكانة الصلاة بيـن العبـادات ، ولماذا كـانت هى عمـاد الدين ، ومـعنى : « الصـلاة عـمـاد الدين »[1] و « بُنى الإسـلام على خمس »[2] أن الدين أشياء أخرى ، وهذه هى أُسُـسه وقواعده ، وحين نتتبع هذه القواعـد نجد أن الركن الأول ، وهو أشـهد ألاَّ إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله يمكن أن أقولها ولو مرة واحدة ، أما الزكاة فلا تجب مـثـلاً على الفـقـيـر فـلا يزكى ، وكـذلك المـريض لا يصـوم ، والمسـافـر والـحـائض .. إلخ ، وكـذلك الحج غـيـر واجب إلا على المستطيع .

إذن : ما هو الركن الثابت الذى يلازم كـل مسلم ، ولا يسقط عنه بحال ؟ إنها الصلاة ؛ لذلك أخذتْ مسـاحة كبيرة من الوقت على مدى اليوم والليـلة ، وبها يكون إعـلان الولاء الدائم لله تعالى ، وبهـا تفرق بين المؤمن وغـير المـؤمن ، فإنْ رأيتَ شخـصاً مثـلاً لا يصوم أو لا يزكى أو لا يحج ، فلك أنْ تقـول ربمـا يكون من أصـحاب الأعـذار ، ومن غير القادرين ، لكن حين ترى شخصاً لا يُصلِّى ، وقد تكرَّر منه ذلك فإنك لا بُدَّ شاكّ فى إسلامه .

لذلك استحقت الصـلاة هذه المكانة بين سائر العبادات منذ بدايات التشريع ، ألا ترى أن كل فـرائض الدين شُرعت بالوحى إلا الصلاة ، فقد شُرعت بالخطاب المباشر من الله تـعالى لنبيه محمد ﷺ فى رحلة المعراج .

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (٢/ ٣٩) : « رواه البـيهقى فى الشعب بسند ضعيف من حديث عكرمة عن عمـر مرفوعاً . ولم يقف عليه ابن الصلاح فـقال فى مشكل الوسيط : إنه غير معروف » .

(٢) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صـحيحه (٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك ، ولله المثل الأعلى ، برئيس العمل الذى يُصدر أوامره بوسائل مختلفة حَسْب أهمية المأمور به ، فقد يكتفى بأن (يُؤشر) على ورقة ، وقد يُوصى بها ، أو يطلب الد ظف المختص فيُحدِّثه (بالتليفون) ، فإنْ كان الأمر هاماً استدعاه ش ـيا إلى مكتبه وكلَّفه بما يريد .

وكان هذا الاستدعاء تشريفاً لسيدنا رسول الله بقرب المرسَل من المرسل ، فأراد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ألاَّ يحرم أمة محمد فضل أسبغه على محمد فكأنه قال : مَنْ أراد من عبادى أنْ يقرب مد كما قرب محمد فكان قاب قوسين أو أدنى فليُصلِّ .

ومعنى ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] إقامة الشيء : أداؤه على الوجه الأكمل الذى يؤدى غايته ، فالصلاة المطلوبة هى الصلاة المستوفاة الشروط والتى تقيمها كما يريدها مُشرِّعها ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت]

والصلاة إذا استوفتْ شروطها نهتْ صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فإذا رأيتَ صلاة لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فاعلم أنها ناقصة عما أراده الله لإقامتها ، وعلى قَدْر النقص تكون ثمرة الصلاة فى سلوك صاحبها ، وكأن وقوعك فى بعض الفحشاء وفى بعض المنكر يُعَدُّ مؤشراً دقيقاً لمدى إتقانك لصلاتك وحرصك على تمامها وإقامتها .

ومعنى ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] واضح فى قول النبى ﷺ لما قيل له : يا رسول الله ، إن فلاناً

يصلي ، لكن صلاته لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر ، فقال : « دعوه ، فإن صلاته تنهاه »[1] .

فالمعنى هنا أن الأمر ليس أمراً كونياً ثابتاً لا يتخلف ، بل هو أمر تشريعي عُرْضة لأنْ يُطاعَ ، وعُرْضة لأنْ يُعصى ، فلو كان الأمر كونياً ما جرؤ صاحب صلاة على الفحشاء والمنكر ، ومثال ذلك أن أقول مثلاً لأولادي قبل أن أموت : يا أولادي ، هذا بيت يكرم مَنْ يدخله . كلام على سبيل الخبر ولم أقل : أكرموا مَنْ يدخله ، فالذي يحترم وصيتي منهم يكرم مَنْ يدخل بيتي من بعدي ، والذي لا يحترم الوصية لا يُكرم مَنْ يدخله . أما لو قلت : أكرموا مَنْ يدخل هذا البيت فقد ألزمتَ الجميع بالإكرام .

وأوضح من هذا قوله تعالى في شأن المسجد الحرام : ﴿ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمنا .. (٩٧)﴾ [آل عمران] فلما حدث أن اقتحمه بعض أصحاب الأهواء ، وأطلقوا النار في ساحاته ، وقتلوا فيه الآمنين قامتْ ضجة كبيرة تُشكِّك في هذه الآية : كيف يحدث هذا والله يقول ﴿ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمنا .. (٩٧)﴾ [آل عمران] فأقاموا هذه الأحداث دليلاً على كذب الآية والعياذ بالله .

وهذا المسلك منهم يأتي عن عدم فهم لمعنى الأمر الكوني والأمر التشريعي ، فقوله تعالى : ﴿ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمنا .. (٩٧)﴾ [آل عمران] أمر تشريعي قابلٌ لأنْ يُطاع ، ولأنْ يُعصى ، كأن الحق - سبحانه وتعالى - قال : أَمِّنُوا مَنْ دخل البيت ، فبعض الناس امتثل للأمر ، فأمَّن مَنْ في البيت الحرام ، وبعضهم عصى فروَّع الناس ، وقتلهم

(١) عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إن فلاناً يصلي بالليل ، فإذا أصبح سرق . قال « إنه سينهاه ما تقول » أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٤٧) والبزار (١/٣٤٦ - كشف الأستار) وابن حبان (ص ١٦٧ - موارد الظمآن) قال الهيثمي في المجمع (٢/٢٥٨) : « رجاله رجال الصحيح » .

في ساحته . ولو كان أمراً كونياً ما تخلَّف أبداً كما لم تتخلف الشمس مثلاً يوماً من الأيام .

وكذلك الأمـر في ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] فالصـلاة تشريع مـن الله ، فإذا كان الله تعـالى هو المـشرِّع ، وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٩٠) ﴾ [النحل] الله عز وجل نهانا ، لكن هل انتهينا جميعاً ؟

إذن : نقول : الصلاة في ذاتها لا تنهاك ، لأن هذا أمر شرعيٌّ .

والبعض يرى أن المعنى ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] يعني : لا يوجد معها فـحشاء ولا منكر ، وهذا أيضاً صـحيح ؛ لأنني حين أدخل في الصـلاة بتكبـيـرة الإحرام فـإن هذه التكبيـرة تحرم عليَّ كل ما كـان حلالاً لي قبل الصـلاة ، فـفي الصلاة مثلاً لا آكل ولا أشـرب ولا أتحرك ، مع أن هذه المسـائـل كانت حلالاً قبل الصـلاة ، فمـا بالك بما كـان حرامـاً عليك أصلاً قبـل الصلاة ؟ إذن : فهو حرام من باب أوْلَى .

فالصلاة بهذا المعنى تمنعك من الفـحشاء والمنكر في وقتها ؛ لأن تكبـيـرة الإحـرام (الله أكـبـر) تعنى أن الله أكـبـر من كل شيء في الوجود حتى من شـهوات النفس ونزواتها ، وإلاَّ فكيف تقيم نفسك بين يدي ربك ، ثم تخـالف منهـجـه ؟ فالصـلاة بهـذا المـعنى تنهى على حقيقتها عن الفحشاء والمنكر .

ومـعنى (الفَـحْشَـاء) كل مـا يُسْتَـفـحش من الأقـوال والأفعـال (والمنكَر) كل شيء يُنكره الطبع السليم ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] ذكر : مـصدر ، والمـصدر يُضـاف للفاعل مـثل : أعجـبني ضَرْبُ الأمير لـزيد ، ويُضاف للمفعول مثل : أعـجبني ضَرْب زيد من

الأمير ، فحين تقول ذكر الله يصح أن يكون المعنى : ذِكْر صادر من الله ، أو ذِكْر صادر من العبد لله .

فإنْ قلتَ : ذكْر صادر من الله ، أى للمصلِّي ، فحين يصلى الإنسان ، ويذكر الله بالكبرياء فى قوله الله أكبر ويُنزِّهه بقول سبحان الله ، ويسجد له سبحانه ويخضع ، فقد فعلتَ إذن فعْلاً ذكرتَ الله فيه ذكْراً بالقول وبالفعل ، والله تعالى يجازيك بذكرك له بأن يذكرك ، فالذكر ذكر من الله لمن ذكره فى صلاته .

ولا شكَّ أن ذكر الله لك أكبر ، وأعظم من ذِكْرك له سبحانه ؛ لأنك ذكرتَ الله منذ بلوغك إلى أن تموت ، أما هو سبحانه فسيعطيك بذكرك له منازل عالية لا نهايةَ لها فى يوم لا تموت فيه ولا تنقطع عنك نعَمه وآلاؤه ، فالمعنى : ولذكر الله لك بالثواب والرحمة أكبر من ذكْرِكَ له بالطاعة[1] . هذا على معنى أن الذكر صادر من الله للعبد .

المعنى الآخر أن يكون الذكْر صادراً من العبد لله ، يعنى : ولذكْر الله خارج الصلاة أكبر من ذكْر الله فى الصلاة ، كيف ؟ قالوا : لأنك فى الصلاة تُعد نفسك لها بالوضوء ، وتتهيأ لها لتكون فى حضرة ربك بعد تكبيرة الإحرام ، فإذا ما انتهتْ الصلاة وخرجتَ منها إلى حركة الحياة فذكْرك لله وأنت بعيد عن حضرته وأنت مشغول بحركة حياتك أعظم وأكبر من ذِكْرك فى الحضرة .

ومثال ذلك - ولله تعالى المثل الأعلى - مَنْ يمدح الأمير ويُثنى عليه فى حضرته ، ومَنْ يمدحه فى غيبته ، فأيُّهما أحلى ، وأيُّهما أبلغ وأصدق فى الذكْر ؟

---

(١) قال معناه ابن مسعود وابن عباس وأبو الدرداء وأبو قرة وسلمان والحسن ، وهو اختيار الطبرى . قاله القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٣٩) .

واقرأ فى ذلك قوله تعالى عن صلاة الجمعة :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ .. ⑨ ﴾ [الجمعة]

يعنى : ذكْر الله فى الصلاة ، ولا تظنوا أن الذكْر قاصر على الصلاة فقط إنما : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ⑩ ﴾ [الجمعة] فيجب ألاَّ يغيب ذكْر الله عن بالك أبداً ؛ لأن ذكْرك لربك خارج الصلاة أكبر من ذكْرك له سبحانه فى الصلاة .

ورُوى عن عطاء بن السائب أن ابن عباس سأل عبد الله بن ربيعة : ما تقول فى قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. ㊺ ﴾ [العنكبوت] ؟ فقال : قراءة القرآن حسَن ، والصلاة حسن ، وتسبيح الله حسن ، وتحميده حسن ، وتكبيره حسن ، والتهليل له حسن . لكن أحسن من ذلك أن يكون ذكْر الله عند طروق المعصية على الإنسان ، فيذكر ربه ، فيمتنع عن معصيته .

فماذا قال ابن عباس ـ مع أن هذا القول مخالف لقوله فى الآية ـ؟ قال : عجيب والله[1] ، فأعجب بقول ابن ربيعة ، وبارك فهمه للآية ، ولم ينكر عليه اجتهاده ؛ لأن الإنسانَ طبيعى أن يذكر الله فى حال الطاعة ، فهو متهيىء للذكْر ، أما أنْ يذكره حال المعصية فيرتدع

---

(١) أورده ابن جرير الطبرى فى تفسيره ، وكذا ابن كثير فى تفسيره (٣/٤١٥) قال عبد الله ابن ربيعة : قال لى ابن عباس : هل تدرى ما قوله تعالى ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. ㊺ ﴾ [العنكبوت] ؟ قلت : التسبيح والتحميد والتكبير فى الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك . قال : لقد قلت قولاً عجيبا ، وما هو كذلك ، ولكنه إنما يقول : ذكر الله إياكم عندما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم إياه » . قال السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٦٦) : أخرجه الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى شعب الإيمان .

عنها ، فهذا أقْوى وأبلغ ، وهذا أكبر كما قال سبحانه ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت]

لذلك جاء فى الحديث الشريف : « سبعة يظلهم الله فى ظلِّه ، يوم لا ظلَّ إلا ظله - ومنهم : ورجل دَعَتْه امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله »[1] هذا هو ذكْر الله الأكبر ؛ لأن الدواعى دواعى معصية ، فيحتاج الأمر إلى مجاهدة تُحوِّل المعصية إلى طاعة .

أما قول ابن عباس فى ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] أن ذكْر ربكم لكم بالثواب والرحمة أكبر من ذكْركم له بالطاعة . وحيثيات هذا القول أن ربك - عز وجل - لم يُكلِّفك إلا بعد سنِّ البلوغ ، وتركك تربَع فى نعمه خمسة عشر عاماً دون أنْ يُكلفك ، ثم يُوالى عليك نعَمه ، ولا يقطع عنك مدده حتى لو انصرفتَ عن منهجه ، بل حتى لو كفرتَ به لا يقبض عنك يد عطائه ونعمه .

إذن : فذكْر الله لك بالخَلْق من عدم ، والإمداد من عُدم ، وموالاة نعَمه عليك أكبر من ذكْرك له بالطاعة ، وقد ذكرك سبحانه قبل أنْ يُكلِّفك أن تذكره . كما أن ذكركم له سبحانه بالطاعة فى الدنيا موقوت ، أما ذكْره لكم بالثواب والجزاء والرحمة فى الآخرة فممتد لا ينقطع أبداً .

ثم تختم الآية بقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)﴾ [العنكبوت] هذه الكلمة نأخذها على أنها بشارة للمؤمن ، ونذارة للكافر ، كما تقول للتلاميذ يوم الامتحان : سينجح المجتهد منكم ، فهى بشارة

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ضمن حديث : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

للمجتهد ، وإنذار للمهمل ، فالجملة واحدة ، والإنسان هو الذى يضع نفسه فى أيهما يشاء .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يُعلِّمنا كيف نجادل أهل الكتاب ، وقبل أن نتكلم عن ألوان الجدل فى القرآن الكريم نقول : ما معنى الجدل ؟

الجدل : مأخوذ من الجَدْل ، وهو فَتْل الشىء ليشتد بعد أنْ كان ليناً كما نفتل حبالنا فى الريف ، فالقطن أو الصوف مثلاً يكون منتفشاً يأخذ حيزاً واسعاً ، فإذا أردْنا أن نأخذ منه خيطاً جمعنا بعض الشعيرات ليُقوِّى بعضها بعضاً بلفِّها حول بعضها ، وبجَدْل الخيوط نصنع الحبال لتكون أقوى ، وعلى قَدْر الغاية التى يُراد لها الحبل تكون قوته .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٣٤٠) :

« اختلف العلماء فى قوله تعالى ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ .. ㊻﴾ [العنكبوت]

- فقال مجاهد : هى محكمة ، فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عز وجل ، والتنبيه على حججه وآياته ، رجاء إجابتهم إلى الإيمان ، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة .

- وقيل : هذه الآية منسوخة بآية القتال قوله تعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. ㉙﴾ [التوبة] » .

ثم قال القرطبى : « قول مجاهد حسن ؛ لأن أحكام الله عز وجل لا يُقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر ، أو حجة من معقول . واختار هذا القول ابن العربى » .

ومن الجدل أُخذ الجدال والجدَل والمجادلة ، وفى معناها : الحوار والحجاج والمناظرة ، ومعناه أن يوجد فريقان لكل منهما مذهب يؤيده ويدافع عنه ليفتن الآخر أى : ليلفته عن مذهبه إلى مذهبه هو .

فإذا كان المقصود هو الحق فى الجدال أو الحِجَاج أو المناظرة فهذا الاسم يكفى ، لكن إنْ دخل الجدال إلى مِراءٍ أو لجاجة ، فليس القصد هو الحق ، إنما أنْ يتغلَّب أحد الفريقين على الآخر ، والجدل فى هذه الحالة له أسماء متعددة ، منها قوله تعالى : ﴿ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ .. (٧٥) ﴾ [المؤمنون]

لكن إذا فَتَلْنا الشىء المنفوش حتى صار مُضْمراً ، وأخذ من الضمر قوة ، أأنت تجعل فى الجدل خَصْمك قوياً ؟ إنك تحاول أنْ تُقوِّى نفسك فى مواجهته . قالوا : حين أنهاه عن الباطل وأعطفه ناحية الحق ، فإنه يقوى يقينه فى شىء ينفعه ، وكأنه كان منتفشاً آخذاً حيِّزاً أكبر من حجمه بالباطل الذى كان عليه ، فأنا قوّيته بالحق . وفى العامية نقول (فلان منفوخ على الفاضى) أو نقول (فلان نافش ريشه) كأنه أخذ حيزاً أكبر من حجمه .

لذلك نلحظ أن التغلب فى الجدل لا يكون لمجرد الجدل ، إنما تغلُّبك لحق ينفع الغير ويُقويه ويردّه إلى حجمه الطبيعى .

أو : أن الجدل مأخوذ من الجدال وهى الأرض ، كأن يطرح القوى الضعيف أرضاً فى صراع مثلاً .

والجدال يكون بين شخصين ، لكل منهما رأيه الذى يألفه ويحبه ويقتنع به ، فحين تجادله تريد أنْ تُخرِجه عن رأيه الذى يألف إلى

رأيك الذى لا يألفه ولم يعتده ، فأنت تجمع عليه أمرين : أنْ تُخرجه عما ألف واعتاد إلى ما لم يألف ، فلا يكُنْ ذلك بأسلوب يكرهه حتى لا تجمعَ عليه شدتين .

فعليك إذن باللين والاستمالة برفق ؛ لأن النصح ثقيل كما قال شوقى رحمه الله : فلا تجعله جبلاً ، ولا ترسله جَدَلاً ، وعادة ما يُظهر الناصح أنه أفضل من المنصوح . ويقولون : الحقائق مرة ، فاستعيروا لها خِفَّة البيان ؛ لأنك تُخرج خَصْمك عما ألِف ، فلا تخرجه عما ألف بما يكره ، بل بما يحب .

والإنسان قد يُعبِّر عن الحقيقة الواحدة تعبيراً يُكره ، ويُعبِّر عنها تعبيراً يُحب وترتاح إليه ، كالملك الذى رأى فى منامه أن كل أسنانه قد سقطتْ ، فطلب مَنْ يُعبِّر له ما رأى ، فجاءه المعبِّر واستمع منه ، ثم قال : معنى هذه الرؤيا يا مولاى أن أهلك جميعاً سيموتون ، فتشاءم من هذا التعبير ولم يُعجبه ، فأرسلوا إلى آخر فقال : هذا يعنى أنك ستكون أطولَ أهل بيتك عُمراً ، فَسُرَّ الملك بقوله . فهنا المعنى واحد ، لكن أسلوب العرض مختلف .

ودخل رجل على آخر ، فوجده يبكى فقال : ما يُبكيك ؟ قال : أُخِذْتُ ظلماً ، فتعجب وقال : فكيف بك إذا أُخِذْتَ عدلاً ؟ أكنت تضحك . والمعنى أن مَنْ أُخذ ظلماً لا ينبغى له أن يحزن ؛ لأنه لم يفعل شيئاً يشينه ، والأَوْلَى بالبكاء من أُخذ عدلاً وبحقٍّ .

ورجل قُتل له عزيز فجلس يصرخ ويولول ، فدخل عليه صاحبه مُواسياً فقال له الرجل : إن ابنى قُتل ظلماً ، فقال صاحبه : الحمد لله الذى جعل منك المقتول ، ولم يجعلْ منك القاتل .

إذن : سلامة المنطق وخِفَّة البيان أمر مهم ، وعلى المجادل أن

يراعى بيانه ، وأن يتحين الفرصة المناسبة ، فلا تجادل خصمك وهو غضبان منك أو وأنت غضبان منه . قالوا : مَرَّ رجل فوجد صبياً يغرق فى البحر ، فلم ينتظر حتى يخلع ثيابه ، وألقى بنفسه وأنقذ الصبى ، ثم أخذ يضربه ويلطمه ، والولد يقول : شكراً لك بارك الله فيك ، لماذا ؟ لأنه قسا عليه بعد أنْ أنقذه ، لكن ما الحال لو وقف على البَرِّ ، وكال له الشتائم وعنَّفه ، لماذا ينزل البحر وهو لا يعرف العوم ؟ لذلك يقول الحكماء : آسِ ثم انصح .

لذلك يُعلِّمنا ربنا - عز وجل - أصول الجدل وآدابه ؛ لأنه يريد أن يُخرِج بهذا الجدل أناساً من الكفر إلى الإيمان ، ومن الجحود إلى اليقين ، وهذا لا يتأتَّى إلا باللطف واللين ، كما قال سبحانه : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥)﴾ [النحل]

ويُعلِّمنا سبحانه أن للجدل مراتبَ بحسب حالة الخَصم ، فالذى ينكر وجود الله له جدل مخصوص ، والذى يؤمن بوجود الله ويقول : إن معه شريكاً . له جدل آخر ، ومَنْ يؤمن بالله ويقول سأتبع نبيىّ ولن أتبعك له جدل آخر وبشكل خاص ، والمختلفون معك من أهل ملَّتك لهم جدل يليق بحالهم .

إذن : للجدل مراتب نلحظها فى أسلوب القرآن ، فبم جادل الذين لا يؤمنون بوجود إله ؟ قال : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦)﴾ [الطور]

فأتى لهم بمسألة الخَلْق الظاهرة التى لم يدَّعها أحد ، ولا يجرؤ أحد على إنكارها ، حتى المشركون والملاحدة ؛ لأن أتفه الأشياء فى صناعاتهم يعرفون صانعها ، ويُقرُّون له بصنعته ، ولو كانت كوباً من زجاج أو حتى قلم رصاص ، لا بُدَّ أن لكل صنعة صانعاً يناسبها .

أليس مَنْ خلق السموات والأرض والشمس والقمر .. إلخ أوْلَى بأن يعترفوا له سبحانه بالخَلْق ؟ وهم أنفسهم مخلوقون ولم يقولوا إنَّا خلقنا أنفسنا ، ولم يقولوا خلقنا غيرنا ، فمَنْ خلقهم إذن ؟

وقلنا : إن الدَّعْوى تثبت لصاحبها ما لم يَقُم لها معارض ، والحق - سبحانه وتعالى - قال علانية ، وعلى لسان رسله ، وفى قرآن يُتْلَى إلى يوم القيامة ، وأسمع الجميع : أنا خالق هذا الكون . فإنْ قال معاند : فَمَنْ خلق الله ؟ نقول : الذى خلقه عليه أن يعلن عن نفسه .

والحق سبحانه شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨)﴾ [آل عمران] ولم يقُلْ أحد أنا الإله : إذن : الذين ينكرون الخالق لا حَقَّ لهم . هذا فى جدال الملاحدة الذين ينكرون وجود الله .

أما الذين يؤمنون بوجود الله ، لكن يتخذون معه سبحانه شركاء ، فنجادلهم على النحو التالى : شركاؤكم مع الله غَيْب أم شهادة ؟ إنْ قالوا : غَيْب فإن الله تعالى شهد لنفسه بالوَحدانية . وقال : أنا واحد لا شريكَ لى ، فأين كان شركاؤكم ؟

لماذا لم يدافعوا عن ألوهيتهم مع الله ؟ إما لأنهم ما دروا بهذا الإعلان ، وإما أنهم دَرَوا وعجزوا عن المَواجهة ، وفى كلتا الحالتين تنتفى عنهم صفة الألوهية ، فأىُّ إله هذا الذى لا يدرى بما يدور حوله ، أو يجبن عن مواجهة خَصْمه ؟

فإنْ قالوا : شركاؤنا الأصنام والأشجار والكواكب وغيرها ، فهذه من صُنْع أيديهم ، فكيف يعبدونها ، ثم هى آلهة لا منهجَ لها ولا تكاليفَ ، وإلا فبماذا أمرتهم وعَمَّ نهتْهم ؟ إذن : عبادتهم لها باطلة .

ثم نسأل الذين يتخذون مع الله شركاء : أهؤلاء الذين تشركونهم

مع الله يتواردون على الأشياء بقدرة واحدة ، أم يتناوبون عليها ، كل منهم يقدر على شيء معين ؟

إنْ كانوا يزاولون الأشياء بقدرة واحدة ، فواحد منهم يكفى والباقون لا فائدة منهم ، وإنْ كانوا يتناوبون على الأشياء ، فكلٌّ منهم قادر على شيء عاجز عن الشيء الآخر ، والإله لا يكون عاجزاً .

وقد رَدَّ الحق سبحانه على هؤلاء بقوله تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء] أى : لَذهبوا إليه إما ليُعنِّفوه ويُصفّوا حساباتهم معه ، وكيف أخذ الأمر لنفسه ، وإما ليتوددوا إليه ويعاونوه .

وفى موضع آخر : ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون]

وبعد أنْ بيَّنا جدال الملاحدة الذين ينكرون وجود الإله وجدال أهل الشرك نجادل أهل الكتاب ، وهم ألطفُ من سابقيهم ؛ لأنهم مؤمنون بإله وأنه الخالق ، ومؤمنون بالبلاغ عن الله ، ومؤمنون بالكتب التى نزلت ، والخلاف بيننا وبينهم أنهم لا يؤمنون برسالة محمد ﷺ فى حين نؤمن نحن برسلهم وكتبهم ، وهذه أول مَيْزة تميَّز بها الإسلام على الأديان الأخرى .

ونقول لهؤلاء : لقد آمنت برسولك ، وقد سبقه رسل ، فلماذا تنكر أن يأتى رسول بعده ؟ ثم هل جاء الرسول بعد رسولك ليناقضه فى أصول الأشياء ؟ إنهم جميعاً متفقون على أصول العقيدة والأخلاق ، متفقون على أنهم عباد لله متحابون ، فلماذا تختلفون أنتم ؟

فربنا ـ تبارك وتعالى ـ يُعلِّمنا ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت] لأنهم ليسوا ملاحدة ولا مشركين ، فهم

مـؤمنون بإلهكم وبالرسل وبـالكتب ، غـاية ما هنـالك أنهم لا يؤمنون برسـولكم .

لذلك يعترض بعض الناس : كيف يبـيح الإسلام أنْ يتزوج المسلم من كتابية ، ولا يبيح للمسلمة أن تتـزوج كتابياً ؟ نقول : لأن أصل القوامة فى الزواج للرجل ، والزوج المؤمن حـين يتزوج كتـابية مؤمن برسولها ، أما الزوج الكتابى فغير مؤمن برسول المؤمنة ، فالفرْق بينهما كبير .

ومعنى : ﴿ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ۝٤٦ ﴾ [العنكبوت] أن فى الجدال حسناً وأحسـن ، وقد سبق الجدال الحسن فى قـوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَـلالٍ مُّـبِينٍ ۝٢٤ ﴾ [سبأ] ونوح عليـه السلام يتلطف فى جدال قومه ، فيقول : ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ۝٣٥ ﴾ [هود]

فينسب الافتراء إلى نفسه ، ويتهم نفسه بالإجرام إنِ افترى ، فإنْ لم يكُنْ هو المفتر ، وهو المجرم فَهُمْ .

ونبينا محمد ﷺ يقول فى جدال قومه : ﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٥ ﴾ [سبأ] فيذكر ﷺ الجريمة فى حقه هو ولا يذكرها فى حَقِّ المعاندين المكذِّبين ، فأىُّ أدب فى الدعوة أرفع من هذا الأدب ؟

إذن : جادل غير المؤمنين بالحسن ، وجادل أهل الكتاب بالتى هى أحسن ، لما يمتازون به عن غيرهم من ميزة الإيمان بالله . فإنْ تعدَّوْا وظلمـوا أنفسـهم فى مسـألة القمـة الإيمـانيـة ، فادعـوا أن لله ولداً أو غيره ، فإنـهم بذلك يدخلون فى صفوف سابقيهم من المـشركين ، فإنْ كنا مأمـورين بأن نجادلهم بالتى هى أحسن وقـالوا بهذا القول ، فعلينـا أن نجادلهم بما يقـابل الأحسن ، نجـادلهم إما بالحـسن ، وإما بغير الحسن أى : بالسيف .

لكن ، هل يفرض السيف عقائد ؟ السيف لا يأخذ من الناس إلا قوالبهم . أمّا القلوب فلا يخضعها إلا الإيمان ، والله تعالى لا يريد قوالب ، إنما يريد قلوباً .

واقرأ قوله تعالى في سورة الشعراء : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [الشعراء] فإنْ أراد سبحانه قَهْر القوالب والقلوب على الخضوع ، بحيث لا يستطيع أحد أنْ يتأبَّى على الإيمان ما وُجد كافر ، وما كفر الكافر إلا لما أعطاه الله من منطقة الاختيار ؛ فالحق سبحانه يريد منّا قلوباً تحبه سبحانه وتعبده ؛ لأنه سبحانه يستحق أنْ يُعبد .

إذن : الذين يخرجون عن نطاق الكتابية بتجاوزهم الحدَّ ، وقولهم أن عيسى ابن الله ، أو أن الله ثالث ثلاثة ، إنما يدخلون في نطاق الشرك والكفر ، ولن نقول لهؤلاء : اتبعوا رسولنا ، وإنما اتبعوا رسولكم ، والكتاب الذي جاءكم به من عند الله ، وسوف تجدون فيه البشارة بمحمد ﴿ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ .. (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

إذن : فحين تكفر فأنت لا تكفر بمحمد ولا بالقرآن ، إنما تكفر أولاً بكتابك أنت ؛ لذلك يعلمنا الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ .. (١٧) ﴾ [المائدة] وقال أيضاً : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ .. (٧٣) ﴾ [المائدة]

أي : لا تعاملوهم على أنهم كتابيون ، ولما سُئِلْنا في الخارج من أبنائنا الذين يرغبون في الزواج من أجنبيات ، فكنت أقول للواحد منهم : سَلْها أولاً : ماذا تقول في عيسى ، فإنْ قالت هو رسول الله فتزوجها وأنت مطمئن ؛ لأنها كتابية ، وإن قالت : ابْن الله ، فعاملها على أنها كافرة ومشركة .

هذا فى معنى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت] ونحن لا نحمل السيف فى وجه هؤلاء ؛ لأن السيف ما جاء إلا ليحمى اختيار المختار ، فلى أنْ أعرض دينى ، وأنْ أُعلنه وأشرحه ، فإنْ منعونى من هذه فلهم السيف ، وإنْ تركونى أعلن عن دينى فهم أحرار ، يؤمنون أو لا يؤمنون .

إنْ آمنوا فأهلاً وسهلاً ، وإنْ لم يؤمنوا فهم أهل ذمة ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ويدفعون الجزية نظير ما يتمتعون به فى بلادنا ، ونظير حمايتنا لهم ، وما نُقدِّمه لهم من خدمات ، وإلا فكيف نفرض على المؤمنين الزكاة ونترك هؤلاء لا يقدمون شيئاً ؟

لذلك نرى الكثيرين من أعداء الإسلام يعترضون على مسألة دَفْع الجزية ، ويروْنَ أن الإسلام فُرِض بقوة السيف ، وهذا قول يناقض بعضه بعضاً ، فما فرضنا عليكم الجزية إلا لأننا تركناكم تعيشون معنا على دينكم ، ولو أرغمناكم على الإسلام ما كان عليكم جزية .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة] لأننى لا أُكرهك على شىء إلا إذا كنتَ ضعيف الحجة ، وما دام أن الرشْد بيِّن والغيَّ بيِّن ، فلا داعىَ للإكراه إذن .

لكن البعض يفهم هذه الآية فهماً خاطئاً فحين تقول له : صَلِّ . يقول لك ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة] ونقول له : لم تفهم المراد ، فلا إكراه فى أصل الدين فى أنْ تؤمن أو لا تؤمن ، فأنت فى هذه حُرٌّ ، أمّا إذا آمنتَ وأعلنتَ أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فليس لك أن تكسر حَدّاً من حدود الإسلام ، وفَرْق بين « لا إكراه فى الدين » و « لا إكراه فى التدين » .

ومن حكمة الإسلام أن يعلن حكم الردة لمن أراد أنْ يؤمن ، نقول له قف قبل أن تدخل الإسلام ، اعلم أنك إنْ تراجعت عنه وارتددتَ قتلناك ، وهذا الحكْم يضع العقبة أمام الراغب فى الإسلام حتى يفكر أولاً ، ولا يقدم عليه إلا على بصيرة وبينة .

وإذا قيل ﴿ أَهْلَ الْكِتَابِ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : الكتاب المنزَّل من الله ، وقد علَّم الله تعالى رسوله ﷺ أنْ يجادل المشركين بقوله : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النحل] فعلم الرسول أن يرجع إلى أهل الكتاب ، وأنْ يأخذ بشهادتهم ، وفى موضع آخر علَّمه أن يقول لمن امتنع عن الإيمان :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الرعد]

إذن : فرسولنا يستشهد بكم ، لما عندكم من البينات الواضحة والدلائل على صدقه . حتى قال عبد الله بن سلام[1] : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد[2] ، ولم لا يعرفونه وقد ذُكر فى كتبهم باسمه ووصفه : ﴿ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ .. ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف]

ثم ألم يحدث منكم أنكم كنتم تستفتحون به على المشركين فى

---

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى ، أبو يوسف : صحابى ، أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، وكان اسمه « الحصين » فسماه ﷺ عبد الله ، شهد مع عمر فتح بيت المقدس ، لما كانت الفتنة بين على ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هـ . [الأعلام للزركلى ٤/٩٠] .

(٢) يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه » . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/١٩٤) .

المدينة ، وتقولون : لقد أطلَّ زمان نبى يُبعث فى مكة ، فنتبعه ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم[1] ؟ فلما جاءكم النبى الذى تعرفون أنكرتموه وكفرتم به : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩) ﴾ [البقرة]

كيف يستشهد الله على صدق رسوله بكم وبكتبكم ثم تكذبون ؟ قالوا : كذَّبوا لما لهم من سلطة زمنية يخافون عليها ، ورأوا أن الإسلام سيسلبهم إياها .

وكلمة ﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت] وردت فى القرآن ، لكن فى غير الجدل فى الدين ، وردت فى كل شىء يُوجب جدلاً بين أناس ؛ وذلك فى قوله سبحانه : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

وقد جاءنى رجل يذكر هذه الآية ، وما يترتب على الإحسان ، يقول : عملتُ بالآية فلم أجد الولى الحميم ؟ قلت له : كوْنك تحمل هذا الأمر فى رأسك دليل على أنك لم تدفع بالتى هى أحسن ؛ لأن الله تعالى لا يقرر قضية قرآنية ، ويُكذِّبها واقع الحياة ، فإنْ دفعتَ بالتى هى أحسن بحقٍّ لا بُدَّ وأنْ تجد خَصْمك كأنه ولىٌّ حميم .

لذلك يقول أحد العارفين[2] :

يَا مَنْ تُضَايِقه الفِعَالُ مِنَ التى وَمَنَ الذى

ادْفَعْ فديْتُكَ بالتى حتَّى تَرى فإذَا الذى

---

(١) عن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أطل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١٢٤/١) نقلاً عن ابن إسحاق .

(٢) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

والمعنى : من التى تسىء إليك ، أو الذى يسىء إليك ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٣٤)﴾ [فصلت] حتى ترى ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت]

وأذكر أنه جاءنى شاب يقول : إن عمى مُوسر ، وأنا فقير ، وهو يتركنى ويتمتع بماله غيرى ، فقلت له : بالله أتحب النعمة عند عمك ؟ فسكت ، قلت له : إذن أنت لا تحبها عنده ، لكن اعلم أن النعمة تحب صاحبها أكثر من حُبِّ صاحبها لها ؛ لذلك لا تذهب إلى كارهها عند صاحبها .

فما عليك إلا أنْ تثوب إلى الحق ، وأنْ تتخلص مما تجد فى قلبك لعمك ، وثقْ بأن الله هو الرزاق ، وإنْ أردتَ نعمة رأيتها عند أحد فأحببها عنده ، وسوف تأتيك إلى بابك ، لأنك حين تكره النعمة عند غيرك تعترض على قدر الله .

بعد هذا الحوار مع الرجل ـ والله يشهد ـ دَقَّ جرس الباب ، فإذا به يقول لى : أما دريتَ بما حدث ؟ قلت : ماذا ؟ قال : جاءنى عمى قبل الفجر بساعة ، فلما أنْ فتحت له الباب انهال علىَّ ضَرْباً وشَتْماً يقول : لماذا تتركنى للأجانب يأكلون مالى وأنت موجود ؟ ثم أعطانى المفاتيح وقال : من الصباح تباشر عملى بنفسك . فقلت له : لقد أحببتها عند عمك ، فجاءت تطرق بابك .

وقوله سبحانه ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ .. (٤٦)﴾ [العنكبوت] أى : ظلموا أنفسهم بالشرك ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان] تظلم نفسك لا تظلم الله ؛ لأن الظالم يكون أقوى من المظلوم . وجعل الشرك ظلماً عظيماً لأنه ذنبٌ لا يغفر : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (١١٦)﴾ [النساء]

فالشرك ظلم عظيم عليك نفسك ، أما الذنوب دون الشرك فلها مخرج ، وقد تنفكّ عنها إما بالتوبة وإما برحمة الله ومغفرته .

ثم يُعلِّمنا الحق - تبارك وتعالى - التى هى أحسن فى الردِّ على الذين ظلموا منهم : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ [العنكبوت]

يعنى : فعلامَ الاختلاف ، ما دام أن الإله واحد ، وما دام أن كتابكم يذكر الرسول الذى يأتى بعد رسولكم ، وقد سبق رسولكم رسل ، فكان يجب عليكم أن تؤمنوا به ، وأنْ تُصدِّقوه .

جاءت امرأة تشتكى أن زوجها لم يُوف بما وعدها به ، وقد اشترطتْ عليه قبل الزواج ألاَّ يذهب إلى زوجته الأولى ، فقُلْت لها : يعنى أنت الثانية وقد رضيت به وهو متزوج ؟ قالت : نعم ، قلت : فلماذا رضيتِ به ؟ قالت : أعجبنى وأعجبته ، قلت : فلا مانع إذن أنْ تعجبه أخرى فيتزوجها ، وتقول له : إياك أنْ تذهب إلى الثانية ، فهل هذا يعجبك ؟ إذن : فاحترمى حقَّ الأولى فيه ، لتحترم الثالثة حقك فيه ، فقامت وانصرفت .

وقال : ﴿ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَاحِدٌ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت] لأن الكلام هنا للذين ظلموا وقالوا بالتعدد .

وهنا قال تعالى ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ [العنكبوت] ولم يقل مثلاً : ونحن به مؤمنون ، لماذا ؟ لأن الإيمان عقيدة قلبية أنْ تؤمن بإله ، أمّا الإيمان فليس كلاماً ، الإيمان أن تثق به ، وأنْ تأمنه على أنْ يُشرِّع لك ، وأنْ تُسلم له الأمر فى « افعل كذا » « ولا تفعل كذا » ، وهناك أناس ليسوا بمؤمنين بقلوبهم ، ومع ذلك يعملون عمل المسلمين ، إنهم المنافقون .

لذلك يقول تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجرات]

إذن : فَرْق بين إيمان وإسـلام ، فقد يتوفر أحدهما دون الآخر ؛ لذلك قال سبحانه ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [العصر] فقال هنا : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى : مُنفِّذين لتعاليم ديننا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : كما أنزلنا كتباً على مَنْ سبقك أنزلنا إليك كتاباً يحمل منهجاً ، والكتب السماوية قسمان : قسم يحمل منهج الرسول فى (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، وذلك شركة فى كل الكتب التى أُنزلَتْ على الرسل ، وكتاب واحد هو القرآن ، هو الذى جاء بالمنهج والمعجزة معاً .

فكلُّ الرسل قبل محمد ﷺ كان للواحد منهم كتاب فيه منهج ومعجزة منفصلة عن المنهج ، فموسى عليه السلام كان كتابه التوراة ، ومعجزته العصا ، وعيسى عليه السلام كان كتابه الإنجيل ، ومعجزته إحياء الموتى بإذن الله .

أما رسول الله ﷺ ، فكتابه القرآن ومعجزته القرآن ، فانظر كيف

التقت المعجزة بالمنهج لتظل لصيقة به ؛ لأن زمن رسالة محمد ممتدٌّ إلى قيام الساعة ، فلا بُدَّ أنْ تظل المعجزة موجودة ليقول الناس محمد رسول الله ، وهذه معجزته .

في حين لا نستطيع مثلاً أن نقول : هذا عيسى رسول الله وهذه معجزته ؛ لأنها ليست باقية ، ولم نعرفها إلا من خلال إخبار القرآن بها ، وهذا يُوضِّح لنا فَضْل القرآن على الرسل وعلى معجزاتهم ، حيث ثبتها عند كل مَنْ لم يَرهَا ، فكل مَنْ آمن بالقرآن آمن بها .

لكن ، أكُلُّ رسول يأتي بمعجزة ؟ المعجزة لا تأتي إلا لمن تحدَّاه ، واتهمه بالكذب ، فتأتي المعجزة لتثبت صدْقه في البلاغ عن ربه ؛ لذلك نجد مثلاً أن سيدنا شيثاً وإدريس وشَعيباً ليست لهم معجزات .

وأبو بكر - رضي الله عنه - والسيدة خديجة أم المؤمنين هل كانا في حاجة إلى معجزة ليؤمنا برسول الله ؟ أبداً ، فبمجرد أنْ قال : أنا رسول الله آمنوا به ، فما الداعي للمعجزة إذن ؟

إذن : تميَّز ﷺ على إخوانه الرسل بأن كتابه هو عَيْن معجزته . وسبق أنْ قلنا : إن الحق - تبارك وتعالى - يجعل المعجزة من جنس ما نبغ فيه القوم ، فلو تحداهم بشيء لا علْم لهم به لقالوا : نحن لا نعلم هذا ، فكيف تتحدَّانا به ؟ والعرب كانوا أهل فصاحة وبيان ، وكانوا يقيمون للقوْل أسواقاً ومناسبات ، فتحداهم بفصاحة القرآن وبلاغته أنْ يأتوا بمثله ، ثم بعشر سُور ، ثم بسورة واحدة ، فما استطاعوا ، والقرآن كلام من جنس كلامهم ، وبنفس حروفهم وكلماتهم ، إلا أن المتكلم بالقرآن هو الله تعالى ؛ لذلك لا يأتي أحد بمثله .

والقرآن أيضاً كتاب يهيمن على كل الكتب السابقة عليه ، يُبقى منها ما يشاء من الأحكام ، ويُنهى ما يشاء . أما العقائد فهى ثابتة لا نسخَ فيها ، وأيضاً لا نسخَ فى القصص والأخبار .

والنسْخ لا يتأتى إلا فى التشريع بالأحكام افعل ولا تفعل ، ذلك لأن التشريع يأتى مناسباً لأدواء البيئات المختلفة .

لذلك كان بعض الرسل يتعاصرون كإبراهيم ولوط ، وموسى وشعيب ، عليهم السلام ، ولكل منهم رسالته ؛ لأنه متوجه إلى مكان بعينه ليعالج فيه داءً من الداءات ، فى زمن انقطعت فيه سُبُل الالتقاء بين البيئات المختلفة ، فالجماعة فى مكان ربما لا يَدْرون بغيرهم فى بيئة مجاورة .

أما محمد ﷺ فقد جاء - كما يعلم ربه أزَلاً - على موعد مع التقاء البيئات وتداخُل الحضارات ، فالحدث يتم فى آخر الدنيا ، فنعلم به ، بل ، ونشاهده فى التوِّ واللحظة ، وكأنه فى بلادنا . إذن : فالداءات ستتحد أيضاً ، وما دامت داءات الأمم المختلفة قد اتحدتْ فيكفى لها رسول واحد يعالجها ، ويكون رسولاً لكل البشر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ .. (٤٧) ﴾ [العنكبوت] أى : من قبلك ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ .. (٤٧) ﴾ [العنكبوت] لأنه لا سلطة زمنية تعزلهم عن الكتاب الجديد ، فينظرون فى أوصاف النبى الجديد التى وردتْ فى كتبهم ثم يطابقونها على أوصاف رسول الله ؛ لذلك لما بلغ سلمان الفارسى[1] أن بمكة نبياً جديداً ، ذهب إلى سيدنا رسول الله ،

---

(١) سلمان الفارسى ، صحابى ، من مقدميهم ، أصله من مجوس أصبهان ، عاش عمراً طويلاً ، قرأ كتب فارس والروم واليهود ، وقصد بلاد العرب ، وسمع كلام النبى ﷺ ، أظهر إسلامه ، وهو الذى دل المسلمين على حفر الخندق فى غزوة الأحزاب ، توفى ٣٦ هـ بالمدائن وكان أميراً عليها . [الأعلام للزركلى ٣/١١٢] .

وأخذ يتأمله وينظر إليه بإمعان ، فوجد فيه علامتين مما ذكرتْ الكتب السابقة ، وهما أنه ﷺ يقبل الهدية ، ولا يقبل الصدقة ، فراح ينظر هنا وهناك لعله يرى الثالثة ، ففطن إليه رسول الله بما آتاه الله من فطْنة النبوة التى أودعها الله فيه ، وقال : لعلك تريد هذا ، وكشف له عَن خاتم النبوة ، وهو العلامة الثالثة[1] .

ومن لباقة سيدنا عبد الله بن سلام ، وقد ذهب إلى سيدنا رسول الله وهو ـ ابن سلام ـ على يهوديته ـ فقال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بُهْت ـ يعنى يُكثرون الجدال دون جدوى ـ وأخشى إنْ أعلنتُ إسلامى أن يسبونى ، وأن يظلمونى ، ويقولوا فِىَّ فُحْشاً ، فأريد يا رسول الله إنْ جاءوك أنْ تسألهم عنى ، فإذا قالوا ما قالوا أعلنتُ إسلامى ، فلما جاء جماعة من اليهود إلى رسول الله سألهم : ما تقولون فى عبد الله بن سلام ؟ قالوا : شيخنا وحَبْرنا وسيدنا .. إلخ فقال عبد الله : أما وقد قالوا فىَّ ما قالوا : يا رسول الله ، فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . فقالوا لتوِّهم : بل أنت شرنا وابن شرنا ، ونالوا منه ، فقال عبد الله : ألم أقُلْ لك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت[2] ؟

وقوله سبحانه ﴿وَمِنْ هَـٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ .. ﴿٤٧﴾﴾ [العنكبوت] أى : من كفار مكة مَنْ سيأتى بعد هؤلاء ، فيؤمن بالقرآن ﴿وَمَا يَجْحَدُ

(١) ذكر البيهقى قصة إسلام سلمان الفارسى فى كتاب دلائل النبوة فى ١٨ صفحة (١/٨٢-١٠٠) وفيه أنه عندما قابل رسول الله ﷺ ورأى أنه يأكل الهدية ولا يقبل الصدقة دار خلف رسول الله ، يقول سلمان : « ففطن لى النبى ﷺ فأرخى ثوبه ، فإذا الخاتم فى ناحية كتفه الأيسر فتبينته ، ثم درت حتى جلست بين يديه فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله » .

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٥٢٦ - ٥٢٩) ، والبخارى فى صحيحه (٣٩١١) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ (٤٧) ﴾ [العنكبوت] الجحد : إنكار متعمد ؛ لأن من الإنكار ما يكون عن جهل مثلاً ، والجحد يأتي من أن النِّسب إما نفي ، وإما إثبات ، فإنْ قال اللسان نسبة إيجاب ، وفي القلب سلْب أو قال سلب وفي القلب إيجاب ، فهذا ما نُسمِّيه الجحود .

لذلك يُفرِّق القرآن بين صيغة اللفظ ووجدانيات اللفظ في النفس ، واقرأ مثلاً قول الله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. (١) ﴾ [المنافقون] وهذا منهم كلام طيب وجميل ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ .. (١) ﴾ [المنافقون] أي : أنه كلام وافق علم الله ، لكن ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون] فكيف يحكم الحق عليهم بالكذب ، وقد قالوا ما وافق علم الله ؟

نقول : كلام الله يحتاج إلى تدبُّر لمعناه ، فالحق يحكم عليهم بأنهم كاذبون ، لا في قولهم : إنك لرسول الله ، فهذه حق ، بل في شهادتهم ؛ لأنها شهادة باللسان لا يوافقها اعتقاد القلب ، فالمشهود به حق ، لكن الشهادة كذب .

لكن ، لماذا خَصَّ الكافرين في مسألة الجحود ؟ قالوا : لأن غير الكافر عنده يقظة وجدان ، فلا يجرؤ على هذه الكلمة ؛ لأنه يعلم أن الله تعالى لا يأخذ الناس بذنوبهم الآن ، إنما يُؤجِّلها لهم ليوم الحساب ، فهذه المسألة تحجزهم عن الجحود .

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾

قوله : ﴿ تَتْلُوا .. (٤٨) ﴾ [العنكبوت] أي : تقرأ ، واختار تتلو لأنك

لا تقرأ إلا ما سمعت ، فكأن قراءتك لما سمعت تجعل قولك تالياً لما سمعتَ ، نقول : يتلوه يعنى : يأتى بعده ﴿وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ .. (٤٨)﴾ [العنكبوت] يعنى : الكتابة .

وفَرْق بين أنْ تقرأ ، وبين أنْ تكتب ، فقد تقرأ لأنك تحفظ ، وتحفظ نتيجة السماع ، كإخواننا الذين ابتلاهم الله بكفّ نظرهم ويقرأون ، إنما يقرأون ما سمعوه ؛ لأن السمع كما قلنا أول حاسة تؤدى مهمتها فى الإنسان ، فمن الممكن أن تحفظ ما سمعت ، أما أن تكتبه فهذا شئ آخر .

والكلام هنا لون من ألوان الجدل والإقناع لكفار قريش الذين يُكذِّبون رسول الله ، ولوْن من ألوان التسلية لرسول الله ، كأنه يقول سبحانه لرسوله : اطمئن . فتكذيب هؤلاء لك افتراء عليك ؛ لأنك ما تلوْتَ قبله كتاباً ولا كتبته بيمينك ، وهم يعرفون سيرتك فيهم .

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

أربعون سنة قضاها رسول الله بين قومه قبل البعثة ، ما جرَّبوا عليه قراءة ولا كتابة ولا خطبة ، ولا نمَّق قصيدة ، فكيف تُكذِّبونه الآن ؟

فإنْ قالوا : كانت عبقرية عند محمد أجَّلها حتى سنِّ الأربعين . نقول : العبقرية عادة مَا تأتى فى أواخر العقد الثانى من العمر فى السابعة عشرة ، أو الثامنة عشرة ، ومَنْ ضمن لمحمد البقاء حتى سنِّ الأربعين ، وهو يرى مصارع أهله ، جده وأبيه وأمه ؟

لو كان عندك شئ من القراءة أو الكتابة لكان لهم عذر ،

ولكان في الأمر شبهة تدعو إلى الارتياب في أمرك ، كما قالوا : ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۝﴾ [الفرقان]

وقالوا : ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. ۝﴾ [النحل] فردَّ القرآن عليهم[1] ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ۝﴾ [النحل]

وقالوا : ساحر . وقالوا : شاعر . وقالوا : مجنون . وكلها افتراءات وأباطيل واهية يسهل الردُّ عليها : فإنْ كان ساحراً ، فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً وتنتهي المسألة ؟ وإنْ كان شاعراً فهل جرَّبتم عليه أنْ قال شعراً قبل بعثته ؟

وإنْ قُلْتم مجنون ، فالجنون فَقْد العقل ، بحيث لا يستطيع الإنسان أنْ يختار بين البدائل ، فهل جرَّبتم على محمد شيئاً من ذلك ؟ وكيف يكون المجنون على خُلُق عظيم بشهادتكم أنتم أنه الصادق الأمين ، فعنده انضباط في الملكات وفي التصرفات ، فكيف تتهمونه بالجنون ؟

وكلمة ﴿مِن قَبْلِهِ .. ۝﴾ [العنكبوت] لها عجائب في كتاب الله منها هذه الآية : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ .. ۝﴾ [العنكبوت] فيقول بعض العارفين (من قبله) : أي من قبل نزول القرآن عليك ، وهذا القول ﴿مِن قَبْلِهِ .. ۝﴾ [العنكبوت] يدل على أنه من الجائز أن يكون رسول الله ﷺ قد علم كيف يقرأ وكيف

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يُعلِّم قيناً بمكة اسمه بلعام ، وكان عجمي اللسان ، فكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلمه بلعام ، فأنزل الله : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. ۝﴾ [النحل] . أورده السيوطي في الدر المنثور (٥/١٦٧) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف .

يكتب بعد نزول القرآن عليه ، حتى لا يكون فى أمته من هو أحسن حالاً منه فى أى شىء ، أو فى خصلة من خصال الخير[1] .

ثم تأمل قوله تعالى : ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ من قَبْلُ .. (٩١)﴾ [البقرة] بالله لو جاءت هذه الآية بدون كلمة (مِنْ قَبْلُ) ألاَ يدخل فى روع رسول الله أنهم ربما يجترئون عليه فيقتلوه ، فيتهيب منهم ، أو يدخل فى نفوسهم هم ، فيجترئون عليه كما قتلوا الأنبياء من قبل ؛ لذلك جاءتْ الآية لتقرر أن هذا كان فى الماضى ، أما الآن فلن يحدث شىء من هذا أبداً ، ولن يُمكِّنكم الله من نبيه .

وكلمة ﴿وَمَا كُنتَ .. (٤٨)﴾ [العنكبوت] تكررت كثيراً فى كتاب الله ، ويُسمُّونها (ماكُنَّات القرآن) وفيها دليل على أن القرآن خرق كل الحجب فى الزمن الماضى ، والحاضر ، والمستقبل .

كما فى قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ .. (٤٤)﴾ [القصص]

وقوله تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا .. (٤٥)﴾ [القصص]

وقوله تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. (٤٤)﴾ [آل عمران]

وهنا : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ .. (٤٨)﴾ [العنكبوت]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٢٤١/٧) : « ذكر النقاش فى تفسير هذه الآية عن الشعبى أنه قال : ما مات النبى ﷺ حتى كتب . وأسند أيضاً حديث أبى كبشة السلولى ، مضمنه : أنه ﷺ قرأ صحيفة لعيينة بن حصن وأخبر بمعناها . قال ابن عطية : وهذا كله ضعيف » . ثم قال (٥٢٤٣/٧) : « الصحيح فى الباب أنه ما كتب ولا حرفاً واحداً ، وإنما أمر من يكتب ، وكذلك ما قرأ ولا تهجى » .

لذلك وصفه ربه - عز وجل - بأنه ﴿الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ .. (١٥٧)﴾ [الأعراف] وإياك أن تظن أن الأمية عَيْب فى رسول الله ، فإنْ كانت عيباً فى غيره ، فهى فيه شرف ؛ لأن معنى أمى يعنى على فطرته كما ولدتْه أمه ، لم يتعلم شيئاً من أحد ، وكذلك رسول الله لم يتعلَّم من الخَلْق ، إنما تعلم من الخالق فعلَتْ مرتبةُ علمه عن الخَلْق .

ومن ذلك المكانة التى أخذها الإمام على - رضى الله عنه - فى العلم والإفتاء حتى قال عنه عمر رضى الله عنه - مع ما عُرف عن عمر من سداد الرأى حتى إن القرآن لينزلُ موافقاً لرأيه ، ومُؤيِّداً لقوله - يقول عمر : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن[1] . لماذا ؟

لأنه كان صاحب حجة ومنطق وصاحب بلاغة ، ألم يراجع الفاروقَ فى مسألة المرأة التى ولدتْ لستة أشهر من زواجها ، وعمر[2] يريد أنْ يقيم عليها الحد ؛ لأن الشائع أن مدة الحمل تسعة أشهر فتسرَّع البعض وقالوا : إنها سُبق إليها ، لكن يكون للإمام على رأى آخر ، فيقول لعمر : لكن الله يقول غير هذا ، فيقول عمر : وما ذاك ؟ قال : ألم يقُل الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ .. (٢٣٣)﴾ [البقرة] قال : بلى .

قال : ألم يقل : ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥)﴾ [الأحقاف]

---

(١) أخرج الحاكم فى مستدركه (١/٤٥٧) ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى سعيد الخدرى قال : « حججنا مع عمر رضى الله عنه ، فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال : إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع » وهو حديث طويل وفيه أن عمر رضى الله عنه قال : « أعوذ بالله تعالى أن أعيش فى قوم لست فيهم يا أبا الحسن » .

(٢) ذكر الجصاص فى أحكام القرآن (٣/٥١٧) أن هذا حدث فى زمان عثمان بن عفان ولكن يبدو أنهما حادثتان وقعتا فى عهد كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، فقد ذكر ابن قدامة المقدسى فى كتابه « المغنى » (٩/١١٥) أنه كان فى عهد عمر واستشهد بما رواه الأثرم بإسناده عن أبى الأسود وذكر القصة .

وبطرح العامين من ثلاثين شهراً يكون الباقى ستة أشهر ، فإذا ولدتْ المرأة لستة أشهر ، فهذا أمر طبيعى لا ارتيابَ فيه[1] .

وفى يوم دخل حذيفة على عمر رضى الله عنهما ـ فسأله عمر : كيف أصبحتَ يا حذيفة ؟ فقال حذيفة : يا أمير المؤمنين ، أصبحت أحب الفتنة ، وأكره الحق ، وأُصلِّى بغير وضوء ، ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء .

فغضب عمر ، وهَمَّ أن يضربه بدرة فى يده ، وعندها دخل علىٌّ فوجد عمر مُغْضباً فقال : مالى أراك مغضباً يا أمير المؤمنين ؟ فقصَّ عليه ما كان من أمر حذيفة ، فقال على :

نعم يا أمير المؤمنين يحب الفتنة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (١٥)﴾ [التغابن]

ويكره الحق أى : الموت فهو حقٌّ لكنا نكرهه ، ويُصلِّى على النبى بغير وضوء ، وله فى الأرض ولد وزوجة ، وليس ذلك لله فى السماء . فقال عمر قولته المشهورة : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن .

---

(١) عن معمر بن عبد الله الجهنى قال : تزوج رجل منا امرأة من جهينة فولدت له لتمام ستة أشهر فانطلق زوجها إلى عثمان فذكر ذلك له فبعث إليها فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها فقالت : وما يبكيك ؟ فو الله ما التبس بى أحد من خلق الله تعالى غيره قط ، فيقضى الله سبحانه فيما شاء ، فلما أتى بها عثمان أمر برجمها فبلغ ذلك علياً فأتاه فقال له : ما تصنع ؟ قال : ولدت تماماً لستة أشهر ، وهل يكون ذلك ؟ فقال له على رضى الله عنه : أما تقرأ القرآن ؟ قال : بلى . قال : أما سمعت الله عز وجل يقول ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥)﴾ [الأحقاف] وقال ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ .. (٢٣٣)﴾ [البقرة] فلم نجده بقى إلا ستة أشهر . فقال عثمان : والله ما فطنت بهذا ، علىَّ بالمرأة ، فوجدوها قد فُرِغ منها . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/١٥٧) .

فلماذا تميَّز عليٌّ بهذه الميزة من العلْم والفقه والحجة ؟ لأنه تربَّى في حِجرْ النبوة فاستقى من نَبْعها ، وترعرع في أحضان العلوم الإسلامية منذ نعومة أظافره ، ولم يعرف شيئاً من معلومات الجاهلية ، فلما تتفاعل عنده العلوم الإسلامية لا تلد إلا حقاً .

ثم يقول سبحانه ﴿إذًا .. (٤٨)﴾ [العنكبوت] يعني : لو حصل منك قراءة أو كتابة ﴿لأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)﴾ [العنكبوت] أي : لكَان لهم عُذْر ووجهة نظر في الارتياب ، والارتياب لا يعني مجرد الشك ، إنما شك باتهام أي : يتهمون رسول الله بأنه كان على علْم بالقراءة والكتابة ؛ لذلك وصفهم بأنهم مبطلون في اتهامهم له ﷺ .

﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ (٤٩) ﴾

﴿بَلْ .. (٤٩)﴾ [العنكبوت] حرف يفيد الإضراب عما قبله ، وتأكيد ما بعده ﴿هُوَ﴾ أي : القرآن ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. (٤٩)﴾ [العنكبوت] وقال ﴿فِي صُدُورِ .. (٤٩)﴾ [العنكبوت] ولم يقل مثلاً : في ذاكرتهم ؛ لأن الأذن تستقبل الكلام وتعرضه على العقل ، فإنْ قبله يستقر في القلب وفي الصدر ، وفيه يتحول إلى عقيدة وإلى يقين لا يقبل الشكَّ ولا يتزحزح .

لذلك يقول تعالى عن القرآن : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ .. (١٩٤)﴾ [الشعراء] فقال ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ .. (١٩٤)﴾ [الشعراء] أي :

مباشرة استقر في قلبه ، ولم يقُلْ على أذنك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ(١) مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

أي : بعد أنْ جاءهم القرآن وبعد أنْ أعجزهم يطلبون آيات أخرى ، وسبق أنْ قلنا : إن الحق سبحانه كان إذا اقترح القومُ آيةً من رسولهم فأجابهم إلى ما طلبوا ، فإنْ كذبوا بعدها أخذهم أخْذ عزيز مقتدر .

واقرأ مثلاً قوله سبحانه : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء] فلما كذَّبوا بالآية التي طلبوها أهلكهم الله ؛ لأن المسألة إذن ليست مسألة آيات وإقناع ، إنما هي الإصرار على الكفر ، إذن : فطلب الإنزال لآية خاصة باقتراحهم ليس مانعاً لهم أنْ يكفروا أيضاً برسول الله .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء] أي : التي اقترحوها ﴿ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء] وحين تنزل الآية ويُكذِّبون بها تنزل بهم عقوبة السماء ، لكن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قطع العهد لرسوله محمد ﷺ ألاَّ يُعذِّب أمته وهو فيهم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال]

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٥٢٤٥/٧) : « قرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي « آية » بالتوحيد . وجمع الباقون ، وهو اختيار أبي عبيد ، لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [العنكبوت] .

فهذا هو السبب المانع من أنْ تـأتى الآية المقترحة ، ثم إن الآيات المـقتـرحة آيات كـونية تأتي وتذهب ، كـما تشـعل عود الثـقاب مـرة واحدة ، ثم ينطفئ ، رآه مَنْ رآه ، وأصبح خبراً لمن لم يَرَه .

وكلمـة ﴿لَوْلا .. (٥٠)﴾ [العنكبـوت] تسـتـخـدم فـى لغـة العـرب استـخدامـين : إنْ دخلتْ على الجـملة الاسمـية مـثل : لولا زيد عندك لَزرتُك ، وهى هنا حرف امـتناع لوجود ، فقد امـتنعتْ الزيارة لوجود زيد . وإنْ دخلتْ على الجملة الفعليـة مثل : لولا تذاكر دروسك ، فهى للحضِّ وللحثِّ على الفعل .

فقولهم ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ .. (٥٠)﴾ [العنكبوت] كأن الآية التى جاءتهم من عند الله لا يعترفون بها ، ثم يناقضون أنفسهم حينما يقولون :

﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

إذن : أنتم مـعتـرفون بالقـرآن ، مقـتنعون به ، لكن مـا يقف فى حلوقكم أن ينـزل على مـحـمـد من بين الناس جـمـيـعـاً . ثم نراهم يناقضون أنفسهم فى هذه أيضاً ، ويعترفون من حيث لا يشعرون بأن محمداً رسـول الله حينما قالوا :

﴿لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا .. (٧)﴾ [المنافقون]

فمـا دُمْتم تعرفـون أنه رسـول الله ، فلمـاذا تُعادونه ؟ إذن : فالبـديهة الفطرية تكذِّبهم ، ينطق الحق على ألسنتهم على حين غفلة منهم .

ويرد الحق ـ تبارك وتعالى ـ عليهم : ﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ .. (٥٠)﴾ [العنكبوت] فهى عند الله ، لـيست عندى ، وليست بالـطلب حسب أهوائكم ﴿إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠)﴾ [العنكبوت] أى : هذه مهمتى ، واختار

الإنذار مع أنه ﷺ بشير ونذير ، لكن خَصَّهم هنا بالإنذار ؛ لأنهم أهل لِجَاج ، وأهل باطل وجحود ، فيناسبهم كلمة الإنذار دون البشارة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

والاستفهام هنا للتعجُّب وللإنكار ، يعنى : كيف لا يكفيهم القرآن ولا يقنعهم وهو أعظم الآيات ، وقد أعجزهم أنْ يأتوا ولو بآية من آياته ، وجاءهم بالكثير من العِبر والعجائب ؟ إذن : هم يريدون أنْ يتمحّكوا ، وألا يؤمنوا ، وإلا لو أنهم طلاب حَقٍّ باحثون عن الهداية لكفاهم من القرآن آية واحدة ليؤمنوا به .

وقوله تعالى : ﴿ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت] لأن رسول الله ﷺ كان ينزل عليه الوحى بعدة آيات ، وقد يطول إلى رُبْعين أو ثلاثة أرباع ، فلما أن يسرى عنه يتلو ما نزل عليه على صحابته ليكتبوه ، يتلوه كما أُنزل عليه ، فيكتبه الكتبة ، ويحفظه مَنْ يحفظه منهم ، وكانوا أمة رواية وأمة حفظ .

ثم يأتى وقت الصلاة فيصلى بهم رسول الله بما نزل عليه من

---

(١) سبب نزول الآية : « قيل إن سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن عيينة .. قال : أتى النبى ﷺ بكتف فيه كتاب فقال : « كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم ، أو كتاب غير كتابهم » فأنزل الله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت] » ذكره القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٤٥) .

الآيات ، يُعيدها كما أملاها ، وهذه هبة ربانية منحها لرسوله ﷺ ، وخاطبه بقوله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ۝ ﴾ [الأعلى]

وإلا ، فلَك أن تتحدى أكثر الناس حفْظاً أنْ يُعيد عليك خطبة أو كلمة ألقاها على مدى نصف ساعة مثلاً ، ثم يعيدها عليك كما قالها في المرة الأولى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ .. ۝ ﴾ [العنكبوت] لكن لمن ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ [العنكبوت] ؛ لأن القرآن لا يثمر إلا فيمن يُحسن استقباله ويؤمن به ، أما غير المؤمنين فهو في آذانهم وَقْر وهو عليهم عمى ، لا يفقهونه ولا يتدبرونه ؛ لأنهم يستقبلونه لا بصفاء نفس ، وإنما ببُغْض وكراهية استقبال ، فلا ينالون نوره ولا بركته ولا هدايته .

لذلك يقول تعالى في الذين يُحسنون استقبال كلام الله : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ .. ۝ ﴾ [فصلت]

أما الذين يجحدونه ولا يُحسنون استقباله ، فيقول عنهم : ﴿ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. ۝ ﴾ [فصلت]

وسبق أنْ قلنا : إن الفعل واحد ، لكن المستقبل مختلف ، ومثَّلْنا لذلك بمن ينفخ في يده ليُدفئها في البرد ، ومَنْ ينفخ في الشاي ليُبرده ، وأنت أيضاً تنفخ في الشمعة لتطفئها ، وتنفخ في النار لتشعلها .

وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ۝ ﴾ [الإسراء] ، ففرْق بين الشفاء والرحمة ، الشفاء يعني : أنه كانت هناك علة ، فبرأت ، لكن الرحمة ألاَّ تعاودك

العلة ، ولا يأتيك الداء مرة أخرى ، فالقرآن نزل ليعالج الداءات النفسية ، يعالجها بالقراءة ويُحصِّنك ضدها فلا تصيبك ، وإنْ وقعتَ فى شىء من هذه الداءات فاقرأ ما جاء فيها من القرآن ، فإنها تبرأ بإذن الله ، إذن : الشفاء يعالج الداء إنْ وقع فى غفلة من سلوك النفس.

ولو طبقنا قضايا القرآن فى نفوسنا لنالتنا هذه الرحمة ، فالإنسان بدن وقيم ومعانٍ وأخلاق ، هذه المعانى فى الإنسان يسمونها النفسيات ، فقد يكون سليم البنية والجسم لكنه سقيم النفس ؛ لذلك نجد بين تخصصات الطب الطب النفسى ، وكل مريض لا يجدون لمرضه سبباً عضوياً يُشخِّصونه على أنه مرض نفسى ، وحين تسأل الطبيب النفسى تجد أن كل ما عنده عقاقير تهدىء المريض أو تهدّه فينام حتى لا يفكر فى شىء ، وهل هذا هو العلاج ؟

ولو تأملنا كتاب ربنا لوجدنا فيه العلاجيْن : العضوى والنفسى ، فسلامة الجسم فى أن الله تعالى أحلّ لك أشياء ، وحرَّم عليك أشياء ، وما عليك إلا أنْ تستقيم على منهج ربك فتسلم من داءات الجسد ، فإنْ كنتَ من هؤلاء الذين يحبون الأكل من الحلال لكنهم يبالغون فيه إلى حَدِّ التُّخمة ، فاقرأ فى القرآن : ﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف]

ثم تجد فى السنة النبوية مُذكِّرة تفسيرية لهذه الآية : « بحسب ابن آدم لُقيْمات يُقمْنَ صُلْبه ، فإنْ كان ولا بُدَّ : فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنَفَسه »[1] .

---

(١) عن المقدام بن معدى كرب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٣٨٠) ، وابن ماجه فى سننه (٣٣٤٩) .

فالأصل أن يأكل الإنسان ليعيش ، لا أن يعيش ليأكل . وبعض السطحيين يقولون : ما معنى « ثلث لنفَسه » ، وهل النفَس فى المعدة ؟ والآن ، ومع تطور العلوم عرفنا أن تُخمة البطن تضغط على الحجاب الحاجز وتضيق مجال الرئة فينتج عن ذلك ضيق فى التنفس .

أما الناحية النفسية ، فالمرض النفسى ناتج إما عن انقباض الجوارح عن طبيعة تكوينها ، أو انبساطها عن طبيعة تكوينها ، كالبيضة مثلاً لها حجم معين فإنْ ضيَّقْتَ هذا الحجم أو بسطته تنكسر .

وهذا أيضاً أساس الداء فى النفس البشرية ؛ لأن ملكات النفس ينبغى أنْ تظل فى حالة توازن واستواء ، وتجد هذا التوازن فى منهج ربك - عز وجل - حيث يقول سبحانه : ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا[1] عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. (٢٣) ﴾ [الحديد]

فمعنى ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ .. (٢٣) ﴾ [الحديد] الانقباض ﴿ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. (٢٣) ﴾ [الحديد] الانبساط . وكلاهما مذموم منهىٌّ عنه ، لكن مَن ذا الذى لا يأسى على ما فات ، ولا يفرح بما هو آتٍ؟

لذلك نجد البُلَداء الذين لا تَهزهم الأحداث بصحة قوية ؛ لأنهم لا يهتمون للخطوب ، حتى أن الشعراء لم يَفُتْهم هذا المعنى ، حيث يقول أحدهم[2] :

وَفى البَلادة مَا فى العَزْم منْ جلَد ... إنَّ البليد قوىُّ النفْس عَاتيها
فَاسْأل أُولى العَزْم إنْ خارتْ عزائمهمْ ... عَن البَلادة هَلْ مَادتْ رَوَاسيهَا ؟

فالذى تظنه بلادة هو عزم قوىٌّ فى استقبال الأحداث والصمود لها .

---

(١) أسيت عليه أسىً : حزنت . والأسى : الحزن . وأسيت لفلان : حزنت له . [لسان العرب - مادة : أسى] .

(٢) من شعر الشيخ رضوان الله عليه .

إذن : الرحمة فى منهج الله إنِ التزمنا به نأمن من الأدواء ، ماديةً كانت أم معنوية .

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(قُلْ) أى : للمنكرين لك ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : حسبى أن يشهد الله لى بأنِّى بلَّغتُ ، فشهادتكم عندى لا تنفع ، كما أنه لا ينفعنى إيمانكم ، ولا يضرنى كفركم ، فأجرى آخذه من ربى على مجرد البلاغ وقد بلَّغتُ ، وشهد الله لى بذلك .

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الرعد] أى : أنكم لم تكتفوا بالآيات ، ولم تؤمنوا بها ، لكنى أكتفى برب هذه الآيات شهيداً بينى وبينكم ، إذن : هناك خصومة فى البلاغ بين محمد ﷺ وقومه الذين يُكذِّبونه فى البلاغ عن ربه .

فلا بُدَّ إذن من فَصْل فى هذه الخصومة ، وإذا ما نظرنا إلى قضايا الخَلْق فى الخصومات وجدنا إمَّا أنْ يُقر المتهم ، وإما أن يشهد شاهد حَقٍّ لا شاهد زور ، ثم يعرض الأمر على القاضى ليحكم بالشهادة أو البينة .

ولا بُدَّ فى القاضى ألاّ يكون صاحب هوى ، ثم يأتى دور تنفيذ الحكم ، وهى السلطة التنفيذية ، وهذه أيضاً ينبغى ألاَّ يكون لها

هوى ، فتنفذ الحكم على حقيقته ، فكأن الخصومات عند البشر تمرُّ بمراحل متعددة ، وقد تتميع الحقائق إذا لم تتوفر الشروط اللازمة لهذه الأطراف ، فلو شهد الشاهد زوراً أو مال القاضى أو المنفِّذ للحكم ودلَّس فى التنفيذ لانقلبت المسائل .

أما فى حكومة الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى الخصومة بين محمد وقومه ، فكفى به سبحانه حاكماً وقاضياً ومُنفِّذاً ، لماذا ؟ لأنه سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٥٢) ﴾ [العنكبوت]

فلا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، يعلم السر وأخْفى ، فأىُّ شهادة إذن أعدل من شهادته ؟ وهو سبحانه قاضٍ عادل يحكم بالحق ؛ لأنه ليس له سبحانه هوىً يميل به إلى الباطل ، وهو سبحانه لا يُبدل فى تنفيذ الأحكام ؛ لأنه يُنفِّذ حكمه هو سبحانه .

إذن : مَن الفائز فى حكومة قاضيها الحق ـ تبارك وتعالى ـ وأطراف الخصومة فيها محمد وقومه ؟ فاز رسول الله فى أن يكون الله هو الشهيد ، وخسر الكافرون حين كفروا به ، ولم تكفِهم البينة التى جاءتهم فى القرآن الكريم .

وعلْم الله للغيب ليس علاجاً ومذاكرة ليعلم ، إنما تأتى الأمور بتوقيتٍ منه قديم أزلاً ، والعالم يظهر على وَفْق ما يراه أزلاً ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس]

أى : يقول للشىء ، فكأنه موجود فعلاً ينتظر الأمر من الله بالظهور للناس ، فقوله (كُنْ) للظهور فقط ، أما مسألة الخلْق فمنتهية أزلاً ، و (الماكيت) موجود ، فالحق سبحانه يعلم غَيْب السموات والأرض ، أما نحن فلا نعلم حتى غَيْب أنفسنا .

ويقول سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ⑦ ﴾ [طه] فهل هناك أخفى من السر ؟ قالوا : السر ما تُسرُّه في نفسك ، والأخفى منه أنْ يعلمه سبحانه قبل أن يكون في نفسك .

وقد وقف البعض عند قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ㉙ ﴾ [النور] وقوله سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ⑪⓪ ﴾ [الأنبياء]

يقولون : ما وجه امتنان الله بعلم الجهر من القول ، وبعِلْم ما نُبدى ، فهذا شيء غير مستور يعرفه الجميع ؟

ونقول : افهم عن الله مراده ، فالمعنى لم يقُلْ سبحانه : أعلم ما تبدى أنت ، ولا ما تجهر به أنت ، إنما ما تبدون كلكم ، وما تجهرون به كلكم ، ولتوضيح هذه المسألة تصوَّر مظاهرة من عدة مئات أو عدة آلاف تختلط بينهم الهتافات والأصوات وتتداخل الكلمات ، بحيث لا تستطيع أن تميز صوت هذا من صوت ذاك .

لكن الحق سبحانه يستطيع تمييز هذه الأصوات ، وإعادة كل منها إلى صاحبه ؛ لذلك نرى في المظاهرات أن كل إنسان يستطيع أن يقول ما يشاء ، ويهتف بما لا يجرؤ أن يهتف به منفرداً ؛ لأن صوته سيختلط مع الأصوات ، ويستتر فيها فلا يعرف مصدره ، وهكذا يكون علم الجَهْر أقوى من علم الغَيْب .

فإنْ قلت : إن بعض العلماء باكتشافاتهم وبحوثهم توصلوا إلى معرفة أسرار كانت مستترة في الكون ، كالكهرباء والذرة وغيرها ، فهُمْ بذلك يعلمون الغيب . نقول : نعم ، علموا شيئاً كان مستوراً في الكون ، لكن علموه بمقدمات خلقها الله ويسَّرها لهم ، فأخذوا هذه المقدمات وتوصَّلوا بها إلى اكتشافاتهم ، كما يحلّ ولدك مثلاً تمرين الهندسة ، فيستعين بالمعطيات .

إذن ؛ فهو فى حقيقة الأمر ليس غيباً ، بل هو شىء موجود ، لكن له ميلاد ووقت يظهر فيه ، فإنْ جاء وقته يسَّر الله لخَلْقه الوصول إليه ، إما بالبحث واستخدام المقدمات ، فإذا صادف ميلاد السر بحث الخلق يُقال : إنهم أحاطوا علْماً ببعض غيب الله .

ويقول تعالى : ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة] أى : شاء أنْ يُولد ، فإنْ جاء ميلاد السر ، ولم يتوصَّلوا إليه ببحوثهم ، ولم يقفوا على مقدماته كشفه الله لهم ولو مصادفة ، وقد اكتشفوا كثيراً من أسرار الكون مصادفة .

فالغيب الحقيقى : هو الذى ليس له مقدمات تُوصِّل إليه ، ولا يعلمه أحد إلا الله ، والذى قال الله عنه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧) ﴾ [الجن] فالرسول ـ إذن ـ لا يعلم الغيب ، إنما عُلِّم الغيب .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ .. (٥٢) ﴾ [العنكبوت] أى : بعبادة ما دون الله من الأصنام والأوثان ﴿ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ .. (٥٢) ﴾ [العنكبوت] الخالق واجب الوجود ﴿ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢) ﴾ [العنكبوت] لأن كفر الخَلْق بالخالق لا يؤثر فى ذاته سبحانه ، ولا فى صفات الكمال فيه ، لأنه سبحانه بصفات الكمال خلقهم ، فله سبحانه صفات الكمال ، آمنوا أم كفروا .

لكن فَرْق بين مَنْ يؤمن ومَنْ يكفر ، فالإنسان بطبعه حريص على الحياة متمسك بها ، حتى إنه إنْ أصابه مرض طلب العلاج ليصون حياته وهو يخاف الموت ، ويرى مصارع الناس من حوله ، وكيف سبقه أجداده ولم يخلد منهم أحد ، ويرى أن الموت يأتى بلا أسباب ؛ حتى قيل : والموت من غير سبب هو السبب .

إذن : فالموت حقيقة واقعة ، لكن يشكُّ الناس فيها ولا

يتصورونها لأنفسهم لأنهم يكرهونها ؛ لذلك يقال فى الأثر : ما رأيتُ يقيناً أشبه بالشكِّ من يقين الناس بالموت .

وليقين الإنسان فى الموت نراه يحب البقاء فى ولده ، وفى ولد ولده ليبقى ذكْره أطول فترة ممكنة ، وما دام الأمر كذلك ، فلماذا لا تؤمن بالله فيورثك الإيمانُ حياةً خالدة باقية لا نهايةَ لها ، لا تفارقها ولا تفارقك ، وهى حياة الآخرة . إذن : فمَن الخاسرون ؟ الخاسرون هم الكافرون الذى قصروا حياتهم على عمرهم فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

عجيب أنْ يطلب الإنسان لنفسه العذاب ، وأن يستعجله إنْ أبطأ عليه ، إذن : ما طلبه هؤلاء إلا لاعتقادهم أنه غير واقع بهم ، وإلا لو وَثِقُوا من وقوعه ما طلبوه .

﴿ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [العنكبوت] لأن كل شىء عند الله بميقات وأجل ، والأجل يختلف باختلاف أصحابه وهو أجل الناس وأعمارهم ، وهى آجال متفرقة فيهم ، لكن هناك أجل يجمعهم جميعاً ، ويتفقون فيه ، وهو أجل الساعة .

فقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأعراف] أى : بآجالهم المتفرقة . أمّا أجل القيامة فأجل واحد مُسمّى عنده تعالى ، ومن عجيب الفَرْق بين الأجلين أن الآجال المتفرقة فى الدنيا تنهى حياة ، أمّا أجل الآخرة فتبدأ به الحياة .

والمعنى ﴿ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .. (٥٣) ﴾ [العنكبوت] أن المسألة ليست على هواهم ورغباتهم ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ .. (٣٧) ﴾ [الأنبياء] ويقول : ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

لذلك لما عقد النبي ﷺ صلح الحديبية بينه وبين كفار مكة ، ورضى أنْ يعود بأصحابه دون أداء فريضة العمرة غضب الصحابة وعلى وعمر ، ولم يعجبهم هذا الصلح ، وكادوا يخالفون رسول الله غيرةً منهم على دينهم ، حتى أن النبي ﷺ دخل على أم سلمة رضى الله عنها وقال : « هلك المسلمون »[1] قالت : ولم يا رسول الله ؟ قال : « أمرتهم فلم يمتثلوا » فقالت : يا رسول الله اعذرهم ، فهم مكروبون ، جاءوا على شَوْق لبيت الله ، وكانوا على مقربة منه هكذا ، ثم يُمنعون ويُصدُّون ، اعذرهم يا رسول الله ، ولكن امْضِ فاصنع ما أمرك الله به ودَعْهم ، فإنْ هم رأوْكَ فعلتَ فعلوا ، وعلموا أن ذلك عزيمة .

وفعلاً ذهب رسول الله ، وتحلّل من عمرته ، ففعل القوم مثله ، ونجحت مشورة السيدة أم سلمة ، وأنقذت الموقف .

ثم بيَّن الله لهم الحكمة فى العودة هذا العام دون قتال ، ففى مكة

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٢٦/٤) ضمن حديث صلح الحديبية الطويل من حديث المسور بن مخرمة الزهرى ومروان بن الحكم أن رسول الله ﷺ قال : يأيها الناس انحروا واحلقوا فما قام أحد ثم عاد بمثلها فما قام رجل حتى عاد بمثلها فما قام رجل فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة فقال : يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت فلا تكلمن منهم إنساناً واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق ، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك فخرج رسول الله لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره ثم جلس فحلق فقام الناس ينحرون ويحلقون » .

إخوان لكم آمنوا ، ويكتمون إيمانهم ، فإنْ دخلتم عليهم مكة فسوف تقتلونهم دون علم بإيمانهم .

وكان عمر - رضى الله عنه - كعادته شديداً فى الحق ، فقال : يا رسول الله ، ألسنا على الحق ؟ قال ﷺ « بلى » قال : أليسوا على الباطل ؟ قال ﷺ « بلى » قال : فلِمَ نُعطى الدنية فى ديننا ؟ فقال أبو بكر : الزم غَرْزك يا عمر[1] .. يعنى قف عند حدِّك وحجِّم نفسك ، ثم قال بعدها ليبرر هذه المعاهدة : ما كان فتح فى الإسلام أعظمَ من فتح الحديبية - لا فتح مكة .

لماذا ؟ لأن الحديبية انتزعت من الكفار الاعترافَ بمحمد ، وقد كانوا معارضين له غير معترفين بدعوته ، والآن يكاتبونه معاهدة ويتفقون معه على رأى ، ثم إنها أعطت رسول الله فرصة للتفرغ لأمر الدعوة ونشرها فى ربوع الجزيرة العربية ، لكن فى وقتها لم يتسع ظنُّ الناس لما بين محمد وربه ، والعباد عادةً ما يعجلون ، والله - عز وجل - لا يعجل بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد سبحانه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى : فجأة ، وليس حسب رغبتهم ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [العنكبوت] لا يشعرون ساعتها أم لا يشعرون الآن أنها حق ، وأنها واقعة لأجل مسمى ؟

المراد لا يشعرون الآن أنها آتية ، وأن لها أجلاً مُسمى ، وسوف تباغتهم بأهوالها ، فكان عليهم أن يعلموا هذه من الآن ، وأن يؤمنوا

(١) أخرج نحوه مسلم فى صحيحه (١٧٨٥) كتاب الجهاد ، والبخارى فى صحيحه (٤٨٤٤) فى تفسير سورة الفتح من حديث سهل بن حنيف رضى الله عنه .

بهـا . إذن : فليس المراد أنهم لا يشـعرون بالبـغتـة ؛ لأن شعـورهم بالبغتة ساعتها لا ينفعهم بشيء .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

أى : قُلْ لهم إنْ كنتم تستعجلون العـذاب فهو آتٍ لا محالة ، وإنْ كنتم فى شوق إليه فجهنم فى انتـظاركم ، بل ستمتلئ منكم وتقول : هل من مزيد ؟ والعذاب يتناسب وقدرة المعذِّب قوة وضعفاً ، وإحاطة وشمولاً ، فإذا كان المعـذِّب هو الله ـ عز وجل ـ فعذابه لا يُعذِّبه أحد من العالمين .

ومعنى ﴿ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [العنكبوت] الإحاطة أن تـشمل الشيء من جـميع جـهاته ، فـالجـهات أربع : شـمال وجنوب وشـرق وغرب ، وبين الجهـات الأصلية جهات فـرعية ، وبين الجهات الفـرعية أيضاً جهات فرعية ، والإحاطة هى التى تشمل كل هذه الجهات .

ومن ذلك قـوله تعـالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَـدْنَا لِلظَّالِمِـينَ نَارًا أَحَـاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] يعنى : من كل جهاتهم .

ومن عجيب أمر النار فى الآخرة أن النار فى الدنيا يمكن أنْ تُعذِّب شخصاً بنار تحوطه لا يستطيع أنْ يُفلت منها ، لكن النار بطبـيعتـها تعلو ؛ لأن اللهب يتجه إلى أعلى ، أما إنْ كانت تحت قدمك فيمكنك أنْ تدوسها بقدمك ، كما تطفىء مثـلاً (عُقْب) السيجارة ، فحين تدوسه

---

(١) سبب نزول الآية : قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٤٧) : « قيل : نزلت فى عبد الله بن أبى أمية وأصحابه من المشركين حين قالوا ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا .. ﴿٩٢﴾ ﴾ [الإسراء] .

تمنع عنه الأكسوجين ، فتنطفىء النار فيه ، أما فى نار الآخرة فتأتيهم من كل جهاتهم :

﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [الزمر]

وهاتان الجهتان لا تأتى منهما النار فى الدنيا ؛ لأن النار بطبيعتها تصعد إلى أعلى ، وإنْ كانت تحت القدم تنطفىء . إذن : هذا ترقٍّ فى العذاب ، حيث لا يقتصر على الإحاطة من جميع جهاته ، إنما يأتيهم أيضاً من فوقهم ومن تحتهم .

لكن قد يتجلَّد المعذَّب للعذاب ، ويتماسك حتى لا تشمت فيه ، وهذا يأتيه عذاب من نوع آخر ، عذاب يُهينه ويُذلُّه ، ويُقال له : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان] لذلك وصف العذاب ، بأنه : مهين ، وأليم ، وعظيم ، وشديد .

وقوله تعالى ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [العنكبوت] لم يقل : ذوقوا النار ، إنما ذوقوا ما عملتم ، كأن العمل نفسه سيكون هو النار التى تحرقهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾

بعد أنْ تحدَّث الحق سبحانه عن الكفار والمكذِّبين أراد أنْ يُحدث توازناً فى السياق ، فحدَّثنا هنا عن المؤمنين ليكون أنكَى للكافرينَ ، حين تردف الحديث عنهم ، وعما يقع لهم من العذاب بما سينال المؤمنين من النعيم ، فتكون لهم حسرة شديدة ، فلو لم يأخذ المؤمنون هذا النعيم لكانَ الأمر أهونَ عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ يَـٰعِبَادِىَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [العنكبوت] سبق أن قُلْنا : إن الخَلْق جميعاً عبيد لله ، وعبيد الله قسمان : مؤمن وكافر ، وكل منهما جعله الله مختاراً : المؤمن تنازل عن اختياره لاختيار ربه ، وفضَّل مراده سبحانه على مراد نفسه ، فصار عبداً فى كل شىء حتى فى الاختيار ، فلما فعلوا ذلك استحقوا أن يكونوا عبيداً وعباداً لله .

أما الكافر فتأبَّى على مراد ربه ، واختار الكفر على الإيمان ، والمعصية على الطاعة ، ونسى أنه عبد لله مقهور فى أشياء لا يستطيع أن يختار فيها ، وكأن الله يقول له : أنت أيها الكافر تمردْتَ على ربك ، وتأبَّيْتَ على منهجه فى (افعل) و (لا تفعل) ، واعتدْتَ التمرد على الله . فلماذا لا تتمرد عليه فيما يُجريه عليك من أقدار ، لماذا لا تتأبَّى على المرض أو على الموت ؟ إذن : فأنت فى قبضة ربك لا تستطيع الانفلات منها .

وعليه ، فالمؤمن والكافر سواء فى العبودية لله ، لكن الفرْق فى العبادية حيث جاء المؤمن مختاراً راضياً بمراد الله ، وفَرْق بين عبد يُطيعك وأنت تجرُّه فى سلسلة ، وعبد يخدمك وهو طليق حُرٌّ . وهكذا المؤمن جاء إلى الإيمان بالله مختاراً مع إمكانية أنْ يكفر ، وهذه هى العبودية والعبادية معاً .

ومعنى ﴿ إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [العنكبوت] يخاطبهم ربهم هذا

الخطاب وهم فى الأرض وفى سعتها ، ليلفت أنظارهم إلى أنهم سيُضطهدون ويُعذَّبون ، وسيقع عليهم إيذاء وإيلام ، فيقول لهم : إياكم أن تَصْرِفكم هذه القسوة ، إياكم أنْ تتراجعوا عن دعوتكم ، فإذا لم يناسبكم هذا المكان فاذهبوا إلى مكان آخر فأرضى واسعة فلا تُضيِّقوها على أنفسكم .

لذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ : « الأرض لله ، والعباد كلهم لله ، فإنْ أبصرتَ خيراً فأقِمْ حيث يكون »[1] .

فالذى نعانى منه الآن هو هذه الحدود وهذه القيود التى وضعناها فى جغرافية أرض الله ، فضيَّقنا على أنفسنا ما وسَّعه الله لنا ، فأرْضُ الله الواسعة ليست فيها تأشيرات دخول ولا جوازات سفر ولا (بلاك لست) .

لذلك قلنا مرة فى الأمم المتحدة : إنكم إنْ سعيتُم لتطبيق مبدأ واحد من مبادىء القرآن فلن يوجد شر فى الأرض ، ألا وهو قوله تعالى : ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ⦗١٠⦘ ﴾ [الرحمن]

والمعنى : الأرض كل الأرض للأنام كل الأنام ، فإنْ ضاق رزقك فى مكان فاطلبه فى مكان آخر ، وإلا فالذى يُتعب الناس الآن أن توجد أرض بلا رجال ، أو رجال بلا أرض ، وها هى السودان مثلاً بجوارنا ، فيها أجود الأراضى لا تجد مَنْ يزرعها ، لماذا ؟ للقيود التى وضعناها وضيَّقنا بها على أنفسنا .

---

(١) عن الزبير بن العوام قال قال ﷺ : « البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، فحيثما أصبت خيراً فأقم » أخرجه احمد فى مسنده (١/١٦٦) ، وأورده العجلونى فى كشف الخفاء (١/٣٤٢) بلفظ « فأى موضع رأيت فيه رفقاً فأقم » وقال : « رواه الطبرانى عن الزبير بسند ضعيف ، وعزاه النجم أيضاً لأحمد والطبراني عن الزبير بسند ضعيف » .

وصدق الشاعر حين قال :

لَعمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بِلادٌ بأهْلها ... ولكنَّ أخْلاقَ الرجَالِ تَضيقُ

ثم يقول سبحانه ﴿ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [العنكبوت] فإنْ أخذنا بمبدأ الهجرة فلا بُدَّ أن نعلم أن للهجرة شروطاً أولها : أنْ تهاجر إلى مكان يحفظ عليك إيمانك ولا ينقصه ، وانظر قبل أنْ تخرج من بلدك هل ستتمكن في المهجر من أداء أمور دينك كما أوجبها الله عليك ؟ فإنْ كان ذلك فلا مانع ، وإلا فلا هجرةَ لمكان يُخرِجنى من دائرة الإيمان ، أو يحول بينى وبين أداء أوامر دينى .

وهل يُرضيك أنْ تعيش لتجمع الأموال فى بلاد الكفر ، وأنْ تدخل عليك ابنتك مثلاً وفى يدها شاب لا تعرف عنه شيئاً قد فُرض عليك فَرْضاً ، فقد عرفته على طريقة القوم ، ساعتها لن ينفعك كل ما جمعت ، ولن يصلح ما جُرِح من كرامتك .

وسبق أن أوضحنا أن الهجرة قد تكون إلى دار أمْن فقط ، حيث تأمن فيها على دينك ، وتأمن ألاَّ يفتنك عنه أحد ، ومن ذلك الهجرة التى أمر بها رسول الله إلى الحبشة ، وهى ليست أرْضَ إيمان ، بل أرض أمْن .

وقد علَّل رسول الله ﷺ أمره بالهجرة إليها بقوله : « إن فيها ملكاً لا يُظْلَم عنده أحد »[1] وقد تبيَّن بعد الهجرة إليها صدْق رسول الله ،

---

(١) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله فى منعة من قومه ومن عمه ، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » حديث طويل أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٠١) وأورده ابن هشام فى السيرة بنحوه (١/٣٢١) .

وكأنه على علم تام بالبيئة المحيطة به وبأحوال أهلها .

لذلك لم يأمرهم مثلاً بالهجرة إلى أطراف الجزيرة العربية ؛ لأنها كانت خاضعة لقريش بما لها من سيادة على الكعبة ، فلا يستطيع أحد أنْ يحمي مَنْ تطلبه قريش ، حتى الذين هاجروا بدينهم إلى الحبشة لم يَسْلَموا من قريش ، فقد أرسلتْ إلى النجاشي مَنْ[1] يكلمه في شأنهم ، وحملوا إليه الهدايا المغرية ليسلمهم المهاجرين من المؤمنين بمحمد ، لكن لم تفلح هذه الحيلة مع الملك العادل الذي راود الإيمانُ قلبه ، فأحب المؤمنين ودافع عنهم ورفض إعادتهم ويقال : إنه آمن بعد ذلك ، ولما مات صلَّى عليه رسول الله[2] .

أما الهجرة إلى المدينة بعد الهجرة إلى الحبشة فكان لدار أَمْن وإيمان معاً ، حيث تأمن فيها على دينك ، وتتمكّن فيها من نشره والدعوة إليه ، وتجد بها إخواناً مؤمنين يُواسُونك بأموالهم ، وبكل ما يملكون ، وقد ضرب الأنصار في مدينة رسول الله أروع مثل في التاريخ في المواساة ، فالأنصاري كان يرى أخاه المهاجر ترك أهله في مكة ، وله إرْبة وحاجة للنساء ، فيُطلِّق له إحدى زوجاته ليتزوجها ، فانظر ماذا فعل الإيمان بالأنصار .

---

(١) هو : عمرو بن العاص ، أبو عبد الله ، فاتح مصر وأحد عظماء العرب ودهاتهم وأولي الرأي والحزم والمكيدة فيهم ، كان في الجاهلية من الأشداء على الإسلام ، أسلم في هدنة الحديبية . ولد ٥٠ ق. هـ ، وتوفي ٤٣ هـ بالقاهرة عن ٩٣ عاماً (الأعلام للزركلي ٥/٧٩) . وذكر ابن هشام في السيرة النبوية (١/٣٦٠) « أن قريشاً أرسلت عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة للنجاشي ليوقعوا بين المهاجرين والنجاشي ليسلمهم إليه ، وقال عمرو : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى عبد » .

(٢) عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخاكم النجاشي قد مات فقوموا فصلوا عليه ، قال : فقمنا فصففنا عليه كما يصف على الميت ، وصلينا عليه كما يصلى على الميت » أخرجه أحمد في مسنده (٤/٤٣٩ ، ٤٤٦) والترمذي في سننه (١٠٣٩) وصححه ، والنسائي في سننه (٤/٧٠) .

وفى قوله سبحانه ﴿فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [العنكبوت] أسلوب يُسمُّونه أسلوب قَصْر ، مثل قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين (٥)﴾ [الفاتحة]

وفَرْق بين أنْ نقول : نعبدك . و (إياك نعبد) : نعبدك لا تمنع أنْ نعبد غيرك ، أمّا (إيَّاك نَعْبد) فتقصر العبادة على الله - عز وجل - ، ولا تتجاوزه إلى غيره .

فالمعنى - إذن : إنْ كنت ستهاجر فلتكُن هجرتك لله ، وقد فسَّرها النبى ﷺ فى الحديث الشريف : « فَمَنْ كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومَنْ كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧)﴾

يعنى : إنْ كنتم ستقولون - وقد قالوا بالفعل - ليس لنا فى المدينة دار ولا عقار ، وليس لنا فيها مصادر رزق[2] ، وكيف نترك أولادنا وبيئتنا التى نعيش فيها ، فاعلموا أنكم ولا بُدَّ مفارقون هذا كله ، فإنْ لم تُفارقوها وأنتم أحياء فسوف تفارقونها بالموت ؛ لأن ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (٥٧)﴾ [العنكبوت]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٩٠٧) كتاب الإمارة (١٥٥) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٢٥٠) عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال للمؤمنين بمكة حين أذاهم المشركون « اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولا تجاوروا الظلمة » قالوا : ليس لنا بها دار ولا عقار ولا من يطعمنا ولا من يسقينا . فنزلت ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ .. (٦٠)﴾ [العنكبوت] .

ومَنْ يدريكم لعلكم تعـودون إلى بلدكم مرة أخرى ، كمـا قال الله لرسوله : ﴿ إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ..(٨٥) ﴾[القصص]

وعلى فَـرْض أنكم لن تعـودوا إليهـا فلن يُضـيـركم شيء ؛ لأنكم لا بُدَّ مفارقـوها بالموت . وكأن الحق ـ تبارك وتعـالى ـ يخفف عنهم ما يلاقونه من مفارقة الأهل والوطن والمال والأولاد .

كما أننا نلحظ في قوله سبحانه ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (٥٧) ﴾ [العنكبوت] بعد ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ .. (٥٦) ﴾ [العنكبوت] أن الخواطر التى يمكن أن تطرأ على النفس البشـرية حـين يُشـرِّع الله أمراً يهـيج هذه الخواطـر مثل ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ .. (٥٦) ﴾ [العنكبوت] وما تثـيره فى النفس من حب الـجمـع والتـملّك يجـعل لك مع الأمـر مـا يهـبِّط هذه الخواطر :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (٥٧) ﴾ [العنكبوت] حـتى لا نطمعَ فى حطام الدنيا ، ويُلهينا إغـراء المال والهجرة لجمعه ، فـالنهاية بعد ذلك كله الموت ، وفقدان كل ما جمعت .

وهذه القضية واضحـة فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا .. (٢٨) ﴾ [التوبة]

فلما أراد الله تعـالى أن يُنهى وجود المـشركين فى البـيت الحرام علم سبحانه أن المسلمـين سيحسبون النتيجة الـمادية لمنع المشركين من دخول الحـرم ، وأنها ستـؤثر على تجارتهم وأرزاقـهم فى مواسم التجارة والحج .

لذلك قال بعدها مباشرة : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً[1] فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن

(١) العيلة : الفقر . والعَيِّل : الفقير . يقال : عـال يعيل عيلة إذا افتقر . [لسان العرب ـ مادة : عيل] .

فَضْلِه .. (٢٨) ﴾ [التوبة] فساعةَ يقرأونها فى التشريع يعلمون أن الله اطَّلع على ما فى نفوسهم ، وجاءهم بالردِّ عليه حتى لا يتكلموا به ، وهذا يعنى أن التشريع يأتى ليعالج كل خواطر النفس ، فلا ينزعك من شىء تخافه إلا ومع التشريع ما يُذهِب هذه المخاوف .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ (٥٨) ﴾

هذه فى مقابل : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ .. (٥٥) ﴾ [العنكبوت] وذكر المقابل لزيادة النكاية بالكافرين ، كما يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

فجَمْع المتقابلين يزيد من فَرْحة المؤمن ، ويزيد من حَسْرة الكافر .

ومعنى ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا .. (٥٨) ﴾ [العنكبوت] أى : نُنزلهم ونُمكِّنهم منها ، كما جاء فى قوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ .. (١٢١) ﴾ [آل عمران] يعنى : تُنزِلهم أماكنهم .

والجنة تُطلق على الأرض ذات الخضرة والأشجار والأزهار فى الدنيا ، كما جاء فى قوله سبحانه : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ .. (٢٦٦) ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ .. (١٧) ﴾ [القلم]

وقوله سبحانه : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ .. (٣٢) ﴾ [الكهف]

فـإذا كـانت جنة الدنيـا على هذه الصـورة من الخـصْب والنمـاء والجـمال ، وفـيـهـا أسبـاب القُـوت والترف ، إذا كـانَ ذلك فى دنيـا الأسباب التى نراها ، فما بالك بما أعدَّه الله لخَلْقه فى الآخرة ؟

ومن عـجائب الجنة أنهـا ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٥٨) ﴾ [العنكبوت] ونحن نعرف أن أنهار الدنيا تجرى خلالها عبر الشُّطآن التى تحجز الماء ، أمّا فى الجنة فتجرى أنهارها بلا شُطآن .

لذلك لمـا كنا نسافـر إلى بلاد المدنيـة والتقـدّم ، ونرى زخارف الحياة وترفـها كنتُ أقول لمن معى : خذوا من هذا النعـيم عظَة ، فهو ما أعدَّه البشر للبشر ، فما بالكم بما أعدَّه ربُّ البشر للبشر ؟

فإذا رأيتَ نعـيماً عند أحد فـلا تحقد عليـه ، بل ازْدَدْ به يقيناً فى الله تعـالى ، وأن مـا عنده أعظم من هذا . ألاَ ترى أن الحق ـ تبـارك وتعـالى ـ حـينما يخـبـرنا عن الجنة يقـول : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (١٥) ﴾ [محمد] فيـجعلهـا مثـلاً ؛ لأن ألفاظ اللغـة لا تؤدى المعانى التى فى الجنة ولا تَصِفها .

لذلك يقول النبى ﷺ : « فيهـا ما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »[1] فكل ما جـاء فيهـا ليس وصفاً لهـا إنما مـجرد مـثَل لها ، ومع ذلك لمـا أعطانا المـثل للجنة صفَّى المـثل من شوائبه ، فقال : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ[2] وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ

(١) عن أبى هريرة قال قال رسـول الله ﷺ : « قال الله : أعددت لعبادى الصالحـين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فـاقرأوا إن شئتم ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ .. (١٧) ﴾ [السجدة] » أخـرجه البخارى فى صحـيحه (٣٢٤٤ ، ٧٤٩٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) كتاب الإيمان .

(٢) أسن المـاء يأسن : تغيـرت رائحـتـه ، فـهو آسن . [الـقامـوس القويم ١/ ٢٠] قـال فى التهذيب : هو الذى لا يشربه أحد من نتـنه . [ذكره ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : اسن] .

طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. (١٥) ﴾ [محمد] ويكفى أن تعلم أن نعيم الجنة يأتى مناسباً لقدرة وإمكانيات المنعم سبحانه .

وقوله سبحانه ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا .. (٥٨) ﴾ [العنكبوت] لأن النعيم مهما كان واسعاً ، ومهما تعددتْ ألوانه ، فيُنغِّصه ويُؤرِّق صاحبه أنْ يزول إما بالموت وإما بالفقر ، أما نعيم الجنة فدائم لا يزول ولا ينقطع ، فلا يفوتك ولا تفوته ، كما قال سبحانه : ﴿ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) ﴾ [الواقعة] لا يُكدِّرها شيء .

إذن : فالرابح مَنْ آثر الآخرة على الدنيا ؛ لأن نعيم الدنيا مآله إلى زوال ، ولا تقُلْ : إن عمر الدنيا كم مليون سنة ، إنما عمرها مدة بقائك أنت فيها ، وإلا فماذا تستفيد من عمر غيرك ؟

ثم إنك تتمتع فى الدنيا على قدر إمكاناتك ومجهوداتك ، فنعيم الدنيا بالأسباب ، لكن نعيم الآخرة بالمسبِّب سبحانه ، لذلك ترى نعيماً صافياً لا يُنغِّصه شيء ، فأنت ربما تأكل الأكْلة فى الدنيا فتسبِّب لك المتاعب والمضايقات ، كالمغص والانتفاخ ، علاوة على ما تكرهه أثناء قضاء الحاجة للتخلُّص من فضلات هذه الأكلة .

أما فى الآخرة فقد أعدَّ الله لك الطعام على قَدْر الحاجة ، بحيث لا تكون له فضلات ، لأنه طُهِى بكُنْ من الله تعالى .

لذلك سُئل أحد علماء المسلمين : تقولون : إن الجنة تأكلون فيها ، ولا تتغوطون ، فكيف ذلك ؟ فقال : ولم التعجب ، ألاَ تروْنَ الجنين فى بطن أمه يتغذى وينمو ولا يتغوط ؛ لأن الله تعالى يعطيه غذاءه على قدر حاجته للنمو ، فلا يبقى منه فضلات ، ولو تغوَّط فى مشيمته لمات فى بطن أمه .

وقوله تعالى : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) ﴾ [العنكبوت] نعم ، نعْم هذا الأجر ؛ لأنك مكثْتَ إلى سنِّ التكليف تربَع فى نعم الله دون أنْ يُكلِّفك بشىء ، ثم يعطيك على مدة التكليف أجراً لا ينقطع ، ولا نهاية له ، فأىُّ أجر أسْخى من هذا ؟ ويكفى أن الذى يقرِّر هذه الحقيقة هو الله ، فهو سبحانه القائل : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) ﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) ﴾

فهذه من صفات العاملين ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا .. (٥٩) ﴾ [العنكبوت] فلا تظن أن العمل ما كان فى بحبوحة العيش وترَف الحياة ؛ فالعامل الحق هو الذى يصبر ، وكلمة ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا .. (٥٩) ﴾ [العنكبوت] تدل على أنه سيتعرَّض للابتلاء ، كما قال سبحانه : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾ [العنكبوت]

فالذين اضطهدوا وعُذِّبوا حتى اضطروا للهجرة بدينهم صبروا ، لكن هناك ما هو أكبر من الصبر ؛ لأن خَصْمك من الجائز أنْ يصبر عليك ، فيحتاج الأمر إلى المصابرة ؛ لذلك قال سبحانه ﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا .. (٢٠٠) ﴾ [آل عمران] ومعنى : صابره . يعنى : تنافس معه فى الصبر .

والصبر يكون على آفات الحياة لتتحملها ، ويكون على مشقة التكاليف ، وعلى إغراء المعصية ، يقولون : صبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية ، وصدق الشاعر حين قال :

وكُنْ رجلاً كالضِّرس يرسُو مكَانَهُ   ليَمْضُغَ لاَ يَعْنيه حُلْو ولاَ مُرّ

فالمعنى ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا.. (٥٩) ﴾ [العنكبوت] على الإيذاء ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) ﴾ [العنكبوت] أى : فى الرزق ، وكان المهاجرون عند هجرتهم يهتمون لأمر الرزق يقولون : ليس لنا هناك دار ولا عقار ولا.. إلخ . فأراد سبحانه أنْ يُطمئن قلوبهم على مسألة الرزق ، فقال ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) ﴾ [العنكبوت]

فالذى خلقك لا بُدَّ أنْ يخلق لك رزقك ، ومن عجيب أمر الرزق أن رزقك ليس هو ما تملك إنما ما تنتفع به حقيقة ، فقد تملك شيئاً ويُسرق منك ، وقد يُطهى لك الطعام ، ولا تأكله ، بل أدقّ من ذلك قد تأكله ولا يصل إلى معدتك ، وربما يصل إلى المعدة وتَقيئه ، وأكثر من ذلك قد يتمثل الغذاء إلى دم ثم ينزف منك فى جُرْح أو لدغة بعوضة أو غير ذلك ؛ لأن هذا ليس من رزقك أنت ، بل رزق لمخلوق آخر .

إنك تعجب حينما ترى التمساح مثلاً على ضخامته وخوف الناس منه ، ومع ذلك تراه بعد أنْ يأكل يخرج إلى اليابسة ، حيث يفتح فمه لصغار الطيور ، فتتولى تنظيف ما بين أسنانه من فضلات الطعام ، وترى بينهما انسجاماً تاماً وتعاوناً إيجابياً ، فحين يتعرض التمساح مثلاً لهجمة الصياد يُحدث الطير صوتاً معيناً يفهمه التمساح فيسرع بالهرب .

فانظر من أين ينال هذا الطير قوته ؟ وأين خبأ الله له رزقه ؟ لذلك يقولون (اللى شقُّه خلق لقُّه) .

وسبق أن ضربنا مثلاً على خصوصية الرزق بالجنين فى بطن أمه ، فحينما تحمل الأم بالجنين يتحول الدم إلى غذاء للطفل ، فإنْ لم تحمل نزل هذا الدم ليرمى به دون أنْ تستفيد منه الأم ، لماذا ؟ لأنه رِزْق الجنين ، وليس رزقها هى .

لذلك نجد الآية بعدها تقول[1] :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾

يريد سبحانه أنْ يُطمئن خلْقه على أرزاقهم ، فيقول ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت] كأىٍّ لها معَانٍ متعددة ، مثل كم الخبرية حين تقول لمن ينكر جميلك : كم أحسنتُ إليك ؟ يعنى : كثيراً جداً ، كذلك فى ﴿ وَكَأَيِّن .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : كثير كما فى ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ معه رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ .. ﴿١٤٦﴾ ﴾ [آل عمران]

والدابة : هى التى تدبّ على الأرض ، والمراد كل حىٍّ ذى حركة ، وقد تقول : فالنمل - مثلاً - لا نسمع له دبَّة على الأرض أيُعَدُّ من الدابة ؟ نعم فله دبَّة على الأرض ، لكنك لا تسمعها ، فالذى خلقها يسمع دبيبها ؛ لأن الذى يقبل الصغر يقبل الكبر ، لكن ليس عندك أنت آلة السماع .

بدليل أن الذى يعانى من ضعف السمع مثلاً ينصحه الطبيب

---

(١) سبب نزول الآية : عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار ، فجعل يلقط من التمر ويأكل ، فقال : يا بن عمر ما لك لا تأكل ؟ فقلت : لا أشتهيه يا رسول الله . فقال : لكنى أشتهيه وهذه صبيحة رابعة ما ذُقْت طعاماً ولو شئت لدعوت ربى فأعطانى مثل مُلْك كسرى وقيصر ، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت فى قوم يخبئون رزق سنتهم ويُضعف اليقين ؟ قال : فو الله ما برحنا حتى نزلت ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت] . أخرجه الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ١٩٦) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٥٠) : « هذا ضعيف ، يضعفه أنه عليه السلام كان يدخر لأهله قوت سنتهم ، اتفق البخارى عليه ومسلم ، وكان الصحابة يفعلون ذلك وهم القدوة ، وأهل اليقين والأئمة من بعدهم من المتقين المتوكلين » .

بتركيب سماعة للأذن فيسمع ، وكذلك فى النظارة للبصر ، إذن : فكل شيء له أثر مرئى أو مسموع ، لكن المهم فى الآلة التى تسمع أو ترى ؛ لذلك يقولون إنْ أرادوا المبالغة : فلان يسمع دَبّة النملة .

ومعنى ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا .. ۝٦٠ ﴾ [العنكبوت] ليست كلّ الدواب تحمل رزقها ، فكثير منها لا تحمل رزقاً ، ومع ذلك تأكل وتعيش ، ويحتمل أن يكون المعنى : لأنها لا تقدر على حمله ، أو تقدر على حمله ولكنها لا تفعل ، فمثلاً القمل والبراغيث التى تكثر مع الإهمال فى النظافة الشخصية أتحمل رزقاً ؟ والناموسة التى تتغذى مع ضَعْفها على دم الإنسان الفتوة المتجبر ، الميكروب الذى يفتك بالإنسان .. إلخ هذه أشياء لا تحمل رزقها .

أما الحمار مثلاً فهو مع قدرته على الحمل لا يحمل رزقه ؛ لذلك تراه إنْ شبع لا يدخر شيئاً ، وربما يدوس الأكل الباقى ، أو يبول عليه ، وكذلك كل الحيوانات حتى أنهم يقولون : لا يعرف الادخار من المخلوقات إلا الإنسان والفأر والنمل .

وقد جعل الله الادخار فى هؤلاء لحكمة ولبيان طلاقة قدرته تعالى ، وأن الادخار عند هذه المخلوقات ليس قُصوراً من الخالق سبحانه فى أن يجعل بعض الدوابّ لا تحمل رزقها ، بل يخلق لها وسائل تعجز أنت عنها .

ولك أن تتأمل قرى النمل وما فيها من عجائب ، فقد لاحظ الباحثون فى هذا المجال أنك لو تركتَ بقايا طعام مثلاً تأتى نملة وتحوم حوله ثم تنصرف وترسل إليه عدداً من النمل يستطيع حمل هذه القطعة ، ولو ضاعفت وزن هذه القطعة لتضاعف عدد النمل .

إذن : فهى مملكة فى غاية التنظيم والدقة والتخصص ، والأعجب من ذلك أنهم لاحظوا على النمل أنها تُخرِج فُتاتاً أبيض صغيراً أمام الأعشاش ، فلما فحصوه وجدوه الزريعة التى تُسبِّب الإنبات فى الحبة حتى لا تنبت ، فتهدم عليهم العُشَّ ، فسبحان الذى خلق فسوَّى ، والذى قدَّر فهدى .

وأعجب من ذلك ، وجدوا النمل يفلق حبة الكسبرة إلى أربعة أقسام ، لأن نصف حبة الكسبرة يمكنه أنْ يَنبت منفرداً ، فقسموا النصف .

إذن : فكثير من الدواب لا تحمل رزقها ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ .. ⁽٦٠⁾ ﴾ [العنكبوت] فذكر الدواب أولاً فى مجال الرزق ثم عطف عليها ﴿ وَإِيَّاكُمْ .. ⁽٦٠⁾ ﴾ [العنكبوت] فنحن معطوفون فى الرزق على الدواب ، مع أن الإنسان هو الأصل ، وهو المكرَّم ، والعالم كله خُلِق من أجله ولخدمته ، ومع ذلك لم يقُلْ سبحانه : نحن نرزقكم وإياهم ، لماذا ؟ قالوا : لأنك تظن أنها لا تستطيع أن تحمل أو تُدبِّر رزقها ، ولا تتصرف فيه ، فلفت نظرك إلى أننا سنرزقها قبلك .

وقد وقف المستشرقون الذين يأخذون القرآن بغير الملكة العربية يعترضون على قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. ⁽٣١⁾ ﴾ [الإسراء]

وقوله سبحانه : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ .. ⁽١٥١⁾ ﴾ [الأنعام]

يقولون : أيّهما أبلغ من الأخرى ، وإن كانت إحداهما بليغة ، فالأخرى غير بليغة .

وهذا الاعتراض ناتج عن ظنهم أن الآيتين بمعنى واحد ، وهما مختلفتان ، فالأولى ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. (٣١)﴾ [الإسراء] فالفقر هنا غير موجود وهم يخافونه . أما فى : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] فالفقر موجود فعلاً . فهما مختلفتان فى الصَّدْر ، وكذلك مختلفتان فى العَجُز .

ففى الأولى قال : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١)﴾ [الإسراء] لأن الفقر غير موجود ، وأنت غير مشغول برزقك ، فبدأ بالأولاد ، أمّا فى الثانية فقال : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] وقدم الآباء ؛ لأن الفقر موجود ، والإنسان مشغول أولاً برزق نفسه قبل رزق أولاده .

إذن : فلكل آية معنى وانسجام بين صَدْرها وعَجُزها ، المهم أن تتدبر لغة القرآن ، وتفهم عن الله مراده .

وقوله سبحانه : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠)﴾ [العنكبوت] واختار هنا السميع العليم ؛ لأن الحق سبحانه له قيُّومية على خَلْقه ، فلم يخلقهم ثم يتركهم للنواميس ، إنما خلق الخَلْق وهو سبحانه قائم عليه بقيوميته تعالى ؛ لذلك يقول فى بيان عنايته بصنعته ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة] يعنى : يا عبادى ناموا مِلْءَ جفونكم ؛ لأن ربكم لا ينام .

ومناسبة السميع هنا ؛ أن الجوع إذا هَزَّ إنساناً ربما يصيح صيحة ، أو يُحدِث شيئاً يدل على أنه جائع ، فكأنه يقول : لم أجعلكم كذلك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) ﴾

يقول تعالى للذين لا تكفيهم آية القرآن التى نزلت على رسول الله ، ويطلبون منه آيات أخرى ، يقول لهم : لقد جعل الله لكم الآيات فى الكون قبل أنْ يرسل الرسل ، آيات دالة على الإعجاز فى السماوات وفى الأرض ، فهل منكم مَنْ يستطيع أنْ يخلق شيئاً منها مهما صَغُر ؟

إن خلق السماوات والأرض معجزة كونية لا تنتهى ، فلماذا تطلبون المزيد من الآيات ، وما جعلها الله إلا لبيان صِدْق الرسل فى البلاغ عن الله ليؤمن الناس بهم .

لذلك يقول سبحانه فى الرد عليهم : ﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. (١١) ﴾ [لقمان] فخلْق السماوات والأرض والشمس والقمر إعجاز للدنيا كلها ، وخصوصاً الكفرة فيها .

ومسألة الخَلْق هذه من الوضوح بحيث لا يستطيع أحد إنكارها ـ كما سبق أنْ أوضحنا ـ لذلك يقولون هنا فى إجابة السؤال ﴿ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٦١) ﴾ [العنكبوت] وهذا الاعتراف منهم يستوجب من المؤمن أنْ يحمد الله عليه ، فيقول : الحمد لله أن اعترفوا بهذه الحقيقة بأنفسهم ، الحمد لله الذى أنطقهم بكلمة الحق ، وأظهر الحجة التى تبطل كفرهم .

وقوله تعالى ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) ﴾ [العنكبوت] أى : كيف بعد هذا الاعتراف ينصرفون عن الله ، وينصرفون عن الحق ؟

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [العنكبوت] : يُوسِّعه ، ﴿ وَيَقْدِرُ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى يضيق ، وآفة الناس فى هذه المسألة أنهم لا يفسرون الرزق إلا بالمال ، والرزق فى الواقع كل ما ينتفع به الإنسان ، فالعلم رزق ، والحلم رزق ، والجبروت رزق ، والاستكانة رزق ، وإتقان الصَّنْعة رزق .. إلخ .

والله سبحانه يُوسِّع الرزق لمَنْ يشاء ، ويُضيِّقه على مَنْ يشاء ، فالذى ضُيِّق عليه يحتاج لمن بسط له ، وكذلك يبسط الرزق فى شىء ويُضيِّقه فى شىء آخر ، فهذا بسط له فى العقل مثلاً ، وضيق عليه فى المال .

فكأن الحق - سبحانه وتعالى - نثر مواهب الملكات بين خَلْقه ، لم يجمعها كلها فى واحد ، وسبق أن أوضحنا أن مجموع الملكات عند الجميع متساوية فى النهاية ، فَمنْ بُسط له فى شىء ضُيِّق عليه فى آخر ؛ ليظل المجتمع مربوطاً برباط الاحتياج ، ولا يستغنى الناس بعضهم عن بعض ، وحتى تتكامل المواهب بين الناس ، فتتساند لا تتعاند .

إذن : فالحق - سبحانه وتعالى - حين يبسط الرزق لعبد ، ويَقْدره على آخر ، لا يعنى هذا أنه يحب الأول ويكره الآخر ، ولو نظرتَ إلى كل جوانب الرزق وزوايا العطاء لوجدتها متساوية .

وحين نتأمل قوله سبحانه : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا

بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات .. (٣٢) ﴾ [الزخرف] فأىُّ بعض مرفوع ؟ وأىُّ بعض مرفوع عليه ؟ الكل مرفوع فى جهة اختصاصه ، ومرفوع عليه فى غير جهة اختصاصه ، إذن : فالجميع سواء .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً لهذه القضية . وقلنا : إن العظيم الذى يسكن القصر يحتاج إلى العامل البسيط الذى يُصلح له دورة المياه ، وينقذه من الرائحة الكريهة التى يتأفف منها ، فيسعى هو إليه ويبحث عنه ، وربما ذهب إليه فى محل عمله وأحضره بسيارته الفارهة ، بل ويرجوه إنْ كان مشغولاً .

ففى هذه الحالة ، ترى العامل مرفوعاً على الباشا العظيم ، فلا يظهر الرفع إلا فى وقت الحاجة للمرفوع .

وأيضاً لو لم يكُنْ بين الناس غني وفقير ، مَنْ سيقضى لنا المصالح فى الحقل ، وفى المصنع ، وفى السوق .. إلخ لا بُدَّ أنْ تُبنى هذه المسائل على الاحتياج ، لا على التفضُّل . إذن : إنْ أردت أن تقارن بين الخَلْق فلا تحقرنَّ أحداً ؛ لأنه قد يفضل عليك فى موهبة ما ، فتحتاج أنت إليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) ﴾

وهنا أيضاً قالوا ﴿الله﴾ لأن إنزال المطر من السماء وإحياء الأرض به بعد موتها آية كونية واضحة لم يدَّعِها أحد ، فهى ثابتة لله

تعالى ، لا يُنكرها أحد حتى الكافرون ، فلئن سألتهم هذا السؤال ﴿ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٦٣) ﴾ [العنكبوت] لذلك يأمرنا الحق سبحانه بأن نقول بعد هذا الإقرار ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٦٣) ﴾ [العنكبوت] الذى أنطقهم بالحق ، وأقام عليهم الحجة ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣) ﴾ [العنكبوت] لأنهم أقرُّوا بآيات الله فى خَلْق الكون ، ومع ذلك كفروا به .

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾

الحياة : نعرفها بأنها ما يكون فى الإنسان الأعلى فى الوجود من حسٍّ وحركة ، فإذا انتهى حسُّه وحركته لم تَعُدْ له حياة ، وهذه الحَياة موصوفة هنا بأوصافَ ثلاثة : دنيا ولهو ولعب ، كلمة دنيا تدل على أن مقابلها عُلْيا فساعة تسمع هذا الوصف « الحياة الدنيا » فاعلم أن هذا الوصف ما جاء إلا ليميزها عن حياة أخرى ، تشترك معها فى أنها حياة لله إلا أنها حياة عليا ، هذه الحياة العُلْيا هى التى قال عنها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ « الدار الآخرة » .

وإنْ كنا قد عرَّفنا الحياة الدنيا بأنها الحسُّ والحركة فى الإنسان ، فالواقع عند التقنين أن لكل شىء فى الوجود حياةً تُناسب مهمته ، بدليل قوله تعالى حين يُنهى هذه الحياة : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص]

فما يُقال له شىء لا بُدَّ أنْ يطرأ عليه الهلاك ، والهلاك تقابله الحياة ، بدليل قوله سبحانه : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال]

فالحياة ضد الهلاك ، إلا أنك تعرف الحياة عندك بالحس والحركة ،

وكذلك الحياة فى كل شىء بحسبه ، حتى فى الجماد حياة نلحظها فى أن الجبل يتكون من أصناف كثيرة من الحجارة ، ترتقى مع الزمن من حجارة إلى أشياء أخرى أعلى من الحجارة وأثمن ، وما دامت يطرأ عليها هذا التغيير فلا بُدَّ أن فيها حياةً وتفاعلاً لا ندركه نحن .

إذن : فكل شىء له حياة ، لكن الآفة أننا نريد حياة كالتى فينا نحن ، وأذكر ونحن فى مراحل التعليم قالوا لنا : هناك شىء اسمه المغناطيس ، وعملية اسمها المغنطة ، فحين تُمغنط قطعة من الحديد تُكسبها قدرة على جَذْب قطعة أخرى وفى اتجاه معين ، إذن : فى الحديد حياة وحركة وتفاعل ، لكن ليس عندك الآلة التى تدرك بها هذه الحركة ، وفيها ذرات داخلية لا تُدرَك بالعين المجردة تم تعديلها بالمغنطة إلى جهة معينة .

واقرأ قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ .. (٢١)﴾ [فصلت] فللجوارح نفسها حياة ، ولها كلام ومنطق ، لكن لا ندركه نحن ؛ لأن حياتها ليست كحياتنا . إنك لو تتبعتَ مثلاً طبقاً أو كوباً من البلاستيك لوجدته تغيَّر لونه مع مرور الزمن ، وتغيُّر اللون فيه يدل على وجود حياة وحركة بين ذراته ، ولو لم تكُنْ فيه حياة لكان جامداً مثل الزجاج ، لا يطرأ عليه تغيُّر اللون .

والحق - تبارك وتعالى - يصف الدار الآخرة بأنها ﴿الْحَيَوَانُ .. (٦٤)﴾ [العنكبوت] وفرْق بين الحياة والحيوان ، الحياة هى هذه التى نحياها فى الدنيا يحياها الأفراد ، ويحياها النبات ، ثم تؤول إلى الموت والفناء ، أمَّا الحيوان فيعنى الحياة الأرقى فى الآخرة ؛ لأنها حياة باقية حياة حقيقية .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ أعطانا صورة للحياة الدنيا ، الحياة المادية فى قوله تعالى عن آدم ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. (٢٩)﴾ [الحجر] فمن الطين خَلَق آدم ، وسوَّاه ونفخ فيه من روحه تعالى ، فدبَّتْ فيه الحياة المادية .

لكن هناك حياة أخرى أسمى من هذه يقول الله عنها : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤)﴾ [الأنفال] فكيف يخاطبهم بذلك وهم أحياء ؟ لا بُدَّ أن المراد حياة أخرى غير هذه الحياة المادية ، المراد حياة الروح والقيم والمنهج الذى يأتى به رسول الله .

لذلك سمَّى المنهج روحاً ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. (٥٢)﴾[الشورى] وسمَّى الملَك الذى نزل به روحاً : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣)﴾ [الشعراء]

إذن : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ .. (٦٤)﴾ [العنكبوت] أى : الحياة الحقيقية التى لا تفوتها ولا تفوتك ، ولا يفارقك نعيمها ، ولا يُنغِّصه عليك شىء ، كما أن التنعُّم فى الدنيا على قَدْر إمكاناتك وأسبابك ، أمّا فى الآخرة فالنعيم على قَدْر إمكانات المنعم سبحانه وتعالى .

ثم يأتى وَصْف الدنيا بأنها لَهْو ولَعب ، وهما حركتان من حركات جوارح الإنسان ، لكنها حركة لا مَقْصدَ لها إلا الحركة فى ذاتها دون هدف منها ؛ لذلك نقول لمن يعمل عملاً لا فائدةَ منه « عبث » .

إذن : اللهو واللعب عبث ، لكن يختلفان من ناحية أخرى ، فاللعب حركة لا فائدة منها ، لكنه لا يصرفك عن واجب يعطى فائدة ، كالولد حين يلعب ، فاللعب لا يصرفه عن شىء إذن : فاللعب لمن لم يبلغ ، أمّا البالغ المكلف فاللعب فى حقِّه يسمى لَهْواً ، لأنه كُلِّف فترك ما كُلِّف به

إلى ما لم يكلَّف به ، ولَهَا عن الواجب ، ومنه : لَهْو الحديث[1] .

فقوله تعالى ﴿وَمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ .. ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت] أى : إنْ جُرِّدت عن الحياة الأخرى حياة القيم التى تأتى باتباع المنهج .

وقوله : ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت] يُحتمل أن تكون الجملة هنا امتناعية يعنى : امتنع علمهم بها ، أو تكون تمنياً يعنى : يا ليتهم يعلمون هذه الحقيقة ، حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة ؛ لأنهم لو علموها لأقبلوا على منهج ربهم لينالوا كُلَّ هذا العطاء الممتدّ ، ولَسلكوا طريق الإيمان بدل طريق الكفر ، فكأن المعنى أنهم لم يعرفوا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾

ينقلنا السياق هنا من الكلام عن حقيقة كل من الدنيا والآخرة إلى الحديث عن الفُلْك ، فما العلاقة بينهما ؟

المتكلم هنا هو الله تعالى ، وواضع كل شىء فى موضعه ، ولا يغيب عنك أنه لا بُدَّ أنْ تتدبر كلام الله لتفهم مراده ، فالله لا يريدنا مُقبلين على ظاهر القرآن فحسب ، إنما أنْ نتعمق فى فهمه وتأمله ،

---

(١) يقول تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴿٦﴾﴾ [لقمان] . أخرج الفريابى وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ .. ﴿٦﴾﴾ [لقمان] قال : باطل الحديث . وهو الغناء ونحوه ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴿٦﴾﴾ [لقمان] قال : قراءة القرآن وذكر الله . نزلت فى رجل من قريش اشترى جارية مغنية . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٥٠٤] . وفى خبر آخر عنه أنه النضر بن الحارث .

ونـنظر فى معطياته الحقيقية : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ .. (٨٢) ﴾ [النساء]

والعلاقة هنا أن الآية السابقة جاءتْ لتقرر أن الدنيا دار لهو ولعب لا فائدة منهـا إذا ما بَعُدت عن منهج الله ، ولم تحـسب حساباً لحـياة أخرى هى الحياة الحقيقية وهى الحيوان ، فكان على العاقل أنْ يحرص على الآخرة ، وأنْ يعمل لها باتباع منهج الله فى الدنيا .

إذن : فـالدنيـا ليـست غـاية ، بل هى وسـيلة ، وأنت أيهـا الذى أعـرضتَ عن منهج ربك جـعلتَ الدنيـا غايتك ، والدنـيا إنْ كـانت هى الغاية فمـا أتفهها من غاية ، إنمـا اجعلها وسيلة للآخـرة ومزرعة لدار الحيـوان . وكذلك الحـال فى الفُلْك ، فهى وسـيلة تُوصِّلك إلى هدف ، وإلى غاية ، وليست هى غاية فى حَدِّ ذاتها .

﴿ فَـإِذَا رَكِـبُـوا فِي الْفُلْكِ دَعَـوُا اللَّهَ مُـخْلِصِـينَ لَهُ الدِّينَ .. (٦٥) ﴾ [العنكبوت] والفلك : السفينة ، وتُطلق على المفـرد وعلى الجمع ، فيقول تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ .. (٣٨) ﴾ [هود] وقوله ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٢٢) ﴾ [يونس] واضح من السـياق أنها ليـستْ دعوة الحـمد ، كأن يقولوا مثلاً ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) ﴾ [الزخـرف] بل هى دعـوة الاضطرار بـعـد أنْ تعـرَّضـوا لشـدة وعطب لا تنجيهم منها أسبـابهم ، بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) ﴾ [العنكبوت]

فهـذه تعطينا أنهم ركـبوا فى السـفينة ، فلمـا تعرَّضـوا للعطب ، وضاقتْ بهم أسبابهم دعوا الله مخلصين له الدين[1] .

---

(١) ذكر محمـد بن إسحاق عن عكرمة بن أبى جهل أنه لما فـتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منها ، فلما ركب فى البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة فـقال أهلها : يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء ، فإنه لا ينجى هنا إلا هو . فقال عكرمة : والله لئن كان لا ينجى فى البحر غيـره ، فإنه لا ينجى فى البر أيضاً غيره ، اللهم لك عليَّ عـهد ، لئن خرجت لأذهبن فلأضعـن يدى فى يد محمد فـلأجدنه رءوفاً رحيـماً ، فكان كذلك . [أورده ابن كثـير فى تفسيره ٣/٤٢١] .

وفى لقطة أخرى يقول القرآن : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢)﴾ [يونس]

فمعنى ﴿أُحِيطَ بِهِمْ .. (٢٢)﴾ [يونس] أى : لا يوجد لهم مفر ولا مهرب ولا مفزع يفزعون إليه إلا أنْ يتوجهوا إلى الله بدعاء خالص ويقين إيمان فى أنهم لا ملجأ لهم إلا الله ، وقد كانوا فى أول الرحلة فرحين بمركبهم مسرورين به ، وساعتها لم يكُن الله فى بالهم ، إنما لما ضاقت بهم الحيل عادوا إلى الحق ، فالوقت لا يحتمل المراوغة .

لأن الإنسان عادةً لا يخدع نفسه ، فحتى الكافر حين تضيق به أسباب النجاة يلجأ بالفطرة إلى الله الحق ، وينسى آلهته ومعبوداته من دون الله ؛ لأنه لا يسلم نفسه أبداً ، ولا يتمادى حينئذ فى كذبة الآلهة والأصنام .

لذلك : ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٦٥)﴾ [العنكبوت] دعوة خالصة بيقين ثابت فى الإله الحق ، دعوة لا تشوبها شائبة شرك ، لا ظاهر ولا خفى ، فلا ينفع فى هذا الوقت إلا الله المعبود بحقٍّ .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بمثَل من حياتنا الواقعية ، قلنا : إن حلاق الصحة كان يقوم بدور الطبيب فى القرية ، وله بين الناس نفس مكانة الطبيب فى وقت لم يكُنْ هناك أطباء ، فلما خرَّجَتْ كلية الطب أطباء وانتشروا فى القرى كان الحلاق أول المهاجمين للطبيب ؛ لأنه يزاحمه فى رزقه ، ويصرف الناس عنه ؛ لذلك كان يذم فى الطبيب ويُشكِّك فى خبرته وقدراته .

لكن لما مرض ابنه ، وارتفعت درجة حرارته ، وخاف عليه قال لزوجته: انتظرى إلى ظلام الليل لأذهب به إلى الطبيب ـ يعنى : فى غفلة الناس .

فالإنسان بطبعه لا يخدع نفسه ، ولا يسلمها إذا جدَّ الجد ، وفيه فطرة إيمانية إذا ما صفيتها فى الذات البشرية لا تجد فى النهاية إلا قوة واحدة هى قوة الله .

حتى الملاحدة حين تضيق بهم الأسباب يقولون : يا رب ، يا الله . يقولونها من تلقاء أنفسهم ، دون مرور بالعقل الذى أنكروا به وجود الله . وهذا يعنى أن الفطرة الإيمانية قد تحجبها الأغيار البشرية وتلغيها ، فإذا ما نامت الأغيار البشرية وتلاشتْ لحدثٍ من الأحداث ظهرتْ الفطرة الإيمانية على السطح تلهمك بلا شعور .

لذلك نلحظ فى قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. (١٧٢) ﴾ [الاعراف] شهدوا لأنهم ما يزالون فى عالم الذر ، لا تتحكم فيهم الأغيار البشرية﴿ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ .. (١٧٣) ﴾[الأعراف]

والله خلق الإنسان خليفة له فى الأرض ، وسخر له كل هذا الكون ، فإنْ ظلَّ متمسكاً بهذا المنهج ، ووقف عند حد الخلافة يفوز ، أما إنْ ظن أنه أصيل فى الكون يخيب ويخسر ، لكن الله الذى خلقه يعلم الأغيار فيه وهو خَلْقه وصنعته ؛ لذلك وجهه : أنت خليفتى فى أرضى ، وعليك أن تنظر إلى ما طُلب منك فتؤديه ، وإلا فسدت حياتك وتصادمت مع الآخرين ؛ لأنك لست وحدك فيها ، ولكى تنسجم مع غيرك لا بُدَّ أن تسير وَفْق منهجى ، وفى دائرة قوانين من استخلفك .

ثم يُنبِّهه من ناحية أخرى : يقول أنت أيها الإنسان ، اعلم أن الأسباب ستستجيب لك ، فإياك أن تظن أن لك قدرةً عليها ، أو أن لك جاهاً وعظمة ، فتنسى أنك خليفة ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ كَلاَّ إِنَّ

الإنسَانَ لَيَطْغَىٰ ⑥ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ⑦ ﴾ [العلق] احذر حين تتم لك الأمور وتطاوعك الأسباب ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ⑧ ﴾ [العلق] فسوف يقابلك من الأحداث ما لا تستطيع أسبابك أنْ تدفعها ، ولن تجد مرجعاً إلا إلىَّ .

وكيف يطغى الإنسان وقد أعطاه الله فيضاً من فيض كماله ، أعطاه قدرة من قدرته ، وعلماً من علمه .. إلخ فإذا نظرتَ نظرة بسيطة فى فيوضات الله عليك لوجدتها كثيرة ، بالله ماذا تفعل إنْ أردتَ أن تقوم من مكانك ، أو أن تُحرِّك يدك أو رِجْلك ؟ لا شيء ، بمجرد أن تريد تنفعل لك أعضاؤك ، وتطاوعك من حيث لا تدرى .

وسبق أنْ قارنّا بين حركة الإنسان وحركة الحفار مثلاً ، وكيف أنه يحتاج إلى عمليات مُعقدة ، فكل حركة منه لها زرٌ خاص يؤديها ، فماذا تفعل أنت إنْ أردتَ أنْ تؤدى مثل هذه الحركات ؟

إنك بمجرد الإرادة ينفعل لك العضو ، وكأن فيك فيضاً من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ⑧٢ ﴾ [يس] فإذا كنتَ أنت تفعل بمجرد أن تريد ، فلماذا لا تصدق هذا فى حقِّ الله تبارك وتعالى ؟

لكن هذه الحركة وانفعال الأعضاء لك ليس ذاتياً فيك ، ويستطيع خالقك أنْ يسلبها منك ، فتريد أن ترفع يدك فلا تستطيع ، فأنت تحت قيوميته تعالى ، فلم يُعطكَ من صفاته ، ثم يتركك . . فربنا سبحانه يحذرنا : إذا استغنيتَ ستَطغى ؛ فتنبَّه أن إلى ربك الرُّجْعى .

ثم يلفت نظرنا من الآن إلى قضية أخرى قبل أنْ نتعرض للمخاطر: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ .. ⑩٧ ﴾ [يونس] فلا تتعب نفسك ، وتذهب هنا أو هناك ؛ لأنه ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ .. ⑩٧ ﴾ [يونس]

هذه نصيحتى لك ؛ لأنك صنعتى ، وأنا أحب أن تكون صنعتى

على أرقى ما تكون من الكمال ، فإذا مسَّك ضر لا تقدر على دَفْعه بأسبابك ، فعليك بباب ربك .

هذه ثلاث قضايا أو نصائح نقدمها لك قبل أنْ تحلَّ بك الأحداث والمصائب : إن استغنيت ستطغى ، وأن إلى ربك الرجعى ، وإذا مسَّك ضر ، ولا حيلةَ لك فى دفعه بأسبابك ، فليس لك إلا الله تفزع إليه ، والإله الذى يُنبِّهنا إلى المخاطر لنتلافاها إله رحيم .

إذن : فأنتم تحبون الحياة ، ولما نزلتْ بكم الأحداث والخطوب فى السفينة خِفْتم الموت ، ودعوتُم الله بالنجاة ، فأنتم حريصون على الحياة الدنيا ، فلماذا لا تؤمنون بالله فتنالون حياة أخرى أبْقى وأدوم ؟ والطريق إليها بالإيمان واليقين ، وبمنهج الله فى (افعل) و (لا تفعل) .

هذه قضية ذكرها القرآن ، أمَّا واقع الحياة فقد أكدها ، وجاءت الأحداث وَفْق ما قال . القضية : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ .. (١٢) ﴾ [يونس] الإنسان يعنى مُطْلق الإنسان : المؤمن والكافر ﴿ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا .. (١٢) ﴾ [يونس] يعنى : فى كل الأحوال ، فلما جاءه الخطر وأصابه الضر دعا الله على أىِّ حال كان .

وهذه الأحوال تمثل مراحل راحات النفس ، فمثلاً حين تسير وأنت تحمل شيئاً ، فحين تتعب أولاً تضع عنك هذا الحمْل ، ثم تتوقف عن السير لتستريح ، فإنْ كان التعب أشد تقعد ، وإلا تَضطجع على جنبك .

فأنت فى وضع الوقوف تحمل ثقل الجسم كله على القدمين فتكون الراحة أقل ، أمَّا فى حالة القعود يُوزع ثقل الجسم على الوركين والمقعدة ، وفى الاضطجاع يُوزع نصف الجسم على نصفه فتكون الراحة أكبر ، وفى ضوء هذا نفهم أن الله يستجيب لك حين تدعوه قائماً ، أو قاعداً ، أو على جنبك .

وعجيب أمر الإنسان إذا نجَّاه الله مما يخاف وكشف عنه الضر عاد مرة أخرى ظالماً لنفسه : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس]

وفى لقطة أخرى يقول تعالى فى هذه المسألة : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الزمر] أىُّ ضر ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الزمر] ويا ليته نسى وسكت إنما ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا .. ﴿٨﴾ ﴾ [الزمر] فقال : الفضل لفلان ، وقد استغثت بفلان ، ولجأت إلى فلان .

نلحظ أن الكلام فى هذه الآيات عن الإنسان المفرد ، والإنسان حين يتضرع إلى الله لا يطلع عليه أحد ، فالأمر بينه وبين ربه ، لكن الحق سبحانه يريد أن يفضح الناس ببعض ، فيقول فى موضع آخر : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الإسراء]

فذكر الجماعة ليفضحهم أمام بعض ؛ لأن الإنسان يستر على نفسه ، فالحكمة من الجمع هنا أن رؤية الناس قد تكون مانعة من الشر ، فمثلاً فى موسم الحج ترى أكابر القوم وأوسطهم وأدناهم سواسية فى الطواف ، ويقف الواحد منهم يبكى عند الملتزم ، وحين يراك صاحب المنصب أو المركز وهو مَنْ هو فى بلده ساعة يعرف أنك رأيته وهو يبكى فى هذا الموقف تراه يتواضع لك ، ولا يتعالى عليك بعدها .

فالحق سبحانه حين يُحذِّرنا من العودة إلى المعصية بعد أنْ يكشف عنَّا الضر إنما يعطينا المصل الواقى بصورة تحدث فى الواقع ، وكأنه تعالى يقول لنا : خذوا بالكم ، واعلموا أنكم مفضوحون

بكتاب الله فيما تُحدثون من أحداث فى حياتكم ، فكل منكم ينبغى أنْ يعلم أنه مراقب من الأزل ومكتوبة عليه خواطره ؛ لأن معنى القرآن الحق أنه لا يتغير ، وإذا قال الله فيه شيئاً فلا بُدَّ أنْ يحدث كما أخبر الله به .

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

واللام فى ﴿ لِيَكْفُرُوا .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [العنكبوت] ليست لام التعليل ؛ لأن الكفر لم يكُنْ مقصداً لهم ، وحين عادوا بعد أن نجاهم الله إنما عادوا إلى أصلهم[1] ، فاللام هنا لام الأمر[2] كما لو قلت : قم يا زيد وليقم عمرو ، وعلامة لام الأمر أن تكون ساكنة ، وهى هنا مكسورة لأنها فى بداية الكلام ، حيث لا يُبدأ بساكن ، ولو وضعنا قبلها حرفاً لتبيَّن سكونها .

ومثالها فى قوله تعالى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحج]

وقوله سبحانه : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق]

والدليل على أنها لام الأمر سكون اللام بعدها فى قراءة من

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٢١) : « هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة لأنهم لا يقصدون ذلك ، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إياهم لذلك فهى لام التعليل » .

(٢) قال جمال الدين بن هشام الأنصارى فى مغنى اللبيب (١/١٨٦) طبعة عيسى البابى الحلبى : « وأما ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [العنكبوت] فيحتمل اللامان ، منه التعليل فيكون ما بعدهما منصوباً ، والتهديد فيكون مجزوماً ، ويتعين الثانى فى اللام الثانية فى قراءة من سكَّنها ، فيترجح بذلك أن تكون اللام الأولى كذلك ، ويؤيده أن بعدهما ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [العنكبوت] » .

سكنها ، وفى ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُوا..(٦٦) ﴾ [العنكبوت] وقوله سبحانه : ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) ﴾ [العنكبوت] فرْق فى الاستقبال بين السين وسوف ، فلو قال : فسيعلمون لَدلَّتْ على التهديد فى المستقبل القريب ، وأنه سيحل بهم العذاب فى الدنيا ، أمّا « سوف » فتدلّ على المستقبل البعيد ، فتشمل التهديد فى الدنيا وفى الآخرة فهى تستغرق الزمن كله ؛ لأن المسلمين فى بادىء الأمر كانوا مستضعفين ، لا يستطيعون حماية أنفسهم ، وذهبوا إلى النبى ﷺ يطلبون منه أن يستنصر الله لهم فلو قال حينئذ فى تهديد الكفار « فسيعلمون » لم تكن مناسبة ، إنما أعطى الأمد الأوسع للتهديد ، فقال : ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) ﴾ [العنكبوت]

لذلك تجد الدقة فى أخْذ العهد من الأنصار للرسول ﷺ ، ومن الرسول للأنصار ، فلما قابلوا رسول الله قالوا : خُذْ لنفسك . قال : تحموننى مما تحمون منه أنفسكم وأعراضكم وأموالكم .

فقالوا : فما لنا إنْ فعلنا ؟ كان من الممكن أن يقول لهم : ستملكون الأرض أو ستنتشر دعوة الله بكم وتنتصرون على عدوكم ، لكن هذه الوعود قد يراها بعضهم ، ويموت بعضهم قبل أنْ تتحقق ، فلا يرى منها شيئاً ؛ لذلك ذكر لهم جزاءً يستوى فيه الجميع مَنْ يعيش منهم ، ومَنْ يموت ، فقال : « لكم الجنة »[1] .

وأيضاً حين يصرفهم عن دنيا الناس إلى أمر يكون فى الدنيا أيضاً ،

(١) عن أبى مسعود البدرى قال : « انطلق النبى ﷺ ومعه العباس عمه إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة فقال : ليتكلم متكلمكم ولا يطيل الخطبة ، فإن عليكم من المشركين عيناً وإن يعلموا بكم يفضحوكم فقال قائلهم وهو أبو أمامة : سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئتُ ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله عز وجل وعليكم إذا فعلنا ذلك فقال : أسألكم لربى عز وجل أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأسألكم لنفسي ولأصحابى أن تؤونا وتنصرونا وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : لكم الجنة . قالوا : فلك ذلك . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٢٠) .

فهى صفقة خاسرة ، إنما أراد أنْ يصرفهم عن دنيا الناس إلى شىء أعظم مما فى دنيا الناس ، وليس هناك أعظم من دنيا الناس إلا الجنة .

والصحابى الذى أخبره النبى ﷺ بأن الجنة جزاء الشهيد ، وكان يمضغ تمرة فى فمه فقال : يا رسول الله ، أليس بينى وبين الجنة إلا أنْ أُقتل فى سبيل الله ؟ قال : بلى ، فألقى التمرات وبادر إلى ساحة القتال يستعجل هذا الجزاء[1] .

إذن : فسوف صالحة للزمن المستقبل كله ، أمّا السين فللقريب ؛ لذلك يستخدمها القرآن فى مسائل الدنيا ، كما فى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]

وهذه الرؤية ممتدة من زمن رسول الله ، وإلى أنْ تقوم الساعة ، فكل يوم يجِدُّ فى ظواهر الكون أمور تدل على قدرة الله تعالى ، فمستقبل أسرار الله فى كونه لا تنتهى أبداً إلا بالسر الأعظم فى الآخرة ، ففى زمن رسول الله قال ﴿ سَنُرِيهِمْ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت] وستظل كذلك ﴿ سَنُرِيهِمْ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت] إلى أنْ تقوم الساعة .

ونلحظ أن المصاحف ما زال فى رسمها كلام حتى الآن ، فهنا ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [العنكبوت] تجد تحت اللام كسرة ، مع أنها ساكنة ، وهذا يعنى أن كتاب الله غالب ، وليس هناك محصٍ له .

وأذكر أن سيدنا الشيخ عبد الباقى[2] رضى الله عنه وجزاه الله عمّا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٩٩) ، وكذا البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) من حديث جابر رضى الله عنه « أن رجلاً قال للنبى ﷺ يوم أحد » الحديث . قال ابن حجر العسقلانى فى الفتح (٧/٣٥٤) : « لم أقف على اسمه » .

(٢) هو محمد فؤاد عبد الباقى ، ولد فى قرية بالقليوبية بمصر عام ١٨٨٢م ، ونشأ فى القاهرة ، ودرّس فى بعض مدارسها ، ثم عمل مترجماً عن الفرنسية فى البنك الزراعى (١٩٠٥ - ١٩٣٣) وانقطع إلى التأليف . توفى بالقاهرة عام ١٩٦٨م عن ٨٦ عاماً . [الأعلام للزركلى ٦/٣٣٣] .

قدَّم للإسلام خير الجزاء ـ أعدَّ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وحاول أن يحصى ألفاظه لا سيما لفظ الجلالة (الله) الذى من أجله أعدَّ هذا الكتاب ، ومع ذلك نسى لفظ الجلالة فى البسملة ، وبدأ من ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② ﴾ [الفاتحة] ؛ لذلك نقص العدد عنده واحداً[1] . وما ذلك إلا لأن كتاب الله أعظم وأكبر من أنْ يُحاط به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ⑥⑦ ﴾

(رأى) قلنا : تأتى بصرية ، وتأتى بمعنى علم ، ومنه قولنا فى الجدال مثلاً أرى فى الموضوع الفلانى كذا وكذا ، ويقولون : (ولَرأى الرؤْيا انْمِ ما لعلمَا) ، وتجد فى أساليب القرآن كلاماً عن الرؤيا المخاطب بها غير راء للموضوع ، كما فى قوله سبحانه مخاطباً النبى ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① ﴾ [الفيل]

ومعلوم أن النبى لم يَرَ ما حدث من أمر الفيل ؛ لأنه وُلد فى هذا العام فرأى هنا بمعنى علم ، لكن لماذا عدل عن (ألم تعلم) إلى (ألم تر) ؟ قالوا : لأن المتكلم هنا هو الله تعالى ، فكأنه يقول لنبيه ﷺ : إذا أخبرتُك بشىء ، فإن إخبارى لك به أصدق من رؤيتك .

يقول سبحانه : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ .. ⑥⑦ ﴾ [العنكبوت] فالحرم آمن رغم ما حدث له من ترويع

(١) أورد محمد فؤاد عبد الباقى (١١٢٥) موضعاً فى القرآن ذكر فيه لفظ الجلالة مجروراً مبتدئاً بقوله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② ﴾ [الفاتحة]

قبل الإسلام حين فزّعه أبرهة ، وفي العصر الحديث لما فزّعه (جهيمان) ، وعلى مَرِّ العصور حدثتْ تجاوزات في الحرم تتناقض في ظاهرها مع هذا الأمن .

ونقول : كلمة ﴿حَرَمًا آمِنًا .. ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت] في القرآن بالنسبة للكعبة فيها ثلاثة إطلاقات : فالذين يعيشون فيه وقت نزول هذه الآيات يروْنَ أنه حرم آمن ، وهذا الأمن موهوب لهم منذ دعوة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ .

فحين دعا ربه : ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم] كان مكاناً خالياً ، لا حياةَ فيه وغير مسكون ، ومعنى ذلك أنه لم تكُنْ به مُقوِّمات الحياة ، فالإنسان لا يبنى ولا يستقر إلا حيث يجد مكاناً يأمن فيه على نفسه ، ويتوفر له فيه كل مُقوِّمات حياته .

لذلك دعا إبراهيم ربه أنْ يجعل هذا المكان بلداً آمناً يعنى يصلح لأنْ يكون بلداً ، فقال : ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة]

وبلد هنا نكرة تعنى : أيّ بلد لمؤمنين أو لكافرين ، فلما استجاب الله له ، وجعلها بلداً كأيِّ بلد تتوفر له مُقوِّمات الحياة دعا مرة أخرى : ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا ..﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم] أى : هذه التى صارت بلداً أريد لها مَيْزة على كل البلاد ، وأمناً أزيد من أمن أيّ بلد آخر ، أمناً خاصاً بها ، لا الأمن العام الذى تشترك فيه كل البلاد ، لماذا ؟ لأن فيها بيتك .

لذلك يرى فيها الإنسان قاتلَ أبيه ، ولا يتعرَّض له حتى يخرج ، فالجانى مؤمَّن إنْ دخل الحرم ، لكن يُضيق عليه أسباب الحياة حتى يخرج ، حتى لا يجترىء الناس على بيت الله ويفسدون أمنه ، ومن هذا

الأمن الخاص ألاَّ يصاد فيه ، ولا يُعْضَد شجره ، ولا يُروَّع ساكنه .

وكأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول للمشركين : لماذا لا تؤمنون بهذا الدين الذى جعل لكم بلداً آمناً ، فى حين يُتخطّف الناس من حولكم ؟ لماذا لا تحترمون وجودكم فى هذا الأمن الذى وهبه الله لكم .

وعجيب منهم أن يقولوا كما حكى القرآن عنهم : ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص] كيف وقد حمَيْناكم أيام كنتم مشركين تعبدون الأصنام ، أنترككم بعد أنْ تؤمنوا مع رسول الله .

وقصة هذا الأمن أولها فى حادثة الفيل ، لما جاء أبرهةُ ليهدم بيت الله ويُحوِّل الناس إلى بيت بناه باليمن ، فردَّ الله كيدهم ، وجعلهم كعصف[1] مأكول ، وحين نقرأ هذه السورة على الوَصْل بما بعدها تتبين لنا العلَّة من هذا الأمن ، ومن هذه الحماية ، اقرأ :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل] لماذا ؟ ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ ﴾ [قريش]

فالعلة فى أن جعلهم الله كعصف مأكول ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ ﴾ [قريش] لأن اللام فى (لإيلاَف) للتعليل ، وهى فى بداية كلام . فالعلة فى أن الله لم يُمكِّن الأعداء من هدم البيت لتظلّ لقريش مهابتها ومكانتها بين العرب ، ومهابتها مرتبطة بالبيت الذى يقصده الناس من كل مكان .

---

(١) العصف المأكول : التبن أو ورق الشجر الذى أصابه مرض الأُكال فتآكلت منه أجزاء . [القاموس القويم ٢/٢٣] .

وهذه المكانة تُؤمِّن تجارة قريش فى رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام ، لا يتعرَّض لهم أحد بسوء ، وكيف يجترىء أحد عليهم أو يتعرّض لتجارتهم وهم حُماة البيت ؟

فمعنى ﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾ [قريش] أن الله أهلك أبرهة وجنوده ولم يُمكِّنهم من البيت لتظل لقريش ، وليُديم الله عليها أنْ يُؤْلَفوا وأنْ يُحبُّوا من الناس جميعاً ، ويواصلوا رحلاتهم التجارية الآمنة .

لذلك يقول تعالى بعدها ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤ ﴾ [قريش] فكان من الواجب عليهم أن يعبدوا رب البيت الذى وهبهم هذه النعم ، فما هم فيه من أمن وأمان وطعام وشراب ليس بقوتهم ، إنما بجوارهم لبيت الله ، ولبيت الله قداسته عند العرب ، فلا يجرؤ أحد منهم على الاعتداء على تجارة قريش .

فقولهم لرسول الله : ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. ۝٥٧ ﴾ [القصص] حجة لله عليهم ، ففى الوقت الذى يُتخطّف الناس فيه من حولهم كانوا هم فى أمان ، فهى حجة عليهم .

ثم إن الشرط هنا ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ .. ۝٥٧ ﴾ [القصص] غير مناسب للجواب ﴿ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. ۝٥٧ ﴾ [القصص] فما دمتم قلتم عن الدين الذى جاءكم به محمد أنه هدى - يعنى هدى لله - فكان يجب عليكم أنْ تؤمنوا به لو تأكد لديكم أنه هدى ، وإلا فأنتم كاذبون فى هذا القول ، ولمَ لا وأنتم تُكذِّبون القرآن وتقولون عنه افتراء وكذب وسحر ، والآن تقولون عنه هدى ، وهذا تناقض عجيب .

ألم يقولوا ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ ﴾ [الزخرف] ومعنى هذا أن القرآن لا غبارَ عليه ، لكن آفته أنه نزل على هذا الرجل بالذات .

وقوله تعالى ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : بالأصنام ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت] قال ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت] ولم يقل مثلاً : وبعبادة الله ، أو بالإيمان بالله يكفرون ؛ لأن إيمانهم لو لم يكُنْ له سبب إلا نعَم الله عليهم أنْ يُطعمهم من جوع ، ويُؤمنهم من خوف لكان واجباً عليهم أنْ يؤمنوا به .

والباطل مقابل الحق ، وهو زَهُوق لا دوامَ له ، فسرعان ما يفسد وينتهى ، فإنْ قلتَ ما دام أن الباطل زهوق وسينتهى ، فما الداعى للمعركة بين حَقٍّ وباطل ؟

نقول : لولا عضة الباطل للمجتمع لما استشرفَ الناس للحق ينقذهم ، فالباطل نفسه جُنْد من جنود الحق ، كما أن الكفر جُنْد من جنود الإيمان ، فلولا الكفر وما يفعله الكافرون بالناس لما اشتاق الناس للإيمان ، الذى يُوفِّر لهم الأمن والطمأنينة والراحة والمساواة .

كما أن معنى كَفَرَ يعنى ستر الإله الواجب الوجود ، والسَّتْر يحتاج إلى مستور ، فما هو المستور بالكفر ؟ المستور بالكفر الإيمان ، فكلمة كفر نفسها دليلُ وجودِ الإيمان .

وسبق أن قلنا : إن الإنسان قد يكره بعض الأشياء ، وهى لمصلحته ولحكمة خلقها الله ، ومثَّلْنا لذلك بالألم الذى يتوجّع منه الإنسان ، وهو فى الحقيقة تنبيه له واستنهاض ليعلم سبب هذا الألم ويتنبه ، فيدفع المرض عن نفسه ، ويطلب له الدواء .

فالألم بهذا المعنى جُنْد من جنود العافية ، وإلاَّ فأفتَكُ الأمراض بالبشر ما ليس له ألم يُنبّه إليه ، فيظل كامناً فى الجسم حتى يستفحل أمره ، وتعزّ مداواته ؛ لذلك يصفونه بالمرض الخبيث ؛ لأنه يتلصَّص فى الجسم دون أنْ يظهر له أثر يدل عليه .

فالحق - سبحانه وتعالى - خلق الألم لحكمة ؛ ليُنبِّهك أن فى موضع الألم عطباً ، وأن الجارحة التى تألم غير صالحة لأداء مهمتها ؛ لذلك يقولون فى تعريف العافية : العافية ألاَّ تشعر بأعضائك ، لك أسنان تأكل بها ، لكن لا تدرى بها ، وربما لا تتذكر هذه النعمة إلا إذا أصابها عَطَب فآلمتك .

إذن : حين تعلم جارحتك وتتألم ، فاعلم أنها غير طبيعية ، وأنها لا تؤدى مهمتها كما ينبغى ، فعليك أنْ تبادر بعلاجها .

وأيضاً حين يزدهر الباطل ، وتكون له صَوْلة ، فإنما ذلك ليُشعرك بحلاوة الحق ، فتستشرف له وتتمناه . لذلك انتشر الإسلام فى البلاد التى فيها أغلبية إسلامية ، لا بالسيف كما يحلو للبعض أن يقول ، إنما انتشر برؤية الناس لمبادئه وسماحته .

ففى بلاد فارس والروم ذاق الناسُ هناك كثيراً من المتاعب من دياناتهم ومن قوانينهم ، فلما سمعوا عن الإسلام ومبادئه وسماحة تعاليمه أقبلوا عليه .

فلولا أن الباطل عضَّهم لما لجأوا للإيمان ، فالإسلام انتشر انتشاراً عظيماً فى نصف قرن من الزمان ، ولم يكن هذا نتيجة الاندفاع الإيمانى ليدخل الناس فى الإسلام ، إنما لجذْب الضلال للإيمان ، فكأن الإسلام مدفوع بأمرين : أهله الحريصون على انتشاره ، وباطل يجذب الناس إليه .

والحق - سبحانه وتعالى - يعطينا مثلاً للحق وللباطل فى قوله تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ

اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

فالزبَد : هو القشّ والفُتات الذى يحمله الماء ، فيكون طبقة على سطح الماء ، ثم يزيحه الهواء إلى الجوانب ، ويظل الماء بعده صافياً ، فالزبَد مثَلٌ للباطل ؛ لأنه يعلو على سطح الماء ، لكن إياك أن تظن أنه ذو شأن ، أو أن عُلوه سيدوم ؛ لأنه غثاء لا قيمة له ، وسرعان ما يزول ويبقى الماء النافع ، وكما يتكون الزبَد على سطح الماء كذلك يتكوَّن عند صَهْر المعادن ، فحين يصهر الصائغ مثلاً الذهب أو الفضة يخرج المعدن الأصيل تاركاً على الوجه الخبَث الذى خالطه .

لذلك يقول بعض العارفين : إن الله تعالى لا يترك الحق ، ولا يُسلْمه أبداً للباطل ، إنما يتركه لحين ليبلو غيرة الناس عليه ، فإذا لم يغاروا على الحق غار هو سبحانه عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) ﴾

هذا استفهام يريد منه الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قضية يُقرها المقابل ، فلم يوردها بصيغة الخبر : لا أظلم ؛ لأن الخبر فى ذاته يحتمل الصدق أو الكذب ، فجاء بصيغة الاستفهام لتنطق أنت بالقضية ، كما تقول لمن ينكر معروفك : مَنْ أعطاك هذا الثوب ؟ فلا يملك إلا أنْ يعترف بفضلك ، لكن إنْ قلت له إخباراً : أنا أعطيتُك هذا الثوب ، فالخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، وربما ينكر فيقول : لا لم تعطنى شيئاً .

إذن : إيراد الكلام بأسلوب الاستفهام أقوى فى تقرير واقع من أسلوب الخبر ؛ لأن الخبر يأتى من المتكلم ، أمّا الإقرار فمن السامع ، وأنت لا تُلقى بالاستفهام إلا وأنت واثق أن الجواب سيأتى على وَفْق ما تريد .

فمعنى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [العنكبوت] لا أحد أظلم ، والظلم : نَقْل الحق من صاحبه إلى غيره ، والظلم قد يكون كبيراً وعظيماً ، وهو الظلم فى القمة فى العقيدة ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

وقد يكون الظلم بسيطاً هيِّناً ، فالذى افترى على الله الكذب ، لا أحدَ أظلم منه ؛ لأنه لو افترى على مثله لكان أمره هيناً ، لكنه افترى على مَنْ ؟ على الله ، فكان ظلمه عظيماً ، ومن الحمق أن تفترى على الله ؛ لأنه سبحانه أقوى منك يستطيع أن يُدلل ، وأنْ يبرهن على كذبك ، ويستطيع أن يدحرك ، وأن يُوقفك عند حدِّك ، فمَن اجترأ على هذا النوع من الظلم فإنما ظلم نفسه .

وقلنا : إن الافتراء كذب ، لكنه متعمد ؛ لأن الإنسان قد يكذب حين يخبر على مقتضى علمه ، إنما الواقع خلاف ما يعلم ، لذلك عرَّف العلماء الصدق والكذب فقالوا : الصدق أنْ يطابق الكلامُ الواقعَ ، والكذب أن يخالف الكلامُ الواقعَ ، فلو قلتُ خبراً على مقتضى علمى ، ولم أقصد مخالفة الواقع ، فإن خالف كلامى الواقع فالخبر كاذب ، لكن المخبر ليس بكاذب .

وقوله سبحانه : ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [العنكبوت] فيا ليته افترى على الله كذباً ابتداءً ، إنما صعَّد كذبه إلى مرحلة أخرى فعمد إلى أمر صِدْق وحقٍّ فكذَّبه . ثم يقرر جزاء هذا التكذيب بأسلوب

الاستفهام أيضاً ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى : أضاقتْ عنهم النار ، فليس بها أمكنة لهؤلاء ؟ بلى بها أمكنة لهم ، بدليل أنها ستقول وهى تتشوق إليهم حين تسأل : ﴿ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق]

وكأن الحق سبحانه يقول : لماذا يفترى هؤلاء على الله الكذب ؟ ولماذا يُكذِّبون الحق ؟ اعلموا أن جهنم ليس بها أماكن لهم ؟ فالاستفهام فى ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [العنكبوت] استفهام إنكارى يُنكر أن يظن المكذبون الكافرون أنه لا مكان لهم فى جهنم .

فالحق سبحانه فى إرادته أزلاً أن يخلق الخَلْق من لَدُن آدم ـ عليه السلام ـ وإلى أنْ تقوم الساعة ، وأنْ يعطيهم الاختيار ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] وقدر أن يؤمنوا جميعاً فأعدَّ لهم أماكنهم فى الجنة ، وقدر أن يكفروا جميعاً فأعدَّ لهم أماكنهم فى النار .

فإذا كان يوم القيامة يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النارَ ، يورث الله المؤمنين فى الجنة أماكن الكافرين فيها فيتقاسمونها بينهم ، وكذلك يتقاسم أهل النار أماكن المؤمنين فى النار بالرد ، فمَنْ كان له فى النار مكان واحد يصير له مكانان .

كما أن الاستفهام ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [العنكبوت] يجعل السامع يشاركك الكلام ، وفيه معنى التقريع والتوبيخ ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ

الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

يلتفت الله إلى المؤمنين الذين استُهزِىء بهم فى الدنيا : هل قدرنا أنْ نجازى هؤلاء الكافرين ، ونردّ إليكم حقوقكم - وفى هذا إيناسٌ للمؤمنين وتقريعٌ للكافرين - فيقولون : نعم يا رب ، نعم يا رب ، نعم يا رب ، فالحق سبحانه يريد أنْ يحرش المؤمنين بهم ، فلا يلينون لهم ، ولا يعطفون عليهم ، لأنهم طَغَواْ وتكبَّروا ، وعرضتْ عليهم الحجج والأدلة فكذَّبوها وأصرُّوا على عنادهم ، فبالغوا فى الظلم .

﴿ وَالَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٦٩) ﴾

نقول : جَهدَ فلان يجهد أى أتعب نفسه واجتهد : ألح فى الاجتهاد وجاهد غيره ، فجاهد تدل على المفاعلة والمشاركة ، وهى لا تتم إلا بين طرفيْن ، وفى هذه الصيغة (المفاعلة) نغلب الفاعلية فى أحدهما ، والمفعولية فى الآخر ، مع أنهما شركاء فى الفعل ، فكلٌّ منهما فاعل فى مرة ، ومفعول فى أخرى ، كأنك تقول : شارك زيدٌ عمراً ، وشارك عمرو زيداً . أو : أن الذى له ضِلْع أقوى فى الشركة يكون فاعلاً والآخر مفعولاً .

وبعد أن بيَّن الحق سبحانه أن مثوى الكافرين المكذِّبين فى جهنم وحرَّش المؤمنين بهم ، وما داموا قد ظلموا هذا الظلم العظيم لا بُدَّ أن يوجد تأديب لهم ، هذا التأديب لا لإرغامهم على الإيمان ، ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ.. (٢٩)﴾ [الكهف] إنما التأديب أن نجهر

بدعوتنا ، وأن نعلى كلمة الحق ، فمن شاء فليؤمن ، ومَنْ شاء فليظل على حاله ، إذن : فالآية تبين موقف المؤمنين أمام هؤلاء المكذبين :
﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا[1] فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا.. (٦٩) ﴾ [العنكبوت]

معنى (جاهدوا فينا) أى : من أجلنا ولنصرة ديننا ، والخصومات التى نجاهدها فى الله كثيرة : خصومة فى مسألة القمة الإيمانية ووجود الإله الواحد كالملاحدة الذين يقولون بعدم وجود إله فى الكون ، وهؤلاء لهم جهاد ، وأهل الشرك الذين يقرون بوجود الله لكن يدَّعُون أن له شريكاً ، وهؤلاء لهم جهاد آخر .

فجهاد الملاحدة بالمنطق وبالحجة ليقولوا هم بأنفسهم بوجود إله واحد ، ونقول لهم : هل وُجِد مَن ادعى أنه خلق ذاته أو خلق غيره ؟ بل تأملوا فى أتفه الأشياء التى تستخدمونها فى حياتكم : هذا الكوب الزجاجى وهو ترف ليس من ضروريات الحياة هل تقولون : إنه وُجِد هكذا دون صانع ؟ إذن : كيف وُجِد ؟ هل لدينا شجرة مثلاً تطرح لنا هذه الأكواب ؟

إذن : هى صنعة لها صانع ، استخدم العقل الذى منحه الله إياه ، وأعمله فى المواد التى جعلها الله فى الكون ، واستنبط منها هذه المادة (الزجاج) .

مصباح الكهرباء الذى اخترعه (إديسون) كم أخذ منه من جهد وبحث ودراسة ، ثم يحتاج فى صناعته إلى معامل ومهندسين وصيانة ، ومع ذلك حصاة صغيرة تكسره فينطفىء ، وقد أخذ

---

(١) قال أبو سليمان الدارانى : ليس الجهاد فى الآية قتال الكفار فقط ، بل هو نصر الدين ، والرد على المبطلين ، وقمع الظالمين ، وعُظْمه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومنه مجاهدة النفوس فى طاعة الله ، وهو الجهاد الأكبر . [نقله القرطبى فى تفسيره ٧/٥٢٥٥] .

(أديسون) كثيراً من الشهرة وخلَّدنا ذكراه ، وما زالت البشرية تذكر له فضله .

أفلا ينظرون فى الشمس التى تنير الدنيا كلها منذ خلقها الله وإلى قيام الساعة دون أنْ تحتاج إلى صيانة ، أو إلى قطعة غيار ؟ وهل يستطيع أحد أن يتناولها ليصلحها ؟ وهل تأبَّتْ الشمس عن الطلوع فى يوم من الأيام ، وما تزال تمدكم بالحرارة والأشعة والدفء والنور ؟

أتعرف مَنْ صنع المصباح ، ولا تعرف مَنْ صنع الشمس ؟ لقد فكرتم فى أتفه الأشياء وعرفتم مَنْ صنعها ، وأرَّخْتُم لهم ، وخلدتم ذكراهم ، ألم يكن أَوْلَى بكم التفكُّر فى عظمة خلق الله والإيمان به ؟

ثم قُلْ لى أيها الملحد : إذا غشيك ظلام الليل ، كيف تضيئه ؟ قالوا : كل إنسان يضىء ظلام ليله على حَسْب قدرته ، ففى الليل ترى الإضاءات مختلفة ، هذا يجلس فى ضوء شمعة ، وهذا فى ضوء لمبة جاز ، وهذا فى ضوء لمبة كهرباء ، وآخر فى ضوء لمبة نيون ، فالأضواء فى الليل متباينة تدل على إمكانات أصحابها ، فإذا ما طلعتْ الشمس ، وأضاء المصباح الربانى أطفئت كل هذه الأضواء ، ولم يَعُدْ لها أثر مع مصباح الخالق الأعظم سبحانه .

أليس فى هذا إشارة إلى أنه إذا جاءنا حكم من عند الله ينبغى أنْ نطرح أحكامنا جميعاً لنستضىء بحكم الله ؟ أليس فى صدق المحسوس دليل على صدق المعنويات ؟

وأنت يا مَنْ تدّعى أن لله شريكاً فى مُلْكه : مَن الذى قال إن لله شريكاً ؟ لقد قلتها أنت من عند نفسك ؛ لأن الله تعالى حين قال : أنا إله واحد لا شريك لى لم يعارضه أحد ، ولم يدَّعِ أحد أنه شريك لله .

فهذا دليل على أن الشريك غيـر موجود ، أو أنه موجود ولم يَدْرِ ، أو درى ولم يقدر على المواجهـة ، وفى كلتا الحالتين لا يصلح أن يكون إلهاً .

ثم على فرض أنه موجود ، ما منهـجه ؟ بماذا أمرك وعَمَّ نهاك ؟ ماذا أعدَّ لك من النعيم إنْ عبـدته ؟ وماذا أعد لك من العذاب إنْ كفرتَ به ؟ إذن : فهذا الإله المزعوم إله بلا منهج ، فعبادته باطلة .

أما هؤلاء الذين يـؤمنون بدين سماوى ولا يؤمـنون بالرسول ﷺ فنقول لهم : يكفى من جوانب العظمة فى شخصـية محمد بن عبد الله أنه لا يتعصب لنفسه ؛ لأن قلبـه مع كل مَنْ يؤمن بالله حتى وإنْ كفر به ، محـمد يحب كل مَنْ آمن بربه ، وإنْ كـفر بمحـمد ، إنه يتـعصب لربه حتى فيمن كذبه .

ثم أنتم يا أصحاب الديانات اليهودية أو المسـيحية الذين عاصرتم ظهـور الإسلام فـأنكرتموه ، مع أن دينكم جـاء بعد دين ، ورسـولكم جاء بعد رسول سابق ، فلماذا لما جاءكم محمد كذَّبتموه وكفرتم به ؟ لماذا أبحـتم أنْ يأتى عيسى بعد مـوسى عليهمـا السلام ، وأنكرتُم أنْ يأتى بعد عيسى محمد ؟

إذن : لكل خـصومـة فى دين الله جـدل خاص ومنطـق للمناقشـة نقوم بـه فى ضوء : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت] وعليك أن تنظر أولاً ما موقع الجهـاد الذى تقوم به ، فجهاد الملاحـدة بأسلوب ، وجهاد المشـركين بأسلوب ، وجهـاد أهل الكتاب بأسلوب ، وجـهـاد المـسلم للمـسلـم كذلـك له منطق إنْ دبَّ بينهـمـا الخلاف ، مع أن الله تعـالى قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩) ﴾ [الأنعام]

فساعةَ ترى كلاً منهما في طرف ، بحيث لا تستطيع أن تتبع أحدهما ، فاعلم أنهما على باطل ؛ لأن الإسلام شيء واحد سبق أنْ شبَّهناه بالماء الأبيض الصافى الذى لم يخالطه لون ولا رائحة ولا طعم ، فإنْ لوَّنته الأهواء وتحزَّب الناس فيه كما يُلوِّنون العصائر فقد جانبهم الصواب وأخطأوا الدين الصحيح .

لأن ما جاء فيه حكم صريح من عند الله اتفقنا عليه ، وما تركه الله لاجتهادنا فينبغى على كُلٍّ منا أن يحترم اجتهاد الآخر ، وأن يقول : رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب ، وبهذا المنطق تتعايش الآراء .

والحق - سبحانه وتعالى - يعطينا المثل على ذلك ، فما أراده سبحانه فى المنهج مُحكماً يأتى محكماً فى قول واحد لا خلاف فيه ، وضربنا مثلاً لذلك بآية الوضوء : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ .. ﴿٦﴾ ﴾ [المائدة]

فلم يحدد الوجه ؛ لأنه لا خلاف فى تحديده بين الناس ، إنما حدد الأيدى لأنها محل خلاف . إذن : فالقضايا التى تُثار بين المسلمين ينبغى أن يكون لها جدل خاص فى هذا الإطار دون تعصُّب ، فما جاءك مُحْكماً لا مجالَ فيه لرأى التزم به الجميع ، وما تُرِك بلا تنصيص لا يحتمل الخلاف ، فليذهب كل واحد إلى ما يحتمله النص .

فالباء فى لغتنا مثلاً تأتى للتبعيض ، أو للاستعانة ، أو للإلصاق ، فإنْ أخذتَ بمعنىً فلا تحجر على غيرك أنْ يأخذ بمعنى آخر .

فإنِ استعر القتال بين طائفتين من المسلمين ، فيجب أن تكون

هناك طائفة معتدلة تتولى أمر الإصلاح ، كما قال سبحانه :

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ ﴾ [الحجرات]

نلحظ أن الله تعالى سماهم مؤمنين ، ومعنى ذلك أن الإيمان لا يمنع أن نختلف ، وهذا الإيمان الذى لا يمنع أن نختلف هو الذى يُوجب علينا أن يكون منا طائفة معتدلة على الحياد لا تميل هنا أو هناك ، تقوم بدوْر الإصلاح وبدوْر الردع للباغى المعتدى حتى يفيء إلى الجادة وإلى أمر الله .

فإنْ فاءت فلا نترك الأمور تُخيِّم عليها ظلال النصر لفريق ، والهزيمة لفريق آخر ، إنما نصلح بينهما ، ونزيل ما فى النفوس من غلٍّ وشحناء ، فقد تنازل القوى عن كبريائه لما ضربنا على يده ، وقوى الضعيف بوقوفنا إلى جانبه ، فحدث شيء من التوازن وتعادلتْ الكفتان ، فليعُدْ الجميع إلى حظيرة الأمن والسلام .

بقى لنا أن نتحدث عن جهاد آخر أهم ، هو جهاد النفس البشرية ؛ لأن النبى ﷺ لما عاد من إحدى الغزوات قال : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر »[1] فوصف جهاد النفس بأنه الجهاد الأكبر ، لماذا ؟ لأنك فى ساحة القتال تجاهد عدواً ظاهراً ، يتضح لك عدده وأساليبه ، أمّا إنْ كان عدوك من نفسك ومن داخلك ، فإنه يعزّ عليك جهاده ، فأنت تحب أنْ تحقق لنفسك شهواتها ، وأنْ تطاوعها فى أهوائها ونزواتها ، وهى فى هذا كله تُلِح عليك وتتسرَّب من خلالك .

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادى فى « تاريخ بغداد » (١٣/٤٩٣) .

فعليك أنْ تقف فى جهاد النفس موقفاً تقارن فيه بين شهوات النفس العاجلة وما تُورثك إياه من حسرة آجلة باقية ، وما تضيعه عليك من ثواب ربك فى جنة فيها من النعيم ، ما لا عَيْن رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ضع ربك ونفسك فى هذه المقابلة وتبصّر ، واعلم أن لربك سوابقَ معك ، سوابق خير أعدّها لك قبل أن توجد ، فالذى أعدَّ لك كل هذا الكون ، وجعله لخدمتك لا شكَّ مأمون عليك ، وأنت عبده وصنعته ، وهل رأيت صانعاً يعمد إلى صنعته فيحطمها ؟

أما إن رأيت النجار مثلاً يمسك (بالفارة) وينحت فى قطعة الخشب ، فاعلم أنه يُصلحها لأداء مهمتها ، وأذكر قصة الطفل (أيمن) الذى جاء أمه يبكى ؛ لأن الخادمة تضرب السجادة ، فأخذتْه أمه وأرتْه التراب الذى يتساقط من السجادة فى كل ضربة من ضربات الخادمة ، ففهم الطفل على قدر عقله .

وكذلك الحق سبحانه حين يبتلى خَلْقه ، فإنما يبتليهم لا كَيْداً فيهم ، بل إصلاحاً لهم . ألم نسمع كثيراً أماً تقول لوحيدها (إلهى أشرب نارك) ؟ بالله ما حالها لو استجاب الله لها ؟ وهى فى الحقيقة لا تكره وحيدها وفلذة كبدها ، إنما تكره فيه الخصلة التى أغضبتها منه .

وكذلك الحق - سبحانه وتعالى - لا يكره عبده ، إنما يكره فيه الخصال السيئة فيريد أنْ يُطهِّره منها بالبلاء حتى يعود نقياً كيوم ولدته أمه ، فأحسن أيها الإنسان ظنك بربك .

إذن : نقول : إن من أعظم الجهاد جهادك لنفسك ، لأنها تُلح عليك أنْ تُشبع رغباتها ، كما أنها عُرْضة لإغراء الهوى ووسوسة الشيطان

الذى يُزيِّن لها كل سوء ، ويُحبِّب إليها كل منكر .

وسبق أنْ بيَّنا : كيف نُفرِّق بين تزيين الشيطان وتزيين النفس ؛ لأن للنفس مدخلاً فى المعصية بدليل قول النبى ﷺ : « إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة ، وغُلِّقتْ أبواب النار ، وصُفِّدت الشياطين »[1] .

فلو كانت الذنوب كلها بسبب الشيطان لم نجد من يذنب فى رمضان ، إنما هناك كثير من الذنوب تُرتكب فى رمضان ، وهذا يعنى أنها من تزيين النفس ، وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يكشف ابن آدم : ها أنا قد صفَّدْت الشياطين ومع ذلك تذنبون .

فإنْ أردتَ أنْ تعرف هل المعصية من النفس أم من الشيطان ، فإن النفس تقف بك عند معصية بعينها لا تريد سواها ، ولا تنتقل بك إلى غيرها ، وتظل تُلح عليك إلى أنْ تُوقعك فيها ، أما الشيطان فإنه يريدك عاصياً بأية صورة وعلى أية حال ، فإنْ تأبَّيْتَ عليه نقلك إلى معصية أخرى .

وعلى العاقل أن يتأمل ، فالمعصية تعطيك لذة عاجلة ومتعة فانية ، لا تليق أبداً بهذا الإنسان الذى كرَّمه الله ، وجعله خليفة له فى الأرض ، وسيداً لهذا الكون ، والكون كله بأرضه وسمائه خادم له ، فهل يُعقل أنْ يكون الخادم أطول عمراً من المخدوم ؟

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٥٧) والبخارى فى صحيحه (١٨٩٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه : قال ابن حجر فى الفتح(٤/١١٤): « قال القاضى عياض : يحتمل أنه على ظاهره وحقيقته وأن ذلك كله علامة للملائكة لدخول الشهر وتعظيم حرمته ولمنع الشياطين من أذى المؤمنين ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى كثرة الثواب والعفو ، وأن الشياطين يقل إغواؤهم فيصيرون كالمصفدين » .

إنك تموت بعد عام أو بعد مائة عام ، فى حين أن الشمس التى تخدمك تعمر ملايين السنين : إذن : لا بُدَّ أن لك حياة أخرى أبقى وأدوم من حياة خادمك ، فإنْ كنتَ الآن فى حياة تُوصَف بأنها دنيا ، فهذا يعنى أنها تقابلها حياة أخرى تُوصَف بأنها عليا ، وهى حياتك فى الآخرة ، حيث لا موتَ فيها أبداً .

والقرآن الكريم حينما يُحدِّثنا عن الجهاد يقول مرة : ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. (٤١) ﴾ [التوبة] ويقول : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت]

الجهاد فى سبيل الله أى فى الطريق إلى الله لإثبات الإيمان بالإله الواحد ، وصدق البلاغ من الرسول المؤيَّد بالمعجزة وبالمنهج ، فإذا وضح لك السبيل فآمنتَ بالله الواحد الأحد قال لك : اجعل كل حركة حياتك فى إطار ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت] يعنى : من أجلنا مخلصين لله لا ينظرون إلى غيره .

والإنسان مهما تحرَّى الإخلاص فى عمله ، وقصد به وجه الله لا يأمن أن يخالطه شىء من رياء أو سمعة ، حتى أن المعصوم محمداً ﷺ ليقول : « اللهم إنى أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك ، فخالطنى فيه ما ليس لك »[1] .

وهذا معنى (جاهدوا فينا) أن يكون العمل كله لله خالصاً ، وإلاَّ فما الفَرْق بين المؤمن والكافر ، وكلاهما يعمل ويسعى فى الدنيا

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله أنه كان يقول : اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ثم لم أفِ لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمت .

لكسب لقمة العيش له ولأولاده ، فهما في السعى سواء ، فما مزية المؤمن إذن ؟

الميزة أن الكافر يعمل على قَدْر حاجته فحسب ، أمّا المؤمن فيعمل على قدر طاقته ، فيأخذ ما يكفيه ويعود بالفضل على مَنْ لا طاقةَ عنده للعمل ، ففى نيته أن يعمل له وللمحتاج غير القادر .

ونمثل لذلك بالبقال الذى فتح الله عليه ، فباع كثيراً فى أول النهار وأخذ كفايته ، ثم أغلق محله فلم ينظر إلى الذين يعاملونه على الشهر ، ويأخذون حاجتهم لأجَلٍ ، ولم ينظر إلى ربة البيت التى تنتظر عودة زوجها لتشترى ما يلزمها ، فقد نظر إلى حظ نفسه ، ونسى حظ الآخرين .

واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤)﴾ [المؤمنون] ولم يقل مُؤدُّون إنما : فاعلون من أجل الزكاة أى : يعملون على قَدْر طاقتهم ، لا على قدْر حاجتهم . فالذين يعملون فى إطار ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا .. (٦٩)﴾ [العنكبوت] لا يغيب الله أبداً عن بالهم .

ولكى نفقه هذه المسألة انظر إلى عمل أو جميل قدَّمته لغير وجه الله ترى أن صاحبه أنكره ، بل ربما لا ينالك منه إلا الذمّ ، وساعتها لا تلومنّ إلا نفسك ؛ لأنك أخطأت التوجه ، وقد عملت للناس فخُذْ أجرك منهم ، إنما إنْ عملتَ لوجه الله فثِقْ أن جميلك محفوظ عند الله وعند الناس .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما أعطى للإنسان الاختيار فى أن يؤمن أو أنْ يكفر يلفت بهذا أنظارنا أنه إذا صنعتَ جميلاً فى إنسان ،

ثم أنكر جميلك وكفر به ، فلا تحزن ؛ لأن الناس فعلوا ذلك مع الله - عز وجل - فقد خلقهم ورزقهم ثم كفروا به .

ثم يأتي جزاء الجهاد في ذات الله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت] أي : ندلّهم على الطرق الموصّلة إلينا ، كأن الطريق إلى الله ليس واحداً ، إنما سبل شتى ؛ لذلك لا تحقرنَّ من الطاعة شيئاً مهما كان يسيراً ، فإن الله تعالى غفر لرجل سقى كلباً يلهث من العطش[1] ، ولا تحقرن من المعصية شيئاً ، فإن الله أدخل امرأة النار لأنها حبست قطة[2] ، ولا تحتقرن عبداً مهما كان ، فإن الله تعالى أخفى أسراره في خَلْقه ؛ فرُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبرّه .

فإذا علمتَ من نفسك ميزة على الآخرين فانظر فيم يمتازون به عنك ، ودَعْك من نظرة تُورثك كبراً ، واستعلاء على الخَلْق ، فإنْ كنت أفضل في شيء فأنت مفضول في أشياء كثيرة ، وسبق أن قلنا : إن الله نثر المواهب بين الخَلْق ليظلوا ملتحمين بحاجة بعضهم إلى بعض .

فقوله تعالى ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت] أي : السبل الموصّلة لنعيم الآخرة ، سبل الارتقاء في اليقين الإيماني الذي قال الله عنه : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم .. (١٢) ﴾ [الحديد]

---

(١) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل بها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي ، فنزل البئر فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له ، قالوا : يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال : في كل ذات كبد رطبة أجر » أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٠٩) .

(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣١٨) قال ابن حجر في الفتح (٦/٣٥٧) : « المراد (بخشاش الأرض) هوام الأرض وحشراتها من فأرة ونحوها » .

ويقـول سـيدنا عـمـر بن عـبد الـعزيز : مـا قـصَّـر بنا فى علم ما جهلناه ، إلا تقصيرنا فى العمل بما علمناه[1] فالذى جعلنا لا نعرف أسرار الله أنـنا قصرنـا فى العمل بمـا أمرنا به ، إذن : فلمـاذا يعطينا ونحن لا نعمل بمـا أخذنا من قبل ، لكن حين تعمل بـما علمتَ ، فأنت مـأمون على منهج الله ، فـلا يحـرمك المزيد ، كـمـا قال سـبحـانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

وقوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال] والفـرقان من أسـمـاء القـرآن ، فحـين تتـقى الله على مقتضـاه ، وبمدلول منهجه فى القرآن يمنحك فـرقاناً آخر ونوراً آخر تبصر به حقائق الأشيـاء ، وتهتدى به إلى الحكم الصحيح ، هذا النور الذى وهبه الله للإمام على ـ رضى الله عنه ـ حينما دخل على عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فـوجـده يريد أنْ يقـيم الحَـدَّ على زوجـة ولدتْ لستـة أشهـر ، والشائع أن فـترة الحمـل تسعة أشـهر ، فـقال لعمر : لكن الله قال غير ذلك يا أميـر المؤمنين ، قال عمر : وماذا قال يا على ؟

قـال على : قال الله تعـالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ .. ﴿٢٣٣﴾ ﴾ [البقرة] يعنى : أربعـة وعشرون شهراً .

وقال فى مـوضع آخر : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقـاف] وبطرح العـددين يكون الباقى سـتة أشـهر ، وهى أقل مـدة للحمل .

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٥٢٥٥/٧) ، وتمامه : « ولو عملنا ببعض ما علمنا لاورثنا علماً لا تقوم به أبداننا » .

هذا هو الفرقان الذى يمنحه الله للمؤمنين الذين عملوا بما علموا ؛ لذلك كان عمر بن الخطاب وما أدراك ما عمر ؟ عمر الذى كان ينزل الوحي على وَفْق رأيه ، كان يقول : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن .

ومعلوم أن علياً - رضى الله عنه - تربَّى فى حجْر رسول الله ، وشرب من معينه ، فكل معلوماته إسلامية ، وله فى الحق حجة ومنطق . فمثلاً فى موقعة صفِّين التى دارتْ بين على ومعاوية كان عمار بن ياسر فى صفوف علي ، فقتله جنود معاوية ، فتذكر الصحابة قول رسول الله لعمار « وَيْح عمار ، تقتله الفئة الباغية »(١) فعلموا أنها فئة معاوية .

فأخذ الصحابة يتركون صفوف معاوية إلى صفوف على ، فأسرع عمرو بن العاص وكان فى جيش معاوية ، فقال له : يا أمير المؤمنين فَشَتْ فاشيةٌ فى الجيش ، إنْ هى استمرت فلن يبقى معنا أحد ، قال : وما هى ؟ قال : تَذَكَّر الناس قول رسول الله « ويح عمار تقتله الفئة الباغية » قال معاوية : فأفْشِ فيهم ، إنما قتله مَنْ أخرجه للقتال - أى على - فلما بلغ علياً هذه المقالة قال بما عنده من الفرقان والحجة : إذن قولوا له مَنْ قتل حمزة بن عبد المطلب ؟

فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم ، ومثَّلْنا لذلك قلنا : هب أن لك ولداً متعثراً غير مُوفَّق فى حياته العملية ، فنصحك إخوانك بأنْ تعطيه فرصة ، وتجربه ولو بمشروع صغير فى حدود مائة

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٩١) ، والبخارى فى صحيحه (١/٥٤١) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/٥٤٦) من حديث أبى سعيد الخدرى . وويح كلمة ترحُّم وتوجُّع . تُقال لمن تنزل به بلية . [لسان العرب - مادة : ويح] .

جنيه ، فلما فعلتَ بدَّد الولد هذا المبلغ ولم ينتفع به ، أتجرؤ على منحه مبلغاً آخر ؟ وإنما لو ثمَّر هذا المبلغ ونماه لأعطيته أضعافاً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ [العنكبوت] الإحسان من الإنسان أن يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإنه يراه ، والإحسان في الأداء أن تزيد عما فرض الله عليك ، لكن من جنس ما فرض ، فإذا أنت أحسنتَ أحسن الله إليك بأنْ يزيدك إشراقاً ، ويزيدك نورانية ، ويُخفِّف عنك أعباء الطاعة ، ويُقبِّح في نفسك المعاصي .

لذلك بلغت محبة أحد العارفين للطاعة حتى قال : اللهم إني أخاف ألاَّ تثيبني على طاعتي ؛ لأنني أصبحتُ أشتهيها . يعني : لو لم تكن هناك جنة ولا نار لفعلتُ الطاعة ؛ لأنها أصبحتْ بالنسبة لي شهوةَ نفس ، وقد أمرتنا يا ربِّ أن نخالف شهوة النفس لذلك أخاف ألاَّ تثيبني عليها ، ولمثل هذا نقول :

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ [العنكبوت]

كلمة (مع) تفيد المعية ، والمعية في أعراف البشر أنْ يلتقي شيء بشيء ، لكن إذا كانت المعية مع الله فافهم أنها معية أخرى غير التي تعرفها مع زميلك أو صديقك ، خُذْها في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١) ﴾ [الشورى] فلك وجود ولله وجود ، لكن أوجودك كوجود الله ؟ الله يعلم أننا نسجل الآن في مسجد أبي بكر الصديق ، لكن هل علْمنا كعلْمه تعالى ؟ الله يعلم هذا قبل أن ينشأ المسجد ، وقبل أنْ نُولد نحن .

لذلك يضرب الله لنا مثلاً فيقول : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] هذا مَثَل للرد على الذين يطلبون رؤية الله عز وجل

وهو غَيْب ، مثَل للذين قالوا لنبيهم[1] ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. (١٥٣) ﴾[النساء]

لكن كيف يرونه والعظمة فى الإله ألاَّ يُرى ، ولا تدركه الحواس ، والحق سبحانه يعطينا الدليل فى أنفسنا ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] فتأمل فى أقرب شىء إليك فى نفسك ، لا فى الآفاق من حولك ، أليست فيك روح تُحرِّك جسمك ، وبها تحيا وتنفعل أعضاؤك ، بدليل إذا خرجتْ منك هذه الروح تصير جثة هامدة ؟ أرأيت هذه الروح وهى بين جنبيك ؟ أأدركتها بأىٍّ حاسة من حواسك ؟

إذن : هى معك ، لكن ليست تحت إدراكك ، وهى خَلْق بسيط من خَلْق الله ، فكيف تتطلع إلى أن ترى الخالق سبحانه وأنت لا تقدر على رؤية المخلوق ؟ لكن إن قُلْت : فرؤية المؤمنين لله فى الآخرة ؟ ففى الآخرة يخلقنى الله خَلْقاً آخر أستطيع أن أراه سبحانه ، حيث سيكون للخَلْق معايير أخرى ، ألستَ تأكل وتشرب فى الآخرة ، ومع ذلك لا تتغوَّط فى الجنة ؟

لذلك لما سأل حاكم الروم أحد علماء المسلمين : كيف تأكلون وتشربون فى الجنة ولا تتغوطون ؟ فقال له : وما العجيب فى ذلك ؟ ألم تر إلى الطفل فى بطن أمه يتغذى وينمو وهو لا يتغوط ، ولو تغوَّط فى مشيمته لاحترق .

ثم سأله : وتقولون إن نعيم الجنة تأخذون منه ولا ينتهى ولا ينقص ؟ فقال : هَبْ أن لك مصباحاً ، وجاءت الدنيا كلها ، وقبستْ من مصباحك ناراً ، أينقص منه شىء ؟

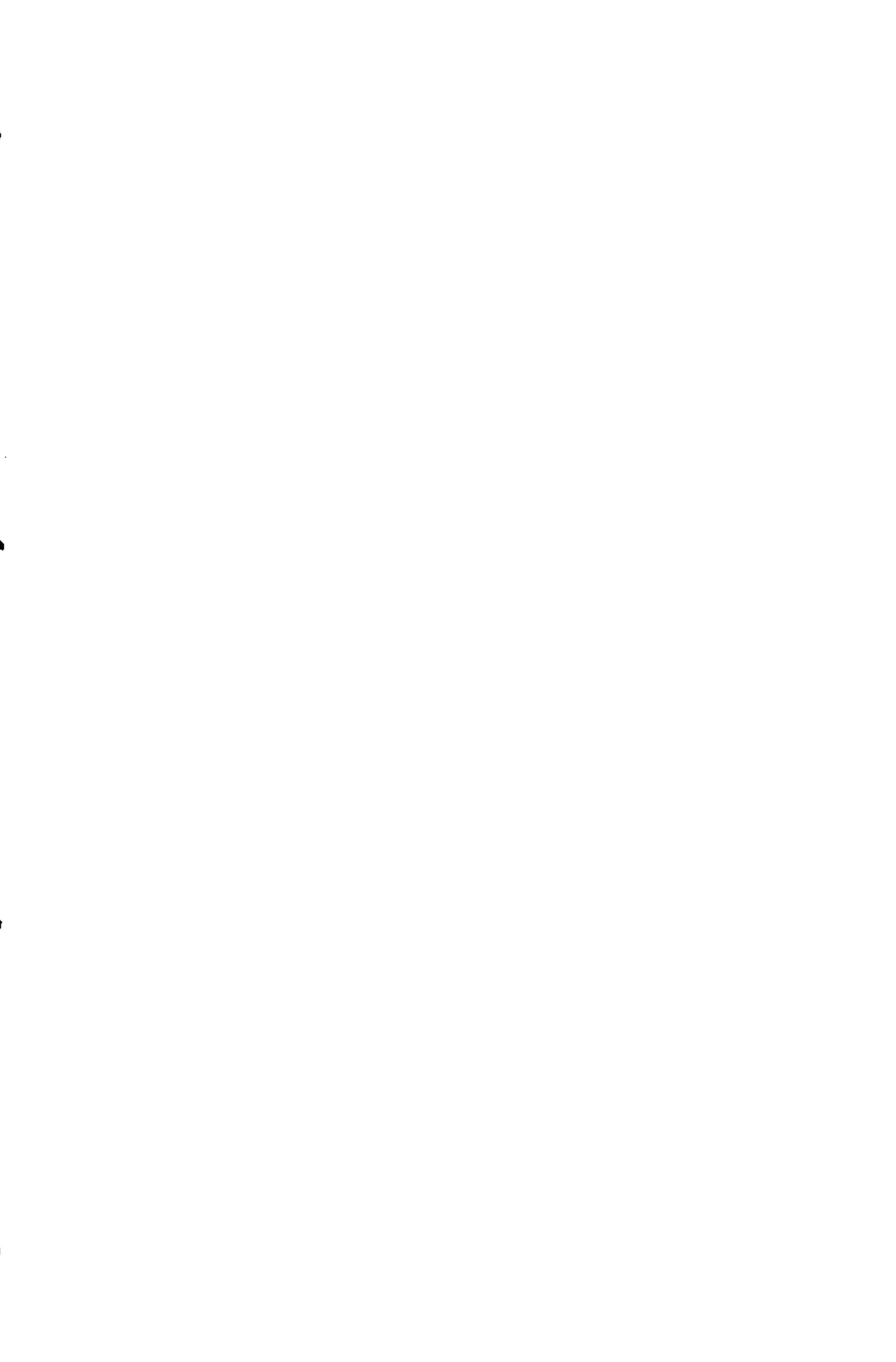
---

(١) قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. (١٥٣) ﴾ [النساء] . فهم اليهود سألوا نبيهم موسى عليه السلام ، فكان جزاءهم ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ .. (١٥٣) ﴾ [النساء] .

فسأله : فأين تذهب الأرواح التى كانت فينا بعد أن نموت ؟ فقال : تذهب حيث كانت قبل أنْ تسكن فينا .

هذه مسائل ونماذج للتوفيق والهداية للحق فى إطار : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت] وهى فَيْض مما قال الله فيه : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩) ﴾ [الأنفال]


سورة الروم



سورة الروم[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ① ﴾

﴿ الٓمٓ ① ﴾ [الروم] سبق أن تكلمنا كثيراً عن الحروف المقطعة في بدايات السور ، ولا أريد إعادة ما قُلْته ، لكن أريد من العلماء أنْ يلتفتوا إلى هذه المسألة لفتة إشراقية تُرينا جميعاً ، وتكشف لنا الحكمة والأسرار في هذه الحروف .

وقلنا : إن هذه الحروف (الم) بنيت على الوقف ، كل حرف منها على حِدَة ، مع أن القرآن في مجمله مبني على الوصل في آياته وفي سوره ، فآخر حرف في السورة موصول بأول حرف في التي تليها ـ فهنا نقول : (وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المحْسِنينَ بسْمِ الله الرحْمنِ الرحيمِ ...) .

(١) سورة الروم ، هي السورة رقم (٣٠) في ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (٦٠) آية، قال القرطبي في تفسيره (٥٢٥٧/٧) : « سورة الروم مكية كلها من غير خلاف » نزلت قبل سورة العنكبوت وبعد سورة الانشقاق ، فهي السورة رقم (٨٣) في ترتيب نزول القرآن . (الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/٢٧) .

بل أعجب من هذا ، نجد أن آخر سورة الناس مبنيٌّ على الوصل بأول الفاتحة ، فنقول : (.... منَ الجِنَّةِ والنَّاسِ بسْمِ اللهِ الرحْمَنِ الرَّحيمِ الْحَمدُ لله رَبِّ العَالمين) .

فالقرآن إذن موصول ، لا انقطاعَ فيه . فلماذا بُنيت الحروف المقطعة فى أوائل السور على الوقْف ، لماذا لا نقول : ألفٌ لامٌ ميمٌ ؟ قالوا : لأن الله تعالى لم يشأ أنْ يجعلها كلمة واحدة ، فجاءت على القطع ، ويؤنسنا قول رسول الله ﷺ : « لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[1] . فنريد وننتظر من يدركه الله ليكون من المحسنين ، ويدلُّنا على ما فى هذه الحروف من سرٍّ يُوقف عنده ، ولا يُوصل بغيره .

قال الحق سبحانه[2] :

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢﴾

كلمة ﴿غُلِبَتِ .. ۝٢﴾ [الروم] تدل على وجود معركة غلب فريقٌ ،

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩١٠) من حديث عبد الله بن مسعود . قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه » . وأخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير (٧٦/١٨) من حديث عوف بن مالك الأشجعى ، قال الهيثمى فى المجمع (١٦٣/٧) : « فيه موسى بن عبيد الربذى وهو ضعيف » .

(٢) **سبب نزول الآيات** : بعث كسرى جيشاً إلى الروم واستعمل عليهم رجلاً يسمى شهريران ، فسار إلى الروم بأهل فارس وظهر عليهم ، فقتلهم وخرَّب مدائنهم وقطع زيتونهم ، وكان قيصر بعث رجلاً يدعى يحنس فالتقى مع شهريران بأذرعات وبصرى وهى أدنى الشام إلى أرض العرب ، فغلب فارس الروم ، وبلغ ذلك النبى ﷺ وأصحابه بمكة فشق ذلك عليهم وكان النبى ﷺ يكره أن يظهر الأميون من أهل المجوس على أهل الكتاب من الروم ، وفرح كفار مكة وشمتوا ، فلقوا أصحاب النبى ﷺ فقالوا : إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم ، فأنزل الله تعالى : ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ .....﴾ [الروم] إلى آخر الآيات .

وغُلب فريق ، فالذى غُلب هنا الروم ، وكانوا أهل كتاب ومقرهم الشام وعراق العرب ، فالعراق منها قسم ناحية العرب ، وقسم ناحية فارس ، والروم نسبة إلى روم بن عيصو بن إسحاق[1] بن إبراهيم .

﴿ فِىٓ أَدْنَى[2] ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾

قوله ﴿ أَدْنَى .. ﴿٣﴾ ﴾ [الروم] يعنى : أقرب لأرض العرب ، كما فى ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنفال] فالعُدْوة الدنيا أى : القريبة من المدينة ، والقُصْوى البعيدة عنها . فالمعنى ﴿ فِي أَدْنَى الأَرْضِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الروم] أقرب أرض للجزيرة العربية .

وفى قوله سبحانه : ﴿ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الروم]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٢٤) : « الروم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم وهم أبناء عم بنى إسرائيل ويقال لهم بنو الأصفر ، وكانوا على دين اليونان ، واليونان من سلالة يافث بن نوح ، أبناء عم الترك وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة ويقال لها المتحيرة ويصلون إلى القطب الشمالى وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها وفيه محاريب إلى جهة الشمال فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلثمائة سنة » .

(٢) الأرض هنا هى أرض الشام . وأدنى الأرض فيها ثلاثة أقوال :
- أذرعات : وهى ما بين بلاد العرب والشام . قاله عكرمة .
- الجزيرة : وهى موضع بين العراق والشام . قاله مجاهد .
- الأردن وفلسطين : قاله مقاتل .

قال ابن عطية :
- إن كانت الوقعة بأذرعات فهى من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة .
- وإن كانت الوقعة بالجزيرة فهى أدنى بالقياس إلى أرض كسرى .
- وإن كانت بالأردن فهى أدنى أرض الروم . [تفسير القرطبى ٧/٥٢٦٠] .

بشرى للمسلمين ، فالفرس قوم كانوا يعبدون النار ، أما الروم فأهل كتاب ، إذن : فالخلاف بيننا وبين الفرس في القمة الإلهية ، أمَّا الخلاف بيننا وبين الروم ففي القمة الرسالية ، فَهُم أقرب إلينا ؛ لأنهم يؤمنون بإلهنا ، وإنْ كانوا لا يؤمنون برسولنا .

وهذا من عظمة الإسلام ، فالذي يؤمن بالإله أقرب إلى نفوسنا من الذي لا يؤمن بالإله ؛ لأنه على الأقل موصول بالسماء ؛ لذلك لما غُلِبت الروم فرح كفار قريش وحزن المؤمنون ، وفرح كفار قريش لأن في هزيمة الروم دليلاً على أن محمداً وأصحابه سينهزمون كأصحابهم .

وكلمة ﴿ غَلَبِهِمْ .. (٣) ﴾ [الروم] مصدر يُضاف للفاعل مرة ، ويُضاف للمفعول مرة أخرى ، تقول : أعجبني ضَرْبُ الأمير مذنباً ، فأضفت المصدر للفاعل . وتقول : أعجبني ضَرْب المذنب فأضفتَ المصدر للمفعول ، وكذلك هنا ﴿ غَلَبِهِمْ .. (٣) ﴾ [الروم] مصدر أضيف إلى المفعول .

لكن لماذا قال سبحانه : ﴿ سَيَغْلِبُونَ (٣) ﴾ [الروم] وجاء بالسين الدالة على الاستقبال ، ثم قال بعدها ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ (٤) ﴾ [الروم] وهي أيضاً دالة على الاستقبال ؟ قالوا : لأن الغلبة لا تأتي فجأة ، إنما لا بُدَّ لها من إعداد طويل وأَخْذ بأسباب النصر ، وتجهيز القوة اللازمة له ، فكأنهم في مدة البضع سنين يُعدون للنصر ، فكلما أعدوا عُدَّة أخذوا جزءاً من النصر ، فالنصر إذن لا يأتي في بضع سنين ، إنما من عمل دائم على مدى بضع سنين .

فهتلر مثلاً لما انهزم في الحرب العالمية ، وتألَّبتْ عليه كل الدول ، جاء في عام ١٩٣٩ وهدد العالم كله بالحرب ، فهل سقطت

عليه القوة التى يـهدد بها فجأة ؟ لا ، بل ظل عـدة سنوات يُعد العدة ويُجهِّـز الجيش والأسلحـة والطرق إلى أنْ توفرتْ له القـوة التى يهدد بها .

﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥ ﴾

أثارت فرحة الكفار حفيظة المؤمنين ، إلى أنْ نزلت ﴿ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ .. ۝٤ ﴾ [الروم] ففـرح المؤمنون حـتى قال أبو بكر : والله لا يـسرٌ الله هؤلاء ، وسينصر الرومَ على فارس بعد ثلاث سنين .

لأن كلمة بضع تـعنى من الثلاثة إلى العشـرة ، فأخـذها الصِّدِّيق على أدنى مدلولاتها ، لماذا ؟ لأنه الصِّديق ، والحق ـ سبحانه وتعالى ـ لا يُحـمِّل المؤمنين مـشـقة الصـبر مـدة التـسع سنين ، وهذه من الصديقية التى تميز بها أبو بكر رضى الله عنه .

لذلك قـال أبو بـكر لأُبىٍّ بن خلف : والله لا يقـرّ الله عـيـونكم ـ يعنى : بما فـرحتم به من انتصـار الكفار ـ وقد أخـبرنا الله بذلك فى مدة بضـع سنين ، فـقال أُبىٌّ : أتراهننى ؟ قـال : أراهنك على كذا من القـلائص ـ والقلوص هى الناقة الـتى تركب ـ فى ثلاث سنين عشـر قلائص إن انتصرت الروم ، وأعطيك مثلها إن انتصرت فارس .

فلـما ذهـب أبـو بـكر إلى رسـول الله ، وأخـبره بمـا كان قـال : « يا أبا بكر زِدْه فى الـخطر ومـادِّه » ، يعنى زِدْ فى عـدد النوق من

عشرة إلى مائة وزده فى مدة من ثلاث سنين إلى تسع ، وفعلاً ذهب الصِّديق لأبىٍّ وعرض عليه الأمر ، فوافق فى الرهان على مائة ناقة[١] .

فلما اشتدّ الأذى من المشركين ، وخرج الصِّدِّيق مهاجراً[٢] رآه أُبىٌّ بن خلف فقال : إلى أين يا أبا فصيل ؟ وكانوا يغمزون الصِّدِّيق بهذه الكلمة ، فبدل أن يقولوا : يا أبا بكر . والبكْر هو الجمل القوى يقولون : يا أبا فصيل والفصيل هو الجمل الصغير ـ فقال الصِّديق : مهاجر ، فقال : وأين الرهان الذى بيننا ؟ فقال : إن كان لك يكفلنى فيه ولدى عبد الرحمن ، فلما جاءت موقعة بدر رأى عبد الرحمن أُبياً فقال له : إلى أين ؟ فقال : إلى بدر ، فقال : وأين الرهان إنْ قتلْتَ ؟ فقال : يعطيك ولدى .

وفى بدر[٣] أصيب أُبىٌّ بجرح من رسول الله مات فيه ، وقدَّم

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم والبيهقى عن قتادة ، ولفظه . أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه وعلى رأسهم أبو بكر : « الم تكونوا أحقاء أن تؤجلوا أجلاً دون العشر ؟ فإن البضع ما بين الثلاث إلى العشر » فزايدوهم وماذّوهم فى الأجل ، فأظهر الله الروم على فارس عند رأس السبع من قمارهم الأول . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٦/٤٨٢] .

(٢) كان أبو بكر الصديق كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة ، فيقول له رسول الله ﷺ : لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً ، فيطمع أبو بكر أن يكونه . قاله ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤٨٠) كان هذا فى الهجرة إلى المدينة ، ولكن ثبت فى السيرة النبوية (١/٣٧٢) أن أبا بكر الصديق لما ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الأذى ، استأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة فأذن له ، فخرج أبو بكر مهاجراً ، حتى إذا سار من مكة يوماً أو يومين لقيه ابن الدُّغُنة ، وهو يومئذ سيد الأحابيش فقال ابن الدغنة : أين يا أبا بكر ؟ قال : أخرجنى قومى وآذونى وضيقوا علىَّ . ثم أدخله فى جواره ورجع أبو بكر إلى مكة .

(٣) أُبىّ بن خلف قُتل فى غزوة أحد ، وليس فى غزوة بدر ، وقُتل بيد رسول الله ﷺ [ذكره البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٢١٢)] ، أما الذى قُتل فى غَزوة بدر فهو أمية بن خلف قتله بلال (السيرة النبوية لابن هشام ٢/٦٣٢) .

ولده الجُعْل لعبد الرحمن ، فذهبوا به إلى رسول الله ﷺ فقال : « تصدقوا به »[1] .

وهنا وقفة إعجازية إيمانية عقدية : سبق أنْ تكلمنا عن الغيب وعن المشهد . وقلنا : إن الغيب أنواع : غيب له مقدمات تُوصِّل إليه ، كما تعطى التلميذ تمريناً هندسياً ، وكالأسرار الكونية التى يتوصَّل إليها العلماء ويكتشفونها من معطيات الكون ، كالذى اكتشف الآلة البخارية ، وأرشميدس لما اكتشف قانون الأجسام الطافية .. إلخ ولا يقال لهؤلاء : إنهم علموا غيباً ، إنما أخذوا مقدمات موجودة واستنبطوا منها معدوماً .

أمّا الغيب المطلق فهو الذى ليس له مقدمات تُوصِّل إليه ، فهو غيب عن كل الناس ، وفيه يقول تعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. ﴿٢٧﴾﴾ [الجن]

ومن الغيب ما يغيب عنك ، لكن لا يغيب عن غيرك ، كالشىء الذى يُسرق منك ، فهو غيب عنك لأنك لا تعرف مكانه ، وليس غيباً عَمَّنْ سرقه منك .

وآفة الإنسان أنه لا يستغل المقدمات للبحث فى أسرار الكون ليرتقى فى الكونيات ، إنما يستغلها لمعرفة غيب الآخرين ، ونقول له : إن كنت تريد أن تعلم غيب الآخرين ، فاسمح لهم أنْ يعلموا غيبك ، وأعتقد أن أحداً لا يرضى ذلك .

إذن : سَتْر الغيب عن الخَلْق نعمة كبرى لله تعالى ؛ لأنه سبحانه

(١) التصدُّق بالرهان بعدما جاء رسول الله ﷺ أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٨٠) وعزاه لأبى يعلى وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن البراء بن عازب أن أبا بكر هو الذى حمله إلى رسول الله فقال : « هذا السحت تصدق به » ولم يرد فيه ذكر لعبد الرحمن بن أبى بكر . فالله تعالى أعلم .

رب الناس جميعاً ، ويريد سبحانه أن ينتفع خَلْقه بخَلْقه ، ألا ترى أنك إنْ علمتَ في إنسان سيئة واحدة تزهدك في كل حسناته ، وتجعلك تكرهه ، وتكره كل حسنة من حسناته ، فستر الله عنك غَيْب الآخرين لتنتفع بحسناتهم .

والغيب حجزه الله عنا ، إما بحجاب الزمن الماضي ، أو الزمن المستقبل ، أو بحجاب المكان ، فأنت لا تعرف أحداث الماضي قبل أنْ تُولد إلى أنْ يأتي مَنْ تثق به ، فيخبرك بما حدث في الماضي ، وكذلك لا تعرف ما سيحدث في المستقبل ، أما حاجز المكان فأنت لا تعرف ما يوجد في مكان آخر غير مكانك ، وقد يكون الشيء في مكانك ، لكن له مكين فلا تطلع عليه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ⑧ ﴾ [المجادلة]

فمَن الذي أخبر رسول الله بما في نفوسهم ؟ لقد خرق الله له حجاب المكان ، وأخبره بما يدور في نفوس القوم ، وأخبرهم رسول الله به ، أمَا كان هذا كافياً لأن يؤمنوا بالله الذي أخرج مكنون صدورهم ؟ إذن : المسألة عندهم عناد ولجاجة وإنكار .

وكذلك ما كان من رسول الله في غزوة مؤتة[1] التي دارتْ على أرض الأردن ورسول الله ﷺ بالمدينة ـ ونعلم أن أهل السيرة لا يطلقون اسم الغزوة إلا على التي حضرها رسول الله ، وكل حدث

---

(١) كانت في جمادى الأولى سنة ثمان ، وكان سببها أن رسول الله ﷺ بعث الحرث بن عمير الأزدي أحد بني لهب بكتابه إلى الشام إلى ملك الروم أو بصرى فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فأوثقه رباطاً ثم قدمه فضرب عنقه ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر فبعث البعث واستعمل عليه زيد بن حارثة » زاد المعاد لابن القيم (٢/١٥٥) .

حربى لم يحضره رسول الله نسميه سرية إلا مؤتة هى التى انفردتْ بهذه التسمية ، فلماذا مع أن رسول الله لم يشهدها ؟

قالوا : بل شهدها رسول الله وهو بالمدينة ، بما كشف الله له من حجاب المكان وأطلعه على ما يدور هناك حتى كان يخبر صحابته بما يدور فى الحرب كأنه يراها ، فيقول : أخذ الراية فلان فقُتل ، فأخذها فلان فقُتل ، فلما جاءهم الخبر وجدوا الأمر كما أخبر به سيدنا رسول الله[1] .

كما خَرق له حجاب الماضى ، فأخبره بحوادث فى الأمم السابقة كما فى قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ .. (٤٤) ﴾ [القصص] ، ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا .. (٤٥) ﴾ [القصص]

كما خرق له ﷺ حجاب المستقبل ، كما فى هذه الآية التى نحن بصدد الحديث عنها : ﴿ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ.. (٤) ﴾ [الروم] فأرونى أىّ قوة (كمبيوتر) فى الدنيا تُنبئنا بنتيجة معركة ستحدث بعد ثلاث إلى تسع سنين .

فمحمد ﷺ ، وهو النبى الأمى المقيم فى جزيرة العرب ولا يعرف شيئاً عن قوة الروم أو قوة الفرس ـ يخبرنا بهذه النتيجة ؛ لأن الذى يعلم الأشياء على وَفْق ما تكون هو الذى أخبره ، وكون محمد ﷺ يعلنها ويتحدَّى بها فى قرآن يُتْلَى إلى يوم القيامة دليل على تصديقه بمنطق الله له ، وأنه واثق من حدوث ما أخبر به .

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٢٦٢) .

ولهذه الثقة سُمِّى الصِّديق صدِّيقاً ، فحين أخبروه بمقالة رسول الله عن الإسراء ما كان منه إلا أنْ قال : إنْ كان قال فقد صدق[١] . ورسول الله ﷺ يخبر بهذه النتيجة ، ويراهن المشركين عليها ، ويتمسك بها ، وما ذاك إلا لثقته فى صدق هذا البلاغ ، وأنه لا يمكن أبداً أنْ يتخلف .

وقوله تعالى ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ .. (٤)﴾ [الروم] يعنى : إياكم أنْ تفهموا أن انتصار الفرس على الروم أو انتصار الروم على الفرس خارج عن مرادات الله ، فلله الأمر من قبل الغلب ، ولله الأمر من بعد الغلب .

فحين غَلبت الروم لله الأمر ، وحين انتصرت الفرس لله الأمر ؛ لأن الحق سبحانه يهيج أصحاب الخير بأن يُغلِّب أصحاب الشر ، ويُحرِّك حميتهم ويُوقظ بأعدائهم مشاعرهم ، ويُنبِّههم إلى أن الأعداء لا ينبغى أن يكونوا أحسن منهم .

إذن : فنصر المكروه لله على المحبوب لله جاء بتوقيت من الله ؛ لذلك إياك أن تحزن حين تجد لك عدواً ، فالأحمق هو الذى يحزن لذلك ، والعاقل هو الذى يرى لعدوه فَضْلاً عليه ، فالعدو يُذكِّرنى دائماً بأن أكون قوياً مستعداً ، يُذكِّرنى بأن أكون مستقيماً حتى لا يجد عدوى منى فرصة أو نقيصة . العدو يجعلك تُجنِّد كل ملكاتك للخير لتكون أفضل منه ؛ لذلك يقول الشاعر :

عداىَ لَهُمْ فَضْلٌ علىَّ ومنَّةٌ ... فَعنْدى لهُم شُكْرٌ على نَفْعهم ليَا
فَهُمْ كدَواءٍ والشِّفاء بمُرِّه ... فَلا أَبْعَد الرحمنُ عنِّى الأعَاديَا

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٦١) ، وكذا الحاكم فى مستدركه (٣/٦٢، ٦٣) من حديث عائشة رضى الله عنها ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

وهُم بحثُوا عَنْ زَلَّتى فَاجْتنبتُها وهُمْ نافسُونى فاكتسبْتُ المعَاليَا

إذن : لله الأمر من قبل ومن بعد ، وله الحكمة فى أنْ ينتصر الباطل ، ألاَ ترى غزوة أحد ، وكيف هُزِم المسلمون لما خالفوا أمر رسول الله وتركوا مواقعهم طمعاً فى مغنم ، انهزموا فى أول الأمر ، مع أن رسول الله معهم ؛ لأن سنة الله فى كونه تقضى بالهزيمة حين نخالف أمر رسول الله ، وكيف يكون الحال لو انتصر المسلمون مع مخالفتهم لأمر رسولهم ؟ لو انتصروا لفقد أمر الرسول مصداقيته ، ولما أطاعوا له أمراً بعد ذلك .

وفى يوم حنين : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ .. (٢٥)﴾ [التوبة] حتى إن أبا بكر نفسه ليقول : لن نُغلب اليوم عن قلّة[1] ، فلما نظروا إلى قوتهم ونسُوا تأييد الله هُزِموا فى بداية الأمر ، ثم يحنّ الله عليهم ، وتتداركهم رحمته تعالى ، فينصرهم فى النهاية .

إذن : فلله الأمر من قبل ومن بعد ، فإياك أن تظن أن انتصار الباطل جاء غصْباً عن إرادة الله ، أو خارجاً عن مراده ، إنما أراده الله وقصده لحكمة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الروم] أىّ نصر الذى يفرح به المؤمنون ؟ أيفرحون لانتصار الروم على الفرس ؟ قالوا : بل الفرح هنا دوائر متشابكة ومتعالية ، فهم أولاً يفرحون لانتصار أهل دين وأهل كتاب على كفار وملاحدة ، ويفرحون أن بشرى رسول الله تحققتْ ، ويفرحون لأنهم آمنوا

---

(١) أخرج البيهقى فى الدلائل (١٢٣/٥) عن الربيع بن أنس أن رجلاً قال يوم حنين : لن نغلب من قلة ، وكانوا اثنى عشر ألفاً فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ .. (٢٥)﴾ [التوبة] وأورده السيوطى فى أسباب النزول (ص ١٣٨) .

برسول الله ، وصدَّقوه قبل أن ينطق بهذه البشرى .

إنهم يفرحون لأنهم أصابوا الحق ، فكلما جاءت آية فرح كل منهم بنفسه ؛ لأنه كان محقاً حينما آمن بالإله الواحد الذى يعلم الأمور على وفق ما ستكون واتبع رسوله ﷺ . إذن : لا تقصر هذه الفرحة على شىء واحد ، إنما عَدِّها إلى أمور كثيرة متداخلة .

كما أن اليوم الذى انتصر فيه الروم صادف اليوم الذى انتصر فيه المسلمون فى بدر[1] .

وقوله تعالى ﴿يَنصُرُ مَن يَشَاءُ .. ⑤﴾ [الروم] الفرس أو الروم ، ما دام أن له الأمر من قبل ومن بعد ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑤﴾ [الروم] الحق سبحانه وصف نفسه بهاتين الصفتين : العزيز الرحيم ، مع أن العزيز هو الذى يغلب ولا يُغْلَب ، فقاهريته سبحانه عالية فى هذه الصفة ـ ومع ذلك أتبعها بصفة الرحمة ليُحدث فى نفس المؤمن هذا التوازن بين صفتى القهر والغلبة وبين صفة الرحمة .

كما أننا نفهم من صفة العزة هنا أنه لا يحدث شىء إلا بمراده تعالى ، فحين ينتصر طرف وينهزم طرف آخر حتى لو انتصر الباطل لا يتم ذلك إلا لمراده تعالى ؛ لأن الله تعالى لا يُبقى الباطل ولا يُعلى الكفر إلا ليظهر الحق ، فحين يُعَضُّ الناس بالباطل ، ويشقَوْن بالكفر يفزعون إلى الإيمان ويتمسكون به .

واقرأ قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى قال : لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ②﴾ [الروم] إلى قوله ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ..⑤﴾ [الروم] قال : ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس . أخرجه الترمذى فى سننه (٣١٩٢) وقال : « هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه » .

الْعُلْيَا .. (٤٠) ﴾ [التوبة] ولم يقل : وجعل كلمة الله هى العليا ؛ لأنها ليستْ جَعْلاً لأن الجَعْل تحويل شىء إلى شىء ، أما كلمة الله فهى العليا بداية ودائماً ، وإنْ علت كلمة الباطل إلى حين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾

الوعد : هو الإخبار بما يسرُّ قبل أنْ يكون ﴿ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ .. (٦) ﴾ [الروم] وفرْقٌ بين وعد الله ووعد الناس ؛ لأنك قد تعد إنساناً بخير ، وتحول الأسباب بينك وبين إنفاذ ما وعدتَ به ، كأن يتغير رأيك أو تضعف إمكاناتك ، أو يتغير السبب الذى كنتَ ستفعل من أجله .

إذن : أنت لا تملك عناصر الوفاء وأسبابه ، أمّا وعد الحق سبحانه وتعالى فوعد محقق ، حيث لا توجد قوة تُخرجه عما وعد ، وهو سبحانه لا يُعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فما دام الوعد وعدَ الله فثقْ أنه محقق .

لذلك يُعلِّمنا الحق سبحانه : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف] والمعنى : اجعل لنفسك مَخرَجاً من الكذب إنْ حالت الأسباب بينك وبين ما وعدتَ به ، بأن تجعل أمرك تحت مشيئة ربك ، لا مشيئتك ، لأنك لا تملك من عناصر إتمام الفعل شيئاً .

إذن : أدركْ نفسك ، وقُلْ إنْ شاء الله ، حتى إذا حالتْ الأسباب

بينك وبين ما أردتَ قلت : شئْت ، ولكن الله تعالى لم يشأ .

والله تعالى لا يُخلف وعده ؛ لأنه سبحانه يعلم الأشياء على وَفْق ما تكون ، ولا توجد قوة تُحوِّله عن مراده ، وليس له شريك يراجعه ، أو يُخرجه عن مراده .

وإنْ شئت فاقرأ : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤﴾ [المسد]

ألم يكُنْ من الممكن وقتها أنْ يُسلِم أبو لهب كما أسلم حمزة وعمر وخالد وعكرمة وغيرهم ؟ أليست له حرية الاختيار كهؤلاء ؟ بل ألم يسمع هذه السورة ؟ ومع هذا كله كفر وأصرَّ على كفره ، ولم ينطق بكلمة الإيمان ، ولو حتى للكيد لرسول الله فيقول في نادي قريش ولو نفاقاً : قال محمد كذا وأنا أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . أليس هذا دليلاً على غبائه ؟

إذن : ما دام أن القرآن أخبر فلا بُدَّ أن يتم الأمر على وَفْق ما أخبر به .

ونلحظ هنا أن كلمة الوعد تعني البشارة بالخير القادم في المستقبل والكلام هنا عن فريقين : فريق منتصر يفرح بالنصر ، وفريق منهزم يحزن للهزيمة ، فكيف يستقيم الوعد في حَقِّه ؟ فالفرح للمؤمن غَمٌّ لغير المؤمن .

ولتوضيح هذه المسألة نذكر أن المستشرقين وقفوا عند قوله تعالى من سورة الرحمن : ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ⑭ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ⑮ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑯﴾ [الرحمن]

وقالوا : هذا الكلام معقول بالخلق من نعم الله ، لكن ماذا عن قوله : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن] فأىٌّ نعمة فى النار وفى الشواظ[1] ؟

وفات هؤلاء أنه من النعمة أن ننبهك إلى الخطر قبل أنْ تقع فيه ، ونحذرك من عاقبة الكفر لتنتهى عنه كالوالد الذى يقول لولده : إنْ أهملتَ دروسك ستفشل ، وساعتها سأفعل بك كذا وكذا .

إذن : فذكْر النار والعذاب نعمة لكل من خالف منهج الحق ، فلعله حين يسمع الإنذار يعود ويرعوى .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾ [الروم] نفى عنهم العلم أى : ببواطن الأمور وحقيقتها .

ثم أخبر عنهم :

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) ﴾

إذا رأيت فعلاً نُفِى مرة ، وأُثبت مرة أخرى ، فاعلم أن الجهة منفكة ، فهم لا يعلمون بواطن الأمور ، إنما يعلمون ظواهرها ، وليتهم يعلمون ظواهر كل شىء ، إنما ظواهر الدنيا فحسب ، ولا يعلمون بواطنها ، فما بالك بالآخرة ؟

حين تتأمل أمور الدنيا والقوانين الوضعية التى وضعها البشر ، ثم رجعوا عنها بعد حين ، تجد أننا لا نعلم من الدنيا إلا الظاهر ، فمثلاً قانون الإصلاح الزراعى الذى نعمل به منذ عام ١٩٥٢ ، وكنا

---

(١) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] .

مُتحمِّسين له نُمجِّده ولا نسمح بالمساس به يناقشونه اليوم ، ويطلبون إعادة النظر فيه ، بل إلغاءه ؛ لأنه لم يَعُدْ صالحاً للتطبيق فى هذا العصر ، روسيا التى تبنتْ النظام الشيوعى ودافعتْ عنه بكل قوة هى التى نقضتْ هذا النظام وأسقطته .

ما أسقطته أمريكا مثلاً ، ولو أسقطته أمريكا لانتقلت إليها قوة الشيوعية وغطرستها ؛ لذلك يقولون : ما اندحرت الشيوعية إنما انتحرت على أيدى أصحابها . ومن الممكن أن ينتحر هؤلاء كما انتحرتْ نُظمهم فأوْلَى بهم أنْ يستقيموا لله ، وأن يُخلصوا للناس .

إذن : لا نعرف من الدنيا إلا ظواهر الأشياء ، ولا نعرف حقيقتها ، كما نشقى الآن بسبب المبيدات الحشرية التى ظننا أنها ستُريحنا وتُوفر علينا الجهد والوقت فى المقاومة اليدوية ؟

كم يشقى العالم اليوم من استخدام السيارات مثلاً من تلوث فى البيئة وقتْل للأرواح كل يوم ، ولك أن تقارن بين وسائل المواصلات فى الماضى ووسائل المواصلات اليوم ، فإن كان للوسائل الحديثة نفع عاجل ، فلها ضرر آجل ، ويكفى أن عادم المخلوق لله يصلح الأرض ، وعادم المخلوق للبشر يفسدها ، لماذا ؟ لأننا نعلم ظواهر الأشياء . ولو علم الذى اكتشف السولار مثلاً حقيقته لما استخدمه فيما نستخدمه نحن فيه الآن .

هذا عن علْمنا بأمور الدنيا ، أمّا الآخرة فنحن فى غفلة عنها ؛ لذلك يقول سيدنا الحسن : أعجب للرجل يمسك الدينار بأنامله فيعرف وزنه ، و (يرنه) فيعرف زيوفه من جيده ، ولا يحسن الصلاة[1] .

---

(١) أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه (فى تفاسيرهم) عن الحسن قال : ليبلغ من حذق أحدهم بأمر دنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره ، فيخبرك بوزنه ، وما يحسن يصلى . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/ ٤٨٤] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. ⑰ ﴾ [الأنفال] فنفى الرمى ، وأثبته فى آية واحدة ؛ لأن الجهة منفكة ، فالإثبات لشىء ، والنفى لشىء آخر . وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بالتلميذ الذى تجبره على المذاكرة فيفتح الكتاب ويُقلِّب صفحاته ويهزّ رأسه ، كأنه يقرأ ، فإذا ما اختبرته فيما قرأ تجده لم يفهم شيئاً ، فتقول له : ذاكرتَ وما ذاكرتَ ؛ لأنه فعل فعْل المذاكرة ، ومع ذلك هو فى الحقيقة لم يذاكر ؛ لأنه لم يُحصِّل شَيئاً مما ذاكره .

كذلك رسول الله ﷺ رمى حين أخذ حفنة من الحصى ورمى بها ناحية جيش الكفار ، لكن ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ .. ⑰ ﴾ [الأنفال] هذه الحفنة ؛ لأن قدرتك البشرية لا توصل هذه الرمية إلى كل الجيش ، فهذه إذن قدرة الله .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ⑥ ﴾ [الروم] أنه استثنى من عدم العلم فئة قليلة ، فلماذا استثنى هذه الفئة مع أننا نُغيِّر النظم الدنيوية والقوانين على الجميع ؟ قالوا : لأنه حين وُضعت هذه القوانين وشُرعت هذه النظم كانت هناك فئة ترفضها ولا تقرها ، لذلك لم يتهم الكل بعدم العلم .

والظاهر الذى يعلمونه من الحياة الدنيا فيه مُتَع وملاذ وشهوات ، البعض يعطى لنفسه فيها الحرية المطلقة ، وينسى عاقبة ذلك فى الآخرة ؛ لذلك فإن أهل الريف يقولون فيمن لا يحسب حساباً للعواقب :
(الديب بلع منجل ، فيقول الآخر : ساعة خراه تسمع عواه)

واقرأ قوله تعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ⑭ ﴾ [آل عمران]

فذكر الناس متاع الحياة الدنيا ونسُوا الباقيات الصالحات فى الآخرة ، والعاقل هو الذى يستطيع أنْ يُوازن بينهما ، وسبق أنْ قُلْنا عن الدنيا بالنسبة لك : هى مدة بقائك فيها ، هى عمرك أنت لا عمر الدنيا كلها ، كما أن عمرك فيها محدود مظنون لا بُدَّ أن ينتهى بالموت .

أما الآخرة فدار باقية دائمة ، دار نعيم لا ينتهى ، ولا يفوتك بحال ، فلماذا تشغلك الفانية عن الباقية ؟ لماذا ترضى لنفسك بصفقة خاسرة ؟

لذلك لما سُئِل الإمام على : أريد أن أعرف أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال : لم يدع الله الجوابَ لى ، إنما الجواب عندك أنت ، فإنْ دخل عليك اثنان : واحد جاء بهدية ، والآخر جاء يسألك عطية ، فإنْ كنت تهشُّ لصاحب الهدية فأنت من أهل الدنيا ، وإنْ كنت تهشُّ لمن يطلب العطية فأنت من أهل الآخرة .

لماذا ؟ لأن الإنسان يحب مَنْ يُعمِّر ما يحب ، فإنْ كنتَ تحب الآخرة فإنك تحب بالتالى مَنْ يعمرها لك ، وإنْ كنتَ تحب الدنيا فإنك تحب مَنْ يعمرها لك ؛ لذلك كان أحد الصالحين إنْ جاءه سائل يطرق بابه يهشُّ فى وجهه ، ويبَشُّ ويقول : مرحباً بمَنْ جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

لكن ، لماذا أعاد الضمير فى ﴿ وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ⑦ ﴾ [الروم] لماذا لم يقل : وهم عن الآخرة غافلون ؟

لو قال الحق سبحانه وهم عن الآخرة غافلون لَفُهِم أن الغفلة مسيطرة عليهم ، وليست هناك أدلة تُوقِظهم ، إنما ﴿ وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ

هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم] يعنى : الغفلة واقعة منهم أنفسهم ، وإلاَّ فالأدلة واضحة ، لكن ما جدوى الأدلة مع قوم هم غافلون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾

المعنى : أن يكون ذلك منهم : لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، ويغفلون عن الآخرة ، ولم يتفكروا فى أنفسهم ، فيأتى لهم بالدليل مرة فى أنفسهم ، ومرة فى السموات والأرض .

الدليل فى الأنفس يقول لك : فكِّر فى نفسك . أى : اجعلها موضوع تفكيرك ، وتأمل ما فيها من أسرار دالة على قدرة الخالق عز وجل ، فإلى الآن ومع ما توصَّل إليه العلم ما زال فى الإنسان أسرار لم تُكتشف بعد .

تأمل فى مقومات حياتك : الأكل والشرب والتنفس ، وكيف أنك تصبر على الطعام حتى شهر ، تتغذى من المخزون فى جسمك ، وتصبر على الماء من ثلاثة إلى عشرة أيام على مقدار ما فى جسمك من مائية ، لكنك لا تصبر على الهواء إلا بمقدار شهيق وزفير .

لذلك من حكمته تعالى حين أمَّن للبشر هذه المقوِّمات أنْ جعل مدة صبرك على الطعام أطول ، لأن طعامك قد يحتكره غيرك ، فتحتاج إلى طلبه والسَّعْى إليه ، أما الماء فمدة الصبر عليه أقل ، لذلك جعل الحق سبحانه احتكار الماء قليلاً .

أما الهواء الذى لا تصبر عليه إلا بمقدار شهيق وزفير ، فمن حكمة الله تعالى ألاَّ يُملَّك لأحد أبداً ، وإلا لو احتكر الناسُ الهواء لما استقامتْ الحياة ، فلو منعك صاحب الهواء هواءه لمتَّ قبل أنْ يرضى عنك .

تأمل فى نفسك حين تأكل الطعام ، وفيك مدخلان متجاوران : القصبة الهوائية ، وهى مجرى الهواء للرئتين ، والبلعوم وهو مجرى الطعام للمعدة ، تأمل ما يحدث لك إنْ دخلتْ حبة أرز واحدة فى القصبة الهوائية ، فبلا شعور تشرَق بها ، وتظل تقاومها حتى تخرج ، وتأمل حركة لسان المزمار حين يسد القصبة الهوائية أثناء البلع ، هذه الحركة التلقائية التى لا دخلَ لك فيها ، ولا قدرة لك عليها بذاتك.

تأمل وضع المعدة ، وكيف أن الله جعل لها فتحة يُسمونها فتحة الفؤاد ، هى التى تُغلق المعدة بإحكام بعد الطعام ، حتى لا تؤذيك رائحته بأنْ تتسرب عصارة المعدة إلى الفم فتؤلمك ، فمن أصابه خلل فى إغلاق هذه الفتحة تجد رائحة فمه كريهة يسمونه (أبخر) .

كذلك تأمل فى عملية إخراج الطعام وكيف تكون طبيعياً مستريحاً ؟ وفجأة تحتاج إلى الحمام وإلى قضاء الحاجة ، ماذا حدث ؟ والأمر كذلك فى شربة الماء ، ذلك لأن لجسمك طاقة تحملُ فى الأمعاء وفى المثانة ، ففى لحظة يزيد الحمل عن الطاقة ، فتشعر بالحاجة إلى الإخراج .

وهذا مجال لا حصرَ له مهما تقدمتْ العلوم ، ومهما بحثنا فى أنفسنا ، ويكفى أن نقرأ : ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾ [الذاريات] فدعانا ربنا إلى البحث فى أنفسنا قبل البحث فيما حولنا من آيات السماء والأرض ؛ لأن أنظارنا قد تقصر عن رؤية ما فى السموات والأرض من آيات ، أما نفسى فهى أقرب دليل منك وأقوى دليل عليك .

﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم .. (٨)﴾ [الروم] أى : فكِّروا فى أنفسكم بعيداً عن ضجيج الناس وجدالهم ومرائهم ، فحين تجادل

الناس تجد لجاجة وحرصاً على الظهور ، ولو بالباطل ، إنما حينما تكون مع نفسك تسألها وتتأمل فيها ، فلا مُهيج ولا مُعاند ، لا تخجل أنْ ينتصر عليك خَصْمك ، ولا تطمع فى مكانة أو منزلة ؛ لذلك تصل بالنظر فى نفسك إلى الحقيقة .

لذلك يخاطب القرآن النبى ﷺ بقوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ .. (٤٦)﴾ [سبأ] يعنى : يا مَنْ تفكِّرون فى صدق هذا الرسول ، وتتهمونه بالكذب والافتراء والسحر .. الخ أريد منكم شيئاً واحداً ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ..(٤٦)﴾ [سبأ] أى : مثنى مثنى ، أو منفردين ، كلٌّ على حدة ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)﴾ [سبأ]

إذن : الطريق إلى الحقيقة لا يكون بالمجادلة الجماهيرية ، إنما بتأمل الإنسان مع نفسه ، أو مع مثله ، فمع الجماعة تتحرك فى النفس الرغبة فى العُلُو والانتصار ؛ لذلك حين تناقش العاقل يقول لك (حسيبك تراجع نفسك) يعنى : تفكَّر وحدك بحيث لا تُحرج من أحد ، فتكون أقرب للموضوعية وللوصول إلى الحق .

وبعد أنْ أمرنا ربنا بالتفكّر فى أنفسنا يلفتنا إلى التأمل فيما حولنا من السموات والأرض ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٨)﴾ [الروم]

وهناك آية أخرى تقدم التفكُّر فى السماء والأرض على التفكّر فى النفس ، هى قوله تعالى : ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ.. (٥٧)﴾ [غافر]

لماذا ؟ لأن الإنسان قد يموت قبل أنْ يُولد ، ويموت بعد عدة سنوات ، أو حتى بعد مئات السنين ، أما السموات والأرض بما فيهما

من أرض وسماء وشمس وقمر .. إلخ فهى كما هى منذ خلقها الله لم تتغير ، وهى تؤدى مهمتها دون تخلُّف ، ودون صيانة ، ودون أعطال ، فهى بحقٍّ أعظم من خَلْق الناس وأكبر .

إذن : الآيات والأدلة فى أنفسكم وفى السموات والأرض ، لكن أيهما الآية الأقوى ؟ قالوا : ما دامت السموات والأرض أكبر من خَلْق الناس فهى الأقوى ، فإن لم تقنع بها فانظر فى نفسك ؛ لذلك يقول العلماء بالمفيد والمستفيد ، المفيد هو الله ـ عز وجل ـ فحينما يضرب لى مثلاً يضرب لى بالأقوى ، فإنْ لم أُطقْه يأتى لى بالأقل ، والمستفيد هو الذى ينتقل من الأقل للأكبر .

ومعنى ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا .. ⁽⁸⁾﴾ [الروم] أى : من الكواكب والأفلاك والنجوم التى نشاهدها فى جَوِّ السماء ، وكانوا فى الماضى لما أرادوا أنْ يُقرِّبوا أمور الدين لعقول الناس يقولون : الكواكب السبعة هى السموات السبع ، ووقع فيها علماء كبار ، لكن الحقيقة أن هذه الكواكب السبعة كلها دون السماء الدنيا ، واقرأ قول الله تعالى :
﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ .. ⁽¹²⁾﴾ [فصلت]

فأين السماء من الكواكب التى نشاهدها ؟! أتعلم كم ثانية ضوئية بينك وبين الشمس ، أو بينك وبين القمر ؟ بيننا وبين الشمس ثمانى دقائق ضوئية ، وبيننا وبين المرأة المسلسلة مائة سنة ضوئية ، وبيننا وبين المجرة مليون سنة ضوئية .

ولك أن تضرب مليون سنة فى ٣٦٥ يوماً ، وتضرب الناتج فى ٢٤ ساعة ، وتضرب الناتج فى ستين دقيقة ، ثم فى ستين ثانية ، ثم تضرب الناتج من ذلك فى ٣٠٠ ألف كيلو ، ثم تأمل الرقم الذى وصلتَ إليه .

وما أسكتَ القائلين بأن الكواكب السبعة هى السموات السبع إلا أن العلماء اكتشفوا بعدها كوكباً جديداً حول الشمس ، وبعد سنوات اكتشفوا آخر . كذلك حين صعد رواد الفضاء إلى سطح القمر أسرع هؤلاء (الفلاحسة) يقولون : لقد سبق القرآن ، وأخبر بهذا فى قوله تعالى :

﴿ يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن]

وقالوا : إن السلطان هو سلطان العلم الذى مكّننا من اعتلاء سطح القمر ، وعجيب أن يقول هذا الكلام علماء كبار ، فأين القمر من السماء ؟ القمر ما هو إلا ضاحية من ضواحى الأرض كمصر الجديدة بالنسبة للقاهرة ، ثم إنْ كان السلطان هنا هو سلطان العلم ، فماذا تقولون فى قوله تعالى بعدها : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) ﴾ [الرحمن]

لقد حدث هذا التخبط نتيجة الخلط بين علوم الدين والشريعة ، وبين علوم الكونيات ، وهذه آفة علماء الدين أنْ يتدخلوا فيما لا علمَ لهم به ، فالكونيات يُؤخَذ منها الدليل على عظمة الصانع وقدرته سبحانه ، إنما لا يُؤخذ منها حكم شرعى .

ورأينا من هؤلاء مَنْ ينكر كروية الأرض ، وأنها تدور حول الشمس ، ومنهم مَنْ ظن أن علماء الكونيات ـ مع أنهم كفرة ـ يعلمون الغيب لأنهم توصَّلوا بحسابات دقيقة لحركة الأرض إلى موعد الخسوف والكسوف ، وجاء الواقع وَفْق ما أخبروا به بالضبط .

وهذه المسألة ـ كما سبق أنْ قُلْنا ـ ليست من الغيب المطلق ، بل من الغيب الذى أعطانا الله المقدمات التى توصل إليه ، وقد توصّل

العلماء إليه بالبحث ودراسة معطيات الكون ، ونفهم هذا فى ضوء قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

وهذه أيضاً من الآيات التى تُقدّم فيها أدلة السماوات والأرض على أدلة النفس . إذن : فالكونيات تُبنَى على علوم ودراسات ، لا دخلَ للدين بها ، الدين جاء ليقول لك : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، ثم ترك الكونيات إلى أنْ تتسع العقول لفهمها .

وقوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ .. (٨) ﴾ [الروم] لأن السماوات والأرض وما بينهما من الكواكب والأفلاك تسير على نظام ثابت لا يتخلف ، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير أبداً ، وتأمل حركة الكواكب والأفلاك تجد أنها تسير وَفْق نظام دقيق منضبط تماماً .

فالشمس لم تتخلف يوماً فتقول مثلاً : لن أطلع اليوم على هؤلاء الناس ؛ لأنهم ظالمون ، لأن لها قانوناً تسير به ، وهى مخلوقة بحق ثابت لا يتغير ، وما دامتْ هذه الكونيات خلقت بحق وبشىء ثابت فلك أن ترتب عليها حساباتك وتضبط بها وقتك ، وأنت لا تضبط وقتك على ساعة إلا إذا كانت هى فى ذاتها منضبطة .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] أى : مخلوقة بحساب ؛ ولأنه سبحانه خلقها بحساب جعلها آلة للحساب ، فقال : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

ويقول سبحانه : ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ..

(٥)﴾ [يونس] وهل تعلمون بالقمر عدد السنين والحساب ، إلا إذا كان هو مخلوقاً بحساب ؟

ومع ذلك ، ومع أن الكون خلقه الله بالحق الثابت إياك أن تظن أن ثباته دائم باقٍ ؛ لأن الله تعالى خلقه على هيئة الثبات لأجل ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٨)﴾ [الروم] فبعد أن ينقضى هذا الأجل الذى أجّلَه الله تُكوّر الشمس وتنكدر النجوم ، وتُبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات ، فالأمر ليس مجرد أنْ يتغير الشيء الثابت ، إنما يزول وينتهى .

ثم يقول سبحانه ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨)﴾ [الروم] كنا نجادل الشيوعيين نقول لهم : لقد بالغتم فى تعذيب مخالفيكم من الإقطاعيين والرأسماليين ، وتعديتم فى عقابهم ، قالوا : لأنهم ظلموا وأفسدوا فى المجتمع ، فقلنا لهم : فما بال الذين ظلموا قبل هؤلاء وماتوا ولم ينالوا ما يستحقون من العقاب ؟ أليس من العدل أن تقولوا بدار أخرى يُعاقبون فيها على ما اقترفوه ؟

ألا يلفتكم هذا إلى ضرورة القيامة ، ووجوب الإيمان بها ؟ فمن أفلت من أيديكم فى الدنيا عاقبه الله تعالى فى الآخرة ، ثم أنتم ترونَ مبدأ الثواب والعقاب فى كل شيء ، فالذى أطلق لنفسه العَنان فى الدنيا ، وسار فيها على هواه ، وعَاثَ فى الأرض فساداً ، ولم تنلْه يد العدالة فهو الفائز إنْ لم تكُنْ له دار أخرى يُحاسَب فيها .

إذن : فالإيمان بالآخرة وبلقاء الله ضرورة يقتضيها المنطق السليم ، ومع ذلك يكفر بها كثير من الناس ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨)﴾ [الروم]

فالمؤمن يجب أن يكون على ثقة بهذا اللقاء ؛ لأن قوانين الأرض إنما تَحْمى من ظاهر المنكر ، وأما باطن المنكر فلا يعلمه إلا الله ، فلا بُدَّ من فترة يُعاقَب فيها أصحاب باطن المنكر .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ﴾

المعنى : أيكفرون بلقاء ربهم ولم يسيروا فى الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ـ خُذْ فقط أمور الدنيا ، فهى كافية لمن اعتبر بها ـ فهؤلاء لم يسيروا فى الدنيا ، ولم ينظروا فيها بعين الاعتبار بمَنْ سبقهم من الأمم المكذِّبة ، ولم يتعظوا بما وقع فى الدنيا فضلاً عما سيقع فى الآخرة .

فإنْ كُنَّا صدَّقنا ما وقع للمكذِّبين فى الدنيا وشاهدناه بأعيننا ، فينبغى أن نُصدِّق ما أخبر به الله عن الآخرة ؛ لأنك إنْ أردتَ أنْ تعلم ما تجهل فخُذْ له وسيلة مما تعلم . إذن : سيروا فى الأرض ، وانظروا بعين الاعتبار لمصير الذين كذَّبوا ، وماذا فعل الله بهم ؟

والسَّيْر : قَطْع المسافات من مكان إلى مكان ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ .. (٩)﴾ [الروم] لكن أنسير فى الأرض أم على الأرض ؟ هذا

من دقة الأداء القرآنى ، ومظهر من مظاهر إعجازه ، فالظاهر أننا نسير على الأرض ، لكن التحقيق أننا نسير فى الأرض ؛ لأن الذى خلقنا وخلق الأرض قال : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ⟨١٨⟩ ﴾ [سبأ]

ذلك لأن الأرض ليست هى مجرد اليابسة التى تحمل الماء ، والتى نعيش عليها ، إنما الأرض تشمل كل ما يحيط بها من الغلاف الجوى ؛ لأنها بدونه لا تصلح للعيش عليها ، إذن : فغلاف الأرض من الأرض ، فحين نسير لا نسير على الأرض إنما فى الأرض .

والسير فى الأرض نظر له الدين من ناحيتين : سير يُعَدُّ سياحة للاعتبار ، وسَيْر يُعَدُّ سياحة للاستثمار ، فالسير للاعتبار أن تتأمل الآيات فى الأرض التى تمر بها ، فالجزيرة العربية مثلاً صحراء وجبال يندر فيها الزرع ، فإنْ ذهبتَ إلى أسبانيا مثلاً تجدها بلاداً خضراء لا تكاد ترى سطح الأرض من كثرة النباتات بها .

وفى كل منهما خيرات ؛ لأن الخالق سبحانه وزَّع أسباب الفضل على الكون كله ، وترى أن هذه الأرض الجرداء القاحلة والتى كانت يشقُّ على الناس العيش بها لما صبر عليها أهلها أعطاهم الله خيرها من باطن الأرض ، فأصبحت تمد أعظم الدول وأرقاها بالوقود الذى لا يُسْتغنى عنه يوماً واحداً فى هذه البلاد ، وحينما قطعناه عنهم فى عام ١٩٧٣ ضجُّوا وكاد البرد يقتلهم .

حين تسير فى الأرض وتنظر بعين الاعتبار تجد أنها مثل (البطيخة) ، لو أخذتَ منها قطاعاً طولياً فإنه يتساوى مع باقى القطاعات ، كذلك الأرض وزَّع الله بها الخيرات على اختلاف ألوانها ، فمجموع الخير فى كل قطاع من الأرض يساوى مجموع الخيرات فى القطاعات الأخرى .

الجبال التي هجرناها في الماضي وقُلْنا إنها جَدْب وقفر لا حياةَ فيها ، هي الآن مخازن للثروات وللخيرات قد اتجهت إليها الأنظار لإعمارها والاستفادة منها ، وانظر مثلاً إلى ما يحدث من نهضة عمرانية في سيناء .

إذن : فالخالق سبحانه وزَّع الخيرات على الأرض ، كما وزَّع المواهب على الخَلْق ليظل الجميع مرتبطاً بعضه ببعض برباط الحاجة لا يستغني الناس بعضهم عن بعض ، ولا البلاد بعضها عن بعض ، وهنا لفتة إيمانية : أن الخلق كلهم عباد الله وصنعته ، والبلاد كلها أرض الله وملكه ، وليس لله ولد ، وليس بينه وبين أحد من عباده قرابة ، فالجميع عنده سواء ، لذلك سبق أن قلنا : لا ينبغي لك أنْ تحقد على صاحب الخير أو تحسده ؛ لأن خيره سيعود عليك حتماً .

ومعنى ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٩)﴾ [الروم] أي : الأمم التي كذَّبَتْ الرسل ، وفي آية أخرى يوضح سبحانه عاقبة هؤلاء المكذبين : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

ويخاطبَ سبحانه كفار قريش : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات]

أي : في أسفاركم ورحلات تجارتكم ترونَ مدائن صالح وغيرها من القرى التي أصابها العذاب ما زالت شاخصة لكل ذي عينين .

ويقول سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)﴾ [الفجر] وكانوا في رمال

الأحقاف ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ۝١٠ ﴾ [الفجر] وهى الأهرامات ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ ﴾ [الفجر]

لقد كان لكل هؤلاء حضارات ما زالت حتى الآن تبهر أرقى حضارات اليوم ، فيأتون إليها ليتأملوا ما فيها من أسرار وعجائب ، ومع ذلك لم تستطع هذه الحضارات أنْ تحمى نفسها من الدمار والزوال ، وما استطاعت أنْ تمنع نفسها من عذاب الله حين حَلَّ بها ، إذن : لكم فى هؤلاء عِبْرة .

وكأن الحق سبحانه في قوله : ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. ۝٩ ﴾ [الروم] يقول لكفار قريش : أنتم يا مشركى قريش أقلّ الأمم ، لا قوةَ لكم ، ولا مال ولا حضارة ولا عمارة ، فمن اليسير علينا أن نأخذكم كما أخذنا مَنْ هم أقوى منكم ، إنما سبق أنْ أخذتم العهد في قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣ ﴾ [الأنفال]

لذلك يقول بعدها : ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا .. ۝٩ ﴾ [الروم] فالأمم المكذِّبة التى أخذها الله وجعلها لكم عبرة كانت أقوى منكم ، وأخصب أرضاً ، لذلك أثاروا الأرض . أى : حرثوها للزراعة وللإعمار ، وأنتم بواد غير ذى زرع ، والحرث يُطلَق على الزرع كما فى قوله سبحانه : ﴿ وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ .. ۝٢٠٥ ﴾ [البقرة]

ذلك لأن الأرض لا تنبت النبات الجيد إلا إذا أثارها الفلاح ، وقلَّبها ليتخلل الهواء تربتها ، فتجود عليه وتؤدى مهمتها كما ينبغى ، أما إنْ تركتها هامدة متماسكة التربة والذرات ، فإنها تمسك النبات

ولا تعطى فرصة للجذور البسيطة لأنْ تمتد فى التربة ، خاصة فى بداية الإنبات .

وفى موضع آخر يقول ـ سبحانه وتعالى ـ عن النبات : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)﴾ [الواقعة]

وفى قصة البقرة مع بنى إسرائيل لما تلكئوا فى ذبحها وطلبوا أوصافها ، قال لهم الحق سبحانه : ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ .. (٧١)﴾ [البقرة]

يعنى : بقرة مُرفهة غير سهلة الانقياد ، فلا تُستخدم ، لا فى حَرْث الأرض وإثارتها ، ولا فى سَقْيها بعد أنْ تُحرَث ؛ لذلك تجد أن الفلاح الواعى لا بُدَّ أن يثير الأرض ويُقلِّب تربتها قبل الزراعة ، ويتركها فترة ليتخللها الهواء والشمس ، ففى هذا إحياء للتربة وتجديد لنشاطها ، كما يقولون أيضاً : قبل أن تزرع ما تحتاج إليه انزع ما لا تحتاج إليه .

إذن : فهؤلاء القوم كانت لهم زروع وثمار تمتعوا بها وجمعوا خيراتها .

ومعنى ﴿عَمَرُوهَا .. (٩)﴾ [الروم] أى : بما يسَّر الله لهم من الطاقات والإمكانات ، وأعملوا فيها الموهبة التى جعلها الله فيهم ، فاستخرجوا من الأرض خيراتها ، كما قال سبحانه : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. (٦١)﴾ [هود]

وإعمار الأرض يكون بكل مظهر من مظاهر الرقى والحياة ، إما بالزرع أو الغَرْس ، وإما بالبناء ، وإما بشقِّ الأنهار والمصارف وإقامة الطرق وغير ذلك مما ينفع الناس ، ونُفرِّق هنا بين الزرع والغَرْس :

فالزرع ما تزرعه ثم تحصده مرة واحدة كالقمح مثلاً ، أما الغرس فما تغرسُه ويظل فترة طويلة يُدر عليك ، فمحصوله مُتجدِّد كحدائق الفاكهة ، والزرع يكون ببذْر الحبِّ ، أمّا الغرس فنبتة سبق إعدادها تُغرس .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ .. ⑨ ﴾ [الروم] فبعد أنْ أعطاهم مُقوِّمات الحياة وإمكانات المادة وطاقاتها ، وبعد أنْ جَنَوْا ثمارها لم يتركهم للمادة إنما أعطاهم إمكانات القيم والدين ، فأرسل لهم الرسل ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ .. ⑨ ﴾ [الروم] أي : الآيات الواضحات الدالة على صدْق الرسول في البلاغ عن ربه وهذه التي نسميها المعجزات .

وسبق أنْ ذكرنا أن كلمة الآيات تُطلَق على معانٍ ثلاثة : آيات كونية دالة على قدرة الصانع سبحانه كالشمس والقمر ، وآيات تُؤيِّد الرسل وتُثبت صدْقهم في البلاغ عن الله وهي المعجزات ، وآيات القرآن التي تحمل الأحكام والمنهج ، وكلها أمور واضحة بينة .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ⑨ ﴾ [الروم] نعم ، ما ظلمهم الله ؛ لأنه سبحانه أمدهم بمقوِّمات الحياة وإمكانات المادة ، ثم أمدهم بمقومات الروح والقيم ، فإنْ حادوا بعد ذلك عن منهجه سبحانه فما ظلموا إلا أنفسهم .

ثم نقول : كيف يتأتَّى الظلم من الله تعالى ؟ الظلم يقع نعم من الإنسان لأخيه الإنسان ؛ لأنه يحقد عليه ، ويريد أنْ يتمتع بما في يده ، فالظالم يأخذ حقَّ المظلوم الذي لا قدرةَ له على حماية حقه . فكيف إذن نتصور الظلم من الله - عز وجل - وهو سبحانه مالك كل شيء ، وغني عن كل شيء ؟ إذن : ما ظلمهم الله ، ولكن ظلموا أنفسهم حينما حادوا عن طريق الله ومنهجه .

﴿ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

الإساءة ضدها الإحسان ، وسبق أن قلنا : إن الإحسان : أن تترك الصالح على صلاحه ، أو أن تزيده صلاحاً ، ومثَّلْنا لذلك ببئر الماء الذى يشرب منه الناس ، فواحد يأتى إليه فيردمه أو يُلوث ماءه ، وآخر يبنى حوله سياجاً يحميه أو يجعل له آلة تُخرج الماء وتُريح الناس ، فهذا أحسن وذاك أساء ، فإذا لم تكُنْ محسناً فلا أقلَّ من أنْ تكفَّ إساءتك ، وتدع الحال على ما هو عليه .

والحق - سبحانه وتعالى - خلق الكون على هيئة الصلاح ، ولو تركناه كما خلقه ربه لَظلَّ على صلاحه ، إذاً لا يأتى الفساد إلا من تدخُّل الإنسان ؛ لذلك يقول سبحانه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة]

وينبغى على الإنسان أنْ يأخذ من ظواهر الكون ما يفيده ، أذكر أننا حينما سافرنا إلى مكة سنة ١٩٥٠ كنا ننتظر السَّقاء الذى يأتى لنا بقربة الماء ، ويأخذ أجرة حملها ، وكنا نضعها فى (البزان) وهو مثل (الزير) عندنا ، فإذا أراد أحدنا أن يتوضأ يأخذ من الماء كوزاً واحداً ويقول : نويت نية الاغتراف ، ولا يزيد فى وضوئه عن هذا الكوز ؛ لأننا نشترى الماء ، أما الآن فالواحد منا لا تكفيه (صفيحة) لكى يتوضأ من حنفية الماء . وفى ترشيد استعمال الماء ترشيد أيضاً للصرف الصحى وللمياه الجوفية التى تضر بالمبانى وبالتربة الزراعية .

لذلك يحذرنا النبي ﷺ من الإسراف في استعمال الماء حتى لو كنَّا على نهر جارٍ[1] .

فمعنى الذين أساءوا : أي الذي جاء إلى الصالح فأفسده أو أنشأ إفساداً جديداً ، وطبيعي أن تكون عاقبته من جنس فعْله ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ .. ⁽١٠⁾﴾ [الروم] والسُّوأى : مؤنث سيء مثل : حسن للمذكر ، وحُسْنى للمؤنث . وأصغر وصُغْرى ، فهي أفعل تفضيل من السُّوء .

ثم يقول سبحانه : ﴿ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ⁽١٠⁾﴾ [الروم] فالأمر لم يقف عند حَدِّ التكذيب بالآيات ، إنما تعدَّى التكذيب إلى الاستهزاء ، فما فلسفة أهل الاستهزاء حينما يستهزئون بالآخرين ؟ كثيراً ما نلاحظ أن التلميذ الفاشل يستهزئ بالمجتهد ، والمنحرف يستهزئ بالمستقيم ، لماذا ؟

لأن حظ الفاشل أنْ يزهد المجتهد في اجتهاده ، وحظ المنحرف أن يصير المستقيم منحرفاً مثله ، ومن هنا نسمع عبارات السخرية من الآخرين كما حكاها القرآن :

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ⁽٢٩⁾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ⁽٣٠⁾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ⁽٣١⁾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ⁽٣٢⁾﴾ [المطففين]

لكن لا تتعجل ، وانتظر عاقبة ذلك حينما يأخذ هؤلاء المؤمنون أماكنهم في الجنة ، ويجلسون على سُرُرها وأرائكها : ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ مرَّ بسعد وهو يتوضأ . فقال : ما هذا السرف ؟ فقال : أفي الوضوء إسراف ؟ قال : نعم وإن كنت على نهر جارٍ . أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٢١) ، وابن ماجه في سننه (٤٢٥) .

آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

والخطاب هنا للمؤمنين الذين تحملوا السخرية والاستهزاء فى الدنيا : أقدرنا أنْ نجازيهم على ما فعلوه بكم ؟

إذن : فلسفة الاستهزاء أن الإنسان لم يقدر على نفسه ليحملها على الفضائل ، فيغيظه كل صاحب فضيلة ، ويؤلمه أنْ يرى مستقيماً ينعم بعزِّ الطاعة ، وهو فى حمئة المعصية ؛ لذلك يسخر منه لعله ينصرف عما هو فيه من الطاعة والاستقامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾

هل بدأ الله الخلق بالفعل ، أم ما زال يبدأ الخلق ؟ الأسلوب هنا أسلوب ربٍّ يتكلم ، فهو سبحانه بدأ الخَلْق أصوله أولاً ، وما يزال خالقاً سبحانه ، وما دام هو الذى خلق بَدْءاً ، فهو الذى يعيد ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. (١١) ﴾ [الروم]

وفى أعراف البشر أن إعادة الشىء أهون من ابتدائه ؛ لأن الابتداء يكون من عدم ، أمّا الإعادة فمن موجود ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧) ﴾ [الروم] أى : بمقاييسكم وعلى قَدْر فَهْمكم ، لكن فى الحقيقة ليس هناك هيِّن وأهون فى حقه تعالى ؛ لأنه سبحانه لا يفعل بمزاولة الأشياء وعلاجها ، إنما بكُنْ فيكون ، لكن يخاطبنا سبحانه على قَدْر عقولنا .

فالحق سبحانه بدأ الخلق وما يزال سبحانه يخلق ، وانظر مثلاً

إلى الزرع تحصده وتأخذ منه التقاوى للعام القادم ، وهكذا فى دورة مستمرة بين بَدْء وإعادة ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ⑪ ﴾ [الروم]

وسبق أنْ ضربنا مثلاً بالوردة الغضَّة الطرية بما فيها من جمال فى المنظر والرائحة ، فإذا ما قُطفتْ جفَّتْ ، لأن المائية التى بها تبخرتْ ، وكذلك رائحتها ولونها انتشر فى الأثير ، ثم يتفتت الباقى ويصير تراباً ، فإذا ما زرعتَ وردة جديدة أخذت من المائية التى تبخرت ومن اللون ومن الرائحة التى فى الجو .

وهكذا تبدأ دورة وتنتهى أخرى ؛ لأن مُقوِّمات الحياة التى خلقها الله هى هى فى الكون ، لا تزيد ولا تنقص ، فالماء فى الكون كما هو منذ خلقه الله : هَبْ أنك شربت طوال حياتك عشرين طناً من الماء ، هل تحمل معك هذا الماء الآن ؟ لا إنما تَمَّ إخراجه على هيئة عرق وبول ومخاط وصماخ أذن .. الخ ، وهذا كله تبخَّر ليبدأ دورة جديدة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ⑪ ﴾ [الروم] نلحظ أن الكلام هنا عن الخَلْق ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ⑪ ﴾ [الروم] لكن انتقل السياق من المفرد إلى الجمع ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ⑪ ﴾ [الروم] ولم يقل يرجع أى : الخلْق ، فلماذا ؟

قالوا : لأن الناس جميعاً لا يختلفون فى بَدْء الخلق ولا فى إعادته ، لكن يختلفون فى الرجوع إلى الله ، فهذا مؤمن ، وهذا كافر ، هذا طائع ، وهذا عاصٍ ، وهذا بين بين ، ففى حال الرجوع إلى الله ستفترق هذه الوحدة إلى طريقين : طريق للسعداء ، وطريق للأشقياء ، لذلك لزم صيغة الإفراد فى البَدْء وفى الإعادة ، وانتقل إلى

الجمع فى الرجوع إلى الله لاختلافهم فى الرجوع .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

معنى ﴿ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الروم] أى : يسكتون سُكوتَ اليائس الذى لا يجد حجة ، فينقطع لا يدرى ما يقول ولا يجد مَنْ يدافع عنه ، حتى قادتهم وكبراؤهم قد سبقوهم إلى العذاب ، فلم يعُدْ لهم أمل فى النجاة ، كما قال تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود] ، ومن ذلك سُمِّى (إبليس) ؛ لأنه يئس من رحمة الله .

وفى موضع آخر يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام]

أى : لما نسوا منهج الله أراد سبحانه أن يعاقبهم فى الدنيا ، وحين يعاقبهم الله فى الدنيا لا يأخذهم على حالهم إنما يُرخى لهم العَنان ، ويُزيد لهم فى الخيرات ، ويُوسِّع عليهم مُتَع الدنيا وزخارفها ، حتى إذا أخذهم على هذه الحال كان أَخْذه أليماً ، وكانت سقطتهم من أعلى .

كما أنك مثلاً لا تُوقِع عدوك من على الحصيرة ، إنما ترفعه إلى أعلى ليكون الانتقام أبلغ ، أمّا إنْ أخذهم على حال الضِّيق والفقر ، فالمسألة إذن هيِّنة ، وما أقرب الفقر من العذاب !

ولنا ملحظ فى قوله تعالى ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ .. (٤٤) ﴾ [الأنعام] فمادة فتح إنْ أراد الحق سبحانه الفتح لصالح المفتوح عليه يقول ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) ﴾ [الفتح] وإن أراد الفتح لغير صالحه يقول ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ.. (٤٤) ﴾ [الأنعام] والفرق بيِّن بين المعنيين ، لأن اللام هنا للملك ﴿ فَتَحْنَا لَكَ .. (١) ﴾ [الفتح] إنما على ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ ..(٤٤) ﴾ [الأنعام] فتعنى ضدهم وفى غير صالحهم ، كما نقول فى المحاسبة : له وعليه ، له فى المكسب وعليه فى الخسارة .

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ (١٣) ﴾

نعم ، لم يجدوا من شركائهم مَنْ يشفع لهم ؛ لأن الشركاء قد تبرأوا منهم ، كما قال سبحانه : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) ﴾ [البقرة]

وكذلك يقول التابعون : ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

وما أشبه هذين : التابع والمتبوع بتلميذين فاشلين تعوَّدا على اللعب وتضييع الوقت ، وشغَل كل منهما صاحبه عن دروسه ، وأغواه بالتسكّع فى الطرقات ، إلى أنْ داهمهما الامتحان وفاجأتهما الحقيقة المرّة ، فراح كل منهما يلعن الآخر ويسبُّه ، ويلقى عليه بالمسئولية .

إذن : ساعة الجد تنهار كل هذه الصلات الواهية ، وتتقطع كل الحبال التى تربط أهل الباطل فى الدنيا ﴿ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) ﴾ [الروم] ولِمَ لا وقد تكشفتْ الحقائق ، وظهر زيفهم وبان ضلالهم ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

أى : الذين اجتمعوا فى الدنيا على الشر وعلى الضلال يتفرقون يوم القيامة ، ويصيرون أعداءً وخصوماً بعد أنْ كانوا أخلاء ، فيمتاز المؤمنون فى ناحية والكافرون فى ناحية ، حتى العصاة من المؤمنين الذين لهم رائحة من الطاعة لا يتركهم المؤمنون ، إنما يشفعون لهم ويأخذونهم فى صفوفهم .

والتنوين فى ﴿ يَوْمَئِذٍ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الروم] بدل من جملة ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الروم] أى : يوم تقوم الساعة يتفرقون .

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

ما دام الخلق سيمتازون يوم القيامة ويتفرقون ، فلا بُدَّ أن نرى هذه القسمة : الذين آمنوا والذين كفروا ، وها هى الآيات تُرينا هذا التفصيل : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الروم] فما جزاؤهم ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الروم] الروضة : هى المكان الملىء بالخضرة والأنهار والأشجار والنضارة ، وكانت هذه عادة نادرة عند العرب ؛ لأنهم أهل صحراء تقلُّ فى بلادهم الحدائق والرياض .

لذلك ، فالرياض والبساتين عندهم شىء عظيم ونعمة كبيرة . ومعنى ﴿ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الروم] من الحبور[1] ، وهو الفرحة حينما

(١) قال الضحاك وابن عباس : يُكرمون . وقيل : ينعمون . قاله مجاهد وقتادة . والحبرة عند العرب : السرور والفرح . ذكره الماوردى . وقال الأوزاعى : إذا أخذ أهل الجنة فى السماع لم تبق شجرة فى الجنة إلا وردَتْ الغناء بالتسبيح والتقديس . [تفسير القرطبى ٧/٥٢٦٨] .

يظهر عليك أثر النعمة ، هذا عن المؤمنين ، فماذا عن الكافرين ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ(١) ﴿١٦﴾ ﴾

المحضر بالفتح : الذى يحضره غيره ، ولا تُقَال إلا فى الشر ، وفيها ما يدلُّ على الإدانة ، وإلا لحضر هو بنفسه ، ونحن نفزع لسماع هذه الكلمة ؛ لأن المحضر لا يأتيك إلا لشر ، كذلك حال الكفار والمكذِّبين يوم القيامة تجرُّهم الملائكة ، وتجبرهم ، وتسوقهم للحضور رَغْماً عنهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

هنا تتجلى عظمة الإيمان ، وتتجلى محبة الله تعالى لخَلْقه ، حيث يدعوهم إليه فى كل أوقات اليوم والليلة ، فى الصباح وفى المساء ، فى العشية والظهيرة .

والحق سبحانه حين يطلب من عباده أن يؤمنوا به ، إنما لحبه لهم ، وحرصه عليهم ليعطيهم ، ويفيض عليهم من آلائه ، وإلا فهو سبحانه بصفات الكمال والجلال غنيٌّ عنهم ، فإيمان المؤمنين لا يزيد

(١) محضرون : مقيمون . وقيل : مجموعون . وقيل : مُعذَّبون . وقيل : نازلون . والمعنى متقارب . [تفسير القرطبى ٥٢٦٩/٧] .

في مُلْكه سبحانه شيئاً ، كذلك كُفْر الكافرين لا ينقص من مُلكه سبحانه شيئاً .

إذن : المسألة أنه سبحانه يريد أنْ يبرَّ صنعته ، ويُكرم خَلْقه وعباده ؛ لذلك يستدعيهم إلى حضرته ، وقرَّبنا هذه المسألة بمثل - ولله تعالى المثل الأعلى - ، قلنا : إذا أردتَ أنْ تقابل أحد العظماء ، أو أصحاب المراكز العليا ، فدون هذا اللقاء مشاقّ لا بُدَّ أنْ تتجشمها .

لا بُدَّ أن يُؤْذَن لك أولاً في اللقاء ، ثم يُحدَّد لك الزمان والمكان ، بل ومدة اللقاء وموضوعه ، وربما الكلمات التي ستقولها ، ثم هو الذي يُنهي اللقاء ، لا أنت .

هذا إنْ أردتَ لقاء الخَلْق ، فما بالك بلقاء الخالق عز وجل ؟ يكفي أنه سبحانه يستدعيك بنفسه إلى حضرته ، ويجعل ذلك فرضاً وحتماً عليك ، ويطلبك قبل أنْ تطلبه ، ويذكرك قبل أن تذكره ، لا مرة واحدة ، إنما خمس مرات في اليوم والليلة ، فإذا لبَّيْتَ طلبه أفاض عليك من رحمته ، ومن نعمه ، ومن تجلياته ، وما بالك بصنعة تُعرَض على صانعها خمس مرات كل يوم ، أيصيبها عطب ؟

ثم يترك لك ربك كل تفاصيل هذه المقابلة ، فتختار أنت الزمان والمكان والموضوع ، فإنْ أردتَ أنْ تطيل أمد المقابلة ، فإن ربك لا يملّ حتى تمل ؛ لذلك فإن أهل المعرفة الذين عرفوا لله تعالى قَدْره ، وعرفوا عطاءه ، وعرفوا عاقبة اللجوء إليه سبحانه يقولون :

حَسْبُ نفسي عِزاً بأنّي عَبْدٌ   يَحْتَفِي بي بلاَ مَوَاعِيدَ رَبّ
هُوَ في قُدْسِه الأعزّ ولكن   أنا ألقى كيفما وأين أحب

والعبودية كلمة مكروهة عند البشر ؛ لأن العبودية للبشر ذُلٌّ

ومهانة ، حيث يأخذ السيد خير عبده ، أمّا العبودية لله فهى قمة العزِّ كله ، وفيها يأخذ العبد خير سيده ؛ لذلك امتنّ الله تعالى على رسوله ﷺ بهذه العبودية فى قوله سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ①﴾ [الإسراء]

وكلمة ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ .. ⑰﴾ [الروم] هى فى ذاتها عبادة وتسبيح لله تعنى : أُنزِّه الله عن أنْ يكون مثله شىء ؛ لذلك يقول أهل المعرفة : كل ما يخطر ببالك فالله غير ذلك ؛ لأنه سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ⑪﴾ [الشورى]

فالله سبحانه مُنزَّه فى ذاته ، مُنزَّه فى صفاته ، مُنزَّه فى أفعاله ، فإنْ وجدنا صفة مشتركة بين الخَلْق والخالق سبحانه نفهمها فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ⑪﴾ [الشورى]

وقلنا : إنك لو استقرأتَ مادة سبح ومشتقاتها فى كتاب الله تجد فى أول الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ①﴾ [الإسراء] وفى أول سورة الحديد : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. ①﴾ [الحديد] ثم ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. ①﴾ [الجمعة]

فكأن الله تعالى مُسبَّح أزلاً قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّحه ، فالتسبيح ثابت لله أولاً ، وبعد ذلك سبَّحَتْ له السماوات والأرض ، ولم ينقطع تسبيحها ، إنما ما زالت مُسبِّحة لله .

فإذا كان التسبيح ثابتاً لله تعالى قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّحه ، وحين خلق السماوات والأرض سبَّحتْ له السماوات والأرض وما زالت ، فعليك أنت أيها الإنسان ألاَّ تشذَّ عن هذه القاعدة ، وألاَّ تتخلف عن هذه المنظومة الكونية ، وأن تكون أنت كذلك مُسبِّحاً ؛ لذلك جاء فى القرآن : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ①﴾ [الأعلى]

فاستح أنت أيها الإنسان ، فكل شيء في الوجود مُسبِّح ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

لكن أراد بعض العلماء أنْ يُقرِّب تسبيح الجمادات التى لا يسمع لها صوتاً ولا حسّاً ، فقال : إن تسبيحها تسبيح دلالة على الله . ونقول : إنْ كانَ تسبيحَ دلالة كما تقول فقد فهمته ، والله يقول ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

إذن : ففهمُك له غير حقيقى ، وما دام أن الله أخبر أنها تُسبِّح فهى تسبِّح على الحقيقة بلغة لا نعرفها نحن ، ولمَ لا والله قد أعطانا أمثلة لأشياء غير ناطقة سبَّحتْ ؟ ألم يقُلْ عن الجبال أنها تُسبِّح مع داود عليه السلام : ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِي[1] مَعَهُ وَالطَّيْرَ .. (١٠) ﴾ [سبأ] ألم يُثبت للنملة وللهدهد كلاماً ومنطقاً ؟ وقال فى عموم الكائنات : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور]

إذن : فالتسبيح لله تعالى من كل الكائنات ، والحق سبحانه يعطينا المثَل فى ذواتنا : فأنت إذا لم تكُنْ تعرف الإنجليزية مثلاً ، أتفهم مَنْ يتكلم بها ؟ وهى لغة لها أصوات وحروف تُنطق ، وتسمعها بنفس الطريقة التى تتكلم أنت بها .

لذلك تأتى كلمة (سبحان الله) فى الأشياء التى يجب أنْ تُنزه الله فيها ، واقرأ إنْ شئتْ قوله تعالى فى الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الإسراء] كأنه سبحانه يقول لنا : نزِّهوا الله عن مشابهة البشر ، وعن قوانين البشر فى هذه المسألة ، إياك أنْ تقول : كيف ذهب محمد من مكة إلى بيت المقدس ، ثم يصعد إلى السماء ، ويعود فى ليلة واحدة .

---

(١) أوِّبى : ردِّدى الذكر والتسبيح مع داود . [القاموس القويم ١/ ٤٢] .

فبقانون البشر يصعُب عليك فَهْم هذه المسألة ، وهذا ما فعله كفار مكة حيث قالوا : كيف ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً[1] ، وتدَّعى أنك أتيتها فى ليلة ؟ فقاسوا المسألة والمسافات على قدرتهم هم ، فاستبعدوا ذلك وكذَّبوه .

ولو تأملوا الآية ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ① ﴾ [الإسراء] وهم أهل اللغة لَعرفوا أن الإسراء لم يكُنْ بقوة محمد ، فلم يقُلْ أسريتُ ، ولكن قال « أُسرِى بى » ، فلا دخلَ له فى هذه المسألة وقانونه فيها مُلْغى ، إنما أُسرِى بقانون مَنْ أسرى به .

إذن : عليك أن تُنزه الله عن قوانينك فى الزمان وفى المسافة ، وإنْ أردتَ أن تُقرب هذه المسألة للعقل ، فالمسافة تحتاج إلى زمن يتناسب مع الوسيلة التى ستقطع بها المسافة ، فالذى يسير غير الذى يركب دابةً ، غير الذى يركب سيارة أو طائرة أو صاروخاً وهكذا .

فإذا كان فى قوانين البشر : إذا زادت القوة قَلَّ الزمن ، فكيف لو نسَبْتَ القوة إلى الله عز وجل ؟ عندها نقول : لا زمن فإنْ قُلْتَ : إن ألغينا الزمن مع قوة الله وقدرته تعالى ، فلماذا ذكر الزمن هنا وقُدِّر بليلة ؟

قالوا : لأن الرحلة لم تقتصر على الذهاب والعودة ، إنما تعرَّض فيها النبى ﷺ لَمَراء كثيرة ، وقابل هناك بعض الأنبياء ، وتحدَّث معهم ، فهذه الأحداث لرسول الله هى التى استغرقتْ الزمن ، أمّا الرحلة فلم تستغرق وقتاً .

---

(١) أورد ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٩٨) « أن أكثر الناس فى قريش قالوا : هذا والله الإمْر البين ، والله إن العير لتُطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة ، وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة » .

كذلك جاءت كلمة (سبحان) في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس] لماذا ؟ لأن مسألة الخَلْق من المسائل التى يقف عندها العقل ، وينبغى أنْ نُنزِّه الله عن أنْ يشاركه فيها أحد .

ولما نزلت هذه الآية كان الناس يعرفون الزوجية فى النبات لأنهم كانوا يُلقِّحون النخل ، ويعرفونها فى الإنسان ؛ لأنهم يتزوجون وينجبون ، وكذلك يعرفونها فى الحيوان ، هذه حدود العقل فى مسألة الزوجية .

لكن الآية لم تقتصر على ذلك ، إنما قال سبحانه ﴿ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس] لأن المستقبل سيكشف لهم عن أشياء أخرى تقوم على نظرية الزوجية ، وقد عرفنا نحن هذه النظرية فى الكهرباء مثلاً حيث (السالب) و (الموجب) ، وفى الذرات حيث (الإلكترونات) ، و (البروتونات) .. الخ .

إذن : ساعةَ تسمع كلمة التسبيح فاعلم أنك ستستقبل حدثاً فريداً ، ليس كأحداث البشر ، ولا يخضع لقوانينهم .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) ﴾

نلحظ أن قوله تعالى ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٨) ﴾ [الروم] فصلَتْ بين الأزمنة المذكورة ، فجعلت ﴿ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) ﴾ [الروم] فى ناحية ، و ﴿ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) ﴾ [الروم] فى ناحية ، مع أنها جميعاً أوقات وأزمنة فى اليوم والليلة ، لماذا ؟

قالوا : لأنه سبحانه يريد أنْ يُشعرنا أن له الحمد ، ويجب أنْ

تحـمده على أنه مُنـزَّه عن المثـيل ؛ لأنها فـى مصلحـتك أنت ، وأنت الجانى لثمار هذا التنزيه ، فإنْ أرادك بخير فلا مثيلَ له سبحانه يمنعه عنك ، وله وحده الكبرياء الذى يحميك أن يتكبر أحد عليك ، وله وحده تخضع وتسـجد ، لا تسجد لغيـره ، فسجودك لوجـه ربك يكفيك كل الأوجه ، كما قال الشاعر :

فَالسُّجُودُ الذِى تَجْتويهِ[1] فيه ... مِنْ أُلُـوفِ السُّجُـودِ نَجَـاةُ

إذن : من مصلحـتك أن يكون الله تعالى هو الواحد الذى لا مـثيلَ له ، والقوى الذى لا يوجـد أقوى منه ، والمتكبِّر بحقٍّ ؛ لأن كـبرياءه يحمى الضعيف أنْ يتكبّر عليـه القوى ، يجب أنْ تحمد الله الذى تعبَّدنا بالسجود له وحـده ، وبالخضوع له وحده ؛ لأنه أنجـاك بالسجود له أنْ تسجـد لكل قوى عنك ، وهذا من عظمـته تعالى ورحـمتـه بخَلْقه ؛ لذلك تستوجب الحمد .

لذلك نقـول فى العامـية (اللى ملوش كـبيـر يشتـرى له كبـير) لماذا ؟ لأنه لا يعيش عزيزاً مُكرّماً إلا إذا كان له كبير يحميه ، ويدافع عنه ، كذلك أنت لا تكون عزيزاً إلا فى عبوديتك لله .

والخَلْق جمـيعاً بالنسـبة لله تعالـى سواء ، فليس له سبـحانه من عبـاده ولد ولا قريب ، فـلا مؤثرات تؤثر عـليه ، فيـحابى أحـداً على أحد . فنحن جميعـاً شركة فـى الله ؛ لذلك يقول سبـحانه ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن] أى : لا شـىء يؤثر عليه سبحانه .

وقال بعـد التسـبيح ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ .. ۝١٨﴾ [الروم] لأن التسـبيح

---

(١) الاجتواء : عدم موافـقة الشىء للإنسان فتحدث كراهية له ، ومنهـا اجتويت البلد إذا كرهت المقام فيه ، وإن كنت فى نعمة . [لسان العرب ـ مادة : جوى] .

ينبغي أنْ يُتبَع بالحمد فتقول : سبحان الله والحمد لله ، أي : الحمد لله على أنني سبَّحت مسبَّحاً .

وحين نتأمل هذه الأوقات التي أمرنا الله فيها بالتسبيح ، وهي المساء والصباح والعشي ، وهي من العصر إلى المغرب . ثم الظهيرة نجد أنها أوقات عامة سارية في كَوْن الله لا تنقطع أبداً ، فأيّ صباح وأيّ مساء ؟ صباحي أنا ؟ أم صباح الآخرين ؟ مسائي أم مساء غيري في أقصى أطراف المعمورة ؟

إن المتأمل في دورة الوقت يجد أن كل لحظة فيه لا تخلو من صباح ومساء ، وعشية وظهيرة ، وهذا يعني أن الله تعالى مُسبَّح معبود في كل لحظة من لحظات الزمن .

وفي ضوء هذا نفهم قول الرسول ﷺ : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل »[1] فالكون لا يخلو في لحظة واحدة من ليل أو نهار ، وهذا يعني أن يد الله سبحانه مبسوطة دائماً لا تُقبَض : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ .. (٦٤) ﴾ [المائدة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) ﴾

أولاً : ما مناسبة الحديث عن البعث ، وإخراج الحيّ من الميت ، وإخراج الميت من الحيّ بعد الحديث عن تسبيح الله وتحميده ؟ قالوا :

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

لأنه تكلَّم عن المساء والصباح ، وفيهما شبه بالحياة والموت ، ففى المساء يحلُّ الظلام ، ويسكُن الخَلْق وينامون ، فهو وقت للهدوء والاستقرار ، والنوم الذى هو صورة من صور الموت ؛ لذلك نسميه الموت الأصغر ، وفى الصباح وقت الحركة والعمل والسعى على المعاش ، ففيه إذن حياة ، كما يقول سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ ﴾ [النبأ]

ويُمثَّل الموت والبعث بالنوم والاستيقاظ منه ، كما جاء فى بعض المواعظ : « لتموتُن كما تنامون ، ولتُبعثُنَّ كما تستيقظون » .

وما دُمْنا قد شاهدنا الحالَيْنِ ، وعاينّا النوم واليقظة ، فلنأخذ منهما دليلاً على البعث بعد الموت ، وإنْ أخبرنا القرآن بذلك ، فعلينا أنْ نُصدِّق ، وأنْ نأخذ من المشاهد دليلاً على الغَيْب ، وهذا ما جاءتْ به الآية :

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .. ۝١٩ ﴾ [الروم]

وقوله تعالى هنا (الحى والميت) أى : فى نظرنا نحن وعلى حَدِّ علْمنا وفَهمنا للأمور ، وإلا فكُلُّ شىء فى الوجود له حياة تناسبه ، ولا يوجد موت حقيقى إلا فى الآخرة التى قال الله فيها : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. ۝٨٨ ﴾ [القصص]

فضدُّ الحياة الهلاك بدليل قوله تعالى : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. ۝٤٢ ﴾ [الأنفال]

وما دام كلُّ شىء هالكاً إلا وجهه تعالى ، فكل شىء بالتالى حَىٌّ ، لكنه حى بحياة تناسبه . وأذكر أنهم كانوا يُعلِّموننا كيفية عمل

المغناطيس وانتـقال المغناطيسـية من قطعة مُمغنطـة إلى قطعة أخرى بالدَّلْك فى اتجـاه واحـد ، وفعـلاً شـاهدنا أن قطعة الحـديد تكتـسب المغناطيسية .

وتسـتطيع أنْ تجذب إلـيهـا قطعة أخـرى ، أليس هذا مظهـراً من مظاهر الحيـاة ؟ أليست هذه حركـة فى الجماد الذى نراه نحن جـماداً لا حيـاةَ فيـه ، وهو يؤثر ويتأثر بغـيره ، وفـيه ذرات تتحـرك بنظام ثابت ولها قانون .

إذن : نقـول لكل شىء مـوجـود حـيـاته الخـاصـة به ، وإنْ كُنَّا لا ندركها ؛ لأننا نفهم أن الحياة فى الأحياء فحسب ، إنما هى فى كل شىء وكَوْنك لا تفقه حياة هذه الأشياء ، فهذه مسألة أخرى .

لذلك سـيدنا سليمـان ـ عليه السـلام ـ لمـا سمع كـلام النملة ، وكيف أنها تفهم وتقف ديدباناً لقبيلتهـا ، وتفهم حركة الجيش وعاقبة الوقوف فى طريقه ، فتـحذر جماعتها ادخلوا مـساكنكم ، وكيف كانت واعية ، وعادلة فى قولها .

﴿ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل] فهى تعلم أن الجيش لو حطَّم النمل ، فـهذا عن غير مقـصد منهم ، وعندها أحسَّ سليمان بنعـمة الله عليه بأنْ يعلم ما لا يعلمـه غيره من الناس ، فقال ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي[1] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. (١٩) ﴾ [النمل]

فمعنى ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ .. (١٩) ﴾ [الروم] أى : فى عُرْفنا نحن ، وعلى قَدْر فَهْمنا للحياة وللموت ، والبعض يقول : يعنى يُخرِج

(١) معـنى أوزعنى : ألهمنى وأوْلعْنى به . وتـأويله فى اللغة : كُفَّنى عن الأشيـاء إلا عن شكر نعمتك ، وكُفَّنى عما يباعدنى عنك . [لسان العرب ـ مادة : وزع] .

البيضة من الدجاجة ، ويُخرِج الدجاجة من البيضة ، وهذا الكلام لا يستقيم مع منطق العقل ، وهل كل بيضة بالضرورة تُخرِج دجاجة ؟ لا بل لا بُدَّ أنْ تكون بيضة مُخصَّبة . إذن : لا تقُلْ البيضة والدجاجة ، ولكن قُلْ يُخرج الحى من الميت من كل شيء موجود .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .. ⑲ ﴾ [الروم] وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ .. ⑨⑤ ﴾ [الأنعام] فأتى باسم الفاعل (مُخْرِج) بدلاً من الفعل المضارع .

لذلك وقف عندها المشككون فى أسلوب القرآن ، يقولون : إنْ كانت إحداهما بليغةً ، فالأخرى غير بليغة ، وهذا منهم نتيجة طبيعية لعدم فَهْمهم للغة القرآن ، وليستْ لديهم الملَكة العربية التى تستقبل كلام الله .

وهنا نقول : إن الذى يتكلم ربٌّ يعطى لكل لفظة وزنها ، ويضع كل كلمة فى موضعها الذى لا تُؤدِّيه كلمة أخرى .

فقوله تعالى ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ .. ⑲ ﴾ [الروم] هذه فى مصلحة مَنْ ؟ فى مصلحتنا نحن ؛ لأن الإنسان بطَبْعه يحب الحياة ، وربما استعلى بها ، واغترَّ بهذا الاستعلاء ، كما قال ربنا : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ⑥ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ⑦ ﴾ [العلق]

لذلك يُذكِّره ربه تعالى بالمقابل : فأنا كما أُخرِج الحيَّ من الميت أُخرِج الميت من الحيِّ فانتبه ، وإياك أنْ تتعالى أو تتكبَّر ، وافهم أن الحياة موهوبة لك من ربك يمكن أنْ يسلبها منك فى أىِّ لحظة .

وعبَّر عن هذا المعنى مرة بالفعل المضارع (يُخرِج) الدالّ على

الاستمرار والتجدُّد ، ومرة باسم الفاعل (مُخرِج) الدال على ثبوت الصفة وملازمتها للموصوف ، لا مجرد حدث عارض .

لذلك تأمل قول الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً .. ② ﴾ [الملك] وفى نظرنا أن الحياة تسبق الموت ، لكن الحق سبحانه يريد أن يقتل فى الإنسان صفة الاغترار بالحياة ، فجعله يستقبل الحياة بما يناقضها ، فقال ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. ② ﴾ [الملك] فقدَّم الموت على الحياة ، فقبل أنْ تفكر فى الحياة تذكَّر الموت حتى لا تغترّ بها ولا تَطْغى .

ويتجلى هذا المعنى أيضاً فى سورة الواقعة : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ⑤⑧ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ⑤⑨ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ⑥⓪ ﴾ [الواقعة]

يعنى : خذوا بالكم ، وافهموا أننى واهب الحياة ، وأستطيع أنْ أسلبها فلا تغترَّ بها ولا (تتفرعن) ، وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يَدُكَّ فى الإنسان صفة الكبرياء والتعالى ، فيُحدث هذه المقابلة دائماً بين ذكْر الموت وذِكْر الحياة فى آيات القرآن الكريم .

ثم ألاَ ترى أن الخالق سبحانه لم يجعل للموت سبباً من أسباب العمر والسنين ، فواحد يموت قبل أنْ يُولَد ، وواحد يموت بعد يوم أو بعد شهر ، وآخر يموت بعد عدة أعوام ، وآخر بعد مائة عام .

إذن : مسألة لا ضابط لها إلا أقدار الله وأجله الذى أجَّله سبحانه ، وفى هذا إشارة للإنسان : احذر فقد تُسلَب منك الحياة التى ينشأ منها غرورك فى أىِّ لحظة ، ودون أنْ تدرى ودون سابق إنذار أو مقدمات ، فاستقِمْ إذن على منهج ربك ، ولا تجترىء على

المعصية ؛ لأنك قد تموت قبل أنْ تتدارك نفسك بالتوبة .

لذلك يقولون : إن الحق سبحانه حين أبهم وقت الموت بيَّنه بالإبهام غايةَ البيان ، كيف ؟ قالوا : لأنه سبحانه لو حدَّد لك موعد الموت لكنتَ تستعد له قبل أوانه ، إنما حين أبهمه جعلك تستعدّ له كل لحظة من لحظات حياتك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .. (١٩) ﴾ [الروم] وفي موضع آخر : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ﴾ [الحج]

فالأرض كانت ميتة هامدة جامدة جرداء ، لا أثَر فيها لحياة ، فلما نزل عليها الماء وسقاها المطر تحركتْ وأنبتتْ من كل زوج بهيج ، فهي نموذج حيٌّ مُشَاهد للخَلْق وللحياة .

وفي آية أخرى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً .. (٦٣) ﴾ [الحج] فهل اخضرتْ الأرضُ ساعةَ نزل عليها المطر ؟ لا ، إنما بعد فترة ، كأنه سبحانه يقول لك : لاحظ الحدث ساعة يوجد ، واستحضر صورته ، فبعد نزول الماء ترى الأرض تخضرّ تدريجياً ، وإنْ لم تبذر فيها شيئاً ، ففيها بذور شتَّى حملتْها الرياح ، ثم استقرتْ في التربة ولو لسنوات طوال تظل صالحة للإنبات تنتظر الماء لتؤدي مهمتها .

والذي عاش في الصحراء يشاهد هذه الظاهرة ، وقد رأيناها في عرفة بعد أنْ نزل عليها المطر ، وعُدْنا بعد عدة أيام ، فإذا الأرض تكتسي باللون الأخضر . لذلك إياك أن تظن أن كل زرع زرعه الإنسان ، وإلاَّ فمنْ أين جاءت أول بذرة زرعها الإنسان . إذن : هناك زراعات لا دخلَ للإنسان بها .

ولنقرأ قصة مريم عليها السلام : ﴿يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران] فالاصطفاء الأول لم يقُلْ على مَنْ . فالمعنى : اصطفاك على الخَلْق جميعاً ، بأن طَهَّرك وجعلك صالحة تقية قوَّامة ... الخ .

أما الاصطفاء الآخر فليس على الخَلْق جميعاً ، إنما على النساء ؛ لأنها تفردتْ عن نساء العالمين بأنْ تلدَ بغير ذكورة .

والشاهد الذى نريده هنا أن يوسف النجار لما لاحظ على مريم علامات الحمل وهو يعلم مَنْ هى مريم ، وأنها لم تفارق المحراب طوال عمرها ، فلم يردْ على ذهْنه المعنى الثانى ، ويريد أن يستفهم عَمَّا يراه ، فسألها بأدب : يا مريم ، أتوجد شجرة بدون بذرة ؟ فقالت وقد لقَّنها الحق سبحانه : نعم ، الشجرة التى أنبتت أول بذرة .

إذن : الحق سبحانه يمتنُّ علينا بالشىء ، ثم يُذكِّرنا بقدرته تعالى على سلْبه ، وعلى نقيضه حتى لا نغترَّ به ، ليس فى مسألة الموت والحياة فحسب ، إنما فى الزرع وفى الماء وفى النار ، واقرأ قوله تعالى :

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الواقعة]

ونلحظ فى الأداء القرآنى فى هذه الآيات الدقة فى استخدام لام التوكيد فى ﴿ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا.. (٦٥) ﴾ [الواقعة] فى الحديث عن الزرع ؛ لأن للإنسان دوراً فيه ، حيث يحرث ويغرس ويسقى ، وربما ظَنَّ لنفسه قدرة عليه .

لكن لما تحدَّث عن الماء ذكر فى نقضه ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا.. (٧٠) ﴾ [الواقعة] بدون توكيد ، لماذا ؟ لأن الماء لا دخلَ لأحد فيه ، ولا يدعيه أحد ، فلا أنت بخرتَ الماء ، ولا أنت أنزلتَ المطر ، لذلك قال ﴿ جَعَلْنَاهُ.. (٧٠) ﴾ [الواقعة] بدون توكيد .

أما عند ذكْر النار كنعمة من نعَم الله لم يذكر ما ينقضها ، فقال : ﴿ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) ﴾ [الواقعة] ولم يقُلْ مثلاً : لو نشاء لأطفأناها ، تُرى لماذا ؟ قالوا : لتظل النارُ ماثلة أمامنا على حال اشتعالها لا تخمد أبداً ، وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يُلوِّح بها لكل عاصٍ علَّه يعود إلى الجادّة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) ﴾ [الروم] كذلك : إشارة إلى ما سبق ذكْره من إحياء الأرض بعد موتها ، كمثْل ذلك تُخرجون وتُبعثون ، فمَنْ أنكر البعث فلينظر عملية إحياء الأرضَ الجامدة بالنبات بعد نزول المطر عليها .

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) ﴾

الكلام هنا عن بَدْء الخلق ، قال تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم.. (٢٠) ﴾ [الروم] بصيغة الجمع ، والمراد آدم ثم حواء ، ثم بثَّ الله منهما

رجالاً كثيراً ونساء ، فالعالم اليوم الذى يُعَدُّ بالمليارات حين تعود به إلى الماضى لا بُدَّ أنْ تعود إلى اثنين هما آدم وحواء ، فلما التقيا نشأ منهما النسل ، لكن هل نشأ النسل من أبعاض ميتة خرجتْ من آدم ، أم من أبعاض حيّة هى الحيوانات المنوية ؟

لو أن الحيوان المنوىّ كان ميتاً لما حدث الإنجاب . إذن : جاء أولاد آدم من ميكروب أبيهم آدم ، وانتشروا فى الأرض وأنجبوا ، وكل منهم يحمل ذرة من أبيه الأول آدم عليه السلام . وبالتالى فكُلٌّ منّا فيه ذرة حية من عهد آدم ، وحتى الآن لم يطرأ عليها فناء أبداً ، وهذا هو عَالَم الذَّرِّ الذى شهد خَلْق الله لآدم ، إنها أبعاضنا التى شهدتْ هذا العهد الأول بين الخَلْق والخالق سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

إذن : فى كل منّا الآن وحتى قيام الساعة ذرةٌ حيَّة من أبيه آدم ، هذه الذرة الحية هى التى شهدتْ هذا العهد ، وهى التى تمثل الفطرة الإيمانية فى كل نفس بشرية ، لكن هذه الفطرة قد تُطمس أو تُغلَّف بالغفلة والمعاصى .. الخ .

والحق - سبحانه وتعالى - أخبرنا أنه يخلق الأشياء ويُوجدها بكُنْ ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس] إلا الإنسان ، فقد بلغ من تكريمه أنْ سوَّاه ربه بيده ، وجعله خليفة له فى الأرض ، وتجلَّى عليه بصفات من صفاته ، فأعطاه من قدرته قدرةً ، ومن علْمه علْماً ، ومن حكمته حكمة ، ومن غنَاه غنىً .

وربنا سبحانه حينما يخلقنا هذا الخَلْق يريد منَّا أنْ نستعمل هذه الصفات التى وهبها لنا ، كما يستعملها هو سبحانه ، فالله تعالى بقدرته خلق لنا ما ينفعنا ، فعليك أنت بما وهبك الله من القدرة أنْ تعمل ما ينفع ، والله بحكمته رتَّبَ الأشياء ، فعليك بما لديْك من حكمة أنْ تُرتِّب الأشياء .. وهكذا .

ونشير إلى أن القدرة تختلف ، فقدرة تفعل لك ، وقدرة عُلْيا تجعلك تفعل بنفسك ، هَبْ أنك قابلتَ رجلاً ضعيفاً لا يَقْوَى على حَمْل متاعه مثلاً ، فتحمله أنت له ، فأنت إذن عدَّيْتَ إليه أثرَ قوتك ، إنما ظلَّ هو ضعيفاً .

أما الحق ـ تبارك وتعالى ـ فلا يُعدِّى أثر قوته إلى عبده فحسب ، إنما يُعدِّى له القدرة ذاتها ، فيُقوِّى الضعيف ؛ فيحمل متاعه بنفسه .

إذن : أعظم تكريم للإنسان أنْ يقول الخالق سبحانه : إننى خلقتُه بيدى فى قوله سبحانه لإبليس :

﴿ قَالَ يَـٰإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ .. (٧٥) ﴾ [ص]

ثم لك أيها الإنسان بعد هذا التكريم أنْ تكون كريماً على نفسك كما كرَّمك الله ، ولك أنْ تنزل بها إلى الحضيض ، فنفسك حيث تجعلها أنت .

يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٦) ﴾ [التين] فانظر لنفسك منزلة من المنزلتين .

وكلمة ﴿ مِّن تُرَابٍ .. (٢٠) ﴾ [الروم] أى : الأصل الذى خُلِق منه آدم ، والتراب مع الماء يصير طيناً ، فإنْ تعطَّن وتغيَّرَتْ رائحته فهو حمأ

مسنون ، فإنْ جَفَّ فهو صلصال كالفخار ، إذن : هذه هى العناصر التى وردت ومراحل خَلْقِ الإنسان ، وكلها مُسمَّيات للتراب ، وحالات طرأتْ عليه .

فإنْ جاء مَنْ يقول فى مسألة الخَلْق بغير هذا فلا نُصدّقه ؛ لأن الذى خلق الإنسان أخبرنا كيف خلقه ، أما هؤلاء فلم يشهدوا من خَلْق الإنسان شيئاً ، وهم فى نظر الدين مُضللون ، يجب الحذر من أفكارهم ؛ لأن الله تعالى يقول فى شأنهم :

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

وبالله لو لم يَخُضْ العلماء فى مسألة الخلق خلق الإنسان وخلق الشمس والقمر والأرض ... الخ . لو لم نسمع بنظرية داروين أكانت تصدُق هذه الآية ؟ وإلا لقالوا : أين المضللون الذين تكلَّم القرآن عنهم ؟ فهم إذن قالوا وطلعوا علينا بنظرياتهم ، يريدون أنْ يُكذِّبوا دين الله ، وأنْ يُشكِّكوا فيه ، وإذا بهم يقومون جميعاً دليلاً على صِدْقه من حيث لا يشعرون .

وعلى شاكلة هؤلاء الذين نسمعهم الآن ينكرون أحاديث النبى ﷺ ويُشككون فى صحتها ، هذه فى الحقيقة ظاهرة طبيعية جاءت لتثبت صدق رسول الله ؛ لأنه ﷺ لم يغفل هذه المسألة ، إنما أخبر عنها ونبهنا إليها ، وأعطانا المناعة اللازمة ـ الثلاثى الذى نسمع عنه من رجال الصحة .

يقول ﷺ : « يوشك رجل من أمتى يتكىء على أريكته يُحدَّث بالحديث عنى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألاَ وإنَّ ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) والترمذى فى سننه (٢٦٦٤) وابن ماجة فى سننه (١٢) والدارقطنى فى سننه (٢٨٦/٤) من حديث المقدام بن معديكرب رضى الله عنه .

لماذا ؟ لأن الله تعالى أعطاه تفويضاً فى أنْ يُشرِّع لأمته ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ۝ ﴾ [الحشر] فللرسول إيتاء ، وللرسول أمر ونهى يجب أنْ يُطاع بطاعتنا لله .

وتعالَ لمن ينكر السنة ويقول : علينا بالقرآن ـ عندما يصلى المغرب مثلاً واسأله : كم ركعة صليتَ المغرب ؟ سيقول : ثلاث ركعات ، فمن أين علم أن المغرب ثلاث ركعات ؟ أمن القرآن الذى يتعصَّب له ، أم من السنة التى يُنكرها . إذن : كيف يتعبد على قول رسول الله ثم ينكره ؟!

إذن : فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ بيَّن مراحل خَلْق الإنسان من تراب ، صار طيناً ، ثم صار حمأ مسنوناً ، ثم صلصالاً كالفخار ، ثم نفخ فيه الله من روحه ، ونحن لم نشاهد هذه المسألة ، إنما أخبرنا بها ، ومن رحمته تعالى بخَلْقه ، ولكى لا تحار عقولهم حينما تبحث هذه العملية يعطينا فى الكون المشَاهد لنا شواهد تُوضِّح لنا الغيب الذى لم نشاهده .

ففى أعرافنا أن هَدْم الشىء أو نَقْض البناء يأتى على عكس البناء، فما بُنى أولاً يُهْدَم آخراً ، وما بُنى آخراً يُهدَم أولاً ، وأنت لم تشاهد عملية الخَلْق ، لكن شاهدتَ عملية الموت ، والموت نَقْض للحياة .

ولك أنْ تتأملَ الإنسان حينما يموت ، فأول نَقْض لبنيته أنْ تخرج منه الروح ، وكانت آخر شىء فى بنائه ، ثم يتصلَّب الجسد ويتجمد ، كما كان فى مرحلة الصلصالية ، ثم يتعفَّن وتتغير رائحته ، كما كان فى مرحلة الحمأ المسنون ، ثم تمتص الأرض ما فيه من مائية ليصير إلى التراب كما بدأه خالقه من تراب ، إذن : صدق الله تعالى فى المشهد حين بيَّن لنا الموت ، فصدَّقنا ما قاله فى الحياة .

وكما أن التراب والطين هما أصل الإنسان فهما أيضاً مصدر

الخصْب والنساء ، ومخازن للقوت وهما مُقوِّم من مُقوِّمات حياتنا ؛ لذلك لما تكلم القرآن عن التراب قال سبحانه : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا .. ۝ ﴾ [فصلت] يعنى : فى الجبال لأنها أقرب مذكور أو فى الأرض عموماً ؛ لأن الرواسى فى الأرض ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ۝ ﴾ [فصلت]

فالقوت يأتينا من طينة الأرض ، ومن التراب الذى يتفتت من الجبال مُكوِّناً الطمى أو الغرْيَن الذى يحمله إلينا ماء المطر ، فالأرض هى أمنا الحقيقية ، منها خُلِقْنا ، ومنها مُقوِّمات حياتنا .

وعجيب أن نرى من العلماء غير المؤمنين مَنْ يثبت صدْق القرآن فى مسألة خَلْق الإنسان من طين حين حلَّلوا عناصر الأرض فوجدوها ستة عشر عنصراً هى نفسها التى وجدوها فى جسم الإنسان ، وكأن الحق سبحانه يُجنِّد مَنْ يثبت صدْق آياته ولو من الكفار .

وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. ۝ ﴾ [فصلت] . وفى القرآن آيات تدلّ على معادلات لو بحثها (الكمبيوتر) الآن لا بُدَّ أنْ نؤمن بأن هذا الكلام من عند الله وأنه صدْق .

تأمل ظاهرة اللغة ، وكيف نتكلم ونتفاهم ، فأنت إذا لم تتعلم الإنجليزية مثلاً لا تفهمها ؛ وكذلك هو لا يفهم العربية . لماذا ؟ لأن اللغة وليدة المحاكاة ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان ، وهى ظاهرة اجتماعية ، فلو عاش الإنسان وحده لما احتاج للغة ؛ لأنه سيفعل ما يطرأ على باله وفقط .

أمّا حين يعيش فى جماعة فلا بُدَّ له أن يتفاهم معهم ، يأخذ

منهم ويأخذون منه ، يسمع منهم ويسمعون منه ، حتى الأخرس لا بُدَّ له من لغة يتفاهم بها مع مَنْ حوله ، ويستخدم فعلاً لغة الإشارة ، وقد أقدره الله على فهمها .

والله سبحانه يُبقى للإنسان المتكلم دلالات الإشارة فى النفس الناطقة ، فمثلاً لو اضطررت للكلام وفى فمك طعام ، فإنك تشير لولدك أو لخادمك مثلاً ويفهم عنك ويفعل ما تريد .

إذن : فينا نحن الأسوياء بقايا خَرس نستعمله ، حينما لا يسعفنا النطق إذن : التفاهم أمر ضرورى ، واللغة وليدة المحاكاة ؛ لذلك نقول للولد الصغير : لا تخرج إلى الشارع ، لماذا ؟ حتى لا تسمع أذنه كلاماً قبيحاً فيحكيه هو .

إذن : كيف تعلمتُ اللغة ؟ تعلمتها من أبى ومن المحيط بى ، وتعلمها أبى من أبيه ، ومن المحيطين به ، وهكذا . ولك أن تسلسل هذه المسألة كما سلسلنا التكاثر فى الإنسان ، وسوف نعود بالتالى إلى أبينا آدم عليه السلام ، وعندها نقول : ومَنْ علَّم آدم اللغة ؟ يردُّ علينا القرآن : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة] هذا كلام منطقى استقرائى يدلُّ دلالة قاطعة على صدْق آيات القرآن .

وقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الروم] ثم : أى بعد أنْ خلقنا الله من تراب تكاثر الخَلْق وتزايدوا بسرعة ؛ لأن السياق استعمل هنا (إذا) الفجائية الدالة على الفجاءة ، والتى يُمثِّلون لها بقولهم : خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب ، يعنى : فاجأنى ، فالمعنى أنكم تتزايدون وتنتشرون فى الأرض بسرعة ، ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

قلنا : إن الآية هى الشيء العجيب الذى يقف عنده العقل مندهشاً دهشةً تُورث إعجاباً ، وإعجاباً يُورث يقيناً بحكمة الخالق . من هذه الآيات العجيبة الباهرة ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا.. (٢١)﴾ [الروم] يعنى : من جنسكم ونوعكم .

فلم يشأ سبحانه أنْ يحدث التكاثر مثلاً بين إنسان وبقرة ، لا إنما إنسان مع إنسان ، يختلف معه فقط فى النوع ، هذا ذكر وهذه أنثى ، والاختلاف فى النوع اختلاف تكامل ، لا اختلاف تعاند وتصادم ، فالمرأة للرقّة والليونة والحنان ، والرجل للقوة والخشونة ، فهى تفرح بقوته ورجولته ، وهو يفرح بنعومتها وأنوثتها ، فيحدث التكامل الذى أراده الله وقصده للتكاثر فى بنى الإنسان .

وعجيب أنْ يرى البعض أن الذكورة نقيض الأنوثة ، ويثيرون بينهما الخلاف المفتعل الذى لا معنى له ، فالذكورة والأنوثة ضرورتان متكاملتان كتكامل الليل والنهار ، وهما آيتان يستقبلهما الناس جميعاً ، هل نُجرى مقارنة بين الليل والنهار .. أيهما أفضل ؟ لذلك تأمل دقة الأداء القرآنى حينما جمع بين الليل والنهار ، وبين الذكر والأنثى ، وتدبّر هذا المعنى الدقيق :

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾ [الليل] أى : مختلف ، فلكُلٍّ منكما مهمته ، كما أن الليل للراحة ، والسكون والنهار للسعى والعمل ، وبتكامل سَعْيكما ينشأ التكامل الأعلى .

فلا داعى إذن لأنْ أطلب المساواة بالمرأة ، ولا أنْ تطلب المرأة المساواة بالرجل ، لقد صُدعت رءوسنا من هؤلاء المنادين بهذه المساواة المزعومة ، والتى لا معنى لها بعد قوله تعالى ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾ [الليل]

وعجيب أن نسمع من يقول ـ من الرجال ـ ينبغى للمرأة أن تحتل مكان الرجل ، وأنْ تؤدى ما يؤديه . ونقول : لا تستطيع أن تُحمِّل المرأة مهمة الرجل إلا إذا حمَّلْتَ الرجل مهمة المرأة ، فيحمل كما تحمل ، ويلد كما تلد ، ويُرضِع كما تُرضِع ، فدعونا من شعارات (البلطجية) الذين يهرفون بما لا يعرفون .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨) ﴾ [التوبة] أى : من جنسكم وبشريتكم ، فهو نفس لها كل طاقات البشر ، ليكون لكم أسوة ، ولو جاء الرسول ملَكاً لما تحققتْ فيه الأسوة ، ولَقُلْتم هذا ملَك ، ونحن لا نقدر على ما يقدر هو عليه . أو ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨) ﴾ [التوبة] يعنى : من العرب ومن قريش .

والبعض[1] يرى أن ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨) ﴾ [التوبة] يعنى : خلْق حواء من ضلع آدم ، فهى من أنفسنا يعنى : قطعة منا ، لكن الكلام هنا ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨) ﴾ [التوبة] مخاطب به الذكر والأنثى معاً ، كما أن الأزواج تُطلق عليهما أيضاً ، على الرجل وعلى المرأة ، والبعض يفهم أن الزوج يعنى اثنين ، لكن الزوج مفرد معه مثله ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٣) ﴾ [الرعد]

وفى الماضى كنا نعتقد أن نوع الجنين إنما يتحدد من ماء الرجل وماء المرأة ، لكن القرآن يقول غير ذلك : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ﴾ [القيامة] فماء المرأة لا دخلَ له فى نوع الجنين ، ذكراً كان أم أنثى ، الذكورة والأنوثة يحددها ماء الرجل .

---

(١) قاله قتادة . المراد حواء خلقها الله من ضلع من أضلاع آدم . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥٢٧٢/٧) ، وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٤٩٠/٦) لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة . وأخذ به ابن كثير فى تفسيره (٤٢٩/٣) .

وهذا ما أثبته العلم الحديث ، وعلى هذا نقول ﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٢١) ﴾ [الروم] يعنى : من ذكور الأزواج[1] ، خلق منك ميكروباً هو (الإكس أو الإكس واى) كما اصطلح عليه العلم الحديث ، وهو يعنى الذكورة والأنوثة .

وسبق أنْ ذكرنا فى هذه المسألة قصة أبى حمزة الرجل العربى الذى تزوج على امرأته ؛ لأنها لا تنجب البنين ، وهجرها لهذا السبب فقالت بما لديها من سليقة عربية ، وقَوْلُها دليل على علم العرب قديماً بهذه الحقيقة التى أثبتها العلم مؤخراً ، قالت :

مَا لأبى حَمْزةَ لاَ يأْتينَا غَضْبان ألاَّ نَلدَ البَنينَا
تَاللَّه مَا ذَلكَ فى أَيْدينَا ونحن كالأَرْضِ لِزَارِعينا
نُعطى لَهُمْ مثْل الذى أُعْطينَا

والحق سبحانه بهذا يَريد أن يقول : إننى أَريد خليفة متكاثراً ليعمر هذه الأرض الواسعة ، فإذا رأيتَ مكاناً قد ضاق بأهله فاعلم أن هناك مكاناً آخر خالياً ، فالمسألة سوء توزيع لخَلْق الله على أرض الله .

لذلك يقولون : إن سبب الأزمات أن يوجد رجال بلا أرض ، وأرض بلا رجال ، وضربنا مثلاً لذلك بأرض السودان الخصبة التى لا تجد مَنْ يزرعها ، ولو زُرِعَتْ لكفَت العالم العربى كله ، فى حين نعيش نحن فى الوادى والدلتا حتى ضاقتْ بنا ، فإنْ فكرت فى الهجرة إلى هذه الأماكن الخالية واجهتْك مشاكل الحدود التى قيدوا الناس بها ، وما أنزل الله بها من سلطان .

---

(١) أخذ بهذا الرأى القرطبى فى تفسيره (٥٢٧٣/٧) ، فقال : « ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (٢١) ﴾ [الروم] . أى : من نطف الرجال ومن جنسكم » وذكر قول قتادة بصيغة التمريض (بالميم) « قيل » . قال الشيخ أحمد شاكر فى كتابه « الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث » لابن كثير ـ ص ٣٤ ـ مطبعة صبيح : « صيغة الجزم ، قال ، وروى ، وجاء ، وعن » وصيغة التمريض (بالميم) نحو ، « قيل ، ورُوى عن ، ويُروى ، ويُذكر » ونحوها .

لذلك لما أُتيح لنا الحديث فى الأمم المتحدة قلت لهم : آية واحدة فى كتاب الله لو عملتم بها لَحلَّتْ لكم المشاكل الاقتصادية فى العالم كله ، يقول تعالى : ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ [الرحمن] فالأرض كل الأرض للأنام ، كل الأنام على الإطلاق .

واقرأ قوله تعالى فى هذه المسألة : ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. ﴿٩٧﴾﴾ [النساء] إذن : لا تعارض منهج الله وقدره فى أحكامه ، ثم تشكو الفساد والضيق والأزمات ، إنك لو استقرأتَ ظواهر الكون لما وجدتَ فساداً أبداً إلا فيما تتناوله يد الإنسان على غير القانون والمنهج الذى وضعه خالق هذا الكون سبحانه ، أما ما لا تتناوله يد الإنسان فتراه منضبطاً لا يختل ولا يتخلف .

إذن : المشاكل والأزمات إنما تنشأ حينما نسير فى كون الله على غير هدى الله وبغير منهجه ؛ لذلك تسمع مَنْ يقول : العيشة ضَنْك ، فلا يقفز إلى ذهنك عند سماع هذه الكلمة إلا مشكلة الفقر ، لكن الضنك أوسع من ذلك بكثير ، فقد يوجد الغنَى والترف ورَغَد العيش ، وترى الناس مع ذلك فى ضنك شديد .

فانظر مثلاً إلى السويد ، وهى من أغنى دول العالم ، ومع ذلك يكثر بها الجنون والشذوذ والعقد النفسية ، ويكثر بها الانتحار نتيجة الضيق الذى يعانونه ، مع أنهم أغنى وأعلى فى مستوى دخل الفرد .

فالمسألة ـ إذن ـ ليست حالة اقتصادية ، إنما مسألة منهج لله تعالى غير مُطبَّق وغير معمول به ، وصدق الله : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه]

لذلك لو عِشْنا بمنهج الله لوجدنا لذة العيش ولو مع الفقر .

وقوله تعالى : ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا.. (٢١)﴾ [الروم] هذه هي العلة الأصيلة في الزواج ، أي : يسكن الزوجان أحدهما للآخر ، والسكن لا يكون إلا عن حركة ، كذلك فالرجل طوال يومه في حركة العمل والسعي على المعاش يكدح ويتعب ، فيريد آخر النهار أن يسكن إلى مَنْ يريحه ويواسيه ، فلا يجد غير زوجته عندها السَّكَن والحنان والعطف والرقة ، وفي هذا السكَن يرتاح ويستعيد نشاطه للعمل في غد .

لكن تصور إنْ عاد الرجل مُتْعباً فلم يجد هذا السكن ، بل وجد زوجته ومحلّ سكنه وراحته تزيده تعباً ، وتكدَّر عليه صَفْوه . إذن : ينبغي للمرأة أنْ تعلم معنى السَّكَن هنا ، وأن تؤدي مهمتها لتستقيم أمور الحياة .

ثم إن الأمر لا يقتصر على السَّكَن إنما ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً.. (٢١)﴾ [الروم] المودة هي الحب المتبادل في (مشوار) الحياة وشراكتها ، فهو يكدح ويُوفر لوازم العيش ، وهي تكدح لتدبر أمور البيت وتربية الأولاد ؛ لأن الله يقول ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾ [الليل] هذا في إطار من الحب والحنان المتبادل .

أما الرحمة فتأتي في مؤخرة هذه الصفات : سكن ومودة ورحمة ، ذلك لأن البشر عامة أبناء أغيار ، وكثيراً ما تتغير أحوالهم ، فالقوي قد يصير إلى الضعف ، والغني قد يصير إلى فقر ، والمرأة الجميلة تُغيِّرها الأيام أو يهدّها المرض ... الخ .

لذلك يلفت القرآن أنظارنا إلى أن هذه المرحلة التي ربما فقدتم فيها السكن ، وفقدتُم المودة ، فإن الرحمة تسعكما ، فليرحم الزوج زوجته إنْ قَصُرت إمكاناتها للقيام بواجبها ، ولترحم الزوجة زوجها إنْ أقعده المرض أو أصابه الفقر .. الخ .

وكثيـر من كبار السن من الذين يتقون الله ويراعـون هذه التعاليم يعيشـون حياتهم الزوجية على هذا المـبدأ مبدأ الرحمـة ، لذلك حينما يُلمِّحون للمرأة التى أقعد المرض زوجها تقول : (أنا آكله لحم وأرميه عظم ؟) .

هذه هى المرأة ذات الدين الـتى تعيدنا إلى حـديث رسول الله فى اختيار الزوجة : « تُنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ـ وهذه كلها أغيار ـ ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك »[1] . فأنت وهى أبناء أغيار ، لا يـثبت أحد منكما على حالـه ، فيجب أنْ تردا إلى شىء ثابت ومنهج مـحايد لا هوى له ، يمـيل به إلى أحدكمـا ، منهج أنتما فيه سواء ، ولن تجدوا ذلك إلا فى دين الله .

لذلك يحـذرنا النبى ﷺ : « إذا جـاءكم مَنْ ترضـون دينه وخُلُقـه فزوِّجوه ، إلا تفعلوا تكُنْ فتنة فى الأرض وفساد كبير »[2] .

وإياك حين تكبر زوجتك أن تقول إنها لم تعد تملأ نظرى ، أو كذا وكـذا ، لأن الزوجة مـا جـعلها الله إلا سكنـاً لك وأنثى ووعاءً ، فـإذا هاجتْ غرائزك بطبيعتها تجـد مصـرفاً ، كما قال النبى ﷺ : « إذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته ـ أى : تعـجبه وتحرّك فى نفسه نوازع ـ فليأْتِ أهله ، فإنْ البُضْـع واحد »[3] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٢٨/٢) ، وأبو داود فى سننه (٢٠٤٧) ، وابن ماجة فى سننه (١٨٥٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٨٤) ، وابن ماجة فى سننه (١٩٦٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال البوصيرى فى الزوائد : « الحديث قد أخرجه الترمذى ورجح إرساله . ثم أخرجه من حديث أبى حاتم المزنىّ ، وقال فيه : إنه حسن » .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٣٣٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٨ ، ٣٩٥) ، وكـذا مسلم فى صـحيحه (١٤٠٣) من حديـث جابر رضى الله عنه أن رسـول الله ﷺ رأى امرأة فأتى امـرأته زينب ، فقضى حاجته ، ثم خرج إلى أصحـابه فقال : « إن المرأة تقبل فى صورة شيطان ، وتدبر فى صورة شيطان ، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله ، فإن ذلك يرد ما فى نفسه » .

وكلما طبَّق الزوجـان المقاييس الدينية ، وتحلَّيـا بآداب الدين وجد كل منهما فى الآخر ما يعجـبه ، فإنْ ذهب الجمال الظاهرى مع الزمن فـسيبقى جـمال الروح ووقـارها ، سيـبقى فى المـرأة جمـال الطبع والسلوك ، وكلما تذكرتَ إخـلاصها لك وتفانيها فى خدمـتك وحرْصـها على معـاشك ورعايتهـا لحرمة بيتك كلّمـا تمسكْت بها ، وازددتَ حـباً لها .

وكذلك الحال بـالنسبة للزوجة ، فلكل مـرحلة من العمر جاذبيـتها وجمالها الذى يُعوِّضنا ما فات .

ولما كان من طبـيعة المرأة أنْ يظهـر عليها علامات الكبَـر أكثر من الرجل ؛ لذلك كان على الرجل أنْ يراعى هذه المسـألة ، فلما سـأل أحدهم الحـسن : لقـد تقدم رجل يخـطب ابنتى وصفَـتـه كـيت وكيت ، قـال : لا تنكحها إلا رجلاً مؤمناً ، إنْ أحبها أكرمها ، وإنْ كرهها لم يظلمها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم] يتـفكرون فى هذه المـسـائل وفـى هذه المـراحل التى تمـرُّ بالحـيـاة الزوجيـة ، وكيف أن الله تعالى جعل لنا الأزواج من أنفـسنا ، وليستْ من جنس آخر ، وكيف بنى هذه العلاقة على السَّكَن والحب والمودة ، ثم فى مرحلة الكبَـر على الرحمـة التى يجب أنْ يتعايش بهـا الزوجان طيلة حياتهما معاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

فى خَلْق السموات والأرض آيات أظهرها لنا كما قال فى موضع آخر إنها تقوم على غير عمد : ﴿خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ⑩﴾ [لقمان]

فالسماء التى ترونْها على امتداد الأفق تقوم بغير أعمدة(1) ، ولكم أنْ تسيروا فى الأرض ، وأنْ تبحثوا عن هذه العُمد فلن تروْا شيئاً . أو ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا.. ⑩﴾ [لقمان] يعنى : هى موجودة لكن لا ترونها(2) .

والمنطق يقتضى أن الشىء العالى لا بُدَّ له إما من عُمُد تحمله من أسفل ، أو قوة تُمسكه من أعلى ؛ لذلك ينبغى أنْ نجمع بين الآيات لتكتمل لدينا هذه الصورة ، فالحق سبحانه يقول فى موضع آخر : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا .. ㊶﴾ [فاطر]

إذن : ليست للسماء أعمدة ، إنما يمسكها خالقها - عز وجل - من أعلى ، فلا تقع على الأرض إلا بإذنه ، ولا تتعجب من هذه المسألة ، فقد أعطانا الله تعالى مثالاً مُشَاهداً فى قوله سبحانه : ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ .. ㊾﴾ [النحل]

فإنْ قُلْت : يمسكها فى جو السماء حركة الجناحين ورفرفتها التى تحدث مقاومة للهواء ، فترتفع به ، وتمسك نفسها فى الجو ، نقول :

---

(1) قال الحسن وقتادة : ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية . [تفسير ابن كثير ٣/٤٤٢] وقال (٢/٤٩٩) : « قال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القبة يعنى : بلا عمد ، وكذا روى عن قتادة ، وهذا هو اللائق بالسياق والظاهر من قوله تعالى : ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. ㊺﴾ [الحج] » .

(2) قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد : لها عمد لا ترونها . (نقله ابن كثير فى تفسيره ٣/٤٤٢) وقال (٢/٤٩٩) : « روى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد انهم قالوا : لها عمد ولكن لا تُرى » .

وتُمسك أيضاً فى جو السماء بدون حركة الجناحين ، واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ .. ⟨١٩⟩﴾[الملك]

فترى الطير فى السماء مادّاً جناحيه ثابتاً بدون حركة ، ومع ذلك لا يقع على الأرض ولا يُمسكه فى جَوِّ السماء إذن إلا قدرة الله .

إذن : خُذْ مما تشاهد دليلاً على صدْق ما لا تشاهد ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ⟨٥٧⟩﴾ [غافر] مع أنها خُلقت لخدمة الإنسان .

فمع أنك أيها الإنسان مظهر من مظاهر قدرة الله ، وفيك انطوى العالم الأكبر ، إلا أن عمرك محدود لا يُعَدُّ شيئاً إذا قيسَ بعمر الأرض والسماء والشمس والقمر .. الخ .

ثم يعود السياق هنا إلى آية من آيات الله فى الإنسان : ﴿وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .. ⟨٢٢⟩﴾ [الروم] اللسان يُطلَق على اللغة كما قال تعالى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ⟨١٩٥⟩﴾ [الشعراء] وقال : ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ⟨١٠٣⟩﴾ [النحل]

ويُطلَق أيضاً على هذه الجارحة المعروفة ، وإنما أُطلق اللسان على اللغة ؛ لأن أغلبها يعتمد على اللسان وعلى النطق ، مع أن اللسان يُمثِّل جزءاً بسيطاً فى عملية النطق ، حيث يشترك معه فى النطق الفم والأسنان والشفتان والأحبال الصوتية .. الخ ، لكن اللسان هو العمدة فى هذه العملية . إذن : فاختلاف الألسنة يعنى اختلاف اللغات .

وسبق أنْ قُلْنا : إن اللغة ظاهرة اجتماعية يكتسبها الإنسان من البيئة المحيطة به ، وحين نسلسلها لا بُدَّ أنْ نصلَ بها إلى أبينا آدم عليه السلام ، وقلنا : إن الله تعالى هو الذى علَّمه اللغة حين علَّمه

الأسماء كلها ، ثم يتخذ آدم وذريته من بعده هذه الأسماء ليتفاهموا بها ، وليضيفوا إليها أسماء جديدة .

لذلك نرى أولادنا مثلاً حينما نريد أنْ نُعلِّمهم ونُرقِّيهم نُعلِّمهم أولاً أسماء الأشياء قبل أنْ يتعلموا الأفعال ؛ لأن الاسم أظهر ، ألاَ ترى أن الفعْل والحدث يدل عليه باسم ، فكلمة (فِعْل) هى ذاتها اسم .

لكن ، كيف ينشأ اختلاف اللغات ؟ لو تأملنا مثلاً اللغة العربية نجدها لغة واحدةً ، لكن بيئاتها متعددة : هذا مصرى ، وهذا سودانى ، وهذا سورى ، مغربى ، عراقى ... الخ نشترك جميعاً فى لغة واحدة ، لكن لكل بيئة لهجة خاصة قد لا تُفهَم فى البيئة الأخرى ، أما إذا تحدَّثنا جميعاً باللغة العربية لغة القرآن تفاهم الجميع بها .

أما اختلاف اللغات فينشأ عن انعزال البيئات بعضها عن بعض ، هذا الانعزال يؤدى إلى وجود لغة جديدة ، فمثلاً الإنجليزية والفرنسية والألمانية و ... الخ ترجع جميعها إلى أصل واحد هو اللغة اللاتينية ، فلما انعزلتْ البيئات أرادتْ كل منها أن يكون لها استقلالية ذاتية بلغة خاصة بها مستقلة بألفاظها وقواعدها .

أو ﴿ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ.. (٢٢) ﴾ [الروم] يعنى : اختلاف ما ينشأ عن اللسان وغيره من آلات الكلام من أصوات مختلفة ، كما نرى الآن فى آخر صيحات علم الأصوات أنْ يجدوا للصوت بصمة تختلف من شخص لآخر كبصمة الأصابع ، بل بصمة الصوت أوضح دلالة من بصمة اليد .

ورأينا لذلك خزائن تُضْبط على بصمة صوت صاحبها ، فساعة يُصدر لها صوتاً تفتح له .

ومن العجيب والمدهش فى مجال الصوت أن المصوِّتات كثيرة

منها : الجماد كحفيف الشجر وخرير الماء ، ومنها : الحيوان ، نقول : نقيق الضفادع وصهيل الخيل ، ونهيق الحمار ، وثُغَاء الشاة ، ورُغَاء الإبل .. الخ لكن بالله أسألك : لو سمعتَ صوت حمار ينهق ، أتستطيع أن تقول هذا حمار فلان ؟ لا ، لأن كل الأصوات من كُلِّ الأجناس خلا الإنسان صوتها واحد لا يميزه شيء .

أما في الإنسان ، فلكُلٍّ منّا صوته المميز في نبرته وحدّته واستعلائه أو استفاله ، أو في رقته أو في تضخيمه .. الخ . فلَماذا إذن تميَّز صوت الإنسان بهذه الميزة عن باقي الأصوات ؟

قالوا : لأن الجماد والحيوان ليس لهما مسئوليات ينبغي أنْ تُضبط وأنْ تُحدَّد كما للإنسان ، وإلا كيف نُميز المجرم حين يرتكب جريمته ونحن لا نعرف اسمه ، ولا نعرف شيئاً من أوصافه ؟ وحتى لو عرفنا أوصافه فإنها لا تدلُّنا عليه دلالة قاطعة تُحدِّد المسئولية ويترتب عليها الجزاء .

وقال سبحانه بعدها ﴿ وَأَلْوَانِكُمْ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم] فاختلاف الألسنة والألوان ليحدث هذا التميُّز بين الناس ، ولأن الإنسان هو المسئول خلق اللهُ فيه اختلافَ الألسنة والألوان ؛ لنستدل عليه بشكله : بطوله أو قِصَره أو ملابسه ... الخ .

وفي ذلك ما يضبط سلوك الإنسان ويُقوِّمه حين يعلم أنه لن يفلت بفعْلته ، ولا بُدَّ أنْ يدل عليه شيء من هذه المميزات .

لذلك نرى رجال البحث الجنائي ينظمون خطة للبحث عن المجرم قد تطول ، لماذا ؟ لأنهم يريدون أنْ يُضيِّقوا دائرة البحث فيُخرجون منها مَنْ لا تنطبق عليه مواصفاتهم ، وما يزالون يُضيِّقون الدائرة حتى يصلوا للجاني .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن

ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا .. (١٣) ﴾ [الحجرات]

فالتميُّز والتعارف أمر ضرورى لاستقامة حركة الحياة ، ألاَ ترى الرجل يضع لكل ولد من أولاده اسماً يُميِّزه ، فإن عشق اسم محمد مثلاً ، وأحب أن يسمى كل أولاده محمداً لا بد أن يميزه ، فهذا محمد الكبير ، وهذا محمد الصغير ، وهذا الأوسط .. الخ .

إذن : لا بُدَّ أن يتميز الخَلْق لنستطيع تحديد المسئوليات .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. (٢٢) ﴾ [الروم] أى : فى الخَلْق على هذه الهيئة الحكيمة المحكمة ﴿ لَآيَاتٍ .. (٢٢) ﴾ [الروم] لنعتبر بها ، فالخالق سبحانه إنْ وحَّد الصفات فدليل على الحكمة ، وإن اختلفت فدليل على طلاقة القدرة . وانظر مثلاً إلى الصانع الذى يصنع أكواب الزجاج ، تراه يأخذ عجينة الزجاج ويصبُّها فى قالب فتخرج جميعها على شكل واحد ، أما الخباز مثلاً فيأخذ العجينة ويجعلها رغيفاً فلا ترى رغيفاً مثل الآخر .

أمَّا الخالق ـ عز وجل ـ فيخلق بحكمة وبطلاقة قدرة ، ويخلق سبحانه ما يشاء ، غير محكوم بقالب معين .

وقوله ﴿ لِّلْعَالِمِينَ.. (٢٢) ﴾ [الروم] أى : الذين يبحثون فى الأشياء ، ولا يقفون عند ظواهرها ، إنما يتغلغلون فى بطونها ، ويَسْبرون أغوارها للوصول إلى حقيقتها .

لذلك يلوم علينا ربنا عز وجل : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف] فلا يليق بأصحاب العقول أن يغفلوا عن هذه الآيات ، إنما يتأملونها ليستنبطوا منها ما ينفعهم فى مستقبل حياتهم ، كما نرى فى المخترعات والاكتشافات الحديثة التى خدمتْ البشرية ، كالذى اخترع عصر

البخار ، والذى اخترع العجلة ، والذى اكتشف الكهرباء والجاذبية والبنسلين .. الخ . إذن : نمر على آيات الله فى الكون بيقظة ، وكل العلوم التجريبية نتيجة لهذه اليقظة .

والعَالمون : جمع عالم ، وكانت تطلق فى الماضى على مَنْ يعرف الحلال والحرام ، لكن هى أوسع من ذلك ، فالعالم : كل مَنْ يعلم قضية كونية أو شرعية ، ويُسمَّى هذا « عالم بالكونيات » وهذا عالم بالشرع ، وإنْ شئتَ فاقرأ :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

فذكر سبحانه النبات ، ثم الجماد ، ثم الناس ، ثم الحيوان .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨) ﴾ [فاطر] على إطلاقها فلم يُحدِّد أى علماء : علماء النبات ، أو الحيوان ، أو الجمادات ، أو علماء الشرع ، إذن : العَالِم كل مَنْ يعلم حقيقة فى الكون وجودية أو شرعية من عند الله .

لكن ، لماذا أطلقوا العالم على العالم بالشرع خاصة ؟ قالوا : لأنه أول العلوم المفيدة التى عرفوها ؛ لذلك رأينا من آداب العلم فى الإسلام ألاَّ يُدخِل علماء الشرع أنفسهم فى الكونيات ، وألاَّ يُدخل علماء الكونيات أنفسهم فى علوم الشرع .

والذى أحدث الاضطراب بين هذه التخصصات أن يقول مثلاً علماء الكونيات بأن الأرض تدور حول الشمس ، فيقوم من علماء الدين مَنْ يقول : هذا مخالف للدين ـ هكذا عن غير دراسة ، سبحان الله ، لماذا تُقحِم نفسك فيما لا تعلم ؟ وماذا يضيرك كعالم بالشرع أن تكون

الأرض كرة تدور أو لا تدور ؟ ما الحرام الذى زاد بدوران الأرض وما الحلال الذى انتقص ؟ كذلك الحال لما صعد الإنسان إلى القمر ، اعترض على ذلك بعض رجال الدين .

كذلك نسمع مَنْ لا علْم له بالشرع يعترض على بعض مسائل الشرع يقول : هذه لا يقبلها العقل . إذن : آفة العلم أن يقحم العالم نفسه فيما لا يعلم ، ولو التزم كلٌّ بما يعلم لارتاح الجميع ، وتركت كل ساحة لأهلها .

وعجيب أن يستشهد رجال الدين على عدم كروية الأرض بقوله تعالى : ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا .. (١٩)﴾ [الحجر] ولو تأملوا معنى ﴿مَدَدْنَاهَا .. (١٩)﴾ [الحجر] لما اعترضوا ؛ لأن معنى مددناها يعنى : كلما سرْتُ فى الأرض وجدتها ممتدة لا تنتهى حتى تعود إلى النقطة التى بدأت منها ، وهذا يعنى أنها كرة لا نهاية لها ، ولو كانت مُسطحة أو مُثلثة مثلاً لكان لها نهاية .

إذن : نقول للعلماء عموماً : لا تُدخلوا أنوفكم فيما لا علْم لكم به ، ودَعُوا المجال لأصحابه ، عملاً بقوله تعالى : ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ .. (٦٠)﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) ﴾

كذلك من الآيات العجيبة الدالة على قدرة الله ﴿مَنَامُكُم .. (٢٣)﴾ [الروم] فحتى الآن لم يكشف علماء وظائف الأعضاء والتشريح عن سرِّ

النوم ، ولم يعـرفوا ـ رغم ما قـاموا به من تجـارب ـ ما هو النوم . لكن هو ظاهرة موجودة وغالبة لا يقاومـها أحد مهما أُوتى من القوة ، ومـهمـا حـاول السهـر دون أنْ ينام ، لا بُدَّ أن يغلبـه النوم فـينام ، ولو على الحصى والقتاد ، ينام وهو واقف وهو يحـمل شيئاً لا بُدَّ أنْ ينام على أية حالة .

وفلسـفة النوم ، لا أن نـعرف كـيف ننام ، إنمـا أن نعرف لمـاذا ننام ؟ قالوا : لأن الإنسان مُكوَّن من طاقات وأجهزة لكل منها مهمة ، فالعـين للرؤية ، والأذن للسمع .. الخ ، فساعـة تُجهد أجهـزة الجسم تصل بك إلى مـرحلة ليستْ قـادرة عندها على العمل ، فـتحـتاج أنت ـ بدون شعـورك وبأمر غريزى ـ إلى أن ترتـاح كأنها تقـول لك كفى لم تَعُد صالحاً للعمل ولا للحركة فنم .

ومن عجيب أمر النوم أنه لا يأتى بالاستـدعاء ؛ لأنك قد تستدعى النوم بشتى الـطرق فلا يطاوعك ولا تنام ، فإنْ جـاءك هو غلبك على أىِّ حال كنتَ ، ورغم الضوضـاء والأصوات المزعجة تنام . لذلك يقول الرجل العربى : النوم طيف إنْ طلبتَه أعنَتَك ، وإنْ طلبك أراحك .

ولأهل المعرفة نظرة ومعنى كـونى جميل فى النوم ، يقولون فى قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤)﴾ [الإسراء] فكل ما فى الوجـود يُسبِّح حـتى أبعاض الكافر وأعـضاؤه مُـسبحـة ، إنما إرادته هى الكافرة ، وتظل هذه الأبعاض خاضعـة لإرادة صاحبها إلى أنْ تنفكّ عن هذه الإرادة يوم القـيامـة ، فتـشهد علـيه بما كـان منه ، وبما أجبرها عليه من معصية الله .

وسبق أنْ مـثَّلْنَا لذلك بقائد الكتـيبـة حين يطيعـه جنوده ولو فى

الخطأ ؛ لأن طاعته واجبة إلى أنْ يعودوا إلى القائد الأعلى فيتظلمون عنده ، ويخبرونه بما كان من قائدهم .

وذكرنا أن أحد قواد الحرب العالمية أراد أنْ يستخدم خدعة يتفوق بها على عدوه ، رغم أنها تخالف قانون الحرب عندهم ، فلما أفلحتْ خُطّته وانتصر على عدوه كرَّموه على اجتهاده ، لكن لم يَفُتهم أنْ يعاقبوه على مخالفته للقوانين العسكرية ، وإنْ كان عقاباً صُورياً لتظل للقانون مهابته .

كذلك أبعاض الكافر تخضع له في الدنيا ، وتشهد عليه يوم القيامة : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

مع أن هذه الجوارح هي التي نطقتْ بكلمة الكفر ، وهي التي سرقتْ .. الخ ؛ لأن الله أخضعها لإرادة صاحبها ، أما يوم القيامة فلا إرادةَ له على جوارحه : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [فصلت] لذلك يُطمئننا الحق سبحانه بقوله : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

فإذا ما نام الكافر ارتاحتْ منه أبعاضه وجوارحه ، ارتاحتْ من مرادات الشر عنده ؛ لذلك يُحدِّثنا إخواننا الذين يحجُّون بيت الله يقولون : هناك النوم فيه بركة ، ويكفيني أقلّ وقت لأرتاح ، لماذا ؟ لأن فكرك في الحج مشغول بطاعة الله ، ووقتك كله للعبادة ، فجوارحك في راحة واطمئنان لم ترهقها المعصية ؛ لذلك يكفيها أقل وقت من النوم لترتاح .

وفي ضوء هذا الفهم نفهم قول النبي ﷺ : « تنام عيني ولا ينام

قلبى »[1] لأنه ﷺ حياته كلها للطاعة ، فجوارحه مستريحة ، فيكفيه من النوم مجرد الإغفاءة .

وفى العامية يقول أهل الريف : نوم الظالم عبادة ، لماذا ؟ لأنه مدة نومه لا يأمر جوارحه بشرٍّ ، ولا يُرغمها على معصية فتستريح منه أبعاضه ، ويستريح الناس والدنيا من شره ، وأىّ عبادة أعظم من هذه ؟

ونلحظ فى هذه الآية ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [الروم] فجعل الليل والنهار محلاً للنوم ، ولابتغاء الرزق ، وفى آية أخرى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ (٧٣) ﴾ [القصص] فجمعهما معاً ، ثم ذكر تفصيل ذلك على الترتيب ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ (٧٣) ﴾ [القصص] أى : فى الليل ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ (٧٣) ﴾ [القصص] أى : فى النهار .

وهذا أسلوب يُعرف فى اللغة باللفّ والنشر ، وهو أنْ تذكر عدة أشياء محكوماً عليها ، ثم تذكر بعدها الحكمَ عليها جملةً ، وتتركه لذكاء السامع ليُرجِع كل حكم إلى المحكوم عليه المناسب .

ومن ذلك قول الشاعر :

قَلْبى وجَفْنى واللسَان وخَالقى ... رَاضٍ وبَاكٍ شَاكر وغَفُور

فجمع المحكوم عليه فى ناحية ، ثم الحكم فى ناحية ، فجَمْع المحكوم عليه يسمى لَفّاً ، وجَمْع الحكم يُسمى نَشْراً .

---

(١) حديث متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٦٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٧٣٨) أن عائشة سئلت : كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ فى رمضان ؟ قالت : ما كان يزيد فى رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة : يصلى أربع ركعات فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلى ثلاثاً . فقلت : يا رسول الله تنام قبل أن توتر ؟ قال : تنام عينى ، ولا ينام قلبى » .

وهاتان الآيتان من الآيات التى وقف أمامها العلماء ، ولا نستطيع أنْ نخرج منهما بحكم إلا بالجمع بين الآيات ، لا أن نفهم كل آية على حدة ، فنلحظ هنا فى الآية التى معنا ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٣)﴾ [الروم] أن الله تعالى جعل كلاً من الليل والنهار محلاً للنوم ، ومحلاً للسعى .

وفى الآية الأخرى : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ (٧٣)﴾[القصص] ثم قال ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ (٧٣)﴾ [القصص] ولم يقل (فيه) ويجب هنا أنْ نتنبه ، فهذه آية كونية أن يكون الليل للنوم والسكون والراحة ، والنهار للعمل وللحركة ، فلا مانع أن نعمل بالليل أيضاً ، فبعض الأعمال لا تكون إلا بليل ، كالحراس ورجال الأمن والعسس والخبازين فى المخابز وغيرهم ، وسكن هؤلاء يكون بالنهار ، وبهذا الفهم تتكامل الآيات فى الموضوع الواحد .

إذن : فقوله تعالى : ﴿وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٣)﴾ [الروم] يعنى : طلب الرزق والسَّعْى إليه يكون فى النهار ويكون فى الليل ، لكن جمهرة الناس يبتغونه بالنهار ويسكنون بالليل ، والقلة على عكس ذلك .

فإنْ قلتَ : هذا عندنا حيث يتساوى الليل والنهار ، فما بالك بالبلاد التى يستمر ليلها مثلاً ثلاثة أشهر ، ونهارها كذلك ، نريد أن نفسر الآية على هذا الأساس ، هل يعملون ثلاثة أشهر وينامون ثلاثة أشهر ؟ أم يجعلون من أشهر الليل ليلاً ونهاراً ، ومن أشهر النهار أيضاً ليلاً ونهاراً ؟ لا مانع من ذلك ؛ لأن الإنسان لا يخلو من ليل للراحة ، ونهار للعمل أو العكس ، فكل من الليل والنهار ظرف للعمل أو للراحة .

لذلك ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يمتنُّ علينا بتعاقُب الليل والنهار ، فيقول سبحانه : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)﴾ [القصص] وذيَّل

الآية بأفلا تسمعون ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص] وذيَّل هذه بأفلا تبصرون ، لماذا ؟

قالوا : لأن النهار محلُّ الرؤية والبصر ، أما الليل فلا بصرَ فيه ، فيناسبه السمع ، والأذن هى الوسيلة التى تؤدى مهمتها فى الليل عندما لا تتوفر الرؤية .

وفي موضع آخر : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾ [الفرقان] فالليل يخلُف النهار ، والنهار يخلُف الليل ، هذا فى الزمن العادى الذى نعيشه ، أما فى بدْء الخَلْق فأيهما كان أولاً ، ثم خلفه الآخر ؟

فإنْ قلت : إن الليل جاء أولاً ، فالنهار بعده خلْفة له ، لكن الليل فى هذه الحالة لا يكون خلفة لشيء ، والنص السابق يوضح أن كلاً منهما خلْفة للآخر ، إذن : فما حَلُّ هذا اللغز ؟

مفتاح هذه المسألة يكمن فى كروية الأرض ، ولو أن رسول الله ﷺ أخبر فى بداية البعثة بهذه الحقيقة لما صدَّقوه ، كيف ونحن نرى مَنْ ينكر هذه الحقيقة حتى الآن .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ لا يترك قضية كونية كهذه دون أنْ يمسَّها ولو بلُطْف وخفة ، حتى إذا ارتقت العقول تنبهتْ إليها ، فلو أن الأرض مسطوحة وخلق الله تعالى الشمس فى مواجهة الأرض لاستطعنا أنْ نقول : إن النهار جاء أولاً ، ثم عندما تغيب الشمس يأتى الليل ، أما إنْ كانت البداية خلْق الأرض غير مواجهة للشمس ، فالليل فى هذه الحالة أولاً ، ثم يعقبه النهار ، هذا على اعتبار أن الأرض مسطوحة .

وما دام أن الخالق ـ عز وجل ـ أخبر أن الليل والنهار كل منهما

خلْقة للآخر ، فلا بُدَّ أنه سبحانه خلق الأرض على هيئة بحيث يوجد الليل ويوجد النهار معاً ، فإذا ما دارت دورة الكون خلف كل منهما الآخر ، ولا يتأتّى ذلك إلا إذا كانتْ الأرض مُكوَّرة ، فما واجه الشمسَ منها صار نهاراً ، وما لم يواجه الشمس صار ليلاً .

لذلك يقول سبحانه في آية أخرى : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

فالحق سبحانه ينفي هنا أنْ يسبقَ الليلُ النهارَ ، فلماذا ؟

قالوا : يعتقدون أن الليلَ سابقُ النهار ، ألاَ تراهم يلتمسون أول رمضان بليله لا بنهاره ؟ وما داموا يعتقدون أن الليل سابق النهار ، فالمقابل عندهم أن النهار لا يسبق الليل ، هذه قضية أقرَّها الحق سبحانه ؛ لذلك لم يعدل فيها شيئاً إنما نفى الأولى ﴿ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ.. (٤٠) ﴾ [يس]

إذن : نفى ما كانوا يعتقدونه ﴿ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ .. (٤٠) ﴾ [يس] وصدَّق على ما كانوا يعتقدونه من أن النهار لا يسبق الليل . فنشأ عن هذه المسألة : لا الليل سابق النهار ، ولا النهار سابق الليل ، وهذا لا يتأتّى إلا إذا وُجدا في وقت واحد ، فما واجه الشمسَ كان نهاراً ، وما لم يواجه الشمس كان ليلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) ﴾

نلحظ فى تذييل الآيات مرة يقول سبحانه ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم] ومرة ﴿ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم] ومرة ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الروم] أو ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الروم] فتختلف الأدوات الباحثة فى الآيات .

والبعض يظن أن العقل آلة يُعملها فى كل شىء ، فالعقل هو الذى يُصدِّق أو لا يُصدِّق ، والحقيقة أنك تستعمل العقل فى مسألة الدين مرة واحدة تُغنيك عن استعماله بعد ذلك ، فأنت تستعمل العقل فى أنْ تؤمن أو لا تؤمن ، فإنْ هداك العقل إلى أن الكون له إله قادر حكيم خالق لا إله إلا هو ووثقتَ بهذه القضية ، فإنها لا تطرأ على تفكيرك مرة أخرى ، ولا يبحثها العقل بعد ذلك ، ثم إنك فى القضايا الفرعية تسير فيها على وَفْق قضية الإيمان الأولى فلا تحتاج فيها للعقل .

لذلك العقلاء يقولون : العقل كالمطية توصلك إلى حضرة السلطان ، لكن لا تدخل معك عليه ، وهكذا العقل أوصلك إلى الإيمان ثم انتهى دوره ، فإذا ما سمعتَ قال الله فأنت واثق من صِدْق القول دون أنْ تُعمل فيه العقلَ .

وحين يقول سبحانه : يعقلون يتفكرون يعلمون ، حين يدعوك للتدبُّر والعظَة إنما ينبه فيك أدوات المعارضة لتتأكد ، والعقل هنا مهمته النظرَ فى البدائل وفى المقدمات والنتائج .

كما لو ذهبتَ مثلاً لتاجر القماش فيعرض عليك بضاعته : فهذا صوف أصلى ، وهذا قطن خالص ، ولا يكتفى بذلك إنما يُريك جودة بضاعته ، فيأخذ (فتلة) من الصوف ، و (فتلة) من القطن ، ويشعل النار فى كل منهما لترى بنفسك ، فالصوف لا ترعى فيه النار على خلاف القطن .

إذن : هو الذى يُنبِّه فيك وسائل النقد ، ولا يفعل ذلك إلا وهو واثق من جودة بضاعته ، أما الآخر الذى لا يثق فى جودة بضاعته

فإنه يلجأ إلى ألاعيب وحيل يغرى بها المشترى ليغُرّه .

كذلك الخالق - عز وجل - يُنبِّهنا إلى البحث والتأمل فى آياته فيقول : تفكَّروا تدبَّروا ، تعقَّلوا ، كونوا علماء واعين لما يدور حولكم ، وهذا دليل على أننا لو بحثنا هذه الآيات لتوصَّلْنا إلى مطلوبه سبحانه ، وهو الإيمان .

والبرق : ظاهرة من ظواهر فصل الشتاء ، حيث نسمع صوتاً مُدوِّياً نسميه الرعد ، بعد أن نرى ضوءاً شديداً يلمع فى الجو نسميه (برق) ، وهو عامل من عوامل كهربة الجو التى توصَّل إليها العلم الحديث ، لكن قبل ذلك كان الناس عندما يروْن البرق لا يفهمون منه إلا أحد أمرين : إما أنْ يأتى بصاعقة تحرقهم ، أو ينزل عليهم المطر ، فيخافون من الصاعقة ويرجون المطر .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (٢٤) ﴾ [الروم] ليظل العبد دائماً مع ربه بين الخوف والرجاء .

لكن أكُلّ الناس يرجون المطر ؟ هَبْ أنك مسافر أو مقيم فى بادية ليس لك كِنٌّ تكنُّ فيه ، ولا مأوى يأويك من المطر ، فهذا لا يرجو المطر ولا ينتظره ، لذلك من رحمته تعالى أن يغلب انفعال الطمع فى الماء الذى به تحيا الأرض بالنبات .

﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .. (٢٤) ﴾ [الروم]

وكلمة السماء لها مدلولان : مدلولٌ غالب ، وهى السموات السبع ، ومدلول لُغوى ، وهى كل ما علاَّك فأظلَّك ، وهذا هو المعنى المراد هنا ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (٢٤) ﴾ [الروم] لأن المطر إنما ينزل من السحاب ، فالسماء هنا تعنى : كل ما علاك فأظلَّك .

ولو تأملتَ الماء الذى ينزل من السماء لوجدتَّه من سحاب متراكم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ .. (٤٣)﴾ [النور]

وسبق أنْ تحدَّثنا عن كيفية تكوُّن السُّحُب ، وأنها نتيجة لبخر الماء ، لذلك من حكمته تعالى أنْ جعل ثلاثة أرباع الأرض ماءً والربع يابسة ، ذلك لتتسع رقعة بَخْر الماء ، فكأن الثلاثة الأرباع جعلت لخدمة الرُّبْع ، وليكفى ماء المطر سكان اليابسة .

وبيَّنا أهمية اتساع مسطح الماء فى عملية البخر ، بأنك حين تترك مثلاً كوباً من الماء على المنضدة لمدة طويلة يظل كما هو ، ولو نَقُص منه الماء لكان قليلاً ، أمّا لو سكبتَ ماء الكوب على أرض الغرفة مثلاً فإنه يجفّ فى عدة دقائق لماذا ؟ لأن مسطح الماء اتسع فكَثُر الماء المتبخِّر .

ومثَّلْنا لتكوُّن السُّحُب بعملية التقطير التى نُجريها فى الصيدليات لنحصل منها على الماء النقى المعقم ، وهذه تقوم على نظرية استقبال بخار الماء من الماء المغلى ، ثم تمريره على سطح بارد فيستكثف البخار مُكوِّناً الماء الصافى ، إذن : فأنت حينما تستقبل ماء المطر إنما تستقبل ماءً مقطراً فى غاية الصفاء والنقاء ، دون أن تشعر أنت بهذه العملية ، ودون أن نُكلِّفك فيها شيئاً .

وتأمل هذه الهندسة الكونية العجيبة التى ينشأ عنها المطر ، فحرارة الشمس على سطح الأرض تُبخِّر الماء بالحرارة ، وفى طبقات الجو العليا تنخفض الحرارة فيحدث تكثُّف للماء ويتكوَّن السحاب ، ومن العجيب أننا كلما ارتفعنا ٣٠ متراً عن الأرض تقل الحرارة درجة ، مع أننا نقترب من الشمس ؛ ذلك لأن الشمس لا تُسخِّن

الجو ، إنما تُسخِّن سطح الأرض ، وهو بدوره يعطى الحرارة للجو ؛ لذلك كلما بَعُدنا عن الأرض قلَّتْ درجة الحرارة .

ومن حكمة الله أنْ جعل ماء الأرض الذى يتبخر منه الماء العَذْب جعله مالحاً ؛ لأن ملوحته تحفظه أنْ يأسن ، أو يعطن ، أو تتغير رائحته ، تحفظه أن تنمو به الطفيليات الضارة ، وليظلّ على صلاحه ؛ لأنه مخزن للماء العذب الذى يروى بعذوبته الأرض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

السماء هنا بمعنى السموات السبع التى تقوم بلا عَمَد ، وقلنا : إن الشىء الذى يعلوك إما أنْ يُحمل على أعمدة ، وإما أنْ يُشدَّ إلى أعلى ، مثل الكبارى المعلقة مثلاً ، وكذلك السماء سقف مرفوع لا نرى له أعمدة . إذن : لا تبقى إلا الوسيلة الأخرى ، وهى أن الله تعالى ﴿ ويُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إلاَّ بِإِذْنِهِ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج] فهى قائمة بأمره .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الروم] لا يهتز لها نظام أبداً ، ولا تجد فيها فروجاً ، لأنها محْكَمة البناء ، وانظر إليها حين صفاء السماء وخُلُوِّها من السحب تجدها ملساء ذات لون واحد على اتساعها ، أيستطيع أحد من رجال الدهانات أن يطلى لنا مثل هذه المساحة بلون واحد لا يختلف ؟

وإذا أخذنا السماء على أنها كُلُّ ما علاك فأظلَّك ، فانظر إلى

الشمس والقمر والنجوم والكواكب ، وكيف أنها تقوم بأمر الله خالقها على نظام دقيق لا اختلالَ فيه ، فلم نَر مثلاً كوكباً اصطدم بآخر ، ولا شيئاً منها خرج عن مساره .

وصدق الله تعالى ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء] فلكل منها سرعة ، ولكل منها مداره الخاص ونظام بحسبان ؛ ذلك لأنها تقوم بأمر الله وقدرته تعالى فهى منضبطة تؤدى مهمتها دون خلل ، ودون تخلّف .

فمعنى ﴿ تَقُومَ .. (٢٥) ﴾ [الروم] يعنى : تظل قائمة على حالها دون فساد ، وهو فعل مضارع دالٌّ على استمرار . وحين تتأمل : قبل أن يخترع الإنسان المجاهر والميكروسكوبات لم نكن نرى من المجموعة الشمسية غير الشمس ، فلما اخترعوا المجهر رأينا الكواكب الأخرى التى تدور حولها .

والعجيب أنها لا تدور فى دوائر متساوية ، إنما فى شكل إهليلى ، يتسع من ناحية ، ويضيق من ناحية ، وهذه الكواكب لها دورة حول الشمس ، ودورة أخرى حول نفسها . فالأرض مثلاً لها مدار حول الشمس ينشأ عنه الفصول الأربعة ، ولها دورة حول نفسها ينشأ عنها الليل والنهار ، وكل هذه الحركة المركبة تتم بنظام دقيق محكم منضبط غاية الانضباط .

وهذه الكواكب تتفاوت فى قُرْبها أو بُعْدها عن الشمس ، فأقربها من الشمس عطارد ، ثم الزهرة ، ثم الأرض ، ثم المشترى ، ثم المريخ ، ثم زحل ، ثم أورانوس ، ثم نبتون ، ثم أبعدها عن الشمس بلوتو . ولكل منها مداره الخاص حول الشمس وتسمى (عام) ، ودورة حول نفسه تسمى (يوم) .

وعـجـيب أن يوم الزهرة ، وهو ثـانى كـوكب من الشـمس يُقـدَّر بـ ٢٤٤ يوماً من أيـام الأرض ، فى حين أن العام بالنسـبة لهـا يُقدَّر بـ ٢٢٥ يوماً من أيام الأرض ، فالعام أقـل من اليوم ، كيف ؟ قالوا : لأن هذه دورة مـسـتـقلة ، وهذه دورة مـسـتـقلة ، فهى سـريعـة فى دورانها حول الشمس ، وبطيئة فى دورانها حول نفسها .

ولو علمتَ أن فى الفـضاء وفى كون الله الواسع مليـون مجمـوعة مثل مجمـوعتنا الشمسية فى (سكة التبَّـانة) ، وهذا كله فى المجرة التى نعرفها ـ لو علمت ذلك لتـبيَّن لك عظَم هذا الكون الذى لا نعرف عنه إلا القليل ؛ لذلك حين تقرأ : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الذاريات] فاعـلم أنها مـسـألة لا نهـايةَ لها ولا حـدودَ فى علمنا وفى عقولنا ، لكن لها نهاية عند الله .

ولا أدلَّ على انضـباط حـركة هذه الكونيـات من انضبـاط موعـد الكسوف أو الخسوف الذى يحسبه العلماء فيأتى منضبطاً تماماً ، وهم يبنون حساباتهم على حركة الكواكب ودورانها ؛ لذلك نقول لمن يكابر حتى الآن ويقول بعدم دوران الأرض : عليك أن تعترف إذن أن هؤلاء الذين يتنبأون بالكسوف والخسـوف يعلمون الغيب . فالأقرب ـ إذن ـ أن نقول : إنها لله الذى خلقها على هذه الهـيئة من الانضباط والدقة ، فاجعلها لله بدل أنْ تجعلها للعلماء .

ثم يقـول سـبحـانه : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الروم] معنى ﴿ دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الروم] المراد النفخة الثانية ، فالأولى التى يقول الله عنها : ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يس] والثانيـة يقول فيـها : ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يس]

فالأولى للموت الكلى ، والثانية للبعث الكلى ، ولو نظرتَ إلى هاتين النفختين وما جعل الله فيهما من أسرار تلتقى بما فى الحياة الدنيا من أسرار لوجدتَ عجباً .

فكل لحظة من لحظات الزمن يحدث فيها ميلاد ، ويحدث فيها موت ، فنحن مختلفون فى مواليدنا وفى آجالنا ، أما فى الآخرة فالأمر على الاتفاق ، فالذين اختلفوا في المواليد سيتفقون فى البعث ﴿ إن كَانَتْ إلاَّ صَيْحَةً واحدَةً فَإذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يس]

والذين اختلفوا فى الموت سيتفقون فى الخمود : ﴿ إن كَانَتْ إلاَّ صَيْحَةً وَاحدَةً فَإذَا هُمْ خَامدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يس] فالميلاد يقابله البعث ، والموت يقابله الخمود . إذن : اختلاف هذه يعالج اتفاق هذه ، واتفاق هذه يعالج اختلاف هذه ؛ لذلك يقول : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ .. ﴿٩﴾ ﴾ [التغابن]

والنفخة الثانية يؤديها إسرافيل بأمر الله ؛ لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يزاول أشياء بذاته ، ولا نعلم منها إلا أنه سبحانه وتعالى خلق الإنسان وسوَّاه بيده ، كما قال سبحانه : ﴿ يَـٰإبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص] أما غير ذلك فهو سبحانه يزاول الأشياء بواسطة خَلْقه فى كل مسائل الكونيات .

تأمل مثلاً : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر] فالمتوفِّى هنا الله عز وجل ، وفى موضع آخر : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ .. ﴿١١﴾ ﴾ [السجدة] فنقلها إلى ملَك الموت ، وفى موضع آخر : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا .. ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنعام] فنقلها إلى رسل الموت من الملائكة ، وهم جنود لملَك الموت .

وبيان ذلك أنه سبحانه نسب الموت لنفسه أولاً ؛ لأنه صاحب الأمر الأعلى فيه ، فيأمر به ملَك الموت ، وملَك الموت بدوره يأمر جنوده ، إذن : فمردُّها إلى الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الروم] أى : حين يسمع الموتى هذه الصيحة يهبُّون جميعاً أحياء ، فإذا هنا الفجائية الدالة على الفجأة ، وهذا هو الفارق بين ميلاد الدنيا وميلاد الآخرة ، ميلاد الدنيا لم يكُنْ فجأة ، بل على مهل ، فالمرأة قبل أنْ تلد نشاهد حملها عدة أشهر ، وتعانى هى آلام الحمل عدة أشهر ، فلا فجأة إذن.

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

نعرف أن (مَنْ) للعاقل ، ولنا أن نسأل : لماذا خصَّ العاقل مع أن كل ما فى الكون خاضع لله طائع مُسبِّح يدخل فى دائرة القنوت لله ؟ قالوا : لأن التمرد لا يأتى إلا من ناحية العقل ؛ لذلك بدأ الله به ، أما الجماد الذى لا عقلَ له ، فأمره يسير حيث لا يتأبَّى منه شىء على الله ، لا الجماد ولا الحيوان ولا النبات .

تأمل مثلاً الحمار تُحمِّله القاذورات فيحمل ، فإذا رقَّيْته وجعلته مطية للركوب لا يعترض ، لا عصى فى الأولى ، ولا عصى فى الأخرى ؛ لأنه مُذلَّل لك بتذليل الله ، ما ذلَّلته لك بعقلك ولا بقوتك ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يس]

وضربنا لذلك مثلاً بالجمل لما ذلَّله الله لك استطاع الغلام الصغير أنْ يقوده ويُنيخه ويركبه ويحمله ، أما الثعبان الصغير فيُخيفك رغم صِغَره ؛ لأن الله لم يُذلله لك .

ونقف هنا عند قـوله تعالى ﴿مَن فِي السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ..(٢٦)﴾ [الروم] فـمن فى السـمـوات نعم هم قـانتـون لله أى : خاضـعـون له سبحـانه ، مطيعون لإرادته لأنهم مـلائكة مُكرَّمون ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾ [الأنبياء]

فما بال أهل الأرض ، وفيهم ملاحدة وكفار ليسوا قانتين ، فكيف إذن نفهم ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦)﴾ [الروم]

قـالوا : لأنهم لمـا تمرَّدوا عـلى الله وكفـروا به ، أو تمـرَّدوا على حكمـه فعـصَـوْه لم يتمـردوا بذواتهم ، إنمـا بمـا خلق الله فيـهم من اختيـار ، ولو أرادهم سبحانه مـقهورين ما شذَّ واحـد منهم عن مراد ربه ، والله عز وجل لا يريد أنْ يحكم الإنسان بقهر القدرة ، إنما يريد لعـبده أنْ يأتيـه طواعيـة مخـتاراً ، بإمكانه أن يكفـر ومع ذلك آمن ، وبإمكانه أن يعصـى ومع ذلك أطاع .

فلو أرادهم الله مؤمنين مـا وجدوا إلى الكفر سـبيلاً ، ولعصـمهم كما عصم الأنبياء ، ربك يريدك مـؤمناً عن محبة وإخلاص لا عن قهر وغلبة ؛ لذلك قال إبليس فى جداله : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص]

فلا قدرة له على عباد الله المخلصين ، الذين اختارهم الله لنفسـه ، ولا سلطانَ له عليهم ، فإبليس إذن ليس فى معركة مع ربه ، إنما فى معركة مع الإنسان . وفى مـوضـع آخر قال تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. (٤٢)﴾ [الحجر]

ولما عشق هؤلاء المـتمرِّدون على الله التمـرد ، وأحبوه زادهم الله

منه وأعانهم عليه ؛ لأنه سبحانه لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، فختم على قلوبهم فلا يدخلها إيمان ، ولا يخرج منها كفر ، وهو سبحانه الغنى عن خَلْقه ؛ لذلك لما خلق الجنة خلقها لتتسع للناس جميعاً إنْ آمنوا ، ولما خلق النار خلقها لتتسع للناس جميعاً إنْ كفروا ، وترك لنا سبحانه الاختيار : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩)﴾ [الكهف]

وكأن الحق سبحانه يقول لنا : أنتم أحرار ، فأنا مستعد للجزاء على أىِّ حال تسعكم جنتى ، إنْ آمنتم جميعاً ، ولا تضيق بكم النار إنْ كفرتم جميعاً .

ونقول لمن تمرَّد على الله : ينبغى أن تكون منطقياً مع نفسك ، وأن تظل متمرداً على الله فى كل شىء ما دمت قد ألفتَ التمرد ، فإنْ جاءك المرض تتأبى عليه ، وإنْ جاءك الموت ترفضه ، فإذا لم تستطع فأنت مقهور لله خاضع له ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦)﴾ [الروم] خاضعون ، إما عن اختيار ، وإما عن قهر فى كل أمر لا اختيار لك فيه ، إذن : فأنت قانت رغماً عنك ، وقنوتك مع تمرُّدك أبلغ فى الشهادة لله .

إذن : فالمؤمن خاضع لله فى منطقة الاختيار ، وهى الإيمان والتكاليف ، وخاضع لله فيما لا اختيارَ له فيه كالقضاء والأمور الاضطرارية ، فهو يستقبلها عن رضا ، أما الكافر فهو خاضع لله لا يستطيع الفكاك عن قضائه ولا عن قدره رغماً عنه فى الأمور التى لا اختيارَ له فيها ، لكنه يستقبلها بالسُّخْط وعدم الرضا ، فهو كافر بالله كاره لقضائه .

فنقول لمن تمرد على الله فكفر به ، أو تمرَّد على أحكامه فعصاها : ما لكم لا تتمردون على الله فيما يقضيه عليكم من أمور

اضطرارية ؟ هذا دليل على أنكم اتخذتم الاختيـار فى غير محلِّه ؛ لأن الذى يختار ينبغى أنْ يأخذ الاختيار فى كل شىء ، لكن أنْ تختار فى شىء ولا تختار فى شىء آخر ، فهذا لا يجوز .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

كثيراً ما يُحدِّثنا القرآن الكريم عن هذه المسألة ويُذكِّرنا بالبدء والإعادة ، لماذا ؟ يهتم القرآن بهذه المسألة ويؤكد عليها لأنها كانت الأساس فى دعوته ؛ لأنهم إنْ كانوا يؤمنون بأنهم يرجعون إلى الله لخافوا من عقابه ؛ لذلك يؤكد لهم فى مواضع كثيرة حتمية الإعادة وأنها حَقٌّ .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم] استُهلَّت الآية بقوله تعالى (وَهُوَ) وفى آية أخرى ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الروم] فكأن (هُوَ) مدلولها (الله) وهو كما نعلم ضمير غيبة ، والحق سبحانه غَيْب عن الأنظار ، ومن عظمته سبحانه أنه غيب ، فلو كان مُدْركاً مُحسَّاً ما استحق أنْ يكون إلهاً ، وكيف نطمع فى إدراكه سبحانه ونحن لا نستطيع أن ندرك بعض مخلوقاته ؟

فالمعانى التى خلقها الله لتسوس حركة الحياة : كلمة الحق ، العدل ، الحق الذى يقف القضاء كله ليؤيده ويُعلنه ، والعدل الذى يحكم موازين الحياة ؛ ليوازن بين الشهوات وبين الحقائق ، هذه المعانى لا تُدرَك بالحواس ، فهل رأيتم العدل ؟ هل سمعتم العدل ؟ هل شممتم العدل ؟ ... الخ .

إذن : فالمعانى العالية لا يمكن أنْ تُدرك لأنها أرفع من الإدراك ؛ لأن بها يكون الإدراك ، أيكون المخلوق للحق أسمى من أنْ يُدرك ، ويكون الحق سبحانه موضعاً للإدراك ؟

فإذا سمعت (هُوَ) فاعلم أنها لا تنصرف إلا إلى الإله الواحد الذى من عظمته أنه لا يُدرَك ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ .. ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام]

لذلك نقرأ فى سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص] فترى أن (الله) لفظ الجلالة ، وهو علَم على واجب الوجود يأتى بعد (هُوَ) فكأن (هُوَ) أدلُّ على وجود الحق سبحانه من لفظ الجلالة (الله) ، فكأنه لا يصح حين يُطلَق ضمير الغيبة (هُوَ) على شىء إلا الله ؛ لأنه لا شىء فى الكون إلا الله .

وقوله تعالى هنا ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ.. ﴿٢٧﴾﴾ [الروم] بالفعل المضارع الدالّ على الاستمرارية ، مع أنه سبحانه بدأ الخَلْق بالفعل : ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف] فإنْ ذكرت الأولى فقد بدأ الخَلْق ، وإن ذكرت الاستمرارية فى الإيجاد فهو يبدأ دائماً ، وفى كل وقت ترى فى خَلْق الله شيئاً جديداً ، فالخَلْق لم يأتِ مرة واحدة ، ثم توقف ، بل بدأ ثم استمر .

ونلحظ أن القرآن يذكر هذه المسألة مرة بالماضى (بَدَأ) ومرة بالمضارع (يَبْدأ) ؛ لأن الخالق سبحانه بدأ الخلق فعلاً بخَلْق آدم عليه السلام الإنسان الأول : ﴿الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة] ولا يزال سبحانه بقيوميته خالقاً ، يبدأ كل يوم وكل لحظة خَلْقاً جديداً نشاهده فى الإنسان ، وفى الحيوان ، وفى النبات .. الخ .

وبالخَلْق المتجدِّد للإنسان ، حيث يُولَد كل لحظة مولود جديد نردُّ على الذيـن يقـولون بتنـاسخ الأرواح ـ يعني : أن الروح تخـرج من جسـد فتحلُّ في جسـد آخر ـ وهذا يعني أن تكون المواليـد على قدر الوَفيَات ، ويعني أن يظل العالم على تعـداد واحد دون زيادة ، ونحن نرى الآن مدى الكـثافة السكانيـة التي يشكو العالم مـنها الآن ، وهذه تكفي لهدم هذه النظرية .

والحق سبحـانه يُحذِّرنا أن نأخذ قصة بَدْء الخلق من غـير الخالق سبحـانه ، فـمن الناس مضلون سـيضلونكـم في هذه المسـألة ، فلا تُصْغون إليهم ؛ لأن الله يقول : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١﴾ [الكهف]

وقد رأيـنا من هؤلاء المضلين مَنْ يقـول بأن الإنسان أصلـه قرد متطور إلى إنسان ، والردُّ على هذه الضلالات يسـير ، فإذا كان القرد تطور إلى إنسـان ، فلماذا لم تتطـور باقي القرود ؟ ولمـاذا لم يتطور الإنسان منذ أنْ خُلق آدم وحـتى الآن إلى شيء آخر ؟ وكـيف نصدق هذه الضـلالات ، وربنا سـبحـانه يقول : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾ [الذاريات]

ويقول سبحانه : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ۝٣٦﴾ [يس] فإياك أنْ تقـول : إن شيـئاً تطور عن شيء ، فكل جنس قائم بذاته منذ خلقه الله .

إذن : احذروا مـثل هذه الأقوال ، ولا تأخذوا قـصة بَدْء الخَلْق إلا من الله وحده .

كلمة ﴿يُعِيدُهُ.. ۝٢٧﴾ [الروم] أي : إلى الخَلْق فهي بمعنى يخلقه ، فالمعنى : يبدأ الخلق ثم يميته ثم يُعيده ، البعض يظن أن يعيده يعني

يبعثه في الآخرة ، لكن الله تعالى يقول : ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ⑪﴾ [الروم] فيعيده غير تُرجعون ، ترجعون أى : فى القيامة .

وقوله ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ.. ㉗﴾ [الروم] أى : على حَسْب فهمكم أنتم للأشياء ، وإلا فالله تعالى لا يقال فى حقه هذا سهل وهذا أسهل ، ولا هيِّن وأهون ؛ لأنه سبحانه لا يزاول الأشياء كما نزاولها نحن ، ولا يعالج الأفعال ، إنما يفعل سبحانه بكُنْ فيكون .

ومن ذلك قوله تعالى لزكريا عليه السلام لما تعجب أن يكون له ولد ، وقد بلغ من الكِبَر عتياً وامرأته عاقر : ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ .. ⑨﴾ [مريم] ذلك لأن طلاقة القدرة لا تقف عند أسبابكم . وكذلك قال لمريم : ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ .. ㉑﴾ [مريم]

فالأمر عجيب فى نظر مريم ، أن تأتى بولد بدون زوج ؛ لكنه ليس عجيباً فى قدرة الله ، فإنْ كانت العادة أنْ يأتى الولد بالأسباب فالله سبحانه هو خالق الأسباب ، يفعل ما يشاء بدونها .

وسبق أن تحدثنا عن طلاقة قدرة الله فى قصة إبراهيم عليه السلام حينما أراد القوم أنْ يحرقوه ، فلو كانت المسألة مسألة نجاة إبراهيم من النار ما مكّنهم الله من الإمساك به ، أو : حتى إنْ أمسكوه وألقَوْه فى النار كان بالإمكان أنْ يُنزِل الله على النار مطراً فتنطفيء .

لكن الحق سبحانه يريد أن يسدَّ على الكافرين منافذ الحِجَاج ، ويبطل كفرهم ، فهاهم قد ظفروا به وألقَوْه فى قَعْر النار ، وهى على حال الاشتعال والإحراق ، لكنهم غفلوا عن شيء هام ، هو أن الله تعالى ربٌّ هذه النار وخالقها وخالق قوة الإحراق فيها ، وهو وحده

القادر على أنْ يسلبها هذه الخاصية ، فيلقى فيها نبيه إبراهيم دون أن يحترق . وهنا تكمن العظمة وتظهر الحجة ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الأنبياء]

ونلحظ فصاحة الأداء فى ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ.. (٢٧)﴾ [الروم] فهو أسلوب قَصْر ، حيث قدّم المتعلق الذى حقُّه أن يكون مؤخراً ، كما فى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ .. (٥)﴾ [الفاتحة] فقدّم المفعول ، ومن حق المفعول أن يُؤخّر عن الفعل والفاعل ، وقدَّمه هنا ، لنقصر العبادة على الله وحده دون سواه ، وحتى لا نعطف على الله تعالى شيئاً ، فلو قلت نعبدك لجاز أن تقول : ونعبد غيرك . كذلك هنا ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ.. (٢٧)﴾ [الروم] أفادت تخصيص الخلق لله وحده دون أن نعطف عليه أحداً .

وقوله تعالى ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ.. (٢٧)﴾ [الروم] الحقيقة ليس فى الأمور بالنسبة لله تعالى هيِّن وأهون ، إنما فى عُرْفنا نحن ، وليُقرِّب لنا الحق سبحانه فَهْم المسائل ، وإلا فالحق سبحانه لا يعالج الأمور ولا يزاولها كما نعالجها نحن ، وإنما يفعل سبحانه بكُنْ فيكون .

لذلك لما نتأمل قَوْل مريم عليها السلام لما بشَّرتها الملائكة بالمسيح قالت : ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ .. (٤٧)﴾ [آل عمران] فكيف فهمتْ مريم هذه المسألة ، ومَنْ أخبرها بأن الولد سيكون دون أن يمسَّها بشر ؟

لقد فهمت مريم هذا من قول الملائكة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ .. (٤٥)﴾ [آل عمران] . فلو كان له أبٌ لذكرته الملائكة ، وما داموا قد نسبوه إلى أمه فلا أب له .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٧) ﴾ [الروم] له المثل الأعلى يعنى : أن الله تعالى لا مثيلَ له ، فإنْ شابهه سبحانه شيء من خَلْقه فى صفة من الصفات فخُذْها فى إطار التقريب للمعنى ، وفى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى] فلك وجود ولله تعالى وجود ، لكن وجودك ليس كوجود الله ، أنت حَيٌّ والله حَيٌّ ، لكن حياتك ليست كحياته عز وجل .. وهكذا .

وقوله ﴿ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ .. (٢٧) ﴾ [الروم] نقول : عَالٍ وأعلى ، فهى أفعل تفضيل بمعنى : الذى لا يُشابه ولا يُضَاهى ؛ لذلكَ يقول سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى] فينفى أن يوجد شبيه لمثل الله لا شبيه لله ؛ لأن الكاف هنا بمعنى : مثل . فكأنك قلت : ليس مِثْل مِثْله شيء .

وطريقة العرب فى الأداء فى مسألة المشابهة يقولون : زيد مثل الأسد فى الشجاعة ، فأنت تريد أن تعطينى صورة لشجاعة زيد ، فذكرت أوضح شيء لهذه الصفة وهو الأسد ، فهو مُشبَّه به .

إذن : فالأسد أقوى من زيد فى هذه الصفة ، وإلا لما جعلتَ المشبّه به توضيحاً لما لا تعلم .

فحين تقول ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى] تعنى : إنْ وُجِد مِثْل لله لا يوجد مثل لهذا المِثْل ، فنفيتَ المثل من باب أَوْلَى ؛ لأن الأضعف وهو المثل المشبه أضعف من المشبه به ، فإذا كان المثل أضعف من الممثَّل ولا يوجد مثل للأضعف ، فكيف يوجد مثل للأقوى ؟

وانظر إلى جمال الحق سبحانه حين يُجلِّى للخَلْق مثَلاً فى دنياهم ، ويجعل من ذاته ـ سبحانه وتعالى ـ المماثلة ، يقول تعالى ليُقرِّب لأفهامنا كيفية نوره : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ

كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ .. (٣٥) ﴾ [النور]

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يضرب المثَل لنوره بالمشكاة ، السطحيون يظنون أن المشكاة هى المصباح ، لكن الله يقول ﴿ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. (٣٥) ﴾ [النور] والمشكاة تجويف فى الحائط ، مثل الطاقة غير نافذة ، فإنْ كانت نافذة نسميها شباكاً ، وكانوا فى الماضى يضعون المصباح فى هذه الفجوة ليضىء الحجرة ، والفجوة هذه أو المشكاة تجمع الضوء وتُقوِّيه ؛ لذلك يكون الضوء فيها أقوى من ضوء الحجرة ، أو : أن المصباح يستوعب المشكاة أكثر من استيعابه للحجرة كلها .

وبتأمل هذا المعنى نرى أن الحق سبحانه لا يضرب لنا مثَلاً لنوره إنما لتنويره ، فتنوير الله تعالى مِثْل المشكاة التى فيها المصباح ، والمصباح يدلُّ على الرقى فى وسائل الإضاءة ، فدونه مثلاً الشعلة ، وهو فتيل يُوقَد فى الهواء ويكون له دخان أسود ، أما المصباح فله زجاجة تحجز عنه الهواء إلا بقدر ما يكفى لاحتراق الفتيل ، فيأتى الضوء منه صافياً .

ثم هو فضلاً عن ذلك فى زجاجة ليست عادية ، إنما ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ .. (٣٥) ﴾ [النور] أى : مثل الدرة التى تضىء بذاتها . هذا المصباح يُوقَد من شجرة زيتونة معتدلة المزاج ﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ .. (٣٥) ﴾ [النور] فتصوَّر هذا المصباح فى مكان ضيق لا فى الحجرة كلها ، إنما فى المشكاة كيف يكون ضوؤه ؟

كذلك تنوير الله ـ سبحانه وتعالى ـ للسماوات وللأرض على سعتهما ، فنوره تعالى يستوعبهما ، لا يترك منهما مكاناً مظلماً كالطاقة بالنسبة لهذا المصباح الذى وصفنا .

ولهـذا المثل قـصة شهـيرة فى الأدب العـربى ، فقـد فطن إليـها أبو تمام[1] فى مدحـه أحد الخلفـاء ، وحين أراد أنْ يجـمع له ملَكات العرب ومواهبهم من الجود والشجاعة والحِلْم والذكاء ، قال مادحاً :

إقْدَامُ عَمْرٍو فى سَمَاحَةِ حَاتمٍ ... وفى حِلْمِ أَحْنفَ فى ذكاءِ إيَاسِ

وقد اشتهر عمرو بن معدى كرب بالشجاعة والإقدام ، واشتهر حاتم الطائى بالكرم ، وأحنف بن قـيس بالحلم حتى قيل « أحلم العـرب » فلا يُغضبـه شىء أبداً ، ولا يُخرجه عن حلْمـه ، حتى أن جماعـة قصدوا أنْ يُخرِجـوه عن حلْمه ، فـتكون سابقـة لَهم فتـبعوه فى الـطريق ، وأخذوا يهزءُون به وهو يضحك ، حتى قـارب من الحى ، فنظر إلى هؤلاء الفتية وقال : أيها الفتـية ، لقد قربنا من الحىِّ ، فإنْ كان فى جـوفكم استهزاء بى فافرغوا منه ؛ لأنهم لو ظفروا بكم لقتلوكم .

أما إياس بن معاوية فكان مَضْـرب المثَل فى الذكاء ، وهكذا جمع أبو تمام لممدوحه خلاصة مـا تعرفه العرب من مواهب . وهنا قام له واحد من خصومه وقال : أتُشبِّـه الخليفة بأجلاف العرب ، فمَنْ يكون هؤلاء إذا ما قُورِنوا بأمير المؤمنين ؟

وهذا الاعتراض مأخوذ من قول الشاعر :

وشَبَّهه المدَّاحُ فى البَأْسِ والنَّدَى ... بمَـنْ لَوْ رآهُ كـانَ أصْغر خَادمِ

فَفِى جيشه خَمسُونَ ألفاً كَعنـترٍ ... وأمْضَى وفى خُدَّامهِ ألفُ حاتمِ

فلما قـيل لأبى تمام : كيف تشبـه الخليفة بأجلاف العـرب أحجم هنيهة ثم رفع رأسه ، وقال :

---

(١) هو : حبـيب بن أوس بن طىء ، قال أبو الفرج الأصفهـانى فى الأغانى (ص ١٧٣٨) : « شاعـر لطيف الفطنة ، دقيق المـعانى ، سلك فى البـديع والمطابقة مـسلكاً لم يسبـقه من تقدَّمه إليه ، وإن كانوا هم الذين فتحوه له » .

لاَ تُنكِروا ضَرْبى لَهُ مَنْ دُونَهُ   مثَلاً شَرُوداً فى النَّدَى والبَاس
فاللهُ قد ضَرَبَ الأقَلَّ لِنُـوره   مَثَلاً من المشْكَاةِ والنِّبراس[1]

ومع دقَّة الاستشهاد وطرافته إلا أن خصومه اتهموه بأن ذلك ليس ارتجالاً لوقته ، إنما هو مُعدٌّ لهذا الموقف سلفاً ، وبعض الدارسين للأدب يقول بذلك وقاله لنا مدرس الأدب ، لكن يُروَى أنهم لما أخذوا الورقة التى مع أبى تمام لم يجدوا فيها هذه الأبيات ، ثم على فرض أن الرجل أعدَّها قبل هذا الموقف فإنها تُحسَب له لا عليه ، وتضيف إليه ذكاءً آخر ؛ لأنه استدرك على ما يمكن أنْ يُقال فاستعد له .

وكما أن الحق سبحانه وتعالى له المثَل الأعلى فى الأرض ، فلا مثيلَ له ، كذلك له المثل الأعلى فى السماء فلا مثيلَ له ، مع أن ما فى السماء غيب ، وهم الملائكة من صفاتهم كذا وكذا ، فلله المثَل الأعلى فى السماوات .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾ [الروم] أى : أنه سبحانه وتعالى بذاته عزيز لا يُغلب ، ومع عزته سبحانه حكيم لا يظلم .

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

---

(١) النبراس : المصباح والسراج . وهو ثلاثى مشتق من البرس الذى هو القطن . قال ابن سيده : وإنما قضينا بزيادة النون لأن بعضهم ذهب إلى أَن اشتقاقه من البرس الذى هو القطن ، إذ الفتيلة فى الأغلب إنما تكون من قطن . [لسان العرب ـ مادة : برس] .

(٢) سبب نزول الآية : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان يلبى أهل الشرك : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك ، فأنزل الله ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٢٨)﴾ [الروم] أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٩٢) وعزاه للطبرانى وابن مردويه .

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾

ضَرْب المثل أسلوب من أساليب القرآن للبيان وللتوضيح وتقريب المسائل إلى الأفهام ، ففي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة]

وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج] فهذا كثير فى كتاب الله ، والمثَل يُضرب ليُجلِّى حقيقة . والضَّرْب هنا لا يعنى إحداث أثر ضار بالمضروب ، إنما إحداث أثر نافع إيجابى كما فى قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ .. (٢٠) ﴾ [المزمل]

وقولنا فى مسألة سكِّ العملة : ضُرِبَ فى كذا ، فكأن الضرب يُحدث فى المضروب أثراً باقياً ، ففى الأرض بإثارة دفائنها واستخراج كنوزها ، وفى العملة بتَرْك أثر بارز لا تمحوه الأيدى فى حركة التداول ، وكأن ضَرْب المثَل يوضح الشىء الغامض توضيحاً بيِّناً كما تُسَكّ العملة ، ويجعل الفكرة فى الذهن قائمة واضحة المعالم . وللضرب عناصر ثلاثة : الضارب ، والمضروب ، والمضروب به .

ويُروى فى مجال الأمثال أن رجلاً خرج للصيد معه آلاته : الكنانة وهى جُعْبة السهام ، والسهام ، والقوس ، فلما رأى ظبياً أخذ يُعدّ كنانته وقَوْسه للرمى لكن لم يمهله الظبى وفَرَّ هارباً ، فقال له آخر

وقد رأى ما كان منه : قبل الرِّماء تُملأ الكنائن ، فصارت مثلاً وإن قيل فى مناسبة بعينها إلا أنه يُضرَب فى كل مناسبة مشابهة ، ويقال فى أىٍّ موضع كما هو وبنفس ألفاظه دون أنْ نُغيِّر فيه شيئاً .

فمثلاً ، حين ترى التلميذ المهمل يذاكر قبيل الامتحان ، وحين ترى مَنْ يُقدِم على أمر دون أنْ يُعدّ له عُدَّته لك أنْ تقول : قبل الرِّماء تُملأ الكنائن . إذن : هذه العبارة صار لها مدلولها الواضح ، وترسَّخَتْ فى الذِّهْن حتى صارتْ مثَلاً يُضرب .

وتقول لمن تسلَّط عليك وادَّعى أنه أقْوى منك : إنْ كنتَ ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً .

والحق سبحانه يضرب لنا المثل للتوضيح ولتقريب المعانى للأفهام ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة] يقف هنا بعض المتمحكين الذين يحبون أنْ يستدركوا على كلام الله ، يقولون : مادام الله تعالى لا يستحى أنْ يضرب مثلاً بالبعوضة فما فوقها من باب أَوْلى ، فلماذا يقول ﴿ فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة]

وهذا يدل على عدم فهمهم للمعنى المراد لله عز وجل ، فالمعنى : فما فوقها أى : فى الغرابة وفى القلة والصِّغر ، لا ما فوقها فى الكِبَر[1] .

---

(١) قول ابن كثير فى تفسيره (١/ ٦٤) : « قوله تعالى : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة] فيه قولان : أحدهما : فما دونها فى الصغر والحقارة . وهذا قول الكسائى وأبى عبيد قاله الرازى وأكثر المحققين .
والثانى : فما فوقها لما هو أكبر منها لأنه ليس شىء أحقر ولا أصغر من البعوضة ، وهذا قول قتادة بن دعامة واختيار ابن جرير » .

ومن الأمثلة التي ضربها الله لنا ليوضح لنا قضية التوحيد قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر]

فالذى يتخذ مع الله إلهاً آخر كالذى يخدم سيدين وليتهما متفقان ، إنما متشاكسان مختلفان ، فإنْ أرضى أحدهما أسخط الآخر ، فهو متعب بينهما ، فهل يستوى هذا العبد وعبد آخر يخدم سيداً واحداً ؟ كذلك فى عبادة الله وحده لا شريك له . فبالمثال اتضحت القضية ، ورسختْ فى الأذهان ؛ لذلك يقول سبحانه : أنا لا أستحى أنْ أضرب الأمثال ؛ لأننى أريد أن أوضح لعبادى الحقائق ، وأُبيِّن لهم المعانى .

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ.. ﴿٢٨﴾﴾ [الروم]

فى هذه الآية وبهذا المثل يؤكد الحق - سبحانه وتعالى - فى قمة تربية العقيدة الإيمانية ، يؤكد على واحدية الله وعلى أحديته ، فالواحدية شىء والأحدية شىء آخر : الواحدية أنه سبحانه واحد لا فرد آخر معه ، لكن هذا الفرد الواحد قد يكون فى ذاته مُركّباً من أجزاء ، فوصف نفسه سبحانه بأنه أحدٌ أى : ليس مُركَّباً من أجزاء . أكَّد الله هذه الحقيقة فى قرآنه بالحجج وبالبراهين ، وضرب لها المثل . وهنا يضرب لنا مثلاً من أنفسنا ليؤكد على هذه الوحدانية .

وقوله تعالى : ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ.. ﴿٢٨﴾﴾ [الروم] يعنى : ليس بعيداً عنكم ، وأقرب شىء للإنسان نفسه ، إذن : فأوضح مثَل لما غاب عنك أنْ يكون من نفسك ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة] أى : من جنسكم تعرفون نشأته ، وتعرفون خُلُقه وسيرته .

لكن ، ما المثَل المراد ؟

المثل : ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ.. (٢٨)﴾ [الروم]

يقول سبحانه : أريد أنْ أضرب لكم مثلاً على أن الإله الواحد يجب عقلاً ألاَّ تشركوا به أشياء أخرى ، والمثل أنِّى أرزقكم ، ومن رزقى لكم موَالٍ وعبيد ، فهل جئتم للرزق الذى رزقكم الله وللعبيد وقلتم لهم : أنتم شركاء لنا فى أموالنا تتصرفون فيها كما نتصرف نحن ، ثم جعلتم لهم مطلق الحرية والتصرف ، ليكونوا أحراراً أمثالكم تخافونهم فى أنْ تتصرفوا دونهم فى شىء كخيفتكم أنفسكم ؟ هل فعلتم ذلك ؟ بل هل تقبلونه على أنفسكم ؟ إذن : لماذا تقبلونه فى حق الله تعالى وترضَوْن أنْ يشاركه عبيده فى ملكه ؟

إنكم لم تقبلوا ذلك مع مواليكم وهم بشر أمثالكم ملكتموهم بشرع الله فائتمروا بأمركم . هذا معنى ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ.. (٢٨)﴾ [الروم] أى : من البشر ، فهم مثلكم فى الآدمية ، وملكيتكم لهم ليست مُطْلقة ، فأنتم تملكون رقابهم ، وتملكون حركة حياتهم ، لكن لا تملكون مثلاً قتلهم ، ولا تملكون منعهم من قضاء الحاجة ، لا تملكون قلوبهم وإرادتهم ، ثم هو مُلْك قد يفوتك ، كأن تبيعه أو تعتقه أو حتى بالموت . ومع ذلك ما اتخذتموهم شركاء ، فعَيْب أنْ تجعلوا لله ما تستنكفون منه لأنفسكم .

ونلحظ هنا أن الله تعالى لم يناقشهم فى مسألة الشركاء بأسلوب الخبر منه سبحانه ، إنما اختار أسلوب الاستفهام وهو أبلغ فى تقرير الحقيقة : ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ.. (٢٨)﴾ [الروم]

وأنت لا تعدل عن الخبر إلى الاستفهام عنه إلا وأنت تعلم وتثق بأن الإجابة ستكون فى صالحك ، فمثلاً حين ينكر شخصٌ جميلك فتقول مُخبراً : فعلتُ معك كذا وكذا ، والخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، وقد ينكر فيقول : لا لم تفعل معى شيئاً .

أمّا حين تقول مستفهماً : ألم أفعل معك كذا وكذا ؟ فإنك تُلجئه إلى واقع لا يملك إنكاره ، ولا يستطيع أنْ يفرّ منه ، ولا يملك إلا أنْ يعترف لك بجميلك ولا أقلَّ من أنْ يسكت ، والسكوت يعنى أن الواقع كما قلت .

لذلك يستفهم الحق سبحانه وهو أعلم بخَلْقه ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ .. (٢٨)﴾ [الروم] لا بدّ أنْ يقولوا : لا ليس لنا شركاء فى أموالنا ، إذن : لماذا جعلتم لله شركاء ؟

وقوله تعالى : ﴿فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٢٨)﴾ [الروم] سبق أنْ تحدثنا فى مسألة الرزق وقلنا : إن الله تعالى هو الرازق ، ومع ذلك احترم ملكية خَلْقه ، واحترم سعيهم ؛ لأنه سبحانه واهب هذا الملك ، ولا يعود سبحانه فى هبته لخَلْقه ؛ لذلك لما أراد أنْ يُحنن قلوب خَلْقه على خَلْقه قال : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥)﴾ [البقرة] فاعتبر صدقتك على أخيك الفقير قرضاً يردّه إليك مُضَاعفاً .

والرزق لا يقتصر على المال - كما يظن البعض - إنما رزقك كلّ ما انتفعتَ به فهو رزق ينبغى عليك أن تفيض منه على مَنْ يحتاجه ، وأن تُعدِّيه إلى مَنْ يفتقده ، فالقوىُّ رزقه القوة يُعدِّيها للضعيف ، والعالم رزقه العلم يُعدّيه للجاهل ، والحليم رزقه حلْم يُعدِّيه للغضوب وهكذا ، وإلا فالمال أهون ألوان الرزق ؛ لأن الفقير الذى لا يملك مالاً ولم يتصدق أحد عليه قصارى ما يحدث له أن يجوع ويُباح له فى

هذه الحالة أنْ يسأل الناس ، وما رأينا أحداً مات جوعاً .

لكن ينبغى على الفقير إنْ ألجأتْه الحاجة للسؤال أنْ يسأل بتلطُّف ولين ، فإنْ كان جائعاً لا يسأل الناس مالاً إنما لقمة عيش وقطعة جبن أو ما تيسَّر من الطعام ليسُدّ جَوْعته ، وسائل الطعام لا يكذبه أحد لأنه ما سأل إلا عن جوع ، حتى لو سألك وهو شبعان فأعطيتَه ما استطاع أنْ يأكل ، أما سائل المال فقد نظن فيه الطمع وقصد الادخار . إذن : أفضح سؤال سؤال القوت .

لذلك فى قصة الخضر وموسى عليهما السلام : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا .. (٧٧)﴾ [الكهف] فلما منعوهم حتى لقمة العيش استحقُّوا أنْ يُوصفوا بألأم الناس ، وقد أباح الشرع للجائع أن يسأل الطعام من اللئيم فإن منعه فللجائع أن يأخذه ولو بالقوة ، وإذا رفع أمره إلى القاضى أيَّده القاضى ، لذلك يقولون فيه : طالب قُوتٍ ما تعدَّى .

والحق سبحانه تكفَّل لك برزقك ، إنما جعل للرزق أسباباً وكل ما عليك أنْ تأخذ بهذه الأسباب ثم لا تشغل بالك هماً فى موضوعه ، وإياك أن تظن أن السَّعْى هو مصدر الرزق ، فالسعى سبب ، والرزق من الله ، وما عليك إلا أنْ تتحرى الأسباب ، فإنْ أبطأ رزقك فأرحْ نفسك ؛ لأنك لا تعرف عنوانه ، أمّا هو فيعرف عنوانك وسوف يأتيك يطرق عليك الباب[1] .

والذى يُتعب الناس أنْ يظل الواحد منهم مهموماً لأمر الرزق مُفكّراً فيه ، ولو علم أن الذى خلقه واستدعاه للوجود قد تكفَّل برزقه لاستراح ، فإنْ أخطأت أسباب الرزق فى ناحية اطمئن فسوف يأتيك من ناحية أخرى .

---

(١) ومن شعر الشيخ رضى الله عنه :

تحرَّ إلى الرزق أسبابَه ... ولا تشغَلنْ بعدها بالكَا
فإنك تجهلُ عَنوانه ... ورزقُك يعرفُ عُنوانَكا

ونذكر هنا قصة عروة بن أذينة[1] وكان صديقاً لهشام بن عبد الملك بالمدينة قبل أنْ يتولى هشامٌ الخلافة ، فلما أصبح هشام أميراً للمؤمنين انتقل إلى دمشق بالشام ، أما عروة فقد أصابته فاقة ، فلما ضاق به الحال تذكّر صداقته القديمة لهشام ، وما كان بينهما من وُدٍّ ، فقصده في دمشق علَّه يُفرِّج ضائقته .

جاء عروة إلى دمشق واستأذن على الخليفة فأذن له ، فدخل وعرض على صاحبه حاجته وكله أمل في أنْ ينصفه ويجبر خاطره ، لكن هشاماً لم يكن مُوفّقاً في الردِّ على صديقه حيث قال : أتيتَ من المدينة تسألني حاجتك وأنت القائل :

لَقد علمْتِ ومَا الإسْرافُ مِنْ خُلُقي   أنَّ الذِي هُو رِزْقي سوفَ يَأْتِيني

فقال عروة بعد أن كسر صديقه بخاطره : جزاك الله عني خيراً يا أمير المؤمنين ، لقد نبَّهتَ مني غافلاً ، وذكّرتَ مني ناسياً ، ثم استدار وخرج .

وعندها أدار هشام الأمر في نفسه وتذكّر ما كان لعروة من وُدٍّ وصداقة ، وشعر بأنه أساء إليه فأنَّبه ضميره ، فاستدعى صاحب الخزانة ، وأمر لعروة بعطية كبيرة ، وأرسل بها مَنْ يلحق به .

لكن كلما وصل الرسول إلى (محطة) وجد عروة قد فارقها حتى وصل إلى المدينة ، ودقَّ على عروة بابه ، وكان الرسول لَبِقاً ، فلما فتح عروة الباب قال : ما بكم ؟ قال : رسل هشام ، وتلك صِلَة

---

(١) هو : عروة بن يحى (ولقبه أذينة) بن مالك بن الحارث الليثي : شاعر غزل مقدم ، من أهل المدينة ، وهو معدود من الفقهاء والمحدثين أيضاً ، ولكن الشعر أغلب عليه . توفي نحو ١٣٠ هـ [الأعلام للزركلي ٢٢٧/٤] . قال الإمام أبو عبيد البكري في « التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه » (ص ٢٩) : « روى عنه مالك وغيره من الأئمة » .

هشام لك لم يَرْضَ أنْ تحملها أنت خوفاً عليك من قُطاع الطريق ، أو تحمل مؤونة حَمْلها ، فأرسلنا بها إليك .

فقال عروة : جزى الله أمير المؤمنين خيراً ، قولوا له لقد ذكرتَ البيت الأول ، ولو ذكرت الثاني لأرحتَ واسترحتَ ، لقد قلت :

لَقد علمْتِ ومَا الإسْرافُ مِنْ خُلُقى   أنَّ الذى هُو رِزْقى سوفَ يَأْتينى
أَسْعى إليْهِ فَيُعْيينى تطلُّبُه   ولَوْ قَعَدْتُ أتَانى لا يُعنِّينى[1]

ثم يقول سبحانه بعد هذا المثل : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ [الروم] أى : نُبيِّنها ونُوضِّحها ، بحيث لو عُرِضتْ على العقل مجرداً عن الهوى لا ينتهى إلا إليها ، ومعنى ﴿ يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ [الروم] من العقل ، وسُمِّى عقلاً ؛ لأنه يعقل صاحبه ويقيده عما لا يليق .

والبعض يظن أن العقل إنما جُعِل لترتع به فى خواطرك ، إنما هو جاء ليقيد هذه الخواطر ، ويضبط السلوك ، يقول لك : اعقل خواطرك وادرسها لا تنطلق فيها على هواك تفعل ما تحب ، بل تفعل ما يصح وتقول ما ينبغى . إذن : ما قصَّرنا فى البيان ولا فى التوضيح .

ويتجلَّى دور العقل المجرد وموافقته حتى للوحى فى سيرة الفاروق عمر رضى الله عنه ، وفى وجود رسول الله ، وهو ينزل عليه الوحى يأتى عمر ويشير على رسول الله بأمور ، فينزل الوحى موافقاً لرأى عمر ، وكأن الحق - تبارك وتعالى - يلفت أنظارنا إلى أن العقل الفطرى إذا فكَّر فى أمر بعيداً عن الهوى لا بُدَّ أنْ يصل إلى الصواب ،

---

(١) ذكر هذه الأبيات خير الدين الزركلى فى الأعلام (٤/٢٢٧) وعزاها لعروة بن أذينة . وأورد الأصفهانى أخباره فى كتاب « الأغانى » ص ١٩١١ وذكر هذا الخبر بين عروة وهشام بن عبد الملك ، وأورد هذين البيتين .

وأنْ يوافق حقائق الدين ، أمّا إنْ تدخَّل الهوى فسد الفكر .

وقوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ [الروم] العقل وسيلة من وسائل الإدراك في الإنسان ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

لكن ، كيف تُربَّى الأمور العقلية في الناس ؟ تُربَّى عن طريق الحواس والإدراك ، فالعين ترى ، والأذن تسمع ، واللسان يتذوق ، واليد تلمس ، والأنف يشمُّ ، إلى آخر الحواس التي توصلنا إليها كحاسة البين ، وحاسة العضل وغيرها .

لذلك احتاط العلماء في تسمية الحواس فقالوا « الحواس الخمس الظاهرة » ليدعوا المجال مفتوحاً لحواس أخرى ، فهذه الوسائل تدرك المعلومات وتنقلها إلى العقل ليراجعها وينتهي فيها إلى قضايا يجعلها دستوراً لحياته ، فأنت تأكل مثلاً العسل فتدرك حلاوته ، وتأكل الجبن فتدرك ملوحته ، فتتكون لديك قضية عقلية أن هذا حلو ، وهذا مالح .. الخ .

وحين تستقر هذه القضايا في القلب تصير عقيدة لا تخرج للتفكير مرة أخرى ، ولا تمر على العقل بعد ذلك ، فقد انعقد عليها الفؤاد ، وترسختْ في الذهن .

ودَوْر العقل أن يعقل هذه القضايا ، وأنْ يختار بين البدائل ، والأمر الذي لا بديلَ له لا عملَ للعقل فيه ، فلو أنك مثلاً ستذهب إلى مكان ليس له إلا طريق واحد فلا مجال للتفكير فيه ، لكن إنْ كان لهذا المكان أكثر من طريق فللعقل أنْ يفاضل بينها ويختار الأنسب منها فيسلكه .

وما دام العقل هو الذى يختار فهو الميزان الذى تَزن به الأشياء ، وتحكم به فى القضايا ؛ لذلك لا بُدَّ له أنْ يكون سليماً لتأتى نتائجه كذلك سليمة وموضوعية ، ومعلوم أن الميزان يختلف باختلاف الموزون وأهميته .

والحق سبحانه يعطينا مثالاً لدقة الميزان فى الشمس والقمر ، فيقول ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ ﴾ [الرحمن] أى : بحساب دقيق ، ولولا الدقة فيهما ما أخذناهما ميزاناً للوقت ، فبالشمس نعرف الليل والنهار ، وبالقمر نعرف الشهور .

فحين يقول سبحانه ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ ﴾ [الروم] يعنى : أننا عملنا ما علينا من التفصيل والبيان ، وتوضيح الحجج والبراهين ، ولكن أنتم الذين لا تعقلون .

ولما كان العقل هو آلة الاختيار بين البدائل وآلة التمييز أعفى الحق سبحانه مَنْ لا عقل له من التكاليف ، أعفى الطفل الصغير الذى لم يبلغ ؛ لأن عقله لم ينضج بعد ، ولأن حواسّه لم تكتمل .

وتتجلى حكمة الشارع فى قول النبى ﷺ « مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر »[1] فجعل من ضمن تكليف الآباء أنْ يُكلِّفوا هم الأبناء فى هذه السنِّ ، لتكون لهم دُرْبة على طاعة الأمر والنهى فى وقت ليس عليهم تكليف مباشر من الله تعالى .

فإذا كبر الصغير يستقبل تكليفى كما استقبل تكليفك أولاً ، وربُّك ما افتات عليك فى هذه المسألة ، فأعطاك حق التكليف بالصلاة ، وأعطاك حق أنْ تعاقبه إنْ قصَّر ، فأنت الذى تُكلِّف ، وأنت الذى تعاقب .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٩٥) ، وكذا الإمام أحمد فى مسنده (٢/١٨٧) بلفظ « مروا أبناءكم » من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

وأعفى المجنون لأن آلة الاختيار عنده غير سليمة وغير صالحة ، وقلنا : إن علامة النضج فى الإنسان أن يصير قادراً على إنجاب مثله ، ومثَّلْنا لذلك بالثمرة التى لا تحلو إلا بعد نضجها ، بحيث إذا أكلت زرعتَ بذرتها ، فأنبتت ثمرة جديدة ، وهكذا يحدث بقاء النوع وتستمر الدورة .

فربك لا يريد أن تأكل أكلة واحدة ، ثم تُحرم أو يُحرم مَنْ يأتى بعدك ، إنما يريد أنْ تأكل ويأكل كل مَنْ يأتى بعدك ، فلا تأخذ الثمرةُ حلاوتها إلا بعد نُضْج بذرتها ، وصلاحيتها للإنبات .

وقوله تعالى : ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨)﴾ [الروم] يدل على أن الذين يتخذون مع الله شركاء غير عاقلين ، وإلا فما معنى عبادة الأصنام أو الأشجار أو الشمس أو القمر ؟ وقد قالوا بألسنتهم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣)﴾ [الزمر]

فما هى العبادة ؟ العبادة طاعة العابد لأمر المعبود ونَهْيه ، إذن : بماذا أمرَتْكُم هذه الآلهة ؟ وعَمَّ نهتْكُم ؟ ما المنهج الذى وضعتْه لكم ؟ ماذا أعدتْ لمن أطاعها من النعيم ؟ وماذا أعدتْ لمن عصاها من العذاب ؟ لا شىء إلا أنها آلهة بدون تكاليف ، وما أيسرَ أنْ يعبد الإنسانُ إلهاً لا تكاليف له ، لا يُقيدك فيما تحب من شهوات ، ولا يُحمِّلك مشقة العبادة . وهنا يتضح عدم العقل .

وأيضاً عدم العقل فى ماذا ؟ الله خلقك فى كون فيه أجناس ، والأجناس تحكمها سلسلة الارتقاء ، فجنس أعلى من جنس ، والجنس الأعلى فى خدمة الجنس الأقل .

ولو استقرأتَ أجناس الوجود تجد أن معك أيها الإنسان جنساً

آخر يشاركك الحسَّ والحركة ، لكن ليس له عقل واختيار بين البدائل ؛ لأنه محكوم بالغريزة منضبط بها ، وهذا هو الحيوان الذى لا ينفكُّ عن الغريزة أبداً .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك بالغريزة الجنسية عند الإنسان وعند الحيوان ، وأن الله تعالى إنما جعلها للتكاثر وحفْظ النوع ، فالحيوان المحكوم بالغريزة يؤدى هذه المهمة للتكاثر ويقف بها عند حدِّها ، فإذا لقَّح الذكر الأنثى يستحيل أنْ تمكِّنه من نفسها بعد ذلك ، وهو أيضاً يشمُّ رائحة الأنثى ، فإنْ كانت حاملاً ينصرف عنها .

أما الإنسان فغير ذلك ؛ لأن له شهوة تتحكم فيه ، فالمرأة تتحمل مشقة الحمل وألم الولادة ، ثم تربية المولود إلى أنْ يكبر ، ولولا أن الله تعالى ربط حفْظ النوع فى الإنسان بشهوة هى أعنف شهوات النفس ما أقدمتْ المرأة على الحمل مرة أخرى .

وما قُلْناه فى غريزة الجنس نقوله فى الطعام والشراب ، الحيوان محكوم فيها بالغريزة المطلقة التى لا دَخْلَ للهوى فيها ، فإذا شبع لا يأكل مهما حاولتَ معه ، بل ونرى الحمار الذى نقول عنه إنه حمار لا يأكل عوداً واحداً بعد شبَعه ، ويمر على النعناع الأخضر مثلاً أو على الملوخية فلا يأكلها ، ويذهب إلى الحشائش اليابسة ، فهو يعوف طعامه بالغريزة التى جعلها الله فيه .

أما الإنسان فيأكل حتى التُّخْمة ، ثم لا ينسى بعد ذلك الحلو والبارد والمهضم .. الخ ذلك ؛ لأنه أسير لشهوة بطنه ، حتى إن من الناس مَنْ يغضب ؛ لأنه شبع فهو يريد ألاَّ يفارق المائدة .

وقد حدثنا رجال حديقة الحيوان بعد زلزال ١٩٩٢ أنهم شاهدوا هياجاً فى الحيوانات المحبوسة فى الأقفاص قبل حدوث الزلزال ، كان

أولهـا الوطواط ، ثم الزرافة ، ثم التـمسـاح ، ثم القرود ، ثم الـحمـير ، وكأنهم يريدون تحطيم الأقفاص والخروج منها ، بعدها حدث الزلزال .

وكذلك مـا شاهده أهل أغـادير بالدار البـيضـاء قـبل الزلزال الذى وقع بهـا ، حـيث شـاهدوا الحـمـيـر تفك قـيـودها ، وتفـرّ هاربة إلى الخلاء ، وبعـدها وقع الزلزال . إذن : لدى هذه الحيـوانات استشـعار بالزلزال قبل أن يقع .

وقد أعطانا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ مثالاً لهذه الغريزة فى قصة الغراب الذى علَّم الإنسان كـيف يُوارى الميت ، فقال تعـالى فى قصة وَلَدَىْ آدم : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ .. (٣١) ﴾ [المائدة]

نعود إلى حـديثنا عن أجناس الكون لبـيان عدم عَـقْل هؤلاء الذين جـعلوا لله شركـاء ، فأجناس الـوجود : الإنسـان ، ثم الحيـوان ، ثم النبات ، فـفيه حـياة ونمو ، ثم الجـماد أقل الموجـودات درجةً ، وهو خادم للنبـات وللحيوان وللإنسـان ، فـكل جنس من هذه يخدم الجنس الأعلى منه .

فماذا فعـل الكفار حينما عبدوا الأصنام ؟ جـعلوا الجماد الذى هو أدنى المخلوقـات أرقاها وأعظمهـا ، جعلوه إلهاً يُعْـبد ، وهل هناك أقلّ عقلاً من هؤلاء ؟

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) ﴾

اتبعوا أهواءهم ؛ لأنهم اختاروا عبادة مَنْ لا منهجَ له . ولا تكليف ، عبدوا إلهاً لا أمر له ولا نهى ، لا يرتب على التقصير عقوبة ، ولا على العمل ثواباً ، وهذا كله من وحى الهوى الذى اتبعوه .

إياك أن تُقدِّم الهوى على العقل ؛ لأنك حين تُقدِّم الهوى يصير العقل عقلاً تبريرياً ، يحاول أنْ يعطيك ما تريد بصرف النظر عن عاقبته . لكن بالعقل أولاً حدِّد الهوى ، ثم اجعل حركة حياتك تبعاً له .

والبعض يظن أن الهوى شيء مذموم على إطلاقه ، لكن الهوى الواحد غير مذموم ، أما المذموم فهى الأهواء المتعددة المتضاربة ؛ لأن الهوى الواحد فى القلب يُجنِّد القالب كله لخدمة هذا الهوى ، فحين يكون هواى أنْ أذهب إلى مكان كذا ، فإن القالب يسعى ويخطط لهذه الغاية ، فيحدد الطريق ، ويُعد الزاد ، ويأخذ بأسباب الوصول .

وهذا الهوى الواحد هو المعنىّ فى الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] فالنبى ﷺ لم يمنع أن يكون للإنسان هوى تميل إليه نفسه وتحبه ؛ لأن ذلك الهوى يُعينه على الجهاد والكفاح فى حركة الحياة .

أما حين تتعدد الأهواء فلَكَ محبوب ، ولى محبوب آخر ، فإنها لا شكَّ تتعارض وتتعاند ، والله تعالى يريد من المجتمع الإيمانى أن تتساند كل أهوائه ، وأن تتعاضد لا تتعارض ، وأن تتضافر لا تتضارب ؛ لأن تضارب الأهواء يُبدِّد حركة الحياة ويضيع ثمرتها .

أمّا إنْ كان هواى هو هواك ، وهو هوى ليس بشرياً ، إنما هوى رسمه لنا الخالق ـ عز وجل ـ فسوف نتفق فيه ، وتثمر حركة حياتنا

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١/١٢) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم » (ص ٤٦٠) وضعَّفه .

من خلاله ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك]

وسبق أنْ قُلْنا : إن صاحب الصَّنْعة فى الدنيا يجعل معها كتالوجاً يُبيِّن طريقة صيانتها ، والحق - سبحانه وتعالى - هو الذى خلقك ، وهو الذى يُحدِّد لك هواك ، وأول فشل فى الكون أن الناس المخْلوقين لله يريدون أنْ يضعوا للبشر قانون صيانتهم من عند أنفسهم .

ونقول : هذا لا يصح ؛ لأن الذى يُقنِّن ويضع للناس ما يصونهم ينبغى أن تتوفر فيه شروط : أولها : أن يكون على علم محيط لا يستدرك عليه ، وأنت أيها الإنسان علْمك محدود كثيراً ما تستدرك أنت عليه بعد حين ، ويتبين لك عدم مناسبته وعدم صلاحيته .

بل وتتبين أنت بنفسك فساد رأيك فترجع عنه إلى غيره ، كما يجب على مَنْ يشرِّع للناس الهوى الواحد أن يكونوا جميعاً بالنسبة له سواء ، وألا ينتفع هو بما يشرِّع ، وإلا لو كانت له منفعة فإنه سوف يميل إلى ما ينفعه ، فلا يكون موضوعياً كما رأينا فى الشيوعية وفى الرأسمالية وغيرها من المذاهب البشرية .

والحق - سبحانه وتعالى - هو وحده الذى لا يُسْتدرك عليه ؛ لأن علمه محيط بكل شىء لا تخْفى عليه خافية ، والخلْق جميعاً الذين يشرع لهم أمامه سواء ، وكلهم عباده ، لا يحابى منهم أحداً ، ولا يميز أحداً على أحد ، وليس له سبحانه من خلْقه صاحبة ولا ولد .

لذلك يطمئننا سبحانه بقوله : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾ [الجن]

وكأن الله تعالى يقول : اطمئنوا ، فربّكم ليس له صاحبة تُؤثِّر عليه ، ولا ولد يُحابيه ، فالصاحبة والولد نقطة الضعف ، وسبب الميْل فى مسألة التشريع .

وكذلك هو سبحانه لا ينتفع بما يُشرِّعه لنا ، لأنه سبحانه خلقنا بقدرته ، وهو الغني عنَّا لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، إذن : فهو سبحانه وحده المستكمل لشروط التشريع ، والمستحق لها سبحانه ، وبيان الهوى الواحد الذى يجتمع عليه كل الخَلْق .

وسبق أن ذكرنا فى مسألة التشريع أنه لا ينبغى أن تنظر إلى ما أُخذ منك ، بل قارن بين ما أخذتَ وما أعطيتَ ، فالذى منعك أنْ تعتدى على الآخرين وأنت فرد واحد منع الخَلْق جميعاً أنْ يعتدوا عليك ، فالتشريع إذن فى صالحك أنت .

إذن : لو عقلنا لأخذنا هوانا الواحد من إله واحد هو الله ـ عز وجل ـ لكن الخيبة أنهم ما استمعوا هذا الكلام وما عقلوه .

﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٩) ﴾ [الروم] ظلموا لأنهم عزلوا الهوى الواحد ، ونَحَّوْه جانباً ، وأخذوا أهواءً شتى تعارضتْ وتضاربت ، فلم يصلوا منها إلى نتيجة .

وما ظلموا بالشرك إلا أنفسهم ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان] ظلموا أنفسهم حينما أعطوها شهوة عاجلة ولذة فانية ، وغفلوا عن عاقبة ذلك ، فهم إما كارهون لأنفسهم ، أو يحبونها حباً أحمق ، وهذه آفة الهوى حينما يسبق العقل ويتحكم فيه .

وقوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٩) ﴾ [الروم] أولاً : ما هو العلم ؟ فى الكون قضايا نجزم بها ، فإنْ كان ما نجزم به مطابقاً للواقع ونستطيع أن ندلل عليه ـ كما نُعلِّم مثلاً الولد الصغير : الله أحد ، فإنِ استطاع أن يدلل عليها فهى علْم ، وإنْ لم يستطع فهى تقليد .

وكمن يقول مثلاً : الأرض كروية وهى فعلاً كذلك ، أما مَنْ يكابر حتى الآن ويقول ليست كروية ، والواقع أنها كروية ، فهذا جهل .

إذن : نقول ليس الجهل ألاَّ تعلم ، إنما الجهل أنْ تعلم قضية على خلاف الواقع ؛ لذلك نُفرِّق بين الجاهل والأمى : الأمى خالى الذِّهْن ليست لديه قضية من أساسه ، فإنْ أخبرته بقضية أخذها منك دون عناد ، ودون مكابرة ، أمّا الجاهل فعنده قضية خاطئة معاندة ، فيحتاج منك أولاً لأنْ تُخرِج القضية الفاسدة لتُلقى إليه بالقضية الصحيحة .

فإنْ كانت القضية لا تصل إلى مرتبة أنْ نجزم بها ، فتنتظر : إنْ تساوى الإثبات فيها مع النفى فهى الشك ، إذن : فالشكُّ قضية غير مجزوم بها يستوى فيها الإثبات والنفى ، فإنْ غلَّبْتَ جانب الإثبات ورجَّحته فهو ظن ، أما إنْ غلَّبت جانب النفى فهو وهم . فعندنا ـ إذن ـ من أنواع القضايا : علم ، وجهل ، وتقليد ، وظن ، ووَهْم .

فالحق سبحانه يريد الهوى الذى تخدمه حركة حياتنا هوى عن علم وعن قضية مجزوم بها ، مطابقة للواقع ، وعليها دليل ، لكن ما دام هؤلاء قد اتبعوا أهواءهم المتفرقة ، وأخذوها بدون أصولها من العلم ، فسوف أكمل لهم ما أرادوا وأعينهم على ما أحبُّوا ﴿ **فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ..** ﴿٢٩﴾ ﴾ [الروم] فقد ألغوْا عقولهم وعطَّلوها وعشقوا الكفر بعد ما سُقْنا لهم الأدلة والبراهين .

إذن : لم يَبْقَ إلا أنْ أعينكم على ما تعتقدون ، وأنْ أساعدكم عليه ، فأختم على قلوبكم ، فلا يدخلها إيمان ولا يفارقها كفر ، لأننى رب أعين عبدى على ما يريد . وهكذا يُضل الله هؤلاء ، بمعنى : يعينهم على ما هم عليه من الضلال بعد أنْ عَشِقوه ، كما قال سبحانه :

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة]

لذلك نحذر الذين يصابون بمصيبة ، ثم لا يَسلّون ، ولا ينسون ، ويلازمون الحزن ، نحذرهم ونقول لهم : لا تدعوا باب الحزن مفتوحاً ، وأغلقوه بمسامير الرضا ، وإلا تتابعتْ عليكم الأحزان ؛ لأن الله تعالى رب يُعين عبده على ما يحب ، حتى الساخط على قدره تعالى .

فالمعنى ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الروم] يعنى : مَنْ ينقذه ؟ ومَنْ يضع له قانون صيانته إنْ تخلَّى عنه ربه وتركه يفعل ما بدا له ؟ لا أحد . وأنت إذا نصحتَ صاحبك وكررتَ له النصْح فلم يُطعْك تتخلى عنه ، بل إن أحد الحكماء يقول : انصح صاحبك من الصبح إلى الظهر ، ومن الظهر إلى العصر ، فإنْ لم يطاوعك ضلّله ـ أو أكمل له بقية النهار غشاً .

وسبق أن تحدثنا عن الطريقة الصحيحة فى بحث القضايا لتصل إلى الحكم الصائب فيها ، فلا تدخل إلى العلم بهوى سابق ، بل أخرج كل ما فى قلبك يؤيد هذه القضية أو يعارضها ، ثم ابحث القضية بموضوعية ، فما تقتنع به الموازين العقلية وتُرجِّحه أدخله إلى قلبك .

والذى يُتعب الناس الآن أن نناقش قضية الإسلام مثلاً وفى القلب مَيْل للشيوعية مثلاً ، فننتهى إلى نتيجة غير سليمة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الروم] يعنى : يا ليت لهم مَنْ ينقذهم إنْ أضلَّهم الله فختم على قلوبهم ، فلا يدخلها إيمان ، ولا يخرج منها كفر ، فليس لهم من الله نصير ينصرهم ، ولا مجير يجيرهم من الله ، وهو سبحانه يجير ولا يُجَار عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

الخطاب هنا للنبى ﷺ : يا محمد ، ما دام الأمر كذلك ، وما داموا قد اتبعوا أهواءهم وضلوا ، وأصروا على ضلالهم ، فدَعْك منهم ولا تتأثر بإعراضهم .

كما قال له ربه : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء]

وقال له : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

فما عليك يا محمد إلا البلاغ ، واتركهم لى ، وإياك أن يؤثر فيك عنادهم ، أو يحزنك أنْ يأتمروا بك ، أو يكيدوا لك ، فقد سبق القول منى أنهم لن ينتصروا عليك ، بل ستنتصر عليهم .

وهذه قضية قرآنية أقولها ، وتُسجِّل علىّ : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات]

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج]

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ... ﴿٧﴾ ﴾ [محمد]

هذه قضية قرآنية مُسلَّم بها ومفروغ منها ، وهى على ألسنتنا وفى قلوبنا ، فإنْ جاء واقعنا مخالفاً لهذه القضية ، فقد سبق أنْ

أكدها واقع الأمم السابقة ، وسيحدث معك مثل ذلك ؛ لذلك يُطمئن الحق نبيه ﷺ : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر]

فهنا ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا .. (٣٠) ﴾ [الروم] أى : دعْكَ من هؤلاء الضالين ، وتفرَّغ لمهمتك فى الدعوة إلى الله ، وإياك أنْ يشغلوك عن دعوتك .

ومعنى إقامة الوجه للدين يعنى : اجعل وجْهتك لربك وحده ، ولا تلتفت عنه يميناً ولا شمالاً ، وذكر الوجه خاصة وهو يعنى الذات كلها ؛ لأن الوجه سِمة الإقبال .

ومنه قوله سبحانه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص] يعنى : ذاته تعالى .

ومعنى ﴿ حَنِيفًا .. (٣٠) ﴾ [الروم] هذه الكلمة من الكلمات التى أثارت تذبذباً عند الذين يحاولون أنْ يستدركوا على كلام الله ؛ لأن معنى الحنيف : مائل الساقين فترى فى رِجْله انحناء للداخل ، يقال : فى قدمه حنف أى ميل ، فالمعنى : فأقم وجهك للدين مائلاً ، نعم هكذا المعنى ، لكن مائلاً عن أىِّ شىء ؟

لا بُدَّ أن تفهم المعنى هنا ، حتى لا تتهم أسلوب القرآن ، فإن الرسول ﷺ جاء ليصلح مجتمعاً فاسداً منحرفاً يدين بالشرك والوثنية ، فالمعنى : مائلاً عن هذا الفساد ، ومائلاً عن هذا الشرك ، وهذه الوثنية التى جئت لهدمها والقضاء عليها ، ومعنى : مال عن الباطل . يعنى : ذهب إلى الحق .

و (أَقِمْ) هنا بمعنى : أقيموا ، لأن خطاب الرسول خطاب

لأمته ، بدليل أنه سبحانه سيقول فى الآية بعدها : ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ.. (٣١)﴾ [الروم] ولو كان الأمر له وحده لَقَالَ منيباً إليه ، ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ .. (١)﴾ [الطلاق]

فالخطاب للأمة كلها فى شخص رسول الله ؛ لأنه ﷺ هو المبلِّغ ، والمبلَّغ هو الذى يتلقى الأمر ، ويقتنع به أولاً ليستطيع أنْ يُبلِّغه ؛ لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. (٢١)﴾ [الأحزاب]

وقال ﴿حَنِيفًا.. (٣٠)﴾ [الروم] لأن الرسل لا تأتى إلا على فساد شمل الناس جميعاً ؛ لأن الحق سبحانه كما خلق فى الجسم مناعة مادية خلق فيه مناعة قيمية ، فالإنسان تُحدِّثه نفسه بشهوة وتغلبه عليها ، فيقع فيها ، لكن ساعة ينتهى منها يندم عليها ويُؤنِّبه ضميره ، فيبكى على ما كان منه ، وربما يكره مَنْ أعانه على المعصية .

وهذه هى النفس اللوامة ، وهى علامة وجود الخير فى الإنسان ، وهذه هى المناعة الذاتية التى تصدر من الذات .

وفَرْق بين مَنْ تنزل عليه المعصية وتعترض طريقه ، ومَنْ يُرتِّب لها ويسعى إليها ، وهذا بيِّن فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ .. (١٧)﴾ [النساء]

فَرْق بين مَنْ يذهب إلى باريس لطلب العلم ، فتعترض طريقه إحدى الفتيات ، ومَنْ يذهب إلى باريس لأنه سمع عما فيها من إغراء ، فهذا وقع فى المعصية رغماً عنه ، ودون ترتيب لها ، وهذا قصدها وسعى إليها ، الأول غالباً ما يُؤنِّب نفسه وتتحرك بداخله النفس اللوامة والمناعة الذاتية ، أما الآخر فقد ألِفَتْ نفسه المعصية

واستشرتْ فيها ، فلا بُدَّ أن تكون له مناعة ، ليست من ذاته ، بل من المجتمع المحيط به ، على المجتمع أن يمنعه ، وأن يضرب على يديه .

والمناعة فى المجتمع لا تعنى أن يكون مجتمعاً مثالياً لا يعرف المعصية ، بل تحدث منه المعاصى ، لكنها مُفرّقة على أهواء النّاس ، فهذا يميل إلى السرقة ، وهذا يميل إلى النظر إلى المحرمات ، وهذا يحب كذا .. الخ .

إذن : ففى الناس مواطن قوة ، ومواطن ضعف ، وعلى القوى فى شىء أن يمنع الضعيف فيه ، وأنْ يزجره ويُقوِّمه ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③ ﴾ [العصر]

فإذا عَمَّ الفساد وطَمَّ كما قال تعالى عن اليهود : ﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ .. ٧٩ ﴾ [المائدة] وفقد المجتمع أيضاً مناعته . فلا بُدَّ أنْ تتدخل السماء برسول جديد ومعجزة جديدة ، لينقذ هؤلاء .

ثم يقول تعالى : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا .. ٣٠ ﴾ [الروم] فنحن نرى البشر يتخذون الطعوم والأمصال للتحصين من الأمراض ، كذلك الحق سبحانه ـ وله المثل الأعلى ـ جعل هذا المصل التطعيمى فى كل نفس بشرية ، حتى فى التكوين المادى .

ألا ترى قوله تعالى فى تكوين الإنسان : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. ٥ ﴾ [الحج]

فالمخلَّقة هى التى تكوّن الأعضاء ، وغير المُخلَّقة هى الرصيد

المختزن فى الجسم ، وبه يعوِّض أىَّ خلل فى الأعضاء المخلَّقة ، فهى التى تمده بما يصلحه ، كذلك فى القيم جاء دين الله فطرت الله التى فطر الناس عليها ، فإذا تدخلتْ الأهواء وحدثتْ الغفلة جاءتْ المناعة ، إما من ذات النفس ، وإما من المجتمع ، وإما برسول ومنهج جديد .

وقد كرَّم الله أمة محمد بأن يكون رسولُها خاتَم الرسل ، فهذه بُشْرى لنا بأن الخير باقٍ فينا ، ولا يزال إلى يوم القيامة ، ولن يفسد مجتمع المسلمين أبداً بحيث يفقد كله هذه المناعة ، فإذا فسدتْ فيه طائفة وجدت أخرى تُقوِّمها ، وهذا واضح فى قول النبى ﷺ :

« لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتى أمر الله وهم كذلك »[(١)] .

وقال ﷺ : « الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[(٢)] .

وإلا لو عَمَّ الفساد هذه الأمة لاقتضى الأمر شيئاً آخر .

وحين نقرأ الآية نجد أن كلمة ﴿فِطْرَتَ.. ﴿٣٠﴾﴾ [الروم] منصوبة ، ولم يتقدم عليها ما ينصبها ، فلماذا نُصبَتْ ؟ الأسلوب هنا يريد أن يلفتك لسبب النصب ، وللفعل المحذوف هنا ، لتبحث عنه بنفسك ، فكأنه قال : فأقم وجهك للدين حنيفاً والزم فطرت الله التى فطر الناس عليها .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٢٠) كتاب الإمارة من حديث ثوبان رضى الله عنه . وأخرجه البخارى فى صحيحه (٧٣١١) ، وكذلك مسلم فى صحيحه (١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة بلفظ « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » .

(٢) قال ابن حجر العسقلانى : لا أعرفه . ولكن معناه صحيح . ذكره القارى فى « الأسرار المرفوعة » (٤٥٧) وكذا السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (٢٢٠) والعجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) .

لذلك يسمى علماء النحو هذا الأسلوب أسلوب الإغراء ، وهو أن أغريك بأمر محبوب وأحثك على فعْله ، كذلك الحق سبحانه يغرى رسوله ﷺ بأنْ يُقيم وجهه نحو الدين الخالص ، وأنْ يلزم فطرت الله ، وألا يلتفت إلى هؤلاء المفسدين ، أو المعوِّقين له .

والفطرة : يعنى الخلقة[1] كما قال سبحانه : ﴿فَاطِرَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٠١)﴾ [يوسف] يعنى : خالقهما ، والفطرة المرادة هنا قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات]

فالزم هذه الفطرة ، واعلم أنك مخلوق للعبادة .

أو : أن فطرت الله تعنى : الطبيعة التى أودعها الله فى تكوينك منذ خلق اللهُ آدم ، وخلق منه ذريته ، وأشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢)﴾ [الأعراف]

وسبق أنْ بيَّنا كيف أن فى كل منا ذرة حية من أبينا آدم باقية فى كل واحد منا ، فالإنسان لا ينشأ إلا من الميكروب الذكرى الحى الذى يُخصِّب البويضة ، وحين تسلسل هذه العملية لا بُدَّ أن تصل بها إلى آدم عليه السلام .

وهذه الذرة الباقية فى كل منا هى التى شهدتْ العهد الأول الذى أخذه الله علينا ، وإلا فالكفار فى الجاهلية الذين جاء رسول الله لهدايتهم ، كيف اعترفوا لله تعالى بالخلق : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٣٨)﴾ [الزمر]

من أين عرفوا هذه الحقيقة ؟ نُقلت إليهم من هذا العهد الأول ،

---

(١) « قال ابن عطية : الذى يُعتمد عليه فى تفسير هذه اللفظة أنها الخلقة والهيئة التى فى نفس الطفل التى هى مُعدَّة ومُهياة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى ، ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه ويؤمن بها » [ذكره القرطبى فى تفسيره ٧/ ٥٢٨٤] .

فمنذ هذا العهد لم يجرؤ أحد من خَلْق الله أنْ يدَّعى هذا الخَلْق لنفسه ، فظلت هذه القضية سليمة فى الأذهان مع ما حدث من فساد فى معتقدات البشر .

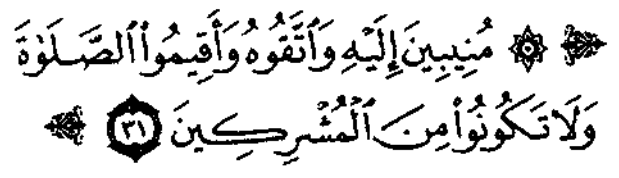
وتظل هذه القضية قائمة بالبقية الباقية من هذا العهد الأول ، حتى عند الكفار والملاحدة ، فحين تكتنفهم الأحداث وتضيق بهم أسبابهم ، تراهم يقولون وبلا شعور : يا رب ، لا يدْعون صنماً ولا شجراً ، ولا يذهبون إلى آلهتهم التى اصطنعوها ، فهم يعلمون أنها كذب فى كذب ، ونصب فى نصب .

والآن لا يخدعون أنفسهم ولا يكذبون عليها ، الآن وفى وقت الشدة وحلول الكرب ليس إلا الله يلجئون إليه ، ليس إلا الحق والفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها .

وما دام الله قد فطرنا على هذه الفطرة ، فلا تبديل لما أراده سبحانه ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ.. (٣٠)﴾ [الروم] يعنى : ما استطاع أحد أنْ يقول : أنا خلقتُ السموات والأرض ، ولا أنْ يقول : أنا خلقتكم أو خلقتُ نفسى .

﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ .. (٣٠)﴾ [الروم] أى : الدين الحق ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [الروم] أى : لا يعلمون العلم على حقيقته والتى بيَّناها أنها الجزم بقضية مطابقة للواقع ، ويمكن إقامة الدليل عليها .

ثم يقول الحق سبحانه :



أناب : يعنى رجع وقطع صلته بغير الحق ﴿إِلَيْهِ .. (٣١)﴾ [الروم] إلى الله ، فلا علاقة له بالخَلْق فى مسألة العقائد ، فجعل كل علاقته بالله .

ومنه يسمون الناب ؛ لأنه يقطع الأشياء ، ويقولون : ناب إلى الرشد ، وثاب إلى رشده ، كلها بمعنى : رجع ، وما دام هناك رجوع فهناك أصل يُرجع إليه ، وهو أصل الفطرة .

وقوله تعالى ﴿وَاتَّقُوهُ .. (٣١)﴾ [الروم] لأنه لا يجوز أنْ تنيب إلى الله ، وأن ترجع إليه ، وأن تجعله فى بالك ثم تنصرف عن منهجه الذى شرَّعه لينظم حركة حياتك ، فالإنابة وحدها والإيمان بالله لا يكفيان ؛ بل لا بُدَّ من تطبيق المنهج بتقوى الله ، لذلك كثيراً ما يجمع القرآن بين الإيمان والعمل الصالح : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢٢٧)﴾ [الشعراء]

لأن فائدة الإيمان وثمرته بعد أن تؤمن بالإله الحق ، وأن منهجه هو الصدق ، وفيه نفعك وسلامتك فى حركة حياتك ، وأنه الذى يُوصِّلك إلى سعادة الدارين ، ولا معنى لهذا كله إلا بالعمل والتطبيق .

﴿وَاتَّقُوهُ .. (٣١)﴾ [الروم] أى : اتقوا غضبه ، واجعلوا بينكم وبين غضب الله وقاية ، وهذه الوقاية تتحقق باتباع المنهج فى افعل ولا تفعل . وسبق أن تكلمنا فى معنى التقوى وقلنا : إنها تحمل معنيين يظن البعض أنهما متضاربان حين نقول : اتقوا الله . واتقوا النار . لكن المعنى واحد فى النهاية ؛ لأن معنى اتق الله : اجعل بينك وبين عذاب الله وغضبه وقاية ، وهذا نفسه معنى : اتق النار . يعنى : ابتعد عن أسبابها حتى لا تمسَّك .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ .. (٣١) ﴾ [الروم] أقيموا الصلاة أدُّوها على الوجه الأكمل ، وأدُّوها على ما أُحبُّ منكم فى أدائها ، فساعة أناديك : الله أكبر يجب أن تقبل علىَّ ، وأنت حين تُلبِّى النداء لا تأتى لتعيننى على شىء ، ولا أنتفع بك فى شىء ، إنما تنتفع أنت بهذا اللقاء ، وتستمد منى العون والقوة ، وتأخذ شحنة إيمان ويقين من ربك .

وقلنا : ما تصورك لآلة تُعرَض على صانعها كل يوم خمس مرات أيبقى بها عَطَب ؟ لذلك يُعلِّمنا نبينا ﷺ أنه إذا حزبنا أمر أن نهرع إلى الصلاة ، وكذلك كان يفعل ﷺ إذا عزَّ عليه شىء ، أو ضاقت به الأسباب ، وإلا فما معنى الإيمان بالله إنْ لم تلجأ إليه .

وما دام ربك غيباً ، فهو سبحانه يُصلحك بالغيب أيضاً ، ومن حيث لا تدرى ؛ لذلك أمرنا ربنا بإقامة الصلاة ، وجعلها عماد الدين والركْن الذى لا يسقط عنك بحال ، فالزكاة والحج مثلاً يسقطان عن الفقير وعن غير القادر ، والصوم يسقط عن المريض أو المسافر ، فى حين مرضه أو سفره ، ثم يقضيه بعد انقضاء سبب الإفطار .

أما الصلاة فهى الركْن الدائم ، ليس مرة واحدة فى العمر ، ولا مرة واحدة فى العام ، إنما خمس مرات فى اليوم والليلة ، فبها يكون إعلان الولاء لله تعالى إعلاناً دائماً ، وهذا إنْ دلَّ فإنما يدل على عظمة الإنسان ومكانته عند ربه وخالقه .

وسبق أن قلنا : إنك إنْ أردتَ مقابلة أحد المسئولين أو أصحاب المنزلة كم تعانى ليُؤذَن لك ، ولا بُدَّ أن يُحدِّد لك الموعد والمكان ، بل وموضوع المقابلة وما ستقوله فيها ، ثم لصاحب المقابلة أنْ يُنهيها متى يشاء .

إذن : لا تملك من عناصـر هذا اللقاء شيـئاً ، أما فى لـقائك بربك ـ عز وجل ـ فالأمر علـى خلاف ذلك ، فربُّك هو الذى يطلبك ويناديك لتُقبل عليه ، لا مرة واحـدة بل خمس مرات كل يوم ، ويسمح لك أنْ تناجيه بما تحب ، وتطلب منه ما تريد .

ولك أن تنهى أنت المقابلة بقولك : السلام عليكم ، فإنْ أحببتَ أن تطيل اللقـاء ، أو أنْ تعتكف فى بيت ربك فإنه سـبحـانه لا يملُّ حتى تملُّوا ، فهذه ـ إذن ـ ليست عبودية ، بل عزٌّ وسيادة .

وما أجملَ ما قاله الشاعر فى هذا المعنى(١) :

حَسْبُ نَفْسى عزاً بأنِّى عَبْدٌ يحتَفِى بى بلاَ مَواعيدَ رَبٌّ
هُوَ فى قُدْسه الأعَـزِّ ولكـنْ أنَا ألْقى متَى وأيْـنَ أُحِـبّ

ولأن للصلاة هذه الـمنزلة بين أركان الإسـلام لم تُـفرض بالوحى كباقى الأركان ، إنمـا فُرضَتْ مباشرة من الله تعالى لـنبيه ﷺ ، حين استدعاه ربه للقائه فى السماء فى رحلة المعراج .

وسبق أنْ مـثَّلنا لذلك ـ ولله تعـالى المثل الأعلى ـ برئيس الـعمل الذى يُلقى أوامـره بالتليفون ، أو بـتأشيـرة على ورقة ، فـإنْ تعرَّض لأمر هام استدعى الموظف المختص إلى مكتبه ، وأعطاه الأمر مباشرة لأهميته ، كذلك كانت الصـلاة ، وكذلك فُرضَتْ على سيدنا رسول الله بالتكليف المباشر .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلا تَكُونُوا منَ الْمُشْرِكينَ ﴿٣١﴾﴾ [الروم] وهنا وقفة : فكيف بعد الإنابة إلى الله والتقـوى ، وبعد الأمر بإقامة الصلاة يقول ﴿وَلا تَكُونُوا منَ الْمُشْـرِكينَ ﴿٣١﴾﴾ [الروم] ؟ وأين الشــرك ممَّنْ يُؤدِّى التعـاليم على هذا الوجه ؟ قالوا : الشـرك المنهىّ عنه هنا ليس

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

الإشراك مع الله إلهاً آخر ، إنما أشركوا مع الله نيةً أخرى ، فالإشراك هنا بمعنى الرياء ، والنظر إلى الناس لا إلى الله .

لذلك يقولون : العمل من أجل الناس رياء ، وترْك العمل من أجل الناس شرك . فالذى يصلى أو يبنى لله مسجداً للشهرة ، وليحمده الناس فهو مُراء ، وهو خائب خاسر ؛ لأن الناس انتفعوا بعمله ولم يُحصِّل هو من عمله شيئاً .

أما مَنْ يترك العمل خوفاً من الوقوع فى الرياء ، فيمتنع عن الزكاة مثلاً ، خَوْفَ أنْ يُتَّهم بالرياء ، فهو والعياذ بالله مشرك ، لأن الناس ينتفعون بالعمل حتى وإنْ كان رياءً ، لكن إنِ امتنعتَ عن العمل فلا ينتفع الناس منك بشىء .

فالمعنى : ﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الروم] أى : الشرك الخفى وهو الرياء ؛ لذلك رأينا سيدنا رسول الله وهو الأسوة للأمة الإيمانية يدعو ربه ويقول « اللهم إنِّى أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك »[1] .

فالعمل الإيمانى ما كان لله خالصاً ، وعلى قَدْر الإخلاص يكون الجزاء ، فمن الناس مَنْ يفعل الصلاح فيوافق شيئاً فى نفسه ، كأن يساعده على استقامة الحياة أو على التوفير فى النفقات أو غير ذلك ، فيستمر عليه ، لا لله إنما لمصلحته هو .

وفى هؤلاء يقول تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله بن الشخير أنه كان يقول : « اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ثم لم أف لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمت » وقد أورده أبو نعيم فى حلية الأولياء (٢٠٧/٢) .

أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) ﴾ [الحج]

وكالتاجر الذى يلتزم الصدق فى تجارته ، لا حباً فى الصدق ذاته ، إنما طمعاً فى الشهرة والصِّيت وكَسْب المزيد من الزبائن ، ومثل هؤلاء ينالون من الدنيا على قَدْر سعيهم لها ، ولا يحرمهم اللهُ ثمرةَ مجهوداتهم ، كما قال سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى]

فما أشبه الناس فى نياتهم من الأعمال بركْب يقصدون وجهة واحدة ، لكن لكل منهم غاية يسعى إليها ، فهذا يسعى للطعام أو أكلة شهية ، وهذا يسعى لامرأة جميلة ، وهذا يسعى لدرْس علم ينتفع به ، وآخر يسعى لرؤية مَنْ يحب ، وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

قَصَدْتُ بالركْبِ مَنْ أَهْوى وقُلْتُ لَهُم ... هَيّا كُلُوا وخُذُوا ما حَظكم فيهِ
لكِنْ دَعُونى ألاَقِى مَنْ أؤملُهُ ... عَيْنِى تَراهُ وَوُجْدَانِي يُنَاجِيهِ

كذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد من عبده أنْ يقصده لذاته ، لا خوفاً من ناره ، ولا طمعاً فى جنته ، وفَرْق بين أن تنعم بنعمة الله ، وأن تنعم بالنظر إلى الله ، فأنت فى الجنة تأكل ، لا عن جوع ولا عن حاجة ، إنما لمجرد التنعُّم .

لذلك يقول سبحانه عن الشهداء : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾ [آل عمران] فتكفيهم هذه العندية ، وأنْ ينظروا إلى الله سبحانه وتعالى .

لذلك تقول رابعة العدوية[1] : اللهم إنْ كنتَ تعلم أنِّى أعبدك طمعاً فى جنتك فاحرمنى منها ، وإنْ كنتَ تعلم أنى أعبدك خوفاً من نارك فأدخلنى فيها ، لكنى أعبدك لأنك أحقُّ أنْ تُعبدَ .

ولا شكَّ أن القليل من الناس يخلصون النية لله ، وأن الغالبية يعملون العمل كما اتفق على أية نية ، لا تعنيهم هذه المسألة ، ولا يهتمون بها ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) ﴾ [يوسف]

﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) ﴾

فرَّقوا دينهم كالركْب الذين اختلفتْ وجهاتهم ونياتهم ﴿ وَكَانُوا شِيَعًا .. (٣٢) ﴾ [الروم] جمع شيعة ، وهم الجماعة المتعاونة على أمر من الأمور ، خيراً كان أو شراً ، خيراً مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ (٨٣) ﴾ [الصافات]

أو شراً مثل : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا .. (٤) ﴾ [القصص]

وفى آية أخرى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ .. (٦٥) ﴾ [الأنعام]

---

(١) هى : رابعة بنت إسماعيل العدوية ، أم الخير ، مولاة آل عتيك البصرية ، صالحة مشهورة من أهل البصرة ومولدها بها ، لها أخبار فى العبادة والنسك ، توفيت بالقدس عام ١٣٥ هـ (الأعلام للزركلى ٣/ ١٠) .

وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الروم] لما لهم من سلطة زمنية ، ولما لهم من مكانة يخافون أنْ تهتز كالسلطة الزمنية التى منعتْ يهود المدينة من الإيمان برسول الله ، مع أنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويعرفون زمانه ، وكانوا يقيمون بالمدينة ينتظرون ظهوره ، وكل ذلك عندهم فى التوراة ، حتى إنهم كانوا يصطدمون بعبدة الأصنام ، فيقولون لهم . لقد أطلَّ زمن نبى يظهر آخر الزمان سنتبعه ، ونقتلكم به قتْل عاد وإرم[1] .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة]

لماذا ؟ حفاظاً على سلطتهم الزمنية ، وقد كانوا أهل علم وغنىً ومكانة ، فلما بُعث محمد ﷺ ألغى هذه السلطة ، فلا كلام بعد كلامه ﷺ ، أما مَنْ ثبت منهم على دينه الحق ، وعمل بما فى التوراة فقد آمن بمحمد كعبد الله بن سلام وغيره من أحبار اليهود .

فالسلطة الزمنية هى التى حالتْ بين الناس وبين الحق الذى يؤمنون به ، وهذه السلطة الزمنية هى التى نراها الآن فى هذه الفرَق والأحزاب التى يدَّعى كل منها أنها على الحق وما سواها على الباطل .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [المؤمنون]

(١) قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمرو عن قتادة الأنصارى عن أشياخ منهم قال : فينا والله وفيهم يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعني: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة] قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيُبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به » أورده ابن كثير فى تفسيره (١/١٢٤) .

فكل منهم يناطح الآخرين ليعلى مذهبه ، ويظهر هو على الساحة .

بعد ذلك يُبيِّن لنا الحق سبحانه أن الذين يكفرون بالله ، أو يتمردون على منهج الله يظلون هكذا أسْرى هذه السلطة الزمنية ، فإذا أصابتهم هزة أو بلاء لا تقوى أسبابهم على دفعه لم يجدوا ملجأ إلا الله ، فقال سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

الضر : هو الشىء الذى نتضرر منه ، ولا تستطيبه النفس ، فإنْ أصابهم الضر وأسبابهم لا تفى بالخلاص منه ﴿ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الروم] أى : رجعوا إليه سبحانه ، والآن علموا أن لهم رباً يلجئون إليه ، وهذا يُذكِّرنا بما قاله العرب عندما فتر الوحى عن رسول الله ، فسرَّهم ذلك ، وقالوا : إن رب محمد قلاه[1] . سبحان الله الآن عرفتم أن لمحمد رباً .

وقلنا : إن ساعة الضيق والمحنة لا يَكْذب الإنسان نفسه ولا يخدعها ، وسبق أنْ ذكرنا قصة حلاق الصحة الذى كان يحلّ محلّ الطبيب الآن ، فلما أنشئت كليات للطب وخرَّجت أطباء ، وذهب أحدهم إلى قرية الحلاق ، فأخذ الحلاق يهاجمه ويدَّعى أنه حديث لا خبرةَ له ، فلما مرض ابنه وأحسَّ بالخطر أخذه خُفْية فى ظلام الليل ، وذهب به إلى الطبيب ، لماذا ؟ لأنه لن يغشَّ نفسه فى هذه اللحظة .

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) من رواية سفيان بن عيينة عن الأسود بن قيس سمع جندباً قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودَّع محمداً ربُّه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الضحى] .

﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الروم]

أى : يعودون إلى ما كانوا عليه من الشرك بالله .

وحين نتأمل هذه المسألة نجد أن القرآن عرضها مرة بصيغة الإفراد ، فقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا .. ﴿٨﴾ ﴾ [الزمر]

وقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس]

لكن الكلام عن الإنسان المفرد لا يكفى لإثبات الظاهرة ؛ لأن الإنسان الواحد يمكن أن يستذل أمام ربه ، ويعود إليه بعد أنْ تجرأ على معصيته ، يكون ذلك بينه وبين نفسه ، فلا يفضح نفسه أمام الناس ، فأراد سبحانه أنْ يثبت هذه المسألة عند الناس جميعاً ؛ ليفضح بعضهم بعضاً ، فذكر هنا ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الروم]

وفى آية أخرى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت]

فجاء بصيغة الجمع ليفضح الكافرين بعضهم أمام بعض ، وقد يكون فى هؤلاء الداعين مَنْ كان يُؤلّبهم على الله ، ويصرفهم عن الإيمان به ، وها هو الآن يدعو ويتضرع ، وحين يُفتضح أمرهم يكون ذلك أدْعى لاستقامتهم وأدعى ألاَّ يتكبر أحد على أحد .

لذلك قلنا فى ميزات الصلاة أنها تُسوِّى بين الناس ، فيجلس الرجل العادى بجوار مَنْ لم يكُن يُؤمَل أنْ يجلس بجواره ، ويجده خاضعاً معه مطاوعاً للإمام .. الخ ففى الصلاة ، الجميع سواء ، والجميع منتفع بهذه المساواة ، آخذ منها عبرة ، فلا يتكبر بعدها أحد على أحد .

ونقف هنا عند ﴿مَسَّ .. (٣٣)﴾ [الروم] وهو اللمس الخفيف ، فالمعنى مسَّهم اليسير من الضر ، ومع ذلك ضاقتْ أسبابهم عن دفعه ، وضَجُّوا يطلبون الغَوْث .

وكلمة ﴿أَذَاقَهُم .. (٣٣)﴾ [الروم] الذوق حاسة من حواس الإنسان يُحسُّ بها الطعام عند مروره على منطقة معينة فى اللسان ، فإذا ما تجاوز الطعامُ هذه المنطقةَ لا يشعر الإنسان بطعمه .

إذن : فلَذَّة الطعام مقصورة على هذه المنطقة فى الفم ، والتذوق أقوى انفعالات النفس فى استقبال المذاق ؛ لذلك يقولون فى الأمثال (اللى يفوت من اللسان بقى نتان) .

وتأمل ، كيف استعمل الحق سبحانه الإذاقةَ فى مجال العذاب حين ضرب لنا هذا المثل : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا[1] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ [النحل]

فذكر الإذاقة مع أن اللباسَ يستوعب الجسم كله ، وكذلك الجوع والخوف ، فكل منهما إحساس يستولى على الإنسان كله ، ومع ذلك قال ﴿فَأَذَاقَهَا.. (١١٢)﴾ [النحل] لأن الإذاقة أقوى أنواع الإدراك .

وكلمة ﴿مِّنْهُ .. (٣٣)﴾ [الروم] أى : من الله تعالى ، يعنى بلا أسباب ، أو ﴿أَذَاقَهُم مِّنْهُ.. (٣٣)﴾ [الروم] أى : بدَّل الضر برحمة ، وخلَّصهم من الضُّرِّ برحمة . كما أن الإذاقة وإنْ دلَّتْ على الانفعال الشديد للمستقبل ، فإنها أيضاً تدلُّ على التناول الخفيف بلُطْف ، كما

---

(١) رُغد العيش : اتسع وطاب . وقوله : ﴿وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا .. (٣٥)﴾ [البقرة] أى : أكلاً طيباً موسعاً عليكم فيه . [القاموس القويم ١/٢٦٩] .

تقول : ذُقْتُ الطعـام . أو تـقـول : والله ما ذُقْتُ لفلان طعـاماً يعنى : ما أكلتُ عنده من باب أوْلى .

لذلك الحق سـبحانه وتعـالى عبـر عن الرحمة هـنا بالإذاقة ؛ لأن رحـمة الدنيـا لا تستـوعب كل رحمـة الله ، فالـقليل منها فى الدنيـا ، وجُلُّها فى الآخرة .

ونلحظ في قـوله تعالى : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾ [الروم] ، أما فى الآية الأخرى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) ﴾ [العنكبوت]

فلمـاذا قـال فى الأولى ﴿ إِذَا فَـرِيقٌ مِّنْهُم .. (٣٣) ﴾ [الروم] وفى الأخرى : ﴿ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) ﴾ [العنكبوت] فلم يستثْنِ منهم أحداً ؟

قـالوا : لأن الآية الأولى تتكـلم عن الذين دَعَـوا الله فى البَـرِّ ، والناس فى البر عـادة ما يكونون مخـتلفين ، فيـهم الصالح والطالح ، والمطيع والعـاصى ، فهم مـختلفـون فى رَدِّ الفعل ، فـالمؤمنون لـما عَاينوا النجاة ورحمة الله قالوا : الحـمد لله الذى نجانا ، أما المشركون فعادوا إلى كُفْرهم وعنادهم .

أما الآية الأخـرى فتـتكلم عن الذين دَعَـوا الله في البحـر ، وعادة ما نـرى الذين يركبـون البحـر على شاكلة واحـدة ، وهم لا يركبـونه كوسيلة للسفر ، إنما للترف ، كما نرى البعض يتخذ لنفسه يختاً مثلاً أو عـوَّامة يجـمـع فـيهـا أتبـاعه ومَنْ هم على شـاكلتـه ، ولا بُدَّ أنهم يجـتمـعـون على شيء يحـبـونه ، فهم عـلى مذهب واحـد ، وطريقـة واحدة ، وسلوك واحد .

إذن : ما دام هؤلاء كـانوا في البحر فـلا بُدَّ أنهم كانوا مجـرمين

عتاة ، وكانوا سواسية فى الشرك وفى التخلِّى عن الله ، بمجرد أنْ أمنوا الخطر ، لذلك استخدم الأسلوب هنا ﴿إِذَا.. (٣٣)﴾ [الروم] الفَجائية واستخدمه فى آية أخرى ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥)﴾ [العنكبوت] فبعد أنْ أنجاهم الله أسرعوا العودة إلى ما كانوا عليه من الشرك .

ففى هذه الآية الحق سبحانه يُبيِّن لنا حقيقة الإنسان ، ومدى حرصه على جَلْب الخير لنفسه ، فإنْ كان الخير الذى أعدَّه الله له يُبطره ويُطغيه كما قال سبحانه ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]

فإنه لا مناصَ له من أنْ يرجع إلى ربه حين ينفض الله عنه كُلَّ أسباب الخير ، ويهدده فى نفسه وفى ذاته التى لم تنتفع بآيات الله فى الكون ، فتظل فى حضانة الله ، فيأتى له بالضُّر الذى ينفض عنه كلّ أسباب البطَر والأشَر والاستعلاء .

ولكنه لا يسلم نفسه للضر الذى يهلكه ، بل عندها يتنبه أن له رباً يلجأ إليه ، ولا يجد مفزعاً فى الكون إلا هو ؛ لأنه يعلم جيداً أن الذين أخذوه من الله فآمن بهم وكفر بالله لن ينفعوه بشىء ؛ لأنه عبد من دون الله آلهة لا تضر ولا تنفع .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧)﴾ [الإسراء] فهؤلاء الذين تدعونهم لا يعرفون طريقكم ، وإنْ عرفوا لا يملكون أنْ يصلوا إليكم ، أما أنا فربكم الأعلم بكم ، والقادر على إغاثتكم ، وإنزال الرحمة بكم .

إذن : فهؤلاء المشركون أشركوا بالله فى وقت الرخاء ، أما فى وقت الضيق والكرب فلن يخدع أحدهم نفسه ، ولن يغشّها لن يقول : يا هُبَل . لأنه يعلم أن هُبَلَ لا يسمعه ولا يجيبه ، فلا ينفعه الآن ،

ولا ينجيه إلا الإله الحق ، فقد ألجأتْه الضرورة أن يعترف به ويدعوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

يتبادر إلى الذهن أن اللام فى ﴿ لِيَكْفُرُوا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الروم] لام التعليل ، أو لام السببية التى يكون ما بعدها سبباً لما قبلها ، كما تقول : ذاكر لتنجح ، وكذلك فى الشرط والجواب : إنْ تذاكر تنجح فعِلَّة المذاكرة النجاح .

فهل يستقيم المعنى هنا على هذا الفهم ؟ وهل نجاهم الله وأذاقهم الرحمة ليكفروا به ؟

نقول : ليس الشرط سبباً فى مجىء الجواب كما يفهم السطحيون فى اللغة ، بل الجواب هو السبب فى الشرط ، لكنهم لم يُفرِّقوا بين سبب دافع وسبب واقع ، فالتلميذ يذاكر لأن النجاح ورد بباله ، وتراءتْ له آثاره الطيبة أولاً فدفعتْه للمذاكرة .

إذن : فالجواب سبب فى الشرط أى : سبب دافع إليه ، فإذا أردتَ أن يكون واقعاً فقدِّم الشرط ليجىء الجواب .

وكما تقول : ركبتُ السيارة لأذهب إلى الأسكندرية ، فركوب السيارة ليس سبب ذهابك للأسكندرية ؛ لأنك أردْتَ أولاً الذهاب فركبتَ السيارة ، فلما ركبتها وصلتَ بالفعل . إذن : نقول : الشرط سبب للجواب دافعاً يدفع إليه ، والجواب سبب للشرط واقعاً .

فهنا نجَّاهم الله من الكرب ، وأذاقهم رحمته لا ليكفروا به ، إنما ليُبيِّن لهم أنه لا مفزعَ لهم إلا إليه ، فيتمسكون به سبحانه ، فيؤمن منهم الكافر ، ويزداد مؤمنهم إيماناً ، لكن جاء ردُّ الفعل منهم على خلاف ذلك ، لقد كفروا بالله ؛ لذلك يسمون هذه اللام لام العاقبة أى : أن كفرهم عاقبة النجاة والرحمة .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - لو ضممتَ طفلاً مسكيناً إلى حضانتك وربَّيته أحسن تربية ، فلما شبَّ وكَبِر تنكَّر لك ، واعتدى عليك ، فقلت للناس : ربَّيته ليعتدى علىَّ ، والمعنى : ربَّيته ليحترمنى ويحبنى ، لكن جاءت النتيجة والعاقبة خلاف ذلك ، وهذا يدل على فساد التقدير عند الفاعل الذى ربَّى ، وعلى لُؤْم وفساد طبع الذى رُبِّى .

فالأسلوب هنا ﴿لِيَكْفُرُوا .. ﴿٣٤﴾﴾ [الروم] يحمل معنى التقريع ؛ لأن ما بعد لام العاقبة ليس هو العلة الحقيقية لما قبلها ، إنما العلة الحقيقية لما قبلها هو المقابل لما بعد اللام : أذاقهم الرحمة ، ونجاهم ليؤمنوا ، أو ليزدادوا إيماناً ، فما كان منهم إلا أنْ كفروا .

ولهذه المسألة نظائر كثيرة فى القرآن ، كقوله تعالى فى قصة موسى : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. ﴿٨﴾﴾ [القصص]

ومعلوم أنهم التقطوه ليكون لهم قُرَّة عين ، ولو كانوا يعلمون هذه العاقبة لأغرقوه أو قتلوه كما قتلوا غيره من أطفال بنى إسرائيل ، وكما يقولون فى الأمثال (بيربى خنَّاقه) .

فهذا دليل على غفلة الملتقط ، وعلى غبائه أيضاً ، فكيف وهو يُقتِّل الأولاد فى هذا الوقت بالذات لا يشكّ فى ولد جاء فى تابوت مُلْقىً فى البحر ؟ أليس فى هذا دلالة على أن أهله يريدون نجاته من

القتل ؟ لكن كما قال سبحانه : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ[1] بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

فأنت تُقتِّل فى الأطفال لرؤيا أخبرك بها العرافون ، فسيأتى مَنْ تخاف منه إلى بابك ، وستأخذه وتُربِّيه فى حضنك ، وسيكون زوال مُلْكك على يديه ، فلا تظن أنك تمكر على الله .

والقصة تدل على خيبة فرعون وخيبة العرافين ، فإذا كنتَ قد صدَّقْتَ العرافين فيما أخبروك به فما جدوى قَتْل الأطفال ، وأنت لن تدرك مَنْ سيكون زوال مُلْكك على يديه ولن تتمكن منه ؟ فلماذا تحتاط إذن ؟

لذلك يجب أن يكون تفكير البشر فى إطار أن فوق البشر رباً ، والرب يكلف العدو ليأتى بعدو له ليقضى عليه ، وهو سبحانه خير الماكرين ، والمكْر الحق أن يكون خُفْية بحيث لا يشعر به الممكور به .

وقد وصل بنا الحال فى القرن العشرين أن نقول : الصراحة مكْر القرن العشرين . يعنى : مَنْ أراد أنْ يمكر فليقُل الحق وليكُنْ صريحاً ؛ لأننا أصبحنا فى زمن قلَّتْ فيه الصراحة وقول الحق ، لدرجة أنك حين تُحدِّث الناس بالحق يشكُّون فيك ، ويستبعدون أن يكون قولك هو الحق ، كالذى قال لجماعة يطلبونه ليقتلوه : أنا سأذهب إلى المكان الفلانى فى الوقت الفلانى فقالوا : إنه يُضلِّلنا ويمكر بنا رغم أنه صادق فيما أخبرهم به .

وبعد أنْ تربَّى موسى ـ عليه السلام ـ فى بيت فرعون ، ثم كلَّفه

---

(١) أى : أن الله يملك أن يصرف قلب الإنسان ويُغيِّر نيته كما يريد ، فالمرء لا يملك قلبه وإنما الله هو الذى يملكه . [القاموس القويم ١/١٧٩] .

ربه بالرسالة ، وذهب إلى فرعون يدعوه إلى الله قال له : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الشعراء]

نعم ربَّيتنى وليداً ، لكن الذى ربّانى وربّاك هو الذى بعثنى إليك ، فأنا أبرّ المربى الأعلى قبل أنْ أبرَّ بك ، وفى هذا إشارة إلى أن عناية الله هى الأصل فى تربية مَنْ تحب ، فإياك أنْ تقول : ربَّيْتُ ولدى حتى صار كذا وكذا ، بل عليك بالأخْذ بأسباب التربية ، وتترك المربِّى الأعلى هو الذى يُربِّى على الحقيقة .

وهذا المعنى فطن إليه الشاعر ، فقال :

إذَا لَمْ تُصَادفْ فى بَنِيكَ عنَايةٌ ... فَقَدْ كَذَبَ الرَّاجِى وخَابَ المؤملُ

فَمُوسَى الذى ربَّاه جِبْريلُ كَافرٌ ... ومُوسَى الذى ربَّاهُ فِرْعَونُ مُرسَل

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الروم] لأنه كفر ليتمتع بكفره فى الدنيا ؛ لأن للإيمان مطلوبات صعبة تشقُّ على النفس ، فيأمرك بالشىء الثقيل على نفسك ، وينهاك عن الشىء المحبب إليها ، أما الأصنام التى عبدوها من دون الله وغيرها من الآلهة فلا مطلوبَ لها ولا منهج .

لكنه متاع الحياة الدنيا ومتاع الدنيا قليل ؛ لأن الدنيا بالنسبة لك مدة بقائك فيها فلا تقُلْ إنها ممتدة من آدم إلى قيام الساعة ، فهذا العمر الطويل لا يعنيك فى شىء ، الذى يعنيك عمرك أنت .

ومهما كان عمر الإنسان فى الدنيا فهو قصير وتمتُّعه بها قليل ، ثم إن هذا العمر القصير مظنون غير مُتيقن ، فربما داهمك الموت فى أىِّ لحظة ، ومَنْ مات قامت قيامته[1] .

---

(١) رواه الديلمى فى مسنده (١١١٧) عن أنس رفعه بلفظ : « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته » وقال العجلونى فى كشف الخفاء (٢٦١٨) : « رُوى عن أنس : أكثروا ذكر الموت فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسَّعه عليكم ، الموت القيامة ، إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته ، يرى ماله من خير وشر » .

لذلك أبهم الحق - سبحانه وتعالى - الموت ، ونثر أزمانه في الخَلْق : فهذا يموت قبل أن يولد ، وهذا يموت طفلاً ، وهذا يموت شاباً .. الخ وإبهام الموت سبباً وموعداً ومكاناً هو عَيْن البيان ؛ لأنه أصبح شاخصاً أمام كل منَّا ينتظره في أيِّ لحظة ، فيستعد له .

ونلحظ هنا أن الأسلوبَ القرآني عطف فعل الأمر ﴿فَتَمَتَّعُوا.. (٣٤)﴾ [الروم] على الفعل المضارع ﴿لِيَكْفُرُوا.. (٣٤)﴾ [الروم] ، وفي موضع آخر قال سبحانه : ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. (٦٦)﴾ [العنكبوت] فجعل التمتُّع ليس خاضعاً لفعل الأمر ، إنما للعلة : ليكفروا وليتمتعوا .

لذلك اختلفوا حول هذه اللام . أهي للأمر أم للتعليل ، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤)﴾ [الروم] جاءت بعد ﴿فَتَمَتَّعُوا.. (٣٤)﴾ [الروم] وهذه جاءتْ معطوفة على ﴿لِيَكْفُرُوا .. .. (٦٦)﴾ [العنكبوت] فكأنه قال : اكفروا وتمتعوا ، لكن ستعلمون عاقبة ذلك .

والذي جعلهم يقولون عن اللام هنا لام التعليل أنها مكسورة ، أما لام الأمر فساكنة ، فلما رأوا اللام مكسورة قالوا لام التعليل ، أما الذي فهم المعنى منهم فقال : ما دام السياق عطف فعل الأمر فتمتعوا على المضارع المتصل باللام ، فاللام للأمر أيضاً ، لأنه عطف عليها فعل الأمر ، وهو هنا للتهديد .

لكن ، لماذا كُسِرَتْ والقاعدة أنها ساكنة ؟ قال أحد النحاة : لام الأمر ساكنة ، ويجوز أنْ تُكْسَر ، واستشهد بهذه الآية ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. (٦٦)﴾ [العنكبوت]

ونقول لمن يقول : إنها لام التعليل : إذا سمعت لام التعليل فاعلم أنها تعني لام العاقبة ؛ لأن الكفر والتمتّع لم يكُنْ سبباً في إذاقة الرحمة .

ويا مَنْ تقول لام الأمر سيقولون لك : لماذا كُسرت ؟ وفي القرآن شواهد كثيرة تدل على أنها قد تُكسر ، واقرأ قوله تَعالى : ﴿وَأَذِّن فِي

النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ .. (٢٨)﴾ [الحج] فاللام هنا مكسورة لأنها لام التعليل .

ثم قال بعدها : ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)﴾ [الحج] فاللام سُكِّنَتْ لأنها لام الأمر .

وفي آية أخرى جُمعت اللامان : ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ .. (٧)﴾ [الطلاق] فجاءتْ لام الأمر مكسورة ؛ لأنها في أول الجملة ، ولا يُبتدأ في اللغة بساكن ، فحُرِّكت بالكسر للتخلص من السكون ، ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. (٧)﴾ [الطلاق] فجاءت لام الأمر ساكنة ؛ لأنها واقعة في وسط الكلام .

لذلك يجب أن يتنبه إلى هذه المسألة كُتَّاب المصحف ، وأن يعلموا أن كلام الله غالب ، فقد فات أصحاب رسم المصحف أنه مبنيٌّ من أوله إلى آخره على الوصل ، حتى في آخر آيات سورة الناس وأول الفاتحة نقول ﴿ الذي يُوَسْوِسُ في صُدورِ النَّاسِ منَ الجنَّةِ والنَّاسِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ ... ﴾ .

فآخرُ القرآن موصول بأوله ، حتى لا ينتهي أبداً . وعليه فلا ترسم ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ .. (٧)﴾ [الطلاق] بالكسر ، إنما بالسكون ، لأنها موصولة بما قبلها .

وكلمة ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤)﴾ [الروم] تدلُّ على التراخي واستيعاب كل المستقبل ، سواء أكان قريباً أم بعيداً ، فهي احتياط لمن سيموت بعد الخطاب مباشرة ، أو سيموت بعده بوقت طويل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

كلمة (أم) لا تأتى بداية ؛ لأنها أداة تفيد التخيير بين أمرين ، كما تقول : أجاء زيد أم عمرو ؟ فلا بُدَّ أنْ تأتى بين متقابلين ، والتقدير : أهُمْ اتبعوا أهواءهم ، أم عندهم كتابٌ أُنزل إليهم فهو حجة لهم على الشرك ؟ وحيث إنهم لم ينزل عليهم كتاب يكون حُجَّة لهم فلم يَبْقَ إلا الاختيار الآخر أنهم اتبعوا أهواءهم .

والفعل ﴿ أَنزَلْنَا .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الروم] الإنزال يقتضى عُلُوَّ المنزِّل منه ، وأن المنزَّلَ عليه أدْنى ، فالإنزال من علُو الربوبية إلى ذُلِّ العبودية . ونحن لم نَرَ الإنزال ، إنما الذى تلقَّى القرآن أول مرة وباشر الوحى هو الذى رآه وأخبرنا به .

والأصل فى الإنزال أن يكون من الله تعالى ، وحين ينزل الله علينا إنما ليعطينا سبحانه شيئاً من هذا العُلُو ، سواء أكان العُلُو معنوياً ؛ لأن الله سبحانه ليس له مكان ، أم عُلُواً حسِّياً كما فى ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد]

والسلطان : من التسلُّط ، وهى تدلُّ على القوة ، سواء أكانت قوة الحجة والبرهان ، فمَنْ أقنعك بالحجة والبرهان فهو قوىٌّ عليك ، أو قوة قهر وإجبار كمَنْ يُرغِمك على فعل شىء وأنت كاره ، أما سلطان الحجة فتفعل وأنت راضٍ ومقتنع .

وإذا استقرأنا كلمة سلطان نجد أن الله تعالى عرضها لنا فى

موقف إبليس في الآخرة ، حين يتبرأ من الذين اتبعوه : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم.. ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم]

أى : لم يكُنْ لى عليكم سلطان حجة وإقناع أستحوذ به على قلوبكم ، ولم يكُنْ لى عليكم سلطان قهر ، فأقهر به قوالبكم ، والحقيقة أنكم كنتم (على تشويرة) مجرد أنْ دعوتكُم جئتم مُسرعين ، وأطعتُم مختارين .

وهذا المعنى يُفسِّر لنا شيئاً في القرآن خاض الناس فيه طويلاً - عن خُبْث نية أو عن صدق نية - هذا في قوله تعالى مرة لإبليس ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. ﴿٧٥﴾﴾ [ص] ومرة أخرى : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف]

فالأولى تدل على سُلْطان القهر ، كأنك كنتَ تريد أنْ تسجد فجاء مَنْ منعك قهراً عن السجود ، والأخرى تدل على سلطان الحجة والإقناع ، فلم تسجد وأنت راضٍ ومقتنع بعدم السجود[1] .

وقوله تعالى : ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الروم] أى : ينطق بما كانوا به يشركون ، يقول : اعملوا كذا وكذا ، فجاء هذا على وَفْق هواهم .

---

(١) قال الإمام أبو يحيى زكريا الأنصاري في كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن » (ص ١٣٧) طبعة دار الصابوني : « قوله ﴿أَلاَّ تَسْجُدَ .. ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف] قال ذلك بزيادة « لا » كما في قوله تعالى : ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الحديد] وقال في « ص » بحذفها ، وهو الأصل ، فزيادتها هنا لتأكيد معنى النفي في « منعك » . أو : لتضمين « منعك » حملك ، وهي على الثاني ليست زائدة في المعنى » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

جميل أنْ يفرح الناس ، وأنْ يستبشروا برحمة الله ، لكن ما لهم إذا أصابتهم سيئة بما قدَّمتْ أيديهم يقنطون ؟ فمُجرى الرحمة هو مُجرى السيئة ، لكنهم فرحوا فى الأولى لأنها نافعة فى نظرهم ، وقنطوا فى الأخرى ؛ لأنها غير نافعة فى نظرهم ، وكان عليهم أنْ يعلموا أن هذه وتلك من الله ، وأن له سبحانه حكمةً فى الرحمة وحكمةً فى المصيبة أيضاً .

إذن : أنتم نظرتم إلى شىء وغفلتم عن شىء ، نظرتُم إلى ما وُجد من الرحمة وما وُجد من المصيبة ، ولم تنظروا إلى مَنْ أوجد الرحمةَ ، ومَنْ أوجد المصيبةَ ، ولو ربطتم وجود الرحمة أو المصيبة بمَنْ فعلها لَعلمتُم أنه حكيم فى هذه وفى تلك ، فآفة الناس أنْ يفصلوا بين الأقدار ومُقدِّرها . إذن : ينبغى ألاَّ تنظروا إلى ذات الواقع ، إنما إلى مَنْ أوقع هذا الواقع .

فلو دخل عليك ولدك يبكى ؛ لأن شخصاً ضربه ، فأول شىء تبادر به : مَنْ فعل بك هذا ؟ فإنْ قال لك : فلان تقول : نعم إنه يكرهنا ويريد إيذاءنا .. الخ فإنْ قال لك : عمى ضربنى فإنك تقول : لا بُدَّ أنك فعلتَ شيئاً أغضبه ، أو أخطأتَ فى شىء فعاقبك عليه .

إذن : لم تنظر إلى الواقع فى ذاته ، إنما ربطت بينه وبين مَنْ أوقعه ، فإنْ كان من العدو فلا بُدَّ أنه يريد شراً ، وإنْ كان من الحبيب فلا بُدَّ أنه يريد بك خيراً .

وهكذا ينبغي أن نربط بين الموجـود ومَنْ أوجده ، فإنْ كان الذى أوجد الواقع رَبٌّ فيـجب أنْ تتأمل الحكمة ، ولن نتحـدث عن الرحمة ، لأن النفع ظاهر فـيها للجـميع ، لكن تعـال نسأل عن المـصيـبة التى تُحزِن الناس ، فيقنطوا وييأسوا بسببها .

ونقـول : لو نظـرتَ إلى مَنْ أنزلهـا بك لارتاح بـالك ، واطمـأنتْ نفسك ، فالمصيبة تعنى الشيء الذى يصيبك ، خيراً كان أم شراً ، ألاَ ترى قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ .. (٧٩) ﴾ [النساء]

فالمصيبة لا تُذَمُّ فى ذاتها ، إنما بالنتيجة منها ، وكلمة أصاب فى الحسنة وفى السيـئة تدلُّ على أن سـهمها أُطلق عليك ، وعـمرها مقدار وصـولهـا إليك ، فـهى لا بُدَّ صـائبتـك ، لنَ تتـخلَّف عنك أبداً ، ولن تُخطئك ؛ لأن الذى أطلقهـا إله ورب حكيم ، فإنْ كانت حسنـة فسوف تأتيك فلا تُتعب نفـسك ، ولا تُزاحم الناس عليها ، وإنْ كانت مصـيبة فإياك أنْ تقـول : أحتـاط لهـا لأدفعها عن نفـسى ؛ لأنه لا مهربَ لك منها .

ثم لمـاذا تقنط وتيـأس إنْ أصـابتْك مـصيـبـة ؟ لمـاذا لا تنتظر وتتأمل ، لعل لها حكمة ، ولعل من ورائها خيراً لا تعلمه الآن ، وربما كانت ضائقة سوف يكون لها فرج قريب.

ألم تقرأ : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ .. (٢١٦) ﴾ [البقرة]

أتذكرون حادث عـمارة الموت وقد طردوا منهـا البواب وأسرته ، وجعلوا منهـا قضية فى المحـكمة ، وبعد أن انهارتْ العـمارة ، وتبيَّن للبواب وأسرته أن ما ظنوه شراً ومصـيبة كان هو عَيْن الخير .

إذن : لا تقنط من ضُرٍّ أصابك ، واعلم أن الذى أجراه عليك ربك ، وأن له حكمة فانتظر حتى تتكشف لك ، ولا يقنط إلا مَنْ ليس له ربٌّ يلجأ إليه .

ثم تعالَ نناقشك فى المصيبة التى قَنَط من أجلها : ألكَ دَخْلٌ فيها ؟ أم ليس لك دَخْل ؟ إنْ كان لك دَخْل فيها كالتلميذ الذى أهمل دروسه فرسب في الامتحان ، فعليك أن تستقبل هذه المصيبة بالرِّضا ، فالرسوب يُعدِّل لك خطأك ، ويلفتك إلى ما كان منك من إهمال حتى تتدارك الأمر وتجتهد .

فإنْ كانت المصيبة لا دَخْلَ لك فيها ، كالذى ذاكر واجتهد ، ومع ذلك لم يُوفَّق لمرض ألمَّ به ليلة الامتحان ، أو لعارض عرض له ، نقول : إياك أنْ تفصل المصيبة عن مُجريها وفاعلها ، بل تأمَّل ما يعقُبها من الخير ، ولا تفصل المصيبة عن مُجريها عليك ولا تقنط .

وابحث عن حكمة ربك من إنزال هذه المصيبة بك ، كالأم التى تقول لابنها : يا بُنى أنت دائماً متفوق والناس تحسدك على تفوقك ، فلعل رسوبك يصرف عنك حسدهم ، ويُنجيك من أعينهم ، فيكفوا عنك .

وحينما يأتى أبوه يقول له : يا بنى هَوِّن عليك ، فلعلَّك إنْ نجحت هذا العام لم تحصل على المجموع الذى تريده ، وهذه فرصة لتتقوى وتحصل على مجموع أعلى . إذن : لن تُعدم من وراء المصيبة نفعاً ، لأن ربك قيوم ، لا يريد لك إلا الخير .

لذلك حين تستقرىء الأحداث تجد أناساً فُضِحوا وأُخذوا بما لم يفعلوا ، وذهبوا ضحية شاهد زور ، أو قاضٍ حكَم عن هوىً .. إلخ لكن لأن ربك قيوم لا يغفل يُعوِّض هذا المظلوم ويقول له : لقد أصبح

لك نقطة عندي في حسابك ، فأنت اتُّهِمْتَ ظلماً ، فلك عندي إذا ارتكبتَ جريمة أنْ أنجيك منها فلا تُعاقَب بها ، وأنت يا من عَمَّيْتَ على العدالة ، وشهدتَ زوراً ، أو : أخذت ما ليس لك ، أو أفلتَّ من العقاب فسوف أُوقعك في جريمة لم تفعلها .

إذن : القنوط عند المصيبة لا محلَّ له ، ولو ربطتَ المصيبة بمجريها لعلمتَ أنه حكيم ، ولا بُدَّ أنْ تكون له حكمة قد تغيب عنك الآن ، لكن إذا أدرتَ المسألة في نفسك ، فسوف تصل إلى هذه الحكمة .

وحين ننظر إلى أسلوب الآية نجد فيه مفارقات عديدة ، ففي الكلام عن الرحمة قال ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا .. (٣٦) ﴾ [الروم] فاستخدم أداة الشرط (إذا) .

أما في المصيبة فقال ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) ﴾ [الروم] فاستخدم أداة الشرط (إنْ) ، فلماذا عدلَ عن رتابة الأسلوب من إذا إلى إن ؟

قالوا : حين تقارن بين النعَم وبين المصائب التي تنزل بالإنسان في دنياه تجد أن النعم كثيرة والمصائب قليلة ، فنعم الله متوالية عليك في كل وقت لا تُعدُّ ولا تحصى ، أمّا المصائب فربما تُعَدُّ على الأصابع .

لذلك استخدم مع النعَم (إذا) الدالة على التحقيق ، ومع المصيبة استخدم (إنْ) الدالة على الشك ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) ﴾ [النصر] فاستعمل إذا لأنها تدلُّ على التحقيق وتُرجِّح حدوث النصر ، وقال سبحانه : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ .. (٦) ﴾ [التوبة]

كمـا نـلحظ فى أسلوب الآية أنهـا لم تذكـر السـبب فى إذاقـة الرحمـة ، إنما ذكرتْ سـبب المصيـبة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٣٦) ﴾ [الروم] ليدلَّ على عـدله تعالى فى إنزال المصـيبة ، وتفـضُّله فى إذاقة الرحمة ؛ لأن الرحمة من الله والنعَم فضل من الله .

لكن فى المصيـبة قال ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٣٦) ﴾ [الروم] فذكر العلّة حتى لا يظن أحد أن الله تعالى يُجرى المصـيبة على عبده ظلماً ، بلَ بما قدَّمَتْ يداه ، فالمسـألة محكومة بالعدل الإلهى .

وبين الفـضل والعدل بوْن شـاسع ، فلو جـاءك خَصْـمان لتـحكم بينهمـا تقول : أحكم بينكمـا بالعدل ، أم بأفضل من العـدل ؟ يقول : وهل هناك أفضل من العدل ؟ إذن : نريد العـدل ، لكن تنبَّه لأن العدل يعطيك حقك ، والفضل يُترِكك[1] حقك .

فكأن الحق سـبـحـانه يقـول لنا : إياكم أنْ تظـنوا أنكمَ ناجـون بأعمالكم ، لا إنمـا بالتفضل عليكم : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

يعنى : مهمـا جمعتُم من الطاعات فلن تـكفيكم ، ولا نجاةَ لكم إلا برحمة من الله وفضل .

فـالحق ـ تبـارك وتعـالى ـ يريد منا أن نـعـرف أن رحـمـة الله وسـعتْ كل شـىء ، وأنه مع مـا أنعم به عـليكم من نـعَم لا تُعَـدُّ

---

(١) وَتَره حقه وماله : نقصه إياه . وفى التنزيل العزيز : ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) ﴾ [محمد] . أى : لن ينقصكم من ثوابكم شيئاً . [لسان العـرب ـ مادة : وتر] . والمعنى المقصود أن الحكم بالعدل يعطـى كلا المتخـاصمين حـقه ، أما الفـضل فمن يحكم قد ينظر إلى فـضيلة أحدهما وعلو همته وشـرفه فينقص من حقه ، لأنه يعلم رجاحة عقله وقناعـته وعفته . والله أعلم .

ولا تُحصى لا يُعاقبكم إلا بشيء اقترفتموه يستحق العقاب ؛ ذلك لأنه رَبٌّ رحيم حكيم .

وما دام الأمر كذلك فانظر إلى آثار رحمة ربك في الكون ، وتأمل هذه النعَم ، وقفْ عند دقَّة الأسلوب في قوله سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

فالعَدُّ يقتضي الكثرة و ﴿ نِعْمَتَ .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم] مفرد ، فكيف نعدٌّ يا رب ؟ قالوا : نعم هي نعمة واحدة ، لكن في طياتها نِعَم فلو فتشتها لوجدتَ عناصر الخيرية فيها لا تُعَد ولا تُحصَى .

لذلك لما تعرضتْ الآيات لعَدِّ نعَم الله استخدمتْ (إنْ) الدالة على الشكِّ ؛ لأنها لا تقع تحت الحصر ولا العَدِّ ، لكن على فرض إنْ حاولت عدَّها فلن تُحصيها ، والآن ومع تقدُّم العلوم وتخصُّص كليات بكاملها لدراسة علم الإحصاء ، وخرجوا علينا بإحصاءات لأمور ولأشياء كثيرة في حياتنا ، لكن لم يتعرض أحد لأنْ يُحصي نعمة الله ، لماذا ؟

لأن الإقبال على الإحصاء لا يكون إلا مع مظنَّة أنْ تُعدَّ وتستوعب ما تحصيه ، فإنْ كان خارج نطاق استيعابك فلن تتعرض لإحصائه كما لم يتعرَّضْ أحد مثلاً لعَدِّ الرمال في الصحراء ؛ لذلك يُشككم الله في أنْ تعدُّوها ﴿ وَإِن تَعُدُّوا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم] فهو أمر مُستبعد ، ولن يكون .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) ﴾

يبسط : يُوسِّع ، ويقدر : يعنى يُضيِّق .

يعنى : ألم يروا هذه المسألة ، فواحد يُوسِّع الله عليه الرزق ، وآخر يُضيِّق عليه ، وربما صاحب السعة لم يتعب فيها ، إنما جاءته من ميراث أو خلافه ، وصاحب الضيق يكدّ ويتعب ، ومع ذلك فعيشته كفاف ، لذلك استقبل الفلاسفة هذه المسألة بما فى ضمائرهم من إيمان أو إلحاد ، فهذا ابن الراوندى[1] الملحد يقول :

كَمْ عَالمٍ عَالمٍ أعْيَتْ مَذَاهِبه   وجَاهِلٍ جَاهل تَلْقَاهُ مرْزُوقا
هَذَا الذى تركَ الأوهامَ حَائرةً   وَصيَّر العَالِم النِّحْرير زِنْديقا

فردَّ عليه آخر ممن امتلأت قلوبهم بالإيمان :

كَمْ عَالمٍ عالمٍ قَدْ باتَ فى عُسْرٍ   وجَاهِلٍ جاهلٍ قَدْ باتَ فى يُسْرِ
تحيَّر الناسُ فى هَذَا فقُلْتُ لهم   هَذَا الذى أوجبَ الإيمانَ بالقدرِ

فالعالم لا يسير بحركة ميكانيكية ثابتة ، إنما بقيومية الخالق سبحانه عليه ، فانظر إلى البسط لمن بسط الله له ، والقبض لمن قبض الله عنه ، ولا تعزل الفعل عن فاعله سبحانه ، وتأمل أن الله تعالى واحد ، وأن عباده عنده سواء ، ومع ذلك يُوسِّع على أحدهم ويُضيِّق على الآخر .

إذن : لا بُدَّ أن فى هذه حكمة ، وفى تلك حكمة أخرى ، ولو تتبعتَ عواقب السعة هنا والتضييق هناك لتراءتْ لك الحكمة .

---

(١) هو : أحمد بن يحى بن إسحاق ، أبو الحسين الراوندى ، فيلسوف مجاهر بالإلحاد ، من سكان بغداد ، نسبته إلى « راوند » من قرى أصبهان . قال ابن حجر العسقلانى : كان أولاً من متكلمى المعتزلة ثم تزندق واشتهر بالإلحاد ، وضع كتاباً فى قدم العالم ونفى الصانع وتصحيح مذهب الدهر والرد على مذهب أهل التوحيد ، وكتاباً فى الطعن على محمد ﷺ . توفى عام ٢٩٨ هـ بين الرقة وبغداد . [الأعلام للزركلى ١/٢٦٧] .

ألا ترى صاحب سعة ورزق ونعم كثيرة ، ومع ذلك لم يستطع تربية أولاده ؛ لأن مظاهر الترف جرفتهم إلى الانحراف ، ففشلوا فى حياتهم العملية . وفى المقابل نرى الفقير الذى يعيش على الكفاف يتفوق أولاده ، ويأخذون أعلى المراتب ؟ إذن : ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (٣٧)﴾ [الروم] وفق حكمة يعلمها سبحانه وتعالى .

وسبق أن ذكرنا أن فى ألمانيا مدرستين فلسفيتين فى الإلحاد ، إحداهما لواحد اسمه (جيبل) ، والأخرى لـ (بختر) أحدهما : ينكر أن يكون للعالم إله ، يقول : لو كان للعالم إله حكيم ما خلق الأعمى والأعرج والأعور .. الخ فالحكمة فى الخَلْق تقتضى المساواة ، فأخذ من الشذوذ فى الخَلْق دليلاً على إلحاده .

أما الآخر فقال : ليس للكون إله ، إنما يسير سَيْراً ميكانيكياً رتيباً ، ولو كان فيه إله لكان يخلق الخَلْق على صور مختلفة ، وتكون له إرادة مطلقة عن الميكانيكا ، فأخذ ثبات النظام دليلاً على إلحاده ليناقض مذهب سابقه .

إذن : المسألة عندهم رغبة فى الإلحاد بأىِّ شكل ، وعلى أية صورة ، واستخدام منهج مُعْوج يخدم القضية التى يسعون إلى إثباتها .

ونقول فى الرد على الأول الذى اتخذ من الشذوذ فى الكون دليلاً على عدم وجود إله حكيم : الشذوذ الذى ذكرتَ شذوذ فى الأفراد الذين يُعوض بعضهم عن بعض ، فواحد أعمى ، وآخر أعور يقابلهم ملايين المبصرين ، فوجود هذه النسبة الضئيلة لا تفسد القاعدة العامة فى الخَلْق ، ولا تؤثر على حركة البشر فى الكون فالصحيح يعوض غير الصحيح .

أما النظام الثابت الذى يريده الثانى فعليه أن ينظر إلى الملأ الأعلى ، وفى الكون الأعلى من شمس وقمر ونجوم ..الخ فسيرى فيه نظاماً ثابتاً لا يتغير ، لأن الشذوذ فى هذه المخلوقات يفسد الكون كله ؛ لذلك خلقه الله على هيئة الثبات وعدم الشذوذ .

إذن : فى النظام العام للكون نجد الثبات ، وفى الأفراد الذين يغنى الواحد منهم عن الآخر نجد الشذوذ والاختلاف ، فالثبات يثبت حكمة القدرة ، والشذوذ يثبت طلاقة القدرة .

فيا مَنْ تريد ثبات النظام دليلاً على الإيمان ، فالثبات موجود ، ويا مَنْ تريد شذوذ النظام دليلاً على الإيمان ، فالشذوذ موجود ، فما عليكما إلا أن تتفقا وأن ينفتح كل منكما على الآخر لتصلا إلى الصواب .

ومسألة الرزق لها فلسفة فى الإسلام ، فالحق سبحانه أخبرنا بأنه الرزَّاق ، فمرة يرزق بالأسباب ، ومرة يرزق بلا أسباب ، لكن إياك أنْ تغتر بالأسباب ، فقد تقدم الأسباب وتسعى ثم لا يأتيك منها رزق ، ويخيب سَعْيك كالفلاح الذى يأخذ بالأسباب حتى يقارب الزرع على الاستواء فتأتيه جائحة فتهلكه ، فاحذر أن تغتر بالأسباب ، وانظر إلى المسبِّب سبحانه .

وقلنا : ينبغى أنْ تتحرى إلى الرزق أسبابه ولا تشغلنّ بعدها بالك بأمره ، فقد تكفل به خالقك الذى استدعاك للوجود ، وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

تَحَرَّ إلى الرزْقِ أَسْبابَهُ ... ولاَ تشغلنْ بعدَهَا بَالَكا
فَإنَّك تجهلُ عنوانه ... ورِزْقُكَ يعرِفُ عُنْوانَكا

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) ﴾ [الروم] قال (لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) لأن مسألة الرزق هذه تحتاج إلى إيمان بحكمة الرازق سبحانه في الإعطاء وفي المنع .

ونلحظ على أسلوب الآية قوله تعالى في البسط : ﴿ لِمَن يَشَاءُ .. (٣٧) ﴾ [الروم] وفي التضييق ﴿ وَيَقْدِرُ .. (٣٧) ﴾ [الروم] ولم يقُلْ لمن يشاء ؛ لأن البسط في نظرنا شيء محبوب نفرح له ونتمناه فقال ﴿ لِمَن يَشَاءُ .. (٣٧) ﴾ [الروم] لنطمئن نحن إلى أننا سندخل في هؤلاء الذين سيُبْسط لهم في الرزق ، أما في التقتير فلم يقُلْ (لمنْ) ليظل مبهماً يستبعده كلٌّ منّا عن نفسه .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) ﴾

حينما نتأمل النسق القرآني هنا نجد أن الله تعالى ذكر أولاً البسْطَ في الرزق ، ثم التقتير فيه ، ثم أكَّد بعده مباشرة على حَقِّ ذي القُرْبى والمسكين وابن السبيل ، وكأنه يلفت أنظارنا أن هذه الحقوق لا تقتصر على مَنْ بسط له الرزق ، إنما هي على الجميع حتى مَنْ كان في خصاصة ، وضُيِّق عليه رزقه ، فلا ينسى هؤلاء .

لذلك يذيل الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) ﴾ [الروم] والجميع : مَنْ بُسط له ، ومَنْ قُتر عليه يريدون وجه الله .

وبمقارنة هذه الآية بآية الزكاة : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ

وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ[1] وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ [التوبة]

فلم تذكر ذا القربى الذى ذكر هنا ، وكأن الآية تشير لنا إلى أمر ينبغى أن نلتفت إليه ، وهو أن القريب عيب أن نعطيه من مال الزكاة ، وهذه آفة وقع فيها كثير من الأغنياء وحتى المتدينين منهم ، فكثيراً ما يسألون : لى ابن عم ، أو لى قريب أأعطيه شيئاً من زكاة مالى ؟

وكنتُ أقول للسائل : والله ، لو علم ابن عمك أنك تعطيه من مال الزكاة ما قبله منك ؛ لأن للقريب حقاً ، سواء أكنتَ غنياً تملك نصاب الزكاة ، أو لم تصل إلى حد النِّصَاب .

إذن : لا تربط هؤلاء الثلاثة ـ القريب والمسكين وابن السبيل ـ بمسألة الزكاة ، فلهم حَقٌّ حتى على الفقير الذى لا يملك نصاباً ، وعلى مَنْ ضُيِّق عليه رزقه .

ومع هذا الحق الذى قرره الشرع للقريب نجد كثيرين يأكلون حقوق الأقارب ، ويحتالون لحرمانهم منها ، فمثلاً بعض الناس لا ينجب ذكوراً ، فيكتب أملاكه للبنات ليحرم عمهم أو أبناء عمومتهم من الميراث ، مع أن البنت لها نصف التركة ، وإنْ كُنَّ أكثر من واحدة فلهُنَّ الثلثان ، ويُوزَّع الثلث على العم أو ابن العم ؛ ذلك لأن البنات فى هذه الحالة ليس لهن ذَكَر عصبة ، فيجعلها الشرع فى العم أو ابن العم .

والشارع الحكيم يوازن بين الأطراف ، فيأخذ منك ويعطيك ،

(١) الغارمون : جمع غارم . والغارم : مَن لزمه دين بحق وبغير حق . والمغرم : الغرامة والدَّيْن الثقيل . [القاموس القويم ٢/٥٢] .

فلماذا فى حالة موت الوالد عن هؤلاء البنات ، وليس لهُنَّ ميراث يَعُدْن على العم أو ابن العم بالنفقة ويقاضونه فى المحاكم ، فلماذا نحرمهم حقوقهم ونطالب نحن بحقوقنا ، فهذا نوع من التغفيل .

لماذا لا نعطى العم أو ابن العم وهو الذى سيحمى البنات ويسهر على راحتهن ، ويقف بجوارهن حال شدتهن ؟

إياك ـ إذن ـ أنْ تُدخِل الأقارب فى الزكاة أو تربط مساعدتهم بالقدرة ؛ لأن لهم عليك حقاً حال رخائك وحال شدتك .

ويكفى أن الحق سبحانه خصَّهم بقوله ﴿ذَا الْقُرْبَىٰ .. ۝٣٨﴾ [الروم] ولم يقُلْ : ذا المسكنة ، أو ذا السبيل ، وكلمة (ذو) بمعنى صاحب ، تدل على المصاحبة الدائمة والملازمة ، فلا نقول : فلان ذو علم لمن علم قضية أو قضيتين ، إنما لمن اتصف بالعلم الواسع وتمكَّن منه ، كذلك لا نقول فلان ذو خلق إلا إذا كان الخُلُق صفة ملازمة له لا تنفك عنه .

ومن ذلك نقول : ذو القربى يعنى ملاصقاً لك لا ينفك عنك ، فيجب أنْ تراعى حقَّه عليك ، فتجعل له نصيباً ، حتى إنْ لم تكُنْ تملك نصاباً ، وكذلك للمسكين وابن السبيل ؛ لأن الله ذكرهم معاً فى غير بند الزكاة ، فدلَّ ذلك على أن لهم حقاً غير الزكاة الواجبة .

ونلحظ أن القرآن رتَّبهم حسب الأهمية والحاجة ، فأولهم القريب لقرابته الثابتة منك ، ثم المسكين وهو متوطن معروف لك ، ثم ابن السبيل العابر الذى تراه يوماً ولا تراه بعد ذلك ، فهو حسب موضعه من الحال .

والمسكين قد يتغير حاله ، ويتيسر له الرزق فيُوسِّع الله عليه ، وابن السبيل يعود إلى بلده ، فالوصف الثابت لذى القربى ؛ لذلك وصفه الله تعالى بما يدل على الثبات .

ثم قال ﴿حَقَّهُ .. (٣٨)﴾ [الروم] فالحق ملازم له وهو أَوْلَى به ، لذلك لم يَقُل مثلاً : وآت ذا القربى حقه ، والمسكين ، وابن السبيل حقوقهم .

وقد مثّلوا لذلك بقولهم : قال الأمير : يدخل علىَّ فلان ، وفلان ، وفلان ، فالإذن بالدخول للأول يتبعه فى ذلك الباقون .

إذن : لهؤلاء الثلاثة خصوصية ، فقد أمرك الله أنْ تعطيهم من لحمك ، وألاّ تربطهم بالزكاة ولا ببسط الرزق ، أما باقى السبعة المستحقون للزكاة فلم يُلزمك نحوهم بشىء غير الزكاة المفروضة .

ولما حدث نقاش بين العلماء حول المراد بالمسكين والفقير ، أيهما أحوج من الآخر ؟ قالوا : المسكين مَنْ له مال ، ولكن لا يكفيه[1] ، واستشهد أبو حنيفة على هذا المعنى بقوله تعالى : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ .. (٧٩)﴾ [الكهف] فأثبت لهم ملكية وسماهم مساكين . أما الفقير فهو الذى لا شىء له ، وعلى هذا فالفقير أحوج من المسكين ، فيدخل فى هذه الآية من باب أَوْلَى .

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس المسكين بهذا الطوّاف الذى يطوف على الناس ، فترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان . قالوا : فما المسكين يا رسول الله قال : الذى لا يجد غنىً يغنيه ، ولا يُفطن له فيُتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً » أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٥٣٩) وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٣٩) كتاب الزكاة ، واللفظ لمسلم .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ .. (٣٨) ﴾ [الروم] أى : الإيفاء لهؤلاء ﴿ خَيْرٌ .. (٣٨) ﴾ [الروم] كلمة خير تُطلَق فى اللغة ، ويُراد بها أحد معنيين : مرة نقول خير ويقابلها شر كما فى قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة] ، ومرة نقول : خير ونقصد الأخْير كالأحسن أى : أفعل تفضيل ، كما جاء فى قول الشاعر :

زَيْدٌ خِيَارُ النَّاسِ وابْنُ الأَخْيَر

لكن الشائع أن تُستعمل خير فى أفعل التفضيل كقول النبى ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير »[1] فخَيْر الأولى بمعنى أخير . لكن لمن ؟

﴿ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ .. (٣٨) ﴾ [الروم] أى : فى الوفاء بحقِّ ذى القربى والمسكين وابن السبيل ، يريد بذلك وجه الله ، لا يريد رياءً ولا سمعة ؛ لأن الذى يفعل خيراً يأخذ أجره ممَّن فعل من أجله ، فمَنْ عمل لله مخلصاً فأجره على الله ، ومَنْ عمل للناس رياءً وسمعةً فليأخذ أجره منهم .

وهؤلاء الذين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور] أى : فوجئ بوجود إله لم يكُنْ فى باله ولم يعمل من أجله .

فمعنى ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ .. (٣٨) ﴾ [الروم] أى : يقصدون بعملهم

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٦٦/٢ ، ٣٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) ، وابن ماجه فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وجه الله ، سواء رآه الناس ، أو أخفى عمله ، حتى لا تعلم شماله ما صنعتْ يمينه ؛ لأن الأمر قائم على النية ، فقد تعطى أمام الناس ونيتك أنْ يتأسَّوْا بك ، أو لتكُفَّ عنك ألسنتهم وقدحهم فى حقك .

وحين تعطى علانية بنية خالصة لله فإنها صدقة مخصِّبة للعطاء ، مخصِّبة للأجر ؛ لأنك ستكون أُسْوة لغيرك فيعطى ، ويكون لك من الأجر مثله ؛ لأن مَنْ سَنَّ سنة حسنة فله أجرها وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة .

والقرآن الكريم عرض علينا هذه القضية في قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

ثم يعطينا مثلاً توضيحياً : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ[1] عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

فمثَل المرائى كهذا الحجر الناعم الأملس حين يصيبه المطر ، وعليه طبقة من التراب يزيحها المطر ، ويبقى هو صلْداً ناعماً لا يحتفظ بشيء ، ولا ينبت عليه شيء .

وهذا المثَل يُجسِّد لنا خيبة سَعْى المرائى ، وأنه مغفل ، سعى واجتهد فانتفع الناس بسَعْيه ، وتعدّى خيره إلى غيره ، وخرج هو خالى الوفاض من الخير ومن الثواب .

ثم يذكر الحق سبحانه المقابل : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ

---

(١) الصفوان : الحجر الصلد الضخم الذى لا ينبت شيئاً . [لسان العرب - مادة : صفا] والصلد : الأملس الذى لا يصلح للزرع . والوابل : المطر الغزير . [القاموس القويم للقرآن الكريم] .

مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) ﴾ [البقرة]

فالصدقة ابتغاء وجه الله كالأرض الخصْبة حين ينزل عليها المطر ، فيأتي نباتها مضاعفاً مباركاً فيه ، فإنْ لم يكُنْ مطر كفاها الطَّل لتنبت وتُؤتي ثمارها ، ولو قال : كمثل جنة لكانت كافية لكنها ﴿ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ .. (٢٦٥) ﴾ [البقرة] يعني : على مكان مرتفع ليدلَّ على خصوبتها ، فكلما كانت الأرض مرتفعة زادتْ خصوبتها ، وخلَتْ من المياه الجوفية التي تؤثر على النبات .

وهذه الجنة تُرْوى بالمطر يأتيها من أعلى ، فيغسل الأوراق والغصون ، فتزيد نضارتها وجودتها ، والأوراق هي رئة النبات .

والله تعالى يترك لآثار الذات في الناس تذكرةً وعبرة ، فواحد يفعل الخير بآخر ليشتريه به ، أو ليُخضع عنقه بهذا الجميل ، فتكون النتيجة الطبيعية أنْ ينكر الآخر جميله ، بل ويكرهه ويحقد عليه ، وهذا جزاء وفاقٌ لمن عمل العمل لغير وجه الله .

وهو معنى قولهم : اتَّقِ شر مَنْ أحسنتَ إليه ، لماذا ؟ لأنه حين يراك يتذكر ما لك من يَد عليه ، وما لك من فضل ، فيخزى ويشعر بالذلة ؛ لأن وجودك يدكٌّ كبرياءه ؛ لذلك يكره وجودك ، ويكره أنْ يراك .

فالحق سبحانه يقول : احذروا أنْ تُبطلوا المعروف بالرياء ، أو بالأغراض الدنية ؛ لأن معروفك هذا سيُنكر ، وسينقلب ما قدمتَ من خير شراً عليك . إذن : عليكم بالنظر في أعمالكم إلى وجه الله لا إلى غيره ، فإنْ حدث وأنكر جميلك فجزاؤك محفوظ عند الله ،

وكأن ربك - عز وجل - يغار عليك ، ويريد أنْ يحفظ لك الجميل ويدخره عنده .

وهذا المعنى عبَّر عنه الشاعر بقوله(١) :

أقُولُ لأصْحاب المرُوءَات قَولْةً ... تُريحهُمُ إنْ أحسَنُوا وتفضَّلُوا
يَسيرُ ذوو الحَاجَات خَلْفَكَ خُضَّعاً ... فَإنْ أدْركُوهَا خلَّفُوكَ وهَرْوَلُوا
فَلا تَدعِ المعْروفَ مهما تنكَّروا ... فَإنَّ ثوابَ الله أربى وأجْزَلُ

وسبق أنْ ذكرتُ قصة الرجل الذى قابلنا فى الطريق ونحن فى الجزائر ، فأشار لنا لنوصله فى طريقنا ، فتوقف صاحب السيارة وفتح له الباب ، لكنه قبل أنْ يركب قال (على كام) ؟ يعنى : ثمن توصيله . فقال صاحب السيارة : لله . فقال الرجل (غلّتها يا شيخ) .

لذلك يقول بعض العارفين : إن الذين يريدون بأعمالهم وجه الله هم الذين يُغْلون أعمالهم ، أى : يرفعون قيمتها ، ويضاعفون ثوابها .

وقوله تعالى : ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ .. (٣٨) ﴾ [الروم] بعد قوله : ﴿ وَيَقْدِرُ .. (٣٧) ﴾ [الروم] يدل فى ظاهره على أنه يأخذ منك مع أنك مُقلٌّ ، وهذا يدخل فى إطار قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. (٩) ﴾ [الحشر]

وقلنا : إن الشارع حكيم ، فإذا ألزمك وأخذ منك فإنما ذلك ليعطيك إنْ احتجتَ ، وكأنه يقول لك : اطمئن فقد أمَّنْتُ لك حياتك ، إن أصابك الفقر ، أو كنت فى يوم من الأيام مسكيناً أو ابن سبيل ، فكما فعلتَ سيُفعل بك .

وهذه المسألة واضحة فى كفالة اليتيم ، فلو أن المجتمع الإيمانى عوَّضه عن أبيه عملاً بقول النبى ﷺ : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى

---

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

الجنة»[1] لاطمأنَّ كلُّ أب على أولاده إنْ مات وتركهم ؛ لأنهم فى مجتمع يُعوِّضهم عن أبيهم بآباء كثيرين .

والإنسان إنْ كان آمناً مُنعَّماً ، فإنما يُنغِّص هذه النعمة أنها عُرْضة لأنْ تزول ، فيريد الله أنْ يُؤمِّن لعبده الحياة الكريمة فى امتداده من بعده ، وهذا هو التأمين الحق الذى أرسله الله قضية تأمينية فى الكون ، ليست فى شركات التأمين ، إنما فى يده سبحانه حيث قال :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٩) ﴾ [النساء] فإذا اتقوا الله وقالوا القول السديد ، فإن يتيمهم يصادف أناساً يكفلونه ، ويخافون عليه ، ويتولَّوْن أمره .

وسبق أنْ تعرَّضْنا فى سورة الكهف لقصة الجدار الذى تبرع الخضر - عليه السلام - ببنائه مع أنه فى قرية أهلها لئام[2] منعوهم حتى الطعام . وقلنا : إن سؤال الطعام هو أصدق سؤال ، ولا يُردُّ سائله ، ومع ذلك بناه الخضر ، وقال فى بيان أمر الجدار : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا .. (٨٢) ﴾ [الكهف]

فصلاح الأبويْن ينفع الغلامين ، فيُسخِّر الله لهما مَنْ يبنى لهما الجدار ، ويحافظ لهما على كنزهما حتى يكبرا ، ويستطيعا حمايته من

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٥) من حديث سهل بن سعد ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وتمام الحديث : « وقال بإصبعيه السبابة والوسطى » ومعنى السبابة : لأنها يسب بها الشيطان حينئذ . وفى رواية « السبَّاحة » لأنها يُسبح بها فى الصلاة فيشار بها فى التشهد لذلك . قاله ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (١٠/٤٣٦) .

(٢) اللئام : جمع لئيم ، وهو الدَّنِىء الأصل الشحيح النفس . [لسان العرب - مادة : لأم] .

هؤلاء اللئام الذين إذا علموا بأمره نهبوه من هذيْن الصغيرِيْن .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن الفارق بين الهدية والصدقة ، فيقول:

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا[1] لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يعرف أن خلْقه يفعلون الخير ، ويطلبون الأجر عليه ، لكن هذا الطلب قد يضيع إذا راءوا فى أعمالهم ، وقد يكون الأجر على قدر العمل إذا خلا من الرياء ، لكن الحق سبحانه يريد أن يرتفع بالصدقة أو بالزكاة إلى مستوى عَالٍ ، فيأخذ صاحبها الثمن من يد الله سبحانه مضاعفاً ، وطلب الزيادات يكون فى النية .

فالمؤمن مثلاً يعلم أنه إذا حُيِّىَ بتحية فعليه أنْ يردَّها بخير منها ، فقد يأتى فقير ويقدم لأحد الأغنياء هدية على قدر استطاعته ، وفى نيته أنْ يردَّها الغنى بما يناسب غنَاه ، إذن : فهو حين أعطى يطمع فى الزيادة ، وإن كانت غير مشروطة ، ويجوز أنْ يردَّ الغنىُّ على الهدية بأفضل منها ، ويجوز ألاَّ يردَّها أصلاً .

فقوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [الروم] أى : الزيادة

(١) قال ابن عباس فى هذه الآية : « الربا رباءان ، ربا لا بأس به ، وربا لا يصلح . فأما الربا الذى لا بأس به فهدية الرجل إلى الرجل يريد فضلها أو اضعافها » . [أخرجه ابن أبى حاتم] وفى قول آخر له قال : هو ما يُعطى الناس بعضهم بعضاً ، يعطى الرجلُ الرجلَ العطية يريد أن يعطى أكثر منها . [أخرجه ابن جرير الطبرى] أورد السيوطى هذين الأثرين فى الدر المنثور ٦/٤٩٥ .

بأيِّ ألوانها عما تعطى ، وهذه الزيادة غير مشروطة فى عقد ، والزيادة تكون فى المال ، أو بأيِّ وسيلة أخرى فيها نفع ؛ لأنهم قالوا فى تعريف الربا : كل قرض جَرَّ نفعاً فهو ربا[1] .

حتى أن الإمام أبا حنيفة كان يجلس فى ظل جدار لجاره ، فلما طلب منه جاره مالاً وأقرضه رآه الجار لا يجلس فى ظل الجدار كما كان يجلس ، فسأله عن ذلك فقال : كنت أجلس فى ظل جدارك وأعلم أنه تفضّل منك ، أما الآن فأخاف أنْ أجلس فيه حتى لا تظن أن هذه الجلسة للمالَ الذى أخذتَه منى .

فالمعنى : وما آتيتم من ربا تبغون به الزيادة سواء أكانتْ نفعاً ، أو مالاً ، أو غير مال ، سواء أكانت مشروطة أو غير مشروطة . قالوا : فما حكم الهدايا إنْ رُدَّتْ بأحسن منها ؟ وما ذنبى أنا المعطى فى ذلك ؟ قالوا : لا شيء فيها بشرط ألاَّ تكون فى نيتك الزيادة ، وألا تكون هديتك مشروطة ، إنما تكون تحبباً وتودداً ومعروفاً بين الناس ، إنما لا تأخذ عليها ثواباً من الله .

وقوله ﴿لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ .. (٣٩)﴾ [الروم] فى هنا للظرفية ، فالمال ظرف ، وما تضعه فيه ينقص منه ، ويزيد ما عندك ﴿فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ .. (٣٩)﴾ [الروم] يربو عندك أنت بالزيادة التى تأخذها ممَّنْ حيَّيْته ، أمّا عند الله فلا يربو .

---

(١) قال الشوكانى فى نيل الأوطار (٥/٢٣٢) : « مما يدل على عدم حل القرض الذى يجر إلى المقرض نفعاً ما أخرجه البيهقى فى المعرفة عن فضالة بن عبيد موقوفاً بلفظ « كل قرض جر منفعة فهو وجه من وجوه الربا » ورواه فى السنن الكبرى عن ابن مسعود وأبىَ ابن كعب وعبد الله بن سلام وابن عباس موقوفاً عليهم . ورواه الحارث بن أبى أسامة من حديث على عليه السلام بلفظ « إن النبى ﷺ نهى عن قرض جر منفعة » وفى رواية « كل قرض جر منفعة فهو ربا » وفى إسناده سوار بن مصعب وهو متروك . قال عمر بن زيد فـ " فنى : لم يصح فيه شىء .

هكذا قال ابن عباس[1] ، وإن كان بعض العلماء قال : هي مطلق في الربا الأصل ، وهذه مسألة كان يجب أنْ يُشرّع لها ، لكن رأى ابن عباس أن آية الربا معروفة ، وهذه للربا في زيادات التحية والمجاملات بين الناس .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَـٰئِكَ .. (٣٩)﴾ [الروم] أي : الذين يُؤتون الزكاة ويريدون بها وجه الله ﴿هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)﴾ [الروم] ليست من الإضعاف ، إنما من الأضعاف ، فالزكاة أضعاف بالفتح كما في قوله تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١)﴾ [الحديد] أما الربا فإضعاف بالكسر .

وهذه المسألة وقف عندها بعض المستشرقين الذين يحبون أنْ يستدركوا على كلام الله ، قالوا : في القرآن آيات تصادم الحديث النبوي ، فالقرآن يقول : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١)﴾ [الحديد]

إذن : القرض الحسن يضاعف به الله الثواب ، وعندكم أن الحسنة بعشر أمثالها . وقال النبي ﷺ : « مكتوب على باب الجنة : الحسنة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »[2] فلو أن القرض الحسن يضاعف الحسنة بعشر أمثالها ، فهو بعشرين لا بثمانية عشر .

---

(١) قال ابن عباس وابن جبير وطاوس ومجاهد : هذه آية نزلت في هبة الثواب . قال ابن عطية : وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه كالسلام وغيره فهو وإن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تعالى . ذكره القرطبي في تفسيره (٥٢٩٣/٧) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في مسنده (٢٤٣١) من حديث أنس بن مالك قال قال ﷺ « رأيت ليلة أسري بي على باب الجنة مكتوباً : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر . فقلت : يا جبريل ، ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ قال : لأن السائل يسأل وعنده . والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » .

فقلنا له : لو تصدقْتَ بدولار مثلاً فقد عملتَ حسنة تُضاعف لك إلى عشر ، لكن أردُّ إليك دولارك الذى تصدَّقْتَ به ؟ لا ، إذن حقيقة الأمر أنك أخذتَ تسعة تضاعف إلى ثمانية عشر .

قالوا : فلماذا زاد ثواب القرض ؟ نقول : لأن المتصدِّق حين يتصدق ينقطع أمله فيما قدَّم ، لكن المقرض لا يزال مُعلَّق البال فى القرض ينتظر ردّه ، فكلما صبر عليه أخذ أجراً ، ثم إن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، أما المتصدَّق عليه فقد يقبل الصدقة وهو غير محتاج إليها ، وربما كان ممَّنْ يكنزون المال .

إذن : فالحق سبحانه يريد أنْ يُنمى القرض لماذا ؟ قالوا : لأن الله يريد أن تسير حركة الحياة ، وأنْ تتكامل ، وأنت تعتز بمالك وتخاف عليه وتريد له النماء ، وسوف تجد هذا كله فى القرض ، فاجعله قرضاً ، فهو الباب الذى فتحه الله لك للزيادة وللثواب .

ثم إن الله تعالى احترم ملكيتك لمالك ، وحرص على حمايته لك ، فقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

فالله يحفظ عليك مالك لتهدأ بالاً من ناحيته ، ومع ذلك يترك مجالاً لأريحية المعطي ومروءته ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ .. (٢٨٣) ﴾ [البقرة]

وبهذه الفلسفة الإيمانية يدور المال وتسير به حركة الحياة ، بحيث يضمن لصاحب المال ماله ، لأنه مُحبٌّ له حريص عليه ، ويضمن لمن لا مالَ له أنْ يتحرك من مال الغير ، فإذا كانت هناك أمانة أداء ، فكل صاحب أمانة عليه أنْ يؤدِّيها لمستحقها .

فإنِ اختلت هذه الموازين ، وماطل الفقيرُ الغنيَّ ، وضنَّ عليه أنْ

يردَّ إليه حقه ، فقد فسد حال المجتمع وانهارت فيه هذه القيم ، وساعتها لا نلوم القادر على العطاء إنْ أمسك ماله عن المحتاجين للقرض ولِمَ لا ؟ والناس يأكلون الحقوق ، وبذلك تتوقف حركة الحياة ويتراجع المجتمع عن مسايرة حركة التقدم .

فإذا كان الربا غير المشروط ، وهو الربا فى الهدايا والمجاملات والتحية بين الناس جعله الله للمودَّات وللمروءات بين الناس ، لا يثيب عليه ولا يعاقب ، وقال عنه ﴿فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ.. (٣٩)﴾ [الروم]

أما الربا المشروط فقد وقف معه وقفة حازمة ، وشرع له عقاباً ، وجعل هذا العقاب من جنس ما يضادّ غرض الذي رَابَى ، فأنت ترابى لتزيد من مالك ، فيقابلك الله بالنقصان ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا .. (٢٧٦)﴾ [البقرة] لماذا ؟

قالوا : لأن المعطى غنىٌّ واجد ، لديه فائض من المال يعطى منه ، أما الآخذ فمحتاج ، فكيف نطلب من المحتاج أنْ يزيد فى مال الواجد غير المحتاج ؟ وكيف تكون نظرة المحتاج إليك حين يعلم أن عندك مالاً يزيد عن حاجتك ، ومع ذلك ترفض أن تُقرضه القرض الحسن ، بل تشترط عليه الزيادة ، فتأخذ الزيادة منه وهو محتاج ؟

ثم افرض أننى أخذت هذا القرض لأثمره وأنميه فخسر ، أليس كافياً أنْ أخسر أنا عملى ، وأنْ يضيع مجهودى ؟ أمن العدل أن أخسر عملى ، ثم أكون ضامناً للزيادة أيضاً ؟ هذه ليست من العدالة ؛ لأن شرط العقد أن يحمى مصلحة الطرفين ، أما عقد الربا فلا يحمى إلا مصلحة الدائن .

ونحن نرى حتى التشريعات الوضعية فى الاقتصاد إذا أعطى البنك مالاً لشخص لعمل مشروع مثلاً ثم خسر وأرادوا تسوية حالته ،

أول شيء في إجراءاتهم أنْ يُسقطوا عنه الفوائد .

وهذا يوافق شرع الله في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) ﴾ [البقرة] (لا تُظلمون) بمعنى : أن نردَّ إليكم رءوس أموالكم ؛ (ولا تظلمون) أي : لا نظلمك من ناحية أخرى ، فنقول لك :

إنْ أردتَ أنْ تتوب فرُدّ ما أخذتَه بالربا بأثر رجعي ؛ لأن ما أخذتَه قد صُرف وتصعب إعادته ، وبذلك نراعي مصلحة الدائن حين نعيد إليه رأس المال ، ومصلحة المدين ، فلا نكلفه ردَّ مَا لا يقدر على ردِّه .

وحين نتأمل هذه المسألة : آلدول أقوى أم الأفراد ؟ الدول ، أرأيتم دولة اقترضتْ مالاً من دولة أخرى ، ثم استطاعت أن تُسدِّد فوائد هذا الدين فضلاً عن أصل الدَّيْن ؟ كذلك الأفراد الأقوياء الذين يأخذون القروض ، ثم لا يسددون مجرد الفوائد ، ولا يستطيعون جدولتها ولا تسوية حالتهم ، فيقعون في خصومات ومشاكل .

شيء آخر ، هَبْ أن رجلاً لديه مثلاً ألف جنيه ورجل لا عند له ، صاحب الألف يستطيع أن يديرها ، وأن يعيش منها ، أما الآخر الذي لا يملك شيئاً فيقترض ليعيش مثل صاحبه ، فإنْ قلت له : الألف قرضاً بمائة جنيه ، فمن أين يوفر هذه المائة ؟

إنْ أخذها من عائد المال يخسر ، وإنْ أخذها من السلعة بأنْ يُقلل من الجودة أو من العناصر الفعالة في السلعة ، أو في التغليف ، جاءت السلعة أقلَّ من مثيلاتها وبارت . إذن : لابد أن يتحملها المستهلك ، وهذا إضرار به ، وهو ليس طرفاً في العقد ، إذن : العقد باطل .

وحين نقول : إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان يجب أن نفهم هذه القضية جيداً ، وإياك أن تقول : إن الإسلام لا يصلح فى زمان كذا ، أو فى مكان كذا .

والآن نسمع البعض ينصرف عن منهج الإسلام ويقول لك ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا .. (٢٨٦) ﴾ [البقرة] أى : ليس فى وُسْعه الآن تنفيذ شرع الله . لكن نقول له : مَن الذى يحدد الوُسْع ؟ أنت أم المشرِّع سبحانه ؟

ما دام الله تعالى قد كلَّف ، فاعلم أن التكليف فى وُسْعك ، فخذ الوُسْع من التكليف ، لا أن تُقدِّر أنت الوسع وتنسى ما كلَّفك الله به . لذلك ترى أن الله تعالى إذا ضاق الوُسْع يُخفِّف عنك دون أنْ تطلب أنت التخفيف ، كما فى صلاة وصوم المريض والمسافر .. الخ وكما فى التيمم إنْ تعذَّر استعمال الماء .

فلا معنى لأن نقول : إن تعاليم الدين لا تناسب العصر ، إذن : اجعل العصر هو المشرِّع ، وانصرف عن تشريع السماء إلى ما يحتمله العصر .

لذلك قلنا : إن الحق سبحانه حينما يلقى تكاليفه يقول : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] فمعنى تعالوا : ارتفعوا عن مستوى أهواء البشر ، واعلوا إلى تكاليف الله ، فإنْ هبطت بالتكاليف إلى مستواك ، وقُلْت ظروف العصر تحتم علىَّ كذا وكذا فقد أخضعتَ منطق السماء لمنطق الأرض ، وما جاء منطق السماء إلا ليعلو بك .

فإنْ نظرنا إلى مواقف العلماء من مسألة الربا ، فمنهم مَنْ يُحلِّل ، ومنهم مَنْ يُحرِّم وهم الكثرة ، وهَبْ أنهم متساوون مَنْ يحرم ومَنْ يحلل ، فما حكم الله فيما تساوتْ فيه الاجتهادات ؟

النبى ﷺ أوضح لنا هذه القضية فى قوله : « الحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، وبينهما أمور مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرْضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمىً ، ألا وإن حمى الله محارمه »(١) .

فهل قال رسول الله : فمَنْ فعل الشبهات أم : فمَنْ ترك الشبهات ؟ إذن : مَنْ وقع فى الشبهات لم يستبرىء ، لا لدينه ولا لعِرْضه ، وهل يرضى أحد أنْ يُوصَف هذا الوصف ؟ وعجيب أن نسمع مَنْ يقول : وما علاقة العِرْض بهذه المسألة ؟ نقول : والله حتى غير المؤمن بدين يستنكف أن يقال عنه أنه مُرابٍ ، عِرْضه لا يقبلها فضلاً عن دينه .

لذلك ؛ فالمكارون الذين يريدون أن يُغلوها ، ويريدون أن يعيشوا على دماء الناس لا يدرون أن النفعية هى القانون الذى يحكم الله به خَلْقه ، فيجعل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، لذلك يقول اليهود : كيف تُحرِّمون الربا والله يعاملكم به ؟

نعم ، الحق - سبحانه وتعالى - يعاملنا بالربا ، ويعطينا بالزيادة ؛ لأن هذه الزيادة لا تُنقص مما عنده سبحانه ، أمّا الزيادة من الناس ومن المحتاجين فإنها ترهقهم وتزيدهم فقراً وحاجة .

ثم دَعْكَ من هذا كله ، وتأمل فى المحيط الذى تعيش فيه ، ففى كل بلد أناس يحبون الربا ويتعاملون به ، أرأيتم مرابياً مات بخير ؟ أمات مرابٍ وثروته كاملة ؟ لا ، لأن الله تعالى لم يكن ليقول ﴿ **يَمْحَقُ**

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

اللَّهُ الرِّبَا .. (٢٧٦) ﴾ [البقرة] ثم يترك مرابياً ينمو ماله ، ويسلم له إلى أنْ يموت ، فإن اغتنى لحين ، فإنما غنَاه كيد فيه ، ومبالغة فى إيذائه ، كما جاء فى الأثر « إذا غضب الله على إنسان رزقه من الحرام ، فإنِ اشتد غضبه عليه بارك له فيه » .

واقرأ قول الله تعالى :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) ﴾ [الأنعام]

لذلك نسمع « فلان ماهر فى التجارة » ، « فلان يضع يده فى التراب يصير ذهباً » ... الخ .

وسبق أن أوضحنا الفرق بين « فتحنا لهم » و « فتحنا عليهم » : « لهم » أى لصالحهم بالخير ، أما « عليهم » فيعنى كيداً لهم وتحدياً وإهلاكاً ، فالله تعالى يعطى الكافر ويُوسِّع عليه زهرة الدنيا ، حتى إذا أخذه كان أَخْذه أليماً ، كما قلنا : إنك إنْ أردت أنَ تُوقِع عدوك لا توقعه من على الحصير ، إنما من مكان عال حتى يكون السقوط مؤلماً .

وقوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا .. (٤٤) ﴾ [الأنعام] والفرح بالنعمة ليس ممنوعاً ، لكن هناك فرح يُحب ، وفرح يُكره ، وإلاَّ فالحق سبحانه نسب الفرح للمؤمنين فى قوله تعالى فى سورة الروم : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الروم] وقال سبحانه : ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ .. (١٧٠) ﴾ [آل عمران] وقال : ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. (٥٨) ﴾ [يونس]

فأثبت لهم الفرح المقبول ، وهو الفرح الذى يعقبه قولنا : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ثم تشكر الله الذى أنعم عليك ، أما الفرح المكروه فهو الفرح الذى يُورِثك بَطَراً وأَشَراً وكبراً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

سبق أنْ قلنا : إن قضية الخَلْق مُسلَّم بها ؛ لأنها قضية لم يدَّعها أحد لنفسه مع كثرة المتبجحين بالكفر والإلحاد ؛ لذلك لما ادَّعاها النمروذ الذى حاجَّ إبراهيم فى ربه فقال : أنا أحيى وأميت ، فعلم إبراهيم عليه السلام أنه يريد اللجاج والسفسطة التى لا طائل منها ، وإلا فكيف يكون الأمر بقتل واحد إماتة ، والأمر بترك الآخر والعفو عنه إحياء ؟

ثم ما بال الذين خُلقوا قبلك وميلادهم قبل ميلادك ؟ إذن : أنت لم تخلق ولم تُحى أحداً ، وسبق أنْ بيّنا الفرق بين القتل والموت مع أنهما يشتركان فى إنهاء الحياة وإزهاق الروح ، لكن الموت يكون بإزهاق الروح أولاً ، يتبعه نَقْض البنية وتحطم الجسم .

أما القتل فينقض البنية أولاً نَقْضاً يترتب عليه إزهاق الروح فالروح لا تقيم إلا فى بنية سليمة ، ومثَّلنا لذلك بلمبة الكهرباء حين تحرق فينطفىء نورها ، فهل يعنى ذلك أن التيار انقطع عنها ؟ لا بل هو موجود لكنه يحتاج لبنية سليمة بدليل أننا إذا استبدلنا اللمبة تضىء .

والحق - سبحانه وتعالى - يبين لنا هذا الفرق فى قوله سبحانه :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. (١٤٤) ﴾ [آل عمران] إذن : فالنمروذ لا يحيى ، بل يُبقى على الحياة ، ولا يُميت بل يقتل ويُزهق الروح .

وكان بمقدور إبراهيم عليه السلام أنْ يردَّ عليه هذه الحجة ، وأنْ يكشف تزييفه ، لكنه أراد أن يأخذه إلى ميدان آخر لا يستطيع التلفيق فيه ولا التمحُّك ، فقال له : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

كذلك مسألة الرزق فهى مُسلَّمة لله لم يدَّعها أحد : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ .. (٤٠) ﴾ [الروم]

بدليل أن الله تعالى جعل بعض المناطق جدباء ، يجوع فيها القادر والعاجز ، ويجوع فيها ذو المال وغير ذى المال ، ولو كان هناك رازق غير الله فلْيُحى هذه المناطق الجدباء .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ .. (٤٠) ﴾ [الروم] ولم يقل : يقتلكم ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ .. (٤٠) ﴾ [الروم] أى : اسألهم هذا السؤال ، ودَعْهم يجيبون هم عليه : أتستطيع الأصنام التى تشركونها مع الله أنْ تفعل شيئاً من الخَلْق أو الرزق أو الإحياء أو الإماتة ؟

أفى قدرتها شيء من ذلك وأنتم الذين تصنعونها وتنحتون حجارتها بأيديكم ، وتُصوِّرونها كما تشاؤون ، فإذا هبَّتْ عاصفة أطاحت بها وربما كسرت ذراع أحد الأصنام فتجتمعون لإقامتها وإصلاحها ؟ فأين عقولكم ؟ وما هذه الخيبة التى أصابتكم ؟

لذلك يقول سبحانه عنهم : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) ﴾ [النحل]

ويقول سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] بل وأكثر من ذلك ﴿إِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج]

بالله ، أيستطيع أحد أنْ يستردَّ ما أخذتْه منه الذبابة ؟

ونلحظ فى الآية تكرار (مِنْ) وهى للتبعيض : ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ .. (٤٠)﴾ [الروم] والمعنى : لا يستطيع أحد من شركائكم أن يفعل شيئاً ولو هيِّناً من الخلق ، أو الرزق ، أو الإحياء ، أو الإماتة .

لذلك يجب أنْ تُعلِّقوا على هذه القضايا من الله بقول واحد ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠)﴾ [الروم] لا تعليق إلا هذا .

لذلك لما تكلم سيدنا إبراهيم عن الأصنام قال : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ ..(٧٧)﴾ [الشعراء] أى : أنتم وما تعبدون من دون الله ؛ لأنهم كانوا يشركون آلهتهم مع الله ، فالله سبحانه داخل فى هذه الشركة ؛ لذلك استثناه ربه ﴿إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨)﴾ [الشعراء]

وتلحظ هنا فى قوله ﴿الَّذِي خَلَقَنِي .. (٧٨)﴾ [الشعراء] أنه لم يؤكدها بشىء ، ولم يذكر قبل الخَلْق الضمير (هو) ؛ لأن مسألة الخَلْق كما قُلْنا لم يدَّعها أحد ، أمّا فى الهداية وهى مجال ادعاء ، فقال (فهو) أى : الحق سبحانه يقصر الهداية على الله ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨)﴾ [الشعراء]

وفى هذا إشارة إلى أن القانون الذى يُنظم حياتى والمنهج الذى يهدينى قانون ربى لا آخذه من أحد سواه ، وكثيراً ما نرى مَنْ يدَّعى الهداية ويقول : إننى وضعتُ قانوناً يُسعِد حياة الناس ، ويفعل كذا

وكذا ، سمعنا هذه النغمة مرة من الرأسمالية ، ومرة من الاشتراكية ومن الشيوعية .. الخ .

إذن : هذا مجال ادعاء واسع ، فقيَّده إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقصره على الله ، حيث لا منهجَ إلا منهجُ الله ، ولا قانونَ يحكمنا إلا قانون ربنا ، كما نقول فى العامية (مفيش إلا هو) .

كذلك فى مسألة الإطعام قال : ﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى .. (٧٩) ﴾ [الشعراء] فاستخدم القصر هنا بذكر الاسم الموصول (الذى) ثم الضمير المفرد الغائب (هو) ؛ ليؤكد أن الذى يطعمه إنما هو الله ؛ لأن الإنسان قد يظن أن أباه هو الذى يطعمه ، أو أن أمه هى التى تُطعمه ؛ لأنها تُعد له طعامه ، فهما السببان الظاهران فى هذه المسألة ، فاحتاج الأمر إلى أكثر من مؤكد .

ثم يقول عليه السلام : ﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾ [الشعراء] هكذا دون توكيد ؛ لأن الموت والحياة مسألتان مُسلَّمتان لله مفروغ منهما ، وكذلك : ﴿ الَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾ [الشعراء] وهذه أيضاً لا تكون إلا لله تعالى .

إذن : ما كان للغير فيه شبهة عمل يؤكدها ويخصُّها لله تعالى ، أما الأخرى التى لا دخْلَ لغير الله فيها فيسوقها مُطْلقة دون اختصاص .

فالتعليق فى هذا الأمر العجيب لا يكون إلا بقولنا : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ﴾ [الروم] أى : تنزيهاً له عن الشركة . وإذا كان رسول الله ﷺ قد أخبرنا أن الله تعالى قال : لا إله إلا أنا ، ولم يَقُمْ لهذه القضية منازع ، ولم يدَّعِها أحد لنفسه .

إذن : فهى مُسلَّمٌ بها ، وإلا فإنْ كان هناك إله آخر فأين هو ؟ ولماذا لم يدافع عن حقه فى الألوهية ؟ إن كان لا يدرى فهو غافل ، وإنْ كان يدرى ولم يعارض فهو جبان ، وفى كلتا الحالتين لا يصلح أن يكون إلهاً .

لذلك ربنا حكمها بقضية واحدة ، فقال : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لأَبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الإسراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١)﴾

ظهر : بان ووضح . والظهور : أن يَبين شىء موجود بالفعل لكنَّا لا نراه ، وما دام الحق سبحانه قال : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ .. (٤١)﴾ [الروم] فلا بُدَّ أن الفساد كان موجوداً ، لكن أصحاب الفساد عمُّوه وجنُّوه إلى أن فقس وفرخ فى المجتمع .

والفساد لا يظهر إنما يظهر أثره ، أتذكرون الزلزال الذى حدث والذى كشف الفساد والغش والتدليس بين المقاول والمهندس ، وكانت المبانى قائمة والفساد مستتراً إما لغفلتنا عنه ، أو لتواطئنا معه ، أو لعدم اهتمامنا بالأشياء إلى أن طمَّتْ المسائل ، ففضح الله الأرض بالزلزال ، ليكشف ما عندنا من فساد .

فإذا ازداد الغش ، وانتشر وفَاقَ الاحتمال لا بُدَّ أن يُظهره الله للناس ، فلم يَعُدْ أحد قادراً على أن يقف فى وجه الفساد ، أو يمنعه ؛ لذلك يتدخَّل الحق سبحانه ، ويفضح أهل الفساد ويذيقهم آثار ما عملت أيديهم .

وتأتى ظهر بمعنى « الغلبة » كما فى قوله تعالى : ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ

آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)﴾ [الصف] أى: غالبين . وفى سورة التحريم : ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ .. (٤)﴾ [التحريم]

وبمعنى « العلو » فى قوله تعالى : ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)﴾ [الكهف]

فالمعنى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ .. (٤١)﴾ [الروم] أى : غلب الصلاح وعلا عليه ، والكون خلقه الله تعالى على هيئة الصلاح ، وأعدّه لاستقبال الإنسان إعداداً رائعاً ، وللتأكد من صدْق هذه المسألة انظر فى الكون وأجناسه وأفلاكه وأجوائه ، فلن ترى فساداً إلا فيما تتناوله يد الإنسان .

أما ما لا تتناوله يد الإنسان ، فلا ترى فيه خللاً ؛ لأن الله خلقه منسجمَ الأجناس منسجمَ التكوين : ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾ [يس]

فهل خلقنا الحق سبحانه وخلق اختيارنا لنفسد فى الكون ؟

لا ، إنما هو ابتلاء الاختيار حين ينزل عليك المنهج ويجعله قانوناً لحركتك بافعل ولا تفعل ، وما لم أَقُل فيه (افعل) أو (لا تفعل) فأنت حر فيه ، فلا يحدث من الفعل أو من عدمه ضرر فى الكون ، أمّا أنا فقد قلت افعل فى الذى يحصل منه ضرر بعدم فعله ، وقلت لا تفعل فى الذى يحصل ضرر من فعله .

فالفساد يأتى حين تُدخِل يدك فى شىء وأنت تطرح قانون الله فى افعل ولا تفعل ، أما الصلاح فموجود وفيه مناعة يكافح بها الفساد ، فإنْ علا تيار الفساد وظهر على الصلاح وغلبه بان للناس .

وعندها يُنبِّهنا الحق سبحـانه بالأحداث تطرقنا وتقول لنا : انظروا إلى مَنْ خالف منهج الله ماذا حدث له ؛ لذلك فى أعقاب الأحداث نزداد عشقاً لله ، وحباً لطاعته ، وترى الناس (تمشى على العجين متلخبطه) ، لكن سرعان ما يعودون إلى ما كانوا عليه من الإهمال والغفلة ، على حَدِّ قول الشاعر :

تُروِّعنا الجنَائزُ مُقْبِلاتٍ ... ونلهُو حِين تَذهَبُ مُدبراتِ
كَروْعَةِ ثُلَّةٍ لمغَارِ ذئْبٍ ... فلما غابَ عادتْ راتعاتِ

فالحق يقول : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ .. (41)﴾ [الروم] أى : غلب على قانون الصلاح الذى أقام الله عليه نظام هذا الكون ، الذى لو نالتْه يد الإنسان لَفسد هو الآخر ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ .. (71)﴾ [المؤمنون]

فظواهر الكون أشياء وقضايا لكل العامة ، ومن الحكمة ألاَّ تنالها يد الإنسان ؛ لأن الله تعالى يريد للكون البقاء ، ولم يأْتِ أوان انتهائه ، لذلك الحق سبحانه يجعل فينا مناعة تجعلنا نقبل الفساد إلى حين ، إلى أن يصل إلى درجة التشبُّع ، فتتفجر الأوضاع .

فقوله : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ .. (41)﴾ [الروم] نتيجة لدعوته ﷺ ؛ لأن كلمة (ظهر) تدل على أن شيئاً وقع ، فكأنه يقول لنا : إنْ كررتم الفساد والغفلة تكرَّر ظهور الفساد ، فهو يعطينا مُلخصاً لما حدث بالفعل من عداوتهم لرسول الله ، ومقاطعته وعزله وإغراء السفهاء منهم للتحرش به ، ثم عداوة أصحابه وإجبارهم على الهجرة إلى الحبشة حتى لا يستقر لهم قرار بمكة .

لذلك دعا عليهم رسول الله : « اللهم اشْدُد وطأتك على مُضَر ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف »[1] فأصابهم الجَدْب والقحط ، حتى رُوِى أنهم كانوا يذهبون للبحر لصيد السمك ، فيبتعد عنهم ولا يستقيم لهم فيعودون كما أتوا .

وهذا معنى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .. (٤١)﴾ [الروم]

ثم يوضح الحق سبحانه سبب هذا الفساد : ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ .. (٤١)﴾ [الروم] فتلحظ هنا أن الحق سبحانه لما يذكر الرحمة لا يذكر علَّتها ، لكن يذكر علَّة الفساد ؛ لأن الرحمة من الله سبحانه أولاً وأخيراً تفضُّل ، أما الأخذ والعذاب فَبعدله تعالى ؛ لذلك يُبيِّن لك أنك فعلتَ كذا ، وتستحق كذا ، فالعلَّة واضحة .

هناك قضية أخرى أحب أن أوضحها لكم ، وهي أن الحق سبحانه يعامل خَلْقه معاملته في الجزاء ، فالله يقول : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. (١٦٠)﴾ [الأنعام]

إذن : فالحسنة الواحدة تستر عشر سيئات ، وكذلك في جسم الإنسان ، فيقول بعض علماء وظائف الأعضاء والتشريح : إن الكلية بها مليون خلية يعمل منها العُشْر بالتبادل ، فمجموعة تعمل ، والباقي يرتاح وهكذا . فانظر كم ترتاح الخلية حتى يأتي عليها الدور في العمل .

فكأن ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ خلق لها العشر يقوم مقام المليون ؛ لذلك قالوا لو أن في أحد الدواوين عشرة موظفين ، منهم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) ، وكذا البخاري في صحيحه (١٠٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخرة يقول : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف » .

واحد محسن ، يستر إساءة الباقين ، وكثيراً ما تلاحظ هذه الظاهرة فى دواوين الحكومة ، فترى غالبية الموظفين منشغلين : هذا يقرأ الجرائد ، وهذا يشرب الشاى ، وآخر لم يأتِ أصلاً .

وخلف كومة من الملفات تجد موظفاً نحيلاً غارقاً فى العمل ، يقصده الجميع ، ويتحمل هو تقصير الآخرين ، ويؤدى عنهم ، وبه تسير دفَّة الأمور ، لكن إنْ فقدنا هذا أيضاً ، فلا بُدَّ أن تأتى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ .. (٤١)﴾ [الروم] إذن : إن رأيت الفساد فاعلم أنه نتيجة إهمال وغفلة فاقت كل الحدود .

وما دام الحق سبحانه قال : ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ.. (٤١)﴾ [الروم] فلا بُدّ أن الفساد جاء من ناحيتهم ، وبالله هل اشتكينا أزمة فى الهواء مثلاً ؟ لكن نشتكى تلوث الهواء بما كسبتْ أيدى الناس ، أمّا حين نذهب إلى الخلاء حيث لا يوجد الإنسان ، نجد الهواء نقياً كما خلقه الله .

الحق سبحانه تكفَّل لنا بالغذاء فقال : ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠)﴾ [فصلت] لكنا نشتكى أزمة طعام ، لماذا ؟ لأن الطعام يحتاج إلى عمل ، ونحن تكاسلنا ، وأسأنا التصرُّف فى الكون ، إما بالكسل والخمول عن استخراج خيرات الأرض وأقواتها ، وإما بالأنانية حيث يضِنُّ الواجد على غير الواجد .

وقد قرأنا مثلاً أن أمريكا تسكب اللبن فى البحر ، وتعدم الكثير من المحصولات ، وفى العالم أُناس يموتون جوعاً ، إذن : هذه أنانية ، أما التكاسل فقد حدث منا فى الماضى .

وانظر الآن إلى صحرائنا التى كانت جرداء قاحلة ، كيف اخضرت الآن ، وصارت مصدراً للخيرات لما اهتممنا بها ويسَّرنا ملكيتها

للناس ، فإنْ ضنَّتْ الأرض فى منطقة ما فقد جعل الله لنا سعة فى غيرها ، فالخالق سبحانه لم يجعل الأرض لجنس ولا لوطن ، إنما جعلها مشاعاً لخَلْق الله جميعاً .

واقرأ قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧)﴾ [النساء]

ولذلك قلت فى هيئة الأمم : إن فى القرآن آية واحدة ، لو أخذ العالم بها لضمنت له الرخاء والاستقرار والأمان ، إنها قوله تعالى : ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠)﴾ [الرحمن] فالأرض كل الأرض للأنام كل الأنام ، لكن الواقع خلاف ذلك ، فقد وضعوا للأرض حدوداً ، وأقاموا عليها الحواجز والأسوار ، فإنْ أردتَ التنقّل من قطر إلى آخر تجشَّمت فى سبيل ذلك كثيراً من المشاق فى إجراءات وتأشيرات .. إلخ .

وكانت نتيجة ذلك أن يوجد فى الكون رجال ازدحموا بلا أرض ، وفى موضع آخر أرض بلا رجال ، ولو حدث التكامل بين هذه وتلك لاستقامت الأمور .

إذن : الذين وضعوا الحدود والحواجز فى أرض الله أخذوها لأنفسهم ، فلم تَعُدْ أرض الله الواسعة التى تستقبل خَلْق الله من أى مكان آخر ، إنما جعلوها أرضهم ، وأخضعوها لقوانينهم هم ، وتعجب حين تتأمل حدود الدول على الخريطة ، فهى متداخلة ، فترى جزءاً من هذه الدولة يدخل فى نطاق دولة أخرى ، على شكل مثلث مثلاً ، أو تمتد أرض دولة فى دولة أخرى على شكل لسان أو مناطق متعرجة ، فما دُمْتم قد وضعتم بينكم حدوداً ، فلماذا لا تجعلونها مستقيمة ؟

وكأن واضعى هذه الحدود أرادوها بُؤراً للخلاف بين الدول ، ولا

يخلو هذا التقسيم من الهوى والعصبيات القبلية والجنسية والقومية والدينية ، لكن لو أخذنا بقول ربنا : ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ⦗١٠⦘﴾ [الرحمن] لما عانينا كل هذه المعاناة .

وقوله تعالى : ﴿كَسَبَتْ.. ⦗٤١⦘﴾ [الروم] عندنا : كسب واكتسب ، الغالب أن تكون كسب للحسنة ، واكتسب للسيئة ؛ لأن الحسنة تأتى من المؤمن طبيعة بدون تكلُّف أو افتعال ، فدلَّ عليها بالفعل المجرد (كسب) .

أما السيئة ، فعلى خلاف الطبيعة ، فتحتاج منك إلى تكلُّف وافتعال ، فدلَّ عليها بالفعل المزيد الدال على الافتعال (اكتسب) .

ألاَ ترى أنك فى بيتك تنظر إلى زوجتك وبناتك كما تشاء ، أما الأجنبية فإنك تختلس النظرات إليها وتحتال لذلك ؟ فكل حركاتك مفتعلة ، لماذا ؟ لأنك تفعل شيئاً محرماً وممنوعاً ، أما الخير فتصنعه تلقائياً وطبيعياً بلا تكلُّف .

كما أن الحسنة لا تحتاج منك إلى مجهود ، أمّا السيئة فتحتاج إلى أنْ تُجنِّد لها كل قواك ، وأن تحتاط ، كالذى يسرق مثلاً ، فيحتاج إلى مجهود ، وإلى محاربة لجوارحه ؛ لأنها على الحقيقة تأبى ما يفعل .

ومع ذلك نلحظ قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ .. ⦗٨١⦘﴾ [البقرة]

فجعل السيئة كَسْباً لا اكتساباً . قالوا : لأن السيئة هنا صارت عادة عنده ، وسهلت عليه حتى صارت أمراً طبيعياً يفعله ولا يبالى كالذى يفعل الحسنة ، وهذا النوع والعياذ بالله أحب السيئة وعشقها ، حتى أصبح يتباهى بها ولا يسترها ويتبجح بفعلها .

وهذا نسميه (فاقد) ، فقد أصبح الشر والفساد حرفة له ، فلا يتأثر به ، ولا يخجل منه كالذى يقبل الرِّشْوة ، ويفرح لاستقبالها ، فإن سألته قال لك : وماذا فيها ؟ أنا لا أسرق الناس .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا .. (٤١) ﴾ [الروم] الإذاقة هنا عقوبة ، لكنها عقوبة الإصلاح كما تعاقب ولدك وتضر به حرصاً عليه ، وسبق أن قلنا : إنه لا ينبغى أن نفصل الحدث عن فاعله ، فقد يعتدى ولد على ولدك ، فيجرحه فتذهب به للطبيب ، فيجرحه جرحاً أبلغ ، لكن هذا جرح المعتدى ، وهذا جرح المداوى .

وحين يُذيق الله الإنسانَ بعض ما قدَّمت يداه يوقظه من غفلته ، ويُنبِّه فيه الفطرة الإيمانية ، فيحتاط للأمر ولا يهمل ولا يقصر ، وتظل عنده هذه اليقظة الإيمانية بمقدار وَعْيه الإيمانى ، فواحد يظلّ يقظاً شهراً ، ثم يعود إلى ما كان عليه ، وآخر يظل سنة ، وآخر يظل عمره كله لا تنتابه غفلة .

وقد أذاق اللهُ أهلَ مكة عاقبة كفرهم حتى جاعوا ولم يجدوا ما يأكلونه إلا دَمَ الإبل المخلوط بوبرها ، وهو العِلْهِز .

وقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) ﴾ [الروم] لأن الكلام هنا فى الدنيا ، وهى ليستْ دار جزاء ، فالحق يُذيقهم بعض أعمالهم ليلتفتوا إليه سبحانه ، ويتوبوا ويعودوا إلى حظيرة الإيمان ؛ لأنهم عبيده ، وهو سبحانه أرحم بهم من الوالدة بولدها .

والحق سبحانه ساعة يقول ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ.. (٤١) ﴾ [الروم] أى : على عهد رسول الله ﷺ ليُبيِّن لنا أن الرسل إنما جاءوا لإنقاذ البشرية من هذا الفساد ، لكن ما دام الأمر عُلِّل فالأمر يدور مع العلة وجوداً وعدماً ، فكلما ظهر الفساد حلَّتْ العقوبة ، فخذوها فى الكون آية من

آيات الله إلى قيام الساعة .

فظهر الفساد قديماً ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

لكن هذا الأخْذ كان قبل سيدنا رسول الله فى الأمم السابقة ، وكان هلاك استئصال ؛ لأن الرسل السابقين لم يُكلَّفوا بالمحاربة لأجل نَشْر دعوتهم ، فما عليهم إلا نشر الدين وتبليغه ، مع التأييد بالمعجزات ، فإنْ تأبَّى عليهم أقوامهم تولَّى الحق سبحانه عقابهم ، أما أمة محمد ﷺ فقد أكرمها الله بألاَّ يعاقبها بعذاب الاستئصال :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال]

ثم سيظهر الفساد حديثاً وسيحدث العقاب . إذن : ليست الأمة الإسلامية بِدَعاً فى هذه المسألة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢) ﴾

السير : الانتقال من حيز مكانى إلى حيز آخر ، وسبق أنْ قلنا : إن النظرة السطحية فى ظاهر الأمر أن السير يكون على الأرض لا فيها ؛ لأننا نسكن على الأرض لا فيها ، لكن الحق سبحانه يُبصرنا بقوله : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ .. (٤٢) ﴾ [الروم] أن الأرض ليست هى اليابسة والماء على سطح الكرة الأرضية ، أما الأرض فتشمل غلافها

الجوى لذلك يدور معها وهو إكسير الحياة فيها ؛ فلا حياة لها إلا به.

إذن : فهواء الأرض من الأرض ، وهو أهم الأقوات للأحياء عليها ، فحين يقول تعالى : ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠)﴾ [فصلت] فالهواء داخل فيها ، لذلك قال ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ .. (٤٢)﴾ [الروم]

وقلنا : لو أنك استقرأتَ أجناس الوجود لوجدت أنك الجنس الأعلى فى الكون ، وكل الأجناس تحتك تخدمك ، فأنت تنتفع بالحيوان وبالنبات وبالجماد ، فأدنى الأجناس فى الكون وهو الجماد له مهمة يؤديها .

فأنت أيها الإنسان الذى كرَّمك الله على كل أجناس الوجود إذا لم تبحث لك عن مهمة تؤديها فى الحياة ، ودور تقوم به ، فأنت أقل منزلةً من أدنى الأجناس وهو الجماد ، إذا لم تبحث بعقلك عن شىء ترتبط به يناسب سيادتك على مَنْ دونك ، فأنت أتفه من الحجر ؛ لأن الحجر له مهمة يؤديها ، وأنت لا مهمةَ لك .

لكن هذا الجنس الأدنى إنْ أراد سبحانه أعطاه عزة فوق السيد المخدوم وهو الإنسان ، ففى فَرْض الحج يُسَنُّ لك أن تُقبِّل هذا الحجر ، وتسعى جاهداً لكى تُقبِّله ، وتأمل الإنسان - وهو سيد هذا الوجود - وهو يحاول أنْ يُقبِّل الحجر ، ويغضب إنْ لم يتمكن من ذلك.

وتأمل الردَّ من دولة الأحجار على مَنْ عبدها من دون الله[1] :

عَبَدُونَا ونَحْنُ أعبَدُ لله ... مِنَ القائمين بالأسْحارِ
تَخِذُوا صَمْتنَا علَيْنَا دَليلاً ... فَغدونَا لَهُم وقُودَ النارِ
قَدْ تجنَّوا جَهْلاً كما قَدْ تجنَّوْه ... علَى ابْن مريم والحَوارى
للمغَالِى جَزَاؤه والمغَالَى فيهِ ... تُنجيهِ رَحْمَةُ الغفَّارِ

---

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ .. (٤٢)﴾ [الروم] فالسير فى الأرض يكون إما للسياحة والتأمل فى آيات الله فى كونه ، لذلك يستخدم فيها الفاء ﴿فَانظُرُوا .. (٤٢)﴾ [الروم] أو يسير فى الأرض لطلب الرزق .

وفى آية أخرى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١)﴾ [الأنعام] والمعنى : سيروا فى الأرض للاستثمار ، وطلب القوت ، وقضاء المصالح ، لكن لا يفوتكم النظر والتأمل فى آيات الله وفى مخلوقاته لتأخذوا منها العبرة والعظة .

ومعنى : ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ.. (٤٢)﴾ [الروم] أى : الذين ظهر الفساد بينهم ، فأذاقهم الله الألم بما كسبتْ أيديهم ، فهذه ليست عندك وحدك ، إنما حدثتْ فى الأمم السابقة ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧)﴾ [الصافات]

فهناك مدائن صالح والأحقاف وعاد وثمود والفراعنة .. إلخ انظر ما حلَّ بهم بعد الحضارة والنضارة ، بعد ما توصلوا إليه من علم التحنيط الذى لم يعرف العلم أسراره حتى الآن ، ويضعون مع جثث الموتى حبوب القمح أو الشعير ، فتظل على حالها ، بحيث إذا زُرِعت بعد آلاف السنين تنبت .

إنها قدرة علمية فائقة ، ومع ذلك ما استطاعت هذه الحضارة أن تحمى نفسها من الاندثار ، وإذا كان القرآن قد قال عن الحضارة الفرعونية ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ (١٠)﴾ [الفجر] فقد قال عن إرم ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)﴾ [الفجر]

فأىُّ حضارة هذه ؟ وأين هى الآن ؟ طمرتها رمال الأحقاف[1] ، ودفنتها تحت أطباق الثرى ، ولا تعجب من ذلك ، ففى هذه المنطقة إنْ هبَّتْ عاصفة واحدة ، فإنها تغطى قافلة كاملة بجمالها ورجالها تحت الأرض ، فما بالك بالعواصف منذ قرون طوال ؛ لذلك نجد كل الآثار يتم التنقيب عنها حَفْراً .

إذن : فالحضارات مع عظمها لم تستطع أنْ تحمى نفسها من الزوال ، وهذا دليل على وجود قوة أعلى منها تزيلها وتقضى عليها .

وقوله تعالى : ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الروم] أى : أن القليل منهم لم يكُنْ مشركاً ، قالوا : هذه القلّة هم الصبيان والمجانين ، ومن ليس له إرادة حرة ، وإن أخذت هذه القلة مع الكثرة المشركة ، فإن الله إنما أراد بهم خيراً ؛ لأن مثواهم إلى الجنة بغير حساب .

لذلك لما تكلمنا عن موسى والعبد الصالح فى سورة الكهف : لما قتل الخضر الغلام تعجَّب موسى ، ففى المرة الأولى خرق السفينة واعتدى على ملْك ، أما فى هذه المرة فقد أزهق روحاً ؛ لذلك قال فى الأولى ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الكهف] أى : عجيباً ، أما فى الثانية فقال : ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الكهف]

ثم بيَّن الخضر الحكمة من قتل الغلام فقال : إن له أبوين صالحين ، وفى علم الله تعالى أنه سيفسد عليهما دينهما ؛ لأن الفتنة تأتى الإنسان غالباً من الزوجة أو من الولد ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [التغابن] لماذا ؟ لأنهما يحملانك على ما لا تطيق ، ويضطرانك ربما للسرقة أو للرشوة لتوفر لهما ما يلزمهما ، ولأن الفساد يأتى من ناحيتهما قال سبحانه :

---

(١) قال الأزهرى : الأحقاف رمال بظاهر بلاد اليمن كانت عاد تنزل بها . [لسان العرب ـ مادة : حقف] .

﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ③﴾ [الجن] يعنى : طمئنوا عبادى ، فلا أحد يؤثر على إرادتى .

إذن : فالخضر صنع الجميل بالوالدين ، حيث أنقذهما من هذا الابن ، وصنع أيضاً جميلاً بالغلام حيث قتله قبل سنِّ التكليف ، وجعل مصيره إلى الجنة ، وربما لو تركه لكان كافراً بالله عاقاً لوالديه ، وهذا كله إنما جرى بأمر الله وحكمه : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى .. ⑧②﴾ [الكهف]

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لنبيه فى هذه المسألة بداية من ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ .. ④①﴾ [الروم] ثم إنزال العقاب بهم جزاء ما عملتْ أيديهم وأجبتُك فى دعوتك عليهم .

كل ذلك إنما يعنى أننى أُقوِّى مركزك ، ولن أتخلى عنك ، وما دام الأمر كذلك فإياك أن يُؤثِّر فيك مكرهم أو تركن إلى أحد منهم ممَّنْ قالوا لك : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة[1] ، لكن يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ④③﴾

قوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ .. ④③﴾ [الروم] يعنى : اطمئن يا محمد ، وتفرغ لعبادة الله لأننى وعدتُك بالنصر ، وأجبتُك حين قُلْت : « اللهم اشْدُدْ وطأتك على مُضَر ، واجعلها عليهم سنين كسنىِّ يوسف »[2] .

---

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص٢٦١) فى نزول سورة (الكافرون) أن رهطاً من قريش قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة يقول : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنىِّ يوسف » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ٤٧٠) ، والبخارى فى صحيحه (١٠٠٦) .

﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر] يعنى : مَنْ لم تَنَلْهُ عقوبة الدنيا نالته عقوبة الآخرة .

وقال : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ .. (٤٣) ﴾ [الروم] لأن الوجه محلُّ التكريم ، وسيد الكائن الإنسانى ، وموضع العزة فيه ، بدليل أن السجود والضراعة لله تعالى تكون بوضع هذا الوجه على الأرض ؛ لذلك حين ترسل شخصاً برسالة أو تُكلِّفه أمراً يقضيه برجْله ، أو بيده ، أو بلسانه ، أو بأىٍّ جارحة من جوارحه تقول له : أرجو أنْ تُبيِّض وجهى ؛ لأن الوجه هو السيد .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص] لأنك لا تعرف سمة الناس إلا بوجوههم ، ومَنْ أراد أنْ يتنكر أو يُخفِى شخصيته يستر مجرد عينيه ، فما بالك إنْ ستر كل وجهه ، وأنت لا تعرف الشخص من قفاه ، ولا من كتفه ، ولا من رجله ، إنما تعرفه بوجهه ، ويقولون : فلان وجيه القوم ، أو له وجاهته فى القوم ، كلها من ناحية الوجه .

وما دام قد خصَّ الوجه ، وهو أشرف شىء فيك ، فكُلُّ الجوارح مقصودة من باب أَوْلَى فهى تابعة للوجه ، فالمعنى : أقم يدك فيما أمرك الله أن تفعل ورجلك فيما أمرك الله أنْ تسعى ، وقلبك فيما أمرك الله أن تشغل به ، وعينك فيما أمرك الله أن تنظر فيه .. الخ .

يعنى : انتهز فرصة حياتك ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ .. (٤٣) ﴾ [الروم] هو يوم القيامة ﴿ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ .. (٤٣) ﴾ [الروم] المعنى : أن الله حين يأتى به لا يستطيع أحد أنْ يسترده من الله ، أو يأخذه من يده ، أو يمنعه أنْ يأتى به ، أو أنه سبحانه إذا قضى الأمر لا يعود ولا يرجع فيه .

فكلمة ﴿مِنَ اللَّه .. (٤٣)﴾ [الروم] تعطينا المعنيين ، كما فى قوله تعالى : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الرعد] فكيف تحفظه المعقِّبات من أمر الله ؟ قالوا : كونهم مُعقِّبات للحفظ أمر صادر من الله أصلاً ، وبناءً على أمره تعالى بالحفظ .

وقوله : ﴿يَوْمَئِذٍ .. (٤٣)﴾ [الروم] يعنى : فى اليوم الذى لا مردَّ له من الله ﴿يَصَّدَّعُونَ (٤٣)﴾ [الروم] أى : هؤلاء الذين تكاتفوا على حربك وعلى عداوتك وإيذائك ، وتعصَّبوا ضدك ﴿يَصَّدَّعُونَ (٤٣)﴾ [الروم] أى : ينشقُّون بعضهم على بعض ، ويتفرقون ، وقد وردت هذه المسألة فى آيات كثيرة .

والتفريق إما إيمان وكفر أى : أشقياء وسعداء ، وإما أن يكون التفريق فى القوم الذين عاندوا واتبعوا أتباعهم على الشرك ، فيتبرأ كل منهم من الآخر ، كما قال سبحانه : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا .. (١٦٦)﴾ [البقرة]

ثم قال الحق ليبين لنا ذلك التفريق فى الآخرة بعلّته ، وعلّته ما حدث فى الدنيا ، فالله تعالى لا يظلم أحداً ، فقال بعد ذلك :

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤)﴾

ما دامت القيامة أمراً لا مردَّ له من الله ، فلننتبه للعواقب ، ولنحسب لها حساباً ، فمَنْ كفر فعليه كفره ، عليه لا له ، وهذه قضية تقتضى أن نقول فى مقابلها : ومَنْ آمن فله إيمانه .

بعد أن بيَّن الدلائل الواضحة على واحديته في الكون ، وأحديته في ذاته سبحانه ، وبيَّن الأدلة الكونية بكُلِّ صورها برهاناً وحجةً ، وضرب أمثالاً وتفصيلاً بعد ذلك قال : سأقول لكم أنكم أصبحتم مختارين أى : خلقتُ فيكم الاختيار فى التكليف حتى لا أقهر أحداً على الإيمان بى .

وخَلْق الاختيار فى التكليف بعد القهر فى غير التكليف يدلُّ على أن الله تعالى لا يريد من عباده قوالب تأتمر بأمر القهر ، ولكنه يريد أنْ يجذب الناس بمحبوبيتهم للواحد الأحد .

وإلا فكان من الممكن أن يخلقهم جميعاً مهتدين ، وأنْ يخلقهم على هيئة لا تتمكَّن من الكفر ، وتسير إلى الطاعة مرغمة ، كما قال سبحانه حكاية عن السماء والأرض : ﴿ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ⑪ ﴾ [فصلت] وذلك يُفسِّر لنا أمانة خَلْق الاختيار فى الناس .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما تكلم عن هذه المسألة بوضوح قال : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. ⑫ ﴾ [الأحزاب] والإباء هنا ليس إباءَ تكبُّر على مراد الله ، إنما وضعوا أنفسهم فى الموضع الطبيعى ، فقالوا : لا لحمل الأمانة ؛ لأننا لا نأمن أنفسنا ولا نضمنها عند الأداء .

والإنسان كذلك ابن أغيار ، فقد يحمل الأمانة ، ويضمن أداءها فى وقت التحمل ، لكنه لا يضمن نفسه عند الأداء ، وسبق أن مثَّلْنا لذلك بمَنْ يقبل الأمانة ، ويرحب بها عند التحمل ، ثم تطرأ عليه من أحداث الحياة ما يضطره لأنْ يمدَّ يده إلى هذه الأمانة وإنْ كان فى نيته الأداء ، لكن يأتى وقته فلا يستطيع ، وآخر يُقدِّر هذه المسئولية ويرفض تحمل الأمانة ، وهذا هو العاقل الذى يُقدِّر الظروف وتغيّر الأحوال .

ومعلوم أن الأمانة لا تُوثَّق ، فإنْ كتبتَ وشهد عليها فإنها لم تَعُدْ أمانة ، فالأمانة إذن مردُّها لاختيار المؤتمن إنْ شاء أقرَّ بها ، وإنْ شاء أنكرها .

فالحق سبحانه قال حكايةً عن السموات والأرض والجبال ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] لأنهم يُقدِّرون مسئوليتها ، أما الإنسان فقد تعرَّض لحملها وقال : عندى عقل أفكر به ، وأختار بين البدائل ، وسوف أؤدى ، فضمن وقت التحمل ، لكنه لا يضمن وقت الأداء ، فظلم نفسه وجهل حقائق الأمور .

﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب] ظلوماً لنفسه ، جهولاً بما يمكن أنْ يطرأ عليه من الأغيار .

وما دام الإنسان ابن أغيار ، فإنه لا يثبت على حال ؛ لذلك قلنا : إذا صعد الإنسان الجبل إلى قمته وهو ابن أغيار فليس أمامه إلا أنْ ينزل ، والعقلاء يخافون أنْ تتم لهم النعمة ؛ لأنه ليس بعد التمام إلا النقصان ، كما قال الشاعر :

إِذَا تَمَّ شىء بَدا نَقْصُه ... ترقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيلَ تَمّ

فإذا قلت : لماذا خلق الله الاختيار فى الإنسان ولم يخلقه فى الأجناس التى تخدمه من جماد ونبات وحيوان ؟ نقول : كُنْ دقيقاً ، وافهم أنها أيضاً خُيّرت بقوله تعالى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

إذن : هذه الأجناس أيضاً خُيِّرت ، لكنها اختارت اختياراً واحداً يكفيها كل الاختيارات ، فقالت : نريد يا رب أنْ نكون مقهورين لكل ما تريد .

ولما كنا مختارين أعطانا الله تعالى هذه القضية : ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ.. (٤٤)﴾ [الروم] وكلمة (عَلَيْهِ) تفيد الدَّيْن والوزْر ، و (له) تفيد النفع ، فإذا جئنا بالمقابل بقول : ومَنْ آمن فله إيمانه ، كما فى : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

لكن القرآن لم يأت بهذا المقابل ، إنما عَدَل إلى مسألة أخرى : ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤)﴾ [الروم] فلماذا ؟ قالوا : لأن فائدة الإيمان أن تعتقد بوجود إله قادر واحد هو الله فتؤمن به ، فإذا ما أمرك تطيع ، فعلَّة الإيمان التكليف ؛ لذلك حين تبحث أىَّ تكليف إياك أنْ تنظر إلى علَّته فتقول : كلفنى بكذا لكذا ، فعلَّة التكليف وحكمته عنده تعالى .

فإذا قلنا مثلاً : حكمة الصيام أنْ يشعر الغنىُّ ويذوق ألم الجوع فيعطف على الفقير ، فهل يعنى هذا أن الفقير المعدَم لا يصوم ؟ إذن : ليست هذه حكمة الصيام ، والأصوب أنْ تقول : أصوم ؛ لأن الله أراد منى أن أصوم ، وحكمة الصيام عنده هو .

ومثَّلنا لذلك ولله تعالى المثل الأعلى : أنت حين تشكو مرضاً أو ألماً تسأل عن الطبيب الماهر والمتخصص حتى تنتهى إليه ، وعندها تنتهى مهمة عقلك ، فتضع نفسك بين يديه يفحصك ويُشخِّص مرضك ، ويكتب لك الدواء ، فلا تعارضه فى شىء ، ولا تسأله لماذا كتب هذا الدواء .

فإذا سألك زائر مثلاً : لماذا تأخذ هذا الدواء ؟ لا تقول : لأن من خصائصه كذا ، ومن تفاعلاته كذا ، إنما تقول : لأن الطبيب وصفه لى ، مع أن الطبيب بشر قد يخطىء ، وقد يكتب لك دواءً ، أو يعطيك حقنة ترديك ، ومع ذلك تُسلِّم له بما يراه مناسباً لك ، فإذا كنت

لا تناقش الطبيب وهو خطأ ، فكيف تناقش الله فيما فرضه عليك وتطلب علَّةً لكل شيء ؟

ولا يناقش في علَل الأشياء إلا المساوى ، فلا يناقش الطبيبَ إلا طبيبٌ مثله ، كذلك يجب أنْ نُسلِّم لله تعالى بعلل الأشياء وحكمتها إلى أنْ يوجد مُساوٍ له سبحانه يمكن أنْ يناقشه .

والحق سبحانه يُبيِّن لنا علَّة الإيمان - لا الإيمان في ذاته - إنما ما يترتب عليه من طاعة أوامر هذا الإله ، وعلى طاعة هذه الأوامر يترتب صلاح الكون ، بدليل أن الله يطلب من المؤمنين أنْ ينشروا الدعوة ، وأن يُبلِّغوها ، وأن يحاربوا مَنْ يعارضها ويمنعهم من نشرها .

فما شُهر السيف في الإسلام إلا لحماية بلاغ الدعوة ، فإنْ تركوك وشأنك فدَعْهم ، بدليل أن البلاد التي فتحها الإسلام ظل بها أصحاب ديانات أخرى على دياناتهم ، وهذا دليل على أن الإسلام لم يُرغِم أحداً على اعتناقه .

لكن ما دام الإسلام قد فتح البلاد فلا بُدَّ أنْ تكون له الغَلَبة ، وأنْ يسير الجميع معه في ظلِّ منهج الله ، فيكون للكافرِ ولغير ذي الدين ما لصاحب الدين .

فكأن الحق سبحانه يريد لقوانينه أنْ تحكم آمنت به أو لم تؤمن ؛ لأن صلاح الكون لا يكون إلا بهذه القوانين .

إذن : فأنت حُرٌّ ، تؤمن أو لا تؤمن ، لكن مطلوب ممَّنْ آمن أنْ يحمي الدعوة في البلاغ ، ثم يترك الناس أحراراً ، مَنْ آمن فبها ونعمت ، ومَنْ أبى نقول له : لك ما لنا ، وعليك ما علينا .

إذن : فأصل الإيمان لصلاح الخلافة ، ولا يهتم الله سبحانه بأنك تؤمن أو لا تؤمن ، ما دام منهج الخلافة قائماً ، وهذا المنهج يعود نفعه على المؤمن وعلى الكافر ، فإذا كان الإيمان يُربِّى الإنسان على ألاّ يفعل إلا خيراً وصلاحاً ، فالكافر لا بُدَّ وأن يستفيد من هذا الصلاح . وهل قال الشرع للمؤمن : لا تسرق من المؤمن ؟ لا إنما أيضاً لا تسرق من الكافر .. الخ ، فالكل أمام منهج الله سواء .

وفى القرآن آية ينبغى أنْ نتنبه لها ، ونعرف غير المؤمنين بها ، ليعلموا أن الإيمان إنما يحمى مصلحة الناس جميعاً ، إنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ .. (١٠٦) ﴾ [النساء] يعنى : إنْ خطر لك أن تكون لصالح الخائن ، استغفر الله من هذا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) ﴾ [النساء] ولو كان مؤمناً به .

ولهذه الآية قصة مشهورة هى قصة اليهودى زيد بن السمين ، وقد جاءه طعمة بن أبيريق ـ وكان مؤمناً ـ وقال : يا زيد خُذْ هذه الدرع أمانة عندك فقبله زيد ، وإذا بالدرع مسروق قد سرقه ابن أبيريق من قتادة بن النعمان[1] ووضعه فى جوال من الدقيق ، فكان على الدرع آثار الدقيق ، فلما بحث ابن النعمان عن درْعه دلّه أثر الدقيق على بيت ابن السمين اليهودى فاتهمه بسرقته .

ثم جاءوا به إلى النبى ﷺ ليحكم فى أمره ، فقصَّ عليه ما كان من أمر ابن أبيريق ، وأنه وضعه عنده على سبيل الأمانة .

---

(١) قتادة بن النعمان بن زيد الأنصارى الأوسى ، صحابى بدرى ، من شجعانهم ، كان من الرماة المشهورين ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وكانت معه يوم الفتح راية بنى ظفر ، وتوفى بالمدينة عام ٢٣ هـ وهو ابن ٦٥ سنة ، وهو أخو « أبى سعيد الخدرى » لأمه . (الأعلام للزركلى ٥/١٨٩) .

وعندها عَزَّ على المسلمين أن يسرق واحد منهم ، وأن يأخذها اليهود ذلّة في حقّهم ، وأخذ النبي ﷺ يدير الأمر في رأسه ، فإنْ حكم على المسلم أخذها اليهود حجة ، وإنْ حكم للمسلم كانت عيباً وسُبَّة في الدين ، فأسعفه ربه بهذه الآية : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء] فقال : بين الناس لا بين المؤمنين فحسب .

ومعنى ﴿وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء] البعض يقولون : لا تخاصم الخائن حتى لا يضطهدك ، إنما المراد : لا تكُنْ خصيماً لصالحه . ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ .. ﴿١٠٦﴾﴾ [النساء] إنْ طرأتْ عليك مسألة الإسلام وصورته بين غير المسلمين ؛ لأن الله في مبدأ الإصلاح لا يحب كل خوّان أثيم .

ولو أن غير المسلمين تنبهوا إلى هذه القضية ، وعلموا أن الله تعالى عدل الحكم للمؤمنين ، وأعلنه لرسول الله ، وقرر أن الحق هو الحق ، والكل أمامه سواء المؤمن وغير المؤمن لعلموا أن الإسلام هو الدين الحق ولأقبلوا عليه ، لذلك يقول النبي ﷺ : « من عادى ذمياً فأنا خصيمه يوم القيامة »[1] .

لأنك إنْ عاديتَه واضطهدته أو هددتَه في حياته ، أو في عرْضه ، أو في ماله لصارتْ حجة له في ألاَّ يؤمن ، وله أنْ يقول : إذا كان هذا هو حال المؤمنين ، فما الميزة في الإسلام حتى أعتنقه ؟ بل من مصلحتي أنْ أبتعد عنه ، لكن إنْ عاملتَه بالحق وبالخير والحسنى

---

(١) أخرج أبو داود في سننه (٣٠٥٢) عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم عن رسول الله ﷺ قال : « ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة » . قال السخاوي في المقاصد الحسنة : سنده لا بأس به ، ولا يضر جهالة من لم يُسمَّ من أبناء الصحابة ، فإنهم عدد منجبر به جهالتهم .

لعطفته إلى الإسلام ، وجعلته يُؤنِّب نفسه ألاَّ يكون مسلماً .

لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن سيدنا إبراهيم - على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام - جاءه رجل فاشتمَّ منه أنه غير مسلم ، فلما سأله قال : أنا مجوسى فردَّ الباب فى وجهه ، فانصرف الرجل ، وإذا بإبراهيم - عليه السلام - يتلقى الوحى من الله : يا إبراهيم لم تقبل أنْ تُضيِّفه لأنه على غير دينك ، وأنا قبلته طوال عمره فى مُلْكى وهو كافر بى .

فأسرع إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به واسترضاه ، فقال الرجل : وماذا جرى لقد طردتنى ونهرتنى منذ قليل ؟ فقال : إن ربى عاتبنى فى أمرك ، فقال الرجل : إنَّ رباً يعاتب أنبياءه بشأن أعدائه لحقيق أن يُعبد . لا إله إلا الله ، إبراهيم رسول الله .

إذن : نفهم من هذا أن العمل الصالح هو مطلوب الإيمان ، وإذا آمنتَ بإله لتأخذ الحكم منه وأنت مطمئن أنه إله حق ، فلا يهم بعد ذلك أنْ تؤمن أو لا تؤمن ، المهم قاعدة الصلاح فى الكون وفى حركة الحياة ؛ لذلك لم يقل ومَنْ آمن فله إيمانه ، كأن المراد بالإيمان العمل ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الروم] لأنه لا يعمل صالحاً إلا إذا كان مؤمناً .

ونلحظ هنا أن الآية تتحدث عن صيغة المفرد : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الروم] ثم يتحول إلى صيغة الجمع ﴿ فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الروم] ولم يقُلْ : فهو يمهد لنفسه ، فلماذا ؟

قالوا : لأن الذى يعمل الصالح لا يعمله لذاته ، إنما له ولذريته من بعده ، كما جاء فى قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الطور] إذن : ساعةَ تكلم عن الإيمان جاء بالمفرد ، وساعةَ تكلم عن الجزاء جاء بصيغة الجمع .

كما أن العمل الصالح يأتى من ذات الإنسان ، ويستقبله هو من غيره ، وكلمة (مَنْ) هنا تصلح للمفرد وللمثنى وللجمع بنوعيه ، وتحل محلَّ جميع الأسماء الموصولة تقول : من جاءك فأكرمه ، ومَنْ جاءتك فأكرمها ، ومَنْ جاءاك فأكرمهما ، ومَنْ جاءوك فأكرمهم .. الخ . كذلك فى هذه الآية استعمل مَنْ للدلالة على المفرد ، وعلى الجمع .

وتأمَّل قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [النور] وهل يُسلِّم الإنسان على نفسه ؟ قالوا : نعم لأن المؤمنين شىء واحد ، إذا سلَّمْتَ على أحدهم فكأنك سلَّمت على الجميع ، وأيضاً إذا قُلْت لصاحبك السلام عليكم يردُّ عليك : وعليكم السلام ، فكأنك سلَّمْتَ على نفسك .

ومعنى ﴿ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الروم] مأخوذة من المهْد ، وهو فراش الطفل ، والطفل لا يُمَهده ولا يُسوِّيه ويُهيِّئه ، ولا بُدَّ له من صدر حنون يُسوِّى له مهده ، ويفرشه ويُعده ، فكأن الذى يعمل الصالح فى الدنيا يُمهِّد لنفسه فراشاً فى الآخرة ، كما يحكى أبو منصور بن حازم عن أبى عبد الله بن الحسين يقول : العمل الصالح يسبق صاحبه إلى الجنة ليمهد له فراشه ، كما يمهد الخادم لأحدكم فراشه .

لذلك سبق أن قلنا : إن الذين يؤثرون على أنفسهم يؤثرون من الفانية ليُدَّخر لهم فى الباقية ، وسيدنا رسول الله ﷺ حينما أُهديت له الشاة ، وعاد ليسأل أم المؤمنين عائشة عنها فقال لها : « ماذا صنعت بالشاة ؟ » . فقالت : ذهبتْ كلُّها إلا كتفها ، يعنى : تصدَّقَتْ بها إلا كتفها ، فقال سيدنا رسول الله : « بل ، بقيت كلها إلا كتفها »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٥٠) ، والترمذى فى سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة ، قال الترمذى : حديث صحيح .

وفى حديث آخر : « يا بْن آدم ، تقول : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما لبسْتَ فأبليتَ ، أو أكلتَ فأفنيتَ ، أو تصدَّقْتَ فأبقيتَ »[1].

والإمام على رضى الله عنه يسأله أحدهم : أنا من أهل الدنيا ، أم من أهل الآخرة ؟ فقال الإمام : الجواب عندك أنت ، فقال : كيف ؟ قال : هَبْ أنه دخل عليك شخص بهدية ، وآخر يطلب منك صدقة فلأيِّهما تبشُّ؟ إنْ كنت تبش لصاحب الهدية فأنت من أهل الدنيا وإن كنت تبشّ لطالب الصدقة فأنت من أهل الآخرة .

ذلك لأن الإنسان يحب ما يعمر له محبوبه ، فإنْ كان من أهل الدنيا يحب ما يعمرها له ، وإنْ كان من أهل الآخرة يحب مَنْ يعمر له آخرته .

ثم يعلل الحق سبحانه لماذا يمهدون لأنفسهم :

﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

وذكر هنا الإيمان فقال ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [الروم] ثم ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [الروم] حتى لا يظن أحد أن العمل الصالح ربما يُغنى عن الإيمان . وهذه مسألة شغلتْ كثيراً من الفلاسفة ، يقولون : كيف أن الرجل الكافر الذى يعمل الصالحات لا يُجازى عليها ؟

نقول له : أُجر ويُجازى على عمله الصالح لكن فى الدنيا ؛ لأنه لم يعمل لله ، بل عمل للشهرة وللصيت ، وقد أخذ منها تكريماً

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤/٢٤ ، ٢٦) ومسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه .

وشهرة وتخليداً لذكْراه وأقيمت لهم التماثيل .. إلخ ، أما جزاء الآخرة فلمَنْ عمل العمل لوجه الله خالصاً .

والقرآن يُنبِّهنا إلى هذه المسألة يقول : إياكم أنْ تُغَشُّوا بمن يعمل الأعمال للدنيا :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

وجاء في الحديث : « فعلتَ ليُقال وقد قيل »[1] نعم بنيت مسجداً ، لكن كتبت عليه : بناه فلان ، وشرَّف الافتتاح فلان .. الخ فماذا تنتظر بعد ذلك ، إن ربك يريد العمل الخالص لوجهه تعالى ، كما جاء في الحديث « ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما فعلت يمينه »[2] .

فقوله تعالى ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٤٥) ﴾ [الروم] يدل على أن العمل الصالح إنْ كان صالحاً بحقٍّ يفيد صاحبه في الدنيا ، لكن لا يفيده في الآخرة إلا أن يكون صادراً عن إيمان بالله ، ثم يربط الإيمان بالعمل الصالح حيث لا يغني أحدهما عن الآخر .

وقوله تعالى : ﴿ مِن فَضْلِهِ .. (٤٥) ﴾ [الروم] أي : تفضُّلاً من الله ،

---

(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : جريء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلَّمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ . فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار .. » الحديث أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٥) والنسائي في سننه (٦/٢٣) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ضمن حديث : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » الحديث .

حتى لا ينخدع أحد بعمله ، ويظن أنه نجا به ، وهذه المسألة موضع نقاش بين العلماء يقولون : مرة يقول القرآن ﴿مِن فَضْلِه .. (٤٥)﴾ [الروم] ومرة يقول : ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾ [النحل] أى : أنها حق لكم بما قدَّمتم من عمل ، فهل الجنة حق للمؤمنين أم فضل من الله ؟

ونقول : العمل الذى يطلبه الله تكليفاً من المؤمنين به يعود على مَنْ ؟ يعود على الإنسان ، ولا يستفيد الله منه بشىء ؛ لأن له تعالى صفات الكمال المطلق قبل أن يخلق الخَلْق .

لذلك قال فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى مُلكى قدر جناح بعوضة ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من مُلْكى قدر جناح بعوضة ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد ، فسألنى كُلٌّ مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندى إلا كمغرز إبرة إذا غمسه أحدكم فى بحر ، ذلك أنِّى جوَاد ماجد واجد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردتُه أن أقول له : كُنْ فيكون »[1] .

ويقول سبحانه : ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦)﴾ [النحل]

إذن : فالأعمال التكليفية لخير الإنسان نفسه ، وإنْ كانت فى الظاهر تقييداً لحريته ، فهو مثلاً يريد أنْ يسرق ليزيد ماله ، فنأخذ

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٧٧ ، ١٥٤) والترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه ، قال الترمذى : حديث حسن ، فى إسناده شهر بن حوشب ، ضعفه بعضهم وقد حسَّن البخارى حديثه وقوَّى أمره .

على يديه ، ونمنعه ونقول له : تنبَّه أننا منعناك من السرقة وأنت واحد ، ومنعنا الناس جميعاً أنْ يسرقوا منك ، فأنت إذن المستفيد من منهج الله ، فلا تنظر إلى ما أخذه منك التكليف ، ولكن انظر إلى ما أعطاك هذا التكليف من الغير .

وما دام التكليف كله في مصلحتك ولخيرك أنت ، فإنْ أثابك الله عليه بعد ذلك فهو فضل من الله عليك ، كما تقول لولدك مثلاً : إنْ تفوقتَ سأعطيك كذا وكذا مع أنه المستفيد من التفوق ، فتكون الجائزة بعد ذلك فضلاً .

كذلك الحق تبارك وتعالى يحب عبده أنْ يتقن عمله ، وأن يجتهد فيه ؛ لذلك يعطيه مكافأة عليه مع أننا المستفيدون منه .

ويقول سبحانه : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ .. (٢٥) ﴾ [النور] فجعله حقاً عليه سبحانه ، كما قال : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ [الروم]

ولو بحثنا كلمة «حق» فلسفياً لوجدنا أن كل حق لك يقابله واجب على غيرك ، فلا يكون حقاً لك إلا إذا كان واجباً على غيرك ، فحقُّك هنا واجب إذن على الله تعالى ، لكن الواجب يقتضي مُوجباً فمَنْ أوجب على الله ؟ لا أحد ؛ لأنه سبحانه أوجبه على نفسه .

إذن : فالحق الذي جعله لك تفضُّلاً منه سبحانه ، والحق في أنه جعل لك حقاً ، كالذي ليس له حق في الميراث ، فيتفضل عليه واحد في التركة ويجعل له وصية يكتبها له ، فتصير حقاً واجباً ، له أن يطالب الورثة به شرعاً ؛ لأن المورِّث تفضَّل وجعله حقاً له .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥) ﴾ [الروم] نلحظ في

الآية أنها تتحدث عن جزاء المؤمنين ، فما مناسبة ذكْر الكافرين هنا ؟ قالوا : لأن الله تعالى يريد أنْ يلفت نظر عبده الكافر إلى الإيمان ومزاياه ، كأنه يقول له : تعال إلى الإيمان لتنال هذا الجزاء .

ومثال ذلك ـ ولله المثَل الأعلى ـ رجل عنده ثلاثة أولاد وَعَدهم بهدية لكل مَنْ ينجح في دراسته ، فجاء آخر العام ونجح اثنان ، وأخذ كل منهما هديته ، وتألم الوالد للثالث الذى أخفق وتمنى لو كان مثل أخويْه .

وكذلك الحق سبحانه لا يحب الكافرين ؛ لأنه يحب أن يكون الخَلْق جميعاً مؤمنين لينالوا جزاء الإيمان ؛ لأن الجميع عباده ، وهو سبحانه أرحم بهم من الوالدة بولدها ، وهم خَلْقته وصَنْعته ، وهل رأيتم صانعاً حطم صنعته وكسرها ، إذن : فالله تعالى حريص على عباده حتى الكافر منهم .

وجاء في الحديث القدسي : « قالت السماء : يا رب ائذن لي أن أسقط كسَفاً على ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكرك . وقالت الأرض : يا رب ائذن لي أنْ أخسف بابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب ائذن لي أن أخِرَّ على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب ائذن لي أن أُغرق ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . فماذا قال الرب الخالق للجميع ؟ قال : « دعوني ومن خلقتُ ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم »[1] .

---

(١) أورده أبو حامد الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٤/٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدي ، وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إليَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً ، فأبدله له حسنات» .

لذلك يفرح الله تعالى بتوبة عبده حين يعود إليه بعد إعراض ، ويضرب لنا سيدنا رسول الله مثلاً لتوضيح هذه المسألة فيقول : « لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم وقع على بعيره ، وقد أضله في فلاة »[1] .

فالله لا يحب الكافرين لأنهم لم يكونوا أهلاً لتناول هذا الفضل ، وما ذاك إلا لأنه سبحانه مُحِبٌّ لهم حريص على أن ينالهم خيره وعطاؤه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

هذه نِعَم خمس من نِعَم الله على عباده .

فإرسال الرياح وحدها نعمة ، وتبشيرها بالمطر نعمة ، وإجراء الفُلْك نعمة ، والابتغاء من فضل الله نعمة ، ثم الشُّكْر على هذا كله نعمة أخرى .

والآيات : جمع آية ، وهي كما قلنا : الشيء العجيب الذي يجب أنْ يلفت الأنظار ، وألاَّ يغفل الإنسان عنه طرفة عَيْن ، ومن ذلك قولنا :

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٠٩) وكذا مسلم في صحيحه (٢٧٤٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه واللفظ للبخاري . و « وقع على بعيره » أي : صادفه وعثر عليه من غير قصد فظفر به بعد أنْ ضلَّ منه . والأرض الفلاة هي الصحراء المهلكة .

فلان آية فى الفصاحة ، أو آية فى الجمال .. إلخ .

وتُطلق الآيات ويراد بها معَان ثلاثة : آيات كونيـة تلفت إلى المكوِّن سبحانه ، وتثبت قدرة الخالق .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. (٣٧) ﴾ [فصلت]

وآيات بمعنى المعجزات التى تصاحب الرسل ؛ لتثبت صدْقهم فى البلاغ عن الله ، ثم الآيات التى تحمل الشرع والأحكام ، وهى آيات القرآن الكريم التى تحمل إلينا منهج الله .

وهنا يتكلم الحق سبحانه عن الآيات الكونية ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ .. (٤٦) ﴾ [الروم] كلمة الرياح جمع ريح ، والرياح هنا بالمعنى العام : الهواء ، وهو أنواع : هواء ساكن ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ .. (٣٣) ﴾ [الشورى]

والهواء الساكن يضايق الإنسان ، حيث يُصعِّب عليه عملية التنفس ، فيجلب الهواء لنفسه إما بيده أو بمروحة . لماذا ؟ ليجدد الأكسوجين فى الهواء المحيط به فيستطيع التنفس ، والهواء يأتى مرة ساخناً يلفح الوجوه ، ومرة نسيماً رطباً مُنعشاً عليلاً ، ويأتى عاصفاً مدمراً .. الخ .

والحق سبحانه ـ كما سبق أنْ بينَّا ـ رتَّب مقومات حياة الخليقة فى الأرض على : الهواء ، ثم الماء ، ثم الطعام على هذا الترتيب ، وحَسْب أهمية هذه المقومات . فالهواء هو أهم مُقوِّم فى حياة الكائن الحى ، حيث لا يصبر عليه الإنسان إلا لحظة بمقدار شهيق وزفير ولو حُبس عنه لمات . ثم الماء ويصبر عليه الإنسان إلى عشرة أيام . ثم الطعام ويصبر عليه إلى شهر .

لذلك من حكمة الخالق سبحانه ألاَّ يُملِّك الهواء لأحد ، ولو ملكه أحد وغضب عليك لمتَّ قبل أنْ يرضى عنك ، أما الماء فقليل أنْ يُملكه للناس ، أما الطعام فكثيراً ما يملك ؛ لأن الإنسان يصبر عليه فترة طويلة تُمكِّنه أن يكتسبه ، ويحتال عليه ، أو لعل مالكَ الطعام يرقُّ قلبه ويعطيك.

لذلك نسمع من عبارات التهديد : والله لأكتم أنفاسه ، كأن هذه العملية هى أقسى ما يمكن فعْله ؛ لأنك قد تمنع عنه الماء أو الطعام ولا يموت ، لكن إنْ منعتَ عنه الهواء فهى نهايته ، وهى أسرع وسائل الإبادة للإنسان وأيسرها وأقلّها أثراً ، فلا يترتب عليها دم ولا جروح مجرد منديل مبلل بالماء . إذن : الهواء مُقوِّم هام حياة وإماتة .

وقلنا : إذا حُبس الهواء أو سكن لا يتجدد فيه الأكسوجين فيتضايق الإنسان ؛ لأن أنفاسه تكتم ، أما إذا حدثت فى المكان رائحة كريهة فترى الجميع يضج : افتحوا النوافذ ، لماذا ؟ ليتجدد الهواء .

إذن : إرسال الرياح فى ذاتها نعمة ، فإذا كان فيها برودة وشعرتَ بطراوتها فهى تُبشِّرك بالمطر ؛ لذلك كان العربى يعرف المطر قبل وقوعه ويُقدِّر مسافة السحابة التى ستمطره ، إذن : فالتبشير بالمطر نعمة أخرى .

وهاتان النعمتان إرسال الرياح وإنزال المطر ، لا دخلَ للإنسان فيهما ﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الروم] أى : بالمطر أما فى آية الفلك ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الروم] فنسب الجريان إلى الفُلْك لأن للإنسان يداً فيها وعملاً ، فهو صانعها ومُسيِّرها بأمر الله ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الروم] أى : تسيرون فى البحر للصيد وطلب الرزق ، أو حتى للنزهة والسياحة .

إذن : الآية التى لا دخلَ للإنسان فيها تُنسَب إلى الله وحده ، وإنْ كان

للإنسان فيها عمل نسبها إليه ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ (٦١) ﴾ [الواقعة]

فأعطانا نعمة الحياة ، ثم ذكر ما ينقضها ، حتى لا نستقبل الحياة بغرور ، ولما كانت آية الحياة وآية الموت لا دخلَ للإنسان فيها اكتفى بهذا الاستفهام ﴿ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) ﴾ [الواقعة] ولا أحدَ يستطيع أنْ يقول أنا خلقتُ .

أما في آية الحَرْث ، فنسب الحرث إلى الإنسان ؛ لأن عمله كثير في هذه الآية ، حيث يحرث ويبذر ويروى .. إلخ لذلك قال في نَقْض هذه النعمة ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥) ﴾ [الواقعة] وأكدَ الفعل باللام حتى لا تغترّ بعملك في الزرع .

أما في الماء ، فلم يذكر هذا التوكيد ؛ لأن الماء نعمة لا يدَ للإنسان فيها ؛ لذلك قال في نقضها ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. (٧٠) ﴾ [الواقعة] بدون توكيد .

النعمة الخامسة : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) ﴾ [الروم] وهذه النعمة هي كنز النعم كلها وعقالها ، فإنْ شكرتَ لله نعمه عليك زادك منها : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. (٧) ﴾ [إبراهيم]

وبعد ذلك يُسلِّي الحق سبحانه رسوله ﷺ :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾

يعني : يا محمد ، إنْ كنتَ تعبت في الدعوة ، ولقيت من صناديد قريش عنتاً وعناداً وإيذاءً ومكراً وتبييتاً ، فنحن مع ذلك نصرناك ، وخُذْ لك أسوة في إخوانك من الرسل السابقين ، فقد تعرَّضوا لمثل ما تعرضتَ له ، فهل أسلمنا رسولنا لأعدائه ؟ إذن : اطمئن ، فلن ينال هؤلاء منك شيئاً .

ومعنى ﴿ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ .. ⟨٤٧⟩ ﴾ [الروم] أي : الآيات الواضحات التي تثبت صدقهم في البلاغ عن الله ، ومع ذلك لم يؤمنوا وكذَّبوا ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا .. ⟨٤٧⟩ ﴾ [الروم] وهنا إيجاز لأمر يُفهم من السياق ، فلم يقُل القرآن أنهم كذبوا ، إنما جاء بعاقبة التكذيب ﴿ فَانتَقَمْنَا .. ⟨٤٧⟩ ﴾ [الروم]

وهذا الإيجاز واضح في قصة هدهد سليمان ، في قوله تعالى : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ⟨٢٨⟩ ﴾ [النمل] ثم أتبعها مباشرة : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ⟨٢٩⟩ ﴾ [النمل] وحذف ما بين العبارتين من أحداث تُفهَم من السياق ، وهذا مظهر من مظاهر بلاغة القرآن الكريم .

وتكذيب الأمم السابقة للآيات التي جاءتهم على أيدي الرسل دليل على أنهم أهل فساد ، ويريدون أن ينتفعوا بهذا الفساد ، فشيء طبيعي أنْ يعاندوا الرسل الذين جاءوا للقضاء على هذا الفساد ، وأنْ يضطهدوهم ، فيغار الله تعالى على رسله ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا .. ⟨٤٧⟩ ﴾ [الروم]

ثم يقرر هذه القضية : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ⟨٤٧⟩ ﴾ [الروم] وما كان الله تعالى ليرسل رسولاً ، ثم يُسلمه لأعدائه ، أو يتخلى عنه ؛ لذلك قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ

كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

وسبق أنْ قُلْنا : لا ينبغى أن تبحث فى هذه الجندية : أصادق هذا الجندى فى الدفاع عن الإسلام أم غير صادق ؟ إنما انظر فى النتائج ، إنْ كانت لـه الغلبة فـاعلم أن طاقة الإيمـان فيـه كانت مخلصة ، وإنْ كانت الأخـرى فعليـه هو أن يراجع نفسـه ويبحث عن معـنى الانهزام الذى كـان ضد الإسـلام فى نفسـه ، لأنه لو كـان من جُنْد الله بحق لتحقق فيه ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] ولا يُغلب جند الله إلا حين تنحلّ عنهم صفة من صفات الجندية .

وتأمل مثلاً ما حدث فى غزوة أحد ، حيث انهزم المسلمون - وإنْ كانت كلمة الهزيمـة هنا ليست على سبيل التحقيق لأن المـعركة كانت سجالاً ، وقد انتصروا فى أولـها ، لكن النهاية لم تكُنْ فى صالحهم ؛ لأن الرماة خالفـوا أمر رسول الله[1] ، والهزيمة بعد هذه المـخالفة أمر طبيعى .

وهل كان يسرُّك أيها المسلم أنْ ينتصر المسلمون بعد مـخالفتهم أمر رسولهم ؟ والله لو انتصروا مع مخـالفتهم لأمر رسولهم لهانَ كل

(١) أخرج البيهقى فـى دلائل النبوة (٣/٢٠٩) عن موسى بن عـقبـة فى حديث طويل « أن رسول الله ﷺ أمر خمسين رجلاً من الرماة فجـعلهم نحو خيل العدو ، وأمَّر عليهم عبد الله ابن جبيـر ، وقال لهم : أيها الرماة إذا أخذنا منازلـنا من القتال فإن رأيتم خيل المـشركين تحركت وانـهزم أعداء الله فـلا تتركـوا منازلكم ، إنى أتقدم إليكم أن لا يُفـارقن رجل منكم مكانه واكفـونى الخيل ، فوعظ إليهم فـأبلغ ، ومن نحوهم كان الذى نزل بالنبى ﷺ يـومئذ والذى أصابه .. فلما أبصر الرماة الخمسون أن الله عز وجل قد فتح لإخوانهم ، قالوا : والله ما نجلس ها هنا لشىء ، قـد أهلك الله العدو وإخواننا فى عسكر المشـركين ، وقال طوائف منهم : عـلام نُصفُّ وقد هزم الله العـدو ، فـتركـوا منازلهم التى عـهد إليـهم النبى ﷺ الا يتركوها وتنازعوا وفشلوا وعصوا الرسول » . الحديث .

أمر لرسول الله بعدها ، ولقالوا : لقد خالفنا أمره وانتصرنا . إذاً فمعنى ذلك أن المسلمين لم ينهزموا ، إنما انهزمت الانهزامية فيهم ، وانتصر الإسلام بصِدْق مبادئه .

كذلك في يوم حنين الذي يقول الله فيه ﴿ ويومَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ .. (٢٥) ﴾ [التوبة] حتى أن الصِّديق نفسه يقول : لن نُغلَب اليوم عن قلة ، فبدأت المسألة بالهزيمة ، لكن الأمر كما تقول (صعبوا على ربنا) فأنزل السكينة عليهم ، وشاء سبحانه أن يسامحهم في هذه الزلَّة مراعاة لخاطر أبي بكر .

فقوله تعالى ﴿ وَكَانَ حَقًّا[1] عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ [الروم] نعم ، نصر المؤمنين حَقٌّ على الله ، أوجبه سبحانه على نفسه ، فهو تفضُّل منه سبحانه ، كما يتفضل الموصِي بماله على الموصَى له .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) ﴾

الحق سبحانه يعطينا هنا مذكرة تفصيلية لعملية حركة الرياح ، وسَوْق السحاب ، وإنزال المطر ، وكلمة الرياح إذا جُمعَتْ دلَّتْ على الخير كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢) ﴾ [الحجر]

(١) قال القرطبي في تفسيره (٧/ ٥٣٠٠) : « كان أبو بكر يقف على « حقا » أي : وكان عقابنا حقاً ، ثم قال : « علينا نصر المؤمنين » ابتداء وخبر ، أي : أخبرنا به ولا خُلْف في خبرنا » .

أى : تُلقِّح النباتات فتأخذ من الذكَر ، وتضع فى الأنثى ، فيحدث الإثمار ، ومن عجيب هذه العملية أن ترى الذكر والأنثى فى العود الواحد كما فى نبات الذرة مثلاً ، ففى (الشُّوشة) أعلى العود حبات اللقاح الذكر ، وفى الشعيرات التى تخرج من الكوز متصلة بالحبات توجد أعضاء الأنوثة ، ومع حركة الرياح تتناثر حبات اللقاح من أعلى وتنزل على هذه الشعيرات ، فتجد الشعيرة التى لُقحت تنمو الحبة المتصلة بها ، أما الأخرى التى لا يصلها اللقاح فتموت .

ولذلك نلحظ أن العيدان التى فى مهبِّ الريح أو ناحية بحرى أقلّ محصولاً من التى تليها ، لماذا ؟ لأن الرياح تحمل حبَّات لقاحها إلى العيدان الأخرى التى تليها ، فيزداد محصولها .

فإذا كانت بعض النباتات نعرف فيها الذكر من الأنثى كالنخيل . والجميز مثلاً ، فأين الذكر والأنثى فى القمح ، أو فى الجوافة ، أو فى الموز .

ولما درسوا حبوب اللقاح هذه وجدوا أن كل حبة مهما صَغُرت فيها أهداب دقيقة مثل القطيفة تتناثر مع الرياح ، ويحملها الهواء إلى أماكن بعيدة ؛ لذلك ترى الجبال والصحراء تخضرّ بعد نزول المطر ، فمَنْ بذر فيها هذه البذور ؟ إنها الرياح اللواقح بقدرة الخالق عز وجل .

ولنا وَقْفة عند قوله تعالى : ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى] أى : السفن التى تسير بقوة الرياح تظل راكدة على صفحة الماء لا يحركها شىء ، فإنْ قُلْت : كيف نفهم هذا المعنى الآن مع تقدم العلم الذى سيَّر السفن بقوة البخار والديزل أو الكهرباء ، واستغنى عن الرياح ؟

ونقـول : الرياح من مـعـانيهـا الهـواء ، وهي أيضـاً تعنى القـوة مطلقاً ، كمـا فى قوله تعالى : ﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. (٤٦) ﴾ [الأنفال] أى : قوتكم ، فالريح تعنى القوة على أىِّ وضع ، سواء أسارتْ بالرياح أو بالآلة ، فهو سبحانه قادر على أنْ يُسكنها .

لذلك تجد أن الرياح بمـعنى القوة لها قوة آنية ، وقـوة آتية ، آنية يعنى الآن ، وآتيـة تأتى فيمـا بعد ، وكذلك كل إنـسـان وكل شـيء فى الكون له نَفَس وريح وكيماوية خاصة به تمـيزه عن غيره وهذه مهمة كـلاب البوليس التى تشم رائحـة المـتهـمين والمـجرمـين فى قضـايا المخـدرات مثلاً ، فالشـخص له رائحة الآن وهو موجـود ، وله رائحة تظلّ فى المكان حتى بعد أنْ يفارقه .

لذلك يُعلِّمنا القـرآن أن الريح هو أثبت الآثار فى الإنسـان ، واقرأ فى ذلك قـوله تعالى عن يوسف ويعـقوب عليـهمـا السلام : ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا .. (٩٣) ﴾ [يوسف]

وكـان يوسف فى مـصـر ، ويعـقوب فـى أرض فلسطين ، فلمـا فصلت[1] العيـر بقميص يوسف ، وخـرج من نطاق المبـانى التى ربما حجزتْ الرياح ، قـال يعقوب ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ .. (٩٤) ﴾ [يوسف] على بُعْد ما بينهما من المسافات[2] .

---

(١) فصل عن المكان : جاوزه . فالعير خرجت وجاوزت المدينة . [القاموس القويم ٢/٨٣] .

(٢) للعلماء فى تقدير هذه المسافة أقوال :

– عن ابن عبـاس عدة أقوال : مـسيرة ثمـانية أيام ـ عشـرة أيام ـ مسيـرة ثمانين فرسـخاً ـ مسيرة ستة أيام .

– عن الحسن البصرى أنها مسيرة شهر .

– وعن محـمد بن كعب ـ أنهـا مسيـرة سبعـة أيام . [ذكر السيـوطى هذه الأقوال فى « الدر المنثور فى الـتفسـير بالمأثور » (٤/٥٨١)] وعلى قـول ابن عباس أنـه مسيـرة ثمانين فرسخاً ، يكون معنى هذا أن المسافة هى أكثر من ٤٠٠ كيلو متر . على أساس أن الفرسخ ثلاثة أميال على الأقل ، والميل ١٧٦٠ متراً . والله تعالى أعلم .

وإذا أُفردت الـرياح دلَّتْ على الشر ، ومـعنى الرياح أن تأتى ريح من هنا وريح من هنا .. فتأتيك بالأكسـوجين أينما كان ، وتحمل إليك عبير العطور فى الكون ، فهى إذن تأتيك بالفائدة .

وقلنا : إن الأشياء الثابتة اكتسبتْ الثبات من وجود الهواء فى كُلِّ نواحـيهـا وجهـاتها ، ولو فـرَّغْتَ الهواء من ناحـية من نواحى إحـدى العـمارات لانهـارتْ فى الحـال ، كذلك الريح إنْ جـاءت مـفردة فـهى مدمرة ، وفيها العطب كما فى قوله تعالى : ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١)﴾ [الذاريات]

وقال : ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦)﴾ [الحاقة]

فقـوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ .. (٤٨)﴾ [الروم] فإرسـال الرياح فى ذاته نعمة ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا .. (٤٨)﴾ [الروم] إثارة السحاب أى : تهيجه وتحركه ، وهذه نعمة أخرى .

والسحـاب عبارة عن المـاء المتبـخِّر من الأرض ، وتجمُّع بعـضه على بعض فى طبقـات الجو ، وماء المطر مـاء مُقطر بقدرة الله ، كـما نُجرى نحن عـملية التـقطير فى المـعامل مثـلاً ، فيأتينا المـطر بالماء العَـذْب النقى الزلال الذى قطرته لنـا عناية الخـالق سبـحـانه دون أنْ ندرى .

وإذا كان تقطيـر كوب واحد يحـتاج إلى كل هذه العـمليات ، وكل هذه التكلفة ، فما بالك بماء المطر ؟

وسبق أنْ قُلْنا : إن من حكمة الخالق سبحانه أنْ جعل ثلاثة أرباع اليابسة ماء لتتسع رقعة البَخْر ليكفى الربع الباقى ، وضربنا لتوضيح ذلك مثـلاً بكوب الماء حين تتركـه على المنضدة مثلاً ، وحـين تسكبه

فى أرض الغرفة ، ففى الحالة الأولى يظل الماء فترة طويلة ؛ لأن البَخْر قليل ، أما فى الأخرى فإنه سرعان ما يتبخر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ .. (٤٨) ﴾ [الروم] وانظر إلى طلاقة المشيئة ، فالمطر يصرفه الله كيف يشاء إلى الأماكن التى تحتاج إلى مطر ، ومن العجيب أن الله تعالى حين يريد أن يرزق إنساناً ربما يرزقه من سحاب لا يمر على بلده ، وانظر مثلاً إلى النيل ، من أين يأتى ماؤه ؟ وأين سقط المطر الذى يروى أرض النيل من أوله إلى آخره ؟

ومعنى ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا .. (٤٨) ﴾ [الروم] كسفاً : جمع كسْفة ، وهى القطعة ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ .. (٤٨) ﴾ [الروم] المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ .. (٤٨) ﴾ [الروم] أى : من بين هذه السحب .

﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) ﴾ [الروم] والإصابة قد تكون مباشرة ، فيهطل المطر عليهم مباشرة ، وقد تكون غير مباشرة بأنْ تكون الأرض منحدرة ، فينزل المطر فى مكان ويسقى مكاناً آخر ، بل ويحمل إليه الخصْب والنماء ، كما كان النيل فى الماضى يحمل الطمى من الحبشة إلى السودان ومصر .

وكان هذا الطمى يستمر مع الماء طوال مجرى النيل وإلى دمياط ، فلماذا لم يترسب طوال هذه المسافات ؟

لم يترسب بسبب قوة دفع الماء وشدة انحداره ، بحيث لا يستقر هذا الطمى ولا يترسب .

وقوله : ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) ﴾ [الروم] لأن الرياح حين تمر عليهم تُبشِّرهم بالمطر ، وحين ينزل المطر يُبشِّرهم بالزرع والنماء والخِصْب والخير ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا

عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الحج]

وأذكر وأنا صغير وبلدنا على النيل ، والنيل من أمامها متسع ، وبه عدة جزر يزرعها الناس ، فأذكر أننا كنا نزرع الذرة ، وجاء الفيضان فأغرقه وهو ما يزال أخضر لم ينضج بَعْد ، وكان الناس يذهبون إليه ويجمعونه بالقوارب ، ورأيت النساء تزغرد والفرحة على الوجوه ، فكنت أسأل أبى رحمه الله : النيل أغرق الزرع ، فلماذا تزغرد النساء ؟

فكان والدى يضحك ويقول : تزغرد النساء لأن النيل أغرق الزرع ، وهذا هو مصدر الخير ، وسبب خصوبة الأرض ، فلما كبرتُ وقرأت قصيدة أحمد شوقى[1] رحمه الله فى النيل :

مِنْ أىِّ عَهْدٍ فى القُرَى تتدفَّقُ وبأىِّ كَفٍّ فى المدائن تُغدق
الماءُ تُرسلُه فيصبح عَسْجداً[2] والأرضُ تُغرقُها فيحيَا المغرَق

لما قرأتُ هذه القصيدة عرفت لماذا كانت النساء تزغرد حين يُغرق النيلُ الزرعَ .

والاستبشار لنزول المطر يأتى على حسب الأحوال ، فإن جاء بعد يأس وقحط وجفاف كانت الفرحة أكبر ، والاستبشار أبلغ حيث يأتى المطر مفاجئاً ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الروم] أما إنْ جاء المطر فى

---

(١) هو : أحمد شوقى بن على بن أحمد شوقى ، أشهر شعراء العصر الأخير ، يلقب بأمير الشعراء ، ولد ١٨٦٨ م بالقاهرة وتوفى ١٩٣٢ م عن ٦٤ عاماً . نشأ فى ظل البيت المالك ، درس الحقوق واطلع على الأدب الفرنسى ، كانت حياته كلها للشعر يستوحيه من المشاهدات والحوادث ، اتسعت ثروته وعاش مترفاً فى نعمة واسعة . [الأعلام للزركلى ١/١٣٧] .

(٢) العسجد : الذهب . وقيل : هو اسم جامع للجوهر كله من الدرّ والياقوت . [لسان العرب - مادة : عسجد] .

الأحوال العادية فإن الاستبشار به يكون أقلَّ .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ۝٤٩ ﴾

معنى ﴿ مُبْلِسِينَ ۝٤٩ ﴾ [الروم] آيسين من نزول المطر ، فإنْ جاءهم المطر بعد هذا اليأس كانت فرحتهم به مزدوجة ومضاعفة .

وللعلماء[1] وقفة حول هذه الآية ؛ لأنها كررتْ كلمة من قبل ، وبالتأمل نجد المعنى : من قبل أنْ ينزل عليهم ، وإنْ كانوا من قبل هذا القبل يائسين ، فهنا إذن قبلان .

ولا بُدَّ أن نفهم أن هناك إرسالاً للرياح التى تبشر بالمطر ، وهناك إنزال المطر ، فلما ينزل المطر يكون هناك قبلية له هى الإرسال ، فقبل الإرسال كان عندهم يأس ، وبعد الإرسال قالوا ربما لا تمطر .

إذن : هنا كم قبل ؟ قبل الإنزال وقبل الإرسال . فالمعنى : فهُمْ من قبله ـ أى من قبل أن ينزل المطر ـ من قبل هذا عندهم يأس .

﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٥٠ ﴾

---

(١) هنا أقوال ذكرها القرطبى فى تفسيره (٥٣٠١/٧) :

– عند الأخفش : هذا تكرار معناه التأكيد . وأكثر النحويين على هذا القول . قاله النحاس .

– وقال قطرب : إن « قبل » الأولى للإنزال والثانية للمطر . أى : وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر .

– وقيل : المعنى : من قبل السحاب من قبل رؤيته . واختار هذا القول النحاس .

كأن الحق سبحانه أراد أنْ يستدلَّ بالمحَسِّ المنظور فى الكون على ما يريد أنْ يخبرنا به من الغيب من أمور البعث والآخرة ؛ لذلك يعلل بقوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٥٠ ﴾ [الروم] فذكر مع الأرض الفعل المضارع يحيى ، والفعل المضارع يدل على التجدد والاستمرار وهذه عملية مُحسَّة لنا .

أما فى إحياء الموتى فجاء بالاسم محيى ، والاسم يفيد ثبوت الصفة ؛ ليؤكد إحياء الموتى ، ومعلوم أن الموت لا يشك فيه أحد ؛ لأنه مُشَاهد لنا ، أما البعث فهو محلُّ شكٍّ لدى البعض لأنه غيب .

ومع ذلك يقول تعالى عن الموت : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ﴾ [المؤمنون] ، فيؤكد هذه القضية مرة بإنْ ، ومرة باللام ، والموت شىء واقع لا ننكره ، فلماذا كل هذا التأكيد ؟

قالوا : نعم هو واقع لا نشك فيه ، لكنه واقع مغفول عنه ، فكأن الغفلة عنه كالإنكار ، ولو كنتم متأكدين منه ما غفلتم عنه .

فلما ذكر البعث قال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦ ﴾ [المؤمنون] فأكدها بمؤكد واحد ، مع أنه محلُّ شكٍّ ، فكأنه لما قامت الأدلة عليه كان ينبغى ألاَّ يشك فيه ؛ لذلك لم يؤكده كما أكَّد الموت ، ولما غفلنا عن الأدلة كان واجباً أنْ يُؤكِّد الموت ، فأكَّد الموت ، ولم يؤكد البعث .

ومعنى ﴿ فَانظُرْ .. ۝٥٠ ﴾ [الروم] الأمر بالنظر هنا ليس (فنطزية) ولا (للفرجة) أو التسلية ، لأننا نقول : هذا الأمر فيه نظر يعنى : محلاً للبحث والتقصى لنصل إلى وجه الحق فيه ، بترجيح بعض الأدلة على بعض .

إذن : (فانـظر) أى : نظر اعتـبار وتأمل ؛ لأننا نريد أن نقـيس الغائب عنا والذى نريد أن نخبـر به من أمور الآخرة بالمنظور لنا من إحياء الأرض بعد موتها .

ففى الآية دليل جديد من أدلة قـدرة الحق ووحدانيته ، وهو دليل كونى نراه جـميـعاً ، والحق سبـحانه يُلوِّن الأدلة ليلفت الـمخلوق إلى عظمة الخـالق ليؤمن به إلهاً واحداً قـاهراً قيوماً مقـتدراً ، وهذه الأدلة حجـة تضىء العـقل ، وآيات فى الكون تبرهن علـى الصِّدق ، وأمـثال يضربها للناس فى الكون وفى أنفسـهم ، ووعد لمن آمن ، ووعيد لمن خالف .

وهنا أيضـاً دليل كونى مـشهود فـى الكون ، فالذى أحـيا الأرض الميتة كما تشاهدون (لمحى الموتى) فى الآخرة كما يخبركم ، وجاء بصيغة اسم الفاعل الدال على ثبوت صفـة الإحياء قبل أنْ يُحيى ، كما نقول : فلان شـاعر فلم يكتسب هذه الصفة لأنه قال شـعراً ، إنما هو شاعر قـبل أن يقول ، كذلك الخالـق سبحانه (محى) قـبل أن يوجد منه الفـعل ، وقادر قـبل أنْ يخلق مقـدوراً له ، وخالق قـبل أنْ يخلق خَلْقاً ، فبالصفة فيه سبحانه خلق .

ولكى نُقرِّب الشبـه بين إحياء الأرض بالنبات وإحـياء الموتى يوم القيامة نقول : لو نظرنا إلى الإنسـان لوجدنا هذا الهيكل الضخم الذى يزن إلى مـائة كـيلو أو يزيد ، أصل تكوينه مـيكروب لا يُرَى بالعـين المجردة ، حتى قالوا : إن أنسـال العالم كله من الحيوان المنوى يمكن أنْ توضع فى حجم كستبان الخياطة ، إذا ملىء نصفه من المنى ، ثم يأخذ هذا الحيوان المنوى من الغذاء من الرزق فينمو ويكبر فى الحجم فقط ، لكن تظل الشخصية كما هى .

فإذا مات الإنسان يبلَى هذا الجسد ، ويتحلل إلا عظمة الذنب ، فتبقى لا تتحلل ولا تأكلها الأرض لتكون هى البذرة التى تنبت الإنسان بقدرة الله يوم القيامة ؛ لذلك جاء فى حديث إحياء الموتى يوم القيامة : « فينبتون كما ينبت البقل »[1]

ففى هذه العظمة الصغيرة كل صفات الإنسان وخصائصه ، ومنها يعود كما كان قبل الموت ، كما نرى حبة السمسم مثلاً ، فهى رغم صِغَرها إلا أنها تحمل كل خصائص هذا النبات كلها ، إذن : صِغَر الحَجم دليل على القدرة ، فإذا ما وضعت هذه الحبة الصغيرة فى البيئة المناسبة تأخذ الغذاء من التربة ومن الهواء وتنمو وتكبر ، وهذا النمو وهذا الكبر لا يعطى شخصية جديدة إنما الشخصية ثابتة ، إنما يعطى تكبيراً لها فحسب .

لذلك لما شرَّحوا الأرنب وجدوه صورة طبق الأصل من تشريح الإنسان ، بمعنى أن فيه كل جوارح الإنسان وكل أجهزته ، حتى البعوضة فى حجمها الضئيل فيها كل الأجهزة ، لكن أين جهازها الهضمى وجهازها الدموى وجهازها العصبى والسمبتاوى والبولى .. الخ ، فدقَّة هذه المخلوقات دليل على القدرة .

وفى حضارتنا الحالية نجد أن من علامات التقدم العلمى أنْ نُصغِّر الكبير إلى أقصى درجة ممكنة ، وانظر مثلاً إلى الراديو أول ما

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٤٩٣٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٥٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « ما بين النفختين أربعون ، قال : أربعون يوماً ؟ قال : أبيت ، قال : أربعون شهراً ، قال : أبيت ، قال : أربعون سنة ؟ قال : أبيت . قال : ثم يُنزل الله من السماء ماء ، فينبتون كما ينبت البقل ، ليس من الإنسان شىء إلا يبلى ، إلا عظماً واحداً وهو عُجْب الذنب ، ومنه يُركب الخلق يوم القيامة » .

اخترعوه كان فى حجم النورج ، أما الآن فهو فى حجم علبة الكبريت.

إذن : فالعظمة أن تضع كل الأجهزة فى هذا الحجم الصغير ، أو تجعلها كبيرة فوق العادة وفوق القدرة ، كما فى ساعة « بج بن » مثلاً .

لذلك نرى الخالق سبحانه خلق الشىء الدقيق المتناهى فى الصِّغَر ، بحيث لا يُدرك بالعين المجردة ، ومع ذلك يحتوى على كل خصائص الشىء الكبير ، وخلق من المخلوقات الضخم الذى لا تستطيع أنْ تحدَّه .

إذن : حينما ينمو الشىء لا يزداد خصائص جديدة ، إنما تكبُر عنده نفس الخصائص ونفس المشخَّصات الأصلية فيه .

وسبق أنْ قُلْنا : لو أن إنساناً يزن مثلاً مائة كيلو أصابه مرض والعياذ بالله أفقده نصف وزنه ، نقول : أين ذهب هذا النقص ؟ ذهب إلى فضلات نزلتْ منه ؛ لأن الإنسان ينمو حينما يكون الداخل إليه من الغذاء أكثر من الخارج منه من الفضلات ، فإنْ تساوى يقف عند حدٍّ معين لا يزيد ولا ينقص .

فإذا سخر الله لهذا المريض طبيباً يداويه ، فإنه يستعيد عافيته إلى أنْ يعود إلى وزنه الطبيعى مائة كيلو كما كان ، فهل عاد إليه ما فقده فى نقص الوزن ، أم عاد إليه مثله من عناصر الغذاء والتكوين ؟ عاد إليه مثل الذى فقده . إذن : فالشخصية هى هى باقية لا تتغير مع النقص أو الزيادة .

كذلك فالشخصية أو الخصائص موجودة فى هذا الميكروب الدقيق أو فى هذه الحبة الصغيرة ، إلى أنْ تُوضع فى بيئتها المناسبة ،

فتعطى نفس الشخصية أو نفس الخصائص لنوعها ، حتى قالوا : إن قدماء المصريين وضعوا مع الموتى بعض الحبوب ، وحفظوها طوال آلاف السنين ، بحيث إذا وُضعت الحبة منها فى التربة المناسبة فإنها تنبت .

فإذا كان الإنسان يستطيع أن يستنبت الحبة بعد بضعة آلاف من السنين ، أيكون عزيزاً على الله أنْ يستنبت بذرة الإنسان ، ويُحيى الذرة الباقية منه فى الأرض حين ينزل عليها المطر بأمره تعالى يوم القيامة ؟

ثم إن الحبة الواحدة التى يستنبتها الإنسان تعطيه آلافاً من نوعها ، أما بذرة الإنسان والذرة الباقية منه فتعطى شخصاً واحداً لا غير ، أيصعب هذا على القدرة الإلهية ؟

لذلك يحثُّنا الحق سبحانه على التأمل فى قوله ﴿فَانظُرْ .. (٥٠)﴾ [الروم] لا نظر عين ، ولكن نظر تأمُّل وتعقُّل واستنباط ، وربنا ينعى علينا الغفلة فى التأمل ، فيقول سبحانه : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)﴾ [يوسف]

ونسمى الجدل لإظهار الحقائق (مناظرة) ، يناظر كل مِنَّا الآخر ، لا نظرَ عين ، ولكن نظر عَقْل واستنباط .

﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ .. (٥٠)﴾ [الروم] أى : الذى أحياها ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ .. (٥٠)﴾ [الروم] وما دام قد ثبتتْ له صفة الإحياء ، فإذا أخبرك بأنه يُحيى الموتى ، فصدِّق وخُذْ مما شاهدته دليلاً على ما غاب عنك .

ثم يختم الحق سبحانه هذه الآية بصفة أخرى تؤكد صفة الخَلْق

والإحياء ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٥٠ ﴾ [الروم] فغير أنه سبحانه حيٌّ ومحيى له سبحانه صفات الكمال ، والقدرة على كل شيء علماً وقدرةً وحكمة وبَسْطاً وقبضاً ونفعاً وضراً .. إلخ .

فبعد أنْ ذكر الحدث في الفعل المضارع الدال على الاستمرار ﴿ يُحْيِي .. ۝٥٠ ﴾ [الروم] ذكر الاسم الدال على ثبوت الصفة ﴿ لَمُحْيِي .. ۝٥٠ ﴾ [الروم] ثم جاء بكل صفات الكمال في ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٥٠ ﴾ [الروم]

يريد الله أن يبين أن الإنسان كنود[1] ، وأنه خُلِق جزوعاً ، إنْ مسَّه الشر يجزع ، وإنْ مسه الخير يمنع ، فلما كان يائساً من الهواء يهبُّ عليه أرسل الله إليه الرياح ، وبعد أنْ كان يائساً من قطرة الماء أنزل الله عليه المطر مدراراً ، فهل أخذ في باله هذا العطاء ، بحيث إذا أصابه يأس من شيء طلب فرجه من الله ، وأزاح اليأس عن نفسه وقال : إن لي رباً ألجأ إليه ، ولا ينبغي لي أن أقنط وهو موجود ؟

فالذي فرج عليك من يأس الرياح ومن يأس المطر قادر أنْ يُفرِّج عنك كل كَرْب ؛ لذلك ينبغي أن يكون شعار كل مؤمن : لا كرْبَ وأنت ربٌّ ، ما دام لك ربٌّ فلا تهتم ولا تيأس ، فليستْ مع الله مشكلة المشكلة ألاَّ يكون لك ربٌّ تلجأ إليه .

وهذا هو الفرق بين المؤمن والكافر المؤمن له رَبٌّ يلجأ إليه إنْ عزَّتْ عليه الأسباب ، أما الكافر فما أشقاه ، فإنْ ضاقت به الأسباب لا يجد صدراً حنوناً يحتويه ، فيلجأ في كثير من الأحوال إلى الانتحار.

لذلك كان سيدنا رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر يقوم إلى الصلاة ،

---

(١) كند النعمة يكندها : جحدها ولم يشكرها فهو كاند ، وصيغة المبالغة كنود أي : كفور شديد الجحود [القاموس القويم ٢/١٧٥] .

وكان يقول : « أرحنا بها يا بلال »[1] ففي الصلاة تختلي بربك وخالقك ، وتعرض عليه حاجتك ، وتستمد منه العون والقوة .

كذلك يُعلِّمنا هذا الدرس نبي الله موسى - عليه السلام - فحينما خرج ببني إسرائيل وأدركه فرعون وقومه ، فوجدوا أنفسهم محاصرين ، البحر من أمامهم والعدو من خلفهم ، قالوا لموسى ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء] وهذا منطق البشر وواقع الأشياء ، لكن كان لموسى منطق آخر ينطلق فيه من وجود رَبٍّ قادر يلجأ إليه في وقت الشدة فيفرجها عنه .

فقال موسى بملء فيه (كلا) قالها على سبيل اليقين قَوْلة الواثق من أن ربه لن يتخلى عنه ، لم يقُلْها برصيد من عنده ، إنما برصيد إيمانه في الله ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] وهذا هو المَفْزَع لكل مؤمن .

لِمَ لا ، وأنت إنْ كانت لديك قضية ترتاح إنْ وكَّلْتَ فيها محامياً يدافع عنك ، فما بالك إنْ وكَّلت رب الأرض والسماء ، فكان هو سبحانه المحامي والقاضي والشاهد والمنفِّذ للحكم ؟

وأنت ترى القاضي في الدنيا يحكم ببينة قد يُدلِّس فيها ويحكم ، ويحكم بإقرار لا يستطيع أنْ ينتزعه من صاحبه ، أو بشهادة الشهود ، وقد يكونون شهودَ زور ، ثم هو بعد ذلك لا يملك تنفيذ حكمه ، فهناك سلطة قضائية تحكم وسلطة تنفيذية تنفذ ، حتى السلطة التنفيذية يستطيع المجرم أن يفلت منها .

أما في محكمة العدل الإلهي ، فقاضيها هو الحق - سبحانه

---

(١) عن حذيفة قال : « كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود في سننه (١٣١٩) .

وتعالى ـ فلا يحتاج إلى بينة أو إقرار أو شهود ، ولا يستطيع أحد أنْ يُدلِّس عليه سبحانه ، أو أنْ يُفلت من حكمه ؛ لذلك قال تعالى عن نفسه : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأعراف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

لك أن تلحظ الفرق بين أسلوب هذه الآية ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا .. ﴿٥١﴾ ﴾ [الروم] والآية السابقة ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ.. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الروم] فيرسل : مضارع دالٌّ على الاستمرار ، والرياح كما قلنا لا تُستعمل إلا في الخير ، فكأن إرسال الرياح أمر متوافر ، وكثيراً ما يحدث فضلاً من الله وتكرُّماً .

أما هنا ، وفي الحديث عن الريح ، وسبق أنْ قُلْنا : إنها لا تستعمل إلا في الشر ، فلم يقُلْ يرسل ، بل اختار (إن) الدالة على الشك ، والفعل الماضي الدال على الانتهاء لماذا ؟ لأن ريح الشر نادراً ما تحدث ، ونادراً ما يُسلِّطها الله على عباده ، فمثلاً ريح السَّمُوم تأتي مرة في السنة ، كذلك الريح العقيم جاءتْ في الماضي مرة واحدة ، كذلك الريح الصرصر العاتية .

إذن : فهي قليلة نادرة ، ومع ذلك إنْ أصابتهم يجزعون وييأسون ، وهذا لا ينبغي منهم ، أليست لهم سابقة في عدم اليأس حين يئسوا من إرسال الرياح ، فأرسلها الله عليهم ومن إنزال المطر فأنزله الله لهم ، فلماذا القنوط والرب موجود ؟

ومعنى ﴿ فَرَأَوْهُ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [الروم] أي : رأوا الزرع الذي كان

أخضر نضراً ﴿مُصْفَرًّا .. ﴿٥١﴾﴾ [الروم] أى : متغيراً ذابلاً ﴿لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الروم] يكفرون باليأس الذى يعزل الحق سبحانه عن الأحداث ، مع أن لهم سابقةً ، وقد يئسوا وفرَّج الله عليهم .

ذلك لأن الإنسان لا صبرَ له على البلاء ، فإنْ أصابه سرعان ما يجزع ، ولو قال أنا لى رب أفزع إليه فيرفع عنى البلاء ، وأن له حكمة سأعرفها لاستراحَ ولهانَ عليه الأمر .

ولك أنْ تسأل : لماذا قال القرآن ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا .. ﴿٥١﴾﴾ [الروم] ولم يقُلْ وإن ؟ قالوا : هذه اللام الزائدة يُسمُّونها اللام الموطئة للقسم ، فتقدير الكلام : والله لئن أرسلنا ، فالواو هنا واو القسم واللام مُوطِّئة له ، وللحق سبحانه أن يقسم بما يشاء على ما يشاء ، وكل قسم يحتاج إلى جواب ، تقول : والله لأضربنَّك .

كذلك الشرط فى (إن) يحتاج إلى جواب للشرط ، والحق سبحانه هنا مزج بين القسَم والشرط فى جملة واحدة ، فإنْ قلت فالجواب هنا للقسَم أم للشرط ؟

قالوا : فطنة العرب تأبى أنْ يوجد جوابان فى جملة واحدة ، فيأتى السياق بجواب واحد نستغنى به عن الجواب الآخر ، والجواب يكون لما تقدَّم ، فإنْ تقدم القسَم فالجواب للقسم ، وإنْ تقدَّم الشرط فالجواب للشرط . وهنا ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا .. ﴿٥١﴾﴾ [الروم] قدم القسم ؛ لأن التقدير : والله لئن أرسلنا ريحاً ..

وكلمة ﴿لَّظَلُّوا .. ﴿٥١﴾﴾ [الروم] مأخوذة من الظل وظلَّ فعل ماضٍ ناقص مثل بات يعنى فى البيتوتة ، وأضحى يعنى : استمر فى وقت الضحى ، وأمسى فى وقت المساء ، كذلك ظلَّ أى : استمر فى الوقت الذى فيه ظلٌّ يعنى : طوال النهار ، إذن : نأخذ الزمن من المشتق منه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يريد الحق سبحانه أن يُسلِّي رسوله ﷺ حتى لا يألم لما يلاقيه من قومه ، يقول له : يا محمد لا تُتعب نفسك ؛ لأن هؤلاء لن يؤمنوا ، وما عليك إلا البلاغ ، فلا تيأس لإعراض هؤلاء ، ولا تتراجع عن تبليغ دعوتك والجهاد في سبيلها والجهر بها ؛ لأنني أرسلتك لمهمة ، ولن أتخلى عنك ، وما كان الله ليرسل رسولاً ثم يخذله أو يُسْلمه .

وقد قال تعالى لنبيه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف] ولو أردتُ لجعلتُهم مؤمنين قَسراً لا يملكون أنْ يكفروا : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء]

إنما أريد أنْ يأتوني طواعية عن محبة ، لا عن قهر ؛ لأنني لا أريد قوالبَ تخضع ، إنما قلوباً تخشع ، ويستطيع أيُّ بشر بجبروته أنْ يجعلَ الناسَ تخضع له أو تسجد ، لكنه لا يستطيع مهما أُوتِي من قوة أنْ يُخْضِع قلوبهم ، أو يحملهم على حُبِّه .

وهنا يقول تعالى لنبيه : ﴿ فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الروم] فجعلهم في حكم الأموات ، وهم أحياء يُرْزَقون ، لماذا ؟ لأن الذي لا ينفعل لما يسمع ولا يتأثر به ، هو والميت سواء .

أو نقول : إن للإنسان حياتين : حياة الروح التي يستوي فيها المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ، وحياة المنهج والقيم ، وهذه

للمؤمن خاصة ، والتى يقول الله فيها : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال]

فهو سبحانه يخاطبهم هذا الخطاب وهم أحياء ، لكن المراد هنا حياة المنهج والقيم ، وهى الحياة التى تُورثك نعيماً دائماً باقياً لا يزول ، خالداً لا تتركه ولا يتركك .

لذلك يقول سبحانه عن هذه الحياة : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت]

لذلك سمَّى الله المنهج الذى أنزله على رسوله روحاً : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى] لأن المنهج يعطيك حياة باقية لا تنزوى ولا تزول .

وسمَّى الملَك الذى نزل به روحاً : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء] فالمنهج روح من الله ، نزل به روح من الملائكة هو جبريل عليه السلام على قلب سيدنا رسول الله ليحمله رسول مصطفى فيبثُّه فى الناس جميعاً ، فَيحيَوْن الحياة الآخرة .

فالكفار بهذا المعنى يحيَوْن حياة روح القالب التى يستوى فيها جميع البشر ، لكن هم أموات بالنسبة للروح الثانية ، روح القيم والمنهج .

لذلك ، إذا كان عندنا شخص شقى أو بلطجى يفسد فى المجتمع أكثر مما يصلح نقول له : أنت وجودك مثل عدمه ، لماذا ؟ لأن الحياة إذا لم تُستغل فى النافع الدائم ، فلا معنى لها .

وهنا يقول تعالى لنبيه : لا تحزن ، ولا تذهب نفسك على هؤلاء

القوم الحسرات ، فهم موتى لم يقبلوا روح المنهج وروح القيم ، وما داموا لم تدخلهم هذه الروح ، فلا أملَ فى إصلاحهم ، ولن يستجيبوا لك ، فالاستجابة تأتى ممن أصغى سمعه ، وأعمل عقله فى الكون من حوله ليصل إلى حقيقة الحياة ولغز الوجود .

وسبق أنْ قُلْنا : إنك إذا سقطتْ بك طائرة مثلاً فى صحراء ، وانقطعت عن الناس ، فلا أنيس ولا شىء من حولك ، ثم فجأة رأيتَ أمامك مائدة عليها أطايب الطعام والشراب ، فطبيعى قبل أنْ تمتد يدك إليها لا بُدَّ أنْ تسأل نفسك : مَنْ أتى بها ؟

كذلك أنت أيها الإنسان طرأتَ على كون مُعَدٍّ لاستقبالك ، ملىء بكل هذا الخير ، بالله ألاَ يستدعى هذا أنْ تسأل مَنْ أعد لى هذا الكون ؟

ثم لم يدَّعِ أحد هذا الكون لنفسه ، ثم جاءك رسول من عند الله يخبرك بحقائق الكون ، ويحل لك لغز الحياة والوجود ، لكن هؤلاء القوم لما جاءهم رسول الله أبَوْا أن يستمعوا إليه ، ولم يقبلوا الروح الذى جاءهم به .

والحق سبحانه يعرض لنا هذه المسألة فى آية أخرى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد] وهذا يعنى أن روح المنهج لم تباشر قلوبهم .

ويردُّ الحق عليهم : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) ﴾ [فصلت]

فالقرآن واحد ، لكن المستقبل للقرآن مختلف ، فواحد يسمعه بأذن

مُرْهفة وقلب واعٍ فيستفيد ، ويصل إلى حَلِّ اللغز فى الكون وفى الخَلْق ؛ لأنه استجاب للروح الجديدة التى أرسلها الله له ، وآخر أعرض .

وهؤلاء الذين أعرضوا عن القرآن إنما يخافون على مكانتهم وسيادتهم ، فهم أهل فساد وطغيان ، ويعلمون أن هذا المنهج جاء ليقيد حرياتهم ، ويقضى على فسادهم وطغيانهم ؛ لذلك رفضوه .

لذلك تجد أن الذين تصدَّوْا لدعوات الرسل وعارضوهم هم السادة والكبراء ، ألاَ تقرأ قول الحق سبحانه عن مقالتهم : ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) ﴾ [الأحزاب]

إذن : لا تتعجب من أنَّ القرآن يسمعه إنسان فيقول مُستلذاً به : الله ، أعِدْ ، وآخر ينصرف عنه لا يدرى ما يقول ، والمنصرف عن القرآن نوعان : إما ينصرف عنه تكبُّراً يعنى : وعى القرآن وفهمه لكن تكبَّر على الانصياع لأوامره ، وآخر سمعه لكن لم يفهمه ؛ لأن الله ختم على قلبه .

ومهمة الداعى أنْ يتعهد المدعو ، وألاَّ ييأس لعدم استجابته ، وعليه بتكرار الدعوة له ، لعله يصادف عنده فترة صفاء وفطرة ، وخلو نفس ، فتثمر فيه الدعوة ويستجيب .

وإلا فقد رأينا من أهل الجاهلية مَنْ أسلم بعد فترة طويلة من عمر الدعوة أمثال : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة ، وغيرهم .

ونعلم كم كان عمر بن الخطاب كارهاً للإسلام معادياً لأهله ، وقصة ضَرْبه لأخته بعد أنْ أسلمتْ قصة مشهورة لأنها كانت سبب إسلامه ، فلما ضربها وشجَّها حتى سال الدم منها رقَّ قلبه لأخته ،

فلما قرأت عليه القرآن صادف منه قلباً صافياً ، وفطرة نقية نفضت عنه عصبية الجاهلية الكاذبة فانفعل للآيات وباشرتْ بشاشتها قلبه فأسلم(١) .

لذلك أمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أنْ يجهر بالدعوة ، وأنْ يصدع بما يُؤْمر ، لعلَّ السامع تصادفه فترة تنبه لفطرته ، كما حدث مع عمر .

وحين نلحظ الفاء في بداية هذه الآية ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ .. (٥٢)﴾ [الروم] نجد أن التقدير : فلا تحزن ، ولا يهولنك إعراضهم ؛ لأنك ما قصرْتَ في البلاغ ، إنما التقصير من المستقبل ؛ لأنهم لم يقبلوا الروح السامية التي جاءتهم ، بل نفروا من السماع ، وتناهوا عنه ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ [فصلت]

(١) عن أنس بن مالك قال : « خرج عمر متقلداً السيف ، فلقيه رجل ، فقال له : أين تعمد يا عمر ؟ فقال : أريد أن أقتل محمداً . قال : وكيف تأمن من بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمداً ؟ فقال له عمر : ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك الذي أنت عليه ، قال : أفلا أدلك على العجب إن ختنك وأختك قد صبَوا وتركا دينك الذي أنت عليه . فمشى عمر ذامراً حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب ، فلما سمع خباب بحس عمر توارى في البيت ، فدخل عليهما ، فقال : ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكم ؟ لعلكما قد صبوتما ؟ فقال له ختنه : يا عمر إن كان الحق في غير دينك ؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطئاً شديداً ، فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها فنفحها نفحة بيده فدمَّى وجهها فقالت وهي غضبى : وإن كان الحق في غير دينك ، إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » . وقد أدى هذا الموقف بعمر أن ذهب لرسول الله ﷺ في دار ابن أبي الأرقم ، فخرج رسول الله ﷺ حتى أتى عمر ، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف ، فقال : ما أنت بمنته يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة ، فهذا عمر ابن الخطاب : اللهم أعز الإسلام - أو الدين - بعمر بن الخطاب ، فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله وأسلم » أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٢١٩ ، ٢٢٠) .

ونَهْى بعضهم بعضاً عن سماع القرآن دليل على أنهم يعلمون أن مَنْ يسمع القرآن بأذن واعية لابُدَّ أنْ يؤمن به وأنْ يقتنع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) ﴾ [الروم] وفى موضع آخر : ﴿ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ .. (٤٤) ﴾ [فصلت] وقال أيضاً : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ .. (١٨) ﴾ [البقرة]

وقد علمنا من وظائف الأعضاء أن البكَم يأتى نتيجة الصمم ؛ لأن اللسان يحكى ما سمعته الأذن ، فإذا كانت الأذن صماء فلا بُدَّ أن يكون اللسان أبكمَ ، ليس لديه شىء يحكيه .

لذلك نجد الطفل العربى مثلاً حين ينشأ فى بيئة إنجليزية يتكلم الإنجليزية لأنه سمعها وتعلمها ، بل نجد صاحب اللغة نفسه تُعرض عليه الكلمات الغريبة من لغته فلا يعرفها لماذا ؟ لأنه لم يسمعها ، فحين يقول العربى عن العجوز : أنها الحَيْزبون والدَّردبيس[1] .. الخ تقول : ما هذا الكلام ، مع أنه عربى لكن لم تسمعه أذنك .

والأذن هى أداة الالتقاط الأولى لبلاغ الرسالة ، وما دام الله تعالى قد حكم عليهم بأنهم فى حكم الأموات ، فالإحساس لديهم ممتنع ، فالأذن لا تسمع آيات القرآن ، والعين لا ترى آيات الكون ولا تتأملها .

لذلك قال تعالى عنهم : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [الحج]

وكلمة أعمى نقولها للمبصر صحيح العينين حينما يخطىء فى

---

(١) الحيزبون : العجوز . والنون زائدة ، كما زيدت فى الزيتون . [اللسان ـ مادة حزب] .
ـ الدردبيس : الشيخ الكبير الهِمّ (البالى) الفانى ، والعجوز أيضاً يقال لها دردبيس [اللسان مادة : دردب ، دربس] .

شيء ، فتقول له : أنت أعمى ؟ لماذا ، لأنه وإنْ كان صحيح العينين ، إلا أنه لم يستعملهما فى مهمتهما ، فهو والأعمى سواء .

وهؤلاء القوم وصفهم الله بأنهم أولاً فى حكم الأموات ، ثم هم مصابون بالصمم ، فلا يسمعون البلاغ ، وتكتمل الصورة بأنهم عُمْى لا يروْنَ آيات الإعجاز فى الكون ، وليتهم صُمٌّ فحسب ، فالأصم يمكن أن تتفاهم معه بالإشارة فينتفع بعينيه إنْ كان مقبلاً عليك ، لكن ما الحال إذا كان مدبراً ، كما قال تعالى : ﴿ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الروم] يعنى : أعطوْكَ ظهورهم ، إذن : لم يَعُدْ لهم منفذ للتلقى ولا للإدراك ، فهم صُم بُكْم ، وبالإدبار تعطلت أيضاً حاسة البصر ، فلا أملَ فى مثل هؤلاء ، ولا سبيل إلى هدايتهم .

﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

والدلالة على الطريق والهداية إليه لا تتأتَّى مع العمى ، خصوصاً إذا أصرَّ الأعمى على عماه ، ونقول لمن يكابر فى العمى (فلان لا يعطى العمى حقَّه) يعنى : يأنف أنْ يستعين بالمبصر ، ولو استعان بالناس من حوله لوجدهم خدماً له ولصار هو مُبصراً ببصرهم .

وقوله سبحانه : ﴿ إِن تُسْمِعُ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [الروم] أى : ما تُسمع ﴿ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الروم] وهؤلاء هم أصفياء القلوب والفطرة ، الذين يلتفتون إلى كون الله ، يتأملون أسراره وما فيه من وجوه الإعجاز والقدرة ، فيستدلون بالخَلْق على الخالق ، وبالكون على المكوِّن سبحانه ، ولِمَ لا ، ونحن نعرف مَنِ اخترع أبسط الأشياء فى

حياتنا ونُؤرِّخ له ، ونُخلِّد ذكراه ، ألسنا نعرف أديسون الذى اخترع المصباح الكهربائى ، والله الذى خلق الشمس لَهُوَ أوْلَى بالمعرفة .

فإذا جاءك رسول من عند الله يخبرك بوجوده تعالى ، ويحل لك لغز هذا الوجود الذى تحتار فيه ، فعليك أنْ تُصدِّقه ، وأن تؤمن بما جاءك به ؛ لذلك الحق سبحانه يُعلِّم الرسل أنْ يقولوا للناس فى أعقاب البلاغ ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ .. ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الشعراء]

وفى هذا إشارة إلى أن العمل الذى يُؤدِّيه الرسل لأقوامهم عمل يستحقون عليه أجراً بحكم العقل ، لكنهم يترفعون عن أجوركم ؛ لأن عملهم غالٍ لا يُقدِّره إلا مَنْ أرسلهم ، وهو وحده القادر على أنْ يُوفِّيهم أجورهم .

ومعنى ﴿ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [الروم] يعنى : ينظر فيها ويتأملها ، ويقف على ما فى الكون من عجائب الخَلْق الدالة على قدرة الخالق ، فإذا ما جاءه رسول من عند الله أقبل عليه وآمن به ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الروم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾

الحق ـ تبارك وتعالى ـ بعد أنْ عرض علينا بعض الأدلة فى الكون من حولنا يقول لنا : ولماذا نذهب بعيداً إذا لم تكْف الآيات فى الكون من حولك ، فانظر فى آيات نفسك ، كما قال سبحانه : ﴿ وَفِى

أنفُسكُمْ أَفَلا تُبْصرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] وجمع بين النوعين في قوله سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

فهنا يقول : تأمل في نفسك أنت : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ .. (٥٤) ﴾ [الروم] ، فإنْ قال الإنسان المكلف الآن : أنا لم أشاهد مرحلة الضعف التي خُلقْتُ منها .

نقول : نعم لم تشاهدها في نفسك ، فلم تكُنْ لك ساعتها مشاهدة ، لكن شاهدتها في غيرك ، شاهدتها في الماء المهين الذي يتكوَّن منه الجنين ، وفي الأم الحامل ، وفي المرأة حين تضع وليدها صغيراً ضعيفاً ، ليس له قَدَم تسعى ، ولا يَدٌ تبطش ، ولا سِنٌّ تقطع ، ومع ذلك رُبي بعناية الله حتى صار إلى مرحلة القوة التي أنت فيها الآن .

إذن : فدليل الضعف مشهود لكل إنسان ، لا في ذاته ، لكن في غيره ، وفي مشاهداته كل يوم ، وكل منا شاهد مئات الأطفال في مراحل النمو المختلفة ، فالطفل يُولَد لا حولَ له ولا قوة ، ثم يأخذ في النمو والكِبَر فيستطيع الجلوس ، ثم الحَبْو ، ثم المشي ، إلى أنْ تكتمل أجهزته ويبلغ مرحلة الرشْد والفتوة .

وعندها يُكلِّفه الحق - سبحانه وتعالى - وينبغي أنْ نكلفه نحن أيضاً ، وأنْ نستغل فترة الشباب هذه في العمل المثمر ، فنحن نرى الثمرة الناضجة إذا لم يقطفها صاحبها تسقط هي بين يديه ، وكأنها تريد أنْ تؤدي مهمتها التي خلقها الله من أجلها .

لذلك ، فإن آفتنا نحن ومن أسباب تأخُّر مجتمعاتنا أننا نطيل عمر طفولة أبنائنا ، فنعامل الشاب حتى سِنِّ الخامسة والعشرين على أنه

طفل ، ينبغى علينا أن نلبى كل رغباته لا ينقصنا إلا أنْ نرضعه .

آفتنا أن لدينا حناناً (مرق) لا معنى له ، أما فى خارج بلادنا ، فبمجرد أن يبلغ الشاب رُشْده لم يَعُدْ له حق على أبيه ، بل ينتقل الحق لأبيه عليه ، ويتحمل هو المسئولية .

والحق سبحانه يُعلِّمنا فى تربية الأبناء أنْ نُعوِّدهم تحمُّل المسئولية فى هذه السِّنّ : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. ۝٥٩ ﴾ [النور]

فانظر أنت أيها الإنسان الذى جعلتَ كل الأجناس الأقوى منك فى خدمتك ، انظر فى نفسك وما فيها من آيات وما بين جنبيك من مظاهر قدرة الله ، فقد نشأتَ ضعيفاً لا تقدر على شىء يخدمك غيرك.

ومن حكمته تعالى فى الطفل ألاَّ تظهر أسنانه طوال فترة الرضاعة حتى لا يؤذى أمه ، ثم تخرج له أسنان مؤقتة يسمونها الأسنان اللبنية ؛ لأنه ما يزال صغيراً لا يستطيع تنظيفها ، فيجعلها الله مؤقتة إلى أن يكبر ويتمكَّن من تنظيفها ، فتسقط ويخرج مكانها الأسنان الدائمة ، ولو تأملتَ فى نفسك لوجدتَ ما لا يُحصى من الآيات .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً .. ۝٥٤ ﴾ [الروم] أى : قوة الشباب وفتوته ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً .. ۝٥٤ ﴾ [الروم] أى : ضعف الشيخوخة ، وهذا الضعف يسرى فى كل الأعضاء ، حتى فى العلم ، وفى الذاكرة ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا .. ۝٥ ﴾ [الحج]

ويظل بك هذا الضعف حتى تصير إلى مثل الطفل فى كل شىء تحتاج إلى مَنْ يحملك ويخدمك إذن : لا تأخذ هذه المسألة بطبع تكوينك ، ولكن بإرادة مُكوِّنك سبحانه ، فبعد أنْ كنتَ ضعيفاً يُقوِّيك ، وهو سبحانه القادر على أنْ يعيدك إلى الضعف ، بحيث لا تستطيع

عقاقير الدنيا أنْ تعيدك إلى القوة ؛ لذلك يسخر أحد العقلاء ممن يتناولون (الفيتامينات) فى سنِّ الشيخوخة ، ويقول : يا ويل مَنْ لم تكُنْ (فيتاميناته) من ظهره .

لذلك تلحظ الدقة فى الأداء فى قول سيدنا زكريا : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ④﴾ [مريم] ؛ لأن العظم آخر مخزن لقُوت الإنسان، حيث يختزن فيه ما زاد عن حاجة الجسم من الطاقة ، فإذا لم يتغذَّ الجسم بالطعام يمتصّ من هذا المخزون من الشحوم والدهون ، ثم من العضل ، ثم من نخاع العظم ، وهو آخر مخزن للقوت فى جسمك.

فمعنى قول سيدنا زكريا : ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ④﴾ [مريم] يعنى : وصلتُ إلى مرحلة الحرض[1] التى لا أملَ معها فى قوة ، ويؤكد هذا المعنى بقوله ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا .. ④﴾ [مريم]

وقلنا : إن بياض الشعر ليس لوناً ، إنما البياض انعدام اللون ؛ لذلك فاللون الأبيض ليس من ألوان الطيف ، ومع الشيخوخة تضعف أجهزة الإنسان ، وتضعف الغدد المسئولة عن لون الشعر عن إفراز اللون الأسود ، فيظهر الشعر بلا لون .

ونلحظ أن أغلب ما يشيب الناس يشيبون مما يُعرف بـ « السوالف » من هنا ومن هنا ، لماذا ؟ قالوا : لأن الشعرة عبارة عن أنبوب دقيق ، فإذا قُصَّتْ أثناء الحلق ينفتح هذا الأنبوب ، وتدخله بعض المواد الكيماوية مثل الصابون والكولونيا ، فتؤثر على الحويصلات الملوّنة وتقضى عليها ؛ لذلك نلاحظ هذه الظاهرة كثيراً فى المترفين خاصة ؛ لذلك تجد بعض الشباب يظهر عندهم الشيب فى هذه المناطق من الرأس .

---

(١) الحرض : الساقط الذى لا يقدر على النهوض . [اللسان مادة : حرض] .

وقد رتب سيدنا زكريا مظاهر الضعف بحسب الأهمية ، فقال أولاً ﴿ وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ④ ﴾ [مريم] ثم ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا .. ④ ﴾ [مريم] ومع كِبَر سيدنا زكريا وضعفه ، ومع أن امرأته كانت عاقراً إلا أن الله تعالى استجاب له في طلبه للولد الذي يرث عنه النبوة ، فبشَّره بولد وسمَّاه يحيى ، وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لنا : إياكم ، ألا أستطيع أنْ أخلق مع الشيب والكبر والضعف ؟ لذلك قال بعدها : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ .. ⑤④ ﴾ [الروم]

وقال في شأن زكريا عليه السلام : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ⑨ ﴾ [مريم]

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ⑤④ ﴾ [الروم] أي : أن هذا الخَلْق ناشيء عن علم ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ①④ ﴾ [الملك] لكن العلم وحده لا يكفي ، فقد تكون عالماً لكنك غير قادر على تنفيذ ما تعلم ، كمهندس الكهرباء ، لديه علم واسع عنها ، لكنه لا يستطيع تنفيذ شبكة أو معمل كهرباء ، فيذهب إلى أحد الممولين ليعينه على التنفيذ ؛ لذلك وصف الحق سبحانه نفسه بالعلم والقدرة .

إذن : هذا هو الدليل النفسي على الموجد الحق الفاعل المختار الذي يفعل الأشياء بعلم وقدرة ، ولا يكلفه العمل شيئاً ولا يستغرق وقتاً ؛ لأنه سبحانه يقول للشيء : كن فيكون ، ولا تتعجب أن ربك يقول للشيء كُنْ فيكون ؛ لأنك أيها المخلوق الضعيف تفعل هذا مع أعضائك وجوارحك .

وإلاَّ فقُلْ لي : ماذا تفعل إنْ أردتَ أنْ تقوم مثلاً أو تحمل شيئاً مجرد أن تريد الحركة تجد أعضاءك طوع إرادتك ، ودون أنْ تدرى بما يحدث بداخلك من انفعالات وحركات ، وإنْ قُلت فأنا كبير وأستطيع أداء هذه الحركات كما أريد ، فما بالك بالطفل الصغير ؟

وسبق أن ضربنا مثلاً لتوضيح هذه المسألة بالبلدوزر ، فلكل حركة منه ذراع خاص بها يُحرِّكه السائق ، وأزرار يضرب عليها ، وربما احتاج السائق لأكثر من أداة لتحريك هذه الآلة حركة واحدة .

أما أنت فمجرد أن تريد تحريك العضو تجده يتحرك معك كما تريد دون أن تعرف العضلات والأعصاب التي شاركت في حركته ، فإذا كنتَ أنت على هذه الصورة ، أتعجب من أن الله تعالى يقول للشيء كن فيكون ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

بعد أنْ عرض الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الدليل ليهتدي به مَنْ يشاء ، ومَنْ لم يهتَد يُلوِّح له بهذا التهديد : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [الروم] معنى كلمة ﴿ تَقُومُ السَّاعَةُ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [الروم] تدل على أنها موجودة ، لكن نائمة تنتظر الإذن لها ، فتقوم تنتظر أنْ نقول لها : كُنْ فتكون .

فالقيام هنا له دلالته ؛ لأن الساعة أمر لا يتأتَّى به القيام ، إنما يقيمها الحق سبحانه ، فقوله ﴿ تَقُومُ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [الروم] كأنها منضبطة كما تضبط المنبه مثلاً ، ولها وقت تنتظره ، وهي من تلقاء نفسها إنْ جاء وقتُها قامتْ .

وحين تتأمل كلمة ﴿ تَقُومُ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [الروم] تجد أن القيام آخر مرحلة للإنسان ليؤدي مهمته ، فيقابلها ما قبلها ، فقبل القيام القعود ،

ثم الاضطجاع ، ثم النوم ، فمعنى قيام الساعة يعنى : أنها جاءت لتؤدى مهمتها أداءً كاملاً .

وسُمِّيَتْ الساعة ؛ لأنها دالة على الوقت الذى يأذن الله فيه بإنهاء العالم ، وإنْ كانت الساعة عندنا كوحدة لحساب الزمن نقول : صباحاً أو مساءً وَفْق حساب الحكومة أو الأهالى ، توقيت كذا أو كذا .

هذه الآلة التى فى أيدينا بما تضبطه لنا من وقت أمرها هيِّن ، ليست مشكلة أنْ تُقدِّم أو تُؤخِّر عدة ثوانٍ أو عدة دقائق ، تعمل (أتوماتيكياً) أو بالحجارة ، صُنعتْ فى سويسرا ، أو فى الصين ، هذه الساعة لا تهم ، المهم الساعة الأخرى ، الساعة التى لا ساعةَ بعدها ، واعلم أنها منضبطة عند الحق سبحانه ، وما عليك إلا أنْ تضبط نفسك عليها ، وتعمل لها ألف حساب .

وعجيب أنْ يقسم الكفار يوم القيامة ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. ۝٥٥﴾ [الروم] فإنْ كذبوا فى الدنيا ، فهل يكذبون أيضاً فى الآخرة ؟ قالوا : بل يقولون ذلك على ظنهم ، وإلا فالكلام منهم فى هذا الوقت ليس اختيارياً ، فقد مضى وقت الاختيار ، ولم يَعُدْ الآن قادراً على الكذب .

لذلك سيقول الحق سبحانه فى آخر الآية : ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ۝٥٥﴾ [الروم] فقد كانوا يقلبون الحقائق فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلن يقلبوا الحقائق ، إنما يقولون على حَسْب نظرهم .

والمجرمون : المجرم هو الذى خرج عن المطلوب منه بذنب يخالفه ، فنقول : فلان أجرم ، والقانون يُسمِّى الفعل جريمة .

ومعنى ﴿مَا لَبِثُوا .. ۝٥٥﴾ [الروم] اللبث : المكْث طويلاً أى فى الدنيا ، أو : ما لبثوا فى قبورهم بعد الموت إلى قيام الساعة ، أو : ما لبثوا بعد النفخة التى تميت إلى النفخة التى تُحيى .

فهذه فترات ثلاث للبثهم فى القبور ، أطولها للذين ماتوا منذ آدم عليه السلام ، ثم أوسطهم الذين جاءوا بعد ذلك أمثالنا ، ثم أقلّهم لُبْثاً وهم الذين يموتون بين النفختين . وفي كل هذه الفترات يوجد كفار ، وعلى عهد آدم كان هناك كفار ، وعلى مَرِّ العصور بعده يُوجَد كفار ، حتى بين النفختين يوجد كفار ، إذن : فكلمة لبثوا هنا على عمومها : أطول ، وطويل ، وقصيرة ، وأقصر .

وهؤلاء يقولون يوم القيامة « ما لبثنا غير ساعة » مع أن الآخرة لا كذبَ فيها ، لكنهم يقولون ذلك على حسب ظنهم ؛ لأن الغائب عن الزمن لا يدرى به ، والزمن ظرف لوقت الأحداث ، كما أن المكان ظرف لمكانها ، فالنائم مثلاً لا يشعر بالزمن ؛ لأن الزمن يُحسب بتوالى الأحداث فيه ، فإذا كنتَ لا تشعر بالحدث فبالتالى لا تشعر بالوقت ، سواء أكان بنوم كأهل الكهف ، أو بموت كالذى أماته الله مائة عام ثم بعثه[1] .

ولما قاموا من النوم أو الموت لم يُوقِّتوا إلا على عادة الناس فى النوم ، فقالوا : ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (١٩)﴾ [الكهف] ؛ لأنه فى هذه الحالة لا يدرى بالزمن ، إنما يدرى بالزمن الذى يتتبع الأحداث ، وما دام الإنسان فى هذه الحالة لا يدرك الزمن ، فهو صادق فيما يخبر به على ظنه .

لذلك يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣)﴾ [المؤمنون]

(١) هو : العُزَيْر . حكاه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس والحسن وقتادة والسدى . وهذا هو القول المشهور . وقال سلمان بن بريدة : هو حزقيل بن بوار . قال ابن كثير : « أما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها » [تفسير ابن كثير ١/٣١٤] .

أي : اسأل الذين يعدُّون الزمن ويحصونه علينا ، والمقصود الملائكة[1] ، فهم الذين يعرفون الأحداث ، ويسجلونها منذ خَلْق آدم عليه السلام وإلى الآن ، وإلى قيام الساعة .

فلا يسأل عن عدد إلا مَنْ عدَّ بالفعل ، أو مَنْ يمكن أنْ يعُدّ ، أما الشيء الذى لا يكون مظنة العدِّ والإحصاء فلا يُعَدُّ ، وهل عَدَّ أحد فى الدنيا رمال الصحراء مثلاً ؟ لذلك نسمع فى الفكاهات : أن واحداً سأل الآخر : تعرف فى السماء كم نجم ؟ قال : تسعة آلاف مليون وخمسمائة ألف وثلاثة وتسعون نجماً ، فقال الأول : أنت كذاب ، فقال الآخر : اطلع عدّهم .

لكن ، لماذا يستقلّ الكفار الزمن فيُقسمون يوم تقوم الساعة ما لبثوا غير ساعة ؟ وفِي موضع آخر يقول عنهم : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ [النازعات]

قالوا : لأن الزمن يختلف بحسْب أحوال الناس فيه ، فواحد يتمنى لو طال به الزمن ، وآخر يتمنى لو قصر ، فالوقت الذى يجمعك ومَنْ تحب يمضى سريعاً وتتمنى لو طال ، على خلاف الوقت الذى تقضيه على مَضض مع مَنْ تكره ، فيمر بطيئاً متثاقلاً .

على حدِّ قول الشاعر :

حَادِثَاتُ السُّرورِ تُوزَنُ وَزْناً والبَلاَيَا تُكَالُ بالقُفْزَان[2]

ويقول آخر :

وَدَّع الصَّبر محبٌّ ودَّعكَ ذائعٌ مِن سِرِّه مَا استوْدعَكْ

(١) قاله مجاهد . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/١٢٢) وعزاه لابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

(٢) القفزان جمع : قفيز . وهو مكيال تتواضع الناس عليه . قال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : قفز] : « هو ثمانية مكاكيك عند أهل العراق . والمكُّوك : ثلاث كيلات » أى : أن القفيز الواحد : ٢٤ كيلة . أى : ٢٨٨ كيلوجرام .

يَقْرعُ السِّنَّ على أنْ لم يكُنْ   زَادَ فى تلْكَ الخُطَى إذْ شيَّعَكْ

إلى أنْ يقولَ :

إنْ يَطُلْ بعدكَ لَيْلى فلكَمْ   بِتُّ أشكُو قصَرَ الليْلِ معكْ

ففى أوقات السرور ، الزمن قصير ، وفى أوقات الغَمِّ الزمن طويل ثقيل ، ألم تسمع للذى يقول ـ لما جمع الليل شمله بمَنْ يحب :

يَا لَيْلُ طُلْ يا نَوْمُ زُلْ   يَا صُبْحُ قِفْ لاَ تطْلُعِ

كذلك الذى ينتظر سروراً يستبطىء الزمن ، ويود لو مرَّ سريعاً ليعاين السرور الذى ينتظره ، أما الذى يتوقع شراً أو ينتظره فيودُّ لو طالَ الزمن ليبعده عن الشر الذى يخافه .

لذلك نجد المؤمنين يودُّون لو قصر الزمن ؛ لأنهم واثقون من الخير الذى ينتظرهم والنعيم الذى وُعدوا به ، أما المجرمون فعلى خلاف ذلك ، يودُّون لو طال الزمن ليبعدَهم عما ينتظرهم من العذاب ؛ لذلك يقولون ما لبثنا فى الدنيا إلا قليلاً ويا ليتها طالتْ بنا . إما لأنهم لا يدرون بالزمن ويقولون حَسْب ظنهم ، أو لأنهم يريدون شيئاً يُبعد عنهم العذاب .

إذن : أقسموا ما لبثوا غير ساعة ، إما على سبيل الظن ، أو لأن الغافل عن الأحداث لا يدرى بالزمن ، ولا يستطيع أنْ يُحصيه ، كالعُزير الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (٢٥٩)﴾ [البقرة] فأخبره ربه أنه لبث مائة عام ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ .. (٢٥٩)﴾ [البقرة]

والذى لا شكَّ فيه أن الله تعالى صادق فيما أخبر به ، وكذلك العزير كان صادقاً فى حكمه على الزمن ؛ لذلك أقام الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الدليل على صِدْق القولين فقال : ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ

لَمْ يَتَسَنَّهْ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة] والطعام لا يتغير فى يوم أو بعض يوم ، فقام الطعام والشراب دليلاً على صدْق الرجل .

ثم قال سبحانه ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

فقامت العظام البالية دليلاً على صدْقه تعالى فى المائة عام . ولا تقل : كيف نجمع بين صدق القولين ؟ لأن الذى أجرى هذه المسألة رب ، هو سبحانه القابض الباسط ، يقبض الزمن فى حَقِّ قوم ، ويبسطه فى حَقِّ آخرين .

وهذه الآية : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. (٥٥) ﴾ [الروم] جاءت بعد إعذار الله للكافرين برسله ، ومعنى إعذارهم أى : إسقاط عذرهم فى أنه سبحانه لم يُبيِّن لهم أدلة الإيمان فى قمته بإله واحد ، وأدلة الإيمان بالرسول بواسطة المعجزات حتى يؤمنوا بآيات الأحكام فى : افعل ، ولا تفعل .

فالآيات كما قلنا ثلاث : آيات تثبت قمة العقيدة ، وهو الإيمان بوجود الإله القادر الحكيم ، وآيات تثبت صدْق البلاغ عن الله بواسطة رسله ، وهذه هى المعجزات ، وآيات تحمل الأحكام .

والحق سبحانه لا يطلب من المؤمنين به أنْ يؤمنوا بأحكامه فى : افعل ولا تفعل إلا إذا اقتنعوا أولاً بالرسول المبلِّغ عن الله بواسطة المعجزة ، ولا يمكن أنْ يؤمنوا بالرسول المبلِّغ عن الله إلا إذا ثبتَ عندهم وجود الله ، ووجود الله ثابت فى آيات الكون .

لذلك دائماً ما يعرض علينا الحق سبحانه آياته فى الكون ، لكن يعرضها متفرقة ، فلم يصبّها علينا صبّاً ، إنما يأتى بالآية ثم يُردِفها

بما حدث منهم من التكذيب والنكران ، فيأتى بالآية ونتيجتها منهم ، ذلك ليكرر الإعذار لهم فى أنه لم يَعُدْ لهم عُذْر فى ألاَّ يؤمنوا .

فنلحظ هذا التكرار فى قوله سبحانه : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الروم]

ثم يذكر أن هذه الآيات لم تُجْد معهم : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم]

ثم يسوق آية أخرى :

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم]

ثم يذكر سبحانه ما كان منهم بعد كلِّ هذه الآيات : ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الروم]

وهكذا يذكر الحق سبحانه الآية ، ويُتبعها بما حدث منهم من نكران ، ويكررها حتى لا تبقى لهم حجة للكفر ، ثم تأتى هذه الآية : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. ﴿٥٥﴾﴾ [الروم] لتقول لهم : إنْ كنتم قد كذَّبتم بكل هذه الآيات ، فستأتيكم آية لا تستطيعون تكذيبها هى القيامة .

وعجيب أنْ يُقسموا بالله فى الآخرة ما لبثوا غير ساعة ، وقد كفروا به سبحانه فى الدنيا .

وفى الآية جناس تام بين كلمة الساعة الأولى ، والساعة الثانية ، فاللفظ واحد لكن المعنى مختلف ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. (٥٥)﴾ [الروم] أى : القيامة ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم] أى : من الوقت . ومن ذلك قول الشاعر :

رَحلْتُ عَنِ الديارِ لكُمْ أَسِيرُ   وقَلْبى فِى محبتِكُمْ أَسِيرُ

أى : مأسور

ولى أنا وزميلى الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة ـ أطال الله بقاءه ـ قصة مع الجناس ، ففى إحدى حصص البلاغة ، قال الأستاذ : لا يوجد فى القرآن جناس تام إلا فى هذه الآية بين ساعة وساعة ، لكن يوجد فيه جناس ناقص ، فرفع الدكتور محمد أصبعه وقال : يا أستاذ أنا لا أحب أنْ يُقال : فى القرآن شىء ناقص .

فضحك الشيخ منه وقال له : إذن ماذا نقول ؟ وقد قسم أهل البلاغة الجناس إلى تام وناقص : الأول تتفق فيه الكلمتان فى عدد الحروف وترتيبها وشكلها ، فإن اختلف من ذلك شىء فالجناس بينهما ناقص ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١)﴾ [الهمزة] فبين هُمزة ولمزة جناس ناقص ؛ لأنهما اختلفا فى الحرف الأول .

أذكر أن الشيخ أشار إلىَّ وقال : ما رأيك فيما يقول صاحبك ؟ فقلت : نسميه جناس كُل ، وجناس بعض ، يعنى : تتفق الكلمتان فى كل الحروف أو فى بعضها ، وبذلك لا نقول فى القرآن : جناس ناقص .

فقولهم ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم] أى : الساعة الزمنية التى نعرفها ، والزمن له مقاييس : ثانية ، ودقيقة ، وساعة ، ويوم ، وأسبوع ، وشهر ، وسنة ، وقرن ، ودهر ، وهم يقصدون الساعة الزمنية المعروفة لنا .

إذن : فهم يُقلِّلون مدة مُكْثهم فى الدنيا أو فى القبور لما فاجأتهم القيامة ، وقد أخبرناهم وهم فى سَعَة الدنيا أن متاع الدنيا قليل ، وأنها قصيرة وإلى زوال ، فلم يُصدّقوا والآن يقولون : إنها كانت مجرد ساعة ، ولم يقولوا حتى شهر أو سنة ، فكيف تستقل ما سبق أن استكثرته ، وظننتَ أنك خالد فيه حتى قلتَ ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ .. (٢٤)﴾ [الجاثية]

ففى الدنيا كذَّبتم وأنكرتم ، ولم تستجيبوا لداعى الإيمان ، أما الآن فى الآخرة فسوف تستجيبون استجابة مصحوبة بحمده تعالى ، كما قال سبحانه : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ .. (٥٢)﴾ [الإسراء] أى : تقولون الحمد لله والإنسان لا يحمد إلا على شىء محبوب .

ثم يقول سبحانه : ﴿كَذَلِكَ .. (٥٥)﴾ [الروم] أى : كهذا الكذب ﴿كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥)﴾ [الروم] والإفك من أَفَك إفكاً . أى : صرف الشىء عن وجهه ؛ لذلك سُمِّى الكذب إفكاً ؛ لأن الكاذب يخبر بقضية تخالف الواقع ، فيأتى بها على غير وجهها ، أو يُوجِدها وهى غير موجودة ، أو ينكر وجودها .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣)﴾ [النجم] وهى القرى التى قلبها الله ، فجعل عاليها سافلها .

فقوله ﴿كَذَلِكَ .. (٥٥)﴾ [الروم] أى : كهذا الإفك كانوا يُؤْفكون ، يعنى : يكذِّبون الرسل فى الحقائق التى جاءوا بها من قِبلَ ربهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

قال هنا ﴿ الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [الروم] فهل العلم ينافى الإيمان ؟ لا ، لكن هناك فَرْق بينهما ، فالعلم كسب ، والإيمان أنت تؤمن بالله وإنْ لم تَرَه . إذن : شيء أنت تراه وتعلمه ، وشيء يخبرك به غيرك بأنه رآه ، فآمنتَ بصدقه فصدَّقْتَه ، فهناك تصديق للعلم وتصديق للإيمان ؛ لذلك دائماً يُقَال : الإيمان للغيبية عنك ، أما حين يَقْوى إيمانك ، ويَقْوى يقينك يصير الغيب كالمشاهَد بالنسبة لك .

وقد أوضحنا هذه المسألة في الكلام عن قوله تعالى في خطابه لنبيه محمد ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الفيل]

فقال : ألم تَرَ مع أن النبي ﷺ وُلد عام الفيل ، ولم يتسَنَّ له رؤية هذه الحادثة ، قالوا : لأن إخبار الله له أصدق من رؤيته بعينه .

فقوله : ﴿ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [الروم] لأن العلم تأخذه أنت بالاستنباط والأدلة .... الخ ، أو تأخذه ممن يخبرك وتُصدِّقه فيما أخبر ، لذلك النبي ﷺ لما سأل الصحابي[1] : « كيف أصبحتَ » ؟ قال : أصبحتُ مؤمناً حقاً ، قال : « لكلِّ حقٍّ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك » ؟

---

(١) هو : الحارث بن مالك الأنصاري . ذكره ابن حجر العسقلاني في « الإصابة في تمييز الصحابة » (٣٤٣/١) وعزا الحديث لابن المبارك في الزهد .

يعني : ما مدلول هذه الكلمة التي قلتها ؟

فقال الصحابي : عزفتْ نفسي عن الدنيا ، فاستوى عندي ذهبها ، ومدرها[1] ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار في النار يُعذَّبون - يريد أن يقول لرسول الله : لقد أصبحتُ وكأني أرى ما أخبرتنا به - فقال له رسول الله : « عرفتَ فالزم »[2] .

لكن ، مَن هم الذين أوتوا العلم ؟ هم الملائكة الذين عاصروا كل شيء ، لأنهم لا يموتون ، أو الأنبياء لأن الذي أرسلهم أخبره ، أو المؤمنون لأنهم صدَّقوا الرسول فيما أخبر به .

وقال ﴿ أُوتُوا الْعِلْمَ .. (٥٦) ﴾ [الروم] ولم يقل : علموا ، كأن العلم ليس كَسْباً ، إنما إيتاء من عَالِم أعلم منك يعطيك . فإنْ قُلتَ : أليس للعلماء دور في الاستدلال والنظر في الأدلة ؟ نقول : نعم ، لكن مَنْ نصب لهم هذه الأدلة ؟ إذن : فالعلم عطاء من الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ .. (٥٦) ﴾ [الروم] يعني : مسألة مرسومة ومنضبطة في اللوح المحفوظ إلى يوم البعث ﴿ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ .. (٥٦) ﴾ [الروم] الذي كنتم تكذبون به ، أما الآن فلا بُدَّ أنْ تُصدِّقوا فقد جاءكم شيء لا تقدرون على تكذيبه ؛ لأنه أصبح واقعاً ومن مصلحتكم أنْ يقبل عذركم ، لكن لن يقبل منكم ، ولن نسمع لكم كلاماً لأننا قدمنا الإعذار سابقاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) ﴾ [الروم] في أول

---

(١) المدر : قطع الطين اليابس . وقيل : الطين العلك الذي لا رمل فيه . [لسان العرب - مادة : مدر] .

(٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/٥٧) وعزاه للطبراني في الكبير من حديث الحارث ابن مالك الأنصاري .

الآية قال : ﴿ أُوتُوا الْعِلْمَ .. (٥٦) ﴾ [الروم] فنسب العلم إلى الله ، أما هنا فنسبه إليهم ؛ لأن الله تعالى نصب لهم الأدلة فلم يأخذوا منها شيئاً ، ونصب لهم الحجج والبراهين والآيات فغفلوا عنها ، إذن : لم يأخذوا من الدلائل والحجج ما يُوصِّلهم إلى العلم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) ﴾

قوله ﴿ فَيَوْمَئِذ .. (٥٧) ﴾ [الروم] أى : يوم قيام الساعة ﴿ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) ﴾ [الروم] أى : لا يُقبَل منهم عذر ، ومعنى ﴿ ظَلَمُوا .. (٥٧) ﴾ [الروم] أى : ظلموا أنفسهم ، والظالم يلجأ إلى الظلم ؛ لأنه يريد أنْ يأخذ من الغير ما عجزتْ حركته هو عن إدراكه .

فالظلم أنْ تأخذ نتيجة عرق غيرك لتحوله إلى دم فيك ، لكن دمك إنْ لم يكُنْ من عَرَقك فهو دم فاسد عليك ، ولا تأتى منه أبداً حركة إجابة فى الوجود لا بُدَّ أن تكون نتيجته حركات شر ؛ لأنه دم حرام ، فكيف يتحرك فى سبيل الحلال ؟

لذلك ورد فى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال : أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ [المؤمنون] وقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) ﴾ [البقرة] ثم ذكر

الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ثم يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب ، ومطعمه من حرام ، ومشربه من حرام ، فأنَّى يُستجاب له »[1] .

إذن : كيف يُستجاب لنا وأبعاضنا كلها غير أهْلٍ لمناجاة الله بالدعاء ؟

ولا يقف الأمر عند عدم قبول العذر ، إنما ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم] العتاب : حوار بلُطْف ودلال بين اثنين في أمر أغضب أحدهما ، وكان من المظنون ألاَّ يكون ، ويجب أن يعرض عليه ليصفي نفسه منه ، كأن يمر عليك صديق فلا يسلم عليك فتغضب منه ، فإنْ كنتَ حريصاً على مودته تقابله وتقول : والله أنا في نفسي شيء منك ، لأنك مررتَ فلم تسلم عليَّ يوم كذا ، فيقول لك : والله كنتُ مشغولاً بكذا وكذا ولم أرَك ، فيزيل هذا العذر ما في نفسك من صاحبك .

ونقول : عتب فلان على فلان فأعتبه أي : أزال عتابه ؛ لذلك يقولون : ويبقى الود ما بقي العتاب ، ويقول الشاعر :

أَمَّا العِتَابُ فبالأحِبّة أَخْلَق والحُبُّ يَصلُح بالعِتَابِ ويصدُقُ

والهمزة في أعتب تسمى همزة الإزالة ، ومنها قول الشاعر :

أُرِيدُ سُلُوَّكم ـ أي بعقلي ـ والقَلْبُ يأْبَى وأعْتِبكُم ومِلءُ النَفْسِ عَتْبى

ومنه ما جاء في مناجاة النبي ﷺ لربه يوم الطائف بعد أن لَقِي منهم ما لَقِي ، حتى لجأ إلى حائط ، وأخذ يناجي ربه : « ربِّ إلى مَنْ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٢٨) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٠١٥) ، والدارمي في سننه (٢/٣٠٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى[1] ، أم إلى عدو ملّكته أمرى ؟ إنْ لم يكُنْ بكَ علىَّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى .. إلى أنْ يقول : لك العُتْبى حتى ترضى »[2] .

يعنى : يا رب إنْ كنتَ غضبتَ لشىء بدر منى ، فأنا أريد أن أزيل عتابك علىَّ .

ومن همزة الإزالة قولنا : أعجمت الكلمة أى : أزلْتُ عُجْمتها وخفاءها ، وأوضحت معناها ، ومن ذلك نُسمِّى المعجم لأنه يزيل خفاء الكلمات ويُبيِّنها .

وتقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا .: ﴿١٥﴾﴾ [طه] أى : أقرب أنْ أزيل خفاءها بالآيات والعلامات .

وهذه الكلمة ﴿يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم] وردتْ فى القرآن ثلاث[3] مرات ، ووردت مرة واحدة مبنية للفاعل[4] (يَسْتعتبون) ، لأنهم طلبوا إزالة عتابهم ، فلم يُزِلْه الله ولم يسمح لهم فى إزالته ، أما (يُستعتبون) فلأنهم لم يطلبوا العتب بأنفسهم ، إنما جعلوا لهم

---

(١) جهمه : استقبله بوجه كريه . أى : يلقانى بالغلظة والوجه الكريه . ورجل جهم الوجه أى : كالح الوجه . [لسان العرب ـ مادة : جهم] .

(٢) هذا الدعاء أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢ / ٤٢٠) ، وذلك أن أهل الطائف أغروا به ﷺ سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، والجئوه لحائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، فلما اطمأن رسول الله ﷺ دعا بهذا الدعاء .

(٣) وردت يُستعتبون بالبناء للمجهول فى ثلاثة مواضع :
- ﴿ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [النحل] .
- ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم] .
- ﴿فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الجاثية] .

(٤) وذلك فى قوله تعالى : ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [فصلت] .

شفعاء يطلبون لهم ، لكن خاب ظنهم في هذه وفي هذه .

فالمعنى ﴿ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) ﴾ [الروم] لا يجرؤ شفيع أنْ يقول لهم : استعتبوا ربكم ، واسألوه أنْ يعتبكم أي : يزيل العتاب عنكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) ﴾

وهذه الآية تعني أننا لم نترك معذرة لأحد ممن كفروا برسلهم ؛ لأننا جئنا لهم بأمثال متعددة وألوان شتى من الأدلة المشاهدة ليستدلوا بها على غير المشاهد ليأخذوا من مرائيهم ومن حواسهم دليلاً على ما غاب عنهم .

فحين يريد سبحانه أن يقنعهم بأن يؤمنوا بإله واحد لا شريك له يضرب لهم هذا المثَلَ من واقع حياتهم : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩) ﴾ [الزمر]

هل يستوي عبد لسيد واحد مع عبد لعدة أسياد يتجاذبونه ، إنْ أرضى واحداً أسخط الآخرين ؟

ثم يُقرِّب المسألة بمثَل من الأنفس ، وليس شيء أقرب إلى الإنسان من نفسه ، فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ [الروم]

والمعنى : إذا كنتم لا تقبلون أنْ يشارككم مواليكم فيما رزقكم الله ، فتكونون في هذا الرزق سواء ، فكيف تقبلون الشركة في حق الله تعالى ؟

وحين يريد الحق سبحانه أنْ يبطل شرْكهم وعبادتهم للآلهة يضرب لهم هذا المثل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

والمَثَل يعني أنْ تُشبِّه شيئاً بشيء ، وتلحق خفياً بجلي ، لتوضحه وليستقر في ذهْن السامع ، كأن تشبه شخصاً غير معروف بشخص معروف ، ويُسَمَّى هذا : مثْل أو مَثَل ، نقول : فلان مثْل فلان .

أما المثل فقول من حكيم شاع على الألسنة ، وتناقله الناس كلما جاءت مناسبته ، وسبق أنْ مثَّلنا لذلك بالملك الذي أرسل امرأة تخطب له أم إياس بنت عوف بن محلم الشيباني ، وكان اسمها (عصام) ، فلما عادت من المهمة بادرها بقوله : ما وراءكِ يا عصام ؟ فصارت مثلاً يُقال في مثل هذه المناسبة مع أنه قيل في حادثة مخصوصة .

والمثل يقال كما هو ، لا نغير فيه شيئاً ، فنقول : ما وراءك يا عصام للمذكر وللمؤنث ، وللمفرد وللمثنى وللجمع .

ومن ذلك نُشبِّه الكريم بحاتم ، والشجاع بعنترة .. الخ لأن حاتماً الطائي صار مضربَ المثل في الكرم ، وعنترة في الشجاعة . وفي المثال نقول لمن يواجه بمَنْ هو أقوى منه : إنْ كنت ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً ، ونقول لمن لم يُعِدّ للأمر عُدَّته : قبل الرماء تُملأ الكنائن .

إذن : المثل قول شبه مضربه الآن بمورده سابقاً لأن المورد كان قوياً وموجزاً لذلك حُفظ وتناقلته الألسنة .

والقرآن يسير على أسلوب العرب وطريقتهم فى التعبير وتوضيح المعنى بالأمثال حتى يضرب المثل بالبعوضة ، والبعض يأنف أنْ يضرب القرآن بجلاله وعظمته مثلاً بالبعوضة ، وهو لا يعلم أن الله يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة]

وليس معنى : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة] أى : فى الكِبَر كما يظن البعض ، فيقولون : لماذا يقول فما فوقها وهو من باب أَوْلى ، لكن المراد ما فوقها فى الصِّغَر وفيما تستنكرونه من الضآلة ، كالكائنات الدقيقة والفيروسات .. الخ .

لكن ، لماذا يضرب الله الأمثال للناس ؟ قالوا : لأن الإنسان له حواسّ متعددة ، فهو يرى ويسمع ويشم ويتذوق ويلمس .. الخ ، ولو تأملتَ كل هذه الحواس لوجدتَ أن ألصق شىء بالحس أنْ يضرب ؛ لذلك حين تريد أنْ تُوقظ شخصاً من النوم فقد لا يسمع نداءك فتذهب إليه وتهزُّه كأنك تضربه فيقوم .

إذن : فالضرب هو الأثر الذى لا يتخلف مدلوله أبداً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (٢٠) ﴾ [المزمل] أى : يُؤثرون فيها تأثيراً واضحاً كالحرث مثلاً ، وهو أشبه ما يكون بالضرب .

والضرب لا يكون ضرباً يؤدى مهمة وله أثر إلا إذا كان بحيث يُؤلم المضروب ، ولا يُوجع الضارب ، وإلا فقد تضرب شيئاً بقوة فتؤلمك يدك ، فكأنك ضربتَ نفسك . وهذا المعنى فَطِن إليه الشاعر ،

فقال للذين لا يؤمنون بقدر الله :

أيَا هَازئاً من صُنُوف القَدَر   بنفسِكَ تعنف لاَ بالقَدرْ
وَيَا ضَارِباً صَخْرةً بالعصَا   ضربتَ العَصَا أمْ ضربْتَ الحجَرْ

فالحق سبحانه يضرب المثل ليُشعركم به ، وتُحسون به حسَّ الألم من الضرب ، فإذا لم يحسّ الإنسانَ بضرب المثل فهو كالذى لا يحسُّ بالضرب الحقيقى المادى ، وهذا والعياذ بالله عديم الإحساس أو مشلول الحسِّ .

فالمعنى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ .. (٥٨) ﴾ [الروم] يعنى : أتيناهم بأمثال ودلائل لا يمكن لأحد إلا أنْ يستقبلها كما يستقبل الضرب ؛ لأن الضرب آخر مرحلة من مراحل الإدراك .

وسبق أنْ قلنا : إن الحق سبحانه ضرب المثل لنفسه سبحانه فى قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. (٣٥) ﴾ [النور]

والمثل هنا ليس لنوره تعالى كما يظن البعض ، إنما مَثَلٌ لتنويره للكون الواسع ، وهو سبحانه يُنوِّرك حِسِّياً بالشمس وبالقمر وبالنجوم ، ويُنوِّرك معنوياً بالمنهج وبالقيم .

فـفائدة النور الحسى أن يزيل الظلمة ، وأنْ تسير على هُدى وعلى بصيرة فتسلم خطاك واتجاهك من أنْ تحطم ما هو أقلّ منك أو يحطمك ما هو أقوى منك ، والمحصلة ألاَّ تضر الأضعف منك ، وألاَّ يضرك الأقوى منك .

كذلك النور المعنوى ، وهو نور القيم والمنهج يمنعك أنْ تضرَّ غيرك ، ويمنع غيرك أنْ يضرَّك ، وكما ينجيك النور الحسى من

المعاطب الحسية كذلك ينجيك نور القيم من المعاطب المعنوية .

لذلك يقول سبحانه بعد أن ضرب لنا هذا المثل : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾ [النور]

وسبق أنْ ذكرنا ما كان من مدح أبى تمام[1] لأحد الخلفاء :

إقْدامُ عَمرٍو فى سَمَاحَةِ حَاتمٍ فى حِلْم أحْنَفَ فى ذَكَاء إيَاسِ

فقال أحد حُسَّاده على مكانته من الخليفة : أتشبه الخليفة بأجلاف العرب ؟ فأطرق هنيهة ، ثم أكمل على نفس الوزن والقافية :

لاَ تُنكِروا ضَرْبِى لَهُ مَنْ دُونَه مثَلاً شَرُوداً فى النَّدَى والبَاسِ[2]

فاللهُ قَدْ ضربَ الأقلَّ لِنُوره مَثَلاً من المشْكَاةِ والنبراسِ[3]

الأعجب من هذا أنهم أخذوا الورقة التى معه ، فلم يجدوا فيها هذين البيتين ، وهذا يعنى أنه ارتجلهما لتوِّه . وقد قلت : والله لو وجدوا هذه الأبيات مُعدة معه لما قلَّل ذلك من شأنه ، بل فيه دلالة على ذكائه واحتياطه لأمره وتوقعه لما قد يقوله الحساد والحاقدون عليه .

لكن لم تُجد هذه الأمثال ولم ينتفعوا بها ، وليت الأمر ينتهى عند هذا الحد بل : ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ .. (٥٨) ﴾ [الروم] أى : جديدة ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (٥٨) ﴾ [الروم] فيتهمون الرسل

---

(١) هو : حبيب بن أوس الطائى ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) ، نشأ نشأة متواضعة حيث كان يعمل صبياً لحائك ، توفى ٢٣١ هـ عن ٥١ عاماً .

(٢) المثل الشرود : الخارج عن المألوف والعادة . والندى : السخاء والكرم . والبأس : القوة والحرب .

(٣) النبراس : المصباح والسراج . والمشكاة : كُوَّة فى جدار البيت ليست بنافذة وتعرف فى قرانا بـ « الطاقة » مع نطق القاف همزة .

فى بلاغهم عن الله بأنهم أهل باطل وكذب .

والحق سبحانه يحتجّ على الناس فى أنه لم يُجبهم إلى الآيات التى اقترحوها ؛ لأن السوابق مع الأمم التى كذَّبت الرسل تؤيد ذلك ، فقد كانوا يطلبون الآيات ، فيجيبهم الله إلى ما طلبوا ، فما يزدادون إلا تكذيباً.

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩) ﴾ [الإسراء]

فالأمر لا يتعدى كونهم يريدون إطالة الإجراءات وامتداد الوقت فى جدل لا يجدى ، ثم إن فى إجابتهم إلى ما طلبوا رغم تكذيبهم بالآيات السابقة احتراماً لعدم إيمانهم ، ودليلاً على أن الآيات السابقة كانت غير كافية ، بدليل أنه جاءهم بآية أخرى ، إذن : فعدم مجىء الآيات يعنى أن الآيات السابقة كانت كافية للإيمان لكنهم لم يؤمنوا ؛ لذلك لن نجيبهم فى طلب آيات أخرى جديدة .

وهذه القضية واضحة فى جدل إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع النمروذ فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

وعندها شعر إبراهيم عليه السلام بأن خَصْمه يميل إلى الجدل والسفسطة ، وأنه يريد إطالة أمد الجدل ، ويريد تضييع الوقت فى أخذ وردّ ؛ لذلك أضرب عن هذه الحجة ـ مع أن خَصْمه لا يميت ولا يحيى على الحقيقة ـ وألجاه إلى حجة أخرى لا يستطيع منها فكاكاً ، ولا يجد معها سبيلاً للمراوغة فقال :

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] فماذا يقول هذا المعاند ؟ ﴿فَبُهِتَ[1] الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾ [البقرة]

كذلك كان فرعون يلجأ إلى هذا الأسلوب فى حواره مع موسى وهارون عليهما السلام ، ففى كل موقف كان يقول : ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩)﴾ [طه] إنه الجدل العقيم ، يلجأ إليه مَنْ أفلس ، فلم يجد حجة يستند إليها .

ونلحظ فى أسلوب الآية صيغة الإفراد فى ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ .. (٥٨)﴾ [الروم] ثم تنتقل إلى صيغة الجمع فى ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (٥٨)﴾ [الروم] فلم يقولوا لرسولهم مثلاً : أنت مبطل ، فلماذا ؟ قالوا : لأن الرسول حين يُكذِّبه قومه فيقولون : أنت مبطل ، فلعل من أتباعه المؤمنين به مَنْ يدافع عنه ويشهد بصدقه ، فجاءت صيغة الجمع لتفيد الشمول ، فكأنهم يقولون : أنت مبطل وكل مَنْ (يتشدد لك) .

أو : يكون المعنى ﴿إِنْ أَنتُمْ .. (٥٨)﴾ [الروم] يعنى : كل الرسل ﴿مُبْطِلُونَ (٥٨)﴾ [الروم] أى : كاذبون تختلقون من عند أنفسكم وتقولون : هو من عند الله . وعجيب من هؤلاء أن يؤمنوا بالله ويُكذِّبوا رسله ، ككفار مكة الذين شمتوا فى رسول الله حين فتر عنه الوحى فقالوا : « إن رب محمد قلاه »[2] .

---

(١) بَهُتَ : دهش وتحير . [القاموس القويم ٨٦/١] قال ابن منظور فى لسان العرب - مادة : بهت : « انقطع وسكت متحيراً » .

(٢) عن جندب بن عبد الله البجلى قال : اشتكى النبى ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فأتت امرأة فقالت : يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، فأنزل الله ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى] رواه البخارى ومسلم ، وفى رواية قال جندب : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودع محمداً ربه . قاله ابن كثير فى تفسيره (٥٢٢/٤) .

وهم لا يدرون أن الوحى كان يجهد رسول الله ، وكان يشقُّ عليه فى بداية الأمر ، حتى جاء زوجه خديجة يقول : زملونى زملونى ، دثرونى دثرونى ، وكان جبينه يتفصد عرقاً ، وكان ﷺ يقول عن الملك : « وضمنى حتى بلغ منى الجهد »[1] .

وما ذاك إلا لالتقاء الملكية بالبشرية ؛ لذلك كان جبريل عليه السلام يتمثل لسيدنا رسول الله فى صورة بشر ، ليس عليه غبار السفر ولا يعرفه أحد ، كما جاء لرسول الله وهو فى مجلس الصحابة يسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان[2] .

إذن : مسألة فتور الوحى وانقطاعه مدة عن رسول الله أراد الله به أن يستريح رسول الله من مشقة الوحى حتى يزول عنه الألم والعناء ، وعندها يشتاق للوحى من جديد ، ويهون عليه فيتحمله ويصير له دُرْبة على تلقيه من الملك ، فشَوْق الإنسان إلى الشىء يجعله يتحمل المشاقّ فى سبيله ، ويُهوِّن عليه الصعاب ، كالذى يسير إلى محبوبه

---

(١) قالت عائشة رضى الله عنها : « لقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصَّد عرقاً » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) كتاب بدء الوحى . قال ابن حجر فى الفتح (١/٢١) : « شبه جبينه بالعرق المفصود مبالغة فى كثرة العرق » والفصد هو قطع العرق لإسالة الدم .

(٢) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد ، أخبرنى عن الإسلام (فيجيبه) ، فأخبرنى عن الإيمان (فيجيبه) ، فأخبرنى عن الإحسان (فيجيبه) ، فأخبرنى عن الساعة (فيجيبه) قال عمر : ثم قال ﷺ : أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨) كتاب الإيمان ، وكذا البخارى فى صحيحه (٥٠) ولكن من حديث أبى هريرة .

فلا يبالى حتى لو سار على الشوك ، أو اعترضته المخاوف والأخطار.

والوحى لقاء بشرى بملكى ، فإما أنْ ينتقل الرسول إلى مرتبة الملَك ، أو ينتقل الملك إلى مرتبة البشر ، وهذا التقارب لم يحدث فى بداية نزول الوحى فأجهد رسول الله واحتاج إلى هذه الراحة بانقطاع الوحى .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) ﴾ [الشرح] أى : جعلناه خفيفاً لا يجهدك . ويقول سبحانه فى الرد عليهم : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى]

فعجيب أنْ يقولوا « إن رب محمد قلاه » فيعترفون برب محمد ساعة الشدة والضيق الذى نزل به ، فأشمتهم فيه حتى قالوا : إن رب محمد جفاه ، فلما وصله ربه بالوحى ودعاهم إلى الإيمان كفروا وكذَّبوا .

﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) ﴾

قوله سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ .. (٥٩) ﴾ [الروم] أى : كتكذيبهم لكل آية تأتيهم بها ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) ﴾ [الروم] أى ختمها وأغلقها .

فإنْ قلتَ : فمن المصلحة أنْ تظل قلوبهم مفتوحة لعلها تستقبل شيئاً من الهداية والنور . نقول : الخَتْم على قلوب هؤلاءِ لا يكون إلا بعد استنفاد كل وسائل الدعوة ، فلم يستجيبوا فلا أملَ فى هدايتهم ولا جدوى من سماعهم .

والحق - سبحانه وتعالى - ربٌّ يعين عبده على ما يحب ويلبى له رغبته ، حتى وإنْ كانت الكفر ، وهؤلاء أرادوا الكفر وأحبوه ، فأعانهم الله على ما أرادوا ، وختم على قلوبهم حتى لا يدخلها إيمان ، ولا يفارقها كفر .

لذلك سبق أنْ حذَّرنا أصحاب المصائب ، أو الذين يفقدون عزيزاً ، حذرناهم أنْ يستديموا الحزن ، وأنْ يألفوه مخافة أنْ يوافقكم الله على هواكم فى محبة الحزن وعشْقه ، فتتوالى عليكم الأحزان وتتتابع المصائب ، إياكم أن تدعوا باب الحزن موارباً ، بل أغلقوه بمسمار الرضا ، فالحزن إنْ ظلَّ بك فلن يدعَ لك حبيباً .

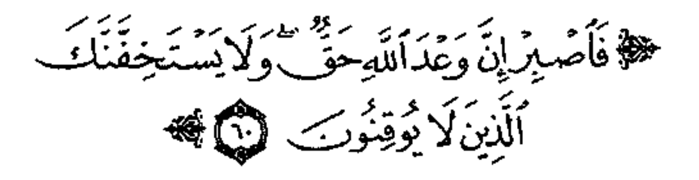
وكذلك نقول : إن شُغل عنك شخص فلا تُذكِّره بنفسك ، بل أَعنْهُ على هجرك ، وساعده بألاَّ تذكره .

فإذا قلتَ : إذا كان الحق سبحانه قد وصفهم بأنهم لا يعلمون ، فلماذا يختم على قلوبهم ، ولماذا يحاسبهم ؟ نقول : لأن عدم العلم نتيجة تقصيرهم ، فالحق سبحانه أقام لهم الأدلة والآيات الكونية الدالة على وجوده تعالى ، فلم ينظروا فى هذه الآيات ولم يستدلوا بالأدلة على وجود الخالق القادر سبحانه ، وضرورة البلاغ عن الله ، إذن : فعدم علمهم نتيجة غفلتهم وتقصيرهم .

لكن ، ماذا بعد أنْ كذَّبوا الرسل وأنكروا الآيات ، أتتوقف مسيرة الدعوة ، لأنهم صَمُّوا آذانهم عنها ؟ لقد خلق الله الكون ونثر فيه الآيات التى تدل على وجود الإله الواحد الأحد ، وجعل فيه المعجزات التى تثبت صدْق الرسُل فى البلاغ عن الله ، والحق سبحانه لا ينتفع بهذه الآيات ؛ لأن مُلْكه تعالى لا يزيد بطاعتنا ، ولا ينقص بمعاصينا ، فالمسألة تعود إلينا نحن أولاً وآخراً ، إذن : فالحسم فى هذه

المسـألة : دَعْكَ من هؤلاء المكذِّبين يا محـمـد ، واثبُتْ على ما أنت عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :



اصبـر على كرههم ، واصبـر على لَدَدهم وعنادهم ، واصـبر على إيذائهم لك ولمن يـؤمن بك ، اصبـر على هذا كلـه ؛ لأن العاقـبـة فى صـالحك ﴿ إِنَّ وَعْـدَ اللَّهِ حَقٌّ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الروم] وقـد وعـد الله رسله بالنصرة والغلَبة ، ووَعْد الله حق ، فتأكد أن النصر آتٍ .

لكن ما دام النصـر آتيـاً ، فلمـاذا هذا الصـراع بيـن المـؤمنين والكافرين ؟ ولماذا كل هذه المشقة والعناء فى سبيل الدعوة ؟ قالوا : لأن الله تعـالى يريـد أنْ يُمـحِّص أتبـاع مـحـمـد ، وأن يُـدرِّبهم على مسئـولية حمل أمانة الدعوة وشـعلة النور من بعد رسول الله ، لا إلى أهل الجزيرة العربية وحدها ، إنما إلى الكون كله .

فلا بُـدَّ أنْ يكونوا من أهل الثبـات على المبـدأ الذين لا تزعزعـهم الشدائد ، والدليل على ذلك أنهم يُؤذَوْن ويُضطهدون فيصبرون ، وهذه أهم صفة فيمن يُعدُّ لتحمُّل الأمانة .

لذلك نقول : إذا رأيتَ منـهجاً أو مـبدأ يغدق على أصـحابه أولاً ، فاعلم أنه مبدأ باطل ؛ لأن المبـدأ الحق يضحى أهله من أجله بأنفسهم وبأموالهم ، يعطونه قـبل أنْ يأخذوا منه ، لماذا ؟ لأن صاحب المبدأ البـاطل لن يجـد مَنْ يناصـره عـلى باطله إلا إذا أغـراهم بالمـال أولاً

واشترى ذممهم ، وإلا فماذا يلجئه إلى مبدأ باطل ، ويحمله على اتباعه ؟ إذن : لابد أن يقبض الثمن أولاً .

أما المبدأ الحق فيعلم صاحبه أن الثمن مُؤجَّل للآخرة ، فهو ممنًّى بأشياء فوق هذه الدنيا يؤمن بها ويعمل من أجلها ، فتهون عليه نفسه ، ويهون عليه ماله فى سبيل هذا المبدأ .

وفى رحلة الدعوة ، رأينا الكثيرين يتساقطون بالردة عندما تَحْدثُ لرسول الله آية أو هزة تهزُّ الناس ، وكأن الشدة غربال يميز هؤلاء وهؤلاء ، حتى لا يبقى تحت راية لا إله إلا الله إلا الصناديد الأقوياء القادرون على حمل هذا اللواء إلى العالم كله .

فالله يقول لنبيه : اصبر على تكذيبهم وعلى إنكارهم وعلى ائتمارهم عليك ، فنحن مُؤيدوك ، ولن نتخلى عنك ، وقد وضح لك هذا التأييد حين جاهروك فانتصرت على جهرهم وبيَّتوا لك فى الخفاء فانتصرتَ على تبييتهم ، واستعانوا حتى بالجن ليفسدوا عليك أمرك ، ففضح الله تدبيرهم ونجاك منهم .

إذن : فاطمئن ، فنحن لهم بالمرصاد ، ولن نُسْلمك أبداً ، بل وسوف نريك فيهم ما يستحقون من العقاب فى الدنيا ، وتراه بعينك ، أو فى الآخرة بعد موتك : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝ ﴾ [غافر]

ومن هذا العقاب الذى نزل بهم فى الدنيا ورآه سيدنا رسول الله ما حاق بهم يوم بدر من قَتْل وأسْر وتشريد ، وقلنا : إن عمر رضى الله عنه وما أدراك ما عمر ، فقد كان القرآن ينزل على وَفْق رأيه ، ومع ذلك لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝ ﴾ [القمر] تعجب وقال : أىُّ جمع هذا الذى سيُهزم ، ونحن عاجزون حتى عن حماية

أنفسنا ، فلما كانت بدر ، ورأى ما رأى قال : صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. (٦٠) ﴾ [الروم] الوعد : هو البشارة بخير لم يأت زمنه الآن ، وفَرْق بين الوعد بالخير من إنسان ، والوعد من الله تعالى ، فوَعْدكَ قد يتخلف لأنك ابن أغيار ، ولا تملك كل عناصر الوفاء بالوعد ، وربما جاء وقت الوفاء فلم تقدر عليه أو تتغير نفسك من ناحيته فتبخل عليه ، أو تراه لا يستحق ... إلخ .

إذن : الأغيار التى تنتابك أو تنتابه أو تنتاب قيمة ما تؤديه من الخير موجودة ، وقد تحول بينك وبين الوفاء بما وعدتَ .

لذلك يعلمنا الحق سبحانه أنْ نحتاط لهذا الأمر ، فيقول سبحانه : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ..(٢٤) ﴾ [الكهف] فاربط فعْلك بمشيئة الله التى تُيسِّر لك الفعل ، ولا ينبغى أنْ تجزم بشىء أنتَ لا تملك شيئاً من أسبابه .

قلنا : هَبْ أنك قلتَ : سألقاك غداً فى المكان الفلانى ، وسأعطيك كذا وكذا ، فأنت قلتَ هذه المقولة ووعدتَ هذا الوعد وأنت لا تضمن أن تعيش لغد ، ولا تضمن أنْ يعيش صاحبك ، وإنْ عشْتُما لغد فقد يتغير رأيك ، أو يصيبك شىء يعوقك عن الوفاء ، إذن : فقولك إنْ شاء الله يحميك أنْ تُوصف بالكذب فى حالة عدم الوفاء ؛ لأنك وعدتَ ولم يشأ الله ، فلا دخلَ لك فى الأمر .

فالوعد الحق يأتى ممَّنْ ؟ منَ الذى يملك كُلَّ أسباب الوفاء ، ولا يمنعه عنه مانع .

وقوله تعالى : ﴿ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾ [الروم] خف الشىء : لم يَعُدْ له ثقَل ، واستخفّ غيره : طلب منه أنْ يكون خفيفاً ،

فمثلاً حين تقسو على شخص يأتي آخر فيقول لك : خف عنه . واستخفّه مثل استفزّه يعني : حرّكه وذبذبه من ثباته ، فإنْ كان قاعداً مثلاً هَبَّ واقفاً .

لذلك نقول في مثل هذه المواقف (خليك ثقيل .. فلان بيستفزك يعني : يريد أنْ يُخرجك عن حلمك وثباتك .. متبقاش خفيف .. إلخ) ونقول للولد (فز) يعني قفْ انهض ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ[1] .. (٦٤) ﴾ [الإسراء]

إذن : فالمعنى استخفه : حمله على الخفة وأن يتحول عن الثبات الذي هو عليه .

فالمعنى : إياك يا محمد أنْ يستفزّك القوم ، أو يُخرجوك عن ثباتك ، فتتصادم معهم ، لكن ظلّ على ثباتك في دعوتك ولا تقلق ؛ لأن الله وعدك بالنصرة ووَعْد الله حَقٌّ . والحق سبحانه ساعة يُرخي العنان لمن كفر به إنما يريد أنْ يُخرج كل ما عندهم حتى لا يبقى لهم عذر ، ثم يقابلهم ببعض ما عنده مما يستحقون في الدنيا ، والباقي سيرونه في الآخرة .

والله يقول : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

ومن سيرة الإمام علي ـ رضي الله عنه وكرَّم الله وجهه ـ علمنا أنه ابتُلي بجماعتين : الخوارج الذين يُكفِّرونه ، والشيعة الذين يُؤلهونه ويصلون به إلى درجة النبوة ، حتى صدق فيه قول رسول الله :

---

(١) أي : بكل قوتك وبجنودك كلهم راكبين أو مشاة غير راكبين . [القاموس القويم ٢٥٧/١] .

« هلك فيك اثنان : مُحب غالٍ ، ومبغض قالٍ[1] »[2] .

ويروى[3] أنه ـ رضى الله عنه ـ كان يصلى يوماً الفجر بالناس ، فلما قرأ : (ولا الضالين) اقترب منه أحد الخوارج وقرأ : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) ﴾ [الزمر] يريد أن يقول له : أنت كافر ولن يقبل منك عملك .

وسرعان ما فطن على لما أراده الرجل ، فقرأ بعدها مباشرة : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾ [الروم] يعنى : لن تُخرجنى عن ثباتى وحلْمى ولن تستفزنى .

والعظمة فى هذا الموقف أنْ يرد على لتوِّه بالقول الشافى من كتاب الله دون سابق إعداد أو ترتيب ، ولِمَ لا ، وهو على بن أبى طالب الذى أُوتى باعاً طويلاً فى البلاغة والفصاحة والحجة .

ومعنى : ﴿ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾ [الروم] من اليقين ، وهو الإيمان الثابت الذى لا يتزعزع ، فيصير عقيدة فى القلب لا تطفو إلى العقل لتناقش من جديد .

---

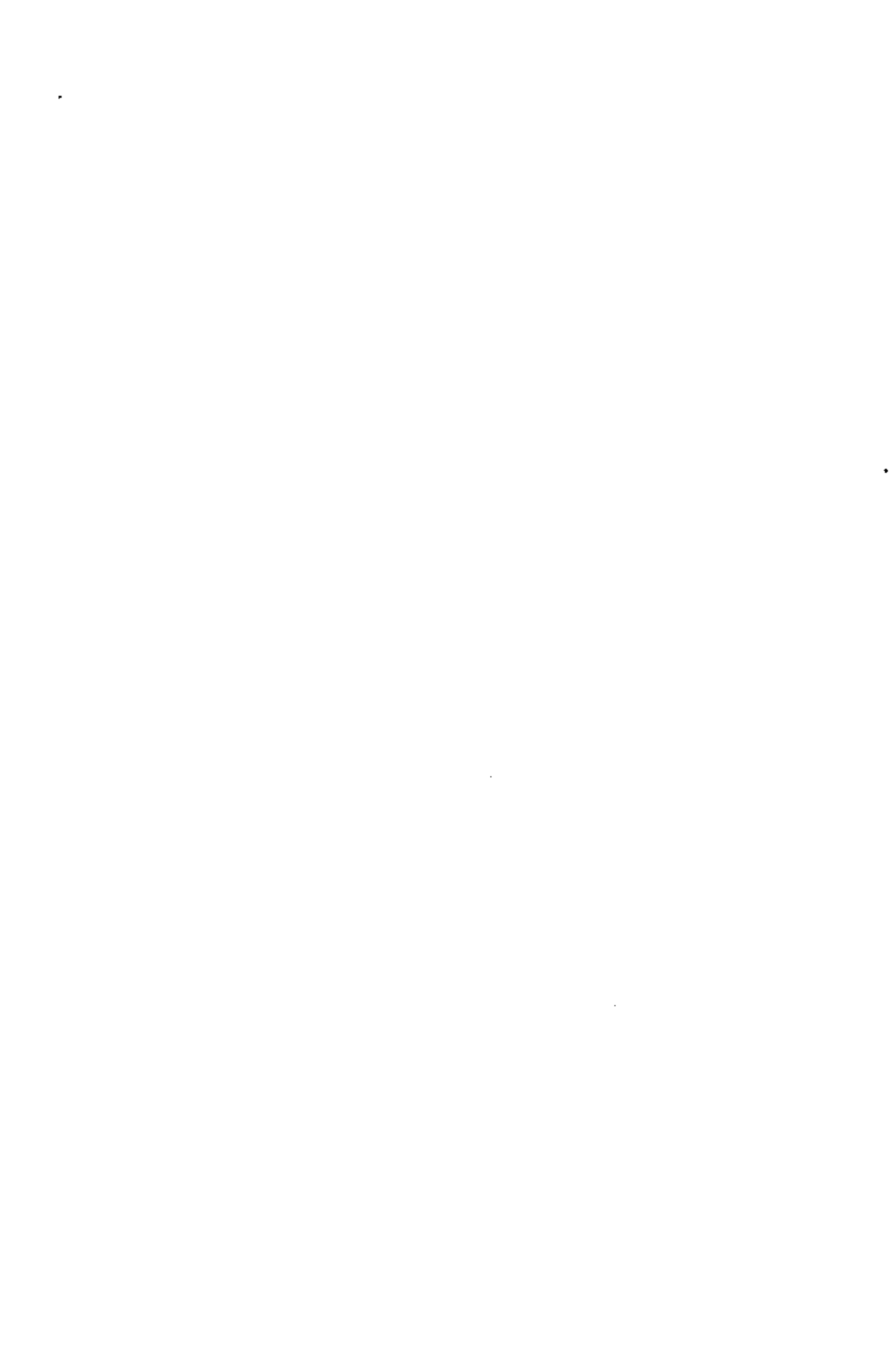
(١) القِلَى : البغض . قال ابن سيده : قليته قِلى وقلاء : أبغضته وكرهته غاية الكراهة فتركته . [لسان العرب ـ مادة : قلى] .

(٢) عن على بن أبى طالب قال : دعانى رسول الله ﷺ فقال : « إن فيك مثلاً من عيسى أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه ، وأحبته النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذى ليس به ، ألا وإنه يهلك فىَّ اثنان : محب مفرط يقرظنى بما ليس فىَّ ، ومبغض يحمله شنآنى على أن يبهتنى ، ألا وإنى لست بنبى ولا يُوحى إلىَّ ، ولكنى أعمل بكتاب الله وسنة نبيه ما استطعت » أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٩/١٣٣) وعزاه للبزار وأبى يعلى الموصلى .

(٣) أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٤٠) من عدة طرق :
- من طريق قتادة . رواه ابن جرير وابن أبى حاتم .
- من طريق على بن ربيعة . رواه ابن جرير .
- من طريق أبى يحى . رواه ابن أبى حاتم .



سُورَةُ لُقْمَانَ



سورة لقمان[1]



﴿الٓمٓ ۝١﴾

سبق أنْ فصَّلنا القول فى الحروف المقطَّعة فى بدايات السور ، وذكرنا كل ما يمكن أنْ يقوله بشر ، وبعد هذا كله نقول : والله أعلم بمراده ؛ لأننا مهما أوتينا من العلم فلن نصل إلى غاية هذه الحروف ، وسيظل فيها من المعانى ما نعجز نحن عن الوصول إليه .

فإنْ قلتَ : فما فائدة هذه الحروف المقطعة إنْ كانت غير معلومة المعنى ؟ نقول : نحن نناقشكم بالعقل وبالمنطق ، فالقرآن نزل بأسلوب عربى ، وتحدى العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان

---

(١) سورة لقمان هى السورة رقم (٣١) فى ترتيب المصحف الشريف عدد آياتها ٣٤ آية ، وهى سورة مكية نزلت بعد سورة الصافات ، وقبل سورة سبأ . قال القرطبى فى تفسيره : « هى مكية ، غير آيتين . قال قتادة : أولهما : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ .. ۝٢٧﴾ [لقمان] إلى آخر الآيتين . وقال ابن عباس : ثلاث آيات ، أولهن هذه الآية إلى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ .. ۝٢٩﴾ [لقمان] .

وأصحاب التعبيـر الجميل والأداء الرائع ، ونزل فى قريش التى جمعتْ فى لغتـها كل لغات القـبائل العربيـة ، وقد خرج منهـا صناديد كذبوا محمداً ، وكفروا بدعوته ، فهل سـمعنا منهم مَنْ يقول مثلاً : ما معنى (الم) أو (حم) .

والله لو كان فـيها مطعن مـا تركوه ، إذن : فهـذا دليل على أنهم فهموا هذه الحروف ، وعرفوا أن لها معنى أبسطها أن نقول : هى من حروف التنبيه التى كان يستخدمها العرب فى كلامهم ، فهى مثل (ألا) فى قول الشاعر[1] .

أَلاَ هُبِّى بِصحْنك فَاصْبِحينا ولاَ تُبْـقِ خُمـور الأَنْدرينَا[2]

فـألا أداة للتنبـيه ، وتأتـى أهميـة التنبـيـه فى أول الكلام من أن المتكلم يملك زمام منطقه فيرتـبه ويُعده ، ويدير المسائل بنسب ذهنية فى ذِهْنه ، لكن الـسـامع قـد يكون غـافـلاً ، فـيُفـاجـأ بالكلام دون استـعداد ، فـيفـوته منه شىء ، فتـأتى حروف التـنبيـه لتُخرجـه من غفلته ، وتسترعى انتـباهه ، فلا يفوته من كلامك شـىء ، إذن : أبسط ما يقال فى هذه الحروف أنها للتنبيه على طريقة العرب فى كلامهم .

وسبق أنْ بيَّنا أن القرآن مبنى كله على الوصل فى آياته وسوره ، بل فى آخـره وأوله نقـول : (من الـجنة والناس بسم الله الرحـمن

(١) هو : عمـرو بن كلثـوم بن مالك بن عـتاب أبو الأسـود ، شاعر جـاهلى ، ولد فى شـمال جزيرة العـرب فى بلاد ربيعـة ، وتجول فيـها وفى الشام والعـراق ونجد ، هو من الفـتاك الشجـعان ، أشهر شـعره معلقـته التى فيـها هذا البيت : توفى نـحـو ٤٠ ق هـ . [الأعلام للزركلى ٥/٨٤] .

(٢) الصحن : القدح العظيم . والأندرون : قرى بالشام . ومعنى البيت : ألا استيقظى من نومك أيتهـا الساقـية ، واسقنى الـصبوح بقـدحك العظيم ولا تدخرى خـمر هذه القـرى . [شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ١٦٥] .

الرحيم الحمد لله رب العالمين) وكذلك فى الآيات والسور . وكأن الله تعالى يريد منك ألاَّ تفصل آية من القرآن عن التى بعدها ؛ لذلك يقولون عن قارىء القرآن : هو الحالّ المرتحل ، فهو حالٌّ فى آية أو سورة ، مرتحل إلى التى تليها .

إذن : الوصْل سمَة عامة فى القرآن كله لا يستثنى من ذلك إلا الحروف المقطعة فى بدايات السور ، فهى قائمة على القطع ، فلا نقول هنا ألفٌ لامٌ ميمٌ ، لكن نقول ألفْ لامْ ميمْ ، فلماذا اختلفت هذه الحروف عن السمة العامة للقرآن كله ؟

قالوا : ليدلّك على أن الألف أو اللام أو الميم ، لكل منها معناه المستقل ، وليست مجرد حروف كغيرها من حروف القرآن ؛ لذلك خالفتْ نسق القرآن فى الوصل ؛ لأن لها معنىً مستقلاً تؤديه .

ويفسر هذا قول النبى ﷺ : « مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[(١)] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ ﴾

تلك : اسم إشارة للمؤنث مثل ذلك للمذكر ، وهى عبارة عن التاء للإشارة ، واللام للبُعْد ، سواء أكان فى المكان أو فى المكانة والمنزلة ، ثم الكاف للخطاب ، وتأتى بحسب المخاطب مذكراً أو مؤنثاً ، مفرداً أو مثنىً أو جمعاً .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩١٠) من حديث عبد الله بن مسعود ، وقال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

فتقول فى خطاب المفرد المذكر : تلك . وللمفردة المؤنثة : تلك . وللمثنى تلكما .. إلخ ، ومن ذلك قول امرأة العزيز فى شأن يوسف عليه السلام : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ .. (٣٢) ﴾ [يوسف] فذا اسم إشارة ليوسف ، واللام للبُعْد وكُنَّ ضمير لمخاطبة جمع المؤنث .

ويقول تعالى فى خطاب موسى : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ .. (٣٢) ﴾ [القصص] أى : اليد والعصا ، فذان اسم إشارة للمثنى ، والكاف للخطاب .

والإشارة هنا ﴿ تِلْكَ آيَاتُ .. (٢) ﴾ [لقمان] لمؤنث وهى الآيات ، والمخاطب سيدنا رسول الله ﷺ وأمته تبع له ، والقرآن الكريم مرة يشير إلى الآيات ، ومرة يشير إلى الكتاب نفسه ، فيقول : الكتاب أو الفرقان ، أو القرآن ولكل منها معنى .

فالكتاب دلَّ على أنه يُكتب وتحويه السطور ، والقرآن دلَّ على أنه يُقرأ وتحويه الصدور ، أما الفرقان فهذه هى المهمة التى يقوم بها : أنْ يفرق بين الحق والباطل .

وهنا قال ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) ﴾ [لقمان] فوصفه بالحكمة ، أما فى أول البقرة فقال : ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى .. (٢) ﴾ [البقرة] فلم يُوصَف بالحكمة ، إنما نفى عنه أن يكون فيه ريب. أى : شك .

وكلمة ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ .. (٢) ﴾ [البقرة] تؤكد لنا صدْق الرسول فى البلاغ عن الله ، وصدْق الملَك الذى حمله من اللوح المحفوظ إلى رسول الله ، وقد مدحه الله بقوله : ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) ﴾ [التكوير]

وقال عن سيدنا رسول الله فى شأن تبليغ القرآن : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ

عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) ﴾ [الحاقة]

إذن : فالقرآن كما نزل من عند الله ، لم يُغيَّر فيه حرف واحد ، وسيظل كذلك محفوظاً بحفظ الله له إلى أنْ تقوم الساعة ، وسنظل نقرأ ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ .. (٢) ﴾ [البقرة]

ويقرؤها مَنْ بعدنا إلى قيام الساعة ، فقد حكم الحق سبحانه بأنه لا ريْب فى هذا القرآن منذ نزل إلى قيام الساعة ، فإنْ شككونا فى شىء من كتاب ربنا فعلينا أن نقرأ ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) ﴾ [البقرة]

فهذه قضية حكم الله بها ، وهى ممتدة وباقية ما بقيتْ الدنيا ، كما سبق أنْ قُلْنا ذلك فى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت] فالآية تستوعب المستقبل كله ، مستقبل مَنْ عاصر نزول القرآن ، ومستقبل مَنْ يأتى بعد إلى قيام الساعة ، بل مستقبل مَنْ تقوم الساعة عليهم .

فالقرآن لم ينزله الله ليُفرغ كل أسراره وكل معجزاته فى قَرْن واحد ، ولا فى أمة واحدة ، ثم يستقبل القرون والأمم الأخرى دون عطاء ، الله يريد للقرآن أنْ يظل جديداً تأخذ منه كل الأمم وكل العصور ، وتقف على أسراره ومعجزاته وآياته فى الكون .

ومعنى ﴿ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) ﴾ [لقمان] الكتاب لا يُوصَف بالحكمة إنما يُوصَف بالحكمة مَنْ يعلم ، فالمعنى : الكتاب الحكيم أى : الموصوف بالحكمة ، أو الحكيم قائله ، أو الحكيم مُنزله . ومعنى حكيم : هو الذى يضع الشىء فى موضعه ، ولا يضع الشىء فى موضعه إلا الله ؛ لأنه هو الذى يعلم صدْق الشىء فى موضعه .

أما نحن فنهتدى إلى موضع الشىء ، ثم يتبين لنا خطؤه فى

موضعه ، ونضطر إلى تغييره أو تعديله ككثير من المخترعات التى ظننا أنها تخدم البشرية قد رأينا مضارها ، واكتوينْا بنارها فيما بعد .

فكل آية ذكرت ناحية من نواحى كمال القرآن وجهة من جهات عظمته ، إذن : فهى لقطات مختلفة لشىء واحد متعدد الملكات فى الكمال ، وكذلك تجد تعدد الكمالات فى الآية بعدها :

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

هنا يقول سبحانه ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [لقمان] أما فى صدر سورة البقرة فيقول ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة] وفَرْق بين المعنيين ، فالتقوى تقتضى الإيمان ، ومطلوب الإيمان الافتراض يعنى : أنْ تؤدى ما فرضه الله عليك .

أما مطلوب الإحسان ففوق ذلك ، فالإحسان فى الأداء أن تُحسن فى كَمِّه ، وأن تحسن فى كيفه : تحسن فى كيفه بأن تستصحب مع العمل الإخلاصَ للمعمول له ، وهو الحق سبحانه ، وتحسن فى كَمِّه بأنْ تعشق التكليف حتى تؤدى فوق ما فُرِض عليك ، فبدل أنْ تصلى ركعتين تصلى ثلاثاً أو أربعاً ، هذا إحسان فى الكم .

والتقوى من عجائب التأويل القرآنى كما سبق أنْ قلنا ، فالقرآن يقول (اتقوا الله) ويقول (اتقوا النار) ، والمعنى عند التحقيق واحد ؛ لأن اتق النار يعنى : اجعل بينك وبينها وقاية وحاجزاً يمنعك منها ، كذلك اتق الله ، لا أن تجعل بينك وبين ربك حاجزاً ؛ لأن المؤمن دائماً يكون فى معية الله .

إنما اجعل بينك وبين صفات الجلال ومتعلقاتها من الله وقاية ، اتق صفات المنتقم الجبار القهار .. الخ ؛ لأنك لستَ مطيقاً لهذه

الصفات ، ولا شكَّ أن النار جندى من جند الله ، ومتعلق من متعلقات صفات الجلال إذن : فالمعنى واحد .

والبعض يأخذون بالظاهر فيقولون : كيف نتقى الله ، والتقوى أن تبعد شيئاً ضاراً عنك ؟ نقول : نعم أنت تبعد عنك الكفر ، وهذا هو عين التقوى ، والمتقون هم الذين يحبون أنْ يتقوا الله بألاَّ يكونوا كافرين به ، وما دام الإنسان اتقى الكفر فهو مُحسن ومؤمن ، فالقرآن مرة يأتى باللازم ، ومرة بالملزوم ، ليؤدى كل منهما معنى جديداً .

لذلك لما سُئِل سيدنا رسول الله عن الإحسان - فى حديث جبريل - قال : « أنْ تعبد الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك »[(1)]

فحين نوازن بين صدر سورة البقرة ، وبين هذه الآية ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣﴾ [لقمان] نرى أن القرآن لا يقوم على التكرار ، إنما هى لقطات إعجازية كل منها يؤدى معنى ، وإنْ ظن البعض فى النظرة السطحية أنه تكرار ، لكن هو فى حقيقة الأمر عطاء جديد لو تأملته .

فهنا وصف الكتاب بأنه حكيم ، وأنه هدى ورحمة : والهدى هو الدلالة على الخير بأقصر طريق ، وقد نزل القرآن لهداية قوم قد ضلوا ، فلما هداهم إلى الصواب وأراهم النور أراد أنْ يحفظ لهم هذه الهداية ، وألاَّ يخرجوا عنها فقال ﴿وَرَحْمَةً ۝٣﴾ [لقمان] يعنى : من رحمة الله بهم ألاَّ يعودوا إلى الضلال مرة أخرى .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٨) من حديث عمر بن الخطاب ، وهو حديث جبريل الطويل الذى تمثل فى صورة رجل « شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد » فسأل رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان .

كما فى قوله سبحانه :﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء] فالمعنى : شفاء لمن كان مريضاً ، ورحمة بألاَّ يمرض أبداً بعد ذلك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾

جاءت هذه الآية كوصف للمحسنين ، فهل هذه هى كل صفاتهم ، أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وبالآخرة هم يوقنون ؟ قالوا : لا لكن هذه الصفات هى العُمد الأساسية ، والحق سبحانه يريد من خَلْقه سواسية فى العبودية ، وهذه السواسية لا تتأتى إلا إذا تساوى الجميع .

وفى الصلاة بالذات تتجلى هذه المساواة ، وفيها يظهر عِزّ الربوبية وذل العبودية ، وفيها منتهى الخضوع لله عزوجل ، ثم هى تتكرر خمس مرات فى اليوم والليلة .

أما الفرائض الأخرى فلا تأخذ هذه الصورة ، فالزكاة مثلاً تجب مرة واحدة فى العام ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأنعام] وتجب على القادر فقط دون غيره ، كذلك الصوم والحج ، فكأن الصلاة هى عمدة العبادات كلها ، ولشرفها ومنزلتها جعلها الله لازمة للعبد ولا تسقط عنه بحال أبداً ؛ لذلك شُرعت صلاة المريض والمسافر والخائف ... الخ.

وفى الصلاة استطراق للعبودية فى الخَلْق جميعاً ، حيث نخلع

أقدارنا حين نخلع نعالنا على باب المسجد ، ففي الصف الواحد ، الرئيس والمرءوس ، والكبير والصغير ، والرفيع والوضيع - نقصد الوضيع في نظر الناس ، وربما لا يكون وضيعاً عند ربه - فالجميع هنا سواء ، ثم حين نرى الكبار والرؤساء والسادة معنا في الصفوف خاضعين لله أذلاء تزول بيننا الفوارق ، ويدكُّ في نفوسهم الكبرياء ، فلا يتعالى أحد في مجتمع المسلمين على أحد .

ولمنزلة الصلاة وأهميتها رأينا كيف أنها الفريضة الوحيدة التي فرضها الله علينا بالمباشرة ، أما باقي التكاليف فقد فُرِضَتْ بواسطة الوحي ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك برئيس العمل حينما يأتيه أمر هام ، فلا يأمر به بمكاتبة أو بالتليفون ، إنما يستدعي الموظف المختص إلى مكتبه ، ويلقي إليه الأمر مباشرة .

وكذلك رسول الله استدعاه ربه إلى السماء ، وأخذ حظاً بالقُرْب من الله تعالى ، والله سبحانه يعلم حب الرسول لأمته وحرصه عليهم ، وعلى أنْ ينالوا هم أيضاً هذا القرب من حضرته تعالى ، فأجابه ربه ، وجعل الصلاة حضوراً للعبد في حضرته تعالى ، وقرباً كقرب رسول الله في رحلة المعراج .

لذلك خاطبه ربه بقوله :﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ ﴾ [الضحى]

فقال سيدنا رسول الله : « إذن ، لا أرضى وواحد من أمتي في النار »[1]

وكما تُحدث الصلاة استطراق عبودية تُحدث الزكاةُ في المجتمع

---

(١) أخرج الخطيب في « تلخيص المتشابه » عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لا يرضى محمد ، وواحد من أمته في النار . وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس أيضاً أنه قال : رضاه أن تدخل أمته الجنة كلهم .

استطراقاً اقتصادياً ، فيعيش الجميع الغنى والفقير عيشة كريمة مُيسَّرة ، فلا يشبع واحد حتى التخمة ، والآخر يموت جوعاً . وما بالك بمجتمع لا يتعالى فيه الكبير على الصغير ولا يبخل فيه الغنى على الفقير ؟ إذن : فى الصلاة والزكاة ما يكفل سعادة المجتمع كله .

وقد فرض الله الزكاة للفقراء ؛ لأن الله سبحانه حين يستدعى عبده إلى كونه لا بُدَّ أنْ يضمن له مُقومات الحياة ، ولم لا وأنت إذا دعوْتَ شخصاً إلى بيتك لابُدَّ أنْ تكرمه ، وأنْ تُعد له على الأقل ضروريات ما يلزمه فضلاً عن الإكرام والحفاوة ورفاهية المأكل والمشرب .. الخ.

فالله سبحانه استدعى عباده إلى الوجود مؤمنهم وكافرهم ، وعليه سبحانه أنْ يوفر لهم القوت ، بل كل مقومات حياتهم ، كذلك يضمن للعاجز غير القادر قوته ، لذلك يفرض الزكاة حقاً معلوماً للسائل والمحروم ، فهى صِلاتٌ والأولى صلاة .

ولهذه المسألة قصة فى الأدب العربى ، فيُرْوى أن ابن المدبر وكنيته أبو الحسن ، كان الشعراء يقصدونه للنيل من عطاياه ، يقولون : إن اللُّها تفتح اللَّها[1] ، أى : أن العطايا تفتح الأفواه بالمدح والثناء .

لكن ، كان ابن المدبر إذا مدحه شاعر بشعر لم يعجبه يأمر رجاله أنْ يأخذوه إلى المسجد ولا يتركوه حتى يصلى لله مائة ركعة ، وبذلك خافه الشعراء وتحاشوْا الذهاب إليه إلا أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام البشرى ، ذهب إليه وقال : عندى شعر أحب أنْ أنشده لك ،

(١) اللُّها : أفضل العطايا وأجزلها . ويقال : إنه لمِعطاء للُّها إذا كان جواداً يعطى الشىء الكثير . واللَّهاة : لحمة حمراء فى الحنك فى أقصى سقف الفم . [لسان العرب ـ مادة لَهَا] .

فقال : أتدرى ما الشرط ؟ قال : نعم ، قال : قُلْ ما عندك ، فقال :

أَرَدْنَا فِى أَبِى حَسَنٍ مَدِيحاً كَمَا بالمدْحِ تُنْتَجَعُ الوُلاَةُ

يعنى : يذهب الشعراء إليهم لينالوا من خيراتهم .

فَقُلْنَا أكْرَمُ الثَّقَلَيْن طُراً ومنْ كفَّيْه دجلَةٌ والفُراتُ
وقَالُوا يَقبل المدحاةَ لكنْ جَوَائزُهُ عليهنَّ الصَّلاَةُ
فقُلْتُ لهم ومَا تُغْنى صَلاَتى عيَالى إنما الشأنُ الزَّكَاةُ
فَيأمُر لى بكسْر الصّادِ منها فَتُصبح لِى الصِّلاتُ هِى الصَّلاةُ

فلما تجرأ عليه أحدهم وسأله : لماذا تعاقب مَنْ لم يعجبك شعره بصلاة مائة ركعة ؟ فقال : لأنه إما مسيء وإما محسن ، فإنْ كان مسيئاً فهى كفارة لإساءته فى شعره ، وإنْ كان محسناً فهى كفارة لكذبه فىَّ .

ثم يقول سبحانه فى وصفهم : ﴿ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ [لقمان] لأن الإيمان باليوم الآخر يقتضى أنْ نعمل بمنهج الله فى (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، ونحن على يقين من أننا لن نفلت من الله ولن نهرب من عقابه فى الآخرة ، وأننا مُحَاسبون على أعمالنا ، فلم نُخلق عبثاً ، ولن نُتْرك سدى ، كما قال سبحانه : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون]

ونلحظ هنا فى الأسلوب تكرار ضمير الغيبة (هم) فقال :﴿ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ [لقمان] وهذا يدلُّنا على أن الإيمان بالآخرة أمر مؤكد لا شكَّ فيه ، ومع أن الناس يؤمنون بهذا اليوم ، ويؤمنون أنهم محاسبون ، وأن الله لم يكلفهم عبثاً – مع هذا – يؤكد الحق سبحانه على أمر الآخرة ؛ لأنها مسألة بعيدة فى نظر الناس ، وربما غفلوا عنها لبُعْدها عنهم ، ولم لا وهم يغفلون حتى عن الموت الذى يرونه

أمامهم كل يوم ، ولكن عادة الإنسان أن يستبعده فى حق نفسه .

لذلك يقول الحسن البصرى [1] : ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت .

أما الكفار فينكرون هذا اليوم ، ولا يؤمنون به ؛ لذلك أكد الله عليه .

ولما سأل النبى ﷺ حذيفة [2] رضى الله عنه : « كيف أصبحتَ يا حذيفة ؟» قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، فقال : « لكلِّ حقٍّ حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفتْ نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها [3] ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون » فقال ﷺ : « عرفتَ فالزم »

وقوله ﴿ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [لقمان] من اليقين ، وهو الإيمان الراسخ الذى لايتزعزع ، ولا يطرأ عليه شكٌّ فيطفو إلى العقل ليناقش من جديد ، وسبق أنْ قُلْنا : إن المعلومة تتدرج على ثلاث مراحل : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين .

علم اليقين إذا أخبرك به مَنْ تثق به ، فإذا رأيتَ ما أخبرك به

---

(١) هو : الحسن بن أبى الحسن أبو سعيد البصرى ، نشأ بالمدينة ، وحفظ كتاب الله فى خلافة عثمان ، وسمعه يخطب مرات ، كان عالماً رفيعاً ثقة حجة مأموناً عابداً ناسكاً كثير العلم فصيحاً جميلاً وسيماً ، مات سنة عشر ومائة ، وله ثمان وثمانون سنة . [تذكرة الحفاظ للذهبى ١/٧١] .

(٢) ما ورد كان فى حق الحارث بن مالك الأنصارى . أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥٧/١) وعزاه للطبرانى فى المعجم الكبير (٣/٣٠٢) وقال الهيثمى : « فيه ابن لهيعة » . وكذا أورده عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ لقى رجلاً يقال له حارثة فى بعض سكك المدينة فقال : كيف أصبحت يا حارثة ؟ الحديث وعزاه للبزار وفيه يوسف بن عطية لا يحتج به .

(٣) المدر : قطع الطين اليابس . وهو الطين المتماسك . [لسان العرب ـ مادة مدر] .

فهو عين اليقين ، فإذا باشرتَ ذلك بنفسك فهو حَقُّ اليقين .

وضربنا لذلك مثلاً إذا قلت لك : إن البيت الحرام في مكة وصفته كذا وكذا ، وقد حدثت فيه توسعات كذا وكذا ، فهذه المعلومات بالنسبة لك علم يقين ، فإذا رأيتَ الحرم فهى عَيْن يقين ، فإذا يسَّر الله لك الحج أو العمرة فباشرْتَه بنفسك ، فهو حَقُّ اليقين .

والحق سبحانه وتعالى عالج هذه المراتب في سورتين : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) ﴾ [التكاثر]

وذلك حين يمرون على الصراط ويروْنَ النار بأعينهم رأى العين .

أما حق اليقين بالنسبة للنار ، فقد جاء فى قوله تعالى :﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة]

لكن ، هل القرآن نزل هُدى للمتقين ، وهدى للمحسنين فحسب ؟ قلنا : إن الهداية تأتى بمعنيين : هداية دلالة وإرشاد ، وهداية توفيق ومعونة ، فإن كانت هداية دلالة فقد دلّ الله المؤمن والكافر بدليل قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ (١٧) ﴾ [فصلت]

فالحق سبحانه دلَّ الجميع لأنهم عباده ، فمنهم من قَبِل الدلالة واقتنع بها فآمن ، ومنهم مَنْ رفضها فكفر ، أما الذى قَبِل دلالة الله وآمن به فيزيده الله هداية أخرى ، هى المعونة على الإيمان ، فيُحبِّبه

إليه حتى يعشقه ، ثم يعينه عليه ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) ﴾

وصف الحق سبحانه قرآنه بأنه هدى ، أما هنا فيقول : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى (٥) ﴾ [لقمان] والمتكلم هو الله - عزوجل - فلا بُدَّ أنْ نتأمل المعنى ، ربنا عزوجل يريد أنْ يقول لنا نعم القرآن هُدى ، لكن إياك أنْ تظن أنك حين تتبع هذا الهدى تنفعه بشيء ، إنما المنتفع بالهداية أنت ، فحين تكون على الهدى يدلُّك ويسير بك إلى الخير ، فالهدى كأنه مطية يُوصِّلك إلى الخير والصلاح ، فأنت مُسْتعلٍ على الهدى إنْ قَبِلْتَه ، وإنْ كان هو مُسْتَعلياً عليك تشريعاً .

ثم هو هدى ممَّنْ ؟ ﴿ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ (٥) ﴾[لقمان] ممن لا يستدرك عليه ، فإنْ دلَّك دلَّك بحق ، وهَبْ أن البشر اهتدوْا إلى شيء فيه خير ، لكن بعد فترة يعارضون هم أنفسهم هذا الطريق ، ويكتشفون له مضارّ ومثالب ، ويستدركون عليه ، وربما يعدلون عنه إلى غيره ، وكم هي القوانين البَشرية التي أُلغيت أو عُدِّلت ؟

إذن : الهداية والدلالة الحقة لا تكون إلا لله ، والقانون الذي ينبغي أن يحكمنا ونطمئن إليه لا يكون إلا لله ، لماذا ؟ لأن البشر ربما ينتفعون من قوانينهم ، وقد تتحكم فيهم الأهواء أو يميلون لشخص

على حساب الآخر ، أما الحق - سبحانه وتعالى - فهو وحده سبحانه الذى لا ينتفع بشىء مما شرع لعباده ، ولا يحابى أحداً على حساب أحد ، والعباد كلهم عباده وعنده سواء .

لذلك يطمئننا الحق سبحانه على تشريعه وعدالته سبحانه ، فيقول ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ③ ﴾[الجن] يعنى : اطمئنوا ، فربكم ليس له صاحبة تؤثر عليه ، ولا ولد يظلم الناس فيحابيه ، فأنتم جميعاً عنده سواسية .

ثم هناك فَرْق بين هُدى من الله ، وهدى من الرب ، فالرب هو الذى ربَّاك ، هو الذى أوجدك من عَدم ، وأمدك من عُدْم ، وأعطاك قبل أنْ تعرف السؤال ، وتركك تربع فى كونه وتتمتع بنعمه .

لذلك يُعلمك ربك : إياك أنْ تسألنى عن رزق غد ؛ لأننى رزقْتُك قبل أنْ تعرف أن تسأل ، ثم لم أطالبك بعبادة غدٍ ، إذن : ليكُنْ العبد مؤدباً مع ربه عزوجل .

وهكذا نتبين أن الربوبية عطاء ، أما الألوهية فتكليف .

ثم يخبر الحق سبحانه عنهم بخبر آخر ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑤ ﴾ [لقمان] فالفلاح نتيجة الهدى الذى ساروا عليه واتبعوه ، كما قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① ﴾ [المؤمنون]

الفلاح أصله من فلاحة الأرض بالحرث والبَذْر والسَّقْى .. الخ ، فاستعارها أسلوب القرآن للعمل الصالح ، ووجه الشبه بين الأمرين واضح ، فالفلاح يلقى الحبة فيضاعفها له ربه سبعمائة حبة ، كذلك العمل الصالح يُضَاعَف لصاحبه ، فالحسنة عند الله بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة]

واقرأ فى كتاب الله هذا المثل : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ [البقرة]

وتأمل الاستدلال هنا : إذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تعطى كل هذا العطاء ، فكيف يكون عطاء مَنْ خلقها ؟ إذن : فهم لاشكَّ مفلحون أى : فائزون بالثمرة الطيبة التى تفوق ما بذلوه من مشقة ، كما يزرع الفلاح الأرض فتعطيه أضعاف ما وُضِع فيها .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه الكتاب وآياته ، وأن فيه هدى ورحمة لمن اتبعه وفلاحاً لمن سار على هديه يبين لنا أن هناك نوعاً آخر من الناس ينتفعون بالضلال ويستفيدون منه ، وإلا ما راجتْ سوقه ، ولما انتشر بين الناس أشكالاً وألواناً .

لذلك نرى للضلال فئة مخصوصة حظهم أن يستمر وأن ينتشر

---

(١) سبب نزول الآية : قال الكلبى ومقاتل : نزلت فى النضر بن الحارث ، وذلك أنه كان يخرج تاجراً إلى فارس فيشترى أخبار الأعاجم فيرويها ويحدث بها قريشاً ويقول لهم : إن محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحدثكم بحديث عاد وثمود ، وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة ، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن ، فنزلت فيه هذه الآية .

وقال مجاهد : نزلت فى شراء القيان والمغنيات . [أسباب النزول للواحدى ص ١٩٧] .

لتظل مكاسبهم ، ولتظل لهم سيادتهم على الخَلْق وعبوديتهم لهم واستنزاف خيراتهم .

وطبيعى إنْ وُجِد قانون يعيد توازن الصلاح للمجتمع لا يقف فى وجهه إلا هؤلاء يحاربونه ويحاربون أهله ويتهمونهم ويُشككون فى نواياهم ، بل ويواجهونهم بالسخرية والاستهزاء مرة وبالتعدى مرة أخرى .

وربما قطعوا عليهم سبل الحياة ، كما عزلوا رسول الله ﷺ فى شعْب أبى طالب ، ثم يُكرِهون أهل الحق على الهجرة والخروج من أموالهم وأهلهم إلى الحبشة مرة ، وإلى المدينة مرة أخرى ، لماذا ؟ لأن حياتهم تقوم على هذا الضلال فلا بُدَّ أنْ يحافظوا عليه .

والحق سبحانه يبين لنا أن هؤلاء الذين يحاربون الحق ويقفون فى وجه الدعوة إلى الإيمان يعرفون تماماً أنهم لو تركوا الناس يسمعون منهج الله وداعى الخير لا بُدَّ أنْ يميلوا إليه ؛ لذلك يَحُولُون بين آذان الناس ومنطق الحق ، فهم الذين قالوا للناس : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦)﴾ [فصلت]

وما ذلك إلا لأنهم واثقون من لغة القرآن وجمال أسلوبه ، واستمالته للقلوب بحلو بيانه ، فلو سمعتْه الأذن العربية لابُدَّ وأنْ تتأثر به ، وتقف على وجوه إعجازه ، وتنتهى إلى الإيمان .

فإذا ما أفلتَ منهم أحد ، وانصرف إلى سماع الحق أتوْهُ بصوارف أخرى وأصوات تصرفه عن الحق إلى الباطل .

وقوله سبحانه :﴿وَمِنَ النَّاسِ (٦)﴾ [لقمان] من هنا للتبعيض أى : الناس المستفيدون من الضلال ، والذين يسوؤهم أنْ يأتم الناس

جميعاً بمنطق واحد ، وهدف واحد ، وهدى واحد ؛ لأن هذه الوحدة تقضى على تميزهم وجبروتهم وظلمهم فى الأرض ؛ لذلك يبذلون قصارى جهدهم فى الضلال ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (٦) ﴾ [لقمان]

قوله تعالى : ﴿ يَشْتَرِي (٦) ﴾ [لقمان] من الشراء الذى يقابله البيع ، والشراء أنْ تدفع ثمناً وتأخذ فى مقابله مُثمناً ، وهذا بعدما وُجد النقد ، لكن قبل وجود النقد كان الناس يتعاملون بالمقايضة والتبادل سلعة بسلعة ، وفى هذه الحالة فكل سلعة مباعة وكل سلعة مشتراة ، وكل منهما بائع ومُشْتَر .

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) ﴾ [يوسف]

والمعنى : شروه أى : باعوه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ .. (٢٠٧) ﴾ [البقرة]

أى : يبيعها ، إذن : الفعل (شَرَى) يأتى بمعنى البيع ، وبمعنى الشراء .

أما إذا جاء الفعل بصيغة (اشترى) فإنه يدل على الشراء الذى يُدفع له ثمن ، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً .. (١٩٩) ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ (١١١) ﴾ [التوبة]

وعادة تدخل الباء على المتروك تقول : اشتريتُ كذا بكذا

وحين نتأمل قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ [لقمان] نجد أن هذه عملية تحتاج إلى طلب للشيء المشترَى ، ثم إلى ثمن يُدفع فيه ، وليت الشراء لشيء مفيد إنما ﴿ لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾[لقمان] وهذه سلعة خسيسة .

إذن : هؤلاء الذين يريدون أنْ يصدوا عن سبيل الله تحملوا مشقة الطلب ، وتحملوا غُرْم الثمن ، ثم وُصفوا بالخيبة لأنهم رَضُوا بسلعة خسيسة ، والأدهى من ذلك والأمرّ منه أن يضعوا هذا في مقابل الحق الذى جاءهم من عند الله على يد رسوله بلا تعب وبلا مشقة وبلا ثمن ، جاءهم فضلاً من عند الله وتكرماً :﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى]

فأىٌّ حمق هذا الذى يوصفون به ؟

وكلمة اللهو : ذكر القرآن اللهو وذكر اللعب فى عدة آيات ، قدَّمت اللعب على اللهو فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام]

وفى قوله تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [الحديد]

وقدمت اللهو فى قوله تعالى :﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ [العنكبوت]

فقدمت الآيات اللعب فى آيتين ؛ لأن اللعب أن تصنع حركة غير مقصودة لمصلحة ، كما يلعب الأطفال ، يعنى : حركة لا هدفَ لها ، ونقول عنها (لعب عيال) وسُمِّيت لعباً ؛ لأن الطفل يلعب قبل أنْ يُكلَّف بشيء ، فلم يشغل باللعب عن غيره من المهمات .

لكن إذا انتقل إلى مرحلة التكليف ، فإن اللعب يشغله عن شيء طُلب منه ، ويُسمَّى في هذه الحالة لهواً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا (١١) ﴾ [الجمعة]

إذن : فاللهو هو الشيء الذي لا مصلحة فيه ، ويشغلك عن مطلوب منك .

فآية سورة العنكبوت التي قدمت اللهو على اللعب تعنى أن أمور الاشتغال بغير الدين قد بلغت مبلغاً ، وأن الفساد قد طمَّ واستشرى الانشغال بغير المطلوب عن المطلوب ، فهذه أبلغ في المعنى من تقديم اللعب ؛ لأن اللعب لم يُلهه عن شيء .

لكن ، ما اللهو الذي اشتروه ليصرفوا الناس به عن الحق وعن دعوة الإسلام ؟ إنهم لما سمعوا القرآن سمعوا فيه قصصاً عن عاد وثمود ، وعن مدين وفرعون .. الخ ، فأرادوا أنْ يشغلوا الناس بمثل هذه القصص .

وقد ذهب واحد منهم وهو النضر بن الحارث إلى بلاد فارس وجاءهم من هناك بقصص مسلية عن رستم وعن الأكاسرة وعن ملوك حمْيرَ ، اشتراها وجاء بها ، وجعل له مجلساً يجتمع الناس فيه ليقصّها عليهم ، ويصرفهم بسماعها عن سماع منطق الحق في رسول الله .

وآخر يقول : بل جاء أحدهم بمغنية تغنيهم أغانيَ ماجنة متكسرة .

ومعنى : ﴿ لَهْوَ الْحَدِيثِ (٦) ﴾ [لقمان] قال العلماء : هو كل ما يُلهي عن مطلوب لله ، وإنْ لم يكُنْ في ذاته في غير مطلوب الله لَهْواً ، وعليه فالعمل الذي يُلهي صاحبه من صناعة أو زراعة .. الخ يُعَدُّ من اللهو إنْ شغله مثلاً عن الصلاة ، أو عن أداء واجب لله تعالى .

ومن التصرفات ما يُعَدُّ لهواً ، وإنْ لم يشغلك عن شيء كالغناء ،

وللعلماء فيه كلام كثير خاصة بعد أنْ صاحبته الموسيقى وآلات الطرب والحركات الخليعة الماجنة ، ولفقهائنا القدامى رأيهم فى هذا الموضوع ، لكن العلماء المحدثين والذين يريدون أنْ يُجيزوا هذه المسألة يأخذون من كلام القدماء زاوية ويُطبِّقونها على غير كلامهم .

نعم ، أباح علماؤنا الأُنْس بالغناء فى الأفراح وفى الأعياد اعتماداً على قول النبى ﷺ لأبى بكر الصديق الذى رأى جاريتين تغنيان فى بيت رسول الله فنهرهما ، وقال : أمزمار الشيطان فى بيت رسول الله ، فقال ﷺ : « دعهما ، فإننا فى يوم عيد »(١)

وكذلك أباحوا الأناشيد التى تقال لتلهب حماس الجنود فى الحرب، أو التى ينشدها العمال ليطربوا بها أنفسهم وينشغلوا بها عن متاعب العمل ، أو المرأة التى تهدهد ولدها لينام .

ومن ذلك حداء(٢) الإبل لتسرع فى سيرها ، وقد قال النبى ﷺ لأنجشة(٣) : « رفقاً بالقوارير »(٤) فشبَّه النساء فى لُطْفهن ورقّتهن

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٩٨٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨٩٢) كتاب العيدين من حديث عائشة رضى الله عنها ، وفى لفظ مسلم أنهما كانتا « تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث » أى « كان غناء فى الشجاعة والقتل والحذق فى القتال ونحو ذلك مما لا مفسدة فيه » قاله النووى فى شرح مسلم ، وكذلك فى لفظه « وليستا بمغنيتين » قال النووى : « أى : ليستا ممن يتغنى بعادة المغنيات من التشويق والهوى والتعريض بالفواحش والتشبيب بأهل الجمال وما يحرك النفوس » .

(٢) الحَدْو : سَوْق الإبل والغناء لها ، فإنه من أكبر الأشياء على سَوْقها وبَعْثها . [لسان العرب ـ مادة حدا] .

(٣) قال البلاذرى : كان أنجشة حبشياً يكنى أبا مارية . وقد كان حسن الصوت بالحداء . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٦٨/١] ترجمة (٢٥٩) .

(٤) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٢٠٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣٢٣) من حديث أنس ابن مالك قال : كانت أم سليم مع نساء النبى ﷺ ، وهن يسوق بهن سوَّاق ، فقال نبى الله ﷺ : « أى أنجشة ، رويداً سوقك بالقوارير » .

بالقوارير ، فإذا مـا أسرعتْ بهن الإبل هُزَّت بهن الهوادج ، وهذا يشقّ على النساء .

إذن : لا مانع من كل نصٍّ له غـرض نبيل ، أمـا إنْ أهاج الغرائز فهو حرام - والكلام هنا عن مجرد النص - لأن الخالق سبحانه يعلم طبيعة الغرائز في البشر ؛ لذلك نسميها غريزة ؛ لأن لها عملاً وتفاعلاً في نفسك بدون أيِّ مؤثـرات خارجية ، ولها طاقـة لا بُدَّ أنْ تتحرك ، فإنْ أثرْتَها أنت ثارتْ ونزعتْ إلى ما لا تُحمَد عُقْباه .

وسبق أن أوضحنا أن مراتب الشـعور ثلاث : يدرك بحواسه ، ثم وجـدان يتكوَّن في النفس نتـيـجـة للإدراك ، ثم النزوع والعـمل الذى يترجم هذا الوجدان .

ومن رحمـة الله بنا أن الشرع لا يتـدخل في هذه المســألة إلا في مرحلة النزوع ، فيقـول لك : قفْ لا تمدّ يدك إلى ما ليس لك ، ومثَّلْنا لهذه المسألة بالوردة تراها في البسـتان ، ويُعجبك منظرها ، وتجذبك رائحـتهـا فتـعشـقهـا وهذا لك ، فإنْ مـددْتَ يدك لتقطفـها يقـول لك الشـارع : قفْ ليس من حقّك .

إذن : فـالشـارع الحكيم لا يتـدخَّل في مـرحلة الإدراك ، ولا في المـواجيـد إلا في مسـألة واحدة لا يمـكن الفصل فـيهـا بين الإدراك والوجدان والنزوع ، لأنها جميعـاً شيء واحد ، إنها عملية نظر الرجل إلى المرأة التى لا تحل له ، لماذا هذه المسألة بالذات ؟

قالوا : لأنهـا لا تقف عند حَدِّ الإعجاب بـالمنظر ، إنما يُورثك هذا الإعجاب انفعالاً خاصاً في نفسك ، ويُورثك تشكلاً خاصاً لا يهدأ ، إلا بأن تنزع ، فرحمةً بك يا عـبدى أنا سـأتدخل في هذا الأمر بالذات من أوله ، وأمنعـك من مـجــرد الإدراك ، لأنك إنْ أدركتَ وجــدتَ ، وإنْ

وجدتَ نزعتَ إلى ما تجد فأثمت فى أعراض الناس أو كبت فى نفسك ، فأضررتَ بها ، وربك يريد أنْ يُبرئك من الإثم ومن الإضرار بالنفس ، فالأسلم لكم أنْ تغضُّوا أبصاركم .

إذن : لا تقُل الغناء لكن قُلْ النص نفسه : إنْ حثَّ على فضيلة فهو حلال ، وإنْ أهاج الغرائز فهو حرام وباطل ، كالذى يُشبِّب بالمرأة ويذكر مفاتنها ، فهذا حرام حتى فى غير الغناء ، فإذا ما أضفتَ إليه الموسيقى والألحان والتكسر والميوعة ازدادت حرمته وتضاعف إثمه.

أما ما نراه الآن وما نسمعه مما يُسمُّونه غناء ، وما يصاحبه من حركات ورقصات وخلاعات وموسيقى صاخبة ، فلا شكّ فى حرمته .

فكل ما يُخرِج الإنسان عن وقاره ورزانته وكل ما يجرح المشاعر المهذبة فهو حرام ، ثم إن الغناء صوت فإنْ خرج عن الصوت إلى أداء آخر مُهيّج ، تستعمل فيه الأيدى والأرجل والعينان والوسط .. الخ فهذا كله باطل ومحرم .

ولا ينبغى للمؤمن الذى يملك زمام نفسه أن يقول : إنهم يفرضون ذلك علينا ، فالمؤمن له بصيرة يهتدى بها ، ويُميز بين الغثّ والسمين ، والحق والباطل . فكُنْ أنت حكماً على ما ترى وما تسمع ، بل ما يرى وما يسمع أهلك وأولادك ، وبيدك أنت الزمام إنْ شئتَ سمعتَ ، وإنْ شئتَ أغلقتَ الجهاز ، فلا حجة لك لأن أحداً لا يستطيع أنْ يجبرك على سماع أو رؤية ما تكره .

ففى رمضان مثلاً ، وهو شهر للعبادة نصوم يومه ، ونقوم ليله ، وينبغى أن نكرمه ، ونحتفظ فيه بالوقار والروحانية ، ومع ذلك يخرجون علينا بألوان اللهو الذى يتنافى والصيام ، فإنْ سألتهم قالوا : الناس مختلفو الأمزجة ، وواجبنا أن نوفر لهم أمزجتهم ، لكن للمؤمن

ولاية على نفسه وهو يملك زمامها ، فلا داعى أن تتهم أحداً ما دام الأمر فى يدك ، وعليك أن تنفذ الولاية التى ولاك الله ، فإنْ فعلتَ ففى يدك خمسة وتسعون بالمائة من حركة الحياة ، ولغيرك الخمسة الباقية .

ثم إن ما يحلّ من الغناء مشروط بوقت لا يكون سمة عامة ولا عادة مُلحّة على الإنسان يجعلها ديدنه ؛ لذلك يقول النبى ﷺ : « روِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة ».[1]

وهؤلاء المغنون والمغنيات الذين يُدخلون فى الغناء ما ليس منه من الحركات والرقصات لا يدرون أنهم يثيرون الغرائز ، ويستعدون على الشباب غير القادر على الزواج ، ويلهبون مشاعر الناس ويثيرون الغيرة .. الخ .

إذن : القضية واضحة لا تحتاج منا إلى فلسفة حول حكم الغناء أو الموسيقى ، فكل ما يثير الغرائز ، ويُخرجك عن سَمْت الاعتدال والوقار فهو باطل وحرام ، سواء أكان نصاً بلا لحن ، أو لحناً بدون أداء ، أو أداء مصحوباً بما لا دخلَ له بالغناء .

لكن ، لماذا يكلفون أنفسهم ويشترون لهو الحديث ؟

العلة كما قال الحق سبحانه : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٦﴾ ﴾ [لقمان] وفرْق بين مَنْ يشترى اللهو لنفسه يتسلى به ، ويقصر ضلاله على نفسه وبين مَنْ يقصد أن يَضلَّ ويُضل غيره ؛ لذلك فعليه تبعة الضَّلالَيْن : ضلاله فى نفسه ، وإضلاله لغيره .

وقوله : ﴿ لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴿٦﴾ ﴾ [لقمان] لا يقتصر على الغناء

---

(١) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (١/ ٥٢٤) وعزاه للديلمى وأبى نعيم والقضاعى عن أنس رفعه . وقال : ويشهد له ما فى مسلم وغيره من قوله ﷺ « يا حنظلة ساعة وساعة » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٠) عن حنظلة الأسيدى .

والكلام ، إنما يشمل الفعل أيضاً ، وربما كان الفعل أغلب .

وقوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ⦗٦⦘ ﴾ [لقمان] يدل على عدم معرفتهم حتى بأصول التجارة في البيع والشراء ، فالتاجر الحق هو الذى يشترى السلعة ، بحيث يكون نفعها أكثر من ثمنها ، أما هؤلاء فيشترون الضلال ؛ لذلك يقول الحق عنهم : ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ⦗١٦⦘ ﴾ [البقرة]

والسبيل : هو الطريق الموصل إلى الخير من أقصر طريق ، وهو الصراط المستقيم الذى قال الله تعالى عنه ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⦗٦⦘ ﴾ [الفاتحة] لذلك نقول فى علم الهندسة : المستقيم هو أقصر بُعد بين نقطتين .

وقوله : ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ⦗٦⦘ ﴾ [لقمان] أى : السبيل ؛ لأن السبيل تُذكَّر وتؤنث ، تُذكَّر باعتبار الطريق ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ⦗١٤٦⦘ ﴾ [الأعراف]

وتُؤنَّث على اعتبار الشِّرْعة ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ⦗١٠٨⦘ ﴾ [يوسف]

هؤلاء الذين يشترون الضلال لإضلال الناس لا يكتفون بذلك ، إنما يسخرون من أهل الصلاح ، ويهزأون من أصحاب الطريق المستقيم والنهج القويم ، ويُسفِّهون رأيهم وأفعالهم .

ثم يذكر الحق سبحانه عاقبة هذا كله : ﴿ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ⦗٦⦘ ﴾ [لقمان] أولئك : أي الذين سبق الحديث عنهم ، وهم أهل الضلال ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ⦗٦⦘ ﴾ [لقمان] ووصْف العذاب هنا بالمهانة دليل على أن من العذاب ما ليس مُهيناً ، بل ربما كان تكريماً لمن وقع عليه كالرجل الذى يضرب ولده ليُعلِّمه ويُربِّيه ، فهو يضربه لا ليعذبه ويؤلمه ويهينه ، إنما لكى لا يعود إلى الخطأ مرة أخرى . على حَدِّ قول الشاعر :

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا ومَنْ يَكُ حَازِماً   فَلْيَقسُ أحْيَاناً على مَنْ يَرْحَمُ

إذن: فمن العذاب ما هو تذكير وتطهير أو ترضية وتكريم لمستقبل ، وإنما سُمِّي عذاباً تجاوزاً ، فهو فى هذه الحالة لا يُعَدُّ عذاباً.

وفى هذا المعنى قال الزمخشرى[1] رضى الله عنه : الملك يكون عنده الخادم ، فيفعل ما لا يُرضى سيده ، فيأمر صاحب الشرطة أنْ يأخذه ويعذبه جزاء ما فعل ، فيأخذه الشرطى ويُعذِّبه بقدر لا يتعداه ، لأنه يعلم أنه سيعود مرة أخرى إلى خدمة السيد ، فالعذاب فى هذه الحالة يكون بقدر ما فعل الخادم ليس مهيناً له . لكن إنْ قال له : خُذْ هذا الخادم واقْصه عن الخدمة أو افصله ، يعني : ليست له عودة فلا شكَّ أن العذاب سَيكون مهيناً وأليماً .

فالعذاب إنْ سمَّيناه عذاباً يكون إكراماً لمن تحب وتريد أن تطهره ، أما العذاب المهين فهو لمن لا أملَ فى عودته ، والإهانة تقتضى الأبدية والخلود .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ ﴾ ٧

(١) هو : جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى (توفى عام ٥٣٨ هـ) صاحب « الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل » وهو من تفاسير المعتزلة الذين قالوا بالمنزلة بينَ المنزلتين فى حق العصاة والمذنبين فاعتبروهم لا مؤمنين ولا كافرين ، وقالوا بأنه يجب على الله إدخال المؤمنين الجنة ، والكافرين النار ، وقالوا بنفى صفات الله ، وكلها قضايا خالفوا فيها أهل السنة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا .. ⑦ ﴾ [لقمان] بعد قوله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ⑥ ﴾ [لقمان] يدلنا على حرص النبى ﷺ على تبليغ أمر دعوته ، حتى لمن يعلم عنه أنه ضَلَّ فى نفسه ، بل ويريد أنْ يُضل غيره .

ومعنى ﴿وَلَّىٰ ⑦ ﴾ [لقمان] يعنى : أعرض وأعطانا (عرض أكتافه) كما نقول ، وتولى وهو مستكبر ﴿ وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ⑦ ﴾ [لقمان] أى : تكبَّر على ما يُدْعى إليه ، أنت دُعيت إلى حق فاستكبرت ، ولو كنت مستكبراً فى ذاتك لما لجأتَ إلى باطل لتشتريه ، إذن : فكيف تستكبر عن قبول الحق وأنت محتاج حتى إلى الباطل ؟

ولماذا تتكبَّر وليس عندك مُقوِّمات الكِبْر ؟ ومعلوم أنك تستكبر عن قبول الشىء إنْ كان عندك مثله ، فكيفَ وأنت لا تملك لا مثله ولا أقل منه ؟

إذن : فاستكبارك فى غير محله ، والمستكبر دائماً إنسان فى غفلة عن الله ؛ لأنه نظر إلى نفسه بالنسبة للناس - وربما كان لديه من المقومات ما يستكبر به على الناس - لكنه غفل عن الله ، ولو استحضر جلال ربه وكبرياءه سبحانه لاستحى أنْ يتكبَّر ، فالكبرياء صفة العظمة وصفة الجلال التى لا تنبغى إلا لله تعالى ، فكبرياؤه سبحانه شرف لنا وحماية تمنعنا أن نكون عبيداً لغيره سبحانه .

لذلك نسمع فى الأمثال العامية (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) فإنْ كان لى كبير خافنى الناس واحتميتُ به ، كذلك المؤمن يحتمى بكبرياء ربه ؛ لأن كبرياء الله على الجميع والكل أمامه سواسية ، لا أحد يستطيع أن يرفع رأسه أمام الحق سبحانه .

إذن : فكبرياؤه تعالى لصالحنا نحن .

وهذا المستكبر استكبر عن سماع الآيات ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴿٧﴾﴾ [لقمان] أي : ثقَل وصَمَم ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [لقمان] ونحن نعلم أن البشارة لا تكون إلا في الخير ، فهي الإخبار بأمر سارٍّ لم يأْت زمنه ، كما تبشر ولدك بالنجاح قبل أنْ تظهر النتيجة .

أما البشارة بالعذاب فعلى سبيل التهكّم بهم والسخرية منهم ، كما تتهكم من التلميذ المهمل فتقول له : أبشرك رسبتَ هذا العام . واستخدام البُشْرى في العذاب كأنك تنقله فجأة من الانبساط إلى الانقباض ، وفي هذا إيلام للنفس قبل أنْ تُقاسي ألم العذاب ، فالتلميذ الذي تقول له : أُبشِّرك يستبشر الخير بالبشرى ، ويظن أنه نجح لكن يُفَاجأ بالحقيقة التي تؤلمه .

والشاعر يُصوِّر لنا هذه الصدمة الشعورية بقوله :

كَما أبرقَتْ يَوْماً عِطَاشاً غَمامَةٌ   فلمّا رأوْهَا أقْشَعَتْ وتجلَّتِ[1]

ويقول آخر :

فَأصْبحتُ من ليلى الغَداةَ كقَابضٍ   علَى الماءِ خَانتْه فُروجُ الأصَابِعِ

لذلك يقولون : ليس أشرّ على النفس من الابتداء المطمع يأتي بعده الانتهاء المؤئس ، وسبق أن مثلنا لذلك بالسجين الذي بلغ به العطش منتهاه ، ورجا السجان ، إلى أنْ جاء له بكوب من الماء ، ففرح واستبشر ، وظن أن سجانه رجل طيب أصيل فلما رفع الكوب إلى فيه ضربه السجان من يده فأراقه على الأرض .

---

(١) انقشع الغيم وأقشع وتقشع الريح أي : كشفته فانقشع . وتقشَّع السحاب أي تصدع وأقلع . [لسان العرب - مادة : قشع] . والبيت لكثير عزة في ديوانه (ص ١٠٧) وعزاه له شهاب الدين محمود الحلبي في « حسن التوسل » (ص ١٢١) .

ولا شكَّ أن هذا آلم وأشدّ على نفس السجين ، ولو رفض السجان أنْ يأتى له بالماء من البداية لكان أخفّ ألماً . وهذا الفعل يسمونه « يأس بعد إطماع » فقد ابتدأ معه بداية مُطمعة ، وانتهى به إلى نهاية موئسة ، نعوذ بالله من القبض بعد البسط .

ثم يذكر الحق سبحانه عقوبة الإضلال عن سبيل الله والتولِّى والاستكبار ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ [لقمان] فعذابهم مرة (مهين) ومرة (أليم) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾

وهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى مقابل الذين يشترون لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله ، وهذه سمة من سمات الأسلوب القرآنى ؛ لأن ذكر الشىء مع مقابله يُوضِّح المعنى ويعطيه حُسْناً ، كما فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار]

فالجمع بين المتقابلات يُفرح المؤمن بالنعيم ، ثم يفرحه بأنْ يجد أعداءه من الكفار الذين غاظوه واضطهدوه وعذّبوه يجدهم فى النار .

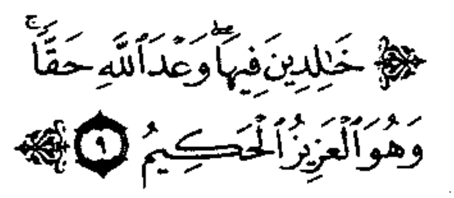
وقلنا : إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يتكلم عن الإيمان يردفه بالعمل الصالح ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٨﴾ ﴾ [لقمان] لأن الإيمان أن تعلم قضايا غيبية فتُصدِّق بها ، لكن ما قيمة هذا الإيمان إذا لم تنفذ مطلوبه ؟

وكذلك فى سورة العصر : ﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ③﴾ [العصر] ففائدة الإيمان العمل بمقتضاه ، وإلا فما جدوى أن تؤمن بأشياء كثيرة ، لكن لا تُوظف ما تؤمن به ، ولا تترجمه إلى عمل وواقع ؛ لذلك إنْ اكتفيتَ بالإيمان ككلمة تقال دون عمل ، فقد جعلت الإيمانَ حجة عليك لا حجةً لك .

ومعنى ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ⑧﴾ [لقمان] أى : الصالح ، والحق سبحانه خلق الكون على هيئة الصلاح ، فالشيء الصالح عليك أنْ تزيد من صلاحه ، فإنْ لم تقدر فلا أقلَّ من أنْ تدعَ الصالح على صلاحه فلا تفسده .

ثم يذكر سبحانه جزاء الإيمان والعمل الصالح : ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ⑧﴾ [لقمان] فهى جنات لا جنة واحدة ، ثم هى جنات النعيم أى : المقيم الذى لا تفوته ولا يفوتك .

ثم يقول الحق سبحانه :



حين نتأمل هذه الآيات نلمس رحمة الله بعباده حتى الكافر منهم الذى ضلَّ وأضلَّ ، ومع ذلك فالله رحيم به حتى فى تناول عذابهم ، ألا ترى أن الله تعالى قال فى عذابهم أنه مهين ، وأنه أليم ، لكن لم يذكر معه خلوداً كما ذكر هنا الخلود لنعيم الجنات ، كما أن العذاب جاء بصيغة المفرد ، أما الجنة فجاءت بصيغة الجمع ، ثم أخبر عنها أنها ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ⑨﴾ [لقمان]

والوعد يستخدم دائماً لعدَة بخير يأتيك ، وقلنا : إن العبد يعد ، وقد لا يفى بوعده ؛ لأنه لا يملك كل مُقوِّمات الوفاء ، أما الوعد إنْ كان من الله فهو محقق لأنه سبحانه يملك كل أسباب الوفاء ، ولا يمنعه أحد عن تحقيق ما أراد ؛ لأنه سبحانه ليس له شريك ، كالرجل الذى أراد أنْ يذم آخر فقال له : الدليل على أن الله ليس له شريك أنه خلقك ، فلو كان له شريك لقال له : لا داعى لأنْ تخلق هذا.

لذلك يعلمنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أنْ نردف وَعْدنا بقولنا : إن شاء الله حتى نكون منصفين لأنفسنا من الناس ، ولا نُتهم بالكذب إذا لم نَف ، وعندها لى أن أقول : أردت ولكن الله لم يُرِد ، فجعلت المسألة فى ساحة ربك عز وجل .

وبهذه المشيئة رحم الله الناس من ألسنة الناس ، فإذا كلفتنى بشىء فلم أقضه لك فاعلم أن له قدراً عند الله لم يأتِ وقته بعد ، واعلم أن الأمر لا يُقْضى فى الأرض حتى يُقْضى فى السماء ، فلا تغضب ولا تتحامل على الناس ، فالأمور ليست بإرادة الناس ، وإنما بإرادة الله .

لذلك حين تتوسط لأخيك فى قضاء مصلحة وتُقْضى على يديك ، المؤمن الحق الذى يؤمن بقدر الله يتأدب مع الله فيقول : قُضِيَتْ معى لا بى ، يعنى : شاء الله أنْ يقضيها فأكرمنى أن أتكلم فيها وقت مشيئته تعالى ، كذلك يقول الطبيب المؤمن : جاء الشفاء عندى لا بى .

ولو فهم الناس معنى قدر الله لاستراحوا ، فحين ترى المجدّ العامل يُقْصى ويُبعد ، وحين ترى الخامل والمنافق يُقرّب ويعتلى أرفع المناصب فلا تغضب ، وإذا لم تحترمه لذاته فاحترم قدر الله فيه .

فالمسائل لا تجرى فى كَوْن الله بحركة (ميكانيكية) ، إنما بقدر الله الذى يرفع مَنْ يشاء ويضع مَنْ يشاء ، وله سبحانه الحكمة البالغة

فى هذه وتلك ، وإلا لقلنا كما يقول الفلاسفة : إن الله تعالى خلق القضايا الكونية ثم تركها للناس يُسيِّرونها .

والحق سبحانه ما ترك هذه القضايا ، بدليل قوله تعالى : ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى]

فبعد هذه الآية لا يقل أحد : إن فلاناً لا ينجب أو فلانة لا تنجب ؛ لأن هذه مرادات عليا لله تعالى ، ولو أن العقيم احترم قَدَر الله فى العقم لجعل الله كل مَنْ يراهم من الأولاد أولاده ، وما دام الله تعالى قال ﴿ يَهَبُ ﴿٤٩﴾﴾ [الشورى] فالمسألة فى كل حالاتها هبة من الله تعالى لا دَخْلَ لأحد فى الذكورة أو الأنوثة أو العقم . فلماذا - إذن - قبلتَ هبة الله فى الذكور ، ولم تقبل هبة الله فى العقم ؟

وسبق أن تحدثنا عن وأد البنات قبل الإسلام ؛ لأن البنت كانت لا تركب الخيل ، ولا تدافع عن قومها ، ولا تحمل السلاح .. الخ ، فلما جاء الإسلام حرم ذلك وكرَّم المرأة ، وأعلى من شأنها ، لكن ما زالت المفاضلة قائمة بين الولد والبنت .

والآن احتدم صراع مفتعل بين أنصار الرجل وأنصار المرأة ، والإسلام برىء من هذا الصراع ؛ لأن الرجل والمرأة فى الإسلام متكاملان لا متضادان ، وعجيب أنْ نرى من النساء مَنْ تتعصب ضد الرجال وهى تُجَنّ إنْ لم تنجب الولد ، وهذه شهادة منهن بأفضليته .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يعلمنا أن مَنْ يحترم قدره فى إنجاب البنات يقول الله له : لقد احترمتَ قدرى فسوف أعطيك على قدْرى ، فيعطيه الله البنين ، أو يُيسِّر لبناته أزواجاً يكونون أبرَّ به من أولاده وأطوع .

ثم ألاَ ترى أن الله تعالى قدم البنات فى الهبة ، فقال :﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) ﴾ [الشورى] لماذا ؟ لأنه سبحانه يعلم محبة الناس للذكور :﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ (٥٩) ﴾ [النحل]

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) ﴾ [لقمان] العزيز الذى لا يغلب ، ولا يستشير أحداً فيما يفعل ﴿ الْحَكِيمُ (٩) ﴾ [لقمان] أى : حين يعد ، وحين يفى بالوعد .

ثم تنتقل الآيات إلى دليل من أدلة الإيمان الفطرى بوجود الإله :

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ(١) بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ (١٠) ﴾

أولاً : ذكر الحق سبحانه آية كونية لم يدَّعها أحد لنفسه من الكفار أو من الملاحدة ، وهى آية موجودة ومُشَاهدة ، وبعد أن قال سبحانه أنا خالق السماء والأرض لم يعارضه أحد ، ولم يأتِ مَنْ يعارضه فيقول : بل أنا خالق السماء والأرض .

وسبق أنْ قلنا : إن القضية تسلم لصاحبها ومدعيها إذا لم يَقُمْ لها معارض ، فإن كانت هذه القضية صحيحة ، والحق سبحانه هو

(١) ماد يميد : تحرَّك واهتزَّ . ومادت الأرض : اضطربت وزلزلت . يقول تعالى : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ .. (١٠) ﴾ [لقمان] لئلاَّ تميل وتضطرب فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢/٢٤٦] .

الخالق فقد انتهتْ المسألة ، وإذا كان هناك خالق غيره سبحانه فأين هو ؟ هل درى أن واحداً آخر أخذ منه الخَلْق ، ولماذا لم يعارض ويدافع عن حقِّه ؟ أو أنه لم يَدْرِ بشيء فهو إله (نائم على ودنه) ، وفى كلا الحالين لا يصلح أن يكون إلهاً يُعبد .

لذلك قال تعالى ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران] ، فهذه شهادة الذات للذات ، ولم يعارضها معارض فصَحَّتْ لصاحبها إلى أنْ يوجد معارض .

وسبق أن مثَّلنا لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ بجماعة جلسوا فى مجلس فلما انفضَّ مجلسهم وجد صاحب البيت حافظة نقود لا يعرف صاحبها ، فاتصل بمن كانوا فى مجلسه ، وسألهم عنها فلم يقُلْ واحد منهم أنها له ، إلى أن طرق الباب أحدهم وقال : والله لقد نسيت حافظة نقودى هنا ، فلا شكَّ إذن أنها له وهو صاحبها حيث لم يدَّعها واحد آخر منهم .

والحق سبحانه يقول فى إثبات هذه القضية : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء] أى : لذهبوا يبحثون عمَّنْ أخذ منهم الخَلْق والناس ، وأخذ منهم الألوهية .

فإنْ قالوا نحن آلهة لكن فوقنا إله أكبر يردُّ الحق عليهم :﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف]

وقوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان] حين تدور فى أنحاء الكرة الأرضية من شمالها إلى جنوبها ، ومن شرقها إلى غربها تجد السماء تظلّك ، ومع سعة السماء لا تجد لها عمداً ترفعها ، وكلمة ﴿ تَرَوْنَهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان] تحمل معنيين : إما هى فعلاً بغير عمد ، أو لها عمد لكن لا نراها ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان] يعنى : لا نرى لها

عمداً ، لكن الحقيقة أن لها عمداً لا ترونها بإحساسكم ومقاييسكم .

فـإنْ قلت ، فمـا هذه العـمد التى لا نراهـا ؟ البعض يقـول : هى الجاذبية ، وهذا القـول مجانب للصواب ، والحق سبحـانه يكفينا مؤنة البحث فى هذه المسـألة ، فيـقول سبحانه : ﴿ .. وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج]

إذن :لا نملك إلا أنْ نقول إنها ممسوكة بقدرة الله ، ولكى لا نحار فى كيفـية ذلك يُقرِّب الله لنا هذه المسـألة بمثال مُشَاهد لـنا ، فالطير يمسكه الله فى جو السماء : ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ ..﴿٧٩﴾ ﴾ [النحل]

وفى موضوع آخر يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر] إذن : فهو سبحانه يمسكها بقانون ، لكن لا نعرفه نحن ولا ندركه .

والسـماء فى اللغـة : كل مَا عـلاك فأظـلّك ، فالغـيم الذى يعلوك وتراه قريبـاً منك يُعد من السـماء بدليل قـول الله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان] والماء ينزل من الغيم ، لا من السموات العلا ، والفـرق بينهـما أن الغـيم تراه فى مكان دون آخـر ، وتراه مُـتقطعـاً منفطراً ، أمَّا السماء العليا فهى بشكل واحد ، لا ترى فيها من فطور .

وحين تكلم الحق سـبحانه عن الأرض والسـماء قال : إنهـا سبع سـمـاوات ، ولم يقُلْ سـبع أراضـين ، بل ﴿وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق] فدلَّ عـلى أن الأرض سبع كـالسماء ، وإنْ كـانت السمـاء كل ما أظلّك ، فالأرض كل ما أقلّك ، لكن أين هذه الأرَضين السبع ؟

لقد أخبـرنا القرآن الكريم أن السماوات سبـع ، وأخبرنا النبى ﷺ أنه مرَّ بها فى رحلة المعراج فقـال فى الأولى كذا وكذا ، وفى الثانية كذا وكذا ، وما دامـتْ السماء كل ما أظلك ، والأرض كل مـا أقلك فالخَلْق

فى السمـاء الأولى مثلاً سـماؤهم السماء الثـانية ، وأرضـهم سـماؤنا الأولى ، وهكذا وهكذا .

ثم يقـول سـبحـانه : ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ ⑩﴾ [لقمان] أى : الجبال الراسية الثابتة المتصلة بالأرض اتصالاً وثيقاً بحيث لا تتخلخل منهـا ، والعلة فى خَلْق الجـبـال الرواسى على الأرض ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ ⑩﴾ [لقمان] أى : تميل وتضطرب بكم ، ولو أن الأرض مخلوقة على هيئة الثبات لما احتاجت إلى ما يثبتها .

إذن : فالأرض متـحركة ، وما خُلقت الجبـال إلا لتثبيتـها وضبط حركتها ، فـدلَّت هذه الآية على صدْق النظرية القائلة بدوران الأرض ، كذلك فى قوله تعالى : ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ⑧⑧﴾ [النمل]

إذن : فللجبال حـركة مرتبطة بحركـة الأرض ، فإنْ قُلْتَ : ولماذا لا نراها ؟ نقـول : لأن وحدة الـمكان تجعلـك لا تدرك هذه الحركـة ، فالمتحد فى مكان لا تختلف مرائى الأشياء بالنسبة له .

فلو تصوَّرنا أن هذا المسـجد الذى يجمعنا صُـمِّم على هيئة رَحَىً تدور بنا ، فـهل نشـعـر بدورانـه ونحن ندور بدورانه ؟ لا نشـعـر ، لمـاذا ؟ لأن مواقـعنا من بعض ثابتـة لا تتـغيـر ، كـذلك موقـعنا من المكان ؛ لذلك لا نشـعر بالحـركة ، لكن نشـعر بالحـركة حين نـقيس متحركـاً بثابت ، فلو فتحنا الباب مثلاً أو الشـباك ورأينا ما هو خارج المسجد ، عندها نشعر أننا نتحرك .

إذن : لا يمكن لمَنْ على الأرض أن يشعر بحركـتها ؛ لأنه يتحرك معهـا ، وما دامت الجبال أوتاداً فى الأرض وهى ـ أى الجـبال ـ تمر مرَّ الـسحـاب فـلا بُدَّ أن الأرض كذلك تمـر وتتحـرك بنفس الحـركة ،

وحركة الجبال ليست ذاتية ، إنما هى تابعة لحركة الأرض ، والحق سبحانه شبَّه حركة الجبال بحركة السحاب ، والسحاب حركته غير ذاتية ، إنما هى تابعة لحركة الرياح .

ثم يذكر الحق سبحانه علة أخرى لخَلْق الجبال : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان] وسبق أنْ أوضحنا أن الجبال تمثل مخازن للقوت الذى به قوام الحياة للإنسان وللحيوان والذى ينشأ من الزرع ، وبيَّنا أن الطبقةَ الخارجية للجبال تتفتتْ بعوامل التعرية ، ثم يحملها ماء المطر إلى الوديان فتزيد من خصوبة الأرض بمقدار كل عام ، ومن الجبال أيضاً يتكون الماء فى الأنهار أو فى مسارب الأرض فنخرجه حين الحاجة إليه .

ومن حكمته تعالى أنْ جعل الجبال راسية ثابتة ، وجعلها صلدة وإلا لو كانت هشّة لأذابتها الأمطار وفتتها فى عدة سنوات ، ثم حرمت الأرض من الخصوبة التى تستمدها من الجبال ؛ لذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر] فمع زيادة السكان تزداد المساحة الخِصْبة التى يُكوِّنها الغِرْين الذى يتفتت من الجبال عاماً بعد عام .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت]

فالجبال جعلها الله راسية حتى لا تضطرب بنا الأرض ، وجعلها صلبة لأنها مخزن الخِصْب الذى يُمِدُّنا بالزرع الذى به قِوَام حياتنا .

ومن رحمة الله بالإنسان أنْ جعل فيه ذاتية استبقاء الحياة ، فإن مُنِع عنه الطعام أو الشراب تغذَّى من المخزون فى جسمه ، فيأخذ

أولاً من الدهن ، ثم من اللحم ، ثم من العظم ؛ لذلك قلنا : إن العظم هو آخر مخازن القوت في جسم الإنسان ، وفي ضوء ذلك نفهم قول سيدنا زكريا : ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ④﴾ [مريم]

يعني : قد بلغتُ آخر مرحلة من مراحل استبقاء الحياة .

فكان من رحمة الله بالخَلْق أنْ جعل حتى شَرَه الإنسان للطعام والشراب رحمة به ، حيث يتحول الزائد عن طاقته وحاجته إلى مخزون في جسمه ، فإذا انقطعتْ به السُّبُل أو تعذَّر عليه الطعام والشراب استمد مما في جسمه .

كذلك من رحمة الله بالإنسان أنْ جعله يصبر على الطعام إلى شهر ، ويصبر على الماء من ثلاثة أيام إلى عشرة بحسب ما في جسمه من مخزون الطعام والشراب ، أما الهواء فلا يصبر عليه إلا بمقدار شهيق وزفير ؛ لذلك تتجلى رحمته تعالى وحكمته في خَلْقه بألاَّ يُملِّك الهواء لأحد ، فلو ملَكه عدوك لمتّ قبل أن يرضى عنك .

وقوله : ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ⑩﴾ [لقمان] بث أي : نشر ، والدابة : كل ما له دبيب على الأرض ، والدبيب بحسب ما يدبّ على الأرض ، وكل ما يمشي على الأرض له دبيب نسمعه في الحيوان الضخم مثلاً ، لكن لا نسمعه في النملة مثلاً ، فهي أيضاً لها دبيب بدليل قولنا : فلان يسمع دبّة النملة ، إذن : لها دبيب على الأرض ، لكن أذن مَنْ التي تستطيع أنْ تسمعه ؟

وقوله تعالى : ﴿مِن كُلِّ دَابَّةٍ ⑩﴾ [لقمان] كل تعني سوراً كلياً يضم كل ما له حركة ودبيب على الأرض ، يعني : كل ما يقال له دابة بداية من النملة أو الفيروسات الآن إلى أكبر حيوان على الأرض . وقوله (من) تتدرج من الصغير إلى الكبير فتدلُّ على الشمول .

ومن هذه الدواب ما أحله الله ومنها ما حرمه ؛ لذلك يقول البعض : ما دام الله حرَّم هذه الحيوانات ، فما الضرورة فى خَلْقها ؟ وهل كل شىء مخلوق يُؤكل ؟

لا ، ليس كل مخلوق من الحيوانات يؤكل ؛ لأن له مهمة أخرى يؤديها .

ولو تأملت ما حُرِّم عليك لوجدته يخدمك فى ناحية أخرى ، فمنه ما يمد الحيوانات التى تأكلها ، ومنه ما فيه خاصية تحتاج إليها فى غير الأكل ، فالثعبان مثلاً لا نرى فيه إلا أنه مخلوق ضار ، لكن ألم نحتَجْ إلى سُمِّه الآن ، ونجعله مَصْلاً نافعاً ؟ ألسنا ننتفع بجلوده ؟ الخ ، فإذا كنا لا نأكله فنحن نستفيد من وجوده فى نواحٍ أخرى .

كذلك الخنزير مثلاً ، البعض يقول : ما دام الله تعالى حرمه ، فلماذا خلقه ؟ سبحان الله ، هل خلق الله كل شىء لتأكله أنت ؟ ليس بالضرورة أنْ تأكل كل شىء ، لأن الله جعل لك طعامك الذى يناسبك ، أتأكل مثلاً البترول ؟ كيف ونحن نرى حتى السيارات والقطارات والطائرات لكل منها وقوده المناسب له ، فالسيارة التى تعمل بالبنزين مثلاً لا تعمل بالسولار .. الخ ، فربك أعطاك قُوتَك كما أعطى لغيرك من المخلوقات أقواتها .

لذلك ؛ إذا نظرت فى غابة لم تمتد إليها يد الإنسان تجد فيها جميع الحيوانات والطيور والدواب والحشرات .. الخ دون أنْ تجد فيها رائحة كريهة أو منظراً مُنفِّراً ، لماذا ؟

لأن الحيوانات يحدث بينها وبين بعضها توازن بيئى ، فالضعيف منها والمريض طعام للقوى ، والخارج من حيوان طعام لحيوان آخر.. وهكذا ، فهى محكومة بالغريزة لا بالعقل والاختيار .

وكل شىء لا دَخْلَ للإنسان فيه يسير على أدقِّ نظام فلا تجد فيه فساداً أبداً إلا إذا طالتْه يد البشر ، ولك أنْ تذهب إلى إحدى الحدائق أو المتنزهات فى شم النسيم مثلاً لترى ما تتركه يد الإنسان فى الطبيعة .

لكن ، لماذا وُصف الإنسان بهذا الوصف ؟ ولماذا قُرِن وجوده بالفساد ؟ نقول : لأنه يتناول الأشياء بغير قانون خالقها ، ولو تناول الأشياء بقانون الخالق عز وجل ما أحدث فى الطبيعة هذا الفساد .

وسبق أنْ بيَّنا أن الإنسان لا قدرةَ له على شىء من مخلوقات الله إلا إذا ذلَّلها الله له ويسَّرها لخدمته ، بدليل أن الولد الصغير يركب الفيل ويسحب الجمل ويُنيخه ويحمله الأثقال فى حين لا قدرةَ لأحدنا على ثعبان صغير ، أو حتى برغوث ، لماذا ؟ لأن الله تعالى ذلَّلَ لنا هذا ، ولم يُذلِّل لنا هذا .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ⑩﴾ [لقمان] من السماء : أى من جهة العلو ومن ناحية السماء ، وإلا فالمطر لا ينزل من السماء ، إنما من الغمام ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا.. ⑩﴾ [لقمان] أى : فى الأرض ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ⑩﴾ [لقمان] زوج أى : نوع من النبات ، فهى كلمة تدل على مفرد ، لكن معه مثله ، والبعض يظن أنها تعنى اثنين وهذا خطأ ؛ لذلك نقول عن الرجل زوج ، وعن المرأة زوج رغم أنه مفرد ، لكن قُرِن بغيره .

وقال تعالى عن التكاثر : ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. ㊾﴾ [الذاريات] فَسمَّى الذكر (زوج) وسمَّى الأنثى (زوج) .

ومثلها كلمة (توأم) فهى تدل على مفرد ، لكن مفرد لم يُولَد

وحده إنما معه غيـره ، والبعض يقول (توأم) ويقصد الاثنين ، إنما الصواب أن نقول هما توأمان .

ووصف الحق سـبحـانه الزوج أى النوع من النبـات بأنه ﴿ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان] لأنه يعطيك بكرم وسخاء ، فالحبة تعطيك سبعمائة حبة ، وهذا عطاء المخلوق لله ، فما بالك بعطاء الخالق عز وجل ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾

والكلام هنا مُـوجَّه للمكابـرين وللمعـاندين الجاحـدين لآيات الله : ﴿ هَـٰذَا .. ﴿١١﴾ ﴾ [لقمان] أى : ما سبق ذِكْره لكم من خَلْق السماوات بغير عـمد ، ومن خَلْق الجبال الرواسى والدواب وإنزال الـمطر وإحياء النبات .. الخ .

هذا كله ﴿ خَلْقُ اللَّهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [لقمان] فلم يدَّعِه أحد لنفسه ، وليس لله فيه شريك ﴿ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [لقمان] أى : الذين اتخذتموهم شركاء مع الله ، ماذا خلقوا ؟

وليس لهذا السؤال إجابة عندهم ، حيث لا واقع له يستدلون به ، ولا حـتـى بالمكابرة ؛ لأن الـحق أبلج[1] والبـاطـل لجلج[2] ، لذلك لم

---

(١) أبلج الحق : ظهر ، ويقال : هذا أمـر أبلج أى واضح . والبلوج : الإشراق وصبح أبلج بيِّن البلج أى مشرق مضىء . وكذلك الحق إذا اتضح . [لسان العرب ـ مادة : بلج] .

(٢) اللجلج : المختلط الذى ليس بمستقيم . [لسان العرب ـ مادة لجج] .

نسمع لهم صوتاً ولم يجرؤ واحد منهم مثلاً على أن يقول آلهتنا خلقت الجبال مثلاً أو الشمس أو القمر ، فلم يستطيعوا الردّ رغم كفرهم وعنادهم .

والحق سبحانه فى الرد عليهم يبين لهم أن المسألة لا تقف عند عدم قدرتهم على الخَلْق ، إنما لا يعرفون كيف خُلِقُوا هم أنفسهم : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

وفى قول الله ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف] دليل على صدْق القرآن ومظهر من مظاهر إعجازه ، فقد أخبرنا الحق سبحانه أنه سيُوجد مُضلون يضلون الناس فى مسألة الخَلْق ، ويصرفونهم عن الحق بكلام باطل .

وفعلاً صدق الله وسمعنا من هؤلاء المضلين مَنْ يقول : إن الأرض قطعة من الشمس انفصلتْ عنها ، وسمعنا مَنْ يقول إن الإنسان فى أصله قرد .. الخ ، ولولا هذه الأقاويل وغيرها ما صدقت هذه الآية ، ولجاء أعداء الإسلام يقولون لنا : أين المضلون الذين أخبر عنهم القرآن ؟

فكأن كل كلام يناقض ﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [لقمان] هو كلام مُضل ، وكأن هؤلاء المضلين - فى غفلة منهم ودون قصد - يؤيدون كلامَ الله ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

ونجد هذه المسألة أيضاً فى سنة رسول الله ﷺ ، حيث يطلع

علينا من حين لآخر مَنْ ينكر سنة رسول الله ويقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما كان فيه من حلال حللناه ، وما كان فيه من حرام حرمناه .

وعندها نقول : سبحان الله ، كأن الله تعالى أقامكم دليلاً على صدْق رسوله ، فقد أخبر الرسول عنكم ، وعما تقولونه في حَقِّ سنته ، حيث قال : « يوشك رجل يتكيء على أريكته ، يُحدَّث بالحديث عنى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه »(١) .

ومعنى : ﴿هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ ..(١١)﴾ [لقمان] أى : مخلوقاته ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. (١١)﴾ [لقمان] ولن نطلب منك خَلْقاً كخَلْق السماء والأرض والجبال ، ولا إنزال المطر وإحياء الأرض بالنبات ، بل اخلقوا أقلّ شيء في الموجودات التى تروْنها ، وليس هناك أقل من الذباب : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] بل وأبلغ من ذلك ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج]

ثم يختم الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١١)﴾ [لقمان] أى : ضلال محيط بهم من كل اتجاه ، والضلال المبين المحيط لا تُرْجى معه هداية ، فلن يهتدى هؤلاء ، وما عليك إلا أنْ تصبر على دعوتك يا محمد حتى يُبدلك الله خيراً من هؤلاء ، ويكونون لك جنوداً يؤمنون بك ، وينصرون دعوتك . وقد كان .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) والترمذى فى سننه (٢٦٦٤) وابن ماجة (١٢) والدارقطنى (٢٨٦/٤) فى سننهم . من حديث المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ[1] ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾

الحق سبحانه آتانا قبل أنْ يخلقنا ، وآتانا بعد أن خلقنا بالمنهج ثم وَالَى إلينا بمواكب الرسالات التى تحمل إلى كل بيئة المنهج الذى يناسبها ، وقبل أن يخرج آدم عليه السلام لتحمُّل عبء هذه الخلافة أعطى الله له تجربة ، هذه التجربة مفادها أن يحافظ على منهج ربه فى (افعل) و (لا تفعل) وأن يحذر كيد الشيطان .

وقد مرَّ آدم بهذه التجربة البيانية قبل أن يجتبيه الله للنبوة وكثيرون يظنون أن عصيان آدم جاء بعد أنْ كُلِّف بالنبوة فيقولون : كيف يعصى آدم ربه ، وهو نبى والنبى معصوم ؟

ونقول : نعم ، عصى آدم ربه ، لكن قبل النبوة ، وهو ما يزال بشراً عادياً ؛ لذلك قال سبحانه فى حقه : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه]

(١) كان لقمان عليه السلام عبداً حبشياً نجاراً . قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه الإمام أحمد فى الزهد وابن أبى شيبة وغيرهما . وقال سعيد بن المسيب : إن لقمان عليه السلام كان أسود من سودان مصر ، ذا مشافر ، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة . أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم . أورد السيوطى هذه الآثار فى الدر المنثور (٦/٥٠٩، ٥١٠) . وقال القرطبى : هو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارح . قال وهب ابن منبه : كان ابن أخت أيوب . وقال مقاتل : ذكر أنه كان ابن خالة أيوب . انظر تفسير القرطبى (٧/٥٣١٦) .

إذن : جاء الاجتباء بعد المعصية ، فإنْ قلتَ : فما الداعى للعصيان يصدر من آدم ، وهو يُعد للنبوة ؟ قالوا : لأنه أبو البشر ، والبشر قسمان : بشر معصومون ، وهم الأنبياء ، وبشر ليست لهم عصمة وهم عامة الناس غير الأنبياء ، ولا بُدَّ لآدم أنْ يمثل النوعين لأنه أبو الجميع ، فمثَّل البشر عامة حين وقع فى المعصية ، ومثَّل الأنبياء حين اجتباه ربه وتاب عليه ، فجمع بذلك بين الملحظين .

هنا يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا.. (١٢) ﴾ [لقمان] والإيتاء يُطلَق على الوحى مع الفارق بينهما ، فإنْ أطلق الوحى فإنه ينصرف إلى الوحى للرسول بمنهج من الله ، ويُعرَف الوحى عامة بأنه إعلام بخفاء.

ومن ذلك قوله تعالى فى الوحى للملائكة : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٢) ﴾ [الأنفال]

ويُوحِى للبشر ، قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. (٧) ﴾ [القصص]

ويوحى للحيوان ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا.. (٦٨) ﴾ [النحل]

ومن ذلك أيضاً يوحى الشياطين بعضهم إلى بعض من شياطين الإنس أو الجن : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١) ﴾ [الأنعام]

كذلك يوحى الله إلى أهل الخير من أتباع الرسل : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي .. (١١١) ﴾ [المائدة]

هذا فى المعنى اللغوى للوحى وهو : إعلام بخفاء ، فإنْ قصدت الوحى الشرعى الاصطلاحى : فهو إعلام من الله لرسوله بمنهجه .

وهذا التعريف يُخرج كل الأنواع السابقة .

والحق سبحانه عبَّر عن الإيتاء العام بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الشورى]

والإيتاء يُقصد به الإلهام ، ويكون حين تتوفر للإنسان آلة استقبال سليمة صالحة لاستقبال الإلهام والخاطر من الحق سبحانه وتعالى ، وآلة الاستقبال لا تصلح للاستقبال عن الله تعالى إلا إذا كانت على مواصفات الخالق سبحانه صانعها ومبدعها ، كما يلتقط (الراديو أو التليفزيون) الإرسال ، فإن انقطع عنك الإرسال فاعلم أن جهاز استقبالك به عطب ، أما الإرسال فموجود لا ينقطع ، ولله تعالى المثل الأعلى .

وله سبحانه إرسال دائم إلى عباده ، لا يلتقطه إلا مَنْ صفَتْ آلة استقباله ، وصلحت للتلقي عن الله ، وهذه الآلة لا تصلح إلا إذا كانت على المنهج في افعل ولا تفعل ، لا تصلح إذا تكونت من الحرام وتغذَّتْ به ؛ لأن الحرام يفسد كيماوية الفطرة التي خلقها الله في عباده يوم أن أخذ عليهم العهد :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

فهذه الذرية لو ظلتْ على حالها من الصفاء يوم كانت في ظهر آدم ويوم أخذ الله عليها العهد ، ولو التزمتْ منهج ربها في (افعل) و (لا تفعل) لكانت أهلاً لإلهام الله ؛ لأن آلة استقبالها عن الله سليمة .

وتأمل في وحي الله إلى أم موسى : ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ

﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي .. ⑦﴾ [القصص]

فأىُّ آلة استقبال هذه التى استقبلتْ هذا الأمر ونفذته دون أنْ تناقشه ، واطمأنتْ إليه قبل أنْ تفكر فيه ؟ وكيف تقتنع الأم أن الموت المحقق يُنجى وليدها من موت مظنون ؟

لذلك نقول : إذا صادف الإلهام آلة استقبال سليمة فإنه لا يوجد فى النفس ما يصادره ، ولا ما يبحث عن دليل ، فقامت أم موسى ونفذت الأمر كما أُلقى إليها ، هذا هو الإيتاء ..

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ⑥⑤﴾ [الكهف] والعبد الصالح[1] لم يكن نبياً ، ومع ذلك آتاه الله بدون واسطة ، فكان هو مُعلِّماً للنبى ، وما ذلك إلا لأنه عبد لله على منهج موسى ، وأخلص لله تعالى فآتاه الله من عنده .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. ②⑨﴾ [الأنفال] وقال سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ①⑦﴾ [محمد]

إذن : كلُّ ما علينا لنأخذ إلهامات الحق سبحانه أنْ نحتفظ بصفاء

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٩٢) : « هذا هو الخضر عليه السلام كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ » . وأخرج البخارى (٣٤٠٢) وأحمد والترمذى (٣١٥١) وابن أبى حاتم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إنما سُمِّى الخضر ، لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هى تهتز من خلفه خضراء » . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٤٢٠) قال ابن حجر فى فتح البارى (٦/٤٣٤) : « قال الطبرى فى تاريخه : كان الخضر فى أيام أفريدون فى قول عامة علماء الكتاب الأول ، وكان على مقدمة ذى القرنين الأكبر » . وأخرج النقاش أخباراً كثيرة تدل على بقائه لا تقوم بشىء منها حجة ، قاله ابن عطية » .

البنية التى خلقها الله لتظل بمواصفات خالقها ، ثم نسير بها على منهجه تعالى فى افعل ولا تفعل ، وكان سيدنا لقمان من هذا النوع الصافى الطاهر النقى ، الذى لم يخالط جسمه حرام ، والذى لا يغفل عن منهج ربه ؛ لذلك آتاه الله الحكمة ، وقال فيه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ .. ⑫ ﴾ [لقمان]

وقد اختلف العلماء فيه : أهو نبى أم غير نبى ، والغالب أنه غير نبى[1] ؛ لأن القائلين بنبوته ليس لهم سند صحيح ، والجمهور اجتمعوا على أنه رجل صالح مرهف الحس ، دقيق الإدراك ، والحسّ كما قلنا هو الأصل الأول فى المعلومات ، وكان لقمان لا يمر على الأشياء إلا بهذا الحسِّ المرهف والإدراك الدقيق العميق ، فتتكون لديه مُدْركات ومواجيد دقيقة تختمر فى نفسه ، فتتجمع لديه مجموعة من الفضائل والقيم التى تسوس حركة حياته ، فيسعد بها فى نفسه ، بل ويسعد غيره من حوله بما يملك من المنطق المناسب والتعبير الحسن ، كذلك كان لقمان[2] .

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة رضى الله عنه قال : خيَّر الله تعالى لقمان بين الحكمة والنبوة ، فاختار الحكمة على النبوة ، فأتاه جبريل عليه السلام وهو نائم ، فذرّ عليه الحكمة ، فأصبح ينطق بها فقيل له : كيف اخترت الحكمة على النبوة ، وقد خيَّرك ربك ؟ فقال : لو أنه أرسل إلىّ بالنبوة عزمة لرجوت فيها العون منه ، ولكنت أرجو أن أقوم بها ، ولكنه خيَّرنى ، فخفت أن أضعف عن النبوة ، فكانت الحكمة أحب إلىَّ . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٥١١) والقرطبى فى تفسيره (٧/٥٢١٧) .

(٢) عن أبى الدرداء أنه ذكر لقمان الحكيم فقال : ما أوتى ما أوتى عن أهل ، ولا مال ، ولا حسب ولا خصال ، ولكنه كان رجلاً صمصامة (الشديد الصلب المجتمع الخَلْق) سكِّيتاً ، طويل التفكر عميق النظر ، لم ينم نهاراً قط ، ولم يره أحد يبزق ولا يتنحنح ولا يبول ولا يتغوط ولا يغتسل ولا يعبث ولا يضحك ، كان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها . [عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٦/٥١٢) لابن أبى حاتم] .

وللعلماء أبحاث حول شخصية لقمان وجنسيته ، فمنهم مَنْ ذهب إلى أنه كان أسود اللون غليظ الشفتين كأهل جنوب إفريقيا ، لكنه مع ذلك كان أبيض القلب نقى السريرة ، تخرج من بين شفتيه الغليظتين الحِكَم الرقيقة والمعانى الدقيقة[١] .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم »[٢] .

لذلك حين ترى مَنْ هو أقل منك فى مال ، أو صحة ، أو جاه ، أو منظر فلا تغتر بذلك ، وانظر وتأمل ما تميَّز به عليك ؛ لأن الخالق سبحانه - كما قلنا - وزَّع فضله بين عباده بالتساوى ، بحيث يكون مجموع كل إنسان يساوى مجموع الآخر ، ولا تفاضلَ بين المجموعات إلا بالتقوى : « لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح »[٣] .

فالذين يحلو لهم أنْ يقسموا المهن مثلاً إلى مهن شريفة وأخرى حقيرة نقول : ليست هناك مهنة حقيرة ما دام المجتمع فى حاجة إليها ولا تستقيم حركة الحياة إلا بها ، فكيف تحقرها ؟ وكيف تحقر أهلها ؟

---

(١) مما يُروى من أخبار لقمان الحكيم أنه قال لرجل ينظر إليه : إن كنت ترانى غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق ، وإن كنت ترانى أسود فقلبى أبيض . [تفسير القرطبى ٥٣١٧/٧] .

(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٢٥٦٤) ، وأحمد فى مسنده (٢٨٥/٢ ، ٥٣٩) وابن ماجة فى سننه (٤١٤٣) واللفظ لمسلم .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤١١/٥) ، عن أبى نضرة عن رجل من أصحاب النبى ﷺ ، وأخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١٠٠/٣) عن أبى نضرة عن جابر بن عبد الله قال : خطبنا رسول الله ﷺ فى وسط أيام التشريق ، فقال : « يأيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى » .

والله لو قعد الوزراء فى بيوتهم أسبوعاً ما حدث شىء ، لكن لو تعطل عمال النظافة مثلاً أو الصرف الصحى ليوم واحد لحدثتْ مشكلة ، ولأصبحت الدنيا (خرارة) .

وكيف نحقر هذه المهن ونحقر أصحابها ، وهم يرضوْنَ باليسير ، ويتحملون ما لا يطيقه غيرهم ؟ كيف نحقرهم ، والله تعالى يقول :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ .. (١١) ﴾ [الحجرات]

فإن قلت : ما دام ليس نبياً ، فكيف يؤتيه الله ؟ نقول : بالمدد والإلهام الذى قال الله فيه : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا (٢٩) ﴾ [الأنفال] فمَنْ يحافظ على مواصفات التكوين بمنطق الله يأخذ من الله مباشرة .

كما لو طلب منك ولدك مبلغاً من المال يتاجر به فى السوق ، فتعطيه مبلغاً يسيراً تُجرِّبه به ، فإنْ أفلح وربحت تجارته يطمئن قلبك فتزيده أضعاف ما أخذ فى المرة الأولى ، كذلك الإنسان إن أحسن صحبته لربه داوم الله عليه فضله ووالى إليه فيضه .

لذلك يقول سيدنا عمر بن عبد العزيز[1] : ما قصر بنا فى علم ما نجهل إلا عدم عملنا بما علمنا - يعنى : لو كنا أهلاً للزيادة لزادنا ، لو كنا مأمونين على ما علمنا فوظّفناه فى حركة حياتنا لجاءتنا فيوضات إشراقية وعطاءات من ربنا ممتدة لا تنتهى ، أما إنْ أخذنا

(١) هو : عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموى ، أبو حفص ، ولد بالمدينة (٦١هـ) ونشأ بها ، وولى إمارتها للوليد ، ثم استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام ، وولى الخلافة بعهد من سليمان سنة ٩٩ هـ ، فبويع فى مسجد دمشق ، ومنع سبَّ على بن أبى طالب وكان مَنْ سبقه من الأمويين يسبونه على المنابر ، توفى وهو فى الأربعين من عمره عام (١٠١هـ) ، مدة خلافته سنتان ونصف .

العلم فألقيناه جانباً ولم نعمل به ، فما الداعي للزيادة ، وأنت لم تستفدْ بما عندك ؟

وكما تكلم العلماء في شخصية لقمان وجنسيته تكلموا في حكمته ، فسأله أحدهم وقد تبسَّط معه في الحديث : ألم تكُنْ عبداً تخدم فلاناً ؟ قال : بلى ، قال : فَبِمَ أوتيتَ الحكمة ؟ قال : باحترامي قدر ربي ، وأدائي الأمانة فيما وليت من عَمل ، وصدق الحديث ، وعدم تعرُّضي لما لا يعنيني[1] .

وهذه الصفات كافية لأنْ تكون منهجاً لكل مؤمن ، ولأنْ ينطق صاحبها بالحكمة ، والله لو كانت فيه صفة الصدق في الحديث لكانت كافية .

لذلك وصل لقمان إلى هذه المرتبة وهو العبد الأسود ، فآتاه الله الحكمة مباشرة ، وهو ليس نبياً ولا رسولاً ، وسُمِّيت إحدى سور القرآن باسمه ، وهذا يدلك على أن الإنسان إذا اعتدل مع الله وأخلص في طاعته فإن الله يعطيه من فيضه الواسع ، فيكون له ذكْر في مصافِّ الرسل والأنبياء .

ويُرْوَى من حكمة لقمان أن سيده أمره أن يذبح له شاة ثم يأتيه بأطيب مُضْغتين فيها ، فذبح الشاة وجاءه بالقلب واللسان ، وفي اليوم التالي قال له : اذبح لي شاة وأتني بأخبث مُضْغتين فيها ، فجاءه أيضاً بالقلب واللسان فسأله : ألم تَأْت بهما بالأمس على أنهما

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « كتاب الصمت » (حديث رقم ٦٧٥) ط . دار الاعتصام ١٩٨٦ م وابن جرير عن عمرو بن قيس قال : مرَّ رجل بلقمان عليه السلام والناس عنده ، فقال : ألست عبد بني فلان ؟ قال : بلى . قال : ألست الذي كنت ترعى عند جبل كذا وكذا ؟ قال : بلى . قال : فما الذي بلغ بك ما أرى ؟ قال : تقوى الله ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وطول السكوت عما لا يعنيني . وأورده السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٥١٢/٦) .

أطيب مضغتين فى الشاة ؟ قال : بلى فليس شىء أطيب منهما إذا طَابَا ، ولا شىء أخبث منهما إذا خَبُثَا[1] .

وبعد لقمان جاء سيدنا رسول الله ﷺ يُعلِّمنا هذا الدرس فيقول : « ... ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلُحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[2] .

ويقول ﷺ فى حديث آخر : « من حفظ ما بين لحييه[3] وما بين رِجْلَيه دخل الجنة »[4] .

ويُروى أن لقمان كان يفتى الناس ، وكانوا يثقون بكلامه ، وكان ذلك قبل داود عليه السلام ، فلما جاء داود كفَّ لقمان عن الفُتْيا ، فلما سألوه : لماذا امتنعتَ عن الفُتْيا ؟ فقال ـ وهذه أيضاً من حكمته : ألاَ أكتفى إذا كُفيت ؟

يعنى : لماذا أتمسَّك بها وقد بعث الله لى مَنْ حملها عنى ، وهو يعلم تماماً أنه مجرد عبد صالح (أى : أنه أخذ الحكمة من منازلهم

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة وأحمد وابن جرير عن خالد الربعى ، فيما ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٥١٦) .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه ، وتمام الحديث : « إن الحلال بيِّن ، وإن الحرام بيِّن ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حِمىً ، ألا وإن حمى الله محارمه » الحديث .

(٣) اللحيان : حائطا الفم ، وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم من كل ذى لَحْى [لسان العرب ـ مادة لحا] .

(٤) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٣/٢٥٢) من حديث سهل بن سعد بهذا اللفظ ، وأصله فى البخارى (٦٤٧٤) عن سهل بلفظ « من يضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة » .

كما يقال) ، أما داود فرسول من عند الله ، ومن الحكمة أنْ يُفسح له هذا المجال ، ويترك لـه ساحة الفُتْيا فى القوم لعله يـأتى بأفضل مما عند لقمان ؛ لذلك تركها له عن رضاً وطيب خاطر .

والبعض يقول : إن الله خيَّره بين أن يكون نبياً أو حكيماً ، فقال : أما وقد خيَّرتنى يا رب ، فأنـا أختار الراحة ، وأترك الابتلاء ، أما إنْ أردتها يا رب عـزمة فأنا سـأقبلها سـمعاً وطـاعة ؛ لأنى أعلم أنك لن تخذلنى[(١)] .

والحق سبحانه يُنطق لقمان بأشياء من الحكمة يسبق بها النبوة ؛ ليـبـين لنا أن الإنسـانَ من الممـكن أن يكون ربانيـاً ، كمـا جـاء فى الحـديث القـدسى : « عبـدى ، أطعنى تكُنْ ربانيـاً ، تقـول للشىء كُنْ فيكون »[(٢)] .

ذلك لأن فـضـل الله ليس له حـدود ، ولـيس عليـه حـرج ، وبابه تعالى مـفتـوح ، المهم أن تكون أهلاً لأنْ تلجَ هذا الـباب ، وأنْ تكون

---

(١) أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن أبى مسلم الخولانى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لقمان كـان عبداً كثير التفكر ، حسن الظن ، كـثير الصمت ، أحب الله فأحبـه الله تعالى ، فمَنَّ عليه بالحكمة ، نودى بالخلافة قبل داود ، فقـيل له : يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة تحكم بين الناس بالحق ؟ قال لقمان : إن أجبرنى ربى قبلت ، فإنى أعلم أنه إن فعل ذلك أعـاننى وعلمنى وعصمنى ، وإن خيّـرنى ربى قبلت العافـية ولم أسأل البلاء » أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٥١١) .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) نحو هذا عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال ﷺ : « إن الله قال : من عادى لى ولياً فقد آذنتـه بالحرب ، وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصـر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجْله التى يمشى بها » الحديث . قـال الطوفى (سليمان عبـد القوى الصرصرى ت ٧١٦ هـ) : اتفق العلمـاء ممن يعتد بقوله أن هذا مجاز وكناية عن نصرة العبـد وتأييده وإعانته ، حتى كأنه سبحانه ينزل نفسه من عبده منزلة الآلات التى يستعين بها » .

في معية ربك دائماً .

ومما يُرْوَى من حكمة لقمان أنه غاب في سَفْرة ، ثم عاد فلقيه تابعه ، فقال له : مَا حال أبي ؟ فقال : مات ، فقال لقمان : الآن ملكْتُ أمري ، ثم سأل : فما حال زوجتي ؟ فقال : ماتت ، فقال : جدّدتُ فراشي ، ثم سأل عن أخته ، فقال : ماتت ، فقال : ستَر الله عِرْضي ، ثم سأل عن أخيه ، فقال : مات ، فقال : انقصم ظهري[1] .

وهذا الكلام لا يصدر إلا عن حكمة ، فكثيراً ما يفرح الابن - خاصة العاق - بموت أبيه ؛ لأنه سيترك له المال يتمتع به ، أما لقمان فيقول عندما علم بموت أبيه : الآن ملكْتُ أمري ؛ لأنه في حياة أبيه كان له أمر ، لكن أمره ليس في يده إنما في يد أبيه ، فلما مات أبوه صار أمره بيده .

وهذه الحكمة توضح لنا قول النبي ﷺ : « أنت وما ملكت يداك لأبيك »[2] كأنه من العيب أن تقول في حياة أبيك : أنا أملك كذا وكذا . أما الآن فقد تجاوز الأبناء كل هذه القيم ، ونسمع الابن يقول لأبيه : اكتب لي كذا وكذا .

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائده عن عبد الله بن دينار : إن لقمان قدم من سفر فلقيه غلام في الطريق فقال : ما فعل أبي ؟ قال : مات . قال : الحمد لله ملكت أمري . قال : ما فعلت أمي ؟ قال : ماتت . قال : ذهب همي . قال : ما فعلت امرأتي ؟ قال : ماتت قال : جُدِّدَ فراشي . قال : ما فعلت أختي ؟ قال : ماتت . قال : سترت عورتي . قال : ما فعل أخي ؟ قال : مات . قال : انقطع ظهري . أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/٥١٩) .

(٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : أتى أعرابي رسول الله ﷺ فقال : إن أبي يريد أن يجتاح مالي . قال : « أنت ومالك لوالدك ، إن أطيب ما أكلتم من كسبكم ، وإن أموال أولادكم من كسبكم فكلوه هنيئاً » أخرجه أحمد في مسنده (٢/١٧٩، ٢١٤) ، وأبو داود في سننه (٣٥٣٠) .

أمـا قوله : « جـددت فـراشى » فهـى كلمة لهـا مـعنى كـبيـر : أنا لا أُدخل الجديدة على فراش الـقديمة حتى لا أجرح مـشاعرها ، أو أننى لا أتزوج إلا بعد وفاة زوجتى الأولى ؛ ذلك لأن الغيرة طبع فى النساء .

وكانت أم المؤمنين عائشة تغار حتى من ذكـر السيدة خديجة ، فقد دخلت فاطمة بنت محمد ﷺ على أبيها مُـغْضبة فقال ﷺ : « ما أغضبك يا أم أبيها » فقالت : والله إن عائشة قالت لى : إن رسـول الله تزوج أمك ثيِّباً ، ولم يتـزوج بكْراً غيرى ، فقال لهـا رسـول الله : « إذا أعادت عليك هذا القـول ـ وانظر هنا إلى أدب النبوة فى الردِّ وفى سـرعة الخـاطر ـ فقـولى لهـا : ولكن أمى تزوجتْ رسـول الله وهو بكر ، وتزوجـتيـه أنت وهو ثيِّب »[1] هذا كلام النبوة ، ومن بعدها لم تُعدْها عائشة مرة أخرى .

وقد يقـول قائل : وكيف تغـار عائشة ، وهـى أم المؤمنين وزوج رسـول الله ؟ قالوا : هذه الغيرة لها معنى ، فـقد عقد رسـول الله عليها وهى بنت السادسة ، ودخل بها وهى بنت التاسعة[2] ، وقد جاوز ﷺ الخمسين من عـمره ، ومع فارق السن بينهما رضيـتْ عائشة برسـول الله ؛ لأنها رأتْ فيه من مزايا نوره ما جـعلها تَغَار عليه رغم كِبَر سنّه وصغَر سنها . فلم تنظر إليـه على أنه رجل عجوز يكبرها ، بل رأَتْ

(١) لقـد كانت عـائشة تغـار من خديجـة رضى الله عنهمـا ، رغم أن رسـول الله ﷺ مـا تزوج عائشة إلا بعد وفاة خديجة ، ومن هذا ما أخرجـه مسلم فى صحيحه (٢٤٣٧) باب فضائل خديجة : أن عائشة قالت لرسول الله ﷺ : « ما تذكـر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين ، هلكت فى الدَّهر ، أبدلك الله خيراً منها » فتغـيـر وجهه ﷺ وزجر عائشة غاضباً : « والله ما أبدلنى الله خيـراً منها : آمنت بى حين كفر الناس ، وصـدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء » .

(٢) عن عـائشة رضى الله عنهـا قـالت : تزوجنى رسـول الله ﷺ وأنا بنت ست سنين ، ودخل علىّ وأنا بنت تـسع سنين ، ولقـد دخلت عليـه وإنى لألعـب بالبنات مع الجـوارى فـيـدخل فينقمعن منه صواحبى فيخرجن فيخرج رسول الله ﷺ فيسربهن علىّ . أخرجه ابن سعد فى كتاب الطبقات الكبير (٥٩/١٠) ـ ط مكتبة الخانجى ـ هيئة الكتاب .

فيه ما يفوق ويعلو على مجرد الشباب .

إذن : فمعنى : « جددت فراشى » أننى أراعى مشاعر الزوجة الجديدة ، فلا أُدخلها على فراش القديمة فأصدمها به ، وأُلهب مشاعر الغيرة عندها ، حتى من التى ماتت ، وأنا أريد أن تكون صافية التكوين لذاتى ، راضية عن كل تصرفاتى ، أريد أن أمنع كل شبهة تقلق كونها سكناً لى ، وأنا سكَن لها .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ .. ⑫ ﴾ [لقمان] فالذى آتى هو الله عز وجل ، والحكمة : مادة حكَم تدل على وَضْع الشىء فى موضعه ، ومنها الحاكم ؛ لأنه يضع الحق فى نصابه ، حتى فى الدواب نسمى الحديدة التى توضع فى فم الفرس لأتحكم فى حركته (حكَمه) ؛ لأن الهدف من ركوب الخيل مختلف ، فمرة أركبه للنزهة ، ومرة أركبه لأدرك به صَيْداً ، ومرة للكرِّ وللفرِّ فى المعركة ، فكُلٌّ هدف من هذه له حركة ، وينبغى أنْ أتحكم فى حصانى ليؤدى لى ما أريده منه .

إذن : فالحكمة تعنى فى معناها العام وَضْع الشىء فى موضعه ، وهى مجموعة من ملَكات الفضائل تصدر عنها الأشياء التى تضع كل أمر فى محله لكن بيُسْر وبلا مشقة ولا تعب ، كالشيخ الذى ظل يدرس فى الأزهر مثلاً عشرين أو ثلاثين سنة تذهب إليه ، وتستفتيه فى أمر من الأمور ، فيجيبك بيُسْر وسهولة ، وبدون تفكير أو إعداد ، لماذا ؟ لأن الفُتْيا أصبحت ملَكة عنده لا تحتاج منه إلى مجهود ولا مشقة .

ومن الحكمة أنْ يخلق الله لك أشياءً ، ويهديك لأنْ تستنبط منها أشياءً أخرى .

وساعة تسمع من الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ .. (١٢) ﴾ [لقمان] فاعلم أن هنا قَسَماً فالواو واو القسم ، والمقسَم عليه مُؤكَّد باللام ومُؤكَّد بقد التى تفيد التحقيق .

قوله سبحانه : ﴿ آتَيْنَا .. (١٢) ﴾ [لقمان] الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى إتيانه للأشياء يعنى تعدَّى ما قدره لمن قدره من خير ظاهر ومن خير مستور . وقبل أنْ يخلق الله الإنسان خلق له ، فجاء الإنسان الأول (آدم عليه السلام) وطرأ على كون فيه كل مُقوِّمات حياته من هواء وماء وأرض وسماء وطعام وشراب .. الخ .

وكل ذلك مُسخَّر له تسخيراً لا دَخْلَ للمنتفع به فيه ، وهذا أول الإيتاء ، بل قبل ذلك ، وفى الأزل قبل أن يخلق الإنسان خلق له مُقوِّمات مادته ومُقوِّمات قيمه وروحه ـ أى : أوجدها .

لأننا نعلم أن كل صانع قبل أن يُقدم على صَنْعة لا بُدَّ أن يُحدِّد الغاية ، ويضع الهدف منها أولاً ، لا أنْ يصنع الشىء ثم ينظر فيه : لأىٍّ شىء يصلح هذا الشىء ، كذلك لا بُدَّ أنْ يسبق الصنعةَ منهجُ صيانتها .

فالحق سبحانه قبل أنْ يخلق الإنسان وضع له مُقوِّماته المادية والمعنوية ، والمنهج الذى يُصلحه وحدَّد الهدف من وجوده ؛ لذلك يُنبِّهنا الحق سبحانه إلى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) ﴾ [الرحمن] فقبل أنْ يخلق اللهُ الإنسانَ وضع المنهج الذى به صيانته ، وهو القرآن الكريم .

إذن : فمعنى الإيتاء أنْ يعدى الله ما قدره من خير ظاهر أو خير مستور لمن قدره ، والخير يكون على نوعين : خير يقيم المادة ، وخير يقيم القيم الروحية ، المادة تقوم بالهواء وبالطعام وبالشراب .. الخ ، والقيم تقوم بالوحى وبالمنهج الذى حمله الرسل بافعل ولا تفعل.

والله تعالى آتى كثيراً من خلقه ، فلماذا خَصَّ لقمان بالذات ، فقال ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ .. (١٢) ﴾ [لقمان] ؟ قالوا : لأن الله تعالى حين يأمر الرسل بأمر ليُبلِّغوه يُعد الرسل لهذا الأمر ، وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يقول لنا : إن الفطرة السليمة تهتدى إلى الله ، وإلى المطلوب من الله بدون وحى ، وبدون إعداد .

ومن ذلك ما رُوى عن سيدنا عمر - رضى الله عنه - من أنه كان يُحدِّث سيدنا رسولَ الله بالأمر ، ويقترح عليه فيأتى الوحى موافقاً لرأيه ، فكيف يتسنى لعمر أن يقترح على رسول الله وفى وجوده ، وهو المشرع الثانى بعد القرآن ؟

نقول : لأن الله تعالى يريد أنْ يثبت لنا أن الفطرة السليمة إذا صَفَتْ لله تستطيع أنْ تهتدى إلى الأشياء ، وتصل إلى الحق قبل أنْ ينزل الوحى به .

إذن : فالإيتاء من الله لا يأتى عبثاً ، فالإيتاء الأول كان لآدم عليه السلام ، وآدم شاء الله أنْ يجعله خليفة له فى الأرض ، ولا يعنى هذا أنه أول المخلوقات فى الأرض ، والحق سبحانه لم يَقُلْ إننى أول ما خلقتُ خلقتُ آدم ، وبدليل قوله تعالى : ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) ﴾ [الحجر]

ومسألة الخلْق هذه هيِّنة على الله ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) ﴾ [إبراهيم] فالمسألة ليست نادرة حدثت مرة واحدة ، ولن تحدث بعد ذلك .

وللعلماء كلام طويل فى عوالم أخرى غير عالمنا كعالم الحن(١) ،

---

(١) قال ابن سيده : الحن نوع آخر غير الجن . ويقال : الحن خَلْق بين الجن والإنس . وقال الفراء : الحِنّ كلاب الجن . [لسان العرب - مادة : حنن] .

وعالم البنّ ، وعالم الجن وغيرها مما لا يعلمه إلا الله ، لكن إنْ حدَّثك المضللون الذين يريدون أنْ يستدركوا على الدين ويقولون : إن الحفريات أثبتت وجود مخلوقات قبل آدم ، فكيف تقولون : إن آدم أول مخلوق ؟

ونقول لهؤلاء : لم يقُلْ أحد : إن آدم أول مخلوق على الأرض ، إنما هو أول هذا الجنس البشرى الذى نسميه « إنسان » لكن سبقته أجناس أخرى ، وشاء الله أنْ يجعل آدم خليفة فى الأرض ، ثم أخبر الملائكة ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً** .. (٣٠) ﴾ [البقرة]

والله حين يخبر الملائكة هذا الخبر لا يستشيرهم ، إنما ليبين لهم أمراً واقعاً ، وخصَّ الملائكة بهذا الإخبار ؛ لأنه سيكون لهم دور مع هذا الخليفة الجديد . إذن : فالذين قال الله لهم : ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً** .. (٣٠) ﴾ [البقرة] ليسوا كل الملائكة ، إنما الذين لهم دور ومهمة مع هذا المخلوق ، أما باقى الملائكة فلا يدرون بآدم ، ولا يعرفون عنه شيئاً ، وليس فى بالهم إلا الله .

والقرآن الكريم يشير لنا إلى هذه المسألة إشارةً دقيقة فى قوله تعالى مخاطباً إبليس لما رفض السجود لآدم : ﴿ **أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ** (٧٥) ﴾ [ص] والعالون هم الملائكة الذين لم يشملهم الأمر بالسجود .

وقلنا : إن الله تعالى كرَّم آدم حين خلقه تعالى ، وباشر خَلْقه بيده سبحانه ، ولم يخلقه كباقى المخلوقات (بكُنْ) ؛ لذلك جاء فى حيثية النقد على إبليس : ﴿ **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** .. (٧٥) ﴾ [ص]

إذن : مباشرة الخَلْق باليد دليل على العناية بالمخلوق ؛ لأن اليد هى الآلة الفاعلة لأكثر الأشياء ، وحتى الآن نفخر بعمل اليد فنقول (هذا الشيء يدوىّ) يعنى : لم تصنعه آلة صماء ، إنما يد مفكر يتقن الصنعة .

وفى مسألة خَلْق آدم - عليه السلام - يحلو للبعض أن يقول : هو الذى أخرجنا من الجنة ، فهل قال الله تعالى قبل أن يصدر أول بيان عن آدم أننى خلقتُه للجنة ، ثم عصى آدم ربه وتسبب فى أنْ نخرج منها ؟

لم يقُلْ ذلك ، إنما قال : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠) ﴾ [البقرة] فهو - إذن - مخلوق للأرض ، وما الجنة التى دخلها إلا جنة التجربة لا جنة الخلد ، والبعض يظن أن كلمة الجنة إذا أُطلقَتْ تعنى جنة الآخرة ، وهذا خطأ بدليل قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) ﴾ [القلم]

وقوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ .. (٣٢) ﴾ [الكهف]

فالجنة فى اللغة هى المكان المليء بالأشجار الكثيفة التى تستر مَنْ يسير فيها ، كما تستره أيضاً عن البيئة الخارجية ؛ لأنها تكفيه بما فيها عن الاحتياج إلى غيرها ، فبها كل مُقوِّمات الحياة ، ومن ذلك الجنة التى دخلها آدم ؛ لأن الله تعالى أراد أنْ يصنع لآدم تدريباً على مهمة الخلافة ، ولم لا ونحن نُدرِّب كل صاحب مهمة على مهمته قبل أنْ يقوم بها ، حتى لاعب الكرة .

وحين نأخذ المتدرب لندربه على أداء مهمته لا بُدَّ أن نوفر له كل مُقوِّمات حياته ، ونتكفل له بكل ما يعينه على أداء مهمته ، فنقدم له

إقامة كاملة من طعام وشراب ومسكن .. إلخ وكذلك فعل الله تعالى لآدم فقال له ﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ [البقرة]

وحين نقارن بين ما أباحه الله لآدم وما حظره عليه نجد أنه تعالى أباح له كُلَّ ما في الجنة ولم يحرم عليه إلا هذه الشجرة التي أوضحها وبيَّنها له . كما نلحظ قوله تعالى : ﴿لا تَقْرَبَا.. (٣٥)﴾ [البقرة] ولم يقُلْ : لا تأكلا ؛ لأن القرب من الشيء قد يُغرِي بمزاولته ، فاحتطْ أنت لنفسك بعدم القرب منه .

وهذا التدريب لآدم فيه إشارة رمزية لكل تكليف من الله لخَلْقه في (افعل) و (لا تفعل) .

ثم يذكِّر الحق سبحانه آدم بالمقدمة العدائية التي حدثتْ بينه وبين إبليس ، وينصحه بأنْ يحذر هذا العدو ؛ لأنه أبى أنْ يسجد له لما أمره الله بالسجود استكباراً وعُتواً .

والله حين يأمر بالسجود لآدم إنما يريد السجود للأمر والانصياع له ، لا السجود لآدم في ذاته ؛ لذلك نجد الأمر من الله تعالى يختلف باختلاف المأمورين ، فمرة ينهى عن شيء ويأمر بمثله ليرى مدى انضباطك للأمر وللنهي .

ففي الحج مثلاً ، يأمرك أنْ تُقبِّل حجراً ، وأنْ ترمي حجراً آخر وترجمه ، وهذا حجر وذاك حجر ، إذن : فالحجرية غير منظورة ، لكن المنظور فيه إلى الأمر أو النهي .

وبصرف النظر عن المصلحة أو الحكمة من الأمر أو النهي ، فمثلاً حينما يتعذر الماء يشرع التيمم بدلاً من الوضوء ، فيأتي مَنْ يقول :

الوضوء للنظافة ، فما النظافة فى التيمم ، وهو يُلوِّث الجسم ؟

ونقول : فَرْق بين النظافة والتطهير ، والمراد من التيمم التطهير بشىء هو أصل فى مادتك وتكوينك ، فالمسألة انضباط فى طاعة الأمر بأن تفعل شيئاً تجعله مقدمة لصلاتك ، كأنك لا تُقبل على الصلاة إلا بتهيئة ، وأيضاً لأن الصلاة بها قِوَام روحك وحياتك ، وحياتك فى الأصل ومادتك من الماء الذى تستخدمه فى الوضوء والتراب الذى تستخدمه فى التيمم .

إذن : لهاتين المادتين رمزية يجب أنْ تُلحظ فى الدخول على الله فى الصلاة ، ولا يليق بالمؤمن أنْ يُفلسف أمور العبادات ويبحث عن علّتها والحكمة أو المصلحة من أدائها ، إنما يكفى أن يقول : علَّة هذا الأمر أن الله أمر به أنْ يفعل ، وعلة هذا الحكم أن الله أمرَ به ألاَّ يُفعل .

لذلك ورد عن الإمام على رضى الله عنه أنه قال : لو كانت المسألة بالعقل لكان أسفل الخُفِّ أوْلَى بالمسح من أعلاه[1] ، إذن : المسألة طاعة والتزام للأمر وللنهى ؛ لذلك من غير المناسب أن نقول : إن من حكمة الصوم : أنْ يَشعر الغنى بألم الجوع ، فيعطف على الفقير ؛ لأننى سأقول لك إذن : لماذا يصوم الفقير ؟

ولتوضيح هذه المسألة ضربنا مثلاً ومـا زِلْنا نكرره . قلنا : إن أعز شىء على المرء صحته ، فإنْ أصابته علة ، فأول ما يُعمِل عقله

(١) عن على رضى الله عنه قال : « لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخفِّ أوْلَى بالمسح من أعلاه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه » أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٢) .

يبحث عن الطبيب المتخصص فى مرضه فيذهب إليه ، ثم يسلم له نفسه ليفحصه ، ثم يكتب له الدواء فيأخذه ويتناوله دون أنْ يسأل عن علَّته ، أو لماذا وصفه الطبيب ، لماذا ؟

لأن الطبيب مؤتمن بعد أنْ تعلَّم ودرس وتخصَّص ، فأنت لا تسأله ولا تناقشه : لماذا كتب لك هذا الدواء ، وهو مع ذلك إنسان وعُرْضة للخطأ وللسهو وللنسيان ، ومع ذلك لا يناقش . إذن : علة تناول الدواء أن الطبيب وصفه لى ، وعلة كل أمر عند الآمر به .

والآمر فى العبادات هو الحق - سبحانه وتعالى - فلا يليق بالمؤمن بعد أنْ آمن بالله وبحكمته وقدرته أنْ يبحث ليعلم الحكمة من كل أمر يأتيه من ربه عز وجل .

نعود إلى آدم - عليه السلام - وأن الجنة التى دخلها كانت للتدريب والتجربة ولم تكُنْ جنة الخلد ، تدرَّب فيها آدم على : كل (افعل) وعلى : لا تقرب (لا تفعل) واحذر الشيطان فإنه عدو لك ، وسوف يوسوس لك ، ويغويك ؛ لأنه لا يريد أنْ يكونَ عاصياً وحده ، يريد أنْ يجرَّك معه إلى حمأة المعصية .

وظل آدم وزوجته يأكلان كما قال تعالى من الجنة رغداً حيث شاءا ، دون أنْ يقربا هذه الشجرة التى بيَّنها الله لهما إلى أنْ وسوس لهما الشيطان وأغراهما بالأكل منها ، مع أن الله تعالى حذَّرهما ، وأعطاهما حقنة مناعة ضد الشيطان ووسوسته ، ومع ذلك حدثتْ من آدم الغفلة .

وهذه الغفلة الله يُنبِّه بها ذرية آدم من بعده : أن الشيطان لن يدعكم ، وسوف يدخل عليكم بألاعيبه وحيله ، كما دخل على أبيكم آدم ، فكونوا منه على حذر ، وابحثوا بعقولكم ما يلقيه إليكم من وساوس .

بالله ، ماذا قال إبليس لآدم حين أغواه بالأكل من الشجرة ؟ قال : ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ⟨٢٠⟩﴾ [الأعراف]

أليس من المنطق أن نقول : ولماذا لم تأكل أنت منها يا إبليس فتصير ملَكاً ، وتصير من الخالدين ، ولا تتمحك فتقول : ﴿فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ⟨٣٦⟩﴾ [الحجر] إذن : كان على آدم أنْ يتنبه إلى مكايد الشيطان وألاعيبه .

ثم يُنبِّهنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ من خلال هذه القصة إلى أن الشيطان سيأتينا فى مقام الطاعة ، فلو أن آدم وزوجه ذهبا إلى هذه الشجرة وأكلا منها ما وسوس لهما ، فهذا دليل على أنهما احتاطا للأمر ، فلم يقربا من الشجرة تنفيذاً لأمر الله ؛ لذلك تدخَّل الشيطان .

إذن : نقول إن الشيطان لا يتدخل إلاّ فى مجال الطاعة ، أما المعصية فصاحبها كفاه مؤنة الوسوسة ، الشيطان يذهب إلى المسجد لا يذهب إلى الخمارة ؛ لأن الذى يذهب إلى الخمارة صار شيطاناً فى ذاته ، فما حاجته لإبليس ؟

لذلك يقول تعالى حكاية عن إبليس : ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ⟨١٦⟩﴾ [الأعراف] أى : فى مواضع الخير وطرق الصلاح والهداية لأبطل أعمالهم ، وأفسد عليهم أمرهم ، ونحن نلحظ ذلك فى صلاتنا مثلاً ، فقد تنسى شيئاً ، وتحاول أن تتذكره فلا تستطيع ، وفجأة وأنت تصلى تتذكره .

فلو أننا أخذنا (الروشتة) من خالقنا عز وجل وبمجرد أنْ ينزغنا الشيطان نقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لتنبّه الشيطان ،

وعلم أننا لسنا فى غفلة ، وأننا نكشف ألاعيبه ، ونعرف حيله ، وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

وقد وصف الله الشيطان بأنه خنّاس ، يعنى : إذا ذُكر الله خنس وتضاءل ، فإنْ جاءك هذا الخاطر الشيطانى - حتى وإنْ كنتَ تقرأ القرآن - قُلْ بجرأة وقوة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ ليعلم أن ألاعيبه لا تخفى عليك فينصرف عنك ، أما أن تخضع له فإنه يعطيك فقط طرف الخيط ، ويفتح لك باباً يشغلك به ، ثم يتركك أنت (تكُرُّ) هذا الخيط من نفسك ، ويذهب هو (يستغفل) واحداً غيرك .

والشيطان رغم علْمه ، إلا أن فيه تغفيلاً بدليل أنه أعلن عن خطته ، وأظهر لنا مكايده قبل أنْ يكيدنا بها ، فقال : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] وقال ﴿ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧) ﴾ [الأعراف] ، فالذى يدبر المكايد ويتآمر على غيره لا يعلن عن مكايده مُقدماً ، ونحن أيضاً كان علينا أنْ نحذر هذه المكايد خاصة ، وقد أعلن عدونا عنها .

ولك أنْ تلحظ فى خطة إبليس أنه يأتيك من جهاتك الأربع ، ومعلوم أن الجهات ست ، فلماذا لم يذكر فوقنا وتحتنا ؟ قالوا : لأن هاتين الجهتين محلٌّ نظر إلى الله عز وجل ، فالعبد ينظر إلى عِزِّ الربوبية فى عليائه وذُلِّ العبودية إذا اتجه فى سجوده إلى أسفل .

إذن : فأنت فى معية ربك فى هاتين الجهتين ، والشيطان لا ينال منك إلا وأنت بعيد عن معية ربك . ومثَّلْنا لذلك ، ولله المثل الأعلى ؛ قلنا : إن الغلام إذا كان يسير فى يد أبيه وفى صحبته ، لا يجرؤ أحد من أمثاله على الاعتداء عليه ، إنما إنْ سار وحده فهو عُرْضة للإيذاء .

وهذا دليل على علـم إبليس وعلى ذكـائه ، ونلحظ هذا أيضـاً فى قوله : ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] كأنه يـقول لربه : أنا لا أقـترب من عبـادك الذين هم فى حضـانتك ، وفى معيتك .

والتغـفيل الأكـبر فى إبليس أنه مـع علمه بمـقام ربه يتمـرد على أمره ، حين يأمره بالسجود فلا يسجد .

إذن : نبَّه الله تعـالى آدم وحذره من كـيْد إبليس ، وكـان عليه أنْ يحذر وألاَّ تدخل عليه حيلة الأكل من الشجرة إلا أنه فى غفلة منه عن أمر ربه أكل من الشجرة ، فلما خالف الأمر اختلفتْ طبيعته ، وبدَتْ له ولزوجه السَّـوْءة ، وكانت المرة الأولى التى يشـعر فيهـا آدم بعورته عند خروج الغائط .

لكن ، ما الفرق بين فتحة دخول الطعام (الفم) وفتحة خروجه ؟ ولماذا أصبحت هذه عورة ، وهذه غير عورة ؟

قـالوا : لأن آدم حال طاعـته لأمـر ربه فى الأكل من ثمـار الجنة كان يأكل بطهى ربه ، وهو طهى بحكمة وبقدر معلوم ، يكفى مقومات الحياة ولا يزيد عنها ، لذلك لم يَبْق فى بطن آدم فضلات ، ولم توجد عنده غازات أو أرياح ، فلم يشعر فى هذه الحالة بحاجة إلى التغوط ، فكانت الفتحتان متساويتين ، هذه فتحة ، وهذه فتحة .

فلما خالف آدم أمر ربه وذاق الشـجرة اختلفتْ الأغذية فى بطنه ، وحدث لها تفاعلات ، ونتج عنهـا فضلات وأرياح ، ولما أحسَّ بها آدم نفر منها وأصابه الخجل ، وشعر أنهـا عورة ينبغى أنْ تُستر ، فالطبع السليم لا بُدَّ أنْ ينفـر منهـا ؛ لذلك أخذ يـزيل هذا الأذى عن نفسـه ،

ويستره بأوراق الشجر ، ومنذ ذلك الحين لم يستطع آدم أن يسدَّ هذه الفتحة ، ولن تُسَدَّ .

إذن : الحق سبحانه جعل الدُّرْبة لآدم فى الجنة هذه ، وهيَّأ له فيها طعامه ، ونهاه عن نوع بعينه[1] ، فأمره ونهاه وعلَّمه وحذَّره ، فلما وقع فى المخالفة وأغواه الشيطان ، ولم يعمل بنصيحة ربه أخرجه إلى الأرض بهذه التجربة ، لتكون رمزاً له ولذريته من بعده : إنْ سرْتَ على منهجى ووفْق أوامرى فى (افعل) و (لا تفعل) فلن تجد عورة فى الكون كله ، ونحن نرى ذلك فعلاً فى حركة حياتنا فى الكون ، فلا نرى عورة فى المجتمع ولا خللاً إلا إذا خُولفَتْ أوامر الله .

هذا هو الإتيان الأول ، بعد ذلك قدَّر الله غفلة البشر ، فأرسل إليهم الرسل بالمنهج ، فكان إتيان آخر ، كما قال تعالى : ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣)﴾ [النساء] وقال فى عيسى عليه السلام : ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ (٢٧)﴾ [الحديد]

(١) قال تعالى : ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)﴾ [البقرة] . قال ابن كثير فى تفسيره (١/٧٩) : « اختلف فى هذه الشجرة ما هى ؟

- الكرم (العنب) . قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهما .
- الحنطة . زعمته اليهود .
- التينة . قاله مجاهد وقتادة وابن جريج .
- السنبلة . قاله ابن عباس .
- النخلة . قاله أبو مالك .
- البر . قاله وهب بن منبه .

قال ابن كثير : فهذه أقوال ستة فى تفسير هذه الشجرة . قال الإمام العلامة أبو جعفر ابن جرير رحمه الله : والصواب فى ذلك أن يقال : إن الله عز وجل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين ؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة ، وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه وإن جهله جاهل لم يضره جهله به .

وهذا الإيتاء من الله يتم فى خفاء ؛ لذلك يُسمونه وحياً ، وهو من الغيبيات ، فالله تعالى لا يمدُّ يده فيعطى النبى أو الرسول شيئاً حسيّاً ، ومن هنا ارتبط الإيمان بالغيبيات دون المحسَّات ، فأنا لاَ أقول مثلاً : آمنتُ بأننى قاعد فى مسجد الشيخ سليمان وأمامى جَمْع من الإخوة .. الخ . إذن : لا بُدَّ أنْ يكون الإيمان بأمر غيبى .

الحق - سبحانه وتعالى - يُؤتِى على توالى العصور أنبياءه معجزات ، ويؤتيهم منهجاً يسوس حركة الحياة ، ولا يقتصر إيتاء الله على الرسل ، إنما يؤتى غير الرسل ، ويؤتى الحيوان .. الخ .

ثم يعطينا الحق سبحانه نموذجاً للحكمة التى آتاها لقمان : ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ .. (١٢)﴾ [لقمان] هذه هى الحكمة الأولى فى الوجود ؛ لأنك إنْ شكرتَ الله على ما قدَّم لك قبل أنْ توجد ، وعلى ما أعطاك قبل أن تسأل ، وعلى ما هدى جوارحك لتؤدى مهمتها حتى وأنت نائم ، كأنه تعالى يقول لعباده : ناموا أنتم فربكم لا تأخذه سنة ولا نوم .

فإن شكرك لله يهدم أول لبنة من لبنات الاغترار ، فالذى يفسد خلافة الإنسان فى الأرض أنْ يغترَّ بما أعطاه الله وبما وهبه ، وينسى أنه خليفة ، ويعتبر نفسه أصيلاً فى الكون ، والشكر لله تعالى يكون على ما قدَّم لك من نعم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل] أى : تشكر الله على ما سبق ، فقد وُلدتَ لا تعلم شيئاً ، ثم تكونت عندك آلات الإدراك والعلم ، فعلمتَ وملأت قلبك بالمعانى الجميلة ؛ لذلك تشكر الله عليها ، فجَعْل هذه الآلات لك ، علّته أنْ تشكر أى : على ما مضى .

ثم هناك شكر آخر ، لا على ما فات ، لكن شكر هو في ذاته نعمة جديدة ، وتأمل في ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٤٦) ﴾ [الروم] هذه كلها نِعَم يعطف عليها بقوله ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) ﴾ [الروم]

فعطف الشكر على النعم السابقة يعني أنه في ذاته نعمة ، وإلا لقال كما في الآية السابقة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

والشكر بهذا المعنى هو المراد في قوله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. (٧) ﴾ [إبراهيم] فهذا شكر لما سبق ، وهذا شكر لما هو آتٍ .

والشكر في قوله تعالى ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ.. (١٢) ﴾ [لقمان] مُوجه إلى الله تعالى ، فكيف إذا توجه الشكر في أسباب تناوله إلى غير الله ، كأنْ تشكر صاحبك الذي قدم لك معروفاً مثلاً ؟ قالوا : لو تأملتَ شكر غير الله ممن قدَّم لك معروفاً يستوجب الشكر لوجدته يؤول إلى شكر الله في النهاية .

لذلك قالوا : لا تشكر الله إلا حين تشكر مَنْ ساق لك الجميل على يديه ، يعني : جعله سبباً في قضاء حاجتك ، ثم إن الذي قدَّم لك جميلاً ، ما قدّمه لك وما آثرك على نفسه إلا لأن الله أمره بذلك ، ودعاه إليه ، وأثابه على فعله ، فإذا سلسلتَ الشكر لانتهى إلى شكر الله تعالى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) ﴾ [لقمان] علمنا أن الشكر لله هو أول الحكمة ، فلماذا ؟

لأن مَنْ يشكر تعود إليه ثمرة شكره .

وإياك أن تظن أن من مقومات قيومية ربك أنْ تشكره ، فشكْرك وعدمه سواء بالنسبة لله تعالى ، كيف وقد وسع سبحانه الكافر الذى كفر به ، ولم يقطع عنه نعمه ؛ ذلك لأنه سبحانه غنى عن خَلْقه ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان] لأنه سبحانه يعرف أنه رب ، حتى للكافر الجاحد .

ونلحظ فى الأسلوب هنا عظمة وروعة ، ففى الشكر قال سبحانه ﴿وَمَن يَشْكُرْ .. ﴿١٢﴾﴾ [لقمان] أما فى الكفر فقال ﴿وَمَن كَفَرَ .. ﴿١٢﴾﴾ [لقمان] ولم يقل : ومَنْ يكفر ، وفَرْق بين الأسلوبين ، والكلام هنا كلام ربٍّ ، ففى الشكر جاء بالفعل المضارع ﴿يَشْكُرُ .. ﴿١٢﴾﴾ [لقمان] الدال على الحال والاستقبال ، فالشكر متجدد ودائم على خلاف الكفر.

وكأنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يريد من عبده الدوام على كفره ، فلعله يتوب ويرجع إلى ساحة الإيمان ، فجاء بالفعل الماضى ﴿كَفَرَ .. ﴿١٢﴾﴾ [لقمان] أى : فى الماضى فحسب ، وقد لا يعود فى المستقبل ، وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم .

ومعنى ﴿حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان] من صيغ المبالغة على وزن « فعيل » وتأتى مرة بمعنى « فاعل » مثل رحيم ، ومرة بمعنى « مفعول » مثل قتيل أى : مقتول ، والمعنى هنا ﴿حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان] أى : محمود وجاءت هذه الصفة بعد ﴿غَنِيٌّ .. ﴿١٢﴾﴾ [لقمان] لأن الكافر لو كان يعلم أن الله لم يقطع عنه نعمه رغم كفره به لحمد هذا الإله الذى حلم عليه ، ولم يعامله بالمثل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾

يعطينا الحق سبحانه طرفاً من حكَم لقمان التى رواها القرآن الكريم : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان] قوله : ﴿ وَإِذْ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان] أى : اذكر يا محمد حين قال لقمان لابنه ، وتوجيه حكمة لقمان ونصيحته لابنه يدلُّنا على صدق ما رُوِى عنه أنه كان يفتى الناس ويعظهم قبل سيدنا داود عليه السلام ، فلما جاء داود أمسك لقمان وقال : ألا أكتفى وقد كُفِيت ، ثم وجه نصائحه لمن يحب وهو ولده .

ولذلك ، فالإمام أبو حنيفة ـ رضوان الله عليه ـ عندما شكاه القاضى ابن أبى ليلى[1] إلى الخليفة أنه يفند شكاواه وأحكامه ، فأرسل إليه الخليفة بأنْ يترك الفتوى ، وبينما هو فى بيته إذ جاءته ابنته وقالت له : يا أبى حدث لى كذا وكذا ـ تريد أن تستفتيه ـ فماذا قال لها وهى ابنته ؟ قال : سلِى أخاك حماداً ، فإن أمير المؤمنين نهانى عن الفُتْيا .

وفَرْق بين أنْ يتكلم الإنسان مع عامة الخَلْق ، وبين أنْ يتكلم مع

---

(١) هو : محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، الأنصارى الكوفى : قاضٍ ، فقيه ، من أصحاب الرأى . ولد ٧٤ هـ . ولى القضاء والحكم بالكوفة لبنى أمية ، ثم لبنى العباس ، واستمر ٣٣ سنة ، له أخبار مع الإمام أبى حنيفة وغيره ، مات بالكوفة عام ١٤٨ هـ عن ٧٥ عاماً . (الأعلام للزركلى ٦/١٨٩) ، (تذكرة الحفاظ للذهبى ١/١٧١) .

ولده ، فالابن هو الإنسان الوحيد في الوجود الذي يودُّ أبوه أن يكون الابن أفضلَ وأحسن حالاً منه ، ويتمنى أن يُعوِّض ما فاته في نفسه في ولده ويتدارك فيه ما فاته من خير .

ومعنى ﴿ وَهُوَ يَعِظُهُ .. (١٣) ﴾ [لقمان] الوعظ : هو التذكير بمعلومة عُلمت من قبل مخافة أنْ تُنْسى ، فالوعظ لا يكون بمعلومة جديدة ، إنما يُنبه غفلتك إلى شيء موجود عندك ، لكن غفلت عنه ، فهناك فَرْق بين عالم يُعلم ، وواعظ يعظ ، والوعظ للابن يعني أنه كان على علم أيضاً بالمسائل ، وكان دور الوالد أنْ يعظه ويُذكِّره .

ونلحظ في أسلوب الآية أن الله تعالى لما أخبر عنه قال ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ .. (١٣) ﴾ [لقمان] ولما تكلم لقمان عن ابنه قال ﴿ يَـٰبُنَيَّ .. (١٣) ﴾ [لقمان] ولم يقل يا ابني ، فصغَّره تصغير التلطف والترقيق ، وليوحي له : إنك لا تزال في حاجة إلى نصائحي ، وإياك أنْ تظن أنك كَبِرت وتزوجت فاستغنيتَ عني .

وأول عظَة من الوالد للولد ﴿ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ .. (١٣) ﴾ [لقمان] وهذه قمة العقائد ؛ لذلك بدأ بها ؛ لأنه يريد أنْ يُصحِّح له مفهومه في الوجود ، ويلفت نظره إلى أن الأشياء التي نعم بها آباؤك وأجدادك لا تزال تعطي في الكون ، ومن العجيب أنها باقية ، وهي تعطِي في حين يموت المعطَى المستفيد بها .

وتأمل منذ خلق الله الكون كم جيل من البشر انتفع بالشمس ؟ ومع ذلك اندثروا جميعاً ، وما زالت الشمس باقية ، كذلك القمر والهواء والجبال .. الخ . فكيف وأنت سيد هذا الكون يكون خادمك أطول عمراً منك ؟

إذن : على العاقل أن يتأمل ، وعلى الإنسان الذي كرَّمه الله على

سائر المخلوقات أن يقول : لا بُدَّ أن لى عمراً أطول من عمر هذه المخلوقات التى تخدمنى ، وهذا لا يتأتى إلا حين تصل عمرك فى الدنيا بعمرك فى الآخرة ، وهذا يستدعى أن تؤمن بالله وألاّ تشرك به شيئاً ، فهو وحده سبحانه الذى خلق لك هذا كله ، وأعدّه لخدمتك قبل أن توجد .

واقرأ : ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. ⦗١١⦘ ﴾[لقمان]

فكيف تدعى أن لله شركاء فى الخَلْق ، وهم أنفسهم لم يدَّعوا أنهم آلهة ، أو أنهم خلقوا شيئاً فى كون الله ؟ كيف وأنت تسير فى الصحراء ، فترى الحجر يعجبك فتأخذه وتُسوِّيه وتجعله إلهاً ولو هبَّتْ الريح لأطاحتْ به ؟

ثم ما المنهج الذى جاءتكم به هذه الآلهة بِمَ أمرتكم وعَمَّ نهتكم ؟ ماذا أعدت من نعيم لمن عبدها ، وماذا أعدَّت من عذاب لمن كفر بها ؟ إذن : فهذه آلهة بلا تكليف ، والعبادة فى حقيقتها أنْ يطيع العابد أمر معبوده ، إذن : هى آلهة باطلة لا يخفى بطلانها على العاقل .

لذلك يقول لقمان ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ⦗١٣⦘ ﴾ [لقمان] نعم الشرك ظلم ؛ لأن الظلم يعنى : نَقْل حق الغير إلى الغير ، وقمة الظلم ومنتهاه أن تأخذ حق الله ، وتعطيه لغير الله ، ألا ترى أن الصحابة ضجُّوا لما نزل قوله تعالى[1] : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَـٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ⦗٨٢⦘ ﴾ [الأنعام]

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ .. ⦗٨٢⦘ ﴾ [الأنعام] شق ذلك على الناس فقالوا : يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه ؟ قال : « إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا العبد الصالح ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ⦗١٣⦘ ﴾ [لقمان] إنما هو الشرك » حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٧٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٢٤) كتاب الإيمان .

وقالوا : يا رسول الله ، ومَنْ منا لم يخالط إيمانه ظلم ؟ فهدَّأ رسول الله من رَوْعهم وطمأنهم أن المراد بالظلم هنا ظلم القمة أى : الشرك بالله ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ⟨١٣⟩ ﴾ [لقمان]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ⟨١٤⟩ ﴾

أهذه وصية من وصايا لقمان لابنه ، أم هى كلام جديد من الله تعالى جاء فى سياق كلام لقمان ؟ قالوا[1] : هو من كلام الحق تبارك وتعالى ، بدليل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا .. ⟨١٥⟩ ﴾ [لقمان]

ومن التكريم للقمان أن الله تعالى ساق هذه الوصية بعد وصيته لابنه ، فجاءت وكأنها حكاية عنه .

ومعنى ﴿ وَوَصَّيْنَا .. ⟨١٤⟩ ﴾ [لقمان] يعنى : علّمنا ووعظنا ، وهما يدلان على معلومات تبتدىء بعلمنا ويذكر بها فى وعظنا ، ويُوفى بها

---

(١) قيل : إن هذا مما أوصى به لقمان ابنه ، أخبر الله به عنه ، أى : قال لقمان لابنه : لا تشرك بالله ولا تطع فى الشرك والديك ، فإن الله وصى بهما فى طاعتهما مما لا يكون شركاً ومعصية لله تعالى .
وقيل : وإذ قال لقمان لابنه لا تشرك ، ونحن وصينا الإنسان بوالديه حسناً ، وأمرنا الناس بهذا ، وأمر لقمان به ابنه .
قال القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٣٢٠) : « ذكر هذه الأقوال القشيرى . والصحيح أن هاتين الآيتين نزلتا فى شأن سعد بن أبى وقاص وعليه جماعة المفسرين » .

حين جمعنا كل الخير فى كلمة واحدة ؛ لذلك فالنبى ﷺ عندما خطب الناس فى حجة الوداع[1] ذكر أمهات الفضائل ، لماذا ؟ لأنه آخر كلامه إليهم ، والموقف لا يناسب أنْ يذكر فيه تفاصيل الدين كله ، فاكتفى بذكر أسسه وقواعده ، كالرجل منّا حين تحضره الوفاة يجمع أولاده ، ويوصيهم ، فيختار الأمور الهامة والخلاصة فى أضيق نطاق.

الله تعالى يقول : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. (١٤) ﴾ [لقمان] والوصية بالوالدين بالذات أخذتْ رقعة واسعة فى كتاب الله ، فى هذه الآية ذكر علة الوصية ، فقال ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ.. (١٤) ﴾ [لقمان]

وفى خمس آيات أخرى وردتْ كلمة (إحساناً) ، فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٨٣) ﴾ [البقرة]

وفى سورة النساء : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٣٦) ﴾ [النساء]

وفى الأنعام : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

وفى الإسراء : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

---

(١) وذلك أن رسول الله ﷺ قال فى خطبة هذه الحجة « أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تُظلمون .. » الخطبة بتمامها أوردها ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٦٠٣ ، ٦٠٤) .

وفى الأحقاف : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف]

وفى آية واحدة وردت كلمة (حسناً) فى سورة العنكبوت : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. (٨) ﴾ [العنكبوت]

وفى آية واحدة أيضاً جاءت الوصية بالوالدين دون ذكر لهاتين الكلمتين : (حُسْناً وإحساناً) هى الآية التى نحن بصدد الحديث عنها .

لكن ، ما الفرق بين (إحساناً) و (حُسناً) ؟ الفرق أن الإحسان مصدر أحسن ، وأحسن حدث ، تقول : أحسن فلان إحساناً . أما حُسناً فمن الحسن وهو المصدر الأصيل لهذه المادة كما تقول : فلان عادل ، فوصفته بالعدل ، فإنْ أردتَ أنْ تبالغ فى هذا الوصف تقول : فلان عَدْل أى : فى ذاته ، لا مجرد وَصْف له .

إذن : فحُسْناً آكد فى الوصف من إحساناً ، فلماذا جاءت فى هذه الآية بالذات : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا (٨) ﴾ [العنكبوت] قالوا : لأن هذه الآية تتعرض لمسألة صعبة تمسُّ قمة العقيدة ، فسوف يطلب الوالدان من الابن أنْ يشرك بالله .

لذلك احتاج الأمر أنْ نوصى الابن بالحُسْن فى ذاته ، وفى أسمى توكيداته فلم يقُلْ هنا (إحْسَاناً) إنما قال (حُسْناً) حتى لا يظن أن دعوتهما إياه إلى الشرك مبرر لإهانتهما ، أو التخلى عنهما ؛ لذلك يُعلِّمنا ربنا : ﴿ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا (١٥) ﴾ [لقمان]

وإنْ كانت الوصية هنا بالوالدين إلا أن حيثيات الوصية خاصة بالأم ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ (١٤) ﴾ [لقمان] فلم

يذكر شيئاً عن دور الأب ، لماذا ؟ قالوا : لأن الكلام هنا كلام رب ، وما عليك إلا أنْ تُعمِل فيه فكرك وقلبك لتصل إلى دقائقه .

الله تعالى يُذكِّرنا هنا بدور الأم خاصة ، لأنها تصنع لك وأنت صغير لا تدرك صُنْعها ، فهو مستور عنك لا تعرفه ، أما أفعال الأب وصنعه لك فجاء حال كِبَرك وإدراكك للأمور من حولك ، فالابن يعرف ما قدَّم أبوه من أجله .

فكأن أفعال الأب وُجِدت حين تم تكوين العمر العقلي الواعي ، ففهم الابن ما فعل أبوه ، وكثيراً ما سمع الابن : أبوك ذهب إلى كذا ، أبوك أحضر لك كذا ، وهذا الأمر عندما يأتي أبوك .. الخ ، فدوْر الأب ظاهر على خلاف دور الأم ؛ لذلك ذكره الحق - تبارك وتعالى - هنا ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان]

ويأتي مَنْ يقول : أليس الابن نتيجة التقاء الأب والأم ، فهما فيه سواء ؟ ونقول : بلى ، لكن مشقة الأم فيه أوضح أثناء الحمل وعند الولادة ، ولولا أن الله تعالى ربط النسل بالشهوة لَزهدَ الناس فيه لما تتحمله الأم من مشاق ، ولما يتحمله الأب من تبعات الأولاد .

ونعرف قصة المرأة التي ذهبت تقاضي زوجها لأنه يريد أنْ يأخذ ولدها منها ، فقالت للقاضي وقد قال لها : أليس الولد ولدكما معاً ؟ قالت : بلى ، ولكنه حمله خِفّاً ووضعه شهوة ، وحملتُه وهناً على وهن ، فحكم لها .

ومعنى : ﴿ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان] أي : ضعفاً على ضعف ، والمرأة بذاتها ضعيفة ، فاجتمع لها ضعفها الذاتي مع ضعف بسبب الجنين الذي يتغذى منها ، ويكبر في أحشائها يوماً بعد يوم ؛ لذلك قلنا : إن من حكمة الله تعالى في خَلْق الرحم أنْ جعله قابلاً

للتمدد والاتساع ليحتوى الجنين فى مراحل الحمل المختلفة إلى أنْ يزيد الجنين زيادةً لا يتحملها اتساع الرحم فينفجر إيذاناً بولادة إنسان جديد وخَلْق آخر كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ⑭ ﴾ [المؤمنون]

فالجنين كان خَلْقاً تابعاً لأمه فى غذائه وفى تنفسه وحركته ، لكن حينما جاء أمر الله وأذن بميلاده أنشأه خَلْقاً آخر له مُقوِّمات حياة مستقلة غير متصل بأمه .

ويقولون فى هذه العملية (القرن طش) كما تنفجر البالونة إذا نُفخت لدرجة أكثر مما تتحمل ، ومن العجيب أن الرحم يتسع بقدرة الله لعدة توائم كما نرى ونسمع .

ومن عظمة الخالق سبحانه فى مسألة الرزق أن رزق الجنين يأتيه منفصلاً عن رزق أمه ، فلكل منهما رزق لا يأخذه الآخر ، ومعلوم أن المرأة حين يُقدَّر لها حَمْل ينقطع عنها الدم الذى كان ينزل بصفة دورية حال فراغ الرحم من الحمل ، هذا الدم هو الذى جعله الله غذاءً للجنين الجديد .

أما إذا لم يُقدَّر لها حمل فإنَّ جسمها يطرد هذا الدم ويتخلص منه ولا يستفيد به ، لماذا ؟ لأنه ليس غذاءها ، وكأن الخالق - عز وجل - يُنبِّهنا أن لكل منا رزقه الذى لا يتعدَّاه إلى غيره .

وأيضاً من حكمته تعالى فى وَضْع الجنين فى بطن أمه عند الولادة أنْ ينزل برأسه ، وهذا هو الوضع الطبيعى لولادة طفل سليم ؛ لأن أول ضروريات الحياة للطفل ساعةَ ينفصل عن أمه أنْ يتنفس ، فإذا نزل برأسه - وهذا الوضع يحاول أطباء الولادة التأكد منه - استطاع التنفس حتى وإنْ تعسر نزول باقى جسمه ، أمّا إنْ نزل

الطفل بعكس هذا الوضع فإنه يختنق ويموت قبل أنْ يتم نزوله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. (١٤) ﴾ [لقمان] الفصال : أى الانفصال عن الأم فى مسألة الرضاعة ، ومنه : يسمون ولد الناقة الذى استغنى عن لبنها : الفصيل أى الذى فُصل عن أمه ، وأصبح قادراً على أنْ يأكل ، وأن يعيش دون مساعدتها ، وحتى عملية فصال الولد عن أمه فيها مشقة وألم للأم .

أما العملية الجنسية التى أثمرتْ الولد فكانت شركة بينهما ، وبذلك لا بُدَّ أن نعترف أن للأم الدور الأكبر وعليها العبء الأكبر فى مسألة الأولاد ؛ لذلك كان لها الحظ الأوفر فى وصية النبى ﷺ للصحابى الذى سأله : مَنْ أحق الناس بحُسْن صحابتى يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أبوك[1] ، فأعطى كلاً منهما على قدر ما قدَّم .

ومسألة الفصال هذه شُرحت فى آيات أخرى ، ففى سورة البقرة : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ .. (٢٣٣) ﴾ [البقرة] وهذه تؤكد ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. (١٤) ﴾ [لقمان]

وفى آية أخرى تجمع الحمل والرضاعة معاً : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] وبخصم العامين من الثلاثين شهراً يكون الباقى ستة أشهر ، وهى أقلّ مدة للحمل .

وهذه المسألة اعتمد عليها الإمام على - رضى الله عنه - حينما

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٧١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٥٤٨) كتاب البر والصلة ، من حديث أبى هريرة قال : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، من أحق بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : ثم أبوك » .

رأى عُمَر رضى الله عنه يريد أن يُقيم الحد على امرأة ولدتْ لستة أشهر ؛ لأنه يعتقد أن مدة الحمل تسعة أشهر ، فقال لعمر : يا أمير المؤمنين ، الله يقول غير ذلك ، فقال : وماذا يقول الله ؟ فذكر عليٌّ الآيتين السابقتين[1] :

﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف]

والأخرى : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) ﴾ [لقمان]

ثم بيَّن له عليٌّ أن أقلَّ مدة للحمل بناءً على هاتين الآيتين ستة أشهر ، فقال عمر : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن[2] .

وقوله تعالى : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) ﴾ [لقمان] فالله تعالى هو المستحق للشكر أولاً ؛ لأنه سبحانه هو الذى أنشأ من عدم ، وأمدَّ من عُدْم ، ثم الوالدان لأنهما السبب فى الإيجاد وإنشاء الولد .

فكأن الحق سبحانه مسبِّب أعلى ؛ لأنه خلق من لا شىء ، والوالدان سبب من أسباب الله فى الوجود ، إذن : لا تُحسن شكر الله

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٥٧) : « قد استدل على رضى الله عنه بهذه الآية ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] مع التى فى لقمان ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. (١٤) ﴾ [لقمان] على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وهو استنباط قوى صحيح ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة .

(٢) أخرج الحاكم فى مستدركه (١/٤٥٧) والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى سعيد الخدرى قال : « حججنا مع عمر رضى الله عنه ، فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال : إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع » وهو حديث طويل وفيه أن عمر رضى الله عنه قال : « أعوذ بالله تعالى أن أعيش فى قوم لست فيهم يا أبا الحسن » ، وذلك بعد أن قال له على : بل إنه يضر وينفع !! أليس يشهد يوم القيامة لمن قبَّله ؟

الخالق الأول والمسبِّب الأعلى حتى تُحسِن شكر الوالدين ، وهما السبب الثانى فى وجودك .

فقوله سبحانه : ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤)﴾ [لقمان] أى : على الإيجاد ، لكن فى موضع آخر : ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء] وهذه للإيجاد وللتربية وللرعاية ، فكما أن هناك أبوةً للإيجاد هناك أبوة للتربية ، فكثيراً ما نجد الطفل يربيه غير أبيه وغير أمه ، ولا بُدَّ أنْ يكون لهؤلاء نصيب من الشكر ومن الولاء والبرِّ ما دام أن الله تعالى ذكرهم فى العلة ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء]

والعلة تدور مع المعلول وجوداً وعدماً ، فإذا لم يكُنْ للأب الحقيقى وجود ، فالأبوة لمن ربَّى ، وله نفس حقوق الأب من حيث الشكْر والبر والمودة ، بل ينبغى أن يكون حقُّه مضاعفاً ؛ لأن فى الأب الحقيقى عطف البُضع على البُضع ، وفى الأب المربِّى عطف الدين على الدين ، وهذه مسألة أخرى غير مجرد الأبوة .

لكن ، هل شكر الله أولاً دُرْبة على أنْ تشكر الوالدين ، وهما السبب المباشر فى وجودك ؟ أم أن شكرَ الوالدين دربةٌ على أن تشكر الله الذى خلقك وأوجدك ؟ نقول : هما معاً ، فشُكْر الله يستلزم شكْر الوالدين ، وشكر الوالدين ينتهى إلى شُكْر الله .

وقوله : ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤)﴾ [لقمان] أى : المرجع ، والمعنى : أننى أوصيك بأهم شىء فاحذر أنْ تخالف وصيتى ؛ لأننى أقدر على أنْ أعاقب مَنْ خالف .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

يؤكد الحق سبحانه على أمر الوالدين ، وكأنه سبحانه استدرك غير مُستدَرك ، فليس لأحد أنْ يستدرك على الله ، وكأن واحداً كان يناقش رسول الله ﷺ في أمر الوالدين وما نزل في شأنهما ، فسأل : كيف لو أمراني بالكفر ، أأكفر طاعةً لهما ؟ لذلك جاء الحكم من الله في هذه المسألة .

وفي آية العنكبوت : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [العنكبوت]

---

(١) سبب نزول الآية : قال سعد بن أبي وقاص : نزلت فيَّ هذه الآية ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. ﴿١٥﴾﴾ [لقمان] كنت رجلاً براً بأمي ، فلما أسلمتُ قالت : يا سعد ، ما هذا الذي أراك قد أحدثت ؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتُعيَّر بي ، فيقال يا قاتل أمه . قلت : يا أمه لا تفعلي فإني لا أدع ديني هذا لشيء ، فمكثت يوماً وليلة لا تأكل ، فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً آخر وليلة وقد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء ، فإن شئت فكلي وإن شئت فلا تأكلي ، فلما رأت ذلك أكلت ، فنزلت هذه الآية . أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٥٢١) وعزاه لأبي يعلى والطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن أبي عثمان النهدي .

فذكر فيها (حُسْناً) ولم يقل فيها ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. ﴿١٥﴾﴾ [لقمان] فكأن كلمة الحُسْن ، وهى الوصف الجامع لكلِّ مدلولات الحُسْن أغنتْ عن المصاحبة بالمعروف .

ومعنى ﴿جَاهَدَاكَ .. ﴿١٥﴾﴾ [لقمان] نقول : جاهد وجهد ، جهد أى فى نفسه ، أما جاهد ففيها مفاعلة مع الغير ، نقول : جاهد فلان فلاناً مثل قاتل ، فهى تدل على المشاركة فى الفعل ، كما لو قلت : شارك عمرو زيداً ، فكل منهما فاعل ، وكل منهما مفعول ، لكن تغلب الفاعلية فى واحد ، والمفعولية فى الآخر .

فمعنى ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ .. ﴿١٥﴾﴾ [لقمان] لا تعنى مجرد كلمة عَرَضاً فيها عليك أن تشرك بالله ، إنما حدث منهما مجهود ومحاولات لجذبك إلى مجاراتهما فى الشرك بالله ، فإن حدث منهما ذلك فنصيحتى لك ﴿فَلا تُطِعْهُمَا .. ﴿١٥﴾﴾ [لقمان]

ثم إياك أنْ تتخذ من كفرهما ودعوتهما لك إلى الكفر سبباً فى اللدد معهما ، أو قطع الرحم ، فحتى مع الكفر يكون لهما حق عليك ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. ﴿١٥﴾﴾ [لقمان] ثم إنهما كفرا بى أنا ، وأنا الذى أوصيك بهما معروفاً .

وقوله تعالى : ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ .. ﴿١٥﴾﴾ [لقمان] أى : لن تكون وحدك ، إنما سبقك أُناسٌ قبلك تابوا وأنابوا فكُنْ معهم ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ .. ﴿١٥﴾﴾ [لقمان] أى : مأواكم جميعاً .

قالوا : إن هذه الآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص ، الذى قال

فيه رسول الله ﷺ : « خالى سعد ، فليُرنى امرؤ خاله »[1] ولما أسلم سعد غضبت أمه[2] ـ وكانت شديدة الحب له ـ فكادت تُجَنُّ وحلفتْ لا تأكل ولا تشرب ولا تغتسل ، وأنْ تتعرَّى فى حَرِّ الشمس حتى يرجع عن دينه ، فلما علم سعد بذلك قال : دعوها والله لو عضَّها الجوع لأكلتْ ، ولو عضَّها العطش لشربتْ ، ولو أذاها القمل لاغتسلتْ ، أما أنا فلن أحيد عن الدين الذى أنا عليه ، فنزلت ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ .. ⑮ ﴾ [لقمان]

ولو أن الذى يكفر بالله ويريد لغيره من المؤمنين أنْ يكفر معه كابن أو غيره ، ثم يرى وصية الله به رغم كفره لعلم أن الله تعالى رب رحيم لا يستحق منه هذا الجحود .

وسبق أن ذكرنا الحديث القدسى الذى قالت فيه الأرض : « رب ائذن لى أنْ أخسف بابن آدم ، فقد طعم خيرك ، ومنع شكرك ، وقالت السماء : رب ائذن لى أن أسقط كسَفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : ياَ رب ائذن لى أن أُغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ، ومنع شكرك .. الخ ، فقال الحق تبارك وتعالى : لو خلقتموهم لرحمتموهم »[3] .

---

(١) ذكره ابن حجر العسقلانى فى « الإصابة » (ترجمة ٣١٨٧) وعزاه للترمذى من حديث جابر قال : أقبل سعد فقال النبى ﷺ : « هذا خالى فليرنى امرؤ خاله » . وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٤٩٨/٣) وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وابن سعد فى الطبقات (١٢٨/٣) .

(٢) هى : حمنة بنت سفيان بن أمية . قال ابن حجر العسقلانى فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (ترجمة ٣١٨٧) فى ترجمة ابنها سعد : « هى بنت عم أبى سفيان بن حرب ابن أمية » .

(٣) أورده الإمام الغزالى فى إحياء علوم الدين (٥٢/٤) من قول بعض السلف ولفظه « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

ذلك لأنهم عباد الله وصَنْعته ، وهل رأيتم صاحب صنعة يُحطِّم صنعته ، وجاء في الحديث النبوى « الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره ، وقد أضله في أرض فلاة »[1] .

إذن : فنِعْمَ الرب هو .

ويُروى أن سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ جاءه ضيف ، فرأى أن سَمْته غير سَمْت المؤمنين ، فسأله عن دينه فقال : إنه من عُبَّاد النار ، فردَّ إبراهيم الباب في وجهه ، فانصرف الرجل ، فعاتب الله نبيه إبراهيم في شأن هذا الرجل فقال : يا إبراهيم ، تريد أن تصرفه عن دينه لضيافة ليلة ، وقد وَسِعْتُه طوال عمره ، وهو كافر بى ؟

فأسرع إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به ، وأخبره بما كان من عتاب الله له ، فقال الرجل : نِعْم الرب ربٌّ يعاتب أحبابه فى أعدائه ، ثم شهد ألاَّ إله إلا الله .

فلو أن الكافر الذى يريد الكفر لغيره يعرف أن الله يوصى به وهو كافر ، ويُرقِّق له القلوب لَعاد إلى ساحة الإيمان بالله ؛ لذلك كثيراً ما نقابل أصحاب ديانات أخرى يعشقون الإسلام فيختارونه ، فيغضب عليهم أهلهم فنقول للواحد منهم : كُنْ فى دينك الجديد أبرَّ بهم من دينك القديم ، ليعلموا محاسن دينك ، فضاعف لهم البر ، وضاعف لهم المعروف ، لعل ذلك يُرقِّق قلوبهم ويعطفهم نحو دينك .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٩) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . وفى لفظ عند مسلم « لله أشد فرحاً بتوبة عبده ، حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » .

وتأمل عظمة الأسلوب فى ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥)﴾ [لقمان] فلم يقل مثلاً أعطهم معروفاً ، إنما جعل المعروف مصاحبة تقتضى متابعتهما وتفقُّد شأنهما ، بحيث يعرف الابن حاجة أبويْه ، ويعطيهما قبل أنْ يسألا ، فلا يلجئهما إلى ذُلِّ السؤال ، وهذا فى ذاته إحسان آخر .

كالرجل الذى طرق بابه صديق له ، فلما فتح له الباب أسرَّ له الصديق بشيء فدخل الرجل وأعطى صديقه ما طلب ، ثم دخل بيته يبكى فسألته زوجته : لم تبكى وقد وصلْته ؟ فقال : أبكى لأننى لم أتفقد حاله فأعطيه قبل أن يذلَّ نفسه بالسؤال .

والحق - تبارك وتعالى - حين يقول بعد الوصية بالوالدين : ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)﴾ [لقمان] إنما لينبهنا أن البرَّ بالوالدين ومصاحبتهما بالمعروف لن يُنسى لك ذلك ، إنما سيُكتب لك ، وسيكون فى ميزانك ؛ لأنك أطعتَ تكليفى وأمرى ، وأدَّيْتَ ، فلك الجزاء لأنك عملتَ عملاً إيمانياً لا بُدَّ أن تُثاب عليه .

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦)﴾

﴿يَا بُنَيَّ .. (١٦)﴾ [لقمان] نداء أيضاً للتلطف والترقيق ﴿إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ .. (١٦)﴾[لقمان] يريد لقمان أن يدل ولده على صفة من صفات الحق سبحانه ، هى صفة العلم المطلق الذى لا تخفى عليه خافية ، وكأنه يقول له : إياك أن تظن أن ما يخفى على الناس

يخفى على الله تعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ⁽¹⁴⁾﴾[الملك]

وكما أن الله تعالى لا يخفى عليه مثقال حبة من خردل ، حتى إن كانت فى باطن صخرة ، أو فى السموات ، أو فى الأرض ، كذلك لا تخفى عليه حسنة ولا سيئة مهما دَقَّتْ ، ومهما حاول صاحبها إخفاءها .

وقلنا : إن المستشرقين وقفوا عند مسألة علم الله الخفى بخفايا خَلْقه ، وعند قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ⁽¹¹⁰⁾﴾ [الأنبياء] يقولون : الله يمتنُّ بعلم ما نكْتُم ، فكيف يمتنُّ بعلم الجهر ، وهو معلوم للجميع ؟

ونقول : الحق سبحانه فى قوله : ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ⁽¹¹⁰⁾﴾ [الأنبياء] لا يخاطب فرداً ، إنما يخاطب جماعة ، فهو يعلم جَهْر الجماعة فى وقت واحد ، ومثَّلْنا لذلك بمظاهرة مثلاً ، فيها الآلاف من البشر يهتفون بأصوات مختلفة وشعارات شتى ، منها ما يعاقب عليه القانون ، فهل تستطيع مع اختلاط الأصوات وتداخلها أنْ تُميِّز بينها ، وتُرجع كل كلمة إلى صاحبها ؟

إنك لا تستطيع ، مع أن هذا جهر يسمعه الجميع ، أما الحق ـ تبارك وتعالى ـ فيعلم كل كلمة ، ويعلم مَنْ نطق بها ويردّ كل لفظ إلى صاحبه . إذن : من حقه تعالى أن يمتنَّ بعلم الجهر ، بل إن عِلْم الجهر أعظم من علْم السرِّ وأبلغ .

وقوله تعالى ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ .. ⁽¹⁶⁾﴾ [لقمان] أى : وزن حبة الخردل ، وكانت أصغر شىء وقتها ، فجعلوها وحدة قياس للقلة ، وليس لك الآن أن تقول : وهل حبة الخردل أصغر شىء فى

الوجود ؟ فالقرآن ذكرها مثالاً للصِّغَر على قدر معرفة الناس بالأشياء عند نزوله ، أما من حيث التحقيق فقد ذكر القرآن الذرة والأقلَّ منها .

لذلك لما اخترعوا في ألمانيا أسطوانة تحطيم الجوهر الفرد (أي الجزء الذي لا يتجزأ) ، واستطاعوا تفتيت الذرة ، ظنوا أن في هذه العملية مأخذاً على القرآن ، فقد ذكر القرآن الذرة ، وجعلها مقياساً دينياً في قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة] لكن لم يذكر الأقلَّ منها ، ومعلوم أن الجزء أصغر من كله .

ونقول : قرأتم شيئاً وغابت عنكم أشياء ، ولو كان لديكم إلمام بكلام الله لعلمتم أن فيه احتياطاً لما توصلتم إليه ، ولما ستتوصلون إليه فيما بعد ، واقرأوا إن شئتم قول الله تعالى عن الذرة : ﴿ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ [يونس]

بل نقول : إن الاحتياط هنا احتياط مركب ، فلم يقل صغير إنما قال (أصغر) وهذا يدل على وجود رصيد في كلام الله لكل مُفتّت من الذرة .

وقوله : ﴿ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَٰوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ .. (١٦) ﴾ [لقمان] ﴿ فِي صَخْرَةٍ .. (١٦) ﴾ [لقمان] أي : على حبكة الوجود ، وفي أضيق مكان ﴿ أَوْ فِي السَّمَٰوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ .. (١٦) ﴾ [لقمان] يعني : في المتسع الذي لا حدود له ، فلا في الضيِّق المحكم ، ولا في المتسع يخفى على الله شيء ﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ .. (١٦) ﴾ [لقمان] واستصحب حيثيات الإتيان بها بوصفين لله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾ [لقمان]

وجمع بين هاتين الصفتين ؛ لأنك قد تكون خبيراً بالشيء عالماً بمكانه ، لكنك لا تستطيع الوصول إليه ، كأنْ يكون في مكان ضيق لا تنفذ إليه يدك ، وعندها تستعين بآلة دقيقة كالملقاط مثلاً ، فالخبرة موجودة ، لكن ينقصك اللطف في الدخول .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ لطيف ، فمهما صَغُرت الأشياء ودقَّتْ يصل إليها ، فهو إذن عليم خبير بكل شيء مهما صغر ، قادر على الإتيان به مهما دقَّ ؛ لأنه لطيف لا يمنعه مانع ، فصفة اللطف هذه للتغلغل في الأشياء .

ونحن نعلم أن الشيء كلما دقَّ ولَطُف كان أعنف حتى في المخلوقات الضارة ، وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بمَنْ بنى بيتاً في الخلاء ، وأراد أنْ يُؤمِّن نوافذه من الحيوانات والحشرات الضارة ، فوضع على النوافذ شبكة من الحديد تمنع اللصوص والحيوانات الكبيرة ، ثم تذكّر الفئران والثعابين فضيّق الحديد ، ثم تذكّر الذباب والناموس فاحتاج إلى شيء أضيق وأدقّ ، إذن : كلما كان عدوك لطيفاً دقيقاً كان أعنف ، واحتاج إلى احتياط أكثر .

فقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [لقمان] يعني : لا يعوزه علم بالمكان ، ولا سهولة ويُسْر في الوصول إلى الأشياء .

كانت هذه بعض وصايا لقمان ومواعظه لولده ، ولم يأمره حتى الآن بشيء من التكاليف ، إنما حرص أنْ يُنبهه : أنك قد آمنت بالله وبلغَك منهجه واستمعت إليه ، فأطِع ذلك المنهج في افعل ولا تفعل ، لكن قبل أنْ تباشر منهج ربك في سلوكك اعلم أنك تتعامل مع إله قيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يغيب عنه شيء ، فادخل على المنهج بهذا الاعتقاد .

وإياك أنْ تتغلَّب عليك شبهة أنك لا ترى الله ، فإنك إنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك ، واعلم أن عملك محسوب عليك ، وإنْ كان فى صخرة صماء ضيقة ، أو فى سماء ، أو فى أرض شاسعة .

ويؤكد هذه المسألة قوله تعالى فى الحديث القدسى : « يا عبادى : إنْ كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنِّى أراكم ، فلِمَ جعلتمونى أهونَ الناظرين إليكم ؟ »(١) .

بعد ذلك يدخل لقمان فى وعظه لولده مجال التكليف ، فيقول له :

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾

هذه مسائل أربع بدأها لقمان بإقامة الصلاة ، والصلاة هى الركن الأول بعد أنْ تشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وعلمنا أن الصلاة لأهميتها فُرضت بالمباشرة ، ولأهميتها جُعلت ملازمة للمؤمن لا تسقط عنه بحال ، أما بقية الأركان فقد تَسقط عنك لسبب أو لآخر ، كالصوم والزكاة والحج ، فإذا سقطت عنك هذه الأركان لم يَبْق معك إلا الشهادتان والصلاة ؛ لذلك جعلها النبى ﷺ عماد الدين(٢) .

---

(١) ثبتت جملة من هذا الحديث على لسان بعض العارفين ، حيث جاء فى حلية الأولياء (١٤٢/٨) أن رجلاً قال لوهيب بن الورد : عظنى ، قال : اتق الله أن يكون الله أهون الناظرين إليك .

(٢) حديث : « الصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين » . قال الحافظ العراقى فى تخريجه للإحياء (١٤٧/١) : « رواه البيهقى فى الشُّعَب بسند ضعفه من حديث عمر » وقال الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) : « قال ابن الصلاح فى مشكل الوسيط : إنه غير معروف » .

ولذلك بدأ بها لقمان ﴿ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ الصَّلاةَ .. (١٧) ﴾ [لقمان] لأنها استدامة إعلان الولاء لله تعالى خمس مرات فى اليوم والليلة ، فحين يناديك ربك (الله أكبر) فلا ينبغى أن تنشغل بمخلوق عن نداء الخالق ، وإلا فما موقف الأب مثلاً حين ينادى ولده فلا يجيبه ؟ فاحذر إذا ناداك ربك ألا تجيب .

ثم تأمل النداء للصلاة الذى اهتدتْ إليه الفطرة البشرية السليمة ، وأقرّه سيدنا رسول الله : الله أكبر الله أكبر ، يعنى أكبر من كل ما يشغلك عنه ، فإياك أن تعتذر بالعمل فى زراعة أو صناعة أو تجارة عن إقامة الصلاة .

وقد ناقشتُ أحد أطباء الجراحة فى هذه المسألة ، فقال : كيف أترك عملية جراحية من أجل الصلاة ؟ فقلت له : بالله لو اضطررتَ لقضاء الحاجة تذهب أم لا ؟ فضحك وقال : أذهب ، فقلت : فالصلاة أوْلَى ، ولا تعتقد أن الله تعالى يكلِّف العبد تكليفاً ، ثم يضنّ عليه باتساع الزمن له ، بدليل أنه تعالى يراعى وقت العبد ومصالحه وإمكاناته ، ففى السفر مثلاً يشرع لك الجمع والقصر .

فبإمكانك أنْ تُوفِّق صلاتك حسب وقتك المتاح لك ، إما بجمع التقديم أو التأخير ، وكم يتسع وقتك ويخلو من مشغولية العبادة إذا جمعتَ الظهر والعصر جمْعَ تقديم ، والمغرب والعشاء جَمْع تأخير فى آخر وقت العشاء ؟ أو حين تجمع الظهر والعصر جمعَ تأخير ، فتصليهما قبل المغرب ، ثم تصلى المغرب والعشاء جمع تقديم ؟

إذن : المسألة فيها سعَة ، ولا حجةَ لأحد فى تَرْك الصلاة بالذات ، أما الذين يقولون فى مثل هذه الأمور ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا .. (٢٨٦) ﴾ [البقرة] وأن هذا ليس فى وُسْعى .. فنقول لهم :

لا ينبغى أنْ تجعل وُسْعك هو الحكم ، إنما التكليف هو الحكم فى الوُسْع ، وما دام ربك ـ عز وجل ـ قد كلَّفك فقد علم سبحانه وُسْعك وكلَّفك على قدره بدليل ما شرعه لك من رُخَص إذا خرجتْ العبادة عن الوُسْع .

وقال ﴿ أَقِمِ الصَّلاَةَ .. (١٧) ﴾ [لقمان] لأن الصلاة أول اكتمال فى الإجماع لمنهج الله ، وبها يكتمل إيمان الإنسان فى ذاته ، وسبق أن قلنا : إن هناك فرقاً بين أركان الإسلام وأركان المسلم ، أركان الإسلام هى الخمس المعروفة ، أمَّا أركان المسلم فهى الملازمة له التى لا تسقط عنه بحال ، وهى الشهادتان والصلاة ، وإنْ كان على المسلم أنْ يؤمن بها جميعاً ، لكن فى العمل قد تسقط عنه عدا الصلاة والشهادتين .

ثم يبين لقمان لولده : أن الإيمان لا يقف عند حدِّ الاستجابة لهذين الركنين الأساسيين ، إنما من الإيمان ومن كمال الإيمان أنْ تحب لأخيك ما تحب لنفسك ، فيقول له : ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ .. (١٧) ﴾ [لقمان] فانشغل بعد كمالك بإقامة الصلاة ، بأنْ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فبالصلاة كَمُلْتَ فى ذاتك ، وبالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تنقل الكمال إلى الغير ، وفى ذلك كمال الإيمان .

وأنت حين تأمر بالمعروف ، وحين تنهى عن المنكر لا تظن أنك تتصدَّق على الآخرين ، إنما تؤدى عملاً يعود نفعه عليك ، فبه تجد سعة الراحة في الإيمان ، وتجد الطمأنينة والراحة الذاتية ؛ لأنك أديْتَ التكاليف فى حين قصَّر غيرك وتخاذل .

ولا شك أن فى التزام غيرك وفى سيره على منهج الله راحة لك أنت أيضاً ، وإلا فالمجتمع كله يَشْقَى بهذه الفئة القليلة الخارجة عن منهج الله .

ومن إعـزاز العلم أنك لا تنتـفع به الانتـفاع الكـامل إلا إذا عدَّيْتـه للغيـر ، فإنْ كتـمته انتـفع الآخرون بخـيرك ، وشقـيتَ أنت بشرِّهم . إذن : لا تنتفع بخير غيرك إلا حين تؤدى هذه الفريضة ، فتأمر غيرك بالمعـروف ، وتنهاه عن المنكر ، وتحب لهم مـا تحب لنفسك ، وبذلك تنال الحظين ، حظك عند الله لأنـك أديْتَ ، وحظك عند الناس لأنك فى مجتمع متكامل الإيمان ينفعك ولا يضرك .

ولك هنا أن تلحـظ أن هذه الآية لم تقـرن إقـامـة الصـلاة بإيتـاء الزكاة كعادة الآيات ، فغالباً ما نقرأ : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ .. (٤٣) ﴾ [البقرة]

وحين نستقرىء كلمة الزكـاة فى الـقرآن الكـريم نجـد أنها وردت اثنتـين وثلاثيـن مـرة ، اثنتـان منهـا ليسـتـا فى مـعنى زكاة المـال المعروفة النماء العام إنما بمعنى التطـهر ، وذلك فى قـوله تعـالى فى قصـــة الخضـــر وموسـى عليـهما الـسلام : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ .. (٧٤) ﴾ [الكهف]

ثم قوله تعالى : ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) ﴾ [الكهف]

والمعنى : طـهرناهم حينمـا رفعنا عنهم باباً من أبواب الـفتنة فى دين الله .

والمـوضـع الآخـر فى قـوله تعـالى : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً .. (١٣) ﴾ [مريم] فالمعنى : وهبنا لمريم شيـئاً نُزكيها به ؛ ذلك لأن الزكاة

أول ما تتعدى تتعدَّى من واجد لمعدم ، ومريم لم تتزوج فهى مُعْدَمة فى هذه الناحية ؛ لذلك وهبها الله النماء الخاص من ناحية أخرى حين نفخ فيها الروح من عنده تعالى .

وفى موضع واحد ، جاءت الزكاة بمعنى زكاة المال ، لكن غير مقرونة بالصلاة ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)﴾ [الروم]

وفى هذه الآية قال لقمان لولده : ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ .. (١٧)﴾ [لقمان] ولم يقل : وآتِ الزكاة ، فلماذا ؟

ينبغى أن نشير إلى أن القرآن جمع بين الصلاة والزكاة ؛ لأن الصلاة فيها تضحية بالوقت ، والوقت زمن العمل ، والعمل وسيلة الكسب والمال ، إذن ؛ ساعة تصلى فقد ضحيْتَ بالوقت الذى هو أصل المال ، فكأن فى الصلاة تصدقت بمائة فى المائة من المال المكتسب فى هذا الوقت ، أمّا فى الزكاة فأنت تتصدَّق بالعُشْر ، أو نصف العشر ، أو رُبْع العشر ، ويبقى لك معظم كسبك ، فالواقع أن الزكاة فى الصلاة أكبر وأبلغ من الزكاة نفسها .

إذن : لما كانت الزكاة فى كل منهما ، قرن القرآن بينهما إلا فى هذا الموضع ، ولما تتأمله تجده من دقائق الأسلوب القرآنى ، فالقرآن يحكى هذه الوصايا عن لقمان لولده ، ولنا فيه ملحظان :

الأول : أن الله تعالى لم يكلِّف العبد إلا بعد سِنِّ البلوغ إلا فى

الصلاة ، وجعل هذا التكليف مُوجهاً إلى الوالد أو ولى الأمر ، فأنابه أن يكلف ولده بالصلاة ، وأن يعاقبه إنْ أهمل فى أدائها ، ذلك ليربى عند ولده الدُّرْبة على الصلاة ، بحيث يأتى سنّ التكليف ، وقد ألِفَها الولد وتعوَّد عليها ، فهى عبادة تحتاج فى البداية إلى مران وأخذ وردٍّ ، وهذا أنسب للسنِّ المبكرة .

والوالد يُكلِّف ولده على اعتبار أنه الموجِد الثانى له ، والسبب المباشر فى وجوده ، وكأن الله تعالى يقول : أنا الموجد لكم جميعاً وقد وكَّلتُك فى أنْ تكلِّف ولدك ؛ لأن معروفك ظاهر عنده ، وأياديك عليه كثيرة ، فأنت القائم بمصالحه المُلَبِّى لرغباته ، فإنْ أمرته قَبِل منك وأطاعك ، فهى طاعة بثمنها .

وطالما وكلتك فى التكليف فطبيعى أنْ أُوكِّلك فى العقوبة ، فإنْ حدث تقصير فى هذه المسألة فالمخالفة منك ، لا من الولد ؛ لأننى لم أُكلِّفه إنما كلَّفْتُك أنت .

لذلك بدأ لقمان أوامره لولده بإقامة الصلاة ، لأنه مُكلَّف بهذا الأمر ، فولده ما يزال صغيراً بدليل قوله ﴿ يَـٰبُنَىَّ .. (١٧) ﴾ [لقمان] فالتكليف هنا من الوالد ، فإنْ كان الولد بالغاً حال هذا الأمر فالمعنى : لاحظ التكليف من الله بإقامة الصلاة .

أما الزكاة ، وهى تكليف من الله أيضاً فلم يذكرها هنا ـ وهذه من حكمة لقمان ودقَّة تعبيره ، وقد حكاها لنا القرآن الكريم لنأخذ منها مبادىء نعيش بها .

ثانياً : إنْ كلَّفه بالزكاة فقال : أقم الصلاة وآتِ الزكاة فقد أثبت لولده ملكية ، ومعروف أن الولد لا ملكيةَ له فى وجود والده ، بدليل

قول الرسول ﷺ : « أنت ومالك لأبيك »[1] وذكرنا أن لقمان لما علم بموت أبيه قال : إذن ملكتُ أمري[2] فأمره ليس ملْكاً له في حياة أبيه ؛ لذلك لم يأمر ولده بالزكاة ، فالزكاة في ذمته هو ، لا في ذمة ولده .

وتتأكد لدينا هذه المسألة حين نقرأ قول الله تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ .. (٦١) ﴾ [النور]

فالله تعالى رفع عنَّا الحرج أنْ نأكل من هذه البيوت ، ونلحظ أن الآية ذكرتْ الأقارب عدا الأبناء ، وكان الترتيب المنطقي أن يقول بعد أمهاتكم : أو بيوت أبنائكم ، فلماذا لم يذكر هنا بيوت الأبناء ؟ قالوا : لأنها داخلة في قوله : بيوتكم ، فبيت الابن هو بيت الأب ، والولد وما ملكتْ يداه ملْكٌ لأبيه .

ثم يقول لقمان لولده : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ .. (١٧) ﴾ [لقمان]

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إن أبي اجتاح مالي ، فقال : « أنت ومالك لأبيك » وقال رسول الله ﷺ : « إن أولادكم من أطيب كسبكم ، فكلوا من أموالهم » أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٢٩٢) وأحمد في مسنده (١/١٧٩) . واللفظ لابن ماجه .

(٢) أخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد الزهد عن عبد الله بن دينار : إن لقمان قدم من سفر فلقيه غلام في الطريق فقال : ما فعل أبي ؟ قال : مات . قال : الحمد لله ملكت أمري . [الدر المنثور ٦/٥١٩] .

الصبـر : حَمْل النفس علـى التجلُّد للأحـداث ، حتى لا تعـينَ الأحداث على نفسك بالجـزع ، فأنت أمام الأحداث تحـتاج إلى قوة مضـاعفة ، فكيف تُضعف نفسك أمامها ؟

والمصيبة تقع إما لك فيها غريم ، أو ليس لك فيها غريم ، فالذى يسقط مثلاً ، فتنكسر ساقه ، أو الذى يفاجئه المرض .. الخ هذه أقدار ساقهـا الله إليك بلا سـبب فـلا غريمَ لك فـيـها ؛ لذلك يجـعلهـا فى ميزانك : إما أنْ يعلى بها درجاتك ، وإما أنْ يُكفِّر بها سيئاتك ؛ لذلك كان الكفـار يفرحون إذا أصاب المـسلمين مصيـبة ، كما فـرحوا يوم أُحُـد ، وقد ردَّ الله عليـهم وبيَّن غـباءهم ، وقـال سـبحـانه : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا .. (٥١) ﴾ [التوبة] وتأمل الجـار والمجـرور (لنا) ولم يقُلْ كـتب علينا ، إذن : فـالمـصيـبـة فى حسـاب (له) لا (عليه) فلماذا تفرحون فى المصيبة تقع بالمسلمين ؟

وأوصى بالصـبر بعـد الأمر بالمـعـروف والنهى عن المنكر ؛ لأن الذى يتـعرض لهـذين الأمرين لا بُدَّ أن يصـيبـه سوء من جـراء أمره بالمعروف أو نَهْيه عن المنكر ، فإنْ تعرضْت للإيذاء فاصبر ؛ لأن هذا الصبر يعطيك جزاءً واسعاً .

وتغيير المنكر له مراحل وضحها النبى ﷺ فى قوله : « مَنْ رأى منكم منكراً فليُغيِّـره بيده ، فإنْ لم يستطع فبلسـانه ، فإنْ لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »[1] .

فالله أمـرك أنْ تُغيِّر المنكر ، لكن جـعل لك تقدير المسـألة ومدى

---

(١) أخرجـه مسلم فى صـحيحـه (٤٩) كتاب الإيمـان ، وأحمـد فى مسنده (٣/ ٢٠ ، ٤٩ ، ٥٢) ، والترمذى فى سننه (٢١٧٣) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

إمكانك فيها ، فالدين يـريدك مُصلحاً لكن لا يريد أنْ تلقى بنفسك إلى التهلكة ، فلك أنْ تُغـيِّر المنكر بيدكَ فتضـرب وتمنع إذا كان لك ولاية على صاحب المنكر ، كأن يكون ولدك أو أخاك .. إلخ .

فلك أن تضربه مثلاً إنْ رأيتَ سيـجارة في فمه ، أو أنْ تكسر له كأس الخـمر إنْ شربها أو تمـزق له مثلاً ورق « الكوتشـينة » ، فإنْ لم تكُنْ لك هذه الاسـتطاعـة فيكفي أنْ تُغـيِّـر بلسانك إنْ كـانت لديك الكلمـة الطيبـة التي تداوي دون أن تجرح الآخـرين ، ودون أنْ يؤدي النصح إلى فتنة ، فيكون ضرره أكثر من نفعه .

فـإنْ لم يكُنْ في اسـتطاعـتك هذه أيضـاً ، فليكُنْ تغـيـيـر المنكر بالقلـب ، فـإنْ رأيتَ منكراً لا تمـلك إلا أنَّ تقـول: اللهم إنَّ هـذا منكر لا يرضيك لكن أيُعَدُّ عمل القلب تغيـيراً للمنكر وأنت مطالب بأنْ تُغيِّره بيدك يعني : إلى ضده ؟ وهل هذه الكلمة تغير من الواقع شيئاً ؟

قالوا : لا يحـدث التغيـير بالقلب إلا إذا كان القـالب تابعاً للقلب ، فـالقلب يشـهـد أنَّ هذا منكـر لا يُرضي الله ، والقـالب يسـاند حـتى لا تكون منافقـاً ، فأنت أنكرتَ عليه الفعل ، ولا اسـتطاعة لك على أنْ تمنعه ، ولا أن تنصحه ، فلا أقلَّ من أنْ تعـزله عن حياتك وتقاطعه ، وإلاَّ فكيف تُـغـيِّـر بقلبك إنْ أنكرتَ عـليـه فـعله وأبقـيتَ على وُدِّه ومعاملته ؟

إذن : لا يكون التغيـير بالقلب إلا إذا أحسَّ صاحب المنكر أنه في عزلة ، فـلا تهنئه في فرح ، ولا تعزيه في حـزن ، وإنْ كنتَ صاحب تجارة ، فلا تَبِعْ له ولا تشتر منه .. الخ .

ومـا اسـتـشرى البـاطل وتَبجـح أهل الفسـاد وأهل المنكر إلا لأن الناس يحترمـونهم ويعاملونهم على هذه الحال ، بل ربمـا زاد احترام

الناس لهم خوفاً من باطلهم ومن ظلمهم .

فالتغيير بالقلب ليس كلمة تقال إنما فعل وموقف ، وقد علَّمنا ربنا - تبارك وتعالى - هذه القضية فى قوله سبحانه : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) ﴾ [النساء]

ويقول سبحانه في آية أخرى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) ﴾ [الأنعام]

والنبى ﷺ فى قصة الثلاثة[١] الذين خُلِّفوا بغير عذر فى غزوة تبوك ، يُعلِّمنا كيف نعزل أصحاب المنكر ، لا بأن نعزلهم فى زنزانة كما نفعل الآن ، إنما بأن نعزل المجتمع عنهم ، ليس المجتمع العام فحسب ، بل عن المجتمع الخاص ، وعن أقرب الناس إليه .

وقد تخلف عن هذه الغزوة عدة رجال اعتذروا لرسول الله فقَبِل علانيتهم وترك سرائرهم لله ، لكن هؤلاء الثلاثة لم يجدوا لأنفسهم عذراً ، ورأوا أنهم لا يستطيعون أنْ يكذبوا على رسول الله ، ولم يحبسهم الرسول ، إنما حبس المجتمع عنهم حتى الأقارب ، فكان الواحد منهم يمشى و (يتمحك) فى الناس ليكلمه أحد منهم ، فلا يكلمه أحد ، وكعب بن مالك[٢] يتسوَّر على ابن عمه الحديقة ، ويقول

---

(١) الثلاثة هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيعة العامرى .

(٢) هو : كعب بن مالك بن أبى كعب الأنصارى ، شاعر رسول الله ﷺ ، أمه ليلى بنت زيد من بنى سلمة ، كنيته أبو عبد الرحمن ، شهد العقبة مع السبعين من الأنصار ، شهد أحداً والخندق والمشاهد كلها ، ما خلا تبوك . وتاب الله عليه ، ذهب بصره فى آخر حياته ، وتوفى عام ٥٠ هـ فى خلافة معاوية ، وهو يومئذ ابن ٧٧ عاماً أى أنه ولد ٢٧ ق هـ .

له : تعلم أنى أحب الله ورسوله فلا يجيبه . ويصلى بجوار الرسول يلتمس أنْ ينظر إليه ، فلا ينظر إليه[1] .

ولما نجحت هذه المقاطعة على هذا المستوى أعلاها الشرع وتسلسل بها إلى الخصوصيات فى البيت ، فعزل هؤلاء الثلاثة عن زوجاتهم ، فأمر كلاً منهن ألاَّ يقربها زوجها إلى أن يحكم الله فى أمرهم[2] ، حتى أن واحدة[3] من هؤلاء جاءت لرسول الله وقالت : يا رسول الله ، إن زوجى رجل كهدبة الثوب (يعنى : ليست له رغبة فى أمر النساء) فأذن لها رسول الله فى أن تخدمه على ألاَّ يقربها .

ظل هؤلاء الثلاثة ثلاثين يوماً فى هذا الامتحان العام وعشرة أيام فى الامتحان الخاص ، ونجح المجتمع العام ، ونجح المجتمع الخاص، وهكذا علَّمنا الشرع كيف نعزل أصحاب المنكر وأهل الجريمة ، فعزل

---

(١) يروى لنا كعب بن مالك هذه الأيام العصيبة ، فيقول : « أما هلال بن أمية ومرارة بن الربيعة فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى : هل حرَّك شفتيه برد السلام أم لا ، ثم أصلى قريباً منه وأسارقه النظر فإذا أقبلتُ على صلاتى نظر إلىَّ ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عنى . [صحيح مسلم حديث ٢٧٦٩] كتاب التوبة .

(٢) جاء رسول من عند رسول الله ﷺ إلى كعب بن مالك يقول له : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا بل اعتزلها فلا تقربنَّها . (صحيح مسلم حديث ٢٧٦٩) .

(٣) هى : خولة بنت عاصم ، امرأة هلال بن أمية أحد الثلاثة الذين خلفوا . [قاله ابن حجر فى الفتح ٨/١٢١] ويروى مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) والبخارى فى صحيحه (٤٤١٨) أن امرأة هلال بن أمية جاءت رسول الله ﷺ وقالت : « يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ولكن لا يقربنك فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شىء ، ووالله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ».

المجتمع عنهم أبلغ من عزلهم عن المجتمع ، لذلك كان وَقْع هذه العزلة قاسياً على هؤلاء .

فهذا كعب بن مالك يحكى قصته ويقول : لقد ضاقت بى الأرض على سعتها ، والحق يقول فى وصف حالهم : ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾ [التوبة]

فلما استوى المجتمع العام والمجتمع الخاص على منهج الله فرَّج الله عن هؤلاء الثلاثة ، ونزل قوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾ [التوبة]

فأسرع أحدهم[١] يبشر كعباً بهذه البشرى فطار كعب فرحاً بها ، وقال : فوالله ما ملكتُ أنْ أخلع عليه ثيابى كلها ، ثم أستعير ثياباً أذهب بها إلى رسول الله[٢] .

إذن : ينبغى أن نعزل المجتمع كله عن أصحاب المنكر ، لا أن نعزلهم هم فى السجون ، لكن مَنْ يضمن لنا استقامة المجتمع فى تنفيذ هذه العزلة كما نفذها المجتمع المسلم على عهد رسول الله ؟

نعود إلى ما كنا نتحدث عنه من أن المصيبة إذا كانت قدراً من الله ليس لك فيها غريم ، فإن الصبر عليها هيِّن ، فالأمر بينك وبين ربك ، أما إنْ كان لك فى المصيبة غريم كأن يعتدى عليك أحد فيحرق

---

(١) هو : حمزة بن عمرو الأسلمى ، ذكره ابن حجر العسقلانى فى الفتح (شرح حديث رقم ٤٤١٨) .

(٢) قطعة من حديث كعب بن مالك الذى أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٤١٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) .

زرعك أو يقتل ولدك ، فهذه تحتاج إلى صبر أشد ، فكلما رأيتَ غريمك هاجتْ نفسك وغلى الدم فى عروقك ، فيحتاج إلى طاقة أكبر ليحمل نفسه على الصبر .

لذلك يقول سبحانه فى هذه المسألة : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى] فأكَّدها باللام ؛ لأنها تحتاج إلى طاقة أكبر من الصبر وضبط النفس حتى لا تتعدى كلما رأيت الغريم ، وهذا من المواضع التى وقف عندها المستشرقون يلتمسون فيها مأخذاً على كلام الله .

يقولون : ما الفرق بين قول القرآن ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان] وقوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى]

ثم أيهما أبلغ من الأخرى ، فإنْ كانت الأولى بليغة فالأخرى غير بليغة .

ونقول فى الرد عليهم : كل من الآيتين بليغة فى سياقها ، فالتى أُكِّدت باللام جاءت فى المصيبة التى لك فيها غريم وتحتاج إلى صبر أكبر ، أما الأخرى ففى المصيبة التى ليس لك فيها غريم ، فهى بينك وبين ربك ، والصبر عليها هيِّن يسير .

لذلك ، فالحق سبحانه يعالج هذه المسألة ليُصفِّى النفس ويمنع ثورتها ، فيقول : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى] لتقف النفس عند حدِّ الرد بالمثل ، ثم يُرقِّى المسألة ، ويفتح باباً للعفو : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى] وقال فى موضع آخر : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النحل]

فحين يبيح لك ربك أنْ تأخذ بحقك تهدأ نفسك ، وربما تتنازل عن هذا الحق بعد أن أصبح فى يدك ؛ لذلك كثيراً ما نرى - خاصة فى صعيد مصر حيث توجد عادة الأخذ بالثأر - القاتل يأخذ كفنه على يديه ، ويدخل به على ولى الدم ، ويُسلِّم نفسه إليه ، وعندها لا يملك ولى الدم إلا أن يعفو .

حتى فى مسألة القتل والقصاص يجعل الحق سبحانه مجالاً لترقية النفس البشرية وأريحيتها ، بل ويُسمِّى الطرفين إخوة فى قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

ففى هذا الجو وفى أثناء ما تسيل الدماء يُحدِّثنا ربنا عن العفو والإحسان والأخوة ، ومعلوم أن هناك فَرْقاً بين أن تأخذ الحق ، وبين أنْ تنفذ أخذ الحق بيدك .

فالله تعالى خالق النفس البشرية ويعلم ما جُبلَتْ عليه من الغرائز وما تُكنّه من العواطف ، وما يستقر فيها من القيم والمبادىء ، لكنه - سبحانه وتعالى - لا يبنى الحكم على ارتفاع المناهج فى الإنسان ، إنما على ضوء هذه الطبيعة التى خلقه عليها ، فليس الخَلْق كلهم على درجة من الورع تدعوهم إلى العفو والصفح ؛ لذلك أعطاك حقَّ الرد بالمثل على مَن اعتدى عليك ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى] وقال ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

ومع ذلك حين تتأمل هذه الآيات تجد أن تنفيذها من الصعوبة بمكان ، فمَنْ لديه القدرة والمقاييس الدقيقة التى تُوقِفه عند حدِّ المثلية التى أمر الله بها ؟

وسبق أنْ بيَّنا : أنه إذا اعتدى عليك شخص وضربك مثلاً ، أتستطيع أنْ تضربه مثل ضربته لا تزيد عليها ، لأنك إنْ زدتَ صرْتَ ظالماً ، واقرأ بقية الآية : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى]

وسبق أنْ ذكرنا قصة المرابى اليهودى الذى اتفق مع مدينه على أنْ يقطع من جسمه رطلاً ، إذا لم يُؤدِّ فى الموعد المحدد ، وفعلاً جاء موعد السداد ، ولم يَفِ المدين ، فرفع اليهودى أمره إلى القاضى وأخبره بشرطه - وكان القاضى مُوفَّقاً قد نوَّر الله بصيرته ، فقال لليهودى : نعم لك حَقٌّ فى أن تُنفذ ما اتفقنا عليه ، وسأعطيك السكين على أنْ تأخذ من المدين رطلاً من لحمه فى ضربة واحدة ، بشرط إذا زدتَ عنها أو نقصتَ أخذناه من لحمك .

وعندها انصرف اليهودى ؛ لأن المثلية لا يمكن أن تتحقق ، فكأن الله تعالى بهذا الشرط - شرط المثلية فى الردِّ - يلفت انتباهك إلى أن العفو أوْلَى بك وأصلح .

إذن : يُحدِّثنا الحق - تبارك وتعالى - عن العفو وعن الإحسان فى المصيبة التى لك فيها غريم ، ويبين لنا أنك إذا أخذتَ حقك الذى قرره لك فقد أرحتَ نفسك ، لكن حرمتها الأجر الذى تكفَّل الله لك به إنْ أنت عفوتَ .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يولد من أسباب البغضاء أسباباً للولاء ، فالذى كان من حقك أنْ تقتله ثم عفوتَ عنه أصبحتْ حياته ملْكاً لك ، فهل يفكر لك فى سوء بعدها ؟

لذلك يُعلِّمنا ربنا : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت]

وأذكر أننى جاءنى مَنْ يقول : والله أنا دفعتُ بالتى هى أحسن مع خصمى ، فلم أجده ولياً حميماً كما قال الله تعالى ، فقلت له : عليك أن تراجع نفسك ؛ لأنك ظننتَ أنك دفعتَ بالتى هى أحسن ، لكن الواقع غير ذلك ، ولو دفعتَ بالتى هى أحسن لَصدق الله معك ، ورأيت خَصْمك ولياً حميماً ، إنما أنت تريد أنْ تُجرِّب مع الله والتجربة مع الله شكٌّ .

والنبى ﷺ يُعلِّمنا أنْ نبقى على يقين التوكل سارياً دون أنْ نفكر كيف يحدث ، وقصة الصحابية أم مالك[١] شاهدَة على ذلك ، فقد كان عندها غنم تحلب لبنها ، فتصنع مما زاد عن حاجتها وحاجة أولادها زبداً ، وكانت تهدى منه إلى رسول الله فى عكة[٢] عندها ، فكان أهل بيت رسول الله يُفرغون هذه العكة فى آنيتهم ، ثم يعيدونها إليها وهكذا .

حتى قالت أم مالك[٣] : والله ما أصبتُ إداماً إلا من هذه العكة ، وكانت كلما احتاجت الإدام أفرغتْ العكة ، فوجدت بها الإدام حتى بعد أن أفرغها أهل بيت الرسول ، لكن خُيِّل لها فى يوم من الأيام أنها أسرفت فى استعمال هذه العكة ، وظنت أن ما بها من إدام قد نفد ، فأخذتها وعصرتها ، فلم تجد فيها شيئاً ، فظنت أن رسول الله غاضب

---

(١) هى : أم مالك الأنصارية . ذكرها ابن حجر العسقلانى فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (٢٧٨/٨) .

(٢) العكة : أصغر من القربة للسمن ، وهو زُقَيْق صغير . [لسان العرب ـ مادة : عكك] .

(٣) حديث مسلم (٢٢٨٠) عن جابر بن عبد الله أن أم مالك كانت تهدى للنبى ﷺ فى عكة لها سمناً ، فيأتيها بنوها فيسألون الأُدْم ، وليس عندهم شىء ، فتعمد إلى الذى كانت تهدى فيه للنبى ﷺ ، فتجد فيه سمناً ، فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته ، فأتت النبى ﷺ فقال : عصرتيها ؟ قالت : نعم . قال : لو تركتيها ما زال قائماً .

منهـا ، فـذهبت إليه وقـصَّتْ عليـه هذه المـسـألة ، فقـال لهـا ﷺ : « أعَصرتيـها يا أم مالك ؟ » فقالت : نعم يا رسول الله ، فـأخبرها أن التجـربة مع الله شكٌّ وأنها لو لم تعـصرها ولم تظن هذا الظن لبـقيتْ العُكَّة على حالها ، وكما تعودت منها[1] .

وتلحظ أن كلمـة (أصابك) والمصـيبـة تدل على أنها واقـعة بك ولن تنجو منها ؛ لأنها قدر أرسل إليك بالفعل ، وسيصيبك لا محالة ، والمـسألة مـسـألة وقت إلى أنْ يصلك هذا السـهم الذى أُطلق عليك ، فإياك أنْ تقـول : لو أنى فعلت كذا لكان كـذا ، فما سُـمِّيت المصيـبة بهذا الاسم إلا لأنهـا صائبتك لا تستطـيع أنْ تفرَّ منها . كمـا يقولون عن المـوت : تأكد أنـك ستـموت ، وعـمـرك بمقـدار أنْ يصلك سـهم الموت .

وكلمة ﴿ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان] نقـول : فلان له عـزم ، ونسمع القرآن يقول : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .. ﴿١٥٩﴾ ﴾[آل عمران] العزم : الفرض المـقطوع به ، والذى لا مناصَ عنه ، ومنه ما جاء فى قول لقمان لما خـيَّره ربه بين أن يكون رسولاً أو حكيـماً ، فاخـتار الراحة وترك الابتلاء ، لكنه قـال : يا رب إنْ كانت عزمةٌ منك فسـمعاً وطاعة ، يعنى : أمراً مفروضاً ينبغى ألاَّ نحيد عنه .

والعزم يعنى شحن كل طاقات النفـس للفعل والقطع به ، فالصلاة على الميت مثلاً لا تُسمَّى عزيمة ؛ لأنهـا فرض كفاية إنْ فعلها البعض سقطتْ عن الباقـين ، على خلاف الصلاة التامة فى السفـر مثلاً حيث يعتبـرها الإمام أبو حنيفة عـزيمة لا رخصة ، فإن أتـممت الصلاة فى

(١) قال النووى فى شـرحه لصحـيح مسلم (١٥/٤٦) : « قال العلمـاء : الحكمة فى ذلك أن عصرها مضاد للتسليم والتوكل على رزق الله تعـالى ويتضمن التدبير والأخذ بالحول والقوة وتكلُّف الإحاطة بأسرار حكم الله تعالى وفضله فعوقب فاعله بزواله » .

السفر أسأت[1] ، عملاً بقول النبي ﷺ : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه »[2] .

والمعنى : لا ترد يد الله المبسوطة لك بالتيسير في الصلاة أثناء السفر .

ثم يعتمد في هذا الرأى على دليل آخر من علم الأصول هو أن الصلاة فُرِضَتْ في الأصل مثنى مثنى ، ثم أقرت في السفر وزيدت في الحضرِ . إذن : فصلاة السفر مع الأصل ، فلو أتممتَ الصلاة في السفر أسأتَ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾

معنى : تصعر من الصَّعَر ، وهو في الأصل داء يصيب البعير يجعله يميل برقبته ، ويشبه به الإنسان المتكبر الذي يميل بخدِّه ، ويُعرض عن الناس تكبّراً ، ونسمع في العامية يقولون للمتكبر (فلان ماشي لاوى رقبته) .

فقول الله تعالى ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ..﴿١٨﴾ ﴾ [لقمان] واختيار

---

(١) الحنفية والمالكية متفقون على أن قصر الصلاة الرباعية في السفر سنة مؤكدة ، ولكنهم مختلفون في الجزاء المترتب على تركه . فالحنفية يقولون : من أتم يكون مسيئاً بترك الواجب ، وهو إن كان لا يعذب على تركه بالنار ، ولكنه يُحرم من شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة . أما المالكية فيقولون : إذا تركه المسافر فلا يُؤاخذ على تركه ، ولكنه يحرم من ثواب السنة المؤكدة فقط ، ولا يحرم من شفاعة النبي » [الفقه على المذاهب الأربعة ١/٤٧١] دار إحياء التراث العربي .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/١٠٨) وابن حبان (٥٤٥ ، ٩١٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

هذا التشبيه بالذات كأن الحق سبحانه يُنبِّهنا أن التكبُّر وتصعير الخدِّ داء ، فهذا داء جسدى ، وهذا داء خلقى . وقد تنبه الشاعر إلى هذا المعنى فقال :

فَدَعْ كُلَّ طَاغِيةٍ للزَّمانِ فإنَّ الزمانَ يُقيم الصَّعَر

يعنى : إذا لم يستطع أبناء الزمان تقويم صعر المتكبر ، فدعْه للزمان فهو جدير بتقويمه ، وكثيراً ما نرى نماذج لأناس تكبروا وتجبروا ، وهم الآن لا يستطيع الواحد منهم قياماً أو قعوداً ، بل لا يستطيع أنْ يذب الطير عن وجهه .

والإنسان عادة لا يتكبر إلا إذا شعر فى نفسه بميزة عن الآخرين ، بدليل أنه إذا رأى مَنْ هو أعلى منه انكسر وتواضع وقوَّم من صَعره ، ومثَّلنا لذلك بـ (فتوة) الحارة الذى يجلس على القهوة مثلاً واضعاً قدماً على قدم ، غير مُبَال بأحد ، فإذا دخل عليه (فتوة) آخر أقوى منه نجده تلقائياً يعتدل فى جلسته .

وهذه المسألة تفسر لنا الحكمة التى تقول (اتق شر من أحسنت إليه) لماذا ؟ لأن الذى أحسنتَ إليه مرتْ به فترة كان ضعيفاً محتاجاً وأنت قوى فأحسنتَ إليه ، وقدَّمْتَ له المعروف الذى قوَّم حياته فأصبح لك يَدٌ عليه ، وكلما رآك ذكَّرته بفترة ضعفه ، ثم إن الأيام دُوَل تدور بين الخلْق ، والضعيف يصبح قوياً ويحب أنْ يُعلى نفسه بين معارفه ، لكنه لا بُدَّ أن يتواضع حينما يرى مَنْ أحسن إليه ، وكأن وجود مَنْ أحسن إليه هو العقبة أمام عُلُوِّه وكبريائه ؛ لذلك قيل : (اتق شر من أحسنت إليه) .

ثم إن الذى يتكبر ينبغى أنْ يتكبَّر بشىء ذاتى فيه لا بشىء موهوب له ، وإذا رأيتَ فى نفسك ميزة عن الآخرين فانظر فيما تميزوا هم به عليك ، وساعة تنظر إلى الخلْق والخالق تجد كل مخلوق لله جميلاً .

لذلك تروى قصة الجارية التى كانت تداعب سيدتها ، وهى تزينها وتدعو لها بفارس الأحلام ابن الحلال ، فقالت سيدتها : لكنى مشفقة عليك ؛ لأنك سوداء لن ينظر أحد إليك ، فقالت الجارية : يا سيدتى ، اذكرى أن حُسْنك لا يظهر لأعين الناس إلا إذا رأوا قُبْحى ـ فالذى تراه أنت قبيحاً هو فى ذاته جميل ، لأنه يبدى جمال الله تعالى فى طلاقة القدرة ـ ثم قالت : يا هذه ، لا تغضبى الله بشىء من هذا ، أتعيبين النقش ، أم تعيبين النقاش ؟ ولو أدركت ما فىَّ من أمانة التناول لك في كل ما أكلف به وعدم أمانتك فيما يكلفك به أبوك لعلمت في أى شىء أنا جميلة .

ويقول الشاعر فى هذا المعنى :

فَالوَجْه مِثْلُ الصُّبْح مُبيضٌ   والشَّعْر مثْل الليْل مُسْوَدُّ
ضدَّانِ لما اسْتجْمعَا حَسُناَ   والضِّد يُظْهِر حُسْنَهُ الضدُّ

والله تعالى يُعلِّمنا هذا الدرس فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ .. ⑪ ﴾ [الحجرات]

فإذا رأيتَ إنساناً دونك فى شىء ففتش فى نفسك ، وانظر ، فلا بُدَّ أنه متميز عليك في شىء آخر ، وبذلك يعتدل الميزان .

فالله تعالى وزَّع المواهب بين الخلْق جميعاً ، ولم يحابِ منهم أحداً على أحد ، وكما قلنا : مجموع مواهب كل إنسان يساوى مجموع مواهب الآخر .

وسبق أن ذكرنا أن رجلاً قال للقمان : لقد عرفناك عبداً أسود غليظ الشفاه ، تخدم فلاناً وترعى الغنم ، فقال لقمان : نعم ، لكنى

أحمل قلباً أبيض ، ويخرج من بين شفتيَّ الغليظتين الكلام العذب الرقيق(١) .

ويكفى لقمان فخراً أن الله تعالى ذكر كلامه ، وحكاه فى قرآنه وجعله خالداً يُتْلَى ويُتعبَّد به ، ويحفظه الله بحفظه لقرآنه .

ولنا ملْحظ فى قوله تعالى ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ .. (١٨)﴾ [لقمان] فكلمة للناس هنا لها مدخل ، وكأن الله تعالى يقول لمن يُصعِّر خده : لا تَدْعُ الناس إلى العصيان والتمرد على أقدار الله بتكبُّرك عليهم وإظهار مزاياك وستْر مزاياهم ، فقد تصادف قليلَ الإيمان الذى يتمرد على الله ويعترض على قدره فيه حينما يراك متكبراً متعالياً وهو حقير متواضع ، فإنْ كنت محترف صَعَر و (كييف) تكبُّر ، فليكُنْ ذلك بينك وبين نفسك ، كأن تقف أمام المرآة مثلاً وتفعل ما يحلو لك مما يُشْبع عندك هذا الداء .

فكأن كلمة ﴿لِلنَّاسِ .. (١٨)﴾ [لقمان] تعنى : أن الله تعالى يريد أنْ يمنع رؤية الناس لك على هذا الحال ؛ لأنك قد تفتن الضعاف فى دينهم وفى رضاهم عن ربهم .

ثم يقول لقمان : ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا .. (١٨)﴾ [لقمان] المرح هو الاختيال والتبختر ، فربُّكَ لا يمنعك أنْ تمشى فى الأرض ، لكن يمنعك أنْ تمشى مشْية المتعالى على الناس ، المختال بنفسه ، والله تعالى يأمرنا : ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)﴾ [الملك]

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٥٢١٧/٧) : « قال لرجل ينظر إليه : إن كنت ترانى غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق ، وإن كنت ترانى اسود فقلبى ابيض » .

فالمشى فى الأرض مطلوب ، لكن بهيئة خاصة تمشى مَشْياً سوياً معتدلاً ، فعمر ـ رضى الله عنه ـ رأى رجلاً يسير متماوتاً فنهره ، وقال : ما هذا التماوت يا هذا ، وقد وهبك الله عافية ، دَعْها لشيخوختك[1] .

ورأى رجلاً يمشى مشية الشطار[2] ـ يعنى : قُطَّاع الطرق ـ فنهاه عن القفز أو الجرى والإسراع فى المشى .

إذن : المطلوب فى المشى هيئة الاعتدال ، لذلك سيأتى فى قول لقمان ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ.. ⑲﴾ [لقمان] يعنى : لا تمشِ مشية المتهالك المتماوت ، ولا تقفز قفز أهل الشر وقُطَّاع الطريق .

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ⑱﴾ [لقمان] المختال : هو الذى وجد له مزية عند الناس ، والفخور الذى يجد مزية فى نفسه ، والله تعالى لا يحب هذا ولا ذاك ؛ لأنه سبحانه يريد أنْ يحكم الناس بمبدأ المساواة ليعلم الناس أنه تعالى ربُّ الجميع ، وهو سبحانه المتكبِّر وحده فى الكون ، وإذا كان الكبرياء لله وحده فهذا يحمينا أنْ يتكبَّر علينا غيره ، على حدِّ قول الناظم :

والسُّجُود الذى تَجْتويه   من أُلُوفِ السُّجُودِ فيه نَجَاةُ

فسجودنا جميعاً للإله الحق يحمينا أن نسجد لكل طاغية ولكل

---

(١) أورده الغزالى فى الإحياء (٢٩٦/٣) أنه يُروى عن عمر بن الخطاب « أنه رأى رجلاً يطأطىء رقبته ، فقال : يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ، ليس الخشوع فى الرقاب إنما الخشوع فى القلوب » .

(٢) الشطار : جمع شاطر ، وهو الذى أعيا أهله ومؤدبه خبثاً . قال أبو إسحاق : قول الناس فلان شاطر معناه أنه أخذ فى نحو غير الاستواء ، ولذلك قيل له شاطر لأنه تباعد عن الاستواء . [لسان العرب ـ مادة : شطر] .

متكبر متجبر ، فكأن كبرياء الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى صالح العباد .

ثم يقول الحق سبحانه على لسان لقمان عليه السلام :

﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾

القصد : هو الإقبال على الحدث ، إقبالاً لا نقيضَ فيه لطرفين ، يعنى : توسطاً واعتدالاً ، هذا فى المشى ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ .. (١٩) ﴾ [لقمان] أى : اخفضه وحَسْبك من الأداء ما بلغ الأذن .

لكن ، لماذا جمع السياق القرآنى بين المشى والصوت ؟ قالوا : لأن للإنسان مطلوبات فى الحياة ، هذه المطلوبات يصل إليها ، إما بالمشى ـ فأنا لا أمشى إلى مكان إلا إذا كان لى فيه مصلحة وغرض ـ وإما بالصوت فإذا لم أستطع المشى إليه ناديته بصوتى .

إذن : إما تذهب إلى مطلوبك ، أو أنْ تستدعيه إليك . والقصد أى التوسط فى الأمر مطلوب فى كل شىء ؛ لأن كل شىء له طرفان لا بُدَّ أن يكون فى أحدهما مبالغة ، وفى الآخر تقصير ؛ لذلك قالوا : كلا طرفى قصد الأمور ذميم .

ثم يقول سبحانه مُشبِّهاً الصوت المرتفع بصوت الحمار : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾ [لقمان] والبعض يفهم هذه الآية فهماً يظلم فيه الحمير ، وعادة ما يتهم البشرُ الحميرَ بالغباء وبالذلة ، لذلك يقول الشاعر :

وَلاَ يُقيم علَى ضَيْمٍ يُرَادُ به … إلاَّ الأذلاَّنِ عَيْرُ الحيِّ والوَتِدُ

هذا على الخسْف مربوطٌ برمته وذَا يُشَدُّ فَلاَ يَرْثِى لَهُ أَحَدُ

ونعيب على الشاعر أن يصف عيرَ الحى - والمراد الحمار - بالذلة ، ويقرنه فى هذه الصفة بالوتد الذى صار مضرب المثل فى الذلة حتى قالوا (أذلّ من وتد) لأنك تدقّ عليه بالآلة الثقيلة حتى ينفلق نصفين ، فلا يعترض عليك ، ولا يتبرم ولا يغيثه أحد ، فالحمار مُسخَّر ، وليس ذليلاً ، بل هو مذلَّل لك من الله سبحانه .

ولو تأملنا طبيعة الحمير لوجدنا كم هى مظلومة مع البشر ، فالحمار تجعله لحمل السباخ والقاذورات ، وتتركه ينام فى الوحل فلا يعترض عليك ، وتريده دابة للركوب فتنظفه وتضع عليه السَّرْج ، وفى فمه اللجام ، فيسرع بك إلى حيث تريد دون تذمر أو اعتراض .

وقالوا فى الحكمة من علو صوت الحمار حين ينهق : أن الحمار قصير غير مرتفع كالجمل مثلاً ، وإذا خرج لطلب المرعى ربما ستره تلّ أو شجرة فلا يهتدى إليه صاحبه إلا إذا نهق ، فكأن صوته آلة من آلات البادية الطبيعية ولازمة من لوازمه الضرورية التى تناسب طبيعته .

لذلك يجب أن نفهم قول الله تعالى : ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ⑲﴾ [لقمان] فنهيق الحمار ليس مُنكَراً من الحمار ، إنما المنكر أن يشبه صوت الإنسان صوت الحمار ، فكأن نهيق الحمار كمال فيه ، وصوتك الذى يشبهه مُنكَر مذموم فيك ، وإلا فما ذنب الحمار ؟

إنك تلحظ الجمل مثلاً وهو أضخم وأقوى من الحمار إذا حمَّلته حمْلاً فإنه (ينعَّر) إذا ثقل عليه ، أما الحمار فتُحمِّله فوق طاقته فيَحمل دون أنْ يتكلم أو يبدى اعتراضاً ، الحمار بحكم ما جعل الله فيه من الغريزة ينظر مثلاً إلى (القناة) فإنْ كانت فى طاقته قفز ،

وإنْ كانت فوق طاقته امتنع مهما أجبرته على عبورها .

أما الإنسان فيدعوه غروره بنفسه أنْ يتحمّل مَالا يطيق . ويُقال : إن الحمار إذا نهق فإنه يرى شيطاناً[1] ، وعلمنا بالتجربة أن الحيوانات ومنها الحمير تشعر بالزلزال قبل وقوعه ، وأنها تقطّع قيودها وتفرّ إلى الخلاء ، وقد لوحظ هذا فى زلزال أغادير بالمغرب ، ولاحظناه فى زلزال عام ١٩٩٢ م عندما هاجت الحيوانات فى حديقة الحيوان قبيل الزلزال .

ثم إن الحمار إنْ سار بك فى طريق مهما كان طويلاً فإنه يعود بك من نفس الطريق دون أنْ تُوجِّهه أنت ، ويذهب إليه مرة أخرى دون أنْ يتعدَّاه ، لكن المتحاملين على الحمير يقولون : ومع ذلك هو حمار لأنه لا يتصرف ، إنما يضع الخطوة على الخطوة ، ونحن نقول : بل يُمدح الحمار حتى وإنْ لم يتصرف ؛ لأنه محكوم بالغريزة .

كذلك الحال فى قول الله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا .. ۝ ﴾ [الجمعة]

فمتى نثبت الفعل وننفيه فى آن واحد ؟ المعنى : حملوها أى : عرفوها وحفظوها فى كتبهم وفى صدورهم ، ولم يحملوها أى : لم يؤدوا حق حملها ولم يعملوا بها ، مثلهم فى ذلك ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا .. ۝ ﴾ [الجمعة] فهل يُعَدُّ هذا ذَماً للحمار ؟ لا ، لأن الحمار مهمته الحمل فحسب ، إنما يُذَمّ منهم أنْ يحملوا كتاب الله

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً ، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان فإنه رأى شيطاناً » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٠٣) ، وأحمد فى مسنده (٢/٣٠٧ ، ٣٢١ ، ٣٦٤) .

ولا يعملوا به ، فالحمار مهمته أنْ يحمل ، وأنت مهمتك أنْ تفقه ما حملت وأنْ تؤديه .

فالاعتدال في الصوت أمر ينبغي أن يتحلى به المؤمن حتى في الصلاة وفي التعبد يُعلِّمنا الحق سبحانه : ﴿ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء] أما ما تسمعه من (الجعر) في مكبرات الصوت والنُّواح طوال الليل فلا ينالنا منه إلا سخط المريض وسخط صاحب العمل وغيرهم ، ولقد تعمدنا عمل إحصاء فوجدنا أن الذين يأتون إلى المسجد هم هم لم يزيدوا شيئاً بـ (الميكروفونات) .

كذلك الذين يرفعون أصواتهم بقراءة القرآن في المساجد فيشغلون الناس ، وينبغي أن نترك كل إنسان يتقرب إلى الله بما يخفّ على نفسه : هذا يريد أنْ يصلي ، وهذا يريد أن يُسبِّح أو يستغفر ، وهذا يريد أنْ يقرأ في كتاب الله ، فلماذا تحمل الناس على تطوعك أنت ؟

بعد أنْ عرضتْ لنا الآيات طرفاً من حكمة لقمان ووصاياه لولده تنقلنا إلى معنى كوني جديد :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

التسخير : هو الانقياد للخالق الأعلى بمهمة يؤديها بلا اختيار في

التنقُّل منها ، كما سخر الله الشمس والقمر .. إلخ ، فعلى الرغم من أن كثيراً من الناس منصرفون عن الله وعن منهج الله لم تتأبَّ الشمس فى يوم من الأيام أنْ تشرق عليهم ، ولا امتنع عنهم الهواء ، ولا ضنَّتْ عليهم الأرض بخيراتها ولا السماء بمائها ، لماذا ؟ لأنها مُسخَّرة لا اختيارَ لها .

ولا نفهم من ذلك أن الله سخَّر هذه المخلوقات رغماً عنها ، فهذا فهم سطحى لهذه المسألة ، حيث يرى البعض أن الإنسان فقط هو الذى خُيِّر ، إنما الحقيقة أن الكون كله خُيِّر ، وهذا واضح فى قول الله تعالى :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

إذن : فالجميع خُيِّر ، خُيِّرت السموات والأرض والجبال فاختارت أن تكون مُسخَّرة لا إرادةَ لها ، وخُيِّر الإنسان فاختار أنْ يكون مختاراً ؛ لأن له عقلاً يفكر به ويقارن بين البدائل .

ومعنى التسخير أنك لا تستطيع أن تخضع ما ينفعك من الأشياء فى الكون بعقلك ولا بإرادتك ولا بالمنهج ، والدليل على ذلك أنك إذا صدْتَ طيراً وحبسته فى قفص ومنعته من أنْ يطير فى السماء وتريد أنَ تعرف : أهو مُسخَّر لك أم غير مسخر وحبسه حلال أم حرام ؟ فافتح له باب القفص ، فإنْ ظلَّ فى صحبتك فهو مُسخَّر لك ، راضٍ عن بقائه معك باللقمة التى يأكلها أو المكان الذى أعددتَهُ له ، وإنْ خرج وترك صحبتك فاعلم أنه غير مُسخَّر لك ، ولا يحقُّ لك أنْ تستأنسه رغماً عنه .

لذلك سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ لما مَرَّ بغلام صغير يلعب بعصفور أراد أنْ يُعلِّمه درساً وهو ما يزال (عجينة) طيِّعة ، فأقنعه

أنْ يبيعه العصفور ، فلما اشتـراه عمر وصار فى حوزته أطلقه ، فقال الغلام : فو الله ما قَصَرْتُ بعدها حيواناً على الأنس به .

وسبق أنْ تكلمنا عن مسألة التسخير ، وكيف أن الله سخر الجمل الضخم بحيث يسوقه الصبى الصغير ولم يُسخِّر لك مثلاً البرغوث فلو لم يُذلِّل الله لك هذه المخلوقات ويجعلها فى خدمتك ما استطعت أنت تسخيرها بقوتك .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. (٢٠) ﴾ [لقمان] أسبغ : أتمّ وأكمل ، ومنها قوله تعالى عن سيدنا داود : ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ .. (١١) ﴾ [سبأ] أى : دروعاً ساترة محكمة تقى لابسها من ضربات السيوف وطعنات الرماح ، والدروع تُجعل على الأعضاء الهامة من الجسم كالقلب والرئتين ، وقد علَّم الله تعالى داود أن يصنع الدروع على هيئة الضلوع ، ليست ملساء ، إنما فيها نتوءات تتحطم عليها قوة الضربة ، ولا تتزحلق فتصيب مكاناً آخر .

ورُوِى أن لقمان رأى داود - عليه السلام - يعجن الحديد بين يديه فتعجب ، لكنه لم يبادره بالسؤال عما يرى وأمهله إلى أن انتهى من صنعته للدرع ، فأخذه ولبسه وقال : نِعْمَ لَبُوس الحرب أنت ، فقال لقمان : الصمت حُكْمٌ وقليل فاعله[1] فظلَت حكمة تتردد إلى آخر الزمان .

فمعنى أسبغ علينا النعمة : أتمها إتماماً يستوعب كل حركة

---

(١) أخرج العسكرى فى الأمثال والحاكم والبيهقى فى شعب الإيمان عن أنس أن لقمان عليه السلام كان عبداً لداود ، وهو يسرد الدرع ، فجعل يفتله هكذا بيده ، فجعل لقمان عليه السلام يتعجب ويريد أن يسأله وتمنعه حكمته أن يسأله ، فلما فرغ منها صبها على نفسه وقال : نِعْمَ درع الحرب هذه . فقال لقمان : الصمت من الحكمة وقليل فاعله ، كنت أردت أن أسألك فسكت حتى كفيتنى .

حياتكم ، ويمدكم دائماً بمقوِّمات هذه الحياة بحيث لا ينقصكم شيء ، لا في استبقاء الحياة ، ولا في استبقاء النوع ؛ لأن الذي خلق سبحانه يعلم كل ما يحتاجه المخلوق .

أما إذا رأيتَ قصوراً في ناحية ، فالقصور من ناحية الخَلْق في أنهم لم يستنبطوا من معطيات الكون ، أو استنبطوا خيرات الكون ، لكن بخلوا بها وضنُّوا على غيرهم ، وهذه هي آفة العالم في العصر الحديث ، حيث تجد قوماً قعدوا وتكاسلوا عن البحث وعن الاستنباط ، وآخرين جدُّوا ، لكنهم بخلوا بثمرات جدهم ، وربما فاضتْ عندهم الخيرات حتى ألقَوْها في البحر ، وأتلفوها في الوقت الذي يموت فيه آخرون جوعاً وفقراً .

إذن : فآفة العالم ليس في أنه لا يجد ، إنما في أنه لا يحسن استغلال ما يجد من خيرات ، ومن مُقوِّمات لله تعالى في كونه . فقوله تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [لقمان] هذه حقيقة لا ينكرها أحد ، فهل تنكرون أنه خلقكم ، وخلق لكم من أنفسكم أزواجاً منها تتناسلون ؟

هل تنكرون أنه خلق السموات بما فيها من الكواكب والمجرَّات ، وخلق الليل فيه منامكم ، والنهار وفيه سعيكم على معايشكم ؟ ثم في أنفسكم وما خلقه فيكم من الحواس الظاهرة وغير الظاهرة ، وجعل لكل منها مجالاً ومهمة تؤديها دون أنْ تشعر أنت بما أودعه الله في جسمك من الآيات والمعجزات ، وكل يوم يطلع علينا العلم بجديد من نعَم الله علينا في أنفسنا وفي الكون من حولنا .

فمعنى ﴿ ظَاهِرَةً .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [لقمان] أي : التي ظهرتْ لنا ﴿ وَبَاطِنَةً .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [لقمان] لم نصل إليها بعد ، ومن نِعَم الله علينا ما ندركه ، ومنها ما لا ندركه .

تأمل فى نفسك مـثلاً الكليتين وكيف تعـمل بداخلك وتصفى الدم من البولينا ، فتنقيه وأنت لا تشعر بها ، وأول ما فكر العلماء فى عمل بديل لها حال فشلهـا صمموا جهازاً يملأ حجرة كـبيرة ، كانت نصف هذا المسـجد من المعدات لتعـمل عمل الكليتين ، ثم تبين لهم أن الكُلْية عبارة عن مليون خلية لا يعمل منها إلا مائة بالتناوب .

وقالوا : إن الفشل الكُلَوى عبارة عن عـدم تنبه المائة خلية المناط بها العمل فى الوقت المناسب يعنى المائة الأولى أدَّتْ مهمتها وتوقفت دون أنْ تتنبه الـمائة الأخرى ، ومن هندسـة الجسم البـشرى أن خلق الله للإنسان كليتين ، حتى إذا تعطلت إحداهما قامت الأخرى بدورها .

أما الـنعم الباطنة فـمنه ما يُكتـشف فى مسـتقـبل الأيام من آيات ونِعَم ، فـمنذ عـدة سنوات أو عدة قـرون لم نكُنْ نعـرف شـيئـاً عن الكهرباء مثـلاً ، ولا عن السيارات وآلات النقل وعصر العـجلة والبخار .. إلخ .

كلهـا نِعَم ظاهرة لنا الآن ، وكـانت مـسـتورة قـبل ذلك أظهـرها النشاط العلمى والبحث والاستنباط من معطيات الكون ، وحين تحسب مـا أظهره العلم من نِـعَم الله تجده حـوالى ٣٪ ونسـبة ٩٧٪ عـرفهـا الإنسان بالصدفة .

وقلنا : إن أسرار الله ونعمـه فى كونه لا تتناهى ، وليس لأحد أن يقول : إن مـا وضـعه الله فى الأرض من آيات وأسـرار أدى مهمـته ؛ لأنه باق ببقـاء الحياة الدنيـا ، ولا يتوقف إلا إذا تحقَّق قـوله تعالى :
﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا

أمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا[1] كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ .. (٢٤) ﴾ [يونس]

وفى الآخرة سنرى من آيات الله ومن عجائب مخلوقاته شيئاً آخر ، وكأن الحق تعالى يقول لنا : لقد رأيتُم آياتى فى الدنيا واستوعبتموها ، فتعالوا لأُريكم الآيات الكبرى التى أعددتها لكم فى الآخرة .

ففى الآخرة سأنشئكم نشأة أخرى ، بحيث تأكلون ولا تتغوَّطون ولا تتألمون ، وتمر عليكم الأعوام ولا تشيبون ، ولا تمرضون ، ولا تموتون ، لقد كنتم فى الدنيا تعيشون بأسبابى ، أما فى الآخرة فأنتم معى مع المسبِّب سبحانه ، فلا حاجة لكم للأسباب ، لا لشمس ولا لقمر ولا .. إلخ .

لذلك نقول : من أدب العلماء أنْ يقولوا اكتشفنا لا اخترعنا ؛ لأن آيات الله ونعَمه مطمورة فى كونه تحتاج لمن يُنقِّب عنها ويستنتجها مما جعله الله فى كونه من معطيات ومقدمات .

وسبق أنْ قلنا : إن كل سرٍّ من أسرار الله فى كونه له ميلاد كميلاد الإنسان ، فإذا حان وقته أظهره الله ، إما ببحث العلماء وإلا جاء مصادفة تكرُّماً من الله تعالى على خَلْقه الذين قَصُرَت جهودهم عن الوصول إلى أسراره تعالى فى كونه .

وفى هذا إشارة ومقدمة لأنْ نؤمن بالغيب الذى أخبرنا الله به ، فما دُمْنا قد رأينا نعَمه التى كانت مطمورة فى كونه فينبغى علينا أنْ نؤمنَ بما يخبرنا به من الغيب ، وأنْ نأخذَ من المُشاهَد دليلاً على ما غاب .

---

(١) من هذا قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)﴾ [الأنبياء] أى : كالزرع المحصود . أى : أهلكناهم . [القاموس القويم ١/١٥٦] .

واقرأ في هذه المسألة قول الله تعالى : ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة] أي : شاء سبحانه أنْ يوجد هذا الغيب ، وأن يظهر للناس بعد أنْ كان مطموراً ، فإنْ صادف بحثاً جاء مع البحث ، وإنْ لم يصادف جاء مصادفة وبلا أسباب ، بدليل أنه نسب إحاطة العلم لهم .

أما الغيب الذي ليس له مُقدِّمات توصل إليه ، ولا يطلع عليه إلا الله فهو المعنيّ بقوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧) ﴾ [الجن]

وقال سبحانه ﴿ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. (٢٠) ﴾ [لقمان] لأن الظاهرة تلفتنا إلى الإيمان بالله واجب الوجود الأعلى ، والباطنة يدخرها الله لمن يأتي بعد ، ثم يدخر ادخاراً آخر ، بحيث لا يظهر إلا حين نكون مع الله في جنة الله .

وقد حاول العلماء أن يُعدِّدوا النعم والآيات الظاهرة والباطنة ، فالظاهرة ما يعطيه لنا في الدنيا ظاهراً ، والباطنة ما أخبرنا الله بها ، فمثلاً حين تريد الجهاد في سبيل الله تُعدُّ لذلك عُدَّته من سلاح وجنود .. الخ وتأخذ بالأسباب ، فيؤيدك الله بجنود من عنده لم تروْها ، كما قال سبحانه : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ .. (١٢) ﴾ [الأنفال]

والرسول ﷺ يخبرنا ببعض هذه النعم الباطنة ، فيقول : « للمؤمن ثلاثة هي له وليست له - يعني ليست من عمله - أما الأولى : أن المؤمنين يصلون عليه ، وأما الثانية فجعل الله له ثلث ماله يوصي به - يعني : لا يتركه للورثة إنما يتصرف هو فيه ، وكان المنطق أن تستفيد بما لك وأنت حيٌّ ، فإذا ما انتهيت فليس لك منه شيء وينتقل إلى الورثة يوزعه الله تعالى بينهم بالميراث الذي

شرعـه ، فمن الـنعم أن يباح لك التـصرف في ثلث مـا لك توصى به لتُكفّر بـه عن سيئـاتك وتُطَهر به ذنوبك ـ أمـا الثالثـة : أن الله تعالى سـتر مـساويك عن خَلْـقه ، ولو فـضحك بهـا لنبـذك أهلك وأحبـابك وأقرباؤك »[1] .

إن من أعظم الـنعم علينـا أن يحـجـب الله الغـيـب عن خَلْق الله ، ولو خيَّرتَ أيَّ إنســان : أتحب أن تعرف غَيْب الناس ويعرفـوا غيبك ؟ فلا شكَّ في أنه لن يرضى بذلك أبداً .

والنبي ﷺ يوضـح هذه المـسـألة فـي قـوله : « لو تكاشــفـتم ما تدافنتم » يعني : لو ظهر المستور من غيب الإنسان ، واطلع الناس على مـا في قلبه لتـركوه إنْ مـات لا يدفنونه ، ولقالوا دَعُـوه للكلاب تأكله ، جزاءً له على ما فعل .

لكن لما سـتر الله غيوب النـاس وجدنا حتى عدو الإنســان يُسرع بحمله ودفنه ، كما قال القائل : محا الموت أسباب العداوة بيننا . لكن من غباء الإنسان أن ينبشَ عن عيـوب الآخرين ، وأنْ يتتبعَ عوراتهم ، فهل ترضـى أنْ يعـاملك الناس بالمثل ، فيتتـبعون عوراتك ، ويبـحثون عن عيوبك ؟

ثم إن سيئة واحدة يعرفـها الناس عنك كفيلة بأن تُزهِّدهم في كل

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. ۝٢٠﴾ [لقمـان] قال : أما الظاهرة فالإسـلام وما سوَّى من خلقك ومـا أسبغ عليك من رزقه . وأمـا الباطنة فـما سـتـر من مساوىء عـملك ، يا ابن عبـاس إن الله تعالى يقول : ثلاث جعلـتهن للمؤمن . صلاة المؤمنيـن عليه من بعده ، وجعلت له ثلث مـاله أكفر عنه من خطاياه ، وسـتـرت عليه من مسـاوىء عمله فلم أفضـحه بشيء منها ، ولو أبديتـها لنبـذه أهله فمن سـواهم » أخرجـه ابن مردويه والبـيـهـقي والديلمي وابن النجـار . [ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٥٢٥]

حسناتك ، والله تعالى يريد أنْ ينتفع الناس بعضهم ببعض ليثرى حركة الحياة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ⑳ ﴾ [لقمان]

المجادلة : الحوار فى أمر ، لكل طرف فيه جنود ، وكل منهم لا يؤمن برأى الآخر ، والجدل لا يكون إلا فى سبيل الوصول إلى الحقيقة ، ويسمونه الجدل الحتمى ، وهذا يكون موضوعياً لا لَدَدَ فيه ، ويعتمد على العلم والهدى والكتاب المنير ، وفيه نقابل الرأى بالرأى ليثمر الجدال .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ㊻ ﴾ [العنكبوت] أما الجدل الذى يريد فيه كل طرف أنْ يُعلى رأيه ولو بالباطل فهو مماراة وسفسطة لا توصل إلى شيء .

والجدل مأخوذ من الجَدْل أى الفَتْل ، والشيء حين يُفتل على مثله يقويه ، كذلك الرأى فى الجدل يُقوِّى الرأى الآخر ، فإذا ما انتهيا إلى الصواب تكاتفا على إظهاره وتقويته ، فالجدل المراد به تقوية الحق وإظهاره .

فإنْ كان الجدل غير ذلك فهو مماراة يحرص فيها كل طرف على أن يعلى رأيه ولو بالباطل .

والحق سبحانه يبين لنا أن من الناس من ألِفَ الجدل فى الله على غير علم ولا هُدىً ولا كتاب منير ، فيقولون مثلاً فى جدالهم : أللكون إله موجود ؟ وإنْ كان موجوداً ، أهو واحد أم متعدد ؟ وإنْ كان موجوداً أيعلم الجزئيات أم الكليات ؟ أيزاول مُلْكه كل وقت ؟ أم أنه

خلق القوانين ، ثم تركها تعمل فى الكون وتُسيِّره ؟ كأن الله تعالى زاول سلطانه في الملْك مرة واحدة .

ومعلوم أن الله تعالى قيُّوم أى : قائم على أمر الخَلْق كله فى كل وقت ، والدليل على ذلك هذه المعجزات التى خرقتْ النواميس لتدلّ على صدْق الرسل في البلاغ عن الله ، كما عرفنا فى قصة إحراق إبراهيم ـ عليه السلام ـ فلو أن المسألة إنجاء إبراهيم من النار لما مكّنهم الله منه ، أو مكّنهم منه ومن إلقائه في النار ، ثم أرسل على النار سحابة تُطفئها .

لكن أراد سبحانه أن يشعلوا النار ، وأنْ يُلقوا بإبراهيم فيها ، ومع ذلك يخرج منها سالماً ليروْا بأعينهم هذه المعجزة الخارقة لقانون النار ليكبتهم الله ، ولا يعطيهم الفرصة ليخدعوا الناس ، ولو أفلتَ إبراهيم من قبضتهم لوجدوا هذه الفرصة ولقالوا : لو أمسكنا به لفعلنا به كذا وكذا .

ومعنى ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [لقمان] العلم أن تعرف قضية وتجزم بها ، وهى واقعة وتستطيع أنْ تُدلِّل عليها ، فإنْ كانت القضية التى تؤمن بها غير واقعة ، فهذا هو الجهل ، فالجاهل لا يوضع فى مقابل العالم ؛ لأن الجاهل لديه علم بقضية لكنها باطلة ، وهذا يتعبك فى الإقناع ؛ لأنه ليس خالى الذهن ، فيحتاج أولاً لأنْ تُخرج من ذهْنه القضية الباطلة وتُحل محلها القضية الصحيحة ، أما الأُمىّ فهو خَالى الذِّهن من أى قضيةَ .

فإنْ كانت القضية التى تجزم بها واقعة لكن لا تستطيع أنْ تُدلِّل عليها ، كالولد الصغير الذى علمناه أن (الله أحد) واستقرتْ فى ذهنه هذه المسألة ؛ لأن أباه أو معلمه لقَّنه هذه القضية حتى أصبحتْ

عقيدة عنده ، فالذى يُدلِّل عليها مَنْ لقّنها لـه إلى أنْ يكبر ، ويستطيع هو أن يُدلِّل عليها .

والعلم أنواع ، منها وأولها : العلم البدهى الذى نصل إليه بالبديهة دون بحث ، فمثلاً حين نرى الإنسان يتنفس نعلم أنه حيٌّ بالبديهة ، ونعلم أن الواحد نصف الاثنين ، وأن السماء فوقنا ، والأرض تحتنا .. الخ .

وإذا نظرتَ إلى معلومات الأرض كلها تجد أن أم هذه المعلومات البديهة . فعلم الهندسة مثلاً يقوم على نظريات تستخدم الأولى منها مقدمة لإثبات الثانية ، والثانية مقدمة لإثبات الثالثة وهكذا .

فحين تعيد تسلسل النظريات الهندسية فإنك لا بُدَّ عائد إلى النظرية الأولى وهى بديهة تقول : إذا التقى مستقيم بآخر نتج عن هذا الالتقاء زاويتان قائمتان .

إذن : فأعقد النظريات لا بُدَّ أن تعود إلى أمر بدهى منثور فى كون الله ، المهم مَنْ يلتفت إليه ، وقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

فقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ .. (٢٠) ﴾ [لقمان] أى : وجوداً وصفاتاً ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) ﴾ [لقمان] يعنى : أن الجدل يصحّ إنْ كان بعلم وهدى وكتاب منير ، فإنْ كان بغير ذلك فلا يُعَدُّ جدلاً إنما مراء لا طائلَ من ورائه .

ومعنى الهدى : أى الاستدلال بشىء على آخر ، كالعربى الذى ضلَّ فى الصحراء ، فلما رأى على الرمال بَعْراً وأثراً لأقدام استأنس

بهـا ، وعلم أنـه على طريق مطروق ولا بُدَّ أن يمـرَّ بـه أحـد ، فلمـا عرضتْ له قضية الإيمان استدل عليها بما رأى فقال[1] :

البعـرة تدل على البعيـر ، والقدم تدل على المسير ، سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجـاج ، نجوم تزهر ، وبحـار تزخر[2] .. ألاَ يدل ذلك على اللطيف الخبير ؟

فـالإنسـان حـين ينظر فى الكون وفى آياتـه لا بُدَّ أنْ يصل من خلالها إلى الخـالق عز وجل ، فما كان لهـا أنْ تتأتى وحدها ، ثم إنه لم يدِّعها أحدٌ لنفسه مـمَّنْ ينكرون وجود الله ، وقلنا : إن أتفه الأشياء التى نراها لا يمكن أن توجـد هكذا بدون صانع ، فـمثـلاً الكوب الذى نشرب فيه ، هل رأينا مثلاً شجرة تطرح لنا أكواباً ؟

إذن : لا بُدَّ أن لها صانعاً فكر فى الحاجة إليها ، فصنعها بعد أنْ كان الإنسان يشرب الماء عباً[3] أو نزحاً بالكف ، وما توصلنا إلى هذا الكوب الرقيق النظيف إلا بعـد بحث العلماء فى عناصر الوجـود ، أيها يمكن أنْ يعطينى هـذه الزجاجـة الشـفافـة ، فوجـدوا أنهـا تُصنَع من الرمل بعد صَهْره تحت درجة حرارة عالية ، فـهذا الكوب الذى يمكن

---

(١) هو : قس بن سـاعدة بن عـمرو الإيادى ، أحـد حكمـاء العرب ، ومن كـبار خطبـائهم فى الجاهلية ، كـان أسقف نجران ، طالت حياته وأدركه النبى ﷺ قـبل النبوة ، ورآه فى سوق عكاظ . توفى نحو ٢٣ ق هـ . [الأعلام للزركلى ٥/١٩٦] .

(٢) هـذا الجزء من خطبة خطبها قس فى سوق عكاظ : أيها الناس ، اسمعوا وعُوا ، فإذا وعيتم فانتفعوا ، إنه من عاش مـات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، وأرزاق وأقوات .. إن فى السـماء لخـبراً ، وإن فى الأرض لعـبراً ، ليلٌ داج ، وسـماء ذات أبراج ، وأرض ذات رتاج ، وبحار ذات أمواج . [ذكرها البيهقى فى دلائل النبوة ٢/١٠٨] .

(٣) العب : شرب المـاء من غير مصٍّ . وقـيل : أن يشرب الماء ولا يتنفس . [لسـان العرب ـ مادة : عبب] .

أنْ نستغنى عنه أخذ منا خبرة وقدرة وعلماً .. إلخ .

فمـا بالك بالشـمس التى تنير الكـون كله منذ خلق الله هذا الكون دون أنْ تكلّ أو تملَّ أو تتـخـلف يومـاً واحـداً ، وهى لا تحـتـاج إلى صيـانة ولا إلى قطعة غـيار ، أليـست جديرة بأنْ نسـأل عمَّنْ خلقـها وأبدعـها على هذه الصـورة ؟ خـاصة وأنهـا فـوق قدرتنا ولا تنالهـا إمكاناتنا .

هذه هى الآيات التى نأخـذها بالأدلة ، لكـن هذه الأدلة لا تُوصِّلنا إلا إلى أن لهذا الكون بآياته العجيبة خالقاً مبدعاً ، لكن العقل لا يصل بى إلى هذا الخـالق : مَنْ هو ، وما اسمـه ، إذن : لا بُدَّ من بلاغ عن الله على يد رسـول يبلغنا مَنْ هذا الخـالق وما اسـمه ومـا مطلوباته ، وماذا أعدّ لمن أطاعه ، وماذا أعدَّ لمن عصاه .

وفَرْق بين التـعقُّل والتصـوُّر ، والذى أتعب الفلاسـفة أنهم خلطوا بينهما ، فـالتعقل أن أنظر فى آيات الكون ، وأرى أن لها مـوجداً ، أمّا التصـور فبـأنْ أتصور هذا المـوجِد : شكله ، اسـمه ، صفـاته .. إلخ وهذه لا تتـأتـى بالعـقل ، إنمـا بالرسـول الذى يأتى مـن قـبَل الإله الموجِد .

وسبق أن ضـربنا مثلاً ـ ولله تعالى المـثل الأعلى ـ قلنا : لو أننا نجلس فى مـكان مـغلق ، وطرق البـاب طارق ، فكلنـا يتـفق على أن طارقـاً بالباب لا خـلاف فى هذه ، لكن نختلف فى تـصوُّره ، فـواحد يتصور أنه رجل ، وآخر يقول : طفل ، وآخـر يتصوَّره امرأة ، وواحد يتصوره بشيراً ، وآخر يتصوره نذيراً .. إلخ .

إذن : اتفقنا فى التعقُّل ، واخـتلفنا فى التصور ، ولكى نعرف مَن الطارق فعليـنا أن نقول : من الطارق ؟ ليعلن هو عـن نفسه ويخـبرنا

مَنْ هو ؟ ولماذا جاء ؟ ويُنهي لنا هذا الخلاف .

كذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ هو الذي يخبرنا عن نفسه ، لكن كيف يتم ذلك ؟ من خلال رسول من البشر يستطيع أنْ يتجلى الله عليه بالخطاب ، بأن يكون مُعداً لتلقِّي هذا الخطاب ، لا أنْ يخاطب كل الناس .

وقد مثَّلْنا لذلك أيضاً (بلمبة) الكهرباء الصغيرة أو (الراديو) الذي لا يتحمل التيار المباشر ، بل يحتاج إلى (ترانس) أو منظم يعطيه الكهرباء على قَدْره وإلا حُرق ، فحتى في الماديات لابد من قوى يستقبل ليعطي الضعيف .

والحق سبحانه يُعد من خَلْقه مَنْ يتلقى عنه ، ويُبلِّغ الناس ، فيكلم الله الملائكة ، والملائكة تكلم الرسل من البشر ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا .. (٥١)﴾ [الشورى]

وإلا لو كلَّم الله جميع البشر ، فما الحاجة للرسل ؟ لذلك لما سُئل الإمام على رضى الله عنه : أعرفتَ ربك بمحمد ، أم عرفتَ محمداً بربك ؟ فقال : لو عرفتُ ربي بمحمد لكان محمد أوثقَ عندي من ربي ، ولو عرفتُ محمداً بربي ، فما الحاجة إذن للرسل ؟ لكن عرفتُ ربي بربي ، وجاء محمد ، فبلَّغني مراد ربي مني . إذن : لا بُدَّ من هذه الواسطة .

والحق سبحانه يعطينا في القرآن مثالاً يوضح هذه المسألة في قوله تعالى عن سيدنا موسى : ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ .. (١٤٣)﴾ [الأعراف] فبماذا أجابه ربه ؟ ﴿قَالَ لَن تَرَانِي .. (١٤٣)﴾ [الأعراف] ولم يقل سبحانه : أنا لا أُرَى ، والمعنى : لو أعددتُكَ الإعدادَ المناسب لهذه الرؤية لرأيتَ بدليل أننا سنُعَدُّ في الآخرة على هيئة نرى فيها الله عز وجل : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة]

وفى المقابل يقول عن الكفار الذين سيُحرمون هذه الرؤية : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المطففين]

ثم لما تجلى الحق سبحانه للجبل ، وهو الجنس الأقوى من موسى مادةً وصلابة اندكَّ الجبل ، ونظر موسى إلى الجبل المتجلَّى عليه فخرَّ صَعقاً ، فما بالك لو نظر إلى المتجلِّى سبحانه ؟

إذن : الحق سبحانه حينما يريد أنْ يخاطب أحداً من خَلْقه ، أو يتجلى عليه يُعدُّه لذلك ، ويُربِّيه على عينه ، كما قال عن موسى ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه] وقال فى موضع آخر : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ﴾ [طه] ثم يقوم هذا المربى الذى رباه الله بتربية الخَلْق .

وقد ربى محمد ﷺ أمته فى ثلاث وعشرين سنة ، ولو أن الله تعالى خاطب كل إنسان بالمنهج لاستغرقتْ تربية الناس وقتاً طويلاً ؛ لذلك يصطفى الله الرسل ، ويعطيهم من الخصائص ما يُمكِّنهم من تربية الأمم بعد أنْ ربَّاهم الله ، واصطنعهم على عينه .

إذن : كان ولا بُدَّ من إرسال الرسل للبلاغ عن الله : مَنْ هو ، ما اسمه ؟ ما صفاته ؟ ما مطلوباته ؟ ماذا أعدَّ لمن أطاعه ؟ وماذا أعد لمن عصاه .. إلخ . لذلك فأول دليل على بطلان الشرك أنْ تقول للذى يشرك الشمس أو القمر أو الأصنام مع الله فى العبادة : وماذا قالت لك هذه الأشياء ؟ ما مطلوباتها ؟ ما مرادها منك ؟ وإلا ، فلماذا تعبدها والعبادة فى أوضح معانيها : طاعة العابد لأمر المعبود ونهيه ؟

فإنْ قُلْتَ : إذن لماذا قَبِلَتْ عقول هؤلاء القوم أنْ يعبدوا هذه الأشياء ؟ نقول : لأن التديُّن طبيعة فى النفس البشرية ومركوز فى الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وسبق أنْ أوضحنا أن كلاً منا فيه ذرة حية من أبيه آدم - عليه السلام - لم يطرأ عليها الفناء ، وإلا لما وُجِد الإنسان ، وهذه الذرة فى كل منا هى التى شهدتْ الفطرة ،

وشهدتْ الخلقَ ، وشـهدتْ العهد الذى أخذه الله علينا جميعاً ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

فإنْ حافظتَ على إشراقية هذه الذرة فيك ، ولم تُعرِّضها لما يطمس نورها - ولا يكون ذلك إلا بالسير على منهج خالقك وبناء لبنات جسمك مما أحل الله - إنْ فعلتَ ذلك أنار الله وجهك وبصيرتك .

لذلك جاء فى الحديث أن العبد يشكو : يقول « دعوتُ فلم يُستجب لى ، لكن أنَّى يستجاب له ، ومطعمه من حرام ، ومشربه من حرام ، وملبسه من حرام؟ »[1] كيف وقد طمس الذرة النورانية فيه ، وغفل عن قانون صيانتها ؟ واقرأ قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طه]

فالمعيشة الضنك والعياذ بالله تأتى حين تنطمس النورانية الإيمانية ، وحين لا تحافظ على إشراقية هذه الذرة التى شهدتْ خَلْق الله ، وشهدتْ له بالربوبية ، ولو حافظت عليها لظلّتْ كل التعاليم واضحة أمامك ، وما غفلت عن منهج ربك هذه الغفلة التى جرَّتْ عليك المعيشة الضنك ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩) ﴾ [الأنفال] أى : نوراً يهديكم وتُفرِّقون به بين الحق والباطل .

والحق سبحانه يوضح لنا ما يطمس الفطرة الإيمانية ، وهما

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٥) عن أبي هريرة قال قال ﷺ : « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ [المؤمنون] وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [البقرة] ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء ، يا رب ، يا رب ومطعمه حرام ، ومشربه حرام وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يُستجاب لذلك ؟ » .

أمران : الغفلة والتى قال الله عنها : ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢)﴾ [الأعراف] والقدوة التى قال الله عنها : ﴿ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ .. (١٧٣)﴾ [الأعراف]

فالذى يطمس الفطرة الإيمانية الغفلة عن المنهج ، هذه الغفلة تُوجِد جيلاً لا يتمسك بمنهج الحق ، وبذلك تكون العقبة فى الجيل الأول الغفلة ، لكن فى الأجيال اللاحقة الغفلة والقدوة السيئة ، وهكذا كلما تنقضى الأجيال تزداد الغفلة ، وتزداد القدوة السيئة ؛ لذلك يوالى الحق سبحانه إرسال الرسل ليزيح عن الخَلْق هذه الغفلة ، وليوجد لهم من جديد قدوةً حسنة ، ليقارنوا بين منهج الحق ومنهج الخَلْق .

فمَنْ أراد أنْ يجادل فى الله فليجادل بعلم وبهدى وبكتاب منير مُنزَّل من عند الله ، ووَصْف الكتاب بأنه منير يدلُّنا على أن الكتاب المنسوب إلى الله تعالى لا بُدَّ أن يكون منيراً ؛ لكنه قد يفقد هذا النور بما يطرأ عليه من تحريف وتبديل ونسيان وكتمان .. إلخ .

وقد أوضح الله تعالى هذه المراحل فى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ .. (٤٤)﴾ [الأنعام]

ثم : ﴿يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ .. (١٥٩)﴾ [البقرة]

وإن كان الإنسان يُعذَر فى النسيان ، فلا يُعذَر فى الكتمان ، ثم الذى نجا من النسيان ومن الكتمان وقع فى التحريف ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ .. (١٣)﴾ [المائدة] ولَيْتهم اقتصروا على ذلك ، إنما اختلقوا من عند أنفسهم كلاماً ، ثم نسبوه إلى الله : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ .. (٧٩)﴾ [البقرة] فأنواع الطمس هذه أربعة ظهرت كلها فى اليهود .

إذن : فالكتب التى بأيديهم لا تصلح للجدل فى الله ؛ لأنها تفقد العلم والحجة والهدى ، ولا تُعَدُّ من الكتاب المنير المشرق الذى يخلو من التضبيبات والفجوات ، فجوات النسيان والكتمان ، والتحريف والاختلاق .

فمَنْ يريد أنْ يجادل فى الله فليجادل بناء على علم بدهىٍّ أو هدى استدلالى ، أو كتاب منير . والكتب المنزلَّة كثيرة ، منها صحف إبراهيم وموسى ، ومنها زُبُر[1] الأولين ، والزبور نزل على سيدنا داود ، والتوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى - عليهم جميعاً السلام - وهذه كلها كتب من عند الله ، لكن هل طرأ عليها حالة عدم الإنارة ؟

نقول : نعم ، لأنها انطمست بشهوات البشر فيها وبأهوائهم التى شوَّهتها وأخرجتها عن الإشراقية والنورانية التى كانت لها ، وهذا نتيجة السلطة الزمنية وهى أقسى شىء فى تغيير المناهج .

هذه السلطة الزمنية هى التى منعتْ اليهود أن يؤمنوا برسول الله ، وهم يعلمون بعثته فى بلاد العرب ، ويعلمون موعده وأوصافه ، وأنه ﷺ خاتم الرسل ؛ لذلك يقول القرآن عنهم : ﴿ **يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (٢٠)** ﴾ [الأنعام]

ويقول عنهم : ﴿ **وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)** ﴾ [البقرة] لذلك ، سيدنا عبد الله بن سلام يقول عن سيدنا رسول الله : والله لقد عرفتُه حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد[2] .

---

(١) الزُّبُر : جمع زبور ، وهو الكتاب . زَبَر الكتاب يزبره : كتبه فهو مزبور ، وزبور : أى مكتوب . [القاموس القويم ١/٢٨٣] .

(٢) يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه » ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/١٩٤) .

ويحكى القرآن عن أهل الكتاب أنهم كانوا يستفتحون برسول الله على الكفار فيقولون لهم : لقد أظل زمان نبى جديد نسبقكم إليه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم[1] ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة]

لماذا ؟ لأنهم يعلمون أنه سيسلبهم المكانة التى كانت لهم ، والريادة التى أخذوها فى العلم والاقتصاد والحرب .. إلخ ، لقد كانوا يُعِدُّون واحداً[2] منهم ليُنصِّبوه ملكاً عليهم فى المدينة ليلة هاجر إليها رسول الله ، فلما دخلها رسول الله لم تَعُد لأحد مكانة الريادة بعد رسول الله ، فرفض هذا الملك الجديد .

إذن : فكل الكتب السماوية لحقها التحريف والتغيير ، فلم يضمن لها الحق سبحانه الصيانات التى تحميها كما حمى القرآن ، وما ذاك إلا ليظهر شرف النبى الخاتم ، فالكتب السابقة للقرآن جاءت كتبَ أحكام ، ولم تكن معجزة فى ذاتها ، فالرسل السابقون كانت لهم معجزات منفصلة عن الكتب وعن المنهج ، فموسى عليه السلام معجزته : العصا واليد .. إلخ وكتابه ومنهجه التوراة ، وعيسى عليه السلام معجزته أنْ يُبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله وكتابه ومنهجه الإنجيل .

أما محمد ﷺ فمعجزته وكتابه ومنهجه هو القرآن ، فهو منهج

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق عن أشياخ من الأنصار .

(٢) هو عبد الله بن أُبىّ بن سلول . قال سعد بن عبادة لرسول الله ﷺ : إنا والله يا رسول الله ، لقد كنا قبل الذى خصنا الله به منك ، ومنَّ علينا بقدومك ، أردنا أن نعقد على رأس عبد الله بن أبىٍّ التاج . ونملكه علينا . [أورده البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٥٠٠)] .

ومعجزة ستصاحب الزمان إلى أنْ تقوم الساعة ؛ لأن رسالته هى الرسالة الخاتمة ، فلا بُدَّ أن يكون كتابه ومعجزته كذلك فنقول : هذا محمد وهذه معجزته .

أما الرسالات السابقة فكانت المعجزة وقتية لمن رآها وعاصرها ، ولولا أن الله أخبرنا بها ما عرفنا عنها شيئاً ، وما صدَّقنا بها ، وسبق أنْ شبَّهناها بعود الكبريت الذى يشعل مرة واحدة رآه مَنْ رآه ، ثم يصبح خبراً ؛ لذلك لا نستطيع أن نقول مثلاً : هذا موسى عليه السلام وهذه معجزته ؛ لأننا لم نَرَ هذه المعجزة .

ولما كانت الكتب السابقة كتباً تحمل المنهج ، وليست معجزة فى ذاتها ترك الله تعالى حفظها لأهلها الذين آمنوا بها ، وهذا أمر تكليفى عُرْضة لأنْ يُطاع ، ولأنْ يُعصَى ، فكان منهم أنْ عصوا هذا الأمر فحدث تضبيب فى هذه الكتب .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ .. (٤٤) ﴾ [المائدة]

وساعة تسمع الهمزة والسين والتاء ، فاعلم أنها للطلب : استحفظتُك كذا يعنى : طلبتُ منك حفْظه ، مثل : استفهمتُ يعنى طلبت الفهم ، واستخرجت ، واستوضحت .. إلخ .

فلما جُرِّب الخَلْق فى حفظ كلام الخالق فلم يؤدوا ، ولم يحفظوا ، تكفَّل الله سبحانه بذاته بحفظ القرآن ، وقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

لذلك ظلَّ القرآن كما نزل لم تَنَلْه يد التحريف أو الزيادة

أو النقصان ، وصدق الله تعالى حين قال في أول سوره ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ .. ② ﴾ [البقرة] لا الآن ، ولا بعد ، ولا إلى قيام الساعة ، حتى أن أعداء القرآن أنفسهم قالوا : لا يوجد كتاب مُوثَّق في التاريخ إلا القرآن .

والعجيب في مسألة حفْظ القرآن أن الذي يحفظ شيئاً يحفظه ليكون حجة له ، لا حجة عليه ، كما تحفظ أنت الكمبيالة التي لك على خصمك ، أما الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فقد ضمن حفْظ القرآن ، والقرآن ينبيء بأشياء ستوجد فيما بعد ، والحق سبحانه لا يحفظ هذا ويُسجِّله على نفسه ، إلا إذا ضمن صدْق وتحقُّق ما أخبر به وإلا لما حفظه ، إذن : فحفْظ الحق سبحانه للقرآن دليل على أنه لا يطرأ شيء في الكون أبداً يناقض كلام الله في القرآن : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ㊇ ﴾ [النساء]

وسبق أنْ قُلنا : إن القرآن حكم في أشياء مستقبلية للخلق فيها اختيار ، فيأتي اختيار الخلْق وفق ما حكم ، مع أنهم كافرون بالقرآن، مكذبون له ، ومع ذلك لم يحدث منهم إلا ما أخبر الله به ، وكان بإمكانهم أنْ يمتنعوا ، لكن هيهات فلا يتم في كون الله إلا ما أراد .

لكن ، ماذا نفعل فيمَنْ يجادل في الله بغير علم ولا هُدىً ولا كتاب منير ؟ نلفته إلى العلم ، وإلى الهدى ، وإلى الكتاب المنير .

ندعوهم إلى النظر في الآيات الكونية ، وفي البدهيات التي تثبت وجود الخالق عز وجل ، ندعوهم إلى الهدى ، والاستدلال وإلى النظر في المعجزة التي جاء بها رسول الله ، ألم يخبر وهو في شدة الحصار الذي ضربه عليه وعلى آله كفار مكة حتى اضطروهم إلى أكل الميتة وأوراق الشجر .. إلخ.

ألم يُخبر القرآن في هذه الأثناء بقوله تعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] حتى أن سيدنا عمر ليتعجب : أيُّ جمع هذا ؟ ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟ فلما جاء يوم بدر ورأى بعينه ما حاق بالكفار قال : صدق الله ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر]

ألم يقل القرآن عن الوليد بن المغيرة[١] ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ [القلم] وفعلاً ، لم يعرفوا الوليد يوم بدر بين القتلى إلا بضربة على خرطومه[٢] . ألم يُشِرْ رسول الله قبل المعركة إلى مصارع القوم ، فيقول وهو يشير إلى مكان بعينه : هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان[٣] ، ثم تأتي المعركة ويُقتل هؤلاء في نفس الأماكن التي أشار إليها سيدنا رسول الله ﷺ .

والحق سبحانه أعطانا في القرآن أشياء تدل على أنه كتاب يُنوِّر لنا الماضي ، ويُنوِّر لنا الحاضر والمستقبل . وسبق أنْ قُلْنا : إن

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (٨/٦٦٢) : « اختلف في الذي نزلت فيه ، فقيل هو الوليد بن المغيرة وذكره يحي بن سلام في تفسيره ، وقيل : الأسود بن عبد يغوث ذكره سنيد بن داود في تفسيره ، وقيل : الأخنس بن شريق وذكره السهيلي عن القتيبي » .

(٢) عن ابن عباس في قوله ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [القلم] قال : رجل من قريش كانت له زنمة زائدة مثل زنمة الشاة يعرف بها . قال السيوطي في الدر المنثور (٨/٢٤٩) : « أخرجه البخاري والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم » وعن ابن عباس أيضاً في قوله ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ [القلم] : قاتل يوم بدر فخطم بالسيف في القتال . ولم يذكر أنه الوليد بن المغيرة .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٩) من حديث أنس رضي الله عنه ، وأحمد في مسنده (٣/٢١٩ ، ٢٥٨) أن رسول الله ﷺ قال : « هذا مصرع فلان » ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا ، قال : فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ .

الغيب دونه حجب الزمان ، أو حجب المكان ، فما سبقك من أحداث يحجبها عنك حجاب الزمان الماضى ، وما سيحدث فى المستقبل يحجبه عنك حجاب الزمان المستقبل ، أما الحاضر الذى تعيشه فيحجبه عنك المكان ، بل وقد تكون فى نفس المكان وتجلس معى ، لكنك لا تعرف ما فى صدرى مثلاً .

وكل هذه الحجب خرقها الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، فمثلاً فى غزوة مؤتة[١] لما بعث النبى ﷺ جيشه إليها ، وبقى هو فى المدينة قال : حين وزَّع القيادة : يحمل الراية فلان ، فإذا قُتل يحملها فلان ، فإذا قُتل يحملها فلان وسمَّى هؤلاء الثلاثة ، ثم قال : فإذا قُتل الثالث فاختاروا من بينكم مَنْ يحملها[٢] .

وجلس النبى ﷺ بين أصحابه فى المدينة ، وأخذ يصف لهم المعركة وصفاً تفصيلياً ، فلما عاد الجيش من مؤتة وجدوا واقع المعركة وفق ما أخبر به النبى ﷺ وهو فى المدينة .

وقد نبهتنا هذه المسألة إلى السر فى تسمية مؤتة (غزوة) وكانوا لا يقولون غزوة إلا للتى شهدها رسول الله بنفسه ، أما التى لا يخرج فيها فتسمّى (سرية) فلما أخبر ﷺ بما يدور فى المعركة مع بُعد المسافات اعتبرها المسلمون غزوة .

بل وأبلغ من ذلك ، فالحق سبحانه كشف لرسوله ﷺ ما يدور

(١) وقعت غزوة مؤتة فى جمادى الأولى عام ٨ هجرية ، ومؤتة : قرية من أرض البلقاء من الشام ، وتسمى أيضاً غزوة جيش الأمراء ، وقد كانت غزوة شديدة ، استشهد فيها جعفر ابن أبى طالب ، وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، قاتلوا فيها الروم .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٢٦٢) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٤/٣٦٦) وفيه أن رسول الله ﷺ نعاهم قبل أن يجيء الخبر .

في نفوس قومه[1] : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

هذه كلها من آيات الإنارة في القرآن التي استوعبتْ الماضي والحاضر والمستقبل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾

كلمة ﴿ مَا أَنزَلَ اللَّهُ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [لقمان] عامة تشمل كل الكتب المنزَّلة ، وأقرب شيء في معناها أن نقول : اتبعوا ما أنزل الله على رسلكم الذين آمنتم بهم ، ولو فعلتم ذلك لَسلَّمتم بصدق رسول الله وأقررتم برسالته .

أو : يكون المعنى ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [لقمان] أي : تصحيحاً للأوضاع ، واعرضوه على عقولكم وتأملوه .

لكن يأتي ردهم : (بَلْ) وبل تفيد إضرابهم عما أنزل الله ﴿ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴿٢١﴾ ﴾ [لقمان] وفي آية أخرى ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة]

---

(١) قال ابن كثير في تفسير هذه الآية (٤/٣٢٣) : أي يفعلون هذا ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام وإنما هو شتم في الباطن ومع هذا يقولون في أنفسهم : لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له في الباطن لأن الله يعلم ما نسره ، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة في الدنيا فقال الله تعالى : ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة] .

فما الفرق بين (وجدنا) و (ألفينا) وهما بمعنى واحد ؟ قالوا: لأن أعمار المخاطبين مختلفة في صُحْبة آبائهم والتأثر بهم ، فبعضهم عاش مع آبائه يُقلِّدهم فترة قصيرة ، وبعضهم عاصر الآباء فترة طويلة حتى ألف ما هم عليه وعشقه ؛ لذلك قال القرآن مرة (أَلْفَيْنَا) ومرة (وَجَدْنَا) .

والاختلاف الثاني نلحظه في اختلاف تذييل الآيتين ، فمرة يقول : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة] ومرة أخرى يقول : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة]

فما الفرق بين : يعقلون ويعلمون ؟

الذي يعقل هو الذي يستطيع بعقله أنْ يستنبط الأشياء ، فإذا لم يكن لديه العقل الاستنباطي عرف المسألة ممَّنْ يستنبطها ، وعليه فالعلم أوسع دائرة من العقل ؛ لأن العقل يعلم ما عقله ، أما العلم فيعلم ما عقله هو وما عقله غيره ، فقوله (يَعْلَمُونَ) تشمل أيضاً (يَعْقِلُونَ) .

إذن : إذا نُفي العقل لا يُنْفَى العلم ؛ لأن غيرك يستنبط لك فالرجل الريفي البسيط يستطيع أن يدير التلفزيون مثلاً ويستفيد به ويتجول بين قنواته ، وهو لا يعرف شيئاً عن طبيعة عمل هذا الجهاز الذي بين يديه ، إنما تعلَّمه من الذي يعلمه ، فالإنسان يعلم ما يعقله بذاته ، ويعلم ما يعقله غيره ، ويؤديه إليه ؛ لذلك فنَفْي العلم دليل على الجهل المطبق الذي لا أملَ معه في إصلاح الحال .

ونلحظ أيضاً أن القرآن يقول هنا : ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (٢١) ﴾ [لقمان] ، وفي موضع آخر يقول : ﴿ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٠٤) ﴾ [المائدة] فقولهم : نتبع ما وجدنا عليه آباءنا

فيه دلالة على إمكانية اتباعهم للحق ، فالإنكار هنا بسيط ، أما الذين قالوا ﴿حَسْبُنَا.. (١٠٤)﴾ [المائدة] يعني : يكفينا ولا نريد غيره ، فهو دلالة على شدة الإنكار ؛ لذلك في الأولى نفى عنهم العقل ، أما في الأخرى فنفى عنهم العلم ، فعَجُز الآيات يأتي مناسباً لصدرها .

وهنا يقول تعالى في تذييل هذه الآية ﴿أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١)﴾ [لقمان] لأن آباءهم ما ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه من عبادة الأصنام والكفر بالله إلا بوسوسة الشيطان ، فالشيطان قَدْر مشترك بينهم وبين آبائهم .

وهذا يدلنا على أن منافذ الإغواء مرة تأتي من النفس ، ومرة تأتي من الشيطان ، وبهما يُطمس نور الإيمان ونور المنهج في نفس المؤمن .

وسبق أنْ بينَّا أنك تستطيع أن تفرق بين المعصية التي تأتيك من قبَل الشيطان ، والتي تأتيك من قبَل نفسك ، فالشيطان يريدك عاصياً على أيِّ وجه من الوجوه ، فإذا تأبيْتَ عليه في ناحية نقلك إلى ناحية أخرى .

أما النفس فتريد معصية بعينها تقف عندها لا تتحول عنها ، فالنفس تميل إلى شيء بعينه ، ويصعب عليها أنْ تتوبَ منه ، ولكل نفس نقطة ضعف أو شهوة تفضلها ؛ لذلك بعض الناس لديهم كما قلنا (طفاشات) للنفوس ؛ لأنهم بالممارسة والتجربة يعرفون نقطة الضعف في الإنسان ويصلون إليه من خلالها ، فهذا مدخله كذا ، وهذا مدخله كذا .

لكن نرى الكثيرين ممن يقعون في المعصية يُلْقون بالتبعة على

الشيطان ، فيقول الواحد منهم : لقد أغوانى الشيطان ، ولا يتهم نفسه ، وهذا يكذّبه الحديث النبوى فى رمضان :

« إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة ، وغُلِّقت أبواب النار ، وصُفِّدت الشياطين »[1] .

فلو أن المعاصى كلها من قِبَل الشيطان ما رأينا معصية فى رمضان ، ولا ارتكبت فيه جريمة ، أما وتقع فيه المعاصى وتُرتكب الجرائم ، فلا بُدَّ أن لها سبباً آخر غير الشيطان ؛ لأن الشياطين مُصفَّدة فيه مقيدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

يعنى : مَنْ أراد أن يُخلِّص نفسه من الجدل بغير علم ، وبغير هدى ، وبغير كتاب منير ، فعليه أنْ يُسلم وجهه إلى الله ؛ لأن الله تعالى قال فى آية أخرى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [ص] ثم استثنى منهم ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر]

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الإسراء]

ومعنى ﴿ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ.. ﴿٢٢﴾ ﴾ [لقمان] أخلص وجهه فى

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٧٩) ، والإمام أحمد فى مسنده (٢/٣٥٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

عبادته لله وحده ، وبذلك يكون فى معية الله ، ومَنْ كان فى معية ربه فلا يجرؤ الشيطان على غوايته ، ولا يُضيع وقته معه ، إنما ينصرف عنه إلى غافل يستطيع الدخول إليه ، فالذى ينجيك من الشيطان أنْ تُسلِم وجهك لله .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالولد الصغير حينما يسير فى صحبة أبيه فلا يجرؤ أحد من الصبيان أن يعتدى عليه ، أما إنْ سار بمفرده فهو عُرْضة لذلك ، لا يَسْلَم منه بحال ، كذلك العبد إنِ انفلتَ من يد الله ومعيته .

وهذا المعنى ورد أيضاً فى قوله سبحانه : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ .. (١١٢) ﴾ [البقرة] وهنا قال ﴿ إِلَى اللَّهِ .. (٢٢) ﴾ [لقمان] فما الفرق بين حرفى الجر : إلى ، اللام ؟

استعمال (إلى) تدل على أن الله تعالى هو الغاية ، والغاية لا بُدَّ لها من طريق للهداية يُوصِّل إليها . أمَّا (اللام) فتعنى الوَصْل لله مباشرة دون قطع طريق ، وهذا الوصول المباشر لا يكون إلا بدرجة عالية من الإخلاص لله .

فقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ .. (٢٢) ﴾ [لقمان] يعنى : أنك على الطريق الموصِّل إلى الله تعالى ، وأنك تؤدى ما افترضه عليك .

ومن إسلام الوجه لله قَوْل ملكة سبأ : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) ﴾ [النمل] الكلام هنا كلام ملكة ، فلم تقل : أسلمتُ لسليمان ، لكن مع سليمان لله ، فلا غضاضة إذن .

وإسلام الوجه لله ، أو إخلاص العمل لله تعالى عملية دقيقة تحتاج

من العبد إلى قدر كبير من المجاهدة ؛ لأن النفس لا تخلو من هفوة ، وكثيراً ما يبدأ الإنسان العمل مخلصاً لله ، لكن سرعان ما تتدخل النفس بما لها من حب الصِّيت والسمعة ، فيخالط العملَ شيء من الرياء ولو كان يسيراً .

لذلك ؛ فإن سيدنا رسول الله ﷺ يتحمل عنا هذه المسألة ويطمئن المسلم على عمله ، فيقول في دعائه : « اللهم إني أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك ، فخالطني فيه ما ليس لك »[1] .

والنبي ﷺ ليس مظنة ذلك ، لكن الحق سبحانه علَّمه أن يتحمل عن أمته كما تحمَّل الله عنه في قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ .. (٣٣) ﴾ [الأنعام] أي : أنك أسمى عندهم من أن تكون كاذباً .

﴿ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ .. (٢٢) ﴾ [لقمان] كلمة استمسك تدلُّ على القوة في الفعل والتشبُّث بالشيء ؛ كما نقول (تبِّت فيه) ، وهي تعني : طلب أنْ يمسك ؛ لذلك لم يَقُل مسك إنما (استمسك) .

وأول مظاهر الاستمساك أنك لا تطمئن إلى ضعف نفسك ، فيكون تمسكك بالعروة الوثقى أشدّ ، كما لو أنك ستنزل من مكان عالٍ على حبل مثلاً فتتشبث به بشدة ؛ لأنك إنْ تهاونت في الاستمساك به

---

(١) قال سفيان بن عيينة : كان من دعاء مطرف بن عبد الله : « اللهم إني أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسي ، ثم لم أفِ لك به ، وأستغفرك مما زعمت أني أردت به وجهك ، فخالط قلبي منه ما قد علمت » ذكره ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (ص ٢٧) وانظر حلية الأولياء (٢/٢٠٧) .

سقطت ، وهذا دليل على ثقتك بضعف نفسك ، وأنه لا يُنجيك من الهلاك ، ولا واقىَ لك إلا أنْ تستمسك بهذا الحبل .

كذلك الذى يُسلِم وجهه لله ويُمسك بالعروة الوثقى ، فليس له إلا هذه مُنْجية وواقية .

وكلمة ﴿ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ .. (٢٢) ﴾ [لقمان] العروة : هى اليد التى نمسك بها الكوز أو الكوب أو الإبريق ، وهى التى تفرق بين الكوب والكأس ، فالكأس لا عروة لها ، إلا إذا شُرب فيها الشراب الساخن ، فيجعلون لها يداً .

ومعنى ﴿ الْوُثْقَىٰ .. (٢٢) ﴾ [لقمان] أى : المحكمة ، وهى تأنيث أوثق ، نقول : هذا أوثق ، وهذه وُثْقى ، مثل أصغر وصُغْرى ، وهى تعنى الشيء المرتبط ارتباطاً وثيقاً بأصله ، فإنْ كان دَلْواً فهى وُثْقى بالدلو ، وإنْ كان كوباً فهى وُثْقى بالكوب ، فهى الموثقة التى لا تنقطع ، ولا تنفصل عن أصلها .

والعُرْوة تختلف باختلاف الموثِّق ، فإنْ صنع العروة صانع غاشٌّ ، جاءت ضعيفة هشَّة ، بمجرد أنْ تمسك بها تنخلع فى يدك ، وهذا ما نسميه « الغش التجارى » وهو احتيال لتكون السلعة رخيصة يقبل عليها المشترى ، ثم يكون المعوِّض فى ارتفاع قطع الغيار ، كما نرى فى السيارات مثلاً ، فترى السيارة رخيصة وتنظر إلى ثمن قطع الغيار تجده مرتفعاً .

إذن : إرادة عدم التوثيق لها مقصد عند المنتفع ، فإذا كان الموثِّق هو الله تعالى فليس أوثق من عُرْوته .

وفى موضع آخر يقول الحق عنها ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا

تَفَرَّقُوا .. (١٠٣)﴾ [آل عمران] فالعروة الوُثْقى هى حبل الله المتين الذى يجمعنا فلا نتفرق ؛ لذلك فى الاصطلاح نسمى الفتحة فى الثوب والتي يدخل فيها الأزرار (عروة) لماذا ؟ لأنها هى التى تجمع الثوب ، فلا يتفرق .

وفى آية أخرى وصفَ العروة الوثقى بقوله سبحانه : ﴿ لا انفِصَامَ لَهَا .. (٢٥٦)﴾ [البقرة]

ثم يقول سبحانه : ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٢٢)﴾ [لقمان] أى : مرجعها ، فلا نظن أن الله تعالى خلقنا عبثاً ، أو أنه سبحانه يتركنا سُدًى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ [المؤمنون] . ولو تركنا الله تعالى بلا حساب لكان المنحرف الذى أعطى لنفسه شهواتها فى الدنيا أوفر حظاً من المستقيم ، وما كان الله تعالى ليغشَّ عبده الذى آمن به ، وسار على منهجه ، أو يسلمه للظلمة والمنحرفين .

وإذا كانت لله تعالى عاقبة الأمور أى : فى الآخرة ، فإنه سبحانه يترك لنا شيئاً من ذلك فى الدنيا نصنعه بذواتنا لتستقيم بنا مسيرة الحياة وتثمر حركتها ، ومن ذلك مثلاً ما نجريه من الامتحانات للطلاب آخر العام لنميز المجدّ من الخامل ، وإلا تساوى الجميع ولم يذاكر أحد ، ولم يتفوق أحد ؛ لذلك لابُدَّ من مبدأ الثواب والعقاب لتستقيم حركة الحياة ، فإذا كنا نُجرى هذا المبدأ فى دنيانا ، فلماذا نستنكره فى الآخرة ؟

فهل يليق بهذا العالَم الذى خلقه الله على هذه الدقة ؛ وكوَّنه بهذه الحكمة أن يتركه هكذا هَملاً يستشرى فيه الفساد ، ويرتع فيه المفسدون ، ثم لا يُحاسبون ؟ إن كانت هذه هى العاقبة ، فيا خسارة كل مؤمن ، وكل مستقيم فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾

بعد أن بيَّن الحق سبحانه أن إليه مرجع كل شىء ونهاية الأمور كلها ، أراد أن يُسلِّى رسوله ﷺ فقال : ﴿ وَمَن كَفَرَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [لقمان] أى : بعدما قلناه من الجدل بالعلم وبالهدى وبالكتاب المنير ، وبعدما بيناه من ضرورة إسلام الوجه لله ، مَنْ يكفر بعد ذلك ﴿ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [لقمان]

وهذا القول من الله تعالى لرسوله ﷺ يدل على أن الله علم أن رسوله يحب أن تكون أمته كلها مؤمنة ، وأنه يحزن لكفر من كفر منهم ويؤلمه ذلك ، وقد كرر القرآن هذا المعنى فى عدة مواضع ، منها قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف] ويقول : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء]

فالله تعالى يريد أنْ يقول لرسوله : أنا أرسلتُك للبلاغ فحسب ، فإذا بلَّغْت فلا عليك بعد ذلك ، وكثيراً ما تجد فى القرآن عتاباً لرسول الله فى هذه المسألة ، وهو عتاب لصالحه لا عليه ، كما تعاتب ولدك الذى أجهد نفسه فى المذاكرة خوفاً عليه .

ومن ذلك قوله تعالى معاتباً نبيه ﷺ : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [عبس]

والعتاب هنا لأن رسول الله ﷺ ترك الرجل المؤمن الذى جاءه يستفهم عن أمور دينه ، وذهب يدعو الكفار والمكذِّبين به ، فكأنه اختار الصعب الشاق وترك السهل اليسير ، إذن : فالعتاب هنا عتاب لصالح الرسول لا ضده ، كما يظن البعض فى فهمهم لهذه الآيات .

كذلك الأمر فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. ① ﴾ [التحريم] فالله يعاتب رسوله لأنه ضيَّق على نفسه ، فحرَّم عليها ما أحله الله لها[1] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ .. ㉓ ﴾ [لقمان] يعنى : إذا لم تَرَ فيهم عاقبة كفرهم ، وما ينزل بهم فى الدنيا ، فسوف يرجعون إلينا ونحاسبهم فى الآخرة ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ .. ⑰⑰ ﴾ [غافر] أى : ترى بعينك ما ينزل بهم من العقاب ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ⑰⑰ ﴾ [غافر]

إذن ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ .. ㉓ ﴾ [لقمان] هذه هى الغاية النهائية ، وهذه لا تمنع أن نُريك فيهم أشياء تُظهر عزتك وانتصارك عليهم وانكسارهم وذلَّتهم أمامك ، وهذا ما حدث يوم الفتح يوم أنْ دخل النبى مكة منتصراً ومتواضعاً يطأطىء رأسه[2] بأدب وتواضع ؛ لأنه

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣٨٦/٤) : « اختلف فى سبب نزول صدر هذه السورة (التحريم) فقيل : نزلت فى شأن مارية ، فعن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها . والصحيح أن ذلك كان فى تحريمه العسل ، فعن عائشة قالت : كان النبى ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير فقال : لن أعود له ولا تخبرى بذلك أحداً » أ هـ بتصرف .

(٢) يذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٤٠٥/٤) « أن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذى طوى وقف على راحلته معتجراً بشقة برد حبرة حمراء ، (أى : أنه كان متعمماً بنصف برد من برود اليمن ، عمامة بغير ذؤابة) ، وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عثنونه ليكاد يمسّ واسطة الرحل » . والعثنون : هو ما نبت على الذقن وتحته سفلاً . وقيل : هو طولها وما تحتها من شعرها .

يعلم أن النصر من الله ، وكأنه ﷺ يقول لأهل مكة : لقد كنتم تريدون المُلْك لتتكبروا به ، وأنا أريده لأتواضع به ، وهذا هو الفرق بين عزَّة المؤمن وعزَّة الكافر .

لذلك لما تمكن رسول الله من رقابهم - بعد أنْ فعلوا به ما فعلوا - جمعهم وقال قولته المشهورة : « يا معشر قريش ما تظنون أنى فاعل بكم ؟» قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء »[1] .

ولك أنْ تلحظ تحوُّل الأسلوب من صيغة الإفراد في ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [لقمان] إلى صيغة الجمع فى ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [لقمان] ولم يقل : إلىَّ مرجعه ؛ لأن مَنْ فى اللغة تقوم مقام الأسماء الموصولة كلها ، فإنْ أردتَ لفظها فأفردها ، وإن أردتَ معناها فاجمعه .

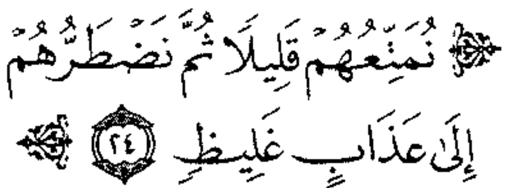
وقوله تعالى : ﴿ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [لقمان] لأننا نُسجِّله عليهم ونحصيه ، كما قال سبحانه : ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ .. ﴿٦﴾ ﴾ [المجادلة] ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [لقمان] أى : بنات الصدر ومكنوناته يعلمها الله ، حتى قبل أنْ تُترجم إلى نزوع سلوكى عملي أو قَوْلى ، فالله يعلم ما يختلج فى صدورهم من حقد أو غلٍّ أو حسد أو تآمر .

و ﴿ عَلِيمٌ .. ﴿١١٩﴾ ﴾ [آل عمران] صيغة مبالغة من العلم ، وفَرْق بين عالم وعليم : عالم : ذاتٌ ثبت لها العلم ، أما عليم فذات علْمها ذاتى ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٤١٢) أن رسول الله ﷺ قال بعد أن فتح الله عليه مكة : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ثم يقول الحق سبحانه :



الحق سبحانه يُبيِّن لكل مؤمن ألاَّ يغتر بحال الكفار حين يراهم في حال رَغَد من العيش ، وسعة وعافية وتمكُّن ؛ لأن ذلك كله متاع قليل ، والحق سبحانه يريد من أتباع الأنبياء أنْ يدخلوا الدين على أنه تضحية لا مغنم .

وسبق أن أوضحنا أنك تستطيع أن تُفرِّق بين مبدأ الحق ومبدأ الباطل بشيء واحد ، هو استهلال الاثنين ، فالداخل في مبدأ الحق مستعد لأنْ يُضحِّي ، والداخل في مبدأ الباطل ينتظر أنْ يأخذ المقابل ؛ لذلك ضحَّى المسلمون الأوائل في سبيل دينهم بالأنفس والأموال ، وتركوا بلادهم وأبناءهم لماذا ؟ لأنهم مُكلَّفون بأداء مهمة إنسانية عالمية ، لا يحملها إلا مَنْ كان مستعداً للعطاء ، أما أصحاب الدعوات الباطلة كالشيوعية وغيرها فلا بُدَّ أنْ يأخذوا أولاً .

لذلك رُوِي أن صحابياً حين سمع من رسول الله ﷺ البشرى بالجنة ، وأنه ليس بينه وبينها إلا أنْ يحارب فيُقتل ألقى تمرات كانت في يده[1] ، ولم ينتظر حتى يمضغها ، وأسرع إلى المعركة مُبتغياً الشهادة وطامعاً فيما عند الله ، وقد سُمع منهم في ساحة القتال أنْ ينادي أحدهم : هُبِّي يا رياحَ الجنة ، وآخر يقول : إني لأجد ريح

(١) عن جابر بن عبد الله قال : قال رجل للنبي ﷺ يوم أُحُد : ارأيت إن قتلت فأين أنا ؟ قال : في الجنة . فألقى تمرات في يده ، ثم قاتل حتى قُتِل . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٠٤٦) .

الجنة دون أُحُد[1] .

فقوله تعالى : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [لقمان] هذا التمتُّع بزينة الحياة الدنيا ما هو إلا استدراج لهم لا تكريم ، وقلنا : إنك لا تلقى بعدوك من على الحصيرة مثلاً ، إنما تعليه وترفعه ليكون أَخْذه أليماً وشديداً ، كذلك الحق سبحانه يُمتِّعهم ، لكن لفترة محدودة لتكون حسرتهم أعظم إذا ما أخذهم من هذا النعيم .

واقرأ في هذا المعنى قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام] أي : يائسون .

وكلمة الفتح لا تؤدي نفعاً إلا إذا جاءت معرفة (الفتح) وقلنا : هناك فرق بين فتح لك وفتح عليك ، فتح لك أي : لصالحك ، أمّا فتح عليك أي : أعطاك الدنيا لتكون حِمْلاً فوق رأسك .

إذن : فإذا رأيتَ لهم هذا الفتح فلا تغترّ به ، واعلم أنهم نَسُوا ما ذُكِّروا به . وقد ورد في الأثر أن الله تعالى إذا غضب من المرء رزقه من الحرام ، فإذا اشتد غضبه عليه بارك له فيه .

ذلك ليظل في سَعَة ورَغَد عيش وعُلو مكان ، حتى إذا أخذه الله آلمه الأخذ واشتد عليه ، فأخْذُ الكافر وهو في أَوْج قوته وجبروته يدل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٨٠٥) من حديث أنس بن مالك قال : غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين ، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع ، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني أصحابه وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين . ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : يا سعد بن معاذ ، الجنة ورب النضر ، إني أجد ريحها من دون أحد » الحديث .

على قوة الأَخْـذ وقدرته ، أمـا الضعيف فـلا مزيّة فى أَخْـذه ، كالذى يريد أنْ يحطم الرقم الـقيـاسـى مثـلاً ، فـإنه يعـمد إلى أعلى الأرقـام فيحطمها ليثبت جدارته .

ومن ذلك أيضاً نرى أن القرآن لما أراد التحدى ببلاغته وفصاحته تحدَّى العـرب ، وهـم أهل الفصاحـة والبلاغة وفن الأداء البـيانى ، ولا معنى لأنْ يتحدى عَيّياً لا يقدر على الكلام .

ومعنى ﴿ نَضْطَرُّهُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [لقمان] نلجئـهم أى : نُضيِّق علـيهم الخناق ، بحـيث لا يجدون إلا العذابَ الغليظ ، أو : أن فـترة الحـساب وما قبل العذاب أشدّ من العذاب نفسه ، كما جاء فى الحديث من « أن الشمس تدنو من الرؤوس ، حـتى ليتمـنى الناسُ الانصرافَ ولو إلى النار »[1] .

ووصـف العـذاب هـنا بأنه ﴿ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [لقـمـان] والغلظ يعنى السُّمْك ، فـالمعنى أنه عذاب كـبير يصعب قلقـلة النفس منه ، فلو كان رقيقاً لربما أمكن الإفلات منه .

ثم يعود السياق إليهم :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(١) فى صحـيح مسلم من حديث المقداد بن الأسود قـال : سمعت الـنبى ﷺ يقول : « تدنى الشـمس يوم القيـامة من الخـلق حتى تكون منهم كـمقـدار مـيل ، فيكون الناس على قـدر أعمالهم فى العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبـيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجاماً »» التذكرة للقرطبى ص ٢٧٤ .

هذا إفحام لهم ، حيث شهدوا بأنفسهم أن الله تعالى هو خالق السموات والأرض ، وتعجب بعد ذلك لأنهم ينصرفون عن عبادة الخالق سبحانه إلى عبادة مَنْ لا يخلق ولا يرى ولا يسمع .

لذلك بعد هذه الشهادة منهم ، وبعد أنْ قالوا (الله) يُتبعها الحق سبحانه بقول ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان] أى : الحمد لله ؛ لأنهم أقروا على أنفسهم ، ونحن في معاملاتنا نفعل مثل هذا ، فحين يعترف لك خَصْمك تقول : الحمد لله .

وهذه الكلمة تُقال تعليقاً على أشياء كثيرة ، فحين يعترف لك الخَصْم بما تريد تقول : الحمد لله ، وحين يُخلِّصك الله من أذى أحد الأشرار تقول : الحمد لله أى : الذى نجانا من فساد هذا المفسد .

فلو بلغنا خبر موت أحد الأشقياء أو قُطّاع الطرق نقول : الحمد لله أى : الذى خلصنا من شرِّه ، وأراح منه البلاد والعباد ، ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام]

كذلك تقال حينما يُنصَف المظلوم ، وتُردُّ إليه مظلمته ، أو تظهر براءته ، كما سنقول ـ إنْ شاء الله ـ فى الآخرة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فاطر]

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الزمر]

فالحمد لله تُقال أيضاً عند خلوصك إلى غاية تُخرجك مما كنتَ فيه

من الضيق ، ومن الهَمِّ ، ومن الحزن ، وتقال حين ندخل الجنة ، وننعم بنعيمها ونعلم صِدْق الله تعالى فيما أخبرنا به من نعيمها .

هذا كله حَمْدٌ على نعمه ، وهناك الحمد الأعلى : ألم تقرأ الحديث القدسي : « إن الله يتجلى على خَلْقه المؤمنين في الجنة فيقول : يا عبادي ، ألا أزيدكم ؟ فيقولون : وكيف تزيدنا وقد أعطيْتنا مَا لا عَيْن رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ؟ قال : أُحلُّ عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعدها أبداً »(١) فماذا بعد هذا الرضوان ؟

يقول تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥) ﴾ [الزمر]

هذا هو الحمد الأعلى ، فقد كنت في الحمد مع النعمة ، وأنت الآن في الحمد مع المنعم سبحانه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) ﴾ [لقمان] وهم أهل الغفلة عن الله ، أو ﴿ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) ﴾ [لقمان] أي : العلم الحقيقي ، النافع ، وإنْ كانوا يعلمون العلم من كتاب غير منير ، أو : يعلمون العلم الذي يُحقِّق لهم شهواتهم .

ثم ينتقل السياق إلى آيات كونية فيقول سبحانه :

﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ (٢٦) ﴾

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٤٩) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٨٢٩) من حديث أبي سعيد الخدري ، ولفظه : إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك ربنا وسعديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك . فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك . قالوا : يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً .

بعد أن سجَّل الله تعالى عليهم اعترافهم وشهادتهم بأنه سبحانه خالق السموات والأرض ، أراد سبحانه أنْ يُبيِّن لنا أن السموات والأرض ظرف لما فيهما ، وفيهما أشياء كثيرة ، منها ما نعرفه ، ومنها ما لا نعرفه ، والمظروف دائماً أغلى من المظروف فيه ، فما فى (المحفظة) من نقود عادة أغلى من المحفظة ذاتها ، وما فى الخزانة من جواهر وأموال أو أوراق هامة أنفَسُ من الخزانة وأهمّ .

لذلك قلنا : إياك أنْ تجعل كتاب الله حافظة لشىء هام عندك ؛ لأنه أغلى من أىِّ شىء فينبغى أنْ نحفظه ، لا أنْ نحفظ فيه .

وكأن فى الآية إشارة إلى أنهم كما أقرُّوا لله تعالى بخَلْق السموات والأرض ينبغى أنْ يُقروا كذلك بأن له سبحانه ما فيهما ، وهذه مسألة عقلية يهتدى إليها كل ذى فكر سليم ، فما دامت السموات والأرض لله ، فله ما فيهما ، وهَبْ أن لك قطعة أرض تمتلكها ، ثم عثرتَ فيها على شىء ثمين ، إنه فى هذه الحالة يكون مِلكك شرعاً وعقلاً .

وينبغى للعاقل أنْ يتأمل هذه المسألة : لله تعالى ما فى السموات وما فى الأرض ، ومن هذه الأشياء الإنسان الذى كرَّمه الله ، وجعله سيداً لجميع المخلوقات وأعلى منها ، بدليل أنها مُسخَّرة لخدمته : الحيوان والنبات والجماد ، فهل يصح أن يكون الخادم أعظم مز سيده أو أطول عمراً منه ؟

فعلى العاقل أن يتأمل هذه المسألة ، وأن يستعرض أجناس الكون ويتساءل : أيكون الجماد الذى يخدمنى أطول عمراً منى ؟

إذن : لابد أن لى حياة أخرى تكون أطول من حياة الشمس والقمر وسائر الجمادات التى تخدمنى ، وهذا لا يكون إلا فى الآخرة

حيث تنكدر الشمس ، وتتلاشى كل هذه المخلوقات ويبقى الإنسان .

إذن : أنت محتاج لما فى الأرض ولما فى السماء من مخلوقات الله ، وبه وحده سبحانه قوامها مع أنه سبحانه غنىٌّ عنها لا يستفيد منها بشىء ، فالله سبحانه خلق ما هو غنىٌّ عنه ؛ لذلك يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) ﴾ [لقمان] لأنه سبحانه بصفات الكمال خلق ، فلم يزدْه الخلق صفة كمال لم تكُنْ له ، فهو مُحْيٍ قبل أنْ يوجد مَنْ يُحييه ، مُعِزٌّ قبل أنْ يوجد من يعزه .

وقلنا : إنك لا تقول فلان شاعر لأنك رأيته يقول قصيدة ؛ بل لأنه شاعر قبل أن يقولها ، ولولا أنه شاعر ما قال .

فمعنى ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ .. (٢٦) ﴾ [لقمان] أى : الغنى المطلق ؛ لأن له سبحانه كل هذا الملْك فى السموات وفى الأرض ، بل جاء فى الحديث القدسى أن السماء والأرض بالنسبة لملْك الله تعالى كحلقة ألقاها ملْقٍ فى فلاة[1] ، فلا تظن أن مُلْك الله هو مجرد هذه المخلوقات التى نعلمها ، رغم ما توصَّل إليه العلم من الهندسة وحساب المسافات الضوئية .

فالله سبحانه هو الغنىُّ الغنَى المطلق ؛ لأنه خلق هذا الخَلْق وهو غنى عنه ، ثم أعطاه لعبيده وجعله فى خدمتهم ، فكان من الواجب لهذا الخالق أن يكون محموداً ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) ﴾ [لقمان] وحميد فعيل بمعنى محمود ، وهو أيضاً حامد كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨) ﴾ [البقرة] لكن ، شاكر لمن ؟

---

(١) عن أبى ذر الغفارى أنه سأل رسول الله ﷺ عن الكرسى ، فقال ﷺ : « والذى نفسى بيده ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة » أخرجه ابن جرير الطبرى فى تاريخه (١/١٥٠) وابن حبان (ص ٥٢ موارد الظمآن) ، وأبو نعيم فى الحلية (١/١٦٦) .

قالوا : إذا كان العبد يشكر ربه ، وقد علَّمه الله : أن الذى يحيِّيك بتحية ينبغى عليك أنْ تُحيِّيَه بأحسن منها ، فربُّك يعاملك هذه المعاملة ، فإنْ شكرْتَهُ يزدك ، فهذه الزيادة شُكْر لك على شُكْرك لربك . أى : مكافأة لك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ مِن شَجَرَةٍ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [لقمان] منْ : هنا تفيد العموم أى : من بداية ما يُقال له شجرة ، وفرق بين أنْ تقول : ما عندى مال ، وما عندى من مال ، فالأولى لا تمنع أن يكون عندك القليل من المال الذى لا يُعتدُّ به ، أمّا (من مال) فقد نفيتَ جنس المال قليله وكثيره . وتقول : ما فى الدار أحد . وربما يكون فيها طفل مثلاً أو امرأة ، أمّا لو قلْتَ : ما فى الدار من أحد ، فهذا يعنى خُلوها من كل ما يُقال له أحد .

والشجرة : هى النبات الذى له ساق ، وقد تشابكتْ أغصانها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء]

أما النبات الذى ليس له ساق فهو العُشْب أو النجم الذى ينتشر على سطح الأرض ، خاصة بعد سقوط الأمطار ، وهذا لا تُؤخذ منه الأقلام ، إنما من الشجرة ذات الغصون والفروع .

وقد ذكر القرآن الكريم هذين النوعين في كلام معجز ، فقال سبحانه : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) ﴾ [الرحمن] فالشمس والقمر ﴿ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] أى : حساب دقيق محكم ؛ لأن بهما حساب الزمن ، ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) ﴾ [الرحمن] أى : فى خضوع لله تعالى .

وكلمة النجم هنا يصح أنْ تُضاف إلى الشمس والقمر ، ويصح أنْ تضاف للشجر ، فهو لفظ يستخدم فى معنى ، ويؤدى معنى آخر بضميمة ضميره .

وقد تنبه الشاعر إلى هذه المسألة ، فقال :

أُرَاعِى النجْمَ فى سَيْرِى إليكُمُ ويرعَاهُ مِنَ البَيْدا جَوادِى

فهو ينظر إلى نجم السماء ليهتدى به فى سيره ، ويرعى جواده نَجْم الأرض ، ومن ذلك أيضاً كلمة العين ، فتأتى بمعنى الذهب والفضة ، وبمعنى الجاسوس ، وبمعنى عين الماء ، وبمعنى العين المبصرة .

ومعنى : ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ .. (٢٧) ﴾ [لقمان] أى : يُعينه ويساعده إنْ نفد ماؤه . ولك هنا أن تسأل : لماذا جعل الإمداد للماء ، ولم يجعله للشجر ؟ قالوا : لأن القلم الواحد يكتب بحبر كثير لا حَصْر له ، فالحبر مظنة الانتهاء ، كما أن الشجر ينمو ويتجدد ، أما ماء البحر فثابت لا يزيد .

واقرأ أيضاً فى هذه المسألة : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾ [الكهف]

والعدد سبعة هنا ﴿ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ .. (٢٧) ﴾ [لقمان] لا يُراد به العدد ،

إنما يراد به الكثرة كما في قوله تعالى : ﴿سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ.. ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق] فهذه في مجرتنا الشمسية ، فما بالك بالسموات في المجرات الأخرى ، وقد علمنا أن السماء هي كل ما علاك فأظلك .

إذن : يرد العدد سبعة على سبيل الكثرة ، والعرب كانوا يعتبرون هذا العدد نهاية للعدد ؛ لأن العدد معناه الأرقام التي تبين المعدود ، فهناك فرق بين العدد والمعدود ، ولما تبينّا هذا الفرق استطعنا أنْ نرد على المستشرقين في مسألة تعدد الزوجات ، فالعدد يعني ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ . أما المعدود ، فما يميز هذه الأعداد .

والرسول ﷺ حينما أراد أنْ يُنهي التعدد المطلق للزوجات لما أنزل الله عليه أنْ يأمر الناس أن مَنْ معه أكثر من أربع زوجات أنْ يُمسك أربعاً منهن ويفارق الباقيات[1] .

وكان عند رسول الله في هذا الوقت تسع زوجات لم يشملهُنَّ هذا الحكم ، فقالوا : لماذا استثنى الله محمداً من هذا الحكم ؟ وكيف يكون عنده تسع ، وعند أمته أربع ؟ ولم يفطنوا إلى مسألة العدد والمعدود : هل استثنى الله تعالى رسوله في العدد ، أم في المعدود ؟

نقول : استثناه في المعدود ؛ لأنه تعالى خاطب نبيه في آية أخرى : ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ .. ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب] ففرض على رسول الله أنْ يقتصر على هؤلاء ، لا يزيد عليهن ، ولا يتزوج بعدهن حتى لو مُتْنَ جميعاً .

---

(١) أخرج الإمام مالك في الموطأ (ص ٥٨٦) كتاب الطلاق بلاغاً أن رسول الله ﷺ قال لرجل من ثقيف ، أسلم وعنده عشر نسوة حين أسلم الثقفي : « امسك منهن أربعاً ، وفارق سائرهن » ووصله الترمذي في سننه (١١٢٨) من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ أمره أن يتخير أربعاً منهن ، وسمَّى الرجل « غيلان بن سلمة الثقفي » .

إذن : لم يستثنه فى العدد ، وإلا لكان من حقِّه إذا ماتت واحدة من زوجاته أنْ يتزوج بأخرى ، وإنْ مُتْن جميعاً يأتى بغيرهن .

ولك أن تقول : ولماذا جعل الله الاستثناء فى المعدود لا فى العدد ؟ قالوا : لأن زوجات غير النبى ﷺ إذا طلَّقها زوجها لها أن تتزوج بغيره ، لكن زوجات النبى ﷺ أمهات للمؤمنين ومحرمات عليهم ، فإنْ طلَّق رسول الله إحدى زوجاته بقيت بلا زواج .

لذلك أُمر رسول الله أنْ يمسك زوجاته التسع ، شريطة ألاَّ يزيد عليهن ، فى حين يُباح لغيره أن يتزوج بأكثر من تسع ، بشرط ألاَّ يبقى معه أكثر من أربع ، وعليه ، فهذا الحكم ضيَّق على رسول الله فى هذه المسألة فى حين وسَّع على أمته .

ونعلم أنَّ معظم زوجات النبى كُنَّ كبيرات فى السِّن ، وبعضهن كُنَّ لا إرْبة لهن فى مسألة الرجل ، لكنهن يحرصن على شرف الانتساب لرسول الله ، وعلى شرف كَوْنهن أمهات المؤمنين ؛ لذلك كانت الواحدة منهن تتنازل عن قَسْمها فى البيتوتة لضرتها مكتفية بهذا الشرف[1] .

إذن : التفريق بين العدد والمعدود خلَّصنا من إفك المستشرقين ، ومن تحاملهم على رسول الله واتهامهم له بتعدد الزوجات ، وأنه ﷺ وسَّع على نفسه وضيَّق على أمته .

ومسألة العدد والمعدود هذه مسألة واسعة حيَّرت حتى الدارسين للنحو ، فلا إشكالَ فى العدد واحد والعدد اثنان ؛ لأننا نقول فى المفرد المذكر : واحد والمؤنث : واحدة . وللمثنى المذكر : اثنان ،

---

(١) فعلت هذا سودة بنت زمعة زوجة رسول الله ، وقد وهبت ليلتها لعائشة رضى الله عنها فى مقابل الا يطلقها رسول الله ﷺ ، قائلة للنبى ﷺ : « أبقنى يا رسول الله وأهب ليلتى لعائشة ، وإنى لا أريد ما تريد النساء » . الإصابة لابن حجر (١١٧/٨) .

وللمؤنث : اثنتان . فالعدد يوافق المعدود تذكيراً وتأنيثاً ، لكن الخلاف يبدأ من العدد ثلاثة ، حيث يذكِّر العدد مع المعدود المؤنث ، ويُؤنَّث مع المعدود المذكَّر ، فمن أين جاء هذا الاختلاف ؟

قالوا : لاحظ أن التذكير هو الأصل ؛ ولذلك احتاج التأنيث إلى علامة ، أما المذكَّر وهو الأصل فلا يحتاج إلى علامة ، تقول : قلم . وتقول : دواة . فاحتاجت إلى علامة للتأنيث فهى الفرع والمذكر هو الأصل .

وتعالَ إلى الأعداد من ثلاثة إلى عشرة ، تقول : ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ... إلخ فالعدد نفسه مبنىٌّ على التاء ، وليست هى تاء التأنيث ؛ لأنها أعداد مجردة بلا معدود ، فإذا أردنا تأنيث هذا العدد وبه تاء لا نضيف إليه تاءً أخرى ، إنما نحذف التاء فيكون الحذف هو علامة التأنيث ويبقى العدد مع المذكر على الأصل بالتاء .

فما حكاية العدد سبعة بالذات ؟ قالوا : إن العدد واحد هو الأصل فى الأعداد ؛ لأن العدَّ ينشأ من ضم واحد إلى آخر ، فواحد هو الخامة التى تتكون منها الأعداد فتضم واحداً إلى واحد وتقول : اثنان وتضم إلى الاثنين واحداً ، فيصير العدد ثلاثة .. وهكذا .

ومعلوم أن أقلَّ الجمع ثلاثة ، والعدد إما شفع وإما وتر ، الشفع هو الذى يقبل القسمة على الاثنين ، والوتر لا يقبل القسمة على الاثنين ، والله تعالى يقول : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ③ ﴾ [الفجر] فبدأ بالشفع وأوله الاثنان ثم الثلاثة ، وهى أول الوتر ، أما الواحد فقد تركناه لأنه كما قلنا الخامة التى يتكون منها جميع الأعداد .

وما دام الله تعالى قال : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ③ ﴾ [الفجر] فالاثنان أول الشفع ، والثلاثة أول الوتر ، وأربعة ثانى الشفع ، وخمسة ثانى

الوتر ، وستة ثالث الشفع ، وسبعة ثالث الوتر .

وقلنا : إن الجمع أقلُّه ثلاثة ، فاعتبرت العرب العدد سبعة أقصى الجمع وتراً وزوجاً ، وانتهت عند هذا العدد ، فإذا أرادوا العدَّ أكثر من ذلك أتوْا بواو يسمونها واو الثمانية ، وقد سار القرآن الكريم فى أحكام العدد هذه على ما سارت عليه العرب .

واقرأ إنْ شئت هذه الآيات : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧١) ﴾ [الزمر]

أما فى الجنة فيقول سبحانه : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧٣) ﴾ [الزمر]

فما الفرق بين الآيتين ؟ ولماذا جاءت الواو فى الثانية ، ولم تُذْكر فى الأولى ؟

قالوا : لأن ﴿ فُتِحَتْ .. (٧١) ﴾ [الزمر] فى الأولى جواب شرط ، وهذا الجواب كانوا يُكذِّبونه وينكرونه . والشرط تأسيس ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا .. (٧١) ﴾ [الزمر] ماذا حدث ؟ ﴿ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧١) ﴾ [الزمر] إنما هل كان المؤمنون المتقون الذين يذهبون إلى الجنة يُكذِّبون بهذا اليوم ؟

إذن فـ : ﴿ فُتِحَتْ .. (٧١) ﴾ [الزمر] هنا لا تكون جواباً ؛ لأنهم يعلمون يقيناً أنها ستفتح ، أما الجواب فسيأتى فى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) ﴾ [الزمر]

ولما كانت أبواب النار سبعة لم يذكر الواو ، أما فى الجنة فذكر

الواو ، لأن أبوابها ثمانية .

كذلك اقرأ قول الله تعالى ولاحظ متى تستخدم الواو : ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ[1] تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ[2] ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ⑤﴾ [التحريم]

تجد الواو قبل الثمانية ، ذلك لأن العرب تعتبر السبعة منتهى العدد بما فيه من زوج وفرد .

وقوله تعالى : ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ .. ㉗﴾ [لقمان] أى : يُجعل مداداً لكلمات الله ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. ㉗﴾ [لقمان] كلمات الله هى السبب فى إيجاد المقدورات العجيبة ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ㊷﴾ [يس] فكل مراد من شىء سببه كن .

وهنا عجيبة ينبغى أنْ نتأملها : فالله تعالى يقول للشىء وهو لم يُخْلق بعد (كن) ، كأن كل الأشياء موجودة فى الأزل ومكتوبة ، تنتظر هذا الأمر (كن) ، فتبرز إلى الوجود ، كما يقول أهل المعرفة : أمور يبديها ولا يبتديها .

إذن : ﴿كَلِمَاتُ اللَّهِ .. ㉗﴾ [لقمان] هى كن وكل مرادات الله فى كونه ، ما علمنا منه وما سنعلم ، وما لم نعلم إلا حين تقوم الساعة .

ألم يَقُلْ في العجيب من أمر عيسى عليه السلام : ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ .. ⑰١﴾ [النساء] والمعنى أنه لم يُخلق بالطريق

(١) القانت : المطيع الذاكر لله تعالى العابد . والقانت : القائم بجميع أمر الله تعالى . [لسان العرب ـ مادة : قنت] .

(٢) السائحات : الصائمات . وسياحة هذه الأمة الصيام ولزوم المساجد . [لسان العرب ـ مادة : سيح] .

الطبيعى فى خَلْق البشــر من أب وأم ، إنما خُلِق بهذه الكلمة (كن) . لماذا ؟

لأن الله تعالى يريد أنْ يثبت لنفســه طلاقة القدرة فى الإيجادات ، وأنه سبحانه يخلق كما يشاء ، فمرة يخلق بلا أب وبلا أم ، كما خلق آدم عليـه السلام ، ومـرة يخلق بأم دون أب كـما خلق عـيسى عليـه السلام ، ومرة يخلق بأب وأم ، ويخلق بأب دون أم كما خلق حواء . إذن : القسمة العقلية موجودة بكل وجوهها .

إذن : مع طلاقة القـدرة لا اعتـبارَ للأسبـاب ، فأنت إنْ أردتَ أنْ تكوِّن مـثلاً قطرة الماء ، فـعليك أنْ تأتى بالأكـسوجين والأيـدروجين بطريقـة معيـنة ليخـرج لك الماء وإلا فـلا ، أما الخالـق ـ عز وجل ـ فيـخلق بالأشياء وبدون شىء ، لأن الأشيـاء بالنسبة لله تعـالى ليست فاعلة بذاتها ، وإنما هى فاعلة بمراد الله فيها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [لقمان] والعزيز هو الذى يَغلب ولا يُغلب ويَقْـهر ولا يُقهـر ، ولا يستدرك أحـد على فعله حتى لو كان مخالفاً لعقله هو ، وتأمل معنى العزة ، وكيف وردت فى هذا الموقف من قوله تعالى لسيدنا عيسى عليه السلام :

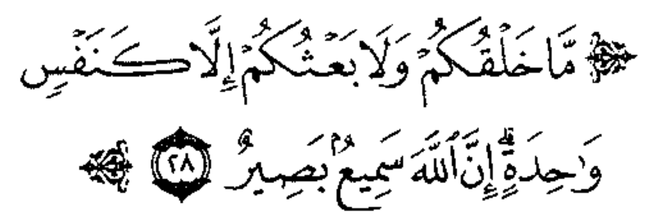
﴿ وَإِذْ قَـالَ اللَّهُ يَـٰعِيـسَى ابْنَ مَـرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُـيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة] إلى أن يقول : ﴿ إِن تُعَـذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَـادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة]

والمنطق العـقلى يقتـضى أن نقول فى عـرف البشر : فـإنك أنت الغفور الرحيم ، فـالمقام مقام مغفرة ، لكن عـيسى عليه السلام يأتى

بها ، لا من ناحية الغفران والرحمة ، وإنما من ناحية طلاقة القدرة والعزة التى لا يستدرك عليها أحد .

﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة] والمعنى : لو قال الناس لماذا غفرتَ لهم مع أنهم قالوا كذا وكذا ؟ فالإجابة أننى أنا العزيز الذى أغلب ولا أُغلب ، ولا يستدرك أحد على حكمى ، إذن : ذيَّل الآية بالعزة لعزة الله تعالى فى خَلْقه .

ثم يقول الحق سبحانه :



الحق سبحانه وتعالى يؤكد دائماً على قضية البعث والقيامة ، ويريد سبحانه أنْ ينصب للناس فى حركة حياتهم موازين الجزاء ؛ لأن كل عمل لا توجد فيه موازين للجزاء يعتبر عملاً باطلاً ، ولا يمكن أنْ يستغنى عن الجزاء ثواباً وعقاباً إلا مَنْ كان معصوماً أو مُسخَّراً ، فالمعصوم قائم دائماً على فِعْل الخير ، والمسخَّر لا خيارَ له فى أنْ يفعل أو لا يفعل .

إذن : إذا لم يتوفر مبدأ الجزاء ثواباً وعقاباً فى غير هذين لا بُدَّ أنْ يوجد فساد ، إذا لم يُثب المختار على الفعل ، ويعاقب على الترك اضطربت حركة الحياة ، حتى فى المجتمعات التى لا تؤمن بإله وضعت لنفسها هذا القانون ، قانون الثواب والعقاب .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعطينا مثالاً لهذا المبدأ فى قوله تعالى من قصة ذى القرنين : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ

شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) ﴾ [الكهف]

أراد الحق سبحانه أن يبين أن الرجل الممكّن فى الأرض له مهمة ، هذه المهمة هى شكر الله على التمكين ولا يكون إلا بإقامة ميزان العدالة فى الكون ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ .. (٨٦) ﴾ [الكهف] أى : فى رأى العين ، وإلا فهى لا تغرب أبداً ، إنما تغرب عن جماعة فى مكان ، وتشرق على جماعة فى مكان آخر .

﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) ﴾ [الكهف]

ولا يُفوَّض إنسان فى أنْ يُعذِّب أو يتخذ الحسنى إلا إذا كانت لديه مقاييس وميزان العدالة ، وقد قال الله عنه : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) ﴾ [الكهف] أى : نعمة وميزاناً لتوزيع هذه النعمة ، فلم تقتصر نعمة الله عليه فى أنه صاحب سلطان وجبروت ، إنما عنده المقوِّمات الحياتية ، وعنده ميزان العدالة الذى يضبط استطراق النِّعَم فى الكون كله .

فالذى خُيِّر فى أنْ يفعل أو لا يفعل أراد أنْ يبين منهجه فى أنه لم يأخذ الاختيار وسيلة لتثبيت الأهواء ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) ﴾ [الكهف] هذا هو العقاب ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ﴾ [الكهف] أى : بعد أنْ ينال ثوابه ، نعطيه فوق ذلك حوافز تشجعه ، ونقيم له حفلة تكريم لنغرى غيره بأن يسلك مسلكه .

إذن : فقضية الثواب والعقاب أمر لازم ، وإذا كان هذا فى الأمور الحياتية الجزئية ، فهو أَوْلى فى أمور الدين والقيم التى تسيطر على كل موازين الحياة ، لا بُدَّ من وقت للثواب وللعقاب ، وإلا استشرى

الظلم واغتال الناس ، وقضى عليهم ، وأخذ منهم كل مُتع الحياة ، فانتفع بذلك المفسد ، وخاب كل مَن التزم بدين الله وقيم منهجه .

لذلك تجد الحق ـ تبارك وتعالى ـ يؤكد دائماً على مسألة البعث والقيامة والحساب ، وترى أعداء الدين يحاولون أنْ يُشككوا فى هذه القضية ، وأنْ يُزحزحوا الناس عن الإيمان بها بطرق شتى .

فالفلاسفة لهم فى ذلك دور ، وللملاحدة دور ، ولأهل الكتاب دور ؛ لذلك تجد التوراة مثلاً تكاد تخلو من إشارة عن اليوم الآخر ، وهذا أمر غريب لا يمكن تصوره فى كتاب ودين سماوى ومنهج حياة .

وما ذلك إلا لأن أهل التوراة أرادوا أنْ يُزحزحوا الناس عن أمور عدة ليثبتوا لأنفسهم سلطة زمنية مادية ، حتى إنهم طمعوا فى أنْ يرتقوا بهذه السلطة حتى يصلوا إلى الله تعالى ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً .. (٥٥) ﴾ [البقرة]

ولما أنزل الله عليهم المنَّ ، وهو مادة حُلْوة كطعم القشدة جعلها تتساقط عليهم ، وأنزل عليهم السلوى ، وهى طيور مثل السمان تنزل عليهم جاهزة مُعدَّة للتناول رفضوا عطية الله لهم ، وطعامه الذى أُعدَّ من أجلهم ، وقالوا : بل نريد طعاماً نصنعه بأيدينا ، وقالوا : ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ..(٦١) ﴾ [البقرة] ، فقال لهم : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا[1] فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ..(٦١) ﴾ [البقرة]

وما دام الأمر بالنسبة لهؤلاء مادياً فلا بُدَّ أنْ يزحزح نفسه عن

(١) المصر : واحد الأمصار . ومصَّروا الموضع : جعلوه مصْراً . وقال الليث : المصر فى كلام العرب كل كورة تقام فيها الحدود ويقسم فيها الفىء والصدقات . [لسان العرب ـ مادة : مصر] .

الآخرة وعن القيامة والحساب ، لذلك راحوا يُشككون فيها ، أما الفلاسفة فقالوا : حين يبعث الله إنساناً بعد الموت وقد تحللتْ أعضاؤه وصارت تراباً ، ثم غرست في هذا المكان شجرة فتغذتْ من هذا التراب ، وأكل إنسان آخر من ثمارها وانتقلتْ إليه بعض خلايا وجزئيات الأول ، فإذا كان هناك بعث أتُبعث هذه الجزئيات مع الأول أم مع الآخر ؟ فإنْ كانت مع الأول فهي نقص في الآخر والعكس . هذه هي شبهة الفلاسفة .

وقد تخبَّط الفلاسفة هذا التخبُّط ؛ لأنهم لم يفطنوا إلى شيء في الوجود يعطي قيماً للغيبيات ، وقد أوضحنا هذه المسألة فقلنا لهم : لو أن إنساناً يزن مائة كيلو مثلاً أصيب بمرض أفقده أربعين كيلو من وزنه ، فماذا يعني هذا النقص بالنسبة للشخص نفسه ؟

هذه المسألة يتحكم فيها أمران : الغذاء والإخراج ، ففي فترة النمو يكون الداخل للجسم أكثر من الخارج ، أما في فترة الشيخوخة مثلاً فالخارج أكثر ، فإنْ توازن الأمران كانت حالة من الثبات لا يزيد فيها الشخص ولا ينقص ، وهي فترة الثبات .

فالشخص الذي نقص من وزنه أربعون كيلو ، ثم شفاه الله وعادت إليه عافيته حتى زاد وزنه وعاد إلى حالته الطبيعية ، فهل تغيَّر الشخص حال نقصان وزنه ؟ وهل تغيَّر حال عودته إلى طبيعته ؟ أم ظلت الشخصية والذاتية هي هي ؟

إذن : المسألة في تكوين الجسم ليست ذرات وجزيئات ، إنما هي شخصية معنوية خاصة وإنْ تكوَّنت من جزيئات المادة وهي الستة عشر عنصراً التي تكوِّن جسم الإنسان ، والتي تبدأ بالأكسوجين وتنتهي بالمنجنيز ، وهي نفس العناصر المكوِّنة لتربة

الأرض التى نأكل منها ، وهذه العناصر بنسب تختلف من شخص لآخر .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④﴾ [ق] يعنى : نعرف ما نقص من كل إنسان : كذا من الحديد ، وكذا من الأكسوجين ، وكذا من الفسفور .. إلخ .

إذن : حين يبعث الله الإنسان بعد الموت يبعث هذه الشخصية المعنوية بهذه الأجزاء المعروفة ، فيأتى الشخص هو هو .

ومن القضايا التى أثاروها فى مسألة البعث والالتباسات التى يحاولونها يقولون : الله تعالى يخلق الإنسان فى مدة تسعة أشهر ، أو ستة أشهر ، يمر خلالها بعدة مراحل : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاماً ، ثم يكسو هذه العظام لحماً ، هذا للإنسان الواحد ، فكم تستغرق إعادة خَلْق البشر من لَدُن آدم عليه السلام حتى قيام الساعة ؟

ونقول : لقد ذكرتم كيفية خَلْق سلالة الإنسان والتى تستغرق تسعة أو ستة أشهر ، لكن لم تذكروا خَلْق الأصل ، وهو آدم عليه السلام ، وقد خلقه الله على هيئته وصورته التى كان عليها ، فلم يكُنْ صغيراً وكبر ، إنما خُلِق كبيراً مستوياً كاملاً ، ثم نُفِخت فيه الروح .

ثم إن عناصر الفعل هى : الفعل ، والفاعل ، والمنفعل ، يُضاف إليها الزمن الذى سيتم فيه الفعل ، فأنا أريد أنْ أنقل هذه (الحملة) من هنا إلى هناك ، فنقلنا فعل ، وأنا الفاعل ، والحملة هى المنفعل ، ثم الزمن الذى يستغرقه الحدث ، والزمن يعنى توزيع جزئيات الحدث على جزئيات الزمن ، فإذا أردتَ أنْ تخيط ثوباً بطريقة يدوية فإنه يأخذ منك وقتاً طويلاً ، فإن خِطَّه بالماكينة أخذ وقتاً أقلّ بكثير .

إذن : فزمن الفعل يتناسب مع قوة الفاعل ، وتذكرون أنه في الماضي كانت الشوارع تضاء بمصابيح الزيت ، وكان لكل منطقة عامل يصعد على سلم إلى كل فانوس ليشعله ، أما الآن فتستطيع أن تنير مدينة بأكملها بضغطة زر واحد . إذن : كلما زادتْ القوة قلَّ الزمن .

فتعال إذن إلى مسألة البعث والإعادة بعد الموت : أهي بقوتك أنت لتحسبها بما يناسب قوتك وقدرتك ؟ إنها بقوة الله عز وجل ، والله لا يعالج الأمور كما نفعل ولا يزاولها ، إنما يفعل سبحانه بكُنْ . إذن : فالفعل بالنسبة لله تعالى لا يحتاج إلى زمن تُوزَّع فيه جزئيات الفعل على جزئيات الزمن .

ولمَ تستبعد هذا في حقِّ الله تعالى ، وقد أعطاك ربك طرفاً منه رغم قدرتك المحدودة ؟ ألستَ تجلس في مثل هذا المجلس فترانا جميعاً مرة واحدة في نظرة واحدة ، كذلك تسمع الجميع دفعة واحدة ؟ ألستَ تقوم بمجرد أن تريد أنْ تقوم ، وتنفعل جوارحك لك بمجرد أنْ يخطر الفعل على بالك ؟ أتفكر أنت في العضلات التي تحركتْ والإشارات التي تمتْ بداخلك لتقوم من مجلسك ؟

وقد سبق أنْ أوضحنا هذه المسألة حين قارنَّا حركة الإنسان في سلاستها وطواعية الجوارح لمراد صاحبها بحركة الحفار مثلاً ، فهو لا يؤدي حركة إلا بالضغط على زر خاص بها .

فإذا كنت أنت أيها العبد تنفعل لك جوارحك وأعضاؤك بمرادك في الأشياء ، فهل تستبعد في حق الله أنْ يفعل بكلمة كُنْ ؟ كيف وأنت ذاتك تفعل بدون أنْ تقولها ، مجرد الإرادة منك تفعل ما تريد .

فإنْ قلتَ : كيف يفعل الحق سبحانه بكلمة كُنْ ، وأنا أفعل بدون أنْ أقولها ؟ نقول : نعم أنت تفعل بدون كُنْ ؛ لأن الأشياء ليست

منفعلة لك أنت ، إنما هى مُسخَّرة بكُنْ الأولى حين قال الله لها كونى مُسخَّرة لإرادته ، إذن : أنا أفعل بدون كُنْ ؛ لأنها ليست فى مقدورى أنا ، فكأن كُنْ الأولى من الله تعالى هى كُنْ لنا جميعاً .

وبهذا الفهم استطعنا تفسير حادثة الإسراء والمعراج ، واستطعنا الرد على منكريها ، فالله يقول : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. (١) ﴾ [الإسراء]

فلما سمع الكفار بالحادثة أنكروها وقالوا : كيف ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ نعم أنتم تضربون إليها أكباد الإبل شهراً ؛ لأن فعلكم يحتاج إلى زمن ومزاولة نوزع فيها جزئيات الفعل على جزئيات الزمن ، أمَّا محمد فلم يقُلْ سريتُ ، فيكون فى الفعل كأحدكم إنما قال : أُسرِى بى[1] .

إذن : فهو محمول على قدرة أخرى ، فالفعل لا يُنسب إليه إنما إلى حامله إلى الله ، وقلنا : كلما زادتْ القوة قلَّ الزمن ، فإذا كانت القوة قوة الحق - تبارك وتعالى - فلا زمن ؛ لذلك يقول سبحانه فى مسألة الخلْق والإعادة : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ .. (٢٨) ﴾ [لقمان]

فالأمر يسير على الله ؛ لأن خلْق النفس الواحدة وخلْق جميع الأنفس يتم بكُنْ ، فالمسألة لا تحتاج إلى تسعة أو ستة أشهر .

وضربنا مثلاً لتوضيح هذه المسألة بصناعة الزبادى مثلاً ، فأنت تأتى باللبن وتضع عليه المادة المعروفة وتتركه فى درجة حرارة معينة فيتحول تلقائياً إلى الزبادى الذى تريده ، فهل جلستَ أمام كل

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٠) ، ومسلم فى صحيحه (١٧٠) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

علبة تُحوِّلها بنفسك ، أم أنك عملت العملية المعروفة فى هذه الصناعة ، ثم تركت هذه المواد تتفاعل بذاتها ؟

كذلك شاء الله تعالى أنْ يوجد الإنسان جنيناً فى بطن أمه ، وأن تجرى عليه أمور النمو بطبيعتها ، إذن : خَلْق الإنسان لا يقاس بالنسبة لله تعالى بالزمن ، وقد حلَّ لنا الإمام على كرم الله وجهه هذه القضية حينما سُئل : كيف يحاسب الله الناس جميعاً من لَدُن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة فى وقت واحد ؟

فقال : يحاسبهم جميعاً فى وقت واحد ، كما أنه يرزقهم جميعاً فى وقت واحد[1] ؛ لأنه سبحانه لا يشغله شأن عن شأن .

ثم يذيل الحق سبحانه هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) ﴾ [لقمان] سميع وبصير صيغة مبالغة من السمع والبصر ، وقلنا : إنك وأنت العبد المخلوق تستطيع أن ترى هذا الجمع مرة واحدة فى نظرة واحدة ، وكذلك تسمعه ، فما بالك بسَمْع الله تعالى وبصره ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ﴾

---

(١) سئل الإمام على بن أبى طالب : كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم ؟ فقال : كما يرزقهم على كثرتهم . [شرح نهج البلاغة ـ للشريف الرضى ـ طبعة دار الشعب ص ٤٠٤ فقرة ٢٩٨] .

هذه آيات كونية واضحة مرئيـة للجميع : للمؤمن وللكافر ، للطائع وللعاصى ، ، فـالحق سبـحانه يوزع لنا الوقت بين ليل ونـهار ، لكنه ليس توزيعـاً متسـاوياً (ميكانيكـياً) ، بحيث يـكون كل منهمـا أربعاً وعشـرين ساعة ثابتـة على التقدير الجـبرى كمـا يقولون ؛ لذلك نرى اليوم ينقص مـثلاً عن الأربع وعشـرين ساعة عدة دقـائق تُضاف إلى زمن الليل أو العكس .

لذلك قالوا من أيام بطليموس : السنة ٣٦٥ يوماً وخمس ساعات ، وخمس وخمسون دقيقة ، واثنتا عشرة ثانية بالدقة . بعدها انتهوا إلى أن السنة ٣٦٥ يومـاً وربع يوم عن طـريق الجـبر ، فـكل ثلاث سنين نجبر الرابعـة ، ويقولون : سنة بسيطة ، وسنة كبـيسة أى : طويلة ، فالتى تقبل القسمة على أربعة سنة كبيسة ، لذلك نجد شـهر فبراير فى هذه السنة ٢٩ يوماً ، ذلك لنعوض اليوم .

وكلمـة يوم تعنى الليـل والنهـار ، لكن القـسمـة بينهـمـا ليـست متـساوية ، فالحق ـ تبارك وتعـالى ـ بصنعته الحكيـمة أراد أنْ يُوزع الحـرارة والبـرودة على كل مناطق المـعـمـورة ، ويعطى لكل منطقـة ما تحتاجه لتنبت أرضـها ، وتعطينا نحن مقومات حياتنا ، بدليل أن من النباتات ما لا ينمو إلا فى الصيف ، ومنها ما لا ينمو إلا فى الشتاء ، كذلك فى الاعتدال الربيعى والاعتدال الخريفى .

لذلك ، عرفنا أخيـراً أن الخالق سبـحانه جعل لمـحور الأرض ميلاً بمقدار ٢٣,٥ درجة عن مستوى مدارها فـهى إذن غير مستوية ، ففى فصل الشتـاء يكون القسـم الكبير منهـا مواجهاً لليل ، والآخر مـواجهاً للنهار ، فتجد ليل الشتاء أطول من ليل الصيف وأبرد منه ، ويبلغ ليل الشتـاء أقصى مـا يمكن من الطول وهو ١٢ سـاعة فـى شهر كـيهك ،

حتى أن الفلاحين يقولون في كيهك (كياك صباحك مساك قوم من نومك حضر عشاك) .

ومقابل ذلك في فصل الصيف ، فكأن ميل محور الأرض سرٌّ من أسرار هندسة هذا الكون ، ففي الحادي والعشرين من حزيران (يونيو) يبدأ الانقلاب الصيفي ، وفي الثالث والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) يبدأ الانقلاب الشتوى ، ثم الاعتدال الربيعي في الحادى والعشرين من آذار (مارس) ، والاعتدال الخريفي في الثاني والعشرين من أيلول (سبتمبر) . وفي الاستواء الربيعي والاستواء الخريفي تجد أن الليل مساو للنهار ، وجوّهما معتدل لا حر ولا برد .

فقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ .. (٢٩) ﴾ [لقمان] يعني : لا تظن أن الليل والنهار قسمة متساوية ؛ لأن الله تعالى بحكمته يُدخل جزءاً من الليل في النهار ، أو جزءاً من النهار في الليل ، فيزيد في أحدهما ، وينقص من الآخر لحكمة أرادها سبحانه وتعالى لصالح الإنسان ، وإمداداً له بمقوِّمات حياته ، لتعلم أن ما يطرأ على الليل أو النهار من تغيير الأشياء لها مناط في الحكمة الإلهية العليا .

وحين نُقسِّم اليوم إلى ليل ونهار - وهي قسمة كما قلنا ليست رتيبة ولا متساوية - فإن لليل مهمة في الحياة وللنهار مهمة ، كما بيَّن لنا سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) ﴾ [النبأ]

معنى اللباس أن تسكن فيه وتكنّ وتستر نفسك ؛ لذلك عرفنا فيما بعد أن الضوء أثناء النوم أمر غير صحي ، وفهمنا قول رسول الله : « أطفئوا المصابيح إذا رقدتم »[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٦٢٤) وأحمد في مسنده (٣/٣٨٨) عن جابر بن عبد الله ، واللفظ للبخاري .

والحق سبحانه يوضح لنا هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾ [الضحى] ويقول : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾ [الليل] ليبين لك أن لكل منهما مهمة فى حركة حياتك ، فالنهار للحركة ، والليل للسكون ، وعليك ألا تخلط بين هاتين المهمتين دون داع ، وقد استثنينا من هذه القاعدة مَنْ تحتم عليهم طبيعة عملهم أنْ يعملوا بالليل ويرتاحوا بالنهار .

والخالق عز وجل جعل فى حركة الليل والنهار أسراراً وعجائب ينبغى أن نتنبه إليها بمعطيات العلم ، ومن حكمة الخالق سبحانه أنْ جعل لكل سر في الكون ميلاداً يولد فيه ، ونثر أسرار كونه على خَلْقه ولم يُظهرها لجيل واحد ، وإلا لو كشف القرآن كل أسراره للأمة الأمية التى عاصرتْ نزوله لانصرفتْ عن الدعوة الجديدة بتكذيب هذه القضايا التى لم تصدقها العقول حتى فى العصر الحديث ورغم تقدم العلوم ، فمثلاً لما قال العلماء بكروية الأرض ودورانها حول الشمس لم نصدق هذه الحقائق حتى جاءتنا الصور الفضائية التى تؤكد ذلك .

وقلنا : إن ميلاد سرٍّ من أسرار الكون قد يصادف بحثاً من البشر ، فيأتى السر ويظهر على أنه نتيجة لهذا البحث ، وإلا أظهره الله للناس بالمصادفة رحمة بهم وتفضُّلاً عليهم ؛ لذلك نجد أن معظم الاكتشافات جاءت صدفة ، لم يَسْعَ إليها البشر ، ولم يذهبوا إليها بمقدمات .

والقرآن الكريم حين يتحدث عن الليل والنهار يقول كلاماً عاماً يفهمه كل معاصر لمرحلة من مراحل التقدم العلمى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ .. ۝١٢ ﴾ [الإسراء]

ويقول ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ

شُكُوراً (٦٢)﴾ [الفرقان] ومعنى خلفة يعني : يخالف أحدهما الآخر ويأتي بعده ، وهذا صحيح الآن ، فنحن نرى الليل يخلف النهار ، والنهار يخلف الليل ، لكن كيف نتصور هذه المسألة في بَدْء الخَلْق ؟

لو أن البداية كانت بخَلْق الأرض مواجهة للشمس ، فالنهار إذن أولاً ليس خِلْفة لشيء قبله ، ثم تغيب الشمس فينشأ الليل ليكون خِلْفة للنهار ، وفي المقابل إن وجدت الأرض غير مقابلة للشمس ، فالليل هو الأول ليس خِلْفة لشيء قبله .

إذن : لا يحل لنا هذه المسألة إلا قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً .. (٦٢)﴾ [الفرقان] أي : من بداية الخَلْق وهما خِلْفة ، وهذا لا يتأتى ولا يسوغ إلا إذا كانت الأرض مكوَّرة ، بحيث يكون الجزء المقابل للشمس منها مكوِّناً للنهار ، والجزء الآخر لليل في وقت واحد ، فلما تحركت الأرض في دورانها صار كل منها خِلْفة للآخر ، إذن : معطيات القرآن يهضمها العقل ، ولا يعارضها أبداً .

تذكرون في الثلاثينيات وبالتحديد عام ١٩٢٨ فسروا السموات السبع بأنها الكواكب السبعة السيارة التي تدور حول الشمس ، ذلك ليقربوا العلم للناس ، ويشاء الله - سبحانه وتعالى - أن يكتشفوا بعدها (نبتون) ثم (بلوتو) فصاروا تسعة كواكب ، وأظهر الله لهم فساد هذا التأويل .

وفي الكون عجائب كثيرة نعرفها حتى عن طريق الكفار ، وكأن الله سخَّر حتى الكافر ليُثبت إيمان المؤمن ، فإذا كنا قد عرفنا اليوم عندنا على الأرض ، وأنه ليل ونهار يُكوِّنان أربعاً وعشرين ساعة ، فماذا يعني اليوم بالنسبة للكواكب الأخرى ؟

لما عرفوا أفلاك الكواكب الأخرى التي تدور حول الشمس وجدوا

أقربها للشمس عطارد ، ثم الزهرة ، ثم الأرض ، ثم المريخ ، ثم المشترى ، ثم زحل ، ثم نبتون ، ثم بلوتو ، وهو أبعد الكواكب عن الشمس .

ومن عجائب اليوم فى هذه الكواكب أن يوم الزهرة مثلاً ٢٤٤ يوماً بيومنا نحن ، أما العام فيساوى ٢٢٥ يوماً بيومنا ، فكأن يوم الزهرة أطول من عامها ، كيف ؟ قالوا : لأن المدار مختلف عن مدار الأرض ، فاليوم نتيجة دورة الكوكب حول نفسه ، والعام نتيجة دورة الكوكب حول الشمس .

وقوله تعالى : ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. (٢٩)﴾ [لقمان] ولك أن تلحظ دقة الأداء القرآنى فى الانتقال من الفعل المضارع ﴿يُولِجُ .. (٢٩)﴾ [لقمان] إلى الماضى ﴿سَخَّرَ .. (٢٩)﴾ [لقمان] ففى الكلام عن حركة الليل والنهار قال ﴿يُولِجُ .. (٢٩)﴾ [لقمان] ولما تكلم عن الشمس والقمر قال : ﴿سَخَّرَ .. (٢٩)﴾ [لقمان] لماذا ؟

قالوا : لأن التسخير تم مرة واحدة ، ثم استقر على ذلك ، أما إيلاج الليل فى النهار ، وإيلاج النهار فى الليل فأمر مستمر يتكرر كل يوم ، فناسبه المضارع الدالّ على التكرار .

وقوله تعالى : ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٢٩)﴾ [لقمان] أى : إلى غاية محدودة ؛ لذلك نسمى العمر النهائى : الأجل . والمراد بالأجل المسمى يوم القيامة ، فكأن الخالق سبحانه ضمن لنا استمرار الشمس والقمر إلى قيام الساعة ، فاطمئنوا .

ثم أىُّ عظمة هذه فى كوكب مضىء ينير العالم كله منذ خلقه الله وإلى قيام الساعة ، دون صيانة ودون قطعة غيار ؛ ذلك لأنه مبنى على التسخير القهرى الذى يمنع الاختيار ، فليس للشمس أنْ تمتنع

عن الشروق وكذلك القمر ، ومن العظمة فى الألوهية هذه الرحمانية الرحيمة التى تحتضن الجميع المؤمن بها والكافر .

وفى هذه الآية ورد التعبير بلفظ ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ..(٢٩) ﴾ [لقمان] وفى مواضع أخرى ورد بلفظ ﴿ لأَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٢) ﴾ [الرعد] باللام بدلاً من إلى ، وكذلك فى سورتى فاطر (١٣) والزمر (٥) ، ولكل من الحرفين معنى : ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ .. (٢٩) ﴾ [لقمان] تعطينا الصورة لمشية الشمس والقمر قبل وصولهما الأجل ، إنما ﴿ لأَجَلٍ مُّسَمًّى .. (١٣) ﴾ [فاطر] أى : الوصول المباشر للأجل .

وكما أن لليل مهمة وللنهار مهمة ، كذلك للشمس مهمة ، وللقمر مهمة بيَّنها الله فى قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. (٥) ﴾ [يونس]

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) ﴾ [الفرقان] فالضياء للشمس فيه نور وحرارة ، على خلاف نور القمر الذى يناسب حالماً لا حرارة فيه .

ومن عجائب أمر القمر أننا كُنَّا نحسبه قطعة من اللؤلؤ مضيئة فى السماء ، حتى إن الشعراء درجوا على تشبيه المحبوبة بالقمر ، ولو عرفوا حقيقة القمر التى عرفناها نحن اليوم ما صحَّ منهم هذا التشبيه ، فقد أطلعنا العلم أن القمر ما هو إلا حجارة وجسم معتم لا يضىء بذاته ، إنما يعكس فقط ضوء الشمس ؛ لذلك لما شبَّه أحد الشعراء محبوبته بالقمر أنكرتْ عليه هذا الشبه :

شَبَّهْتُها بالبدْرِ فَاسْتَضْحكتْ وقابَلَتْ قَوْلِى بالنُّكْرِ

أى : تكلفت الضحك

وَسفَّهَتْ قولْى وقَالَتْ متَى سَمُجْتُ حتى صِرْتُ كالبدْرِ

ولك أن تسأل فمن أين عرفت سماجة البدر ، وأنه حجارة لا جمالَ فيها ؟ تجيب هى حين تقول :

البَدْرُ لاَ يرنُو بعيْن كَما أرْنُو ولاَ يَبْسِمُ عَنْ ثَغْر
ولاَ يُميطُ المرْطَ عن نَاهدٍ ولا يشُدُّ العقد فى نَحْر
مَنْ قَاسَ بالبَدْر صَفَائى فَلا زَالَ أسِيراً فى يَدِى هَجْرى

إذن : فحقيقة القمر التى عرفناها أخيراً آية من آيات الله الظاهرة والباطنة فى الكون أطلعنا الله عليها بسلطان العلم ، فلما تيسَّر للبشر الصعود إلى سطحه عرفنا أنه جسم مُعْتم ، وصخور لا تنير بذاتها ، إنما تعكس أشعة الشمس ، فتصل إلينا هادئة حالمة ، وكأن القمر كما يقولون : (يصنع من الفسيخ شربات) .

ومن حكمة الخالق سبحانه فى خَلْق الشمس والقمر أن تكون الشمس ميزاناً لمعرفة اليوم ، والقمر لمعرفة الشهر ، وهو الأصل فى التكليفات ، لأن له شكلاً مميزاً فى أول الشهر على خلاف الشمس ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ** .. (٥) ﴾ [يونس]

وتتجلى عظمة التكليف الإلهى وارتباطه بالقمر فى فريضة الحج مثلاً ، بحيث يتنقل موعد الحج على مدار العام كله ، فمرة يأتى فى الصيف ، وأخرى فى الشتاء .. إلخ مما يُيسِّر للحجاج ما يناسب كلاً

منهم من الجو الملائم ، ويقطع الأعذار فى التخلف عن أداء هذه الفريضة .

إذن : بالتوقيت القمرى يأتي الحج فى كل أوقات السنة ؛ لذلك قال البعض : إن ليلة القدر دائرة فى العام كله إذا ما قارنا التوقيت الشمسى بالتوقيت القمرى ، فإن اتفقنا على أن ليلة القدر فى السابع والعشرين من رمضان ، فإنها ستوافق أول يناير مثلاً ، وفى العام التالى توافق الثانى ، ثم الثالث وهكذا .. وهذا من رحمة الله تعالى بعباده ..

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ﴾ [لقمان] وما دام أنه سبحانه خبير بما تعملون ، فهو الذى يهيىء لكم صلاح العمل بخبرته وحكمته وقدرته وقيوميته ؛ لذلك شرع لكم الأعمال التى تنظم حركة حياتكم وحركة عبادتكم ؛ لذلك نجد رمضان مثلاً يدخل بالليل فنقول هذه الليلة من رمضان ، أما يوم عرفة فيدخل بيومه لأنه يوم مجموع له الناس .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ﴾ [لقمان] معطوفة على ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ .. (٢٩) ﴾ [لقمان] فالتقدير : وألم تر أن الله بما تعملون خبير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ (٣٠) ﴾

قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ .. (٣٠) ﴾ [لقمان] إشارة إلى ما تقدم ذكْره من دخول الليل فى النهار ، ودخول النهار فى الليل ، وتسخير الشمس والقمر ، ذلك كله ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ .. (٣٠) ﴾ [لقمان] فكل ما تقدم نشأ عن صفة من صفات الله وهو الحق ، والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير ، فكأن ناموس الكون بكل أفلاكه وبكل المخلوقات فيه له نظام ثابت لا يتغير ؛ لأن الذى خلقه وأبدعه حق ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ .. (٣٠) ﴾ [لقمان]

وما دام الله تعالى هو (الحق) فما يدَّعونه من الشركاء هم الباطل ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ .. (٣٠) ﴾ [لقمان] ، فلا يوجد فى الشيء الواحد حَقَّان ، فإنْ كان أحدهما هو الحق فغيره هو الباطل ، فالحق واحد ومقابله الباطل . وأىُّ باطل أفظع من عبادتهم للأصنام واتخاذها آلهة وشركاء مع الله عز وجل ؟

كيف وهى حجارة صوَّروها بأيديهم وأقاموها ليعبدوها من دون الله ، والحجارة جماد من جمادات الأرض ، والجماد هو العبد الأول لكل المخلوقات ، عبد للنبات ، وعبد للحيوان ، وعبد للإنسان ؛ لأنه مُسخَّر لخدمة هؤلاء جميعاً .

فكيف بك وأنت الإنسان الذى كرَّمك ربك وجعل لك عقلاً مفكراً تتدنى بنفسك وترضى لها أنْ تعبد أدنى أجناس الوجود ، وتتخذها شريكاً مع الله ، وأنت ترى الريح إذا اشتدتْ أطاحتْ باللات أو بالعزى ، وألقتْه على الأرض ، وربما كُسرت ذراعه ، فاحتاج لمن يصلح هذا الإله ، إذن ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ .. (٣٠) ﴾ [لقمان]

لذلك ؛ قلنا فى الحروب التى تنشب بين الناس : إنها لا تنشب بين حقين ؛ لأن الحقيقة لا يوجد فيها حقَّان ، إنما هو حق واحد ،

والآخر لا بُدَّ أن يكون باطلاً ، أو تنشأ بين باطلين ، أما نشأتها بين حق وباطل فإنها في الغالب لا تطول ؛ لأن الباطل زهوق .

والعاقبة لا بُدَّ أنْ تكون للحق ولو بعد حين ، أما الباطل فإنه زَهُوق ، إنما تطول المعركة إنْ نشبت بين باطلين ، فليس أحد الطرفين فيها أهلاً لنصرة الله ، فتظل الحروب بينهما حتى يتهالكا ، وتنتهي مكاسب طغيان كل منهما ، ولا يردهما إلا مذلَّة اللجوء إلى التصالح بعد أنْ فقدا كل شيء .

لذلك نرى هذه الظاهرة أيضاً في توزيع التركات والمواريث بين المستحقين لها ، حيث ينشب بينهم الخلاف والطعن واللجوء إلى القضاء والمحامين حتى يستنفد هذا كله جزءاً كبيراً من هذه التركة ، حتى إذا ما صَفَتْ مما كان بها من أموال جُمعتْ بالباطل ترى الأطراف يميلون إلى الاتفاق والتصالح وتقسيم ما بقي .

واقرأ إنْ شئت حديث رسول الله ﷺ : « مَنْ أصاب مالاً من مهاوش[1] أذهبه الله في نهابر[2] »[3] ومعنى : مهاوش يعني بالتهويش أو كما نقول (بيهبش) من هنا ومن هنا ، وطبيعي أن يُذهِب الله هذا المال في الباطل وما لا فائدة منه .

وسبق أن أعطينا مثلاً لمصارف المال الحرام بالأب يرجع إلى بيته ، فيجد ابنه مريضاً حرارته مرتفعة ، فيسرع به إلى الطبيب

---

(١) المهاوش : مكاسب السوء ، فهو كل مال يُصاب من غير حلِّه ولا يُدْرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك . [لسان العرب ـ مادة : هوش] .

(٢) النهابر : المهالك . أي : أذهبه الله في مهالك وأمور متبددة . [لسان العرب ـ مادة : نهبر] .

(٣) أورده العجلوني في كشف الخفاء (٢/٣١٢) وعزاه للقضاعي عن أبي سلمة الحمصي مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقي السبكي: لا يصح .

ويصيبه الرعب ، ويتراءى له شبح المرض ، فينفق على ابنه المئات ، أما الذى يعيش على الكفاف ويعرق فى كسب عيشه بالحلال فيكفيه فى مثل هذه الحالة قرص أسبرين وكوب ليمون ، فالأول أصاب ماله من مهاوش ، والآخر أصابه من الحلال .

فقول الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ .. (٣٠) ﴾ [لقمان] يعنى : أن الحق هو الظاهر وهو الغالب ، فإنْ قلتَ كيف ونحن نرى الباطل قد يعلو على الحق ويظهر عليه ؟ ونقول : نعم ، قد يعلو الباطل لكن إلى حين ، وهو فى هذه الحالة يكون جندياً من جنود الحق ، كيف ؟ حينما يعلو الباطل وتكون له صَوْلَة لا بُدَّ أن يعض الناس ويؤذيهم ويذيقهم ويلاته ، فيلتفتون إلى الحق ويبحثون عنه ويتشوقون إليه .

إذن : لولا الباطل ما عرفنا ميزة الحق ، ومثال ذلك الألم الذى يصيب النفس الإنسانية فينبهها إلى المرض ، ويظهر لها علتها ، فتطلب الدواء ، فالألم جندى من جنود الشفاء ، وقلنا سابقاً : إن الكفر جندى من جنود الإيمان .

لذلك لا تحزن إنْ رأيتَ الباطل عالياً ، فذلك فى صالح الحق ، واقرأ قول ربك عز وجل : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا .. (١٧) ﴾ [الرعد] يعنى : يأخذ كل واد على قدره وسعته من الماء ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا .. (١٧) ﴾ [الرعد] وهو القش والفتات الذى يحمله الماء ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ .. (١٧) ﴾ [الرعد] أى : مثلاً لكل منهما .

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً .. (١٧) ﴾ [الرعد] يعنى : مطروداً مُبْعداً من الجفوة ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

وبعد أن بيَّن الحق سبحانه وتعالى أنه ﴿ الْحَقُّ .. (٣٠) ﴾ [لقمان] وأن غيره من آلهة المشركين هم الباطل ذكر لنفسه سبحانه صفتين أخريين ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) ﴾ [لقمان] العلى الكبير يقولها الله تعالى ، ويقولها رسوله ﷺ ، ونقولها نحن ؛ لأن الله قالها ؛ ولأن النبى الصادق أخبرنا بها ، لكن المسألة أن يشهد بها مَنْ كفر بالله .

لذلك يعلمنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ أن نحمد الله حينما يشهد الكافر لله رغم كفره به ، كما ورد فى الآيات السابقة : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) ﴾ [لقمان]

فهذه الشهادة منهم تستحق من المؤمن أن يقول : الحمد لله ؛ لأنها شهادة جاءت ممَّنْ كفر بالله وكذَّب رسوله وحاربه ، وأيضاً تنظر إلى هذا الكافر الذى تأبَّى على منهج الله وكذَّب رسوله حين يصيبه مرض مثلاً ، أيستطيع أنْ يتأبى على المرض كما تأبَّى على الله ؟ هذا الذى ألف التمرد على الله : أيتمرد إنْ جاءه الموت .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء] أى : لا يجدون أمامهم ساعة الكرب والهلاك إلا الله ؛ لأن الإنسان فى هذه الحالة لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، بالله أرأيتم إنساناً أحاطتْ به الأمواج ، وأشرف على الهلاك يدعو يقول : يا هبل ؟ إذن : الله هو العلى وهو الكبير ، وغيره شرك وباطل.

وسبق أن ضربنا مثلاً للإنسان ، وأنه لا يغشُّ نفسه ، ولا يخدعها خاصة إذا نزلتْ به ضائقة بالحلاق أو حكيم الصحة كما كانوا يطلقون عليه ، فهو يداوى أهل القرية ويسخر من طبيب الوحدة

الصحية ، ويتهمه بعدم الخبرة ، لكن حين مرض ولده وأحسَّ بالخطر أخذ الولد وتسلَّل به في ظلام الليل ، وذهب إلى الطبيب .

فلله وحده العلو ، ولله وحده الكبرياء ، بدليل أن الكافر حين تضطره أمور الحياة وتُلجئه إلى ضرورة لا مخرجَ منها لا يقول إلا : يا الله يا رب .

فالله هو العليُّ بشهادة مَنْ كفر به ، ثم أردف صفة (العلى) بصفة (الكبير) ؛ لأن العلى يجوز أنه علا بطغيان وعدم استحقاق للعلو ، لكن الحق سبحانه هو العلى ، وهو الكبير الذى يستحق هذا العلو .

ثم يلفتنا الحق سبحانه إلى آية أخرى من آياته فى الكون :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه بعض الآيات الكونية البعيدة عنا أراد سبحانه أنْ يعطينا نموذجاً آخر للآيات التي بيْن أيدينا فى الأرض فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ .. (٣١) ﴾ [لقمان] ألم تر : يعنى ألم تعلم ﴿ أَنَّ الْفُلْكَ .. (٣١) ﴾ [لقمان] أى : السفن .

وربما أن سيدنا رسول الله لم يَرَ هذه السفن فى البحار ، ولم تكن قد ظهرت السفن العملاقة التى نراها اليوم كالأعلام ، كما فى قوله

سبحانه : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤) ﴾ [الرحمن]

ومتى وُجِدت البوارج العالية التى تشبه الجبال والمكوَّنة من عدة أدوار ؟ لم توجد إلا حديثاً ، إذن : فهذا مظهر من مظاهر إعجاز القرآن ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) ﴾ [الزخرف]

ومَنْ يبحث فى القرآن يجد فيه الكثير من هذه الآيات التى تثبت صِدْق القرآن وصِدْق رسول الله فى البلاغ عن الله .

وذكرنا قصة المرأة التى أسلمت لما قرأت التاريخ الإسلامى ، وقرأت فى سيرة رسول الله أن المؤمنين به كانوا يجعلون عليه حراسة دائمة يتبادلونها حماية له من أعدائه ، وفجأة صرف رسول الله هؤلاء الحرس من حوله وقال لهم لقد أنزل الله علىَّ : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ .. (٦٧) ﴾ [المائدة] فوقفت المرأة عند هذه الآية وقالت : والله لو أن هذا الرجل كان يخدع الناس جميعاً ما خدع نفسه فى حياته .

وقلنا فى معنى ﴿ أَلَمْ تَرَ .. (٣١) ﴾ [لقمان] أنها بمعنى ألم تعلم ، لأن إعلام الله لك أوثق من رؤية عينيك .

وكلمة ﴿ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ .. (٣١) ﴾ [لقمان] الجرى : حركة تودع فيها مكاناً إلى مكان آخر ، هذا التوديع إما أن تمشى الهُوَيْنَا أو تجرى . لكن ما هى نعمة الله فى جريها ؟ أولاً كانت أول سفينة من الخشب المربوط إلى بعضه بالحبال والدُّسُر[1] ، وكان

(١) الدسر : مسامير السفينة وشرطها التى تشد بها . والدسار : المسمار ويقول تعالى : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) ﴾ [القمر] .

الغاطس منها فى الماء حوالى شبر واحد يزيح من الماء بحجم وزن السفينة ، فإذا ما وضعت عليها ثقلاً فإنها تغطس بمقدار هذا الثقل ، حتى إذا ما زاد وزن الماء المزاح عن وزن السفينة وحمولتها فإنها تغرق .

وهذه الفكرة هى التى تُستخدم فى الغواصات ، فبالوزن يتم التحكم فى حركة الغواصة تحت الماء . والآن نرى السفن العملاقة والتى تُصنع من الحديد ، والعجيب أن هذا الحديد الصلب يحمله الماء السائل اللِّين ويجرى به ، ثم تأتى الريح فتدفع السفن إلى حيث تريد ، حتى وإنْ كانت تسير عكس جريان الماء ، ويتمكن ربان السفينة من التحكم فى حركتها باستخدام بعض الآلات البسيطة وبتوجيه الشراع بطريقة معينة فتسير السفينة حسب ما أراد حتى لو كان اتجاهها عكس اتجاه الريح ، ويسمون هذه الحركة (تسفيح).

لذلك يقول سبحانه عن حركة السفن : ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى]

وكأن الحق سبحانه يريد أن يُبيِّن لنا أن أقل الأشياء كثافة بقوة الحق له يحمل أكثر الأشياء كثافة ، وانظر إنْ شئتَ إلى جرارات النقل الثقيل ، هذه الجرارات العملاقة التى تحمل عدة أطنان من الحديد مثلاً على أى شىء تسير وتتحرك ؟ إنها تسير وتتحرك على الهواء المضغوط فى عجلاتها ، والذى يأخذ قوته من هذا الضغط ، بحيث إذا زدتَ فى ضغط هذه العجلات تقوى على نفسها فتنفجر .

وقوله تعالى : ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ.. ﴿٣١﴾﴾ [لقمان] أى : من عجائبه فى كونه خاصة فى البحار ، ففى الماضى كنا لا نرى من المخلوقات فى الأعماق إلا السمك الذى يصطاده الصيادون ، أما الآن ومع تطور

علوم البحار وطرق التصوير تحت الماء أصبحنا نرى فى أعماق البحار عجائب أكثر مما نراه على اليابسة .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [لقمان] قوله تعالى : ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [لقمان] توحى بأن آيات الله فى كونه كثيرة ، لكن على الإنسان أنْ يبذل جهداً فى البحث عنها واكتشافها ، وعليه أن يكون صبَّاراً على مشقة البحث والغوص تحت الماء ، فإذا ما رأينا ما فى أعماق البحار من عجائب مخلوقات الله فقد وجب علينا الشكر ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [لقمان] والشكر لا يكون إلا عن نعمة جدَّت لم تكُنْ موجودة من قبل .

إذن : الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد منا أن نستقبل آياته فى الكون استقبالَ بحثٍ وتأملٍ ونظر ، لا استقبال غفلة وإعراض ، كما قال سبحانه : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف]

وتقديم صبَّار على شكور دليل على أن الصبر على مشقات العمل والبحث والاستنباط والاكتشاف يُؤتى نعمة كبيرة تدعو الإنسان إلى شكرها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ(١) كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

---

(١) ختره : غدر به أقبح الغدر فهو ختار وختَّار : صيغة مبالغة . [القاموس القويم ١/١٨٧] .

معنى ﴿ غَشِيَهُم مَّوْجٌ .. (٣٢) ﴾ [لقمان] يعنى : غطاهم واحتواهم ؛ لذلك قال ﴿ كَالظُّلَلِ .. (٣٢) ﴾ [لقمان] جمع ظُلَّة ، وهى التى تعلو الإنسان وتظلله ، ولا يكون الموج كذلك إلا إذا علا عن مستوى الإنسان ، وخرج عن رتابة الماء وسجسجته . ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا[1] الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ .. (١٧١) ﴾ [الأعراف]

وأنت تشاهد هذه المظاهر إذا كنتَ فى عرض البحر ، فترى الموجة من بعيد أعلى منك ، وأنها حتماً ستطمسك ، حتى إذا ما وصلتْ إليك شاهدتَ فيها مظهراً من لطف الله بك ، حيث تتلاشى وتمر من تحتك بسلام ، وهذا شىء عجيب ونعمة تستوجب الشكر .

فالموج إذن شىء مخيف ؛ لذلك لما غشيهم وأيقنوا الهلاك ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٣٢) ﴾ [لقمان] دعوا الله رغم أنهم كافرون به ، لكن المرء فى مثل هذه الحال لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، فالأمر جد ، فلم يدعوا اللات أو العزى ، ولم يقُلْ أحد منهم يا هبل ، إنما دعوا الله بإخلاص لله ، فإنْ كانوا ملتفتين لدين آخر فى عبادة الأصنام ، ففى هذا الموقف لا بُدَّ أن يُخلصوا لله ؛ لأنهم واثقون أن الأصنام لن تنفعهم ، وأنها لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ولن يكون النفع وكشف البلاء إلا من الله الحق .

فإنْ قُلْتَ : ما دام الأمر كذلك ، فما الذى صرفهم عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام ؟

---

(١) النتق : الزعزعة والهز والجذب والنفض . ونتق الشىء : جذبه واقتلعه . [لسان العرب - مادة : نتق] .

قلنا : إن التديُّن طبيعة فى النفس البشرية ، وهذه الطبيعة باقية فى ذرات كل إنسان منذ خلق الله آدم ، وأخذ من صُلْبه ذريته ، وأشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢)﴾ [الأعراف] فشهدوا .

فكل واحد منا فيه ذرة شهدتْ هذا العهد ، وهذه الذرة هى مصدر الإشراقات فى نفس المؤمن ، وعليه أنْ يحافظ عليها بأن يأخذ قانون صيانة هذه الذرة ممن خلقها ، لا أنْ يطمس نورها بمخالفة قانون صيانته الذى وضعه له ربه ـ عز وجل ـ فيكون كمَنْ قال الله فيه : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾ [طه]

النبى ﷺ يُوضح لنا هذه المسألة بقوله : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يُهوِّدانه ، أو يُنصِّرانه أو ، يُمجِّسانه »[١] .

فالنفس الإنسانية بخير ما دام فيها الإشراقيات الإلهية الأولى التى شهدتْ أن الله هو الرب ، لكن إذا تضبَّبت فلا بُدَّ أن تحدث الخيبة ويدخل الفساد .

إذن : التديُّن طَبْع فى النفس ، لكن التديُّن الحق له مطلوبات ومنهج بافعل كذا ، ولا تفعل كذا ، وهذا يريد أنْ يُرضى نفسه بأن يكون مُتديناً ، لكن يريد أنْ يريح نفسه من مطلوبات هذا التدين ، فماذا يفعل ؟ يلجأ إلى عبادة إله لا مطلوبات له ، وقد توفرت هذه فى عبادة الأصنام .

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٧٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٦٥٨) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة » الحديث .

لكن نقول لمن عبد الأصنام : لا بُدَّ أنْ يأتي عليك الوقت الذى لا تلتفت فيه إلى الأصنام ، بل إلى الإله الحق الذى هربتْ من مطلوباته وانصرفت عن عبادته ، لا بُدَّ أن تُلجئك الأحداث إلى أنْ تلوذ به ؛ لذلك يقولون فى المثل (اللى متحبش تشوف وجهه ، يُحوجك الزمن لقفاه) .

فأنتم أعرضتم عن الله وكفرتم به ، فلما نزلت بكم الأحداث وأحاطت بكم الأمواج صرْتم أرانب ، فلماذا الآن تلجئون إلى الله ؟ لماذا لم تستمروا على عنادكم وتكبُّركم حتى على الله ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ .. (٣٢) ﴾ [لقمان] وكان ينبغى عليهم بعد أن اعترفوا أن الله هو الإله الحق الذى يُلْجأ إليه ويُستغاث به ، وبعد أنْ نجاهم وأسعفهم ، كان ينبغى عليهم أن يؤمنوا به ، وأنْ يطيعوه ، وأن تؤثر فيهم هذه الهزة التى زلزلتهم ، إلا أنهم عادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والإعراض عن الله ، وطاوع نفسه وشهوته .

هذه هى حال الكافر حينما يتعرض للابتلاء والتمحيص ، فإنه ينتكس ولا يرعوى على خلاف المؤمن ، فإنه إن تعرَّض لمثل هذا الاختبار يزداد إيماناً ويقيناً .

والمقتصد هو البين بين ، تأخذه الأحداث والخطوب ، فتردُّه إلى الله حال الكرب والشدة ، لكنه إذا كشف عنه تردد وضعفتْ عنده هذه الروح ، بدليل أن الله تعالى يذكر فى مقابل المقتصد نوعاً آخر منهم غير مقتصد ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) ﴾ [لقمان]

فمنهم من بهت كفره حينما تنبه فيه الوازع الإيمانى ، لكنه لما نجا غرَّته الدنيا من جديد ، ومنهم الجاحد الختَّار أى : الغادر .

ولك أنْ تلحظ المقابلة بين صبَّار وختَّار ، وبين شكور وكفور .

ثم يخاطب الحق سبحانه الناس ، فيقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾

خطاب الحق سبحانه لعباده بيأيها الناس يدل على أنه تعالى يريد أنْ يُسعدهم جميعاً فى الآخرة ، وسبق أنْ ذكرنا الحديث القدسى الذى تقول فيه الأرض : يا رب ائذن لى أنْ أخسف بابن آدم . وقالت البحار : نغرقه ... إلخ ، فكان الرد من الخالق عز وجل « دعونى وخلقى ، فلو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم»[1] .

وقوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [لقمان] التقوى أنْ تجعل بينك وبين ما يضرك وقاية تقيك وتحميك ؛ لذلك يقول تعالى فى آية

---

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ، ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله للأرض والسماء : كفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدل له حسنات » .

أخرى ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ .. (١٣١) ﴾ [آل عمران] وهما بمعنى واحد ؛ لأن معنى اتقوا الله : اجعلوا بينكم وبين صفات جلال ربكم وانتقامه وجبروته وقاية ، وكذلك فى : اتقوا النار .

فالخطاب هنا عام للناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، فالله تعالى يريد أن يُدخلهم جميعاً حيِّز الإيمان والطاعة ، ويريد أنْ يعطيهم ويمنّ عليهم ويعينهم ، وكأنه سبحانه يقول لهم : لا أريد لكم نِعَم الدنيا فحسب ، إنما أريد أنْ أعطيكم أيضاً نعيم الآخرة .

وكذلك النبى ﷺ ، كان رحيماً حتى بالكافرين والمعاندين له ، كما ذكرنا فى قصة اليهودى الذى اتهموه ظلماً بسرقة درع أحد المسلمين ، وقد عزَّ على المسلمين أنْ يُرمى واحد منهم بالسرقة ، فجعلوها عند اليهودى ، وعرضوا الأمر على سيدنا رسول الله ، فأداره فى رأسه : كيف يتصرف فيه ؟

فأسعفه الله ، وأنزل عليه : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ .. (١٠٥) ﴾ [النساء] لا بين المؤمنين فحسب ﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾ [النساء] أى : لا تخاصم لصالح الخائن ، وإنْ كان مسلماً ، فالناس جميعاً سواء أمام مسئولية الإيمان .

وفَرْق بين : اتقوا ربكم واتقوا الله ؛ لأن عطاء الربوبية غير عطاء الألوهية ، عطاء الربوبية إيجاد من عَدَم ، وإمداد من عُدْم ، وتربية للمؤمن وللكافر ، أما عطاء الألوهية فطاعة وعبادة وتنفيذ للأوامر ، فاختار هنا الرب الذى خلق وربَّى ، وكأنه سبحانه يقول للناس جميعاً : من الواجب عليكم أن تجعلوا تقوى الله شكراً لنعمته عليكم ، وإنْ كنتم قد كفرتُم بها .

ولا تنتهى المسألة عند تقوى الرب فى الدنيا ، إنما ﴿ وَاخْشَوْا يَوْمًا

لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ .. (٣٣)﴾ [لقمان] أى : خافوا يوماً تُرجعون فيه إلى ربكم ، وكلمة (يوم) تأتى ظرفاً ، وتأتى اسماً مُتصرِّفاً ، فهى ظرف إذا كان هناك حدث سيحدث فى هذا اليوم كما تقول : خِفْت شدة الملاحظة يوم الامتحان ، فالخوف من الحدث ، لا من اليوم نفسه ، أمَّا لو قلت خفت يوم الامتحان ، فالخوف من كل شىء فى هذا اليوم ، أى من اليوم نفسه .

فالمعنى هنا ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا .. (٣٣)﴾ [لقمان] لأن اليوم نفسه مخيف بصرف النظر عن الجزاء فيه ، وفى هذا اليوم ﴿لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ .. (٣٣)﴾ [لقمان] خصَّ هنا الوالد والولد ؛ لأنه سبحانه نصح الجميع ، ثم خصَّ الوالدين فى الوصية المعروفة ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. (١٤)﴾ [لقمان]

ثم ذكر حيثيات هذه الوصية وقال ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ .. (١٤)﴾ [لقمان] فجعل لهما فضلاً ومَيْزة ومنزلة عند الله ، حتى أصبحا مظنة النفع حتى يوم القيامة ، فأراد سبحانه أنْ يُبيِّن لنا أن نفع الوالد لولده ينقطع فى الآخرة ، فكلٌّ منهما مشغول بنفسه ، فلا ينفع الإنسان حتى أقرب الناس إليه .

وفى سورة البقرة : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا .. (٤٨)﴾ [البقرة] أى : مطلق النفس ، لا مجرد الوالد والولد ، إنما عامة الناس لا ينفع أحد منهم أحداً أياً كان .

والآية بهذا اللفظ وردت فى موضعين : اتفقا فى الصدر ، واختلفا فى العَجُز ، وهى تتحدث عن نَفْسين : الأولى هى النفس الجازية أى : التى تتحمل الجزاء ، والأخرى هى النفس المجزيَّة التى تستحق العقوبة .

فالآية التى نظرت إلى النفس المجزىِّ عنها ، جاء عَجُزها ﴿وَلاَ يُقْبَلُ

مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ .. ﴿١٢٣﴾ [البقرة]

ومعنى : عَدْل أى فدية ، فالنفس المجزىّ عنها أول مرحلة عندها لتدفع عن نفسها العذاب أن تعرض الفدية ، فلا يقبل منها فدية ، لكنها لا تيأس ، بل تبحث عَمَّنْ يشفع لها من أصحاب الجاه والمنزلة يتوسط لها عند الله ، وهذه أيضاً لا تنفع .

أما النفس الجازية ، فأول ما تعرض تعرض الشفاعة ، فإنْ لم تُقبل عرضت العدل والفدية ؛ لذلك جاء عَجُز الآية الأخرى الذى اعتبر النفس الجازية بتقديم الشفاعة على العدل . إذن : ذَيْل الآية الأولى عائد على النفس المجزىّ عنها ، وذيل الآية الثانية يعود على النفس الجازية .

وهنا ﴿ لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [لقمان] لأن الوالد مظنّة الحنان على الولد ، وحين يرى الوالد ولده يُعذَّب يريد أنْ يفديه ، فقدَّم هنا (الوالد) ثم قال : ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [لقمان] فقدم المولود ، وكان مقتضى الكلام أنْ نقول : ولا يجزى ولد عن والده ، فلماذا عدل عن ولد إلى مولود ؟

الكلام هنا كلام رب ، وفرْق كبير بين ولد ومولود ؛ لأن المسلمين الأوائل كان لهم آباء ماتوا على الكفر ، فظنوا أن وصية الله بالوالدين تبيح لهم أنْ يجزوا عنهم يوم القيامة ، فأنزل الله هذه الآية تبين لهؤلاء ألاَّ يطمعوا فى أنْ يدفعوا شيئاً عن آبائهم الذين ماتوا على الكفر .

لذلك لم يقل هنا ولد ، إنما مولود ؛ لأن المولود هو المباشر للوالد ، والولد يقال للجد وإنْ علا فهو ولده ، والجد وإنْ علا والده ، فإذا كانت الشفاعة لا تُقبل من المولود لوالده المباشر له ، فهى من

باب أَوْلَى لا تُقبل للجدِّ ؛ لذلك عَدل عن ولد إلى مولود ، فالمسألة كلام رب حكيم ، لا مجرد رَصْف كلام .

لكن ، متى يجزى الوالد عن الولد ، والمولود عن والده ؟ قالوا : الولد ضعيف بالنسبة لوالده يحتاج منه العطف والرعاية ، فإذا رأى الوالد ولده يتألم سارع إلى أنْ يشفع له ويدفع عنه الألم ، أما الولد فلا يدفع عن أبيه الألم لأنه كبير ، إنما يدفع عنه الإهانة ، فالوالد يشفع في الإيلام ، والولد يشفع في الإهانة ، فلكل منهما مقام .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. (٣٣) ﴾ [لقمان] عرفنا أن الوعد : إخبار بشيء يسر لم يَأْت وقته ، وضده الوعيد ، وهو إخبار بشيء يؤذى لم يأتِ وقته بعد ، لكن ما فائدة كل منهما ؟

فائدة الوعد أنْ تستعدَّ له ، وتأخذ في أسبابه ، فهو يشجعك على العمل والسعي الذى يُحقِّق لك هذا الوعد كأنْ تَعد ولدك مثلاً بجائزة إنْ نجح في الامتحان ، وعلى العكس من ذلك الوعيد ؛ لأنه يُخوِّفك من عاقبته فتحترس ، وتأخذ بأسباب النجاة منه .

إذن : الوعد حق ، وكذلك الوعيد حق ، لكنه خصَّ الوعد لأنه يجلب للنفس ما تحب ، أمّا الوعيد فقد يمنعها من شهوة تحبها ، ووضحنا هذه المسألة بأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يتكلم في النعم أن منها نِعَم إيجاب ، ونِعَم سلب .

واقرأ في ذلك قول ربك : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

فإذا كانت الجنة وما فيها نعماً تستحق الشكر ، ويمتنّ الله بها علينا ، فأىُّ نعمة في الشواظ والنار والعذاب ؟ قالوا : هى نعمة من حيث هى تحذير وتخويف من العذاب لتبتعد عن أسبابه ، وتنجو منه

قبل أنْ تقع فيه ، نعمة لأن الله لم يأخذنا على غِرَّة ، ونبهنا إلى الخطر قبل أنْ نقع فيه .

ووَعْد الله حقٌّ ؛ لأنه وعد ممَّنْ يملك الوفاء بما وعد ، وإنفاذ ما وعد به ، أما غير الله سبحانه فلا يملك أسباب الوفاء ، فوعده لا يُوصَف بأنه حق ؛ لذلك قال سبحانه في سورة الكهف : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف]

فأنت وإنْ كنتَ صادقاً فيما وعدتَ به إلا أنك لا تضمن البقاء إلى أنْ تفي بما وعدتَ ، فإنْ بقيت فقد تتغير الأسباب فتحول بينك وبين الوفاء ، وأنت لا تملك سبباً واحداً من هذه الأسباب .

إذن : تأدب ودَع الأمر لمَنْ يملك كل أسباب إنفاذ الوعد ، وقُلْ سأفعل كذا إن شاء الله ، حتى إذا لم تنفذ يكون لك حجة فتقول : أردتُ لكن الله لم يشأ .

وكأن ربنا - عز وجل - يريد أنْ يداري كذبنا ويستره علينا ، يريد ألاَّ يفضحنا به ، وأخرجنا من هذه المسئولية بترك المشيئة له سبحانه ، وكأن قدر الله في الأشياء صيانة لعبيده من عبيده . لذلك كثيراً ما نقول حينما لا نستطيع الوفاء : هذا قدر الله ، وماذا أفعل أنا ، والأمر لا يُقضى في الأرض حتى يُقضى في السماء .

وما دمنا قد آمنا بقدر الله والحكمة منه ، فلا تغضب مني إنْ لم أفِ لك وأنت كذلك ، والعاقل يعلم تماماً حين يقضي أمراً لأحد أن قضاء الأمر جاء معه لا به ، فالقدر قضاء ، ووافق قضاؤه قضاء الله للأمر ، فكأن الله كرَّمه بأنْ يقضي الأمر على يديه ، لذلك قلنا : إن الطبيب المؤمن يقول : جاء الشفاء معي لا بي ، وأن الطبيب يعالج والله يشفي . إذن : لا يُوصَف الوعد بأنه حقٌّ إلا وعد الله عز وجل .

وما دام وعد الله حقاً فعليك أنْ تفعل ما وعدك عليه بالخير وتجتنب ما توعَّدك عليه بشرٍّ ، وألاَّ تغرك الحياة ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا .. (٣٣)﴾ [لقمان] أى : بزينتها وزُخْرفها ، فهى سراب خادع ليس وراءه شيء ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ [المؤمنون]

والحق سبحانه يضرب لنا مثلاً للدنيا ، لا ليُنفِّرنا منها ، وإنما لنحتاط فى الإقبال عليها ، وإلا فحبُّ الحياة أمر مطلوب من حيث هى مجال للعمل للآخرة ومضمار للتسابق إليها .

يقول تعالى فى هذا المثل : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٥)﴾ [الكهف] فسماها دنيا ، وليس هناك وصف أبلغ فى تحقيرها من أنها دنيا ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ .. (٤٥)﴾ [الكهف] نعم ، كذلك الدنيا تزدهى ، لكن سرعان ما تزول ، تبدأ ابتداءً مقنعاً مغْرياً ، وتنتهى انتهاءً مؤسفاً .

وقوله تعالى : ﴿وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣)﴾ [لقمان] والغَرور بالفتح الذى يغرُّك فى شيء ما ، والغرور يوضحه لنا الشاعر الجاهلى[1] وهو يخاطب محبوبته فيقول :

أَفَاطِمُ مَهْلاً بَعْضَ هَذَا التدلُّل ... وإنْ كنت قَدْ أَزْمعت صَرْمى[2] فأجْملى

أغرَّك منى أنَ حبَّكِ قَاتلى ... وَأَنَّكِ مَهْما تأمُرى القَلْبَ يفعَلِ

فمعنى غرَّك : أدخل فيك الغرور ، بحيث تُقبل على الأشياء ،

---

(١) هو الشاعر امرؤ القيس ، والأبيات من معلقته التى أولها :

قِفَا نبْكِ منْ ذكرى حبيب وَمنْزِلِ ... بسقْط اللِّوَى بين الدَّخُول فَحَوْمَلِ

(٢) الصرم : القطع مادياً ، كقطع الثمار ، ويكون القطع معنوياً بمعنى الهجر وقطع صلة المودة . [القاموس القويم ١/ ٣٧٥] .

وتتصرف فيها في كنف هذا الغرور وعلى ضوئه .

والغَرُور بالفتح هو الشيطان ، وله في غروره طرق وألوان ، فغرور للطائعين وغرور للعاصين ، فلكل منهما مدخل خاص ، فيغرّ العاصي بالمعصية ، ويوسوس له بأن الله غفور رحيم ، وقد عصا أبوه فغفر الله له . لذلك أحد الصالحين سمع قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) ﴾ [الانفطار] فأجاب هو : غرَّني كرمه ، لأنه خلقني وسوَّاني في أحسن صورة ، وعاملني بكرم ودلَّلني ، حتى أصابني الغرور بذلك ، ولو أنه عز وجل قسا علينا ما اغتررنا .

وكان لأحدهم دَيْن خمسة صاغ فضة عند آخر ، فردَّها إليه ، فلما نظر فيها الدائن وجدها ممسوحة فأعادها إليه ، فقال المدين : والله لو كنت كريماً لقبلتها دون أنْ تنظر فيها .

فأخذ الواعظ هذه الواقعة وأراد أنْ يعظ بها الدائن ، وكان يصلي صلاةً لا خشوعَ فيها ، فقال له : إن صلاتك هذه لا تعجبني ، فهي نَقْر لا خشوع فيها ، أرأيت لو أن لك دَيْناً فأعطاك صاحب الدين نقوداً ممسوحة قديمة أكنت تقبلها ؟ فقال الرجل : والله لو كنتُ كريماً أقبلها ولا أردها .

ثم يقول الحق سبحانه مختتماً سورة لقمان :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ (٣٤) ﴾

بعد أن حذرنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من الغرور فى الحياة الدنيا يُذكِّرنا أن بعد هذه الحياة حياة أخرى ، وقيامة وساعة ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ** .. (٣٤) ﴾ [لقمان] والساعة لا تعنى القيامة فحسب ، إنما لكل منا ساعته ، لأنه مَنْ مات فقد قامت قيامته .

لماذا ؟ لأنه انقطع عمله ، ولا يمكنه تدارك ما فاته من الإيمان أو العمل الصالح ، فكأن قيامته قامت بموته .

وقلنا : إن عمر الدنيا بالنسبة لك هو مقدار عمرك فيها ، وإنْ كان عمر الدنيا على الحقيقة من لَدُن آدم ـ عليه السلام ـ إلى قيام الساعة ، لكن ماذا استفدتَ أنت من عمر غيرك ؟

إذن : لا ينبغى أن تقول : إن الدنيا طويلة ؛ لأن عمرك فيها قصير ، ثم إنك لا تعلمه ، ولا تستطيع أنْ تتحكم فيه ، وكما أبهم الله الساعة أبهم الأجل ؛ لأن فى إبهامه أنفع البيان ، فلما أبهم الله الأجل جعل النفس البشرية تترقبه فى كل لحظة ، فكل لحظة تمر عليك يمكن أن يأتيك فيها الموت .

وهكذا أشاع الموت فى كل الزمن ، وما دام الأمر كذلك فلا بُدَّ أن ينتبه الإنسان ويخشى أن يموت وهو على معصية ، فالإبهام هنا هو عَيْن البيان .

وقلنا : إن الذين ماتوا من لَدُن آدم عليه السلام يلبثون فى قبورهم طوال هذه المدة ، فإذا ما قامت القيامة ﴿ **كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا** (٤٦) ﴾ [النازعات] لماذا ؟ قالوا : لأن قياس الزمن إنما يتأتى بالأحداث ، فحيث لا توجد أحداث لا يوجد زمن .

ومثَّلْنا لذلك بأهل الكهف الذين مكثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ، ومع ذلك لما سأل بعضهم بعضاً ﴿ **كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا**

يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (١٩) ﴾ [الكهف]

لماذا ؟ لأن النوم يخلو من الأحداث ، فلا يشعر النائم فيه بالزمن ، كما أنهم لما رأى بعضهم بعضاً بعد هذه الفترة رآه على حالته التى نام عليها لم يتأثر بمرور هذه المدة ، ولم تتغير هيئته ، فأقصى ما يمكن تصوُّره أن يقول : لبثنا يوماً أو بعض يوم .

وكذلك الحال فى قصة العُزير الذى قال الله عنه : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة] ؛ لأن هذه هى أطول مدة يمكن أن ينامها الإنسان .

ثم أخبره ربه ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة] ويريد الحق سبحانه أن يُدلِّل على صدق الرجل فى قوله يوماً أو بعض يوم ، وعلى صدقه تعالى فى قوله مائة عام ، فيقول سبحانه : ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة] أى : لم يتغير .

وهذا دليل على صِدْقه فى يوم أو بعض يوم ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

وهذا دليل على صدق الحق - تبارك وتعالى - فى قوله ﴿ مِائَةَ عَامٍ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة] فكلا القولين صادق ؛ لأن الله تعالى هو القابض الباسط ، يقبض الزمن فى حق قوم ، ويبسطه فى حق آخرين .

وهذه الآية جمعتْ خمسة أمور استأثر الله تعالى بعلمها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. (٣٤) ﴾ [لقمان]

فهل هذه هى كل الغيبيات فى الكون ؟ نقول : فى الكون غيبيات

كثيرة لا نعرفها ، فلا بُدَّ أن هذه الخمس هى المسئول عنها ، وجاء الجواب على قدر السؤال ، بالله لو هَبَّتْ الريح ، وحملتْ معها بعض الرمال ، أنعرف أين ذهبت هذه الذرات ؟ وفى أى ناحية ؟ أنعرف ورق الشجر كم تساقط منها ؟

هذه كلها غيبيات لا يعلمها أيضاً إلا الله ، أما نحن فلا نعلم حتى عدد النِّعَم التى أنعم الله بها علينا ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

إذن : فهذه نماذج لما استأثر الله بعلمه ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) ﴾ [لقمان]

فلله تعالى فى كونه أسرار لا تُحصى ، أجَّل الله ميلادها ؛ لنعلم أننا فى كل يوم نجهل ما عند الله ، وكل يوم يطلع علينا العلماء والباحثون بجديد من أسرار الكون ـ هذا ونحن لا نزال فى الدنيا ، فما بالنا فى الآخرة ، وفى الجنة إن شاء الله ؟

وقد أخبر النبى ﷺ عنها فقال : « فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[1] .

والإنسان يكتسب المعلومات ، إما برؤية العين ، أو بسماع الأذن ، ومعلوم أن رقعة السمع أوسع من البصر ؛ لأنك لا ترى إلا ما تراه عيناك ، لكنك تسمع لمرائى الآخرين ، ثم أنت تسمع وترى موجوداً ،

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : قال الله عز وجل : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . مصداق ذلك فى كتاب الله : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة] أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) ، وأحمد فى مسنده (٤٦٦/٢) ، وأبو نعيم فى الحلية (٢٦٢/٢) من حديث أبى هريرة .

لكن هناك ما لا يخطر على قلب بشر يعني : أشياء غيبية لم تطرأ على بال أحد ، وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة]

وقد ورد في أسباب نزول مفاتح الغيب هذه ، أن رجلاً من محارب ، اسمه الحارث بن عمرو بن حارثة[1] أتى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله : أريد أنْ أعرف متى الساعة ، وقد بذرْت بذرى ، وأنتظر المطر فمتى ينزل ؟ وامرأتى حامل ، وأريد أن تلد ذكراً ، وقد أعددت لليوم عُدَّته ، فماذا أُعد لغد ؟ وقد عرفت موقع حياتى ، فكيف أعرف موقع مماتى ؟

هذه خمس مسائل مخصوصة جاء بها الجواب من عند الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان]

وعجيب أنْ نرى من خَلْق الله مَنْ يحاول أن يستدرك على مقولة الله فى هذه الغيبيات الخمس ، كالذين حاولوا أنْ يتنبأوا بموعد قيام الساعة ، وقد كذبوا جميعاً ، ولو قُدِّر لهم الإيمان بالله ، والعلم بما قاله الله فى قيام الساعة ما تجرأ منهم أحد على هذه المسألة .

وقلنا : إن الحق سبحانه أخفى موعد الساعة لكى نستشعرها دائماً ، وفى كل وقت ، حتى الذين لا يؤمنون بها ويشكُّون فيها ، وإذا ما استشعرها الناس عملوا لها ، واستعدوا لأهوالها ، كما أخفى الله عن الإنسان ساعة موته ومكان أجله ، وجعل الموت يدور على

---

(١) قال الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٩٨) : « نزلت آية ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ .. ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان] : فى الحارث بن عمرو بن حارثة بن محارب بن حفصة من أهل البادية أتى النبى ﷺ فسأله عن الساعة ووقتها وقال : إن أرضنا أجدبت ، فمتى ينزل الغيث ، وتركت امرأتى حُبلَى فماذا تلد ؟ وقد علمت أين ولدت فبأىِّ أرض أموت ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

العباد على غير قاعدة .

فمنهم مَنْ يموت بعد دقائق من مولده ، ومنهم مَنْ يعمر مئات السنين ، كما أنه سبحانه لم يجعل للموت مقدمات من مرض أو غيره ، فكم من مريض يُعافى ، وصحيح يموت ، كما يقولون : كيف مريضكم ؟ قال : سليمنا مات ، وصدق القائل :

فَلا تَحْسَب السُّقْم كأسَ الممات ... وإنْ كَان سُقْماً شَديد الأثَر

فرُبَّ عليل تَراهُ استْفَاق ... ورُبّ سَلِيم تَراَه اسْتتر

كذلك الموت لا يرتبط بالسِّن :

كم بُودرت غادة كعَابٌ ... وغُودرَتْ أمُّها العَجُوزُ

يجُوزُ أنْ تبطيء المنَايَا ... والخُلْدُ فى الدَّهْر لا يَجُوزُ

إذن : أخفى الله القيامة وأخفى الموت ؛ لنظل على ذُكْر له نتوقعه فى كل لحظة ، فنعمل له ، ولنتوقع دائماً أننا سنلقى الله ، فنعد للأمر عُدته ؛ لأن مَنْ مات فقد قامت قيامته ؛ لأنه انقطع عمله ، ففى إبهام موعد القيامة وساعة الموت عَيْن البيان لكل منهما ، فالإبهام أشاعه فى كل وقت .

وقوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ .. (٣٤) ﴾ [لقمان] وهذا أيضاً ، ومع تقدُّم العلوم حاول البعض التنبؤ به بناء على حسابات دقيقة لسرعة الرياح ودرجة الحرارة .. إلخ ، وربما صَحَّتْ حساباتهم ، لكن فاتهم أن لله أقداراً فى الكون تحدث ولا تدخل فى حساباتهم ، فكثيراً ما نُفَاجأ بتغيُّر درجة الحرارة أو اتجاه الريح ، فتنقلبُ كل حساباتنا .

لذلك من عجائب الخَلْق أنك كلما اقتربتَ من الشمس وهى مصدر الحرارة تقلُّ درجة الحرارة ، وكلما ابتعدت عنها زادت درجة

الحرارة ، إذن : المسألة ليست روتينية ، إنما هى قدرة لله سبحانه ، والله يجمع لك الأسباب ليثبت لك طلاقة قدرته التى تقول للشىء : كُنْ فيكون .

ألسنا نُؤمر فى الحج بأن نُقبِّل حجراً ونرمى آخر ، وكل منهما إيمان وطاعة ، هذا يُباس[1] وهذا يُداس ، هذا يُقبَّل وهذا يقنبل ، لماذا ؟ لأن الله تعالى يريد منا الالتزام بأمره ، وانصياع النفس المؤمنة للرب الذى أحيا ، والرب الذى كلَّف .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان] هذه أيضاً من مفاتح الغيب ، وستظل كذلك مهما تقدمت العلوم ، ومهما ادَّعى الخَلْق أنهم يعلمون ما فى الأرحام ، والذى أحدث إشكالاً فى هذه المسألة الآن الأجهزة الحديثة التى استطاعوا بها رؤية الجنين ، وتحديد نوعه أذكر أم أنثى ، فهذه الخطوة العلمية أحدثتْ بلبلة عند بعض الناس ، فتوهموا أن الأطباء يعلمون ما فى الأرحام ، وبناءً عليه ظنوا أن هذه المسألة لم تَعُدْ من مفاتح الغيب التى استأثر الله بها .

ونقول : أنتم بسلطان العلم علمتم ما فى الأرحام بعد أن تكوَّن ووضحتْ معالمه ، واكتملتْ خلْقته ، أما الخالق ـ عز وجل ـ فيعلم ما فى الأرحام قبل أنْ تحمل الأم به ، ألم يُبشِّر الله تعالى نبيه زكريا عليه السلام بولده يحيى قبل أن تحمل فيه أمه ؟ ونحن لا نعلم هذا الغيب بذواتنا ، إنما بما علّمنا الله ، فالطبيب الذى يُخبرك بنوع الجنين لا يعلم الغيب ، إنما مُعلَّم غيب .

والله ـ تبارك وتعالى ـ يكشف لبعض الخلق بعض الغيبيات ،

---

(١) قال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : بوس] : « البَوْس التقبيل ، فارسى معرب ، وقد باسه يبوسه » .

ومن ذلك ما كان من الصدِّيق أبى بكر - رضى الله عنه - حين أوصى ابنته عائشة - رضى الله عنها - قبل أن يموت وقال لها : يا عائشة إنما هما أخواك وأختاك ، فتعجبت عائشة حيث لم يكن لها من الإخوة سوى محمد وعبد الرحمن ، ومن الأخوات أسماء ، لكن كان الصدِّيق فى هذا الوقت متزوجاً من بنت خارجة ، وكانت حاملاً وبعد موته ولدتْ له بنتاً[1] ، فهل نقول : إن الصدِّيق كان يعلم الغيب ؟ لا ، إنما أُعلِم من الله . إذن : الممنوع هنا العلم الذاتى أن تعلم بذاتك .

ثم إن الطبيب يعلم الآن نوع الجنين ، إما من صورة الأشعة أو التحاليل التى يُجريها على عينة من الجنين ، وهذا لا يُعتبر علماً للغيب ، و (الشطارة) أن تجلس المرأة الحامل أمامك وتقول لها : أنت إنْ شاء الله ستلدين كذا أو كذا ، وهذا لا يحدث أبداً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان] الإنسان يعمل ، إما لدنياه ، وإما لأُخْراه ، فالمعنى إما تكسب من الخير المادى لذاتك لتعيش ، وإن كان من مسألة التكليف ، فالنفس إما تعمل الخير أو الشر ، الحسنة أو السيئة ، والإنسان فى حياته عُرضَة للتغيُّر .

لذلك يقال فى الأثر : « يا ابن آدم ، لا تسألنى عن رزق غدٍ ، كما لم أطالبك بعمل غد » .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان] وهذه المسألة حدث فيها إشكال ؛ لأن رسول الله ﷺ أخبر الأنصار

---

(١) هى : أم كلثوم بنت أبى بكر ، أمها حبيبة بنت خارجة بن زيد ، وكانت حاملاً بها عند وفاة أبى بكر وولدت بعده . [ابن سعد فى الطبقات ٣/١٥٥] .

أنه سيموت بالمدينة حينما وزع الغنائم على الناس جميعاً ما عدا الأنصار ؛ لذلك غضبوا ووجدوا فى أنفسهم شيئاً ؛ لأن رسول الله حرمهم ، لكن سيدنا رسول الله جمعهم وتلطَّف معهم فى الحديث واعترف لهم بالفضل فقال : والله لو قلتم أنى جئت مطروداً فآويتمونى فأنتم صادقون ، وفقيراً فأغنيتمونى فأنتم صادقون .. لكن ألا تحبون أن يرجع الناس بالشاة والبعير ، وترجعون أنتم برسول الله »[1] ، وقال فى مناسبة أخرى « المحيا محياكم ، والممات مماتكم »[2] .

إذن : نُبِّىءَ رسول الله أنه سيموت بالمدينة ، والله يقول ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. (٣٤)﴾ [لقمان] نقول : الأرض منها عام وخاصّ ، فأرض المدينة شىء عام ، نعم سيموت بالمدينة ، لكن فى أىِّ بقعة منها ، وفى أى حجرة من حجرات زوجاته ؟ إذن : إذا علمتَ الأرض العامة ، فإن الأرضَ

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٤٣٣٠) عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال : « لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم فى الناس فى المؤلفة قلوبهم ولم يُعْطِ الأنصار شيئاً ، فكأنهم وجدوا إذ لم يُصبهم ما أصاب الناس ، فخطبهم فقال : يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بى ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ، وعالة فأغناكم الله بى ؟ كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمنُّ . قال : ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ ؟ قال : كلما قال شيئاً . قالوا : الله ورسوله أمنُّ . قال : لو شئتم قلتم : جئتنا كذا وكذا ، ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وتذهبون بالنبى ﷺ إلى رحالكم ؟ لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادى الأنصار وشعبها ، الأنصار شعار ، والناس دثار » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٨٠) رواية (٨٦) كتاب الجهاد والسير أنه قال للأنصار فى حديث طويل : « أنا محمد عبد الله ورسوله ، هاجرت إلى الله وإليكم ، فالمحيا محياكم والممات مماتكم » .

الخاصة ما زالت مجهولة لا يعلمها أحد .

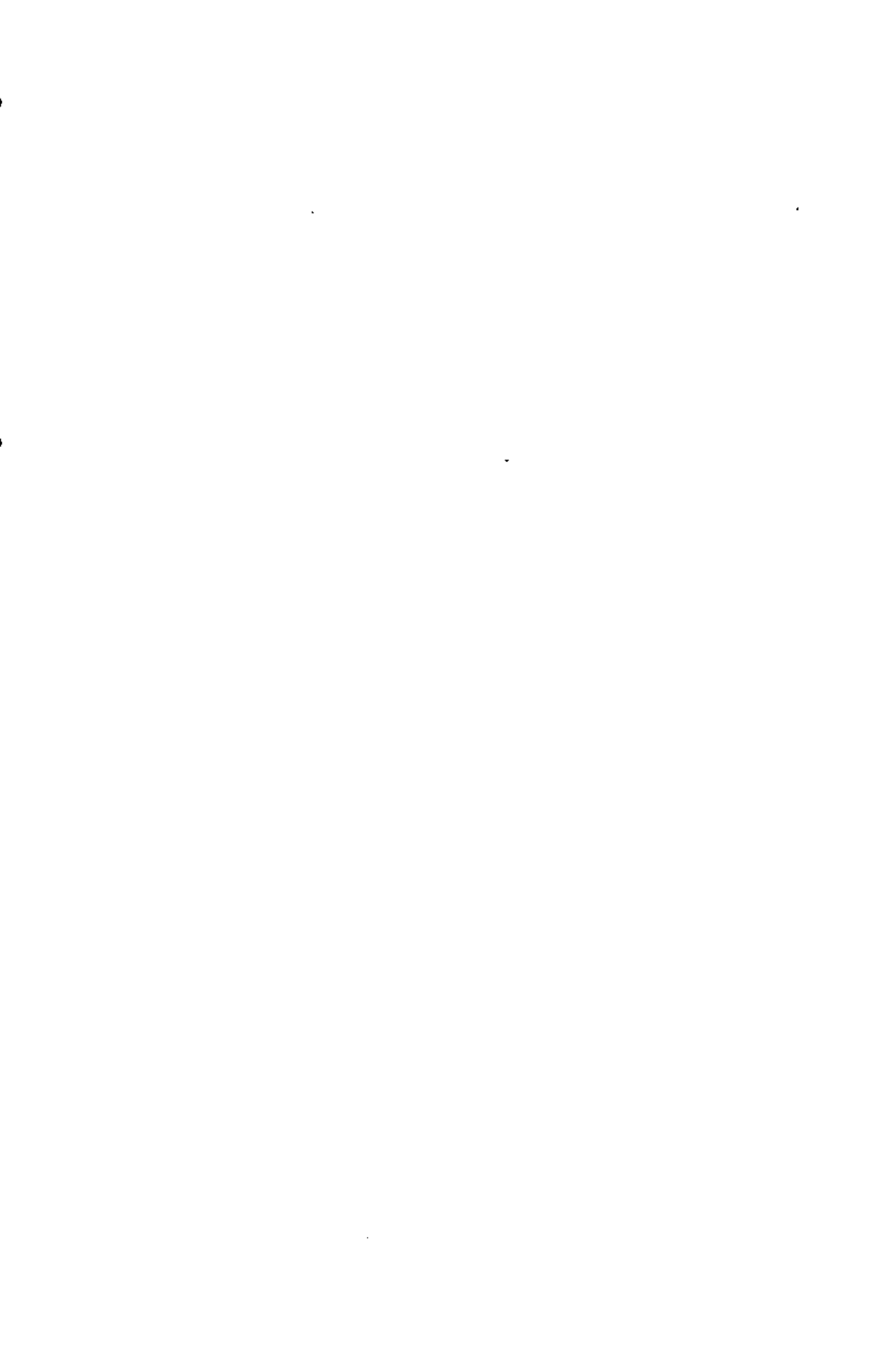
يُرْوى أن أبا جعفر المنصور الخليفة العباسى كان يحب الحياة ويحرص عليها ، ويخاف الموت ، وكان يستشير فى ذلك المنجِّمين والعرافين ، فأراد الله أنْ يقطع عليه هذه المسألة ، فأراه فى المنام أن يداً تخرج من البحر وتمتد إليه ، وهى مُفرَّجة الأصابع هكذا ، فأمر بإحضار مَنْ يُعبِّر له هذه الرؤيا ، فكان المتفائل منهم ، أو الذى يبغى نفاقه يقول له : هى خمس سنوات وآخرون قالوا : خمسة أشهر ، أو خمسة أيام أو دقائق .

إلى أن انتهى الأمر عند أبى حنيفة رضى الله عنه فقال له : إنما يريد الله أن يقول لك : هى خمسة لا يعلمها إلا الله ، وهى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. (٣٤) ﴾ [لقمان]

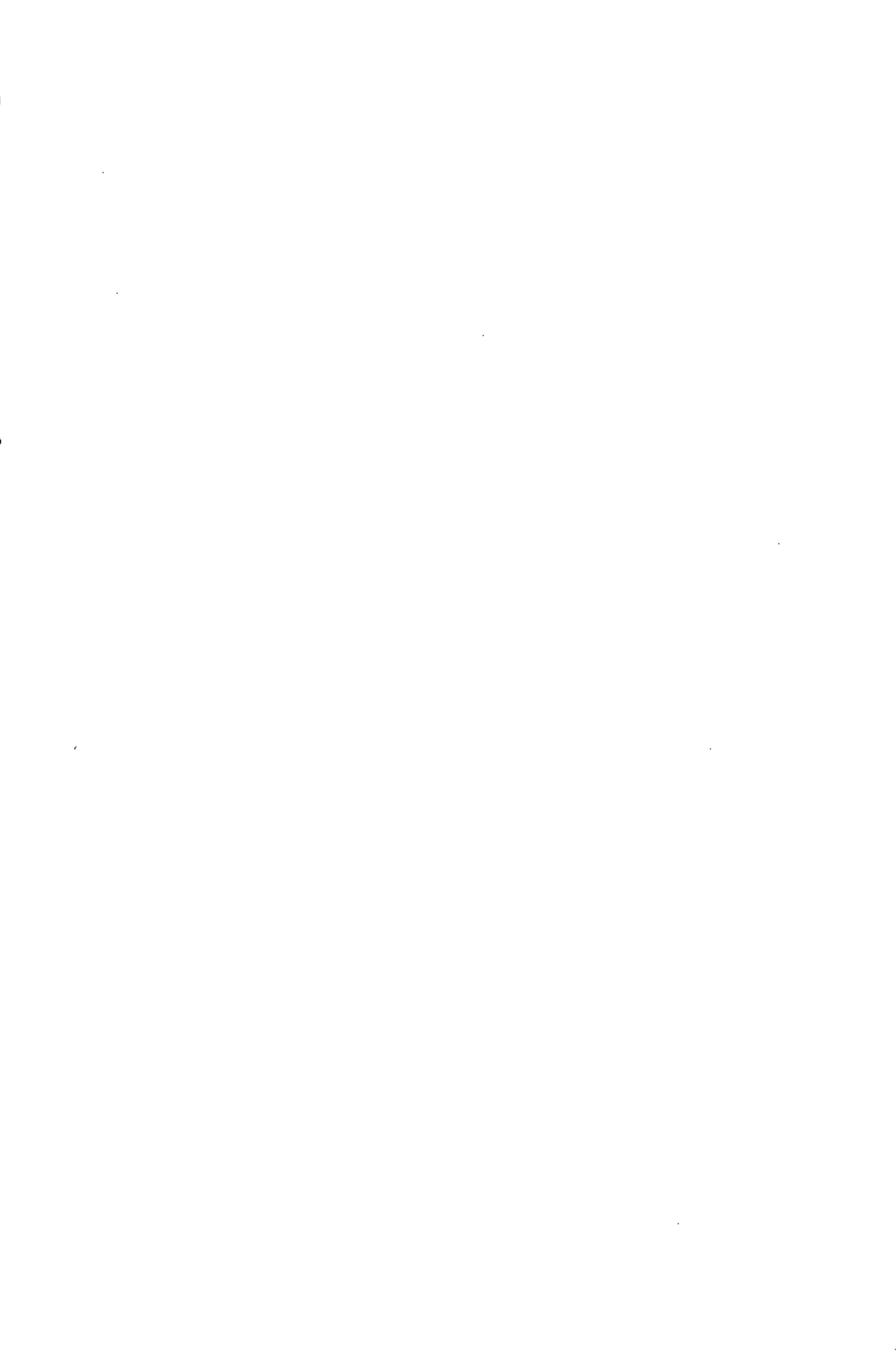
وما دامت هذه المسائل كلها مجهولة لا يعلمها أحد ، فمن المناسب أن يكون ختام الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤) ﴾ [لقمان]

إذن : الحق سبحانه يريد أنْ يُريح خَلْقه من الفكر فى هذه المسائل الخمس ، وكل ما يجب أن نعلمه أن المقادير تجرى بأمر الله لحكمة أرادها الله ، وأنها إلى أجل مسمى ، وأن العلم بها لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر ، بالله ماذا يحدث لو علمت ميعاد موتك ؟ لا شىء أكثر من أنك ستعيش نكداً حزيناً طوال الوقت لا تجد للحياة لذة .

لذلك أخفى الله عنَّا هذه المسألة لنُقبِل على الله بثقتنا فى مجريات قدر الله فينا .



سُورَةُ السَّجْدَةِ





سورة السجدة[1]



﴿ الٓمٓ ۝١ ﴾

هذه من الحروف المقطَّعة المبنية على الوقف ، على خلاف آيات القرآن التى بُنيتْ كما قُلْنا على الوصل من أول القرآن إلى آخره ، بل على وصل آخره بأوله ؛ لذلك ينبغى أن تقرأ القرآن على الوصل ، ما دام نَفَسُكَ يساعدك ، ولا تقف إلا إذا انقطع النفَس ، فتقف وتُسكِّن الحرف الذى وقفتَ عليه .

وقد قال علماء القراءات : وليس فى القرآن منْ وقف وجب ؛ لأنه

---

(١) سورة السجدة هى السورة رقم (٣٢) فى ترتيب المصحف الشريف ، وهى سورة مكية ، إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة ، وهى قوله تعالى ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ۝١٨ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ .. ۝٢٠ ﴾ [السجدة] . عدد آياتها ٣٠ آية ، نزلت بعد سورة المؤمنين وقبل سورة الطور .

بُنى على الوصل ، فلا تقف إلا إذا ضاق نَفَسُك ؛ لذلك جعلوا فى القرآن مواضع للوقف ، وتُرسم فى المصحف (صلى ، قلى ، ج) ، لكن الأصل الوصل .

وقلنا : إن أوضح مثال على الوصل فى القرآن أن كلمة الناس فى آخر سورة الناس ، وهى آخر القرآن لم تأت ساكنة ، إنما متحركة بالكسر (الناسِ) ؛ لأن الله تعالى قدَّر حلَّك فى الناس فجعلك ترحل إلى بسم الله الرحمن الرحيم فى أول الفاتحة ، فلا تقطع الصلة بين آخر القرآن وأوله ، وسمَّيْنا قارىء القرآن لذلك « الحالّ المرتحل » .

وهنا تأتى ﴿ الٓمٓ ۝١ ﴾ [السجدة] بعد مفاتح الغيب الخمسة التى سبقتْ فى آخر سورة لقمان ، وكأنها مُلْحقة بها ، فهى سرٌّ استأثر الله تعالى بعلمه ، ونحن فى تفسيرنا لها نحوم حولها ؛ لذلك كل مَنْ فسَّر الحروف المقطَّعة فى بدايات السور لا بُدَّ أن يقول بعدها : والله أعلم بمراده ؛ لأن تفسيراتنا كلها اجتهادات تحوم حول المعنى المراد ؛ لذلك نحن لا نقول هذه الكلمة فى كل آيات القرآن ، إنما فى هذه الآيات والحروف بالذات .

وكيف بنا حين يجمعنا الله تعالى إنْ شاء الله فى مقعد صدْق عند مليك مقتدر ، كيف بنا حين نسمع هذا القرآن مباشرة من الله عز وجل ؟ لا شكَّ أننا سنسمع كلاماً كثيراً غير الذى سمعناه ، ومعانى كثيرة غير التى توصَّلنا إليها فى اجتهاداتنا ، وعندها سنعرف مرادات الله تعالى فى هذه الحروف ، وسنعرف كم قَصُرَتْ عقولنا عن فهمها ، وكم كنا أغبياء فى فَهْمنا لمرادات ربنا .

وقوله تعالى ﴿ الٓمٓ ۝١ ﴾ [السجدة] عادةً يأتى بعد هذه الحروف المقطعة أمر يخصُّ الكتاب العزيز .

وهنا يقول سبحانه :

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾

مادة (نزل) وردتْ فى القرآن بلفظ : نزل ، ونزَّل ، وأنزل . أنزل تدل على التعدية ، يعنى : أن الله تعالى عدَّى القرآن من اللوح المحفوظ ، إلى أنْ يباشر مهمته فى السماء الدنيا ، وهذا الإنزال من الله تعالى .

أما نزَّل فالتنزيل مهمة الملائكة ؛ لذلك يقول تعالى فى الإنزال : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ [القدر] أى : من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ثم تتنزَّل به الملائكة مُنجَّماً حسب الأحداث ، وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء]

ويقول سبحانه : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ..﴿١٠٥﴾ ﴾ [الإسراء] فقد كان محفوظاً عندنا فى اللوح المحفوظ ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الواقعة] ثم نزل به الروح الأمين جبريل .

وما دام ﴿ نَزَلَ بِه .. ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء] فهذا يعنى أن القرآن نزل معه ، فقوله : ﴿ نَزَلَ بِه الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء] تساوى تماماً ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ..﴿١٠٥﴾ ﴾ [الإسراء] ، فالنزول يُنسَب مرة إلى القرآن ، ومرَّة إلى الروح الأمين .

ومادة نزل وما يُشتق منها من إنزال وتنزيل تفيد كلها أنه جاء من جهة العلو إلى جهة أسفل منه ، كأنك تتلقَّى من جهة أعلى منك وأرفع ، وما دُمْتَ تتلقى من جهة أعلى منك ، فإيَّاك أنْ يضل بك الفكر لناحية أخرى .

لذلك يقول تعالى مخاطباً رسوله ﷺ فى أمر التكليف : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] فنحن نفهم أن تعالوا بمعنى تعالَ . أى : أقبل ، لكنها تحمل مع هذا المعنى معنى العلو : أقبل دانياً إلى متعالٍ ، تعالَ من أوضاعك الأرضية إلى عُلُو ربك فى الملأ الأعلى.

تعالَ يعنى : لا تأخذ من نفسك ولا من مُسَاوٍ لك ، إنما ارتفع وخُذْ من الأعلى ، ارتفع عن مستوى الأرض وعقولهمٍ وأفكارهم ، وخُذْ من الذى شرَّع لك ؛ لأنه لا بُدَّ أن تكون عنده أمور ومواصفات آمن لك وأسلم ؛ لأن علمه أوسع ، فلا يُشرِّع لك اليوم ما ينقضه غداً .

ثم إنَّ شرعه لك يستوعب كل نواحى حياتك وأقضيتها ، وهذه المواصفات لا تكون إلا فى الحق ـ تبارك وتعالى ـ وهو سبحانه أرحم بك من الوالدة بولدها ، فلا يُشرِّع لك إلا ما يُصلحك ، ثم هو سبحانه ليس له غرض أو مصلحة ذاتية من وراء هذا التشريع ، كما نرى فى تشريعات البشر للبشر .

وقد رأينا الرأسماليين حينما شرّعوا قانوناً جاء يخدمهم ، وليكونوا هم أول المنتفعين به ؛ لذلك سرعان ما تهاوى ؛ لأن شرط المشرِّع الحق ألاَّ ينتفع هو بما يُشرِّع ، وعليه فلا مشرِّع حقٌّ إلا الله .

لذلك رأينا حتى غير المؤمنين بالله من الكافرين أو المشركين بعد أنْ تعضَّهم الأحداث ، وتخفق قوانينهم فى حَلِّ مشاكلهم يلجئون إلى حلول لها من قوانين الإسلام .

ولما سُئلنا فى سان فرانسيسكو عن قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [التوبة] وفى موضع آخر ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨)﴾ [الصف]

قـالوا لنا : هـذا يعنى أن الإســلام ظاهر على الأديـان منذ أربعـة عشر قـرناً من الزمان ، فما بالنا نرى الآن أكثـر أهل الأرض من غير المسلمين ؟

فقلت فى الرد عليـهم : والله لو فهمتُم أسـرار اللغة ، وتأملتُم هذه الآية لوجدتم أن الردَّ فيهـا ، فواحدة تقول ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ⑧ ﴾ [الصف] ، والأخرى تقول ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ㉝ ﴾ [التوبة]

إذن : فالكفر والشرك موجـودان مع وجود الإسـلام ، وليس معنى الظهور هنا أن يطمس هؤلاء ، أو أنْ يُقْضَى عليهم قـضـاء مبرماً ، إنما يظهر عليهـم بحيث يُضـطرون إليه ، ويلجئـون إلى أحكامه ، رغم عدم إيمانهم به ، وهذا أبلغ فى الظهور ، أنْ تأخذ بما فى القرآن وأنت غير مؤمن به ؛ لأنك لا تجد حلاً لقضاياك إلا فيه .

وأوضح مثال على ذلك أنهم هاجموا شرع الله فى مسألة الطلاق ، وفى مســألة تعدُّد الزوجات ، واتهـموا الإسلام بالوحشـية .. إلخ ، ثم تضطرهم أقضية الحياة ومشاكلها أنْ يشرِّعوا الطلاق ، وأنْ يأخذوا به على مـرأى ومَسْـمع من الفاتيـكان ، فمـاذا جرى ؟ فنقـول لهم : هل أسلمتم وآمـنتم ؟ لا ، إنما لجأنا إلـيه ؛ لأن فيـه الحل لهذه المـشاكل التى أحاطتْ بنا .

فهذه إذن شهادة العدو لدين الله ، وهذا هو أعظم الإظهار للإسلام على هذه الأديان ؛ لأنهم لو أسلمـوا لقالوا عنهم : أخذوا بهـذا الشرع لأنهم أسلموا ، إنما ها هم يأخذون به وهم به كافرون مشـركون .

ومعنى ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ .. ② ﴾ [السجدة] أى : لا شكَّ فيه . وقلنا : إن النسب فى القـضـايا . أى : نسبـة شىء لشىء إمـا مـجزوم بهـا أو غيـر مجزوم بهـا ، فلو قُلْنا : الأرض كروية هذه قـضية جـزم بها

الآن ، ونستطيع التدليل على صحتها دليلاً حسياً ، فهذه قضية واقعة ومجزوم بصحتها ، وعليها دليل من الكون .

فإنْ كانت القضية غَيْرَ مجزوم بها ، فهى بين ثلاث حالات : إما فيها شكّ ، أو ظنّ ، أو وهم : الشك أنْ تتساوى الكفّتان : الإثبات والنفي ، والظن أن تغلب جانب الإثبات فلا تجزم به إنما ترجِّحه ، فإنْ غلَّبْتَ الأخرى وجعلتها هى الراجحة ، فهذا توهم .

وهنا قال سبحانه ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ .. ۝ ﴾ [السجدة] لا شكَّ فيه ، فنفى الشكَّ ، وهو تساوى النفى والإثبات ، وما دام قد نفى التساوى ، فهذا يعنى أنه أراد أنْ يثبت الأعلى . أى : أنه حَقٌّ لا يرقى إليه الشك .

وجملة ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ .. ۝ ﴾ [السجدة] جملة اعتراضية بين ﴿ الْكِتَابِ .. ۝ ﴾ [السجدة] ، وبين ﴿ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝ ﴾ [السجدة] وما دام أنه ﴿ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فلا بُدَّ أنه حقٌّ لا ريب فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝ ﴾

عجيب أنْ يقابلَ العربُ كلامَ الله بهذا الاتهام ، وهم أمة فصاحة وبلاغة وبيان ، وقد بلغوا فى هذا شأناً عظيماً ، حتى جعلوا للكلام معارض وأسواقاً ، كما نقيم الآن المعارض لمنتجاتنا ، ولا يُعرض فى المعارض هذه إلا السلع الجيدة محلّ الفخر ، فقبل الإسلام كان فى عكاظ وذى المجاز مضمار للقول ، وللأداء البيانى بين الأدباء والشعراء .

فعجيبٌ منهم ألاَّ يميزوا كلام الله عن كلام البشر ، خاصة وقد تحدَّاهم وتحدَّى فصاحتهم وبلاغتهم أنْ تأتي بآية واحدة من مثله ، ومعلوم أن التحدى يكون للقوى لا للضعيف ، فتحدِّى القرآن للعرب يُحسَبُ لهم ، وهو اعتراف بمكانتهم ومكانة لغتهم ، فهو - إذن - شهادة لهم ، ويكفيهم أن الله تعالى أدخلهم معه في مجال التحدى .

ولما عجزوا عن الإتيان بمثله راحوا يتهمونه ويتهمون رسول الله ، فمرة يقولون : شاعر ، ومرة : ساحر ، وأخرى يقولون : مجنون ، ومرة يقولون : بل يُعلِّمه ذلك أحد الأعاجم .. إلخ ، وهذا كله إفلاس في الحجة ، فهم يريدون أنْ يُكذِّبوا رسول الله ﷺ ، أما القرآن في حدِّ ذاته ، فلا يَخْفى عليهم أنه كلام الله ، وأن البشر لا يقولون مثل هذا الكلام ، بدليل أن الوليد بن المغيرة لما سمعه قال : « والله ، إن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغْدق ، وأنه يعلو ولا يُعلى عليه »[1] .

لذلك لما لم يجدوا في القرآن مطعناً اعترفوا بأنه من عند الله ، لكن كان اعتراضهم أنْ ينزل على هذا الرجل بالذات : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ[2] مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] فكانوا

---

(١) اجتمع نفر من قريش إلى الوليد بن المغيرة ، فقال لهم : يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا (يقصد محمداً) فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً . فمن قائل : إنه كاهن. وقائل : مجنون . وقائل : إنه شاعر . وقائل : إنه ساحر . فردَّ كل أقوالهم ، ثم قال : والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك « السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٨٤) » .

(٢) اختلف العلماء في تحديد الرجل العظيم المقصود ، فمن مكة : الوليد بن المغيرة أو عتبة ابن ربيعة . ومن الطائف : عروة بن مسعود أو عمير بن عبد ياليل . قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان » والقريتان هنا : مكة والطائف .

ينتظرون أنْ يُنزَّل القرآن على عظيم من عظمائهم أو ملك من الملوك ، لكن أنْ ينزل على محمد هذا اليتيم الفقير ، فهذا لا يُرضيهم ، وقد ردَّ القرآن عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

يعنى : إذا كنا قد قسمنا بينهم أمور الدنيا وما يتفاضلون به من عرضها ، فهل نترك لهم أمور الآخرة يُقسمونها على هواهم وأمزجتهم ؟ والرسالة رحمة من الله يختصُّ بها مَنْ يشاء من عباده ﴿ و اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

وهذا يعنى أنهم انتهوا إلى أن القرآن مُعْجِز ، وأنه من عند الله لا غُبَار عليه ، والذى قرأه منهم ، وأيقن أنه حق قال : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وهذا الكلام لا يقول به عاقل ، وقد دلَّ على غبائهم وحُمْقهم ، وكان الأوْلَى بهم أنْ يقولوا : اللهم إنْ كان هذا هو الحق من عندك فاهْدنا إليه .

وقد ردَّ القرآن على كل افتراءاتهم على رسول الله ، وفنَّدها جميعاً ، وأظهر بطلانها ، لما قالوا عن رسول الله إنه مجنون ردَّ الله عليهم : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]

والمجنون لا يكون أبداً على خلق عظيم ؛ لأنه محكوم بالغريزة لا يختار بين البدائل والتصرفات كالحيوان ، ولا ينشأ عن ذلك خُلق كريم .

أما الإنسان السَّوىُّ فإنه يختار بين البدائل المتعددة ، فلو اعتدى عليه إنسان فقد يردُّ عليه . بمثل هذا الاعتداء ، وقد يفكر فى المثلية ، وأن اعتداءه قد يزيد فيميل إلى التسامح ، واحد يكظم غيظه وآخر يزيل كل أثر للغيظ ، ويبغى الأجر على ذلك من الله ، عملاً بقوله تعالى[1] : ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢)﴾ [النور] وكأن الله يشجعنا على عمل الخير .

لذلك لما سُئل الحسن البصرى : كيف يطلب الله منَّا أنْ نُحسن إلى مَنْ أساء إلينا ؟ قال : هذه مَرَاقٍ فى مجال الفضائل ، وقد أباح الله لك أنْ تردَّ الإساءة بمثلها ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى] لكن يترك الباب مفتوحاً أمام أريحية النفس المؤمنة ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. (٤٠)﴾ [الشورى]

ثم إذا حسبنا هذه المسألة بمقاييس العقل ، فإن الخَلْق كلهم عيال الله ، وهم عنده سبحانه سواء ، فماذا لو اعتدى أحد عيالك على الآخر ؟ لا شكَّ أنك ستكون فى جانب المظلوم ، فتأخذه فى حضنك وترعاه وتعطف عليه ، وكذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ يكون فى جانب عبده إذا ظلم . وقد قال أحدهم : ألاَ أُحسِن إلى مَنْ جعل الله فى جانبى ؟

من هنا يقولون : أنت لا تكسب كثيراً من الأخيار ، إنما كل كسب

---

(١) نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصديق حين حلف أن لا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبداً بعدما قال فى عائشة ، فلما أنزل الله براءة عائشة رضى الله عنها شرع الله يعطف الصِّديق على قريبه ونسيبه مسطح وكان ابن خالة الصديق وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر ، وقد ضرب الحد على الزلة التى زلها فى حق عائشة ، فنزل قوله تعالى : ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢)﴾ [النور] ، عند ذلك قال الصديق : بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا ، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة . [تفسير ابن كثير ٣/٢٧٦] .

لك يأتى من الأشرار حين يسيئون إليك وتحسن إليهم ؛ لذلك يقولون : فلان هذا رجل طيب ، لكن مَنْ يمشى معه لا يستفيد منه حسنة أبداً ، لماذا ؟ يقولون : لأنه خادم للجميع ، وجعل خدَّه (مداساً) لمن معه ، فلا يجعل أحداً (يستفتح) منه بحسنة .

ورُوى عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه تبسَّم فى مجلس مع أصحابه ، فقالوا : ما يُضحكك يا رسولَ الله ؟ فقال : « رأيتُ ربى ، وقد أجلس بين يديه خَصْمين ، فقال أحدهما : يا ربِّ إن هذا ظلمنى فخُذْ لى حقِّى منه ، فقال : كيف آخذ لك حقك منه ؟ قال : أعطنى من حسناته بقدر ما أساء إلىّ ، فقال : ليست له حسنات ، فقال : فخُذْ من سيئاتى واطرح عليه ، فقال : أوَيرضيك ألاَّ تكونَ لك سيئة ؟ قال : إذن ، يا رب كيف أقضى حقى منه ؟ قال : انظر يمينك ، فنظر الرجل يمينه ، فوجد قصوراً وبساتين وجنَّاناً ، مما لا عَيْنٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، فقال : لمَنْ هذه يا ربِّ ؟ قال : لمن يدفع ثمنها ، فقال : وما ثمنها يا رب ؟ قال : أنْ تأخذَ بيد أخيك إلى الجنة ، فعجبتُ من رَبٍّ يُصلِح بين عباده »[1] .

هذا عن قولهم عن رسول الله : مجنون ، أما قولهم : ساحر . فالردُّ عليها ميسور ، فإذا كان محمد ساحراً ، سحر مَنْ آمن به ، فلماذا لم يَسْحركم أنتم أيضاً ؟ فكونكم سالمين من السحر دليل على أنه ﷺ ليس ساحراً ، بل هذا كذب وافتراء على رسول الله .

أما قولهم : شاعر ، فهذا عجيب منهم ، وهم أمة كلام وبلاغة ،

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤/٥٧٦) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، قال الذهبى : « عباد ضعيف وشيخه لا يعرف » وكذا أخرجه أبو بكر بن أبى داود السجستانى فى « البعث والنشور » (ص ٤٩ ، ٥٠) كلاهما من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

وهم أكثر خَلْق الله تمييزاً للشعر من النثر ، وخير مَنْ يفرق بين الأساليب وطرق الأداء ، وقد تولى الله تعالى الردَّ عليهم ، فقال : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [يس]

وفي سورة الحاقة ، يقول سبحانه : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحاقة]

فلما خابتْ كُلُّ هذه الحيل ، وكذبتْ كل هذه الافتراءات قالوا : بل له شيطان يُعلِّمه ، وكانوا يقولون ذلك للشاعر البليغ الذى لا يُشَقُّ له غبار في الفصاحة وحُسْن الأداء ، حتى جعلوا لهؤلاء الجن مكاناً خاصاً بهم ، فقالوا (وادى عبقر) ، وهو مسكن هؤلاء الجن الذين يُلْهمون البشر ويُعلِّمونهم .

والشعر كلام موزون مُقفَّى ، وله بحور معروفة ، فهل القرآن على هذه الشاكلة ؟ لا ، إنما هو افتراء على رسول الله ، كافترائهم عليه هنا :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .. ﴿٣﴾ ﴾ [السجدة]

فقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ.. ﴿٣﴾ ﴾ [السجدة] أم تعنى أن لها مقابلاً ، يعنى : أيقولون كذا ؟ أم يقولون : افتراه ، فماذا هذا المقابل ؟ المقابل ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [السجدة] فالمعنى : أيُصدِّقون بأن هذا الكتاب من عند رب العالمين ، وأنه لا رَيْبَ فيه ؟ أم يقولون افتراه محمد ، فأَمْ هنا جاءت لتنقض ما يُفهَم من الكلام السابق عليها .

وقوله : ﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ .. ﴿٣﴾ ﴾ [السجدة] نعرف أن (بل) تأتي للاستدراك ، لكنها هنا ليست للاستدراك ، إنما لإبطال قولهم ﴿ افْتَرَاهُ .. ﴿٣﴾ ﴾ [السجدة] كما لو قُلْت : زيد ليس عندى بل

عمرو ، فأفادتْ الإضراب عما قبلها ، وإثبات الحكم لما بعدها ، وهم يقولون افتراه والله يقول : ﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ .. ۝ ﴾ [السجدة] فكلامهم واتهامهم باطل ، والقرآن هو الحق من عند الله .

وقُلْنا : إن ﴿ الْحَقّ.. ۝ ﴾ [السجدة] هو الشيء الثابت الذى لا يطرأ عليه التغيير ؛ لذلك فالحقائق ثابتة لا تتغير أبداً ، كيف ؟ هَبْ أن حادثة وقعتْ نتج عنها مُدَّع ومُدَّعىً عليه وشهود ، واجتمعوا جميعاً أمام القاضى ، وقد يحدث أن يُغيِّر أحدهم أقواله ، أو يشهد الشهود شهادة زور .

لكن خبرة القاضى ودُرْبته تكشف الحقائق وتُظهِر كذبهم حين يضرب أقوال بعضهم ببعض ، ويسألهم ويحاورهم إلى أنْ يصل إلى الحقيقة ؛ ذلك لأن الواقع شيء واحد ، ولو أنهم يصفون واقعاً لاتفقوا فيه ، ولباقة القاضى هى التى تُظهِر الباطل المتناقض وتُبطِله وتُحِقّ وتغلب الحق الذى لا يمكن أن يتناقض .

كالقاضى الذى اجتمع أمامه خَصْمان ، يدَّعى أحدهما على الآخر أنه أخذ منه مالاً ولم يردّه إليه ، فقال المدَّعَى عليه : بل رددته إليه فى مكان كذا وكذا ، فأنكر المدَّعى ، فقال القاضى للمدَّعَى عليه : اذهب إلى هذا المكان ، فلعل هذا المال وقع منك هناك ، فذهب الرجل وأبطأ بعض الوقت ، فقال القاضى للمدعى : لقد أبطأ صاحبك ، فقال : أبطأ ؛ لأن المكان بعيد ، فوقع فى الحقيقة التى كان ينكرها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ .. ۝ ﴾ [السجدة] ومعلوم أن سيدنا رسول الله جاء بشيراً ونذيراً ، لكن خصَّ هنا النذير ؛ لأنه جاء ليصلح معتقدات فاسدة ، وإصلاح الفاسد لا بُدَّ أن يسبق ما يُبشر به ، ولم يأتِ ذكر البشارة هنا ؛ لأنهم

ما سمعوا للنذارة ، وما استفادوا بها .

لكن قوله تعالى : ﴿ مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ .. (٣) ﴾ [السجدة] تصطدم لفظياً بقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء] وليس بين هذه الآيات تناقض ؛ لأن المعنى : ما أتاهم من نذير قريب ، ولا مانع من وجود نذير بعيد ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ .. (١٩) ﴾ [المائدة]

وإلا ، فمن أين عرفوا أن الله تعالى خالق السموات والأرض ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٢٥) ﴾ [لقمان] فهذا أثر من آثار الرسل السابقين ، كما كان فيهم أناس متبعون لمنهج الدين الحق ، والذين سماهم الله الحنفاء ، وهم الذين لم يسجدوا لصنم ، ولم ينحرفوا عن الفطرة السوية .

وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) ﴾ [السجدة] لعل تفيد الرجاء ، والرجاء من الله كأنه واقع متحقق ؛ لأن الله تعالى يحب لعباده جميعاً أنْ يؤمنوا به ؛ ليأخذوا جميل عطائه في الآخرة ، كما أخذوا عطاءه في الدنيا ، وهم جميعاً خَلْقه وصَنْعته ، وسبق أن ذكرنا الحديث القدسي : « ... دعوني وما خلقت ، إنْ تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا إليَّ فأنا طبيبهم .. »[1] .

---

(١) أورده الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدي وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إليَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى قضية من قضايا أصول الكون :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ ﴾

يخبرنا الحق - تبارك وتعالى - أنه خلق السموات والأرض وما بينهما لخدمة الإنسان ، وهو المكرَّم الأول فى هذا الكون ، وجميع الأجناس فى خدمته حيواناً ونباتاً وجماداً ، فهو سيد فى هذا الكون ، لكن هل أخذ هذا السيد سيادته بذاته وبفعله ؟ لا إنما أخذها بفضل الله عليه ، فكان عليه أولاً أنْ يشكر مَنْ أعطاه هذه السيادة على غيره .

وهذا السيد عمره ومروره فى الحياة عبور ، فعمره فيها يطول أو يقصر ينتهى إلى الموت ، فى حين أن الجمادات التى تخدمه عمرها أطول من عمره ، وهى خادمة له ، فكان لزاماً عليه أنْ يتأمل هذه المسألة : كيف يكون عمر الخادم أطول وأبقى من عمر السيد المخدوم ؟

إذن : لابد أن لى عمراً آخر أطول من هذا ، عمراً يناسب تكريم الله لى ، ويناسب سيادتى فى هذا الكون ، إنهَا الآخرة حيث تندثر هذه المخلوقات التى خدمتنى فى الدنيا وأبقى أنا ، لا أعيش مع الأسباب ، إنما مع المسبب سبحانه ، فلا أحتاج إلى الأسباب التى خدمتنى فى الدنيا ، إنما أجد كل ما أشتهيه بين يدىَّ دون تعب ودون سَعْى ، وهذه ارتقاءات لا تكون إلا لمَنْ يطيع المرقى المعطى .

لذلك ، الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يلفتنا ويقول : صحيح أنت أيها الإنسان سيد هذا الكون وكل مخلوقاتي في خدمتك ، لكن خَلْقها أكبر من خَلْقك :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر]

لماذا ؟ لأن للناس أعماراً محددة ، مهما طالت لا بُدَّ أَنْ تنتهي إلى أجل ، ثم إن هذه الأعمار لا تَسْلم لهم ، إنما تنتابها الأغيار ، فالغنيّ قد يفتقر ، والصحيح قد يمرض ، والقوي قد يضعف ، أمّا الشمس والقمر والنجوم والكون كله فلا يتعرض لهذه الأغيار ، فما رأينا الشمس أو القمر أو النجوم أصابتها علة وانتهت كانتهاء الإنسان ، ثم أنت لستَ مثلها في العظمة المستوعبة ؛ لأن قصارى ما فيك أنك تخدم نفسك أو تخدم البيئة التي حولك ، أمّا هذه المخلوقات فتخدم الكون كله .

فإذا أقرَّ ـ حتى الكفار ـ بأن الله تعالى هو خالق السماء والأرض إذن : فهي دليل أول على وجود الحق تبارك وتعالى .

ومسألة خَلْق السماوات والأرض من الأشياء التي استأثر الله بعلمها وليس لأحد أنْ يقول : كيف خُلقت ولا حتى كيف خُلق الإنسان ؛ لأن مسائل الخَلْق لم يشهدها أحدَ فيخبرنا بها ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (٥١) ﴾ [الكهف]

فسماهم الله مُضلِّين ، والمضلّ هو الذي يجنح بك إلى طريق باطل ، ويصرفك عن الحق ، وقد رأينا فعلاً هؤلاء المضلِّين وسمعنا افتراءاتهم في مسألة خَلْق السموات والأرض .

إذن : خَلْق السماوات والارض مسألة لا تُؤخَذ إلا ممَّنْ خلق ؛

لذلك قَصَّ لنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ قصة خَلْق آدم ، وقصَّ لنا قصة خلق السماوات والأرض ، لكن الخَلْق حدث وفعل ، والفعل يحتاج إلى زمن تعالج فيه الحدث وتزاوله ، والإشكال هنا فى قوله تعالى ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ④﴾ [السجدة] ، فهل الحدث بالنسبة لله تعالى يحتاج إلى زمن ؟

الفِعْل من الإنسان يحتاج إلى علاج يستغرق زمناً ، حيث نوزع جزئيات الفعل على جزئيات الزمن ، أما فى حقه تعالى فهو سبحانه يفعل بلا علاج للأمور ، إنما يقول : للشىء كن فيكون ، أما قوله تعالى ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ④﴾ [السجدة] فقد أوضحناها بمثال ، ولله المثل الأعلى .

قلنا : أنت حين تصنع الزبادى مثلاً تأتى بالحليب ، ثم تضع عليه خميرة زبادى سبق إعداده ، ثم تتركه فى درجة حرارة معينة سبع أو ثمانى ساعات بعدها تجد الحليب قد تحوَّل إلى زبادى ، فهل تقول : إن صناعة الزبادى استغرقت منى سبعاً أو ثمانى ساعات ؟ لا ، إنها استغرقتْ مجرد إعداد المواد اللازمة ، ثم أخذت هذه المواد تتفاعل بعضها ببعض ، إلى أن تحولت إلى المادة الجديدة .

كذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ خلق السموات والأرض بأمره (كُنْ) ، فتفاعلت هذه الأشياء مُكوِّنة السماوات والأرض .

ومسألة خلق السموات والأرض فى ستة أيام عُولجت فى سبع سور من القرآن ، أربع منها تكلمْن عن خلق السماوات والأرض ولم تتعرض لما بينهما ، وثلاث تعرضتْ لخَلْق السماوات والأرض وما بينهما ، ففى الأعراف مثلاً ، وفى يونس ، وهود ،

والحديد[1] . تعرضت الآيات لخلق السماوات والأرض فقط .

وفى الفرقان والسجدة وق[2] . فتكلّمتْ عن البينية ، فكأن السماوات والأرض ظرف خُلق أولاً ، ثم خُلق المظروف فى الظرف ، وهذا هو الترتيب المنطقى أنْ تُعِدَّ الظرفَ أولاً ، ثم تضع فيه المظروف .

وقوله تعالى : ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ④﴾ [السجدة] الله يخاطب بهذه الآيات العرب ، واليوم له مدلول عند العرب مرتبط بحركة الشمس والقمر ، فكيف يقول سبحانه ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ④﴾ [السجدة] ولم تخلق بعد لا الشمس ولا القمر ؟

نقول : المعنى خلقها فى زمن يساوى ستة أيام بتقديرنا نحن الآن ، وإلا فاليوم عند الله تعالى يختلف عن يومنا ، ألم يقل سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ④⑦﴾ [الحج] أى : فى الدنيا .

وقال عن اليوم فى الآخرة : ﴿تَعْرُجُ[3] الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ

---

(١) هذه الآيات الأربعة هى :
- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ⑤④﴾ [الأعراف]
- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ③﴾ [يونس]
- ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ⑦﴾ [هود]
- ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ④﴾ [الحديد]

(٢) أما الآيات التى أضيف فيها ما بين السماوات والأرض فهى :
- ﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ⑤⑨﴾ [الفرقان]
- ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ④﴾ [السجدة]
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ③⑧﴾ [ق]

(٣) عرج يعرج : صعد وعلا وارتفع . [القاموس القويم ٢/١٣] .

كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾ [المعارج] فلله تعالى تقدير لليوم فى الدنيا ، ولليوم فى الآخرة .

والحق سبحانه لم يُفصِّل لنا مسألة الخَلْق هذه إلا فى سورة (فُصِّلَت) فهى التى فصَّلَتْ القول فى خَلْق السماوات والأرض ، وهذه من عجائب هذه السورة .

فقال تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] هذه ستة أيام .

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [فصلت] وهكذا يصبح المجموع ثمانية أيام .

إذن : كيف نُوفِّق بين ستة أيام فى الإجمال ، وثمانية أيام فى التفصيل ؟ قالوا : الأعداد يُحمل مُجْملها على مفصَّلها ؛ لأن المفصَّل تستطيع أن تضم بعضه إلى بعض ، أما المجمل فهو النهاية .

وأعدْ معى قراءة الآيات :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] وهذا كله من لوازم الأرض ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] أى : أن هذه اللوازم تابعة لما قبلها .

فالمعنى : فى تتمة أربعة أيام ، فاليومان الأولان داخلان فى الأربعة ، كما لو قلت : سِرْتُ من القاهرة إلى طنطا فى ساعة ، وإلى الأسكندرية فى ساعتينَ ، فالساعة الأولى محسوبة من هاتين الساعتين .

فالحق سبحانه خلق الأرض فى يومين ، وخلق ما يلزمها فى تتمة الأربعة الأيام ، فالزمن تتمة للزمن ؛ لأن الحدث يُتمِّم الحدث ، إذن : المحصلة النهائية ستة أيام ، وليس هناك خلاف بين الآيات ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [النساء] ومن العجيب أن يأتى هذا التفصيل فى (فُصِّلت) .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. (٤) ﴾ [السجدة] الحق - تبارك وتعالى - يخاطب الخَلْق بما يُقرِّب الأشياء إلى أذهانهم ؛ لأن الملوك أو أصحاب الولاية فى الأرض لا يستقرون على كراسيهم إلا بعد أنْ يستتبَّ لهم الأمر .

فمعنى ﴿ اسْتَوَىٰ .. (٤) ﴾ [السجدة] صعد وجلس واستقر ، كل هذه المعانى تناسب الآية ، لكن فى إطار قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

فكما أن لله تعالى وجوداً ليس كوجودك ، وسَمْعاً ليس كسمعك ، وفعلاً ليس كفعْلك ، فكذلك له سبحانه استواء ، لكن ليس كاستوائك ، وإذا دخلت حجرة الجلوس مثلاً عند شيخ البلد وعند العمدة والمحافظ ورئيس الجمهورية ستجد مستويات متباينة ، كلٌّ على حسب ما يناسبه ، فإذا كان البشر يتفاوتون فى الشىء الواحد ، فهل نُسوِّى بيننا وبين الخالق عز وجل ؟

فالمعنى إذن ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. (٤) ﴾ [السجدة] استتبَّ له أمر الخَلْق ، ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ .. (٤) ﴾ [السجدة] الولىُّ : مَنْ يليك ، ويكون قريباً منك ، وإليه تفزع فى الأحداث ، فهو ملجؤك الأول . والشفيع : الذى يشفع لك عند مَنْ يملك أمرك ، فالولىُّ هو الذى ينصرك بنفسه ، أمَّا الشفيع فهو يتوسط لك عند مَنْ

ينصرك ، فليس لك وليٌّ ولا شفيع من دون الله عز وجل .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الإسراء] فلا أحدَ ينجيكم ، ولا أحدَ يُسْعفكم إلا الله ﴿ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [السجدة]

كأن هذه المسألة يجب أنْ تكون على بالك دائماً ، فلا تغفل عن الله ؛ لأنك ابْنُ أغيار ، والأحداث تتناوبك ، فلا يستقرّ بك حال ، فأنت بين الغنَى والفقر ، والصحة والمرض ، والقوة والضعف .

لذلك تذكَّر دائماً أنه لا وليَّ ولا نصيرَ لك إلا الله ، وإذا استحضرتَ ذلك دائماً اطمأنَّ قلبك ، ولم لا وأنت تستند إلى وليٍّ وإلى نصير لا يخذلك أبداً ، ولا يتخلى عنك لحظة ، فإذا خالط هذا الشعورُ قلبَك أقبلتَ على الأحداث بجسارة ، وإذا أقبلتَ على الحدث بجسارة لم يأخذ الحدث من قوتك شيئاً ؛ لأن الذى يخاف الأحداث يُضعِف قوته الفاعلة .

فمثلاً صاحب العيال الذى يخاف الموت فيتركهم صغاراً لا عائلَ لهم لو راجع نفسه لقال لها : ولِمَ الخوفُ على العيال من بعدى ، فهل أنا خلقتهُم ، أم لهم خالق يرعاهم ويجعل لهم من المجتمع الإيمانى آباءً متعددين ؟ لو قال لنفسه ذلك ما اهتم لأمرهم ، وصدَق الذى قال مادحاً : أنتَ طِرْتَ باليُتْم إلى حَدِّ الكَمالِ

وقال آخر :

* قَال ذُو الآبَاءِ لَيْتِى لاَ أبَا لِى *

ولِمَ لا ؟ وقد كفل الإسلام للأيتام أنْ يعيشوا فى ظل المجتمع المسلم أفضل مما يعيش مَنْ له أب وأم .

إذن : فالإنسان حينما يعلم أن له سنداً من ألوهية قادرة وربوبية لا تُسلمه يستقبل الحوادث بقوة ، ويقين ، ورضا ، وإيمان بأنه لن يُسلَم أبداً ما دام له إيمان برب ، وكلمة رب هذه ستأتى على باله قَسْراً فى وقت الشدة ، حين يخذله الناس وتُعْييه الأسباب ، فلا يجد إلا الله - حتى لو كان كافراً لقال فى الشدة : يا رب .

وقوله تعالى ﴿ مِّن دُونِهِ .. ④ ﴾ [السجدة] يعنى : لا يوجد غيره ، وإنْ وُجِد غَيْرٌ فبتحنين الله للغير عليك ، فالخير أياً كان فمردُّه إلى الله .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ⑤ ﴾

فى هذه الآية ردٌّ على الفلاسفة الذين قالوا بأن الله تعالى قادر وخالق ، لكنه سبحانه زاول سلطانه فى مُلْكه مرة واحدة ، فخلق النواميس ، وخلق القوانين ، ثم تركها تعمل فى إدارة هذا الكون ، ونقول : لا بل هو سبحانه ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ .. ⑤ ﴾ [السجدة] أى : أمْر الخَلْق ، وهو سبحانه قيُّوم عليه .

وإلا فما معنى ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ .. ٢٥٥ ﴾ [البقرة] إن قُلْنا بصحة ما تقولون ؟ بل هو سبحانه خلق الكون ، ويُدبِّر شئونه على عينه عز وجل ، والدليل على قيوميته تعالى على خَلْقه أنه خلق الأسباب على رتابة خاصة ، فإذا أراد سبحانه خَرْق هذه الرتابة

بشــواذ تخــرج عن القوانيــن المعــروفــة كمــا خــرق لإبراهيم ـ عليـه السلام ـ قانون الإحراق ، وكما خــرق لموسـى ـ عليه السلام ـ قانون سيـولة الماء ، ومســألة خَرْق القوانين فى الكون دليل على قــيوميـته تعالى ، ودليل على أن أمر الخَلْق ما يزال فى يده سبحانه .

ولو أن المسألة كـما يقول الفلاسفة لكان الكون مـثل المنبه حين تضبطه ثم تتـركه ليعـمل هو من تلقاء نفـسه ، ولو كان الأمـر كذلك لانطفأتْ النار التى أُلقِى فيها إبراهيم عليه السلام مثلاً .

لذلك لما سُـئِل أحد العـارفين عن قـوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرحمن] ما شـأن ربك الآن ، وقد صـحَّ أن القلم قد جفَّ ؟ قال : أمور يبديها ولا يبتديها ، يرفع أقواماً ويضع آخرين[1] .

إذن : مســألة الخَلْق إبداء لا ابتـداء ، فأمور الـخَلْق مُعـدَّة جاهزة مُسْبقاً ، تنتظر الأمر من الله لها بالظهور .

وقلنا هذا المعنى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس] فكلمة ﴿ يَقُولَ لَهُ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس] تدل على أن هذا الشـىء موجـود بالفعل ينتظر أنْ يقـول الله له : اظهر إلى حيِّز الوجود .

(١) عن أبى الدرداء رضـى الله عـنه عن النبى ﷺ فى قــول الله تعـالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرحـمن] قال : « من شـانه أن يغـفر ذنبـا ، ويُفـرِّج كربا ، ويـرفع قومـا ويضـع آخرين » قـال السيوطى فى الدر الـمنثور (٧/٦٩٩) : « أخرجـه الحسن بن سفـيان فى مسنده والبـزار وابن جرير والطبـرانى وأبو الشيخ فى العظمة وابـن مردويه والبيـهقى فى شُعَب الإيمان وابن عساكر » .

فالحق سبحانه ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ .. (٥) ﴾ [السجدة] ثم تعود إليه سبحانه النتائج ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ .. (٥) ﴾ [السجدة] فالله سبحانه يرسل إلى الأرض ، ثم يستقبل منها ؛ لأن المدبِّرات أمراً من الملائكة لكل منهم عمله واختصاصه ، وهذه المسألة نسميها فى عالمنا عملية المتابعة عند البشر ، فرئيس العمل يكلف مجموعة من موظفيه بالعمل ، ثم لا يتركهم إنما يتابعهم ليستقيم العمل ، بل ويحاسبهم كلاً بما يستحق .

والملائكة هى التى تعرج بالنتائج إليه سبحانه ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥) ﴾ [السجدة] فالعود سيكون للملائكة ، وخَطْو الملائكة ليس كخَطْوك ؛ لذلك الذى يعمله البشر فى ألف سنة تعمله الملائكة فى يوم .

ومثال ذلك ما قرأناه فى قصة سليمان ـ عليه السلام ـ حين قال : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) ﴾ [النمل]

وهذا الطلب من سليمان ـ عليه السلام ـ كان على ملأ من الإنس والجن ، لكن لم يتكلم بشرىٌّ ، ولم يتصدَّ أحد منهم لهذا العمل ، إنما تصدَّى له عفريت ، وليس جِنِّياً عادياً ، والعفريت جنى ماهر له قدراته الخاصة ، وإلا ففى الجن أيضاً من هو (لبخة) لا يجيد مثل هذه المهام ، كما فى الإنسان تماماً .

قال العفريت : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ .. (٣٩) ﴾ [النمل] وهذا يعنى أنه سيستغرق وقتاً ، ساعة أو ساعتين ، أما الذى عنده علم من الكتاب ، فقال : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠) ﴾ [النمل]

يعنى : فى طرفة عين لما عنده من العلم ؛ لذلك لما رأى سليمانُ العرشَ مستقراً عنده فى لمح البصر ، قال : ﴿ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ .. (٤٠) ﴾ [النمل]

إذن : الفعل يستغرق من الزمن على قَدْر قوة الفاعل ، فكلما زادتْ القوة قَلَّ الزمن ، وقد أوضحنا هذه المسألة فى كلامنا على الإسراء والمعراج .

ومعنى : ﴿ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥) ﴾ [السجدة] أى : من سنينكم أنتم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٦) ﴾

قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ .. (٦) ﴾ [السجدة] إشارة إلى تدبير الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم متابعة الأمر ونتائجه ، هذا كله لأنه سبحانه ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .. (٦) ﴾ [السجدة] وأنه سبحانه ﴿ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) ﴾ [السجدة] فالحق سبحانه يُعلِّمنا أن الآمر لا بد أنْ يتابع المأمور .

وقلنا : إن عالم الغيب تعنى أنه بالأَوْلى يعلم الشهادة ، لكن ذكر الحق سبحانه علمه بالشهادة حتى لا يظن أحد أن الله غَيْب ، فلا يعلم إلا الغيب ، وقد بيَّنّا معنى الشهادة هنا حينما تكلَّمنا عن قوْل الله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) ﴾ [الأنبياء]

والجهر أو الشهادة يعنى الجهر المختلط حين تتداخل الأصوات ، فلا تستطيع أنْ تُميِّزها ، مع أنها جهر أمامك وشهادة ، أما الحق سبحانه فيعلم كل صوت ، ويردُّه إلى صاحبه ، فعلْم الجهر هنا أقوى من علم الغيب .

ومعنى ﴿ الْعَزِيزُ .. ⦗٦⦘ ﴾ [السجدة] أى : الذى لا يُغلَب ولا يُقهر ، فلا يلويه أحد عن علمه ، ولا عن مراداته فى كَوْنه . ومع عِزَّته فهو سبحانه (الرحيم) .

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ⦗٧⦘ ﴾

الخَلْق إيجاد من عدم بحكمة ، ولغاية ومهمة مرسومة ، وليس عَبَثاً هكذا يخلق الأشياء كما اتفق ، فالخالق - عز وجل - قبل أنْ يخلق يعلم ما يخلق ، ويعلم المهمة التى سيؤديها ؛ لذلك يخلق سبحانه على مواصفات تحقق هذه الغاية ، وتؤدى هذه المهمة .

وقد يُخيِّل لك أن بعض المخلوقات لا مهمةَ لها فى الحياة ، أو أن بعضها كان من الممكن أنْ يُخلَق على هيئة أفضل مما هى عليها .

ونذكر هنا الرجل الذى تأمل فى كون الله فقال : ليس فى الإمكانِ أبدعُ مما كان . والولد الذى رأى الحداد يأخذ عيدان الحديد المستقيمة ، فيلويها ويُعْوِجها ، فقال الولد لأبيه : لماذا لا يترك الحداد عيدان الحديد على استقامتها ؟ فعلَّمه الوالد أن هذه العيدان لا تؤدى مهمتها إلا باعوجاجها ، وتأمل مثلاً الخطَّاف وآلة جمع الثمار من على الأشجار ، إنها لو كانت مستقيمة لما أدَّتْ مهمتها .

وفى ضوء هذه المسألة نفهم الحديث النبوى الذى قال فيه النبى ﷺ - عن النساء : « إنهن خُلِقْنَ من ضلع ، وإن أعوج ما فى

الضلع أعلاه ، فإنْ ذهبتَ تقيمه كسرته ، وإنْ تركته لم يَزَلْ أعوج ، فاستوصوا بالنساء »[١] .

وحين تتأمل الضلوع في قفصك الصدرى تجد أنها لا تؤدى مهمتها في حماية القلب والرئتين إلا بهذه الهيئة المعْوَجة التى تحنو على أهم عضوين في جسمك ، فكأن هذا الاعوجاج رأفة وحُنُو وحماية ، وهكذا مهمة المرأة في الحياة ، ألاَ تراها في أثناء الحمل مثلاً تترفق بحملها وتحافظ عليه ، وتحميه حتى إذا وضعتْه كانت أشدَّ رفقاً ، وأكثر حناناً عليه ؟

إذن : هذا الوصف من رسول الله ليس سُبَّة في حق النساء ، ولا إنقاصاً من شأنهن ؛ لأن هذا الاعوجاج في طبيعة المرأة هو المتمم لمهمتها ؛ لذلك نجد أن حنان المرأة أغلب من استواء عقلها ، ومهمة المرأة تقتضى هذه الطبيعة ، أما الرجل فعقله أغلب ليناسب مهمته في الحياة ، حيث يُنَاط به العمل وترتيب الأمور فيما وُلِّى عليه .

إذن : خلق الله كلاً لمهمة ، وفى كل منَّا مهما كان فيه من نقص ظاهر - ميْزة يمتاز بها ، فالرجل الذى تراه لا عقلَ له ولا ذكاءَ عنده تقول : ولماذا خلق الله مثل هذا ؟ لكن تراه قويَّ البنية ، يحمل من الأثقال والمشاقّ ما لا تتحمله أنت ، والرجل القصير مثلاً ، ترى أنت عيبه في قِصَر قامته ، لكن يراها غيرك ميزة من مزاياه ، وربما استدعاه للعمل عنده لهذه الصفة فيه .

وحين تتأمل مثلاً عملية التعليم ، وتقارن بين أعداد التلاميذ في

---

(١) أخرجه البخارى في صحيحه (٣٣٣١) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٤٦٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال النووى في شرحه لمسلم : « يعنى أنها خُلقت من أعوج أجزاء الضلع ، فلا يتهيأ الانتفاع بها إلا بالصبر على تعوجها » .

المرحلة الابتدائية ، وكم منهم يصل إلى مرحلة التعليم العالى ؟ وكم منهم يتساقطون في الطريق ؟ ولو أنهم جميعاً أخذوا شهادات عليا لما استقام الحال ، وإلاَّ فمَنْ للمهن المتواضعة والحرف وغيرها ؟ إذن : لا بُدَّ أنْ يوجد هذا التفاوت ؛ لأن العقل الواحد يحتاج إلى آلاف ينفذون خطته ، وقيمة كل امرىء ما يُحسنه مهما كان عمله .

لذلك قلنا : إنه لا ينبغي لأحد أنْ يتعالى على أحد ؛ لأنه يمتاز عنه في شيء ما ، إنما ينظر فيما يمتاز به غيره ؛ لأن الخالق عز وجل وزّع المواهب بين الخَلْق جميعاً ، ويكفى أن تقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ .. (١١) ﴾ [الحجرات]

فالله تعالى : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ .. (٧) ﴾ [السجدة] لأن لكل مخلوق مهمة مُهيّاً لها ، وتعجب من تصاريف القدر في هذه المسألة فتجد أخوين ، يعمل أحدهما في العطور ، ويعمل الآخر في الصرف الصحى ، وتجد هذا راضياً بعمله ، وهذا راضٍ بعمله .

حتى أنك تجد الناس الذين خلقهم الله على شيء من النقص أو الشذوذ حين يرضي الواحد منهم بقسمة الله له وقدره فيه يسود بهذا النقص ، أو بهذا الشذوذ ، وبعضنا لاحظ مثلاً الأكتع إذا ضرب شخصاً بهذه اليد الكتعاء ، كم هى قوية ! وكم يخافه الناس لأجل قوته ! وربما يجيد من الأعمال ما لا يجيده الشخص السَّوى .

فإنْ قلتَ : إذا كان الخالق سبحانه أحسن كل شيء خلقه ، فما بال الكفر ، خلقه الله وما يزال موجوداً ، فأىُّ إحسان فيه ؟

نقول : والله لولا طغيان الكافرين ما عشق الناسُ الإيمانَ ، كما أنه لولا وجود الظلم والظالمين لما شعر الناس بطَعْم العدل . إذن :

فالحق سبحانه يخلق الشيء ، ويخلق من ضده دافعاً له .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾ [السجدة] فالإنسان الذى كرّمه الله على سائر المخلوقات بدأه الله من الطين ، وهو أدنى أجناس الوجود ، وقلنا : إن جميع الأجناس تنتهى إلى خدمة الإنسان : الحيوان وهو أقربها للإنسان ، ثم النبات ، ثم الجماد ، ومن الجماد خُلِق الإنسان .

وقد عوَّض الله عز وجل الجماد الخادم لباقى الأجناس حين أمر الإنسان المكرَّم بأنْ يُقبِّله فى فريضة كُتبت عليه مرة واحدة فى العمر ، وهى فريضة الحج ، فأمره بأن يُقبِّل الحجر الأسود ، وأنْ يتعبد لله تعالى بهذا التقبيل ؛ لذلك يتزاحم الناس على الحجر ، ويتقاتلون عليه ، وهو حجر ، وهم بشر كرَّمهم الله ، وما ذلك إلا ليكسر التعالى فى النفس الإنسانية ، فلا يتعالى أحد على أحد .

وسبق أنْ بيّنا أن المغرضين الذين يحبون أنْ يستدركوا على كلام الله قالوا : إن الله تعالى قال فى مسألة الخَلْق مرة ﴿ مِّن مَّاءٍ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [المرسلات] ومرة ﴿ مِن تُرَابٍ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الكهف] ومرة ﴿ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [المؤمنون] ومرة ﴿ مِن صَلْصَالٍ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الحجر] ومرة ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحجر] .. الخ ، فأىٌّ هذه العناصر أصل للإنسان ؟

وقلنا : إن هذه مراحل مختلفة للشىء الواحد ، والمراحل لا تقتضى النية الأولية ، فالماء والتراب يُكوِّنان الطين ، فإذا تُرك الطين حتى تتغير رائحته فهو الحمأ المسنون ، فإذا تُرك حتى يجفَّ ويتجمد فهو الصلصال ، فهذه العناصر لا تعارضَ بينها ، ويجوز لك أنْ تقول : إن الإنسان خُلِق من ماء ، أو من تراب ، أو من طين ... الخ .

والمراد هنا الإنسان الأول ، وهو سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ ثم

أخذ الله سلالته من ماء مهين ، والسلالة هى خلاصة الشىء ، فالخالق سبحانه خلقنا أولاً من الطين ، ثم جعل لنا الأزواج والتناسل الذى نتج عنه رجال ونساء .

ثم يحتفظ الخالق سبحانه لنفسه بطلاقة القدرة فى هذه المسألة ، وكأنه يقول لك : إياك أنْ تفهم أننى لا أخلق إلا بالزوجية ، إنما أنا أستطيع أنْ أخلق بلا زوجية كما خلقتُ آدم ، وأخلق من رجل بلا امرأة كما خلقتُ حواء ، وأخلق من امرأة بلا رجل كما خلقتُ عيسى عليه السلام .

وقد تتوفر علاقة الزوجية ويجعلها الله عقيماً لا ثمرةَ لها ، وهكذا تناولت طلاقة القدرة كل ألوان القسمة العقلية فى هذه المسألة ، واقرأ إنْ شئتَ : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الشورى]

إذن : هذه مسألة طلاقة قدرة للخالق سبحانه ، وليست عملية (ميكانيكية) ، لأنها هبَة من الله ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا .. (٤٩) ﴾ [الشورى] ولاحظ أن الله قدَّم هنا الإناث ، وهم الجنس الذى لا يفضِّله الناس أن يُولد لهم ، ولكن تجد الذى يرزقه الله بالبنت فيفرح بها ، ويعلم أنها هِبَة من الله يُعوِّضه الله بزوج لها يكون أطوعَ له من ولده .

كما أنه لو رضى صاحب العُقْم بعُقْمه ، وعلم أنه هبَة من الله لَعوَّضه الله فى أبناء الآخرين ، وشعر أنهم جميعاً أبناؤه ، ولماذا نقبل هبة الله فى الذكور وفى الإناث ، ولا نقبل العقم ، وهو أيضاً هبة الله ؟

ثم ألستَ ترى من الأولاد مَنْ يقتل أباه ، ومَنْ يقتل أمه ؟ إذن :

المسألة تحتاج منّا إلى الرضا والتسليم والإيمان بأن العُقْم هبة ، كما أن الإنجاب هبة .

ثم إن خَلْق الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام من طين جاء من البداية على صورته التامة الكاملة ، فخلقه الله رجلاً مستوياً ، فلم يكُنْ مثلاً طفلاً ثم كبر وجرتْ عليه سنة التطور ، لا إنما خلقه الله على صورته ، أي : على صورة آدم .

والبعض يقول : خلق الله آدم على صورته أي على صورة الحق[1] ، فالضمير يعود إلى الله تعالى ، والمراد : على صورة الحق لا على حقيقة الحق ، فالله تعالى حيٌّ يَهَب من حياته حياة ، والله قوى يهَبُ من قوته قوة ، والله غنيٌّ يهب من غِنَاه غِنى ، والله عليم يَهبُ من علمه علماً .

لذلك قيل : « تخلَّقوا بأخلاق الله » ؛ لأنه سبحانه وهبكم صفات من صفات تجلِّيه ، وقد وهبكم هذه الصفات ، فاجعلوا للصفة فيكم مزية وتخلَّقوا بها ، فمثلاً كُنْ قوياً على الظالم ، ضعيفاً متواضعاً للمظلوم ، على حَدِّ قول الله تعالى في صفات المؤمنين :

﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح]

وقال : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة]

وهذه الصفات المتناقضة تجتمع في المؤمن ؛ لأنه ليس له طبع واحد ، إنما الموقف والتكليف هو الذي يصبغه ويلويه إلى الصفة المناسبة .

---

(١) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعاً » أخرجه البخاري في صحيحه (٦٢٢٧) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٨٤١) أي : خلقه على صورته التي استمر عليها إلى أن أُهْبِطَ وإلى أن مات ، دفعاً لتوهم من يظن أنه لما كان في الجنة كان على صفة أخرى (نقله ابن حجر في فتح الباري ٣/١١) .

وقلنا : إن علماء التحاليل فى معاملهم أثبتوا صدْق القرآن فى هذه الحقيقة ، وهى خَلْق الإنسان من طين حينما وجدوا أن العناصر المكوِّنة لجسم الإنسان هى ذاتها العناصر الموجودة فى التربة ، وعددها ١٦ عنصراً ، أقواها الأكسوجين ، ثم الكربون ، ثم الهيدروجين ، ثم النيتروجين ، ثم الصوديوم ، ثم الماغنسيوم ، ثم البوتاسيوم .. الخ .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ﴾

النسل هو الأنجال والذرية . والسلالة : خلاصة الشىء تُسلُّ منه كما يُسلُّ السيف من غمده ، فالسلالة هى أجود ما فى الشىء ، ولذلك نقول : فلان من سلالة كذا ، وفلان سليل المجد . يعنى : فى مقام المدح . حتى فى الخيل يحتفظون لها بسلالات معروفة أصيلة ويُسجلون لها شهادات ميلاد تثبت أصالة سلالتها .

هذا النسل وهذه السلالة خلقها الله من ماء ، وهو منىُّ الرجل وبويضة المرأة .

هذا الماء وصفه الله بأنه ﴿ مَّهِينٍ ۝٨ ﴾ [السجدة] لأنه يجرى فى مجرى البول ، ويذهب مذهبه إذا لم يصل إلى الرحم ، وفى هذا الماء المهين عجائب ، ويرحم الله العقاد[1] حين قال : إن أصول ذرات العالم

---

(١) هو : عباس محمود إبراهيم العقاد ، أصله من دمياط بمصر ، انتقل أسلافه إلى المحلة الكبرى ، وكان أحدهم يعمل فى « عقادة الحرير » فعرف بالعقاد ولد بأسوان عام ١٨٨٩ من أم كردية ، تعلم فى مدرستها الابتدائية ، وكان موظفاً بالسكة الحديد وبوزارة الأوقاف بالقاهرة ثم معلماً فى بعض المدارس الأهلية وانقطع إلى الكتابة فى الصحف والتأليف ، ظل اسمه لامعاً مدة نصف قرن ألَّف خلالها ٨٣ كتاباً أشهرها العبقريات . توفى بالقاهرة عام ١٩٦٤ عن ٧٥ عاماً [الأعلام ٣/٢٦٦] .

كله يمكن أن تُوضع فى نصف كستبان الخياطة ، وتأمل كم يقذف الرجل فى المرة الواحدة من هذا المقدار ؟ إذن : المسألة دقة تكوين وعظمة خالق ، ففى هذه الذرة البسيطة خصائص إنسان كامل ، فهى تحمل : لونه ، وجنسه ، وصفاته .. الخ .

وسبق أن قلنا في عالم الذر : إن فى كل منا ذرة وجزيئاً حياً من لَدُنْ أبيه آدم عليه السلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ (١) وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ ﴾

وهذه التسوية كانت أولاً للإنسان الأول الذى خلقه الله من الطين ، كما قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝٢٩ ﴾ [الحجر] وقد مرَّ آدم - عليه السلام - فى هذه التسوية بالمراحل التى ذكرت ، كذلك الأمر فى سلالته يُسوِّيها الخالق - عز وجل - وتمر بمثل هذه المراحل : من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة .. الخ ، ثم تُنفخ فيه الروح .

وإذا كان الإنسان لم يشهد كيفية خَلْقه ، فإن الله تعالى يجعل من المشَاهَد لنا دليلاً على ما غاب عنَّا ، فإنْ كنَّا لم نشهد الخَلْق فقد شاهدنا الموت ، والموت نَقْضٌ للحياة وللخَلْق ، ومعلوم أن نَقْض

---

(١) قال الشيخ أبو يحى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » (ص ٣٣٤) : « المراد بـ (روحه) جبريل ، وإلا فالله منزه عن الروح الذى يقوم به الجسد وتكون به الحياة ، وأضافه إلى نفسه تشريفاً وإشعاراً بأنه خَلْق عجيب مناسب للمقام » .

الشيء يأتي على عكس بنائه ، فإذا أردنا مثلاً هدم عمارة من عدة أدوار فإن آخر الأدوار بناءً هو أول الأدوار هدماً .

كذلك الحال في الموت ، أول شيء فيه خروج الروح ، وهي آخر شيء في الخَلْق ، فإذا خرجت الروح تصلَّب الجسد ، أو كما يقولون (شضَّب) ، وهذه المرحلة أشبه بمرحلة الصلصالية ، ثم يُنتن وتتغير رائحته ، كما كان في مرحلة الحمأ[1] المسنون ، ثم يتحلل هذا الجسد ويتبخر ما فيه من مائية ، وتبقى بعض العناصر التي تتحول إلى تراب ليعود إلى أصله الأول .

إذن : خُذْ من رؤيتك للموت دليلاً على صِدْق ربك - عز وجل - فيما أخبرك به من أمر الخَلْق الذي لم تشهده .

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ .. ⑨﴾ [السجدة] سبق أن تكلمنا عن هذه الأعضاء ، وقد قرر علماء وظائف الأعضاء مهمة كل عضو وجارحة ، ومتى تبدأ هذه الجارحة في أداء مهمتها ، وأثبتوا أن الأذن هي الجارحة الأولى التي تؤدي مهمتها في الطفل ، بدليل أنك إذا وضعتَ أصبعك أمام عين الطفل بعد ولادته لا (يرمش) ، في حين يفزع إنْ أحدثتَ بجواره صوتاً ؛ ذلك لأنه يسمع بعد ولادته مباشرة ، أما الرؤية فتتأخر من ثلاثة إلى عشرة أيام .

لذلك كانت حاسة السمع هي المصاحبة للإنسان ، ولا تنتهي مهمتها حتى في النوم ، وبها يتم الاستدعاء ، أما العين فلا تعمل أثناء النوم .

---

(١) الحمأ : الطين الأسود ، ومسنون أي : مصبوب في قالب إنساني ، أو مصوَّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/٣٢١] .

وهذه المسألة أوضحها الحق سبحانه فى قصة أهل الكهف ، فلما أراد الحق سبحانه أنْ يُنيم أهل الكهف هذه المدة الطويلة ، والكهف فى صحراء بها أصوات الرياح والعواصف والحيوانات المتوحشة ؛ لذلك ضرب الله على آذانهم وعطَّل عندهم هذه الحاسة كما قال سبحانه : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ﴾ [الكهف]

إذن : الأذن هى أول الأعضاء أداءً لمهمتها ، ثم العين ، ثم باقى الأعضاء ، وآخرها عملاً الأعصاب ، بدليل أن الطفل تصل حرارته مثلاً إلى الأربعين درجة ، ونراه يجرى ويلعب دون أن يشعر بشىء ، لماذا ؟ لأن جهازه العصبى لم ينضج بَعْد ، فلا يشعر بهذه الحرارة .

لذلك نجد دائماً القرآن يُقدِّم السمع على البصر ، ويتقدم البصرَ إلا فى آية واحدة هى قوله تعالى : ﴿ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢) ﴾ [السجدة] لأنها تصور مشهداً من مشاهد القيامة ، وفيه يفاجأ الكفار بأهوال القيامة ، ويأخذهم المنظر قبل أنْ يسمعوا الصوت حين ينادى المنادى .

ومن عجائب الأداء البيانى فى القرآن أن كلمة أسماع يقابلها أبصار ، لكن المذكور هنا ﴿ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ.. (٩) ﴾ [السجدة] فالسمع مفرد ، والأبصار جمع ، فلماذا أفرد السمع وجمع البصر ؟

قالوا : لأن الأذن ليس لها غطاء يحجب عنها الأصوات ، كما أن للعين غطاءً يُسْدل عليها ويمنع عنها المرئيات ، فإذن فهو سمع واحد لى ولك وللجميع ، الكل يسمع صوتاً واحداً ، أما المرئيات فمتعددة ، فما تراه أنت قد لا أراه أنا .

ولم يأت البصر مفرداً - فى هذا السياق - إلا فى موضع واحد هو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء] ذلك لأن الآية تتكلم عن المسئولية ، والمسئولية واحدة ذاتية لا تتعدى ، فلا بُدَّ أنْ يكون واحداً .

ومن المناسب أن يذكر الحق سبحانه السمع والأبصار والأفئدة بعد الحديث عن مسألة الخَلْق ؛ لأن الإنسان يُولَد من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، وبهذه الأعضاء والحواس يتعلّم ويكتسب المعلومات والخبرات كما قال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل]

إذن : فهذه الأعضاء ضرورية لوجود الإنسان الخليفة فى الأرض ، وبها يتعايش مع غيره ، ولا بُدَّ له من اكتساب المعلومات ، وإلاَّ فكيف سيتعايش مع بيئته ؟

وقلنا : إن الإنسان لكى يتعلم لا بُدَّ له من استعمال هذه الحواس المدركة ، كل منها فى مناطه ، فاللسان فى الكلام ، والعين فى الرؤية ، والأذن فى السمع ، والأنف فى الشم ، والأنامل فى اللمس .

وقلنا : إن هذه الحواس هى أمهات الحواس المعروفة ، حيث عرفنا فيما بعد حواسَّ أخرى ؛ لذلك احتاط العلماء لهذا التطور ، فأطلقوا على هذه الحواس المعروفة اسم « الحواس الظاهرة » ، وبعد ذلك عرفنا حاسة البَيْن التى نعرف بها رقَّة القماش وسُمْكه ، وحاسة العضل التى نعرف بها الثقل .

إذن : حينما يُولَد الإنسان يحتاج إلى هذه الحواس ليتعايش بها ويدرك ويتفاعل مع المجتمع الذى يعيش فيه ، ولو أن الإنسان يعيش وحده ما احتاج مثلاً لأنْ يتكلم ، لكنه يعيش بطبيعته مع الجماعة ،

فـلا بُدَّ له أن يتكلم ليتفـاهم مـعهم ، وقـبل ذلك لا بُدَّ له أنْ يسـمع ليتعلم الكلام .

وعرفنا سابقاً أن اللغة وليدة السماع ، فالطفل الذى يُولَد فى بيئة عربية ينطق بالعربية ، والذى يعيش فى بيئة إنجليزية ينطق الإنجليزية وهكذا ، فـمـا تسمـعـه الأذن يحكيـه اللسان ، فـإذا لم تسـمـع الأذن لا ينطق اللسان .

لذلك سبق أن قلنا في سـورة البقرة فى قـول الله تعالى : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ .. ﴿١٨﴾﴾ [البقرة] أن البكَم وهو عدم الكلام نتيجة الصمم ، وهو عدم السماع ، فالسمع ـ إذن ـ هو أول مهمة فى الإنسـان ، وهو الذى يعطينى الأرضية الأولى فى حياتى مع المجتمع من حولى .

ومعلوم أن تعلُّم القراءة مثلاً يحـتاج إلى معلم أسمع منه النطق ، فهذه ألف ، وهذه باء ، هذه فتحة ، وهذه ضمة .. الخ ، فإذا لم أسمع لا أستطيع النطق الصحيح ، ولا أستطيع الكتابة .

وبالسمـاع يتم البلاغ عن الله من السمـاء إلى الأرض ؛ لذلك تقدَّم ذكرْ السمع على ذِكْر البصر .

والحق سـبـحانه لـما تكلَّـم عن السمـع بهذه الصـورة قـال : أنا سـأُسْمِع أسـماء الأشـياء ، فـهـذه أرض ، وهذه سمـاء .. الخ ؛ لذلك حينما نُعلِّم التلميذ نقول له : هذه عين ، وهذه أذن .

وبعد أنْ يتعلم التلميذ من مُعلِّمه القراءة يستطيع بعد ذلك أنْ يقرأ بذاته ، فيحتـاج إلى حاسَّة البصر فى مهمة القـراءة ، فإذا أتم تعليمه واستطاع أن يصحح قـراءته بنفسه ، واختمـرت عنده المعلومات التى اكتسبها بسمعه وبصـره استطاع أنْ يقرأ أشياء أخرى غير التى قرأها

له معلمه ، واستطاع أن يربى نفسه ويُعلِّمها حتى تتكون عنده خلية علمية يستحدث من خلالها أشياء جديدة ، ربما لا يعرفها معلمه ، وهذه مهمة الفؤاد ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. (٩) ﴾[السجدة]

فالمعانى تتجمع بهذه الحواس ، حتى يصير الإنسان سَوِياً لديه الملكة التى يتعلم بها ، ثم يُعلِّم هو غيره .

واللغة المنطوقة لا تُتعلَّم إلا بالسماع ، فأنا سمعت من أبى ، وأبى سمع من أبيه ، وتستطيع أنْ تسلسل هذه المسألة لتصل إلى آدم عليه السلام أبى البشر جميعاً ، فإنْ قلتَ : فممَّنْ سمع آدم ؟ نقول : سمع الله حينما علَّمه الأسماء كلها : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا[1] ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) ﴾ [البقرة]

وهذا أمر منطقى ؛ لأن اللغة المسموعة بالأذن لا يمكن لأحد اختراعها ، ومع ذلك يوجد مَنْ يعترض على هذه المسألة ، يقول : هذا يعنى أن اللغة توقيفية ، لا دخْلَ لنا فيها . بمعنى : أننا لا نستحدث فيها جديداً .

ونقول : نعم ، اللغة أمر توقيفى ، لكن أعطى اللهُ آدم الأسماء وعلَّمه إياها ، وبهذه الأسماء يستطيع أنْ يتفاهم على وضع غيرها من الأسماء فى المعلومات التى تستجد فى حياته .

---

(١) عن ابن عباس قال : علم الله آدم الأسماء كلها ، وهى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس : إنسان ، ودابة ، وأرض ، وبحر ، وسهل ، وجبل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ١/١٢١ وعزاه لابن جرير الطبرى] .

قال ابن كثير فى تفسيره (١/٧٣) : « علَّمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها كما قال ابن عباس : حتى الفسوة والفسية . يعنى : أدوات الأسماء والأفعال المكبَّر والمصغر » .

وإلا ، فكيف سمَّيْنا (الراديو والتليفزيون .. الخ) وهذه كلها مُستجدات لا بُدَّ لها من أسماء ، والاسم لا يوجد إلا بعد أنْ يوجد مُسمَّاه ، وهذه مهمة المجامع اللغوية التى تقرر هذه الأسماء ، وتوافق على استخدامها ، وقد اصطلح المَجْمع على تسمية الهاتف : مسرة . والتليفزيون : تلفاز .. الخ .

إذن : أتينا بهذه الألفاظ واتفقنا عليها ؛ لأنها تعبر عن المعانى التى نريدها ، وهذه الألفاظ وليدة الأسماء التى تعلمها آدم عليه السلام ، فاللغة بدأت توقيفية ، وانتهت وضعية .

وقوله تعالى بعد هذه النعم : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ ﴾ [السجدة] دليل على أن هذه النعم تستوجب الشكر ، لكن قليل منَّا مَنْ يشكر ، وكان ينبغى أن نشكر المنعم كلما سمعنا ، وكلما أبصرنا ، وكلما عملتْ عقولنا وتوصلتْ إلى جديد .

لذلك ، كان شكر المؤمن لربه لا ينتهى ، كما أن أعياده وفرحته لا تنتهى ، فنحن مثلاً نفرح يوم عيد الفطر بفطرنا وبأدائنا للعبادة التى فرضها الله علينا ، وفى عيد الأضحى نفرح ؛ لأن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - تحمَّل عنَّا الفداء بولده ، لكى يعفينا جميعاً من أنْ يفدى كل منَّا ، ويتقرب إلى الله بذبح ولده ، وإلا لكانت المسألة شاقة علينا ؛ لذلك نفرح فى عيد الأضحى ، ونذبح الأضاحى ، ونؤدى النُّسُك فى الحج .

وما دام المؤمن ينبغى له أن يفرح بأداء الفرائض وعمل الطاعات ، فلماذا لا نفرح كلما صلَّينا أو صُمْنا أو زكَّيْنا ؟ لماذا لا نفرح عندما نطيع الله بعمل المأمورات ، وترْك المنهيات ؟ لماذا لا نفرح فى الدنيا حتى يأتى يوم الفرح الأكبر ، يوم تتجمع حصيلة هذه الأعمال ، وننال ثوابها الجنة ونعيمها ؟

واقرأ إن شئت قول ربك : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس]

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ (١٠)﴾

معنى ﴿ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ .. (١٠)﴾ [السجدة] أى : غِبْنا فيها ، واندثرتْ ذراتنا ، بحيث لا نعرف أين ذهبت ، وإلى أىِّ شىء انتقلت ، إلى حيوان أم إلى نبات ؟ إذا حدث هذا ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠)﴾ [السجدة] يعنى : أيخلقنا الله من جديد مرة أخرى ؟

والحق سبحانه يرد عليهم : ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠)﴾ [السجدة] بل تفيد الإضراب عن كلامهم السابق ، وتقرير حقيقة أخرى ، هى أنهم لا ينكرون البعث والحشر ، إنما ينكرون لقاء الله ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠)﴾ [السجدة] لأن مسألة الحشر مستحيل أنْ ينكروها ؛ لأن الدليل عليها واضح .

كما قال سبحانه : ﴿أَفَعَيِينَا[1] بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾ [ق] والذى خلق من العدم أولاً قادر على الإعادة من موجود ؛ لأن ذراتك وخاماتك موجودة ، فالإعادة أسهل من البَدْء ؛

---

(١) عيَّ عن الأمر يعيا : عجز عن النهوض به . فقوله ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ .. (١٥)﴾ [ق] أى : لم نعجز ولم نَعْيَ بالخلق الأول ، وكذلك لن نعجز عن الخلق الثانى يوم القيامة ، وهو برهان على إمكان البعث بعد الموت ، فإن من قدر على الخلق أول مرة يكون قادراً من باب أوْلَى على الخلق مرة ثانية . [القاموس القويم ٢/٤٦] .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧)﴾ [الروم]

إذن : تكذيبهم ليس للبعث فى حَدِّ ذاته ، إنما للقاء الله وللحساب ، لكنهم ينكرون البعث ؛ لأنه يؤدى إلى لقاء الله ، وهم يكرهون لقاء الله ، فينكرون المسألة من بدايتها .

﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾

تلحظ هنا أنهم يتكلمون عن البعث ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ.. (١٠)﴾ [السجدة] ومعلوم أن البعث إيجاد حياة ، فإذا بالقرآن يُحدِّثهم عن الوفاة ، وهى نقْضٌ للحياة ، ليُذكِّرهم بهذه الحقيقة .

ومعنى ﴿يَتَوَفَّاكُم .. (١١)﴾ [السجدة] من توفيت دَيْناً من المدين . أى : أخذتهُ كاملاً غيرَ منقوص ، والمراد هنا الموت ، والتوفِّى يُنسَب مرة إلى الله عز وجل : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا(٤٢)﴾ [الزمر]

ويُنسَب لملك الموت ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ .. (١١)﴾ [السجدة] ويُنسب إلى أعوانه من الملائكة ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ (٦١)﴾ [الأنعام]

لأن مسألة الموت أمرها الأعلى بيد الخالق سبحانه ، فهو وحده واهب الحياة ، وهو وحده صاحب الأمر فى نَقْضها وسلْبها من صاحبها ؛ لذلك حرَّم الله القتل ، وجعل القاتل ملعوناً ؛ لأنه يهدم

بنيان الله ، فإذا قدَّر الله على إنسان الموت أذن لملَك الموت فى ذلك ، وهو عزرائيل .

إذن : هذه المسألة لها مراحل ثلاث : التوفِّى من الله يأمر به عزرائيل ، ثم يأمر به عزرائيلُ ملائكته الموكَّلين بهذه المسألة ، ثم ينفذ الملائكةُ هذا الأمر .

وتأمل لفظة ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا .. (٦١) ﴾ [الانعام] أى : أخذتْه كاملاً ، فلم يقُلْ : أعدمتُه مثلاً ؛ لذلك نقول قُبضت روحه أى : ذهبتْ إلى حيث كانت قبل أن تُنفخ فيه ، ذهبت إلى الملأ الأعلى ، ثم تحلَّل الجسد وعاد إلى أصله ، وذاب فى الأرض ، جزئية هنا وجزئية هناك، كما قالوا ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠) ﴾ [السجدة]

فالذى يُتوفَّى لم يُعدم ، إنما هو موجود وجوداً كاملاً ، روحه وجسده ، والله قادر على إعادته يوم القيامة ؛ لذلك لم يقُلْ أعدمنا . وهذه المسألة تحلُّ لنا إشكالاً فى قصة سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ فقد قال الله فيه : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ .. (٥٥) ﴾ [آل عمران]

فالبعض يقول : إنه عليه السلام تُوفِّى أولاً ، ثم رفعه الله إليه . والصواب أن واو العطف هنا تفيد مطلق الجمع ، فلا تقتضى ترتيباً ولا تعقيباً ، واقرأ إنْ شئتَ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ .. (٧) ﴾ [الأحزاب]

والخطاب هنا للنبى محمد ﷺ ونوح عليه السلام قبله .

فالمعنى هنا أن الله تعالى قدَّم الوفاة على الرفع ، حتى لا يظن أحد أن عيسى ـ عليه السلام ـ تبرأ من الوفاة ، فقدَّم الشيء الذى فيه شكٌّ أو جدال ، وما دام قد توفّاه الله فقد أخذه كاملاً غير منقوص ، وهذا يعنى أنه لم يُصلَب ولم يُقتل ، إنما رفعه الله إليه كاملاً .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ .. ⑪ ﴾ [السجدة] جاءت رداً على قولهم ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. ⑩ ﴾ [السجدة] فالحق الذى قال أنا خلقتُ الإنسان لم يقُلْ وأنا سأعدمه إنما سأتوفاه ، فهو عندى كاملٌ بروحه وبذراته التكوينية ، والذى خلق فى البَدْء قادر على الإعادة ، وجمع الذرات التى تشتتت .

وقوله عن ملك الموت ﴿ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ .. ⑪ ﴾ [السجدة] أى : يرقبكم ولا يغفل عنكم ، يلازمكم ولا ينصرف عنكم ، بحيث لا مهربَ منه ولا فكَاك ، كما قال أهل المعرفة : الموت سهم انطلق إليك فعلاً ، وعمرك بمقدار سفره إليك ، فهو واقع لا محالة . كما قلنا فى المصيبة وأنها ما سُمِّيت مصيبة إلا لأنها ستصيبك لا محالة .

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ⑪ ﴾ [السجدة] أى : يوم القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ⑫ ﴾

تصوِّر لنا هذه الآية مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، يوم يُساق

المجـرم ذليلاً إلى مـا يستـحق من العذاب ، كـأنْ ترى مجـرماً مـثلاً تسـوقه الشـرطة وهو مُكبَّل بالقيـود يذوق الإهانة والمذلّـة ، فتشـفى نفسك حين تراه ينال جزاءه بعد أنْ أتعب الدنيا وأداخ الناس .

وفى هذا المـشهـد يخـاطب الحق سبـحـانه نبيـه ﷺ ، وهو أول مخـاطب ، ثم يصبح خطاباً لأمـته : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ .. (١٢)﴾ [السجدة] أى : حالة وجودهم أنـهم ناكسو رءوسهم . وتقـدير جواب الشرط : لرأيتَ أمراً عـجيباً يشـفى صدرك مما فعلوه بك .

ونلحظ فى هذا الأسلوب دقـة الأداء فى قوله تعـالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ .. (١٢)﴾ [السجدة] فلم يقل مثلاً : ولو تعلم ؛ لأن إخبار الله كأنه رؤيا العين ، فحين يخبرك الله بأمر ، فاعلم أنه أصدق من عينك حين ترى ؛ لأن عينك قد تخدعك ، أما إخبار الله لك فهو الحق .

ومعنى ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ .. (١٢)﴾ [السجدة] النكس هو جَـعْل الأعلى أسفل ، والرأس دائماً فى الإنسان أعلى شىء فيه .

وقـد وردتْ هذه المادة فى قـوله تعـالى فى قصـة إبراهيم عليـه السلام حين حطم الأصنام ، وعلَّق الفـأس على كبيرهم : ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰؤُلاءِ يَنطِقُونَ (٦٥)﴾ [الأنبياء]

فبعد أنْ عادوا إلى رشدهم واتهموا أنفسهم بالظلم انتكسوا وعادوا إلى باطلهم ، فقالوا : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰؤُلاءِ يَنطِقُونَ (٦٥)﴾ [الأنبياء]

وورد هذا اللفظ أيضاً فى قـوله تعالى : ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨)﴾ [يس]

والمعنى : نرجعه من حال القوة والفتوة إلى حال الضعف والهرم وعدم القدرة ، كما قال سبحانه : ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا .. ⓻⓪﴾ [النحل]

فبعد القوة يتكىء على عصا ، ثم لا يستطيع السير فيحبو ، أو يُحمل كما يُحمل الطفل الصغير ، هذا هو التنكيس فى الخَلْق ، وحين نتأمله نقول : الحمد لله لو عافانا من هذه الفترة وهذه التنكيسة ، ونعلم أن الموت لُطْف من الله ورحمة بالعباد ، ألاَ ترى أن مَنْ وصل إلى هذه المرحلة يضيق به أهله ، وربما تمنَّوْا وفاته ليستريح وليستريحوا ؟

وتنكيس رءوس المجرمين فيه إشارة إلى أن هذه هى العاقبة فاحذر المخالفة ، فمَنْ تكبر وتغطرس فى الدنيا نُكِّسَتْ رأسه فى الآخرة ، ومَنْ تواضع لله فى الدنيا رُفعت رأسه ، وهذا معنى الحديث الشريف : « من تواضع لله رفعه »[1] .

وفى تنكيس رءوس المجرمين يوم القيامة معنى آخر ؛ لأن الحق - سبحانه وتعالى - سيفعل فى كل مخالف فى الآخرة من جنس ما فعل فى الدنيا ، وهؤلاء الذين نكَّس الله رءوسهم فى الآخرة فعلوا ذلك فى الدنيا ، واقرأ إن شئتَ قول ربك : ﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ .. ⓹﴾ [هود]

أى : يطأطئون رءوسهم ؛ لكى لا يواجهوا رسول الله ، فللحق صَوْلة وقوة لا يثبت الباطل أمامها ؛ لذلك نسمع من أصحاب الحق :

---

(١) أخرج أبو نعيم فى حلية الأولياء (٤٦/٨) من حديث أبى هريرة قال : قال ﷺ : « من تواضع لله رفعه الله » ، وكذا (١٢٩/٧) عن عمر بن الخطاب أنه قال : يأيها الناس ، تواضعوا فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من تواضع لله رفعه الله » .

تعـالَ واجـهنى ، هات عـينى فى عـينك . ولا بُدَّ أنْ يسـتـخـزى أهل الباطل ، وأنْ يجبنوا عن المواجهة ؛ لأنها ليست فى صالحهم .

وهذا العـجـز عـن المـواجـهـة يدعـو الإنســان إلـى ارتكاب أفظع الجرائم ، ويصل به إلى الـقتل ، والقتل لا يدل على القـوة ، إنما يدل على عجز وضـعف وجُبْن عن المواجهة ، فالقـاتل أقرَّ بأنه لا يستطيع أنْ يواجه حياة عدوه فقتله ، ولو كان قوياً لواجه حياته .

ومن العذاب الذى يأتى من جنس ما فـعل الإنسان فى الدنيا قول الله تعـالى فى الذين يكـنزون الـذهب والـفضـة ، ولا ينفـقـونهـا فى سبيل الله : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ [التوبة]

سبـحان الله ، كأنــها صورة طبق الأصل مـما فعلـوه فى الدنيا ، فالواحد منهم يأتيه طالب العطاء فيـعبس فى وجهه ، ثم يُعرض عنه ، ويعطيه جـنبه ، ثم يعرض عنه ويـعطيه ظهره ، ويأتى الـعذاب بنفس هذا التـفصيل . إذن : فـعلى العاقـل أن يحذر هذه المـخالفـات ، فمن جنسها يكون العذاب فى الآخرة .

وهؤلاء المجرمون حال تنكيسـهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢) ﴾ [السجدة] هذا كلامهم ، ومع ذلك لم يقل القـرآن : قالوا أبصرنا وسمـعنا ، فحَـذْف الفعل هنا يدل على أن القـول ليس سهـلاً عليهم ؛ لأنه إقرار بخطئهم الأول وإعلان لذلَّة التوبة .

وقلنا : إن هذه هى الآية الوحيدة التى تقدَّم فيـها البصر على السمع ؛ لأن الساعة حين تأتى بأهوالها نرى الهول أولاً ، ثم نسمع ما نراه .

لذلك يقول تعالى مُصوِّراً أثر هذا الهول : ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج]

وفى معرض حديثنا السابق عن الحواس : السمع والبصر والفؤاد فاتنا أنْ نذكر آية مهمة جاءت على غير هذا الترتيب ، وهى قول الله تعالى : ﴿خَتَمَ (١) اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة]

فجاء الفؤاد هنا أولاً ، وجمع الفؤاد مع السمع فى الختم لأنهما اشتركا فيه ، أما البصر فاختص بشىء آخر ، وهو الغشاوة التى تُغطِّى أبصارهم ؛ ذلك لأن الآية السابقة فى السمع والبصر والفؤاد كانت عطاءً من الله ، فبدأ بالسمع ، ثم البصر ، ثم ترقى فى العطاء إلى الفؤاد ، لكن هنا المقام مقام سلب لهذه النعم ، فيسلب الأهم أولاً ، فأتى بالفؤاد ثم السمع ثم الأبصار .

لكن أى شىء أبصروه ؟ وأى شىء سمعوه فى قولهم ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. ۝١٢﴾ [السجدة] ؟ أول شىء يبصره الكافر يوم القيامة ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. ۝٣٩﴾ [النور] وحده سبحانه ليس معه شريك من الشركاء الذين عبدوهم فى الدنيا ، وليس لهم من دونه سبحانه ولىٌّ ، ولا شفيع ، ولا نصير .

ومعنى ﴿سَمِعْنَا .. ۝١٢﴾ [السجدة] أى : ما أنزلته يا رب على رسولك ، ونشهد أنه الحق وصدَّقنا الرسول فى البلاغ عنك ، وأنه

---

(١) أى : غطاها فأحكم غطاءها فهم لا يفهمون ولا يسمعون . [القاموس القويم ١/١٨٧]
قال أبو إسحاق : معنى ختم وطبع فى اللغة واحد ، وهو التغطية على الشىء والاستيثاق من أن لا يدخله شىء . [لسان العرب ـ مادة : ختم] .

ليس مُفْترياً ، ولا هو شاعر ، ولا هو ساحر ، ولا هو كاذب[1] .

لكن ، ما فائدة هذا الاعتراف الآن ؟ وبماذا ينفعهم[2] وهم فى دار الحساب ؟ لا فى دار العمل والتكليف ؟! وما أشبه هذا الاعتراف باعتراف فرعون قبل أنْ يغرق : ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ .. (٩٠)﴾ [يونس] لذلك ردَّ الله عليه : ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ [يونس]

فقولهم : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢)﴾ [السجدة] إقرار منهم بأنهم كانوا على خطأ ، وأنهم يرغبون فى الرجوع إلى الصواب ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. (١٠٠)﴾ [المؤمنون] ، وردَّ الله عليه : ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا (١٠٠)﴾ [المؤمنون]

ثم كشف حقيقة أمرهم : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام]

وهنا يقولون : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾ [السجدة] وهل يكون اليقين فى هذا الموقف ؟ اليقين إنما يكون بالأمر الغيبى ، وأنتم الآن فى اليقين الحسىِّ المشَاهَد ، فهو إذن يقين لا يُجدى[3] .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٣٥٣) : « أى أبصرنا ما كنا نكذِّب ، وسمعنا ما كنا ننكر . وقيل : أبصرنا صدق وعيدك وسمعنا تصديق رسلك » .

(٢) قال قتادة : أبصروا حين لم ينفعهم البصر ، وسمعوا حين لم ينفعهم السمع . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٥٤٤ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم] .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٣٥٤) : « قيل : معنى ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾ [السجدة] أى : قد زالت عنا الشكوك الآن ، وكانوا يسمعون ويبصرون فى الدنيا ، ولكن لم يكونوا يتدبرون ، وكانوا كمن لا يبصر ولا يسمع ، فلما تنبهوا فى الآخرة صاروا حينئذ كأنهم سمعوا وأبصروا » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

هنا قد يسأل سائل : لماذا جعل الله الناسَ : مؤمناً وكافراً ، وطائعاً وعاصياً ؟ لماذا لم يجعلنا جميعاً مهتدين طائعين ؟ أهذا صعب على الله سبحانه ؟ لا ، ليس صعباً على الله تعالى ، بدليل أنه خلق الملائكة طائعين مُنفِّذين لأوامره سبحانه ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم]

كذلك الأرض والسماء والجبال .. الخ ، كلها تُسبِّح الله وتعبده ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النور]

وقال : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] ، وبعد ذلك يعطي الله تعالى لبعض خَلْقه معرفة هذا التسبيح ، كما قال في حق داود عليه السلام : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء]

نعم ، هي تُسبِّح أيضاً مع غير داود ، لكن الميزة أنها تشترك معه في تسبيح واحد ، كأنهم (كورس) يرددون نشيداً واحداً .

وعرفنا في قصة الهدهد وسليمان ـ عليه السلام ـ أنه كان يعرف قضية التوحيد على أتمِّ وجه ، كأحسن الناس إيماناً بالله ، وهو الذي قال عن بلقيس ملكة سبأ : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النمل]

وقال ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ[1] فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النمل]

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يريد أنْ يُدلِّل لخَلْقه على قدرته يجعل من الضعف قوة ، ومن القوة ضعفاً ، وانظر إلى حال المؤمنين الأوائل ، وكم كانوا أذلة مستضعفين ، فلما أسلموا رفعهم الله بالإسلام وجعلهم سادة .

ومشهورة قصة الصِّدِّيق أبي بكر لما أدخل عليه المستضعفين أمثال : عمار وبلال .. وترك صناديد قريش بالباب ، فعاتبه أبوه على ذلك : كيف يُدخِل العبيد ويترك هؤلاء السادة بالباب ؟ فقال أبو بكر : يا أبي ، لقد رفع الإسلام الخسيسة ، وإذا كان هؤلاء قد ورمتْ أنوفهم أن يدخل العبيد قبلهم ، فكيف بهم حين يُدخِلهم اللهُ الجنةَ قبلهم؟ .

وعجيب أن يصدر هذا الكلام من الصِّدِّيق أبي بكر ، مع ما عُرِف عنه من اللين ورِقَّة القلب والحلم .

وهذا لون من تبديل الأحوال واجتماع الأضداد ، وقد عرض الحق ـ تبارك وتعالى ـ لهذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المطففين] يعني : يسخرون منهم ويهزأون بهم . كما نسمع من أهل الباطل يقولون للإنسان المستقيم (خدنا على جناحك) .

---

(١) الخبء : كل ما غاب ، وهو كل شيء غائب مستور ، والخبء الذي في السماوات هو المطر ، وفي الأرض هو النبات . [لسان العرب ـ مادة : خبأ] .

وليت الأمر ينتهى عند هذا الحد ، إنما إذا عادوا إلى أهلهم كرروا هذا الاستهزاء ، وتبجحوا به ، وفرحوا لإيذائهم لأهل التقوى والاستقامة : ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) ﴾ [المطففين] لكن يُنهى الحق سبحانه هذا الموقف بقوله : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) ﴾ [المطففين] ثم يسألهم الله : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

فهنا يقول الحق سبحانه : لا تفهموا أن أحداً تأبى علىَّ ، من خَلْقى ، إنما أردتُ لهم الاختيار ، ثم أخبرتهم بما أحبّ أنْ يفعلوه ، فيريد الله أن يعلم علم وقوع بمَنْ آمن به ، وهو يملك ألاَّ يؤمن . وإلا فهو سبحانه عالم أزلاً ؛ ليكون الفعل حجة على أصحابه ، إذن : إياك أنْ تظنَّ أنك باختيارك كسرت قهر العلى .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الذين ألِفوا التمرد على الله إيماناً به ، فكفروا وتمردوا على طاعته فعصوه .. الخ نقول لهم : ما دُمْتم قد تعودتم التمرد على أوامر الله ، فلماذا لا تتمردون على المرض مثلاً أو على الموت ؟ إذن : أنت عبد رغم أنفك .

يقول سبحانه هنا : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا .. (١٣) ﴾ [السجدة] أى : لَجعل الناس كالملائكة ، وكالمخلوقات المسيَّرة التى لا اختيار لها ، وسبق أنْ قُلْنا : إن المخلوقات كلها خُيِّرت فى حمل الأمانة ، وليس الإنسان وحده ، لكن الفرق أن ابن آدم أخذ الاختيار مُفصَّلاً ، وبقية الخَلْق أخذوا الاختيار جملة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

ومعنى الهداية فى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا .. ⑬ ﴾ [السجدة] أى : هدى المعونة ، وإلا فقد هدى اللهُ جميعَ الناس هُدى الدلالة على طريق الخير ، فالذى أخذ بهدى الدلالة وقال على العين والرأس يأخذ هدى المعونة ، كما قال سبحانه ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ⑰ ﴾ [محمد]

ولكى نفهم الفرق بين الهديين ، اقرأ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ .. ⑰ ﴾ [فصلت] أى : دللناهم وأرشدناهم ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. ⑰ ﴾ [فصلت]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَـٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ⑬ ﴾ [السجدة]

الحق سبحانه يريد أنْ يثبت لخَلْقه أنه هو الأَوْلَى بالحكمة فى الخَلْق ، بدليل أن الذى يشذ عن مراد الله لا بُدَّ أن يفسد به المجتمع ، كما نرى المجتمعات تشقى بكفر الكافر ، وبعصيان العاصى .

والحق سبحانه يترك الكافر يكفر باختياره ، والعاصى يعصى باختياره ليؤذى الناس بإثم الكافر وبإثم العاصى ، وعندها يعودون إلى تشريع الله ويلجئون إلى ساحته سبحانه ، ولو أن الناس عملوا بشرع الله ما حدث فساد فى الكون ولا خَلَلٌ فى حياتهم أبداً .

لذلك نفرح حينما ينتقم الله من أهل الكفر ومن أهل المعصية ، ونقول : الحمد لله الذى أراح منهم البلاد والعباد .

إذن : مخالفة منهج الله فى القمة كفراً به سبحانه ، وفى غيرها معصيةٌ لأمره هو الذى يبين مزايا الإيمان وحلاوة التشريع . وقلنا :

إن التشريع يجب أنْ يأخذه المكلَّف أَخْذاً كاملاً بما له وبما عليه ، فالله كلَّفك ألاَّ تسرق من الناس ، وكلَّف الناسَ جميعاً ألاَّ يسرقوا منك .

ومعنى ﴿ وَلَـٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي .. (١٣) ﴾ [السجدة] أي : وقع وثبت وقُطع به ، ويأتي هذا المعنى بلفظ سبق ، كما في ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) ﴾ [الصافات] وفي قصة نوح عليه السلام : ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ .. (٢٧) ﴾ [المؤمنون]

وقال تعالى حكايةً عن الكفار في حوارهم يوم القيامة : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) ﴾ [الصافات]

ومعنى ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) ﴾ [السجدة] عرفنا أن الله تعالى خلق الجنة ، وخلق لها أهلاً يملأونها ، وخلق النار وخلق لها أهلاً يملأونها ، فليس فيهما أزمة أماكن ، فالجنة أُعدَّتْ لتسع جميع الخَلْق إنْ آمنوا ، وكذلك النار أُعدَّتْ لتسع الخَلْق جميعاً إنْ كفروا .

لذلك حين يذهب أهل الجنة إلى الجنة يرثون أماكن أهل النار فيها[1] ، كما قال سبحانه : ﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾ [الأعراف]

والجِنَّة : أي الجنّ والعفاريت .

---

(١) أخرج ابن ماجة في سننه (٤٣٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال ﷺ : « ما منكم من أحد إلا له منزلان : منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله تعالى : ﴿ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) ﴾ [المؤمنون] » . قال البوصيري في الزوائد : هذا إسناده صحيح على شرط الشيخين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) ﴾

والتقدير : ذوقوا العذاب ، كما جاء في آية أخرى ﴿ **ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ** (٤٨) ﴾ [القمر] ويُقال هذا لزعماء ورءوس الكفر ﴿ **ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ** (٤٩) ﴾ [الدخان]

واختار حاسة التذوق ؛ لأن كل وسيلة إدراك قد تتصل بلون من ألوان الترف في الحياة ، أمَّا الذوق فيتصل بإمداد الحياة ، وهو الأكل والشرب ، وبهما قوام حياة الإنسان ، فهما ضرورتان للحياة لا مجردَ ترف فيها .

وفي موضع آخر ، يُبيِّن لنا الحق سبحانه أثر الإذاقة ، فيقول عن القرية التي كفرت بربها : ﴿ **فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** (١١٢) ﴾ [النحل] وتصور أن يكون الجوع لباساً يستولي على الجسم كله ، وكأن الله تعالى يريد أنْ يُبين لنا عضة الجوع ، التي لا تقتصر على البطن فحسب ، إنما على كل الأعضاء ، فقال ﴿ **لِبَاسَ الْجُوعِ** .. (١١٢) ﴾ [النحل] لشمول الإذاقة ، فكأن كل عضو في الجسم سيذوق ألم الجوع ، وهذا المعنى لا يؤديه إلا اللفظ الذي اختاره القرآن .

وقد فطن الشاعر إلى هذه الشمولية التي تستولي على الجسم كله ، فقال عن الحب الإلهي حين يستشرف في القلب ويفيض منه ليشمل كلَّ الجوارح ، فقال :

خَطَرَاتُ ذِكْرِكَ تَسْتَثِيرُ مودَّتى   فأُحسُّ منها فى الفُؤَاد دَبيبَا
لاَ عُضْوَ لى إلاَّ وَفيه صَبَابَةٌ[1]   فكَأَنَّ أَعْضَائى خُلِقْن قُلُوبَا

وعلَّة هذه الإذاقة ﴿ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا .. (١٤) ﴾ [السجدة] أى : يوم القيامة الذى حدَّثناكم عنه ، وحذَّرناكم من أهواله ، فلم نأخذكم على غرَّة ، لكن نبهناكم إلى سوء العاقبة ، فلا عذرَ لكم الآن ، وقد ضخَّمنا لكم هذه الأهوال ، فكان من الواجب أن تلتفتوا إليها ، وأنْ تعتبروا بها ، وتتأكدوا من صدْقها .

أما المؤمنون فحين يروْنَ هذا الهول وهذا العذاب ينزل بالكفرة والمكذِّبين يفرحون ؛ لأن الله نجاهم بإيمانهم من هذا العذاب .

وتكون عاقبة نسيان لقاء الله ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ .. (١٤) ﴾ [السجدة] فأنتم نسيتم لقاء الله ، ونسيتم توجيهاته ، وأغفلتم إنذاره وتحذيره لكم ، ونحن تركناكم ليس هملاً ، إنما تركناكم من امتداد الرحمة بكم ، فقد كانت رحمتى تشملكم فى الدنيا ، ولم أخصّ بها المؤمنين بى ، بل جعلتُها للمؤمن وللكافر .

فكل شيء فى الوجود يعطى الإنسان مطلق الإنسان طالما أخذ بالأسباب ، لا فرق بين مؤمن وكافر ، هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فننساكم من هذه الرحمة التى لا تستحقونها ، بل : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) ﴾ [السجدة]

فإنْ كنتم قد تمردتم على الله وكفرتم به فى دنيا محدودة ، وعمرك فيها محدود ، فإن العذاب الواقع بكم اليوم خالد باقٍ دائم ، فخسارتكم كبيرة ، ومصيبتكم فادحة .

---

(١) الصبابة : الشوق . والصَّبُّ : العاشق المشتاق . [لسان العرب ـ مادة : صبب] .

وقلنا : إن العمل فى الدنيا للآخرة يمثل معادلة ينبغى أنْ تُحلّ حلاً صحيحاً ، فأنت فى الدنيا عمرك لا يُحسب بعمرها ، إنما بمدة بقائك فيها ، فهو عمر محدود ، أما الآخرة فخلود لا ينتهى ، فلو أن النعيم فيهما سواء لكان امتداد الزمن مرجحاً للآخرة .

ثم إن نعيمك فى الدنيا على قدر إمكاناتك وحركتك فيها ، أما نعيم الآخرة فعلى قدر إمكانات الله فى الكون ، نعيم الدنيا إما أنْ يفوتك أو تفوته أنت ، ونعيم الآخرة باقٍ لا يفوتك أبداً لأنك مخلد فيه .

إذن : هى صفقة ينبغى أنْ تُحْسبَ حساباً صحيحاً ، وتستحق أن نبيع من أجلها الدنيا بكل ما فيها من غالٍ ونفيس ؛ لذلك سماها رسول الله تجارة رابحة .

وقال سبحانه وتعالى عن الكافرين ﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) ﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥) ﴾

الخرور : السقوط بغير نظام ولا ترتيب ، كما جاء فى قوله تعالى ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. (٢٦) ﴾ [النحل] وفى موضع آخر قال سبحانه فى هذا المعنى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ .. (١٠٧) ﴾ [الإسراء] أى : من قبل القرآن ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) ﴾ [الإسراء]

فالخرور أنْ تهوى إلى الأرض ساجداً دون تفكير ، وكل سجود

فى القرآن يتلو هذه المادة (خرَّ) دليل على أنها أصبحتْ ملَكة وآلية فى المؤمن ، بل ويؤكدها الحق سبحانه بقوله : ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الإسراء] لأنه سجود يأخذ الذقن ، فهو متمكن فى الذلّة ، وهو فوق السجود الذى نعرفه فى الصلاة على الأعضاء السبعة المعروفة .

ولم يُذكر الخرور مع الركوع إلا فى موضع واحد ، هو قوله تعالى فى شأن سيدنا داود : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص]

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الإسراء] فكلما ازدادوا ذلَّة ازدادوا خشوعاً ، فكأنهم عشقوا التكليف ، وأحبوا أوامر الله ؛ لذلك بالغوا فى الذلة والعبودية لله تعالى ، وهذه المسألة تفسر لنا قول النبى ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا من الدعاء »[(١)] .

ففى السجود تضع وجهك وجبهتك ، وهى رمز العلو والرِّفْعة تضعها على الأرض خضوعاً لله عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم[(٢)] :

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٨٢) كتاب الصلاة ، وكذا أحمد فى مسنده (٢/٤٢١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) **سبب نزول الآية** : أخرج البزار (٢٢٥٠ - كشف الأستار للهيثمى) عن بلال بن رباح أنه قال : كنا نجلس فى المجلس وناس من أصحاب النبى ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء ، فنزلت هذه الآية ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [السجدة] . وأورده السيوطى فى أسباب النزول (ص ١٣٦) وعزاه للبزار وضعَّفه بشيخه عبد الله بن شبيب.

التجافى يعنى الترك ، لكن الترك قد يكون معه شوق ويصاحبه ألم ، كما تودع حبيباً وتتركه وأنت غير زاهد فيه ولا قَالٍ[1] له ، أما الجفوة فترك فيه كراهية للمتروك ، فهؤلاء المؤمنون الذين يتركون مضاجعهم كأن جنوبهم تكره المضجع وتجفوه ؛ لأنها تتركه إلى لذة أبقى وأعظم هى لذة الاتصال بالله ومناجاته .

ونذكر هنا أن الإمام علياً رضى الله عنه حينما ذهب ليدفن فاطمة بنت رسول الله ﷺ رضى الله عنها وقف عند قبر رسول الله وقال : السلام عليك يا سيدى يا رسول الله ، قَلَّ عن صفيتك صبرى ، ورقَّ عنها تجلُّدى ، إلا أن لى فى التعزى بعظيم فُرْقتك وفادح مصيبتك موضع تأسٍّ ـ يعنى : الذى تحمَّل فَقْدك يا رسول الله يهون عليه أىُّ فَقْد بعدك ـ فلقد وسدتُك يا رسول الله فى ملحودة قبرك ، وفاضت بين سَحْرى[2] ونَحْرى نفسك ، أما ليلى فمُسهَّد ، وأما حزنى فَسَرْمَدَ[3] ، إلى أنْ يختار الله لى دارك التى أنت بها مقيم ، هذا وستخبرك ابنتك عن حال أمتك وتضافرها على هضمها ... فَأصْغها السؤال ، واستخبرها الحال . هذا ولم يَطُل منك العهد ، ولم يخْلُ منك الذكر .

ثم لما أراد أنْ ينصرف عن قبر حبيبه قال : والسلام عليك سلام

---

(١) قليته قِلًى : أبغضته وكرهته غاية الكراهة فتركته . والقِلَى : البُغْض . [اللسان ـ مادة : قلى] .

(٢) السَّحْر : الرئة والقلب . أى : أنها ماتت وهى مستندة إلى صدره . والنحر : الصدر وهو موضع القلادة منه . [اللسان] .

(٣) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع . [اللسان ـ مادة : سرمد] .

مُودِّع ، لا قالٍ ولا سئم ، فإنْ انصرف فلا عن ملالة ، وإنْ أُقِم فلا عن سوء ظن بما وعد الله به عباده الصابرين .

فقوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ .. (١٦) ﴾ [السجدة] أي : تكرهها وتجفوها ، مع أنها أعزُّ ما يركن إليه الإنسان عند راحته ، فالإنسان حين تدبّ فيه الحياة ، ويستطيع أنْ تكون له قوة ونشاط يعمل في الحياة ، فالعمل فرع وجود الحياة ، وبالقوة يمشي ، وبالقوة يحمل الأثقال .

فإذا ما أتعبه الحمْل وضعه عن نفسه ليستريح ، لكنه يستطيع أن يمشي بدون حمل ، فإنْ أتعبه المشي وقف ، فإذا أتعبه الوقوف جلس ؛ لذلك يحدث أن تقول لصاحبك : لو سمحت احمل عني هذا الحمْلَ فيقول : يا شيخ ، هل أنا قادر أن أحمل نفسي ؟

إذن : التعب في هذه الحالة ناشيء من ثقَل الجسم على القدمين فيتعبه الوقوف ، ألاَ ترانا إذا أطال الإمام في الصلاة مثلاً نراوح بين القدمين مرة على هذه ، ومرة على هذه ، أما القعود فيريح الإنسان ؛ لأنه يُوسِّع دائرة العضو المحتمل ، فثقَل الجسم في حالة القعود يُوزَّع على المقعدة كلها ، فإذا بلغ به التعب حداً بحيث أتعبه القعود فإنه يستلقي على جنبه ، ويمد جسمه كله على الأرض فيتوزع الثقل على كل الأعضاء ، فلا يحمل العضو إلا ثقله فقط .

فإنْ شعر الإنسان بتعب بعد هذا كله تقلَّب على جنبه الآخر أو على ظهره ، هذه كلها ألوان من الراحة لجسم الإنسان ، لكنه لا يرتاح الراحة الكاملة إلا إذا استغرق في النوم ، ويُسمُّون هذا التسلسل متواليات عضلية .

والدليل على أن النوم راحة تامة أنك لا تشعر فيه بالألم الذى تشعر به حال اليقظة ـ إنْ كنت تتألم من مرض مثلاً ـ وهذه كلها متواليات يمر بها المؤمن ، وبالتالى إذا مات استراح أكثر ، ثم إذا بُعث يوم القيامة ارتاح الراحة الكبرى ، فهى مراحل نمرُّ بها إلى أنْ نرتمى فى حضن خالقنا عز وجل .

إذن : فالمضاجع آخر مرحلة فى اليقظة ، ولم تأتِ إلا بعد عدة مراحل من التعب ، ومع ذلك شوق المؤمنين إلى ربهم ورغبتهم فى الوقوف بين يديه سبحانه يُنسيهم هذه الراحة ، ويُزهِّدهم فيها ، فيجفونها ليقفوا بين يدى الله .

وفى موضع آخر قال تعالى عنهم : ﴿ **كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ** ⑰ ﴾ [الذاريات] ثم يقول سبحانه : ﴿ **يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ..** ⑯ ﴾ [السجدة] أى : يدعون ربهم وهم على حال التعب ، كأن الدعاء مجرد الدعاء يريحهم ، لماذا ولم يُجَابوا بعد ؟ قالوا : لأنهم وضعوا حاجاتهم وطلبهم عند قادر على الإنفاذ ، ثم إن حلاوة لقائهم بربهم فى الصلاة تُنسيهم التعب الذى يعانون .

والمؤمنون يدعون ربهم ﴿ **خَوْفًا وَطَمَعًا ..** ⑯ ﴾ [السجدة] أى : خوفاً مما حدث منهم من تقصير فى حق الله ، وأنهم لم يُقدِّموا لله تعالى ما يستحق من التقوى ومن الطاعة ﴿ **وَطَمَعًا ..** ⑯ ﴾ [السجدة] أى : فى المغفرة ﴿ **وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ⑯ ﴾ [السجدة] والمراد هنا الزكاة .

لذلك نرى فى قوله تعالى : ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ..**

(١٦) ﴾ [السجدة] أن هذا التجافى كان بقصد الصلاة ؛ لأن القرآن عادةً ما يقرن الصلاة بالزكاة ، فقال بعدها : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) ﴾ [السجدة]

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ[1] أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾

قلنا : إن الحق سبحانه أخفى أسرار الخير عن الخَلْق ، ولم يُعْطهم منها إلا على قدر حاجتهم منها ، فإذا أراد سبحانه أنْ يُجازى عباده المؤمنين لا يجازيهم بما يعلمون من خيرات الدنيا وإمكاناتهم فيها ، إنما يجازيهم بما يعلم هو سبحانه ، وبما يتناسب مع إمكانات قدرته .

وهذه الإمكانات لا نستطيع نحن التعبير عنها ؛ لأن ألفاظ اللغة لا تستطيع التعبير عنها ، ومعلوم أن الإنسان لا يضع الاسم إلا إذا وُجد المسمى والمعنى أولاً ؛ لذلك قال تعالى فى التعبير عن هذا النعيم : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ .. (١٧) ﴾ [السجدة]

وقال النبى ﷺ عن الجنة : « فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[2] إذن : كيف نُسمِّى هذه الأشياء ؟ وكيف نتصوَّرها وهى فوق إدراكاتنا ؟ لذلك سنفاجأ بها حين نراها إنْ شاء الله .

---

(١) القرة : كل شىء قررْتْ به عينك . ويقال : أقرَّ الله عينك ، أى : بلَّغك أمنيتك حتى ترضى نفسك وتسكن عينك فلا تستشرف إلى غيره . [لسان العرب ـ مادة : قرر] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) ، وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) ، وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ثم ألاَ ترى أن الحق سبحانه حينما يعرض علينا طرفاً من ذكر الجنة لا يقول لنا الجنة كذا وكذا ، إنما يقول : ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (٣٥)﴾ [الرعد] أى : أن ما نعرضه عليك ليس هو الجنة ، إنما شبيه بها ، أما هى على الحقيقة ففوق الوصف الذى تؤديه اللغة ، فأنا أعطيكم الصورة القريبة لأذهانكم .

ثم يُنقى الحق سبحانه المثل الذى يضربه لنا من شوائبه فى الدنيا ، وتأمل فى ذلك قول الله تعالى عن نعيم الجنة : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ .. (١٥)﴾ [محمد] وكانت آفة الماء عندهم أن يأسن ويتغير فى الجرار ، فنقَّاه الله من هذه الآفة .

وكذلك فى ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ (١٥)﴾ [محمد] وكان العربى إذا سار باللبن يحمض فيعافه ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ .. (١٥)﴾ [محمد] وآفة خمر الدنيا أنها تغتال العقل ، وتذهب به ، وليس فى شربها لذة ؛ لذلك نرى شاربها والعياذ بالله يتجرَّعها مرة واحدة ، ويسكبها فى فمه سكْباً ، دليلاً على أنها غير طيبة ، وهل رأيت شارب الخمر يمتصُّها مثلاً كما تمتص كوباً من العصير ، وتشعر بلذة شربه ؟

وقد وصف الله خمر الآخرة بقوله : ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ[1] وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ[2] (٤٧)﴾ [الصافات]

---

(١) الغَوْل : الصداع . وقيل : السُّكر . وقال أبو عبيدة : الغَوْل أن تغتال عقولهم . [لسان العرب ـ مادة : غول] .

(٢) أنزف القوم : نفد شرابهم . وأنزف القوم إذا ذهب ماء بئرهم وانقطع [لسان العرب ـ مادة : نزف] . قال الضحاك عن ابن عباس : فى الخمر أربع خصال : السُّكْر والصداع والقيء والبول فذكر الله تعالى خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال . [نقله ابن كثير فى تفسيره ٤/٧] .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. (١٥)﴾ [محمد] فوصف العسل بأنه مُصفًّى ؛ لأن آفة العسل عندهم ما كان يعلَق به من الحصى والشوائب حين ينحدر من بيوت النحل فى الجبال ، فصفَّى الله عسل الآخرة من شوائب العسل فى الدنيا .

ومهما بلغ بنا ترف الحياة ونعيمها ، ومهما عَظُمَتْ إمكاناتنا فى الدنيا ، فلن نرى فيها نهراً من الخمر ، أو من اللبن ، أو من العسل ، ثم إن هذه الأنهار تجرى فى الجنة بلا شطآن ، بل ويتداخل بعضها فى بعض دون أن يطغى أحد منها على الآخر ، وهذه طلاقة القدرة التى لا حدود لها .

إذن : الحق سبحانه حين يشرح لنا نعيم الجنة ، وحين يَصفُها يعطينا المثال لا الحقيقة ، ثم يُنقِّى هذا المثال مما يشوبه فى الدنيا .

ومن ذلك أن العربى كان يحب شجرة السِّدر أى النبق ، فيستظل بظلها ، ويأكل ثمرها ، لكن كان ينغص عليه هذه اللذة ما بها من أشواك لا بُدَّ أنْ تؤذى مَنْ يقطف ثمارها ، فلما ذكرها الله تعالى فى نعيم الجنة قال عنها : ﴿فِي سِدْرٍ[1] مَّخْضُودٍ (٢٨)﴾ [الواقعة] أى : منزوع الشوك ، فالمتعة به تامة لا يُنغِّصها شىء .

ولما تكلم عن نساء الجنة قال سبحانه عن الحور العين : ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ[2] إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٧٤)﴾ [الرحمن] فنفى عنهن ما يُنغِّص على

---

(١) السدر : شجر النبق والسدر من الشجر سدران : أحدهما برى لا يُنتفع بثمره ، وثمره لا يسوغ فى الحلق . والسدر الثانى ينبت على الماء ، وثمره النبق أصفر مُزٌّ . [لسان العرب ـ مادة : سدر] . المخضود : هو الذى خُضِد شوكه فلا شوك فيه .

(٢) طمثت المرأة : حاضت . فهى طامث . والطمث : الافتضاض وهو النكاح بالتدمية . فمعنى لم يطمثهن إنس أى : لم يمسسهن أحد .

الرجل جمال المرأة فى الدنيا ، وطمأنك أنها بِكْر لم ينظر إليها أحد قبلك .

لهذا قال تعالى عن نعيم الجنة ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ .. ⑰﴾ [السجدة] والقرة والقُرور أى : السكون ، ومنه قرَّ فى المكان أى : استقر فيه ، والمعنى أن الإنسان لا يستقر فى المكان إلا إذا وجد فيه راحته ومُقوِّمات حياته ، فإذا أردتَ أنْ تستقر فى مكان أو تشترى شقة مثلاً تسأل عن المرافق والخدمات من ماء وكهرباء وطرق .. الخ .

حتى نحن فى تعبيراتنا العامية وفى الريف الذى يحتفظ لنا بخصائص الفطرة النقية التى لم يَشُبْها زيف الحضارات ولا زخرفة المدينة ، وهذه الفطريات تستهوى النفوس وتجذبها ، بدليل أن الإنسان الحضارى مهما بلغ القمة وسكن ناطحات السحاب ، وتوفرتْ له كل كماليات الحياة لا بُدَّ أنْ يأتى اليوم الذى يلجأ فيه إلى أحضان الطبيعة ، فلا ترتاح نفسه ، ولا تستقر إلا فى الريف ، فيقضى هناك عدة أيام حيث تهدأ هناك نفسه ، وتستريح من ضوضاء المدينة ، والبعض يسمونها (الويك إند) .

فمعنى (قرة العين) أى : استقرارها على شىء بحيث لا تتحول عنه إلى غيره ، والعين لا تستقر على الشىء إلا إذا أعجبها ، ورأتْ فيه كل ما تصبو إليه من متعة .

ومن ذلك قولنا (فلان عينه مليانة) يعنى : لا يحتاج مزيداً من المرائى غير ما يراه (وفلان عينه فارغة) يعنى : لا يكتفى بما يرى ، بل يطلب المزيد ، فينظر هنا وهناك .

ففى الجنة تقرّ العيون بحيث لم يَعُدْ لها تطلعات ، فقد كَمُلَتْ لها المعانى ، فلا ينبغى لها أنْ تطمع فى شىء آخر إلا الدوام .

لذلك يخاطب الله رسوله ﷺ : ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ .. (١٣١)﴾ [طه]

فالإنسان إذا كانت عينه فارغة تراه زائغ العينين ، ينظر هنا وهناك ، ولو كانت عينه (مليانة) لانتهى عندها .

ومن معانى مادة (قرّ) القُرُّ وهو البرد الشديد ، وهذا المعنى يَكْنُون به عن سرور النفس ، فالعين الباردة أى : المسرورة ، أما العين الساخنة فهى الحزينة المتألمة .

ومن المعانى أيضاً لقرور العين سكونها وعدم حركتها لعِلَّة أو عمى ، ومن ذلك قول المرأة التى دخلتْ على الخليفة فقالت : أقرَّ الله عينك ، وأتمَّ عليك نعمتك . ففهم الحاضرون أنها تدعو له ، فقال : والله ما دعتْ لى ، إنما دعتْ علىَّ ، فهى تقصد أقرَّ الله عينك يعنى : أسكنها فلا تتحرك ، وأتمَّ عليك نعمتك . أى : أزالها ؛ لأن النعمة إذا تمتْ زالت ، فلا شىء بعد التمام إلا النقصان .

ثم يُعلِّل الحق سبحانه هذا النعيم الذى أخفاه لعباده المؤمنين فى الجنة بأنه ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾ [السجدة] وهذه أثارت معركة بين العلماء هى معركة الأحباء : فريق قال إن المؤمن يدخل الجنة بعمله ، كما نصَّتْ هذه الآية أى : أن الجنة بالعدل لا بالفضل ، وفريق قال : بل يدخل الجنة بفضل الله ، كما جاء فى قول الحق سبحانه

وتعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس]

وقول النبى ﷺ : « لن يدخل أحدٌ الجنةَ بعمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى[1] الله برحمته»[2] .

فلما حميَتْ هذه المعركة أرادوا أنْ يوحدوا هذين الرأيين ، ويُوفِّقوا بينهما ، فقالوا : لقد سبق الله تعالى المكلف بالإحسان ، فخلق له مُقومات حياته قبل أنْ يوجد ، ثم تركه يرتع فى نِعَمه دون أنْ يطالبه بشىء حتى بلغ سِنَّ التكليف .

فإذا ما كلَّفه الله بعد سابق نعمه عليه ، فعليه أنْ يطيع هذا التكليف جزاء ما سبق من إحسان الله إليه الإحسان الأول ، وبذلك يكون الجزاء فى الآخرة ليس على العمل ، إنما محْض فضل من الله على عباده .

إذن : حينما تؤدى ما كلَّفك ربك به كأنك تجازى ربك بطاعته على سابق إحسانه إليه ، فكأن الجنة ونعيمها زيادة وفضل من الله ، فالله سبحانه له الفضل عليك فى الأولى ، وله الفضل عليك فى الآخرة .

ثم إن الحق ـ تبارك وتعالى ـ حين يُشرِّع لك ويكلِّفك ، فشَرْعه وتكليفه فى ذاته فضل ، ألاَ ترى أن الحسنة عنده سبحانه بعشر أمثالها ، وأنها تضاعف إلى أضعاف كثيرة ، ونحن مِلْكه سبحانه ، يعطينا أو لا يعطينا .

---

(١) تغمده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها . قال أبو عبيد : قوله يتغمدنى : يلبسنى ويتغشانى ويسترنى . [لسان العرب ـ مادة : غمد] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة .

وبعض أهل المعرفة والشطح يقولون : الله قدَّم الإحسان أولاً ، فيجب على العبد أن يأتى بالإحسان جزاء الإحسان ؛ لأنه ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ۝٦٠﴾ [الرحمن]

وحين يُحسِن العبد فى التكليف يُحيِّيه ربه بإحسان آخر ، فيرد العبد على إحسان ربه إليه بالإحسان ، وهكذا يتواصل الإحسان بين العبد وربه إلى ما لا نهاية .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ۝١٨﴾

أولاً : نلحظ فى اللفظ أن مؤمناً وفاسقاً جاءت بصيغة المفرد ، فكان القياس أنْ نقول : لا يستويان ، إنما سياق القرآن ﴿لاَّ يَسْتَوُونَ ۝١٨﴾ [السجدة] وسبق أنْ قُلْنا : إن (من وما) الموصولتين تأتى للمفرد أو للمثنى أو للجمع ، وللمذكر وللمؤنث ، فمرة يراعى السياق لفظها ، ومرة يراعى معناها .

والمعنى هنا ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۝١٨﴾ [السجدة] الحق سبحانه لا يتكلم عن المفرد ، إنما عن الجمع ، أو أنها قيلت رداً لحالة مخصوصة بين مؤمن وكافر وأراد الحق سبحانه أن يعطيها

---

(١) **سبب نزول الآية** : أخرج الواحدى وابن عساكر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال الوليد بن عقبة بن أبى معيط لعلى بن أبى طالب : أنا أحدُّ منك سناناً ، وأبسط منك لساناً ، وأملأ للكتيبة منك . فقال له على : اسكت فإنما أنت فاسق ، فنزلت ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ ۝١٨﴾ [السجدة] [أسباب النزول للسيوطى ص ١٣٦] .

العموم لا خصوص السبب ، فراعى السياق خصوص السبب فى مؤمن وكافر ، وراعى عموم الموضوع فقال ﴿لاَّ يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة] والقاعدة الفقهية تقول : إن العبرة فى القرآن بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[1] .

وقيل : إن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط حين جادل علياً رضى الله عنه . فقال له : أنا أشبُّ منك شباباً ، وأجلد[2] منك جلَدَاً ، وأذرب[3] منك لساناً ، وأحدُّ منك سناناً ، وأشجع منك وجداناً ، وأكثر منك مَرَقاً . فردَّ عليه علىٌّ - كرَّم الله وجهه - بما يدحض هذا كله ويبطله ، فقال له : اسكت يا فاسق ، ولا موهبة لفاسق .

والمعنى : إنْ كنت كما تقول فقد ضيعتَ هذا كله بفسقك ، حيث استعملتَ قوة شبابك وجلَدك وذَرَب لسانك وشجاعة وجدانك فى الباطل وفى المعصية ، وفى الصدِّ عن سبيل الله .

وهكذا جمعتْ الآية بين خصوصية هذا السبب فى ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا .. ﴿١٨﴾﴾ [السجدة] وبين عموم الموضوع فى ﴿لاَّ

---

(١) « ذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالحكم الذى يؤخذ من اللفظ العام يتعدى صورة السبب الخاص إلى نظائرها ، كآيات اللعان التى نزلت فى قذف هلال بن أمية زوجته فيتناول الحكم المأخوذ من هذا اللفظ العام ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ..﴿٦﴾﴾ [النور] غير حادثة هلال دون احتياج إلى دليل آخر » [مباحث فى علوم القرآن - مناع القطان - ص ٨٠ - نشر مكتبة وهبة ١٩٨٨ م] .

(٢) الجلد : القوة والشدة والصبر . [لسان العرب - مادة : جلد] .

(٣) الذرب اللسان هو الحادُّ اللسان . والذرب : الحاد من كل شىء . [اللسان - مادة : ذرب] .

يَسْتَوُونَ (١٨)﴾ [السجدة] ، فهذا الحكم ينسحب على الجمع أيضاً .

وجاء قوله تعالى : ﴿لاَّ يَسْتَوُونَ (١٨)﴾ [السجدة] كأنه جواب للسؤال ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا .. (١٨)﴾ [السجدة] لكن ، لماذا لم يأتِ الجواب مثلاً : لا يستوى المؤمن والفاسق ؟ قالوا : لأن هذا الأسلوب يسمى أسلوب الإقناع التأكيدى ، وهو أن تجعل الخصم هو الذى ينطق بالحكم .

كما لو قال لك صديق : لقد مررتُ بأزمة ولم تقف بجانبى . فتستطيع أنْ تقول له : وقفتُ بجانبك يوم كذا ويوم كذا ـ على سبيل الخبر منك ، لكن الإخبار منك يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، فتلجأ إلى أسلوب آخر لا يستطيع معه الإنكار ، ولا يملك إلا الاعتراف لك بالجميل فتقول بصيغة السؤال : ألم أقدم لك كذا وكذا يوم كذا وكذا ؟ وأنت لا تسأله إلا إذا وثقتَ بأن جوابه لا بُدَّ أنْ يأتى وَفْق مرادك وعندها يكون كلامه حجة عليه .

لذلك طرح الحق سبحانه هذه المسألة فى صورة سؤال : ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا .. (١٨)﴾ [السجدة] ولابد أن نقول نحن فى جواب هذا السؤال : لا يستوى مؤمن وفاسق ، ومَنْ يقُلْ بهذا فقد وافق مراد ربه .

وما دام أن المؤمن لا يستوى والفاسق ، فلكل منهما جزاء يناسبه :

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٩)﴾

وإنْ كانت لفظة (مؤمن) جاءت مفردة ، فقد أوضحتْ هذه الآية

أن المراد الجمع ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (١٩)﴾ [السجدة] أى : العموم ؛ لأنه أُخذ مما كان مفرداً جمعاً ، وهذا دليل على أن هذا المفرد فى جنسه جمع كثير ، كما فى قوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢)﴾ [العصر] فالإنسان مفرد يُستثنى منه الجمع ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٣)﴾ [العصر] لأن لفظة الإنسان هنا تدل على الجماعة ، و (ال) فيها ال الاستغراقية .

فالحق سبحانه ينقلنا من المؤمن إلى العموم ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٩)﴾ [السجدة] ومن الفاسق إلى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا .. (٢٠)﴾ [السجدة] فهما جماعتان متقابلتان لكل منهما جزاؤه الذى يناسبه :

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ .. (١٩)﴾ [السجدة] والمأوى هو المكان الذى يأوى إليه الإنسان ويلجأ إليه ليحفظه من كل مكروه ، كما قال تعالى فى شأن عيسى وأمه مريم عليهما السلام : ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)﴾ [المؤمنون] يعنى : يمكنهما الاستقرار فيها ؛ لأن بها مُقوِّمات الحياة (ومعين) يعنى : عيْن ماء .

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة ابن نوح حين قال لأبيه : ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ .. (٤٣)﴾ [هود] فنبَّهه أبوه وحذره ، فقال : ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ .. (٤٣)﴾ [هود]

ونلحظ فى هذه القصة حنان الأبوة من سيدنا نوح حين قال ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. (٤٥)﴾ [هود] لكن ربه عز وجل لا يتركه على هذه القضية ، إنما يُصحِّحها له ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود]

إذن : فالبنوة هنا ليست بنوة نسب ، إنما بنوة إيمان وعمل ، ألاَ

ترى أن سيدنا رسول الله قال لسلمان الفارسي وهو من غير العرب بالمرة : « سلمان منا آل البيت »[(١)] .

وإنْ كان النسب ينفع من الآباء إلى الأبناء ، فهذه ليست خصوصية للأنبياء ، إنما لكل الناس ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٢١) ﴾ [الطور]

وإلحاق الأبناء بالآباء في الحقيقة كرامة للآباء أنْ يجدوا أولادهم معهم في الجنة جزاء إيمان الآباء وعملهم الصالح ، فإنْ كان الأولاد دون سنِّ التكليف فطبيعي أنْ يلحقوا بالآباء ، بل وتكون منزلتهم أعظم من منزلة آبائهم ؛ لأن الأطفال الذين يموتون قبل الرُّشْد ليس لهم أماكن محددة ، إنما ينطلقون في الجنة يمرحون فيها كما يشاؤون .

وقد مثَّلْنا لذلك بالولد الصغير تأخذه معك في زيارة أحد الأصدقاء ، فتجلس أنت في حجرة الجلوس ، بينما الولد الصغير يجري في أنحاء البيت ، ويدخل أي مكان فيه لا يمنعه أحد ، لذلك يسمون الأطفال (دعاميص) الجنة[(٢)] .

---

(١) عن عمرو بن عوف المزني قال : خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب من أجم السَّمُر طرف بني حارثة حين بلغ المداد ، ثم قطع أربعين ذراعاً بين كل عشرة ، فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي ، وكان رجلاً قوياً ، فقالت الأنصار : سلمان منا . وقالت المهاجرون : سلمان منا . فقال رسول الله ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/٤١٨) والحاكم في مستدركه (٣/٥٩٨) وضعَّف الذهبي إسناده من أجل كثير بن عبد الله .

(٢) عن أبي حسان قال قلت لأبي هريرة : إنه قد مات لي ابنان ، فما أنت محدثي عن رسول الله ﷺ بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا ؟ قال : نعم « صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه - أو قال أبويه - فيأخذ بثوبه كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا فلا يتناهى حتى يُدخله الله وأباه الجنة » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٣٥) ، وكذا أحمد في مسنده (٢/٤٧٧ ، ٥١٠) .

والبعض هنا يثير مسألة أن الإنسان مرتهن بعمله ، ولا ينتفع بعمل غيره ، فكلٌّ مُعلَّق من (عرقوبه) كما نقول ، فالبعض يسأل : لماذا إذاً نصلي على الميت ، والصلاة عليه ليست من عمله ؟ فإنْ كانت الصلاة عليه لها فائدة تعود عليه فقد انتفع بغير عمله ، وإن لم تكُنْ لها فائدة فهي عبث ، وحاشَ لله أنْ يضع تشريعاً عبثاً .

ونقول : هل صليت على كل ميت مؤمناً كان أو كافراً ؟ لا إنما نصلي على المؤمن ، إذن : صلاتك أنت عليه نتيجة إيمانه ، وجزء من عمله ، ولولا إيمانه ما صلَّينا عليه .

نعود إلى معنى كلمة (المأوى) ، فالجنة مأوى المؤمن ، تحفظه من النار وأهوالها ﴿ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٩ ﴾ [السجدة] أي : جزاء عملهم الصالح ، والنزُل هو المكان المعدّ لينزل فيه الضيف الطارئ عليك ؛ لذلك يسمون الفندق (نُزُل) ، فإذا كانت الفنادق الفاخرة التى نراها الآن ما أعدَّه البشر للبشر ، فما بالك بما أعدَّهُ ربُّ البشر لعباده الصالحين ؟

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ٢٠ ﴾

﴿ فَسَقُوا .. ٢٠ ﴾ [السجدة] من الفسوق أى الخروج ، نقول : فسقتْ البلحة يعنى خرجت عن قشرتها ، والمراد هنا الذين خرجوا عن طاعة الله وعن مطلوبات الحق سبحانه ﴿ فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ .. ٢٠ ﴾ [السجدة] قلنا : إن المأوى هو المكان الذى تأوى إليه ، فيحميك من كل مكروه ، فكيف تُوصف به النار هنا ؟

قالوا : المأوى المكان الذى ينزل فيه الإنسان على هواه وعلى (كيفه) ، أما هؤلاء فينزلون هنا رغماً عنهم ، أو أن الكلام هنا على سَبْق التهكم والسخرية ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [آل عمران]

ومعلوم أن البشرى لا تكون إلا بالشيء السَّار ، ومثل : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان] ، وهذا كثير فى أسلوب القرآن ؛ لأنه أسلوب يؤلم الكافرين ، ويحطّ من شأنهم .

ثم يُصوِّر لنا الحق سبحانه ما فيه أهل النار من اليأس : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا.. ﴿٢٠﴾ ﴾ [السجدة] وفى موضع آخر قال عنهم ﴿ وَنَادَوْا يَـٰمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف] إذن : لا أمل لهم فى الخروج ، ولا حتى فى الموت الذى يريحهم مما هم فيه ، بل تردهم الملائكة فى العذاب ، ويقولون لهم : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [السجدة]

فالإذاقة تعدَّتْ اللسان واستولتْ على كل الأعضاء ، فكل ذرة فيه تذوق عذاب النار جزاء ما كانوا يكذبون بها فى الدنيا ، حيث كذَّبوا بالأصل ، وهو الرجوع إلى الله يوم القيامة .

ثم إن عذاب الفاسقين لا يقتصر على عذاب الآخرة ، إنما سيكون لهم عذاب آخر يذوقونه فى الدنيا :

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ[(١)] دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(١) قال ابن عباس : يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها وما يحل بأهلها مما يبتلى الله به عباده ليتوبوا إليه . وروى مثله عن كثير غيره . وقال البراء بن عازب ومجاهد وأبو عبيدة يعنى به عذاب القبر . [تفسير ابن كثير ٣/٤٦٢] .

﴿الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ .. ﴿٢١﴾﴾ [السجدة] أى : القريب والمراد فى الدنيا ﴿دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ .. ﴿٢١﴾﴾ [السجدة] أى : عذاب الآخرة ، وهذا العذاب الذى سيصيبهم فى الدنيا مظهر من مظاهر رحمة الله حتى بالكافرين والفاسقين ؛ لأن الله تعالى علَّله بقوله : ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة]

إذن : المراد ما يلحقهم من عذاب فى دار التكليف كالأَسْر والذلَّة والهوان من كثرة المؤمنين وقوتهم ، ألم يركب عبد الله بن مسعود[١] مع ما عُرِف عنه من ضآلة الجسم[٢] على أبى جهل فى إحدى الغزوات ، وقد طرحه فى الأرض وداسه بقدمه ، ويُرْوى أن أبا جهل نظر إليه وهو على هذه الحال وقال : لقد ارتقيتَ مُرْتقىً صعباً يا رُويعى الغنم[٣] .

ووصف العذاب فى الآخرة بأنه العذاب الأكبر ؛ لأنه العذاب المحيط الذى لا مهربَ منه ولا ملجأ .

---

(١) هو : عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلى ، من أكابر صحابة رسول الله ﷺ فضلاً وعقلاً وقرباً من رسول الله ، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة ، كان قصيراً جداً يكاد الجلوس يوارونه ، ولى بيت مال الكوفة بعد وفاة النبى ﷺ ، ثم قدم المدينة فى خلافة عثمان فتوفى فيها عن نحو ستين عاماً .

(٢) قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : كان ابن مسعود رجلاً نحيفاً قصيراً . وقال إبراهيم التيمى : أن ابن مسعود صعد شجرة فجعلوا يضحكون من دقة ساقيه فقال رسول الله ﷺ : اتضحكون منهما ؟ لهما أثقل فى الميزان من جبل أحد . [ابن سعد فى الطبقات الكبرى ٣/١٤٣] .

(٣) كان هذا فى غزوة بدر ، حيث أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتماس أبى جهل فى القتلى ، فمر عبد الله بن مسعود بأبى جهل ، فوجده بآخر رمق ، فوضع رِجْله على عنقه ، وقال له : هل أخزاك الله يا عدو الله ؟ فقال له أبو جهل : لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعى الغنم . ثم احتز ابن مسعود رأسه . [السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٧٦ ، ٢٧٧] .

وقولـه سبحـانه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [السجدة] أى : رجاء أنْ يعودوا إلى ساحة الإيمـان . وقلنا : إن لعلَّ تفيـد الرجاء المـحقق إنْ كان الفـعل من الله عز وجل ، أمـا الرجاء هنا فـرجاء فى العـبد الذى يملك الاختيار ؛ لذلك رجع منهم البعض ، ولم يرجع الآخرون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

هنا أيضاً يعـرض علينا ربنا ـ تبارك وتعـالى ـ هذه القضـية فى صورة هذا السـؤال التقـريرى ، كأنه سبـحانه يقول لـنا : أنا رضيت ذمتكم يا عـبادى ، فقـولوا لى : هل يوجد أحد أظلم مـمَّنْ ذُكِّر بآيات ربه ، ثم أعرض عنها . والمنطق الطبـيعى أن نقول : لا أحدَ أظلم من هذا . وهذا إقرار منّا بهذه الحـقيقة ؛ لذلك عرضـها الحـق سبحانه فى صورة سؤال بدل الإخبار بها .

ومعنى ﴿ ذُكِّرَ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [السجدة] أى : أن رسالات الله إلى خَلْقه ما هى إلا تذكير بعهد الإيمان القـديم الذى أخذه الله على عباده حين قال سبحانه : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الاعراف] وسبق أنْ قُلْنا : إن فى كل منّا ذرةً شـهدتْ هذا العهـد ، وعلى كل منا أنْ يحفظ إشراقات هذه الذرة فى نفـسه بأنْ يُغـذِّيها بالحـلال ، ويُعوِّدها الطاعـة لتبـقى فـيه إشـراقات الإيمان .

كما قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) ﴾

والإيتاء يختلف ، فهناك مَنْ يُؤْتَى بمنهج أو بمعجزة أو بهما معاً ، وهناك إيتاء لكتاب موقوت ، لزمن موقوت ، لقوم موقوتين ، وإيتاء آخر لكل الأزمان ولكل الأمكنة .

و ﴿ الْكِتَابَ .. (٢٣) ﴾ [السجدة] أى : التوراة ﴿ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ .. (٢٣) ﴾ [السجدة] أى : فى شك ﴿ مِّن لِّقَائِهِ .. (٢٣) ﴾ [السجدة] لقاء موسى عليه السلام أم لقاء الكتاب ؟ إنْ كان لقاء موسى فهو تبشير بأن الله سيجمع بين سيدنا رسول الله وهو حَيٌّ بقانون الأحياء وموسى عليه السلام الميت بقانون الأموات ، وهذا لا يتأتَّى إلا إذا كان حديث الإسراء والمعراج فى أنهما التقيا فيه صادقاً[1] .

لذلك فى القرآن آية ينبغى أن نقف عندها ، وأن نتأملها بيقظة ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) ﴾ [الزخرف]

هذا تكليف من الله تعالى لمحمد ﷺ أنْ يسأل الرسل ، فمتى يسألهم ؟ فهذه الآية تنبىء بأنهم لا بُدَّ أنْ يلتقوا . فهذه الآية فى لقاء موسى والأخرى فى لقاء كل الرسل[2] . إذن : علينا أن نصدق بحديث

---

(١) عن ابن عباس قال ، قال رسول الله ﷺ : « أريت ليلة أُسْرِى بى موسى بن عمران رجلاً آدم طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى رجلاً مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس » رواه قتادة عن أبى العالية الرياحى . وقال : يعنى به ليلة الإسراء . أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٦٣) .

(٢) هو قول لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسير الآية (الزخرف : ٤٥) أى : واسألهم ليلة الإسراء ، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جمعوا له . [تفسير ابن كثير ٤/١٢٩] .

الإسراء والمعراج ، وأن رسول الله ﷺ اجتمع بإخوانه من الأنبياء وصلى بهم ودار بينهم حوار .

أما إذا كان المعنى ﴿فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ..(٢٣)﴾ [السجدة] أى : لقاء الكتاب ، فالتوراة كما قلنا أصابها التحريف والتبديل ، وزِيدَ عليها وكُذِب فيها ، لكن سيأتيك يا محمد من أهل التوراة أمثال عبد الله بن سلام مَنْ يعرفون التوراة بلا تحريف ويُسِرُّون إليك بها ، هؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)﴾ [آل عمران]

ألم يواجه عبد الله بن سلام[1] قومه من اليهود ، فيقول لهم : كيف تُكذِّبون بمحمد ، وقد كنتم تستفتحون به على الذين كفروا ، فتقولون لهم : لقد أطلَّ زمان نبى يأتى فنتبعه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم[2] ، لقد تجمعتم من شتى البلاد التى اضطهدتكم ، وجئتم إلى يثرب تنتظرون مَقْدِم هذا النبى ، فما بالكم تكذِّبونه ؟

وقال القرآن عنهم : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩)﴾ [البقرة]

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى أبو يوسف ، أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، وكان اسمه « الحصين » شهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية ، ولما كانت الفتنة بين على ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هـ . [الأعلام للزركلى ٤/٩٠] .

(٢) عن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه ، قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق .

ومن لقاء الكتاب الذى وعد به النبى ﷺ ما رُوِى عن عبد الله بن سلام أنه لما أراد أنْ يؤمن أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بُهْتٌ - يعنى : يتبجحون بالكذب - فإذا أسلمتُ قالوا فىَّ ما ليس فىَّ . فاسألهم عنى يا رسول الله قبل أنْ أعلن إسلامى ، فلما اجتمع اليهود سألهم رسول الله : ما تقولون فى ابن سلام ؟ فقالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وابن حبرنا ... فقال عبد الله : أما وقد قالوا ما قالوا يا رسول الله فأشهد أنْ لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، فقالوا : شرُّنا وابن شرِّنا .

فقال عبد الله : ألم أقُلْ لك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت(١) ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) ﴾ [السجدة] أى : جعلنا الكتاب هدى ، وهذا دليل على أن منهم مهتدين بدليل شهادة القرآن لهم : ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى فى الآية بعدها :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) ﴾

أئمة : ليس المقصود بالإمامة هنا السلطة الزمنية من باطنهم، إنما إمامة القدوة بأمر الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا

(١) بعدما أسلم عبد الله بن سلام قال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت ، فاسألهم عنى قبل أن يعلموا بإسلامى ، فجاءت اليهود ، فقال النبى ﷺ : أى رجل عبد الله بن سلام فيكم ؟ قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وأفضلنا وابن أفضلنا . فقال النبى ﷺ : أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك ، فأعاد عليهم ، فقالوا مثل ذلك فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . قالوا : شرنا وابن شرنا ، وتنقصوه . قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٣٨) ، وأحمد فى مسنده (٣/١٠٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢) .

.. (٢٤) ﴾ [السجدة] ، فهم لا يصدرون فى شىء إلا على هدى من الله .

وفى سورة الأنبياء قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) ﴾ [الأنبياء]

الإيقان : هو الإيمان الذى لا يتزعزع ، ولا يطفو إلى العقل ليبحث من جديد ، يعنى : أصبحت مسألة مُسلَّماً بها ، مستقرة فى النفس .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) ﴾

تلحظ على أسلوب الآية أنها لم تقل مثلاً : إن ربك يفصل بينهم ، إنما استخدمت الضمير المنفصل (هو) ليفيد التأكيد والاختصاص ، فالمعنى لا أحدَ يفصل بينهم فى القيامة إلا الله ، كما قال سبحانه : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

إذن : جاءت (هو) لتقطع الشك فى وجود الغير .

ولك أنْ تتأمل هذا الضمير فى هذه الآيات ، ومتى استعمله الأسلوب ، يقول تعالى فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام :

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي .. (٧٧) ﴾ [الشعراء] أى : الأصنام ﴿ إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾ [الشعراء]

فاستخدم الضمير الدالّ على الاختصاص فى الهداية والإطعام والسُّقْيا والشفاء ، وهذه الأفعال مظنة أنْ يدعيها أحد لنفسه ، أما الإحياء والإماتة فهى لله وحده لا يمكن أنْ يدَّعيها أحد ؛ لذلك جاءت بدون هذا التوكيد ، فهى مسألة مُسلَّم بها لله تعالى .

والشك يأتى فى مسألة الفصل يوم القيامة ؛ لأن الله تعالى جعل من الملائكة المدبرات أمراً لتدبر أمر الخلق ، وقال سبحانه ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ(١) مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الرعد] أى : تبعاً لأمر الله فيه ، فقد يفهم البعض أن للملائكة دوراً فى الفصل بين الناس يوم القيامة ، كما أن لهم مهمة فى الدنيا .

وتأمل هنا أن الله تعالى ذكر لفظ الربوبية فقال ﴿إِنَّ رَبَّكَ .. (٢٥)﴾ [السجدة] ولم يقُلْ : إن الله ، والربوبية كما قُلْنا عطاء وتربية ، وكأنه سبحانه يقول : اطمئنوا فالذى سيتولَّى مسألة الفصل هو ربكم .

وقوله سبحانه : ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)﴾ [السجدة] لأن الفصل لا يكون إلا عن نزاع ، والنزاع لا بُدَّ أن يكون عن قضية تريد مراجعةً من حكم حاكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ تكلم عن الرسالة التى أرسل بها رسوله ﷺ ليؤكد فى الناس عقيدة أعلى ، وهى عقيدة الوجود للإله الواحد الذى لا شريك له ، ثم بيَّن أن لنا مع الله لقاء آخر حين تنتهى هذه

---

(١) له معقبات : أى ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعماله . أو المعنى : تتعاقب الملائكة ليلاً ونهاراً . [القاموس القويم ٢/ ٢٩] .

الدنيا الفانية ، ثم نستقبل حياة خالدة ، إما إلى جنة إنْ شاء الله ، وإما إلى نار ونعوذ بالله .

والحق سبحانه حين يعرض آياته في الكون يعرضها لتثبت أنه هو الذى خلق هذه الآيات العجيبة ، فلم يتركنا سبحانه ننظر وننصرف ، إنما لفتنا ونبَّهنا إلى وجوب النظر إلى آياته في الكون ، وحين يأتى مَنْ يريد أنْ يُنبه عقلك فاعلم أنه لا يريد أنْ يخدعك ، أو أن يأخذك على غِرَّة ، فربك يقول لك : استقبل كلامى هذا بمنتهى التدبُّر والتذكُّر والتعقُّل .

ولو لم يكُنْ واثقاً من أنه سيصل بالتدبُّر والتعقُّل والتذكر إلى الغاية التى يريدها لما نبَّه عقلَك لآياته ، كما ترى عارض السلعة الجيدة الواثق من جودتها يعرضها عليك ، ويكشفها لك ، ويدعوك إلى فحصها وتأمُّل ما فيها ، فهو لا يفعل ذلك إلا لثقته فى بضاعته وأنها ستنال رضاك .

أما صاحب السلعة المغشوشة فيخدعك ويسلك معك أساليب اللفِّ والدوران والتغرير ، فحين تذهب مثلاً لشراء حذاء وجاء ضيقاً يقول لك : سيتسع بعدما تمشى فيه ، فإنْ جاء واسعاً يقول لك : أحضر لك واحداً أوسع ؟ ليوهمك أنه ضيِّق ، وأساليب هؤلاء مكشوفة لا تخفى على أحد . فالذى يريد أنْ يغشَّ أو يخدع يلف القضايا ليسترها عن عقلك المتدبر المتذكر المتمعن .

أما الحق سبحانه ، فكثيراً ما قال فى قرآنه : أفلا يسمعون ، أفلا يعقلون ، أفلا يتدبرون القرآن ؛ لذلك من مصلحة الدعوة أنْ يتعقلها الناس ، وأن يتدبروها ، فى حين أن بعض أصحاب الديانات الأخرى يقول لك حين تناقشه : أبعدْ العقل عن هذه المسألة ، لماذا ؟ لأنه

واثق أنها لو بُحِثَتْ بالعقل لردها العقل ولم يقبلها - والحق سبحانه يريد ألاَّ يترك عذراً لأحد فى البلاغ ، فالدعوة قد بلغتْ الجميع بلاغاً سليماً واضحاً ، تلك آيات الله فى الكون .

ثم يأتى الحق سبحانه بآيات معجزة ليثبت صدْق الرسول ، فيجعلها تخالف نواميس الكون فيما نبغ فيه القومَ ليقطع عليهم الحجة ، ثم يأتى بآيات الأحكام التى تحمل المنهج بافعل ولا تفعل ، ويُبيِّن أنَّ صلاح حركة الحياة فى تطبيق هذا المنهج ويترك للمخالفات أنْ تُظهر بعض العيوب ، فإذا ما نظرتَ إلى عيب أو عورة فى المجتمع عرفتَ أنها نتيجة طبيعية لمخالفة منهج الله ، فكأن المخالفة ذاتها من مُؤكِّدات الحكم .

ثم يُبيِّن سبحانه أنه أرسل رسلاً كثيرين من لَدُنْ آدم عليه السلام ؛ لأن الإنسان الذى هو خليفته فى الكون تصيبه غفلة حين ينخرط فى أسباب الدنيا ، وتأخذ عليه كل فكره وكل همه ، فينسى ما طلب الله منه ، فمن عادة الإنسان ألاَّ يتذكر إلاَّ ما ينفعه النفع العاجل .

لذلك نجد كثيراً من الناس ينسى ما للناس عنده ، ويتذكر ما له عندهم .

فالحق سبحانه يقول : أنا لم يَعُدْ لخَلْقى عندى حجة ، فقد نثرتُ لهم آيات الكون المُلْفتة ، وهى آيات واضحات لم يدَّعها أحد لنفسه ، ومع كثرة الملحدين والكافرين لم نَرَ أبداً مَن ادَّعى خَلْق الشمس أو القمر ، ولم يقُلْ أحد : إننى أُسيِّر الريح ، أو أُنبت الزرع ، أو أُنزِل الماء من السحاب .

والحق سبحانه يُنبهنا أيضاً : لا تنْسَ أيها الإنسان أنك خليفة لله فى الأرض ، وإياك أنْ تظن أنك أصيل فيها ، فساعةَ تظن أنك أصيل

فى الدنيا يتخلى الله عنك ، ويتركك لنفسك فتهلك ، كما حدث لقارون حين وسَّع الله عليه فى الدنيا ، فاغترَّ بما فى يده ، وظن أنه من سعيه وعلمه وجهده .

فكانت النتيجة ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١) ﴾ [القصص] لينبه الناس جميعاً أن المال ليس مال صاحبه ، إنما هو مُسْتخلف فيه ، ولو كان ماله لحافظ عليه ، فالحق يردُّ الناس بالأحداث إلى طبيعة الفطرة الخلافية ، لأن فساد الكون يأتى من اعتبار الإنسان نفسه أصيلاً فى الكون .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الإنسان إذا نظر فى الكون نظرة فاحصة عادلة لَعلِم ما يأتى : أن كل شىء لم تتدخل فيه يَدُ الإنسان سليم ، ويؤدى مهمته على أكمل وجه ، وأن كل فساد فى الكون إنما هو من تدخُّل الإنسان فيه بغير قانون ربه ، ولو تدخَّل فيه بقانون ربه لَصلُحت له الأشياء التى تدخَّل فيها ، كما صلُحَتْ له الأشياء التى لم يتدخل فيها .

وقلنا : إنك إذا رأيتَ عواراً فى الكون فاعلم أنه نتيجة حقٍّ مُضيَّع من حقوق الله ، فحين ترى فقيراً يتضوَّر جوعاً أو عرياناً لا يملك ما يستر عورته ، فاعلم أن الأغنياء قصَّروا فى أداء حق الله فى الزكاة ؛ لأن الله تعالى شرعها بحساب ، فلو أن القادر أخرج الزكاة المفروضة فى ماله لما بقى فى المجتمع المحيط به محتاج .

ثم يريد منا الحق سبحانه أن نحافظ فى نفوسنا على إيمان الفطرة ، وعلى الذرة الإيمانية الأولى التى لم تدخلها الشهوة ، ولم يخالطها النسيان ، هذه الذرة التى شهدت العهد الأول الذى قال الله فيه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

أى : قبل أنْ تأخذكم شهوات الدنيا ونسيانها فتُنكروا هذه الشهادة ، وتقولون : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

فالذى يحافظ على هذه الذرة ، وعلى هذه اللمسة الربانية التى وضعها الله فيه بيده ، وعلى العهد الذى أخذه الله عليه يبقى له نور هذه الفطرة ، وتظل هذه النورانية متأججة فى نفسه ، فإن أهملها طمستْها الذنوب والغفلة .

لذلك فالنبى ﷺ يضرب لنا المثل فيقول : « تُعْرض الأمانة - أى : التكاليف الاختيارية من الله - على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأيُّما قلب أُشْرِبها نُكتَتْ فيه نكتة بيضاء ، وأيُّما قلب أنكرها نُكتت فيه نكتة سوداء حتى تكون على قلبين : أبيض مثل الصَّفا ، لا تضره فتنة ما دامتْ السموات والأرض ، والآخر أسود مُربَاداً كالكوز مُجَخِّياً[1] ممقوتاً ، لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً »[2] .

فالطاعات أو الذنوب تتراكم على القلب كما تُصَفُّ عيدان الحصير عوداً بجوار عود ، فيبيضّ القلب بالطاعات ، أو يسودّ بالمعاصى .

---

(١) مربادا : أسود عليه غبرة . والتربد : التلوّن [اللسان - مادة : ربد] والكوز المجخىّ أى : المائل الذى يصب ما فيه . وهو هنا المائل عن الاستقامة ، فشبه القلب الذى لا يعى خيراً بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شىء ، لأن الكوز إذا مال انصبَّ ما فيه . [لسان العرب - مادة : ج خ ى] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٨٦/٥ ، ٤٠٥) ومسلم فى صحيحه (١٤٤) كتاب الإيمان من حديث حذيفة بن اليمان . ولفظه : « تُعرض الأمانة » .

والإنسان منه مادة ومنه روح ، الروح في المادة تعطيها الحياة والحركة والفهم والفكر والتصرف ، وهما قبل أن يلتقيا كانا مُسبِّحَيْن لله تعالى ، فكل شيء في الوجود مُسبِّح ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ.. (٤١)﴾ [النور]

وعلى الإنسان أنْ يفهم هذه الحقيقة ، وأن يحافظ على الطبيعة الإيمانية في ذراته ومكوناته لتظل مشرقة نيِّرة بنور الإيمان ، فإنْ غفل عن هذه الطبيعة حدثتْ الأغيار ، وحدث عدم الانسجام بين ذراته في الذات البشرية ، فحين تحمل إرادتُك الجسمَ والروحَ على المعصية يكرهك جسمك ، وتكرهك روحك ؛ لأنك خالفتَ منهج خالقها - عز وجل - فهي مُسبِّحة عابدة وأنت لاهٍ غافل عَاصٍ ؛ لذلك تلعنك روحك وتلعنك أبعاضك .

ومن رحمة الله بالعاصي أن ينام فترتاح أبعاضه ، وترتاح روحه من معاصيه ، وتأخذ راحتها في عبادة ربها ، حيث لا منازع لها ، ولا معاند من إرادة صاحبها ، لذلك يشعر الإنسان بالراحة عند النوم ، ويقوم منه نشيطاً لما حدث من انسجام وتعادل بين ذرات ذاته أثناء النوم .

لذلك ورد أن سيدنا رسول الله ﷺ كانت تنام عينه ولا ينام قلبه[1] ؛ لأن أبعاضه منسجمة دائماً في نومه وفي يقظته ، فإذا رأيتَ

---

(١) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه سأل عائشة : كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان ؟ قالت : ما كان يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة : يصلي أربع ركعات فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي ثلاثاً ، فقلت : يا رسول الله ، تنام قبل أن توتر ؟ قال : « تنام عيني ولا ينام قلبي » . أخرجه البخاري في صحيحه (٣٥٦٩) وكذا مسلم في صحيحه (٧٣٨) كتاب صلاة المسافرين .

إنساناً يغلب عليه أنه مُنْهك القوى فاعرف أنه قد أتعب ذراته ، وأنها تودُّ الخلاص منه بالنوم ، وكأنها تقول له نَمْ فلم تَعُدْ صالحاً للتعايش معى .

إذن : الحق سبحانه يُنبِّهنا دائماً من هذه الغفلة بواسطة الرسل ، ثم يترك سبحانه للرسالات التى سبقتْ أدلة تؤيد الرسل الموجودين ، وتعينهم على أداء مهمتهم ؛ لذلك يقول لنا : انظروا إلى الرسل الذين سبقوا ، وكيف كانت عاقبة المكذِّبين بهم .

﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ .. ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة]

كما قال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا[1] الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ[2] ﴿١٠﴾﴾ [الفجر]

فهذه الأهرامات التى يَفِد إليها الناس ، والتى تُعَدُّ مزاراً سياحياً هى آية من آيات الله تقوم دليلاً على هلاك أصحابها من المكذِّبين للرسل ، فالحق سبحانه لم يترك لأحد من خَلْقه عذراً بعد أنْ كشف له الآيات الكونية تشهد بوحدانيته تعالى وألوهيته ، والمعجزات التى

---

(١) جابوا الصخر : أى قطعوه ونحتوه وصنعوا منه بيوتهم وأصنامهم . [القاموس القويم ١/١٣٥] .

(٢) نقل ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٠٨) أقوال السلف فى تأويل الأوتاد :

« - الأوتاد : الجنود الذين يشدون له أمره . قاله ابن عباس .

- كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم فى أوتاد من حديد يعلقهم بها . قاله مجاهد وسعيد ابن جبير .

- كان له ملاعب يُلعب له تحتها من أوتاد وحبال . قاله قتادة » .

وقال الأستاذ إبراهيم عبد الفتاح فى كتابه « القاموس القويم ٢/٣١٨ » : « لعل المراد بها الأهرام التى بناها فرعون تشبه الجبال » .

تثبت صدق الرسول فى البلاغ عن ربه ، ثم آيات الأحكام التى تحمل أقضية الحياة ، والتى لا يمكن لبشر أنْ يستدرك عليها ، والتى تحمل الحلَّ الشافى والدواء الناجع لكل داءات المجتمع .

وبعد ذلك تركت لهم تكذيب المكذِّبين أمام أعينهم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات]

فها هى آثار عاد وثمود وغيرهم ما تزال شاهدةً عليهم ، بعضها فوق الأرض ، ومعظمها مطمور تحت طبقات الثَّرى ؛ لذلك نجد أن كل الآثار القديمة يجدونها فى الحفريات تحت الأرض ، ولم لا وقد كانت العاصفة تهبُّ الهبَّة الواحدة ، فتبتلع القافلة بأكملها ، فما بالك بهبَّات الرياح من أيام عاد حتى الآن . إذن : خذوا عبرة من مصير هؤلاء .

ومعنى ﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. (٢٦) ﴾ [السجدة] يهدى : أى : يدلُّ ويرشد ويُبيِّن ويُوضِّح ، والهداية لها عناصر ثلاثة : هادٍ ومهدىٌّ والشىء المهْدَى إليه ، ومادة : (هدى) تُستعمل فى كتابٍ الله ثلاثة استعمالات :

الأول : أنْ يُذكر الهادى ، وهو الله عز وجل ، **والثانى** : أن يُذكر المهدىّ وهم الخَلْق ، **والثالث** : وهو أن يُذكر المهدى إليه ، وهى الغاية التى يريدها الله .

وهذا الفعل يأتى مرة متعدِّياً بنفسه ، كما فى سورة الفاتحة : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) ﴾ [الفاتحة] أى : يا الله ، فالله هو الهادى ، ونحن المهديون ، والغاية هى الصراط المستقيم .

ومرة يُعدَّى الفعل باللام ، كما فى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَـٰذَا

.. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأعراف] فلم يَقُلْ : هدانا هذا ، ومرة يتعدى بإلى كما فى :
﴿ .. وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة]

فتلحظ أن الهادى واحد وهو الله تعالى ، والمهدىّ هو الخَلْق ، لكن المهْدَى إليه هو المختلف ، أما فى هذه الآية فالأمر مختلف ، حيث يقول سبحانه : ﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [السجدة] فلم تدخل اللام على المهْدى إليه ، إنما دخلتْ على المهدى ، فلم يقُلْ الحق سبحانه : أولم يَهْدِ الله هؤلاء القوم لكذا .

فلماذا ؟

قالوا : لأن بعض الناس يظنون أن الله حين يهدى إلى الطريق يُحمِّلك مشقات التكاليف ؛ لذلك نرى بعض الناس ينفرون من التكاليف ويروْنَ فيها عبئاً عليهم ، ومن هنا عبد بعضهم الأصنام ، وعبد بعضهم الشمس أو القمر .. الخ ؛ لأنها آلهة بدون منهج وبدون تكاليف ، ليس لها أوامر ، وليس عندها نَواهٍ ، وما أيسر أنْ يعبد الإنسان مثل هذه الآلهة التى لا مطلوبات لها .

والذى يرى فى التكاليف مشقة ، ويراها عبئاً عليه يراها كذلك ؛ لأنها تصادم مراد نفسه فى الشهوات وتحدُّ من رغباته ، ومرادات النفس ربما أعطتْك لذة عاجلة ، لكن يعقبها حسرة وشر آجل .

ومثَّلْنا لذلك بالتلميذ الذى يتحمل مشقة المذاكرة والدرس طمعاً فى التفوق الذى ينتظر حلاوته ، وآخر يفضل اللذة السريعة العاجلة فيلعب ولا يهتم ، فيلاقى مذلَّة الفشل والاحتقار آخر العام .

إذن : عليك أنْ تقرن بين مشقة العمل والنتيجة والثمرة التى تنالها من ورائه ، وعندها تهون عليك مشقة التكاليف ؛ لأن ما ينتظرك من

الأجر عليها أعظم مما قدَّمتَ وأبقى .

فالحق سبحانه يريد منا أنْ نُقبل على التكاليف ، ونعرف أنها لمصلحتنا نحن ، وأنها فى الحقيقة تشريف لنا لا تكليف ؛ لأن الذى كلفنى لا يحتاج منى إلى هذا ، ولا ينتفع من عبادتى بشىء ، بل هو سبحانه يتحنن إلىَّ ؛ لأكون أهلاً لإنعامه وجديراً بفضله وكرمه .

ألم يقُلْ سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. ⑦ ﴾ [إبراهيم] فالمسألة إذن منك وإليك ، فالله سبحانه له صفات الكمال قبل أنْ يخلق عباده .

فاللام فى ﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. ㉖ ﴾ [السجدة] أى : لصالحهم ومن أجلهم ، وليس عليهم ، فالهدى لصالح المهدى لا الهادى ، ولو فهم الإنسان هذه الحقيقة وعرف أن الهداية راجعة إليه لَقبَّل يد مَنْ بلَّغه عن الله هذا الفضل .

ويؤكد هذا المعنى ـ لمن فطن ـ قوله تعالى عن المؤمنين : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. ⑤ ﴾ [لقمان] فالهدى ليس حمْلاً يحملونه ، إنما مطية يركبونها إلى الغاية النبيلة التى أرادها الله لهم .

فما الذى بيَّنه الله للمؤمنين ودلَّهم عليه ؟

يقول سبحانه : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ .. ㉖ ﴾ [السجدة] أى : انظروا إلى المخالفين للرسل من قبلكم ، وكيف أخذهم الله فلم يُمكِّنهم من رسله ، بل انتصر الرسل عليهم .

وكم هنا تفيد الاستفهام عن العدد ، وهى بمعنى كثير ، كما تقول لمن ينكر جميلك : كم أحسنتُ إليك أى : مرات كثيرة لا تُعَدُّ ،

والمراد أننا بيَّنا لكم كثيراً مـن الأمم التى عادتْ رسلها ، وكيف كانت عاقبتهم وغايتهم التى انتهوا إليها :

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم[1] مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

ومن مصلحتنا أن يُبيِّن الله لنا عاقبة المكذبين ؛ لأنه ينبهنا إلى الخطر قبل أنْ نقع فيه . وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة فى كلامنا عن قوله تعالى - من سورة الرحمن : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن] فاعتبر الشواظ والنار من النِّعم التى ينبغى ألاَّ نُكذِّب بها ، لماذا ؟ لأنه نبَّهنا إليها حتى لا نقع فيها .

وقوله تعالى : ﴿ مِّنَ الْقُرُونِ .. (٢٦) ﴾ [السجدة] القرن حدده العلماء بمائة عام ، لكن هذه المائة تتداخل ، ويقترن فيها عدة أجيال يجتمعون على مذهب أو مبدأ واحد ، فالقرن يقرن بين الجد والابن والحفيد ، هذا إنْ أردتَ الزمن وحده ، فإنْ قُرِن الزمن بعصر دين من الأديان أو نبى أو ملك ، فقد يطول القرن إلى الألف عام ، كما فى قرن نوح عليه السلام .

فالقرن مرتبط بما قُرِن به ؛ لذلك نقول : العصر الجاهلى ، عصر صدر الإسلام ، عصر بنى أمية ، العصر العباسى ، عصر المماليك ،

---

(١) قال قتادة : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] هم قوم لوط . ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ قال : قوم صالح وقوم شعيب . ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ ﴾ قال : قارون ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ قال : قوم نوح وفرعون وقومه . [الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٦/٤٦٣] .

وما نزال حتى الآن نقول عن عصرنا : العصر الحديث .

والحق سبحانه يبين لنا فى الحياة التى نعيشها أن الزمن متغير ، إلى أعلى فى الماديات ، وإلى أدنى فى المعنويات ، فكلما تقدَّم الزمن انحلَّ الناس من ربْقة الدين وتفلَّتوا منه ؛ ذلك لأن الارتقاءات المادية ينتج عنها حضارات تستهوى النفوس وتغريها ، والنتيجة انحدار فى القيم وفى الدين ، ولو أن الارتقاء كان متساوياً لسار الأمران فى خطين متوازيين .

لذلك يقول تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا .. (٢٤)﴾ [يونس]

ثم إنك لو نظرتَ إلى جزئيات الحضارة فى الكون تجد أن الأمم صاحبة الحضارات لم تستطع أنْ تجعل لنفسها وقاية من اندحار حضارتهم ، ولم يستطيعوا صيانتها . حتى العصور التقدمية : كنا فى العصر الحجرى ، ثم عصر البخار ، ونحن الآن فى عصر الفضاء .

إذن : نحن مرتقون فقط فى الماديات ، لكن منحدرون فى المعنويات ، لكن هل هذا الارتقاء المادى جاء عن امتلاك لمعالم هدى الله فى الأرض ؟ لا ، لأن الله تعالى بيَّن لنا : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر]

فأنا الذى أنزلتُ ، وأنا الذى ضمنتُ حفظه ، فلم أتركه لكم تحفظوه ، إذن : المسألة عن عجز منا ، وإلا فكتاب البداية موجود حجة علينا .

وقوله تعالى : ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ .. (٢٦)﴾ [السجدة] أى : أننى لا ألقى القضايا بدون حجة أو دليل ، بل هى شاخصة أمامكم تمرون

بها ، وترونها ليل نهار ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات]

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾ [السجدة] فالله يحضُّهم على أنْ يستمعوا إلى سِيَر المكذِّبين المعاندين ، وما حاق بهم من انتقام الله منهم .

وبالله : الإنسان مهما قَصُر عمره ، ألم يَرَ ظالماً ، وألم يَرَ مصرع هذا الظالم وعاقبة ظلمه ، فإنْ لم يَرَ ظالماً ألم يُحدَّث عنه ؟ إذن : مما يصلح حال الناس أنْ يستمعوا إلى حكايات عن الظالمين وعن نهايتهم ، وما ينزل بهم من الانتقام الذى لا ينتظر الآخرة ، بل يُعجل لهم فى الدنيا .

وفى ذلك حكمة لله بالغة ؛ لأن الظالم ربما لا يرعوى ولا يرجع فى الدنيا عن ظلمه ، فيظل يُعربد فى الخَلْق ما أحياه الله ، لكن إنْ مسَّه شىء من العذاب ، فلربما عاد إلى رُشْده ، وإن لم يَعُدْ كان عبرة لغيره .

لذلك قال أهل المعرفة : لن يموت ظلوم حتى ينتقم الله منه . وربما مَنْ رآه ظالماً يراه مظلوماً ، ومَنْ أراد أن يرى نهاية ظالم فلينظر إلى مصارع الظالمين قبله .

وتأمل قول ربك : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا .. (١٢٩)﴾ [الأنعام] فكأن الظالم له رسالة ، هى أن ينتقم من ظالم مثله ، وهكذا يُهلك الله هؤلاء بعضهم ببعض ؛ لأن الخيِّر طيِّب القلب لا يؤدب ظالماً ، فإنِ اعتديتَ عليه غلب عليه طابع التسامح والعفو .

ألم يَقُلْ سيدنا رسول الله ﷺ لكفار مكة : « اذهبوا فأنتم

الطلقاء »[1] فكأن الله عز وجل يقول للخيِّر : اجلس أنت واسترح ، واترك الأشرار لى ، فسوف أرسل عليهم من هو أشرّ منهم ليؤدبهم .

واختار الحق هنا حاسة السمع ﴿ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦) ﴾ [السجدة] لأنها وسيلة الإدراك المناسبة للموقف ، فبها نسمع ما يُحكَى عن الظالمين وبها نعتبر ، وفى موضع آخر سيقول ﴿ أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧) ﴾ [السجدة] ويقول : ﴿ أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨) ﴾ [يس] فيُنوِّع لنا ، ويُقلِّب كل وسائل الإدراك لينبهنا من خلالها .

والمعنى ﴿ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦) ﴾ [السجدة] ما يُرْوَى لهم عن مصارع الظالمين ، لقد نبهناهم وذكَّرناهم ، ومع ذلك أشركوا وجعلوا سمعهم (ودن من طين ، وودن من عجين) .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ[2] فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) ﴾

أولاً لك أن تلحظ هنا توافق النسق القرآنى بين صدر الآيات وعَجُزها ، ففى الآية السابقة قال سبحانه ﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. (٢٦) ﴾ [السجدة] أى : يدلُّ ويرشد ، والكلام فيها عن قصص تاريخى ، فناسبها ﴿ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦) ﴾ [السجدة] أما هنا فالكلام عن مشاهد

---

(١) قال ابن إسحاق : حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام فى خطابه على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . إلى أن قال : ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » [راجع السيرة النبوية لابن هشام ٤/٤١٢] .

(٢) أرض جُرز : لا نبات بها كأنه انقطع عنها ، أو انقطع عنها المطر . [لسان العرب ـ مادة : جرز] فهى الأرض الجدباء التى لا نبات فيها أو التى أُكل نباتها أو هلك لأى سبب . [القاموس القويم ١/١٢٠] .

مرئية ، فناسبها ﴿ أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧) ﴾ [السجدة] فهذا ينبغى أنْ يُسمع ، وهذا ينبغى أنْ يُرى .

وفى الآية السابقة قال سبحانه ﴿ أَهْلَكْنَا .. (٢٦) ﴾ [السجدة] لنعتبر بإهلاك المكذبين فى الماضى ، أما هنا فيلفتنا إلى آية من آياته فى الكون ، فيأتى الفعل ﴿ نَسُوقُ الْمَاءَ .. (٢٧) ﴾ [السجدة] بصيغة المضارع الدالّ على التجدّد والاستمرار ، ففى كل الأوقات يسوق الله السحب ، فينزل منها المطر على الأرض (الجرز) أى : المجدبة ، فتصبح مُخضرة بأنواع الزروع والثمار ، وهذه آية مستمرة نراها جميعاً ، ولا تزال فى الحال وفى الاستقبال ، ولأن هذه الآية واقعة الآن تحتاج منا المشاهدة والتأمل قال فى ختامها ﴿ أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧) ﴾ [السجدة]

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) ﴾ [الكهف] فالجُرُز هى الأرض المقطوع منها النبات ، إما لأن الماء شحَّ عليه فجفَّ ، وإما أنه استُحصد فحصدوه .

ومعنى ﴿ نَسُوقُ الْمَاءَ .. (٢٧) ﴾ [السجدة] السَّوْق : حَثٌّ بسرعة ؛ لذلك تقول للذى يتعجلك (ما لك سايقنا كده) ، ومعلوم أن السَّوْق يكون من الوراء ، على خلاف القيادة ، فهى من الأمام ، فالذى تسوقه تسوقه وهو أمامك ، تراه فلا يتفلت منك ، ولو كان خلفك فهو عُرْضة لأنْ يهرب منك ، فلا تشعر به .

والسَّوْق مرة يكون للسحاب ، كما فى قول الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ .. (٩) ﴾ [فاطر]

ومرة يكون السَّوْق للماء نفسه كما فى هذه الآية ، وسَوْق الماء له عدة مظاهر : فالله يسوق الماء من السحاب إلى الأرض ، فإذا نزل

إلى الأرض ساقه فى الأنهار ، أو سلكه ينابيع فى الأرض ليحتفظ لنا به لحين الحاجة إليه .

فربُّنا ـ عز وجل ـ جعل لنا خزانات للماء تحت الأرض ، لا لنحرم منه حين يوجد ، لكن لنجده حين يُفقد ، وكون الماء ينابيع فى الأرض يجعلنا نتغلب على مشاكل كثيرة ، فالأرض تحفظه لنا ، فلا يتبخر ولا نحتاج إلى بناء السدود وغيرها ، مما يحفظ لنا الماء العَذْب .

لذلك يقول النبى ﷺ : « مثَلُ ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقياً ـ أرض خصبة ـ قبلتْ الماء ، فأنبتت الكلأ والعُشْب ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فشرب الناس منه وسَقُوا أنعامهم وزروعهم ، وكان منها قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم »[1] .

فهذه أنواع ثلاثة من الأرض تمثل انتفاع الناس بالعلم ، فالأولى تمسك الماء ، وتُخرِج الزرع ، والثانية تمسك الماء حتى ينتفع الناس به ، ولك أن تسأل : فما فائدة الثالثة : القيعان التى لا تُمسِك ماء ، ولا تنبت كلأ ؟ ولماذا خلقها الله إذن ؟

نقول : هذه القيعان هى التى تسلك الماء فى باطن الأرض ، وصدق الله : ﴿ **فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ** (٢٢) ﴾ [الحجر] وقال سبحانه : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ** (٣٠) ﴾ [الملك]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٩٩) وابنه عبد الله فى زوائده على المسند (٤/٣٩٩) ، والبخارى فى صحيحه (٧٩) كتاب العلم (٢٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٢٨٢) من حديث أبى موسى الأشعرى .

إذن : هذه القيعان لها مهمة يعرفها مَنْ فَطِن لهذه المسألة ، وإلا فالله تعالى لم يخلق شيئاً عبثاً أبداً ، كذلك يكون انتفاع الناس بالعلم ، فمنهم مَنْ نرى أثر علمه خيراً عاجلاً ، ومنهم مَنْ يتأخر نَفْع علمه للأجيال القادمة .

ثم إياك أنْ تظن أنَّ الماء حين يسلكه اللهُ ينابيعَ في باطن الأرض يسيح فيها ، أو يحدث له استطراق سائلي يختلط فيه العذب بالمالح ، لا .. إنما يسير الماء العَذْب في شبه أنابيب ومسارب خاصة ، يجدونها حتى تحت مياه الخليج المالحة .

وهذه من عجائب الخَلْق الدالة على قدرة الخالق عز وجل ، وكما يوجد برزخ بين المائيْن على وجه الأرض ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ⦗١٩⦘ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ⦗٢٠⦘﴾ [الرحمن] كذلك هناك برزخ للماءين تحت الأرض .

فالحق سبحانه يلفت أنظارنا إلى هذه الآية المشاهدة ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ .. ⦗٢٧⦘﴾ [السجدة] نعم ، هذه آية نشاهدها جميعاً ، لكن المراد هنا مشاهدة تمعُّن وتذكّر وعظة وتعقُّل ، نهتدي من خلالها إلى قدرة الخالق عز وجل .

وقوله سبحانه ﴿أَنَّا نَسُوقُ .. ⦗٢٧⦘﴾ [السجدة] فيه دليل على قيُّوميته تعالى على الخلق ، فإنْ كان سَوْق الماء يتم بواسطة الملائكة المكلفين به ، إلا أنه تعالى صاحب الأمر الأول والمتتبع لعملية تنفيذه .

وقدَّم الحق سبحانه الأنعامَ على الإنسان في الأكل من الزرع ، مع أنها كلها مملوكة للإنسان ؛ لأن الأنعام في الغالب ما تأكل من

الزرع ، وهو ما يزال أخضر لم ينضج بَعْد ، ليأكل منه الإنسان ، وأيضاً هو سبحانه حين يطعم الأنعام فإنما يطعم مَنْ جعله له فاكهة طعام ، وهى الأنعام .

وأشرْنا إلى أن دقَّة البيان القرآنى اقتضتْ أنْ تختم هذه الآية المشاهدة بقوله تعالى : ﴿ أَفَلا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [السجدة] لأن هذه مسألة تتعلق بالبصر .

ولك أنْ تقرأ فى مثل هذه الدقَّة قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص]

فقال فى الأولى ﴿ أَفَلا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [القصص] لأنها تتكلم عن آية الليل ، والسمع هو وسيلة الإدراك فيه ، وقال فى الأخرى ﴿ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص] لأنها تتكلم عن آية النهار ، والبصر هو وسيلة الإدراك فى النهار ، إذن : نلحظ دقَّة الأداء وإعجازه ؛ لأن المتكلم إله ورب ، فلا بُدَّ أنْ تجد كل لفظة فى مكانها المناسب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(متى) يُستفهم بها عن الزمان ، والاستفهام بها يدل على أنك استبطأت الشيء فاستفهمتَ : متى يحدث ؟

الرسول ﷺ حين بُعث أخبر قومه أنه مُرْسَل إليهم بمنهج من الله ، وقد أيده الله بالمعجزات ، وأخبرهم بمصير مَن اتبعه ومصير مَنْ

خالفه ، وأن ربه - عز وجل - ما كان ليرسله إليهم ، ثم يُسْلِمه أو يتخلى عنه ، فهو لا بُدَّ منتصر عليهم ، فهذه سنة الله في أنبيائه ورسله ، حيث قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

لذلك قلنا : إذا رأيت موقفاً لم ينتصر فيه المسلمون ، حتى في حياة الرسول ﷺ وحياة الصحابة ، فاعلم أن الجندية عندهم قد اختلتْ شروطها ، فلم يكونوا في حال الهزيمة جنوداً لله متجردين .

وحين نتأمل الأحداث في (أحُد) نجد أن الله تعالى يقول للمسلمين : لا تظنوا أن وجود رسول الله بينكم يحميكم أو يُخرِجكم عن هذه القضية ، فهذه سنة لله في كونه لا تتبدل .

ففي (أُحُد) خالف المسلمون أوامر رسول الله ، حين نزل الرماة وتركوا أماكنهم طمعاً في الغنائم ، فالتفَّ عليهم المشركون ، وكانت النتيجة لا نقول انهزموا ، إنما هم لم ينتصروا ؛ لأن المعركة (ماعت) والرسول موجود بينهم[1] .

والبعض يرى في هذه النتيجة التي انتهتْ إليها الحرب في أُحُد مأخذاً ، فيقول : كيف يُهزم جيش يقوده رسول الله ؟ وهذه المسألة تُحسَب للرسول لا عليه ، فالرسول لن يعيش بينهم دائماً ، ولا بُدَّ لهم أن يروْا بأعينهم عاقبة مخالفتهم لأمر رسول الله ، وأنْ يشعروا

---

(١) أمَّر رسول الله على الرماة عبد الله بن جبير أخا بني عمرو بن عوف ، والرماة يومئذ خمسون رجلاً ، فقال : « انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك » (السيرة لابن هشام ٣/١٠) وأورد البيهقي في دلائل النبوة (٣/٢٢٩) أن الرماة بعد انهزام المشركين تركوا مواضعهم للفوز بالغنائم ، فقال لهم ابن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟ قالوا : لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة ، فمال الكافرون على المسلمين حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً » .

بقداسة هذه الأوامر ، ولو أنهم انتصروا مع المخالفة لفقدوا الثقة فى أوامر رسول الله بعد ذلك ، ولِمَ لا وقد خالفوه فى أُحُد وانتصروا !!

كذلك في يوم حنين الذى قال الله فيه : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ .. (٢٥) ﴾[التوبة]

وكان من إعجاب المؤمنين بكثرتهم أن يقول أبو بكر نفسه : لن نُغْلَبَ اليوم عن قلة ، لذلك لقَّنهم الله تعالى درساً ، وكادوا أنْ يُهزموا ، لولا أن الله تداركهم فى النهاية برحمته ، وتحوَّلت كفَّة الحرب لصالحهم ، وكأن التأديب جاء على قدر المخالفة .

فالحق سبحانه يُعلِّمنا امتثال أمره ، وأنْ نخلص فى الجندية لله سبحانه ، وأن ننضبط فيها لنصل إلى الغاية منها ، فإنْ خالفنا حُرِمْنا هذه الغاية ؛ لأننى لو أعطيتُك الغاية مع المخالفة لما أصبح لحكَمى مكان احترام ولا توقير .

وهنا يحكي الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن المشركين قولهم لرسول الله : ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ .. (٢٨) ﴾ [السجدة] أى : النصر الذى وعدكم الله به ، وقد كان هذا النصر غاية بعيدة المنال أمام المؤمنين ، فما زالوا قلَّة مُسْتضعفة .

لذلك لما نزل قول الله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] تعجب عمر حتى قال : أيُّ جمع هذا ، ونحن لا نستطيع أنْ نحمى أنفسنا ؟ لكن الحق سبحانه لم يُطل عليهم هذا الوضع ، وسرعان ما جاءتْ بدر ، ورأى عمر بعينه كيف تحقَّق وعد الله ، وكيف هُزِم جَمْع المشركين ، ورددها بنفسه بعد المعركة : نعم يا رب ، سيُهزم الجمع ويولون الدبر[1] .

(١) قال عكرمة : لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يُهزم ؟ أى : أى جَمْع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيُهزم الجمع ويُولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٢٦) وعزاه لابن أبى حاتم .

ومن العجيب أنْ يدل رسول الله على الكفار وعلى أصحابه وأنصاره بفيض الله عليه ، وأنه أخبره بنتيجة المعركة قبل حدوثها ، فيقف ﷺ فى أرض بدر ، ويشير بعصا فى يده إلى مصارع المشركين : هذا مصرع أبى جهل ، وهذا مصرع عتبة ، وهذا مصرع الوليد(1) .. الخ .

فمَنْ يستطيع أنْ يحدد نتيجة معركة بهذا التفصيل ، والمعركة أَخْذٌ وردّ وكرّ وفرّ واختلاط ، مع أنهم لم يخرجوا لحرب ، إنما خرجوا لملاقاة قافلة قريش التجارية ، فما بالك لو خرجوا على حال استعداد للحرب ، وهذه سيأخذها الكفار قياساً يقيسون عليه قوة المسلمين الوليدة ، وسيقذف الله بهذه النتيجة الرعب فى قلوب الكفار ، ولم لا وقد انتصرتْ القلة المستضعفة غير المجهزة على الكثرة المتعجرفة المستعدة للحرب .

والاستفهام هنا ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا الْفَتْحُ.. (٢٨)﴾ [السجدة] ليس استفهاماً على حقيقته ، إنما يراد به الاستهزاء والسخرية ، وجواب الله على هذا الاستفهام يحدد نيتهم منه ، فهم يستبعدون هذا النصر وهذه الغلبة التى وعد الله بها عباده المؤمنين ، لكنهم يستبعدون قريباً ، ويستعجلون أمراً آتياً لا ريب فيه .

وقد سجَّل القرآن عليهم مثل هذا الموقف فى قوله تعالى حكايةً عن الكفار يقولون لرسولهم : ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ [الأعراف]

كلمة (الفتح) إنْ جاءت مُعرَّفة بأل فخيرها مضمون ، فاعلم أنها

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) ، وأحمد فى مسنده (٣/٢١٩ ، ٢٥٨) من حديث انس بن مالك رضى الله عنه .

نعمة محروسة لك سينالك نفعها ، فإنْ جاءت نكرة فلا بُدَّ لها من متعلق يوضح الغاية منها : أهذا الفتح لك أم عليك ؛ فقوله تعالى فى خطاب النبى ﷺ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ ﴾ [الفتح] دلَّ على أن هذا الفتح لصالحه ﷺ ، فهو غُنْم لا غُرْم ، كما يقولون فى حسابات البنوك : له وعليه .

أما الأخرى ، ففى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. ۝٤٤ ﴾ [الأنعام]

إذن : تنبَّه لما يفتحه الله عليك ، ولا تغترَّ به ، وتأمَّل : أهو لك أم عليك ؟ وإياك أنْ تُطغيك النعمة إذا (زهزهتْ) لك الدنيا ، فلعلها استدراج وأنت لا تدرى ، فالفتح يحتمل المعنيين ، واقرأ إنْ شئتَ :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. ۝٩٦ ﴾ [الأعراف] أى : احذروا هذه النعمة لا تطغيكم .

وكلمة (الفتح) تأتى بمعانٍ متعددة ، يحددها السياق ، كما قلنا فى كلمة العين ، فتأتى بمعنى العين الباصرة . تقول : رأيت فلاناً بعينى ، وتقول : جُدْت على فلان بعيْن منى أى : بالذهب أو الفضة ، وتقول : سمحتُ له أنْ يروى أرضه من عينى أى : عين الماء ، وتقول : هؤلاء عيون فلان أى : جواسيسه . وهذا يسمونه : المشترك اللفظى .

وكلمة (الفتح) تستخدم أولاً فى الأمر المادى ، تقول : فتحتُ الباب أى : أزلت مغاليقه ، وهذا هو الأصل فى معنى الفتح . فالحق سبحانه يقول فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ .. ۝٦٥ ﴾ [يوسف] ففتحوا متاعهم الفتح المادى الذى يزيل عنه الأربطة .

وقد يُراد الفتح المعنوى ، كما فى قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ .. (٧٦) ﴾ [البقرة] أى : بما أعطاكم الله ومنحكم من الخير ومن العلم .

ويأتى الفتح بمعنى إظهار الحق فى الحكم بين حق وباطل وتجلية الأمر فيه ؛ لذلك يسمى أهلُ اليمن القاضىَ (الفاتح) .

ويأتى بمعنى النصر والغلبة ، كما فى هذه الآية التى معنا : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) ﴾ [السجدة] ولابد أنْ يقول المؤمنون فى إجابة هذا السؤال : نحن لا نقول أننا صادقون أو كاذبون فى هذا الخبر ؛ لأن هذه مسألة بعيدة عنا ، ولا دخْلَ لنا بها ، إنما هى من الله الذى أخبرنا هذا الخبر ، فنحن لا نُوصَف فيه ، لا بصدق ولا بكذب .

ولكى يكون الإنسان عادلاً ينبغى أنْ ينسب الفعل إلى فاعله ، أرأيت رسول الله ﷺ حين أخبر قومه خبر إسرائه قال : « لقد أُسْرِى بى الليلة من مكة إلى بيت المقدس »[1] ولم يقل سريت ومع ذلك سأله القوم : أتدَّعى أنك أتيتها فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ وهذه مغالطة منهم ، لا عدم فهم لمقالة رسول الله ؛ لأنهم أمة كلام ، ويفهمون جيداً معانى الألفاظ .

إذن : رسول الله ما سَرَى بذاته ، إنما أُسْرى الله به ، فمَنْ أراد أن يبحث هذه المسألة فليبحثها فى ضوء قدرة الله ، وكيف يكون الزمن بالنسبة لله تعالى ، وقلنا : إن الفعل الذى يستغرق زمناً هو

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٠) كتاب الإيمان ، من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

الفعل العلاجى ، إنمـا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ لا يعالج الأفـعال ، فقط يقول كُنْ فـيكون ، والفعل يتـناسب مع زمنه تناسبـاً عكسياً ، فـكلما زادت قوة الفاعل قَلَّ زمن الفعل . وعليـه لو نسبتَ حادثة الإسراء إلى قوة الحق تبارك وتعالى لوجدتَ الزمن لا زمن .

ثم يجيب الحق تبـارك وتعالى عن سؤالهم ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا الْفَتْحُ .. (٢٨)﴾ [السجدة] بمـا يفيـد أنه سؤال اسـتبـعاد واسـتهـزاء ، فيـقول سبحانه :

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ(١) لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩)﴾

أى : لِمَ تسألون عن يوم الفتح ؟ وماذا ينفعكم العلم به ؟ إن يوم الفـتح إذا جاء أُسْدل الستـار على جرائمكم ، ولن تنفـعكم فيـه توبة أو إيمان ، ولن يُنْظِرَكم الله إلى وقت آخر .

ومعلوم أن الإيمـان لا ينفع صاحبـه إلا إذا كانت لديه فُسْحة من الوقت ، أمـا الإيمـان الذى يأتى فى النزع الأخـيـر ، وإذا بلغت الروح الحلقوم فهو كإيمان فرعون الذى قال حين أدركه الغرق : ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠)﴾ [يونس] فردَّ الله عليـه هذا الإيمان ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ [يونس]

الآن لا ينفع منك إيمـان ؛ لأنك مُـقْـبل على الله ، وقـد فـات أوان العمل ، وحَلَّ أوان الحـساب ، الإيمان أنْ تؤمن وأنت حريص صـحيح تستقبل الحياة وتحبها ، الإيمان أن تؤمن عن طواعية .

---

(١) قال قـتادة : الفـتح القـضاء . وقال الـفراء والقـتبى : يعنى فـتح مكة . قال القـرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٧١) : وأولى من هذا ما قاله مجاهد ، قال : يعنى يوم القيامة .

﴿ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) ﴾ [السجدة] أى : ليس لكم الآن إمهال ؛ لأن الذى خلقكم يعلم سرائركم ، ويعلم أنه سبحانه لو أمهلكم لَعُدْتم لما كنتم عليه : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠) ﴾

هذا المعنى كما نقول فى العامية (ادينى عرض كتافك) أى : انصرف عنهم ، فلم يَعُدْ بينك وبينهم لقاءٌ ، ولا جدوى من مناقشتهم والتناظر معهم فقد استنفدوا كل وسائل الإقناع ، ولم يَبْقَ لهم إلا السيف يردعهم ، على حَدِّ قول الشاعر :

أَنَاةٌ فإنْ لَمْ تُغْنِ عَقِّبْ بعدَها وَعيداً ... فَإنْ لَمْ يُغْنِ أغنَتْ عَزَائمهُ

فقد بلَّغهم رسول الله وأنذرهم ، لقد بشَّرهم بالجنة لمن آمن ، وحذرهم النار لمن كفر فلم يسمعوا . إذن :

فَمَا هُوَ إلاَّ الوَحْى أو حَدّ مُرْهَف

فالعاقل الوحى يقنعه ، والجاهل السيف يردعه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَانتَظِرْ .. (٣٠) ﴾ [السجدة] أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ، أى : انتظر وعدى لك بالنصر والغلبة ، وقلنا : إن وعد الله محقق ، حيث لا توجد قوة أخرى تمنعه من إنفاذ وعده ، أما الإنسان فعليه حين يَعد أنْ يتنبه إلى بشريته ، وأنه لا يملك شيئاً من أسباب تنفيذ ما وعد به .

لذلك يُعلِّمنا ربنا : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن

يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف] وتعليق أمرك على مشيئة الله عز وجل يحميك أن تكون كاذباً إذا لم تَف بما وعدتَ به ، فأسباب الوفاء بالوعد لا يملكها البشر ، إنما يملكها خالق البشر سبحانه ، فإذا وعد فاعلم أن وعده متحقق لا محالة .

وقلنا : إنك حين تقول لصاحبك مثلاً : سأقابلك غداً أو سأفعل لك كذا وكذا ، نعم أنت صادق وتنوى الوفاء ، لكنك لا تملك فى الغد سبباً واحداً من أسباب الوفاء ، فلربما طرأ لك طارىء ، أو منعك مانع ، وربما تغيَّر رأيك .. الخ .

وفَرْق بين انتظار رسول الله حين ينفذ أمر ربه ﴿ انتَظِرْ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [السجدة] وبين ﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [السجدة] فانتظار رسول الله لشىء محقق ، له رصيد من القوة والقدرة ، أما انتظارهم فتسويل نفس ووسوسة شيطان ، لا رصيدَ لها من قوة إنفاذ .

ومعنى ﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [السجدة] أى : ينتظرون أن يحدث لرسول الله ﷺ شىء يمنعه من تبليغ رسالة ربه ، وهذا حمق منهم ، فقد كان عليهم أن يعلموا أن الرسول مُؤَيَّد من الله مُرْسَل من قبله لهدايتهم ، وما كان الله تعالى ليرسل رسولاً ثم يُسْلمه أو يخذله ، فسنة الله فى الرسل أن لهم الغلبة مهما قويتْ شوكة المعاندين لهم .

إذن : لا سبيلَ إلى ذلك ، ولا سبيلَ أيضاً إلى الخلاص منه أو حتى تخويفه ليرتدع ، ويدع ما يدعو إليه من منهج ربه .

وقد ورد هذا الانتظار فى موضع آخر بلفظ (التربص) فى قوله تعالى : ﴿ تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الطور]

وفى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ..

(٥٢) ﴾ [التوبة] أى : ماذا تنتظرون منا ونحن أمام حُسْنيين : إما النصر والغلبة عليكم ، وساعتها ندحركم ونُذلكم . أو الشهادة التى تضمن لنا حياة النعيم الباقية الخالدة ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا .. (٥٢) ﴾ [التوبة]

يعنى : تربَّصوا بنا ، فنحن أيضاً نتربص بكم ، لكن فَرْق بين تربُّصنا وتربُّصكم .

وهذه السورة سميت (السجدة) أولاً : لأن بها سجدة تلاوة ينبغى أن نسجد لله شكراً عندها ، والسجود يمثل منتهى الخضوع للحق ـ تبارك وتعالى ـ فإذا جاءت هذه الآية التى تهز كيان الإنسان يعلمنا ربنا أن ننفعل لهزَّة الكيان ، وأن نسارع بالسجود ، ولا ننتظر سجودنا بعد ذلك فى الصلاة .

فكأن فى هذه الآية أمراً قوياً وسراً عظيماً استدعى أنْ نُخرِج السجود عن موقعه بأمر مَنْ شرع السجود الأول . إذن : لا بُدَّ أن فى آيات سجود التلاوة طاقاتٍ جميلة من نِعَم الله تُذكِّرنى به .

والحق سبحانه يريد أنْ يشعر الخَلْق أنهم يستقبلون نعماً جديدة ، لا يكفى فى شكرها السجود الرتيب الذى نعرفه ، فيشرع لها سجوداً خاصاً بها .

وفى السورة أيضاً بعض الإشارات التى وقف عليها العارفون وقالوا : إنها تضع نماذج لصيانة النفس الإنسانية ، وعدم بُعْدها عن حكمة خالقها ، ومن هذه الإشارات أن العين ترى الأشياء فتقول : هذا حسن ، وهذا قبيح ، ذلك من مجرد الشكل الخارجى ، لكن على المرء أنْ يتأمل الأشياء ويعرف معنى القبح .

القبح ليس ما قَبُحَ فى نظرك ، إنما القبيح الذى يُخرِج الحُسْن التكليفى عن مناطه ؛ لأن الخالق ـ عز وجل ـ خلق كل شىء جميلاً ، كما قال سبحانه : ﴿الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ..(٧)﴾ [السجدة]

فإذا قَبُحَ الشىء فى نظرك فاعلم أنك نظرتَ إلى جانب الشكل ، وأهملتَ جوانب أخرى ، وقُلْ إننى لم أتوصل إلى سرِّ الجمال فيه .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الخالق سبحانه نثر المواهب بين خَلْقه بحيث تجد مجموع مواهب كل إنسان تساوى مجموع مواهب كل إنسان ، فلا تنظر إلى جانب واحد فتقول : هذا غَنىّ ، وهذا فقير ، لكن انظر إلى الجوانب الأخرى .

ويُرْوَى أن سيدنا نوحاً عليه السلام رأى كلباً أجرب فبصق عليه، فأنطق الله الكلب الأجرب ، وقال له : أتعيبنى أم تعيب خالقى ؟ والمعنى أنه خلقنى لحكمة ، ولمعنى من المعانى .

وصدق القائل[١] :

لِلْقُبْح وَقْتٌ فِيهِ يَظْهر حُسْنُه ... وَيُحمد مَنْ غشَّ البناءَ لَدَى الهَدْمِ

كذلك نثر الحق سبحانه حكمه ، ونثر خيره فى كتابه ، فلا تغنى آية عن آية ، ولا تغنى كلمة عن كلمة ، ولا حرف عن حرف ، لكن البصائر التى تَتلَقَّى عن الله هى التى تستطيع أنْ تقف على أسرار الله .

---

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .


سورة الأحزاب



سورة الأحزاب(١)



﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ .. (١) ﴾ [الأحزاب] نداء لرسول الله ﷺ ، والمنادى هو الحق سبحانه ، رسول الله لقبه ، واسمه محمد ، واسمه أحمد كما ذُكر فى القرآن ، والإنسان حين يُولَد يُوضع له اسم يدل على مُسمَّاه ، بحيث إذا أطلقه الواضع انصرف إلى المسمى ، والقوم الذين سُمُّوا لهم محيط يُعرفون فيه ، وغيرهم بنفس الأسماء لهم محيط آخر ، فمحمد هذا المحيط غير محمد هذا المحيط .

---

(١) سورة الأحزاب هى السورة رقم ٣٣ فى ترتيب المصحف الشريف ، وهى سورة مدنية ، عدد آياتها ٧٣ آية ، نزلت فى المنافقين وإيذائهم رسول الله ﷺ وطعنهم فيه وفى مناكحته لنسائه وزواجه ﷺ من ابنة عمته زينب بنت جحش وأدب دخول بيوت النبى . وقد نزلت سورة الأحزاب بالمدينة بعد سورة آل عمران وقبل سورة الممتحنة فهى السورة رقم ٨٩ فى ترتيب نزول سور القرآن . [راجع الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١/ ٢٧] .

وتعريف الإنسان يكون بالاسم أو بالكُنْية أو باللقب ، فالاسم هو العلم الذى يُوضع لمسمّى ليُعلَم به ويُنادَى به ، ويُميّز عن غيره ، أما الكنية فاسم صُدِّر بأب أو أم كما نقول : أبو بكر ، وأم المؤمنين ، فإنْ سُمِّى به بدايةً وجُعِل علَماً على شخص فهو اسم ، وليس كنية ، أما اللقب فما أشعر برفعة أو ضعةٍ كما تقول : فلان الشاعر أو الشاطر .. إلخ .

فإذا أُطلِق الاسم الواحد على عدة مسميات ، بحيث لا تتميز بعضها عن بعض وجب أنْ تُوصَف بما يميزها كأسرة مثلاً عشقتْ اسم محمد فسمَّتْ كل أولادها (محمد) فلا بُدَّ أن نقول : محمد الكبير ، محمد الصغير ، محمد الأوسط ..الخ .

ورسول الله ﷺ له اسم وكُنْية ولقب ، أما اسمه فمحمد وقد ورد فى القرآن الكريم أربع مرات :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ .. (١٤٤) ﴾ [آل عمران]

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ ..(٤٠) ﴾ [الأحزاب]

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ .. (٢) ﴾ [محمد]

وورد باسم أحمد فى موضع واحد هو : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. (٦) ﴾ [الصف] وسبق أنْ تكلَّمنا فى علة هذه التسمية .

أما كنيته : فأبو القاسم . ولقبه : رسول الله .

وهكذا استوفى سيدنا رسول الله العلَمية فى أوضاعها الثلاثة : الاسم ، والكُنْية ، واللقب .

واللقب يضعه أيضاً الأب أو الأم أو الناس المحيطون بالإنسان ، إما يدل على الرفعة تفاؤلاً بأنه سيكون له شأن ، أو يدل على الضِّعَة ، وهذه في الغالب تحدث في الأولاد الذين يُخاف عليهم العين ، فيختارون لهم لقباً يدل على الحِطّة والضِّعة وما أشبهه (بالفاسوخة) يُعلِّقونها على الصغار مخافة العين .

أما لقب رسول الله ﷺ فقد اختاره له ربه عز وجل ، وطبيعى أنْ يأتي لقبه ﷺ مُشْعراً برفعة أيما رفعة ، فهى ليست عند الخلق فحسب ، إنما رفعةَ عند الخالق ، فلما وُلد رسول الله أسماه جده بأحب الأسماء عنده . وقال : سمَّيْته محمداً ليُحمد فى الأرض وفى السماء[1] .

ولما وُلد القاسم كُنِّي به رسول الله فقيل : أبو القاسم ، فلما اختاره الله للرسالة وللسفارة بينه تعالى وبين الخَلْق لقَّبه برسول الله وبالنبى ، وهذان اللقبان على قدر عظيم من الرفعة لو جاءت من البشر ، فما بالك وهى من عند الله ، فأنت حين تضع المقاييس تضعها على قَدْر معرفتك وإمكاناتك .

فالرسول ﷺ رسول الله ونبى الله بمقاييس الله ، فهو إذن مُشرّف عندكم ، مُشرَّف عند مَنْ أرسله و ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ١٧٠) أن آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ كانت تحدِّث أنها أُتيت ـ حين حملت برسول الله ﷺ ـ فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولى : أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ، ثم سَمِّه محمداً .

فأحبُّ شيء فى الإعلام برسول الله أن نقول : محمد ، أو أبو القاسم ، أو رسول الله ، أو النبى ، والحق سبحانه حين نادى رسوله ﷺ لم يُنَاده باسمه أبداً ، فلم يقُلْ يا محمد ، إنما بلقبه الذى يُشعر برفعته عند الحق سبحانه ، فقال فى ندائه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ .. (٦٥) ﴾ [الأنفال] ، ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ .. (٤١) ﴾ [المائدة]

ولو تتبعتَ نداء الله للرسل من لَدُنْ آدم عليه السلام لا تجد رسولاً نُودِى بغير اسمه إلا محمد ﷺ . أما لفظ (محمد) فقد ورد فى القرآن ، لكن فى غير النداء ، وورد على سبيل الإخبار بأن محمداً رسول الله .

وحتى فى الإخبار عنه ﷺ أخبر الله عنه بلقبه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨) ﴾ [التوبة]

وقال : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَـٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (٣٠) ﴾ [الفرقان]

إذن : فى النداء استقل بيا أيها النبى ، ويا أيها الرسول ، أما فى الإخبار فلا بُدَّ أنْ يذكر اسمه (محمد رسول الله) ، وإلا فكيف يعرف أنه رسول الله ؟ فيخبر به أولاً اسماً ومُسمّى .

ونُودِى ﷺ بيـٰأيها النبى ، ويـٰأيها الرسول تعظيماً له ﷺ ، ونحن حين نريد أنْ نُعظِّم مَنْ ننادى نسبق الاسم بمقدمات ، نقول : يا سيدى فلان ، يا فضيلة الشيخ ، يا صاحب العزة .. الخ .

وقد تقدمتْ (أَيُّهَا) على المنادى هنا ؛ لأن الاسم المنادى المحلَّى بأل لا يُنادى مباشرة إلا فى لفظ الجلالة (الله) فنقول : يا الله ، فكأن الحق سبحانه توحَّد حتى فى النداء ، هذا فى نداء المفرد .

والحق سبحانه نادى رسوله يأيها النبى ، ويأيها الرسول ، الرسول هو سفير بين الله وبين خَلْقه ؛ ليُبلغهم منهجه الذى يريد أنْ تسير عليه حياتهم فالرسول مُبلِّغ ، أما النبى فمُرْسَل أيضاً من قبَل الحق سبحانه ، لكن ليس معه شرع جديد ، إنما يسير على شرع مَنْ سبقه من الرسل ، أما هو فقدوة وأُسْوة سلوكية لقومه .

ومحمد ﷺ جمع الأمرين معاً ، فهو نبى ورسول له خصوصيات أُمر بها ، ولم يُؤْمَر بتبليغها ـ وهذه مسائل خاصة بالنبوة ـ وله أمور أخَرى أُمِر بها ، وأُمِر بتبليغها .

ومعلوم من أقوال العلماء أن كل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولاً بالمعنى الاصطلاحى ، وإلا فَهُم جميعاً مُرْسَلون من قبَل الله .

وكلمة (النبى) مأخوذة من النبأ وهو الخبر الهام ، فالخبر يكون من البشر للبشر ، فإنْ كان من خالق البشر فهو نبأ أى : أمر عظيم ينبغى الاهتمام به ، وأصْله من النَّبْوَة ، وهى الشىء العالى المستدير فى وسط شىء مستْوٍ .

فحين تقول : رأيتُ فلاناً اليوم ، هذا لا يُسمَّى نبأ إنما خبر ؛ لذلك قال سبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ① عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ②﴾ [النبأ] أى : الخبر الهائل الذى هَزَّ الدنيا كلها ، وملأ الأسماع ، وزلزل العروش .

ثم يقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ ﴿اتَّقِ اللَّهَ .. ①﴾ [الاحزاب] سبق أنْ قُلْنا : إن الكلام العربى مُقسَّم إلى خبر وإنشاء ، فالخبر نسبة كلامية كانت قبل النطق بها نسبة ذهنية ، وبعد النطق بها كلامية ، فإنْ كان لها معنى ومدلول فهى نسبة واقعية ، والخبر هو القول الذى يُوصَف بالصدق إنْ طابق الواقع ، ويُوصَف بالكذب إن خالف .

أما الإنشاء فهو مقابل الخبر يعني : قولٌ لا يُوصَف بصدق ولا بكذب ، كأن تقول لإنسان : قفْ ، فهذا أمر لا يقال لقائله : صادق ، ولا كاذب .

فقوله تعالى لنبيه ﴿اتَّقِ اللَّهَ .. ①﴾ [الأحزاب] هذه نسبة كلامية من الله لرسوله ، ليحدث مدلول هذا الأمر ، وهو التقوى ، لكن أكان رسول الله ﷺ غير تقي حتى يأمره ربه بالتقوى ؟

نقول : ليس بالضرورة أنْ يكون الرسول عصى ، فيأمره الله بتقواه ، لكن الحق سبحانه ينشىء مع رسوله كلاماً بداية دون سابقة عصيان . أو : أنه الأمر الأول بالتقوى كما تقول لولدك في بداية الدراسة : اجتهد وذاكر دروسك ، وأنت تعرف أنه مجتهد ، لكن لا بُدَّ من تقرير المبدأ في بداية الأمر .

ثم إن الحدث يحدث في أزمنة ثلاثة : ماضٍ وحال ومستقبل ، فإذا طلب من شخص فعل شيء هو مقيم عليه بالفعل كقوله تعالى :
﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ١٣٦﴾ [النساء]

فالحق سبحانه يأمرهم بالإيمان ، مع أنه وصفهم وخاطبهم بلفظ الإيمان ؛ لأن المعنى : أنتم آمنتم قبل أنْ أُكلمكم ، وهذا الإيمان السابق لكلامي ماض ، وأنا أريد منكم أنْ تُحدثوا إيماناً جديداً ، حالاً ومستقبلاً ، أريد أنْ تُجدِّدوا إيمانكم ، وأنْ تستمروا عليه .

فمعنى : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. ①﴾ [الأحزاب] أي : واصل تقواك حالاً ، كما فعلتها سابقاً ، وواصلها مستقبلاً ، فلا تنقطع عنها أبداً .

أو : أن تقوى الله أمر يلصق الإنسانَ بربه ، والله كلَّف بأشياء ،

ثم أباح لك من جنس التكليف أشياء ، فإذا قال الله لرسوله ﴿ اتَّقِ اللَّهَ .. ① ﴾ [الأحزاب] فهى غير قوله لنا : اتقوا الله ، فالأمر لنا نحن بالتقوى . أى : نفِّذ ما فُرِض عليك ، أما فى حق رسول الله فهى بمعنى : ادخل فى مقام الإحسان ، وجدِّده دائماً ؛ لأن مراقى القبول من الله لا تنتهى ، كما أن كمالات العطاء فى الله لا تنتهى .

لذلك قال ﷺ : « من استوى يوماه فهو مغبون »[1] أى : من استوى يومه مع أمسه فى قُرْبه من الله فهو خاسر ، لماذا ؟ لأنه ينبغى للمؤمن أنْ يزيد فى قُرْبه وفى مودته ، وعلاقته بالله يوماً بعد يوم ؛ لأن نِعَم الله عليك متوالية تستوجب شكراً متوالياً ، وحمداً دائماً .

كما أن الحق سبحانه لا يكتفى من رسوله بما يكتفى به من سائر الخلق ، إذن : فالتقوى بالنسبة لرسول الله غير التقوى بالنسبة لسائر الخلْق ، التقوى فى حق رسول الله مجالها واسع ، وللرسول مع الله فيوضات لا تنتهى .

لذلك حين يناديك ربك للصلاة فى كل يوم خمس مرات ، فاعلم أن فضله عليك غير مكرر ، بل فضله متجدد ، فعطاؤه لك فى الظهر

---

(١) ذكره الزركشى فى « التذكرة فى الأحاديث المشتهرة » (ص ١٣٨) بطوله « من استوى يوماه فهو مغبون ، ومن كان آخر يومه شراً فهو ملعون ، ومن لم يكن على الزيادة فهو فى النقصان فالموت خير له ، ومن اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ، ومن أشفق من النار لهى عن الشهوات ، ومن ترقب الموت هان عليه اللذات ، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات » وقال : « أسنده صاحب مسند الفردوس (الديلمى) من حديث محمد بن سوقة عن الحارث عن على مرفوعاً وهو إسناد ضعيف » ، قال الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء (٤/٣٣٥) : لا أعلم هذا إلا فى منام لعبد العزيز بن أبى رواد قال : رأيت النبى ﷺ فى النوم فقلت : يا رسول الله ، أوصنى ، فقال ذلك بزيادة فى آخره رواه البيهقى فى الزهد .

غير عطائه لك فى العصر ، غير عطائه لك فى المغرب ، وهكذا تكون التقوى عملاً متواصلاً ممتداً .

ولذلك يحذرنا أهل الخير أن نداوم مع الله فى شىء من الطاعة ، ثم نقصر عنها ، كذلك يحذرنا الشرع أنْ ننذر لله ما لا نستطيع الوفاء به ، لأنك بالنذر تفرض على نفسك الطاعة ، فأجملْ بك أنْ تظل فى مقام التطوع ، إنْ خفّت نفسك للطاعة أدِّها ، وإنْ قصَّرت فلا شىء عليك .

وكونك تفرض على نفسك شيئاً من الطاعات من جنس ما فرض الله عليك . يعنى : أنك أحببتَ الطاعة وحلَتْ لك العبادة ، حتى زدتَ الله منها ، فقلت مثلاً : نذرتُ لله أن أصلى من الركعات كذا ، أو أتصدَّق بكذا من المال ؛ لأنك رأيتَ فى الصلوات الخمس إشراقات وفيوضات من الله فزدْتَ منها .

والحق سبحانه يطلب منا حين ينادينا للصلاة أنْ نسعى للمسجد ، مع أن الأرض كلها مسجد وكلها طهور ، لكن المسجد خُصِّص للصلاة ، فينبغى أنْ تُؤدَّى فيه . وأنت فى صلاة ما دُمْتَ تسعى للصلاة ، فمَنْ كان بعيد البيت عن المسجد عليه أنْ يأتى الصلاة فى سكينة ووقار ، ولا يخرج عن هذا السَّمْت حتى وإنْ تأخر عن تكبيرة الإحرام .

وقد ورد فى حديث سيدنا رسول الله : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون ، وأتوها تمشون وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلُّوا وما فاتكم فأتموا »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (٦٠٢) كتاب المساجد من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وهناك مطلوب إيمان ومطلوب إحسان : مطلوب الإيمان هو ما فرضه الله عليك ، وجاء في الحديث القدسي : « ما تقرَّب إليّ عبدى بشيء أحبّ إليّ مما افترضته عليه »[1]

فإنْ أردتَ أن تتقرب إلى الله فتقرَّب إليه بما يحب ، ومن جنس ما فرضه عليك ، فالله أمرك بصلاة وصيام وزكاة ، فإنْ حلَتْ لك هذه العبادات فزدْ منها فوق ما فرضه الله عليك ، وحين تزيد اعرف أنه مسَّتْكَ نورانية الإشراق في العبادة فقلت : الله يستحق منى فوق ما كلَّفنى ، وهذا هو مقام الإحسان .

وسبق أنْ تحدثنا عن هذا المعنى في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات]

وهل فرض الله على عبده ألاَّ يهجع إلا قليلاً من الليل ؟ لا بل لك أنْ تُصلى العشاء ، وتنام حتى صلاة الفجر ، كذلك في الاستغفار ، أما الذي لا يهجع من الليل إلا قليلاً ويقوم في السَّحَر للاستغفار ، فلا بُدَّ أنه حلَتْ له العبادة ، وحلا له الوقوف في حضرة ربه ـ عز وجل ـ فدخل في مقام الإحسان .

ثم الإحسان نوعان : إحسان كم ، وإحسان كيف ، إحسان الكم بأنْ تزيد على ما فُرض عليك ، فتصلى فوق الفرض وتُزكِّى فوق الفرض ، أما إحسان الكيف فبأنْ تخلص في عبادتك لله ، وأنْ تعبد الله

---

(١) جزء من حديث قدسى ، أخرجه البخارى في صحيحه (٦٥٠٢) من حديث أبى هريرة ، وأخرجه أحمد في مسنده (٦/٢٥٦) من حديث عائشة ، وقد أفاض فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى في شرح هذا الحديث في كتاب « الأحاديث القدسية » (١/٨٧) بتحقيقنا .

كأنك تراه ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك[1] يعني : إذا لم يكُن لديك الإشراق والشفافية التي تريك الله ، فلا أقلَّ من أنْ تعبده على أنه يراك .

وساعة تدخل في مقام الإحسان فأنت حرٌّ إذن فيما تقدم من الإحسان ، كما قال سبحانه : ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ .. (٩١)﴾ [التوبة] على حسب ما تخفّ نفسك للطاعة ، خفَّتْ لخمس ركعات ، خفَّتْ لعشر ، خفَّت لخمسة بالمائة في الزكاة ، خفَّتْ لعشرة .. الخ أنت حر .

ألا ترى أن الحق سبحانه لما تكلم عن هذا المقام قال : ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾ [الذاريات] أما في الزكاة المفروضة فقال : ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤)﴾ [المعارج]

إذن ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. (١)﴾ [الأحزاب] أي : تقوى تناسب مقامك من ربك ؛ لأن عطاءات الله سبحانه لا تتناهى ، كما أن كمالاته لا تتناهى ، لذلك كان سيدنا رسول الله يقوم الليل حتى تتفطر قدماه ولما سألته السيدة عائشة : تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً »[2] .

يعني : العبادة لا تكون لمجرد الثواب والمغفرة ، إنما هناك درجات وارتقاءات أخرى .

---

(١) هو حديث جبريل المشهور الذي أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم في صحيحه (٨) من حديث عمر بن الخطاب ، أن جبريل أتى رسول الله ﷺ بين أصحابه في صورة رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه أحد ، وأخذ يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان ، ورسول الله يجيبه .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٨٣٧) وكذا مسلم في صحيحه (٢٨١٩) من حديث عائشة رضي الله عنها .

والتقـوى : قلنا أنْ تجعل بينك وبين ما يمكن أنْ ينشـأ منه ضـرر لك وقاية ، لكن كـيف نجعل بيننا وبين ربنا سبـحانه وقاية ، ومهـمة التقوى أن تندمج مع الله فى معيته ؟ هذا فى حق مَنْ يتحكم جيداً فى نفسه ، ويحملها على منهج الله .

قالوا : لأن لله تعـالى صفات جلال وصـفات جمال ، ولكل صـفة منها مطلوب ، فـالله تعالى غفـور رحيم ، وهو أيضـاً سـبحانه القـهار الجبـار المنتقم ، الله سبحـانه هو الضار وهو النافع ، إذن : فصـفات الجمال هى التى تُؤتى الإنسان الخير الذى يحبه ، وصفات الجلال هى التى تتـسلط على مَنْ يخالـف . فعلى العـبد دائمـاً أنْ يظل خائفـاً من صفات الجلال راجياً صفات الجمال .

إذن : تقوى الله تكون بأنْ تجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية ؛ لأنك لستَ مطيقـاً لهذه الصـفات ، ولا تطيق مسَّـة خفيـفة من النار ، وهى جند من جنود الله فاحذرها .

وعرفنا فى مسألة الشفاعة أن الصيام والقرآن يشفعان لصاحبهما ، وأن الله يُشـفِّع بعض المؤمنين ، ويُشـفِّع الأنبيـاء والملائكة ، ثم بـعد ذلك تبقى شفاعة أرحم الراحمين ، فكيف يشفع الله عند الله[1] ؟

---

(١) عن أبى بكر الصديق فى حديث طويل عن رسول الله ﷺ قـال : « عُرض علىَّ ما هو كائن من أمر الدنيا وأمر الآخرة ، فجمع الأولون والآخرون بصعيد واحد .. حتى قال : ثم يقال : ادعوا الصديقين فيشفعون ، ثم يقال : ادعوا الأنبياء فيجـىء النبى ومعه العصابة ، والنبى ومعه الـخمسة والسـتة ، والنبى ليس معه أحـد . ثم يقال : ادعوا الشهـداء فيشفـعون لمن أرادوا ، فـإذا فعلت الشـهـداء ذلك يقول الله : أنـا أرحم الراحمـين ، أدخلوا جنتى من كـان لا يشرك بى شـيئـاً فيدخلون الجنـة » الحديث أخرجـه أحمـد فى مسنده (١/٤) وأورده الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٧٤) والسيوطى فى « البدور السافرة فى أمور الآخرة » (ص ١١٩) .

قالوا : أى تشفع صفات الجمال عند صفات الجلال ، فحين يذنب العبد ذنباً تتسلط عليه صفات الجلال لتعاقبه ، فتتصدى لها صفات الجمال ، وتشفع عندها لتسقط ما لها عنده من حق .

ثم يقول سبحانه مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ۝١﴾ [الاحزاب] فهل حين يتقى رسول الله ربه أيطيع الكافرين والمنافقين ؟ قالوا : جمع القرآن بين الأمر بالتقوى والنهى عن طاعة الكافرين والمنافقين على الالتزام ، تقول : أكرم فلاناً وفلاناً أيضاً ، فلم تقل لا تكرم إلا فلاناً ، إذن : فعطف لا تُطع الكافرين والمنافقين على ﴿اتَّقِ اللَّهَ .. ۝١﴾ [الاحزاب] بالالتزام .

والنبى ﷺ حينما جاء جاء على نظام كونى أعده الله تعالى لخَلْقه ، وحين خلق الله الخَلْق أخذ على الإنسانية كلها بكل أفرادها من آدم إلى أن تقوم الساعة - أخذ عليهم العهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. ۝١٧٢﴾ [الأعراف] فشهدوا لله تعالى قبل أنْ تتهيأ لهم المعاصى والشهوات .

فإذا أصابت الناسَ غفلةٌ أو نسُوا هذا العهد بعث الله لهم من رسله مَنْ يُذكِّرهم ؛ لذلك خُوطِب النبى ﷺ بقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ .. ۝٧﴾ [الرعد]

وقال سبحانه عن الرسل : ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ .. ۝١٦٥﴾ [النساء] يعنى : ليسوا منشئين تقوى وطاعة ، إنما مذكرون بقضية معلومة سلَفاً من الأزل ، وما هم إلا مبشرون بالثواب لمن أطاع ، ومنذرون بالعذاب لمن عصى ، والحق سبحانه يريد من عباده أنْ يكونوا على ذكر دائم لهذه الحقيقة وألاَّ يغفلوا عنها .

والغفلة تأتى إما من شهوة النفس أو كسلها عن مطلوب شاق

للعبادة أو وسوسة من غير مطيع فى أذنك ، سواء أكان من شياطين الإنس أو من شياطين الجن ، كما قال تعالى : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ .. (١١٢) ﴾ [الأنعام]

وقلنا : إن المنحرف يحسد المستقيم على استقامته ، لكنه لا يستطيع أنْ يتحمل تبعات هذه الطاعة ، فلا أقلَّ من أنْ يحاول أنْ يجذب المستقيم إليه ، فيوسوس له ويصرفه عن صفة الكمال التى له ؛ لذلك حين يوسوس لك صاحبك بشىء من معصية الله فأول شىء ينبغى أنْ تفطن إليه أنه يكرهك ، ولا يريد لك الخير الذى يعجز هو عن إدراكه ، فهو لا يريد لك أنْ تتميز عليه بشىء .

إذن : الكافرون والمنافقون الذين يصادمون دعوة الرسل لم يقدروا على أنْ يحملوا أنفسهم على منهج الله ، ولا أنْ يلتزموا كما التزم المؤمنون ، فلا أقلَّ من أنْ يحولوا بين المؤمنين وبين المنهج الجديد الذى جاء به رسول الله .

وقلنا : إن الرسول لم يأتِ إلا لضرورة ، هى انطماس معالم المنهج عند المرسل إليهم ، وانعدام الرادع فى النفس البشرية أولاً ثم فى المجتمع ككل ، فالإنسان حين يغفل تُذكِّره النفس اللوامة وتردُّه عن المعصية ، فإذا ما ضعف سلطان هذه النفس تحكمتْ فيه النفس الأمَّارة بالسوء وصرفتْه عن الخير كله ، فلم يَبْقَ له رادع إلا فى المجتمع الإيمانى الذى يقوم بدوره فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وهذه هى ميزة الخيرية فى هذه الأمة التى قال الله فيها : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران]

فإذا انطمس هذا المبدأ فى المجتمع أيضاً حتى لم يَعُدْ فيه آمر بمعروف ولا ناهٍ عن منكر ، فلا بُدَّ أنْ تتدخَّل السماء بإيقاظ جديد برسول جديد ، لكن أمة محمد ﷺ من شرفها عند ربها وشرفها برسولها أن الله منحها هذه الخيرية ، بحيث لا يعدم فيها الأمر بالمعروف ولا النهى عن المنكر أبداً ؛ لذلك لا يجيء رسول بعد رسول الله ﷺ ؛ لأنها أمة مأمونة .

ولا بُدَّ للأمة التي توفرتْ لها هذه المناعة الجماعية الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر أنْ يكون لها وَعْيٌ إيماني وفهم جيد لهذه المهمة ، وقد وردت فيها مذكرة الإيضاح التفسيرية من سيدنا رسول الله حين قال : « مَنْ رأى منكم منكراً فليُغيِّره بيده ، فإنْ لم يستطع فبلسانه ، فإنْ لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »[1] .

فالمشرِّع قدَّر عدم الاستطاعة ، فجعل لكل خطوة من أمر بمعروف أو نهى عن منكر مجالاً : متى أُغيِّر المنكر بيدى ؟ ومتى أُغيره بلسانى ؟ ومتى أغيره بقلبى ؟

أغيره بيدى فيمن أملك الولاية عليه ، حيث أتمكن من التغيير ، فإنْ كان المُنْكَر ممن لا ولايةَ لي عليه ، فعليَّ أنْ أغيره بلسانى فى ضوء قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل] بالأسلوب الحسن الجميل ،

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٠ ، ٥٢) ، وابن ماجه فى سننه (١٢٧٥ ، ٤٠١٣) وأبو داود فى سننه (١١٤٠) من حديث أبى سعيد الخدرى بلفظ « من رأى منكراً فاستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

لكن نجد بعض الدعاة يدعون على غير بصيرة ، فيغفلون مسألة الاستطاعة ، ولا يجعلون لعدم الاستطاعة مجالاً ، ويميلون إلى تغيير المنكر كله باليد ، وهذا مخالف لأمر رسول الله .

فإنْ توقعتَ أنْ يصيبك ضرر فلتغير المنكر بقلبك ؛ لأن الهدف أن تستقطب المنحرف إلى جهة الاعتدال ، وهذا لا يتم إلا باللين وبالرفق حتى لا تجمع عليه شدتين : الأولى أنْ تُخرِجه مما يألف ، والثانية : أنْ تُخرِجه عما يألفه بما يكرهه .

ويخطىء الكثيرون في فهم تغيير المنكر بالقلب فيظنون مثلاً أن تقول في نفسك : اللهم إن هذا منكر لا يرضيك وأنا أنكره ، هذا مجرد إنكار باللسان والله لا يريد كلمة تخرج من أفواههم ، إنما يريد منا عمل القلب الذى يتبعه عمل الجوارح ، فقالبك في هذا الإنكار تابع لقلبك .

فحين ترى مَن استشرى في العصيان والطغيان وأنت لا تقدر على نهيه ، لا بيدك ولا بلسانك ، ولا تستطيع مواجهته ، فعليك أن تكون كارهاً لعمله معرضاً عنه ، مهملاً له ، فلا تجامله في حزن ولا تُهنِّئه في فرح ولا تساعده إن احتاج .. الخ .

عليك أنْ تعزله عن مجتمعك ، فإذا فعل معه الجميع هذا الفعل ، وسلكوا معه هذا المسلك سقط وحده وارتدع .

لذلك لم نر النبى ﷺ صنع سجناً للمسلمين المخالفين ، إنما جعل سجنهم في عزل المجتمع الإيمانى لهم ، أو سجن المجتمع عنهم ، لا يكلمهم ولا يتعامل معهم ، حتى الزوجة عزلها الشرع عن زوجها لا يقربها حتى يقضى الله في أمره .

أتذكرون قصة كعب بن مالك[١] ، وكيف عزله المجتمع الإيمانى وكان من الثلاثة[٢] الذين خُلِّفوا عن رسول الله فى غزوة تبوك ، حتى قاطعه أقرب الناس إليه ، فلما تسوَّر الحديقة على ابن عمه وقال : تعلم أنى أحب رسول الله فلم يرد عليه .

وتأتى زوجة[٣] هلال إلى رسول الله وقد كان أحد الثلاثة أيضاً ، وتقول : يا رسول الله ، إن هلالاً رجل كبير السن ، ليس له ما للرجال فى النساء ، فقال لها : اخدميه لكن لا يقربنك . وقد ظل هؤلاء فى هذه العزلة حتى أن القرآن قال فيهم : ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ .. (١١٨)﴾ [التوبة]

هكذا التزم المسلمون الأوائل بشرع الله ، واستطاعوا لا نقول سجن المخالف ، إنما سجن المجتمع عنه ، وهذه المسألة هى سبب الأزمة التى تعيشها بلدنا الآن ، فالمجرم الذى يعيش بيننا ، أليس معلوماً لأهل المنزل الذى يعيش فيه ، بل لأهل الحى والشارع ؟

فهل ذهب واحد منهم إلى تاجر فقال له : أعطنى كذا فقال :

---

(١) هو : كعب بن مالك الأنصارى ، شاعر رسول الله ﷺ ، أمه ليلى بنت زيد من بنى سلمة ، كنيته أبو عبد الرحمن ، شهد العقبة مع سبعين من الأنصار ، شهد أحداً والخندق والمشاهد كلها ، إلا تبوك ، تخلف عنها ، وتاب الله عليه ، ذهب بصره فى آخر حياته وتوفى عام ٥٠ هـ فى خلافة معاوية عن ٧٧ عاماً .

(٢) الثلاثة الذين خلفوا هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن ربيعة .

(٣) هى : خولة بنت عاصم امرأة هلال بن أمية [قاله ابن حجر فى الفتح ٨/١٢١] ، ويروى مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) والبخارى فى صحيحه (٤٤١٨) أن امرأته جاءت رسول الله ﷺ وقالت : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ولكن لا يقربنك فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شىء ، ووالله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

لا ليس عندى وقاطعه ؟ هل سلَّم واحد منهم على شخص ، فلم يردّ عليه السلام ؟

إذن : المجتمع كله يتحمل هذه المسئولية ، ويتحمل الإثم عليها ؛ لأنه تستَّر على هؤلاء ، لدرجة أن نقول : إن المجتمع نفسه مجرم أكثر من المجرمين .

وينبغى قبل أنْ نتكلم عن المجرم نتكلم معه نحاوره وننصحه ونحسن إليه قبل أن نقاطعه ، نفهم هذا المعنى من قول سيدنا رسول الله ﷺ : « أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »[1] ولم يقل على سلطان جائر . فقبل أنْ نفضحه ونُشنِّع عليه يجب أنْ نتكلم معه ، وأنْ ننصحه حتى يعلم أنك تريد به الخير ، وتريد أنْ ترده إلى الجادة فيقبل منك ، وعلى الأقل لا يضرك ، إنما آفتنا أننا نُشنِّع على المجرم، وربما نُحمِّله فوق الصدق الواحد ألف كذب لمجرد كراهيتنا له .

لذلك قال العربى فى صفات الناس : إنْ علموا الخير أخفوه ، وإنْ علموا الشر أذاعوه ، وإنْ لم يعلموا كذبوا .

إذن : معنى التغيير بالقلب أن يكون قالبك موافقاً لقلبك ، وهذه لا تُكلِّفك شيئاً ، على خلاف التغيير باليد أو باللسان ؛ لذلك وصفه رسول الله بأضعف الإيمان ، يعنى أنها مسألة يقوم بها الضعيف .

وبعزل المجتمع عن المجرم تنتهى ظاهرة الإجرام ، وما استشرى الإجرام إلا حين خاف الناس من المجرمين وتملّقوهم وتودّدوا إليهم ربما لاتقاء شَرِّهم ، ولم لا يزداد المجرم فى إجرامه والأمر كذلك ؟

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٩ ، ٦١) ، والترمذى فى سننه (٢١٧٤) وحسَّنه وأبو داود فى سننه (٤٣٤٤) من حديث أبى سعيد الخدرى . ولفظ الترمذى : « إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .

لذلك جعل الشارع الحكيم الدية فى القتل الخطأ ليست على القاتل وحده ، إنما على العاقلة أى : على جميع العائلة لأنها المنوط بها تقويم أبنائها ، والأخذ على أيدى المنحرف منهم ؛ لأنها هى التى ستتحمل العاقبة ، وبذلك يحدث التوازن فى المجتمع .

والحق - سبحانه وتعالى - حين وضع المنهج الذى يُنظِّم حياة الخَلْق يريد سبحانه الخير لخلقه ، وهو سبحانه صاحب الخير ولا ينتفع منه بشىء ، فلو أن الخَلْق جميعاً كانوا على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد ذلك فى مُلْك الله شيئاً[1] .

ثم هو سبحانه خلق الإنسان ، وحدد مهمته فى الحياة ، ووضع له قانون صيانته فيها ، كما أن صانع الآلة يحدد الهدف منها قبل صناعتها ، وحدد لها قانون صيانتها ، فالذى صنع الغسالة مثلاً رأى كيف تتعب المرأة فى عملية غسيل الملابس ، فصنع هذه الآلة لتقوم بهذه المهمة ، ولم يحدث أنْ صنع صانع آلة ، ثم قال : انظروا فى أىِّ شىء يمكن أنْ تُستخدم .

لذلك ، فَشَلُ العالم كله يأتى من أن الخَلْق يريدون أنْ يحددوا مهمة الإنسان ، ويضعوا له قانون صيانته ، ويغفلون أنه صنعة الله ، والذى يحدد مهمة الصَّنْعَة هو صانعها .

والحق سبحانه حدَّد لنا مهمتنا فى الحياة قبل أنْ يستدعينا إليها ،

---

(١) قطعة من حديث قدسى طويل ، أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة ، وأحمد فى مسنده (٥/١٥٤ ، ١٧٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه ، ولفظ الحديث : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئاً » .

واقرأ إنْ شئتَ قولَ ربك : ﴿ الرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ ﴾ [الرحمن]

فالحق سبحانه قبل أنْ يخلق الإنسان وضع له المنهج ، وحدَّد له مهمته وقانون صيانته فى قرآنه الكريم ، كما يحدد الصانع مهمة صَنْعته أولاً ، فإنْ حدث فى هذه الصنعة عَطَب فيجب أنْ تُردَّ إلى الصانع ، وإلى قانون الصيانة بافعل ولا تفعل ؛ لأنه سبحانه هو الذى خلق ، وهو الذى يعلم ما يصلح صنعته ويضمن سلامتها ، واقرأ إنْ شئتَ : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝١٤ ﴾ [الملك]

ويقول تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ .. ۝٥٩ ﴾ [النساء]

إذن : فآفة المجتمع البشرى أولاً : أنه يريد أن يُحدِّد لخَلْق الله مهمتهم ، وأن يتدخل فى صنعة ليست صنعته . ثانياً : حين يفسد المجتمع يجعلون له قوانين إصلاحية من عندهم ، وهل تركنا الله بدون منهج ، وبدون قانون صيانة ؟

لقد كان سيدنا رسول الله ﷺ وهو قدوتنا إذا حزبه أمر أو عَزَّ عليه شىء يُهْرع إلى ربه ، ويقف بين يديه فى الصلاة ، كما تعرض أنت آلتك أو جهازك على المهندس المختص ، فيصلح لك ما فيه من عطب ، وهذه مسألة مادية يصلحها المهندس بشىء مادى .

أما الحق سبحانه فغيب ، فحين يصلحك أنت أيها العبد يصلحك بقانون الغيب ، بحيث لا تدرى أنت كيف أصلحك ، المهم حين تعرض نفسك على ربك وعلى خالقك - عز وجل - تعود مُنْشرح الصدر ، راضياً طيِّب النفس .

الحق سبحانه يقول لرسوله : ﴿ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ..

(١)﴾ [الأحزاب] لأنهم أهل فساد يمارسونه وينتفعون به ؛ لذلك لا بُدَّ أنْ يصادموا الحق ، وأنْ يعترضوا طريقه ، وأساس الفساد في الكون أنْ يحب الإنسان أنْ يأخذ خير غيره ، وأن يكون دمه من عرق الآخرين ، فإذا جاء مَنْ يعدل هذا الميزان المائل وقفوا له بالمرصاد ؛ لأن دعوته تتعارض ومنافعهم .

والحق سبحانه بيَّن لنا على مدى موكب الرسل جميعاً أنه ما من رسول إلا كان له أعداء ومعاندون ، لكن سنة الله في الرسل أنْ تكون لهم الغلَبة في نهاية الأمر ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

إذن : فالله تعالى يريد منا الاستقامة على منهجه ، وأهل الفساد يريدون الانحراف عن هذا المنهج ، واقرأ : ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا .. (١٥٣)﴾ [الأنعام] يعني : استقامة على إطلاقها ، فمَنْ منكم يرينا فيه التواءً أو اعوجاجاً؟ ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ .. (١٥٣)﴾ [الأنعام]

فالصراط المستقيم واحد ، وسبيل الحق واحد ، أما الباطل والفساد فله سُبُل شتى ، وقد نبهنا سيدنا رسول الله ﷺ إلى هذه القضية حين خَطَّ للصحابة خطاً واحداً مستقيماً ، وعلى جانبيه خطوطاً[1] ، ثم تلا : ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : خط رسول الله خطاً بيده ، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خط عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ .. (١٥٣)﴾ [الأنعام] . أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٦٥) والحاكم في مستدركه (٢/٣١٨) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ .. (١٥٣) ﴾ [الأنعام]

وتعلَّمنا في علم الهندسة أن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين ، فلو خَطَّ مهندس طريقاً مستقيماً بين بلدين مثلاً تراه لو انحرف في بداية الطريق عدة سنتيمترات فإنها تبعده عن البلدة الأخرى عدة كيلو مترات .

إذن : الطريق المستقيم هو الذي يُسهِّل لك السفر ، ويقرب لك المسافة ، أما السبل المتعددة فإنها تهدر مجهودك وتشقُّ عليك ، حتى أنت في لغتنا العامية تقول لصاحبك : (تعال دُغرى) أو تقول (بلاش لف ودوران) كذلك يقول لك ربك : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ .. (١٥٣) ﴾ [الأنعام]

وإن كان طريق الحق واحداً ، فطرق الضلال متعددة ، فواحد فساده من ناحية المال ، وواحد من ناحية النساء ، وواحد يفسده المنصب والسلطان .. إلخ .

فإذا ما جاء رسول من عند الله يكبح جماح هؤلاء لا بُدَّ أن يتصادموا معه ؛ لذلك ينبه الحق ـ تبارك وتعالى ـ نبيه ﷺ : أول مراتب التقوى أن تتقى الله وحده ، ثم لا تُطع الكافرين والمنافقين ؛ لأنهم يريدون أنْ يأخذوك للشر والله يريدك للخير .

وقوله تعالى : ﴿ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. (١) ﴾ [الأحزاب] تعنى : أنه لا مانع أن تطيع غيرهم من أصحاب الرأى والمشورة من المؤمنين فيما لم يأتكَ فيه أمر من الله ؛ لذلك نزل سيدنا رسول الله في غزوة بدر على رأى الصحابى الجليل الحباب بن المنذر(١) لما قال

(١) هو : الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصارى ثم السلمى . قال ابن سعد وغيره : شهد بدراً . وكان يكنى أبا عمر . قال ابن سعد : مات فى خلافة عمر وقد زاد على الخمسين . [الإصابة ١ / ٣١٦] .

له : يا رسول الله ، أهذا منزلٌ أنزلكه الله ، أم هو الحرب والمكيدة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « بل هو الحرب والمكيدة » ، فقال : إذن هذا ليس لك بمنزل[1] .

وقد أشار سلمان الفارسى[2] على رسول الله بحفر الخندق فأخذ بمشورته ، والقاعدة الشرعية تقول : لا اجتهاد مع النص . فإذا لم يكُنْ فى المسألة نصٌّ فلا مانع من أنْ تطيع المؤمنين الناصحين لك ، المشيرين عليك بالخير .

فالحق سبحانه لم يمنع عن رسوله نُصْح الناصحين ، ولم يحرمه مشورة أهل الرأى .

وقد اختلف الناس حول استشارة الحاكم : أهي ملزمة له أم غير ملزمة ؟ وإجابة هذا السؤال فى قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .. (١٥٩) ﴾ [آل عمران]

فللحاكم أنْ يسمع المشورة ، وأنْ يقارن بين الآراء ويفاضل بينها ، ثم يكون له وحده القرار النهائى ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ .. (١٥٩) ﴾ [آل عمران] أى : أنت وحدك .

وفى العالم المعاصر نرى الأنظمة إذا احتاجت إلى أَخْذ الآراء فى موضوع ما ترجح الجانب الذى به الرئيس ، وهذا لا يصح ، فالآراء

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٢٥٩) وعزاه لابن إسحاق ، وتمامه أن الحباب ابن المنذر قال : : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما وراءه من القُلب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال ﷺ « لقد أشرت بالرأى » .

(٢) سلمان الفارسى صحابى ، من مقدميهم ، أصله من مجوس أصبهان ، عاش عمراً طويلاً ، جاب البلاد طلباً للحق وقرأ كتب الفرس والروم واليهود . ثم أسلم وآمن برسول الله ﷺ ، وقال عنه : سلمان منا أهل البيت ، جُعِل أميراً على المدائن ، فأقام فيها إلى أن توفى عام ٣٦هـ ، كان ينسج الخوص ويأكل خبز الشعير من كسب يده . [الأعلام للزركلى ٣/١١٢] .

تنير للرئيس الطريق ، وتوضح له الصورة ، وله هو القرار الأخير ؛ لأن الحيثية التى انتخبته من خلالها أنك تشهد له بالتفوق ، إذن : فهو الذى يرجح أحد الآراء .

وفَرْق بين المشورة والتفويض ، فحين يُفوِّض رئيس الدولة شخصاً أو هيئة لدراسة أمر من الأمور ، أو اتخاذ قرار ، فهى صاحبة الرأى ، وحين تعرض عليه ما توصلتْ إليه يعطيها الموافقة ؛ لأنه فوَّضها فى هذا الأمر ، إذن : التفويض يجيز لك اتخاذ القرار ، أمَّا المشورة فتقف عند عرض الرأى فحسب .

والرسول ﷺ كان لا يريد الخروج لغزوة أُحُد ، لكن لما شاور صحابته أشاروا عليه بالخروج لما عندهم من العزة والحماس لنصرة دين الله ، وظلوا برسول الله حتى استعد للحرب ، ولبس لها ملابسها ، ثم عادوا إلى رأيه ﷺ فى عدم الخروج . فقال ﷺ : « ما كان لنبى يلبس لامة الحرب ... »[(1)] .

وحدث ما حدث فى أُحُد ولم ينتصر المسلمون ، أما أبو بكر رضى الله عنه ـ فلم يستمع لمشورة المسلمين فى حرب الردة وصمَّم عليها[(2)] ، وقال : والله لأقاتلنهم ولو بالذر يعنى : بالحصى ، وانتصر

---

(١) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما جاءه المشركون يوم أحد كان رأى رسول الله ﷺ أن يقيم بالمدينة يقاتلهم فيها فقال له ناس لم يكونوا شهدوا بدراً : تخرج بنا يا رسول الله إليهم نقاتلهم بأحد ورجوا أن يصيبوا من الفضيلة ما أصاب أهل بدر ، فما زالوا برسول الله ﷺ حتى لبس أداته فندموا وقالوا : يا رسول الله أقم فالرأى رأيك فقال رسول الله ﷺ : « ما ينبغى لنبى أن يضع أداته بعد أن لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » . أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/١٢٩) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبى .

(٢) قال البخارى فى صحيحه (كتاب الاعتصام ـ باب قول الله تعالى : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران] (١٣/٣٣٨ ـ فتح البارى) : « لم يلتفت أبو بكر إلى مشورة إذ كان عنده حكم رسول الله ﷺ فى الذين فرَّقوا بين الصلاة والزكاة وأرادوا تبديل الدين وأحكامه ، وقال النبى ﷺ : « من بدَّل دينه فاقتلوه » .

الصِّديق ، وإليه يرجع الفضل فى إنقاذ دين الله من فتنة كادت تذهب به .

إذن : فاجعلوا من اختيار الله لرسوله ﷺ مُرجِّحاً ، فيأخذ منكم جميع الآراء ، ويستشيركم ، ثم ينفذ هو ما يراه مناسباً .

وهنا فَرْق بين الكافرين والمنافقين ، ولدينا بعض المصطلحات التى ينبغى أن نكون على علم بمدلولها : الإيمان والكفر والنفاق والجحد .

الإيمان : الإنسان منا له قلب يحمل النوايا ، وله قالب يعبر عنها ، كما قال الشاعر :

إنَّ الكَلاَم لَفِى الفُؤَادِ وإنَّمَا   جُعِلَ اللسَانُ علَى الفُؤَادِ دَليلاً

فالإيمان هو الحق الذى يعتقده القلب ، ويقتنع به ، ويوافقه اللسان والقالب ، أما إنْ وافق اللسان القلب فى الباطل فهذا هو الكفر .

لذلك قلنا : إن الكافر منطقى مع نفسه ؛ لأنه نطق بما فى قلبه ، لكنه غير منطقى مع الحق لأنه جحده بقلبه وجحده بلسانه ، فليس عنده اختلاف بين القلب واللسان .

أما النفاق فهو أنْ يعتقد القلب الكفر ويضمره ، ويعلن اللسان كلمة الإيمان ، فالمنافق يخالف لسانُه قلبَه ، فهو غير منطقى لا مع الحق ولا مع نفسه ؛ لذلك كان المنافق فى الدَّرْك الأسفل من النار ، لأنه أشرُّ من الكافر .

لذلك لما طلب سيدنا رسول الله من القوم أنْ يقولوا : لا إله إلا الله قالتها القلة المؤمنة ، وامتنعت الكثرة الكافرة ، لماذا ؟ لأنهم

يعرفون معناها ، وإلا لَقَالوها من بداية الأمـر ، وانتهت المواجهة بين الإيمان والكفر ، فعدم نُطْقهم بها دليل على فهمهم لها ولمطلوباتها .

أما الجاحد فعلى النقيض من المنافق ، فهو مقتنع فى نفسه ، لكنه لا يقدر على النطق بما يقتنع به من الحق ؛ لذلك يقول تعالى عنهم : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤) ﴾ [النمل]

ولما طال الجدل بينهم وبين رسول الله قالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال] بدل أن يقولوا : فاهدنا إليه .

وبعد أنْ قالوا فى القرآن أنه سحر ، وأنه أساطير الأولين .. الخ زهق باطلهم ، وكشف الله جحودهم ، حين حكى قولهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : فالقرآن لا غبارَ عليه وهو حق ، لولا أنه نزل على هذا الرجل بالذات ، ولو نزل على عظيم من عظماء مكة أو المدينة لآمنَّا به ، وهكذا أثبتوا إيمانهم بالقرآن ، والقرآن يستوجب أنْ يؤمنوا أيضاً بمحمد .

ومعلوم أن الإسلام صاح صيحته الأولى فى أُذن مَنْ ؟ فى أذن كفار مكة وسادة قريش والجزيرة كلها ، وقد كانت لهم الكلمة المسموعة والمنزلة الرفيعة بين العرب جميعاً لقيامهم على خدمة الحجيج ، ووقوع بلادهم على طرق التجارة بين الشمال والجنوب .

إذن : الإسلام لم يستضعف جماعة ليعلن فيهم صيحته الأولى ، إنما اختار السادة ، لكن الله تعالى لم يشأ أنْ ينتصر الإسلام فى مكة ؛ لأنه لو انتصر فيها لكان من الممكن أن يقال : قوم من قريش

تعصَّبوا لواحد منهم ليسودوا به العالم كما سادوا الجزيرة .

لذلك لما أعلن سيدنا رسول الله دعوته بين قومه أسرعوا إليه يقولون : يا محمد إنْ كنتَ تريد مُلْكاً ملّكناك علينا ، وإنْ كنت تريد مالاً جمعنا لك المال حتى تصير أغنانا .. فقال قولته المشهورة : « والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أنْ أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يُظهِره الله ، أو أهلك دونه »[1] .

فشاء الله أن تكون الصرخة الأولى في أذن السادة أصحاب الكلمة والسلطة في مكة ، وأن تكون نصرة الدين في المدينة ، لتعلم الدنيا كلها أن الإيمان بمحمد هو الذي خلق العصبية لمحمد ، وليست العصبية لمحمد هي التي خلقتْ الإيمان بمحمد .

ونفهم أيضاً من قوله تعالى : ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ①﴾ [الأحزاب] أن غير الكافرين وغير المنافقين لا يكون لهم أمر يُطاع مع أمر رسول الله ؛ لأن المؤمن برسول الله يتلقّى من رسول الله .

لذلك يُعَدُّ من الخطأ بمكان أن نقول : كيف فعل رسول الله كذا وكذا ؟ فنناقشه ونستدرك عليه ﷺ ، وكيف تجعل من نفسك أيها المؤمن ميزاناً وحكَماً يحكم على أفعال الرسول ويضعها في الميزان ؟

---

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (١/٢٦٦) معزواً لابن إسحاق ، أن قريشاً قالوا لأبي طالب : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنَّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ، فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له : يا بن أخي ، إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا وكذا ، فأبق عليَّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق ، فقال له ﷺ هذه المقالة .

كمن يـناقشون مـثلاً مـسألة تعـدد الزوجات ، ويصل بهم الـحدُّ إلى انتقاد رسول الله ، وكأنه يُجرى له محاكمة .

وكيف نعارض رسول الله فى هذا ، والله تعالى لم يعارضه ، ولم يُقلْه من مـسألة الرسالة ، بل ارتضى الله فـعْل رسوله وباركـه ، فلا تَجعل من نفسك مقياساً على رسول الله ؛ لأن الأصل أنه هو المقياس الذى نقيس عليه أفعالنا ، فـنسأل : أفعل رسول الله ذلك أم لم يفعل ؟ فإنْ فعل فعلنا .

ومن هذا المنطلق سُمِّى الصِّـديق صدِّيقاً ، فلما حـدَّثوه أن رسول الله يخبر أنه أتى بيت المقدس فى ليلة قال : إنْ كان قال فقد صدق[1] .

والحق سبحـانه حين ينهى رسوله عن طاعة الكافـرين والمنافقين إنما يُبيِّن له طبـيعتهم ، وحقيـقة عدائهم له ، فهُمْ غيـر مخلصين له ، وعليـه أن يتـهم أمـرهم إنْ أمـروه ويتهـم نهيـهم إنْ نَهـوْه ، وكـيف يُخلصـون فى أمره أو نهيـه ، وقد جـاء ليصـادم سيادتهم ، ويـكسر جبروتهم وكفرهم ؟

وهَبْهم مخلصين لك لأنك من قريش ، ويريدون نصرتك فينقصـهم فى نُصْحهم لك العلم والحكمة ، فلا يصـح إذن أنْ تقارن بين طاعة الله وطاعة هؤلاء ، مهما كانوا مخلصين لك .

كمـا نلحظ أن القوم فعـلاً طلبوا من رسول الله أشـياء ، فكأن الله نبـهه قـبل أنْ يطلبـوا منه إلى مـا يُطلب منه من مـخـالفـتهم وعـدم طاعـتـهم ، والطاعـة فـيـهـا مطيـع ومطاع ، وهـم يريدون أن يكونوا

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١٢) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقـال : اين عقـولكم ؟ أنا أصدِّقـه بخبر السـماء ، فكيف لا أصـدِّقه بخـبر بيت المـقدس ، والسماء أبعد منها بكثير .

مطاعين ، ورسول الله طائع ممتثل لأمرهم ، لكن كيف تقلب المسألة بهذا الشكل ، وما جاء رسول الله إلا ليُشرِّع للناس فيطيعوه ، فهو الذى يأمر ، وهو الذى يُطاع .

فكأن الرسول ﷺ يقول لهم : كيف أقارن بينكم وبين ربى ؟ وقد ثبت ذلك فقد جاء أبو سفيان وعكرمة بن أبى جهل والوليد بن المغيرة والأعور السلمى وانضم إليهم وفد ثقيف ، جاءوا جميعاً إلى المدينة واجتمعوا بعبد الله بن أُبىٍّ ، وعبد الله بن سعد بن أبى السرح ، وقد أمَّنهم رسول الله فقالوا : يا محمد كُفَّ عن آلهتنا : اللات والعزى ومناة ، واشهد بأن شفاعتهم تُقبل عند الله ، ونريد أن تحفظ لنا كرامتنا ومهابتنا بين العرب ، فمتِّعنا بآلهتنا سنة وأقرنا على ذلك ، ونتركك وشأنك مع ربك[1] .

فنهاه الله ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ①﴾ [الأحزاب] لأنك لا ينبغى أن تتراجع أمامهم فى شىء أبداً ، وإلاَّ لكنتَ خاضعاً لهذه السيادة المزعومة ، ولأعطيتَهم الفرصة حين تطاوعهم ؛ لأنْ يقولوا : لقد أطاعنا محمد فيصيرون هم الهادين ، وأنت المهدى .

ثم إن هذا الأمر بعدم طاعتهم وهم القادة والصناديد وما زالت الدعوة وليدة تحتاج إلى مهادنة مع أعدائها ، وربما يقول قائل : ولِمَ لم يهادنهم رسول الله حتى يشتدَّ عود الدعوة ، فهم سادة القوم وأصحاب الكلمة والمهابة ؟ لكن منطق الحق يرفض هذه المهادنة ، ويرفض أن يعتمد رسول الله إلا على الله ؛ لذلك قال فى الآية

---

(١) أورد الواحدى فى أسباب النزول (ص ٢٦) أن قوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ②﴾ [الكافرون] نزلت فى رهط من قريش قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره .

بعدها : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ③ ﴾ [الأحزاب]

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ① ﴾ [الأحزاب] فالعلم غير الحكمة ، العلم أن تعلم القضايا ، أمّا الحكمة فأنْ تُوظِّف هذه القضايا في أماكنها ، فالعلم وحده لا يكفي ، فالصفتان متلازمتان متكاملتان ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ㉖ ﴾ [القصص]

فالقوى إنْ كان خائناً لم تنفعك قوته ، كذلك إنْ كان الأمين ضعيفاً فلا تنفعك أمانته ؛ لذلك لما اشتكى أمير المؤمنين إلى أحد خاصته من أهل العراق ، يقول : إنِ استعملتُ عليهم القوى يَفْجُروه[1] ، وإن استعملتُ عليهم الضعيف يُهينوه ، فقال له : إن استعملت عليهم القوى فلك قوته وعليه فجوره ، فقال له أمير المؤمنين : ما دُمْتَ قد عرفتَ هذا فلا أُولِّي عليهم غيرك .

إذن : فالعلم يعطيك قضايا الخير كله ، والحكمة أنْ تضع الشيء في موضعه ، والقضية في مكانها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ[2] خَبِيرًا ② ﴾

---

(١) يفجرونه : يُغضبونه ويخالفونه . ويفجرونه أيضاً : يجعلونه يفجر فلا يرعى لهم حرمة [معنى ما في لسان العرب ـ مادة : فجر] .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٧/٣٥٧٥) : « قراءة العامة بتاء على الخطاب ، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم . وقرأ السلمي وأبو عمرو وابن أبي إسحاق « يعملون » بالياء على الخبر » ، أي : أن الله كان :
– بما تعملون من اتباع ما أوحى إلينا من ربنا ببلاغ رسلنا .
– بما يعمل الكافرون والمنافقون من الكيد للإسلام ومحاولة إبعادنا عن اتباعنا ديننا .

نلحظ هنا نهياً بين أمرين : الأول ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. ① ﴾ [الأحزاب] والآخر ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ .. ② ﴾ [الأحزاب] وبينهما النهى : ﴿ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ① ﴾ [الأحزاب] ووقوع هذا النهى بين هذين الأمرين ترتيب طبيعى ؛ لأنك إذا اتقيتَ الله ستُعلى منهج الحق ، وهذا يؤذى أهل الباطل وأهل الفساد المستفيدين به ، فلا بُدَّ أنْ يأتوا إليك يوسوسون فى أُذنك ليصرفوك عن منهج ربك ، وعليك إذن أنْ ترد الأمر إلى ما يوحى إليك وأنْ تتبعه .

وقلنا : إن الوحى : إعلام بخفاء ، فإنْ كان علانية فلا يُعَدُّ وحياً ، ولله تعالى فى وحيه وسائل كثيرة مع جميع خَلْقه ، فيوحى سبحانه إلى الجماد ؛ لأنه قادر على أن يخاطب الجماد ، كما فى قوله سبحانه وتعالى عن الأرض : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤ ﴾ [الزلزلة]

ويوحى إلى النحل : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ⑥⑧ ﴾ [النحل]

ويُوحِى إلى غير رسول أو نبى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي .. ①①① ﴾ [المائدة]

وقال : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ⑦ ﴾ [القصص]

هذا هو الوحى فى معناه العام ، أما الوحى الخاص فيكون من الله تعالى لرسول مُرْسَل من عنده إلى الخَلْق ، وله طرق متعددة ، فمرةً يكون بالنفث فى الروع ، ومرة يكون بالوحى بكلام لا يُرى قائله ، ولا يُعرف مصدره ، ومرة يكون عن طريق رسول ينزل به من الملائكة .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً .. ⑤① ﴾ [الشورى]

والقـــرآن الكريم لم يـأتِ بالإلهـام ولا بـالكلام من وراء الغـــيب والحُـجُب ، إنما جـاء عن طريق رسول ملَك نزل به علـى رسـول الله ، فثبت القرآن من هذا الطريق .

ولا بُدَّ في هذه المسألة من التقارب بين الرسول الملَك ، والرسـول البشر ، فلكل منهمـا طبيعته الخاصة ، ولكى يلتـقيا لا بُدَّ من أمرين : إما أنْ يرتفع البشر إلى مرتبة الملائكية بحيث يستقبل منها ، أو ينزل الملَك إلى مرتبة البشرية بحيث يستطيع أنْ يُلقنها .

لذلك جـاء في الحديـث أن جبـريل عليه الـسلام نزل إلى مـجلس رسول الله في صـورة بشـرية ليُعلِّم الناس أمور دينهم[1] . وكان النبى ﷺ في أول الوحى تأخذه قشـعريرة ، ويتصبب جبينه عـرقاً ، حينما يأتيه جبريل بالوحى ، وما ذاك إلا لالتقاء الملكية بالبشرية ، فكان ﷺ يبلغ به الجهد حتى يقول : زمِّلونى زمِّلونى ، دثِّرونى دثِّرونى .

وإذا جاءه الوحى وهو جالس مع أصحابه وركـبته على ركبة أحدهم يشعر لها بثـقل كأنها الجبل[2] ، أو يأتيه الوحى وهو على دابة فكانت تئط[3] ، لذلك فتـر عن رسول الله الوحى بعد فـترة ليسـتريح من هذا الإجهاد ، وتبقى له حلاوة ما أُوحى إليه ، فيتشوق إليه من جديد .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٨) من حديث عمـر بن الخطاب : أن جـبريل أتى رسـول الله ﷺ بين أصحـابه فى صورة « رجل شـديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه أحد » .

(٢) قال زيد بن ثابت (كاتب الوحى) : أنزل الله على رسوله ﷺ ، وفخـذه على فخذى ، فثقلت عليَّ حتى خفت أن تُرضَّ فخذى (أى : تكسر وتدق) أخرجـه البخارى معلقاً مجزوماً به فى كتاب الصلاة ـ باب ما يذكر في الفخذ ، ووصله فى تفسير سورة النساء .

(٣) عن أسـمـاء بنت يزيد قـالـت : إنى لآخـذة بزمـام العـضبـاء ناقـة رسـول ﷺ إذ أنزلت عليـه المائدة كلهـا فكادت من ثقلها تدق بـعضد الـناقة . أخـرجه الإمام أحـمد فى مـسنده (٦/٤٥٥) .

وبعدها خاطبه ربه : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ① وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ② الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ③ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ④﴾ [الشرح]

والهدف حينما يكون غالياً ، والغاية سامية يهون في سبيلها كل جهد ، وقد عاد الوحي إلى رسول الله بعد شوق ، وخاطبه ربه بقوله : ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⑤﴾ [الضحى]

إذن : ثبت القرآن بالوحي عن طريق الرسول الملَك ، ولم يثبت بالإلهام أو النفث في الرَّوْع ، أو الكلام من وراء حجاب ، يقول تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ.. ⑤②﴾ [الشورى]

والوحي هنا ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. ②﴾ [الأحزاب] منْ مَنْ ؟ ﴿مِن رَّبِّكَ .. ②﴾ [الأحزاب] ولم يقل مثلاً رب الخلق ، نعم هو سبحانه رب الخَلْق جميعاً ، لكن محمداً ﷺ سيد الخلق ، فهو رب الخلق من باب أوْلَى ، وكلمة (ربك) تدل على الحب وعلى الاهتمام ، وأنه تعالى لن يخذلك أبداً ، وما اتصاله بك إلا للخير لك ولأمتك .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ②﴾ [الأحزاب] الخبير مَنْ وصل إلى منتهى العلم الدقيق ، ومنه قولنا : اسأل أهل الخبرة . يعني : لا يسأل أهل العلم السطحي ، فالخبير هو الذي لا يغيب عنه شيء .

وتلحظ أن الآية السابقة خُتمتْ بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ①﴾ [الأحزاب] أي : عليماً بما يُشرِّع ، حكيماً يضع الأمر في موضعه ، وقال هنا : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ②﴾ [الأحزاب] أي : بما ينتهي إليه أمرك مع التشريع ، استجابةً أو رفضاً ، فربُّك لن يُشرِّع لك ثم يتركك ، إنما يَخْبُر ما تصنع ، ولو حتى نوايا القلوب .

فالخبرة تدل على منتهى العلم وعلى العلم الواسع ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى فى قصة لقمان : ﴿ يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَـٰوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [لقمان]

فالخبرة تدل على العلم الواسع الذى لا تفوته جزئية مهما صغرت ، واللطف هو التغلغل فى الأشياء مهما كانت دقيقة ، وقلنا : إن الشىء كلما لَطُفَ عَنُفَ .

فكأن الحق سبحانه يقول لرسوله : اطمئن ، فمهما صُودمتَ من خصومك ، ومهما تألَّبوا عليك ، فربُّك من ورائك لن يتخلى عنك ، وهؤلاء الخصوم خَلْقى ، وأنا معطيهم الطاقات المفكرة والطاقات العاقلة والطاقات المتآمرة ، وسوف أنصرك عليهم فى كل مرحلة من مراحل كيدهم لك .

لذلك لم يقووا عليك مناظرة ولا جدلاً ، ولم يقدروا عليك حين بيَّتوا لك ليضربوك ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمك بين القبائل ، وخرجتَ من بينهم سالماً تحثو التراب على رؤوسهم ، حتى لما استعانوا عليك بالسحر وبالجن أخبرتُك بما يدبرون لك ، ولم أُسلمْك لكيدهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾

يعنى : إياك أن تظن أن واحداً من هؤلاء سوف يساعدك فى أمرك ، أو أنه يملك لك ضراً ولا نفعاً ، فلا تُحسن الظن بأوامرهم ولا

بنواهيهم ، ولا تتوكل عليهم فى شىء ، إنما توكل على الله .

ولا بُدَّ أن نُفرِّق هنا بين التوكل والتواكل : التوكل أن تكون عاجزاً فى شىء ، فتذهب إلى مَنْ هو أقوى منك فيه ، وتعتمد عليه فى أن يقضيه لك ، شريطة أن تستنفد فيه الأسباب التى خلقها الله لك ، فالتوكل إذن أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب .

وقد ضرب لنا سيدنا رسول الله ﷺ مثلاً توضيحياً فى هذه المسألة بالطير ، فقال : « لو توكلتم على الله حقَّ توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً[1] وتروح بطاناً »[2] .

أما التواكل فأنْ ترفضَ الأسباب التى قدمها الله لك ، وتقعد عن الأَخْذ بها ، وتقول : توكلت على الله ، لا إنما استنفد الأسباب الموجودة لك من ربك ، فإنْ عزَّتْ عليك الأسباب فلا تيأس ؛ لأن لك رباً أقوى من الأسباب ؛ لأنه سبحانه خالق الأسباب .

لذلك ، كثير من الناس يقولون : دعوتُ الله فلم يستجب لى ، نقول : نعم صدقت ، وصدق الله معك ؛ لأن الله تعالى أعطاك الأسباب فأهملتها ، فساعة تستنفد أسبابك ، فثِقْ أن ربك سيستجيب لك حين تلجأ إليه .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ .. (٦٢) ﴾ [النمل] والمضطر هو الذى عزَّتْ عليه الأسباب ، وخرجتْ عن

---

(١) المخمصة : الجوع ، وهو خلاء البطن من الطعام جوعاً . ومعنى الحديث : أى تغدو الطير بُكرة وهى جياع ، وتروح عشاء وهى ممتلئة الأجواف . [لسان العرب ـ مادة : خمص] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٠ ، ٥٢) ، وابن ماجه فى سننه (٤١٦٤) ، والترمذى فى سننه (٢٣٤٤) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال : حديث حسن صحيح .

نطاق قدرته ، كما حدث لسيدنا موسى ـ عليه السلام ـ حين حاصره فرعون وجنوده حتى قال قوم موسى : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء]

نعم ، مدركون ؛ لأن البحر من أمامهم ، والعدو من خلفهم ، هذا رأى البشر وواقع الأمر ، لكن لموسى منفذ آخر فقال : (كلا) يعنى لن نُدْرَك ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء] قالها موسى عن رصيد إيمانى وثقة فى أن الله سيستجيب له .

والبعض يقول : دعوتُ الله فى كذا وكذا ، وأخذت بكل الأسباب ، فلم يستجب لى ، نقول : نعم لكنك لَسْتَ مضطراً ، بل تدعو الله عن ترف كمن يسكن مثلاً فى شقة ويدعو الله أنْ يسكن فى فيلا أو قصر ، فأنت فى هذه الحالة لست مضطراً .

ثم يذكر الحق سبحانه حيثية التوكل على الله ، فيقول ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣)﴾ [الأحزاب] أى : يكفيك أنْ يكون الله وكيلك ؛ لأنه لا شىء يتأبَّى عليه ، ولا يستحيل عليه شىء .

وأحكى لكم قصة حدثت بالفعل معنا ، وكنا نسير مع بعض الإخوان فرأينا رجلاً مكفوف البصر يريد أنْ يعبر الشارع فقلنا لزميل لنا : اذهب وخذ بيده ، فنزل وعبر به الشارع ثم قال له : إلى أين تذهب ؟ قال : إلى المنزل رقم كذا فى هذا الشارع ، فأخرج صاحبنا من جيبه عشرة جنيهات ووضعها فى يد الرجل ، فلما أمسك بورقة العشرة جنيهات لم يلتفت إلى المعطى ، إنما رفع وجهه إلى السماء وقال : لا شىء يستحيل عليك أبداً ، ثم قال لصاحبنا : يا بنى أرجعنى مكان ما كنت !! فقد قضيت حاجته التى كان يسعى لها !!

نعم ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣)﴾ [الأحزاب] لأنه لا تعوزه أسباب ، ولا

يُثنيه عن إرادته شيء ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦)﴾[النحل]

وفي التوكل ملحظ آخر ينبغي أنْ نتنبه إليه ، هو أنك إذا توكلتَ على أحد يقضي لك أمراً فاضمن له أنْ يعيش لك حتى يقضي حاجتك ، فكيف تتوكل على شخص وتُعلِّق به كل آمالك ، وفي الصباح تسمع نعيه : مات فلان ؟

إذن : لا ينبغي أن تتوكل إلا على الله الحي الذي لا يموت : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ .. (٥٨)﴾ [الفرقان] واستغنِ بوكالة الله عن كل شيء ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣)﴾ [الأحزاب]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ (١) وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ (٢) ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ (٤) ﴾

(١) سبب نزول الآية : قال مجاهد : نزلت في جميل بن معمر الفهري ، وكان رجلاً لبيباً حافظاً لما سمع ، فقالت قريش : ما حفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان ، وكان يقول : إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد ﷺ . فلما كان يوم بدر وهزم المشركون وفيهم يومئذ جميل بن معمر ، تلقاه أبو سفيان وهو معلق إحدى نعليه بيده والأخرى في رِجْله ، فقال له : يا أبا معمر ما حال الناس ؟ قال : انهزموا ، قال : فما بالك إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك ؟ قال : ما شعرت إلا أنهما في رجلي ، وعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده . [أسباب النزول للواحدي ص ٢٠١] .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٥٣٧٨/٧) : « أجمع أهل التفسير على أن هذا نزل في زيد ابن حارثة . وروى الأئمة أن ابن عمر قال : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزلت ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الأحزاب] » .

ترتبط هذه الآية بالآيات قبلها ، فقد ذكر الله تعالى معسكرين : معسكراً يجب أنْ يُطاع ، فقال تعالى لرسوله ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. ①﴾ [الأحزاب] وقال : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ .. ②﴾ [الأحزاب] وبينهما معسكر آخر نُهِي رسول الله عن طاعته ﴿ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ①﴾ [الأحزاب]

إذن : نحن هنا أمام معسكرين : واحد يمثل الحق فى أجلى معانيه وصوره ، وآخر يمثل الباطل ، وللقلب هنا دَوْر لا يقبل المواربة ، إما أنْ ينحاز ويغلب صاحب الحق ، وإما أنْ يغلب جانب الباطل ، وما دمت أنت أمام أمرين متناقضين لا يمكن أنْ يجتمعا ، فلا بُدَّ أن تُغلِّب الحق ؛ لأن الله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. ④﴾ [الأحزاب] إما الحق وإما الباطل ، ولا يمكن أنْ تتقى الله وتطيع الكافرين والمنافقين ؛ لأن القلب الذى يميل ويغلب قلب واحد .

ومعلوم أن القلب هو أهم عضو فى الجسم البشرى ، فإذا أصيب الإنسان بمرض مثلاً يصف له الطبيب دواءً ، الدواء يُؤخذ عن طريق الفم ويمرُّ بالجهاز الهضمى ، ويحتاج إلى وقت ليتمثل فى الجسم ، فإنْ كانت الحالة أشدَّ يصف حقنة فى العضل ، فيصبُّ الدواء فى الجسم مباشرة ، فإنْ كان المرض أشد يُعْطَى حقنة فى الوريد ، لماذا ؟

ليصل الدواء المطلوب جاهزاً إلى الدم مباشرة ، ليضخه القلب إلى جميع الأعضاء فى أسرع وقت . إذن : فالدم هو الذى يحمل خصائص الشفاء والعافية إلى البدن كله ، والقلب هو (الموتور) الذى يؤدى هذه المهمة ؛ لذلك عليك أنْ تحتفظ به فى حالة جيدة ، بأن تملأه بالحق حتى لا يفسده الباطل .

وسبق أنْ أوضحنا أن الحيز الواحد لا يمكن أنْ يسع شيئين فى وقت واحد فما بالك إنْ كانا متناقضين ؟ وقد مثَّلْنا هذه العملية بالزجاجة الفارغة إنْ أردتَ أن تملأها بالماء لا بُدَّ أنْ يخرج منها الهواء أولاً ليدخل مكانه الماء .

كذلك الحال فى المعانى ، فلا يجتمع حق وباطل فى قلب واحد أبداً ، وليس لك أنْ تجعل قلباً للحق وقلباً للباطل ؛ لأن الخالق جعل لك قلباً واحداً ، وجعله محدوداً لا يسع إلا إيمانك بربك ، فلا تزاحمه بشىء آخر .

ويُرْوَى أنه كان فى العرب رجل اسمه جميل بن أسد الفهرى[1] وكان مشهوراً باللسَن[2] والذكاء ، فكان يقول : إن لى قلبين ، أعقل بواحد منهما مثل ما يعقل محمد ، فشاء الله أنْ يراه أبو سفيان وهو منهزم بعد بدر ، فيقول له : يا جميل ، ما فعل القوم ؟ قال : منهم مقتول ومنهم هارب ، قال : وما لى أراك هكذا ؟ قال : مالى ؟ قال : نعل فى كفِّك ، ونعل فى رِجْلك ، قال : والله لقد ظننتهما فى رجلى ، فضحك أبو سفيان وقال له : فأين قلباك ؟

وإذا كان القلب هو المضخة التى تضخ الدم إلى كل الجوارح والأعضاء حاملاً معه الغذاء والشفاء والعافية ، كذلك حين تستقر عقائد الخير فى القلب ، يحملها الدم كذلك إلى الجوارح والأعضاء ،

---

(١) ذكر ابن حجر العسقلانى هذه القصة فى كتابه « الإصابة فى تمييز الصحابة » (١/٢٥٥) فى ترجمة جميل بن أسيد الفهرى يكنى أبا معمر ويلقب ذا القلبين ، وذكرها أيضاً فى ترجمة وهب بن عمير الجمحى (٦/٣٢٧) ثم قال : « ذكر الثعلبى هذه القصة لجميل بن معمر ، وأن الذى تلقاه فسأله هو أبو سفيان ، وأسنده ابن الكلبى فى تفسيره عن أبى صالح عن ابن عباس لكن قال : جميل بن أسد » .

(٢) اللَّسن : الفصاحة ، واللسْن : الكلام واللغة . [لسان العرب ـ مادة : لسن] .

فتتجه جميعها إلى طاعة الله ، فالرِّجْل تسعى إلى الخير ، والعين لا تنظر إلا إلى الحلال ، والأذن تسمع القول فتتبع أحسنه ، واللسان لا ينطق إلا حقاً .

فكل الجوارح إذن لا تنضح إلا الحق الذى تشرَّبته من طاقات الخير فى القلب .

لذلك يُعلِّمنا سيدنا رسول الله هذا الدرس ، فيقول : « إن فى الجسد مضغة ، إذا صَلُحَتْ صَلُحَ الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[1] .

ثم يأخذ الحق سبحانه من مسألة اجتماع المتناقضين فى قلب واحد مقدمة للحديث عن قضايا المتناقضات التى شاعتْ عند العرب ، فيقول سبحانه : ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ** .. (٤) ﴾ [الأحزاب]

وقد شاع فى الجاهلية حين يكره الرجل زوجته ، يقول لها : أنت علىَّ كظهر أمى ، ومعلوم أن ظهر الأم مُحرَّم على الابن حرمة مؤبدة ، لذلك كانوا يعتبرون هذه الكلمة تقع موقع الطلاق ، فلما جاء الإسلام لم يجعلها طلاقاً ، إنما جعل لها كفارة كذب ؛ لأن الزوجة ليست أماً لك ، وحدد هذه الكفارة إما : عتق رقبة ، أو إطعام ستين مسكيناً ، أو صيام ستين يوماً[2] .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) ، من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

(٢) قال تعالى فى كفارة الظهار : ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)﴾ [المجادلة] .

وهذه المسألة تناولتها سورة (قد سمع) : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا .. (٢) ﴾ [المجادلة] أى : كذباً ؛ لأن الزوجة لا تكون أماً .

فالحق سبحانه جاء بمتناقض ، وأدخل فيه متناقضاً آخر ، فكما أن القلب الواحد لا تجتمع فيه طاعة الله وطاعة الكافرين والمنافقين ، فكذلك الزوجة لا تكون أبداً أماً ، فهى إما أم ، وإما زوجة .

كذلك وُجد عند العرب تناقض آخر فى مسألة التبنى ، فكان الرجل يستوسم الولد الصغير ، أو يرى فيه علامات النجابة فيتبناه ، فيصير الولد ابناً له ، يختلط ببيته كولده ، ويرثه كما يرثه ولده ، وله عليه كل حقوق الابن .

وهذه متناقضة أيضاً كالسابقة ، فكما أن الرجل لا يكون له قلبان ، وكما أن الزوجة لا تكون أماً بحال ، كذلك المتبنَّى لا يكون ولداً ، فيقول سبحانه ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ .. (٤) ﴾ [الأحزاب]

الدعيُّ : هو الذى تدعى أنه ابنٌ وليس بابن ، وكان هذا شائعاً عند العرب ، وأراد الله سبحانه أنْ يبطل هذه العادة ، ومثلها مسألة الظِّهار ، فألغى القرآن هذه العادات ، وقال : ضعوا كل شىء فى موضعه ، فجعل للظهار كفارة ، ونهى عن التبنى بهذه الصورة .

والحق سبحانه ساعةَ يريد أنْ يلغى حكماً يقدم صاحب الدعوى نفسه ليطبق هو أمام الناس ؛ لذلك جعل سيدنا رسول الله يبدأ بنفسه ، ويبطل التبنى الذى عنده .

تعلمون أن سيدنا رسول الله ﷺ تزوج من السيدة خديجة ، وكان

لها منزلة عند رسول الله ، وقد اشترى لها حكيم بن حزام[1] عبداً من سوق الرقيق هو زيد بن حارثة ، وكان من بنى كلب ، سرقه اللصوص من أهله ، وادعوْا أنه عبد فباعوه ، ثم أهدتْه السيدة خديجة لسيدنا رسول الله ، فصار مولىً لرسول الله ، يخدمه طيلة عدة سنوات ، وما بالكم بمَنْ يكون فى خدمة رسول الله ؟

لقد أحبَّ زيدٌ رسولَ الله ، وعَشِق خدمته ، وقال عن معاملته ﷺ له : « لقد خدمتُ رسول الله عشر سنين ، فما قال لشىء فعلتُه : لِمَ فعلتَه ، ولا لشىء تركتُه لِمَ تركتَه »[2] .

وفى يوم من الأيام ، رآه واحد من بنى كَلْب فى طرقات مكة ، فأخبر أهله به ، فأسرع أبو زيد إلى مكة يبحث عن ولده ، فدلُّوه عليه ، وأنه عند محمد ، فذهب إلى سيدنا رسول الله ، وأخبره خبر ولده ، وطلب منه أنْ يعود معه إلى بنى كلب .

ولكن ، ما كان رسول الله ليتخلَّى عن خادمه الذى يحبه كل هذا الحب ، فقال لأبيه : خيِّره ، فإنِ اختاركم فخذوه ، وإن اختارنى فأنا له أبٌ ، فلما خيَّروه ـ قال سيدنا زيد : والله ما كنت لأختار على رسول الله أحداً .

عندها أحب رسول الله أن يكافئه على هذا الموقف ، وعلى

---

(١) هو : حكيم بن حزام بن خويلد الأسدى ، عمته خديجة بنت خويلد ، ولد قبل الفيل بـ ١٣ سنة ، كان من سادات قريش ، وكان صديق النبى ﷺ قبل المبعث وكان يوده ويحبه بعد البعثة ،ولكن تأخر إسلامه حتى أسلم عام الفتح . فى عام وفاته خلاف ولكنه مات وعمره ١٢٠ سنة . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/٣٣] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٣٨) والترمذى فى سننه (٢٠١٥) من حديث أنس ابن مالك رضى الله عنه .

تمسّكه بخدمتـه ، فتبنّاه كما تتبنى العـرب ، وسمَّوْه بعدها : زيد بن محمد.[١]

فلما أراد الحق سـبحانه أنْ يبطـل التبنى بدأ بمتـبنَّى رسول الله ، ليكون هو القدوة لغيره فى هذه المـسألة ، فكيف أبطل الله تعالى هذه البنوة ؟

كـان سيـدنا رسول الله قـد زوَّج زيداً من ابنة عـمتـه زينب بنت جـحش ، أخت عـبد الله بن جـحش ، وقـد تعب رسـول الله فى إقناع عبدالله وزينب بهذه الزيجة التى رفضتها زينب[٢] ، تقول : كيف أتزوج زيداً وهو عبد وأنا سيدة قرشية ؟

ثم تزوجتـه إرضاءً لرسول الله ، وعـملاً بقـوله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** (٣٦) ﴾ [الأحزاب]

لكنها بعد الزواج تعالتْ عليه ، أنها من السادة ، وهو من العبيد ، فكَرِه زيد ذلك ، ولم يُطِقْ فـأحبَّ أنْ يطلقهـا ، فذهب إلـى رسول الله وشكا إليه ما كان من زينب ، وعرض عليه رغبته فى طلاقها .

فقال له رسول الله : أمسك عليك زوجك ، فعاوده مرة أخرى فقال

---

(١) أورده ابن سعد فى الطبقات الكبرى (٣/ ٤٠) ، وابن الأثير فى أسد الغابة (٢/ ٢٨٢) ، وابن حجر العسقلانى فى الإصابة (٢/ ٥٩٩) . وفيه أن رسول الله ﷺ قال عندما اختاره زيد على أبيه وعمـه : « يا من حضـر ، اشهـدوا أن زيداً ابنى أرثه ويرثنى ، فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا » .

(٢) أورد ابن سعـد فى الطبقات (١٠/ ٩٨) أن زينـب بنـت جـحـش قالت لرسـول الله ﷺ : يا رسول الله ، لا أرضاه لنفسى وأنا أيم قريش ، قال : فإنى قد رضيته لك ، فتزوجها زيد ابن حارثة .

له : أمسك عليك زوجك فعاوده زيد ، عندها علم رسول الله أن رغبتهما فى الطلاق ، وكراهيتهما للحياة الزوجية أمر قدرى ، أراده الله لحكمة ، ولأمر تشريعى جديد ، شاء الله أنْ يُوقع البغض بين زيد وزينب ، فبُغْض زينب لزيد كان تعالياً واستكباراً ، وبُغْض زيد لزينب كان اعتزازاً بالنفس .

ولكى يبطل الحق سبحانه تبنِّى رسول الله لزيد قضى بأنْ يتزوَّج رسول الله من زينب بعد طلاقها من زيد ، ومعلوم أن امرأة الابن تحرم على أبيه ، فزواج سيدنا رسول الله من زينب يعنى أن زيداً ليس ابناً لرسول الله ، ويبطل عادة التبنى ، والأثر المترتب على هذه العادة .

وقد أحسَّ رسول الله بشىء فى نفسه ، وتردَّد فى هذا الزواج مخافة أنْ يقول الناس : إن محمداً أوعز إلى زيد أنْ يُطلِّق زينب ليتزوجها هو ، كما يقول بعض المستشرقين الآن ، وأنه ﷺ كان يضمر حبَّ زينب فى نفسه ، وهذه كلها افتراءات على رسول الله ، فالذى يحب امرأة لا يسعى جاهداً لأنْ تتزوج من غيره ، وحين يريد زوجها أنْ يُطلِّقها لا يقول له : أمسكْ عليك زوجك .

ثم لا ينبغى لأحد أنْ يخوض فيما أخفاه رسول الله فى نفسه ، من أنه عاشق أو مُحبٌّ ، لكن انظر فيما أبداه الله ، فالذى أبداه الله هو الذى يُخفيه رسول الله ، واقرأ : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب]

إذن : الذى كان يُخفيه رسول الله هو أنه يخاف أنْ تتكلَّم به العرب ، وأنْ تقول فيه مَا لا يليق به فى هذه المسألة .

ويقول تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا[1] زَوَّجْنَاكَهَا (٣٧)﴾ [الأحزاب] لماذا ؟ ﴿لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ .. (٣٧)﴾ [الأحزاب]

وهكذا قرَّر الحق سبحانه مبدأ إبطال التبنى فى شخص رسول الله.

والحق سبحانه حينما يبطل عادة التبنى إنما يبطل عادة ذميمة ، تُقوِّض بناء الأسرة ، وتهدم كيانها ، تؤدى إلى اختلاط الأنساب وضياع الحقوق ، فالولد المتبنِّى يعيش فى الأسرة كابنها ، تعامله الأم على أنه ابنها ، وهو غريب عنها ، كذلك البنت تعامله على أنه أخوها ، وهو ليس كذلك ، وفى هذا من الفساد مَا لا يخفى على أحد.

وأيضاً ، فكيف يكون الأب الذى جعله الله سبباً مباشراً لوجودك وتأتى أنت لتردَّ هذه السببية ، وتنقلها إلى غير صاحبها ، وأنت حين تنكر البنوة السَّببية فى أبيك فمن السهل عليك - إذن - أنْ تنكر المسبِّب الذى خلق أولاً ، ولِمَ لا وقد تجرأتَ على إنكار الجميل .

وكذلك الذى ينكر البنوة السببية يتجرأ على أنْ ينسب الأشياء إلى غير أهلها ، فينسب العبادة لغير مستحقها ، وينسب الخلْق لغير الخالق .

وإلا ، فلماذا يحثُّنا الحق دائماً على برِّ الوالدين ؟ ولماذا قرن بين عبادته سبحانه وبين الإحسان إلى الوالدين فى أكثر من موضع من

(١) الوطر هو الحاجة والأرب . أى : لما فرغ منها وفارقها زوجناكها . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٣/٤٩١] . ويقول فى القاموس القويم ٢/٣٤٢ : « الوطر : الحاجة التى يعتنى بها الإنسان ويهتم لها وإذا بلغها قيل : إنه قضى وطره ، أى : حقق رغبته وقضى حاجته وانتهى من أمرها . ويقال : فلان قضى وطره من زوجه أى : طلقها » .

كتابه العزيز ، فقال سبحانه : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (٣٦)﴾ [النساء] وقال :﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (٢٣)﴾ [الإسراء]

قالوا : لأن الأب هو سبب الوجود المباشر ، فإذا لم تبره ، وأنكرتَ أبوته وتمردْتَ عليها ، فلعلَّك تتمرد أيضاً على سبب الوجود الأصلى ، فالوالدان لهما حق البر والإحسان ، حتى لو كانا كافرين .

لذلك ، لما سُئل ﷺ : أيسرق المؤمن ؟ قال : نعم ، أيزنى المؤمن ؟ قال : نعم ، أيكذب المؤمن ؟ قال : لا[1] . فالشرع حين يضع للجريمة حَداً وعقوبة ، فهذا إيذان بأنها ستحدث فى المجتمع المسلم ، أما الكذب فلم يضع له الشارع حداً ، مع أنه أشد من السرقة ، وأعظم من الزنى ، لماذا ؟

قالوا : لأن المؤمن لا يُتصوَّر منه الكذب ، ولا يجترئ هو عليه ؛ لأنه إنْ عُرِف عنه الكذب وقال أمامك : أشهد أنْ لا إله إلا الله يمكنك أنْ تقول له : أنت كاذب .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ذَٰلِكُمْ .. (٤)﴾ [الأحزاب] أى : ما تقدَّم من جَعْل الزوجة أماً ، أو جَعْل الدَّعى ابناً ، فالزوجة لا تكون أبداً أماً ؛ لأن الأم هى التى ولدتْ ، كذلك لا يكون للولد إلا أب واحد ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ .. (٤)﴾ [الأحزاب] وهل يكون القول إلا بالأفواه ؟ فماذا أضافتْ الأفواه هنا ؟ قالوا : نعم ، القول بالفم ، لكن أصله فى الفؤاد ، وما اللسان إلا دليل على ما فى الفؤاد ، كما قال الشاعر :

---

(١) أخرجه الإمام مالك بن أنس فى موطئه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً .

إنَّ الكَلامَ لَفِى الفُؤادِ وَإنَّما   جُعِلَ اللسَانُ علَى الفُؤَادِ دَليلاً

إذن : لابدَّ أنْ يكون الكلام نسبة فى القلب ، منها تأتى النسبة الكلامية ، فهل ما تقولونه له واقع ؟ هل الزوجة تكون أماً ؟ وهل الولد الدعىُّ يكون ابناً ؟ فهذا كلام من مجرد الأفواه ، لا رصيد له فى القلب ولا فى الواقع ، فهو ـ إذن ـ باطل ، أما الحق فما يقوله الحق سبحانه ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ ④﴾ [الأحزاب] والحق هو أن يكون المعتقد فى القلب مطابقاً للكائن الواقع .

فالإنسان قد يتكلم بكلام استقر فى قلبه حتى صار عقيدة عنده ، وهو كلام غير صحيح ، فحين يخبر بهذا الكلام لا يُسمَّى كاذباً لأنه أخبر على وَفْق اعتقاده ، مع أن الخبر كاذب ، فهناك فَرْق بين كذب الخبر ، وكذب المخبر .

فالحق سبحانه يعاملنا فى الأمر المعتقد فى القلب : إنْ كان له واقع ، فهو صِدْق فى الخبر ، وصِدْق فى المخبر ، وإنْ كان المعتقد لا واقعَ له فهو كذب فى الخبر ، وصدق فى المخبر .

إذن : الأمر المعتقد يكون حقاً ، إنْ كان له واقع ، ويكون كاذباً إنْ لم يكُنْ له واقع ، فإذا لم يكُنْ هناك اعتقاد فى القلب أصلاً فهو مجرد كلام بالفم ، وهذا أقل مرتبةً من القول الذى تعتقده وهو غير واقع .

فمعنى ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ④﴾ [الأحزاب] أى : الواقع الذى يجب أنْ يعتقد ، والإعجاز هنا ليس فى أن الله تعالى يقول الحق الواقع بالفعل ، إنما ويخبر بالشىء فيقع فى المستقبل على وَفْق ما أخبر سبحانه .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر]

فالحق سبحانه صادق حين يقول ما كان ، ويصدق حين يقول ما سيكون .

والحق سبحانه حين يقول : ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ .. ﴿٤﴾ ﴾ [الأحزاب] كأنه يقول : قارنوا بين قولين : قَوْل بالأفواه ، وقول بالواقع والاعتقاد ، وإذا كان قَوْل الله أقوى من الاعتقاد فقط فهو من باب أَوْلَى أقوى من القول بالأفواه فقط .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : يهدى السبيل إلى القول الحق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾

معنى ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الأحزاب] يعنى : قولوا : زيد بن حارثة ، لكن كيف يُنزع من زيد هذا التاج وهذا الشرف الذى منحه له سيدنا رسول الله ؟ نعم ، هذا صعب على زيد ـ رضى الله عنه ـ لكنه ﴿ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الأحزاب] لا عندكم أنتم .

و ﴿ أَقْسَطُ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الأحزاب] أفعل تفضيل ، نقول هذا قسْط وهذا أقسط ، مثل عدل وأعدل ، ومعنى ذلك أن الذى اختاره رسول الله من نسبة زيد إليه يُعَدُّ قسْطاً وعدلاً بشرياً ، فى أنه ﷺ أحسَّ بالبنوة

وصــار أباً لمن اختــاره وفضَّله على أبيـه .

لكن الحق ســبحانه يريد لـنا الأقسط ، والأقسط أنْ نـدعو الأبناء لآبائهم ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ..(٥)﴾ [الأحزاب] أي : نُعرِّفهم بأنهم إخواننا فى الدين .

ومـعنى المـوالـى : الخـدم والنصـراء الذين كـانـوا يقـولون لهم « العبـيد » ، فالولد الذى لا نعرف له أباً هو أخ لك فى الله تخـتار له اسماً عـاماً ، فنقول مثـلاً فى زيد : زيد بن عبد الله ، وكلنا عـبيد الله تعالى .

والبنوة تثـبت بأمرين : بالـعقل وبالشـرع ، فالرجل الذى يتـزوج زواجـاً شرعـياً ، وينجب ولداً ، فـهـو ابنه كوناً وشـرعاً ، فـإذا زَنَت المرأة ـ والعياذ بالله ـ على فراش زوجـها ، فالولد ابن الزوج شَـرْعاً لا كوناً ؛ لأن القاعدة الفقهية تقول : الولد للفراش ، وللعاهر الحَجَر[1]

كذلك فى حـالة الزوجة التى تتـزوج مرة أخرى بـعد وفاة زوجـها أو بعد طلاقهـا ، لكنها تنجب لستة أشــهر ، فتقوم هنا شـبهة أن يكون الولد للزوج الأول ، لذلك يُعَدُّ ابناً شَرْعاً لا كوناً ؛ لأنه وُلد على فراشه .

فإن جاء الولد من الزنا ـ والعياذ بالله ـ فى غير فراش الزوجية فهو ابنه كوناً لا شرعاً ؛ لذلك نقول عنه « ابن غير شرعى » .

كمـا أن فى قوله تعـالى : ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ.. (٥)﴾ [الأحزاب] تشريفـاً للنبى ﷺ ، فلو قال تعـالى : هو قسْط لكان عـمل النبى إذن جَوْراً وظلماً ، لكن أقسط تعنى : أن عمل النبى قسْط وعَدْل .

---

(١) هو حديث لـرسول الله ﷺ أخرجـه أحمد فـى مسنده (٢/٢٣٩ ، ٢٨٠ ، ٣٨٦ ، ٤٠٩) ، وكذا مسلم فى صحيحـه (١٤٥٨) كتاب الرضاع ـ باب الولد للفراش (١٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ..(٥)﴾ [الأحزاب] يُخْرجنا من حرج كبير في هذه المسألة ، فكثيراً ما نسمع وما نقول لغير أبنائنا : يا بني على سبيل العطف والتودد ، ونقول لكبار السن : يا أبي فلان احتراماً لهم .

فالحق سبحانه يحتاط لنا ويُعفينا من الحرج والإثم ، لأننا نقول هذه الكلمات لا نقصد الأبوّة ولا البنوة الحقيقية ، إنما نقصد تعظيمَ الكبار وتوقيرهم ، والعطف والتحنُّن للصغار ، فليس عليكم إثْمٌ ولا ذَنْبٌ في هذه المسألة ، إنْ أخطأتم فيها ، والخطأ هو ألاَّ تذهب إلى الصواب ، لكن عن غير عَمْد .

وإذا كان ربنا ـ تبارك وتعالى ـ قد رفع عنا الحرج ، وسمح لنا باللغو حتى في الحلف بذاته سبحانه ، فقال : ﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ (٨٩)﴾ [المائدة] فكيف لا يُعفينا من الحرج في هذه المسألة ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥)﴾[الأحزاب] سبق أنْ قُلْنا : أن الفعل إذا أُسْند إلى الحق سبحانه انحلَّ عنه الزمن ، فليس مع الله تعالى زمن ماض ، وحاضر ، ومستقبل ، وهو سبحانه خالق الزمن .

لذلك نقول ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥)﴾ [الأحزاب] يعني : كان ولا يزال غفوراً رحيماً ؛ لأن الاختلاف في زمن الحدث إنما ينشأ من صاحب الأغيار ، والحق سبحانه لا يطرأ عليه تغيير .

لذلك نخاف نحن من صاحب الأغيار لأنه مُتقلِّب ، ويقول أهل المعرفة : تغيَّروا من أجل ربكم ـ يعني : من الانحراف إلى الاستقامة ـ لأن الله لا يتغير من أجلكم ، أنت تتغير من أجل الله ، لكن الله لا يتغير من أجل أحد ، ومادام الحق سبحانه كان غفوراً رحيماً ، وهو سبحانه

لا يتغير ، فبالتالى سيبقى سبحانه غفوراً رحيماً.

وتلحظ فى أسلوب القرآن أنه يقرن دائماً بين هذين الوصفين غفور ورحيم ؛ لأن الغفر سلْب عقوبة الذنب ، والرحمة مجىء إحسان جديد بعد الذنب الذى غُفر ، كأن تُمسك فى بيتك لصاً يسرق ، فلك أنْ تذهب به للشرطة ، ولك أن تعفو عنه وتتركه ينصرف إلى حال سبيله ، وتستر عليه ، وبيدك أنْ تساعده بما تقدر عليه ليستعين به على الحياة ، وهذه رحمة به وإحسان إليه بعد المغفرة .

وقد عُولجَتْ هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل] وهذا التوجيه يضع لنا أول أساس من أسس المغفرة ؛ لأنك لا تستطيع أبداً تقرير هذه المثلية ، ولا تضمن أبداً إذا عاقبتَ أنْ تعاقب بالمثل ، ولا تعتدى ؛ لذلك تلجأ إلى جانب المغفرة ، لكى لا تُدخِل نفسك فى متاهة اعتداء جديد ، يُوجب القصاص منك .

وسبق أنْ حكيْنا قصة المرابى الذى اشترط على مدينه إذا لم يسدِّد ما عليه فى الوقت المحدد أن يأخذ رطلاً من لحمه ، فلما تأخر اشتكاه المرابى عند القاضى ، وذكر ما كان بينهما من شروط ، فأقرَّه القاضى على شرطه ، لكن ألهمه الله أنْ يقول للمرابى : نعم خُذْ رطلاً من لحمه ، لكن بضربة واحدة ، فإنْ زِدْتَ عنها أو نقصْتَ وفَّيناها من لحمك أنت ، عندها تراجع المرابى ، وتنازل عن شَرْطه .

إذن : أجاز لك الشرع القصاصَ بالمثل ليجعل هذه المرحلة صعبة التنفيذ ، ثم يفتح لك الحق سبحانه باب العفو والصفح فى المرحلة الثانية :﴿ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) ﴾ [التغابن]

ثم يُفسرها بحيثية أخرى ، فيقول سبحانه : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]

ومعنى كظم الغيظ أننى لم أنفعل انفعالاً غضبياً ينتج عنه ردّ فعل انتقامى ، وجعلتُ غضبى فى قلبى ، وكظمتُه فى نفسى ، وهذه المرحلة الأولى ، أما الثانية فتُخرِج ما فى نفسك من غَيْظ وغضب وتتسامح وتعفو .

ثم المرحلة الثالثة أنْ ترتقى إلى مرتبة الإحسان ، فتُحسن إلى مَنْ أساء إليك ، وهذه رحمة ، والرحمة : أنْ يميل الإنسان بالإحسان لعاجز عنه ، فإنْ كان الأمر بعكس ذلك فلا تُسمَّى رحمة ، كأن يميلَ العبدُ بإحسان إلى سيده .

هذه صور أتتْ فيها الرحمة بعد المغفرة ، وهذا هو الأصل فى المسألة ، وقد تأتى الرحمة قبل المغفرة ، كأنْ تُمسك باللص الذى يسرق فتشعر أنه مُكْره على ذلك ، وليس عليه أمارات الإجرام ، فيرقّ له قلبك ، وتمتد يدك إليه بالمساعدة ، ثم تطلق سراحه ، وتعفو عنه ، فالرحمة هنا أولاً وتبعتها المغفرة .

بعد ذلك لقائل أنْ يقول : ما موقف زيد بعد أنْ أبطل الله تعالى التبنى ، فصار زيدَ بن حارثة بعد أنْ كان زيد بن محمد ؟ وكيف به بعد أنْ سُلِب هذه النعمة وحُرِم هذا الشرف ؟ أضفْ إلى ذلك ما يلاقيه من عَنت المرجفين ، وألسنة الذين يُوغرون صَدره ، ويُوقعون بينه وبين رسول الله ، وهو الذى اختاره على أبيه .

لا شكَّ أن الجرعة الإيمانية التى تسلَّح بها زيد جعلتْه فوق هذا كله ، فقد تشرَّب قلبه حبَّ رسول الله ، ووقر في نفسه قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ

مِنْ أَمْرِهِمْ.. (٣٦) ﴾ [الأحزاب]

ثم تأتى الآيات لتوضح للناس : لستم أحقَّ على زيد من محمد ، لأن محمداً ﷺ أوْلى بالمؤمنين جميعاً من أنفسهم ، لا بزيد وحده .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾

فالمعنى : إذا كان النبى ﷺ أوْلَى بالمؤمنين جميعاً من أنفسهم فما بالكم بزيد ؟ إذن : لستُم أحقَّ على زيد من الله ، ولا من رسول الله ، وإذا كنتم تنظرون إلى الوسام الذى نُزِع من زيد حين صار زيد ابن حارثة بعد أنْ كان زيدَ بن محمد .

فلماذا تُغمضون أعينكم عن فضل أعظم ، ناله زيد من الله تعالى حين ذُكر اسمه صراحةً فى قرآنه وكتابه العزيز الذى يُتْلَى ويُتعبَّد بتلاوته إلى يوم القيامة ، فأىُّ وسام أعظم من هذا ؟ فقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا (٣٧) ﴾ [الأحزاب] قَوْل خالد يَخلُد معه ذكْر زيد ، وهكذا عوَّض الله زيداً عما فاته من تغيير اسمه .

وقوله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ .. (٦) ﴾ [الأحزاب] ما المراد بهذه الأولوية من النبى ﷺ ؟

قالوا : هي ارتقاءات في مجال الإحسان إلى النفس ، ثم إلى الغير ، فالإنسان أولاً يُحسن إلى نفسه ، ثم إلى القرابة القريبة ، ثم القرابة البعيدة ، ثم على الأباعد ؛ لذلك يقول ﷺ : « ابدأ بنفسك ، ثم بمَنْ تعول »[(١)]

ويقولون : أوطان الناس تختلف باختلاف هِمَمِها ، فرجل وطنه نفسه ، فيرى كل شيء لنفسه ، ولا يرى نفسه لأحد ، ورجل وطنه أبناؤه وأهله ، ورجل يتعدَّى الأصول إلى الفروع ، ورجل وطنه بلده أو قريته ، ورجل وطنه العالم كله والإنسانية كلها .

فرسول الله ﷺ تعدَّى خيره إلى الإنسانية كلها على وجه العموم ، والمؤمنين على وجه الخصوص ؛ لذلك كان ﷺ إذا مات الرجل من أمته وعليه دَيْن ، وليس عنده وفاء لا يُصلِّي عليه ويقول : « صلُّوا على أخيكم »[(٢)]

والنظرة السطحية هنا تقول : وما ذنبه إنْ مات وعليه دَيْن ؟ ولماذا لم يُصَلِّ عليه الرسول ؟

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال أن رسول الله ﷺ قال لرجل من بني عذرة : « ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شيء فلأهلك ، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك ، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا » أخرجه مسلم في صحيحه (٩٩٧) كتاب الزكاة - باب الابتداء في النفقة بالنفس . أما لفظة « ثم بمن تعول » فقد وردت في حديث آخر عند مسلم أيضاً في صحيحه (١٠٣٤) كتاب الزكاة عن حكيم بن حزام أن رسول الله ﷺ قال : « أفضل الصدقة عن ظهر غنىً ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول » .

(٢) عن أبي قتادة قال : أُتي النبي ﷺ برجل ليصلي عليه ، فقال النبي « صلوا على صاحبكم فإن عليه ديناً » قال أبو قتادة : هو عليَّ . فقال ﷺ : بالوفاء ؟ قال : بالوفاء . فصلى عليه . أخرجه الترمذي في سننه (١٠٦٩) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

قالوا : لم يمنع الرسولُ الصلاة عليه وقال : صلُّوا على أخيكم ؛ لأنه قال في حديث آخر : « مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها ـ لم يَقُل أدّاها ـ أدى الله عنه »(١)

أما وقد مات دون أنْ يؤدى ما عليه ، فغالب الظن أنه لم يكُنْ ينوى الأداء ؛ لذلك لا أصلى عليه ، فلما نزل قوله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ.. ﴿٦﴾ ﴾ [الأحزاب] صار رسول الله يتحمل الدَّيْن عمَّنْ يموت من المسلمين وهو مدين ، ويؤدى عنه رسول الله ، وهذا معنى ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ..﴿٦﴾ ﴾ [الاحزاب] فالنبى أَوْلى بالمسلم من نفسه .

ثم ألم يَقُلْ سيدنا رسول الله ﷺ أمام عمر : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من : نفسه ، وماله ، والناس أجمعين » ولصدْق عمر ـ رضى الله عنه ـ مع نفسه قال : نعم يارسول الله ، أنت أحبُّ إلىَّ من أهلى ومالى ، لكن نفسى .. فقال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه »(٢)

فلما رأى عمر أن المسألة عزيمة فَطِن إلى الجواب الصحيح ، فلابُدَّ أن الله أنطق رسوله بحُبٍّ غير الحبَ الذى أعرفه ، إنه الحب العقلى ، فمحمد ﷺ أحبُّ إليه من نفسه ، والإنسان حين يحب الدواء

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/٣٦١ ، ٤١٧) والبخارى فى صحيحه (٢٣٨٧) وابن ماجة فى سننه (٢٤١١) عن أبى هريرة .

(٢) عن جد زهرة بن معبد قال : كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : والله يا رسول الله ، لأنت أحب إلىَّ من كل شىء إلا نفسى ، فقال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » قال : فأنت الآن والله أحب إلىَّ من نفسى ، فقال رسول الله ﷺ : « الآن يا عمر » . أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤/٣٣٦) .

المرَّ إنما يحبه بعقله لا بعاطفته ، وكما تحب الولد الذكى حتى لو كان ابناً لعدوك ، أما ابنك فتحبه بعواطفك ، وتحب مَنْ يثنى عليه حتى لو كان غبياً مُتخلِّفاً .

ومشهورة عند العرب قصة الرجل الغنى الذى رزقه الله بولد متخلف ، وكَبر الولد على هذه الحالة حتى صار رجلاً ، فكان الطالبون للعطاء يأتونه ، فيُثْنون علَى هذا الولد ، ويمدحونه إرضاء لأبيه ، وطمعاً فى عطائه ، مع أنهم يعلمون بلاهته وتخلُّفه ، إلى أن احتاج واحد منهم ، فنصحوه بالذهاب إلى هذا الغنى ، وأخبروه بنقطة ضَعْفه فى ولده .

وفعلاً ذهب الرجل ليطلب المساعدة ، وجلس مع هذا الغنى فى البهو ، وفجأة نزل هذا الولد على السُّلم كأنه طفل يلعب لا تخفى عليه علامات البَلَه والتخلف ، فنظر الرجل إلى صاحب البيت ، وقال : أهذا ولدك الذى يدعو الناس له ؟ قال : نعم ، قال : أراحك الله منه ، والأرزاق على الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الاحزاب] أى : أن أزواجه ﷺ أمهات للمؤمنين ، وعليه فخديجة رضى الله عنها أم لرسول الله بهذا المعنى ؛ لأنه أول المؤمنين ؛ لذلك كانت لا تعامله معاملة الزوجة ، إنما معاملة الأم الحانية .

ألاَ تراها كيف كانت تحنُو عليه وتحتضنه أول ما تعرَّض لشدة الوحى ونزول الملَك عليه ؟ وكيف كانت تُطمئنه ؟ ولو كانت بنتاً صغيرة لاختلفَ الأمر ، ولاتهمتْه فى عقله . إذن : رسول الله فى هذه المرحلة كان فى حاجة إلى أم رحيمة ، لا إلى زوجة شابة قليلة الخبرة .

وزوجاته ﷺ يُعْتبرن أمهات للمؤمنين به ؛ لأن الله تعالى قال مخاطباً المؤمنين : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا.. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] لماذا ؟ لأن الرجال الذين يختلفون على امرأة توجد بينهم دائماً ضغائن وأحقاد .

فالرجل يُطلِّق زوجته ويكون كارهاً لها ، لكن حين يتزوجها آخر تحلو في عينه مرة أخرى ، فيكره مَنْ يتزوجها ، وهذه كلها أمور لا تنبغي مع شخص رسول الله ، ولا يصح لمن كانت زوجة لرسول الله أن تكون فراشاً لغيره أبداً ؛ لذلك جعلهن الله أمهات للمؤمنين جميعاً ، وهذه الحرمة لا تتعدى أمهات المؤمنين إلى بناتهن ، فمَنْ كانت لها بنت فلتتزوج بمَنْ تشاء .

إذن : لا يجوز لإنسان مؤمن برسول الله ويُقدِّره قدره أنْ يخلفه على امرأته .

لذلك كان تعدد الزوجات في الجاهلية ليس له حَدٌّ معين ، فكان للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء ، فلما جاء الإسلام أراد أنْ يحدد العدد في هذه المسألة ، فأمر أنْ يُمسك الرجل أربعاً منهن ، ثم يفارق الباقين[1] ، بمعنى أنه لا يجمع من الزوجات أكثر من أربع .

أما رسول الله ﷺ فقد أمسك تسعاً من الزوجات ، وهذه المسألة أخذها المستشرقون مَأخذاً على رسول الله وعلى شرع الله ، كذلك مَنْ لَفّ لَفَّهم من المسلمين .

---

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وله عشر نسوة في الجاهلية ، فأسلمن معه ، فأمره النبي ﷺ أن يتخير أربعاً منهن . أخرجه الترمذي في سننه (١١٢٨) ، وابن ماجة في سننه (١٩٥٣) موصولاً . وأخرجه الإمام مالك في موطئه مرسلاً عن ابن شهاب الزهري بلفظ : « أمسك منهن أربعاً ، وفارق سائرهن » .

ونقول لهؤلاء : أنتم أغبياء ، ومَنْ لفَّ لفكم غبى مثلكم ؛ لأن هذا الاستثناء لرسول الله جاء من قول الله تعالى له : ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ.. (٥٢) ﴾ [الأحزاب]

يعنى : إنْ ماتت إحداهن لا تتزوج غيرها ، حتى لو مُتْنَ جميعاً لا يحل لك الزواج بغيرهن ، فى حين أن غيره من أمته له أنْ يتزوج بدل إحدى زوجاته ، إنْ ماتت ، أو إنْ طلقها ، وله أنْ يُطلِّق منهن مَنْ يشاء ويتزوج مَنْ يشاء ، شريطة ألاَّ يجمع منهن أكثر من أربع ، فعلى مَنْ ضيَّق هذا الحكم ؟ على رسول الله ؟ أم على أمته ؟ إذن : لا تظلموا رسول الله .

ثم ينبغى على هؤلاء أنْ يُفرِّقوا بين الاستثناء فى العدد والاستثناء فى المعدود ، فكَوْن رسول الله يكتفى بهؤلاء التسع لا يتعدَّاهن إلى غيرهن ، فالاستثناء هنا فى المعدود ، فلو انتهى هذا المعدود لا يحلّ له غيره ، ولو كان الاستثناء فى العدد لجاز لكم ما تقولون .

ومن ناحية أخرى : حين يمسك الرجل أربعاً ، ويفارق الباقين من زوجاته لهن أنْ يتزوجن بغيره ، لكن كيف بزوجاته ﷺ إنْ طلق خمساً منهن ، وهُنَّ أمهات المؤمنين ، ولا يحل لأحد من أمته الزواج منهن ؟ إذن : الخير والصلاح فى أنْ تبقى زوجات الرسول فى عصمته .

وما دام ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ..(٦) ﴾ [الأحزاب] كذلك يجب أن يكون المؤمنون أوْلى برسول الله من نفسه ، ليردُّوا له هذه التحية ، بحيث إذا أمرهم أطاعوه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ (٦) ﴾ [الأحزاب]

كلمة (وَأُولُوا الأَرْحَامِ) مأخوذة من الرحم ، وهو مكان الجنين فى بطن أمه ، والمراد الأقارب ، وجعلهم الله أوْلى ببعض ؛ لأن المسلمين الأوائل حينما هاجروا إلى المدينة تركوا فى مكة أهلهم وأموالهم وديارهم ، ولم يشأ أنصار رسول الله أن يتركوهم بقلوب متجهة إلى الأزواج .

فكانوا من شدة إيثارهم لإخوانهم المهاجرين يعرض الواحد منهم على أخيه المهاجر أنْ يُطلِّق له إحدى زوجاته ليتزوجها[1] ، وهذا لوْن من الإيثار لم يشهده تاريخ البشرية كلها ؛ لأن الإنسان يجود على صديقه بأغلى ما فى حوزته وملكه ، إلا مسألة المرأة ، فما فعله هؤلاء الصحابة لون فريد من الإيثار .

وحين آخى النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار هذه المؤاخاة اقتضت أنْ يرث المهاجر أخاه الأنصارى ، فلما أعزَّ الله الإسلام ، ووجد المهاجرون سبيلاً للعيش أراد الحق سبحانه أنْ تعود الأمور إلى مجراها الطبيعى ، فلم تَعُدْ هناك ضرورة لأنْ يرث المهاجر أخاه الأنصارى .

فقررت الآيات أن أُولى الأرحام بعضهم أولى ببعض فى مسألة الميراث ، فقال سبحانه : ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ .. ⑥ ﴾ [الأحزاب] فقد استقرت أمور المهاجرين ، وعرف كل منهم طريقه ورتَّب أموره ، والأرحام فى هذه

---

(١) حدث هذا مع عبد الرحمن بن عوف المهاجر من مكة ، وسعد بن الربيع الأنصارى « حيث قال له سعد : أخى أنا أكثر أهل المدينة مالاً ، فانظر شطر مالى فَخُذْه ، وتحتى امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها لك . فقال له عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دلونى على السوق » الخبر بطوله أخرجه ابن سعد فى الطبقات (١١٧/٣) .

الحالة أولَى بهذا الميراث .

وقوله تعالى : ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ .. (٦) ﴾ [الأحزاب] تنبيه إلى أن الإنسان يجب عليه أنْ يحفظ بُضْعة اللقاء حتى من آدم عليه السلام ؛ لأنك حين تتأمل مسألة خَلْق الإنسان تجد أننا جميعاً من آدم ، لا من آدم وحواء .

يُرْوى أن الحاجب دخل على معاوية ، فقال له : رجل بالباب يقول : إنه أخوك ، فقال معاوية : كيف لا تعرف إخوتى ، وأنت حاجبى ؟ قال : هكذا قال ، قال : أدخله ، فلما دخل الرجل سأله معاوية : أى إخوتى أنت ؟ قال : أخوك من آدم ، فقال معاوية : نعم ، رحم مقطوعة ، والله لأكونَنَّ أول مَنْ يصلها .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا .. (٦) ﴾ [الأحزاب] الحق سبحانه يترك باب الإحسان إلى المهاجرين مفتوحاً ، فمَنْ حضر منهم قسمة فليكُنْ له منها نصيب على سبيل التطوع ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٨) ﴾ [النساء]

وقوله سبحانه : ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦) ﴾ [الأحزاب] أى : فى أم الكتاب اللوح المحفوظ ، أو الكتاب أى : القرآن .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى قضية عامة لموكب الرسل جميعاً :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾

كلمة (إذ ، إذا) ظرف لحدث ، تقول : إذا جاءك فلان فأكرمه ، فالإكرام مُعلّق بالمجيء ، والمعنى هنا : واذكر إذْ أخذ الله من النبيين ميثاقهم ، وهذه قضية عامة في الرسل جميعاً ، ثم فصَّلها الحق سبحانه بقوله :
﴿ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ .. (٧) ﴾ [الأحزاب]

الميثاق : هو العهد يُؤخذ بين اثنين ، كالعهد الذي أخذه الله تعالى أولاً على الخلْق جميعاً ، وهم في مرحلة الذَّرِّ ، والذي قال الله عنه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

فما العهد الذي أخذه الله على النبيين ؟ العهد هنا هو : الاصطفاء والاختيار من الله لبشر أنْ يكون رسولاً وسفيراً بين الله تعالى والخلق ، وحين يصطفي الله رسولاً ليبلِّغ الناس شرع الله ، هذا الاصطفاء لا يرد ، إذن : فهو عرض مقبول ، وحين يقبله الرسول كأنه أخذ عهداً وميثاقاً من الله تعالى بأنْ يحمل رسالة الله إلى الخلْق ، فهي - إذن - مسألة إيجاب وقبول .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ .. (٧) ﴾ [الأحزاب] الآخذ هو الحق سبحانه ، والمأخوذ منه هم النبيون ، والميثاق : العهد الموثَّق ، والعهد تعاهد وتعاقد بين طرفين على أمر يُحقِّق الصالح عندهما معاً ، ولو اختلف واحد منهما ما تَمَّ العقد ، فإنْ كان الطرفان متساويين اشترط كل منهما ما يراه لنفسه في العقد .

فإنْ كان الميثاق من الأعلى إلى الأدنى فهو الذي يأخذ العهد للأدنى ، لماذا ؟ لأنك جعلتَه في مرتبة أنْ يعطي عهداً ، ويُوثق بينك وبينه أشياء ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ .. (٧) ﴾ [المائدة]

والمواثقة مفاعلة بين الطرفين : أنتم واثقتُموه به وهو واثقكم به ؛ لأن

الرسل حين يختارهم الله ، لا شكَّ أنه سبحانه يعلم حيث يجعل رسالته ، فإذا اختار الله رسولاً ، فقبول الرسول للرسالة ارتضاء منه بما يريده الله من العهد .

وهل رأينا رسولاً فى موكب الرسالات عُرِضَتْ عليه الرسالة فرفضها ؟ إذن : قبول الرسالة كأنه العهد ، جاء من طرف واحد فى إملاء شروطه ؛ لأنه الطرف الأعلى ، وحيثية التوثيق فى أن الله اختاره ، وجعله أهْلاً للاصطفاء للرسالة .

لذلك رأينا فى قصة سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ لما اصطفاه الله للرسالة آنس من نفسه أنها مسألة كبيرة بالنسبة له ، لكن لم يردَّها ، إنما طلب من الله أنْ يسانده فى هذه المسئولية أخوه هارون ، فقال للحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا[1] يُصَدِّقُنِي .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص]

فلم يقل : أنا لا أصلح لهذه المسألة ، إنما أذعن لأمر الله ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته ، ومسألة العقدة التى فى لسانه يستعين عليها بأخيه .

إذن : كلمة (الميثاق) تدور حول الشىء المؤكَّد الموثَّق ، ومنه قوله تعالى عن الأعداء : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ[2] فَشُدُّوا الْوَثَاقَ .. ﴿٤﴾ ﴾ [محمد]

ثم يأتى تفصيل هذه القضية العامة : ﴿ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ

---

(١) رداه : قوّاه وأعانه . والردء : المعين والناصر . [القاموس القويم ١/ ٢٦٠] .

(٢) اثخنتموهم : غلبتموهم وكثر فيهم الجراح . واثخنته الجراح : أوهنته والإثخان فى كل شىء : قوته وشدته . [لسان العرب ـ مادة : ثخن] .

﴿ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ .. ۝ ﴾ [الأحزاب]

قوله (مِنْكَ) أى من سيدنا رسول الله ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، لكن لماذا قدَّم محمداً ﷺ على نوح عليه السلام ، وهو الأب الثانى للبشرية كلها بعد آدم عليه السلام ؟

نعلم أن البشرية كلها من سلالة آدم عليه السلام ، إلى أنْ جاء عهد نوح عليه السلام ، فانقسموا إلى مؤمن وكافر ، ثم جاء الطوفان ولم يَبْقَ على وجه الأرض إلا نوح ومَنْ آمن به ، فكان هو الأب الثانى للبشر بعد سيدنا آدم .

لذلك يقول البعض : إن نوحاً عليه السلام رسالته عامة ، كما أن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام عامة . ونقول : عمومية نوح كانت لمن آمن به ولأهل السفينة فى زمن معلوم ومكان محدد ، أما رسالة محمد فهى عامة فى كل الزمان ، وفى كل المكان .

أما تقديم ذكر محمد ﷺ أولاً ؛ لأن الواو هنا عادة لا تقتضى ترتيباً ولا تعقيباً ، إنما هى لمطلق الجمع ، ثم قدم رسول الله لأنه المخاطب بهذا الكلام ، ومن إكرام الله لرسوله أنْ يبدأ به فى مثل هذا المقام ، ثم لهذا التقديم ملحظ آخر نفهمه من قوله ﷺ عن نفسه « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين »[1] .

ثم يخصُّ بالذكر هنا نوحاً ؛ لأنه الأب الثانى للبشر ، ثم إبراهيم وموسى وعيسى ، فإبراهيم ، لأن العرب كانت تؤمن به ، وتعلم أنه

(١) قال السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (ص ٣٤٢) : « لا أصل له بهذا اللفظ » وقد أخرج الترمذى فى سننه (٣٦٠٩) من حديث أبى هريرة قال : قالوا يا رسول متى وجبت لك النبوة ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد . قال الترمذى : حديث حسن صحيح غريب . وفى الباب عن ميسرة الفجر .

أبو الأنبياء ، وتُقدِّر علاقته بالكعبة ورَفْع قواعدها ، وأنه قدوة فى مسألة الذَّبْح والسَّعْى وغيرها .

وموسى وعيسى ؛ لأن اليهودية والمسيحية ديانتان معاصرتان لدعوة رسول الله ، حيث كان اليهود فى المدينة ، والنصارى فى نجران ، وهما أهل الكتاب الذين كان بينهم وبين رسول الله مواقف شتى ، وكانت لهم فى الجزيرة العربية السيادة العلمية والسيادة الاقتصادية والسيادة العمرانية والسيادة الحربية ، وكأنهم هم أصحاب هذه البلاد .

ومن العجيب أن هؤلاء كان الله سبحانه - فى ميثاقهم مع أنبيائهم - يدخرهم ليشهدوا لمحمد بصدْق دعوته ؛ لذلك كانوا يستفتحون بمحمد على الذين كفروا ويقولون لعبدة الأصنام : لقد أطلّ زمان نبى سنتبعه ، ونقتلكم به قتْل عاد وإرم ، فكانوا يعرفون زمان رسول الله وموطنه ، وأنه سيُبعث في أرض ذات نخل ، ومن صفاتها كذا وكذا ، لذلك لما قطَّعهم الله فى الأرض أمماً وشتتهم ، جاء المشتغلون منهم بالعلم إلى يثرب ينتظرون بعثته ﷺ .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد]

إذن : فأهل الكتاب كان من المفترض فيهم أنْ يشهدوا لرسول الله بصدْق الرسالة ، لكن يحكي القرآن عنهم بعد هذا كله : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة]

فكيف إذن تم هذا التحول ؟ وكيف تنقلب عقيدة القلب إلى تمرُّد القالب ؟ قالوا : إنها السلطة الزمنية التى أحبوا أنْ تبقى ، وأنْ تدوم لهم ، فقد بُعث الرسول وهم أهل مال وتجارة وأهل حِرَف وعمارة ،

وخافوا من رسول الله ومن الـدين الجديد أن يسلبهم هذه المكانة ، وأنْ يقضي على هذه السيادة ، لذلك قال القرآن عنهم : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ [البقرة]

لهـذا خصَّ بالذكْر هنا مـوكب الأنبـياء مـوسى وعـيسى عليـهمـا السـلام .

ونلحظ أن السيـاق ذكر موسى عليه السـلام ، ولم يذكر له أباً ، أما فى عيسى عليه السلام فقال : ﴿ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ.. ﴿٧﴾ ﴾ [الأحزاب] وهذا دليل على أنه يؤكـد الأصالة فى الإنجـاب ، فالأب هو الأصل إنْ وُجـد مع الزوجة ، فـإنْ لم يوجد الأب فـالأبوة للزوجـة ؛ لذلك نسب عليه السلام إلى أمه .

وجاءت هذه المسألـة لتبرهن على طلاقة القدرة الإلهيـة ، فمسألة الخَلْق ليست عملية ميكانيكيـة تخضـع لقانون ، إنما هى قدرة الله التى خلقتْ آدم بدون أب ولا أم ، وخلـقت حـواء من أب دون أم ، وخلقتْ عـيسى عليـه السـلام من أم بدون أب ، وخلقتْ سـائر الخَلْق من أب وأم ، وهكذا استوفى الخَلْق القسمة العقلية فى كل صـورها .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾[الأحزاب] أى : من الأنبيـاء ، والميثـاق الغليظ أى المؤكـد ، فقد وسّـعه الله وأكده حـينما أخبر أنبياءه ورسله أنهم سيُضطهدون وسيُحاربون من أممهم .

لذلك لم يُوصَف الميـثاق بأنه غليظ إلا فى هذا المـوضوع ، وفى علاقة الرجل بالمرأة حـين يطلقها ، وقد فرض لها مـهراً ، فينبغى أنْ يُؤديه إليها ، ولو كان قنطاراً ، يقـول سبحانه : ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾ [النساء]

فسمّى الميثاق بين الزوجين ميثاقاً غليظاً أى : قوياً ومتيناً ؛ لأنه فى العِرْض ، ولم يُوصَف الميثاق فيما دون ذلك بأنه غليظ .

وهذا الميثاق الذى أخذه الله تعالى على الرسل المذكِّرين المبشِّرين المنذرين جاء تفصيله فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي[1] قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾ [آل عمران]

والشىء الذى شهد الله عليه لا يحتاج إلى قضاء ، لكن لماذا أخذ الله هذا العهد ؟ قالوا : لأن الذى لا يؤمن بإله ليس لديه دين يتعصَّب له حين يأتى رسول جديد ، لكن من الصَّعب على الإنسان أن يكون له دين ، ثم يأتى رسول جديد ليزحزحه عن دينه ، وهنا تكمن المشقة التى يعانيها الرسل .

لذلك قال الله تعالى للرسل : من تمام ميثاقكم أن تقولوا لأقوامكم إذا جاءكم رسول مُصدِّق لما معكم لتُؤمنن به ولتنصرنه [2]، ثم أقررهم على ذلك ، وأشهدهم عليه فشهدوا ، والمعنى : إياكم أن تتركوا أممكم التى تؤمن بكم بدون أنْ تضعوا لهم هذه القاعدة ، ففيها الوقاية لهم .

---

(١) الإصر : القيد والثقل والعهد المؤكد ، وسميت التكاليف الشاقة إصراً ؛ لأنها تشق على المكلَّف وتثقل عليه ، وقوله ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي .. (٨١)﴾ [آل عمران] أى : عهدى . [القاموس القويم ١/٢١] .

(٢) أخرج ابن جرير الطبرى عن على بن أبى طالب قال : لم يبعث الله نبياً ، آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد فى محمد ، لئن بُعث وهو حى ليؤمنن به ، ولينصرنه ، ويامره فيأخذ العهد على قومه ، ثم تلا ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ .. (٨١)﴾ [آل عمران] [ذكره السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير المأثور ٢/٢٥٣] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾

اللام هنا في ﴿ لِيَسْأَلَ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الأحزاب] لام التعليل ، فالمعنى أننا أخذنا من النبيين الميثاق ، لكن لن نتركهم دون سؤال ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الأحزاب] لماذا ؟ ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الأحزاب] لكن إذا كان المبلِّغ صادقاً ، فكيف يسأل عن صدقه ؟

سؤال الصادق عن صِدْقه ليس تبكيتاً للصادق ، إنما تبكيتاً لمن كذَّب به ، سنسأل الرسل : أبلغتم هؤلاء ؟ ويقول تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ .. ﴿١٠٩﴾ ﴾ [المائدة] ويسأل الله القوم : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا .. ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأنعام]

فالاستفهام هنا للتقريع والتبكيت لمن كذَّب .

أو : يكون المعنى ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الأحزاب] أي : أنتم بشَّرتم بأن الإله واحد ، فأنتم صادقون ؛ لأنكم أخذتُمْ هذه مني ، ولما قامت الساعة ولم تجدوا إلهاً آخر يحمي الكافرين ، إذن : فقد صدقت فيما أخبرت به ، وصدقتم فيما بلغتم عني ، حيث لم تجدوا في الآخرة إلا الإله الواحد .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور] ولو كان معه سبحانه إله آخر لَدافع عن هؤلاء الكافرين ، ومنعهم من العذاب .

كذلك يسأل الرسل عن البعث الذي وعد الله به ، وبلَّغوه لأممهم ،

وعن الحساب وما فيه من ثواب وعقاب ، وكأن الحق سبحانه يسألهم : هل تخلَّف شيء مما أخبرتكم به ؟ هل قصرت فى إثابة المحسن أو معاقبة المسيء ؟ إذن : صدق كلامى كله .

كما تجلس مع ولدك مثلاً تراجع معه المواد الدراسية ، وتحثُّه على المذاكرة فيُوفَّق فى الامتحان ، ثم تسأله : ماذا فعلت فى إجابة السؤال الفلانى ؟ فأنت لا تقصد الاستفهام ، إنما تستعيد معه أمجاد ما أنجزه بالفعل تسأله عن توفيق الله له ، كذلك الحق سبحانه يستعيد مع الرسل وَقْفتهم لدين الله وإعلاءَهم كلمة الحق فى هذه الساعة ولا مردَّ لها .

إذن : فسؤال الصادقين عن صدقهم تكريم لهم ، وشهادة بأنهم أدَّوْا ما عليهم ، وهو كذلك تبكيت لمن كذَّب بهم[1] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨) ﴾ [الأحزاب]

والفعل الماضى هنا دليل على أن كل شيء معدٌّ وموجود سلَفاً ، ولن ينشيء الحق سبحانه شيئاً جديداً ، كذلك قال عن الجنة ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) ﴾ [آل عمران]

وسبق أنْ أوضحنا أن الله تعالى خلق الجنة لتسع الناس جميعاً إنْ آمنوا ، وخلق النار كذلك تسع الناس جميعاً إنْ كفروا ، يعنى : لن تكون هناك أزمة أماكن ، فإذا ما أخذ أهل الإيمان أماكنهم من الجنة

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره عند تفسير هذه الآية (٥٢٨٨/٧) :

« فيه أربعة أوجه :

أحدها : ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم ، حكاه النقاش .

الثانى : ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم ، حكاه على بن عيسى .

الثالث : ليسأل الأنبياء عن الوفاء بالميثاق الذى أخذه عليهم ، حكاه ابن شجرة .

الرابع : ليسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة » .

تتبقى أماكن الذين كفروا شاغرة ، فيقول تعالى للمؤمنين : خذوها أنتم :[١] ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) ﴾ [الزخرف]

وقد وصف العذاب مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه مهين ، ومرة بأنه عظيم ، ومرة بأنه شديد ، ولكل منها ملحظ ، فالأليم يُلحظ فيه القسوة والإيلام ، والعذاب المهين يُلحظ فيه إهانة المعذَّب والنيل من كرامته ، فمن الناس مَنْ يحاول التجلُّد ، ويُظهر تحمل الألم وعدم الاكتراث به ، في حين يؤلمه أنْ تنال من كرامته ، فيناسبه العذاب المهين .

لذلك يُرْوى في التجلد أن رجلاً دخل على معاوية في مرضه ، وهو يُظهر للناس أنه بخير وصحته على ما يرام ، فقال له الرجل :

وَإِذَا المنيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارهَا ... أَلفيْتَ كُلَّ تَميمةٍ لاَ تَنْفَعُ

ففطن معاوية إلى مقصده ، وأجابه من نفس قصيدة أبي ذؤيب[٢] :

وَتجلُّدِي للِشَّامِتِينَ أُريهُمُوا ... أنِّي لريْبِ الدهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ[٣]

أما العذاب العظيم فلعظمه في ذاته ، ولكبر حجمه يعني ليس صغيراً ، أو يكون صغير الجرم ، لكن عظمته في صفاته ، أو في بقاء

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فالكافر يرث المؤمن منزله في النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة ، وذلك قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢)﴾ [الزخرف] . أورده السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٣٩٤) وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه .

(٢) عزاه شهاب الدين محمود الحلبي في كتابه « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » ص ١٣٢ لأبي ذؤيب الهذلي ، وانظر ديوان الهذليين القسم الأول ص ٣ . [وعزاه ابن منظور لأبي ذؤيب في اللسان ـ مادة : ضعع] .

(٣) الضعضعة : الخضوع والتذلل . والضعضاع : الضعيف من كل شيء . ورجل ضعضاع أي : لا رأي له ولا حزم . [لسان العرب ـ مادة : ضعضع] .

أثره فى زمن طويل .

ويُوصَف العذاب بأنه شديد لشدة المعذِّب سبحانه ؛ لأنه سبحانه إذا أخذ فأخْذه أخْذ عزيز مقتدر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾

أراد الحق سبحانه أنْ يُدلِّل على قوله لرسوله فى الآيات السابقة : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿٣﴾ ﴾[الأحزاب] فجاء بحادثة جمعتْ كل فلول خصومه ، فقد سبق أن انتصر عليهم متفرقين ، فانتصر أولاً على كفار مكة فى بدر ، وانتصر على اليهود فى بنى النضير وبنى قينقاع ، وهذه المرة اجتمعوا جميعاً لحربه ﷺ ، ومع ذلك لن يؤثر جمعهم فى الصدِّ عن دعوتك ، وسوف تُنصَر عليهم بجنود من عند الله .

إذن : فحيثية (وتوكل على الله) هى قوله تعالى : ﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ .. ﴿٩﴾ ﴾[الأحزاب] النعمة : الشيء الذى يخالط الإنسان بسعادة وبشْر وطلب استدامته ، وهذه الصفات لا تتوافر إلا فى الإيمان ؛ لأن استدامة النعمة فيه تعدَّتْ زمن الدنيا إلى زمن آخر دائم وباقٍ فى الآخرة ، وإنْ كانت نعمة الدنيا على قَدْر أسبابك وإمكاناتك ، فنعمة الآخرة على قَدْر المنعِم سبحانه ، فهى إذن : نعمة النعم .

والله تعالى يخاطب هنا المؤمنين ، ومعنى الإيمان هو اليقين بوجود إله واحد له كل صفات الجلال والكمال ، والله سبحانه يكفى العقل أنْ يهتدى إلى القوة الخالقة الواحدة التى لا تعاند ، لكن ليس من عمل العقل أنْ يعرف مثلاً اسم هذا الإله ، ولا أن يعرف مراده ، فكان ولابُدَّ من البلاغ عن الله .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بمَنْ يطرق علينا الباب ، فنتفق جميعاً بالعقل على أن طارقاً بالباب ، هذا هو عمل العقل ، لكن أمن عمل العقل أن نعرف مَنْ هو ؟ أو نعرف مقصده من المجيء ؟ وهذا ما نسميه التصور .

فآفة العقل البشرى أنه لم يقنع بالتعقل للقوة القاهرة الفاعلة ، فكان يكفيه أن يتعقل أن وراء هذا الكون قوةً ، هذه القوة لها صفات الكمال التى بها أوجدتْ هذا الكون ، فإنْ أردنا معرفة ما هى هذه القوة فلابُدَّ أنْ نترك هذا الطارق ليخبرنا عن نفسه ، ويفصح عن هدفه وسبب مجيئه ، ولا يتم ذلك إلا من خلال رسول يأتى من عند الله يخبرنا عن هذه القوة ، عن الله ، عن أسمائه وصفاته ومنهجه الذى ارتضاه لخَلْقه ، وما أعدَّه الله لمَنْ أطاعه من النعيم ، وما أعدَّه لمَنْ عصاه من العذاب .

فإنْ كذَّبنا هذا الرسول ، وطلبنا دليلاً على صدْقه فى البلاغ أخرج لنا من المعجزات ما يؤيده وما يحملنا على تصديقه ؛ لأنه أتى بلون مما ننبغ فيه نحن ، وفن من فنوننا ، ومع ذلك عجزنا عن الإتيان بمثله .

إذن : فالتعقُّل أول مراحل الإيمان ؛ لذلك فإن أبسط ردٍّ على مَنْ يعبدون غير الله أن نقول لهم : بماذا أمرتكم آلهتكم ؟ وعمَّ نهتْكم ؟ وماذا أعدَّتْ لمن أطاعها ؟ وماذا أعدَّت لمنْ عصاها ؟ ما المنهج الذى تستعبدكم به ؟

فكان من منطق العقل ساعةَ يأتينا رسول من عند الله أنْ نستشرف له ، ونُقبل عليه ، ونسأله عن اللغز الذى لا نعرفه من أمور الحياة والكون ، كان علينا أن نستمع له ، وأن ننصاع لأوامره ؛ لأنه ما جاء إلا ليُخرجنا من مأزق فكرى ، ومن مأزق عقلى لايستطيع أحد منَّا أنْ يُحلِّله ، كان على القوم أن يتلهفوا على هذا الرسول ، لا أن يعادوه ويعاندوه ، لما لهم من سلطة زمنية ظنوها باقية .

وقوله تعالى : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ.. ⑨ ﴾[الأحزاب] ما هو الذكر ؟ العقل حين يتلقَّى المعلومات من الحواسِّ يقارن بينها ويُغربلها ، ثم يحتفظ بها فى منطقة منه تمثل خزينة للمعلومات ، وما أشبه العقل فى تلقى المعلومات بلقطة (الفوتوغرافيا) التى تلتقط الصورة من مرة واحدة ، والناس جميعاً سواء فى تلقى المعلومات ، المهم أن تصادف المعلومة خُلوّ الذِّهْن مما يشغله .

وهذه المنطقة فى العقل يسمونها بؤرة الشعور ، وهى لا تلتقط إلا جزئية عقلية واحدة ، فإذا أردتَ استدعاء معلومة من الحافظة ، أو من حاشية الشعور ، فالذاكرة هى التى تستدعى لك هذه المعلومة ، وتُخرِجها من جديد من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور .

ثم هناك ما يُسمَّى بتداعى المعانى ، حين يُذكِّرك شىء بشىء آخر ، وهناك المخيِّلة ، وهى التى تُلفِّق أو تُؤلِّف من المعلومات المختزنة شيئاً جديداً ، ونسميه التخيُّل ، فالشاعر العربى حين أعجبه الوشم باللون الأخضر على بشرة شابة بيضاء تخيَّلها هكذا .

خَـوْدٌ كـأنَّ بَنَـانَهَا فـِى نَقْشَـةِ الوَشْـمِ المُـزَرَّدْ[١]
سَـمكٌ مِنَ البـلـلَّوْرِ فـِى شَبَكٍ تكوَّنَ مِنْ زَبَرْجَدْ[٢]

فهذه صورة تخيُّلية خاصة بالشاعر ، وإلا فَمْن منَّا رأى سمكاً من البللور فى شـبك من زبرجد ؟ فللشاعـر نظرته الخاصـة للصور التى يراها ، وسـبق أنْ ذكرنا الصـورة التى رسـمهـا الشاعـر[٣] للأحدب ، فقال :

قَصُرَتْ أَخَـادعُه[٤] وغَاصَ قَذَالُه[٥] فَـكـأنَّهُ مُـتربِّصٌ أنْ يُصْـفَـعَا
وَكأنَّـمَـا صُفِعَـتْ قـفَـاهُ مـرةً فَأحـسَّ ثانيــةً لَهَـا فَتَجَـمَّـعا

ومنذ القِـدَم يعتبـر الشعـراء القلبَ محـلاً للحب وللمشـاعر ، لكن يخـرج علينا هـذا الشـاعـر بصورة أخـرى جـديدة من نَسْج خيـاله ، فيقول :

خَطَـرَاتُ ذِكْـرِكَ تَسْتَثِيرُ مَـودَّتيِ فَـأُحِـسُّ منْها فِـى الفُؤاد دَبيبا
لاَ عُضْـوَ لِـى إلاَّ وَفيه صَـبَـابَةٌ فَـكـأنَّ أَعْـضَـائى خُلِقْنَ قُلُـوبَا

---

(١) الخود : الفتاة الحسنة الخَلْق الشابة ، مـا لم تَحض . وقيل : الجارية الناعمـة . [لسان العرب ـ مادة : خود] ، والمزرد : هى حلق الدرع متداخلة في بعضـها ، والمقصود أن الوشم متقن متشابك متداخل .

(٢) الزبرجد : الزمرد . وهو الزبردج أيضاً . [لسان العرب ـ مادة : زبرجد] .

(٣) الشـاعر هـو : ابن الرومى على بن العباس بن جـريج ، شـاعـر كبيـر من طبـقة بشـار والمتنبـى ، رومي الأصل ، كان جده من مـوالى بني العبـاس ، ولد ببغـداد ٢٢١ هـ ونشأ بها ، ومات فيها مسموماً عام ٢٨٣ هـ عن ٦٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٤/٢٩٧] .

(٤) الأخادع : جمع الأخدع ، وهو أحد عرقين فى جانبى العنق .

(٥) القذال : جماع مؤخر الرأس من الإنسان . [لسان العرب ـ مادة : قذال] .

فمعنى : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ.. ⑨ ﴾ [الأحزاب] لا تمروا على النعم بغفلة لرتابتها عندكم ، بل تذكروها دائماً ، واجعلوها فى بؤرة شعوركم ؛ لذلك جعل الله الذكر عبادة ، وهو عبادة بلا مشقة ، فأنت حين تصلى مثلاً تستغرق وقتاً ومجهوداً للوضوء وللذهاب للمسجد ، كذلك حين تزكى تُخرِج من مالك ، أما الذكْر فلا يُكلِّفك شيئاً .

لذلك فى سورة الجمعة حينما يستدعى الحق سبحانه عباده للصلاة ، يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ⑨ ﴾ [الجمعة] فهنا حركتان : حركة إيجاب بالسعى إلى الصلاة ، وحركة سَلْب بترْكِ البيع والشراء ، وكلّ ما يشغلك عن الصلاة .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً .. ⑩ ﴾ [الجمعة]

وفى موضع آخر قال : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ㊺ ﴾ [العنكبوت] فإياك أن تظن أن الله يريد أنْ تذكره ساعة الصلاة فحسب ، إنما اذكره دائماً وأبداً ، وإنْ كانت الصلاة لها ظرف تُؤدَّى فيه ، فذكْر الله لا وقتَ له ؛ لذلك جعله الله يسيراً سهلاً ، لا مشقة فيه ، لا بالوقت ولا بالجهد ، فيكفى فى ذكْر الله أنْ تتأمل المرائى التى تمر بها ويقع عليها نظرك لترى فيها قدرة الله .

والحق سبحانه يُذكِّرنا بنعمه ؛ لأن النعمة بتواليها على النفس البشرية تتعوَّد عليها النفس ، ويحدث لها رتابة ، فلا تلتفت إليها ، فأنت مثلاً ترى الشمس كل صباح ، لكن قلَّما تتذكر أنها آية من آيات الخالق ـ عز وجل ـ ونعمة من نعمه ؛ لأنك تعوَّدت على رؤيتها ، وأصبحت رتيبة بالنسبة لك .

كذلك يلفتنا الحق سبحانه إلى نعمه حين يسلبها من الآخرين ، فحين ترى السقيم تذكَّر نعمة العافية ، وحين ترى الأعمى تذكَّر نعمة البصر .. الخ وساعتها ينبغي عليك أنْ تشكر المنعم الذى عافاك مما ابتلى به غيرك ، إذن : فهذه الشواذ جعلها الله وسائل للإيضاح وتذكيراً للخلق بنعَم الخالق .

والنعمة وردتْ هنا مفردة ، وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا (٣٤) ﴾ [إبراهيم] وقد وقف أعداء الإسلام من المستشرقين أمام هذه الآية يعترضون على أن النعمة فيها مفردة ، يقولون : فكيف تُعَدُّ ؟ وهذا الاعتراض منهم ناشئ عن عدم فَهْم لمعانى وأساليب القرآن .

ونقول : الذى ترونْه نعمة واحدة ، لو تأملتُّم فيها لوجدتم بداخلها نعَماً متعددة تفوق العَدَّ ؛ لذلك استخدم القرآن هنا (إنْ) الدالة على الشك ؛ لأن نعمَ الله ليست مظنَّة العَدِّ والإحصاء كرمال الصحراء ، هل تعرَّض أحد لعدِّها ؟ لأنك لا تقبل على عَدِّ شيء إلا إذا كان مظنَّةَ العَدِّ ، وإحصاء المعدود .

لذلك ، فالحق سبحانه يوضح لنا : إنْ حاولتم إحصاء نعَم الله ـ وهذا لن يحدث ـ فلن تستطيعوا عدَّها ، مع أن الإحصاء أصبح علْماً مستقلاً ، له جامعات وكليات تبحث فيه وتدرسه .

ولك أنْ تأخذ نعمة واحدة من نعَم الله عليك ، ثم تتأمل فيها وفى عناصرها ومُكوِّناتها وفوائدها وصفاتها ، وسوف تجد فى طيَّات النعمة الواحدة نعَماً شتَّى ، فالتفاحة مثلاً فى ظاهرها نعمة واحدة، لكن فى ألوانها ومذاقها وعناصر مكوناتها ورائحتها واختلاف وتنوُّع هذا كله نعَم كثيرة .

والحق سبحانه جعل نعَمه عامة للمؤمن وللكافر ؛ لأنه سبحانه جعل لها أسباباً ، مَنْ أحسنَ هذه الأسباب أعطتْه ، حتى لو كان كافراً .

ثم نلاحظ فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ۝٣٤ ﴾ [إبراهيم] أنها وردتْ فى القرآن مرتين ، ولكل منهما تذييل مختلف ، فمرَّة يقول تعالى : ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤ ﴾ [إبراهيم] ، ومرة يقول : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨ ﴾ [النحل]

وفيه إشارة إلى أن الله تعالى لو عامل المنعَم عليهم من الخَلْق بما يقتضيه إيمانهم ، وما يقتضيه كفرهم ، لأعطى المؤمن وسلَب الكافر ، لكنه سبحانه غفور رحيم بخَلْقه ، فبهاتين الصفتين يُنعم سبحانه على الجميع ، وما ترفلون فيه من نعَم الله عليكم أثر من آثار الغفران والرحمة ، فغفر لكم معايبكم أولاً ، والغفر : أنْ تستر الشيء القبيح عمَّن هو دونك .

ثم الرحمة ، وهى أنْ تمتدَّ يدك بالإحسان إلى مَنْ دونك ، وسبق أنْ أوضحنا أن المغفرةَ تسبق الرحمةَ ، وهذه هى القاعدة العامة ، لكن قد تسبق الرحمةُ المغفرةَ ؛ ذلك لأن السَّلْب للشيء المذموم ينبغى أن يسبق النعمة ، أو : أن دَفْع الضرر مُقدَّم على جَلْب المنفعة .

وقد مثَّلْنا لذلك باللصِّ تجده فى دارك ، فتستر عليه أولاً حين لا تسلمه للبوليس ، ثم يرقّ له قلبك ، فتمتد يدُك إليه بالإحسان ، وهنا تسبق المغفرةُ الرحمةَ ، وقد تتصرف معه بطريقة أخرى ، بحيث تقدَّم فيها الرحمة على المغفرة ، والمغفرة لا تكون إلا من الأعلى للأدنى ، فتستر على القبيح قُبْحه ، وأنت أعلى منه ، فلا يقال مثلاً للخادم : إنه ستر على سيده .

ثم يرسل لنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ هذه البرقية الدالَّة على تأييده سبحانه لعباده المؤمنين : ﴿ إِذْ [1] جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا [2] وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) ﴾ [الأحزاب]

فالجنود تُؤذن بالحرب ، وجاءت نكرة مُبْهمة ، ثم جاءت نهاية هذه المعركة في هاتين الجملتين القصيرتين ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا .. (٩) ﴾ [الأحزاب] ولم يذكر ماهية هؤلاء الجنود ، إلا أنهم من عند الله ، جاءوا لردِّ هؤلاء الكفار وإبطال كيدهم .

ثم يأتي بمذكرة تفسيرية توضح مَنْ هم هؤلاء الجنود :

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ [3] وَإِذْ زَاغَتِ [4] الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) ﴾

---

(١) ذلك يوم الخندق في غزوة الأحزاب ، قال ابن إسحاق : كانت في شوال من السنة الخامسة ، وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك رحمه الله : كانت وقعة الخندق سنة أربع ، وهي وبنو قريظة في يوم واحد . (تفسير القرطبي ٧/٥٣٨٩) .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٤٧٠) : « هم الملائكة زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف ، فكان رئيس كل قبيلة يقول : يا بني فلان إليَّ ، فيجتمعون إليه ، فيقول : النجاء النجاء ، لما ألقى الله عز وجل في قلوبهم من الرعب » .

(٣) قال ابن وهب : سمعت مالكاً يقول : ذلك يوم الخندق ، جاءت قريش من هاهنا ، واليهود من هاهنا ، والنجدية من هاهنا . قال القرطبي : يريد مالك أن الذين جاءوا من فوقهم بنو قريظة ، ومن أسفل منهم قريش وغطفان . [تفسير القرطبي ٧/٥٣٨٩] .

(٤) زاغ البصر : اضطرب ولم يحقق ما يرى . وقوله في وصف فزع بعض الناس في المدينة حين أحاطت بهم الأعداء في غزوة الأحزاب ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ .. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أي : اضطربت لشدة الفزع . القاموس القويم (١/٢٩٤) .

هذا وَصْف لما جرى فى غزوة الأحزاب التى جمعتْ فُلول أعداء رسول الله ، فقد سبق أنْ حاربهم مُتفرِّقين ، والآن يجتمعون لحربه ﷺ ، فجاءت قريش ومَنْ تبعها من غطفان وأسد وبنى فزارة وغيرهم، وجاء اليهود من بنى النضير وبنى قريظة ، وعجيب أنْ يجتمع كل هؤلاء لحرب الإسلام على ما كان بينهم من العداوة والخلاف .

وقلنا : إن أهل الكتاب كانوا يستفتحون برسول الله على كفار مكة ، ثم جاءت الآيات لتجعل من أهل الكتاب شهداء على صدْق رسول الله ، فقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ [الرعد]

ولو قدَّر أهل الكتاب هذه الشهادة التى قرنها الحق سبحانه بشهادته ، لكَان عليهم أنْ يؤمنوا بصدْق رسول الله ﷺ .

والمعنى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم.. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أى : اذكر يا محمد وتخيَّل وتصوَّر إذ جاءكم الأحزاب ، وتجمَّعوا لحربك ﴿ مِّن فَوْقِكُمْ.. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أى : من ناحية الشرق ، وهُمْ : غطفان ، وبنو قريظة، وبنو النضير ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ.. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أى : من ناحية الغرب وهم قريش ، ومَنْ تبعهم من الفزاريين والأسديين وغيرهم ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ.. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أى : اذكر إذ زاغت الأبصار ، ومعنى زاغ البصر أى : مال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) ﴾ [النجم]

فـ (زاغت الأبصار) يعنى : مالتْ عن سَمْتها وسنمها ، وقد خلق الله العين على هيئة خاصة ، بحيث تتحرك إلى أعلى ، وإلى أسفل ، وإلى اليمين ، وإلى الشمال ، ولكل اتجاه منها اسم فى اللغة ، فيقولون : رأى أى : بجُمْع عَيْنه ، ولمح بمؤخَّر مُوقِه ، ورمق أى : من ناحية أنفه .. الخ

فسَمْت العين وسَنَمها أنْ تتحرك في هذه الاتجاهات ، فإذا فزعتْ من شيء أخذ البصر ، مال عن سَمْته من التحول ، لذلك يقول تعالى :

﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنبياء]

وقال : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

وشخوص البصر أنْ يرتفع الجَفْن الأعلى ، وتثبت العين على شيء ، لا تتحرَّك إلى غيره .

وفي موضع آخر قال تعالى عن المنافقين والمعوِّقين : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الأحزاب]

لأن الهول ساعة يستولي على الأعين ، فمرة تشخص العين على ما ترى لا تتعداه إلى غيره من شدة الهول ، ومرة تدور هنا وهناك تبحث عن مفرٍّ أو مخرجٍ مما هي فيه ، فهذه حالات يتعرَّض لها الخائف المفزَّع .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الأحزاب] معلوم أن الحنجرة أعلى القصبة الهوائية في هذا التجويف المعروف ، فكيف تبلغ القلوبُ الحناجرَ ؟ هذا أثر آخر من آثار الهول والفزع ، فحين يفزع الإنسان يضطرب في ذاته ، وتزداد دقَّات قلبه ، وتنشط حركة التنفس ، حتى ليُخيَّل للإنسان من شدة ضربات قلبه أن قلبه سينخلع من مكانه ، ويقولون فعلاً في العامية (قلبي هينط مني)

وقوله تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الأحزاب]

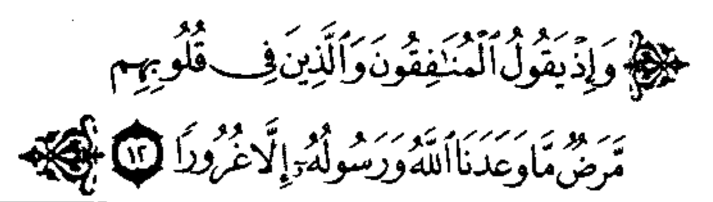
أى : ظنوناً مختلفة تأخذهم وتستولى عليهم ، فكلٌّ له ظنٌّ يخدم غرضه ، فالمؤمنون يظنون أن الله لن يُسلمهم ، ولن يتخلى عنهم ، والكافرون يظنون أنهم سينتصرون وسيستأصلون المؤمنين ، بحيث لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك .

ونلحظ فى هذه الآية أن الحق سبحانه لا يكتفى بأنْ يحكى له ما حدث ، إنما يجعله ﷺ يستحضر الصورة بنفسه ، فيقول له : اذكُرْ إذ حدث كذا وكذا .

ثم يقول الحق سبحانه :(١)

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾

﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ ..﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : اختُبِروا وامْتُحنوا ، فقَوىٌّ الإيمان قال : لن يُسلمنا الله . والمنافق قال : هى نهاية الإسلام والمسلمين ﴿ وَزُلْزِلُوا .. ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب] الزلزلة هى الهزة العنيفة التى ينشأ عن قوتها تَخَلْخل الأشياء ، لكن لا تقتلعها ، والمراد أنهم تعرَّضوا لكرب شديد زلزل كيانهم ، وميَّز مؤمنهم من منافقهم ؛ لذلك يقول تعالى بعدها :



﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾

(١) هنا : للقريب من المكان . وهنالك : للبعيد . وهناك : للوسط . ويشار به إلى الوقت . أى : عند ذلك اختبر المؤمنون ليتبين المخلص من المنافق . [قاله القرطبى فى تفسيره ٧/٥٤٠٦] .

المنافقون هم أنفسهم الذين فى قلوبهم مرض ، فهما شىء واحد ، وهذا العطف يُسمُّونه « عطف البيان » .

والغرور أنْ تخدع إنساناً بشىء مُفْرِح فى ظاهره ، محزن فى باطنه ، تقول : ما غرَّك بالشىء الفلانى كأن فى ظاهره شيئاً يخدعك ويغرّك ، فإذا ما جئتَ لتختبره لم تجده كذلك [(١)] .

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ [(٢)] لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾

﴿ وَإِذْ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب] هنا أيضاً بمعنى : واذكر ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب] يثرب : اسم للبقعة التى تقع

---

(١) أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال : قال المنافقون يوم الأحزاب حين رأوا الأحزاب قد اكتنفوهم من كل جانب ، فكانوا فى شك وريبة من أمر الله ، قالوا : إن محمداً كان يعدنا فتح فارس والروم ، وقد حُصرنا ههنا حتى ما يستطيع يبرز أحدنا لحاجته ، فأنزل الله ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب] [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٦/٥٧٧] .

(٢) يثرب هى : المدينة ، وسماها رسول الله طَيْبة وطابة . وقال أبو عبيدة : يثرب اسم أرض والمدينة ناحية منها . وقال السهيلى : سميت يثرب لأن الذى نزلها من العماليق اسمه يثرب ابن عميل بن مهلائيل بن عوص بن عملاق . [تفسير القرطبى٧/ ٥٤٠٧] قال ابن كثير فى تفسيره : « قال السهيلى : روى عن بعضهم أنه قال : إن لها فى التوراة أحد عشر اسماً : المدينة وطابة وطيبة والمسكينة والجابرة والمحبة والمحبوبة والقاصمة والمجبورة والعذراء والمرحومة » (تفسير ابن كثير ٣/٤٧٣) . ويقول ابن منظور فى لسان العرب [مادة : ثرب] : « سماها طيبة وطابة كراهية التثريب ، وهو اللوم والتعيير » .

فيها المدينة ، وقد غيَّر رسول الله ﷺ اسمها إلى (طَيْبة) .

ومعنى : ﴿ لا مُقَامَ لَكُمْ.. ⑬ ﴾ [الأحزاب] أى : فى الحرب ﴿ فَارْجِعُوا.. ⑬ ﴾ [الأحزاب] يعني : اتركوا محمداً وأتباعه فى أرض المعركة واذهبوا ، أو ﴿ لا مُقَامَ لَكُمْ ⑬ ﴾ [الأحزاب] أى : على هذا الدين الذى تنكرونه بقلوبكم ، وتساندونه بقوالبكم .

ثم يكشف القرآن حيلة فريق آخر يريد الفرار ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ.. ⑬ ﴾ [الأحزاب] أى : فى عدم الخروج للقتال ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ.. ⑬ ﴾ [الأحزاب] أى : ليست مُحصّنة ، ولا تمنع مَنْ أرادها بسوء . يقال : بيت عورة إذا كان غير مُحْرز ، أو غير محكم ضد مَنْ يطرقه يريد به الشر ، كأن يكون منخفضاً أو مُتهدِّم الجدران يسهل تسلُّقه ، أو أبوابه غير محكمة .. إلخ .

كما نقول فى العامية (مَنَطٌّ) ، لكن الحق سبحانه يثبت كذبهم ، ويبطل حجتهم ، فيقول ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ⑬ ﴾ [الأحزاب] إنما العلة فى ذلك ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ⑬ ﴾ [الأحزاب] أى : من المعركة إشفاقاً من نتائجها ومخافةَ القتل .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ⑭ ﴾

﴿ دُخِلَتْ عَلَيْهِم ⑭ ﴾ [الأحزاب] أى : البيوت ﴿ مِّنْ أَقْطَارِهَا ⑭ ﴾ [الأحزاب] من نواحيها ﴿ ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ ⑭ ﴾ [الأحزاب] أى : طُلب منهم الكفر ﴿ لَآتَوْهَا ⑭ ﴾ [الأحزاب] يعنى : لكفروا . ﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ

يَسِيراً (١٤) ﴾ [الأحزاب] يعني : ما يجعل الله لهم لُبْثاً وإقامة إلا يسيراً ، ثم ينتقم الله منهم [١].

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا (١٥) ﴾

معنى ﴿ عَاهَدُوا اللَّهَ.. (١٥) ﴾ [الأحزاب] أخذ الله عليهم العهد وقَبلوه ، وهو ما حدث في بيعة العقبة حين عاهدوا رسول الله على النُّصْرة والمؤازرة . أو : يكون الكلام لقوم [٢] فاتتهم بدر وفاتتْهم أُحُد ، فقالوا : والله لئن وقفنا في حرب أخرى لنبلونّ فيها بلاءً حسناً .

وعَهْد الله هو الشيء الذي تعاهد الله عليه ، وأول عهد لك مع الله تعالى هو الإيمان به ، وما دُمْتَ قد آمنتَ بالله فانظر إلى ما طلبه منك وما كلَّفك به ، وإياك أنْ تُخلَّ بأمر من أموره ، لأن الاختلال في أي أمر تكليفي من الله يُعَد نقصاً في إيمانك بالله ، فلا يليق بك أنْ تنقض ما أكَّدته من الأيْمان ، بل يلزمك أن توفي به ؛ لأنك إنْ وفَّيْتَ بها وُفِّي لك بها أيضاً ، فلا تأخذ الأمر من جانبك وحدك ، ولكن انظر إلى المقابل .

---

(١) قال ابن كثير في تفسير هذه الآية (٣/٤٧٢) : « يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) ﴾ [الأحزاب] أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة وقطر من أقطارها ثم سُئلوا الفتنة وهي الدخول في الكفر لكفروا سريعاً ، وهم لا يحافظون على الإيمان ، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع . هكذا فسره قتادة وعبد الرحمن بن زيد وابن جرير » .

(٢) قال يزيد بن رومان : هم بنو حارثة ، هَمُّوا يوم أُحد أن يفشلوا مع بني سلمة ، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا ألا يعودوا لمثلها ، فذكر الله لهم الذي أعطوه من أنفسهم . [قاله القرطبي في تفسيره ٧/٥٤١٠] .

واعلم أن الله مُطلع عليك ، يعلم خفايا الضمائر وما تُكنّه الصدور ، فاحذر حينما تعطى العهد أنْ تعطيه وأنت تنوى أنْ تخالفه ، إياك أنْ تعطى العهد خداعاً ، فربك - سبحانه وتعالى - يعلم ما تفعل .

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ قُل ﴿١٦﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : لهؤلاء الذين يريدون الفرار من المعركة ﴿ لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأحزاب] والقرآن هنا يحتاط لمسألة إزهاق الروح ، وسبق أن تحدثنا عن الفرق بين الموت والقتل ؛ لذلك يقول تعالى عن نبيه محمد : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران]

فالموت لا يقدر عليه إلا واهب الحياة سبحانه ، ويكون بنقض الروح أولاً بأمر خالقها ، ثم يتبعه نَقْض البنية ، أما القتل فيقدر عليه الخَلْق ، ويتم أولاً بنقض البنية الذى يترتب عليه إزهاق الروح ؛ لأن البنية لم تَعُدْ صالحة لاستمرار الروح فيها ، بعد أنْ فقدتْ المواصفات المطلوبة لبقاء الروح .

والفرار لن يُجدى فى هذه المسألة ؛ لأن لها أجلاً محدداً ، سواء أكان بالله واهب الحياة ، أو كان بفعل واحد من الخَلْق عصى أمر الله ، فهدم البنية التى بناها الله ، وما جدوى الفرار من المعركة ، وقد رأينا مَنْ شهد المعارك كلها ، ثم يموت على فراشه ، كخالد بن الوليد الذى

يقول : لقد شهدتُ مائة زَحْف أو زهاءها ، وما في جسدى شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو طعنة برُمْح ، وها أنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامتْ أعين الجبناء[1] .

ثم يناقشهم القرآن : هَبُوا أنكم فررتُم من الموت أو القتل ، أتدوم لكم هذه السلامة ؟ أتخلدون في هذه الحياة ؟ ﴿ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٦) ﴾ [الأحزاب] وسرعان ما تنتهى الحياة ، وتواجهون الموت الذى لا مَفَرَّ منه ، وكلنا ذاهب إلى هذا المصير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) ﴾

المعنى : قل لهم يا محمد مَن الذى ﴿ يَعْصِمُكُم .. (١٧) ﴾ [الأحزاب] أى : يمنعكم ﴿ مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً .. (١٧) ﴾ [الأحزاب] كما قال فى موضع آخر : ﴿ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ .. (٤٣) ﴾ [هود]

فإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا عاصمَ لهم ؛ لأنه لا يمتنع أحد مع الله ؛ لأنه لا يوجد معه سبحانه إله آخر يدفع السوء عن هؤلاء .

---

(١) ذكره ابن كثير فى « البداية والنهاية » (٧/١١٧) وعزاه للواقدى عن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه .

والإشكال الذى يحتاج إلى توضيح هنا قوله تعالى : ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً .. (١٧)﴾ [الأحزاب] فكيف تكون العصمة من الرحمة ؟ قالوا : يعصم هنا بمعنى يمنع ، والمعنى : لا يمنع أحد من أعدائكم رحمة الله إنْ أراد الله بكم رحمة .

ونلحظ على سياق الآية أنها جاءت بأسلوب الاستفهام ، ولم تأتِ على صورة الخبر ، فلم يَقُلْ القرآن لمحمد ﷺ : قل يا محمد ، لا يُعصَم أحد من الله إنْ أرادكم بسوء ، لأن الجملة الخبرية محتملة للصدق وللكذب ، إنما شاء الله أن يجعلها جملة إنشائية استفهامية ؛ ليقرروا هم بأنفسهم هذه الحقيقة ، كأنه تعالى يقول لهم : لقد ارتضيتُ حكمكم أنتم ، ولو لم يكُنْ الحق سبحانه واثقاً من أن الجواب لن يأتى إلا : لا أحدَ لَمَا جاء بالأسلوب فى صورة استفهام ، إذن : فالاستفهام هنا آكد فى تقرير صدْق هذه الجملة .

كذلك أنت تلجأ إلى هذا الأسلوب فى الردِّ على مَنْ ينكر جميلك ، فتقول : ألم أُحْسِن إليك يوم كذا وكذا ؟ فلا يملك عندها إلا الإقرار .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٧)﴾ [الأحزاب] الولى : هو القريب منك ، وأنت لا تُقرِّب منك إلا مَنْ ترجو نفعه ، هو الذى يليك أو يُواليك ، فحبُّه يسبق الحدث ، فإذا ما جاء الحدث حمله حبُّه لك على أنْ يدافع عنك .

والنصير : قريب من معنى الولى ، ويدافع أيضاً عنك ، لكن يأتى دفاعه بعد الحدث ، وقد يكون ممَّنْ لا قرابةَ بينك وبينهم .

والمعنى : حين يريد الله أحداً بسوء فلن يجد أحداً يمنعه من الله ، لا الولىّ ولا النصير .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾

قد : حرف يفيد التحقيق ، خاصة إذا جاءتْ من الحق سبحانه ، ويأتى معها الفعل فى صيغة الماضى ، لكن هنا ﴿ قَدْ يَعْلَمُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحزاب] فجاء الفعل بصيغة المضارع ، وهذا يعنى أن الحدث الذى يقع الآن سيثبت أن الله يعلم المُعوِّقين ، وقد علم أزلاً .

فإنْ قُلْتَ : فالحق سبحانه يعلم قبل أنْ يكون هناك تعويق ، نقول : فَرْق بين أنْ يعلم الأمر قبل أنْ يقع ، وأنْ يعلمه إذ يقع ، فقد يقول قائل : علمتُ وسوف تجازينى على ما تعلم سابقاً ، لكن لو تركتنى فى المستقبل لن تحدث منى مخالفة . إذن : فالحق سبحانه يريد أن يؤكد هذا الأمر . والمعوِّق : هو الذى يضع العوائق أمام مرادك ، ويُثبِّط همَّتك ويُخذِّلك .

وقوله ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحزاب] يعنى : أقبل وتعال . وكلمة (هلم) تأتى هكذا بصيغة المفرد دائماً مع المفرد والمثنى والجمع ،

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد رضى الله عنه فى قوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحزاب] قال : هذا يوم الأحزاب ، انصرف رجل من عند النبى ﷺ ، فوجد أخاه بين يديه شواء ورغيف ، فقال له : أنت ههنا فى الشواء والرغيف والنبيذ ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف قال : هلم إلىَّ ، لقد بلغ بك وبصاحبك ـ والذى يُحلف به لا يستقى لها محمد أبداً قال : كذبت ـ والذى يُحلف به ـ وكان أخاه من أبيه وأمه ، والله لأخبرنَّ النبى ﷺ بأمرك ، وذهب إلى النبى ﷺ يخبره ، فوجده قد نزل جبريل عليه السلام بخبره ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحزاب] . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٥٨٠] .

ومع المذكر والمؤنث ، ومنه قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا .. (١٥٠)﴾ [الأنعام] أى : هاتوا ، وهذه هى اللغة الفصيحة .

وفى لغة من لغات تهامة يُلحقون بها علامة التثنية والجمع ، والتذكير والتأنيث ، فيقولون : هلم وهلمى وهلما وهلموا ، ولجمع الإناث هلُمْنَ .

وقوله تعالى : ﴿وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨)﴾ [الأحزاب] البأس أى : الحرب ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ .. (٨٠)﴾ [الأنبياء]

وقال سبحانه : ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .. (١٧٧)﴾ [البقرة] ففَرْق بين البأس والبأساء : البأس أى : الحرب . أما البأساء ، فكل ما يصيب الإنسان من مكروه فى غير ذاته كفَقْد ولد ، أو خسارة مال .. إلخ ، أما الضراء فما يصيب الإنسان فى ذاته ، كمرض أو نحوه .

ومن ذلك قول الله تعالى عن سيدنا داود : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ .. (٨٠)﴾ [الأنبياء]

والمراد : صناعة الدروع التى يلبسها الإنسان على مظانٍّ المقَاتل فيه ، وعلى أجهزته الحيوية كالصدر والقلب والرأس ، ولها غطاء خاص (الخوذة) ، وتُصنع الدروع مُسنَّنة . أى : بها تموُّج وتجاويف ، بحيث تتلقى ضربات السيف بإحكام ، فلا تنفلت الضربة إلى مكان آخر فتؤذيه .

لذلك يقول تعالى لنبيه داود عن هذه الصنعة ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. (١١)﴾ [سبأ] أى : فى إحكام هذه الحلقات المتداخلة .

وفَرْق أيضـاً هنا بين لَبُوس ولباس : اللباس هو مـا يقى الإنسان تقلبـات الجو ، ويستر عورته أثنـاء الأمن وسلام الحيـاة ، وهذه هى الملابس العادية التى يرتديها الناس .

وفيها يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا[1] وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ[2] تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) ﴾ [النحل]

أما كلمة (لَبُوس) فهى المُعـدَّة لحالة الحرب كالدروع ونحوها ؛ لذلك جاءت بصيغة دالة على التضخيم (لَبُوس) .

وهذه الآية تلفـتنا إلى مظهـر من مظاهر الدقة فى الأداء القـرآنى المعجز ، فالآية هنا ذكرت (الحَرَّ) ، ولم تذكر شيئاً عن المقابل له ، وهو البرد ، والعلمـاء عادةً ما يلجـئُون إلى تقدير هذا المـحذوف عند تفسير الآية ، فيـقولون : أى تقيكم الحر والبرد[3] ، يريدون أنْ يكملوا أسلوب القرآن ، وهذا لا يجوز .

---

(١) الأكنان : جـمع كِنّ ، ومـا يُصان أو يسـتتر فـيه الـشىء ، والبيـوت أكنان لأصـحابهـا . [القاموس القويم للقرآن الكريم ٢/١٧٥] .

(٢) السربال : القـميص والدرع . وقيـل : كل ما لُبس فهـو سربال . [لسان العـرب ـ مادة : سربل] .

(٣) قال ابن منظور فى لـسان العرب ـ مـادة : سربل : قيل فى قـوله تعالى : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ .. (٨١) ﴾ [النحل] : « إنها القمص تقى الحـر والبرد ، فاكتفى بذكر الحـر كأن ما وقى الحر وقى البرد » .

وقال أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشـف ما يلتبس فى القرآن » : « ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ .. (٨١) ﴾ [النحل] أى : والبرد . وإنمـا حذفه لدلالة ضده عليـه ، كما فى قوله تـعالى : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ .. (٢٦) ﴾ [آل عمـران] أى : والشر . وخصَّ الـحر والخـير بالذكر ؛ لأن الخطاب بالقرآن أول ما وقع بالحـجاز ، والوقاية من الحر أهم عند أهله ؛ لأن الحر عندهم أشد من البرد ، والخير مطلوب العباد من ربهم دون الشر » .

وحين نمعن النظر في هذه الآيـة ، نجد أن الله تعالى خلق الظلال لتقـينا حرارة الشمس ، وجـعل اللباس ، وكذلك جـعل لنا الأكنان في الجبال ، والله خلق الحرَّ على هذه الصـورة التي لا يتحملها الإنسان ؛ لأن للحر مهمة في حياتنا ، فحرارة الشمس تخدمك في أمور كثيرة ، وإنْ كانت تضايقك بعض الوقت ، فـالحق سبحانه أبقاها لتـؤدي مهمةَ خير لك ، ثم حَمَاك بالظل واللباس والأكنان من شرِّها .

فإنْ قُلْتَ : فهذه الأشياء تقيني أيضاً البرد ، نقول : إياك أنْ تظن أن الدفـء يأتيك من غطاء ثقـيل أو مـلابس شتـوية ، إنمـا الدفـء من ذاتك أنت ، فأنت تدفـيء (البطانية) والـفراش الذي تنام عليه ، بدليل أنك ساعة تأتي فراشك لتنام تجده بارداً ، ثم بعد مرور ساعات الليل تجده في الصباح دافئاً .

إذن : فحرارتك الذاتية انتـقلَتْ إلى الغطاء فأدفأتْه ، وكل ما يؤديه الغطاء أنه يحفظ حرارة جسمك بداخله ، فـلا تتبدد في الهواء المحيط بك .

لذلك ، لما درس العلماء مسألة حرارة جـسم الإنسان وجدوا فيها مظهراً من مظاهر قدرة الله ، فالإنسان تُشع منه حرارة تكفي في أربع وعشرين ساعة لغَلْي سبعة عـشر لتراً من الماء ، ومعدل هذه الحرارة في الجسم ٣٧° ثابتة في قـيظ الحر وبرد الشتاء ، مـما يدل على أن لجسمك ذاتيةً منفصلة تماماً عن الجو المحيط بك .

ومن عجائب خَلْق الإنسان أن هذه الحـرارة تتفاوت من عضو إلى عـضو آخـر ، والجسم واحـد ، فأعـضاء حـرارتها مـا بين ٧° - ٩° كـالأنف والأذن والعـين ، ولو زادتْ حـرارة الـعـين عن هذا المـعـدل

تنفجر ، أما الكبد فحرارته ٤٠° .. إلخ ، ومعلوم أن الحرارة تُحدث استطراقاً فى الجسم الواحد ، وفى المكان الواحد .

ومن عجائب خَلْق الإنسان فى هذه المسألة العَرَق الذى يتصبب منك فى حالة تعرضك للحرارة الشديدة ، فيخرج العرق من مسامِّ الجسم ، ليُلطف من درجة حرارته ، ويُحدث عملية تبريد ، كالتى نراها مثلاً فى موتور السيارة ، حتى عندنا فى الفلاحين تجد الفلاح من كثرة عمله فى الأرض وكثرة عرقه تتكون على جسمه طبقة مثل الجير ، وهذه أملاح تخرج مع العرق ؛ لذلك يكثر فى هؤلاء الفلاحين أكل (المش) و (المخللات) لتعويض نسبة الأملاح المفقودة مع العرق ، إذن : فالحق سبحانه لم يقل (والبرد) ، لأن الدفء كما رأينا ذاتى .

وقوله تعالى : ﴿ وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨) ﴾ [الأحزاب] وهذه القلة مستثناة : إما من الإتيان ، أو أنهم يأتون البأس ، لكن قلة منهم يُقاتلون بهمة ونشاط ، والباقون أتوْا ذَرّاً للرماد فى العيون - كما يقولون ولئلا يُتهموا بالتخلف عن رسول الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) ﴾

قوله تعالى : ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ .. (١٩)﴾ [الأحزاب] الشح في معناه العام هو البخل ، لكن الشحيح الذي يبخل على الغير ، وقد يكون كريماً على نفسه وعلى أهله ، أما البخيل فهو الذي يبخل حتى على نفسه ؛ لذلك قال تعالى ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ .. (١٩)﴾ [الأحزاب] ليس على أنفسهم[1] .

وأنت حين تتأمل الصفات المذمومة في الكون تجدها ضرورية لحقائق تكوين الكون ، وتجد لها مهمة ؛ لذلك فَطِن الشاعر إلى هذه المسألة ، فقال :

إنَّ الأشحَّاءَ أسْخَى الناسِ قَاطِبةً ... لأنَّهم ملكُوا الدُّنيا وَمَا انتفَعُوا
لم يَحْرِمُوا الناسَ من بَعْضِ الذي ملكُوا ... إلاَّ ليُعْطَوْا هُموا كُل الذي جمَعُوا

وآخر يرى للبخيل فضلاً عليه ، فيقول :

جُزِي البخيلُ عليَّ صالحةً ... مِنِّي لخِفَّتِه علَى نَفْسِي

نعم ، البخيل خفيف على النفس ؛ لأنه لم يَجُدْ عليك بشيء يأسرك به ، ولم يستعبدك في يوم من الأيام بالإحسان إليك ، فهو خفيف على نفسك ؛ لأنك لستَ مديناً له بشيء .

وهذا على حَدِّ قول الشاعر :

---

(١) أورد القرطبي في تفسيره (٥٤١٢/٧) عدة أقوال في تأويل قوله تعالى : ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ .. (١٩)﴾ [الأحزاب] :
- أشحة عليكم : أي : بالحفر في الخندق والنفقة في سبيل الله . قاله مجاهد وقتادة .
- وقيل : بالقتال معكم .
- وقيل : بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم .
- وقيل : أشحة بالغنائم إذا أصابوها . قاله السدي » .

أَحْسِنْ إلَى النَّاسِ تَسْتعبِدْ قُلُوبَهُم   وطَالَما اسْتعبَدَ الإنْسَانَ إحْسَانُ

فالبخل وإنْ كان مذموماً ، فقد ركزه الله فى بعض الطباع ليعين التضاد ، ومعنى « يعين التضاد » أن البخل مقابله الكرم ، والبخيل يعاون الكريم على أداء مهمته ، فالكريم عادة (إيده سايبه) ، ينفق هنا وهناك حتى ينفد ما معه ، ومن أهل الكرم مَنْ يلجأ إلى أنْ يبيع أرضه أو بيته فى سبيل كرمه ، فمَنْ يشترى منه إذن إذا لم يكُنْ هناك مَنْ يكنز المال ويبخل به ؟

إذن : لو نظرتَ إلى كل شىء فى الوجود تجد له مهمة ، حتى إنْ كان مذموماً ، ثم إن البخيل كثيراً ما يكون ظريفاً لا يخلو مجلسه من ظُرْفه ، فقد كنا فى بواكير شبابنا نشرب السجائر ، فكان الواحد منا يُخرِج علبة السجائر يوزعها على الحاضرين ، وربما لا تكفى واحدة فأخرج الأخرى ، وكان فى مجلسنا واحد من هؤلاء ، فنظر إلىَّ فى غَيْظ وقال (يا قلبك يا أخى) .

وقد كانت هذه السجائر سبباً فى أننا جُرْنا على شبابنا ، فكان لهذا أثر بالغ علينا فى الكِبَر ، فليحمِ الشباب شبابهم ولا يدمروه بمثل هذه الخبائث المحرمة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] أى : فى ساعة الفزع ، يأخذ الفزع أبصارهم، فينظرون هنا وهناك ، لا تستقر أبصارهم ، ولا تسكن إلى شىء ، زاغتْ أبصارهم ﴿ كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب]

ومن ذلك الخبر : « إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتَقلُّون عند الطمع » .

كان هذا حالهم عند الخوف والفزع ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] معنى ﴿ سَلَقُوكُم .. (١٩) ﴾ [الأحزاب]

آلموكم وآذوكم بألسنتهم ، وقالوا لكم : أعطونا حقنا ، فقد حاربنا معكم ، ولولا نحن ما انتصرتُمْ على عدوكم ، إلى غير ذلك من التطاول بالقول والإيذاء والتأنيب .

وهذا كله من معانى (السلق) ومنه : سلق اللحم ونحوه ، وهو أنْ يغلى فى الماء دون أنْ تضيف إليه شيئاً ، ومثله السلخ ، فكلها معانٍ تلتقى فى الإيلام .

وعادةً ما تجد فى اللغة إذا اشترك اللفظان فى حرفين ، واختلفا فى الثالث تجد أن لهما معنى عاماً يجمعهما كما فى سلق وسلخ ، وفى : قطف ، وقطر ، وقطم . وكلها تلتقى فى الانفصال .

وقوله تعالى ﴿ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] حداد يعنى : حادة فصيحة بملء الفم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ [ق]

ومعنى ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] بعد أنْ قال ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] أكَّد هذا المعنى بقوله ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] أى : فى عمومه .

﴿ أُولَـٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] لأنهم لو آمنوا لَعلموا أن الشحَّ ، شُحٌّ عليهم هم ، وليس فى صالحهم ؛ لأن الكريم يستزيد من الله العطاء ، أما الشحيح فليس له زيادة ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ هَـٰأَنتُمْ هَـٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ .. (٣٨) ﴾ [محمد]

وربك حين يراك تنفق مما أعطاك يزيدك ؛ لأنك مؤتمن على الرزق ؛ لذلك يقول أحد الصالحين : اللهم إنك عوّدتنى خيراً ، وعوّدْتُ

خلقك خيراً ، فلا تقطع ما عوَّدتنى حتى لا أقطع عن الناس ما عوَّدتهم . إذن : فالعطاء استدرار لنعمة الله ، وسبب للمزيد منها .

وهَبْ أن لك عدة أولاد ، أعطيتَ لواحد منهم جنيهاً مثلاً ، فذهب واشترى به حلوى ، ثم وزَّعها على إخوته ، ولم يُؤثر نفسه عليهم ، لا بُدَّ أنك ستأتمنه ، وتعطيه المزيد ؛ لأن الخير فى يده يفيض على الآخرين .

ونتيجة عدم الإيمان ﴿ فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (١٩) ﴾ [الأحزاب] أى : أنهم عملوا ، لكن أعمالهم لا رصيدَ لها من إيمان ؛ لذلك أحبطها الله أى : جعلها غير ذات جدوى ولا فائدةَ تعود عليهم . وهذه القضية أوضحها القرآن فى قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٨) ﴾ [إبراهيم]

وهذا الإحباط أمر يسير على الله تعالى ، لكن أفى حَقِّ الله تعالى نقول : هذا صعب ، وهذا يسير ؟ قالوا : كلُّ أمر الله يسير ؛ لأنه تعالى لا يفعل بمعالجة الشىء ، إنما يفعل سبحانه بكُنْ ، وسبق أنْ مثَّلنا لمعالجة الأفعال بمَنْ يريد أنْ ينقل مثلاً عشرة أرادبّ من القمح ، فإنه لا يستطيع إلا أنْ يحملها مُجزَّأة ، فينقل (الجُوال) من هنا إلى هناك ، ثم الآخر ، إلى أنْ ينتهى من الكمية كلها ، ويأخذ فى هذا العمل وقتاً يتناسب مع قوته .

فلما تقدَّم العلم ، وتطوَّر الفكر الإنسانى رأينا الآلة التى تحمل كل هذه الكمية وتنقلها فى حركة واحدة ، وبمجرد الضغط على مجموعة من الأزرار والمفاتيح ، فإذا كان العبد المخلوق لله عز وجل قد استطاع أنْ يصلَ إلى هذا التيسير ، فما بالك بالخالق عز وجل ؟

لذلك يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس] ولا تتعجب من هذه المسألة ؛ لأن ربك أعطاك فى ذاتك شيئاً منها ، لماذا تستبعد فعْل الله تعالى بكُنْ ، وأنت ترى جوارحك تنفعل لمجرد إرادتك للفعل ، مجرد رغبتك فى القيام ترى نفسك قد قُمْتَ ، دون حتى أن تأمر جوارحك وعضلاتك بالقيام .

فإنْ قلتَ : فلماذا لا يأمر الإنسان جوارحه وأعضاءه بما يريد ؟ نقول : لأنك لا تملك أنْ تأمرها ، فهى تنقاد لك ولمرادك بأمر الله ، فالأشياء كلها إنما تأتمر بأمر الخالق سبحانه ، ولا تتخلف عن أمره أبداً ، ألم تقرأ عن السماء ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) ﴾ [الانشقاق]

فالسماء مع عظَم خَلْقها تسمع وتطيع أمر خالقها ؛ أما أنت أيها العبد ، فأىَّ شىء تأمر ، وأنت لا تعرف أصلاً ما تأمره ؟ وهل تعرف أنت العضلات والأعضاء والأعصاب التى تشترك بداخلك لأداء عملية القيام ؟ لذلك ولعدم علمك بما تأمره جعل الله أعضاءك وجوارحك تنفعل لمجرد إرادتك .

أما هو سبحانه فيقول (كُنْ) لأنه خالق كل شىء ، وكل شىء مؤتمر بأمره ، وقال سبحانه (كُنْ) حتى لا تقولها أنت ، فكأنها سبقتْ منه سبحانه لصالحك أنت ، وأنت تفعل من باطن كُنْ الأولى التى توزَّعَتْ علينا جميعاً .

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) ﴾

القرآن الكريم يحكى هذا الموقف عن المنافقين ، ويكشف نواياهم السيئة ، فبعد أنْ تجمَّع الأحزاب وخرجوا لمحاربة النبى ﷺ ما يزال هؤلاء المنافقون ﴿ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا .. ⦗٢٠⦘ ﴾ [الأحزاب] فهذا التجمُّع يخيفهم ويروعهم ؛ لذلك لم يُصدِّقوه ، فقد رأوا النبى ﷺ ينتصر على أعدائه متفرقين ، وهذه هى المرة الأولى التى يجتمع فيها أعداء الإسلام على اختلافهم .

إذن : استبعد المنافقون تجمُّع الأحزاب هذا التجمع ، وبعد ذلك ينفضون دون أنْ يصنعوا حَدَثاً يُذْكر فى التاريخ .

والحُسْبان : ظن ، أى : ليس حقيقة .

﴿ وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ .. ⦗٢٠⦘ ﴾ [الأحزاب] أى : إنْ يتجمع الأحزاب يودُّ المنافقون لو أنهم بادون أى : مقيمون فى البادية بعيداً عن المدينة ؛ لأنهم يخافون من مطلق التجمع ، ولأنهم إنْ بَقَوْا فى المدينة إما أنْ يحاربوا الأحزاب وهم غير واثقين من النصر ، وإما ألاَّ يحاربوا فيصيرون أعداءً للمسلمين .

فهم يريدون - إذن - أنْ يعيشوا فى النفاق ، وألاَّ يخرجوا منه ؛ لذلك يودون عيشة البادية مع الأعراب ، ومن بعيد ﴿ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ .. ⦗٢٠⦘ ﴾ [الأحزاب] أى : ما حدث لكم فى هذه المواجهة .

ثم يقرر القرآن هذه الحقيقة : ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً ⦗٢٠⦘ ﴾ [الأحزاب] أى : درْءاً للشبهات ، وذَرّاً للرماد فى العيون ، إذن : لا تأسَ عليهم ، ولا تحزن لتخلُّفهم .

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

أسوة : قدوة ونموذج سلوكى ، والرسول ﷺ مُبلِّغ عن الله منهجه لصيانة حركة الإنسان فى الحياة ، وهو أيضاً ﷺ أُسْوة سلوك ، فما أيسر أنْ يعظ الإنسانُ ، وأنْ يتكلَّم ، المهم أنْ يعمل على وَفْق منطوق كلامه ومراده ، وكذلك كان سيدنا رسول الله مُبلِّغاً وأسوة سلوكية ؛ لذلك قالت عنه السيدة عائشة رضى الله عنها : « كان خلقه القرآن »[(١)] .

لكن ، ما الأسوة الحسنة التى قدَّمها رسول الله فى مسألة الأحزاب ؟ لمَّا تجمَّع الأحزاب كان من دعائه ﷺ : « اللهم مُنزلَ الكتاب ، سريعَ الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم »[(٢)] .

وجعل شعاره الإيمانى فيما بعد « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزَّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده »[(٣)] وما دام

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٩١ ، ١٦٣) ، وأبو بكر البيهقى فى دلائل النبوة (١/٣١٠) من حديث عائشة رضى الله عنها أن سعد بن هشام بن عامر قال : أتيت عائشة ، فقلت : يا أم المؤمنين أخبريني بخلق رسول الله ﷺ . قالت : كان خلقه القرآن ، أما تقرأ القرآن قول الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٩٣٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٤٢) كتاب الجهاد ـ باب استحباب الدعاء بالنصر (٧) من حديث عبد الله بن أبى أوفى.

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤١١٤) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٢٤) كتاب الذكر والدعاء ـ باب (١٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ولفظهما : « لا إله إلا الله وحده ، أعزَّ جنده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده » .

هذا شعار المصطفى ﷺ ، فهو لكم أُسْوة .

وقال تعالى عن المؤمنين في هذه الغزوة : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤) ﴾ [البقرة]

وفى بدر يقول أبو بكر : يا رسول الله ، بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك[1] .

ولقائل أنْ يقول : إذا كان الله تعالى قد وعد نبيه بالنصر ، فلِمَ الإلحاح فى الدعاء ؟ نقول : ما كان سيدنا رسول الله يُلح فى الدعاء من أجل النصر ؛ لأنه وَعْد مُحقَّق من الله تعالى .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) ﴾ [الأنفال]

فالرسول لا يريد الانتصار على العير ، وعلى تجارة قريش ، إنما يريد النفير الذى خرج للحرب .

وقوله تعالى : ﴿ فِي رَسُولِ اللَّهِ .. (٢١) ﴾ [الأحزاب] كأن الأسْوة الحسنة مكانها كل رسول الله ، فهو ﷺ ظرف للأُسْوة الحسنة فى كل عضو فيه ﷺ ، ففى لسانه أُسْوة حسنة ، وفى عينه أُسْوة حسنة ، وفى يده أُسْوة حسنة .. إلخ ، كله ﷺ أُسْوة حسنة .

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٦٢٧/٢) أن رسول الله ﷺ عدّل الصفوف يوم بدر ، ورجع إلى العريش فدخله ، ومعه فيه أبو بكر الصديق ، ليس معه فيه غيره ، ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول فيما يقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد . وقد خفق رسول الله ﷺ خفقة وهو فى العريش ، ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذٌ بعنان فرس يقوده ، على ثناياه النقع . (أى : الغبار) .

هذه الأُسْوة لمَنْ ؟ ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]

وصف ذكر الله بالكثرة ؛ لأن التكاليف الإيمانية تتطلب من النفس استعداداً وتهيؤاً لها ، وتؤدى إلى مشقة ، أما ذكْر الله فكما قُلْنا لا يكلفك شيئاً ، ولا يشق عليك ؛ لذلك قال تعالى : ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت]

يعنى : أكبر من أىِّ طاعة أخرى ؛ لأنه يسير على لسانك ، تستطيعه فى كل عمل من أعمالك ، وفى كل وقت ، وفى أىِّ مكان ، ولذلك قُلْنا فى آية الجمعة : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً .. ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة]

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾

أى : لما رأى المؤمنون الأحزاب منصرفين مهزومين ﴿قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ .. ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب] أى : هذا النصر ، وهذا الوعد الذى تحقق ما زادهم ﴿إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب]

وهذه المسألة دليل من أدلة أن الإيمان يزيد وينقص ، فالإيمان يزيد بزيادة الجزئيات التى تُعليه ، فبعد الإيمان بالحق ـ سبحانه وتعالى ـ هناك إيمان بالجزئيات التى تثبت صدْق الحق فى كلِّ تصرف .

وتسليماً : أى لله فى كلِّ ما يُجريه على العباد .

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ[1] وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) ﴾

نزلت هذه الآية في جماعة من المؤمنين صادقي الإيمان[2] ، إلا أنهم لم يشهدوا بدراً ولا أُحُداً ، ولكنهم عاهدوا الله إنْ جاءت معركة أخرى لَيُبَادِرُنَّ إليها ، ويبلُون فيها بلاءً حسناً .

وورد أنها نزلت في أنس بن النضر ، فقد عاهد الله لما فاتته بدر لو جاءت مع المشركين حرب أخرى لَيبلونَّ فيها بلاء حسناً ، وفعلاً لما جاءت أُحُد أبلى فيها بلاءً حسناً حتى استشهد فيها ، فوجدوا في جسده نيِّفاً وثمانين طعنةً برمح ، وضربة بسيف[3] ، وهذا معنى

(١) نحب : أوجب على نفسه أمراً . أو نذر نذراً . وقضى نحبه : وفَّى بنذره . والنحب النذر ويقال لمن مات في سبيل الله : قضى نحبه . أي : وفَّى بنذره لأنه نذر أن يموت في سبيل الله . [القاموس القويم ٢/٢٥٥] .

(٢) قال علي بن أبي طالب عن طلحة بن عبيد الله : ذلك امرؤ نزلت فيه آية من كتاب الله تعالى ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ .. (٢٣) ﴾ [الأحزاب] : طلحة ممن قضى نحبه ، لا حساب عليه فيما يستقبل . وقال عيسى بن طلحة : أن النبي ﷺ مرّ عليه طلحة فقال : هذا ممن قضى نحبه . أوردهما الواحدي النيسابوري في (أسباب النزول ص ٢٠٢ ، ٢٠٣) .

(٣) عن أنس بن مالك قال : غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر ، فشق عليه ، وقال : غبت عن أول مشهد شهده رسول الله ﷺ ، والله لئن أشهدني الله سبحانه قتالاً ليرينَّ الله ما أصنع ، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال : اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء المشركون وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء ، يعني المسلمين ، ثم مشى بسيفه فلقيه سعد بن معاذ فقال : أي سعد ، والذي نفسي بيده إني لأجد ريح الجنة دون أُحُد ، فقاتلهم حتى قُتل . قال أنس : فوجدناه بين القتلى به بضع وثمانون جراحة من بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بالسهم ، وقد مثّلوا به ، وما عرفناه حتى عرفته أخته ببنانه ، ونزلت هذه الآية . [أسباب النزول للواحدي ص ٢٠٢ ، وابن سعد في الطبقات الكبير (٤/٣٢٩)] .

﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ .. (٢٣)﴾ [الأحزاب]

وساعة تسمع كلمة ﴿رِجَالٌ .. (٢٣)﴾ [الأحزاب] في القرآن ، فاعلم أن المقام مقام جدٍّ وثبات على الحق ، وفخر بعزائم صُلْبة لا تلين ، وقلوب رسخ فيها الإيمان رسوخ الجبال . وهؤلاء الرجال وَفَّوا العهد الذى قطعوه أمام الله على أنفسهم ، بأنْ يبلُوا فى سبيل نصرة الإسلام ، ولو يصل الأمر إلى الشهادة .

وقوله تعالى : ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ .. (٢٣)﴾ [الأحزاب] قضى نحبه : أى أدَّى العهد ومات ، والنحب فى الأصل هو النذر ، فالمراد : أدى ما نذره ، أو ما عاهد الله عليه من القتال ، ثم استُعملَت (النحب) بمعنى الموت .

لكن ، ما العلاقة بين النذر والموت ؟ قالوا : المعنى إذا نذرتَ فاجعل الحياةَ ثمناً للوفاء بهذا النذر ، وجاء هذا التعبير ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ .. (٢٣)﴾ [الأحزاب] لتعلم أن الموت يجب أن يكون منك نذراً . أى : انذر لله أنْ تموت ، لكن فى نُصْرة الحق وفى سبيل الله ، فكأن المؤمن هو الذى ينذر نفسه وروحه لله ، وكأن الموت عنده مطلوب ليكون فى سبيل الله .

فالمؤمن حين يستصحب مسألة الموت ويستقرئها يرى أن جميع الخَلْق يموتون من لدُن آدم عليه السلام حتى الآن ؛ لذلك تهون عليه حياته ما دامت فى سبيل الله ، فينذرها ويقدمها لله عن رضا ، ولمَ لا وقد ضحيتَ بحياة ، مصيرها إلى زوال ، واشتريتَ بها حياة باقيَة خالدة مُنعَّمة .

وقد ورد فى الأثر : « ما رأيتُ يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت » ومع أننا نرى الموت لا يُبقى على أحد فينا إلا أن كل

إنسان فى نفسه يتصور أنه لن يموت .

وحَقٌّ للمؤمن أنْ ينذر نفسه ، وأنْ يضحى بها فى سبيل الله ؛ لأن الله يقول : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) ﴾ [آل عمران]

وهذه الحياة التى عند الله حياة على الحقيقة ، لأن الرزق سمة الحىِّ الذى يعيش ويأكل ويشرب .. إلخ ، وإياك أنْ تظن أنهما حياة معنوية فحسب .

وقد تسمع مَنْ يقول لك : هذا يعنى أننى لو فتحتُ القبر على أحد الشهداء أجده حياً فى قبره ؟ ونقول لمن يحب أنْ يجادل فى هذه المسألة : الله تعالى قال : ﴿ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ .. (١٦٩) ﴾ [آل عمران] ولم يقل : أحياء عندك ، فلا تحكم على هذه الحياة بقانونك أنت ، لا تنقل قانون الدنيا إلى قانون الآخرة .

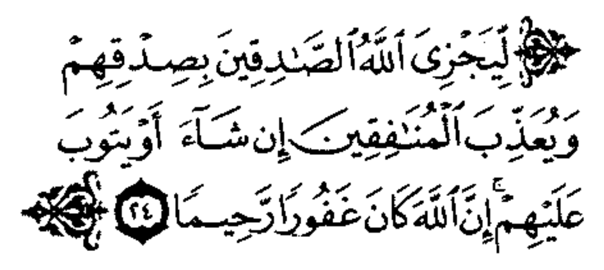
والمؤمن ينبغى أن يكون اعتقاده فى الموت ، كما قال بعض العارفين : الموت سهم أُرسِل إليك بالفعل ، وعمرك بقدر سفره إليك .

والقرآن حين يعالج هذه المسألة يقول تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢) ﴾ [الملك] فقدَّم الموت على الحياة ، حتى لا نستقبل الحياة بغرور الحياة ، إنما نستقبلها مع نقيضها حتى لا نغترَّ بها .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ .. (٢٣) ﴾ [الأحزاب] أى : ينتظر الوفاء بعهده مع الله ، وكأن الله تعالى يقول : الخير فيكم يا أمة محمد

باق إلى يوم القيامة ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) ﴾ [الأحزاب] معنى التبديل هنا : أى ما تخاذلوا فى شىء عاهدوا الله عليه ونذروه ، فما جاءت بعد ذلك حرب ، وتخاذل أحد منهم عنها ، ولا أُدخل أحد منهم الحرب مواربة ورياء ، فقاتل من بعيد ، أو تراجع خوفاً من الموت ، بل كانوا فى المعمعة حتى الشهادة .

ثم يقول الحق سبحانه :



تأمل هنا رحمة الخالق بالخَلْق ، هذه الرحمة التى ما حُرِم منها حتى المنافق ، فقال سبحانه ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ .. (٢٤) ﴾ [الأحزاب]

وسبق أنْ تحدثنا عن صفتى المغفرة والرحمة وقلنا : غفور رحيم من صيغ المبالغة ، الدالة على كثرة المغفرة وكثرة الرحمة ، وأن القرآن كثيراً ما يقرن بينهما ، فالمغفرة أولاً لتستر العيب والنقائص ، ثم يتلوها الرحمة من الله ، بأن تمتد يده سبحانه بالإحسان .

وقد أوضحنا ذلك باللص تجده فى بيتك ، فتشفق عليه ، ثم تمتد إليه يدك بالمساعدة التى تعينه على عدم تكرار ذلك . وقلنا : إن الغالب أن تسبق المغفرةُ الرحمةَ ، وقليلاً ما تسبق الرحمةُ المغفرةَ .

وقلنا : إنه يشترط فى المغفرة أن تكون من الأعلى للأدنى ، فإذا

ستر العبد على سيده قبحاً لا يقال : غفر له ، وكذلك فى الرحمة فإن مال الأقل بالإحسان إلى الأعلى لا يقال رحمة ؛ لأنه قد يعطيه عوَضاً عما قدَّم له أو يعطيه انتظار أنْ يرد إليه ما أعطاه مرة أخرى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾

الغيظ : احتدام حقد القلب على مقابل منافس ، والمعنى : أن الله تعالى ردَّ الكافرين والغيظ يملأ قلوبهم ؛ لأنهم جاءوا وانصرفوا دون أنْ ينالوا من المسلمين شيئاً ﴿ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحزاب] ليس الخير المطلق ، إنما لم ينالوا الخير فى نظرهم ، وما يبتغونه من النصر على المسلمين ، فهو خير لهم وإنْ كان شراً يُراد بالإسلام .

وقد رد الله الكافرين إلى غير رَجْعة ، ولن يفكروا بعدها فى الهجوم على الإسلام ؛ لذلك قال سيدنا رسول الله بعد انصرافهم خائبين : « لا يغزونا أبداً ، بل نغزوهم نحن »[1] وفعلاً كان بعدها فتح مكة .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحزاب] أى :

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤١٠٩ ، ٤١١٠) ، وأحمد فى مسنده (٤/٢٦٢) من حديث سليمان بن صرد . قال العسقلانى فى (فتح البارى ٧/٤٠٥) : « فيه علَم من أعلام النبوة ، فإنه ﷺ اعتمر فى السنة المقبلة فصدته قريش عن البيت ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها فكان ذلك سبب فتح مكة ، فوقع الأمر كما قال » .

أن ردَّ الكافرين لم يكُنْ بسبب قوتكم وقتالكم ، إنما تولَّى الله ردَّهم وكفاكم القتال ، صحيح كانت هناك مناوشات لم تصل إلى حجم المعركة ، ولو حدثت معركة بالفعل لكانت في غير صالح المؤمنين ؛ لأنهم كانوا ثلاثة آلاف ، في حين كان المشركون عشرة آلاف .

إذن : كانت رحمة الله بالمؤمنين هي السبب الأساسي في النصر ؛ لذلك ذُيلت الآية بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) ﴾ [الأحزاب] قوياً ينصركم دون قتال منكم ، وعزيزاً : أي يغلب ولا يُغلب .

هذا ما كان من أمر قريش وحلفائها ، أما بنو قريظة فيقول الله فيهم :

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) ﴾

معنى ﴿ ظَاهَرُوهُم .. (٢٦) ﴾ [الأحزاب] أي : عاونوهم ﴿ مِن صَيَاصِيهِمْ .. (٢٦) ﴾ [الأحزاب] أي : من حصونهم وقلاعهم ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ .. (٢٦) ﴾ [الأحزاب] أي : الخوف وهو جندي من جنود الله ، وهذا الرعب الذي ألقاه الله في قلوب الكافرين هو الذي فرَّقهم ، ولم يجعل لكثرة العدد لديهم قيمة ، وما فائدة أعداد كثيرة خائفة مذعورة ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ .. (٤) ﴾ [المنافقون]

ألم يُحدِّثنا صحابة رسول الله أنهم كانوا يستعملون السواك ، فظن الكفار أنهم يسنُّون أسنانهم ليأكلوهم ، هذا هو الرعب الذي نصر الله به عباده المؤمنين .

ومعنى ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ .. (٢٦)﴾ [الأحزاب] أى : المقاتلين الذين يحملون السلاح ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦)﴾ [الأحزاب] وهم النساء والذرارى وغيرهم ممَّنْ لا يحملون السلاح .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)﴾

معنى ﴿وَأَوْرَثَكُمْ .. (٢٧)﴾ [الأحزاب] أى : أعطاكم أرضَ وديار وأموالَ أعدائكم من بعد زوالهم وانهزامهم ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا .. (٢٧)﴾ [الأحزاب] أى : أماكن جديدة لم تذهبوا إليها بعد ، والمراد بها خيبر ، وكأن الله يقول لهم : انتظروا فسوف تأخذون منهم الكثير ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)﴾ [الأحزاب]

وهكذا انتهى التعبير القرآنى من قصة الأحزاب[1] .

---

(١) أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة رضى الله عنه فى قوله ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ .. (٢٦)﴾ [الأحزاب] قال : « هم بنو قريظة ظاهروا أبا سفيان ، وراسلوه ، ونكثوا العهد الذى بينهم وبين النبى ﷺ ، فبينما النبى ﷺ عند زينب بنت جحش يغسل رأسه وقد غسلت شقه ، إذ أتاه جبريل عليه السلام ، فقال : عفا الله عنك . ما وضعت الملائكة عليها السلام سلاحها منذ أربعين ليلة ، فانهض إلى بنى قريظة فإنى قد قطعت أوتادهم ، وفتحت أبوابهم ، وتركتهم فى زلزال وبلبال .

فأرسل رسول الله ﷺ فحاصرهم ، وناداهم : يا إخوة القردة فقالوا : يا أبا القاسم ما كنت فحاشاً . فنزلوا على حكم سعد بن معاذ وكان بينهم وبين قومه حلف ، فرجوا أن تأخذه فيهم مودة ، فأومأ إليهم أبو لبابة ، فأنزل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ.. (٢٧)﴾ [الأنفال] فحكم فيهم سعد : أن تُقتل مقاتلتهم ، وأن تسبى ذراريهم ، وأن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار ، فقال الأنصار : آثر المهاجرين بالأعقار علينا ، فقال سعد : إنكم كنتم ذوى أعقار ، وأن المهاجرين كانوا لا أعقار لهم . فذكر لنا أن رسول الله ﷺ كبَّر وقال : مضى فيكم بحكم الله » . [الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٦/٥٩١] .

وينبغي علينا الآن أنْ نستعرض القصة بفلسفة أحداثها ، وأن نتحدث عمَّا في هذه القصة من بطولات ، ففيها بطولات متعددة ، لكل بطل فيها دور .

وتبدأ القصة حين ذهب كل من حيى بن أخطب ، وسلام بن أبي الحقيق ، وكانا من قريظة ، ذهبا إلى قريش في أماكنها ، وقالوا : جئناكم لنتعاون معكم على إبطال دعوة محمد ، فأتُوا أنتم من أسفل ، وننزل نحن من أعلى ، ونحيط محمداً ومن معه ونقضي عليهم .

وكان في قريش بعض التعقُّل فقالوا لحيى بن أخطب وصاحبه : أنتم أهل كتاب ، وأعلم بأمر الأديان فقولوا لنا : أديننا الذي نحن عليه خير أم دين محمد ؟ فقال : بل أنتم أصحاب الحق[1] .

سمعتْ قريش هذا الكلام بما لديها من أهواء ، وكما يقال : آفة الرأي الهوى ؛ لذلك لم يناقشوه في هذه القضية ، بل نسجوا على منواله ، ولم يذكروا ما كان من أهل الكتاب قبل بعثته ﷺ ، وأنهم كانوا يستفتحون على الكافرين برسول الله ويقولون لهم : لقد أطلَّ زمان نبي جديد نتبعه ونقتلكم به قَتْلَ عاد

---

(١) قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء] وعن عكرمة قال : جاء حُيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم فأخبرونا عنا وعن محمد ، فقالوا : ما أنتم وما محمد ؟ فقالوا : نحن نصل الأرحام ، وننحر الكوماء (الناقة العظيمة السنام) ، ونسقي الماء على اللبن ، ونفك العاني (الأسير) ، ونسقي الحجيج ، ومحمد صنبور قطع أرحامنا واتبعه سراق الحجيج من غفار ، فنحن خير أم هو ؟ فقالوا : أنتم خير وأهدى سبيلاً . [تفسير ابن كثير ١/٥١٢] .

وإرم[١] ، لقد فات قريشاً أنْ تراجع حيي بن أخطب ، وأن تسأله لماذا غيَّرتم رأيكم في محمد ؟

ثم جاء القرآن بعد ذلك ، وفضح هؤلاء وهؤلاء ، فقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) ﴾ [النساء]

فكانت هذه أول مسألة تغيب فيها العقول ، ويفسد فيها الرأى ، فتنتهز قريش أول فرصة حين تجد مَنْ يناصرها ضد محمد ودعوته ، ومن هنا اجتمع أهل الباطل من قريش وأحلافها من بني فزارة ، ومن بني مرة ، ومن غطفان وبني أسد والأشجعيين وغيرهم ، اجتمعوا جميعاً للقضاء على الدين الوليد .

ثم كانت أولى بطولات هذه المعركة ، لرجل ليس من العرب ، بل من فارس عبدة النار والعياذ بالله ، وكأن الحق سبحانه يُعد لنصرة الحق حتى من جهة الباطل ، إنه الصحابى الجليل سلمان الفارسى[٢] ،

---

(١) قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمرو عن قتادة الأنصارى عن أشياخ منهم قال : فينا والله وفيهم ، يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعني ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ (٨٩) ﴾ [البقرة] قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب . وهم يقولون : إن نبياً سيُبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به » أورده ابن كثير فى تفسيره (١/١٢٤) .

(٢) سلمان الفارسى ، صحابى من مقدميهم ، أصله من مجوس أصبهان ، رحل إلى الشام ، فالموصل ، فنصيبين ، قرأ كتب الفرس والروم واليهود ، وعلم بخبر الإسلام فقصد النبى فسمع كلامه ، ولم يدخل الإسلام إلا بعد أن تحرر من العبودية . كان ينسج الصوف ويأكل خبز الشعير من كسب يده . توفى ٣٦ هـ [الأعلام للزركلى ٣/١١٢] .

الذى قضى حياته جَوَّالاً يبحث عن الحقيقة ، إلى أنْ ساقتْه الأقدار إلى المدينة ، وصادف بعثة رسول الله وآمن به .

وكان سلمان أول بطل فى هذه المعركة ، حين أشار على رسول الله بحفر الخندق ، وقال : يا رسول الله كنا - يعنى فى فارس - إذا حَزَبنا أمرُ القتال خندقنا يعني : جعلنا بيننا وبين أعدائنا خندقاً ، ولاقت هذه الفكرة استحساناً من المهاجرين ومن الأنصار ، فأراد كل منهم أن يأخذ سلمان فى صَفِّه ، فلما تنازعا عليه ، قال سيدنا رسول الله لهم « بل سلمان منا آل البيت »[(١)] وهذا أعظم وسام يوضع على صدر سلمان رضى الله عنه .

وهذه الفكرة دليل على أن الحق سبحانه يُجنِّد حتى الباطل لخدمة الحق ، فنحن لم يسبق لنا أنْ رأينا خندقاً ولا أهل الفارسى الذين جاءوا بهذه الفكرة ، لكن ساقها الله لنا ، وجعلها جُنْداً من جنوده على يد هذا الصحابى الجليل ، لنعلم كما قال تعالى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال]

وقد أوضحنا هذا المعنى فى قصة فرعون الذى كان يذبح الأطفال

(١) عن عمرو بن عوف المزنى قال : خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب من أجم السَّمُر طرف بنى حارثة حين بلغ المداد ، ثم قطع أربعين ذراعاً بين كل عشرة ، فاختلف المهاجرون والأنصار فى سلمان الفارسى ، وكان رجلاً قوياً ، فقالت الأنصار : سلمان منا . وقالت المهاجرون : سلمان منا . فقال رسول الله ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤١٨) والحاكم فى مستدركه (٣/٥٩٨) وضعَّف الذهبى إسناده من أجل كثير بن عبد الله .

بعد النبوءة التى سمعها ، ثم يأتيه طفل على غير العادة يحمله إليه الماء ، وهو فى صندوقه ، ولا يخفى على أحد أنَّ أهله قصدوا بذلك إبعاده عن خطر فرعون ، ومع ذلك حال الله بين فرعون وبين ما فى قلبه ، فأخذ الولدَ وربَّاه فى بيته .

وقد أحسن الشاعر الذى عبَّر عن هذا المعنى ، فقال :

إذاَ لَمْ تُصَادِفْ فِى بَنِيكَ عِنَايةٌ فَقَد كَذَبَ الراجى وَخَابَ المُؤَمِّلُ
فَمُوسَى الذِى ربَّاه جِبْرِيلُ كَافِرٌ ومُوسَى الذى ربَّاهُ فرعَوْنُ مُرْسَلُ

البطل الثانى فى هذه المعركة رجل يُدْعَى نعيم بن مسعود الأشجعى[1] ، جاء لرسول الله يقول : يا رسول الله لقد مال قلبى للإسلام ، ولا أحد يعلم ذلك من قومى ، فقال له رسول الله : « وما تغنى أنت ؟ ولكن خذِّل عنا »[2] أى : ادفع عنا القوم بأىِّ طريقة ، أبعدهم عنّا ، أو ضلِّلهم عن طريقنا ، أو قُلْ لهم أننا كثير ليرهبونا .. إلخ .

---

(١) نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعى ، أبو سلمة . صحابى مشهور ، أسلم ليالى الخندق ، وهو الذى أوقع الخلف بين الحيين قريظة وغطفان فى وقعة الخندق . فخالف بعضهم بعضاً ورحلوا عن المدينة . قُتِل نعيم فى أول خلافة على قبل قدومه البصرة فى وقعة الجمل ، وقيل : مات فى خلافة عثمان ، والله أعلم . [الإصابة فى تمييز الصحابة ترجمة رقم ٨٧٨٠] .

(٢) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢٤٧/٣) أن نعيم بن مسعود أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله إنى قد أسلمت ، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى ، فمُرْنى بما شئت ، فقال رسول الله ﷺ : « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذِّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة » .

هذا رجل كان بالأمس كافراً ، فماذا فعل الإيمان فى قلبه ، وهو حديث عهد به ؟ نظر نُعَيْم ، فرأى قريشاً وأتباعها يأتون من أسفل ، وبنى قريظة وأتباعهم يأتون من أعلى ، فأراد أنْ يدخل بالدسيسة بينهما ، فذهب لأبى سفيان ، وقال : يا أبا سفيان ، أنا صديقكم ، وأنتم تعلمون مفارقتى لدين محمد ، ولكنى سمعت هَمْساً أن بنى قريظة تداركوا أمرهم مع محمد ، وقالوا : إن قريشاً وأحلافهم ليسوا مقيمين فى المدينة مثلنا ، فإنْ صادفوا نصراً ينتصرون ، وإنْ صادفوا هزيمة فروا إلى بلادهم ، ثم يتركون بنى قريظة لمحمد ؛ لذلك قرروا ألاَّ يقاتلوا معكم إلاَّ أنْ تعطوهم عشرة من كبرائكم ليكونوا رهائن عندهم .

سمع أبو سفيان هذا الكلام ، فذهب إلى قومه فقال لهم : أنتم المقيمون هنا ، وليس هذا موطن بنى قريظة ، وسوف يتركونكم لمواجهة محمد وحدكم ، فإنْ أردتم البقاء على عهدهم فى محاربة محمد ، فاطلبوا منهم رهائن تضمنوا بها مناصرتهم لكم .

بعدها ذهب أبو سفيان ليكلِّم بنى قريظة فى هذه المسألة ، فقال : هلك الخفُّ والحافر - يعنى : الإبل والخيل - ولسنا بدار مقام لنا ، فهيا بنا نناجز[1] محمداً - هذا بعد أنْ مكثوا نيِّفاً وعشرين يوماً يعدون ويتشاورون - فقالوا له : هذا يوم السبت ، ولن نفسد ديننا من أجل قتال محمد وعلى كل حال نحن لن نشترك معكم فى قتال ، إلا أنْ تعطونا عشرة من كبرائكم يكونون رهائن عندنا ، ساعتها علم أبو سفيان أن كلام نعيم الأشجعى صدِق ، فجمع قومه وقال لهم :

---

(١) المناجزة فى القتال : المبارزة والمقاتلة ، وهو أن يتبارز الفارسان فيتمارسا حتى يقتل كل واحد منهما صاحبه أو يُقتل أحدهما . وتناجز القوم : تسافكوا دماءهم كأنهم أسرعوا فى ذلك . [لسان العرب - مادة : نجز] .

الأرض ليست أرض مقام لنا ، وقد هلك الخف والحافر ، فهيا بنا ننجو .

قالوا : إن رسول الله ﷺ لما جاء نعيم بن مسعود ، وأخبر رسول الله بما حدث ، ووجد رسول الله الجو هادئاً ، فقال : « ألا رجل منكم يذهب فيُحدِّثنا الآن عنهم ، وهو رفيقى فى الجنة ؟ » والمراد : أن يندسَّ بين صفوف الأعداء ليعلم أخبارهم .

ومع هذه البشارة التي بشر بها سيدنا رسول الله مَنْ يؤدى هذه المهمة ، لم يَقُمْ من الحاضرين أحد ، ودَلَّ هذا على أن الهول ساعتها كان شديداً ، والخطر كان عظيماً ، وكان القوم فى حال من الجهد والجوع والخوف ، جعلهم يتخاذلون عن القيام ، فلم يأنس أحد منهم قوة فى نفسه يؤدى بها هذه المهمة .

لذلك كلَّف رسول الله رجلاً يُدْعى حذيفة بن اليمان بهذه المهمة قال حذيفة : ولكن رسول الله قال لى : لا تُحدث أمراً حتى ترجع إليَّ ، فلما ذهبتُ وتسللتُ ليلاً جلستُ بين القوم ، فجاء أبو سفيان بالنبأ من بنى قريظة ، يريد أنْ يرحل بمَنْ معه ، فقال : ليتعرَّف كل واحد منكم على جليسه ، مخافة أن يكون بين القوم غريب .

وهنا تظهر لباقة حذيفة وحُسْن تصرفه ـ قال : فأسرعتُ وقلت لمَنْ على يمينى : مَنْ أنت ؟ قال : معاوية بن أبى سفيان ، وقلت لمَنْ على يسارى : مَنْ أنت ؟ قال : عمرو بن العاص[1] ، وسمعت أبا سفيان

---

(١) ذكر البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٥١) من حديث حذيفة « أن أبا سفيان أحس أنه دخل فيهم من غيرهم ، فقال : يأخذ كل رجل منكم بيد جليسه فضربت بيدى على الذى عن يمينى فأخذت بيده ، ثم ضربت بيدى على الذى عن يسارى فأخذت بيده » (أخرجه الحاكم فى مستدركه ٣/٣١) وفى رواية أخرى ذكرها ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٧١) وعزاها لمحمد بن إسحاق « أن أبا سفيان قال : يا معشر قريش لينظر كل امرىء مَنْ جليسه . قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبى ، فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا فلان بن فلان » ولم يذكر أمر معاوية ولا أمر عمرو بن العاص . والله أعلم .

يقول للقوم : هلك الخفُّ والحافر ، وليستْ الأرضُ دارَ مقام فهيا بنا ، وأنا أولكم ، وركب راحلته وهى معقولة[1] من شدة تسرُّعه ، قال حذيفة : فهممتُ أن أقتله ، فأخرجت قوسى ووترتُها ، وجعلت السهم فى كبدها ، لكنى تذكرت قول رسول الله « لا تحدثن شيئاً حتى تأتينى » فلم أشأْ أن أقتله ، فلما ذهبت إلى رسول الله وجدته يصلى ، فلما أحسَّ بى فَرج بين رجليه - وكان الجو شديد البرودة - فدخلتُ بين رجليه فنثر علىَّ مُرْطه ليدفئنى ، فلما سلم قال لى : ما خطبك فقصصت عليه قصتى[2] .

وبعد أنْ جند الحق سبحانه كلاً من نعيم الأشجعى وحذيفة لنصرة الحق ، جاءت جنود أخرى لم يروْهَا ، وكانت هذه الليلة باردة ، شديدة الرياح ، وهبَّتْ عاصفة اقتلعتْ خيامهم ، وكفأتْ قدورهم وشرَّدتهم ، ففرَّ مَنْ بقى منهم .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحزاب]
﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [المدثر]

بعد أنْ ردَّ الحق سبحانه كفار مكة بغيظهم ، وكفى المؤمنين القتال أراد أنْ يتحوَّل إلى الجبهة الأخرى ، جبهة بنى قريظة ، فلما رجع رسول الله من الأحزاب لقيه جبريل عليه السلام فقال : أوضعتَ لأْمتَك[3] يا محمد ، ولم تضع الملائكة لأمتها للحرب ؟ اذهب فانتصر لنفسك من بنى قريظة ، فقال رسول الله للقوم : « مَنْ كان سامعاً

---

(١) عقل البعير : قيده وربطه . [لسان العرب - مادة : عقل] بتصرف .
(٢) ذكره البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٥١) ، وانظر تفسير ابن كثير (٣/٤٧١) .
(٣) اللأمة : الدرع . وقيل : السلاح . ولأمة الحرب : أداتها . وقال بعضهم : اللأمة الدرع الحصينة ، سميت لأمة لإحكامها وجودة حلَقها . [لسان العرب - مادة : لأم] .

مطيعاً فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة »[1] .

فاختلف الصحابة حول هذا الأمر : منهم مَنْ انصاع له حرفياً ، وأسرع إلى بنى قريظة ينوى صلاة العصر بها ، ومنهم مَنْ خاف أنْ يفوته وقت العصر فصلى ثم ذهب ، فلما اجتمعوا عند رسول الله أقرَّ الفريقين ، وصوَّب الرأيين .

وكانت هذه المسألة مرجعاً من مراجع الاجتهاد فى الفكر الإسلامى ، والعصر حَدَثٌ ، والحدث له زمان ، وله مكان ، فبعض الصحابة نظر إلى الزمان فرأى الشمس توشك أنْ تغيب فصلَّى ، وبعضهم نظر إلى المكان فلم يُصَلِّ إلا فى بنى قريظة ؛ لذلك أقر رسول الله هذا وهذا[2] .

وينبغى على المسلم أنْ يحذر تأخير الصلاة عن وقتها ؛ لأن العصر مثلاً وقته حين يصير ظلُّ كل شىء مثْلَيْه وينتهى بالمغرب ، وهذا لا يعنى أن تُؤخِّر العصر لآخر وقته ، صحيح إنْ صليْتَ آخر الوقت لا شىء عليك ، لكن مَنْ يضمن لك أن تعيش لآخر الوقت .

إذن أنت لا تأثم إنْ صلّيْت آخر الوقت ، لكن تأثم فى آخر لحظة من حياتك حين يحضرك الموت وأنت لم تُصَلِّ ؛ لذلك يقول سيدنا

---

(١) ذكره بهذا اللفظ ابن حجر العسقلانى فى شرحه للبخارى (فتح البارى ٧/٤٠٨) من قول ابن إسحاق . وأصل الحديث عند البخارى فى صحيحه (٤١١٩) من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال يوم الأحزاب : « لا يصلينَّ أحد العصر إلا فى بنى قريظة » .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤١١٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٧٠) كتاب الجهاد ـ باب المبادرة بالغزو (٢٣) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، ولفظه أن بعض الصحابة أدركه العصر فى الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيهم ، وقال بعضهم : بل نصلى ، لم يُرد منا ذلك . فذُكر ذلك للنبى ﷺ فلم يُعنِّف واحداً منهما .

رسول الله ﷺ : « خير الأعمال الصلاة لوقتها »[(١)] فليس معنى امتداد الوقت إباحة أنْ تُؤخَّر .

وفي مسألة الأحزاب بطولة أخرى لسيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقد ظهرت هذه البطولة عندما وجد الكفار فى الخندقة نقطة ضعيفة ، استطاعوا أنْ يجترئوا على المسلمين منها ، وأن يقذفوا منها خيولهم ، فلما قذفوا بخيولهم إلى الناحية الأخرى ، فجالت الخيل فى السبخة بين الخندق وجبل سلع ، ووقف واحد من الكفار وهو عمرو بن ود العامرى[(٢)] وهو يومئذ أشجع العرب وأقواها حتى عدَّوْه فى المعارك بألف فارس .

وقف عمرو بن ود أمام معسكر المسلمين يقول وهو مُشْهِر سيفه : مَنْ يبارز ؟ فقال على لرسول الله : أبارزه يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « اجلس يا على ، إنه عمرو » فأعاد عمرو : أين جَنَّتكم التى وعدتم بها مَنْ قُتِل فى هذا السبيل ؟ أجيبونى .

فقال على : أبارزه يا رسول الله ؟ قال « اجلس يا على ، إنه عمرو » وفى الثالثة قال عمرو :

وَلَقَدْ بُحِحْتُ مِنَ النِّداءِ   بجمعِكُمُ هَلْ مِنْ مُبَارِزْ

---

(١) عن ابن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة لوقتها . قلت : ثم أى ؟ قال : ثم بر الوالدين . قلت : ثم أى ؟ قال : ثم الجهاد فى سبيل الله . حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٨٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

(٢) هو : عمرو بن عبد ود ، قرشى من بنى لؤى ، فارس قريش فى الجاهلية ، أدرك الإسلام ولم يسلم ، عاش إلى أن كانت وقعة الخندق فحضرها وقد تجاوز الثمانين ، وأصر على المقاتلة ، فقاتله على بن أبى طالب فقتله عام ٥ هجرية . الأعلام للزركلى (٥/٨١) .

وَوقفْتُ إذ جَبُنَ المشجَّعُ   مَوْقِفَ القِرْنِ المنَاجِزْ
إنَّ الشَّجاعَةَ في الفَتَى   والجودَ مِنْ خير الغرائز

عندها انتفض علي رضي الله عنه وقال : أنا له يا رسول الله ، فأذن له رسول الله ، فأشار علي لعمرو ، وقال :

لاَ تَعجَلَنَّ فَقَدْ أتَاكَ   مجيب صوتكَ غير عَاجِز
ذُو نيةٍ وبَصيرة   والصِّدْقُ مُنْجِي كُلَّ فَائِزْ
إنِّي لأَرْجُو أنْ أُقيم   علَيْك نَائحةَ الجنَائِزْ
مِنْ ضَرْبةٍ نَجْلاَء[1]   يَبْقَى ذِكْرُهَا عِنْدَ الهَزَاهِزْ

أي : الحروب[2] .

وكانت لسيدنا رسول الله درع سابغة اسمها ذات الفضول ، فألبسها رسول الله علياً وأعطاه سيفه ذا الفقار وعمامته السحاب ، وكانت تسعة أكوار ، وخرج علي رضي الله عنه لمبارزة عمرو بن ود ، فضرب عمرو الدرقة[3] فشقَّها ، فعاجله علي بضربة سيف على عاتقه أردتْهُ قتيلاً ، فقال عليٌّ ساعة وقع : الله أكبر سمعه رسول الله فقال : « قُتل عدو الله » .

ثم حدثت زوبعة العثْيَر[4] ـ وهو غبار الحرب ـ فحَجبت المعركة ،

---

(١) طعنة نجلاء : أي واسعة بيِّنة النجَل . وسنان منجل : واسع الجرح . ونجله بالرمح : طعنه وأوسع شقه . [لسان العرب ـ مادة : نجل] .

(٢) ذكر هذه الأبيات في نحو هذا السياق أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة (٣/٤٣٨ ، ٤٣٩) .

(٣) الدرقة : ترس يُتخذ من الجلود ، ليس فيه خشب ولا عقب . والجمع درق وأدراق . [قاله ابن منظور في لسان العرب ـ مادة : درق] .

(٤) العثْير (بالثاء الساكنة) : الغبار . والعثيرات : التراب . حكاه سيبويه . [لسان العرب ـ مادة : عثر] ولفظ الحديث عند البيهقي في دلائل النبوة ٣/٤٣٩ : « وثار العَجاج » والعجاج : الغبار . وقيل : هو من الغبار ما ثوَّرته الريح .

فذهب سيدنا عمر رضى الله عنه ليرى ما حدث ، فوجد علياً يمسح سيفه فى درع عمرو بن ود ، فقال : الله أكبر ، فقال رسول الله : « قُتل وأيْم الله » .

ومن الأخلاق الكريمة التى سجَّلها سيدنا على فى هذه الحادثة أنه بعد أنْ قتل عَمْراً سأله رسول الله ﷺ : « ألاَ سلبْتَ درْعه ، فإنه أفخر درع فى العرب » ؟ فقال على : والله لقد بانتْ سوأته ، فاستحييت أنْ أصنع ذلك[1] .

ثم أنشد رضى الله عنه وكرَّم الله وجهه ، وهو يشير إلى عمرو[2] :

نَصَرَ الحجَارةَ[3] من سَفَاهَةَ رأْيه   ونَصَرْتُ ربَّ مُحمد بصَوابى
فَصَددْتُ حِينَ تركْتُه مُتجدِّلاً   كالجِذْعِ بين دكَادكٍ[4] ورَوَابى
وعَفَفْتُ عن أثْوابِه ولَو أنّنى   كنتُ المُقَنْطَرَ بَزَّنى أثْوابى[5]

---

(١) السائل لعلى هو عمر بن الخطاب فيما أورده البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٣٩) أن عمر قال له : هلا استلبته درعه ، فإنه ليس للعرب درع خير منها . فقال : « ضربته فاتقانى بسواده (أى : بإسته) ، فاستحييت ابنَ عمى أن أستلبه » . فالله أعلم .

(٢) ذكر ابن هشام هذه الأبيات فى « السيرة النبوية » (٣/٢٢٥) وعزاها لابن إسحاق ، ثم قال : وأكثر أهل العلم بالشعر يشك فيها لعلى بن أبى طالب .

(٣) الحجارة (هنا) : هى الأنصاب والأصنام التى كانوا يعبدونها ويذبحون لها .
وقد ذكر البيهقى هذا البيت بلفظ آخر :
عَبَدَ الحجَارةَ من سَفَاهة عَقْله   وَعَبَدْتُ ربَّ مُحمد بصَوَاب

(٤) متجدلاً : لاصقاً بالأرض . والجذع : فرع النخلة . والدكادك : هو الرمل اللين . والروابى : جمع رابية ، وهى الكدية المرتفعة .

(٥) القطر : الناحية والجانب . وطعنه فقطَّره أى : ألقاه على قطره أى جانبه . [لسان العرب مادة : قطر] والبزُّ : السلب ، وبز الشىء : انتزعه . [لسان العرب ـ مادة : بزز] .

وفى هذه الواقعة قال سيدنا رسول الله ﷺ : « لو لم يكن لك يا على غيرها فى الإسلام لكَفَتْكَ » .

لذلك قال العارفون بالله كأن علياً رضى الله عنه حُسِد حين قتل عمرو بن ود ، فأصابته العين فى ذاته ، فقُتِل بسيف ابن ملجم ، ومن هنا قالوا : أعزّ ضربة فى الإسلام ضربة علىٍّ لعمرو بن ود ، وأشأم ضربة فى الإسلام ضربة ابن ملجم لعلى .

وفى المعركة بطولة أخرى لسيدنا سعد بن معاذ[1] رضى الله عنه حيث يقول : ضربنى يوم الأحزاب حِبَّان بن قيس بن العَرِقة ، وقال : خُذْها وأنا ابن العَرِقة[2] - فقلت : عرَّقَ الله وجهك فى النار ، فلما أصابنى فى أكحلى - والأكحل هو : العِرْق الذى نضع فيه الحقنة ، ومنه يخرج دم الفَصْد والحجامة .

فقلت : اللهم إنْ كانت هذه آخر موقعة بيننا وبين قريش فاجعلنى شهيداً ، وإنْ كنتَ تعلم أنهم يعودون فأبقنى لأشفى نفسى ممَّنْ أخرج رسول الله وآذاه ، ولا تُمتْنى حتى أشفى غليلى من بنى قريظة[3] .

---

(١) هو سعد بن معاذ بن النعمان الأوسى الأنصارى ، صحابى من الأبطال ، من أهل المدينة ، كانت له سيادة الأوس ، شهد بدراً وأحداً ، رُمى بسهم يوم الخندق ، فمات من أثر جرحه عام ٥ هـ ، وكان عمره سبعة وثلاثين عاماً (الأعلام للزركلى ٣/٨٨) .

(٢) العرقة : هى قلابة بنت سعد بن سهم ، وتكنى أم فاطمة ، وسميت العَرِقة لطيب ريحها ، وهى جدة خديجة ، أم أمها هالة (راجع الروض الأنف للسهيلى) .

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٣/٢٢٦) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٤١) ، وفيه إضافة : « اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لى شهادة ، ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة » .

وقد كان ، فبعد أنْ مكث الأحزاب وبنو قريظة قرابة خمسة وعشرين يوماً دون قتال ، وانتهى الأمر بالمفاوضات اختار سيدنا رسول الله سعد بن معاذ ليكون حكَماً في هذه المسألة ، فحكم سعد بقتل المقاتلين منهم ، وأسر الذرارى والنساء والأموال ، فلما بلغ هذا الحكم رسول الله ﷺ قال : « لقد حكمتَ فيهم حكم ربك من فوق سبع سموات »(١) .

ثم ثار الجرح على سيدنا سعد حتى مات به ، فحملوه إلى خيمة رسول الله بالمسجد ، فجاءت الملائكة تقول لرسول الله : مَنْ هذا الذى مات ، وقد اهتزَّ له عرش الرحمن ؟ قال : « إنه سعد بن معاذ »(٢) .

وقد قال تعالى : ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) ﴾ [الأحزاب]

وفى قوله تعالى : ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا.. (٢٧) ﴾ [الأحزاب] بشارة للمسلمين بأن البلاد ستُفتح لهم دون قتال ، وهذا حال جمهرة البلاد

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى أن أناساً نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فأُرسل إليه فجاء على حمار ، فلما بلغ قريباً من المسجد قال النبى ﷺ : قوموا إلى خيركم ـ أو سيدكم ـ فقال : يا سعد ، إن هؤلاء نزلوا على حكمك ، قال : فإنى أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم ، وتُسْبى ذراريهم ، فقال ﷺ : « حكمت بحكم الله ، أو بحكم الملك » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٨٠٤) .

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/٢٠٧) من حديث عبد الله بن كعب بن مالك أن سعداً عاش بعدما أصابه سهم نحواً من شهر حتى حكم فى بنى قريظة بأمر رسول الله ورجع إلى مدينة رسول الله ، ثم انفجر كَلْمه (جُرْحه) فمات ليلاً فأتى جبريل رسول الله فقال له : من هذا الذى فُتحت له أبواب السماء ، واهتز له عرش الرحمن فخرج النبى ﷺ إلى سعد ، فوجده قد مات . فقال ابن حجر فى الفتح (٧/١٢٤) : « المراد باهتزاز العرش استبشاره وسروره بقدوم روحه » .

التى دخلها الإسلام ، فغالبية هذه البلاد فُتِحَتْ بالأُسْوة السلوكية للمسلمين آنذاك ، وبذلك نستطيع أن نردَّ علىَ مَنْ يقول : إن الإسلام انتشر بحدِّ السيف .

وإذا كان الإسلام انتشر بحَدِّ السيف ، فأيُّ سيف حمل المسلمين الأوائل على الإسلام وكانوا من ضعاف القوم لا يستطيعون حتى حماية أنفسهم ؟ إذن : لا شيء إلا قدوة السلوك التى حملت كل هؤلاء على الإيمان .

وسبق أن ذكرنا أن عمر - رضى الله عنه - وما أدراك ما عمر قوة وصلابةً يقول حين سمع قول الله تعالى : ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** (٤٥) ﴾ [القمر]

قال : أىُّ جمع هذا ، ونحن لا نستطيع حماية أنفسنا ؟ مما يراه من ضعف المسلمين وبطش الكافرين[1] .

ثم لو انتشر الإسلام بالسيف لأصبح سكان البلاد التى دخلها الإسلام كلهم مسلمين ، ولَمَا كانت للجزية وجود فى الفقه الإسلامى ، إذن : بقاء الجزية على مَنْ لم يؤمن دليل على بطلان هذه المقولة ، ودليل على عدم الإكراه فى الدين ، فالفتح الإسلامى كفل حرية العقيدة ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ..** (٢٩) ﴾ [الكهف] وعليه الجزية لبيت مال المسلمين مقابل ما تقدمه الدولة إليه من خدمات .

فالجزية التى تتخذونها سُبة فى الإسلام دليل على أن الإسلام

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٤/٢٦٦) عن عكرمة قال : « لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] قال عمر : أى جمع يُهزم ؟ أى جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت يومئذ تأويلها .

أقرَّكم على دينكم ، إنمـا حَمْل السيف كان فـقط لحماية الاختـيار فى الدعوة ، فأنا سأعـرض الإسلام على الناس ، ومن حقى أنْ أقاتل مَنْ يعارضنى بالسلاح ، من حقى أن أعرض الإسلام كمبدأ ، فمَنْ آمن به فعلى العين والرأس ، ومَنْ لم يؤمن فليَبْقَ فى ذمتنا .

ثم ينقلنا الـحق سبـحـانه إلى بيـوت أزواج النبى ﷺ ، فـيـقـول سبحانه[1] :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾

لسائل أنْ يسأل : ما سـرُّ هذه النقلة الكبيرة من الكلام عن حرب الأحزاب وحرب بنى قريظة إلى هذا التوجيه لزوجاته ﷺ ؟

قالوا : لأن مسألة الأحزاب انتهتْ بقوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْـوَالَهُم وَأَرْضًـا لَّمْ تَطَئُوهَا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحزاب] فربمـا طلبتْ زوجات الرسـول أنْ يُمتِّـعهن وينفق علـيهن ، ممـا يفتح الله علـيه من خيرات هذه البـلاد ، فجاءتْ هذه الآية : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأحزاب] لتقرر أن الإسـلام ما جاء ليحـقق مزيَّة لرسول الله ، ولا لآل رسول الله ، حتى الزكاة لا تصح لأحد من فقراء بنى هاشم .

لكن مجىء الآية هكذا بصيغة الأمر : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأحزاب] دليل على حـدوث شـىء منهن يدلّ على تطلعهن إلى زينة الحياة ومُتَعها . وقد رُوِى عن عمر - رضى الله عنه

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٤٢٢/٧) : « قال علماؤنا : هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدم من المنع من إيذاء النبى ﷺ ، وكـان قد تأذى ببـعض الزوجات . قـيل : سألْنَه شيئاً من عرض الدنيا . وقيل : زيادة فى النفقة . وقيل : أذينه بغيرة بعضهن على بعض » .

أنهن اجتمعْنَ يسألْنَ رسول الله النفقة ، وأنْ يُوسِّع عليهن بعد أنْ قال ﷺ عن الكفار : لن يغزونا ، بل نغزوهم[1] وبعد أنْ بشَّرتهم الآيات بما سيُفتح من أرض جديدة .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) ﴾ [الأحزاب] يعني : ليس عندى ما تتطلَّعْن إليه من زينة الدنيا وزخرفها ، ومعنى ﴿ فَتَعَالَيْنَ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] نقول : تعالَيْن يعنى : أقبلْنَ ، لكنها هنا بمعنى ارتفعْنَ من العلو ، ارتفعْنَ عن مناهج البشر والأرض ، وارتقينَ إلى مناهج خالق البشر ، وخالق الأرض ؛ لأن السيادة فى منهج الله ، لا فى مُتَع الحياة وزخرفها .

وقد ورد هذا المعنى أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] فتعالوْا أى : ارتفعوا عن قوانين البشر وقوانين الأرض إلى قوانين السماء ؛ لأنه يُشترط فيمَنْ يضع القانون ألاَّ يفيد من هذا القانون ، وأن يكون مُلماً بكل الجزئيات التى يتعرض لها القانون والبشر مهما بلغتْ قدرتهم ، فإنهم يعلمون شيئاً ويجهلون آخر ؛ لذلك لا ينبغى أنْ يُقنِّن لهم إلا خالقهم عز وجل .

ومعنى ﴿ أُمَتِّعْكُنَّ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] أى : أعطيكُنَّ المتعة الشرعية التى تُفْرض للزوجة عند مفارقة زوجها ، والتى قال الله فيها[2] :

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤١٠٩ ، ٤١١٠) ، وأحمد فى مسنده (٢٦٢/٤) من حديث سليمان بن صُرَد رضى الله عنه ، وفى الرواية الثانية عند البخارى « نحن نسير إليهم » قال ابن حجر فى الفتح (٤٠٥/٧) : « فيه علَم من أعلام النبوة ، فإنه ﷺ اعتمر فى السنة المقبلة فصدته قريش عن البيت ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها ، فكان ذلك سبب فتح مكة ، فوقع الأمر كما قال ﷺ » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢٩٧/١) : « قد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة سواء كانت مفوضة أو مفروضاً لها أو مطلقة قبل المسيس أو مدخولاً بها ، وهو قول عن الشافعى رحمه الله ، وإليه ذهب سعيد بن جبير وغيره من السلف واختاره ابن جرير » .

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ وَأُسَرِّحْكُنَّ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] التسريح هنا يعني الطلاق ﴿ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) ﴾ [الأحزاب] ذلك يدلُّ على أن المفارقة بين الزوجين إنْ تمتْ إنما تتم بالجمال أى : اللطف والرقة والرحمة بدون بشاعة وبدون عنف ؛ لأن التسريح فى ذاته مفارقة مؤلمة ، فلا يجمع الله عليها شدتين : شدة الطلاق ، وشدة العنف والقسوة .

ولك أنْ تلحظ أن لفظ الجمال يأتى فى القرآن مع الأمور الصعبة التى تحتاج شدة ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. (٨٣) ﴾ [يوسف] والصبر يكون جميلاً حين لا يصاحبه ضَجَر ، أو شكوى ، أو خروج عن حَدِّ الاعتدال .

ورسول الله ﷺ يعرض على زوجاته التسريح الجميل الذى لا مشاحنةَ فيه ولا خصومةَ إنْ اخترْنَهُ بأنفسهن ، وما كان رسول الله ليمسك زوجة اختارتْ عليه أمراً آخر مهما كان .

وللعلماء كلام طويل فى هذه المسألة : هل يقع الطلاق بهذا التخيير ؟ قالوا : التخيير لَوْنٌ من حب المفارقة الذى يعطى للمرأة - كما نقول مثلاً : العصمة فى يدها - فهى إذن تختار لنفسها ، فإنْ قَبلت الخيار الأول وقع الطلاق ، وإنِ اختارت الآخر فَبِها ونعمتْ ، وانتهتْ المسألة(١) .

---

(١) قال الشافعى : التخيير كناية ، فإذا خيَّر الزوج امرأته وأراد بذلك تخييرها بين أن تطلق منه وبين أن تستمر فى عصمته فاختارت نفسها وأرادت بذلك الطلاق طُلِّقت ، فلو قالت : لم أُرد باختيار نفسى الطلاق ، صدقت . وقال القرطبى فى المفهم فقال فى الحديث : إن المخيَّرة إذا اختارت نفسها أن نفس ذلك الاختيار يكون طلاقاً من غير احتياج إلى نطق بلفظ يدل على الطلاق . أما الحافظ ابن حجر العسقلانى فقال : لكن الظاهر من الآية أن ذلك بمجرده لا يكون طلاقاً ، بل لابد من إنشاء الزوج الطلاق لأن فيها ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] أى : بعد الاختيار . [نيل الأوطار للشوكانى ٦/٢٤٢] .

وأَمْرُ الله لرسوله أن يقول لزوجاته هذا الكلام لا بُدَّ أنْ يكون له رصيد من خواطر خطرتْ على زوجاته ﷺ لَمَّا رأيْنَ الإسلام تُفْتح له البلاد ، وتُجبى إليه الخيرات ، فتطلَّعْن إلى شيء من النفقة .

وكلمة الأزواج : جمع زوج ، وتُقال للرجل وللمرأة ، والزوج لا يعنى اثنين معاً كما يظن البعض ، إنما الزوج يعنى الفرد الذى معه مثله من جنسه ، ومثله تماماً كلمة التوأم ، فهى تعنى (واحد) لكن معه مثله ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ.. (٤٩)﴾ [الذاريات] يعنى : ذكر وأنثى ، فالذكر وحده زوج ، والأنثى وحدها زوج ، وهذه القسمة موجودة فى كل المخلوقات . وتُجمع زوج أيضاً على زوجات .

ونلحظ فى الأسلوب هنا أن الحق سبحانه حين يعرض على رسوله أنْ يُخيِّر زوجاته بين زينة الدنيا ونعيم الآخرة يستخدم (إنْ) الدالة على الشكِّ ، ولا يستخدم مثلاً (إذَا) الدالة على التحقيق ، وفى هذا إشارة إلى عدم المبالغة فى اتهامهن ، فالأمر لا يعدو أنْ يكون خواطر جالتْ فى أذهان بعض زوجاته .

وتعلمون أن سيدنا رسول الله جمع من النساء تسعاً معاً ، منهن خمسٌ من قريش ، وهُنَّ : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة ابنة أبى أمية . ومن غير قريش : صفية بنت حيى بن أخطب الذى ذكرنا قصته فى الأحزاب ، ثم جويرية بنت الحارث من بنى المصطلق ، ثم ميمونة بنت الحارث الهلالية - ومَنْ ذهب عند التنعيم وجد هناك بئر ميمونة ، ثم زينب بنت جحش من بنى أسد ، هؤلاء هُنَّ أمهات المؤمنين التسعة اللائى جمعهنَّ رسولُ الله معاً .

فلما سألْنَ رسول الله النفقة كانت أجرأهُنَّ في ذلك السيدة حفصة بنت عمر ، وقد حدث بينها وبين رسول الله مُشَادّة في الكلام ، فقال لها : « ألا تحبين أنْ أستدعي رجلاً بيننا ؟ » فوافقتْ ، فأرسل إلى عمر ، فلما جاء قال لها رسول الله : تكلّمي أنت ـ يعني : اعرضي حاجتك ـ فقالت : بل تكلم أنت ، ولا تقل إلا حقاً .

أثارت هذه الكلمة حفيظة سيدنا عمر ، فهاج وقام إلى ابنته فوجأها ، فحجزه رسول الله فتناولها ثانية فوجأها ، ثم قال لها : إن رسول الله لا يقول إلا حقاً ، ووالله لولا أنَّا في مجلسه ما تركتُك حتى تموتي ، فقام رسول الله من المجلس ليفضَّ هذا النزاع ، وذهب إلى حجرته ، واعتكف بها ، وقاطع الأمر كله مدة شهر[1] .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] فأيُّ وَصْف أحقر ، وأقلّ لهذه الحياة من أنها دُنْيا ؟ وما فيها من مُتَع إنما هي زينة ، يعني : ترف في المظهر ، لا في الجوهر ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ .. (٢٠) ﴾[الحديد]

ثم يعرض رسول الله على زوجاته الخيار الثاني المقابل للحياة الدنيا :

﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾

المتأمل جانبيْ التخيير هنا يجد أن المقارنة بينهما أمر صَعْب يوحي

(١) هذا الأمر اختلفت فيه الروايات ، فبعضها يورد هذا في حق عائشة وأبيها أبي بكر ، وبعضها الآخر في حق حفصة وأبيها عمر ، أما الأول فقد أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٠/٧٩) ، وأما الثاني فقد أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٦٨) ضمن حديث طويل ، ويجوز أن الواقعة قد تكررت ، والله تعالى أعلم .

برفض التخيير بين طرفى هذه المسـألة ، فمَنْ يقبل أنْ تكون له حياة دنيا مقـابل الله ، وأن تكون له زينتهـا مقابل رسـول الله ، ثم زدْ على ذلك الدار الآخرة التى لم يُذكَر قـبالتها شىء فى الجانب الآخر ، ثم إن الحـياة الدنيا التى نعيشـها حتى لو لم تُوصَفْ بأنها دنيا كان يجب أنْ يُزهد فيها .

والحق أنهن فَهِمْنَ هذا النص واخترْنَ الله ورسوله والدار الآخرة ، ومَنْ يرضى بها بديلاً : والحمد لله

﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ .. (٢٥) ﴾ [الأحزاب]

ثم يأتى جزاء مَن اختار الله ورسوله والدار الآخرة ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا** (٢٩) ﴾ [الأحزاب] المحسنة هى الزوجة التى تعطى من الرحمة والمودة الزوجية فوق ما طُلب منها .

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا (٣٠) ﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بعد أنْ خـيَّر زوجات النبى ﷺ فاخترْنَ الله ورسوله والدار الآخرة أراد سبحـانه أنْ يُعطيهن المنهج والمبادىء التى سيـسرْنَ عليهـا فى حياتهن . ونلحظ أن آية التـخيـيـر كانت من كلام النبى عن ربه ، أما هنا فالكلام من الله مباشرة لنساء النبى .

﴿ يَـٰنِسَاءَ النَّبِيِّ .. (٣٠) ﴾ [الأحزاب] فبداية المسألة ﴿ **يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ** .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] فلمـا اختـرْن الله ورسوله والدار الآخـرة كأنهن ارتفـعْنَ إلى مسـتوى الخطاب المبـاشر من الله تعـالى ، كأنهن حقَّقْنَ المراد من الأمر السابق ﴿ فَتَعَالَيْنَ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب]

كلمة ﴿ نِسَاءَ .. (٣٠) ﴾ [الأحزاب] نعلم أنها جمـع ، لكن لا نجد لها

مفرداً من لفظها ، إنما مفردها من لفظ آخر هو امرأة[1] ، وفى اللغة جموع تُنُوسى مفردها بشهرة مفرد آخر أرقّ أو أسهل فى الاستعمال ، وامرأة أو (مَرة) يصح أيضاً من (امرؤ)[2] ، وهذه اللفظة تختلف عن ألفاظ اللغة كلها ، بأن حركة الإعراب فيها لا تقتصر على الحرف الأخير إنما تمتد أيضاً إلى الحرف قبل الأخير ، فنقول : قال امْرُؤُ القيس ، وسمعت امْرَأَ القيس ، وقرأت لامْرِئِ القيس .

وبعض الباحثين فى اللغة قال : إن (نساء) من النَّسْأ والتأخير ، على اعتبار أن خَلْقها جاء متأخراً عن خَلْق الرجل ، ومفردها إذن (نَسْءٌ) وإنْ كان هذا تكلفاً لا داعىَ له .

وبعد هذا النداء ﴿يَـٰنِسَاءَ النَّبِيِّ ۝٣٠﴾ [الأحزاب] يأتى الحكم الأول من المنهج الموجَّه إليهن : ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ .. ۝٣٠﴾ [الأحزاب] نلحظ أن الحق سبحانه لم يبدأ الكلام مع نساء النبى بقوله مثلاً : مَنْ يتق الله منكن ، إنما بدأ بالتحذير من إتيان الفاحشة ؛ لأن القاعدة الشرعية فى التقنين والإصلاح تقوم على أن « درء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة » كما أننا قبل أنْ نتوضأ للصلاة نبرئ أنفسنا من النجاسة .

ومثَّلْنا لذلك وقُلْنا : هَبْ أن واحداً رماك بتفاحة ، وآخر رماك بحجر ، فأيهما أَوْلَى باهتمامك ؟ لا شكَّ أنك تحرص أولاً على ردِّ الحجر والنجاة من أذاه ، وكذلك لو أردتَ أنْ تكوى ثوبك مثلاً وهو مُتسخ ، لا بُدَّ أن تغسله أولاً .

---

(١) قال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : نسا] : « النِّساء ، والنِّسْوان والنُّسْوان : جمع المرأة من غير لفظه . وقال ابن سيده : والنساء جمع نسوة إذا كثُرْنَ » .

(٢) قال الليث : امرأة تأنيث امرىء : وقال ابن الأنبارى : للعرب فى المرأة ثلاث لغات ، يقال : هى امرأته ، وهى مَرْأته ، وهى مَرَتُهُ . [لسان العرب ـ مادة : مرأ] .

لذلك بدأ الحق سبحانه التوجيه لنساء النبي بقوله ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ .. (٣٠)﴾ [الأحزاب] لكن الفاحشة أمر مستبعد ، فكيف يتوقع منتهى الذنوب من نساء رسول الله ؟ قالوا : ولم لا ، وقد خاطب الله تعالى نبيه ﷺ بقوله : ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ .. (٦٥)﴾ [الزمر]

ومعلوم أن رسول الله ليس مظنة الوقوع في الشرك ، إذن : فالمعنى ، يا محمد ليس اصطفاؤك يعني أنك فوق المحاسبة ، كذلك الحال بالنسبة لنسائه : إنْ فعلَتْ إحداكن فاحشة ، فسوف نضاعف لها العذاب ، ولن نستتر عليها لمكانتها من رسول الله ، فإياكُنَّ أنْ تظنَنَّ أن هذه المكانة ستشفع لكُنَّ ، وإلا دخلتْ المسألة في نطاق : إذا سرق الوضيع أقاموا عليه الحد ، وإذا سرق الشريف تركوه[1] .

إذن : منزلة الواحدة منكُنَّ ليست في كونها مجرد زوجة لرسول الله ، إنما منزلتها بمدى التزامها بأوامر الله ، وإلا فهناك زوجات للرسل خُنَّ[2] أزواجهن واقرأ : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠)﴾ [التحريم]

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٦٧٨٨) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٦٨٨) من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « أيها الناس ، إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٣٩٣/٤) : « ليس المراد بقوله (فخانتاهما) في فاحشة بل في الدين ، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء .. قال ابن عباس : ما زنتا ، أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه » .

ولك أن تسأل : هذا حكم الفاحشة المبيِّنة ، أنْ يُضاعَف لها العذاب ، فما بال الفاحشة منهن إنْ كانت غير مُبيِّنة ؟

قالوا : هذا الحكم خاصٌ بنساء النبى ﷺ ، فإن حدث من إحداهن ذنب بينها وبين نفسها فهو ذنب واحد مقصور عليها ، فإنْ كان علانيةً فهو مُضَاعف ؛ لأنهن أسوة وقدوة تتطلع العيون إلى سلوكهن ، فإنْ ظهرت منهن فاحشة كان تشجيعاً للأخريات ، ولم لا وقد جاءت الفاحشة من زوجة النبى .

فمضاعفة العذاب - إذن - لأن الفساد تعدَّى الذات إلى الآخرين ، وأحدث قدوة سوء فى بيت النبى ، فاستحقتْ مضاعفة العذاب ؛ لأنها آذتْ شعور رسول الله ، ولم تُقدِّر منزلته وفضَّلَت عليه غيره لتأتى معه الفاحشة ، وهذا يستوجب أضعاف العذاب ، فإنْ ضاعف لها اللهُ العذابَ ضعفين فحسب ، فهو رِفْق بها ، ومراعاة لماضيها فى زوجية رسول الله .

كذلك إنْ فعلتْ إحداهن حسنة ، فلها أجرها أيضاً مُضَاعفاً ؛ لأنها فعلتْ صالحاً فى ذاتها كأىِّ إنسانة أخرى ، ثم أعطتْ قدوة حسنة ، وأُسْوة طيبة لغيرها .

فإنْ أخذْنا فى الاعتبار حديث النبى ﷺ : « مَنْ سَنَّ سنة حسنة ، فَلَهُ أجرها وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة ، ومَنْ سَنَّ سنة سيئة فعليه وِزْرها ، ووِزْر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة »[1] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣٦١/٤ ، ٣٦٢) ، وابن ماجة فى سننه (٢٠٧) والترمذى فى سننه (٢٦٧٥) عن جرير بن عبد الله ، قال الترمذى : « حديث حسن صحيح » .

علمنا أن أجر الحسنة لا يُضاعف فقط مرتين ، إنما بعدد ما أثَّرت فيه الأسوة ، وفَرْق بين الضِّعْف والضُّعْف . الضِّعْف : ضعْف الشيء أى مثله ، أما الضُّعف فهو فَقْد هذا المثل ، فهو أقلُّ[1] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأحزاب] يعنى : مسألة مضاعفة العذاب أمر يسير ، ولن تغنى عنكُنَّ منزلتكُنَّ من رسول الله شيئاً ، فهذا أمر لا يسألنى فيه أحد ، ولا أحابى فيه أحداً ، ولا بُدَّ أن أُسيِّر الأمور كما يجب أن تكون ، ولا يعارضنى فيها أحد ، لذلك كثيراً ما تُذيَّل أحكام الحق سبحانه بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [البقرة] فالعزة تقتضى أن يكون الحكم ماضياً لا يُعدِّله أحد ، ولا يعترض عليه أحد .

وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى لسيدنا عيسى عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة]

---

(١) الضُّعْف والضَّعْف : خلاف القوة سواء كان فى الجسد أو فى الرأى والعقل . وقد قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً ﴿٥٤﴾ ﴾ [الروم] .

فقوله : ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ .. (١١٨) ﴾ [المائدة] يقتضى أن يقول : فإنك غفور رحيم ، لكن الحق سبحانه عدل إلى ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة] لأن الذنب الذى وقع فيه القوم ذنب فى القمة ، فى الألوهية التى أخذوها من الله وجعلوها لعيسى عليه السلام ، وهذا بمقتضى العقل يستوجب العذاب الشديد ، لكن الحق سبحانه لا يُسأل عما يفعل ، يُعذِّب مَنْ يشاء ، ويغفر لمَنْ يشاء ، فإنْ غفر لهم فبصفة العزة التى لا يعارضها أحد ، فكأن المنطق أن يُسأل الله : لماذا لم تُعذِّب هؤلاء على ما ارتكبوه ؟ لذلك دخل هنا من ناحية العزة ، التى لا تُعارَض ، والحكمة التى لا تخطىء .

وبعد أن ذكر الحق سبحانه مسألة الفاحشة ، وما يترتب عليها من عقاب ذكر سبحانه المقابل ، فقال تعالى :

﴿ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) ﴾

معنى ﴿ يَقْنُتْ .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] أى : يخضع لله تعالى الخضوع التام ، ويخشع ويتذلَّل لله فى دعائه ، واختار الحق سبحانه القنوت ؛ لأنه سبحانه لا يحب من الطائع أنْ يُدلَّ على الناس بطاعته ؛ لذلك يقول العارفون : رُبَّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً ، خير من طاعة أورثتْ عزاً واستكباراً[١] .

---

(١) هذه الحكمة من حكم ابن عطاء الله السكندرى (متصوف شاذلى ، من العلماء ـ توفى ٧٠٩ هـ) ، وقد ذكر عبد العال كحيل هذه الحكمة لابن عطاء الله فى كتابه « أبو العينين الدسوقى» طبعة دار الشعب ـ ص ٧٦ .

أو ﴿وَمَن يَقْنُتْ .. (٣١)﴾ [الأحزاب] أى : بالغ فى الصلاح ، وبالغ فى الورع حتى ذهب إلى القنوت ، وهو الخضوع والخشوع .

والنتيجة ﴿نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ .. (٣١)﴾ [الأحزاب] فالآية السابقة تقرر مضاعفة العذاب لمن تأتى بالفاحشة ، وهذه تقرر مضاعفة الأجر لمن تخضع لله وتخشع وتعمل صالحاً .

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)﴾ [الأحزاب] أى : أعددناه وجهّزناه لها من الآن ، فهو ينتظرها .

وحين تتأمل الأسلوب القرآنى فى هاتين الآيتين تطالعك عظمة الأداء ، فحين ذكر الفاحشة ومضاعفة العذاب جاء الفعل ﴿يُضَاعَفْ .. (٣٠)﴾ [الأحزاب] مبنياً لما لم يُسَمَّ فاعله ، أما فى الكلام عن القنوت لله ، فقال ﴿نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا .. (٣١)﴾ [الأحزاب] فجاء الفعل مُسْنداً إلى الحق سبحانه مباشرة ، وكأن الحق سبحانه لم يُرِدْ أنْ يواجه بذاته فى مقام العذاب ، إنما واجه بالعذاب فقط .

ومجرد بناء الفعل ﴿يُضَاعَفْ .. (٣٠)﴾ [الأحزاب] للمجهول يدل على رحمة الله ولُطْفه فى العبارة ، فالحق سبحانه يحب خَلْقه جميعاً ، ويتحبب ويتودد إليهم ، ويرجو من العاصى أنْ يرجع ويفرح سبحانه بتوبة عبده المؤمن أكثر من فرح أحدكم حين يجد راحلته وقد ضلَّتْ منه فى فلاة[1] .

وجاء فى الأثر : « يا ابن آدم ، لا تخافنَّ من ذى سلطان ما دام سلطانى باقياً وسلطانى لا ينفد أبداً ، يا ابن آدم ، لا تخْشَ من ضيق الرزق وخزائنى ملآنة وخزائنى لا تنفد أبداً ، يا ابن آدم ، خلقتُكَ

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

للعبادة فلا تلعب ـ والمراد باللعب العمل الذى لا جدوى منه ـ وقسمتُ لك رزقك فلا تتعب » .

والمراد هنا لا تتعب ، ولا تشغل قلبك ، فالتعب يكون للجوارح ، كما جاء فى الحديث النبوى الشريف : « مَنْ بات كالاً من عمل يده بات مغفوراً له »(١) ولما رأى رسول الله ﷺ يداً خشنة من العمل قال : « هذه يد يحبها الله ورسوله »(٢) .

فالتعب تعب القلب ، فالشىء الذى يطيقه صدرك ، وتقدر على تحمُّله لا يُتعبك ؛ لذلك نجد خالى الصدر من الهموم يعمل فى الصخر وهو هادىء البال ، يغنى بحداء جميل ونشيد رائع يُقوِّى عزيمته ، ويعينه على المواصلة ، فتراه مع هذا المجهود فَرِحاً منشرحَ الصدر .

وقد فطن الشاعر العربى لهذه المسألة فقال :

لَيْسَ بحمْلٍ مَا أطَاقَ الظَّهر   مَا الحمْلُ إلاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْرُ

فالمعنى : أتعب جوارحك ، لكن لا تُتعب قلبك ، والكَلَل والتعب لا يأتى على الجوارح إنما على القلب ، فأتعب جوارحك فى العمل الجاد النافع الذى تأخذ من ثمرته على قدر حاجتك ، وتفيض بالباقى على غير القادرين .

---

(١) أورده السيوطى بهذا اللفظ فى « الدرر المنتثرة » (حديث ٤٠١) من حديث أنس مرفوعاً وعزاه لابن عساكر . وأورده الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (٤/٦٣) من حديث ابن عباس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أمسى كالاً من عمل يديه أمسى مغفوراً له » وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه جماعة لم أعرفهم » قال الحافظ العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء (٢/٩٠) : « فيه ضعف » .

(٢) مما رُوى فى هذا أن رسول الله ﷺ قال : « ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وأن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٧٢) من حديث المقدام بن معديكرب .

ثم يقول : « فإنْ أنتَ رضيتَ بما قَسمْتُه لك أرحْتُ قلبك وبدنك ، وكنتَ عندى محموداً ، وإنْ أنت لم تَرْضَ بما قَسَمْتُه لكَ فوعزتى وجلالى لأسلطنَّ عليك الدنيا تركضُ فيها ركْضَ الوحوش فى البرية ، ثم لا يكون لَك منها إلا ما قَسَمْتُه لك ، وكنتَ عندى مذموماً ، يا ابن آدم ، خلقتُ السموات والأرض ولم أعْىَ[1] بخلقهن ، أيُعْيينى رغيفٌ أسوقه لك .. يا ابن آدم ، لا تطالبنى برزق غد كما لم أطالبك بعمل غدٍ ، يا ابن آدم أنا لم أَنْسَ مَنْ عصانى ، فكيف بمَنْ أطاعنى ؟ » .

وشاهدنا هنا قوله تعالى فى آخر الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، أنا لك محب فبحقى عليك كُنْ لى مُحِباً »[2] .

فربُّكَ يظهر لك بذاته فى مقام الخير وجلب النفع لك ، أما فى الشر فيشير إليك من بعيد ، ويلفت نظرك برِفْق .

كما نلحظ فى أسلوب الآية قوله تعالى ـ والخطاب لنساء النبى ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ .. (٣١)﴾ [الأحزاب] ولم يقل تقنت ، ثم أنَّثَ الفعل فى ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحًا .. (٣١)﴾ [الأحزاب] فمرة يراعى اللفظ ، ومرة يراعى المعنى ، وسبق أنْ قُلْنا إن (مَنْ) اسم موصول يأتى للمفرد وللمثنى وللجمع ، وللمذكر وللمؤنث .

ونقف أيضاً هنا عند وصف الرزق بأنه كريم ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)﴾ [الأحزاب] قلنا : إن الرزق كل ما يُنتفع به من مأكل ، أو مشرب ، أو ملبس ، أو مسكن ، أو مرافق ، وقد يأتى فى صورة معنوية كالعلم والحلم .. إلخ ، وهذا الرزق فى الدنيا لا يُوصف بأنه

---

(١) عىَّ بالأمر فهو عىٌّ وعيىٌّ : عجز عنه ولم يُطق إحكامه . [لسان العرب ـ مادة : عيا] .

(٢) أورد هذه القطعة من الأثر الإمام أبو حامد الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٤/٢٩٦) قال : « فى بعض الكتب : عبدى أنا وحقِّك لك محب ، فبحقى عليك كُنْ لى محباً » .

كـريم ، إنما الـكريم هو الرازق سبحـانه ، فلمـاذا وصف الرزق بأنه كريم ؟

قالوا : فَرْق بينَ الرزق فى الـدنيا والرزق فى الآخرة ، الرزق فى الدنيـا له أسـبـاب ، فـالسـبـب هو الرازق من والد أو وَالٍ أو أجـيـر أو تاجـر .. إلخ فـالذى يَجـرى لك الرزق على يـديه هو الذى يُوصـف بالكرم ، أما فى الآخرة فالرزق يأتيك بلا أسباب ، فناسب أنْ يُوصف هو نفـسه بأنه كريـم ، ثم فيهـا ملحظ آخر : إذا كـان الرزق يوصف بالكرم ، فما بال الرازق الحقيقى سبحانه ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ ﴾

كلمة (أحد) تُستخدم فى اللغة عدة استخدامات ، فنقول مثلاً فى العدد : أحـد عشـر إنْ كان المعـدودُ مذكراً ، وإحـدى عشـرة إن كان المعـدود مؤنثاً ، أما فى حـالة النفى فلا تُستـعمل إلا بصيغـة واحدة (أحد) ، وتدل على المفرد والمثنى والجمع ، وعلى المذكر والمؤنث ، فتقـول : ما عندى أحد ، لا رجلٌ ولا امرأة ولا رجـلان ولا امرأتان ، ولا رجـال ولا نسـاء ، لذلك جـاء قوله تعـالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص]

وقوله سبـحانه : ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحزاب] هذه خـصوصـية لهن ؛ لأن الأشـياء تمـثل أجناسـاً وتحت الجنس النوع ،

فالإنسان مثلاً جنس ، منه ذكر ومنه أنثى ، وكل نوع منهما تحته أفراد ، والذكر والأنثى لم يفترقا إلى نوعين بعد أنْ كانا جنساً واحداً ، إلا لاختلاف نشأ عنهما بعد اتفاق في الجنس فالجنس حَدٌّ مُشترك : حيٌّ ناطقٌ مفكر ، فلما افترقا إلى نوعين صار لكل منهما خصوصيته التي تُميِّزه عن الآخر .

كما قلنا في الزمن مثلاً ، فهو ظرف للأحداث ، فإنْ كانت أحداثَ حركة فهي النهار ، وإنْ كانت أحداثَ سُكُون فهي الليل ، فالليل والنهار نوعان تحت جنس واحد هو الزمن ، ولكل منهما خصوصيته ، وعلينا أن نراعي هذه الخصوصية ، فلا نخلط بينهما .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾ [الليل]

فالليل والنهار متقابلان متكاملان لا متضادان ، كذلك الذكر والأنثى ، ولكلٍّ دوره ومهمته الخاصة ، فإنْ حاولتَ أنْ تجعلَ الليل نهاراً ، أو الذكر أنثى أو العكس ، فقد خالفتَ هذه الطبيعة التي اختارها الخالق سبحانه .

وحكينا قصة الرجل الذي مرَّ على عمدة القرية ، فوجده يضرب غفيراً عنده ، فدافع عن الغفير وقال للعمدة : لماذا تضربه يا عم إبراهيم ؟ قال : مررتُ عليه ووجدتُه نائماً ، فقال الرجل : نام ؛ لأنه قضى النهار يروي لك أرضك ، ومَنْ يحرث لا يحرس .

إذن : تحت الجنس النوع ، وهذا النوع غير متكافىء ؛ لأنه لو تساوى لكان مكرراً لا فائدة منه ، إنما يختلف الأفراد ويتميزون ؛ لذلك لا تظن أنك تمتاز عن الآخرين ؛ لأن الله تعالى وزَّع المواهب بين خَلْقه ، فأنت تمتاز في شيء ، وغيرك يمتاز في شيء آخر ، ذلك ليرتبط

الناس فى حركة الحياة ارتباطَ حاجة ، لا ارتباطَ تفضُّل كما قُلْنا .

لذلك ، فالرجل الذى يكنس لك الشارع مُميَّزٌ عنك ؛ لأنه يؤدى عملاً تستنكف أنت عن أدائه ، وإذا أدَّى لك هذا العامل عملاً لابُدَّ أنْ تعطيه أجره ، فى حين إذا سألك مثلاً سؤالاً وأنت العالم أو صاحب المنصب .. إلخ فإنك تجيبه ، لكن دون أنْ تأخذ منه أجراً على هذا الجواب ، وقد مكثتَ أنت السنوات الطوالَ تجمع العلم وتقرأ وتسمع ، إلى أنْ وصلتَ إلى هذه الدرجة ، وصارت لك خصوصية ، إذن : لكل منا ، ذكر أو أنثى ، فردية شخصية تُميِّزه .

هنا يقول الحق سبحانه لنساء النبى ﴿ **لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ .. (٣٢)** ﴾ [الاحزاب] هذه هى الخصوصية التى تُميِّزهن عن غيرهن من مطلق النساء ، فمطلق النساء لَسْنَ قدوة ، إنما نساء النبى خاصة قدوة لغيرهن من النساء وأُسْوة تُقتدى .

والشرط بعد هذا النفى ﴿ **إِنِ اتَّقَيْتُنَّ .. (٣٢)** ﴾ [الأحزاب] يعنى : أن زوجيتهن لرسول الله ليست هذه ميزة ، إنما الميزة والخصوصية فى تقواهن لله ، وإلا فهناك من زوجات الأنبياء مَنْ كانت غير تقية .

وقوله تعالى : ﴿ **فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ .. (٣٢)** ﴾ [الأحزاب] أى : اقْطَعْنَ طريق الفاحشة من بدايته ، ولا تقربن أسبابها ، واتركْنَ الأمور المشتبهة فيها . ومعنى الخضوع بالقول أنْ يكون فى قول المرأة حين تخاطب الرجال ليونة ، أو تكسُّر ، أو ميوعة ، أو أن يكون مع القول نظرات أو اقتراب .

فإذا اضطررتُنَّ لمحادثة الرجال فاحذرْنَ هذه الصفات ﴿ **فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ .. (٣٢)** ﴾ [الأحزاب] والمعنى : أنا لا أتهمكُنَّ ، إنما الواحدة منكُنَّ لا تضمن الرجل الذى تُحدِّثه ، فربما كان فى قلبه

مـرض[1] ، فلا تعطيـه الفرصـة .

وليس مـعنى عـدم الخـضـوع بالقـول أنْ تُكلِّمْنَ الناسَ بـغلظة وخـشونـة ، إنما المـراد أن تكون الأمـور عند حـدودها ؛ لذلك يقـول سبحانه بعدها ﴿ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٣٢) ﴾ [الاحزاب] فلما نهى القرآن عن التصرف غير المناسب عرض البديل المناسب ، وهو القول المعروف ، وهو من المرأة القول المعتدل والسماع بالأذن دون أنْ تمتد عينها إلى مُحـدِّثها ؛ لأن ذلك ربما أطمـعه فيهـا ، وجرَّأه عليهـا ، وهذا ما يريد الحق سبحانه أنْ يمنعه .

لذلك حُكِي أن رجلاً رأى خادمته على البـاب تُحدِّث شاباً وسيماً ، وكان يسـألها عن شيء ، إلا أنها أطالتْ مـعه الحديث ، فضـربها ربُّ البيت ونـهرها على هذا التصـرف ، وفي اليوم التـالي جاء شـاب آخر يسـألها عن نفس الشـيء الـذي سـأل عنه صـاحبـه بالأمس ، فبـادرته بالشـتائم والسُّباب بعـد أنْ ظهـر لها مـا في قلب هذا ، وأمثـاله من مرض .

وفي مـوضـع آخـر من هذه السورة سـيـأتي : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) ﴾ [الاحزاب] ؛ لأن الرجل حين يجد المرأة محتشمة تستر مـفاتن جسمها لا يتجرأ عليها ، ويعلم

---

(١) قال ابن عرفة : المرض في القلب فتـور عن الحق ، وفي الأبدان فتور الأعضاء وفي العين فتور النظر . وعين مريضة : فـيها فتور ، ومنه قوله : ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ .. (٣٢) ﴾ [الأحزاب] أي : فتور عما أمـر به ونُهي عنه . نقله ابن منظور في [لسان العرب ـ مادة : مرض] وقال ابن كثير في تفسيره : « مرض أي : دغَل » والدغل هو الفساد وأصل الدغل الشجر الملتف الذي يكمن أهل الفساد فيه [لسان العرب ـ مادة : دغل] .

أنها ليستْ من هذا الصنف الرخيص ، فيقف عند حدوده .

وقد قال الحكماء : أما إذا رأيتَ امرأةً تُظهر محاسنها لغير محارمها وتُلِحُّ في عرض نفسها على الرجال ، فكأنها تقول للرجل (فتح يا بِجم) تقول للغافل تنبه . فتستثير فيه شهوته ، فيتجرأ عليها .

فالحق سبحانه يريد لزوجات النبي ﷺ أولاً أنْ يُكلِّمْنَ الناس من وراء حجاب ، وأنْ يُكلِّمْنَ الناس بالمعروف كلاماً لا لينَ فيه ، ولا ميوعة حتى لا يَتعرَّضْنَ لسوء ، ولا يتجرأ عليهن بذيء أو مستهتر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

معنى ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحزاب] الزمنها ولا تُكثِرْن الخروج منها ، وهذا أدب للنساء عامة ؛ لأن المرأة إذا شغلتْ نفسها بعمل المطلوب منها في بيتها وفي خدمة زوجها وأولادها ومصالحهم لَمَا اتسع الوقت للخروج ؛ لذلك كثيراً ما يعود الزوج ، فيجد زوجته مُنهمكة في أعمال البيت ، وربما ضاق هو نفسه بذلك ؛ لأنه لا يجدها متفرِغة له .

إذن : المرأة المفلسة في بيتها هي التي تُكثِر الخروج ، وتقضي

مصالح بيتها من خارج البيت ، ولو أنها تعلمتْ الصناعات البسيطة لَقضَتْ مصالح بيتها ، ووفَّرتْ على زوجها ، وقد حكوا لنا عن النساء فى دمياط مثلاً ، كيف أن المرأة هناك تعمل كل شىء وتساعد زوجها ، حتى أن البنت تتعلم حرفة ، ولا ترهق أباها عند زواجها ، بل وتوفر من المال ما يساعد زوجها بعد أن تتزوج .

وقوله تعالى : ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ .. (٣٣)﴾ [الاحزاب] كلمة التبرج من البُرْج ، وهو الحصن ، ومعنى تبرَّج أى : خرج من البرج وبرز منه ، والمعنى : لا تخرجن من حصن التستر ، ولا تبدين الزينة والمحاسن الواجب سَتْرُها .

وقال ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ .. (٣٣)﴾ [الاحزاب] أى : ما كان من التبرج قبل الإسلام ، وكانت المرأة ـ ونعنى بها الأَمَة لا الحرة ـ تبدى مفاتن جسمها ، بل وتظهر شبه عارية ، وكُنَّ لا يجدْنَ غضاضة فى ذلك ، وقد رأينا مثل هذا مثلاً فى إفريقيا .

أما الحرائر فى الجاهلية ، فكانت لهُنَّ كرامة وعفّة ، فى حين كانت تُقام للإماء أماكن خاصة للدعارة والعياذ بالله ؛ لذلك لما أخذ رسول الله العهد على النساء المؤمنات ألاَّ يَزْنين قالت امرأة أبى سفيان[1] : أو تزنى الحرة يا رسول الله ؟ يعنى : هذا شىء مستنكف من الحرة ، حتى فى الجاهلية .

ومن معانى البرج : الاتساع ، فيكون المعنى : لا تُوسِّعْنَ دائرة التبرج التى حددها الشرع ، وهى الوجه والكفان .

---

(١) هى : هند بنت عتبة بن ربيعة ، أخبارها قبل الإسلام مشهورة ، وشهدت أُحُداً كافرة وفعلت ما فعلت بحمزة ، أسلمت يوم الفتح بعد زوجها أبى سفيان ، ماتت فى خلافة عثمان . [الإصابة لابن حجر ٢٠٦/٨] وقد ذكر ابن سعد فى طبقاته (٢٢٦/١٠) أن هذا حدث عند مبايعة النساء لرسول الله ﷺ . وهند هى أم معاوية بن أبى سفيان .

وفي موضع آخر ، قال تعالى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ[1] مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ .. (٦٠) ﴾ [النور]

وتعجب من المرأة تبلغ الخمسين والستين ، ثم تراها تضع الأحمر والأبيض ، ولا تخجل من تجاعيد وجهها ، ولا تحترم السنَّ التى بلغتْها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ .. (٣٣) ﴾ [الأحزاب] كثيراً ما قرن القرآن بين الصلاة والزكاة ، وبدأ بالصلاة ؛ لأنها عمدة التكاليف كلها ، وإنْ كنتَ في الزكاة تنفق بعض المال ، والمال فرع العمل ، والعمل فرع الزمن ، فأنت فى الصلاة تنفق الزمن نفسه وتضحى به ، فكأنك في الصلاة تنفق نسبة سبعة وتسعين ونصف بالمائة ، فضلاً عن الاثنين ونصف نسبة الزكاة .

كما يُفهم من إيتاء الزكاة هنا أن للمرأة ذمتها المالية الخاصة المستقلة عن ذمة الغير من أب أو زوج أو غيره ، بدليل أن الله كلفها بإيتاء الزكاة ، لكن الحضارة الحديثة جعلتْ مال المرأة قبل الزواج للأب ، وبعد الزواج للزوج ، ثم سلبتْ المرأة نسبتها إلى أبيها ، ونسبتها بعد الزواج لزوجها .

وهذه المسألة أشدُّ على المرأة من سلْبها المال ؛ لأن نسبتها لزوجها طمْسٌ وتَعَدٍّ على هُويتها ، وانظر مثلاً إلى السيدة عائشة ، فما زلنا حتى الآن نقول « عائشة بنت أبى بكر » ولم يقل أحد أنها عائشة امرأة محمد .

---

(١) القواعد : منَ اللواتى قعدن عن الأزواج . وهى جمع قاعد ، وهى المرأة الكبيرة المسنَّة . وقعدت المرأة عن الحيض والولد تقعد قعوداً وهى قاعد : انقطع عنها . [لسان العرب - مادة : قعد] .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (٣٣) ﴾ [الأحزاب] لأن المسألة لا تقتصر على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، إنما هناك أمور أخرى كثيرة تحتاج طاعة الله وطاعة رسول الله .

ونلحظ هنا أن الآية عطفت رسول الله على ربه تعالى ، وجاء الأمر واحداً ﴿ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (٣٣) ﴾ [الأحزاب] وحين نستقرئ هذا الأمر فى القرآن الكريم نجده مرة يُكرِّر الفعل ، فيقول : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (١٢) ﴾ [التغابن]

ومرة : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ .. (١٣٢) ﴾ [آل عمران]

ومرة يقول تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ .. (٥٩) ﴾ [النساء]

وهذه الصيغ ، لكلٍّ منها مدلول ومعنى ، فساعةً يقول : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، كأن لله فى الأمر طاعةً فى الإجمال ، وللرسول طاعة فى التفصيل ، فالحق سبحانه أمر بالصلاة وأمر بالزكاة أمْرَ إجمال ، ثم بيَّن الرسول ذلك وفصَّل هذا الإجمال ، فقال : « صلُّوا كما رأيتمونى أصلى »[1] وقال : « خُذُوا عنِّى مناسككم »[2] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣١) ، وأحمد فى مسنده (٥/٥٣) من حديث مالك بن الحويرث رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا حضرتْ الصلاة فأذِّنا وأقيما وليؤمكما أكبركما ، وصلُّوا كما ترونى أصلى » .

(٢) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : « رأيت النبى ﷺ يرمى على راحلته يوم النحر يقول لنا : خذوا مناسككم ، فإنى لا أدرى لعلِّى أن لا أحج بعد حجتى هذه » أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٣١٨) والنسائى فى سننه (٥/٢٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (١٢٩٧) .

إذن : تكرر الفعل هنا ؛ لأن لله طاعةً فى إجمالِ الحكم ، وللرسول طاعة فى تفصيله ، فإنْ جاء الفعل واحداً ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ .. ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران] فهذا يعني توارد أمر الله تعالى مع أمر رسوله ﷺ ، فالطاعة إذن واحدة ، وهَبْ أن الله تعالى له فعْل ، ورسوله له فعْل ، فلا يفصل أحدهما عن الآخر ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ .. ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة]

فلم يَقُلْ : وأغناهم رسوله حتى يقول قائل : كل منهما يُغْنى بقدره ، إنما جاء الفعل واحداً ﴿أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ .. ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة]

واقرأ أيضاً قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [التوبة] ولم يقل : يرضوهما .

أما قوله تعالى : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ .. ﴿٥٩﴾﴾ [النساء] فلم يُكرِّر الأمر بالطاعة مع أولى الأمر ؛ لأنه لا طاعةَ لولىٍّ الأمر إلا من باطن طاعة الله ، وطاعة رسول الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب] الرجس بالسِّين هو الرِّجز بالزاى ، وهو القذارة ، سواء أكانت حسية كالميتة مثلاً ، وكالخمر ، أو معنوية كالآثام والذنوب ، وقد جمعتْها الآية : ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة] وقد يُراد بالرجس : النفاق والمرض .

وكلمة (أهل) تُقال : لعشيرة الرجل ، لكنها تُطلَق فى عُرْف الاستعمال على امرأته ، ومن بقية الاصطلاحات لهذا المعنى ما نقوله الآن حين نذهب لزيارة صديق مثلاً فنقول : معى الأهل أو الجماعة ، والبعض يقول : معى الأولاد ، ونقصد بذلك الزوجة ، لماذا ؟ قالوا :

لأن أمر المرأة مبنىٌّ على الستر ، فإذا كان اسمها مبنياً على الستر ، فكذلك معظم تكليفاتها مبنية على الستر فى الرجل ، ونادراً ما يأتى الحكم خاصاً بها .

لذلك ، السيدة أسماء بنت عميس[1] زوجة سيدنا جعفر بن أبى طالب ، وكانت قد هاجرت إلى الحبشة ، فلما عادت سألتْ : أنزلَ شىء فى أمر المرأة فى غَيْبَتى ؟ فقالوا لها : لم ينزل شىء ، فذهبت إلى سيدنا رسول الله ﷺ وقالت : يا رسول الله ، ما أعظم خيبتنا وخسارتنا ، فليس لنا فى الأحكام شىء ، فقال لها رسول الله ﷺ : « إنكن مستورات فى الرجال »[2] .

ومع ذلك نزل القرآن الكريم بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ[3] وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ

---

(١) هى : أسماء بنت عميس بن الحارث الخثعمى : صحابية ، أسلمت قبل دخول النبى ﷺ دار الأرقم بمكة ، وهاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها جعفر بن أبى طالب ، ثم قتل عنها جعفر شهيداً فى وقعة مؤتة (٨ هـ) فتزوجها أبو بكر الصديق فولدت له محمد بن أبى بكر ، وتوفى عنها أبو بكر فتزوجها على بن أبى طالب فولدت له ، وماتت بعد على . وصفها أبو نعيم بمهاجرة الهجرتين ومصلية القبلتين . [الأعلام للزركلى ١/٣٠٦] .

(٢) لم أقف على هذا الحديث ، ولكن أخرج الإمام أحمد فى مسنده (٦/٢٥٦) من حديث عائشة رضى الله عنها : « النساء شقائق الرجال » وكذا الترمذى فى سننه (١١٣) قال الخطابى فى « معالم السنن » ١/٧٩ : « أى : نظائرهم وأمثالهم فى الخُلُق والطباع ، فكأنهن شُقِقْنَ من الرجال » .

(٣) القنوت : هو الطاعة فى سكون . والقانت : المطيع الذاكر لله تعالى ، وهو العابد ، قال ابن سيده : القانت القائم بجميع أمر الله [لسان العرب ـ مادة : قنت] .

فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٣٥) ﴾ [الأحزاب]

وتلحظ في هذه الآية أيضاً ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣) ﴾ [الأحزاب] أنها تتحدث عن النساء ، لكنها تراعي مسألة سَتْر المرأة فتعود إلى ضمير الذكور ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ .. (٣٣) ﴾ [الأحزاب] ولم تقُلْ عنكُنَّ ، كذلك في ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣) ﴾ [الأحزاب] ويصحّ أنه يريد أهلَ البيت جميعاً رجالاً ونساءً .

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) ﴾

قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب] أي : نساء النبي ﴿ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب] أي : آيات القرآن الكريم ﴿ وَالْحِكْمَةِ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب] أي : حديث رسول الله ﷺ ، أو : أن عطف الحكمة على آيات الله من عطف الصفة على الموصوف ، لكن القول الأول أَوْلَى ما دام أن الأمر فيه سعة .

ومعنى ﴿ وَاذْكُرْنَ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب] قلنا : إن الذكْر استحضار واستدعاء معلومة من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور ، والمعنى : استحضر ذكْر الله واجعلْه على بالك دائماً ؛ لذلك قال تعالى ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] أي : أكبر من أيِّ عبادة ؛ لأن العبادات كما ذكرنا تحتاج إلى استعداد ، وإلى وقت ، وإلى مشقة ، وإلى تفرُّغ وعدم مشغولية .

أمَّا ذكر الله فهو يجري على لسانك في أيِّ وقت ، وبدون استعداد

أو مشقة ، ويلهج به لسانك فى أى وقت ، وعلى أى حال أنت فيه ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى من سورة الجمعة : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠ ﴾ [الجمعة] فما دام أن الذكر هو أنْ تجعل الله على بالك ، فلا يمنعك من ذلك سَعْىٌ ولا عمل ؛ لأن الذِّكْر أخف العبادات وأيسرُها على النفس ، وأثقلها فى الميزان .

ثم تأمل : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١ ﴾ [الأحزاب]

فمن عظمة سيدنا رسول الله ﷺ أن باله لم يَخْلُ لحظة من ذكر ربه أبداً ؛ لذلك ورد عنه ﷺ أنه قال عن نفسه : « تنام عينى ، ولا ينام قلبى »[1] .

ثم تُختم الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝٣٤ ﴾ [الأحزاب] اللطف هو الدقَّة فى تناول الأشياء وحُسْن تأتِّى الأمور مهما كانت وسائلها ضيقة ، وسبق أنْ أوضحنا هذا المعنى وقلنا : إن الأشياء الضارة مثلاً كلما لطُفَتْ عَنُفتْ ، فالحديد الذى تجعله على النوافذ ليحميك من الذئاب ، غير الحديد الذى يحميك من الثعابين ، أو من الناموس والذباب .. إلخ ؛ لذلك نجد أن أفتك الأمراض تأتى من الفيروسات اللطيفة التى لم تُعرف .

وحُسْن التأتِّى للأمور يعنى التغلغل فى الأشياء مهما دَقَّتْ ، فقد تُضطر مثلاً لأنْ تُدخل يدك فى شىء ضيق لتتناول شيئاً بداخله ، فلا تستطيع ، فتستعين على ذلك بالولد الصغير ؛ لأن يده ألطف من يدك ، أو تستعين على ذلك بآلة أدقّ لتؤدى بها هذا الغرض .

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢١١٣) كتاب صلاة التراويح ، وكذا أخرجه مسلم فى صحيحه (٧٣٨) كتاب صلاة المسافرين من حديث عائشة أنها قالت : يا رسول الله أتنام قبل أن توتر ؟ قال : يا عائشة إن عينى تنامان ولا ينام قلبى » .

ووَصْف اللطيف يُتمِّمه وصف الخبير ، فإذا كان اللطيف يعنى الدقة فى تناول الأشياء وحُسْن التأتِّى ، فالخبرة تعنى معرفة الموضع ، فاللطف لا يتأتى إلا بالخبرة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾

قلنا : إن هذه الآية نزلت تطييباً لخاطر السيدة أسماء بنت عميس زوجة سيدنا جعفر بن أبى طالب ، لما حدَّثَتْ سيدنا رسول الله فى

---

(١) سبب نزول الآية : أخرج الإمام أحمد فى مسنده (٦/٣٠١ ، ٣٠٥) عن أم سلمة قالت قلت : يا رسول الله ، ما لنا لا نُذكر فى القرآن كما يُذكر الرجال . قالت : فلم يرعنى منه يوماً إلا ونداؤه على المنبر يأيها الناس قالت : وأنا أسرح رأسى فلففت شعرى ثم دنوت من الباب فجعلت سمعى عند الجريد ، فسمعته ﷺ يقول : « إن الله عز وجل يقول : إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات .. » هذه الآية .

وأخرج الترمذى فى سننه (٣٢١١) من حديث أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبى ﷺ فقالت : ما أرى كل شىء إلا للرجال وما أرى النساء يُذْكرن بشىء ؟ فنزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب] قال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » .

أمر الأحكام ، وأنها تنزل وتتوجَّه فى الغالب إلى الرجال ، ويبدو أنها حدَّثَتْ رسول الله فى أمر النساء ، وأن منهن مثل الرجال مسلمات ومؤمنات .. إلخ .

ونلحظ أن الآية بدأت بذكر الإسلام ، ثم الإيمان ، فأيّهما يسبق الآخر ؟ ونجد إجابة هذا السؤال فى قول الحق سبحانه وتعالى :
﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

فالإسلام أنْ تؤدى أعمال الإسلام بصرف النظر ، أكان أداؤك لها عن إيمان أو عن غير إيمان ؟ لأن الإسلام تلقِّى حكم ، أما الإيمان فأنْ تؤمن بمَنْ حكم ، وتُصدِّق مَنْ بلَّغك هذا الحكم ، وعليه فالإيمان سابق للإسلام .

لذلك جاءت هذه الآية لتفضح هؤلاء الأعراب الذين تستروا وراء الأعمال الظاهرة للإسلام ، وهم غير مؤمنين بها ، وقد يأتى الإيمان بعد الإسلام حين تؤدى أعمال الإسلام فتحلُو لك ، وتجذبك إلى الإيمان والتصديق .

لذلك ، فرح هؤلاء الأعراب لقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات] وقالوا الحمد لله ؛ لأن (لَمَّا) لا تدخل إلا على ما يمكن أنْ يجىء ، كأن تقول : لَمَّا يثمر بستاننا ، وقد أثمرتْ البساتين ، والمعنى : أنه سيثمر فيما بعد .

قالوا : لأن هناك كثيراً من الأحكام أنت لا تؤمن بالذى حكم بها إلا إذا أدركتَ وذُقْتَ حلاوتها ، فالرجل الذى جاء سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وطلب منه أنْ يبيت عنده ، أو : أنْ يضيفه ، فسأله إبراهيم

عليه السلام عن دينه فقال : إنه مجوسى ، فردَّ الباب فى وجهه ، فعاتبه ربه فى ذلك ، وقال له : يا إبراهيم تريده أنْ يغير دينه لضيافة ليلة ، وأنا أسَعُه طوال عمره وهو كافر بى ؟ فأسرع إبراهيم فى إثر الرجل حتى لحق به ودعاه إلى بيته ، فقال الرجل : ألم تنهرنى منذ قليل ، فماذا حدث ؟ فقال : لقد عاتبنى ربى فيك ، فقال الرجل : نِعْم الربّ ربٌّ يعاتب أحبابه فى أعدائه ، أشهد ألاَّ إله إلا الله .

وقد اشتملتْ هذه الآية على عشر صفات ، بدأت بالمسلمين والمسلمات ، وانتهت بالذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، وكأن الله تعالى أوجد مراد السيدة أسماء بنت عُميس فى هذه الصفات العَشْر التى جمعتْ الرجال والنساء ، واشتملت على كل أنواع التكليف ، وهى برقية تدلُّ على أن حكم المرأة التكليفى مطمور فى باطن الرجل ، وهذه هى الأصول .

ومعنى ﴿ وَالْقَانِتِينَ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب] المداومون على عبادة الله وطاعته فى خشوع وتضرُّع كما نفهم من قوله تعالى ﴿ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب] أن للمرأة ذمتها المالية المستقلة وحرية التصرُّف فى مالها بغير إذن زوجها إذا كانت تملك إرثاً أو هبة من زوجها أو من غيره ، فلا ولايةَ عليها من أحد .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة فى كلامنا عن الزكاة ، وهذه من مَيْزات المرأة فى الإسلام ، حيث كانت قبل الإسلام ، وحتى فى الحضارات الحديثة تابعة لأبيها أو لزوجها ، والصدقة تشمل الزكاة ؛ لأن الله قال فيها : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [التوبة]

فالصدقة هى العنوان الأعم ، ومعناها أنك صدَّقْتَ الحق سبحانه حين استأمنك على خير، فاستنبط بمجهودك وسعيك في أرض الله التى خلقها ، فكأنك تُحقِّق ما كان من سيدنا أبى بكر حين سأله رسول الله ﷺ : ماذا صنع بماله الذى كسبه فى الغنيمة ؟ قال : تصدَّقْتُ به كله ، فقال له : « وماذا أبقيتَ لأهلك ؟ » قال : أبقيت لهم الله ورسوله . فلما سأل عمر ـ رضى الله عنه ـ قال : تصدَّقْتُ بنصفه ، ولله عندى نصفه[1] .

فكلٌّ منهما تصرَّف فى ماله تصرُّفاً منطقياً يناسبه .

وإنْ كانت الزكاة يُراد بها نماء المال وطهارته ، فالصدقة عطاء لا يُرَاد به إلا وجه الله وثوابه فى الآخرة ، فكأن المتصدِّق يريد أنْ يبرَّ ، وأنْ يعترف لله المعطى بالفضل ؛ لأن الله مكَّنه من مال لم يُمكِّن منه الضعيف ، ولا غير القادر .

ثم ذكر الحق سبحانه تكليف الصوم ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ .. (٣٥)﴾ [الأحزاب] والصوم أخذ حُكْماً فريداً من بين أحكام التكاليف كلها، والحق سبحانه جعل لكل تكليف من التكاليف (كادر خاص) فى الجزاء إلا الصوم ، فليس له (كادر) محدد ، لذلك قال عنه الحق سبحانه : « إلا الصوم ، فإنه لى ، وأنا أجزى به »[2] يعنى : قرار عالٍ فوق الجميع ، فلماذا أخذ الصوم هذه المنزلة ؟

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٧٨) ، والترمذى فى سننه (٣٦٧٥) والحاكم فى مستدركه (١/٤١٤) وصححه . وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح » .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٠٤) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢/٨٠٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وهو حديث قدسى عن رب العزة سبحانه .

قالوا : لأن الصوم هو العبادة الوحيدة التى لم يعبد بها بشرٌ بشراً أبداً ، فمن الممكن مثلاً فى شهادة أنْ لا إله إلا الله أنْ يأتى مَنْ يمدح آخر ، فيقول له : ليس فى الكون إلا أنت ، أنت النافع وأنت الضار ، وهناك من قال عن نفسه : أنا الزعيم الأوحد ، كذلك فى الصلاة نرى مَنْ يخضع ويسجد لغير الله كما نخضع ونسجد نحن فى الصلاة ، وكذلك فى الزكاة نتقرب إلى العظيم أو الكبير بالهدايا له أو لمن حوله .

لكن ، هل قال بشر لبشر : أنا أصوم شهراً ، أو يوماً تقرُّباً إليك ؟ لا .. لأن الصيام للغير المماثل تذنيب للمصوم له لا للصائم ؛ لأنه سيُضطرّ لأنْ يظل طوال اليوم يراقبك ، أكلتَ أم لم تأكل ؟

ولأن الصوم هو العبادة الوحيدة التى لم يتقرب بها بشر لبشر قال الله عنها فى الحديث القدسى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم ، فإنه لى ، وأنا أجزى به »[1] يعنى : جزاؤه خارج المقرر كما قلنا .

ومن عظمة تكليف الصوم أيضاً أن الله تعالى أحلَّ لنا أشياء ، وحرَّم علينا أشياء أخرى تحريماً أبدياً ، فالذى تحمَّل التكليف ألِفَ الحلال ولم يألف ما حُرِّم عليه ، ورسختْ هذه العقيدة فى نفسه ، حتى أن الحرام لا يخطر بباله أبداً ، فلم يأتِ على باله مرة مثلاً أنْ يشرب الخمر ، أو يأكل الميتة ، فهذه مسألة منتهية بالنسبة له ، فأراد الله تعالى أنْ يديم لذَّة التكليف على البشر ، ففرضَ الصومَ الذى يُحرِّم عليك اليوم ما كان مُحلَّلاً لك بالأمس ومألوفاً حتى صار عادة .

إذن : هناك فَرْق بين دوام العادة ولذة العبادة ، وتأمل مثلاً يوم الفطر ، والفطر عادة لك فى غير هذا اليوم ، وأنت حر تفطر أو لا تفطر ، فإذا ما جاء يوم عيد الفطر أخرجك ربك من العادة إلى

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٠٤) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨٠٦/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

العبادة ، وجعله تكليفاً أنْ تفطر قبل الخروج للصلاة[١] .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] جاءتْ مسألة حفْظ الفروج بعد ذكر الصيام ؛ لأن الصيام امتناعٌ عن شهوتَيْ البطن والفرج ، شهوة البطن جعلها الله تعالى لحفظ الحياة بالطعام والشراب ، وشهوة الفرج جعلها الله تعالى لحفظ النوع بالنكاح والتناسل .

قُلْنا : إن الله تعالى أرضى السيدة أسماء رضى الله عنها الممثِّلة لجنس النساء ، فذكر أنواع التكاليف مرة للمذكَّر ، ومرة للمؤنث ، لكنه راعى في ذلك سَتْر المرأة ، وهنا أيضاً يُراعى هذه المسألة ، فيقول : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] حينما تكلم عن المذكَّر قال ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] ولم يقُلْ : والحافظات فروجهن ؛ لأن أمر النساء ينبغي أنْ يُسْتر وأنْ يُصَان .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَات .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] ويعود إلى مسألة السَّتْر مرة أخرى فى قوله : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٣٥) ﴾ [الأحزاب] فقال (لهم) على سبيل التغليب ، وسَتْر المرأة فى الرجل ، وهذه مسألة مقصودة يُراد بها شرف للمرأة ، وصيانة لها ، لا إهمالها كما يدَّعى البعض ، ومن هذه الصيانة ما نقوله نحن عن المرأة : معى أهلى أو الأولاد أو الجماعة ، ونقصد بذلك سَتْرها وصيانتها لا إهمالها ، أو التقليل من شأنها .

---

(١) عن بريدة الأسلمى قال : « كان رسول الله ﷺ لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل ، ولا يأكل يوم الأضحى حتى يرجع فيأكل من أضحيته » أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٣٥٣) . قال الشيخ سيد سابق فى « فقه السنة » (١/٢٦٨) : « قال ابن قدامة : لا نعلم فى استحباب تعجيل الأكل يوم الفطر اختلافاً » .

فكأن الحق سبحانه حينما أرضى السيدة أسماء نيابةً عن المرأة المسلمة ، فذكر ما ذكر من جمع المؤنث الذى يقابل جمع المذكر ، أراد أنْ يبنى حول المرأة سياجاً من الستر فى كل شىء حتى فى التكاليف .

ونلحظ على سياق الآية هنا أيضاً أنه قدَّم المغفرة على الأجر ؛ لأن القاعدة كما قُلْنا : إن دَرْء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة ، والحق سبحانه يُعد لعباده الأجر على الحسنة التى فعلوها ، مع أنه سبحانه لا ينتفع منها بشىء إنما يعود نَفْعها على المكلَّف نفسه ، فهو يستفيد بالطاعة وينال عليها الأجر فى الآخرة .

أما الحق سبحانه فغنىٌّ عنَّا ، وعن طاعتنا ، واقرأ الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى مُلْكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً »(١) .

إذن : نحن المستفيدون من التكاليف ، ففيها صلاحُنَا فى الدنيا ، ثم نأخذ عليها الأجر يوم القيامة .

لذلك نجد الكثير من الرسل يقولون لأقوامهم : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ .. (١٠٩) ﴾ [الشعراء] كأنه يقول : الذى أؤديه لكم من تبليغ دعوة الله فى عرف الاقتصاد والتبادل يقتضى أنْ آخذَ عليه أجراً ؛ لأننى أؤدى لكم خدمة ، لكن ماذا سآخذ منكم أيها العرايا وأجرى عالٍ لا يقدر عليه المكلَّف ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ .. (٧٢) ﴾ [يونس] فهو

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) ، وكذا الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

وحده القادر على أنْ يجازينى بما أستحق .

ووَصْف الأجر بأنه عظيم يدلُّ على كِبَر فى الحجم ، ونَفَاسة فى الصفات ، وامتداد فى الزمن ، وهذه هى عناصر العظمة فى الشىء ، وأىُّ أجر أعظم من أجر الله لعباده فى الآخرة ؟

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾

جمعتْ هذه الآية أيضاً بين المذكر والمؤنث فى ﴿ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب] فهى امتداد للآية السابقة ، فهى تخدم ما قبلها ، وتخدم أيضاً ما بعدها ، وما به أصل السبب ؛ لأنها نزلتْ فى عبد الله بن جحش وأخته زينب ، حين رفضا زواج زينب من زيد بن حارثة ، فالمؤمن عبد الله بن جحش ، والمؤمنة أخته زينب من حيث هما سبب لنزول الآية ، وإلا فهى لجميع المؤمنين وجميع المؤمنات .

وسبق أنْ ذكرنا قصة زيد بن حارثة ، وملخصها أنه سُرِق من أهله ، وبِيع فى سوق العبيد على أنه عبد ، فاشتراه حكيم بن حزام ،

---

(١) **سبب نزول الآية :** قال ابن عباس : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة رضى الله عنه ، فاستنكفت منه ، وقالت : أنا خير منه حسباً ، وكانت امرأة فيها حدة ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب] أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٨٩) ، والسيوطى فى « أسباب النزول » . (ص ٢٢٠) .

ثم وهبه للسيدة خديجة أم المؤمنين ، فوهبته خديجة رضى الله عنها لسيدنا رسول الله ﷺ ، فصار مَوْلىً لرسول الله .

وبينما هو ذات يوم بالسوق ، إذ رآه جماعة من قومه فعرفوه ، وأخبروا أباه أنه بالمدينة ، فجاءه أبوه وأعمامه ، وحكَوْا لرسول الله قصته ، وطلبوا عودته معهم ، فقال رسول الله : خيِّروه ، فإنِ اختاركم فهنيئاً لكم ، وإنِ اختارنى ، فمَا كان لى أنْ أُسلِمه ، فردَّ زيد وقال : والله ما كنت لأختار على رسول الله أحداً .

فأراد سيدنا رسول الله أنْ يكافىء زيداً على هذا التصرف ، فنسبه إليه على عادة العرب فى هذا الوقت ، فسمَّاه زيد بن محمد[1] .

فلما أراد الحق سبحانه أن ينهى هذه العادة ومثلها عادة الظهار ، نزل قوله سبحانه : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ .. (٤) ﴾ [الأحزاب]

فكما أن الرجل لا يكون له إلا قلب واحد ، كذلك لا يكون له إلا أب واحد ، وشاء الله أنْ يبدأ بمُتَبنَّى رسول الله ؛ ليكون نموذجاً تطبيقياً عملياً أمام الناس ، وكانت هذه الظاهرة يترتب عليها أنْ يرث المتبنَّى من المتبنِّى بعد موته ، وأنْ تُحرم زوجة المتبنَّى أنْ يتزوجها المتبنِّى .

صحيح أن القضاء على هذه العادة قضاءٌ على نظام اجتماعى فاسد موجود فى الجزيرة العربية ، لكنه فى الوقت نفسه دليل على أن رسول الله ﷺ تبنَّى كما يتبنَّى العرب ، وأن الله تعالى أبطل من

---

(١) انظر سيرة النبى لابن هشام (١/٢٤٨ ، ٢٤٩) .

رسول الله هذا التصرّف ؛ وهذا سيفتح الباب أمام معاندى رسول الله أنْ يَشْمتوا فيه ، وأن تتناوله ألسنتهم ؛ لذلك عالج الحق سبحانه هذه القضية علاج ربٍّ بإنفاذ الأمر فى نُصْرة حبيب له ، فلم يُشوِّه عمل الرسول ، إنما جعل فعْله عَدْلاً ، وحكمه سبحانه أعدل ، فقال : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. ۝٥ ﴾ [الأحزاب]

والمعنى : إنْ كُنتم جعلتم من العدل والمحبة أنْ تكفلوا هؤلاء الأولاد ، وأنْ تنسبوهم إليكم ، فهذا عَدْل بشرىٌّ ، لكن حكم الله أعدل وأقْسَط ، وشرفٌ لرسول الله أنْ يردَّ اللهُ حكمه إلى حكم ربه ، وشرفٌ لرسول الله أن يكون له الأصل فى المسألة ، وأنه يحكُم ، فيردّ الله حكمه إلى حكمه ، فهذا تكريم لرسول الله .

فقوله تعالى ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ..۝٥ ﴾ [الأحزاب] يعنى : أن فعْل محمد كان قسْطاً وعَدْلاً بقانون البشر ، وقد جاء محمد ليُغيِّر قوانين البشر بقوانين ربِّ البشر ، وبهذا خرج سيدنا رسول الله من هذا المأزق .

أما زيد فقد عوَّضه الله عما لحقه من ضرر بسبب انتهاء نسبه إلى رسول الله ، فصار زيد بن حارثة بعد أنْ كان زيد بن محمد ، عوَّضه الله وأنصفه بأنْ جعله العَلَم الوحيد من صحابة رسول الله الذى ذُكر اسمه فى القرآن الكريم بنصِّه وفصِّه ، فقال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. ۝٣٧ ﴾ [الأحزاب] فَخُلِّدَ زيد فى كتاب يُتْلَى ، ويُتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة .

وعلاقة زيد بن حارثة بما نحن بصدده من قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ .. ۝٣٦ ﴾ [الأحزاب] أنه تزوج من السيدة زينب بنت جحش ، زوَّجه إياها رسول الله ، وقد نزلتْ هذه الآية فى زينب ،

وفى أخيها عبد الله[(١)] .

ومعنى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ .. (٣٦) ﴾ [الأحزاب] معنى (ما كان) أى : أنه شيء بعيد ، لا يمكن أنْ يَرِد على العقل ، أى : أنه أمر مُسْتبعد غير مُتصوَّر ، وكان المنفية تدل على جَحْد هذه المسألة ، فالمؤمن والمؤمنة ، ما دام أن الإيمان باشر قلبيهما لا يمكن أنْ يتركا أمر الله وحكمه ، أو أمر رسوله إلى اختيارهما .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ .. (٣٦) ﴾ [الأحزاب] وإلا فلا إيمانَ لا بالله ، ولا برسول الله .

فإنْ قُلْتَ : كيف وقد أثبتَ الله الاختيار ؟ نقول : هناك فرق بين اختيارٍ داخلٍ فى التكليف ، إنْ شئْتَ فعلْته أو لم تفعله ، وشيء فى إيجاد التكليفِ بداية ، فليس للعباد دخْل فى إيجاد الشيء المكلَّف به ، إنما إذا كلَّفتهم أنا ، فأنا صاحب التكليف ، وكونهم يطيعونه أو لا يطيعونه ، فهذا أمر آخر ، ليس للعباد أن يقترحوا التكليف على هواهم ؛ لأن التكليف لى ، ولهم الاختيار فى طاعته وفى قبوله ، وما دام قد ثبت أنهم آمنوا بالله وآمنوا برسول الله فكان من الواجب عليهم أنْ يرتضوا الأمر ، وألاَّ يُعرضوا عنه إلى غيره .

وقصة طلاق زيد وزينب ، ثم زواج سيدنا رسول الله ﷺ منها

---

(١) هو : عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدى ، صحابى ، قديم الإسلام ، هاجر إلى بلاد الحبشة ، ثم إلى المدينة ، وكان من أمراء السرايا ، وهو صهر رسول الله ﷺ ، أخو زينب بنت جحش أم المؤمنين ، قتل يوم أحد شهيداً ، فدفن هو والحمزة فى قبر واحد عام ٣ هجرية . [الأعلام للزركلى ٤/٧٦] . والحمزة بن عبد المطلب عم رسول الله هو خال عبد الله بن جحش ، فأمه هى أميمة بنت عبد المطلب .

قصة خاضَ فيها المستشرقون والمغرضون كثيراً ، وتجرأوا على سيدنا رسول الله بكلام لا ينبغى فى حقه ﷺ ، ومن قولهم أن محمداً أحبَّ زينب وأرادها لنفسه ، فأمرها أنْ تشاغب زيداً حتى يطلقها فيتزوجها .

ونقول لهؤلاء الأغبياء : أولاً زينب بنت جحش الأسدية هى بنت عمة رسول الله ، وكان ﷺ مُكلَّفاً بإدارة أموالها ورعاية شئونها ، وقد نشأتْ تحت عينه ، ولو أرادها لنفسه لتزوَّجها بداية ، وهذا بنصِّ القرآن : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب]

فإنْ أردتَ أنْ تعرف ما أخفاه رسول الله فخُذْه مما أبداه الله ، والذى أبداه الله قوله تعالى ﴿ لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] وهذا يهدم كلَّ ادعاءاتكم على رسول الله .

أما قولهم بانشغال قلب رسول الله بزينب ، فنقول : ولماذا تجعلون انشغالَ قلب محمد انشغالاً جنسياً ؟ ولو تتبعتُم القصة من أولها لظهر لكم غير ذلك ، فحينما أرسل رسول الله مَنْ يخطب زينب ظنَّ أخوها عبد الله وأختها حَمْنة أنه جاء ليخطبها لرسول الله ، فلما علموا أنه يخطبها لمولاه زيد غضبوا جميعاً ، فكيف تتزوج السيدة القرشية وبنت عمة رسول الله من عبد ، لكن لما علموا أن الأمر من الله أذعنُوا له ووافقوا .

ثم بعد أنْ تزوجتْ زينب من زيد تعالتْ عليه ، بل وشعر أنها تحتقره لهذا الفارق بينهما ، فكان زيد يشتكى لرسول الله سوءَ معاملة زوجته له ، وأنها كما نقول (منكدة عليه عيشته) ، وأنها تعيش معه فى بيت الزوجية بالقالب لا بالقلب ، لكن حبه لرسول الله كان يمنعه من طلاقها ، وهو أيضاً لا يريد أن يخسر هذا الشرف الذى ناله

بالزواج من ابنة عمة رسول الله .

وكان سيدنا رسول الله فى كل مرة يشتكى فيها زيدٌ من زينب يقول له ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] ولو أرادها الرسول لنفسه لقال له طلِّقها ، ولوجد الفرصة أمامه سانحة .

ويجب أن نبحث هنا علاقة المرأة بالرجل ، فالخالق سبحانه خلق الرجل للمرأة ، والمرأة للرجل ؛ لذلك نجد المرأة العربية أم إياس ، وهى تُوصى ابنتها لما خطبها الحارث ، تقول : « أىْ بُنية ، إنك لو تُركْتِ بلا نصيحة لكنت أغنى الناس عنها ، ولو أن امرأة استغنتْ عن الزوج لغنى أبويها وشدَّة حاجتهما إليها لكنت أغنى الناس ، ولكن الرجال للنساء خُلقْن ، ولهُنّ خُلق الرجال ، وأن النصيحة لو تركتْ لفضل أدبٍ لتركت لذلك منك ، ولكنها تذكرةٌ للغافل ومعونة للعاقل » .

وقلنا : إن الإنسان يستطيع أنْ يعيش أفضل ما يكون من مأكل ومَشْرب وملبس ومسكن ، لكنه مع ذلك لا يستغنى بحال عن الزوجة والمرأة كذلك ؛ لذلك يقول رسول الله ﷺ : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ الزوجة أن تسجد لزوجها »[1] .

لماذا ؟ لأن الزوج يعطيها ما يعطيه الأب والأم والإخوة ، ويزيد على ذلك مما لا يقدرون ولا يستطيعون .

الشاهد أن المرأة للرجل ، والرجل للمرأة ، مهما وضعوا من أسوار من عزٍّ أو من جبروت ، أو غيره .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٨١) عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله ﷺ قال : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، ولا تؤدى المرأة حق الله عز وجل عليها كله حتى تؤدى حق زوجها عليها كله ، حتى لو سألها نفسها وهى على ظهر قتب لأعطته إياها » . والقتب : رَحْل صغير على قدر سنام الجمل .

إن المسألة بالنسبة لزيد كانت صعبة ؛ لأن الله تعالى جعل للزواج ثلاث مراحل ، وردتْ في قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً .. (٢١)﴾ [الروم]

فالأولى أنْ يسكن الزوج إلى زوجته ، وأنْ يطمئن إليها ، ويرتاح بجوارها حين تمسح عنه عرقه ، وتحتويه بعد تعب اليوم ومشاقّ الحياة ، فإن امتنع السَّكَن بسبب مُنغِّصات الحياة ، فليكُنْ بينهما مودة تجمعهما ، ولِمَ لا ، وأنت حين تصاحب صديقاً مثلاً مدة طويلة تجد له مودة في قلبك ، وتجد أن لهذه المودة ثمناً ، فتتحمله إنْ أخطأ ، وتسامحه إنْ أساء ، فما بالك بالزوجة ، أليست أحق بهذه المودة ؟

فإذا ما فُقدَت المودة أيضاً ، فليبْقَ بين الزوجين التراحم ، فليرحم كل منهما الآخر إنْ أصابه الكبَر أو المرض ، أو غير ذلك .

وقد وصل زيد مع زينب إلى مرحلة فقد فيها السَّكَن والمودة والرحمة بسبب ما بينهما من فارق .

أمر آخر ، إنْ كان رسول الله ﷺ قد فكَّر في أمر زينب ، فلماذا تعدلون به إلى التفكير في الغريزة ؟ ولماذا لا تعدلون به إلى مرتبة الإنصاف ، وهو الذي أرغم زينب على الزواج من زيد ، وهي الشريفة القرشية ، وهو العبد المملوك ، فلما وضعها في هذا المأزق أراد أنْ يُطيِّب خاطرها ، ويصلح ما كان منه بأنْ يضمها إليه ، فتصير إحدى أمهات المؤمنين .

ثم مَن الذي منع رسولاً قال الله عنه أنه بشر من أن تكون له هذه الرغبة ، وكل الرسل السابقين كان لهم هذه ـ هذا على فرض رغبة رسول الله في زينب ـ لكن الناس لم يُحسنُوا الظن .

والذى يدلُّنا على أن هذه المسألة كانت ترتيباً ربانياً صرْفاً ما نجده من الرياضة الإيمانية بين كل من سيدنا رسول الله ، ومولاه زيد ، وابنة عمته زينب ، فقد جمعهم الثلاثة رياضة إيمانية كما نقول نحن الآن : فلان عنده روح رياضية .

يعنى : يتقبل الهزيمة بروح عالية بدون عداوات أو أحقاد ، فلقد انصاع الجميع لأمر الله بهذه الروح الإيمانية .

أما الذين يأخذون من قوله تعالى فى حق رسوله ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] يأخذونها سُبَّة فى حقِّ الرسول ، فعليهم أنْ يعلموا أنَّ الخشية نوعان : خشية من شيء تخاف أنْ يضرك ، وخشية استحياء ، فالخشية فى ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] خشية استحياء ، ويكفى أن الحق سبحانه قال فى حق رسوله ﷺ[1] : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب]

فالخشية هنا تعنى خَوْف رسول الله من ألسنة الكفار التى ستخوض فى حقه ، والتى ستقول إن محمداً تزوَّج من امرأة مُتبنَّاه ، لكن غاب عن هؤلاء أن الله تعالى ألغى مسألة التبنى ، فليس لهم

---

(١) وذلك أن رسول الله ﷺ حين بنى (دخل) بزينب بنت جحش ، صنع وليمة خبز ولحم فدعا الناس إليها ، فأخذ يجيء قوم فيأكلون ويخرجون ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون وبقى ثلاثة رهط يتحدثون لم يخرجوا ورسول الله يريد أن يخلو بزينب . عروسه وهم جالسون ، فخرج ثم عاد ، ثم خرج . ثم عاد حتى أخبر أن القوم قد خرجوا ، وكان شديد الحياء ، فنزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] انظر : أسباب النزول للواحدى (ص ٢٠٥) ، وتفسير ابن كثير (٣/٥٠٣) .

حجة ، وطبيعى أن يخاف رسول الله من ألسنة الكفار ؛ لأنه جاء لنقض عادات وتقاليد جاهلية ، وكان هو ﷺ أول مَنْ تحمَّل تبعة هذا التغيير ؛ لأنه جاء على يديه وفى شخصه ﷺ .

وسيدنا رسول الله حين يستحى من زواجه من زينب أو من كلام الناس ، فإنما يريد أنْ يبرىء عِرْضه وساحته ، مما يشين ، وقد كان ﷺ يدفع الشبهة عن نفسه دائماً ، لذلك لما رآه بعض أصحابه مع امرأة ، فمالوا عنه ﷺ خشيةَ أنْ يتسببوا له فى حرج ، فناداهما رسول الله : « على رِسْلكما إنها صفية » فقالوا : نحن لا نشك فيك يا رسول الله ، فقال : « إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم »[1] .

فرسول الله يريد أن ينفض عن نفسه أىَّ شبهة ، يريد ألا يجعل لأحد جميلاً عليه ، بأنه ستر على رسول الله .

ولا أدلَّ على حيائه ﷺ من قصته مع عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، فلما دخل ﷺ مكة فاتحاً ومنتصراً كان قد أهدر دم عبد الله بن سعد بن أبى السرح ؛ لأنه نال كثيراً من رسول الله[2] ، فجاء عثمان بن عفان رضى الله عنه يستأمن لعبد الله من رسول الله ـ يعنى : يطلب له الأمان ـ فما ردَّ عليه رسول الله ، وكان ينتظر أن يقوم رجل من القوم فيقتل عبد الله ، لكن عثمان أعادها مراراً على

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢١٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢١٧٥) من حديث صفية بنت حُيىّ .

(٢) كان عبد الله بن سعد بن أبى سرح قد أسلم قديماً وكتب لرسول الله ﷺ الوحى ثم افتتن وخرج من المدينة إلى مكة مرتداً فأهدر رسول الله دمه يوم الفتح . [الطبقات الكبرى لابن سعد ٩/٥٠٢] .

رسول الله حتى أنه استحى من عثمـان فأمَّن عبد الله ، فلما أمَّنه أخذه عثمان وانصرف من مجلس رسول الله .

فقال رسول الله لصحابته : « ألم يكن فيكم رجل رشيد يقوم إليه فيقتله ؟ » يعني : قبل أن يُكلِّمه عثمـان فيكون قـد سبق السـيف العذل[1] كمـا يقولون ، فقام عـبد الله بن بشر وقـال : يا رسول الله ، لقد كانت عيني في عيـنك ، أنتظر إشارة منك لأقتله ، لكنك لم تفعل ، فقال سيدنا رسـول الله ـ انظر إلى العظمة « ما كان لنبى أن تكون له خائنة الأعين »[2] .

أذكر أنه كان لنا أسـتاذ ، هو سيدنا الشيخ موسـى شـريف رحمه الله ورضـى الله عنه ، وكان رجلاً له مدد من الله ، وقد فسر لنا هذه الآية ، وكنا نذاكر دروسنا قـبل أن نحضر درسـه ، وكان يصطفيـنى من بين إخوانى الموجـودين أمثـال الشيخ حـسن جاد ، والدكـتور خـفاجة وأبى العـينين وغيـرهم ، ليسـألنى عن مذاكـرتنا وما وقف أمـامنا من قضـايا ، فنادانى وكان قد علم من أبى اسم أمى ، فنادانى بها فتـقدَّمت إليه ، فضربنى على قفاى ضربة انحلَّتْ معها القضية التى كانت تقف أمامنا ، تماماً كما تضرب الذى يعانى من (الزغطة) ضربة على ظهره فتذهب .

ولما حـدَّثنا الشيخ عن قـصة سـيدنا عثـمان هذه جـاء فى اليوم التالى وقال : يا أولاد ، رأينا الليلـة سيدنا عثمان بحـيائه ، فقلت له :

---

(١) العذل : اللوم والتـأنيب . وقال ابن منظور فى [لسـان العرب ـ مادة : عـذل] : « قولهم فى المـثل : سبق السـيف العَذَل ، يُضـرب لما قـد فات ، وأصل ذلك أن الحـارث بن ظالم ضرب رجلاً فقتله ، فأخبر بعذره ، فقال : سبق السيف العذل » .

(٢) أخرجـه أبو داود فى سننه (٤٣٥٩) ، وكذا النسـائى فى سننه (٧/١٠٥ ، ١٠٦) من حديث سـعد بن أبى وقاص رضـى الله عنه . ولفظ أبى داود والنسائى : « إنه لا ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين » .

كيف تستأمن لرجل قال فى رسول الله كذا وكذا ؟ فقال لى : ألاَ تعلم أن الله يحب مَنْ تاب ، فقلت لرسول الله ﷺ - ولم يقل : أنا رأيتُ رسول الله - ما الذى جعلك تقبل شفاعة عثمان ؟ فقال : ألاَ أستحى من رجل تستحي منه الملائكة[1] ؟

فالنبى ﷺ بطبيعته كان شديد الحياء .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦) ﴾ [الأحزاب] وهنا ثلاثة توكيدات : قد الدالة على التحقيق وبعدها الفعل الماضى ، ثم المفعول المطلَق ضلالاً ، ثم وصف هذا الضلال بأنه مبين .

والضلال هو عدم الاهتداء إلى الطريق المؤدِّى إلى الغاية ، لكن قد يضلّ إنسانٌ طريقه ، ثم يأتى مَنْ يفتح عليه ويدلُّه ، أما هذا الذى يعصى الله ورسوله ، فضلاله ضلال مبين لا يجد مَنْ يدلُّه ، ولا مَنْ يهديه أبداً ؛ لأن هذا الطريق الذى يسير فيه مُوصِّل إلى الآخرة ، وليس هناك شىء من ذلك .

كانت هذه (لقطة) لسيدنا رسول الله ﷺ مع عثمان وعباد بن بشر أوضحتْ صفة الحياء فى رسول الله ، نعود بعدها إلى ما كنا بصدده من الحديث عن الرياضة الإيمانية التى جمعتْ بين رسول الله وكل من زيد وزينب .

---

(١) هذه العبارة قالها رسول الله ﷺ عن عثمان رضى الله عنه فى مناسبة أخرى ، فى حديث أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٤٠١) عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ مضطجعاً فى بيتى كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث ، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث ، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوَّى ثيابه ، فلما خرج قالت عائشة : دخل أبو بكر ولم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك فقال : ألا تستحى من رجل تستحى منه الملائكة .

وكان سيدنا رسول الله إذا غاب زيد يذهب فيسأل عنه ، فذهب مرة ، فرأى زينب منشغلة فى أمور بيتها ، وكانت زينب على حالة طيبة ، فقال ﷺ : « تبارك الله أحسن الخالقين » كما ترى مثلاً ابنتك فى مظهر حسن ، فتقول : ما شاء الله .

وكأن رسول الله أراد أنْ يُطيِّب خاطرها ، أو يرفع من روحها نظير ما أجبرها عليه من الزواج بزيد ، ونظير أنها تعيش معه على مضض ، فلما جاء زيد قالت له : لقد جاء رسول الله وسأل عنك وقال لى : تبارك الله أحسن الخالقين ، فقال لها : يا زينب أرى أنْ تكونى لرسول الله ؛ لأنك وقعتِ فى قلبه ، وأرى أنْ أُطلِّقك ليتزوجك رسول الله ، فبدا عليها الارتياحَ ، وتعجبتْ كأنها لم تصدق : إذا طلَّقْتنى أتزوج برسول الله ، كان هذا الحوار مجرد كلام .

وبالله لو قيل هذا الكلام فى غير هذا الموقف ، ولواحد غير زيد لغلى الدم فى عروقه ، وفعل ما فعل ، إنما تأمل الرياضة الإيمانية التى تحلَّى بها زيد .

يقول تعالى فى هذه المسألة :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾

معنى ﴿وَإِذْ تَقُولُ .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] واذكر جيداً وأدرْ مسألة زيد في رأسك ، اذكر إذ تقول للذى أنعم الله عليه بالإيمان - والمراد زيد - وأنعمتَ عليه بالعتق أولاً ، وأنعمت عليه بقانون البشرية بأنْ جعلْتَه ابناً لك وأنعمتَ عليه بأن زوَّجته ، وهو عبد ، من قرشية ، هى ابنة عمتك ، ثم أنعمتَ عليه حين قُلْت له ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ .. (٣٧)﴾ [الأحزاب]

لكن ، لماذا قُلْتَ له هذه الكلمة يا محمد ؟ أخوفاً من كلام الناس أنْ يقولوا : تزوَّج من امرأة مُتبنَّاه ؟ كيف وهذا مقصود من الله تعالى ، إنه يريد أن يُنهى عادة التبنى ، وأنْ يُنهيها على يدك أنت ، فأنت تخفيه خوفاً من كلام الناس ، وقد أبداه الله حين أخبرك بهذه المسألة ، وأن نهايتها ستكون على يديك بأنْ تتزوج امرأة مُتبنَّاك ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] فدعْكَ من الناس .

لذلك قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ .. (٣٩)﴾ [الأحزاب]

وسبق أن أوضحنا أن خشيته ﷺ لم تكن خشية خوف من شىء يضره ، إنما خشية استحياء ليدفع رسول الله الشبهة عن نفسه .

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] الوطر : هو الأشياء التى تناسب معاش الرجل ، فمعناه الغاية أو الحاجة ، وسبق أن قُلْنا : إن وطر الرجل من زوجته أن تكون سكناً ، فإن لم يكُنْ ، فمودة تجمعهما ، فإنْ لم يكُنْ فرحمة متبادلة .

وقد افتقد زيد فى زوجته كل هذه المراحل ، فلم يجد معها ، لا السكن ، ولا المودة ، ولا الرحمة ، فلماذا - إذن - يستمر فى الارتباط بها ؟ لذلك كان يذهب إلى رسول الله ، فيشتكى له ما يلاقى

من زينب ، فكان رسول الله ﷺ يقول له :

﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ..(٣٧) ﴾ [الاحزاب]

وتأمل هنا هذه الرياضة الإيمانية بين سيدنا رسول الله وزيد وزينب رضى الله عنهما : لما طلَّق زيدٌ زينبَ تركها رسول الله لتقضى عدَّتها ، فلما قضتْ العدَّة قال : يا زيد اذهب إلى زينب فاخطبها عَلَيَّ[1] ، فما هذه العظمة ؟ رسول الله يبعث المطلِّق ليخطب له المطلَّقة ، وهذا يدل على ثقته فى زيد ، وأنه قد قضى وطره من زينب ، ولم يَعُدْ له فيها حاجة .

ويدخل زيد على زينب ، فيقول لها : أبشرى يا زينب ، لقد بعثنى رسول الله لأخطبك له ، فقالت : والله لا أجيب حتى أسجد شكراً لله ، فقامت زينب فسجدتْ ، عندها عاد زيد إلى رسول الله ، فأخبره ما كان من زينب فجاءها رسول الله ﷺ ، فدخل عليها بلا استئذان[2] .

تُرى لماذا يدخل عليها سيدنا رسول الله بلا استئذان ؟ قالوا : لأنها حينئذ صارت زوجته ، كما قال سبحانه ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا

---

(١) أخرج ابن سعد فى الطبقات الكبرى (١٠/١٠١) من حديث أنس قال : « لما انقضت عدة زينب بنت جحش قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : ما أجد أحداً آمن عندى أو أوثق فى نفسى منك ، ائت إلى زينب فاخطبها علىَّ .. قال زيد : يا زينب ، أبشرى ، إن رسول الله يذكرك » . ولكن أخرج ابن سعد أيضاً فى الطبقات (١٠/٩٩) أن رسول الله ﷺ بعد انقضاء عدة زينب أخذته غشية فسُرِّى عنه وهو يتبسَّم وهو يقول : من يذهب إلى زينب يبشِّرها أن الله قد زوجنيها من السماء . قالت عائشة : فخرجت سلمى خادم رسول الله ، تشتد فتحدثها بذلك فأعطتها أوضاحاً عليها .

(٢) قاله أنس بن مالك رضى الله عنه « أن زينب ردَّتْ على زيد : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربى ، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] قال : فجاء رسول الله فدخل عليها بغير إذن » أخرجه ابن سعد فى الطبقات الكبرى (١٠/١٠١) ، وابن الأثير فى أسد الغابة (٧/١٢٥) .

وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. ﴿٣٧﴾ [الأحزاب] أى : زوَّجه الله بها من فوق سبع سموات .

لذلك كانت السيدة زينب حين تجلس مع زوجات النبى ﷺ ـ وهذه أيضاً من الرياضات الإيمانية ـ تقول لهن : إنى لأفتخر عليكن جميعاً بأنكن زوجكُنَّ أولياؤكن ، أما أنا فزوَّجنى ربى ، فلا تجرؤ إحداهن على الردِّ عليها[1] .

ليس هذا فحسب ، إنما تُدلُّ أيضاً على سيدنا رسول الله ، فتقول له : يا رسول الله ، أنا أُدلُّ علَيك بثلاث ، فيضحك سيدنا رسول الله ويقول : أما الأولى ؟ فتقول : أما الأولى فجدِّى وجدُّك واحد ، وأما الثانية فلأن الله زوَّجنى من فوق سبع سموات ، وأما الثالثة فلأن سفيرى فى الزواج لم يكُن زيداً ، إنما كان جبريل[2] .

فأىُّ عظمة هذه التى نلاحظها فى هذه القصة ، وأىُّ رياضة إيمانية عالية من رسول الله وصحابته ؟

إذن : لم يتزوج رسول الله من زينب ، إنما زوَّجه ربه ؛ لذلك نقول للمغرمين بالخوض فى هذه المسألة ، يحسبونها سُبَّة فى حق رسول الله : افهموا الفرق بين زُوِّج وتزوج . تزوج أى : بنفسه

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٢٠) من حديث أنس بن مالك أن زينب كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ تقول : « زوَّجكن أهاليكن وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سماوات » .

(٢) ذكره ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (١٣/٤١٢) ببعض هذه الألفاظ من مرسل الشعبى « قالت زينب : يا رسول الله ، أنا أعظم نسائك عليك حقاً ، أنا خيرهن منكحاً ، وأكرمهن سفيراً ، وأقربهن رحماً ، فزوَّجنيك الرحمن من فوق عرشه ، وكان جبريل هو السفير بذلك ، وأنا ابنة عمتك وليس لك من نسائك قريبة غيرى » أخرجه الطبرى وأبو القاسم الطحاوى فى « كتاب الحجة والتبيان » له» .

وبرغبته ، إنما زُوِّج أى زوَّجه غيره ، وكلمة ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب] تحتوى على الفعل زوَّج والضمير (نا) فاعل يعود على الحق سبحانه ، والكاف لخطاب رسول الله ، وهى مفعول أول ، والهاء تعود على السيدة زينب ، وهى مفعول ثانٍ للفعل زوَّج .

فرسول الله فى هذه المسألة ، وفى كل زوجاته لم يخالف عن أمر الله . فلتكونوا منصفين ؛ لأن المسألة ليستْ عند محمد ، إنما عند ربِّ محمد ، واقرأوا إنْ شئتم : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ[1] ثَيِّبَاتٍ[2] وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴾ [التحريم]

ثم هَبُوا - جدلاً - أن محمداً فعلها ، ما العيب فيها وقد كان التعدُّد موجوداً ، ولم ينشىء رسول الله تعدُّداً ، كان التعدُّد موجوداً فى الأنبياء والرسل ، وفيكم وعندكم .

أما الذين يتهمون رسول الله ﷺ بأنه وسَّع على نفسه ، فتزوَّج تسعاً ، وضيَّق على أمته بأربعة ، فالرد على ذلك أن الله تعالى حكم بأن زوجات الرسول أمهاتٌ للمؤمنين ، وما دُمْنَ أمهات للمؤمنين ، فليس لأحد أنْ يتزوَّجهُنَّ بعد رسول الله ، أمَّا غيرهن من المؤمنات فإنْ كان مع الرجل سبعة مثلاً ، فعليه أنْ يفارق ثلاثة منهن ، وهؤلاء الثلاثة سيجدْنَ مَنْ يتزوج بهنَّ ، إذن : على الرسول أنْ يُمسك زوجاته كلهن ، وعلى غيره من المؤمنين أنْ يفارقوا ما زاد على أربع .

---

(١) سائحات . أى : صائمات . قاله أبو هريرة وعائشة وابن عباس وغيرهم كثير ذكر ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٣٩٠) ثلاثة عشر عالماً آخر قالوا بهذا القول ثم قال : وقال زيد ابن أسلم وابنه عبد الرحمن : سائحات أى مهاجرات ، والقول الأول أولى والله أعلم .

(٢) الثيب : المرأة التى سبق لها الزواج سواء كانت مطلقة أو أرملة . قال ابن منظور فى [لسان العرب - مادة : ثيب] : « الثيب من النساء التى تزوجت وفارقت زوجها بأى وجه كان بعد أن مسَّها » .

شيء آخر : تظنون أن رسول الله وسَّع الله له هذه المسألة ، والحقيقة أن الله ضيَّق عليه إذا ما قارناه بغيره من عامة المؤمنين ، فالمؤمن له أنْ يمسك أربعَ زوجات ، فإذا ماتتْ إحداهن تزوج بأخرى ، وإنْ طلَّق إحداهن تزوج بدلاً منها ، فإن مُتْنَ جميعاً أو طلَّقهن ، فله أنْ يتزوَّج غيرهن حتى يكمل الأربعة ، وهكذا يكون للمؤمن أن يتزوَّج بعدد كثير من النساء .

أما رسول الله ـ نعم تزوج تسعاً ـ لكن خاطبه ربه بقوله : ﴿ **لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ..** (٥٢) ﴾ [الأحزاب] فمَن الذى ضيِّق عليه إذن ؟ محمد أم أمته ؟

ثم يا قوم تنبهوا إلى الفرق بين الاستثناء فى العدد والاستثناء فى المعدود ، هل استثنى الله نبيه فى العدد من أربع إلى تسع ، أم استثناه فى معدود بذاته ، استثناه فى المعدود لا فى العدد ، لأنه لو استثناه فى العدد لكان له إذا ماتتْ إحدى زوجاته أنْ يتزوَّج بأخرى ، إنما وقف به عند معدود بذاته ، بحيث لو ماتوا جميعاً ما كان له ﷺ أنْ يتزوَّج بعدهن .

وبعد ذلك أظلَّ الحكمُ على رسول الله هكذا ؟ لا ، إنما كان فى بداية الأمر وبعد ذلك حينما استقرتْ الأمور وأمِن الله رسولَه قال له : افعل ما تشاء ، لأنك مأمون على أمتك[1] .

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] ولكن ضعَّف القرطبى فى تفسيره القول القائل بأن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى : ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ .. (٥٢) ﴾ [الأحزاب] ورجح القرطبى (٥٤٨٣/٨) أن معناها التوسعة على النبى ﷺ فى ترك القسم ، فكان لا يجب عليه القسم بين زوجاته . قال : « وهذا القول هو الذى يناسب ما مضى ، وهو الذى ثبت معناه فى الصحيح عن عائشة قالت : كنت أغار على اللائى وهبن أنفسهن لرسول الله ، وأقول : أو تهب المرأة نفسها لرجل ؟ فلما أنزل الله ﴿ تُرْجِى مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] قالت عائشة : والله ، ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك » .

ثم نقول : هَبُوا أن رسول الله له اختيار في هذه المسألة ، ولم تكن مُسْبقة ، ألم يُؤدِّ فعلُه هذا إلى إلغاء عادة التبني ؟ ثم أُنْزِعَتْ الرسالة من رسول الله بعد أنْ فعل ما فعل ؟ إذن : لا يتناقض مراد الله ومراد رسول الله .

والذين تناولوا سيدنا رسول الله في هذه المسألة مثل الذين تناولوا سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ لما قال الله فيه : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا .. (٢٤) ﴾ [يوسف] وكأنهم أكثر غيرةً على يوسف من ربه عز وجل ، نعم همَّ بها يوسف أي : فكَّر فيها أو غير ذلك ، ولن نقول لكم على الصواب لتظلوا في حيرتكم ، لكن أنزعَ الله منه الرسالةَ بعد ما همَّ بها ؟ إذن : هَمُّه بها لم يناقض الرسالة ، فما تقولونه في هذه المسألة فضول منكم .

ثم تأتي العلة في هذه المسألة ﴿ لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] ثم تختم الآية بما لا يدع مجالاً للشك في رسول الله : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧) ﴾ [الأحزاب] أي : لا بُدَّ أن يحدث ، ولن يترك لأيِّ شخص آخر ، حتى لا تفسد القضية في إلغاء عادة التبني ، إذن : فزواج رسول الله من امرأة مُتبنَّاه ما كان إلا لرفع الحرج عن جميع المؤمنين ، والآن يصح لكل مُتبنٍّ أن يتزوج امرأة مُتبنَّاه .

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) ﴾

قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ .. (٣٨) ﴾ [الأحزاب] أي :

إثم أو ملامة ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ .. ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب] أى : كيف تلومون رسول الله على تنفيذ أمر فرضه الله له وتأمل ﴿فَرَضَ اللَّهُ لَهُ .. ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب] أى : لصالحه ولم يقُلْ فرض عليه ؟ ما دام أن الله هو الذى فرض هذا ، فلتُصعِّدوا الأمر إليه ، فليس لرسوله ذنب فيه .

وهذه المسألة تشبه تماماً مسألة الإسراء ، فحين أخبر سيدنا رسول الله قومه بخبر الإسراء قالوا : يا محمد أتدَّعى أنكَ أتيتَ بيت المقدس فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً[1] ؟ وهذا غباء منهم لأن محمداً لم يقل : سريْت إنما قال : أُسْرِى بى . فالذى أسرى به ربه ـ عز وجل ـ إذن : المسألة ليست من فعل محمد ، ولكن من فعل الله .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً توضيحياً ـ ولله المثل الأعلى ـ قُلْنا : هَبْ أن رجلاً قال لك : أنا صعدتُ بولدى الصغير قمة (إفرست) أتقول له : كيف صعد ولدك قمة (إفرست) ؟

لكن انتفعنا الآن بقول المكذِّبين : أتدَّعى يا محمد أنك أتيتَ بيت المقدس فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؛ لأن غباء المكذِّب يؤدى به إلى عكس ما قصده من غبائه ، فهذا القول اتخذناه الآن دليلاً للرد على مَنْ يقولون بأن الإسراء كان رؤيا ، أو كان بالروح دون الجسد .

فلو قال رسول الله : رأيتُ فى الرؤيا أنى أتيتُ بيت المقدس ما

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٢) : لما أصبح رسول الله ـ بعد الإسراء به ـ غدا على قريش ، فأخبرهم الخبر ، فقال أكثر الناس : هذا والله الإمْر البيِّن ، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟ » .

قالوا هذه المقالة ، إذن : فَهِمَ القومُ أن رسول الله أتى بيت المقدس بروحه وجسده ، وإلا ما قارنوا بين ذهابهم وذهابه ، فالذين عاصروا هذه الحادثة قالوا هذه المقالة ، فكيف نأتى اليوم لنقول : إن الإسراء كان مناماً ، أو كان بالروح دون الجسد ؟

وقوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ .. (٣٨) ﴾ [الأحزاب] أى : إخوانه من الرسل السابقين ، أو فيما كان قبل الإسلام من التعدُّد ، فلم يكُنْ رسول الله بدَعاً فى هذه المسألة .

﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) ﴾ [الأحزاب] تلحظ أن الآية السابقة خُتِمَتْ بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧) ﴾ [الأحزاب] فلقائل أن يقول نعم مفعولاً فى هذا الوقت الذى حدثتْ فيه هذه الأحداث ؛ لذلك قال هنا ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) ﴾ [الأحزاب] أى : أن ما حدث لرسول الله كان مقَّدراً أزلاً ، ولا شىء يخرج عن تقدير الله ، وقد صَحَّ أن القلم قد جَفَّ على ما كُتِب ، وعلى ما قُدِر[1] .

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) ﴾

وكأن الحق سبحانه يُعيدنا إلى قوله تعالى فى نبيه محمد : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] فالرسل

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٥٠٧٦) أن أبا هريرة رضى الله عنه قال لرسول الله ﷺ : « إنى رجل شاب ، وأنا أخاف على نفسى العنت ، ولا أجد ما أتزوج به النساء ، فسكت عنى ، ثم قلت مثل ذلك ، فسكت عنى . ثم قلت له مثل ذلك ، فسكت عنى ، ثم قلت مثل ذلك فقال النبى ﷺ : « يا أبا هريرة ، جفَّ القلم بما أنت لاقٍ » وكذا أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (١/٥٠ ، ٥١) ، والنسائى فى سننه (٦/٥٩) .

لا يخشوْنَ شيئاً فى البلاغ عن الله ، فكأنه تعالى نفى عن الرسول ﷺ أن تكون خشيته فى البلاغ ، إنما خشيته استحياؤه مخافة أنْ تلوكه ألسنة قومه ، وإلاَّ فَهُمْ لا يملكون له شيئاً يضره أو يخيفه .

نلحظ هنا أن ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ .. (٣٩)﴾ [الأحزاب] هذه العبارة مبتدأ[1] لم يُخبر عنه ؛ لأن قوله تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيباً (٣٩)﴾ [الأحزاب] ليس خبراً لهذا المبتدأ ، إنما هو تعليق عليه ، فأين خبر هذا المبتدأ ؟ قالوا : تقديره ، الذين يُبلِّغون رسالات الله .. لا يمكن أنْ يُتَّهموا بأنهم خشوا الناس من أجل البلاغ .

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيباً (٣٩)﴾ [الأحزاب] أى : أنكم لن تحاسبوهم ، إنما سيحاسبهم الله ، وكان مقتضى الحساب مع رسول الله إنْ فعل ما لا يصحّ منه أنْ تسحب منه الرسالة ، وأنْ يأتى الله بنبى آخر ، ولم يحدث شىء من هذا .

ثم يعود السياق إلى أمر آخر فى قضية التبنى ، فيقول سبحانه :

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

قال سبحانه ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ .. (٤٠)﴾ [الأحزاب] لأن علاج قضية التبنى أهمُّ من أُبوته ﷺ لأحد منكم أن يكون أبوه رسول الله ؛ لأن أبوته لآخر لا تنفعه بشىء ، إنما ينفعه البلاغ عن الله ، وأن يحمل له منهج ربه الذى يسعده فى دينه ودنياه .

---

(١) يجوز أن يكون قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ .. (٣٩)﴾ [الأحزاب] صفة لـ ﴿الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ .. (٣٨)﴾ [الأحزاب] .

إذن : ففرحكم برسول الله كرسول أوْلَى من فرحكم به كأب ، وإلاَّ فما أكثر من لهم آباء ، وهم أشقياء فى الحياة لا قيمة لهم .

وقوله ﴿مَا كَانَ .. ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب] النفى هنا يفيد الجحود ، فهو ينكر ويجحد أنْ يكون محمد أبًا لأحد من رجالكم ، وتأمل عظمة الأداء القرآنى فى كلمة ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ .. ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب] ولم يَقُلْ مثلاً أبا أحد منكم ، لماذا ؟ قالوا : لأنه ﷺ كان أباً لعبد الله وللقاسم ولإبراهيم ، وكانوا جميعاً منهم ، وهو ﷺ أبوهم ، فجاءت كلمة ﴿رِّجَالِكُمْ .. ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب] لتُخرج هؤلاء الثلاثة ؛ لأنهم لم يبلُغوا مبلغ الرجال ، فمحمد ما كان أبداً أبا أحد من الرجال ، وإنْ كان أباً لأولاد صغار لم يصلوا إلى مرحلة الرجولة .

وقوله ﴿وَلَـٰكِن .. ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب] أى : أهم من أبوَّته أن يكون رسول الله ﴿وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ.. ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب] ليس هذا فحسب ، ولكن أيضاً ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ .. ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب] أى : الرسول والنبى الذى يختم الرسالات ، فلا يستدرك عليه برسالة جديدة .

وهذه من المسائل التى وقف عندها المستشرقون معترضين ، يقولون : جاء فى القرآن : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ..﴿٨١﴾﴾ [آل عمران]

ومحمد ﷺ من ضمن الأنبياء الذين أُخذَ عليهم هذا العهد ، بدليل : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ..﴿٧﴾﴾ [الأحزاب]

إذن : أخذ اللهُ العهدَ على الأنبياء أنه من ضمن مبادئهم أنْ يُبلِّغوا قومهم بمقدم رسول جديد ، وأنه إذا جاءهم عليهم أنْ يؤمنوا به ، وأنْ ينصروه ، كما بشَّر مثلاً عيسى عليه السلام برسالة محمد ﷺ

فقال : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. ⦗٦⦘ ﴾ [الصف]

فكيف يخبر الله عن محمد أنه خاتم النبيين وهو واحد منهم ؟ نقول : نعم هو واحد منهم ، لكن إنْ كانوا قد أُمروا بأنْ يُبشِّروا وأنْ يُبلغوا أقوامهم برسول يأتي ، فقد أمر ﷺ أن يُبلِّغ قومه أنه خاتم الأنبياء والرسل .

لذلك يُرْوَى أن رجلاً ادَّعَى النبوة في زمن المأمون ، فأمر به فَوُضع في السجن ، وبعد عدة أشهر ظهر رجل آخر يدعى النبوة ، فرأى المأمون أن يواجه كل منهما الآخر ، فأحضر المدعى الأول وقال له : إن هذا الرجل يدَّعى أنه نبى ، فماذا تقول فيه ؟ قال : هو كذاب ؛ لأننى لم أرسل أحداً ـ فارتقى إلى منزلة الألوهية ، لا مجرد أنه نبى .

والمرأة التى ادَّعَتْ النبوة أيضاً فى زمن المأمون لما أوقفها أمامه يسألها قال لها : ألم تعلمى أن رسول الله قال : لا نبىَّ بعدى[1] ؟ قالت : بلى ، ولكنه لم يقل لا نبية بعدى !

ثم يختم الحق سبحانه هذه المسألة بقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ⦗٤٠⦘ ﴾ [الأحزاب] وما دام أن الله تعالى عليم بكل شيء فليس لأحد أنْ يعترض ؛ لأنه سبحانه هو الذى يضع الرسول المناسب فى المكان المناسب والزمان المناسب ، وقد علم سبحانه أن رسالة محمد تستوعب كل الزمان وكل المكان .

---

(١) مما رُوى دليلاً على أنه لا نبى بعد رسول الله ﷺ حديث سعد بن أبى وقاص قال : « خلف رسول الله ﷺ على بن أبى طالب فى غزوة تبوك ، فقال : يا رسول الله ، تخلفنى فى النساء والصبيان . قال : أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، غير أنه لا نبى بعدى » أخرجه أحمد فى مسنده (١٨٢/١) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) ﴾

أمرنا ربنا سبحانه بذكره ذِكْراً كثيراً ؛ لأن الذكْر عمدة العبادات وأيسرها على المؤمن ؛ لذلك نجد ربنا يأمرنا به عند الانتهاء من العبادات كالصلاة والصيام والحج ، وجعله سبحانه أكبر فقال ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت]

والذكر شغل الذاكرة ، وهى منطقة فى المخ ، قُلْنا : إن المعلومة يستقبلها الإنسان فى بؤرة شعوره ، فإذا أراد أنْ يحتفظ بها لحين الحاجة إليها حفظها فى الحافظة ، أو فى حاشية الشعور ، فأنت مثلاً ترى شخصاً فتقول : هذا الرجل لم أَرَهُ منذ عشرين سنة ، وآخر مرة رأيته كان فى المكان الفلانى .

إذن : الذكر لشىء كان موجوداً فى بؤرة الشعور ، الذكر يعنى قضية موجودة عندك بواقع كان لها ساعة وجودها ، لكن حصلتْ عنها غفلة نقلتها إلى حاشية الشعور أو الحافظة ، بعد ذلك نريد منك ألا تنساها فى الحاشية أو فى منطقة بعيدة بحيث تحتاج إلى مجهود لتذكرها ، إنما اجعلها دائماً فى منطقة قريبة لك ، بحيث يسهل عليك تذكُّرها دون عناء .

وكذلك ينبغى أنْ يكون ذكرك لله ، فهو القضية الحيوية التى ينبغى أنْ تظلَّ على ذِكْر لها دائماً وأبداً ، وكيف تنسى ذكر ربك وقد أخذ عليك العهد ، وأنت فى عالم الذرِّ ، وأخذ منك الإقرار بأنه سبحانه

ربُّك ، الحق سبحانه خلق العقل ليستقبل المعلومات بوسائل الإدراك ، كما قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]

فكأن السمع والبصر هما عُمْدة الحواسّ ، وبهما نعلم ما لم نكُنْ نعلمه حين نزولنا من بطون أمهاتنا ، ونحن حين نستقبل المعلومات يظن بعض الناس أن الناس يختلفون في ذلك ذكاءً وبلادةً ، فواحد يلتقط المعلومة من مرة واحدة ، وآخر يحتاج إلى أنْ تعيدها له عدة مرات .

والواقع أن العقل مثل آلة (الفوتوغرافيا) يلتقط المعلومة من مرة واحدة شريطةَ أن يكون خالياً ومستعداً لاستقبالها غير مشغول بغيرها ؛ لأن بؤرة الشعور لا تسع ولا تستوعب إلا فكرة واحدة ، وهذه المسألة تناولناها في قوله تعالى : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. (٤)﴾ [الأحزاب]

فالإنسان الذكي هو الذي لا يشغل باله بأمرين في وقت واحد ، ولا يفكر في شيء وهو بصدد شيء آخر ، فإذا كانت بُؤْرة الشعور خالية فالناس جميعاً سواسية في التقاط المعلومة .

لذلك ، المدرس الموفَّق هو الذي يستطيع أنْ يجتذب إليه انتباه التلاميذ ، ولا يعطيهم الفرصة للانشغال بغير الدرس ، وهذا لا يتأتى إلا بالتلطُّف إليهم وإشراكهم في الدرس بالأسئلة من حين لآخر ، ليظل التلميذ متوقعاً لأنْ يسأل فلا ينشغل ، لذلك رأينا أن الطريقة الحوارية هي أنجح طرق التدريس ، أما طريقة سَرْد المعلومات فهي تجعل المدرس في وادٍ والتلاميذ في وادٍ آخر ، كل منهم يفكر في شيء يشغله .

وسبق أنْ قُلْنـا : إن الطالب حين يعلم بأهمـية درس من الدروس فيذاكـره وهو ذاهب للامتحان وهو يصعـد السلم إذا جاءه هذا الدرس يجـيب عنه بنصـه ، لماذا ؟ لأنه ذاكـره فى الوقت الحـرج والفرصـة ضـيـقة لا تحـتـمل انشـغالاً ولا تـهاوناً ، فـيلتـقط العـقل كل كلمـة ويُسجِّلها ، فإنْ أراد استرجاعها جاءت كما هى ، لماذا ؟ لأنها صادفتْ العقلَ خالياً غير مشغول .

وتأمل عظمة الخـالق سبحـانه فى مسألة التـذكُّر ، فالذاكـرة جزء صغير فى المخ ، فكيف بالطفل الصغير الذى لا يتجاوز الثامنة يحفظ القرآن كـاملاً ويُعـيده عليك فى أيِّ وقت ، ونحـن نتعجب مـن شريط التسجيل الذى يحفظ لنا حلقة أو حلقتين .

والقـرآن ليس حفظاً فـحسب ، إنمـا معـايشة ، فـحروف القـرآن ملائكة ، لكل حرف مـنه ملك ، والملَك يحب مَنْ يودُّه ، فإذا كنتَ على صلة بالقـرآن تكثر من تلاوته ، فـكأنك تود الملائكة ، فـساعـة تريد استرجاع ما حفظت تراصتْ لك الملائكة ، وجرى القرآن على لسانك . فإنْ هجرْته هجرك ، وتفلَّـت من ذاكرتك ؛ لذلك حذرنا رسول الله ﷺ من هجر القرآن ، فقال : « تعاهدوا الـقرآن ، فوالذى نفسـى بيده لهو أشدُّ تفصياً[1] من الإبل فى عقلها »[2] .

وسـبق أنْ قُلْنا : إن الذكـر هو العـبـادة الوحـيـدة التى لا تكلفك شيـئاً ، ولا تُعطل جارحـة من جوارحك ، ولا يحـتـاج منك إلى وقت ، ولا إلى مجهود ، وليس له وقت مخصوص ، فمَنْ ذكر الله قائماً وذكر

(١) تفصَّى مـن الشىء : تخلَّص . ومعنى قـوله ﷺ عن القرآن : « هو أشـد تفصيـا من قلوب الرجال من النَّعَم من عقلها » أى : أشد تفلتاً وخروجاً . [لسان العرب ـ مادة : فصى] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٢٣/١) من حديث ابن مسعود ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٧٩١) كتاب صلاة المسافرين من حديث أبى موسى الأشعرى .

الله قاعداً وذكر الله على جَنْبه عُـدَّ من الذاكرين ـ هذا بالنسبة لوضعك ـ ومَنْ ذكر الله بُكْرة ، وذكر الله أصيلاً ، أو غدواً وعشياً ، أصبح من الذاكرين ـ هذا بالنسبة للزمان .

ومن قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حوْلَ ولا قـوة إلا بالله العلى العظيم ، ثلاثين مرة فى اليـوم كُتِبَ من الذاكرين ، ومَنِ استيقظ ليلاً فأيقظ أهله ، وصلَّى ركعتين فهو من الذاكرين .

إذن : فذكْر الله مـسألة سهلة تستطيع أنْ تذكـر الله ، وأنت تعمل بالفأس ، أو تكتب بالقلم ، تذكر الله وأنت تأكل أو تشرب .. إلخ فذكر الله وإنْ كان أكبر إلا أنه على المؤمن سهل هيِّن .

وقوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [الاحزاب] التسبيح : هو التقديس ، والتقديس هو التنزيه ، فعن أىِّ شىء نُنزه الله ؟ قالوا : ننزه الله فى ذاته ، وفى أفعاله ، وفى صفاته ، فالله تعالى له وجود ، ولك أنت وجـود ، وللنهـر وللجبـل وجود ، لكن وجـوده تعـالى ليس كوجود ما سـواه ، وجوده تعالى عن غير عدم ، أمـا وجود ما سواه فوجود عن عدم ، هذا فى الذات .

أما فى الأفـعال ، فالله تعالى له فـعْل كما أن لك فـعلاً ، لكن نزِّه ربك أنْ يكون فـعله كـفـعلـك ، وهذا مـا قلناه فى حـادثة الإسـراء والمـعراج ، وفى الفـرق بين سَـرَى وأسرى به ، فـإذا كان الفـعلُ لله تعالى فـلا تنظر إلى الزمن لأنه ليس فعلك أنت ، بل فـعْل الله ، وفعل الله بلا علاج ، إنما يقول للشىء : كُنْ فيكون .

وقلنا : إنه حتى فى طاقات البشر نجد الفعل يأخذ من الزمن على قدر قـوة فاعله ، فالولد الصـغير ينقل فى سـاعة ما ينقله الكبـير فى

دقيقة ، فلو قستَ فعلَ الله بقدرته تعالى وجدتَ الفعل بلا زمن .

كذلك نُنزه الله فى صفاته ، فالله تعالى له سمع نُزِّه أن يكون كسمعك ، وله وجه نُزِّه أنْ يكون كوجهك .. إلخ كل هذا فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ⑪ ﴾ [الشورى]

وحين تستعرض آيات التسبيح فى القرآن تجدها كثيرة ، لكن للتسبيح طابع خاص إذا جاء فى استهلالات السور ، ففى أول الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ① ﴾ [الإسراء]

فبدأت السورة بتنزيه الله لما تحتويه من أحداث عجيبة وغريبة ؛ لذلك قال بداية ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ① ﴾ [الإسراء] فالله له التسبيح والتقديس ثابت قبل أنْ يفعل ، وسبحان الله قبل أنْ يوجد المسبِّح ، كما أنه تعالى خالق قبل أنْ يوجد مَنْ خلق ، فهو بالخالقية فيه أولاً خلق ، كما قلنا فى الشاعر : تقول فلان شاعر ، هل لأنك سمعت له قصيدة أم هو شاعر قبل أن يقولها ؟ هو شاعر قبل أنْ يقولها ، ولولا أنه شاعر ما قال .

والمتتبع لألفاظ التسبيح فى القرآن يجد أنه ثابت لله تعالى قبل أن يخلق المسبِّحين فى قوله ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ① ﴾ [الإسراء] ثم بعد أن خلق الله الخَلْق ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. ① ﴾ [الحشر]

وما يزال الخلق يُسبِّح فى الحاضر : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ① ﴾ [الجمعة] فتسبيح الله كان وما يزال إلى قيام الساعة ، لذلك يأمر الحق سبحانه نبيه ﷺ ومعه أمته ألاَّ يخرج عن هذه المنظومة المسبِّحة ، فيقول له :

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ① ﴾ [الأعلى]

وجاء الأمر بذكر الله وبعد الأمر بتسبيحه تعالى ، وكأنه يقول لك كلما ذكرته : نزِّهه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ، فمن مصلحتك فى رحلة الحياة ألاَّ يكون لله مثيل ولا شبيه ولا نظير ولا ندٌّ ؛ لأن الجميع سيكونون تحت عَدْله سبحانه ، فتنزيه الله لمصلحتك أنت أيها المسبِّح .

وسبق أنْ ذكرنا فى ذلك قول أهل الريف (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) ، فوجود كبير فوق الجميع يحميك أنْ يتكبر أحد عليك ، إذن : عظمته تعالى وكبرياؤه من أعظم النعم علينا ، فساعة تُسبِّحه وتُنزِّهه احمد الله لأنه مُنزَّه ، احمد الله أنه لا شريكَ له ، وأن الناس جميعاً عنده سواء ، احمد الله لأن كلامه وأمره نافذ على الجميع ، احمد الله أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وليس بينه وبين أحد من خَلْقه نَسَب .

وكيف لا نذكر الله ولا نُسبِّحه ونحمده ، وهو سبحانه الذى خلق الخَلْق ، وقبل أنْ يخلقهم رتَّب لهم غاياتهم ـ والخَلْق : إيجاد على تقدير لغاية ـ بل وأعدَّ لهم ما يخدمهم ، فطرأ الإنسان على كون مُعَدٍّ لاستقباله ، فقبل أنْ يخلقه خلق له .

ثم ما كلفك بمنهجه مباشرة ، إنما تركك تربع فى نعمه ، منذ ميلادك إلى سنِّ البلوغ بدون تكليف ، ومعنى البلوغ أنْ تصل سنَّ الرشد فتُقبِل على الله بعقل وفكر ، فالدين ليس تقليداً إنما عقيدة واقتناع .

وسبق أنْ شبَّهنا نضج الإنسان بنضج الثمرة ، فالثمرة لا تحلو إلا حين تنضج بذرتها ، وتصير صالحة للإنبات إنْ زُرِعت ، وهذه من عظمة الخالق سبحانه ، ولو أن الثمرة تحلو وتستوى قبل نُضْج

بذرتها لأكلنا الثمار مرة واحدة ، ولما انتفع بها أحد بعدنا ، ومثّلنا لذلك ببذرة البطيخ إن وجدتها سوداء صلبة فاعلم أن ثمرتها استوت وحلَتْ وصارتْ صالحة للأكل ، وهذه المسألة جعلها الخالق سبحانه لحفظ النوع .

شيء آخر : بعد أن بلغتْ سنَّ التكليف ، أجاءك التكليف مستوعباً لكل حركة في حياتك ؟ أجاء قَيْداً لك ؟ حين تتأمل مسائل التكليف تجدها في نطاق محدود أمرك الله فيه بافعل كذا ولا تفعل كذا ، وهذه المنطقة لا تشغل أكثر من خمسة في المائة من حركة حياتك ، وترك لك نسبة الخمسة والتسعين أنت حُرٌّ فيها ، تفعل أو لا تفعل ، فأيُّ عظمة هذه ! وأيُّ رحمة التي يعاملنا بها ربنا عز وجل ! وهذا إنْ دلَّ فإنما يدلُّ على حبٍّ الخالق سبحانه لخَلْقه وصنعته . أفلا يستوجب ذلك منَّا ألاَّ نغفل عن ذكره ، وأن نكثر من تسبيحه وشكره ، في كل غدوة وعشية .

والأعظم من هذا كله أنه ـ سبحانه وتعالى ـ جعل ذكْرك له وتسبيحك إياه لصالحك أنت ، وفي ميزانك ؛ لذلك قال في الآية التي بعدها :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾

معنى ﴿ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأحزاب] الصلاة هي الدعاء ، والدعاء لا يكون إلا بطلب الخير للداعي ، ولا يدعو إلا قادر على هذا الخير ، وعليه كيف نفهم هذا المعنى ؟ أيدعو ربنا نفسه تبارك

وتعالى ؟ قالوا : إذا كانت نهاية الصلاة طلبَ الخير ، وهذا الخير إذا طلب حصل ، فالحق سبحانه هو الداعى ، وهو الذى يملك مفاتح الخير كله ، فهو الذى يُصلِّى عليكم ، وهو الذى يعطيكم ، وهو الذى يرحمكم .

وأيضاً يُصلِّى عليكم الملائكة ﴿وَمَلائِكَتُهُ .. (٤٣)﴾ [الأحزاب] وقد أخبرنا سبحانه عنهم أنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧)﴾ [الأنبياء]

وقال : ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

والملائكة أقسام : منهم المكلفون بخدمتنا ومنافعنا فى الأرض ، ومنهم مَنْ يحفظنا من الأحداث التى قد تفاجئنا بإقدار الله لهم عليها ، ومنهم الحفظة والكرام الكاتبون ، وهؤلاء الملائكة المتعلقون بنا هم الذين أُمروا بالسجود لآدم عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩)﴾ [الحجر]

وهذا دليل على أنهم سيكونون فى خدمته .

وكأن الله تعالى قال لإبليس : طلبتُ منك أنْ تسجد لآدم ، وطلبت من الملائكة وأنت معهم ، فإنْ كنتَ من الملائكة فينبغى أن تستجيب ، وإنْ لم تكُنْ من الملائكة وحشرتك بطاعتك فى زمرتهم كان يجب عليك أنْ تطيع لأنَّ الأعلى منك سجد .

وقد أوضحنا هذه المسألة بمثَل ، ولله تعالى المثل الأعلى قُلْنا : إذا أعلن فى أحد الدواوين الحكومية أن الرئيس سيزور هذا الديوان يوم كذا ، وعلى الوزراء أنْ يصطفُّوا لتحيته ، ألم يشمل هذا الأمر وكلاء الوزارة من باب أَوْلى ؟

فإذا قال الله للملائكة : اسجدوا لآدم وكان معهم إبليس وهو أقلّ منهم ، فكان عليه أنْ يسجد . ثم إنْ كنتَ يا إبليسُ أخذتَ منزلة أعلى من الملائكة بالطاعة ، فلا بُدَّ أنْ تكون طاعتك لله على هذه المنزلة ، فأنت ملُوم على أيِّ حال ، إلا أنه كان من الجن ، والجن مختار ، ففسق عن أمر ربه .

وهناك نوع آخر من الملائكة لا دخلَ لهم بالإنسان ولا بدنياه ، وهم الملائكة العالون أو المهيَّمون ، وهم الذين قال الله فيهم لما أبى إبليس أنْ يسجد قال له ربه :

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ [ص]

وهؤلاء العالون لم يشملهم الأمر بالسجود ؛ لأنهم لا يدرون شيئاً عن آدم ، وليس لهم علاقة به ، وأخصُّهم حَملَة العرش وهم أكرم الملائكة ، وهؤلاء هم الذين يُصلُّون عليكم بعد أنْ صلَّى الله عليكم ؛ لذلك يُبيِّن لنا الحق سبحانه هؤلاء الملائكة ودورهم فى الصلاة علينا والاستغفار لنا ، فيقول سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .. (٧) ﴾ [غافر]

فهؤلاء هم أخصُّ الملائكة وأكرمهم يُسبِّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، لكن ما فائدة (يؤمنون به) بعد أن سبَّحوه ؟ قالوا : لأن التسبيح قد يكون عن خوف ورهبة ، أما تسبيح هؤلاء فتسبيح عن حبٍّ وعن إيمان ، وأنه سبحانه وتعالى يستحق أنْ يُسبَّح ، ومن مهام هؤلاء أيضاً أنهم يستغفرون للذين آمنوا ، وإنْ لم تكن لهم علاقة

بالناس وليسوا فى خدمتهم ، إلا أنهم يُصَلُّون عليهم ويستغفرون لهم .

إذن : نقول الصلاة من مالك الدعوة القادر على الإجابة رحمة وعطف وحنان ، والصلاة ممَّنْ دونه دعاء للقادر المالك للخير ، فهم يدعون الله للمؤمنين ويستغفرون الله لهم ، بل ويبالغون فى الدعاء ويتعطَّفون فيه : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٧ ﴾ [غافر]

بل لم يقفوا عند حَدِّ طلب النجاة للمؤمنين من النار ، إنما يطلبون لهم الجنة ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٨ ﴾ [غافر]

ثم يزيدون على ذلك : ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٩ ﴾ [غافر]

ووالله ، لو أراد المؤمن أنْ يدعو لنفسه ما وجد أعمَّ ولا أشمل من دعاء الملائكة له ، فبعد أنْ طلبوا له المغفرة والنجاة من النار لم يتركوه هكذا فى أهل الأعراف ، لا هُمْ فى الجنة ، ولا هُمْ فى النار ، إنما سألوا الله لهم الجنة عملاً بقوله تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. ۝١٨٥ ﴾ [آل عمران]

وهذه المسألة من المسائل التى وقف أمامها المستشرقون ، فقالوا : إنها تتناقض مع الحديث النبوى : « ما من يوم تطلع شمسه إلا وينادى ملكان يقول أحدهما : اللهم أَعْط مُنفقاً خلَفاً ، ويقول

الآخر : اللهم أَعْط مُمسكاً تَلَفاً »[1] ، فكيف تقولون : إن الملائكة يدعون للناس بالخير وهم يدعون عليهم بالشر ؟

وهم معذورون في اعتراضهم ؛ لأن ملكاتهم لا تستطيع فَهْم المعاني في الحديث الشريف ، والتناقض في نظرهم في قوله ﷺ : « ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً » ، فالأولى واضحة لا تناقض فيها ؛ لأنها دعوة بالخير ، أما الثانية فهي دعوة بالشر . « اللهم أَعْط ممسكاً تلفاً » .

ولو تأملوا نصَّ هذه العبارة لوجدوا فيها الجواب ، فالتلف يُعطى أم يؤخذ ؟ المفروض أنه يُؤخذ ، فحين يقول رسول الله : « اللهم أعط ممسكاً تلفاً » فاعلم أنه عطاء لا أَخْذٌ وإن كان في ظاهره تلفاً ، والمعنى أن شيئاً شغلك وفتنك فتصيبك فيه مصيبة تخلصك منه فتعود إلى ربك ، إذن : هو أَخْذ في الظاهر عطاء في الحقيقة .

ثم يبيّن لنا الحق سبحانه العلّة في صلاة الله وصلاة الملائكة على المؤمنين ، فيقول ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأحزاب] فكأن منهج الله بافعل ولا تفعل هو أول صلاة الله علينا ؛ لأنه الوسيلة التي تُخرجنا من الظلمات إلى النور ، وجاء هنا بالشيء الحسيِّ لنقيس عليه المعنوي ، فأنت في النور ترى طريقك وتهتدي إلى غايتك بلا معاطب ، أمَّا في الظلام فتتخبط خُطَاك وتضلّ الطريق في الظلام ، تسير على غير هُدى ، وعلى غير بصيرة ، فتحطم الأضعف منك ، ويُحطِّمك الأقوى منك .

والنبي ﷺ يُوجِّهنا حين ننام بالليل أنْ نطفىء المصابيح فيقول :

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

« وأطفئوا المصابيح إذا رقدتم »[1] وقد أثبت العلم أن للأنوار المضاءة أثناء النوم تأثيراً ضاراً على صحة الإنسان ، وأنه لا يرتاح فى الضوء الراحة التامة لما يصيبه أثناء النوم من إشعاع الضوء ، كما حذرونا أيضاً من التعرُّض لأضواء التليفزيون مثلاً .

إذن : للنور مهمة ، وللظلمة مهمة ـ هذا فى الحسِّيات .

كذلك منهج الله بافعل ولا تفعل هو النور المعنوى الذى يقيك العطب ، ويمنحك الإشراقات التى تهتدى بها فى دروب الحياة ، لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (٤٣) ﴾ [الأحزاب]

لكن إنْ كان سبحانه رحيماً بالمؤمنين ، فما بال الكافرين ؟ قالوا : هو سبحانه بالكافرين رحمن ، فالله تعالى رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ؛ لأن رحمن الدنيا يعنى أن خيره يعُمُّ الجميع المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، أما فى الآخرة فتتجلَّى صفة الرحيم ؛ لأن رحمته فى الآخرة تخصُّ المؤمنين دون غيرهم .

والحق سبحانه حين يقول : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٣٥) ﴾ [النور] لا يعنى هذا وَصْفاً لذاته سبحانه ، إنما يعنى أنه سبحانه نور السموات والأرض أى : مُنَوِّرهما كما نقول : المصباح نور المسجد .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بقول أبى تمام فى مدح المعتصم:

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٨٠) من حديث جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ قال : « إذا استجنح الليل ـ أو كان جنح الليل ـ فكفُّوا صبيانكم ، فإن الشياطين تنتشر حينئذ ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلُّوهم وأغلق بابك ، واذكر اسم الله ، وأطفىء مصباحك ، واذكر اسم الله ، وأوْكِ سقاءك ، واذكر اسم الله وخمِّر إناءك ، واذكر اسم الله ولو تعرض عليه شيئا » .

إقْدَامُ عَمرٍو فى سَمَاحةِ حاتم   فى حِلْمِ أحْنفَ فى ذَكَاءِ إيَاسِ

وعمرو مضرب المثل عند العرب فى الشجاعة ، وحاتم فى الكرم ، وأحنف بن قيس فى الحِلْم ، وإياس بن معاوية فى الذكاء . فقام إليه أحد الحاضرين وقال له ـ وكان حاقداً عليه ـ : أمير المؤمنين فوق ما تقول ، أتُشبِّهه بأجلاف العرب ؟ وأنشأ يقول :

وشبَّهه المدَّاح فى البَأْسِ والنَّدَى   بمَنْ لوْ رآهُ كَانَ أصْغر خَادمِ

فَفِى جَيْشِهِ خَمْسُونَ ألْفاً كعنْتر   وفى خُزَّانِهِ ألْفُ حَاتِمِ

عندها أطرق أبو تمام هُنيهة ، ثم قال :

لاَ تُنكرُوا ضَرْبى له مَنْ دُونَهُ   مَثَلاً شَرُوداً فى النَّدَى والبَاسِ

فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الأقلَّ لِنُوره   مثَلاً من المشْكاةِ والنِّبراسِ

إذن : فالنور المعنوى يُجنِّبك العطب المعنوى ، كما أن النور الحسىَّ يُجنِّبك العطب الحسىَّ ؛ لذلك قال سبحانه عن نوره ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥) ﴾ [النور] يعنى : نور حسِّىّ يقيكم المعاطب الحسية ، ونور معنوى يقيكم المعاطب المعنوية ﴿ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ .. (٣٥) ﴾ [النور] والمراد به هنا النور المعنوى الذى يهتدى به المؤمن ويسير عليه ، أما الكافر فهو لا يعرف إلا النور الحسىَّ فقط .

فإنْ سألت : فأين نجد هذا النور يا رب ؟ يُجيبك ربك : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ .. (٣٧) ﴾ [النور]

فإنْ أردتَ النور الحق فهو فى خَلْوتك مع ربك وفى بيته ، حيث تتجلَّى عليك إشراقاته ويغمرك نوره .

وقبل أن نترك مسألة صلاة الله وصلاة الملائكة على المؤمنين نذكر صلاتنا نحن على النبي ﷺ ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) ﴾ [الأحزاب]

فالصلاة من الله تعالى تعنى الحنان والرحمة والعطف ، والصلاة من الملائكة تعنى الدعاء والطلب من الذى يملك ، أما الصلاة منا نحن على سيدنا رسول الله ، فالبعض يظن أنها دعاء منا لرسول الله ، وهى ليست كذلك ؛ لأنك تقول فى الصلاة على رسول الله : اللهم صلِّ على محمد ، فأنت لا تصلى عليه ﷺ ، إنما تطلب من الله تعالى أنْ يصلى عليه ، لكن كيف تطلب من الله أن يصلى على رسوله ؟ قالوا : لأن كل خير ينال الرسول منثور على أمته .

والحق سبحانه وتعالى لم يدع محمداً يصلى عليه كل مَنْ آمن به ، ثم لا يرد رسول الله عليه هذه التحية بصلاة مثلها ، فقال سبحانه : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ .. (١٠٣) ﴾ [التوبة] وكأنها رَدٌّ للتحية ولصلاة المؤمنين على رسول الله ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) ﴾

الكلام هنا عن الآخرة ، وهذه التحية ، وهذا السلام ليس منا ، ولكن من الله ، كما قال فى موضع آخر ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ [يس]

فالرحمة التى ننالها ، والعطف والحنان من الله لنا فى الدنيا

يعنى : سداداً فى حركة الحياة ، واستقامة فى السلوك ، وراحة للبال ، واطمئناناً للنفس ، لكن مع هذا لا تخلو الدنيا من مُنغِّصات وأحداث تُصيبك ، أما رحمة الله فى الآخرة فهى سلام تام لا يُنغِّصه شىء ، والإنسان أيضاً يتمتع بنعم الله فى الدنيا ، لكن يُنغِّصها عليه خشية فواتها .

أما فى الآخرة فيتمتع متعة خالصة ، لا ينغصها شىء ، فالنعمة دائمة باقية لا يفوتها ولا تفوته ، لقد كان فى الدنيا فى عالم الأسباب وهو الآن فى الآخرة مع المسبِّب سبحانه الذى يقول : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

لكن ، ما المراد بقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ .. (٤٤)﴾ [الأحزاب] أيوم القيامة للثواب ، أَمْ يوم يلقوْنَهُ بالموت وبانتهاء الحياة ، كما نقول مثلاً فى الموت : فلان لقى ربه ؟ قالوا : المؤمن لا يأتيه ملَك الموت إلا إذا سلَّم عليه أولاً قبل أنْ يقبض روحه ، فإذا سلَّم عليه فهذا يعنى أنه من أهل السلام ، وهذه أول مراتبه . وقد يكون المراد السلام التام الذى يلْقاه المؤمن يوم القيامة حيث يجد سلاماً لا مُنغِّصات بعده .

لذلك نجد أن سيدنا رسول الله ﷺ وهو يعانى سكرات الموت تقول له السيدة فاطمة لما رأتْ ما يعانيه : واكرباه يا أبتاه ، فيقول لها « لا كرب على أبيك بعد اليوم »[1] فأىُّ كرب على رسول الله بعد أن ينتقل إلى جوار ربه ، إلى السلام النهائى الذى لا خوفَ بعده .

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه فى سننه (١٦٢٩) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله قال لفاطمة عندما سمع مقالتها : « لا كرب على أبيك بعد اليوم ، إنه قد حضر من أبيك ما ليس بتارك منه أحداً ، الموافاة يوم القيامة » . وأصله فى البخارى (٤٤٦٢) أنه قال : « ليس على أبيك كرب بعد اليوم » .

ثم يقول سبحانه ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب] فوصف الأجر نفسه بأنه كريم ، والذى يُوصَف بالكرم الذى أعدَّ الأجر ، فوصف الأجر بأنه كريم يعنى أن الكرم تعدَّى من الرب سبحانه الذى أعده إلى الأجر نفسه ، حتى صار هو أيضاً كريماً .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الأحزاب] فتعدَّى الكرم من الرازق إلى الرزق ؛ لأن الرزق فى الدنيا له أسباب بأيدى الخَلْق ، لكن الرزق فى الآخرة يأتيك بلا أسباب ، وليس لأحد فيه شىء ، ولماذا لا يُوصَف بالكرم وهو يأتيك دون سَعْى منك ، وبمجرد الخاطر تستدعيه فتراه بين يديك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

الشاهد : هو الذى يؤيد ويُثبِّت الحق لصاحبه ؛ لذلك يطلب القاضى شهادة الشهود ليأتى حكمه فى القضية عن تحقيق وبيِّنة ودليل ؛ لذلك يقولون إن القاضى لا يحكم بعلمه ، إنما بالبينة حتى إنْ علم شيئاً فى حياته العامة ، ثم جاء أمامه فى القضاء يتركه ويتنحَّى عنه لقاضٍ آخر يحكم فيه حتى لا يبنى حكمه على علمه هو .

وحين تتأمل هذه المسألة تجد أن الله تعالى يريد أنْ يُوزِّع مسئولية الحكم على عدة جهات ، حتى إذا ما صدر الحكم يصدر بعد تدقيق وتمحيص وتصفية لضمان الحق .

فنرى مثلاً إذا حدثتْ حادثة نذهب إلى القسم لعمل (محضر) بالحادث ، (المحضر) يحيله ضابط الشرطة إلى النيابة ، فتحيله النيابة للقاضى ليحكم فيه ، ثم يُعَاد مرة أخرى للسلطة التنفيذية ليُنفَّذ ، كل هذه الدورة يُراد بها تحرى الحق ووضعه فى نصابه .

فما بالك إذا كان الحق سبحانه هو الذى يشهد ، وهو الذى يحكم ، وهو الذى يُنفِّذ الحكم ؟ لا شكَّ أن العدالة هنا ستكون عدالة مطلقة . فإنْ قلتَ : إذن عَلاَم يشهد رسول الله ؟

قالوا : يشهد رسول الله أنه بلَّغ أمته ، كما يشهد الرسل جميعاً أنهم بلَّغوا أممهم كما قال سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلاءِ شَهِيداً (٤١) ﴾ [النساء]

إذن : كل رسول شهيد على أمته ، وأنت شهيد على هذه الأمة أنك قد بلَّغتها ، لكن ميْزتُك على مَنْ سبقك من إخوانك الرسل أن تكون خاتمهم ، فلا نبىَّ بعدك ؛ ولذلك سأجعل من أمتك من يخلف الأنبياء الذين يأتون بعد الرسل فى مهمتهم .

لذلك جاء فى الحديث الشريف قول رسول الله ﷺ : « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل »[1] .

إذن : ضمن الحق سبحانه فى أمة محمد أنْ يوجد فيهم مَنْ يقوم بمهمة الأنبياء فى البلاغ ، وهذا معنى ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

---

(١) قال الشوكانى فى « الفوائد المجموعة » (ص ٢٨٦) : « قال ابن حجر والزركشى : لا أصل له » . وكذا قال السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (ص ٣٠٩) قال العجلونى فى كشف الخفاء (١٧٤٤) : « زاد بعضهم : ولا يُعرف فى كتاب معتبر .. وأشار إلى الأخذ بمعناه التفتازانى وفتح الدين الشهيد وأبو بكر الموصلى والسيوطى فى الخصائص » .

وكلمة الناس هنا عامة ، تشمل آدم عليه السلام وذريته إلى قيام الساعة ، فإنْ قلتَ كيف ؟ نقول : يشهدون على الناس بشهادة القرآن أن الرسل قد بلَّغَتْ أممها ، هذا بالنسبة لمن مضى منهم ، أما مَنْ سيأتى فأنتم مطالبون بأن تشهدوا عليهم أنكم قد بلَّغتموهم ، كما يشهد عليكم رسول الله أنه قد بلَّغكم .

إذن : فأمة محمد أخذت حظًا من النبوة ، وهو أنها ستُسْتدعى وتشهد على الناس .

لذلك يُعدّ رسول الله ﷺ أمته لهذه المهمة ، فيقول : « نضَّر اللهُ امرءًا ، سمع مقالتى فوعاها ، ثم أدَّاها إلى مَنْ يسمعها ، فرُبَّ مُبلَّغٍ أوعى من سامع »[1] .

واقرأ أيضاً فى ذلك قول الله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. (١٤٣)﴾ [البقرة] لماذا ؟ ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣)﴾ [البقرة] فهذه الأمة فى الوسط ، بحيث لا إفراط ولا تفريط ، وما أشبهها بالميزان الذى لا تميل كفة عن الأخرى إلا بما يُوضَع فيها ، فهى كالميزان العادل الذى لا يميل هنا أو هناك .

وقوله سبحانه ﴿وَمُبَشِّرًا .. (٤٥)﴾ [الأحزاب] لمن استجاب لك بثواب الله ، والبشارة هى الإخبار بالخير قبل أوانه ﴿وَنَذِيرًا (٤٥)﴾ [الأحزاب] أى : منذراً لمن لم يُصدقك بعقاب الله ، والإنذار هو التخويف بشرٍّ لم يأت أوانه ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ .. (٤٦)﴾ [الأحزاب] أى : بأمر منه ، لا تطوُّعاً من عندك ، فقد يأتى زعيم من الزعماء أو مصلح من

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٣٧) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجة فى سننه (٢٣٢) والحميدى (١/٤٧) من حديث عبد الله بن مسعود .

المصلحين بمنهج أو بأفكار من عنده ويبثُّها في مجتمعه .

فقوله تعالى ﴿ بِإِذْنِهِ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب] يبين الفرق بين الرسول والمصلح من البشر ، فهذا الذى جاء به محمد من عند الله ، وما بلَّغكم به إلا بأمر الله .

ويُشترط فيمَنْ يدعو إلى منهج الخير ثلاثة شروط :

الأول : ألاَّ ينتفع بشيء مما يدعو إليه ، وهذا لا يوجد فى بشر أبداً ، وقد رأينا : حينما قنَّنَ الرأسماليون غَبَنُوا العمال ، وحينما قنَّنَ الاشتراكيون غبنوا الرأسماليين .. وهكذا .

وذلك لأن البشر لهم أهواء مختلفة متعددة ، وكلٌّ يريد أنْ يُقنِّن على هواه ، وبما يخدم مصالحه ، يريد أنْ يُسخِّر غيره لخدمة هواه ، وبعد فترة قد تطول تفضحهم التجارب ، ويفضحهم الواقع ، وتُظهِر لهم أنفسهم مساوىء ما قنَّنُوا حتى يثوروا هم على قوانينهم ، وينتفضوا على أنفسهم ، ويعودوا إلى تعديل هذه القوانين .

الشرط **الثانى** : أن يكون على علم بالأحداث المحتملة بعد أنْ يُقنِّن ، وألاَّ تغيب عنه جزئية من جزئيات الموضوع ، فيحتاج إلى تعديل القانون أو الاستدراك عليه .

ثالثاً : يُشترط فيمَنْ يُقنِّن أن يكون حكيماً فيما يُقنِّن ، بحيث يضع الأمر فى موضعه ، فلا ينصف جماعة على حساب أخرى ، وأن يكون الجميع أمامه سواء .

وحين تتأمل هذه الشروط الثلاثة تجدها لا تتوفر إلا فى الحق سبحانه وتعالى ، إذن : ينبغى ألاَّ يُقنِّن للبشر إلا ربُّ البشر ، وسبق

أنْ أوضحنا هذه المسألة بمثال من المحسوسات ، فالناس فى الظلمة يحتاجون لبعض النور ؛ ليهتدوا به إلى قضاء مصالحهم فى الليل ، فينير كلٌّ منا ليله بما يناسبه من وسائل الإضاءة ، فواحد يشعل شمعة ، وآخر لمبة (نمرة خمسة) وآخر لمبة (نمرة عشرة) ، وبعد ما استخدمنا الكهرباء رأينا اللمبة العادية والفلوروسنت والنيون والكرستال .. إلخ .

إذن : أنتم تنيرون ظلمتكم على قدر إمكاناتكم ، فإذا ما أشرقتْ شمس الصباح ، أتُبْقون على هذه الأنوار ؟ لا بل يطفىء الجميع أنواره ؛ لأن نور الشمس يأتى على قدر إمكانات خالقها عز وجل ، لذلك نقول : أطفئوا مصابيحكم ، فقد طلعت شمس الله ، فإذا كان ذلك فى النور الحسىِّ فهو أيضاً ومن باب أوْلَى فى النور المعنوى ، فإذا جاءك نور التشريع ونور المنهج من الله ، فأطفىء ما عداه من تشريعات ومناهج .

وقوله تعالى : ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الاحزاب] شبّه الحق سبحانه نبيه ﷺ بالسراج ، ولا تستقلّ هذا الوصف فى حقِّ رسول الله ، فليس معنى السراج أنه كالسراج الذى يضىء لك الحجرة مثلاً ، إنما هو كالسراج الذى قال له عنه : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾ [النبأ] والمراد : الشمس .

فإذا قُلْتَ : فلماذا لم يُوصَف النبى ﷺ بأنه شمس ، وقد قال تعالى عنها : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً .. ﴿٥﴾ ﴾ [يونس]

والشمس أقوى من السراج ؟ قالوا : الكلام هنا كلام ربٍّ والأسلوب دقيق معجز ، صحيح أن الشمس تنير الدنيا كلها ، إنما أمة محمد مُكلَّفة أن تقوم بدعوته من بعده ، فكأن رسول الله سراج ،

والســراج تأخذ منـه النور دون أنْ ينقص نورُه ، لكن لا تســتطيع أنْ تأخذ من الشمس .

وحين سطعتْ أنوار الـهداية على لسان رسـول الله محمـد لم يَعُدْ للشرائع الأولى أنْ تتدخل على حدٍّ قول المادح :

كَأنَّكَ شَمْسٌ والملُوكُ كَواكبُ   إذَا طلعَتْ لم يَبْدُ مِنْهُنَّ كوكَبُ

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾

نقول فى الدعـاء : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعـدل ؛ لأن العدل أن تأخذ الجزاء المـساوى للعمل ، أو تأخذ حقك ، أمَّا الفـضل فأنْ تأخذ فوق حقك وزيادة ، ومن ذلـك قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس]

ويقـول النبى ﷺ : « لن يدخل أحد منـكم الجنة بعمله » قـالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : «ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته »[1] لأننى حين أحسب عملى مقابل ما أعطانى ربى من نعَم قبل أنْ أُخلق ، وإلى أن أبلغ وأُكلَّف ، أجد أننى لو قضيتُ حـياتى كلها فى طاعة ربى ما وفَّيتُ بحقه علىَّ .

---

(١) قال ابن عطـية : قال لنا أبى رضى الله عنـه : هذه أرجى آية عندى فى كتـاب الله تعالى ؛ لأن الله عز وجل قد أمر نبيه أن يبشر المؤمنين بأن لهم عنده فضلاً كبيراً ، وقد بيَّن تعالى الفضل الكبير في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الشورى] . [نقله القرطبى فى تفسيره ٨/٥٤٧٠] .

ثم من ناحية أخرى تجد أن العبادة والطاعة نفعُها يعود إليك أنت ، ولا ينتفع الله تعالى منها بشيء ، فإذا كانت الطاعة والعبادة يعود نفعها إليك ، إذن : فالثواب عليها يكون فضلاً من الله .

ومثَّلْنا لذلك - ولله المثل الأعلى - بولدك تُشجِّعه على المذاكرة ، وتُحضر له أدواته ، وتنفق عليه طوال العام ، فإذا ما نجح آخر العام أعطيْتَه هدية أو مكافأة ، فهذه الهدية من باب الفضل .

لذلك ، إنْ أردتَ أنْ تصلح بين متخاصمين ، أو تُؤلِّف بينهما ، فقُلْ لهم : أتحبون أنْ أحكم بينكم بالعدل أم بالفضل ؟ سيقولون لك : ليس هناك أفضل من العدل ، وعندها لك أن تقول : بل الفضل أحسن من العدل ؛ لأن العدل أنْ تأخذ حقك من خصمك ، والفضل أنْ تترك حقَّك لخصمك لتأخذه من يد ربك عز وجل .

وهذا ما رأيناه مُطبَّقاً في قصة الإفك بين سيدنا أبي بكر حين عفا عن مسطح[1] بعد أن نزل قوله تعالى : ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾ [النور]

فمن أراد أنْ يغفر الله له ذنوبه فليغفر لأخيه زلَّته وسوْأَتَهُ .

(١) هو : مسطح بن أثاثة بن عباس بن المطلب ، كان اسمه عوفاً ، أما مسطح فهو لقبه وأمه بنت خالة أبي بكر ، كان أبو بكر يمونه لقرابته منه ، فلما خاض مع أهل الإفك في أمر عائشة حلف أبو بكر ألا ينفق عليه فنزلت ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ .. (٢٢)﴾ [النور] فعاد أبو بكر إلى الإنفاق عليه . وقد توفي مسطح عام ٣٤ هـ في خلافة عثمان ويقال : مات عام ٣٧ هـ وشهد صفين مع علي . [الإصابة في تمييز الصحابة (٧٩٢٩)] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾ ﴾

في أول السورة خاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ بقوله : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافقِينَ .. ①﴾ [الأحزاب] وهنا خاطبه ربه بقوله : ﴿وَلا تُطعِ الْكَافرِينَ وَالْمُنَافقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب] فالأولى كانت في بداية الدعوة ، حين أخذ الكفار يكيدون لرسول الله ، فما بالك وقد قويتْ الدعوة ، واشتدَّ عودها ، لا بُدَّ أنْ يتضاعف كيْد الكافرين لرسول الله .

لذلك يكرر له مسألة ﴿وَلا تُطعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ .. ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب] ولا يعني ذلك أنني سأسْلمك ، إنما أنا وكيلك ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب]

فإنْ قلت : كيف والوكيل أقل من الأصيل ؟ نقول : لا ، فالأصيل ما وكَّل غيره ، إلا لأنه عجز أنْ يفعل ، فاختار الأقوى ليفعل له .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٤٩﴾ ﴾

تتحدث الآية عن مسألة اجتماعية تخصُّ حفظ النوع ، وحفظ النوع الإنسانى لا يتأتَّى إلا بالزواج ، وهو وسيلة التكاثر ، وأولى مراحل الزواج مرحلة الخطْبة ، وكثيرون لا يفهمون معنى الخطْبة وحدودها لكل من الرجل والمرأة ، فالخطْبة مجرد أنْ يذهب طالب البنت إلى وليِّها ليقول له : أإذا تقدمتُ لطلب يد ابنتك أكون أهلاً للقبول ؟

فيقول وليُّها : مرحباً بك ، هذه تسمى خطْبة ، وربما لا يتقدم ، فإنْ تقدَّم لها ، له أنْ يراها مرة واحدة بين محارمها ؛ لأن النبى ﷺ قال للشاب الذى أراد الخطبة : « انظر إليها ، فإنه أحْرَى أنْ يُؤدَم بينكما »[1] .

وعجيب أنْ يخلط الناس بين الخطْبة والعقد ، فيعطون الخطْبة صفة العقد ، فإذا قبل الولىُّ الخاطبَ اتفق معه على المهر أو الشبكة وعلى كلٍّ تفاصيل الزواج ، وأباح له أنْ يجلس مع ابنته ، وأنْ يتحدث معها ، وربما يختلى بها ، وياليتهم جعلوها عقداً ، فأخرجوا أنفسهم من هذا الحرج .

فالخطبة إنْ عدل عنها الخاطب ما عليهم إلا أنْ يذهب إلى ولىِّ البنت فيقول له : لقد طلبتُ منك يد ابنتك وأنا فى حلٍّ من هذا الأمر ، أما العقد فلا يُفسخ قبل الدخول إلا بالطلاق ، إذن : لا تجعلوها صورة خطبة وموضوعية عقد .

---

(١) عن المغيرة بن شعبة قال : خطبت امرأة فقال لى رسول الله ﷺ : أنظرتَ إليها ؟ قلت : لا . قال : فانظر إليها ، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٢٤٥ ، ٢٤٦) ، والترمذى فى سننه (١٠٨٧) ، وابن ماجة فى سننه (١٨٦٥) قال البوصيرى فى الزوائد : « إسناده صحيح ورجاله ثقات » .

والحق سبحانه وتعالى يُبيِّن لنا فى هذه الآية الكريمة ما يتعلَّق بأحكام الطلاق إنْ وقع قبل الدخول بالزوجة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا .. (٤٩) ﴾ [الأحزاب]

فالنكاح هنا مقصود به العقد فقط ، وإلا لو قصد به المعنى الآخر لما قال ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ .. (٤٩) ﴾ [الأحزاب] والمسُّ كناية عن الجماع ، وهو عملية دائماً يسترها القرآن بألفاظ لا تدل عليه حقيقةً .

والحكم هنا ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا .. (٤٩) ﴾ [الأحزاب] فليس للزوج على زوجته عدَّة إنْ طلَّقها[1] قبل أنْ يدخل بها ؛ لأن العدَّة إنما كانت لحكمة : فالعدة فى حالة الطلاق الرجعى تعطى للزوج فرصة أنْ يراجع زوجته ، وأنْ يعيدها بنفسه إلى عصمته ، والعدَّة تكون لاستبراء الرحم والتأكد من خُلوِّه من الحمل ، وقد تكون العدَّة ، لا لهذا ولا لذاك ، ولكن لأنه تُوفِّى عنها[2] .

فالعدَّة قبل الدخول لها حكم ، وبعد الدخول لها حكم آخر ، وهذا الفرق يتضح كذلك فى مسألة المهر ، فقبل الدخول للزوجة نصف

---

(١) هذا إن طلقها قبل الدخول بها ، أما إذا توفى الزوج قبل أن يدخل بها فعليها العدة ولكن عدة المتوفَّى عنها زوجها كما لو كان قد دخل بها ، لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا (٢٣٤) ﴾ [البقرة] ، وإنما وجبت العدة عليها وإن لم يدخل بها وفاءً للزوج المتوفى ومراعاة لحقه » [فقه السنة ٢/٣٤٢] . وقال ابن قدامة فى المغنى (٩/٧٨) : « كل من توفى عنها زوجها ، ولا حمل بها ، قبل الدخول أو بعده ، حرة أو أمة ، فعدتها بالشهور » .

(٢) العدة : مأخوذة من العدد والإحصاء ، أى : ما تحصيه المرأة وتعده من الأيام والأقراء . وهى اسم للمدة التى تنتظر فيها المرأة وتمتنع عن التزويج بعد وفاة زوجها ، أو فراقه لها . [فقه السنة ـ الشيخ سيد سابق ٢/٣٤١] .

مهرها ، كما قال سبحانه : ﴿ فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ .. (٢٣٧) ﴾ [البقرة] وقال هنا : ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٤٩) ﴾ [الأحزاب] فإنْ سُمِّى المهر بين الطرفين فلها نصفه ، وإنْ لم يُسَمَّ فلها نصف مهر المثْل .

أما العدَّة بعد الدخول ففيها تفصيل ، بحيث تختلف من حالة لأخرى بما يناسب الحالة التى تشرع فيها العدَّة ، والعدَّة كما قلنا : تدل على أنها شيء معدود ، فإنْ كانت المرأة من ذوات الحيض ، فهى ثلاث حيضات ، ليتأكد خلالها استبراء الرحم ، لكن الرحم يستبرىء من مرة واحدة ، فلماذا جعلها الله ثلاث حيضات ؟

قالوا : الهدف من ذلك إعطاء الزوج فرصة ، فقد يراجع نفسه وتهدأ نفسه ، فيراجع زوجته فى هذه المدة ، فالشرع هنا يراعى بناء الأسرة ، ألاَ ترى أن الحق سبحانه شرع التقاء الزوج بزوجته بكلمة : زوِّجنى وزوَّجتك ، أما فى حالة الطلاق والفراق بين الزوجين ، فجعله على ثلاث مراحل ؛ لأن الله تعالى يريد ألاَّ يجعل للغضب العابر سبيلاً لنقْضِ كلمة الله فى الزواج .

وأذكر أنهم كانوا يسألوننا سؤالاً وكأنه لغز : أو يعتدُّ الرجل ؟ أو : أو ليس للمرأة عدَّةٌ عند الرجل ؟ قالوا : نعم ، يعتدُّ الرجل فى حالة واحدة وهى : إذا تزوج امرأة ثم طلقها ، وأراد أن يتزوج بأختها ، فعليه أن يمضى العدة ليحلَّ له الزواج بأختها .

أما عدَّة التى انقطع عنها الحيض فثلاثة أشهر ، وعدة الحامل أنْ تضع حملَها ، أما عدة المتوفَّى عنها زوجها فأربعة أشهر وعشرة أيام ، لكن ما الحكم إذا اجتمع للمرأة الحملُ مع وفاة الزوج ، فكيف تعتدُّ ؟ قالوا : تعتدُّ فى هذه الحالة بأبعد الأجلين : الحمل ، أو الأربعة أشهر وعشرة أيام .

ولك أنْ تسأل : لماذا كانت عدَّة المطلَّقة ثلاثة أشهر ، وعدَّة المتوفَّى عنها زوجها أربعة أشهر وعَشرة أيام ؟ قالوا : لأن هناك فَرْقاً بين الطلاق والوفاة بالنسبة لعلاقة الزوج بزوجته ، سببه أن الذى خلق الذكر والأنثى جعل هناك كلمة تجمعهما ، هذه الكلمة هى : زوِّجنى وزوَّجتُك شريطة أنْ تكون علانية على رءوس الأشهاد ، ولا تستهنْ بهذه الكلمة ، فأنت لا تعلم ما الذى تصنعه هذه الكلمة فى ذرات التكوين الإنسانى ، ولكنك تعرفها بآثارها .

وقلنا : هَبْ أنك تعرضتَ لشاب تعوَّد معاكسة ابنتك مثلاً ، ماذا تصنع أنت ؟ لا شكَّ أنك ستثور ، ويفور دمك ، وتأخذك الغَيْرة ، وربما تعرضْتَ له بالإيذاء ، أما إنْ جاء من الباب ، وطلب يدها منك ترحب به وتسعد ويفرح الجميع ، فما الذى حدث ؟ وما الفرق بين الموقفين ؟ فالذى أهاجك أنه تلصَّص عليها من غير إذن خالقها ، لذلك يقول ﷺ : « اتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله »[1] .

ويقول رسول الله لرجل كان مشهوراً بالغيرة على بناته ، وقد جاء يدعو رسول الله ﷺ إلى زواج إحدى بناته ، فضحك رسول الله وقال : « جدع الحلال أنف الغيرة » .

فالعقد الذى يجمع الزوجين على كلمة الله يجعل الله به بين الزوجين سيَالاً حلالاً عند كل منهما ، ويلتقى هذان السيالان فى الحلال وتحت مظلة الشرع الذى جمعهما .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢١٨) كتاب الحج ، وابن ماجة فى سننه (٣٠٧٤) ، وأبو داود فى سننه (١٩٠٥) من حديث جابر بن عبد الله ، فى حديث طويل فى حجة النبى ﷺ ، وهى حجة الوداع .

وعادة ما يصاحب الطلاق بُغْضٌ من الطرفين ، أو كُرْه من أحدهما للآخر ؛ لذلك تكون العدَّة بينهما ثلاثة أشهر أو وَضْع الحمل ؛ لأن الكراهية التى حدثتْ بينهما تميت خلايا الالتقاء بين الأنسجة ، وتُسرِع بانتهاء ما بينهما من سيال وتطمسه .

أما فى حالة موت الزوج ، فقد قطع النكاح قدرياً من الله ، فعادة ما تكون الزوجة مُحبَّة لزوجها ، حزينة على فَقْده ، وتأتى فاجعة الموت ، فتزيدها حُباً له ، وفى هذه الحالة ليس من السهل أنْ ينتهى السَّيَال بينهما ؛ لذلك يشاء الخالق سبحانه أنْ يطيل أمد العدَّة إلى أنْ ينتهى هذا السِّيال الذى جمعهما ، فلا يدخل على سيال الرَجل سيال جديد ، فيحدث صراع بين السيالين ؛ لذلك كانت عِدَّة المتوفى عنها زوجها أطول من عدة المطلقة .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ .. (٤٩) ﴾ [الأحزاب] يعنى : أن الطلاق قبل المسِّ والدخول كان موجوداً كما هو موجود الآن ، ونحن نرى الطرفين أو أحدهما يتعجَّل العقد ، رغم أنه غير مُستعد لنفقات الزواج ، إنما يتعجله لمصلحة تعود عليه من هذا الارتباط .

وقد ذكر لنا التاريخ أن كثيراً من الأسر ، خاصة الأسر العربية الأصيلة كانت تفعل ذلك ، لكنهم لم يكونوا يسمحون للزوج فى هذه الحالة أنْ يختلى بالزوجة ، وإنْ كان عاقداً عليها ، وبعض فتياتنا لهن قصص مُشرِّفة فى هذه المسألة .

ومما رُوى فى هذا الصدد قصة بهيثة بنت أوس بن حارثة الطائى والحارث بن عوف ، وهو سيد من سادات بنى مُرَّة ، وكان للحارث ابن عوف صديق اسمه ابن سنان ، وفى ليلة جلس الحارث يتسامر

مع صديقه ابن سنان فقال له : ترنى لو أننى خطبتُ إلى أحد من العرب ابنته أيردّنى ؟ قالها وهو مُعْتَزٌّ بنفسه فخور بسيادته على قومه .

فلما رآه صاحبه على هذه الحالة قال له : نعم هناك مَنْ يردُّك ، قال : مَنْ ؟ قال : أوس بن حارثة الطائى ، فنادى الحارث على غلامه وقال : أحضر المراكب ، وهيا بنا إلى أوس بن حارثة الطائى ، فذهبوا إليه ، فوجدوه جالساً فى فناء بيته ، فلما رآه أوس قال له : مرحباً بك يا حارث ، فأقبل عليه الحارث ، وقال : ويك يا أوس ، ما الذى جاء بك ؟ وتركه على دابته - قال : جئتُكَ خاطباً لابنتك ، فقال له : لستَ هناك - يعنى لستَ أهْلاً لها - فلوى الحارث زِمام دابته منصرفاً ، فى حين بدا على ابن سنان الارتياح ؛ لأن كلامه صدق فى صاحبه .

فلما دخل أوس على امرأته سألتْه : مَنْ رجلٌ وقف معك فلم يُطل ولم ينزل ؟ قال : إنه الحارث بن عوف سيد من سادات بنى مُرَّة ، فقالت : ولماذا لم تستنزله عندك ؟ قال : لقد استحمق - يعنى : ارتكب حُمْقاً - قالت : وكيف هذا ؟ قال : إنه جاء يخطب ابنتى ، قالت : عجباً أو لا تريد أن تُزوِّج بناتك ؟ قال : بلى ، قالت : فإذا كنتَ لا تُزوِّجهن من سادات العرب ، فمَنْ تُزوِّجهن ؟ يا أوس ، اذهب فتدارك الأمر ، قال : كيف وقد فرطَ منى ما فرطَ ؟ قالت : الحقْ به ، وقُلْ له : إنك جئتنى وأنا مُغْضب من أمر لا دخْلَ لك فيه ، ولما راجعتُ نفسى جئتُك معتذراً أطلب منك أنْ تعود ، ولك عندى ما تحب .

فذهب الرجل ، فلم يجد الركْبَ ، فشدَّ على راحلته ، حتى صار بينهما فى الركْب ، فالتفت ابنُ سنان ، وقال : يا ابن عوف ، هذا

أوس يلحق بنا ، فقال : وماذا أصنع به امْضِ ، فناداه أوس : يا حارث : اربع[1] عليَّ ساعة ، يعني : انتظرني - ولك عندي ما تحب، ففرح الحارث وعاد معه .

عاد أوس إلى بيته ، وقال لامرأته : ادْعي ابنتك الكبرى ، فجاءت ، فقال : يا بُنيَّة إن الحارث بن عوف سيد بني مرة جاء ليخطبك ، فقالت : لا تفعل يا أبي ، فقال : ولم ؟ قالت : إنني امرأة في وجهي ردّة - يعني قُبْح يردُّ مَنْ يراني - وفي خُلُقي عُهْدة - أي عيب - وليس بابن عم لي فيرعى رحمي ، ولا بجَار لك في بلدك فيستحي منك ، وأخاف أنْ يكره مني شيئاً ، فيُطلِّقني فيكون عليَّ فيه ما تعرف . فقال لها : قُومي ، بارك الله فيكِ .

ثم قال لامرأته : ادْعي ابنتك الوُسْطى فجاءتْ ، فقال لها ما قال لأختها ، فقالت : لا تفعلْ يا أبي ، قال : ولم ؟ قالت : أنا امرأة خرقاء - يعني : لا تُحسِن عملاً - وليست لي صناعة ، وأخاف أنْ يرى مني ما يكره فيُطلِّقني ، ويكون فيَّ ما يكون . فقال لها : قومي بارك الله فيك ، وادْعي أختك الصغرى ، وكانت هذه هي بُهَيْثة التي نضرب بها المثل في هذا الموقف .

لما عرض عليها أبوها الأمر قالت : افعل ما ترى يا أبي ، قال : يا بُنيَّتي ، لقد عرضتُه على أُختيك فأبتَاهُ ، قالت : لكني أنا الجميلة وجهاً ، الصَّناعُ يداً ، الرفيعة خُلُقاً ، فإنْ طلَّقني فلا أخلفَ اللهُ عليه ، فقال : بارك الله فيك . ثم قام إلى الحارث وقال : بُوركَ لك يا حارث ، فإنِّي زوَّجتك ابنتي بهيثة ، فبارك الله لكما ، قال : وأنا قبلتُ زواجها .

---

(١) اربع على نفسك : كُفَّ وارفُق . كذلك معناه : انتظر . فهو بمعنى التوقف والانتظار . [لسان العرب - مادة : ربع] .

ثم قال لامرأته : هَيِّئى ابنتك ، واصنعى لها فُسْطاطاً بفناء البيت ، ولما صُنع الفسطاط حُملت إليه بهيئة ، ودخل عليها الحارث ، لكنه لم يلبث طويلاً حتى خرج ، فسأله ابنُ سنان : أفرغتَ من شأنك ؟ قال : لا والله ، يا بن سنان ، قال : ولم ؟ قال : جئتُ لأقترب منها . فقالت : أعند أبى وإخوتى ؟ والله لا يكون ذلك أبداً ، فخرجتُ .

فقال : ما دامتْ لا ترضى وهى عند أبيها وإخوتها ، فهيَّا بنا نرحل ، فأمر بالرحيل ، وسار الركب بهم طويلاً ، ثم قال : يا بن سنان تقدَّم أنت - يعنى : أعطنا الفرصة - فتقدَّم ابن سنان بالركْب ، وانحاز الحارث بزوجته إلى ناحية من الطريق ونصب خيمته ، ثم دخل عليها فقالت له : ما شاء الله ، أتفعل بى كما يُفعل بالسَّبِيَّة الأخيذة ، والأَمَة الجليبة ؟ والله لا يكون ذلك حتى أذهب إلى أهلك وبلدك ، وتذبح لى الذبائح ، وتدعو سادة العرب ، وتصنع ما يصنعه مثلك لمثلى .

الشاهد هنا - وهو درس لبنات اليوم - أنها لم ترْضَ لزوجها ، ولم تقبل منه فى بيت أبيها ، ولا فى الطريق ، ولم تتنازل عن شىء من عِزَّتها وكبريائها ، مع أنها زوجته .

وفعلاً تمَّ لها ما أرادت ، وذُبِحَتْ لها الذبائح ، ودُعى لها سادات العرب ، فلما دخل عليها وحاول الاقتراب منها ، قالت : لقد ذكرتَ لى شرفاً ما رأيتُ فيك شيئاً منه ، فقال : ولم ؟ قالت : أتفرغُ لأمر النساء والعرب يقتلُ بعضُهم بعضاً - تريد الحرب الدائرة وقتها بين عبس وذبيان - اذهب فأصلِح بينهما ، ثم عُدْ لأهلك ، فلن يفوتك منى شىء ، فذهب الحارث وابن سنان ، وأصلحا بين عبس وذُبْيان ،

وتحمَّلا ديات القتلى ثلاثة آلاف بعير يُؤدُّونها في ثلاث سنوات ، ثم عاد إليها ، فقالت له : الآن لك ما تريد .

وهذه الآية ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ .. (٤٩) ﴾ [الأحزاب] بظاهرها أعطتْ فهماً لبعض الناس الذين يريدون أن يتحلَّلوا من أحكام الدين في أشياء قد ترهقهم : فمثلاً الذى طلَّق امرأته ثلاث مرات ، واستوفى ما شُرِع له من مرات الطلاق حكمه أنه لا تحلُّ له زوجته هذه إلا بعد أن تنكح زوجاً غيره ، فيأتى مَنْ يقول ـ بناءً على الآية السابقة ـ ما دام النكاح هنا بمعنى العقد[1] فهو إذن كَاف في حالة المرأة التى طُلِّقت ثلاث مرات ، وأنها تحلّ لزوجها الأولّ بمجرد العقد على آخر .

ونقول : لكن فاتك أن رسول الله ﷺ فُوِّض من ربه بالتشريع وبيان وتفصيل ما جاء في كتاب الله من أحكام ، كما قال سبحانه مخاطباً نبيه :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. (٤٤) ﴾ [النحل]

فلو أن سُنَّة رسول الله لم تتعرَّض لهذه المسألة ، لكانَ هذا الفهم جائزاً في أن مجرد العقد يبيح عودة الزوجة لزوجها ثانية ، لكن الذى أناط الله به مهمة بيان القرآن وقال عنه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

إذن : فهو ﷺ له حَقُّ التشريع ، وقد بيَّن لنا المراد هنا في قوله

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٤٩٧) : « هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة منها إطلاق النكاح على العقد وحده ، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها ، وقد اختلفوا في النكاح ، هل هو حقيقة في العقد وحده ، أو في الوطء ، أو فيهما ؟ على ثلاثة أقوال ، واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده إلا في هذه الآية ، فإنه استعمل في العقد وحده » .

تعالى : ﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ .. (٢٣٠) ﴾ [البقرة]

فأبقى كلمة النكاح على أنها مجرد العقد ، ثم بيَّن المراد من ذلك ، فقال للرجل : « حتى تذوق عسيلته ، ويذوق عسيلتها »[1] إذن : تمام الآية لا يجيز لمن يقول : إن مجرد العقد يبيح للرجل أنْ يعيد زوجته التى طُلِّقَتْ ثلاث مرات إلا بعد أن تذوق عُسَيْلته ، ويذوق عُسَيْلتها ، وهذه المسألة جعلها الله تأديباً للرجل الذى تعوَّد الطلاق ، وسَهُلَ عليه النطق به ، حتى صار على لسانه دائماً .

ومن رحمة الخالق بالخَلْق ، ومن حرصه - تبارك وتعالى - على رباط الأسرة أنْ أحلَّ المرأة للرجل كما قلنا بكلمة زوَّجنى وزوّجتك ، لكن عند الفراق لم يجعله بكلمة واحدة ، إنما جعله على مراحل ثلاث ؛ ليُبقى للمودة وللرحمة بين الزوجين مجالاً ، فإنِ استنفد الزوج هذه الفرص ، وطلَّق للمرة الثالثة فلا بُدَّ أن نحرق أنفك بأنْ تتزوج امرأتُكَ من زوجٍ غيرك زواجاً حقيقياً تمارس فيه هذه العملية ، وهى أصعب ما تكون على الزوج .

ونلحظ هنا أن دقَّة التشريع أو صعوبته فى كثير من المسائل لا يريد الله منه أنْ يُصعِّب على الناس ، وإنما يريد أن يرهِّب من أنْ تفعل ذلك ، يريدك أنْ تبتعد عن لفظ الطلاق ، وألاَّ تلجأ إليه إلا عند الضرورة القصوى .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٣٣) كتاب النكاح - باب ١٧ من حديث عائشة أن امرأة رفاعة القرظى جاءت النبى ﷺ فقالت : يا رسول الله ، كنت عند رفاعة فطلقنى فبَتَّ طلاقى فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير ، وإن ما معه مثل هدبة الثوب (وفى رواية زيادة : وأخذت بهدبة من جلبابها) فتبسَّم رسول الله ﷺ ، فقال : أتريدين أن ترجعى إلى رفاعة ، لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك » .

لذلك يُعلِّمنا سيدنا رسول الله فيقول : « إن أبغض الحلال عند الله الطلاق »[1] ، فالذين يعترضون على الطلاق في شرعنا ، ويتعجَّبون كيف يفارق الزوجُ زوجته بعد العشْرة الطويلة والحب والمودة يفارقها بكلمة ، وفاتَ هؤلاء أن الطلاقَ وإنْ كان الأبغض إلا أنه حلالٌ ، ويكفي أن الله تعالى جعله على مراحل ثلاث ، وجعله لا يُستخدم إلا عند الضرورة ، وحذَّر الرجل أنْ يتساهل فيه ، أو يُجرِيه على لسانه ، فيتعوَّده .

ونلحظ أن الحق سبحانه خصَّ المؤمنات في قوله : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأحزاب] مع أن المؤمن يُبَاح له أنْ يتزوج من الكتابية[2] ، مسيحية كانت أو يهودية ، فكأن في الآية إشارةً لطيفة لمن أراد أنْ يتزوج فليتزوج مؤمنة ، ولا يُمكِّن من مضجعه إلا مؤمنة معه ، وهذا احتياط في الدين ، فالمؤمنة تكون مأمونة على حياته وعلى عِرْضه ، وعلى أولاده وماله ، فإن غير المؤمنة لا تُؤتمن على هذا كله .

وقد رأينا بعض شبابنا الذين ذهبوا إلى بلاد الغرب ، وتزوجوا من أجنبيات ، وبعد الزواج ظهرت النكبات والمصائب ، فالأم لا تنسى أنها يهودية أو نصرانية ، وتبثّ أفكارها ومعتقداتها في الأولاد ، إذن : فعلى المؤمن أنْ يختار المؤمنة ؛ لأنها مؤتمنة عليه وعلى بيته .

وأذكر حين سافرنا إلى الخارج ، كنا نُسْأل : لماذا أبحتُم لأنفسكم

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٠١٨) ، وأبو داود في سننه (٢١٧٨) من حديث عبد الله بن عمر .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٤٩٧) : « قوله تعالى (المؤمنات) خرج مخرج الغالب : إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق » وانظر أيضاً « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن » (ص ٤٣٠) .

أنْ تتزوجوا الكتابية ، ولم تبيحوا لنا أن نتزوج المسلمة ؟ وكان بعض الآبـاء يأتون ببناتـهم اللائى وُلِدْنَ فى ألمانيـا مـثلاً ، وكـانت البنت تُحاج والدها بهـذه المسـألة ، لمـاذا لا أتزوج ألمانياً كـما تزوجْتَ أنت ألمانية ؟

فكنا نرد على بناتنا هناك : بأن المسلم له أن يتزوج كتابية ؛ لأنه يؤمن بكتابها ، ويؤمن بنبيِّهـا ، لكن كيف تتزوجين أنت من الكتابى ، وهو لا يؤمن بكتابك ، ولا يؤمـن بنبيك ؟ إذن : فالمـسلم مُؤْتَمن على الكتابية ، وغير المسلم ليس مُؤتمناً على المسلمة .

وقوله تعالى : ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ۝٤٩﴾ [الأحزاب] وفي مـوضـع آخـر قـال سـبـحـانه في نـفس هذه المـســألة : ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ .. ۝٢٣٧﴾ [البقرة]

ويمكن أنْ نُوفِّـق بين هاتين الآيتـين بأن الأولى نـزلتْ فـيـمَنْ لم يُفْرض لها مهـر ، والثانية فيمَنْ فُرِض لها مــهر ، التى لم يُفرض لها مهر لها المتعة ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ .. ۝٤٩﴾ [الأحزاب] والتى فُرِض لها مهر لها نصـفه ، فكل آية تـخـصُّ وتعـالج حـالة معـينة ، وليس بين الآيتـين نَسْخ .

وبعض العلماء يـرى أنه لا مانع ، إنْ فُرِضَ لهـا مهر أنْ يعطيـها المتعة فوق نصف مهـرها ، وهذا رأى وجيه ، فالعدل أنْ تأخذ نصف ما فُرِض لها ، والفضل أنْ يعطيهـا المتعة فوق هذا النصف ، وينبغى أنْ تبنَى المعاملات دائماً على الفـضل لا على مجرد العدل ، وربنا عز وجل يُعلِّمنا ذلك ، حين يعاملنا سبـحانه بفضله لا بعدله ، ولو عاملنا بالعدل لهلكنا جميعاً .

لذلك جاء فى دعاء الصالحين : اللهم عاملْنَا بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب . نعم ، فإن لم يكُنْ فى الآخرة إلا الحساب ، فلن يكسب منا أحدٌ ، وقد ورد فى الحديث : « مَنْ نُوقشَ الحساب عُذِّب »(1)

ويقول سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

فالفرح لا يكون إلا حين يشملك فضْل الله ، وتعمُّك رحمته ، وفى الحديث الشريف : « لن يدخل أحدٌ الجنةَ بعمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أنْ يتغمدنى الله برحمته »(2) .

فإنْ قُلْتَ : فكيف نجمع بين هذه النصوص من القرآن والسنة ، وبين مكانة العمل ومنزلته فى مثل قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴾ [النحل]

قالوا : صحيح أن للعمل منزلته وفضله ، لكنك حين تعبد الله لا تُقدم لله تعالى خدمة بعبادتك له ، إنما الخدمة مُقدَّمة من الله لك فى مشروعية العبادة ، وإلا فالله تعالى بكل صفات الكمال خلقك وخلق الكون كله لك ، فإنْ كلَّفك بعد ذلك بشىء ، فإنما هو لصالحك ، كما تكلف ولدك بالجد والمذاكرة .

---

(1) عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ حوسب يوم القيامة عُذِّب . فقال عبد الله بن أبى مليكة : أليس قد قال الله عز وجل : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) ﴾ [الانشقاق] ، فقال : ليس ذاك الحساب ، إنما ذاك العرض ، من نوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٧٦) قال النووى فى شرحه : « معناه أن التقصير غالب فى العباد ، فمن استقصى عليه ولم يُسامح هلك ودخل النار ، ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء » .

(2) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة . وتغمده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها [لسان العرب ـ مادة : غمد] .

ثم لو أنك وضعتَ عملك في كفَّة ، ونعَم الله عليك في كفة لما وفَّتْ أعمالك بما أخذْتَه من نعَم ربك . إذن : إنْ أثابك بعد ذلك في الآخرة فإنما بفضله تعالى عليك ورحمته لك .

ومثَّلْنا لذلك - ولله تعالى المثل الأعلى - بقولك لولدك : لو نجحتَ آخر العام سأُعطيك هدية أو مكافأة ، فمع أنه هو المستفيد من نجاحه إلا أنك تزيده ؛ لأنك مُحبٌّ له وتحب له الخير .

إذن : ينبغي أنْ نتعامل بهذه القاعدة ، وأنْ نتخلَّق بهذا الخلق ، خاصة في مثل هذه الحالة ، حالة الزوجة التي طُلِّقَتْ قبل الدخول بها .

فإنْ قُلْتَ : ولماذا تأخذ الزوجة التي طُلِّقت قبل الدخول بها نصف المهر والمتعة أيضاً ؟ نقول : هو عوَض لها عن المفارقة ، فإنْ كانت هي المُفَارقة الراغبة في الطلاق ، فليس لها شيء من المهر أو المتعة ، إنما عليها أنْ تردَّ على الزوج ما دفعه ، كما جاء في حديث المرأة التي جاءت رسول الله ﷺ تخبره أنها لا تريد البقاء مع زوجها ، فقال لها : « رُدِّي عليه ما دفعه لك »[1] وهذه العملية يسميها العلماء (الخُلْع) .

ثم بعد أن ذكر الحق سبحانه مسألة المتعة قال : ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأحزاب]

السَّرْح في الأصل : شجر له ثمر ، يوجد في البوادي ، ترعاه الماشية وتحبه ، فالكبيرة منها تأكل من أعلى الشجرة ، أما الصغيرة

---

(١) عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين ، ولكني أكره الكفر في الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : أتردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم . قال رسول الله ﷺ : اقبل الحديقة وطلِّقها تطليقة . أخرجه البخاري في صحيحه (٥٢٧٣) ، وابن ماجه في سننه (٢٠٥٦) من حديث ابن عباس ، وقد صرَّح بتسمية امرأة ثابت ، فهي جميلة بنت سلول ، وفي رواية أخرى (٢٠٥٧) أنها حبيبة بنت سهل .

فيتعهدها الراعى إنْ كان عنده دقة رعاية ، بأنْ يضرب بعصاه غصون الشجرة ، فتتساقط منها بعض الأوراق ، فيأكلها الصغار[١] .

ومن ذلك قوله تعالى عن عصا موسى عليه السلام : ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ ﴾ [طه]

ورُوى أن سيدنا عمر مرَّ على راعٍ فقال له : يا راع ، فنظر الراعى إلى أمير المؤمنين ، وقال : نعم يا راعينا - يعنى : أنا راعى الغنم وأنت راعى الراعى ، فكأنه لا يتكبر راعٍ على راعٍ - فقال عمر : يا هذا فى الأرض التى تبعد عنك كذا وكذا سَرْحٌ أجمل من هذا وأخصب ، فاذهب إليه بماشيتك .

وهذا درس فى تحمُّل مسئولية الرعية والحرص عليها ، وكان عمر رضى الله عنه خير مَنْ تحمَّل هذه المسئولية ، فيُرْوى أن سيدنا عمر وسيدنا عبد الرحمن بن عوف رأيا جماعة من التجار عابرى السبيل يلجئون إلى المسجد للمبيت فيه ، منهم مَنْ يحمل بضاعته ، ومنهم مَنْ يحمل ثمن بضاعة باعها ، فخافا أن يجترىء عليهم أحد فيسرقهم ، فبات عمر وعبد الرحمن يتسامران حتى الفجر لحراسة هؤلاء العابرين .

وحتى الآن ، فى الفلاحين يقول الذاهب فى الصباح إلى الحقول (نسْرَحْ) وللعودة آخر النهار (نروح) ، ثم تُدوول هذا اللفظ فأُطلق على كل خروج إلى شىء ، ومن ذلك نقول : اعطنى التسريح ، فكأنى كنت محبوساً فسمح لك بالخروج ، ومن ذلك تسريح الزوجة .

لكن تسريح الزوجة وصفه الله تعالى بقوله ﴿ سَرَاحًا جَمِيلاً ۝٤٩ ﴾

---

(١) الذى فى لسان العرب لابن منظور (مادة : سرح) أن السرح : شجر كبار عظام طوال ، لا يُرعى وإنما يُستظل فيه ، لا ينبت فى رمل ولا جبل ، ولا يأكله المال (الأنعام) إلا قليلاً ، له ثمر اصفر .

[الأحزاب] وكل شيء وُصف في القرآن بالجمال له مزية في ذاته ، كما في ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف] وتسريح الزوجة عادة ما يصاحبه غضب وانفعال ، فينبغي أنْ يكون التسريح جميلاً لا عنفَ فيه ، كأنْ يُطيِّب خاطرها بقوله : هذا قدرنا ، وأرجو الله أن يُعوِّض عليك بخير مني أو غير ذلك ، مما يراه مناسباً لتخفيف الخطْب عليها ، ويكفي أن تتحمل هي ألم المفارقة ومصيبة الطلاق . وأيُّ جمال فيمَنْ يفارق زوجته بالسُّباب والشتائم ، ويؤذيها بأن يمنعها حقاً من حقوقها .

وهذه الآية عالجتْ قضية هامة من قضايا الأسرة ؛ لأنها مرادة للحق سبحانه ، فالله تعالى خلق الإنسان الخليفة ، وهو آدم عليه السلام ، وخلق منه الزوجة ليُحقِّق منهما الخلافة في الأرض ، لكن لماذا هذه الخلافة ؟ قالوا : ليستمتعوا بآثار قدرة ربهم وحكمته في كونه ، كما تسعد أنت حين تأتي لأولادك بما لَذَّ وطابَ من الطعام ، وتفرح حين تراهم يأكلون ويتمتعون بما جئتَ به ، تفرح لأنك عدَّيْتَ أثر قدرتك للغير - ولله تعالى المثل الأعلى - .

فما دام الحق سبحانه جعل الخليفة في الأرض ثم حدد مهمته ، فقال : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. ﴿٦١﴾ ﴾ [هود] إذن : لا بُدَّ أنْ يضمن لهذا الخليفة مُقوِّمات حياته ومُقوِّمات استبقاء هذه الحياة لا تكتمل إلا بمُقوِّمات بقاء النوع ، فإنه لن يعيش في الدنيا وحيداً لآخر الزمان .

واستبقاء الحياة يكون بالقوت ؛ لذلك فإن ربك عز وجل قبل أنْ يستدعيك إلى الوجود ، وقبل أنْ يخلقك خلق لك ، خلق لك الشمس والقمر والنجوم والكواكب والأرض والهواء والماء ، فأعدَّ للخليفة كل مُقوِّمات حياته .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ

فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ⑨ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ⑩ ﴾ [فصلت]

إذن : فمخازن القوت مملوءة ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ㉑ ﴾ [الحجر] وما دام خالق البشر قدَّر لهم الأقوات مُقدَّماً ، فليس لك أن تقول « انفجار سكانى » قُلْ : إنك قصرْتَ فى استنباط هذا القوت بما أصابك من كسل أو سوء تخطيط .

ونلحظ هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ⑪⑫ ﴾ [النحل]

ومن الكفر بنعمة الله سَتْرها بالكسل والقعود عن استنباطها ، وقد يَشْقى جيل بكسل جيل قبله ، لذلك لما تنبَّهنا إلى هذه المسألة ، وبدأنا نزرع الصحراء ونُعمِّرها انفرجتْ أزمتنا إلى حَدٍّ ما ، ولو بكَّرْنا بزراعة الصحراء ما اشتكينا أزمة ، ولا ضاقَ بنا المكان .

والحق سبحانه يُعلِّمنا أنه إذا ضاق بنا المكان ألاَّ نتشبثَ به ، ففى غيره سعة ، واقرأ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. ㊾ ﴾ [النساء]

لذلك يخاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ ، حتى فى الخلوة الليلية معه : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ .. ⑳ ﴾ [المزمل] إلى أن يقول : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ .. ⑳ ﴾ [المزمل] والمرضى غير قادرين على العمل ، فعلى القادر إذن أنْ يعمل ليسُدَّ حاجته وحاجة غير القادر ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. ⑳ ﴾ [المزمل]

إذن : قانون الإصلاح الذى جعله الله لحياة البشر يقوم على دعامتين : الضرب فى الأرض والسَّعْى فى مناكبها ، وفيه مُقوِّمات الحياة ، ثم نقاتل فى سبيل الله لبقاء الدعوة والمنهج ، فالأولى للقالب ، وبها نأكل ونشرب ونعيش ، والأخرى للقيم .

فإنْ قعدتْ الأمة أو تكاسلتْ عن أيٍّ من هاتين الدعامتين ضاعتْ وهلكتْ وصارتْ مطمعاً لأعدائها ؛ لذلك تجد الآن الأمم المتخلفة فقيرة، تعيش على صدقات الأمم الغنية ؛ لأنها كفرتْ بأنعم الله وسترتها ، ولم تعمل على استنباطها ، قعدتْ عن الاستعمار والاستصلاح .

أما الأغنياء فعندهم فائض لا يُعْطى للفقراء ، إنما يُرْمى فى البحر ويُعدَم ، لتظل لهم السيادة الاقتصادية ، لذلك نستطيع أنْ نقول بأن شر العالم كله والفساد إنما يأتى بكفر نعم الله ، إما بسترها وعدم استنباطها ، أو بالبخل بها على غير الواجد .

ولأهمية القوت يأتي فى مقدمة ما يمتنُّ الله به على عباده فى قوله : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝ ﴾ [قريش]

وكما ضَمِن الحق سبحانه للخليفة فى الأرض مُقوِّمات حياته ضَمِن له أيضاً بقاء نوعه ونَسْله ، وجعل ذلك بالزواج الذى شرَّعه الله؛ ليأتى النسل بطريقة طاهرة شريفة ، لا بطريقة خسيسة دَنسة ، وفَرْق بين هذا وذاك ، فالولد الشرعى تتلقفه أيدى الوالدين وتتباهى به ، أما الآخر فإذا لم تتخلَّص منه أمه وهو جنين تخلصت منه بعد ولادته ، لأنه عار عليها .

فالحق سبحانه شرع الزواج لطهارة المجتمع المسلم ونظافته وسلامته ، مجتمع يكون جديراً بأن يتباهى به سيدنا رسول الله يوم القيامة ، فقد ورد فى الحديث الشريف : « تناكحوا تناسلوا ، فإنِّى

مُباهٍ بكم الأمم يوم القيامة »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ[3] اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾

---

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء (١/٣٨٠) : « رواه عبد الرزاق والبيهقي عن سعيد بن أبي هلال مرسلاً بلفظ « تناكحوا تكثروا ، فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة » . وقد أخرج أبو داود في سننه (٢٠٥٠) من حديث معقل بن يسار قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال ، وإنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ قال : لا . ثم أتاه الثانية فنهاه ، ثم أتاه الثالثة ، فقال : « تزوجوا الودود الولود ، فإني مكاثر بكم الأمم » .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٤٩٩) : « هذه الآية عدل وسط بين الإفراط والتفريط ، فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى ، فأباح بنت العم والعمة ، وبنت الخال والخالة ، وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت » .

(٣) قال القرطبي في تفسيره (٨/٥٤٧٥) : « معلوم أنه لم يكن تحته أحد من بنات عمه ، ولا من بنات عماته ، ولا من بنات خاله ، ولا من بنات خالاته ، فثبت أنه أحلَّ له التزويج بهذا ابتداء » .

الحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يخاطب نبيه محمداً ﷺ باسمه العلم أبداً ، كما خاطب غيره من الأنبياء فقال : يا نوح ، يا عيسى ، يا موسى ، يا إبراهيم .. إلخ ، أما رسول الله ، فناداه ربه بقوله ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ .. ۝٥٠ ﴾ [الأحزاب] و ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ .. ۝٤١ ﴾ [المائدة]

ونداء الشخص باسمه العلَم دليلٌ على أنه ليستْ له صفة مميزة ، فإنْ ملك صفة مميزة نُودي بها تقول : يا شجاع ، يا شاعر .. إلخ ، الآن الجميع يشتركون في العلَمية . إذن : فنداء النبي ﷺ بيأيها النبي ، ويأيها الرسول تكريم له ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ .. ۝٥٠ ﴾ [الأحزاب] ما معنى ﴿ أَحْلَلْنَا .. ۝٥٠ ﴾ [الأحزاب] هنا ما دام الحديث عن أزواجه ﷺ ؟ قالوا : معناها أنها كانت في منطقة مُحرَّمة ثم أحلَّها الله له أي : جعلها حلالاً ، وهذا المعنى يتضح بقوله تعالى بعدها ﴿ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ.. ۝٥٠ ﴾ [الأحزاب] كأن رسول الله أخذ بالحلِّ أولاً ، بدليل أنه آتى الأجر والمهر .

ولقد كان للعلماء وَقْفة عند تسمية المهر أجراً ، قالوا :كيف يُسمَّى المهر أجراً ، ومعنى الأجر في اللغة : جُعْلٌ على منفعة موقوتة يؤديها المُستأجَر للمُستأجِر ، أما النكاح فليس موقوتاً ، إنما من شروطه نية التأبيد والدوام ؟

وللجواب على هذه المسألة نقول : لا يصح أنْ تُؤخَذ الآيات ، منفصلة بعضها عن بعض ، إنما ينبغي أنْ نجمع الآيات الواردة في نفس الموضوع جَنْباً إلى جنب ؛ ليأتي فهمها تاماً متكاملاً .

فالحق سبحانه يقول في موضع آخر مخاطباً نبيه ﷺ في شأن زوجاته : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ .. ۝٥١ ﴾ [الأحزاب] أي : تؤخر

استمتاعك بها ﴿ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ .. ۝٥١ ﴾ [الأحزاب] أى : تضمُّها إليك .

إذن : ما دام لك أن ترجيء أزواجاً منهن وتمنعهن من القسمة ، ثم تضم غيرهن ، فكأن المنفعة هنا موقوتة ، فناسب ذلك أن يُسمَّى المهر أجراً .

والحق سبحانه يعطى نبيه ﷺ فى كل مراحل سيرته أزكى المواقف وأطهرها وأنبلها ، فقوله تعالى ﴿ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ .. ۝٥٠ ﴾ [الأحزاب] دليل على أنه ﷺ ما انتفع بهن إلا بعد أنْ أدَّى مهرهن ، فى حين أن للإنسان أنْ يسمى المهر ، ويدخل بزوجته دون أن يدفع من المهر شيئاً ، ويكون المهر كله أو بعضه مُؤخَّراً ، لكن تأخير المهر يعطى للمرأة حق أنْ تمتنع عن مضاجعته ، فإنْ سمحَتْ له فهو تفضُّل منها . إذن : فرسول الله اختار أكمل شيء .

رسول الله ﷺ جاء ليُبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم ، وجعله ربه أُسْوة سلوكية فى الأمور التى يعزُّ على الناس أن يستقبلوها ، فنفَّذها رسول الله فى نفسه أولاً كما قلنا فى مسألة التبنى .

كذلك فى مسألة تعدد الزوجات ، فرسول الله أُرسل والتعدد موجود عند العرب وموجود حتى عند الأنبياء السابقين ، لكن أراد الله أنْ يحدد هذا التعدد تحديداً يمتص الزائد من النساء ، ولا يجعله مباحاً في كل عدد ، فأمر رسوله أن يقول لأمته : مَنْ كان عنده أكثر من أربع فليمسك معه أربعاً ، ويفارق ما زاد عنهن ، فى حين كان عنده ﷺ تسع زوجات .

فلو أن الحكم شمله ، فأمسك أربعاً ، وسَرَّح خمساً لأصابهُنَّ ضرر كبير ، ولصِرْنَ مُعلَّقات ؛ لأنهن زوجات رسول الله وأمهات

المؤمنين ، وليس لأحد أن يتزوج إحداهن بعد رسول الله .

إذن : الحكم يختلف مع رسول الله ، والعدد بالنسبة له أن يقتصر على هؤلاء التسعة بذواتهن ، بحيث لو ماتت إحداهن أو طُلِّقت فليس له أنْ يتزوَّج بغيرها ؛ لأن الله خاطبه بقوله : ﴿ **لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ** .. (٥٢) ﴾ [الأحزاب]

وقد بيَّنا للمستشرقين الذين خاضوا في هذه المسألة أن رسول الله لم يُسْتَثْنَ في العدد ، إنما استُثْنِى في المعدود ، حيث وقف عند هؤلاء التسع بذواتهن ، وليس له أنْ يتزوج بأخرى ، أما غيره من أمته فله أنْ يتزوج ضِعْف أو أضعاف هذا العدد ، شريطة ألاَّ يزيد عن أربع في وقت واحد .

وكلمة ﴿ **أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ** .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] جاءت قبل ﴿ **لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ** .. (٥٢) ﴾ [الأحزاب] وقد ورد عن السيدة عائشة أنها قالت[1] : ما مات رسول الله حتى أبيح له أنْ يتزوج ما شاء ، فكيف ذلك ؟

قالوا : لأن الله تعالى أراد أنْ يعطى لرسوله تميُّز الوفاء لأزواجه ، فمع أن الله أباح له أنْ يتزوج بغيرهن ، إلا أنه ﷺ لم يفعل وفاءً لهُنَّ ، والرسول ﷺ يفعل ذلك لأنه كان إذا حُيى بتحية يُحييّ بأحسن منها أو يردُّها بمثلها ، وقد رأى ﷺ من أزواجه سابقة خير حين خيَّرهُنَّ فاخترْنه وفضَّلْن العيش معه على زينة الدنيا ومتعها ، فكأنه يردُّ لهم هذه التحية بأحسن منها .

ومجيء ﴿ **أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ** .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] قبل ﴿ **لا يَحِلُّ لَكَ**

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٢١٦) ، والنسائى فى سننه (٦/٥٦) من قول عائشة رضى الله عنها . قال الترمذى : هذا حديث حسن .

النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ.. (٥٢)﴾ [الأحزاب] دليل على تكريم الرسول ومعاملته معاملة خاصة ، فالله قد أحل له قبل أنْ يُحرِّم عليه ، ومثال هذا التكريم قوله تعالى : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. (٤٣)﴾ [التوبة] فسُبق العتاب بالعفو .

ونلحظ في قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] أن الأزواج جاءت بصيغة المذكَّر ولم يقل زوجاتك ؛ لأن الزوج يُطلق على الرجل وعلى المرأة ، والزوج في اللغة هو الواحد المفرد ومعه غيره من جنسه ، وليس الزوج يعني الاثنين كما يعتقد البعض ، ومثلها كلمة (توأم) فهي تعني الواحد الذي معه غيره ، فكل منهما يُسمَّى توأماً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ .. (١٤٣)﴾ [الأنعام]

ثم يقول تعالى : ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] نعرف أن ملْك اليمين يُقصَد به المرأة المملوكة ، وجاء قوله تعالى : ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ..(٥٠)﴾ [الأحزاب] احتياط ، فملْك اليمين بالنسبة لرسول الله جاء من طريق شرعي ، جاء من الفيء والمراد أسرى الحروب .

وقد باشر ﷺ عملية السَّبْي بنفسه ؛ لأن من الإماء حرائر أُخذْنَ عُنْوة أو سُرِقْنَ ، ومنهن من بيعتْ في سوق الرقيق على أنها أَمَة ، وهذا ما رأيناه فعلاً في قصة سيدنا زيد بن حارثة ، إذن : فقوله تعالى ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] أي : أنك ملكتها ، وأنت واثق تمام الثقة أنها أَمَة وَفَيءٌ أحله الله لك .

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا

خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب]

وكذلك أحلَّ الله لنبيه أنْ يتزوّج من بنات عمه ، أو بنات عماته ، أو بنات خاله ، أو بنات خالاته ، والعمومة : أقاربه من جهة أبيه ، والخئولة أقاربه من جهة أمه ، ونلاحظ أن رسول الله لم يتزوج لا من بنات عمه ، ولا من بنات عماته ، ولا من بنات خاله ، ولا من بنات خالاته .

والمعنى أن الله تعالى أحلَّ له أنْ يتزوَّج من هؤلاء ما وُجد ؛ لأن قرابته سيكونون مأمونين عليه ، ومعينين له على أمره .

وحين تتأمل هذه الآية نجد أن العم والخال جاءت مفردة ، في حين جاءت العمات والخالات جمعاً ، لماذا ؟ قالوا : لأن العم والخال اسم جنس ، واسم الجنس يُطلَق على المفرد وعلى الجمع ، بدليل أنك تجد اسم الجنس في القرآن يُستثنى منه الجمع ، كما في ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

فالإنسان اسم جنس مفرد ، واستثنى منه الذين آمنوا وهي جمع ، أما العمَّات والخالات فليستْ اسم جنس ؛ لذلك جاءتْ بصيغة الجمع المؤنث .

وأيضاً ، لأن العم صنْو الأب ، فعلى فرض أنهم أعمام كثيرون ، فهم في منزلة الأب ، واقرأ في ذلك قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ .. (١٣٣) ﴾ [البقرة] فدخل العمّ في مُجْمل الآباء .

وكذلك سَمَّى العمَّ أباً في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ .. (٧٤) ﴾ [الأنعام] ومعلوم أنه كان عمه .

وفى موضع آخر ، جاءت عم بصيغة الجمع ، وهو قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور]

فجاءت العم والخال هنا بصيغة الجمع ، لماذا ؟ قالوا : لأن الحديث هنا عن البيوت التى يُبَاح لك أنْ تأكل منها ، وجاءت (بيوت) بصيغة الجمع ، والعم له بيت واحد ، فما دام قال بيوت فلا بُدَّ أنْ تأتى (أعمامكم) و (أخوالكم) بصيغة الجمع .

ثم يقول تعالى : ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ[1] .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] الوَهْب : انتقال ملكية بلا مقابل ، نقول : فلان وهبك كذا يعنى : أعطاه لك بلا مقابل ، ليس بيعاً وليس بدلاً مثلاً .

لذلك لما نزلت هذه الآية قالت السيدة عائشة : أتعجبُ لامرأة تبتذل نفسها ، وتعطى نفسها لرجل هكذا مجاناً بلا مقابل ، فنزل النص ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ..(٥٠)﴾ [الأحزاب] عندها قالت السيدة عائشة لسيدنا رسول الله : يا رسول الله ، أرى الله يسارع إلى هواك ، فقال لها ﷺ : « وأنت يا عائشة ، لو اتقيتِ اللهَ لسارع فى هواك »[2] .

---

(١) قوله (النبى) هنا دليل على أن هذا أمر خاص برسول الله ، فليس لأحد من امته أن يتزوج امرأة على سبيل الهبة بأن تهب نفسها له ، وهذا من الأمور التى خُصَّ بها رسول الله ؛ لذلك قال تعالى : ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ.. (٥٠)﴾ [الأحزاب]

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٨٨ ، ٥١١٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٦٤) كتاب الرضاع ، وأحمد فى مسنده (٦/١٣٤ ، ١٥٨ ، ٢٦١) من حديث عائشة رضى الله عنها .

والمعنى : أن الله يسارع فى هواى ، لأننى سارعتُ فى هواه ، طلب منى فأدَّيْتُ ؛ لذلك يُلبى لى ما أريد من قبل أنْ أطلب منه .

وقال ﴿ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] لأن الهبة هنا خاصة بالمؤمنة ، فإنْ كانت كتابية لا يصح أن تهبَ نفسها للنبى ، لكن أتحل له المرأة بمجرد أن تهب نفسها له ؟ قالوا : لا ، إنما لا بُدَّ من القبول ، فإنْ قالت المرأة لرسول الله : أنا وهبتُ نفسى لك لا بُدَّ أنْ يقبل هو هذه الهبة ؛ لذلك علَّق على هذه المسألة بقوله ﴿ إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] لأن المسألة مبنية على إيجاب وقبول .

وللعلماء كلام فى هذه المسألة ، فبعضهم[1] قال : لم يأخذ رسول الله امرأة بهبة أبداً ، وقال آخرون[2] : بل عنده أربع موهوبات هُنَّ : ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين ، وأم شريك بنت جابر ، وخولة بنت حكيم .

وليس فى هذا التعارض (فزورة) ، فمن السهل أنْ نجمع بين

---

(١) قاله ابن عباس ، أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٦٣٠) وعزاه لابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى السنن عن ابن عباس قال : لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له .

(٢) ذكره القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٤٧٧) ، وكذا ابن كثير (٣/ ٥٠٠) والسيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٦٢٨ - ٦٣٠) . قال القرطبى : « الذى فى الصحيحين يقوى هذا القول ويعضده ، روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كنت أغار على اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول : أما تستحى امرأة تهب نفسها لرجل حتى أنزل الله تعالى ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] . فقلت : والله ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك . وروى البخارى عن عائشة أنها قالت : كانت خولة بنت حكيم من اللائى وَهَبْن أنفسهن لرسول الله ﷺ ، فدلَّ هذا على أنهن كُنَّ غير واحدة » .

هذين القولين ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأحزاب] فربما وهبتْ نفسها للنبى ، لكنه لم يُرِد ، أو وهبتْ نفسها للنبى ، فأراد أنْ يكرمها ، وأنْ يجعل لها مهراً ويتزوجها .

وكلمة ﴿ يَسْتَنكِحَهَا .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأحزاب] مثل ينكحها ، فهما بمعنىً واحد ، مثل : عَجل واستعجل .

ومعنى ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأحزاب] أن الله تعالى خَصَّ رسوله بأشياء ميَّزه بها ؛ لأن مهمته ﷺ ليستْ مع نفسه هو ، إنما مهمته مع الناس جميعاً ، وليس للناس المعاصرين له فحسب ، إنما جميع الناس حتى قيام الساعة .

إذن : فمشغولياته ﷺ كثيرة كبيرة ، كما قال سبحانه ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴿٥﴾ ﴾ [المزمل]

لذلك أراد الحق سبحانه ألاَّ يشغله شيء عن مهمته هذه ، وأراد أنْ يتوفر رسول الله لأداء هذه المهمة التى هو بصددها ، بحيث إذا ما عشق عملية البلاغ عن الله واندمج فيها ومعها تموت فى نفسه كلُّ الأهواء ، ولا يبقى إلا انشغاله بمهمة الدعوة .

بدليل أن الوحى فى أوله كان يجهد سيدنا رسول الله ، وكان جبينه يتفصَّد عرقاً ، ويذهب إلى أهله فربما يقول : زَمِّلونى زمِّلونى ، ودثِّرونى دثِّرونى ، ثم شاء الله تعالى أنْ يرفع عنه هذه المعاناة ، وأنْ يريحه مما أنقض ظهره وأتعبه ، ففتر الوحى فترة عن رسول الله حتى استراحتْ أعصابه ، وهدأتْ طاقته ، وبقيت معه حلاوة ما أوحى إليه هذه الحلاوة التى جعلتْ سيدنا رسول الله يتشوَّق للوحى من جديد ، وشوقك إلى الشيء يُنسيك التعب فى سبيله .

وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) ﴾ [الضحى]

وعجيبٌ أن يقول المشركون عند انقطاع الوحى : إن ربَّ محمد قلاه ، ففى الجفوة عرفوا أن لمحمد رباً يجفوه ، أما حين الخلوة والجَلْوة قالوا : مُفْترٍ وكذَّاب وشاعر .. إلخ .

ومعنى ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) ﴾ [الضحى] يعنى : ستكون عودة الوحى خيراً لك من بدايته ؛ لأنه جاءك أولاً فوق طاقتك فأجهدك ، أما فى الأخرى فسوف تستدعيه أنت بنفسك وتنتظره على شوق إليه ، فطاقتك هذه المرة مستعدة لاستقباله ، قادرة على تحمُّله دون تعب أو إجهاد .

إذن : فالحق سبحانه جعل لرسوله ما يُيسِّر له أمر الاندماج فى المستقبل ، لذلك لما عاوده الوحى لم يتفصَّد جبينه عرقاً ، ولا أُجهد كالمرة الأولى ، لأن طاقة الشوق عنده وطاقة الحب تغلبتا على هذا التعب وهذا الإجهاد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ..(٥٠) ﴾ [الاحزاب] أى : من العدد الذى حُدِّد بأربعة ، ومن المهر الذى سُمِّى ساعة العقد ، والمراد أن لكلٍّ حكمه وقانونه ، فلكَ يا محمد حكم يناسبك ، ولأمتك حكم .

وبمناسبة ما نحن بصدده من الحديث عن أحكام الزواج والتعدد يجدر بنا أن نشير إلى الضجة التى يثيرها أعداء الإسلام بسبب مسألة « تعدد الزوجات » ، مع أن التعدد فى مصر لم يصل إلى حَدِّ الظاهرة ، وليس وباءً كما يُصوِّره البعض .

فالذين أحصوا هذه المسألة وجدوا أن الذين عدَّدوا بزوجتين ثلاثة بالمائة ، والذين عددوا بثلاث واحد فى الألف ، والذين عدَّدوا بأربع نصف فى الألف ، فلماذا إذن إثارة الناس ضد ما شرع الله ، ثم ألم يمتصّ التعدد فائضاً من النساء ؟

وتأتى الزوجة تشتكى : بعد أنْ عشْتُ معه كذا وكذا ، وخدمته كذا وكذا يتزوج علىَّ ؟ فأقول لها : أضَرَّك أنتِ ؟ تقول : نعم ، أقول: لكنه نفع أخرى ، فواحدة بواحدة ، ولماذا ننظر إلى المتزوجة ، ونغفل التى لم تتزوج ، أليس من حقِّها هى الأخرى أن تتزوج ؟

ثم إن المرأة التى قبلَتْ أن تكون الثانية ما قبلت إلا لأنها لم تستطع أنْ تكون الأولى ، وكذلك الثالثة ما قبلتْ ، إلا لأنها لم تستطع أن تكون الثانية .. إلخ ثم نقول لهؤلاء : أألزمك ربك أنْ تعدد ؟ هذه مسألة أباحها الشارع لحكمة ، ولم يلزمك بها ، فإنْ كان التعدد لا يعجبك فاكتفِ بواحدة .

والذين أثاروا الضجة فى تعدُّد الزوجات أثاروا أكثر منها فى مسألة مِلْك اليمين فى الإسلام ، وراحوا يتهمون الإسلام والمسلمين : كيف يجمع الرجل فوق زوجاته كذا وكذا من مِلْك اليمين ؟

ومعلوم أن مِلْك اليمين كان موجوداً قبل الإسلام ، وظل موجوداً ، حتى دعا القانونُ الدولى العام إلى منع ظاهرة العبودية ، ودعا إلى تحرير العبيد ، فسرَّح الناس ما عندهم من العبيد ، وكان منهم مَنْ يشترى العبيد من أصحابهم ثم يُطلق سراحهم .

ومن هؤلاء العبيد مَنْ كان يعود إلى صاحبه وسيده مرة أخرى يريد العيش فى كنفه وفى عبوديته مرة أخرى ؛ لأنه ارتاح فى ظل

هذه العبودية ، وعاش فى حمايتها ، وكان بعضهم يفخر بعبوديته ولا يسترها فيقول : أنا عتيق آل فلان .

والمنصف يجد أن مِلْك اليمين فى الإسلام ليست سُبَّة فيه ، إنما مفخرة للإسلام ؛ لأن مِلْك اليمين وسيلته فى الإسلام واحدة ، هى الحرب المشروعة ، فالإسلام ما جاء لينشىء رِقّاً ، إنما جاء لينشىء عتقاً .

الإسلام جاء والرق موجود ، وكان العبيد يُباعون مع الأرض التى يعملون بها ، ولا سبيل للحرية غير إرادة السيد فى عِتْق عبده ، فى حين كانت منابع الرقّ كثيرة متعددة ، فكان المدين الذى لا يقدر على سداد دَيْنه يبيع نفسه أو ولده لسداد هذا الدين ، وكان اللصوص وقُطَّاع الطرق يسرقون الأحرار ، ويبيعونهم فى سوق العبيد ... إلخ .

فلما جاء الإسلام حرَّم كل هذه الوسائل ومنعها ، ولم يُبْقِ إلا منبعاً واحداً هو السَّبْى فى حرب مشروعة ، وحتى فى الحرب ليس من الضرورى أن ينتج عنها رِقٌّ ؛ لأن هناك تبادلَ أسرى ، ومعاملةً بالمثل ، وهذا التبادل يتم على أقدار الناس ، فالقائد أو الفيلسوف أو العالم الكبير لا يُفتدى بواحد من العامة ، إنما بعدد يناسب قدره ومكانته ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا .. ④ ﴾ [محمد]

لأن الحرب ما شُرِعَتْ فى الإسلام ليُرغم الناسُ على الدين ، لكن ليُحمى اختيارهم للدين ، بدليل أن البلاد التى دخلها الفتح الإسلامى بقى فيها كثير من الناس على كفرهم ، ثم ألزمهم دفع الجزية مقابل الزكاة التى يدفعها المسلم ، ومقابل الخدمات التى تؤديها إليه الدولة .

ثم تأمل كيف يعامل الإسلام الأسرى ، وعلى المجتمع الظالم الذى ينتقد الإسلام فى هذه الجزئية أن يعلم أن الذى أسرْتَه فى المعركة قد قدرْتَ عليه ، وتمكَّنْتَ منه ، وإنْ شئت قتلتَهُ ، فحين يتدخَّل الشرع هنا ويجعل الأسير ملْكاً لك ، فإنما يقصد من ذلك حَقْن دمه أولاً ، ثم الانتفاع به ثانية ، إمَا بالمال حين يدفع أهله فديته ، وإما بأنْ يخدمك بنفسه .

إذن : المقارنة هنا ليستْ بين رِقٍّ وحرية كما يظن البعض ، إنما هى بين رِقٍّ وقتل .

إذن : مشروعية الرق فى أسرى الحرب إنما جاءتْ لتحقنَ دم المأسور ، وتعطى الفرصة للانتفاع به ، فإذا لم يتم الفداء ولا تبادل أسرى وظَلَّ أسيرك بيدك ، فاعلم أن له أحكاماً لا يصح تجاوزها ، فهو شريكك فى الإنسانية المخلوقة لله تعالى ، وما أباح الله لك أنْ تأسره ، وأن تملكه إلا لكى تَحْقِنَ دمه ، لا أن تُذلَّهُ .

واقرأ قول النبى ﷺ : « إخوانكم خَولكُم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمَنْ كان أخوه عنده فليُطْعمه مما يطعم ، وليُلبسْه مما يلبس ، ولا يُكلِّفه ما لا يطيق ، فإن كلَّفه فلْيُعنْه »[1] .

فأىُّ إكرام للأسير بعد هذا ، بعد أنْ حقن دمه أولاً ، ثم كرَّمه بأنْ جعله أخاً لك ، واحترم آدميته بالمعاملة الطيبة ، ثم فتح له عدة منافذ تؤدى إلى عتْقه وحريته ، فإنْ كان للرقِّ فى الإسلام باب واحد ، فللحرية عدة أبواب ، منها العتق فى الكفارات وهى فى تكفير الذنوب التى بين العبد وربه .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠ ، ٢٥٤٥) كتاب الإيمان ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٦١) كتاب الأيمان من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

فإذا لم تكُنْ هناك ذنوب فقد رغَّبَنا الشرع في عتْق الرقاب لاجتياز العقبة كما في قوله تعالى : ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) ﴾ [البلد]

هذا إنْ كان الأسير رجلاً ، فإنْ كان امرأة ، ففيها نفس التفصيل السابق ، وتُعامَل نفس المعاملة الطيبة يزيد على ذلك أن للأَمَة - وهي في بيت سيدها - وضعاً خاصاً ، فهي ترى سيدتها تتمتع بزوجها ، وترى البنت تتزوج ، فيأخذها زوجها إلى بيت الزوجية ، إلى آخر مثل هذه الأمور ، وهي تقف موقف المتفرج ، وربما أخذتها الغيرة من مثل هذه المسائل ، فيكرمها الله حين يُحلّها لسيدها ، فيكون لها ما لسيدتها الحرة ، فإذا ما أنجبتْ لسيدها ولداً صارت حُرَّة به ، وهذا منفذ آخر من منافذ القضاء على الرق .

وقوله تعالى : ﴿ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ .. (٥٠) ﴾ [الاحزاب] هذه هي الهبة الخالصة للنبي ﷺ دون أمته ، كأن الله يقول لنبيه : لا نريد أنْ نُحمِّلك ضيقاً في أيِّ شيء لتفرغ أنت لمهمتك الصعبة . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (٥٠) ﴾ [الأحزاب]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) ﴾

قوله ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] أي : تؤخر مَنْ تشاء من زوجاتك عن ليلتها ﴿ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] أي : تضم إليك ، وتضاجع مَنْ تشاء منهن ﴿ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] من طلبتَ من زوجاتك وقربت ﴿ مِمَّنْ عَزَلْتَ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] أي : اجتنبتَ بالإرجاء والتأخير ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] أي : لا إثم ولا حرج .

﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] أي : أنهُنَّ جميعاً سيفرَحْنَ ، التي تضمها إليك ، والتي تُرجئها وتؤخرها ، وسوف يرضَيْنَ بذلك ؛ لأنهن يعلَمنَ أن مشيئتك في ذَلك بأمر الله ، فالتي ضمها رسول الله إليه تفرح بحب رسول الله ولقائه ، والتي أُخِّرَتْ تفرح ؛ لأن رسول الله أبقى عليها ، ثم عاد إليها مرة أخرى وضمَّها إليه وقرَّبها ، وهذا يدل على أن لها دوراً ومنزلة ، وأيضاً حين يكون ذلك من تشريع رب محمد لمحمد ، فإنه لا يعني أنه كرهها أو زهد فيها ، فإنْ فعلْتَ ذلك يا محمد ـ مع أن فيه مشقة ـ فإنما فعلْتَه طاعة لأمر مَنْ ؟ لأمر الله ، فتأخذ ثواب الله عليه .

وحين نتأمل كلمة ﴿ تَقَرَّ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] تجد أنها كعامة كلمات القرآن (كالألماس) ، لكل ذرة تكوينية فيه بريق خاص وإشعاع ؛ لذلك يقولون عنه : (دا بيلالي) ومع كثرة بريقه لا يطمس شعاعٌ فيه شعاعاً آخر ، كذلك كلمات القرآن .

(قرَّ) وردتْ كثيراً في القرآن كما في ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ .. (٩) ﴾ [القصص]

كلمة قرَّ معناها سكن ، نقول : قَرَّ بالمكان أي : استقر فيه وسكن ، والقرّ هو البرد ، وقُرَّة العين تأتي بالمعنيين ، فالعين تسكن

عند شىء ما ، ولا تنتقل إلى غيره إنْ كان جميلاً يأسرها فلا تفارقه ، يقولون : فلان قيْد النظر .

وفى المقابل يقولون : فلان عينه زائغة يعنى : لا تستقر على شىء أو (عينه دشْعَة) عند إخواننا الذين ينطقون الجيم دالاً مثل (دِرْدَة) يقصدون جرجا ، والعين الجشعة[1] بنفس المعنى ، وفى المعنى السياسى يقولون : فلان له تطلُّعات يعنى : كلما وصل إلى منصب نظر إلى الأعلى منه .

أما القُرُّ بمعنى البرودة ، فَقُرَّة العين تعنى : برودتها ، وهى كناية عن سرورها ؛ لأن العين لا تسخُن إلا فى الحزن والألم ؛ لذلك ثبت أخيراً أن حبة العين (ترمومتر) دقيق لحالة الجسم كله ، وميزان لصحته أو مرضه .

ولأهمية العين نقول فى التوكيد : جاءنى فلان عينه ، وسبق أن تحدثنا عن ظاهرة الاستطراق الحرارى فى جسم الإنسان وقلنا : إن من المعجزات فى تكوين الإنسان أن الاستطراق الحرارى فى جسمه يتم بنظام خاص ، بحيث يحتفظ كل عضو فى الجسم بحرارة تناسبه ، فإن كانت حرارة الجسم العامة والمثالية ٣٧° - ومن العجيب أنها كذلك عند سكان القطب الشمالى ، وهى كذلك عند سكان خط الاستواء - فإن حرارة الكبد مثلاً لا تقل عن ٤٠° مئوية ، أما العين فإذا زادت حرارتها عن عشر درجات تنفجر .

إذن : فقُرَّة عَيْن زوجات النبى وسُرورهن فى مشيئته ، حين

---

(١) الجشع : أسوأ الحرص . وقيل : هو أشد الحرص على الأكل وغيره ، وقيل : هو أن تأخذ نصيبك وتطمع فى نصيب غيرك . [لسان العرب - مادة : جشع] .

يُقرِّب إليه مَنْ يُقرِّب ، أو يؤخر من يؤخر ؛ لأن مشيئته نابعة من أمر الله له .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ.. (٥١) ﴾ [الأحزاب] أي : في أيِّ الحالات ، ثم جاء قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) ﴾ [الأحزاب] ليشير إلى أن الرضا هنا ليس هو رضا القوالب ، إنما يراد رضا القلب بتنفيذ أوامر الله دون أنْ يكون في النفوس دخائل أو اعتراض .

فالله سبحانه ﴿ كَانَ عَلِيمًا .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] يعلم ما في القلوب ﴿ حَلِيمًا (٥١) ﴾ [الأحزاب] لا يجازيكم على ما يعلم من قلوبكم ، ولو جازاكم على قَدْر ما يعلم لأتعبكم ذلك .

وتأمل حلْم الله علينا ورحمته بنا في مسألة البدء ببسم الله ، فالنبي ﷺ يُعلِّمنا أن كل عمل لا يبدأ ببسم الله فهو أبتر أي : مقطوع البركة ، فالإنسان حين يبدأ في الفعل لا يفعله بقدرته عليه ، ولكن بتسخير مَنْ خلقه له ، فحين تقول : بسم الله أفعل كذا وكذا ، فإنك تفعل باسم الذي سخَّر لك هذا الشيء .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) ﴾ [الزخرف]

فعليك أنْ تبدأ ببسم الله حتى إنْ كنتَ عاصياً لله ، إياك أن تظنَّ أنك لستَ أهلاً لهذه الكلمة ؛ لأن ربك حليم ، ورحمن رحيم .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ[2] وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾

سبق أن تناولنا تفسير هـذه الآية فى إطار سياق الآيات السابقة ، ونلخصها هنا فى أن الحق سبحانه بدأ رسوله أولاً بأن أحلَّ له فى قوله : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأحزاب] ثم قيد هذا التحليل هنا ، فقال : ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٠١) : « ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وابن زيد وابن جرير وغيرهم أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبى ﷺ ورضاً عنهن على حُسْن صنيعهن فى اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لمَّا خيرهن رسول الله ﷺ كما تقدم فى الآية ، فلما اخترن رسول الله ﷺ كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن وحرَّم عليه أن يتزوج بغيرهن أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسرارى فلا حرج عليه فيهن ، ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج فى ذلك ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوُّج لتكون المنة لرسول الله ﷺ عليهن » .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٨/٥٤٩١) : « اختلف العلماء فى إحلال الأَمَة الكافرة للنبى ﷺ على قولين :

الأول : تحل لعموم قوله ﴿ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأحزاب] قاله مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحكم .

الثانى : لا تحل تنزيهاً لقدره عن مباشرة الكافرة ، وقد قال الله تعالى ﴿ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الممتحنة] فكيف به ﷺ ؟ » .

فالحق سبحانه يأتى بالمخفَّف فى أشياء ، ثم يأتى بالمثقَّل ؛ ليعلم القوم أن الله تعالى بدأ رسوله بالعطف والرحمة والحنان ، ويُبيِّن فضله عليه ، كما قال له سبحانه ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ .. (٤٣)﴾ [التوبة] قبل أنْ يعاتبه بقوله : ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. (٤٣)﴾ [التوبة]

وهذه الآية ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ .. (٥٢)﴾ [الاحزاب] توضح أنّ ما شُرِع لرسول الله فى مسألة تعدُّد الزوجات غير ما شُرِع لأمته ، فرسول الله استثناه الله تعالى فى المعدود لا فى العدد ، والفرق بين الاستثناء فى العدد والاستثناء فى المعدود أن العدد يُدَار فى أشياء متعددة ، فلو أنه أباح له عدد تسع ثم تُوفِّين لكَان له أن يتزوج بتسع أُخَر ، وإنْ ماتت واحدة منهن له أن يتزوج بواحدة بدلاً منها .

لكن الاستثناء لم يكُنْ لرسول الله فى العدد كأمته ، إنما فى المعدود ، بحيث يقتصر على هؤلاء بخصوصهن ، والحكمة فى ذلك أن التى يفارقها زوجها من عامة نساء المؤمنين لها أنْ تتزوج بغيره ، على خلاف زوجات رسول الله ، فإنهن أمهات للمؤمنين ، فلا يحل لهُنَّ الزواج بعد رسول الله .

ثم أوضحنا أن مسألة مِلْك اليمين ليستْ سُبَّة فى جبين الإسلام ، إنما هى ميزة من ميزاته ، فالله ملَّك الرقبة ليحميها من القتل ، والمقارنة هنا ليستْ بين رق وحرية ، إنما بين رق وقتل كما أوضحنا ، والذى يتأمل حال المملوك أو المملوكة فى ظل الإسلام لا يسعه إلا الاعتراف بحكمة الشرع فى هذه المسألة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ وزَّع الأمر بين رسول الله وبين أمته ، فكما قال للرسول فى أول السورة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ اتَّقِ اللَّهَ .. ﴿١﴾ ﴾

(١) قال حماد بن زيد : هذه الآية نزلت فى الثقلاء ، فالجمهور من المفسرين على أن سببها أن رسول الله ﷺ لما تزوج زينب بنت جحش امرأة زيد أولم عليها ، فدعا الناس ، فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدثون فى بيت رسول الله وزوجته مُولِّية وجهها إلى الحائط ، فثقلوا على رسول الله ﷺ . قال أنس : فما أدرى آأنا أخبرت النبى ﷺ أن القوم قد خرجوا أو أخبرنى . قال أنس : فانطلق ﷺ حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه فألقى الستر بينى وبينه ونزل الحجاب . قال : ووُعظ القوم بما وُعظوا به ، وأنزل الله عز وجل هذه الآية .. أورده القرطبى فى تفسيره (٨/٥٤٩٢) .

[الأحزاب] أمر أمته بذكْره وطاعته ، وكما تكلَّم عن أمر يتعلَّق برسول الله تكلَّم كذلك عن أمر يتعلق بأمته فى قوله ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ .. ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب]

بعد ذلك قال لرسول الله : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب] ليُبيِّن عموم نَفْعه لأمته ، فجازاه عن الأمة بأن يُصلُّوا عليه ، وأنْ يتأدبوا حين دخولهم بيته ﷺ ، فقال هنا : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ .. ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب] لأن التكليف لا بُدَّ أن يكون لمن آمن بالله . وقلنا : إن الحق سبحانه رب وإله ، ومعنى (رب) أنه سبحانه خلق وربَّى وأنعم وتفضَّل ، والخَلْق والتربية والإنعام والتفضُّل ليس خاصاً بالمؤمنين ، بل لكل مَن استدعاه الله للوجود من مؤمنين وكافرين .

فالشمس تشرق على الجميع ، والمطر يروى أرض المؤمن والكافر ، والأرض تستجيب للكل ، فالذى يُحسن أَخْذ أسباب الله من عطاء الربوبية يأخذ النتيجة ، وينال نصيبه موقوتاً بمدى الربوبية فى الدنيا ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى] والله لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملاً .

فالمؤمن الذى لا يأخذ يد الله الممدودة له بالأسباب ويهملها يعيش مُتخلِّفاً عالةً على غيره ، يعيش شحاذاً يستجدى قُوتَه حتى من الكافر ، فإذا ما خَلَتْ الساحة للكافر ، وأخذ هو بالأسباب ، وأعطاها حقوقها أخذ هو عطاء الرب ، وكان أَوْلَى بالمؤمن ألاَّ يترك عطاء ربه ، يأخذه مَنْ لا يؤمن بالله ، ثم يتخلف هو عن ركْب الحضارة ، وإنْ كانت الحضارة التى وصل إليها الكفار اليوم حضارة فى الماديات فحسب .

أما القيم والأخلاقيات فقد انحدرتْ في هذه المجتمعات ، بدليل أنك حين تذهب إلى هـذه البلاد وتنزل مثـلاً في فندق ـ كمـا نزلنا ـ تجد مكتوباً على باب الحـجرة : إذا دخل عليك اللصوص فلا تـقاوم ، فإن حياتك أثمن مما معك ، إذا خرجتَ إلى الشارع فلا تحمل من المال إلا بقدر ضرورياتك . إذن : ارتقوا في شيء ، وانحدروا في أشياء .

وإذا كان مظهر ارتقائهم في الناحية الاقتصادية ، فانظر إلى أعلى دَخْل للفـرد في الـعـالم تجـده في السـويد ، ومع ذلك تـكثـر عندهم الأمراض النفسيـة والعصبية والانتحار والجـنون والشذوذ وغيرها من الأمراض الاجتماعية .

لقد تحضَّـرتْ هذه البلاد حضارة مادية ؛ لأنهم أخذوا بأسـبابها ، فـأتقن كُلٌّ عـمله ، وأعطى وقت العـمل للعـمل ، فمـا بين الثـامنة إلى الثانيـة عشرة لا تجـد إنساناً في الشارع ، ولا تجـد أحداً يجلس على (القهوة) مثلاً أو يضـيع وقت العمل ، وفي وقت الراحة يذهب الجميع إلى المطعم ليأكل (السندوتش) الجاهز ، ثم يعود إلى عمله .

هكذا يعيش المجتمع المادي ، فالذي لا يعمل فيه يموت من الجوع ، والحمـد لله أن شبابنا تنبهـوا إلى أهمية العمـل وتخلَّوْا عن الطفولة التي كانوا يعيشون فيها حتى الثلاثين ، وهم عَالَة على الأبوين .

والحق سبـحـانه هنا يُعلِّمـنا الأدب مع رسـول الله ، ويجـعله لنا قدوة ، فهـو ﷺ عاش عيشة الكـفاف مطعماً وملبسـاً ومسكناً ، فليس عنده إلا عدة حجـرات ، لكل زوجة من زوجاته حجـرة واحدة ، فليس لديه حجرة صـالون أو استقبال ، فلا بُدَّ أن تتـعلم الأمة آداب الدخول وآداب الزيارة في مثل هذه الحالة ، وخاصة مع رسول الله في بيوته .

فقال سبحانه ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ

لَكُمْ .. ﴿٥٣﴾ [الأحزاب] كلمة (بيوت) جمع بيت ، وهو ما أُعِدَّ للبيتوتة أي : للمبيت فيه ، والمبيت في الأغلب الأعَمِّ لليل ، فهو محَل السكون والبيات ، أما النهار فهو محلٌّ الحركة ، ولابد للإنسان بعد التعب والجهد أن يأوى بالليل إلى مكان يستريح فيه ويفىء إليه ؛ لذلك سُمِّي البيت سكناً ، كذلك سُمِّيت الزوجة سكناً للسبب نفسه .

فالبيت مسكن لإيواء القالب وراحته ، والمرأة سكَن لإيواء القلب وراحة النفس ، فكلاهما ينبغى أن يكون مصدراً للراحة .

والبيت يُجمع على بيوت إنْ أردنا المسكن ، ويجمع على أبيات إنْ أردنا البيت الشعرى ، وسُمِّى الشعر بيتاً عند العرب وهم أمة فصاحة وبيان ؛ لأنه تأوى إليه المعانى ، كما نأوى نحن إلى بيوتنا ونسكن فيها ، كذلك المعانى تسكن بيت الشعر ، فيصير البيت نفسه حكمة .

لذلك يقول أحمد شوقى رحمه الله : لا يزال الشعر عاقلاً - يعنى : لا زينة له من قولهم المرأة العاقل أى : التى لا زينة لها[1] - ما لم تُزيِّنه الحكمة ، فهو بدونها هراء لا فائدة منه .

ولا تزال الحكمة شاردة حتى يؤويها بيت من الشعر يُحفظ ويُتداول على مَرِّ العصور ، كما نستشهد نحن الآن بأبيات المتنبى والمعرى وشوقى .. إلخ .

والبيتوتة فى كل شىء بحسبها ، فالذين يعملون بالنهار بيتوتهم بالليل ، والذين يعملون بالليل بيتوتهم بالنهار ، وإنْ كان الأصل فى البيات أن يكون ليلاً . وإياك أنْ تشغل إنساناً وقت بيتوته سواء أكانت بالليل أو بالنهار ، فوقت العمل للعمل ، ووقت السكن للسكن .

---

(١) قال ابن منظور فى لسان العرب (مادة : عقل) : « العاقلة لا تحمل السِّنَّ والإصبع والموضحة وأشباه ذلك » . والأوضاح : حلْى من الدراهم الصحاح .

لذلك فإن أهل الحكمة عندنا فى الفلاحين يقولون : (مَنْ يحرس) يعنى : بالليل (لا يحرث) يعنى : بالنهار ؛ لأن الإنسان إنِ انشغل وقت راحته لا يجيد عمله ولا يتقنه .

بصرف النظر ، أكان وقت الراحة فى الليل أو فى النهار ، فأنت مثلاً حين تتأمل البلاد التى تشرق فيها الشمس ثلاثة أشهر أو ستة أشهر ، وتغيب أيضاً ثلاثة أشهر أو ستة أشهر ، هل نتصور أن يعمل أهل هذه البلاد طوال الثلاثة أشهر ، وينامون ثلاثة أشهر ؟ لا إنما يُقسِّمون هذه الفترة فى ليل أو نهار إلى فترات : فترة للعمل ، وفترة للراحة .

لذلك تجد من عظمة القرآن أنْ يحتاط لمثل هذه الأمور ، فيقول سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [الروم] فالنوم يكون بالليل ، ويكون أيضاً بالنهار لمن تستدعى طبيعة عمله أن يعمل بالليل .

والبيت يكون على قدر إمكانات صاحبه ، المهم أنْ يكون له مكان يأوى إليه ويستريح فيه ، مهما قَلَّ ، حتى لو كان مكاناً ضيِّقاً على قَدْر ما يسع الإنسان أنْ يضع جنبه على الأرض ، فإنْ كان فيه مُتَّسع فبها ونِعْمت ، وعلى طارق البيت أنْ يراعى مدى البيتوتة لمن يطرق عليه .

وكما يتفاوت الناس فى البيوت ، كذلك يتفاوتون فى ترف الحياة وأسباب الراحة فى البيت على حسب الإمكانات ، وما دامت الراحة على قدر الإمكانات ، فينبغى أنْ يتحلَّى كلٌّ بالرضا ، وأنْ يربط بين عمله ودَخْله وبين ترف حياته ، فقبل أنْ تفرض لنفسك حياة مترفة ، افرض لها أولاً عملاً مترفاً بنفس المستوى ، بحيث توفر منه إمكانات هذا الترف .

وكما يقول المثل (على قدر لحافك مدّ رجليك) فإذا كانت إمكاناتك لا توفر لك إلا الكفاف ، فلتكُنْ راضياً به ، وإنْ تمردَّتَ وطلبْتَ المزيد فلتتمرد أولاً على نفسك ، ولتعمل العمل الذى يوفر لك ما تتطلع إليه .

وآفة الناس فى اقتصادهم أنْ يحددوا مستوى الحياة أولاً ، ثم يرغمون دخولهم وإمكاناتهم على هذا المستوى ، فيحدث العجز ، ولا تفى الإمكانات بالمتطلبات ، إنما الواجب أنْ أُحدِّد مستوى حياتى على ضوء دَخْلى وإمكاناتى ، وبذلك يعيش الإنسان سعيداً مرتاحاً لا يرهقه شىء ، ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن الدخول والإمكانات أنْ نراعى الحلال فى الكسب وفى الإنفاق .

وإذا كانت البيوت وأسباب الراحة فيها بحَسْب إمكانات أصحابها ، فينبغى أنْ تكون أحوالهم النفسية أيضاً على قدر إمكاناتهم حتى لا يمتلىء قلب الفقير حِقْداً على صاحب النعمة .

إذن : لا بُدَّ لنا أن نتحلَّى بالرضا ، وأنْ نقنع بما فى أيدينا ، ومَنْ يدريك لعل صاحب النعمة هذا ورثها ، وإنْ كان لم يتعب هو فيها فقد تعب آباؤه وأجداده ، وسبق أن قلنا : إن الذى يعرق عشر سنين من حياته يرتاح بقية عمره ، والذى يعرق عشرين سنة يُريح أولاده ، والذى يعرق ثلاثين يُريح أحفاده ، ومَنْ ذا الذى عرق وكدَّ ولم يجد ثمرة عرقه ؟

فمَنْ أراد أنْ يعيش محترماً مكرماً حال شيخوخته فليعمل فى شبابه وحال قدرته ، وليعرق قبل أنْ يأتيه يوم لا يجد فيه هذه القدرة ؛ لذلك يراعى سيدنا رسول الله هذا المعنى فى قوله ﷺ :

« أعْطوا الأجير حقه قبل أنْ يجفَّ عرقه »[1] .

أما الذين يتسكعون في الشوارع أو على القهاوى فليسوا أهلاً لهذه الحياة الكريمة حال شيخوختهم ، كذلك العامل الذى لا يعطى للعمل حقه ، أو لا يتقنه ، أو يجلس يراقب صاحب العمل يتحيَّن الفرصة لإضاعة الوقت . ومعلوم أن القرش إذا اكتسبه صاحبه دون وجه حق كان وبالاً عليه وفساداً لحاله ؛ لأنه لم يعرق به .

واقرأ إنْ شئْتَ قول سيدنا رسول الله ﷺ : « مَنْ أصاب مالاً من مهاوش ، أذهبه الله في نهابر »[2] والمهاوش هي الطرق غير المشروعة لجمع المال ، وهو نفس المعنى الذى نقصده حين نقول مثلاً : فلان جمع هذا المال من (الهَبْش) أو (النتش) ، والنهابر هي الأبواب التى تُفتح لصرف هذا المال فيما لا فائدة منه . وكثيراً ما نرى بعض الناس دخولهم ورواتبهم كبيرة ، ومع ذلك يعيشون عيشة الفقراء ، لا ترى عليهم ولا على أولادهم أثراً لهذه النعمة .

والناس يختلفون في نظرتهم إلى النعمة في أيدى الآخرين فقوىُّ الإيمان ساعة يرى النعمة في يد غيره لا يحسده عليها ، إنما يرى أنها فَضْل الله على عباده ، وتراه يدعو لصاحب النعمة بالبركة ، ويقول : والله إنه يستحق هذه النعمة وأكثر منها ؛ لأنه جَدَّ واجتهد .

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه (٢٤٤٣) من حديث ابن عمر ، قال البوصيرى في الزوائد : إسناده ضعيف ، فيه ضعيفان ، وأخرجه بهذا اللفظ أيضاً الطبراني في معجمه الصغير (٢٠/١) من حديث جابر ، وأبو نعيم في الحلية (١٤٢/٧) من حديث أبى هريرة ، فهو بمجموع هذه الطرق والروايات يرقى إلى مرتبة الحسن ، وله أصل في صحيح البخارى عن أبى هريرة ـ كتاب البيوع .

(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء (٢١٣/٢) وعزاه للقضاعي عن أبى سلمة الحمصى مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقى السبكي : لا يصح والمهاوش : مكاسب السوء ، فهو كل مال يُصاب من غير حله ولا يدرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك [لسان العرب ـ مادة : هوش] والنهابر : المهالك أى : أذهبه الله في مهالك وأمور متبددة [لسان العرب ـ مادة : نهبر] .

المؤمن يقول : ما شاء الله ، لا قوةَ إلا بالله ، اللهم بارك له وأعطنى من نعمك ، المؤمن يرى فى نعمة الدنيا نموذجاً مُصغَّراً لنعمة الآخرة ، فيقول : هذا ما أعدَّه البشر لأنفسهم ، فكيف بما أعدَّه الله لخَلْقه ؟ عندها يتراءى له نعيم الجنة ، فيُقبل عليها بقلب يملؤه الإيمان واليقين ، وهذه النظرة للنعمة عند الآخرين تسمى غِبْطة .

أما غير المؤمن ـ والعياذ بالله ـ فيحقد على صاحب النعمة ، ويراه غير أهْل لها ، ويتمنى زوالها من عنده ، ويحسده عليها ، وهذا كله دليل على ضَعْف الإيمان والاعتراض على أقدار الله فى خَلْقه .

ونُسمِّى المساجد بيوت الله ، وسُمِّى المسجد بيت الله ؛ لأنه جُعِل خصيصاً لكى نقابل فيه الله حينما نسمع نداء الصلاة ؛ لذلك حذرنا رسول الله أنْ نُدخل الدنيا معنا بيوت الله ، فحذَّر أنْ تُعقد الصفقات فى المساجد ، أو تُنشَد فيها الضالة ، ولا أدلَّ على ذلك من قوله ﷺ لمن عقد صفقة تجارية فى بيت الله : « لا باركَ اللهُ لك فى صفقتك »[1] وقال لمن نشد ضالته فى المسجد : « لا ردَّ اللهُ عليك ضالَّتك »[2] .

لأن الإنسان يعيش طوال وقته للدنيا ، فلا يجوز أن يأخذها معه حتى فى وقت الصلاة ، فوقت الصلاة للقاء الله ، وهذا الوقت لا يعطل حركة حياتك ، إنما يعطيك شحنة إيمانية تُقوِّيك على متابعة حركة حياتك ، وسبق أن قلنا : إن هذه الشحنة أشبه بشحنة البطارية ، فهل يقال لمن أخذ البطارية ليشحنها أنه عطَّل البطارية ؟

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك » أخرجه الترمذى فى سننه (١٣٢١) وقال : « حديث حسن غريب » .

(٢) أخرج مسلم فى صحيحه (٥٦٨) كتاب المساجد من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من سمع رجلاً ينشد ضالة فى المسجد فليقل : لا ردها الله عليك ، فإن المساجد لم تُبْن لهذا » .

كـذلك أنت صَنْعـة الله وخلْقـته ، ومـا بالك بصنعـة تُعـرض على صانعهـا كل يوم خمس مرات ، أيصيبهـا عطب بعد ذلك ؟ وكذلك أنت حـين تعـرض نفـسك على ربك ، تأخـذ من هذا اللقـاء شـحنة إيمـان ويقين ، وتتخلَّص من همومك ومشاكلك .

لذلك كان سيدنا رسول الله ﷺ كلما حَزَبَه أمر فزع إلى الصلاة[1] ، ففى الصـلاة ترمى بنفسك وترمى بـهمومك ومـشاكلك فى (أحـضان) ربك ؛ لأنه سبـحانه أعطى الكون أسـباباً ، فـإذا عزَّتْ عليك الأسـباب ولم تُفدْكَ بشىء فاترُكْ الأسباب ، والجأ إلى المسبِّب سبحانه .

وقلنا : إن المسـجد بيت الله باختيار الخَلْق ، أمـا بيت الله الحرام فـهو بيت الله باخـتـيار الله ؛ لذلك جـعله الله قـبْلة كل البـيوت ، فـإذا ما زُرْته ولو مرة واحدة أصلح حياتك كلها .

نعود إلى بيـوت النبى ﷺ وما ينبغى أنْ يتـحلى به المؤمنون من أدب فى دخولها ، وما يجب أنْ يُراعَى فى دخول هذه البيوت بالذات ؛ لأن لها طبيعة خاصة تناسب مهمة صاحبها ﷺ .

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ.. ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب] يعنى : لا تتهـجَّموا عليهـا ؛ لأنها ضيِّقـة وليستْ فيهـا سعة للاستـقبال فى كل الأوقـات ، والإذن هنا مُقيَّـد بالطعام ﴿ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب]

وحتى إذا دُعـيتَ إلى طعام رسول الله لا تـذهبْ إليه قبل وقـته ، فإذا كان الغداء مثلاً الساعة الثـانية ، فلا تذهب أنت الساعة العاشرة ؛ لأنه لا يليق بك أن تشـغل رسول الله وله فى بيـته مـهمـات يجب ألاَّ

---

(١) عن حذيفة رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمـر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

ينشغلَ عنها ، مهام مع ربه ، ومهام مع أهل بيته ، وهذا معنى : ﴿ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] أى : نضج الطعام واستوائه وإعداده ، والفعل (إِنَى) على وزن رضا ، وفى لغة : أنىٰ أنياً مثل : رمى رمياً .

وهنا تحذير للمؤمنين إذا دُعُوا إلى طعام رسول الله أنْ يدخلوا بيوته ينتظرون نُضْج الطعام ، إنما عليهم ألاَّ يدخلوا إلا بعد نُضْج الطعام وإعداده ، بحيث يقول لهم تفضلوا الطعام ﴿ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] فالطعام جاهز ومُعَدٌّ ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا.. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] فكما نهاهم فى أوَّليّة الطعام عن انتظار نُضْجه ، كذلك نهاهم فى آخريته عن عدم الجلوس بعده ، إنما ينبغى عليهم إذا أكلوا أنْ ينتشروا .

والانتشار : أنْ يأخذ الشيء حيِّزاً أوسع من حجمه ، والانتشار يُعينك على تحقيق الغاية ، ألسْنَا ننشر الملابس بعد غَسْلها ؟ لماذا ؟ لأن نَشْر الغسيل يساعد على جفافه ، ولو تركْتَه فى حيِّزه الضيق لاحتاج أسبوعاً لكى يجفّ ، إذن : فى الانتشار فائدة .

وسبق أنْ أوضحنا هذه الظاهرة بكوب الماء إذا تركْتَه مثلاً وسافرتَ لمدة شهر ، فإنك ستعُود فتجده كما هو لم ينقص إلا القليل، لكن إنْ سكبْتَه فى أرض الحجرة فسوف يجفّ قبل أنْ تخرج منها .

فقوله تعالى هنا ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] أى : تفرَّقوا ؛ لأن المكان الذى أنتم فيه فى بيت النبى ضيِّق ، إذن : ليذهب كُلٌّ إلى عمله ، وماذا يُراد من المؤمن بعد أنْ تناول طعامه ؟ أنْ يسعى فى مناكب الأرض ، لا أنْ يجلس خاملاً عَالةً على غيره ، وتأمل أيضاً قول الله تعالى فى سورة الجمعة ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ

فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. ﴿١٠﴾ [الجمعة]

إذن : أمر الحق سبحانه عباده المؤمنين بالانتشار ؛ لأن له هدفاً وغايةً ، فالهدف السعي وطلب الرزق ، وماذا بعد أنْ تناولتم طعامكم ؟ أيليق بكم أنْ تقعدوا مثل (تنابلة السلطان) في بيت رسول الله ، وأنتم تعلمون أنه يعيش عَيشَة الكفاف في كل شئون حياته ؟

ومن معاني الانتشار : السياحة ، وهي مأخوذة من سَاح الماء إذا فَاض ، وأخذ حيِّزاً أكبر ، والانتشار أو السياحة ينبغي أنْ تكون مُنظمة كما تنتشر نقطة الماء على القماش ، فتحدث فيه دائرة منتظمة .

كذلك في انتشاركم في الأرض للسعي في طلب الرزق يجب أنْ يكون بنظام معين ، بحيث لا يحدث تكدُّس في مكان أو زحام ، في حين يخلو مكان آخر لا يجد مَنْ يعمره ، ويستنبط خيراته .

والسياحة في الأرض أو الانتشار فيها ، الله تعالى يريده مِنَّا لغايتين :

الأولى : الضرب في الأرض وابتغاء رزق الله وفضله ، كما قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [المزمل]

والضرب في الأرض ليس مجرد الانتشار فيها ، إنما المراد العمل والكفاح واستخراج خيراتها ؛ لأن الخالق سبحانه نثر القوت في أنحاء الأرض بالتساوي ، ونثر فيها الخيرات ؛ لذلك كل يوم تعطينا الأرض جديداً من نعَم الله ، كنا لا نعرف من خيرات الأرض إلا الزراعة ، فلما تقدَّمَتْ العلوم والاكتشافات وتطوَّرت أدواته عرفنا المعادن والبترول

والكنوز المطمورة في أرض الله ، وكل أثر كنزيٍّ في الأرض لا نستخرجه ولا نعرفه إلا بالضرب في الأرض ، وسبق أن قلنا : الضرب إيقاع شيء بقوة .

كنا نتعجَّب من الناس الذين يسكنون البوادى والصحراء ونشفق عليهم ، كيف يعيشون في هذا الجَدْب والقَحْط ؟ ولماذا لا يتركون هذا المكان إلى غيره ؟ والآن وبعد الاكتشافات البترولية صاروا هم أغنى الناس وتأتيهم كل خيرات الدنيا تحت أقدامهم . لماذا ؟ لأنهم تمسَّكوا بأرضهم وبلادهم وصبروا عليها ، حتى آن الأوان لجنى خيراتها ، ولو أنهم يئسوا منها ما نالوا كل هذا الخير .

وسبق أنْ أوضحنا أن خيرات الأرض متساوية ، وشبهناها بقطاع طولى في البطيخة مثلاً ، وإنْ تعددت ألوان هذه الخيرات واختلفت من مكان لآخر .

والأخرى : أن تكون السياحة للاعتبار والتأمل في آيات الله في كونه ، فبالتنقل والسير في الأرض أرى آيات ليست موجودة في بيئتى ، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾ [العنكبوت] ويقول سبحانه في موضع آخر :

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. ۝١١﴾ [الأنعام]

والمعنى أن السَّيْر في الأرض لابتغاء الرزق ينبغى أنْ يصاحبه نظر وتأمُّل لآيات الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي

النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ.. (٥٣)﴾ [الأحزاب] أى : لا ينبغى أنْ تجلسوا بعد الطعام للحديث ، وتجعلوها (سهراية) فى بيت رسول الله ، وهذا النهى كان له سبب وحادثة وقعتْ ، فنزلت هذه الآية . سيدنا رسول الله لم يُولم وليمة فى عُرْس من أعراسه إلا لزينب بنت جحش ، فذبح ﷺ شاة ، وأعدَّ لهم الحَيْس ، وهو التمر المخلوط بالزبد والسمن ، ثم يوضع عليه اللبن الحامض أو الرايب .

فلما أكل الناس جلسوا يتحدثون ، انتظر رسول الله أنْ يقوموا وينصرفوا ، فلم يَقُمْ منهم أحد ، وحياؤه ﷺ يمنعه أنْ يقول لهم : قوموا ، فأراد ﷺ أنْ يُظهر لهم أنه يريد أنْ يقوم ، وقام فعلاً وخرج ، فلم يقُم منهم أحد ووجَد ﷺ آخرين جالسين بالخارج ، فعاد إلى مجلسه ، فشعر القوم بما يريده رسول الله فانصرفوا .

يقول سيدنا أنس : فجئتُ فأخبرتُ رسول الله أنهم انطلقوا ، فجاء ﷺ ودخل ، فذهبت لأدخل وراءه ، فألقى الحجاب بينى وبينه - يعنى : لا أحد يدخل حتى أنت .

ومعنى : ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] لأنه ﷺ يريد أنْ تنصرفوا ، لكن يمنعه حياؤه ، وهذا لأن المكان ضيِّق ، ورسول الله فى يوم عُرْس ، وليس من المناسب الجلوس عنده .

﴿وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] لذلك قالوا[1] : حَسْب الثقلاء أن الله لم يحتملهم . هكذا حدثتنا الآية فى صدرها عن :

(١) قاله ابن أبى عائشة فى كتاب الثعلبى أنه قال : حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٨/٥٤٩٢] .

آداب الدخول ، وآداب الاستئذان ، وآداب الأكل ، وآداب الجلوس عند رسول الله .

ثم تحدَّثنا بعد ذلك عن الآداب التى يجب أنْ يتحلَّى بها المؤمنون فى علاقتهم بزوجاته ﷺ : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب]

المتاع : أوانى البيت التى لا تتيسَّر للجميع ، فعادة ما يكون فى الشارع أو الحارة بيت أو بيتان مَسْتوران ، عندهم مثل هذه الأشياء : ماجور العجين ، أو المنخل ، أو الغربال ، أو الهون .. إلخ .

ومثل هذه الأشياء عادة لا تتوفر للفقير ، فيذهب إلى جاره فيستعيرها منه ، وهذا ما قال الله فيه : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) ﴾ [الماعون]

فالمتاع هو الماعون ، وهو أدوات البيت التى يستعيرها منك جارك غير القادر على توفيرها فى بيته .

إذن : الحق سبحانه فى حين جعل للمؤمنين أدباً خاصاً مع رسول الله فى الدخول عليه أو الأكل فى بيته والجلوس عنده ، لم يمنع الانتفاع بما عنده ﷺ من متاع البيت ، ومتاع البيت يُطلَب بأنْ تطرق الباب على أهله تقول : أعطونا كذا وكذا ، وعادة ما تُسْأل المرأة لأنها ربةُ البيت والمسئولة عن هذا المتاع ، فإذا طلبتُم شيئاً من زوجات النبى فاطلبوه من وراء حجاب ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب]

سبق أنْ قُلْنا : إن المشاعر والإدراكات والمواجيد والعقائد التى تستقرُّ فى النفس ، هذه المظاهر الشعورية تتكون على مراحل ثلاث : آلة تدرك ، ووجدان يستقبل ، إما بالمحبة ، وإما بالكراهية ، ثم نفس تنزع ، ومثَّلْنا لذلك بالوردة تراها فى البستان جميلة نضرة ، وتشُمُّ رائحتها زكية عطرة ، فهذا إدراك بحاسة البصر وحاسة الشم ، نتج عنه إعجاب ومواجيد ، يترتب عليها أنْ تمدَّ يدك لتقطفها ، وهذا هو النزوع .

والشرع لا يتدخل ، لا فى الإدراك ، ولا فى الوجدان ، إنما يتدخل فى النزوع ، فلَكَ أنْ ترى جمال الوردة كما تشاء ، ولك أنْ تشمَّ عبيرها ، لكن إن امتدَّتْ يدُكَ إليها قُلْنا لك : قف : أهى حَقٌّ لك ؟ إنْ كانت حقك فَخُذْهَا ، وإلا فهى مُحرَّمة عليك لأنها ليستْ ملْكك ، وليس فى هذا حَجْراً على حريتك ؛ لأن الذى قيَّد حريتك فى الاعتداء على مال الغير قيَّد حرية الآخرين فى الاعتداء عليك ، فأعطاك قبل أنْ يأخذ منك إذن : فالشرع فى صالحك أنت .

نقول : الشرع لا يتدخل إلا عند مرحلة النزوع ، إلا فى علاقة الرجل بالمرأة والنظر إلى جمالها ، فإنه يتدخل فيها من بدايتها ، فيحظر عليك مجرد الإدراك ، لأنك حين ترى جمال المرأة ، وربما كانت أجمل من امرأتك أو لم يسبق لك الزواج ، فإنك تُعجب بها .

وهذا الإعجاب لا بُدَّ أنْ يدعوك إلى النزوع ، فكيف تنزع فى هذه الحالة ؟ والنزوع فى هذه المسألة له شروط : أولها أنْ تأتيه من باب الحلال ، فإنْ لم تكُنْ قادراً على باب الحلال ، فإما أنْ تعفَّ نفسك ، وإما أنْ تعربد فى أعراض الآخرين ، لذلك تدخَّل الشرع فى هذه المسألة من أولها ، ولم يتركك حتى تقع فى المحظور وتنزع فيما لا يحلُّ لك ؛ لأن المرأة الجميلة لا شكَّ تهيج فى الرجل معانى خاصة .

وفى ذلك يقول الشاعر[1] :

سُبْحانَ مَنْ خلَق الجَماَ ... لَ والانْهزَام لسَطْوته
ولَـذَاكَ يأمُـرنَا بغَـضٌ ... الطَّرْف عَنـه لَرحمـتَه
من شـاء يطْلبـه فـلا ... إلاّ بطُهْـر شـريعتَه
وبذَا يـدُوم له التمـتُّع ... هَاهُـنَـا وبجــنَّتَه

أما الذى يدَّعى أن نظره إلى جمال المرأة لا يترك فيه هذا الأثر فهو مخالف للطبيعة ، حتى وإنْ كان متزوجاً ، وإياك أنْ تظن أن امرأة تُغنى بجمالها عن جمال فى سواها ؛ لذلك يقولون : النساء كالخمر ، كل مليحة بمذاق ، فمهما كانت زوجتك جميلة ، وفيها كل المواصفات التى تعجبك فسوف تجد فى غيرها الجديد مما ليس فيها . إذن : من رحمة الله بك أنْ لا تدخل فى هذه المسألة من أول مراحلها ، فحرَّم مجرد النظر .

وإذا كان هذا فى المعنى العام للناس ، فكيف يكون مع زوجات النبى ﷺ ، وقد قال تعالى مخاطباً المؤمنين ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ .. ۝٥٣ ﴾ [الأحزاب] أى بالنظر إلى زوجاته ؛ لأن النظر إدراك يتبعه أنْ تجد فى نفسك شيئاً ، صحيح أنت لا تستطيع أنْ تُقدم ؛ لأنهن أمهات المؤمنين ، إنما سينشغل قلبك ، ومجرد خواطر القلب هنا إيذاء لسيدنا رسول الله ، بدليل أنه قال بعدها : ﴿ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ .. ۝٥٣ ﴾ [الأحزاب]

ورُوِى أن رجلاً رأى السيدة عائشة قبل الحجاب فانبهر بها ، فقال : والله إنْ مات رسول الله لأتزوجنَّ هذه الحميراء ، وإنْ كان كفَّر عن هذه القَوْلة وحَجَّ ماشياً ، وأعتق الرقاب ، ليغفر الله له هذه الجرأة

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

على رســول الله ﷺ[1] .

فمعنى ﴿ ذَلِكُمْ .. (٥٣) ﴾ [الاحزاب] أى : أمرنا بأنْ تسـألوهنَّ من وراء حجاب ، وهذا الأمر احـتياط للطرفين ﴿ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ .. (٥٣) ﴾ [الاحزاب] لقلوبكم أولاً ، ولقلوبهن ثانياً .

وقـوله تعـالى : ﴿ وَمَـا كَـانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُـولَ اللَّهِ .. (٥٣) ﴾ [الاحزاب] أى : لا ينبغى ولا يكون ، وهذا يعنى أنَّ شيئاً لم يحدث ، بل مجرد الخاطر يُعَدُّ إيذاءً ؛ لأنه فى حق مَنْ ؟ فى حق رسول الله .

وقوله : ﴿ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا .. (٥٣) ﴾ [الاحزاب] هذا تكريم لرســول الله ولأزواجه ليس فى مـدة حيـاته فحَسْـب ، إنما حتى بعد مماته ؛ لأنهُنَّ أمهات للمؤمنين ، وليس لأحد أنْ يتزوج منهن بعد رسول الله .

---

(١) تحقيق هذا الأمر أن رجلاً قال : لو قبض رسول الله ﷺ تزوجت عائشة ، فنزلت هذه الآية ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ .. (٥٣) ﴾ [الاحزاب] . ولكن اختلف فى تحديد هذا الرجل .

- قال ابن عبـاس فى رواية عطاء : قاله رجل من سادة قريش . ذكره الواحـدى فى أسباب النزول (ص ٢٠٦) .

- وقال ابن عباس أيضـاً ـ ليزيد الأمر تحديداً ـ : قال رجل من سادات قـريش من العشرة الذين كـانوا مع رسـول الله ﷺ على حـراء فى نفســه : لو توفى رسـول الله ﷺ لتـزوجت عائشـة ، وهى بنت عـمى . ذكره القـرطبى فى تفسـيره (٥٤٩٧/٨) نقـلاً عن القشـيرى أبى نصر عبد الرحيم .

- قال قتادة ومقـاتل ومعمر والسدى أنه طلحة بن عبيـد الله ، بل إن السدى نقل كلاماً لا يليق أن يكون قد صدر من طلحة رضى الله عنه . انظر الدر المنثور للسيوطى (٦٤٣/٦).

قال ابن عطية : هذا عندى لا يصح على طلـحة بن عبيد الله . قال شيـخنا أبو العباس : وقد حُكى هذا الـقول عن بعض فضـلاء الصحابـة . وحاشاهم عن مـثله والكذب فى نقله ، وإنما يلَيق مثل هذا القـول بالمنافقين الجهال . نقله القرطبى فـى تفسيره (٥٤٩٧/٨) ثم قال : يُروى أن رجلاً من المنافقين قال حين تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بعد أبى سلمة ، وحفـصة بعـد خنيس بن حذافـة : ما بال محـمد يتـزوج نساءنا ، والله لو قد مـات لأجلْنَا السهام على نسائه ، فنزلت الآية فى هذا .

ومعلوم أن للزوجة بالنسبة لزوجها خصوصيةً ، فعادةً في طبيعة التكوين الإنساني ترى الرجل عنده ألوان من الخير ، فإنْ كان صاحب أريحية لا يمنعك شيئاً تتطلبه أو تستعيره منه ، يعطيك من ماله ، من متاع بيته ، يعيرك سيارته .. إلخ .

إلا ما يتعلق بالمرأة ، فإنه يغار حتى من مجرد أنْ تنظر إليها ، ليس ذلك وهي في حوزته وملْكه ، إنما حتى لو كان كارهاً لها ، حتى لو طلقها يغار عليها أن تتزوج بآخر .

إذن المرأة هي المتاع الوحيد الذي يحتل هذه المنزلة ، وينال هذا الحفظ وهذه الرعاية ، لماذا ؟ لأنها وعاء النَّسْل ، وكأن الله تعالى يريد للأمة كثرة النسل شريطة أنْ يكون من طُهْر وعفَّة ونقاء ، فوضع في قلب الرجل حُبَّها والغيرة عليها .

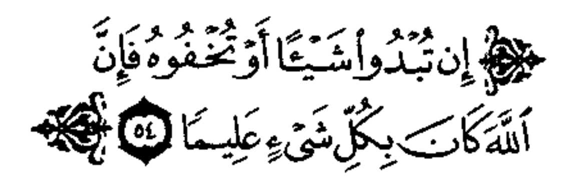
لذلك ، تأمل هذا الوصف الذي وصف الله به الأنصار لما استقبلوا المهاجرين ، وأفسحوا لهم في أملاكهم وفي بيوتهم ، فوصفهم الله وصفاً أرقى ما يُوصف به مكان في مكين .

فقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ .. (٩) ﴾ [الحشر] فكأنهم يسكنون في الإيمان ﴿ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. (٩) ﴾ [الحشر]

وما استحق الأنصارُ هذا الوصفَ من الحق سبحانه إلا لإيثارهم إخوانهم المهاجرين وبَذْل شيء لم يبذله أحد قبلهم ، حيث كان الواحد منهم يعرض على أخيه المهاجر أنْ يُطلِّق له إحدى زوجاته ليتزوجها ، وهذه هي المسألة التي تثبت أن إيمانَ هؤلاء طغى على كل ما عداه ، وصار أحبَّ شيء إليهم حتى من المرأة ، ومن الغيرة عليها .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] أى : ما سبق أنْ ذُكر من سؤال أمهات المؤمنين من وراء حجاب ، وألاَّ تؤذوا رسول الله ، أو تنكحوا أزواجه من بعده ، كل هذا ﴿ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) ﴾ [الأحزاب] وكيف يُؤْذَى رسولُ الله ، وهو ما جاء إلا ليحمينا من الإيذاء في الدنيا وفى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :


﴿ إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) ﴾

فكأن فى الآية إشارة تحذير : إياكم أنْ تسرقكم خواطركم فى هذه المسألة ؛ لأن ربكم لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزُبُ عن علمه شىء ، وإنْ كانت الخواطر والهواجس لا يُحاسب عليها المرء ، إلا أنها محظورة منهى عنها ، إنْ كانت فى حَقِّ رسول الله .

لقد ورد فى الحديث الشريف : « مَنْ هَمَّ بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة »[1] هذا فى الأمور العامة ، أما إنْ تعلَّق الأمر برسول الله فلا ؛ لأن مراد الحق سبحانه أنْ يُوفِّر طاقة رسول الله للمهمة التى أُرسل بها ، وألاَّ يشغله عنها شاغل ، وأىُّ مهمة أعظم من مهمة هداية العالَم كله ، ليس فى زمنه ﷺ ، وإنما منذ بعثته وحتى قيام الساعة .

وقوله تعالى : ﴿ إِن تُبْدُوا شَيْئًا .. (٥٤) ﴾ [الأحزاب] أى : أىّ شىء

---

(١) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب وإن عملها كتبت » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٠) كتاب الإيمان .

مهمـا كان ﴿أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤)﴾ [الأحزاب] وعليم صـيغـة مبـالغـة فى العلم ؛ لأن علْم الله تعـالى علْم أزلىٌّ ليس مُتجدِّداً بتجدُّد الحدث ، فالله يعلم قبل الفعل وأثناء الفعل وبعده .

لذلك قلنا : إن الزمن عندنا نحن مـاض وحاضر ومـستقـبل ، أما بالنسبـة للحق سبحـانه فليس هناك ماض ولا حاضـر ولا مستـقبل ؛ لذلك يتكلم سبحانه عن المستقبل وكأنه ماض .

واقرأ مـثلاً : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل] وأتى فـعل ماض ومع ذلـك قال بعـده ﴿فَـلا تَسْتَـعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل] والاستعـجال لا يكون إلا لشىء لم يَأْتِ وقتـه ، فكأن (أتى) معناها بالنسبة لكم سيأتى ، أما بالنسبة للحق سبحانه فإنه أتى بالفعل ؛ لأن الزمن كله فى علم الله سواء .

ومعنى : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤)﴾ [الأحزاب] أى : كان ومـا يزال عليمـاً ؛ لأنه سبـحانه مـا دام كان عليـماً ، وهو سـبحـانه لا تتأتى فيه الأغـيار ، فهو سبحانه عليم فـيما مضـى ولا يزال ؛ لأنه لا يتـغيـر ، فكان هنا لا تعنى أن عـلمه تعـالى نتـيجـة لحـدثكم الذى أحدثتموه ، إنما هو سبحانه عالم قبل أنْ يحدث منكم .

وهذه الآية من الآيات التى وقف عندها المستشرقون ؛ ليستدركوا كما يظنون علـى كلام الله ؛ لأنهم دائماً يتهمـوننا أننا ننظر إلى القرآن بقداسـة ، وأنه كـلام الله فلا نُعمل فيـه عقولنا ، وأنهم حين يُـدقِّقون فى القرآن ويتـجرَّأون على البحث فـيه يجدون فـيه مآخـذ ـ على حَدِّ زعمهم .

ووَجْه اعتراضــهم فى قوله تعالى : ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ

اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤)﴾ [الأحزاب] ومثله : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)﴾ [النور]

يقولون : إذا كان الله يمتنُّ بعلم ما نُخفى ، فما الميزة وما العظمة فى علم ما نبدى ؟

نقول : إياك حين تقرأ كلام الله أنْ تُحكِّم فيه عقلك قبل أنْ تؤمن أنه صادر من الله تعالى ، وأن هذا كلامه سبحانه ، وعندها أدرْ المسألة فى عقلك وابحثها حتى تصل إلى الحكمة ووجه الإعجاز فيها .

فقوله تعالى ﴿إن تُبْدُوا .. (٥٤)﴾ [الأحزاب] الله لا يخاطب فرداً ، إنما يخاطب جمهرة الناس ، والإبداء من الجمهرة لا يمكن لك أن تحدد مصدر الفعل فيه ، بحيث تردُّ كلَّ صوت ، وكلَّ حركة إلى صاحبها .

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك بالمظاهرة مثلاً التى تختلط فيها الأصوات وتعلو الهتافات ، وسمعنا مثلاً مَنْ ينادى بسقوط فلان ، أنستطيع فى هذه الحالة أنْ نحدد صاحب هذا الهتاف ؟ لا لا نستطيع بسبب اختلاط وتداخل الأصوات ، مع أنه جَهْر أعلنه صاحبه بأعلى صوته وأبداه على الملأ ، ومع ذلك لا تستطيع أنت تحديده .

أما الحق سبحانه ، فيعلم الصوت ، ويعلم صاحبه ، ويعلم أثره ونتيجته ، ويرد كل كلمة ، بل وكل نَفَس إلى صاحبه ، فالذين يحاولون التستُّر والاستخفاء فى جمهرة الناس عليهم أنْ يحذروا إنْ شوَّشوا على الخَلْق ، واسْتخفوا منهم ، فلن يستخفوا من الله ، فالله لا تشتبه عليه اللغات ، ولا تختلط عليه الأصوات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ[1] وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا (٥٥) ﴾

بعد أنْ نزلت آية الحجاب : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] اشتكى أقارب أمهات المؤمنين وقالوا : حتى نحن يا رسول الله ؟ فأنزل الله هذه الآية . ﴿ لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ .. (٥٥) ﴾ [الأحزاب]

ومعنى ﴿ لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ .. (٥٥) ﴾ [الأحزاب] أى : لا حرجَ ولا إثمَ أنْ يدخل عليهن هؤلاء المذكورون ؛ لأن مكانتهم من المرأة معلومة ، ولا يُخْشَى من دخولهم عليها ، وهم : الأب ، والابن ، والأخ ، وابن الأخ ، وابن الأخت .

والكلام فى ﴿ وَلا نِسَائِهِنَّ .. (٥٥) ﴾ [الأحزاب] وهى مضاف ومضاف إليه ، والإضافة فى اللغة تأتى بمعانٍ ثلاثة : بمعنى (مِنْ) مثل أردب شعير يعنى : من شعير ، وبمعنًى (فى) مثل (مكر الليل) أى : فى الليل ، وتأتى بمعنى (اللام) مثل مال زيد يعنى لزيد ، واللام هنا للملكية أو للاختصاص ، فمعنى مال زيد يعنى :

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٤٩٩/٨) : « لم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين ، وقد يسمى العم أباً ، قال الله تعالى : ﴿ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ .. (١٣٣) ﴾ [البقرة] .

مِلْك لزيد ، وتقول : لجام الفرس ، فاللجام ليس ملْكاً للفرس ، إنما يختص به .

فهنا كلمة ﴿ نِسَائِهِنَّ .. (٥٥) ﴾ [الأحزاب] تأتى بمعنى (من) وبمعنى اللام أى : نساء لَهُنَّ ، أو نساء منهن ، ولا تأتى هنا بمعنى (فى) إذن : فالمراد نساء منهن يعنى : من قرابتهن أو نسائهن يعنى : التابعين لهن مثل الخدم شريطة أنْ يكُنَّ مؤمنات ؛ لأن المؤمنة هى المؤتمنة على المؤمنة ، أما الكتابية أو الكافرة فلا يصح أنْ تقوم على خدمة المؤمنة ؛ لأنها ربما تَصِفُها لقومها .

لذلك نلحظ دقة التعبير هنا فى عدم ذكْر الأعمام والأخوال ؛ لأن العم أو الخال ـ رغم أنه فى منزلة الوالد ـ إلا أنه قد يصف البنت لابنه ، فإنْ كان العم أو الخال ليس له ولد ، فالعلة مفقودة ، ويجوز التساهل معهما ـ إذن ـ فى الدخول على المرأة ، وإبداء الزينة أمامهما .

وقوله تعالى : ﴿ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ .. (٥٥) ﴾ [الأحزاب] قلنا : إن ملْك اليمين يأتى من الأسرى فى حرب مشروعة ، وقد باشرتَ أَسْره بنفسك ، بمعنى أنه لم يكُنْ حراً ، ثم أُخذ وبيع على أنه عبد ، ثم بعد الأَسْر يمكن أن تأخذ ملْك اليمين بأنْ تشتريه ، أو تأخذه إرثاً ، أو تأخذه هبة ، وملْك اليمين قد يكون من النساء فتدخل فى نسائهن ، أو يكون من الصبيان الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال .

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١) ﴾ [النور]

ويدخل فى ذلك أيضاً التابعون الذين يعملون فى البيت كالبوابين والسائقين والطباخين .. إلخ ، والشرع يتساهل مع هؤلاء ؛ لأن العرف الاجتماعى يأبى أنْ تنشأ علاقة بين هؤلاء وبين أهل البيت ، فهؤلاء

التابعون يعملون في البيوت ، وبها نساء وبنات جميلات ، لكن كم من هؤلاء تجرأ على أنْ ينظر إلى سيدته ؛ ذلك لأن المركز الاجتماعي جعل بينهما حاجزاً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَاتَّقِينَ اللَّهَ .. (٥٥) ﴾ [الأحزاب] كأن الحق سبحانه يقول : لقد بينتُ لكُنَّ الحكم في الدخول على المرأة ، وبينتُ الأنواع التي لا جناحَ عليكُنَّ في دخولهم ، والحارس عليكُنَّ في هذا تقواكُنَّ لله ، فتقوى الله هي التي تحملك على طاعته ، وتمنعك من الخروج عنها ، ويكفي بعد الأمر بالتقوى أنْ تعلم ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ .. (٥٥) ﴾ [الأحزاب] وما يزال ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) ﴾ [الأحزاب]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا (٥٦) ﴾

جاء النبي ﷺ بالخير لأمته مُبشِّراً للمؤمنين ، نذيراً للكافرين ، وكان ﷺ حريصاً على هداية قومه ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

كان ﷺ يألم ويحزن إنْ تفلَّتَ أحدٌ من يده ، وخرج عن ساحة الإيمان ، وكان يُكلِّف نفسه في أمر الدعوة فوق ما يطيق ، وفوق ما طلب منه ، حتى خاطبه ربه بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

---

(١) بخع نفسه : قتلها غيظاً أو غماً . قال الفراء في معنى الآية ، أي : مخرج نفسك وقاتل نفسك . [لسان العرب ـ مادة : بخع] .

ومعلوم أن سيدنا رسول الله لم يُطلَب منه إلا البلاغ فحسبْ ، أما الهداية فمن الله عز وجل ؛ لأنه تعالى قال : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ④ ﴾ [الشعراء]

فلشدة حرصه ﷺ على هداية قومه عاتبه ربه ؛ لأنه شقَّ على نفسه ، فالعتاب هنا لصالحه ﷺ ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ .. ① ﴾ [التحريم]

وهذا العتاب أشبه بعتابك لولدك الذى أرهق نفسه فى المذاكرة ، حتى أنك أشفقتَ عليه ، فأنت لا تلومه على تقصير ، إنما على المبالغة فى عمل لا تطيقه قوته .

وقد ظهرت قمة حرْصه ﷺ على أمته حين أنزل الله عليه : ﴿ وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⑤ ﴾ [الضحى]

فالتقطها رسول الله من ربه وجعلها لأمته ، فقال : « إذن : لا أرضى وواحد من أمتى فى النار »(١) .

فإذا كان رسول الله حريصاً عليكم بهذا الشكل ، فهو يستحق منكم أنْ تُصلُّوا عليه ؛ لأن كل خير يناله يعُمُّ عليكم ، ويعود إليكم ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب]

وتلحظ أن الخبر ﴿ يُصَلُّونَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب] خبر عن الله والملائكة ؛ فجمع الحق سبحانه بين صلاته وصلاة ملائكته ، والنبى ﷺ سمع مرة

---

(١) أخرج الخطيب في « تلخيص المتشابه » عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : لا يرضى محمد ، وواحد من أمته في النار . وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس أيضاً أنه قال : رضاه أن تدخل أمته الجنة كلهم .

خطيباً يخطب ، يقول : مَنْ يتَّقِ الله ورسوله يُثِبْه الله ، ومَنْ يعصهما يعاقبه الله ، فقال ﷺ له : « بِئْسَ خطيبُ القوم أنت »[(١)] لماذا ؟

قالوا : لأنه جمع بين الله تعالى ورسوله فى : (ومن يعصهما) ، وكان عليه أنْ يقول : ومَنْ يَعْصِ الله ورسوله ، فالله وحده هو الذى يجمع معه سبحانه مَنْ يشاء . قال سبحانه : ﴿وَمَا نَقَمُوا[(٢)] إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ .. (٧٤)﴾ [التوبة]

أما نحن ، فليس لنا أبداً أنْ نأتى بصيغة تشريكية بين الله تعالى وأحد من خَلْقه .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ.. (٥٦)﴾ [الأحزاب] هكذا قال الله ، وجمع معه سبحانه مَنْ يشاء من خَلْقه ، وأنت لا يجوز لك أنْ تجمعَ هذا الجمع إلا إذا كنتَ تقرأه على أنه قرآن ، فإن أردتَ أنْ تنشىء كلاماً من عندك فلا بُدَّ أن تقول : الله يُصلِّى على النبى ، والملائكة يُصلُّون على النبى .

لذلك احتاط علماء التفسير[(٣)] لهذه المسألة فقالوا أن (يصلون)

---

(١) عن عدى بن حاتم أن رجلاً خطب عند النبى ﷺ فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى . فقال رسول الله ﷺ : « بئس الخطيب أنت . قل : ومن يعص الله ورسوله فقد غوى » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٧٠) ، وأحمد فى مسنده (٤/٢٥٦، ٣٧٩) ، وأبو داود فى سننه (١٠٩٩) .

(٢) نقم الشىء : أنكره وعابه وكرهه ، ومنه قوله تعالى : ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ .. (٥٩)﴾ [المائدة] أى : هل تكرهون وتنقمون منا إلا إيماننا بآيات ربنا ، وهذا أمر لا يقتضى النقمة . [القاموس القويم ٢/٢٨٤] .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٨/٥٥٠٠) : « اختلف العلماء فى الضمير فى قوله « يصلون » : فقالت فرقة : الضمير فيه لله والملائكة ، وهذا قول من الله تعالى شرَّف به ملائكته . قالوا : لأنه ليس لأحد أن يجمع ذكر الله تعالى مع غيره فى ضمير ، ولله أن يفعل فى ذلك ما يشاء . وقالت فرقة : فى الكلام حذف ، تقديره : إن الله يصلى وملائكته يصلون ، وليس فى الآية اجتماع ضمير ، وذلك جائز للبشر فعله .

ليست خبراً للكل ، إنما تقدير الخبر أن الله يصلى على النبى ، والملائكة يُصلُّون على النبى .

وإذا كان الله يُصلِّى على النبى ، والملائكة يُصلُّون على النبى ، فماذا عنكم أنتم ؟ يجب أنْ تُصلوا أنتم كذلك على النبى ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) ﴾ [الأحزاب]

سبق أنْ بيَّنا أن الصلاة من الله لها معنى ، ومن الملائكة لها معنى ، ومن المؤمنين المأمورين بها لها معنى ، فكُلٌّ بحَسْبه ، والصلاة فى الأصل هى الدعاء ، والدعاء يقتضى داعياً ومدعواً له ومدعواً ، فمثلاً حين أدعو الله أنْ يغفر لفلان ، فأنا الداعى ، والله تعالى مدعو ، وفلان مدعو له ، فإذا كان المصلى والداعى هو الله عز وجل ، فمَنْ يدعو ؟ إذن : معنى الدعاء لا يأتى مع الله تعالى .

لذلك قلنا : إنك لو نظرتَ إلى الأحداث تجد أن صاحبك مثلاً إذا قال لك أَعِدُك أنْ أعطيك غداً كذا وكذا ، فهذا وَعْد منه ، لا يملك هو من أسباب الوفاء به شيئاً ، أما إنْ قال لك : أدعو الله أنْ يعطيك كذا وكذا ، ونسب العطاء لله تعالى ، فهذا أَرْجَى للتحقيق ؛ لأنه منسوب إلى الله ، فإنْ قبل الدعاء تحقق المطلوب ، فإنْ كان الله تعالى هو الذى يأمر لك بهذا العطاء فلا بُدَّ أنْ تناله لا محالة .

إذن : الصلاة من الله ليست بمعنى الدعاء ، إنما هى تنفيذ مباشر ورحمة شاملة وعامة ، ويكفى من رحمته تعالى لنبيه ﷺ أنْ جعله خاتم الرسل ، فلا يستدرك عليه أحد ، يكفيه من رحمته وإنعامه وثنائه عليه أنْ قرن اسمه باسمه ؛ لذلك خاطبه بقوله : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) ﴾ [الشرح]

يكفيه من تكريم الله له أنه سيقبل شفاعته يوم القيامة ، لا لأمته فحسب ، إنما للخَلْق جميعاً ، يكفيه أن الله تعالى خاطب كل رسله بأسمائهم المشخِّصة لهم ، وخاطبه هو بالوصف المكرم فى ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ .. ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة] و ﴿يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ .. ﴿٤١﴾﴾ [المائدة]

أما عن صلاة الملائكة ، فهى دعاء ، واقرأ : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر]

فإذا كان الخَلْق جميعاً محلَّ صلاة الملائكة واستغفارهم ودعائهم ، حتى الذين أذنبوا منهم ، ثم تابوا ، فما بالك برسول الله ، وهو هادى الناس جميعاً ؟

أما الصلاة من المؤمنين ، فهى الاستغفار ، واستغفارهم ليس لرسول الله ، إنما هو استغفارهم لأنفسهم ؛ لأن رسول الله جاء رحمةً لهم ، وما دام جاء رحمةً لهم كان من الواجب ألاَّ يغيب توقيره عن بالهم أبداً ، فَهُمْ إنِ استغفروا ، فاستغفار عن الغفلة عنه ﷺ ، أو عن أنهم لم يتقدم اسمه ، فيصلون عليه .

والمؤمن حين يُصلِّى على رسول الله ، ماذا يملك من عطاء يُؤدِّيه لرسول الله ؟ ماذا بأيدينا ؟ لذلك تأمل لفظ صلاتك على رسول الله ، إنك لا تقول أصلى ، ولكن تقول : اللهم صَلِّ على محمد ، أو صلَّى

الله على محمد ، فتطلب ممَّنْ هو أعلى منك أنْ يُصلى على رسول الله ؛ لأنه لا يوجد عطاء عندك تُؤدِّيه لرسول الله .

إذن : فالصلاة من الله الرحمة العامة المطلقة ، والصلاة من الملائكة الدعاء ، والصلاة من المؤمنين الاستغفار .

لذلك سُئِلَ سيدنا رسول الله : يا رسول الله تلك صلاة الله ، وتلك صلاة الملائكة ، فما الصلاةُ عليك ؟ يعني كيف ؟ قال ﷺ : « قولوا اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صلَّيتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين ، إنك حميدٌ مجيدٌ »[(١)] .

ودخل عليه صحابى ، فقال : يا رسول الله ، ما رأيتك بهذه الطلاقة والبِشْر قبل اليوم ؟ فقال ﷺ : « إن جبريل جاءنى فأخبرنى أن مَنْ صلى عليَّ صلاة صلَّى الله بها عليه عشراً ، وكُتِب له عشر حسنات ومُحى عنه عَشْر سيئات »[(٢)] .

وقال عمر رضى الله عنه : دخل رجل على رسول الله ، فسأله : ما الصلاة عليك يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « ذلك من العلم المكنون ، ولولا أنكم سألتمونى ما قلته : إن الله وكَّل بى ملكيْن ، فإذا صلَّى واحد عليَّ قال الملكان : غفر الله لك . ويقول الله : آمين وتقول

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٤٧٩٧) من حديث كعب بن عجرة ، قيل : يا رسول الله ، أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك ؟ قال : قولوا اللهم صَلِّ على محمد وآل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وآل محمد كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٦٥٠) وعزاه للبخارى فى الأدب المفرد عن أنس ومالك بن أوس بن الحدثان أن النبى ﷺ قال : « إن جبريل عليه السلام جاءنى فقال : من صلى عليك واحدة صلى الله عليه عشراً ، ورفع له عشر درجات » .

الملائكة : أمين »[1] .

سبحان الله : الله عز وجل بذاته يُؤمِّن على دعاء الملكين .

وقالوا : الصلاة على رسول الله فَرْض على المؤمن ، كالحج مرة واحدة في العمر ، لكنها واجبة عليه عند كل ذكْر لرسول الله ، لذلك جاء في الحديث : « أبخل البخلاء من ذُكِرْتُ عنده فلم يُصلِّ عليَّ »[2] .

وقوله تعالى بعدها : ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب] لك أنْ تلحظ في صدر الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ.. ۝٥٦﴾ [الأحزاب] ولم يَقُلْ سبحانه ويسلمون ، فلما أمر المؤمنين قال ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب] فزاد : وسلِّموا تسليماً .

قال العلماء : لأن الصلاة على رسول الله لا تكون إلا مع التسليم له بمعنى طاعته والإذعان لأمره ، وأن تُسلِم زمامك له في كل صغيرة وكبيرة ، وإلاَّ فكيف تُصلِّي عليه وأنت تعصي أوامره ، وقد قال تعالى : ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء]

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٦٥٢) من حديث الحسن بن علي رضي الله عنه وعزاه للطبراني وابن مردويه وابن النجار ، ولفظه : « قال الحسن قالوا : يا رسول الله ، أرأيت قول الله ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ.. ۝٥٦﴾ [الأحزاب] قال : « إن هذا لمن المكتوم ، ولولا أنكم سألتموني عنه ما أخبرتكم ، إن الله وكل بي ملكين لا أُذكر عند عبد مسلم فيصلي عليَّ إلا قال ذانك الملكان : غفر الله لك ، وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين : آمين . ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلي عليَّ إلا قال ذانك الملكان : لا غفر الله لك ، وقال الله وملائكته لذينك الملكين : آمين » . قال ابن كثير في تفسيره (٣/٥١٥) عن هذا الحديث : « غريب جداً ، وإسناده به ضعف شديد » .

(٢) أخرج أحمد في مسنده (١/٢٠١) ، وابن حبان في صحيحه (٢٣٨٨ - موارد الظمآن) من حديث الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « البخيل من ذُكِرْتُ عنده ثم لم يصل عليَّ » .

ومن معانى التسليم أن نقول : السلام عليك أيها النبى كما نقول فى التشهُّد ، والسلام اسم من أسماء الله ، ومعنى : السلام عليك يا رسول الله أى : جعل الله لك وقايةً ، فلا ينالك أحد بسوء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧ ﴾

الإيذاء : إيقاع الألم من المؤذِى للمؤذَى ، سواء أكان الإيذاء بالقول أم بالفعل ، والإيذاء بهذا المعنى أمر لا يتناسب مع الحق سبحانه وتعالى . إذن ما معنى : يؤذون الله ؟

قالوا : الله تعالى لا يُؤذَى بالفعل ؛ لأنهم لا يستطيعون ذلك ، فهو أمر غير ممكن ، أما القول فممكن ، والإيذاء هنا يكون بمعنى إغضاب الله تعالى بالقول الذى لا يليق به سبحانه ، كقولهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ .. ۝١٨١ ﴾ [آل عمران] وبعضهم أنكر وجود الله .

وقولهم : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ .. ۝٦٤ ﴾ [المائدة]

وقولهم : ﴿ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ .. ۝٣٠ ﴾ [التوبة]

وبعضهم يسُبُّ الدهر ، والله يقول فى الحديث القدسى : « يؤذينى عبدى ، وما كان له أنْ يؤذينى ، يسبُّ الدهر ، وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أُقلِّبُ الليل والنهار »[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨٢٦ ، ٦١٨١ ، ٧٤٩١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٢٤٦) كتاب الألفاظ من الأدب ، وأحمد فى مسنده (٢/٢٣٨ ، ٢٧٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وهل الزمن له ذَنْب فى الأحداث التى تؤلمك ؟ الزمن مجرد ظرف للحدث ، أما الفاعل فهو الله عز وجل ، إذن : لا تسبُّوا الدهر ، فالدهر هو الله ، وهم أنفسهم قالوا : ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ.. (٢٤)﴾ [الجاثية]

كل هذا إيذاء بالقول ، لكن ينبغى أنْ ننظر فيه : أهو كذب وبهتان ؟ أم قول صادق يقوم عليه دليل ؟ وقد يُؤذيك شخص بكلمة ، لكنك لا تُؤذَى منها ، وفى هذه الحالة يأخذ هو إثمها ، وتسلَم أنت من شرها وتسلم من ألمها .. فهذه الأقوال منهم فى الواقع فيها إيذاء ، لكن ليس لله تعالى ، إنما إيذاء لهم ، كيف ؟

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما استخلف الإنسان فى الأرض خلق له الكون قبل أنْ يخلقه فطرأ الإنسان على كون مُعَدٍّ لاستقباله ، فيه مُقوِّمات بقاء الحياة ، ومُقوِّمات بقاء النوع ، ثم أعدَّ له أيضاً قانون صيانته ، بحيث إنْ أصابه عطب استطاع أنْ يصلحه ، هذا القانون هو منهجه سبحانه المحفوظ فى كتابه ، واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن]

فقانون الصيانة فى القرآن موجود قبل أنْ يخلق الإنسانَ ؛ لأن الإنسان خَلْق الله وصَنْعته خلقه الله فى أحسن تقويم ، وعلى أحسن هيئة ، ويريد له أنْ يظل هكذا سويَّ التكوين فى كل شىء ، فإذا ما خرج هذا الخليفة المخلوق لله على قانون صيانته ، فإنه ولا شكَّ لا بُدَّ أنْ يغضب الله ، لأن الله يريد أنْ تظلَّ صنعته جميلة ، كما أبدعها سبحانه .

إذن : فالذين أنكروا وجود الله ، أو الذين أشركوا به ، والذين

قالوا : « إن الله فقير ونحن أغنياء » أو قالوا : الملائكة بنات الله ... إلخ هذه الأقوال التى ترتب عليها غضب الحق سبحانه ؛ لأنه خليفته فى الأرض لم يُؤَدِّ المطلوب منه على حَسْب منهج الله .

ونقول لهؤلاء : إياكم أنْ تظنوا أنكم بكفركم خرجتم من قبضة الحق سبحانه ، بل أنتم فى قبضته ، وتحت مشيئته ، ولو شاء سبحانه لقهركم على طاعته ، أو خلقكم على هيئة الصلاح لا تأتى منكم المعصية كما خلق الملائكة ، إنما جعلكم مختارين فيما كلفكم به، مَنْ شاء آمن ، ومَنْ شاء كفر ، ليعلم مَنْ يقبل عليه بحب لا بقهر .

والدليل على ذلك أنكم مخلوقون ، على هيئتين . هيئة لكم فيها اختيار وهى التكاليف ، وهيئة مقبوضين فى قبضة الحق سبحانه وهى القضاء ، فما دمتم تعودتم التمرد على التكاليف ، فلماذا لا تتمرَّدُون على أقدار الله فيكم ، كالمرض والموت مثلاً ؟

ومع ذلك ما دُمْتَ قد اخترْتَ الكفر وأنا رَب ، ومطلوب منى أنْ أعينك على ما تحب ، فسوف أختم على قلبك ، بحيث لا يدخله الإيمان ، ولا يخرج منه الكفر الذى تحبه . إذن : أنا جئت على مرادك مما يدل على أن كفرك بى لا يضرنى ولا يؤذينى .

وقد ورد فى الحديث القدسى : (يا عبادى ، إنكم لن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، ولن تبلغوا ضُرِّى فتضرونى)[(١)] .

وإنْ كانت لكم منطقة اختيار فى الدنيا هى أمور التكاليف ، فسيأتى يوم القيامة ، ويمتنع الاختيار كله ، فلا اختيارَ لأحد فى شىء

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) ، وأحمد فى مسنده (٥/ ١٦٠) ، والبيهقى فى سننه الكبرى (٦/ ٩٣) والبخارى فى الأدب المفرد (ص ١٧٢ ، ٤٩٠) من حديث أبى ذر رضى الله عنه الطويل وقد شرح فضيلة الشيخ الشعراوى قطعة منه فى شرح الأحاديث القدسية بتحقيقى (المجلد ٢/ص ٣ - ٤٠) نشر : دار الروضة ـ القاهرة .

يوم يقول الحق سبحانه ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ .. (١٦) ﴾ [غافر] فلا يجيب أحد ، لا مالك ولا مملوك ، فيجيب الحق سبحانه على ذاته : ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

هذا فى معنى إيذاء الله تعالى ، أما الإيذاء فى حقِّ سيدنا رسول الله ، فرسول الله بشر ، يمكن أنْ يصيبه الإيذاء بالفعل والإيذاء بالقول ، فكما قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء قالوا عن رسول الله : كاهن وساحر ومجنون وشاعر ، ثم تعدَّى الإيذاء إلى الفعل الذى أصاب رسول الله وآلمه بالفعل .

ألم يُرْمَ بالحجارة حتى دَميتْ قدماه فى الطائف[1] ؟ ألم يضعوا على ظهره الشريف سَلاَ البعير فى مكة[2] - أى سَقَط البعير - ألم تكسَر رباعيته يوم أحد[3] ويُشَجُّ ويسيل دمه ﷺ ؟

فرسول الله ناله مع ربه - عز وجل - إيذاء بالقول ، ثم ناله إيذاء آخر بالفعل ، إيذاء بشرى فيه إيلام ، وقمة الإيذاء بالفعل ما يتعرَّض لأمر محارمه وأزواجه ﷺ .

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤٢١) « أن أهل الطائف أغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجئوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة » . أما إدماء رجليه ﷺ فقد ذكره البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٤١٥) فقال « قعدوا له صفَّيْن على طريقه ، وجعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة ، وكانوا أعدوها حتى أدموا رجليه » .

(٢) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٢٧٨) من حديث عبد الله بن مسعود قال « بينما رسول الله ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش . وثمَّ سلا بعير (السلا هو لفافة من الجلد تكون حول الجنين فى البطن) فقالوا : من يأخذ سلا هذا الجزور أو البعير فيقذفه على ظهره ، فجاءه عقبة بن أبى معيط فقذفه على ظهر النبى ﷺ ، فلم يرفع رأسه حتى جاءت فاطمة فأخذته من ظهره ودعت على من صنع ذلك » . وهو فى صحيح البخارى (٣١٨٥) ، وكذا فى صحيح مسلم (١٠٨) كتاب الجهاد والسير .

(٣) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (ص ١٤٢٨) غزوة أحد ، عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ جعل يمسح الدم وهو يقول : « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم » .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] أي : بمخالفة ما جاء به ، أو بأنْ تتهموه بما ليس فيه ، أو تتعرَّضوا له بإيلام حسى ، ثم لم يخص من ألوان الإيذاء إلا مسألة الأزواج ، فقال : ﴿ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا .. (٥٣) ﴾ [الاحزاب] وذكر هذه المسألة بالذات صراحةً مراعاة لطبيعة النفس البشرية ، فقد قلنا : إن الرجل يمكن أن يتجمل على أصحابه أو أحبابه بأغلى ما يملك ، لكنه أبداً لا يقبل أن ينظر أحد إلى زوجته ، يحميها ويغَارُ عليها من مجرد النظر .

لذلك فإن سيدنا حذيفة ، وكان يحب امرأته ، فقال لها : ألاَ تحبين أن تكونى معى فى الجنة ؟ فقالت : بلى ، فقال لها : إذن إذا متُّ فلا تتزوجى بعدى - فهو يغار عليها حتى بعد موته - لأنى سمعت رسول الله يقول : « المرأة لآخر أزواجها »[(١)] .

لكن هذا الحديث وُوجه بحديث آخر لما سُئل رسول الله : أىُّ نساء الرجل تكون معه فى الجنة ؟ فقال : « أحسنهَن خلُقاً معه »[(٢)] .

وقد رأى البعض تعارضاً بين هذين الحديثين ، والواقع أنه ليس بينهما تعارض ، لأن الآخرية هنا لا يُراد بها آخرية الزمن ، إنما آخرية الانتقال ، كما لو تمتعتَ برحلة جميلة مع أحد الأصدقاء منذ عشرين سنة ، فلما ذكَّرته بها قال : كانت آخر متعة ، مع أنك تمتعت بعدها برحلات أخرى .

---

(١) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٢/٤١٠) وعزاه للطبرانى عن أبى الدرداء وللخطيب عن عائشة . قال : وهذا هو الصحيح . وقيل : لأحسنهم خلقاً . وقيل : تُخيَّر .

(٢) أخرج ابن عدى فى (الكامل فى ضعفاء الرجال) (٣/٢٦٢) من حديث أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله ، المرأة منا تتزوج الزوجين والثلاثة والأربعة ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها من يكون زوجها ؟ قال : يا أم سلمة ، إنها تُخيَّر فتختار أحسنهم خلقاً ، فتقول : أى رب ، إن هذا كان أحسنهم خلقاً معى فى دار الدنيا فزوجنيه ، يا أم سلمة ، ذهب الخلق الحسن بخير الدنيا والآخرة . قال ابن عدى : هذا حديث منكر . قال ابن القيم فى « حادى الأرواح » (ص ٢١٦) : « ضعَّفه أبو حاتم » .

فالمعنى : تكون لآخر أزواجها فى المتعة ، وإن كان مُتقدِّماً بحُسْن الخلق ، إذن : فالمعنيان متفقان ، لا تعارضَ بينهما .

ومسألة غَيْرة الرجل على المرأة لها جذور فى تاريخنا وأدبنا العربى ، ومن ذلك قول الشاعر[1] :

أَهِيمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِيتُ فإن أَمُتْ ... فوَا أسَفَى مَنْ ذَا يهيمُ بهَا بَعْدى

فهو مشغول بها حتى بعد أنْ يموت ، لكن يُؤْخذ عليه أنه شغل بمن يحل محله فى هيامه بمحبوبته ؛ لذلك كان أبلغ منه قَوْل الآخر[2] :

أَهِيمُ بدَعْدٍ مَا حَيِيتُ فإن أَمُتْ ... فَلاَ صلُحَتْ دَعْدٌ لذِى خُلَّةٍ بَعْدى

إذن : فهذه الغيرة مراتب ودرجات .

ويُحدِّثنا التاريخ أن أحد الخلفاء العباسيين - أظنه الهادى - كان يحب جارية اسمها غادر ، ولشدة حبه لها قالوا إنه تزوجها ، وفى خلوة من خلوات الهيام والعشْق قال لها : عاهدينى - لأن صحته لم تكُنْ على ما يرام - إذا أنا متُّ أن لا تتزوجى بعدى ، وفعلاً أعطتْه هذا العهد ، فلما مات الهادى لم تلبث أن نسيَتْ غادر عشقها للهادى ، ونسيتْ حُزْنها عليه - وهذا من رحمة الله بنا أن كل شىء يبدأ صغيراً ثم يكبر إلا المصائب ، فإنها تبدأ كبيرة ثم تصغر .

بعدها تزوجت غادر من أخى الهادى ، وفى يوم من الأيام استيقظت فَزِعة صارخة ، حتى اجتمع عليها مَنْ فى القصر ، وسألوها : ماذا بك ؟ قالت : جاءنى الهادى فى المنام ، وقال لى :

خَالَفْت عَهْدى بَعْدَمَا ... جَاوَرْتُ سُكَّانَ المقَابرْ

ونكَحْت غادرةً أخِى ... صَدَقَ الذى سَمَّاك غَادرْ

---

(١) هو : نُصيب بن رباح ، أبو محجن ، توفى عام ١٠٨ هـ . مولى عبد العزيز بن مروان ، شاعر له شهرة ذائعة . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) هو : عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى ، وقد عاب بيت نصيب السابق.

لاَ يَهْنك الإلْفُ الجديدُ ولا عَدتْ عَنْك الدَّوائرْ
ولَحقتِ بى مُنْذُ الصَّباح وصِرْتِ حَيْثُ ذهبْتُ صائر

وما كادت تنتهى من قولها حتى لفظتْ أنفاسها الأخيرة ، وماتت .

لذلك ، فالحق سبحانه يراعى هذه الغرائز الإنسانية وهذه الطبيعة ، ألا ترى أن عدَّة المتوفَّى عنها زوجُها كانت سَنَةً كاملة ، كما في قوله تعالى[1] : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ .. (٢٤٠) ﴾ [البقرة]

ثم جُعلَتْ عدَّة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام احتراماً لهذه الغَريزة فى المرأة .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه الجزاء العادل لمن يؤذى الله ويؤذى رسول الله ، فيقول سبحانه : ﴿ لَعَنَهُمُ اللَّهُ .. (٥٧) ﴾ [الأحزاب] أى : طردهم من رحمته ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (٥٧) ﴾ [الأحزاب]

ثم يعطينا الحق سبحانه إشارةً إلى أن هذا الجزاء العادل الذى أعدَّه لمن يؤذى الله ورسوله ليس تعصُّباً لله ، ولا تعصباً لرسول الله ، بدليل أن الذى يؤذى مؤمناً أو مؤمنة لا بُدَّ أن يُجازَى عن هذا الإيذاء ، فسوَّى المؤمن والمؤمنة فى إرادة الإيذاء بإيذاء الله ، وبإيذاء رسول الله ، فقال سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨) ﴾

---

(١) قال الأكثرون : هذه الآية منسوخة بالتى قبلها ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا .. (٢٣٤) ﴾ [البقرة] نقل ابن كثير فى تفسيره (١/٢٩٦) أن ابن الزبير قال : قلت لعثمان بن عفان : قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها . قال : يا بن أخى لا أغير شيئاً منه من مكانه .

لما تكلم الحق سبحانه عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات خَصَّ هذا الإيذاء بقوله ﴿ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا .. (٥٨) ﴾ [الأحزاب] لأن هناك إيذاءً مشروعاً أوجبه الله للذين يخرجون على حدوده ، فحَدُّ الزنا والقذف وشرب الخمر .. إلخ كلها فيها إيذاء للمؤمن وللمؤمنة ، لكنه إيذاء مشروع لا يُعاقب مَنْ قام به ، كما في إيذاء الله ورسوله .

لذلك يقول تعالى في اللذين يأتيان الفاحشة : ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا .. (١٦) ﴾ [النساء]

والحق سبحانه حين شرع هذه الحدود وهذا الإيذاء ، إنما شرعه ليكون عقوبةً لمن يتعدَّى حدود الله ، وتطهيراً له من ذنبه ، ثم لتكون رادعاً للآخرين ، فسيدنا عمر رضي الله عنه لما قرأ هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. (٥٨) ﴾ [الأحزاب] بكى فقال له جليسه : ما يُبكيك يا أمير المؤمنين ؟ قال : لأنني آذيتُ المؤمنين والمؤمنات ، قال : يا أمير المؤمنين إنك تؤذي لتُعلِّم ولتُقوِّم والله تعالى أمرنا أن نرجم ، وأن نقطع ، فضحك عمر وسُرَّ[1] .

بل أكثر من هذا يأمرنا الحق سبحانه في الحدود : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ .. (٢) ﴾ [النور]

لأن الرأفة في حدود الله رحمة حمقاء ، ولسنا أرحم بالخَلْق من

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٦٥٧) وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : إياكم وأذى المؤمنين فإن الله يحوطهم ويغضب لهم ، وقد زعموا أن عمر بن الخطاب قرأها ذات يوم ، فأفزعه ذلك حتى ذهب إلى أُبيِّ بن كعب رضي الله عنه فدخل عليه فقال : يا أبا المنذر ، إني قرأت آية من كتاب الله تعالى فوقعت مني كل موقع ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. (٥٨) ﴾ [الأحزاب] والله إني لأعاقبهم وأضربهم ، فقال له : إنك لست منهم ، إنما أنت معلم . وانظر تفسير القرطبي (٨/٥٥٠٩): « إنما أنت مُعلِّم ومُقوِّم » .

الخالق سبحانه ، والله تعالى حين يُضخِّم العقوبة ويؤكد عليها ، إنما يريد ألاَّ نجترىء على حدوده ، وألاَّ نُعرِّض أنفسنا لهذه العقوبات ، ولك أنْ تسأل حين تقرأ قوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ .. (١٧٩)﴾ [البقرة]

كيف تكون الحياة فى القتل ؟ نعم ، فى القصاص حياة ؛ لأنك حين تعلم أنك إنْ قتلتَ تُقتَل ، فلن تُقدم أبداً على القتل ، وبذلك حَمَى الله القاتل والمقتول ، وهل يُعَدُّ هذا إيذاءً ؟

ومعنى ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا .. (٥٨)﴾ [الأحزاب] أى : بغير جريمة تستحق الإيذاء ، وكلمة ﴿اكْتَسَبُوا .. (٥٨)﴾ [الأحزاب] قلنا : هناك فَرْق بين : فعل وافتعل ، فعل أى الفعل الطبيعى الذى ليس فيه مبالغة ولا تكلُّف ، أما افتعل ففعْل فيه تكلُّف ومبالغة ، كذلك كسب واكتسب ، كسب : أنْ تأخذ فى الشىء فوق ما أعطيتَ ، كما لو اشتريت بخمسة وبِعْتَ بسبعة مثلاً فهذا كسْب ، أما اكتسب ففيها زيادة وافتعال .

لذلك تجد فى العُرْف اللغوى العام أن كسب تأتى فى الخير واكتسب تأتى فى الشر ، مثل قوله تعالى : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. (٢٨٦)﴾ [البقرة] لها ما كسبتْ تفيد الملكية ، وعليها تفيد الدَّيْن .

ذلك لأن الأمر الحلال يأتى طبيعياً تلقائياً ، أما الحرام فيحتاج إلى محاولة وافتعال واحتياط ، فحين تنظر مثلاً إلى زوجتك تكون طبيعياً لا تتكلف شيئاً ، أما حين تنظر إلى امرأة جميلة فى الشارع ، فإنك تتلصص لذلك وتسرق النظرات ، خشية أن يطلع أحد على فِعْلتك ، هذا هو الفرق بين الحلال والحرام .

وفى آية واحدة فى كتاب الله جاء الفعل كسب فى الشر ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ .. ﴿٨١﴾ ﴾ [البقرة]

فلماذا ؟ قالوا : لأن الآية فيمَنْ تعوَّد السيئات ، وأحاطت به الخطايا حتى أصبحت عادة ، وسَهُلَتْ عليه حتى صارت عنده كالحلال ، يفعله بلا تكلُّف ، بل ويجاهر به ويتباهى ، هذا هو المجَاهر الذى قال فيه رسول الله ﷺ : « كل أمتى مُعَافَى إلا المجَاهِرين »[1] وفيه : « ستر الله عليه وأصبح يفضح نفسه » .

وهذا الذى يُسَرُّ بالمعصية ويتباهى بها بلغ به الاحتراف أنه يستطيع أنْ يستر حركات انفعاله فى الحرام ، كأنها الحلال بعينه ؛ لذلك جاء الفعل كسب هنا ، وكأن السيئة أصبحت ملكةً .

أذكر بمناسبة التكلُّف والافتعال فى الحرام رجلاً من بلدتنا اسمه الشيخ مصطفى ، ذهب إلى السوق لشراء بقرة ، وأخذ النقود فى جيبه ، ومن حرصه وضع يده على جيبه خوفاً من اللصوص ، فلما رأوه فى السوق يمسك جيبه بيده عرفوا أنه ضالتهم ، فكيف احتالوا ليسرقوه ؟ لطخ أحدهم كتفه بروَث البهائم ، ثم احتكَّ بالشيخ مصطفى ، حتى اتسخت ملابسه فغضب ، وأخذ ينظف ملابسه من الروث ، ونسى مسألة النقود التى فى جيبه فسرقوه .

وكما يأتى الحرام بافتعال ، كذلك يكون العقاب فيه أيضاً افتعال

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٦٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٩٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « كل أمتى مُعَافى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ، ثم يصبح وقد ستره الله فيقول : يا فلان عملتُ البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه » .

ومبالغة تناسب افتعال الفعل ؛ لذلك يقول سبحانه في عقاب الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا : ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا .. (٥٨) ﴾ [الأحزاب] ولم يَقُلْ حملوا ، وفَرْق بين حمل واحتمل ، حمل تُقال لما في طاقتك حَمْله ، إنما احتمل يعني فوق الطاقة ، وإنْ حملْته تحمله بمشقة ، فالجزاء هنا من جنس العمل ، فكما تفاعلْتَ وتكلَّفْتَ في المعصية كذلك يكون الجزاء عليها .

﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨) ﴾ [الأحزاب] البهتان : أن تقول في غيرك ما ليس فيه ، فالبهتان كذب ، أمَّا الإثم : فأنْ ترتكب ذنباً في حقه بأن تؤذيه بصفة هي فيه بالفعل ، لكنه يكره أنْ تصفه بها ، كما تقول للأعمى مثلاً : يا أعمى .

لذلك ورد في الحديث لما سُئل سيدنا رسول الله ﷺ : أرأيتَ إنْ كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إنْ كان فيه ما تقول فقد اغتبْتَهُ ، وإنْ لم يكن فيه ما تقول فقد بَهته »[1] أي : كذبْتَ وافتريْتَ عليه .

ووصف الحق سبحانه الإثم هنا بأنه مبين ﴿ وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨) ﴾ [الأحزاب] يعني : جليٌّ واضح ؛ لأن الوضوح في الإثم إما أن يكون بأنْ تُقر أنت به وتعترف بذنبك ، وإما أنْ يكون بالبينة ، فلو سألناك : أنت قلت لهذا الرجل يا أعمى ، أتحب أنْ تُوصَف أنت بصفة تكرهها ؟ لا بُدَّ أنْ تقول : لا أحب . إذن : فالإثم هنا واضح ، ويكفي إقرارك به .

وينبغي أن تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك كما علَّمَنَا سيدنا رسول الله ، فكما أنه لا يُرضيك أنْ يسرق الناس منك ، كذلك أنت

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٨٩) كتاب البر والصلة ، وكذا أحمد في مسنده (٢/ ٢٣٠، ٣٨٤ ، ٣٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره . قيل : أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته » .

لا تسرق منهم ، وكما يُؤذيك الإثمُ كذلك يؤذيهم .

ثم يأخذنا الحق سبحانه إلى أدب آخر من آداب الأسرة ، فيقول سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾

نلحظ أن الأمــر توجَّـه أولاً لأزواج النبى ، ثم لـبناته ﷺ ، وهذا يعنى أن رسول الله لا يأمر أمتــه بشىء هو عنه بنجوى ، إنما يأمرهم بشىء بدأ فيه بأهل بيته ، وهذا أدْعَى لقبـول الأمر وتنفيذه ، فقبل أنْ آمركم أمرت نفسى فلم أتميز عنكم بشىء .

لذلك جـاء فى سيـرة القائد المـسلم « طارق بن زياد »[1] أنه لما ذهب لفـتح الأندلس وقف بجنوده على شاطىء الـبحر ، وأعـداؤه على الشـاطىء الآخـر ، ثم قال للجنود : أيها الناس أنا لن آمـركم بأمر أنا عنه بنجوى ، وإننى عند ملتـقى القوم سابقكم ، فمبارز سـيِّدَ القوم ، فإنْ قتلتُه فقد كُفيتم أمره ، وإنْ قتلنى فلن يعوزكم أمير بعدى .

أى : أننى سـابقكم إلى القتال ، ولن أرسلكم وأجلس أتفرج وأرقب ما يحدث ، يعنى : أنا لا أتميز عنكم بشىء .

---

(١) طارق بن زياد الليثى بالولاء ، فاتح الأندلس ، أصـله من البربر ، أسلم على يد موسى بن نصيـر ، ولى طارقاً ١٢ ألفـاً معظمهم من البـربر ، فنزل بهم البحـر واستولى عـلى الجبل (جبل طارق الذى سـمى باسمـه) ، وواصل فتوحـه فى الأندلس مع موسى بن نصـير ، مولده عام ٥٠ هـ ووفاته ١٠٢ هـ عن ٥٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٣/٢١٧] .

وبهذه المساواة أيضاً ساد عمر - رضى الله عنه - القوم وقاد العالم وهو يرتدى مُرقَّعته بالمدينة ؛ لذلك لما رآه رجل وهو نائم تحت شجرة كعامة الناس قال : حكمتَ فعدلْتَ فأمنْتَ ، فنمتَ يا عمر .

وكان - رضى الله عنه - إذا أراد أنْ يأخذ قراراً فى أمر من أمور رعيته يعلم أن الفساد إنما يأتى أولاً من الحاشية والأقارب والأتباع ومن مراكز القوى التى تحيط به ؛ لذلك كان يجمع قرابته ويحذرهم : أنا اعتزمْتُ أنْ أصدر قراراً فى كذا وكذا ، فوالذى نفسى بيده مَنْ خالفنى منكم إلى شىء منه لجعلته نكالاً للمسلمين ، أيها القوم إياكم أنْ يدخل عليكم مَنْ يدَّعى صلته بى ، فتعطونه غير حق مَنْ لم يعرفنى ، والله إنْ فعلتُم لأجعلنكم نكالاً للمسلمين .

وورود النص القرآنى بلفظ ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ .. (٥٩)﴾ [الأحزاب] دليل على أن سيدنا رسول الله كان ينقل النصَّ الذى جاءه ، والصيغة التى تكلَّم الله بها دون أنْ يُغيِّر فيها شيئاً ، وإلا فقد كان بإمكانه أن ينقل الأمر لأزواجه ، فيقول : يا أيها النبى أزواجك وبناتك يدنين عليهن من جلابيبهن . إنما نقل النص القرآنى كما أُنزل عليه ؛ ليعلم الجميع أن الأمر من الله ، وما محمد إلا مُبلِّغ عن الله ، فمَنْ أراد أنْ يناقش الأمر فليناقش صاحبه .

وأزواج النبى ﷺ ساعة نزلتْ عليه هذه الآية كُنَّ تسعة أزواج ، كرَّمهن الله وخيَّرهن فاخترْنَ رسول الله ، كان منهن خمس من قريش هُنَّ : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وأم سلمة ، وسودة بنت زمعة ، وثلاث من سائر العرب هُنَّ : ميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت جحش ، وجُويرية بنت الحارث من بنى المصطلق ، وواحدة من نسل هارون أخى موسى - عليهما السلام - هى السيدة صفية بنت حيى بن أخطب .

أمـا بنات رسول الله ، فـرسول الله أنجب البـنين والبنات : البنون ماتوا جميعاً فى الصِّغَر ، أما البنات فأبقاهُنَّ الله حتى تزوَّجْنَ جميعاً ، وهُنَّ : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم .

وأصغـرهن فاطمـة ، وهى الوحيـدة التى بقيتْ بعـد موت سـيدنا رسول الله ، أما زينب ورقية وأم كلثوم فقد مُتْنَ فى حياة رسول الله.

ولفـاطمة قـصة فى الضـحك والبكاء ؛ لذلك بعض العـارفين كـان يقـول فى قــوله تعـالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) ﴾ [النجم] أن السيدة فاطمة حينما سُئلت ما الذى أبكاك وما الذى أضحكك ؟ قالت : لأننى لمـا دخلتُ على أبى وهو مـريض قَـال لى : إن هذا هو مـرض الموت يا فاطمة فبكيت ، ثم انصـرفتُ فأشار إلىَّ وقال لى : يا فاطمة ستكونين أول أهل بيـتى لحوقاً بى فـضحكت . لذلك لم تمكث فـاطمة بعد رسول الله إلا ستة أشـهر[1] .

وقد أخـذ العلماء من هـذا الحديث أن لقـاء الأموات يكون بمـجرد الموت ، وإلا لو كـان اللقاء فى البعث والقـيامة لاسـتوى فى ذلك مَنْ مات أولاً ، ومَنْ مـات آخراً ، فـدلَّ قوله : « ستكونيـن أول أهل بيتى لحوقاً بى » على أن لقاءه ﷺ بها سيكون بمجرد أنْ تموت .

الشـاهد فى هذه القـصـة أن أحـدهم ـ أظنه الإمـام علياً ـ قـال لفاطمة : الله يقول ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) ﴾ [النجم] أما رسول الله فأبكاك أولاً ، ثم أضحكك حتى لا يكون أضحك وأبكى كربه .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٧٧ ، ٢٤٠) من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ دعا فاطمة ابـنته فسارّها فبكت ، ثم سارّها فـضحكت ، فقالت عائشة : فـقلت لفاطمة : مـا هذا الذى سـارك به رسـول الله ﷺ فـبكيت ، ثم سـارك فـضـحكت ؟ قـالت : سـارنى فأخبرنى بموته فبكيت ، ثم سارنى فأخبرنى أنى أول من أتبعه من أهله فضحكت .

أما السيدة زينب[1] فتزوجت العاص بن الربيع[2] قبل أنْ يُحرَّم الزواج من الكفار ، وقد أُسر العاص فى غزوة بدر ، فذهبتْ زينب لتفديه ، وقدمتْ قلادة كانت معها ، فلما رآها رسول الله وجد أنها قلادة خديجة - رضى الله عنها - قد وهبتْها لابنتها ، فقال : إنْ رأيتم أنْ تردوا لها قلادتها وتفكُّوا لها أسيرها فافعلوا ، فردَّ ﷺ الأمر إلى مَنْ ينتفع به ، فتنازلوا عن القلادة[3] .

أما رقية وأم كلثوم فلهما حوادث ، منها حوادث مؤسفة ، ومنها حوادث مبهجة ، أما المؤسف فإنَّ عتبة بن أبى لهب عقد على رقية ، وأخوه عتيبة عقد على أم كلثوم ، وكان هذا قبل بعثة رسول الله ﷺ ، فلما بُعث رسول الله وحدث ما حدث بينه وبين أبي لهب وأنزل الله تعالى:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ ﴾ [المسد]

قال لابنه عتبة : رأسي ورأسك علىَّ حرام حتى تُطلِّق رقية فطلَّقها ، بعدها مَرَّ عتبة على رسول الله ، وفعل فَعْلةً فيها استهزاء برسول الله ، فقال له ﷺ : « أكلك كلب من كلاب الله »[4] .

---

(١) زينب بنت سيد البشر محمد بن عبد الله ، كبرى بناته ، تزوج بها ابن خالتها أبو العاص ابن الربيع ، ولدت له عليا وأمامة ، فمات على صغيراً ، وبقيت أمامة فتزوجها على بن أبى طالب بعد موت فاطمة الزهراء . توفيت زينب عام ٨ هـ ، أى قبل وفاة رسول الله بعامين . [الأعلام للزركلى ٦٧/٣] .

(٢) هو : أبو العاص القاسم بن الربيع بن عبد العزى ، صحابى ، زوج زينب كبرى بنات النبى ﷺ ، تزوجها فى الجاهلية بمكة وتأخر إسلامه ، فكانت عند أبيها بالمدينة وأسلم فأعيدت إليه . غلب عليه لقب (أبو العاص) وكان يلقب « جرو البطحاء » ويقال له «الأمين» توفى عام ١٢ هجرية . [الأعلام للزركلى ١٧٦/٥] .

(٣) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣١/١٠) ، أسره عبد الله بن جبير فى بدر ، وجاء أخوه عمرو بن الربيع ليفتديه ، وبعثت معه زينب بنت رسول الله ، وهى يومئذ بمكة بقلادة لها كانت لأمها خديجة ، كانت خديجة قد أدخلتها بها على أبى العاص حين تزوج بها .

(٤) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣٣٨/٢ ، ٣٣٩) ، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٩/٦) وعزاه للطبرانى مرسلاً وقال : « فيه زهير بن العلاء وهو ضعيف » وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٥٣٩/٢) من حديث أبى عقرب وصححه . وحسَّنه ابن حجر فى الفتح (٣٩/٤) .

أخبر عتبة أباه بما كان من دعاء رسول الله عليه ، وكان أبو لهب يعلم صدْق رسول الله ، وأن دعاءه مستجاب لا يردُّ ، فخاف على ابنه ، وأخذ يحتاط له ، ويوصى به رفاقه فى رحلات تجارته ـ وعجيب أنه مع هذا كله لم يؤمن .

وفعلاً كان عتبة فى رحلات التجارة ينام فى وسط القوم ، وهم يحيطون به من كل جانب ، وفى إحدى الليالى جاءه أسد ، فأخذه من بين القوم ، ولم يَبْقَ منه إلا ما يُعرف به .

علَّق على هذه الحادثة أحد المغرضين فقال : إن رسول الله قال : « أكلك كلب » وهذا أسد ، فردَّ عليه أحد العارفين فقال : إذا نُسب الكلب إلى الله ، فلا بُدَّ أنْ يكون أسداً ، فرسول الله لم يقل : كلب من كلابكم ، إنما من كلاب الله[1] .

هذا ما كان من أمر عتبة ، أما عتيبة فقد طلَّق أم كلثوم ، لكنه لم يتعرض لرسول الله بإيذاء ، بل قالوا : إنه كان يستحى أنْ يواجه رسول الله ، لذلك لم يَدْعُ عليه رسول الله .

أما الحادث المبهج فى حياة رقية وأم كلثوم ، فقد أبدلهما الله خيراً من عتبة وعتيبة ، حيث تزوجت رقية من سيدنا عثمان ، فلما ماتت تزوج بعدها من أم كلثوم ؛ لذلك لُقِّب ـ رضى الله عنه ـ بذى النورين ، وكانت النساء يُغنين حين تزوج عثمان برقية :

أَحْسَنَ مَا رأى إنْسَانٌ   رُقيَّة وزوجُهَا عُثْمَانُ[2]

---

(١) الكلب : كل سبع عقور ، ومنه الأسد . قال ابن سيده : غلب الكلب على هذا النوع النابح ، وقد يكون التكليب واقعاً على الفهد وسباع الطير . وقال مالك فى الموطأ : كل ما عقر الناس وعدا عليهم وأخافهم مثل الأسد والنمر والفهد والذئب هو العقور . [انظر فتح البارى لابن حجر العسقلانى ٤/ ٣٩] .

(٢) لفظ تفسير القرطبى (٨/ ٥٥١٠) :

أحسنُ شَخْصيْن رأى إنْسَانُ   رُقيَّةُ وبعلُها عُثْمَانُ

فانظر إلى عظَم هذا العوض أنْ يُبدلَهُمَا الله بعتبة وعتيبة مَنْ ؟ عثمان ، نعم العوَض هذا ، والعوَض فى مثل هذه المسائل إنما يتأتَّى بقبول القضاء فى نظائره ، فإذا أُصيب الإنسان فاستسلم وسلَّم الأمر لله ؛ فقال كما علَّمنا رسول الله : « إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، اللهم أجرْنى فى مصيبتى - أياً كانت هذه المصيبة - واخْلُفْنِى خَيْراً منها »[1] .

إذا قال ذلك وعلم أن لله حكمة فى كل قضاء يقضيه لا بُدَّ أنْ يُعوِّضه الله خيراً ، وأظن أن قصة السيدة أم سلمة مشهورة فى هذا المقام ، فلما توفى زوجها أبو سلمة حزنتْ عليه حزناً شديداً ، ولما جاءها النسوة يُعزِّينها فى زوجها قالت إحداهن : يا أم سلمة ، قولى كما قال رسول الله : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، اللهم أأجرنى فى مصيبتى ، واخْلُفْنى خيراً منها ، فقالت : وهل هناك خير من أبى سلمة ، يعنى : هو فى نظرها أحسن الناس وخيرهم .

لكنها مع هذا رضيَتْ بقضاء الله فما انقضَتْ عدَّتها حتى طرق عليها طارق يقول : يا أم سلمة ، إن رسول الله ﷺ يخطبكِ لنفسه ، فضحكتْ لأن الله عوَّضها بمَنْ هو خير من أبى سلمة[2] .

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٩١٨) كتاب الجنائز من حديث أم سلمة أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول : ما أمره الله : إنا لله وإنا إليه راجعون . اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها ، إلا أخلف الله له خيراً منها » وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٣٠٩) .

(٢) أخرج ابن سعد فى الطبقات الكبرى (١٠/٨٧) من حديث أم سلمة أن أبا سلمة لما احتُضر قال : اللهم اخلفنى فى أهلى بخير ، فلما قبض قلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم عندك احتسبت مصيبتى فاجرنى فيها ، وأردت أن أقول : وابدلنى بها خيراً منها . فقلت : من خير من أبى سلمة ؟ فما زلت حتى قلتها . فلما انقضت عدتها خطبها أبو بكر فردته ، ثم خطبها عمر فردته ، فبعث إليها رسول الله ﷺ فقالت : مرحباً برسول الله وبرسوله . الحديث .

بعد أن أمر الحق سبحانه أزواج النبي وبناته أولاً بهذا الأدب ثنَّى بنساء المؤمنين ، فقال ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) ﴾ [الأحزاب] لأن أسرة رسول الله ليست أزواجه وبناته فحسب ، إنما العالم كله ، وكلمة (نساء) جمع ، لا واحد له من لفظه ، فمفرد أزواج زوج ، ومفرد بنات بنت ، أما (نساء) فمفردها من معناها ، لا من لفظها ، فتقول : امرأة ، واستُثْقل جمع امرأة على امرآت فقالوا : نساء وأصلها فى اللغة من النسىء ، قالوا : لأن المرأة أُجِّلَ خَلْقُها بعد خَلْق الرجل . وفى اللغة : النَّسْء أى : التأخير والتأجيل ، فقالوا : نساء .

ثم يذكر سبحانه الأمر الذى وُجِّه إلى زوجات النبى ، وبناته ونساء المؤمنين جميعاً ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب] فالفعل ﴿ يُدْنِينَ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب] مجزوم فى جواب الطلب (قُلْ) مثل : اسكُتْ تسلَم ، ذاكر تنجح ، وفى الآية شرط مُقدَّر : إنْ تَقُلْ لهُنَّ ادنين يُدنين .

كما فى ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً (٢٧) ﴾ [الحج] لأن الخطاب هنا للمؤمنات ، وعلى رأسهن أزواج النبى وبناته ، وإنْ لم يستجب هؤلاء للأمر ، فقد اختلَّ فيهِنَّ شرط الإيمان .

ومعنى : الإدناء : تقريب شىء من شىء ، ومن ذلك قوله تعالى فى وصف ثمار الجنة ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) ﴾ [الحاقة] أى : قريبة التناول سَهْلة الجَنْى ، والمراد : يُدنين جلابيبهن أى : من الأرض لتستر الجسم . وقوله : ﴿ عَلَيْهِنَّ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب] يدل على أنها تشمل الجسم كله ، وأنها ملفوفة حوله مسدولة حتى الأرض .

وكلمة ﴿ جَلَابِيبِهِنَّ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب] مفردها جلباب ، وقد اختلفوا في تعريفه فقالوا : هو الثوب الذي يُلْبس فوق الثوب الداخلي ، فتحت الجلباب مثلاً (فانلة) أو قميص وسروال ، ويجوز أن تكون الملابس الداخلية قصيرة ، أما الجلباب فيجب أن يكون سابغاً طويلاً قريباً من الأرض[1] .

وقالوا : الجلباب هو الخمار الذي يغطي الرأس ، ويُضرب على الجيوب - أي فتحة الرقبة - لكن هذا غير كاف ، فلا بُدَّ أنْ يُسدل إلى الأرض ليستر المرأة كلها ؛ لأن جسم المرأة عورة ، ومن اللباس ما يكشف ، ومنه ما يصف ، ومنه ما يلفت النظر .

وشرط في لباس المرأة الشرعي ألاَّ يكون كاشفاً ، ولا واصفاً ، ولا مُلْفتاً للنظر ؛ لأن من النساء مَنْ ترتدي الجلباب الطويل السَّابغ الذي لاَ يكشف شيئاً من جسمها ، إلا أنه ضيِّق يصف الصَّدْر ، ويصف الأرداف ، ويُجسِّم المفاتن ، حتى تبدو وكأنها عارية[2] .

لذلك من التعبيرات الأدبية في هذه المسألة قَوْل أحدهم - وهو على حق - إنَّ مبالغة المرأة في تبرُّجها إلحاح منها في عَرْض نفسها على الرجل . يعني : تريد أنْ تُلفت نظره ، تريد أنْ تُنبِّه الغافل وكأنها تقول : نحن هنا . وإنْ تساهلنا في ذلك مع البنت التي لم تتزوج ،

(١) وهذا ما ذهب إليه القرطبي في تفسيره (٥٥١١/٨) قال : « الجلابيب جمع جلباب ، وهو ثوب أكبر من الخمار . وروى عن ابن عباس وابن مسعود أنه الرداء . وقد قيل : إنه القناع ، والصحيح أنه الثوب الذي يستر جميع البدن » .

(٢) أخرج الحاكم في مستدركه (١٨٧/٤) من حديث دحية بن خليفة الكلبي أن رسول الله ﷺ حين بعثه إلى هرقل ، فلما رجع أعطاه رسول الله ﷺ قُبْطية (ثوب مصرى) فقال : اجعل صديعها (نصفها) قميصاً ، واعط صاحبتك (امرأتك) صديعاً تختمر به ، فلما ولى قال : مرها تجعل تحتها شيئاً لئلا يصف . قال الحاكم : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . قال الذهبي : « فيه انقطاع » .

ربما كان لها عُذْر ، لكن ما عذر التى تزوجت ؟

ثم يُبيِّن الحق ـ تبارك وتعالى ـ الحكمة من هذا الأدب فى مسألة اللباس ، فيقول : ﴿ ذَٰلِكَ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب] أى : إدناء الجلباب إلى الأرض ، وستر الجسم ، وعدم إبداء الزينة ﴿ أَدْنَىٰ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب] أى : أقرب ﴿ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب]

فالمرأة المسلمة تُعْرف بزيِّها وحِشْمتها ، فلا يجرؤ أحد على التعرض لها بسوء أو مضايقتها ، فلباسها ووقارها يقول لك : إنها ليست من هذا النوع الرخيص الذى ينتظر إشارة منك ، وليست ممَّنْ يَعْرِض نفسه عَرْضاً مُهيِّجاً مستميلاً مُلْفتاً .

وقوله تعالى بعد ذلك وفى ختام الآية ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (٥٩) ﴾ [الأحزاب] جاء وَصْف المغفرة والرحمة هنا ليشير إلى أن عقوبة الله ليست بأثر رجعى ، فما سبق هذا الأمر من تجاوزات مغفور معفوٌّ عنه برحمة الله ، والعبرة بسلوك المؤمنة بعد أنْ تسمع هذا الأمر بإدناء الجلباب والتستُّر .

والحق سبحانه بمثل هذا الأدب إنما يُؤمِّن حياة المرأة المسلمة ، كيف ؟ نقول : معنى التأمين أنْ نأخذ منك حال يُسْرك ، وحين تكون واجداً ، لنعطيك حينما تكون غير واجد .

كذلك الإسلام حين يستر جمال المرأة ومفاتنها حال شبابها ونضارتها يسترها حين تكبر ، وحين يتلاشى الجمال ، ويحلُّ محلَّه أمور تحرص المرأة على سترها ، فالإسلام فى هذه الحالة يحمى المرأة ويحفظ لها عزَّتها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ[(1)] فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ﴾

المتتبع لموكب الرسالات يجد أن الرسل واجهوا فى نشر رسالتهم ثلاثة أصناف من البشر : صنف آمن ، وصنف كفر ، وصنف وقف متردداً بين الكفر والإيمان ، وهؤلاء هم المنافقون .

ذلك ؛ لأن الرسول حين يُبعث إنما يُبعَث لتغيير وضع اجتماعى بلغ من السوء درجةً لا يحتملها الناس ، فالذى يعانى من هذا الوضع ينتظر هذا الرسول الجديد ، فما أنْ يُبعث حتى يبادر إلى الإيمان به ؛ لأنه جاء بمبادىء جديدة ، لا ظُلْم فيها ، ولا قهر ، ولا استبداد ، ولا رشوة ، ولا فساد .

إذن : مَنْ عضته هذه الأحداث ، وشقى بهذا الفساد سارع إلى الإيمان ، وكذلك آمن أهل مصر ، وما إنْ دخلها الإسلام حتى أسرعوا إليه ، لماذا ؟ لأنهم شَقُوا قبله بحكم الرومان ، وكذلك آمن الفُرْس بمجرد أنْ سمعوا بالإسلامْ ، ورأوا الأسوة الحسنة فى المسلمين بعد أنْ عَضَّهم فساد غير المسلمين .

ساعة يشْقَى الناسُ بفساد الأوضاع يتطلَّعون إلى منقذ ، فإنْ

(١) أرجف فى الناس أو فى المدينة : خاض فى الفتنة وأشاع الأخبار المقلقة السيئة التى توقع الناس فى الاضطراب . [القاموس القويم ١/٢٥٧] .

جاءهم اتبعوه ، خاصة إنْ كان منهم وله فيهم مَاضٍ مُشرِّف لم يُجربوا عليه كذباً ولا نقيصة .

وهذا ما رأيناه مثلاً فى قصة إسلام سيدنا أبى بكر ، فما أنْ أعلن محمد أنه رسول الله حتى سارع إلى الإيمان به دون أنْ يسأله عن شيء ، لماذا ؟ لأنه عرف صِدْقه ، وعرف أمانته ، ووثق من ذلك .

ومثله كان إيمان السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ فما إنْ جاءها رسول الله مُضطرباً مما لاقى من نزول المَلَك عليه حتى احتضنته ، وهدَّأتْ من رَوْعه ، وأنصفته ، وذهبتْ به إلى ورقة بن نوفل لتثبت له أنه على الحق ، وأن الله تعالى لن يُسلمه ولن يتخلى عنه .

وكان مما قالتْ : « والله إنك لتقرى الضيف ، وتحمل الكلَّ ، وتُكسِب المعدوم ، وتعين على نوائب الدهر ... »[(١)] .

لذلك قال العلماء : إن السيدة خديجة كانت أول فقيهة فى الإسلام قبل أنْ ينزل الإسلام .

وطبيعى أن يكون أهل الفساد والمستفيدون منه على النقيض ، فهم ينتفعون بالفساد والاستبداد ، ويريدون أن تظلَّ لهم سيادتهم ومكانتهم ، وأنْ يظل الناسُ عبيداً لهم ، يأكلون خيراتهم ويستذلونهم .

وهؤلاء الذين استعبدوا الناس ، وجعلوا من أنفسهم سادةً بل آلهة ، ويعلمون أن الرسول ما جاء إلا للقضاء على سيادتهم وألوهيتهم

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) وستة مواضع أخرى من صحيحه ، وأخرجه أيضاً مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

ومعنى « تحمل الكل » أى : تعين المثقل ومنه الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال .
و « تكسب المعدوم » أى : تستفيد المال المعدوم وقد كان النبى ﷺ محظوظاً فى تجارته.
« تقرى الضيف » أى : تطعمه طعام الأضياف . و « نوائب الحق » حادثات الأيام . انظر : شرح النووى على مسلم (٢/٥٦١) ، وفتح البارى للعسقلانى (١/٢٤) .

الكاذبة ، هؤلاء لا بُدَّ أن يصادموا الدعوة ، لا بُدَّ أنْ يكفروا بها ، وأن يحاربوها ، حفَاظاً على سيادتهم وسلطتهم الزمنية .

وعجيب أن نرى من عامة الناس مَنْ ألف هذه العبودية ، ورضى هذه المذلة ، واكتفى بأنْ يعيش فى كَنَف هؤلاء السادة مهما كانت التبعاتُ ، هؤلاء وأمثالهم هم الذين قالوا : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

فبعد أنْ جاءهم الرسول المنقذ ما زالوا يتطلعون إلى عظيم يستعبدهم .

وكلٌّ من هذيْن الفريقين (المؤمن ، والكافر) كان منطقياً مع نفسه ، فالمؤمن آمن بقلبه ، ونطق بلسانه ، والكافر كفر بقلبه ، وكفر بلسانه ، لأنه لم ينطق بكلمة التوحيد ، والإنسان قلبٌ وقالبٌ ، ولا بُدَّ فى الإيمان أنْ يوافق القالبُ ما فى القلب .

أما الصنف الثالث وهو المنافق ، فليس منطقياً مع نفسه ، لأنه آمن بلسانه ، ولم يؤمن بقلبه ، فهو جبان يُظهر لك الحب ، ويُضمِر الكره ؛ لذلك جعلهم الله فى الدَّرْك الأسفل من النار .

لذلك ، فالعرب لما سألهم رسول الله أنْ يقولوا : لا إله إلا الله ، ليبطل بها سيادة زعماء الكفر أبوْا أن يقولوها ، لماذا ؟ لأنهم يعلمون أنها ليست كلمة تُقال ، إنما لها تبعات ، ويترتب عليها مسئوليات لا يقدرون هم على القيام بها ، ولو أنها كلمة تُقَال لقالوها ، وانتهى العداء بينهم وبين رسول الله .

فمعنى لا إله إلا الله : لا عبوديةَ إلا لله ، ولا خضوعَ إلا لله ، ولا تشريعَ إلا لله ، ولا نافع إلا الله .... إلخ ، وكيف تستقيم هذه المعانى مع مَنْ ألِف العبودية والخضوع لغير الله ؟

والحق ـ تبارك وتعالى ـ لما تكلّم هنا عن المنافقين خَصَّ المدينة، فقال سبحانه ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ .. (٦٠)﴾ [الأحزاب] فالنفاق لم يظهر فى مكة ، وهى مَعْقل الكفر والأصنام ، إنما ظهر فى المدينة ، وهى التى آوَتْ مهاجرى رسول الله ، وكان غالبية أهلها من أهل الكتاب ، وهم أقرب إلى الإيمان من الكفار ، فلماذا هذه الظاهرة ؟

قالوا : لأن الإسلام كان ضعيفاً فى مكة ، وصار قوياً فى المدينة ، فالنفاق ظاهرة صحية للإسلام ؛ لأنه لولا قوته ما نافقه المنافقون ، فظهور النفاق فى المدينة دليل على قوة الإسلام فيها ، وأنه صارت له شوكة ، وصارت له سطوة ؛ لذلك نافق ضعافُ الإيمان ؛ ليأخذوا خير الإسلام ، وليحتموا بحماه ، وإلا فالضعيفُ لا يُنَافَق .

نعم ، ظهر النفاق فى المدينة التى قال الله فى حق أهلها : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا[1] الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. (٩)﴾ [الحشر]

ويقول عنها رسول الله ﷺ : « إن الإيمان ليأرز[2] إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جُحْرها »[3] .

---

(١) تبوأوا الدار : سكنوا دار الهجرة وهى المدينة أولاً ، وهم الأنصار ، وعطف الإيمان على الدار كأنه منزل طيب يسكنه الإنسان ويستريح فيه . [القاموس القويم ١/٨٨] .

(٢) يأرز : أى ينضم ـ الإسلام إلى المدينة ـ ويجتمع بعضه إلى بعض فيها . [لسان العرب ـ مادة : أرز] .

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٨٧٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . ولفظ الحديث « إن الإيمان » .

وأيضاً القرآن هو الذى قال عن أهل المدينة : ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا[1] عَلَى النِّفَاقِ .. (١٠١)﴾ [التوبة] وهذا ليس استضعافاً للمدينة ، إنما إظهار لقوة الإسلام فيها ، بحيثُ أصبحتْ له سطوة وقوة تُنافَق .

هنا قوله تعالى : ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ.. (٦٠)﴾ [الأحزاب] ساعة تسمع ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ..(٦٠)﴾ [الأحزاب] فاعلم أن الله تعالى أقسم بشىء ، وهذا القول هو جواب القسم ، والحق سبحانه لا يُقسم إلا على الشىء العظيم ، ونحن البشر نُقسم لنؤكد كلامنا ، كما تقول : والله إنْ ما حدث من فلان كذا وكذا سأفعل كذا وكذا .

أما الحق سبحانه ، فكلامه صادق ونافذ دون قَسَم ، فما بالُكَ إنْ أقسم ؟ لذلك يقول بعض العارفين إذ سمع الله تعالى يُقسِم : مَنْ أغضب الكريم حتى ألجأه أن يقسم ؟

كلمة ﴿الْمُنَافِقُونَ.. (٦٠)﴾ [الأحزاب] مفردها منافق ، مأخوذ من نَافِقَاء اليربوع ، واليربوع حيوان صغير يشبه الفأر ، يعرفه أهل البادية ، يعيش فى جحور ، فيترصدونه ليصطادوه ساعة يخرج من جُحْره ، لكن هذا الحيوان الصغير فيه لُؤْم ودهاء ، فماذا يفعل ؟ يجعل لجُحْره مدخلين ، واحد معروف ، والآخر مستتر بشىء ، فإذا أحس بالصياد على هذا المدخل ذهب إلى المدخل الآخر ؛ لذلك أشبه المنافق تماماً الذى له قلب كافر ولسان مؤمن .

وتلحظ أن المنافقين وصفهم الله هنا بصفات ثلاث ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ .. (٦٠)﴾ [الأحزاب] فالعطف هنا لا يقتضى المغايرة ، إنما عطف صفات مختلفة لشىء

---

(١) مرد على الشىء : مرن عليه ومهر فيه ، وأكثر ما يُستعمل فى الشر ، ومن ذلك قوله : ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ .. (١٠١)﴾ [التوبة] . [القاموس القويم ٢/٢٢٢] .

واحد ، وجاءتْ هذه الصفات مستقلةً ؛ لأنها أصبحتْ من الوضوح فيهم ، بحيث تكاد تكون نوعاً منفرداً بذاته[1] .

وقد وصف القرآن في موضع آخر المنافقين بأن في قلوبهم مرضاً ، فقال سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝ ﴾ [البقرة]

وفي هذا دليل على أن الواو هنا أفادت عطف صفة على صفة ، لا طائفة على طائفة ، ومثله العطف في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ .. ۝ ﴾ [الحشر] فالدار أي المدينة ، وكذلك الإيمان يُراد به المدينة أيضاً .

ومعنى ﴿ الْمُرْجِفُونَ .. ۝ ﴾ [الأحزاب] المرجف من الإرجاف ، وهو الهزّة العنيفة التي تزلزل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝ ﴾ [النازعات] فالمرجفون هم الذين يحاولون زلزلة الشيء الثابت ، وزعزعة الكيان المستقر ، كذلك كان المنافقون كلما رأوا للإسلام قوةً حاولوا زعزعتها وهزّها لإضعافه والقضاء عليه .

وهؤلاء هم الذين نسميهم في التعبير السياسي الحديث (الطابور الخامس) ، وهم الجماعة الذين يُروِّجون الإشاعات ، ويذيعون الأباطيل التي تُضعف التيار العام وتهدد استقراره .

وكثيراً ما قعد المنافقون يقولون : إن قبيلة فلان وقبيلة فلان

---

(١) قال أبو رزين : هم شيء واحد ، يعني : أنهم قد جمعوا هذه الأشياء . وقيل : كان منهم - أي : من المنافقين - قوم يرجفون ، وقوم يتبعون النساء للريبة ، وقوم يشككون المسلمين . نقله القرطبي في تفسيره (٨/٥٥١٣) .

اجتمعوا للهجوم على المدينة والقضاء على محمد ورسالته ، وهدفهم من هذه الإشاعات إضعاف وهزيمة الروح المعنوية لدى المسلمين الجدد والمستضعفين منهم .

حتى على مستوى الأفراد ، كانوا يذهبون إلى مَنْ يفكر فى الإسلام ، أو يرون أنه ارتاح إليه ، فيقولون له : ألم تعلم أن فلاناً أخذه قومه ، أو أخذه سيده وعذَّبه حتى الموت لأنه اتبع محمداً ، ذلك ليصرفوا الناس عن دين الله .

إذن : المرجِفُ يعني الذى يمشى بالفتنة والأكاذيب ؛ ليصرف أهل الحق عن حقهم ، بما يُشيع من بهتان وأباطيل .

لذلك يهددهم الحق سبحانه : لئن لم ينته هؤلاء المنافقون عن الإرجاف فى المدينة وتضليل الناس لَيكُونَنَّ لنا معهم شأن آخر ، كان هذا وقت مهادنة ومعاهدة بين المسلمين واليهود وأتباعهم من المنافقين ، وكأن الله تعالى يقول : لقد سكتنا على جرائمهم إلى أنْ قويَتْ شوكة الإسلام ، أما وقد صار للإسلام شوكة فإنْ نقضوا عهدهم معنا فسوف نواجههم .

وعجيب من هؤلاء المرجفين أنْ يظنُّوا أن الله لا يعلم أباطيلهم ، ولا يعلمها رسوله ، والله تعالى يقول : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) ﴾ [محمد]

ومعنى لحن القول : أن يميلوا بالكلام عن غير معناه ، ومن ذلك قولهم فى السلام على رسول الله : السام عليكم ، والسام هو الموت ، وكما لووا ألسنتهم بكلمة (راعنا) فقالوا : راعونا يقصدون الرعونة .

وأغرب من ذلك ما حكاه القرآن عنهم : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. (٨) ﴾ [المجادلة]

فهذا القول منهم دليل على غبائهم . أولاً : لأنهم يتمنوْنَ العذاب .

ثانياً : لأنهم قالوا ذلك في أنفسهم لم يقولوا للناس ، ولم يقولوا حتى لبعضهم البعض ؛ لأن (يقولون) جمع ، و (في أنفسهم) جمع ، فكأن كلاً منهم كان يقول ذلك في نفسه .

إذن : ألم يسأل واحد منهم نفسه : مَن الذي أعلم رسولَ الله بما في نفسي ؟ ألاَ يدل ذلك على أن محمداً موصول بربه ، وأنه لا بُدَّ فاضحهم ، وكاشفٌ مكنونات صدورهم ، إذن : هذا غباء منهم .

والمتتبع لتاريخ اليهود والمنافقين في المدينة يجد أن الإسلام لم يأخذهم على غرَّة ، إنما أعطاهم العهد وأمَّنهم ووسَّع لهم في المسكن والمعيشة طالَما لم يُؤذُوا المسلمين ، لكن بلغ رسول الله ﷺ أنهم يتناجوْنَ بالإثم والعدوان ، فبعث إليهم ونهاهم عن التناجي بالإثم والعدوان ، لكنهم عادوا مرة أخرى ، كما قال القرآن عنهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ⑧﴾ [المجادلة]

إذن : لم يَبْقَ إلا المواجهة على حدِّ قول الشاعر[1] :

أَنَاةٌ فإنْ لَمْ تُغْنِ عقَّبَ بَعْدهَا   وَعيداً فإنْ لم يُغْنِ أغنَتْ عَزَائِمُهْ[2]

لذلك يأتي جواب الشرط : ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ .. ⑥⓪﴾ [الأحزاب]

فجواب الشرط : ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ .. ⑥⓪﴾ [الأحزاب] من الإغراء ، وهو باب من أبواب الدراسات النحوية اسمه الإغراء ، ويقابله التحذير، الإغراء : أنْ تحمل المخاطب وتُحبِّبه في أمر محبوب ليفعله ، كما تقول لولدك مثلاً : الاجتهادَ الاجتهادَ .

---

(١) الشاعر هو : إبراهيم بن العباس الصولي ، كاتب العراق في عصره ، أصله من خراسان ، نشأ في بغداد ، فكان كاتباً للمعتصم والواثق والمتوكل ، ولد ١٧٦ هـ وتوفي ٢٤٣ هـ ، وهو من شعراء العصر العباسي .

(٢) البيت من قصيدة له من بحر الطويل ، وانظر الأغاني للأصفهاني والأوائل لأبي هلال العسكري (ص٤١٩) .

أما التحذير فأنْ تُخوِّفه من أمر مكروه ليجتنبه ، كما تقول : الأسدَ الأسدَ ، أو الكسلَ الكسلَ .

فمعنى ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الاحزاب] أى : نُسلِّطك عليهم ، ونُغريك بمواجهتهم والتصدِّى لهم ، فكأن هذه المواجهة صارتْ أمراً محبوباً يُغْرى به ؛ لأنها ستكون جزاءَ ما فزَّعوك وأقلقوك .

وما دمنا سنسلطك عليهم ، وما دمتم ستصيرون إلى قوة وشوكة تُغرى بعدوها ، فلن يستطيعوا البقاء معكم فى المدينة .

﴿ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : فى المدينة ، وكلمة ﴿ إِلا قَلِيلاً ﴿٦٠﴾ ﴾ [الاحزاب] يمكن أنْ يكون المعنى : قليل منهم ، أو قليل من الزمن رَيْثما يجدوا لهم مكاناً آخر ، يرحلون إليه مُشيَّعين بلعنة الله .

﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴿٦١﴾ ﴾ [الاحزاب]

الملعون : المطرود من رحمة الله ، أو مطرودون من المدينة بعد أنْ كشف الله دخائلَ نفوسهم الخبيثة ؛ لذلك طردهم رسول الله من المسجد ؛ لأنهم كانوا من خُبْثهم ولُؤْمهم يدخلون المسجد ، بل ويُصلُّون فى الصف الأول ، يظنون أن ذلك يستر نفاقهم .

لكن رسول الله كان يطردهم بالاسم : يا فلان ، يا فلان[1] ، فكان ﷺ يعرفهم ، ولم لا وقد قال الله له : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [محمد]

---

(١) أورد القرطبى فى تفسيره (٥٥١٥/٨) أنه لما نزلت سورة « براءة » جمعوا ، فقال النبى ﷺ : « يا فلان قم فاخرج فإنك منافق ، ويا فلان قم » فقام إخوانهم من المسلمين وتولوا إخراجهم من المسجد . وانظر أيضاً (زاد المسير) لابن الجوزى (٤٩٢/٣) .

ومعنى ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوا .. (٦١) ﴾ [الاحزاب] أى : وُجدوا ﴿ أُخِذُوا .. (٦١) ﴾ [الاحزاب] أى : أُسروا ﴿ وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) ﴾ [الأحزاب] ولاحظ المبالغة فى ﴿ وَقُتِّلُوا .. (٦١) ﴾ [الاحزاب] والتوكيد فى ﴿ تَقْتِيلاً (٦١) ﴾ [الأحزاب] يعنى : اقتلوهم بعنف ، ولا تأخذكم فيهم رحمة جزاءَ ما ارتكبوه فى حق الإسلام والمسلمين .

ولأن المنافق الذى طُبع على النفاق صارت طبيعته مسمومة مُلوَّثة لا تصفو أبداً ، فالنفاق فى دمه يلازمه أينما ذهب ، ولا بُدَّ أنْ ينتهى أمره إلى الطرد من أى مكان يحل فيه .

لذلك ، فمع أن الله تعالى قطَّعهم فى الأرض أمماً ، إلا أن كل قطعة منهم فى بلد من البلاد لها تماسك فيما بينها ، بحيث لا يذوبون فى المجتمعات الأخرى فتظل لهم أماكن خاصة تُعرف بهم ، وفى كل البلاد تعرف حارة اليهود ، لكن لابد أنْ يكتشف الناس فضائحهم ، وينتهى الأمر بطردهم وإبادتهم ، وآخر طرد لهم ما حدث مثلاً فى ألمانيا .

وصدق الله حين قال فيهم : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ (١٦٧) ﴾ [الأعراف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢) ﴾

بعد أن بيَّن الحق سبحانه نهاية أعدائه بالتقتيل وانتصار رسوله ﷺ ، أوضح أن هذا ليس شيئاً جديداً فى موكب الرسالات ، إنما هى

سنة مُتبعة ومـتواترة ، وهل رأيتم فى موكب الرسالات رسولاً أرسله الله ، ثم خذله أو تخلى عنه ، وانتهى أمره بنصر أعدائه عليه ؟

والسنة : هى الطريقة الفطْرية الطبـيعية المتـواترة التى لا تتخلَّف أبداً ، فالأمر إذا حدث مرة أو مـرتين لا يسمى سُنة ، فالسنة إذن لها رتابة واستدامة .

فـالمـراد بالسنة هنا غَلَبـة الحق على البـاطل ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا .. (٦٢)﴾ [الأحزاب] يعنى : الذين مَـضَـوْا من الأمم السـابقة ، ومـا زالتْ سنة الله فى نصـر الحق قـائمة ، وسـتظل إلى قـيام السـاعة ؛ لأنهـا سنة .

﴿وَلَن تَجِـدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْـدِيلاً (٦٢)﴾ [الأحـزاب] نعم لا تتـبـدل ولا تتـغـير ؛ لأنهـا سنة مَنْ ؟ سنة الله ، والله سـبحـانه ليس له نظيـر ، وليس له شريك يُبدل عليه ، أو يستدرك على حكمه بشىء .

بعـد ذلك أراد الحق سبـحانه أنْ يخـبرنا أن المنهج الذى جـاء به رسـول الله ﷺ من ربه وفيـه أوامـره ، وفيـه نواهيـه ، وفـيه سـبل الخـلاص من الخصـوم ، هذا المنهج لا بُدَّ أنْ يُحتـرمَ ؛ لأنه سيُـسلم الناس جميعاً إلى حياة أخرى يُستقبلون فـيها استقبالاً ، لا ينفعهم فيه إلا أعمالهم .

حياة أخرى يعيـشون فيها مع المسبِّب سبـحانه ، لا مع الأسباب فـإياكم أنْ تظنوا أن الله خلقكم ورزقكم وتنعـمـتُمْ بنعـمه فى الدنيـا ، وانتـهت المسـألة ، وأفلت من عـقـابه مَنْ خرج علـى منهجـه ، لا بل تذكروا دائماً أنكم راجعون إليه ، ولن تُفلتوا من يده .

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) ﴾

سُئِل رسول الله كثيراً عن الساعة ، والسؤال ظاهرة صحية إذا كان في الأمر التكليفي ؛ لأن السؤال عن التكاليف الشرعية دليل على أن السائل آمن برسول الله ، وأحبَّ التكليف ، فأراد أنْ يبني حركة حياته على أسس إسلامية من البداية .

فعلى فرض أن الإسلام جاء على أشياء كانت مُتوارثة من الجاهلية فأقرَّها الإسلام ، فيأتي مَنْ يسأل عن رأى الإسلام فيها حِرْصاً منه على سلامة دينه وحركة حياته .

لكن أراد الحق سبحانه أنْ يُهوِّن المسائل على الناس ، فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ .. (١٠١) ﴾ [المائدة]

وقال رسول الله ﷺ : « دعوني ما تركتكم ، فإنما أُهلك مَنْ كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم »(١) .

إذن : السؤال المطلوب هو السؤال عن الأمور التكليفية التي تهم المسلم ، حتى وإنْ كانت من أمور الجاهلية ، وقد أقرَّ الإسلام كثيراً منها ، فالدية مثلاً في الإسلام جاءت من جذور كانت موجودة عند الجاهليين وأقرَّها الإسلام ، وقد أمر الله تعالى المسلم بأنْ يسأل عن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٤٧) ، ومسلم في صحيحه (١٣٣٧) كتاب الحج ، وابن ماجه في سننه (٢) من حديث أبي هريرة ، ولفظ الحديث : « ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فخذوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا » .

مثل هذه المسائل فى قوله تعالى : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣)﴾ [النحل]

أما السؤال عن الساعة ، فالساعة أمر غيبى لا يعلمه إلا الله ، فهو سؤال لا جدوى منه ، لذلك لما سُئِل رسول الله : متى الساعة ؟ قال للسائل : « وماذا أعددتَ لها »[1] فأخذه إلى ما ينبغى له أنْ يسأل عنه ويهتمّ به .

وهذه الآية الكريمة ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ .. (٦٣)﴾ [الأحزاب] جاءت بعد معركة الإيذاء لله تعالى ، والإيذاء لرسوله وللمؤمنين به ، هذا الإيذاء جاء ممَّنْ لا يُؤمنون بالسماء ، ولا يؤمنون بالله ، ولا يؤمنون بالبلاغ عن الله بواسطة رسوله .

وإيذاء هؤلاء لله تعالى هو فى الحقيقة إيذاء لأنفسهم ؛ لأنه لا يصل إلى الله تعالى ، والله يريد لهم الخير ؛ لأنهم عباده وصَنْعته ، فحين يخرجون على منهجه فإنما يؤذون أنفسهم ، أما إيذاؤهم لرسول الله فقد آذوه ﷺ فى أهله وفى نفسه ، فقد تعرَّضوا له ﷺ بما يتأبَّى عنه أىّ إنسان كريم ، آذوْه بالقول وبالفعل ، ومع ذلك صبر ﷺ ، وصبر أصحابه ، وقد أوذوا فى أنفسهم وفى أموالهم .

والمتأمل يجد أن هذا الإيذاء مقصود وله فلسفة ، فقد أراده الله تعالى ليُمحِّص المؤمنين ، وليرى ـ وهو أعلم سبحانه ـ مَنْ يثبت على

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ : متى الساعة ؟ قال له رسول الله ﷺ : « ما أعددت لها ؟ قال : حبُّ الله ورسوله . قال ﷺ : أنت مع من أحببت». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٣٩) ، والبخارى فى صحيحه (٦١٦٧ ، ٦١٧١) وفى لفظ عند البخارى أن الرجل قال : ما أعددتُ لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ، ولكنى أحب الله ورسوله . فقال ﷺ : « أنت مع من أحببت » .

الإيمان ؛ لذلك قال تعالى : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت]

وسبق أن أوضحنا أن الإيمان ليس كلمةً تُقال ، إنما الإيمان مسئولية وعمل ، ولهذا السبب امتنع كفار مكة عن النطق بكلمة الإيمان ؛ لأنهم يعلمون حقيقتها ، وهم أهل بيان وفَهْم للأساليب وللمعانى .

وثبات سيدنا رسول الله وصبره هو والذين آمنوا معه دليل على أنهم أجرَوْا مقارنة بين هذا الإيذاء في الدنيا من بشر له قدرة محدودة ، وإيذاء الله سبحانه في الآخرة ، وهذا إيذاء يناسب قدرته تعالى ، ولا يمكن أنْ يفرّ منه أحدٌ .

إذن : نقول : إن للإيذاء فلسفةً مقصودة ، وإلا فقد كان من الممكن أن يأخذ الله أعداء دينه أَخْذ عزيز مقتدر ، كما أخذ قوم نوح بالطوفان ، وقوم فرعون بالغرق ، وكما خسف بقارون الأرض ، لكن أراد سبحانه أن يعذب هؤلاء بأيدى المؤمنين وبأيدى رسول الله ، وربما لو نزلت بهم أخذة عامة لقالوا : آية كونية كالزلازل والبراكين مثلاً ؛ لذلك قال تعالى مخاطباً المؤمنين : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ..(١٤)﴾ [التوبة]

ثم يُصبِّر الحق سبحانه نبيه ويُسلِّيه : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر]

إذن : ردُّ الحق سبحانه على هذا الإيذاء جاء على نوعين : نوع فى الدنيا بأنْ ينصرَ اللهُ نبيَّه عليهم ، كما بشَّره الله بقوله : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر]

والآخر رَدٌّ أخروى يوم القيامة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ .. (٦٣)﴾ [الأحزاب]

والسؤال الذى سُئِلَه رسول الله ﷺ كان متوجهاً إلى أمرين : الأول : إعجازى لأنهم كانوا يعلمون من كتبهم وأنبيائهم بعض الأمور ، فيريدون أنْ يُحرجوا بها رسول الله حين يسألونه عنها ، فلم يجدوا جواباً ، وهم يعرفون أن رسول الله أُميٌّ لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يجلس أبداً إلى مُعلِّم ، لكن الحق سبحانه كان يُسعف رسوله ويُعلمه الجواب ، فيجيب عليهم الجواب الصحيح ، فيموتون غيظاً ، ويتمحكون فى أىِّ مسألة ليثبتوا لأنفسهم أن محمداً لا يعلمها .

من ذلك مثلاً سؤالهم عن أهل الكهف : كم لبثوا ؟ فأجابهم الله تعالى : ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥)﴾ [الكهف] فقالوا : نحن نعلم أنها ثلاثمائة ، فمن أين هذه الزيادة ؟ وجهلوا أن توقيت المناسك الإلهية فى الدين إنما يقوم على التقويم الهلالى لا على حركة الشمس ؛ لأن مُقْتَضى ما تعطيه لنا الشمس أن نعلم بها بداية اليوم ونهايته ، لكن لا نعرف بها أول الشهر ولا آخره .

أما التوقيت العربى الهلالى ، فله علامة مميزة هى ظهور الهلال أول الشهر ، وإذا ما قارنْتَ بين التقويم الهلالى والتقويم الميلادى تجد أن كل سنة هجرية تنقص أحد عشر يوماً عن السنة الشمسية ، فالثلاثمائة سنة الميلادية تساوى فى السنة الهجرية ثلاثمائة وتسعة .

فكأنهم أرادوا تجهيل محمد ، فنبَّههم الله إلى أنهم هم الجهلة . وعجيب أن يعترض اليهود على هذا التوقيت ، مع أنه التوقيت العبادى لسيدنا موسى عليه السلام ، ألم يقل سبحانه : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ..(١٤٢)﴾ [الأعراف]

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) ﴾ [الكهف] فيه إعجاز أدائى بليغ ، يدل على أنَّ التسْع سنين إنما جاءتْ زيادةً من داخل الثلاثمائة ، وليستْ خارجة عنها .

ثم سألوه ﷺ عن رجل جوَّال ، فأنزل الله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ .. (٨٣) ﴾ [الكهف]

فكان ينبغى أن يلفتهم ذلك إلى صدق محمد ﷺ ، وأن يسألوا أنفسهم : من أين له هذا العلم ، وهو الأمىُّ الذى لم يجلس مرة إلى مُعلِّم ؟

لذلك قلنا : إن الأُمية عَيْبٌ فى كل إنسان ، إلا أنها كانت شرفاً وميزة فى رسول الله بالذات ؛ لأنها تعنى فى حقِّ رسول الله أنه لم يُعلِّمه بشر كما اتهموه ، إنما علمه ربه .

كذلك كانت الأمة التى نزل فيها القرآن أمة أمية ، وهذا أيضاً شرف فى حقها ، فلو أن هذه الأمة كانت أمةَ علم وثقافة لقالوا عن الإسلام : إنه قفزة حضارية ، لكنها كانت أمة أمية يسودها النظام القبلى ، فلكل قبيلة قانونها ونظامها ، ولكل قبيلة رئيسها ، ومع ذلك خرج منهم مَنْ جاء بنظام عام يصلح لسياسة الدنيا كلها ، إلى أنْ تقوم الساعة ، وهذا لا يتأتَّى إلا بمنهج إلهى .

إذن : الأمية فى العرب شرف ، وعجزهم عن محاكاة القرآن ، والإتيان بمثله أيضاً شرف لهم ، فكوْن الحق سبحانه يتحدَّاهم بأسلوب القرآن دليل على عظمتهم فى هذا المجال ، وإلا فأنت لا تتحدَّى الضعيف إنما تتحدَّى القوى فى مجال التحدى ، فكأن تحدِّى الله للعرب شهادة منه سبحانه بأنهم أفصح الخَلْق ؛ لذلك جاءهم بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه .

ثم يسأل اليهود رسول الله عن الساعة ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ.. (٦٣)﴾ [الأحزاب] وهم يسألون عن الساعة يعنى : عن يوم القيامة ؛ لأنهم ينكرونه ، ومن مصلحتهم ألاَّ يكون هذا اليوم ، حتى لا يقفوا موقف المساءلة والحساب على ما أجرموه فى الدنيا من ظلم وشرك وعربدة وسَفْكٍ للدماء ، ولَغْو فى أعراض الناس .

ولو بحث هؤلاء قضية القيامة والحساب بالعقل - لا بنصوص القرآن - لَوجدوا أنها أمر منطقى لا بُدَّ أنْ يحدث ، فمثلاً نحن عاصرنا الحزب الشيوعى فى روسيا سنة ١٩١٧ ، ورأينا كيف أخذوا الإقطاعيين والرأسماليين وعذَّبوهم ، وفعلوا بهم الأفاعيل ، وصادروا ممتلكاتهم جزاءً لهم على ظلمهم للناس ، وكنا نقول لهم : نعم هذا أمر منطقى أنْ تقتصَّ من الظالم ، لكن ما بال كثير من الظَّلَمة الذين ماتوا أو لم تدركوهم وأفلتوا من قبضتكم ؟

بالله ، لو جاء شخص ودلّكم على مكان أحد الظلمة هؤلاء ، ألستم تحمدون له هذه المساعدة ؟ فكيف به لو قال : بل سأحضره وأحاسبه وأقتصّ منه ، أليست هذه إعانة لكم على مهمة الانتقام من الظالمين ؟

لذلك نقول : كان من الواجب أن يكون الشيوعيون أول الناس إيماناً بيوم القيامة وبالبعث والحساب ليتداركوا مَنْ أفلت من أيديهم .

شيء آخر : ألستم تضعون - فى أىِّ نظام من أنظمتكم الوضعية - القوانين المنظمة ؟ ما معنى القانون : القانون قواعد تحدد للمواطن ما له وما عليه ، أليس فى قوانينكم هذه مبدأ الثواب للمحسن ، والعقاب للمقصر ؟

إذن : كل مجتمع لا بُدَّ أن تكون فيه عناصر خارجة على نظامه ،

وتستحق العقوبة ، فمَن استطاع أنْ يُدلِّس على المجتمع ، وأنْ يدارى جريمته ما حظه من العقوبة ، وقد استشرى فساده وكَثُر ظلمه ؟

إذن : لا بُدَّ أنْ نؤمن بقدرة أخرى لا يَخْفَى عليها أحد ، ولا يُدلِّس عليها أحد ، ولا يهرب منها أحد ، قدرة تعرف الخفايا وتفضحها وتحاسب أصحابها . هذه القضية لا بُدَّ أنْ تسوقك إلى فطرية الإيمان بالله تعالى ، وأنه سبحانه خبير عالم ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي ..(٥٩) ﴾ [الأنعام]

لماذا إذن تنكرون القيامة وأنتم فى أنظمتكم الدنيوية تُجنِّدون الجواسيس والمخابرات ، وتُحْصُون هَمْسَ الناس لمعرفة الذين يحتالون فى ألاَّ يراهم القانون ؟ أليس من فضل الله عليكم أنه سبحانه يعلم ما خَفِى عليكم ويقتصّ لكم من خصومكم ؟

فقضية القيامة والحساب واضحة بالفطرة ؛ لذلك تجد أن المنكرين لها هم الذين أسرفوا على أنفسهم ويخافون ما ينتظرهم من العقاب فى هذا اليوم ، ولا يملكون إلا إنكاره وعدم الاعتراف به ، وكأن هذا الهروب هو الحل .

وسورة الكهف تعطينا نموذجاً لهؤلاء ، وهو صاحب الجنة الذى قال : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ..(٣٦) ﴾ [الكهف] بعد أنْ أسرف على نفسه وجحد نعمة الله عليه ، ولما تنبَّه وراجع فطرته قال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً (٣٦) ﴾ [الكهف]

فالتكذيب بيوم القيامة هو الأغلب والآكد والشكّ فى ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي .. (٣٦) ﴾ [الكهف] يعنى : وعلى فرض أنِّى رُدِدْتُ إلى ربى يوم القيامة فسوف يكون لى عنده أفضل مما أعطانى فى الدنيا ، فكما أكرمنى هنا سيكرمنى هناك .

وهذا اعتقاد خاطىء وفَـهْم أحمق ، فالله تعالى لا يكرم فى الآخرة إلا مَنْ أكرم نفسـه باتباع منهجه فى الدنيا ، ومَـنْ لم يكرم نفسه هنا بمنهج الله لا يكرمه الله فى الآخرة .

لذلك كـثيـراً مـا نسـمع : دَعوْتُ فلم يُستـجب لى ، خـصوصـاً السيدات ، جاءتنى إحداهن تشـتكى أنها توجهت إلى الله بالدعاء ، ومع ذلك البنت لم تتـزوج والولد كذا والزوج كذا . فكنـت أقول لها (كـتر خيرك) أولاً أنك عـرفت أن لك رباً تفزعين إليه وقت الشدة كـما قال سبحانه : ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا..(٤٣) ﴾ [الأنعام]

إنما أسـألـك : هل أنت أجبت اللهَ أولاً فيمـا طلبه منك كى تنتظرى منه أنْ يُجيـبك إلى ما طلبت ؟ أأجبت الله فى شعـرك هذا ؟ أأجبت الله فى (شفـايفك) وتغييـرك لخلْقة الله ؟ فكانت لا تجـد جواباً ، إلا أنْ تقول : والله أنا قلبى (صافى) ولا أؤذى أحداً ... إلخ .

إذن : أخذتم على الله أنكم دعـوتُم فلم يَسْتـجب لكم ، ولم تأخذوا على أنفسكم أنه سـبحانه دعاكم أولاً ونـاداكم فلم تستجيـبوا لندائه ، احرصـوا أولاً على إجابة نداء الله ، وثقوا أنه سبحانه سيجيبكم .

نعـود إلى مـا كنا بصـدده من الـحـديث عن السـؤال فى القـرآن الكريم ، فسؤالهم عـن الساعة إمَّا ليتـأكد السائل أنها ستـحدث ، وإما لأنه يستبطئها ويريدها الآن .

ومادة السؤال جاءت كثيراً فى كتاب الله ؛ لأن القرآن لم ينزل على رسول الله جـملةً واحدة ، إنمـا نزل مُنجَّماً حَسْب الأحـداث ليعطـيهم الفـرصـة للسـؤال ، وجـاء السـؤال إمـا لتـحـدى رسـول الله ، وإمـا للاستزادة من أحكام الله التى أنزلهـا على رسوله ﷺ ، وهذا جاء ممَّنْ

عشقوا الإيمان ، فأحبوا أنْ تُبنى حركة حياتهم على هدى الإيمان .

حتى المسائل التى كانت لها جذور فى الجاهلية راحوا يسألون عنها ، لماذا ، مع أن الإسلام أقرها ؟ قالوا : لأنهم أرادوا أنْ يَبْنوا أعمالهم على العبادة ، لا على العادة الجاهلية .

والقرآن حينما عرض لهذه الأسئلة قال مرة : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة] فرسول الله ﷺ حينما سُئل هذا السؤال لم يَقُلْ : هو أذى ؛ لأن الجواب ليس من عنده ، إنما هو مُبلِّغ عن الله ، والله هو الذى يقول ، فقال ﴿ قُلْ هُوَ أَذًى .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة] فكلمة قُلْ هذه من مقول الله تعالى ، وأنا أقولها كما هى .

لذلك نعجب مِمَّنْ ينادى بحذف كلمة (قُلْ) من القرآن ، بحجة أنها لا تضيف جديداً للمعنى ، فى حين أنها دليل على صدْق سيدنا رسول الله ﷺ ، ودليل على أن ما جاء به ليس من عنده ، إنما من عند الله ، وهو مُبلِّغ فحسب ، فربه قال له : قُلْ وهو يقولها كما هى :
﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

وفى موضع آخر : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ .. (٢١٥) ﴾ [البقرة]

لكن قُلْ تأتى مرة مقترنة بالفاء ، ومرة أخرى غير مقترنة بها ، فلماذا ؟ هذا ملْمح إعجازى فى أداء القرآن ؛ لأن الجواب بقُلْ يعنى أن السؤال قد حدث بالفعل ، مثل ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ..(١٨٩) ﴾ [الحج]

أما الجواب حين يقترن بالفاء ، فإنه يعنى وجودَ شرط ، فالسؤال لم يحدث بالفعل ، إنما سيحدث فى المستقبل ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [طه]

والمعنى : إن سألوك في المستقبل عن الجبال فقُلْ ينسفها ربي نَسْفاً ، فالجواب مُعَدٌّ مسْبقاً لسؤال لم يُسأل بَعْد ، لكنه لا بُدَّ أنْ يُسأل ، وأنْ يقع منهم ، وهذا وجه آخر من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ، وإلا فقد كان بإمكانهم ألاَّ يسألوا ، لكن هيهات أنْ ينقض أحد كلام الله ، أو ينقض علمه تعالى .

ما دام الله قال فلا بُدَّ أنْ يقولوا ، وهذه المسألة أوضحناها في قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ [المسد]

فحكم الله تعالى على هذا الكافر العنيد أنه سيموت على كفره ، وسيكون مصيره وزوجته النار ، وقد سمع أبو لهب وامرأته هذه الآية ، وعرفوا صدْقها ، لكنه مع ذلك لم يؤمن ولو نفاقاً ، وقد آمن مَنْ هو أشدُّ منه كفراً وعناداً ، أمثال : عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد وغيرهما .

لكن الذي حكم وأخبر أنه لن يؤمن يعلم أنه سينتهي إلى هذه النهاية مهما حذَّره وأنذره ؛ لذلك كان أبو لهب مثالاً لغباء الشرك ، فلو أنه جاء في مَحْفل من محافل قريش بعد نزول هذه السورة ، وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لأحرجَ رسول الله وكذَّب القرآن ، لكن لم يحدث شيء من هذا ، وما كان ليحدث بعد أنْ قال الله ، مع أنه حُرٌّ مختار .

وفي آية واحدة من كتاب الله وردت الإجابة عن السؤال غير مُصدَّرة بـ (قُلْ) ولا (فقل) ، وهي قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ

عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ .. ﴿١٨٦﴾ [البقرة] ، لماذا ؟

قالوا : لأن السؤال هنا عن ذات الله تعالى ؛ لذلك جعل الجواب منه سبحانه مباشرة بلا واسطة ؛ لأن المقامَ مقامُ سؤال عن قريب مباشر لك ، كذلك جاءتْ الإجابة مباشرة .

هذا عن السؤال ، أما عن الساعة التى سألوا عنها ، فكلمة الساعة حين نطلقها فى هذا العصر نريد بها الآلة المعروفة التى تحدد أجزاء الوقت من ليل أو نهار بالسوية ، فليس هناك ساعة أكبر من ساعة .

والعرب حينما اخترعوا الساعة أو المزولة ، كانت ساعة دقَّاقة بالماء ، وهى عبارة عن خزان يقطر منه الماء قطرةً قطرة ، وكلما نزلت قطرة الماء حركتْ عقارب الساعة بالتساوى ، وسُمِّيت ساعة بالذات ؛ لأن الساعة هى أقرب أجزاء الوقت لليل أو للنهار ، وبعد ذلك عرفنا الدقيقة والثانية والجزء من الثانية .

وقد حرص العرب بالذات على حساب الوقت ، وفكَّروا فى آلة تضبطه ؛ لأن الإسلام يقوم على عبادات موقوتة لا بُدَّ أنْ تُؤدَّى فى وقتها ، من هنا اخترعوا الساعة .

وكأن الحق سبحانه استعار فطرة البشر منهم ، حين سَمَّى القيامة (الساعة) فالساعة التى تنتظرونها هى آلة مواقيتكم فى الحركة ؛ لذلك قال شوقى رحمه الله :

دَقَّاتُ قَلْبِ المَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ ... إنَّ الحيَاةَ دَقَائِقُ وثَوانِ

والحق سبحانه يقول : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. ﴿٥٥﴾ [الروم] أى : القيامة ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. ﴿٥٥﴾ [الروم] أى : ساعتكم وآلتكم التى تعارفتم عليها لضبط الوقت ، فجمع سبحانه بين

الساعة الفاصلة بالقيامة ، وبين الساعة التى هى جزء من الليل ، أو من النهار .

والمعنى : ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ .. (٦٣) ﴾ [الاحزاب] يعنى : أتوجد أم لا توجد ؟ وإذا كانت تُوجَد ، قالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الاعراف]

الحق سبحانه تكلَّم في السؤال عن الساعة في موضعين : هنا ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) ﴾ [الاحزاب]

وفى سورة الشورى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) ﴾ [الشورى]

ونلحظ أولاً أن كلمة (قريب) جاءت بدون تأنيث ، والساعة مؤنثة ، فلم يَقُلْ قريبة ، قالوا : لأن المراد وقت قيامها : وما يدريك لعل وقت قيامها قريب . وقال اللغويون[1] : إن (قريب) على وزن فعيل ، وهذا الوزن يستوى فيه المذكَّر والمؤنث ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) ﴾ [التحريم]

ثم فى الآية الأولى جاء بالفعل تكون ، فقال : ﴿ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) ﴾ [الاحزاب] وفى الأخرى قال : (قريب) لماذا ؟ قالوا : لأن السؤال مرة يكون عن أصل الوجود ، ومرة يكون عن شىء تابع لأصل الوجود ،

---

(١) قال ابن منظور فى (لسان العرب ـ مادة : قرب) : « الواحد والاثنان والجميع فى ذلك سواء . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) ﴾ [الشورى] ذكَّر قريباً لأن تأنيث الساعة غير حقيقى ، وقد يجوز أن يُذكر لأن الساعة فى معنى البعث . وقال ابن السكيت : تقول العرب هو قريب منى ، وهما قريب منى ، وهم قريب منى ، وكذلك المؤنث : هى قريب منى ، وهى بعيد منى ، وهما بعيد ، وهُنَّ بعيد منى » .

وفى الدراسات النحوية نُدرِّس للتلاميذ كان وأخواتها ، وهى فعل مَاضٍ ناقص ، يرفع المبتدأ وينصب الخبر ، وقد تأتى كان تامة تكتفى بفاعلها كما فى ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ .. (٢٨٠) ﴾ [البقرة] يعنى : إنْ وُجِد ذو عُسْرة .

إذن : إنْ أردتَ الوجود الأول فهى تامة ، وإنْ أردتَ وجوداً ثانياً طارئاً على الوجود الأول فهى ناقصة ، كما لو قُلْتَ : كان زيد مجتهداً ، فأنت لا تتكلم عن الوجود الأول لزيد ، إنما تتكلم عن شىء طرأ على وجوده ، وهو اجتهاده ، وهذه هى كان الناقصة ؛ لأن الفعل ينبغى أنْ يدلَّ على زمن وحدث ، والفعل كان دلَّ على زمن فقط ، فاحتاج إلى خبر ليدل على الحدث ، فكأنك قُلْتَ : اجتهد زيد .. فى الزمن الماضى .

كذلك نقول فى الوجود الأول وكان التامة : « كان الله ولا شىء معه»[1] هذا هو الوجود الأعلى ، فإنْ أردتَ شيئاً آخر مُتعلِّقاً بهذا الوجود الأول تقول : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٥٢) ﴾ [النساء]

فالحق سبحانه فى هاتين الآيتين يردُّ على الذين يسألون عن الساعة ، إما لأنهم ينكرونها وجوداً ، أو يؤمنون بها ، ويسألون عن وقتها ، فقال مرة ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) ﴾ [الاحزاب] ومرة ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) ﴾ [الشورى]

كلمة ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ .. (١٧) ﴾ [الشورى] معنى الدراية : الإعلام ، كما نقول : هل دريْتَ بالموضوع الفلانى ، يعنى : علمتَ به .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٤٣١) ، والبخارى فى صحيحه (٣١٩١) من حديث عمران بن حصين ، وتمامه : « كان الله ولم يكن شىء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء ، وخلق السماوات والأرض » .

وفى علم الأصول يُقسِّمون العلم إلى : علم دراية ، وعلم رواية ، فعلم الرواية كالذى يحفظ القرآن الكريم بالقراءات السبع أو العشر أو الأربعة عشر ، ومع ذلك ربما لا يعرف تفسيره ؛ لأن علْمه بالقرآن علْم رواية فحسب ، أما الذى تخصص فى تفسيره ومعرفة معانيه وأحكامه ، فهذا العلم يُعَدُّ علْم دراية ، فالدراية إذن علْم بالتفصيل ، والرواية علم بالإجمال الكلى .

ومن حكمته تعالى أن يكون حَفَظة القرآن ليسوا من العلماء - إلا فيما نَدُر - لأن العالم إذا ما وقف حفظه عند كلمة معينة ربما دعاه علْمه إلى التصرُّف فيها بلفظ آخر ، كما فى (فتبينوا ، فتثبتوا)[1] مثلاً ، أما الذى حفظ القرآن روايةً فحسب ، فإذا وقف أمام كلمة ناسياً لها ، فإنه لا يتجاوزها حتى يفتح الله عليه بما نسيه ، وبذلك حفظ الله كلامه .

ونلحظ أن هذا الفعل جاء بصيغة المضارع ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الشورى] وجاء بصيغة الماضى ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [المرسلات] ولكل منهما مدلول ، فساعةَ يقول سبحانه ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : لا وسيلةَ إلى أنْ يُعْلمك أحد بها أبداً ، لا فى الحال ، ولا فى الاستقبال . أما ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [المرسلات] فتدل على أنه نفى أنْ يعلمه أحد قبل الآن ، ومن الممكن أنْ نعلمه نحن .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [المدثر]

وقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المرسلات]

---

(١) يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [النساء] .

وقال : ﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) ﴾ [الحاقة]

وقال : ﴿ الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) ﴾ [القارعة]

وقال : ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) ﴾ [البلد]

وقال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) ﴾ [القارعة]

وقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ (١٩) ﴾ [الانفطار]

وقال : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) ﴾ [القدر]

وهكذا فى كل (وَمَا أَدْرَاكَ) تعنى : أنك لم تكُنْ تعرفه من قبل ، لكن سيخبرك الله به ، أما صيغة ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ .. (٦٣) ﴾ [الأحزاب] فتعنى أن هذا الشىء المبهم سيظل كذلك مُبْهماً لا يطلعك الله عليه، ومن هذه الأمور وقت قيام الساعة ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) ﴾ [الأحزاب]

ولم يخبر الحق سبحانه عن وقتها ؛ لأن الإبهام قد يكون أوضح البيان ، فالله تعالى أبهم عنّا ساعة الموت ، فلا يدرى أحد منا متى يموت ، وهذا الإبهام جعلك تنتظره فى كل لحظة من لحظات حياتك ، فالحقيقة أنه بهذا الإبهام أوضحه كل الإيضاح .

كذلك أبهم الله مثلاً ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان ؛ لأنه سبحانه لا يريدك مُتعبِّداً ليلة واحدة ، إنما يريدك مُتعبِّداً طوال هذه العشر لتستزيد من الثواب وتحب العبادة لذاتها لا لمجرد الثواب عليها .

وكذلك أخفى الله تعالى عنا وقت الساعة ، لكى نتوقعها فى كل وقت ، وننتظرها كل لحظة ، وهذا أَدْعى للاستقامة والخوف من المعصية ، ومن أدراك أنْ تقومَ الساعة وأنت على معصية الله ، إذن : الإبهام هنا عَيْن البيان .

وهو مقصد من مقاصد الحق سبحانه ؛ ليشيع الحكم فى كُلِّ زمان ، وإلا لو عرف الإنسانُ أجله لسار فى الدنيا كما نقول (على حَلِّ شعره) يُعربد فيها كما يشاء ، ثم يتوب قبل الموت ؛ لذلك لم يجعل الله تعالى للموت سبباً . فحين لا ترى سبباً قُلْ مات لأنه يموت ، وصدق مَنْ قال : والموت من دون أسباب هو السبب .

ورحم الله شوقى حين قال فى الموت :

فى المَوْتِ ما أَعْيَا وفى أَسْبابه ... كلُّ امْرِى رهن بِطيّ كِتَابه
أسَد لَعَمرك مَنْ يموتُ بظُفْرِه ... عِنْد اللقاء كمَنْ يموتُ بنَابه
إنْ نَامَ عنكَ فكُلُّ طبٍّ نافعٌ ... أَوْ لَم يَنَمْ فالطبُّ مِنْ أذْنَابه

وكثيراً ما نرى المريض يموت بسبب حقنة أعطاها له الطبيب ، أو عملية جراحية غير مُوفَّقة .

وصدق مَنْ قال :

سُبْحانَ مَنْ يرثُ الطبيبَ وطبَّه ... ويُرى المريضَ مصَارعَ الآسينَا

لكن مع ذلك ، يجعل الله لها علامات لُطْفاً بنا ورحمة ، علامات

صغرى وعلامات كبرى ؛ لذلك يقول سبحانه عن الساعة : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا .. ⑮﴾ [طه]

يعني : قاربْتُ أنْ أزيل خفاءها بالعلامات الصغرى ، والعلامات الكبرى ، لأنها أصبحتْ قريبة ، وقلنا : إن الهمزة في (أخفيها) همزة إزالة يعني : أزيل خفاءها ، مثل همزة (أعجم) تقول : أعجم الكتاب أي : أزال عُجْمته وإبهامه بوضع النقط على الحروف ، ومنه سُمِّيتْ الكتب التي تُوضِّح معاني المفردات : معاجم .

وقد تكون الإزالة بالتضعيف مثل (قشَّرت البرتقالة) يعني : أزلْتُ قشْرتها .

فمعنى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. ⑰﴾ [الشورى] أي : لا أحدَ سيخبرك بها ولا أنا ، وكما ضَنَّ الحقُّ بعلمها على الخَلْق جميعاً فقد ضَنَّ على نبيه وحبيبه محمد ، ولو كان مُخبراً بها لأخبر نبيه ، حتى ولو سراً بينه وبينه ، دون أنْ يُبلِّغ الناسَ بها ، لكن أبداً لا هذه ولا هذه ؛ لذلك كان سيدنا رسول الله إذا سُئِلَ عن الساعة قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ⑭ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ⑮﴾

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٠) كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في حديث جبريل أنه قال لرسول الله ﷺ وهو في هيئة رجل : يا رسول الله متى تقوم الساعة ؟ قال ﷺ : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل ».

لعنهم يعنى : طردهم من رحمتـه تعالى ، وأبعدهم أى : فى الدنيا ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الاحزاب] يعنى ناراً تستعر وتتأجج وتتوهج ، وهذا فى الآخرة فى اليوم الذى قال الله فيه : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق]

وهذه النار المتأججة باقية دائمة لا تنتهى ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الاحزاب] وسمعنا بعض العلماء يقولون عن الأبدية أنها ذُكِرَتْ فى كل الآيات التى تحدثتْ عن نعيم الجنة ، لكنها لم تُذكر فى عذاب الكفار يوم القيامة .

وصاحب هذا القول لم يستقرىء كتاب الله جيداً ، فقد ذُكر هذا اللفظ : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الاحزاب] فى موضعين : أحدهما هذا الذى نحن بصدده ، والآخر فى سورة الجن فى قوله سبحانه : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجن]

وهذا مظهر من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده أن يأتى لفظ التأبيد فى كل آيات الجنة ، ولا يأتى إلا فى موضعين لأهل النار ، ذلك لأن رحمة الله سبقتْ غضبه ، فاقتضى ذلك أنْ يُبشِّر المؤمنين بتأبيد النعيم ودوامه .

أما فى جزاء الكافرين ، فيقول : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأحزاب] ولا يذكر لفظ التأبيد ، لعل ذلك يحنِّن قلوب هؤلاء ، ويعطفهم إلى طريق الله الرحيم بهم .

وذكرُ لفظ التأبيد فى هاتين الآيتين ليحقق المبدأ ويُقرِّره فحسبْ ، ومن رحمته تعالى أن تسبق رحمته فى البشارة ، وتتلطف بالنذارة .

فهذه الحكمة الإلهية مقصودة ، وكانت تُؤتى ثمارها المرجوة ،

فكانت باباً لإيمان الكثيرين من الكفار ، وسبق أنْ ذكرنا قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ لما جاءه ضيف وطرق بابه ، فسأله عن دينه ، فلما علم أنه غير مؤمن أغلق الباب في وجهه ، فانصرف الرجل ، لكن سرعان ما عاتب الله تعالى نبيه إبراهيم في ذلك وقال له : يا إبراهيم ، لقد وَسعتُه طوال حياته في مُلكي وهو كافر بي ، أتريد أنْ يُغيِّر دينه في ليلة تستضيفه فيها .

فهرول إبراهيم ـ عليه السلام ـ حتى لحق بالرجل ، وأعاده إلى ضيافته ، فقال الرجل : ألم تردَّني عن بابك منذ قليل ؟ قال : بلى ، ولكن عاتبني ربي فيك ، فقال : نِعْم الربُّ رَبٌّ يعاتب أولياءه في أعدائه ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله .

وهم في خلودهم في النار ﴿لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٦٥)﴾ [الأحزاب] أي : مالكاً يتولّى أمرهم ﴿وَلا نَصِيرًا (٦٥)﴾ [الأحزاب] ينصرهم أو يدافع عنهم .

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ (٦٦)﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه الأبدية التي ستكون للكفار في النار يذكر وَصْفاً للحالة التي سيكونون عليها في النار ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ .. (٦٦)﴾ [الأحزاب] التقليب معناه تغيير الأمر وتصريفه من حال إلى حال ، ومنه قوله تعالى : ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧)﴾ [آل عمران]

يعني : أسفارهم ونشاطهم في حركة التجارة بين الشام واليمن ، وما يترتب على هذه الحركة من أموال وثروات .

فقوله : ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ .. (٦٦)﴾ [الأحزاب] أى : تقلِّبهم الملائكة ، فكلما نضج جانب قلبوهم على الجانب الآخر كما نُقلِّب نحن (سيخ الكباب) على النار لتستوعبه كله ، فيتم نُضْجه .

وخَصَّ الوجه ، لأنه سمَة الإعلام بالشخص ، وأشرفُ أعضائه وأكرمها ، ومنه أُخذتْ الوجَاهة والوجيه ، وكلها تدل على الشرف ، ونظراً لأنه أشرف الجوارح ، فالجوارح كلها تحميه وتدافع عنه ، وسبق أنْ قُلْنا : لو أن سيارة أسرعتْ بجوارك ، ولطختْ ثيابك ووجهك بالوحل مثلاً ، ماذا تفعل ؟ أولاً : تنشغل بوجهك وتزيل ما أصابه من أذىً ، ثم تلتفت إلى ثيابك .

ولتعلم أهمية الوجه ومنزلته ، اقرأ قوله تعالى : ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (٢٤)﴾ [الزمر] فمنْ شدَّة العذاب يتقيه بوجهه الذى هو أشرف أعضائه .

أو : أن معنى التقليب من عذاب إلى عذاب ، وقد أعطانا الحق سبحانه صوراً متعددة لوجوه الكافرين في النار ، والعياذ بالله ، فقال مَرَّةً : ﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ .. (٦٠)﴾ [الزمر]

وقال : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ[1] (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ[2] (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)﴾ [عبس]

وقال : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ[3] (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾ [القيامة]

---

(١) الغبرة : ما دقَّ من التراب ، قال تعالى : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠)﴾ [عبس] أى : عليها غبار وتراب كناية عن الذل والشقاء . [القاموس القويم ٢/٤٧] .

(٢) القترة : شبه دخان يغشى الوجه من شدة الكرب . [القاموس القويم ٢/١٠٠] ، والقترة : غبرة يعلوها سواد كالدخان . [لسان العرب ـ مادة : قتر] .

(٣) بسر : أظهر العبوس ونظر بكراهية وكلح وتغيُّر ، وقوله تعالى : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤)﴾ [القيامة] كالحة عابسة كناية عن الهم والغم والخوف الشديد . [القاموس القويم ١/٦٦] .

فالوجه هنا لا يأخذ صورة واحدة ، إنما يأخذ ألواناً متعددة وأحوالاً شتى ، تدلُّ على تنوع ما يتعرضون له من العذاب والإيلام ، والوجه هو الدليل الأول على صاحبه ، والمترجم عمَّا بداخله ، فحين يتغير لك صاحبك مثلاً تلحظ ذلك على وجهه ، فتقول : ما لك تغيَّر وجهك من ناحيتي ؟ أو لماذا تقلَّب وجهُكَ عني ؟

وهؤلاء حالَ تقلُّب وجوههم في النار ، يقولون : ﴿ يَـٰلَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ (٦٦) ﴾ [الأحزاب] وهم الذين كانوا بالأمس يُؤذون الله ، ويؤذون الرسول ، ويؤذون المؤمنين .

كلمة ﴿ يَـٰلَيْتَنَا .. (٦٦) ﴾ [الأحزاب] كلمة تمنٍّ ، وهو لَوْن من الطلب تتعلق به النفس وتريده ، لكن هيهات ، فهو عادةً يأتي في المُحَال ، وفي غير الممكن ، كما جاء في قول الشاعر :

ألاَ ليْتَ الشباب يَعُودُ يَوْماً فَأُخبرهُ بما فَعَل المشيبُ

وقول الآخر :

لَيْتَ الكَوَاكب تَدْنُو لِي فَأنظمُهَا عُقُودَ مَدْحٍ فَمَا أَرْضَى لكُمْ كَلمِي

فالشباب لا يعود ، والكواكب لا تدنو لأحد ، لكنها أُمنية النفس ، كذلك هؤلاء يتمنَّوْنَ أنْ لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا رسول الله ، لكن هيهات أنْ يُجدي ذلك ، فقد فات الأوان .

ثم يذكر الحق سبحانه المقابل ، فهم ما أطاعوا الله وما أطاعوا رسول الله ، لكن حجتهم :

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ (٦٧) رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) ﴾

السادة : جمع السيد ، وهو الآمر المنفِّذ على غيره ، ولا يغير عليه أحد . والكبراء : هم الذين يأخذون منازل في قومهم ، على قَدْر ما يُؤدُّون لهم من خدمات ، فسيد القوم أو كبير القوم لا يتبوأ هذه المنزلة من فراغ ، إنما من مواهب وإمكانات تؤهله لهذه المنزلة ؛ لذلك لا يجد غضاضة فى أنْ يقول له الناس : يا سيدى . لأنه دفع ثمن هذه السيادة وهذا هو السيد الحقيقى .

وقد تُؤخَذ السيادة بالقوة والجبروت والقهر ، دون أن يُقدِّم السيدُ شيئاً يَسُودُ به قومه ، وهذا تلصُّص على السيادة يبغضه الناس ؛ لذلك فإن الشرع الإسلامى لم يغفل هذه السيادة الحقيقية ، ولم يغفل وجاهة الناس ومنزلتهم ، فقيَّم ذلك كله مالياً فى شركة سماها شركة الوجوه[1] ، فرأس مالى فى الشركة أموال ، ورأس مالك وجاهتك ومحبة الناس لك ومنزلتك فى المجتمع .

والناس يُحبُّون هذه السيادة الحقَّة التى أخذها صاحبها بحقها ؛ يحبونها لأنهم ينالون خيرها ، وينتفعون بها على خلاف السيادة المسروقة التى أخذها صاحبها عُنْوةً ، فهم لا يستفيدون منها بشىء ، بل هى سيادة تضرُّهم ، وتأكل خيراتهم .

لذلك قلنا فى العبودية : إنها كلمة نكرهها ، إنْ كانت عبودية بشر لبشر ؛ لأنها عبودية تعطى خير العبد لسيده ، إنما العزّ كله فى أنْ تكون العبودية لله تعالى ، حيث يأخذ العبد خَيْر سيده .

وتأمل كيف كانت العبودية شرفاً وتكريماً لسيدنا رسول الله حينما

---

(١) شركة الوجوه : هى أن يشترى اثنان فأكثر من الناس دون أن يكون لهم رأس مال اعتماداً على جاههم وثقة التجار بهم ، على أن تكون الشركة بينهم فى الربح فهى شركة على الذمم من غير صنعة ولا مال . وهى جائزة عند الحنفية والحنابلة ؛ لأنها عمل من الأعمال . وأبطلها الشافعية والمالكية ؛ لأن الشركة إنما تتعلق بالمال أو العمل ، وهما هنا غير موجودين . قاله الشيخ سيد سابق فى « فقه السنة » (٣/٢٩٦) .

خاطبه ربه بقوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. ①﴾ [الإسراء] فعبودية محمد لله هى التى أوصلته إلى هذه المنزلة التى لم يصل إليها بشر سواه .

وصدق الشاعر[1] حين قال :

حَسْبُ نَفْسِى عِزّاً بِأَنِّى عَبْدٌ   يَحْتفِى بِى بلاَ مَوَاعِيدَ رَبُّ

هُوَ فِى قُدسِهِ الأعَزُّ وَلَكِنْ   أَنَا أَلْقَى مَتَى وأَيْنَ أُحِبُّ

فإنْ أردْتَ أنْ تقابل ربك ، فالأمر فى يدك ، فأنت تحدد مكان المقابلة وزمانها وموضوعها ، فى الشارع ، فى البيت ، فى العمل ، فى المسجد مجرد أنْ تتوضأ وتقول : الله أكبر تصبح فى حضرة ربك ، ثم أنت الذى تُنهى المقابلة إنْ شئتَ ، وربك عز وجل لا يملُّ حتى تملُّوا . فأىُّ عزٍّ فوق هذا ؟

فى حين أنك إنْ أردتَ أنْ تقابل رئيساً مثلاً أو وزيراً فَدُون هذا اللقاء عقبات ومصاعب ، وليس لك من أمر هذا اللقاء شىء ، فهو الذى يحدد لك الزمان والمكان ، حتى ما تقوله ، وهو الذى يُنهى المقابلة .

أنت فى عبوديتك لله تعالى ، ربُّك هو الذى يطلبك لحضرته ، ويغضب إنْ دعاك ولم تُجبْ ، فنعْم الرب ربُّك ، ونعْمتْ العبوديةُ عبوديتُك له سبحانه .

وهنا يُلْقى الكفار باللائمة على سادتهم وكبرائهم ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ ⓺⓻﴾ [الاحزاب] ويريدون الانتقام منهم ، وأنْ يُنفِّسوا عن أنفسهم بأنْ يروهم فى العذاب جزاءَ ما أوقعوهم فى الشرك ، وزيَّنوا لهم المعصية .

فيقولون : ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ .. ⓺⓼﴾ [الأحزاب] أى :

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

عذاب مضاعف ؛ لأن ضلالهم كان كذلك مُضَاعفاً ، فقد ضلُّوا في أنفسهم ، وأضلُّوا غيرهم .

وفي موضع آخر يحكي لنا القرآن قول الكافرين يوم القيامة : ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

وفي آيات كثيرة يحكي لنا القرآن حوارات تدور بين الكافرين ، يُلْقى كل منهم التهمة على الآخر ، كما حكى عن إبليس قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

ولم يكتفوا بمضاعفة العذاب لسادتهم ، إنما طلبوا لهم اللعن ، واللعن الكبير ﴿ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) ﴾ [الأحزاب] فاللعن لأنهم ضلُّوا في ذواتهم ، وينبغي أن يكون كبيراً ؛ لأنهم أضلوا غيرهم .

ونلحظ هنا أن كل نداء للرب - تبارك وتعالى - يأتي دائماً بغير أداة النداء ، لماذا ؟ قالوا : لأن النداء له أدوات تختلف باختلاف المسافة بينك وبين المنادى ، والنداء طلب الإقبال ، فإنْ كان المنادى بجوارك تقول : محمد افعل كذا ، فإنْ كان بعيداً عنك تقول : أمحمدُ . والأبعد منه : يا محمد . والأبعد : أيا محمد . وهذه الأدوات مبنية على مدِّ الصوت بحسب المسافة .

إذن : ماذا تقول حين تنادي ربك وإنْ لم تكُنْ أنت قريباً من الله ، فالله قريب منك ؟ لا تستخدم أداة النداء لا للقريب ولا للبعيد ، لذلك ورد في القرآن لفظ (ربِّ) منادى في خمس وستين آية بدون أداة

نداء ، أولها قول سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا .. (١٢٦)﴾ [البقرة]

إلى قول نوح ـ عليه السلام ـ : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. (٢٨)﴾ [نوح]

ويكفي في هذا القُرْب قول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦)﴾ [ق]

لذلك لما سُئل سيدنا رسول الله ﷺ : أقريبٌ ربُّنا فنناجيه ؟ أم بعيد فنناديه[1] ؟ فأنزل الله : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ .. (١٨٦)﴾ [البقرة]

إذن : فالله تعالى قريب منا بالفعل ، وإنْ حدث بعد فمنك أنت ، وأكثر ما يكون العبد قُرْباً من الله حين يكون مضطراً ، حتى إنْ كان بعيداً عن الله قبل الاضطرار .

وفي آيتين فقط من كتاب الله نُودي الربُّ ـ تبارك وتعالى ـ بأداة النداء (يَا) الأولى : ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَـٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠)﴾ [الفرقان]

والأخرى : ﴿وَقِيلِهِ يَـٰرَبِّ .. (٨٨)﴾ [الزخرف]

وهذان الموضعان حكاية عن كلام النبي ﷺ ، فلماذا لم تأت أداة النداء إلا من محمد ﷺ في نداء ربه ؟

---

(١) أورده السيوطي في أسباب النزول (ص ٣٠) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي الشيخ وغيرهم من طرق من حديث معاوية بن حيدة قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ ، فقال : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فسكت عنه ، فأنزل الله ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ .. (١٨٦)﴾ [البقرة] .

قالوا : لأن سيدنا رسول الله كان شديد الحرص على هداية قومه ونُصْرة دعوته ، حتى خاطبه ربه بقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ ﴾ [الشعراء]

وقد مَرَّ رسول الله بمواقف صعبة لدرجة جعلَتْه يستبطىء نصر الله ، فالله تعالى أنزل عليه : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ⑤① ﴾ [غافر] ومع ذلك زلزل رسول الله والذين آمنوا معه كما قال سبحانه : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ.. ②①④ ﴾ [البقرة] فخاف ﷺ أن يكون بعُد عن ربه ، وهذا البُعْد ما هو إلا مظنّة من رسول الله ، أو اتهام للنفس .

فلما ذهب ﷺ يدعو ربه ويشتكى إليه أنَّ قومه هجروا القرآن نادى ربه من منزلة البعيد ، فقال : (يا رب) وكأنه ﷺ ظنَّ فى نفسه التقصير أو الفشل فى مهمته ورأى أن ذلك يُبعده عن ربه ، لكن أنصفه ربه وأكَّد نداءه ، بل وأقسم به ، فقال الحق سبحانه : ﴿ وَقِيلِهِ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ⑧⑧ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ⑧⑨ ﴾ [الزخرف]

أي : أقسم بقولك يا محمد : ﴿ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَـٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ③⓪ ﴾ [الفرقان] والحق سبحانه يُقسم بما يشاء على ما يشاء ، يُقْسم بالملائكة وبالجماد ، يقسم بالنبات ، لكن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لم يُقْسم بأحد من الخَلْق إلا برسول الله فى قوله تعالى : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ⑦② ﴾ [الحجر]

أى : وتعميرك ، أو وحياتك يا محمد .

وكما أقسم سبحانه بحياة نبيه محمد أقسم بقوله ، فقال سبحانه : ﴿ وَقِيلِهِ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ⑧⑧ ﴾ [الزخرف]

ثم يخاطب الحق سبحانه عباده المؤمنين ، فيقول تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن الذين آذوا الله ، وآذوا رسول الله ، وآذوا المؤمنين دَلَّ على أن المسألة ليست تعصُّباً لمحمد ، إنما هذا مبدأ سائد فى كل رسل الله ، وليس معنى منع إيذاء محمد أن تؤذوا غيره من إخوانه الرسل ، فقال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب]

وموسى ـ عليه السلام ـ كانت له فى رحلة دعوته علاقتان : علاقة مع الفراعنة ، وعلاقة مع بنى إسرائيل ، ولم يكُنْ موسى ـ عليه السلام ـ رسولاً إلى الفراعنة ، إنما أُرسل إلى بنى إسرائيل ؛ لذلك قال موسى وهارون لفرعون : ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] فهدفه تخليص بنى إسرائيل من استعباد فرعون .

أما دعوته لفرعون إلى الإيمان بالله وإظهار المعجزة أمامه لعله يؤمن ، فجاءت على هامش دعوته الأساسية لبنى إسرائيل ، ومع ذلك لم يَسْلَم موسى عليه السلام من إيذاء فرعون ، فقال عنه ﴿ سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [غافر]

وقال : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشعراء]

وقال : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزخرف]

وطبيعى أنْ يُؤْذَى موسى عليه السلام من فرعون ، وقد جاء ليبطل ألوهيته المزعومة ، لكن كيف يُؤْذَى من بنى إسرائيل ، وهو الذى جاء لينقذهم من قبضة فرعون ، ومما كانوا فيه من العذاب والاستعباد ؟

قال العلماء : إن بنى إسرائيل آذوا موسى حين آذوا مَنْ بعثه ، الله سبحانه وتعالى ، فقالوا له : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. (١٥٣) ﴾ [النساء]

وقالوا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ .. (١٨١) ﴾ [آل عمران]

وآذَوْا موسى حين قالوا معترضين على ما رزقهم الله من المنِّ والسَّلْوى ، فقالوا : ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ..(٦١) ﴾ [البقرة]

ومعلوم أن المنَّ هو سائل يشبه العسل ، يتساقط مثل الندى فى الصباح من الأشجار ، والسَّلْوى طائر يشبه السّمان يسوقه الله إليهم دون تعب منهم ، لكنهم قوم لا يؤمنون بالغيب ، ولا يريدون هذا الطعام الجاهز ، فهم يريدون شيئاً محسوساً يزرعونه ، ويُعدونه بأنفسهم .

ثم آذَوْا موسى عليه السلام فى شخصه ، حين اتهموه بقتل أخيه هارون حين صَعَدا الجبل[1] ، ومات هارون هناك ، فقالوا : إن موسى حقد على أخيه فقتله ، فجعل الله الملائكة تحمل جسد هارون وتمرُّ به

(١) هذا القول قاله على بن أبى طالب فيما أخرجه ابن أبى حاتم وذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٢٠) فى تفسير الآية ، قال : « صعد موسى وهارون الجبل ، فمات هارون ، فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : أنت قتلته ، كان ألين لنا منك ، وأشد حياء فآذوه من ذلك فأمر الله الملائكة فحملته فمروا به على مجالس بنى إسرائيل فتكلمت بموته ، فما عرف موضع قبره إلا الرخم ، وإن الله جعله أصم أبكم » .

على بنى إسرائيل وهو سليم لا جُرْحَ فيه ، وهذا معنى قوله تعالى :
﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا .. (٦٩) ﴾ [الأحزاب]

وقال آخرون : بل اتهموا موسى عليه السلام بمرض فى جسده ؛ لأنه عليه السلام كان شديد الحياء ، ستِّيراً ، يحتاط فى ستر نفسه عند استحمامه وعند قضاء حاجته ، فقالوا : ما فعل ذلك إلا لعيب يريد أنْ يستره .

ومنهم مَنْ قال : به برص . ومنهم مَنْ تجرّأ واتهمه بعيب فى أعضائه التناسلية ، فشاء الله أنْ يبرئه مما قالوا ، فنزل ذات يوم النهرَ ليستحم ، فأمر الله حجراً فأخذ ثيابه بعيداً عنه ، فجرى موسى عليه السلام خلف الحجر وهو يقول : ثوبى حجر ، ثوبى حجر فرأوه مُبرأً من العيوب التى اتهموه بها[1] .

أو : أن قارون لما حصلتْ الخصومة بينه وبين موسى عليه السلام استأجر امرأة بغيّاً ، وقال لها: اتهمى موسى على مَشْهد من الناس ، فشاء الله أنْ يجتمع الناس وتنطق هى وتقول : قارون فعل كذا وكذا ، فبرَّأه الله بذلك[2] .

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يُرى من جلده شيء استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل ، فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب جلده : إما برص ، وإما أدرة ، وإما آفة . وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه عرياناً أحسن ما خلق الله ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً ، فذلك قوله ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ .. (٦٩) ﴾ [الأحزاب] . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦/٤٣٦) .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٣٦) وعزاه لابن أبى شيبة فى المصنف وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس أنهم اتهموه بالزنى وأتوا بالمرأة وقالوا لها : ما تشهدين على موسى ؟ فقال لها موسى عليه السلام : أنشدك بالله إلا ما صدقت . قالت : أما إذ نشدتنى بالله فإنهم دعونى وجعلوا لى جُعْلاً على أن أقذفك بنفسى ، وأنا أشهد أنك برىء ، وأنك رسول الله ، فَخَرَّ موسى ساجداً يبكى .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا .. (٦٩) ﴾ [الأحزاب] فينفى عنه العيب ، ثم يُثبت له الوجاهة والشرف .

﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) ﴾ [الأحزاب] وأىُّ وجاهة بعد أنْ أظهر الله براءته ، وبيَّن كذب أعدائه ، فالوجاهة هيئة تدل على أنه مقبول الرجاء ، مقبول الدعاء ، لا يجرؤ أحد أنْ يرميه بعيب بعد ذلك ، ولا أنْ يتهمه بذنب لم يفعله ؛ لأنهم علموا أن لموسى رباً يحميه ، ويدافع عنه .

ومن عدالته سبحانه وتعالى مع خَلْقه أن مَنْ يُرْمَى بذنب لم يفعله يُعوِّضه عنه بأنْ يستر عليه ذنباً فعله ، ولا يفضحه به ، فواحدة بواحدة ، إلا شيئاً واحداً كان مع موسى ـ عليه السلام ـ فحين لقى جواب الله ، فكأنه غرَّه كرم ربه معه فقال : يا رب ما داموا قالوا فىَّ كذا وكذا ، أسألُكَ ألاَّ يُقال فىَّ ما ليس فىَّ ، فقال : يا موسى ، أنا لم أفعل ذلك لنفسى ، فكيف أفعله لك ؟ والمعنى أنهم يقولون فى حَقِّ الله تعالى أكثر من ذلك .

إذن : أبقى الله الكفر ليطمئن كل مَنْ أُنكر جميله ، وكأنه يقول له : لا تحزن فأنا الخالق ، وأنا الرازق ، ومع ذلك كفروا بى وأنكروا الجميل .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾

سبق أن تكلمنا عن معنى التقوى ، وهى أن تجعل بينك وبين الله وقاية ، فالحق سبحانه له صفاتُ جمال ، وصفات جلال : صفات الجمال الفضل والرأفة والمغفرة والغِنَى والنفع .. إلخ وصفات الجلال : الجبار المنتقم ذو البطش .. إلخ فالتقوى أنْ تجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية تقيك منها لأنك لستَ مطيقاً لبطش الله وانتقامه .

ومع ذلك يقول أحد العارفين : احرص على معيتك مع الله ، نعم لأنك حين تجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية تقترب من صفات الجمال .

أما إذا اشتبه عليك قوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ .. (١١٢) ﴾ [المائدة] وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ .. (١٣١) ﴾ [آل عمران] فاعلم أن النار جند من جنود غضب الله ، فمن يتقى اللهَ يتقى النارَ ، فلا تعارضَ إذن .

ومعنى ﴿ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) ﴾ [الأحزاب] أى : قولاً صادقاً يُوصل للحق ، وكلمة سديد من سداد السهم ، حين يصيب هدفه ولا يُخْطِئه ، وهدفك أنْ تنعم بذات الله فى الآخرة ، وأنْ تنفض الأسباب التى فى الدنيا ، وتعيش مع المسبِّب سبحانه .

فأنت فى الدنيا حين تريد أن تأكل مثلاً انظر إلى الطعام الذى أُعدَّ لك ، كم أخذ من وقت وإمكانات وأموال .. إلخ ، أما فى الآخرة ، فمجرد أنْ يخطر الشىء على بالك تجده بين يديك ، إذن : هذه معية يجب أنْ تحرص عليها كلَّ الحرص .

ثم يذكر لنا الحق سبحانه نتيجة القول السديد ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾ [الأحزاب] أى : فى الآخرة ، ووصف الفوز بأنه عظيم ؛ لأنك فى

الدنيا تأخذ عطاء الله بأسباب الله ، أما في الآخرة فتأخذ عطاء الله من ذات الله ، وليس هناك أعظم من هذا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

العَرْض : إدارة معروض على معروض عليه ، كما نرى مثلاً في العرض العسكرى ، حيث تمر نماذج من الجيوش والأسلحة أمام القائد ، ومنه قوله تعالى في قصة سيدنا سليمان عليه السلام : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ[1] الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ ﴾ [ص]

ومنه قولك : عرضتُ على فلان الأمر يعني : أطلعتُه عليه ، ليرى فيه رأيه يقبل أو لا يقبل ، فالعرض تخيير لا إلزامَ فيه .

فالحق سبحانه يقول : عرضت الأمانة على خَلْقي كلّ خَلْقي ، ومنه الإنسان والحيوان والجماد والنبات لأرى مَنْ منهم سيقبل تحمُّلها ، ومَنْ سيرفض ، إذن : معنى العَرْض أن هناك مَنْ سيقبل ، وهناك مَنْ سيرفض .

لذلك قُلْنا : من الخطأ : أن نقول : إن الأرض والسماء والجبال .. إلخ مُسيَّرة مقهورة ، بل يجب أنْ نُعدِّل العبارة فنقول هي مقهورة باختيارها ؛ لأن الله حين عرض عليهن الأمانة أبيْن أن يحملنها وأشفقْنَ

(١) صفن الجواد : قام على ثلاث أرجل وثنى الرابعة وهذا يدل على كرمه . [القاموس القويم ١/٣٧٩] وهو قول مجاهد ، ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/٣٣) . وقال إبراهيم التيمي : كانت عشرين فرساً ذات أجنحة . رواه ابن جرير .

منها ، وقالت : نخرج من باب الجمال ، فاختارتْ ألاَّ تكون مختارة .

ومعنى الأمانة فى عُرْفنا هى المال ، أو الأشياء النفيسة التى تخشى عليها الضياع ، فتُودعها عند مَنْ تلتمس فيه أنه يحافظ عليها لحين حاجتك لها ، وليس لك أنْ تأخذ ممَّنْ ائتمنته صكاً ، ولا أنْ تُحضر شهوداً ، وإلا ما أصبحت أمانة ، إذن : ليس عليها إثبات إلا أمانة مَنْ أخذها ، فإنْ شاء أقرَّ بها وأدَّاها ، وإنْ شاء أنكرها .

فالأمانة إيعاد النفس بأن تكون مختارة فى الفعل وغيره ، فإنْ كانت مقهورة بصكٍّ ، أو بشهادة شهود لم تَعُدْ أمانة .

والأمانة التى عرضها الحق سبحانه على خَلْقه هى أمانة الاختيار فى أنْ يكون مختاراً فى أنْ يؤمن أو يكفر ، فى أنْ يطيع أو يعصى ، فكل ما عدا الإنسان رفض التحمُّل ؛ لأنه لم تأخذه الحمية وقت العَرْض والتحمُّل ، مخافة أنْ يأتى وقت الأداء ، فلا يجد له ذمة .

وفَرْق بين وقت التحمُّل ووقت الأداء ، فمَنْ يلاحظ وقت التحمل فقط يُقدِم عليها ويقبلها ، لكن مَنْ يلاحظ مع التحمُّل الأداءَ يرفض ، فربما مع حُسْن النية والرغبة فى الأداء تتغير الظروف ، أو تتغير الذمة ، أو يطرأ عليك ما يُحوجك لها ، فتمتد إليها يدك ، فيأتى وقت الأداء ، فلا تستطيع .

كل أجناس الوجود ما عدا الإنسان أبَوْا ، أنْ يحملوا الأمانة واختاروا القهر والتسيير للخالق عز وجل ؛ لأن الإنسان كما وصفه ربه ﴿ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

كذلك وصل عباد الله الصالحين إلى منزلة العبودية لله حين وجَّهوا اختيارهم حَسْب مراد ربِّهم ، فالله أعطاهم الاختيار فى الإيمان أو الكفر فآمنوا ، وأعطاهم الاختيار فى الطاعة وفى المعصية فأطاعوا ، فوجَّهوا اختيارهم إلى ما أحبَّ ربهم ، فصاروا من عباده المقربين .

فكأنك إذن تنازلتَ عن اختيار نفسك فى حرية الحركة ، فصرْتَ كالسموات والأرض والجبال حين تنازلن عن اختيارهن لاختيار ربها ووصلْتَ - مع أنك مختار - إلى أنْ لا تختار إلا ما وضعه الله لك منهجاً .

هنا يحلو للبعض أنْ يقول : كيف عُرِضَتْ الأمانة على السموات والأرض والجبال ، وهى جمادات ، وكيف لها أنْ تأبى ؟ ... إلخ نقول : أنت أدخلتَ نفسك فى متاهة ، وهل كان العرض منك أنت حتى لا تفهمك الجمادات ؟ أم كان العرض من ربها وخالقها ؟

ساعة ترى فعْلاً يحدث منك ويحدث من الله ، إياك أنْ تعزل الحدث عن فاعله ، والله يقول : ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك]

فهو سبحانه خالقها ، وهو الذى يخاطبها ، ولم تنكر ذلك ، وقد علَّم الله بعض رسله مثلاً لغة الطير فعرفها وتفاهم معها ، كما قال سبحانه عن نبيه سليمان أنه قال : ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ .. ﴿١٦﴾﴾ [النمل]

وقال ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا .. ﴿١٩﴾﴾ [النمل]

وقال عن تسبيح الجبال مع سيدنا داود عليه السلام ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ .. ﴿١٠﴾﴾ [سبأ] فالجبال ، نعم تُسبِّح فى كل حال ،

لكن الذى امتاز به سيدنا داود أنْ يوافق تسبيحُه تسبيحَ الملائكة ، وكأنهم جميعاً فرقة ينشدون نشيداً واحداً .

إذن : الخالق سبحانه هو الذى يخاطب ما يشاء من خَلْقه ، ولو علَّمك أنْ تخاطب الجمادات لخاطبتها ، وتأمل مثلاً قصة الهدهد وسيدنا سليمان حين ذهب إلى أهل سبأ ، ووجدهم يعبدون الشمس من دون الله ، وكيف أنه كان على فقه تام بقضية التوحيد .

فأرِحْ نفسك وانْسبْ الفعل إلى فاعله وأنت تستريح ، ولك فى تصرفات حياتك أُسْوَةٌ ، فأنت مثلاً لو دخل عليك ولدك مُمزق الثياب ، يسيل منه الدم ، قبل أنْ تسأله عن شىء تسأله : مَنْ فعل بك هذا ؟

لا بُدَّ أن تحدد الفاعل أولاً ، فعليه ستبنى حكمك وقرارك ، فإنْ كان الفاعل ابنَ الجيران مثلاً تقيم الدنيا ولا تُقعدها ، وإنْ قال لك : عمِّى فلان ضربنى تهدأ أعصابك ، وتقول للولد : لا بُدَّ أنك فعلتَ شيئاً استحق العقاب ، ولو ذهبتَ إلى عمه لعرفتَ فعلاً أن الولد ارتكب خطأ ، إذن : الفعل الواحد يمكن أنْ يكون سيئاً ، ويمكن أن يكون حسناً ، المهم مَن الفاعل ؟

وآياتُ القرآن يساند بعضها بعضاً ، وتسعفنا فى هذه المسألة ، فالذى قال ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] قال ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

فكل شىء فى الوجود كله مُسبِّح ، فدلَّ هذا على أن الموجودات لها دلالة عن ذاتها ، وتستطيع أنْ تبين عما فى مرادها ، ونعجب من بعض العلماء حين يقول : هذه دلالة حال ، لا دلالة مقال ، وهذا القول يرده قوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

ونحن نفهم تسبيح الدلالة ، ونراه فى انسجام جزئيات الكون ونظامه البديع ، والحق يقرر أننا لن نفهم هذا التسبيح . إذن : هو تسبيح مَقال على الحقيقة لا يعرفه إلا مَنْ عرّفه الله . ولِمَ نستبعد تسبيح الكائنات ، ونحن نرى لبعض الطوائف والمهن (شفرات) وإشارات لا يفهمها غيرهم ، وفى اللغة الواحدة يمكن أن تسمع كلمات لا تعرف معناها ، فضلاً عن اختلاف اللغات بين الجنسيات المختلفة .

فإذا كنتَ لا تعرف بعض المعانى فى لغتك ، وإذا كنت لا تعرف لغات الآخرين وهم من بنى جنسك ، فلماذا تنكر أنْ يكون للأجناس الأخرى فى الوجود لغات يتعارفون عليها ، ويُعبِّرون بها ؟

ثم أكُلّ اللغات ووسائل الفهم منطوقة ؟ أليستْ هناك مثلاً لغة الإشارة ، يتعارف عليها البعض ، ويفهم بها ؟ ومع ذلك هناك قَدْر مشترك ومنطق فى الدلالة يتفق عليه الجميع فى كل اللغات ويتفاهمون به ، كما يتفاهم الخُرْس مثلاً ، كما أن هناك أشياءً تتفق فيها كل الطباع كالضحك والبكاء ، فليس هناك ضحك عربى ، ولا بكاء فرنسى مثلاً .

ومعنى حَمْل الأمانة أى : القيام بها وتطبيقها ، كما جاء فى قوله تعالى فى معنى الحَمْل : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا .. ⑤ ﴾ [الجمعة]

فقد حملوها كمنهج وحفظوا ما فيها ، لكن لم يحملوها بمعنى : لم يُطبِّقوا هذا المنهج ، فصار مثلهم عند الله كمثل الحمار الذى يحمل الكتب ، وهو لا يستفيد مما فيها ، وهذا فى حَدِّ ذاته ليس ذمّاً للحمار ، وليس اتهاماً له بالغباء كما يدَّعى البعض ، فالحمار ليس شغله الفهم إنما الحَمل . فحسب ، فمَنْ حمل منهجاً دون أنْ يستفيد

به فهو شبه الحمار فى هذه المسألة ، وهذه خصوصية للحمار ـ أنه يحمل ما لا يفهم .

والحمار فى أمور أخرى يفهم ويؤدى مهمته على الوجه الذى ربما عجز عنه الإنسان ، فمن المعروف عن الحمار أنه إذا ذهب إلى مكان فإنه لا ينساه ولا يضل عنه ولو بعد فترة ، وربما يضلّ الإنسان طريقه الذى سار فيه منذ فترة ، أما الحمار فلو تركتَ له حرية الحركة لذهبَ بك إلى نفس المكان ، إذن : مَن الغبى ؟

لذلك فالبعض يسأل : إذن لماذا يتهمون الحمار بالغباء ؟ قالوا : لأنهم كلّفوه بما لم يُكلّفه الله به ، فالحمار خُلِق للحمل ، وأنت تريده على درجة من الفهم ربما تفقدها فى الإنسان العاقل .

وسبق أنْ قُلْنا : إنك إذا أردتَ من الحمار أنْ يقفز فوق قناة مثلاً أوسع من إمكاناته ، فإنه لا يطاوعك أبداً فمهما ضربته لا يُقدم على القفز ، فإنْ كانت فى مقدوره نظر إليها وكأنه يُقدِّر اتساعها بالضبط ، ثم يقفز دون أنْ تجبره ، وهذا التصرف تصرفُ مَنْ يحسب العواقب جيداً ، ويفهم ما يفعل .

إذن : الشيء لا ينفصل عن مهمته ، ولا يطلب منه فوق ما هُيِّيء له ، ومثّلنا لذلك بعود الحديد ترى جماله فى استقامته ، فإنْ أردته خُطّافاً مثلاً فجماله وأداؤه لمهمته لا يتم إلا بعوجه ، وساعتها لا تستطيع أنْ تقول عنه إنه مُعْوج ؛ لأن هذا العوج هو عَيْن الاستقامة لمهمته .

لذلك قلنا فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ١٩ ﴾ [لقمان] ليس ذماً لصوت الحمار ؛ لأن صوت الحمار جعله الله عالياً هكذا ؛ لأنه يعيش فى بادية ، وغالباً ما يستتر خلف مرتفع

أو حجر أو شجرة أو يبتعد مسافة طويلة عن صاحبه ، فجاء صوته بهذه الهيئة ليدل عليه ويُرشد صاحبه إلى مكانه .

إذن : فالصوت العالى يكون مُنكراً إذا لم يكُنْ له مهمة ، وإذا استُعمل فى غير موضعه ، والشىء قد يكون مختلفاً ، لكن مهمته تكون متحدة .

مثلاً ، الدم الذى به حياة الإنسان إذا تجلط داخل أوعيته يؤدى إلى شلل العضو ، ويحتاج إلى أدوية تعيد له سيولته ، وفى المقابل إذا زادت سيولة الدم أدى ذلك إلى نزيف ، وإذا حدث جُرْح مثلاً لا يندمل ؛ لأن الدم لا يتجلط ولا يسدّ أماكن خروجه ، إذن : تجلُّط الدم مطلوب خارج الأوعية ، وسيولة الدم مطلوبة داخل الأوعية . إذن : لكل منهما حكمة فى مكانه .

ومعنى : ﴿ وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] أى : خفْنَ وقت التحمل مخافة أنْ يأتى وقت الأداء فلا يؤدى ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] لما عنده من فكر واختيار ومحاولة ، لكن قد يأتى فكره بالضرر .

وقلنا : إن الإنسان يأكل مثلاً حتى يشبع ، ثم يُعرض عليه الحلو والبارد ، فتمتلىء بطنه حتى التخمة وحتى المرض ، فى حين أن الحمار أو الجاموسة مثلاً لا تأكل عوداً واحداً فوق الشِّبع ؛ لأنها محكومة بالغريزة التى لا تعرف التصرف فى الأشياء ، وميزة الحيوان فى هذه الغريزة وفى عدم تصرفه .

لذلك وصف الإنسان هنا بأنه ﴿ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب] وهذه صيغة فَعُول الدالة على المبالغة فى الظلم والمبالغة فى الجهل . وقد يُعقل الظلم للغير ؛ لأن الظالم يظن أنه يستفيد منه ، أمّا أنْ يظلم المرءُ

نفسه بأنْ يمنعـها خيراً ، أو يجلب لها ضُرّاً ، فهـذا ما لا يُعقل ودليل الغباء .

فحين يتكاسل عن الطاعة لشهوة نفس موقوتة يمنعها خيراً باقياً ، ومتعـة لا حدودَ لها ، فهـو عدو لنفسـه ؛ لذلك قـال العلماء : إن نفس الإنسان هى أعدى أعدائه ؛ لأن العـدو إنْ كان من خارجك تستطيع أنْ تراه ، وأنْ تحتاط له ، أمّا إنْ كان من داخلك فأمره شاقّ .

وقد بيَّن الحق سـبحانه أن أعظم الظلم الشـرك بالله ، فقال سبـحانه : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان] وهذا الظلم أيضاً لا يعود ضرره على الله تعالى ، إنمـا يعود على المشرك بالله ؛ لذلك وصف الإنسـانَ بعد الظلم بأنه جـهـول ؛ لأنه يـظلم نفـسـه ، وهذا يدل على الجـهل وعـدم العلم ، والجهول هو الذى يقع فى الخطأ ويعدل عن الحق عن جهل ، فالوصف هنا يدل على الحكمة الأدائية ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٣) ﴾

أولاً : يلفت أنظارنا أن الآية الـسابقة ذُيِّـلَتْ بقـوله تعـالى ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب] وذُيِّلَتْ هذه الآية بقـوله سـبحـانه ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (٧٣) ﴾ [الأحزاب] فكأن وصف (ظَلُوماً) قابله (غَفُوراً) ، و (جَهُولاً) قابله (رَحِيماً) .

فـالحق سبـحانه غـفـور لمن ظلم ، ورحيم لـمن جهل ، فـالنسق

القرآنى مظهر من مظاهر رحمة الله ، والله سبحانه وتعالى عُلم عنه ممَّنْ آمن به أنه غفور رحيم ، لكن لا ينبغى أنْ تغرَّك صفات الجمال فى ربك - عز وجل - فتُقدِم على الذنب وتظلم ، اعتماداً على أنَّ ربك سيغفر وسيرحم .

لذلك قالوا فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ⑥ ﴾ [الانفطار] أن الذى غَرَّ الإنسان بربه فعصاه أو كفر به اعتماده على أن ربه كريم ، فصفة الكرم فى الله هى التى أغرَتْ بعصيانه .

وكأن الحق سبحانه لقَّنَ الإنسان الجواب عن هذه المسألة ، فإنْ سُئل : ما غرَّك بربك ؟ يقول : كرمه ، وعندنا فى الفلاحين يسأل أحدهم الآخر : لماذا لا تطمئن فى صلاتك ، وتنقرها هكذا أرأيتَ لو كان عليك (شلن) لواحد هل يصلح أن تعطيه (شلناً ممسوحاً) ؟ فردَّ عليه الرجل : والله لو كان كريماً لقَبِله .

وفى الآية دقيقة أخرى فى قوله تعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ .. ⑦③ ﴾ [الأحزاب] فهل كان عَرْضُ الأمانة والتكليف للناس ليُعذبهم ؟ هل التعذيب مقصود لله فى الحكم ؟

قالوا : لا ؛ لأن اللام هنا ﴿ لِيُعَذِّبَ .. ⑦③ ﴾ [الأحزاب] لام العاقبة ، فالحق سبحانه جعل التكليف ليتبعه الناس ولا يعذبون ، فاللام دلَّتْ على النتيجة . كما فى قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ⑧ ﴾ [القصص] .

فساعة التقطه آل فرعون التقطوه عليه السلام ليكون قُرَّة عَيْن لهم ، لا ليكون عدواً ، لكنَّ الذى حدث أنه صار عدواً وحَزَناً ، فاللام ليست للتعليل ، إنما لام النتيجة والعاقبة ، وهى أن تفعل الشىء لمراد عندك ، ثم تأتى العاقبة لتدلّ على غباء الذى فعل .

وقوله : ﴿ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] سبق أنْ عرَّفنا النفاق ، وقلنا : إن النفاق أشدُّ من الكفر ؛ لأن الكافر كان منطقياً مع نفسه ؛ لأنه كفر بقلبه وبلسانه . يعني : وافق لسانه ما في قلبه ، أما المنافق فغير منطقي مع نفسه ؛ لأنه اعتقد شيئاً ونطق بخلافه : أخفى الكفرَ وأظهر الإيمانَ فهو مُشتَّت الفكر ؛ لذلك استحق أنْ يكون أعدى الأعداء ، وأن يكون في الدَّرْك الأسفل من النار ، ويكفي ما فيه من خداع وتمويه ، فهو بظاهره معك ، وفي حقيقته هو عدوك .

ونلحظ أيضاً في هذه الآية أن الحق سبحانه أراد أنْ يفصل فصلاً تاماً بين جزاء المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، وبين جزاء المؤمنين والمؤمنات ، فالأسلوب البشرى يقتضي أن يقول بعدها: ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] ويتوب على المؤمنين والمؤمنات .

لكن السياق القرآني هنا لم يعطف التوبة على العذاب وفصل الفعلين بتكرار الفاعل الصريح ، وهو لفظ الجلالة فقال ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] وقال ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] ليفصل هذا عن هذا ، ويعزله بحكم خاص به ؛ لأن لله تعالى - كما ذكرنا - صفات جلال ، تختص بالكافرين والمنافقين ، وصفات جمال تختص بالمؤمنين ، ولكل من النوعين سياق خاص مستقل .


سورة سبأ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(سورة سـبأ)[1]

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ① ﴾

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ① ﴾ [سبأ] جملة قائلُها الحق سبحانه ، فهل قالها لنفسه أم قالها ليُعلِّمنا نحن أنْ نقولها ؟ قالها ليُعلِّمنا . والحمد أنْ تأتى بثناء على مستحق الثناء بالصفات الجميلة . ومقابله : الذم ، وهو أنْ تأتى لمستحقٍّ الذم بالصفات القبيحة ، وتنسبها إليه .

وأنت قد تحمد شيئاً لا علاقةَ لك به ، لمجرد أنه أعجبك ما فيه من صفات ، فاستحق فى نظرك أنْ يُحمد ، كأن تحمد الصانع على صَنْعة أتقنها مثلاً ، وإنْ لم تكُنْ لك علاقة بها .

---

(١) سورة سبأ هى السورة رقم (٣٤) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٥٤ آية ، نزلت بعد سورة لقمان وقبل سورة الزمر ، وهى السورة رقم ٥٧ فى ترتيب النزول ، قال القرطبى فى تفسيره (٥٥٢٧/٨) « مكية فى قول الجميع ، إلا آية واحدة اختلف فيها ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. ⑥ ﴾ [سبأ] فقالت فرقة : هى مكية ، والمراد المؤمنون أصحاب النبى ﷺ قاله ابن عباس . وقالت فرقة : هى مدنية ، والمراد بالمؤمنين من أسلم بالمدينة ، كعبد الله بن سلام وغيره . قاله مقاتل » .

إذن : فالحمد مرة يكون لأن المحمود فيه صفات تستحق الحمد ، وإنْ لم تَصلْ إليك ، فكيف إذا كانت صفات التحميد والتمجيد والتعظيم أثرها واصلَ إليك ؟ لا شكَّ أن الحمد هنا أوجب .

لذلك نقول : كل حمد ولو توجَّه لبشر عائد فى الحقيقة إلى الله تعالى ؛ لأنك حين تحمد إنساناً إنما تحمده على صفة وهبها الله له ، فالحمد على إطلاقه ولو لمخلوق حَمْدٌ لله .

وكلمة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ① ﴾ [سبأ] وردت فى القرآن ثمان وثلاثون مرة ، وخُصصَّتْ منها فى فواتح السور خمس مرات : فى الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ ، وفاطر .

والحق سبحانه بدأ بالحمد ؛ لأنه بدأ خَلْقه من عدم فله علينا نعمة الخَلْق من عدم ، ثم أمدَّنا بمقومات الحياة فوفَّر لنا الأقوات التى بها استبقاء الحياة ، ثم التناسل الذى به استبقاء النوع ، هذا لكيان الإنسان المادى ، لكن الإنسان مطلوب منه حركة الحياة ، وهو يعيش مع آخرين فلا بُدَّ أنْ تتساند حركاتهم لا تتعاند ، لا بُدَّ أن تنسجم الحركات وإلا لتفانى الخَلْق .

وهذا التساند لا يتأتَّى إلا بمنهج يُحدِّد الحركات ، ويحكم الأهواء ، وإلا لجاء واحد يبنى ، وآخر يهدم . هذا فى الدنيا ، أما فى الحياة الآخرة فسوف يُعِدُّنا لها إعداداً آخر ، ويعيدنا إلى خير مما كنا فيه ؛ لأننا نعيش فى الدنيا بالأسباب المخلوقة لله تعالى ، أما فى الآخرة فنعيش مع المسبِّب سبحانه مع ذات الحق .

نحن فى الدنيا نزرع ونحصد ونطبخ ونخبز ونغزل .. إلخ ، هذه أسباب لا بُدَّ من مزاولتها ، لكنك فى الآخرة تعيش بكُنْ من المسبِّب ، فى الدنيا تخاف أنْ يفوتك النعيم أو تفوته أنت ، أما فى الآخرة

فنعيمها بَاقٍ لا يزول ولا يحول ، فى الدنيا تتمتع على قَدْر إمكاناتك ، أما فى الآخرة فتتمتع على قَدْر إمكانات ربك .

فالحق سبحانه أوجدنا من عدم ، وأمدنا من عُدْم ، ووضع لنا المنهج الذى يحفظ القيم ، ويُنظِّم حركة الحياة قبل أنْ تُوجد الحياة ، فقبل أنْ يخلقك خلق لك كالصانع الذى يُحدِّد مهمة صنعته قبل صناعتها ، وهل رأيتم صانعاً صنع شيئاً ، ثم قال : انظروا فى أىٍّ شىء يمكن أن يستخدم ؟

لذلك قال تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾ [الرحمن] فالمنهج المتمثل فى القرآن وُضع أولاً ليحدد لك مهمتك وقانون صيانتك ، قبل أنْ تُوجَد أيها الإنسان .

والمتأمل لآيات الحمد فى بدايات السور الخمس يجد أنها تتناول هذه المراحل كلها ، ففى أول الأنعام : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) ﴾ [الأنعام]

تكلَّم الحق سبحانه عن بَدْء الخَلْق ، ثم قال : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ .. (٢) ﴾ [الأنعام] وهذا هو الإيجاد الأول .

ثم فى أول الكهف يذكر مسألة وَضْع المنهج والقيم : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) ﴾ [الكهف]

هذا هو القانون الذى يحكم الأهواء ، ويُنظِّم حركة الحياة لتتساند ولا تتعاند .

وفى أول سورة سبأ التى نحن بصددها يذكر الحمد فى الآخرة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الآخِرَةِ .. (١) ﴾ [سبأ] وحين تنظر إلى الحمد فى الآخرة تجده حَمْداً

مركباً مضاعفاً ؛ لأنك فى الدنيا تحمد الله على خَلْق الأشياء التى تتفاعل بها لتعيش بالأسباب ، لكن فى الآخرة لا توجد أسباب ، إنما المسبِّب هو الله سبحانه ، فالحمد فى الآخرة أكبر حَمْداً يناسب عَيْشك مع ذات ربك سبحانه .

وفى أول فاطر : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ .. (١) ﴾[فاطر]

نحمد الله على القيم ، وعلى المنهج الذى وضعه لنا الحق سبحانه بواسطة الملائكة ، والملائكة هم رسل الله إلى الخَلْق ، ومنهم الحفظة ، ومنهم المدبِّرات أمراً التى تدبر شئون الخَلْق ، ومنهم مَنْ أسجدهم الله لك .

ثم جاءت أم الكتاب ، فجمعت هذا كله فى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ [الفاتحة] والربّ هو الخالق الممدّ ﴿ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) ﴾ [الفاتحة] أى : فى الآخرة ، ثم ذكرت وجوب السير على المنهج ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (٧) ﴾ [الفاتحة]

ولأنها جمعتْ البداية والنهاية ، والدنيا والآخرة سُمِّيت فاتحةَ الكتاب ، وسُمِّيت المثانى ، وسُمِّيت أم القرآن .

فقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (١) ﴾ [سبأ] علَّمنا الله تعالى أن نقولها ؛ لأن الناس مختلفون فى المواهب ، وفى الملكات ، وفى حُسْن الأداء ، وفى صياغة الثناء ، فلا يستوى فى الحمد والثناء الأديب والأُمىُّ الذى لا يجيد الكلام ؛ لذلك قال الله لنا : أريحوا أنفسكم من هذه المسألة ، وسوف أُعلمكم صيغة يستوى فيها الأديب الفيلسوف مع راعى الشاة ، وسوف تكون هذه الصيغة هى أحبّ صِيغ الحمد إلىَّ ، هذه الصيغة هى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (١) ﴾ [سبأ]

لذلك جاء في الحديث قول سيدنا رسول الله في حمد ربه ، والثناء عليه : « سبحانك لا نحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »[1] فحين أقول خطبة طويلة في حمد الله والثناء عليه ، وتقول أنت : الحمد لله لا أقول لك قصَّرت في حمد ربك ، وكأن هذه الصيغة وتعليمها لنا نعمة أخرى تستحق الحمد ؛ لأنها سوَّتْ الجميع ، ولم تجعل لأحد فضلاً على أحد في مقام حمد الله والثناء عليه .

وحين تحمد الله على أن علَّمك هذه الصيغة ، بماذا تحمده ؟ تحمده بأن تقول الحمد لله . إذن : هي سلسلة متوالية من الحمد لا تنتهي ، الحمد لله على الحمد لله ، ومعنى ذلك أنْ تظل دائماً حامداً لله ، وأنْ يظلَّ الله تعالى دائماً وأبداً محموداً .

كما قُلْنا : إن اختلاف المواقيت في الأرض واختلاف المشارق والمغارب إنما جُعِلَتْ لتستمر عبادة الله لا تنقطع أبداً في كل جزئيات الزمن ، ففي كل لحظة صلاة ؛ وفي كل لحظة الله أكبر ، وفي كل لحظة أشهد ألا إله إلا الله ، وفي كل لحظة أشهد أن محمداً رسول الله... إلخ لتظل هذه الألفاظ وهذه العبادات دائرة طوال الوقت ، فالكون كله يلهج بذكْر الله وعبادة الله في منظومة بديعة ، المهم مَنْ يُحسِن استقبالها ، المهم صفاء جهاز الاستقبال عندك .

وقوله سبحانه ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ .. ①﴾ [سبأ] بيَّنَّا أن الحمد في الآخرة أكبر وأعظم من الحمد في الدنيا ؛ لأنك في الدنيا تعيش بالأسباب ، أما في الآخرة فتعيش مع ذات المسبِّب سبحانه ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٥٨ ، ١٢٠) ومسلم في صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش ، فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

فى الدنيا نعيم موقوت ، وفى الآخرة نعيم باق ، فى الدنيا فناء ، وفى الآخرة بقاء ؛ لذلك قال سبحانه عن الآخرة : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑩ ﴾ [يونس]

وقال سبحانه حكايةً عن المؤمنين فى الآخرة : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ⑭ ﴾ [الزمر]

وقالوا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ .. ⑬ ﴾ [الأعراف]

فإنْ قُلْت : فما وجه الحمد فى أن الله تعالى يملك السموات والأرض ؟ نقول : فَرْق بين أنْ يخدمك فى الكون مَا لا تملك ، وبين أنْ يخدمك ما تملك ، فالعظمة هنا أنك تنتفع هنا بما لا تملك ، فالسموات والأرض ملْك لله ، ومع ذلك هى فى خدمتك أنت ، وليست العظمة من أنْ يخدمك ما تملكه .

لذلك قالوا لأحد الناس : لماذا لا تشترى لك سيارة ؟ قال : والله الإخوان كثيرون ، وكلهم عندهم سيارات ، وكل يوم أركب سيارة واحد منهم ، ولا يغرمنى هذا شيئاً . إذن : انتفاعك بما يملك الغير أعظمُ من انتفاعك بما تملك أنت ، وملْك الله جُعل لصالحنا نحن ، وهذه تستحق الحمد ، فاللهم لا تحرمنا نعمك .

ملحظ آخر أن الحق سبحانه يريد أن يُطمئنَ العبادَ ، فمُلْك السموات والأرض لله وحده ، ولو كانت لغيره لمنعنا منها ، فكأن ربك يقول لك : اطمئن فهذا ملْكى وأنا ربك ولن أتخلى عنك أبداً ، وليس لى شريك ينازعنى ، فيمنع عنك خيراتى ، فأنا المتفرِّد بالملْك والسلطان .

لذلك ، فالحق سبحانه حين يقول للشيء : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [آل عمران] ما قال (كُنْ) إلا لأنه سبحانه يعلم أنه لا يستطيع ألاَّ يكون ، والدليل قوله تعالى عن الأرض ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾ [الانشقاق] أى : أصغتْ السمع ، وحَقَّ لها ذلك ، فما قال سبحانه لشيء كُنْ إلا وهو واثق أنه لا يخرج عن أمره .

لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن الحق سبحانه حين طلب منا أنْ نشهد أنه لا إله إلا هو شهد بها لنفسه أولاً ، فقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران] وهذه شهادة الذات للذات ، ولذلك تصرَّف سبحانه فى الملك تصرُّف مَنْ لا شريكَ له ، فلم يقُلْ شيئاً أو يحكم حكماً ، ثم خاف أنْ ينقضه أحد أو يعدله .

ثم شهدتْ بذلك الملائكة ، ثم شهد بذلك أولو العلم من عباده ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران]

فشهادة الله شهادة الذات للذات ، وشهادة الملائكة شهادة المشهد ، وشهادة أُولى العلم شهادة العلم والدليل .

ونلحظ أيضاً أن الحق سبحانه قال : ﴿ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ.. ﴿١﴾ ﴾ [سبأ] فكرَّر الاسم الموصول (ما) ولم يقُلْ له ما فى السموات والأرض ، كما جاء فى قوله سبحانه فى التسبيح : مرة : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الجمعة]

ومرة : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر]

وفَرْق بين التعبيرين ؛ لأن هناك خَلْقاً مشتركاً بين السماء والأرض ، وهناك خَلْق خاص بالسماء ، وخَلْق آخر خاص بالأرض ،

فإنْ أراد الكل قال : ﴿مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٤)﴾ [الحشر] ، وإنْ أراد الاختلاف كلاً فى جهته ، قال ﴿مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١)﴾ [سبأ]

والسموات والأرض ظرف لما فيهما من خيرات ، والذى يملك الظرف والمكان يملك المظروف فيه ، فالحيز هنا مشغول .

ثم يقول سبحانه تذييلاً لهذه الآية ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١)﴾ [سبأ] الحكيم : هو الذى يضع الشىء فى مكانه وموضعه المناسب ، ولا يتأتّى هذا إلا لخبير يعلم الشىء ، ويعلم موضعه الذى يناسبه ؛ لذلك قال سبحانه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١)﴾ [سبأ] الذى لديه خِبْرة بدقائق الأشياء وبواطنها .

ثم أراد سبحانه أنْ يعطينا نموذجاً لهذه الحكمة ولهذه الخبرة ، فقال سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

معنى ﴿يَلِجُ .. (٢)﴾ [سبأ] يدخل ، ومنه قوله تعالى : ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ .. (١٣)﴾ [فاطر] يعنى : يُدخل كلاً منهما فى الآخر ، فزيادة الليل تنقص من النهار ، وزيادة النهار تنقص من الليل ؛ لذلك نرى اختلاف المواقيت .

لكن ، ما الذى يدخل فى الأرض - فى حدود ما تراه أنظارنا - ؟ هناك أشياء تدخل فى الأرض لا دَخْلَ لنا بها كماء المطر مثلاً حين ينزل من السماء ، نأخذ منه حاجاتنا ، ويتسرَّب منه جزء فى باطن الأرض ، كما قال تعالى : ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ .. (٢١)﴾ [الزمر]

ويدخل فى الأرض الحبة التى نزرعها ، فينشأ عنها الاقتيات الذى يضمن لنا بقاء الحياة ، وهذا الاقتيات يأتى من مضاعفة الحبة إلى أضعاف كثيرة ، كذلك يدخل فى الأرض الميِّت الذى نستودعه الأرضَ بعد أنْ يموت ، ولك أنْ تلحظ وجه الشبه بين الحبة تزرعها ، والميت تدفنه فى ضوء قوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [طه]

فكما أن الحبة أنبتتْ سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، كذلك يجب أنْ نقيس المتواليات الذهنية فنقول كذلك حين أدخل أو أدفن فى الأرض بعد الموت : أخرج بحياة أخرى أكثر نماءً من حياتى فى الدنيا ، وأكثر خَيْراً فضلاً عما سترَتْه الأرض من سَوْءاتى .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ .. ﴿٢﴾ ﴾ [سبأ] ما الذى ينزل من السماء ؟ ينزل منها المطر لاستبقاء الحياة ، وبالماء حياة كل شىء حى ، هذا فى مادة تكوينك ، أما فى حياتك الروحية فتنزل الملائكة بالقيم وبالمنهج الذى به تحيا الأرواح والقلوب ، وتنزل الملائكة المدبِّرات أمراً ، التى تدبر شئون الخلائق ، والتى قال الله فيها : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[1] مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد]

والبعض لا يفهم معنى الآية ، فيقول : كيف تحفظه الملائكة من أمر الله ؟ يريدون أن أمر الله ينبغى أنْ يُنفذ ، فكيف يحفظونه منه ؟

(١) المعقبات : ملائكة الليل والنهار ، لأنهم يتعاقبون ، فكأن ملائكة النهار تحفظ العباد ، فإذا جاء الليل جاء معه ملائكة الليل وصعد ملائكة النهار ، فإذا أقبل النهار عاد من صعد ، وصعد ملائكة الليل ، كأنهم جعلوا حفظهم عُقباً أى نُوَباً . [لسان العرب - مادة : عقب] .

والمعنى : يحفظونه حفْظاً صادراً من أمر الله ، ليس تطوُّعاً من عندهم[(١)] .

والحق سبحانه يُرينا قدرته في إنزال المطر حينما نُجري عملية تقطير الماء في المعامل والأجزاخانات ، انظر كم يتكلف كوب الماء المقطر ، وكم يأخذ من الوقت والجهد ، أما المطر فتُقطِّره لك قدرة الله دون أنْ تشعر أنت به ، فحرارة الشمس تُبخِّر الماء الذي يُكوِّن السحب ، ثم تسوقه الرياح إلى حيث شاء الله له أنْ ينزل ، ومن حكمته تعالى أنْ جعل ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ماءً لتتسع مساحة البخر ، فيكفي المطر حاجة الأحياء .

ومثَّلْنا لهذه الظاهرة بكوب الماء الذي تتركه لمدة شهر ، فلا ينقص إلا عدة سنتيمترات ، أما إنْ سكبْتَه في أرض الحجرة فإنه يجفّ قبل أنْ تغادرها ، لماذا ؟ لأنك وسَّعْتَ المساحة التي يتبخر منها الماء .

وماء المطر هو الماء العَذْب الزلال الذي يشرب منه الإنسان والحيوان والطير ، ونسقي منه الزرع ومشارف الأرض ، وما تبقَّى يسلكه الله في جوف الأرض لحين الحاجة إليه ، فالمطر آية من آيات الله الدالة على قدرته تعالى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا .. ② ﴾ [سبأ] أي : يصعد ، وقد أشار القرآن إلى هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ .. ⑩ ﴾ [فاطر] أي : تصعد آثار التكليف المنهجي من الله تعالى .

---

(١) عن ابن عباس : ذلك الحفظ من أمر الله بأمر الله . أخرجه أبو الشيخ . وعنه أيضاً : بإذن الله . أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم . وعن سعيد بن جبير : حفظهم إياه بأمر الله . أخرجه ابن جرير . وذكر هذه الآثار السيوطي في الدر المنثور (٤/٦١٢) .

لكن نلحظ فى أسلوب ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا .. ۝٢﴾ [سبأ] استخدام حرف الجر (فى) ولم يَقُلْ يعرج إليها ، نعلم أن الحرف يدل على معنًى فى ذاته ، لكن هذا المعنى لا بُدَّ له من ضميمة شيء إليه ، ليعطى معنى يفهم ، فالحرف (فى) يدل على الظرفية ، كما تقول : ماء فى الكوب ، أمَّا لو قلت (فى) مستقلة بذاتها ، فإنها لا تدلُّ على شيء .

والعلماء حينما استقبلوا كثيراً من الأساليب وجدوا بها حروفاً ظَنُّوا أنها زائدة ، أو أنها بمعنى حرف آخر ، كما قالوا فى معنى : ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۝٢﴾ [سبأ] أن (فى) هنا بمعنى (إلى) ، لكن لماذا عدل الأسلوب عن (إلى) إلى (فى) ؟ إذن : لا بُدَّ أنها تحمل معنى الظرفية .

وللتوضيح نذكر ما قُلْنا فى قوله تعالى : ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ۝٧١﴾ [طه] البعض قال أى : على جذوع النخل ، وهذا فَهْم غير دقيق عن الله ؛ لأن (فى) هنا تعطينى المعنيين : معنى (على) ومعنى (فى) .

فالتصليب صَلْب شيء على شيء ، وهذا المعنى تؤديه (على) ، لكن فيه قصور ، فإنْ أردتَ (على) فحسب ، فينبغى أنْ تقول : لأصلبنكم على جذوع النخل تصليباً قوياً ، بحيث تدخل أجزاء المصلوب فى المصلوب عليه . إذن : المعنى الكامل للتصليب لا تؤديه إلا (فى) .

خُذْ مثلاً عود كبريت وضَعْه على يدك ، أو على أصبعك ، والْفُفْ عليه خيطاً خفيفاً ، فى هذه الحالة الخيط فقط يثبت العود ، أما إذا

شددْتَ عليه الخيط بقوة ، فإن العود يدخل فى الجلد حتى يكاد يختفى بداخله ، هذا هو التصليب المراد أنْ تشدَّ المصلوب على المصلوب عليه بقوة بالمسامير أو الحبال أو نحوه .

لذلك قال سبحانه : ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ .. (٧١)﴾ [طه] ولم يقُلْ على جذوع النخل ؛ لأن (فى) أدَّتْ معنى الاستعلاء والظرفية معاً .

كذلكِ فى ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا .. (٢)﴾ [سبأ] ولم يقُلْ : وما يعرج إليها ؛ لأن إلى لا تؤدى المعنى المطلوب ، فـ (إلى) تدل على الغاية ، كما تقول : سافرت من القاهرة إلى الإسكندرية . والسماء ليست هى غاية صعود الكَلِم الطيب ، إنما غايته ومنتهاه إلى الله عز وجل ، وما السماء إلا طريق يُوصل إلى المنتهى الأعلى ، وسبق أنْ قُلْنا : إن السماء هى كل مَا علاك .

وهذا المعنى لحرف الجر واضح كذلك فى قوله تعالى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٣٣)﴾ [آل عمران] فاستخدم (إلى) لأن المغفرة هى غاية ما يَسْعى إليه المؤمن ويسارع .

وقال : ﴿أُولَـٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٦١)﴾ [المؤمنون]

ولم يقل : إلى الخيرات ؛ لأن الخيرات ليست هى الغاية ، إنما هى مراتب يترقَّى فيها المؤمن ويتعالى ، كلما وصل إلى خير تطلَّع إلى أَخْيَر منه ، فكأن الخيرات ظرف يسير فيه لا إليه .

كذلك لما تكلَّم الحق سبحانه عن الذين كذَّبوا الرسل ، قال : ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ .. (٩)﴾ [إبراهيم]

البعض يقول : أى : إلى أفواههم ، لا لأن (فى) تحمل معنى المبالغة فى رَدِّ المنهج الذى جاء به الرسل ، فالمعنى أن الرسل حينما

جاءوا بالمنهج لم يقبله المكذّبون وقالوا لهم : وفروا عليكم كلامكم ، يعني : لن يُجدى معنا شيئاً ، وجعلوا أيديهم داخل الأفواه ، وعَضُّوا عليها من الغيظ مما سمعوا من الرسل ، وهذا المعنى لا تؤديه لفظة : إلى أفواههم .

ثم هو سبحانه : ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝٢﴾ [سبأ] صفة الرحيم أي : الذي يمنع وقوع الضُّرِّ بدايةً ، كما قال سبحانه : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ۝٨٢﴾ [الإسراء]

كلمة ﴿شِفَاءٌ .. ۝٨٢﴾ [الإسراء] تعني : أنه أصابك مرض نشأ من الغفلة ، فجاء القرآن ليُذكِّرك ويُنبِّهك ويشفي نفسك من هذه الغفلة ، فإنْ لم توجد الغفلة كان القرآن رحمة تمنع حدوث الداء من البداية . و (رحيم) صيغة مبالغة من الرحمة .

كذلك ﴿الْغَفُورُ ۝٢﴾ [سبأ] صيغة مبالغة من المغفرة ، والحق سبحانه كثيراً ما يؤكد على هذه الصفة ؛ لأنه سبحانه خلق الإنسان ، ويعلم أنه لن يسير دائماً على الصراط المستقيم ، ولا بُدَّ أن ينحرف يوماً ما عن المنهج القويم ؛ لذلك قال ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ .. ۝١٥﴾ [المائدة]

وقلنا : إنه لولا صفة الرحمة والتوبة والمغفرة لتمادى المذنب في الذنوب ، وييئس أنْ يعود إلى الطريق المستقيم ، وهذا الذي أسميناه (فاقد) وبه يشقى المجتمع كله ، لكن إنْ عرف أن له رباً يغفر الذنب ويقبل التوبة ، فإنه يُقبل عليها ويتوب ولم لا ، وقد تكفَّل الله له بمغفرة ذنوبه إنْ تاب وأناب ؟

إذن : شرع اللهُ التوبةَ ليرحم الخَلْق كلهم ، ويُقدِّم لهم جميلاً ،

فحين يتوب على المذنب يرحم المجتمع من شرِّه ، ويرحمه هو من آثار ذنوبه ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. (١١٨)﴾ [التوبة] أى : شرع لهم التوبة ليفتح لهم مجال التراجع وطريق العودة إلى الله ، حتى لا يكون هناك شراسة وتَمَادٍ فى الشر ، ولا ينقلب المذنب إلى طاغوت .

وحين نتأمل قوله تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم] نجد صَدْر الآية ورد بنفس اللفظ فى موضعين ، لكن العَجْز مختلف ، ففى آية : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم] وفى الأخرى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

عندما وقف بعضهم عند هذه الآية اعترضوا ، فقالوا : كيف تُعَدُّ النعمة ، وهى واحدة ؟ ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم] والرد : أن النعمة التى تراها واحدة فى ظاهرها فى طَيِّها نِعَم شتى ، وقد وَضَح لنا هذا بعد أنْ تقدَّمت العلوم وظهر علم عناصر الأشياء ، فالتفاحة مثلاً تراها فى ظاهرها نعمة واحدة ، لكن علم العناصر يُبيِّن لنا أن بها نِعَماً شتى ، وعناصر وفوائد مختلفة ، فهى نعمة فى طَيِّها نِعَم .

والنعمة تقتضى : نعمة ، ومُنْعِماً ، ومُنْعَماً عليه ، فالنعمة فى ذاتها من الكثرة بحيث لا تُعَدُّ ولاَ تُحصى ؛ لذلك استخدم كلمة (إنْ) الدالة على الشك ، ولم يقل مثلاً : إذا عددتم نعمة الله ؛ لأن هذا مجال لا يطمع فيه أحد ، ونِعَم الله ليست مظنة الإحصاء .

لذلك لم يُقْدِم أحد على محاولة عَدِّ نِعَم الله حتى بعد أنْ وُجدت جامعات وكليات متخصصة فى الإحصاء ، حاولت إحصاء كل شىء إلا

هذه المسألة ؛ لأن الإقبال على العَدِّ والإحصاء يعنى إمكانية الوصول إلى إحصاء المعدود .

أما من حيث المنْعَم عليه وهو الإنسان ، فهو ظَلُوم كفار ، ظلوم لنفسه ولغيره ، كفَّار بالنعمة ، ولو آخذناه بذلك لحرمناه هذه النعمة ، والذى حماه من هذا الحرمان أن المُنعِم عليه غفور ورحيم ، وهذا إذا نظرنا إلى المنعِم سبحانه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾

هنا أيضاً يُحدِّثنا عن الساعة ، ففى آخر الأحزاب ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ .. ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأحزاب] وهنا ينكرونها ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ .. ﴿٣﴾ ﴾ [سبأ] أى : القيامة .

فلماذا ينكرونها ؟ نعم ينكرونها ؛ لأنهم أسرفوا على أنفسهم ، وتمادوا فى غَيِّهم ، ولن تكون القيامة فى صالحهم ؛ لذلك يهربون منها بالإنكار والتكذيب . حتى إخوان هؤلاء المكذبين ممَّنْ يحبون أن يستدركوا على كلام الله يقولون : إذا كان الله قد قدَّر كل شىء على العبد ، فقدَّر الطاعة ، وقدَّر المعصية ، فلماذا يعذبه على المعصية ؟

والملاحظ ، أنه لم يقُلْ أحد منهم فى المقابل : ولماذا يثيبه على

الطاعة ؟ مما يدل على أن هذه الوقفة خاطئة وغير منطقية ، وأنهم يخافون العقاب ، وصاحب هذه المقولة ما قالها إلا لأنه واثق من كثرة سيئاته ، ومن مصلحته أن يُكذِّب بالقيامة وينكرها ، كالذى قال : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً (٣٦) ﴾ [الكهف]

فكثرة سؤالهم عن الساعة وإنكارهم لها يدلُّ على خوفهم منها ، بل هم مرعوبون من مجرد تصديقها ؛ لأنهم يعلمون جيداً أنهم إن استتروا عن الناس فلن يستتروا من الله ، وإنْ عَمُّوا على قضاء الأرض فلن يُعَمُّوا على قضاء السماء ، ولن تنفعهم فى القيامة حجة ولا لباقة منطق ، ولا تزييف للحقائق .

لذلك قال ﷺ : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلىَّ ، ولعلَّ أحدكم أن يكون ألحنَ[1] بحُجَّته فأقضى له ، فمَنْ قضيتُ له من حقِّ أخيه بشىء فلا يأخذه ، فإنما أُقْطِع له قطعةً من النار »[2] .

فالقاضى يحكم بالحجة وبالبيان ، ويمكن للمتكلم أنْ يُضلِّل القاضى ، وأنْ يأخذ حقَّ الآخرين ظلماً ، كما يفعل بعض المحامين الآن ، هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فأنت فى محكمة قاضيها الحق سبحانه وتعالى .

---

(١) ألحن بحجته ، أى : أفطن لها وأجدل . وقال ابن الأثير : اللحن الميل عن جهة الاستقامة . يقال : لحن فلان فى كلامه إذا مال عن صحيح المنطق . [لسان العرب - مادة : لحن] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٥٨ ، ٢٦٨٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضى الله عنها بهذا اللفظ . وفى لفظ آخر أن رسول الله ﷺ قال « إنما أنا بشر ، وإنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيتُ له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها » .

إذن : هؤلاء ينكرون القيامة ؛ لأنها اللغز الذى يُحيِّرهم ، والحقيقة التى تقضُّ مضاجعهم وتُرعبهم ، الحقيقة التى تزلزل جاههم ، وتقضى على سيادتهم ، وإنْ أَمنوا فى الدنيا لما لهم من جاه وسيطرة ، ففى القيامة سيأتون كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ .. ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام]

وكثرة سؤالهم عن الساعة له نظير فى العالم الحديث وفى عالم الاقتصاد ، فمثلاً ترى الرجل كلما جلس مع عالم سأله عن رأى الدين فى فوائد البنوك ، حتى إنه ليسأل فى ذلك ألفَ عالمٍ ، فلماذا لا يكتفى بقول واحد منهم ؟ لأنه يريد أنْ يسمع رأياً على هواه يقول له : إن فوائد البنوك حلال ، فهذه مسألة شائكة تشغل الكثيرين ، لكن ما دامت قد حاكتْ فى الصدر ، فهى من الباطل الذى قال عنه سيدنا رسول الله : « والإثم ما حاك فى الصدر ، وخشيتَ أنْ يطلعَ عليه الناسُ »[1] .

ثم يرد الحق سبحانه على إنكارهم للساعة ، فيقول مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ .. ﴿٣﴾﴾ [سبأ] يعنى : قُلْ بملْء فيك (بلى) وبلى نفى للنفى السابق فى قولهم ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ .. ﴿٣﴾﴾ [سبأ] وحين ننقض النفى ، فإننا نثبت المقابلَ له ، فمعنى (بلى) أى : أنها ستأتى .

ثم لا يكتفى الأسلوب بذلك ، إنما يؤكد هذه القضية بالقَسَم ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ .. ﴿٣﴾﴾ [سبأ] فالحق سبحانه يُعلِّم رسوله أنْ

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٨٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٥٥٣) كتاب البر والصلة من حديث النواس بن سمعان قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم ؟ فقال : « البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك ، وكرهتَ أن يطلع عليه الناس » .

يحلف بذاته سبحانه وهو مطمئن أنها ستأتيهم ، والحق سبحانه لا يُلقِّن رسوله يميناً كاذباً ، والحق سبحانه صادق دون حلف ، فما بالك حين يحلف لك ؟

وقوله تعالى بعدها ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ .. ③﴾ [سبأ] فيه إشارة إلى أننا لا نخبر بالساعة ولا نحلف على إتيانها من فراغ ، إنما بما عندنا من علم الغيب ، فهى لا بُدَّ آتية ، ليس هذا فحسب ، إنما سنُوافيكم فيها بإحصاء كامل للذنوب ، كبيرها وصغيرها ، ظاهرها وخَفِيِّها ، فعالم الغيب لا يخفى عليه شيء مهما استتر ، ومهما كنتَ بارعاً فى إخفائه عن الناس .

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ③﴾ [سبأ] لا يعزب : لا يغيب عن علمه .

والحق سبحانه فى جمهرة الآيات يضرب المثل لصغَر الأشياء بالذرة ، وهى الهباءة التى نراها فى شعاع الشمس ، ولا نراها فى الظل لصغَر حجمها ، إذن : كَوْنُك لا ترى الشيء لا يعنى أنه غير موجود ، بل هو موجود ، لكن ليستْ لديك آلة البصر الدقيقة التى تستطيع رؤيته بها ، والعين المجردة لا ترى كلَّ الأشياء ، لكن حزمة الضوء القوية تساعدك على رؤية الأشياء الدقيقة ؛ لذلك قالوا : إن الضوء والذر أحكم مقاييس الكون .

لذلك يستخدم المهندسون هذه الظاهرة مثلاً فى استلام المبانى ، والتأكد من دقة تنفيذها ، فالحائط الذى يبدو لك مستوياً مستقيماً لو تركتَه عدة أيام لكشفَ لك الغبار عَمَّا فيه من نتوءات وعدم استواء ؛ لأن الغبار والذرات تتساقط عمودياً ، كذلك الضوء حين

تُسلِّطه على حائط يكشف لك ما فيه من عيوب ، مهما كانتْ دقيقة لا تراها بالعين المجردة .

ولأن الذرة كانت أصغر ما يعرفه الإنسان ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ .. (٤٠)** ﴾ [النساء]

لكن ، هل ظلَّتْ الذرة هى أصغر ما فى الكون ؟ حينما انهزمت ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى لم تقبل الهزيمة ، وأبَتْ أنْ تكون مغلوبة فصممتْ على أنها تثأر لنفسها ، فاشتغل كل فرد فيها فى اختصاصه ، وكان مما أنجزوه عملية تحطيم الجوهر الفرد أى : تحطيم الجزء الذى لا يتجزأ ، وهذه أول فكرة فى تفتيت الذرة يعرفها العالم .

وهذه العملية نشاهدها نحن فى عصارة القصب مثلاً ، وهى أن تُدخل عود القصب بين أسطوانتين ، فكلما ضاقت المسافة بين الأسطوانتين زادت عملية العصر وتفتيت العود ، كذلك عملت ألمانيا أسطوانة تحطيم الجوهر الفرد .

وعندها قال الذين يحبون أن يستدركوا على كلام الله : ذكَر القرآن أن الذرة هى أصغر ما فى الكون ، وها نحن فتتنا الذرة إلى أجزاء . ولو ألَمَّ هؤلاء بكل القرآن ، وقرأوا هذه الآية : ﴿ **عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣)** ﴾ [سبأ] لعرفوا أن القرآن احتاط لما سيأتى به العلم من تفتيت الذرة ، وأن فى كلام الله رصيداً لكل تقدم علمىٍّ .

وتأمل الدقة الأدائية هنا ، فقد ذكر الذرة ، وهى أصغر شىء عرفه الإنسان ، ثم ذكر الصغير عنها والأصغر بحيث مهما وصلنا فى تفتيت الذرة نجد فى كلام الله رصيداً لما سنصل إليه .

وقال : ﴿ لا يَعْزُبُ .. ③ ﴾ [سبأ] لا يغيب ﴿ عَنْهُ مِثْقَالُ .. ③ ﴾ [سبأ] مقدار ﴿ ذَرَّةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ .. ③ ﴾ [سبأ] لشمول كل ما فى الكون ﴿ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ .. ③ ﴾ [سبأ] أى : أصغر من الذرة ﴿ وَلا أَكْبَرُ .. ③ ﴾ [سبأ] من الذرة .

ولقائل أنْ يقول : إذا كان الحق سبحانه يمتنُّ علينا بمعرفة الذرة ، وما دَقَّ من الأشياء ، فما الميْزة فى أنه سبحانه يعلم الأكبر منها ؟

قالوا : هذه دقيقة من دقائق الأسلوب القرآنى ، فالشيء يخفى عليك ، إما لأنه مُتناه فى الصِّغَر ، بحيث لا تدركه بأدواتك ، أو لأنه كبير بحيث لا يبلغه إدراكك ، فهو أكبر من أنْ تحيط به لكبره ، إذن : فالحق سبحانه مُسلَّط على أصغر شيء ، وعلى أكبر شيء لا يغيب عنه صغير لصِغَره ، ولا كبير لكِبَره .

والحق سبحانه لا يحيط علمه بما فى كَوْنه فحسب ، بل ويُسجِّله فى كتاب مُعْجز خالد ، وفَرْق بين الإخبار بالعلم قوْلاً وبين تسجيله ، فإذا لم يكُنْ العلم مُسجَّلاً فلكَ أن تقول ما تشاء ، لكن حين يسجل يصير حجة عليك .

لذلك نرى الحق سبحانه حين يعطينا قضية فى الكون يحفظها مع القرآن ، وأنت لا تحفظ إلا ما فى صالحك ، وما دام الحق سبحانه يحفظها فهذا يعنى أنها واقعة لا محالة ، وإلا ما سجَّلها الحق سبحانه وحفظها ، فهو سبحانه يعلم تمام العلم أنه لا يكون فى مُلْكه إلا ما علم ، إذن : كتب لأنه علم ، وليس علم لأنه كُتب . ومَن الذى أمر بكتابته ؟ علمه سبحانه إذن : فالعلم أسبق .

لكن ، لماذا عندما سألوا عن الساعة أو أنكروها ذكَّرهم الله بعلمه لكل صغيرة وكبيرة ، فقال : ﴿ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) ﴾ [سبأ]

قالوا : ذكر لهم الحق سبحانه إحاطة علْمه بكل شيء ؛ ليلهيهم عن التفكير في أمر الساعة ، ويشغلهم بذنوبهم ، وأنها محسوبة عليهم لا يخفى على الله منها شيء ، وعندها سيقولون : ليتنا ما سألنا ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ .. (١٠١) ﴾ [المائدة]

إذن : سألوا عن الساعة ، فأخذهم إلى ساحة أخرى تزعجهم وتزلزلهم كلما علموا أنَّ علْم الله تعالى يحيط بكل شيء في السموات وفي الأرض .

فالمسألة ليست مجرد (فنطزية) علم ، إنما سيترتب على هذا العلم جزاء وحساب ، فقال سبحانه :

﴿ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ (٤) ﴾

عجيب أنْ يُوصف الرزق ذاته بأنه كريم ، فالكريم صفة الرازق الذي يهبُكَ الرزق ، فما بالك إنْ كان الرزق نفسه كريماً يذهب إليك ويعرف مكانك ، كما قال الشاعر[1] :

تَحرَّ إلى الرِّزْقِ أَسْبَابَهُ ... وَلاَ تَشْغَلَنَّ بعدَهَا بَالكَا

فَإِنَّكَ تَجْهَلُ عُنْوانَهُ ... ورِزْقُكَ يعرِفُ عُنْوانكَا

(١) من شعر الشيخ يغفر الله له .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

السعى هو المشى الحثيث وقطع المسافة ، فما معنى ﴿ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا .. ﴿٥﴾ ﴾ [سبأ] ألم تسمع قولهم : سعى فلان بفلان عند السلطان مثلاً ؟ والمراد : أنه نَقَل إلى السلطان ما يُغضبه وما يُحزنه من هذا الشخص ، وهذه التى نسميها فى العامية وبين الموظفين (ضربه زُنْبَة) هى هنا بنفس هذا المعنى .

﴿ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا .. ﴿٥﴾ ﴾ [سبأ] يعنى : ضربوا فيها (زُنَب) وألَّبوا الناس عليها ليزهد فيها مَنْ كان مُقبلاً عليها ، ويخرج منها مَنْ كان فيها ويتملَّص منها ، سعَوْا فى آيات الله وهى القرآن ليبطلوه وليصرفوا الناس عنه ، لماذا ؟ لأنهم واثقون من أثر القرآن فى القلوب ، فلو أعطاه الناسُ آذانهم لابد وأنْ يؤثر فيهم ويجذبهم إلى ساحة الإيمان ، فتنفعل به قلوبهم . وتلهج به ألسنتهم .

وهؤلاء هم الذين قالوا : ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت] ولو كان القرآن كلاماً عادياً غير ذى أثر لَمَا نَهوْا عن سماعه ، ولما شوَّشوا عليه ، وخافوا من سماعه .

ومعنى ﴿ مُعَاجِزِينَ .. ﴿٥﴾ ﴾ [سبأ] مفردها مُعَاجز : اسم فاعل من عَاجَزَ مثل : قَاتَلَ ومقاتل ، وعاجز مثل نافس ، والمنافسة الأصل فيها التسابق فى التنفس ، وقد رُوى أن سيدنا عمر وسيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما مَرَّا ببحيرة ، فقال عمر : هيا بنا نتنافس يعنى :

نغطس تحت الماء ، لنرى أيّنا أطول نَفَساً من الآخر ، ومعروف أن طول فترة الغطس تدل على قوة التنفس وسلامة الرئة ، وأنها تحتوى مخزوناً أكبر من الهواء ، ثم أُطلقت المنافسة على كل مسابقة .

ومثل نافس : عَاجَزَ يعنى : حاول كُلٌّ من الطرفين إثبات عجز الآخر . تقول : عاجزنى يعنى : جعلنى أفعل فعلاً أعجز عنه ، فكأنهم يريدون بسعيهم فى آيات الله أنْ يُثبتوا عجزها ، وأن يُعجزوا الدعوة أنْ تبلغ مداها ، ويُعجزوا رسولَ الله أنْ يتمم رسالته ، ويُعجزوا منهج الله أن يصل إلى خلق الله .

لكن يُعاجزون مَنْ ؟ يُعاجزون الله ؟ كيف وهو سبحانه الذى أرسل الرسل ، وتكفَّل بنصرتهم وعدم التخلِّى عنهم ، وما كانت الحروب والقتال بين الرسل والمكذبين إلا سبباً يأتى من خلاله نصر الله ، كما قال سبحانه : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة]

وقال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات]

إذن : مَنْ سيُعاجزون ؟ ربما يُقبل أنْ يُعاجزوا رسول الله ﷺ أو يُعاجزوا المؤمنين ، أما الحق سبحانه فهو الغالب القادر ، وهل يستطيع أحد أنْ يُعجز الله ، ويتغلب عليه سبحانه ، فيجعله عاجزاً ، وهو سبحانه القادر الغالب ؟

فمعنى ﴿سَعَوْا فِي آيَاتِنَا .. ﴿٥﴾﴾ [سبأ] أى : وضعوا المكايد والعراقيل فى طريقها : ليفسدوا أمر الدعوة ، وحتى يردُّوها على رسول الله فى فمه الذى قالها ﴿مُعَاجِزِينَ .. ﴿٥﴾﴾ [سبأ] حالة كونهم

معاجزين ، يعني : يسيرون مع خالقهم في مضمار واحد ، الله يريد أنْ يُعجزهم ، وهم يريدون أنْ يُعجزوا الله ، وأنْ يكونوا في مكان القدرة الإلهية العليا ؛ ليثبتوا أن الدعوة باطلة .

ثم يُبيِّن سبحانه جزاء هؤلاء المعاجزين : ﴿ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥ ﴾ [سبأ] الرِّجز والرُّجز هو الحمْل الثقيل ، وأصله الذنب ، وما يترتب عليه من عقوبة ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ ﴾ [المدثر] أي : الذنب الكبير ، أو العقوبة المترتبة عليه ، والمعنى : لا تفعل الذنب ، ولا ما يؤدي للعقوبة ، وإذا هجرتَ الذنب لا تأتي العقوبة .

وقد وُصف العذاب هنا بأنه ﴿ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥ ﴾ [سبأ] والعذاب يُوصَف مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه مهين ، ومرة بأنه عظيم ، وهي أوصاف تدل على معَان مختلفة لحال واحدة ، فهو أليم أي : يؤلم صاحبه ، فإنْ كان جلْداً يدعي التحمُّل فله عذاب مهين يُهينه ، ويحطُّ من كرامته ، وهو الذي يتعالى أو يظنُّ نفسه عظيماً .

والعذاب المهين ليس بالضرورة أن يكون مؤلماً ، فمن الناس مَنْ يؤلمه التوبيخ والتقريع ، فإنْ أردتَ ضخامة العذاب من حيث القدر ، فهو عذاب عظيم .

إذن : إنْ أردتَ الإيلام فهو عذاب أليم ، وإنْ كان قليلاً في قدره ، وإنْ أردتَ التحقير والإهانة فهو عذاب مهين ، وإنْ أردتَ ضخامة العذاب فهو عذاب عظيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٦ ﴾

هنا تثبيت لسيدنا رسول الله ﷺ ، فكأن ربه - عز وجل - يقول له : يا محمد لا تيأس من هؤلاء الذين سَعَوْا فى آياتنا معاجزين ولا تهتم ، فإن الذى جعل من الكفرة مَنْ يسعون بالفساد ويُعاجزون خالقهم جعل أيضاً لك مَنْ ينصر دعوتك ويؤيدك من الذين يؤمنون بآيات الله ، ويعلمون أنها الحق ، وأن ما يقوله هؤلاء هو الهراء ، وهو الباطل .

فكما أثبتَ لهم سَعْياً فى الباطل ومعاجزة أثبتَ للمؤمنين العلم بآيات الله وتصديقها والاعتراف بأنها الحق ، وطمأن رسول الله أن هؤلاء لن يفسدوا عليك أمرك ، ولن يُطفئوا نور الله ، كما قال سبحانه:

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ⑧ ﴾ [الصف]

وقال : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ③③ ﴾ [التوبة]

فقوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ .. ⑥ ﴾ [سبأ] أى : يشهدون لك بأنك على الحق ، وأنك جئتَهم بمنهج هو الحق ، ويهدى إلى صراط مستقيم . إذن : فضَعْ هؤلاء قبالة الذين سَعَوْا فى آياتنا معاجزين ، واعقد مقارنة بين هؤلاء وهؤلاء .

فالكفار الذين سَعَوْا فى آياتنا بالفساد مُجرَّدون عن معونة القدرة ، بل إن القدرة ضدهم ولهم بالمرصاد ، أما الذين أوتوا العلم وشهدوا لرسول الله ، فهم مُؤَيَّدون للقدرة الإلهية ، والقدرة معهم تساندهم ، فأىُّ الكفَّتين أرجح ؟

ومعنى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ[1] أُوتُوا الْعِلْمَ (٦) ﴾ [سبأ] الذين أوتوا العلم من المؤمنين بمحمد ﷺ الذين صدَّقوه وصدَّقوا معجزته ورسالته . أو : الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب اليهود أو النصارى ، فالمنصفون منهم يعلمون صدْق رسول الله ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم وهم الذين ذهبوا إلى يثرب قبل بعثة رسول الله ينتظرون بعثته ، وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا يقولون : لقد أظلّ زمن نبي جديد نتبعه ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩) ﴾ [البقرة]

لذلك يقول القرآن في جدال الكافرين : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ .. (٤٣) ﴾ [الرعد] أي : رداً عليهم ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ .. (٤٣) ﴾ [الرعد] أي : الله الذي أرسلني بالمعجزة ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ [الرعد] أي : من اليهود والنصارى ، أهل التوراة والإنجيل .

والعلم : هو كل قضية مجزوم بها ، وهي واقعة وعليها دليل ، وغير ذلك لا يعتبر علْماً ، فالقضية إنْ لم يكُنْ مجزوماً بها فلا تدخل في العلم ، إنما هي في الشك ، أو في الظن ، أو في الوهم ، فإنْ كانت القضية مجزوماً بها ، لكن ليس لها واقع ، فهذا هو الجهل .

لذلك سبق أنْ قُلْنا : ليس الجاهل هو الذي لا يعلم ، إنما الجاهل الذي يعلم قضية منافية للواقع ، أما الذي لا يعلم فهو الأميُّ خالي

---

(١) في تأويل الذين أوتوا العلم هنا قولان :
- هم أصحاب محمد ﷺ . قاله قتادة فيما ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٦٧٤) وقاله ابن عباس فيما ذكره القرطبي في تفسيره (٨/٥٥٣٠) .
- هم المؤمنون من أهل الكتاب . قاله مقاتل فيما ذكره القرطبي ، وقاله الضحاك فيما ذكره القرطبي .

قال القرطبي : وقيل : جميع المسلمين ، وهو أصح لعمومه .

الذِّهْن تمـاماً ؛ لذلك يـقبل منك مـا تقـول ، على خلاف الجـاهل الذى ينبغى عليك أنْ تثبت له خطأ قضيته أولاً ، ثم تقنعه بما تريد .

فإنْ كانـت القضية مـجزوماً بها ولهـا واقع ، لكن لا تستطيع أنْ تُدلِّل عليهـا ، فهى تقليد كالولد الذى نلقـنه مثلاً ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② ﴾ [الإخلاص] فيحفظها كما هى ، لكن لا يستطيع أنْ يقيم الدليل عليهـا ، فهو إذن مُـقلد لمن يثق فيـه وفى إخلاصه له ، كـأبيه أو مُعلمـه ، فإنْ وصل الولد إلى مـرحلة يستطـيع فيهـا أنْ يُدلِّل على صِدْق هذه القضية فقد وصل إلى مرتبة العلم .

والعلم وإنْ كـان أنواعاً كـثـيرة ، إلا أنه يمكـن حَصْـره فى العلم الشـرعى والعلم الكونى : العـلم الشرعى أو عـلم الشرع ، ومـصـدره السماء يُبلِّغه رسول بمعجزة ، ولا دَخْلَ لأحد فيه ، وليس للبشر فى علم الشـرع إلا النقل والرواية ، والبلاغ من الرســول ، وهذا العلم هو الذى يُحدِّد لنا الحلال والحرام ، وقد جاء العلم الشرعى لا ليتدخل فى العلم الكونى ، إنما جاء ليضبط الأهواء المختلفة ؛ لذلك يختلف الناس فى هذا العلم .

أما العلم الكونى فهو العلم الـذى يبحث فى أجناس الوجود كلها : فى الجماد ، وفى الـنبات ، وفى الحيوان ، وفى الإنسان ، فـهذا العلم يقوم على نشاط العقل ، ولا يختلف الناس فيه ؛ لأنه مادىٌّ يعتمد على البحث والتجربة والملاحظة ؛ لذلك يتنافس فـيه الناس ، وربما سرقوه بعضـهم من بعض .

وبهذا العلم الكونى يُرَقِّى الإنسـان حياته ، فالخالق عز وجل أعطاك كل مُقوِّمـات الحياة وضروورياتها ، وعليك إنْ أردتَ رفاهيـة الحياة أنْ تُعمِل عقلك وفكرك فى معطيات الكون من حولك لتكتشف ما لله تعالى

في كونه من أسرار وآيات تُرقِّي بها حياتك .

ففي الماضي ، كان الإنسان مثلاً إذا أراد الماء يذهب إلى النهر أو إلى البئر ، فإنْ عَزَّ عليه الماء طلب السُّقْيا من الله ، وتوجَّه إليه بالدعاء ولا شيء آخر ، فلما تطورتْ الوسائل وتوصَّل الإنسان إلى خواصِّ الماء واستطراقه من أعلى إلى أسفل ، واستحدث الخزانات والمواسير ، وصار يستقبل الماء في بيته بمجرد فَتْح صنبور المياه أصبح إذا انقطعت عنه المياه لا يقول : يا ربِّ اسقني . إنما يبحث عن سبب انقطاعها ، أهو في (ماسورة) كُسرت ؟ أم أن الكهرباء انقطعت فعطلتْ موتور الرفع ؟ أم أن محطة المياه تعطلت ؟ .. إلخ .

إذن : كلما تقدمتْ الحضارة ووسائل المدنية بَعُدت الصِّلات بيننا وبين الله .

وهذا العلم الكوني الذي يقوم على الفكر وإعمال العقل لا دَخْلَ للسماء فيه ، ويستوي فيه المؤمن والكافر ، فمَنْ سعى إليه وأخذ بأسبابه أعطتْه الأسباب ؛ لذلك وجدنا معظم الاختراعات والاكتشافات جاء بها علماء كفرة لا يؤمنون بالله ، كالكهرباء والتليفون والتلغراف وغيرها .

فمعنى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. ۝٦ ﴾ [سبأ] أي : العلم الشرعي ، وهم الذين آمنوا بك وصدَّقوك بالمعجزة على أنك رسول الله ، وأن ما جئتَ به هو الحق ﴿ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ .. ۝٦ ﴾ [سبأ]

وكذلك الذين أوتوا العلم الكوني لهم دَوْر في تصديق الرسل وتأييدهم بما أوتوا من العلم الكوني الذي يدلُّ على الله ، وإذا كان القرآن كتابَ الله

المقروء ، فالكون بأجناسه المختلفة كتاب الله المشاهَد المنظور .

واقرأ إنْ شئت قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا .. (٢٧) ﴾ [فاطر] هذا هو النبات ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ[1] بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ[2] (٢٧) ﴾ [فاطر] وهذا هو الجماد ﴿ وَمِنَ النَّاسِ .. (٢٨) ﴾ [فاطر] الإنسان ﴿ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ .. (٢٨) ﴾ [فاطر] أى : الحيوان ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

ثم يختم الحق سبحانه بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨) ﴾ [فاطر] أىّ علماء ؟ علماء الكون الذين يبحثون فى أجناسه المختلفة وقوانينه العلمية والاجتماعية والصحية .. إلخ .

وهؤلاء العلماء يخشَوْنَ الله ؛ لأنهم يشاهدون أسراره فى كونه ، ويُطْلعون الناس عليها ، فهم جُنْد من جنود الدعوة إنْ آمنوا يؤيدون قدرةَ الله ، بل ويستشهد علماء الشرع بكلامهم ، ويُظهرون قدرة الله فى الكون من خلال نظرياتهم العلمية ، إذن : للعلم الكونى مهمة كبرى فى مجال الدعوة إلى الله .

لكن ، مَن الذى يرى منْ هؤلاء ـ علماء الشرع ، أو علماء الكون ـ أن الذى جاء به محمد هو الحق ؟

إنْ قُلْنا علماء الشرع فقد شهدوا لرسول الله وصَدَّقوه ، سواء من المؤمنين برسالته ، أم من علماء أهل الكتاب ، وإنْ قلنا علماء الكون

---

(١) الجدة من الشىء : الجزء منه يخالف لونُه لونَ سائره . ومعنى الآية : أى من الجبال أجزاء ذات ألوان مختلفة . [القاموس القويم ١/١٢٨] .

(٢) الغربيب : شديد السواد وجمعه غرابيب ، ووصف الغرابيب بأنها سود للتوكيد . [القاموس القويم ٢/٥٠] .

فقـد شـهدوا هم أيضـاً لرسـول الله وأيَّدوه بما لديهم من أسـرار قدرة الله ، والدليل أننا كنا نتحدث فى قوله تعالى : ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ[1] عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) ﴾ [سبأ]

قُلْنا : إن الذرة هى الهبـاءة المتناهية فى الصِّـغَر ، والتى لا تُرَى بالعين المجردة إلا فى شعاع الشـمس ، هذا هو كلام الحق سبحانه ، فـأعطنى من العلم الكونى مـا يثـبت هذا الكلام ، ومـا يقنعنى بأن الله تعالى يـعلم كل شىء ، ولا يخفى عليـه حتى الذرة فى السـموات ولا فى الأرض .

نقـول : مَنِ الذى خلق السـمـوات والأرض ومـا فيـهن ؟ لا أحـد يستطيع أن يقـول غير الله . كـما قال سبـحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم .. (٢٥) ﴾ [لقمان] أى : الكفار ﴿ مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥) ﴾ [لقمان] ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧) ﴾ [الزخرف]

لا أحـد يجـرؤ أنْ يقـول غـيـر هذا ، مع أن الكفـرة والمـلاحـدة كثيـرون ، لكن لم يدَّعِ أحد أنه خلق شيئاً ، كـيـف والناس يقفون عند أتفه الأشـياء ، فيُـؤرِّخون لها ويُخلِّدون اسم صـانعها أو مـختـرعـها ، لو سـألت تلمـيـذ الابتـدائيـة : مَن اكـتـشف الكهـرباء ؟ يقـول لك : أديسـون . مَنْ أول مَنْ صعد إلى القمر ؟ يقول لك : كذا وكذا .

فكيف نعـرف هؤلاء ونصنع لهم التـماثـيل ونكرمهم ، ولا نسـأل أنفسنا : مَنْ خلق الشمس ، مَنْ خلق القمر ؟ مَنْ أجرى الهواء .. الخ ، وهذه مقومات الحياة وأساسياتها ، وليست ترفاً كالأخرى .

---

(١) يعزب : يغيب ، فلا يغيب عن علمه سبحانه شىء . [لسان العرب ـ مادة : عزب] .

إذن : قضية الخَلْق هذه ساعةَ تُعرض لا بُدَّ أنْ يتمثل لك قوله تعالى ﴿ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ .. ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة] يعنى : لا يملك إلا أن يقول : الله .

تذكرون أننا قلنا : إذا قال الحق قولاً ، وقال البشر قولاً يجب أن ينطمس قول البشر أمام قول الله ؛ لأن البشر حين يُقنِّنون يُقنِّنون حسب ما يرى من أحداث ، ولا يحسب حساباً لما سيطرأ ، ومَا يُستجد ؛ لذلك تأتى قوانين البشر عاجزة قاصرة تحتاج دائماً إلى تعديل .

كذلك ، فى مسألة الإضاءة نرى البشر يضىء كل منهم بيته مثلاً حَسْب إمكاناته وقدراته ، فإذا جاء نور الله أُطْفئت كل الأنوار ، ومن هذه المسألة نأخذ الدليل على مسألة الذرة التى نحاول أنْ نثبت علْم الله لها من خلال العلم الكونى .

فنحن الآن فى المسجد ، والمسجد مُضاء ، ونرى كل شىء ، فهل ترون الآن غباراً فى جو المسجد ؟ لا ، مع أننا فى النور ، لكن ماذا لو جلستَ بجوار شباك مثلاً يدخل منه شعاع الشمس ؟ لا شك أنك سترى هذا الغبار المتطاير فى الجو .

إذن : هذا الغبار لا تراه إلا فى ضوء الشمس ، فنور البشر لا يكشف الغيبَ ، إنما يكشفه نور الله المتمثل فى ضوء الشمس ، فإذا كانت الشمس المخلوقة لله تعالى بيَّنَتْ لنا ما خَفِى عنَّا ، أيعجز خالق الشمس سبحانه أنْ يعلم ما غاب عنَّا ؟

هذه إذن رسالة العلم الكونى ، أنْ يُثبت لنا ما يؤيد الدعوة ، وأن ما جاء به الرسول حق .

مسألة أخرى توضح مكانة العلم الكونى ومنزلته فى الدعوة ، هذه المسألة نجدها فى قوله تعالى عن عذاب الكفار يوم القيامة : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء]

هكذا قال الله تعالى ، وهكذا نقلها القرآن لنا لم يخبرنا شيئاً عن مراكز الألم والإحساس ، وكنا لا نعلم شيئاً عنها ، حتى جاء علماء وتخصَّصوا فى وظائف الأعضاء ، وبعد بحوث وتجارب توصَّلوا إلى أن الجلد هو المسئول عن الإحساس ، فقد لاحظ الألمان أن المريض حين نعطيه حقنة مثلاً لا يشعر بالألم إلا بمقدار ما تنفذ الإبرة من طبقة الجلد ، فأخذوا من ذلك أن الجلد هو محلُّ الإحساس ، وليس المخ أو النخاع الشوكى كما قال البعض .

أخذ علماء الشرع هذه القضية ، وجعلوها دليلاً على قول الحق سبحانه : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا .. (٥٦) ﴾ [النساء] لماذا يا رب ؟ ﴿ لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء] فالجلد محل الإذاقة ، وهكذا ساعدنى العلم الكونى فى إثبات صدق القرآن الكريم ، وأنه حق .

كذلك نفعنا العلم الكونى فى إثبات كروية الأرض ، وأنها تدور حول الشمس ، فالحق سبحانه أخبرنا أن الليل والنهار خِلْفة أى : يخلف كل منهما الآخر ، وهذا واضح لنا الآن فى تعاقب الليل والنهار ، لكن ماذا كان أول الخَلْق لو أن النهار خُلق أولاً يعنى : خُلقت الشمس مواجهة للأرض ثم غابت ، فجاء الليل ، فالنهار فى هذه الحالة ليس خِلْفة لليل ، لأن النهار جاء أولاً لم يسبقه ليل فليس خِلْفة .

وعليه فلا بُدَّ أن تكون الأرض خُلقت على هيئة كروية ، ما قابل الشمس منها يكون النهار فيه ، وما لم يقابل الشمس يكون الليل

فيـه ، فهـما معـاً فى وقت واحد ، فلمـا دارت الشمـس تعـاقب الليل والنهار ، وخلف كـل منهما الآخـرَ ، فلا تتأتى هذه الخـلْفة إلا بكُروية الأرض .

فقوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. ۝٦ ﴾ [سبأ] أى : العلم الشـــرعى المـنزَّل من أعلى ، أو العـلم الكونى القـائم عـلى البـحث والمـشاهدة . وقـوله ﴿ أُوتُوا الْعِلْمَ .. ۝٦ ﴾ [سبـأ] سـواء كان عـلْماً شـرعيـاً ، أو علماً كـونياً يدل على أن العـلم إيتاءٌ ، فليس هناك عـالم بذاته ، إنمـا العلم إيتـاء من الله حـتى فى علم الكونيـات لذلك لم يقل علموا ، إنما ﴿ أُوتُوا الْعِلْمَ .. ۝٦ ﴾ [سبأ]

لذلك قالوا : إنْ كـان العلمُ نعمـةٌ من الله ، فكذلك النسيـان قد يكون نعمـة ، وجندياً يخـدم الإنسان ، فنحن نعـرف مثـلاً (الخميـرة) التى تخمر العيش ، إذا وجدت رغيف العـيش (مبلّط) يعنى : وجهه ملتصق بظهره ترده للبائع وتطلب الرغيف (القابب) هذا مـا تفعله (الخميرة) فى رغيف العـيش تجعل الهواء يدخـل بين ذرات العجين ، فـحين تُدخِله النار يتمدد هذا الهواء فيُحدِث فاصلاً بين وجه الرغيف وظهره .

وهذه الخميـرة هى التى تعطى للعيش طعمه المميـز ، فهل تعرف من أين جاءت هـذه الفكرة ؟ جاءت نتيـجة نسـيان ، فـيُروى فى هذه المسـألة أن امـرأة عجنتْ العجين ، ثم انشغـلت عن خَبْزه بعض الوقت ونسيته ، فلما تذكرتْ جاءتْ إليه وخبزته كما هو ، فوجدتْ هذا الفرق بين العجين حين يُخبز سريعاً ، وحين يُترك حتى يختمر ، وكانت هذه بداية فكرة الخـميـرة ، وكـأن كل قطعة خـمـيرة نأكلهـا الآن هى فى الحقيقة جزء من خميرة هذه المرأة .

كذلك يقال فى سبب شواء اللحم أن الإنسان أولاً كان يأكل اللحم

نيئاً ، وقد ذبح رجل شاة بالليل ، وأوقد ناراً يستدفىء بها ، فجاء ذئب ينازعه الشاة ، فدخل معه فى معركة ، فوقعت قطعة لحم فى النار ، فلما خلص من الذئب شَمَّ رائحة الشِّواء فأعجبته ، ومن هنا عرف الإنسان كيف يشوى اللحم .

إذن : الحق سبحانه يهدى خَلْقه ولو بالنسيان ، ولو بالمصادفة ، فالعلم حتى الكونى منه إيتاء من الله ، وكل قضية كونية لا يعطيك الله علمها مباشرة ، يعطيك المقدمات التى تُوصِّل إليها ، وتهدى إلى معرفتها .

وكنا ونحن نتعلم الهندسة ندرس كتاباً اسمه (هول ونايت) نتعلم كيف نبرهن على صحة النظرية ، فمثلاً النظرية المائة نبرهن عليها بما ثبت فى النظرية التسعة والتسعين وهكذا ، فحين تسلسل هذه المسألة نصل إلى النظرية ، رقم واحد ، كيف نبرهن على صحتها ؟

قالوا : البرهان عليها بدهية فى الكون ، فكأن كلَّ علم وصل إلينا أصله بدهية مخلوقة لله تعالى ، إذن : فالعلم سواء أكان شرعياً أو كونياً إيتاء من الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ .. (٢٨٢)﴾ [البقرة] يعنى : يلهمكم ويرشدكم إلى الأشياء ولو بالمصادفة ، وسبق أنْ قُلْنا : إن لكل سر فى الكون ميلاداً ، إما أنْ يأتى نتيجة بحث الإنسان ، فإنْ لم يبحث الإنسان فيه كشفه الله له ولو بالمصادفة ، كما اكتشف الإنسان مثلاً البنسلين .

لذلك يقول سبحانه فى العلم الكونى : ﴿اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة]

فمعنى ﴿إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة] أى : يأذن سبحانه بميلاد

هذا الشيء ، فإنْ شاء سبحانه أعطاك علمه نتيجة بحثك وأنت تبحث وإنْ لم يكُنْ هناك بَحْث أعطاك العلم مصادفة .

أما العلم الذى استأثر الله به فهو غيب لا يحيط به أحد ، كما قال سبحانه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧) ﴾ [الجن] هذا هو العلم الذى لا دَخْل لأحد فيه ، أما العلم الكونى فله زمن ، وله ميلاد يُولَد فيه .

ونلحظ فى أسلوب الآية أن المفعول الثانى للفعل (يرى) جاء على صورة الضمير المنفصل ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ .. (٦) ﴾ [سبأ] ولم يقل الحق فقط إنما ﴿ هُوَ الْحَقَّ .. (٦) ﴾ [سبأ] وهذا الضمير المنفصل يعنى أن غيره ليس حقاً ، فالحق هو الذى أُنزل على رسول ، وما عداه ليس حقاً ، وكأنها خاصية لم تُعْط إلا له ﷺ .

ومثلها قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم : ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) ﴾ [الشعراء] فلم يَقُلْ : الذى خلقنى يهدينى ؛ لأنها تحتمل أن يهديك غيره ، إنما ﴿ هُوَ يَهْدِينِ (٧٨) ﴾ [الشعراء] قصرت الهداية عليه سبحانه وتعالى ، ومثلها ﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) ﴾ [الشعراء] فقصر الإطعام والسُّقْيا والشفاء على الله سبحانه وتعالى ؛ لأنك قد تظن أن أباك هو الذى يُطعمك ويسقيك ، وهو مجرد سبب ومُناول عن الله .

وكذلك قد تظن أن الشفاء بيد الطبيب ، وما الطبيب إلا معالج ، والشفاء من الله ، لكن تأمل حين تكلم سبحانه بعدها عن الموت والحياة ، قال : ﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾ [الشعراء] ولم يأْت بالضمير المنفصل هنا ، لماذا ؟ لأن الموت والحياة لم يدَّعِها أحد غَيرَ

الله ، فليســت مظنة المشاركـة ، والكلام هنا عن الموت لا عـن القتل ، وهناك فَرْق بينهما سبق أنْ أوضحناه .

إذن : قوله تعالى : ﴿هُوَ الْحَقَّ .. ⦗٦⦘﴾ [سبأ] دلَّتْ على أن الحق واحد ، هو ما أنزل الله ، وما عداه باطل ، ولا يجتمع حقَّان فى مسألة واحدة ، إلا إذا كـانت الجهـة مُنفكة كـأن تقول مثـلاً : والله أنا ودعت فلاناً اليـوم فى المطار وسافر إلى كذا ، فـيقول آخر : بل لم يسـافر وأنا رأيتُه اليوم فى بيته ، وعندها يـتهم كل واحد منكما الآخر بالكذب فأسرعتَ إلى التليفون واتصلتَ بهذا الرجل ، فقال لك : نعم لم أسافر فقد طرأ لى طارىء ، فرجعت من المطار . إذن : فـالخبران صادقان ، لكن الجهة منفكة .

والحق هو : الشىء الثابـت الذى لا يتغير ولا يُـنكر ، وكيف تنكر الحق وأنت حين تريد أنْ تؤيد نفسك فى شىء تقول : هذا حقى يعنى لى ولا ينازعنى فيه أحد ، فالدَّعْوى التى تقيمها أن هذا حقك .

والحق إلى جـانب أنه أمـر ثابت فـهو ينـفعك ، فله إذن مـيـزتان أو حجتان : الأولى أنه الحق الثابـت وغيره باطل ، والأخرى أنه يعود عليك نفعه ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿وَيَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⦗٦⦘﴾ [سبأ] ، فإذا لم تقبل الحق لذاته وتتعصب له ، فاقبله لما يعود عليك من نفعه ، فهذان الأمران هما من حيثيات التمسك بالحق .

ومعنى ﴿الْعَزِيزِ .. ⦗٦⦘﴾ [سبأ] هو الذى لا يُغلب ولا يُقهر ، ومنه قولنا : عزَّ علىَّ كذا يعنى : لم أقدر عليه ، وفلان عزيز يعنى لا يقهره أحد ، فصفـة العزة صفة ترهيب ، فحين تُعرض عن هذا الحق فاعلم أنك تعصى عزيزاً لا يُقهر ، يغلب ولا يُغلب .

ثم يتبعـها سبحـانه بصفة من صفـات الترغيب ﴿الْحَمِيدِ ⦗٦⦘﴾

[سبأ] بمعنى المحمود على ما يُعطي من النِّعَم ، فهي تُرغِّبك في المزيد من نِعَم الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ۝ ﴾ [سبأ] معلوم أن القول يحتاج إلى قائل ، وإلى مقُول له ، القائل هم الذين كفروا ، قالوا : لمن ؟ قالوا بعضهم لبعض وهم يتسامرون ، أو قال المتبوع منهم لتابعه الذي يقلده . أما قولهم فهو ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ ﴾ [سبأ]

ويلفت أنظارنا في هذا القول أنهم وصفوا سيدنا رسول الله ﷺ بكلمة (رجل) ، وهي نكرة قصدوا بها الاستهزاء والاستنكار والتقليل من شأنه ﷺ .

وهذا في حد ذاته يدل على غبائهم وتغفيلهم ، فهم أنفسهم الذين وصفوه بأنه رسول الله حين قالوا كما حكى القرآن عنهم : ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. ۝ ﴾ [المنافقون] فدلَّ ذلك على غبائهم .

وهم أيضاً الذين قالوا ـ لما فَتَر الوحي عن رسول الله ـ إن ربَّ محمد قلاه[1] ، وهذا عجيب منهم ، فعند المحنة والسوء يعترفون أن لمحمد رباً .

(١) عن جندب بن عبد الله البجلي أنه قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ ، فقال المشركون : وَدَّع محمداً ربُّه . أورده ابن كثير في تفسيره (٤/٥٢٢) .

وقولهم ﴿يُنَبِّئُكُمْ .. ⑦﴾ [سبأ] من النبأ ، ولا يُطلَق إلا على الخبر الهام وليس مطلق الخبر ، فمثلاً حين أقول لك : أكلتُ اليوم كذا وكذا ، وذهبتُ إلى مكان كذا لا يُعَدُّ هذا نبأ ؛ لأنه خبر عادى ، أما النبأ فخبر عجيب وهام وعظيم ، كما جاء فى قول الله تعالى : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ① عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ②﴾ [النبأ]

ومعنى ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. ⑦﴾ [سبأ] التمزيق : إبطال الكل عن أجزائه ، وإبعاد الأجزاء بعضها عن بعض ، فمثلاً أنا أجلس الآن على كرسى ، هذا الكرسى كُلٌّ مكوَّن من أجزاء : خشب ومسامير وغراء وقطن وقماش .. إلخ ، فتمزيق هذا الكل أن أفصل هذه الأجزاء عن بعضها ، فينهدم هذا الكل إلى أجزاء .

وينبغى هنا أن نُفرِّق بين الكل والكلى : الكل مكوَّن من شىء كثير ، لكنه مختلف فى الحقيقة ، فالخشب غير المسمار غير الغِراء غير القماش ، فكل جزء له تكوينه الخاص .

أما الكلى فيُطلق على أشياء كثيرة منفصلة ، إلا أنها متفقة فى الحقيقة ، كما نقول مثلاً : إنسان بالنسبة للأفراد شىء كلى ؛ لأن الإنسان يُطلق على كل المجموع ، بحيث يُقال عن كل فرد : إنسان ، إنما فى الكل لا أقول الخشب كرسى .

هذا هو التمزيق ، فماذا أضافت ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ .. ⑦﴾ [سبأ] ؟

أى : تمزيقاً شديداً يُمزِّق الكل ، ويمزِّق الجزء ، إذن : التمزيق له مراحل وصور ، فمعنى ﴿مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. ⑦﴾ [سبأ] استقصاء لأصغر شىء يصل إليه الممزَّق ، وهذا التمزيق نشاهده فى تحلل الميت وتفكُّك أجزائه وعناصره ، حتى تذهب فى الأرض ، لا يبقى لها أثر .

ومن ذلك قـولهم : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. ⑩ ﴾ [السجدة]

فمعنى ﴿ ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ .. ⑩ ﴾ [السجدة] أى : ذهبنا فيها وغبْنا في متاهتها .

والتمزيق له أسباب متعددة ، فمَنْ يموت ويُدفن تمزِّقه الأرض ، ومَنْ يموت محروقاً تمزِّقه النار ، وربما تذروه الرياح وتتبعثر ذراته ، ومَنْ تأكله الحيوانات والطير .. إلخ .

ومع هذا التمزيق والتفتيت والبعثرة تستطيع قدرة الله أنْ تعيد الإنسان من جديد ، واقرأ : ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ① بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ② أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ③ ﴾ [ق] يستبعدون البعث ، فيردّ القرآن عليهم ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ .. ④ ﴾ [ق] يعنى : لا تستعجبوا ، فكل ذرة تبعثرتْ نعلمها ، ونعلم مكانها ، ونقدر على إعادتها ﴿ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④ ﴾ [ق] يعنى : ليس مجرد علم ، إنما علم مُسجَّل محفوظ ، لا يناله تغيير ولا تبديل .

وقوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑦ ﴾ [سبأ] الخلق الجديد أنْ يُعاد الشيء إلى أصل تكوينه ، كالذى يقلب البدلة مثلاً فتصير جديدة ، لماذا ؟ لأنه أعاد تكوينها من جديد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ⑧ ﴾

هذا القول كسابقه يحتاج إلى قائل ومقول له ، ويصح أنْ يكون

قائله هو القائل الأول الذى قال ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ .. ۝ ﴾ [سبأ] ويصح أن يكون الآخر الذى سمع القائل الأول فردَّ عليه :

﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ .. ۝ ﴾ [سبأ]

معنى ﴿ أَفْتَرَىٰ .. ۝ ﴾ [سبأ] من الافتراء ، وهو تعمُّد الكذب ﴿ أَم بِهِ جِنَّةٌ .. ۝ ﴾ [سبأ] أى : جنون يعنى : كلامه هراء ، لا وزن له ، ولا يُقال له صدق ولا كذب . لكن لماذا اتهموا رسول الله بأن به جِنَّة بعد أن اتهموه بالكذب والافتراء ؟

قالوا : لأن هذا اتهام كذب ، والكاذب دائماً يخاف أنْ يُفتضح أمره ، وينكشف كذبه ؛ لذلك يحاول أنْ يجعل لنفسه مخرجاً حين يثبت كذبه ، فقالوا ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ .. ۝ ﴾ [سبأ] فإذا ما ثبت صدق رسول الله ، وأنه ليس كاذباً ولا مفترياً وجد المتهم له مخرجاً فقال : والله أنا لا أدرى أهو مُفْتر أم به جِنَّة ، وما دام ثبتَ صدْقه ، فهو به جِنَّة .

وعجيب أن يصف كفار مكة رسول الله بالكذب والافتراء على الله ، وهو واحد منهم ، ما عرفوا عنه إلا أنه الصادق الأمين ، وما جرَّبوا عليه كذباً قط ، وما رأوْه يوماً خطيباً ولا شاعراً ، وهم أهل الفصاحة وفرسان الكلمة ، لا يَخْفى عليهم تذوُّق اللغة وفَهْم الأساليب العربية ، فكان عليهم أنْ يعقلوا أولاً قبل أنْ يُوجِّهوا لرسول الله هذا الاتهام .

ثم ، هل تأتى البلاغة ؟ وهل يأتى النبوغ بعد سنِّ الأربعين ؟ معلوم أن النبوغ يأتى فى أواخر العقد الثانى أو أوائل العقد الثالث من العمر ، ورسول الله ﷺ لَبثَ فيهم أربعين سنة قبل أنْ يُبلِّغهم عن الله كلمة واحدة .

لذلك يخاطبهم القرآن ، ويجادلهم بالحجة ، فيقول على لسان سيدنا رسول الله : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس] يعني : تدبَّروا الأمر واعقلوه ، فأنتم أهل البلاغة واللسان الفصيح ، ومنكم الخطباء والشعراء ملأوا الدنيا كلاماً ، فهل رأيتم مني شيئاً من هذا ؟

إذن : الذى قال ﴿ أَم بِهِ جِنَّةٌ .. (٨) ﴾ [سبأ] احتاط لنفسه ، فحين يظهر صدْق رسول الله يقول هو : أنا قُلْت : إنه إما كاذب ، وإما مجنون .

ثم يردُّ الحق على هؤلاء : ﴿ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ (٨) ﴾ [سبأ] كلمة (بَلْ) تفيد الإضراب عما قبلها ونفيه ورفضه ، ثم إثبات ما بعدها ، فهى تنفى أن يكون رسول الله مفترياً ، وتنفى أن يكون مجنوناً ؛ لأن رسول الله ما جرَّبْتُمْ عليه كذباً من قبل ، وما رأيتم عليه علامة من علامات الجنون ؛ لأن المجنون لا يُحمد على فعل ، ولا يُذم على فعل ، ولا يُوصَف بصدق ولا كذب ، وقد سبق أن مدحتم رسول الله فقلتم عنه « الصادق الأمين » .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم] وهل يُوصَف المجنون بأنه على خلق عظيم ؟ هل يُوصَف المجنون بالأدب أو الوفاء أو غيرها من خصال الخلق الحميد ؟

فكيف إذن تصفون رسول الله بالجنون ، وقد شهدتم له بسيدة الخصال الحميدة في النفس البشرية وهى الأمانة ، وكنتم تأتمنونه

على أشيائكم ، وتضعونها عنده ؟ لذلك خلَّف رسول الله الإمام علياً وراءه بعد أنْ هاجر ليرد الودائع والأمانات إلى أهلها[1] .

وبعد أن أبطل الحق سبحانه كذبهم على رسول الله يقرر ما يستحقونه على ذلك من العذاب ﴿بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ ⟨٨⟩﴾ [سبأ] في العذاب لأنهم اتهموا رسول الله بالكذب والافتراء على الله ، ورسول الله لم يكذب ، ولم يفْترِ على الله ، وهم في الضلال البعيد ؛ لأنهم وصفوا رسول الله بالجنون ، وهو شيء مُخِلٌّ بتكوينه إنما لم يكذب ، إذن : العذاب مقابل الاتهام بالافتراء على الله ، والضلال البعيد مقابل اتهامه ﷺ بالجنون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا[2] مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⟨٩⟩﴾

الهمزة هنا للاستفهام . والمعنى : كيف يقولون هذا ويغفلون عن

---

(١) قال ابن إسحاق : لم يعلم فيما بلغني بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر ، أما علي فإن رسول الله فيما بلغني أخبره بخروجه وأمره أن يتخلف بعده بمكة ، حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع ، التي كانت عنده للناس ، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يُعلم من صدقه وأمانته ﷺ [سيرة ابن هشام ٢/٤٨٥] .

(٢) الكسفة : القطعة وجمعها كِسْف وكِسَف . وكسف السحاب : قطعه . [لسان العرب - مادة : كسف] .

آيات الله فى كونه ، وهى ظاهرة لهم غير مطموسة عليهم ؛ لأنهم يعيشون فى بادية سماؤها مكشوفة لهم ، ليستْ ذات عمائر تحجب عنهم آيات الله كأهل المدن مثلاً ، قلَّما يَروْن الشمس أو القمر ، وإذا حدث كسوف أو خسوف لا يدرون به إلا من أخبار الصحف .

أمَّا أهل البادية فيعيشون فى صحراء شاسعة ، وتبدو لهم صفحة السماء ، أنيسهم الشمس بالنهار ، والقمر والنجوم بالليل ، وهم ينظرون إلى هذه الآيات ويتأملونها ؛ لذلك قال الرجل العربى[1] وهو يتأمل الكون من حوله وهو على الفطرة : سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج[2] ، وبحار ذات أمواج ، القدم تدل على المسير ، والبعرة تدل على البعير ، أفلا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟

إذن : كيف وآيات الحق واضحة أمامكم - تتهمون رسول الله وتغفلون عن آيات الله ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. ⑨ ﴾ [سبأ] معنى ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ .. ⑨ ﴾ [سبأ] أمامهم ﴿ وَمَا خَلْفَهُم .. ⑨ ﴾ [سبأ] وراءهم ، ويمكنك أن تزيد يمينهم وشمالهم ؛ لأنك أينما سرْتَ فى هذه الاتجاهات فلن تجد إلا السماء ، حتى لو قلت تحتهم وحاولتَ أنْ تخترق الأرض فلا بُدَّ أن تصل فى النهاية إلى سماء فى الجهة الأخرى ، لكنه لم يقل تحتهم ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يخترقَ الأرض إلى نهايتها .

---

(١) هو : قس بن ساعدة بن عمرو ، من بنى إياد ، أحد حكماء العرب ، ومن كبار خطبائهم فى الجاهلية ، كان أسقف نجران ، كان يفد على قيصر الروم زائراً فيكرمه ويعظمه ، طالت حياته ، وأدركه النبى ﷺ قبل النبوة ، ورآه فى عكاظ وسئل عنه بعد ذلك فقال : يُحْشَر أمة وحده . [الأعلام للزركلى ٥/١٩٦] .

(٢) الفج : الطريق الواضح الواسع ، وجمعه فجاج . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا .. ㉛ ﴾ [الأنبياء] أى : طرقاً واسعة واضحة . [القاموس القويم ٢/٧٢] .

ثم أيُّ عظمة في خَلْق السماء بهذا الاتساع وهي بلا عمد ؟ إنك لا تستطيع إقامة خيمة مساحتها عدة أمتار إلا بأن تثبتها بالحبال والأوتاد وترفعها بالأعمدة ، ولو هبَّتْ عليها الريح اقتلعتْ أوتادها وأعمدتها وهدمتها على مَنْ فيها ، فكيف تمرُّ على آيات الله في السماء وفي الأرض دون أن تتأملها ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿إن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ .. ⑨﴾ [سبأ] كما خسفها بقارون ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. ⑨﴾ [سبأ] كما نزلت الصاعقة من قَبْل على المكذِّبين للرسل و (كسفاً) جمع كسفة أي : قطعة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑨﴾ [سبأ] آية يعني : عبرة وعظة لكل عبد يحاول أنْ يرجع لربه .

فكأن الحق سبحانه جعل في كونه هذه الآيات لتُذكِّر كل غافل ، وتردّ كل كافر ، وتعطفه إلى أنْ يرجع إلى ربه ، ولو رجع الكافر إلى ربه لَقَبِلَه .

إذن : الحق سبحانه خلق الخَلْق ، ويريد أن يسعدهم ، لكن لا بُدَّ أنْ نختبر مَنْ يستحق السعادة ، وأنْ نُميز مَنْ أطاع منهج الله ومَنْ عصاه .

لذلك يقول النبي ﷺ : « مَثَلي ومَثَلكم كرجل أوقد ناراً فأخذ الذباب والفراش يتهافت عليها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلَّتون مني »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٨٥) من حديث جابر بن عبد الله ، واتفق عليه البخاري في صحيحه (٦٤٨٣) ومسلم (٢٢٨٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . ومعنى (آخذ بحجزكم) أي : آخذ بمعاقد أزركم وسراويلكم . الحجزة : هي معقد الإزار ، ومن السراويل : موضع التكة .

فالحق سبحانه يفتح لعباده - حتى الكافرين منهم - باب الأمل ليعودوا إلى ساحته ، وقد ورد عن رسول الله أنه قال : « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم وقع على بعيره وقد أضلَّه فى فلاة »[1] ففتح بالتوبة وبالإنابة باب الرجوع إليه ، وخاصة إذا اكتملتْ للإنسان الوسائل الداعية للتوبة من تقدُّم السن أو المرض .. إلخ .

مما يبعد الإنسان عن مَظَانِّ الشهوات ، ويدعوه لأنْ يُقبل على الله ويصلح ما فسد من علاقته بربه وخالقه ، حتى إذا ما عاد إليه يوم القيامة عاد طاهراً من ذنوبه ؛ ذلك لأن الخَلْق خَلْقه ، وصَنْعته ، والصانع يريد لصنعته الخير والسعادة .

وسبق أنْ ذكرنا الحديث الذى يُوضِّح أن السماء والأرض والجبال والبحار تمردَّتْ على ابن آدم ، واستأذنت ربها - تبارك وتعالى - أن تفتك به . فقالت السماء : يا رب ائذن لى أن أسقط كِسَفاً على ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكْرك .. إلخ ، فماذا قال الحق سبحانه لها ؟ قال : دعونى وما خلقتُ ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم[2] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح » .

(٢) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفًّا عن عبدى وأمهلاه ، فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي[1] مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ[2] وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) ﴾

بعد أن فتح الحق سبحانه باب التوبة لعباده ، وأعطاهم الأمل حتى الكافرين منهم ، وبعد أنْ فعلوا برسول الله ما فعلوا ، وسعَوْا في آيات الله معاجزين ما يزال الحق سبحانه رحيماً بهم ، حريصاً عليهم ، فيلفت أنظارهم إلى واسع رحمته .

وكأنه سبحانه يقول لهم : لا تستكثروا أفعالكم وذنوبكم أمام رحمة الله ، ولا تصدَّنكم هذه الذنوب عن التوبة والعودة إلى الله ، وإنْ كنتم أذنبتُم ، فمن الرسل مَنْ حدثت هفوة من بعضهم مع أنهم أنبياء ، فكأن الحق سبحانه مع هذا كله يلتمس لهم عذراً .

لذلك ذكر بعدها حكاية سيدنا داود : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً .. (١٠) ﴾ [سبأ] وفي موضع آخر بيَّن ما كان من أمر سيدنا داود : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) ﴾ [ص]

إذن : لا تخجلوا أنْ تُنيبوا إلى الله ؛ لأن سيدكم الذي أعطيته

---

(١) أوبي معه : أي رددي الذكر والتسبيح مع داود عليه السلام . [القاموس القويم ١/ ٤٢] . وقال ابن كثير في تفسيره : « التأويب في اللغة هو الترجيع ، فأُمرت الجبال والطير أن تُرجِّع معه بأصواتها » .

(٢) السرد : نسج حلقات الدرع وإحكام صُنْعها . قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٢٧) : « لا تُدقُّ المسمار (أي : لا تجعله رفيعاً) فيقلقل في الحلقة ، ولا تغلظه فيقصمها ، واجعله بقدر » .

كذا وكذا لمَّا حدثتْ منه هفوة استغفر وخَرَّ راكعاً وأناب ، يريد سبحانه أنْ يُحنِّن قلوبهم ليعودوا إلى أحضان ربهم .

كذلك سيدنا سليمان حدثتْ منه هفوة ، فابتلاه الله وعاقبه ، فتاب واستغفر ، واقرأ : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا .. (٣٤)﴾ [ص] والجسد يعني : أنه أصبح لا يستطيع الحركة في ذاته ﴿ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥)﴾ [ص] فماذا كان من أمره بعد أن استغفر ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٣٨)﴾ [ص]

لذلك يُقال : إن سيدنا سليمان ركب البساط مرة ، فداخله شيء من الزَّهْو أو الإعجاب ، فمال به البساط ، فقال له : اعتدل يا بساط ، فقال : أُمرنا أنْ نطيعك ما أطعتَ الله[1] . والمعنى : أنك ما سخَّرتنا ، إنما سخَّرنا اللهُ لك .

ومعنى (الفضل) الشيء الزائد ، وقد أعطى الله داود عليه السلام نِعَماً كثيرة لم يُعْطِها لكثير من الأنبياء ، أعطاه الاصطفاءَ

---

(١) لم أقف على هذا الأثر فيما وصلت إليه يدى من مراجع ، ولكن لو أخضعنا هذا الأثر لما ورد فى القرآن وفى السنة لتيقنا أنه غير صحيح والله أعلم ، قال تعالى : ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ .. (٣٦)﴾ [ص] ، قال ابن عباس : مطيعة له حيث أراد . [الدر المنثور ١٨٩/٧] . وبهذا انتفى أن تكون الريح قد ردَّت عليه أمراً ، أما الزهو والإعجاب الذى تملَّك سليمان حينئذ ، فيرد عليه ما رواه سلمان بن عامر الشيبانى قال : بلغنى أن رسول الله ﷺ قال : « أرأيتم سليمان ، وما أعطاه الله تعالى من ملكه ، فلم يكن يرفع طرفه إلى السماء تخشعاً حتى قبضه الله تعالى » [أخرجه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد] ، وأخرج ابن أبى حاتم نحوه عن ابن عمر قال ، قال ﷺ : « ما رفع سليمان طرفه إلى السماء تخشعاً حتى قبضه الله تعالى » [أورد هذه الآثار السيوطى فى الدر المنثور ١٨٩/٧] . والله تعالى أعلى وأعلم .

وأعطاه المنهج ، وزاده نعمة أخرى خاصة به ، وهي أنه ألان له الحديد ، كما قال سبحانه : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ⑩ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ .. ⑪ ﴾ [سبأ]

وكلمة ﴿ مِنَّا .. ⑩ ﴾ [سبأ] دلتْ على أن النعمة ليست من ذاتك ، إنما من الله ، فتقديم الجار والمجرور هنا أفاد قصْر النعمة على المنعم سبحانه ، ومثلها الجار والمجرور في قوله تعالى في قصة سيدنا موسى عليه السلام : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي .. ㊴ ﴾ [طه]

كأن الحق سبحانه يقول لنبيه موسى عليه السلام : لقد أخذك آل فرعون ، والتقطوك من اليم في وقت كانوا يقتلون فيه الأطفال ، وقد جئتَهم في صورة تدعو إلى الشك ، لكنهم أحبوك ، ورأوا فيك قرَّة عَيْن لهم ، وأنت وقتها أسمر اللون ، كبير الأنف ، جعد الشعر يعني : ليس فيك ما يلفت النظر ، لكن تذكَّر أنِّي ألقيتُ عليك محبة مني أنا ، فأحبوك .

والفضل من الله يأتي الناس جميعاً ، لكن الرسل لهم نعَم متميزة، وفضل أعظم في صورة معجزات . ويُبيِّن الحق سبحانه فضله على نبيه داود بقوله : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ⑩ ﴾ [سبأ]

(يا جبال) نداء ، فالله ينادي الجبال ؛ لأنها تسمع وتعي هذا النداء ﴿ أَوِّبِي .. ⑩ ﴾ [سبأ] يعني : رجِّعي معه ما يقول وما يقرأ من الزبور أو من الذكر ، وهذا دليل على أنه يفهم قول الجبال ، وأنها تفهم قوله ، وتُردِّد خلفه ، إذن : للجبال منطق ولغة أفهمها اللهُ نبيَّه داود .

وقد تناولنا مسألة تسبيح الجمادات لـمَّا تعرضنا لقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ㊹ ﴾ [الإسراء] ورددنا قول مَنْ قال إنه تسبيح الحال لا تسبيح المقال ؛ لأن

الله قال ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] وما دام قد حكم سبحانه أننا لا نفقه تسبيحهم ، فهو تسبيح بالقول .

والذين قالوا بتسبيح الدلالة استعظموا أنْ يكون للجبل كلام ولغة وتفاهم ، لكن هل للجبل كلام معك أنت ؟ للجبل كلام مع ربه وخالقه الذى قال : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

إذن : ما دَخْلك أنت فى هذه المسألة ؟ ولماذا تنكرها ؟

وتأمل قوله سبحانه : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ .. (١٣) ﴾ [الرعد] فجمع بين تسبيح الرعد وهو جماد وتسبيح الملائكة ، وهم أعلى أجناس المخلوقات ، وأين وجه الدلالة فى تسبيح الملائكة ؟ فلماذا العجب ، وقد ثبت أن لكل شىء لغةً تناسبه ، وقد رأينا لغة للهدهد ، ولغة للنمل .. إلخ .

فعظمة سيدنا داود أنه فهم لغة الجبال ، وسمع تسبيحها ، ووافق تسبيحُها تسبيحَه ، كذلك ﴿ وَالطَّيْرَ .. (١٠) ﴾ [سبأ] يعنى : يا طير أوِّب مع داود ، وردِّد معه التسبيح .

﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) ﴾ [سبأ] وهذه معجزة أخرى لسيدنا داود ، وإذا قال الله عدة أشياء ، ثم حدث فى الواقع أنه صدق فى واحدة ، ألاَ أُصدِّقه فى الأخرى ؟

فإذا قال سبحانه ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) ﴾ [سبأ] فلا بُدَّ أن نُصدِّق بذلك ، وأن نعتقد أن الحديد صار فى يد سيدنا داود مثل طين الصلصال الذى يُشكِّله الأطفال كيفما أرادوا[1] ، لأن البعض يرى أن ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) ﴾ [سبأ] يعنى : علَّمه الله أن النار تذيب الحديد ،

---

(١) أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضى الله عنه فى قوله : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) ﴾ [سبأ] قال : ليَّن الله له الحديد ، فكان يسرده حلَقاً بيده يعمل به كما يعمل بالطين من غير أن يُدخله النار ، ولا يضربه بمطرقة . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٦٧٦] .

ولو أن الأمر كذلك فليس فيه معجزة ، ولا ميزة على غيره من الناس.

وللحديد ميزات عدة ، وأنواع مختلفة ، وتتوقف مدى أهميته على مدى صلابته ، ولأهميته أنزله الله من علَ كما أنزل الكتب ؛ لذلك تكلم سبحانه فى سورة الحديد عن الرسل مثل موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ وتكلم عن إنزال الكتب ، وقال عن الحديد : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

ومعلوم أن الإنزال يأتى من جهة العلو ، فالحق سبحانه أنزل الكتب ينطق بها الرسل لهداية المهتدى الذى يسمع ، وأنزل الحديد لردع العاصى وزَجْره ، ففى الحديد بأس شديد فى وقت الحرب ، ومنافع للناس فى وقت السلم .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) ﴾ [الحديد] ينصره فى أىِّ شىء ؟ ينصره فى الحديد ، وفى استخدامه وقت الحروب . وسيدنا داود ـ عليه السلام ـ آتاه الله ، وأنزل عليه هذا وهذا : الكتابَ للهداية ، والحديدَ للحرب .

لذلك قال له : ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ .. (١١) ﴾ [سبأ] يعنى : دروعاً واسعة ، وهى عُدة الحرب يلبسها الجندى على مظانِّ الفتك ، وخاصة على الصدر ؛ لأن بداخله القلب والرئتين ، ولم يقُلْ له اعمل فأساً ولا محراثاً مثلاً ؛ لأن هذه لمنافع الأرض ، والله يريد ما يحمى المنهج ويزجر العاصى .

وكانت الدروع قبله تُصنع ملساء يتحرك عليها السيف ويتزحلق ، وربما أصاب منطقة أخرى من الجسم ، وكانت تُصْنع على قدر ما يحمى الصدر ، فعلَّمه الله أنْ تكون واسعة لتحمى أكبر قدر ممكن من الجسم ، فقال ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ .. (١١) ﴾ [سبأ]

وعلَّمه كذلك أن تكون على شكل حلَقٍ متداخلة ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. ⑪ ﴾ [سبأ] يعنى : أحكم تداخل هذه الحلَق بعضها فى بعض ، حتى إذا ما نزل عليها السيف ثبت على إحداها ولم يتحرك .

وكان درع الإمام على - كرَّم الله وجهه ورضى الله عنه - ليس لها ظهر ، فقالوا له : ألاَ تتخذ لدرعك ظهراً ؟ فقال : ثكلتنى أمى ، إنْ مكَّنْتُ عدوى من ظهرى[1] .

فتأمل أن الله تعالى لم يُعلِّم نبيه داود أولاً وسائل السلم ، إنما علَّمه أولاً وسائل الحرب وإعداد العُدة لمن نقض كلمة الله ، وحاد عن منهجه ، علَّمه أنْ يُعد له ما استطاع من قوة .

ومعنى : ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. ⑪ ﴾ [سبأ] اجعلها بتقدير دقيق وإحكام فى النسج ، قال العلماء : السرد : الحلَق التى يتكون منها الدرع ، وبها خروق تُوضع فيها المسامير التى تثبت الحلَق بعضها إلى بعض .

فمعنى ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. ⑪ ﴾ [سبأ] يعنى : لا تجعل الخُرْق واسعاً ، لا يثبت فيه المسمار ، ولا تجعله ضيِّقاً فيغلق المسمار الحلقة ، وقال آخرون : ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. ⑪ ﴾ [سبأ] يعنى : اعمل منها على قدر ما تحتاج ، ولهذا المعنى قصة :

يُرْوى أن سيدنا داود - عليه السلام - كان يأكل من بيت مال

---

(١) أورد هذا الخبر ابن قتيبة الدينورى فى كتابه « عيون الأخبار » (٦٣١/١) ، قال : كان درع علي - رضى الله عنه - صدراً لا ظهر له . فقيل له فى ذلك ، فقال : إذا استمكن عدوى من ظهرى فلا يُبْقِ .

المؤمنين ؛ لأنه المتولِّى لأمرهم ، فأنزل الله ملَكاً فى صورة رجل ، وجعل الناس يسألونه : كيف يعيش داود ؟ فقال : فيه كثير من خصال الخير ، إلا أنه يأكل من بيت المال ، فلما بلغتْ هذه الكلمةُ داود غضب وتألم لها وبكى ، ثم قال : يا ربِّ لم جعلْتَ فىَّ هذه المسألة ؟ فعلَّمه الله صناعة الدروع ليعيش منها[1] .

فكان يصنع الدرع بأربعة آلاف[2] يعيش منها حتى تنفد ، فيصنع درعاً آخر وهكذا ، فلما أمره الله بصناعة الدروع قال ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [سبأ] يعنى : اجعلها على قَدْر حاجتك ، ولا تبالغ فيها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [سبأ] كأن الحق سبحانه يقول لنبيه داود : تذكَّر حين تعمل ما طُلب منك أنِّى بصير بعملك مُطلع عليه ، وهذه التذكرة لنبى مأمون على التصرف ، فما بالك بنا نحن ؟

إننا نلاحظ العامل يتقن عمله طالما يراه صاحب العمل ، فإنْ غاب عنه أهمل العمل وغَشَّه ، فالله يحذرنا من هذه المسألة .

هكذا ورد أمر سيدنا داود فى هذا الموضع مختصراً ، وإنْ كانت له قصص فى مواضع أخرى .

---

(١) ذكره الحافظ ابن عساكر فى ترجمة داود عليه السلام من طريق إسحاق بن بشر عن أبى إلياس عن وهب بن منبه . قال ابن كثير فى تفسيره (٥٢٧/٣) بعد إيراد الأثر : « إسحاق بن بشر فيه كلام » .

(٢) قاله ابن شوذب فيما أخرجه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول وابن أبى حاتم . قال : كان داود عليه السلام يرفع فى كل يوم درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم . ألفين له ولأهله ، وأربعة آلاف يطعم بها بنى إسرائيل الخبز الحوارى (أى الخبز المصنوع من الدقيق الأبيض) [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦٧٦/٦] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ(١) وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾

يعنى : كما آتينا داود منّا فضلاً ، وكان من هذا الفضل أنْ أوَّبَتْ معه الجبال ، وألنَّا له الحديد ، كذلك كان من فضل الله على ولده سليمان أنْ طوَّعنا له الريح ، وجعلناها تأتمر بأمره .

وسبق أنْ بينَّا أن كلمة الريح إنْ وردت مفردة ، فهى فى الشر والعذاب ، وإنْ جاءت جمعاً دلَّتْ على الخير والرحمة ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الذاريات] وقال : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحقاف]

وفى الرياح قال : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر]

وبيان ذلك ، أن الريح إنْ كانت مفردة تُعَدّ ريحاً مدمرة ؛ لأنها تأتى من ناحية واحدة ، والذى يقيم الأشياء ويحفظ توازنها أن الرياح تحيط بها من كل جانب فتستقيم ، فالذى يدعم ناطحات السحاب مثلاً الهواء الذى يحيط بها ، فإنْ أفرغتَ الهواء من ناحية منها انهارتْ نحو هذه

---

(١) القطر : النحاس . قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فيما أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٦٧٧) . وقال عكرمة : أسال الله تعالى له القطر ثلاثة أيام يسيل كما يسيل الماء . أخرجه ابن المنذر .

الناحية ؛ لذلك كانت الريح الواحدة من جنس العذاب ، والرياح من جنس الرحمة ، ألاَ ترىَ الأعاصير تدمر ؛ لأنها تأتى من جهة واحدة ؟

لكن ، هل سخَّر الله تعالى لسليمان الرياح ؟ أمْ سخَّر له الريح ؟ قالوا : لم تُسخَّر لسليمان الرياح كلها ، إنما ريحاً مخصوصة وظَّفها له وطوَّعها لأمره ، وهذه الريح أعطتْ سليمان عليه السلام عزَّة ومنعة ، بحيث لا يَقْوَى أحد على مواجهته أو التصدى له .

لذلك كان هو ـ عليه السلام ـ النبى والملك الذى لم يحاربه أحد ، ولم يجرؤ أحد على منازعته مُلْكَه ولا نبوته . كيف وفى يده من القوة ما لم يتوفر لغيره ، فسلطانه سلطان قَهْر إنْ أراد شيئاً أذعن الجميع لإرادته .

أما نبينا محمد ﷺ ، فجاءت دعوته لاستمالة القلوب ، لا لإرغام القوالب ؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ④﴾ [الشعراء]

ومعنى : ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ .. ⑫﴾ [سبأ] الغدو : السير أول النهار ، والرواح : العودة آخر النهار ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ .. ⑫﴾ [سبأ] أى : أذبْنا له النحاس ، كما ألنَّا لأبيه الحديد ، فهذه واحدة من الأفضال التى خصَّ الله بها سيدنا سليمان ، تذكرون قصة السد الذى بناه ذو القرنين ، فلما انتهى من بنائه قال : ﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ⑨⑥﴾ [الكهف] يعنى : نحاساً مُذَاباً ، بحيث لا يستطيع أحد أنْ ينقبه .

ثم يذكر الحق سبحانه أمراً آخر مما خصَّ به سليمان عليه السلام : ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ .. ⑫﴾ [سبأ] ومعنى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ .. ⑫﴾ [سبأ] أن المسألة كلها تسخير من الله لنبيه سليمان ، وليس أمراً ذاتياً من عنده .

لذلك قال : ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا .. (١٢) ﴾ [سبأ] أى : يميل ، أو ينحرف عنه ، أو يعصاه ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) ﴾ [سبأ] فأمْر سليمان للجن من باطن أمْر الله ، ومَنْ يَعْصِ أمره كأنه عَصَى أمرنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ (١٣) ﴾

المحاريب : جمع محراب ، ويُطلق على القصر الفخم الواسع ، وعلى المكان الذى يتخذه الناس للعبادة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران]

والتماثيل : جمع تمثال ، وهو ما يُنحَت من الحجر مثلاً ، أو يُصوَّر على هيئة إنسان ، أو حيوان ، أو طائر .. إلخ . وفى مسألة التماثيل بالذات يطرأ سؤال : أيمتنُّ الله على نبيه سليمان بأن الجن تصنع له التماثيل مع ما عُرِفَ عنها من أنها رمز للإشراك بالله ، وقد حطمها الأنبياء ونهَوْا عن عبادتها من دون الله ؟

قالوا : حُطِّمت التماثيل لَمَّا اتخذها الناس للعبادة والألوهية ، وكانت من قبل لا تتخذ للعبادة ، بل للخدمة[1] ، وللدلالة على الإهانة

(١) على ذكر الخدمة هنا لابد أن أورد ما أخرجه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (وتماثيل) قال : اتخذ سليمان عليه السلام تماثيل من نحاس فقال : يا رب ، انفخ فيها الروح فإنها أقوى على الخدمة ، فنفخ الله فيها الروح ، فكانت تخدمه ، وكان اسفيديار من بقاياهم . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٦٧٩/٦] .

والإذلال ، ألم نَرَ فى الآثار القديمة كرسياً أو مائدة تقوم على هيئة مجموعة من الأسود مثلاً ؟

وحتى الآن توجد قصور تقوم شُرفاتها على هيئة رجل مُنْحَنٍ يحمل الشرفة بدلاً من الخرسانة التى نصنعها نحن الآن . إذن : كانت التماثيل تدل على الإذلال والإهانة ، فلما عُبدت أُمِرنا بتحطيمها وتحريمها .

وقوله : ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ .. (١٣)﴾ [سبأ] الجفان : جمع جَفْنة ، وهى القصعة المعروفة ﴿كَالْجَوَابِ .. (١٣)﴾ [سبأ] كالحوض الواسع الكبير ، وهذا كناية عن كرمه وكثرة إطعامه الطعامَ ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ .. (١٣)﴾ [سبأ] أى : قدور ثابتة لِكِبرها ، فهى لا تُرفع ولا تُحرَّك من مكان لآخر لعظَمها .

لذلك حُدِّثنا فى سيرة سيدنا رسول الله ﷺ عن ابن مطعم قال : كان لرسول الله ﷺ جفنة (قصعة طعام) كنت أستظل بها فى اليوم القائظ فى مكة ، وهذا دليل على سِعَتها وكِبَرها وكثرة من يُطْعمون منها[1] .

ولما بنى الملك عبد العزيز آل سعود الرياض جعل بها قُدوراً للطعام ، وكان القِدْر يسع الجمل يقف بداخله ، وأذكر أننى أول ما ذهبت إلى مكة دَخلت المبرَّة[2] ، فوجدت بها قدوراً واسعة ، فوقفتُ فى إحداها فوسعتنى .

ومعنى ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا .. (١٣)﴾ [سبأ] أى : شُكْراً لله

(١) مما ورد فى هذا ما أخرجه أبو داود فى سننه (٣/٣٤٨) من حديث عبد الله بن بسر قال : كان للنبى ﷺ قصعة يقال لها الغراء يحملها أربعة رجال . وأخرجه أيضاً أبو الشيخ الأصبهانى (حديث ٦١٤) طبعة الدار المصرية اللبنانية .

(٢) مبرّة وزارة الأوقاف المصرية لخدمة الفقراء ، وكانتا اثنتين : واحدة فى مكة ، والأخرى فى المدينة المنورة ، كما كان هناك سبيل فى مِنَى .

على نعمه ، لا لتقوتوا أنفسكم فحسب ، إذن : فربُّك يُعلِّمك : لا تعمل على قدر حاجتك فحسب ؛ لأن في مجتمعك مَنْ لا يقدر على العمل ، فاعمل أنت أيها القادر على قَدْر طاقتك ، وخُذْ لنفسك ما يكفيك ، وتصدَّق بما فاض عنك لغير القادرين . ومعلوم أن شكر النعمة يقيدها أي يديمها بل ويزيدها ، كما قال سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. ۝ ﴾ [إبراهيم]

أو : المعنى ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا .. ۝ ﴾ [سبأ] أن أقدركم على العمل حتى تعولوا مَنْ لا يقدر على العمل ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ۝ ﴾ [سبأ] يعني : قليل من الناس مَنْ يقابل نعمة الله بالشكر .

لذلك رُوِي أن سيدنا عمر - رضي الله عنه - سمع في الطريق رجلاً يقول : اللهم اجعلني من القليل ، فتعجَّب عمر من دعوة الرجل ، ولم يفهم معناها ، فسأله عنها ، فقال الرجل ، سمعت الله يقول : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ۝ ﴾ [سبأ] وأنا أرجو أن أكون منهم ، فقال عمر متعجباً : كل الناس أعلم منك يا عمر[1] ؟!

فمن الناس مَنْ عنده مَلَكة التقاط المعاني وتوظيفها ، من ذلك ما يُحكَى من أن رجلاً كان يسير في سوق البطيخ في بغداد وهو صائم في يوم حار ، فمرَّ برجل يبيع شراباً مثل العرقسوس مثلاً ، وينادي : غفر الله لمن شرب مني ، فمال إليه وقال له : اسْقني ، فقال له صاحبه : تذكر أنك صائم ، فقال : والله لقد رجوتُ دعوته .

رجل آخر كان يسعى بين الصفا والمروة ، والمسعى زمان - أنتم لم تروْنَهُ - كان عبارة عن شارع به دكاكين وبيع وشراء وحركة قبل

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن إبراهيم التيمي ، وقد أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/٦٨٢) ، والقرطبي في تفسيره (٨/٥٥٤٦) غير معزو .

أنْ يُطوَّر بهذا الشكل الحالى ، وكان به رجل يبيع الخيار وينادى : العشرة بريال يا خيار ، فسمعه رجل يسعى ، فقال متعجباً : إذا كان الخيار العشرة بريال ، فَبِكم يكون الأشرار ؟!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ[1] فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

قلنا : إن من الأشياء التى سخَّرها الله لسليمان ليحقق له مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده أنْ سخَّر له الريح وسخَّر له الجن يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل .. إلخ .

وتسخير الجن يعنى : أن الله سبحانه وتعالى سخَّر له أخفَّ الخَلْق حركة وأخفاها وهم الجن ؛ لأن للجن طبيعة مخصوصة ؛ لذلك قال الله عنهم : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ[2] مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف]

ولهم أيضاً خفَّة فى مزاولة الأعمال بأن يقصروا زمنها ، وأنْ يكثروا حملها ، والدليل على ذلك أن سليمان ـ عليه السلام ـ حينما طلب عرش بلقيس ، وكان فى سبأ قال لجلاَّسه : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النمل] فلم يتكلم أحد من الإنس ؛ لأن

---

(١) المنسأة : العصا الغليظة ، قال الفراء : هى العصا العظيمة التى تكون مع الراعى ، يقال لها المنسأة ، أخذت من نسأت البعير أى : زجرته ليزداد سيره . [لسان العرب ـ مادة : نسأ] .

(٢) القبيل : الجماعة أو العشيرة أو الكفلاء أو الأعوان المناصرون . [القاموس القويم ٢/٩٨].

سليمان قيَّد الإتيان بزمن فوق قدرة البشر ، وقد طلب سليمان العرش بعد أنْ علم أن قوم سبأ قد خرجوا وهم فى الطريق إليه ، ويريد مَنْ يحضر عرش بلقيس قبل أن يصلوا إليه .

حتى الجن لم يتعرض لهذه المهمة جنيٌّ عادى ، إنما عفريت من الجن ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ .. (٣٩) ﴾ [النمل]

وكلمة (عفريت) تعنى : أنه الماهر من الجن ، الشاطر الذى يأتى بما لا يأتى به غيره من بنى جنسه ، وهذا يدل على أن الجن منهم العفريت الماهر ومنهم (اللبخة) يعنى : مثلنا تماماً . وما زلنا فى لغتنا العامية نقول : فلان عفريت يعنى : ماهر يجيد ما لا يجيده الآخرون .

لكن ، كان فى مجلس سليمان مَنْ هو أمهر من العفريت وأكثر منه خبرة وخفَّة ، إنه الذى أُوتى قَدْراً من العلم ﴿ قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠) ﴾ [النمل]

فإنْ كان العفريت سيأتى بعرش بلقيس قبل أنْ يقوم سليمان من مقامه ، وربما أقام سليمان فى مقامه هذا ساعة أو عدة ساعات ، لكن الذى عنده علم من الكتاب تعهد بأنْ يأتى به ﴿ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠) ﴾ [النمل] وارتداد الطَّرْف لا يحتاج إلى زمن طويل ، فالطرف[1] يطرف فى الدقيقة الواحدة عدة مرات .

لذلك صوَّر الحق سبحانه سرعة الاستجابة لهذا الفعل ، فقال :

---

(١) الطرف : جانب العين ، ويطلق على العين وعلى البصر . وقوله تعالى : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠) ﴾ [النمل] أى : بصرك ، أى : مقدار غمضة العين وفتحها . [القاموس القويم ١/٤٠٠] .

﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل]

ولم يتعرَّض السياق لتفاصيل الإتيان بالعرش ، ولم يذكر حتى أن سليمان أمره بالإتيان به ، بل : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ .. ﴿٤٠﴾﴾ [النمل] هكذا مباشرة ؛ لأن الفعل نفسه لم يستغرق وقتاً ، وكذلك جاء التعبير سريعاً مباشراً .

والحق - سبحانه وتعالى - يعلم أن الجن كانوا يَسْترقون السمع قبل بعثة محمد ﷺ ، أما بعد بعثته ﷺ فقد منعهم الله من استراق السمع ، فقال سبحانه : ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن]

وهذه واحدة من ميزات رسالته ﷺ ، فقبل رسول الله صينَ سر السماء جُلُّه . وبعده ﷺ صينَ سرُّ السماء كُلُّه . قبل رسول الله كان الجن يصعدون في السماء يسترقُون السمع ، ويلتقطون بعض كلام الملائكة ، ثم يوحونه إلى أوليائهم من شياطين الإنس[1] ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام]

---

(١) عن أبي هريرة قال : إن نبي الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : قال الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مُسْتَرق السمع - ومُسْترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا ، فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء » . أخرجه البخاري في صحيحه (٨/٣٨٠ ، ٥٣٧ بشرح ابن حجر) ، وابن ماجه في سننه (١/٦٩) والترمذي مختصراً (٥/٣٦٢) وقال : حسن صحيح .

ثم يخبرون الناس بما علموا ، ويدَّعُون أنهم يعلمون الغيب ، وفعلاً تأتي الأحداث كما أخبروا ، فيغشُّون الناس ويخدعونهم ويفتنونهم ؛ لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يفضح الجن في هذه المسألة ، فقال :

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ .. ⦗١٤⦘﴾ [سبأ] أي : على سليمان ، وكلمة (قَضَيْنَا) تعني : أن الموت قضاء ، لا مندوحة عنه ، ولا يترتب على سبب من مرض أو كِبَر أو غيره ، وكما قُلْنا : والموت من دون أسباب هو السبب ، يعني : مات لأنه يموت .

لذلك يخاطب الحق سبحانه الأحياء ، بما فيهم سيدنا رسول الله بقوله : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ⦗٣٠⦘﴾ [الزمر] ويخاطبه هو ﷺ أولاً قبل أنْ يخاطب أمته بهذه الحقيقة .

ومعنى (ميِّت) أي : تؤول إلى الموت ، فنحن ونحن أحياء ميِّتون أي : سنموت ، أما الذي مات بالفعل فيسمى (مَيْت) بسكون الياء ، كما قال الشاعر :

* ومَا الميْتُ إلاَّ مَا إلَى القَبْر يُحْمَلُ

لذلك ، فإن العلماء لما أعطونَا صورة حسِّية للموت قالوا : مع حياتك التي بدأت انطلق معها سهم الموت إليك ، فعُمْرك بمقدار وصوله إليك ، فنحن - وإنْ كنا أحياء - ميتون .

وقوله تعالى : ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ .. ⦗١٤⦘﴾ [سبأ] أي : دلَّ الجن ، فضمير الغائبين في (دَلَّهُم) يعود على معلوم من السياق الأول في : ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ .. ⦗١٢⦘﴾ [سبأ]

قالوا في قصة سيدنا سليمان عليه السلام أنه كان يعبد الله

ويشكره بمقدار ما أنعم عليه وما أعطاه من الملْك ، فمع كل هذه النِّعم كان يقضى الأسبوع والشهر لا يأكل إلا الخشكار[1] ، وهى (الردة) التى نعرفها ، وهى آخر درجة فى الدقيق ، والتى نسميها فى الفلاحين السِّن ، وهو طعام الفقراء والعبيد ، أما السادة والأغنياء فيأكلون الدقيق الفاخر أو (نمرة واحد) .

وسبحان الله ، أظهر العلم الحديث أن الفائدة فى هذا السنّ الذى يأكله الفقراء ، لدرجة أنه أصبح يُوصَف كدواء ، ويجعلونه الآن على هيئة أقراص كعلاج لبعض الأمراض ، حتى أن أهل الرفاهية الذين عاشوا على الدقيق الفاخر وتغذَّوْا طوال حياتهم على الخبز السياحى والقطايف .. إلخ . يأتى الواحد منهم فى أواخر حياته فيُحرَّم عليه الطبيب كل هذه الأنواع ولا يجد له دواء إلا فى السنِّ وفى الردة التى ما ذاقها طوال حياته ، وكأنها معادلة لا بُدَّ أنْ تتم بين الأغنياء والفقراء .

وهذه البحوث التى أظهرت لنا أهمية (الردة) تلفتنا وتُفهمنا معنى قول الله سبحانه وتعالى وقسمه : ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الرحمن]

كذلك كان سيدنا سليمان يعبد الله واقفاً ، لا على هيئة مريحة ، فكان يشق على نفسه شكراً لله ، ويقف عابداً لله حتى يتعب ، فيراوح بين قدميه ، ثم يستعين بالعصا يتكىء عليها من شدة تعبه .

---

(١) وردت هذه الكلمة فى لسان العرب (الخُشَار والخُشَارة) يقال : الخشارة والخشار من الشعير : ما لا لُبَّ له . (يقصد الردة أى القشرة) والخشار أيضاً : الردىء من كل شىء . [لسان العرب ـ مادة : خشر] .

وقد قضى الله عليه الموت ، وهو على هذه الهيئة ، فلم يكتشف الجن موته ، وظلوا يعملون بين يديه ويجتهدون خوفاً منه عليه السلام[1] .

وأراد الحق سبحانه أن يُنهي بموت سليمان مسألة شغلتْ الجن والإنس ، هي قضية علم الجن للغيب ، أراد سبحانه أن يفضح الجن ، وأنْ يُظهر عجزهم عن علم الغيب ، فالغيب لا يعلمه إلا الله .

مات سليمان واقفاً متكئاً على عصاه ، وظل على هذه الحالة حتى سلَّط الله على عصاه دابة الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ .. (١٤) ﴾ [سبأ]

البعض يفهم أن ﴿ دَابَّةُ الأَرْضِ .. (١٤) ﴾ [سبأ] الأرض التي تقابل السماء ، لكن المراد الدابة التي تَقْرِض كما نقول : قرض الفأر كذا وكذا ، وفعلها قرض يقرض قَرْضاً . مثل : ضرب يضرب ضرباً ، وهذه الدابة هي العتة التي تصيب الخشب وتأكله .

هذه الدابة أو العتة ظلتْ تنخر في العصا حتى اختلَّ توازن سليمان عليه السلام ، فسقط على الأرض ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴾ [سبأ] أي : ما مكثوا وما ظلُّوا في العذاب المهين . ومعنى خَرَّ : سقط بلا نظام ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. (٢٦) ﴾ [النحل]

فالخرور انهيار بلا نظام وبلا ترتيب ، وعندها فقط علم الجن

---

(١) أخرج عبد بن حميد عن قتادة : كانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء ، وأنهم يعلمون ما في غد ، فابتلوا بموت سليمان عليه السلام ، فمات فلبث سنة على عصاه وهم لا يشعرون بموته وهم مُسخَّرون تلك السنة ، ويعملون دائبين . [أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/٦٨٤] .

بمـوت سليـمـان ، وكـذلك الإنس ، وعلمـوا أنهم لا يعلمـون الغـيب ، ولو علموا الغـيب لاكتشفوا مـوته ، وما لبثوا فى العـمل ، وفى التعب والعـذاب طوال هذه المـدة[1] ، عندها انكشـف أمـرهم ، وعُلم كـذبهم وادعاؤهم معرفة الغيب .

وقوله تعالى : ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ⑭﴾ [سبأ] يدل على أن الجن يتـعب من العمل ويطرأ علـيه مـا يطرأ على كل حيٍّ من تعب وإجهاد .

والمنْسأة هى العصـا من الفعل نَسَأ بمعنى أخَّر ، وسُمـيَتْ العصا منسأة ؛ لأن الإنسان يزجر بها الهوام والحيوانات الضارية التى تؤذيه ويؤخرها عنه ويبعدها ويُردعها ؛ لذلك سميت منسأة .

وسيـدنا موسى ـ عليه السـلام ـ قال فى عصاه لمـا سأله ربه : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ⑰ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ⑱﴾ [طه]

وقد أطال مـوسى الحديث مع الله ؛ لأن الله تعـالى آنسه أنْ يطيل حين قال له ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ⑰﴾ [طه] ولم يقل له مثلاً : ما بيـدك ؟ ثم مَن الذى يخاطبـه ربه ولا يطيل الحديث مـعه سبـحانه وتعالى ؟ ومع ذلك تدارك موسى أمره ، فقال مُجملاً ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ⑱﴾ [طه]

ونفهم من قوله تعالى : ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ⑭﴾ [سبأ]

---

(١) أخرج سعـيد بن منصور وعبد بن حـميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عـباس قال : لبث سليمان عليه السـلام على عصاه حولاً بعدما مات ، ثم خـر على رأس الحول ، فأخذت الإنس عصـا مثل عـصاه ، ودابة مـثل دابته ، فأرسـلوها عليهـا فأكلتها فى سنة . (الدر المنثور ٦/٦٨٣) .

أن العمل الذى كانوا فيه كان عملاً شاقاً وفيه إهانة لهم ؛ لأن الجن يظنون أن لهم خيرية على الإنس ، وأنهم جنس تسامى على البشر ، بدليل قول أبيهم من قبل : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) ﴾ [الأعراف]

فمن الإهانة لهم ، ومن العذاب أنْ يُسخَّروا لواحد من الإنس ، ويعملون له ، ويأتمرون بأمره ، فالعمل الذى كانوا يعملونه لسليمان إنْ لم يكُنْ مُرهقاً لهم بدنياً فهو مرهق نفسياً ، ولم لا وقد سخَّرهم مَنْ هو أدنى منهم - على حسب ظنهم .

ولسائل أنْ يسأل - كيف يكون فى العذاب المهين مَنْ يخدم نبياً ويعاشره ؟ نقول : هذه الشبهة جاءتْ من كلمة الجن ، ففهمنا أن الجن كلهم كانوا مُسخَّرين لسليمان ، والحقيقة أن الجنَّ سُمِّى كذلك ؛ لأنه مستور الفعل لا نراه ، والذى سخر من الجن هم الشياطين ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) ﴾ [ص]

وقال : ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ .. (٨٢) ﴾ [الأنبياء] وهؤلاء هم أصحاب العذاب المهين ، أما مؤمنو الجن فلم يكونوا مُسخَّرين .

وكلمة (خَرَّ) بمعنى سقط توحى بأن كرامة الإنسان فى روحه ، وفى السر الذى وضعه الله فيه ، فهذا سليمان نبى الله بجلالة قدره ومكانته عند ربه يقول عنه ﴿ فَلَمَّا خَرَّ .. (١٤) ﴾ [سبأ] وكأنه جماد سقط على الأرض ؛ لأن الروح حينما تفارق الجسد يصير كالجماد ، كالعصا وكالحجر .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الروح ساعة تُسلَب من الجسد أول ما ينسى ينسى اسمه مهما كان عظيماً ، ويقولون : الجثة ثم إذا ما وُضعَتْ فى النعش يقولون : الخشبة .

سبحان الله ، لم يَعُد لهذه المادة أية صفة ، بل ويسارع الأهل والأحبة إلى الخلاص منها ودفنها بأسرع ما يمكن ، ولو بقيتْ عندهم لا يتحملها أحد منهم ، لما يطرأ عليها من تغيُّر ورائحة يتأذى منها أقرب الأقارب .

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن سبأ وأهلها ، فيقول تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾

ينقلنا الحق - تبارك وتعالى - من قصة سليمان عليه السلام إلى أهل سبأ ، فما العلاقة بينهما ؟ المتأمل فى سور القرآن وآياته يجد بينها ترابطاً وانسجاماً ، والمناسبة هنا أن سيدنا سليمان كانت له أبرز قصة فى الإيمانيات والعقائد مع بلقيس ملكة سبأ ، فبينهما إذن علاقة ، وهذه النقلة لها مناسبتها .

وقصة سليمان والهدهد وبلقيس قصة مشهورة ، وبها دلالات إيمانية عظيمة فى العقيدة ، وفى بيان أن الحيوان عنده دراية بالعقيدة ، وبأسرار الله فى كونه .

و (سَبَأ) علَم على رجل اسمه عمرو بن عامر ، ويُلقِّبونه بمزيقباء وأبوه (ماء السماء) وقد سأل كرَّة بين نسيك[1] رضى الله

(١) صوابه : فروة بن مُسَيْك المرادى ، له صحبة ، يعد فى الكوفيين وأصله من اليمن يكنى أبا سبرة ، وفد على النبى ﷺ فاستعمله على مراد ومذحج وزبيد ، وكانت وفادته هذه عام تسع أو عشر للهجرة ، واستعمله عمر على صدقات مذحج ، ثم سكن الكوفة وكان من وجوه قومه . [باختصار من الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ترجمة رقم ٦٩٧٥ ، وذكر له سؤاله رسولَ الله ﷺ عن سبأ] .

عنه سيدنا رسول الله عن سبأ فقال : (كذا وكذا ....) وكان له عشرة أولاد هم : أزد ، وكِنْدة ، ومَذْحج ، وأشعريون ، وانمار ، وغسان ، وعاملة ، ولَخْم ، وجُذَام ، وخثعم[1] .

وقد كوَّن كل واحد منهم قبيلة كبيرة . ستة من هؤلاء ذهبوا إلى اليمن ، وأربعة ذهبوا إلى الشام ، الذين ذهبوا إلى اليمن عاشوا فى خيرها الوفير ، فيُروى أن بلقيس لما رأتْ ماء المطر يسيح فى الوديان وتتشرَّبه الأرض ، فلا يستفيدون به ، فكَّرت فى بناء سد بين جبلين يحجز ماء المطر ، وجعلت به عيوناً كالتى عندنا فى القناطر الخيرية مثلاً ، تفتح عند الحاجة وتعطى الماء بقدر ؛ لذلك زاد الخير والنماء فى اليمن ، حتى سُمِّيت اليمن الخصيب واليمن السعيد .

إلا أن عرافة عندهم أو امرأة حكيمة ذات رأى قالت لسبأ هذا : إن السد سيخرب ويُغرق ماؤه اليمن فاخرج منها ، وفعلاً خرج سبأ إلى الحجاز والشام ، حيث ذهب الغساسنة إلى الشام ، والمناذرة إلى العراق ، وأنمار إلى المدينة ، وأزد إلى عمان فى الأردن .

واسم سبأ بعد أنْ كان علَماً على شخص تعدَّى إلى أنْ صار اسماً لقبيلة ، ثم اسماً للمكان الذى يسكنونه .

وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ .. ⑮﴾ [سبأ] أى : المكان الذى يسكنونه ، والمكان الذى يعيش فيه الإنسان يُسمَّى (سكن) أو (بيت) أو (منزل) ، ولكل منها معنى . والسكن هو المكان الذى يتخذه الإنسان ليسكن إليه وليطمئن فيه ، ويرتاح من حركة الحياة والعمل ، والإنسان لا يسكن إلا فى مكان تتوفر فيه

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٢٢٢) ، وأبو داود فى سننه مختصراً (٣٩٨٨) كتاب الحروف والقراءات من حديث فروة بن مسيك رضى الله عنه .

مُقوِّمات الحياة والأمن .

لذلك فإن سيدنا إبراهيم عليه السلام لما وضع زوجته وولده عند البيت دعا ربه : ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

فقد كان هذا المكان جَدْباً لا زرع فيه ولا ماء ، ولا مُقوِّم من مقومات الحياة إلا الهواء ومعنى ﴿ أَسْكَنتُ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم] أى : وطَّنْتهم فى هذا المكان .

أما المنزل فهو المكان تنزل فيه مرة أو عدة مرات ، ثم ترحل عنه لا تقيم فيه إقامة دائمة ، فهو كالاستراحات التى تُجعل للطوارئ ، ولا يقيم فيها أهلها إلا عدة أيام فى السنة كلها .

ومن ذلك ما رُوِى أن سيدنا رسول الله ﷺ لما نزل ببدر سأله الصحابى الجليل الحباب بن المنذر[1] : يا رسول الله ، أهذا منزل أنزلكه الله ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » قال : إذن لا أراه لك بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نُعَوِّر (نفسد) ما وراءه من القُلُب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد أشرت بالرأى »[2] .

---

(١) هو : الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصارى الخزرجى ، شهد بدراً ، وكان يكنى أبا عمر. قال ابن سعد : مات فى خلافة عمر وقد زاد على الخمسين . [الإصابة لابن حجر ترجمة رقم ١٥٤٧] وذكر له أبياتاً من الشعر .

(٢) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ٢٥٩ ، ٢٦٠) وعزاه لابن إسحاق أنه حُدِّث عن رجال من بنى سلمة .

إذن : السكن فيه دوام واستقرار ، أمـا المنزل فهو استراحة ، إنْ شئتَ نزلتَ به ، وإنْ شئتَ رحلتَ عنه .

أما البيت فيُلاحظ فيه البـيتوتة ، والإنسان لا ينام نوماً مريحاً إلا فى مكان يأمن فيـه على نفســه وعلى مالـه ، فإن الخـائف وكـذلك الجوعان لا ينام .

ومن السكن قـوله تعالى فى بنى إسـرائيل : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾[الإسراء]

أخذ أحـد المستشـرقين هذه الآية ، وجعلهـا دليلاً على أن الأرض كلها مُبَاحة لليهود ، كيف وهم فى الأرض ، وأنت حين تريد هذا الأمر تقـول : اسكن القاهرة ، اسكـن طنطا مثـلاً ، فتـعـين لى مكاناً ، لكن ﴿ اسْكُنُوا الأَرْضَ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء] لها معنى آخـر ، هو التقطيع الذى قال الله عنه : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

يعنى : ليس لهم وطن مخـصوص ، وسوف ينساحـون فى الدنيا كلها ، ولن يتـمكن أحد من ضـربهم والقضـاء عليـهم ، وهم على هذه الحالة من التـقطيع ، حتى يأتى أمر الله ، ويجمعـهم فى مكان واحد ، وعندها سيسهل القضـاء عليهم .

ومعنى كـلمة ﴿ آيَةٌ .. (١٥) ﴾ [سبـأ] نقول : فـلان آية فى الكرم ، وفلان آية فى الأدب ... إلخ ، والمراد شىء عجيب نادر الوجود ، والحق سبحانه حدثنا عن أنواع ثلاثة من الآيات : آيات كونية مثل : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَـارُ وَالشَّـمْسُ وَالْقَـمَـرُ .. (٣٧) ﴾ [فـصلت] ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ .. (٣٩) ﴾ [فصلت]

وآيات بمعـنى معجـزات وخوارق للعـادة ، تأتى على أيدى الرسل

لتـؤيدهم وتثبت صـدْقهم فى البـلاغ عن الله ، كمـا فى قوله تعـالى : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (٣٢) ﴾ [القصص]

ثم تُطلق الآيات على آيـات الكتاب الحـاملة لأحكام الله فى القـرآن الكريم ، وهذه كلها ـ سواء كانت آيات كـونية ، أو معجزات ، أو آيات القرآن ـ كلـها عجـائب ، وإن كانت هذه العـجائب واضـحة فى الآيات الكونية وفى المعجزات ، فـهى أيضاً واضحة فى آيات الكتاب الحكيم ، فالقرآن عجيبة فى تنظيم حياة الناس بدليل أن الكافر به سيُضطر إلى الأخذ بأحكامه والانصياع لقوانينه ، لا على أنها دين ، ولكن على أنها قوانين حياة .

وسـبق أنْ مـثَّلْنـا لذلك بأحكـام الطلاق التى طـالمـا نقـدوها وهاجموها ، واتهـموا دين الله ـ ظلماً وجهلاً ـ بالقـسوة ، ثم بعد ذلك نراهم يلجـئـون إليه ، ولا يـجدون حـلاً لبـعـض مـشكـلاتهم إلا فى الطلاق وفى الرجـوع إلى أحكام الله ، مع أنهم غـير مـؤمنين به ، وهذا منتهى الغَلَـبة لدين الله أن يرجع إليه الكافـر به ، إنها غلبـة الحق وغلبة الحجة .

وسبق أنْ قُلْنا : إن أحد المستشرقين سألنا فى سان فرانسيسكو قال : فى القرآن ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) ﴾ [الصف]

وبعـد أربعـة عشـر قـرناً من الزمـان ما زال فى الدنيـا يهـودية ومـسيـحيـة وبوذية ... إلخ ، وهذا الكلام يدل على عـدم فَهْم لمـعنى الآيات ، فليـس المـراد ﴿ لِيُظْهِـرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ.. (٩) ﴾ [الصف] أن يصـبح النـاس جـمـيـعـاً مـؤمنين ، بدليـل قـوله تعـالى ﴿ وَلَوْ كَـرِهَ الْمُشْرِكُونَ(٩) ﴾ [الصف]

إذن : فالدين سيظهر ظهور حجة وظهور غلبة على تقنيناتهم ، وسوف يطرأ عليهم من مشكلات الحياة ما لا يجدون له حلاً إلا فى شرع الله ، وهذا هو الظهور المراد فى الآية .

ثم يوضح الحق ـ تبارك وتعالى ـ ماهية الآية التى كانت لسبأ فى مسكنهم ، فيقول سبحانه : ﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [سبأ] وما دام الله تعالى وصف هاتين الجنتين بأنهما آية ، فلا بُدَّ أن فيهما عجائب ، وأنهما يختلفان عن الجنَان التى نعرفها .

وقد حدَّثنا العلماء عن هذه العجائب فقالوا عن هاتين الجنتين : لا تجد فيهما عقرباً ، ولا حية ، ولا ذباباً ، ولا برغوثاً ... إلخ ، فإنْ طرأ عليهما طارئ ، وفى جسمه قُمَّل فإنه يموت بمجرد أنْ يدخل إحدى هاتين الجنتين[1] ، وهذه كلها عجائب فى الجنتين .

ونلحظ هنا أن الآية مفرد والعجائب كثيرة ؛ لأن كلمة آية تُطلَق على الجمع أيضاً ، ومن ذلك قوله تعالى فى سيدنا عيسى عليه السلام : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [المؤمنون] ولم يقل آيتين ، قالوا : لأن الأمر العجيب الذى جمعهما واحد ، فعيسى عليه السلام وُلد من لا ذكورة ، وأمه حملتْ وولَدتْ كذلك من لا ذكورة ، فالآيتان آيَة واحدة .

ومعنى : ﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [سبأ] يحتمل أنْ يكون لكل واحد منهم جنتان ، واحدة عن اليمين ، والأخرى عن الشمال ،

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد رضى الله عنه فى قوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [سبأ] قال : لم يكن يُرى فى قريتهم بعوضة قط ، ولا ذباب ، ولا برغوث ، ولا عقرب ، ولا حية ، وإن الركب ليأتون فى ثيابهم القمل والدواب ، فما هو إلا أن ينظروا إلى بيوتها فتموت تلك الدواب ، وإن كان الإنسان ليدخل الجنتين ، فيمسك القفَّة على رأسه ، ويخرج حين يخرج وقد امتلأت تلك القفة من أنواع الفاكهة ، ولم يتناول منها شيئاً بيده . [أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٦٨٧)] .

وبيته في الوسط ، ويحتمل أن تكون الجنتان لأهل سبأ جميعاً ، بمعنى أنها جنّان موصولة عن اليمين ، وجنّان موصولة عن الشمال وَصْلاً لا يُميَّز بسور ولا حائط[1] ، مما يدل على أن الأمن كان مستتباً بينهم ، وقد شاهدنا مثل هذا في أمريكا ، حيث الحقول والمزارع ممتدة متصلة لا يفصلها إلا مجرد سلْك بسيط .

وقوله سبحانه ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ .. ⁽¹⁵⁾ ﴾ [سبأ] كيف نفهم ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ .. ⁽¹⁵⁾ ﴾ [سبأ] والناس جميعاً يأكلون من رزق الله ؟ قالوا : الناس يأكلون من رزق الله بالأسباب ، إنما هذا رزق الله مباشرة بلا أسباب ؛ لذلك يقول تعالى في موضع آخر ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. ⁽⁸¹⁾ ﴾ [طه]

فليس كل الرزق طيباً للأكل ، إنما هنا ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ .. ⁽¹⁵⁾ ﴾ [سبأ] أي : كله طيب ، وكله حلو ، فالفاكهة في هاتين الجنتين لا يصيبها عطب ، ولا يطرأ على ثمارها ما يطرأ على الثمار من فساد ؛ لذلك سيقول سبحانه في آخر الآية : ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ⁽¹⁵⁾ ﴾ [سبأ]

ونعرف أن البساتين مؤونة الخدمة فيها قليلة ؛ لذلك نرى الفلاح حين يضيق بزراعة الأرض وأجور العمالة يلجأ إلى زراعة الحدائق والبساتين المثمرة ؛ لأنها أقلّ تكلفة ، ولا تحتاج إلى رعاية كثيرة إلا وقت الإثمار .

---

(١) ورد في الجنتين عدة أقوال ، منها :
- أن الجنتين كانتا بين جبلين باليمن . قاله قتادة .
- إحدى الجنتين عن يمين الوادي والأخرى عن شماله . قاله سفيان .
- لم يُرد جنتين اثنتين ، بل أراد من الجنتين يمنة ويسرة . قاله القشيري . أوردها القرطبي في تفسيره (٥٥٥٣/٨) وقال : أي كانت بلادهم ذات بساتين وأشجار وثمار ، تستر الناس بظلالها .

والحق سبحانه يقول فى غير هذا الموضع : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة] فأثبت لهم عملاً وحرثاً ، إنما المسألة هنا فى هاتين الجنتين ، فهى عطاء من الله بلا عمل وبلا أسباب ، فالله سبحانه هو الزارع ، وقد خصَّها بالجو اللطيف ، لا حرٌّ ولا قَرٌّ ، ولا سآمة ، ولا مخافة ، ولا زهد فى نعمة من النعم لتكرارها .

إذن لا عمل لهم فى حدائقهم ينتج ما يستمتعون به ، إنما عملهم أنْ يشكروا المُنعِمَ سبحانه ليزيدهم من الخيرات ، وشكْر النعمة هو حكمة العبد مع مولاه ؛ لذلك قال سبحانه عن لقمان : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ .. ﴿١٢﴾﴾ [لقمان] ما هذه الحكمة ؟ ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ .. ﴿١٢﴾﴾ [لقمان] لأن شكر النعمة يزيدها .

وقوله سبحانه : ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ .. ﴿١٥﴾﴾ [سبأ] يعنى : تعطيك طيب الأشياء بدون منغصات فيها ؛ لأن هناك أشياء تعطيك طيباً تهنأ به ، لكنها تتعبك وتُنغِّصك فيما بعد .

أما هذه البلدة فما فيها طيب تأكله هنيئاً مريئاً ؛ لأنها رزق الله بدون أسباب من العباد ، لكن حين يتدخل العباد فى عطاء الله تظهر فى النعم متاعب ومُنغِّصات ، وهذا ما نعانى منه الآن بسبب التدخل فى المزروعات بالمواد الكيماوية والمبيدات الحشرية ، التى أفسدت علينا حياتنا ، وجاء ضررها أكثر من نفعها حتى أصبحنا نعزو كل الأمراض إلى تدخّلنا فى عطاء الله ، ولو تركنا الأرض تُروى بماء السماء كما كان فى البداية لَذُقْنا الخير بلا مُنغِّصات ، فمن الضرورى أن نتأدب مع الله فى عطائه .

لذلك تجد كثيراً من المترفين والمثقفين وأهل العلم والفلاسفة

يحبون الخروج من ضوضاء المدن وتلوث هوائها ومياهها وما فيها من صخب ويخرجون إلى الريف أو البرارى ، يهربون من الآثار الضارة للحضارة الحديثة إلى الخلاء ، حيث يعيش راعى الأغنام ، حيث الطبيعة كما خلقها الله ، وحيث الفطرة السليمة التى لم يتدخل فيها البشر .

تذكرون فى الماضى ، كنا نقاوم دودة القطن مقاومة يدوية طبيعية ، فلما تقدمت العلوم جاءوا بمادة (دى دى تى) للقضاء على دودة القطن ، لكن هذه المادة السامة أماتتْ كل شىء فى الحقول ، قضَتْ على الأسماك فى الترع والمصارف ، وقضتْ على (أبى قردان) صديق الفلاح ، ولوَّثت الماء والمزروعات ... إلخ . أما دودة القطن فهى الوحيدة التى أخذت مناعة ، وأصبحت كما قلنا (كييفة) دى دى تى .

أما سبأ فكانت ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ .. ⦗١٥⦘ ﴾ [سبأ] بكل ما فيها من طيب الماء والهواء والتربة لم يُصبْها تلوث من أىِّ نوع ، وإذا كانت البلدة نفسها طيبة ، فما بالك بما عليها ؟

وفى الآية طلبان ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ .. ⦗١٥⦘ ﴾ [سبأ] وفيها تحذير : إياك أنْ تغتر بالنعمة ، وتظن أنها أصبحت ملكاً لك ، وتنسى المنعم بها عليك ، إياك أنْ تكون كالذى قال الله فيه ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ⦗٦⦘ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ⦗٧⦘ ﴾ [العلق]

إياك أن تظن أنك أصيل فى هذه المسألة ، وظلّ دائماً على ذكْر بأن المنعم هو الله ، وأن ما أنت فيه هو من عطاء الله ، ثم بعد ذلك عليك أن تشكره سبحانه ؛ لأن الشكر قيد النعم .

وفى موضع آخر ، تكلم الحق سبحانه عن شكر النعمة فقال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ⦗١٣⦘ ﴾ [سبأ] والحمد لله أنه سبحانه لم يقُلْ :

وقليل من عبادى الشاكر ، وتعلمون أن الشكور صيغة مبالغة من الشكر ، أو الشكور هو الذى يشكر على النعمة ، ثم يشكر الله على أن ألهمه أنْ يشكر على النعمة ، فكأنه قدَّم الشكر مرتين .

ثم لم يَقْصُر النعمة على أهل سبأ فى الدنيا وحَسْب ، إنما تعدَّت نعمته عليهم إلى الآخرة ، ففى الدنيا ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ .. ⑮ ﴾ [سبأ] وفى الآخرة ﴿ وَرَبٌّ غَفُورٌ ⑮ ﴾ [سبأ] يعنى : يتجاوز عنكم إنْ حدثت منكم زَلَّة أو هفوة .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه النتيجة وردَّ فعْلهم ، فيقول :

﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ[1] وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ[2] وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ⑯ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ⑰ ﴾

قوله تعالى ﴿ فَأَعْرَضُوا .. ⑯ ﴾ [سبأ] أى : عن المأمور به ، وهو ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ .. ⑮ ﴾ [سبأ] فلم يأكلوا من رزق الله ، إنما أكلوا من سعيهم ومهارتهم - على حدِّ زعمهم - وهذه أول الخيبة ، ثم لم يشكروا الله على هذه النعم ؛ لأن النعم أترفتهم فنسوا شكرها .

وفَرْق بين ترف وأترف ، نقول : ترف فلان أى تنعَّم . لكن أترف

(١) العرم : السيل الشديد أو المطر الشديد أو السد يعترض ماء الوادى ، أو أنه اسم وادٍ بعينه. [القاموس القويم ٢/١٧] .

(٢) الخمط : كل نبات فيه مرارة وحموضة تعافه النفس . والأثل : شجر طويل مستقيم الخشب كثير الأغصان أوراقه دقيقة وثمره حب أحمر مُرٌّ لا يؤكل . والسدر : شجر النبق وهو شجر ذو أشواك ، له ثمر فيه حلاوة قليلة .

فلان ، أى : غرّته النعمة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا .. (١٦) ﴾ [الإسراء]

فلا بأس أنْ تتنعم ، لكن المصيبة أن تُطغيك النعمة ، وتغرّك ، وأول طغيان بالنعمة أن تنسبها إلى نفسك فتقول : بمجهودى وشطارتى كالذى قال : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. (٧٨) ﴾ [القصص] ثم أنْ تنسى المنعم ، فلا تشكره على النعمة .

وفى موضع آخر لخّص لنا الحق سبحانه هذه القضية فى قوله سبحانه ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

وقال فى قوم سيدنا نوح عليه السلام : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) ﴾ [الجن]

إذن : صيانة النعمة بشكرها والاعتراف بها كلها منسوبة إلى المنعم سبحانه ، وحتى نحن على مستوى البشر نقول : فلان هذا حافظ للجميل ، فنزيده ولا نبخل عليه بجميل آخر وآخر ، فما بالك بالحق سبحانه وتعالى ؟!

وكلمة الإعراض تُعطى شيئاً فوق الإهمال وفوق النسيان ؛ لأن الإعراض أنْ تنصرف عن مُحدِّثك وتعطيه جانبك كما تقول لمَنْ لا يعجبك حديثه (اعطنى عرض كتافك) .

إذن : الإعراض تَرْك متعمَّد بلا مبالاة ، أما السهو أو النسيان أو الخطأ أو عند النوم ، فهذه كلها أمور مُعْفىً عنها ، قد رفعها الله عنَّا رحمة بنا ، فربُّك عز وجل لا يعاملك إلا على اليقظة والانتباه وتعمد الفعل .

واقرأ إنْ شئتَ قول ربك : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾ [طه]

لماذا ؟ لأن الإعراض فيه شبهة عدم اعتناء بالآمر ، فالنكبة فيه أشدُّ على خلاف أنْ تكون معتنياً بالآمر ، وبعد ذلك تتهم نفسك لأىِّ سبب آخر .

ويقول تعالى أيضاً فى الإعراض : ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ .. (٥١)﴾ [فصلت] وسوف يأتى الجزاء على قدر الإعراض ، كما بيَّن الحق سبحانه فى قوله : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ .. (٣٥)﴾ [التوبة]

كما نقول : أنت ربيتَ مَنْ سيقتلك فيما بعد ، كذلك هؤلاء كنزوا الأموال ليتمتعوا بها قليلاً فى دنيا فانية ، ثم يلاقون تبعة ذلك يوم القيامة ، نار تكوى جباههم وجنوبهم وظهورهم ، حتى يتمنى الواحد منهم ـ والعياذ بالله ـ لو أنه قلَّل منها حتى يُقلل من مواضع الكيِّ .

وتأمل هذا الترتيب : جباههم وجنوبهم وظهورهم ، فسوف تجده نفس ترتيب الإعراض عن المحتاج الذى سأل صاحب المال فى الدنيا ، فأول ما يراه يشيح عنه بوجهه ، ثم يعطيه جانبه ، ثم يدير إليه ظهره ، فيأتى الجزاء من جنس العمل وبنفس تفاصيله .

فماذا كانت نتيجة هذا الإعراض ؟ يقول تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ .. (١٦)﴾ [سبأ] أى : بعد أن انهار سدُّ العرم ، فسال ماؤه ، فأغرقهم ، ومن العجيب أن الله تعالى جعل من الماء كل شىء حى ،

لكن إذا أراده سبحانه وسيلة هلاك أهلك ، وبه أهلك اللهُ قومَ نوح ، وبه أهلك فرعونَ وجنوده ، وهذا من طلاقة قدرة الله ، حيث يوجه الشيء للحياة فيُحيي ، وللهلاك فيُهلك .

وبعد أنْ أفزعهم سيل العرم لما أرادوا الإقامة بعد ذلك أقاموا فى أماكن لا ماء فيها ، فإذا أرادوا الماء جلبوه من الآبار بالقرَب ، وكأن الماء أحدث لديهم (عقدة) .

وهذه القضية القديمة لها عندنا قصة حديثة : كنا ونحن فى الأزهر نلبس (القفاطين) و (الكواكيل) ، وكان لنا زميل حالته رقيقة ، وكان لا يملك إلا (كاكولة) واحدة لبسها حتى بليت وتمزقت ، فكان يمدّ يده من وقت لآخر إلى مكان القطع ويحاول أن يداريه ، حتى صارت عادة عنده ، ثم رزقه الله بأخ له توظف واشترى له (كاكولة) جديدة ، فلما لبسها صارت يده تمتد إلى نفس الموضع ، وتحاول ستر القطع الغير موجود فى الجديدة ، فقال له أحد الزملاء : ما لك ؟ فقال : القديمة رعبانى .

والسيل : أن يسيل الماء على وجه الأرض بعد أنْ تشرَّبت منه قَدْر حاجتها ، فما فاض عليها سال من مكان لآخر ، والحق سبحانه يعلمنا : قبل أنْ نبحث عن مصادر الماء لا بُدَّ أنْ نبحث عن مصارفه حتى لا يغرقنا ، واقرأ : ﴿ وَقِيلَ يَـٰأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَـٰسَمَاءُ أَقْلِعِي .. (٤٤) ﴾ [هود]

فالأمر الأول للأرض أنْ تبلع الماء وتتشرَّبه ، ثم يا سماء أمسكى ماءك ؛ لذلك إذا تشبَّعت الأرض بالماء نقول : الأرض (عنِّنت) يعنى : امتلأت بالمياه الجوفية ، فإنْ كانت أرضاً زراعية لا تُخرج زرعاً ، وإن كانت في المدن أضرَّت بالمبانى ، وفاضتْ فى الشوارع وكسرت

المواسير ... إلخ ، ويعرف أهمية الصرف مَنْ يتعاملون مع الأرض .

وسيل العَرِم منسوب إلى العرم ، وله إطلاقات متعددة ، فالعرم هى الحجارة التى تُبنى بها السدود ، أو هو الجُرْذ (الفأر) الذى نقب السد[1] ، وأحدث به فجوة نفذ منها الماء ، فوسّعها وجعلها عيناً .

وقد رأينا ما فعله الماء فى تحطيم خط بارليف ، حيث هدى الله أحد مهندسينا جزاه الله خيراً إلى فكرة استخدام ضَخِّ الماء بقوة لإزالة الساتر الترابى الذى كان عقبة فى طريقنا للاستيلاء على هذا الخط المنيع وتحطيمه ، وفعلاً كانت فكرة أدهشتْ العالم كله .

والعَرِم جمع مفرده عرمة مثل لَبِن ولبنة ، لكن اللبن هو الطوب (النىّ) أو الطين ، أما العرم فهو الطوب المتحجر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [سبأ] من صفاتهما أنهما ﴿ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [سبأ] يعنى : أبدلهم الله بالجنتين السابق وصفهما بجنتين أُخْريين ، لكن ثمارهما ﴿ أُكُلٍ خَمْطٍ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [سبأ] يعنى : ثمر مُرّ تعافُه النفس ، وأشجارهما ﴿ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [سبأ]

والأثل : هو شجر الطرفاء ، وهو قليل النفع لا ثمر له ، والسدر : هو شجر النبق المعروف ، وهو شجر قليل الفائدة . فكيف يُسمى هذا جنة ؟ قالوا : سماها الحق جنة على سبيل التهكم ، وإلا فليس فى الجنة مثل هذا الشجر . ونلحظ أن الحق سبحانه رحيم بهم حتى فى العقاب ، فلم يجعلها خاوية لا شىء فيها .

ثم يقرر الحق تبارك وتعالى أن ما نزل بهم ليس ظلماً لهم ، إنما

---

(١) قاله الزجاج وابن الأعرابى . وقال مجاهد وابن نجيح : العرم ماء أحمر أرسله الله تعالى فى السد فشقَّه وهدمه . وعن ابن عباس أيضاً : العرم المطر الشديد . [تفسير القرطبى ٥٥٥٤/٨] .

جزاء ما فعلوا ﴿ذَلِكَ .. (١٧)﴾ [سبأ] يعنى : ما سبق ذكره من الأكل الخمط والأثل والسدر ﴿جَزَيْنَاهُم .. (١٧)﴾ [سبأ] أى : جزاءً لهم ﴿بِمَا كَفَرُوا .. (١٧)﴾ [سبأ] والكفر سَتْر النعمة ، وهؤلاء ستروا نعمة الله حين ظنوا أنهم يأكلون من جَهْدهم وسعيهم وملكهم ، وستروا نعمة الله حين لم يلتفتوا إلى المنعم سبحانه ولم يشكروه ، فما أطاعوا في ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ .. (١٥)﴾ [سبأ] وما أطاعوا فى ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ .. (١٥)﴾ [سبأ]

ثم يُنزه الحق سبحانه نفسه بهذا الاستفهام التقريرى : ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (١٧)﴾ [سبأ] وجاء بالكفور وهى صيغة مبالغة ، ولم يقل سبحانه : الكافر ، وهذا من رحمته سبحانه بعباده ، فهو سبحانه لا يجازى منهم إلاَّ الكفور أى : المُصِرّ على الكفر المتمادى فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨)﴾

هذه نعمة أخرى يمتنّ الله بها على أهل سبأ ، فمعنى ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ .. (١٨)﴾ [سبأ] بين أهل سبأ ﴿وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا .. (١٨)﴾ [سبأ] والمراد بلاد الشام التى قال الله فيها فى قصة الإسراء : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)﴾ [الإسراء]

والقرى جمع قرية ، وهى اسم لمكان متواضع البنائة ، به مقومات الحياة الضرورية ، فإذا نزلْتَه وجدت به قِرَى يعنى طعاماً وشراباً .

ونعلم أن أهل اليمن كانوا أهل تجارة بين اليمن والشام ، فجعل الله لهم فى طريق تجارتهم ﴿قُرًى ظَاهِرَةً .. (١٨)﴾ [سبأ] يعنى : متقاربة متواصلة ، كانت بمثابة استراحات فى الطريق مثل (الرست) وذلك لبُعْد المسافة بين اليمن والشام فى رحلَتَى الشتاء والصيف ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُيسِّر لهم تلك الرحلات ، وأنْ يقطعوها بلا مشقة .

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ .. (١٨)﴾ [سبأ] يعنى : جعلنا سيرهم على مسافات متقاربة ، فالقرى الظاهرة لهم فى سيرهم والقريبة منهم بحيث يمرون بها ويرونَها على طريقهم بلا مشقة ، قرى مُوزَّعة على مسافات الطريق ، بحيث كلما ساروا مسافة وجدوا قرية على سابلة الطريق .

وهذا يعنى أنهم سيأمنون ، لا يخيفهم شىء ، وأنهم لا يحتاجون لحَمْل زاد ، فالقرى التى يمرون بها تكفيهم مؤنة الطريق ، ويجدون بها حاجتهم ، وهذا أيضاً يعنى أنهم لن يحتاجوا إلى دواب كثيرة للحمل .

والسير أى فى الصباح ويقال كذلك للغدوة والروحة ، ثم يُؤنسهم الحق سبحانه بهذا الأمر ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨)﴾ [سبأ] بحيث يسير فى الغدوة إلى مكان يقيل فيه ، ويسير فى الرواح إلى مكان يبيت فيه يعنى : محطة للقيلولة ومحطة للبيتوتة . وهذا السير فى ظل أمن وأمان ضَمِنه لهم الحق سبحانه ، فلا يروعهم شىء لا من الناس ، ولا من الوحوش .

وحين نقارن بين قوله تعالى هنا ﴿آمِنِينَ (١٨)﴾ [سبأ] وبين قوله تعالى عن قريش : ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾ [قريش] نجد أن الأمن يتوفر بالإطعام والأمان من الخوف ، وهنا قال

﴿آمِنِينَ ⑱﴾ [سبأ] ولم يَقُل من خوف ؛ لأن معنى ﴿آمِنِينَ ⑱﴾ [سبأ] أى : الأمن التام آمنين من الخوف ، وآمنين من الجوع ؛ لأنه لم يُذكر مع ﴿آمِنِينَ ⑱﴾ [سبأ] متعلق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ⑲﴾

تأمل هذا التعنت وهذا البطر لنعمة الله ، حيث لم يعجبهم أنْ قَاربَ الله لهم بين القرى ، فطلبوا ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا .. ⑲﴾ [سبأ] يعنى : افصل بين هذه القرى بصحارٍ شاسعة ، بحيث لا يستطيع السفر فيها إلا الأغنياء والقادرون الذين يملكون المطايا القوية القادرة على الحمل[1] .

إذن : نظرتهم فى هذه المسألة نظرة اقتصادية كلها جشع وطمع ، فهم يريدون أنْ يحرموا الفقراء وغير القادرين من السفر للتجارة معهم ، فحين تتقارب القرى وتكثر الاستراحات على طول الطريق ، فلا يكاد المسافر يتجاوز قرية إلا بدَتْ له الأخرى من بعيد ،

---

(١) وذلك مثل قول بنى إسرائيل عندما بطروا نعمة الله بإنزال المن والسلوى عليهم دون مجهود منهم ، فقالوا : ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ .. ⑥١﴾ [البقرة] ، فكان عقابهم ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ⑥١﴾ [البقرة] .

فهذا يُسهِّل السفر على الفقراء الذين يركبون الدواب الضعيفة ، فوسائل الامتطاء تختلف حسب قدرات الناس ، فواحد على جواد ، وواحد على ناقة ، وواحد على حمار .

وقُرْب المسافات بين القرى شجَّع الفقراء على السفر لرحلة الشام ؛ لذلك طلب هؤلاء أنْ يباعد الله بين هذه القرى فهو مطلب جَشِع أناني ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ .. (١٩) ﴾ [سبأ] نعم ظلموا أنفسهم ؛ لأنهم حرموها من الراحة التي جعلها الله لهم ، وظلموا أنفسهم لأنهم أرادوا أنْ يحتكروا هذه التجارة ، وألاَّ يخرج إليها غيرهم من الفقراء ، أو ظلموا أنفسهم لأنهم أثبتوا لها عدم اكتمال الإيمان ؛ لأن الإيمان لا يكتمل للمؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وهؤلاء يحبون أنْ يستأثروا بالنعمة لأنفسهم ، ويحرموا منها غيرهم .

لكن ، كيف تكون المباعدة التي طلبوها في طريق تجارتهم؟ عرفنا من علم الهندسة أن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين ، فاستقامة الطريق تُيسِّر الحركة فيه ، وتقلِّل الوقت والمجهود ، والمباعدة لا تكون إلا بتحطيم بعض هذه القرى لتبعد المسافة بينها ، أو بأنْ يلتوي الطريق ، أو يدور هنا وهناك .

فكانت نتيجة هذا الجشع والبطر ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. (١٩) ﴾ [سبأ] أي : أحدوثة يتحدث بها الناس أو (حدوتة) تُحكى ، كما لو وقع مجرم في أيدي رجال الشرطة ، فجعلوه عبرة لغيره حتى تحاكَى الناس به ، كذلك أهل سبأ جعلهم الله عبرة لغيرهم حتى صارت سيرتهم مثلاً يُضرب ، يقولون في المثل العربي الدال على التفرُّق : تفرقوا أيدي سبأ ، يعني : تفرقوا بعد اجتماع كما تفرَّق أهل سبأ .

ومعنى ﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. (١٩) ﴾ [سبأ] أى : التمزيق والتفريق بكل أنواعه وطرقه ، بحيث يتناول التمزيق كل الأجزاء مهما صَغُرَتْ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ .. (١٩) ﴾ [سبأ] يعنى : فيها عبر وعظات يستفيد منها العاقل فى حياته .

﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) ﴾ [سبأ] صبار وشكور من صيغ المبالغة ، صبَّار مبالغة من الصبر ؛ لأن هؤلاء ظلموا الفقراء واضطهدوهم ، وأرادوا أنْ يقطعوا عليهم سبيل النعمة ، وأن يستأثروا به لأنفسهم وقد تكرر منهم ذلك ؛ لذلك لم يقل لكل صابر ؛ لأنهم تحملوا من الأذى ما يحتاج إلى صبر كثير .

وسبق أنْ قُلْنا : لو علم الظالم ما أعدَّه الله للمظلوم لضَنَّ عليه بالظلم ، ويكفى المظلوم أن الله تعالى سيكون فى جانبه يوم القيامة .

ومن الغباء أن الظالم حين يتنبه إلى ظلمه وتهدأ شِرَّته وعصبيته يريد أنْ يُكفِّر عن ظلمه ، فيسعى فى أبواب الخير ، ويبنى مسجداً مثلاً أو مدرسة ... إلخ يظن أن له ثوابها ، والحقيقة أن الثواب لمن ظلمهم وأخذ أموالهم ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) ﴾ [الأنبياء]

وقال أيضاً ﴿ شَكُورٍ (١٩) ﴾ [سبأ] يعنى : كثير الشكر لله أنْ أقْدره على أن يصبر ؛ لذلك قالوا : ما صبرت وإنما صبَّرناك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) ﴾

معنى ﴿ وَلَقَدْ .. ⑳ ﴾ [سبأ] توكيد باللام مـرة وبقد أخرى ﴿ صَدَّقَ .. ⑳ ﴾ [سبأ] حقق وأكد ﴿ عَلَيْهِمْ .. ⑳ ﴾ [سبأ] على أهل سبأ وأمثالهم ممَّن اتبعوه ﴿ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ .. ⑳ ﴾ [سبأ] ما ظَنُّ إبليس ؟ ظنُّه أن شـهوات البشر ستُمكِّنه من إغوائهم ، ونحن نعلم قصته لمَّا أمره الله بالسجود لآدم فأبَى وقـال مهدداً : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ⑯ ﴾ [الأعراف] وقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [ص] وكان لا يزال فيه بقية من حياء ، فقال : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر]

فظنُّ إبليس أنه قال : لقد أغويتُ أباهم وقدرْتُ عليه حين أغويته ، فـأكل من الشجـرة مع أنه كـان أول الخَلْق وأقـواهم ، وقد كلَّفـه الله مباشـرة وكلَّفه بشيء واحد ، وهو أنْ يأكل من كل ثمـار الجنة ، عدا هذه الشجـرة ، ومع ذلك قدرْتُ عليـه . إذن : فأنا أقـدر على ذريته ؛ لأنهم أقلُّ منه قـوةً ، وقد كلَّـفهم الله تكليـفاً غـيـر مبـاشر ، وكلَّفـهم بتكاليف متعددة ، فأنا أقدر عليهم من قدرتي على أبيهم .

وهذا الظن من إبليس ليس علْماً للغيب ، إنما هو قياس قاس ذرية آدم على أبيهم ، فإذا كان آدم هو المخلوق الأول الذى خلقه الله بيده ، وأسجد له ملائكته وكلَّفه مباشرة ولم يُكلِّفه إلا بأمر واحد ، ومع ذلك قـدرْت عليه فـأنا على ذريته أقـدر ، هذا قـياس لم يصل إليـه إبليس ولايةٌ ولا كرامةٌ ؛ لذلك سماه ظناً .

فلما قدر إبليس على ذرية آدم وأغواهم بالفعل قال : ظني جاء فى محله ؛ لأنهم بالفـعل اتبعوه ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ .. ⑳ ﴾ [سبأ] ثم يأتى هذا الاستثناء ﴿ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ⑳ ﴾ [سبأ] فـجـاء هذا الاسـتـثناء مطـابقـاً للاسـتـثناء الأول ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٢١﴾ ﴾

لما أغوى إبليس بنى آدم هل لهم عذر فى هذا الإغواء ؟ وهل الذنب هنا ذنب إبليس ؟ الحق سبحانه يخبر عنه وعنهم هذا الخبر فى سياق قصة سبأ : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [سبأ] ، وقد التقط إبليس هذه العبارة وجعلها حُجَّة له يوم القيامة ، فإذا قال له البشر يوم القيامة : أنت سبب ضلالنا وغوايتنا قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

يعنى : لا تلومونى ولا تظلمونى ، فقد كنتم (على تشويره) منى ، وليس لى عليكم من سلطان : لا سلطان قوة أقهركم بها وأجبركم على طاعتى ، ولا سلطان حجة أقنعكم به ، والفرق بين سلطان القهر وسلطان الحجة أنك تفعل مع الأول وأنت غير راض فأنت مُكْره ، أمّا مع سلطان الحجة والمنطق فإنك تفعل ما يُطلَب منك عن رضا واقتناع .

وربنا عز وجل حذرنا من إبليس ووسوسته ونزغه ، وعلمنا أننا لن نقهره إلا بالله خصوصاً بهذه (الروشتة) التى قال الله فيها : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت]

مجرد أنْ تُذكِّره بالله يخنس ويهرب ويتراجع ، فهو يقدر عليك

وحدك ، فإنْ لجأتَ إلى ربك خاف وفرَّ ؛ لأنه لا قدرةَ له ، ولا كيد مع ذكر الله ، لذلك قال بعض العارفين : قل هذه الكلمة بقوة وكأنك تراه وتصرعه .

فماذا نفعل إنْ جاء لأحدنا وهو يقرأ القرآن ؟ قالوا : يقطع قراءته ، ويقول بصوت أعلى وبأسلوب مغاير لقراءته : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وقد حاولنا أن نُقرِّب هذا المعنى لأذهان الناشئة فقلنا : لو أن أحد الأغنياء مثلاً يجلس فى (الشرفة) ليلاً ، فرأى لصاً يحاول دخول بيته ، فقام من مكانه ، وقال (إحم) ماذا يصنع اللص ؟ يهرب ، فإنْ قال فى نفسه لعلها مصادفة ، ثم عاد فى الليلة التى بعدها ، فتنبَّه له صاحب البيت ، وقال (إحم) عندها يفرّ بلا عودة ، فصاحب البيت متنبه غير غافل .

كذلك ، قَوْل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم يُفزع الشيطان ويطرده ، فإنْ عاد إليك مرة ومرة فقُلْ كلما شعرت بوسوسته ونزغاته : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، عندها سيعلم أنك (فقسته) ، وأنه لا مدخل له إليك .

وقد عرف الشيطان حين جادل ربه من أين يدخل على ابن آدم ، فقال : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] فهو كما ذكرنا ، لا يقعد فى خمارة مثلاً ، إنما يقعد فى المسجد ، فهو يعلم أنك فى عبادة ، وكُل مُناه أنْ يُفسد عليك عبادتك ، ألاَ تراه يُذكّرك فى الصلاة ما نسيتَ من مهمات الحياة ، وعلى المؤمن أنْ يقدِّر موقفه بين يدى الله ، وألاّ ينشغل بأى شىء وهو فى حضرة ربه .

فالصلاة هى الصراط المستقيم الذى سيقعد لك الشيطانُ عليه ؛ لذلك علَّمنا فقهاؤنا - رحمهم الله ورضى الله عنهم - أنْ نغيظ

الشـيطان ، فـإذا وسـوس لك في الصـلاة بـحـيث لا تدرى ، أصليتَ ركـعتـين أم ثلاثاً ، فاعـتـبرها ركـعتـين وابْنِ على الأقل ، كـذلك فى الوضوء وأمثاله من العبادات ، لتغيظه وتُيئسه منك .

وظاهرة السـهـو فى الصـلاة فى الحقـيـقـة ظاهرة صـحـيـة فى الإيمان ، فلا تُمرض نفسك بهـا ، وكُنْ قوىَّ الإيمان وتشجَّع على هذا العدو ، وقُلْ له : لن أعطيك الفـرصة لتفسـد علىَّ لقائى مع ربى ، قل هذا (واشخط شخطة إيمان) فإنك تحرقه ، وإن عاد فَعُدْ ، واعلم أن كيد الشيطان كان ضـعيفاً ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [النساء]

فلا قـدرة له عليك مـا دُمْت فى معـية الله ، وما دُمْـت ذاكراً لله ، عندك تنبُّه إيمانى ، وتنبُّه عقدى .

وسبق أنْ حكينا قصة الإمـام أبى حنيفة لما جاءه رجل يستـفتيه ويقـول : يا إمام ، لـقد كنتُ أخـفـيتُ مالاً فى مكـان فى الصحـراء ، وعلَّمته بحجـر ، فجاء السـيل فطمسـه حتى ضللتُ مكانه ، فـضحك الإمـام وقال للرجل بمـا لديه من خـبرة وتمـرُّس وملَكة فى الفـتيـا : يا بنى ليس فى هذا علم ، لـكنى سأحـتال لك ، اذهب بعـد أنْ تصلى العشاء ، فـتوضـأ وضوءاً جديداً بنيـة أنْ يهديك الله إلى ضالتك وصلِّ لله ركعتين ، ثم أخبرنى ماذا حدث .

فعل الرجل ما أوصاه به الإمام ، فجاءه إبليس ليفسد عليه صلاته وقال له : إن المال فى مكـان كذا وكذا ، فراح فوجـد المال ، ثم عاد إلى الإمام فـأخبـره فقـال : والله لقد علمتُ أن الشـيطان لا يدعك تُتِم ليلتك مع ربك .

إذن : فَثِق بكلمـة (أعوذ بالله من الشـيطان الرجيم) وقُلْهـا بقوة

إيمـان ، أيقول الله قَـوْلة يأتى واقع الحـياة من المـؤمن به ليكذبهـا ؟ وجَرِّبها أنت بنفسك .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [سبـأ] ما دام أنه ليس لإبليس سـلطان على بنى آدم ، وما دام أنهم على (تشـويرة) منه ، فـلا بُدَّ أنَّ إيمانـهم غيـر راسخ ، وأنهم نَسُـوا حكماً من أحكام الله ؛ لأنه سـبـحانه حـذرهم منه ووصف لهم طريقة التغلب عليه فلم يفعلوا .

فكانت غواية إبليس لهم ﴿ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِـمَّنْ هُوَ مِنْهَـا فِي شَكٍّ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [سبـأ] أى : علْم وقـوع ، وإلا فـالحق سـبـحـانه يعلم ما سيكون منهـم أزلاً ، لكن لا بُدَّ أنْ يحدث منهم الفعل لتقـوم الحجة عليهم كالمعلم الذى يرى على تلميذه علامات الفشل ، فيحذره ، فحين يدخل الامتحـان ويرسب فيه يأتى يعاتب أستـاذه أنه بشَّره بالرسوب فيـقول المعلم : وهل أمـسكتُ بيدك ومنعتُك من الإجـابة ، لقد حكمتُ عليك من خلال المقدمات التى رأيتها منك .

ومع ذلك كـان من المـمكن أنْ يغشَّ هذا التلمـيـذ فى الامـتحـان وينجح رغم مـا قـاله المـعلم ؛ لأن علمـه علْمٌ ناقص ، أمـا علم الحق سبحانه فعلْم تام . إذن : فعلْم الوقوع ألزم للحجة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [سبأ] حفيظ صيغة مبالغة من الحفظ ، فالله تعالى حفيظ على الكنوز وعلى الأرزاق وعلى العلم وعلى كل شىء ، كـما قـال سبـحـانه : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَـزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَـدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر] وما دام الله تعالى هو الحفيظ ، فلا أحدَ يستطيع أنْ يخل بهذه القضـية :

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

ينتقل الحق سبحانه إلى قضية عامة ، هى قضية هؤلاء القوم الذين يعبدون غير الله ويجادلهم ، ليُظهِر لهم فساد مسلكهم وبطلان عبادتهم دون الله ، وقد ردَّ هؤلاء فقالوا : **﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. ③ ﴾** [الزمر]

ونقول أولاً : ما هى العبادة ؟ العبادة أنْ يطيع العابدُ أمرَ معبوده ونهيه ، فإذا كان الكفار يعبدون الشمس أو القمر أو الأصنام ... إلخ بماذا أمرتهم هذه الآلهة ؟ وعن أى شيء نهَتْهم ؟ ماذا أعدَّتْ هذه الآلهة لمن عبدها من الثواب ؟ وماذا أعدتْ لمن كفر بها من عقاب ؟

إذن : أنتم كاذبون فى كلمة نعبدهم ، وإذا كنتم تعبدونهم ليقربوكم إلى الله زُلْفى ، فلماذا لا تتوجهون بالعبادة إلى الله مباشرة ؟ فكيف تعبدون آلهة بلا منهج ولا عمل لها فيمن عبدها ، ولا عمل لها فيمن كفر بعبادتها ؟

وهذه المخلوقات التى يعبدونها من دون الله مخلوقة لله مُسخَّرة له سبحانه مُسبِّحة ، وهى بريئة من هذا الشرك ولا ترضاه ، بل هى أعبد لله منهم ؛ لذلك نطقتْ الأحجار على لسان هذا الشاعر[1] وقالت :

---

(١) الشيخ رضى الله عنه من قصيدة فى الهجرة النبوية .

عَبَدُونَا ونَحْنُ أعْبَدُ لله مِنَ القَائمينَ فى الأسْحَارِ
تَخِذُوا صَمْتَنا علَيْنا دَليلاً فَغَدَوْنَا لَهم وقُودَ النَّارِ
قَدْ تجنَّوْا جَهْلاً كَما قَدْ تَجنَّوْه على ابْنِ مَريمَ والحَوارى
لِلْمغَالِى جَزَاؤُهُ والمُغَالَى فيه تُنْجِيه رَحْمةُ الغَفَّار

فالحق سبحانه يناقشهم فى هذه المسألة : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ .. (٢٢) ﴾ [سبأ] ادعوا هذه الآلهة المدَّعَاة ، لكنهم لم يدْعُوا ، لعلمهم أن آلهتَهم المزعومة لن تجيب ؛ لذلك أكمل الله لهم وأظهر لهم النتيجة : لو دعوتُم هذه الآلهة ، فإنهم ﴿ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ .. (٢٢) ﴾ [سبأ]

فعلام إذن تعبدونهم ، وهم لا يملكون شيئاً ، ولم يصنعوا لكم معروفاً ، ولا قدَّموا لكم خدمة ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا .. (٢٢) ﴾ [سبأ] أى : فى السموات والأرض ﴿ مِن شِرْكٍ .. (٢٢) ﴾ [سبأ] يعنى : مع الله ، أى ليس لهم مع الله شركة فى مسألة الخَلْق ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) ﴾ [سبأ] يعنى : لم يعاونوا الله حين خلق السموات والأرض ، والظهير هو المعين القوى ، ومنه قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) ﴾ [التحريم]

والظهير من الظهر ، وهو أقوى الأعضاء فى الحمل ، وفى الدفع ، فالظهير : الذى يعاونك ويساندك بكل قوته .

والذين يدعون من دون الله آلهة يُحاجُّون بأشياء متعددة أولاً : الحق سبحانه وتعالى خلق الإنسان ، وجعله خليفة له فى الأرض ، وخلق له مُقوِّمات حياته قبل أنْ يخلقه ، وتركه يرتع فى نعمه ولم يُكلِّفه بشىء حتى سِنِّ البلوغ والنضج ويبلغ الإنسان سِنَّ النضج

حين يصبح قادراً على إنجاب مثله .

وسبق أنْ مثَّلنا ذلك بالثمرة ، فهى لا تنضج ، ولا يحلو طعمها في مذاق الإنسان ، إلا إذا استوتْ بذرتها ، بحيث إذا زُرِعَتْ أنبتت مثلها ، وهذا من لُطْف الله بنا ، وإلا لو حلَتْ الثمرة قبل نضج بذرتها لأكلنا الثمار مرة واحدة ، وانقطع نوعها بعد ذلك .

ويشاء الخالق سبحانه أن يجعل للتكاثر النسلى فى الإنسان تكاثراً نسلياً أعظم منه فى الخيرات بما يمثل احتياطاً واسعاً يُؤمِّن حاجة الإنسان ، فحبة البطيخ الواحدة تنتج شجرة بها عدة ثمار ، بها مئات البذور ؛ لأننا نزرع بعضها ونتسلى (بقزقزة) الكثير منها .

والحق سبحانه أخذ علينا ميثاق الذرِّ ، والبشر جميعاً فى ظهر آدم عليه السلام ، وأشهدهم على أنفسهم قبل أنْ تتأتى لهم شهوات النفس المعارضة لمنهج الله ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ .. (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

وهذا العهد فطرىٌّ فى النفس الإنسانية ، وما جاءت الأديان إلا لتنفضَ عن هذه الفطرة غبار الغفلة وغبار الشهوات ؛ لذلك لم يأت الرسل لتأسيس دين ، إنما للتذكير بهذا العهد القديم : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) ﴾ [الغاشية]

لذلك ، فالإنسان منا حين تتناوبه الأحداث ، وتعزّ عليه الأسباب ، ولا يرى مُنقذاً ، ترده هذه الفطرة إلى القوة الخفية التى ستنقذه ، فتجده يقول مستنجداً ومستغيثاً : يا هوه يعنى يا هو ، وهو ضمير غيبة ، إنما أشد إعلاماً من الاسم الظاهر ، لماذا ؟ لأنك حين تقولها

لا تنصرف إلا لغائب عن عينك واحد هو الله .

لذلك قال سبحانه : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① ﴾ [الإخلاص] ولم يقُلْ : قُلْ الله أحد ؛ لأنه لا يخطر ببالك حين تقولها إلا الله خصوصاً فى الشدة ، وحين تعزّ عليك الأسباب ، فلا يسعفك إلا ربك ، كما قال سبحانه : ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. ⑥⑦ ﴾ [الإسراء]

وفى الشدة والضيق لا يكذب الإنسان على نفسه ولا يخدعها ، فترى حتى الكفار عند الشدة يقولون : يا رب ، وتردُّهم الفطرة إلى الله الحق .

لكن ما دام الإيمان الفطرى بهذه القوة ، ما الذى يطمسه فى النفس الإنسانية ؟ قالوا : تطمسه الشهوات حين تتحرك فى اتجاه مخالف لمنهج الله ، فالمنهج يهدف إلى تهذيب الشهوات والغرائز والحدّ من عنفوانها ، ولا يُعَدُّ هذا تعدياً عليها ، وإلا فلماذا خلقها ؟

لا بُدَّ أن لها مهمة ، فالغريزة الجنسية مثلاً جُعلتْ لبقاء النوع ، ولم تُجعَل للشراسة والعربدة فى أعراض الآخرين ، كذلك جعل الله الغضب غريزة ولها مهمة ، فالحق أباح لك أنْ تغضب حين تُستغضب .

لذلك قالوا : مَن استُغضب ولم يغضب فهو حمار ، ومع ذلك يأمرنا ربنا بالحلم ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ[1] شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا .. ⑧ ﴾ [المائدة] يعنى : لا يُخرجك الغضب عن حَدِّ الاعتدال ، ولا يدعوك إلى الظلم ، فالحق سبحانه لا يكبت فيك هذا

(١) لا يجرمنكم شنآن قوم : أى : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل ، أى : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم ، أى : اعدلوا دائماً فالعدل أقرب للتقوى . [القاموس القويم ١٢١/١] .

الشعور ، لكن يقيده حتى لا نطغى بسببه .

وقصة سيدنا عمر فى هذا الموضوع وضعت لنا المبدأ ، فيُروى أن سيدنا عمر - رضى الله عنه - رأى قاتل أخيه زيد بن الخطاب فى المعركة ، فانصرف عنه ، فذكّروه : هذا قاتل أخيك ، فقال : وماذا أفعل به ، وقد هداه الله للإسلام ، فكأن الإسلام برَّد نار الثأر فى نفسه ، والإسلام كما علمنا يجُبُّ ما قبله[1] .

كذلك الإسلام يجبُّ الغضب - فلما واجه عمر قاتل أخيه قال له : يا هذا أدرْ وجهك عنى ، فإنى لا أحبك - قالها عمر بما عنده من غريزة الغضب - فقال الرجل : أو عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ قال : لا . قال : إنما يبكى على الحب النساء[2] ، يعنى : لا يهمنى تحب أم تكره ، المهم أن حقى محفوظ .

كذلك حب الاستطلاع غريزة ، جعلها الله فى الإنسان ليكشف بها أسراره فى الكون ، فلا تجعلها تلصُّصاً على أعراض الناس وأسرارهم .

إذن : ما جاء الدين ليكبت الغريزة أو ليقضى عليها ، إنما جاء ليعلو بها ويُهذِّبها ، ويقف بها عند حدِّ الاعتدال والمهمة التى خلقت

---

(١) عن عمرو بن العاص أنه حين جاء ليسلم قال : يا رسول الله ، إنى أبايعك على أن تغفر لى ما تقدم من ذنبى ولا أذكر وما تأخر ، فقال رسول الله ﷺ : يا عمرو ، بايع فإن الإسلام يجبُّ ما كان قبله ، وإن الهجرة تجبُّ ما كان قبلها ، قال : فبايعته ثم انصرفت . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥) .

(٢) قد ورد فى هذا المعنى عدة روايات ، منها ما قاله عمر بن الخطاب لطليحة الأسدى : قتلتَ عكاشة بن محصن لا يحبك قلبى . قال طليحة : فمعاشرة جميلة يا أمير المؤمنين ، فإن الناس يتعاشرون على البغضاء . [عيون الأخبار لابن قتيبة ٣/٩] ونقل ابن قتيبة (٣/١١) أن بعض الخلفاء قال لرجل : إنى لأبغضك . قال : يا أمير المؤمنين ، إنما يجزع من فقد الحب المرأة ، ولكن عدل وإنصاف .

من أجلها ؛ لذلك قلنا : إن الإسلام يجمع للمؤمن في بعض المواقف بين الشيء ومقابله كما في قوله سبحانه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

ورحم الله الإمام علياً - رضى الله عنه - حين قال[1] :

لئنْ كُنْتُ مُحتَاجاً إلى الحِلْم إنَّنى ... إلى الجَهْلِ فى بَعْضِ الأحَايينِ أحْوَجُ
وَلِى فَرَسٌ للحِلْم بالحِلْم مُلْجَم ... ولِى فَرَس للجهْلِ بالجْهلِ مُسْرَجُ
فمَنْ رَامَ تَقْويمى فَإنِّى مُقوَّم ... ومَنْ رامَ تَعْويجى فَإنِّى مُعْوَجُ

فالشدة مطلوبة ولها موضعها ، والذلة مطلوبة ولها موضعها ، إذن : الموقف الإيمانى هو الذى يصنعك ، والمنهج إنما جعله الله لتستقيم به أمور الحياة ، فإذا كلَّفك الله بشىء يصادم شهوة فى نفسِك ، فلا تقُلْ إن الشرع صادم شهوتى ، بل خُذْها من باب الكرم الواسع ، وقُل وصادم شهوات الآخرين من أجلى ، فالشرع حين قال لك : لا تسرق وأنت واحد قال للملايين : ألاَّ يسرقوا منك .

وحين تصطدم الفطرة السَّوية والتديُّن الطبيعى بشهوات النفس يبحث الإنسان عن تديُّن يُرضى شهواته ويُشبع غرائزه ، فهو يريد أنْ يكون متديناً ، وفى الوقت ذاته يريد ألاَّ تُقيِّد شهواته ، فماذا يفعل ؟ يلجأ إلى عبادة آلهة بلا منهج وبلا تكاليف ، ومن هنا عبد الناسُ غير الله ، ودَعْك ممن عبدوا الأشجار والأحجار ، وتأمل الذين عبدوا الملائكة مثلاً ، هل أمرتهم بشىء أو نهتهم عن شىء ؟

لذلك الحق سبحانه يقول : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ..

---

(١) أورد هذه الأبيات ابن قتيبة الدينورى فى كتابه « عيون الأخبار » (١/ ٢٨٩) ولكن عزاها لمحمد بن وهيب وليس للإمام على .

(٢٢) ﴾ [سبا] ولو بحثنا مسألة الشركاء بالعقل لظهر بطلانها وكذبها ، فإذا كان لله تعالى شركاء ، ومعه سبحانه آلهة أخرى ، فأين هم ؟ أدروْا بأن الله تعالى استبدَّ بالألوهية ، وشهد بها لنفسه ، وأعلنها صراحة من دونهم ؟ إنْ كانوا على دراية بذلك ، فلماذا تركوه سبحانه يستبد بالألوهية ؟ وإنْ كانوا لم يدروا بذلك فهم آلهة نيام ، وفى كلتا الحالتين لا يستحقون هذه الألوهية .

لذلك الحق سبحانه يمسُّ هذه القضية مساً جميلاً ، فيقول : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) ﴾ [الإسراء] يعنى : لو كان صحيحاً وجود آلهة مع الله لَذَهبوا إليه ليناقشوه ، لماذا استبدَّ بالألوهية من دونهم ، أو لذَهبوا إليه ليتقوه ، وليتقربوا إليه .

وأرقى ما يعبد المشركون يعبدون الملائكة ، وكأن عبادتهم أصبحتْ قريبة من عبادة الله ، والله يقول عن الملائكة : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) ﴾ [الأنبياء]

ويردُّ القرآن عليهم : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ .. (٥٧) ﴾ [الإسراء]

فهؤلاء الملائكة الذين تعبدونهم من دون الله هم أنفسهم يتقربون إلى الله ويتوسَّلون إليه ، الأقرب منهم يتوسَّل إلى الله ، ويحب أن يكون أكثر قُرْباً ، فإذا كان الأقرب هو الذى يبتغى الوسيلة والقرب ، فما بالك بالقريب ؟ وما بالك بالبعيد والأبعد ؟

إذن : أنتم أغبياء بعبادتكم الملائكة ، وهل تظنون أن خَلْقاً من خَلْق الله كالملائكة يرضى أنْ تعبدوه من دون الله ، أو يقبل أنْ يشفع لك عند الله ، هذا سَفَه فى التفكير .

فالحق سبحانه وضع شروطاً للشفاعة ، فقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩) ﴾ [طه]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ (٢٣) ﴾

قال العلماء: يُشترط للشفاعة شرط في المشفوع له أن يكون من أهل التوحيد ، وشرط في الشافع أنْ يُؤذن له بالشفاعة ، كما قال تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة] فلا يقوم الشافع فيشفع مباشرة ، إنما ينتظر أنْ يُؤذَن له بها ، وهنا يضطرب المشفوع له ويفزع ، ويكون قلقاً : يا ترى أيُؤذن للشافع ؟ أم تُرَد شفاعته ؟

لذلك يقول تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ .. (٢٣) ﴾ [سبأ] يعني : أُزيل عنها الفزع . فالتضعيف في (فُزِّع) أفاد إزالة الحدث المأخوذ منه الفعل ، كما نقول (مرَّضه) يعني : أزال مرضه و (قشَّر البرتقالة) يعني : أزال قشْرتها ... إلخ .

﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ .. (٢٣) ﴾ [سبأ] أي : قال القول الحق ، وأذن بالشفاعة لمن ارتضى .

وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ.. (٢٣) ﴾ [سبأ] ولم يقُلْ تُقبل الشفاعة ؛ لأن هدف الشافع أن تنفع الشفاعةُ المشفوعَ له ، فإذا ما ذهب ليشفع له قال له المشفوع عنده : أنا لا أرضى أنْ تشفع

للمشفوع له ، فالذى انتفى نَفْع الشفاعة لا قبولها ، فَفَرْق بين أنْ توجد الشفاعة ، وبين أنْ تنفع الشفاعة .

وفى سورة البقرة آيتان فى الشفاعة صدرهما واحد ، لكن العَجُز مختلف ، ففى الأولى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [البقرة]

والأخرى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [البقرة]

وهاتان الآيتان من المواضع التى وقف أمامها المستشرقون ، وظنوا فيها مأخذاً على كلام الله ، فالمعنى واحد حتى اللفظ هو هو ، لكن فى الأولى قدَّم ﴿ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [البقرة] وفى الأخرى قدَّم : ﴿ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ .. ﴿١٢٣﴾ ﴾ [البقرة] وفى الأولى قال ﴿ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [البقرة]

وهذا الاعتراض منهم نتيجة عدم الفهم عن الله ، فالآيتان تتحدثان فى الشفاعة عن نَفْسين . الأولى : النفس الشافعة . والأخرى : النفس المشفوع لها ، الشافع له موقف مع الله ، والمشفوع له ، له موقف قبل ذلك ؛ لأنه لم يأتِ بالشافع إلا لأنه لم يقدر على إنهاء المسألة بنفسه ، فالضمير يعود فى الآية الأولى على الشافع ، وفى الأخرى على المشفوع له ، كيف ؟

المعنى هنا : لا تجزى نفسٌ شافعة عن نفس مشفوع لها ، النفس الشافعة هى التى يُقبل منها الشفاعة ، والنفس المشفوع لها هى التى تنفعها الشفاعة ، إذن : الآية الأولى تخصُّ الشافع ؛ لأنه يذهب ليشفع

فلا يُقبل منه ، فيعرض أنْ يدفع هو العدل ، ويكون كفيلاً فيما على المشفوع له ، فلا يُقبل منه أيضاً .

أما الآية الأخرى فهى فى المشفوع له ؛ لأنه يعرض أن يدفع ما عليه أولاً فلا يُقبَل منه عدل ، فيبحث عمَّنْ يشفع له .

وسُمِّيت شفاعة ؛ لأن الشَّفْع يقابل الوتر ، وصاحب الحاجة الذى يطلب الشفاعة واحد ، فإذا انضم إليه الشافع ، فهما اثنان يعنى : شفع .

ثم يقول سبحانه فى ختام الآية : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) ﴾ [سبأ] علىٌّ أنْ يُناقَش فى أى قرار يتخذه ، وكبير يعنى أكبر من الشافع ، وأكبر من المشفوع له . فالحق سبحانه قال الحقَّ ونطق به ، وهذا يعنى أنه وقف بجانب الحق ، فلم يعبأ بشافع مهما كانت منزلته ، ولا بمشفوع له مهما كانت ذلَّته ورقَّته ؛ لأنه سبحانه هو العلىُّ الكبير .

وبعد ذلك يعود الحق سبحانه إلى مناقشة المسألة مناقشة عقلية ، فيقول :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾

أى : قُلْ لهم يا محمد : مَنْ يرزقكم من السموات والأرض ؟ لكن إذا كان محمد هو المستفهم منهم ، فمَنْ يجيب ؟ بالطبع هم لن يجيبوا ؛ لذلك أجاب الله (قل الله) فهذه حقيقة لا يستطيعون مجابهتها ، ولو اعترفوا بها لَقُلْنا لهم إذن : لماذا لم تؤمنوا بالله وهو رازقكم ؟

أيليق بكم أنْ تكفروا به وهو الرازق ، وتؤمنوا بآلهة أخرى لا تنفعكم ولا تضركم ؟ فاعترافهم بهذه الحقيقة يلزمهم الحجة ، ويقيم عليهم الدليل على سَفَه تفكيرهم ، وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يُعفيهم من هذا الحرج ، فأجاب بدلاً منهم .

والحق سبحانه يسألهم هذا السؤال ؛ لأن الإجابة لن تكون إلا على وَفْق مراده سبحانه وتعالى ، كما لو اشتريتَ مثلاً (بدلة) لشخص ما وفى موقف من المواقف أنكر جميلك ، فتقول له : مَن الذى اشترى لك هذه (البدلة) ؟ أنت لا تسأل هذا السؤال إلا وأنت واثق أن الإجابة ستكون فى صالحك ، وأنه لا يستطيع الإنكار ، فلو أنكر ستقول له : تعال إلى التاجر الذى اشتريتها منه لنرى مَن الذى اشتراها ، فأنت إذن تملك إقامة الدليل عليه إنْ أنكر .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾ [سبأ]

الهدى : هو الدلالة على الخير والطريق إليه ، والضلال : أنْ تضلَّ عن الخير والدلالة إليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ (٧) ﴾ [الضحى]

والهدى والضلال من المتناقضات فى الدين ، والمتناقضان لا يجتمعان أبداً ، فلا بُدَّ أنْ يكون واحد على هدى والآخر على ضلال . كثيرون لا يفهمون الفرق بين الضد والنقيض ، الضد شىء يضادّ شيئاً ، لكن لا ينفيه ، كما تقول مثلاً : الشىء الفلانى أحمر أم أخضر ؟ فيقول لك : لا أحمر ولا أخضر إنما أبيض ، إذن : الضّدانِ لا يجتمعان وقد يرتفعان معاً ، لا هذا ولا هذا ، بل شىء آخر . أما النقيضان فإنِ ارتفع واحد ثبتَ الآخر ، كما هنا فى الهدى والضلال .

فمعنى ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سبأ] إنْ كان أحدنا على الهدى فلا بُدَّ أنْ يكون الآخر فى الضلال ، ولا ثالث لهما ، والحديث هنا عن منهج خير فى جانب الإيمان ، ومنهج شرٍّ فى جانب الكفر ، فرسول الله يقول لهم : نحن وأنتم على طرفى نقيض ، نحن نقول لا إله إلا الله وندعو إلى الخير ، وأنتم تكفرون بالله وتدعون إلى الشر ، ومع ذلك لا أحكم لى بالهدى ، ولا عليكم بالضلال ، بل أقول : أنا وأنتم على النقيض ، إنْ كان أحدنا على الهدى فالآخر فى الضلال .

بالله عليكم ، هل رأيتم حِجَاجاً أرقّ من هذا الحِجَاج ؟ فرسول الله لم يحكم لنفسه وللمؤمنين معه بالهدى رغم وضوحه فى جانبهم ، ولم يحكم على الكفار بالضلال رغم وضوحه فى جانبهم ، ومثال ذلك ، لو حلف رجلان على شيء واحد أمام رجل أعمى أيقول لواحد : أنت صادق ، وللآخر أنت كاذب ؟ لا ، بل يقول : واحد منكما صادق ، والآخر كاذب ، فهذا حكم أوَّلى لا يُلزم أحداً .

لكن ، حين تبحث القضية يتضح لك مَنْ على هدى ومَنْ فى ضلال ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سبأ] كلمة ﴿ لَعَلَىٰ هُدًى .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [سبأ] على تفيد الاستعلاء ، كأن الهدى لا يستعلى عليك ، وإنما تستعلى أنت على الهدى وتكون فوقه ، كأنه مطية تُوصِّلك للخير المطلوب وللطريق المستقيم ، فساعةَ تقرأ (عَلَى) فاعلم أن هناك مكاناً عالياً ، وهناك ما هو دون هذا .

وتأمل مثلاً قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الرعد] فالمغفرة تعلو الظلم ؛ لأن الظلم يقتضى أنْ تُعاقب ، فتأتى المغفرة فتعلو عليه وتمحو أثره ، وبعض المفسرين يرى أن

(على) هنا بمعنى (مع) أى مع ظلمهم[1] ، والمعية لا تستقيم هنا ؛ لأنها تسوِّى بين الظلم والمغفرة وتجعلهما سواء ، فكيف تتغلب المغفرة على الظلم بهذا المعنى ؟ إذن : لا بُدَّ أن تكون المغفرة على الظلم ، لا مع الظلم .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ للَّه الَّذى وَهَبَ لى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ .. (٣٩) ﴾ [إبراهيم] فقال ﴿ عَلَى الْكِبَرِ .. (٣٩) ﴾ [إبراهيم] لأن الكِبَر كان يمنعه أنْ ينجب ، فالحق سبحانه خرق له هذه القاعدة ، وأعطاه إسماعيل وإسحاق على كِبَره[2] ، وقلنا : إن الكِبَر هو أقوى الأحداث التى يتعرَّض لها الإنسان ؛ لذلك قال سيدنا زكريا عليه السلام : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ منَ الْكِبَرِ عتيًّا (٨) ﴾ [مريم]

والعُتُو يعنى : الجبروت والقوة ، أما الكِبَر فضعْف وهُزَال وعدم قدرة على أبسط الأشياء مهما قاومه بالغذاء وبالفيتامينات ، فلا شىء يَقْوى عليه أو يمنعه ؛ لذلك إذا تعددتْ الداءات فى الجسم فلا مرجع لها إلا الكِبَر ، والإنسان بعد سنِّ السبعين والثمانين يشتكى كل شىء فى جسمه ؛ لذلك يسمونها أمراض الشيخوخة . يعنى : لا سببَ لها إلا كِبَر السن .

إذن : نقول ﴿ لَعَلَىٰ هُدًى .. (٢٤) ﴾ [سبأ] أى : أن الهدى سيكون مطيتك التى توصلك إلى الجنة وإلى النعيم ، أما الضلال فقال ﴿ فِى ضَلالٍ .. (٢٤) ﴾ [سبأ] وكأنها ظلمة تحيط بالضالِّ وهو يتخبط فيها ،

(١) ذكره جمال الدين بن هشام الأنصارى فى كتابه « مغنى اللبيب » (١/١٢٦) أن على تأتى حرفاً بمعنى « المصاحبة كمع نحو ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّه .. (١٧٧) ﴾ [البقرة] ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦) ﴾ [الرعد] » .

(٢) قال ابن عباس : كان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة عندما وُلد له إسماعيل ، وجاءه إسحاق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة [تفسير القرطبى ٥/٣٧١٢] فبين إسماعيل وإسحاق ١٣ عاماً .

لا يدرى أين يذهب ، ومعنى ﴿ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سبا] واضح بيِّن .

﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

هذا تلطف آخر وارتقاء فى حجَاج الكفار يُظهر مدى حرص سيدنا رسـول الله ﷺ على أنْ يستلَّ الضـغيـنة من نفوس الكفـار ، وتأمل : ﴿ لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [سبا] فيجعل رسول الله الإجرام فى جانبه هو ولم يُسَوِّ هذه المرة بـين الطرفين ، كما قال هناك ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [سبا] إنما وصف فعْله بالإجرام وقال عن الكفار ﴿ وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سبا] ولم يَقُلْ تجرمون .

وفى الآية دقيقة أخرى ، هى ورود (أَجْرَمْنَا) بصيغة الماضى ، كأن الإجرام حـدث بالفعل ، أما هم فـورد الفعل (تَعْلَمُونَ) بصيـغة المـضارع ؛ ليـدل على أنه لم يحـدث منهم بعـد ، وهذا تلطف آخـر ، وارتقـاء فى النقـاش ، وتودُّد إلى الخَـصْم علَّه يرعـوى ، فـيفـرح الله بتوبته وعودته إلى رحابه .

وهذا الأسلوب الجدلى فى الآيتين لا يتـأتَّى إلا من المجادل القوى الحجة الذى لا تنزله عنها زَلَّة سابقة من خَصْمه . ومثل ذلك قولنا فى المناقشـة : سلَّمنا جدلاً بكذا وكذا ، ونرضى لأنفـسنا بالأقل ، لماذا ؟ لأنك تعلم أنك عـلى الحق ، وقـوة الجـدل لديك تجـعلك على ثقـة بأن البحث فى المسألة سينتهى لصالحك .

لكن ، مع ذلك كـيف يأمـر الحق سـبحـانه نبـيـه ﷺ أنْ ينسب الإجرام إلى نفسه ؟ قالوا : لأن الجُرْم يختلف باختلاف المخاطب به ، كما قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

ثم تنتهى الآيات إلى خلاصة هذه القضية فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾

المعنى : لن نطيل معكم النقاش والحجة ؛ لأننا نتكلم بالحق وأنتم تتلاعبون بالباطل ، فالخلاصة معكم أنْ يفصل اللهُ بيننا وبينكم فى محكمته الإلهية ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [سبأ] أى : يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [سبأ] أى : يحكم ويقضى ، وفى بعض بلادنا حتى الآن يقولون للقاضى : الفتاح ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سبأ] أى : الذى يحكم عن علم كامل ، ولا تَخْفى عليه خافية .

وسُمِّى الحكم فَتْحاً ؛ لأنه يفتح شيئاً عن شىء ويحدث فُرْجة بينهما ، فكأنهما كانا متشابكين ، بحيث يلتبس الحق بالباطل ، وكأنها معركة ، فيأتى الحكم فيفضُّ هذا الاشتباك ، وفَضُّ الاشتباك هذا هو الفتح ، ولا يفتح بين الحق والباطل إلا الله .

﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

الحق سبحانه يأمر نبيه ﷺ : قُلْ لهم : أرونى الذين أشركتم مع الله ، وهو ﷺ يراهم بالفعل ، يرى أصنامهم التى يعبدونها من دون الله ، فما فائدة ﴿ أَرُونِيَ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [سبأ] ؟ قالوا : لأنه حين يطلب منهم هذا المطلب يعلم أنهم يَسْتحون أنْ يشيروا إليها ، ولا يجرؤون على ذلك ؛ لأنهم يعلمون أنها أحجار صمَّاء ، لا تضر ولا تنفع .

ومعنى ﴿ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ .. (٢٧) ﴾ [سبأ] من الإلحاق ، وهو أنْ تأتى بشيء جديد تُلحقه بشيء ثابت ، فكأن ألوهية الله هى الألوهية الحق الثابتة ، وآلهتهم الجديدة طارئة عليها ، ليست أصيلة ، فالإيمان ثابت وأصيل وفطرىٌّ فى النفس الإنسانية ، أما هذه الآلهة فمُحْدثة طارئة باطلة ، لذلك ينفيها بقوله ﴿ كَلاَّ .. (٢٧) ﴾ [سبأ]

ثم يُضرب عن هذا الكلام السابق ليثبت الألوهية لله وحده ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾ [سبأ] و (بل) تفيد الإضراب عما قبلها وإثبات الحكم لما بعدها ، فالإله الحق هو الله .

وفى موضع آخر ، يناقشهم الحق سبحانه : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢) ﴾ [الأنبياء] ونعلم من دراساتنا النحوية أن (إلاَّ) أداة استثناء ، تفيد إخراج ما بعدها من حكم ما قبلها ، وأن المستثْنَى بعدها منصوب ، كما نقول : حضر الطلاب إلا محمداً .

فلو طبَّقْنا هذه القاعدة على هذه الآية لكَان المعنى : لو كان فيهما آلهة خارج منها الله لَفَسدتا ، لكن لو كان فيهما آلهة والله معهم لم تَفْسدا ، هكذا منطق الآية إذا أُخذَتْ (إلاَّ) على أنها أداة استثناء للإخراج ، إنما (إلا) هنا ليست حرفَ استثناء ، بل هى اسم بمعنى (غير)[1] ، بدليل أن ما بعدها وهو لفظ الجلالة مرفوع وليس منصوباً على الاستثناء ، فالمعنى : لو كان فيهما آلهة غيرُ الله لفسدتا .

وقوله : ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ .. (٢٧) ﴾ [سبأ] جاء هنا أيضاً بضمير الغيبة (هُوَ) ، ومعلوم أن ضمير الغيبة لا يأتى إلا إذا سبقه مرجع ، تقول : جاءنى على فأكرمتُه ، إلا مع الله سبحانه وتعالى ، فإن هو تسبق المرجع ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ .. (٢٧) ﴾ [سبأ] لماذا ؟ قلنا : لأنه ضمير لا ينصرف إلا لغائب واحد هو الموجود الأعلى سبحانه .

---

(١) ولما كانت إلا بمعنى غير أُعْرب الاسم الذى بعدها (الله) إعراب غيرِ فرفع .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) ﴾

معنى ﴿ أَرْسَلْنَاكَ .. (٢٨) ﴾ [سبأ] أى : جعلناك رسولاً ﴿ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ .. (٢٨) ﴾ [سبأ] كلمة كافة تبين منزلة الرسول الخاتم ، فقبل بعثة سيدنا رسول الله كان الرسول يُبعث لقوم مخصوصين ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

ذلك ، لأن البشر لما تكاثروا كما قال سبحانه : ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً .. (١) ﴾ [النساء] تفرَّقوا فى أنحاء الأرض هنا وهناك ، والعالم لا يزال فى طفولة فطرته ، ليس فيه ارتقاءات للقاء بين هذه الجماعات ، فكانت جماعات منعزلة ، لا اتصال بينها ، ولكل بيئة منها داءاتها : فهؤلاء يُطفِّفون الكيل والميزان ، وهؤلاء يعبدون الأصنام ... إلخ فيأتى الرسول إلى قوم مخصوصين ليعالج داءهم لا علاقة له بغيرهم .

أما سيدنا رسول الله ، فكان هو الرسول الخاتم المبعوث للناس كافّة ؛ لأن الله تعالى علم أزلاً أنه سيأتى على التقاء مع الدنيا كلها ، وعلى اتصال بين الجماعات التى كانت مُتفرِّقة ، وها نحن الآن نعيش عالم القرية الواحدة ، وما يحدث فى أقصى بلاد الدنيا نسمعه ونراه فى وقته ، وما دام العالم التقت مجتمعاته وقاراته ، فالداءات واحدة ؛ لذلك جاء رسول واحد ليعالج كل الداءات فى كل المجتمعات ، هذا

معنى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ .. (٢٨) ﴾ [سبأ]

ومعنى أنه ﷺ خاتم الرسل أنه مشهود له ، وليس شاهداً لغيره ، فقد أخذ الله تعالى العهد على الرسل ، أنه إذا جاء محمد يشهدون له فشهدوا له جميعاً ، أما هو ﷺ فلم يشهد لأحد ؛ لأنه لم يأتِ بعده رسول .

قال العلماء فى كلمة ﴿ كَافَّةً .. (٢٨) ﴾ [سبأ] يعنى : للناس جميعاً ، ففى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا .. (١٥٨) ﴾ [الأعراف]

يعنى : لم تَعُدْ هناك خصوصية ، لا زمانية ولا مكانية . وحين نتأمل كلمة ﴿ كَافَّةً .. (٢٨) ﴾ [سبأ] نجد لها مناسبة فى واقع لغتنا ، استقر على ألسنة العامة : نشاهد الخياط مثلاً حين يخيط ثوباً يُعمِل المقصَّ فى القماش ، فيقطعه إلى لُحمة وسُدة ، لكن تخرج خيوط الثوب من خلال أطرافه كما نقول القماش (بينسِّل) فيجمع الخياط هذه الأطراف بعضها إلى بعض ، بحيث تكون أطراف القماش إلى الداخل ، وهذه العملية نسميها (كفكفة) القماش ، أو نسميها الآن (السَّرْفلة) .

ومن ذلك كلمة (كَافَّة) يعنى : جَمْع شتات الناس فى كل زمان ومكان ، بحيث لا يخرج منهم جنس ولا جماعة ، ولا يشذّ عن منهجه أحد .

وعندنا فى الفلاحين نبات ينمو على حوافّ القنوات اسمه النجيل ، وهو غير الحشيش المعروف ، والنجيل لا يرتفع عن سطح الأرض ، وتتشابك عيدانه وجذوره بحيث يمنع هذه الحوافّ أن تنهار ، أو يسقط منها الردم فيسدّ القناة ، فكأن النجيل أدى مهمة هى كفّ

الردم ومنعه أنْ ينهار يعني : كفّ جنساً أن يشرد عن مهمته .

وكلمة ﴿ كَافَّةً .. (٢٨) ﴾ [سبا] من كفّ الشيء يكُفُّه ، فهو كافٌ ، وزيدت تاء التأنيث للمبالغة ، كما في عالم وعلاَّم وعلاَّمة ، لذلك يقول ربنا عن نفسه سبحانه : ﴿ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٧٨) ﴾ [التوبة] فإنْ قُلْتَ : لماذا لم يَقُلْ علاَّمة ؟ نقول : لأن علْم الله تعالى لا يترقى بلاغة وقلَّة .

فمعنى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ .. (٢٨) ﴾ [سبا] يعني : تكفُّهم وتمنعهم عن كل شر يفسد الصلاح في الأرض ، وهذه هي مهمة المنهج الذي جاء به سيدنا رسول الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا .. (٥٦) ﴾ [الأعراف]

إذن : كلمة ﴿ كَافَّةً .. (٢٨) ﴾ [سبا] إما وَصْف للناس بمعنى جميعاً ، وإما وَصْف لرسول الله بمعنى كافٌ للناس عن الشر ، والتاء للمبالغة .

ومعنى ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً .. (٢٨) ﴾ [سبا] من البشارة ، وهي أنْ تخبر بخير لم يَأْتِ أوانه بعد ، ويقابلها النذارة ، وهي أن تخبر بشرٍّ لم يأْتِ أوانه بعد ، فميْزة البشارة أنها تخبرك بالخير القادم لك لتأخذ بأسبابه وتُقبل عليه وتجتهد في سبيله ، وأنت مشتاق إليه ، كذلك النذارة تحذرك من الخطر المقبل لتنصرف عن أسبابه وتدفعه عنك .

ومثال ذلك : المعلم الذي يُبشِّر التلميذ المجتهد بالنجاح والتفوق ، وينذر المهمل بالفشل والرسوب ، لماذا ؟ لأنه يريد من المجتهد أنْ يزيد في اجتهاده ، ومن الكسول المهمل أنْ يترك الكسل والإهمال ليتفوَّق هو الآخر .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨) ﴾ [سبا] أي :

لا يعلمون أنك الرسول الخاتم ، أو الرسول الذى جاء ليمنع الشر عن البشرية كلها ويصلح حركتها . وما دام أكثر الناس لا يعلمون ، فمعنى ذلك أن القلة هى التى تعلم ، وهذه القلة العالمة هى خميرة الخير فى الوجود ؛ لذلك نرى الناس مهما بالغوا فى الإلحاد ، وفى الخروج عن منهج الحق لا بُدَّ أن تخرج من بينهم هذه القلة التى تتمسك بالحق وتسعى إليه وتنادى به ، فهى موجودة فى كل زمان ومكان وإنْ قَلَّتْ

لذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ : « الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[1] .

إذن : لا بُدَّ أنْ تبقى فينا هذه القلة كنماذج وخليّات للخير ، ولاستبقائه بين الناس مهما أظلمتْ الدنيا من حولهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

المتأمل فى كتاب الله يجد الحق - سبحانه وتعالى - لم يجعل القرآن أبواباً منفصلة ، هذا للصلاة ، وهذا للزكاة ، وهذا للربا ... إلخ إنما يخلط هذه الأحكام فى نسق رائع ، ومزيج مشوِّق ، يراوح بين الأساليب ، فلا يملُّ منه قارئه ، ولا يزهد فيه .

القرآن ليس كتابَ قانون ، يُفرد فصلاً لكل جريمة ، إنما يتناول

(١) قال ابن حجر العسقلانى : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح . ذكره القارى فى « الأسرار المرفوعة » (٤٥٧) وكذا السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (٢٠) ، والعجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) .

الجريمة بأسلوب فريد ، فيذكر الجريمة ويُفظِّعها ويبين أثرها ، حتى إذا ما قرر العقوبة عليها تجد هذه العقوبة طبيعية تتقبلها النفوس ؛ لأن صاحب العقوبة يستحقها .

يقول تعالى حكاية عن الكافرين : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ .. (٢٩) ﴾ [سبأ] والوعد لا يكون إلا بالخير ، والوعيد يكون بالشر ، وعجيب أنْ يسمى الكفار القيامة وَعْداً ، فكان ينبغى أنْ يقولوا متى هذا الوعيد ، أو : أن الله تعالى لوى ألسنتهم ليقولوا كلمة الحق ، فهو بالفعل وَعْد حق من الله ، وإنْ كان فى حقهم وعيداً .

والوعد من الله فيه أشياء كثيرة ، خاتمته البعث والحساب ، ثم الجنة أو النار . لكن هل وَعْد الله لا يتحقق إلا فى الآخرة ؟ قالوا : لا بل يرونَ شيئاً منه فى الدنيا ، وإلا لو تركهم الله سالمين إلى أنْ يعاقبهم فى الآخرة لاستشرى فسادهم ، ولَعربد غير المؤمنين دون رادع لهم .

لذلك من حكمته تعالى أن يُعجِّل لهم شيئاً من وعده ، فيروْنَه فى الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] وفعلاً ، جاء يوم بدر وهزمهم الله ، وقُتل منهم مَنْ قُتل ، وأُسر منهم مَنْ أسر ، فكما صدقت فيهم المقدمات ، فسوف تصدق المتواليات فى الآخرة .

لذلك يخاطب الحق نبيه ﷺ بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر]

فمَنْ لم يتحقق فيه وَعْد الله فى الدنيا وتشاهده بعينيك ، فموعده الآخرة ، وإلا فهناك من الكفار مَنْ مات قبل بدر ، ولم يشهدوا انتصارات المسلمين وفتوحاتهم ، ولم ينَلْهم شيء من عقاب الدنيا .

وقولهم : ﴿ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [سبأ] استبطاء للعذاب .

ثم يأمر الله تعالى نبيه أنْ يرد عليهم : ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سبأ] هو يوم النصر عليهم ، كما في يوم بدر ، حيث أذاقهم الله الذلة والهوان والموت ، وقضى على جبروتهم ، أو هو يوم القيامة .

والذى ضرب لكم هذا الميعاد هو القادر على إنفاذه ، وليست هناك قوة تمنعه سبحانه أنْ يفي بما وعد ، أو حتى يُؤخِّره لحظة واحدة ، وهو سبحانه العليم بأن الآيات الكونية لا تشذّ عما أراد سبحانه .

وسبق أنْ بينَّا أن البشر حين يَعدُون لا يملكون أسباب الوفاء بوعودهم ، لذلك علَّمنا ربنا ـ عز وجل ـ أنْ نحتاط لذلك ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف]

لأن الله يحب لعبده أن يكون صادقاً ، فحين يعلق فعْله على مشيئة الله يُعفى نفسه من الكذب وإخلاف الوعد حين عدم الوفاء خاصة ، وهو لا يملك عنصراً واحداً من عناصره ، إذن : اطرح المسألة على مَنْ يملك كل هذه العناصر ؛ لذلك نُسمِّي الوعد من الناس وَعْداً ومن الله الوعد الحق يعني : الذى لا يتخلف أبداً .

ومعنى ﴿ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سبأ] أنه : ميعاد مضبوط ، وكأن الحق سبحانه يريد بذلك أنْ يستقبل الإنسانُ كلَّ المعطيات التى منحه الله ، وأنْ تظل دائماً في ذهنه لا يغفل عنها .

وجاء (يَوْمٍ) نكرة مبهمة ، والإبهام هنا هو عَيْن البيان ، كما

سبق أنْ أوضحنا ، فحين يبهم اللهُ مثلاً أجلَ الإنسان يظل دائماً متذكراً له ، ينتظره في أي وقت ، ويتوقعه في كل نفَس ، وفي كل لحظة دون أنْ يربطه بمرض أو غيره ، فالموت من دون أسباب هو السبب .

ثم يقول الحق سبحانه :(١)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ(٢) ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

قولهم ﴿ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [سبا] يدل على لجلجتهم ، ففي موضع آخر حكى القرآن عنهم قولهم : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] ومعنى هذا أن القرآن لا غُبارَ عليه ولا اعتراضَ ، الاعتراض على مَنْ نزل عليه القرآن ، كذلك من الغباء قولهم : ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص] فاعترفوا أنه جاء بالهدى .

ومثله قولهم : ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون]

---

(١) يريد كفار قريش . وقال ابن جريج : قائل ذلك هو أبو جهل بن هشام . ذكره القرطبي في تفسيره (٥٥٧١/٨) .

(٢) قال القرطبي في تفسير الآية (٥٥٧١/٨) : « قيل : إن أهل الكتاب قالوا للمشركين صفة محمد في كتابنا فسلوه ، فلما سألوه فوافق أهل الكتاب قال المشركون : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي أنزل قبله من التوراة والإنجيل بل نكفر بالجميع وكانوا قبل ذلك يراجعون أهل الكتاب ويحتجون بقولهم ، فظهر بهذا تناقضهم وقلَّة علمهم » .

صحيح ، الباطل لجلج ، يتخبط هنا وهناك في تفكير مُشوّش ليس له سيال واحد ، وهذا التخبط يكشف ما هم عليه من الباطل ، وقلنا : إن المحقق الماهر هو الذى يصل إلى الحقيقة من خلال مناقشة المتهم مناقشة تُوقعه دون أن يدرى ، ذلك لأن المتكلم بالحق يحكى واقعاً على هيئة واحدة ، فمهما أعدْتَ عليه السؤال يُجب إجابة واحدة .

أمّا الكاذب فلا يحكى واقعاً ، إنما يحكى كذباً واختلاقاً لا بُدَّ أن ينتهى بتضارب فى أقواله ، كالكذاب الذى جاء يحكى للناس يقول : رجعت من (البندر) ليلة العيد الصغير ، وكانت الدنيا (قمر ظهر).

وقديماً ، قال العربى : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذكوراً . يعنى : تذكر ما سبق أنْ قُلْته ، ذلك لأنه لا يستند إلى واقع .

ومعنى ﴿ وَلا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ .. (٣١) ﴾ [سبأ] يعنى : الكتب السابقة على القرآن كالتوراة والإنجيل .

بعد أن قالوا هذا الكلام أراد الحق سبحانه أن يُقطع الرد عليهم فقال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ .. (٣١) ﴾ [سبأ] يعنى : يا محمد ﴿ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ .. (٣١) ﴾ [سبأ] يعنى : بين يدى الله ، ينتظرون الفصل والحساب .

تعلمون أن (لَوْ) أداة شرط تحتاج إلى جواب ، هذا الجواب حُذف من سياق الآية ليدلَّ على التهويل والتفظيع . وتقديره : ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم .. لرأيتَ أمراً عظيماً ، وهذا الأسلوب تذهب فيه النفس كلَّ مذهب ، وتتصور ألوان العذاب والذلة التى يعانيها الكفار فى هذا الموقف بين يدى الله عز وجل ، فحَذْف الجواب هنا أبلغ من ذكره .

كنا نرى (زمان) الرجل الظالم أو المتجبر أو (البلطجى) الذى يجلس طوال النهار على القهوة ، والناس تخدمه ، وتقضى له حاجته اتقاء شره ، لكن ساعة يقع فى أيدى العدالة وتأخذه الشرطة ، وأنتم تعلمون ما تفعله الشرطة بالمجرمين ، ساعتها يفرح الناس فيه ويتندَّرون به : لو رأيتم ما حدث لفلان ؟ يعنى : حدث له أمر عظيم يناقض جبروته الذى كان يمارسه على الناس ويكسر شوكته .

إذن : حُذف الجواب لنأخذه نحن على المحمل المخيف ؛ لأنه لو حكى واقعاً لجاء على لون واحد وهيئة واحدة .

لذلك ؛ وقف المستشرقون معترضين على قوله تعالى فى وصف شجرة الزقوم : ﴿ طَلْعُهَا [1] كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ [الصافات] يقولون : نحن لم نر شجرة الزقوم ، ولم نَرَ رؤوس الشياطين ، فكيف يُشبِّه القرآن مجهولاً بمجهول ؟

نعم ، ينبغى فى التشبيه أنْ تُشبِّه المجهول بالمعلوم ، والخفى بالجلى ، لكن هؤلاء يحاولون تصيُّد أخطاء أو مآخذ على كتاب الله ، وهيهات لهم ذلك ، وكل اعتراضاتهم على كلام الله تأتى من عدم فَهْم للآيات وعدم وجود الملَكة العربية وعدم الإلمام بلغة القرآن وأساليب العرب ، فهذا النهج فى التشبيه نهجه العربى القديم حين قال[2] :

---

(١) الطلع : نَوْر النخلة الذى هو أصل ثمارها ويكون صغير الحجم أبيض منظماً منضوداً . [القاموس القديم (١/٤٠٥)] قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٠) : « هذا تبشيع لها وتكريه لذكرها . قال وهب بن منبه : شعور الشياطين قائمة إلى السماء ، وإنما شبهها برءوس الشياطين لأنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر » .

(٢) هو : امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندى ، شاعر جاهلى ، أشهر شعراء العرب ، يمانى الأصل ، مولده بنجد عام ١٣٠ ق . هـ ، كان أبوه ملك أسد وغطفان ، قال الشعر وهو غلام ، جعل يُشبب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب فأبعده أبوه إلى حضرموت وهو فى نحو العشرين من عمره ، طاف قبائل العرب بعد أن طلبه المنذر ملك العراق ، حتى ولاه قيصر الروم إمارة فلسطين ، فرحل إليها ، ولما كان بأنقرة ظهرت فى جسمه قروح ، فأقام فيها إلى أن مات عام ٨٠ ق . هـ عن ٥٠ عاماً . [الموسوعة الشعرية – المجمع الثقافى ٢٠٠٣ - CD].

أَيَقْتُلُنِي والمشْـرَفِيُّ مُضَاجِعِي ومَسنُونة زُرْقٌ كـأنيابِ أغْوالِ[1]

هكذا رأى العربـي القديم أن أسنَّة الرماح كـأنياب الأغـوال ، فهل رأى أحد الغـول ؟ إذن : القرآن عـربي ، وخاطبَ العـربَ بأساليـبهم ، فيكـفي لتـبشـيع الصـورة أن تحاول أنـت أنْ تتـخـيل صورة الغـول أو صورة الشـيطان لتذهب نفسُك في بشـاعتها مَذاهب شتَّى مخيـفة مُـفْـزعـة ، بدليل أننا إذا قلنا لرسـامي الكـاريكاتيـر في العـالم كله : ارسموا لنا صـورة الشيطان ، فسوف يرسمهـا كل واحد منهم حَسْب رؤيته هو ، وستأتي صور مخـتلفة بعضها عن بعض ؛ لأن أحداً منهم لم يرَ الشيطان ، إنما تخيَّله .

تُرَى ، لو حدد القـرآن شكل شجـرة الزقوم وقال لك : إنهـا مثل كذا أو كـذا ، أيعطيك هذا التـشبـيه بشـاعة أكثرَ ممـا أعطتْكَ رؤوس الشياطين ؟ هكذا ربَّبَ الحق سبحانه هذا المعنى .

ثم تستـمر الآيـة في وصـف مـوقف هؤلاء الظالمـين بين يد الله تعالى، ويا ليـتها تنتهي عند الذلة والانكسـار ، إنما ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴾ [سبأ: ٣١] يعني : يتجادلون ويتنـاقشون ، يرمي كل منهم باللائمة على الآخـر ، ومعنى (يرجع) من المراجعـة ، فواحد يقول ، والآخر يردُّ كـلامه ويُنكره ، وفـي القرآن مواضـع كثيـرة تحكي هذه المراجعة بين الأتباع والمتبوعين ، وهنا نموذج منها :

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ [سبأ: ٣١] يعني : الضـعفاء والمـقلدين ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ [سبأ: ٣١] وهم السـادة الكبار المـتبوعون ﴿ لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٣١] فيكفي من عظمـة القيامـة أنْ يقف المستـضعف

---

(١) البيـت من بحر الطويل . ذكـره له ابن سلام الجـمحي في « طبـقات فـحول الشـعراء » ، وياقوت الحموي في « معجم الأدباء » .

أمام القوى ويراجعه ويواجهه - مع أن كلاهما خائب خاسر - ذلك لأن الضعف كان فى الدنيا والاستكبار والتبعية ، أما الآن وفى ساحة الحساب فقد تساوتْ الرؤوس ، وها هم الضعفاء يقولون لأسيادهم ﴿ لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ㉛ ﴾ [سبأ]

وما دامت المسألة مراجعة ، كُلٌّ يُرجِع إلى الآخر قوله ، فلا بُدَّ أنْ يرد الذين استكبروا ، وأنْ يراجعوا الذين اسْتُضْعِفوا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ㉜ ﴾

يرد الذين استكبروا : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ㉜ ﴾[سبأ] يعنى : ما منعناكم عن الهدى ، وما حُلْنَا بينكم وبين الإيمان ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ㉜ ﴾ [سبأ] يعنى : بطبيعتكم ، فقد وجدتم طريقنا سهلاً ، وعبادتنا لا تكليف فيها ولا مسئولية ، ليس فيها صوم ولا صلاة ولا زكاة ، ولو فكرتم وأعملتُم عقولكم ما تبعتمونا .

وهذا هو نفسه منطق الشيطان حين يناقش أولياءه يوم القيامة ، ويقول لهم : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ㉒ ﴾ [إبراهيم]

الفعل أصرخ يُصرخ فهو مُصرخ ، اسم فاعل للذى يصرخ ويستجير بغيره لينقذه من أمر فوق طاقته وإمكاناته ، فإنْ أنقذه

يُقال : أصرخه يعني : أزال صراخه والمفعول منه مُصْرَخ به ، والمعنى في قول الشيطان : إننى لا أستطيع أن أزيل صراخكم ، وأنتم لا تستطيعون أن تزيلوا صراخى ، فالمسألة انتهت ، ولا ينفع أحداً ولا ينقذه إلا عمله الصالح .

ثم يردُّ الذين استُضْعِفوا ويُرجِعون القول إلى الذين استكبروا مرة أخرى ، يقولون :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ[1] لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

هذا استمرار فى المراجعة والحوار ، كُلٌّ يلقى بالمسئولية على الآخر ، فلما اتهموهم بالإجرام ، وأنهم انساقوا خلفهم طمعاً فى تدين خفيف ، لا تكاليف فيه ، ولا منهج يقيد شهواتهم ردَّ المستضعفون ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴿٣٣﴾ ﴾[سبأ] يعنى : المكر الذى ينشأ فى الليل ، والمكر الذى ينشأ فى النهار ، حيث قضيتم الليل والنهار تُلِحُّون علينا وتلعبون فى آذاننا حتى اتبعناكم .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٥٧٣/٨) : « أسروا الندامة . أى أظهروها . وسر من الأضداد يكون بمعنى الإخفاء والإبداء . وقيل : أى : تبينت الندامة فى أسرار وجوههم . وقيل : الندامة لا تظهر ، وإنما تكون فى القلب ، وإنما يظهر ما يتولد عنها » .

﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [سبأ] يعني : شركاء ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴿٣٣﴾ ﴾[سبأ] فالندامة تعتصرهم ، ومع ذلك لا يجهرون بها ولا يُبْدونها حتى لا يشمت بهم الآخرون ، وفَرْق بين أنْ يندم الإنسان وبين أنْ تُلجِئه الظروف ، لأنْ يعلن الندم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[سبأ] الأغلال : القيود ، ومعنى ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[سبأ] تنبيه للمؤمنين الذين يسمعون هذا الكلام وهذا الجزاء : إياكم أنْ تأخذكم بهؤلاء رِقَّة على حالهم في الآخرة ، وانظروا إلى ما فعلوه في الدنيا من إجرام ؛ لتعلموا أن الله تعالى عادل لا يظلم الناس ، ولكن الناسَ أنفسهم يظلمون .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [المطففين] إلى أنْ قال سبحانه : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المطففين]

ذلك لأن الجريمة حين ينتهي وقتها ، وتهدأ آثارها ينسى الناسُ بشاعتها ، ولا يذكرون إلا بشاعةَ العقاب عليها ، أو ترقّ للمجرم قلوب الذين لم يشهدوا جريمته ؛ لذلك يُذكِّرنا الحق سبحانه بعدله ، وأنَّ هذا الجزاء جزاء وفاق ، فلا تأخذكم بالمجرمين رأفة ، ولا ترحموهم في هذا الموقف المخزى الذليل ، وضَعُوا عقوبتهم أمام جريمتهم يوم كذَّبوا الرسل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ[(١)] إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

نلحظ فى هذه الآية أنها ذكرتْ النذارة ، ولم تذكر البشارة ، لماذا ؟ قالوا : لأن الحديث عن قرية استشرى فيها الفساد بحيث لم يَعُدْ لها إلا النذارة ، فهؤلاء قوم كذَّبوا الرسل ، ووقفوا من الدعوة موقفَ العداء والمكابرة . أما البشارة فتكون فى عموم الدعوة ، والحديث هنا عن دعوة خاصة بهؤلاء المكذبين .

ومعنى ﴿فِى قَرْيَةٍ ﴿٣٤﴾﴾[سبأ] أى : فى أهل قرية ، والقرية اسم للمكان ، أو أن الله سبحانه جاء بالمكان وإنْ كان يريد المكين ؛ لأن المكان كجماد مُسبِّح لله ، فيفرح بالمؤمن المسبِّح فيه ، ويحزن ويضيق بالكافر الذى يقيم فيه ؛ لذلك يقول العربى القديم : فلان نبا به المكان يعنى : المكان كرهه ، ولما قالوا لرجل حكيم : أدريتَ أن فلاناً باع أرضه ؟ قال : بل باعَتْه أرضه .

وقوله ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴿٣٤﴾﴾[سبأ] جمع مُتْرف وترف يترف أى : تنعَّم . أما أترف فتعنى أن النعمة أطغَتْه وفتنته ، فالحق سبحانه لم يمنع عبده أنْ يتمتع بنعمه ، المهم ألاَّ تُطغيه النعمة .

وقد يكون الترف والتنعُّم استدراجاً من الله للعبد ، وإملاءً له ، ومَدّاً له فى النعمة حتى يَطْغى بها ، وتأمل مثلاً قول الله تعالى :

---

(١) قال قتادة : مترفوها هم جبابرتهم ورؤوسهم وأشرافهم وقادتهم فى الشر ، أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم ، فيما نقله السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٧٠٤) .

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ (٤٤) ﴾[الانعام] ولم يقُلْ لهم يعني ليس هذا الفتح في صالحهم مع أنه في ظاهره نعمة ﴿ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا (٤٤) ﴾[الانعام] وتعوَّدوا النعمة وألفوها ﴿ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً .. (٤٤) ﴾ [الانعام]

لذلك ، ليس من الصواب قولُكَ لأخيك : فتح الله عليك والصواب : فتح الله لك . واقرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) ﴾ [الفتح] ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا .. (٢) ﴾ [فاطر]

وحكوْا لنا عن سياسي كبير كان له خصم ، ففوجئوا بأنه أصدر قراراً بترقية هذا الخَصْم إلى منصب كبير ، فتعجبوا : كيف يُرقي خصمه ؟ فقال : أرفعه إلى منزلة عالية ، حتى إذا سقط منها كان السقوط مؤلماً ، وسبق أنْ قُلْنا : إذا أردتَ أنْ تُوقع عدوك لا توقعه من فوق الحصيرة مثلاً .

ومن الاستدراج بالنعمة والترف قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) ﴾ [الإسراء]

البعض يخطيء فَهْم هذه الآية ، فيقول : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا (١٦) ﴾ [الإسراء] أن الفسق مترتب على الأمر . والله سبحانه لا يأمر بالفسق ، ولا يأمر بالفحشاء ، وإنما يأمر بالطاعة والعبادة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ (٥) ﴾[البينة] وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ...(٩٠) ﴾[النحل] فالمعنى : أمرنا مترفيها بما يأمر الله به ، فما كان منهم إلا أنْ فسقوا فيها أي : فسقوا في الأمر ، إذن : الفسق ليس مترتباً على الأمر ، وإنما على مخالفة الأمر .

الحق - سبحانه وتعالى - حين يعرض قضية الترف والإتراف يقول : أنا أنعمتُ على عبادي نعماً يتنعَّمون بها ، إنما كنتُ أريد أنْ

يستقبلوا هذه النعم بالشكر ، وأنْ يُعدوا النعمة إلى غير المنعَّمين ليحصل فى المجتمع المسلم التكافل الاجتماعى المطلوب ، ولينزع هذا التكافل الغلَّ والحقد من قلوب الفقراء على الأغنياء .

فالفقير إذا رأى الغنى ينتفع بآثار النعمة ، ويتمتع بها دونه ، يحقد عليه ، ويتمنى زوال نعمته ، فإنْ ناله منها شىء أحبَّ الغنى ، وسأل الله له المزيد ، هذا من ناحية الفقير .

أما من ناحية الغنىِّ ، فالحق سبحانه يعلم أن الإنسان عامة مطبوعٌ على النفعية لذاته وحب الخير لها ؛ لذلك عامله الحق سبحانه بهذا المنطق ، منطق النفعية حين يعطيه جزاءَ ما أنفق ، ويثيبه على ما يفعل من الخير ، قال له : الحسنة بعشر أمثالها ، غُض طرفك عن المحارم فى الدنيا أمتعك بالحور العين يوم القيامة .. الخ

لذلك يقولون : إن التدين نفعية عالية ، فأنت مثلاً ما آثرتَ الفقير على نفسك ، وما أعطيتَهُ ما فى جيبك إلا لأنك تريد من الله تعالى أضعاف ما أعطيت . إذن : أنت حتى فى تجارتك مع الله تحب النفع لنفسك .

والحق سبحانه يعطى الغنى وصاحب الهمة العالية الذى يكدح ويتعب ويُكوِّن الثروة ، يعطيه حقه ، ويحترم جهده وعرقه ، ويحترم مشاعره النفعية ، فحين يسأله يسأله جزءاً من ماله ، لا ماله كله ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ [1] تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾ [محمد]

(١) يحفكم : يلح عليكم . ويكثر ويلح فى الطلب والسؤال . وقال قتادة : علم الله فى مسألة الأموال خروج الأضغان ، أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر فيما أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/٥٠٥).

ويُحبِّبهم في الإنفاق بنفس هذا المنطق : ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ..(٣٨)﴾ [محمد]

إذن : مسألة الإنفاق هذه تُخرج ضغْن[1] الغنى، كما أخرجتْ ضغْن الفقير ، فهى تُحدث استطراقاً إيمانياً ، واستطراقاً اقتصادياً فى المجتمع ، فصاحب المال يحمد الله على النعمة ، ولا يبخل بها على الفقير ، والفقير يحمد الله أنْ جعل النعمة فى يد مَنْ يجود بها عليه ، وهكذا يحدث التوازن فى المجتمع .

نعود إلى ما كُنَّا بصدده من قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤)﴾ [سبأ] لماذا أنتم كافرون بما جاء به الرسل ؟

الحق - تبارك وتعالى - يريد من العباد ألاَّ يستعلى قوى على ضعيف ، وألاَّ يستعلى غنى على فقير ، وألاَّ يستعلى عالم على جاهل ، إنما يريد أن يعمَّ الخير ، فمَنْ كانت عنده خَصْلة من خصال الخير عَدَّاها إلى غيره .

أما هؤلاء فقد اختاروا الكفر ، واطمأنوا إليه ؛ لأن النعمة أطغتهم وأترفتهم ، فمالوا إلى البذخ وإلى المظالم حتى عَشقوا هذا كله ، فلما جاء الدين ليُعدِّل من سلوكهم صادموه ، وحاولوا طمسه والقضاء على دعوته ؛ لأنهم ألفوا السيادة ، وألفُوا الطغيان ، ولا يريدون أنْ تُسلب منهم هذه السيادة . وإلا لو أن العالم كان مستقيماً متوازناً ما كانت هناك حاجة للرسل ، إذن : ما جاء رسول إلا بعد أنْ عَمَّ الفساد وطَمّ .

---

(١) الضِّغْن : الحقد والعداوة والبغضاء . والجمع أضغان ، وكذلك الضغينة وجمعها الضغائن . (لسان العرب مادة : ضغن) .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الحق سبحانه خلق فى النفس الإنسانية مناعة إيمانية نتيجة الفطرة الأولية ، لكن الشهوات وتقاليد الظالمين تطمس هذه الفطرة ، فتحتاج إلى مُذكِّر يعيدها إلى الطبيعة والفطرة التى خلقها الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١﴾ [الغاشية] يعنى : ليس بادئاً .

والحق سبحانه يُبين أن الناس أمام الخير والشر أنواع ثلاثة ، فقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝٣٢﴾ [فاطر]

فالظالم لنفسه هو الذى يفعل السيئة ، ولا يلوم نفسه ، ولا يندم على سيئته ، ولا يتوب منها ، فهو يظلم نفسه ؛ لأنه يحرمها الجزاء والنعيم الأبدى . والمقتصد هو الذى يتردد بين الحسنة والسيئة ، فإنْ فعل سيئة تذكَّر ولام نفسه وتاب ، ثم يفعل الحسنة لتُكفِّر السيئة ، وهؤلاء قال الله فيهم :

﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٠٢﴾ [التوبة]

وقوله سبحانه : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۝٣٢﴾ [فاطر] يُراد به أمة محمد ﷺ ؛ لأن الميراث يعنى أن الموروث ينتقل من السابق إلى اللاحق ، فأمة محمد ورثتْ الرسل جميعاً فى كل أمورهم الخيرية ، وتكفَّلَتْ بأن تردع الشر فى كل نواحيه ، وبذلك ورثوا الرسالات كلها ؛ لأنهم يأمرون بالمعروف وينهوْن عن المنكر ، كما قال سبحانه : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۝١١٠﴾ [آل عمران]

وقال تعالى أيضاً : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (١٤٣) ﴾ [البقرة]

فالرسول يشهد أنه بلَّغكم ، وأنتم تشهدون أنكم بلَّغتم مَنْ بعدكم ، رسولكم فوَّضه الله فى أنْ يُشرِّع لكم ، وفوَّضكم أنتم فى أنْ تحملوا منهجه من بعده ؛ لذلك انقطعتْ الرسالات بعده ﷺ ؛ لأن أمته ستقوم بمهمة الرسالة ، وهذا دليل على أنها أمة ، الخيرية فيها باقية إلى قيام الساعة .

وقولهم : ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) ﴾ [سبأ] بم أُرسل الرسلُ ؟ أُرسلوا أولاً بقضية التوحيد ، وأنه لا إله إلا الله ، أرسلوا بالبلاغ عن الله ، أرسلوا بمعجزات ، أُرسلوا بأحكام ومناهج تحكم حركة الحياة . فهؤلاء كفروا بهذا كله لأنهم يريدون أنْ يعيشوا فى ترفهم وظلمهم ، وأنْ يستبدوا كما يشاؤون .

لكن قولهم ﴿ بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ (٣٤) ﴾ [سبأ] دلَّ على غبائهم ؛ لأنهم لم يقولوا مثلاً بما جئتم به ، أو بما ادعيتموه ، إنما بما أُرسلتم به ، فهم يعترفون بأنهم مُرسَلُون ، فهذه كلمة الحق ساقها الله على ألسنتهم ، كما ساقه على ألسنتهم فى قولهم : ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ (٧) ﴾ [المنافقون] وقولهم لما فتر الوحى عن رسول الله : إن رب محمد قلاه[1] .

إذن : هم يعترفون لرسول الله بالرسالة ، والمرسل لا يُرسَل من مثله ، إنما من جهة أعلى ، فالرسالة ليست من عند محمد : ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ

---

(١) عن جندب بن عبد الله البجلى أنه قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودّع محمداً ربُّه . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٣) .

(١٦)﴾ [يونس] لكن ، ما علة هذا الكفر ؟

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥)﴾

قلنا : إن الدين إنما جاء ليُحدث توازناً فى المجتمع واستطراقاً عقدياً واقتصادياً واجتماعياً ، فمنطق هؤلاء الذين كفروا بالرسل أنهم ليسوا فى حاجة إلى هذا كله ، فعندهم المال والأولاد ، وعندهم كل مُتع الحياة .

﴿وَقَالُوا .. (٣٥)﴾ [سبأ] أى : فى حيثيات كفرهم ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً (٣٥)﴾ [سبأ] بل أكثر من ذلك يأخذهم غرورهم إلى أن يقولوا : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥)﴾ [سبأ] لماذا ؟ يقولون : لأن الله ما كان ليعطينا هذا النعيم فى الدنيا ، ويضنّ علينا فى الآخرة .

لكن نقول لهم : أنتم واهمون ، فَفَرْق بين عطاء الألوهية وعطاء الربوبية ، الله تعالى أعطاكم بعطاء الربوبية الذى يشمل الجميع المؤمنَ والكافر ، والطائع والعاصى ، أما عطاء الألوهية فتكليف ، فالله يعطيكم فى الدنيا بعطاء الربوبية ، ويعاقبكم فى الآخرة بمقتضى الألوهية .

وهذه الحيثية منهم : ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً (٣٥)﴾ [سبأ] حجة عليهم لا لهم ، فمن أين لكم هذا الخير ؟ ثم إن كثرة الأموال كان يجب أنْ تحملكم على نواحى الخير ، وكثرة الأولاد كان ينبغى أنْ تجعلوا منهم (عزوة) لكم على الحق ، إذن : كفركم بعد هذه النِّعَم دليل على أنكم استخدمتموها فى الباطل وفى الظلم والطغيان .

وما أشبه قولهم : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥)﴾ [سبأ] بقول صاحب

الجنة : ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾[الكهف] وهذا بَطَر بنعمة الله وغرور بها ، فليس بين الله تعالى وبين أحد من خَلْقه قرابة ولا نسب ، لينعم فى الدنيا وينعم فى الآخرة بلا عمل ، فهؤلاء فتنهم المال ، وفتنتهم الذرية ؛ لذلك يقول سبحانه محذراً : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ (١٤)﴾ [التغابن]

والحمد لله أنه قال (مِنْ) ، فهى تفيد التبعيض ، يعنى : ما يزال فى بعض الأزواج وفى بعض الأولاد عنصر الخير موجود .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾

أى (قُلْ) رداً عليهم فى اغترارهم بكثرة الأموال والأولاد : ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (٣٦)﴾ [سبأ] يبسط : يُوسع الرزق بكرمه ، ويقدر : يعنى : يضيقه على مَنْ يشاء بحكمته تعالى . والرزق لازمة من لوازم الربوبية التى خَلَقَتْ ، والتى استدعت الإنسان للوجود ، فلا بُدَّ أن تضمن له مقومات حياته .

لكن الرازق سبحانه لا يرزق الناس جميعاً (بمسطرة) يعنى بالتساوى ؛ لأن الله تعالى يريد أن تكون المجتمعات متعاونة متكافلة ، ولو أن كل إنسان كان عنده ما يكفيه ما احتاج أحد إلى أحد ، وما حدث فى المجتمع هذا الترابط وهذا الاتصال الجماعى .

وسبق أنْ أوضحنا أن ترابط المجتمع لا بُدَّ أنْ يكون ترابط

حاجة ، لا ترابط تفضّل ، فلو فرضنا أننا جميعاً تخرّجنا فى الجامعة ، أو أخذنا الدكتوراة ، فمن (يكنس) الشوارع ، ومن يمسح الأحذية ؟ لو جعلنا هذه الأعمال تفضّلاً من بعضنا ما قَبلها أحد .

وقلنا : إن الرجل المتعجرف أو المتكبر أو الباشا لو عاد إلى بيته فوجد به رائحة كريهة فسأل فقالوا : المجارى بها كذا وكذا لا شكّ أنه لن يهدأ له بال حتى تنتهى هذه المشكلة ، وربما ركب سيارته ، وذهب بنفسه إلى السباك ليُخلِّصه من هذه المشكلة .

نقول فى هذه الحالة : إن السباك فاضل على الباشا فى هذا الوقت ، لأن الله أعطاه قدرة على نفسه لا يملكها الباشا أو حامل الدكتوراة ، وهذا السباك ما تحمَّل مثل هذا العمل إلا لحاجته إليه وإلا ما قَبِلَه .

لذلك أحسن الشاعر[1] حين قال :

النَّاس للنَّاسِ من بَدْوٍ وحَاضِرةٍ
بَعْضٌ لبعْضٍ وإنْ لم يَشْعُروا خَدَمُ[2]

وهذه الخدمة تقوم على التداول ، فالحق سبحانه لم يجعل ذرية كلها خادمة ، وذرية مخدومة ، إنما أنت خادم فى شيء ومخدوم فى شيء آخر ، وهكذا كلنا خادم ، وكلنا مخدوم ، ليعلم الإنسان أياً كان

(١) الشاعر هو : أبو العلاء المعرى ، وهو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى ، شاعر وفيلسوف ، ولد عام (٣٦٣ هـ) ومات عام (٤٤٩ هـ) فى معرة النعمان عن ٨٦ عاماً ، عمى فى السنة الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة ، كان يحرم إيلام الحيوان ، ولم يأكل اللحم خمساً وأربعين سنة . أشهر كتبه « رسالة الغفران » . [الموسوعة الشعرية - المجمع الثقافى ٢٠٠٣ - CD] - العصر الفاطمى .

(٢) لفظ البيت كما فى الموسوعة الشعرية :

والناس بالناس من حضر وبادية　　بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

والقصيدة من بحر البسيط .

أنه ابن أغيار ، وأن سيادته ليست ذاتية فيه ، فإنْ كان هو الأعلى عليه أنْ يُقدر هذا العلو ويعمل له ليظل على عُلُوه ، فإنْ رأى الأدنى منه فلا يحقره ، بل يُقدِّر له مهمته فى خدمته ، وأنه سيحتاج إليه فى يوم ما فى عمل لا يقدر هو عليه .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ .. (٧١) ﴾ [النحل] كثيرون يظنون أن الرزق هو المال ، إنما الرزق كلمة عامة يُراد بها كل ما ينتفع به الإنسان ، والحق سبحانه فضَّل بعضنا على بعض فى هذه الأشياء ، لكن أىٌّ بعض فضَّل ؟ وأىٌّ بعض فضَّل عليه ؟ أنت مُفضَّل فيما لك فيه موهبة ، ومفضَّل عليه فيما لا موهبةَ لك فيه ، وهكذا يتكاتف المجتمع ويتكامل ، ويرتبط ارتباطَ حاجة لا ارتباطَ تفضُّل .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) ﴾ [الفجر] وشكراً ، وكثَّر الله خيرك أنْ نسبتَ الإكرام لربك ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾ [الفجر] فيقول الحق (كَلاَّ) يعنى : أنت كذاب فى هذا القول ؛ لأن بَسْط الرزق ليس دليلاً على التكرم ، ولا تضييقه دليل إهانة . وإلا كيف يكون بَسْط الرزق دليلَ التكريم ، والناس فيما يُرْزَقون لا يكرمون به اليتيم ، ولا المسكين ، ويأكلون التراث أكلاً لماً .

﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) ﴾ [الفجر]

إذن : على الإنسان أنْ يتأدب مع الله فيما صنع ؛ لأن الله يعلم كيف يرزق ، وهو سبحانه يريد أنْ يجعل من الناس أُسْوة للناس ، فالغنى الذى افترى بماله يُبقيه الله حتى يرى فيه الفقير المفْترَى

عليه ، يرى فيه عقاب الله ليعلم أن لله تعالى ألوهية ، ولله تعالى قيومية ، لا يفلت الظالم من عقابها في الدنيا قبل الآخرة . وهذا المعنى خاطب الله به نبيه فقال : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [غافر]

ثم إن مسألة الرزق لا تتوقف على مهارة ، أو شطارة ، أو علم ، فهناك مَنْ سعى للرزق وزرع واجتهد ، لكن عند الحصاد جاءته جائحة اجتاحت زرعه فأهلكتْه ، وكأن الحق سبحانه يقول لنا : إياك أنْ تفطن إلى ألوهية الأسباب ، وتغفل ألوهية المسبب .

والرزق مقسوم لصاحبه ، وإنْ حمله غيره ، فالجنين في بطن أمه غذاؤه من تكوينها ومن دمها ، لكن هذا الدم وإنْ حملتْه الأم ليس رزقها ، بدليل أنه إذا حدث الحمل توافر هذا الدم لغذاء الجنين ، فإنْ لم يحدث الحمل نزل منها هذا الدم في عملية الحيض ، ولم تنتفع به الأم ، لماذا ؟ لأنه ليس رزقها هي ، وهذا يساعدنا في فهم قوله تعالى : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء]

لذلك قالوا : ليس كل ما تملك رِزْقاً لك ، إنما رزقك ما انتفعتَ به، فالشيء يكون في ملكك وفي حوزتك تظن أنه لك ، ثم يضيع منك ، أو يُسرق أو يُؤمَّم أو تُصيبه جائحة .. إلخ بل أكثر من ذلك قد يكون طعاماً وتأكله بالفعل ، ويتمثل في جسمك دماً يجري في عروقك ، ثم يسيل منك بسبب جرح ، أو عملية جراحية مثلاً : إذن : هذا الدم ليس رزقاً لك .

فالمؤمن ينبغي أنْ يطمئن إذن إلى عملية الرزق ، ويعلم أنها بقيومية الله التي ترزق المؤمن والكافر ، وأن الرزق مقسوم لك ، مُسمَّى باسمك ، فلا يأخذه غيرك مهما كان ، فإنْ بُسط لك فاحمد

الله ، وإن قُتِّر وضُيِّق عليك فاعلم أنها بحكمة الله ، واقرأ :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر]

ثم تُختم الآية بقوله تعالى :﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سبأ] فالأكثرية لا يعلمون حكمة الله في تفاوت الأرزاق ، وهذا يعني أن قلة منهم هم الذين يعلمون ، فاللهمَّ اجعلْنَا من هذه الأقلية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

الكلام هنا مُوجَّه إلى الكفار الذين ظلموا بأموالهم وأولادهم ، فمثل هذا المال ، ومثل هؤلاء الأولاد لا يكونون أبداً زلفى ، ولا قربى إلى الله ، لكن إن استغل هذا في مرضاة الله وفي سبيل الله وفي أبواب الخير فهو من أعظم القربات .

المال يُنْفَق منه في نواحي الخير ، والأولاد يُربوْن التربية الصالحة ليكونوا أسوة خَيْر في مجتمعهم ، لذلك استثنى الله تعالى فقال : ﴿ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴿٣٧﴾ ﴾[سبأ] أي : فيما أعطاه الله من نعمة المال ومن نعمة الأولاد .

﴿ فَأُولَـٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ﴿٣٧﴾ ﴾[سبأ] وهكذا فتح الله الباب للنعمة ، حين تُستغل في مرضاة الله ، فليس كل الأموال ولا كل الأولاد نعمة ، فالمال قد يجرُّ صاحبه إلى الهلاك ، ويلقي به في النار، والأولاد الذين ظننتَ أنهم لك عِزْوة وقوة قد تنقلب هذه العِزْوة عليك .

ورأينا كثيراً من الذين يبحثون عن هذه العزْوة فى الباطل ، لكن يريد الله أنْ يُذلّهم بما فتنوا ، يذهب الرجل مثلاً فيخطب لولده بنت أحد الأعيان ، أو الأغنياء ، أو أحد أصحاب المناصب ، ويفرح بهذا النسب ويفخر به ، لكن أضمنتَ أنك سترضى هذه البنت ؟ وأنك لن تختلف معها فى يوم من الأيام ؛ لذلك كثيراً ما تنقلب هذه العزْوة وهذا الجاه على صاحبنا ، فيُذله الله من حيث ظنَّ هو العزة والكرامة .

وقوله تعالى : ﴿ فَأُولَـٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ ﴿٣٧﴾ ﴾[سبأ] لا يأتى الضعف إلا فى جزاء الحسنة ، أما السيئة فلا تُضاعف ، إنما يكون الجزاء بمثلها ، وهذا من رحمة الله تعالى بنا ، وقال ﴿ الضِّعْفِ ﴿٣٧﴾ ﴾[سبأ] ولم يقُلْ الأضعاف ؛ لأن (الضعف) اسم جنس يصلح للقليل وللكثير ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر] فاستثنى (الذينَ) وهى جمع من المفرد (الإنْسَانَ) لأنه اسم جنس.

والضِّعْف أى : مضاعفة الحسنة ، أو مضاعفة الصدقة ، ومن معانى الضِّعف أنك إذا وزنتَ الأصل الذى أنفقتَه وجدته ضعيفاً بالنسبة لما أخذتَ عليه من الجزاء .

وليست المضاعفة هى نهاية العطاء عند الله ؛ لأن الحديث النبوى الشريف أكمل هذه المسألة ، فقال ﷺ : « الحسنة بعَشْر أمثالها إلى سبعمائة ضِعْف »[1]

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (كتاب الصيام - باب فضل الصيام) حديث رقم ١٦٤ وكذا ابن ماجه فى سننه (١٦٣٨) ، وأحمد فى مسنده (٢/٤٤٣ ، ٥١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال ﷺ « كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله » .

فالله تعالى يُضاعف لمن يشاء على قَدر النيات فى العطاء والبَذْل ، فواحد يعطي وفـي نفسه أنه أعطى وبذل من ماله ومن جـهده ، وآخر يعطي ويؤمن أنه مجرد مُناول عن الله ، فالمال عنده مال الله ، والعطاء من الله .

ومن صور العطاء ما تعلَّمناه من السيدة فاطمة ، فرُوى أن سيدنا رسول الله دخل عليـها فوجدها تجلو درهمـاً لها ، فَسألهـا رسول الله عنه فقالت : لأنـنى نويت أنْ أتصدق به ، وأنا أعلم أنه يقع فى يد الله قبل أنْ يقع فى يد الفقير .

ثم إن المتصـدق بمجرد أنْ يُخرج الصـدقة من يده تخرج قيمـتها من قلبـه ، ولا يتتـبعـهـا ، ولا تتعلق نفـسـه بها ، أمـا حين يُقْـرض قرضاً ، فـإن نفسه لا تنسـاه وتتعلق به ، وكلما تحركتْ نفـسه لطلب القرض صبر عليه ، فكان له الثواب على قَرْضه كلما صبر عليه .

لذلك أثار المسـتشرقون ضجـة حول مسألة الجـزاء على الصدقة وعلى القرض ، وادعَوْا تضارب الآية والحـديث فى هذه المسـألة ، ففى الحديث قال ﷺ : « مكتوب على باب الجنة : الحسنـةُ بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »[1]

والحق سبحانه يقول : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ..(٢٤٥)﴾ [البقرة]

وبالجمع بين الاثنين يكون القَرْض حين يُضَاعف بعشرين لا بثمانية عشر ، والحـمد لله فتـح الله لنـا ما أُغْلـق من هـذه المـسـألة ، فقُلْنـا :

(١) عن أبى أمـامة صـدى بن عـجلان رضى الله عنه عن النبى ﷺ قـال : « دخل رجل الجنة فرأى مكتوبا عـلى بابها : الصدقة بعشـر أمثالها ، والقـرض بثمانية عـشر » رواه الطبرانى والبيهقى كلاهما من رواية عتبة بن حميد (الترغيب والترهيب للمنذرى ٢/ ٣٤) .

لو أن رجلاً تصدَّق بدينار مثلاً ، فالله يجازيه الحسنة بعشر أمثالها ، لكن هل أعاد إليه الدينار الذى دفعه ؟ لا ، إنما ذهب الدينار مقابل العشرة ، إذن : أخذ فى الواقع تسعة ، فحين تُضاعف تساوى ثمانية عشر .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [سبأ] فى مواضع كثيرة من كتاب الله يجمع الله بين الإيمان والعمل الصالح ، لماذا ؟ لأنهما جناحان لا يتم العمل إلا بهما معاً ، فالعمل الصالح بلا إيمان هَبَاء لا قيمةَ له كأعمال الكفار الخيرية التى يأخذون الجزاء عليها فى الدنيا شهرةً وتكريماً وتخليداً لهم ، لكن لا نصيبَ لهم فى ثواب الآخرة ، كذلك لا قيمة للإيمان إنْ لم يُترجم إلى عمل صالح .

﴿ فَأُوْلَـٰئِكَ ﴿٣٧﴾ ﴾[سبأ] أى : الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[سبأ] الغرفات جمع غرفة ، وهى المكان الذى يُبْنى عادة أعلى البيت ، وتكون خاصة للاستقرار الذاتى ، لذلك نرى حتى الآن فى بناء الفيلات مثلاً يجعلون الدور الأرضى للاستقبال العام وللطعام ، فإنْ أراد صاحب البيت أنْ يرتاح يصعد إلى الدور العلوى الذى جُعل للاستقلالية والخصوصية.

وللإنسان خصوصيات ، حتى داخل بيته وبين أولاده ، فإذا كان صاحب البيت مثلاً فى غرفة نومه ، فله الحرية أن يلبس ما يشاء ، أو حتى يجلس فيها عرياناً ، فإنْ أراد أنْ يخرج إلى الصالة تهيَّأ لها وارتدى الملابس التى تناسبها ، فإنْ أراد أنْ يخرج إلى الشارع تهيَّأ أيضاً له بما يناسبه من ملابس ، كذلك النادى ، أو مكان اجتماع القوم ، لكُلٍّ زى خاص وسَمْت خاص .

ولهذه الاستقلالية والخصوصية جعل الناس الآن غرفة للبنين ، وغرفة للبنات ، فإنْ لم تَكُنْ هناك سَعَة فى المكان جعلوا سريراً للولد ، وسريراً للبنت .

فالحق سبحانه يحفظ لعبده قَدْره ، ويحفظ له هذه الخصوصية ، وهى خصوصية آمنة لا يُنغص أمنها فزَع ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) ﴾ [سبأ]

﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ[1] أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) ﴾

نقول : سعى فلان بفلان عند السلطان ، يعنى : بوشاية وبإفساد ، وهؤلاء سَعَوْا فى آيات الله ليصرفوا الناس عنها ، ويشغلوهم عن سماعها .

ومعنى : ﴿ مُعَاجِزِينَ (٣٨) ﴾ [سبأ] مفردها مُعاجز ، والمعاجزة مفاعلة يعنى : واحد يعاجز الآخر أى : يريد أنْ يُعجزه ، إذن : المعاجزة معركة ، لكن إياكم أنْ تظنوا أنها بين مؤمنين وكافرين ، أو بين الرسل والمكذِّبين لهم ، لا إنما هى معركة عالية ، فالذين يُعاجزون يُعاجزون الله فى آياته ليبطلوها ، وليضعوا العقبات فى طريقها ، ومهما كان كيدهم فلن يعجزوا الله ، ولن يُفلتوا منه سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) ﴾ [سبأ]

وهنا يقول : ﴿ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) ﴾ [سبأ] ومعنى محضرون أنهم يحضرون رغماً عنهم ، فهى اسم مفعول من حضر ، فهم يُجَرُّون ويُشدُّون كالمقبوض عليهم ، ومنها كلمة (مُحضر) وهو الذى يُحضِر المتهم رغماً عنه .

---

(١) المعاجز : من يحاول أن يعجز غيره . وأعجزه : جعله عاجزاً عن نيله وأفلت منه فلم يقدر عليه . [القاموس القويم ٢/ ٧ ، ٨]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) ﴾

قلنا : يبسط يعنى يُوسِّع . ويقدر يعنى : يُضيق . وقد ورد هذا المعنى قبل عدة آيات ، لكن هنا يضيف لفتة جديدة ، فيقول سبحانه بعدها مباشرة ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) ﴾ [سبأ] وكأن الحق سبحانه يلفت أنظارنا إلى أن الخَلْق جميعاً خَلْقه وعباده ، وهو قادر سبحانه أنْ يعطى الجميع ، وأنْ يُوسِّع على الجميع ، لكن يريد أنْ يتحابَّ الخلْق ، وأنْ يتكافل الناس ؛ لذلك وسَّع على بعضهم ، وضيَّق على بعضهم ، ثم أشار لمن وسَّع عليه ولوَّح له بجزاء الإنفاق ، لينفق على أخيه الذى ضُيِّق عليه .

وهذه الآية تعطينا ملخصاً لاقتصاد العالم كله ؛ لأن معنى الاقتصاد موازنة المصروفات بالواردات ، فالمصروفات لمصروف له ، والواردات لوارد عليه ، إذن : لا بُدَّ أن يكون فى المكان الواحد فئة تعطى وفئة تأخذ ، لا بُدَّ أنْ يكون فيها فقراء وأغنياء ، لذلك الحق سبحانه لم يترك بَسْطة الغنى هكذا حرة ، كذلك لم يترك تقتير الفقير، بل جعل لهذا مَبْذلاً ، ولهذا مصدراً .

فبعد أن أخبر سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ (٣٩) ﴾ [سبأ] حكمها فقال : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ (٣٩) ﴾ [سبأ] فالحق سبحانه يراعى مبدأ النفعية لصاحب المال ، ويراعى

حب الأغنياء للمال ؛ لذلك يطمئنهم على أموالهم ، ويتكفّل هو سبحانه بأنْ يخلفها لهم .

والحق سبحانه بسط الرزق للأغنياء وهم يحبون المال ولكنه يقول لهم : إذا أُحلْت على غني فاتبع ، يعني : إنْ كان لك دَيْن عند فقير فأحالك بدينك إلى غني قادر على السداد فتحوَّل ؛ لأنك لا تضمن متى سيُوسِّع الله على الفقير ليُسدِّد ما عليه .

وهكذا طمأن اللهُ الأغنياءَ بأنّ أموالهم لن تنقص بالإنفاق ؛ لأنها أحيلت إلى الله وتكفَّل هو بالسداد .

لذلك يعلمنا رسول الله ﷺ فيقول : « ليس لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيْتَ ، أو لبستَ فأبليْتَ ، أو تصدقْتَ فأبقيْتَ »[1]

ولما أُهديَتْ لرسول الله ﷺ شاة تصدَّقَتْ بها السيدة عائشة ، وأبقَتْ لرسول الله كتفها ؛ لأنها تعلم أنه يحب الكتف ، فلما عاد رسول الله سألها : ماذا صنعت بالشاة يا عائشة ؟ قالت : ذهبتْ كلُّها إلا كتفها ، فقال ﷺ : « بل بقيَتْ كلها إلا كتفها »[2]

لماذا ؟ لأنه مال تحوَّل إلى ذمة الله ، وقد تعهد الله بأنْ يُخلفه ، وما بالك إنْ كان الإخلاف من الله القائل : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴿٨٦﴾ ﴾ [النساء]

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٢٤، ٢٦) ، ومسلم في صحيحه (٢٩٥٨) كتاب الزهد ، والترمذي في سننه (٢٣٤٢) وصححه . ولفظ الحديث عند مسلم : « يقول ابن آدم : مالي مالي ، قال : وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٥٠) والترمذي في سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة . قال الترمذي : حديث صحيح . ولفظ أحمد أن عائشة قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، ما بقي إلا كتفها . قال : « كلها قد بقي إلا كتفها » .

وأنت حييْتَ الله في الفقير بتحية فلا بُدَّ أن يردَّها لك بأحسن منها ، بل ويُضاعفها لك أضعافاً كثيرة بما يفوق الحَصْر والعَدَّ ، ومثَّلْنا لذلك بالحبة يزرعها الفلاح ، فتُعطي سبع سنابل ، في كل سنبلة مائة حبة ، فإذا كان هذا عطاء الأرض المخلوقة لله تعالى ، فما بالك بعطاء الخالق عز وجل ؟

فقوله تعالى : ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴿٣٩﴾﴾[سبأ] يريد سبحانه أنْ يُطمئن الغنيَّ بأن ماله لن ينقص ، ويُطمئن الفقير بأنه لن يتخلَّى عنه ، ولن يتركه للفقر ، بدليل أنه سبحانه اقترض من أجله ، فقال تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة] فالله يقترض من الخَلْق للخَلْق ، وهو قادر سبحانه أن يُوسِّع على الجميع ، إنما الهدف أنْ يتعايش الناس بوداد المعونة ، وأنْ يحب الغنيُّ الفقيرَ ، ولا يحقد الفقير على الغني .

لذلك تُختم الآية بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾[سبأ] قال سبحانه خير الرازقين ؛ لأن الرازق : كل مَنْ يمدُّ لك يده بما تنتفع به، وعليه فأبوك بالنسبة لك رازق ، والذي يعولك ويتكفَّل بك رازق ، كذلك ربُّك عز وجل رازق ، لكن فَرْق بينهما ، فأبوك رازق ؛ لأنه يأتي لك بالرزق ، لكن إنْ سألته من أين هذا الرزق يقول : من عند الله ، فهو سبب ومناول ، أما الحق سبحانه فهو خالق الرزق ؛ لذلك قال ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ]

وسبق أنْ أوضحنا : إذا رأيتَ صفة مشتركة بين الخَلْق والخالق فاعلم أن الجهة مُنفكّة ، فلكلٍّ ما يناسبه . إذن : حيثية الخيرية هنا أنه تعالى هو الرازق ، وهو خالق الرزق ، وهو الذي يُيسِّر لك أسبابه حتى يصل إليك .

وقالوا : خيرية الله فى الرزق ناشئة من ثلاث مسائل : **الأولى** : أنه سبحانه لا يُؤجِّل الرزق لوقت الحاجة إليه ، إنما خلقه لك قبل أنْ يخلقك ، وأعدَّ لك مُقوِّمات الحياة قبل أنْ يستدعيك إليها . **الثانية** : أنه لا يحاسبك على ما رزقك . **الثالثة** : لا يطلب منك ثواباً على ما وهبك .

لهذا كله كان الحق سبحانه وما يزال خير الرازقين ، وتأمل مثلاً فرعون لما ربَّى موسى عليه السلام امتنَّ عليه ، فقال : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء]

والمعنى : كان ينبغى عليك يا موسى أنْ تُجاملنا ، وتحفظ جميلنا عليك ، وألاَّ تصادمنا هذا الصدام .

ومثل ذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس]

وقوله تعالى : ﴿.. فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]

فى هذه الآيات كلها ، الحق - تبارك وتعالى - راعَى مواهب الخَلْق وقدَّر حركتهم الإيجابية فى الحياة ؛ لذلك أثبتَ لهم صفة من صفاته وهى الخَلْق ، ومعنى الخَلْق إيجاد شىء لم يكُنْ موجوداً ، فالإنسان يُعَدُّ خالقاً حين يصنع من الرمل (الكريستال) مثلاً ، والحق سبحانه لا يضنّ عليه فيسميه خالقاً ، لكن إنْ كان الإنسان خالقاً ، فالحق - سبحانه وتعالى - أحسن الخالقين ، لماذا ؟

قالوا : حيثيات هذه الخيرية فى عملية الخَلْق من عدة وجوه : منها : **أولاً** : أن الإنسان يَخلق من مادة موجودة ، أما الخالق سبحانه فيخلق من لا شىء من العدم . **ثانياً** : صنعة الإنسان تظل على حالة واحدة ، فلا تنمو ولا تتكاثر ، أما خَلْق الله ففيه حياة ، فهو يتغذَّى وينمو ويتكاثر .. الخ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

المعنى : واذكر يوم يحشرهم جميعاً ، واليوم ظرف للحشر وللجمع يوم القيامة ، لكن لماذا يذكر رسول الله هذا اليوم ؟ قالوا : هنا إشارة لسيدنا رسول الله ﷺ أن الله لم يَنْسَه وما تركه ، ولا تخلى عنه ، بدليل أنه سينتقم له من أعدائه ومُكذِّبيه فى هذا اليوم ، وكأن الله يقول له : سترى ماذا سنفعل بهم ، كما قال سبحانه فى آخر المطففين : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المطففين]

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَٰؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[سبأ] معلوم أن الكفار عبدوا آلهة كثيرة ، فلماذا خَصَّ الملائكة هنا بهذا السؤال ؟ قالوا : لأنهم أعلى الأجناس التى عُبِدَتْ من دون الله وأقربهم إلى الله ؛ لذلك قالوا عنهم : بنات الله ، فهم يظنون أنَّ الملائكة لهم كلمة عند الله ، ويمكن أنْ يشفعوا لهم أو يدافعوا عنهم إنْ عبدوهم ؛ لذلك ذكر هنا الملائكة ، ولم يذكر الشجر والحجر الذى عُبِد من دونه سبحانه .

لكن ، لماذا وُجِّه السؤالُ للملائكة المعبودين ، ولم يُوجَّه للعابدين الذين أشركوا ؟ لماذا لم يُوبِّخهم الله ويُقرِّعهم على عبادتهم دون الله ؟ قالوا : لأن الحق سبحانه أراد أنْ يسمع المشركون من الملائكة أنفسهم الردَّ ؛ لتكون الحجة عليهم أبلغ .

يقول سبحانه للملائكة : ﴿أَهَٰؤُلَاءِ ﴿٤٠﴾﴾[سبأ] المشركون ﴿إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾[سبأ] فأول ردِّهم ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ] يعنى : تنزيه لك يا رب أنْ يُعبد سواك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴿٤١﴾﴾ [سبأ] يعنى : نحن فى ذُلِّية عبوديتنا لك يا رب أعزُّ وأكرم من كونهم يعبدوننا ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ] يعنى : ما عبدونا ، إنما عبدوا الجن ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ] فلماذا عبدوا الجن[1]؟ ولماذا كان أكثرهم يؤمن بالجن ؟

الجن هو الجنس الذى يقابل الإنس ، وسُمِّى الجن ؛ لأنه مستور عنَّا ، يرانا ونحن لا نراه ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف]

والذين عبدوا الجن لم يعبدوهم جميعاً ، إنما عبدوا الشياطين منهم ، وعبدوهم لأنهم يطيعونهم ، وأكثرهم كانوا بالجن مؤمنين ، لماذا ؟ لأن الجن كانوا يَسْترقون السمع ، فيلتقطون بعض الأخبار والحقائق ، ثم يُوحُونها إلى أوليائهم من شياطين الإنس فيأخذها هؤلاء ويخبرون الناس بها على سبيل أنهم يعلمون الغيب ، إلا أنهم كانوا يدسُّون فى هذه الحقائق الكثير من الباطل ، ثم تأتى بعض الأحداث موافقة لما أخبروا به ، فيُفْتَن الناس بهم ، ويظنون أنهم يعلمون الغيب .

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٥٥٧٩/٨) « أن حياً يقال لهم بنو مُليح من خزاعة كانوا يعبدون الجن ، ويزعمون أن الجن تتراءى لهم ، وأنهم ملائكة ، وأنهم بنات الله » . ولكن أورد أبو يحيى زكريا الأنصارى سؤالاً فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن» (ص ٣٤٥) « إن قلت : كيف قالت الملائكة فى حق المشركين ذلك ، مع أنه لم يُنقل عن أحد منهم أنه عبد الجن ؟ » ثم قال : « معناه أنهم كانوا يطيعون الشياطين فيما يأمرونهم به من عبادة غير الله تعالى . فالمراد بالجن الشياطين ، على أن الكرمانى جزم بأنهم عبدوا الجن أيضاً » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) ﴾

قوله سبحانه ﴿ فَالْيَوْمَ (٤٢) ﴾[سبأ] أى : يوم القيامة ﴿ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ (٤٢) ﴾[سبأ] أى : الملائكة ومَنْ عبدوهم من المشركين ﴿ نَفْعًا وَلا ضَرًّا .. (٤٢) ﴾ [سبأ] فإنْ كانوا يظنون أنهم الملائكة ، وأنهم عباد مُكْرمون ، وأن لهم منزلة عند الله ؛ لذلك سيشفعون لهم فأفهموهم : أنكم لا تشفعون إلا لمن ارتضى ولا تشفعون ابتداءً ، بل تنتظرون أنْ يُؤذَن لكم فى الشفاعة ، ثم أنتم أيها الملائكة تستحُونَ أنْ تكونوا شفعاء لمن عبد غير الله ؛ لأن إخلاصكم فى عبوديتكم لله تعالى يمنعكم أنْ تناصروا هؤلاء أو تشفعوا لهم .

ومثل هذا الموقف شاهدناه مع سيدنا رسول الله ﷺ ، حيث كان الذين آمنوا بالله وكفروا برسالته مُقدَّمون عنده على مَنْ كفروا بالله ، فعصبية محمد ﷺ لربه أكثر من عصبيته لنفسه .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) ﴾[سبأ] هذه الآية من المواضع التى وقف أمامها المستشرقون يظنون أن بها مأخذاً على كلام الله ، قالوا : القرآن يقول فى سبأ ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) ﴾ [سبأ] ويقول فى السجدة : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) ﴾ [السجدة]

فهل كذَّب الكفار بالنار ، أم كذَّبوا بالعذاب ؟ ونقول : منهم مَنْ كان يُكذِّب بوجود النار أصلاً ، وهؤلاء قال الله لهم ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ

الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢)﴾ [سبأ] لأن تكذيبهم مُنصَبٌّ على النار ، والاسم الموصول (التى) يعود إلى النار .

أما الذين آمنوا بوجود النار ، لكن ينكرون أنْ يُعذَّبوا بها قال الله لهم ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠)﴾ [السجدة] لأن تكذيبهم للعذاب لا للنار ؛ لذلك جاء الاسم الموصول (الذى) العائد إلى العذاب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣)﴾

معنى﴿يَصُدَّكُمْ (٤٣)﴾ [سبأ] : أى : يصرفكم ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ (٤٣)﴾[سبأ] وهذا دليل على أن عبادتهم ما دون الله كان مجرد تقليد للآباء ، وهم بقولهم هذا لم يأتوا بجديد ، فقد أخبر الله عنهم بهذا ، وهم ما يزالون فى عالم الذرِّ يوم أخذ عليهم العهد والميثاق :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾ [الأعراف]

بعد أنْ قالوا فى رسول الله قالوا فى القرآن : ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى (٤٣)﴾ [سبأ] الإفك : قَلْب الشىء عن موضعه أو قلب الحقائق ، ومن هنا سُمِّى الكذب إفكاً ؛ لأن الكذب أنْ تقول قضية يناقضها

الواقع ، والصدق أنْ تقول قضية يؤيدها الواقع ، فحين تقلب الحقيقة فإنك تُغيِّر الواقع .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النجم] فالمؤتفكة هى القرى التى قلبها الله ، وجعل عاليها سافلها ، ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الانعام] يعنى : كيف تُصرفون عن الحق، وتقلبونه إلى الباطل .

ولَيْتهم وقفوا فى وصف القرآن عند هذا الوصف ، إنما زادوا ﴿ مُّفْتَرًى ﴿٤٣﴾ ﴾ [سبأ] أى : متعمد .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾[سبأ] معنى ﴿ إِنْ هَـٰذَا ﴿٤٣﴾ ﴾ [سبأ] ما هذا الذى جاء به محمد ﴿ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾[سبأ] وعجيب أنْ يصفوا ما جاء به محمد بالسحر ؛ لأن السحر تخييل لأعين الناس ، وليس ما يفعله الساحر حقيقة ، إنما هو توهم ؛ لذلك قُلْنا : هناك فَرْق بين السحر الذى جاء به السحرة وعصا موسى عليه السلام .

كان سحرهم كما قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الاعراف] وقال ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه] مجرد تخيُّلات لا حقيقة . إنما لَمَّا ألقى موسى عصاه صارت حيَّة حقيقية ، ولو لم تنقلب حية حقيقية ما خاف منها موسى ، كما قال تعالى :

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ [طه]

ولو لم تكن حية حقيقية ما آمن لموسى كبار السحرة ، فالقرآن يحكى عنهم أنهم بمجرد رؤيتهم لها قالوا : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ [طه] يعنى المسألة ليست من موسى ، إنما من الله .

إذن : فأين ما جاء به محمد من السحر ؟ وإذا كان محمد ساحراً

سحر المؤمنين به كما تقولون ، فلماذا لم يسحركم أيضاً وتنتهى هذه المسألة ؟ ومعلوم أنه لا خيار للمسحور مع الساحر . إذن : هذا القول منهم كذب على سيدنا رسول الله وعناد ومكابرة لعدم قبول الحق الذى جاء به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

كأن الحق سبحانه يسأل : من أين جاءوا بهذا الكلام ، وبهذه الاتهامات ، هل آتيناهم كُتباً يدرسونها ، ويعلمون منها ذلك ؟

ويجيب سبحانه ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴿٤٤﴾ ﴾[سبأ] كذلك ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ ﴾[سبأ] يعنى : رسول يخبرهم بهذا . إذن : من أين جاءوا به ؟

يقول سبحانه :

﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾

المعنى : أن ما قالوه فى رسول الله ، وفيما جاء به من الهدى تكذيب كما كذَّب السابقون ، فهو سنة مُتبعة وطبيعة فى المرسَل إليهم حين يأتى دين جديد ليُخرجهم عن طغيانهم واستبدادهم ويقضى على سيادتهم واستعبادهم للناس ؛ لذلك لا بُدَّ أنْ يصادموا الدين ويُكذِّبوا الرسل ، لتظلَّ لهم وسائل الطغيان ووسائل الفساد .

فمعنى ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۝٤٥﴾[سبأ] الأمم السابقة الذين كذَّبوا إخوانك الرسل السابقين ، فلستَ يا محمد بدْعاً فى ذلك .

﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ۝٤٥﴾[سبأ] يعنى : الأمم السابقة التى كذَّبت رسلها ما بلغتْ فى الرسالة وفى المنهج والحجة والبينة معشار ما آتيناك ؛ ذلك لأن سيدنا رسول الله ﷺ جاء بالدين الوافى والمنهج الكامل الذى لا يمكن الاستدراك عليه .

أو : أن المعنى ﴿وَمَا بَلَغُوا ۝٤٥﴾[سبأ] أى : كفار مكة الذين كذَّبوا رسول الله ﴿مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ۝٤٥﴾[سبأ] يعنى : ما آتينا الأمم السابقة من القوة ، فالذين كذَّبوا الرسل من الأمم السابقة كانوا أكثر قوة ، وأكثر نفوذاً ، وأكثر حضارة من كفار مكة ، وأين هم من عاد وثمود وفرعون ؟

واقرأ قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ۝١١﴾ [الفجر]

فأين قوة كفار قريش من قوة هؤلاء الذين يُضرب بهم المثل فى : القوة ، والبطش ، والجبروت ، والطغيان ؟ ومع ذلك أصابهم من بأس الله ما أصابهم .

والمعشار أكثر من العشير ، والعشير أكثر من العُشْر ، فإذا أردتَ العشرات تقول عُشر ، وإذا أردت المئات تقول عَشير ، وإذا أردتَ الآلاف تقول معشار[1] .

(١) مقصد فضيلة الإمام - رحمه الله - أن العُشْر جزء من عشرة ، أما العشير فهو جزء من مئة ، أما المعشار فهو جزء من الألف . فمراد الآية ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ۝٤٥﴾ [سبأ] أى : ما بلغوا جزءاً من ألف جزء مما أعطيناه وآتيناه للأمم السابقة ، فالمراد به المبالغة فى التقليل ، وهذا يتوافق مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٥٥٨١/٨) ونقله عن الماوردى . [عادل أبو المعاطى] .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾[سبأ] يعنى : انظر كيف كان أخْذى للمكذِّبين ، فلم أتركهم دون عقاب ، إنما أخذتهم أخْذ عزيز مقتدر ، ومعنى ﴿ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾[سبأ] يعنى : إنكارى عليهم بالتدمير والعقاب ، وإنكارى عليهم على قَدْر ما كانوا هم منكرين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

بعد أنْ أعطاهم الحق سبحانه درساً وعبرة بمَنْ سبقهم من المكذبين يعود ليخاطبهم من جديد ، فيقول لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ يعنى : لهم ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ] الوعظ ليس إنشاءَ حكم ، إنما هو تذكير بحكم سبق ونسيه الناس ، فالواعظ يُبيِّن للناس أموراً يعرفونها ويؤمنون بها من الدين ، لكن أنْستهم الشهوات والغفلة هذه الأمور ، فهو مُذكِّر بها ، والعظَة لا تكون إلا من مُحبٍّ لك حريص على مصلحتك .

لذلك فالحق - تبارك وتعالى - يعطينا نموذجاً للوعظ فى قصة لقمان حين يعظ ولده : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَـٰبُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

ومعنى ﴿ بِوَاحِدَةٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ] يعنى : موعظة واحدة فيها كل الآحاد ، واستخدم السياق ﴿ إِنَّمَا ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ] الدالة على القصر يعنى : لا أعظكم إلا بواحدة ، ما هى ؟ ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ] يعنى : إياك

أنْ تقوم لشهوة نفسك ، أو لسيادة تحافظ عليها ، إياك أنْ تقوم وأنت تريد الاستعلاء على هذا النبى ، إنما يكون قيامك لله ، يعنى : تتجرد عن هواك ، وتتجرَّد عن شهواتك وعن تعصُّبك .

وما دُمْتَ تتودد إليهم أنْ يقوموا لله فلا بُدَّ أن لله تعالى مكانة فى قلوبهم ، وهو سبحانه فى بالهم بدليل : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان]

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف]

إذن : كانوا يؤمنون بأن الله تعالى هو خالقهم ، وهو خالق السموات والأرض ؛ لأن هذه المسألة من الوضوح بحيث لا ينكرها منكر ، مهما بلغ من الكفر والإلحاد ، لماذا ؟

لأن مسألة الخَلْق لم يدَّعها أحد لنفسه ؛ لأن الدعوى إنما تكون عند وقوع لبس بباطل يمكنَ أن يكون له رواج ، لكن هذه المسألة واضحة ، لا لَبْسَ فيها ، ومهما بحثوا فلن يجدوا خالقاً لهم وللكون من حولهم إلا الله ؛ لذلك يجادلهم بالمنطق فى هذه المسألة فيقول : أنتم أمام أمرين : إما أنكم خلقتم هذا الخَلْق ، أو أنكم خُلِقْتم من غير خالق .

فالأولى مردودة ؛ لأن أحداً لم يَدَّع الخَلْق ، والأخرى مردودة ؛ لأن أتفه من السماء والأرض ، وأتفه من الإنسان لا بُدَّ له من صانع يصنعه ، فالحذاء الذى تلبسه فى قدميك ، أليس له صانع ؟

إذن : السماء والأرض والإنسان لا بُدَّ أن لهم صانعاً على قدر عظمهم ، وكيف ينكرون هذه المسألة وهم يعترفون بعضهم لبعض بأبسط الأمور ، ويعرفون صاحبها ويفخرون به ، ففلان كان يئد البنات ، وفلان كان عنده جفنة طعام يأكل منها كذا وكذا من

الضّيفان ، وفلان كان أشجع العرب .. إلخ وكَثُر في شعرهم قولهم : أنا ابن فلان ، وأنا ابن فلان .

إذن : مسألة الخَلْق هذه لا يجرؤ أحد منهم على أنْ ينكرها ، وما داموا يعترفون لله تعالى بالخَلْق ، فعليهم أنْ يقوموا لهذا الإله الذى أقروا له بالخلق ، وأنْ يُخلصوا فى قيامهم له ، فلا يكون فى بالهم أحد سواه ، وعندها ثقُوا تماماً أنكم ستصلون بهذا القيام إلى الحق ؛ لأنه لا يُضبِّبُ الحق فى عقول الباحثين فيه إلا هوى النفس ، كما قال سبحانه :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ (٧١) ﴾ [المؤمنون]

والقيام المراد هنا لا يشترط فيه الجماعة ولا الجماهيرية ؛ لأنه قيام للتفكُّر ، فينبغى أنْ يكون ﴿ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ..(٤٦) ﴾ [سبأ] مثنى : يعنى : اثنين اثنين ، وفرادى : واحداً واحداً . بحيث يختلى كُلٌّ مع نفسه ليفكر في أمر محمد بواقعية وتجرُّد : كيف كان بينكم ، وكيف كانت سيرته وأخلاقه ، وهل جرَّبتم عليه كذباً ، أو سحراً ، أو كهانة ؟ وهل سبق له أنْ ادَّعَى ما ليس له ؟ هل رأيتم عليه قبل بعثته علامة من علامات الجنون ؟ ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ (٤٦) ﴾ [سبأ]

وهذا التفكُّر فى حال رسول الله يحتاج إلى موضوعية ؛ لذلك اختار أنْ ينفردوا به ، إما مثنى مثنى ، وإما فرادى ، فالإنسان حين يكون بمفرده ، فلا يوجد له نظير ينهزم أمامه ، ولا نظير يهيجه على غير الحق ، فرأيه فى هذه الحالة يكون أقرب للصواب .

والمنفرد إنْ تفكَّر وصل إلى الحق ؛ لأنه لن يغشَّ نفسه ، ولن يخدعها ، ولن يستكبر أنْ يعود للحق ، أما إن كانوا جماعة فلا بُدَّ أن يحاول كل منهم أنْ يثبت حجته ، ولو اضطر للكذب وللخداع كما

نراهم فى مـثل هذه المواقف ، كُلٌّ يحـلف أنه على الحق وغيـره على الباطل .

فكأن الحق بهذه الطريقة فى التفكير يحمينا ويعصمنا من غوغائية الجـمـاهيـرية فى الحكم ، هذه الغـوغـائيـة التى نشـاهدها مـثـلاً فى المظاهرات ، حيث يهـتف كُلٌّ بما يريد ، فتختـلط الأصوات ، وتتداخل الهتافات ، فلا تستطيع أنْ تميزها .

لذلك لمـا تكلم شـوقى رحـمه الله عن مـوقـعـة (اكتـيـوم) بين كليوباترا وخصومها وقد هُزِمَتْ فـيها ، إلا أن أبواقهم صوَّرَتْ الهزيمة على أنها نصـر ، وأخذتْ الجماهير الغـوغائية تُردِّد ما يقـولون ، فقال شوقى :

اسْـــمـعِ الشعْـــبَ دُيُونُ ∴ كَـيْــفَ يُوحُـــون إليْـه
مَـــلأَ الجـــوَّ هتَـــافـــاً ∴ بحـــيـــاتَىْ قَـــاتـلَيْـــه
أثَّر البـــهـــتـــانُ فـــيـــه ∴ وانطَـــلى الـزُّور عليْـــه
يَـا لَـــهُ من بَـبْــغــاء ∴ عــقـــلُه فى أُذُنـيْـــه!!

فـالحق يُعلِّمنا كـيـفـيـة التـفـكُّر مـثنى أو فرادى ، ويحـمـينا من الغوغائية .

وهذه المسألة تأخذنا إلى اعتراض المستشرقين على قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) ﴾ [الأنبياء]

ووجه اعتـراضـهم : إذا كان الله تعالى يمـتنُّ علينا بعلم ما نكتم ، فما المـيزة فى علم الجهر ، وكلنا يعلم الجـهر ؟ ونقول : الخطاب هنا للجمـاعة ، فالحق سبـحانه يعلم ما تكتمـون جميعـاً وما تعلنون ، إنِ اخـتلطت أصـواتـكم وتداخلت فـهـو يعلمـــهـا ، ويرد كلَّ صـوتٍ إلى

صاحبه ، وعلْم الجهر المختلط أعظم من علم المكتوم ؛ لأن المكتوم يمكن أنْ تكونَ له أمارات تدل عليه ، أمّا علم الجهر المختلط ، فيصعب أنْ تُميِّز بعضه من بعض .

كذلك إنْ كانوا مثنى مثنى ، فالاثنان كما نقول : الرأى والرأى الآخر ، ولو انهزم أحدهما أمام الآخر فهزيمته مستورة ؛ لذلك دائماً ما نسمع من يقول لخصمه : أريد أن أجلس أنا وأنت على انفراد . لأنكما طرفا المسألة ولا يوجد طرف ثالث يُسبِّب لواحد منكما إحراجاً ، أو إذلالاً ، يتسبب فى تغيُّر مسلكك أمامه .

ومعنى﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ ﴿٤٦﴾﴾[سبأ] ليس القيام الذى يقابله القعود ، إنما مَنْ قام بالأمر يعنى : فعله وأدّاه ، وإنْ كان قاعداً ، ومن ذلك نقول : فلان يقوم بأمر فلان ، أو فلان يؤدى وظيفة فلان . أى : يقوم بها .

ومعنى ﴿مَا بِصَاحِبِكُم ﴿٤٦﴾﴾[سبأ] يعنى : رسول الله ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴿٤٦﴾﴾[سبأ] جنون ؛ لأنهم قالوا على رسول الله أنه مجنون ، وعجيب منهم وهم أعرف الناس به ، أنْ يصفوه بالجنون ، وهم لم يَروْا عليه علامة من علامات الجنون ، ولم يصنع شيئاً مخالفاً لمجتمعه الذى عاش فيه ، بل كانوا قبل البعثة يقولون عنه : الصادق الأمين ، فكما ظهر كذبهم فى قولهم (ساحر) ، كذلك ظهر كذبهم فى قولهم (مجنون) .

ولو خَلاَ الواحد منهم إلى نفسه ، ثم تفكّر فى شخص رسول الله لوصل بنفسه إلى الحق ، ولو أدار فى عقله هذه الاتهامات لوجد أن رسول الله ﷺ برىء منها ، وما دام منفرداً فى هذا التفكُّر ، فلن يخجل أبداً أنْ يعود إلى الحق ؛ لأنه لن ينهزم أمام أحد .

وقد تناول القرآن الكريم كل افتراءاتهم على رسول الله ، وأظهر بطلانها ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) ﴾ [الحاقة]

وقال : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) ﴾ [التكوير]

والحق - سبحانه وتعالى - هنا لم يذكر لنا نتيجة التفكُّر والبحث مثنى وفرادى ؛ لأنه معلوم وواضح ، إلا أنه قال عنه ﷺ : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) ﴾ [سبأ]

شيء آخر : هل آمن الناس كلهم برسول الله بعد أن سمعوا منه قرآناً مُعْجزاً لنقول : إن القرآن هو المعجزة التى تثبت صدْق الرسول؟ نقول : لا ، إنما منهم مَنْ لم يؤمن بعد أن سمع القرآن ، ومنهم مَنْ آمن قبل نزول القرآن ، وبمجرد أنْ قال محمد : إنى رسول الله .

وأولهم السيدة خديجة ، والصِّدِّيق أبو بكر ، فما حيثية إيمانهم برسول الله ؟ وما المعجزة التى عرفوا بها صدْقه ؟ حيثيته ومعجزته عند هؤلاء سيرته ﷺ فيهم أولاً ، فهى كافية لأنْ يؤمنوا به إنْ قال : أنا رسول الله إليكم . أما القرآن فهو معجزة وتحدٍّ لمن جحد .

لذلك نرى سيدنا رسول الله يُذكِّر قومه بهذه السيرة بينهم ويتخذها حجة له ، فلما بُعث صعد إلى الصفا ، ونادى فى القوم ، فلما اجتمعوا حوله قال : « أرأيتم لو حدثتكم أن خيلاً وراء هذا الوادى جاءت لتُغير عليكم ، أكنتم مُصدِّقى ؟ » قالوا : ما جرَّبنا عليك منْ كذب ، فقال : « أنا رسول الله إليكم » فقالوا لتوِّهم : أنت كذاب تباً لك ، ألهذا جمعتنا ؟[1] .

---

(١) عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشعراء] خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا (جبل بمكة) فاجتمعوا إليه . قال : أرأيتم لو أخبرتكم ان خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصدقى ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . قال أبو لهب : تباً لك أما جمعتنا إلا لهذا ؟ فنزلت هذه السورة ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) ﴾ [المسد] . أخرجه أحمد فى مسنده (١/٣٠٧) ، ومسلم فى صحيحه (٣٥٥) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٨/٧٣٨ - فتح البارى) .

ورُوِى فى إسلام سيدنا عبد الله بن سلام ، وكان أحد أحبار اليهود أنه لما اطمأنَّ قلبه للإيمان بعد ما رأى من أوصاف رسول الله التى ذُكرت فى كتبهم ، وتأكَّد أنه رسول الله ذهب إليه وقال : يا رسولَ الله لقد شرح الله صدرى للإيمان ، وتعلم يا رسول الله أن اليهود قوم بُهْتٌ ، فإذا أسلمتُ قالوا فىَّ ما ليس فىَّ ، فادْعُهُمْ يا رسول الله ، واسألهم عنى ، وسوف أعلن إسلامى امامهم بعد أنْ تسمع رأيهم فىَّ ، وفعلاً دعاهم سيدنا رسول الله وسألهم : ما تقولون فى ابن سلام ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وحَبْرنا وابن حَبْرنا ، وجمعوا له كل أوصاف المدح ، عندها قال ابن سلام : أما وقد قالوا فىَّ ما قالوا : أشهد أنك رسول الله ، فقالوا : بل أنت شرُّنا وابن شرِّنا[1] .

فقال : ألم أقُلْ لك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت ؟

وتلحظ أن الذين صادموا رسول الله فى أول البعثة ، والذين اتهموه بالكذب من أهله وأقرب الناس إليه ، وعمه هو الذى قال له : تباً لك ألهذا جمعتنا ؟ وهنا موطن حكمة وحجة فى بعثة سيدنا رسول الله ، جعلها الله ليعلم الناس أن مكانة قريش وسيادتها فى الجزيرة العربية لم تكن هى التى صنعت رسالة محمد ليسودوا بها العالم ، فأعدى أعدائه كانوا من قريش ، ولم يجد رسول الله نُصْرة فى مكة ، إنما كانت نصرته فى يثرب .

لذلك سبق أن قلنا : إن الإيمان بمحمد هو الذى خلق العصبية

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٨/١٦٥ - فتح البارى) والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/٥٢٧ - ٥٢٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . وفى بعض ألفاظ الحديث أنهم قالوا أولاً : « ذاك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا » وفى لفظ آخر : « خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا »

لمحمد ، لا أن العصبية لمحمد هى التى خلقتْ الإيمان به ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

الأجر : هو الجُعل مقابل عمل ، وهذه العبارة قالها كل الرسل ، فقد علَّمهم الله أنْ يقول الواحد منهم لقومه : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الشعراء] كأنه فى طىّ هذا الأسلوب ، أنه لو كان هناك تقييم منصف لكنتُ أستحق أجراً على رسالتى ودعوتى ؛ لأننى أجلب لكم بالهداية نفعاً كبيراً ؛ لأنه ليس صفقة فى هذه الدنيا الفانية ، إنما نفعاً باقياً فى حياة خالدة باقية .

لكن الواقع أننى لا آخذ أجرى منكم ، إنما آخذه من الله ؛ لأن العمل الذى أقوم به أكبر من أنْ تُقوِّموه بثمن ، والحق - سبحانه وتعالى - هو الذى يُقوِّم عملى ، وأنا واثق أنه سبحانه سيعطينى ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سبأ]

ومعنى : ﴿ فَهُوَ لَكُمْ ﴿٤٧﴾ ﴾[سبأ] يعنى : إنْ كنتُ أخذتُ منكم أجراً ، فسوف أعمل لكم بهذا الأجر ، أو سيعود جزاؤه عليكم .

وسبق أنْ قلنا : إن كل الرسل قالوا هذه العبارة إلا رسولين اثنين لم تَأْت هذه العبارة فى سياق كَلامهما ، هما : سيدنا إبراهيم ، وسيدنَا موسى عليهما السلام ، مما يدل على أن هذه المسألة مبنية بحكمة كبيرة عالية ، فلماذا إبراهيم وموسى بالذات من بين كل الرسل؟

قالوا : لأن سيدنا إبراهيم عليه السلام أول ما واجه المخالفين واجههم في عمه[1] ، فلما صادمه عمه ، ورفض دعوته اعتزله ، واكتفى بأن يدعو له ، وليس من المعقول أنْ ينتظر أجراً من عمه ؛ لذلك لم تأتِ في كلامه مسألة الأجر هذه .

كذلك موسى - عليه السلام - كانت أول دعوته لفرعون ، الذي قال له : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء] يعني : إنْ كان يستحق أجراً على دعوته لفرعون ، فسوف يستحي أن يطلب منه الأجر ، وقد تربَّى في بيته ، وفي رعايته .

وكلمة ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴿٤٧﴾﴾[سبأ] تحتمل معنيين : أنني أخذتُ أجراً وأعطيته لكم ، أو أنا من الأصل لم أسألكم أجراً ، ثم تختم الآية بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾[سبأ] يعني شاهد علينا جميعاً ، ويعلم ما قاسيته في سبيل دعوتكم إلى الحق ، ويعلم ما فعلتموه معي من عناد وتعنُّت ، وهو سبحانه سيُغلي أجري على قدر معاناتي وما تحملتُه في سبيل هدايتكم ، والأخذ بأيديكم إلى ساحته .

وإذا كان الإنسان إنْ عمل عملاً لا بُدَّ أنْ يكون له حَظٌّ منه ومَغْنم ومنفعة ، فرسول الله لم يسألكم حتى الأجر على العمل ، فبأيِّ شيء تتهمونه بعد ذلك ؟

---

(١) يذهب فضيلة الشيخ رحمه الله إلى أن آزر هو عم إبراهيم عليه السلام وليس أباه . وقد اختلف في اسم أبي إبراهيم ، فالنسابون والمفسرون على أن اسم أبيه « تارح » وبعضهم قال « تارخ » . وبعضهم قال : إنهما اسمان له كما لكثير من الناس وكما كان ليعقوب عليه السلام فهو إسرائيل أيضاً . والبعض قال : إن تارح اسم وآزر لقب . وقيل : إن آزر هو اسم الصنم الذي كانوا يعبدونه . انظر تفسير القرطبي (٣/٢٥٤٤) ، وابن كثير في تفسيره (١٤٩/٢) ، وقصص الأنبياء لابن كثير (ص ١٠٤) ، ولسان العرب (مادة أزر) ، وقصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار (ص ٩٢ - ٩٦) .

بعد ذلك أراد الحق سبحـانه أنْ يُوضِّح لنا أمراً يتعلق بالحق الذى جاء به رسول الله ، فالكفار كانوا يعترضون على شخص رسول الله ، بدليل قولهم :﴿ءأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا .. ⁽٨⁾﴾ [ص]، وقالوا : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ⁽٣١⁾﴾ [الزخرف]

فهم يعترفـون بالقرآن ويعـلمون أنه ذكْـر ، وأنه لا غبارَ عـليه ، المـشكلة أنه نزل على هذا الرجل بالذات ، ولم ينزل على واحد منهم من عظماء القـوم ؛ لذلك أراد الحق سبحـانه أنْ يقول إن إنزال مناهج الله للأرض لا بُدَّ أنْ تنزل على مـصطفًى يصـطفيـه الله ، لا مـصطفًى يصطفيه الخَلْق ، فلا معنى لقولهم : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ⁽٣١⁾﴾ [الزخرف]

لذلك يردُّ الحق سبحانه عليهم بالحجة : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ⁽٣٢⁾﴾ [الزخرف]

وقال سبحانه : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ⁽١٢٤⁾﴾ [الأنعام]

ورحمة الله هى مـا ينتفع به الناس ، إما فى الدنيـا ، وهذه رحمة تشمل المـؤمن والكافر ، وإمـا رحمة فى الآخـرة ، وهذه للمؤمن دون الكافـر ، وهذه الرحـمـة الأخروية دائمة باقـيـة فى نعـيم لا يفـوتك ولا تفوته ، فإذا كنتُ أقسم لكم أرزاقكم ومعيشتكم فى الحياة الدنيا ، فكيف أَكِلُ إليكـم اختـيـار مَنْ يرحـمكم فى الآخـرة ؟ هل أقسم لكم الرحمة الموقوتة . وأترك لكم الرحمة الباقية ؟

ثم ينحو القـرآن معــهم منحًى آخر بعد أنْ وعظـهم وتودَّد إليهم ، فيقول سبحانه :

﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ ﴾

لك أنْ تلحظ هنا حدة الأسلوب ، خلافاً للآيات السابقة التى كانت تعظهم وتتودد إليهم ، وكأن الحق سبحانه يقول لهم : لا تظنّوا أننا سنظل نتودد إليكم ، أو أنكم الذين ستسيِّرون المراكب ، فالدين سيُظهره الله رغم عنادكم ، والحق سيعلو رغم كفركم .

فقال سبحانه : ﴿ قُلْ ﴾ أى : رداً عليهم ﴿ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ﴿٤٨﴾ ﴾[سبأ] فبعد أنْ أعطاكم الفرصة ، وبعد أنْ طال تمردكم ، فالآن ربى سيقذف بالحق ، كما قال سبحانه فى موضع آخر ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الانبياء]

والقذف : الرمى بشدة ، وهى كلمة تُوحى بالعنف والقوة ، إنْ جاءت من البشر ، فما بالك إنْ كان القذف من الله ، والمقذوف من الله هو الحق ، والحق كما قلنا هو الشىء الثابت الذى لا يتغير .

والقذف لا بُدَّ أنْ له غرضاً وغاية ، ومَنْ أراد أنْ يقذف شيئاً عليه أنْ يُحدِّد المسافة لقريب أم لبعيد ، فإن كان لقريب فقلَّما يخطىء القاذفُ المقذوفَ ، وإنْ كان القذف لهدف بعيد فاحتمال الخطأ أكثر ، وهكذا كلما بَعُدَتْ المسافة ؛ لأن معنى القذف تحديد موضع لتصل القذيفةُ إليه ، وتصيب الغايةَ المقصودة منها .

وعندما يكون الموضع قريباً ، فالتغيرات التى ستطرأ عليه قليلة ؛ لأن زمن وصول القذيفة إليه قصير ، على خلاف الهدف إنْ كان بعيداً فهو عُرْضة لأنْ يتغير ، فتختلف مثلاً زاويته بسبب الريح ،

أو الأعاصير أو خلافه ؛ لذلك نحتاج فى هذه الحالة إلى أجهزة وحسابات دقيقة تحسب بُعْد الهدف وقوة المقذوف ، وقوة الريح أى : تتصادم معه وغير ذلك من حسابات السرعة والزمن ، كالذى يرمى الطير مثلاً وهو فى الهواء ، لا بُدَّ أنْ يغير نقطة التنشين لتناسب حركةَ واتجاه الطائر .

ولا أقْدَر على هذه العملية من علاَّم الغيوب سبحانه ، الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ؛ لذلك جاء الحق سبحانه بالصفة التى تناسب الدقة فى هذه العملية ، فقال : ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾[سبأ] ، فهو سبحانه أولاً يقذف بالحق ، وقذيفته سبحانه لا تخطىء هدفاً ؛ لأنه تعالى علاَّم الغيوب .

والحق الذى يقذف الله به هو المنهج الذى أنزله من السماء يقذفه لغاية وهى الرسالة ، كما قال سبحانه : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام]

إذن : القاذف هو الله ، والمقذوف الحق ، وهو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، والغاية المقصودة هى وصول الرسالة إلى مَن اختاره الله لها ، وهذه العملية لا تخطىء ؛ لأن القاذف عالم بكلِّ غيب يؤثر على مسار المقذوف ، فالحق لا بُدَّ أنْ يصل إلى صاحبه المختار له والمصطفى لحمله ، لا إلى سواه .

لذلك هذه الآية تردُّ على هؤلاء الذين يقولون : إن الرسالة أو الوحى أخطأ ، فنزل على محمد بدل أنْ ينزل على فلان[1] ، فهذا تخبُّط لا سند له .

---

(١) من هؤلاء طائفة من طوائف الشيعة ، وهم أصحاب العلباء بن ذراع الدوسى ، وكان يفضل علياً على النبى ﷺ ، وزعم أن محمداً بُعث ليدعو إلى على فدعا إلى نفسه (الملل والنحل للشهرستانى ٢/ ١٧٥).

وكلمة ﴿الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾[سبأ] هنا تدل على كثرة المؤثرات التى يمكن أن تعترض القذيفة ، فتحُول بينها وبين هدفها ، وهذه المؤثرات لا يعلمها إلا الله .

فإنْ قلت : الفعل يقذف جاء فى صيغة المضارع الدال على الحال والاستقبال ، يعنى : أن الحق سبحانه عمله أنه يقذف بالحق إلى الرسل ، فهل قذفه إلى رسول الله ؟

تأتى الإجابة فى قوله تعالى فى الآية بعدها :

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ .. ﴿٤٩﴾﴾[سبأ] يعنى : قذفه بالفعل فى صورة القرآن الذى نزل على محمد الذى اختاره الله للرسالة ولحمل منهجه إلى خَلْقه لينظم به حركة حياتهم ، وإذا كان الحق الواضح الثابت قد جاء وظهر ، والذى قذفه علام الغيوب ، فما موقف الباطل المقابل له ؟ لا بُدَّ أنه يتراجع ، ولا يستطيع الصمود أمام قوة الحق .

﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾[سبأ] فلا يبدىء فى الأولى ، ولا يعيد فى الأخرى ، يعنى : كما نقول : لا فى العير ولا فى النفير (لا يهش ولا ينش) ، هذا إذا كان للباطل وجود أو ثبات ، إنما الباطل ما هو إلا خيال بعيد فى أذهان أصحابه لا وجودَ له .

والحق - سبحانه وتعالى - يعطينا صورة حسِّية للحق والباطل، فيقول سبحانه : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ..﴿١٧﴾﴾[الرعد] يعنى : كل وادٍ يحوى من الماء على قدر اتساعه ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴿١٧﴾﴾ [الرعد]

والزَّبَد هو القشّ والفتات الذى يحمله الماء ، وهو تافه لا نفعَ فيه ، يأتى الهواء فيزيحه هنا وهناك ، وتبقى صفحة الماء نقية لينتفع الناس به .

ومعنى رابياً : طافياً على السطح ، وفى هذا إشارة إلى أن الباطل لا نفعَ فيه ، ولا بقاءَ له مهما علا ، وأن وجوده كوجود هذا الغثاء ، الذى لا قيمةَ له ، ولا فائدة منه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِى إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠ ﴾

نلحظ أنه ﷺ نسب الضلال إنْ حدث إلى النفس ، ولكنه ﷺ نسب الهداية إلى الله وإلى الوحى المنزَّل عليه ؛ لأن الله إذا أنزل منهجاً هادياً لإنسان مختار ، ومجال الاختيار أنْ تُوجد بدائل يختار العقل منها ؛ لأن العقل لا مهمة له فى الأمر الواحد الذى ليس له بديل ، فمثلاً : تقول أريد أنْ أسافر إلى الفيوم ، فلا تجد إلا طريقاً واحداً ، فلا عملَ للعقل والاختيار هنا ، لكن تقول : أريد أنْ أسافر إلى الإسكندرية ، فتجد طريقين : الزراعى وصفته كذا وكذا ومميزاته كذا وكذا ، والصحراوى وصفته كذا ومميزاته كذا .

والله تعالى خلق كونه كله مختاراً ، إلا فى الأمور القضائية القدرية ، فقد جعلها الله قهريةً لا اختيارَ للإنسان فيها ؛ لأن تدخُّلَه فيها يفسدها .

ولا تظن أنك وحدك مختار فى الكون ، فكُلُّ ما حولك من السماء والأرض مختار أيضاً ، إلا أن السماء والأرض والجبال اختاروا مرة واحدة ، ثم سحبوا اختيارهم الكلىّ على كل الجزئيات التى تأتى بعد ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ

وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

فالجمادات اختارت من البداية أنْ تكون مقهورة لله عز وجل ، وأبَتْ تحمُّل هذه الأمانة ، أما الإنسان فتحملها وقال : أستطيع بعقلى أن أختار بين البدائل ، وفاته أنه أدرك وقت التحمُّل ، ولم يدرك وقت الأداء ، وما يطرأ عليه من عوارض وشهوات ووسوسة شيطان .. إلخ ؛ لذلك وصفه الحق سبحانه بأنه كان ظلوماً جهولاً ، يعنى : ظلُوماً لنفسه ، جهولاً بالعواقب .

والمنهج الذى وضعه الحق سبحانه منهج عام ، وُضع للمؤمن وللكافر ، فالله هدى ودلَّ الجميع إلى طريق الخير ، وترك الجميع مختاراً ، فمنهم مَن اختار شهوات نفسه فى الدنيا ، ورأى أنْ يتمتع بها ، ويحدث ما يحدث بعد ذلك ، ومنهم مَنْ تأمل هذا المنهج ، فوجده من مُطاع بمعجزة ، وهذه المعجزة خرقت نواميس الكون ، فهو - إذن - منهج من عليم قادر وإله أعلى ، اختار هذا المنهج لصلاح الخَلْق .

والإنسان عموماً يحب الخير لنفسه ، لكن يختلف الناس فى فهمهم للخير ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾ [الإسراء]

ويقول سبحانه : ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

وكأن الحق سبحانه يقول للإنسان : لا تعجل فى دعائك ، وارْضَ بما اختاره لك ؛ لأن حكمك وفَهْمك للخير على قَدْر علمك بالخير ، لكن أنا أعلم منك به ، وأعلم منك باستقبالك لهذا الخير وأثره فيك .

لذلك قلنا : إننا نسمع كثيراً مَنْ يقول : أنا أصلى وأسير على منهج الله ، ومع ذلك دعوتُ فلم يُسْتَجب لى ، نقول : لأنك دعوتَ بالخير بفهمك أنت للخير ، لكن ربك أعلم منك بالخير لك ؛ لذلك لم يُجِبْ دعاءك .

وكثيراً أيضاً ما نسمع أمّاً تدعو على ولدها الوحيد فى ساعة غضب تقول : (إلهى أشرب نارك ، إلهى يجيينى خبرك) بالله ، لو أن الله أجاب دعاءها ، ماذا كانت تقول فى ربها ؟ إذن : عدم إجابة الله لك فيما تدعو أحياناً هو عين الخير لك ، لأنه يعلم حمق دعائك ، وهو رب لا يرضى لك بآثار هذا الحمق ؛ لذلك يُعدِّل لك ما أخطأتَ فيه .

أمر آخر فى هذه المسألة ، فقد يكون الدعاء بخير حقيقى ، لكن جاء هذا الدعاء من غير مضطر ، إنما جاء كما نقول (بغددة) ، والحق تبارك وتعالى وعد بإجابة المضطر إذا دعاه ، فقال سبحانه : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴿٦٢﴾ ﴾[النمل] فلو كنتَ مضطراً لأجابك ؛ لأن المضطر استنفد كل الأسباب الموهوبة له من الله ، وعجزَتْ قوته ، فلجأ إلى الله المسبِّب سبحانه ، وأغلبنا يدعو الله عن غير اضطرار .

إذن : حين لا يُجاب دعاؤك ، فاعلم أنه دعاء بشرٍّ تظنه أنت خيراً ، والخير فى ألاَّ يجيبك الله ، أو أن دعاءك عن غير اضطرار .

نعود إلى كلامنا عن المنهج الذى وضعه الله لهداية الناس جميعاً ، ونقول : الذى آمن بهذا المنهج واهتدى به يعينه الله ويزيده هداية ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد] والذى انصرف عنه وضَلَّ كذلك يزيده الله من الضلال ، ويختم على قلبه ، بحيث لا يدخله إيمان ، ولا يخرج منه كفر ، ذلك لأنه تعالى رب يعين عبده على ما أحب ، ويزيده مما يريد .

إذن : طالما هناك اختيار فى قبول المنهج فلا بُدَّ أن توجد هداية ، ويوجد ضلال ، الهداية تجلب الخير والثواب ، والضلال يجلب الشر والعقاب ، هنا الحق سبحانه يُوضِّح لنا أن الضلال يُنسب إلى النفس ، أما الهداية فتُنسب إلى الله وإلى منهجه ، وقد قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ (٧٩) ﴾ [النساء]

وقال سبحانه قبلها : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ (٧٨) ﴾ [النساء] لماذا ؟ لأنه سبحانه جعل الطريقين ودلَّ الجميع ، فإنْ نظرتَ إلى الفعل فالله هو الذى أمدَّك ، كما قال سبحانه : ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰؤُلاءِ وَهَٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) ﴾ [الإسراء]

فالله أعطاك مثلاً اللسان تنطق به كلمة التوحيد ، أو تنطق به كلمة الكفر والعياذ بالله ، فاللسان لم يَعْصك ، لا فى هذه ولا فى تلك ، فمَن الذى أعطاك حرية الاختيار ؟ الله ، لذلك قلنا : لم يكفر كافر قهراً عن الله ، أما عدم رضائه عنه ، فهذا موضوع آخر .

لذلك قلنا : الرجل الذى أعطى لابنه جنيهاً مثلاً - وهو قوة شرائية - وقال له : اذهب إلى السوق واشتر به ما تريد ، لكن يُرضينى أنْ تنفقه فى شىء نافع ، فالذى أعطاه القوة الشرائية أبوه ، والذى ترك له الخيار أبوه ، وهو قادر أنْ يحجر عليه ويسلبه هذه القوة ، وهذا هو الاختيار .

كذلك الحق - تبارك وتعالى - يريد أن يذهب الإنسانُ إليه وهو مختار ، وهو قادر ألاَّ يذهب ، يريد أن يذهب العباد إليه عن حب ، وعن رغبة ، وعن إيمان ، لا عن قهر وجبروت ؛ لأنه سبحانه - كما سبق أن قُلْنا - يريد قلوباً تخشع ، لا قوالب تخضع .

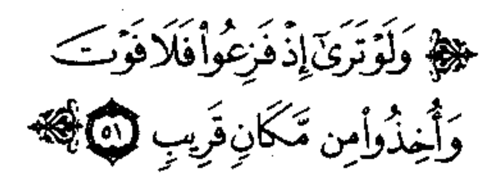
فقوله تعالى : ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ ۝٥٠﴾[سبأ] يعنى : أنا وأنتم سواء فى هذه المسألة ؛ لأن الضلال نتيجة للسيئات التى تقترفها النفس ، فهى سبب الضلال ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۝٥٠﴾[سبأ] أما الهداية فمن الله ؛ لأنها بسبب منهج الله ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۝٥٠﴾ [سبأ]

لكن النبى ﷺ متفق وأمته فى نسبة الضلال إلى النفس ، لكن يختلف عنهم فى الهداية ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۝٥٠﴾[سبأ] فالهداية جاءته ﷺ من الله مباشرة قبل أنْ يبعث له رسولاً بالرسالة ، وقبل أنْ ينزل عليه وحى السماء ، أما هداية الأمة فبواسطة الرسول الذى يُبلِّغ منهج الله ويأتى بالمعجزة .

فهداية رسول الله كانت بدايةً لما اختاره الله رسولاً على هذا الوضع من الهداية ، ثم أنزل عليه المنهج لهداية الأمة .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠﴾[سبأ] سميع أى : يعرف مطلوبى ، ويسمع منى كل نَفَس ، وهو سبحانه مع سمعه قريب منى لا يبطىء علىّ فى الإجابة ؛ لأن الفعل من الله تعالى لا يحتاج إلى علاج ومزاولة ، إنما الفعل من الله بكُنْ .

ثم يرجع الحق سبحانه إلى رسوله ﷺ ليُسلِّيه :



قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ ۝٥١﴾[سبأ] أسلوب شرط ورد عدة مرات فى القرآن الكريم ، وتلحظ أن السياق لم يذكر له جواباً ، واقرأ :

﴿ ولَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [سبأ]

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنعام]

فالجواب هنا محذوف ؛ لأنه معلوم من السياق ، فالتقدير هنا : ولو ترى يا محمد إذ فزعوا يوم القيامة لرأيتَ شيئاً عظيماً وأمراً عجيباً يريح قلبك ، وينتقم لك جزاءَ ما كذَّبوك وعاندوك ، وقد ورد هذا المعنى أيضاً فى قوله تعالى : ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المطففين]

فالذين طغَوْا وتجبَّروا فى الدنيا ، وصادموا كلمة الحق ، وكانوا عُتَاة وفراعنة تراهم فى الآخرة حين يصيبهم فزعها (بسابس) قططاً وأرانب .

ومعنى ﴿فَلا فَوْتَ ﴿٥١﴾ ﴾[سبأ] لا مهربَ ولا نجاةَ لهم ؛ لأن الإنسان قد يفزع ويخاف من شيء ، لكن يستطيع الهرب منه ، أو ربما ينقذه أحد ، أما هؤلاء فسوف يفزعون دون منقذ ودون مهرب ولا مفر ، وهذا يشفى صدرك وصدور المؤمنين الذين أوذوا معك فى سبيل نشر دعوة الحق .

فكما وقفوا فى وجه دعوة الله سيقفون يوم القيامة موقفَ الذلة والمهانة ، وتأمل : ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴿٣١﴾ ﴾[سبأ] ﴿وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾[الأنعام] ﴿وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴿٣٠﴾ ﴾[الأنعام] يعنى : ينتظرون أنْ يُؤْذَن لهم ليروْا ماذا سيقول شفعاؤهم الذين عبدوهم من دون الله ، لكن يُفاجأون بأن شفعاءهم وكبراءهم يسبقونهم إلى النار ، ويتقدمونهم إلى العذاب كما تقدَّموهم فى الضلال .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾[مريم] وقال عن فرعون : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود]

وهكذا يُيئِّسهم الله من النجاة ؛ لأنهم كانوا ينتظرون هؤلاء الشفعاء وهؤلاء الرؤساء ليدافعوا عنهم ، فإذا بهم يتقدمونهم إلى العذاب .

وهذه الوقفات التى ذكرناها للكفار يوم القيامة ، كل وَقْفة منها لها ذلة ، وكل وَقْفة لها فزعة ، وكل وقفة عذابٌ فى حدِّ ذاتها ، وكأن الحق سبحانه يقول لنبيه : لو رأيت وقفاتهم وفزعهم لَشَفَى غليلك ، ولعلمتَ أننا استطعنا أنْ نجازيهم بما يستحقون .

وسبق أنْ مثَّلْنا لهذا الموقف بواحد (فتوة) أو (فاقد) يُذِل أهل بلده ويُخيفهم ، فالكل يخافه ويجامله ويتقى شرَّه ، وفى إحدى المرات قبضتْ عليه الشرطة وساقوه فى السلاسل ، فترى أهل البلدة فرحين يتغامزون به ، ونسمع فعلاً فى مثل هذا الموقف مَنْ يقول (لو شفتْ اللى حصل لفلان) ، والمعنى : رأيتَ أمراً عجيباً لا يُتخيَّل فى الذهن .

ومعنى : ﴿وَأُخِذُوا ﴿٥١﴾﴾ [سبأ] أهْلكوا ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾[سبأ] هو موقف القيامة ومكان الحساب . يعنى : لم يترك لهم الحق سبحانه بحبوحة ، إنما أخذهم من الحساب إلى النار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾

سبحان الله ، فبعد أنْ فعلوا برسول الله وأتباعه ما فعلوا ، وبعد أنْ فَزِعوا وحاق بهم العذاب يعلنون الإيمان ويقولون﴿ آمَنَّا بِهِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [سبأ] ، وما أشبه هذا بإيمان فرعون لما أدركه الغرق ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس] فردَّ الله عليه ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يونس] يعنى : هذا وقت لا ينفع فيه إيمان .

وهنا يردُّ الحق عليهم إيمانهم ، فيقول : ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ[1] ﴿٥٢﴾ ﴾ [سبأ] أى : تناول الإيمان ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [سبأ] كلمة(أنّى) يعنى: كيف لهم الإيمان الآن ، وهم فى موقف الموت أو البعث ، فقد كان الإيمان قريباً منهم فى الدنيا ، أما الآن فهو أبعد ما يكون عنهم .

لذلك استخدم السياق أداة الاستفهام (أنّى) ولها معنيان : بمعنى كيف الدالة على التعجُّب يعنى : هذا أمر غريب وعجيب منهم ، وتأتى (أنّى) بمعنى من أين كما جاء فى قول سيدنا زكريا للسيدة مريم : ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران]

يعنى : من أين لك هذا الرزق ؟ لذلك ينبغى لولى الأمر أن يتعلَّم من هذه الآية إذا رأى عند أهله شيئاً لم يأتِ لهم به أن يسألهم من أين جاءوا به ، وكيف وصل إلى بيته ، وهذا احتياط واجب ؛ لأن هذا الشىء قد يكون تسللاً أو استمالة إلى معصية .

وترد السيدة مريم على هذا السؤال ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ

---

(١) التناوش : التناول من قرب . والمعنى : كيف يستطيعون تناول الإيمان وهم قد أخذوا للعذاب أخذاً لا فوت منه ولا مهرب ، وبذلك صاروا فى مكان بعيد جداً عن الإيمان وعن قبول الاعتذار ، وقد بَعُد وقت التناوش ، فلا أمل فى تناول أى خير لهم . [القاموس القويم ٢/٢٩٢]

اللَّهِ (٣٧) ﴾[آل عمران] ثم تذكر حيثية ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾ [آل عمران] يعنى : إياك أنْ تحسب المسائل بقدرتك ، فتقول : من أين أتتك فاكهة الصيف فى الشتاء ، أو فاكهة الشتاء فى الصيف ؟ لأن هذا عطاء الله وقدرته .

وكأن هذا القول من السيدة مريم قد نبَّه سيدنا زكريا إلى قضية غفل عنها ، فهزَّتْه هذه الكلمة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾ [آل عمران]

عندها قال فى نفسه إذن : لماذا لا أدعو الله أنْ يرزقنى الولد بعد أنْ بلغْتُ من الكبَر عتياً وامرأتى عاقر ، فعطاء الله لا يخضع للأسباب ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) ﴾ [آل عمران]

وهكذا استفاد سيدنا زكريا من هذه القضية العقدية التى نبهته لها السيدة مريم ، وفعلاً استجاب الله له وأعطاه ولداً ، بل أكَّد ذلك بأنْ سمَّاه له ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) ﴾ [آل عمران]

وهذا تسجيل للبُشْرى وتأكيد لها ، ومن ذلك ما رُوى عن سيدنا أبى بكر ، فقبل أنْ يموت أوصى السيدة عائشة بخصوص الميراث من بعده ، فقال لها : إنما هما أُختاك وأخَواك . فى وقت لم يكُنْ لها إلا أخوان هما : عبد الرحمن ومحمد ، وأخت واحدة هى السيدة أسماء، لكن بعد موت الصِّدِّيق ولدتْ زوجته بنت خارجة[1] بنتاً فصدقتْ وصية

(١) هى : حبيبة بنت خارجة بن زيد الخزرجية ، زوج أبى بكر الصديق ووالدة أم كلثوم ابنته التى مات أبو بكر وهى حامل بها فقال : ذو بطن بنت خارجة ما أظنها إلا أنثى فكان كذلك. تزوجت إساف بن عتبة بن عمرو بعد وفاة أبى بكر . [انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة (٨/٤٨)] .

الصِّديق ، وهو - رضى الله عنه - لم يكُنْ علم الغيب ، إنما علِّم ، وأنطقه الله بذلك ، لأنه لا يعلم ما فى الأرحام إلا الله ، فلا أحد يعلم ما فى الأرحام بذاته ، إنما يُعلَّم من الله .

وقد ورد عن سيدنا رسول الله أنه قال لأهل المدينة : « المحيا مَحْياكم ، والممات مماتكم »[1] فبيَّن ﷺ أنه سيموت فى المدينة ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان]

فرسول الله ﷺ لم يكُنْ يعلم غيباً ، إنما علِّم الغيبَ من علاَّم الغيوب سبحانه ؛ لذلك لا نقول فلان عالم غيب ، إنما مُعلَّم غيب.

لذلك كثيراً ما نرى بعض أهل الصلاح أو الذين كشف الله عنهم الحجاب يرى السيدة الحامل فيقول لها سَمِّ هذا الولد محمداً ، وفعلاً تلد ولداً ، وتسميه محمداً ، هذا تسجيل للبُشْرى وإلهام من الله وتعليم لمن اختارهم الله لهذا العلم .

والناس حين يُسمون يختارون الاسم الذى يُتفَاءل به ، فيقولون : سعيد ، ذكى .. إلخ تفاؤلاً أن يكون الولد بالفعل سعيداً أو ذكياً ، لكن أتملك أن يكون الاسم على مُسمَّاه ؟ لا لا أحد يملك أنْ يكون ولده كما يريد ، لكن إذا كان المسمِّى هو الله سبحانه فهو وحده القادر على تحقيق المسمَّى .

لذلك لما وهب لسيدنا زكريا الولد وسماه (يحيى) لم يفطن الناس إلى هذه التسمية ، وأنها من الله تعنى أن هذا الولد سيحيا ولا يموت ، فالله سماه يحيى ليحيا ، وفى هذه التسمية إشارة إلى أنه سيموت شهيداً ، فتتصل حياة الدنيا بحياة الشهادة ، ولو فطن قَاتلوه إلى هذا المعنى ما قتلوه .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٨٠) رواية (٨٦) كتاب « الجهاد والسير » أنه قال للأنصار فى حديث طويل : « أنا محمد عبد الله ورسوله ، هاجرت إلى الله وإليكم ، فالمحيا محياكم والممات مماتكم » .

لذلك لما ذهبنا لزيارة قبر سيدنا حمزة قلنا هناك:

أحَمْزَةَ عَمّ المصْطَفى أنتَ سَيِّدٌ   على شُـهَداء الأرْضِ أجمعِهمْ طُـرّا
وحَسْبُكَ من تِلْكَ الشهادةِ عِصْمَةٌ   من المَوْتِ فى وَصْلِ الحيَاتَيْن بالأُخرى

وهذه القضية العقدية التى استفاد منها سيدنا زكريا فطلب من الله الولد ، استفـادت منها السيدة مريم بعد ذلك حـين حملت بلا ذكورة ، فتـذكرت ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمـران] فاطمأن قلبها .

فكلمة (أنَّى) فى قـوله تعالى : ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ [سبأ] هى بمعنى كـيف ، ومثلها قـول السيدة مريم لمـا بُشّرت بعيسى : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [مريم]

ومثل قـوله تعالى : ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَـٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة] فالسؤال هنا عن كيفية الإحياء ، وهى مسألة لا تُقال إنما تُشاهد ، ألم نقرأ قول سيدنا إبراهيم :﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة]

وللمستشرقين اعتراض على هذه الآية . يقولون : كيف يخاطب الله أبا الأنبياء إبراهيم ويقول له ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴿٢٦٠﴾﴾[البقرة] ويقول هو ﴿بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴿٢٦٠﴾﴾[البـقرة] ، وهـل الإيمـان إلا اطمئنان قلب إلى عقيدة ما ؟

ونقـول : الإيمان خـلاف الاطمئنان هنا ، فـالإيمان بأن الله يحيى الموتى موجود عند إبراهيم ، فهو لـم يسأل : أيوجد إحياء للموتى من الله أم لا يوجد ؛ لأنه يؤمن بقدرة الله على إحيـاء الموتى ، إنما يسـأل عن كيفية ذلك ، فالاطمئنان المقصـود على الكيفية ، بدليل أن الله تعالى

أظهر له آية عملية وتجربة حسيّـة فى مسـألة ذبح الطير ؛ لأن الكيفية كما قلنا لا تُقَال إخباراً إنما تُشَاهد .

فالحق سـبحـانه ينكر على الكفار تناولهم للإيمـان فى هذا الوقت ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيـدٍ ۝٥٢ ﴾ [سـبـأ] التناوش تناول الشـىء بيُسْر ، وهم يريدون تناول الإيمـان فى آخر لحظة ، وبعد فوات أوانه وضيـاع فرصـته ، يريدون إيمـاناً بلا تكاليف ، وأنَّى لهم ذلك ، وهم أبْعد ما يكونون عن الإيمان ؛ لأن محل الإيمـان فى الدنيا ، فهذا القول منهم أشبه بقول أصـحابهم الذين قالوا : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۝٣٧ ﴾ [فاطر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٣ ﴾

يعنى : عرض عليـهم الإيمان وهم فى بحـبوحة الدنيـا وسـعتـها ، فكفـروا به ، والـدنيـا هى مـحلُّ الإيمـان ومـحلُّ التـكاليف والأوامـر والنواهى ، فلما وقفوا موقف الموت أو البعث تمنَّوا الإيمان وقالوا آمنا وهم فى هذا ﴿ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٣ ﴾[سبأ] يعنى : يتكلمون بالظن فيما لا عـلْم لهم به ، يريدون أنْ يصلوا إلى غرضـهم ، وهو أنْ ينجوا من العذاب ، لكن يأتى هذا القـذف بالظن أيضاً من مكان بعيد ، يعنى فى غيـر محله ، وفى غير وقـته ، والقرآن هنا أثبت لهم قَـذْفاً ، كما أثبت للحق سبحانه قَذْفاً ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ۝٤٨ ﴾[سبأ] ، لكن شتَّان بين الاثنين .

قذف هؤلاء من مكان بعيد ، والقَذْف من بعيد قَذْف لا يصيب الهدف ، وهم فى قَذْفهم لا يعلمون الغيب ، ولا يعلمون المؤثرات التى تؤثر على المقذوف ، أما الحق سبحانه فيقذف وهو سبحانه علاَّم الغيوب الذى لا يغيب عن علمه شىء .

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

نقول : حُلْتُ بين الخصمين يعنى : فصلْتُ بينهما ، وجعلتُ بينهما حائلاً ومانعاً من الاشتباك حتى لا يبلغ كل منهم أشُدَّه فى المعركة ، أو ينال مراده من خَصْمه ، فالحق - سبحانه وتعالى - جعل حائلاً ومانعاً بين هؤلاء وبين ما يشتهون .

والاشتهاء طلب شهوة النفس من غير ارتباط بمنهج ، لكن ما الذى كان يشتهيه الكفار ؟ كانوا يشتهون أنْ يطمسوا دعوة الحق ، فلم يُمكّنهم الله من طمسها ، كما قال سبحانه :﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [التوبة]

وقال سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الصف]

وهم يشتهون انطماس الدعوة ؛ لتبقى لهم سيادتهم التى نهبوها على حساب الضعفاء ، ولتظل لهم المكانة والتصرُّف ، كذلك يَشْتهون انطماس الدعوة حتى لا تقف مناهج الله عقبةً أمام شهوات نفوسهم .

ومعلوم أن الإنسان تحاربه نفسه قبل أن يحاربه الشيطان ، لذلك قال النبى ﷺ فى رمضان : « إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة ،

وغُلِّقت أبواب النار ، وصُفِّدت[1] الشياطين[2] » ومع ذلك تحدث في رمضان ذنوب وجرائم . إذن : هذه الذنوب وهذه الجرائم ليست عن طريق الشيطان ، إنما من طريق النفس ، كأن الله تعالى يريد أنْ يفضح العاصين الذين يتهمون الشيطان ، ويُلْقون عليه تبعة كل ذنوبهم . إذن : ليس الشيطان وحده هو وسيلة الضلال والغواية ، إنما هناك النفس الأمَّارة بالسوء .

وسبق أنْ أوضحنا كيفية التفريق بين المعصية من طريق الشيطان والمعصية من طريق النفس ، وقلنا : إذا وقفْتَ أمام معصية بعينها لا تتحول عنها مهما عَزَّتْ عليك أسبابها ، فاعلم أنها من شهوات النفس ؛ لأن النفس تريد شيئاً بعينه ، أما الشيطان فإنْ عزَّت عليك معصية أخذك إلى أخرى ، المهم أن تعصى الله على أيِّ وجه ، وبأية طريقة .

فقوله تعالى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[سبأ] دلَّ على أن المسألة بالنسبة لهم كانت شهوةَ نفس ، لا مدخلَ للشيطان فيها ، لماذا ؟ لأنهم كفروا بالله وفرغ الشيطان منهم ، وإلا ماذا يريد منهم بعد ذلك ، فلم تَبْقَ إلا شهوات النفس فاشتهوا أنْ يطمسوا الدعوة ، وأنْ يذلوا مَنْ آمن ويجعلوه عبرةً لمن يفكر في الإيمان ، لكن حال الله بينهم وبين ما أحبوا ، وسارت الدعوة على خلاف ما اشتهوا ، فمن ذُلَّ وضُرب وأُهين من المؤمنين ثبت على إيمانه ، ومَنْ كان يفكر في الإيمان لم يَرْهَبْهُم ، ولم يخف مما فعلوه بإخوانه المؤمنين .

---

(١) صفدت : أي شُدَّت وأوثقت بالأغلال . والأصفاد هي الأغلال وقيل : القيود . [لسان العرب - مادة : صفد] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٣٥٧) ، ومسلم في صحيحه (١٠٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

فإنْ قلت : كيف أسلم اللهُ المؤمنين الأوائل لأنْ يعذبهم الكفار ، وأنْ يُهينوهم ويُخرجوهم من أرضهم ؟ نقول : كان هذا لحكمة عالية أرادها الحق سبحانه ، وهىَ أنْ يُمحِّص إيمان المؤمنين ، بحيث لا يثبت على إيمانه إلا قوى العزيمة الذى يصبر على تحمل الشدائد ، فهؤلاء هم الذين سيحملون منهج السماء ودعوة الحق إلى العالم أجمع ، فلا بد أن يكونوا صفوة تختار دين الله وتضحى فى سبيله بكل غالٍ ونفيس .

لذلك أراد سبحانه أنْ تتزلزل هذه الدعوة فى بدايتها عدة مرات، وأن ترى بعض الفتن التى تُغربل الناس ، وتُخرِج المؤمنين فى جانب ، والمنافقين فى الجانب الآخر ، وهذا ما حدث بالفعل فى مسألة الإسراء والمعراج مثلاً ، وفى رحلة الطائف ، كلها فِتن تُمحِّص المؤمنين .

لقد ضيَّق الكفارُ على المؤمنين الخناقَ ، حتى جلس رسول الله يفكر فى أمرهم ويفتش فى رقعة الأرض المعاصرة له ، أيها تناسب أصحابه ، ويأمنون فيها على أرواحهم وعلى دينهم ، فلم يجد ﷺ إلا الحبشة ، فقال لأصحابه : « اذهبوا إلى الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يُظْلَم أحد عنده »[(١)] .

وفعلاً كان النجاشى عند ظن رسول الله ، فأكرم المؤمنين ، ورفض أنْ يُسلِّمهم إلى وفد قريش ؛ لذلك كافأه رسول الله بأنْ وكله

(١) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم ، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله فى منعة من قومه ومن عمه لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » حديث طويل أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٠١) ، وابن هشام فى السيرة بنحوه (١/٣٢١).

في أن يُزوِّجه من أم حبيبة[1] ، وكانت لهذه الزيجة حكمة ، فالسيدة أم حبيبة هاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، لكنه تنصَّر هناك ، وظلَّتْ أم حبيبة على إيمانها ، فدلَّ ذلك على صدْق إيمانها ، وأنها ما هاجرت لأجل زوجها ، إنما هاجرت لله ورسوله ، فكافأها رسول الله هذه المكافأة .

فالكفار اشتهوا إيذاء رسول الله وإيذاء المؤمنين مجاهرةً ، فلم يصلوا من ذلك إلى شيء ، فاشتهوا التآمر على رسول الله وقَتْله ، ودبروا له مؤامرة لقتله ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال] فخيَّب الله سَعْيهم ، وخرج رسول الله من بين شبابهم وفتيانهم ، وهو يحثُو التراب على وجوههم ، ويقول : « شاهت الوجوه»[2]

والله يقول : ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس]

وهكذا حالَ الله بينهم وبين ما يشتهون من المجاهرة ومن المؤامرة ، فحاولوا أنْ يسحروا رسول الله ، بأن يكيدوا له بطريقة خفية فَسَحره لبيد بن الأعصم[3] ، واستعانوا في ذلك بإخوانهم من شياطين الجن ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ

(١) هي : رملة بنت أبي سفيان ، صحابية ، من أزواج النبي ﷺ وهي أخت معاوية ، كانت من فصيحات قريش ، ومن ذوات الرأي والحصافة ، تزوجها رسول الله بعد أن تنصَّر زوجها وهما في الحبشة عام ٧ هجرية . توفيت بالمدينة عام ٤٤ هـ عن ٦٩ عاماً بعد ٣٤ عاماً من وفاة الرسول . [الأعلام للزركلي ٢/ ٣٣] .

(٢) ورد قول رسول الله هذا في حديث الهجرة عن ابن عباس عند أحمد في المسند (١/ ٣٦٨)، وكذلك في غزوة حنين في صحيح مسلم (١٧٧٧) من حديث إياس بن سلمة عن أبيه ، وأحمد في مسنده (١/ ٢٨٦) والدارمي في سننه (٢/ ٢١٩) من حديث أبي عبد الرحمن الفهري .

(٣) لبيد بن الأعصم يهودي من بني زُرَيق ، وكان قد أسلم نفاقاً ، وقد كان ساحراً ، وقد جاءه اليهود فقالوا له : يا أبا الأعصم ، أنت أسحرنا ، وقد سحرنا محمداً فلم نصنع شيئاً ، ونحن نجعل لك جُعْلاً على أن تسحره لنا سحراً ينكؤه ، فجعلوا له ثلاثة دنانير ، انظر : فتح الباري لابن حجر العسقلاني (١٠/ ٢٢٦)

لِيُجَادِلُوكُمْ (١٢١)﴾[الانعام] لكن خيَّب الله مَسْعاهم في السحر أيضاً ، ولم ينالوا من رسول الله ، ولا من منهج الله ، وكأن الله تعالى يقول لهم : وفِّروا على أنفسكم ، فرسول الله معصوم من الله ، كما خاطبه سبحانه بقوله : ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ (٦٧)﴾ [المائدة]

وقوله سبحانه : ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ (٥٤)﴾ [سبأ] يعني هذه القضية ليست خاصة بكفار مكة ، إنما هي سنة مُتبعة في الأمم السابقة ، ومعنى ﴿بِأَشْيَاعِهِم (٥٤)﴾[سبأ] بأمثالهم من الكفار في الأمم السابقة .

والأشياع : جمع شيعة ، وهم الجماعة المجتمعة على رأي يقتنعون به ، ويدافعون عنه ، سواء أكان حقاً أم كان باطلاً ، فقوله تعالى هنا : ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ (٥٤)﴾ [سبأ] دلَّ على أنهم كانوا على باطل ، أما قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣)﴾ [الصافات] فهذه على الحق .

والمعنى : أنهم أُخذوا كما أُخذ أمثالهم من الكافرين مع الفارق بين الحالتين ، فقبل رسول الله كانت السماء تتدخل مباشرة لتدافع عن دين الله وعن نبي الله ؛ لذلك حدثتْ فيهم الزلازل والخسْف والصيحة والمسخ .. إلخ .

فالأمم السابقة لم تكُنْ مأمونة على أنْ تدفع عن دين الله بسيفها، أما أمة محمد ﷺ فقد استأمنها الله على هذه المهمة ، فحملتْ السيف ودافعتْ عن دينها ؛ لذلك أكرم الله هذه الأمة ، فلم يحدث فيها خَسْف، ولا مَسْخ ولا إغراق . مما حدث لسابقيهم .

لذلك لما يئس نوح عليه السلام من هداية قومه دعا عليهم :

﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا(١) ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح]

أما سيدنا رسول الله فجاءه الملك يعرض عليه الانتقام من كفار قومه ، فيقول : لا ، لعل الله يُخرِج من أصلابهم مَنْ يقول لا إله إلا الله . وفعلاً آمن منهم كثيرون أمثال : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبى جهل ، وكما كانوا ألدَّ أعداء الإسلام صاروا قادته الفاتحين .

وقد تألم المسلمون كثيراً ؛ لأن هؤلاء نجوْا من القتل ، وهم لا يدرون أن الله تعالى كان يدخرهم للإسلام ، فصار خالد سيف الله المسلول ، وعمرو أعظم القادة الفاتحين ، ويكفى شهادة لعكرمة(٢) أنه ابن أبى جهل ، وأنه لما ضُرِب ضربة قوية فى موقعة اليرموك احتضنه خالد وهو يعانى سكرات الموت ، فقال : يا خالد ، أهذه ميتة تُرضى عنى الله ورسوله ؟

حتى الذين ظلُّوا على كفرهم من قوم رسول الله كانوا فى صالح الإسلام ، فمثلاً أبو لهب وهو عم رسول الله ، وهو الذى قال له : تباً لك ، ألهذا جمعتنا ، وهو الذى قال عن رسول الله لما مات ولده

---

(١) يقال : ما بالدار ديَّار ، أى ما بها أحد . والدارىُّ : الملازم لداره لا يبرح ولا يطلب معاشاً . [لسان العرب - مادة دور] .

(٢) هو : عكرمة بن أبى جهل بن هشام المخزومى القرشى ، من صناديد قريش فى الجاهلية والإسلام . كان هو وأبوه من أشد الناس عداوة للنبى ﷺ وأسلم عكرمة بعد فتح مكة ، وحسن إسلامه ، فشهد الوقائع وولى الأعمال لأبى بكر ، واستشهد فى اليرموك عام ١٣ هـ وكان عمره ٦٢ سنة . [الأعلام للزركلى ٤/٢٤٤] . وذكر ابن سعد فى طبقاته (٤٠٨/٩) : « قُتل يوم أجنادين شهيداً » .

إنه أبتر[1] يعني مقطوع الذرية ، لأن أولاد البنات يُنسَبون إلى آبائهم ، كما قال الشاعر[2]:

فَإِنَّمَا أُمَّهَاتُ القَوْمِ أَوْعِيَــةٌ   مُسْتَوْدَعَاتٌ وللأَحْسَابِ آبَاءُ[3]

ومن العجيب أن أبا لهب قدَّم للإسلام كما قدَّم خالد وعمرو وربما أكثر ، كيف ؟ لأن الله جعله حجة على صدْق كلام الله ، وعلى صدْق رسول الله فيما بلَّغ عن ربه ، فلما قال لرسول الله : تباً لك ، ألهذا جمعتنا ؟

ردَّ الله عليه : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤ ﴾ [المسد]

فحكم الله عليه وهو ما يزال في سَعَة الدنيا ، وما يزال مختاراً حراً قادراً على إعلان إيمانه ولو نفاقاً ، ومع ذلك لم يجرؤ أنْ ينطق بكلمة التوحيد ، ولو نطق بها لكان له أن يقول : إن القرآن كاذب ،

---

(١) قال عطاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ③ ﴾[الكوثر] : نزلت في أبي لهب وذلك حين مات ابن لرسول الله فذهب أبو لهب إلى المشركين فقال : بتر محمد الليلة (ابن كثير ٥٥٩/٤) وليس هذا الابن هو إبراهيم ، فإن إبراهيم ولد لرسول الله من مارية بالمدينة المنورة وليس بمكة والأقرب أنه القاسم .

(٢) هو : محمد بن هارون الرشيد العباسي يلقب بالأمين العباسي ، خليفة عباسي ، ولد في رصافة بغداد عام ١٧٠ هـ ، بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه (١٩٣ هـ) بعهد منه ، خلفه أخوه المأمون بعد عامين ، كان شجاعاً أديباً رقيق الشعر مكثراً من إنفاق الأموال سيء التدبير ، يؤخذ عليه انصرافه إلى اللهو ومجالسة النُّدَماء . مات عام ١٩٨ هـ [الموسوعة الشعرية] .

(٣) البيت من قصيدة للأمين العباسي ، من بحر البسيط ، يقول فيها :

لا تحقرن امرأً من أن تكون له   أم من الروم أو سوداء عجماء
فإنما أمهات القوم أوعية   مستودعات وللأحساب آباء
فَرُبَّ مُعربة ليست بمنجبة   وربما أنجبت للفحل سوداء

وها أنا أشهد ألا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله . وهكذا أقام الله من هذا الكافر المعاند دليلاً على صِدْق كلامه ، وصِدْق رسوله .

ثم تُختم السورة بقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ٥٤﴾[سبأ] كانوا فى شك من أمر رسول الله ، ونُصْرته عليهم ، وعدم تخلِّى ربه عنه ، مع أنهم كانوا على اتصال بأهل الكتاب ، وأهل الكتاب يقرأون كتبهم على هؤلاء الكفار ويستفتحون بها عليهم ، وقد علموا منها أن عاقبة الصراع بين الرسل وأقوامهم على مَرِّ موكب الرسالة كانت للرسل ؛ لأن الله تعالى ما كان ليرسل رسولاً ثم يُسلمه أو يتخلى عنه .

وهذه قضية ذُكرت فى الكتب السابقة كما ذُكرت فى القرآن فى أكثر من موضع ، وإن كانت الكتب السابقة قد ضاعت أو حُرِّفت فالقرآن هو كتاب الله الباقى الذى تكفَّل الله بحفظه ، فهو يُتلَى كما أُنزل إلى يوم القيامة ، وفيه يقول الله تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ٥١﴾ [غافر]

وقال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ١٧٣﴾ [الصافات]

لذلك سبق أنْ قلنا : إنْ هُزِم الإسلام فى معركة مع غيره فاعلم أن شرط الجندية الإيمانية قد اختلَّ ، ولو نصرهم الله مع اختلال شرط الجندية فيهم ما قامتْ للإسلام قائمة بعدها ، وهذا الدرس تعلمناه فى أُحُد ، لما خالف الرماة أمر رسول الله ونزلوا من على الجبل يريدون الغنائم ، مع أن رسول الله ﷺ حذَّرهم من هذا ، وقال

لهم : لا تتركوا أماكنكم مهما حدث[1] ، فلما تركوا أماكنهم التفَّ عليهم الكفار ، وكادوا يهزمونهم .

وإنْ كان التحقيق أن الكفار لم ينتصروا فى أُحُد ؛ لأن المعركة (ماعت) ، ولو انتصر المسلمون مع هذه المخالفة لهَانَ عليهم أمر رسول الله بعد ذلك ، ولقالوا : لقد خالفنا أمره فى أُحد وانتصرنا ، إذن : نقول : الذى هُزِم فى أُحد هو مَنِ انخذل عن جندية الإيمان ، أمَّا الإسلام فى حدِّ ذاته فقد انتصر .

إذن : كانوا فى شكٍّ من الغاية التى ينتهى إليها رسول الله ، والشك هنا فى رسول الله لأن لديهم قضيةً عقدية هى الإيمان بوجود الله ، وأنه سبحانه الخالق لكل شىء ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٨٧) ﴾ [الزخرف]

والشك يعنى عدم الجزم وعدم اليقين ، وبيَّنا ذلك بأن نسَبَ الكلام فى الكون ست ، لكل ثلاث منها اتجاه ، فالكلام بداية علَّم الله سبحانه آدم الأسماء كلها ليتفاهم بها مع غيره ، فالكلام يقتضى متكلماً ومُخاطباً ، ولا بُدَّ أن يكون المخاطب على علم بمدلول الكلام ، بدليل أن العربى لا يفهم الإنجليزى ، ولا الإنجليزى يفهم العربى ، لا بُدَّ من علم بالتواضع فى اللغة ليفهم كل منهما عن الآخر .

والكلام المفيد هو الجملة التى يحسُن السكوت عليها ، بأن تعطى

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٣/ ١٠) أن رسول الله ﷺ أمَّر على الرماة عبد الله ابن جبير ، والرماة خمسون رجلاً فقال له : « انضح الخيل (ادفعهم عنا) بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبَلك » . ولكنهم خالفوا أمر رسول الله عندما رأوا كفار قريش ينهزمون فنزلوا ليجمعوا الغنائم والأسلاب ، وفطن خالد ابن الوليد لهذا ، وقد كان كافراً فى جيش الكفار ، فأغار على المسلمين وأعمل فيهم الطعن آمناً من نبل الرماة .

معنى مفيداً ، فلو قُلْت مثلاً (محمد) فهى مفردة من مفردات اللغة لا تعطى معنى إلا بنسبة ، فتقول : محمد كريم ، فأسندتَ الكرم إلى محمد ، وهذا معنى تام ، يحسُن السكوت عليه .

وإسناد الكرم لمحمد هو مُعتقد المتكلّم به ، فإنْ كان لهذا الكلام وجود بالفعل بأن وُجد شخص اسمه محمد ، وصفته الكرم ، فهذا الكلام المعتقد جازم بالحكم والحكم واقع ، فإنْ كان المتكلم غير جازم بالحكم ، متردداً فيه فهذا شك ، فالشك فيه نسبة متأرجحة بين النفى والإثبات بحيث تتساوى الكفتان ، فإنْ رجحت واحدة فهى ظن ، والأخرى المرجوحة وهم .

إذن : كم نسبة للكلام غير المجزوم به ؟ ثلاث : الشك والظن والوهم . أما الكلام المجزوم به فإنْ كان له واقع ، وتستطيع أنْ تدلل عليه فهو علم ، وإنْ لم تستطع أنْ تُدلل عليه فهو تقليد ، وإنْ جزمتَ به وليس له واقع فهذا جهل ، وهذه الثلاث نِسَب الكلام المجزوم به : علم ، وتقليد ، وجهل .

إذن : الكفار جازمون معتقدون فى أن الله هو الخالق ، لكنهم شاكُّون فى مسألة البلاغ عن الله ، وأنها جاءت على لسان محمد ﷺ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾[سبأ] الشك ذاته يُوقِع فى الارتياب والقلق .

سورة فاطر



سورة فاطر[1]



﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ[2] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① ﴾

تعرَّضنا للسور التى بُدئت بالحمد لله ، وهى : الأنعام ، والكهف ، وسبأ . وهنا فى فاطر ، والحمد فى كل منها له معنى وله مناسبة ؛ لأن الإنسان احتاج إلى إيجاد من عدم ، ثم وسائل إبقاء فى الحياة الدنيا ، ثم احتاج إلى إيجاد بعد البعث ، وأيضاً وسائل إبقاء فى الآخرة .

فسورة الكهف تعرضت لحمد الله على المنهج ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ

---

(١) سورة فاطر سورة مكية فى قول الجميع . قاله القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٥٩٠) وهى السورة رقم (٣٥) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (٤٥) آية ، نزلت بعد سورة الفرقان وقبل سورة مريم ، فهى السورة رقم (٤٢) فى ترتيب النزول ، وتسمى أيضاً سورة الملائكة لذكرهم فيها .

(٢) الفاطر : الخالق . والفَطْر : الشق عن الشيء . والفطر : الابتداء والاختراع . قال ابن عباس : كنت لا أدرى ما ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ①﴾[فاطر] حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها . أى : أنا ابتدأتها . [تفسير القرطبى ٨/ ٥٥٩٠] .

عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ .. ➊﴾[الكهف] ؛ لأن المنهج هو وسيلة الاستبقاء للإنسان ، فلولا أن المنهج يُبيِّن للناس الحق والباطل لتفانى الخَلْق ، وما استقامتْ لهم الحياة ، أما سورة سبأ فتعرضت لحمد الله على نعمه فى الدنيا وفى الآخرة .

وهنا فى فاطر : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً ➊﴾[فاطر] ؛ فذكرتْ الحمد على وسائل الإبقاء كلها ، المادى منها المتمثل فى مُقوِّمات الحياة المادية ، والمعنوى منها المتمثل فى منهج الله .

والحمد على إطلاقه لله تعالى ، حتى إنْ توجه للبشر ، فمردُّه إلى الله ؛ لأنك حين تحمد البشر تحمده على شيء قدَّمه لك ، هذا الشيء ليس من مِلْكه فى الحقيقة ، ولا من ذاته ، إنما هو من فيض الله عليه ، فهو مناول عن الله ، وإنْ قدّم لك عملاً فإنما يقدِّمه بالطاقة التى خلقها الله فيه ، وبالجوارح التى انفعلتْ بخَلْق الله فيه ، إذن : فالحمد بكل صيغة راجع إلى الله تعالى .

ثم يأتى بحيثية من حيثيات حَمْد الله ، فيقول ﴿فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ➊﴾[فاطر] ومعنى فاطر السموات والأرض : خالقها ومُبدعها على غير مثال سابق يُحتذى به ، وهذه مسألة تستحق الحمد ؛ لأن الله تعالى كرَّم الإنسان الخليفة فى الأرض ، فسَوَّدهُ على سائر الأجناس وكرَّمه بالعقل الذى يختار بين البدائل .

وبعد ذلك بيَّن سبحانه إنْ كان خَلْق الإنسان مُعْجزاً ، وإنْ كان هو السيد المخدوم من جميع الأجناس ، فإنَّ خَلْق السموات والأرض أكبر من خَلْق الناس وأعظم ؛ لذلك لما تكلم سبحانه عن حمد الله ذكر أكبر المخلوقات وأعظمها ، وهى السموات والأرض .

والسماء هى كل ما علاك ، لذلك تُطلق على السحاب ، فهو السماء التى ينزل منها المطر ، كما قال سبحانه ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ [القمر] ، وليست هذه هى السماء المقابلة للأرض .

والله تعالى يقول فى خلق السموات السبع : ﴿الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقًا ﴿٣﴾﴾ [الملك] يعنى : ليس بها فتوق أو شقوق ، فكيف إذن تنزل الملائكة ومسكنهم السماء ، كيف ينزلون إلى الأرض ؟

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾ [القدر]

الحق سبحانه يُقرِّب لنا وظيفة الملائكة ، وأنها خاصة بالسماء صعوداً وهبوطاً ، فقال فى آية فاطر ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِى أَجْنِحَةٍ ﴿١﴾﴾[فاطر] فعملهم إذن فى السماء ، لكن كيف يَنْفُذون من السماء ، وليس بها فتوق ولا شقوق ، قالوا : ينفذون ؛ لأن طبيعتهم الملائكية الشفافة تسمح لهم بذلك ، فالإنسان مثلاً خُلق من طين ، والطين له جِرْم ومادة لا تمكنه أنْ ينفذ من شىء .

أما الجن فقد خلقه الله من النار ، وللنار أيضاً جِرْم ومادة ، لكن ألطف وأشفّ من الطين ؛ لذلك ينفذ الجن من الأشياء المادية ، بدليل أنك لو جعلتَ مثلاً تفاحة خلف جدار ، فإنك لا ترى شكلها ، ولا تحسُّ طعمها ولا رائحتها ، لكن لو أوقدتَ ناراً خلف هذا الجدار فإنك بعد قليل تُحسّ بحرارتها فى الجهة الأخرى ، وهكذا ينفذ الجن كما تنفذ الحرارة .

أما الملائكة فهى أرْقى الأجناس وأعلاها ، خلقها الله من نور ، وهو ألطف وأشفّ من الطين ومن النار ؛ لذلك لا يحتاج النور إلى منافذ ، أرأيتم مثلاً الأشعة التى تخترق الجسم وتعطينا صورة كاملة

لما بداخله كالقلب أو غيره ؛ هكذا الملائكة تنفذ لا يحجزها شيء .

وقوله سبحانه ﴿ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً ۝١ ﴾[فاطر] الملائكة جنس من المخلوقات ، قال الله عنهم : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۝٢٦ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ ﴾ [الأنبياء] والملائكة أقسام : فمنهم العالُون ، وهم المهيَّمون في الله ، ولا عملَ لهم إلا عبادته سبحانه ، وهؤلاء لا يدرُونَ شيئاً عن هذا الكون ، ولا صلةَ لهم به ؛ لذلك لما أبَى إبليس أنْ يسجد لآدم كما أمره الله ، قال الله له : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝٧٥ ﴾ [ص]

ومن الملائكة قسْم له علاقة بالإنسان ، وهؤلاء هم الذين أُمروا بالسجود لآدم ، وكأن الله تعالى يقول لهم : هذا المخلوق هو الذي ستكونون في خدمته ، ومنهم : المعقبات ، كما قال سبحانه :﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۝١١ ﴾[الرعد] يعني : يحفظونه حفْظاً صادراً من أمر الله ، وإلا فالملائكة لا تمنع عن الإنسان أمراً قضاه الله عليه .

إذن : حفْظهم لنا حفْظ من باطن حفْظ الله لنا ؛ لذلك يقولون مثلاً (العين عليها حارس) ، ونرى مثلاً من يسقط من الطابق الثالث أو الرابع ، ولا يصيبه مكروه ؛ لأن الله سبَّب له أسباب النجاة ، وحفظته الحفظة .

ومن هؤلاء المدبرات أمراً ، الذين قال الله عنهم : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥ ﴾[النازعات] وهم الذين يُدبِّرون أمور الخلْق بأمر الله ، ومنهم الكتبة الذين يكتبون الأعمال : ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ ﴾ [الانفطار]

هؤلاء الملائكة جعلهم الله ﴿ رُسُلاً ۝١ ﴾[فاطر] إما إلى الرسل من البشر يحملون إليهم منهج الله ، وإما رسلاً منه سبحانه لمهامهم التي

تتعلق بهذا الكائن الإنسانى . ثم وصفهم فقال : ﴿ أُولِي ۝١ ﴾ [فاطر] أصحاب ﴿ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۝١ ﴾ [فاطر] وهذا الوصف دلَّ على صلة الملائكة بالجو والسماء ، ومهمة الصعود والهبوط ، وهذه الأجنحة ليس لها نظام ثابت ، بل منهم مَنْ له مثنى ، ومَنْ له ثلاث ، ومَنْ له رُبَاع ، بل ويزيد الله فى ذلك ما يشاء ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۝١ ﴾ [فاطر]

وكأن الخالق سبحانه يقول لنا : إنْ كنتم لم تروْا إلا جناحين للطائر ، فلا تتعجبوا ولا تنكروا أنْ يكون للملَك أكثر من ذلك ؛ لأنه خَلْق الله الذى يزيد فى الخَلْق ما يشاء ، والذى له سبحانه طلاقة القدرة ، فخَلْق الله ليس عملية ميكانيكية أو قوالب تُصَبُّ على شكل واحد ، وخَلْق الله ليس مخبزاً آلياً يُخرِج لك الأرغفة متساوية .

وتتجلى طلاقة القدرة فى الخَلْق منذ خَلْق الإنسان الأول آدم عليه السلام ، فإنْ كانت مسألة التناسل تقوم على وجود ذكر وأنثى ، ومن هذه جاءت جمهرة الناس ، فطلاقة القدرة تخرق هذه القاعدة فى كل مراحل القسمة العقلية لها ، فالله خلق آدم عليه السلام من لا أب ولا أم ، وخلق حواء من أب بلا أم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب .

فما دام أن الذى يزيد فى الخَلْق هو الله ، فلا تتعجب ولا تُكذِّب حين تسمع الحديث النبوى ، قال ﷺ : « رأيتُ جبريل وله ستمائة جناح »[1] صَدِّق ؛ لأنك لستَ مسئولاً عن الكيفية ، إنما عليك أنْ تُوثق

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤١٢ ، ٤٦٠) من حديث ابن مسعود فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤ ﴾ [النجم] قال قال رسول الله ﷺ : « رأيتُ جبريل وله ستمائة جناح ينتشر من ريشه التهاويل والدر والياقوت » . وقد قوّى ابن كثير إسناده فى تفسيره (٤/٢٥١) .

الكلام : صدر من الله أو لم يصدر ، صَحَّ عن رسول الله أو لم يصح ، كُنْ كالصِّدِّيق لمَّا حدثوه عن الإسراء والمعراج وقالوا : إن صاحبك يقول كذا وكذا ، فقال الصِّدِّيق : « إنْ كان قال فقد صدق»[1] .

لذلك ، فالذين يبحثون في علَل الأحكام عليهم أنْ يَدَعُوا البحث فيها ، ويكفى أنْ يُوثِّقوا مصدرها ، فإنْ كانت من الله فعلىَّ أن أفعل لمجرد أن الله أمرنى بذلك ، فَعِلَّة الحكم أن الله أمر به ، فهمتُ حكمته أو لم أفهم .

ونرى بعض العلماء يحرصون على استنباط الحكم من كل عبادة من العبادات ، فيقولون مثلاً : شرع اللهُ الصومَ ليدرك الغنىُّ ألمَ الجوع ، فيعطف على الفقير ، وهذا يعنى أن الفقير لا يصوم ، فالأقرب أنْ تقول : أصوم ؛ لأن الله أمرنى بالصوم .

فأنت مثلاً لا تسأل الطبيب لماذا كتب لك دواء كذا وكذا ، بل تترك له هذه المهمة ، وما عليك إلا أنْ تتناول الدواء ، ولا يسأل الطبيب ، ولا يناقشه فى هذه المسألة إلا طبيب مثله ، لكن هل هناك مُسَاوٍ لله فيسأله : لماذا فُرِض علينا كذا أو كذا ؟

فقوله سبحانه ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ① ﴾[فاطر] دليل على طلاقة القدرة التى لا يعجزها شيء ، ومن طلاقة القدرة أنْ ترى الطويل والقصير ، ولا تكاد تُفرِّق بين قامات الناس وهم جلوس ؛ لأن منطقة الصدر والبطن متقاربة الطول ، إنما تُفرِّق بينهم حال الوقوف ؛ لأن

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/١٢-٤٠) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير .

معظم الطول فى السيقان والأوراك ؛ لذلك تنظر إلى رجلين وهما جالسان ترى طولهما واحداً ، فإنْ قاما ظهر الفارق ، وهذا يسمونه (الحبتر)[1]

من طلاقة القدرة اختلاف الخَلْق فى الشكل ، وفى اللون ، وفى الطباع ، وفى الذكاء ؛ لذلك من وقت لآخر نرى طفلاً برأسين ، أو بيد فيها ستة أصابع ، أو دابة بخمسة أرجل ، من طلاقة القدرة أن ترى هذا وسيماً معتدل الصورة ، متناسق الأعضاء ، كهؤلاء الذين تنطبق عليهم شروط القبول مثلاً فى الكليات العسكرية أو البوليس ، وترى آخر جبهته نصف وجهه ، أو أنفه كذا وكذا .. إلخ . هذا جرىء القلب ، وهذا رعديد جبان ، هذا فصيح اللسان ، وهذا عَيى لا يكاد ينطق ؛ لذلك يقول سبحانه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .. (٢٢)﴾ [الروم]

من طلاقة القدرة أنه سبحانه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا (٥٠)﴾ [الشورى]

من طلاقة القدرة أنْ يؤلف الله سبحانه بين الأجناس المتباعدة تآلُفَ مصلحة وانتفاع ، ففى السودان مثلاً بيئة تعيش فيها التماسيح ، ورغم ما عرفناه من شراستها إلا أن الله ألَّف بينها وبين الطيور ، فجمعتهم مصالح مشتركة : التمساح يخرج إلى البرِّ ثم يفتح فَاهُ ، فيأتى الطائر ويدخل فم التمساح ، ويُنظف له أسنانه ويتغذَّى على بقايا طعام التمساح ويخلِّصه من الفضلات ، فإذا أحسَّ الطائر

(١) الحبتر : القصير ، وكذلك البُحْتر . والحبترة : من أسماء الثعالب . [لسان العرب – مادة حبتر] .

بقدوم الصياد صوَّت ليحذر التمساح ، فتسرع إلى الماء ، سبحان الله الذى خلق فسوَّى ، والذى قدَّر فهدى .

إنك تتعجب من طلاقة القدرة حين ترى عنق الزرافة أو الجمل ، وعنق الدب مثلاً ، فكُلٌّ له ما يناسبه .

تذكرون أنه عندما تكلم العلماء عن الحواس ، قالوا : الحواس الخمس . واحتاطوا للأمر وللزيادة فقالوا : الخمس المعروفة ، وبالفعل عرفنا بعدها حواسَّ أخرى ، كحاسة البَيْن التى نعرف بها مثلاً سُمك القماش ، وعرفنا حاسَّة العَضَل التى نعرف بها ثقل الأشياء .

كما أن أعضاء الإنسان وحواسّه تؤدى مهمتها مع اختلافها من شخص لآخر ، فنحن جميعاً نرى بالعين ، ونسمع بالأذن ، ونشُم بالأنف وهكذا ، لكن ألم تسمع ؛ فلان هذا يسمع دبة النملة ، وروى لنا التاريخ عن شخصيات كانت ترى لمسافات بعيدة على غير المعتاد[1] ، هذا كله زيادة فى الخَلْق ، يختصُّ الله بها مَنْ يشاء .

لذلك يقول الشاعر :

سُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الحُظُوظَ فَلا عتَابَ ولاَ مَلاَمَه
أَعْمَى وأَعْشَى ثُمَّ ذُو بَصَرٍ وزرْقَاء اليمَامَه

وزرقاء اليمامة يُضرب بها المثل فى حدة البصر ، فيقولون : أبصر من زرقاء اليمامة .

(١) هى : الزرقاء ، من بنى جديس ، من أهل اليمامة ، مضرب المثل فى حدة النظر وجودة البصر . قالوا : إنها كانت تبصر الشىء من مسيرة ثلاثة أيام . وذكروا من أخبارها أن حسان بن تبع الحميرى لما أقبلت جموعه تريد غزو «جديس» رأتهم الزرقاء وأنذرت جديساً ، فلم يصدقوها ، فاجتاحهم حسان . [الأعلام للزركلى ٣/٤٤]

ويُلخِّص الشاعر[1] قصة فتاة منحها الله هذه الزيادة في البصر ، فقال :

وَاحْكُمْ كحُكْمِ فَتَاة الحيِّ إذْ نظرَتْ ∴ إلى حمام شِراعٍ وَارد الثَّمَدِ[2]

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا ∴ إلى حمامتنا أو نصفه فقد

وكان عندها حمامة واحدة ، فتمنَّتْ أنْ ينضم هذا السرب ونصفه إلى حمامتها ، وبذلك سيكون عندها مائة :

فَعَدوه فَألْفَوْهُ كما حكمَتْ ∴ ستاً وستِّين لَمْ تنقُصْ ولم تزد[3]

فتأمل هذه الفتاة تنظر إلى سِرْب الحمام وتعده ، وتضيف إليه نصفه ثم تضيف حمامتها ، فيكون لديها مائة حمامة ، هذه قوة في البصر ، وقوة في الملاحظة .

كذلك حاسة الشم فيها عجائب مما يزيده الله في هذه الحاسة عند مَنْ شاء أن يزيده ، والمثال الواضح لحاسة الشم وتمييز الروائح عند كلب البوليس مثلاً ، وحاسة الشم قوية أيضاً عند الذين يبيعون الروائح والعطور ، فأنت تقول رائحة طيبة ، لكن قليل مَنْ يميز بين هذه الروائح ، أما بائع الروائح فرغم امتلاء أنفه بهذه الروائح الطيبة إلا أنه يستطيع أن يُميِّزها فيقول لك : هذه رائحة ورد ، وهذه رائحة

---

(١) الشاعر هو : النابغة الذبياني ، زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري ، أبو امامة ، شاعر جاهلي ، من الطبقة الأولى ، من أهل الحجاز ، كانت تُضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فيقصده الشعراء فتُعرض عليه أشعارهم ، كان حظيا عند النعمان بن المنذر ، عاش عمراً طويلاً ، توفي عام ١٨ ق . هـ [الموسوعة الشعرية].

(٢) البيت من قصيدة للنابغة الذبياني ، من بحر البسيط ، عدد أبياتها خمسون بيتاً مطلعها : يا دار مية بالعلياء فالسند . و « الثمد » هو الماء القليل الذي لا مادّ له . وقيل : هو الذي يظهر في الشتاء ويذهب في الصيف .

(٣) لفظ هذا البيت كما في كتاب « أدب الكتاب » لأبي بكر الصولي (توفي عام ٣٣٥ هـ) :

فحسبوه فألفوه كما زعمت ∴ تسعاً وتسعين لم ينقص ولم يزد

فكملت مائة فيها حمامتها ∴ وأسرعت حسبة في ذلك العدد

فل ، وهذه كذا ، وهذه كـذا ، فإنْ خُلِط له عـدة أنواع يقول لك : هذا مخلوط .

أما سيدنا يعقوب عليه السلام فـقد تميَّز فى هذه الحاسة بصورة عجيبة ، وتعلمون أنه ابتلى بـفقد ولده يوسف - عليه السلام - حين رمـاه إخوته فى البـئر ، وانتـهى الأمـر به إلى أنْ صار على خـزائن مصـر كلها ، وجاءه إخـوته يطلبون المـيرة[1] إلى أن أعطاهم قمـيصه ليجعلوه على وجـه أبيه فيرتد له بصره ، العجـيب هنا أنه لما فصلت العـير يعنى : خـرجت من مصـر وعن حيـزها السكانى لأن المنطقـة السكنية تكـثر الروائح فيـها وتختلط ، فلمـا خرجوا بقـميص يوسف خـارج المـدينة ، قال يـعقـوب عليـه السـلام - وهو آنذاك - بأرض فلسطين : ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴿٩٤﴾﴾ [يوسف] ، لأن فى قـمـيص يوسف شيئاً من رائحته .

ومع تقـدُّم العلم عـرفنا أن الـرائحـة هى أقـوى الآثار الدالة على الإنسان ، وأن للرائحة بصـمة كبصمة اليد أو بصـمة الصوت ؛ لذلك حتى فى لغـتنا العاميـة نقول (مش ح اخللى لفلان ريحـه) ، وكأن الرائحة هى آخر أثر يمكن أنْ يتبقَّى للإنسان فى المكان .

كـذلك يزيد الله فى الخلق مَـا يشـاء فى حـاسـة الذوق ، وبعض الناس حـرفتـه وعمله أنه ذوَّاقـة يذوق الطعـام ، ويزيد الله فى الخَلْق ما يشاء فـى حاسة اللمس ، وكلنا رأى الصراف فى البنك بـمجرد أنْ تلمس أصابعه العملة يعرف جَيِّدها من زائفها .

كل هذه المعانى نفهـمها من قوله تعالى : ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ

---

(١) الميرة : الطعام يمتاره (يجلبه) الإنسان . قال ابن سيده : الميرة جلب الطعام . والميَّار : جالب الطعام . [لسان العرب - مادة مير] .

﴿ ١ ﴾[فاطر] ثم تختم الآية بما يُطمئن القلوب إلى هذه الطلاقة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١ ﴾[فاطر] هذه هى العلة ، يعنى : لا تتعجب ، فهى قدرة الله التى لا يُعجزها شىء ، وشىء هذه تعد جنس الأجناس ؛ لأنها تشمل من الذرَّة إلى المجرَّة ، وهو سبحانه يقول للشىء كُنْ فيكون ، فكأنه موجود فى علم الغيب ينتظر الأمر بأن يظهر .

وبعضهم قال : (يَزِيدُ فى الحلْق) بالحاء[1] ، والمراد : جمال وعذوبة الصوت[2] ؛ لأنَ الصوتَ وسيلةٌ لنقل خواطر المتكلم إلى السامع ، وهذه يكفى لها أىُّ صوت ، فإنْ كان الصوت جميلاً عَذْباً ، فهذه زيادة وفضل من الله.

ومن أغرب ما رواه لنا تاريخ العرب[3] ، ويُعَدُّ دليلاً على الزيادة فى الخَلْق ، والمواهب التى يختصُّ الله بها مَنْ يشاء ما رُوى عن نزار ابن معد بن عدنان ، وقد رزقه الله أربعة من الأولاد هم : مُضَر . ومن قبيلته جاء سيدنا رسول الله ﷺ ، وربيعة ، وإياد ، وأنمار ،

---

(١) لم أقف على هذه القراءة ، ولكن قال الشوكانى فى تفسيره (فتح القدير) (٤/٣٣٨) : « المعنى أنه يزيد فى خلق الملائكة ما يشاء ، وهو قول أكثر المفسرين ، واختاره الفراء والزجاج . وقيل : إن هذه الزيادة فى الخلق غير خاصة بالملائكة ، فقال الزهرى وابن جريج : إنها حُسْن الصوت . وقال قتادة : الملاَحة فى العينين والحسن فى الأنف ، والحلاوة فى الفم . وقيل : الوجه الحسن . وقيل : الخط الحسن ، وقيل : الشعر الجعد . وقيل : العقل والتمييز . وقيل : العلوم والصنائع ، ولا وجه لقصر ذلك على نوع خاص ، بل يتناول كل زيادة » .

(٢) قال الزهرى وابن جريج : يعنى حسن الصوت . وقال قتادة فى معنى الآية : المَلاحة فى العينين ، والحسن فى الأنف ، والحلاوة فى الفم . [تفسير القرطبى ٨/٥٥٩١] . وقاله أيضاً ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن المنذر . [الدر المنثور للسيوطى ٧/٤] والأصح هو أنه يزيد فى خلق الملائكة ما يشاء من أجنحة وغيرها .

(٣) ذكر هذه القصة بطولها الإمام ابن الجوزى فى كتابه « الأذكياء » (ص ١٧٤) ، وابن حجة الحموى فى « ثمرات الأوراق فى المحاضرات » (١/٢٤٩) .

فلمـا أحسَّ نزار بدُنُوِّ أجله جـمـع أولاده الأربعة وقـال لهم : أريد أنْ أدلَّكم على تركتكم مني قبل أن أموت : القبة الحمراء لمضر ، والفرس الأسود والـخبـاء الأسود لربيـعة ، والشـمطاء لإياد ، ومجلس القـوم وندّيه لأنمـار . وإنِ اختلفـتم فاذهبـوا إلى الأفـعى الجرهمى بنجـران يُفسِّر لكم كلامى.

فلمـا مات نزار اخـتلف أولاده ، فذهبـوا إلى الأفعى الجـرهمى ، وهم فى طريقهم إلى نجـران - وكانت من أرض اليمن - رأى مُـضَر فى ناحـية الطريق مـرعىً رعَتْ فيه إبـل ، وفى الجانب الآخـر مرعى أحسن منه لـم يُمَسّ ، فقال : إن الجـمل الذى رعى هنا أعور . فـقال ربيعة : وهو أزْور يعنى : أعرج . وقـال أنمار : هذا الجمل أبتر يعنى مقطوع الذيل . وقال إياد : وإنه لشرود .

وبينما هم على هذه الحـال قابلهم رجل ينشُد بعيـره يقول : هل رأيتم بعيراً شرد منى ؟ فقـال مضر : أهو أعور ؟ قال : نعم ، قال : وأزور؟ قال : نعم ، قال : وأبتر ؟ قال : نعم ، قال : وشرود ؟ قال : نعم ، هو شرود ، وأنتم أخـذتموه ، فاحتكموا إلى الأفـعى الجرهمى ، لأنهم كـانوا على مقـربة من نجران ، فلمـا سألهم قـالوا : ما أخـذنا الجمل .

فقال : إذن كيف وصـفتموه لصاحبـه هذا الوصف ؟ قال مُضَر : لما رأيتُه رعى جـانباً دون الآخر عرفتُ أنه أعور ، وقال ربيـعة : لما رأيتُ أثر خُفِّه على الأرض وجدت اليُمْنى سليمة البصمة على الرمال ، والأخرى غـير ذلك ، فـعرفتُ أنه أزْور ، وقال إياد : رأيـت بَعْره فى مكان واحـد ، فـعرفت أنه أبتر ، ولو كـان له ذيل لفـرَّق بَعْـره هنا وهناك ، فقـال أنمار : لمـا رأيتُه يأكل من أمـاكن متـفرقـة عرفْتُ أنه

شرود . فقال الأفعى الجرهمي : خَلُّوا سبيلهم ، فتلك فراسة يهبها الله لمن يشاء .

ثم سألهم : مَنْ أنتم ؟ فقالوا : نحن أولاد نزار بن معد بن عدنان ، وقد أوصانا أبونا إذا اختلفنا أنْ نحتكم إليك ، ثم قَصُّوا عليه مقالة أبيهم ، فقال : القبة الحمراء التي لمضر . أعطوه كل شيء أحمر كالدنانير والنُّوق الحمر ؛ لذلك سُمِّيت مضر الحمراء بعد أن صار مُضَر عَلَماً على القبيلة .

وقال : والفَرَس الأدهم [1] والخباء[2] الأسود لربيعة يعني : أعطوه كل شيء فيه سواد ، والشمطاء لإياد : أعطوه رُذَال[3] المال و(المدعبلات) من الغنم . أما أنمار فله الفضة البيضاء والمجلس .

وبعد أن فسَّر لهم وصية أبيهم أراد أنْ يكرمهم ، فأمر كهرمانه أن يذبح لهم ذبيحة ، ويُعد لهم طعاماً وشراباً ، وعلى مائدة الطعام جلسوا يتحدثون ، وهو يتأمل فراستهم ، فقال ربيعة : ما رأيتُ أطيب من هذا اللحم ، لولا أن أمه غُذِّيَتْ بلبن كلبة ، فلما شربوا من الشراب قال مُضَر : شراب طيب لولا أنْ كَرْمته زُرِعت على قبر ، ثم قال أنمار : هذا الرجل من سَرَاة القوم وهو سيد ، إلا أنه ليس ابن أبيه ، فقال إياد : والله ما رأينا كلاماً أحسن من كلامنا بعضنا مع بعض .

---

(١) الدهمة : السواد . والأدهم : الأسود ، يكون في الخيل والإبل وغيرهما . [لسان العرب - مادة : دهم]

(٢) الخباء من وبر أو صوف ، وهو من بيوت الأعراب ، دون المظلة ، وهو على عمودين أو ثلاثة ، وقد يستعمل في المنازل والمساكن ، ومنه الحديث : أنه أتى خباء فاطمة وهي في المدينة ، يريد منزلها . [قاله ابن منظور في لسان العرب - مادة خبا] .

(٣) الرذال . هو الرديء من كل شيء . والرذال : ما انتُقي جيده وبقي رديئه ، والأرذل من كل شيء : الرديء منه . [لسان العرب - مادة : رذل] .

ثم قام الأفعى الجرهمى واستدعى الراعى الذى ذبح لهم الشاة ، وسأله : ما هذه الشاة التى ذبحتَها لنا ؟ فقال له : ماتت أمها بعد ولادتها ، ولم يكُنْ عندنا شياه مرضعة ، فأرضعتُها من كلبة ، ثم سأل كهرمانه عن الشراب فقال : هو من العنبة التى زرعْتَها على قبر أبيك ، فلم يَبْق إلا أنْ يسأل عن نسبه إلى أبيه ، فذهب إلى أمه وقال لها : يا أمى ، أخبرينى مَنْ أنا ؟ ومَنْ أبى ؟ فأحسَّتْ الأم أنه سمع شيئاً فقالت له : لقد كان أبوك ملَكاً مطاعاً ، وذا نعمة ومال ، إلا أنه لم ينجب ، فخشيتُ أنْ يذهب هذا الملْك وهذا المال إلى غيره ، فحدث ما حدث .

عندها عاد إلى ضيفانه وقال لهم : لم تعودوا فى حاجة إلىَّ ، وإنما يصبح الناس جميعاً فى حاجة إليكم . فإنْ سألتَ الآن : وكيف عرف هؤلاء ما عرفوا ؟ نقول : إنها فراسة وقوة ملاحظة تدخل تحت هذه الآية ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ (١) ﴾ [فاطر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾

ما دام أنه - سبحانه وتعالى - هو الخالق ، فمقتضى الخَلْق أنْ يوفر الله للمخلوق ما يصلحه ، فهو أولاً يحتاج إلى رحمة فى بقاء حياته ؛ لذلك يُنزل سبحانه المطرَ فيحيى الأرضَ بالنبات ليزرع الإنسان ويأكل ويشرب ، وهذا قوَام حياته المادية ، ثم يوفر له أيضاً قوامَ حياته الروحية المعنوية ، فيُنزل عليه ما يحفظ قيمه ، وما يُنظم

حـياتـه بأدب مع غيـره ، وهذا هو المـنهج الذى قال الله فـيـه ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ (٣٢) ﴾ [الزخرف]

وهذه الرحمة إنْ أرادها الله بعبد ، فـلا أحدَ يمنعها عنه ﴿ مَا يَفْتَحِ (٢) ﴾ [فاطر] يعنى : يعطى ويمنح ﴿ فَلا مُمْسِكَ (٢) ﴾ [فاطر] فلا مانع ولا حابس لها ﴿ وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ (٢) ﴾ [فاطر] لا معطى ﴿ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ (٢) ﴾ [فاطر] أى : من بعد الله .

وتأمل الأسلوب القرآنى فى ﴿ مَا يَفْتَحِ (٢) ﴾ [فاطر] مقابلها يغلق ، لكن الحق سبحانه لم يَقُل : وما يغلق ، إنما ﴿ وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ (٢) ﴾ [فاطر] لماذا ؟ قالوا : لأن المغلَق ربمـا تمكَّن أحد من فتحه بالحيلة أو بالقـوة ، أما ﴿ مَا يُمْسِكْ (٢) ﴾ [فاطر] فلا أحـدَ يستطيع أنْ ينال شيئاً أمسكه الله .

ومن معانى هذا الفتح وهذه الرحـمة : الرسالة التى خَصَّ الله بها سيدنا رسـول الله ؛ لذلك قال الكفار ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

وقالوا : ﴿ ءَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا (٨) ﴾ [ص]

فردَّ الله عليهم :﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

يعنى : تأدبوا مع الله ، فـهو الذى قـسـم لكم أمـور الدنيا وأمـور المـعايش ، أيتـرك لكم ولأهوائكم أنْ تُقـسِّـموا الوحى ، وأنْ تجـعلوه ينزل على مَنْ تهوون ؟

والفتح : إزالة حـاجز بين شيئـين ، ومنه حِسىٌّ كما نفـتح الباب

أو الشنطة مثلاً ، كما ورد في القرآن : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يوسف]

وقد يكون الفتح أمراً معنوياً كالفتح بالخير ، أو بالرحمة كالوحي الذي اختص الله به سيدنا رسول الله ﷺ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴿٧٦﴾ ﴾[البقرة] يعني : من الوحي الموجود في التوراة من صفة النبي ﷺ ، هذا فَتْح معنوي بالخير وبالبركة .

ومن معاني الفتح : الفصل وفضّ الإشكال بين الخصوم ، كما في قوله سبحانه : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف]

وعلَّة قوله تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا .. ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر] ، لأنه سبحانه واحد لا شريك له ، ولا إله غيره ، فلو كان معه إله آخر لكان له رأي آخر ، أمَّا الحق سبحانه وحده فيتصرف في مُلْكه تصرُّف مَنْ لا شريكَ له ، وإلا فكيف يثق بأنه حين يقول للشيء كُنْ فيكون أن الشيء يطيعه ؟

فالله يقول هذا الأمر ، وهو يعلم أن الشيء سيطيع ، فلا أحدَ يستطيع أنْ يقول له لا تطع ، لذلك أول مَنْ شهد بالألوهية والوحدانية الواحدة هو الله سبحانه ، شهد بها لنفسه سبحانه ، فقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران] وهذه شهادة الذات للذات ، لذلك أقبل على الأشياء بكُنْ فكانت ، وسمعت ، وأطاعت ، ونفذت .

واقرأ : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾ [الانشقاق] يعني : سمعتْ بوعي وحَقّ لها أنْ تسمع ، وأن تطيع ؛ لأنه ليس لها إله آخر يعارضها إنْ أطاعتْ .

وبعد أنْ شهد الحق سبحانه لنفسه شهادة الذات للذات شهدتْ بذلك الملائكةُ شهادةَ المشاهدة ، ثم شهد أولو العلم شهادةَ التدليل :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

ثم تُذيِّل الآية بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾[فاطر] نعم ، مادام أنه تعالى إله واحد لا شريك له ، يرسل رحمته لمن يشاء ، ويمسك عَمَّنْ يشاء فهو عزيز ، والعزيز هو الذى لا يُغلَب ولا يُمانع ، لكن هذه العزة وهذه الغلبة ليست صادرة عن بطش أو ظلم أو جبروت ، إنما صادرة عن حكمة ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾ [فاطر] فهو سبحانه حكيم فى عطائه ، حكيم فى منعه ، والحكمة - كما قلنا - هى وَضْع الشيء فى موضعه المناسب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَـٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ③ ﴾

الحق سبحانه يمتنُّ على عباده ويُذكِّرهم بنعمه عليهم ، ويذكر أول هذه النِّعم ، وهى نعمة الخَلْق من عدم ، وأراد سبحانه أنْ يبرز لهم هذه المسألة إبرازاً يشاركه - سبحانه وتعالى - فيه ، فلم يأت الأسلوب فى صورة الخبر : أنا خلقتكم . إنما جاء فى صورة الاستفهام ليقولوا هم ويُقِروا ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ (٣) ﴾ [فاطر]

ومعلوم أن الخبر عُرْضة لأنْ يُكذَّب ، أمّا الاستفهام فلا تستطيع أن تكذبه ، وأنت لا تستفهم عن شيء فعلْتَه إلا إذا كنتَ واثقاً أن الإجابة ستأتى على وَفْق مرادك ، فحين ينكر شخصٌ جميلَك لا تقول له : فعلتُ لك كذا وكذا ؛ لأنه ربما كذَّبك ، إنما تقول : ألم أُقدِّم لك كذا يوم كذا ؟ حينئذ لا يستطيع إلا أن يُقرَّ بجميلك ، فلن يجد إجابة عن سؤالك إلا الإقرار .

كذلك الحق سبحانه يُقرِّرهم بنعمه ليكون الإقرارُ حجةً عليهم ويسألهم ، وهو سبحانه أعلم ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم ﴿٣﴾ ﴾[فاطر] ثم يذكر هو سبحانه النتيجة ﴿ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ﴿٣﴾ ﴾[فاطر] ولم يقولوها هم؛ لأنهم (مربوكون) وكان المنطق : ما دام هو سبحانه الخالق الرازق فعليهم أنْ يؤمنوا به ، وقالها سبحانه بصيغة الغائب ﴿ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ﴿٣﴾ ﴾[فاطر] ولم يقُلْ إلا أنا ، كأنه سبحانه هو الشاهد فى هذه المسألة ، كأنه يتكلم عن الغيب .

وقوله ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾[فاطر] يعنى : كيف بعد هذا تُصرفون عن توحيده وعن الإيمان به ، وتُؤفكون من الإفك ، وهو قَلْبُ الشيء عن موضعه وصَرْفه عن محله ، ومن ذلك المؤتفكة ، وهى القرى التى أهلكها الله ، فجعل عاليها سافلها ، وقَلَبها على وجهها .

والإفْكُ أيضاً بمعنى الكذب ؛ لأنه يقلب الحقيقة ، فكأن الحق سبحانه يقول لهم : كيف تقلبون الحقائق ؟ وكيف تصرفون خَلْق الله ورِزْق الله إلى غيره سبحانه ؟ يعنى : قولوا لنا علّة ذلك .

وبعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه عن الوحدانية والألوهية أراد أنْ يتكلم سبحانه عن مُرْسَل الألوهية إلى الخَلْق :

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٤ ﴾

هذه تسلية لسيدنا رسول الله ، كما خاطبه ربه بقوله : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ۝٩ ﴾ [الأحقاف] لستَ أول رسول يُكذِّبه قومه ، فمن قبلك كذَّبوا ، وهذا أمر طبيعى ؛ لأن السماء لا ترسل رسولاً إلا حين يعمُّ الفساد ، ويفتقد الناسُ الوازعَ والرادع ، لا من النفس للنفس ولا من المجتمع .

وقلنا : إن الخالق سبحانه جعل فى النفس الإنسانية رادعاً ذاتياً يردعها حين تخرج عن منهج ربها ، وهى النفس اللوامة ، فإنْ توارتْ هذه النفس وغلبتْ عليها النفس الأمَّارة بالسوء جاء دور المجتمع الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فإنْ فسد المجتمع فلا بُدَّ أنْ يأتى رسول جديد بمعجزة جديدة ليجدد للناس ما غفلوا عنه من دين الله .

وكوْنُ رسالة محمد هى الخاتمة ، فلا رسول بعده ، هذه شهادة لأمته أنها سيظل فيها الخير ، وستظل مأمونة على دين الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ۝٤ ﴾[فاطر] أى : فى الآخرة ، فمَنْ كذَّبك من قومك إمَّا أنْ يأخذه الله فى الدنيا كما أخذ المكذِّبين من الأمم السابقة ، وإما أنْ يُؤخِّر له العذاب فى الآخرة .

بعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن الأصل الثالث من أصول التشريع ، فبعد أنْ تحدث عن الألوهية والوحدانية ، وتحدَّث عن الرسول ، يتحدث عن المسألة الثالثة التى اختلفوا فيها ، وهى البعث والحَشْر والحساب :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ ﴾

يعنى : وعده حَقٌّ فى أنكم ستُردُّون إلى الله فى الآخرة ، فيحاسبكم ويُجازيكم ، المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، وهذا مبدأ معروف ومعمول به فى كل المجتمعات ، حتى البدائية منها ، وحتى الملاحدة يعملون بهذا المبدأ ، فيعطى المُجدَّ ويعاقب المقصِّر ، بل بعض هؤلاء يضعون قوانينَ للثواب والعقاب أصرم وأشدَّ من قوانين الله ، مثل قوانين الإعدام والشنق ومصادرة الأموال .. إلخ .

والمجتمع لا يستقيم أمره إلا بهذا المبدأ ، فإن اختلَّ تطبيقه فَسَد المجتمع ، وأُحْبط الأفراد ، وعمَّتْ الفوضى ، ولم لا والمحسن لا يأخذ ثمرة إحسانه ، والمجرم لا يُعاقب على جريمته ؟ إذن : لا بُدَّ أنْ نربى فى الناس وازعَ الرغبة فى الخير ، والرهبة من الشر ؛ ليزداد المحسن فى إحسانه ، ويرعوى المسيىء عن إساءته .

وكيف لا يُقبل هذا المبدأ فى عالم مليء بالمظالم والتعديات والبطش والجبروت ، ثم لا يأتى الوقت الذى ينال فيه كُلٌّ ما يستحقه ؟

لذلك كثيراً ما أذكر ما دار بيننا وبين الشيوعيين الذين ينكرون مسألة البعث والحساب ، فكنتُ أقول لهم : لقد أخذتم أعداءكم وقتلتموهم ، وصادرتم أموالهم ، وفعلتم بهم الأفاعيل ؛ لأنهم فى نظركم غيَّروا مقاييس العطاء ، فما بال مَنْ فعلوا هذا وظلموا ، لكنهم أفلتوا منكم ، ولم تَطُلْهم أيديكم بعقاب ؟

وما بال الظالمين قبلكم وبعدكم ؟ أليس من الصواب القوْلُ بموعد

يجمع هؤلاء جميعاً للحساب ، حيث ينال كل منهم جزاءه ؟ أليس هذا الجزاء يسعدكم ويُثلج صدوركم حين ترونَ الظالم يُؤخذ بظلمه .

إذن : كان عليكم أنْ تؤمنوا بهذا اليوم ، لا أنْ تنكروه وتكفروا به، وهو يقوم على نفس المبدأ الذى تنادون به أنتم .

لذلك تلحظ أن النداء هنا لكل الناس : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۝٥ ﴾[فاطر] أي : وعده بالقيامة والبعث والحساب ، فهذه مسألة يُخاطب بها كل الناس ، ووَعْد الله حَقٌّ ؛ لأن الوعد يأخذ حقيَّة من الواعد ، ومن قدرته على إنفاذ وعده ، ومَنْ أقدرُ من الله ؟

إذن : ينبغى أن نثقَ فى الوعد إنْ جاء من الله سبحانه ، ولا نثق فى وعد مَنْ لا قدرةَ له فى ذاته .

وسبق أنْ بيَّنا أن الإنسان يَعد وينوى الوفاء وقت الوعد ، لكنه لا يملك أسباب الوفاء ، فربما طرأ عليه طارىء ، أو تغيَّرت الظروف ، فحالتْ بينه وبين الوفاء بوعده ؛ لذلك يُعلمنا ربنا أدباً عالياً فى هذه المسألة فى سورة الكهف ، فيقول سبحانه : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ..۝٢٤ ﴾ [الكهف] فتعليق فعلك على مشيئة ربك يُعفيك من الكذب إنْ عجزْتَ عن الوفاء ، فلَكَ أن تقول : نويتُ الوفاء ، لكن الله لم يشأ .

لذلك لا يُوصَف وعد بالحقية إلا وعد الله ؛ لأنه سبحانه وحده الذى يملك كل أسباب الوفاء بوعده . ولا يعوقه عن الوفاء شىء ، ولا يمانعه أحد .

وما دام أن وعد الله حَقٌّ ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۝٥ ﴾[فاطر] لا تخدعنَّكم ؛ لأن الناس طبائع ، منهم مَنْ يغتر بثناء الناس عليه ،

ومنهم مَنْ يغتر في ذاته ، وهذا هو الذي تغرُّه الحياة الدنيا بشهواتها ، فيعيش فيها بلا تكاليف وبلا التزامات ، كما فعل الكفار حين عبدوا الحجارة ، لأنها آلهة بلا تكاليف .

لذلك يحذرنا ربنا : لا تخدعنكم الدنيا عن شيء آخر أعلى منها هو الآخرة ، ويكفي ذَماً لهذه الحياة أن الله تعالى سماها دُنْيا ، والمقابل للدنيا حياة عليا هي الآخرة ، فالمعنى : لا تخدعنكم الدنيا عن مطلوب الله الذي يؤهلكم لحياة أخرى عُلْيا .

وسبق أنْ بيَّنا أن الدنيا بالنسبة للإنسان هي مدة بقائه فيها ، لا عمر الدنيا كله ، وعمرك في الدنيا رغم قصَره هو عمر مظنون ، ونعيمك فيها على قدر حركتك فيها ، أما عمرك في الآخرة فمتيقن ، ونعيمك فيها على قدر إمكانات الله ، وأنت مهما بلغتَ من نعيم الدنيا يُنغِّصه عليك أنْ يزول ، إما أن تتركه أنت وتموت ، أو يتركك هو فتظل في الدنيا رغم غنَاك وتمتعك بها ، مُؤرَّقاً مشغولَ البال خائفاً من فوات النعمة ، أما في الآخرة فالنعمة باقية دائمة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة . إذن : إنِ اغتررتَ بالدنيا فأجْرِ هذه المقارنة .

لذلك ، لما تكلَّم الحق سبحانه عن هذه الحياة وصفها بأنها دُنْيا ، ولما تكلم عن الآخرة قال : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت] فمعنى الحيوان أي : الحياة الحقيقية الباقية التي لا يهددها موتٌ ولا فناء ، فيجب - إذن - أنْ تتنبه ، وأنْ تختار البديل الأرجح والأنفع لك ؛ لذلك نقول للذين اعتمدوا على الله وعاشوا في كَنَف الله وعلى منهج الله نقول : إنهم عرفوا كيف يسوسون حياتهم ، فأخذوها من أقصر الطرق ، ونَصِف هؤلاء بالمكر ، والمراد المكر العالي المكر الحسن .

وفي موضع آخر ، يُبيِّن الحق سبحانه لنا حبائلَ الدنيا ووسائل

غرورها ، فيقول سبحانه : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ (١) وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾ [آل عمران]

وقوله سبحانه : ﴿ وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾ [فاطر] أى : الشيطان ، فالخداع والغرور إما أن يكون من النفس ذاتها بدون مؤثر خارجى ، وإما أنْ يوجد شيطان سُوء يغرُّك ويُوسوس لك ، إذن : أنت أمام عدوين ، إما الدنيا بشهواتها ، وإما الشيطان بهَمْزه ونَزْغه ، وقد حذرنا ربنا منه ، فقال : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

تعنى : تنبه لهذا العدو ، وكُنْ منه على حذر ، فعداوته لك مُسْبقة منذ أبيك آدم ، وكُرْهه لك واضح مُعْلَن ، فينبغى أنْ يكون لك معه موقف ؛ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (٦) ﴾

ما دام أنه عدو لك مُعْلِن العداء ، فلا يجوز لك أنْ تهادنه أو تستكين له وتطيعه ؛ لأنك حين تطيعه يستمرئ عداوته ضدك ، إذن : لا بُدَّ أنْ تعاديه ، وأنْ تُوقفه عند حدِّه ، كيف ؟ أضعف الإيمان أنْ لا تطيعه ، فإنْ أردتَ أن تكون أقوى منه فانتقم منه وغِظْه بأنْ

(١) الخيل المسومة . أى : المرسلة للرعى أو المعلَّمة بعلامات . [القاموس القويم ١/٣٣٧] . وقال ابن عباس : المسوَّمة الراعية والمطهمة الحسان . وقال مكحول : المسومة الغرة والتحجيل . والمطهَّم من الخيل : الحسن التام ، كل شىء منه على حدته فهو بارع الجمال . [قاله ابن منظور فى لسان العرب - مادة : طهم] .

تتجه إلى مقابل ما يطلب منك ، فهو يأمر بالسوء ، فافعل أنت الحسن يأمرك بالشر ، فاجتهد فى الخير ، وكأنك تسخر منه وتُلقِّنه درساً لا يملك بعده إلا أنْ ينصرف عنك ؛ لأنك وظَّفْتَ عداوته لصالحك وانتفعتَ بها ، وهذا ما يغيظه .

وتستطيع أنْ تأخذ بهذا المبدأ مع أىِّ عدو آخر ، سواء أكان من شياطين الإنس أو شياطين الجن ، تستطيع أن تجعل من عداوته لك حافزاً على الخير وعلى عشق كل ما هو جميل ، فالعاقل مَن استفاد من عدوه أكثر من استفادته من صديقه .

وصدق القائل[1] :

عدَاىَ لَهُمْ فَضْلٌ علىَّ ومنَّةٌ ... فَلا أذهب الرحمَنُ عنِّى الأعَاديا

هُمُوا بَحَثُوا عَن زَلَّتى فَاجْتنبْتُها ... وهُمْ نافَسُونِى فاكتسبْتُ المَعَاليا

فالمؤمن الحق يستطيع أن يستفيد من عداوة أعدائه فى نواحٍ كثيرة ، فهو مثلاً يعمل ويجتهد ليتفوق على عدوه ، لا أنْ يتكاسلَ حتى يكون دونه منزلةً ومرتبةً ، يجتنب المعايب وأفعال السوء حتى لا يعطى لعدوه فرصة أنْ يشمت فيه .. إلخ

كذلك نقول : إن بعض الصفات المذمومة فى الناس فيها جوانب خير لو تأملناها ، فالبخيل مثلاً مكروه من الجميع ، لكن حين تتأمل وضعه تجده هو الذى يُعين الكريم على كرمه ، كيف ؟ رأينا كثيراً فى القرى هذا النموذج : رجل كريم لا يساعده دَخْله على القيام

(١) القائل هو أبو حيان الاندلسى ، وهو محمد بن يوسف بن على ، ولد ٦٥٤ هـ ، سمع الحديث بالأندلس وإفريقية والإسكندرية ومصر والحجاز من نحو ٤٥٠ شيخاً ، كان صدوقاً حجة سالم العقيدة من البدع ، توفى بالقاهرة عام ٧٤٥ هـ عن ٩٠ عاماً . والبيتان من قصيدة له فى ديوانه ، وهو ينتمى إلى العصر المملوكى .

بمتطلبات هذا الكرم وتبعاته من السماحة والبذل والعطاء والمجاملة .. إلخ . فكان كل فترة يبيع قطعةَ أرض لينفق منها ، فلمَنْ يبيع الكريم أرضه إذا لم يكن هناك البخيل الممسك ؟ فكأن البخيل يعين الكريم على كرمه .

وإذا كان الكريم يأسرك بكرمه ويتدان له بجميله ، فليس للبخيل جميل عليك ، ولست أسيراً له في شيء ؛ لذلك عَبَّر الشاعر عن هذا المعنى ، فقال :

جُزِيَ البخيلُ عليَّ صالحةً ... مِنِّي لخفَّتِهِ على ظَهْرِي

يعني : ليس له جميل عندي يجعلني عبداً لإحسانه .

ومعنى ﴿ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا (٦) ﴾[فاطر] أن تشحن كل طاقاتك وكل مواهبك لتربِّي فيك المناعة اللازمة ضد إغراءاته ووسوسته لك بالسوء ، فإنْ أردتَ الارتقاء في مناهضته ، فزِدْ من الحسنات التي يكرهها ، فإنْ جاءك في الصلاة ليفسدها عليك فَغِظْه بأنْ تخشع فيها ، وتزيد في تحسينها .

﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) ﴾[فاطر] يعني : أصبح له حزب وجماعة يحاول أنْ يُكثِّرها ؛ لذلك قال تعالى في موضع آخر: ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) ﴾ [المجادلة]

ومعنى حزب : جماعة تعصَّبوا لفكرة يعملون من أجلها في مقابل جماعة أخرى لهم مناهضات ، ويعملون هم أيضاً لفكرة تخدمهم .

والعلَّة في أنه يدعو حزبه ليكونوا كثرة فيكثر المتخبطون في منهج الله والخارجون عنه في مقابل حزب الإيمان والطاعة ، هذه هي العلة .

أما قوله تعالى ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑥﴾[فاطر] فاللام هنا لام العاقبة ومعناها : أنك تريد الشيء لعلة ، لكن تنتهي إلى علَّة أخرى ضد مطلوبك .

وقوله : ﴿مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑥﴾[فاطر] دلَّ على أن بينهم وبين النار أُلْفة ، وأنها تريدهم وتعشقهم حتى صارتْ بينهما مصاحبة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ⑦﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه حزبَ الشيطان يذكر الحكم عليه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ⑦﴾[فاطر] وفي المقابل ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ⑦﴾ [فاطر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ⑧﴾

الأسلوب في ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ⑧﴾[فاطر] أسلوب استفهام ، لكن لم يذكر المقابل له ، وتقديره هل يستوي ، ومَنْ لم يُزين له سوء عمله ؟

والحق سبحانه لم يذكر جواباً لأنه معلوم ، ولا يملك أحد إلا أن يقول لا يستويان ، لأن الناس منهم مَنْ يعمل السيئة ، ويعلم أنها سيئة ، ويكتفي بها لا يتعداها ، ومنهم مَنْ يتعدَّى فيفعل السيئة ويدَّعى أنها حسنة ، وهذا مصيبته أعظم لأنه ارتكب جريمة حين فعل السيئة ، وارتكب جريمة أخرى حين ادعى أنها حسنة ، هذا معنى : ﴿ فَرَآهُ حَسَنًا ﴿٨﴾ ﴾[فاطر] ، وهذا اختلال فى الرؤية وضلال .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴿٨﴾ ﴾[فاطر] وهذه الآية وقف عندها كثيرون ، يقولون : إنْ كان الله هو الذى يهدى ، وهو الذى يُضل . فلماذا يُحاسب الإنسان ؟ ولا بُدَّ لتوضيح هذه المسألة أنْ نُبين معنى يهدى ويُضل . يهدى يعنى : يدلُّه على طريق الخير ويرشده إليه ، وهذا الإرشاد من الله لكل الناس ، فمَنْ سمع هذا الإرشاد وسار على هُدَاه وصل إلى طريق الخير ، فكان له من الله العون وزيادة الهدى ، كما قال سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

أما الذى أغلق سمعه فلم يسمع ولم يَهْتَد فضَلَّ الطريق وانحرف عن الجادة ، فأعانه الله أيضاً على غايته ، وزاده ضلالاً ، وختم على قلبه ليكون له ما يريد ، فلا يدخل قلبه إيمانٌ ، ولا يخرج منه كفر ، وهؤلاء قال الله فيهم : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة]

لذلك يقول تعالى عن قوم ثمود :﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [فصلت]

فمعنى ﴿ هَدَيْنَاهُمْ ﴾ يعنى : دللناهم وأرشدناهم لطريق الخير ،

ولكنهم رفضوا هذه الدلالة وعارضوا الله فضلُّوا فأضلهم الله . يعنى : زادهم ضلالاً .

وسبق أنْ أوضحنا هذه القضية وقلنا : هَبْ أنك تريد أنْ تذهب إلى مكان ما ، ووقفتَ عند مفترق الطرق لا تدرى أيهما يُوصِّلك إلى غايتك فذهبتَ إلى رجل المرور تسأله أين الطريق ، فدلَّك عليه فشكرته وعرفتَ له جميله ، فلما رآك مُطيعاً له ، شاكراً لفضله قال الله : لكن أمامك فى هذا الطريق عقبة سأسير معك حتى تتجاوزها ، هكذا يعامل الحق سبحانه المهتدين : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

وقد خاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ بقوله : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ (٥٦) ﴾[القصص] وخاطبه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾[الشورى] فأثبت له ﷺ الهداية بمعنى الإرشاد والدلالة ، لكن نفى فى حقِّه الهداية بمعنى المعونة على الهدى ، فالذى يُعين هو الله .

ثم إن الحق سبحانه لم يترك هذه المسألة هكذا ، إنما بيَّن مَنْ يهديه ومَنْ يُضِلُّه ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) ﴾[المائدة] وقال :﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) ﴾[الصف] وأيُّ هداية للإنسان بعد أنْ كفر بالله ، وفَسَق عن منهجه ، وأفسد فى البلاد ، وظلم العباد ؟

وقوله تعالى : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ (٨) ﴾[فاطر] يعنى : لا تُهلك نفسك حسرة على عدم إيمانهم ، وهذا المعنى شرحه الحق سبحانه فى قوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

فرسول الله ﷺ كان حريصاً على هداية قومه ، يألم أشدَّ الألم حين يشرد أحد منهم عن طريق الإيمان ؛ لذلك قال تعالى عن نبيه محمد : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

ثم يقول سبحانه مُسلّياً رسوله ﷺ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) ﴾ [فاطر] يعنى : لا تَخْفى عليه خافية من أفعالهم ، وسوف يجازيهم ما يستحقون من عقاب على قَدْر ما بدر منهم من إعراض ، فاطمئن ولا تحزن .

بعد ذلك ينقلنا الحق سبحانه إلى بعض الآيات الكونية الخاصة بنعمه سبحانه على الخَلْق ، فيقول تعالى :

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ (٩) ﴾

معنى : يرسل الرياح يعنى : يحركها ، وبتحريك الرياح يتم استيعاب خير الوجود كله ، ألاَ ترى أن الريح إذا سكنتْ يتضايق الإنسان ويحاول تحريكها بنفسه بيده أو بالمروحة مثلاً ؛ لأن حيِّزَك فى التنفس لا يتم إلا بتحريك الهواء ، وتغيير ثانى أكسيد الكربون ليحل محلَّه الأكسوجين ، ولا تتم هذه العملية إلا بتحريك الهواء ؛ لذلك يقولون : إذا لم يمرّ عليك الهواء فمُرّ أنت عليه . يعنى : حرِّكه أنت .

ونتيجة حركة الرياح إثارة السحب ﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا (٩) ﴾ [فاطر] يعنى : تُهيِّجه وتُحركه من أماكنه ، بحيث يذهب بعد تجمُّعه إلى حيث أراد الله أنْ ينزل المطر ، إذن : حركة السحاب ليست ذاتية ، وإنما

تابعة لحركة الرياح ، وهذه المسألة تساعدنا فى فهم قوله تعالى :
﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل]

فالجبال التى نحسبها ثابتة هى فى الحقيقة تمر وتتحرك كحركة السحاب ، وكما أن السحاب لا يمر بذاته ، إنما بحركة الرياح ، كذلك الجبال لا تمر بذاتها ، إنما بحركة الأرض والجبال ثابتة على الأرض كالأوتاد ؛ لذلك تتحرك بحركتها : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل]

البعض لم يفطن إلى حركة الأرض التى تتبعها حركة الجبال ، فقال فى قوله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴿٨٨﴾ ﴾[النمل] أن هذا فى الآخرة ، لكن أين هى الجبال فى الآخرة والله يقول عنها : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ[1] ﴿٩﴾ ﴾[المعارج] ثم ، كيف يمتنُّ الله عليها ويحتج ببديع صُنْعه فى حركة الجبال فى الآخرة ، حيث لا تكليف ، ولا موضع لتحنين القلوب وعَطْفها إلى الإيمان .

هذا عن حركة الرياح ، أما عن سكونها ، فيقول تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ[2] عَلَىٰ ظَهْرِهِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشورى] والمراد : السفن التى تُسيِّرها الرياح ، فإنْ قُلْتَ : فهل يظل لهذه الآية هذا المعنى بعد التطور الذى طرأ على السفن ، وبعد أنْ تلاشتْ القلاع وحَلَّ محلها الآلات التى تُسيِّر السفن دون حاجة إلى حركة الهواء ؟

---

(١) العهن : الصوف المصبوغ بأى لون أو بألوان مختلفة ، قال تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ ﴾ [المعارج] كالصوف ذى الألوان المختلفة . [القاموس القويم ٢ / ٤٠] .
(٢) ركد الماء والريح : هدأ وسكن . وركدت السفينة : هدأت بعد اضطرابها . أو سكنت حركتها لسكون الريح التى تسيِّرها . [القاموس القويم ١ / ٢٧٤] .

نقول : نعم ستظل الآية تحمل هذا المعنى إلى ما شاء الله ؛ لأن الاختراعات الحديثة لم تفاجيء خالقها عز وجل ، ومَنْ قال : إن الريح هو الهواء ؟ الريح هو القوة أياً كانت ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ (٤٦) ﴾ [الأنفال] يعنى : قوتكم أيّاً كانت قوة هواء ، أو قوة كهرباء ، أو قوة بخار ومحركات .. الخ

ونلحظ في أسلوب هذه الآية أن الفعل ﴿ أَرْسَلَ (٩) ﴾[فاطر] جاء في صيغة الماضي ، لكن (تثير) في صيغة المضارع ، ولم يقل سبحانه : فأثارت سحاباً ، قال : أرسل يعني : أمر أنْ ترسل ، فهذه مسألة انتهت وفُرغ منها ، أما إثارة السحاب وتحريكه فمسألة مُتجدِّدة مستمرة في كل لحظة ، فناسبها المضارع الدال على الحال والاستقبال .

أو : أن المعنى ﴿ وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا (٩) ﴾[فاطر] جاء في الماضي ؛ لأن الكلام عن الغيب ، والاسم الظاهر غيب وهو لفظ الجلالة ، ثم انتقل من الغيب في ﴿ أَرْسَلَ الرِّيَاحَ (٩) ﴾[فاطر] إلى مقام المتكلم ، فقال ﴿ فَسُقْنَاهُ (٩) ﴾[فاطر] كأن الله يلفتك بالنعمة إلى غيب هو الله تعالى ، فحين تستحضر أنه الله الذي فعل أصبحْتَ أهلاً لمكالمة الله لك .

ومثال ذلك ما قُلْنا في سورة الفاتحة : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) ﴾[الفاتحة] هذا كله غيب إلى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ﴾ [الفاتحة]

ولم يقُلْ : إياه نعبد لينقلك من الغيب إلى الخطاب المباشر معه سبحانه ؛ لأنك أصبحتَ أهلاً لأنْ تخاطبه ويخاطبك بعد أنْ آمنتَ بالحيثيات الأولى في ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ③ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ ﴾ [الفاتحة]

ومعنى ﴿ فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ⑨ ﴾[فاطر] يعني : سُقْنا السحاب ، أو سُقْنا الماء بعد نزوله في جداول وأنهار إلى الأرض التي لا نَبْتَ فيها ، والتي يمكن أن تنتفع به ، وهذا أدلّ على قدرة الله ، وتأمل مثلاً ماء النيل الذي يروي السودان ومصر أين نزل ؟ وهذا دليل على أن رزقك سيأتيك مهما بَعُد عنك مصدره .

فإذا ما استقر الماء في الأرض كانت النتيجة ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ⑨ ﴾[فاطر] يعني : أحييناها بالنبات ، ثم يجعل الحق سبحانه من نعَم إحياء الأرض الميتة دليلاً على نعمة أخرى موصولة في الآخرة ، فيقول سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ⑨ ﴾[فاطر] يعني : البعث يوم القيامة وإحياء الموتى من قبورهم .

فَخُذْ مما تشاهد من إحياء الأرض الميتة دليلاً على صدق ما غاب عنك ، فكما أن الماء ينزل على الأرض الميتة فيُحييها ، كذلك حين تنزل الروح على مادة الإنسان المدفونة في الأرض يحدث لها النشور والبعث ، وتدب فيها الحياة .

وسبق أنْ بيّنا أن العلماء لما حللوا جسم الإنسان وجدوه مُكوّناً من ستة عشر عنصراً . أولها : الأكسوجين . وآخرها : المنجنيز . وهي نفسها عناصر التربة التي ينمو فيها النبات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾

التأبِّي على الرسالات تأبٌّ على أن يكون المؤمن الذي يُكلَّف بتكليفات تبَعاً لرأي غيره وطَوْع أمره ، والرسول ما جاء إلا ليقول لنا (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، وبعض الناس يرى في هذه الطاعة خَدْشاً لكرامته وعزته ، فهو يريد أنْ يكون الأعلى الذي لا يأمره أحد ولا ينهاه ، وهؤلاء الذين تتحدث عنهم الآية يريدون أن تكون لهم العزَّة في نفوسهم .

والحق - سبحانه وتعالى - هنا يُصحِّح لهم معنى العزة ويُبيِّن غباءهم ، فيقول سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر] أي : العزة الحقيقية لا المدَّعاة : ﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] فالعزة الحقيقية ألاَّ تكون مغلوباً ولا مقهوراً لأحد ، وهذه العزة لا وجودَ لها إلا في رحاب الله ، فمهما بلغ الإنسانُ في الدنيا من القوة والجبروت لا بُدَّ أنْ يُغلب ، ولا بُدَّ أنْ يقهره الموت ، فإنْ كنتَ مُغْرماً بعزة لا تزول ، فهي في جنب الله .

لذلك فالله تعالى يُعلِّمنا الحكمة ، فيقول : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الفرقان] يعني : أنا أعلم بك وأعلم بضعفك ، وأنك في حاجة إلى مَنْ تتوكل عليه ليقضي لك الأمور التي فوق طاقتك ، فإياك أنْ تلجأ إلى غيري ، فأنا الباقي الذي لا يموت ، فإنْ توكلْتَ على

ضعيف مثلك ، فربما مات قبل أنْ يقضي لك حاجتك ، كذلك مَنْ أراد العزة فليكُنْ في حضن الله يعتزُّ بعزَّته ، ويتقوَّى بقوته ، ومَنْ كان في حضن الله يخلع الله عليه من صفاته ويفيض عليه .

لذلك سيدنا رسول الله يعطينا هذا الدرس ، وهو في الغار ، ومعه الصِّدِّيق - رضي الله عنه - فيقول الصِّديق : يا رسول الله ، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فيقول سيدنا رسول الله وهو واثق بربه : « يا أبا بكر ما بالك باثنين الله ثالثهما »[1] وحكى عنه القرآن قوله :

﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة]

فهذه الطمأنينة التي ملأتْ قلب رسول الله منشؤها معية الله له ولصاحبه ، وهذه المعية تقتضي أنْ يخلع الله عليهما من صفاته سبحانه ، فإذا كان الله تعالى لا يُرى ، فمَنْ كان في معيته كذلك لا يُرى.

ومعنى ﴿ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] يعني : كل ألوان العزة ، وهذه المسألة من المسائل التي تكلَّم فيها المستشرقون ، يلتمسون فيها مأخذاً على كلام الله ، يقولون : إن الله يقول﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] وفي آية أخرى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون]

ولا تعارض بين الآيتين ؛ لأن العزة في الأصل لله ، وعزَّة الرسول من التحامه بالعزيز ، وعزة المؤمنين من التحامهم بعزيز العزيز ، فهي عزة موصولة من الله تعالى لمَن اعتزَّ به ، وأول مَن اعتزَّ بالله رسوله ، ثم المؤمنون به .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٦٣) ومسلم في صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، بلفظ : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما» .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ⑩ ﴾ [فاطر] دائماً نخاطب الله على جهة العلو ، مع أنه سبحانه فى كل مكان ، وليس له مكان ، لذلك يحتج البعض على هذه المسألة فيقول : كيف أن الله ليس له مكان ، وسيدنا رسول الله لما أراد الله أنْ يُكلِّمه أصعده إلى السماء السابعة ؟

نقول : كان الصعود لمكان الرائى لا لمكان المرئى ، فالرائى لا يرى إلا من هذا المكان ، فمثلاً لو أننا سمعنا الآن ضجة خارج المسجد ، وهذه النافذة التى تُطل على هذه الضجة عالية ، فماذا تفعل إنْ أردتَ أنْ تعرف ما يدور بالخارج ، لا بُدَّ لك أنْ تصعد هذا العلو لترى ما يحدث ، فالأحداث هى هى ، لكن مكان الرائى يختلف .

ومعنى ﴿ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ⑩ ﴾ [فاطر] هذا وصف عام لكل كلام يدلُّ على منهج خير ، وقد أعطانا القرآن مثالاً لذلك فى قوله سبحانه :
﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ㉔ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا .. ㉕ ﴾ [إبراهيم]

وقد حاول العلماء تحديد هذه الكلمة ، فقالوا هى : كلمة لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله ولا قوة إلا بالله ، ولكن هذا التحديد يُضيِّق المعنى الواسع الذى أراده الله تعالى منها ، والأصوب أن نقول الكلمة الطيبة : كل كلام يؤدى إلى خير .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ⑩ ﴾ [فاطر] بعد أن تكلم سبحانه عن صعود الكلم الطيب يتكلم عن رفع العمل الصالح ؛ لأن الإنسان قد يتكلم بالكلمة الطيبة دون أنْ تُؤدى مطلوبها ، ودون أنْ يترجمها إلى عمل ، وربما قالها نفاقاً مثلاً ، كالذين قالوا لا إله إلا الله

نفاقاً وفراراً من القتل ، ومع ذلك تصعد إلى الله ، فيقول الله احموه بهذه الكلمة دنياه ، ولا تتعرضوا له ما دام نطق بها ، إنما ليس له عليها جزاء فى الآخرة ؛ لأن الجزاء يتأتَّى من العمل الذى يخدم مدلول الكلمة ، فالعبرة إذن بالعمل والعمل الصالح ، فهو الذى يُرفع إلى الله ، ويحميك فى الدنيا ، ويحميك فى الآخرة ، ويجمع لك الخيرين .

ثم يذكر الحق سبحانه وتعالى المقابل : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] الفعل مكر يتعدى بحرف الجر نقول : مكر بفلان ومكَره يعنى : خدعه ويتعدَّى بنفسه كما فى ﴿ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] وأصلها يمكرون المكْرات السيئات ، فهى وصف لمصدر مأخوذ من مادة الفعل مثل : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿١٢٢﴾ ﴾[النساء] أى : الأعمال الصالحات . أو مكر : فعل مكراً ، فيكون المعنى : والذين فعلوا السيئات .

ثم يبين سبحانه جزاء المكر السيء : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] لماذا ؟ لأنك حين تمكر ، كأنك تريد أنْ تسرق شيئاً من الله ، وتظن أنه لن يدرى بك ، وغفلتَ أنك تُبيِّت المكر سراً ، وهو سبحانه يعلم السِّر والنَّجْوى ، وأنك حين تمكر وحين تُبيِّت تُبيِّت على قدر إمكاناتك ، وربك عز وجل كذلك يمكر ويُبيِّت على قدر إمكاناته ، وقدرته تعالى : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال]

لذلك يبوء هذا المكر بالخسران وبالبوار ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] فهو مكْر بائر ، كالأرض البَوار التى لا تنبت ولا تنتج ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ

﴿ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم]

فهذا المكر الذى ظنه صاحبه ينفعه ، ويرفعه على خَصْمه ، ويجعل نفسه عالية عليه ، إذا به يبور ، ولا يؤتى ثماره ، ولَيْته يبور وتنتهى المسألة ، إنما ينقلب عليه ويجرُّ على صاحبه العذاب الشديد.

ومعنى ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] اللام تفيد الملكية ، فهنا قلب يعنى : لهم عذاب أى : استحقوه وكأن العذاب يحرص عليهم كما يحرص الإنسان على ما يملك ، فهو عذاب ملازم لهم لا ينفك عنهم .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

تعرضت هذه الآية لقضية الخَلْق الأول للإنسان الخليفة ، وهذا الخَلْق كان له مراحل ، فالإنسان الأول وهو آدم عليه السلام خُلق خَلْقاً أولياً من مادة الأرض ، وهى التراب الذى يُخلط بالماء ، فصار طيناً ، هذا الطين مَرَّ بأطوار عدة ، فالطين إنْ تركْتَه حتى يعطن وتكون له رائحة فهو الحمأ المسنون ، فإنْ تركته حتى يجفَّ ويتماسك فهو الصلصال ، فهذه - إذن - أطوار للمادة الواحدة التى صَوَّر الله منها آدم ، ثم نفخ فيه من روحه ، وهذا هو الخَلْق الأول الذى أخذ الله منه حواء ، ومنهما يتمُّ التناسل والذرية .

وقبل أنْ يتكلم الحق سبحانه عن خَلْق الإنسان تكلَّم عَمَّا خلقه الله للإنسان قبل أنْ يُوجد ، فتكلَّم سبحانه عن خَلْق السماوات والأرض ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١﴾ ﴾[فاطر] ثم تكلم عن الملائكة

الذين ينزلون بالوحى إلى الرسل من البشر ، ثم أنزل من السماء ماءً به تنبت الأرض .

هذه كلها مُقوّمات حياة الإنسان ، أوجدها الله له قبل أنْ يُوجده هو ، وضمن له مُقومات حياته المادية والمعنوية الروحية ، المادية بالقوت طعاماً وشراباً وهواءً ، والروحية بالمنهج والقرآن ؛ لذلك قال سبحانه: ﴿ الرَّحْمَـٰنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الإِنسَانَ ③ ﴾ [الرحمن]

فالإنسان خُلق لغاية ، كالصانع يحدد غاية الشيء المصنوع قبل أنْ يبدأ فيه ، وقُلْنا : إن الذى صنع (التليفزيون) أو الثلاجة لم يصنعها ثم قال : انظروا فيمَ تُستخدم هذه الآلة ، إنما قدَّر غايتها ، وحدَّد هدفها قبل صناعتها ، كذلك الحق سبحانه قبل أنْ يخلق الإنسان قدَّر حركته فى الحياة وما يسعده فيها ، فوضع له منهج القرآن قبل أنْ يُخلق ، ثم جاء خَلْق المادة بعد وَضْع المنهج .

والحق سبحانه حينما يتكلَّم عن خَلْق الإنسان ، يقول : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ⑪ ﴾[فاطر] فجاء الأسلوب كأنه يتحدث عن غائب ، ولم يقُلْ سبحانه أنا خلقتُكم ، فكأننا نقول : الله خلق الإنسان من تراب ؛ ذلك لأن وسائل الخطاب بين متكلم ومخاطب تأتى على ثلاث صور : ضمير المتكلم أنا ، أو ضمير المخاطب أنت ، أو ضمير الغائب هو .

فالمتكلم حين يتكلم يقول : أنا فعلتُ . من الجائز أن يُكذَّب ، فإنْ خُوطب : أنت فعلت . من الجائز أنْ يُنافق ، لكن إذا جاء الأسلوب بصيغة الغائب : هو فعل ، فقد برئنا من الادعاء فى المتكلم ، ومن النفاق فى المخاطب .

وحين نقول هو خلق يعنى : ليس هناك غيره ، وسبق أن قلنا :

إن ضمير الغائب (هو) لا ينصرف إلا إلى الحق سبحانه وتعالى .

وإذا استقرأتَ آيات الخَلْق فى القرآن الكريم تجدها بأسلوب الغيبة فى مائة وسبع آيات ، بداية من قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا ﴿٢٩﴾ ﴾[البقرة] وآخره سورة الفلق :﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ ﴾[الفلق] وبأسلوب المتكلم فى ست وسبعين آية ، مثل :﴿ .. إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات]

وبأسلوب المخاطب فى أربعة مواضع هى : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران]

وقوله : ﴿ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف]

وقوله : ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾ [الإسراء]

فأسلوب الغيبة هو أكثر هذه الأساليب ؛ لأن الحديث عن غائب يخلو من ادعاء ، ويخلو من نفاق المواجهة ، أو نفاق الخطاب .

لكن ، ما معنى الخلق ؟ قال العلماء : الخَلْق إيجاد من عدم لحكمة أو لغاية مُسْبقة ، لا مجرد الإيجاد من عدم ، كيف ؟ أنت إذا أخذت قطعة كبيرة من طين جاف ورميتَها على الأرض ، فإنها تتفتتْ قطَعاً مختلفةَ الأشكال ، وربما وجدت منها على شكل هلال ، وأخرى على شكل نجمة ، وأخرى على شكل وجه إنسان أو حيوان .

هذا يُعد إيجاداً ، لكن لا يُعَدُّ خَلْقاً ؛ لأن الخَلْق إيجاد مقصود لغاية مقصودة ، وحكمة مرادة ، وهذه مهمة الخالق وحده سبحانه .

فإنْ قلتَ : كيف والله تعالى يثبت لنا خَلْقاً فى قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

قلنا : إن الخالق سبحانه يُقدِّر مجهودات البشر ، ولا يبخسهم حقوقهم ؛ لذلك يثبت لهم المشاركة فى الخَلْق مع الفارق الواضح بين خَلْق الله وخَلْق غيره ، فإذا وُصف الإنسانُ بأنه خالق ، فالله أحسن الخالقين ؛ لأنه سبحانه يخلق من عدم ، وأنت تخلق من موجود ، وخَلْقك يثبت على حالة واحدة ، ويجمد عليها ، أما خَلْق الله فيتطور وتدبّ فيه الحياة فيتغذّى وينمو ويتناسل ..إلخ .

ومثَّلْنا لذلك بصانع الزجاج يأخذ مثلاً الرمل المخلوق لله ، ثم يعالجه بطريقة معينة ، ويُحوِّله إلى زجاج ، نعم أنت خلقْتَ شيئاً ؛ لأن هذا الكوب لم يكُنْ موجوداً ، فأوجدته ، لكن من مادة موجودة مخلوقة لله ، وعقل فكَّر هو من مخلوقات الله ، ونار صهرتْ هى من خَلْق الله .

ثم إنك لا تستطيع أنْ تمنح هذا الكوب صفة الحياة ، فينمو مثلاً ، أو يتكاثر ، إذن : إن أثبتَ الله لك خَلْقاً فهو سبحانه أحسن الخالقين .

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴿١١﴾ ﴾[فاطر] وفى مواضع أخرى قال : ﴿ مِّن طِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنعام] وقال ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحجر] وقال : ﴿ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الرحمن] ولا تعارضَ بين هذه الأقوال ؛ لأنها أطوار للمادة الواحدة كما بينَّا ، كالثوب الذى تلبسه تقول : هذا الثوب من القطن ، أو من الغزل ، أو من النسيج ، فهى مراحل تمر بها المادة الواحدة .

فليس فى هذا تناقض فى المراحل ، إنما التناقض فى أنْ يكون الشىء مرتبة واحدة ، ثم تجعله مراتب ، إنما هذه المسألة مراحل للمرتبة الواحدة ، كالطفل يصير غلاماً ، ثم شاباً ، ثم رجلاً ، ثم

كَهْلاً.. إلخ كلها مراحل لإنسان واحد .

الحق سبحانه حكم فى كونه بأشياء ، ونهى العقل أنْ يفكر فى أشياء ، قال : أنا خلقتُ لك الكون والمادة ، وضمنتُ لك مُقوِّمات حياتك ، فإنْ أردتَ أن تُرقِّى نفسك فأعمل عقلك فى المادة المخلوقة لله ، واستنبط منها على قَدْر إمكاناتك ، لكن لا تشغل بالك بأمرين لا جدوى من التفكير فيهما ، هذان الأمران هما خَلْق السموات والأرض وخَلْق الناس ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾[الكهف]

فخَلْق السموات والأرض وخَلْق الإنسان مسألة لم يشهدها أحد منكم ، ولم يكُنْ مع الله سبحانه معاون يخبركم بما حدث ، لكن احذروا سيأتى فى المستقبل مُضلُّون يُضلُّونكم فى هذه المسألة ، يقولون لكم - كما يقول المضلون الآن - إن السموات والأرض كانتا قطعة واحدة ملتهبة ، وحدث لها كذا وكذا ، أو أن الإنسان أصله الأول قرد تطور إلى إنسان ، احذروا هؤلاء ، ولا تأخذوا معلوماتكم إلا ممَّنْ شهدها ويعلمها ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

لكن الحق سبحانه خلق العقل آلة للتفكير ، وجعل له منافذ يصل من خلالها إلى الحقيقة ، والاستدلال بما رآه على ما غاب عنه ، فعلى العقل أنْ يتأمل ما يراه ويستدل به على ما لا يراه .

نحن لم نشهد عملية الخَلْق ، لكن شهدنا عملية الموت ، والموت نَقْضٌ للخَلْق ، كما أن الهدم نَقْضٌ للبناء .

فهذه قضية فلسفية للعقل فيها دور ، فأنت حين تريد بناء عمارة مثلاً من عشرة أدوار تبدأ ببناء الدور الأول ، لكن إنْ أردتَ هدمها

تبدأ بالدور العاشر ، فالهدم على عكس البناء ، كذلك الموت نقيض الحياة .

فالذى لم نشاهده من عملية الخَلْق أخبرنا الله به فى كتابه ، فقال : خلقتكم من تراب صار طيناً ، ثم صار الطين حمأ مسنوناً ، وصار الحمأ المسنون صلصالاً كالفخار ، تشكَّل على صورة الإنسان ، ثم نفخ فيه اللهُ الروحَ فدبَّتْ فيه الحياة .

ونحن شاهدنا الموت ورأيناه يأتى على عكس عملية الخَلْق ، فأول شىء فى الموت أنْ تفارق الروحُ الجسدَ ، فيتصلَّب حتى يكون كالفخار ، ثم يرمَّ ، وتتغير رائحته كأنها الحمأ المسنون ، ثم تمتصُّ الأرضُ ما فيه من مائية ليعود إلى تراب وفُتَات يختلط بتراب الأرض، ويعود إلى أمه التى جاء منها .

إذن : خُذْ مما شاهدتَ دليلاً على صدق ما أخبرك الله به مما لم تشاهده .

الحق - سبحانه وتعالى - حينما تكلَّم عن الخلق تكلم عن مرحلتين : الأولى : خلْق الإنسان الأول آدم عليه السلام من طين ، ولكى يتم التكاثر لعمارة الأرض كانت المرحلة الثانية بأنْ خلق له زوجه ، فقال :

﴿ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا.. (١٨٩) ﴾ [الأعراف]

والظنُّ يتسع فى هذه المسألة ، فيصح أنه سبحانه أخذ قطعة من آدم وخلق منها حواء ، ويصح أنْ تكون هذه القطعة كذلك كانت من الطين ، لكن اكتفى بالتشريع الأول للرجل ، ومن آدم وحواء أنشأ النسل ، وتم الاستخلافَ فى الأرض .

ولكى نخرج من المتاهة فى هذه المسألة نقول : قوله تعالى

﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ① ﴾ [النساء] يعني : من جنسها ، من جنس خَلْقها ، كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ⑫⑧ ﴾ [التوبة] يعني : من جنسكم .

لكن ، أيخلق الله هذا الخَلْق ، ويستخلف خليفته في الأرض ، ثم يتركه دون أنْ يُمدَّه بالمنهج الذي حكم حركة حياته ؟ لا ، لا بُدَّ أنْ يُنزل له المنهج ؛ لأن معنى الخلافة تقتضي أنْ يُوجد هذا المنهج .

والحق سبحانه حين يُملِّك خليفته أشياء تأتمر بأمره ربما غرَّه ذلك الملك فقال له : اذكر أنك لستَ أصيلاً ، وأنك خليفة ، وطالما تتذكر أنك خليفة فلن تطغى ، إنما الذي يُطغيك أن تظنَّ أنك أصيل في الكون ، والأصيل في الكون هو الذي يحفظ ما وُهب له ، هو الذي لا يمرض ولا يموت ، ولا يوجد معه مَنْ هو أقوى منه . إذن : تذكَّر أنك مُسْتخلف ، وما دُمْتَ مستخلفاً فعليك أنْ تنفذ أوامر مَن استخلفك .

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن الخَلْق الأول من تراب وخَلْق الزوجة ، يُحدِّثنا عن الخَلْق العام الذي سيأتي منه البشر جميعاً بعد آدم وحواء ، وبالتزاوج يتم الخَلْق عن طريق النطفة ، فيقول سبحانه ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ⑪ ﴾ [فاطر]

وفي موضع آخر فصَّل مراحل النطفة ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ⑤ ﴾ [الحج]

وأول زواج تم بين أولاد آدم تمَّ بالتباعد ، فابن هذه البطن يتزوج أخته من بطن أخرى ، وهكذا كان التباعد بحسب زيادة النسل قَدْر المستطاع ، ومسألة التباعد هذه هي التي أدتْ إلى أول جريمة

قَتْل فى البشرية ، وهى مسألة قابيل وهابيل . فلما اتسعتْ الدنيا ، وكَثُر الناس مُنِع زواج الأخت والخالة والعمة.

وقد أثبت العلم أهمية التباعد فى الزواج ، وأن زواج الأقارب يثمر نسلاً أضعف من زواج الأباعد ، حتى فى الزراعة أثبتوا أن زراعة الحبوب المستخرجة فى نفس أرضها يعطى محصولاً أقلّ ؛ لذلك لجئوا فى الزراعة إلى عملية التهجين .

والنبى ﷺ يحثُّ على هذا التباعد ، فيقول : « اغتربوا لا تضووا »[1] [2] يعنى : لا تتزوج شديدة القرابة منك ؛ لأن الأقارب خصائص وجودهم واحدة والدم واحد ، أما فى الاغتراب ، فالخصائص مختلفة والدم مختلف ؛ لذلك يأتى النسل أقوى ؛ لذلك فطن الشاعر العربى إلى هذه المسألة ، فقال[3]:

أُنذِرُ مَنْ كَانَ بعيد الهَمِّ ... تَزْويج أولادِ بناتِ العَمّ
فليسَ بنَاجٍ من ضَوى وسَقَم ... بأبى وإنْ أطْعمتَهُ لا يَنْمي

وقد لاحظوا ضَعْف النسل فى الأُسَر التى تزوج أولادها من الأقارب ، ومدحوا الاغتراب ، فقال الشاعر :

---

(١) ضوى يضوى ، هو الولد يخرج ضعيفاً . ورجل ضاوٍ إذا كان ضعيفاً . ومعنى لا تضووا ، أى : لا تأتوا بأولاد ضاوين . [لسان العرب - مادة : ضوا] .

(٢) مما ورد فى هذا ما ذكره أبو حامد الغزالى فى إحيائه (٤١/٢) : « لا تنكحوا القرابة القريبة ، فإن الولد يُخلق ضاوياً » . قال الحافظ العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء : « قال ابن الصلاح : لم أجد له أصلاً معتمداً . قلت : إنما يُعرف من قول عمر أنه قال لآل السائب « قد أضويتم ، فانكحوا فى النوابغ » رواه إبراهيم الحربى فى غريب الحديث . قال الشوكانى فى (الفوائد المجموعة ص ١٢١) : « ليس بمرفوع » .

(٣) ذكرهما أبو حيان التوحيدى فى كتابه الإمتاع والمؤانسة ، ولم يعزهما لأحد . وانظر أيضاً « محاضرات الأدباء » للراغب الأصفهانى .

فَتَىً لم تلدْهُ بنْتُ عَمٍّ قريبة   فيضْوَى وقد يَضْوى سليلُ الأقَارب[1]

وآخر يبتعد عن بنت عمه في الزواج رغم حُبِّه لها ، ويقول :

تَجَاوزْتُ بنتَ العَمِّ وهْيَ حَبِيبةٌ   مَخَافَةَ أنْ يَضْوَى عليَّ سَليلُها

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴿١١﴾ ﴾ [فاطر]

عمليـة حَمْل الأنثى تتم نتيـجة الالتقاء بيـن الذكر والأنثى تحت مظلة الشرع ومنهج الله ، وللعلماء كلام طويل في مسألة حمل المرأة ، أهي المسئولة عنه أم الرجل ، وأخيراً سـمعنا من التحاليل التى أجرَوْهَا أنَّ الرجل هو المسئول عن ميكروب الذكورة أو الأنوثة ، أما المرأة فتحمل البويضة التى تستقبل هذا أو ذاك .

وعجيب أن تفطن المرأة العربية القديمة إلى نتائج العلم الحديث الآن ، وأن يكون لديها إلمامٌ وفَهْم لهذه المسألة ، فالمرأة البدوية التى كانت لا تنجب إلا البنات ، فغضب عليها زوجها ، وذهب فتزوَّج بأخرى لتنجب له الولد ، وهجر الأولى ، فأنشدت وقالت[2] :

مَا لأبى حَمْزَةَ لا يَأْتِينَا   غَضْبانَ ألاَّ نَلِدَ البَنِينَا

تَاللَّه مَا ذَاكَ فى أيدينَا   ونحن كالأرْضِ لغَارسِينَا

* نُعطى لَهُمْ مثْلَ الذى أُعْطِينَا *

وعجيب أنْ تتكلم البدوية بما توصَّل إليه العلم الحديث فى القرن العشرين ، وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يثبت لنا أن الفطرة السليمة البعيدة عن الهوى قد تصل إلى حقائق الكون ، فسداد الرأى لا يجتمع

---

(١) هذا البيت للنابغة الذبيانى ، ولكن لفظه يختلف عما أورده الشيخ رحمه الله هنا :

فتى لم تلده بنت أم قريبة   فيضوى وقد يضوى رديد الاقارب

وقد ذكره الخالديان فى « الأشباه والنظائر » وعزواه إلى أعرابى يذكر ابنه بلفظ الشيخ إلا قوله « الأقارب » فهو عندهما القرائب .

(٢) ذكر هذه الأبيات مع اختلاف فى اللفظ ابن عبد ربه الأندلسى فى العقد الفريد - باب قولهم فى النوادر والمُلَح :

ما لأبى حمزة لا يأتينا   يظل فى البيت الذى يلينا

غضبان أن لا نلد البَنِينا   وإنما نأخذ ما أعطينا

وهوى النفس ؛ لذلك قالوا : آفة الرأى الهوى ، ومن ذلك ما رُوِى عن سيدنا عمر من أن القرآن كان ينزل على وَفْق ما يراه ، وما ذلك إلا لسلامة فطرته .

وقوله : ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴿١١﴾﴾[فاطر] هذه مراحل تمر بها المرأة ، أولاً ، تزوجت ثم حملت ، ثم وضعتْ حملها ، وهذه كلها مراحل السلامة ، ولم يذكر - سبحانه وتعالى - ما يطرأ على الحمل من عطب ، فقد تحمل الأم ويسقط جنينها ولا تضعه .

والإعجاز الذى يصاحب عملية الحمل أن الدم الذى ينزل من المرأة حال الدورة الشهرية يتحول عندما تحمل إلى غذاء للجنين ، فكأن هذا الدم ليس رزقاً لها ، بل رزق ولدها إنْ قُدِّر لها الحمل ، وإن لم يُقدَّر لها حمل نزل منها دون أن تستفيد منه بشىء .

والعجيب أن هذا الدم يكفى الجنين الواحد ، ويكفى الاثنين والثلاثة ، والأكثر من ذلك ، وأخيراً سمعنا عن المرأة التى ولدتْ سبعة ، ومع ذلك كانت بحالة جيدة يعنى : لم ينقص من وزنها شىء ، وكأن الخالق عز وجلّ يذكِّرنا قبل أنْ تحملوا هَمَّ القوت والأرزاق انظروا ما فعل الله بكم وأنتم فى بطون أمهاتكم ، فلكُلٍّ منكم رزق لا يتعدَّاه ولا يُخطئه .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « طعام الواحد يكفى الاثنين ، وطعام الاثنين يكفى الثلاثة »[1] .

ومع تقدُّم العلم الآن لم يستطيعوا تحديد موعد الولادة بشكل قاطع ، وستبقى هذه اللحظة فى علم الله ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴿١١﴾﴾[فاطر]

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٠٧/٢) من حديث أبى هريرة ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٥٩) كتاب الأشربة ، وابن ماجه فى سننه (٣٢٥٤) من حديث جابر بن عبد الله.

لماذا ؟ لأننا نعرف نعم مدة الحمل ، لكن لا نعرف على وجه التحديد متى التصق (الزيجوت) في الرحم ؛ لذلك فإن أطباء الولادة دائماً ما يقولون ستضع الحامل بين كذا وكذا من الأيام .

إذن : لحظة الولادة أشبه ما تكون في خفائها بلحظة الموت لا يعلمها إلا الله ، ومعنى يعلمها يعني : يعلمها بكل ما يحيط بها من ملابسات وأحداث .

وبعد أنْ تضع المرأةُ حملها تتحول إلى مرضعة وحاضنة فيُجرى لها الخالق سبحانه رِزْق ولدها لترضعه دون أنْ يأخذ من رزقها شيئاً ، لأن إمداد الله لها مستمر ، والشيء ينقص إنْ أُخذ منه دون إمداد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ (١١) ﴾ [فاطر] يُعمَّر يعني : يمد الله في عمره ، وعندنا في اللغة أفعال ملازمة للبناء للمجهول ، فمثلاً نقول : زُكم فلان لأنه لم يجلب لنفسه الزكام ، كذلك نقول : فلا عُمِّر . هو لم يُعمِّر نفسه ، إنما عمَّره الله ، لذلك جاء بصيغة اسم المفعول مُعَمَّر ، والمُعمَّر يعني : طويل العمر .

وهذا من المواضع التي وقف عندها المستشرقون معترضين كالعادة ، بسبب جهلهم باللغة العربية وأساليبها ، قالوا : كيف يُعمَّر بالفعل ، فيعيش مائة سنة مثلاً ثم ينقص من عمره ؟ نقول : هم معذورون ؛ لأنهم لا يعلمون أن في اللغة ضميراً ومرجعاً للضمير .

فتقول مثلاً : قابلتُ فلاناً فأكرمتُه ، فالهاء في أكرمته تعود على فلان هذا ، وتقول : تصدقتُ بدرهم ونصفه . فهل يعني هذا أنك تصدقتَ بدرهم ، ثم أعدته ثانية ونصَّفته ؟ لا إنما المعنى : تصدقت بدرهم ونصف درهم مثله ، فمرة يعود الضمير على ذات واحدة ،

ومرة يعود على واحد من مثله ، كما فى : تصدقت بدرهم ونصفه .

والإنسان له ذات وله صفات ، ذاته هى قوام تكوينه ، وصفاته ما يطرأ على الذات من أوصاف ، فكَوْنه معمَّراً يعنى بلغ سناً كبيرة ، وكما يعود الضمير على مثل الأول أو على بعض مثله ، كذلك يعود على بعض ذاته ، فالمعمَّر ذاتٌ ثبت لها التعمير ، فعلامَ يعود الضمير فى ﴿ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ (١١) ﴾[فاطر] صحيح حينما يصل إلى مائة سنة لا نستطيع أنْ نُميته فى سِنِّ العشرين مثلاً .

إذن : أعد الضمير على الذات دون الصفة ، وما يُعمَّر من مُعمَّر ، ولا ينقص من ذاته ، فالذات لم يثبت لها التعمير إلا بإذن الله ، فيصير المعنى مثل : تصدَّقْتُ بدرهم ونصفه .

والحق سبحانه حدَّثنا عن التعمير عندما تكلم عن اليهود : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ (١١١) ﴾ [البقرة]

وقالوا :﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً (٨٠) ﴾ [البقرة]

فردَّ الله عليهم : إنْ كنتم ضمنتم الجنة ، وأنه لا يأخذها منكم أحد ، فتمنَّوْا الموت الذى يوصلكم إليها : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) ﴾ [البقرة]

ثم حكم الله عليهم ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) ﴾ ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾[البقرة]

فمعنى ﴿ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ (١١) ﴾[فاطر] يعنى : من عمر ذات لم يثبت لها التعمير إلا بإذن الله .

وقوله ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴿١١﴾ ﴾[فاطر] أي : في اللوح المحفوظ ، فكلُّ ما يحدث في الأعمار وفي فترات الحمل والوضع من الإنقاص أو الزيادة ، كله مُسطَّر معلوم في اللوح المحفوظ ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾[فاطر] فإنْ كان صعباً عليكم وعلى فهمكم فهو يسيرٌ وسهلٌ على الله سبحانه.

ألاَ ترى لسيدنا زكريا عليه السلام وهو يدعو الله أنْ يرزقه الولد الصالح الذي يرث النبوة من بعده ، مع أنه بلغ من الكِبَر عتياً وامرأته عاقر ، وأيّ ذرية بعد هذا السِّن خاصةً إنْ كانت الزوجةَ عاقراً ؟ لكن ، إنْ كانت بقوانين الله ، فالأمر سهل ميسور .

واقرأ :﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ ﴾ [مريم]

إذن : لا تقسْ المسألة على قدرتك وقانونك ؛ لأن الفعل يُنسَب إلى الله ، لا إلى بشر .

كذلك سيدنا موسى - عليه السلام - لما تبعه فرعون بجنوده حتى حاصره وضيَّق عليه الخناق حتى قال أتباع موسى ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء] ولم لا والبحر من أمامهم وجنود فرعون من خلفهم ، فقال موسى قولةَ الواثق بربه وقدرته التي لا حدودَ لها ﴿ قَالَ كَلَّا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] يعني : لن يدركونا ، قالها بما لديه من رصيد الثقة بالله ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] فجاءه الفرج لتوِّه ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء]

رأى موسى طريقاً يابساً يشقُّ البحر ، فعبر هو وقومه إلى أن

أصبح فى الجانب الآخر ، فأراد أنْ يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى سيولته ، فلا يعبره فرعون ، لكن نهاه ربه ، فالمعجزة لم تنته بَعْد ، وما زال لها بقية ، والله تعالى قادر على أنْ يُنجى ويُهلك بَالشىء الواحد ، وظل الطريق اليابس على يبوسته حتى اَغترَّ به فرعون ، فعبره ليلحق بموسى ، ولما نزل آخر جندى من جنود فرعون أطبقَ اللهُ عليهم الماءَ ، وأعاده إلى سيولته ، فأغرق فرعونَ وجنوده ، هذه طلاقة القدرةِ التى لا تحدُّها حدود ، ولا تخضع للأسباب .

كذلك تأمل مسألة الخَلْق والتكاثر تجد جمهرة الناس جاءوا من ذكر وأنثى ، وهذه هى القاعدة ، لكن قدرة الله لا يُعجزها أنْ تأتى بالخَلْق فى كل مراحل القسمة العقلية المنطقية فى هذه المسألة ، فالخالق سبحانه خلق آدم بلا أب وبلا أم ، ثم خلق حواء من أب بلا أم ، وخلق عيسى من أم بلا أب . إذن : نقول الأمر هَيِّن يسير على الله ، وإنْ ظننْتَهُ أنت صعباً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ[1] سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ[2] وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

---

(١) الفرات : العَذْب . فقوله تعالى : ﴿ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [فاطر] فرات للتوكيد ، فهو عذب عذوبة بالغة . [القاموس القويم ٢/ ٧٤] .

(٢) الأجاج : الملح الشديد الملوحة . أجَّ الماء : اشتدت ملوحته . وقوله تعالى : ﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [فاطر] تأكيد لشدة ملوحته . [القاموس القويم ١/ ٧] .

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يُقرِّب لنا القضية العقلية القيمية فيعرضها لنا فى صورة حسية مُشاهدة ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ ﴿١٢﴾ ﴾[فاطر] وكأن الله يقول لنا : كما أن هناك أشياء حسية لا تستوى فى الحسِّ ، كذلك فى القيم أشياء لا تستوى .

معنى ﴿ الْبَحْرَانِ ﴿١٢﴾ ﴾[فاطر] البحر معروف ، وهو المتسع الذى يحوى الماء المالح ، وسُمِّى النهر أيضاً بَحْراً على سبيل التغليب ، والنهر يحوى الماء العذب ، فهما مختلفان لا يستويان ﴿ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴿١٢﴾ ﴾[فاطر] ﴿ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴿١٢﴾ ﴾[فاطر] إذن : هما وعاء لشىء واحد هو الماء ، فهما وإنِ اشتركا فى الشىء الواحد وهو الماء فهما مختلفان فى النوع :

هذا عذب ، وهذا مالح ، العَذْب وُصف بأنه ﴿ عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴿١٢﴾ ﴾[فاطر] أى : شديد العذوبة ﴿ سَائِغٌ شَرَابُهُ ﴿١٢﴾ ﴾[فاطر] سهل المرور فى الحلْق هنيئاً ، ووصف المالح بأنه ﴿ مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴿١٢﴾ ﴾[فاطر] شديد الملوحة .

وبين العَذْب والمالح عجائب فى التكوين ، ففيهما مثلاً تعيش الأسماك ونأكلها ، فلا نفرق بين سمك الماء المالح وسمك الماء العَذْب ؛ لأن الله أعدَّ الكائن الحى ليأخذ من الماء مقوِّمات حياته ، وينفى ما لا يريد ، مثل الشجرة تزرعها ، فتأخذ من الأرض العناصر اللازمة لها وتطرد ما لا تحتاج إليه .

ففى التربة الواحدة تزرع مثلاً شجرة (شطة) وعود القصب ، فتتغذى الشجرتان بنفس العناصر ، وتُسْقى بنفس الماء ، لكن يخرج الطَّعْم مختلفاً تماماً ، كما قال سبحانه : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ

وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد]

وهذه فطرة وغريزة جعلها الله فى كل الكائنات الحية ، أن تأخذ من الغذاء ما تحتاج إليه فقط ، ولما أراد العلماء أنْ يُقرِّبوا لنا عملية التغذية فى النبات قالوا : إنها تعتمد على خاصية الأنابيب الشعيرية ، فالشعيرات الجذرية تمتصُّ الماء والغذاء من التربة وتُوصِّله بهذه الخاصية إلى الساق والأوراق ، لكن فَاتَهُم أن الأنابيب الشعيرية تمتص الماء دون تفرقة ودون تمييز لعنصر دون عنصر ، ودون انتخاب لمادة دون أخرى . إذن : ليست هى الخاصية الشعيرية ، إنما هى الغريزة والفطرة الإلهية التى أودعها الله فى الكائن الحى .

والإنسان تطرأ عليه مسائل غريزية ، ومسائل عاطفية ، ومسائل عقلية : فالمسائل العاطفية مثل الحب أو البغض لا دخْلَ للتشريع فيها ؛ لأن الإنسان لا يملك التحكم فيها ، فأحببْ مَنْ شئتَ ، واكره مَنْ شئتَ ، لكن شريطة ألاَّ يُخرجك الحب أو الكُرْه عن حَدِّ الاعتدال إلى الظلم والتعدى ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ[1] شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ .. ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة]

كذلك المسائل الغريزية لا يتدخَّل فيها الشرع ، فالجوع والعطش مثلاً غرائز يعرفها المرء بنفسه وبالتجربة ، فأنت لا تُعلِّم ولدك الجوع أو العطش ، بل هو يعرفه بنفسه حين يجوع وحين يعطش .

لذلك عجيب الآن أنْ نسمع مَنْ ينادى بتعليم الأولاد والبنات فى

(١) أى : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل ، أى : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم . أى : اعدلوا دائماً فالعدل أقرب للتقوى . [القاموس القويم ١٢١/١] والشنآن : البغض والكره .

المدارس الأمور الجنسية ، ويريدون مادة جديدة تسمى (التربية الجنسية) يتعلَّمها الأطفال منذ الصِّغَر ، ونقول : سبحان الله متى يُسمح للصغار بتعلُّم الغرائز ، الغرائز لا تُعلم ، بل يعرفها الإنسان في وقتها المناسب .

ومن عجائب الخَلْق أن الماء العَذْب لا يختلط بالماء المالح ، كما قال سبحانه ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الرحمن] وهذا دليل إعجاز ، فالماء المالح في البحار والمحيطات الكبيرة دائماً ما نجد منسوب المياه فيها أقلَّ من منسوب مياه الأنهار ، ولو كان العكس لَطَغى الماء المالح على الأنهار وعلى اليابسة .

ومعنى ذلك أنْ تموت المزروعات وتفسد التربة ؛ لذلك شاءتْ حكمة الخالق سبحانه أن يكون منسوب الأنهار أعلى ، وأن يكون لها مَصبَّات تنتهي إلى البحار لتفرغ فيها الماء الزائد عن الحاجة .

وللخالق سبحانه حكمة في الماء العَذْب ليكون صالحاً للشرب ولسَقْي الزرع ويروي العطش ، أما المالح فالله يحفظه بنسبة الملوحة فيه حتى لا يفسد ويعطن ؛ لأن البحار والمحيطات هي مخازن الماء العَذْب ، فمنها يتبخر ماء المطر الذي تجري به الأنهار ، وتلحظ أن درجة الملوحة تختلف حسب طبيعة المكان ، فمثلاً تجد الماء في بحر البلطيق أقلَّ ملوحة ، لأنه مصبٌّ لعدة أنهار ، ويقع في منطقة كثيرة المطر ، وهذا كله يُقلِّل من مُلوحته .

أما البحر الميت مثلاً ، فهو أكثر البحار ملوحة ، لدرْجة أن الأسماك لا تعيش فيه ، والسبب أنه لا توجد أنهار تصبُّ فيه ، ويقع في منطقة حارة ، قليلة المطر ، فيكثر تبخُّر الماء منه ، أما بقية المياه الملتقية في البحار والمحيطات فتكاد ملوحتها تكون واحدة .

وسبق أنْ ذكرنا الحكمة من اتساع مساحة الماء المالح في البحار والمحيطات ، وقُلْنا : إن اتساع سطح الماء يزيد في نسبة البخر ليتوفر الماء العَذْب الصالح للريّ وللشرب ، ومثَّلْنا لهذه العملية بكوب الماء تتركه على المكتب لمدة شهر وتعود فتجده كما هو تقريباً ، أما إنْ سكبْتَهُ على أرض الحجرة فإنه يجفّ قبل أنْ تغادرها ، لماذا ؟ لأنك وسَّعت مساحة التبخر .

إذن : وسَّع اللهُ سطحَ الماء المالح ليعطينا المطر الكافي لاستمرار الحياة ، إذن : لا يُذَمُّ الماء المالح إنْ قُوبل بالعَذْب ؛ لأنه أصل وجوده.

لذلك قال الشاعر[1] في المدح :

أهدى لمجلسه الكَريم وإنَّما أهدى له ما حُزْت من نَعْمائهْ
كَالبَحْرِ يُمطِره السَّحَابُ ومَا لَهُ فَضْلٌ عليه لأنه مِنْ مَائِهْ

ومعلوم أن الماء في الكون له دورة معروفة ، قال الله فيها :
﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً (١) فَالْحَامِلاتِ وِقْراً (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً (٣) ﴾ [الذاريات]

فالماء الذي خلقه الله في الكون هو هو لا يزيد ولا ينقص ، فما يستهلكه الإنسان مثلاً من الماء يُخرجه على شكل فضلات وبول وعرق.. إلخ وما تبقَّى في جسمه من نسبة المائية وهي ٩٠ في المائة من وزنه تمتصها الأرض بعد موته ، كذلك الزرع والحيوان ، فهي إذن دورة معروفة مشاهدة ، كذلك فالحياة دورة فحين نقول لك : إن

---

(١) هذان البيتان من قول هبة الله الاسطرلابي ، وقد ذكرهما له ابن معصوم في كتابه « سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر » .

الله قادر على إعادتها فَخُذْ من المُشاهَد دليلاً على صدْق ما غاب .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمِن كُلٍّ ..(١٢) ﴾[فاطر] أى : من الماءيْن العذب والمالح ﴿ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا (١٢) ﴾[فاطر] والمراد السمك ، وهو فى الماء العَذْب كما فى الماء المالح ، والطَّعْم واحد ، ولم تجد مثلاً أسماك الماء المالح مالحة كالفسيخ مثلاً أو السردين ، ذلك لأن الكائن الحىَّ يمتصُّ ما يحتاج إليه ، ويترك العناصر الأخرى .

وكلمة ﴿ لَحْمًا طَرِيًّا (١٢) ﴾ [فاطر] إشارة إلى أن السمك ينبغى أنْ يُؤكل طرياً طازجاً ، فإن يبُسَ وخرج عن طراوته فلا تأكله ، وقد اشتهر عن العرب اللحمُ القديد ، حيث كانوا يُجفِّفون لحم الأنعام فى حَرِّ الشمس ويقددونه ليعيش فترة أطول ، فهى طريقة من طرق حفظ اللحوم تناسب لحوم الأنعام ، أما لحوم الأسماك فتفسد إنْ خرجتْ عن هذا الوصف ﴿ لَحْمًا طَرِيًّا.. (١٢) ﴾ [فاطر]

ثم يذكر الحق سبحانه نعمة أخرى من نعَم البحر :﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا (١٢) ﴾[فاطر] والحلية ما يُتزيَّن به من اللؤلؤ والمرجان وغيرهما مما يخرج من البحر ، وهذه زينة عامة للرجال وللنساء على خلاف حلية الذهب التى تحرم على الرجال ، فللرجل أنْ يتحلَّى بما يشاء من حلية البحر ، فلا نَهْى عن شىء منها ، وحتى حلية الذهب للنساء ، فإن المرأة تتحلى بها لمن ؟ للزوج .

﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ (١٢) ﴾[فاطر] أى : السفن فى البحر ﴿ مَوَاخِرَ (١٢) ﴾[فاطر] يعنى : تشقّ البحر شقّاً فى رحلات الصيد أو رحلات السفر ، وهنا مظهر من مظاهر الإعجاز القرآنى ، فالخطاب فى القرآن أول مُخَاطَب به سيدنا رسول الله ﷺ ، ثم تخاطب أمته من باطن خطابه ، ورسول الله ﷺ لم يركب البحر ولا رآه .

فحين يقول القرآن على لسانه : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤) ﴾[الرحمن] يعنى : كالجبال الشامخة . نقول : ومتى ظهرتْ السفن العملاقة التى تُوصَف بهذا الوصف ؟ إنها لم تظهر إلا فى العصر الحديث ، وكانت قَبْلُ سفناً عادية بدائية ، فمن الذى أخبر سيدنا رسول الله بهذا التقدم الجارى الآن فى صناعة السفن ، حتى إنه لَيُخيَّل لك أنها مدينة متحركة على أمواج البحر .

وقوله : ﴿ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ (١٢) ﴾[فاطر] تطلبوا رزق الله وفضل الله فى حركة السفن ، سواء كانت للصيد أو للسفر ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾[فاطر] كلمة لعل كما نعلم تدل على الرجاء ، والمعنى : لعلكم بعد كل هذه النعم تقابلونها بالشكر ، وفى هذا إشارة إلى قلَّة مَنْ يشكر .

بعد ذلك ينتقل بنا السياق إلى ظاهرة أخرى وآية من آيات الكون:

﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ (١٣) ﴾

صحيح أن الليل والنهار يتساويان فى بعض الأحايين ، لكن يطول الليلُ فى الشتاء فيأخذ جُزْءاً من النهار ، ويطول النهار فى الصيف فيأخذ جزءاً من الليل ، إذن طُول أحدهما نَقْص من الآخر ، هذا معنى ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ (١٣) ﴾[فاطر] يَعنى : يُدخِل هذا فى هذا .

وظاهرة إدخال الليل فى النهار وإدخال النهار فى الليل ناشئة من ميل المحور ، فالحق سبحانه كما وزَّع الماء وحفظه فى البحر الواسع ، كذلك وزَّع الحرارة ، فالشمس لولا وجود المحور المائل لاحترقتْ الجهة المقابلة للشمس وتجمدتْ الجهة الأخرى .

ومن عجائب الخلق أن الإنسان الذى يعيش عند القطب الشمالى أو القطب الجنوبى حرارته ٣٧° مثل الذى يعيش عند خط الاستواء ، لأن الجسم البشرى مبنىٌّ على هندسة خاصة تحفظ له حرارته المناسبة أيّاً كان ، بل تحفظ لكل عضو فيه حرارته التى تناسبه مع أن الأعضاء كلها فى جسم واحد ، والحرارة تُشِعُّ وتستطرق فى المكان كله .

عجيب أن الكبد مثلاً لا يؤدى وظيفته الطبيعية إلا فى درجة حرارة ٤٠°، والعين لا تزيد حرارتها عن ٧°، فمَنْ يمنع حرارة الكبد أن تستطرق فى الجسم كله وتصل إلى العين مثلاً ؟ إنه الخالق

﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) ﴾ [الأعلى]

وقوله سبحانه : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ (١٣) ﴾[القمر] يعنى : ذلَّلهما للإنسان ، وجعلهما فى خدمته دون قدرة له عليهما ، ودون إرادة منه ، فالشمس والقمر آيتان فى الهيكل العام للكون لا دَخْلَ للإنسان فيهما ، ولو كان له دَخْل لَفَسد أمرهما وما استقام ، وصدق الله :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١) ﴾ [المؤمنون]

فإنْ قُلْت : إفساد الإنسان فى الأرض أمر ممكن ، فكيف يكون إفساده للسماء ؟ قالوا : ألم يتمنَّ قوم أنْ تسقط السماءُ عليهم ، فقالوا ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا (٩٢) ﴾ [الإسراء] فلو اتبع

الحقُّ أهواءَ هؤلاء لَخَرِبَتْ الدنيا .

وهذه مسألة تكلمتْ فيها المدرسة الفلسفية فى ألمانيا أمام مدرسة أخرى ، وكان لهما رأيان متناقضان ، وهما فى عصر واحد ، وكل منهما تتخذ من رأيها دليلاً على الإلحاد وقولاً بعدم وجود إله ، وهذا عجيب .

فواحدة تقول : لا شذوذ فى العالم ، فهو يسير على قوانين مستقيمة أشبه ما تكون (بالميكانيكا) ، ولو كان لهذا الكون إله خالق لاختلف الخَلْق وحدث فيه شذوذ .

والأخرى تقول : إن الكون لا يسير على نظام ثابت ، بل يحدث فيه شذوذ فى الخَلْق ، بدليل أن البعض يُولَد مثلاً مُعوَّقاً ، ولو كان للعالم إله خالق لجاء الخَلْق واحداً مستوياً لا اختلافَ فيه .

سبحان الله ، فهم يريدون الإلحاد على أيِّ وجه ، فمزاجهم أنْ يلحدوا .

ونقول لهؤلاء : تعالوا نردّكم إلى الصواب وإلى كلمة سواء : يا مَنْ تريد شذوذ الأشياء دليلاً على وجود إله قادر الدليل موجود ، ويا مَنْ تريد ثبات الأشياء دليلاً على وجود إله حكيم الدليل موجود ، لكن الجهة مُنفكة ، كيف ؟

النظام الثابت الذى لا شذوذَ فيه موجود فى الكون العلوى الذى يسير على رتابة ونظام لا يتخلَّف ، فحركة الشمس والقمر والكواكب والأفلاك تسير كلها على نظام واحد لا يختلُّ أبداً ، والآن استطعنا مثلاً تحديد لحظة الكسوف والخسوف ، وفعلاً نشاهده فى وقته بالضبط .

إذن : إنْ أردتَ الثبات دليلاً فَخُذْه من الأفلاك العليا ؛ لأنها لا بُدَّ

أنْ تُبنى على نظام ثابت لا شذوذَ فيه ، وإلا لاَخْتلَّ الكون كله .

فإنْ كنت تريد الشذوذ فشاهده في الجزئيات ؛ لأن شذوذَ الجزئيات لا يؤثر على النظام العام للكون ؛ لذلك ترى : هذا سليم ، وهذا أعمى ، وهذا أعور .. إلخ . إذن : الثبات في موضعه لحكمة والشذوذ في موضعه لحكمة ، وهذا وذاك دليلان على وجود الإله الخالق القادر .

وقوله تعالى ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى ⑬ ﴾ [فاطر] أي : الشمس والقمر يجرى كل منهما إلى وقت معلوم يتم فيه فَنَاؤهما ونهايتهما ﴿ ذَلِكُمُ ⑬ ﴾[فاطر] أي : الذي فعل هذا وقدَّره ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ⑬ ﴾[فاطر] أي : العالم المحسّ المشَاهَد لك ، أما الذي لا تراه من مُلْك الله فهو عَالَم الملكوت ، وهو ما غاب عنك ، ولا تدركه حواسُّك .

لذلك لما نجح سيدنا إبراهيم في الابتلاء كما قال تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ⑫④ ﴾[البقرة] أعطاه الله منزلة عظيمة ، وأطلعه على الملكوت الذي غاب عن غيره ، فقال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ⑦⑤ ﴾[الانعام] وما يترتب من عالم المُلْك المشاهد لنا ناشيء عن عالم الملكوت الذي لا ندركه .

والحق سبحانه وتعالى يشير إلى هذا العالم – عالم الملكوت – في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ②⑨ ﴾ [الانفال]

كيف ، ونحن ما اتقينا الله إلا بالفرقان أي : بالقرآن ، فما معنى ﴿ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ②⑨ ﴾ [الانفال] ؟ قالوا : الفرقان هنا أن يُريك الله ملكوتَ السموات والأرض .

وقوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) ﴾ [فاطر] يعنى : إنْ كان الإله الحق خلق لكم كذا وكذا ، وسخَّر لكم الشمس والقمر ، فإن آلهتكم المدَّعاة المزعومة ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) ﴾ [فاطر] فما القطمير ؟

المتأمل فى القرآن الكريم يجده يُولى اهتماماً كبيراً للنخلة ، وأول ما خاطب خاطب العربَ ، وهم أول مَنْ وُوجهوا بالإسلام ودُعوا إليه ، فخاطبهم القرآن بما يناسبهم ، وذكر لهم أمثلة من بيئتهم ، والنخلة مشهورة فى البيئة العربية ، ولها فى ديننا منزلة ، حتى أنه نُسب إلى سيدنا رسول الله أنه قال « أكرموا عمتكم النخلة »[1]

وهذا القول وإن لم يصح عن رسول الله إلا أن الذى قاله لم يَقُلْهُ من فراغ ، ولا بُدَّ أن لهذا القول أصلاً ، وأن هناك صلة بين الإنسان والنخلة .

وقد صَحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها »[2]

فلما سمع عبد الله بن عمر هذا قال لأبيه : لقد وقع فى نفسى أنها النخلة ، لأنها لا يسقط ورقها ، وهى أشبه بالمؤمن ، فكل ما فيها نافع فبكَّر عمر إلى رسول الله ﷺ ، وقال : يا رسول الله ،

---

(١) تمام الحديث : « فإنها خلقت من فضلة طينة أبيكم آدم » أورده السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (ص١٠٧) حديث (٩٧) وعزاه لأبى يعلى وأبى نعيم عن ابن عباس وقال : ضعيف . قال ابن القيم فى زاد المعاد (٣/١٩٤) : « فى إسناده نظر » وانظر أيضاً (كشف الخفاء ١/١٩٥) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١) ، وتمامه « وإنها مثل المسلم ، فحدِّثونى ما هى ؟ فوقع الناس فى شجر البوادى . قال عبد الله بن عمر : ووقع فى نفسى أنها النخلة ، فاستحييت ، ثم قالوا : حدِّثنا ما هى يا رسول الله ؟ قال : هى النخلة » .

إن ابنى عبد الله قال عن الشجرة التى ذكرتَ أنها النخلة . فقال : صدق ، فقال عمر : فوالله ما يسرنى أنْ يكون لى بها حُمر النعم ، يعنى : فرح أن يفهم ابنه[1] مقالة رسول الله .

وقد حاول العلماء تقريب هذه الحقيقة إلى الأذهان وإثبات النسب بين الإنسان والنخلة ، وأنها ربما تكون قد خُلِقَتْ من بقية طينة سيدنا آدم ، فقالوا : إن رائحة طلع النخلة الذى يتم به التلقيح هى نفس رائحة المنىِّ عند الإنسان ، وهذا يرجح صدْق قول مَنْ قال إنها عمَّتنا .

وفى خَلْق النخلة على هذه الصورة عجائب وأسرار ، ويكفى أن كل ما فيها نافع ، ولا يُرْمى منها شىء ، وقد جعلها الله موضعاً للمثَل والعبرة ، فلما حدَّثَ العرب عن الهلال ، قال : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) ﴾ [يس]

والعرجون هو السُّبَاطة التى تحمل البلح حين تيبس تلتوى وتتقوَّس ، فقرَّب لهم الأعلى بذكْر الأدنى المعروف لهم .

خُذْ مثلاً نواة التمرة ، وهى أهون ما يكون ، إلا أن الله تعالى كرَّمها حين ذكر منها ثلاثة أجزاء جعلها أمثالاً توضيحية . ذكر القطمير الذى معنا فى هذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) ﴾[فاطر] وهو الغشاء الشفاف الذى يحيط بالنواة ، ونجد مثله بين بياض البيضة وقشرتها .

وذكر النقير فى قوله سبحانه : ﴿ فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ

---

(١) أخرج هذه الرواية البخارى فى صحيحه (١٣١) ، وفيها أن ابن عمر قال : فحدثت أبى بما وقع فى نفسى ، فقال : لأن تكون قلتها أحب إلىَّ من أن يكون لى كذا وكذا .

نَقِيراً (١٢٤)﴾[النساء] والنقير تجويف صغير ، أو نقرة فى ظهر النواة .

وذكر الفتيل فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧)﴾[النساء] والفتيل خيط أبيض تجده فى بطن النواة ، وهذه الثلاث : القطمير والنقير والفتيل تُضرب مثلاً للشىء اليسير المتناهى فى القلة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾

قوله ﴿إِن تَدْعُوهُمْ (١٤)﴾[فاطر] الدعاء هنا معناه العبادة ، فقد كان الواحد منهم يقف أمام صنمه يدعوه ويتوسل إليه ويكلمه .. الخ ، لكن هيهات فهذا حجر لا يسمع ، فدعاؤه غباء فضلاً عن كونه كفراً ، ومعنى ﴿لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ (١٤)﴾[فاطر] أى : الآلهة التى لا تعقل ولا تسمع ، كالشجر والحجر وغيره .

لكن ، لماذا عبد الكفار الأصنام مثلاً ، وهم يعلمون أنها حجارة نحتوها بأيديهم ، ويرونَ أن هبَّة الريح تُوقع معبودهم ، وتُلقيه على الأرض ، وتكسر ذراعه ، فيحتاج إلى مَنْ يصلحها ، شىء عجيب أنْ تُعبد الأصنام من دون الله ، لكن السبب هو فطرة التدين فى النفس البشرية .

فكل إنسان بطبعه يحب التدين ، وآفة التدين أن له مطلوبات ، فما

المانع أنْ يذهب الإنسانُ إلى تدين يرضى هذه الفطرة ، ومع ذلك لا مطلوبات له ، من هنا عُبدت الأصنام ، وعُبدت الكواكب والأشجار وجُعلَت آلهة .

ومعنى العبادة : أنْ يطيع العابد أمر معبوده وينتهى عن نَهْيه ، فإذا لم يكن هناك أمر ولا نهى ، فالعبادة ساقطة باطلة ؛ لأنك تعبد إلهاً بلا منهج ، وإلا فيماذا أمرتهم هذه الآلهة وعَمَّ نَهَتْهم ؟ ماذا أعدَّتْ لمن عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ لمن كفر بها ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر] أى : على فرض أنهم عبدوا بشراً يسمعهم ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر] يعنى : ما وافقوا على عبادتكم لهم ، ولرفضوا أن يكونوا آلهة . ومثال ذلك : الذين عبدوا عيسى عليه السلام من دون الله .

وقد تناول الشاعر هذه المسألة حين تخيَّل أن غار ثور يَغَار من غار حراء ؛ لأن النبى ﷺ جعله مكاناً للخَلْوة وللتعبُّد ، وفيه نزل عليه أول الوحى ، فلما نزل النبى ﷺ فى هجرته بغار ثور فرح ثور ، ورأى أن الرءوس قد تساوتْ ، فحراء لبعثة رسول الله ، وثور لهجرته ، التى كانت منطلقاً للدعوة .

يقول الشاعر(١) :

كَمْ حَسَدْنَا حراءَ حين تَرَى ... الرُّوحَ أميناً يَغْذُوكَ بالأنْوارِ
فَحراءٌ وثَوْرٌ صَارَا سَواءً ... بِهِما اشْفَعْ لأمَّةِ الأحْجارِ
عَبَدُونَا ونحْنُ أعْبَدُ لله ... مِنَ القائمين بالأسْحَارِ

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

تَخِذُوا صَمْتنا عَلَيْنَا دَليلاً فَغَدوْنَا لهم وَقُودَ النَّارِ
قَدْ تجنَّوْا جَهْلاً كمَا قَدْ تجنَّوْه عَلَى ابْنِ مريمَ والحوَارِى
لِلْمغَالى جَزَاؤهُ والمغَالَى فيه تُنجيه رحمةُ الغَفَّارِ

فالحجر ذاته يأبى أنْ يُعبد من دون الله ، ويعلم فى حقيقته قضية التوحيد ، ويخِرُّ لله مُسبِّحاً ، فما بالك بالبشر ؟

لذلك سنرى فى موقف القيامة العجب من المعارك والمناقشات بين العابد والمعبود ، والتابع والمتبوع ، يقول تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [البقرة] وقال حكايةً عن الذين ضلُّوا : ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فصلت]

وهنا يقول سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر] أى : هؤلاء الذين توجهتم إليهم بالعبادة واتخذتموهم آلهة سيتبرأون منكم ومن شرككم ﴿ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر] أى : عالم ببواطن الأمور ، وكأن الله تعالى يقول لك : أنا أخبرك بما سيكون فى المستقبل فَخُذْ من صدقى فيما مضى دليلاً على صدقى فيما هو آتٍ ، ومن صدقى فيما تشاهد دليلاً على صدْقى فيما غاب عنك .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾

النداء في ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ ﴿١٥﴾ ﴾[فاطر] نداء عام للناس جميعاً ، المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ﴿ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر] هذه حقيقة يُذل الله بها كبرياء الذين تأبَّوْا على الإيمان بالله ، وتمردوا على منهج الله ، وكأن الله تعالى يقول لهم : ما دُمْتم قد أَلِفْتم التمرد فتمردوا أيضاً على الفقر إنْ أفقرتُكم ، وعلى المرض إنْ نزل بكم ، تمردوا على الموت إن حان أجلكم ، إذن : أنتم مقهورون لربوبية الله ، لا تنفكون عنها .

﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾[فاطر] أي : الغنَى المطلق ، ومعنى ﴿ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾[فاطر] أي : المحمود كثيراً ، والغنى لا يُحمد إلا إنْ أعطى ، وكان عطاؤه سابغاً ، فالغنى الممسك لا يُحمد بل يُذَم .

ثم يُذكِّرهم الحق سبحانه بحقيقة أخرى غابت عنهم ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ﴾[فاطر] كما قال في موضع آخر : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾ ﴾[محمد] ومعنى : خلق جديد : الشيء الجديد هو قريب العهد بالعمل فيه ، مثل الثوب الجديد يعني الذي فُرِغ من خياطته ولم يُلْبَس بعد .

وإعادة الخَلْق أو الإتيان بخَلْق جديد أمر هيِّن على الله ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾[فاطر] يعني : ليس صعباً ، لكن الحق سبحانه يريد أنْ يأتي له الخَلْق طواعية ، ويؤمنون به سبحانه ، وهم قادرون على الكفر ولهم مُطْلَق الاختيار ، وهذا الاختيار موطن العظمة في دين الله .

وسبق أنْ مثَّلنا هذه القضية بأنه لو أن لك عبدين أمسكتَ الأول

إليك بسلسلة ، وتركتَ الآخر حراً ، وإنْ ناديتَ على أحدهما لبَّى وأجاب ، فأيهما يُعَدُّ الأطوع لك . كذلك الحق سبحانه يريدنا طائعين عن رضا وعن اختيار ، لا عن قهر وكراهية ، فالله سبحانه كما قلنا لا يريد قوالبَ تخضع ، إنما يريد قلوباً تخشع .

والإتيان بخَلْق جديد أمر هَيِّن يسير على الله تعالى ؛ لأن الله تعالى لا يخلق بعلاج ، وإنما يخلق بكُنْ فيكون ، وهذا من الله تعالى لا يحتاج إلى زمن .

ولو أردتَ أن تستقصى هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾[يس] تجد أن الشيء فى الحقيقة موجود بالفعل ، لكن فى عالم الغيب والأمر ، له أن يظهر لنا فى عالم الواقع ؛ لذلك لما سُئِلَ أحد العارفين قال : أمور يبديها ، ولا يبتديها.

وتلحظ فى قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾[فاطر] ذكر ضمير الفصل (هو) فلم يَقُلْ الحق سبحانه : والله الغنى ، وهذا الضمير أفاد توكيد الخبر وقصر الغنَى على الله سبحانه وتعالى ، لذلك قلنا : إن هذا الضمير لا يأتى إلا فى المواضع التى تحتمل شبهة المشاركة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء]

فجاء هنا بضمير الغائب (هو) لأن الهداية والإطعام والسُّقْيا والشفاء من المرض كلها مظنة أنْ يشاركه فيها أحد من الخلْق ، أما فى الحديث عن الموت فقال : ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ [الشعراء] ولم يأتِ هنا بضمير الغائب ؛ لأن الموت والإحياء لله وحده ، ولا

شبهةَ فيهما ، ولم يدَّعِهما أحد لنفسه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝١٨ ﴾

معنى ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ ۝١٨ ﴾ [فاطر] لا تحمل نفس آثمة ﴿ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝١٨ ﴾[فاطر] حِمْل نفس أخرى ؛ لأنها هى الأخرى مُثْقَلة بحمْلها ، والوزر هو الحِمْل الثقيل الذى لا يطيقه الظهر ، ومنه قوله تعالى فى مسألة الوحى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ ﴾ [الشرح] يعنى : أتعبك نتيجة التقاء الملائكية بالبشرية .

لذلك كان ﷺ يتفصَّد جبينه عرقاً من لقاء جبريل ، وهو الذى قال مُصوِّراً هذا اللقاء : « ضمَّنى حتى بلغ منى الجهد »[1] وعاد إلى أهله يقول : زملونى زملونى ، دثرونى دثرونى . ومع هذا كله لما فتر الوحى اشتاق إليه وتمناه أنْ يجىء ، لأنه ذاق حلاوته ، وحلاوة الشىء تُنسيك ما تلاقيه من المتاعب فى سبيله .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) كتاب بدء الوحى من حديث عائشة رضى الله عنها فى حديث طويل . والغطُّ : حبس النفس . وفى رواية الطبرى « فغتنى » كأنه أراد ضمنى وعصرنى ، قاله ابن حجر فى فتح البارى (١/ ٢٤) .

والمعنى : لا تحمل وزر وذنب نفس أخرى مُثْقَلة بالذنوب والآثام ، وقد شرح الحق لنا هذا المعنى في قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾ [عبس] فكلٌّ مشغول بنفسه ، مُرْتَهَنٌ بعمله ، لا وقت للمجاملة ؛ لذلك يقول الوالد لولده : يا بُنى حِمْلى ثقيل عليَّ ، فخُذْ عنى شيئاً منه . فيقول الولد : حسبى حِمْلى يا أبى .

كذلك هنا ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا (١٨) ﴾[فاطر] أى : نفسى مُثْقَلة بالآثام تطلب مَنْ يحمل عنها شيئاً من ذنوبها ولكن هيهات ﴿ لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ (١٨) ﴾ [فاطر] أى : لو كان هذا النداء لأقرب الناس إليها ما أجاب وما حمل عنها ، وكيف تحمل نفسٌ وِزْر نفس أخرى ، وهى مشغولة بحِمْلها مثقلة به ؟

لذلك يُكذِّب الحق سبحانه قَوْل الذين كفروا حين يتعرَّضون لحمل خطايا أتباعهم ، فيقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾ [العنكبوت]

إذن : هذه مسألة واضحة ، فكلٌّ مشغول بنفسه ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) ﴾ [المدثر]

فالإنسان فى الدنيا مرتبط إما بقرابة لها حقوق عليه ، وإما بإخوان وأصدقاء ، وإما بمنقذ يستنجد به ، وإنْ لم يكن قريباً ولا صديقاً ، لكن يوم القيامة ستنحلُّ كل هذه العُرَى ؛ لأن الموقف لا يحتمل المجاملات ولا التضحيات .

لذلك لما سمعتْ السيدة عائشة رضى الله عنها سيدنا رسول الله وهو يُحدِّثهم عن القيامة ، ويذكر أن الشمس تدنو من الرؤوس والخَلْق يقفون عرايا ، استاءتْ وسألت رسول الله : كيف يقف الناس عرايا ينظر بعضهم إلى عورة بعض ؟ فأجابها رسول الله أن كل امرىء مشغول بنفسه ، وأن الأمر أعظم من أنْ ينظر أحد لعورة أحد فى هذا الموقف[1] .

ثم يقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر] يعنى : إنذارك يا محمد وتحذيرك لا ينفع إلا الذين يخشون ربهم بالغيب ، أما الآخرون فقد ظلموا أنفسهم حين حرموها الخير الكثير الذى أراده الله لهم ، ظلموها حين غرَّتهم الدنيا بنعيمها الفانى ، وشغلتهم عن نعيم الآخرة الباقى الدائم .

والإنذار : التخويف من شَرٍّ قبل أوانه لتتوقَّاه ، والفرصة سانحة قبل أنْ يداهمك ، فأنت مثلاً حين تريد أنْ تحثَّ ولدك على المذاكرة وتحذره من الإهمال الذى يؤدى إلى الفشل لا تقول له هذا ليلة الامتحان ، إنما قبله بوقت كافٍ ليتدارك أمره ، ويصحح ما عنده من قصور أو إهمال .

والإنذار والتخويف لا يُجدى إلا مع مَنْ يؤمن بما تُخوِّفه به ، فحين ينذر رسول الله بعذاب الآخرة لا ينتفع بهذا الإنذار إلا مَنْ يؤمن بالله ويؤمن بالقيامة .

ومعنى ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر] الخشية هى الخوف ، لكن بحب

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٥٣) من حديث عائشة أن النبى ﷺ قال : « إنكم تحشرون يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً . قالت عائشة : يا رسول الله ، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض . قال : يا عائشة ، إن الأمر أشد من أن يهمهم ذلك » .

وتوقير ، لا خوف بكراهية ، فأنت تخاف مثلاً من بطش جبار ظالم ، لكن تخافه وأنت كاره له ، إنما خَوْفك من الله خَوْف ناتج عن حب وتوقير ، لذلك يصحب هذا الخوف رجاء وطمع فى رحمته تعالى ، فأنت تسير فى رحلة حياتك بجناحين : خوف من العذاب ، ورجاء فى الرحمة .

والإنسان ينبغى ألاَّ ينظر إلى الفعل فى ذاته ، بل ينظر إلى الفعل وإلى قابل ، فقد يكون الفعل واحداً لكن يختلف مستقبل الفعل ، فالقرآن مثلاً سمعه قوم[1] عند رسول الله ، فحكى الله عنهم : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد]

فى حين سمعه آخر[2] فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة[3] ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه .

وسمعه عمر فَلاَنَ قلبه له ورَقَّ فأسلم ، فالقرآن واحد ، لكن

---

(١) المقصود بهم المنافقون . ذكره السيوطى فى أسباب النزول للسيوطى (ص ١٥٤) وابن كثير فى تفسيره (٤/١٧٧).

(٢) هو الوليد بن المغيرة ، وقد اجتمع إليه نفر من قريش ليحددوا وصفاً للقرآن ليجتمع رأيهم فى رأى واحد حتى لا يختلفوا أمام الناس الوافدين عليهم فى موسم الحج . فقال بعضهم : هو كاهن . فقال الوليد : ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . وقال بعضهم : مجنون . فقال الوليد : لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . وقال بعضهم : شاعر . فقال الوليد : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه فما هو بالشعر . ثم قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لغدق ، وإن فرعه لجناة . [ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية ١/٢٨٣ ، ٢٨٤] .

(٣) الطلاوة : الرونق والحُسْن . [لسان العرب - مادة : طلى] .

فَرْق بين مَنْ يسمعه وهو له كاره ، فيغلق عليه وبين مَنْ يستقبله بقلب وَاعٍ مفتوح لإشراقات القرآن وتجلياته .

ألاَ ترى أن الحديد يستجيب لك حين تطرقه وهو ساخن ، فيصير كالعجينة في يدك ، أما إنْ طرقْته وهو بارد فإنه لا يتفاعل معك ، كذلك قلنا مثلاً : إنك في اليوم البارد تنفخ في يدك لتشعر بالدفء ، وتنفخ أيضاً في كوب الشاي مثلاً لتبرده ، فكيف تجتمع هذه المتضادات لفعل واحد ؟ نقول : لأن الفاعل وإنْ كان واحداً إلا أن المستقبل للفعل مختلف .

كذلك إنذاره ﷺ إنذار واحد ، لكن استقبله قوم بخضوع ورغبة في الهداية فآمنوا ، واستقبله قوم بعناد وإصرار فلم يستفيدوا منه ولم ينتفعوا بثمرته .

وقوله ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ⑱ ﴾ [فاطر] دلتْ على أن الإيمان اكتمل في نفوس هؤلاء اكتمالاً يستوي فيه مشهد الحكم بغيبه . ومن ذلك قول الإمام علي رضي الله عنه : لو انكشف عني الحجاب ما ازددتُ يقيناً .

ولما سأل سيدنا رسول الله ﷺ أبا ذر : « كيف أصبحتَ يا أبا ذر؟ » قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، قال : « فإن لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » قال : عزفَتْ نفسي عن الدنيا ، حتى استوى عندي ذهبها ومدرها ، وكأنِّي أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار في النار يُعذَّبون ، فقال له رسول الله : « عرفتَ فالزم »[1] .

---

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/٥٧) وعزاه للطبراني في معجمه الكبير من حديث الحارث بن مالك الأنصاري وليس أبا ذر ، وقد عزا ابن حجر العسقلاني الحديث لابن المبارك في الزهد ، وذلك في « الإصابة في تمييز الصحابة » (١/٣٤٣) .

ثم يذكر الحق سبحانه صفة أخرى للذين استجابوا لإنذار رسول الله وانتفعوا به : ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ ⑱ ﴾[فاطر] فهم مع خشيتهم لله خشية أوصلتهم إلى إيمان يستوى فيه الغيب بالمشاهدة ، هم أيضاً يقيمون الصلاة أى : يؤدونها على أكمل وجه ، والصلاة كما ذكرنا هى العبادة الوحيدة التى لا تسقط عن المكلَّف بحال ، فقد يطرأ عليك ما يُسقط الزكاة أو ما يُسقط الصيام أو الحج فلم تَبْقَ إلا شهادة ألاَّ إله إلا الله محمد رسول الله . وهذه يكفى أنْ تقولها ولو مرة واحدة .

أما الصلاة فهى العبادة الوحيدة الملازمة للمسلم ؛ لأن الصلاة فى حقيقتها استدامة الولاء لله تعالى ، فَرَبُّك يدعوك إلى لقائه خمس مرات فى اليوم والليلة يناديك لتعرض الصنعة على صانعها ، وما بالك بصنعة تُعرض على صانعها خمس مرات فى اليوم والليلة ؟ أيكون بها عَطَب بعد ذلك ؟

أما إذا أردتَ مقابلة عظيم من عظماء الدنيا فَدُونه أبواب وحُرَّاس ومواعيد وإجراءات صارمة ، ولا تملك أنت من عناصر هذا اللقاء شيئاً ، بل يحدد لك الموعد والموضوع وحتى ما تقوله ، إنك تستأذن فى أوله ولا تملك الانصراف فى آخره .

أما لقاؤك بربك فخلاف ذلك ، ففى يدك أنت كل عناصر اللقاء ، فأنت تبدؤه متى تحب ، وتنهيه كما تحب ، وتناجى ربك فيه بما تريد، تبثُّه شكواك ، وتعرض عليه حاجتك ، فيسمع ويجيب .

وبعد أنْ ذكر الحق سبحانه هذه العبارة الدائمة يقرر هذه الحقيقة ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ⑱ ﴾[فاطر] يعنى : عبادتك عائدة إليك أنت لا ينتفع الله تعالى منها بشىء ، فهو سبحانه لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين .

فهو سبحانه غنى عنَّا ، ونحن بعبادتنا لله لم نزده سبحانه صفة كمال لم تكن له ؛ لأنه بصفة الكمال أوجدنا وبصفة الكمال كلَّفنا . لذلك جاء في الحديث القدسي : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجِنَّكم ، وشاهدكم وغائبكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في مُلكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجِنَّكم وشاهدكم وغائبكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من مُلكى شيئاً ، ذلك أنِّى جوَاد ماجد واجد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردته أنْ أقول له كن فيكون»[1] .

إذن : نحن صَنْعة الله ، وما رأينا صانعاً يعمد إلى صَنْعته فيحطمها أو يعيبها ، إنما يصلحها ويُهذِّبها ويعتنى بها ، حتى إنْ أصابك عطب أو إيلام فاعلم أنه في النهاية لصالحك .

﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ⑱ ﴾ [فاطر] يعنى : المرجع والمنقلب يوم القيامة ليفصل بين الخصوم ، ولينال كل ما يستحق ، فمَنْ أفلت من العقاب في الدنيا فهناك مصير سيرجع إليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ⑲ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ⑳ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ㉑ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ㉒ ﴾

---

(١) أخرجه الترمذى في سننه (٢٤٩٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه ، وقال : حديث حسن ، وكذا أخرجه أحمد في مسنده (٥/٧٧ ، ١٥٤) وابن ماجه في سننه (٤٢٥٧).

هذه حقائق يقررها الحق سبحانه ، فالمتناقضان لا يستويان ، لأن الأعمى لا يعرف مواقع الأشياء من حركته ، والبصير يعرف مواقع الأشياء من حركته ، البصير يرى مواقع الأشياء ويتفادى الأخطار ، أما الأعمى فلا بُدَّ له من مرافق يتطوع بصداقة عينه السليمة للعين الغائبة ، لذلك نقول : إنْ أعطى الأعمى للعمى حقه صار مبصراً ، كيف ؟ لأنه لا يتكبر أن يستعين بالمبصر ، فحين ينادى على مَنْ يأخذ بيده تتسابق إليه كل العيون من حوله لتساعده ، أما إنْ تعالى فسرعان ما (يندب) على وجهه .

والعمى والبصر حسِّيات توضح المعنوى ، فالمراد لا يستوى الجاهل والعالم ؛ لأن حَركة الحياة تنقسم إلى حركة مادية : تأتى وتذهب ، تزرع وتقلع .. إلخ وحركة قيمية معنوية ، وهى الروحانيات والأخلاقيات العالية ، مثل معانى : الإيمان ، الصدق ، الوفاء ، العدل ، الرحمة .. الخ .

وإذا كانت الحركة المادية الحسية تحتاج إلى نور حسىٍّ يهديك حتّى لا تصطدم بما هو أقوى منك فيحطمك ، أو بما هو أضعف منك فتحطمه ، فكذلك الحركة القيمية المعنوية الروحية تحتاج إلى نور معنوى يهدى خُطَاك كى لا تضلّ ، هذا النور المعنوى هو المنهج الذى قال الله فيه :

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾

[المائدة]

فالشمس هى النور الحسى ، والقرآن هو النور المعنوى ؛ لذلك قلنا فى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (٣٥) ﴾ [النور] أى : مُنوِّرهما بالنُّوريْن.

الحق سبحانه سبق أنْ ذكر لنا التقابل بين الماءيْن العذب والمالح ، فقال سبحانه : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴿١٢﴾ ﴾[فاطر] نعم ، لا يستويان ، لكن العلاقة بينهما علاقة تقابل كالليل والنهار ، لا علاقة تضادٌ كالأعمى والبصير ، بدليل أن الله جمعهما معاً ، فقال : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴿١٢﴾ ﴾[فاطر] فإن اختلف المتقابلان ، فلكل منهما مهمة يؤديها ، فهما متساندان لا متعاندان .

وبعد أن ذكر الحق سبحانه عدم استواء الأعمى والبصير يقول : ﴿ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [فاطر] ، لأن النور هو مصدر الإبصار فالمبصر لا يرى شيئاً فى الظلمة .

هذا فى العمى والبصر الحسى ، أما القيم والمعنويات فلها مقياس آخر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج] ، فقد يكون الرجل مبصراً وهو أعمى بصيرة . والأعمى فى المعنويات هو الذى يجهل الحكم الذى يهديه إلى منطقة الحق فى كل القيم ، والبصير هو العالم بهذه الأحكام .

وحين تتأمل أسلوب هاتين الآيتين . تجد فيهما ملمحاً من ملامح الإعجاز فى كلام الله ، فالأولى ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ ﴾ [فاطر] قرنت بين الاثنين باستخدام واو العطف ، أما الأخرى ﴿ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [فاطر] فذكرت (لا) النافية الدالة على توكيد عدم الاستواء ، فلم يَقُل الحق سبحانه كما فى الأولى : ولا الظلمات والنور ، لماذا ؟

قالوا : لأن العمى والبصر صفتان قد تجتمعان فى الشخص الواحد ، فقد يكون أعمى اليوم ويبصر غداً ، قد يكون جاهلاً ويتعلم ، أو كافراً ويؤمن ، فيطرأ عليه الوصفان ؛ لذلك لم يؤكد معنى عدم الاستواء ، أما الظلمات والنور فهما متقابلان لا يجتمعان .

كما تلحظ فى دقة الأداء القرآنى ؛ لأن الحق سبحانه هو المتكلم ، فقال : ﴿ وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ ⟨٢٠⟩ ﴾[فاطر] فالظلمات جمع والنور مفرد ؛ لأن مذاهب الضلال شتى ، فهذا يعبد النجوم ، وهذا يعبد الأصنام ، وهذا يعبد الملائكة .. الخ . أما النور فواحد ، هو منهج الله المنزل فى كتابه .

لذلك لما أراد سيدنا رسول الله ﷺ أن يُعلِّم أصحابه هذا الدرس خَطَّ لهم خطاً مستقيماً ، ومن حوله خطوط متعرجة ، ثم تلا : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ⟨١٥٣⟩ ﴾ [الأنعام]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ ⟨٢١⟩ ﴾ [فاطر] وهما أيضاً متقابلان لا يجتمعان ، كذلك ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ ⟨٢٢⟩ ﴾[فاطر] وتلحظ هنا أن الحق سبحانه أعاد ذكر الفعل المنفى﴿ وَمَا يَسْتَوِي ⟨٢٢⟩ ﴾[فاطر] لتأكيد عدم الاستواء بين الحى والميت .

وكذلك ذكر (لا) النافية الدالة على التوكيد ؛ لأن كلمة الأحياء تعنى المؤمنين الإيمانَ الحق ، الذين يستحقون حياة أبدية باقية تتصل بحياتهم الدنيوية الفانية ، أما الأموات فهم الكفار الذين تأبَّوْا على منهج الله . أو : أن الأحياء هم الذين عرفوا أن الحياة الحقة هى العيش بمنهج ربهم الذى يؤدى بهم إلى الحياة الحقيقية الباقية التى قال الله عنها :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ⟨٦٤⟩ ﴾ [العنكبوت]

وهذه هى الحياة المرادة فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال] كيف وهو يخاطبهم وهم أحياء بالفعل ؟ إذن : المعنى يُحييكم الحياة الحقيقية التى لا تنتهى بموت ، ولا تُسلب منها نعمة .

ومن ذلك أيضاً قوله سبحانه : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا .. ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام]

ومن المعانى التى نفهمها من عدم استواء الأحياء والأموات أن الحىَّ خلقه الله وأمدَّه بأجهزة نفسية : عقلاً ، وأعصاباً ، وعضلات ، وسمعاً وبصراً .. الخ وهذه الأعضاء لها قيمة ، ولها مهمة ، وعليه أنْ يستخدم هذه النعم استخداماً يجعلها وسائل لنِعَم أخرى ، ثم ليعلم أنه فى رحلة حياته لا بُدَّ أنه سيموت ، لكن ربه عز وجل أبهم له أجله ليكون ذلك عَيْن البيان ، وليظل على ذكْر له طوال الوقت وينتظره فى كل لحظة ، فعمرك محسوب بعدٍّ تنازلى ، وسهم الموت أُطلق فى اتجاهك بالفعل ، وعمرك بقدر وصوله إليك .

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن الحال فى التكليفات فقال : لا يستوى الأعمى الجاهل بأصول دينه والبصير العالم بها ، ولا يستوى نور الإيمان والهداية مع ظلمات الضلال ، يتكلم سبحانه عن المآل ، فيقول : ﴿ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ ﴾[فاطر] الظل كناية عن نعيم الجنة ، وفى موضع آخر قال : ﴿ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴿٥٧﴾ ﴾ [النساء] والحَرُور كناية عن العذاب وشدة حَرِّه .

ثم يقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ ومُسلِّياً له : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [فاطر] النبى ﷺ جاء على كفر

وجهالة من قومه ، فكانت دعوته أنْ يخرجهم من العمى والجهالة إلى ما ينير بصائرهم ويُخرجهم من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان .

وقد كان ﷺ شديد الحرص على هداية قومه يكاد يُهلك نفسه في سبيل دعوته ؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

كذلك هنا يخاطبه بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ﴿٢٢﴾ ﴾[فاطر] أي سماع هداية وإقبال ، وإلا فَهُمْ جميعاً يسمعون ، لكن هناك سماعُ إعراض وسماعُ إقبال ، منهم مَنْ يقبل ويؤمن ويتأثر بكلام الله ، ومنهم مَنْ يسمع ثم يُعرض وينصرف عما سمع ؛ لذلك قال الله فيهم : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنفال]

إذن : يا محمد ، لقد أديتَ ما عليك نحوهم ، وخاطبتَهم خطابَ هداية ، وخطابَ تهديد ووعيد ، فلم يسمعوا ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [فاطر] فجعلهم الله لعدم سماعهم كالأموات ، وإلا فرسول الله خاطب أهل قليب بدر من الكفار حين وقف عليهم وناداهم بأسمائهم : « يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، يا أبا جهل أليس وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإنَّا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً » .

فقال عمر : أتكلمهم وقد جيَّفوا ؟ قال ﷺ : « والله ، ما أنتم بأسمعَ منهم ، ولكنهم لا يتكلمون »[1]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٧٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، وفيه أن عمر رضي الله عنه قال : يا رسول الله ، كيف يسمعون وأنَّى يجيبون وقد جيَّفوا ؟ فقال ﷺ : « والذي نفسي بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا » . ثم أمر بهم فسُحبوا ، فألقوا في قليب بدر .

فالمعنى : ما أنت بمسمع السماع المؤدى إلى الهداية ، كما أنك لا تُسمِع مَنْ فى القبور ؛ لأن زمن السماع وقبول الهداية انتهى بالموت.

لكن إذا كان رسول الله لا يُسمع مَنْ فى القبور ، فما مهمته ؟ يقول سبحانه بعدها :

﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

إنْ هنا بمعنى ما النافية : ما أنت إلا نذير أى : مُحذِّر من المعصية ومن العذاب ، وكأن الحق سبحانه يريد أن يُخفِّف عن رسوله ، فيحدد له هذه المهمة فحسب ، وليس له أنْ يزيد عليها بما يشقُّ عليه حتى يكاد يُهلك نفسه ، فيقول له : مهمتك فقط الإنذار ، أما الهداية فمن الله فأرحْ نفسك ، فلو أرادهم الله جميعاً مؤمنين لجاءوا طائعين مُسخَّرين كغيرهم من المخلوقات .

﴿ لعلَّك بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

الحق : هو الشيء الثابت الذى لا يتغير ، والله تعالى يضرب لنا مثلاً حسياً لتوضيح الحق والباطل ، فيقول سبحانه : ﴿ أنزلَ من السَّماء مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا

مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

وقد ترجمنا هذه العلاقة بين الحق والباطل ترجمة عصرية فقلنا : لا يصح إلا الصحيح ، نعم لأن الباطل وإنْ أخذ صورة الحق مرة بعض الوقت ، فهو كالزَّبَد الذى سرعان ما تزيحه الرياح لتكشف وجه الحقيقة الناصع والحق الواضح .

وقوله تعالى لنبيه : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ (٢٤) ﴾ [فاطر] يدل على أنه الرسول الخاتم الذى لا رسول ولا نبى بعده يغير شيئاً مما جاء به ، فالنبى جاء بالحق الثابت الذى لا يتغير أبداً ، ولا يستدرك عليه أحد بعده . لذلك فإن آفة البشرية الآن أنها تحكم العصر وتطور الأوضاع فى الحكم على المخالفات الشرعية ، فحين نتعرض لمخالفة نسمع مَنْ يقول إنه التطور الذى لا بُدَّ منه ، وهؤلاء هم دعاة (عَصْرنة) الدين ، يعنى تطويع الدين ليلائم العصر .

وهذا يعني أن تطور العصر هو المشرع ، فى حين أن المفروض أن العصر هو الذى يستقبل تشريع السماء ويبنى حركة حياته على هَدْيه ونوره ؛ لأن الحركة التى تُبْنى على هَدْى السماء هى الحركة العليا من الرب الأعلى الذى يعلم حقيقة الخير لك ولا يستدرك عليه ، أما إنْ شرع لك إنسانٌ مثلك ، فحتى هو لو دَلَّك على الخير فهو خير من وجهة نظره وعلى قدر علمه ، فلا بُدَّ أنْ يكون فيه نقص وقصور ، ولا بُدَّ أنْ يأتى بعده مَنْ ينقضه ويستدرك عليه .

لذلك رأينا حتى غير المسلمين تُلجئهم أقضية الحياة إلى أن يأخذوا بحلول الإسلام للتغلب على مشاكلهم ، وهم بالطبع لا يأخذون أحكام الإسلام حباً فيه ، إنما لأنهم لم يجدوا حلاً فى غيره . ومن هذه القضايا قضية الطلاق التى طالما أثاروا حولها الشكوك وظنوها

مـأخـذاً على الإسـلام ، والآن فى إيطـاليـا يقـررون الطلاق ، لا لأن الإسلام شرَّعه ، إنما لأن مشاكلهم لا تُحَلُّ إلا به .

وهذه المسألة توضح لنا معنى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة]

لذلك سُئِلْنا فى بعض رحـلاتنا : القرآن يقول : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الصف] وفى آية أخرى : ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَـرِهَ الْكَافِـرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف] فكيف تم نـور الله ومع الإسـلام ديانات أخرى كـثيرة ، مـا زالت موجـودة ، وأغلبها أكـثر من الإسـلام عَدَداً وقوة ؟

لقد فهم هؤلاء أن معنى﴿ مُتِمُّ نُورِهِ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف] أنْ يصير الناس جميعاً مسلمين ، ولو كان الأمـر كذلك ما قـال الله تعالى ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُـشْـرِكُـونَ ﴿٩﴾ ﴾[الصف] ﴿ وَلَوْ كَـرِهَ الْكَافِـرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف] إذن : الحق سبـحانه يقرر وجـود الشرك والكفر مع الإسـلام . والمعنى : أن الله مُـتم نوره يعنى مع كفـرهم ومع شـركهم طوال المـدة ، إلا أنهم لن يقـدروا على إطفـاء هذا النور ، فسـوف يظل ، وسـوف يتـغلب على أحكامهم ويظهر عليـها ، بحيث لا يجدون حلاً لأقضـيتهم إلا فى هذا النور .

وقوله تعالى : ﴿ بَشِيـراً وَنَذِيراً ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر] البشـير : الذى يُخـبر بالخيـر قبل أوانه. والنذير : الذى يُحذِّر من الشـر قبل أوانه ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر] إنْ هنا بمعنى ما النافـية ، مثل : ﴿ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [فاطر] فـالمعنى : مـا من أمـة إلا خلا فـيهـا نذير يعنى : جاءها نذير ومضى .

والأمة : الجماعة من الناس ، تجمـعهم أرض واحدة ، أو يجمعهم

سلوك واحد ، أو عقيدة واحدة . ومن معانى كلمة أمة ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً (١٢٠) ﴾[النحل] يعنى : جامعاً وحده كُلَّ خصال الخير ، بحيث لو جمعت كل صفات الخير فى أمة تجدها فى سيدنا إبراهيم عليه السلام .

وإذا كانت الأمم السابقة مضى فى كل منها نذير ، فرسول الله هو النذير الأخير ، لماذا ؟ قالوا : لأن واقع العالم فى القديم كان بعيد التواجد منقطعاً بعضُه عن بعض لصعوبة الاتصال ، فالجماعات تعيش منفصلة لا اتصال بينها ، فترى لكل بيئة داءاتها وعيوبها وعاداتها ، فيأتى الرسول ليعالج داءات قومه فحسب ، فسيدنا نوح عليه السلام جاء للذين عبدوا وَداً وسُواعاً ويَغُوث ويَعُوق ونَسْراً ، وسيدنا لوط عليه السلام جاء ليعالج داء الشذوذ فى قومه .. الخ

أما سيدنا رسول الله ﷺ فقد جاء على ميعاد مع التقاء الدنيا كلها ، حين تداخلت الحضارات والمجتمعات ، فصار العيب فى أمة عيباً فى كل الأمم ، وزاد هذا الالتقاء حتى أصبحنا اليوم نرى ونسمع ما يحدث فى أقصى بلاد الدنيا فى التَّوِّ واللحظة ، كذلك نرى ونسمع سلبيات وعيوب الآخرين وكأنها فى بلادنا ، إذن : ستتوحد الداءات ، وتتوحد النقائص ، ويصبح العالم كله بيئة واحدة ، لذلك كانت رسالة الإسلام رسالة عالمية ، وبُعث سيدنا رسول الله للناس كافة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ﴾

يعنى : يا محمد ، خُذْ لك أسْوة من إخوانك الرسل السابقين ، فقد كُذِّبوا جميعاً ، وهذه سنة مُتبعة ، ولستَ أنت يا محمد بدْعاً من الرسل . وقلنا : إن الله تعالى لا يرسل رسولاً إلا إذا عَمَّ الفساد وعَزَّ العلاج ، فلا وجودَ للنفس اللوامة التى تُردع صاحبها عن المعصية ، ولا للمجتمع الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر ، يعنى : لا مناعة فى الذات ، ولا مناعة فى المجتمع ، فقد فسد هو الآخر ، واجتمع أهله على الضلال ، عندها لا بُدَّ أنْ تتدخل السماء برسول جديد يأتى بمعجزة تناسب الزمن الذى جاء فيه .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [فاطر] لأن الرسول ما جاء إلا ليواجه الفساد فى المجتمع ، وطبيعى أنْ يواجهه الضالون والظالمون والمتجبرون المستفيدون من هذا الفساد ، وأنْ يُكذِّبوه ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴿١٢٣﴾ ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [فاطر] بالبينات يعنى : بالشىء الواضح الذى يُبيِّن أن المتكلم صادق فى التعبير والبلاغ عن ربه ، وهذه هى المعجزة ، إذن : فالرسول جاء بالمعجزة لتكون دليلاً على صدقه فى البلاغ عن ربه ، فليست المعجزة هى هدف الرسالة ، إنما هدف الرسالة تبليغ الأحكام والمنهج .

ويعنى ﴿ وَبِالزُّبُرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [فاطر] أى : الكتب السماوية المنزلة مثل : صحف إبراهيم ، وتوراة موسى ، وإنجيل عيسى ، لكن خصَّ هنا الزبور والقرآن (الزبر والكتاب المنير) ؛ لأن الزبور الذى أُنزل على سيدنا داود امتاز بأنه مكتوب ، ومكتوب بحروف منقوشة بارزة ، لذلك كانت ثابتة ليست بمداد يُمْحَى مثلاً ، فهى أشبه بالنقوش

الحجرية ، ويسمونها (الأُويمة)[1] .

والكتاب المنير هو القرآن الكريم ؛ لأنه النور المعنوى الذى ينير للناس طريق الحياة ويهدى حركتهم ، فإنْ كانت الشمس هى النور الحسيّ الذى يهدى حركتك للحسيات ، فالقرآن هو النور المعنوى الذى يهدى مَنْ آمن به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾

وهذه سُنّة الله فى المرسلين ، أنْ يأخذ الكافرين بهم والمعاندين لهم ، أرأيتم نبياً أسلمه الله أو انهزم أمام قومه المعاندين ؟ لقد وعد الله رسوله بالنصرة وبالتأييد ، فقال سبحانه :﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر]

وقال : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات] لذلك إنْ رأيتَ جندياً لله انهزم فى شىء ولم يَغْلب ، فاعلم أن شرطاً من شروط الجندية تخلَّف ، وأول شرط للجندية لله الطاعة ، فإنْ خالف الجنديُّ أوامر الله فلا بُدَّ أنْ يُهزم ، لذلك قلنا : إن المسلمين انتصروا فى بدر وهم فئة قليلة ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ [البقرة]

ولم يَمْض على بدر سنة واحدة ، وحدثتْ أُحُد ، صحيح لم يُهزم المسلمون لكنهم أيضاً لم ينتصروا ؛ لأن المعركة (ماعت) ذلك لأن الرُّماة خالفوا أمر رسول الله وتخلَّوْا عن أماكنهم ونزلوا لجمع

(١) قال الزبيدى فى « البصائر » : « سمي كتاب داود زبوراً ، لأنه نزل من السماء مسطوراً وقيل : هو اسم للكتاب المقصور على الحكمة العقلية دون الأحكام الشرعية ، والكتاب لما يتضمن الأحكام » انظر كتاب « تاج العروس » للزبيدى ـ مادة : زبر .

الغنائم ، وأراد الله تعالى تأديب عباده المخلصين فلا بُدَّ أنْ يهزّهم هذه الهزّة العنيفة ، ويروْا هذه النتيجة ؛ لأنهم خالفوا .

لذلك قلنا : إن الإسلام انتصر في أُحُد ، وإن كان المسلمون لم ينتصروا ؛ لأنهم لو انتصروا مع مخالفة أمر رسول الله لَهَانت على المسلمين أوامر رسول الله بعد ذلك ، ولقالوا : لقد خالفنا أوامره وانتصرنا في أُحُد إذن : كان لا بُدَّ من هذه النتيجة المائعة ليعلم المسلمون أهمية الطاعة والأُسْوة برسول الله .

كذلك في حُنَين لما رأى الصِّدِّيق أبو بكر كثرة المسلمين ، فقال : لن نُغْلَب اليوم عن قلة - وكانوا عشرة آلاف مقاتل - فأراد الله أنْ يكسر هذا الغرور في المسلمين ، فكان التفوق للكفار في بداية المعركة حتى أحرجوا المسلمين ، لكن تداركتهم رحمة الله ، وكأن الله أراد أنْ يُصحِّح لهم الخطأ فحسب ، لا أن تنزل بهم الهزيمة .

وحين نتأمل معنى : ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٢٦﴾ ﴾ [فاطر] نجد أن الأَخْذ يدل على قوة الآخذ وقوة الجذب التي تستوعب كل أعضاء المأخوذ ، فعلى مستوى البشر نقول : أخذ فلان يعني ساقه أو شدّه من مَجْمع ثوبه وملكه بقبضة يده ، أما لو قُلْت أخذه الله فأخْذُ الله شديد ، أخذ عزيز مقتدر .

لذلك يقول بعدها ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فاطر] أي : نكيري واعتراضي على ما فعلوا . والنكير هو الشيء الذي تستنكره وتغضب منه ، وما بالك بقوم أنكر الله مسلكهم وغضب عليهم ؟ لا بُدَّ أنْ يأخذهم أَخْذاً يُرضي أولياءه ، ويُرضي المؤمنين به .

فقوله سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فاطر] يعني : قُلْ لي يا محمد هل قدرتَ على مجازاتهم بما يستحقون ؟ وهذا المعنى

واضح أيضاً في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ(1) بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ(2) سُودٌ (٢٧) ﴾

تلحظ أن الحق سبحانه وتعالى يُذكِّرنا ببعض نعمه علينا ، ثم يُتبع ذلك ببعض المطلوبات ، وهكذا ليُؤنس قلبك بالإحسان إليك لتستجيب لمطلوباته . والحق سبحانه حين يُذكِّر عباده بهذه الآية الكونية ، آية إنزال الماء من السماء بعد أنْ بيَّن لنبيه أَخْذه الشديد للكافرين ، كأنه سبحانه يقول لرسوله : دَعْك من أمر هؤلاء الكافرين ، فأنا قادر على معاقبتهم ، وتأمل في هذه الآية الكونية ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (٢٧) ﴾ [فاطر]

وقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ (٢٧) ﴾ [فاطر] أي : تشاهد ؛ لأن الجميع يرى

---

(1) الجدة من الشيء : الجزء منه يخالف لونه لون سائره ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) ﴾ [فاطر] أي : من الجبال أجزاء ذات ألوان مختلفة . [القاموس القويم ١/١١٩] .

(2) الغربيب : الشديد السواد ، وجمعه غرابيب . [القاموس القويم ٢/٥٠] .

الماء ، وهو ينزل من ناحية العلو ، والسماء هى كل ما علاك فأظلك ، وقد تأتى ﴿ أَلَمْ تَرَ ۝١ ﴾ [الفيل] بمعنى : ألم تعلم . وهذا فى الأشياء التى لم يَرَها رسول الله كما فى قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ ﴾ [الفيل]

ومعلوم أن سيدنا رسول الله لم يَرَ حادثة الفيل ، لكن خاطبه ربه بـ ﴿ أَلَمْ تَرَ ۝١ ﴾ [الفيل] ليدل على أن إخبار الله له أوثقُ وأصدقُ من رؤية العين .

ومسألة إنزال الماء من السماء أى من ناحيتها ، وإلا فالسماء شىء آخر ، المطر إنما ينزل من السحاب القريب من الأرض . نقول : مسألة إنزال الماء من ناحية السماء يبدو أمراً طبيعياً ، فبخار الماء ينعقد فى السماء على هيئة سُحُب ممتلئة بالماء ، والماء له ثِقَل ينزل إلى أسفل بجاذبية الأرض ، لذلك يرتب الله على إنزال المطر إخراج النبات ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۝٢٧ ﴾ [فاطر] فإنْ قُلْتَ : إن نزول الماء من السماء أمر طبيعى قد يُشك فيه أنه من فعل الطبيعة ، فهل إحياء الأرض وإنبات النبات مختلف الثمرات والألوان أيضاً من فعل الطبيعة ؟

وكلمة ﴿ أَنزَلَ ۝٢٧ ﴾ [فاطر] تفيد العُلُو من المُنزِل والدُّنُو من المُنزَل إليه ، حتى لو كان هذا الأمر معكوساً وأتى الإنزال من أسفل إلى أعلى كما فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ۝٢٥ ﴾ [الحديد] والحديد فى الواقع نُخرجه من باطن الأرض ، لكن سماه الله إنزالاً ؛ لأن المراد به الإتيان منه أعلى لأدنى بصرف النظر عن

جهته أعلى أو أدنى .

ونحن نشاهد عملية إنزال الماء من السماء ، لكن لم نشاهد عملية البخر التى تتم على سطح الماء فى الأرض ، ثم صعودها إلى طبقات الجو العليا حيث تتكوَّن السُّحب عن طريق التكثيف ، والإنسان لم يكُنْ يعلم شيئاً عن هذه العمليات حتى تقدَّمتْ العلوم ، وعرفنا عملية تقطير الماء .

أما عملية إخراج النبات والثمرات المختلفة الألوان فهى واضحة مُشَاهدة فى البساتين والحقول ، فكلنا يرى بدائع الألوان واختلاف الأشكال بحيث لا تتناهى حصراً ؛ لأن ألوان الطيف إنْ كانت هى الألوان الأصلية فيمكن أن يتولَّد منها مَا لا حصر له ، فاللون الأسود مثلاً لو أضفْتَ إليه قطرة واحدة من اللون البنى مثلاً يعطيك لوناً آخر ، فإنْ أضفتَ قطرتين يعطيك لوناً ثالثاً ، وهكذا لا تتناهى الألوان ، وهذه المسألة نشاهدها الآن فى صناعة الأقمشة ، فقد تعددت ألوانها بدرجات مختلفة وزركشات لا حصر لها . إذن : نقول : إن الألوان كائن لا يتناهى .

ولك أن تتأمل تداخل الألوان وتناسقها فى زهرة أو وردة فى الحديقة ، وسوف ترى فى ألوانها الإعجاز المبهر ، فالحبة واحدة ، والأرض واحدة ، والماء واحد ، لكن تولَّد من هذا كله هذا الشكل البديع وهذه الألوان المتداخلة المتناسقة ؛ لأن الحدث آثار المحدث ، فإذا كان المحدثُ محدودَ القدرة ظهرتْ آثاره كذلك محدودةَ القدرة ، وإذا كان المحدث فائقَ القدرة تأتى آثاره فائقة القدرة ، أما الحق سبحانه فله طلاقة القدرة ؛ لذلك تأتى آثاره كذلك .

وتلحظ في سياق الآية أن الحق سبحانه لم يتكلم عن إنزال المطر من السماء قال ﴿ أَنزَلَ (٢٧) ﴾ [فاطر] بصيغة ضمير الغائب ، لكن لما تكلّم عن إخراج الثمرات قال : ﴿ فَأَخْرَجْنَا (٢٧) ﴾ [فاطر] فنقلنا إلى ضمير الجماعة المتكلمة الدالّ على التعظيم ؛ لماذا ؟ لأن إنزال الماء من السماء ليس هدفاً في ذاته ، فليس هو المهم ، بدليل أن الماء قد ينزل على الأرض السّبخة فلا تستفيد به ، أما عملية إخراج الثمار فهى العملية المهمة التى أنزل اللهُ الماءَ من أجلها ؛ لذلك ذكرها بضمير الجمع الدالّ على التعظيم ، فالحق سبحانه يُعظِّم نفسه فى الفعل كما فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

ونحن نعرف فى عُرْفنا أن الحدث يختلف باختلاف المحدِث ، فإنْ أحدثه فرد واحد أتى الحدثُ على مستوى قدرة هذا الفرد ، فإنْ تكاتفت فيه جماعة جاء على مستوى هذا التكاتف ؛ لذلك نسمع عند سَنِّ القوانين التى تحكم الشعوب يقول القائد أو الملك : نحن رئيس الجمهورية ، أو نحن ملك مصر ، أو نحن سلطان كذا وكذا ؛ لأن مسألة سَنِّ القوانين ليستْ مسألة فردية يقررها الحاكم أو الملك ، ولا ينطق بها باسمه ، إنما يشاركه فيها رعيته ، وينطق باسمهم جميعاً.

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى حين يُحدِّثنا عن فعل من أفعاله يُحدِّثنا بضمير الجمع ، أما إنْ تكلم عن ذاته سبحانه تكلّم بضمير المفرد ، مثل : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) ﴾ [طه]

وإنزال الماء فى صورته أمر واحد ، أما الإخراج ففيه تلوُّن للمخرج ، فالماء المنزَّل من السماء واحد ، لكن آثار الماء متعددة ، فهذا أصفر ، وهذا أبيض ، وهذا أحمر .. الخ ، فهذه العملية تحتاج إلى تعظيم يناسبها .

لكن ، هل الإخراج للثمرات هكذا مباشرة ؟ أم الإخراج للنبات الذى

يعطى الثمرات ؟ الإخراج للنبات الذى يعطى الثمر ، فالحق سبحانه يذكر لنا الشيء بنهاية المطلوب منه وهو الثمر ، وهذا الثمر يأتى مختلفاً فى ألوانه ، مع أن البيئة واحدة ويُسْقى بماء واحد ، وحين تتأمل الألوان فى الثمار تجد فيها طلاقة القدرة لله تعالى ، وهذه الألوان لم تُجعل هكذا لمجرد الشكل والزينة ، إنما جُعلَتْ هكذا لحكمة أرادها الخالق سبحانَه ، منها أن هذه الألوان تجذب الحَشَرات المخصِّبة .

ولو تأملتَ هذه الألوان لوجدتها متعددة حتى فى اللون الواحد ، ألاَ ترى أن بياض الثلج مثلاً غير بياض الثوب ، غير بياض الجير ؛ لذلك يصفون الألوان فيقولون أبيض يقق ، وأصفر فاقع ، وأحمر قانٍ ، وأخضر مدْهَام .

وبعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن آية من آياته فى النبات يُحدِّثنا عن الجماد ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ ﴾[فاطر] ، ففى الجمادات أيضاً ألوان نشاهدها مثلاً حين نشقُّ الصخر لاستخراج ما فى باطن الأرض ، ترى مثلاً الجرانيت والرخام والعقيق بألوان مختلفة كذلك .

وكلمة ﴿ جُدَدٌ ﴿٢٧﴾ ﴾[فاطر] جمع جُدة ، وهى الخط الفاصل بين شيئين ، رأيتم طبعاً الحمار الوحشى المخطط ومدى تناسق هذه الخطوط ، ترى مثل هذا فى طبقات الجبال ، وهى مختلفة البياض ومختلفة الاحمرار .

ومعنى ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ ﴾[فاطر] تقول : أسود غرْبيب يعنى : شديد السواد . فالغربيب أشدُّ درجات السواد نسبةً إلى الغراب لشدة سواده.

بعد أن ذكر الحق سبحانه جنس النبات وجنس الجماد يذكر أن هذا الاختلاف موجود أيضاً فى الإنسان وفى الحيوان - وهذه هى أجناس الوجود ، فيقول سبحانه :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

إذن : فالاختلاف في كل الأجناس ؛ لأن الخَلْق قائم على طلاقة القدرة ، فالناس مع كثرتهم مختلفون ، وهذا إعجاز دالّ على طلاقة القدرة ، فالخَلْق ليس على قالب واحد يُخرج نسخاً متطابقة ، إنك تنظر إلى الرجل فتقول هو شبه فلان ، لكن إذا دققتَ النظر لا بُدَّ أنْ ترى اختلافاً ، إذن : طلاقة القدرة تقتضي اختلاف كل أجناس الوجود : الجماد ، والنبات ، والحيوان ، والإنسان .

ومعنى الدوابّ : كل ما يدبّ على الأرض عدا الإنسان والأنعام التي هي البقر والغنم والإبل والماعز .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر]

والخشية هي الخوف الممزوج بالرجاء ، وهذا من العلماء عمل من أعمال القلوب ، وأنت تخاف مثلاً من عدوك ، لكن لا رجاءَ لك فيه ، إنما حين تخاف من الله تخافه سبحانه وأنت ترجوه وأنت تحبه ، لذلك قالوا : لا ملجأ من الله إلا إليه .

والعلم إما علم شرعي ، وهو علم الأحكام : الحلال والحرام والواجب والسنة .. الخ . أو علم الكونيات ، وهذه الآية وردت في سياق الحديث عن آيات كونية ولم يُذكر قبلها شيء من أحكام الشرع ؛ لذلك نقول : إن المراد بالعلماء هنا العلماء بالكونيات والظواهر الطبيعية ، وينبغي أن يكون هؤلاء هم أخشى الناس لله تعالى ؛ لأنهم أعلم بالآيات الكونية في : الجمادات ، والنبات ، وفي

الحـيـوان ، والإنسان ، وهـم أقـدر الناس على اسـتنبـاط مـا فى هذه الآيات من أسرار الله تعالى .

وكونـيات الوجـود هى الدليل على واجب الوجود ، وهى المـدخل فى الوصول إلى الخالق سبحانه وإلى الإيمان به ؛ لذلك كثيراً ما نجد فى القرآن :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) ﴾ [الروم]

وإذا كان العلم قضية يقينية مجزوماً بها وعليها دليل ، فإن الحق سبحـانه وتعالى نزَّل لنا علم الشرع وحدَّد لنـا حدوده ، فلا دَخْلَ لنا فيـه ، لذلك عـصمـه الله وأحكمه ؛ لأن الأهواء تخـتلف فيـه ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالْأَرْضُ (٧١) ﴾ [المؤمنون] . أما علم الكونيات فـقد تركه الخالق سبحانه لـلعقول تبحث فيه وتستنبط منه وتتنافس فيه ، بل وتسرقه بعض الدول من بعض .

وآفة العصر الحديث أنْ يُدخل علماء الشرع أنوفهم فى الكونيات ، أو أن يُدخل علماء الكونيات أنوفهم فى أحكام الشرع ، وقد رأينا مثلاً لما قالوا بأن الأرض كروية ، وأنها تدور حول الشمس ، أسرع بعض علماء الشرع فاتهموا هؤلاء بالكفر ، وهذا خطأ فادح ، وكان عليهم أنْ يأخذوا من الحـق سبحـانه ما عصم به الأهواء مـن أنْ تختلف ؛ لأن شكل الأرض وحركتها مسألة كونية لا صلَة فيها بالحلال والحرام .

والحق سـبـحـانه يقـول : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾[النحل] فأهل الذكر فى العلوم الشرعية غير أهل الذكر فى العلوم الكونية ، ويجب أنْ يحترم كل منهمـا تخصص الآخر فى مجاله ، ولا يَنْسَىٰ علماء الشرع أن علماء الكونيـات هم الذين يكتشفون لنا أسرار الله فى الخَلْق ، وهـم الذين يُربُّون فى نفـوسنا أدلـة الإيمـان بواجب

الوجود الذى تصدر عنه أحكام الحلال والحرام .

والحق سبحانه وتعالى خلق الكون على هيئة الصلاح ، فلو دخلْتَ مثلاً غابة من الغابات الأنُف - يعنى : التى لم يدخلها أحد ، وما زالت على طبيعتها كما خلقها الله - لا تجد فيها قذارة ولا رائحة كريهة ولا قمامةً ولا غُصْناً مكسوراً .. الخ ، بل تراها نظيفة متناسقة ، فالفضلات بها غذاء لحيوانات أخرى ، فنظافتها ذاتية .

وأذكر أننا رأينا فى وادى فاطمة فى السعودية عَيْنَ ماء تروى الوادى من حولها ، وفى أحد الجداول رأينا أسماكاً صغيرة فى حجم واحد مثل عُقْلة الأصبع فسألت صاحب البستان : هل يكبر هذا السمك ؟ قال : لا بل يظل على هذه الصورة ، وهو ما جاء إلا بعد أنْ ألقينا بعض فضلات الطعام فى الماء فظهر ليتغذَّى عليها ثم يختفى ، وكأن له مهمة محددة هى نظافة الماء ، ولما جئنا إلى مصر وجدنا بها هذا السمك فى « مُتْحف الأحياء المائية » يقوم بنفس هذه المهمة ، وهى تنظيف أحواض الأسماك من الفضلات .

لذلك نقول : لا يأتى الفساد فى الطبيعة إلا حين يتدخَّل فيها الإنسان ، بدليل أن المخلوقات التى لا دخل للإنسان فيها تسير بنظام محكم دقيق لا اختلاف فيه ؛ لذلك حين ترى فى الكون مثلاً أزمة فى القوت ، فاعلم أنها نتيجة حركة خاطئة للإنسان ، أو نتيجة تكاسل عن استنباط خيرات الأرض .

إذن : على علماء الشرع ألاَّ يُدخلوا أنفسهم فى الكونيات ، وقد علَّمنا ذلك رسول الله ﷺ حين نهاهم عن تأبير النخل يعنى : تلقيحه ، فلم يثمر النخل ، فلما رأى رسول الله ذلك قَبلها فى نفسه وقال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم »[1] يعنى : المسائل الكونية والعلمية

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٢٣٦٣) من حديث أنس بن مالك « أن النبى ﷺ مَرَّ بقوم يلقحون . فقال : لو لم تفعلوا لصلح . قال : فخرج شيصاً (التمر الردىء) فمرَّ بهم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . قال : أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

والمعملية التجريبية ، هذه أمور لا دخْلَ لأحكام الشرع فيها ، لكن آفة العلماء اليوم ألاَّ يلتزم كُلٌّ بما يخصُّه .

لذلك خَصَّ الله هنا علماء الكونيات ؛ لأنهم الأقدر على التمعُّن فى أسرار الله ، فالحق سبحانه ملأ كونه بأسرار تتناسب مع تطور العصر ومُضيِّ الزمن ، فالأسرار التى عرفها الإنسان فى العصر الحجرى مثلاً غير التى عرفها فى العصر الحديث ، وشاءتْ حكمة الله أنْ يجعل لكل سرٍّ من أسراره ميلاداً يظهر فيه ، بحيث لا تظهر الأسرار فى زمن واحد ، ويستقبل الإنسان باقى الزمن بدون جديد .

وحين تتأمل هذه المسألة تجد أن الحق سبحانه أظهر للإنسان ما فيه مقومات حياته ، ثم ترك الأمور البدهية التى يعرفها الناس ليترقوا فيها ، فالإنسان مثلاً استخدم بدهية أن الماء ينساب من أعلى إلى أسفل ، ورقَّى هذه البدهية وأصبح يستقبل الماء فى بيته من الصنبور (الحنفية) ، بعد أنْ كان ينقل الماء من الآبار والأنهار ، ويتحمل فى سبيل ذلك المشاق ، فلما أعمل عقله فى بدهيات الكون ترقَّى وجنى ثمرة هذا الترقِّى .

لذلك تجد أن أعقد النظريات العلمية والالكترونية مأخوذة فى بدايتها من بدهيات ، وقلنا فى علم الهندسة : إنك تبرهن على صدق النظرية المائة باستخدام النظرية التسعة والتسعين ، وهكذا حتى تصل إلى النظرية الأولى ، وهى قائمة على بدهية من بدهيات الكون ، لا تختلف فيها العقول .

لذلك دائماً يدعونا الحق سبحانه إلى التفكُّر والتأمُّل والتدبُّر .. الخ وما توصل إليه البشر الآن من آلات ووسائل حديثة مثل : الغسالة ، والثلاجة ، والتلفاز .. الخ ما هى إلا ثمرة هذا الفكر الذى رقَّى البدهيات ، حتى وصل بها إلى ما وصل إليه الآن ، ومَنْ أراد أن يقف على هذا الترقى ، ويرى قدرة الله فى توارد الصناعات وارتقاءاتها من

حلقة إلى حلقة فليذهب إلى (ديترويت) ليرى هناك معرض (فورد) الذى يضم ارتقاءات الصناعات من إبرة الخياطة للصاروخ .

إذن : الكون فيه أسرار يكتشفها الإنسان ، ولكل سرٌّ ميلاد يظهر فيه ، إما نتيجة بحث للإنسان أو حتى صدفة ، ومن لُطْف الله تعالى أن الملاحدة لما اكتشفوا بعض أسرار الكون قالوا اكتشفنا ، ولم يقل أحد منهم : اخترعنا . وكأن الله تعالى صرفهم وألهمهم عن النطق بكلمة الاختراع ولوى ألسنتهم حتى لا يجترئوا على الله . فالجاذبية مثلاً موجودة منذ خُلقت السموات والأرض ، ودور الإنسان أنه اكتشف هذا السر ؛ لذلك الذى يقول اخترعت نقول له : هذا كذب والصواب أنك اكتشفتَ.

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر] عزيز لا يُغلب ، وغفور لكم إنْ بدر منكم سهو أو تقصير فى استنباط أسرار الله فى كونه ، يغفر لهم إنْ أخطأوا فى تجربة من تجاربهم ، فسوف يأتى مَنْ بعدهم ويصححها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه العلم الكونى ، وأنه وسيلة لخشية الله ومعرفة أسراره فى كونه أراد سبحانه أنْ يلفت أنظارنا وأنْ يحذرنا : إياكم أنْ تُفْتنوا بالعلم الكونى فينسيكم مهمتكم فى أنْ تتلقَّوا عن الله ما يُسعدكم ، فتحدَّث سبحانه عن المنهج : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ (٢٩) ﴾ [فاطر] وهذا هو العلم الشرعى والذِّكْر الذى يعصم الناس من اختلاف الأهواء .

ومعنى ﴿ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ (٢٩) ﴾ [فاطر] أى : تلهج به ألسنتهم ، وتعيه قلوبهم ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ (٢٩) ﴾ [فاطر] وهذه عبادة تشترك فيها كل الجوارح ﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً (٢٩) ﴾ [فاطر] والإنفاق يخصُّ الناحية المالية ، فهو دليل على سماحة النفس بما تنفق ، وحُبها للبذل والعطاء فى السرِّ والعلانية ، وبالإنفاق تكتمل لهذه النفس الصفات الطيبة ، ويجتمع لها عمل القلب وعمل الجوارح فى طاعة الله .

وقوله ﴿ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ (٢٩) ﴾ [فاطر] يعنى : أن الإنفاق ليس من مالك الخاص ، إنما من مال الله الذى رزقك ، وجعلك مُسْتخلَفاً فيه وما نفقتُكَ إلا سبب ، والأسباب فى الكون ستر ليد الله فى العطاء .

وهؤلاء الذين ينفقون مما رزقهم الله سراً وعلانية ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) ﴾ [فاطر]

فالإنفاق فى سبيل الله تجارة مع الله ﴿ لَّن تَبُورَ (٢٩) ﴾ [فاطر] أى : لن تكسد ، وأنت حين تنفق على المحتاجين ، وحين تطعم الجائع إنما تُحبِّب الله إلى خَلْقه أرأيت لو أن ملكاً من ملوك الدنيا له عبيد ، أليس مكلَّفاً بإطعامهم وسدِّ حاجتهم ، وهذه من سمات العظمة فيه ، كذلك الحق سبحانه هو خالق هؤلاء الفقراء ، وهو الذى استدعاهم للوجود ، وهو سبحانه المكلّف باقتياتهم .

إذن : حين تطعمهم أنت فكأنك تؤدى مهمة الله عز وجل ، وتُحبِّب خَلْق الله إلى الله ، فالحق سبحانه حين يعطف مخلوقاً على مخلوق يقول : كأن عبدى يعيننى على خَلْقى ؛ لأن الله تعالى استدعى الخَلْق

للوجـود ، وتكفَّل بأنْ يُغنيـهم ، فـحين يأتى عـبـده الغنى ويكون فى عَوْن الفقير يقول سبحانه : كان عبدى فى عون أخيه بقدرته ، فلا بُدَّ أنْ أكون في عـونه بقدرتي ، فـالعبـد لا يكون أبداً أكرم من خـالقه ، وكيف يعطف العبـد وهو لم يخلق شيئاً ، ولم يستـدع أحداً للوجود ، ولا يعطف الخالق سبحانه ؟

فإنْ قلتَ : ما دام الحق سبحانه قد استدعى الخَلْق للوجود ، فلماذا لم يضمن لهم الحياة الكريمة التى لا يحتاجون فيها لعطف أحد غيره ؟

نقول : أراد الحق سبحـانه أنْ يزرع بذور المحبـة والتعاطف بين خَلْقه ، أراد مـجتمعـاً مسلماً قائمـاً على المحبة وعلى التـعاون وعلى التكافل ، ثم وَعَد سـبحانه السخىَّ الـمعطى بأنْ يعامله بقدر سـخائه وعطائه هو سبحانه .

هذه هى التـجـارة مع الله التى لا تبـور ، والبَوْر والبَـوار . أى : الفساد وهو يصيب التجارة من ناحـيتين : إما فساد فى الربح ، كأن تتـعبك التـجارة ولا تربح ، أو فـسـاد فى الربح وفى الأصل يعنى : تخسـر أصل التجارة ، ومعلوم أن الإنسان لا يتاجر إلا بقصد الربح ؛ لذلك قال أهل المعرفة وأهل الـتجارة مع الله : إنْ أردتَ الربح المحقق فتاجر مع كريم وهبك ما تجود به ، وبعد ذلك يجازيك عليه .

لذلك كـان أحد الصـالحين يهشّ فى وجه السـائل ويبشّ ويقول له : مرحباً بمَنْ جاء ليحمل عنى زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

وسُئِـل الإمام على - رضى الله عنه - : يا أبا الحـسن ، أريد أنْ أعرف نفـسى ، أأنا من أهل الدنيـا ؟ أم من أهل الآخرة ؟ فـقال : إنْ كنتَ تهشّ لمن يعطيك أكـثر مـمَّنْ يأخذ منك ، فأنت مـن أهل الدنيا ؛ لأن الإنسان يحب مَنْ يعمر ما يحب .

ورسول الله ﷺ قال له صحابى : أنا أكره الموت ، فقال له الرسول : « ألكَ مال ؟ » قال : نعم ، قال : « أتتصدَّق به » ؟ قال : لا ، قال : « إن المال يحب صاحبه ، فإنْ كنتَ تحبه فى الآخرة أحببتَ أن تموتَ للآخرة ، وإنْ كنتَ تحبه فى الدنيا أحببتَ أنْ تظلَّ معه فى الدنيا »(١) .

واستخدام أداة النفى (لن) هنا له ملْحظ ، فلن تنفى الحال والاستقبال ؛ لأن الإنسان قد يموت قبل أنْ يدرك ثمرة الخير فى هذا العطاء ، وقبل أنْ يرى نتيجة صدقه ؛ لذلك يطمئنه ربه بأن هذه تجارة مع الله لن تبور ، وسوف ينتظره جزاؤها فى الآخرة وقوله تعالى : ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ۝٢٩ ﴾ [فاطر] أى : على أى حال ، أما نفقة السر ، فالحكمة منها أنها تبعد صاحبها عن الرياء أو المباهاة ، وهى أيضاً ستر لحياء الآخذ ؛ لذلك كان بعض العارفين إذا أراد أنْ يعطف على فقير أو محتاج يحتال على ذلك بحيلة تحفظ للمحتاج ماء وجهه ، فيكلِّفه مثلاً بعمل بسيط ، ثم يعطيه المال على أنه أجره على العمل ، لا على أنه صدقة .

والبعض يتأدب فى هذه المسألة ، فيعطى المحتاج على أنها قرض وفى نيته أنها صدقة ، وربما أكد هذا المعنى ، فقال لصاحبه : ربنا يُعينك على السداد ، لكن إياك (تاكله) .

وبعضهم يعطى الصدقة على أنها أمانة ، لكن يقول للآخذ : إذا تيسَّر لك هذا المبلغ وأصبح فائضاً عن حاجتك فأعطه محتاجاً إليه ،

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالى فى الإحياء (٣/٢٣٢) أن رجلاً قال : يا رسول الله مالى لا أحب الموت ؟ فقال : هل معك من مال ؟ قال : نعم يا رسول الله . قال : قدِّم مالك ، فإن قلب المؤمن مع ماله ، إن قدَّمه أحب أن يلحقه ، وإن خلَّفه أحب أن يتخلف معه » قال الحافظ العراقى : لم أقف عليه .

وقُلْ له يعطيه بدوره إلى مَنْ يحتاج إليه بعده ، وهكذا تتنامى الصدقة ، وتدور على ما شاء الله من المحتاجين إليها .

هذا عن صدقة السر ، أما العلانية فالحكمة منها أنها تمثل زاجراً للواجد حتى لا يبخل ولا يضنّ بما عنده ، كذلك تحمي صاحبها من ألسنة الناس ، وتحمي عِرْضَه أنْ يخوضَ الناس في حقه فيقولون : يبخل رغم غنَاه . كما أن الإنفَاق علانية يُعَدُّ نموذجاً وأُسْوةً للغير في العطاء .

وقال العلماء : يُراد بالسر الصدقة الزائدة على الفريضة ، وهذه ينبغي فيها الستر ، ويُراد بالعلانية الزكاة المفروضة ؛ لأن الجهر في العبادة مطلوب كما هو الحال في الصلاة مثلاً ، والمتأمل يجد الزكاة أوْلَى بالعلانية من الصلاة ، فمن اليسير إقامة الصلاة في أوقاتها ، أما الزكاة فقد تكون واجداً لكن تشح نفسُك وتبخل بالعطاء .

وأنت حين تُنفق تنفق على مَنْ ؟ على محتاج غير قادر أو مسلوب القدرة ، ومَن الذي سلبه القدرة ؟ الله ، لذلك كلفك الله أنْ تنفق على مَنْ سلبه القدرةَ ، وأنْ تعينه : أولاً حتى لا يحقد عليك ، وحتى يتمنى لك المزيد من الخير ؛ لأن خيرك سيعود عليه ، لذلك كنا نرى أهل الريف مثلاً يحزنون ويبكون إنْ ماتت بقرة فلان أو جاموسة فلان ، لماذا ؟ لأنها كانت تسقي الفقراء من لبنها ، وتحرث أرض المحتاج .

ثانياً : وهذه حكمة أسمى من الأولى ، وهي أن النفقة على غير القادر تجعله لا يغير خواطره على ربه وخالقه وتحميه من الاعتراض على قَدَر الله الذي منعه وأعطى غيره ، وضيَّق عليه ووسَّع على الآخرين .

النفقة على غير القادر تجعله يشعر أنه أحظُّ حالاً من الغني ، ولم لا وهو يُسَاق له رزقه دون تعب منه ودون عناء ؟ ويأتيه الغني إلى بابه ليعطيه حقه في مال الله . لذلك قال العلماء : الفقير شرط في إيمان الغني ، وليس الغني شرطاً في إيمان الفقير .

لذلك يعلمنا سيدنا رسول الله ﷺ ، فيقول : « .. ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »[1]

والحق سبحانه وتعالى لما تكلَّم عن المحسنين الذين يكلِّفون أنفسهم فَوْق ما كلَّفهم الله ، ومن جنس ما كلَّفهم الله ، يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات]

فالحق غير المعلوم هو الصدقة ، أما الزكاة المفروضة التى هى حق الفقير فى مال الغنى فقد وردتْ فى صفات المؤمنين فى سورة سأل[2] فقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المعارج]

لذلك ، فالزكاة لا تَخْفى ، بل تُؤدَّى علانية ، لأنك تُؤدِّى حقاً عليك للفقير ، حتى أن بعض فقهاء الأندلس رضى الله عنهم قال : لو مُكنت بولاية أمر على المؤمنين ، فرأيتُ مَنْ يمنع الفقير حقَّه بمقدار نصاب لأتيتُه لأقطع يده ، فتأمل هذا الاجتهاد من العلماء ، وكيف ساووا بين منع الفقير حَقَّه والسرقة .

وسواء أكان الإنفاق سراً أم جهراً وعلانية ، فلا بُدَّ أن تتوفر له النية الخالصة كما علَّمنا ربنا فى الحديث القدسى : (الإخلاص سر

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ضمن حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلّق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

(٢) هى سورة المعارج ، سميت بسورة سأل لأن أولها قوله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ ﴾ [المعارج] .

من أسرارى ، أودعته قلب مَنْ أحببتُ من عبادى ، لا يطلع عليه ملَك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده)[1]

وأنت فى عطائك تتعامل مع الله ، والله واجد ماجد كريم ، لا يبخسك حقك ، وتجارتك معه سبحانه لا بُدَّ أنْ تكون رابحة ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ٢٩ ﴾ [فاطر]

كذلك يحذرنا سيدنا رسول الله ﷺ من الرياء الذى يحبط الأعمال، ويُفسدها ويحرم صاحبها من ثمرتها يوم القيامة ، حيث يقال له : فعلتَ ليقال وقد قيل.

ويحذرنا سيدنا رسول الله أن تكون أعمالنا كأعمال الكافرين الذين قال الله فيهم : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٣٩ ﴾ [النور]

ثم يقول سبحانه : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ.. ٣٠ ﴾ [فاطر]
أى : أنهم سيأخذون جزاء أعمالهم وعطائهم بوفاء من الله ، ثم يزيدهم بعد ذلك من فضله تكرُّماً ، قالوا هذه الزيادة أن تقبل شفاعتهم فيمن يحبون ، فإنْ شفعوا لأحد من أحبابهم قَبِل الله شفاعتهم ، لماذا ؟ لأن لهم أياديَ سابقة على الفقراء والمحتاجين من عباد الله ، يكرمهم الله من أجلها ، ويتفضَّل عليهم كما تفضَّلوا على عباده .

﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ٣٠ ﴾ [فاطر]

ولك أنْ تسأل : لماذا ذُيِّلت الآية باسم الله (الغفور) ، مع أنها تحدثت عن أعمال الخير من تلاوة كتاب الله ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق فى سبيل الله ، فأىُّ شىء من هذه يحتاج إلى المغفرة ؟

قالوا : ذكر هنا المغفرة ، لأن العبد حين يضع شيئاً من هذا

---

(١) ذكره الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٢٧٦) من حديث الحسن البصرى مرسلاً ، ضعفه الحافظ العراقى والحافظ ابن حجر العسقلانى والشيخ الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٢/٦٢٠) .

الخير قد يُداخله شيء من الغرور أو الإعجاب أو غيره مما يشوب العمل الصالح ، فيغفرها الله له ، ليلقى جزاءه خالصاً ؛ لذلك ورد فى حديث سيدنا رسول الله ﷺ : « اللهم إنى أعوذ بك من عمل أردتُ به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك »[1]

وقوله ﴿ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾[فاطر] صيغة مبالغة من شاكر ، فكأن الله تعالى بعظمته يشكر عبده ، بل ويبالغ فى شكره ؛ لأن العبد فى ظاهر الأمر عاون ربه فى أنْ يرزق مَنْ كان مطلوباً من الله أنْ يرزقه ؛ لذلك يشكره الله ولا يبخسه حقه ، مع أنه فى واقع الأمر مُنَاول عن الله .

وأنت حين تقرؤها : ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾[فاطر] وتعلم أنه تعالى يشكرك لا تملك إلا أنْ تشكره سبحانه ، وعندها يزيدك من النعمة ، إذن : نحن أمام شكر دائم لا ينقطع ، وعطاء لا ينفد .

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾

الوحى فى معناه العام كما قلنا : إعلام بخفاء ، فإنْ كان جهراً وعلانية فلا يُعَدُّ وَحْياً ، فأنت مثلاً يدخل عليك جماعة من الضيوف فتنظر مجرد نظرة إلى خادمك يفهم منها ما تريد دون أنْ يشعر أحد بك ، هذا يُعَد وحياً . كذلك الوحى الشرعى لا يأتى علانية ، إنما خُفية بين الله تعالى ورسوله ﷺ .

الوحى يختلف باختلاف الموحِى ، والموحَى إليه ، والموحَى به .

(١) أورده ابن رجب الحنبلى فى كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله أنه كان يدعو قائلاً : اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ، ثم لم أفِ لك به ، وأستغفرك مما زعمتُ أنى أردت به وجهك ، فخالط قلبى منه ما قد علمت » .

فالله تعالى يُوحى للجماد ، كما أوحى للأرض : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ ﴾ [الزلزلة]

ويُوحى للنحل : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا .. ۝٦٨ ﴾ [النحل]

وأوحى للبشر من غير الرسل : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۝٧ ﴾ [القصص] وأوحى للحواريين .

أما الوحى الشرعى الذى يتعلّق بالتكاليف فوَحْى من الله وخطاب إلى الرسُل بمنهج ليبلغوه عن الله ، وليس مجرد خاطر أو إلهام كالوحى السابق ، ومن الوحى أنْ يُوحى الشياطين إلى أوليائهم ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ۝١٢١ ﴾ [الأنعام]

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ۝٣١ ﴾ [فاطر] أى : من القرآن . أو من اللوح المحفوظ ﴿ هُوَ الْحَقُّ ۝٣١ ﴾ [فاطر] أى : القرآن هو عَيْن الحق ، وقد عرفنا من دراساتنا النحوية أن المبتدأ يأتى دائماً معرفة ، لأنك ستحكم عليه ، ولا يمكن أن تحكم على مجهول فتقول مثلاً : زيد مجتهد . فزيد معروف لك حكمتَ عليه بأنه مجتهد ، إذن : المجهول هو الخبر ، لذلك يأتى نكرةً دائماً ، فإذا قلتَ زيد هو المجتهد ، فإن هذا يعنى أنه بلغ من الاجتهاد مبلغاً ، بحيث إذا أُطلق الاجتهاد لا ينصرف إلا إليه .

كذلك فى قوله تعالى ﴿ هُوَ الْحَقُّ ۝٣١ ﴾ [فاطر] : أى : لا ينصرف الحق إلا إليه ، وهو عَيْن الحق ، ومعنى الحق الشىء الثابت الذى لا يتغير ولا يتضارب ، وحتى لا يفهم أحد أنه ما دام القرآن هو الحق فغيره من الكتب السابقة باطل ، قال سبحانه : ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۝٣١ ﴾ [فاطر]

فالقرآن حق ومُصدِّق لما سبقه من الكتب السماوية ، فهى أيضاً حق؛ لأن القرآن صدَّق عليها ، ولم يأتِ مخالفاً لها .

وفى موضع آخر ، قال تعالى : ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة]

فكأن الحق سبحانه يعطى للقرآن صَوْلة الخاتم النهائى فى الإكمال البشرى ، فإنْ جاء حكم فى الكتب السابقة ثم نزل حكم آخر فى القرآن فلنأخذ بالحكم الأخير ؛ لأنه نسخ الأول لمصلحة يقتضيها العصر وطبيعة التكاليف التى تتدرج حسب حالات الأمم .

فكأن الحق سبحانه ميَّز رسوله ﷺ بميزة لم تتوفر لغيره من الرسل ، وهى أن الرسل السابقين كانوا يُبلِّغون ما يُوحَى إليهم لأممهم ، لكن الله أذن لرسوله أن يُبلِّغ عن الله وفوَّضه أنْ يُشرِّع لقومه ؛ لذلك قال سبحانه :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر]

وهذه الآية ترد على الذين يقولون بأخْذ القرآن دون السنة ، هذه الفرْية القديمة الحديثة التى نسمع مَنْ ينادى بها من حين لآخر ، وهم لا يعلمون أن نصَّ القرآن يُلزمهم بالسنة واحترامها والأخذ بها ؛ لأنها مُوضِّحة للقرآن ، مُبيِّنة له ، شارحة لما أُجمل فيه ، وإلا فماذا يقولون فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر] ؟

ولو قُلْتُ لك : هل فى دستورنا مادة تنصُّ على فَصْل الموظف الذى يتغيَّب عن عمله خمسة عشر يوماً ؟ لا توجد هذه المادة فى الدستور ، إنما هى قانون وضعه جماعة من المختصين المفوضين فى ذلك ، حيث يُؤلَّف للخادمين فى الحكومة والعاملين بها لجنة تضع لهم القوانين بالتفويض ، كذلك فُوِّض رسول الله من قِبَل ربه عز وجل فى أنْ يُشرِّع لأمته ، وأنْ يُوضِّح لهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ﴾ [فاطر] الخبير : هو الذى يعلم خبايا كل الأشياء على حقيقتها ، والبصير : هو الذى لا يغيب عنه شىء ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة ، فقد تعلم الشىء لكن لا تراه ، والحق سبحانه يجمع فى القرآن كثيراً بين الخبير البصير كما في هذه الآية[1] ، أو بين اللطيف الخبير[2] لأن الخبرة تحتاج إلى بصر وتحتاج إلى لُطْف . واللطيف كما قلنا هو الذى يتغلغل فى الأشياء ولا يمنعه مانع .

لذلك قلنا : إن أعنف الأشياء فَتْكاً هى الدقيقة اللطيفة التى لا تُرى بالعين المجردة ، وكنا (زمان) نسميها الميكروب ، والآن ظهر الفيروس ، أظن أنه ألطف وأدقّ من الميكروب ، وأشدّ منه فَتْكاً .

وقد أوضحنا هذه المسألة بالذى يبنى بيتاً مثلاً ، ويريد أن يحتاط للحيوانات والحشرات الضارة ، فيضع شبكة من الحديد مثلاً على الشبابيك ، لكن لا بُدَّ أن تتناسب هذه الشبكة مع دقَّة الشىء الذى تخاف منه ، فالذى يمنع الذئاب ، غير الذى يمنع الفئران ، غير

---

(١) وكذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) ﴾ [الشورى] .
وقوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) ﴾ [الإسراء]
وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) ﴾ [الإسراء].
وقوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا .. (٩٦) ﴾ [الإسراء] .

(٢) ورد اقتران اللطيف بالخبير في القرآن خمس مرات :
- ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾ [الأنعام] .
- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) ﴾ [الحج] .
- ﴿ يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَـٰوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾ [لقمان] .
- ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك] .

الذى يمنع الذباب والناموس .. الخ .

إذن : كلما دَقَّ الشيء عَنُفَ واحتاج إلى احتياط أكثر ؛ لأنه يتغلغل فى أضيق شيء وينفذ إليك دون أنْ تشعر به .

ونفهم من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ﴾ [فاطر] أن الله تعالى هو القادر وحده على أنْ يُشرِّع لعباده ما يناسبهم فى كل زمان ومكان ؛ لذلك تعددتْ الكتب السماوية لما اختلفتْ الداءات ، فلما التقى العالم واتصل جاء القرآن مهيمناً على كل هذه الكتب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) ﴾

الكتاب هو القرآن ، إذن : هذا الميراث كان بعد سيدنا رسول الله ﷺ وهو دليل على أن المرحلة التى بعد رسول الله مرحلة ميراث للكتاب وللمنهج ، يرثه العلماء عن رسول الله ؛ لذلك جاء فى الحديث : « إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما وَرَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر »[(١)]

فالنبى ﷺ كان هو المبلِّغ والمعلِّم حال حياته ، أما بعد وفاته فقد وكَل الله هذه المهمة إلى العلماء . ومعنى ﴿ أَوْرَثْنَا (٣٢) ﴾ [فاطر] يعنى :

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٩٦/٥) ، وابن ماجه فى سننه (٢٢٣) ، وأبو داود فى سننه (٣٦٤١) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه .

طلبنا منهم أنْ يفعلوا فيه فعْل الوارث فى المال ؛ لأن الوارث للمال يُوجِّهه وجهةَ النفع العام ، وهذه هى وجْهة الرسالة أيضاً .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (١٤٣) ﴾ [البقرة] فنحن ورثة محمد ، ومَنْ علم منَّا حكماً فعليه أنْ يبلغه . فالرسول شهيد على مَنْ بلَّغهم ، كذلك أمته سيكونون شهداء على الناس الذين يُبلِّغونهم .

ومعنى ﴿ اصْطَفَيْنَا (٣٢) ﴾ [فاطر] أى : اخترنا وفضَّلنا على سائر الأمة ، ثم يُقسِّم الحق سبحانه هؤلاء إلى ثلاثة أصناف : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ (٣٢) ﴾ [فاطر] ظلمها بالتقصير فى حَقِّ هذا الكتاب الذى ورثه ، فلم يعمل به كما ينبغى أنْ يعمل ، بل قد يرتكب كبيرة والعياذ بالله .

وهذا الصنف ظلم نفسه ؛ لأنه حرمها الثواب ، فكُلُّ تكليف يطلب منك العمل اليسير ويعطيك عليه الجزاء الوفير ، فحين تُقصِّر فى اليسير من العمل فإنك لا شكَّ ظالمٌ لنفسك .

﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ (٣٢) ﴾ [فاطر] يعنى : يعمل به فى بعض الأوقات ، فيخلط عملاً صالحاً بآخر سيء.

﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ (٣٢) ﴾ [فاطر]

اللهم اجعلنا منهم إنْ شاء الله ، وكلمة (سابق) تدل على أن هناك سباقاً ومنافسة : أىّ المتسابقين يصل أولاً إلى الغاية الموضوعة للسباق ، وأهل هذا الصنف يتسابقون فى الخيرات .

وقوله تعالى : ﴿ اصْطَفَيْنَا (٣٢) ﴾ [فاطر] دلتْ على أن كلمة التوحيد لها ثمن ، والإيمان برسول الله له ثمن ، والعمل بما جاء به رسول الله له ثمن ، وإنْ كان من بين هؤلاء المصطفين مَنْ يظلم نفسه بالتقصير بل وارتكاب المعاصى ، وهو مع هذا كله من المصطفين ؛

لأنه قال لا إلـه إلا الله ، والحق سبحـانه لا يُسوِّى بين مَـنْ قال هذه الكلمـة ومَنْ جحـدها « لا إله إلا الله حصْنى ، مَنْ قـالهـا دخل حصنى »[1]

لذلك ذكـر الحق سبحـانه لهؤلاء المـؤمنين الذين وَرِثوا الكتـاب وصفين : ﴿ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا (٣٢) ﴾ [فاطر] فوصفهم بالاصطفاء ، والعبودية له سبحانه .

إذن : نزل الكتاب على محمد ﷺ وورثـتْ أمته الكتاب من بعده ، فهى امتداد لرسالته ؛ لذلك أمن الله هذه الأمة على أنْ تحمل منهج الله إلى الناس كافة إلى أن تقوم الساعة ، فى حين لم يأْمَن غيرنا .

وقد تكفل الحق سـبحانه بحفظ هذا الكتـاب ، ولم يكِلْ حفظه إلى أحد كـما حدث فى الكتب السـابقة على القرآن ، كـما قال سبحـانه : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ .. (٤٤) ﴾ [المائدة]

ومعنى ﴿ اسْتُحْفِظُوا (٤٤) ﴾ [المائدة] طُلب منهم أنْ يحفظوه ، لكنهم قصَّـروا فَنَسُوا بعض الآيات ، وحرَّفوا بـعضها ، وكـتَموا بعضـها ، بل ومنهم مَـنْ كـان يأتى بكلام مـن عنده ويقـول هـو من عند الله ، ولأن القرآن هو الكتاب الخاتم حفظه الله بنفسه ، ولم يأْمَن أحداً على حفظه .

فإنْ قُلْتَ : كيف يكون الظالمُ نفسَـه من المصطفين ، وهو مرتكب للذنوب وربما للكبائر؟ نقول : بمجرد أن يقول العبد أشهد ألا إله إلا الله وأن محـمداً رسول الله ، فـهو مُصْطفىً ، اصطفـاه الله على الكفار بهذه الكلمة ، وإنْ حدَثت منه المعصية بعد ذلك .

---

(١) أخرجه ابن عساكر فيما ذكرته موسوعة أطراف الحديث (٢/٨٢) ، تهذيب تاريخ دمشق .

والحق سبحانه وتعالى حين يذكر الذنب ويُجرِّمه ويضع له عقوبة، فهذا إذْنٌ بأنه سيقع ، فمثلاً جرَّم الله السرقة ووضع لها حَدّاً ، وجرَّم الزنا ووضع له حداً ، فكأن مثل هذه الأمور تحدث فى مجتمع المسلمين ، أما الكذب مثلاً فلم يضع له حَدّاً ولا عقوبة ، لذلك ورد فى حديث سيدنا رسول الله لما سُئِل : أيزنى المؤمن يا رسول الله ؟ قال : نعم ، أيسرق المؤمن يا رسول الله ؟ قال : نعم ، أيكذب المؤمن يا رسول الله ؟ قال : لا[1] .

فكأن المؤمن يُتوقَّع منه الزنا والسرقة ، ولا يُتوقَّع منه الكذب ، فهو أبعد الصفات عن المؤمن ، لماذا ؟ قالوا : لأن الكذب يخالف الواقع ويقلب الحقائق ، والمؤمن لا يكذب ؛ لأنه ينطق بلا إله إلا الله ، فإنْ كان كذاباً ما يدرينى أنه صدق فى هذه الكلمة ، فكأن الكذب يهدم الإيمان من أساسه ؛ لذلك لم يجعل الله له عقوبة ؛ لأنه لا يُتصوَّر من المؤمن .

والمقتصد : هو الذى تساوتْ حسناته وسيئاته ، وخلط عملاً صالحاً بآخر سيء ، وفى موضع آخر يقول تعالى فى حق هذا الصنف : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) ﴾ [التوبة]

يقول النحاة : إن عسى تدل على الرجاء ، وأغلب الرجاء التوقّع واحتمال الحدوث ، على خلاف (ليت) التى وُضعت للتمنى ، والتمنى يكون لشيء بعيد أو مستحيل الحدوث ، فهى لمجرد إظهار المحبوبية للشيء المتمنَّى فقط ، ولا تدل على رجاء .

(١) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (ص٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً .

ومن ذلك قول الشاعر :

أَلاَ لَيْتَ الشبابَ يَعُود يَوْماً فَأخْبِرهُ بِمَا فَعَلَ المشيبُ[1]

وسبق أنْ قُلنا : إن عسى وإنْ دَلَّتْ على رجاء حدوث الفعل ، إلا أنها درجات بعضها أوثق من بعض ومراتب ، فمثلاً إنْ كان الرجاء في بشر مثلك كأن تقول : عسى فلان أنْ يعطيني . فهذا رجاء على درجة معينة من احتمال التحقق ، فإنْ قُلْتَ عسى أن أعطيك بصيغة المتكلم ، فهي أقوى من الأولى وأوثق ، فإنْ قُلْتَ : عسى الله أنْ يعطيك فهي أوثق ؛ لأنه رجاء في الله ، فإنَّ قوله سبحانه : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [التوبة] فعسى هنا للرجاء المحقق ، إذن : هذه من أرجى الآيات التي ينتظرها المقتصد المقصِّر في حَقِّ ربه .

أما السابق بالخيرات ، فهو الذي يعمل بالأمر ويُتمه ويأتي به على أكمل أوجه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المطففين]

وتأمل مثلاً قوله تعالى في سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة]

يعني : أتمَّ ما أمر به أولاً بالقدرة العادية ، ثم بالحيلة والقدرة العقلية ، فلما أمره الله مثلاً بأنْ يرفع القواعد من البيت : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [البقرة] ماذا طلب منه ؟ وماذا فعل هو ؟

طلب منه أنْ يرفع قواعد البيت ، وكان يكفي في طاعة هذا الأمر

---

(١) أكثر المصادر على أن هذا البيت لأبي العتاهية ، نسبه له الجاحظ في « البيان والتبيين » (كتاب العصا) . وكذلك أبو هلال العسكري في كتابه « ديوان المعاني » فصل الشباب والشيب ، وكذلك الراغب الأصفهاني في « محاضرات الأدباء » ، ولكن عزاه الزوزني لحاتم طيء في « حماسة الظرفاء » باب الكبَر والشيب .

أنْ يبنى القواعد على قدر ما تطوله يده من الارتفاع ، لكنه زاد على ذلك واستخدم الحيلة العقلية ، فبعد أنْ وفَّى الأمر وأدَّاه أراد أنْ يزيد شيئاً من عنده ، وأن يحسن العمل فوق ما طُلبَ منه ، فكان يأتى بالحجر الضخم ويضعه كـ (السقالة) ، ويقف عليه ليرفع البناء بقدر ارتفاع الحجر ، وولده إسماعيل يناوله .

كذلك لما ابْتُلى فى شبابه بالإحراق صبر ووثق بالله ، فلما جاءه جبريل عليه السلام يعرض عليه المساعدة ، وهو الواسطة بينه وبين ربه أبَى وقال : أما إليك فلا ، يعنى : أنت وَصلْتنى بالله فلم يَعُدْ بينى وبين ربى واسطة .

وهذه مسألة عجيبة ، ودرجة من الإيمان عالية ، وثقة بالله لا يتطرق إليها شك ولا ارتياب ؛ لذلك أنقذه الله وخرق له العادة ، وأبطل من أجله قانون النار والإحراق ، فقال سبحانه للنار ﴿ يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء]

وتأمل هذا الاحتياط من رب الأمر ﴿ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء] لذلك قال العلماء : لو أن الأمر كان للنار كُونى برداً (وفقط) لتحولتْ عليه برداً قاتلاً ربما أشد من النار .

ثم إن هذا الابتلاء وقع لإبراهيم عليه السلام فى نفسه وهو صغير والإنسان قبل أنْ يكون له ولد يكون كل حظه فى نفسه ، فإنْ رُزق الولد انتقل حظّه إلى ولده فيحبه أكثر من حُبه لنفسه ، ويتمنى أن يُعوِّض فى ولده ما لم يستطعه فى نفسه ، لذلك يقولون : إن الإنسان لا يحب أن يكون أحدٌ أفضل منه إلا ولده ، إذن : عصبية الإنسان فى حبه لولده أكثر من عصبيته لنفسه .

وسيدنا إبراهيم - عليه السلام - بعد أن نجح فى الابتلاء فى النفس ابتلاه الله فى الولد ، وتعلمون أن سيدنا إبراهيم رزقه الله بالولد على كِبَر وبعد يأس من الإنجاب ، فجاء إسماعيل على شوق من

إبراهيم حتى إذا شَبَّ الولد وبلغ مبلغ السعى مع أبيه يأتيه الأمر من السماء أنْ يذبحه ، وجاء هذا الأمر فى صورة رؤيا ، والرؤيا تحتمل التأويل ، لكن إبراهيم عليه السلام لم يؤولها ، وأخذها على الحقيقة .

وهذا الابتلاء فى الحقيقة ينطوى على ابتلاءات أربع : **الأول** : أن يذبح الولد الذى جاءه على كِبَر وبعد طول انتظار . **الثانى** : ألاَّ يذبحه شخص آخر فيكون غريماً لإبراهيم عليه السلام . **الثالث** : أنْ يذبحه هو بيده . **الرابع** : أنْ يشرك ولده معه فى الابتلاء وألاَّ يأخذه على غِرَّة .

ذلك أن إبراهيم عليه السلام لما هَمَّ بتنفيذ ما أُمرَ به لم يُردْ أنْ يأخذ ولده غِرَّة لعدْة أمور : **أولاً** : حتى لا يُتَّهم بالقسوة والغلظة . **ثانياً** : لكى لا تتغير خواطر الولد نحو والده فيتهمه بما لا يليق . **ثالثاً** : ليشركه ولده معه فى الابتلاء وفى الثواب ، وفى الرضا بقضاء الله ؛ لذلك قال له : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات]

فكأنه يأخذ رأيه فى الموضوع : ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ .. ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات] ولم يقل مثلاً : افعل ما تريد ؛ فالأمر انصياع وخضوع لأمر الله : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات]

وهكذا اشترك الاثنان فى الرضا ، وفى الصبر ، وفى الجزاء وخطفَ إسماعيلُ الفوز فى الابتلاء فى آخر الشوط ؛ لذلك قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الصافات] الولد وأبوه ﴿ وَتَلَّهُ[1] لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : هَمَّ بذبحه ، أو كاد يفعل ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ

---

(١) تلَّه : ألقاه على وجهه على الأرض ، وقوله تعالى : ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الصافات] أى : ألقاه وجبينه ووجهه إلى الأرض . [القاموس القويم ١/١٠١] .

الرُّءْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات]

وحين تتأمل هذه القصة تجد أن الحق سبحانه قابلَ هذه الابتلاءات الأربعة ، بعطاءات أربعة : أنقذ إسماعيل من الذبح ، وفداه بذبح عظيم ، ثم بشَّر إبراهيم بإسحاق . ومن وراء إسحاق يعقوب ، ثم جعلهم جميعاً من الأنبياء فضلاً من الله .

﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) ﴾ [فاطر] نعم ، الحق سبحانه يعاملنا بالفضل الكبير ، ويعطينا مُثُلاً ليُحبِّبنا فى الدين ، فالحسنة عنده بعشر أمثالها ، أو يزيدها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، والسيئة بمثلها .

ومَنْ غلبت حسناته سيئاته يُرْجَى له الجنة ، ومَنْ غلبت سيئاته حسناته فهو مُرْجأ لأمر الله ، إنْ شاء عذبه بعدله ومآله إلى الجنة، وإنْ شاء غفر له بفضله ، فإنْ بادر بالتوبة النصوح وأخلص بدَّل الله سيئاته حسنات .

حتى أن بعض الظرفاء يقول : ليتنى كنت من أهل الكبائر . وجاء فى دعاء العارفين : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وعاملنا بالإحسان لا بالميزان ، وعاملنا بالجبر لا بالحساب .

يعاملنا ربنا بالفضل بدليل أنه أدخل الظالم لنفسه ، وأدخل المقتصد فى ساحة المصطفين من عباده .

ثم يوضح لنا الحق سبحانه هذا الفضل الكبير فيقول :

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) ﴾

تلحظ أن ﴿جَنَّاتُ ﴿٣٣﴾﴾ [فاطر] جمع ، فهى جنات عِدَّة ، لا جنة واحدة ، وجنات (عدن) يعنى : إقامة دائمة لا تنتهى ، ووصف الجنّات هنا بالدوام لأن آدم عليه السلام سبق أنْ أُدخل الجنة ، لكن خرج منها ، أما جنة الآخرة فدائمة باقية لا يخرج منها مَنْ دخلها .

وقوله تعالى ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴿٣٣﴾﴾ [فاطر] تلحظ أن الحق سبحانه ذكر هنا التحلية والزينة قبل الضروريات ، وهذا يعنى أن الضروريات جاهزة مفروغ منها ، وهذه التحلية ستكون فى الآخرة من الذهب ومن الحرير ، وهى من المحرَّمات على الرجال فى الدنيا ، أما فى الآخرة فشىء آخر .

وكلمة (أساور) جمع أسورة وأسورة جمع سوار . مثل فؤاد وأفئدة ، فهى جمع للجمع ليدل على كثرتها ، وأنك ستُحلَّى إن شاء الله فى الجنة بأساور كثيرة تملأ الذراع من المعصم إلى العَضُد ، ومعلوم أن السوار هو ما يتحلى به المعصم وتلبسه النساء للزينة فى الدنيا ، كُلٌّ حسب إمكاناتها ، حتى أن بعض الغنيات يلبسْنَ أسورة عريضة فى العضد يسمونها (دُمْلُك) لفرط غناها .

وعجيب أن نرى بعض الرجال يتعجَّلون حلية الجنة ، لكن من غير طريقها ، فيلبسون الأساور ، وهو ما يُسمَّى الآن (الانسيال) .

وذكر الحق سبحانه أساور الذهب فى الحلية ؛ لأن الملوك قديماً كانوا يلبسونها ويتحلَّوْن بها ، وكان لكسرى سواران لهما قصة فى تاريخنا ، فلما أسلم سراقة بن مالك[1] ، وكان نحيلاً تشبه ذراعاه

---

(١) هو : سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى الكنانى ، أبو سفيان ، صحابى ، كان فى الجاهلية قصاصاً للأثر ، أخرجه أبو سفيان ليقتص أثر رسول الله ﷺ حين خرج إلى الغار مع أبى بكر ، أسلم بعد غزوة الطائف عام ٨ هجرية ، له فى كتب الحديث ١٩ حديثاً . توفى عام ٢٤ هجرية . [الأعلام للزركلى ٣/ ٨٠] .

ذراعَىْ الماعز[1] ، وكان بعض الصحابة يسخرون منه ، فنهاهم عن ذلك سيدنا رسول الله ﷺ وقال قولة عرفوا معناها فيما بعد ، قال : « كيف بهما - يعنى ذراعى سراقة - فى سوارى كسرى ؟ ».

فلما فتح المسلمون بلاد فارس وغنموا قصور كسْرى وأمواله جاء السِّواران من نصيب سُراقة عند توزيع الغنائم ، فلما رآهما عمر فى يديه قال : صدق رسول الله ﷺ[2] .

وهذه الأساور ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴿٣٣﴾﴾ [فاطر] الذهب معلوم أنه من الجبال ، واللؤلؤ من حلْية البحر .

وتأمل دقَّة الأداء القرآنى هنا : فلما تكلم عن الأساور جاء بجمع الجمع ليدل على الكثرة ، لكن لما تكلم عن الثياب قال ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [فاطر] بصيغة المفرد ، لماذا ؟ قالوا ، لأنك لا تحتاج إلى العديد من الثياب إلا لتردَّ عن نفسك البرد أو الحر ، وليس فى الجنة شىء من هذا .

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾

---

(١) ذكر أبو عبد الله الحميرى فى كتابه « الروض المعطار فى أخبار الأقطار » « أن سراقة كان رجلاً أزب كثير شعر الساعدين » أثناء ذكره هذا الخبر .

(٢) أخرجه أبو بكر البيهقى فى دلائل النبوة (٦/٣٢٥) من حديث عمر بن الخطاب أنه أتى بفروة كسرى فوُضعت بين يديه وفى القوم سراقة بن مالك بن جعشم قال : فألقى إليه سوارى كسرى بن هرمز فجعلهما فى يديه فبلغا منكبيه فلما رآهما فى يدى سراقة قال : الحمد لله سوارى كسرى بن هرمز فى يد سراقة بن مالك بن جعشم . قال الشافعى : وإنما ألبسهما سراقة لأن النبى ﷺ قال لسراقة ونظر إلى ذراعيه : كأنى بك قد لبست سوارى كسرى » .

هذا قَوْل المؤمنين ساعة يتمتعون بنعيم الجنة ، فهم لا ينسوْنَ المنعمَ سبحانه ، فيحمدونه أولاً على أنْ شَرَع لهم المنهج الذى أوصلهم إلى هذا النعيم ، ويحمدونه على أنْ نجَّاهم وأنقذهم من الكفر وهداهم إلى الإيمان . إذن : هذا حمد مركب .

وكلمة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فاطر] هى آخر ما يقوله المنعَّمون فى الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس]

ومن لُطف الله بعباده وعَطْفه عليهم يُعلِّمهم كيف يحمدونه سبحانه ، ويُعلِّمهم هذه الكلمة الموجزة المكوّنة من مبتدأ وخبر : الحمد لله ، ذلك لأن الناس مختلفون فى القدرة على الأداء البيانى والتعبير البليغ ، فواحد بليغ قادر على صياغة الأسلوب الجميل وتنميق العبارات ، وآخر لا يجيد شيئاً من هذا ؛ لذلك علَّمنا الله تعالى كيف نحمده بلفظ سهل ميسور يتساوى فيه الجميع .

لذلك جاء فى مناجاة رسول الله لربه : « .. لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك »[1]

وقلنا : إن كلمة (الحمد لله) تستوجب سلسلةً لا تنتهى من الحمد ، فحين تقول على النعمة : الحمد لله . فهذه الكلمة فى ذاتها نعمة تستوجب الحمد ، وتستحق الحمد ، وهكذا يظل الحق سبحانه محموداً ، ويظل العبد حامداً إلى ما لا نهاية .

وقوله سبحانه ﴿ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فاطر] هذه نعمة ثالثة

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش ، فالتمسته ، فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد ، وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك . وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

تستحق الحـمد ، فالحمد أولاً على النعم ، وثانياً على أنك حمدتَ الله على نعـمه ، وثالثاً تحمـد الله الذى أذهب عنك الحزن ، والحَـزَن كل ما يُحزنك أو يغمُّك ، أو هو استدامة الحزن فى الإنسان .

فالإنسـان يسعد بالنعيم فى الدنـيا ويُسَرُّ به ، لكن يُنغِّصـه عليه مـخافـة زواله ، فيـعيش مـهمـوماً حـزيناً ، يخاف أنْ تفـوته النعمـةُ أو يفوتهـا هو بالموت ، أما فى الآخرة فـلا يفكر المرء فى شىء من هذا أبداً ، فقـد ذهب هذا الفكر مع ذهاب الدنيا ، والجـزاء فى الآخرة باقٍ دائم ، لا يفوتك ولا تفوته .

وقولهم : ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) ﴾ [فاطر] كأنهم يتهمون أنفسهم بالتقـصير ، وأنهم ما أدَّوا حق الله كـما ينبغى ، وأن ما هم فـيه من النعـيم ما هو إلا لأن ربهم غـفور يتـجاوز عن تقـصيـرهم ، وشكور يشكر لهم العمل الصالح بعد أنْ وفَّقهم له وأعانهم عليه .

ثم يذكر الحق سبحانه إقرارهم بما وهبهم الله من نعيم ، فيقول :

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) ﴾

معنى : ﴿ أَحَلَّنَا (٣٥) ﴾ [فاطر] أدخلنا وجعلها محلاً لنا ﴿ دَارَ الْمُقَامَةِ (٣٥) ﴾ [فاطر] أى : الإقامـة الدائمة والمـراد الجنة ، فالجنة دار إقـامة دائمـة . أما الدنـيا فـما هـى إلا معـبر إلـى الآخرة ، ولا تُسـمَّى دار إقامة . وهذه الجنة جـعلها الله محلاً لهم ليس بأعمـالهم ، إنما بفضل من الله وتكرُّم ، حتى إنْ كـان لك عمل صالح فهـو راجع إلى تشريع الله لك . إذن : كله يعود إلى فضل الله.

وقولهم : ﴿ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا (٣٥) ﴾ [فاطر] أى : فى الجنة ﴿ نَصَبٌ

(٣٥)﴾ [فاطر] أى : تعب ومشقة ﴿وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥)﴾ [فاطر] يعنى : إعياء وفتور نتيجة التعب من حركات الأجهزة . والإنسان منَّا فى سعيه فى الدنيا يتعرض لكثير من المشاق ، حتى أننا نقول يضرب فى الأرض يعنى : يسعى فكأنها عملية مرهقة شاقة يعود الإنسان منها مُتْعباً مُنْهكاً ، هذا هو اللُّغُوب إلى أنْ ترتاح منه وتستجم ، وتعود لك قوتك ونشاطك للعمل من جديد .

ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨)﴾ [ق]

وقال بعضهم : النَّصَب : تعب الجوارح . واللغوب : تعب الصدور ، ويُراد به الهم الذى يشغل بال الإنسان .

وهذا المعنى قال فيه شوقى رحمه الله :

لَيْسَ بِحِمْلٍ مَا أَطَاقَ الظهْرُ ... مَا الحِمْلُ الاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْرُ

والإمام علىّ رضى الله عنه لما سُئل عن أشدِّ جنود الله فى الأرض ، قال : الهَمّ . فإنْ تسلط على إنسان أقلقه وأقضَّ مضجعه ؛ لذلك قالوا : والهمّ يغلب النوم ، فكان أشد منه[1] ، وما يزال الهم بالإنسان حتى يصير نحيلاً بعد البدانة ، كما قال المتنبى:[2]

---

(١) ذكره أبو على القالى فى ذيل الأمالى والنوادر (١٩٣/٣) أن على بن أبى طالب قال : أشد جنود ربك عشرة : الجبال الرواسى ، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح تقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو الشىء ويمضى لحاجته ، والسُّكْر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السكر ، والهمُّ يغلب النوم ، فأشد خلق الله عز وجل الهمُّ .

(٢) المتنبى هو أحمد بن الحسين بن الحسن الكندى ، أبو الطيب ، ولد بالكوفة ٣٠٣ هـ شاعر حكيم ، نسب إلى كندة بالكوفة ونشأ بالشام ، قال الشعر صبياً ، وتنبأ فى بادية السماوة لذلك سمى بالمتنبى ولكنه تاب ورجع عن دعواه ، مدح كافور الإخشيدى بمصر ثم هجاه ، ومدح عضد الدولة بن بويه فى شيراز ، توفى قتيلاً عام ٣٥٤ هـ .

والهَمُّ يغتنم[1] الجَسيمَ نَحَافَةً ويُشيبُ نَاصيةَ الصَّبِىِّ ويُهرِمُ

بعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه وتعالى عن أهل الإيمان المصطفين من عباده ، وعن جزائهم فى جنات عدن لتستبشر النفس ، وتتفتح إلى بشارات الأتقياء يذكر سبحانه ما يقابل ذلك من نذارات الأغبياء ، وذكْر المقابل يزيد المعنى وضوحاً ، وهو سمَة من سمات الأسلوب القرآنى ، كما فى قوله تعالى :﴿ إنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

وقوله سبحانه : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) ﴾ [التوبة]

كذلك هنا يقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) ﴾

اللام فى ﴿ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ (٣٦) ﴾ [فاطر] تفيد الملكية والاختصاص ، كما نقول : فلان له كذا وكذا ، فكأنهم يتعلَّقون بها ، وهى تتعلق بهم تعلُّق المالك بالمملوك ، وساعةَ يدخلونها والعياذ بالله يودُّون الخلاص منها ولو بالموت ، على حدِّ قول الشاعر :

كَفَى بكَ دَاءً أنْ تَرَى الموْتَ شَافياً وحَسْبُ المنَايَا أنْ يكُنَّ أمَانيا[2]

---

(١) الصواب : (والهم يخترم) كما فى ديوان المتنبى : وهو من قصيدة له من بحر الكامل عدد أبياتها ٣٦ بيتاً ، وأشهر أبيات هذه القصيدة هو قوله :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

(٢) هذا البيت للمتنبى أيضاً وهو مطلع قصيدة له فى ديوانه ، وهى من بحر الطويل ، عدد أبياتها ٤٧ بيتاً .

نعم : يتمنَّوْنَ الخلاص ولو بالموت ، لكن هيهات لهم ذلك ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَنَادَوْا يَـٰمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف] فالموت ليس عذاباً ، بل هو بالنسبة لهم راحة من عذاب أشدّ وأبْقى .

وأذكر أن بعض المستشارين ادعى أن كتاب الله ليس فيه دليل على رَجْم الزانية المحصنة ، واستدل على ذلك بقوله تعالى فى الإماء: ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النساء]

على اعتبار أن الرجم لا يتجزأ ليكون فيه نصف رجم ، وما دام الرجم لا يتجزأ فلا رجمَ إذن . فربنا سبحانه وتعالى ألهم وقلنا والحمد لله : علينا أن نحدد أولاً ما العذاب ؟ العذاب : إيلام حَيٍّ ، وإذا ما جمعنا آيات القرآن فى الموضوع بعضها إلى بعض ، وَضُحَتْ لنا الصورة وظهر المعنى ، فالله يقول فى قصة هدهد سليمان عليه السلام : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ ﴿٢١﴾ ﴾[النمل] إذن : الموت أو الذبح أو القتل ليس عذاباً . والرجم إماتة ، والإماتة إنهاء للعذاب .

والحق سبحانه وتعالى حين قال هذا النص شاء الله سبحانه أن يجعل لنبيه ﷺ بياناً بهذا النص ، وفَرْق بين حكم تأخذه بالنص ، وحكم تأخذه بالتطبيق الفعلى من المشرِّع ﷺ ؛ لأن النص يمكن لك أنْ تؤوله ، أما التطبيق الفعلى من رسول الله فلا تأويلَ فيه ، وقد ثبت أن رسول الله رجم بالفعل .

ولو كان الأمر كما يدَّعى المستشار لكانت الآية : فعليهن نصف ما على المحصنات دون أنْ تذكر العذاب ، فقوله تعالى : ﴿ مِنَ الْعَذَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾[النساء] يعنى : لا من غيره ، فهو بيان للنصف ، نصف العذاب ، والرجم ليس عذاباً ، بل إنهاء للعذاب .

ثم يخبر سبحانه عن حال أهل النار ﴿ وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا (٣٦) ﴾ [فاطر] أي : أنه عذاب دائم لا ينقطع ولا يفتر ، فالإنسان مثلاً في الدنيا قد يُبْتلي - والعياذ بالله - بأنْ يُعتقل ويُضرب مثلاً ليُقرَّ بما حدث ، إلى أن يصير جسمه جسماً (أطرش) يعني : لا يشعر بالألم لكثرة الضرب ؛ لذلك مثل هؤلاء يُضرب جَلْدة ، أو عدة جلدات ، ثم لا يشعر بعدها بشيء ، ويصدق فيه قول الشاعر :

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلُ الهَوَانُ عَلَيْهِ مَا لجُرْحٍ مَيِّتٍ إيلاَمُ [1]

أو قَوْل الآخر :

وكنتُ إذَا أصَابَتْني سِهَامٌ تكسَّرَتِ النِّصَالُ على النِّصَالِ [2]

إذن : عذاب الدنيا قد يُخفَّف ، ولو بهذه العادة الرديئة ، وهي فقدان الإحساس بالعذاب حين يفقد الجلد اتصاله بالمخ ، أما عذاب الآخرة فلا يُخفَّف عنهم مهما طال بهم ؛ لذلك يقول تعالى في موضع آخر : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (٥٦) ﴾ [النساء]

---

(١) هذا البيت للمتنبي أيضاً ، وهو من قصيدة مطلعها :

لا افتخَارٌ إلاَّ لمَنْ لاَ يُضامُ مُدْرِك أوْ مُحاربٍ لاَ ينَامُ

وهي في ديوانه من بحر الخفيف ، عدد أبياتها ٤٣ بيتاً .

(٢) هذا البيت قاله عدة شعراء مع اختلاف في صدره واتحاد العجز :

- إبراهيم الطباطبائي : فصار إذا أصابته سهام
- أحمد الغروي : فصرت إذا أصابتني سهام
- المتنبي : فصرت إذا أصابتني سهام
- جرمانوس فرحات : فصرت إذا أصابتني سهام
- حفني ناصف : ولاقت مثلها الصعدات حتى
- عبد الرحمن الموصلي : وصار إذا أصابته سهام

فهو للمتنبي أيضاً من قصيدة له في ديوانه من بحر الوافر ، عدد أبياتها ٤٥ بيتاً ، فهو السابق إلى هذا المعنى بهذا اللفظ .

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

معنى ﴿يَصْطَرِخُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر] أى : يصرخون ويصيحون مستغيثين طالبين للنجدة . والصراخ : استنجاد بمَنْ يخلصك من شدة أو ضائقة أو عذاب ، ومثل هذا الصوت نسمعه مثلاً حين يشبُّ حريق لا قدَّر الله ، فيصرخ الناس طلباً للمساعدة .

وهؤلاء يصطرخون ﴿فِيهَا ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر] أى : فى النار يقولون فى صراخهم ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر] أولاً : عجيب منهم أن يقولوا الآن (ربنا) هذه الكلمة التى أنكروها فى الدنيا ، وكفروا بها ، الآن ينطقونها ، لكن بعد فوات أوانها . ثم أقرُّوا على أنفسهم بأن عملهم فى الدنيا لم يكُنْ صالحاً ، وهذه حيثية تُحسب عليهم لا لهم ، وتزيد من عذابهم لا تُخففه عنهم .

ثم لو أجابهم الله - وهيهاتَ لهم ذلك - هل سيعملون صالحاً كما يقولون ؟ لقد علم الله كذبهم ، فقال سبحانه ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام]

إذن : هذا مجرد كلام حين الضائقة ، ولو رجعوا لعادوا لما كانوا عليه ؛ لذلك يرد الله عليهم ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ .. ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر] يعنى : مددنا لكم العمر فى الدنيا بما يكفى للتذكُّر وللاعتبار لمَنْ أراد أنْ يتذكر أو يعتبر .

﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر] الرسول الذى ينذركم ويحذركم من

عاقبة أفعالكم ، ومع ذلك لم تعودوا إلى الجادة ، ولم تراجعوا أنفسكم إلى أن فات الأوان .

﴿ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) ﴾ [فاطر] أي : ذوقوا العذاب ، ومعنى ﴿ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) ﴾ [فاطر] أي : مُعين . والنصير هو الذي يدفع عنك بقوة ، ويدخل معك المعركة ، وفي موضع آخر يقول سبحانه ﴿ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١) ﴾ [الشورى] والولي : هو القريب الذي يدفع عنك برجاء واستمالة وتحنين ، وهؤلاء لا لهم وليٌّ ، ولا لهم نصير في هذا الموقف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٣٨) ﴾

جاءت هذه الآية كتعليل لما قبلها ، فالحق سبحانه يعلم كل ما غاب في السموات وفي الأرض ، ويعلم خفايا الصدور ومكنوناتها ونواياها وما يعلق بها ، وقد علم سبحانه نوايا أهل النار ، وعلم أنهم لو رجعوا إلى الدنيا لَعادوا لما كانوا عليه ، فهذه تجربة لن تتكرر ؛ لذلك أنهى الله معهم هذا الموقف ، وحكم بعدم رجوعهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمۡ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَـٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتًاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَـٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) ﴾

معنى : ﴿ خَلَائِفَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [فاطر] خلفاء : يخلف بعضكم بعضاً . وفى آية أخرى ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة] أى : خليفة لله فى أرضه ؛ لذلك وهبنا الله صفات من صفاته سبحانه ، لنباشر بها مهمتنا فى الأرض ، فإنْ وجدتَ فينا قدرة على العمل فهى من قدرة الله، وإنْ وجدت فى تصرفاتنا حكمة فهى فيض من حكمة الله ، وإنْ وجدت فينا عزة فهى من عزة الله .. الخ .

هذا هو معنى الخلافة ؛ لأن الإنسان حين يتأمل ذاته يجد أن كلَّ ما فيه موهوب له من خالقه سبحانه ، ليس ذاتياً فيه .

وسبق أنْ قلنا مثلاً : إنك لمجرد إرادتك أنْ تقوم من مكانك تجد نفسك قد قُمْت دون أنْ تعرف ماذا حدث فى أعضائك وعضلاتك ، وكيف صدرت الأوامر لهذه العضلات أنْ تتحرك ، هذه فى الحقيقة صفة من صفات الخالق سبحانه وهبك شيئاً منها ، بدليل أنه سبحانه إنْ سلبك هذه القوة لا تستطيع القيام ، وقد سلبها بالفعل من غيرك ليبين لك أن قوتك ليست ذاتية فيك ، فلا تغترَّ بها .

تلحظ مثلاً بعد تطور الصناعة أن العلماء استخدموا حركات البشر فى صناعة (الأوناش والبلدوزرات) فترى الحركة الواحدة تحتاج إلى عدة حركات من الآلة ، وتحتاج إلى أنْ يضغط السائق على زرٍّ معين لهذه الحركة ، أما أنت فلا تحتاج فى حركة أعضائك إلى شئ من هذا .

فبمجرد أن تريد الفعل تفعله وتتفاعل معك أعضاؤك وعضلاتك ، وتؤدى لك ما تريد منها دون أن تشعر أنت بشئ ، فإذا كنتَ أنت وأنت مخلوق لله تعالى حين تريد شيئاً تفعله دون أنْ تأمر عضواً من أعضائك ، ولا عضلة من عضلات جسمك ، فما بالك بالخالق سبحانه ؟

أتنكر أنه سبحانه يقول للشئ كُنْ فيكون ؟ ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس]

أنت حينما تريد حركة لا تأمر شيئاً من أعضائك ، لأنك لا تعرف أيَّها تأمر ، فالأعضاء والعضلات والأعصاب أشياء متداخلة ، ولا تدرى أنت ما يدور بداخلك لتؤدى هذه الحركة ؛ لذلك سوَّاك الخالق سبحانه على صورة تنفعل لك أعضاؤك بمجرد إرادتك ، أما الخالق سبحانه فيأمر الأشياء ويقول لها : كُنْ . لأنه سبحانه يعلم الآلة التى تتحرك .

وأيضاً الخالق سبحانه لم يترك لك أمراً على جوارحك ، إنما ذلَّلها لك وطوَّعها لإرادتك ؛ لأنك لا تضمن إنْ أمرتها أنْ تطيعك وتستجيب لك ، أمّا الخالق سبحانه فإن أمر الأشياء أطاعته ، بدليل أن الإنسان حين يُسلَب القدرة على الحركة ، أو حين يصيبه هذا المرض والعياذ بالله يريد أنْ يحرك اصبعاً من أصابعه فلا يستطيع .

والحق سبحانه وتعالى قبل أنْ يستدعى الخليفة إلى الوجود خلق له قبل أن يخلقه ، وضمن له قُوتَه ومُقومات حياته وضرورياتها إلى قيام الساعة ، ثم ترك للعقول أن تعمل ، وأن تستنبط من الضروريات ما يُترف الحياة ويثريها .

إذن : أنت أيها الخليفة لله فى الأرض ليس لك إلا أن تستقبل أمر الله فى (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) بالطاعة والانقياد ، فإنْ كفرتَ بعد ذلك ﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴿٣٩﴾ ﴾ [فاطر] كفرت يعنى لم تُطع افعل ولا تفعل ، والكفر يعنى الستر ، وكفر بالله يعنى : ستره ، كأن الله كان ظاهراً ، فستره الكافر بكفره ؛ لذلك قلنا : إن الكفر أول دليل على الإيمان ، فلولا وجود الله ما كان الكفر .

وكما أن هناك كفراً بالله الذى استخلفك ، هناك كفر بما استُخلفْتَ فيه ، كُفْر بالنعمة بأنْ تنسى واهبها لك والمنعم عليك بها ، ومن كَفر

النعمة أن تكسل عن استنباطها واستخراجها من باطن الأرض ، وتتركها مطمورة لا ينتفع الناس بها ، ومن كُفْر النعمة أيضاً ألاَّ تؤدى حقَّ الله فيها ، وأنْ تسترها عن مُستحقها المحتاج إليها .

وما يعانيه العالم الآن من أزمات فى القوت ومجاعات ما هو إلا نتيجة طبيعية لكفر النعمة ، إما بالتكاسل والقعود عن استنباطها ، وإما نستنبطها لكن تشح بها نفوسنا وتبخل ، بدليل أننا عشْنا فترة طويلة فى الوادى الضيق ، ولم نحاول استنباط خيرات الصحراء ، فلما تنبهنا إلى ضرورة غزو الصحراء وتعميرها أصابنا هوس الاستنباط ، فزرعنا الترف ولم نزرع الضروريات فتجد السوق عندنا مليئاً بالبرتقال والموز والعنب والكنتالوب والفراولة .. الخ ونحن (نشحت) رغيف العيش ، ونستجدى غيرنا ضروريات حياتنا .

إذن : الجزاء هنا من جنس العمل ﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (٣٩) ﴾ [فاطر] أى : يُجزى به ، فالذى كفر بالمنعم له جزاؤه ، وجزاؤه العذاب فى الآخرة ، والذى كفر بالنعمة له جزاؤه ، وجزاؤه أنْ يموت جوعاً وأنْ يُذلَّ لغيره ، وإنْ ذُلَّ لغيره فلن ينفذ أمراً ولا نهياً ، ولن يهتم بدين ولا بمنهج .

ورحم الله أجدادنا الذين قالوا : (اللى لقمته من فاسه كلمته من راسه) .

ثم يقول سبحانه مُبيِّناً عاقبة الكفر ﴿ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا (٣٩) ﴾ [فاطر] نعم ، الكفر يُزيد صاحبه مَقْتاً وكراهية من الله عز وجل ؛ لأنك كفرت بمَنْ ؟ كفرتَ بالله ربك وخالقك ورازقك وواهبك النِّعَم ، وكل كفر بشيء من هذا يستوجب لك كراهية وبُغْضاً من الله ، وهذا البغض يزيد بالاستمرار فى الكفر والتصميم عليه ، ثم بعد هذا كله يزيد الكفر صاحبه

﴿ خَسَارًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [فاطر] وأيُّ خسارة بعد الكفر بالله ، الخسارة هنا كبيرة ؛ لأنها هلاك وخسران لخيرَيْ الدنيا والآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾

الخطاب في (قل) لسيدنا رسول الله ﷺ ﴿ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [فاطر] يعني أخبروني عنهم ، وليست مجرد استفهام عن الرؤية كما لو قُلْتُ لك : أرأيتَ فلاناً أمس ؟ تقول : نعم أو لا ، أما هنا فالمراد الإخبار عن الحال وطلب منهم هم أنْ يخبروا عن حال شركائهم الذين عبدوهم من دون الله ، وجعلهم هم أنفسهم حكَماً في هذه المسألة .

﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [فاطر] يعني : أخبروني إنْ كانوا هم انفردوا بالخَلْق ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [فاطر] يعني : شاركوني الخَلْق وكانت أيديهم بيدي يخلقون معي ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [فاطر] كتاباً يبيح لهم الشرك ، ويكون حُجَّة لهم في شركهم .

والحق سبحانه وتعالى يشرح لنا هذه القضية في موضع آخر ، فيقول سبحانه : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف]

فالحق سبحانه لا ينفى مشاركتهم له سبحانه فى الخلق فحسب ، إنما ينفى مجرد مشاهدتهم لهذه المسألة ، فليس لهم علْم بالخَلْق ولا صلةَ لهم به ، ولا يستطيعون أنْ يخبروا كيف خُلقت السمواتُ والأرض ، ولا كيف خُلقوا هم أنفسهم .

ثم يقول سبحانه ﴿ بَلْ ﴿٤٠﴾ ﴾ [فاطر] وهى إضراب عن الكلام السابق ، وإثبات للحكم بعدها ﴿ إن يَعدُ الظَّالمُون بَعْضُهُم بعْضًا إلاَّ غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [فاطر] وإنْ هنا بمعنى ما النافية ، يعنى : ما يَعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ، والغرور هو الخداع الذى يُلبس الباطلَ ثوبَ الحق ؛ ليجذب الناس إليه ، ويزخرفه لهم ليغرَّهم به .

ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الإنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانفطار] يعنى : ما أغراك بمعصيته ؟ وما شجَّعك على عصيان أوامره ؟ وكأن الحق سبحانه يُعلِّمنا الرد بقوله تعالى (الكريم) فالذى غرَّنا بالله كرمه وفضله .

فالمعنى : بل كل هذا باطل ، فشركاؤهم ما خلقوا شيئاً ، وما شاركوا فى خَلْق شىء ، ولا آتيناهم كتاباً يكون حُجَّة لهم ، كل هذا خداع منهم وزخرفة ، والحقيقة أنهم يَغُرُّ بعضُهم بعضاً ، ويخدع بعضهم بعضاً بهذه الأباطيل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

نَعَم ، الله وحده هو الذى يُمسك السموات أنْ تقع على الأرض ويمسك السموات والأرض أن تزولا يعنى : تتحرك من أماكنها ، وتسقط وتتهدم ، ولو تركها الخالق سبحانه ما استطاع أحد أنْ يُمسكهما ﴿ مِنْ بَعْدِهِ (٤١) ﴾ [فاطر] أى : سواه ، وهذه المسألة لله وحده ، ليس له فيها شريك ولا معارض ، وهى من صميم ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص]

والحق سبحانه يمسك السموات والأرض أنْ تزولا ، لأنه سبحانه خلق السموات بغير عَمَد ، وبغير دعائم تحملها ﴿ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا (١٠) ﴾ [لقمان]

وأرنى غير الله يستطيع أنْ يرفع هذه القبة الزرقاء هكذا بغير عَمَد ، إن قصارى ما وصل إليه التقدم البشرى بناء كوبرى مثلاً يمتد لعدة مترات بدون دعائم فى وسطه ، مع أنهم يستعيضون عن ذلك بدعائم أقوى فى أطرافه ، بحيث تحمل الوسط وتشده ويسمونها الكبارى المعلَّقة ، فأين هذا من رفع السماء ؟ والسماء كما قلنا : هى كلُّ ما علاك ، فالله يمسك السماء بما فيها من نجوم وأقمار وكواكب ومجرات ، ويمسك الأرض أنْ تميد بأهلها ، وأن تضطرب بهم .

ولما تكلم العلماء فى هذه المسألة قالوا : إنها الجاذبية التى تمسك الأشياء ، لكن إنْ كانت الجاذبية للأرض ، فلماذا لم تجذب النجوم مثلاً ، وهى بين السماء والأرض ؟

إذن : المسألة قدرة إلهية ، ونظام للكون مُحكم ، يجعل لكل مخلوق فى السموات والأرض ما يحفظ توازنه ويمسكه أنْ يقع .

و(إنْ) فى قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا (٤١) ﴾ [فاطر] يعنى ما يمسكهما ، فهى بمعنى أداة النفى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِى وَلَدْنَهُمْ (٢) ﴾ [المجادلة]

وتُختم الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر] ولك أنْ تسأل : ما علاقة هاتين الصفتين لله تعالى الحليم والغفور بمسألة إمساك السموات والأرض ، وهى مسألة كونية ؟

قالوا : لأن هذه المسألة يكثر حولها الجدال ، وكثيراً ما يتعدى الإنسانُ حدوده فيها ، فيسأل عمّا لا ينبغى له الخوض فيه ، وعن كيفية إمساك السموات والأرض ، وهو يمشى فى أنحاء الأرض ، ويركب الطائرة فى جَوِّ السماء ، فلا يرى شيئاً ، ولا يرى أعمدة .

وهذه مسألة لا دخلَ لنا فيها ، ويكفى أن الخالق عز وجل أخبرنا عنها بقوله : ﴿ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان] أى : لا يوجد لها عُمد بالفعل ، أو لها عمد ، لكن لا ترونها ويصح المعنيان ، وعلينا أنْ نقف عند هذا الحدِّ .

فالحق سبحانه حليم لا يعاقب المتجرئين عليه ، الخائضين فى حقه ، بل إن المنكرين لوجوده سبحانه لا يعاجلهم بالعقوبة ، ولولا حِلْمه تعالى كان (دربكها) على رؤوسهم .

وقد ورد فى الحديث القدسى : « قالت الأرض : يا رب ائذن لى أنْ أخسف بابن آدم ، فقد طَعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت السماء : يا رب ائذن لى أنْ أسقط كسفاً على ابن آدم ، فقد طَعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب ائذن لى أنْ أسقط على ابن آدم ، فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب ائذن لى أنْ أُغرق ابن آدم فقد طَعم خيرك ومنع شكرك . فقال تعالى : دعونى وخَلْقى ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم ..»[1]

---

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٣) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات».

إذن : لولا حلْم الله علينا ومغفرته لذنوبنا ما أمسك السموات والأرض ، ولتهدَّم هذا الكون على مَنْ فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فاطر] أى : اجتهدوا فى القَسَم والحلف بأغلظ الأيمان ﴿ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فاطر] رسول ﴿ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فاطر] أشد هداية ﴿ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فاطر] أى : أهْدى من الأمم السابقة يعنى : سيكونون فى المقدمة .

والحق سبحانه يُوضِّح لنا هذا المعنى فى موضع آخر ، فيقول سبحانه : ﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [الصافات]

وهذا كله قولهم بأفواههم ، ويعلم الله أنهم كاذبون ، لكنه سبحانه يُرخى لهم العنان ، ولا يكشف هذا الكذب فيقول لهم : دَعْكم من الأوَّلين ، وها هو الذكر الذى طلبتم وقلتم إنكم ستكونون به أهدى الناس ، والمراد هنا رسالة محمد ﷺ .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [فاطر] يعنى : إعراضاً وتباعداً عن الحق وعن الهداية ، لماذا ؟ لأن الذكْر الذى جاءهم جاء على يد محمد ، ولو جاء على يد رجل عظيم كما يقولون لَقَبلوه : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾[الزخرف] فيرد

الله عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (٣٢) ﴾ [الزخرف]

عجيب منهم أنْ يريدوا قسمة رحمة الله على هواهم واختيار رسول الله كما يحبون ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

كيف والله قد قسم بينهم أبسط أمور حياتهم في الدنيا ، فجعل هذا غنياً ، وهذا فقيراً ، وهذا قوياً ، وهذا ضعيفاً .

لكن هذا القول منهم دليل على أن القرآن عندهم لا غبارَ عليه ، وأنهم لا يُكذِّبون به مع أنهم قالوا عنه إنه سحر ، وأنه كهانة ، وأنه شعر ، ومع هذا يعترفون بأن القرآن لا غُبارَ عليه ، لكن آفته أنه نزل على محمد بالذات .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه عِلَّة نفورهم ، فيقول :

﴿ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا (٤٣) ﴾

نعم ، استكبروا على الحق ، فلم يقبلوه ، لماذا ؟ لأن هذا الحق جاء ليُنزلهم من عالى السيادة إلى العبودية المقترحة المستطرقة بين كل الخَلْق ، وهم ألفوا السيادة وتشقّ عليهم المساواة ، وأن يكونوا هم وعبيدهم كأسنان المشط .

وكأن الحق سبحانه يرد عليهم : يا مَنْ تستكبرون عن قبول الحق بما لكم من السيادة ، أمَا كان يليق بكم أنْ (تخزوا) على

عرضكم ، وتسألوا أنفسكم : منْ أين لكم هذه السيادة ؟

بالله ، لو أن الله تعالى مكَّن أبرهة من هدم الكعبة فى حادثة الفيل ، وانصرف الناس إلى كعبة أخرى فى صنعاء ، أكانت لكم سيادة ؟ أكانت لكم مهابة أو ذكْر بين الناس ؟ إذن : كان عليكم أنْ تُعملوا عقولكم ، وأن تتأملوا هذه المهابة من أين ، وهذه الأرزاق التى تُساق إليكم من أين ؟ لقد كنتم تُحرِّمون على الناس أنْ يطوفوا بالبيت إلا وهم عرايا ليشتروا منكم الثياب .

واقرأوا قول الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل]

لماذا فعل الله هذا بأصحاب الفيل ؟ يجيب الحق سبحانه فى السورة بعدها : ﴿ لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

يعنى : ما فعلتُ هذا بأصحاب الفيل إلا من أجل قريش ، واستبقاء سيادتها ، وتوفير القوت والأمن لها ، لكنهم مع هذا كله استكبروا على منهجى وصادموا رسولى ، وعاندوه وكادوا له .

﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ (٤٣) ﴾ [فاطر] أى : برسول الله ، وبمَنْ آمن معه ليردُّوهم عن دينهم ، ولو علموا حيثية استكبارهم لهداهم هذا الاستكبار إلى الإيمان بمَنْ جعلهم كبراء .

ثم يقرر الحق سبحانه هذه الحقيقة : ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ (٤٣) ﴾[فاطر] فقد مكروا برسول الله وكادوا له ، وتآمروا عليه ، وآذوا المؤمنين به وعذَّبوهم ، لكن جعل الله كيدهم فى نحورهم ، كما

قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال] أى : يسجنوك ﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال]

لقد احتالوا للقضاء على دعوة الإسلام بكل ألوان الاحتيال ، فلم يُفلحوا ، حتى دبروا لقتله ﷺ ، فخيَّبَ الله سَعْيهم ، وخرج رسول الله من بينهم وهم نيام ، وهو يحثو التراب على رؤوسهم ، ثم لما يئسوا من القضاء عليه بالحيلة لجئوا إلى الجن ، واستعانوا بهم ليسحروا رسول الله ، لكن نجَّاه الله منهم ، ثم حاولوا دسَّ السُّم فى طعامه ﷺ .

وكأن الله تعالى يقول لهم : وفِّروا جهودكم ، فلن تُطفئوا نور الله، ولن تصدوا محمداً عن دعوته ، لا بالاستهزاء والسخرية ، ولا بالإيذاء والمكر والتبييت ، ولا حتى بالسحر .

ومعنى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر] يعنى : ينزل بهم ويحيط بهم ، وينقلب عليهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر] يعنى : فما ينظرون إلا سنت الأولين فى الرسل السابقين ، والسنة هى الطريقة والعادة المتبعة والموجودة ، فهل وجدوا فى الرسل السابقين وفى الأمم السابقة أن الله أرسل رسولاً ثم خذله ، أو تخلَّى عنه ، ولم يهلك أعداءه والمكذبين به ؟ إن نصرة الرسل سُنة متبعة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات]

ثم يؤكد الحق سبحانه هذا المعنى فيقول : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر] لماذا لا تتبدَّل سنة الله ولا تتحوَّل ؟ لأن الله تعالى أولاً ليس عنده بِداء ، ومعنى البِداء أنْ تفعل شيئاً ثم يَعِنّ لك أنْ تفعل

أحسن منه ، وأيضاً لأنه سبحانه إله واحد ، لا ثاني له ، ولا شريك له ، فلا أحدَ يستدرك عليه ، أو يُغير فعله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) ﴾

الاستفهام في ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا .. (٤٤) ﴾ [فاطر] استفهام يفيد التعجُّب ، يعني : كيف يكون منهم هذا ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ (٤٤) ﴾ [فاطر] أي من المكذِّبين الذين أخذهم الله ﴿ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً (٤٤) ﴾ [فاطر]

كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات]

نعم ، كانوا في حركة حياتهم وفي أسفارهم يمرُّون على قُرى عَاد وثمود ، وقوم لوط وقوم صالح .. الخ وكانوا يروْنَ آثارهم ومـا حَاق بهم من الدمار والخراب بعد أنْ كذَّبوا رسلهم ، وكانوا أصحاب حضارات وعمارة وقصور لا مثيل لها .

كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾ [الفجر]

والعجيب أن أصحاب هذه الحضارات التى جابت سمعتُها الآفاق لم يستطيعوا أن يضعوا لحضاراتهم ما يصونها من الاندثار .

ولنا ملحظ فى قوله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ (٤٤) ﴾ [فاطر]

فمنذ عهد قريب كنا نعتقد أن السير فى الأرض يعنى على الأرض ؛ لأننا نسير عليها لا فيها ، إلى أن اكتشفنا أن الأرض فيها الأقوات ، وسيد الأقوات الهواء ، بدليل أنك تصبر على الماء لعدة أيام ، وتصبر أكثر منها على الطعام ، لكنك لا تصبر على الهواء إلا بمقدار شهيق أو زفير ، لو حُبِس عنك لفارقتَ الحياة .

وعرفنا أن هواء الأرض من الأرض ؛ لذلك يدور معها ويرتبط بها إذن : نحن بهذا المعنى لا نسير على الأرض ، إنما نسير فيها ، حتى الذى يحلق بالطائرة فى طبقات الجو العليا أيضاً يسير فى الأرض ؛ لأن الهواء من الأرض ، وهو أصل قوامها نفساً وقوتاً .

وليتأكد لك أن الهواء سيد الأقوات ، إجر هذه التجربة ، خذ إصيصاً أو برميلاً مثلاً وضَعْ فيه تربة زراعية بوزن معين ، وازرع فيه شجرة مثمرة كالموز مثلاً ، وبعد فترة زِنْ الثمار التى أخذتها من الشجرة وزِن ما نقص من التربة ، وسوف تجد أن التربة نقصتْ بمقدار خمسة بالمائة ، أما نسبة الخمسة والتسعين فمن الهواء .

فكأن الهواء هو المغذِّى الأساسى للنبات ؛ لذلك نقول : إنه الأصل فى القوت ، على خلاف ما كنا نعتقده من أن التربة هى الأصل فى القوت ، لذلك يشير القرآن إلى هذه المسألة ، فيقول

سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا[1] التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم (٦٦) ﴾ [المائدة] فذكر الفوقية قبل التحتية .

الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا.. (٤٤) ﴾ [فاطر] يريد من الكفار أنْ ينظروا إلى مواقع الحياة ، لا إلى كلامنا ، ولا إلى كلامهم ، بل واقع الحياة المشَاهَد ، فقال ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا (٤٤) ﴾ [فاطر] لأنهم ساروا بالفعل ؛ لذلك لا يأمرهم هنا بالسير ، بل يقرر واقعاً حدث بالفعل ؛ لأنهم كانوا أمة لها تجارة فى الصيف إلى الشمال ، وفى الشتاء إلى الجنوب .

وفى هذه الأسفار رأوا الكثير من آثار مَنْ سبقهم ، فهل رأوا فى السابقين رسولاً هُزِم من المكذبين به ؟ لقد هزم الله المكذبين والكافرين ، وكتب النصر للمؤمنين الصادقين ، وهؤلاء الذين أخذهم الله كانوا أشدَّ منهم قوةً ، لكنها قوة البشر مهما بلغتْ من التقدم ماذا تفعل أمام قوة الله ، فلا تنظر إلى قوة الرسول ، لكن انظر إلى قوة مَنْ أرسله ، ومَنْ تكفَّل بحفظه ونصرته .

إذن : هذه معركة ليست بين خَلْق وخَلْق ، إنما بين خَلْق معاندين للخالق سبحانه ، فهل تُعجِزون الله ؟ لذلك ينفى الحق سبحانه أنْ

---

(١) بعض الذين لم يفهموا القرآن أو الذين لا يريدون أن يفهموا يطعنون فى القرآن بأنه يتناقض مع نفسه ، فمن جهة يرمى أهل الكتاب من اليهود والنصارى بالكفر ، ومن جهة أخرى يطالبهم أن يقيموا التوراة والإنجيل ويطالبهم بالرجوع إليهما كما فى هذه الآية . إنهم يتجاهلون أن الذى أنزل القرآن هو الذى أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى ، والإسلام يعترف بالأديان قبله ، فهناك تواصل ، فلماذا يقفون عند حد التوراة والإنجيل ويتجاهلون أن الله أنزل كتاباً يصدق ما بين أيديهم من كتبهم وهو مهيمن عليها حاكم على ما فيها ، فلو أقاموا التوراة التى نزلت على موسى ، والإنجيل الذى نزل على عيسى لا ما اخترعوه هم وأضافوه لأدى بهم إلى الإيمان بما أنزل الله عليهم من القرآن . فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتماً لا محالة .

يكونوا معجزين ، وينفى أن يكونوا معاجزين ، وفَرْق بين الاثنين : معجز إنْ أعجزه ولو مرة يعنى : أتى بما يعجزه ، إنما مُعاجز فيها مشاركة ومفاعلة ، كأن الإعجاز كان بينهما سِجَال ، وفيه أَخْذ وردٌّ .

فكأن الحق سبحانه يُملى لهم ويمهلهم ، فيجعل لهم الغَلَبة فى بعض الجَوْلات ليستنفد كل أنواع الحيل ، ويستنفد كل قُواهم ، إذن : مهما كانت قوتكم ، ومهما استعنتُم وتقوَّيتم بحضارات أخرى فلن تُعجزوا الله ؛ لأن الله تعالى لا يُعجزه شىء ، وليس له سبحانه شريك أو مقابل يساعدكم ، فهو إله واحد يساعد المؤمنين به وينصرهم ، وأنتم لا ناصرَ لكم ، والحق سبحانه أهلك المكذِّبين قبلكم ، وكانوا أشد منكم قوةً ، والذى يقدر على الأشدِّ أقدر من باب أَوْلىَ على الأضعف .

والحق سبحانه وتعالى حين يريد أنْ يؤكد أمراً واقعياً من الممكن أنْ يأتى به فى صورة الخبر ، فيقول : لقد ساروا فى الأرض ، ورأوا كذا وكذا ، لكن عدل عن الخبر هنا إلى الاستفهام ، يعنى : اسألوهم أساروا أم لم يسيروا ؟

والحق سبحانه لا يسأل هذا السؤال إلا وهو واثق أنهم سيقولون سِرْنا ، وهذا يؤكد الكلام ؛ لأنه إقرار من المخاطب نفسه ، كما أن الاستفهام بالنفى أقوى فى تقرُّر المخاطب من الاستفهام بالإثبات .

ومسألة السير فى الأرض أخذتْ حظاً واسعاً من القرآن الكريم ؛ لأن الله تعالى يريد من الناس أنْ ينظروا إلى الآيات الكونية ، وأنْ يتأملوا فى الكون ليقفوا على أسراره ، وعلى دلائل القدرة فيه ؛ لذلك يأمرنا الحق سبحانه مرّة بقوله : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا ﴿٦٩﴾ ﴾[النمل] ومرة : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا ﴿١١﴾ ﴾ [الأنعام]

فما الفرق بين التعبيرين ؟

قالوا : السير فى الأرض يكون إما للنظر والاعتبار وإما للاستثمار ، فقوله تعالى : ﴿فَانظُرُوا (٦٩)﴾ [النمل] للسير المراد منه الاعتبار والتأمل فى آيات الله ، وفى هندسة الكون العجيبة التى تدلُّنا على قدرة الخالق سبحانه .

أما قوله ﴿ثُمَّ انظُرُوا (١١)﴾ [الانعام] فهى للسير الذى يُرَاد منه العمل والاستثمار وطلب الرزق ، فحتى إنْ سِرْتَ فى أنحاء الأرض طلباً للرزق وللاستثمار لا تنْسَ ولا تغفل عن الاعتبار وعن التأمل ، ولا تحرم نفسك من النظر فى الآيات وفى مُلْك الله الواسع ، خاصة إذا اختلفتْ البيئات .

فالبيئة الصحراوية البدوية كبادية الحجاز مثلاً تسير فيها لا تكاد ترى فيها أثراً للون الأخضر ، وفى إندونيسيا مثلاً ذهبنا إلى أماكن تكسوها الخضرة ، بحيث لا ترى بقعة من الأرض خالية من النبات ، وفى كل من هاتين البيئتين خيراتها وما يُميِّزها عن الأخرى ؛ لذلك قالوا فى المثل : (اللى يعيش ياما يشوف ، واللى يمشى يشوف أكثر) .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤)﴾ [فاطر]

سبق أنْ تكلَّمنا فى معنى يُعجزه ، الآية هنا لا تنفى أن شيئاً فى السموات أو فى الأرض يُعجِز الحق سبحانه ، إنما تنفى مجرد أنْ يكون هذا أو يُتصوَّر ، فهذا أمر لا يُتصور ولا يكون أصلاً .

وقوله : ﴿مِن شَيْءٍ (٤٤)﴾ [فاطر] من هنا تنصُّ على العموم يعنى :

من بداية ما يقال له شيء كما تقول : ما عندى مال ، فيجوز أنْ يكون لديك مال ، لكن قليل لا يُعْتَدُّ به ، فإنْ قلتَ : ما عندى من مال فقد نفيتَ وجود كل ما يُقال له مال ، مهما كان قليلاً ولو قرشاً واحداً .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر] يُبيِّن علة أنه سبحانه لا يُعجزه شيء ، فالله تعالى عليم بعلم محيط لا يعزب عنه شيء ، فإن بيَّتوا شيئاً علمه الله وعلم مكانه ، ثم هو سبحانه قدير ، عالم بقدرة ، وهذان هما عُنْصرا الغَلَبة العلم والقدرة ، تعلم الشيء وتقدر أنْ تردَّه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

الحق سبحانه وتعالى رحيم يُوالى نعمه حتى على الكافرين به ، والعاصين لأوامره ، ولو أن الله تعالى آخذهم بظلمهم – وظلمهم كثير – ما ترك أحداً منهم ، فلماذا يعاملنا الله هذه المعاملة ؟ ولماذا يمهلنا هذا الإمهال ؟ قالوا : لأنه تعالى ربنا وخالقنا ، ويعلم أن الإنسان ضعيف أمام شهوات نفسه ، ضعيف أمام هواه وأمام شيطانه ؛ لذلك سبق حلْمُه غَضَبه ، وسبق عفوُه مؤاخذته ، وقال سبحانه ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى]

وورد فى الأثر أن الحق سبحانه يخاطبنا بقوله تعالى : « .. لو

لم تذنبوا لخلقتُ خلقاً غيركم يذنبون ، فيستغفرون فأغفر لهم »[1] وإلاَّ فكيف يُوصَف الحق سبحانه بأنه توَّاب غفَّار ، فالحق سبحانه يريد أنْ يثبت لنفسه سبحانه كل صفات الكمال ، وأولها الوجود الواجب ، ثم الحياة ، وكل الصفات تابعة لهاتين الصفتين .

وهذه الصفات لله تعالى يمكن أنْ تقسم إلى قسمين : قسم له مقابل : وهى صفات الفعْل من الله تعالى ، مثل : المحيى يقابلها المميت ، والمعز يقابلها المذل ، وقسم ليس له مقابل وهى صفات الذات مثل : الحى العزيز القهار الحليم ، فهى صفات لا نقيضَ لها .

والحق سبحانه لا يُؤاخذ الناسَ بما كسبوا . أى : من التعدى والظلم ؛ لأن الله خلق الإنسان ، وخلق له شهوات وغرائزَ ، وكل أمور الدين جاءت لتُعلى هذه الشهوات ، وتسمو بهذه الغرائز ، لا لتمحوها ، جاءت لتهذبهاَ لا لتقضى عليها ، وإلا لو أن الحق سبحانه أراد ألاَّ تحدث هذه التعديات وهذا الظلم ما جعل الغرائز أصلاً .

فمثلاً غريزة الجنس خلقها الله لعمارة الكون ، ويريد الله من الإنسان أنْ يُعلى من هذه الغريزة بحيث تكون فى الحلال وتحت مظلة الشرع ، وسبق أنْ بيَّنا الفرق فى هذه المسألة حين تتم فى النور وتحت مظلة شرع الله ، وعلى كلمات الله ، وكيف نفرح بها ونعلنها ونفخر بها ، أما لو تمت فى الخفاء بعيداً عَمَّا شرعَ اللهُ فنحاول كتمانها ، والتخلص من ثمرتها إنْ كان لها ثمرة ، وإنْ ظهرت للناس كانت وصمةَ عار لا تُمحَى .

لذلك جاء فى الحديث أن رجلاً من الصحابة كان شديد الغيرة

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٠٩) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٤٩) كتاب التوبة ولفظه : « والذى نفسى بيده ، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء قوم يذنبون ، فيستغفرون الله ، فيغفر لهم » .

على بناته ، فلما تقدم رجل لخطبة واحدة منهن ذهب ليخبر رسول الله ، فتبسَّم رسول الله وقال له : « جدع الحلال أنف الغيرة »[1]

يعنى : الأمر الذى كنت تغار منه ولا تقبله ، الآن تفرح به وتدعو الناس إليه ، لماذا ؟ لأنه جاء من طريق الحلال الذى شرعه الله ، وكلمة الحق هى التى أبرزتْ العواطف ، وجعلتْ المهيِّج المثير مُسْعِداً لا غضاضة فيه .

كذلك غريزة حب الاستطلاع موجودة فى الإنسان ليتأمل الكون من حوله ، ويبحث عن أسرار الله فيه ، وما جعلها الله للتلصُّص على الناس ، وتتبُّع عوراتهم وأعراضهم . كذلك الأكل والشرب غريزة جعلها الله لأنها مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة ، وينبغى أنْ تكون فى هذه الحدود حدود استبقاء الحياة ، لا أنْ تتحوَّل إلى نَهَم وشَراهة ، وتصل إلى حَدِّ التُّخمة .

والغريزة جعلها الله فى الإنسان لحكمة ، فالولد مثلاً يتحمل أبوه مشقة تربيته والإنفاق عليه ، ويظل الولد عالةً على أبيه طيلة خمس عشرة سنة ، ولولا أن الله تعالى ربط النسل بالعملية الجنسية ، وجعل فيها لذة الجماع لزَهدَ كثيرون فى الإنجاب ، كذلك الأم تتحمل مشقة الحمل والولادة والرضاعة .. إلخ ، حتى أنها لتُقسم فى الولادة أنها لا تحمل مرة أخرى ، لكن عندما يذهب ألم الوضع ، ويكبر الولد تشتاق إلى غيره .. وهكذا .

---

(١) ذكر أبو هلال العسكرى فى « الصناعتين » فصل الاستعارة والمجاز أنه ﷺ رأى علياً مع فاطمة فى بيت فردّ عليهما الباب . وقال : « جدع الحلال أنف الغيرة » . وذكر الميدانى فى « مجمع الأمثال » أن هذا كان ليلة زُفَّت فاطمة إلى على ، وقال : هذا حديث يُروى عن الحجاج ابن منهال يرفعه . وانظر أيضاً : أبو منصور الثعالبى فى « الإعجاز والإيجاز ـ فصل استعاراته ﷺ » ، وابن حمدون فى « التذكرة الحمدونية – ما جاء فى الطوم والثبات » .

وحين تتأمل مسألة الغريزة تجد أن الخالق سبحانه جعل فى الإنسان الغريزة ونقيضها ، فتراه فى موقف رحيماً وفى موقف آخر غضوباً ، أو عزيزاً فى موقف ، ذليلاً فى موقف آخر ، وهاتان الغريزتان لا تجتمعان فى الإنسان فى وقت واحد ، فالظرف الإيمانى يحكم عليه مرة بأن يكون عزيزاً ، ومرة بأن يكون ذليلاً .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٤) ﴾ [المائدة]

وقوله سبحانه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ (٢٩) ﴾ [الفتح]

إذن : الخالق عز وجل جعل فيك الغرائز المتناقضة ، لا يكبت شيئاً منها ، لكن لتُستعمل كل غريزة منها فى موقعها المناسب .

ومعنى : ﴿ يُؤَاخِذُ (٤٥) ﴾ [فاطر] يعنى : يعاقب ويجازى ﴿ بِمَا كَسَبُوا (٤٥) ﴾ [فاطر] نقول : كسب واكتسب ، كلمة كسب تدل على وجود تجارة فيها ربح ومكسب زيادة على رأس المال ، وهى تدل على المكسب الذى يأتى طبيعياً ، أما اكتسب ففيها مفاعلة ، وهى على وزن افتعل ، ففيها افتعال وتكلُّف .

لذلك يستعمل القرآن كسب فى الخير واكتسب فى الشر ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (٢٨٦) ﴾ [البقرة] لأن فعل الخير يأتى منك طبيعياً ، لا تكلفَ فيه ولا افتعال على خلاف الشر ، فيحتاج إلى محاولات وإلى حِيَل واحتياط وتلصُّص .. الخ .

لذلك قلنا : إن الطاعة لا تُكلِّف الإنسان شيئاً ، أما المعصية فهى التى تكلف الكثير ؛ لأن الطاعة تأتى منك طبيعية ، أما المعصية

فتحتاج إلى حِيَل واحتياط وافتعال .

فإن قُلْتَ : فما بَالُ قوله تعالى في السيئة ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ (٨١) ﴾ [البقرة]

نقول: استعمل القرآن كسب مع السيئة ؛ لأنه يتحدث عن الذين أسرفوا على أنفسهم ، وبالغوا في المعصية حتى أحبوها وعشقوها ، بل ويتحدثون بها ويجاهرون ، وحتى أن المعصية تأتي منهم طبيعية ، كأنها طاعة ، ويفعلونها بلا افتعال ولا احتياط ، فهي في حَقِّهم كسبٌ لا اكتساب ، ويفرحون بها كأنها مكسب فلا يُؤنِّبون أنفسهم ، ولا يلومونها ، ولا يندمون على معصيتهم .

والآية هنا بنفس هذا المعنى ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا .. (٤٥) ﴾[فاطر] يعني : عشقوا المعصية والظلم وفرحوا به كأنه مكسب . ثم يأتي جواب الشرط : ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ .. (٤٥) ﴾[فاطر] معنى الدابة : كل ما يدبّ على الأرض . أي : يمشي عليها الهُوَيْنَا ، لكن غلبتْ الكلمة على ما يُركب ويحمل الأثقال .

لذلك قال العربي لآخر : لقد أَعْيَيْتني شبَّ ودبَّ يعني في شبابك ، وفي شيخوختك ، وأنت تدبّ وتمشي الهُوَيْنا .

لكن ، ما ذنب الدوابّ تتحمل عاقبة ظلم الإنسان ؟ قالوا : العلاقة هنا أن الدابة مخلوقة مُذلَّلة لخدمة الإنسان وراحته ، فمعنى هلاك الدواب أنْ تمتنع راحة الإنسان ، وأنْ يمتنع المطر وتجدب الأرض ، وعندها لا يجد الإنسان قُوته ، لا من لحوم الدواب ولا من نبات الأرض ، وفي هذا إذلال للإنسان الذي يرى وسائل حياته وأسباب راحته تُسلَب منه دون أنْ يفعل شيئاً ، ولا يقدر على شيء .

وحين نتتبع آيات القرآن نجد أنه تكلَّم عن هذا المعنى فى موضعين :

الأول: فى سورة النحل : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) ﴾ [النحل]

والآخر هنا فى فاطر : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) ﴾ [فاطر]

قد يرى البعض فى الآيتين تكراراً ، وحاشا لله أن يكون فى كلامه تكرار، فإذا تأملتَ لوجدتَ بينهما خلافاً ، يجعل لكل منهما معناها الخاص . فالأولى تتكلم عن ظلم الناس ، والأخرى عمَّا اكتسبوه من السيئات عامة ، وكل من اللفظين يعطيك لقطة جديدة لأننى قد أظلم ، لكن أندم على ظلمى ، ولا أفرح به ، ولا أتمادى فيه ، أما إنْ صار عادةً لى حتى عشقته ، فهو اكتساب وافتعال بالمعنى الذى ذكرنا .

الأولى تقول : ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا (٤٥) ﴾ [فاطر] والأخرى : ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا (٦١) ﴾ [النحل] كذلك فى تذييل الآيتين ، ففى الأولى يتحدث الحق سبحانه عن الزمن والأجل الذى لا يتقدم ولا يتأخر ، وفى الأخرى يتحدث عن الجزاء ، وأن الله تعالى بصير بأعمال عباده ، لا يخفى عليه منهم شىء ، إذن : فالآيتان متكاملتان ، ليس فيهما تكرار أبداً .

وضمير الغائب فى ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا (٤٥) ﴾ [فاطر] و﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا (٦١) ﴾ [النحل] هذا الضمير متصل بالآية قبلها : ﴿ .. وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ (٤٤) ﴾ [فاطر] فالضمير يعود

على أقرب مـذكور ، وهو الأرض ، ويفهم هذا المرجع أيضـاً بالقرينة العقلية ؛ لأن المعنى ينصرف إليها .

وهذه الآية لها مـعنا قصة ونحن صـغار فى كُتَّاب الشـيخ حسن رحمه الله ، وكان الشيخ يكلف العريف أنْ يُصحِّح لنا الألواح ، وفى هذا اليوم جلس الشيخ حسن يصـحح لنا بنفسه ، لكن فى هذا اليوم لم أكُنْ صحـحت اللوح (وطلعت خالص) وانتظرت الفلَكة والمقـرعة (تشتـغل) ، لكن الشيخ قال لى : اسـمع أنا سأعلمك كـيف تقرأ هذه الآية دون أنْ تخلطـهـا بآية النحل ، لا تـجـمع الظائين ولا السـينين يعنى : إن قلت (بِظُلْمِـهِمْ) فلا تقل (عَلَى ظَهْـرِهَا) وإنْ قلتَ (بِمَا كَسَبُوا) فـلا تقل (لاَ يَسْتأخرون ساعةً) وهكذا كان شـيخنا رحمه الله يعايـش القرآن ويتفـاعل معه ، وصـدق الله العظيم ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [القمر]

وكان لى مـعه أيضاً ـ رحمـة الله عليه ـ قصة أخـرى ، ما زلت أذكـرها فى سورة الشـورى ، وجلس الشـيخ يُصـحِّح لنا اللوح وكنا هربنا ولم نصحح ، فلما جلستُ أمام الشيخ قرأت (حم عسق) وقد مرت بنا حم وطه وغيرهما لكن لم يمر بنا مثل (عسق) فقرأتها كما هى عَسَقْ ، فضربنى الشيخ فقرأتُ أيضاً عَسَقْ فضربنى ، وفي المرة الثـالثة عـرف أننى لم أصحح اللـوح على العريف ، فـقال : قُلْ عـين سـين قاف ، فظـلت ملازمـة لى لا أنسـاها حـتى الآن ، رحمـهم الله ورَضِى عنهم أجمعين .

والمـراد بالأجل فى ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴿٤٥﴾ ﴾[فـاطر] أى : القـيامـة والعذاب ، أو جـاء أجل إفنائهم بعذاب يستأصلهم ، وعـرفنا أن عذاب الاستئـصال مثل الصـيحة والرجفـة والخسف .. الخ لا ينزل إلا على

يأس من هداية القوم ، بحيث لم يَعُدْ هناك أمل فى هدايتهم ، كما جاء فى قصة سيدنا نوح - عليه السلام - لما قال : ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح]

لكن إنْ كان هناك أمل فى أنْ يؤمن بعض القوم فلا ينزل بهم مثل هذا العذاب .

أو : يراد بالأجل هنا أجل الأمة ، كما قال سبحانه : ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس] فكأن الآجال ثلاثة : أجل للدنيا ونهايته قيام الساعة ، وأجل للشخص الواحد بانتهاء عمره ، وأجل للأمة كلها حين يأتيها عذاب عام يقضى عليهم جميعاً مرة واحدة .

أو : لكل أمة أجل تنتصر فيه ، وتغلب مع وجود المعاندين والكافرين ، كما حدث لسيدنا رسول الله ﷺ لمَّا انتصر المسلمون فى بدر ، فقد كان لأمة الظلم والكفر أجل انتهى بالإسلام وقوة المسلمين ، مع أن الأمل كان بصيصاً من نور ، بحيث يغلب اليأسُ على الأمل .

حتى أن سيدنا عمر - رضى الله عنه - يقول لما نزلت : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] قال عمر : أىُّ جمع هذا ونحن عاجزون عن حماية أنفسنا ؟

فلما جاءت بدر وانتصر المسلمون ، قال : صدق الله[1] ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] فقد اشتدتْ شوكة الإسلام ، وقَوى

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٤/٢٦٦) عن عكرمة قال : « لما نزلت : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] قال عمر : أىَّ جمع يُهزم ؟ أى : أى جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله يثب فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر ، فعرفت تأويلها يومئذ » .

المسلمون ، وأذنت دولة الكفر بالزوال ، انتهى أجل الأمة الكافرة الظالمة ، وبدأ أجل الأمة المؤمنة .

لذلك حين نتأمل قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ⑲ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ⑳ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ㉑ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ .. ㉒ ﴾ [فاطر]

نجد أربعة متقابلات ، الأولان منها مطابقان لحاله ﷺ مع أمته قبل انتشار الإسلام في فترة غلبة الجاهلية على سيدنا رسول الله وأتباعه في مكة ، فالأعمى أي : الجاهل بالحكم ، والبصير العالم به ، والظلمات يعني : الضلال والكفر ، والنور هو الإيمان ، لأنهم كانوا عمياً ، فأراد الله أنْ يُبصِّرهم ، وكانوا في ظلمات الجهل والضلال فأخرجهم الله منها إلى نور الإيمان .

أما المتقابلان الأخيران فيطابقان حاله ﷺ مع أمته بعد أن أرسى الإسلامُ دعائمه ، وتمكّن من نفوس المؤمنين ﴿ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ㉑ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ ㉒ ﴾ [فاطر] فتراه بدأ بصفة الإيجاب فلم يقل الحرور ولا الظل كما قال ﴿ الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ⑲ ﴾ [فاطر] لماذا ؟ لأن الحديث هنا عن أمة النصر وأمة الإيمان ، فناسب أنْ يبدأ التقابل بصفة الخير التي تناسب هذه الأمة الجديدة .

وفي هذا المعنى إشارة لطيفة إلى انتهاء أجل الجاهلية وظلماتها وعماها ، وإيذان ببداية أجل جديد ، لأمة الإيمان الوليدة التي تستظل بواحة الإيمان بعد أنْ أحياهم الله بالإيمان وكانوا أمواتاً بالكفر ، كما قال سبحانه في آية أخرى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا .. ⑫② ﴾ [الأنعام]

وسبق أنْ بيَّنا الفرق بين مَيْت وميِّت ، الميِّت بالتشديد هو مَنْ يؤول أمره إلى الموت وإنْ كان حياً ، ومن ذلك خطاب الحق سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[الزمر] يعنى : سيؤول أمرك إلى الموت . أما ميْت بالسكون فهو الذى مات بالفعل .

إذن : نستطيع أن نقول ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴿٤٥﴾ ﴾[فاطر] أى : بنُصْرة الإيمان على الكفر ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾[فاطر] كلمة عباد وعبيد جمع لعبد ، ومع أنهما جَمْع لمفرد واحد إلا أن معناهما مختلف ؛ لأن الإنسان العبد ملْك سيده ، وما دام ملْكه فهو مطيع لأوامره ، والإنسان المؤمن له اختيار ، فالله تعالى يخاطبه وهو يطيع أو يعصى ، فى حين أن العبد لا يعصى سيده إنْ كان من البشر .

نعم قد يخالف أمر الله ، لكنه لا يخالف أمر سيده ، كيف ؟ قالوا : لأن الله تعالى هو الحليم الغفار ، أما السيد من البشر فلا يخلو من جبروت ، أو طغيان ، أو استبداد وتسلُّط .

وفَرْق بين طاعة العبد وهو مختار أنْ يعصى وطاعته وهو مقهور على الطاعة ، وسبق أنْ مثَّلْنا لهذه المسألة بعبدين سعيد وسعد ، سعيد شُدَّ إلى سيده بسلسلة لا يستطيع الفكاك منها ، وسعد أُطلق حُراً لا يقيده شيء ، وحين ينادى السيد على أحدهما يأتيه ، فأيهما أطوع ؟ لا شك أن سعداً أطوع من سعيد ؛ لأنه يأتى سيده وهو قادر مختار ألاَّ يأتى ، أما سعيد فلا يملك إلا أنْ يجيب ؛ لأنه لو عصى لجذبه السيد من السلسلة .

كذلك الحق سبحانه خلق الخَلْق مختارين ، ووضع لهم هذه القاعدة : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴿٢٩﴾ ﴾[الكهف] مَنْ شاء أطاع ، ومَنْ شاء عصى ، وهذا تصرُّف العبيد مع سيدهم ، فإنْ قال العبد :

يا ربٍّ أنت خلقتنى ورزقتنى وجعلتَ لى الجوارح ، وجعلتنى مختاراً ، وأنا عبد من عبيدك ؛ لذلك أتنازل عن اختيارى لاختيارك ، وعن مرادى لمرادك ، لقد اختار هذا العبد أنْ يكون مقهوراً لربه مسخراً كما سُخِّرت السماء والأرض .

وهؤلاء هم العباد ، وهم الصفوة من الخَلْق الذين آثروا مراد الله على مراد أنفسهم ؛ لذلك يتحدث عنهم الحق سبحانه ويعطينا صورة لهم : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا (٦٣) ﴾[الفرقان] يعنى : متواضعين غير متكبرين ، وعلامَ التكبر ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) ﴾ [الإسراء]

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا [1] (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) ﴾ [الفرقان]

هذه صفات ثمانٍ ترسم لنا صورة كاملة لمن استحقوا أن يكونوا عباد الله ؛ لذلك يخاطبهم ربهم فى موضع آخر : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر]

ومن رحمة الله بعباده أن الحسنة تمحو السيئة ، كما قال

---

(١) الغرام : العذاب الدائم والهلاك الملازم . [القاموس القويم للقرآن الكريم ٢/٥٢] وقال الزجاج : هو أشد العذاب . وأيضاً هو ما لا يُستطاع ان يُتفصَّى منه . [لسان العرب - مادة : غرم] .

سبحانه: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا[1] مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود]

بل وأعظم من ذلك ، ألاّ تقتصر رحمة الله على محو السيئة ، إنما تُبدِّل السيئة بعد التوبة حسنة : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان]

وحول معنى (عباد) و (عبيد) الذى أوضحناه سمعنا مَنْ يعترض ويقول : فى القرآن ما يناقض هذا المعنى ، وهو قوله تعالى فى موقف القيامة يخاطب الكبراء والسادة الذين أضلُّوا الناس وزيَّنوا لهم الكفر : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الفرقان]

ونقول : ليس بين الآيات تعارض كما تقولون ؛ لأن الحديث هنا عن الآخرة ، وليس فى الآخرة اختيار ، فلا فَرْق بين (عباد) و (عبيد) فى الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾[فاطر] ذكر هنا صفة البصر ؛ لأنها أقوى وسائل العلم والإدراك ، فللعلم وسائل متعددة ذكرها الحق سبحانه فى قوله : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل]

فالسمع أول وسائل الإدراك ، وهو أول جارحة تتنبه وتؤدى مهمتها فى المولود ، بدليل أنك تضع مثلاً أصبعك أمام عينه ، فلا تطرف ، أما إنْ صرخْتَ فى أذنه ينزعج ويستجيب للصوت ، والسمع كذلك هو الحاسة التى لا تتعطل أثناء النوم ؛ لأن بها يتم الاستدعاء ،

---

(١) الزلفة : الطائفة من الليل وجمعها زُلَفٌ . قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود] أى : أوقاتاً وساعات من الليل . قيل : فى أوله . وقيل : فى أى وقت فيه . [القاموس القويم ١/٢٨٨] .

والسـمع هو الوسـيلة الأولى فى القـيم والمـعنويات ، وبه يسـتقـبل الإنسان منهج الله .

أما البـصر وإنْ جاء فى المـرتبة الثانـية إلا أنه أكبـر من السمع وأقوى ؛ لأنك قد تسمع عن الشىء ، لكن لا تلتـفت إليه ، فإنْ تحوّل من السمع إلى البصر فقـد وصل إلى قمة الإدراك الذى لا شكَّ فيه ؛ لذلك يقـولون : ليس مع الـعيـن أين . والشـىء الذى تسـمع عنه قـد يكون كاذباً ، أمَّا الشـىء الذى تبصـره فإنه لا يكون إلا حقاً .

لذلك ، فـالحق - سـبـحـانه وتعـالى - حـين يريد أن يؤكـد لنا معلومة ، يقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴿٢١﴾ ﴾[الزمر] لأن الذى تراه العين هو الآكد . وأبو جعفر لما قـال لمقاتل : عظنى يا مقاتل ، قال له : أعظك بما سمعتُ ، أم بما رأيتُ ؟ بالله أجيـبوا أنتم بماذا ؟ قال : عظْنى بما رأيتَ ، نعم لأنك قد تسمع كذباً ، أمَّا إنْ رأيتَ بالعين فهو الحَق .